مكتبة الجاحظ
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
١٥٠ - ٢٥٥

تحقيق وشرح
عبد السلام محمد هارون

رسائل الجاحظ

الجزء الأول

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

عبد السلام محمد هارون
رسائل الجاحظ
٢
مكتبة الخانجي بالقاهرة

عبد السلام محمد هارون
رسائل الجاحظ
٣
مكتبة الخانجي بالقاهرة

عبد السلام محمد هارون
رسائل الجاحظ
٤
مكتبة الخانجي بالقاهرة

مكتبة الجاحظ
أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
١٥٠ - ٢٥٥

بتحقيق وشرح
عبد السلام محمد هارون

رسائل الجاحظ

الجزء الأول

١ — مناقب الترك
٢ — المعاش والمعاد
٣ — كتمان السر وحفظ اللسان
٤ — فخر السودان على البيضان
٥ — في الجد والهزل
٦ — في نفي التشبيه
٧ — في كتاب الفتيا
٨ — إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب
٩ — فصل ما بين العداوة والحسد
١٠ — صناعات القواد

الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة
١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كتبتَ إليَّ ـ حفظك الله ـ أن أسعى سعيًا حثيثًا فى إظهار ما بقى من آثار شيخنا الجاحظ ، وزعمتَ أنِّى شغلت عنه بغيره . وكدت أن تلومنى لما فرّطت فى جنب أبى عثمانَ فيما رأيتَ .

وإخالك عرفتَ بعض الحقِّ ولم تَظهَر عليه كلِّه ؛ فإن الحق يبدو أحيانًا فى بعض الأمر أبلج واضحًا ، وفى بعض الأمر يَخفى وجهُه حينًا فما تكاد تتبيّنه إلا بعد التعرُّف والتصفّح . فإنّى لم أفارق آثار أبى عثمان مذ شدوت ، ولا تزال لك من همِّى ووُكدى ، ما بين قراءةٍ فيها وتنقيح ، وتجلية وتصحيح ، حتى أذيعَ منها بين الناس ما يستطيعه الجهد ، ويسمح به الزمان .

ولقد بعثتُ له من قبل كتبًا ثلاثة ضخامًا ، بذلت فيها عصارة النفس وماء الشباب ، وكان ذلك لنفسى صنيعًا أعتزّ به وتشملنى به الغبطة ، لمّا علمت أن المنصفين من الأدباء قد تلقّوه بترحيب صادق ، وتقدير كريم .

وما كان بى ـ أيّدك الله ـ إلا أن أُعِدّ أصول ما بقى من آثار الجاحظ وأروزها ، وأنظر للصورة التى ينبغى أن تبدوَ فيها . فوجدتُنى بين خليط من المخطوطات والمطبوعات ، ووجدت فيما وجدت مجموعة رسائل الجاحظ المحفوظة بمكتبة «داماد إبراهيم» ، غنية بآثار للجاحظ ، بعضها لم تظهر بعد عليه عيون جمهرة الأدباء .

فرأيت أن أقوم بنشر هذه المجموعة كاملة فى مجلدين مستقلين لهما فهارسهما الفنية الخاصة ، ريثما تتاح لى الفرصة أن أكمل جمع سائر الرسائل المفرقة التى لم تحوها هذه المجموعة ، ومنها مختارات عبيد الله بن حسان ، التى كان لها فضل فى تحقيق كثير من نصوص مجموعة داماد ، ومنها رسائل مضمنة بطون الكتب ، كما فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، وطراز المجالس للشهاب الخفاجى ، وجمع الجواهر للحصرى ، وغير ذلك من كبير الكتب وصغيرها .

مجموعة داماد

وهى نسخة الأصل

كان من المهام الجليلة التى اضطلع بها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية أن أتاح الفرصة للباحثين فى الحصول على مصورات المخطوطات المتناثرة فى المكتبات العامة ، ومنها مكتبات تركيا ، التى حوت مقداراً ضخمًا من أنفس الكتب العربية .

وكان مما أسعدنى أن أعثر على هذه المجموعة الجليلة القدر التى صورها معهد المخطوطات بعناية الأخ رشاد عبد المطلب من مكتبة (داماد إبراهيم[1]) بتركيا . ورقمها فى مكتبة داماد هو ٩٤٩ ، وفى معهد المخطوطات ف ٩٤٣ من ١٨٥ .

ويحمل صدر هذه النسخة رسم خاتمين :

الخاتم الأعلى كبير ، وقراءته :

---

(١) الداماد فى اللغة التركية : زوج البنت ، كما يقال لزوج الأخت « أنشته » .

« هذا مما وقفه . . . . صاحب الخير والحسنات ، الصدر الأعظم والصهر الأفخم إبراهيم باشا يسّر الله له بالخير ما يشا وزيراً لحضرت السلطان الغازى أحمد خان خلدت خلافته إلى انقراض الدورات » .

والخاتم الأسفل صغير ، وقراءته :

« بو نسخة وقفندر داماد إبراهيم باشانك » .

وتفسيره : هذه النسخة من وقف داماد إبراهيم باشا .

وليس لهذه النسخة تاريخ ، وإن كان المرجح أن خطها من خطوط القرن السادس ، كتبت بالخط النسخى المشرب ببعض قواعد الخط الفارسى ، كما يتضح ذلك فى رسم بعض صنوف الهاء ، وصنوف السين ، وصنوف اللام ، مع إغفال لبعض النقط ، ومع ضبط قليل ذاهب فى الندرة .

وهى فى ٢٣٩ ورقة، منها ١٩ ورقة مفقودة فى أولها . وبالصفحة ٢٢ سطراً ، فى كل سطر نحو ١١ كلمة .

ويبتدئ ترقيم أوراقها بالورقة ٢٠ . وهذا يفسّر ما صنعته من بدء ترقيم نسختى هذه برقم (٢٠ ظ) الذى أثبته فى ص ٥ من هذا المجلد تعبيراً عن أرقام الأصل التى حرصت على إثباتها فى جنبات هذه النشرة . وقد أشرت إلى ذلك فى مقدمة الرسالة الأولى فى ص ٣ .

وربما كانت الرسالة المفقودة التى كانت فى صدر المجموعة هى « كتاب حكاية عثمان الخياط فى اللصوص ووصاياهم » التى يعزّ وجود أصل لها . وذلك أن داود الجلبى فى كتابه (مخطوطات الموصل ص ٢٦٤) ذكر مجموعة من رسائل للجاحظ كانت محفوظة فى مكتبة أمين بن أيوب الجليــلى تطابق

فى عنوانات رسائلها مجموعة داماد وتزيد عليها فى أولها « حكاية عثمان الخياط فى اللصوص ووصاياهم » . ومن المؤسف أن مجموعة أمين الجليلى قد فقدت بعد وفاته، كما ورد فى مقدمة مجموع رسائل الجاحظ لكراوس والحاجرى ص (و).

ويبدو كذلك أنه قد تجوهل قديماً هذا النقص ، وابتدأ المجلد برسالة فضائل الأتراك ، وترقيمها فى النسخة (٢٠ و) أى وجه الورقة ٢٠ ، وجعل عنوانها وجهًا للمجلد ، وسردت تحت هذا العنوان محتويات المجلد بخط مخالف على الوضع التالى . وقد أثبتها هنا بلفظها ، والترقيم لى :

١ — كتاب فضائل الأتراك[1] لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

٢ — رسالة كتبها إلى محمد بن عبد الملك فى الأخلاق المحمودة .

٣ — كتاب كتمان السر وحفظ اللسان .

٤ — رسالة المعاش والمعاد فى الأدب .

٥ — كتاب فخر السودان على البيضان .

٦ — رسالة فى الجد والهزل .

٧ — رسالة فى نفى التشبيه .

٨ — رسالة فى معنى كتابه فى الفتيا .

٩ — رسالة إلى أبى الفرج بن نجاح الكاتب تصنيف أبى عثمان .

١٠ — رسالة فصل ما بين العداوة والحسد .

١١ — رسالة فى ذم القواد .

---

(١) ذكر بروكلمان فى كتابه ٣ : ١١٥ من الترجمة العربيـة أنها ترجمت إلى التركية .

١٢ — رسالة فى النابتة إلى أبى الوليد .

١٣ — كتاب الحجاب .

١٤ — كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان .

١٥ — كتاب القيان .

١٦ — كتاب ذم أخلاق الكتّاب .

١٧ — كتاب البغال

١٨ — كتاب الحنين إلى الأوطان .

وظاهر هذا الفهرست أن بالمجموعة ١٨ رسالة وكتاباً . ولكن عند التحقيق ظهر لى أن عددها ١٧ لا ١٨ ؛ لأن الرسالة الثانية ، وهى رسالة « الأخلاق المحمودة والمذمومة » هى بعينها الرسالة الرابعة « رسالة المعاد والمعاش فى الأدب » أو بعبارة أدق : نسخة أخرى منها . وقد رجّحت لها التسمية الأخيرة الواردة فى النسخة الثانية ، أى « رسالة المعاد والمعاش » وبيّنت ذلك فى مقدمتها ص ٩٠ .

وعلى ذلك صارت الرسالة الخامسة فى هذا الفهرست تحمل رقم ٤ والسادسة فيه تحمل رقم ٥ ، ويتناقص الترقيم حتى يصير آخر الرسائل برقم ١٧ .

وقد قدّمت لكل رسالة أو كتاب من هذه المجموعة بمقدمة أوضحت فيها تاريخ نشرها إن كانت قد نشرت من قبل ، أو نبّهت على أنها تنشر للمرة الأولى .

وستظهر هذه المجموعة ، فى جزأين ، يلحق بالثانى منهما (الفهارس الفنية) لهما معًا . إن شاء الله تعالى .

المجموعات التي نشرت من قبل

واستكمالاً لدراسة تاريخ نشر رسائل الجاحظ أشير هنا إلى مجموعات من رسائل نشرت من قبل ، وبعضها يتضمن شيئاً مما في هذه المجموعة ، أعني مجموعة داماد .

أولا :

مجموعة ڤان ڤلوتن . وعنوانها (ثلاث رسائل لأبي عثمان بن بحر الجاحظ البصري) . طبعت بمطبعة بريل بمدينة ليدن بهولاندا سنة ١٩٠٣ م. وتشمل :

١ — رسالة إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ص ١ — ٥٦

٢ — كتاب فخر السودان على البيضان ص ٥٧ — ٨٥

٣ — كتاب التربيع والتدوير ص ٨٦ — ١٥٦

وقد قام بإكمال العمل في هذه المجموعة وتنقيحها ونشرها المستشرق دي جويه : M. J. de Goeje

ثانياً :

مجموعة الفصول المختارة ، اختيار عبيد الله بن حسان . طبعت على هامش كامل المبرد سنة ١٣٢٣ — ١٣٢٤ في جزأين :

١ — من كتابه في الحاسد والمحسود ١ : ٢

٢ — من كتابه في المعلمين ١ : ١٧

٣ — من رسالته إلى الحسن بن وهب في مدح النبيذ وأصحابه ١ : ٩٧

٤ — من كتابه في طبقات المغنين ١ : ١٢٠

٥ — من كتابه في النساء ١ : ١٣٠

٦ — من رسالته إلى الفتح بن خاقان فى مناقب الترك	١ : ١٦٦
٧ — من كتابه فى حجج النبوة	١ : ٢٧٥ إلى ٢ : ١١٧
٨ — من كتابه فى خلق القرآن	٢ : ١١٧
٩ — من كتابه فى الرد على النصارى	٢ : ١٤٨
١٠ — من رسالة إلى أبى الفرج الكاتب فى المودة والخلطة	٢ : ١٩٩
١١ — من كتابه فى استحقاق الإمامة [١]	٢ : ٢١٢
١٢ — من رسالته فى استنجاز الوعد	٢ : ٢٢٠
١٣ — من رسالته فى تفضيل النطق على الصمت	٢ : ٢٢٧
١٤ — من كتابه فى صناعة الكلام	٢ : ٢٣٨
١٥ — من رسالته فى مدح التجارة وذم عمل السلطان	٢ : ٢٤٦
١٦ — صفات الشارب والمشروب	٢ : ٢٥١
١٧ — من رسالته فى استحقاق الإمامة	٢ : ٢٦٩
١٨ — من مقالة الزيدية والرافضة	٢ : ٢٩١

وهذه النسخة ينقصها كثير مما فى النسخة التيمورية ، ونسخة المتحف البريطانى ، فهى مجموعة من الاختيار مبتورة .

ثالثاً :

مجموعة محمد ساسى ، وعنوانها (مجموعة رسائل لمؤلفها العلامة الشهير والفهامة الكبير الأستاذ أبى عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ) . طبعت بمطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٥ .

وقد أعاد فيها ما طبع فى مجموعة فان فلوتن ، وضم إليها ثمانى رسائل أخرى فصارت كلها على الوضع التالى :

---

(١) كذا . ويبدو أنه كتاب آخر .

١ — رسالة فى الحاسد والمحسود ص ٢ — ١٣[1]

٢ — رسالة إلى الفتح بن خاقان فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة ص ٢ — ٥٣

٣ — كتاب فخر السودان على البيضان ص ٥٤ — ٨١

٤ — كتاب التربيع والتدوير ص ٨٢ — ١٤٧

٥ — فى تفضيل النطق على الصمت ص ١٤٨ — ١٥٤

٦ — فى مدح التجار وذم عمل السلطان ص ١٥٥ — ١٦٠

٧ — فى العشق والنساء ص ١٦١ — ١٦٩

٩ — فى استنجاز الوعد ص ١٧٣ — ١٧٧

١٠ — فى بيان مذهب الشيعة ص ١٧٨ — ١٨٥

١١ — فى طبقات المغنين ص ١٨٦ — ١٨٩

رابعاً :

مجموعة يُوشَع فِنكَل : J. Finkel

وعنوانها : (ثلاث رسائل لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) وهو موافق لعنوان مجموعة فان فلوتن . طبعت فى المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ ﻫ وقد جعلت هذه المجموعة هدية من مجلة الزهراء ، التى كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب ، إلى قرائها فى سنتها الثانية . وتشمل هذه المجموعة ثلاث رسائل :

١ — المختار من كتاب الرد على النصارى[2] من ص ٩ — ٣٨

٢ — ذم أخلاق الكتاب من ص ٣٩ — ١٥

٣ — رسالة القيان من ص ٥٢ — ٧٥

(١) هكذا بأرقام صفحات مستقلة .

(٢) وهى من اختيارات عبيد الله بن حسان .

والرسالتان الأخيرتان منشورتان عن أصل بمكتبة نور الدين مصطفى برقم ١٠٠ وهو أصل يعد الآن مفقوداً .

خامساً :

مجموعة ريشر : Rescher نشرت فى مدينة شتوتجارت سنة ١٩٣١ وهى مقتطفات وترجمات من آثار الجاحظ إلى جانب نصوص أصيلة أخرى له لم تنشر من قبل ، كما ذكر بروكلمان ٣ : ١١٠ من الترجمة العربية .

ولم يتيسر لى الوقوف عليها لأنى لم أعثر عليها فى المكتبات العامة بمصر ، وقد أمكننى أن أتعقب ترتيبها وجمعها من مواضع متفرقة متشعبة من كتاب بروكلمان على الوضع التالى :

سادساً :

مجموعة حسن السندوبى بعنوان (رسائل الجاحظ) طبع الرحمانية سنة ١٣٥٢ هـ : ١٩٣٣ م . ذكر فى مقدمتها أنها « منتقاة من كتب الجاحظ ومن كتب أخرى أكثرها فى متناول الأيدى . وهذه الرسائل فى التاريخ والأدب

والاجتماع والجدل . وقد ألحقنا بها طائفة صالحة من رسائله الخاصة التي يسميها العرف الإخوانيات » .

ولم يشر الأستاذ السندوبي إلى أصلٍ ما مما نَشَر عنه هذه المجموعة ، وتشتمل مجموعته على :

١ — خلاصة كتاب العثمانية ص ١ ــ ١٢ . وقد أتبعها بخلاصة نقض العثمانية لأبي جعفر الإسكافي ص ١٣ــ٦٦ . وقد كتبت عنها في مقدمة العثمانية .

٢ — من كتاب فضل هاشم على عبد شمس ٦٧ — ١١٦

٣ — « « حجج النبوة ١١٧ — ١٥٤

٤ — « « الحجاب ١٥٥ — ١٨٦

٥ — « « التربيع والتدوير ١٨٧ — ٢٤٠

٦ — « « استحقاق الإمامة ٢٤١ — ٢٥٩

٧ — « رسالته في صناعة القواد ٢٦٠ — ٢٦٥

٨ — « كتابه في النساء ٢٦٦ — ٢٧٥

٩ — « رسالته في الشارب والمشروب ٢٧٦ — ٢٨٤

١٠ — « « في مدح النبيذ ٢٨٥ — ٢٩١

١١ — « « في بني أمية ٢٩٢ — ٣٠٠

١٢ — « كتابه في العباسية ٣٠٠ — ٣١٦

١٣ — « رسائله الخاصة ٣٠٣ — ٣١٥

وهذه الرسائل الخاصة الأخيرة ست رسائل :

رسالة إلى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلطة ، وأخرى في ذم الزمان ، ورسالة إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، وأخرى إلى أحمد بن أبي دُواد ، وغيرها لإبراهيم بن المدبر ، ورسالة أخيرة كتب بها معاتباً .

سابعا :

مجموعة باول كراوس وطه الحاجرى ، وعنوانها (مجموع رسائل الجاحظ) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٣ . وهى نشرة علمية جيدة ، وبها :

١ — رسالة المعاد والمعاش	ص ١ — ٣٦
٢ — كتاب كتمان السر وحفظ اللسان	٣٧ — ٦٠
٣ — رسالة فى الجد والهزل	٦١ — ٩٨
٤ — رسالة فصل ما بين العداوة والحسد	٩٩ — ١٢٤

وإنى لأزجى الشكر صادقاً إلى الأخ السيد (محمد نجيب أمين الخانجى) لتيسيره نشر سلسلة هذه الرسائل وغيرها من نفائس التراث العربى ، مقتدياً فى ذلك بوالده المغفور له السيد (أمين الخانجى) ، الذى يحفظ له التاريخ سبقاً مبكراً بارعاً إلى إحياء كثير من المخطوطات العربية التى أولاها عنايته وإخلاصه .

* * *

وأما بعد ، فإنى أرجو أن أوفق ـ بعون الله ـ حينما أفرغ من نشر هذه المجموعة (مجموعة داماد) محققة على النهج الذى جريت عليه فى نشر الحيوان والبيان والعثمانية ـ أن أتم نشر ما بقى من رسائل الجاحظ فى أجزاء لاحقة .

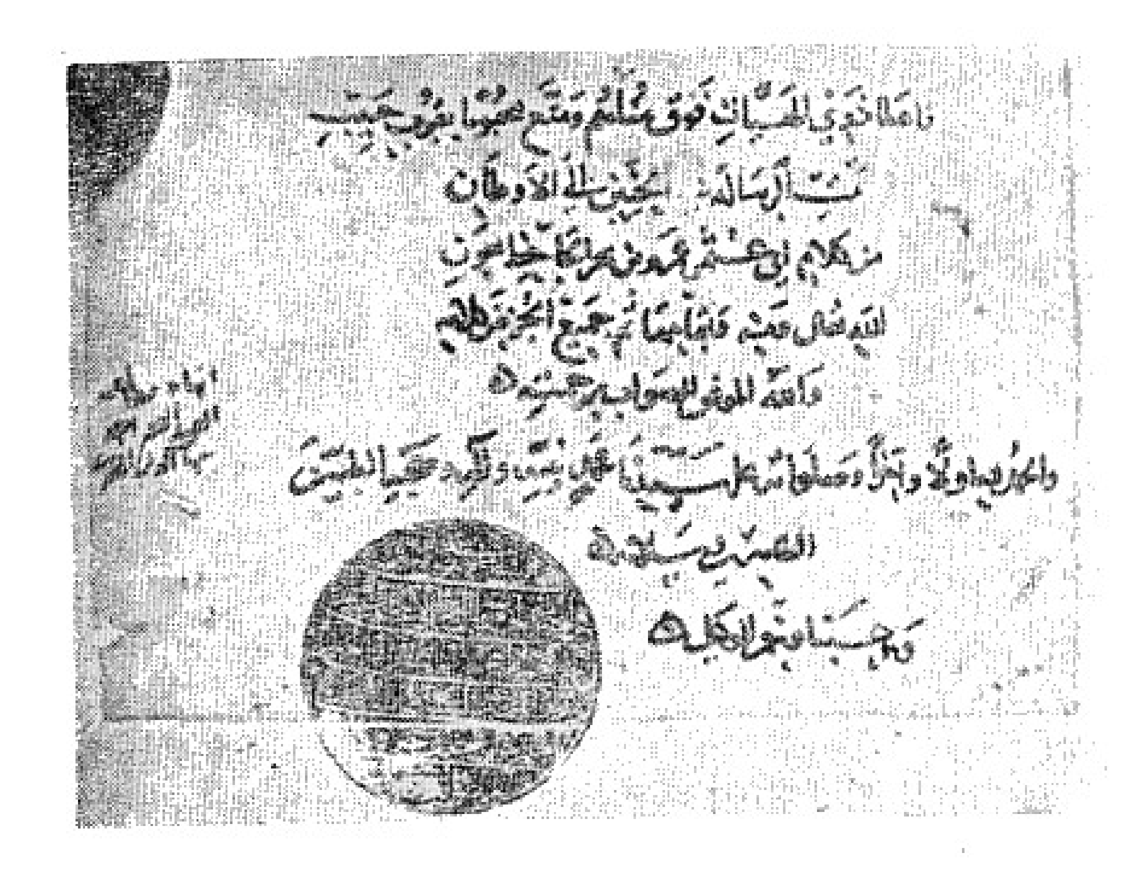
والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

مصر الجديدة فى { ٢٣ من جمادى الأولى ١٣٨٤ / ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٦٤ }

عبد السلام محمد هارون



صورة الصفحة الأولى من مجموعة داماد



الصفحة الأخيرة من مجموعة داماد

١

مَناقِبُ التُّرك

رسالة إلى الفتح بن خاقان فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه هى الرسالة الأولى من مجموعة رسائل الجاحظ نسخة مكتبة داماد ، وعنوانها فى المجموعة « فضائل الأتراك » . وقد اخترت لها العنوان الذى فى سائر المراجع المرموز لها بالرموز التالية :

م = مختارات فصول الجاحظ لعبيد الله بن حسان ، نسخة المتحف البريطانى المأخوذ منها نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٦٩ .

ف = الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان ، المطبوعة بهامش كامل المبرد طبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٤ . وتختلف عن النسخة السابقة .

ن = ثلاث رسائل للجاحظ نشر ڤان ڤلوتن . طبع ليدن ١٩٠٣ .

س = مجموعة رسائل للجاحظ نشر الساسى .

كما جعلت الرمز « ب » لبقية النسخ إذا انفردت نسخة من النسخ السابقة بصورة من النص يخالف أخواتها .

وهذه الرسالة تستغرق من الأصل مابين الورقة ٢٠ والورقة ٤٩ . وقد أثبت أرقام هذه الأوراق على جنبات الكتاب تيسيرا للرجوع إلى الأصل .

وأكرر التنبيه هنا أن هذا الترقيم هو الترقيم الذى ورد فى النسخة ، وأنه ترقيم مسلسل مع كتاب آخر غير مجموعة داماد سابق عليها .

والفتح بن خاقان هذا هو وزير المتوكل العباسى ، وكان أديباً شاعراً فصيحاً بارع الذكاء ، وكانت له خزانة كتب حافلة ، وله مؤلفات منها كتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصيد والجارح ، وكتاب الروضة والزهر . وقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ . وهو غير الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان صاحب قلائد العقيان .

انظر فهرست ابن النديم ١٦٩ – ١٧٠ وفوات الوفيات ٢ : ١٥٣ – ١٥٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٠ ظ

وفقك الله لرشدك ، وأعانَ على شكرك ، وأصلحك وأصلحَ على يديك ، وجعلنا وإياك ممّن يقول بالحقّ ويعملُ به ، ويُؤثره ويحتمل ما فيه [ممّا قد يصدُّه منه[1]] ، ولا يكون حظّه منه[2] الوصفَ له والمعرفةَ به ، دون الحثّ عليه والانقطاعِ إليه ، وكشف القِناع فيه ، [وإيصاله إلى أهله ، والصَّبرِ على المحافظة في ألّا يصلَ إلى غيرهم ، والتثبُّتِ في تحقيقه لديهم[3]] ؛ فإنّ الله تعالى لم يعلِّم الناسَ ليكونوا عالمين دون أن يكونوا عامِلين ، بل علَّمهم ليعملوا ، وبيَّنَ لهم ليتّقوا التورُّطَ في وسط الخوف ، والوقوع في المضارّ[4] ، والتوسُّط في المهالك .

[فلذلك[5]] طلب الناسُ التبيُّن ، ولحبِّ السلامة من الهلَكة ، والرَّغبةِ في المنفعة ، احتملوا ثِقَلَ العلم ، وتعجَّلوا مكروه المعافاة . ولقلّة العاملين وكثرةِ الواصفين [قال الأوّلون : العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العاملين . وإنّما[6]] كثُرت الصِّفات وقلّتِ الموصوفات ، لأنّ ثوابَ العمل مؤجّل ، واحتمال ما فيه معجّل .

---

(١) ساقطة من الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .

(٢) في الأصل « فيه » ، وأثبت ما في ف ، ن ، س .

(٣) التكملة من م ، ف ، ن ، س .

(٤) في الأصل و س : « ليتقوا ولخوف الوقوع في المضار » .

(٥) التكملة من م ، ف .

(٦) التكملة من م ، ف ، ن ، س .

وقد أعجبنى ما رأيتُ من شَغَفك بطاعة إمامك ، والمحاماةِ لتدبير خليفتك ، وإشفاقِك من كل خَلَل وخَلَّة دخَلَ على مُلكه وإنْ دقّ[١] ، ونالَ سُلطانَه وإن صغُر ، ومن كلِّ أمرٍ خالفه وإنْ خفِيَ مكانُه ، وجانَبَ رضاه وإنْ قلَّ ضرره ؛ ومِنْ تخوُّفك أن يَجِد المُتأوِّلُ إليه طريقا[٢] والعدوُّ عليه متعلَّقا ؛ فإنَّ السلطانَ لا يَخلو من مُتأوِّلٍ ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكمِ زارٍ[٣] ، ومن متعطِّل متصفِّح ، ومن مُعجَبٍ برأيه ذى خَطَلٍ فى بيانه ، مولَع بتهجين الصَّواب ، وبالاعتراض على التَّدبير ، حتَّى كأنَّه رائدٌ لجميع الأمَّة ، ووكيلٌ لسكان جميع المملكة ؛ يَضَع نفسه فى موضع الرُّقباء ، وفى موضع التصفّح على الخلفاء والوزراء ؛ لا يَعذِرُ وإن كان مَجازُ العُذر واضحًا ، ولا يقف فيما يكون للشكِّ محتمِلا ، ولا يُصدِّق بأنَّ الشاهدَ يرى ما لا يرى الغائب ، وأنَّه لا يعرف مَصادر[٤] الرَّأى من لم يشهد مَوارِدَه ، ومُستدبَرَه من لم يعرف مُستقبَله . ومِن محرومٍ قد أضغَنَه الحرمان[٥] ، ومن لئيم قد أفسدَه الإحسان . ومن مستبطئٍ قد أخذ أضعاف حقِّه ، وهو لجهلِه بقَدره ، ولِضيق ذَرْعه وقلَّة شكره ، يظنُّ أن الذى بَقِىَ له أكثر ، وأنَّ حقَّه أوجَب . ومن مستزيدٍ

٢١ و

---

(١) م ، ف : « من كل خلل يدخله وإن دق » ن : « من كل خلل دخل على ملكه وإن دق » .

(٢) المراد بالمتأول المتعلل الذى يلتمس علة وتأويلا لقيامه على السلطان .

(٣) فى الأصل : « عن الحكمة » ، وأثبت ما فى ب . والزارى ، من قولهم : زرى عليه يزرى زريا وزراية : عابه وعاتبه .

(٤) فى الأصل : « مصداق » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٥) أضغنه : حمله على الضغن والحقد . وفى الأصل : « أضعفه » ، صوابه فى سائر النسخ .

لو ارتجع السُّلطان[١] سالفَ أياديه البيضِ عندَه ، ونِعمَه السَّالفةَ عليه ، لكان لذلك أهلًا ، وله مستحقًّا . قد غرَّه الإملاء[٢] ، وأبطرَه دوامُ الكفاية ، وأفسدَه طولُ الفراغ . ومِن[٣] صاحبِ فِتنةٍ خاملٍ فى الجماعة ، رئيس فى الفُرقة ، تعَّاقٍ فى الهَرْج ، قد أقصاه السلطان ، وأقام صَغْوه ثِقافُ الأدب[٤] ، وأذلَّه الحكمُ بالحق ، فهو مَغيظٌ لا يجد غير التشنيع ، ولا يتشفَّى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلَّا إلى الأمانى ، ولا يأنس إلَّا بكلِّ مُرجِفٍ كذّاب ، ومفتونٍ مُرتاب ، وخارصٍ لا خيرَ فيه[٥] ، وخالفٍ لا غَناءَ عنده ، يريد أن يسوِّى بالكُفاة ، ويُرفَع فوق الحُماة ؛ لأمرٍ [ما] سلَفَ له ، ولإحسانٍ كانَ من غيره ، وليس ممَّن يربُّ قديمًا بحديث[٦] ، ولا يَحفل بدُروس شرف ، ولا يَفصل بين ثواب المحتسبين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين .

وكيف يعرف فرقَ ما بين حقِّ الذِّمام وثوابِ الكفاية ، من لا يعرف طبقاتِ الحق فى مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل فى منازله .

---

(١) فى الأصل : « لو ارتجع للسلطان » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) فى الأصل و ف : « الأصل » .

(٣) كلمة « من » ساقطة من الأصل و ن و س .

(٤) الصغو : الميل . فى الأصل : « صعره » م ، ف : « صغره » . وأثبت ما فى س ، ن .

(٥) الخارص : الكاذب ، يقال خرص وتخرص واخترص . ورجل خراص : كذاب . وفى التنزيل العزيز : « قتل الخراصون » س ، ن . « حارص » بالمهملة ، تحريف .

(٦) ربه به : أصلحه وطيبه .

ثم أعلمتنى بذلك أنك بنفسك بدأتَ فى تعظيم إمامك ، والحفظ لمناقب أنصار خليفتك ، وإياها حُطت بحياطتك لأشياعه ، واحتجاجك لأوليائه . ونِعم العونُ أنتَ إن شاء الله على ملازمة الطّاعة ، والمؤازرة على الخير ، والمكانفة لأهل الحق[١] .

وقد استدللتُ بالذى أرى من شِدّة عنايتك ، وفَرط اكترائك ، وتفقُّدك لأخابير الأعداء[٢] وبحثك عن مناقب الأولياء ، على أنّ ما ظهر من نصحك أَمَمٌ[٣] ، فى جَنْب ما بطَنَ من إخلاصك .

فأمتعَ اللهُ بك خليفتَه ، ومنحنا وإياك محبّته[٤] ، وأعاذنا وإيّاك من قَوْل الزُّور[٥] ، والتقرّب بالباطل ، إنّه حميد مجيد ، فعّالٌ لما يريد .

وذكرتَ أبقاكَ اللهُ أنّك جالست أخلاطًا من جُند الخلافة ، وجماعةً من أبناء الدّعوة ، وشيوخًا من جِلّة الشّيعة ، وكُهولًا من أبناء رجال الدّولة ، والمنسوبين إلى الطاعة والمناصحة ، [والمحبّة[٦]] الدّينية ، دون محبة الرّغبة والرهبة ، وأنّ رجلا من عُرْض تلك الجماعة ، ومن حاشية تلك الجِلّة[٧] ارتجَل ٢١ ظ

---

(١) المكانفة : المعاونة .

(٢) م ، ف فقط : « لأجناس الأعداء » .

(٣) الأمم : الشىء اليسير .

(٤) فى الأصل : « نخبة » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٥) فى الأصل و ن : « قبول الزور » .

(٦) التكملة من ف ، م ، س .

(٧) م : « وأن رجلا من عرض تلك الجملة » .

الكلام ارتجالَ مستبدٍّ، وتفرد به تفرُّدَ مُعجَبٍ[١]، وأنّه لم يستأمر زعماءهم، ولم يراقب خطباءهم، وأنّه تعسَّفَ المعانَى وتهجّمَ على الألفاظ، وزعم أنّ جُند الخلافة اليومَ على خمسة أقسام: خراسانى، وتركىّ، ومَولًى، وعربىّ، وبَنَوِىّ. وأنه أكثر من حَمْد الله وشكره على إحسانه ومِنَنه، وعلى جميع أياديه وسابغ نعمه، وعلى شمول عافيته وجزيل مواهبه، حين ألَّف على الطاعة هذه القلوبَ المختلفة، والأجناسَ المتباينة، والأهواء المتفرّقة. وأنّك اعترضت على[٢] هذا المتكلم المستبدّ، وعلى هذا القائل المتكلِّف، الذى قسّم هذه الأقسام، وخالف [بين[٣]] هذه الأركان، وفصّل بين أنسابهم[٤]، وفرّق بين أجناسهم، وباعَدَ بين أسْبابهم[٥]. وأنّك أنكرتَ ذلك عليه أشدَّ الإنكار، وقذعته أشدَّ القَذْع[٦]، وزعمت أنّهم لم يَخرجوا من الاتّفاق أو من شىء يَقرب من الاتّفاق. وأنّك أنكرتَ التّباعدَ فى النّسب، والتّباين فى السَّبب. وقلتَ: بل أزعُم أنّ الخراسانىّ والتركىّ أخَوانِ، وأن الحيِّز واحد، وأن [حكم ذلك الشَّرق، والقضيّة على[٧]] ذلك الصُّقع متَّفق غير مختلف، ومتقاربٌ غير متفاوت. وأنّ الأعراق فى الأصل إن لا تكن [كانت[٧]] راسخةً فقد كانت متشابهة، وحدود البلاد المشتملة عليهم إن

---

(١) الكلام بعده إلى « خطباءهم » ساقط من ف.

(٢) فى الأصل: « أعرضت عن »، صوابه فى سائر النسخ.

(٣) الكلمة ساقطة من الأصل ثابتة فى سائر النسخ.

(٤) ن، س: « وباعد بين أنسابهم ». وما بعده إلى « أنسابهم » التالية ساقط من ف، م.

(٥) فى الأصول: « أنسابهم »، والوجه ما أثبت.

(٦) قذعه قذعا: رماه بالفحش وسوء القول.

(٧) مابين المعقفين ثابت فى جميع النسخ ساقط من الأصل.

لا تكن متساويةً فإنّها متناسبة ؛ وكلّهم خراسانيٌّ فى الجملة وإنْ تميَّزوا ببعض الخصائص، فافترقوا ببعض الوُجوه .

وزعمتَ أنّ اختلاف التركى والخراسانى ليس كالاختلاف بين العجمى والعربىّ ، ولا كالاختلاف بين الرُّومى والصَّقْلبىّ ، والزّنجىّ والحبَشى ، فضلاً عما هو أبعدُ جوهراً وأشدُّ خلافاً . بل كاختلافِ ما بين المكّىّ والمدنى ، والبدوىّ والحضرى ، والسُّهلى والجبلى ، وكاختلاف ما بين الطائىّ الجبلىّ والطائىّ السُّهلى ، وكما يقال : أنّ هذيلاً أكراد العرب ، وكاختلاف ما بين مَنْ نزل البُطون وبين من نزل الحُزُون ، وبين من نزل النُّجود وبين من نزل الأغوار .

وزعمتَ أنّ هؤلاء وإن اختلفوا فى بعض اللُّغة ، وفارق بعضُهم بعضاً فى بعض الصُّوَر ، فقد تخالفت عُليا تميم ، وسُفلَى قيس ، وعَجُز هوازن وفُصحاء الحجاز ، فى اللُّغة ، وهى فى أكثرها على خلافِ لغة حِمير ، وسُكان مَخاليف اليمن ، وكذلك فى الصُّورةِ والشمائلِ والأخلاق(١) . وكلُّهم معَ ذلك عربىٌّ خالص ، غير مَشُوب ولا مُعلهَج(٢) ولا مذرّع(٣) ولا مزلَّج(٤) . ولم يختلفوا اختلافَ ما بين بنى قَحطان وبنى عدنان ، من قِبَل(٥) ما طبع الله

٢٢ و

---

(١) ج ، ف : « وكذلك الصورة والصورة ، والشمائل والشمائل ، والأخلاق والأخلاق » .

(٢) المعلهج : الهجين ، وهو العربى ولد من أمة

(٣) المذرع : الذى أمه عربية وأبوه غير عربى . وأنشد :

إذا باهلى عنده حنظلية   لها ولد منه فذاك المذرع

ف ، ج : « مربوع » تحريف .

(٤) المزلج : الدعى ، والملزق بالقوم وليس منهم .

(٥) فى الأصل : « بأمر قبل » ، صوابه فى سائر النسخ .

عليه تلك البرِيّةَ من خصائص الغرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كلّ جيزة[١] من الشَّـكل والصُّورة[٢] ومن الأخلاق واللُّغة .

فإنْ قلتَ : فـكيف كان أولادها جميعاً عرباً مع اختلاف الأبوّة .

قلنا : إنّ العربَ[٣] لما كانت واحدةً فاستوَوْا فى التُّربة وفى اللغة ، والشمائل والهمّة ، وفى الأنَف والحميّة[٤] ، وفى الأخلاق والسَّجيّة ، فسُبكُوا سَبكًا واحداً ، وأُفرِغوا إفراغاً واحداً ، وكان القالَب واحداً ، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط ، وحين صار ذلك أشدَّ تشابهاً فى باب الأعمّ والأخصّ وفى باب الوِفاق والمباينة[٥] من بعض ذوى الأرحام ، جرى عليهم حكمُ الاتِّفاق فى الحسب ، وصارت هذه الأسباب ولادةً أخرى حتّى تناكحوا عليها ، وتصاهَروا من أجلها ، وامتنعت عدنان قاطبةً من مناكحة بنى إسحاق وهو أخو إسماعيل ، وجادُوا بذلك فى جميع الدهر لبنى قَحطان ـ وهو ابن عابَر[٦] ـ فى إجماع[٧] الفريقين على التناكح والمصاهرة ، ومنعهما من ذلك جميعَ الأمم : كِسرى فَمن دونه ، دليلٌ على أنّ النسبَ عندهم متّفق ، وأنّ هذه المعانىَ قد قامت عندهم مَقام الولادة والأرحام الماسّة .

---

(١) الجيزة ، بالكسر : الناحية ، كما فى القاموس . ف ، ج : « جزيرة » تحريف .

(٢) فى الأصل : « الصور » مع سقوط الواو بعدها ، ووجهه من سائر النسخ .

(٣) م ، ف : « الجزيرة » .

(٤) الأنف ، بالتحريك : الأنفة . ف فقط : « الأنفة » .

(٥) م ، ف : « وفى البنية » . وفى الأصل : « المشية » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .

(٦) فى الأصحاح ١١ : ١٢ من التكوين أنه قحطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد .

(٧) فى الأصل : « اختلاف » ، صوابه من سائر النسخ .

وزعمتَ أنَّه أراد الفُرقة والتَّحزيب[١] ، وأنَّك أردت الأُلفة والتَّقريب .

وزعمتَ أيضاً أنَّ البَنَوىَّ خُراسانى ، وأنَّ نسبَ الأبناء نسبُ آبائهم ، وأنَّ حُسن صنيع الآباء ، وقديمَ فعال الأجداد ، هو حسب الأبناء . وأنَّ الموالىَ بالعرب أشبه ، وإليهم أقرب ، وبهم أمسّ ؛ لأن السُّنّة جعلتهم منهم . فقلت : إنَّ الموالىَ أقرب إلى العرب فى كثير من المعانى ؛ لأنّهم عربٌ فى المدَّعَى[٢] ، وفى العَاقلة[٣] ، وفى الوِراثة[٤] . وهذا تأويل قوله « موَلى القَوم مِنْهم » و « مولى القَوم مِن أنفسهم[٥] » ، و « الولاء لحُمة كلُحمة النَّسب[٦] » . وعلى شبيه ذلك صار حليفُ القوم منهم ، وحكمه حكمهم ، فصار الأخنس بن شُريق[٧] وهو رجلٌ من ثقيف ، وكذلك يَعلَى بن مُنْيَةَ[٨] وهو رجل من بَلعدويَّة ، وكذلك خالد بن عُرفُطة[٩] وهو رجلٌ من عُذرة

٢٢ ظ

---

(١) التحزيب : أن يجعلهم أحزابا وفرقا . فى الأصل : « التخويف » صوابه فى سائر النسخ .

(٢) فى الأصل فقط : « النسب » .

(٣) العاقلة : العصبة التى تعقل عن القاتل ديته .

(٤) م ، ف : الراية » .

(٥) أخرجه البخارى عن أنس . الجامع الصغير ٩١٢٤ .

(٦) أخرجه الطبرانى عن عبد الله بن أبى أوفى ، والحاكم والبيهقى عن ابن عمر . الجامع الصغير ٩٦٨٧ .

(٧) ترجم له فى الإصابة ٦١ وذكر أنه ممن اختلف فى إسلامه .

(٨) فى الأصل : « منبه » ، صوابه فى سائر النسخ وجمهرة ابن حزم ٢١٣ ، ٢٢٩ . قال ابن حزم : « وهى أمه ، وهى بنت غزوان ، أخت عتبة بن غزوان . اسم أبيه أمية بن عبدة » .

(٩) الاشتقاق ٥٤٧ .

من قريش . وبذلك النَّسَب حَرُمت الصَّدقةُ على موالى بنى هاشم ؛ فإنَّ النبى صلى الله عليه وسلم أجراهم فى باب التنزيه والتطهير مَجرى مواليهم . وبذلك السَّبب قَدَّمَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطَّلب على بنى عبد شمس ، وقرابتُهم سواءٌ ونسبُهم واحد ، للعَقْد المتقدِّم ، وللأيدى المتَّفقة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مِنَّا خير فارسٍ فى العرب : عُكاشة ابن مِحْصَن[1] » ، فقال ضِرار بن الأزْوَر الأسَدىّ : ذاك رجلٌ منَّا يا رسول الله . قال : « بل هو منّا بالحِلف » . فجعلَ حليفَ القوم منهم ، كما جعلَ ابنَ أُخت القوم منهم .

ثم زعمتَ أنَّ الأتراك قد شاركوا هؤلاءِ القومَ فى هذا النَّسب ، وصاروا من العرب بهذا السَّبب ، مع الذى بانوا به من الخِلال ، وحُبُوا به من شرف الخصال .

على أنَّ وَلاء الأتراك لُباب قُريش ، ولُمصَاصِ عبد مناف ، و [هم] فى سرِّ بنى هاشم ، [وهاشم[2]] موضع العذار من خدِّ الفرس ، والعِقدِ من لَبَة الكاعب ، والجوهر المكنون ، والذَّهب المصفَّى ، وموضع المُخَّة من البيضة ، والعَين فى الرأس ، والرُّوح من البدن ؛ وهم الأنف المقدَّم ، والسَّنام الأكبر[3] ، والدُّرَّة الزهراء ، والرَّوضة الخضراء ، والذَّهب الأحمر . فقد شاركوا العربَ فى أنسابهم ، والموالىَ فى أسبابهم ، وفَضَلوهم

---

(١) الإصابة ٥٦٢٦ . وعكاشة بتشديد الكاف وتخفيفها ، وفيه الحديث : « سبقك بها عكاشة » .

(٢) ساقطة من الأصل ثابتة فى سائر النسخ .

(٣) فى سائر النسخ : « الأكوم » .

بهذا الفضل الذى لا يبلغه فضلٌ وإنْ برَع ، بل لا يعشُره شرفٌ وإنْ عظُم ، ولا مجدٌ وإنْ قُدم .

فزعمتَ أنَّ أنسابَ الجميع متقاربةٌ غير متباعدة ، وعلى حسب ذلك التّقارب تكون المؤازرة والمكاتفة ، والطاعة والمناصحة ، والمحبة للخلفاء والأئمة .

وذكرت أنّهُ ذكر جُملاً من مفاخرة الأجناس ، وجمهرةً من مناقب هذه الأصناف ، وأنّه جمعَ ذلك وفَصَّله[١] وفسّره ، وأنّه ألغَى ذكر الأتراك فلم يَعرِض لهم ، وأضربَ عنهم صفحا ، يُخبر عنهم كما أخبر عن حُجّة كلِّ جيل ، وعن بُرهان كلِّ صِنف ؛ وذكرَ أنَّ الخراسانيَّ يقول : نحن النُّقباء وأبناء النقباء ، ونحن النُّجباء وأبناء النُّجباء ، ومنّا الدُّعاة ، قبل أنْ تظهر نَقابَة[٢] ، أو تُعرَف نَجابة ، وقَبل المغالبة والمباراة ، وقبل كَشف القِناع وزوال التَّقيَّة وزوال ملك أعدائنا عن مستقَرِّه ، وثبات ملك أوليائنا فى نِصابه . وبين ذلك ما قُتِلنا وشُرِّدنا ، ونُهِكنا ضرباً[٣] وبُضِعنا بالسُّيوف الحِداد[٤] ، وعذِّبنا بألوان العذاب .

٢٣ و

وبنا شَفَى اللهُ الصُّدورَ ، وأُدرِك الثأر . ومنّا الاثناعَشَر النُّقباء ، والسَّبعون النُّجباء . ونحن الخندقيّة[٥] ، ونحن الكَفِّيَّة وأبناء الكَفِّيَّة[٦] ،

---

(١) بعده فى معظم النسخ : « وأجمله » .

(٢) النقابة ، بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم . والنقيب : العريف على القوم المقدم عليهم الذى يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم .

(٣) م ، ف : « وطلباً » .

(٤) الحداد : المرهفة ، جمع حديد . والبضع : القطع والشق .

(٥) الخندقية : أصحاب الخنادق أيام نصر بن سيار ، كما سيأتى .

(٦) م ، ف : « الكتفية وأبناء الكتفية » .

ومنا المستجيبة ومن يهرج التيمية(١) ومنّا نيم خزان(٢) وأصحاب الجوربين(٣) ومنا الزَّغندية(٤) والآزاذمردية(٥) .

ونحن فتحنا البلادَ وقتلنا العباد ، وأبَدْنا العدوَّ بكلِّ وادٍ . ونحنُ أهلُ هذه الدَّولة ، وأصحاب هذه الدعوة ، ومَنبِت هذه الشجرة . ومن عندنا هبَّت هذه الرِّيح .

والأنصار أنصاران : الأوس والخزرجُ نصرو النبيَّ صلى الله عليه وسلم أوّل الزمان ، وأهلُ خراسان نصروا ورثتَه فى آخر الزّمان . غذَانا بذلك آباؤنا وغَذَوْنا به أبناءنا ، وصار لنا نسباً لا نُعرف إلاّ به ، ودِيناً لا نوالِى إلاّ عليه .

ثم نحن على وتيرةٍ واحدة ، ومنهاج غير مشترك ؛ نُعرف بالشيعة ، ندين بالطّاعة ، ونُقتَل فيها ونَمُوت عليها . سِيمانا موصوفٌ ، ولباسنا معروف . ونحن أصحاب الرّاياتِ السُّود ، والروايات الصحيحة ، والأحاديث المأثورة ، الذين يَهدِمون مُدنَ الجبابرة ، ويَنزِعون المُلْك من أيدى الظَّلَمة . وفينا

---

(١) ن ، س : « يمرج » . م : « النيمية » .

(٢) ف : « تيم » بدل « نيم » .

(٣) الجوربين مهملة فى الأصل وإعجامها من س ، ن . و فى ف : « الحوزتين » ، م : « الجوزتين » .

(٤) زغند ، فى الفارسية بمعنى صوت الحيوان الوحشى . فى الأصل : « الدعيدية » . أثبت ما فى سائر النسخ . وسيأتى قوله : « ولنا الأصوات التى تسقط منها الحبالى » .

(٥) الآزاذ مردية ، اسم كان يطلق على طبقة الأشراف من الفرس . انظر مقال الدكتور كراوس فى مجلة الثقافة العدد ٢٢٤ .

تَقدَّم الخَبر ، وصحَّ الأثر . وجاء فى الحديث صفة الذين يفتحون عَمُّورِيَّةَ[١] ويظهرون عليها ، ويقتلون مُقاتليها ويَسْبون ذراريها ، حيث قالوا فى نعتهم : « شُعوهم شعُور النِّساء ، وثيابهم ثيابُ الرهبان » . فصَدَّق الفعلُ القول ، وحقَّق الخبرَ العِيان .

ونحن الذين ذَكرَنا وذَكر بلاءنا أمامُ الأئمة ، وأبو الخلائق العشرة : محمَّد بن على[٢] ، حين أراد توجيهَ الدُّعاة إلى الآفاق ، وتفريقَ شيعته فى البلاد ، أن قال :

٢٣ ظ أما البَصرة وسوادُها فقد غلب عليها عثمانُ وصنائع عثمان ، فليس بها من شيعتنا إلاَّ القليل . وأمَّا الشام فشيعةُ بنى مروان وآل أبى سُفيان . وأمَّا الجزيرة فحَرُوريَّة شارِيَة[٣] ، وخارجة مارقة ، ولكن عليكم بهذا الشَّرق ؛ فإنَّ هناك صدوراً سليمة وقلوباً باسلة ، لم تُفسِدها الأهواء ، ولم تَخامِرها الأدواء ، ولم تعتَقِبْها البدع ، وهم مغيظون موتورون . وهناك العَدد [والعُدّة[٤]] ، والعَتاد والنَّجدة .

---

(١) عمورية : بلد فى بلاد الروم ، فتحها المعتصم العباسى سنة ٢٢٣ . ولهذا الفتح قصة عجيبة فى كتب التاريخ . وفيه يقول أبو تمام :

يايوم وقعة عمورية انصرفت   عنك المنى حفلا معسولة الحلب

(٢) محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، والد السفاح والمنصور ، أول من نطق بالدعوة العباسية . توفى سنة ١٢٥ . تهذيب التهذيب .

(٣) الشارية : جمع شار ، وهم الذى شروا أنفسهم أى باعوها فى سبيل الله ، وهم الخوارج .

(٤) ساقطة من الأصل ثابتة فى سائر النسخ .

ثم قال : [وأنا أتفاءل[١]] إلى حيث يطلع منه النّهار[٢] . فكنّا خَيْرَ جُنْدٍ لِخَير إمام ؛ فصدّقنا ظنّه ، وثبّتْنَا رأيه ، وصوّبنا فِراسته .

وقال مرّةً أخرى :

أمْرُنا هذا شرقىٌّ لا غربىّ ، ومُقبِل لا مدبر[٣] ، يطلُع كطلوع الشّمس ، ويمتدُّ على الآفاق امتدادَ النهار ، حتّى يبلغ حيث تبلغه الأخفاف[٤] ، وتناله الحوافر .

قالوا : ونحن قتَلنا الصَّحْصَحِيَّة[٥] ،والدَّالقيّة ،والذّكوانيّة ، والرّاشديّة[٦] . ونحن أيضاً أصحاب الخنادق أيّامَ نصْر بن سيّار ، وابن جُدَيْعٍ الكرمانىّ[٧] ، وشيبان بن سَلَمة الخارجى . ونحن أصحاب نُباتة بن حنظلة[٨] ، وعامر بن ضُبارة[٩] ، وأصحابُ ابن هبيرة . فَلَنا قديمُ هذا الأمر وحديثه ، وأوّله وآخره

---

(١) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .

(٢) م ، ف : « إلى حيث ما تطلع » فقط . ن ، س : « إلى حيث يطلع النهار » .

(٣) م ، ف : « غير مدبر » .

(٤) م ، ف : « حيثما تبلغه الأخفاف » .

(٥) فى الأصل ، م ، ف : « الصحيحة » صوابه فى ن ، س .

(٦) الصحصحية : نسبة إلى صحصح ، وكان أحد المتكلمين . انظر الحيوان ٣ : ٣٩٥ والبخلاء ٤ والطبرى ٩ : ١٣١ فى حوداث سنة ١٣٢ . والدالقية ، بدلها فى الطبرى : « الدوكانية » . والراشدية ذكرهم الطبرى فى الموضع الذى أشرت إليه .

(٧) هو على بن جديع الكرمانى . الطبرى ٩ : ٩١ ، ٩٧ والاشتقاق ٢٩٥ ونوادر المخطوطات ٢ : ١٨٦ ، ١٩١ وجمهرة ابن حزم ٣١٧ .

(٨) جمهرة أنساب العرب ٢٨٣ . وهو من بنى كلاب بن ربيعة .

(٩) الاشتقاق ٢٨٩ ، ٢٩٠ والجمهرة ٢٥٤ ، وكان من قواد ابن هبيرة .

ومنّا قاتلُ مروان[١] .

ونحنُ قومٌ لنا أجسامٌ وأجرام ، وشُعورٌ وهام ، ومناكبُ عِظام ، وجِباهٌ عِراض ، وقَصَرٌ غِلاظ[٢] ، وسواعدُ طوال .

ونحنُ أولَدُ للذُّكورة ، وأنسَلُ بُعولة ، وأقلُّ ضَوًى وضُؤولة ، وأقلُّ إتآمًا وأنتق أرحاما[٣] ، وأشدُّ عصبا وأتمُّ عظاما ، وأبدانُنا أحمَل للسلاح ، وتِجْفافُنا[٤] أملأُ للعيون .

ونحن أكثر مادّةً ، وأكثر عَددا وعُدّة .

ولو أنَّ يأجوج ومأجوجَ كاثَروا مَنْ وراءَ النَّهر منّا لظهروا عليهم بالعَدد . فأمّا الأَيْد وشِدّةُ الأَسْر ، فليس لأحدٍ بعدَ عادٍ وثمودَ والعمالقة والكَنْعانيِّين مثلُ أيدِنا وأسْرِنا .

---

(١) فى الطبرى ٩ : ١٣٦ أن قاتل مروان بن محمد سنة ١٣٢ رجل من أهل البصرة يقال له «المغود» . فى الأصل : « وبنا قاتل من ولى » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) القصر ، بالتحريك : جمع قصرة ، وهى أصل العنق ، وبه فسر ابن عباس قوله تعالى : «إنها ترمى بشرر كالقصر» فى قراءته بفتح الصاد . فى الأصل : « قصص » وفى ن ، س : « قصص » صوابه فى م ، ف .

(٣) هذا ما فى م ، ف . والإتآم : أن تلد اثنين فى بطن . وأنتق أرحاما : أكثر ولادة . وفى الأصل : « وأجل أحسابا وأوثق أبدانا » وفى ن ، س : « وأقل أيامى وأنتق أرحاما » ، لكن بعض أصول ن توافق الأصل .

(٤) التجفاف : ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح فى الحرب . وفى الأصل : « وخفافنا » وفى سائر الأصول : « وأخفافنا » ، والوجه ما أثبت . وفى البيان ٣ : ١٨ فى قول الشعوبية : « ولا تعرفون الأقبية ولا السراويلات ، ولا تعليق السيوف ، ولا الطبول ولا البنود ولا التجافيف» وانظر ص ١٩ س ١٢ .

ولو أن خيولَ الأرضِ وفُرسان جميعِ الأطراف جُمِعوا فى حَلْبَةٍ واحدة ، لـكُنَّا أكثرَ فى العيون ، وأهْوَلَ فى الصُّدور .

ومتى رأيتَ مواكبنا وفُرسانَنا ، وبُنودنا التى لا يحملها غيرُنا ، علمتَ أننا لم نُخلَق إلَّا لقَلْب الدُّوَل ، وطاعة الخلفاء ، وتأييد السلطان .

٢٤ و

ولو أنَّ أهلَ التُّبَّت ورجالَ الزَّابج[1] ، وفُرسانَ الهند ، وحَلْبة الرُّوم ، هجَم عليهم هاشم بن أشتاخنج[2] لما امتنعوا من طَرْح السِّلاح والهربِ فى البلاد .

ونحنُ أصحابُ اللِّحَى وأرباب النُّهَى ، وأهلُ الحلم والحِجَا ، وأهلُ الثَّخَانة[3] فى الرأى ، والبُعد من الطَّيش . ولسنا كجُنْد الشَّام المتعرِّضين للحَرَم ، والمتهكين لـكلِّ مَحْرَم .

ونحن ناسٌ لنا أمانةٌ وفينا عِفَّة . ونحن نجمع بين النَّزاهة والقَناعة والصَّبرِ على الخدمة ، والتجمير عند بعد الشُّقَّة[4] . ولنا الطُّبول المَهُولة العِظام والبُنود ، ونحن أصحاب التجافيف والأجراس ، والبازيكند[5] واللُّبود الطِّوال ، والأغماد

---

(١) الزابج بفتح الباء وكسرها : جزيرة فى أقصى بلاد الهند فى حدود الصين . وفى الحيوان ٧ : ٣٣٠ : « ويزعم تجار التبت ممن قد دخل الصين والزابج » . م : « الزنج » ، تحريف .

(٢) كلمة « بن » ساقطة من الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ والطبرى ٩ : ٢٨٣ . وقتل هاشم هذا سنة ١٥٢ .

(٣) فى الأصل : « النجـــابة » ، وفى م ، س : « الثجانة » ، وأثبت ما فى سائر النسخ . والمراد قوة الرأى وجزالته .

(٤) تجمير الجيش : إبقاؤه فى ثغر العدو .

(٥) البازيكند ، يبدو أنه كساء يلقى على الـكتف . و « باز » فى الفارسية =

المعقَّفة(١) والشَّوارب المعقرَبة ، والقلانس الشاشيَّة ، والخيول الشهريَّة(٢) ، والكافر كوبات(٣) والطَّبَرْزينات(٤) [فى الأكفّ] ، والخناجر فى الأوساط . ولنا حُسْنُ الجلسة على ظهور الخيل . ولنا الأصواتُ التى تُسقِط منها الحَبالى .

وليس فى الأرض صِناعةٌ غريبةٌ من أدبٍ وحكمة ، وحسابٍ وهندسة ، وإيقاع وصَنعة(٥) ، وفِقهٍ ورواية ، نظَرتْ فيها الخراسانية إلّا فَرَعت فيها الرُّؤساء(٦) ، وبزَّت فيها العلماء .

ولنا صَنعة السِّلاح من لِبْد ورِكابٍ ودِرع . ولنا مما جعلناه رياضة وتمرينًا ، وإرهاصًا للحرب ، وتثقيفًا ودُربةً المجاولة والمُشاولة ، [و] المكرّ

= بمعنى الكتف . انظر البيان ١ : ٩٥ / ٣ : ١١٥ . فى الأصل : « البار كند » وفى سائر النسخ : « الباز فكند » .

(١) المعقفة : المعوجة ، وذلك لاعوجاج السيوف التى تجعل فيها . ف : « والأعمدة والحقفة » ج : « والأعمدة والمعقفة » .

(٢) فى البيان : « والشهرية : ضرب من البراذين ، وهو بين البرذون والمقرف من الخيل » .

(٣) الكافر كوبات : جمع كافر كوب ، وهى المقرعة . انظر حواشى البيان ١ : ١٤٢ . فى الأصل : « الكافر كورات » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٤) الطبرزينات : جمع طبرزين ، وهو فأس تستعمل فى القتال عند الفرس ، مركب من « تبر » بمعنى الفأس ، و « زين » بمعنى السرج ، لعله سمى بذلك لالتزام وضعه بجانب السرج . استينجاس ٢٧٠ والمعرب ١٩٤ والألفاظ الفارسية ١١١ . وكلمة « فى الأكف » بعدها من سائر النسخ .

(٥) م ، ف : « وارتفاع بناء وصنعة » .

(٦) فرعه : علاه وطاله .

بعد الكرّ : مثل الدَّبُّوق[١] ، والنَّزْو على الخيل صغارًا ، ومثل الطَّبطاب[٢] والصَّوالجةِ الكبار ، ثم رمى الجَثَمة[٣] ، والبُرجاس[٤] والطائر الخطَّاف .

فنحن أحقُّ بالأَثَرةِ[٥] ، وأولى بشرف المنزلة .

ثم قلت : وزَعم أنَّ القُربة[٦] تُستَحَقُّ بالأسباب الثابتة ، وبالأرحام الشابكة ، وبالقِدمة ، والطاعة للآباء والعشيرة ، وبالشكر النافع ، والمديح الكافى[٧] بالشِّعر الموزون الذى يبقى بقاء الدهر ، ويلوح مالاحَ نجم ، ويُنْشَد ما أُهِلَّ بالحج ، وما هَبَّت الصَّبا ، وما كان للزَّيت عاصر ؛ وبالكلام المنثور والقول المأثور . أو بصفة مخرج الدولة والاحتجاج للدعوة ، وتقييد المآثر ، إذْ لم يكن [ذلك من[٨]] عادة العجم ، ولا كان يُحفظ ذلك معروفًا لسوى العرب . ونحن نَربطها بالشعر المقفَّى ، ونصلها بحفظ الأُمِّيِّين[٩] . [الذين

٢٤ ظ

---

(١) فى اللسان : « الدبوق : لعبة يلعب بها الصبيان ، معروفة » .

(٢) الطبطاب : مضرب الكرة .

(٣) الجثمة : مانصب من الحيوان للرمى والقتل .

(٤) البرجاس : غرض فى الهواء على رأس رمح أو نحوه . الألفاظ الفارسية ١٨ . فى الأصل و م : « البرجاسب » وفى ف : « البرجاسبار » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « بالإمرة » . وانظر ٢٥ س ٩ و ٢٨ س ١٤ .

(٦) القربة : القرابة . م : « إن تكن القربة » ف « إن تكن القربى » :

(٧) م ، ف : « والمدلج الباقى » ولعلها : « والمديح الباقى » .

(٨) التكملة من سائر النسخ .

(٩) فى الأصل : « الأثر » ، صوابه من سائر النسخ . وقد سقط بعده سقط كبير ينتهى فى ص ٢٥ أثبته من سائر النسخ بين معقفين .

لا يتّكلون على الكتب المدوّنة ، والخطوط المطرّسة . ونحن أصحاب التفاخُر والتنافر ، والتنازع فى الشّرف ، والتحاكم إلى كلّ حَكم مُقنِع وكاهنٍ سَجّاع ولنا التعايُر بالمثالب ، والتفاخُر بالمناقب . ونحن أحفظ لأنسابنا ، وأرعى لحقوقنا وتقييدها أيضًا بالمنثور المرسَل ، بعد الموزون المعدَّل ، بلسانٍ أمضى من السِّنان ، وأرهفَ من السَّيف الحُسام ، حتى نذكّرهم ما قد درس رسمُه ، وعفا أثره .

وبين القتال من جهة الرغبة والرهبة فرق ، وليس المُعْرِق فى الحفاظ كمن هذا فيه حادث . وهذا بابٌ يتقدّم فيه التالد القديمُ الطارفَ الحديث .

وطُلّاب الطوائل رجلان : سجستانى وأعرابىّ . وهل أكثر النقباء إلّا من صميم العرب ، ومن صَليبة هـذا النّسب ، كأبى عبد الحميد قَحطَبة ابن شَبيب الطائى ، وأبى محمد سليمان بن كثير الخزاعى ، وأبى نصر مالك ابن الهيثم الخزاعى ، وأبى داود خالد بن إبراهيم الذُّهلىّ ، وكأبى عمرو لاهز ابن قريظ المَرَئىّ[١] ، وأبى عتيبة موسى بن كعب المَرّانى[٢] ، وأبى سهل القاسم ابن مجاشع المزنى ، ومن كان يجرى مجرى النُّقباء ولم يدخل فيهم ، مثل مالك ابن الطواف المُزَنىّ .

وبعد فمن هذا الذى باشر قتل مروان[٣] ، ومن هزمَ ابنَ هبيرة ، ومن

---

(١) نسبة إلى امرئ القيس . فهو لاهز بن قريظ بن سرى بن الكاهن بن زيد بن عصية بن امرئ القيس . جمهرة أنساب العرب ٢١٤ . قال : «كان من وجوه أهل دعوة بنى العباس» وفى الأصول : «المزنى» .

(٢) إن صح كان نسبة إلى مران بن جعفى بن سعد العشيرة . انظر جمهرة ابن حزم ٤٠٩ . والمعارف ٤٨ .

(٣) انظر ماسبق فى ص ١٨ . ويبدو أن قتل مروان بن محمد كان موضع مفاخرة بين العرب وغيرهم .

قتلَ ابن ضُبارة ، ومن قتل نُباتة بن حنظلة ، إلّا عَرَبُ الدَّعوة ، والصَّميمُ من أهل الدولة ؟! ومن فتح السِّند إلا موسى بن كعب ، ومن فتح إفريقيَّة إلّا محمد ابن الأشعث؟!

وقلت : وقال : وتقول الموالى : لنا النصيحة الخالصة ، والمحبة الراسخة ، ونحن موضع الثقة عند الشدّة . وعالُ المولى[1] من تحتُ موجبة لمحبّة المولى من فوق ، لأنّ شرف مولاه راجعٌ إليه ، وكرمه زائد فى كرمه ، وخموله مسقطٌ لقدره . وبودّه أنّ خصالَ الكرام كلَّها اجتمعت فيه ؛ لأنّه كلّما كان مولاه أكبر وأشرف وأظهر ، كان هو بها أشرفَ وأنبل . ومولاك أسلم لك صدرًا ، وأردُّ ضميرًا ، وأقلُّ حسدًا .

وبعدُ فالوَلاء لحمة كلحمة النَّسب[2] ، فقد صار لنا النسب الذى يصوّبه العربىّ ، ولنا الأصل الذى يفتخر به العجمى .

قال : والصَّبر ضروب ، فأكرمها كلها الصَّبر على إفشاء السرّ . وللمولى فى هذه المكرمة ما ليس لأحد .

ونحن أخصُّ مَدخلاً ، وألطف فى الخدمة مسلكاً . ولنا مع الطاعة والخدمة والإخلاص وحُسن النيّة ، خدمةُ الأبناء للآباء ، والآباء للأجداد ، وهم بمواليهم آنَس ، وبناحيتهم أوثق ، وبكفايتهم أسَرّ .

وقد كان المنصور ، ومحمد بن على ، وعلى بن عبد الله ، يخصُّون مواليَهم بالمؤاكلة والبسط والإيناس ، لا يُبهرجون الأسْوَدَ لسواده[3] ، ولا الدميم

---

(١) م : « الموتى » ، وكذا بعض أصول ن .

(٢) انظر ماسبق فى ١٢ س ٧ .

(٣) بهرج الشىء : أبطله وأهدره . والمراد أنهم لايضعون من قدره .

لدمامته ، ولا الصناعةَ الدنيئة لدناءتها . ويوصون بحفظهم أكابرَ أولادهم ، ويجعلون لكثيرٍ من موتاهم الصلاةَ على جنائزهم ، وذلك بحضرة من العمومة وبنى الأعمام والأخوة .

ويتذاكرون إكرام رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثةَ مولاه ، حينَ عقدَ له يومَ مؤتة على جِلّة بنى هاشم ، وجَعَله أميرَ كلّ بلدةٍ يطؤها[1] .

ويتذاكرون حبّه لأسامة بن زيد ، وهو الحِبُّ ابنُ الحِبِّ[2] . وعقد له على عظماء المهاجرين وأكابر الأنصار .

ويتذاكرون صنيعه بسائر مواليـــه ، كأبى أنسة[3] ، وشُقران[4] ، وفلان وفلان .

قالوا : ولنا من رءوس النقباء أبو منصور مولى خزاعة ، وأبو الحكم عيسى بن أعْيَن مولى خزاعة ، وأبو النجم عمران بن إسماعيل مولى آل

---

(١) أى يدخلها ويفتحها .

(٢) العثمانية للجاحظ ١٤٧ ، وقد وقع هناك تحريف فى الطبع .

(٣) اختلف فى اسمه فقيل أنسة أيضا كما فى الإصابة ٢٨٥ . وكان حبشيا كما فى جوامع السيرة لابن حزم ١١٤ وكان يأذن على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومات فى خلافة أبى بكر .

(٤) شقران يقال كان اسمه صالح بن عدى ، وكان حبشيا أهداه عبد الرحمن بن عوف لرسول الله . الإصابة ٣٩١١ . وهو أحد من ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبره . جوامع السيرة ٢٦٥ . وذكر ابن هشام فى السيرة ١٠١٨ أنه تولى صب الماء عليه فى غسله .

أبى مُعَيط . فلنا مناقب الخراسانية ، ولنا مناقب الموالى فى هذه الدعوة ، ونحن منهم وإليهم ، ومن أنفسهم ، لا يدفع ذلك مسلمٌ ولا ينكره مؤمن ، خدمْناهم كباراً وحملناهم على عواتقنا صغاراً . هذا مع حقّ الرّضاع والخؤولة ، والنشوء فى الكُتّاب ، والتقلُّب فى تلك العِراص التى لم يبلغْها إلاّ كلُّ سعيدِ الجَدّ ، وجيهٍ فى الملوك . فقد شاركْنا العربىَّ فى فخرِه ، والخراسانىَّ فى مجده ، والبَنَوىَّ فى فضله ، ثم تفرَّدْنا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سبَقونا إليه .

قالوا : ونحن أشكل بالرعيّة ، وأقرب إلى طِباع الدّهماء ؛ وهم بنا آنَس وإلينا أسكن ، وإلى لقائنا أحنُّ ؛ ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطف ، وبهم أشبَه . فمَنْ أحقُّ بالأثرة ، وأولى بحُسن المنزلة ممّن هذه الخصالُ له ، وهذه الخلالُ فيه .

وقلت وذكرت أن البَنَوىَّ قال :

أنا أصلى خراسان ، وهى مَخرج الدّولة ومَطلع الدّعوة ؛ ومنها نَجَم هذا القرن ، وصبأ هذا الناب[١] ، وتفجّر هذا اليَنبوع ، واستفاض هذا البحر ، حتى ضَرب الحقُّ بجرانه[٢] ، وطبّق الآفاقَ بضيائه ، فأبرأ من السُّقم القديم ، وشفى من الداء العُضال ، وأغنى مِن العَيْلة[٣] ، وبصّر من العمى[٤]] .

---

(١) صبأ الناب : طلع حده وخرج .

(٢) ضرب بجرانه : استقر وثبت . وأصل الجران باطن عنق البعير ، فإذا برك البعير واستقر قيل : ألقى جرانه . وفى حديث عائشة أيضاً : « حتى ضرب الحق بجرانه » .

(٣) أى بعد العيلة وهى الفقر .

(٤) هنا ينتهى السقط الذى بدأ فى ص ٢١ ، وأثبته من سائر النسخ .

قال : وفرعى بغدادُ ، وهى مستقرُّ الخلافة ، والقرار بعد الحَوْلة[١] ، وفيها بقيّة رجال الدعوة ، وأبناء الشِّيعة ، وهى خُراسانُ العراق ، وبيت الخلافة ، وموضع المادّة .

قال : وأنا أعْرقُ فى هذا الأمر مِن أبى ، وأكثر تردادًا فيه من جدّى[٢] ، وأحقُّ فى هذا الفَضْل[٣] من المَوْلى والعربىّ . ولنا بعدُ فى أنفسنا ما لا يُنكَر من الصَّبر تحت ظِلال السُّيوف القصار والرِّماح الطوال[٤] . [ولنا معانقة الأبطال عند تحطُّم القنا وانقطاع الصفائح[٥] . ولنا المواجأة بالسكاكين ، وتلقِّى الخناجر بالعيون ، ونحن حُماة المستاحَ ، وأبناء المَضايق . ونحن أهل الثبات عند الجولة ، والمعرفة عند الحَيْرة[٦] ، وأصحاب المشهَّرات ، وزينةُ العساكر وحُلَى الجيوش ، ومَن يمشى فى الرُّمح ، ويختال بين الصَّفَّين . ونحن أصحاب الفتك والإقدام ، ولنا بعدُ التسلُّقُ ، ونَقْب المدُن ، والتقحُّم على ظُبات السُّيوف وأطرافِ الرِّماح ، ورضخ الجندل ، وهشْم العُمد ، والصبرُ على الجراح وعلى جرِّ السِّلاح[٧] إذا طار قلبُ الأعرابىّ ، وساء ظنُّ الخُراسانىّ . ثم الصَّبرُ تحت العقوبة ، والاحتجاج عند المساءلة ، واجتماع العقل ، وصحّة

---

(١) الحولة ، بالحاء المهملة المفتوحة : التحول والتنقل .

(٢) فى الأصل و ن ، س : « وأكثر ترددا من جدى » ، وأثبت ما فى م ، ف .

(٣) ج ، ف : « وأحق بهذا الفضل »

(٤) بعده سقط فى الأصل ، تمامه فى ص ٢٨ س ٩ .

(٥) الصفائح : جمع صفيحة ، وهى السيف العريض .

(٦) ج وبعض أصول ن : « الخيرة » ، وفى سائر النسخ : « الخبرة » ، والوجه ما أثبت .

(٧) يقال أجرّه الرمح ، إذا طعنه به فمشى وهو يجره .

الطَّرْف ، وثباتُ القدمين ، وقلّة التكفّي بحبل العُقابين[١] ، والبعد من الإقرار[٢] ، وقلّة الخضوع للدهر والخضوع عند جفوة الزوّار[٣] وجفاء الأقارب والإخوان .

ولنا القتالُ عند أبواب الخنادق ، ورءوسِ القناطر . ونحن الموتُ الأحمر عند أبواب النُّقب . ولنا المواجأة في الأزقّة ، والصّبر على قتال السُّجون . فسَلْ عن ذلك الخُلَيْديّة[٤] ، والكتفية ، والبلالية ، والخريبية[٥] . ونحن أصحاب المكابدات[٦] وأرباب البيات ، وقتل الناسِ جِهاراً في الأسواق والطُّرقات .

ونحن نجمع بين السّلّة والمزاحفة[٧] . ونحن أصحاب القنا الطّوال ما كنّا رَجّالة ، والمَطاردِ القصارِ ما كنّا فُرساناً[٨] . فإن صرنا كُمُناً[٩] فالحَتْف

---

(١) التكفي : التميل والتقلب . والعقابان : خشبتان يشبح بينهما الرجل فيجلد . اللسان (عقب) وجنى الجنتين ٨٠ .

(٢) ف فقط : « من الفرار » . والمراد الإقرار بالذال .

(٣) في معظم الأصول : « حفوة » . بالحاء المهملة ، والوجه ما أثبت .

(٤) طائفة منسوبون إلى خليد ، وجاء في البخلاء ٤٢ – ٤٣ : « سل عن الكتيفية والخليدية والخريبية والبلالية » . ويبدو أنهم طوائف من أهل الشغب والفوضى .

(٥) الخريبية : نسبة إلى الخريبة ، بالتصغير ، وهي موضع بالبصرة ، يبدو أنه كان مأوى للشطار .

(٦) هذا ما في ف . وفي سائر الأصول : « المكابرات » .

(٧) السلة : الدفعة في السباق إحضاراً .

(٨) المطارد ، جمع مطرد بالكسر ، وهو الرمح القصير .

(٩) جمع كمين ، وهم الذين يكمنون ويختفون في الحرب .

القاضى ، والسمِّ الذُّعاف . وإنْ كنّا طلائعَ فكأنّا يقوم مقامَ أميرِ الجيش ؛ نقاتل بالليل كما نقاتل بالنّهار ، ونقاتل فى الماء كما نقاتل على الأرض ، ونقاتل فى القرية كما نقاتل فى المحلّة .

ونحن أفتك وأخشب[1] ، ونحن أقطع للطّريق وأذكر فى الثُّغور ، مع حُسن القُدود وجَودة الخرط ومقادير اللِّحَى ، وحُسن العِمّة ، والنفس المُرّة . وأصحابُ الباطل والفتوّة[2] ، ثم الخطّ والكتابة ، والفقه والرِّواية .

ولنا بغدادُ بأسرها ، تسكن ما سكنّا ، وتتحرّك ما تحرّكنا . والدُّنيا كلُّها معلَّقة بها ، وصائرة إلى معناها . فإذا كان هذا أمرَها وقدرها فجميع الدُّنيا تبعٌ لها[3]] . وكذلك أهلُها لأهلها ، وفُتّاكها لفتّاكها ، وخُلّاعها لخُلّاعها[4] ، ورؤساؤها لرؤسائها ، وصلحاؤها لصلحائها .

ونحن بعدُ تربيةُ الخلفاء ، وجيران الوُزَراء ، ووُلِدنا فى أفنية مُلوكنا ، ونحن أجنحةُ خلفائنا ، فأخذْنا بآثارهم ، واحتذَينا على مثالهم ، فلسنا نَعرف سواهم ، ولا نُعرف بغيرهم ، ولا يطمع فينا أحدٌ قطُّ من خُطّاب مُلكهم ، وممن يترشَّح للاعتراض عليهم . فمَنْ أحقُّ بالأَثَرة ، وأولى بالقُرب فى المنزلة مِمَّن هذه الخصالُ فيه ، وهذه الخلالُ له .

---

(١) أى أشد خشونة وغلاظة .

(٢) كلمة « الباطل » ساقطة من ف .

(٣) هنا ينتهى سقط الأصل الذى بدأ فى ص ٢٦ س ٦ وإثباته من سائر النسخ .

(٤) كذا فى جميع النسخ .

بسم الله الرحمن الرحيم

إنْ ذهبْنا حفظك الله بِعَقب هذه الاحتجاجات ، وعندَ مقطع هذه الاستدلالات ، نستعمل هذه المعارضةَ[١] بمناقب الأتراك ، والموازنة بين خصالهم وخصال كلٍّ صنف من هذه الأصناف ، سلكنا فى هذا الكتاب سبيلَ أصحابِ الخصومات فى كُتُبِهم ، وطريقَ أصحاب الأهواء فى الاختلاف الذى بينَهم .

وكتابُنا هذا إنّما تكلَّفناه لنؤلِّف بين قلوبهم التى كانت مختلفة ، ولنزيد الأُلفة إن كانت مؤتلفة ، ولنُخبِر عن اتِّفاق أسبابهم لتجتمع كلمتُهم ، ولتسلم صدورهم ، وليعرِفَ من كان لا يعرف منهم موضعَ التفاوُت فى النسب ، وكم مقدارُ الخلاف فى الحسب[٢] ، فلا يُغيِّر بعضهم مغيِّر ، ولا يفسدَهُ عدوٌّ بأباطيلَ مموّهة وشُبهات مزوّرة ؛ فإنّ المنافق العليم ، والعدوَّ ذا الكيد العظيم ، قد يصوِّر لهم الباطل فى صورة الحقّ ، ويُلبِس الإضاعةَ ثياب الحَزْم . إلا أنَّ على حال سنذكر جُملاً من أحاديثَ رويناها ووعيناها ، وأُمورٍ رأيناها وشاهدناها ، وفضائلَ تلقَّفْنَاها[٣] من أفواه الرجال وسمعناها .

١ ، ٢٥

وسنذكر جميع ما فى هذه الأصناف[٤] من الآلات والأدوات ، ثم ننظر أيُّهم لها أشدُّ استعمالاً ، وبها أشدُّ استقلالاً ، ومَن أثقبُ كَيسا وأفتح عيناً

---

(١) ما عدا الأصل وبعض أصول ن : « المفاوضة » ، والوجه ما أثبت .

(٢) م ، ف : « كم مقدار » بدون واو .

(٣) فى الأصل : « تلقناها » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .

(٤) فى سائر النسخ : « ما حفظ لجميع الأصناف » .

وأذكى يقيناً ، وأبعدُ غوراً وأجمع أمراً ، وأعمُّ خواطرَ وأكثر غرائبَ ، وأبدع طريقاً ، وأدوَمُ نفعاً فى الحروب ،وأضْرَى وأدربُ دُربةً ، وأغمضُ مكيدةً[١] ، وأشدُّ احتراساً وألطفُ احتيالاً ؛ حتّى يكون الخيار فى يد الناظر المتصفِّح لمعانيه ، والمقلِّب لوجُوهه ، والمفكِّر فى أبوابه ، والمقابِل بين أوّله وآخرِه ، فلا نكون نحن انتحلنا شيئاً دون شىء ، وتقلَّدنا تفضيلَ بعضٍ على بعض ، بل [لعلّنا أن لا[٢]]نُخبرَ عن خاصّة ما عِندنا بحرف واحدٍ .

فإذا دبَّرنا كتابَنا هذا التدبيرَ ، وكان موضوعُه على هذه الصِّفة ، كان أبعدَ له من مذاهبِ الجدال والمِراء ، واستعمالِ الهوى .

وقد ظنَّ ناسٌ أنَّ أسماءَ أصناف الأجناس كما اختلفت فى الصُّورة والخطِّ والهجاء ، أن حقائقها[٣] ومعانيَها على حَسَب ذلك . وليس الأمرُ على حسب ما توهَّمَه ؛ ألا ترى أنَّ اسمَ الشَّاكريّة[٤] وإن خالفَ فى الصُّورة والهجاء اسمَ الجُنْد ، فإنَّ المعنى فيهما ليس ببعيدٍ ؛ لأنَّهم يرجعون إلى معنًى واحد وعمل واحد . والذى إليه يرجعون طاعةُ الخلفاء ، وتأييد السلطان .

وإذا كان المولى منقولاً إلى العرب فى أكثر المعانى ، ومجعولاً منهم فى عامّة

---

(١) بعده فى الأصل: «وأبدع طريقاً وأدوم نفعاً فى الحروب» ، وهو تكرار .

(٢) التكملة من سائر النسخ .

(٣) ج ، ف : « كانت حقائقها » .

(٤) الشاكرية : ضرب من الجنود . وفى القاموس : « الشاكرى : الأجير المستخدم ، معرب چاكر » . وانظر الحيوان ٢ : ١٣٠ .

الأسباب ، لم يكن ذلك بأعجبَ ممّنْ جعَلَ الخالَ والدًا ، والحليفَ من الصَّميم ، وابنَ الأخت من القوم .

وقد جُعِل ابنُ الملاعَنة[١] المولودُ على فراشِ البعل منسوبًا إلى أمِّه .

وقد جعلوا إسماعيلَ وهو ابن عجميَّين عربيًّا ؛ لأنَّ الله تعالى فتق لَهاتَه بالعربيَّة المُبينة على غير التلقين والترتيب ، ثمَّ فطره على الفصاحة العجيبة على غير النشوِّ والتَّقدير[٢] ، وسلخَ طِباعه من طبائع العجم ، ونقَلَ إلى بدنه تلك الأجزاء ، [وركّبه اختراعا[٣]] على ذلك التركيب ، وسوّاه تلك التسوية ، وصاغَه تلك الصِّياغة[٤] ، ثم حباهُ من طبائعهم ، ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم ، وطبَعَه من كرمهم وأنفَتِهم وهممهم عَلَى أكرمِها وأمكنها ، وأشرفها وأعلاها ، وجعلَ ذلك برهانًا على رسالته ، ودليلًا على نبوّته ؛ فكان أحقَّ بذلك النَّسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب .

وكما جُعِل إبراهيمُ أبًا لمن لم يلده ، فالبَنَوِيُّ خُراسانيٌّ من جهة الولادة ، والمولى عربيٌّ من جهة المدَّعَى والعاقلة[٥] . وإنْ أحاطَ علمنا بأنَّ زيدًا لم يخلق من نَجْل عمرو إلّا عِيارًا لنفيناه عنه[٦] ، وإن وثِقْنا[٧] أنّه لم يخلق من صُلبه .

---

(١) الملاعنة : أن يقذف الرجل امرأته برجل أنه زنى بها .

(٢) وكذا فى بعض أصول ن ، وفى سائر النسخ : « والتمرين » .

(٣) التكملة من سائر النسخ .

(٤) وكذا فى بعض أصول ن . وفى سائر النسخ : « الصيغة » .

(٥) انظر ماسبق فى ص ١٢ الحاشية ٣ .

(٦) فى الأصل وبعض أصول ن : « إلا بما هو ألحقناه به » .

(٧) وكذا فى بعض أصول ن ، وفى سائر النسخ : « وإن أيقنا » .

وكما جعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم أزواجَه أمَّهات المؤمنين وهنَّ لم يلدنَهم ولا أرضعنَهم ، وفي بعض القراءات[١] : ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ﴾ ، على قوله : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ[٢]﴾ . وجَعل المرأة من جهة الرَّضاع أمًّا ، وجَعل [امرأة] البعل أمَّ ولد البعل من غيرها ، [وجعلَ] الرابَّ والدًا ، وجعل العمَّ أبًا [في كتاب الله[٣]] . وهم عبيدُه لا يتقلَّبون إلَّا فيما قلَّبهم فيه . وله أن يجعل من عباده مَن شاء عربيًّا ومن شاء عجميًّا ، ومن شاء قرشيًّا ، ومن شاء زِنجيًّا ؛ كما له أن يجعل من شاء ذكراً ومن شاء أنثى ، [ومن شاء خنثى[٤]] ، ومن شاء أفردَه من ذلك فجعَله لا ذكراً ولا أنثى ولا خُنثى .

وكذلك خَلق الملائكةَ وهم أكرمُ على الله من جميع الخليقة . وخلقَ آدمَ فلم يجعل له أبًا ولا أمًّا ، وخلقه من طينٍ ونسبه إليه ، وخلق حوَّاء من ضِلع آدمَ وجعلها له زوجًا وسَكَنا . وخلق عيسى من غير ذكرٍ ونسبه إلى أمّه التي خلقه منها . وخَلق الجانَّ من نار السَّموم ، وآدمَ من طينٍ ، وعيسى من غير نُطفة . وخلقَ السَّماء من دُخَان ، والأرضَ من الماء ، وخلق إسحاقَ من عاقرٍ . وأنطق عيسى في المَهْد ، وأنطق يحيى بالحكمة وهو صغير ، وعلَّم سليمانَ منطِق الطَّير ، وكلامَ النَّمل ، وعلَّم الحَفَظة من الملائكة جميعَ الألسنة حتَّى كَتبوا بكلِّ خَطّ ، ونطقوا بكلِّ لسان . وأنطقَ ذئبَ أُهبانَ بن أوس[٥] .

---

(١) هي قراءة أبي وعبد الله بن مسعود في الآية ٦ من سورة الأحزاب . تفسير أبي حيان ٧ : ٢١٢ .

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .

(٣) هذه التكملة واللتان قبلها من سائر النسخ .

(٤) التكملة من سائر النسخ .

(٥) أهبان هذا : أحد الصحابة ، ذكروا أن الذئب كلمه ثم بشره بالرسول ، =

والمؤمنون من جميع الأمم إذا دخلوا الجنّة ، وكذلك أطفالهم والمجانينُ [منهم[1]] ، يتكلَّمون ساعةَ يدخلون الجنة بلسانِ أهل الجنّة ، على غير الترتيب والتنزيل ، والتعليم على طول الأيّام والتلقين . فكيف يتعجّب الجاهلون من إنطاق إسماعيل بالعربية على غير تعليمِ الآباء ، وتأديب الحواضن ؟ !

وهذه المسألة ربّما سأل عنها بعضُ القحطانية، ممن لا علم له، بعضَ العدنانية ، وهى على القحطانىّ أشدُّ . فأمّا جواب العدنانىّ فسلِسُ النِّظام سهلُ المخرج ، قريبُ المعنى ؛ لأنَّ بنى قَحطان لا يدّعون لقحطانَ نُبوّةً[2] فيعطيَه الله مثل هذه الأُعجوبة .

٢٦ و

وما الذى قَسَم الله ـ عزَّ اسمُه ـ بين الناس من ذلك ، إلّا كما صنع فى طِينة الأرض ، فجعل بعضَها حجراً ، وبعض الحجر ياقوتاً ، وبعضَه ذهبًا ، وبعضه نحاسًا ، وبعضه رَصاصًا ، وبعضه حديدًا ، وبعضَه ترابًا ، وبعضه فَخّارًا . وكذلك الزّاج[3] ، والمَغْرة ، والزّرنيخ ، والمَرْتك ، والكبريت[4] ، والقار[5]

= انظر تفصيل ذلك فى ثمار القلوب ٣٠٩ . وانظر كذلك الحيوان ١ : ٢٩٨ / ٣/ ٥١٣ / ٤ : ٨٠/ ٧ : ٥٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ والإصابة ٣٠٥ . فى الأصل : «لهيار» ، صوابه فى سائر النسخ والمراجع المتقدمة .

(١) التكملة من م ، ف .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « بنوم » ، تحريف .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن : « الزجاج » ، تحريف .

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن : « والطين » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٥) فى بعض أصول ن وس : « والغار » تحريف . والقار : الزفت .

والتُّوتيا ، والنُّوشادُر[١] ، والمرقَشِيثا ، والمِغناطيس .

ومَنْ يُحصى عددَ أجزاء الأرض[٢] ، وأصنافَ الفِلِزّ ؟ !

وإذا كان الأمر على ما وصَفْنا فالبَنَوىُّ خراسانىّ . وإذا كان الخراسانىُّ مولًى ، والمولَى عربىٌّ ـ فقد صار الخراسانىُّ والبَنَوىُّ والمولى والعربىُّ واحدًا

وأدنى ذلك أن يكون الذى معهم من خصال الوِفاق غامراً ما معهم من خِصال الخِلاف ، بل هم فى معظم الأمر وفى كِبْر الشّأن[٣] وعمود النَّسب متَّفقون . والأتراكُ خراسانيةٌ وموالى الُخلفاءِ قُصرةٌ[٤] ، فقد صار التركىُّ إلى الجميع راجعًا ، وصار شرفُه إلى شرفهم زائداً .

وإذا عُرِف سائرُ ذلك سامحت النُّفوس ، وذهب التَّعقيد[٥] ، وماتَ الضِّغن ، وانقطع سبب الاستثقال ؛ فلم يبقَ إلَّا التحاسُد والتَّنافسُ الذى لا يزال يكون بين المتقاربيَنِ فى القَرابة وفى المجاورة .

على أنَّ التَّوازُرَ والتسالُم[٦] فى القرابات وفى بنى الأعمامِ والعشائرِ ، أفشى وأعمُّ من البُعداء .

---

(١) انظر حواشى الحيوان ٣ : ٣٧٧ و ٥ : ٣٤٩ .

(٢) وكذا فى بعض أصول ن . وفى سائر النسخ : « جواهر الأرض » .

(٣) كبر الشأن ، بكسر الكاف وضمها : معظمه . وبهما قرئ قوله تعالى : « والذى تولى كبره منهم » .

(٤) قصرة ، بالضم ، أى أدنى إليهم ، كما يقال هو ابن عمى قصرة ، أى دانى النسب . وفى الأصل وبعض أصول ن : « نصرة » .

(٥) التعقيد كناية عن الضغينة المعقودة ، ويقولون للرجل إذا سكن غضبه : قد تحللت عقده . وفى الأصل وبعض أصول ن : « التعقل » ، تحريف .

(٦) فى الأصل وبعض أصول ن : « فإن التوازن فى الفساد » ، صوابه فى سائر النسخ .

ولخوفِ التّخاذل ولحبّ التناصُر ، والحاجةِ إلى التّعاون ـ انضمّ بعضُ القبائل فى البوادى إلى بعضٍ ، ينزلون معًا ويَظْعَنون معًا . ومن فارق أصحابَه أقلّ[1] ، [و] من نَصر ابنَ عمّه أكثر . ومَن اغتبط بنعمتِهِ وتمنَّى بقاءها والزيادة فيها أكثر ممّن بَغَاها الغوائلَ[2] ، وطلبَ انقطاعَها وزوالَها . ولا بدَّ فى أضعاف ذلك من بعض التّنافُس والتخاذُل ، إلّا أنّ ذلك قليلٌ من كثير .

وليس يجوز أن تصفُوَ الدُّنيا وتَنْقَى من الفساد والمكروه[3] حتّى يموت جميعُ الخلائق ، وتستوىَ لأهلها ، وتتمهّد لسكّانها على ما يشتهون ويهوَوْن ؛ لأن ذلك من صفة دار الجزاء ، وليس كذلك صفةُ دارِ العمل . ٢٦ ظ

---

(١) فى الأصل : « أولى » .

(٢) الغوائل : المهلكات . ويقال بغيتك الشىء : طلبته لك وتمنيته . وفى التنزيل العزيز : « يبغونكم الفتنة » ، أى يبغون لكم .

(٣) نقى الشىء ينقى : صار نقياً خالصا .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب كنتُ كتبتُه أيامَ المعتصم بالله[1] ، رضى الله عنه ، فلم يصل إليه ، لأسبابٍ يطول شرحُها ، فلذلك لم أعرِضْ للإخبار عنها . وأحبَبْتُ أن يكونَ كتاباً قَصْداً ، ومذهباً عَدْلاً ، ولا يكونَ كتابَ إسرافٍ فى مديح قوم ، وإغراقٍ فى هجاء آخرين . وإن كان الكتابُ كذلك شابَهُ الكذِب ، وخالطه التزيُّد ، وبُنى أساسُه على التكلُّف ، وخرج كلامُه مَخرجَ الاستكراه والتَّغْليق[2] .

وأنفعُ المدائح[3] للمادح وأجداها على الممدوح ، وأبقاها أثراً وأحسنُها ذكرا : أنْ يكون المديحُ صِدقاً ، وللظَّاهر[4] من حَالِ الممدوح موافقاً ، وبه لائقاً ، حتَّى لا يكونَ من المعبِّر عنه والواصفِ [له[5]] إلاَّ الإشارةُ إليه ، والتنبيهُ عليه .

وأنا أقول : إن كان لا يمكن ذلك فى مناقب الأتراكِ إلاَّ بذِكر مثالب سائر الأجناد ، فتركُ ذكرِ الجميعِ أصْوب ، والإضرابُ عن [هذا الكتاب

---

(١) بويع المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد بعد وفاة أخيه المأمون سنة ٢١٨ . وتوفى بسر من رأى سنة ٢٢٧ . وولى الخلافة بعده ولده هارون الواثق .

(٢) التغليق ، المراد به العسر ، كما يغلق الباب تغليقا . وفى جميع الأصول : «التعليق» بعين مهملة .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن : « المدح » . ولا تساوق سائر الكلام .

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن : « والظاهر » ، والوجه من سائر النسخ التى سقطت منها كلمة « من » بعدها .

(٥) التكملة من سائر النسخ ، وقد سقطت من بعض أصول ن .

أحزم ، وذكر الكثير من[1]] هذه الأصناف بالجميل[2] ، لا يقوم بالقليل[3] من ذِكر بعضِهم بالقبيح ، لأنّ ذِكر الأكثر بالجميل نافلةٌ ، وبابٌ من التطوُّع ، وذِكرَ الأقلّ بالقبيح معصية ، وبابٌ من ترك الواجب . وقليلُ الفريضة أجدَى علينا من كثير التطوُّع .

ولكلٍّ نصيبٌ من النّقص ، ومِقدارٌ من الذُّنوب ؛ وإنّما يتفاضَل النّاسُ بكثرة المحاسن وقلّة المساوى . فأمّا الاشتمال على جميع المحاسن ، والسّلامةُ من جميع المساوِى دقيقِها وجليلِها ، وظاهِرِها وخفيِّها ، فهذا لا يُعرف .

وقد قال النابغة :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلُمّه على شَعَثٍ ، أىُّ الرِّجالِ المهذَّبُ

وقال حَرِيش السّعدىّ[4] :

أخ لى كأيّام الحياةِ إخاؤه تلوّنُ ألواناً علىّ خطوبُها
إذا عبت مِنْه خَلّةً فتركتُه دعتنى إليه خَلّةٌ لا أعيبها

وقال بشّار[5] : ٢٧ و

إذا كنتَ فى كلّ الأمور معاتباً خليلَكَ لم تَلقَ الذى لا تُعاتِبُه

---

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) فى الأصل : « أجمل » ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) فى الأصل : « لا يقوم الكثير من ذكر بعضهم بالجميل بالقليل » ، وتوجيه العبارة من باقى النسخ .

(٤) فى الأصل : « مرس السعدى » ، وأثبت ما فى سائر النسخ . والبيتان بدون نسبة فى عيون الأخبار ٣ : ١٧ .

(٥) ديوان بشار ١ : ٣٠٩ وحماسة البحترى ١٠٠ وحماسة ابن الشجرى ١٤٣ والأغانى ٣ : ٤٧ والتمثيل والمحاضرة للثعالبى ٧٤ .

فعِشْ واحداً أو صِلْ أخاكَ فإنَّه مُقــارِفُ ذنبٍ مَرّةً ومُجانِبُه
إذا أنتَ لم تشرَبْ مِراراً على القذَى ظَمِيتَ وأيُّ الناس تَصفو مشاربُه

وقال مطيع بن إياسٍ اللَّيثيّ :

ولئن كنتَ لا تصاحِبُ إلاَّ صاحباً لا تزِلُّ، ما عاشَ، نعلُه
لم تجــدْه ولو جَهَدتَ وأنَّى بالذى لا يكون يُوجَد مثلُه
إنَّما صاحبي الذى يَغفِر الذَّنـ ـبَ ويكفيــه من أخيــه أقلُّه

وقال محمد بن سعيد[1] ، وهو رجل من الجُنْد :

سأشكر عَمراً إن تراخَتْ مَنِيَّتِي أيادىَ لم تُمنَن وإنْ هى جَلَّتِ
فتًى غير محجوب الغِنى عن صديقه
ولا مُظهِرِ الشَّــكوى إذا النعلُ زَلَّتِ
رأى خَلَّتى من حيثُ يَخفَى مكانُها فكانت قَذَى عينَيهِ حتّى تجلَّتِ

---

(١) فى معجم الشعراء للمرزبانى ٤٢١ أنه محمد بن سعد الكاتب التميمى ، وأنه شاعر بغدادى . وقيل الشعر لأبى الأسود الدؤلى وكان عند عمرو بن سعيد بن العاص فبينا هو يحدث إذ ظهر كم قميصه من تحت جبته وبه خرق ، فلما انصرف بعث إليه بعشرة آلاف درهم ومائة ثوب ، فقال هذا الشعر . وقيل الشعر لعبد الله بن الزبير الأسدى ، وأنه أتى عمر بن أبان بن عثمان فسأله فأعطاه . اللآلى ١٦٦ . ونسب إلى إبراهيم بن العباس الصولى فى مجموعة المعانى ٩٦ ومعجم الأدباء ٥ : ٢٥٨ مرجليوث وابن خلكان ٢ : ٢٤٧ . وقيل لعمرو بن كميل يمدح عمرو بن ذكوان وكان قد رآه وعليه جبة بلا قميص فتشفع له حتى ولى الحرب بالبصرة ، فأصاب فى ولايته مالا عظيما . أو هو رجل من أشراف المدينة أنعم عليه عمرو بن سعيد بن العاص وكان قد ظهر كم قميصه من تحت جبته . شرح التبريزى للحماسة . والأبيات بدون نسبة فى الحماسة ١٥٨٩ بشرح المرزوقى وحماسة البحترى ١٥٩ والكامل ١٢٣ .

فإذا كان الخلطاء[١] من جمهور الناس، وأصحابُ المعايش من دَهْماء الجماعة، يرون ذلك واجباً وتدبيراً فى التعامل، على ما هم فيه من مشاركة الخطأ الصواب، وامتزاج الضَّعف بالقوّة، فلسنا نشكُّ أنّ الإمامَ الأكبرَ والرَّئيس الأعظم، مع الأعراق الكريمة والأخلاق الرفيعة، والتَّمام فى الحلم والعلم، والكمال فى الحزم والعَزْم، مع التمكين والقُدرة، والفَضيلةِ والرِّياسة [والسيادة[٢]]، والخصائص التى معه من التَّوفيق والعِصمة، والتأييد وحسن المعونة، أنّ الله[٣] جلّ اسمه لم يكن ليجلّله باسم الخلافة، ويحبوه بتاج الإمامة، وبأعظم نعمةٍ وأسبغها، وأفضل كرامةٍ وأسناها، ثم وصَلَ طاعته بطاعته، ومعصيتَه بمعصيته، إلّا ومعه من الحلم فى موضع الحلم، والعفو فى موضع العفو، والتَّغافل فى موضع التَّغافل، مالا يبلغه فضلُ ذى فضل، ولا حِلمُ ذى حلم.

ونحن قائلون، ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا بالله، فيما انتهى إلينا فى أمر الأتراك:

زعم محمّدُ بنُ الجهم، وثُمامةُ بن أشرَس، والقاسمُ بن سيّار، فى جماعةٍ ممن يَغشَى دارَ الخلافة، وهى دار العامّة[٤]، قالوا جميعا: ٢٧ ظ

بينا حُميد بنُ عبد الحميد جالسًا ومعه بخشاد الصُّغدىّ[٥]، وأبو شجاع

---

(١) فى الأصل وبعض أصول ن: « الخطاء »، صوابه فى سائر النسخ.

(٢) التكملة من سائر النسخ.

(٣) فى الأصل، وبعض أصول ن: «وأن الله»، وفى سائر النسخ: «لم يكن الله».

(٤) ف فقط: « الإمامة ».

(٥) ن، س: « بخشاد » ج، ف: « إخشيد الصغدى ».

[شبيب[١]] بن بُخاراخداى البَلْخىّ ، ويحيى بن معاذ ، ورجال من المعدودين المتقدّمين فى العلم بالحرب [من أصحاب التجارب والمراس ، وطول المعالجة والمعاناة[١]] فى صناعات الحرب[٢] ، إذ خرج رسولُ المأمون فقال لهم : نقول لكم متفرِّقين[٣] ومُجتمِعين : ليكتبْ كُلُّ رجلٍ منكم دعواه وحجته ، وليقُلْ أيُّما أحبُّ إلى [كلٍّ[٤]] قائدٍ منكم إذا كان فى عُدَّته من صحبه وثِقاته : أنْ يَلقَى مائةَ تركىٍّ أو مائةَ خارجىٍّ ؟ فقال القوم جميعًا : [لأنْ[٥]] نلقَى مائة تركىٍّ أحبُّ إلينا من أن نَلقى مائة خارجىّ ! وحُميدٌ[٦] ساكت .

فلما فرغ القومُ [جميعًا] من حُجَجهم[٧] ، قال الرّسولُ : قد قال القوم فقُلْ

---

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) فى سائر النسخ : « بصناعة الحرب » . وكذا فى بعض أصول ن .

(٣) فى سائر النسخ وبعض أصول ن : « مفترقين » .

(٤) التكملة من سائر النسخ .

(٥) التكملة من ف فقط .

(٦) هو أبو غانم حميد بن عبد الحميد الطوسى ، أحد أمراء الدولة العباسية وقوادها وأجوادها ، وهو أحد من وطد الخلافة للمأمون بهزيمته لإبراهيم بن المهدى. وكان لأبى العتاهية وعلى بن جبلة وأبى تمام فيه مدائح . كما رثاه أبو تمام ورثى بنيه محمداً وقحطبة وأبا نصر بقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وقد قتل بشربة صنعها له جبريل بن بختيشوع سنة ٢١٠ . الأغانى ١٩ : ١٠٠ – ١١٤ والطبرى ٩ : ٢٤٥ – ٢٥٤ وأسماء المغتالين من نوادر المخطوطات ٢ : ١٩٩ – ٢٠٠ .

(٧) فى الأصل وبعض أصول ن : « حجتهم » ، وأثبت ما فى سائر النسخ . وكلمة « جميعاً » قبله تكملة من ف وبعض أصول ن .

واكتبْ قولَك ، وليكن حجّةً لك أو عليك . قال : بل ألقَى مائة خارجىٍّ أحبُّ إلىَّ ؛ لأنّنى وجدت الخصالَ التى يَفضُل بها الخارجىُّ جميعَ المقاتلة غيرَ تامّةٍ فى الخارجىّ ، ووجدتُها تامّةً فى التُّركى . فَفَضْل التركىِّ على الخارجىّ بقَدْر فضل الخارجىِّ على سائر المقاتِلة ، ثمّ بانَ التركىُّ عن الخارجىّ بأمورٍ ليس فيها للخارجىِّ دعوى ولا متعلّق . على أن هذه الأمورَ التى بان بها التركىُّ عن الخارجىّ ، أعظمُ خطراً وأكثر نفعا ، ممّا شاركه الخارجىُّ فى بعضها[١] .

ثم قال حُميد : والخصال التى يَصُولُ بها الخارجىُّ على سائر الناس صِدق الشّدّة عن أوّلِ وهلة ، وهى الدّفعة التى يَبلُغون بها ما أرادوا ، وينالون الذى أمّلوا[٢] .

والثانية : الصّبر على الخبب وعلى طول السُّرى ، حتّى يُصبِح القومُ [الذين مَرقوا بهم[٣]] غارّين[٤] فيهجموا عليهم وهم بسوء[٥] ، ولحمٌ على وضَم[٦] ، يتعجّلونهم عن الرّوِيّة ، وعن ردّ النفس عن النّزوة والجولة ؛ لايظنّون أنّ أحدًا يقطع فى ذلك المقدارِ من الزّمان ذلك المقدارَ من البِلاد .

---

(١) ج ، ف : « فى بعضه » .

(٢) ج ، ف : « وينالون بها ما أملوا » .

(٣) التكملة من سائر النسخ . والمروق : المرور بسرعة ، كما يمرق السهم من الرمية .

(٤) غارّين : غافلين .

(٥) ج ، ف وبعض أصول ن : « بشر » .

(٦) الوضم : جمع وضمة ، وهوكل شىء يوضع عليه الخشب من خشب أو حصير يوقى به الأرض . واللحم على الوضم مثل للضعف وعدم الامتناع .

والثالثة : أنَّ الخارجيَّ موصوفٌ عند[١] الناس بأنّه إن طَلَبَ أدرَكَ ، وإن طُلِبَ فات .

والرابعة : خِفَّة الأزواد وقلّة الأمتعة ، وأنّها تجنُب الخيلَ[٢] وتركبُ البغال ، وإن احتاجت أمسَتْ بأرضٍ وأصبحَتْ بأُخْرى ، وأنَّهم قوم حين خَرجُوا لم يخلِّفوا الأموالَ الكثيرة ، والجِنَانَ الملتفَّة ، والدُّور المشيَّدة ، ولا ضياعًا ولا مُستَغَلَّات ، ولا جواريَ مطهَّمات[٣] ، و [أنهم[٤]] لا سَلَب لهم ولا مالَ معهم فيرغبَ الجندُ في لقائهم ، وإنَّما هم كالطَّير لا تدَّخر ولا تهتمّ لغدٍ ، ولها في كلِّ أرضٍ من المياه والأقوات ما تتبلَّغ به[٥] ، وإن لم تجد ذلك في بعض البلاد فأجنِحتُها تُقرِّب لها البعيد ، وتسهِّل لها الحزون . وكذلك الخوارج لا يمتنع عليهم القِرَى والمَطعَم ، وإنْ تمنَّع عليهم ففي بنات شَحَّاج وبنات صَهَّال[٦] ، وخفَّة الأثقال على طُول الخَبَب ، ما يسهِّل أقواتها ، ويكثِّر من أرزاقها .

٢٨ و

---

(١) وكذا في بعض أصول ن . وفي سائر النسخ : « بعد » .

(٢) أي تقودها إلى جنب البغال . والضمير للخوارج .

(٣) المطهم من الناس والخيل : الحسن التام كل شيء منه على حدته ، فهو بارع الجمال .

(٤) التكملة من ج ، ف وبعض أصول ن .

(٥) ج ، ف وبعض أصول ن : « من المياه والبزور ما يقوتها » .

(٦) بنات شحاج ، هي البغال ، لأنها تشحج بصوتها . وبنات صهال ، هي الأفراس ، فللفرس صهيل . ويقال بنات شاحج أيضاً . وبنات صهال لم ترد في اللسان ولا القاموس ، ولكن وردت في المزهر ١ : ٥٢٥ .

والخامسة : أن الملوك إنْ أرسَلوا إليهم أعدادهم ليكونوا فى خفّة أوزارهم[١] وأثقالهم ، وليقوَوْا على التنقُّل كقوّتهم ، لم يقوَوْا عليهم ؛ لأنّ مائةً من الجند لا يقومون لمائة من الخوارج ؛ وإن كثَّفوا الجيشَ بالجيش ، وضاعفوا العدد [بالعَدد[٢]] ثقُلوا عن طلبهم ، وعن الفَوْت إن طلبهم عدوُّهم . ومتى شاء الخارجىُّ أن يقرب منهم ليتطرّفهم[٣] أو ليصيب الغِرّةَ منهم ، أو ليسلُبَهم ، فَعَل ذلك ثقةً بأنّه يغنم عند الفرصة[٤] ورؤية العَورة ، ويمكنه الهربُ عند الخوف . وإنْ شاء كبسَهم ليقطع نظامَهم ، أو ليقتطِع[٥] القطعةَ منهم .

قال حُميد : فهذه هى مَفاخرُهم وخصالهم ، التى لها كرِه القُوّاد لقاءَهم .

قال قاسم بن سيّار : وخَصلة أُخرى ، وهى التى رعَبت القلوبَ وخَلَعتْها ، ونقضت العزائم وفسختْها ، وهو ما تسمع الأجنادُ ومقاتِلة العوامّ ، مِن ضرب المثَل بالخوارج ، كقول الشاعر :

إذا ما البخيـــلُ والمحاذِر للقِرى
رأى الضَّيفَ مثـــل الأزرقىِّ المجفِّفِ[٦]

(١) الأوزار : جمع وزر بالكسر ، وهو الحمل الثقيل . ف ، ج وبعض أصول ن : « أزوادهم » ، وهو جمع زاد .

(٢) التكملة من سائر الأصول .

(٣) التطرف : الإغارة من حول العسكر .

(٤) فى الأصل : «وليعلم ذلك فانه يغنم عن الفرصة» ، وصوابه من سائر النسخ .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « ليقطع » .

(٦) المجفف : الذى جفف فرسه بالتجفاف ، وهو ما جلل به من سلاح وآلة تقيه الجراح .

وكقول الآخر :

وقَلْبِ ودٍّ حالَ عن عَهدِهِ والسَّيفُ ينبو بيــدِ الشّارى

وكقول الآخر :

لقاء الأُسدِ أهونُ من لِقاهُ إذا التحكيم يسهر بالأصــيلِ

فهذه زيادة قاسم بن سيّار .

فأمّا حُميد فإنّه قال :

الشّدّةُ الأولى التركىُّ فيها أحمد [أثراً ، وأجمع[1]] أمراً ، وأحكم شأناً ؛

٢٨ ظ لأنَّ التركىَّ من أجْلِ أن تَصدُقَ شَدّتُه ويتمكّن عزمُه ، ولا يكونَ مشترَكَ العزم ولا منقسِم الخواطر ، قد عوّد بِرذونَه ألّا ينثنى وإنْ ثناه ، أن يملأ فروجَه[2] للأمر يديره مرّةً أو مرّتين ، وإلّا فإنّه لا يدع سَنَنه ، ولا يَقطع ركضه . وإنّما أراد التركىُّ أن يوئس نفسَه من البَدَوات[3] ، ومن أن يعتريه التكذيبُ بعد الاعتزام ، لهَوْل [اللقاء[4]] ، وحبِّ الحياة ؛ لأنّه إذا علِم أنه قد صيَّر بِرذَونَه إلى هذه الغاية حتّى لا ينثنىَ ولا يُجيبه إلى التصرُّف معه إلّا بأنْ يصنع شيئاً بين الصَّفّينِ فيه عطبُه ، لم يُقدِم على الشّدّة إلّا بعد إحكام الأمر ، والبصر

---

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) الفروج : مابين قوائم الفرس ، وملؤها كناية عن الإسراع وشدة العدو حتى لاتكاد تبدو .

(٣) البدوات : الخطرات والآراء تبدو وتظهر .

(٤) موضع هذه الكلمة بياض فى الأصل ، وإثباته من سائر النسخ . وفى الأصل : « لطول » ، تحريف .

بالعورة[١] . وإنّما يريد أن يُشبّه نفسه بالمُحرَج الذى إذا رأى أشدَّ القتال[٢] لم يَدعْ جُهدا ولم يدّخر حِيلة ، ولينفىَ عن قلبه خواطرَ الفِرار ، ودواعىَ الرُّجوع .

وقال : الخارجىُّ عند الشَّدَّة إنّما يعتمد على الطِّعان ، والأتراك تطعن طعنَ الخوارج ، وإن شدَّ منهم ألفُ فارسٍ فرَموا رِشْقاً واحداً صرعوا ألفَ فارس ، فما بقاء جيشٍ على هذا النّوع من الشِّدَّة !

والخوارج والأعراب ليست لهم رِمايةٌ مذكورة على ظهور الخيل ، والتركىُّ يرمى الوحشَ والطَّير، والبُرجاس[٣] ، والنّاسَ[٤] ، والمجثَّمة ، والمُثُلَ الموضوعة ، ويَرمِى وقد ملأ فُروجَ دابّته مُدبِراً ومُقبلاً ، ويَمْنةً ويَسرة ، وصُعُدا وسُفْلا ، ويرمى بعشرة أسهم قبل أن يُفوِّق الخارجىُّ سهماً واحداً[٥] ، ويركض دابّتَه منحدراً من جَبَل ، أو مستفِلاً إلى بطن واد بأكثرَ مما يمكن الخارجىَّ على بَسيط الأرض .

وللتركىِّ أربعة أعين[٦] : عينان فى وَجْهه ، وعينان فى قفاه . وللخارجىِّ

---

(١) فى الأصل : « والنظر إلى العودة » وكذا فى بعض أصول ن ، والصواب من سائر النسخ .

(٢) فى الأصل : « إذا آثر القتال » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٣) سبق تفسيره فى ص ٢١ .

(٤) انظر ما سيأتى فى ص ٤٨ س ٦ و ٥٩ س ٢ .

(٥) فوق السهم : جعل له فوقا ، والفوق بالضم : موضع الوتر من السهم ، والمراد وضع السهم فى الفوق .

(٦) كذا بتأنيث الأربعة مع العين المؤنثة ، وهو وجه جائز فى العربية مذكور فى المطولات . انظر الصبان ٤ : ٦٢ حيث ذكر ابن هشام أن ما كان لفظه مذكراً ومعناه مؤنثا ، أو بالعكس ، فإنه يجوز فيه وجهان.

عيبٌ فى مُستدبَر الحرب ، وللخراسانىّ عيبٌ فى مُستقبَل الحرب . فعيب الخراسانيّة أنَّ لها جَولة عند أوّل الالتقاء(١) ، وإن ركبوا [كُسْأهم(٢)] كانت هزيمتهم ، وكثيراً ما يَثُوبون ، وذاك [بعد(٣)] الخِطار بالعسكر ، وإطماع العدوّ فى الشدّة .

والخوارج إذا ولَّوْا فقد ولَّوْا وليس لهم بعد الفرّ كرّ ، إلَّا ما لا يُعَدّ . والتركىُّ ليست له جولةُ الخراسانىّ ، وإذا أدبَرَ فهو السمُّ الناقع ، والحَتْف القاضى ؛ لأنه يصيب بسهمه وهو مدبرٌ كما يصيب به وهو مُقْبل ، ولا يُؤمَن وَهَقه(٤) ، ولا انتسافُ الفَرَس(٥) ، واختطافُ الفارس بتلك الرَّكضة .

٢٩ و ولم يفْلت من الوَهَق فى جميع الدّهر إلّا المهلَّب بن أبى صُفرة ، والحَرِيش ابن هلال(٦) ، وعبّاد بن الحُصَين(٧) . وربَّما رَمى بالوهَق وله فيه تدبير آخر

---

(١) فى الأصل : « بين أول الالتقاء » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٢) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ ما عدا ف ، ففيها : « أكساءهم » بالجمع . ويقال ركب كسأه : وقع على قفاه ، والمراد أدبروا وتقهقروا . وكسء كل شىء : مؤخره . (٣) إثباتها من سائر النسخ .

(٤) الوهق ، بالتحريك : حبل شديد الفتل يرمى وفيه أنشوطة ، فتؤخذ فيه الدابة والإنسان ، وجمعه أوهاق . والكلام بعده إلى كلمة « المرمى » ساقط من ج ، ف ، وبعض أصول ن .

(٥) انتسف الشىء : اقتلعه . قال أبو النجم :

وانتسف الجالب من أندابه إغباطنا الميس على أصلابه

(٦) فى الاشتقاق ٢٥٧ : « الحريش بن هلال بن قدامة ، كان من فرسان بنى تميم ، وله أيام بخراسان مشهورة » .

(٧) هو عباد بن الحصين بن يزيد التميمى ، كان شجاعا رئيساً . جمهرة ابن حزم ٢١٣ والاشتقاق ٢٠٢ والبيان ٤ : ٣٦ .

وإن لم يَجْنُبِ المرميَّ معه ، يوهم الجاهلَ أنّ ذلك إنما كان لخُرق التُّركى[١] ، أو لحِذْق المرميّ .

قال : وهم علّموا الفُرسانَ حَمل قوسَين وثلاثة قِسِىّ ، ومن الأوتار على حسبِ ذلك .

قال : والتركىُّ فى حال شدّته ، معَه كلُّ شىء يحتاج إليه لنفسه وسلاحه ودابّته وأداة دابَّته . فأمّا الصَّبر على الخَبَبِ وعلى مواصلة السَّفر ، وعلى طُول السُّرى وقَطعِ البلاد ، فعجيبٌ جداً .

فواحدةٌ : أنّ فرسَ الخارجىِّ لا يصبر صَبر بِرذَون التُّركىّ .

والخارجىُّ لا يُحسِن أن يعالج فرسَه إلّا معالجَةَ الفُرسان لخيولهم ، والتُّركى أحذق من البيطار ، وأجود تقويماً لبِرْذونه على ما يريده من الرّاضَة[٢] [وهو استنتجَه[٣]] ، وهو ربّاه فِلوّا ، وتتبّعه إنْ سماه[٤] ، وإنْ ركضَ ركض خلفه . وقد عوّده ذلك حتّى عرفه ، كما يعرف الفرس أقدِمْ[٥] ،

---

(١) فى الأصل : «لحذق» صوابه فى ن ، س. والخرق ، بالضم: الجهل والحمق، ونقيض الرفق .

(٢) الراضة : جمع رائض . وهو من يروض الدابة ويسوسها ويذللها . وفى الأصل وبعض أصول ن :« الرياضة » ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من النسخ .

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن : « وثبته » ، صوابه من سائر النسخ .

(٥) أقدم : زجر للفرس ، وكذا اقدم . ومثله اجدَم وهجدَم ، كلها زجر للفرس . فى معظم النسخ : « اجدم » بالجيم ، وهذه بوصل الهمزة وفتح الدال .

والنَّاقة حَلْ[1] ، والجمل جاهِ ، والبغل عَدَسْ ، والحمار ساسا ، وكما يعرف المجنون لقبَه والصبيُّ اسْمه .

ولو حصّلت عُمر التركيِّ وحَسبت أيامه لوجدتَ جلوسَه على ظهر دابَّته أكثرَ من جلوسه على ظهر الأرض . والتركيُّ يركب فَحلا أو رَمَكة ، ويَخرج غازِيًا أو مسافراً ، أو متباعداً فى طلب صيدٍ ، أو سببٍ من الأسباب ، فتتبعه الرَّمَكة وأفلاؤها ، إن أعياه اصطيادُ الناس اصطاد الوحش ، وإن أخفقَ منها أو احتاج إلى طعامٍ فَصَدَ دابّةً من دوابِّه ، وإن عَطِش حَلب رَمَكةَ من رِماكه ، وإن أراح واحدةً تحتَه ركب أخرى من غير أن ينزل إلى الأرض . وليس فى الأرض أحدٌ إلّا وبدنه ينتقض على اقتيات اللّحم وحدَه غيرُه ؛ وكذلك دابّته تكتفى بالعَنقَر[2] والعُشب والشّجر، لا يظلُّها من شمس ولا يكنُّها من برد .

قال: وأما الصّبر على الخَبَب فإنّ الثّغرِيّين،[3] والفُرانقيّين[4]، والخُصيان والخوارجَ ، لو اجتمعت قواهم فى شخصٍ واحد لما وفَوْا بتركيٍّ واحد[5] .

---

(١) ويقال : « حلى » أيضاً كما فى بعض النسخ . وقال أبو النجم :

* وقد حدوناها بحوب وحل *

(٢) العنقر ، بضم العين والقاف : أصل البقل والقصب والبردى مادام أبيض مجتمعاً . فى الأصل : « بالعقر » ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) الثغريون : نسبة إلى الثغر ، وهو واحد ثغور الشام ، ومن أشهر مدنه أنطاكية وبغراس والمصيصة ، وأصل أهلها من الروم .

(٤) نسبة إلى الفرانق ، يعنى بهم عمال البريد . ويبدو أنهم كانوا من غير العرب. والفرانق : الذى يدل صاحب البريد على الطريق ، معرب « پرْوانك » .

(٥) يقال وفى الشىء الشىء ووفى به : عادله . وفى الأصل وبعض أصول ن : « لم يوفوا » ، تحريف .

والتركىُّ لا يبقى معه على طول الغاية إلّا الصَّميمُ من دوابّه[1] . [و] الذى يقتُله التركىُّ بإتعابه له ، وبنفيه[2] عند غَزاته ، هو الذى لا يَصبِر معه فرس الخارجىّ ، ولا يبْقى معه كُلُّ بِرذَونٍ بُخارىّ[3] . ولو ساير خارجيًّا لاستفرغَ وُسْعَه قبل أن يبلغ الخارجىُّ عَفوَه[4] .

٢٩ ظ

والتُّركى هو الراعى ، وهو السائس وهو الرائض ، وهو النَّخَّاس ، وهو البَيطار ، وهو الفارس . والتركىُّ الواحدُ أمّةٌ على حِدة .

قال : وإذا سار التركىُّ فى غير عَساكر الترك ، فسار القومُ عَشْرَةَ أميالٍ سار عشرين مِيلا ؛ لأنه ينقطع عن العسكر يَمنةً ويَسرة ، ويُسرع فى ذُرى الجبال ، ويَستبطِن قُعور الأودية فى طلب الصَّيد ؛ وهو فى ذلك يرمى [كُلَّ[5]] ما دبَّ ودَرَج ، وطارَ ووقع .

قال : والتركىُّ لم يَسِر فى العساكر سَيرَ النّاسِ قطُّ ، ولا سارَ مستقيمًا قطُّ .

قالوا : وإذا طالت الدُّلْجة واشتدَّ السير ، وبَعُد المنزل ، وانتصف النَّهار ، واشتدَّ التَّعب ، وشغَلَ الناسَ الكَلالُ[6] ، وصَمَت المتسايرون فلم ينطقوا ،

---

(١) الصميم : الخالص المحض . فى الأصل : « الاطول الصميم » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) فى بعض أصول ن : « ويبقيه » .

(٣) نسبة إلى بخارى . وفى بعض أصول ن : « تخارى » .

(٤) العفو : ما يجىء بسهولة وبغير كلفة . فى سائر النسخ : « لاستفرغ جهده » .

(٥) التكملة من سائر النسخ .

(٦) الكلال : التعب والإعياء . ج ، ف وبعض أصول ن : « الكلام » ، تحريف

وقطعهم ماهم فيه عن التشاغل بالحديث ، وتفسَّخ كلُّ شيء من شدة الحرّ ، وخمد كلُّ شيء من شدَّة البرد[١] ، وتمنَّى كلُّ جليدِ القوى على طُول السُّرى[٢] أنْ تُطوَى له الأرض ، وكلَّما رأى خيالًا أو أبصر عَلَمًا[٣] سُرَّ به واستبشر ، وظنَّ أنَّه قد بلغ المنزل ؛ فإذا بلغه الفارس نزلَ وهو متفحِّجٌ[٤] كأنَّه صبيٌّ مَحقون ، يئنُّ أنينَ المريض ، ويستريح إلى التثاؤب ، ويتداوى مما به بالتمطِّى والتضجُّع . وترى التركىَّ فى تلك الحال وقد سار ضعفَ ما ساروا وقد أتعب مَنكِبَيه كثرةُ النَّزْع[٥] ، يرى قُربَ المنزلِ عَيْرًا[٦] أو ظبيًا ، أو عرَض له ثَعلبٌ أو أرنب ، فيركضُ ركضَ مبتدئٍ مستأنِف ، كأنَّ الذى سار ذلك السَّيرَ وتعب ذلك التَّعبَ غيرُه .

وإنْ بلغ الناسُ واديًا فازدحموا على مَسالِكه أو [على[٧]] قنطرته ، بطَن بِرذونَه فأقحمَه[٨] ثم طلَع من الجانب الآخَر كأنَّه كوكب . وإن انتهَوْا إلى عَقَبَةٍ صَعبةٍ ترَكَ السَّنَنَ[٩] وذهب فى الجبل صُعُدًا ، ثم تدلَّى من موضعٍ يَعجِز

---

(١) ج ، ف : « وتفسخ كل شيء من شدة البرد » فقط .

(٢) ف فقط : « قوى على طول السرى » .

(٣) أبصر ، من الأصل فقط . وفى الأصل : « عطاء » موضع « علما » ، صوابه من باقى النسخ .

(٤) متفحج : قد فتح ما بين رجليه .

(٥) النزع فى القوس : مد وترها للرمى بسهامها .

(٦) فى الأصل وبعض أصول ن : « عنزا » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٧) التكملة من سائر النسخ .

(٨) بطنه بطنا : ضرب بطنه .

(٩) السنن : نهج الطريق ومحجته . فى الأصل ، ف: « السير » ، صوابه فى سائر النسخ .

عنه الوجِل ؛ وأنت تحسبه مخاطراً بنفسه ، للذى تَرَى من مُطّلعه . ولو كان
فى كلّ ذلك مخاطراً لما دامت له السلامة مع تتابعِ ذلك منه .

٣١ و قال : ويفخر الخارجىُّ بأنّه إذا طَلب أدرَك ، وإذا طُلِب لم يُدرَك .
والتركىُّ ليس يُحوَج إلى أنْ يفوت ؛ لأنه لا يُطلب ولا يُرام . ومَن يروم
[ما لا يُطمع فيه] ؟ !

فهذا . على أنّا قد علمنا أنّ العـلّة التى عمّت الخوارجَ بالنّجدة استواء
حالاتهم فى الدِّيانة ، واعتقادُهم أنّ القتال دِين ؛ لأنّنا حين وجدنا السِّجستانىَّ
والخراسانى والجَزَرىَّ واليمامىَّ والمغرِبىَّ والعُمانىَّ ، والأزرقىَّ منهم والنَّجْدىَّ(١)
والإباضىَّ والصُّفْرىَّ ، والمولى والعربىّ ، والعجمىَّ والأعرابىّ ، والعبيـد
والنِّساء ، والحائك والفَـلّاح ، كلُّهم يقاتل مع اختلاف الأنساب وتباين
البلدان(٢) ــ علمْنا أنّ الدِّيانة هى التى سوّتْ بينهم ، ووفّقت بينهم فى ذلك .
كما أنّ كلّ حجّامٍ فى الأرض من أىّ جنسٍ كان ، ومن أى بلدٍ كان، فهو يحبُّ

---

(١) نسبة إلى نجدة بن عامر ــ وقيل عاصم ــ الحنفى . وهم النجدات أيضاً . وكان نجدة ممن خرج مع ابن الزبير ثم فارقه هو ونافع بن الأزرق من الخوارج ، فصار نافع إلى البصرة ، ونجدة إلى اليمامة . وذلك فى سنة ٦٤ . الملل والنحل ١ : ١٦٥ والطبرى ٧ : ٥٦ ــ ٥٧٠ . ثم صار إلى الطائف ثم إلى البحرين ، ووجه إليه مصعب الزبير بخيل بعد خيل فهزمهم ، وظل خمس سنوات هو وعماله بالبحرين واليمامة وعمان وهجر والعرض ، ثم نقم عليه الخوارج فخلعوه بعد أن كان يسمى أمير المؤمنين ، وأقاموا أبا فديك مكانه سنة ٧٣ وقتل نجدة فى تلك السنة . الطبرى ٧ : ١٩٤ . وانظر أيضاً الفرق بين الفرق ٦٧ والمواقف ٦٢٩ .

(٢) فى الأصل : « وسائر البلدان » ، صوابه من سائر النسخ .

النَّبيذ ، وكما أنَّ أصحاب الخُلقان[١] والسَّماكين والنَّخَّاسين والحاكة فى كلِّ بلد من كلِّ جنس ، شِرارُ خلق الله فى المبايعة والمعاملة . فعلمنا بذلك أنَّ ذلك خِلْقة فى هذه الصناعات ، وبِنْيَةٌ فى هذه التِّجارات ، حين صاروا من بين جميع الناس كذلك .

قال : ورأينا التركىَّ فى بلاده ليس يقاتل على دينٍ ولا على تأويل ، ولا على مُلْك ولا على خَراج ، ولا على عصبيّةٍ ولا على غَيرةٍ دونَ الحُرمة والمَحْرَم[٢] ، ولا على حَمِيّة ولا على عَداوة ، ولا على وطنٍ ومنع دارٍ ولا مال ؛ وإنَّما يقاتل على السَّلب والخيارُ فى يده . وليس يخاف الوعيدَ إن هرب ، ولا يرجو الوَعْدَ إنْ أبلَى عذرا . وكذلك هم فى بلادهم وغاراتهم وحروبهم . وهو الطالب غير المطلوب ؛ ومن كان كذلك فإنَّما يأخذ العفْو من قُوّته ، ولا يحتاج إلى [مجهوده[٣]] . ثم هو مع ذلك لا يقُوم له شىء ولا يَطمع فيه أحد ، فما ظنُّك بمن هذه صفته أنْ لو اضطرَّه إحراجٌ أو غَيْرةٌ أو غَضَب أو تديُّن ، أو عَرَضَ له بعضُ ما يَصحبُ المقاتِلَ المحامىَ من العلل والأسباب .

قال : وقناة الخارجىّ طويلة صَمّاء ، وقناة التُّركىّ مِطرَدٌ أجوف[٤] . والقُنىُّ المجوَّفة القِصار أشدُّ طعنةً وأخفُّ فى الحمل . والعجم تجعل القُنىَّ

---

(١) يراد بهم من يبيعون الخلقان من الثياب ، جمع خلق ، وهو البالى . انظر الحيوان ٢ : ١٠٥ .

(٢) أى على غيرة على حرمته ومحرمه . فى الأصل وبعض أصول ن: «غير ذلك» صوابه فى سائر النسخ .

(٣) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من ب .

(٤) المطرد : رمح قصير .

الطِّوالَ للرَّجّالة ، وهى قُنِىّ الأبناء[1] ، على أبواب الخنادقِ والمضايق . ٣٠ ظ
والأبناء فى هذا الباب لا يَجرُون مع الأتراك والخُراسانيّة ؛ لأنّ الغالبَ على الأبناء المطاعنةُ على أبواب الخنادق وفى المضايق ، وهؤلاء أصحابُ الخَيل والفرسانُ وعلى الخيل والفُرسانِ تدور الجُيوش ، لهم الكَرُّ والفرُّ . والفارس هو الذى يَطوِى الجيش طىَّ السجلّ ، ويفرِّقهم تفريق الشعر . وليس يكون الكَمِينُ إلّا منهم ولا الطَّليعة ولا السَّاقة[2] . وهم أصحابُ الأيّام المذكورة والحروبِ الكِبار والفُتوح العظام[3] ، ولا تكون المقانب والكتائب إلّا منهم . ومنهم من يحمل البُنودَ والرّايات ، والطُّبول والتجافيف[4] والأجراس . وهم أصحاب الصَّهيل والقَتام[5] ، وزجْرِ الخيل ، وقعقعةِ الريح فى الثّياب[6]

---

(١) الأبناء ، قوم من الفرس أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن لما جاء يستنجده على الحبشة ، فنصروه وملكوا اليمن وتديّروها ، وتزوجوا فى العرب فقيل لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم ، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم . اللسان (بنو) . وفى التنبيه والإشراف ٢٢٦ أنهم الذين ساروا مع خرزاذ بن نرسى ابن جاماسب أخى قباذ بن فيروز . وفى ص ٤٢١ أنهم الذين شخصوا مع وهرز إلى اليمن . ويبدو أن جميع الذين اجتذبتهم الحروب من الفرس إلى جزيرة العرب كان العرب يسمونهم الأبناء .

(٢) كذا فى الأصل وبعض أصول ن . وفى ب : « وليس يكون الكمين ولا الطليعة ولا الساقة إلا الكبار منهم » .

(٣) الكلام بعده إلى موضع التنبيه فى ص ٦٥ لم يرد فى ج ، ف . وسأنبه على ذلك فى موضعه .

(٤) جمع تجفاف ، بكسر التاء وفتحها ، وهو ما يوضع على الخيل من حديد وسلاح يقيه الجراح فى الحروب .

(٥) القتام : الغبار . وفى الأصل وبعض أصول ن : « القيام » .

(٦) فى الأصل : « ثياب » مع بياض بعدها ، وأثبت ما فى ن ، س .

والسِّلاح ووقع الحوافر، والإدراك إذا طَلَبوا، والغَوْث إذا طُلِبوا. ولم يجعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم للفارس سهمين وللراجل من المقاتلة سهماً واحداً إلّا لتضاعيف الردّ في القتل والفُتوح، والنُّهبة والمغانم[١].

ثم قال: ولعمرى إنّ للأبناء من القتال في السِّكك والسُّجون[٢] والمَضَايق ما ليس لغيرهم. ولكن الرَّجّالة أبداً أتباعٌ ومأمورون ومنقادون، وقائد الرَّجّالة لا يكون [إلّا[٣]] فارساً، وقائد الفُرسان من الممتنع أن يكون راجِلاً. ومَن تعوَّدَ الطِّعانَ والضَّرب والرميَ راكباً إن اضطُرَّ إلى الطَّعن والضَّرب والرمي راجلاً كان على ذاك أدفعَ عن نفسه، وأردَّ عن أصحابه، من الراجل إذا احتاج أن يستعملَ سلاحَه فارساً. وعلى أنّه ما أكثَرَ ما ينزلون ويقاتلون. وقد قال الشاعر[٤]:

لم يُطِيقوا أن ينزلوا ونَزَلْنا وأخو الحرب مَن أطاقَ النُّزولا

وقال الضَّبّيّ[٥]:

* وعَلامَ أركبُهُ إذا لم أنزِلِ[٦] *

---

(١) الرد: النفع. والنهبة، بالضم الغنيمة، كالنهبى. وفى الأصل: «الهيبة»، صوابه فى ن، س.

(٢) وكذا سبق فى ص ٢٧ س ٦.

(٣) تكملة ضرورية.

(٤) هو مهلهل، كما فى الأغانى ٤: ١٤٩ وشروح سقط الزند ٦٦ والخزانة ٢: ٣٠٥. وانظر ما قيل فى النزول فى هذا الموضع من الخزانة.

(٥) هو ربيعة بن مقروم الضبي. الحماسة ص ٦٢ بشرح المرزوقى والخزانة ٢: ٣٠٥.

(٦) صدره: فدعوا نزال فكنت أول نازل

وقال آخر :

* فمعانقٌ ومنـــازلٌ(١) *

وقال حُمَيد : وليس فى الأرض قومٌ إلّا والتّساندُ فى الحروب ، والاشتراك فى الرِّياسة ضارٌّ لهم ، إلّا الأتراك . على أنَّ الأتراك لا يتساندون ولا يتشاركون ؛ وذلك أنَّ الذى يُكره من المساندة والمشاركة اختلافُ الرأى ، والتنافُس فى السِّرّ(٢) ، والتحاسد بين الأشكال ، والتواكل فيما بين المشتركين .

٣١ و

والأتراكُ إذا صافُّوا جيشاً إن(٣) كان فى القوم موضعُ عورةٍ فكلُّهم قد أبصرَها وعرَفها ؛ وإن لم تكن هناك عورةٌ ولم يكن فيهم مطمع ، وكان الرأىُ الانصرافَ ، فكلُّهم قد رأى ذلك الرأىَ وعرفَ الصوابَ فيه . وخواطرهم واحدة ، ودواعيهم مستوية بإقبالهم معاً . وليس هم أصحابَ تأويلاتٍ ولا أصحابَ تفاخر وتناشد ، وإنَّما شأنهم إحكام أمرِهم؛ فالاختلاف يقلُّ بينهم .

وكانت الفُرس تعيب العرب إذا خرجو إلى الحرب متساندين ، وكانت تقول : الاشتراك فى الحرب وفى الزَّوجة وفى الإمْرة سواء .

قال حُمَيد : فما ظنُّك بقومٍ إذا تساندُوا لم يضرَّهم التَّساند ، فكيف يكونون إذا تحاسدوا .

---

(١) لم أهتد إلى بقيته ولا إلى قائله .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « السير » .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن : « وإن » ، والواو مقحمة .

فلما انتهى الخبر إلى المأمون(١) قال : ليست بالتُّرك حاجةٌ إلى حكم حاكم بعد حُمَيد ؛ فإنّ حُميداً قد مارسَ الفريقين ، وحُميد خُراسانىٌّ وحُميد عربىٌّ ، فليس للتُّهمَة عليه طريق .

قالوا : وأتى الخبرُ ذا اليمينين(٢) طاهرَ بن الحسين فقال : ما أحسنَ ما قال حُميد . أمَا إنه لم يقصّر ولم يفرِّط .

فهذا قول الخليفة المأمون ، وحُكم حُميد ، وتصويبُ طاهرٍ .

وخبّرنى رجلٌ من أهل خراسان أو من بنى سَدوس قال : سمعت أبا البطّ يقول : ويلكم ، كيف أصنع بفارسٍ يملأ فروج دابّته منحدراً من جَبَل ، أو مُصْعِداً فى مقطعٍ عَفِير ، ويمكنه على ظهر الفَرس مالا يمكن الرقّاص الأُبُلِّىّ(٣) على ظهر الأرض .

قال : وقال سعيد بن عُقْبة بن سَلْم الهُنائىّ(٤) ، وكان ذا رأىٍ فى الحرب وابنَ ذى رأىٍ فيها(٥) : فَرقُ ما بيننا وبين التُّرك أن التُّرك لم تغزُ قوماً قطّ ،

---

(١) كلمة « الخبر » ساقطة من ن ، س .

(٢) قالوا : سمى بذلك لأنه ضرب شخصا بالسيف فى وقعته مع على بن ماهان ، فقدّه نصفين ، وكانت الضربة بيساره . ولد طاهر سنة ١٥٩ وتوفى سنة ٢٠٧ . وفيات الأعيان وثمار القلوب ٢٠٧ .

(٣) نسبة إلى الأبلة ، وهى بلدة على شاطئ دجلة ، وفيها يقول الأصمعى : جنان الدنيا ثلاث : غوطة دمشق ، ونهر بلخ ، ونهر الأبلة .

(٤) نسبة إلى بنى هناءة بن مالك بن فهم بن دوس . الاشتقاق ٤٩٨ وجمهرة ابن حزم ٣٨٠ حيث ذكر عقبة بن سلم .

(٥) كان عقبة بن سلم والد سعيد والياً للمنصور على البحرين والبصرة .

ولا صافّت جيشاً ولا هجمتْ على عدو كانوا عرباً أو عجماً ، فأخرَجوا إليهم أعدادَهم ولقُوهم بمثلهم . وليس غايتهم إلّا أن ينقادوا ليكفُّوا عنهم بأسَهم ومَعرّتَهم[١] ، ويصرفوا عنهم كيدهم . فإن هم امتنعوا من الصُّلح واعتزموا على الحرب فليس شأنهم والذى يدور عليه أمرهم إلّا منْعَ أنفسِهم وتحصينَ عسكرهم ، والاحتراسَ منهم . فأمّا أن ترقى هِمَمُهم وتسمو أنفسُهم إلى الاحتيال عليهم ، والتماس غِرّتهم ، فإنّ هذا شىء لا يخطُر على بالِ من يحاربهم .

٣١ ظ

ثم قال : وقد عرفتم حيلَهم فى دخول المُدن من جهة حِيطانها المُصْمَتة العريضة ، وحيلتَهم فى عبور نهر بَلْخ .

وسعيدٌ هذا هو الذى قال : إذا حاربتم وكنتم ثلاثةً فاجعلوا واحداً مددا ، وآخرَ كمينا . وله كلامٌ فى الحرب غير هذا كثير .

قال سعيد : وأخبرنى أبى قال : شهدت أبا الخطّاب يزيد بن قَتادة ابن دِعامة الفقيهِ[٢] ، وذكر قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى التُّرك حيث قال : « عَدوٌّ شديدٌ طلَبُه ، قليلٌ سلَبُه » ، فقال رجلٌ من العاليَة : نهى عمرُ[٣] أبا زُبيدٍ الطائىَّ عن وصف الأسد ؛ لأنّ ذلك ممّا يزيد فى رُعب

---

(١) المعرة : الشدة والأذى فى الحرب .

(٢) ليس الفقيه يزيد ، بل أبوه قتادة هو الفقيه . وهو قتادة بن دعامة السدوسى ، وكنيته أبو الخطاب أيضاً . ولد سنة ٦١ وتوفى سنة ١١٧ . تهذيب التهذيب ووفيات الأعيان ونكت الهميان ٢٣٠ . وقد ذكر الجاحظ قتادة فى مواضع كثيرة من الحيوان والبيان .

(٣) كذا . والمعروف أن عثمان بن عفان هو الذى نهاه . انظر طبقات ابن سلام ٥١٠ و الأغانى ١١ : ٢٤ والخزانة ٢ : ١٥٥ .

الجبان ، وفى هَول الجَنان ، ويُقلُّ من رَغَب الشُّجاع[١] ، وقد وُصِف التُّرك بأشدَّ من وصف أبى زُبيدٍ الأسد .

وقال سعيد فى حديثه يومئذ ، وقد قطعتْ شِرذِمةٌ منهم بلادَ أبى خزيمة - يُريدُ حمزةَ[٢] بن أدركَ الخارجىَّ - وما والى خُراسانَ [فى] بعض الأمر ، وحَمزةُ فى مُعظَم الناس ، فقال لأصحابه : أفرِجوا لهم ما تركوكم ، ولا تتعرَّضوا لهم ؛ فإنّه قد قيل : « تاركوهم ما تاركوكم » .

فهذا قول سعيد بن عقبة ورأيُه وحديثه ؛ وهو عربىٌّ خُراسانى .

وذكر يزيد بن مَزْيد الوقْعة التى قَتل فيها يولبا[٣] التركىُّ الوليدَ بن طريفٍ[٤] الخارجىَّ ، فقال فى بعض ما يصف من شأن التُّرك : ليس لبدن التُّركى على

---

(١) الرغَب : الرغبة والطمع والحرص .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « يزيد بن حمزة » تحريف . وأبو خزيمة كنية حمزة . وفى البيان ٤ : ٢٥ عند الكلام على الكنية بأبى خزيمة : « وهذه الكنية كنية زرارة بن عدس ، وكنية خازم بن خزيمة ، وكنية حمزة بن أدرك » . وفى الطبرى ١٠ : ٦٥ وابن الأثير ٦ : ٥٣ : « حمزة بن أترك » وما هنا يطابق البيان والملل والنحل ١ : ١٧٤ . وكان حمزة صاحب فرقة من فرق العجاردة من الخوارج ، خرج فى أيام هارون الرشيد سنة ١٧٩ بسجستان وخراسان ومكران وقهستان ، وهزم الجيوش الكبيرة ، وبقى الناس فى فتنته إلى أن مضى صدر من أيام خلافة المأمون ، ودارت بينه وبين طاهر بن الحسين وعبد الرحمن النيسابورى حروب انتهت بموت حمزة . وانظر المواقف ٦٣٠ والفرق بين الفرق ٧٦ والاعتقادات للرازى ٤٨ .

(٣) أهمل نقط الحرف الأول فى الأصل وبعض أصول ن .

(٤) هذا نص نادر ، فإن الضربة التى أصيب بها الوليد بن طريف لم يعين =

ظهر الدابّة ثِقل ، ولا لمشيه على الأرض وَقْع ، وإنّه ليرى وهو مدبرٌ ما لا يرى الفارسُ منّا وهو مُقبل . وهو يرى الفارسَ منا صَيدًا ويعدُّ نفسَه فَهْدا ، ويعُدُّه ظبياً[1] ويعدُّ نفسَه كلبا . والله لو رُمِيَ به فى قعرِ بئر مكتوفا لما أعجزَتْه الحيلة ؟ ولولا أنَّ أعمار عامّتهم تقصُر دُون الجَبَل – يعنى جَبَل حُلوان – ثم همُّوا بنا ، لألقَوا لنا شُغْلاً طويلاً .

وأنشد رجلٌ من أصحابه :

هَبِ الدنيا تُسَاقُ إليك عفـوًا   أليس مصيرُ ذاكَ إلى زَوَالِ

قال : أمّا التُركى فَلَأَن ينالَ الكَفافَ غَصبًا أحبُّ إليه من أن ينال المُلْك عفواً . ولم يَتهنَّ تُركىٌّ بطعامٍ إلّا أن يكون صيداً أو مغنما ، ولا يُعَزُّ[2] على ظَهر دابّته طالباً كان أو مطلوبا . ٣٢ و

وقال ثُمامة بن أشرس ، وكان مثلَ محمّدِ بن الجهم فى كثرة ذِكره للتُّرك . قال ثمامة : التركىُّ لا يخاف إلّا مَخُوفا ولا يَطمع فى غير مطمع ، ولا يكفُّه عن الطّلب إلّا اليأسُ صِرفا ، ولا يدع القليلَ حتّى يصيب أكثَرَ منه ، وإنْ قدر أن يجمعهما لم يفرِّط فى واحدٍ منهما . والباب الذى لا يُحسنه لا يُحسن منه شيئاً ،

ـــــــــــــــ

= ضاربها المؤرخون . انظر ابن الأثير ٦ : ٥١ فى حوادث ١٧٩ وكذا الأغانى ١١ : ٩ . وقد ذكر ابن الأثير وأبو الفرج والطبرى ١٠ : ٦٥ أن يزيد بن مزيد هو الذى احتز رأسه بعد ما أصيب . وفى ذلك تقول أخت الوليد ليلى بنت طريف ، أو الفارعة :

فإن يك أرداه يزيد بن مزيد   فيارُبَّ خيـل فضها وصفوفِ

وانظر الأمالى ٢ : ٢٧٤ واللآلىء ٩١٣ ووفيات الأعيان ٢ : ١٧٩ .

(١) أى يعد الفارس منا ظبيا جديراً بالقنص . وفى الأصل وبعض أصول ن : « ونعده » .

(٢) أى لا يغلب . فى الأصل و ن : « ولا يغر » . وفى س : « ولا يفر » .

والباب الذى يُحسنه قد أحكمه بأَسره وأَمرّه[١] وخفيُّه عنده كظاهره[٢] ، ولا يتشاغل بشىء ليس فيه شىء ، ولا على نفسه من شىء[٣] . فلولا أن يُجِمَّ نفسَه بالنَّوم لما نام ، على أنَّ نومَه مشوبٌ باليقَظة ، ويقظتَه سليمة من الوَسْنة . ولو كان فى شِقِّهم أنبياء ، وفى أرضهم حُكماء ، وكانت هذه الخواطرُ قد مرّتْ على قلوبهم ، وقَرَعَت أسماعَهم[٤] ، لأنْسَوكَ أدب البصريِّينَ ، وحِكمة اليونانيِّين ، وصَنعةَ أهلِ الصِّين .

وقال ثمامة : عَرضَ لنا فى طريق خُراسانَ تركىٌّ ومعنا قائد يصولُ بنفسه ورجاله ، وبيننا وبين التركىِّ وادٍ ، فسأله أن يبارزه فارسٌ من القوم ، فأخرج له رجلًا لم أر قطُّ أكمَلَ منه ، ولا أحسنَ تمامًا وقَوامًا منه ، فاحتال حتّى عبر إليهم الفارس ، فتَجاوَلا ساعةً ، ولا نظنُّ إلّا أنَّ صاحبنا يَفِى بأضعافه ، وهو فى ذلك يتباعد عنّا . فبينا هما فى ذلك إذْ ولَّى عنه التُّركى كالهاربِ منه ، وفَعل ذلك فى موضعٍ ظننَّا أنَّ صاحبنا قد ظهر عليه ، وأتبعه الفارسُ لا نشكُّ إلّا أنّه سيأتينا برأسه ، أو يأتينا به مجنوباً إلى فرسه ، [فلم نشعر[٥]] إلّا وصاحبُنا قد أفاتَ عن فرسه وغاب عنه ، فنزل التركىُّ إليه فأخذ سَلبَه وقتلهُ ، ثم عارض فرسَهُ فجنبه إليه معه .

---

(١) أمره إمرارا : أحكمه ووثقه توثيقاً .

(٢) فى الأصل و ن : « وأمره عنده خفيه كظاهره » . والوجه ما أثبت من س .

(٣) صححت فى ن ، س بزيادة « يخاف » بعد كلمة «لا» .

(٤) هذا هو الصواب ، وعدلت فى ن ، س إلى : « وفرغت لها أسماعهم » ، وليس مايدعو إلى ذلك ، وما أثبت من الأصل أوفق وأعلى .

(٥) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من ن ، س .

قال ثمامة : ثم رأيتُ بعد ذلك التركىَّ قد جِيءَ به أسيراً إلى دار الفضل ابن سهل ، فقلت له : كيفَ صنعتَ يومئذ ، وكيف طاولتَه ثمَّ علاكَ ثم وليت عنه هاربا ثم قتلته ؟ قال : أمَا إنّى لو شئت أن أقتله حين عبَرَ ؛ وقد كانَ مقتلُه بارزاً لى ، ولكنّى احتلتُ عليه حتّى نحّيته عن أصحابه لأجوِّزه ، فلا يُحَالَ بينى وبين فرسِه وسَلَبه . ٣٢ ظ

قال ثمامة : وإذا هو يُديرِ الفارسَ من سائر الناس ويُريغُه كيف شاء وأحبَّ(١) .

قال ثمامة : وقد غَبرتُ فى أيديهم أسيراً فما رأيتُ كإكرامهم وتُحفهم وألطافهم .

فهذا ثمامةُ بن أشرَس ، وهو عربىٌّ لا يُتَّهم فى الإخبار عنهم .

وأنا أُخبرك أنّى قد رأيتُ منهم شيئاً عجيباً وأمراً غريبا : رأيت فى بعض غَزَوات المأمون سِماطَىْ خيلٍ على جَنْبتى الطَّريق بقُرب المنزل ، مائة فارسٍ من الأتراك فى الجانب الأيمن ، ومائةٌ من سائر الناس فى الجانب الأيسر ، وإذا هم قد اصطفُّوا ينتظرون مجىءَ المأمونِ ، وقد انتصفَ النّهارُ واشتدَّ الحر . فورد عليهم وجَمعُ الأتراك(٢) جلوسٌ على ظُهور خيولهم إلّا ثلاثة أو أربعة ، وجميع تلك الأخلاطِ من الجند قد رَمَوْا بنفوسهم إلى الأرض إلّا ثلاثةً أو أربعة . فقلت

---

(١) أراغه : أراده وطلبه . وعلى الأمر : أداره عليه . وأنشدوا :

يديرونى عن سالم وأريغـه وجلدة بين العين والأنف سالم

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « وجميع » .

لصاحبٍ لى : انظر أىَّ شىء اتَّفق لنا . أشهد أنَّ المعتصمَ كان أعرفَ بهم حين جَمَعهم واصطنعهم .

وأردتُ مرّةً القاطُولَ — وهى المباركة — وأنا خارجٌ من بغداد ، وأرى فوارسَ من أهل خراسان والأبناء وغيرهم من أصناف الجند ، قد عارَ لهم فرس[1] ، وهم على خيلٍ عتاق يُريغونه فلا يقدرون على أخْذه ، ومرّ تركىٌّ ولم يكنْ من ذوى هيئاتهم وذوى القدرِ منهم ، وهو على بِرذونٍ له خسيس ، وهم على الخيول المطهَّمة ، فاعترضَ الفرسَ اعتراضًا ، وقتله قتلا وَحِيًّا[2] ؛ وأتاه مَن زجَره بشىء ، فوقف أولئك الجندُ وصارُوا نَظّارة ، فقال بعضهم ممن كان يُزرِى على ذلك التركىّ : هذا وأبيك التكلُّف والتعرُّض : أنّ فرسًا قد أعجزهم وهم أشْد البلاد ، وجاء هذا مع قِصَر قامته وضَعْف دابّته ، فطمِعَ أن يأخذه . فما انقضَى كلامُه حتى أقبلَ به ثمّ سلّمه إليهم ومضى لطَلِبته ، لم ينتظر ثناءهم ولا دُعاءهم ، ولا أَراهم أنّه قد صنع شيئًا ، أو أتَى إليهم معروفا .

٣٣ و والأتراكُ قومٌ لا يعرفون المَلَق ولا الخِلابَة ، ولا النِّفاق ولا السِّعاية ، ولا التصنُّع ولا النَّميمة ولا الرِّياء ، ولا البَذَخ على الأولياء[3] ، ولا البغْىَ على الخلطاء ، ولا يعرفون البِدَع ، ولم تُفسِدهم الأهواء ، ولا يستحلُّون الأموال على التأوُّل ، وإنما كان عَيبَهم ، والذى يُوحِش منهم ، الحنينُ إلى الأوطان ، وحبُّ التقلُّب فى البُلدان ، والصَّبابة بالغارات ، والشَّغَف بالنَّهب ، وشدّة

---

(١) عار يعير : انفلت وذهب هاهنا وهاهنا وحاد عن الطريق .

(٢) الوحى : السريع .

(٣) البذخ : الكبر والتطاول والفخر .

الإلف للعادة ، مع ما كانوا يتذاكرون من سُرور الظفر وتَتابُعِه ، وحَلاوة المَغْنم وكثرته ، و ملاعبهم في تلك الصَّحارى ، وتردُّدهم في تلك المُروج ، وألَّا يذهب بطول الفَراغ فضلُ نَجْدتهم باطلا ، ويصير حَدُّهم على طول الأيام كليلًا .

ومَن حَذق شيئاً لم يَصبِر عنه ، ومن كَرِه أمرًا فرَّ منه .

وإنّما خُصُّوا بالحنين من بين جميع العجم لأنَّ في تركيبهم وأخلاطِ طبائعهم من تركيب بلدهم وتربيتهم ، ومشاكلة مياههم ومناسبة إخوانهم ، ما ليس مع أحدٍ سواهم . ألَا ترى أنّك ترى البصريَّ فلا تدرى أبصريٌّ هو أم كوفيّ ، وترى المكّيَّ فلا تدرى أمكّيَّ هو أم مدنيّ . وترى الجَبَليَّ فلا تدرى أجَبَليٌّ هو أم خراسانيّ ، وترى الجَزَريَّ فلا تدرِى أجَزَريٌّ هو أم شاميّ . وأنت لا تَغلَط في التركيّ ، ولا تحتاج فيه إلى قيافةٍ ولا إلى فِراسة ، ولا إلى مُساءلة . ونساؤهم كرجالهم ، ودوابّهم تركيّةٌ مثلهم .

وهكذا طَبَع اللهُ تلك البلدة ، وقسم لِتلك التُّربة . وجميعُ دُور الدنيا ونشوُها إلى منتهى قُواها ومدَّة أجلها ، جارية على عللها ، وعلى مقدار أسبابها ، وعلى قدر ما خصَّها الله تعالى به وأبانَها ، وجَعَل فيها . فإذا صاروا إلى دار الجزاء ، فهي كما قال الله تعالى : ﴿ إنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إنْشَاءً[1] ﴾ .

وكذلك ترى أبناء العرب والأعرابِ الذين نزلوا خُراسانَ ، لا تفصِل بين من نزل أبوه بفرغانة وبين أهل فَرغانة ، ولا ترى بينهم فرقاً في الشَّمائل الصُّهب

(١) الآية ٣٥ من سورة الواقعة .

والجلود القَشِرة(١) ، والأقفاء العظيمة ، والأكسية الفرغانية . وكذلك جميع تلك الأرباع ، لا تفصل بين أبناء النازلة وبين أبناء النَّابتة .

٣٣ ظ وحجبَّةُ الوطن شيءٌ شاملٌ لجميع الناس ، وغالبٌ على جميع الجِيرة(٢) . ولكن ذاكَ فى التُّرك أغلَب ، وفيها أرسَخ ؛ لما معها من خاصَّة المشاكلة والمناسبة ، واستواء الشَّبه ، وتكافؤ التركيب . ألا ترى أنَّ العبدىَّ يقول(٣) : « عَمَر اللهُ البُلدان بحبِّ الأوطان » ، وأنَّ ابنَ الزُّبير قال : « ليس الناس بشىءٍ من أقسامهم أقنَعَ منهم بأوطانهم(٤) » ، وأنَّ عُمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « لولا تفرُّق أهواء العِباد لما عَمَر الله البِلاد » ، وأنَّ جُمعة الإيادية قالت : « لولا ما أوصى الله به العبادَ من قَفْر البلاد ، لما وَسِعهم وادٍ ولا كفاهم زاد » .

وذكر قتيبة بن مسلم التُّرك فقال : « هم والله أحنُّ من الإبل المعقَّلة إلى أوطانها » ؛ لأنَّ البعير يحنُّ إلى وطنه وعَطَنِه ، وهو بعُمانَ ، من ظهر البَصْرة ، فهو يخبط(٥) كلَّ شىء ويَستبطن كلَّ وادٍ ، حتَّى يأتى مَكانَه ؛ على أنَّه طريق لم يسلكه إلَّا مرة واحدة ، فلا يزال بالشَّمِّ والاسترواح وحسن الاستدلال ، وبالطبيعة المخصوص بها حتَّى يأتى مَبْرَكَه ، على بُعد ما بين عُمانَ والبَصرة .

---

(١) من القشر ، بالتحريك ، وهو شدة الحمرة .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « الحيرة » . وفى ف : « الجيزة » . والجيزة بمعنى الناحية .

(٣) بدله فى الحيوان ٣ : ٢٢٧ : « وقد قالوا » .

(٤) الأقسام : جمع قسم ، بالكسر ، وهو الحظ والنصيب . والنص فى الحيوان ٣ : ٢٢٧ .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « فهى تحت » تحريف .

فذلك ضربَ به قتيبةُ المثلَ[1] .

والشُّحُّ على الوطن [والحنين إليه[2]] ، والصَّبابة به ، مذكورة فى القرآن ، مخطوطة فى [الصُّحف بين[2]] جميع الناس . غير أنَّ التركىَّ للعلل التى ذكرناها أشدُّ حنيناً وأكثر نُزوعاً[3] .

وباب آخر ، ممَّا كان يدعوهم إلى الرجوع قبل العزم الثابت[4] ، والعادة المنقوضة[5] : وذلك أنَّ التُّرك قومٌ يشتدُّ عليهم الحَضَر [والجُثوم[6]] ، وطول اللُّبث والمُكْث ، وقلَّة التصرُّف والتحرُّك ، وأصلُ بِنيتهم إنَّما وُضِع على الحركة ، وليس للسكون فيها نصيب ، وفى قُوى أنفُسهم فضلٌ على قوى أبدانهم ، وهم أصحاب توقُّد وحرارةٍ ، واشتغال[7] وفطنة ، كثيرة خواطرهم ، سريعٌ لحظهم ، وكانوا يَرون الكِفايةَ مَعجَزة ، وطُول المُقام بلادة ، والراحة عُقلة[8] ، والقناعة من قِصر الهِمَّة ؛ وأنَّ تَركَ الغَزْو يورث الذِّلَّة .

---

(١) إلى هنا ينتهى إغفال الاختيار فى ج ، ف الذى نبهت على بدايته فى ص ٥٣ .

(٢) التكملة من ب .

(٣) هذا مافى ف . وفى الأصل ، ن : «وأشد نزاعا» . ج : «وأكثر نزعا» .

(٤) ج : « عزم الثانى» ف : « ثنى العزم » ، وفى الأصل : « العزم الثانى» ، والوجه ما أثبت من سائر النسخ .

(٥) فى الأصل ، س : « والمادة المنقوضة » ، صوابه فى ج ، ف . وفى ن : « والمادة المنقوصة » .

(٦) التكملة من ن . والكلمة ساقطة من ف . وبدلها فى ج : « الختوم » . جثم : لزم مكانه فلم يبرحه .

(٧) فى الأصل و ف : « واستعال » ، وأثبت ما فى ب .

(٨) أى تعقل صاحبها وتحبسه عن الانطلاق .

٣٤ و وقد قالت العرب في مثل ذلك : قال عبدُ الله بن وَهْبٍ الراسبيّ : « حب الهُوَينا يُكسِب النَّصَب » . والعرب تقول : « من غلا دماغه في الصَّيف غَلَتْ قِدرُه في الشّتاء » . وقال أكثم بن صَيفيّ : « ما أحبُّ أنّي مكفيٌّ كلَّ أمرِ الدنيا » . قيل : ولِمَ ؟ قال : « أخاف العجز » .

فهذه كانت عِللَ التُّرك في حبِّ الرُّجوع والحنين إلى الوطن .

ومن أعظم ما كان يَدْعُوهم إلى الشُّرُودِ ويبعثهم على الرجوع ، ويُكرِّه عندهم المُقام ، ما كانوا فيه من جَهل قُوّادهم بأقدارهم ، وقلّة معرفتهم بأخطارهم ، وإغفالهم موضع الرّدّ عليهم والانتفاع بهم ، حتّى جعلوهم أُسوةَ أجنادهم ، ولم يقنعوا أن يكونوا في الحاشية والحُشْوة ، وفي غِمار العامّة ومن عُرْض العساكر ، وأنفوا من ذلك لأنفسهم ، وذكروا ما يجب لهم ، ورأوا أنّ الضَّيْمَ لا يليق بهم ؛ وأنّ الخمول لا يجوز عليهم ، وأنهم في المُقام على من لا يعرف حقّهم ألْوَم مِمّن منعَهم حقّهم ، فلمّا صادفُوا مَلِكاً حكيماً ، وبأقدار النّاس عليماً ، لا يميل إلى [سوء[٢]] عادةٍ ولا يَجنَح إلى هوى ، ولا يتعصّب لبلدٍ على بلد ؛ يدور مع التدبير حيثما دار ، ويقيم مع الحقّ حيثما أقام ، أقاموا إقامةَ من قد فهم الحظّ[٣] ، ودانَ بالحقّ ونَبَذ العادة ، وآثر

---

(١) في الأصل وبعض أصول ن : « الدنيا » ، صوابه في ب .

(٢) التكملة من ب .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « الحق » ، وأثبت ما في ب . لكن في ف : « منح » موضع « فهم » .

الحقيقة ، ورحَل نفسَه لقطيعَة وطَنه[١] ، وآثر الإمامة على مُلك الجَبَرِيّة[٢] ، واختار الصَّواب على الإلْف .

ثم اعلمْ[٣] بعد هذا كلِّه أنَّ كلَّ أمةٍ وقرنٍ ، وكلَّ جيل وبَنِى أبٍ وجدتَهم قد برعوا فى الصِّناعات ، وفَضَلوا النّاسَ فى البيان ، أو فاقوهم فى الآداب ، وفى تأسيس الملك ، وفى البصر بالحرب ؛ فإنّك لا تجدهم فى الغاية وفى أقصى النهاية ، إلاَّ أن يكون اللهَ قد سخَّرهم لذلك المعنى بالأسباب ، [وقصرهم[٤]] عليه بالعلل التى تقابل تلك الأمور ، وتصلح لتلك المعانى ؛ لأنَّ مَنْ كان متقسَّم الهوى ، مشترَك الرَّأى ، ومتشعِّب النفس ، غير موفَّر على ذلك الشَّىء ولا مهيَّأٍ له ، لم يَحذِق من تلك الأشياء [شيئاً[٤]] بأسْرِه ، ولم يبلغ فيه غايتَه ، كأهل الصين فى الصناعات ، واليونانيّين فى الحِكَم والآداب ، والعَرَبِ فيما نحن فيه ذاكروه فى موضعه ، وآلِ ساسان فى المُلْك ، والأتراك فى الحروب . ألا ترى أنَّ اليونانيين الذين نظروا فى العِلَل لم يكونوا تُجّاراً ولا صُنّاعاً بأكُفِّهم ، ولا أصحابَ زرعٍ ولا فِلاحة وبناء وغَرْس ، ولا أصحابَ جمعٍ ومنع ، وحِرص وكَدّ ، وكانتِ الملوكُ تفرِّغهم ، وتُجرى عليهم كفايتَهم ،

٣٤ ظ

(١) يقال رحل نفسه لكذا ، إذا صبر على أذاه . وفى الأصل وبعض أصول ن : « نفطنه » تحريف .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « وآثر ملك الإقامة على ملك الحرية » ، صوابه فى ب .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن : « وأعظم » .

(٤) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباته من ب .

فنظروا حين نَظَروا بأنفسٍ مجتمعة ، وقوّة وافرة ، وأذهان فارغة ، حتى استخرجوا الآلاتِ والأدوات ، والملاهيَ التى تكون جَماماً للنفس ، وراحة بعد الكدّ ، وسروراً يداوى قَرح الهُموم ، فصنعُوا[١] من المرافق ، وصاغوا من المنافع كالقَرِصطونات[٢] ، والقَبّانات ، والأَسطُرلابات[٣] ، وآلة الساعات ، وكالكونيا[٤] وكالشيزان[٥] والبِركار[٦] وكأصناف المزامير والمعازف ، وكالطبّ والحسابِ والهندسة واللُّحون ، وآلات الحرب كالمجانيق ،

---

(١) فى الأصل وبعض أصول ن : « فصنفوا » .

(٢) جاء فى النزهة المبهجة لداود الأنطاكى بهامش تذكرة داود ١ : ١٥ : «علم مركز الأثقال مثل القرصطيون ، يعنى القبان» . وجاء فى كتاب التربيع والتدوير ص ١٣٨ ساسى : « وخبرنى عن القرسطون كيف أخرج أحد رأسيه ثلاثمائة رطل زاد ذلك أم نقص ، ووزن جميعه ثلاثون رطلا زاد ذلك أو نقص » . وانظر الحيوان ١ : ٨١ ، فيبدو أنه ضرب من القبان .

(٣) الأسطرلاب أو الأصطرلاب : مقياس للنجوم ، وهو باليونانية أصطرلابون . وأصطر هو النجم ، ولابون هو المرآة ، وقد يهذى بعض المولعين بالاشتقاقات فى هذا المعنى بما لامعنى له ، وهو أنهم يزعمون أن لاب اسم رجل وأسطر جمع سطر . وهذا اسم يونانى ، اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف . مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ١٣٤ والحيوان ١ : ٨١ / ٢ : ٢٤٢ . وقد وقع صاحب القاموس فى هذا الوهم الذى نبه عليه الخوارزمى فى مادة (لوب) .

(٤) فى الأصل : «وكالكرسا» بهذا الإهمال ، وأثبت مافى ج ، ف . وفى مفاتيح العلوم : « الكونيا » بالواو ، وقال : « للنجارين يقدرون بها الزاوية القائمة » .

(٥) ج ، ف : « والكسيران » ن ، س : « والكشتوان » .

(٦) البركار : آلة هندسية مركبة من ساقين متصلتين تثبت إحداهما وتدور حولها الأخرى ، ترسم بها الدوائر والأقواس ، وتسمى بالعامية « البرجل » ، وهى فى الفارسية « پركار » .

والعَرّادات[١] ، والرّتيلات[٢] ، والدُّبَّابات ، وآلة النّفّاط[٣] ، وغير ذلك مما يطول ذكره .

وكانوا أصحابَ حكمة ولم يكونوا فَعَلة ؛ يصوّرون الآلة ، ويخرطون الأداة ، ويصوغون المُثُل ولا يُحسنون العملَ بها[٤] ، ويشيرون إليها ولا يمسُّونها ، ويرغّبون فى العلم ويرغبون عن العمل .

فأمّا سُكّان الصين فهم أصحاب السَّبْك والصياغة ، والإفراغ والإذابة والأصباغ العجيبة ، وأصحاب الخَرْط والنّحت والتصاوير ، والنّسج والخطّ ، ورفق الكفّ فى كلّ شىء يتولّونه ويُعانونه ، وإن اختلف جوهرُه ، وتباينت صنعته ، وتفاوت ثمنُه .

واليونانيون يعرفون العِلل ، لأنّ أولئك حكماء وهؤلاء فَعَلة[٥] .
وكذلك العرب ، لم يكونوا تُجّارًا ولا صُنّاعا ، ولا أطبّاء ولا حُسّابًا ، ولا أصحابَ فلاحة فيكونون مَهَنة ، ولا أصحاب زرع ، لخوفهم من صَغار

---

(١) العرادة : منجنيق صغير . والمنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة فى القتال . وانظر حواشى البيان والتبين ٣ : ١٧ .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : «الترسلات» بالإهمال . وفى بعض أصول ن : « الزقيلات » ، وباقى النسخ : « الرتيلات » . وفى البيان ٣ : ١٧ : « الرتيلة » .

(٣) ج ، ف : « النفاطين » .

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن : « المثال ولا يحسنون العمل به » ، وعدلت العبارة لتتفق مع سائرها .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « حكما وهم فعلة » وأثبت الصواب من ب .

الجزية[١] . ولم يكونوا أصحابَ جمعٍ وكسب ، ولا أصحابَ احتكار لما فى أيديهم وطلب ما عند غيرهم ، ولا طلبوا المعاشَ من ألسنة الموازين ورءوس المكاييل ، [ولا عرفوا الدَّوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذى يشغَل عن المعرفة[٢]] ، ولم يستغنوا الغنَى الذى يورث البُلدة[٣] ، والثروة التى تحدث الغِرَّة ، ولم يحتملوا ذُلًّا قطُّ فيُميتَ قلوبَهم ويصغِّر عندهم أنفسَهم . وكانوا سكانَ فيافٍ وتربيةَ العَرَاء ، لا يعرفون الغَمَقَ ولا اللَّثَق[٤] ، ولا البُخَار ولا الغِلَظ ولا العَفَن ، ولا التَّخَم[٥] . أذهان حِداد ، ونفوسٌ منكرة ، فحين حَمَلوا حَدَّهم ووجَّهوا قواهم لقولِ الشِّعر وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ، بعد قيافة الأثَر وحفظ النَّسَب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ، وتعرُّف الأنواء ، والبَصر بالخيل والسِّلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكلِّ مسموع والاعتبار بكلِّ محسوس ، وإحكام شأن المثالب والمناقب ، بَلَغوا فى ذلك الغايةَ ، وحازوا كلَّ أمنيَّة . وببعض هذه العلل صارت نفوسُهم أكبر ، وهممهم[٦] أرفعَ من جميع الأمم وأفخر ، ولأيَّامهم أحفظَ وأذكر .

٣٥ و

وكذلك التُّرك أصحاب عَمَد وسُكَّان فيافٍ وأرباب مواشٍ ، وهم أعراب

---

(١) الصَّغار : الذل .

(٢) التكملة من ب ، ولم يبيض لها فى الأصل .

(٣) البلدة ، بضم الباء وفتحها : ضد النفاذ والذكاء والمضاء فى الأمور .

(٤) الغمق : الندى والرطوبة والوخامة . واللثق : الندى مع سكون الريح . فى الأصل وبعض أصول ن : « العمق والسق » ، تحريف .

(٥) التخم : الوخم ، وهو الوباء .

(٦) فى الأصول وبعض أصول ن : « وقسمهم » ، وأثبت ما فى ب .

العَجَم كما أنَّ هذيلا أكراد العَرب . فحين لم تشغلهم الصِّناعات والتِّجارات ، والطِّبُّ والفِلاحة والهندسة ؛ ولا غرسَ ولا بُنيانَ ، ولا شقّ أنهار ، ولا جباية غَلّات ، ولم يكن همُّهم غير الغزو والغـارة والصَّيد وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ، وطلب الغنائم وتدويخ البُلدان ، وكانت هممهم إلى ذلك مصروفةً وكانت لهذه[1] المعـانى والأسباب مسخَّرةً ومقصورةً ، عليها ، وموصولةً بها ، [أحكموا ذلك الأمر بأسره ، وأتوا على آخره[2] ، و] صار ذلك هو صناعتَهم وتجارتَهم ، [ولذّتهم[3]] وفخرهم ، وحديثهم وسمرَهم .

فلمَّا كانوا كذلك صاروا فى الحرب كاليونانيين فى الحكمة ، وأهـل الصِّين فى الصناعات ، والأعرابِ فيما عددنا ونزّلنـا ، وكآل ساسانَ فى المُلك والرياسة .

ومما يُستدلُّ به على أنَّهم قد استقصوا هذا البابَ واستغرقوه ، وبلغوا أقصى غايتهِ وتعرَّفوه ، أنَّ السَّيف إلى أن يتقلَّده متقلِّد ، أو يَضرِب به ضارب ، قد مرَّ على أيدٍ كثيرة ، وعلى طبقاتٍ من الصُّنَّاع ، كلُّ واحدٍ منهم لا يعمل عملَ صاحبه ، ولا يُحسنه ولا يدَّعيه ولا يتكلَّفه ، لأنَّ الذى يذيب حديد السَّيف ويُميعُه ، ويصفِّيه ويهذّبه ، غير الذى يمدُّه ويمطُله[3] ؛ والذى يمدُّه ويمطُله[4]

---

(١) فى الأصل وبعض أصول ن : « وكانوا بهذه » .

(٢) التكملة من ب .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن : «غير الذى يحده ويعده» ، وأثبت ما فى ب .

(٤) المطل : المد . وفى الأصل وبعض أصول ن : « ويملطه » تحريف .

٣٥ ظ

غير الذى يطبعه ويسوِّى متنَه ، ويقيم خَشيبَته[1] ؛ والذى يطبعه ويسوِّى متنَه غير الذى يَسقيه ويُرهِفُه ، والذى يُرهِفه غير الذى يُركِّب قَبيعتَه ويستوثق من سِيلانه[2] ، والذى يعمل مسامير السِّيلان و [شارِبَى[3]] القبيعة ونصلِ السيف غير الذى ينحت خَشَب غِمده ، والذى ينحت خَشَب غمده غير الذى يدبُغ جِلْده ، والذى يدبغ جلده غير الذى يحلِّيه ، والذى يُحلِّيه ويركِّب نعلَه غير الذى يَخرز حمائله . وكذلك السَّرْج[4] ، وحَالات السَّهم والجَعْبة والرُّمح وجميعِ السلاح ، مما هو جَارِحٌ أو جُنَّةٌ[5] .

والتركىُّ يعمل هذا كلَّه لنفسه من ابتدائه إلى غايته ، فلا يستعين برفيق ، ولا يَفزَع فيه إلى صديق[6] ، ولا يختلف إلى صانع ، ولا يَشغَل قلبه بمطاله وتسْويفه ، وأكاذيب مواعيده ، وبِغُرم كِرائه .

وحين بلغَ أوسُ بن حجر صفةَ القانص ، وبلغ له الغايةَ فى جمعه لأبواب الكفاية بنفسه ، قال :

---

(١) فى اللسان : « يقال سيف مشقوق الخشيبة ، يقول عرض حين طبع » . فى الأصل وبعض أصول ن : « جنبتيه » ، ج : « خشابته » ، وأثبت ما فى ن ، س ، ف .

(٢) السيلان ، بالكسر : سنخ قائم السيف ، أى أصل مقبضه .

(٣) التكملة من ن ، س . وبدلها فى ج « وشادى » وفى ف : « وشاذى » . والقبيعة : ما على مقبض السيف من فضة أو حديد . والشاربان : أنفان طويلان فى أصل مقبض السيف .

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن : « السراج » .

(٥) الجنة ، بالضم : ما يتقى به من ترس ونحوه . فى الأصل وبعض أصول ن : « خارج أو منه » ، تحريف .

(٦) ب : « ولا يفزع إلى رأى صدق » .

قَصِىُّ مَبيتِ اللَّيلِ للصَّيد مُطعَم   لأَسهُمِه غارٍ وبارٍ وراصفُ(١)

وليس أنه ليس فى الأرض تركىٌّ إلّا وهو كما وصفنا ، كما أنَّه ليس كل يونانىٌّ حكيمًا ولا كل صينىٍّ غايةً فى الحذق ، ولا كلُّ أعرابىٍّ شاعراً قائفا ، ولكنَّ هذه الأمور فى هؤلاء أعمُّ وأتمُّ ، وهى فيهم أظهر وأكثر .

قد قلنا فى السبب الذى تكاملت به النَّجدة (٢) والفروسيَّة فى التُّرك دون جميع الأمم ، وفى العلل التى من أجلها انتظموا جميعَ معانى الحرب ، وهى معانٍ تشتمل على مذاهبَ غريبة ، وخصالٍ عجيبة .

فمنها : ما يُقضى لأهله بالكرم وبُعْد الهمَّة وطلب الغاية . ومنها : مايدلُّ على الأدب السَّديد والرأى الأصيل ، والفِطنة الثَّاقبة والبصيرة النافذة . [ألا ترى أنّه ليس بدٌّ لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والحزْم والعزم ، والصبر والكتمان ، ومن الثقافة(٣)] ، وقلَّة الغفلة وكثرة التجربة . ولا بدَّ من البصر بالخيل والسلاح ، [والخبرة(٤)] بالرِّجال وبالبلاد ، والعلم بالمكان والزَّمان والمكايد ، وبما فيه صلاحُ هذه الأمور كلّها .

---

(١) ديوان أوس ص ٧١ . قصى مبيت الليل ، يقول : لا يبيت مع أهله ، إنما يبيت مع الوحش . ويقال فلان مطعم للصيد ومطعم الصيد ، إذا كان مرزوقا منه . غارٍ ، هو من غراه يغروه ، إذا طلاه بالغراء . والبرى معروف . والراصف : من الرصفة ، وهى ما يشد على صدر السهم . فى الأصل : «وواصف» ،صوابه فى ن ، س . والبيت والكلام المتعلق به قبله ساقط من ج . ف .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : «قد قلنا فى السنة التى لها تكاملت النجدة» ، صوابه فى ب .

(٣) التكملة من ب .   (٤) التكملة من ب .

٣٦ و والمُلكُ يحتاج إلى أواخِ شِدادٍ وأسباب مِتَان ، ومن أتمّها سببًا وأعمقها نفعاً ما ثبَّته في نِصابه ، وأقرّه وسكّنه في قراره ، وزاد في تمكّنه وبهائه ، وقطع أسباب المطمعة فيه ، ومنع أيدي البُغاةِ من الإشارة إليه فضلا عن البَسْط عليه[1] .

قال : ثم إنّ التُّركَ عطفَتْ على العرَب بالمحاجّة والمقايَسة ، وقالوا : قلتم إن تكن القرابةُ مما يستَحقُّ بالكفاية فنحن أقدَمُ في الطّاعة والوُدِّ والمناصَحة ، وإن تكن تُستحقُّ بالقرابة فنحن أقربُ قرابةً .

قالوا : والعرب بعد هذا صِنفانِ : عدنان وقَحطان . فأمّا القحطانيُّ فنسبتنا إلى الخلفاء أقربُ من نسبتهم ، ونحن أمسُّ بهم رَحِمًا ؛ لأن الخليفة من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، دون قحطانَ وعابَر . وولدُ إبراهيم عليه السلام إسماعيلُ ، وأمّه هاجَر ، وهي قبطيّة . وإسحاقُ وأمّه سارَةُ وهي سُريانيّة . والسّتّة الباقون أمُّهم قَطُورا بنت مفطون[2] عربيّة ، من العرب العارِبة .

وفي قول القحطانية : إنّ أمّنا أشرفُ في الحسب إذْ كانت عربية . وأربعةٌ من السّتّة هم الذين وقَعوا بخراسانَ ، فأولدوا تُركَ خراسان . فهذا قولنا للقحطانيّ .

---

(١) الكلام بعده إلى « وكلها جواد » في ص ٨٧ ليس في اختيار ج ، ف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : «أمهم قنطور» ، والوجه ما أثبت من جمهرة أنساب العرب ٥ ، ٥١٠ وسيرة ابن هشام ٧١ . وفي سفر التكوين ٢٥ : ١ « قطورة » . وقد ذكرت أسماء الستة في سفر التكوين .

وأما قولنا للعدنانى ، فإبراهيم أبونا ، وإسماعيل عمنا ، وقرابتنا من إسماعيل كقرابتهم .

قال الهيثم بن عدى : قيل لمبارك التركى ، وعنده حماد التركى : إنكم من مَذحِج . قال : ومَذحج هذا من هو ذاك ؟ وما نعرف إلا إبراهيمَ خليلَ الله وأميرَ المؤمنين .

قال الهيثم : وقد كان سقط إلى بلاد الترك رجلٌ من مَذحجٍ فأنسلَ نسلاً كثيراً ، ولذلك قال شاعر الشُّعوبية للعرب فى قصيدةٍ طويلة :

زعمتم بأنّ الترك أبناء مذحجٍ ... وبينكم قُربَى وبين البرابرِ

وذلكم نسلُ ابن ضَبّة باسلٍ ... وصُوفانَ أنسال كثير الجرائر[1]

وقال آخر :

متى كانت الأتراكُ أبناء مَذحجٍ ... ألا إنَّ فى الدنيا عجيبًا ان عَجِبْ

وقد سمعتم ما جاء فى سدّ بنى قَطورا[2] وشأنِ خيولهم بنخل السَّواد[3] ، وإنّما كان الحديثُ على وجه التّهويل والتخويف بهم لجميع الناس ، فصاروا للإسلام مادّةً [و] جنداً كثيفا ، وللخلفاء وِقايةً وموئلًا وجُنّةً حصينة ، وشعاراً دون الدِّثار .

٣٦ ظ

---

(١) فى جمهرة ابن حزم ٢٠٣ : « وباسل بن ضبة يقال إن الديلم من ولده » .

(٢) فى الأصل : « قنطور » . وانظر ما سبق .

(٣) ن ، س : « تبخو السواد » . والسواد سواد العراق ، وهى قرى الكوفة والبصرة ، وأصل السواد جماعة النخل والشجر .

وفى المأثور من الخبر : « تارِكُوا التُّركَ ماتارَكوكم » . وهذه وصيّةٌ لجميع العرب ؛ فإنّ الرأى متاركتنا ومسالمتنا . وما ظنُّكم بقومٍ لم يَعرِض لهم ذو القرنين . وبقوله « اتركوهم » سُمُّوا التُّرك . هذا بعد أن غَلَب على جميع الأرض غَلَبةً وقسراً ، وعَنوةً وقهراً .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « هذا عدوٌّ شديدٌ كَلَبُه ، قليل سَلَبُه » . فنهى كما ترى عن التعرُّضِ لهم ، بأحسنِ كناية .

والعربُ إذا ضَربت المثلَ فى العداوة الشّديدة قالوا : ماهم إلاّ التُّركُ والدَّيلم.

قال عَمّاس بن عَقِيل بن عُلَّفة :

تبدَّلت منه بعد ما شاب مَفرِقى عداوةَ تُركىٍّ وبغضَ أبى حِسْلِ

وأبو حِسْلٍ هو الضَّبّ . والعرب تقول : « هو أعقُّ من ضَبّ » ؛ لأنّه يأكل أولادَه .

ولم يُرعِب قلوبَ أجناد العربِ مثلُ التُّرك . وقال خلفٌ الأحمر :

كأنّى حين أرهنهم بَنِيّى دفعتُهمُ إلى صُهبِ السِّبالِ[1]

قال : وإيّاهم عنَى أوسُ بن حجر :

نكَبّتُها ماءهم لما رأيتهم صُهبَ السِّبالِ بأيديهم بيازيرُ[2]

---

(١) يجوز فى ياء المتكلم المدغم فيها ياء أن تكون مفتوحة كما يجوز كسرها . وبالأخيرة قرأ حمزة : « وما أنتم بمصرخىّ » بالكسر . الأشمونى ٢ : ٢٨٢ .

(٢) فى الأصل وفى بعض أصول ن : « نكبهم اباهم » ، وكتب فى حاشيتها : « ظ حسبتهم أنهم لما رأيتهم » أى الظاهر . والصواب ما أثبت من ن ، س وديوان أوس ٣٣ . والبيازير : جمع بيزارة ، وهى العصا العظيمة . وفى الأصول : «مارين» صوابه من الديوان .

وحدثني إبراهيمُ بن السِّندي مولى أمير المؤمنين ، وكان عالماً بالدَّولة ، شديدَ الحبِّ لأبناء الدَّعوة ، وكان يحوطُ مواليَه ويحفظ أيَّامهم ، ويدعو الناسَ إلى طاعتهم ، ويَدرسهم مناقبهم[1] ، وكان فخمَ المعاني فخمَ الألفاظ ، لو قلت لسانُه كان أردَّ[2] على هذا المُلْك من عَشْرة آلاف سيفٍ شَهيرٍ ، وسِنانٍ طَريرٍ[3] ، لكان ذلك قولاً ومذهباً .

قال : حدَّثني عبد الملك بن صالح ، عن أبيه صالح بن على ، أنَّ خاقان ملكَ الترك واقفَ مرة الجُنَيد بنَ عبد الرحمن[4] أميرَ خراسان ، وقد كان الجنيدُ هالَه أمره ، وأفزعه شأنُه ، وتعاظَمه جموعُه وجَمعه ، وبَعِل به[5] ، وفطن به خاقانُ وعرف ما قد وقع فيه ، فأرسل إليه : ٣٧ و

« إنِّي لم أقفْ هذا الموقفَ وأُمْسِكْ هذا الإمساكَ وأنا أريدُ مكروهاً ، فلا ترُعْ . ولو كنتُ أريد غَلبةً أو مكروهاً لقد كنت انتسفْتُ عسكرَك انتسافاً

---

(١) يقال درسته الشيء درساً وأدرسته إياه : علمته إياه . انظر اللسان (درس ٣٨٢) .

(٢) يقال هذا الشيء أرد من ذاك ، أي أنفع وأكثر عائدة .

(٣) الشهير : المشهور المسلول ، وإن كان لم ينص عليه فى المعاجم المتداولة . والطرير : المحدد . وانظر البيان ٣ : ٢٧٣ .

(٤) هو الجنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث ، المرى . جمهرة أنساب العرب ٢٥٢ وفتوح البلدان للبلاذرى ٦٠٣ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ . وقد استعمله هشام ابن عبد الملك على خراسان سنة ١١١ وكانت له حروب مع خاقان ملك الترك . الطبرى ٨ : ٢٠٤ – ٢١٤ . وهو غير الجنيد بن عبد الرحمن بن عوف بن بجيد الكلابى . وقد ولى خراسان أيضاً . الجمهرة ٢٨٧ .

(٥) بعل به : ضاق به ودهش فلم يدر كيف يصنع .

أُعجِلك فيه عن الروية وقد أبصرتُ موضعَ العورة . ولولا أن تعرفَ هذه المكيدة فتعُود بها على غيرى من الأتراك ، لعرّفتُك موضعَ الانتشار والخلل والخطأ فى عسكرك وتعبيتك. وقد بلغنى أنّك رجلٌ عاقل، وأنّ لك شرفاً فى بيتك وفضلاً فى نفسك ، وعلماً بدينك ، وقد أحببت أن أسأل عن شىء من أحكامكم لأعرفَ به مذهبكم ، فاخرُجْ إلىّ فى خاصّتك لأخرجَ إليك وحدى ، وأسائلك عما أحتاج إليه بنفسى . ولا تحتفلْ ولا تحترسْ ؛ فليس مثلى مَنْ غَدَر ، وليس مثلى يُؤمِن من نفسه ، ومن مَكرِه وكيده ، ثم ينكُثُ بوعده . ونحن قومٌ لا نخدع بالعمل ، ولا نستحسن الخديعةَ إلاّ فى الحرب ، ولو استقام أمر الحرب بغير خديعة لما جوّزْنا ذلك لأنفسنا » .

فأبى الجُنيد أن يَخرج إليه إلاّ وحدَه ، ففَصَلا من الصّفوف . وقال : سَلْ عمّا أحببتَ ، فإنْ كان عندى جوابٌ أرضاه أجبتُك، وإلاّ أشرتُ عليك بمن هو أبصر بذلك منّى .

قال : ما حكمكم فى الزّانى ؟

قال الجُنَيد : الزّانى عندنا رجلان : رجلٌ دفعنا إليه امرأةً تُغْنيه عن حُرَم النّاس ، وتكفُّه عن حُرَم الجيران ؛ ورجلٌ لم نُعطِه ذلك ، ولم نَحُلْ بينه وبين أن يفعل ذلك لنفسه . فأمّا الذى لازوجةَ له فإنّا نجلده مائة جَلدة ونُحْضِر ذلك الجماعةَ من الناس لنشهّره ونحذّره به ، ونغرّبه فى البُلدان لنزيد فى شهرته وفى التّحذير منه ، وليَنزجر بذلك كلُّ من كان يُهمّ بمثل عمله . فأما الذى قد [أغنيناه[1]] فإنا نرجُمُه بالجَندلِ حتّى نقتلَه .

---

(١) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من ن ، س .

قال : حَسَنٌ جميلٌ ، وتدبير كبير ، فما قولكم في الذي يَقذِف عفيفاً بالزِّنى ؟

قال : يجلَد ثمانين جلدةً ، ولا نَقبَل له شهادةً، ولا نُصدِّق له حديثا .

قال : حَسنٌ جميل ، وتدبير كبير ، فما حُكمكم في السارق ؟

قال : السَّارق عندنا رجلان : رجل يحتال لما قد أحرزَه الناس من أموالهم حتَّى يأخذها بنَقْب حيطانهم وبالتسلُّق من أعالي دُورهم ؛ فهذا نقطَع يَدَه التي سَرقَ بها ، ونَقَب بها ، واعتَمَد عليها . ورجل آخر يُخيف السبيل ، ويقطع الطَّريق ، ويكايد على الأموال[1] ، ويَشْهَرُ السِّلاح فإنْ منعَه صاحب المَتَاع قَتَله ، فهذا نقتُله ونَصلِبه على المناهج والطُّرق .

٣٧ ظ

قال : حَسَن جميلٌ ، وتدبير كبير . قال : فما حُكمكم في الغاصب والمستلِب ؟

قال : كلُّ مافيه الشُّبهة ويجوز فيه الغَلَط والوُجوهُ ، كالغَصْب والاستلاب ، والجنايةِ ، والسَّرِقة لما يؤكل أو يُشرب فإنَّا لا نقطع فيما فيه شُبهة وتتمحَّل[2] لذلك وجهاً غيرَ السَّرِقة .

قال : حَسنٌ جميلٌ وتدبير كبير . قال : فما حُكمكم في القاتل وقاطع الأُذُن والأنف ؟

---

(١) المراد بالمكايدة هنا الاحتيال والمعالجة . وفي الأصل : « يكابر » ، وأثبت ما في ن ، س .

(٢) في أصول ن : « ويعتحل » وقد جعلها فان فلوتن : « ويحتمل » ، وتبعته نسخة س . وما أثبت من الأصل أولى وأوفق .

قال : النَّفس بالنَّفس ، والعَيْن بالعين ، والأنفُ بالأنف . وإنْ قتل رجلاً عَشَرَةٌ قتلْناهم . ونقتل القويَّ البدن بالضَّعيف البدن ، وكذلك اليدُ والرِّجل .

قال : حَسن جميلٌ وتدبير كبير . قال : فما تقولون فى الكذَّاب والنَّمَّام والضَّراط .

قال : عندنا فيهم الإقصاء لهم وإبعادُهم وإهانتهم ، ولا نقبل شهادتَهم ، ولا نصدِّق أحكامهم .

قال : وليس إلَّا هذا ؟

قال : هذا جوابُنا على ديننا .

قال له : أمَّا النمام عندى ، هو الذى يُضرِّب بين الناس[١] ، فإنِّى أحبسُه فى مكانٍ لا يَرى فيه أحدًا . وأمَّا الضَّرَّاطُ فإنِّى أكوِى استَه ، وأعاقب ذلكَ المكانَ فيه[٢] . وأمَّا الكذَّاب فإنى أقطع الجارحةَ التى بها يكذب ، كما قطعتم اليَد التى بها يَسرق ، وأمَّا الذى يُضحِك النَّاسَ ويعوِّدهم السُّخْفَ فإنِّى أُخرِجه من سلطانى ، وأُصْلِح بإخراجه عُقولَ رعيتى .

قال : فقال الجُنَيد بن عبد الرحمن : أنتم قومٌ تردُّون أحكامَكم إلى جواز العقول ، وإلى ما يَحسُن فى ظاهر الرأى ؛ ونحن قومٌ نتبع الأنبياء ، ونرى أنْ لم نَصلُح على تدبير العباد . وذلك أنَّ الله تعالى أعلَمُ بغَيب المَصالح وسِرِّ الأمر[٣]

---

(١) وكذا فى ن مع عدم سبق واو لكلمة « هو » فيهما . لكن فى س : « وهو الذى يرفع الحديث بين الناس إشاعة » .

(٢) جعلت فى ن ، س : « منه » .

(٣) ن ، س : « وبسر الأمر » .

وحقائقه، ومحصوله وعواقبه، والناسُ لا يعلمون ولا يَرون الحزمَ إلّا على ظاهر الأمور. وكم من مُضيع يَسلم، وحازمٍ يعطب.

قال: ما قلتَ كلاماً أشرف من هذا، ولقد ألقيتَ لى فكراً طويلا.

قال إبراهيم: قال عبدُ الملك: قال صالح: قال الجنيد: فلم أرَ أوفى ولا أنصفَ ولا أفهمَ ولا أذكى منه. ولقد واقَفْتُه ثلاثَ ساعاتٍ من النّهار وما تحرّك منه شىء إلّا لسانُه، وما منّى شىء لم أحرّكْه. ٣٨ و

وهكذا يَصِفون مُلوكَ التُّرك، يزعمون أنّ ساسان وخاقانَ الأكبرَ، توافقا ببعض الكسور[١]، وفَصَلا من الصَّفّين، وطالت المناجاة، فلما انفتلا قالوا: كان خاقانُ أركنَ وآدب، وكان مَركَب كِسرى أركن وآدب[٢]، ولم يتحرّك من خاقانَ إلّا لسانُه، وكان بِرذونُه يرفع قائمةً ويَضع أخرى، وكان مركب كسرى كأنّما صُبّ صبًّا، وكان كسرى يحرّك رأسَه ويُشير بيده.

قالوا: ومن الأعاجيب أنّ الحارثَ بن كعب لا يقوم لحَزْم[٣]، وحزم لا تقوم لكندةَ، وكندةُ لا تقوم للحارث بن كعب.

---

(١) كسور الأودية والجبال: معاطفها وشعابها، لا يفرد لها واحده كما فى اللسان. وقد حورت فى ن، س إلى «الجسور» خلافاً لما فى الأصول، وليس مايدعو إليه.

(٢) أركن من الركانة، وهى السكون والوقار. وفى جميع الأصول: «أزكى» فى هذا الموضع.

(٣) بنو حزم بن زيد بن لوذان بن عمرو بن عبد بن عوف بن غنم بن مالك ابن النجار. جمهرة أنساب العرب ٣٤٨. وفى العرب جرم بن ربان بن حلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة. الجمهرة ٤٥١.

قالوا : ومثل ذلك من الأعاجيب فى الحارث : أنَّ العربَ لا تقوم للتُّرك ، والتُّركَ لا تقوم للرُّوم ، والرُّوم لا تقوم للعرب .

قال جهمُ بن صَفْوانَ الترمذيّ[١] : قد عرفْنا ما كانَ بين فارسَ والتُّركِ من الحرب ، حتَّى تزوَّج كسرى أبْرَويز ، خاتونَ بنت خاقان ، يستميله بذلك الصِّهر ، ويدفَعُ بأسه عنه . وقد عَرفْنا الحروبَ التى كانت بين فارسَ والرُّوم ، وكيف تساجلوا الظفرَ ، وبأىِّ سببٍ غُرِس الزَّيتون بالمدائن وسوسا[٢] ، وبأىِّ سببٍ بنيت الرُّوميّة[٣] ولم سمِّيت بذلك ، ولم بَنَى كسرى على الخليج قُبالة قُسطنطينيَّة النَّواويس[٤] وبيوتَ النار . ولكن متى ظهرت الرُّوم على تُركِ خراسان ظهوراً مواليًا ، ضَربُوا بها المثل إلى آخر دارمسه[٥] ، ومَن هناك من الأشباه ، ومن يتخلّل هذا النسب .

وكانت خاتونُ بنت خاقانَ عند أبرويز فولدت له شِيرويه . وقد ملك شِيرَوَيه بعــد أبرويز ، فتزوَّج شيرويه مريم بنت قيصر ، فولدت له

---

(١) نسبة إلى ترمذ ، وكان قد أظهر دعوته بها . السمعانى ١٤٩ والفرق بين الفرق ١٩٩ والملل والنحل ١ : ١٠٩ . وقد قتل سنة ١٢٨ . البداية والنهاية ١٠ : ٢٧ ولسان الميزان ٢ : ١٤٢ . ويقال له أيضاً السمرقندى كما فى لسان الميزان . وفى الأصول : « البريدى » بالإهمال .

(٢) الذى فى معجم البلدان « شوشة » قال : قرية بأرض بابل .

(٣) هذه رومية المدائن ، وهى غير رومية الروم . انظر معجم البلدان (رومية) .

(٤) النواويس : جمع ناووس ، وهى مقابر النصارى .

(٥) كذا وردت هذه العبارة .

فيروزا شاهى[1] أمَّ يزيدَ الناقِص[2] والوليد. وكان يقول: ولدنى أربعة أملاك: كسرى، وخاقان، وقيصر، ومَرْوان. وكان يرتجز فى حُروبه التى قَتل فيها الوليد بن يزيد بن عاتكة:

أنا ابنُ كسرى وأبى خاقانْ　　وقيصرٌ جدِّى وجدِّى مَروانْ[3]

فلما صار إلى الافتخار فى شِعره بالنَّجدة والثقافة بالحرب، لم يفخر إلّا بخاقانَ فقط فقال:

فإنْ كنتُ أرمِى مُقْبِلًا ثم مُدبرا　　وأطلُع من طَودٍ زليق على مُهْرْ

خاقانُ جدِّى فاعرفى ذاكِ واذكرى　　أخابِرَهُ فى السَّهل والجبل الوعرِ[3]

٣٨ ظ

قوله « وأطلُع » يريد: وأنزل، وهى لغة أهل الشام[4] وأخذوها من نازلة العرب فى أوَّل الدهر. وجعل دابَّتَه مُهرًا، لأنَّ ذلك أشدُّ وأشقّ.

---

(١) فى الأصول: « فيروزا بنتاهى » تحريف. وفى الطبرى ٩ : ٤٦ أن اسمها « شاه آفريد بنت فيروز ».

(٢) هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان. الطبرى ٩ : ٢٢، ٤٦ قال: « وإنما قيل يزيد الناقص لنقصه الناس الزيادة التى زادهموها الوليد بن يزيد فى أعطياتهم وذلك عشرة عشرة ». وروى الطبرى أيضاً أنه سمى بذلك تلقيبا له من مروان ابن محمد، إذ سماه الناقص بن الوليد فسماه الناس الناقص لذلك. فهذا تعليل آخر. وفى أمثلة النحويين: « الناقص والأشج أعدلا بنى مروان ». والأشج: عمر ابن عبد العزيز، سمى بذلك لشجة أصابته.

(٣) فى الطبرى ٩ : ٤٦ :

أنا ابن كسرى وأبى مروان　　وقيصر جدى وجدى خاقان

(٣) ن، س: « أخايره ».

(٤) لم تسجلها المعاجم المتداولة ولا كتب الأضداد، لكنهم ذكروا طلع عنهم وعليهم بمعنى غاب واختفى. وطلع عنهم وعليهم بمعنى أقبل.

وقال الفضل بن العبّاس بن رَزِين : أتانا ذات يوم فُرسانٌ من التُّرك ، فلم يبق أحد ممن كان خارجًا إلّا دخَلَ حِصنَه وأغلقَ بابَه ، وأحاطوا بحصنٍ من ذلك الحُصون ، وأبصرَ فارسٌ منهم شيخًا يطّلع إليهم من فوق ، فقال له التركيّ : لئن لم تنزلْ إليّ لأقتُلنَّك قِتلةً ما قتلتُها أحدًا ! قال : فنزل إليه وفتح له الباب ، ودخلوا الحصن ، واكتسحوا كلَّ شيء فيه ، فضحِك من نُزوله إليه وفَتْحِه له وهو فى أحصنِ موضعٍ وأمنعِ مكان ، ثم أقبلَ به إلى حصنٍ أنا فيه فقال : اشتروه منّى . قلنا : لا حاجةَ لنا فى ذلك . قال : فإنّى أبيعُه بدرهمٍ واحد . فرمينا إليه بدرهمٍ فخلّى سبيله ، ثمّ أدبرَ عنا ومضى مع أصحابه ، فما لبث إلّا قليلًا حتّى عاد إلينا فوقفَ حيثُ نسمع كلامَه ، فراعنا ذلك ، فأخرجَ الدِّرهم من فمه وكسرهُ بنصفَين . وقال : لا يَسْوَى درهمًا[1] ، وهذا غَبنٌ فاحِش ، فخُذوا هذا النّصفَ ، وهو على كلِّ حالٍ غالٍ جدًّا بالنّصف الآخَر .

قال : فإذا هو أظرفُ الخلق .

قال : وكنّا نعرف ذلك الرجلَ بالجُبْن ، وقد كان سمِعَ باحتيال التُّرك فى دخول المُدن وعُبور الأنهار فى الحروب ، فتوهّم أنه لم يَتوعَّد بفتح الباب[2] .

وقال ثُمامة : ما شبّهتُ الذَّرَّ إلّا بالتُّرك ؛ لأنّ كُلَّ ذرّةٍ على حِدَتها معها من المعرفة بادّخار الطُّعم ، ومن الشّمّ والاسترواح ، ونَجْب المدَّخَر[3] حتّى

---

(١) أى لايساوى درهما . وقد أنكر هذه الكلمة أبو عبيد ، وحكاها أبو عبيدة كما فى اللسان (سوى ١٤٠) .

(٢) أى لم يكن كلامه وعيدا فحسب . وفى ن بعده : « إلا وعنده » ، ثم أكملها فان فلوتن بعبارة « شىء من ذلك » .

(٣) النجب : العض والقشر ، والمراد شق الحبوب . انظر الحيوان ٤ : ٥-٦ ، =

لا ينبُتَ فى جحره[١] ، ثم الاحتيال للناس فى الاحتيال لها بالصِّمامة والعِفاص والمزدجر[٢] ، وتعليق الطَّعام على الأوتاد والبَرَّادات ، مثل الذَّرِّ مع صاحبتها .

وقال أبو موسى الأشعريّ : كل جنسٍ يحتاج إلى أمير ورئيسٍ ومدبِّرٍ ، حتَّى الذرّ[٣] .

وروى أبو عُمَر الضَّرير[٤] ، أن رئيس الذَّرّ الرَّائدَ الذى يخرج أوّلا لِشىءٍ قد شَمَّه دونَ أصحابه ، لخصوصيّةٍ خَصَّه الله تعالى بها ، ولَطافة الحِسّ ، فإذا حاولَ حملَه وتعاطى نَقْلَه ، وأعجزهُ ذلك بعد أن يُبْلِىَ عُذرا ، أتاهنَّ فأخبرهنَّ فرجَع ، وخرجَتْ بعده كأنَّها خيطٌ أسودُ ممدود . وليست ذَرّةٌ أبدًا تستقبل ذَرّةً أخرى إلّا واقفَتْها وسارَّتْها بشىء ثم انصرفتْ عنها[٥] .

٣٩ و

وكذلك الأتراكُ كُلُّ واحدٍ منهم غير عاجزٍ عن معرفةِ مصلحة أمْره ، إلّا أنَّ التفاضل واجبٌ فى جميع أصناف الأشياء والنَّبات والمَوَات . وقد تختلف الجواهر وكلُّها كريم[٦] ، وتتفاضل العِتاق وكلُّها جَوَاد .

= ١٨ و ٧ : ٣٥ . وفى الأصل « يجسب » بإهمال الحرف الأول والثالث . وجعلها فان فلوتن : « وتجنب المزجر » .

(١) فى الأصل : « حتى لا يبيت إلا فى جحره » . والوجه ما أثبت . انظر التنبيه السابق ومراجعه .

(٢) فى الأصل : « والمودحر » .

(٣) انظر الحيوان ٤ : ١٩ ، ٢٠ .

(٤) وكذا ورد اسمه فى البيان ٢ : ٦٩ . وفى بعض نسخ البيان « أبو عمرو الضرير » وورد فى الحيوان ٤ : ٢٠ « أبو عمرو المكفوف » .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٧ — ٨ .

(٦) فى الأصل : « وكله كريم » .

وقد قلنا فى مناقب جميع الأصناف بجُمَل ما انتهى إلينا وبلغه عِلمُنا ؛ فإنْ وقعَ ذلك بالموافقة فبتوفيق الله وصُنْعه ، وإن قصَّر دون ذلك فالذى قصَّر بنا نُقصانُ عِلمنا ، وقلَّة حفظنا وسماعنا . فأمَّا حُسْنُ النِّيَّة ، والذى نُضمِر من المحبَّة والاجتهاد فى القُرْبة ، فإنا لا نرجع فى ذلك إلى أنفسنا بلائمة . وبين التقصير من جهة التفريط والتَّضييع ، وبين التقصير من جهة العَجز وضَعفِ العَزْم ، فرقٌ .

ولو كان هذا الكتاب من كتب المناقضات ، وكتب المسائل والجوابات ، وكان كلُّ صِنفٍ من هذه الأصناف يريد الاستقصاء على صاحبه ، ويكون غايته إظهارَ فَضْلِ نفسِه وإن لم يصل إلى ذلك إلّا بإظهار نقص أخيه ووليِّه[1] ، لكان كتاباً كبيراً ، كثيرَ الورق عظيما ، ولكان العددُ[2] الذين يقْضُون لمؤلِّفه بالعلم والاتِّساع فى المعرفة أكثرَ وأظهر ، ولكنَّا رأينا أنَّ القليل الذى يُجمع خيرٌ من الكثير الذى يفرَّق .

ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ، ونسأله العونَ والتسديد ، إنَّه سميع قريبٌ ، فعَّالٌ لما يريد .

تم الكتاب ولله المنة ، وبيده الحول والقوة

والله الموفق للصواب

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامُه وهو حسبُنا ونعم الوكيل .

---

(١) فى ن ، س : « وولده » .

(٢) فى ب : « عدد » .

٣

رسالة

المعاش والمعاد

أو

الأخلاق المحمودة والمذمومة

كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الرسالة من نسختين فى الأصل :

النسخة الأولى عنوانها : (رسالة أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك فى الأخلاق المحمودة والمذمومة) وهى ثانى رسالة فى مجموعة الأصل .

والنسخة الثانية عنوانها : (رسالة المعاد والمعاش فى الأدب وتدبير الناس ومعاملاتهم كتب بها إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دواد) وترتيبها فى المجموعة هو الرابع ، إذ يفصل بين النسخة الأولى والثانية رسالة أخرى هى (كتاب كتمان السر وحفظ اللسان) .

أما محمد بن عبد الملك الزيات فهو فى غنى عن التعريف ، وإن كنت قد عرفت به فى كتابى الحيوان والبيان .

وأما محمد بن أحمد بن أبى دواد فكان قاضياً كأبيه ، ولاه المتوكل على قضاء بغداد والأعمال بعد أن فالج أبوه سنة ٢٣٣ ، ثم عزله المتوكل سنة ٢٣٧ . وتوفى أبو الوليد محمد سنة ٢٣٩ ومات أبوه بعده بعشرين يوماً[1] .

والراجح أن الرسالة كتبها الجاحظ إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دواد ، لا إلى محمد بن عبد الملك ؛ لأنه يذكر فى صدرها أنه عرف المكتوب إليه هذه الرسالة « أيام الحداثة » . ولا ينطبق ذلك على محمد بن عبد الملك الزيات ، فقد كانت حياته بين سنتى ١٧٣ ، ٢٣٣ ولم تعرف صلة الجاحظ به إلا فى أيام سلطانه .

---

(١) تاريخ بغداد ١ : ٢٩٧ — ٣٠١ . وانظر لترجمة أبيه وإخوته جمهرة أنساب العرب ٣٢٨ وتاريخ بغداد ٤ : ١٤١ — ١٥٦ ووفيات الأعيان ١ : ٢٢ — ٢٦ . وقد انفرد ابن حزم بتسمية أبيه أحمد بن محمد بن أبى دواد .

وتجد ما يقتضى التسمية بالمعاش والمعاد فى ص ٩٥ س ١٧ .

وقد حققت هذه الرسالة على أربع نسخ :

١ — نسخة الأصل فى الموضع الأول من المجموعة .

٢ — نسخة الأصل فى الموضع الثانى من المجموعة ، ورمزها د .

٣ — نسخة المتحف البريطانى التى تمثلها مصورة الجامعة ، ورمزها م .

٤ — نشرة باول كراوس ومحمد طه الحاجرى ورمزها ط .

بسم الله الرحمن الرحيم

حَفِظَكَ اللهُ وأمتعَ بك [١]

أما بعدُ فإنَّ جماعاتِ أهل الحكمة قالوا : واجبٌ على كلِّ حكيمٍ أن يُحسِنَ الارتيادَ لموضع البُغْية ، وأن يبيِّن أسبابَ الأمور ويمهِّدَ لعواقبها . فإنَّما حُمِدت العلماء بحسن التثبُّت فى أوائل الأمور ، واستشفافِهم [٢] بعُقولهم ما تجيء به العواقب ، فيعلمون عند استقبالها ما تؤُول به الحالات فى استدبارها . وبقدر تفاوتهم فى ذلك تستبين فضائلهم . فأمَّا معرفةُ الأمورِ عند تكشُّفها وما يظهر من خَفيَّاتها فذاكَ أمرٌ يعتدل فيه الفاضل والمفضول ، والعالمون والجاهلون [٣] .

وإنِّى عرَفتك ـ أكرَمك الله ـ فى أيام الحداثة ، وحيث سُلطان اللَّهو المُخْلق للأعراض أغلبُ على نظرائك ، وسُكر الشباب والجِدَة [٤] المتحيِّفَين للدِّين والمرُوءة مستولٍ على لِدَاتك فاختُبِرت أنت وهم [ففقْتَهم [٥]] ببَسْطة المقدِرة وحُمَيَّا الحداثة ، وطَوْلِ الجِدَة ، مع ما تقدَّمتَهم فيه من الوسامة فى الصُّورة ، والجمال فى الهيئة . وهذه كلُّها أسبابٌ [تكاد أن [٦]] توجب

(١) « حفظك الله وأمتع بك » من د فقط .

(٢) د : « واستشراقهم » .

(٣) م : « والعالم والجاهل » .

(٤) الجدة ، كعدة : اليسار والسعة والغنى ، ومثلها الوجد مثلثة الواو : م : « الحدة » تصحيف .

(٥) التكملة من م .

(٦) التكملة من م .

الانقيادَ للهوى ، ولُججٌ من المهالك لا يَسلمُ منها إلاّ المنقطع القرين فى صحّة الفطرة ، وكمال العَقل . فاستعبدَتْهم الشّهواتُ حتى أعطَوها أزِمّة أديانهم ، وسلّطوها على مُروءاتهم وأباحوها أعراضَهم ، فآلت بأكثرهم الحالُ إلى ذُلّ العُدم وفقد عِزّ الغنى فى العاجل ، والنّدامة الطويلة والحسرةِ فى الآجل .

وخرجتَ نسيجَ وحدِك ، أوحديًّا فى عصرك[١] ، حكّمت وكيلَ الله عندَك ـ وهو عقلُك ـ على هواك ، وألقيتَ إليه أزمّةَ أمرك ، فسلَكَ بك طريقَ السّلامة[٢] ، وأسلمك إلى العاقبة المحمودة ، وبلغ بك من نيل اللذّات أكثرَ مما بلغوا ، ونال بك من الشّهوات أكثر مما نالوا ، وصرّفك من صنوف النِّعَم[٣] أكثر مما تصرّفوا ، وربطَ عليك من نِعَم الله التى خوّلك ما أطلقه من أيديهم إيثارُ اللّهو[٤] وتسليطُهم الهوى [على أنفسهم[٥]] ؛ فخاض بهم سُبُل تلك اللُّجج[٦] ، واستنقذَك من تلك المعاطب ، فأخرجكَ سليمَ الدِّين ، وافرَ المرُوءة ، نقيَّ العرض ، كثير الثّراء ، بيِّن الجِدَة[٧] . وذلك سبيلُ مَن كان ميله إلى الله تعالى أكثرَ من ميلهِ إلى هواه .

٤١ و

(١) هذا ما فى د . وفى الأصل و م : « نفسك » .

(٢) هذا ما فى د . وفى الأصل : « طرق » وفى م : « سبيل » .

(٣) هذا ما فى د ، م وفى الأصل : « التنعم » .

(٤) د : « إيثار الهوى » .

(٥) هذه من د .

(٦) فى الأصل ، م : « فخاض بك تلك اللجج » ، وأثبت ما فى د .

(٧) هذه الكلمة والتى قبلها ساقطتان من د . وفى الأصل ، م: « من الجدة » ،

فلم أزَلْ [أبقاك الله[1]] فى أحوالك تلك كلِّها بفضيلتك عارفاً ، ولك بنعَم الله عندك غابطاً ، أرى ظواهر أمورك المحمودةِ فتدعونى إلى الانقطاع إليك ، وأسأل عن بواطن أحوالك فتزيدنى رغبةً فى الاتِّصال بك ، ارتياداً منى لموضع الخِيَرة فى الأخوّة ، والتماساً لإصابة الاصطفاء فى المودّة ، وتخيُّراً لمستودع الرَّجاء فى النَّائبة .

فلمـا محضَتْك الخِبرةُ ، وكشَفَك الابتلاء عن المحمدة ، وقضَتْ لك التَّجارِبُ بالتَّقدِمة ، وشهدت لك قلوبُ العامَّةِ بالقَبول والمحبَّة ، وقطَع الله عُذْرَ كلِّ من كان يَطلُب الاتِّصالَ بك ، طابتُ الوسيلةَ إليك والاتِّصالَ بحبلك ، ومَتَتُّ بحُرمة الأدب وذِمام كرمك . وكان من نِعمة الله عندى أنْ جعل أبا عبد الله[2] ـ حفظه الله ـ وسيلتى إليك ، فوجدت المطلبَ سهلاً والمرَادَ محموداً ، وأفضيت إلى ما يجوز الأُمنيَّة ويفوت الأمل ، فوصلتَ إخاىَ[3] بمودَّتك ، وخَلطتَنى بنفسك ، وأسْمَتَنى فى مراعى ذوى الخاصَّة بك ، تفضُّلاً لا مجازاة ، وتطوُّلاً[4] لا مكافاة ، فأمِنت الخطوبَ ، واعتلَيتُ على الزَّمان ، واتخذتُك للأحداث عُدَّةً ، ومن نوائب الدهر حِصناً منيعاً .

فلمَّا حُزْتُ المؤانسة ، وتقلَّبت من فضلك فى صُنوف النِّعمة ، وزاد بصرى من مَواهبك فى السُّرور والخبْرة ، أردتُ خِبرةَ المشاهدة ، فبلوتُ

---

(١) التكملة من أحد أصول ط .

(٢) لعله يعنى أبا عبد الله أحمد بن أبى دواد .

(٣) د : « رجاى » .

(٤) د : « وتكرما » .

أخلاقك ، وامتنحت شِيَمَك ، وعجمت مذاهِبَك على حين غَفَلاتك ، وفى الأوقات التى يقلّ فيها تحفُّظك ، أراعى حركاتِك ، وأراقب مخارج أمْرِك ونَهْيك ، فأرى [من] استصغارِك لعظيم النِّعم التى تَنْعَم بها ، واستكثارِك لقليل الشُّكر من شاكِرِيك ، ما أعرف به[٢] [و] بما قد بلوت من غيرك ، وما قد شهدت لى به التَّجارِب ، أنَّ ذلك منك طبعٌ غير تكلُّف .

٤١ ظ

هيهاتَ ! ما يكاد ذو التكلُّف أن يَخَفَى على أهل الغَبَاوة[٣] ، فكيف على مثلى من المتصفِّحين. فزادتنى المؤانسة فيك رغبةً ، وطول العِشرة لك محبَّة ، وامتحانى أفاعيلَك لك تفضيلاً ، وبطاعتك دينونةً .

وكان من تمام شكرى لربِّى ولىِّ كلِّ نعمة ، والمبتدئ بكلِّ إحسان ، الشُّكرُ لك والقيامُ بمكافأتك بما أمكنَ من قولٍ وفعل[٤] ؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى نَظَم الشُّكر له بالشُّكر لذِى النِّعمة مِن خَلْقه ، وأبَى أن يقبلَهما إلاَّ معاً ؛ لأنَّ أحدهما دليلٌ على الآخَر ، وموصولٌ به . فمن ضَيَّع شكر ذى نعمةٍ من الخلق فأمْرَ الله ضَيَّع ، وبشاهده استخفّ[٥] .

ولقد جاء بذلك الخبرُ عن الطَّاهر الصادق صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من لم يشكر للناس لم يشكر لله » .

---

(١) التكملة من أحد أصول ط .

(٢) فى الأصل و د : « أعرف » فقط . والكلمة التى قبلها والتى بعدها من أحد أصول ط . وقد زدت الواو بعد هذه العبارة ليلتئم القول .

(٣) فى الأصل و د : « على الغباة » ولم يعرف هذا الجمع للغبى ، ولا هو مقيس . وأثبت ما فى م .

(٤) د : « وعمل » .

(٥) الشاهد : الدليل . فى الأصل : « وبشهادته » ، وأثبت ما فى د .

ولعمرى إنَّ ذلك لموجودٌ فى الفطرة، قائم فى العَقْل: أنَّ مَن كفر نِعَم الخَلْق كان لِنعمِ الله أكفر؛ لأنَّ الخلق يُعطى بعضُهم بعضاً بالكُلْفة والمشقَّة، وثِقَل العطية على القلوب، والله يعطى بلا كُلْفة. ولهذه العلّة جمع بين الشُّكر له والشكر لذوِى النِّعَم من خلقه.

فلما وجبت علىَّ الحجَّة بشُكرك، وقُطع عُذرى فى مكافأتك، اعترفتُ بالتقصير عن تقصِّى ذلك، إلاَّ أنِّى بسطتُ لسانى بتقريظك ونشرِ محاسنك. موصولٌ ذلك منِّى[1] عند السامعين بالاعتراف بالعجز عن إحصائها.

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: «من أُودع عُرفاً فليشكره، فإن لم يمكنه فلينشرهُ، فإذا نشره فقد شَكَره، وإذا كتمه فقد كَفَره».

ثم رأيت أنْ قد بقىَ علىَّ أمرٌ من الأمور يمكننى فيه برُّك، وهو عندى عَتيد، وأنت عنه غير مستغنٍ. والمنفعة لك فيه عظيمة عاجلة وآجلة إن شاء الله. ٤٢ و

ولم أزل أبقاكَ اللهُ بالموضع الذى قد عرفتَ[2]، من جَمْع الكُتب ودراستِها والنَّظَر فيها، ومعلومٌ أنَّ طُول دراستها إنَّما هو تصفُّح عقول العالمين، والعلمُ بأخلاق النبيِّين، وذوى الحكمة من الماضين والباقين من جميع الأمم، وكتبِ أهل الملل.

فرأيتُ أن أجمع لك كتاباً من الأدب، جامعاً لعلمٍ كثيرٍ من المَعاد والمعاش، أصِفُ لك فيه عللَ الأشياء، وأُخبِرُك بأسبابها وما اتَّفقت عليه محاسنُ الأمم.

---

(١) فى الأصل: «عندى» وأثبت ما فى د.

(٢) د: «علمت».

وعلمتُ أنَّ ذلك من أعظم ما أبرُّك به[١] ، وأرجح ما أتقرّبُ به إليك . وكان الذى حدانى على ذلك ما رأيتُ الله قَسَم لك من الفَهْم والعقل ، وركّب فيك من الطّبع الكريم .

وقد أجمعت الحكماء[٢] أنّ العقل المطبوع والكرمَ الغريزىّ لا يبلغان غايةَ الكمال إلاّ بمعاونة العقل المكتسَب . ومثّلوا ذلك بالنّار والحطب ، والمِصباح والدُّهن . وذلك أنّ العقل الغريزىّ آلة والمكتسَب مادّة ، وإنّما الأدبُ عَقلُ غيرِك تَزيده فى عقلك .

ورأيتُ كثيراً من واضعى الآداب قبلى قد عَهِدوا إلى الغابرين[٣] بعدَهم فى الآداب عُهوداً قاربوا فيها الحقّ ، وأحسنوا فيها الدلالة ، إلاّ أنّى رأيت أكثرَ ما رسَموا من ذلك فروعاً لم يبيّنوا عللَها ، وصفاتٍ حسنةً لم يكشفوا أسبابها ، وأموراً محمودة لم يدلّوا على أصولها .

فإنْ كان ما فعلوا من ذلك [رواياتٍ روَوها عن أسلافهم ، و[٤]] وراثاتٍ وَرِثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلةَ من استنبط[٥] . وإنْ كانوا تركوا الدّلالة على عِلل الأمور[٦] التى بمعرفة عللها[٧] يُوصل إلى

(١) د : « أسرك به » .
(٢) م : « وقد اجتمعت الحكماء على » .
(٣) د : « الغابر » .
(٤) التكملة من د ، م .
(٥) د . « يستنبط » . م : « استطب » .
(٦) هذا مافى الأصل و م . وفى د : «على أعيان الأمور» .
(٧) د : « اللاتى على معرفة عللها » . وفى الأصل : « التى فى معرفة عللها » وأثبت ما فى م .

مباشرة اليقين فيها ، وينتهى إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يَغدُوا فى ذلك منزلة الظنّ بها . ولن تجدوا وصايا أنبياء الله أبداً إلّا مبيّنة الأسباب ، مكشوفة العِلل ، مضروبةً معها الأمثال .

٤٢ ظ

فألّفت لك كتابى هذا إليك ، وأنا واصفٌ لك فيه الطبائعَ التى رُكّب عليها الخلق ، وفُطرت عليها البَرايا كلُّهم ، فهم فيها مستوون[١] ، وإلى وجودها فى أنفسهم مضطرُّون ، وفى المعرفة بما يَتولّد عنها متّفقون .

ثمّ مبيِّنٌ لك كيف تفترق بهم الحالات ، وتَفاوَتُ[٢] بهم المنازل ، وما العلل التى يُوجب بعضُها بعضا ، وما الشىء الذى يكون سببًا لغيره ، متى كانَ الأوّلُ كان ما بعدَه ، وما السّبب الذى لا يكون الثّانى فيه إلّا بالأوّل ، وربّما كان الأول ولم يكن الثانى . وفرقَ ما بين الطّبع الأول وبين الاكتساب والعادةِ التى تصير طبعًا ثانيا . ولِمَ اختلفَ ذلك ؟ وكيف دواعى قلوبِ الناس ، وما منها يمتنعون عنه ، وما منها لا يمتنعون منه . وما أسباب نوازع شهواتهم ؟ وما الشّىء الذى يُحتال لقلوبهم به حتى تُستمال ، وحتى تُؤنَس بعد الوَحْشة ، وتَسكن بعد النّفار ؟ وكيف يُتأتّى لينْقَضَ[٣] ما فيهم من الطبائع المذمومة حتّى تُصرف إلى الشِّيَم المحمودة ؟ وراسمٌ لك فى ذلك أصولًا ، ومبيِّن لك مع كلّ أصل منها علّتَه وسببَه .

---

(١) فى الأصل : « متساوون » وأثبت ما فى د .

(٢) أى تتفاوت ، بحذف إحدى التاءين وفى د : « وتتفاوت » .

(٣) د : « لنقض » .

وقد علمتَ أنَّ فى كثيرٍ من الحقّ مشبّهات لا تُستبان إلّا بعد النظر ، وهناك يَختِل[١] الشّيطانُ أهلَ الغفلة ، وذاك أنّه لا يجد سبيلا إلى اختداعهم عن الأمور الظاهرة[٢] .

فلم أدَعْ من تلك المواضع الخفيّة موضعًا إلّا أقمتُ لك بإزاء كلّ شبهة منه دليلًا[٣] ، ومع كلّ خفىٍّ من الحقّ حجّةً ظاهرة ، تَستنبط لها غوامضَ البرهان وتَستبين بها دقائق الصّواب[٤] ، وتَستشِفّ بها سرائرَ القلوب ، فتأتى ما تأتى عن بيِّنة ، وتَدَع ما تدعُ عن خِبرة ، ولا يكون بك وحشةٌ إلى معرفةِ كثيرٍ مما يغيب عنك ، إذا عرفت العلل والأسباب ، حتّى كأنك مشاهدٌ لضمير كلِّ امرئٍ ، لمعرفتك بطبعه وما ركّب عليه ، وعوارض الأمور الداخلة عليه ثَمَّ ؛ غيرَ راضٍ لك بالأصول حتّى أتقصّى لك ما بلغَـه علمى من الفروع . ٤٣ و ثم لا أرسم لك من ذلك [إلّا[٥]] الأمرَ المعقول فى كل طبيعة ، والموجودَ فى فِطر البرايا كلِّها[٦] . فإنْ أحسنتَ [رعايةَ[٧]] ذلك وأقمته على حُدوده ، ونزّلتَه منازلَه ، كان عمرُكَ ـ وإن قَصُرت أيّامُه ـ طويلا ، وفارقتَ ما لا بدّ لك من فراقه محموداً ، إن شاء الله .

---

(١) فى الأصل : « يخيل » صوابه فى د . ويختل : يخدع .

(٢) فى الأصل : « عن الأمر الظاهر » ، وأثبت ما فى د .

(٣) كلمة « منه » ليست فى الأصل ، وإثباتها من م وفى د : « منها دليلا » .

(٤) هذا ما فى د . وفى الأصل : « دقائق الصواب » .

(٥) التكملة من د .

(٦) فى الأصل : « فى فطرة » ، وأثبت ما فى د .

(٧) التكملة من د .

واعلم أنَّ الآدابَ إنَّما هى آلاتٌ تَصلُح أن تُستعمَل فى الدِّينِ وتُستعمَلَ فى الدنيا ، وإنَّما وُضعت الآداب على أصول الطبائع . وإنَّما أصول أمور التدبير فى الدِّين والدُّنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملةُ فى الدِّين فسَدتْ فيه المعاملةُ فى الدنيا ، وكلُّ أمرٍ لم يصحَّ فى معاملات الدُّنيا(١) لم يصح فى الدِّين . وإنَّما الفرق بين الدين والدُّنيا اختلافُ الدارين من الدُّنيا والآخرة فقط ، والحكم ها هنا الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ، ولا ثبتت دولة ، ولا استقامت سياسة . ولذلك قال الله عزَّ وجل : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا(٢) ﴾ ، قال ابن عباس فى تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يَعرف به كيف دُبِّرت أمور الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدِّين ، فإنّما ينتقل بذلك العقل . فبقدْر جهله بالدُّنيا(٣) يكون جهلُه بالآخرة أكثر ؛ لأن هذه شاهدةٌ وتلك غَيب(٤) ؛ فإذا جهل ما شاهَد فهو بما غاب عنه أجهل .

فأوّلُ ما أُوصيك به ونفسى تقوى الله ؛ فإنّها جِماعُ كلِّ خير ، وسببُ كلِّ نجاة ، ولِقاح كلِّ رشد . هى أحرزُ حرزٍ ، وأقوى مُعين ، وأمنَع جُنَّة . هى الجامعةُ محبة قلوب العباد(٥) ، والمستقبلةُ بك محبّةَ قلوبِ من لا تَجرى عليهم

---

(١) د : « فى معاملة الدنيا » .

(٢) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .

(٣) فى النسخ : « فى الدنيا » ، والوجه ما أثبت .

(٤) الشاهدة : نقيض الغائبة .

(٥) فى الأصل : « قلوب محبة العباد » ، صوابه فى د .

نعمك(١). فاجعلها عدّتك وسلاحك(٢)، واجعل أمر الله ونهيه نُصب عينيك.

٤٣ ظ وأحذّرك ونفسي اللهَ والاغترار به، والإدهان في أمره، والاستهانة بعزائمه، والأمنَ لمكره؛ فقد رأيتَ آثاره(٣) في أهل وِلايته وعداوته، كيف جعلهم للماضين عِبرةً، وللغابرين مثلا.

واعلم أنّ خَلْقه كلّهم بَرِيّتُه، لا وُصْلةَ بينه وبين أحدٍ منهم إلّا بالطاعة، فأولاهم به أكثرهم تزيُّدًا في طاعته، وما خالفَ هذا فإنّه أمانيّ وغُرور.

وقد مكّن الله لك من أسباب المقدرة، ومَهّدَ لك في تمكين الغنى والبَسْطة ما لم تَنْحَله بحيلة(٤)، ولا بلغْتَه بقوّة(٥)، لولا فضله وطَوله. ولكنّه مكّنك ليبلو خُبْرك، ويختبر شُكرك، ويحصيَ سعيَك، ويكتب أثَرَك، ثم يوفّيك أجرَك، ويأخُذَك بما اجترحَتْ يدُك أو يَعفوَ؛ فأهلُ العفو هو.

ولله ابتلاءانِ في خَلْقه — والابتلاء هو الاختبار — ابتلاء بنعمة، وابتلاء بمصيبة. وبِقَدر عظمها يجب التّكليف من الله عليها(٦)؛ فبقدر ما خَوّلك من النعمة يستأديك الشُّكر(٧).

---

(١) كلمة «محبة» ساقطة من الأصل، وإثباتها من د.

(٢) د: «عونك وسلاحك».

(٣) د: «أثره».

(٤) تنحله، من النحلة وهي العطية. د: «ما لم تنله بحيلة».

(٥) في الأصل: «ولم تلقنه بقوة»، وأثبت ما في د.

(٦) د: «وبقدر عظمهما يجب التكليف عليهما».

(٧) استأداه المال ونحوه: استخرجه منه وطلب أداءه.

ولو تقصّى الله على خلقه لعذّبهم؛ ولذلك قال: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ[1] ﴾. ولكنّه قَبِل التوبة، وأقالَ العَثرة، وجعل بالحسنة أضعافَها.

واعلمْ أنّ الحكم في الآخرة هو الحكمُ في الدُّنيا: ميزانُ قِسط، وحكمُ عدل. وقد قال الله تعالى: ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ[2] ﴾.

وهذا مثَلٌ ضرَبَه الله؛ لأنّ الناس يعلمون أن لو وضع في إحدى كِفّتَي الميزان شيء ولم يكُ في الأخرى قليلٌ ولا كثير، لم يكنْ للوزنِ معنًى يُعقَل. وذلك أن أحدًا من الخلْق لا يخلو من هَفوةٍ أو زَلّة أو غَفلة؛ فأَخبرَ أنّ من كان حسناتُه الراجحةَ على سيئاته، مع النَّدَم على السّيئات، كان على سبيل النجاة، وطريق الفوز بالإفلاح. ومن مالت سيّئاته بحسناته كان العطبُ والعذاب أولَى به.

٤٤ و

وكذلك حكمُه في الدنيا؛ لأنّه قد تولّى أولياءَ من خلقــه وشَهِد لهم بالعدالة، وقد عاتبَهم في بعض الأمور لغلبة الصّلاح [في أفعالهم وإن هفَوا، وتبرّأ من آخرين وعاداهم لغلبة الجور[3]] على أفاعيلهم[4]، وإن أحسَنوا في بعض الأمور.

---

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر.

(٢) الآية ١٠٢ — ١٠٣ من سورة المؤمنون.

(٣) التكملة من د.

(٤) د: « على أفعالهم ».

وكذلك جَرتْ معاملاتُ الخَلْق بينهم ، يُعدِّلون العادلَ بالغالب من فعله وربَّما أساء ، ويفسِّقون الفاسق وربَّما أحسن . وإنما الأمورُ بعواقبها ، وإنَّما يُقضَى على كلِّ امرئٍ بما شا كَلَ أحوالَه .

فهذه الأمورُ قائمةٌ فى العقول ، جرت عليها المعاملة ، واستقامت بها السياسة ، لا اختلافَ بين الأمَّة فيها .

فلا تُغبَنَنَّ حَظَّك من دِينك[١] ، وإن استطعتَ أن تبلغ من الطَّاعة غاياتِها فلنَفْسك تُمهِّد ، وإلَّا فاجهَدْ أن يَكون أغلبُ أفعالك عليك الطَّاعةَ[٢] ، مع النَّدامة عند الإساءة ، ويكون ميلُك عند الإساءة ، إلى الله أكثر . والله يوفِّقك .

اعلمْ أنَّ اللهَ جلَّ ثناؤه خَلَق خلْقه ، ثمَّ طبعهم على حبِّ اجترار المنافع[٣] ، ودفع المضارّ ، وبُغض ما كان بخلاف ذلك[٤] . هذا فيهم طبعٌ مركَّب ، وجِبلَّة مفطورة ، لا خلافَ بين الخلْق فيه ؛ موجودٌ فى الإنس والحَيوان ، لم يدَّعِ غيره مدَّعٍ من الأوَّلين والآخِرين . وبقدر زيادةِ ذلك ونُقصانه تزيد المحبَّة والبغضاء ؛ [فنقصانُه[٥]] كزيادته تميل الطَّبيعة معهما[٦] كميل كِفَّتى الميزان ، قلَّ ذلك أو كثُر .

---

(١) فى الأصل : « فلا تعتبر » ، صوابه فى د .

(٢) فى الأصل : « أفاعيلك الطاعة » ، وأثبت ما فى د .

(٣) اجترار المنافع : اجتلابها . وكلمة « حب » ساقطة من د .

(٤) فى الأصل : « ونقص من كان » ، صوابه فى د .

(٥) تكملة ضرورية ليتزن بها الكلام .

(٦) فى الأصل ، د : « معها » .

وهاتان جملتان داخلٌ فيهما جميع مَحَابّ العباد ومَكارههم . والنَّفس في طبعها حبُّ الرَّاحة والدَّعة ، والازدياد والعلوّ ، والعِزّ والغَلَبة ، والاستطراف والتَّنُوق[١] ، وجميع ما تستلذ الحواسُّ من المناظر الحسنة ، والروائح العَبِقة ، والطُّعوم الطَّيِّبة[٢] ، والأصوات المونقة ، والملامس اللَّذيذة . ومما كراهيتُه[٣] في طباعهم أضدادُ ما وصفتُ لك وخلافه .

فهذه الخلالُ التي تجمعها خَلتان[٤] غرائز في الفِطَر ، وكوامن في الطَّبع ؛ جِبِلَّةٌ ثابتة ، وشيمة مخلوقة . على أنَّها[٥] في بعضٍ أكثرُ منها في بعض ، ولا يعلم قدرَ القلَّة فيه والكثرة إلَّا الذي دبَّرهم .

٤٤ ظ

فلمَّا كانت هذه طبائعهم ، أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم ، وجعل في ذلك مَلاذَّ لجميع حواسِّهم ، فتعلَّقت به قلوبُهم ، وتطلَّعت إليه أنفسهم . فلو تركَهم وأصلَ الطبيعة ، مع ما مكَّن لهم من الأرزاق المشتهاة في طبائعهم ، صاروا إلى طاعة الهوى ، وذهب التعاطف والتبارّ . وإذا ذهَبا كان ذلك سببًا للفساد ، وانقطاعِ التَّناسل ، وفناء الدُّنيا وأهلها ؛ لأنَّ طَبْع النفس لا يسلُس بعطيَّةِ قليلٍ ولا كثيرٍ مما حَوته ، حتَّى تعوّض أكثر مما تُعطِي ، إمَّا عاجلًا وإما آجلًا مما تستلذُّه حواسُّها .

(١) التنوق في الشيء : التجود والمبالغة فيه ، مثل التأنق . وفي النسختين : « التلون » ، وقد ارتضيت هذا التصحيح من ناشر ط .

(٢) في الأصل : « والطعم ذو الطيبة » ، وأثبت ما في د .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « كراهته » .

(٤) يعني : « المحاب والمكاره » . وفي د : « التي وصفت لك تجمعها خلتان » . ولا وجه لهذه الزيادة .

(٥) د : « إلا أنها » .

فعلِمَ اللهُ أنَّهم لا يتعاطفون ولا يتواصلون ولا ينقادون[١] إلاَّ بالتأديب ، وأنَّ التأديب ليس إلاَّ بالأمر والنَّهى ، [وأنَّ الأمر والنهى[٢]] غير ناجعَين فيهم إلاَّ بالترغيب والترهيب اللذَين فى طباعهم[٣] . فَدعاهم بالتَّرغيب إلى جَنّته ، وجعلها عوضاً ممَّا تركوا فى جنب طاعته[٤] ، وزجَرهم بالتَّرهيب بالنار عن معصيته ، وخوَّفهم بعقابها على ترك أمره . ولو ترَكهم جلَّ ثناؤه والطِّباعَ الأوَل[٥] جرَوْا على سَنَن الفِطرة ، وعادة الشِّيمة[٦] .

ثم أقامَ الرَّغبة والرَّهبةَ على حدود العَدل ، وموازين النَّصَفة ، وعدَّلهم تعديلاً متَّفقا ، فقال : ﴿ فمن يَعْمل مِثقالَ ذَرّةٍ خيراً يَرَهُ . ومَن يَعمل مِثقالَ ذَرّةٍ شرّاً يره[٧] ﴾ .

ثم أخبر الله تبارك وتعالى أنَّه غير داخلٍ فى تدبيره الخللُ ، ولا جائزٌ عنده المحاباة ؛ ليعملَ كلُّ عاملٍ على ثقةٍ ممَّا وعَده وواعَده ، فتعلَّقت قلوبُ

---

(١) ولا ينقادون ، ساقطة من د .

(٢) التكملة من د .

(٣) د : « طبائعهم »

(٤) فى الأصل : « طاعتهم » ، وأثبت ما فى د .

(٥) الطباع : الطبيعة والسجية . قال الزجاجى : «الطباع واحد مذكر كالنحاس والنجار » ، يعنى بكسر أولها . انظر اللسان (طبع) . وفى د : « والطبع الأول » ، وكلاهما متجه .

(٦) م : « وعادات الشيمة » .

(٧) الآية ٧ — ٨ من سورة الزلزال .

العباد بالرغبة والرّهبة ، فاطّرَدَ التدبير ، واستقامت السّياسة ، لموافقتهما[١] ما فى الفِطرة ، وأخذهما بمجامع المَصلحة .

ثمّ جعلَ أكثر طاعته فيما تَستثقل النفوس ، وأكثرَ معصيته فيما تَلَذّ . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « حُفَّت الجنة بالمكاره ، والنّارُ بالشهوات[٢] » . [يخبر أنّ الطريق إلى الجنّة احتمال المكاره ، والطريق إلى النار اتباع الشهوات[٣]] .

فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلاّ بما وصفتُ لك من الرّغبة والرّهبة ، فأعجزُ الناسِ رأياً وأخطؤهم تدبيراً ، وأجهلُهم بموارد الأمور ومصادرها ، من أمّل أو ظنّ أورجا أنّ أحداً من الخلْق ـ فوقه أو دونه أو من نظرائه[٤] ـ يصلح له ضميره ، أو يصحّ له بخلاف مادبرهم الله عليه ، فيما بينه وبينهم .

٤٥ و

فالرّغبة والرّهبة أصلاَ كلّ تدبير ، وعليهما مدار كلّ سياسة ، عظُمتْ أو صغُرت . فاجعلْهما مِثالَك الذى تحتذِى عليه ، وركنَك الذى تستنِد إليه . واعلمْ أنّك إن أهملت ما وصفتُ لك عرّضتَ تدبيرك للاختلاط .

---

(١) يعنى الرغبة والرهبة . وفى الأصل : « لموافقتها » ووجهه من د .

(٢) رواه مسلم والترمذى وأحمد عن أنس ، ومسلم أيضاً عن أبى هريرة . الجامع الصغير ٢٧٣٢ .

(٣) التكملة من د .

(٤) فى الأصل : « أو من يظن أن » مع سقوط هذه العبارة من د ، وصوابها ما رأيت . وانظر ما سيأتى .

وإنْ آثرتَ الهُوينا واتّكلت على الكُفاةِ فى الأمر الذى لا يجوز فيه إلاّ نظرك ، وزجّيت أمورك على رأىٍ مدخول ، وأصلٍ غيرِ محكَم ، رجع ذلك عليك بما لو حُكِّم فيك عدوُّك كان ذلك غاية أمنيّته ، وشفاء غيظه .

واعلم أنّ إجراءك الأمورَ مجاريَها ، واستعمالَك الأشياء على وجوهها ، يجمع لك ألفةَ القلوب ، فيعاملك[١] كلٌّ من عاملَك بمودّةٍ ، أو أخْذ أو إعطاء ، وهو على ثقةٍ من بَصَرك بمواضع الإنصاف[٢] ، وعلمك بموارد الأمور .

واعلم أنّ أثرتَك على غير النصيحة والشّفقة ، والحُرمة والكِفاية ، يوجب [لك[٣]] المباعدةَ وقلّة الثقة ممن آثرته أو آثرتَ عليه .

فاعرِف لأهل البَلاء — ممّن جرت بينك وبينه مودّةٌ أو حرمة ، ممن فوقَك أو دونك أو نظرائك — أقدارَهم ومنازلهم . ثمّ لتكنْ أمورُك معهم على قدر البلاء والاستحقاق ، ولا تُؤثر فى ذلك أحداً لهوًى[٤] ؛ فإنّ الأثَرة على الهوى توجب السُّخطة ، وتُوجب استصغار عظيم النِّعمة ، ويُمحَق بها الإفضال ، وتَفسد عليها[٥] الطائفتان : مَن آثرتَ ومن آثرت عليه .

أما من آثرت[٦] فإنّه يعلم أنّك لم تُؤثره باستحقاقٍ بل لهوًى ، فهو

---

(١) فى الأصل : « ويعاملك » والوجه من د .

(٢) د : « بمواقع الإنصاف » .

(٣) التكملة من د .

(٤) د : « بهوى » .

(٥) فى الأصل : « بها » وأثبت ما فى د .

(٦) د : « آثرته » فى هذا الموضع وسابقه .

مترقِّبٌ أن ينتقل هواكَ إلى غيره، فتحول أثرتك حيث مال هواكَ. فهو مدخولُ القلْب فى مودَّتك، غير آمنٍ لتغيُّرك.

وأمَّا من آثرتَ عليه بعد الاستحقاق منه، فقد جعلتَ له السبيلَ إلى الطَّعن عليك، وأعطيتَه الحُجَّة على نفْسِك. فكلُّ من يعمل على غير ثقةٍ عاد ما أراد به النَّفعَ ضرراً، والإصلاح [فيه[1]] فساداً.

٤٥ ظ

وربَّما آثَر الرجلُ المرءَ من إخوانه بالعطية السنيَّة على بلاء أبلاه[2]، فيعظمُ قدرُها[3] عنده حتَّى لعلَّه تطيبُ نفسُه ببذل مالِه ودمِه دونَه[4]. فإنْ أعطى من أبلى كبلائه وكانت له مثل دالَّته[5]، أكثرَ ممَّا أعطاه، انتقل كلُّ محمودٍ من ذلك مذموماً، وكل مستحسَنٍ مستقبحاً. وكذلك الأمر فى العقوبة، يجريان مجرى واحداً.

فاجعل العدلَ والنَّصَفة فى الثَّواب والعقاب حاكمًا بينك وبين إخْوانك، فمن قدَّمت منهم فقدِّمْه على الاستحقاق، وبصحة النِّيَّة فى مودته، وخلوص نصيحته لك ممَّا قد بلوتَ من أخلاقه وشيمه[6]، وعلمتَ بتجربتك له، أنَّه يعلم أنَّ صلاحَه موصولٌ بصلاحك، وعطبَه كائن مع عطبك، ففوِّض

---

(١) التكملة من د.

(٢) فى الأصل: « بلا بلاء أبلاه »، والوجه من د.

(٣) فى الأصل: « قدرها »، صوابه من د.

(٤) د: « ونفسه دونه ».

(٥) فى الأصل: « دلالته »، صوابه فى د.

(٦) فى الأصل: « ممن قد بلوت فى أخلاقه وشيمه »، والوجه من د.

الأمرَ إليه ، وأشرِكْه فى خواصِّ أمورِك وخفىِّ أسرارك ، ثمَّ اعرفْ له قدرَه فى مجلسك ومُحاورتك[(١)] ومعاملاتك ، فى كلِّ حالاتك ومزاولاتك فى خلواتك معه[(٢)] ، وبحضرةِ جُلسائك ؛ فانَّ ذلك زيادة فى نيته ، وداعيةٌ[(٣)] لمَنْ دونه إلى التقرُّب إليك بمثل نصيحته .

فإن ابتُليتَ فى بعض الأوقات بمن يَضْرِب بحرمة[(٤)] ويمتُّ بدالّة ، يطلب المكافأةَ بأكثر ممَّا يستوجب ، فدعاك الكرمُ والحياء إلى تفضيله على من [هو[(٥)]] أحقُّ منه ، إمّا تخوُّفًا من لسانه[(٦)] ، أو مداراةً لغيره ، فلا تَدع الاعتذارَ إلى من فوقَه من أهل البَلاَء والنَّصيحة وإظهارَ ما أردتَ من ذلك لهم ؛ فإنَّ أهلَ خاصَّتك والمؤتَمنِين على أسرارك ، هم شركاؤك فى العيش ، فلا تَستهِينَنَّ بشىء من أمورهم ؛ فإنَّ الرجلَ قد يترك الشىء من ذلك اتِّكالاً على حسن رأى أخيه[(٧)] ، فلا يزال ذلك يجرح فى القلب وينمو ، حتَّى يولِّد ضِغْناً ويَحُولَ عداوة .

فتحفَّظْ من هذا الباب ، واحملْ إخوانك عليه بجهدك .

---

(١) د : « ومحادثتك » .

(٢) فى الأصل : « ومزاولتك » . والكلام بعد « معاملتك » إلى هنا ساقط من د .

(٣) د : « فإن ذلك زائد فى نيته وداع » .

(٤) د : « يتقرب بحرمة » .

(٥) التكملة من د .

(٦) د : « تخوفا » بدل « خوفاً » .

(٧) فى الأصل : « أموراً لا على رأى أخيه » ، صوابه فى د .

وستجد فى من يتّصل بك من يغلبه إفراط الحِرص وحُمَيّا الشَّره ، ولينُ جانبك له ، على أن ينقِم العافية ، ويطلُب اللُّحوق بمنازلِ مَن ليس هو ٤٦ و مثلَه[1] ، ولا له مثلُ دالّتِه ، فتلقاه لما تصنع به مستقِلاًّ ، ولمعروفك مُستصغِراً . وصلاح من كانت هذه حالَه بخلافِ ما فسَد عليه أمرُه . فاعرفْ طرائقهم وشِيَمهم ، وداوِ كلَّ مَن لا بدَّ لك من معاشرته بالدواء الذى هو أنجعُ فيه ، إنْ ليناً فليناً ، وإنْ شدّةً فشدّة ؛ فقد قيل فى المثل :

من لا يؤدّبُه الجميـ ـلُ ففى عقوبته صلاحُه

وقد قال بعضُ الحكماء :

« ليس بحكيمٍ من لم يعاشرْ من لا يجد من معاشرته بُدًّا[2] ، بالعدل والنَّصفة ، حتّى يجعل الله له من أمره فرجا ومخرجا[3] .

فاحفظْ هذه الأبوابَ التى يُوجب بعضها بعضًا ، وقد ضمِنتُ لك أوائلُها كونَ أواخرها . فاعرفْها واقتبسْها ، واعلم أنّه متى كان الأوّلُ منها وجبَ ما بعده لا بدَّ منه . فاحذر المقدّمات اللاتى يعقبها المكروه[4] ، واحرِص على توطيد الأمور التى على أثَرها السّلامة ، وألقِحْ فى البدىء الأمورَ التى نِتاجُها العافية[5] .

---

(١) د : « ويطلب اللحاق بمنازل من ليس مثله » .

(٢) د : « من لم يعاشر من لا بد من معاشرته » .

(٣) هذا ما فى د . وفى الأصل : « حتى يجعل الله له فرجاً » فقط .

(٤) د : « التى » .

(٥) البدىء : الأول . فى الأصل : « والفتح فى يدى » صوابه فى د . وفى د : « أموراً نتاجها العافية » . وفى الأصل : «ونتائجها» .

فمن الأمور التى يُوجب بعضُها بعضًا : المنفعةُ توجب المحبّة ، والمَضرّة توجب البغضاء[١] ، والمُضادّة توجب العداوة ، وخلافُ الهوى يُوجب الاستثقال ، ومتابعتُه توجب الأُلفة ، والصِّدقُ يوجب الثِّقة ، والكذب يُورث التُّهمة[٢] ، والأمانة توجب الطُّمأنينة ، والعدل يوجب اجتماع القُلوب ، والجور يوجب الفُرقة ، وحسن الخلق يُوجب المودّة ، وسوء الخلق يوجب المباعدة[٣] ، والانبساط يوجب المؤانسة ، والانقباض يوجب الوحشة ، والتكبُّر[٤] يوجب المقت ، والتواضُع يوجب المِقَة ، والجود بالقصد يوجبُ الحمد[٥] ، والبخل يوجب المذَمّة ، والتوانى يوجب التَّضييع ، والجدّ يوجب رخَاء الأعمال ، والهُوَينا تورث الحسْرة ، والحزم يورث السُّرور ، والتَّغرير يُوجِب النَّدامة ، والحذر يوجب العُذْر ، [وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة[٦]] والاستهانة توجب التَّباغِى ، والتَّباغى مقدِّمة الشَّر[٧] وسببُ البَوَار . ٤٦ ظ

ولكلّ شىء من هذا إفراط وتقصير[٨] ، وإنّما تَصحّ نتائجها إذا أُقيمت على حدودها ، وبقدر ما يدخل مِن الخلل فيها يدخُل فيما يتولّد منها ، لا بدّ منه

---

(١) د : « لبغضة » .

(٢) فى الأصل : « النميمة » ، صوابه فى د .

(٣) د : « التباعد » .

(٤) د : « والكبر » .

(٥) د : « والجود والفضل يوجبان الحمد » . ولا يتساوق هذا مع سائر الأسلوب .

(٦) التكملة من د .

(٧) د : « مقدمات الشر » .

(٨) هذا ما يعبر عنه الأخلاقيون بمذهب الوسط .

ولا مَزْحَل عنه ، عليه عادةُ الخلق ، وبه جرَتْ طبائعهم ، وتمام المنفعة بها إصابةُ مواضعها :

فالإفراط فى الجود يوجب التَّبذير ، والإفراط فى التواضع يوجب المذلَّة[1] ، والإفراط فى الكبر يدعو إلى مقت الخاصّة[2] ، والإفراط فى المؤانسة يدعو خلطاء السُّوء[3] ، والإفراط فى الانقباض يوحش ذا النَّصيحة . وآفة الأمانة ائتمان الخَانة[4] ، وآفة الصِّدق تصديق الكَذَبة ، والإفراط فى الحذر يدعو إلى ألاّ يُوثَق بأحد ؛ وذاك ما لا سبيل إليه . [والإفراط فى المضرّة مَبعثةٌ على حربك[5]] ، والإفراط فى جرّ المنفعة غَناءٌ لمن أفرطتَ فى نَفعِه عَنك .

واحذرْ كل الحذر أن يختدعَك الشيطانَ عن الحزْم[6] فيمثِّلَ لك التَّوانىَ فى صورة التوكُّل ، ويسلبَك الحذر ، ويُورثَك الهُوَينا بإحالتك على الأقدار ؛ فإنَّ الله إنَّما أمر بالتوكُّل عند انقطاع الحِيَل ، والتسليم للقَضاء بعد الإعذار ، بذلك أنزلَ كتابَه ، وأمْضَى سُنَّته فقال : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُم[7] ﴾ ،

---

(١) فى الأصل : « يورث المذلة » ، وأثبت ما فى د .

(٢) فى الأصل : « يدعو العقب الخاصة » ، صوابه فى د .

(٣) بعده فى الأصل : « والإفراط فى الحذر يدعو إلى أن لا يثق بأحد » ، وهو تكرار لما سيأتى مما اتفقت عليه النسختان .

(٤) الخانة : جمع خائن ، وفى اللسان : «والجمع خانة وخونة ، الأخيرة شاذه» . ونظير هذه الأخيرة فى الشذوذ حائك وحوكة .

(٥) التكملة من د .

(٦) هذا ما فى د . وفى الأصل : « الحرص » .

(٧) الآية ٧١ من سورة النساء .

﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ[1] ﴾ . وقولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « اعْقِلْها وتوكَّلْ[2] » . وسُئل ما الحَزْم ؟ فقال : الحَذَر[3] .

فتحفَّظْ من هذا الباب وأحكِمْ معرفتَه إن شاء الله تعالى .

واعلمْ أنَّ أكثر الأمور إنَّما هو على العادة وما تَضْرَى عليه النُّفوس ، ولذلك قالت الحكماء : « العادةُ أملَكُ بالأدب »

فرُضْ نفسَك على كلِّ أمرٍ محمود العاقبة ، وضرِّها بكلِّ ما لا يُذَمّ من الأخلاق[4] يَصِرْ ذلك طِباعا[5] ، ويُنسب إليك منه أكثرُ ممّا أنت عليه .

واعلم أنَّ الذى يُوجب لك اسمَ الجود القيامُ بواجب الحقوق عند النَّوائب ، مع بعضِ التفضُّل على الراغبين . وإذا أُوجِبَ[6] لك اسمُ الجود زالَ عنك اسمُ البخل .

٤٧ و واعلم أنَّ تثمير المال آلةٌ للمكارم ، وعونٌ على الدِّين ، ومُتألَّفٌ للإخوان ؛ وأنَّ مَن قد فَقَدَ المال قلَّت الرغبة إليه ، والرَّهبة منه ؛ ومَن لم يكنْ بموضعِ رغبةٍ ولا رهبة استهانَ النَّاسُ بقدره[7] .

---

(١) الآية ١٩٥ من سورة البقرة .

(٢) رواه الترمذى عن أنس ، وهو حديث ضعيف ، الجامع الصغير ١١٩١ . ورواه الطبرانى : «قيدها وتوكل» . أسنى المطالب لمحمد بن درويش البيروتى ص ٤٤ .

(٣) هذا ما فى د . وفى الأصل : « قال الحذر » .

(٤) فى الأصل : «الإخلاص» صوابه فى د . والتضرية : التعويد ، والضراوة : العادة .

(٥) الطباع : الطبع والجبلة . وانظر ما سبق فى حواشى ١٠٤ . د . طبعا » .

(٦) د : « وجب » .

(٧) هذا ما فى د . وفى الأصل : « به » .

فاجهد الجهد كله ألّا تزال القلوبُ معلّقةً منك برغبة أو رهبة ، فى دين أو دُنيا .

واعلم أنّ السَّرَف لا بقاء معه لكثير ، ولا تثميرَ معه لقليل ، ولا تصلح عليه دنيا ولا دين . وتأدَّبْ بما أدّبَ الله تعالى به نبيّه[1] فقال : ﴿ولا تجعَلْ يدَكَ مَغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبسُطْها كلَّ البَسْطِ فتقعُدَ مَلُومًا محسُوراً[2]﴾ .

وقالت الحكماء : « القَصْد أبقى للجَمَام[3] » .

فداوِمْ حالَكَ وبقاءَ النِّعمة عليك ، بتقديرك أمورَكَ على قَدْر الزمان ، وبقدر الإمكان ؛ فقد قال الشاعر[4] :

مَن سابَقَ الدَّهرَ كبا كَبوةً ... لم يَستَقِلها من خُطَى الدَّهرِ

فاخطُ مع الدّهر على ماخطا ... واجرِ مع الدَّهر كما يجرى[5]

واعلم أنّ الصمت فى موضعه ربَّما كان أنفعَ من الإبلاغ بالمنطق فى موضعه ، وعند إصابة فرصته . وذلك صَمْتُك عند من يعلم أنَّك لم تصمت عنه عِيًّا[6] ولا رَهبة . فليزِدْكَ فى الصَّمْت رغبةً ماترى من كثرة فضائح المتكلِّمين فى غير الفُرص ، وهَذَرِ مَن أطلق لسانَه بغير حاجة .

---

(١) فى الأصل : « وتأديب الله فيه ما أدب به نبيه صلى الله عليه وسلم » ، صوابه فى د .

(٢) الآية ٢٩ من سورة الإسراء .

(٣) الجمام ، كسحاب : الراحة .

(٤) هو أبو العتاهية ، كما فى البيان ٤ : ٢١ وملحقات ديوانه ٩٨ نقلا عن الأغانى ٣ : ١٦٤ .

(٥) فى الأصل والبيان : «إذا ما خطا» ، وأثبت ما فى د وبعض أصول البيان .

(٦) العى : العجز . وفى الأصل : « عياء » ، صوابه فى د .

واعلمْ أنّ الجبن جبنانِ ، والشّجاعة شجاعتان ، وليست تكون الشجاعةُ إلاّ فى كلّ أمر لا يُدرَى ماعاقبته ، يُخاطَر فيه بالأنفس والأموال . فإذا أردتَ الحزمَ فى ذلك فلا تشجِّعنّ نفسَك على أمرٍ أبداً إلاّ والذى ترجو من نفعه فى العاقبة أعظمُ ممّا تبذل فيه فى المستقبل ، ثم يكون الرجاء فى ذلك أغلبَ عليك من الخوف .

وها هنا موضعٌ يُحتاج فيه إلى النظر : فإن كان ذلك أمرًا واجباً فى الدِّين ، أو خوفاً لعارٍ تُسبُّ به الأعقابُ فأنت معذورٌ بالمخاطرة فيه بنفسك ومالك . وإن كان أمراً تعظُم منفعتُه فى الدنيا[1] إلاّ أنّك لا تناله إلاّ بالخطار بمهجة نفسِك[2] أو بتعريضِ كلّ مالك للتّلف ، فالإقدام على مثل هذا ليسَ بشجاعة ، ولكنْ حماقةَ بيِّنةٌ عند الحكماء .

٤٧ ظ

وقد قالت علماء أوائل الناس[3] :

* لا يرسل السّاقَ إلاّ ممسكًا ساقا[4] *

---

(١) فى الأصل : « للدنيا » ، وأثبت ما فى د .

(٢) الخطار : المخاطرة ، وهو أن يشفى بنفسه على خطر الهلك . وفى الأصل : « بالإخطار » والوجه ما أثبت من د . وفى د : « بالخطار بنفسك » .

(٣) د : « علماء الأوائل » فقط .

(٤) فى الأصل : « ممسك » صوابه فى د . وهو عجز بيت لأبى دواد الإيادى ، من أبيات رواها العسكرى فى الجمهرة ٢١٢ . وانظر اللسان (حرب ، سوق) وعيون الأخبار ٣ : ١٩٢ وأمثال الميدانى ١ : ٢٠٢ وديوان المعانى ١ : ٢٣٨ والمخصص ٨ : ١٠٣ . وصدره :

* أنى أتيح له حرباء تنضبة *

وقالوا : « لا تُخرج الأمرَ كلَّه مِن يدك وخُذْ بأحد جانبَيْه[١] » . ثم الشجاعة والجبن فى ذلك بقدر الحالات والأوقات .

واعلمْ أنَّ أصلَ ما أنت مستظهر به على عدوِّك ثلاثُ خلال :

أشرفها : أن تأخذ عليه بالفَضْل وتبتدئَه بالحُسنى ، فتكون عليه رحمةً ولنفسك ناظرا ؛ فإنَّ كثرة الأعداء تنغِيصٌ للسُّرور ، وقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ادفَعْ بالتى هِىَ أحسَنُ فإذا الذى بَينَك وبينه عَداوةٌ كأنَّه ولىٌّ حميم[٢] ﴾ .

فإن كان عدوُّك مما لا يصلح على ذلك فحصِّن عنه أسرارك ، وعَمِّ عليه آثار تدبيرك[٣] ، ولا يطَّلعنَّ على شىء من مكايدتك له[٤] بقولٍ ولا فعل ، فيأخذَ حِذرَه ، ويعرفَ مواضعَ عَوَارك ، فإنَّ تحصينَ الأسرار أخذٌ بأزِمَّة التدبير ، والإكثارَ من الوعيد للأعداء فشَل[٥] . ولكنْ داجِ عدوَّك ما داجاكَ ، وأحصِ معايبَه ما لاحاكَ .

وقال الشاعر[٦] :

كلٌّ يداجِى على البغضاء صاحبه ... زَكِنتُ منهم على مِثل الذى زَكِنُوا[٧]

---

(١) د : « جوانبه » .

(٢) الآية ٣٤ من فصلت .

(٣) د : « وعم عليه تدبيرك » .

(٤) د : « مكايدك » .

(٥) هذا ما فى د . وفى الأصل : « وإكثار الوعيد للأعداء فشل » .

(٦) هو قعنب بن أم صاحب ، كما فى اللسان (زكن) . وانظر أبياتاً من قصيدة البيت فى الحماسة (باب الهجاء) بشرح التبريزى .

(٧) زكن بمعنى علم . وعداه بعلى لأن فيه معنى اطلعت .

واعلم أنَّ أعظمَ أعوانك عليه الحجج [ثم الفرصة[١]] ، ثم لا تُظهرن عليه حُجَّةً ، ولا تهتبِلْ منه غِرّة ،ولا تطلبنَّ له عثرة ، ولا تهتكنَّ له ستراً [إلاّ] عند الفرصة فى ذلك كلِّه ، وفى المواضع التى يجب لك فيها العُذْر ويعظم فيها ضررُه ، إن كان العفو عنه شرّاً له .

وإن كان ممن يُظهِر لك العداوةَ ويكشف لك قِناع المحاربة ، وكان ممن أعياكَ استصلاحه بالحلم والأناة ، فلتكن فى أمره بين حالين[٢] : استبطانِ الحذَر منه ، والاستعداد له وإظهار الاستهانة [به[٣]] . ولستَ مستظهِراً عليه بمثل طهارتك من الأدناس ، وبراءتك من المعايب . ٤٨ و

فلتكن هذه سيرتَك فى أعدائك .

واعلم أنَّ إشاعةَ الأسرار فسادٌ فى كلِّ وجهٍ من الوجوه ، من العدوّ والصديق[٤] . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استعينوا على الحوائج بسَتْرها ؛ فإنَّ كلَّ ذى نعمة محسود[٥] » .

وإذا أفشيتَ سِرَّكَ فجاءتِ الأمورُ على غير ما تقدِّر كان ذلك منك فضلاً من قولك على فعلك[٦] . وقد قيل فى الأمثال : « من أفشى سِرّهُ كثُر المتآمرون

---

(١) التكملة من م .

(٢) د : « حالتين » .

(٣) التكملة من د .

(٤) هذا مافى د . وفى الأصل : « والعدو والصديق » .

(٥) أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ٩٨٥ وذكر أنه حديث ضعيف .

(٦) الكلام من أول الفقرة إلى هنا ساقط من د .

عليه » . فلا تضَعْ سرَّكَ إلاّ عند من يضرُّه نشره كما يضرُّك ، وينفعه ستره بحسب ما ينفعك[١] .

واعلم أنَّك ستصحب من الناس أجناساً متفرِّقةً حالاتُهم ، متفاوتةً منازلُهم ، وكلُّهم بك إليه حاجة ، وكلُّ طائفة تسُدُّ عنك كثيراً من المنافع لا يقوم به من فوقها ، ولعلَّهم مجتمعون على نصيحتك والشَّفقة عليك . فمنهم من تُرِيد منه الرأى والمشورة ، [ومنهم مَن تريده للحفظ والأمانة[٢]] ، ومنهم من تريده للشِّدَّة والغلظة ، ومنهم من تريده للمِهنة . وكلٌّ يسُدُّ مسَدَّه على حياله . وقد قيل فى الحكمة : « إنّ الخلال تنفع حيث لا ينفع السَّيف » .

ولا تُخْلِيَنَّ أحداً منهم ــ عظُم قدره أو صَغُرت منزلته ــ مِن عنايتك وتعهُّدك بالجزاء على الحسنة ، والمعاتبة عند العثْرة ؛ ليعلموا أنَّهم منك بمرأى ومسمع . ثُمّ لا تَجوزَنَّ بأحدٍ منهم حَدَّه ، ولا تدخلْه فيما لا يصلُح له ، تستقمْ لك حالُه ، ويتَّسِقْ لك أمره[٣] .

واعلم أنَّه سيمرُّ بك فى معاملاتِ الناس حالاتٌ تحتاج فيها إلى مداراةِ أصنافِ الناس وطبقاتهم ، يبلُغ بك غايةَ الفضيلة فيها ، وكمالَ العقل والأدب منها ، أنْ تُسالِمَ أهلَها وتملكَ نفسَك عن هواها ، وتكفَّ من جماحها[٤] ، بالأمر الذى لا يُحرجك فى دينك[٥] ولا عِرضك ولا بدنك ، بل يُفيدك عزَّ الحلم ، وهيبة الوقار . وهى أمور مختلفة ، تجمعُها حالٌ واحدة . ٤٨ ظ

---

(١) فى الأصل : « وينفعه نشره » ، صوابه فى د .   (٢) التكملة من د .

(٣) يتسق : ينتظم . وفى الأصل : « ويتفق » ، وأثبت ما فى د .

(٤) فى النسختين : « عن جماحها » .

(٥) فى الأصل : « بأمر لا يخرجك فى دينك » . صوابه فى د .

منها : أن تأتىَ محفلاً فيه جَمعٌ من الناس ، فتجلس منه دون الموضع الذى تستحقُّه حتى يكون أهلُه [الذين[١]] يرفعونك ، فتظهر جلالتُك وعِظَمُ قدرك .

ومنها : أن يُفيض القومُ فى حديثٍ ، عندَك منه مثلُ ما عندهم أو أفضلُ ، فيتنافسون فى إظهار ما عندهم ، فإنْ نافستَهم كنْتَ واحداً منهم ، وإن أمسكت اقتضَوْك ذلك ، فصرتَ كأنَّك ممتنٌّ عليهم بحديثك ، وأنصتُوا لك ما لم يُنصِتُوا لغيرك .

ومنها : أن يمارى جُلساؤُك ـ والمِراء نِتاجُ اللَّجاجة وثمرةُ أصلُها الحِميَّة ـ فإنْ ضبطتَ نفسك كان تحاكُمُهم إليك ، ومعوَّلُهم عليك .

واعلمْ أنَّ طبع النُّفوس ـ إذْ كان على حسبِ العلوّ والغَلَبة ـ أنَّ فى تركيبها بُغضَ من استطالَ عليها . فاستدعِ محبّةَ العامّة بالتّواضع ، ومودّةَ الأخِلاّء بالمؤانسة والاستشارة ، والثِّقةِ والطُّمأنينة .

واعلم أنَّ الذى تُعامِل به صديقَك هو ضدُّ ما تعامل به عدوَّك . فالصّديقُ وجهُ معاملتِه المسالمةُ ، والعدوُّ وجهُ معاملته المداراةُ[٢] والموارَبة ، هما ضدّانِ يتنافيان ، يُفسد هذا ما أصلح هذا[٣] ، وكلَّما نقصت من أحدِ البابَين زاد فى صاحبه ، إنْ قليلٌ فقليلٌ ، وإنْ كثيرٌ فكثيرٌ[٤] .

---

(١) التكملة من د .

(٢) د : . « المداراة والمسالمة » ، وكلة « والمسالمة » مقحمة .

(٣) د : « فصلاح هذا ما أفسدها » .

(٤) د : « إن قليلا فقليل وإن كثيراً فكثير » .

فلا تَسلمُ بالمواربة صَداقةٌ ، ولا تَظفرُ بالعدوِّ مع الاستسلام إليه . فضَع الثِّقةَ موضعَها ، وأقِم الحذرَ مُقامَه(١) ، وأسرِعْ إلى التفهُّمَ بالثِّقة ، ولا تبادرْ إلى التَّصديق ، ولا سيَّما بالمحالِ من الأمور .

واعلمْ أنَّ كلَّ علمٍ بغائبٍ ، كائناً ما كان ، إنَّما يُصاب من وجوهٍ ثلاثة لا رابعَ لها ، ولا سبيلَ لك ولا لغيرك إلى غاية الإحاطات ؛ لاستئثار الله بها . ولن تَهْنأ بعيشٍ مع شدَّة التحرُّز ، ولن يتّسِق لك أمرٌ مع التضييع(٢) . فاعرفْ أقدارَ ذلك .

فما غابَ عنك مما قد رآه غيرُك ممَّا يُدرَك بالعِيان ، فسبيلُ العلمِ به الأخْبَار المتواترة ، التى يحملُها الولىُّ والعدوُّ ، والصَّالح والطَّالح ، المستفيضةُ فى الناس ، فتلك لا كُلفَة على سامعها من العلم بتصديقها . فهذا الوجهُ يستوى فيه العالم والجاهل . ٤٩ و

وقد يجىء خبرٌ أخصُّ من هذا(٣) إلاَّ أنَّه لا يُعرف إلاَّ بالسُّؤال عنه ، والمفاجأة لأهله ، كقوم نَقَلوا خبَرًا ، ومثلُك يحيط علمُهُ(٤) أنَّ مثلَهم فى تفاوت أحوالهم ، وتباعُدِهم من التَّعارف ، لا يُمكن(٥) فى مثلِه التَّواطؤ وإنْ جَهِل ذلك أكثر الناس . وفى مثل هذا الخبر يمتنع الكذبُ(٦) ، ولا يتهيَّأ الاتفاق فيه على الباطل .

---

(١) د : « مكانه » .

(٢) فى الأصل : « ولن يتفق » ، ووجهه من د .

(٣) فى الأصل : « أصح من هذا » ، صوابه فى د .

(٤) د : « وعلمك محيط » ، فقط .

(٥) د : « لا يكون » .

(٦) د : « يشنع الكذب » .

وقد يجىء خبرٌ أخصُّ من هذا ، يحمله الرجلُ والرجلانِ ممن يجوز أن يَصدُقَ ويجوز أن يكذب ، فصِدْق هذا الخبرِ فى قلبك إنَّما هو بحُسن الظّنّ بالمخبر ، والثِّقة بعدالته . ولن يقومَ هذا [الخبر[1]] من قلبك ولا قلب غيرك مقام الخبرين الأوَّلين [أبداً[1]] . ولو كان ذلك كذلك بطل التصنُّع بالدِّين[2] واستوى الظاهر والباطن من العالَمين .

ولما أنْ كان موجوداً فى العقول أنَّه قد يفتَّش بعضُ الأُمناء عن خيانةٍ[3] ، وبعضُ الصَّادقين عن كذبٍ ، وأنّ مِثل[4] الخبرين الأوَّلَين لم يتعقَّب الناس فى مثلهما كذِباً قطُّ ، عُلِم أنّ الخبرَ إذا جاء من مِثلِهما جاء مجىء اليقين ، وأنّ ما عُلم من خبرِ الواحدِ فإنّما هو بحُسْن الظنّ والائتمان[5] .

فهذه[6] الأخبار عن الأمور التى تدركها الأبصار .

فأمَّا العلم بما غابَ ممـا لا يُدرِكه أحدٌ بعِيان ، مثلُ سرائر القلوب

---

(١) التكملة من د .

(٢) أى والتصنع بالدين كائن لا محالة بين طائفة من الناس ، لا يخلو منه عصر . والتصنع : تكلف حسن السمت وإظهاره والتزين به والباطن مدخول . اللسان : (صنع ٧٩) .

(٣) أى تظهر خيانتهم بعد تفتيشهم .

(٤) فى الأصل : « أو مثل » ، صوابه من د .

(٥) د : « فإذا علم » .

(٦) فى الأصل : « بهذه » ، وفى د : « هذه » . وصواب الأول ووجه الثانى ما أثبت .

وما أشبهها ، فإنَّما يُدرَك علمُها بآثار أفاعيلها وبالغالب[1] من أمورها ، على غير إحاطةٍ كإحاطة الله بها .

وأوّلُ العلمِ بكلّ غائبٍ الظُّنونُ ، والظُّنونُ إنّما تقع فى القلوب بالدَّلائل ، فكلّما زاد الدليل قَوِىَ الظنُّ حتّى ينتهىَ إلى غاية تزول معها الشكوكُ عن القلوب ؛ وذلك لكثرة الدلائل ، [ولترادفها .

فهذا غاية علم العباد بالأمور الغائبة[2]] .

فمن عرف ما طُبع عليه الخَلْق وجَرت به عاداتُهم ، وعرفَ أسبابَ اتّصالهم واتّصاله بهم ، وتقصّى عِللَ ذلك ، كان خليقًا – إنْ لم يُحطْ بعلم ما فى قلوبهم – أن يقعَ من الإحاطة قريباً .

واعلمْ أن المقادير ربّما جرت بخلاف ما تقدّر الحكماء ، فنال[بها[3]]الجاهلُ فى نفسه ، المختلطُ فى تدبيره ، ما لا ينال الحازمُ الأريب الحذِر . فلا يدعونّك ما ترى من ذلك إلى التّضييع والاتّكال على مثل تلك الحال ؛ فإنّ الحكماء قد أجمعت أنّ مَن أخَذَ بالحزم وقدّمَ الحذر ، فجاءت المَقاديرُ بخلاف ما قدّر ، كان عندهم أحمدَ رأياً وأوجبَ عذراً ، ممّن عمل بالتفريطِ وإن اتّفقت له الأمور على ما أراد .

---

(١) فى الأصل : « وبالغائب » ، صوابه فى د .

(٢) التكملة من د . والكلام بعده إلى « والله يوفقك » فى ص ١٢٣ انتقل فى الأصل إلى ما يلى « والمواظبة عليه » فى ظهر الورقة ٥١ من الأصل . وقد أجريت ترتيب العبارة من د .

(٣) التكملة من د .

ولعمرى ما يكاد ذلك يجىء إلاَّ فى أقلِّ الأمور ، [وما كَثُر مجىء السَّلامات إلاّ لمن أتى الأمور[1]] من وجوهها وإنما الأشياء بعوامِّها[2]. فلا تكونن لشىء مِمَّا فى يدك أشدَّ ضِنًّا ، ولا عليه أشدَّ حَدَبًا ، منك بالأخ الذى قد بلوتَه فى السَّرَّاء والضَّرَّاء ، [فعرفت مذاهبه[3]] وخَبَرتَ شِيَمه ، وصحَّ لك غيبُه ، وسلمتْ لك ناحيتُه ؛ فإنما هو شقيقُ روحك[4] وباب الرَّوح إلى حياتك ، ومُستمَدُّ رأيك وتوأم عَقْلك[5] . ولست منتفعاً بعيشٍ مع الوحدة . ولا بدَّ من المؤانسة ، وكثرةُ الاستبدال تهجم بصاحبه على المكروه . فإذا صفا لك أخٌ فكن به أشد ضنًّا منك بنفائس أموالك ، ثمَّ لا يزهِّدنَّك فيه أنْ ترى منه خُلقاً أو خُلقين تكرههما ؛ فإنَّ نفسَك التى هى أخصُّ النفوس بك لا تُعطيك المَقادةَ فى كلِّ ما تريد ، فكيف بنَفْسِ غيرك !

وبحَسْبك أن يكون لك من أخيك أكثرُه ، وقد قالت الحكماء : « مَن لكَ بأخيك كلِّه[6] » ، و « أىُّ الرِّجال المهذَّب[7] » .

ثم لا يمنعْك ذلك من الاستكثار من الأصدقاء[8] فإنهم جندٌ مُعَدُّون

---

(١) التكملة من د .

(٢) يعنى أن العبرة فى الأحكام بالأعم الغالب .

(٣) التكملة من د .

(٤) د : « شق روحك » . ٥ د : « و يوم غفلتك » ، تحريف .

(٦) لأكثم بن صيفى . المعمرين ١٢ .

(٧) من قول النابغة الذبيانى فى ديوانه ١٤ :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

(٨) د : « الصديق » .

[لك[١]] ينشُرون محاسنَك ، ويحاجُّون عنك . ولا يحملنَّك استطرافُ صديق ثانٍ[٢] على ملالةٍ للصَّديق الأول ؛ فإن ذلك سبيلُ أهل الجهالة ، مع ما فيها من الدناءة وسوء التدبير ، وزهد الأصدقاء[٣] جميعاً فى إخائك . والله يوفقك[٤] .

وستجد فى الناس من قد جرَّبته الرِّجالُ قبلَك ، ومحَّصه اختبارهم لك . فمن كان معروفاً بالوفاء فى أوقات الشِّدّة وحالات الضرورة ، فنافِسْ فيه واسبقْ إليه ؛ فإنَّ اعتقاده أنفسُ العُقَد[٥] . ومن بلاهُ غيرك فكشف عن كُفر النِّعمة ، والغَدْر عند الشّدة ، فقد حذَّرك نفسَه وإنْ آنسك[٦] وكما غدر بغيرك يَغدِر بك ؛ فإنَّ مَن شيمته الوفاء يفى للصَّديق والعدوّ ، ومَن طبيعتُه الغدرُ لا يفى لأحد[٧] ، وإنما يميل مع الرُّجحان : يذلُّ عند الحاجَة[٨] ويشمخ مع الاستغناء .

٤٩ ظ

فاحذر ذلك أشدَّ الحذر . واعلم أنَّ الحكماء لم تذم شيئاً ذمَّها أربعَ خلال :

---

(١) التكملة من د .

(٢) فى الأصل : « الصديق » فقط ، صوابه من د .

(٣) فى الأصل : « الصديقين » ، وأثبت ما فى د .

(٤) د : « موفقك » .

(٥) أراد أنفس مايقتنى . وأصل العقدة الضيعة يقتنيها الرجل .

(٦) فى الأصل : « وأنسك » وأثبت ما فى د .

(٧) فى الأصل : « لا يدوم » ، وأثبت ما فى د .

(٨) د : « فى وقت الحاجة » مع إسقاط كلة « يذل » .

الـكذبُ فإنّه جِماعُ كلِّ شرٍّ . وقد قالوا : لم يكذب أحدٌ قطُّ إلاّ لصغرِ قَدر نفسِه عندَه .

والغَضَبُ فإنّه لؤمٌ وسوء مقدِرة ؛ وذاك أنَّ الغضبَ ثمرةُ خلافِ ماتهوى النفس[١] ، فإنْ جاءَ الإنسانَ خلافُ مايهوى ممّن فوقه أغضى وسمّى ذلك حُزناً ، وإن جاءهُ ذلك ممّن دونَه حمله لؤمُ النّفس وسوء الطّباع على الاستطالة بالغَضَب ، والمقدرة والبسطة على البطش[٢] .

والجزعُ عند المصيبة التي لا ارتجاعَ لها ؛ فإنّهم لم يجعلوا لصاحب الجزع في مثل هذا عُذراً ، لما يتعجّل من غمِّ الجزع مع علمه بفَوت المجزوع عليه . وزعموا أن ذلك من إفراط الشَّرَه ، وأنّ أصل الشَّرَهِ والحسد واحدٌ وإن افترقَ فرعاهُما .

وذمّوا الحسدَ كذمّهم الجزعَ ، لما يتعجّل صاحبُه من ثقل الاغتمام ، وكُلفة مقاساة الاهتمام ، من غير أن يجدىَ عليه شيئاً[٣] . فالحسد اغتمام ، والغَدْر لؤم . وقال بعض الحكماء : «الحسد خلقٌ دنيء ، ومِن دناءته أنّه يبدأ بالأقرب فالأقرب» . وزعموا أنّه لم يَغدِر غادرٌ قطُّ إلاّ لصغر همّته عن الوفاء ، وخمول قَدره عن احتمال المكاره في جنب نَيل المكارم .

---

(١) د : « النفوس » .

(٢) في الأصل : « والمقدر والبسطة » ، وفي د : « والمقدرة بالبطش » ، وصوبت العبارة وأكملتها بما تتلاءم به مع ما قبلها .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « من غير أن يكون عليه في ذاك شيء » ، تحريف .

وبقدر ماذَمّت الحكماء هذه الأخلاق الأربعة[١] ، فكذلك حمِدت أضدادها من الأخلاق ، فأكثرت فى تفضيلها الأقاويل ، وضربت فيها الأمثال ، وزعمت أنّها أصلٌ لكل كريم ، وجِماعٌ لكل خير ، وأنّ بها تُنال جِسامُ الأمور فى الدّنيا والدين[٢] .

٥٠ و

فاجعل هذه الأخلاقَ إمامًا لك ، ومَثَلاً بين عينيك ، ورُضْ عليها نفسَك ، وحكِّمها فى أمرك ، تَفُز بالرّاحة فى العاجل[٣] ، والكرامة فى الآجل .

والصبر صبران : فأعلاهما أن تصبرَ على ما ترجو فيه الغُنم فى العاقبة . والحِلمُ حلمان : فأشرفُهما حلمُك عمّن هو دُونَك . والصِّدق صدقان : أعظمهما صدقك فيما يضرُّك . والوفاء وفاءان : أسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافُه . فإنّ مَن عُرف بالصِّدق صار الناس له أتباعا ، ومن نُسِب إلى الحلم أُلبِس ثوب الوقار والهيبة وأُبّهةِ الجلالة ، ومن عرف بالوفاء استنامت بالثّقة به الجماعات[٤] ومن استعزّ بالصبر[٥] نال جسيمات الأمور .

ولعمرى ما غَلِطت الحكماء حين سمّتْها أركانَ الدّين والدُّنيا .
فالصِّدق والوفاء توأمان ، والصَّبر والحلم توأمان[٦] ، فهنّ[٧] تمامُ كلّ

---

(١) فى الأصل : « من هذه الأخلاق الثلاثة » ، والوجه من د .

(٢) د : « فى الدين والدنيا » .

(٣) هذا ما فى د . وفى الأصل : « فى العاجل والآجل » .

(٤) يقال استنام إليه ، إذا أنس به واطمأن إليه وسكن . فى الأصل : « واستقامت بالثقة به الجماعة » ، صوابه فى د . وانظر ص ١٢٩ .

(٥) د : « استعان بالصبر » .

(٦) يقال هما توأم أيضاً . فى الأصل : « توأم » فى الموضعين ، وأثبت ما فى د .

(٧) فى الأصل : « فبهن » ، وفى د : « منهن » ، والوجه ما أثبت .

دين ، وصلاحُ كلِّ دنيا . وأضدادهنَّ سببُ كلِّ فُرقة ، وأصلُ كلِّ فساد .

واحذَرْ خَصلةً رأيت الناس قد استهانُوا بها ، وضيَّعوا النظر فيها ، مع اشتمالها على الفساد ، وقَدْحِها البغضاء فى القلوب ، والعداوةَ بين الأوِدّاء : المفاخرةُ بالأنساب ؛ فإنّه لم يغلَط فيها عاقلٌ قطُّ ، مع اجتماع الإنس جميعاً على الصورة[1] وإقرارهم جميعاً بتفرُّق الأمور المحمودة والمذمومة من الجمال والدَّمامة ، واللُّؤم والكرم ، والجُبْن والشَّجاعة ، فى كلِّ حين ، وانتقالها من أمّةٍ إلى أمة ، ووجودِ كلِّ محمود ومذموم فى أهل كلِّ جنسٍ من الآدميِّين . وهذا غير مدفوع عند الجميع .

فلا تجعلنَّ له من عقلك نصيباً ، ولا من لسانك حَظًّا ، تسلَمْ بذلك على النّاس أجمعين ، مع السَّلامة فى الدين .

واعلم أنّك موسومٌ بسيما من قارنتَ ، ومنسوبٌ إليك أفاعيلُ مَن صاحبت . فتحرَّزْ من دُخلاء السَّوء ، ومجالسة أهل الرِّيَب[2] ، وقد جَرتْ لك فى ذلك الأمثالُ ، وسُطِّرتْ لك فيه الأقاويل ، فقالوا : « المرء حيث يجعلُ نفسَه[3] » ، وقالوا : « يُظَنُّ بالمرء ما ظُنَّ بقرينه » ، وقالوا : « المرء بشكلِه ، والمرء بأليفه » . ٥٠ ظ

ولن تقدر على التحرُّز من جماعة النـاس[4] ، ولـكن أقِلَّ المؤانسةَ

---

(١) أى اتفاقهم جميعاً فى الصورة الإنسانية .

(٢) د : « وأظهر مجانبة أهل الريب » .

(٣) ومنه قول منقر بن فروة ، أنشده الجاحظ فى البيان ٢ : ١٠٣ و ٣ : ٢٢٨ :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففى صالح الأخلاق نفسك فاجعل

(٤) د : « جماعات الناس » .

إلاّ بأهل البراءة من كلّ دنَس . واعلم أنّ المرء بقدر ما يَسبِق إليه يُعرَف ، وبالمستفيض من أفعاله يُوصَف ، وإن كان بين ذلك كثيرٌ من أفعاله[١] ألغاه الناس وحكموا عليه بالغالب من أمره .

فاجهَدْ أن يكون أغلبَ الأشياء على أفاعيلك كلُّ ما تحمده العوامّ[٢] ولا تذُمّه الجماعات ، فإنّ ذلك يعفّي على كلّ خالٍ إن كان .

فبادِرْ ألسنةَ الناس فاشغَلْها بمحاسنك ، فإنّهم إلى كلّ سيّئٍ سِراع[٣] ، واستظهِرْ على مَن دونك بالتّفضّل ، [وعلى نظرائك[٤]] بالإنصاف ، وعلى مَن فوقك بالإجلال . تأخذْ بوثائق الأمور ، وأزِمّة التدبير .

واعلم أنّ كثرةَ العتاب سببٌ للقطيعة ، واطّراحَه كلّه دليلٌ على قلّة الاكتراث لأمر الصّديق[٥] . فكن فيه بين أمرين : عاتِبْهُ فيما تشتركان في نفعه وضرّه وذلك في الهيِّنات[٦] ، وتجافَ له عن بعض غفَلاته تسلمْ لك ناحيتُه . وبحسَبِ ذلك فكن في زيارته ، فإنّ الإلحاح في الزّيارة يَذهَب بالبهاء ، وربّما أورثَ الملالةَ ؛ وطولَ الهِجرانِ يُعقب الجفوة ، ويحُلّ عقدةَ

---

(١) في الأصل : « خلافه » ، ووجهه من د .

(٢) في الأصل : « عليك أفاعيلك » صوابه في د . وفي د أيضاً : « ماتحمده العوام » .

(٣) في النسختين : « إلى كل شيء » والوجه ماأثبت . وفي م : « إلى كل شر » .

(٤) التكملة من د ، م .

(٥) في الأصل : « الأمن » وفي د : « بأمر » وهذه الأخيرة صحيحة ، يقال ما اكترث به وما اكترث له ، أي ما بالى به . وأثبت الوجه الذي يقتضيه الجمع بينهما .

(٦) د : « الهنات » ، وكلاهما متجه .

الإخاء ، ويجعلُ صاحبه مدرجة للقطيعة[١] وقد قال الشاعر[٢] :

إذا ما شئت أن تَسْلى حبيباً فأكْثِرْ دونَه عَددَ اللَّيالى
فما يُسلِي حبيبَك مثلُ نأيٍ ولا يُبلِى جديدَك كابتذال[٣]
[وزر غِبًّا إذا أحببت خِلاًّ فتحظى بالودادِ مع اتصال[٤]]

واقتصِدْ فى مِزاحك ؛ فإنَّ الإفراط فيه يذهب بالبهاء ، ويجرِّئ عليك أهل الدَّناءة . وإنَّ التقصير فيه يَقبِض عنك المؤانسين . فإن مزحت فلا تمزَحْ بالذى يسوء مُعاشِريك .

وأنا أوصيك بخلقٍ قلَّ من رأيته يتخلَّق به ، وذاك أنَّ محمِله شديد ، ومرتقاه صعب ، وبسَبَب ذلك يورث الشَّرف وحميدَ الذِّكر : ألاَّ يُحدثَ لك انحطاطُ من حَطّتِ الدُّنيا من إخوانك استهانةً به ، ولا لحقِّه إضاعة ، ولما كنتَ تعلم من قَدرِه استصغاراً ؛ بل إن زرتَه قليلاً كان أشرفَ لك ، وأعطفَ للقُلوب عليك . ولا يحدث لك ارتفاعُ مَن رفعت الدنيا منهم تذلُّلاً وإيثاراً له على نظرائه فى الحفظ والإكرام ؛ بل لو انقبضتَ عنه كان مادحُك أكثرَ من ذامِّك ، وكان هو أولى بالتعطُّف عليك ، إلاَّ أن يكون مسلَّطاً تخافُ شَذَاه ومَعرَّته[٥] ، وترجو عنده جرَّ منفعةٍ لصديق ، أو دفعَ مضرة

---

(١) هذا مافى د . وفى الأصل : « درجة للقطيعة » .

(٢) البيتان التاليان من أبيات الحماسة . انظر شرح المرزوقى ١٣٠٠ وشروح سقط الزند ١٢٢ ، ٦٥٣ ، ٦٩٠ .

(٣) هذا البيت ساقط من د .

(٤) التكملة من د .

(٥) الشذا : الأذى والشر . د : « شذاته » ؛ والشذاة : الحدة . والمعرة : الأذى .

عنه ، أو كبتاً لعدوّ وإنزالَ هوانٍ به ؛ فإنَّ السُّلطان وخُيلاءه وزَهوَه يُحتمَل فيه ما لا يجوز فى غيره ، ويُعذَر فيه ما لا يُعذر فى سواه[١] .

واعلمْ أنَّ نشرَ محاسنك لايليق بك ، ولا يُقبل منك[٢] ، إلّا إذا كان القولُ لها على ألسُن أهلِ المروءات ، وذَوِى الصِّدق والوفاء ، ومن يَنجع قولُه فى القلوب ممَّن يُستنام إلى قوله ، ويُصدَّق خبره ، وممن إنْ قال صدق ، أو مَدحَ اقتصد ، يُدْنِى بقدر البلاء ، فإنَّ إشراف[٣] الثَّناء على قدر النِّعمة يولِّد فى القلوب التكذيب ، ويدلُّ على طلب المَزَايد .

فأمّا ثناء المادحين لك فى وجهك ، فإنَّما تلك أسواقٌ أقاموها للأرباح ، وساهَلُوك فى المبايَعة ، ولم يكن فى الثَّناء عليهم كُلفة ، لكساد أقاويلهم عند الناس . أولئك الصادُّون عن طرق المكارم ، والمثبِّطون عن ابتناء المعالى .

فارتَدْ لِنعَمك مَغرِسًا تنمو فيه فروعُها ، وتزكو ثمرتُها ، لا تذهبْ نفقتُك ضَياعا ، إمّا لعاجلٍ تقدِّمه ، أو لآجلِ ثناء تنتفع به[٤] .

ولن تَعدَمَ أنْ يفجأكَ فى بعض أحوالك حقوقٌ تبهَظُك ، وأحوالٌ تفدحك ، وأمورٌ كلُّها تتقسَّمُ عنايتَك ، وفى التثبُّت فى مثلها تُعرف فضيلتُك ،

---

(١) الكلام بعده إلى كلمة « تنتفع به » فى س ١٢ ساقط من د .

(٢) فى الأصل : « فيك » .

(٣) الإشراف : العلو ، يقال أشرف عليه ، أى علا . والمراد الزيادة . وفى الأصل : « إسراف » .

(٤) انظر ماسبق فى التنبيه الأول .

فلا تستقبلْها بالتضجُّع وتفتير الرأى[١] ، وابدأْ منها بأعظمها منفعةً ، وأشدِّها خوفَ ضرر . وكِلْ ما أعجزَك إلى الكُفاة ، واعتذر من تقصيرٍ إنْ كان ؛ فإنّ الاعتذار يكسر حُمَيَّا اللائمة[٢] ، ويردع شَذاةَ الشِّرّة .

ثمّ تلافَ بعد انكشاف ذلك عنك ما فاتك[٣] ، واجهد الجُهْد كلَّه أنْ تكون مخارج الحقوق اللازمة لك من عندك سهلةً ، موصولةً لأصحابها[٤] ٥١ ظ ببِشرك وطلاقة وَجْهك ؛ فقد زعمت الحكماء أنّ القليل مع طلاقة الوجه أوقع بقلوبِ ذوى المروءات من الكثيرِ مع العُبوس والانقباض[٥] .

وقد قال بعض الحكماء : « غاية الأحرار أن يَلقَوْا ما يحبُّون ويُحرَموا ، أحبُّ إليهم من أن يلقَوْا ما يكرهون ويُعطَوْا » .

[وما أبعَدوا عن الحقّ[٦]] .

ولا يدعونّك كفرُ كافرٍ لبعض نِعَمك[٧] ممن آثر هواه على دينه

---

(١) التضجع ، يقال تضجع فى الأمر ، إذا تقعد ولم يقم به . وفى د : « وتغبين الرأى » .

(٢) الحميا : السورة والشدة والحدة ، وأصله من كسر حميا الشراب بمزجه بالماء . فى الأصل : « حمى اللائمة » ، ووجهه فى د .

(٣) فى الأصل « الانكساف » وفى د : « انكسار » ، والوجه ما أثبت . وكلمة « ما فاتك » ساقطة من د .

(٤) د : « لأصحابك » .

(٥) الكلام بعده إلى كلمة « ويعطوا » فى س ٩ ساقط من د .

(٦) التكملة من د .

(٧) د : « نعمتك » .

ومروءته ، أو غَدْرةُ غادرٍ تصنّعَ لك وخَتَلك عن مالِكَ ، أنْ تزهـدَ في الإنعام[١] ، وتسيء بثقاتك الظنون ؛ فإن هذا موضع يجد الشيطان في مثله الذّريعةَ إلى استفساد الصّنائع[٢] ، وتعطيل المكارم .

واعلم أنّ استصغارك نِعَمك يكبّرها عند ذوى العقول ، وسترك لها نشرٌ لها عندهم ؛ فانشُرْها بسَتْرها ، وكبّرها باستصغارها .

واعلم أنّ من الفِعل[٣] أفاعيلَ وإنْ عظمت منافعُها ، ومنافع أضدادها فلإيثارها فضيلةٌ على كلّ حال . فاجعَلْ صمتَك أكثرَ من كلامك ؛ فإنّه أدلُّ على حكمتك . واجعل عَفْوك أكثر من عقوبتك ؛ فإنّ ذلك أدلُّ على كرمك . ولا تُفْرطَنّ فيه كل الإفراط حتّى تَطّرِح الكلامَ في موضعه ، والتأديبَ في أوانه .

واعلم أنّ لكلّ امرئٍ سيّداً من عمله ، قد ساهلته فيه نفسُه وسَلِسَ له فيه هواه ، فتحفَّظْ ذلك من نفسك ، وتقاضَها الزيادةَ فيه ، ورُضْها على تثميره والمواظبةِ عليه[٤] .

واحذر الحذرَ كلَّه الاغترار بأمور ثلاثة ؛ فإنّ من عَطِب بها كثير ، وتلافِيَها صعبٌ شديد :

---

(١) في الأصل : « الانعاض » ، وأثبت ما في د .

(٢) الصنائع : جمع صنيعة ، وهو ما أعطيته وأسديته من معروف أويد إلى إنسان تصطنعه بها . وفي الأصل : « الطبائع » ، صوابه في د .

(٣) د : « الأفاعيل » .

(٤) انظر ما سبق من التنبيه في ص ١٢١ .

أحدُها : ألاّ تولّيَ جسائم تصرُّفك وتقلدَ مُهِمّ أمورك[١] ووثائق تدبيرك إلاّ امرأً صلاحُه موصولٌ بصلاحك ، وبقاء النِّعمة عليك هو بقاء النعمة عليه .

أو أن تأنس أو تغترّ[٢] بمن تعلم أنّ بصلاحك فسادَه ، وبارتفاعك انحطاطَه ، وبسلامتك عطبَه ؛ فإنّ من كان هكذا فأنت مَلَكُ موتِه[٣] . ٥٢ ظ

فبِحَسَب ذلك فليكن عندك .

أو أن تجعل مالَك كلَّه فى عُقدةٍ واحدة ، أو حيّزٍ واحد ، [أو وجهٍ منفرد[٤]] ، إن اجتاحَته جائحةٌ أو نابتْهُ نائبةٌ بقيتَ حسيرا . وقد قال بعض الحكماء : « فرِّقوا المنيّة » ، و « اطلبوا الأرباحَ بكلِّ شِعب » .

واعلم أنّه ليس من الأخلاق التى ذمَّتْها الحكماء خُلقٌ إلاّ وقد ينفعُ فى بعض الحالات ، ويردُّ بِهِ شَكْله ، ويقام بإزاء مثله ، ويُدافَع به نظيره[٥] .

إنّك ستُمنَى بصُحبة السُّلطان الحازم العادل ، وبصحبة السُّلطان الأخرق الجهول الغَشوم . فالحازم العادلُ يَسُوسه لك الأدبُ والنُّصح ، والأخرق تسوسُه لك الحِيلة والرِّفق . العادل يَعضُدك منه ثلاث ، وتَصبِر نفسُه لك على ثلاث :

---

(١) فى الأصل : « وتقليدهم أمورك » ، صوابه فى د .

(٢) فى الأصل : « وأن لا تأنس وتحتر » ، صوابه فى د .

(٣) د : « مالك موته » ، والوجه ما أثبت من الأصل .

(٤) التكملة من د .

(٥) الكلام بعده إلى كلة « النصحاء » فى ص ١٣٣ ساقط من د .

فاللواتى يعضُدنك : تسليط العدل وإنفاذ الحكومة ـ وفى ذلك صلاحُ الرعيّة ـ وإثابة المحسنين الذين إثابتُهم تحصينُ البَيضةِ والسُّبل ، والعفو ما بلَغ به الاستصلاحُ ، واكتُفِى به من البَسْط . واللواتى تصبر نفسُه لك عليهن : الهوى إلى ما وافق الرأى ، وأمضى الرأى الاّ بعد التثبت حتّى تعاونَه عليه النُّصحاء(١) .

ولكنِّى أوصيك برياضة نفسِك حتى تذلِّلها على الأمور المحمودة ؛ فإنّ كلّ(٢) أمرٍ ممدوحٍ هو ممّا تستثقل النُّفوس . [وممّا تسرُّ به وتنقلب إليه الأخلاق المذمومة(٣)] . فإنْ أهملتها وإيّاها غلبَتْ عليك ، لأنّها فيها طبيعة [مركّبة(٣)] ، وجِبِلّة مفطورة .

فلتكن المساهلة فى أخلاقك أغلبَ عليك من المعاسَرة ، والحلمُ أولى بك من العَجَلة ، والصَّبرُ الحاكمَ عليك دون الجزع ، والعفوُ أسبقَ إليك من المجازاة بالذُّنوب ، والمكافأةِ بالسُّوء .

[وكذلك سائر الأخلاق المحمودة والمذمومة ، فلتكن محموداتُها غالبةً على أفعالك ، محكَّمة فى أمورك(٣)] . فإنّك إنْ ضبطت [ذلك ، وقوّمتَ عليه(٣)] نفسَك ، عشتَ رخىَّ البال ، قليلَ الهموم ، كثير الصديق قليلَ

---

(١) كذا . ولعله : « وإمضاء الرأى بعد التثبت حتى تعاونه عليه معاونة النصحاء » . وهذا نهاية سقط د الذى نبهت عليه فى ص ١٣٢ .

(٢) فى الأصل : « وإن كان » صوابه فى د .

(٣) التكملة من د .

العدوّ ، [سليمَ الدين ، نقيَّ العِرض ، محمودَ الفِعال[١]] ، جميلَ الأُحدوثة في حياتِك وبعد وفاتك ، وكنت بموضع الرجاء أن يَصِل اللهُ لك السَّلامةَ الآجلةَ بالنِّعمة العاجلة ، [إن شاءالله عزّ وجلّ[٢]] .

٥٣ و أسأل الله المبتدئَ بكلِّ نِعمة ، والمتولِّيَ لكلِّ إحسان ، أن يصلِّيَ على محمد خِيرتِه من خلقه ، وصفوتِه من بريَّته ، وأن يتمَّ[٣] عليك نعمتَه ، ويشفع لك ماخَوَّلك من نِعمته بالنِّعمة التي يُؤْمَن معها الزَّوال ، في جوارِه ومرافقةِ أنبيائه . والسلام عليك ورحمة الله .

* * *

تمت الرسالة في الأخلاق المحمودة والمذمومة بعون الله ومَنِّه . والله الموفق للصواب ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامُه .

يتلو هذه الرسالة :

كتاب كتمان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضاً . والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته[٤] .

---

(١) التكملة من د .

(٢) التكملة من د .

(٣) في الأصل : « يتمم » ، وأثبت ما في د .

(٤) وفي د : « تمت الرسالة في كتمان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، والله المحمود على ذلك كثيراً برحمته . يتلو هذه الرسالة إن شاء الله تعالى كتاب فخر السودان على البيضان من تأليفه أيضاً . والله الموفق للصواب ، والحمد لله أولا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلامه » .

٣

كِتَابُ
كِتْمَانِ السِّرِّ وَحِفْظِ اللِّسَانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الثالثة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتمان السرّ وحفظ اللسان »

ومن هذه الرسالة نسختان :

١ ــ نسخة الأصل ، وهى نسخة مكتبة داماد ، فى ضمن مجموع رسائل الجاحظ .

٢ ــ نسخة بول كراوس وطه الحاجرى ، وهى مقابلة على نسخة داماد وعلى كتاب المختار من كلام الجاحظ ، لمجهول . ورمزها « ط » . وقد وقع فى هذه الأخيرة بعض السهو فى إيراد النص على وجهه ؛ فنبهت على ذلك فى الحواشى ، والعصمة لله وحده .

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٤ ظ

أمّا بعد فإنّى قد تصفّحتُ أخلاقَك ، وتدبَّرت أعراقَك ، وتأمّلتُ شِيَمك ، ووزنْتُك فعرفتُ مِقدارَك ، وقوَّمتك فعلمتُ قيمتَك ، فوجدتُك قد ناهزتَ الكمالَ ، وأوفيتَ على التّمام ، وتوقّلتَ فى دَرَج الفضائل[1] ، وكدتَ تكون منقطعَ القرين ، وقاربتَ أن تُلفَى عديمَ النّظير ، لا يطمعُ فاضلٌ أن يفُوتَك ، ولا يأنفُ شريفٌ أن يَقصُرَ دونك ، ولا يخشع عالمٌ أن يأخذَ عنك .

ووجدتُك فى خلال ذلك على سبيل تضييعٍ وإهمالٍ لأمرين هما القُطب الذى عليه مدارُ الفضائل ، فكنتَ أحقَّ بالعَذْل ، وأقمنَ بالتأنيبِ ممّن لم يسبقْ شأوَك ، ولم يتسنَّمْ رُتبتَك ؛ لأنه ليس مَلومًا على تضييع القليل مَن قد أضاعَ الكثير ، ولا يُسام[2] إصلاحَ يومه وتقويم ساعته من قد استحوذَ الفسادُ على دهره ، ولا يُحاسَب على الزّلّة الواحدةِ من لا يعدم منه الزَّللُ والعِثار ، ولا يُنكَر المنكَرُ على من ليس من أهل المعروف ؛ لأنَّ المنكر إذا كثُر صار معروفًا ، وإذا صار المنكرُ معروفًا صار المعروف منكرا .

وكيف يُعجَب ممن أمره كلُّه عجب ، وإنّما الإنكار والتعجُّب ممن خرج عن مَجرى العادة ، وفارق السُّنّة والسجيّة ، كما قال الأول : « خالِفْ تُذكَر » .

---

(١) التوقل : الصعود ، والإسراع فيه .

(٢) سامه الشىء : كلفه إياه وجشمه . وفى الأصل : « ولا يسم » ، وفى ط : « لا يهتم بإصلاح يومه » . وما أثبت أوفق بسياق النص .

وقيل : « الكامل من عُدَّت سَقَطاته » ، وقيل : « من استوى يوماه فهو مغبون ، ومن كان يومُه خيراً من غدِه فهو مفتون ، ومن كان غدُه خيراً من يومه فذلك السعيدُ المغبوط » . وفى هذا المعنى قال الشاعر :

رأيتك أمسِ خيرَ بنى مَعَدٍّ وأنت اليومَ خيرٌ منك أمسِ
وأنت غداً تزيد الضعف خيراً كذاكَ تزيد سادةِ عبدِ شمس

وقال آخر فى مَعْن[١] :

أنت امرؤٌ همُّك المعالى ودَلْوُ معروفِكَ الربيعُ
وأنت من وائلٍ صميمٌ كالقلب تُحنَى له الضلوع[٢]
فى كلِّ عام تزيد خيراً يُشيعه عنك من يُشيعُ ٥٥ و

والأمران اللذان نَقَمتهما عليك[٣] : وضْعُ القولِ فى غير موضعه ، وإضاعة السِّرّ بإذاعته .

وليس الخطرُ فيما أسُومك وأحاولُ حملَك عليه بسهلٍ ولا يسير . وكيف وأنا لا أعرف فى دهرى ـ على كثير عددِ أهله ـ رجلاً واحداً ممن ينتحل الخاصَّة ، ويُنسَب إلى العِلْية ، ويَطلُب الرياسة ويخطُب السِّيادة ، ويتحلّى

(١) معن بن زائدة الشيبانى ، كان مضرب المثل فى الجود والشجاعة ، وكان ممدحاً مقصوداً . وكان من ولاة بنى أمية ، وغضب عليه بنو العباس فى أوائل دولتهم ، ثم أبلى بلاء حسنا مع المنصور ، فأكرمه وقدمه وصار من خواصه . وقتل سنة ١٥١ ، أو ١٥٢ وقيل سنة ١٥٨ . وفيات الأعيان وتاريخ بغداد ١٣ : ٢٣٥ — ٢٤٤ .

(٢) فى الأصل : « تحي به » ، والوجه ما أثبت .

(٣) يقال نقم ينقم كضرب يضرب ، ونقم ينقم كفرح يفرح .

بالأدب ويديم الثخانة والزّماتة[١] ، والحلمَ والفَخامة ، أرضَى ضبطَه للسانه ، وأحمدُ حياطتَه لسرّه . وذلك أنّه لا شيء أصعبُ من مكابدة الطبائع[٢] ، ومغالبة الأهواء ؛ فإن الدّولة لم تزل للهوى على الرأى طُولَ الدهر . والهوى هو الدّاعية إلى إذاعة السرّ ، وإطلاقِ اللسانِ بفضل القَول .

وإنّما سمّى العقل عقلاً وحِجراً ، قال تعالى - ﴿ هَلْ فى ذلكَ قَسَمٌ لذى حِجْرٍ[٣] ﴾ - لأنّه يزمُّ اللسان ويَخطِمه ، ويشكُله ويَربُثُه[٤] ، ويقيّد الفضل ويعقله عن أن يمضىَ فُرُطاً فى سبيل الجهل والخطأ والمضرّة ، كما يُعقَل البعير ، ويُحجَر على اليتيم .

وإنّما اللسان تَرجُمان القلب ، والقلب خزانة مستحفَظة للخواطر والأسرار ، وكلّ ما يعيه [من[٥]] ذلك عن الحواسّ من خير وشرّ ، وما تولّده الشّهوات والأهواء ، وتنتجه الحكمة والعلم .

ومن شأن الصدر - على أنه ليس وعاء للأجرام ، وإنّما يعى بقدرةٍ [من[٥]] الله لايعرف العبادُ كيف هى - أن يضيق بما فيه ، ويستثقل ما حمل

---

(١) الثخانة ، من قولهم رجل ثخين ، أى رزين ثقيل فى مجلسه .

(٢) مكابدة الأمر : معاناة مشقته ، ومقاساة شدته . ووقع فى ط : « مكايدة » خلافاً لما فى الأصل .

(٣) الآية ٥ سورة الفجر .

(٤) يشكله ، من شكل الدابة : شد قوائمها بحبل ، واسم ذلك الحبل الشكال ككتاب . الربث : الحبس . وفى الأصل : « ويزبنه » ، والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٥ : ٢٦٣ .

(٥) تكملة ضرورية .

منه ، فيستريح إلى نبذه ، ويلذّ إلقاءه على اللسان . ثم لا يكاد أن يشفيه أن يخاطب به نفسه فى خلواته حتّى يفضىَ به إلى غيره ممن لا يرعاه ولا يحوطه . كلّ ذلك ما دام الهوى مستولياً على اللّسان ، واستعمَلَ فضولَ النّظر فدعَتْ إلى فضول القول .

فإذا قهر الرأىُ الهوى فاستولى على اللسان ، منعَه من تلك العادة ، وردّه عن تلك الدُّربة ، وجشّمه مؤونة الصّبر على ستر الحلم والحكمة .

٥٥ ظ ولا شىء أعجب من أنّ المنطق أحد مواهب الله العظام ، ونِعمه الجسام ، وأن صاحبها مسؤولٌ عنها ، ومُحاسَب على ماخوِّل منها ، أوجبَ الله عليه استعمالها فى ذكره وطاعته ، والقيامَ بقسطه وحجّته ، ووضْعَها مواضعَ النّفع فى الدين والدنيا ، والإنفاق منها بالمعروف لفظةً لفظة ، وصرفَها عن أضدادها .

فلم يرضَ الإنسانُ أنْ عطّلها عمّا خُلقت له مما ينفعُه حتّى استعمَلها فى ضدّ ذلك مما يضرُّه ، فاجتمع عليه الإثمانِ اللذان اجتمعا على صاحب المالِ الذى كنزَه ومنَعه من حقّه ، فوجَب عليه إثم المنْع وإن كان لم يصرفْه فى معصية ، ثم صرفِهِ فى أبواب الباطل والفسق فوجب عليه إثم الإنفاق فيها[١] . وهذه غاية الغَبن والخُسران . نعوذ بالله منها .

فاللسانُ أداةٌ مستعمَلة ، لا حَمد له ولا ذمّ عليه ، وإنما الحمد للحلم واللّوم على الجهل . فالحلمُ هو الاسمُ الجامع لكلّ فضل ، وهو سلطان العقل القامع للهوى . فليس قمع الغضب وتسكين قوة الشِّرّة ، وإسقاط طائر الخُرق بأحقّ بهذا الاسم ، ولا أولى بهذا الرسم ، من[٢] قمع فرط الرضا وغلبة الشهوات ،

(١) فى الأصل : « منها » . والمراد به فى أبواب الباطل .

(٢) فى الأصل : « مع » ، صوابه من ط .

والمنع من سوء الفرح والبطَر ، ومن سوء الجزع والهلع ، وسرعة الحمد والذم ، وسوء الطَّمع والجشَع ، وسوء مناهزة الفُرصة ، وفرط الحرص على الطَّلِبة ، وشدَّة الحنين والرقَّة ، وكثرة الشكوى والأسَف ، وقرب وقت الرضا من وقت السُّخط ، ووقت السُّخط من وقت الرضا ؛ ومن اتِّفاق حركات اللسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقدير موصوف ، وفى غير نفع ولا جَدًى[1] .

واعلمْ يقيناً أنَّ الصَّمت سَرمداً أبداً ، أسهل مَراماً ـ على ما فيه من المشقَّة ـ من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز ، والقَصد للصَّواب ، لما قدَّمنا ذكره من علة مجاذبة الطِّباع ؛ ولأنَّ من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار . وبهذه الجِبِلَّة التى جُبل عليها الناس نُقلت الأخبار عن الماضين إلى الباقين ، عن الغائب إلى الشاهد[2] ، وأحبَّ الناس أن ينقَل عنهم[3] ، ونَقَشوا خواطرهم فى الصُّخور ، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل . وبذلك ثبتت حجّة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء ، ولم يحضر آياتِ الرُّسُل ، وقام مجىء الأخبار عن غير تشاعر[4] ولا تواطؤ مقامَ العِيان ؛ وعرفت البلدان والأقطار والأمم والتجارات والتدبيرات والعلامات ؛ ٥٦ و

---

(١) الجدى : الجدوى والغناء والنفع . يكتب بالألف والياء . ويقال بالمد أيضاً « الجداء » ، ومنه قوله :

لقلَّ جـداءً على مالك إذا الحرب شبت بأجـذالها

(٢) الشاهد : الحاضر ، والمراد به الباقى المعاصر .

(٣) فى الأصل : « أن يعقل عنهم » ، صوابه من ط .

(٤) المراد بالتشاعر المخالطة والملابسة والمعاشرة . انظر العثمانية ص ٣ س ١٥ و ٢٦٣ س ٢ . وأساس البلاغة (شعر) ولسان العرب (شعر ٨١) .

وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض ذريعة إلى قبول الإخبار عن الرسل ، وسلَّما إلى التصديق ، وعوناً على الرضا بالتقليد .

ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحلّت هذا المحلّ . ولكن الله عزّ وجلّ حبّبَها إليهم لهذا السبب ، كما جعل عشق النِّساء داعيةً للجماع ، ولذّةَ الجماع سبيلاً للنَّسل ، والرقّة على الولد عوناً على التربية والحضانة ـ وبهما كان النشوّ والنماء ـ وحُبَّ الطعامِ والشراب سبباً للغذاء ، والغذاء سبباً للبقاء وعمارة الدنيا .

فعسُر على الإنسان الكتمان لإيثار هذه الشهوة ، والانقيادِ لهذه الطبيعة ؛ وكانت مزاولة الجبال الراسيات عن قواعدها أسهلَ من مُجاذبة الطباع . فاعتراهُ الكربُ لكتمان السرّ ، وغشِيَه لذلك سُقم وكمد يحسُّ به فى سُويداء قلبه بمثل دبيب النمل ، وحِكّة الجرب ، ومثل لسع الدَّبْر ووخْز الأشافِى[1] ، على قدر اختلاف مقادير الحلوم والرَّزانة والخفّة . فإذا باح بسرّه فكأنه أُنشِطَ من عِقال[2] . ولذلك قيل : « الصَّدر إذا نفث برأ » مثلاً مضروباً لهذه الحال . وقيل :

* ولا بدَّ من من شكوى إذا لم يكن صبرُ[3] *

---

(١) الدَّبر جماعة النحل . والأشافى : جمع الإشفى ، وهو المثقب يخرز به .

(٢) أى حل من عقال ، والعقال : الرباط الذى يعقل به .

(٣) لمالك بن حذيفة كما فى حماسة البحترى ١٩٧ . وأنشد هذا العجز فى الحيوان ١ : ٣٠٢ . وصدره كما فى البيان ٣ : ٢٢٠ و ٤ : ٦٣ :

* وما كثرة الشكوى بأمر حزامة *

ويرى : « بحد حزامة » . ويروى : « لعمرك ما الشكوى بأمر حزامة » .

وليس قولنا « طُبِع الإنسانُ على حبّ الإخبار والاستخبار » حجّةً له على الله ، لأنه طبع على حُبِّ النِّساء ومُنِع الزِّنى ، وحُبِّب إليه الطعامُ ومُنع من الحرام . وكذلك حُبِّب إليه أن يُخبِر بالحقّ النافع ويَستخبر عنه ، وجُعلت فيه استطاعةُ هذا وذاك ، فاختار الهوى على الرأْى .

٥٦ ظ

ومما يؤكّد هذا المعنى فى كَرْب الكتمان وصُعوبته على العقلاء فضلًا عن غيرهم ، ما رووه[١] عن بعض فقهائهم أنه كان يحمل أخباراً مستورة لا يحتملها العوامّ ، فضاق صدرُه بها ، فكان يبرُز إلى العَرَاء[٢] فيحتفر بها حَفيرةً يُودِعها دنًّا ، ثم ينكبُّ على ذلك الدّنّ فيحدِّثه بما سمع ، فيروِّحُ عن قلبه ، ويَرى أنْ قد نَقَل سرَّه من وِعاءٍ إلى وعاء .

وكان الأعمش[٣] سيِّئَ الخُلق غَلِقًا ، وكان أصحاب الحديث يُضجرونه ويَسُومونه نشرَ ما يحبُّ طيَّه عنهم ، وتَكرارَ ما يحدِّثهم به ، ويتعنّتونه ، فيحلف لا يحدِّثهم الشهرَ والأكثرَ والأقلَّ ، فإذا فعلَ ذلك ضاق صدرُه بما فيه ، وتطلّعت الأخبار إلى الخروج منه ، فيقبل على شاةٍ كانت له[٤] فيحدِّثها بالأخبار والفقه ، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول : « ليت أنّى كنت شاةَ الأعمش » .

---

(١) فى الأصل : « رواه » .

(٢) العراء : الأرض الواسعة المستوية المصحرة ، وأنث الضمير بعدها لمعناها . وفى الأصل : « العرى » ، تحريف كتابى .

(٣) هو سليمان بن مهران الأعمش ، المحدث المعروف . ولد سنة ٦١ يوم عاشوراء ، وهو يوم مقتل الحسين ، وتوفى سنة ١٨٨ .

(٤) فى ثمار القلوب للثعالبى ١٣٤ أنها عنز . والشاة : الواحدة من الغنم ، وقيل الشاة تكون من الضأن والمعز والظباء والبقر والنعام وحمر الوحش .

وشكا هشامُ بن عبد الملك ما يجدُ من فقد الأنيسِ المأمونِ على سرِّه فقال : أكلت الحامضَ والحلوَ حتّى ما أجد لهما طعما ، وأتيتُ النساء حتى ما أبالى أمرأةً لقيتُ أم حائطاً ، فما بقيت لى لذّة إلّا وجود أخٍ أضع بينى وبينه مؤونة التحفُّظ .

وقال معاوية لعمرو بن العاص : ما اللذة ؟ قال : تأمر شبابَ قريش أن يخرجوا عنا . ففعل ، فقال : اللّذّةُ طرح المروءة .

وقد صدَقَ عمرو ، ما تكون الزّماتة والوقار إلا بحملٍ على النفس شديد ، ورياضةٍ مُتعبة .

وقال بعض الشعراء[1] :

ألم تَرَ أنّ وُشاة الرجا ... لِ لا يتركون أديماً صحيحا
فلا تُفش سِرّكَ إلّا إليك ... فإنّ لكلّ نصيحٍ نصيحا

والسرُّ ـ أبقاك اللهُ ـ إذا تجاوز صدرَ صاحبه وأفلتَ من لسانه إلى أذنٍ واحدةٍ فليس حينئذ بسرٍّ ، بل ذاك أولى بالإذاعة ، ومفتاحُ النّشر[2] والشُّهرة . وإنّما بينه وبين أن يَشيع ويستطير أن يُدفع إلى أذنٍ ثانية . وهو مع قلّة المأمونين عليه ، وكَرْب الكتمان ، حَرِيٌّ بالانتقال إليها فى طرفة عين . ٥٧ و

(١) هو أنس بن أسيد ، كما فى أدب الدنيا والدين ٢٧٩ . وفى الكامل ٤٢٤ : « وأحسن ما سمع فى هذا ما يعزى إلى على بن أبى طالب ، فقائل يقول : هو له ، ويقول آخرون : قاله متمثلا . ولم يختلف فى أنه كان يكثر إنشاده » . وانظر الحيوان ٥ : ١٨١ وما فى حواشيه من تخريج .

(٢) فى ط : « الشر » ، خلافاً لما هو واضح فى الأصل .

وصَدْر صاحب الأذن الثانية أضيق ، وهو إلى إفشائه أسرع ، وبه أسخى وفى الحديث به أعذر ، والحجَّةُ عنه أدحض .

ثم هكذا منزلة الثالث من الثانى ، والرابع من الثالث أبداً إلى حيث انتهى .

هذا أيضاً إذا استُعهِد المحدَّث واستُكتِم ، وكان عاقلا حليماً ، وناصحاً وادًّا ، فكيف إذا أخبِر ولم يؤمَر بالكتمان ، وكان ممن يمشى بالنَّمائم ويحبُّ إفشاء المعايب ، وكان ممن ينطوى على غشٍّ أو شَحناء ، أو كان له فى إظهاره اجتلابُ نفعٍ أو دفع ضرر .

فاللَّوم إذ ذاك على صاحب السرّ أوجب ، وعمّن أفضى به إليه أنزل[1] ؛ لأنه كان مالكاً لسرِّه فأطلق عقالَه ، وفتح أقفاله ، وسرَّحه فأفلتَ من قيده ووَثاقه ، وصار هو العبدَ القِنَّ المملوكَ لمن ائتمنه على سرِّه ، وملَّكه رقّ رقبته ؛ فإن شاء أحسن مَلَكته لحفظ ذلك السّرّ بجزّ ناصيتَه ، وجعله رهينةً ليوم عَتْبه عليه . وقلَّ من يُحسن المَلَكة ، ويحرس الحُرِّيَّة أو يضبط نفسه ؛ فإنه ربَّما لم يُخرجه غِشًّا فأخرجه سُخفًا وضعْفا . وإن أساء المَلَكةَ وخَتَر الأمانة[2] فأطلقَ السرَّ واسترعاه من هو أشدُّ له إضاعة ، فسفكَ الدمَ وأزالَ النعمَ وكشف العَورة وفرَّق بين الجميع ، وإن كان المضيع لسرِّه ألْوَم[3] . قال الشاعر :

---

(١) أى أقل . وفى الأصل : « أدل » ، ولا وجه له .

(٢) الختر : شبيه بالغدر والخديعة . يقال ختره فهو ختار ؛ والمراد : خانها .

(٣) فى الأصل : « اليوم » .

إذا ضاق صـــدرُ المرء عن سرِّ نفسه
فصدر الذى يَستودِع السرَّ أضْـــيَقُ[١]

فمَن أسوأ حالا ، وأخسر مكاناً ، وأبعد من الحزم ، ممن كان حرًّا مالـكاً لنفسه فصيَّر نفسَه عبداً مملوكًا لغيره ، مختاراً للرِّقّ : من غير أسرٍ ولا قَسر ! والعبيد لم يَصبروا على الرقّ إلا بذلّ الأسر والسِّباء .

ومن كان سِرُّه مصوناً فى قلبه يُطْلَب إليه فى الحديث به فأخرجه عن يده ، صار[٢] هو الطالبَ الراغب إلى من لا يوجب له طاعة ، ولا يفـكِّر له فى عاقبة ، ولا يتحرّز له من مُصيبة[٣] . وكلَّما كانت إذاعتُه لأسراره أكثر كان عدد مواليه أكثر ، وشَقاؤه بخدمتهم أدْوَم . فإذا كان أصل السرّ معلومًا عند عِدّةٍ أو أقلّ من العدّة ، فما أعسرَ استتاره . غير أنّه لا لومَ على صاحب الخيانة فيه إذا كان ليس هو الذى أفشاه ، ولا مِن قِبَله عُلِم . ٥٧ ظ

ولو أنّ أوزنَ الناس حِلمًا مَلكَ لسانَه وحصّن سرّه وقلّل لفظَه ، ما قدَر على أن يملك لحظ عينيه ، وسَحنةَ وجهه ، وتغيُّرلونه ، وتبسُّمه أو قطوبه ، عند ما يجرى بلبِّه[٤] من ذكر ذلك السرّ ، أو يخطر[٥] بباله منه ، فيبدو فى وجهه

(١) البيت من أبيات ستة رواها المبرد فى الـكامل ٤٢٥ .

(٢) فى الأصل : « وصار » .

(٣) فى الأصل : « ولا يتحرز له بمصيبة » .

(٤) فى الأصل : « به » .

(٥) فى الأصل : « خطر » .

ومخايله إذا عرّض بذكره[1] ، أو سنَح له نظيرٌ أو مَثيل[2] ، أو حضَر مَن له فيه سببٌ ـ إلَّا بعد التصنُّع الشديد ، والتحفُّظ المُفْرط .

فإذا كان يُعرف من هذه الجهات وما أشبهها ، ويُطَّلع عليه بتظَنُّنِ المرجِّمين[3] ، والمتعقِّبين للأفعال والأقوال ، والنظر فى مصادر التدبير ومخايل الأمور ، فيفشو من هذه الجهات أكثر مما تفشيه ألسُن المذاييع البُذُر[4] . فكيف إذا أُطلق به اللسان ، وعوِّد إذاعتَه القلبُ . والعادة أملك بالأدَب .

وربَّما أدركه الحدْس ، وقيَّضه الظنّ[5] ، فنالتْ صاحبَه فيه خُدعة ، بأن يُذكر له طرفٌ منه ، ويُوهَمَ أنه قد فشا وشاع ، فيصدِّق الظنَّ فيجعله يقيناً ، ويفسِّر الجملة فيصيِّرها تفصيلا ، فيُهلك نفسه ويُوبقها .

وربَّ كلامٍ قد ملأ بطونَ الطَّوامير[6] قد عُرف جملتُه وما فيه الضَّررُ

---

(١) ط : «عرض ذكره» خلافاً لما فى الأصل .

(٢) فى الأصل : « مثل » ، وأثبت ما تقتضيه لغة الجاحظ .

(٣) الرجم : القول بالظن والحدس . ومنه قوله تعالى : « رجماً بالغيب » . والترجيم تفعيل منه .

(٤) البذر : جمع بذور ، كصبور وصبر . وفى حديث على فى صفة الأولياء : « ليسوا بالمذاييع البذر » . والمذاييع : جمع مذياع ، وهو من يذيع السر ويفشيه . انظر اللسان (بذر ، ذيع) . وفى الأصل : « المبذر » ، صوابه ما أثبت .

(٥) قيضه : هيأه وسببه من حيث لا يحتسب . وفى الحديث : « ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه » .

(٦) جمع طومار ، وهو الصحيفة ، عربى أو دخيل .

منه ، بسَحاءة[١] أو طابَع[٢] ، أو لحظةِ مطَّلعٍ في الكتاب ، أو حرفٍ تبيَّن من ظهره .

فاستيقظْ عند هذه الأحوال ، واستعملْ سوءَ الظَّنّ بجميع الأنام ؛ فإنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحزم سوء الظنّ » . وقيل لثقيف : بم بلغتم ما بلغتم من الشَّرف والسؤدد ؟ قالوا : بسوء الظنّ .

فلا تعتمد على رجل في سرِّك تحمدُ عقلَه دون أن تحمد ودَّه ونصحه ؛ فإن الأمر في ذلك كما قال الشاعر[٣] :

وما كلُّ ذى لبٍّ بمؤتيك نُصحَه ولا كلُّ مؤتٍ نُصحَه بلبيبِ

ولقد استحسن الناسُ من بعض رجال العراق أنَّه دخل على عبد الملك ابن مروان فأوقعَ بالحجّاج عنده وسبّه ، فلمّا خرج من عنده خبّر بما كان منه لبعض أصحابه ، فلامَه وأنَّبه وقال : ما يُؤمِنك أن يُخبِر أمير المؤمنين عبدُ الملك الحجاجَ بما قلتَ فيه — ومرجِعُك إلى العراق — فيضغَنه عليك ؟ قال : كلَّا ، والله إنّى ما رطَلْتُ بيدى قطُّ أحداً أرزنَ منه[٤] . ٥٨ و

وهذا واللهِ — أبقاكَ الله — الغلط البيِّن ، والعُذْر الملفَّق[٥] ، وتحسين فارط

---

(١) سحاءة القرطاس : ما انقشر منه .

(٢) الطابع ، بفتح الباء وكسرها : الخاتم الذى يختم به الكتاب . وفي الأصل : « طائر » ، صوابه في ط .

(٣) هو أبو الأسود الدؤلى . الأغانى ١١ : ١٠٥ ونوادر المخطوطات ١ : ١٦٧ .

(٤) رطل الشيء يرطُله رطلا : رازه بيده ليعرف وزنه ، كما في اللسان . وأرزن من الرزانة ، وأصل الرزانة الثقل .

(٥) في الأصل : « والغدر المصلق » ، تحريف .

الخطأ ؛ لأنه ليس كُلّ راجحٍ وعاقلٍ بناصحٍ لصاحب السرّ ، ولو كان أخوه كذلك كان أمره إليه أهمّ ، وشأنه أولى . والأعلى من الناس لا يكلّف الأدنى هذه المؤونة ، وإنّما يفعلها الأدنَونَ بالأعلَيْنَ رغبةً ورهبًا ، وتحسُّنًا عندهم بحاجتهم إليهم .

وأكثر ما يذيع أسرارَ الناس أهلوهم وعبيدُهم ، وحاشيتهم وصبيانهم ، و [من[1]] لهم عليهم اليدُ والسلطان . فالسرُّ الذى يودعه خليفةٌ فى عاملٍ له يلحقُه زَينه وشَيْنه ، أحرى ألّا يكتمه . وهذا سبيل كل سِرٍّ يستودعه الجِلّة والعظماء ، ومن لا تبلغه العقوبة ولا تلحقُه اللائمة .

وقال سليمان بن داود فى حكمته : ليكن أصدقاؤك كثيراً ، وصاحب سرّك واحداً من ألف .

وليس معنى الحديث أن تعدَّ ممن تعرف ألفًا وتُفضِىَ إلى واحد بسرّك[2] إنْ لم يكن ذلك الواحد موضعًا للأمانة فى السرّ . لكنه قيل : رجلٌ يساوى ألفَ رجل ، ورجلٌ لايساوى رجلًا . وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس كإبلٍ مائةٍ لا يوجد فيها راحلة[3] » .

فكلُّ ذلك يراد به أنَّ الفضلَ قليل والنقص قليل لا على نِسَب ما يتلقّاه الاجتماع من هذه الأعداد ؛ لأنّا قد نجد الرجلَ يُوزن بالأمّة ، ونجد الأمّة لا تساوى قُلامةَ ظُفرِ ذلك الرجل .

---

(١) ليست فى الأصل .

(٢) ط : « بسر » خلافاً للأصل .

(٣) ويروى : « تجدون الناس بعدى كإبل مائة ليس فيها راحلة » . الراحلة : البعير القوى على الأسفار . أراد أن الكامل الزاهد فى الدنيا قليل كما أن الراحلة النجيبة نادرة فى الإبل الكثيرة . رواه ابن ماجه ٣٩٩٠ بإسناد صحيح .

فإذا كان مَن تقع عليه الشَّريطة معدوماً ـ سيَّما من يُوثَق بحلمه وعقله، وأمانته ونُصحه، ومن لا ضررَ عليه ولا نفعَ له فى السِّرّ الذى يُضمر ولا يحرّم عليه كتمانه، ومن قد وأى على نفسه بالسِّرّ والحفظ[1]؛ فإنه ليس كلُّ من ضمِّن فلم يضمَن ضامناً، ولا من استُودع فلم يقبل مستحفَظاً، ولا من استُخلِف فلم يَخلُف خائناً، وإنما يلحقه الحمدُ والذمّ؛ والأجر والإثم إذا ضُمِّن الأمانةَ ثم ختَرها[2] ـ فكأنّ القوم قالوا: لا تودعنَّ سرَّك أحداً. وإلاّ فمتى تجد رجلاً فيه الصفة التى وصَف بها مسكينٌ الدَّارمىُّ نفسه حيث يقول:

إنِّى امرؤٌ منِّى الحياء الذى ترى ... أنوء بأخلاقٍ قليـلٍ خداعُها[3]

أُواخِى رجالاً لست أُطلِعُ بعضَهم ... على سِرِّ بعضٍ غير أنِّى جِماعُها[4]

يَظَلُّون شَتَّى فى البـلاد وسرُّهم ... إلى صخرةٍ أعيا الرجالَ انصداعُها[5]

وقيل لرجلٍ: كيف كتمانُك للسِّرّ؟ قال: أجعلُ قلبى له قبراً أدفنه فيه إلى يوم النُّشور.

---

(١) وأى على نفسه: أى جعل عليها وعداً. وفى حديث وهب: «قرأت فى الحكمة أن الله تعالى يقول: قد وأيت على نفسى أن أذكر من ذكرنى». عداه بعلى لأنه أعطاه معنى جعلت على نفسى.

(٢) أى خانها. وانظر ماسبق فى ص ١٤٧.

(٣) المقطوعة فى حماسة أبى تمام فى أول باب الأدب. انظر شرح المرزوقى ١١١٥ — ١١١٦ والحيوان ٥: ١٨٢ وعيون الأخبار ١: ٣٩ والكامل ٤٢٥ وأمالى القالى ٢: ٦٢ والمرتضى ١: ٣٩٩.

(٤) الجماع: اسم لما يجمع به الشىء، كما أن النظام اسم لما ينظم به الشىء.

(٥) أى أن يصدعوها فتنصدع. ويروى: «أعيا الجبال اتضاعها».

وقال الآخر[١] :

* وأكتمُ السرَّ فيه ضربةُ العنُقِ[٢] *

وهذه صفاتٌ موجودةٌ بالأقوال ، معدومة بالأفعال . والمغرورُ من اغترّ بما يعِدُه الواعدُ منها دون أن يَبلُوَ الخَبر .

والذى جرّبناهُ ووجدناه : أنّ من يُفضَى إليه بالشىء ، يَبلغ من إذاعته ونشرِه ما لا يبلغُه الرسولُ المستحفَظ المُعنىّ بتبليغ الرسالة ، المحمودُ المجازَى على أدائها ؛ حتّى ربمّا كان يبلغ[٣] فى الإذاعة لمن أرادها أن يقصد للبلاّغة من الرجال[٤] ، المعروف بالنّميمة والتقتيت[٥] ، فيوهمه أنه قد استحفظه السرّ ، فيشيع على لسانه كما يشيع الضوء فى الظُّلمة .

وهذا فِعلُ عمر بن الخطّاب رضى الله عنه حين أحبَّ أن يُشيع إسلامَه فقال : مَن أنمُّ أهلِ مكةَ ؟ قيل له : جميل بن النَّحَيت . فأتاه فأخبره بإسلامه وسأله أن يكتمَه عليه ، فلم يُمسِ وبمكّة أحدٌ لم يعلم بإسلام عمر ، رضى الله عنه .

---

(١) هو أبو محجن الثقفى . ديوانه ٦ والحيوان ٥ : ١٨٢ والأغانى ٢ : ١٤٢ .

(٢) صدره فى ديوانه :

* وأكشف المأزق المكروب غمته *

وفى الحيوان :

* وقد أجــود وما مالى بذى فنع *

وفى الأغانى :

* وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض *

(٣) فى الأصل : « لا يبلغ » وكلمة « لا » مقحمة .

(٤) البلاغة : الكثير التبليغ ، عنى بهذلك وإن لم يكن مذكوراً فى المعاجم المتداولة .

(٥) التقتيت : مبالغة من القت ، وهو النميمة .

ثم يكون من أكثر الأعوانِ على إظهار السرِّ الاستعهادُ له ، والتَّحذير من نَشْرِه ؛ فإنَّ النَّهيَ أغْرَى ؛ لأنَّه تكليف مشقّة ، والصبر على التكليف شديد ، وهو حَظْرٌ ، والنفسُ طيَّارة متقلِّبة ، تَعشَق الإباحة وتُغرَم بالإطلاق .

ولعلَّ رجلاً لو قيل له : لا تمسحْ يدكَ بهذا الجدار - وهو لم يَمسَحْها به قطُّ - غَرِيَ بأن يفعَل .[١]

وكذلك ما حُدِّث به من السرّ فلم يؤمَر بستره ، لعلَّه ألاَّ يخطر بباله ؛ لأنَّه موجود فى طبائع الناس الوَلوعُ بكلِّ ممنوع ، والضَّجر بكل محصول . ٥٩ و

فنريد أن نعلم : لم صار الإنسانُ على ما منع - وإن كان لا ينفعُه - أحرَصَ منه على ما أبيحَ من غير علَّة ولا سبب إلاَّ امتهانَ ما كثر عليه[٢] ، واستطرافَ ما قلَّ عنده ؟ ولمَ أقبلَ على مَن ولَّى عنه وولَّى عمّن أقبلَ عليه ؟ ولم قالوا : إذا جدَّت المسألة جَدَّ المنع ؟ وقال الشاعر[٣] :

الحرُّ يُلحَى والعصا للعبدِ   وليس للمُلْحِف مثلُ الرَّدِّ

ولم صار يتمنَّى الشَّيء ويَنذُر فيه النُّذورَ ، ويتقطَّع إليه شوقاً ، فإذا ظَفِر به صدَّ عنه وأخلقَ عنده ؟ ولم زهِد الملوكُ فيما فى أيديهم ورغِبوا فيما فى أيدى الناس ؟

فنقول : إنّ الله تبارك وتعالى جَعل لكلِّ نفسٍ مَبلغاً من الوُسع لا يمكنُها تجاوزُه ، ولا تتَّسع لأكثرَ منه . فكان معها فيما دونَ الوُسع الفقرُ

---

(١) غَرِى بالشىء غَراً وغَراء : أُولع به وأُغرى .

(٢) فى الأصل : « ولا امتهان بما كثر عليه » ، صوابه فى ط .

(٣) هو بشار بن برد . البيان ٣ : ٣٧ .

وخوفُ الإخوان ، وفيما تجاوَزه عزُّ الغنى وأمنُ العُدْم . وبهذا وبمثله من البُخل والحرص استخفَّت من احتاجَ إليها ، وأعظمَتْ من استغنَى عنها . وجَعلَها توّاقة مشتاقة ، متَطرِّفة ملاّلة[١] ، كثيرة النزاع والتقلب ، تستحكم عليها الفتنة[٢] ، ويُبلَى خيرها [من شرِّها[٣]] وصبرها من جزعها . ولولا هذه الخلالُ سقطت المِحَن ، فهى تعظِّم القليلَ بالضَّرورة إليه إن كان من أقواتها ، أو لشدَّة النِّزاع والشوق إن كان من طُرَف شهواتها ؛ فإنَّ صنوف الشهوات كثيرة ، ولكلِّ صنفٍ منها أهل لا يَحفلون بما سواه . وتتعجّب من الغريب النادر ، ويضحكها البديعُ الطارئ . إلا أنَّه إذا كثر الغريب صار قريباً ، وإذا تجاوز المطلوبُ مقدارَ وُسعها وحاجتها فصار ظِهريًّا وفضلاً استخفَّتْ به وقلَّ فى أعينها كثيرُه . وأعظم الأشياء عندها قدراً ما اشتدَّ إليه الفقرُ والحاجة وإنْ قلَّ قدره[٤] ، وأهونها عليها ما استُغنِيَ عنه وإن عظُم خطره . وجَعل لما تَتوق إليه وتشتاقه مكاناً مِن قواها ، له[٥] . فإذا امتلأ ذلك المكانُ سروراً ، وقَضَى ذلك الأربُ وطراً مما كان طمَح إليه ، وروِيَ مما كان ظامئا إليه ، انصرفَ عنه وقَلاه ، وحالَ عشقُه بُغضاً ، وشوقُه مَلالاً .

والعلَّةُ فى ذلك : أنَّ الدُّنيا دارُ زوالٍ ومَلال ، ليس فى كيانها أن تثبت ٥٩ ظ

---

(١) المتطرف والمستطرف : الذى لا يثبت على أمر . وفى الأصل : « مطرفة » . والملالة : الكثيرة الملل .

(٢) فى الأصل : « تستحكم عليها الفتنه » .

(٣) ليست فى الأصل .

(٤) فى الأصل : « ضرره » .

(٥) أى مكاناً له من قواها .

هى ولا شىء مما فيها على حالٍ واحدة ، وإنّما الثُّبوت الدائم لدارِ القرار .
فالسآمة تلحقها فى محبوبها ، كما يصيب المنتهىَ من الطعام والشراب والباه ،
فإنه ليس شىء أبغضَ إلى من يتناهى فيه إلى غايته ، من النَّظر إلى ناحيتِه ،
فضلاً عن ملابسته ، إلى وقت عَودة السبب الأوّل .

فإذا كانت الطبائع تتشابه ، ولـكلّ حاسّة قوة ، فإذا امتلأت تلك
القُوَّة من محسوسها لم تجد لها وراءه طعماً ولا ريحاً ، وعاد عليها الضَّرر . فبعضُ
النظر يُعمِى ، والصَّوت الشديد يُصِمّ ، والرائحة المُنتنةُ تُبطل المَشَمّ ،
والأطعمةُ الحارّة المُحرقة تبطل حاسَّة اللسان .

وتتطرّف كلٌّ واحدةٍ منها ؛ فبَين الطِّيبِ عند مَنْ بعُد عهدُه [به] ،
والجائع والسَّماع ، وبين من هو مغموسٌ فيه بونٌ بعيدٌ جدًّا ، فى الحلاوة
وحُسن الموقع . كلّ ذلك ما لم يأت المالُ والعلم ؛ فإنّه كلّما كثُر كان أشهى
وأعجب ؛ لأنّ قَصد الناس له ليس لطلبِ مقدار الحاجة وسدّ الخَلّة كما يُريده
أهل القَناعة والزَّهادة ، وإنّما يراد لقمع الحِرص ، والحرصُ لا حدَّ له
ولا نهاية ؛ لأنه سعىٌ لا لحاجة ، وإيضاعٌ لا لبُغية .

وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أنّ لابن آدمَ واديينِ
من ذهبٍ لا بتغَى إليهما ثالثاً . ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلاّ التُّراب[1] » .

وقال بعض الحكماء :

من كان لا يَغنَى بما يغنيه فكلُّ ما فى الأرض لا يُغْنيه

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه فى الجامع الصغير ٧٤٧٦ بلفظ : « لو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانيا ، ولو كان له واديان لا بتغى لهما ثالثاً » .

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وتُحِبُّون المالَ حُبًّا جَمًّا[١] ﴾ . وقال : ﴿ وإنّه لحبّ الخير لشديد[٢] ﴾ . وقال الشاعر :

والناسُ إن شبِعتْ بطونهمُ   فعيونهم فى ذاكَ لا تشبعْ

فأمّا الحديث الذى جاء : « لا يشبع أربعٌ من أربعة : أرضٌ من مطر ، وعين من نَظَر ، وأنثى من ذكر ، وعالمٌ من علم[٣] » . فإنّ العين لا تشبع فى الجملة كما لا يشبع الخيشوم من الاستنشاق . فأمّا مِن صنفٍ مما يراه دون صِنفٍ ، فإنه يَشبَع ويَروى ، ويصدُّ ويصدِف إلى غيره .

٦٠ و

وأمّا العلمُ فإنّه أوسعُ من أن يُحاطَ به ، فمَن طلبَه لشرفه ونحره فإنه لا حدَّ له ولا نهاية ، ولم يزدد له طلباً إلّا ازداد فيه رغبة . ومن طلب منه مقدار كفايته وحاجته كفاه منه اليسير . على أنه لا يملك من كثُر علمه أن يَرى فيه الغنى والكبرياء أيضاً . وقد يُمَلّ كما يمَلّ كلُّ شىء . وتملُّ العين أيضاً منه ومن المال .

وقيل : اثنان منهومان : طالب علم وطالب دُنيا . وهذه القضيّة[٤] تدلّ على الخروج عن العقل ؛ لأن النَّهَم تجاوُز القَدْر .

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الفجر .

(٢) الآية ٨ من سورة العاديات .

(٣) حديث ضعيف ، أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ٩٢٢ بلفظ : « أربع لا يشبعن من أربع » .

(٤) فى الأصل : « القصة » . والقضية : الحكم .

وأمّا[١] الحرص على الممنوع الذى لاينتفع به ، والعجب مما يتعجَّب من مثله ، فليس من أخلاق العقلاء . وما لم يكن فى أخلاقهم فلا نظر فيه ولا قياس عليه ، وإنما ذلك فِعلُ من استوحش من الحجّة ، وشرد عن علم العلل والأسباب .

وإفشاء السرّ إنما يوكَّل بالخبر الرائع ، والخطب الجليل ، والدفين المغموز ، والأشنَع الأبلق ، مثل سرّ الأديان[٢] لغلَبة الهوى عليها ، وتضاغن أهلها بالاختلاف والتضادّ ، والولاية والعداوة . ومثل سرّ الملوك فى كيد أعدائهم ومكنون شهواتهم ومستور تدبيراتهم ، ثم من يليهم من العظماء والجِلّة ؛ لنَفاسة العوامّ على الملوك[٣] ، وأنّهم سماءٌ مُظِلّة عليهم ، أعينُهم إليها سامية ، وقلوبهم بها معلّقة ، ورغَباتهم ورهَباتهم إليها مصروفة . ثم عداوات الإخوان ؛ فإنّما صارت العداوة بعد المودّة أشدّ لاطّلاع الصديق على سرّ صديقه ، وإحصائه معايبَه ، وربّما كان فى حال الصَّداقة يَجمع عليه السَّقطاتِ ويُحصِى العيوب ، ويحتفِظ بالرِّقاع ؛ إرصاداً ليوم النَّبوة ، وإعداداً لحال الصَّريمة .

وقد شكا بعض الملوك تنقيب[٤] العوامّ عن أسرار الملوك فقال :

ما يريد الناسُ منّا ما ينام الناس عنّا ٦٠ ظ

---

(١) فى الأصل : «وإنما» .

(٢) فى الأصل : « الأدمان » ، صوابه فى ط .

(٣) النفاسة : الحسد ، يقال نفس عليه ينفس نفساً ، بالتحريك ، ونفاسة كسحابة .

(٤) فى الأصل : « تنقب » .

لو سكنّا باطنَ الأرْ ضِ لكانوا حيثُ كُنّا
إنما همُّهمُ أنْ ينشُروا ما قد دفنّا

ولِمَ نرى حُبَّ الطعن على الملوك[1] ، والتجسُّسَ على أخبارهم ، وعشقَ نشرِ المعايب ، واستحلال الغِيبة ، ظاهراً فى طباع الناسِ لا يكاد ينجو منه أحدٌ منهم إلّا من رجَح حلمُه وعظُمتْ مروءته ، وظهر سُودَده ، واشتدَّ ورعُه ، حتى قال بعضهم : « الغِيبةُ فاكهةُ النُّسّاك » .

ورَوَوْا عن بعضهم أنه قال : « الفاسقُ لا غِيبةَ له » .

وقال آخر : « أترِعون من ذكر الفاسق[2] ؟ اذكروه يعرفه الناس » .

ولَمْ نرَ الله جلّ ثناؤه رخّص فى اغتياب مؤمن ، بل ضربَ المثلَ فى الغِيبة بأكره ما تكرهه النُّفوس ، وما تختار منْه الموت على الحياة ، فقال : ﴿ ولا تجسَّسُوا ولا يغتب بعضُكم بعضاً أيحبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيه مَيْتاً فكرِهتُمُوه[3] ﴾ .

واغتياب الناس جميعاً خُطّةُ جَورٍ فى الحكم ، وسقوطٌ فى الهمة ، وسَخافة فى الرأى ، ودناءةٌ[4] فى القيمة ، وكُلفة عريضة ، وحسَد ونفاسة ، قد

---

(١) فى الأصل : « ولم نوجب الطعن على الملوك » وفى ط : « ولم نرحب الطعن على الملوك » والوجه ما أثبت . انظر لتأييد هذا الأسلوب ما سبق فى ص ١٥٤ س ٨ وما بعده .

(٢) يقال ورع من الشىء يرع بكسر الراء فيهما ويورع ، كيوجل ، أى تحرج وتأثم . وفى ط عن نسخة المختار : « أتراعون » .

(٣) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

(٤) فى الأصل : « ودناء » .

استحوذت على هذا العالَم وغلبَت على طبائعهم ، وتوكّدت لسوء العادةِ عندهم ، ولعلوِّ الشرِّ على الخير ، وكثرة الدَّغَل والنَّغَل والحسدِ فى القلوب . فلستَ ترى منها ناجياً . إمّا ناظرٌ بعين عدلٍ وإنصاف ، فهو يرى ما يُنكِر فيبدو فى وجهه ولسانه . وإما ناظرٌ بعين البغضاء والعداوة فهو كثيراً ما يجد من العيوب فى عدوّه ما يُعينُه على التخرُّص عليه(١) فيقوّيها ويزيد فيها . وإنْ عَدِم الحقّ تقوّلَ وقبّح الحسَن ، وزاد فى قبح القبيح .

والحديث كلُّه ـ إلاّ ما لا بالَ به ـ ذكرُ الناس ، ولغوٌ وخطَل ، وهُجر وهُذاء ، وغِيبةٌ وهَمزٌ ولمز .

وقال بعض الحكماء لابنه : يا بُنىّ ، إنّما الإنسانُ حديث ، فإن استطعتَ أن تكون حديثاً حسناً فافعلْ .

وكلُّ سِرٍّ فى الأرض إنّما هو خبرٌ عن إنسان ، أو طىٌّ عن إنسان ، فله فى الغِيبة أكثر الحظّ ، وجُلُّها كُلفةٌ لا ضرورة ، يُرى صاحبها أنه قد أهمل محاسبة نفسِه ، وغَفر ذنوبَها وألغى عيوبَها ، وقَصَد قَصْدَ غيره ، فتشاغل عمّا يعنيه بما لا يَعنيه ، فأنكر أقوالَه وأفعاله ، وهجر تدبيره ، وتعجّب من مَقابحه ، وجَهَد نفسَه فى تفقُّد أموره . ليس ذلك عن عِنايةٍ بصلاحه ، ولا محبّة لتقويمه وتهذيبه ، ولا أنّه مسيطرٌ عليه ولا محمودٌ عنده على ما عُنِى به من شأنه ، بل هو عنده عين المذموم .

وهذا جُلّ حديثِ البشَر وشُغلِهم فى الليل والنهار .

٦١ و

---

(١) فى الأصل : « عن التخرص » تحريف . والتخرص : التقول والكذب .

قال بعض الحكماء : فضول النظر تدعو إلى فَضْل القول ، وفضول الخواطر تبعث على اللَّهو والخطَل .

ولو كان الرجلُ لا يتكلَّم إلَّا بما يعنيه ، ولا يتكلَّف ما قد كُفِيَه ، قلَّ كلامُه . ولو حكَّم العَدْل[1] فى أموره ، وفيما بينه وبين خالقه ، وبينه وبين إخوانه ومعامليه ، لطاب عيشُه وخفَّت مؤونته والمؤونة عليه ؛ فإنّ الله تبارك وتعالى لم يَخْلُق مذاقاً أحلى من العدل ، ولا أروحَ على القلوب من الإنصاف ، ولا أمرَّ من الظُّلم ، ولا أبشعَ من الجور .

وقال بعض المتقدِّمين : « إنما يَعرف الظُّلمَ من حُكم به عليه » . ومن استعمل العدل دلَّه على أنَّ النَّاس يجدون من طعمه وطعم الظُّلم إذا فعلَه بهم مثلَ الذى يجد إذا ظُلِم ، فكرِه لهم ما كره لنفسه ، فأنصفَ ولم يَظلِم .

ويتظالم الناس فيما بينهم بالشَّرَه والحِرص المركَّب فى أخلاقهم ، فلذلك احتاجوا إلى الحكَّام ــ وقد أُطلِقَ لهم تصريف أخلاقهم وأماناتهم[2] ــ التى ردّت إليهم بالأحكام فيها[3] ، ما جنايتُه عليهم أكثرُ مما يطالبهم به الخصوم[4] .

---

(١) فى الأصل : « العدى » .

(٢) فى الأصل : « تصريفها وأخلاقهم وأماناتهم » .

(٣) فى الأصل : « الأحكام فيها » .

(٤) المراد بالجناية جزاء الجناية ، كما فى قوله تعالى : « يلق أثاما » أى يلق جزاء الأثام ، وهو الإثم . وكما فى قول بشر بن أبى خازم :

وكان مقامنا ندعو عليهم   بأبطح ذى المجاز له أثام

وقال بعض الحكماء : إنّ من أصعب الأعمال إنصافَك فى نفسك ، ومواساتَك أخاك فى مالك ، وذِكرَ الله . أمَا إنّى لا أعنى قول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ـ وإنّ ذلك لمن ذكر الله ـ ولكنْ ذكرَه عند ما يعرض من الأمور ، فإن كان طاعةً لله فعلتَه ، وإن كان معصيةً لله اجتنبتَه .

٦١ ظ ورُوى عن بعضهم أنه قال : « ثلاثة فى ظلّ عرش الله يومَ لا ظلّ إلّا ظلُّه : رجلٌ لم يعب أخاه بعيبٍ فيه مثله حتّى يُصلحَ ذلك العيبَ من نفسه ؛ فإنّه لا يُصلحه حتى يهجُمَ على آخرَ[1] ، فتشغله عيوبهُ عن عيوب الناس . ورجلٌ لم يقدِّم يداً ولا رِجْلًا حتى يَعلم : أفى طاعة الله هو أم فى معصيته ؟ ورجلٌ لم يلتمس من الناس إلّا مثلَ ما يعطيهم من نفسه . أما تحبُّون أن تُنصِفوا » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله عبداً أنفقَ الفضلَ من ماله وأمسكَ الفضلَ من قوله ، وشغله عيبُه عن عيوب الناس » .

وقال عيسى بن مريم[2] : « يا بنى إسرائيل أيرى أحدكم القَذاةَ فى عين أخيه ويَعْمَى عن الجذع المعترضِ فى عَينه » .

وقيل لعيسى بن مريم : ما أفضل أعمالك ؟ قال : تركى ما لا يَعنينى .

وقال عمرو بن عبيدٍ : أعيَتْنى ثلاثُ خلال : تركى ما لا يَعنينى ، ودِرهمٌ من حِلِّه ، وأخ إذا احتجت إلى ما فى يديه بذَلَه لى .

---

(١) أى على عيب آخر فى نفسه .

(٢) انظر إنجيل متى ٧ : ٣ — ٤ .

وما أَحَقَّ من أُحصيت ألفاظُه وليس مِن قولٍ يبدُر منه إلّا لديه رقيبٌ عتيدٌ ، ومَن أحصيت عليه مثاقيلُ الذَّرّ واستُشهِدَ عليه جلدُه وجوارحه ـ أن يضبِط لسانه .

وقد جاء فى بعض الآثار : مَن عَدَّ كلامَه من عمله قَلَّ كلامُـه إلّا فيما لا يَعنيه .

وكلُّ امرئٍ لحسيبُ نفسِه ، غير مأخوذ بغيره ، وهو الوحيد دون الأهل والولد والقرابة . وقال الله جلّ ثناؤه ـ وقوله الحقّ ـ ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ(١) ﴾ . وقال : ﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّنْ ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ(٢) ﴾ .

وليس الأمر بالمعروف والنَّهيُ عن المنكر إلّا مع السَّيف والسَّوط .

وقال بعض الحكماء : شيئانِ لا صلاحَ لأحدهما إلّا بالآخر : اللسان والسَّيف .

وأنت إذا تأملتَ أكثر مايتناجَى به المتحدِّثون وجدتَ أكثر السائلين يسألُ عما لا يعنيه ، ويكترث لما لا يكرُثه ، ويُعنَى بما لاينفعه ولا يضرّه ؛ وأكثر المجيبين يُجيب ولم يُسأل ، ويتكلّف ما لا يعلم ، ولو قال له قائل : من سألك لافتضح ، ولو حاجَّه فيما ادَّعى ووقَّفه لانقطع . قال الله عز وجلّ : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ(٣) ﴾ .

---

(١) الآية ٢١ من سورة الطور .
(٢) الآية ١٠٥ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٨٦ من سورة ص .

ومرّ هشامُ بن عبد الملك ببعض أهل الـكلفة والفضول ، وعليه حُلَّة ذَيَّالة[١] يسحبُها فى التّراب ، فقال له المتكلف : ياهذا ، إنّك قد أفسدتَ ثوبك . قال : وما يضرُّك من ذلك ؟ قال : ليتك ألقيتَه فى النار . قال : وما ينفعُك من ذلك ؟ فأفحمه غايةَ الإفحام .

ولو تهيّأ للمتكلِّفين فى كل وقتٍ مثلُ صَرامة هشام لازدجر مَن به حياء منهم ، ولقلّت الفضول والـكُلَف والغِيبة .

قالوا : وليس من أحد أذلّ من مغتاب ؛ لأنه يُخفى شخصَه ، ويُطامن حِسَّه ، ويغضّ من صوته ؛ ولا يَزيدُ[٢] بما يناله من ذلك إلّا بأن يرفعَ من قَدر خَصمه ويعظِّم من شأنه .

قال معاوية : أتدرى مَن النبيل ؟ هو الذى إذا رأيتَه هبتَه ، وإذا غابَ عنك اغتبتَه .

وهى لعمرى سبيلُ العظماء عند العوامّ ، والملوكِ عند الرعيَّة ، والسَّادة عند العبيد .

فلم يأخذ المغتاب ممن اغتابه شيئاً بعضيهته إيّاه[٣] إلّا والذى أعطى من الهَيبة عند حضوره أكثر منه .

ولو كان المغتاب لا يستتر من الغِيبة إلا ممّن يخاف سطوته ، كان أعذَر . ولـكن اللُّؤم المتمكِّن منه يحمله على اغتياب عَبدِه وأَمَته ، فضلًا عن كفئه ونظيره .

---

(١) الذيالة : الطويلة الذيل .

(٢) فى الأصل : « ولا يريد » .

(٣) العضيهة : الإفك والبهتان والـكذب .

ويغتاب الرجلَ عند عدوّه والمشاحِنِ له ، مساعدةً له بالسُّخف ، وتقرّبًا إليه بالمهانة والضَّعف ، من غير أن يكون له عليه طَول ، أو يلتمس منه على ما تقرَّب به إليه جزاء أو شُكورا .

ثم لعلَّه ينكفئ إلى الذى اغتابه وقصَبَه(١) من ساعته ويومه ، فيعطيه فى عدوّه الذى اغتابه عنده أيضاً مثلَ ذلك وأكثر منه ، لا لعـلّةٍ أيضاً ولا مرفق ولا ربحٍ أكثرَ من الذِّلَّة التى يجدُها فى نفسه ، والضَّعف فى مُنَّته ، كما يعظِّم الغنىَّ بغير ثمن ، ويحتقر الفقير بغير سبب ، فمتى كُوشِف أو عُوتبَ لبِسَتْه ذلّةٌ أُخرى من الـكِظّة بالمعاذرِ الـكاذبة ، والاعتصام بالأيمان الفاجرة . ومن كانت هذه دُربتَه فهو حرىٌّ أن يُطّلَعَ على دِخْلة أمره ، فلا يُقبَل منه عذر ، ولا يُصدَّق فى قولٍ ولا حلف ، وقد تَسربَلَ الذِّلّة ، وتدرّع الخضوع . ٦٢ ظ

وليس من سُوس النفسِ الـكريمة الشَّهمة(٢) ، أن تَلقَى الناسَ بخلاف ما يتخلَّقون به(٣) ما لم تأت ضرورة يحتاج فيها إلى كيد وغِيلة ، أو مكر وحيلة ، ويثار بالغِيبة فيهـا الرأىُ الأصيل من مكانه ، فيفعل ذلك العاقلُ فيما يحلُّ له ويحسُن به ، بعد أن تُعيِيَه الحيلةُ فى استصلاح ذلك العدوّ بالرِّفق والملاينة .

وإنّما قيل : « قلَّ من اعتذرَ إلاّ كذب »، لـكثرة النَّطَف فى الناس(٤) ،

---

(١) قصبه قصبا : شتمه وعابه ووقع فيه .

(٢) السوس : الطبع ، والخلق ، والسجية .

(٣) فى الأصل : « يخلفون به » .

(٤) النطف ، بالتحريك : التلطخ بالعيب .

وضعف أنفسهم على الإقرار بالذّنب ، فلا ذِلّة الضّعف الثانى فى الاعتذار نهت عن كُلفة الضّعف الأوّل فى الاغتياب ، ولا كُلفة الضّعف الأوّل صانت عن ذِلّة الضّعف الثانى .

وعلى أنّ أكثر من يُعتَذر إليه ليس بقابلٍ للعذر على حقيقةٍ وإن أظهر القبول ، لما جرّب من سخاء النّاس[١] بالأيْمان ، وبعدهم من الإقرار بالذنب ما لم تأت حجة واضحة ، ودليلٌ شاهد عدل .

وإذا كانت هذه سبيلَ المعتذَر إليه فيحقُّ على المعتذِر - إن كانت فى نفسه قيمة - أن لايعتذر إلّا إلى من يحبُّ أن يجد له عُذرا ، ولا يعجل إلى المَيْن[٢] وهو لا يجد للحجّة مكانا .

وأكثر من يُعتذر إليـــه إنما يُفعل ذلك به خوفاً من سقطته ، وإبقاءً لسلطانه .

والمتفقّهون يتأوّلون فى الأيمان السّلطانية ما يُلحق بها عند السّلطان التُّهمة ، ويُلزِمهم الظِّنّة ، سيّما[٤] فى الأمور التى فى الإقرار بها إباحةُ الدّم والمال ، وهَتكُ السِّتْر .

ولا حسمَ لهذا الداء إلّا باطّراح الفضول ، وسلامة اللسان من أن يَلَغ فى الأعراض[٣] ، ويستمرّ بالعَضِيهة والبَهْت .

---

(١) فى الأصل : « النفس » .

(٢) المين : الكذب ، مان يمين . وفى الأصل : « الهين » .

(٣) أصل الولوغ شرب الماء أو الدم . ومنه ولغ السبع . وفى أساس البلاغة : « ومن المجاز : فلان يأكل لحوم الناس ويلغ فى دمائهم » . والفعل من باب نفع ، ووعد ، وورث ، ووجل . وفى الأصل : « يبلغ » .

(٤) كذا وردت بدون « لا » وأجازه بعض النحاة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده[1] » . ومن لم يسلم الناس منه فليس سالماً من نفسه .

وقال القائل : احرسْ أخاك إلاّ من نفْسه .

وقالوا : مقتل المرء بين فكّيه .

وكُتب على بعض أبواب المُدن بالسِّنْد[2] : احفظ رأسَك .

وقال الأوّل : قد تَصِل النِّصال إلى الإخوان فتُستخرَج ، وأمثالُ النِّصال من القول إذا وصلت إلى القلب لم تُستخرَج أبدا .

٦٣ و وقال بَهْرام[3] ، وسَمِعَ فى اللَّيل صوتَ طائر فتحدَّاه بسهم وهو لا يراه ، إلاّ أنَّه تتبَّع الصَّوتَ فصرعَه ، فلما صار بين يديه قال : والطَّير أيضاً لو سكتَ كان خيراً له !

وقيل : ماشىء أحقّ بطول سَجْنٍ من لسان[4] .

وقيل : يَسألُ اللسانُ الأعضاء فى كلّ يوم فيقول : كيف أنتنّ ؟ فيقُلن : بخيرٍ إن تركتنا !

---

(١) حديث صحيح . أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ٩٢٠٦ ، ٩٢٠٧ ، ٩٢٠٨ . وانظر الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٠ .

(٢) فى ط رواية عن كتاب المختار : « بالمسند » ، أى بالخط المسند ، وهو خط حمير باليمن .

(٣) بهرام : اسم لعدة ملوك من الفرس ، أشهرهم بهرام جور بن يزدجرد ، ملك ثلاثا وعشرين سنة ، ونشأ عند ملوك الحيرة وبنى له الخورنق . قال المسعودى فى التنبيه والإشراف ٨٨ : « وكان فصيحاً بالعربية ، وله بها شعر صالح » . وذكره الجاحظ فى الحيوان ١ : ١٤٠ .

(٤) حديث موقوف رواه الطبرانى من كلام عبد الله بن مسعود . الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٣ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمُعاذ بن جبل : « وهَلْ يكبُّ الناسَ على مناخرهم فى النَّار إلاَّ حصائدُ ألسنتهم[١] » .

وقال عيسى عليه السلام[٢] : « أعمال البِرّ ثلاثة : المنطق ، والنظر ، والصَّمت . فمن كان منطقُه فى غير ذكر الله فقد لغا ، ومن كان نظره فى غير اعتبارٍ فقد سَها ، ومن كان صَمتُه فى غير تفكّر فقد لها » .

فانظر بأىِّ الأمرين قطعتَ عمركَ ؟ أبالحكمة أم باللَّغو ؟ وانظر كيف وصف الله تعالى من أثنى عليه بخير من عباده فقال : ﴿ والذين هم عَنِ اللَّغو مُعْرِضُون[٣] ﴾ ، وقال : ﴿ وإذَا سَمِعُوا اللَّغوَ أعرَضُوا عَنْه[٤] ﴾ ، وقال : ﴿ وإذا مَرُّوا باللَّغو مَرُّوا كراماً[٥] ﴾ . وصانَ عنه أسماع أهل الجنَّة وألسنتَهم فقال : ﴿ لا يَسْمَعُون فيها لغواً ولا تأثيماً . إلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاما[٦] ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العبادة عشرة أجزاء ، تسعةٌ منها فى الصَّمت » .

وقال على بن أبى طالب : « أفضل العبادة الصبر وانتظار الفرج[٧] » .

---

(١) فى اللسان (حصد) : « أى ما قالته الألسنة ، وهو ما يقتطعونه من الكلام الذى لاخير فيه ، واحدتها حصيدة ، تشبها بما يحصد من الزرع إذا جذ » . وتكلم عليه فى الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٥ — ١٦٦ .

(٢) انظر البيان ١ : ٢٩٧ .

(٣) الآية ٣ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية ٥٥ من سورة القصص .

(٥) الآية ٨٢ من سورة الفرقان .

(٦) الآية ٢٥ ، ٢٦ من سورة الواقعة .

(٧) انظر البيان ١ : ٢٩٧ .

وقال بعض الحكماء : لو لم يكن للصَّامت فى صَمته إلاّ الكفايةُ لأن يَتكلَّمَ بكلام ويُحكى عنه محرَّفا فيُضطرَّ إلى أن يقول : ليس هكذا قلتُ ، إنَّما قلتُ كذا وكذا . فيكون إنكاره إقراراً ، واعترافه بما حُكى عنه شاهداً لمن وشَى به ، وادّعاء لتحريفٍ غير مقبول منه إلاّ أن يأتى ببيّنة له[1] ـ لكان ذلك من أكثر فضائل الصَّمت .

وربَّما ذكر رجلٌ الله تبارك وتعالى ، فكان ذلك الذِّكر إثماً له ، لأنه قد يُدخله فى باب تفخيم الذنب الحقير والإغراء والتَّحريض ، فيسفِك الدمَ الحرامَ ، أو يعظِّم الجرح الصغير . بل ربَّما ضحك وتبسَّم ، فأغْرَى وحَرَّض ، وأثِم وأوبق . قال بعض الشعراء[2] :

فإن شئتُ أدلَى فيكما غير واحدٍ مجاهرةً أو قال عندى فى سِرِّ ٦٣ ظ
فإنْ أنا لم آمُرْ ولم أنه عنكما ضحكتُ له حتى يَلجَّ ويستشرى

وقالت العرب[3] : « من كُفِىَ شرَّ لَقلقِهِ وذَبذَبِهِ وقَبقَبِهِ فقد كُفِىَ الشرّ » .

وهذا بابٌ لولا أن نَشغَلَ القارئَ لهذا الكتاب بغير ما قصدنا إليه وعزَمْنا عليه لأتينا عليه . وهو كثير موجودٌ لمن طَلبه ، وجملةٌ واحدة فيها

---

(١) فى الأصل : « بها » .

(٢) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . الحيوان ١ : ١٤ — ١٥ ومجالس ثعلب ١٧ — ١٨ وأمالى المرتضى ١ : ٣٩٨ والأغانى ٨ : ٩١ و ١٣ : ١٠ وجمع الجواهر ٣ والمحبر ٢٩٧ — ٢٩٨ .

(٣) هو حديث ضعيف ، أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ٩٠٧٣ . وانظر البيان ٣ : ٢٧٢ ومجالس ثعلب ٥٤٠ .

كفاية ؛ فإنّما تختلف الألفاظ التى تُجعَل كسوةً لتلك المعانى . وإلاّ فإنّك إذا نظرتَ إلى جميع شُرور الدُّنيا وجدت أوّلها كلمة عَارت فجَنَتْ حرباً عواناً[1] ، كحرب بكر وتغلب ابنَىْ وائل ، وعَبس وذُبيان ابنى بَغِيض ، والأوس والخزرج ابنى قَيْلَة ، والفِجار الأوّل والثانى ، وعامّة حروب العرب والعجم .

وإذا تأمّلتَ أخبارَ الماضين لم تُحصِ عددَ من قتَلهُ لسانهُ وكان هلاكُه فى كلمةٍ بدرَتْ منه .

وليس العجب ممن أفضَى بسرِّه إلى من ليس له بموضع ، ممّن تقدّمت معرفته وزالت الشُّكوك عنه فى أمره ؛ ولكنَّ العجبَ عينَ العجب ممن استنام بسرِّه إلى من لم تَقدُم معرفتُه ومن أنس إليه عن اللِّقاءة واللِّقاءتين[2] ، دونَ معرفة العَين والاسم ، والسَّبب والنَّسَب ، فانخدعَ فى أوّل وهلة وغُبِن عقلَه قبل أن يُغبَن دينه وماله ، وتضاعفت عليه البليّة بطول الحسرة ؛ فإنَّ البلاءَ عارضٌ ومكتسب ، فكانَ العارضُ السَّماوىَ وما خوَّلته الأقدار سرًّا بعد اجتهاد صاحبه رأيَه ، وحيلته فى طلب الخير . وصوابُ تدبيره فيه أسهلُ وأيسر على العاقل المعتاد للصواب ، وإن كان كل مكروه مرًّا بشِعاً . وإنّما الكربُ اللازم والداء العَياء ما اجتمع على صاحبه مع الفجيعة والحاجة ، والنَّقص والذِّلّة ، غمُّ النَّدامة والأسفُ على مافرط منه ؛ إذ كان الجانىَ على نفسه بيده .

---

(١) الحرب العوان : التى قوتل فيها مرة بعد مرة . عارت : أفلتت وذهبت على وجهها . « غارت » ، تصحيف .

(٢) فى الأصل: « اللغاة واللغاتين » . وفى ط : « عن اللقاء واللقائين » ، والوجه ما أثبت . وانظر لكلمة « اللقاءة » شرح الرضى للشافية ١ : ١٨٧ — ١٧٩ .

ولهذا الكلام نظرٌ نكره التطويلَ به ، والمعنى واحدٌ ، وإنّما نحتاج من هذا ومثلِه ـ ممّا قدّمنا ذكره فى الكتاب ـ إلى حفظ السرّ ووزن القول. وإلى هذا أجرَينا ، وله قصدْنا .

٦٤ و ولو اقتصرنا فى هذا الكتاب على حرفٍ مما فيه ، لكان بإذن الله كافياً لمن له لُبٌّ وعقل ، لكنّ الاحتجاج أوكَد ، والإيضاحَ أبلغ ، والحظَّ فى هذا القول كلِّه لمن عقَله والآخِذِ به ، أوفرُ [منه[١]] لمن قاله ولم يعمل بقوله ؛ لأنه إنما يجتنى ثمرة الصواب ، ويَختلِف برَفَقِهِ[٢] من صدَّق قولَه بفعله ؛ فإنّ الحكمة قول وعمل ، وإنّما حظُّ القائل ما لم يستعمل علمه وقولَه حظُّ الواصفين ؛ وحُسنُ الصِّفة يزول بزوالها ، وينقطع بانقطاعها ؛ ومدَّتُها ـ إلى أن يملَّها القائل والسامع ـ يَسيرة .

والأفعال المحمودة متّصلة النفع والشَّرف والفضيلة فى الحياة وبعد الوفاة ، ومذخورٌ[٣] للأعقاب ، وحديثٌ جميلٌ ، ونشرٌ باقٍ على مرِّ الجديدَين . وأكثر من ذلك كلِّه توفيقُ الله وتسديده ؛ فإنّ القلوبَ فى يده ، والخيراتِ مقسوماتٌ من عنده . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

---

(١) ليست فى الأصل .

(٢) الاختلاف : الاستقاء . والرفق ، بالتحريك : الماء القصير الرشاء السهل المطلب .

(٣) ط : « ومذخورة » ، خلافاً لما فى الأصل

تم كتاب كتمان السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله وتأييده ، ومشيئته وتوفيقه . والله الموفِّق للصَّواب برحمته .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامُه .

٤

كِتَابُ
فخر السُّودان على البيضان

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الرابعة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتاب فخر السودان على البيضان »

ومن هذه الرسالة نسخ :

١ — نسخة الأصل ، وهى نسخة مكتبة داماد ، فى ضمن مجموعة رسائل الجاحظ .

٢ — نسخة ڤان ڤلوتن المنشورة فى ليدن ١٩٠٣ ، ورمزها « ن » .

٣ — نسخة الساسى ، ورمزها « س » .

وقد سبق التنبيه على أن هذه الرسالة فى الأصل هى الرسالة الخامسة ، ولكن تكرار الرسالة الثانية بجعلها الرابعة فى الأصل كان سببا فى تغيير أرقام الرسائل بالنقص ، كما اضطرنا إلى أن نتخطى أرقام الأصل فى الرسالة المكررة ، ونثبت الأرقام التى بعدها على جوانب النسخة ، فتبدأ هذه الرسالة بصفحة (٧٨ ظ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

٧٨ ظ

تولاك الله وحفظك، وأسعدك بطاعته، وجعلك من الفائزين برحمته.

ذكرت - أعاذك الله من الغش - أنك قرأت كتابي في مُحاجّة[١] الصُّرحاء للهُجَناء، وردّ الهُجَناء، وجواب أخوال الهجناء، وأنّي لم أذكر فيه شيئاً من مفاخر السُّودان[٢]. فاعلمْ حفِظَك الله أنّي إنّما أخَّرت ذلك متعمِّداً.

وذكرتَ أنكَ أحببتَ أن أكتب لك مفاخرَ السُّودان، فقد كتبتُ لك ما حضَرني من مفاخرهم.

قال الأصمعيّ: قال الفِزْرُ عبدُ فزارة[٣] وكانت في أذنه خُربَة[٤]:

إنّ الوِئام[٥] يتسترّع في جميع الطَّمْش[٦]: لا يَقرب العنز الضَّأن ما وجدت

---

(١) في ن، س: «محاكمة».

(٢) الكلام بعده إلى كلمة «السودان» التالية ساقط من ن، س.

(٣) النص في الحيوان ٢: ٢٤٠ - ٣٤١ محرفاً. وفيه «الغرير عبد بني فزارة».

(٤) الخربة بالباء: ثقب شحمة الأذن؛ يقال عبد أخرب وأمة خرباء. وفي قول ذي الرمة:

كأنه حبشي يبتغي أثراً أو من معاشر في آذانها الخرب

وفي ن، س: «خرتة»، والخرتة بالتاء تكون في الحديد من الفأس والإبرة. وانظر ما سيأتي في ص ١٩٨.

(٥) في جميع الأصول: «الأوام»، صوابه ما أثبت. وانظر ما سيأتي من الكلام على الرجز التالي. والوئام: الوفاق.

(٦) الطمش: الناس، يقال ما أدري أي الطمش هو، أي الناس. وقد =

الماعز[١] ، وتنفر الشّاء من المِخلب ولا تأنس بالخُفّ[٢] .

وأنشد أبو زَيدٍ النَّحويُّ :

* لولا الوِئامُ هلكَ الإنسانُ[٣] *

وقال شدّادٌ الحارثيُّ[٤] ـ وكان خطيباً عالماً ـ : قلتُ لأمةٍ سوداء بالبادية : لمن أنتِ يا سوداء ؟ قالت : لسيِّد الحَضَر يا أصلع . قال : قلت أو لستِ سوداء ؟ قالت : أو لستَ أصلع ؟ قلت : ما أغضبكِ مِن الحق . قالت : الحقُّ أغضبَك ، لا تشتُمْ حتى تُرهَب[٥] ، ولأن تتركَه أمثلُ .

وقال شدّاد : لقد كلّمتها وأنا أظنُّ أنّى أفِي بأهل نجد[٦] ، وما نَزَعَتْ عنّى إلاّ وأنا عِندَ نفسى لا أفى بأمَتِي .

وقال الأصمعىّ : قال عيسى بن عمر : قال ذو الرُّمّة : قاتل اللهُ أمةَ آلِ فلانٍ السّوداء ، ما كان أفصحَها وأبلغَها ! سألتُها كيف كان المطر عندكم ؟ قالت : غِثْنا ما شئنا[٧] .

= عنى بالطمش هاهنا الخلق من إنسى ووحشى . والتترع : التسرع . وفى الحيوان : « يسرع » وفى ن ، س : « ينتزع » .

(١) فى الأصل : « ماوجبت » ، صوابه من الحيوان ، وبذلك صححت فى س ، ن .

(٢) فى الحيوان : « ولا تتأنس » .

(٣) فى الأصل : « الأوام » تحريف . صوابه فى المخصص ١٢ : ١٥١ والغريب المصنف ٣٨٨ . وانظر للمثل أساس البلاغة (وأم) وأمثال الميدانى ٢ : ١١١ .

(٤) فى الأصل : « وكان » ، صوابه فى البيان ٢ : ٧١ حيث الخبر .

(٥) فى البيان : « لا تسبب » ، من السبب .

(٦) أى فى الفصاحة ، ويقال وفى به ، أى عادله ووازنه .

(٧) البيان ٢ : ٧١ ومجالس ثعلب ٣٤٨ .

مناقب السودان

أنّ لقمانَ الحكيمَ منهم ، وهو الذى يقول : ثلاثة لا تعرفهم إلاّ عند ثلاثة : الحليم عند الغَضَب ، و الشُّجاع عند الخوف ، والأخُ عند حاجتك .

وقال لابنه : إذا أردتَ أن تخالطَ رجلاً فأغضِبْه قبل ذلك ، فإنْ أنصفَك وإلاَّ فاحذَره .

ولم يَروُوا ذلك عنه إلاّ وله أشياء كثيرة[١] . وأكثرُ من هذا مَدْحُ الله إيّاه وتسميتُه الحكيمَ ، وما أوصى به ابنَه .

ومنهم : سعيد بن جُبَير[٢] ، قتله الحجّاج قبل موته بستّة أشهر وهو ابن تسعٍ وأربعين سنة ، ومات الحجّاج وهو ابن ثلاث وخمسين سنة . وكان سعيدٌ أوْرعَ الخَلْق وأتقاهم ، وكان أعظمَ أصحابِ ابن عبّاس . وأصحابُ الحديث يطعنون فى الذى يجىء من قِبَل أصحاب ابن عباس حتى يَجيء [من[٣]] سعيدِ بن جُبير . وأبوه مولَى بنى أسد ، وهو مولى بنى أميّة ، وقُتِل يومَ قُتِلَ والناسُ يقولون : كلُّنا محتاجٌ إليه . ٧٩ و

ومنهم : بلالٌ الحبشىُّ رضى الله عنه ، الذى يقول فيه عمر بن الخطاب

---

(١) انظر أقواله بتتبع فهارس البيان ، والحيوان ، وعيون الأخبار ، والتمثيل والمحاضرة وغيرها .

(٢) كان من موالى والبة ، وهم بطن من أسد بن خزيمة ، ولذا يقال فى نسبه : الأسدى الوالبى ، وهى نسبة ولاء . قتله الحجاج صبرا سنة ٩٥ . تهذيب التهذيب .

(٣) ليست فى الأصل .

رضى الله عنه : إن أبا بكرٍ سيِّدُنا وأعتق سيِّدَنا[١] ، وهو ثُلث الإسلام .

ومنهم : مِهْجَع[٢] ، وهو أوّل قتيلٍ قُتِل بين الصَّفَّين فى سبيل الله .

ومنهم : المقداد[٣] ، وهو أوّلُ من عدا به فرسُه فى سبيل الله .

ومنهم : وحشيٌّ[٤] قاتلُ مُسيلمةَ الـكذَّاب . وكان يقول : قتلتُ خيرَ الناس – يعنى حمزةَ بنَ عبد المطَّلب رضى الله عنه – وقتلتُ شرَّ الناس – يعنى مُسيلِمةَ الـكذَّاب .

ومنهم : مكحولٌ الفقيه[٥] .

ومنهم : الحيقُطان الشّاعر[٦] ، الذى كان يَفضُل فى رأيه وعقله وهمّته . وهو الذى يقول فى الإخوان : لا تعرفُ الأخَ حتَّى ترافقَه فى الحضَر ، وتُزامله فى السَّفَر .

---

(١) العثمانية للجاحظ ٣٢ ، ١٨٠ .

(٢) فى الأصل : « عقجع » ، صوابه فى السيرة ٤٩٠ والإصابة ٨٢٥٥ ومحاضرة الأوائل للسيوطى ٤٨ . وهو مولى عمر ، قال ابن هشام : « وكان أول قتيل من المسلمين بين الصفين يوم بدر » .

(٣) المقداد بن الأسود الـكندى ، كان أبوه عمرو بن ثعلبة حليفا لـكندة فتزوج منهم امرأة فولدت له المقداد ، فلما كبر المقداد وقع شر بينه وبين أبى شمر الـكندى فضرب رجله بالسيف وهرب إلى مكة فحالف الأسود بن عبد يغوث الزهرى ، وتبناه الأسود فعرف به أولا ، فلما نزلت « ادعوهم لآبائهم » رجع إلى نسبه فقيل المقداد بن عمرو . توفى فى خلافة عثمان سنة ٣٣ . الإصابة ٨١٧٩ .

(٤) وحشى بن حرب الحبشى ، مولى بنى نوفل .

(٥) يبدو أنه من سودان النوبة ، ففى تهذيب التهذيب أنه كان لرجل من هذيل من أهل مصر فأعتقه . ويقال كان من الفرس ، واسم أبيه سهراب . توفى سنة ١١٢ .

(٦) ذكره فى البيان ١ : ١٣٠ ، ٣٢٨ . قال الجاحظ : « وكان خطيباً لا يبارى » . وأصل معنى الحيقطان طائر الدرّاج ، أو الذكر منه .

ومنهم : جُلَيبيبٌ[1] الذى تحدّثت الرُّواةُ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجَ فى غزاةٍ فقال لأصحابه : هل تفقِدونَ من أحد ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تفقِدون من أحد ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تفقدون من أحدٍ ؟ قالوا فى الثالثة : لا . قال : لكنّى أفقد جُليبيبًا ، اطلبوه . فطلبوه فوجدوه بين سبعةٍ قد قتلَهمْ ثمّ قُتِل . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « قتلَ سبعةً ثمّ قتلوه . هذا منّى وأنا منه » . قال : ثمّ حملَه على ساعدَيهِ حتّى حفَروا له ، ماله سَرِيرٌ غير ساعدَىْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم . قال : ولم يذكروا غُسْلًا .

٧٩ ظ

ومنهم : فرجٌ الحجّام[2] وكان من أهل العَدالة ، والمقدَّمين فى الشَّهادة . أعتقه جَعفر بن سُليمان ؛ وذلك أنّه خدَمه دهرًا يُصلح شاربَه ولحيتَه وهيئَته ، فلم يره أخطأ فى قولٍ ولا عملٍ ، فقال : واللهِ لأمتحننّه ، فإنْ كان ما أرى منه عن تدبيرٍ وقصدٍ لأُعتِقَنّه ولأُزوِّجنّه ولأُغنينّه . وإن كان على غير ذلك عرفتُ الصُّنعَ فيه . فقال له ذاتَ يومٍ وهو يحجمه : يا غلامُ ، أتحتجم ؟ قال : نَعَم . قال : ومتى ؟ قال : عند الحاجة . قال : وتعرِف ذلك ؟ قال : أعرِفُ أكثرَه وربّما غلِطت . قال : فأىَّ شىء تأكل ؟ قال : أمّا فى الشتاء

---

(١) تصغير جلباب . ذكر ابن حجر فى الإصابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجه أنصارية ، ونزل فى قصته قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . الأحزاب ٣٦ . وكانت أمها أبت أن تزوجها من جليبيب بعد خطبة الرسول إياها لجليبيب . تفسير ابن كثير ٣ : ٤٨٩ — ٤٩٠ .

(٢) الخبر فى الحيوان ٧ : ٢٦١ — ٢٦٢ .

فدا كبراه[١] خاثرة حلوة . وأمّا فى الصَّيف فسِكباجةٌ حامضة عذبة[٢] . فبلغ به جعفر بن سليمانَ ما قال . وهو الذى يقول فيه أبو فرعون[٣] :

خــلُّوا الطَّريقَ زوجتى أمامى أنا حميمُ فرجِ الحجّـــامِ[٤]

قال : وبلغ من عدالته ونُبله فى نفسه وتوقّيه ووَرَعه ، أنَّ مواليَه من ولد جعفرٍ وكبارَ أهلِ المِربد ، كانوا لا يطمعون أن يُشْهدوه إلَّا على أمرٍ صَحيح لا اختلاف فيه .

وأمّا الحيقُطان فقالَ قصيدةً تحتجُّ بها اليمانية على قُريش ومضر ، ويحتجُّ بها العجم والحَبشُ على العرب ، وكان جريرٌ رآه يومَ عيدٍ فى قميص أبيَض وهو أسود ، فقال :

---

(١) كذا . وفى الحيوان : « فدبجبريحة » . وفى كتاب الطبيخ للبغدادى ١٢ « ديكبريكة » . قال : « وصنعتها أن يقطع اللحم وسطاً ، ويترك فى القدر ، ويلقى عليه يسير ملح وكف حمص مقشور ، وكسفرة يابسة ورطبة ، وبصل مقطع ، وكراث ، ويطرح عليه غمره ماء ويغلى ، ثم تؤخذ رغوته ويلقى عليه خل خمر ومرى ، ويلقى فيه فلفل مسحوق ناعما ويطبخ حتى يبين طعمه . ومن الناس من يحليه بقليل سكر » . وقل محققه داود الجلبى أن اسمه مأخوذ من الآرامية ومعناه الديك المبارك .

(٢) السكباج ، ويقال له الخلية ، والخللة ، والصفصافة ، وهو لحم يعالج بالخل والتوابل ونحوها ويضاف إليه أحيانا الزعفران والسذاب . انظر صنعته فى كتاب الطبيخ للبغدادى ص ٩ — ١٠ ومحاضرات الراغب ١ : ٢٩٢ .

(٣) ذكره الجاحظ أيضا فى الحيوان ٦ : ٧٨ . وذكره ابن النديم فى الفهرست ٢٣٣ فى جماعة من الشعراء المقلين وقال « أبو فرعون الشاشى . ثلاثون ورقة » يعنى أن شعره فى ثلاثين ورقة . وانظر بعض أخباره وشعره فى طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٧٦ — ٣٧٩ .

(٤) فى الأصل : « أنا حمام » ، صوابه فى الحيوان ٧ : ٢٦٢ .

كأنه لما بدا للنـــــاسِ أير حمـــارٍ لُفَّ فى قرطاسِ[١]

فلما سمعَ بذلك الحيقطانُ وكان باليمامة ، دخل الى منزله فقال هذا الشعر :

لئن كنتُ جَعـدَ الرَّأسِ والجلدُ فاحمٌ
فإنِّى لَسَبْطُ الـكفِّ والعـرضُ أزهرُ[٢]

وإنَّ ســــوادَ اللَّون ليس بضائرى
إذا كنتُ يومَ الرَّوع بالسَّيف أخطِرُ

فإن كنتَ تبغى الفخرَ فى غـير كنهه
فرهطُ النَّجاشى منـــك فى الناس أفخرُ[٣]

٨٠ و

تأبَّى الجُلَنْـدَى وابنُ كسرى وحارثٌ
وهَـــوذةُ والقِبطىُّ والشيخُ قيصرُ

وفاز بهــا دونَ الملوك سعادةً
فــدامَ له الملكُ المنيعُ المــوفَّرُ

ولقمان منهم وابنـــه وابنُ أمِّه
وأبرهـــةُ المَلْك الذى ليس يُنكَرُ

غزاكم أبو يكســـومَ فى أمِّ داركم
وأنتم كقِبْصِ الرَّملِ أو هو أكثرُ[٤]

---

(١) لم يرد البيت فى ديوان جرير .

(٢) أزهر : أبيض نقى . (٣) كنه الشىء : حقيقته .

(٤) القبص : العدد الكثير ، يقال : إنهم لفى قبص الحصى . وقال الكميت :

لكم مسجدا الله المزوران والحصى لكم قبصه من بين أثرى وأقترا

وفى الأصل : « فيض » ، تحريف .

وأنتم كطَيرِ الماء لمّا هوى لها ببالقعةٍ ، حُجنُ المخالبِ أكدرُ(١)

فلو كان غيرُ الله رامَ دفاعه علمتَ وذوالتَّجريب بالناس أخبرُ(٢)

وما الفخرُ إلَّا أن تبيتوا إزاءه وأنتم قريبٌ ناركم تتسعَّرُ

وَيدلُف منكم قائد ذو حفيظة نُكافحه طورًا وطورا يدبَّرَ

فأما التى قُلتم فتلكم نُبوَّة وليس بكم صُونَ الحرامُ المستّرُ(٣)

وقلتم لَقَاحٌ لا نؤدِّى إتاوةً فإعطاء أريانٍ من الفرِّ أيسرُ(٤)

ولو كان فيها رغبةٌ لمتوِّج إذًا لأتتها بالمَقاول حميرُ(٥)

وليس بها مشتًى ولا متصيَّف ولا كجُؤاثا ماؤها يتفجَّرُ(٦)

---

(١) حجن المخالب ، أى حجن مخالبه . و«أل» بدل من الضمير . والحجن : جمع أحجن ، وهو المعوج . وفى الأصل : « حجر » تحريف .

(٢) أى هم قوم لا يستطيع أحد دفاع فخرهم ومجدهم . فأنت لو حاولت هذا الدفاع علمت عاقبة ذلك .

(٣) أى صين البيت الحرام ذو الستور . وصون : لغة فى صين ، وهى لغة بنى فقعس وبنى دبير ، كما فى قوله :

* ليت شبابا بوع فاشتريت *

وقلتم ، لعلها « نلتم » .

(٤) اللقاح ، كسحاب : القوم لم يدينوا للملوك ولم يصبهم فى الجاهلية سباء . والأريان ، بالفتح : الخراج والإتاوة . كما فى اللسان (أرى) . وفى ن ، س : « أربان » بالباء ، وليس بشىء ، فإنه بمعنى العربون . وأراد : أيسر من الفر .

(٥) فى الأصل « لأنها » بهذا الإهمال . والمقاول : جمع مقول ، بالكسر ، وهو القيل الملك من ملوك حمير .

(٦) جؤاثا ، ويقال جؤاثاء أيضا : حصن لعبد القيس بالبحرين .

ولا مرتعٌ للعين أو متقنَّص ولكنَّ تَجرًا ، والتجارةُ تُحقَر

ألستَ كُليبيًّا وأمُّك نعجةً لكم فى سِمان الضّأن عارٌ ومَفخرُ

أما قوله :

تأبَّى الجلنـدَى وابنُ كسرى وحارثٌ

وهـوذةُ والقبطىّ والشيخُ قَيصرُ

فإنّه يقول : كتبَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم إلى بَنى الجُلندَى[1] فلم يُؤْمنوا وكذلك كسرى ، وكذلك الحارث بن أبى شَمِر ، وكذلك هَوذة بن على الحَنَفىّ ، وكذلك المقوقس عظيم القبطِ صاحبُ الإسكندرية ، وكذلك قيصرُ ملك الرُّوم. على أنَّ بنى الجُلَندَى قد أسلموا من بعد ذلك الكتابِ ، ولكنَّ النَّجاشىَّ أسلمَ قبل الفتح ، فدام له ملكُه ونزع الله من هؤلاء النِّعمة . وقيصر إنْ كانَ قد بقِى من ملكه شىء فقد أخرجوه من كلِّ مكانٍ يبلغه ظِلْفٌ أو حافر ، وصار لا يتمنّع إلّا بالخليج وبالعِقاب والحصون[2] وبالشِّتاء والثُّلوج والأمطار .

ونخرَ بلقمان وابنه .

وأمّا قوله :

غـزاكم أبو يكسومَ فى أمِّ داركم

وأنتم كقِبْص الرَّمل أو هـو أكثر[3]

(١) وكذا ورد فى أصول الحيوان ١ : ٩٨ ، والمعروف أنهما ابنا الجلندى ، ففى السيرة ٩٧١ : « وبعث عمرو بن العاص السهمى إلى جيفر وعياذ ، ابنى الجلندى الأزديين ملكى عمان . ومثله فى الإصابة ١٣٠٥ .

(٢) العقاب : جمع عقبة وهى الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ فيه .

(٣) فى الأصل : « كقيض الرمل » . وانظر ماسبق فى حواشى ١٨٣ .

فإنّه يَعنى صاحب الفيل حين أتى مكّةَ ليهدم الكعبة . يقول : كنتم فى عدد الرَّمل ، فلِمَ فررتم منه ولم يلقه أحدٌ منكم حتّى أفضى إلى مكّة ، ومكّةُ أمّ القرى ، ودارُ العربِ ، هى جزيرةُ العرب ، ومكّة قريةٌ من قراها ، ولكنْ لما كانت أقدمَها قِدَما ، وأعظمَها خطرًا ، جُعِلت لها أمًّا . ولذلك قيل لفَتْح مكّة : فَتْحُ الفُتوح . وعلى مثل ذلك سمّيت فاتحةُ الكتاب : أمّ الكتاب .

والعرب قد تجعل الشيء أمّ ما لم يَلِدْ . من ذلك قولهم : ضربه على أمّ رأسه ، وكذلك أمّ الهاوية[1] . والضَّيف يسمى ربّةَ منزلِه أمّ مَثواىَ .

وقال أعرابىٌّ وقد أصابته براغيثُ عند امرأةٍ كان نزل بها[2] :

يا أمَّ مثواىَ عدِمتُ وجهكِ   أنقذَنى ربُّ العُلا من مصركِ
ولذعِ بُرغوثٍ أراه مُهلكِى   أبيتُ ليلى دائبَ التحكّكِ[3]

* تحكّكَ الأجربِ عند المبركِ *

وقد أبان الله تعالى مكةَ والبيتَ حين قال : ﴿ إنَّ أوّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ[4] ﴾ .

---

(١) كذا . وفى الكتاب العزيز : « فأمه هاوية » . وهاوية والهاوية اسم من أسماء جهنم . وقيل معنى فأمه هاوية ، أى أم رأسه تهوى فى النار ، قال ابن برى : لو كانت هاوية اسما علما للنار لم ينصرف .

(٢) الرجز التالى فى الحيوان ٥ : ٣٩١ .

(٣) فى الحيوان : « دائم التحكك » .

(٤) الآية ٩٦ من سورة آل عمران .

يقول : فإذا غُزِيت — وهى أمُّ القرى وفيها البيتُ الحرام الذى هو شرفُكم — فقد غُزِى جميعُكم[١] .

وأمّا قوله :

وأما التى قُلتم فتلكم نبــوّةٌ وليس بكم صُونَ الحرامُ المستَّرُ

[وقلتم لَقاحٌ لا نؤدّى إتاوةً فإعطاء أربانٍ من الفرّ أيسرُ[٢]]

فاللَّقاح : البلد الذى لا يُؤدِّى إلى الملوك الأَرْبان[٣] . والأَرْبان : هو الخراج ، وهو الإتاوة . وفى ذلك يقول عَبيد بن الأبرص :

أبَوْا دِينَ المُلوك فهــم لَقاحٌ إذا نُدِبوا إلى حــربٍ أجابوا

قال : فقلتم إنّا لَقاحٌ ولسنا نؤدّى الخراج والأَرْبان .

٨١ و

قال : فإعطاء الخراج أهونُ من الفِرار وإسلامِ الدار وأنتم مثلُ عددِ مَنْ جاءكم المرارَ الكثيرة .

وأمّا قوله :

وليس بها مَشْتًى ولا متصيَّف ولا كجُــؤاثا ماؤُها يتفجّرُ

يقول : ليس فى الغَلَبة على مكّة رغبة ، ولولا ذلك لغزاها أهلُ اليمن وغيرُهم . وليس بها مشتًى ولا متصيَّف ؛ لأنهم يتبرّدون بالطائف ويتدفَّوْن بجُدَّة . وجُؤاثا : عينٌ بالبحرين . وليس بمكّة شىء يدانى ذلك .

---

(١) فى الأصل : « غزا جميعكم » .

(٢) لم يرد هذا البيت فى الأصل ، والكلام التالى يتعلق به .

(٣) انظر ماسبق فى الحاشية الرابعة من ص١٨٤ . والكلمة واضحة فى الأصل بالياء المثناة .

وقال :

ولا مرتعٌ للعَين أو متقنَّص ولكنَّ تَجراً والتِّجارة تُحقَرُ

يقول : ليس بها متنزَّهات ، وصَيدُها حرام ، وإنَّما بها تُجَّار والتُّجَّار يُحقَرون . يقول : هم عند الناس فى حدِّ الضعف ولا يستجيز ملِكٌ أَخْذَ الذى به يتعيَّشون ، ولا يكون ما يُؤخذ منهم يقوم بنوائب الملوك[1] ، وهم قومٌ[2] ليس عندهم امتناعٌ . ولذلك يقول الشاعر معاوية بن أوس ، وهو جاهلىٌّ :

وزِقٍّ سبأتُ لدَى متجرٍ أُسَيوِدَ كالرَّجل الأسحَم[3]

ضربتُ بفِيـهِ على نحره وقائمُهُ كيدِ الأجذَم

إلى التَّاجر العربىّ الشحيـ ـح أو خَمِرِ ذى النَّطَف الطِّمطِمِ[4]

أراد بهذا كلِّه قريشاً[5] . يقول : هم تجّار وقد اعتصموا بالبيت ، وإذا خَرجوا علَّقوا عليهم المُقْل ولحاء الشَّجر[6] حتَّى يُعرفوا فلا يقتلهم أحد .

---

(١) يعنى حاجاتهم ونفقاتهم . وأصل النائبة ماينوب الإنسان أى ينزل به من المهمات والحوادث .

(٢) هو معاوية بن أوس بن خلف التميمى ، وهو ابن أبى حارثة المرى . ترجم له المرزبانى فى معجمه ٣٩٢ وذكر له أبياتا أخرى من هذه القصيدة .

(٣) وقع فى ن ، س : « ورزق » ، تحريف . والزق : السقاء ، وهو أيضا ماتنقل فيه الخمر . وسبأ الخمر : اشتراها ، أو حملها من بلد إلى آخر .

(٤) الشحيح : البخيل ، يعنى أنه يغالى فى ثمن الخمر . والنطف ، بالتحريك: جمع نطفة ، وهى القرط . قال الأعشى :

يسعى بها ذو زجاجات له نطف مقلص أسفل السربال معتمل

والطمطم : الأعجمى الذى لايفصح .

(٥) فى الأصل ، و ن ، س : « قريش » .

(٦) أشير فى الأصل إلى أنها فى نسخة « السمر » . هذا وليس فى نص الشعر المتقدم مايقتضى هذا التفسير من تعليق المقل ولحاء الشجر .

وأما قوله:

ألستَ كليبيًا وأمُّك نعجةٌ لكم في سِمان الضَّأن عارٌ ومفخرُ

فإنّ بني كُليبٍ يُرمَون بإتيان الضَّأن، وكذلك بنو الأعرج، وسُليم. وأشجعُ تُرمَى بإتيان المَعْز.

٨١ ظ

وقال النَّجاشيّ:

ولو شتمتني من قُريشٍ قبيلةٌ سِوى ناكةِ المِعزى سُليمٌ وأشجعُ

وقال الفرزدق:

ولستُ مضَحِّيًا ما دمتُ حيًّا بشاةٍ من حَلوبةِ أعرجيِّ[1]

فما أدري إذا أنفقتُ مالي لعلَّ الشاةَ تُبقَر عن صبيِّ[2]

وقال الآخر:

إذا أحببت أن تُغلِي أتانًا فدُلَّ الدارميَّ على شِراها

يُقبِّل ظهرَها ويكاد لولا فُحول الظَّهر يدنو من قفاها

ووَدَّ الدارِميُّ لوَ انَّ فاه إذا نال الحمارةَ نال فاها[3]

وقال عبد بن رشيد:

قبيلةُ سَوءٍ خَيرهم مثلُ شرِّهم ترى منهمُ للضأن خِلاًّ وراعيا

إذا جُلِيتْ فيهم عَروسٌ لبعلها ترى النَّعجةَ البَقعاءَ أبكى البواكيا[4]

---

(١) البيتان مما لم يرو في ديوان الفرزدق.

(٢) تبقر: يشق بطنها. وفي الأصل: «تبعر».

(٣) في الأصل، س «الحمار ينال». وفي ن: «تنال فاها»، والوجه ما أثبت.

(٤) في الأصل: «عروسا».

ولذلك قال الأخطل :

فانعَقْ بضأنك ياجريرُ فإنّما منّتكَ نفسُك في الخلاء ضلالا[١]

ولذلك قال الحَيقُطان :

ألستَ كليبيًّا وأمُّك نعجةٌ لها في سِمان الضّأن عارٌ ومفخرُ

أمّا العار فالذى شاع عليهم من ذِكر النّعاج . وأما المفْخر يقول : إذا فَخَروا فخروا بالشّاء ، ولا يبلغون إلى حدّ الإبل .

ومن مفاخر السُّودانِ والزّنج والحبَش مع ما ذكرنا من قصيدة الحيقطان ، أنّ جرير بن الخطفَى لمّا هجا بنى تَغلبَ [و[٢]] قال :

لا تَطلُبَنّ خُؤولةً فى تَغلبٍ فالزّنجُ أكرمُ منهمُ أخوالا[٣]

غَضِب سنيح بن رَباح[٤] شار[٥] ، فهجا جريراً ، وفخر عليه بالزّنج فقال :

ما بالُ كلبٍ من كُليبٍ سبّنا أن لم يُوازن حاجباً وعِقالا[٦]

---

(١) ديوان الأخطل ٥٠ وابن سلام ٤٢٩ واللسان (نعق) . وفى الأصل « فانعم » ، تحريف .

(٢) ليست فى الأصل .

(٣) ديوان جرير ٤٥٣ والبيان ٤ : ٨٢ والكامل ٥١٤ .

(٤) فى الكامل ٥١٤ : « رياح بن سنيح الزنجى مولى بنى ناجية » . ويقال أيضا رباح بن سبيح ، وسبيح بن رباح ، كما فى اللسان (طول) . وقال ابن الأثير فى الكامل ٤ : ١٦١ فى ذكر فتنة الزنج أيام مصعب بن الزبير : « وجعلوا عليهم رجلا اسمه رياح ، ويلقب شيرزنجى ، يعنى أسد الزنج » .

(٥) فى الأصل « سار » ، وإعجامه مما سيأتى . وفى الحيوان ١ : ٢٧٠ : « السارنجى » . وفى ٧ : ٢٠٥ : « الشارزنجى » .

(٦) فى الأصل : « توازن » ، صوابه فى الكامل واللسان . يعنى جريرا =

إنَّ امرأً جَعلَ المراغةَ وابنَها مثلَ الفرزدق جائر قد فالا[١]
والزَّنجُ لو لاقيتَهم فى صفِّهم لاقيتَ ثَمَّ جَحاجحاً أبطالا ٨٢ و
فسلِ ابنَ عمرو حين رامَ رماحهم أرأى رماح الزَّنج ثَمَّ طِوالا
فجعوا زياداً بابنِهِ وتنازلوا لما دُعُوا لنزَالِ ثَمَّ نِزالا[٢]
ومربِّطين خيولَهم بفِنائهم وربطتَ حولَكَ شَيَّها وسِخالا[٣]
كان ابن نَدبَةَ فيكمُ من نجانا وخُفافٌ المتحمِّلُ الأثقالا
وابنا زُبَيبةَ : عَنترٌ وهَراسةٌ ما إن نرى فيكمْ لهم أمثالا
سَلْ ابنَ جَيفر حين رام بلادنا فرأى بغزوتهم عليه خَبالا
وسُلَيكٌ اللَّيثُ الهِزَبرُ إذا عَدا والقَرْمُ عَبَّاسٌ عَلوكَ فَعالا
هذا ابن خازِمٍ ابنُ عَجْلَى منهمُ غابَ القبائلَ نجدةً ونَوالا
أبناء كلِّ نجيبةٍ لنجيبةٍ أُسْدٌ تُربِّب عندَها الأشبالا
فلَنحنُ أنجبُ من كُليبَ خُؤولةً ولأنت ألأمُ منهم أخوالا
وبنو الحُبَابِ مَطَاعن ومَطاعم عند الشِّتاء إذا تَهبُّ شَمَالا[٤]

= وجاء فى قول الأخطل (ديوانه ٥٠ وابن سلام ٤٢٩) مخاطباً لجرير :

منتك نفسك أن تكون كدارم أو أن توازن حاجباً وعقالا

وحاجب هو حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم ، من رهط الفرزدق ، وكثيراً ما افتخر به . وأما عقال فهو جد الفرزدق ، فإن اسمه همام ابن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم .

(١) المراغة : الأتان ، وهو لقب لقبها به الفرزدق ، كما فى القاموس . فال ، بالفاء : أخطأ رأيه وضعف . وفى الأصل : « قالا » تصحيف .

(٢) زياد ، هو والد حفص بن زياد بن عمرو .

(٣) الشيه ، كسيد : جمع شاة . وفى الأصل : « اشا ا » تحريف .

(٤) فى الأصل : « الحتات » ، ولكن تعقيب الجاحظ فيما بعد ، يعين أنه « الحباب » .

أما ابن عمرٍو الذى ذَكَر ، فهو حَفْص بن زياد بن عمرٍو العَتَكىّ ، كان خليفةَ أبيه على شُرطة الحجاج ، فغَلبَ رَباح شَار الزِّنجى[1] على الفُرات ، فتوجَّه إليه حفص بن زيادٍ فقتلَه رَباحٌ وقتلَ أصحابه واستباح عسكره .

وأمّا ابنُ جيفر فهو النُّعمان بن جَيفر بن عُباد بن جَيفر بن الجُلَندَى . كان غزا بلادَ الزِّنج فقتلُوهُ وغَنِموا عسكره .

ثم ذكر أبناءَ الزِّنجيات حين نَزعوا إلى الزِّنج فى البَسالة والأنفة[2] . فذكر خُفافَ بن نَدبة ، وعبّاسَ بن مِرداس ، وابنَىْ شدّادٍ : عنترةَ الفوارسِ وأخاه هَراسة ، وسُليكَ بن السُّلَكة . فهؤلاء أُسدُ الرجال ، وأشدُّهم قلوباً وأشجعهم بأساً ، وبهم يُضرب المثل .

ومنهم : عبدالله بن خازِمٍ السُّلَمى ، وبنو الحُباب : عُمير بن الحُبابِ وإخوتُه[3] .

وكان أيضاً منهم : الجَحّاف بن حَكيم[4] . ٨٢ ظ

وهم أيضاً يفخرون بِرَباحٍ أخى بلال وحالِه وصلاحِه .

ويفخرون بعامر بن فُهيرة[5] ، بدرىٌّ استُشهِد يومَ بئر مَعُونة ، فرآه الناسُ قد رفعه اللهُ بين السّماء والأرض ، فليس له فى الأرض قبر .

---

(١) انظر ما سبق فى حواشى ص ١٩٠ .

(٢) فى الأصل : « فى الأصالة والأنفس » ، والوجه ما أثبت .

(٣) انظر الاشتقاق ٣٠٨ ، ٣٣٩ ، وجمهرة ابن حزم ٣٦٤ ، ٣٠٥ .

(٤) الاشتقاق ٣٠٨ ، وجمهرة ابن حزم ٢٦٤ .

(٥) كان مولى لأبى بكر الصديق ، ولذا جاء فى نسبته التيمى . انظر الإصابة ٤٤٠٨ ، وقال ابن هشام : عامر بن فهيرة مولى من موالى الأسد ، أسود ، اشتراه أبو بكر رضى الله عنه منهم . السيرة ١٦٤ . فكأنه أزدى وتيمى .

ومنهم : آلُ ياسر [١] .

قالوا : ومنّا الغُدَاف صاحبُ عُبيد الله بن الحُرّ . لم يكنْ فى الأرض أشدُّ منه : كان يَقطع على القافلةِ وَحدَه بما فيها من الحُماة والخُفَراء .

وكَعبَويهِ صاحب المُغيرة بن الفِزْر ، كان مثلاً فى الشَّجاعة .

ويقولون : ومنّا مرْبح الأشرم ، غلام أبى بحرٍ القائد ، الذى كان قدِم من الشام أيامَ قُتيبةَ بن مسلم ، وكان لا يُرام لقاؤه ، وأمره مشهور .

قالوا : ومنا المغلول وبنوه ، وهم من الخَول ، ليس فى الأرض أعرفُ [٢] ولا أثقف ولا أعلمُ بالبادية منهم .

قالوا : ومنّا أفاح ، الذى قطع على القوافل بخُراسان وحده عشرين سنة .

قالوا : وإنّما قتلَه مالك بن الرَّيب ، لأنّه وطئه فى جوف اللّيل وهو سكرانُ خاثر [٣] . والشاهد على قولنا قولُ ابنه :

أمَالِكُ لولا السُّكرِ أيقنتَ أنّه
أخُو الوَرد أو يُربِى على الأسَدِ الوَردِ [٤]

قالوا : ونحن قد ملكنا بلادَ العرب من لَدُن الحَبَشة إلى مكّة ،

---

(١) كان منهم عمار بن ياسر حليف بنى مخزوم . وكانت أم عمار مولاة لهم يقال لها سمية . الإصابة ٥٦٩٩ .

(٢) فى الأصل : « أشرف » .

(٣) يقال هو خاثر النفس ، أى ثقيلها غير طيب ولا نشيط ، وذلك من أثر الخمار . فى الأصل وسائر النسخ : « حاسر » والوجه ما أثبت .

(٤) الورد : مالونه الوردة بالضم ، وهى حمرة تضرب إلى صفرة حسنة .

وجَرَتْ(١) أحكامُنا فى ذلك أجمع . وهزمْنا ذا نُوَاسٍ ، وقتَلْنا أقيالَ حمير . وأنتم لم تملكوا بلادنا . وقد قال شاعركم :

وخـــــرّب غُمدانًا وهــدّم سَقفَه
رِيَاطٌ بأجنادٍ وصولتُـــــهُ هَصْرُ(٢)
أطافت به الأُحبــــوش ليلًا فقوّضوا
بِنًا شدَّهُ الأقيـــالُ فى سالفِ الدَّهرِ(٣)
بجَمعٍ من اليكسومِ سُــودٍ كأنّهم
أُسودُ الشَّرَى اجتابتْ جلودًا من النُّمْرِ(٤)

قالوا : ومنا كباجلا ، لم يصعد نهر سليمان ولا قاتَلَ فى المخارجات(٥) أحدٌ قطُّ يشبهُه .

---

(١) ن ، س : « ومرت » .

(٢) رياط ، يعنى به أرياط الحبشى . وفى السيرة ٢٦ : « وبينون وسلحين وغمدان من حصون اليمن التى هدم أرياط ، ولم يكن فى الناس مثلها » . وانظر الإكليل للهمدانى ٨ : ٣٩٥ . وفى الأصل وسائر النسخ : « رباط » ، تحريف . وفى البيت إقواء ظاهر .

(٣) الأحبوش : الحبش . والبنا : مقصور البناء . وفى ن ، س : « بنا شدة » تحريف .

(٤) اليكسوم ، أراد بهم الحبشة . والأصل فى ذلك كنية أبرهة الأشرم ، إذ كان يكنى أبا يكسوم ، ويكسوم اسم ابنه كما فى التنبيه والإشراف ص ٢٢٦ والسيرة ٤٢ . وفى ذلك يقول لبيد ، وهو يعنى أبرهة ، كما فى اللسان (كسم) :

لو كان حى فى الحياة مخلدا فى الدهر ألفاه أبو يكسوم

(٥) يعنى بها المبارزات ، وهو أن يخرج كل من الفارسين لصاحبه فيبارزه .

قالوا : ومنَّا الأربعون الذين خَرجوا بالفُرات أيَّام سَوَّار بن عبد الله القاضى ، فأجلَوْا أهلَ الفُرات عن منازلهم، وقتلوا من أهل الأُبُلَّة مقتلةً عظيمة . ٨٣ و

قالوا : ومنَّا الذى ضربَ عنقَ عيسى بن جعفر بعُمَان ، بمنجلٍ بَحرانىّ[١] ، بعدَ أن لم يَجسُر عليه أحد .

قالوا : والناسُ مجمِعون على أنَّه ليس فى الأرض أمّةٌ السَّخاء فيها أعمّ ، وعليها أغلب من الزَّنج . وهاتان الخلَّتانِ لم تُوجدا قطُّ إلَّا فى كريم .

وهى أطبع الخَلق على الرَّقص الموقَّع الموزون ، والضَّرب بالطَّبل على الإيقاع الموزون ، من غير تأديبٍ ولا تعليم .

وليس فى الأرض أحسنُ حُلوقًا منهم . وليس فى الأرض لغةٌ أخفُّ على اللِّسان من لغتهم ، ولا فى الأرض قومٌ أذربُ ألسنةً ، ولا أقلّ تمطيطًا منهم .

وليس فى الأرض قومٌ إلَّا وأنت تصيب فيهم الأرَتَّ والفأفاء والعَيِىّ[٢] ، ومَن فى لسانه حُبسة ، غيرهم .

والرجل منهم يَخطُب عند المَلِك بالزَّنج من لدنْ طلوع الشَّمس إلى غروبها ، فلا يستعينُ بالتفاتةٍ ولا بسَكتةٍ حتَّى يفرغ من كلامه .

وليس فى الأرض أمّةٌ فى شِدّة الأبدان وقُوّة الأسرِ أعمُّ منهم فيهما[٣] . وإنّ الرّجلَ ليرفعُ الحجرَ الثَّقيل الذى تَعجِز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم. وهم شجعاء أشداء الأبدان أسخياء . وهذه هى خصال الشرف .

---

(١) البحرانى : نسبة إلى البحرين .

(٢) الأرت : الذى فى لسانه عقدة وحبسة ، يعجل فى كلامه فلا يطاوعه لسانه .

(٣) فى الأصل : « فيها » .

[والزنجى[(١)]] مع حُسن الخلق وقلّة الأذى ، لا تراه أبدًا إلّا طيّب النفس ، ضَحوكَ السّنّ ، حسنَ الظّنّ . وهذا هو الشرف .

وقد قال ناسٌ : إنّهم صاروا أسخياء لضعف عُقولهم ، ولقصر رَويّاتهم ، ولجهلهم بالعواقب .

فقلنا لهم : بئس ما أثنيتم على السّخاء والأَثَرة ، وينبغى فى هذا القياسِ أن يكونَ أوفرُ النّاسِ عقلًا وأكثرُ النّاس علمًا أبخَلَ النّاس بُخلًا وأقلّهم خيرا .

وقد رأينا الصّقالبةَ أبخَلَ من الرُّوم ، والرُّوم أبعد رويّةً وأشدُّ عقولا . وعلى قياس قولكم أنْ قد كان ينبغى أن تكون الصّقالبةُ أسخَى أنفُسًا وأسمحَ أكُفًّا منهم .

وقد رأينا النِّساء أضعفَ من الرّجال عُقولًا ، والصِّبيانَ أضعفَ عقولا منهم ، وهم أبخَل من النّساء ، والنِّساء أضعفُ عقولًا من الرجال . ولو كان العقل كلّما كان أشدّ كان صاحبُه أبخل ، كان ينبغى أن يكون الصبيُّ أكرمَ الناس خصالًا[(٢)] . ولا نعلم فى الأرض شرًّا من صبيّ[(٣)] : هو أكذبُ النّاسِ وأنمُّ النّاسِ ، وأشرهُ النّاسِ وأبخَل النّاس ، وأقلّ الناس خيرًا وأقسى النّاسِ قسوة .

٨٣ ظ

وإنّما يخرج الصبيُّ من هذه الخلال أوّلًا فأوّلًا ، على قدر ما يزداد من العقْل فيزداد من الأفعال الجميلة .

---

(١) ليست فى الأصل .

(٢) ن : « خصلا » خلافا لما فى الأصل .

(٣) انظر البيان ١ : ٢٤٧ والحيوان ٣ : ٤٧١ .

فكيف صار قلّةُ العقل هو سببَ سخاء الزّنج ، وقد أقررتم لهم بالسّخاء ثم ادّعيتم ما لا يُعرف . وقد وقّفناكم على إدحاض حجتكم فى ذلك بالقياس الصّحيح !

وهذا القول يوجب أن يكون الجبانُ أعقلَ من الشُّجاع ، والغادر أعقلَ من الوفىّ . وينبغى أن يكونَ الجزوعُ أعقلَ من الصّبور . فهذا ما لا حُجّةَ فيه لكم ، بل ذلك هبةٌ فى النّاس من الله . والعقلُ هبةٌ ، وحسن الخُلق هِبة ، والسّخاء والشجاعة كذلك .

وقد قالت الزّنج للعرب : من جهلكم أنّكم رأيتمونا لكم أكفاء فى الجاهلية فى نسائكم ، فلمّا جاء عَدلُ الإسلام رأيتُم ذلك فاسداً ، و [ما[1]] بنا الرّغبة عنكم[2] . مع أنّ الباديةَ منّا ملأى[3] ممّن قد تزوّج ورأس وساد ، ومَنَع الذّمار ، وكَنَفكم من العدوّ .

قال : وقد ضَربتُم بنا الأمثالَ وعظّمتم أمرَ ملوكنا ، وقدّمتموهم فى كثير من المواضع على ملوككم . ولو لم تَرَوُا الفضلَ لنا فى ذلك عليكم لَمَا فعلتم .

وقال النّمر بن تولب :

أتى ملكَه ما أتى تُبّعاً وأبرهةَ الملكَ الأعظما[4]

فرفَعه على ملوك قومه .

---

(١) ليست فى الأصل .

(٢) فى ن : « وبنا الرغبة عنكم » ، وفى س : « ونبت الرغبة عنا »

(٣) فى الأصل و ن : « ملاء » ، والوجه ماأثبت مطابقا لتصرف ناشر س .

(٤) العينى ١ : ٥٧٥ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٧٦ والخزانة ٤ : ٤٣٨ . ويروى : « فأدركه » .

وقال لبيد بن ربيعة :

لو كان حيٌّ فى الحيـاة مخلَّدًا فى الدّهر أدركَه أبو يـَكسُومِ[(١)]

وهذا شيء من وصف الفضل لم يوصف أحدٌ بمثله .

قالوا : ومما[(٢)] قدَّمتم به ملوكَنا على ملوككم قوله[(٣)] :

٨٤ و غَلبَ الليالى خلفَ آلِ مُحرِّق وكما فعلنَ بتُبَّع وبهـــرْقَلِ

وغلبنَ أبرهة الذى ألفيتَـــه قد كان خُلِّد فوق غُرْفةِ مَوْكلِ[(٤)]

فقدَّم أبرهة وأراد التَّسوية[(٥)] .

قالوا : ومن الحَبَشة عُكَيمٌ الحبشىّ[(٦)] ، وكان أفصح من العجّاج . وكان علماء أهلِ الشام يأخذون عنه كما أخذَ علماء أهل العراق من المنتجع بن نَبْهان . وكان المنتجعُ سِنديًا فى أذنه خُرْبة[(٧)] ، وقع إلى البادية وهو صبىٌّ ، فخرجَ أفصحَ من رُؤْبة .

---

(١) أبو يكسوم : كنية أبرهة الأشرم الحبشى . انظر ماسبق فى حواشى ص ١٩٤ ديوان لبيد ٨٣ . أدركه أى أدرك التخليد .

(٢) فى الأصل : « وما » .

(٣) يعنى قول لبيد . انظر ديوانه والإكليل ٨ : ١٠٨ ، ٢١٦ والتيجان ٧٦ . وفى الأصل : « قولكم » ، تحريف

(٤) موكل ، كمرحب : موضع باليمن ، كما فى معجم البلدان . وانظر صفته فى الإكليل ٨ : ١٠٦ .

(٥) يعنى التسوية بين العرب والعجم . وبعد البيت :

والحارث الحراب أمسى قاطنا دارا أقام بها ولم يتحلحل

(٦) انظر القاموس (عكم) .

(٧) انظر ماسبق فى ص ١٧٧

ولما[1] قال حَكيم بن عيّاش الكلبيّ[2] :

لا تفخرَنَّ بخالٍ من بنى أسدٍ فإنَّ أكرمَ منها الزِّنجُ والنُّوبُ

اعترضَ عليه[3] عُكَيمٌ الحبشيّ ، فقال :

ويومَ غُمْدانَ كنّا الأسدَ قد علموا
ويومَ يثربَ كنّا فحلةَ العربِ

وليلةَ الفيل إذْ طارت قلوبهمُ
وكلُّهم هاربٌ مُوفٍ على قَتَبِ

منّا النّجاشِي وذو العقصين صهركمُ
وجدُّ أبرهةَ الحامى أبى طَلَبِ[4]

هَبْنِى غفرتُ لعدنانٍ تَهكُّمَهمْ
فما لحميرَ والقوال فى النسب

حمّارة جُمعت من كلِّ محربةٍ
جَمْعَ الشُّبيكةِ نُونَ الزّاخرِ اللَّجِبِ[5]

---

(١) فى الأصل : « فلما » .

(٢) ترجم له ياقوت فى معجمه ١٠ : ٢٤٧ وذكر أنه كان بينه وبين الكميت ابن زيد الأسدى مفاخرة .

(٣) اعترض عليه ، أى دخل معه فى الشعر متمما ماقاله .

(٤) ذو العقصين ، يعنى به الإسكندر المقدونى الملقب بذى القرنين ، كان له فى رأسه شبه قرنين ، أى عقيصتين . والعقص : ضرب من ضفر الشعر . وكان الروم أصهارا للعرب .

(٥) سيأتى فى تفسير الجاحظ أن حمير كانت حمارة . ومحربه ، كذا وردت فى الأصل ، وستأتى فى ص ٢٠٢ برسم « محزوة » . والنون : السمك ، واحدته نونة . وهو الحوت أيضا

غُمدان : حصنٌ كانَ ينزلهُ الملكُ الذى يكون على اليَمن ، وكان عجَميًّا ، فلما ملكت الحبَشةُ اليمنَ أخربَتْه إلّا بقايا هدمَها عثمان بنُ عفّانَ رضى الله عنه فى الإسلام . وقال : « ينبغى لمآثر الجاهليّة أن تُمحَى » . وكان فى الحصن مَصنعةٌ عليها قُبّةٌ من طِلْق ، وفيها يقول خَلَفٌ الأحمر :

ومَصنعة الطِّلْق أودَى بهـــا عَوادى الأحايش بالصَّيدنِ[1]

وفيها يقول قُدامة حكيمُ المشرق[2] ، وكان صاحبَ كيمياء :

فأوقد فيهـــا نارَه ولوَ انَّها أقامت كعمر الدهر لم تتصرَّمِ

لأنّ الطِّلْق لو أُوقِدَ عليه ألفَ عامٍ لم يسخُن . وبه يتطلّى النَّفّاطُون إذا أرادوا الدُّخول فى النار . ٨٤ ظ

وقال لبيد :

أصاحِ ترَى بُرَيقًا هبَّ وهنًا كمِصباح الشَّــعيلة فى الذُّبالِ

أرِقتُ له وأنجدَ بعـــد هَدءٍ وأصحـــابى على شُعَب الرِّحال

يُضىء رَبابُه فى المزن حُبْشًــا قياماً بالحِــراب وبالإلالِ[3]

---

(١) المصنعة : شبه صهريج يتخذ للماء . والطلق ، بالكسر وبالفتح : حجر براق يتشظى صفائح إذا دق . والصيدن : الملك . قال رؤبة :

إنى إذا استغلق باب الصيدن لم أنسه إذ قلتَ يوما وصنى

(٢) فى الأصل وسائر النسخ : «قدامة بن حكيم المشرقى » ، وأثبت ما فى الحيوان ٥ : ٩٥ . وقد يكون قدامة هذا جدا لقدامة بن جعفر بن قدامة .

(٣) فى الأصل : « رباوة » تحريف ، صوابه فى ديوان لبيد ١٢٤ . والرباب : السحاب الذى تراه كأنه متدل ، كأنه أعناق النعام . والإلال : جمع أَلَّة ، وهى الحربة . وفى الأصل : « وباللآلى » ، صوابه فى الديو

وقال ذلك لبيدٌ لأنَّهم إذا أقبلوا بحرابهم ورماحهم وقِسِيّهم وسيوفهم ، وراياتهم ، وخيولهم وفيولهم ، مع سَواد ألوانهم وضِخَم أبدانهم ـ رأيتَ هَوْلًا لم تَرَ مثلَه ولم تسمعْ به ، ولم تتوهَّمْه .

وأمّا قوله :

* ويومَ يثربَ كنّا فِحلةَ العربِ *

فإنَّ مُسرفَ بن عُقْبة المرّىّ[1] ، حين كان أباحَ المدينَة ، زعموا أنَّه قد كان هناكَ أمرٌ قبيحٌ من السودان والجند ، وفي ذلك يقول شاعر من شعراء مُضر :

فسائلْ مُسرفَ المُـرّىَّ عنكم غداةَ أباحَ للجند العَـذارِى[2]
فمازَجَكم على حَنَـق زنوجٌ وفَزَّ الشّامُ كالأُسد الضّوارى[3]
ودَافَعَ وَهْرِزٌ والفُـرسُ عنكم ورأسُ الحُبْش يحكم في ذَمار[4]
فأفسدَ نسلَكم بسوادِ لونٍ وأيرٍ مثلِ غُرمولِ الحمـارِ

---

(١) مسرف لقب له ، لقب به لما كان من إسرافه في سفك الدماء وانتهاك حرمة المدينة وانتهابها في وقعة الحرة سنة ٦٣ حين بعثه بجيش إلى المدينة يزيد بن معاوية وأمره بهتك حرمتها . واسمه مسلم بن عقبة ، وبهذه الصورة ورد في البيان ٢ : ١٣١ . وانظر الطبري ٧ : ٥ – ١٢ والنجوم الزاهرة ١ : ١٦٠ – ١٦٢ . توفي مسرف أو مسلم سنة ٦٤ . وذكر الذهبي أنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) في النجوم الزاهرة أنه قد افتض في وقعة الحرة ألف عذراء . والعذارى بكسر الراء ، كما يقتضيه الشعر ، وهي لغة في جمع عذراء ، ومثلها العذارى بفتح الراء .

(٣) فز الرجل يفز فزازة وفزوزة : توقد .

(٤) وهرز : قائد فارسي أرسله كسرى أنو شروان مع سيف بن ذي يزن الحميري ، منجدا له على الحبشة حين غلبت على اليمن . وذمار ، كقطام وسحاب : بلد باليمن على مرحلتين من صنعاء .

فذكر إباحةَ الحَبَش لليمن كما ذكر إباحةَ مسرفٍ للمدينة .

وأمّا قوله :

حَمّارة جُمعت من كلّ محـزوة جمع الشُّبيكة نون الزاخر اللّجبِ[1]

فإنه ذهبَ إلى ما تقول الرُّواة أنّ حِميرَ كانت حَمّارة .

وأمّا الشُّبيكة فأراد الشبكة .

وقال السُّودان : فهذا الفضلُ فينا ، ولم يصلِّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قطُّ إلّا على جِنازةٍ أو قَبر ، إلّا النّجاشيّ فإنّه صلّى عليه وهو بالمدينة وقبرُ النّجاشيّ بالحبشة .

قالوا : والنجاشيُّ هو كان زوَّجَ أمَّ حَبيبة بنتَ أبي سفيان من النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ودعا خالدَ بن سعيدٍ[2] فجعله وليَّها ، وأصدقَ عن النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم أربعمائة دينار[3] .

٨٥ و

قالوا : وثلاثة أشياء جاءتـكم مِنْ قِبَلنا . منها الغاليةُ ، وهي أطيبُ الطِّيب وأفخرُه وأكرمُه . ومنها النَّعْش وهو أسترُ للنِّساء وأصْوَنُ للحُرَم . ومنها المصحف ، وهو أوقَى لما فيه وأحصَنُ له ، وأبهى وأهيأ .

---

(١) في الأصل : « خمارة » : وكذا في التفسير بعده . وانظر ما سبق في ص ١٩٩ .

(٢) هو خالد بن سعيد بن العاصي ، رابع المسلمين أو خامسهم ، بعثه رسول الله إلى ملك الحبشة في رهط من قريش . السيرة ٢٠٩ والإصابة ٢١٦٣ .

(٣) كانت أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ــ واسمها رملة ــ زوجاً لعبيد الله ابن جحش ، ولدت منه حبيبة وهاجرت معه إلى الحبشة ، فتنصر زوجها عبيد الله =

قالوا : ونحن أهوَلُ فى الصُّدور وأملا للعيون ، كما أنَّ المسوَّدة أهوَلُ فى العُيون وأملا للصُّدور من المبيِّضة[١] ، وكما أنَّ الليلَ أهولُ من النهار .

قالوا : والسَّوادُ أبداً أهول . وإنَّ العربَ لتَصِفُ الإبل فتقول : الصُّهب سُرع ، والحُمْر غُزْر ، والسُّود بُهْى[٢] . فهذا فى الإبل .

قالوا : ودُهم الخَيل أبهى وأقوى ، والبَقَر السُّود أحسَنُ وأبهى ، وجلودُها أثمن وأنفع وأبقى . والحُمُر السُّود أثمَنُ وأحسَنُ وأقوى . وسُود الشَّاء أدسَمُ ألباناً وأكثرُ زُبداً ، والدُّبْس أغْزر من الحُمْر[٣] .

وكلُّ جَبلٍ وكلُّ حجرٍ إذا كانَ أسودَ كان أصابَ صلابةً وأشدَّ يُبوسة . والأَسَد الأسود لا يقوم له شىء .

وليس من التَّمر شىءٌ أحلى حلاوةً من الأسْوَد ، ولا أعمَّ منفعة ولا أبقى على الدَّهر . والنَّخِيل أقوى ما تكونُ إذا كانت سُودَ الجذوع .

= وارتد عن الإسلام ، فبعث فيها رسول الله إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى فخطبها عليه النجاشى . الإصابة ٤٣٢ من قسم النساء والسيرة ١٤٤ ، ٨٨٣ .

(١) كان السواد شعار العباسيين السياسى ، وقد بدأ التسويد فى سنة ١٢٩ أى قبل قيام الدولة العباسية بثلاث سنوات . الطبرى ٩ : ٨٢ . وفى سنة ٢٠٢ جعل المأمون على بن موسى بن جعفر ولى عهده وأمر جنده وأصحابه بطرح السواد ولبس الخضرة فى الأقبية والقلانس والأعلام . الطبرى ١٠ : ٢٤٣ . وكان هذا الأمر من أسباب الثورة على المأمون والانقسام فى طوائف الموالين للعباسيين . وفى تلك السنة أيضاً وثب أخو أبى السرايا بالكوفة فبيض ، فهم المبيضة . الطبرى ١٠ : ٢٤٥ . ومن المبيضة أيضاً أصحاب المقنع الكندى . انظر صحاح الجوهرى (بيض) .

(٢) انظر مثل هذا القول لحنيف الحناتم ، وكان من آبل الناس أى أحذقهم برعية الإبل ، فى اللسان (بها ١٠٧) .

(٣) الدبس : جمع أدبس ودبساء ، وهو مالونه الدبسة : حمرة مشربة سوادا .

وجاء : « عليكم بالسَّوادِ الأعظَم[١] » . وقال الأنصارىّ :

أَدِينُ وما دَيْنى علىَّ بمغْـــــرَمٍ
ولـكنْ على الشُّمِّ الطِّوال القَـــراوحِ[٢]

على كلِّ خَـــــوّارٍ كأنَّ جذوعَها
طُلِينَ بقـارٍ أو بدمٍ ذبائحِ[٤]

قالوا : وأحسَنُ[٥] الخُضرة ماضارَع السَّواد . قال الله جلّ وعلا : ﴿ ومِنْ دُونِهما جَنَّتانِ[٦] ﴾ ، ثم قال لمّا وصَفَهما وشوّق إليهما : ﴿ مُدهامَّتانِ[٧] ﴾ قال ابن عباس : خَضراوانِ من الرّىّ سوْداوان .

وليس فى الأرض عودٌ أحسنَ خَشباً ولا أغلى ثمنًا ، ولا أثقلَ وزنًا ولا أسلمَ من القَوادح[٨] ، ولا أجدرَ أن ينشَبَ فيه الخطُّ من الآبنوس[٩] . ولقد بلغ من اكتنازه والتئامه ومُلوسته وشدّة تداخُلِه ، أنه يرسُب فى الماء

---

(١) فى اللسان (سود ٢١١) . « وفى الحديث : إذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم » .

(٢) وكذا فى اللسان (خور) : وهو سويد بن الصامت الصحابى الجليل . انظر اللآلىء ٣٦١ والاقتضاب ٣٧٥ واللسان (قرح) والإصابة ٣٥٩٢ .

(٣) الشم : العاليات ، يعنى النخل . والقراوح : جمع قرواح ، وهو الأجرد الذى قد شذب كربه .

(٤) فى اللسان : « ونخلة خوارة : غزيرة الحمل » . ويروى : « أو بحمأة مائح » .

(٥) فى الأصل : « وحسن » .

(٦) الآية ٦٢ من سورة الرحمن . (٧) الآية ٦٤ من سورة الرحمن .

(٨) جمع قادح ، وهو أكال يقع فى الشجرة أو تصدع .

(٩) الآبنوس ، بضم الباء وكسرها : شجر ينبت فى الحبشة والهند ، خشبه أسود صلب . دخيل انظر المعجم الوسيط .

دونَ جميعِ العِيدان والخَشب . ولقد غَلب بذلك بعضَ الحجارة ؛ إذْ صار يرسُب وذلك الحجرُ لا يرسُب .

والإنسانُ أحسنُ مايكون فى العَين مادام أسودَ الشعر . وكذلك شعورُهم فى الجنّة .

٨٥ ظ

وأكرمُ مافى الإنسان حَدَقتاه ؛ وهما سوْداوان . وأكرم الأكحال الإثمِد ، وهو أسود . ولذلك جاء أنّ الله يُدخل جميعَ المؤمنين الجنة جُردًا مُردًا مكحّلين .

وأنفع مافى الإنسان له كبدُه التى بها تَصلُح مَعِدته ، وينهضم طعامُه ، وبصلاح ذلك قامَ بدنُه ؛ والكبدُ سوداء .

وأنفسُ مافى الإنسان وأعزُّه سَويداء قلبه ، وهى عَلَقةٌ سوداء تكون فى جوف فؤاده ، تقوم فى القَلب مقامَ الدِّماغ من الرأس .

ومن أطيب ما فى المرأة وأشهاه شَفَتاها للتقبيل ، وأحسن ما يكونان إذا ضارعتَا السَّواد .

وقال ذو الرُّمّة :

لَمياءُ فى شَفَتيها حُوّةٌ لَعَسٌ وفى اللِّثاتِ وفى أنيابها شَنَبُ[1]

وأطيبُ الظِّلِّ وأبردُه ما كانَ أسود . وقال الراجز :

* سود غرابيب كأظلالِ الحجرْ *

---

(١) ديوان ذى الرمة ٥ واللسان (شنب) .

وقال حُميد بن ثور[١] :

ظَلِلنا إلى كهفٍ وظَلّت ركابُنا
إلى مستكِفّاتٍ لهنّ غروبُ

إلى شجرٍ ألمى الظّلالِ كأنّه
رواهبُ أحرَمْنَ الشّرابَ عُذوبُ[٢]

وجعل الله اللّيلَ سكناً وجَماما ، والنّهارَ لكسب والكدّ .

والذى يدلّ على أنّ السّوادَ فى وجهٍ آخرَ مقرونٌ بالشدّة والصّرامة ، والهَيْج والحركة ، انتشار الحيّاتِ والعقارب وشدّةُ سُمومها باللّيل ، وهَيجُ السّباع واستكلابُها باللّيل . وتحرُّك الأوجاع وظهورُ الغِيلان ، هذه كلُّها بالليل .

قال : وأشبهْنا اللّيلَ من هذا الوجه .

قالوا : وأبلغ ما تكون القائلةُ وأشفاها للنّفس ، وأسرع لمجيئها إذا أردتَها ، وأبطأُ لذهابها إذا كرهتها ، ما كان منها فى الظُّلمة ، عند إسبال السُّتور وإغلاق الأبواب .

قالوا : وليس لونٌ أرسخَ فى جوهره وأثبتَ فى حُسنه من سَواد .

وقد جرى المثَل فى تبعِيد الشىء : « لا تَرى ذلك حتّى يبيضَّ القار ، وحتّى يَشيبَ الغُراب[٣] » .

---

(١) فى ديوانه ٥٧ واللسان (كفف ، حرم ، لما) والحيوان ٥ : ٥٩٤ .

(٢) عذوب : جمع عاذب ، وهو الذى لا يأكل ولا يشرب .

(٣) الحيوان ٥ : ٥٢٨ .

وهو العَرَض المَلاَّء[1] عند الحكماء .

وأكرمُ العِطر المِسك والعَنبر ، وهما أسودان .

وأصلبُ الأحجارِ سُودها . وقال أبو دَهبلٍ الجمحىُّ يمدح الأزرقَ المخزومىَّ ، وهو عبد الله بن عبد شمس بن المغيرة[2] : ٨٦ و

فإنَّ شكرك عندى لا انقضاء له ... مادامَ بالجَزْعِ من لُبنانَ جُلمودُ

أنت المَمَدَّحُ والمُغلَى بهِ ثمناً ... إذْ لا يعاتب صخرُ الجَندلِ السُّودُ[3]

والعرب تَفخر بسواد اللَّون . فإنْ قال : فَعلامَ ذلك وهى تقول : فلانٌ هِجانٌ ، وأزهرُ وأبيض ، وأغرُّ ؟ قلنا : ليس تريد بهذا بياضَ الجلد ، إنَّما تريد به كرمَ الجوهر ونَقاءه . وقد فخرتْ خُضر محاربٍ بأنَّها سُود ، والسُّود عند العرب الخُضْر[4] . وقال الشَّماخ بن ضرار :

وراحتْ رَوَاحًا من زَرُودَ فنازَعتْ

زُبالةَ جِلباباً من اللَّيل أخضرَا[5]

---

(١) فى الأصل : « الملاه » ، صوابه من تصحيح ن ، س .

(٢) فى جمهرة ابن حزم ١٤٨ — ١٤٩ أنه عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن الوليدبن عبدشمس بن المغيرة. ونحوه فى الشعراء ٥٩٦. وسماه فى الأغانى ٦ : ١٥٧ « ابن الأزرق » ، وهو عنده عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليدبن عبد شمس بن المغيرة .

(٣) كذا . وفى الأغانى ٦ : ١٥٨ : « إذ لا تمدح صم الجندل » .

(٤) الحيوان ٣ : ٢٤٧ .

(٥) ديوان الشماخ ٣١ والحيوان ٣ : ٢٤٦

وقال الراجز :

حتَّى انتضانِى الصُّبح من ليـلٍ خَضِرْ

مثـلَ انتضاء البطل السيفَ الذَّكَرْ[(١)]

وهم يسمُّون الحديدَ أخضر لأنَّه صُلب[(٢)] ؛ لأن الأخضر أسود[(٣)] .

وقال الحارث بن حِلِّزَة :

إذْ رفَعنا الجمالَ من سَعَف البحـ ـرينِ سيراً حتَّى نَهاها الِحساء

فهزمنا جمـعَ ابنَ أمِّ قَطَام وله فارسـيَّةٌ خضراء[(٤)]

وقال المُحاربىّ وهو يفخر بأنَّه من الُخضْر :

فى خُضر قيسٍ نمانى كلُّ ذى فَخَـرٍ

صعبِ المقـادة آبى الضَّيم شعشاعِ

وبنو المغيرة خُضْر بنى مخزوم . قال عُمر بن عبد الله بن أبى ربيعةَ بنِ المغيرة المخزومىّ — ويقال إنّها للفضل بن العبّاس اللَّهبى[(٥)] :

وأنا الأخضرُ مَن يعرفُنى أخضرُ الجلدةِ فى بَيت العربْ

مَن يساجِلْنى يُساجِلْ ماجداً يملأُ الدَّلوَ إلى عَقْد الكرَبْ

---

(١) فى الحيوان ٣ : ٢٤٦ : « حتى انتضاه » .

(٢) وجه الكلام « مع أنه صلب » . وفى الحيوان ٣ : ٢٤٦ « وأصل الخضرة إنما هولون الريحان والبقول ، ثم جعلوا بعدُ الحديدَ أخضر والسماء خضراء » .

(٣) فى الأصل : « لأنه » . والوجه ما أثبت .

(٤) فى الأصل : «ابن أم قضاع» . وانظر المعلقات ٤٩٦ بشرح ابن الأنبارى . وابن أم قطام هو حجر بن الحارث والد امرئ القيس

(٥) انظر الحيوان ٣ . ٢٤٧ .

وخُضر غسّانَ بنو جفنةَ الملوكُ ؛ قال الغسّانيّ :

إنَّ الخضارمةَ الخضر الذين وَدَوْا أهلَ البَريصِ ثمانى منهمُ الحَكمُ[١] ٨٦ ظ

وقد ذكر حسانُ أو غيره الخُضْرَ من بنى عُكيم[٢] حين قال :

ولستَ من بنى هاشمٍ فى بيتِ مكرمةٍ
ولا بنى جُمَحَ الخُضْرِ الجلاعيدِ[٣]

قالوا : وكان ولد عبد المطلب العَشَرة السّادةُ دُلْمًا[٤] ضُخْمًا[٥] ، نظر إليهم عامرُ بن الطُّفيل يَطُوفون كأنّهم جمالٌ جُونٌ ، فقال : بهؤلاء تُمنع السِّدانة .

وكان عبد الله بن عباس أدلَمَ ضخما . وآلُ أبى طالبٍ أشرفُ الخلق ، وهم سُودٌ وأُدمٌ ودُلْمٌ .

---

(١) الخضارمة : جمع خضرم ، بكسر الخاء والراء ، وهو السيد الحمول . وفى الحيوان: « الذين غدوا » . والبريص : اسم نهر دمشق حيث ملك الغساسنة . وفى الحيوان : « ثمان » .

(٢) فى القاموس (عكم) : « وكزبير : اسم » .

(٣) البيت من أبيات فى ديوان حسان ١٣٣ — ١٣٧ يهجو بها مسافع بن عياض التيمى ، أولها :

لو كنت من هاشم أو من بنى أسد أو عبد شمس أو اصحاب اللوا الصيد

وصدره فيه :

* أو فى السرارة من تيم رضيت بهم *

(٤) الدلم : جمع أدلم ، وهو الشديد السواد .

(٥) الضخم : جمع الأضخم . وفى اللسان : « قال ابن سيده : وأما قول أهل اللغة أضخم ، فالذى أتصوره فى ذلك أنهم لم يشعروا بالمفاضلة فى هذا البيت فجعلوه من باب أحمر . قال : ويدلك على المفاضلة أنهم لم يجيئوا به فى بيت ولا مثل مجرداً من اللام ، فيما علمناه من مشهور أشعارهم . على أن الذى حكاه أهل اللغة لا يمتنع » .

قالوا : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بُعِثت إلى الأحمر والأسود » .

وقد علمتَ أنّه لا يُقال للزّنج والحبشة والنُّوبة بِيضٌ ولا حُمر ، وليس لهم اسمٌ إلّا السُّود .

وقد علمنا أنّ الله عزّ وجل بعث نبيَّه [إلى الناس[١]] كافة ، وإلى العرب والعجم جميعًا . فإذا قال : « بُعثت إلى الأحمرِ والأسود » ولسنا عنده حُمرٌ ولا بِيض ، فقد بُعث إلينا ؛ فإنما عنانا[٢] بقوله « الأسود » . ولا يَخرج الناسُ من هذين الاسمين ، فإن كانت العرب من الأحمر ، فقد دخلت في عِداد الرُّوم والصَّقالبة ، وفارسَ وخُراسان . وإن كانت من السُّود ، فقد اشتقّ لها هذا الاسم من اسمنا . وإنما قيل لهم وهم أدم وسمرٌ سودٌ ، حين دخلوا معنا في جُملتنا ، كما يَجعلَ العربُ الإناثَ من الذكور ذكورا .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أنّ الزّنج والحبشةَ والنُّوبة ليسوا بحمرٍ ولا بِيض ، وأنّهم سُود ، وقد بعثه الله تعالى إلى الأسود والأحمر ، فقد جَعَلَنا والعربَ سواء ، ونكونُ نحن السُّودَ دونهم . فإنْ كان اسمُ أسودَ وقع علينا فنحن السُّودان الخُلَّص ، والعربُ أشباهُ الخُلَّص . فنحن المتقدِّمون في الدّعوة . وإذًا كان اسمُهم محمولًا على اسمنا ؛ إذْ كنّا وحدنا يقال لنا سُودٌ ، ولا يقال لهم سُودٌ إلّا أن يكونوا معنا .

قالوا : وأنتم ترون كثرةَ العدد مجدًا ، ونحن أكثر النّاس عددًا وولدا .

---

(١) موضع التكملة بياض في الأصل .

(٢) في الأصل : « عنا » . ووجهه ما أثبت من ن ، س .

قالوا : ونحنُ صِنفان : النَّمل والـكِلاب[١] .

قالوا : ولو عدَلْتم بالنَّمل العرب كلَّها لأربَتْ عليها ، فـكيف إذا قُرنت إليها الـكلاب ؟ ثم كيفَ إذا ضممتم إليها الحبشةَ والنُّـوبة وفَزَّان ومرو وزُغاوة[٢] وغيرَ ذلك من أنواع السُّودان ؟ ٨٧ و

وليست قَحطانُ من عدنانَ فى شىء . ونحن بالحبشة أشبَه ، وأرحامنا بهم أمسُّ مِن عدنانَ بقحطان . وإنْ ذكرتم اختلافَ اللُّغات ؛ فإنَّ لغةَ عَجُز هوازن[٣] ، وقد تختلف اللغاتُ والأصل واحد ، وقد تتَّفق والنَّجْر مختلف . ومَن دخَل أوائل خراسان وأواخرَها ، وأوائل الجبالِ وفارسَ وأواخرَها ، علِمَ أنَّ اللُّغاتِ قد تختلف لاختلاف طبائع البلدان والأصلُ واحد .

قالوا : وأنتم لم ترَوُا الزَّنج الذين هم الزنجُ قطُّ ، وإنَّما رأيتُمُ السَّبْىَ يجىء من سواحل قنبلة[٤] وغياضِها وأوديتها ، ومن مهنتنا وسَفِلتنا وعبيدِنا ، وليس لأهل قنبلة جَمالٌ ولا عقول . وقنبلة : اسمُ الموضع الذى ترُفُون منه سُفنَـكم إلى ساحله . لأنَّ الزَّنج ضربانِ : قنبلة ولنجوية[٥] ، كما أنَّ العرب ضربان :

---

(١) انظر الحيوان ٤ : ٣٥ والبيان ٣ : ٥١ .

(٢) فى القاموس : « وزغاوة ، بالضم : جنس من السودان » . وانظر التنبيه والإشراف ١٩١ .

(٣) فى الـكلام نقص ، ولعل تتمته : « على خلاف لغة فصحاء الحجاز » . وانظر ما سبق فى مناقب الترك ص ١٠ .

(٤) فى التنبيه والإشراف ٥١ : « ويقرب من جبل القمر هذا كثير من أحواز الزنج ومساكنهم ، إلى أن يتصل ذلك ببلاد سفالة الزنج وجزيرة قنبلو ، وأهلها مسلمون » .

(٥) انظر البيان ٣ : ٥١ .

قَحطان وعدنان . وأنتم لم تَرَوا من أهل لنجوية أحدًا قطُّ ، لا من السَّواحل ولا من أهل الجوف[١] ، ولو رأيتموهم نسيتم الجمال والكمال .

فإنْ قلتم : وكيف ونحن لم نر زنجيًّا قطُّ له عقلُ صبيٍّ أو امرأة ؟

قلنا لكم : ومتى رأيتم من سَبْي السِّند والهند قومًا لهم عقول وعلم وأدب وأخلاق حتَّى تطلُبوا ذلك فيما سقط إليكم من الزنج . وقد تعلمون ما في الهِنْد من الحساب وعلم النجوم وأسرار الطّبّ ، والخَرط والنَّجر ، والتَّصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة ، فكيف لم يتَّفق لكم مع كثرة ما سَبيتم منهم واحدٌ على هذه الصِّفة ، أو بعُشْر هذه الصِّفة ؟

فإنْ قلتم : أهلُ الشَّرف والعَقْل والعلم إنَّما ينزلون الواسطة ، وبقرب دار الملك ، وهؤلاء حاشيةٌ[٢] وأعلاجٌ وأكَرَة ، ونُزَّال السَّواحِل والآجام والفيوض[٣] والجزائر ، من أكارٍ ومن صيّاد .

قلنا : وذلك مَن رأيتم ومن لم[٤] تَرَوْا منا . وجوابُنا هو جوابُكم لنا .

٨٧ ظ

قالوا : ولو أنَّ الزِّنجيَّ والزنجيَّة إذا تناكحا بقيت أولادهما بعد الحيض والاحتلام ببلاد العراق ، كانوا قد غلبوا على الدّار بالعدد والجَلَد ، والعلم والتدبير ، ولكنَّ ولد الهنديِّ والهنديّة ، والروميِّ والروميّة ، والخراسانيِّ والخراسانيّة ، يبقون فيكم وفى بلادكم كبقاء آبائهم وأمَّهاتهم ، ولا يبقى ولد

(١) فى الأصل : « الحوف » ، صوابه بالجيم كما صحح فى ن ، س .

(٢) فى الأصل : « حاشيته » .

(٣) فى الأصل : « والنفوض » .

(٤) فى الأصل : « ومالم» .

الزِّنجيَّين بعد الحيض والاحتلام . على أنّا لا نُصيبُ فى عشرة آلافٍ ، واحدٌ يبلغ ما ذكرنا ، إلّا أن يَضرِبَ الزنجىُّ فى غير الزِّنجيات ، والزِّنجية فى غير الزِّنج . ولولا أنَّ الزِّنجىَّ والزِّنجيّة قليلًا ما يريدان(١) من الغرائب والغرباء ، لكُنّا على حالٍ(٢) سنَرى لرجال الزِّنج نسلًا كثيرا . ولكنَّ الزنجية لا تكاد تنشَط لغير الزنجىّ .

قالوا : وكذلك البِيضانُ منكم ، لا يكادون ينشطون لطلب النَّسل من الزِّنجيات . والزِّنجية أيضاً من الزِّنجىّ(٣) أسرعُ إلقاحًا منها من الأبيض .

قالوا : وأنتم لا تكادون تعدُّون ممَّن وُلِد له من صلبه مائةُ ولدٍ إلّا أن يكون خليفةً(٤) ، فيكون ذلك لكثرة الطَّروقة(٥) ، ولا تجدون ذلك فى سائركم . والزِّنج لا تستكثر هذا ولا تستعظمه ؛ لكثرته فى بلادهم ، لأنَّ الزنجية تلد نحوًا من خمسين بطنًا فى نحو من خمسين عاما ، فى كلّ بطنٍ اثنين ، فيكون ذلك أكثر من تسعين . لأنّه يقال إنّ النساء لا يلدن إذا بلغن السِّتّين إلّا ما يُحكى عن نساء قريشٍ خاصّة .

والزِّنج أحرص مَنْ خَلَقَ اللهُ على نسائهم ، ونساؤهم لهم كذلك ، وهنَّ أطيب من غيرهنّ .

قالوا : فتأمّلوا قولَنا واحتجاجنا ؛ فإنّا قد رَوينا الأخبار وقُلنا الأشعار ، وعرفناكم وعرفنا الأمم .

---

(١) حورت فى ن ، س إلى : « يلدان » .

(٢) ن ، س : « على كل حال » .

(٣) فى الأصل وسائر النسخ : « من الزنج » .

(٤) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٠ ، ٩٨ .

(٥) طروقة الفحل : أنثاه . والطروقة : الزوجة أيضاً .

وقد كان الفرزدقُ أعلمَ النّاس بالنِّساء ، وكان قد جرّب الأجناسَ كلَّها فلم يجدْ مثلهنّ ، ولذلك تزوج أم مكّية الزّنجيّة وأقامَ عليها ، وتركَ النِّساء ، للذى وجَد عندها . وفى ذلك يقول :

يا رُبَّ خَـوْدٍ من بنات الزَّنج تَمْشى بتُنُّــورٍ شديدِ الوَهجِ
* أخثَمَ مثلِ القَـــدح الخَلَنْج *

وكانت دنانيرُ بنت كعبوية الزّنجى عند أعشى سُليم ، وكانت شديدةَ السَّواد ، فرآها يومًا وقد خضبت يَديْها بالحنّاء ، واكتحلتْ بالإثمد ، فقال :

٨٨ و

تخضب كفًّا بتكتْ من زندها فتخضب الحنّاء من مسوَدِّها[٢]
كأنّها والكُحلُ فى مِرودِّها[٣] تكحلُ عينيها ببعضِ جـلدها

فلما سمعَتْ ذلك قالت :

وأقبحُ من لونى سَوادُ محِجانِهِ على بَشَرٍ كالقَلْب أو هو أنصع[٤]

فسمَّوه أسودَ ، وصاح به الصِّبيانُ فطلَّقها . وقد كان صبيحةَ عُرسها قال :

* إنّ الدَّنانيرَ تكون سُودا[٥] *

---

(١) ديوانه ١٤٣ والأغانى ١٩ : ٢١ .

(٢) نسب هذا الرجز فى الأغانى ١٨ : ٣٦ إلى دعبل الخزاعى . وفى الأغانى : « قطعت » بدل « بتكت » . وكلاهما بمعنى .

(٣) المرود ، بتشديد الدال للشعر هو المرود الذى يكتحل به . وانظر لأمثال هذا التشديد مجالس ثعلب ٦٠٢ — ٦٠٤ .

(٤) البشر : جمع بشرة ، وهو ظاهر الجلد . والقلب ، بالفتح : جمار النخلة .

(٥) فى ن ، س : « سوداء » ، ولكن هكذا ضبطت « سودا » فى الأصل بضم السين وبدون الهمزة ، وهو شطر من الأرجاز .

فقالت :

بياض الرأس أقبح من سوادى وشَيب الحاجبَين هو الفُضوحُ

فأمسكَ عنها حينًا ثم عاودَها ، فلما فضحَتْه طلَّقها .

قالوا : وإنْ نَظر البيضانُ إلى نساء السُّودان بغير عين الشهوة فكذلك السُّودان فى نِساء البيضان . على أنَّ الشَّهواتِ عاداتٌ وأكثرها تقليد . من ذلك أنَّ أهل البصرة أشهى النِّساء عندهم الهندِيَّات وبناتُ الهندِيّات والأغوار . واليمن أشهى النِّساء عندهم الحبشيّاتُ وبنات الحبشيات . وأهل الشَّام أشهى النِّساء عندهم الرُّوميّات وبناتُ الروميّات . وكلُّ قومٍ فإنَّما يشتهون جَلَبهم وسَبْيَهم . إلَّا الشاذّ ، وليس على الشاذّ قياس .

قالوا : وأطيبُ[1] الأفواه نَكهةً ، وأشدُّها عذوبةً ، وأكثرها ريقًا ، أفواهُ الزنج . والكِلاب من بين السِّباع أطيبُ أفواهًا منها[2] .

قالوا : والسواد مُلاومٌ للعين[3] ، وإذا اعتلَّت تخِيف عليها لم يكن لها دواءٌ خيرٌ من القعود فى الظُّلمة وفى يد صاحبها خرقةٌ سوداء . فالسَّوادُ للإبصار ، وخيرُ ما فى الإنسان البصر .

وقالوا : والسُّودان أكثر من البيضان ، لأنَّ أكثرَ ما يُعدُّ البيضانُ فارسَ والجبالَ وخراسان ، والرُّوم والصَّقالبة وفرنجة[4] والأبر ، وشيئًا

(١) سقطت الواو فى كل من ن ، س ، خلافاً لما فى الأصل .

(٢) انظر الحيوان ٢ : ١٥٤ ، ١٧٦ و ٥ : ٣٣٧ .

(٣) كذا فى أصل ون ، س . ويبدو أنه من اللغة المولدة التى شاعت قديماً . وفى اللسان : « ومنه قولهم هذا طعام لا يلائمنى ، ولا تقل يلاومنى » .

(٤) انظر مروج الذهب ٢ : ٣٤ والفهرست ٣٠ ، ٣٤ والقاموس (فرنج) .

بعد ذلك قليلاً غير كثير . والسُّودان يَعُدُّونَ الزَّنج والحبشة ، وفَزّان وبربر ، والقبط والنُّوبة ، وزَغاوة ومَرْو ، والسِّند والهند ، والقَمار[1] والدَّبيلا[2] ، والصِّين وماصِين . والبحر أكثر من البّر ، وجزائر البحر ما بين الصِّين والزَّنج مملوءةٌ سُودانًا ، كسرنديب ، وكَلَه[4] ، وأمل ، وزابج[5] وجزائرها إلى الهند إلى الصين إلى كابُل وتلك السواحل .

٨٨ ظ

قالوا : وكان الأعمى الاشتيام[6] يقول : السُّودان أكثر من البيضان ، والصَّخر أكثر من الوحل ، والرَّمل أكثر من التُّراب ، والماء المالح أكثر من العذب .

قالوا : ومنّا العربُ لا من البيضان ؛ لقرب ألوانهم من ألواننا . والهندُ أسفرُ ألوانًا من العرب ، وهم من السُّودان. ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بُعثت إلى الأحمر والأسود » . وقد علم النّاسُ أنَّ العرب ليست بحُمر كما ذكرنا قبل هذا[7] .

---

(١) قمار بفتح القاف وكسرها : موضع بالهند ينسب إليه العود القماري .

(٢) الذى فى ياقوت « ديبل » بفتح الدال وضم الباء ، وقال : « مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند » . وانظر التنبيه والإشراف للمسعودى ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٩ .

(٣) فى الأصل و ن ، س : « سودان » .

(٤) فى معجم البلدان : « كله : فرضة بالهند ، وهى منتصف الطريق بين عمان والصين ، وموقعها من المعمورة فى طرف خط الاستواء » .

(٥) زابج قال فيها ياقوت : « وقيل هى بلاد الزنج ، وبها سكان شبه الآدميين إلا أن أخلاقهم بالوحش أشبه » . وفى الأصل : « وزبج » . وانظر ماسيأتى . والباء تفتح وتكسر .

(٦) الاشتيام : رئيس الركاب ، كما فى اللسان (شتم) .

(٧) انظر ص ٢١٠ .

قال : فهذا المَفْخرُ لنا وللعربِ على جميع البِيضان إنْ أحبَّتْ ذلك العربُ ؛ وإن كرهَتْه فإنّ المفخر لنا بالذى ذكرنا على الجميع .

قالوا : ولو لم نكثُركم إلاّ بالزابج وحدها لفضَلناكم بهم فضلاً مبيناً ؛ وذلك أنّ ملك الزابج إنْ غضِب على أهل مملكة ولم يتّقوه بالخَراج بعث ألفَ سُنبوقة[1] فى كلّ سُنبوقة ألفُ رجل على أن [لا[2]] يجلدونهم ولا يقاتلونهم ، ولكن يأمرهم أن يقيموا أبداً فيهم حتّى يتّقوهم بالخراج ، فيكون ما يأكلون ويشربون ويُغْذَون ويلبَسون ، أضرَّ عليهم من مقدار الخراجِ المرارَ الكثيرة . فإن اتّقَوهم بالخَراج وإلاّ أرسلَ إليهم ألفَ سُنبوقة أخرى ، فلا يجد ذلك الملكُ بدًّا من أن يتّقيَه بكلّ ما طاب ، ولا يأمن أن يغضبَ فيأتىَ عليه وعلى أهل مملكته .

قالوا : ولقد نزل ملك الزابج على خليجٍ مرّةً والخليجُ فراسخُ فى فراسخ ، فبينا هو على مائدته وفى سُرادقِه على شاطئ الخليج ، إذْ سمع صارخةً فقال : ما هذا ؟ وقطع الأكل[3] . قالوا : امرأةٌ سقط ابنُها فى هذا الخليج فأكله التمساح . قال : وفى مكانٍ أنا فيه شىءٌ يشاركنى فى قتل النّاس ! ثم وثب فإذا هو فى الخليج . فلما رأوه الناسُ سقطوا عن آخرهم ، فخضخضوه[4] وهو فراسخ فى فراسخ ، حتّى أخذوا كلّ تمساحٍ فيه أخذَ يدٍ .

---

(١) الذى فى القاموس « السنبوق » ، وقال : « السنبوق كعصفور : زورق صغير » .

(٢) تكملة يستقيم بها الكلام .

(٣) فى الأصل : « وقع الأكل » .

(٤) خضخض الماء ونحوه : حركه . وفى الأصل : « فخضخضوه » .

فيقال : إنّ أهلَ الزابج وأغبابها(١) أكثر من شَطر أهل الأرض .

قالوا : وآخرُ العُمرانِ كلُّه سودانٌ ، وما استدار من أقاصى العُمران أكثر من أهل الواسطة ، كطوق الرَّحَى الذى يلى الهواء ، الذى هو أوسع وأكثر ذرعاً مما قصر عنه من فَلَك الرَّحى(٢) ولنعتبر ذلك بالجناح المُطِيف ، لا يرى أحد ذَرْعَه مع قلّة عرضه ، ونجده أكثر ذرعاً من نفس الدار . ٨٩ و

وليس خلف الزابج بيضانٌ ، وكذلك جميعُ بلاد السودان السَّاكنةِ فى الأطراف وفى آخر أطواق العمران .

قالوا : فهذا دليل على أنّا أكثر ، وإذا كنّا أكثرَ كنّا أفخر . وقد قال شاعركم(٣) :

ولستَ بالأكثر منهُ حصًى وإنَّما العِزَّةُ للكاثرِ(٤)

قالوا : والقبط جنسٌ من السودان وقد طَلب منهم خليلُ الرحمن [الولد(٥)] فوُلِد له منهم نبيٌّ عظيم الشأن ، وهو أبو العرب إسماعيلُ عليه السلام . وطلب النبيُّ صلى الله عليه وسلم منهم الولد ، ووُلد له إبراهيم ، وكنّاه به جبريل .

---

(١) الكلمة مهملة النقط فى الأصل . والأغباب : جمع غب ، بالضم ، وهو الغامض من الأرض . قال :

كأنها فى الغب ذى الغيطان ذئاب دجن دائم الهتان

(٢) فلك الرحى : مدارها . وفى الأصل ون ، س : « ذلك الرحى » .

(٣) هو الأعشى ، ديوانه ١٠٦ .

(٤) يخاطب علقمة بن علاثة ، فضلا عامر بن الطفيل عليه . والرواية المشهورة : « منهم حصى » .

(٥) ليست بالأصل . والكلام يقتضيها .

قالوا : والحجر الأسود من الجنّة . والنُّحاس إذا اشتدَّ سوادُه كان أثمنَ وأجود . فمن استنكرَ لونَ السواد فما فى فِرِنجة[١] والرُّوم والصَّقالبة من إفراط سُبوطة الشَّعر والرِّقّة والصُّهوبة ، والحُمرة فى شعر الرَّأس واللِّحية ، وبياضِ الحواجب والأشفار ، أقبح وأسمج . وليس فى السُّودان مُغْرَب[٢] ، ليس المُغْرب إلاَّ فيكم . ولا سواء من لم تنضجه الأرحام وما جازتْ به حدَّ التمام .

قالوا : ولنا بعدُ معرفةٌ بالتفلسُف[٣] والنَّظَر ، ونحن أثقفُ النّاس . ولنا فى الأسرار حجة . ونحن نقول : إنّ الله تعالى لم يجعلنا سُودًا تشويهاً بخلقنا ، ولكنَّ البلدَ فعل ذلك بنا . والحجّة فى ذلك أنّ فى العرب قبائل سُودًا كبنى سُلَيم بن منصور . وكلُّ مَن نزل الحَرَّةَ من غير بنى سُلَيمٍ كلُّهم سود . وإنَّهم ليتخذون المماليكَ للرعى والسّقاء ، والمهنة والخدمة ، من الأشبانيِّين[٤] ومن الرُّوم نسائهم ، فما يتوالدون ثلاثةَ أبطنٍ حتّى تنقلهم الحرّةُ إلى ألوان بنى سُلَيم[٥] . ولقد بلغ مِن أمر تلك الحرّة أنّ ظِباءها ونعامَها ، وهوامَّها وذُبابها ، وثعالبها وشاءها وحميرَها ، وخيلها ، وطيرَها كلَّها سودٌ . والسَّواد والبياض إنّما هما من قِبَل خلقة البلدة ، وما طبع الله عليه الماء

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٢١٥

(٢) المغرب ، بفتح الراء : الأبيض أشفار العينين .

(٣) لعل هذا من أقدم النصوص التى ورد فيها لفظ التفلسف . وفى اللسان : « الفلسفة : الحكمة ، أعجمى . وهو الفيلسوف ، وقد تفلسف » .

(٤) فى الأصل : « الاشبانين » بهذا الإهمال .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٧١ و ٥ : ٣٧٠ .

٨٩ ظ والتُّربة ، ومن قِبَل قُرب الشَّمس وبعدها ، وشدّة حَرّها ولينها . وليس ذلك من قبل مسخٍ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير [١] .

على أنّ بلاد بنى سُلَيم تجرى مَجرى بلادِ التُّرك . ومَن رأى إبلهم ودوابّهم وكلّ شيء لهم تركيًّا رآه شيئًا واحدًا . وكلُّ شيء لهم تركيُّ المنظر . وربّما رأى الغزاةُ دون العواصم أخلاطَ غَنَم الرُّوم فلا يخفى عليهم غَنَم الرُّوم من غَنَم الشّام ، للرُّوميّة التى يرونها فيها .

وقد نرى الناسَ أبناء الأعراب والأعرابيات الذين وقعوا إلى خراسان فلا نشُكُّ أنّهم علوجُ القُرى . وهذا موجودٌ فى كل شيء . وقد نرى جَرادَ [٢] البَقل والرَّيحان وديدانَهما خُضراً [٣] ، ونرى قَمل رأس الشّابّ سُوداً ، ونراها إذا ابيضّ رأسُه بِيضًا ، ونراها إذا خُضِبت حُمراً .

فليس سوادُنا ، معشَرَ الزِّنج ، إلاَّ كسواد بنى سُلَيم ومَن عددنا عليكم من قبائل العرب فى صدر هذا الكلام .

وما إفراط سوادٍ من اسودَّ من الناس إلاّ [٤] كإفراط بياض من ابيضَّ من الناس . وكذلك السُّمرة المتولِّدة من بينهما ، وكذلك الزِّىّ والهيئات ، وكذلك الصِّناعات ، وكذلك المطاعم والشَّهوات .

---

(١) فى جميع النسخ : « ولا تفضيل » .

(٢) فى الأصل : « جزاز » ، صوابه فى الحيوان ٤ : ٧١ . وقد صحح بذلك فى ن و س .

(٣) فى الأصل : « خضر » .

(٤) فى الأصل : « ولا » .

وقد ذكر الشاعر، حين مدح أُسيلِمَ بنَ الأحنف الأسدىَّ، سوادَ اليمانيَة فقال[١]:

أُسيلِمُ ذاكم لا خَفَا بمكانه
لعين تداحى أو لأذنٍ تَسمَّعَ[٢]

من النَّفَر الشُّمِّ الذين إذا انتَمَوْا
وهابَ الرِّجالُ حَلْقَةَ الباب قعقعوا

جلاَ الأذفرُ الأحوَى من المسك فرقَه
وطيبُ الدِّهان رأسَه وهو أنزع[٣]

إذا النَّفَرُ السُّود اليَمانونَ حاولوا
له حَوكَ بُرديه أرقُّوا وأوسعوا

وقد عابَ بعضُ البيضانِ عبدَ بنى جَعدَةَ بلونه، فقال:

قد عابَ لونىَ أقوامٌ فقلتُ لهم
ما عابَ لونىَ إلاَّ مُفرِطُ الحُمُقِ

إنْ كان لونىَ فيهُ دُعجةٌ كَلَفٌ
حَزْنَ الإهابِ فإنِّى أبيضُ الخُلقِ

---

(١) الأبيات فى الحيوان ٣ : ٤٨٦ والبيان ١ : ٣٩٦ و ٣ : ٣٠٥ والبخلاء ٢١٣ والعقد ٥ : ٣٤٣ .

(٢) فى معظم المراجع : « لعين ترجى » .

(٣) فى الأصل : « جرى الأذفر . . . فوقه » ، صوابه من البيان والحيوان والبخلاء . والأذفر : الشديد سطوع الرائحة . والأنزع : الذى انحسر الشعر عن جانبى جبهته .

أُرضِى الصَّديقَ وأحمِى الظُّعنَ معترضاً
صَدرَ القناةِ وأكنى كنه السَّرَقِ[١]

٩٠ و وكانت امرأةُ عمرو بن شأسٍ تجفو عِرَاراً[٢] بنَ عمرو ، وكان ابنَ سوداء ، فقال عمرو بن شأسٍ فى ذلك ، وفى صفةِ أبناء الحبشيَّات والزَّنجيات :

ألم يأتِها أنِّى صحوتُ وأنَّنى
تخشَّعتُ حتَّى ما أعارِمُ من عَرَمْ
وأُطرِقُ إطراقَ الشُّجاعِ ، ولو يرى
مَساغاً لنابيه الشُّجاع لقد أزَمْ[٣]
أرادت عِرَاراً بالهوان ومن يُرِدْ
عِرَارًا لعمرى بالهوان فقد ظَلَمْ
وإنَّ عِراراً إن يكن غيرَ واضحٍ
فإنِّى أحبُّ الجَونَ ذا المنكِبِ العَمَمْ[٤]
فإن كنتِ منِّى أو تُحبِّينَ شيمتِى
فكونى له كالسَّمْنِ رُبَّت له الأَدَمْ[٥]

---

(١) كذا ورد عجز هذا البيت .

(٢) فى الأصل : « عزار » أو « غراز » ، صوابه من الحماسة ٢٨٠ – ٢٨٢ بشرح المرزوقى وماأثبت فى حواشيها من المراجع ، والأغانى ١٠ : ٥٩ — ٦٠ .

(٣) أزم : عض شديداً . وفى الأصل : « أرم » ، صوابه فى الأغانى .

(٤) فى الأصل : « لم يكن » ، صوابه من المراجع المتقدمة . والعمم : الطويل التام من كل شىء .

(٥) فى الأصل : « كالشمس » تحريف . قال المرزوقى : والسمن إذا رب نحيه لم يتغير . يريد فلا تتغيرى أنت أيضاً » . والأدم : جمع أديم ، وهو الجلد .

وإلاّ فبيني مثــــل ما بانَ راكبٌ
تزوّد خمساً ليس في سيره أتم(١)

وأمّا الهند فوجدناهم يُقدِّمون في النُّجوم والحساب، ولهم الخطُّ الهنديُّ خاصّة، ويتقدّمون في الطبِّ، ولهم أسرارُ الطبِّ وعلاجُ فاحشِ الأدواء خاصّة. ولهم خَرط التماثيل ونحتُ الصُّور بالأصباغ تتّخذ في المحاريب(٢) وأشباهِ ذلك. ولهم الشِّطرنجُ، وهي أشرفُ لُعبةٍ وأكثرُها تدبيراً وفطنة. ولهم السُّيوف القَلْعيّة(٣)، وهم ألعبُ النّاس بها وأحذقُهم(٤) ضرباً بها. ولهم الرُّقَى النافذةُ في السُّموم وفي الأوجاع. ولهم غناءٌ مُعجِب. ولهم الكنكلة(٥)، وهي وترٌ واحدٌ يمدُّ(٦) على قرعةٍ فيقوم مقامَ أوتار العُود والصَّنج. ولهم ضروبُ الرّقص والخِفّة، ولهم الثّقافة عند الثِّقاف خاصّة، ولهم معرفة المناصفة، ولهم السِّحر والتّدخين والدمازكية(٧). ولهم خطٌّ جامعٌ لحروف اللُّغات، وخطوطٌ أيضاً كثيرة، ولهم شعرٌ كثير وخُطَب طوال، وطبٌّ في الفلسفة

---

(١) الأتم: الإبطاء.

(٢) في الأصل: «مجد من المحارب».

(٣) القلعية: نسبة إلى القلعة، وهي قلعة عظيمة ببلدة تسمى «كله»، وهي أول بلاد الهند من جهة الصين، وفيها تضرب السيوف القلعية. انظر معجم البلدان والحيوان ٣: ١٤٣.

(٤) ن، س: «وأحذقها».

(٥) انظر نوادر المخطوطات ٢: ٣٢٤.

(٦) في الأصل و ن، س: «يمر»، صوابه ما أثبت.

(٧) كذا. ولعله «الترماذكية»، وهو ضرب من اللعوق الطبي، كما في معجم استينجاس ١٣٩٥.

والأدب . وعنهم أخِذ كتابُ كليلة ودمنة . ولهم رأىٌ ونجدةٌ ، وليس لأحدٍ من أهل الصَّبر ما لهم . ولهم من الزِّىّ[1] الحسَنِ والأخلاق المحمودة مثل الأخِلَّة والقَرن والسِّواك ، والاحتباء ، والفَرق والخضاب . وفيهم جمال ومِلحٌ[2] واعتدال وطيب عَرَق . وإلى نسائهم يضرب الأمثال . ومِن عندهم جاءوا الملوكَ بالعُود الهندىّ الذى لا يَعدِله عود . ومن عندهم خرج علم الفكر ، وما إذا تُكلِّم به على السّمّ لم يضرّ . وأصلُ حسابِ النُّجوم من عندهم أخذه النَّاسُ خاصَّةً . وآدم عليه السلام إنَّما هبط من الجنَّة فصار ببلادهم[3] .

٩٠ ظ

قالوا : ومن مفاخر الزنج حُسن الخُلق ، وجودةُ الصَّوت . وإنَّك لتجد ذلك فى القِيان إذا كنَّ من بنات السِّنْد .

وخَصلةٌ أخرى : أنَّه لا يوجد فى العبيد أطبَخُ من السِّندىِّ ، هو أطبع على طيِّب الطَّبخ كلِّه[4] .

ومن مفاخرهم أنَّ الصَّيارفة لا يولُّون أكيِستَهم وبيوتَ صُروفهم إلَّا السِّندَ وأولادَ السِّند ؛ لأنَّهم وجدوهم أنفَذَ فى أمور الصَّرف ، وأحفَظَ وآمَن . ولا يكادُ أحدٌ أن يجد صاحبَ كيسِ صَيرفىٍّ ومفاتيحِهِ ابنَ رومىٍّ ولا ابنَ خُراسانىّ

---

(١) فى الأصل : « الرأى ».

(٢) الملح ، بالكسر : الملاحة .

(٣) فى تفسير أبى حيان ١ : ١٦٣ عند الكلام على هبوط آدم : «وآدم بالهند ، وقيل بسرنديب بجبل يقال له واسم » .

(٤) فى الأصل : « هو أطبخ على طيب الطبع كله » .

ولقد بلغ من تبرُّك التجار بهم أنَّ صَيارفة البصرة وبنادرة البَرْبَهارات[١] ، لَمّا رأوا ما كَسَبَ فرجٌ أبو رَوحٍ السِّنديُّ لمولاه[٢] من المال والأرَضِينَ اشترى كلُّ امرئٍ منهم غلامًا سنديًّا ، طمعًا فيما كسبَ أبو رَوْحٍ لمولاه .

قال : وكان عبد الملك بنُ مروانَ يقول : « الأدغم سيِّد أهلِ المشرق[٣] » يعني عُبَيدَ الله بنَ أبي بَكْرة . وكان أشدَّ السُّودان سواداً . وإيّاه يعني عبدُ الله بن خازمٍ[٤] حيث يقول :

* حَبشيٌّ حَبشَتُهُ حَبشَـــهْ *

فهذا جملة ما حَضَرنا من مفاخر السُّودان . وقد قلنا قبل هذا في مفاخر قحطان ، وسنقول في فخر عدنان على قحطان في كثير مما قالوا إن شاء الله .

* * *

(١) البنادرة : جمع بندار ، بضم الباء ، وهم التجار الذين يلزمون المعادن ، أو الذين يخزنون البضائع للغلاء . والبربهار: الأدوية التي تجلب من الهند من الحشيش والعقاقير ، والفلوس وغيرها ، يقول البحرية وأهل البصرة لها : البربهار . أنساب السمعاني ٧١ . وقال الأب أنستاس ماري : المراد بها توابل بر الهند . حواشي الحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٢) اسم مولاه محمد بن السكن ، كما في الحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٣) في المعارف ١٢٦ : « سيد أهـــل الشرق » . وفيه : ويقال الأدغم الدابة الديزج ، شبه به » .

(٤) هوعبد الله بن خازم بن أسماء السلمي البصري ، أميرخراسان . ولي إمرتها لبني أمية ، فلما ظهر ابن الزبير كتب إليه ابن خازم بطاعته فأقره على خراسان ، ثم ثار به أهل خراسان فقتلوه وأرسلوا رأسه إلى عبد الملك سنة ٧٢ . انظر الطبري في حوادث هذه السنة ، وتهذيب التهذيب والإصابة ٤٦٣٢ .

٩١ و

تم كتاب فخر السودان على البيضان

من تأليف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله تعالى وتوفيقه ، ومشيئته وتأييده . يتلوه إن شاء تعالى رسالة له أيضاً إلى محمد بن عبد الملك فى الجد والهزل . والله الموفق للصواب .

والحمد لله أولًا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلامه .

٥

رِسَالة

فِي الجِدِّ وَالهَزْلِ

من تصنيف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

إلى محمد بن عبد الملك الزيات

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الخامسة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة فى الجـد والهزل »

من تصنيف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك الزيات

ومن هذه الرسالة نسخ :

١ — نسخة الأصل ، وهى نسخة مكتبة داماد ، فى ضمن مجموعة رسائل الجاحظ .

٢ — مختارات فصول الجاحظ ، وهى نسخة المتحف البريطانى المودعة صورتها فى مكتبة جامعة القاهرة ، ورمزها « م » .

٣ — نسخة بول كراوس وطه الحاجرى ، وهى مقابلة على نسخة داماد ، والمتحف البريطانى ، ورمزها « ط » .

بسم الله الرحمن الرحيم

٩٢ ظ

جُعلتُ فِداكَ . ليس من أجل[1] اختياري النَّخلَ على الزَّرع[2] أقصيتَنِي ، ولا على ميل إلى الصَّدقة دون إعطائى الخراجَ عاقبتَنِي ، ولا لبُغضى دفعَ الإتاوة والرضا بالجِزية حرمتَنى .

ولستُ أدرى لِمَ كرِهتَ قُربى وهَوِيت بُعدى ، واستثقلتَ روحى ونَفْسى واستطلتَ عُمرى وأيامَ مُقامى . ولِمَ سرَّتك سيِّئتى ومصيبتى وساءتك حسنتى وسلامتى ، حتّى ساءكَ تجمُّلى بقدر ما سَرَّكَ جزَعى وتضجُّرى ، وحتى تمنَّيتَ أنْ أخطئَ عليك فتجعل خطئى حجّة لك فى إبعادى ، وكرِهتَ صوابى فيك خوفاً من أن تجعله ذريعةً لك إلى تقريبى .

[فإن كان ذلك هو الذى أغضبكَ ، وكان هو السببَ لموجِدتك[3]] فليس ـ جُعلتُ فداكَ ـ هذا الحقدُ فى طبقة هذا الذَّنب ، ولا هذه المطالبة من شكل هذه الجريمة .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من م

(٢) ألف الجاحظ كتاب : (الزرع والنخل) لإبراهيم بن العباس الصولى المتوفى سنة ٢٤٣ . فمنحه خمسة آلاف دينار ، كما ألف كتاب : (الحيوان) لمحمد بن عبد الملك الزيات فمنحه مثلها ، وكتاب : (البيان) للقاضى أحمد بن أبى دواد فمنحه كذلك . معجم الأدباء ١٦ : ١٠٦ . وجاء فى الحيوان ١ : ٤ نظير هذا النص موجها إلى محمد بن عبد الملك الزيات : « وعبتنى بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب » .

(٣) التكملة من م .

ولو كان إذ لم يكن فى وزنه وقَع قريباً ، وإذْ لم يكن عِدلَه وقعَ مُشْبِها كانَ أهونَ فى موضع الضَّرر ، وأسهلَ فى مخرج السَّماع .

فأىَّ شىء بقَّيتَ للعدوّ المكاشِف والمنافق[١] الملاطف ، وللمعتمد المصرِّ وللقادر المدِلّ .

ومَن عاقبَ على الصَّغير بعقوبة الكبير ، وعلى الهفوة بعقوبة الإصرار ، وعلى الخطأ بعقوبة العمد ، وعلى معصية المتَستِّر[٢] بعقوبة معصية المعلن[٣] ، ومن لم يفرق بين الأعالى والأسافل ، وبين الأقاصى والأدانى ، عاقبَ على الزّنى بعقوبة السَّرَق[٤] ، وعلى القتل بعقوبة القَذْف . ومن خرج إلى ذلك فى باب العقاب خرج إلى مثله فى باب الثَّواب . ومن خَرَجَ من جميع الأوزان وخالف جميعَ التعديل ، كان بغاية العقاب أحقّ ، وبه أولى[٥] .

والدَّليل على شدّة غيظك وغلَيان صدرِك قُوّةُ حركتك وإبطاء فترتك ، وبُعد الغاية فى احتيالك . ومن البرهان على ثبات الغضَب ، وعلى كظم الذنب[٦] تمكُّن الحقد ورسوخ الغيظ ، وبُعد الوثبة وشدّة الصَّولة .

وهذا البرهان صحيحٌ ما صحّ النظم ، وقام التعديل ، واستوت الأسباب .

ولا أعلم ناراً أبلغَ فى إحراق أهلها من نار الغيظ ، ولا حركةً أنقضَ

---

(١) م : « وللموافق » .

(٢) فى الأصل : « المستتر » ، وأثبت ما فى م . وفى ط نقلا عن ب : « المسر » .

(٣) فى الأصل : « المعاند » صوابه فى م ، ب .

(٤) السرق كسبب وكتف : السرقة . وفى م . « السرقة » .

(٥) فى الأصل : « أحق به وأولى » ، وما أثبت من م أشبه بأسلوب الجاحظ .

(٦) م : « عظم الذنب » .

لقوّة الأبدان من طلب الطوائل[١] مع قلة الهدوء والجهل بمنافع الجَمَام[٢] ، وإعطاء الحالات أقسامها من التدبير .

٩٣ و

ولا أعلم تجارة أكثرَ خُسرانًا ولا أخفَّ ميزانًا من عـداوة العاقل [العالم][٣] ، وإطلاقِ لسان الجليس المُداخِل ، والشِّعارِ دونَ الدِّثار[٤] ، والخاصِّ دون العامّ .

والطالبُ ـ جُعلتُ فداك ـ بعُرْض ظَفَرٍ مالم يَخرج المطلوب ، وإليه الخيار مالم تقع المنازلة . ومن الحزم ألّا تخرج إلى العدوّ إلّا ومعك من القُوى ما يغمر[٥] الفَضْلة التى ينتجها له الإخراج . ولا بدّ أيضًا من حزمٍ يحذّرك مَصارعَ البغى ، ويخوّفك ناصر المطلوب[٦] .

وبَعدُ ـ أبقاك الله ـ فأنت على يقينٍ من موضع ألم الغيظ من نفسك ، والغيظُ عذاب . ولربّما زاد التشفِّى فى الغيظ ولم ينقص منه . ولستُ على يقين من نفوذ سهمك فى صَيْدك[٧] [كما أيقنت بموضع الغيظ من صدرك] .

---

(١) الطوائل : جمع طائلة ، وهى الوتر والذحل ، يقال: طلب بنى فلان بطائلة، أى بوتر كان له فيهم .

(٢) الجمام ، كسحاب : الراحة : م « الحمام » تصحيف .

(٣) التكملة من م .

(٤) الشعار : ما ولى شعر جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب . والدثار : ما كان من الثياب فوق الشعار . وفى المثل : « هم الشعار دون الدثار » ، يصفهم بالمودة والقرب . وفى حديث الأنصار : « أنتم الشعار والناس الدثار » .

(٥) فى الأصل : « مالا يغمر » ، صوابه من م .

(٦) أى من تطلبه . وفى الأصل : « ويحرك ناصر المظلوم » ، صوابه فى م .

(٧) فى الأصل : «صدك» ، صوابه من ط رواية عن ب والتكملة بعده من ب .

والحازم لا يلتمس شفاء غيظِه باجتلاب ضَعْفِه ، ولا يطفئ نارَ غضبه تأخُّرُ عقوبةِ من أغضبَه ، ولا يسدِّد سهمَه إلَّا والغرضُ ممكن ، والغاية قريبة ، ولا يهرب إلّا والمهرب مَعجزة .

إنّ سلطان الغيظ غَشوم ، وإنّ حكم الغضَب جائر ، وأضعف ما يكون العزم عن التصرُّف أضعفَ ما يكون الحزم . والغضب فى طِباع شيطان ، والهوى يتصوَّر فى صورة امرأة ، فلا يبصر مَساقط العيب ومواقعَ الشَّرف إلاّ كلُّ معتدلِ الطباع ، ومعتدلِ الأخلاط مستوِى الأسباب .

والله لقد كنت أكره لك سرفَ الرضا مخافةَ جواذبِه إلى سرف الهوى . فما ظنُّك بسرف الغضب ، وبغلَبة الغيظ ، ولا سيّما ممّن قد تعوّدَ إهمالَ النَّفس ولم يعوِّدها الصبر ، ولم يعرِّفْها موضعَ الحظّ فى تجرُّع مرارة العفو ، وأن المراد من الأمور عواقبها لا عواجلها(١) .

ولقد كنت أشفِق عليك من إفراط السُّرور فما ظنُّك بإفراط الغيظ . وقد قال بعض الناس : لا خير فى طول الرّاحة إذا كان يُورث الغفلة ، ولا فى الكفاية إذا كان يؤدِّى إلى المَعجَزة ، ولا فى كثرة الغِنى إذا كان يخرج إلى البلدة(٢) .

جُعلتُ فداك . إنّ دَاء الحزنَ وإن كان قاتلاً فإنه داء مُماطِل ، وسقمه سقم مُطاوِل ، ومعه من التمهُّل بقدر قسطه من أناة المِرّة السوداء . وداء

---

(١) فى الأصل : « عواملها » ، صوابه فى م .

(٢) فى الأصل : « كثرة العى » ، صوابه فى م . والبلدة ، بالفتح وبالضم أيضاً : البلادة ، ضد النفاذ والذكاء والمضاء فى الأمور .

الغيظ سفيهٌ طيَّاش ، وعَجولٌ فحَّاش ، يُعجِل عن التوبة ، ويقطع دون الوصيّة ، ومعه من الخُرْق بقدر قسطِه من التهاب المِرَّة الحمراء . [والعجول يخطئ وإن ظفِر ، فكيف به إذا أخفق . على أنَّ إخفاقه يزيد فى حقيقة خطئه كما أنَّ ظفره لا ينتقص من مقدار زلله[١]]. وأنت روحٌ كما أنت وحشيٌّ من قرنك إلى قدمك . وعمل الآفة فى الدِّقاق والعتاق أسرع ، وحدُّها عن الغلاظ الجُفاة أكَلّ ؛ فلذلك اشتدَّ جزعى لك من سُلطان الغيظ وغَلَبته .

٩٣ ظ

والله لو كنتُ ابتلعتُ مزار بابك ، وأبطلت نمر الباطل[٢] ، ووردت[٣] القطائع كلَّها ، ونقضت الشُّروط بأسرها ، وأفسدت نتاجك ، وقتلت كلَّ شِطر نجيٍّ لك ، ورفعتُ من الدنيا فراهة الخيل ، وجعلتُ المروجَ كلَّها حمًى ، وكنت صداق المرادين[٤] ، وبِرسام الأولاد ، ومسخت جميع الجوارى فى صورة أبى رملة[٥] ورددت شِطاط خَلْقك إلى جُعودة أبى حنَّة[٦] وكنت أول من سنَّ بَيع الرجال فى النخَّاسين ، وفتَحَ باب الظُّلْم لأصحاب المظالم ، وحوّلت إليك عقل أبى دينار ، وطُبعت على بيان ما نَويه ، وأعنت على موت المعتصم ، وغضبت لمصرع الأفشين[٧] ، واستجبت للديك الأبيض

---

(١) التكملة من ب .

(٢) كذا وردت العبارة .

(٣) فى الأصل : « ورددت » .

(٤) كذا . وجعلت فى ط : « جذم المردان » .

(٥) لم أجد له ذكراً فى كتب الجاحظ ، كما لم أجد ذلك لأبى حنة التالى .

(٦) الشطاط ، كسحاب وكتاب : الطول وحسن القوام . والجعودة : القصر .

(٧) الأفشين ، بفتح الهمزة وكسرها ، كما فى وفيات الأعيان ٢ : ٦٥ . واسمه =

الأفرق[١] وأحببت صالح بن حنين[٢] ، وأحوجتك إلى حاتم الرِّيش[٣] ، وكان أبو الشَّمَّاخ صديق ، والفارسيُّ من شيعتي ــ لكان ما تركتَني به سرفا ، ولكنتَ في هذا العِتاب[٤] متعدِّيا .

جُعلتُ فداك ، لا تتعرضْ لعداوة عُقلاء الرُّواة ، ولضغينة حُفَّاظ المثالب ، ولِلسانِ من قد عُرف بالصِّدق والتوخِّي ، وبقلّة الخطل والتنكُّب[٥] ، ما وجدتَ عن ذلك مندوحة ، ووجدت المذْهَبَ عنه واسعاً . ولا تعاقبْ وادًّا وإن اضطرّك الوادّ ، ولا تجعلْ طُولَ الصُّحبة سبباً للتضجُّر ، واصبرْ على خَلَقه فإنّ خَلَقَه خيرٌ من جديد غيره . وصَداقة المُتطرِّف غَرُور[٦] ،

= خيذر بن كاوس ، وكان مقدم قواد المعتصم ، ثم غضب عليه المعتصم فصلبه هو وبابك ومازريار في سنة ٢٢٦ .

(١) الأفرق : المفروق العرف . وفي الأصل : « للدين » صوابه في ب كما في حواشي ط . وكلمة « الأبيض » ساقطة من ب كما أن كلمة « الأفرق » ساقطة من الأصل وثابتة في ت . وكان العامة في زمن الجاحظ يتبركون بالديك الأبيض الأفرق يزعمون أنه يطرد الشيطان من البيت . الحيوان ٢ : ٢٠٧ ، ٢٥٩ ولكنهم أيضاً كانوا يقضون على من كان في داره ديك أبيض أفرق بالزندقة . الحيوان ٢:٢٠٧ .

(٢) يبدو أنه كان أحد البغضاء الثقلاء ، ذكره أيضاً في البخلاء ٦. قال الجاحظ : « ولو ولد نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها ، ثم أضافها إلى صالح بن حنين وإلى ابن النواء وإلى بعض البغضاء ، لعادت باردة ، ولصارت فاترة » .

(٣) كان حاتم هذا من ندماء صالح بن هارون الرشيد ، قرينا لأبي الواسع ، وقنينة ، وحسين بن الضحاك . الأغاني ٦ : ١٠٤ . وسماه أبو الفرج في ٦ : ١٩٥ « حاتم الريش الضراط » .

(٤) ط : « العقاب » خلافا لما في الأصل .

(٥) التنكب ، أراد به العدول عن الصواب والحق . وفي الأصل : «التكسب»

(٦) جعلت في ط : « غرر » بمعنى الخطر .

وملالة الصَّديق أفْن ، والعلم بأقدار[1] الذُّنوبِ غامض ، وحدودُ الذنوب فى العقاب خفيّة . ولن يعرف العقابَ من يجهل قَدر الذَّنب . والأجرام كثيرة الأشكال ، ومتفاوتة فى الأقدار[2] . وإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه فانظر فى علّته وسببه ، وإلى معدنه الذى منه نَجَم ، وعُشِّه الذى منه دَرج ، ومغرِسه الذى منه نبت ، وإلى جهة صاحبه فى التَّتابُع والتَّترُّع[3] ، وفى النزوع والثَّبات ، وإلى قِحَته عند التقريع ، وإلى حيائه عند التعريض ، وإلى فِطنته عند الرشق والتورية[4] ؛ فإنّ فَضْل القطنة ربّما دلّ على فرط الاكتراث ، وعلى قدر الاكتراث يكون الإقدام والإحجام . فكلُّ ذنبٍ كان سببه الدالَّة وضيق صدرٍ وغلظ طباعٍ وحدّة مِرارٍ ، من جهة تأويل أو من جهة غلط فى المقادير ، أو من طريق [فرط[5]] الأنفة وغلبة طباع الحمِيّة من بعض الجَفْوة أو لبعض الأثرة ، أو من جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زيّن له من عمله ، وأنّه مقصَّر به مؤخَّر عن مرتبته ، أو كان مبلَّغاً عنه أو مكذوباً عليه ، وكان ذلك جائزاً عليه غير ممتنع فيه —

٩٤ و

---

(١) فى الأصل : « باقرار » .

(٢) فى الأصل : « الأقدام » .

(٣) التتابع فى الشيء: التهافت فيه والإسراع إليه . والتترع : التسرع إلى الشيء. وفى الأصل : « التتابع والتبرع » والوجه ما أثبت .

(٤) المراد بالرشق الإصابة بالقليل من الكلام . والتورية : الكناية التى لايفهمها إلا الفطن . ومنه التورية البلاغية التى يراد باللفظ فيها غير المتبادر من معناه . وفى الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفرا ورى بغيره ، أى ستره وكنى عنه وأوهم أنه يريد غيره . وفى الأصل : « التودية » تحريف .

(٥) التكملة من ب .

فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل وعلى هذه الأسباب ، وفى هذه المجارى ، فليس يقف عليها كريم ، [ولا يلتفت لها حليم[1]] .

ولست أسمِّيه بكثرة معروفه كريماً حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمه غالباً لطبعه ، وحتى يكون عالماً بما ترك ، وعارفاً بما أخذ . واسم الحليم جامع للكظم ، والقدرة ، والفهم .

فإذا وجدتَ الذنبَ بعد ذلك لا سببَ له إلاَّ البغضة فلو لم ترض لصاحبه بعقابٍ دون قَعْر جهنم لَعذَرك كثيرٌ من العُقلاء ، ولصوَّبَ رأيك عالَمٌ من الأشراف .

ومتى كانت علتَه طبيعةَ البَذاء[2] ، وخُلقه الشَّرارة والتسرُّع[3] ، فاقتلْه قتلَ العقارب ، وادمغْه دمغَ رءوس الحيات .

وإذا كان ممن لا يسىء فيك القول ، ولا يرصُدك بالمكروه إلاّ لتعطيَه على الخوف ، وتمنع عِرضك من جهة التقيَّة فامنعه جميلَ رفدك ، واحتلْ فى منعه من قِبَل غيرك ؛ فإنَّك إن أعطيتَه على هذه الشريطة ، وأعظَمْتَه من هذه الحكومة فقد شاركته فى سبِّ نفسك ، واستدعيت الألسنةَ البذيّة إلى عرضك ، وكنتَ عوناً لهم عليك .

وكيف تعاقبه على ذنبٍ لك شطره ، وأنت فيه قَسِيمُه[4] ، إلا أنّ عليك غُرمه ولك غُنمه .

---

(١) التكملة من ب .

(٢) فى الأصل : « البدا » ، والوجه ما أثبت . وقد قرئت فى ط : « الداء » خطأ .

(٣) الشرارة : مصدر شر يشر شرا وشرارة ، بضم شين المضارع وكسرها .

(٤) فى الأصل : « قسمه » .

ومن العدل المحض والإنصاف الصحيح أن تحطَّ عن الحسود نصفَ عقابه ، وأن تقتصر على [بعض[١]] مقداره ، لأنَّ ألم حسدِه لك قد كفاك مؤونة شَطْر غيظك عليه .

وأما الوادُّ فلا تعرِضْ له البتة ، [ولا تلتفِتْ لِفتَه[٢]] ، ولو أتى على الحرث والنسل ، وحتى على الرُّوح والقلب . ولا تغتر بقوله إنّى وادٌّ ، ولا تحكمْ له بدعواه بأنى جدّ وامق . وانظر أنت فى حديثه وإلى مَخارج لفظه ، وإلى لحن قوله ، وإلى طريقته وطبيعته ، وإلى خلقه وخليقته ، وإلى تصرُّفه وتصميمه[٣] وإلى توقُّفه وتهوُّرِه . وتأمَّلْ مقدارَ جزعه من قلة اكترائه ، وانظر إلى غضبه فيك ولك ، وإلى انصرافه عمن انصرفَ عنك وميله إلى من مال إليك ، وإلى تسلُّمه من الشر وتعرُّضه له ، وإلى مُداهنته وكَشْف قناعه . بل لا تَقضِ[٤] له بجماع ذلك ما كان ذلك فى أيام دولتك ومع إقبالٍ من أمرك ، وإن طالت الأيامُ وكثرت الشهور ، حتى تنتظم الحالاتُ ، وتستوىَ فيه الأزمان .

٩٤ ظ

نعم ، ثمَّ لا تحكم له بذلك حتى تكون حالُه مقصورةً على محبّتك ، ومحنوّةً على نصيحتك ، بالعلل التى توجب الأفعال . والأسبابُ التى تسخّر القلوب للمودّات ، كالعلل الثابتة فى الصنيعة ، والأسباب الموجودة مع مولى

---

(١) ليست فى الأصل .

(٢) التكملة من ب .

(٣) التصميم : المضى فى الأمر بعد إرادته . وفى الأصل : « تصميه » .

(٤) فى الأصل : « لايقضى » .

العَتَاقة ؛ فإنّ عللهما خلافُ عِلل مولى الكلالة[١] ، وخلاف علل الصّديق الذى لم يزل يرى أنّه مثلك ، وأنه يستوجب منك استيجابك ، ولا سيا إذا كانت الصنيعة أنت ابتدأتَها ، وأنت أبو عُذْرتها .

فإن أنت لم تحكم له بالغاية مع اجتماع هذه العلل فيه ، ومع توافيها إليه ، ولم تقضِ له بأقصى الغاية مع ترادفِ هذه الأسباب وتكامُل هذه الدلائل ، وتعاون هذه البرهانات ، فكل خبرٍ بيّنَه زُور ، وكلُّ دلالةٍ فاسدةٌ . وقد قال الأول : « دلائل الأمور أشد تثبيتاً من شهادات الرجال » . إلاّ أن يكون فى الخبر دليل ، ومع الشّهادة برهان ؛ لأنّ الدليل لا يكذب ولا ينافق ولا يزيد ولا يبدّل ، وشهادة الإنسان لا تمتنع من ذلك ، وليس معها أمانٌ من فسادٍ ما كانَ الإمكانُ قائماً .

وبعد متى صار اختيار النّخل على الزرع يُحقد الإخوان ، ومتى صار تفضيل الحَبّ وتقريظ التّمر يورث الهِجران ، ومتى تميّزوا هذا التميّز[٢] وتهالكوا هذا التهالك ؟ ومتى صار تقديم النخلة ملّة ، وتفضيل السنبلة نِحْلة[٣] ؟ ومتى صار الحكم للنّعجة نسباً وللكرْمة صِهراً ، ومتى[٤] تكون فيها ديانة وتَستحكم فيها بَصِيرة ، ويحدُث عنها حَمِيَّة .

---

(١) الكلالة من القرابة : ما خلا الوالد والولد .

(٢) فى الأصل : « التميز » .

(٣) فى الأصل : « منحة » .

(٤) فى الأصل : « وحق » .

وقد كنا نعجب من حرب البسوس فى ضَرع نابٍ[1] ، ومن حرب بُعاثٍ فى مِخْرف تمرٍ[2] ، ومن حرب غَطَفان فى سَبَق دابةٍ[3] . فجئتنا أنت بنوع من العجَب أبطلَ كلَّ عجب ، وآنسَنا بكل غريب ، وحسَّن عندنا كلَّ قبيح ، وقرّب عندنا كلَّ بعيد .

٩٥ و

فإنْ جهلتُ ـ أعزّكَ اللهُ ـ غضبَك فمثلي جَهِلَ مالاعلّةَ له ، وإنْ عَجَزتُ عن احتمال عقابك فمثلي ضجّ مما لا يطيق حمله . ولا عارَ على جازعٍ إلاّ فيما يمكن فى مثله الصبر ، ولا لومَ على جاهل فيما لا ينجح فى مثله الفكر .

وليس هذا أوّلَ شَرَكٍ نصبتَه ، ولا أوّلَ كيد أرغْتَه ، ولا هى بأول زُبْية غطّيتَها وسَترتَها ، وحيلةٍ أكمنتها ورَبَصتها .

وقد كانت التقيّة والاقتصاد أسلم ، بل كان العَفْو أرحم ، والتغافلُ أكرم .

---

(١) كانت للبسوس بنت منقذ التميمية ، خالة جساس بن مرة ، ناقة يقال لها «سراب» ، فرمى كليب ضرع تلك الناقة بسهم وقد رآها غريبة فى إبله ، فاستغاثت البسوس بخالها جساس ، فطعن جساس كليبا فقتل ، فوقع الشر بينهم لذلك . العقد ٥ : ٢١٣ وما بعدها .

(٢) المخرف بكسر الميم : زبيل صغير يخترف فيه أطايب الرطب . وبفتحها : الحائط من النخل . وانظر لحرب بعاث الأغانى ١٥ : ١٥٤ — ١٥٨ وكامل ابن الأثير ١ : ٤١٧ ووفاء الوفاء ١ : ٢١٥ حيث تتضح لك إشارة الجاحظ إلى المخرف بفتح الميم وكسرها معا .

(٣) السبق ، بالتحريك : الذى يوضع بين أهل السباق ، فمن سبق أخذه . يشير بذلك إلى حرب داحس والغبراء ، حين صد أتباع حمل بن بدر صاحب الفرس التى تسمى الغبراء ، فرسَ قيس بن زهير وكان يسمى « داحسا » . فثارت الحرب بين عبس وذبيان ابنى بغيض بن ريث بن غطفان أربعين سنة . العقد ٥ : ١٥٠ =

ولا خير فى عقوبة تشمت العدوّ المتقادم[1] ، ويُنادى بها العدوُّ الحادث .
والأناة أبلغ فى الحزم ، وأبعد من الذمّ ، وأحمد مَغَبّةً وأبعد من خُرق العَجَلة .
وقد قال الأول : « عليك بالأناة ؛ فإنك على إيقاع ما أنت مُوقِعُه أقدر منك
على ردّ ما قد أوقعته » . فقد أخطأ من قال[2] :

قد يُدركُ المتأنِّى بعضَ حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ

بل لو قال : والمتأنِّى بِدركِ حاجاته أحقّ ، والمستعجل بفَوت حاجاته
أخلَق ، لكان قد وفَّى المعنى حقّه ، وأعطى اللّفظ حَظّه ، و [إن[3]] كان
القول الأوّل موزوناً والثانى منثُوراً[4] . ولولا أنه اشتقّ المستعجل من
العجلة لما قرنَه بالمتأنّى . وينبغى أن يكون الذى غلّطه قولُهم : « ربّ
عَجلة تَهَب ريثاً » . فجعل الكلام الذى خرجَ جواباً عند ما يعرض من
السبب ، كالكلام الذى خرج ارتجالا ، وجعله صاحبه مثلاً عاماً .
فإذا سمّيتَ العمل عجلةً وريثاً فاقضِ على الريث بكثرة الفوت ، وبقدر ذلك من
العجز ، وعلى العجلة بِقلّة النُّجح ، وبقدر ذلك من الخرق .

والرّيثُ والأناة فى بلوغ الأمل وإدراكِ النّعمة كانتهاز الفرصة واهتبال

= والأغانى ٧ : ٣٤٣ وكامل ابن الأثير ١ : ٣٤٣ ، وجمهرة أنساب العرب
٢٥٠ ، ٢٥١ .

(١) فى الأصل : « القادم » . والمتقادم : القديم .

(٢) هو القطامى . ديوانه ص ٢ ونوادر المخطوطات ١ : ١٦٧ . وانظر مجالس
ثعلب ٤٣٧ والمحاسن للبيهقى ٢ : ١٣٣ .

(٣) ليست فى الأصل .

(٤) فى الأصل : « مبتورا » .

الغِرّة . والأناة وإن طالت [فليستْ من جنس الريث[١]] ، وانتهاز الفرصة وإن كانَ فى غاية السُّرعة فليس من جنس العجلة .

وربّتَ كلمة لا توضع إلّا على معناها الذى جُعلَتْ حظَّه ، وصارت هى حقَّه والدالَّةَ عليه دون غيره ، كالحزم والعلم ، والحلم والرِّفق ، والأناة والمداراة ، والقصد والعدل والاهتبال ، وكاليأس والأمَل[٢] ، وكالخُرْق والعَجَلة ، والمداهنة والتسرُّع ، والغلوّ والتقصير .

٩٥ ظ

وربّت كلمةٍ تدور مع خُلَّتها ، وتتقلّب مع جاراتها[٣] ، وإزاء صاحبتها[٤] ، وعلى قدر ما تُقابل من الحالات ، وتلاقِى من الأسباب ، كالحبّ والبُغض ، والغضب والرِّضا ، والعزم والإرادة ، والإقبال والإدبار ، والجِدّ والفتور[٥] ؛ لأن هذا الباب الأخير يكون فى الخير والشرّ ، ويكون محموداً ويكون مذموما .

وصاحب العَجَلة – أعزّكَ الله – صاحب تغريرٍ ومخاطرة ، إن ظفر لم يحمده عالِمٌ ، وإن لم يظفر قطعَتْه الملاوم . والرَّيث أخو المَعجَزة ، ومقرون بالحسرة ، وعلى مَدرَجة اللائمة . وصاحب الأناة إن ظفر نفع غيره بالغُنم ، ونفع نفسَه بثمرة العلم ، وأطاب ذكره دوامُ شكره[٦] ، وحُفظ فيه ولدُه . وإن حُرِم

---

(١) هذه التكملة مساوقة لأسلوب الجاحظ ، وهى من مقترحات ناشر ط .

(٢) فى الأصل : « البأس والأمن » . وفى م : « اليأس والأمن » .

(٣) فى الأصل : « جاراتها » ، وأثبت ما فى م .

(٤) فى الأصل و م : «وإرادة صاحبتها» . وما أثبت أشبه بأسلوب الجاحظ .

(٥) فى الأصل : « والفتوة » ، صوابه فى م .

(٦) م : « وطاب ذكره ، ودام شكره » .

فبسوطٌ عذرُه ، ومصوَّب رأيه مع انتفاعه بعلمه وما يجد من عزِّ حزمه ونبل صوابه[1] ، ومع علمه بالذى له عند العقلاء ، وبعذرِه عند الأولياء والأعداء .

وما عندى لك إلّا ما قال الدِّهقان[2] لأسد بن عبد الله[3] وهو على خراسان ، حين مرّ به وهو يُدهَق فى حَبْسِه[4] :

إن كنت تعطى من تَرحم فارحم من تَظلِم[5] . إنّ السموات تنفرج لدعوة المظلوم ، فاحذر من ليس له ناصر إلّا الله ، ولا جُنَّةٌ إلا الثِّقة بنزول الغِيَر[6] ، ولا سلاحٌ إلّا الابتهال إلى مولًى لا يُعجزه شىء .

يا أسدُ ، إنّ البغىَ يصرع أهله ، وإنّ الظُّلم مرتعه وخيم ، فلا تغترّ بإبطاء العقاب[7] من ناصرٍ متى شاء أن يغيث أغاث . وقد أملَى لِقومٍ كى يزدادوا

---

(١) فى الأصل : « وقبل صوابه » ، صوابه فى م .

(٢) الدهقان ، بالكسر : زعيم فلاحى العجم ، فارسى معرب .

(٣) هو أسد بن عبد الله القسرى ، أخو خالد بن عبد الله ، كان خالد على العراق وما يليه من الأهواز وفارس والجبال ، وأخوه أسد على خراسان . وكان بدء ولايتهما فى سنة ١٠٦ وعزلا سنة ١٢٠ . تاريخ الطبرى .

(٤) الدهق : التعذيب بالدهق ، وهو بالتحريك : خشبتان يغمز بهما الساق ، وهو بالفارسية « أشكنجه » . وفى الأصل : « فى حبه » تحريف . وفى العقد ٢ : ١٦١ : « ومر أسد بن عبد الله القسرى ، وهو والى خراسان ، بدار من دور الاستخراج ، ودهقان يعذب فى حبسه ، وحول أسد مساكين يستجدونه ، فأمر لهم بدراهم تقسم فيهم ، فقال الدهقان ... » .

(٥) فى العقد : « إن كنت تعطى من يرحم فارحم من يظلم » الفعلان « يرحم » و « يظلم » بالبناء للمفعول .

(٦) الغير : اسم بمعنى تغير الحال . وفى الأصل : « التغير » .

(٧) فى العقد : « الغيثات » .

إثما[١] . وجميعُ أهل السّعادة إمّا سالمٌ من ذنب ، وإما تاركٌ لإصرار[٢] . ومن رغب عن التمادى فقد نال أحد الغُنمين ، ومن خَرج من السعادة فلا غاية له إلا دار الندوة[٣] . وسواء ـ جُعلت فداك ـ ظَلمتَ بالبطش والغَشْم ، أو ظلمت بالدَّحس والدَّسّ[٤] . فشاورْ لُبّك ، وناظر حزمك ، وقِفْ قبلَ الوثبة ، واحذر زَلّةَ العالم .

وقد قال صاحبكم : من استشار الملالة وقلّد طبيعتَهُ الاستطرافَ ، وجعل الخَطْرة ذنبا[٥] ، والذنب ذنوباً ، ومقدار الطَّرفة إصرارا ، والصَّغيرَ كبيرا ، والقليل كثيرا ، عاقَب[٦] على المتروك الذى لا يُعبأ به ، وبَلغ بالبطش إلى حيث لا بقيَّةَ معه[٧] ، ورأى أن القطيعة التى لا صلة معها ، والتخليج الذى لا تجمُّل معه ، الحزمُ المحمود ؛ وأنّ الاعتزامَ فى كلّ موضعٍ هو الرأى الأصيل . ٩٦

وقال أيضاً : من كانت طبيعته مأمونة عليه عند نفسه ، وكان هواه رائده الذى لا يكذبه ، والمتأمِّر عليه دون عقله ، ولم يتوكّل لما لا يهواه على

---

(١) إلى هنا ينتهى نص العقد . وفيه : « وقد أملى لقوم ليزدادوا إثما . فأمر أسد بالكف عنه » .

(٢) فى الأصل : « الإصرار » .

(٣) كذا فى الأصل ، وجعلت فى ط : « الشقوة » .

(٤) الدحس : التدسيس للأمور تستبطنها وتطلبها أخفى ما تقدر عليه .

(٥) الخطرة : ما يقع بالبال والوهم .

(٦) فى الأصل : « وعاقب » ، والواو مقحمة .

(٧) البقية : الإبقاء وعدم المبالغة فى الإفساد .

ما يهواه[1] ، ولم ينصر تالدَ الإخوان على الطارف ، ولم ينصف المملول المبعَد من المستطرف المقرَّب ، ولم يخَفْ أن تجتذبه العادة ، وتتحكم عليه الطبيعة ، فليرسم حُججَهما ، ويصوّرْ صورَهما ، فى كتابٍ مفرد أو لفظ مسموع ، ثم يعرِضْهما على جهابذة المعانى وأطباء أدواء العقول ، على ألا يختار إلَّا مَن لا يدرى أىَّ النوعين يبغى ، وعلى أيِّهما يحامى ، وأيُّهما دواؤه وأيُّهما داؤه . فإن لم يستعمل ذلك بما فضَل له من سكر سوء العادة ، لم يزل متورِّطًا فى الخطاء مغموراً بالذمّ[2] .

سمعتُك وأنت تريدنى وكأنَّك تريد غيرى ، وكأنَّك تشير علىَّ من غير أن تنصَّنى . وتقول : إنّى لأعجب ممّن تركَ دفاتر علمه متفرِّقة مبثوثة ، وكراريسَ درسِه غير مجموعة ولا منظومة ، كيف يعرّضها للتجرّم[3] ، وكيف لا يمنعها من التفرّق[4] . وعلى أنَّ الدفتر إذا انقطعت حِزامته[5] ، وانحلَّ شِداده ، وتخرّمَت رُبُطه ، ولم يكن دونه وقاية ولا جُنَّة ، تفرَّقَ ورقُه ؛ وإذا تفرَّق ورقه اشتدَّ جمعُه ، وعسُر نظمه ، وامتنع تأليفه ، وربَّما ضاع أكثره . والدَّفتانِ أجمع ، وضَمُّ الجلود إليها أصْوَن ، والحزم[6] لها أصلح . وينبغى للأشكال أن تُنظم وللأشباه أن تؤلَّف ؛ فإنَّ التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حسنا ، والاجتماع

---

(١) فى الأصل : « ولم يتوكل لما يهواه » فقط ، وأثبت نص م .

(٢) م : « بالذنب » .

(٣) التجرم ، من الجرم وهو القطع . وفى م : « للتخرم » من الخرم .

(٤) م : « التخرق » .

(٥) الحزامة والحزام : اسم لما شد به .

(٦) الأصل : « والحرز » ، صوابه من م .

يحدث للمتساوى[1] فى الضعف قوة . فإذا فعلتَ ذلك صرتَ متى وجدت بعضَها فقد وجدتَ كلَّها ، ومتى رأيت أدناها فقد رأيت أقصاها ؛ فإن نشِطت لقراءة جميعها مضيتَ فيها .

وإذا كانت منظومةً ، ومعروفةَ المواضع معلومة ، لم تحتج إلى تقليب القماطر على كثرتها ، ولا تفتيش الصناديق مع تفاوت مواضعها ، وخفّت عليك مؤونتها وقلت فكرتك فيها ، وصرفتِ تلك العناية إلى بعض أمرك ، وادّخرتَ تلك القوّةَ لنوائب غدك . ٩٦ ظ

وعلى أن ذلك أدلّ على حبّك للعلم ، واصطناعك للكتب ، وعلى حسن السياسة ، والتقدم فى إحكام الصناعة .

وقلت : لأمرٍ ما جمعوا أسباع القرآن[2] وسُورَه فى مصحف ، ولم يدَعوا ما فيه مفرّقًا فى الصُّدور ، ولا مبدّدًا فى الدفاتر ، ومفرّقًا فى القماطر . على ذلك أجمع المسلمون ، والسابقون الأولون ، والأئمة الرشيدة ، والجماعة المحمودة ، فتوارثه خلفٌ عن سلف ، وتابعٌ عن سابق ، وصغير عن كبير ، وحديثٌ عن قديم .

ولم أشكّ فى أنها نَصيحة حازم ، ومشورةُ وامق ، أو رأىُ حَضَر أو حكمة

---

(١) فى الأصل : « للمساوى » ، وأثبت ما فى م .

(٢) تكفل أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب قديماً فى أماليه ٦٣ — ٧٠ ببيان نصفى القرآن وأثلاثه وأرباعه وأخماسه وأسداسه وأسباعه وأثمانه وأتساعه وأعشاره . رواية عن حميد الأعرج . وكذا فعل السجستانى بعده فى المصاحف ١٢٥ — ١٣٠ رواية عن حميد أيضا .

نبغَتْ ، أو صدرٌ جاش فلم يُملَك ، أو علمٌ فاضَ فلم يُرَدّ ، استعمله من استعمله ، وتركه من تركه .

فلما أخذتُ بقولك ، وصرتُ إلى مشورتك وأكثرتُ حمدَ الله على إفادتك من العلم وحَظّ عنايتك من النَّقْل[١] ، وجمعتُ البعض إلى البعض[٢] ، والشَّكل إلى الشَّكل ، وتقدّمتُ في استجادة الجلود ، وفي تمييز الصنّاع ، وفي تخيُّر البِياعات[٣] ، وغرِمت المال ، وشَغَلت البال ، وجعلتها مصحفًا مصحفا ، وأجملتها صِنفًا صِنفا ؛ ورأيت أنّي قد أحكمت شأني ، وجمعت إليّ أقطاري، رأيتُ أن أنظر فيها وأنا مستلقٍ ولا أنظر فيهاوأنا منتصبٌ ، استظهاراً على تعَب البدن ؛ إذْ كانتِ الأسافل مُثْقلة بالأعالي ، وإذ كان الانتصاب يُسرع في إدخال الوهَن على الأصلاب ؛ ولأنّ ذلك أبقى على نور البصر ، وأصلَح لقوّة الناظر ؛ إذْ كلُّ واحدٍ من هذه المصاحف قد أعجزَ يدِي بثِقَل جِرْمه ، وضيّق صدري بجفاء حجمه . وإذا ثقُل أنكأَ الصدرَ ، وأوهنَ العظم .

---

(١) في الأصل : « وحط عناية » .

(٢) هذا من شواهد استعمال « بعض » مقرونة بأل في قديم الآثار . وإن كان الأصمعي قد أنكره أشد الإنكار حين سئل عن قول ابن المقفع : « العلم كثير ولكن أخذ البعض خير من ترك الكل » . وأنكره أبو حاتم أيضاً وقال : « ولا تقول العرب الكل ولا البعض ، وقد استعمله الناس حتى سيبويه والأخفش في كتبهما لقلة علمهما بهذا النحو ، فاجتنب ذلك فإنه ليس من كلام العرب » . وقال الأزهري : « النحويون أجازوا الألف واللام في بعض وكل وإن أباه الأصمعي » . اللسان (بعض) .

(٣) في الأصل : « الساعات » ، وليس لها وجه ، والوجه ما أثبت . والبياعات : الأشياء التي يتبايع بها في التجارة . وانظر الحيوان ٤ : ٣٦٩ . وفي اللسان : « والبياعة : السلعة » .

وإذا أنا نظرت فيها وأنا جالسٌ سدِرَتْ عينى[1] ، وتقوّس ظهرى ، واجتمع الدمُ فى وجهى ، وأكرهتُ بصَرى على غير جهته ، وأجريتُ شُعاع ناظرى فى غير مجراه .

٩٧ و

وقد علمتَ – أبقاك الله – مع خِبرتك بمقابح الأمور ، ومواقع المنافع والمضارّ ، ثم بمصالح العباد والبلاد ، أنَّ من كان على مَقْطَع جبل ، أو على شُرُفات قصر ، فأراد رؤية السماء على بُعدها ، وجَد ذلك على العين سَهلا خفيفاً ، وإن أراد أنْ يرى الأرضَ على قُربها ، وجد ذلك على العين عِبئًا ثقيلا . فإن بدا لى أن يُقابل عينى به العبدُ ، أو تُواجِهَنى به الأمة ، كلّفتُ أخرقَ النّاس كفًّا ، وأقلّهم وَفْقا[2] ، وأكثرهم التفاتا ، وأحضرَهم نعاسا ، وأقلَّهم على حالٍ واحدة ثَباتا ، وأجهلَهم بمقدار الموافقة ، ولِمقادير المقابلة ، وبحطّ اليد ورفعها ، وإمالتها ونصبها . ثم رأيتُ فى تضجُّرهم وتكرُّههم وفِرارهم منه ، ما صيَّر تجشُّمى لثقَل وزنه ، ومُقاساتى لجفاء حَجْمه ، أهونَ على يدى ، وأخفَّ على قلبى . فإن تعاطيتُه عند ذلك بنفسى فشقاءٌ حاضر ، وإن ألزمتُه غيرى فغيظٌ قاتل . وحتَّى صارت الحال فيها داعيةً إلى ترك دَرْسها والمعاودة لقراءتها ، مع ما كان فيها من الفائدة الحسنة ، والمنافع الجامعة ، ومِن شَحْذ الطبيعة ، وتمكين حُسن العادة .

ولو لم يكن فى ذلك إلا الشُّغلَ عن خَوض الخائضين ، والبُعد عن لهو اللّاهين ، ومن الغِيبة للناس والتمنّى لما فى أيديهم ، لقد كان نفعُ ذلك كثيراً ، وموقعُه من الدِّين والفرض عظيما .

---

(١) سدر بصره سدراً : تحير فلم يكد يبصر . (٢) الوفق ، بالفتح : الموافقة .

ومتى ثقُل الدرس تثاقلت النفس ، وتقاعست الطبيعة . ومتى دام الاستثقال أحدثَ الهجران . وإذا تطاولَ الكدّ رسَخ الزُّهد . وفى ترك النَّظر عَمى البَصر ، وفى إهمال الطبيعة كلال حدّ الطبيعة . وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر ، كما أنّه على قدر غريزة العقل تصحُّ الحوائج[1] وتسقَم ، وعلى قدر كثرة الحاجة تتحرّك الجارحة ويتصرّف اللسان ، ومع قلة الحركة وبُعد العهد بالتصرّف يَحدُث العى ويَظهر العجز ويُبطئ الخاطر . ومع ذهاب البيان[2] يفسد البرهان ، وفى فساد البرهان هلاكُ الدُّنيا وفساد الدِّين .

٩٧ ظ فقد بلغتَ ما أردتَ ، ونِلتَ ما حاولت . فحسبُك الآن من شَجّ من يأسوك ، ومن قَتْل من يُقتَل فيك .

جُعِلت فداك . إنّه ليس يومى منك بواجد ، وأنا على عقابك أوجَد . وليس يُنْجينى منك مَعقِل وَعِل ، ولا مَفازة سبُع ، ولا قَعر بحر ، ولا رأسُ طَود ، ولا دَغَل ولا دَحْل[3] ، ولا نَفَق ولا مغارة ولا مطمورة . وليس ينجينى منك إلاّ مفازة المهلَّب[4] . فإن أعرتنى قلبَه وعلّمتَنى حيلته ، وأمكنتَنى من سِكِّينه . وإلاّ فأنا أوّل من ابتلعته تلك الحيّة . ولا والله إنْ بى

---

(١) فى الأصل : « الجوائح » . والجوانح : الضلوع ، أو القصار منها . والوجه ما أثبت . وانظر ما قبله وما بعده .

(٢) بذا صححها ناشر ط . وفى الأصل : « البرهان » .

(٣) الدغل بالتحريك : الشجر الكثير الملتف . والدحل ، بالفتح : هوة تكون فى الأرض وفى أسافل الأودية يكون فى رأسها ضيق ثم يتسع أسفلها . وفى الأصل : « دخل » تصحيف .

(٤) كذا فى الأصل .

قوةٌ على الثعبان(١) ، فكيف التنّين . أعفِنى من حيّة المهلّب ثم اقتلنى أىّ قتلةٍ شئت .

إن احترستُ منك ألفيت لنفسى كدًّا شديداً ، وغمًّا طويلاً ، وطال اغترابى وافتراقُ ألآفى ، وتعرّضت للعدوّ ، وتحرّشْت بالسباع . فإن استرسلتُ إليك لم تَر أن تقتلنى إلاَّ شرَّ قتلةٍ وآلمها ، ولمْ تعذّبنى إلا بأشدّ النِّقم وأطولها . ولو أردتَ ذبحى لاخترتَ الكليل على المُرهَف ، والتّطويل على التذْفيف(٢) ، حتى كأنى علمّت عليك : « شاه مات(٣) » ، أو أكلت سبعةً وأطعَمْتُك واحدة .

ولقد تقدَّمتَ فى المكر واستظهرتَ علىَّ فى الكيد ، حتى تولّيت ذلك فى صغار كتبى وفيما لا تَحفِل به من دوام أمرى ، وعلمتَ أن الدّرس لليل وأن الا . . . . . .(٤) للنهار ، وأنَّ الكتاب لا يقرأ إلاَّ ليلاً والنّيرانُ زاهرة ، والمصابيح مُقرَّبة . وعلمتَ أنَّ كلَّ من ضعُف بصره وكلَّ نظره ، فإنّه أبداً أقربُ مصباحاً وأعظم ناراً . وأنَّ(٥) المحرور المحترق ، والممرور الملتهب ، والبائس المتهافت ، إذا كان صاحبَ كتب ودرس ، أنَّه لا يجد

---

(١) أى ما بى قوة عليه .

(٢) التذفيف بالذال المعجمة : الإسراع فى القتل .

(٣) أى لحقك من الغيظ ما يلحق اللاعب بالشطرنج من قول صاحبه له : « شاه مات » .

(٤) بياض فى الأصل . وإزاءه فى هامش النسخة « حراوبه » .

(٥) فى الأصل : « فإن » .

بدًّا من الصبر على ما يُحرقه ويُعميه ، أو التركِ للقراءة فيها والتعرُّض لها . خيّرتنى بين العمى والجهل . وما فيهما حظٌّ لمختار .

وقلتَ : إذا سَخُن[1] بدنه سُجِن بوله ، وإذا سُجِن بوله جَرحَ مثانته وأحرق كُليته ، وطَبَخ فضول غِذائه ، وجَفّف ما فضل عن استمرائه فأحاله حصًى قاتلاً وصخراً جامداً ، وهو دقيق القضيب ضيِّق الإحليل ، فإذا حصاه يورثه الأُسْر[2] ، وفى ذلك الأُسر تلفُ النفس أو غاية التعذيب .

٩٨ و وقلتَ : فإن ابتليتُ بطول عمره أقام فينا مشغولاً بنفْسه ، وإن ذهبَ عنّا فقد كفانا مؤونة الحيلة فى أمره .

جُعلتُ فِداك ، ما هذا الاستقصاء وما هذا البلاء ؟ ! وما هذا التتبّع لغوامض المسألة ، والتعرُّض لدقائق المكروه ؟ ! وما هذا التغلغل فى كل شىء يُخْمِل ذكرى ؟ ! وما هذا الترقّى إلى كلّ ما يحطُّ من قدرى ؟ !

وما عليك أن تكون كتبى كلها من الورق الصِّينىّ ، ومن الكاغَد الخُراسانىّ ؟ !

قل لى : لِمَ زيّنتَ النَّسخَ فى الجلود ، ولِمَ حثثتنى على الأَدَم ، وأنت تعلم أنّ الجلودَ جافية الحجم ، ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بَطَلت ، وإن كان يومٌ لَثِقٌ استرخت . ولو لم يكن فيها إلاّ أنّها تبغّض إلى أربابها نزولَ الغيث ، وتكرِّه إلى مالكيها الحيا ، لكان فى ذلك ما كفَى ومنعَ منها .

---

(١) فى الأصل : « سجن » .

(٢) الأسر ، بالضم : احتباس البول . فى الأصل : « فأرى حصاه » .

قد علمتَ أنّ الورّاق لا يخطُّ فى تلك الأيام سطرا ، ولا يقطع فيها جلدا . وإن نَدِيت ـ فضلاً على أن تُمطَر ، وفضلاً على أن تَغرق ـ استرسلَتْ فامتدّت . ومتى جفّت لم تَعُد إلى حالها إلاّ مع تقبُّض شديد ، وتشنُّج قبيح . وهى أنتن ريحًا وأكثر ثمنًا ، وأحملُ للغش : يُغَشُّ الكوفىّ بالواسطىّ ، والواسطىّ بالبصرىّ ، وتعتّق لكى يذهب ريحها وينجابَ شعرها[1] . وهى أكثر عُقداً وعُجَراً ، وأكثر خباطاً وأسقاطاً ، والصُّفرة إليها أسرع ، وسُرعة انسحاقِ الخطِّ فيها أعمّ . ولو أرادَ صاحبُ علم أن يحمل منها قدرَ ما يكفيه فى سَفَره لما كفاه حِملُ بعير . ولو أراد مثل ذلك من القُطْنىّ[2] لكفاه ما يحمل مع زاده .

وقلت لى : عليك بها فإنها أحمل للحكّ والتغيير ، وأبقَى[3] على تعاور العاريّة وعلى تقليب الأيدى ، ولرَدِيدِها ثمن ، ولطرسها مَرجوع ، والمعاد منها ينوب عن الجُدُد . وليس لدفاتر القطنىّ أثمانٌ فى السُّوق وإن كان فيها كلُّ حديث طريف ، ولَطَفٍ مليح ، وعلم نفيس . ولو عرضتَ عليهم عِدْلها فى عدد الورق جلوداً ثم كان فيها كلُّ شِعر بارد وكلُّ حديث غثّ ، لكانت أثمنَ ، ولكانوا عليها أسرع .

وقلت : وعلى الجلود يعتمد فى حساب الدواوين ، وفى الصِّكاك ٩٨ ظ والعهود ، وفى الشُّروط وصُوَر العقارات . وفيها تكون نَموذجات النقوش ،

---

(١) فى الأصل : « شعره » .

(٢) أى المصنوع من القطن .

(٣) فى الأصل : « وأبقاه » .

ومنها تكون خرائط البُرُد[١] . وهنَّ أصلح للجُرُب ولعِفاص الجَرَّة وسِداد القارورة . وزعمت أنَّ الأَرَضة إلى الكاغَد أسرع ، وأنكرت أن تكون الفأرة إلى الجلود أسرع ، بل زعمت أنها إلى الكاغد أسرع وله أفسد ، فكنتَ سببَ المضرَّة فى اتِّخاذ الجلود والاستبدال بالكاغد ، وكنتَ سببَ البليّة فى تحويل الدفاتر الخِفاف فى المَحمل ، إلى المصاحف التى تُثقل الأيدىَ وتحطِّم الصدور ، وتقوِّس الظهور ، وتُعمى الأبصار .

وقد كان فى الواجب أن يدع الناس اسم المصحف للشىء الذى جمع القرآن دونَ كل مجلَّد[٢] ، وألاَّ يَرُوموا جمع شىء من أبواب التعلُّم بين الدَّفَّتين ، فيُلحقوا بما جعله السَّلفُ للقرآن غيرَ ذلك من العلوم .

دعْ عنك كلَّ شىء . ما كان عليك أن يكون لى ولدٌ يُحيِى ذكرى ويَحوى ميراثى ، ولا أخرجَ من الدنيا بحسرتى ، ولا يأكلَه مُراء يرصُدنى ، وابن عمٍّ يحسُدنى ، ولا يرتع فيه المعدِّلون فى زمان السَّوء[٣] ، ولا تُصطنع فيه الرجال ، ويُقضَى به الذِّمام . فقد رأيتَ صنيعَهُم فى مال المفقود والمناسخة[٤] والوارثِ الضعيف ، ومن مات بغير وصية .

---

(١) الخُريطة : هنة مثل الكيس تكون من الخرق أو الأدم تشرج على مافيها . والبرد : جمع بريد .

(٢) الجاحظ استعمل كلمة « المصحف » للدلالة على المجلد فى نهاية كل جزء من أجزاء الحيوان . انظر مقدمة الحيوان ص ٢٨ .

(٣) المعدلون : الذين يقيمون الأحكام .

(٤) التناسخ والمناسخة فى الميراث : موت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم .

جُعلت فداك ، إن النفوس لا تجود لمولى الكَلالة[1] بما تَجُود به لأولاد الأصلاب وما مسَّ تلك الأصلاب ؛ لأنَّ الرحم الماسّة والقَرابة الملتصقة ، واللُّحمة الملتحِمة ، وإن أمَّلت التركة ونازعت إلى المورِّث ، فمعها ما يأطِرُها ويثنيها ، ويُحزنها ويبكيها ، ويحرِّك دمها ويستغزر دمعَها . وقد يشفع للولد إلى أبيه حالٌ أبيّة كانت من أبيه .

وابن العمّ الذى ليس بالبعيد فيحُتَّك من جَسده ، وليس بالقريب المحنوّ على رَحِمِه ، وسببُه الجاذبُ[2] له إلى تمنِّى مماتى أمتنُ من سببه إلى تمنِّى بقائى ، وهو إلى الحال الموجبة للقسوة والغلظة أقرب منه إلى الحال الموجبة للرِّقة والعطف . وليس ينصرك إذَا نصَرَكَ ولا يحامى عليك لقرابته منك ، ولكنْ لعلمه بأنَّه متى خذلك حلَّ به ضعفك ، واجترأ بعد ضعفك عليه عدوُّه . فهو يريد بنصره من لا يجب عليه شكره ، ويقوِّى ضعف غيره بدفع الضعف عن نفسه . ٩٩ و

جعلتُ فداك . ما كان عليك من بُنىٍّ صغير يكون لى ، ولا سيّما ولست عندك ممن يُدرِك كسبه أو تُبلَغ نصرته ، أو يُعايَن برّه أو يؤمَّل إمتاعه .

وما كان عليك مع كِبَر سنّى وضَعف ركنى ، أن يكون لى ريحانةٌ أشمُّها وثمرةٌ أضمُّها ، وأن أجد إلى الأمانى به سببًا ، وإلى التلهِّى سلَّما ، وأن تكثر لى من جنس سرور الحالم ، وبقدر ما يمتِّع به راجى السَّراب اللامع ، حتّى حبّبتَ قِصَر عمرى إلى وليّى ، وشوّقته إلى ابن عمِّى ؛ وحتّى زدتَ فيما عنده

---

(١) الكلالة من القرابة : ما عدا الوالد والولد .

(٢) فى الأصل : « وسبب الجاذب » .

مع كثرة ما عنده ، وحتى صيّرنى حبّه لموتى إلى حبِّ موته ، وتأميل مالى [إلى[1]] تأميلِ فقره ؛ وحتى شغلتَنى عمّن كان يشغل عدوّى عنى .

وسواء أعِبتَ علىّ ألا يكونَ لى ولدٌ قبل أن يكون ، أو عبتَ علىّ ألا يكون بعد أن كان . وإنما يعذّبُ الله على النيّة والقصد ، وعلى التوخّى والعمد .

وكما أنّه سواء أن تحتال فى ألا يكون لى مالٌ قبل أن أملكه ، أو احتلت فى ألا يكون بعد أن ملكته .

وكنت لا أدرى ما كان وجهُ حبِّك لإعناتى ، والتشييد بذكر تراثى ، والتنويه باسمى ، ولا لمَ زهّدتنى فى طلب الولد ، ورغّبتنى فى سِيرة الرهبان .

فإذا أنت لم ترفع ذكرى فى الأغنياء إلّا لتَعرِض ذنبى للفقراء ، ولم تكثّر مالى إلّا لتقوِّىَ العلّة فى قتلى ، فيالها مكيدةً ما أبعدَ غورَها ، ويالها حُفرةً ما أبعدَ قعرَها . لقد جمع هذا التدبير لطافةَ الشّخص ودقّةَ المسلك ، وبُعد الغاية .

واللهِ لو دبّرها الإسكندر على دارا بن دارا ، أو استخرجها المهلّب على سُفيان بن الأبرد ، وفُتِحتْ على هرثمة فى مكيدة خازم بن خزيمة ، ولو دبّرها لُقَيم بن لقمان على لقمان بن عاد[2] ، ولو أرَاغها[3] قيس بن زهير على حِصْن ابن حذيفة ، ولو توجّهتْ لكهّان بنى أسد على دُهاة قريش — لقد كان ذلك

---

(١) ليست فى الأصل .

(٢) انظر البيان ١ : ١٨٤ — ١٨٥ .

(٣) أراغها : أرادها وطلبها . وفى الأصل : « أذاعها » ، تحريف .

من تدبيرهم نادراً [بديعًا[١]] ، ولكان فى مكايدهم شاذًّا غريبا . وإنَّها لترتفع عن قَصِيرٍ فى كيد الزَّبَّاء ، وعن جَذِيمةَ فى مشاورة قَصِير . وما إخالُها إلَّا ستدقُّ على ابن العاص ، وتغمُض على ابن هِنْـد[٢] ، ويكلُّ عنها أخو ثَقِيف[٣] ، ويستسلم لها ابن سُمَيَّة[٤] .

٩٩ ظ

هذا والله التَّدبير لا مَخَاريق العَرَّاف ، وتزاويق الكاهن ، وتهاويل الحاوى[٥] ، ولا ما ينتحلها صاحب الرَّئِىّ[٦] ؛ بل تضلُّ فيها رُقَى الهند ، وتقرُّ بها سحرة بابل .

فلو كنتَ إذْ أردتَ ما أردتَ ، وحاولتَ ما حاولت ، رفعتَ قبل كلِّ شىء المؤانسة ، ثم أبيتَ المؤاكلة ، ثم قطعت البرّ[٧] ، ثم أذنت مع العامَّة ، ثم أعملتَ الحرمان ، ثم صرَّحت بالجفوة ، ثم أمرت بالحجاب ، ثم صرمت الحبل ، ثم عاديتَ واقتصدت، ثم من بعد ذلك كلِّه أسرفتَ واعتديت ، لكنتُ

---

(١) التكملة من ب .

(٢) هو عمرو بن هند .

(٣) يعنى الحجاج بن يوسف .

(٤) يعنى زياد بن أبيه .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٣٧٠ .

(٦) الرئى : جنى يتعرض للرجل يريه كهانة وطبا . يقال مع فلان رئى . وقد أرأى الرجل ، إذا صار له رئى من الجن . فى الأصل : « صاحب الرى » وفى ب : « ينتجها صاحب الدين » ، والصواب ما أثبت . انظر الحيوان ٤ : ٣٧٠ ، ٦ : ٢٠٣ .

(٧) فى الأصل : « الستر » .

واحداً ممّن يصبر أو يجزع ، فلعلّى كنت أعيش بالرَّفَق[١] ، وأتبلّغ بحُشاشة النفس ، وأعلّل نفسى بالطمع الكاذب . ولكن لِجاءات الحوادث وبَغتات البلاء لا يَقُوم لها الحجر القاسى ، ولا الجبل الراسى . فلم تَدعْ غايةً فى صرف ما بين طبقات التعذيب إلّا أتيت عليها ، ولا فضولَ ما بين قواصم الظهر إلّا بلغتها . فقد مِتُّ الآن فمع مَن تعيش ؟ [بل قد قتلتنى فمَن الآن تعاشر[٢] !] ، كما قال ديوست المغنّى لكسرى حين أمَر بقتله لِقتْله تلميذَه بلهبذ[٣] : قتلتُ أنا بلهبذ ، وتقتلنى ، فمن يُطرِبُك ؟ قال : خلّوا سبيلَه ؛ فإنّ الذى بقى من عمره هو الذى أنطقَه بهذه الحجّة .

ولكنّى أقول : قد قتلتَنى فمع من تعيش ؟ أمَع الشِّطرنجيِّين ؟ ! فقد قال جالينوس : إيّاك والاستمتاع بشىء لا يعمّ نفعه[٤] .

إنّ الكلامَ إنما صار أفضلَ من الصَّمت ؛ لأنّ نفع الصمت لا يكاد يعدو الصّامت ، ونفع الكلام يعمُّ القائل والسامع ، والغائب والشاهد ، والراهن والغابر .

وقالوا : ومما يدلُّ من فضل الكلام على الصمت ، أنّك بالكلام تخبر عن الصَّمت وفَضْله ، ولا تخبر بالصَّمت عن فضل الكلام . ولو كان

---

(١) الرفق ، بالتحريك : قلة المال . ولعل صوابها « الرمق » .
(٢) التكملة من ب .
(٣) فى الأصل « بلهند » فى هذا الموضع وتاليه .
(٤) الكلام بعده إلى قوله « من سلم » يبدو أنه دخيل من رسالة أخرى ، كما تنبه لذلك ناشرا ط .

الصمتُ أفضلَ لكانت الرسالةُ صمتًا ، ولكان عدمُ القرآن أفضلَ من القرآن .

وقد فرّق بينهما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وفصّل وميّز وحصّل ، حيث قال : « رحم الله امرأً قال خيراً فغنم ، أو سكتَ فَسلِم » . فجعل حظّ السكوت السلامةَ وحدها ، وجعل حظّ القول الجمعَ بين الغنيمة والسلامة . وقد يسلم من لا يغنم ، ولا يغنم إلّا من سلم .

فأمّا الدوابُّ فمن يضع المركبَ الكريم إلى الصّاحب الكريم ؟ ومن يَعدل إمتاع بهيمة بإمتاع أديب .

١٠٠ و

قالت ابنة النُّعمان : لم نر فيما جرّبنا من جميع الأصناف أبلغَ فى خير وشرٍّ من صاحب .

ولمّا عزمَ ابن زياد على الُحقنة بعد أن كان تفَحَّشها قال له حارثةُ بن بدر : ما أجِد أولى بتولّى ذلك من الطبيب . قال عُبيد الله : كلّا ، فأين الصاحب . والله أنْ لو نُتجتَ فى كلّ عام ألفَ شَبْديز[1] ، وأحبلت[2] فى كل ليلة أربعة آلاف ربرب ، وصار لك كلُّ نهر المبارك[3] بدلًا من بعض بابَك[4] .

---

(١) الشبديز : ضرب من الخيل قاتم اللون أصدأ ، ولفظه فارسى . معجم استينجاس ٧٣١ . وفى الأصل : « سبدين » ، صوابه فى ب .

(٢) فى الأصل : « وقرت » وأثبت ما فى ب .

(٣) اسم نهر بالبصرة احتفره خالد بن عبد الله القسرى لهشام بن عبد الملك . وفى الأصل : « المبرك » .

(٤) بابك ، بفتح الباء الثانية : نهر فى بغداد منسوب إلى بابك بن بهرام بن بابك . معجم البلدان (نهر الطابق) .

وأكلتَ رأس الجُنَيد بن حاق الأشيم[١]، وأحْبَلتَ ابنَ ألْغَزَ[٢] من إفراط الشَّبَق، لما كان ينبغى لك أن تعاملنا بهذه المعاملة، ولا كان ينبغى أن تقتلنا هذه القِتلة، ولو اقتصرتَ من العقوبة على شىء دون شىء لكان أعدلَ، ولو عفوتَ البتّة لكان أمثل.

إنَّ الاعتزام على قليل العقاب يدعو إلى كثيره، ومبتدئ العقاب بعرَض لَجَاج. وليس يُعاقب إلّا غضبان.

والغضب يغلب العزمَ على قدر ما مُكّن، ويحيِّر اللُّبَّ بقدر ما سُلِّط.

والغضب يصوِّر لصاحبه مثلَ ما يصوِّر السُّكر لأهله.

والغضبان يُشعله الغَضَب، ويَغلى به الغيظ، وتستفرغه الحركة، ويمتلئ بَدنُه رعدة، وتتزايل أخلاطه، وتنحلُّ عُقَده، ولا يعتريه من الخواطر إلّا ما يزيده فى دائه، ولا يسمع من جليسه إلّا ما يكون مادّةً لفساده. وعلى أنّه ربّما استُفرِغ حتّى لا يسمع، واحترق حتّى لا يفهم.

ولولا أنَّ الشيطان يريد ألّا يخلوَ من عمله، ولا يقصِّرَ فى عادته، لما وَسوَس إلى الغَضْبان ولا زَيَّنَ له، ولما أغراه ولا فَتَحَ عليه؛ إذْ كان قد كفاه، وبلغَ أقصى مُناه.

وليس يُصارع الغضبَ أيامَ شبابه وغَـرْبِ نابِه شىء إلّا صَرَعه، ولا يُنازعه قبل انتهائه وإدباره شىء إلّا قَهره. وإنّما يُحتال له قبل هَيْجه،

---

(١) كذا ورد هذا العلم.

(٢) ابن ألغز: رجل من إياد يزعمون أنه كان أعظم الناس عضواً وأشدهم نكاحا. ثمار القلوب ١١١ - ١١٢ وأمثال الميدانى ٢: ٢٧٣ فى قولهم (أنكح من ابن ألغز) واللسان (لغز). وفى الأصل: « واحتلت بين الغر »، صوابه فى ب.

ويتوثّق منه قبل حركته ، ويُتقدَّم فى حَسْم أسبابه وفى قطع علله . فإمّا إذا تمكّن واستفحل ، وأذكى ناره واشتعل ، ثم لاقى ذلك من صاحبه قدرة ، ومن أعوانه سمعًا وطاعة ، فلو سَعَطته بالتوراة ، ووجَرته بالإنجيل ، ولدَدْته بالزَّبور[1] ، وأفرغت على رأسه القرآن إفراغا ، وأتيتَه بآدم عليه السلامُ شفيعًا لما قصَّر دون أقصى قوّته ، ولتمنّى أن يُعارَ أضعاف قدرته .

وقد جاء فى الأثر : أن أقربَ ما يكون العبدُ مِن غضب الله إذا غضب . ١٠٠ ظ

قال قتادة : ليس يُسكن الغضبَ إلّا ذِكر غضب الرحمن عزّ وجلّ .

وقال عمرو بن عبيد : ذكر غضب الربّ يمنع من الغضب . إلّا أن يريد الذكر باللسان[2] .

ويسمّى المتوجِّد غضبان ، والذَّكُور حَمُودا .

فلا تقفْ — حفظك الله — بعد مضيِّك فى عقابى التماسًا للعفو عنّى ، ولا تقصِّر عن إفراطك من طريق الرحمة لى ؛ ولكن قِفْ وقفة من يتّهم الغضبَ على عقله ، والشيطانَ على دينه ، ويعلم أنّ للعقل خصومًا ، وللكرم أعداء .

وإنّ من النَّصف أن تنتصف لعقلك من خَصمه ، وتنتصف لكرمك من عدوّه ، وتُمسك إمساكَ من لا يبرّئ نفسَه من الهوى ، ولا يبرّئ الهوى من الخطأ .

---

(١) سعطه الدواء : أدخله فى أنفه بالمسعط . وأوجره الدواء : أدخله فى فمه بالميجر . ولده باللدود : صبه بالمسعط فى أحد شقى الفم .

(٢) أى إن ذكر غضب الرحمن باللسان لا يصنع شيئاً ، وإنما مراده ذكر الغضب بالقلب والفكر .

ولا تُنكر لنفسِك أن تزلّ ، ولعقلك أن يهفُو ؛ فقد زلّ آدمُ عليه السلامُ وهفَا ، وعصَى ربَّه وغَوى ، وغرّهُ عدوُّه وخدعَه خصمُه ، وعيب باختِلال عزمه وسكون قلبه إلى خلاف ثقته[1] . هذا وقد خلقَه الله بيده ، وأسكنَه فى دار أمنه ، وأسجَدَ له ملائكتَه ، ورفع فوق العالمِين درجته ، وعلَّمه جميع الأسماء بجميع المعانى . ولا يجوز أن يعلِّمه الاسْمَ ويدعَ المعنى ، ويعلِّمه الدلالة ولا يضع له المدلول عليه . والاسم بلا معنًى لغوٌ ، كالظَّرف الخالى . والأسماء[2] فى معنى الأبدان والمعانى فى معنى الأرواح . اللَّفظ للمعنى بدَنٌ ، والمعنى للَّفظ روح . ولو أعطاه الأسماء بلا معانٍ لكان كمن وهبَ شيئاً جامداً لا حركة له ، وشيئاً لاحسَّ فيه ، وشيئاً لا منفعة عنده .

ولا يكون اللفظ اسماً إلاّ وهو مضمَّن بمعنى ، وقد يكون المعنى ولا اسم له ، ولا يكون اسمٌ إلاّ وله معنًى .

فى قوله جلّ ذكره : ﴿ وعَلَّمَ آدمَ الأسماء كلَّها[3] ﴾ إخبارٌ أنّه قد علَّمه المعانىَ كلَّها . ولسنا نعنى معانىَ تراكيبِ الألوان والطُّعوم والأراييح ، وتضاعيف الأعداد التى لا تنتهى ولا تتناهى . وليس لما فضلَ عن مقدار المصلحة ونهاية الرسم اسمٌ إلاّ أن تدخله فى باب العلم فتقول : شىء ، ومعنًى .

الأسماء التى تدور بين الناس إنّما وُضِعتْ علاماتٍ لخصائص الحالات ،

---

(١) فى الأصل : « نعته » ، وأثبت ما فى ب .

(٢) فى الأصل : « والاسم » .

(٣) الآية ٣١ من سورة البقرة .

لا لنتائج التركيبات . وكذلك خاصّ الخاصّ لا اسمَ له إلاّ أن تجعل الإشارة المقرونة باللفظ اسماً .

وإنما تقع الأسماء على العلوم المقصورة ، ولعمرى إنّها لتُحيط بها وتشتمل . فأما العلوم المبسوطة فإنّها تبلغ مبالغ الحاجات ثم تنتهى . ١٠١ و

فإذا زعمتَ أنّ الله تبارك وتعالى علّمَ آدمَ الأسماء كلَّها بمعانيها ، فإنّما تعنى نهاية المصلحة لا غير ذلك . هذا وآدم هو الشجرة وأنت ثمرة ، وهو سماويٌّ وأنت أرضىّ ، وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحقُّ بالقوّة والفرعُ أولى بالضَّعف .

فلست أسالك أن تمسك إلاّ ريثما تَسكُنُ إليك نفسُك ، ويرتدُّ إليك ذهنُك ، وحتَّى توازنَ بين شِفاء الغيظ والانتفاع بثواب العفو ، وترى الحلمَ وما يَجلب من السلامة وطيبِ الأحدوثة ، وترى تضرُّم الغضب[1] وما يفضى لأهله من فضل القوّة .

على أنّ العقل إذا تخلّص من سُكر الغضب أصابه ما يُصيب المخمورَ إذا خرج من سكر شرابه ، والمنهزمَ إذا عاد إلى أهله ، والمُبرسَم إذا أفاقَ من برسامه[2] .

وما أشكُّ أنّ العقلَ حين يُطلَق من إساره كالمقيَّد حين يفكُّ من قيوده ؛ يمشى كالنَّزيف ، ويَحجِل كالغراب . فإذا وجبَ عليك أن تحذر على عقلك مُخامَرة داء الغضب بعد تخلُّصه ، وأن تتعمَّده بالعلاج بعد مباينته له وتخلُّصه

---

(١) فى الأصل : « الغرض » .

(٢) البرسام : ذات الجنب ، وهو التهاب فى الغشاء المحيط بالرئة . المعجم الوسيط .

من يده ، فما ظنُّك به وهو أسيرٌ فى مُلكه ، وصريع تحت كلكله ، وقد غطَّه فى بحره ، وغمَره بفضل قوّته .

وقد زعموا أنّ الحسَنَ حضر أميراً قد أفرطَ فى عقوبة بعض المُذْنبين ، فكلَّمه فلم يَحفِل بكلامه ، وخوّفه فلم يتّعظ بزجره ، فقال : إنك إنما تضرب نفسَك ، فإن شئتَ الآن فأقِلَّ ، وإن شئتَ فأكثِرْ .

ومَعاذ الله أن أقول لك كما قال الحسنُ لذلك الظالم المعتدى ، والمصمِّم القاسى ، ولكنِّى أقول : اعلم أنّك تضرب من قد جعَلك مِن قتلِه فى حِلٍّ . وإن كان القتل يَحلّ بإحلال المقتول ، ويسقط عنه عِقابُه بهبة المظلوم ؛ ولو أمكن فى الدين تواهُبُ قِصاص الآخرة فى الدُّنيا ؛ وإن كان ذلك مما تجود به النفس يومَ الحاجة إلى الثواب وإلى رفع العقاب ، وكان الوفاء مضموناً — لكنتُ أوّلَ من أسمحَتْ بذلك[1] نفسُه ، وانشرحَ به صدرُه .

١٠١ ظ

جُعلت فداك ، إنِّى قد أحصيتُ جميعَ أسباب التعادى ، وحصّلت جميع عِلل التضاغُن ، إلاّ علّة عداوة الشيطانِ للإنسان ؛ فإنّى لا أعرف إلاّ مجازَها فى الجملة ولا أحقّ خاصّتها على التحصيل . وعلى حالٍ[2] فقد عرفتها من طريق الجملة وإنْ جهلتُها من طريق التفصيل . فأما هذا التجنِّى فلم أعرفه فى خاصٍّ ولا عامّ .

فمن أسباب العداوات تنافسُ الجيران والقرابات ، وتحاسُد الأشكال فى الصناعات . ومن أمتن أسبابهم إلى الشرّ وأسرعها إلى المروءة والعقل ،

---

(١) فى الأصل : « ذلك » . أسمحت : أطاعت وانقادت .

(٢) كذا فى الأصل وب . وإخالها من لغة الجاحظ ، وليس ما يدعو إلى أن تجعل « وعلى كل حال » .

وأقدحها فى العِرض وأحطبِها على الدين[١] ، التشاحُّ على المواريث ، والتنازع فى تخوم الأرَضين . فإن اتَّفق أن يكون بين المتشاكلين فى القرابة كان السببُ أقوى ، والداء أدوَى . وعلى حساب ذلك إن جمعتَ هذه الخصومةَ مع الجوار والقرابة واستواء الحظِّ فى الصناعة . ولذلك كتب عمر رضى الله عنه إلى قضاته : أن ردُّوا القرابات عن حَرَا القضاء[٢] فإن ذلك يورث التضاغن .

ولم أعجب من دوام ظلمك ، وثباتك على غضبك ، وغِلَظ قلبك ، ودُورُنا بالعسكر متجاورة ، ومنازلنا بمدينة السَّلام متقابلة ، ونحن ننظر فى علمٍ واحد ، ونرجع فى النحلة إلى مذهب واحد ؛ ولكن اشتدَّ عجبى منك اليومَ وأنا بفَرْغانة وأنت بالأندلس[٣] ، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب نِتاج ، وصِناعتك جودة الخطِّ وصناعتى جَودة المحو[٤] ، وأنت كاتبٌ وأنا أمّىّ ، وأنت خَراجىٌّ وأنا عُشرىّ ، وأنت زرعىٌّ وأنا نخلىّ . فلو كنت إذ كنتَ من بكرٍ كنتُ من تميم ، كان ذلك[٥] إلى العداوة سبباً ، وإلى المنافسة سُلَّما .

أنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية ، وأنت طويلٌ وأنا قصير ، وأنت أصلَعُ وأنا أنزع ، وأنت صاحب براذينَ وأنا صاحب حمير ، وأنت ركينٌ وأنا عَجُول ، وأنت تدبّر لنفسك وتقيم أَوَدَ غيرك ، وتقسّم لجميع الرعيّة ، وتبلغ

---

(١) الحطب : الجمع للجيد والردىء ، والمراد الإفساد .

(٢) الحرا : الساحة والناحية . وفى الأصل : « حر القضاء » ، مع ضبط الحاء بالفتح .

(٣) فرغانة ، بالفتح : مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر ، متاخمة لتركستان .

(٤) كذا فى ب وفى الأصل : « النجوم » .

(٥) فى الأصل « كان لك » .

بتدبيرك أقصى الأمة ، وأنا أعجز عن نفسى وعن تدبير أَمَتى وعبدى . وأنت منعم وأنا شاكر ، وأنت ملك وأنا سُوقة ، وأنت مصطنِع وأنا صنيعة ، وأنت تفعل وأنا أصِف ، وأنت مقدَّم وأنا تابع ، وأنت إذا نازعتَ الرجالَ وناهضتَ الأكْفاء لم تقل بعد فراغك وانقطاع كلامك : لو كنت قلتُ كذا كان أجود ، ولو تركت قول كذا لكان أحسن ؛ وأمضيتَ الأمور على حقائقها ، وسلّمت إليها أقساطها على مقادير حقوقها ؛ فلم تندم بعد قول ، ولم تأسف بعد سكوت . وأنا إن تكلّمت[1] ندمتُ ، [وإن جاريت أبدعت[2]] ورأيِي كلُّه دَبَرَى . وأنت تُعدُّ فى الشطرنج زبرب ، وأنا فى الشّطرنج لا أحد[3] .

١٠٢ و

وما أعرف ها هنا اجتماعاً على مشاكلة إلا فى الإيثار بخُبز الخُشْكار على الحُوَّارَى[4] ، والباقلَّى على الجَوْزينج[5] ، وأنّا جميعاً ندَّعى الهندسة .

---

(١) م : « حلمت » .

(٢) التكملة من م وفيها : « جازيت » ، وفى ب : « وإن حاريت هربت » . أبدع ، بالبناء للمجهول وللمعلوم أيضا : كلت راحلته أو عطبت .

(٣) ب : « لا جد » .

(٤) فى الألفاظ الفارسية ٥٥ : «الخشكر : ماخشن من الطحن ، فارسيته خشكار ، وهو القصرى » . وانظر استينجاس ٤٠٢ والبخلاء ٨٤ . والقصرى ، كبشرى : ما يبقى فى المنخل بعد الانتخال ، أو القشرة العليا من الحبة والحوارى بضم الحاء وتشديد الواو وفتح الراء : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه .

(٥) الباقلى : بتشديد اللام مقصورة ، ومثله الباقلاء بتخفيف اللام مع المد : الحب المعروف بالفول والجِرجِر ، وهو الباقلاء النبطية ، أما الباقلاء المصرية فهى الترمس . اللسان ، وتذكرة داود . والجوزينج : ضرب من الحلوى يصنع من الجوز . ويقال له جوزنيق أيضاً ، فارسيته « گوزينه » . الألفاظ الفارسية ٤٨ .

فقد بلغ الآن من جُرمى فى مساواتك فى خبز الخُشكار، وإيثارِى الباقلّى، والمعرفة بتقديرِ المُدُن وإجراء القُنِىّ، أن أُنقَى من جميع الأرض، وأن تجعل فى دمى الجعائل[1]؛ فإنّى قد هجرت الخُبزَ البتّةَ إلى مواصلة التّمر، ونزلت الوبرَ بدلاً من المدر.

دعْنا الآن فإنك فارغ. إن الله يعلم ــ وكفى به عليماً، وكفى به شهيداً، وكفى به حفيظاً ووكيلاً، وكفى بجرأة من يعلمه مالا يعلم جُرأةً وتعرُّضاً، وكفى بحاله عند الله بُعداً ومقتاً ــ لقد أردتُ أن أفديك بنفسى فى بعض كتبى، وكنت عند نفسى فى عِداد الموتى وفى حيِّز الهلكى، فرأيت أنّ من الخيانة لك ومن اللؤم فى معاملتك، أن أفديك بنفسى ميتة، وأن أُرِيَك أنّى قد جُدتُ لك بأنفس عِلْق والعِلق معدوم. ليس أنّ من قد فدّاك فقد جُعل فِداك، ولكنّها نهايةٌ من نهايات التعظيم، ودليل من دلائل الاجتهاد. ومن أعلنَ الاجتهاد لك واستسرَّ خلافَ ذلك فقد نافق وخان، وغشّ وألَامَ[2]. وأخلِقْ بمن أخلَّ بهذه ألاّ يرعَى حقًّا، ولا يرجع إلى صحّة ولا إلى حقيقة.

ثم أنت لا يَشفيك منّى السمُّ المجْهِز، ولا السمُّ السارى؛ فإنه أبعد غايةً فى التطويل وأبلغ فى التعذيب. لا ولا لُعاب الأفاعى وداهيةُ الدّواهى، فإنّه يُعجز الرُّقَى ويفُوت ذَرع الأطبّاء. لا ولا نارُ الدُّنيا، بل لا يشفيك من نار الآخرة إلاّ الجحيم، ولا يَشفيك من الجحيم ألا أن أُرى فى سَوائه[3] وفى

(١) الجعائل: جمع جعالة، وهى بتثليث الجيم ما يجعل فى مقابل العمل.

(٢) ألام: أتى بما يلام عليه.

(٣) سواء الشىء وسطه.

أُصطمّة ناره[١] ، وفى معظم حريقه ، وفى موضع الصّميم من لهيبه . بل لا تكتفى بذلك دون الدَّرَك الأسفل ، بل لا يُرضيك شىء سوى الهاوية ، بل لا ترضَى إلاّ بعذاب آل فرعون ، أشدّ العذاب ، بل لا يرضيك إلاّ عذاب ١٠٢ ظ إبليس الذى زيّن الختْر للعباد ، وبثّه فى البلاد ، والذى خطّأ الربّ وعانده وردّ قولَه ، وغيّر عليه تدبيره ، ولم يزده إلاّ شكّاً ولجاجة ، وتمادياً[٢] وإصراراً . ثم لم يرضَ من الجدّ فى مخالفة أمره ، وخلْع العذار فى شدّة الخلاف عليه إلاّ بأن يحلفَ على شدّة اجتهاده فى ذلك بعزّته ، فجعلَ العزّةَ المانعة من إسخاطه سبيلاً إلى إسخاطه ، والقسَمَ الحاجز دون إغضابه وسيلةً إلى إغضابه ، حيث قال : ﴿ فبعزّتكَ لأُغوينّهم أجمعين[٣] ﴾ .

فعليك عافاك الله بإبليس إن كنتَ لله تغضب ، أو عليك بالأكفاء إنْ كنت لنفسك تتشفّى .

لا ولكنّك استغمرتنى واستضعفتنى ، وجعلتنى فَرُّوجَ الرقّاء[٤] ، وتريد أن تتعلّمَ فىَّ معاقبةَ الأعداء . فإن كنت إلى هذا تذهب فجعفر بن معروف أضعفُ منى ، وعبد الله بن عيسى أسوأ خبراً منّى .

سبحان الله ، يَسلَم عليك حَيدر الأفشين[٥] ، ويهلك عليك عمرٌو الجاحظ ،

---

(١) الأصطمة والأسطمة : الوسط والمجتمع .

(٢) فى الأصل : « تباينا » ، صوابه فى ب .

(٣) الآية ٨٠ من سورة ص .

(٤) الفروج ، لعل المراد به الدجاجة ، وهى كبة الغزل .

(٥) يذكر ابن خلكان ٢ : ٦٥ أنه بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها . قال : «وإنما قيدته لأنه يصحف على كثير من الناس بحيدر بالحاء المهملة» واسم أبيه كاوس ، كما فى الأغانى ٧ : ١٤٧ ، ١٢ : ٦٤ .

ويسعد[١] بك أبعدُ البعداء ويشقى بك أقرب القرباء . وتتغافل عن مثل الجبال التماساً للتسلُّم وحبًّا للسلامة ، وتَتَغَلْغَلُ إلى المحقَّرات طلباً للتعرُّض وحبًّا للشرّ .

ومتى قدرتَ على عدوّك فلم تجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ، ومتى لم تتغافل عنه تكرُّما أو تدعْه احتقاراً ، ومتى اكترثت لكبير وضاقَ صدرُك عن شىء عظيم فهأنذا بين يديك ، فكُلْنى بخلّ وخردل ؛ فوالله إنّك لتأكله غثًّا غير مرىء ، وخبيثاً غير شهىّ .

لا والله ، لكأنّك وقعتَ على مطمورة ، وظفرت برأس خاقان . كنت أظنّ أنّ الرشاقة والحلم لا يجتمعان ، وأنّ ظَرْف الإنسان وأصالة الرأى لا يفترقان[٢] ، وأنّ النَّزَق والخفّة مقرونان بخفّة البدن ، وأنّ الرّكانة والأناة مجموعان لصاحب السِّمَن ، حتى رأيتُك فاعتقدت بك خلاف ذلك الرأى ، واستبدلت فيك ضدّ ذلك الظّنّ . فتركتنى حتى إذا نازعتُ الرجال ، وتعرّضت للشَّجَى ، وشغلتُ نفسى بثلب الخِصام[٣] ، وانقطعتُ إلى أصحاب القُدود ، وجعلت عُدَوائِى[٤] فى تقديم القِضاف[٥] ، وطال لِسانى ، وأظهرت الاستبصار فى فضلك ، وجعلت مِزاج أخلاطك هو الحجة ، واعتدالَك هو النهاية ، وطبيعتَك ١٠٣ و

(١) فى الأصل : « ويسود » .

(٢) فى الأصل : « وإطالة الرأى لايعترفان » .

(٣) لعل صوابها : « القصار » .

(٤) العدواء : الشغل . وفى الأصل : « عداوتى » .

(٥) جمع قضيف ، وهو المشوق الجسم .

هى المُسْكَة[١] ؛ وزعمتَ أنّ منظرك يغنى عن مخبرك ، وأنّ أوّلك يُجَلّى عن آخرك ـ شددتَ علىّ شَدّةَ المُهر الأرِن ، وتسرّعتَ إلى تسرُّع الغِرّ النَّزِق ، وألححت [علىّ[٢]] إلحاحَ اللَّجوج الحنِق . كأنك لم تحفل بما يشيع لك من اسم المتسرّع ، وبما تضاف إليه من سُخف المتَترِّع[٣] ، بعد أن تكذّب قولى وتفنِّد خبرى[٤] .

وقد تقدمتِ التجربةُ أن الحديد لا يكون حقوداً[٥] ، وأن المصطنع لا يكون للصنيعة حاسداً ، فقصدتَ على رأسٍ[٦] إلى القياس المتحَن فأفسدته ، وإلى الطبائع المعتدلة فنقضْتَها ، وإلى القضايا الصحيحة فرددتَها .

وقالوا بأجمعهم : حالان لا تقبلان الحسد ، ولا يخلوان من الرَّشَد : حال الصَّنيعةِ لمصطنِعِه[٧] ، وحال المولى لمُعتقه . فكيف إذا كان الصَّنيعة صديقاً ، وكان للخاصّة محتملا .

وإنما صارت — أبقاك الله — أجزاء النفس وأعضاء الجسد مع كثرة عددها ، واختلاف أخلاطها ، وتباعُد أماكنها ، نفسًا واحدة وجسدًا واحدا ،

---

(١) المسكة ، بالضم : القوة ، والعقل . وفى الأصل : « المسكتة » .

(٢) التكملة من ب .

(٣) المتترع : الشرير المسارع إلى مالا ينبغى له . وفى الأصل : « المتبرع » .

(٤) التفنيد : التكذيب . وفى الأصل : « وتفسد » .

(٥) الحديد : ذو الحدة ، وهى الغضب والنشاط والسرعة فى الأمور ولكن الحجاج بن يوسف كان يقول : « أنا حديد حقود » . الحيوان ٣ : ٤٧٠ / ٥ : ٥٩٢ والبيان ٣ : ٢٥٥ .

(٦) فى الأصل « على رأسى » .

(٧) يقال فلان صنيعة فلان ، إذا اصطنعه وأدبه وخرجه ورباه .

لاستواء الخواطر ، ولاتفاقها على الإرادة . فأنت وصديقُك الموافق ، وخليلك ذو الشكل المطابق ، مستويان فى المَحابّ ، متفقان فى الهوى ، متشاكلان فى الشَّهوة ؛ وتعاونكما كتعاون جوارح أحدكما ، وتسالمكما كتسالم المتَّفق من طبائعكما . فإذا بانَ منك صديقُك فقد بانَ منك شَطرُك ، وإذا اعتلّ خليلك فقد اعتَلَّ نصفك ، بل النفوس المضمّنة كالمعانى المضمَّنة ، فذهاب بعضها هو ذهابُ جميعها . فموتى هو موتُ صديقى ، وحياتى هى حياة صديقى . فلا تبعدنَّه من قلبك بُعدَ بدنه من بدنك ؛ فقد يقرُب البغيض وينأى الحبيب . ولعلَّ بعضَ طبائعك المخالط لروحك ، أن يكون أعدى من كلّ عدو ، وأقطعَ من كلِّ سيف ، وأخوفَ عليك من الأسَد الضارى ، ومن السمّ السارى .

ثم اعلم أنَّ الموثَّق بمودَّته قليل ، وقد صار اليومَ المعتمدُ عليه فى صحَّة العُقدة ، وفى كرم الغَيب والعِشرة ، عنقاء مُغْرِبٍ[1] . ولا أعلم الكبريت الأحمرَ إلاّ أوجَدَ منه . وإنى لأظنُّ القناعةَ أكثرَ منه . وما أكثرَمَن جعل انقطاع سببه وضعف طمعه لانقِطاع سببه قناعةً .

١٠٣ ظ

وقيل ليحيى بن خالد : أى شىء أقل ؟ قال : قناعة ذى الهمّة البعيدة بالعيش الدُّون ، وصديقٌ قليل الآفات كثير الإمتاع ، شكور النفس ، يصيب مواضع المَدْح[2] .

---

(١) عنقاء مغرب ، بالوصف ، وبالإضافة أيضاً ، مثلٌ للندرة أو لما لا يكون ، قال فى القاموس : « طائر معروف الاسم لا الجسم ، أو طائر عظيم يبعد فى طيرانه ، أو من الألفاظ الدالة على غير معنى » .

(٢) جعلت فى ط « المَرح » .

لا والله إنْ تعرفُ[1] على ظهرها موضعًا للسرّ ، ولا مكانًا للشكوى ، ولا روحًا تأنس بها ، ولا نفسًا تسكن إليها . ولو أردتَ أن تعرّفنى من جميع العالَمين رجلًا لمَا قدرت على أحدٍ يحتمل الغنى . ومحتمل الفقر قليل ، ومحتمل الغنى عديم .

إنّ الخير — أبقاك الله — فى أيام كثرته كان قليلًا فما ظنُّك به فى أيام قلّته ، وإن الشرّ فى أيام قلّته كان كثيراً فما ظنُّك به فى أيّام كثرته ، وأنت غريبٌ فى المصطَنِعين . وأنا غريبٌ فى الصنائع ، والغريب للغريب نسيب ، ونسب المشاكلة وقرابة الطبيعة الموافِقة ، أقربُ من نَسَب الرحِم ؛ لأنّ الأرحامَ مُولعةٌ بالتحاسد ، لهِجة بالتقاطع ، وأن التحابّ على طبع المشاكلة . والتلاقى على وفاقٍ من الطبيعة ، أبعد من التفاسد ، وأبعد من التعادى . وسببُ التعادى عَرَض فى طبائع الغرباء ، وجوهرٌ فى طبائع الأقرباء .

واعلمْ أنّك لا تزال فى وحشة إلى وحشة ، وفى غربة إلى غُربة ، وفى تنكُّر العيش وتسخُّط الحال ، حتى تجدمن تشكو إليه بثَّك ، وتفِضىَ إليه بذاتِ نفسك . ومتى رأيت عجبًا لم تضحكك رؤيتك له بقدر ما يضحكك إخبارُك إياه . فمَنْ أغلبُ عليك ممّن كانت هذه حالَه منك ، وموقعه من نفسك .

ولو أنَّ شيبتى التى بها استعطفتك ، وكَبرة سنّى التى بها استرحمتك ، اللتان لم يحدُثا علىَّ إلاَّ وأنا فى ذَراك ، ولم يحُلَّا بى إلاَّ وأنا فى ظلِّك ، لكان فى شفاعة الكَبرة ، واسترحام الضَّعف والوَهْنة ، ما يَردعُك عنّى أشدَّ الردع ،

---

(١) جعلت فى ط : « لن تعرف » .

ويؤثر فى طباعك أبينَ الأثر . فكيف وقد أكرمتنى جديداً ، ثم تريد أن تُهينني خَلَقًا ، وقوّيت عظمى أغلظَ ما كان ، ثم تريد أن توهنه أرقَّ ما كان . وهل هرِمتُ إلّا فى طاعتك ، وهل أخلقنى إلّا معاناة خدمتك ! .

٥٤ قال على بن أبى طالب : رأى الشّيخ الضّعيف أحبُّ إلينا من جَلَد الشابّ القوىّ[1] .

وأنا أقول كما قال أخو ثقيف[2] : مودّة الأخ التالد وإن أخلقَ خيرٌ من من مودَّة الطارف وإن ظَهرتْ بشاشته ، وراعتْك جدّته .

وقال عبد الملك بن مروان : رأى الشَّيخ أحبُّ إلينا من مَشهد الغلام .

وقال بعضهم : ليس بغائب من شَهِد رأيُه[3] ، وليس بفانٍ مَن بقيَ أثره .

وما كمّل العقل ولا[4] وفّر التجربة شيء كنقصان البدن ، وكأخْذ الأيّام من قوى الأعضاء .

وقال آخر : ما قبّح الرجال شيء كالوكال ، ولا أفسد الكريمَ شيء كحبّ الاستطراف . وخيرُ الناس مَن أتْبعَ الغضبَ مواقعَ الذنوب ، وأتْبعَ العقابَ مواقعَ الغَضَب ، ولم يُتبع الغضبَ مواقع الهوى .

---

(١) البيان ٢ : ١٤ و فى أمثال الميدانى ١ : ٢٦٧ : « رأى الشيخ خير من مشهد الغلام » . وأشار الميدانى إلى أن علياً قالها فى بعض حروبه .

(٢) يعنى الحجاج بن يوسف .

(٣) شهد : كان شاهداً ، أى حاضراً . وقوم شهود أى حضور .

(٤) فى الأصل : « إلا » .

ولقد منحتُك جَلَد شبابى كَمَلا ، وغَرْبَ نشاطى مقْتَبَلا ، وكان لك مَهناه[١] ، وثمرة قواه[٢] ، واحتملت دونك عُرامَه وغَرْبَه[٣] ، وكان لك غنمه وعلىَّ غُرمه ، وأعطيتك عند إدبار بدنى قوّةَ رأيى ، وعند تكامل معرفتى نتيجةَ تجربتى ، واحتملتُ دونك وَهْن الكِبَر وإسقامَ الهرم .

وخير شركائك مَن أعطاك ما صفا ، وأخَذ لنفسه ما كدُر . وأفضل خلطائك من كفاك مؤونتَه ، وأحضركَ معونتَه ، وكان كلاله عليه ، ونشاطه لك . وأكرم دخلائك وأشكر مؤمّليك مَن لا يظنّ أنك تسمّى جزيل ما تحتمل فى بَذْلك ومواساتك مؤونة ، ولا تَتابُعَ إحسانِك إليه نعمة ، بل يرى أنَّ نعمة الشاكر فوقَ نعمة الواهب ، ونعمة الوادّ المخاص فوق نعمة الجواد المُغْنى ؛ وأنّه لا يبلغ فى إعطاء المجهود من نفسه فى خلع جميع ماله إلى مؤمّليه والمتحرّمين به ، حُسنَ نيّة الشاكر الوامق ، وحقَّ تمنّى الوادّ العارف .

ولو اقتضيتَ جميع حقوقك علىّ ، وأنكرتَ جميع حقوقى عليك ، أو جعلتَ حقّى عليك حقًّا لك ، ثمّ زعمت أنّ حقّك لا يؤدّى إلى شكره ، وأنّ حقّى لا يلزم حكمه ، وأنّ إحسانى إساءة ، وأنّ الصغير من ذنوبى كبير ، وأنّ اللَّمَم مِنّى إصرار ، وأنّ خطائى عمد ، وأنّ عمدى كلّه كفر ، وأنّ ١٠٤ ظ

---

(١) أى مهنأه . ولعلها : « مجناه » .

(٢) فى الأصل : « قوله » صوابه فى م .

(٣) فى الأصل وم : « غرامه » والوجه ما أثبت . وفى الأصل : « وعدمه » صوابه فى م . والعرام : بضم العين : الشدة والغرب : الحدة .

كفرى يوجب القمع[1] ويمنع من النُّزوع لِمَا كان عندك . وما اتسع قولى لأكثر من هذا العقاب ، ولا أشدّ من هذا الغضَب . وما ينبغى أن يكون هذا المقدار من النِّقم إلّا لبارى النَّسَم فى دار البقاء ، لا فى دار الفَناء . [و] الذى يجوز بين العباد إنّما هو تعزير أو حدٌّ ، أو قَوَد أو قصاص ، أو حبسٌ أو تغريب ، أو إغرام[2] أو إسقاط عدالة ، أو إلزامُ اسم العداوة ، أو عقاب يجمع الألم والتَّقويم والتنكيل ، فيكون مَضَضُ الألم جزاءً له[3] ومعدِّلاً أسبابه .

وربّما قصر الإيقاع على السُّخط وجاوزَ حدَّ الغضب . وربّما كان مقصوراً على مقدارها ، ومحبوساً على نهاية حالها .

وليس كلُّ عقابٍ نتيجةَ سخط ، وقد لا يسمّى ذلك المُوقِـع والمعاقِب واجداً كما يسمّى ساخطاً ، ولا يسمّى عاتباً كما يسمّى غضبان ، فيخرج كما ترى من أن يسمّى سُخطاً أو مَوجِدةً وَغضباً ، كما خرجَ عقابُ آدم عليه السلام من هاتين الصِّفتين ، ومن جميع القسمين . وعلى أنه كان إخراجاً من دار الخلد والكرامة إلى دار الابتلاء والمحنة ؛ ومع ما فى ذلك من إعراء الجلد ، والتَّسمية بالظلم ، مع الوصف له بضَعف العَزْم ، والاغترار بيمين الخصم .

والعجبُ أنك تضجر من طول مسألتنا لعفوك مع حاجتنا إلى عاجِل عفوكَ ، ولا تضجرُ بطول تشاغلك بظلْم صديقك مع استغنائك عن ظلم صديقك . فلو كنت إنّما تفعل ذلك لأنّك تلذُّ ضَربَ السِّياط ورضَّ العظام ،

---

(١) فى الأصل : « الطمع » .

(٢) الإغرام : التغريم . وهو العقوبة المالية .

(٣) فى الأصل : « أجرا له » .

فَجنْب « دندن » أحمل ، والسَّوط فى ظهر قاسِم أحسن ، وأبدانهما تحت السِّياط أثبت ، وإنّ أرواحهما أبقى ، وهى بأرواح الكلاب أشْبَه ، وإلى طبائع الضِّباب أقرب ، وأرحامهم بالحمير أمَسّ ، ومَن يُشير فيهم بذلك أكثر ، والأجر فى ضَرْبهم أعظم . فاستدِمِ اللذّة بطريق اللّذة ، وضع الأمورَ فى مواضعها يطُلْ سرورُك بها .

إنّ عتاقَ الخيل وأحرار الطَّير أدقُّ حِسًّا ، وأشدُّ اكتراثاً .

١٠٥ و والكوادن الغلاظ والمحامر الثِّقال[1] ، أكلُّ حِسًّا وأقلُّ اكتراثاً . وليس الصَّبر بالصَّمت والسكوت ، ولا بقلّة الصِّياح والضُّموز[2] . وقد يصيح تحت السَّوط مَن لا يقرُّ على صاحبه ، ولا يدلُّ على عورة نفسه . والكلب المضروب يجمع الصِّياح والهرب ، والفرس العتيق يعدو ولا يصيح ، والحافر كلّه كظومٌ ضامز[3] ، والمخلب كلُّه ضَجورٌ صيَّاح ، والضَّجر فى الخُفّ عامٌّ ، والبَخاتىُّ أضجر . فسِمن الظّلف عامّ ، وهو فى الضّأن أخفى ، وكلّ مضروب هارب صيّاح ، ومنها ما يجمع الخصال كالكلب والبعير . والهربُ من المكروه محمود ، والمقام عليه مذموم ؛ كالذى يعترى العير السقيم[4] وتجده فى الفرس الكريم ، من قلة الاكتراث وشدته .

---

(١) المحامر : جمع محمر ، يقال فرس محمر ، أى لئيم يشبه الحمار فى جريه من بطئه . ويقال للفرس الهجين محمر أيضاً ، فارسيته « بالانى » . والجمع المحامر والمحامير .

(٢) الضموز ، بالزاى : السكوت . وفى الأصل : « الضمور » ، تصحيف .

(٣) فى الأصل : « ضامن » . وانظر الحاشية السابقة .

(٤) فى الأصل : « عين السقم » وانظر ٢٧٨ س ٢ .

وصبرُ البدن غير صبر النفس . وليس بقاء الأرواح المنعقدة تحت الضرب الشديد من اعتزام النفس ، ولا يدلّ على الكرم .

وفى المثل : « ما رُوح فلانٍ إلّا رُوح كلب » . وتقول العرب : « الضَّبُّ أطول شيءٍ ذَماء[(١)] » . والكلب لئيم ، والضبُّ غير كريم .

والبازى أكرم من الصَّقر وأشدُّ وأكثر ثمنا ، وأجمل جمالًا ، وأعفى صيدًا[(٢)] ، وأنبل نبلا ؛ إن قبضَ عليه قتله ، وإن لم يُنَحَّ كُندُرته عن قربه أوهن نفسه[(٣)] . ثم بلغ من رقة طبعِ[(٤)] البازى وعِتقه أنه ينقطع بَرَدُّ البازيار له[(٥)] إلى مَسقطه من يده . والصَّقر يتعلّق بسِباقيه[(٦)] من رجل حمل بدرع[(٧)] فيضطرب منكّساً إلى الصُّبح ، ثم تجده وكأنه لم يزل على كُندرته وعلى مسقطه الذى يؤتَى له .

---

(١) الذماء ، كسحاب : بقية الروح فى المذبوح . وانظر الحيوان ٢ : ١٧٥ و ٣ : ٥٠٨ و ٥ : ٢٥١ و ٦ : ٥٤ ، ٦٤ ، ١٣٧ و ٧ : ٢٥٤ .

(٢) من قولهم : عفا الشىء يعفو ، إذا كثر .

(٣) الكندرة ، بضم الكاف والدال كما فى اللسان ، وبفتحهما كما فى القاموس ، هى مجثم البازى الذى يهيأ له من خشب أو مدر . قال فى اللسان : « وهو دخيل ليس بعربى » . وأوهق نفسه : جعلها فى الوهق ، وهو حبل مغار يرمى ، فيه أنشوطة ، فتؤخذ به الدابة والإنسان . وفى الأصل : « أرهق » .

(٤) فى الأصل : « طمع » .

(٥) فى الأصل : « برده البازيارله » ، والبازيار ويقال له « البازدار » أيضاً لفظان فارسيان ، معناها واحد ، وهو القائم بأمر البازى ويعرب فيقال له « البيزار » . انظر الحيوان ٤ : ٤٣٠ و ٦ : ٤٧٨ .

(٦) السباقان : قيدان فى رجل الجارح من الطير ، من سير أو غيره . وفى ط : « بساقيه » ، خلافا لما فى الأصل .

(٧) كذا فى الأصل .

فليس بدنى من أبدان الاحتمال فأمتعك بطول ثباته لك ، ولا أثبت لك ثبات العَير الـكليل الحِسّ ، ولا أجعل الصِّياح دليلا على الإقرار ،فيكون ذلك أحَدَ ما تتمتّع به ، وتدركُ به حاجاتِ نفسك .

وقد دللتك على ناسٍ يجمعون لك الخصال التى فيها دوامُ لذّتك ، وتمامُ شهوتك ؛ فإنْ زعمتَ أنَّ الذى يثبت روح دندن فى بدنه ، وروح القاسم فى جسمه ، سرورُهما بما قد احتَجنَا من كنوز الخلافة وأموال الرعيّة ، وليس ذلك من رسوخ أرواحهما فى أبدانهما ، ومن شدة الاحتجان وقوة الاكتناز ، ١٠٥ ظ ففرِّقْ بينهما وبين تلك الأموال التى تمسك أرواحَهما بالحيل اللّطيفة ، والتدبير النافذ ، وبأن تمضىَ فيهما حكمَ الـكتاب والسُّنّة ؛ فإنّه سيحلُّ عُقدة أرواحهما عَقْداً عقداً ، فيعظمُ أجرك ، ويطيب ذكرك ، وتطيع الخليفة ، وتتحبّب به إلى الأمة ؛ فتكون قد أحسنت فى صرف الضّرب إلى أهله ، وأرحت منه غيرأهله .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

* * *

تمت الرسالة بعون الله ومنّه وتوفيقه ، والله الموفّق للصواب برحمته ، والحمد لله أولا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله الطيبين الطاهرين وسلامُه .

٦

رسالة

إلى أبي الوليد محمّد بن أحمد بن أبي دُواد

في

نفي التّشبيه

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هي الرسالة السادسة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد ، في نفي التشبيه »

وأبو الوليد هذا هو قاضي بغداد في خلافة المتوكل ، ولاه القضاء بعد أن فلج أبوه أحمد بن أبي دواد ، ثم عزله المتوكل ومات في حياة أبيه أحمد في ذي الحجة سنة ٢٣٩ . وترجم له الخطيب في تاريخ بغداد ١ : ٢٩٧ — ٣٠١ .

وليس لهذه الرسالة إلا نسخة مكتبة داماد ، وعليها اعتمادنا في إخراج هذه الرسالة .

وقد كتبها الجاحظ في أيام الخليفة المعتصم ، كما نص على ذلك في أواخرها .

بسم الله الرحمن الرحيم

أطال الله بقاءك وحفِظك ، وأتمّ نعمتَه عليك ، وكرامتَه لك .

قد عرَفتَ ـ أكرمك الله ـ ما كان النّاسُ فيه من القَول بالتّشبيه والتّعاون عليه والمعاداة فيه ، وما كان فى ذلك من الإثم الكبير والفِرْية الفاحشة ، وما كان لأهله من الجماعات الكثيرة والقُوّة الظاهرة ، والسُّلطان المكين ، مع تقليد العوامّ وميل السِّفلة والطّغام .

وليست للخاصّة قوّة بالعامّة ، ولا للعِلية قوّة على الأراذل ؛ فقد قالت الأوائل فيهم ، وفى الاستعاذة بالله منهم :

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : نعوذ بالله من قومٍ إذا اجتمعوا لم يُملَكوا ، وإذا تفرّقوا لم يُعرَفوا .

وقال واصِل بن عطاء : «ما اجتمعوا إلّا ضَرُّوا ، ولا تفرّقوا إلّا نفعوا» فقيل له : قد عرفنا مضرّة الاجتماع ، فما منفعة الافتراق ؟ قال : يرجع الطّيّان إلى تطيينه ، والحائك إلى حياكته ، والمَلّاح إلى مِلاحته ، والصّائغ إلى صياغته ، وكلُّ إنسانٍ إلى صناعته . وكلُّ ذلك مَرفِقٌ للمسلمين ، ومَعُونة للمحتاجين .

وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إذا نظرَ إلى الطّغام والحَشْو قال : « قبّح اللهُ هذه الوجوهَ ، لا تُعرَف إلّا عند الشرّ » .

وقال الخُرَيمىّ[١] عند ذكره إيّاهم ، فى شعره ، بالتّعاوِى مع المخلوع[٢] :

من البَوَارى تِراسُها ومن الـ خُوص إذا استلأَمَتْ مَغَافِرُها[٣]

لا الرِّزقَ تبغى ولا العطاء ولا يحشُرها بالفِنَــاء حاشرُها[٤]

وقال شَبيب بن شيبة : قاربُوا هذه السّفلة وباعدوها ، وكونوا معها وفارقوها ، واعلموا أنّ الغلبة لمن كانت معه ، وأنّ المقهور من صارت عليه .

وقد وصفهم بعض العلماء فقال : يجتمعون من حيث يفترقون ، ويفترقون من حيث يجتمعون ، لا يُفَلُّ غربهم إذا صالوا ، ولا تَنجع فيهم الحيلة إذا هاجوا .

والعوامُّ ـ أبقاكَ الله ـ إذا كانت نَشَرًا[٥] فأمْرُها أيسر ، ومُدّة هَيجها أقصر . فإذا كان لها رئيسٌ حاذق ومُطاع مدبِّر ، وإمام مقلَّد ، فعند ذلك

---

(١) هو إسحاق بن حسان بن قوهى . قال الخطيب : « وأصله من خراسان من بلاد السغد ، وكان متصلا بخريم بن ناعم المرى وآله ، فنسب إليه . وقيل : كان اتصاله بعثمان بن خريم . وأبوه خريم الموصوف بالناعم » . تاريخ بغداد ٣٣٦٩ .

(٢) تعاووا معه : اجتمعوا . والمخلوع هو الخليفة الأمين أخو المأمون . وقصيدة خريم رواها الطبرى فى تاريخه ١٠ : ١٧٦ — ١٨١ فى حوادث سنة ١٩٧ وبعض أبياتها فى الحيوان ١ : ٢٢٥ .

(٣) البوارى : الحصير المنسوج ، واحده بورى وبورية ، وبارى وبارية . والتراس : جمع ترس . استلأمت : لبست اللأمة ، وهى الدرع . والمغافر : جمع مغفر ، وهو زرد يلبس تحت القلنسوة . والبيت وتاليه وبينهما ثالث فى الطبرى ١٠ : ١٧٨ .

(٤) فى الطبرى : « ولا يحشرها للقاء حاشرها » .

(٥) النشر بالتحريك : القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس

ينقطع الطّمع ، ويموت الحق ويُقتل المُحِقّ . فلولا أنّ لهم متكلّمين ، وقُصّاصًا متفقّهين ، وقومًا قد باينوهم فى المعرفة بعض المباينة ، لم يلحقوا بالخاصّة ، ولا بأهل المعرفة التّامّة . ولكنا كما نخافهم نرجوهم ، وكما نُشفق منهم نطمع فيهم . ١٠٧ و

ثم قد علمت ما كنا فيه من إسقاط شهادات الموحّدين وإخافة علماء المتكلّمين . ولولا الكلامُ لم يَقُم لله دِين ، ولم نَبِنْ من الملحدين ، ولم يكن بين الباطل والحقّ فرق ، ولا بين النبى والمتنبّى فَصل ، ولا بانت الحُجّة من الحيلة ، والدليل من الشُّبهة .

ثم لصناعة الكلام مع ذلك فضيلةٌ على كلّ صناعة ، ومزيّةٌ على كل أدب . ولذلك جعلوا الكلام عيارًا على كلّ نظر ، وزمامًا على كلّ قياس . وإنّما جعلوا له الأمور وخصّوه[١] بالفضيلة لحاجة كلّ عالم إليه ، و[عدم[٢]] استغنائه عنه .

فلم يزل — أكرمك الله — كذلك حتّى وضع الله من عزّهم ، ونقصَ من قوّتهم . وليس لأمر الله مَردٌّ ، ولا لقضائه مدفع . وحتّى تحوّل إلينا رجالٌ من قادتهم ومن أعلامهم ، والمُطاعِينَ فيهم ، وارتاب قومٌ ونافَقَ آخرون . وحتّى تحوّلت المحنةُ عليهم ، والتّقيّة فيهم . وذلك كلّه على يد شيخك وشيخنا بعدك — أعزّه الله — بما بذل من جُهده ، وعرّض من نفسه ، وتفرّد بمكروهه ، وغرغرَ مُرارَه ، صابراً على جسيمه ؛ يرى الكثير فى ذلك قليلا ، والإغراقَ

(١) فى الأصل : « وخصوا » .

(٢) تكملة يفتقر إليها الكلام .

تقصيرا ، وبذلَ النَّفس يسيرا . على حين خار[1] كُلُّ بطل ، وحادَ كل مُقْدِم ، وعَرَّد كُلُّ رئيس ، وأضافَ كُلُّ مستبصِر[2] ، وطاح كُلُّ نقّاج ، واستخفى كل مُراءٍ . وحتَّى صاروا هم الذين يُشيرون عليه بالملاينة ، ويحسِّنون عنده المقاربة ، ويخوِّفونه العاقبة ، ويزعمون أنَّ لكلِّ زمانٍ تدبيراً ومصلحة ، وأنَّ إبعادهم أنفر[3] لطبائعهم ، وإن إطلاقهم أنجع فيما يُراد منهم . وحتَّى سمَّوا المداهَنة مداراة ، وإعطاء الرِّضا تقيَّة ، والشِّدَّة عند الفُرصة خُرقا ، والانحياز مع صواب الإقدام رفقا ، وموالاة المخالف مخالفة ، والمصافاة معاشرة ، والمهانة حلما ، والضَّعف فى الدِّين احتمالا . كما سمَّى قومٌ الفِرار انحيازا ، والبُخْل اقتصادا ، والجائر مستقصيا ، والبلاء عارضا ، والخَطَل بلاغة . فكذلك كانوا وكان . ١٠٧ظ وعلى هذا افترق أمرهم ؛ وذلك مشهور عنهم .

ثم يصُول أحدُهم على مَنْ شتمه ، ويسالم من شتم ربَّه ، ويَغضَب على من شبَّه أباه بعبده ، ولا يَغضب على من شبَّه الله بخلقه ، ويزعم أنَّ [فى[4]] أحاديثِ المشبِّهة تأويلاً ومَجازاً ومخارج[5] ، وأنَّها حقٌّ وصِدق . فإذا قيس . . . . . .[6] طلب لهذا المجاز ظلم ، وقال ما يليق بلفظ الحديث ،

---

(١) خار : ضعف . وفى الأصل : « خان » .

(٢) أضاف : أشفق وحذر . وفى الأصل : « أصاب » .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) ليست فى الأصل .

(٥) فى الأصل : « ومخارجا » .

(٦) بياض فى الأصل بمقدار كلمتين .

فيكون بشهادته[١] لصحة أحاديثهم مُقِرًا ، فيصير فيما يدَّعى من خلاف تأويلهم مدَّعياً . ولو كانت هذه الأحاديثُ كلُّها حقًّا كان قولُ النبى صلى الله عليه وسلم : « سيفشو الكذبُ بعدى ، فما جاءكم من الحديث فاعِرضوه على كتاب الله » باطلاً .

وهذا المذهب لمَنْ ينتحل طريقتنا ، ويسلك بزعمه سبيلَنا ، جَورٌ شديد ، ومذاهبُ قبيحة ، وتقرب[٢] فاحش .

وليس ينبغى لديَّانٍ أن يوادَّ من حادَّ اللهَ ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانَهم أو عشيرتَهم .

فمتى إذن تزولُ التَّقية ، ويجبُ إظهار الحقّ والنُّصرة للدِّين ، والمباينة للمُخالفين ؟ ! أحين يموت الخَصم ويبيدُ أثره ويهلِك عَقِبه ويقلُّ ناصره ، ويزول جميع الخوف ويكون على يقين من السَّلامة . وكيف يكون القائم حينئذ بالحقّ مطيعاً ، ولله معظماً ؟ !

فقد سقطت المحِنة وزالت البلوى والمشقَّة . وهل المعصيةُ إلَّا ما مازجه الهوى والشهوة ، وهل الطّاعة إلَّا ما شابَهُ المكروه والكُلفة[٣] ، وكيف يُتكلَّف مالا مؤونة فيه ، وكيف يُحمَد مالا مَرزِئة عليه . وكيف يكون شجاعاً مَن أقدمَ فى الأمن ، وتكمَّن فى الخوف . أوَ ليست النّارُ محفوفةً بالشهوات ، أوَ ليست الجنّةُ محفوفةً بالمكاره . وكيف صاروا فى باطلهم أيّامَ قُدرتهم أقوى منا فى حقّنا أيام قُدرتنا .

(١) فى الأصل : « سهدته » .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) شابه ، من الشوب بمعنى الخلط والمزج .

وقد علمت ـ أرشدَ اللهُ أمرك ـ أنّ التّشبيه وإن كان أهله مقموعين ومُهانين وممتحَنين، فإنّ عدد الجماجم على حاله، وضمير أكثرهم على ما كان عليه، والذين ماتوا قليلٌ من كثير. ونحن لا ننتفع بالمنافق، ولا نستعين بالمرتاب، ولا نثق بالجانح، وإن كانت المبادأه قد نقصت فإنّ القلوب أفسدُ ما كانت.

١٠٨ و

وقد كانوا يتّكلون على السُلطان والقدرة، وعلى العدد والثّروة، وعلى طاعة الرّعاع والسّفلة؛ فقد صاروا اليومَ إلى المنازعة[1] أمْيَل، وبها أكلف؛ لأنّهم حِينًا يئسوا[2] من القهر بالحُشوة والسّفلة، وبالباعة، وبالولاة الفَسَقة، وقلوبهم ممتلئة ونفوسهم هائجة. ولا بدّ لمن كانت هذه صفتَه، وهذا نَعْتَه، من أن يستعمل الحِيلة والحُجّة، إذْ أعجزه البطشُ والصّولة. وكلُّ مَن كان غيظُه يفضُل عن حلمه، وحاجتُه تفضل عن قناعته، فواجبٌ أن ينكشف قِناعه، ويظهر سِرُّه، ويبدوَ مكنونه.

وقد أطمعنى فيهم مناظرتُهم لنا، ومقايستهم لأصحابنا. وقد صاروا بعد السّبّ يَحُفُّون[3]، وبعد تحريم الكلام يجالسون، وبعد التصامّ يستمعون، وبعد التجليح يدارون[4]؛ والعامة لا تفطن لتأويل كفِّها، ولا تعرف مقاربَتها. فقد مالت إلينا على قدر ما ظهر من مَيلها، وأصغت لما ترى من استماعها.

---

(١) فى الأصل: «على المنازعة».

(٢) فى الأصل: «يسوا».

(٣) حفه يحفه: مدحه. وفى المثل: «من حفنا أورفنا فليقتصد» يقول: من مدحنا فلا يغلون فى ذلك ولكن ليتكلم بالحق منه.

(٤) التجليح: المكاشفة فى الكلام.

وقد كتبتُ ـ مدّ الله فى عُمرك ـ فى الردّ على المشبّهة كتاباً لا يرتفع عنه الحاذق المستغنى ، ولا يرتفع عن الريّض المبتدئ . وأكثر ما يعتمد عليه العامّة ودَهماء أهل التشبيه من هذه الأمور ويَشْتمل عليه الفَضْل من حُشوة الناس[1] ، ويَختَدع به المُحدَّثون من الجمهور الأعظم ، تحريفُ آيٍ كثيرةٍ إلى غير تأويلها ، وروايات كثيرة إلى غير معانيها . وقد بيّنتُ ذلك بالوجوه القريبة ، والدّلالات المختصرة ، وبالأشعار الصحيحة والأمثال السائرة ، واستشهدتُ الكلامَ المعروف ، والقياسَ على الموجود .

وهو مع ذلك كلّه كتابٌ قَصْدٌ ، ومقدار عدلٌ ، لم يفضُل عن الحاجة ، ولم يقصِّر عن مقدار البُغية . على أنّ الكلام لا ينبغى أن يكثر وإن كان حسناً كلُّه ، إذا كان السامع لا يَنْشَطُ له ، وجاز قدرَ احتماله ؛ لأنّ غاية المتكلِّم انتفاعُ المستمع . وقد قال الأولون : « قليلُ الموعظة مع نشاط الموعوظ ، خيرٌ من كثيرٍ وافق من الأسماع[2] نبوةً ، ومن القلوب ملالةً » . ١٠٨ ظ

قال بكر بن عبد الله المزنىّ[3] : ليس الواعظ مَن جهل أقدارَ السامعين ، وإنابة المرتدّين ، وملالة المستطرفين .

وقال على بن أبى طالب ، رضوان الله عليه : « إنّ هذه القلوبَ تَمَلُّ كما تملّ الأبدان ، فابتغوا لها طُرَفَ الحكمة » .

---

(١) الفضل : الزيادة . والحشوة ، بالضم : رذال الناس .

(٢) فى الأصل : « الاسماع » .

(٣) هو أبو عبد الله ، نسبته إلى مزينة ، ثقة جليل توفى سنة ١٠٦ . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ١٧١ .

وقد كان يقال : إنَّ للقلوبِ شهوةً وإقبالا ، وفترة وإدباراً ؛ فأْتوها من حيث شهوتِها وإقبالِها .

وكان يقال : إذَا أُكْرِهَ القلبُ عَمِى .

وقال واصل بن عطاء : طول التحديق يُكِلُّ الناظر ، وناظر القلب أضعف منه .

وزعم عِمران بن حُدَيرٍ[1] قال : قال قَسامة بن زهير[2] : روِّحوا هذه القلوبَ تَعِ الذِّكر[3] .

وقال عبد الملك بن قُريب : قال أبو الدَّرداء : إنِّى لأستجمُّ نفسِى ببعض الباطل كراهةَ أنْ أحمِلَ عليها من الحقِّ فأُكِلَّها[4] .

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقَّاص ، رضى الله عنهما ، وهو بالقادسيّة : أنْ جنِّبْهم حديث الجاهلية ؛ فإنّه يذكِّر الأحقاد . وعِظْهم بأيّام الله ما نشِطوا لاستماعها .

وقالوا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوَّلنا بالموعظة[5] .

ولذلك أمروا بالجَمام[6] وزيارة الغِبّ .

---

(١) من رواة قسامة . تهذيب التهذيب ٨ : ١٢٥ ، ٣٧٨ . فى الأصل : « عمر بن أبى حدنه » .

(٢) قسامة بن زهير المازنى ، له إدراك ، وكان ممن افتتح الأبلة مع عتبة ابن غزوان ، وكان رأساً فى تلك الحروب . مات بعد الثمانين . الإصابة ٧٢٨٠ . وتهذيب التهذيب

(٣) فى الأصل : « يعنى من الذكر » ، صوابه من البيان ١ : ٣٢٧ .

(٤) فى الحيوان ٣ : ٧ : « من الحق ما يملها » .

(٥) يتخولنا : يتعهدنا ، وذلك مخافة السآمة علينا .

(٦) الجمام ، كسحاب : الراحة .

ورووا أنَّ شرَّ السَّيْر الحقحقة[١] .

ولأن ينقُصَ الكتابُ عن مقدار الحاجة أحبُّ إلىَّ من أن يَفضُل عن مقدار القوّة ؛ لأنَّ الملالة تبغِّض [فى] الجميع ، وتزهِّد فى الكُلّ .

فأنا أسألك ـ أكرمك الله ـ أن ترى هذا الكتابَ وتقرأ ماخفَّ عليك منه . فإن يصلح الكلامُ [و] كان كما وصفتُ وكما ضَمِنت ، حَثثتَ على قراءته وعلى اتِّخاذه ، وعلى تخليده وعلى تدوينه ، وأمرت مَن يحتاج إلى المادَّة ، وإلى حُسن المعونة من الموافقين والإخوان الصَّالحين ، أن ينظروا فيه ، وأن يبثّوه ويُشيعوه .

وقد كنتُ أنا على ذلك قادراً ، وبه مستوصيا ؛ ولكنَّ الرجل الرفيع إذا رفَع الشىء ارتفع ، كما أنَّه إذا وضع الشَّىء اتَّضع .

وإن كنتَ فيه غَلِقًا[٢] أو لعلَّته مستكثرا ، كان لك بحُسن نيتك وصلاح مذهبك ، والذى رجوتُ عنده من المنفعة وصلاح قلوب العامَّة ، الأجرُ الكبير ، والثوابُ العظيم ، مع ماتقضى بذلك من ذِمام المتحرِّم بك ، والمتحلِّى من بيتك ؛ ومع اليد البيضاء والصَّنيع المشكور .

١٠٩ و

وحرامٌ على كلِّ متكلِّمٍ عالِمٍ ، وفقيه مطاعٍ ، وخطيب مفوَّه إن كان[٣]

---

(١) الحقحقة : شدة السير . وهو فى حديث عبد الله بن مطرف بن الشخير حين تعبد فلم يقتصد ، فقال له أبوه : « يا عبد الله ، العلم أفضل العمل ، والحسنة بين السيئتين ، وخير الأمور أوساطها ، وشر السير الحقحقة » أمثال الميدانى ١ : ٣٢٧ واللسان (حقق) والبيان ٣ : ٢٥٤ .

(٢) الغلق : الضجر . وفى الأصل : « غلطا » .

(٣) فى الأصل : « كاف » .

عنده من الأمر شيء ، إلّا أن يأتيكم به ، ويذكّركم بما عنده ، قلَّ ذلك أو كثر ، وصادف منكم شُغلًا أو فراغا ، لأنَّ ذلك من عندكم أنفق ، والناس إليه أسرع ، والقلوب إليه أسكن ، وهو فى العيون أعظم ، لِمَا جعل الله عندكم من حُسن الاختيار ، والعلم بمنافع العباد ، ومصالح البلاد ؛ إذْ كنتم المَفْزَع والمقنع ، والأئمة والمنزع . ولولا ما قُلِّدتم من أمر الجماعة ، والقيام بشأن الخاصّة والعامة ، وأنَّ الشّغل برعاية حقِّها والدِّفاع عنها ، لم يُبقِ فى قُواكم فضلًا للدُّعاء والمنازعة ، ولوَضْع الكتب بالجواب والمسألة — لبدأ بكم الفَرْض ، ولكنتم أحقَّ بهذا الأمر .

على أنّنا لم ننطقْ إلّا بألسنتكم ، ولم نحتذِ إلّا على مثالكم ، ولم نَقْوَ إلّا بما أعرتمونا من فَضْل قوّتكم . وعلى الرُّواة من الأدباء ، وعلى أهل اللَّسَن من الخطباء ، معاونتُكم ومكاتفتكم ، والجلوس بين أيديكم والاستماع منكم ، وعلى أن يطيعوا أمركم ، وأن يَنفُذوا لطاعتكم ، وأن يخاصوا فى الدُّعاء ، وأن يَمحَضُوا النصيحة ، وأن يضمروا غايةَ المحبّة ، وأن يعملوا فى كفّ(١) الغِلِّ والحسَد ، وأن لا يرضَوْا من أنفسهم بالنِّفاق ، وأن يعلموا أنَّ الحسَد لايقع إلّا بين الأشكال ، وأنَّ التنافس لا يكون إلّا مع تقارب الحال .

وقد كان يقال : لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا ، فإذا تقاربوا هلكوا .

وكان يقال : ثلاثة توجب الضِّغن وتُكثر من الغِلّ : المجاورة فى المنزل ، والاستواء فى النَّسَب ، والمشاكلة فى الصِّناعة .

ولذلك قال شَبيب بن شَيبة لرجلٍ ادَّعى محبّته ونصيحتَه : « وكيف

---

(١) فى الأصل : « كفى » .

لا يكون كما وصفتَ وكما ذكرتَ ، ولستَ بخطيبٍ ، ولا جارٍ قريبٍ ، ولا ابنِ عمٍّ نسيب » .

وقال بعض الحكماء : لو لم تعرفوا من لُؤم الحسد إلاّ أنّه موكّل بالأدنَى فالأدنى . وليس يقع ذلك بين المتباينَين ، ولا يجوز في المتقاربين .

١٠٩ ظ

ولا يكون الطَّلبُ إلاّ بالطمع ، ولا يكون الطمع إلاّ بالسَّببُ . فإذا انقطع السَّببُ انقطع الطَّمع ، وفي عدم الطَّمع [عدمُ] الطلب . وكيف يتكلَّف الطَّيرانَ مَن لا جَناح له ، وكيف يرجو صلاحَ أمر العامّة وترتيبَ الخاصّة من عَجَز عن تدبير بيته ، وقصَّر عن تدبير عَبْده ؟ !

وإنصاف اللِّسان قليل ، وإنصاف القلب أقلُّ منه .

ونحن نرغب إلى الله في صَلاحهم ؛ فإنّ في صلاحهم صلاحَ قلوبنا لهم .

وقد جعل الله الشكرَ موصولاً بالمزيد ، ومِن الشُّكر على نعمة الله علينا بكم أن نعظِّم ما عظَّم الله من أمركم . ومن صغَّر ما عظَّم الله فقد عظَّم ما صغَّر الله . ولا يفعل ذلك إلاّ الصَّغير القَدْر ، والخامل الذِّكر ، والجاهل بالأمر .

وكيف لا تكونون[1] على ما خبَّرتُ وكما وصفت ، وقد أغنيتم من العَيلة ، وآنستم من الوحشة ، وجمعتم الشَّمل ، وأعدتم الألفة ، ورددتم الظُّلامة ، وأحييتم السُّنَّة ، وأبرزتم التوحيدَ بعد اكتتامه ، وأظهرتموه بعد استخفائه ، واحتملتم عداوةَ الجميع ، ووترتم المطاعنين في تقويتنا .

ونحن لا نُطالِب ما كنتم قياماً ، ولا نُذكِّر ما كنتم شهوداً . ونحنُ مع قلَّة علمنا لا نجد أبدًا عملَنا إلاّ مقصِّراً عن علمنا . وأنتم مع اتِّساع قلوبكم ،

---

(١) في الأصل : « يكونون » .

أعمالِكم وَفقَ علومكم ؛ لأنّ كلّ مَن بذل كلّ مجهوده ، وخاطر بجميع نعمته ، وكانت الواحدة من نِعَمه كالجميع من نِعَم غيره ، مع خِذلان الموافق ونُكوص المؤازر ، ثمّ لم تزده الشدائد إلاّ شدّة ، والوحدة [إلاّ] أنسة ــ حقيقٌ بالتّفضيل والتعظيم ، والإنابة له بالتقديم .

ولعلّ قائلاً أن يقول : أدخَلَه فى جملة صفات أبيه ، وجِلّة مشيختِه وأقربيه ، حيث خَصّهم بالتّقديم ، وأبانَهم بالتعظيم . بل كيف يقدّم من صَغُرت سنّه وقلّت تجربته على من تقاربت سنّه وكثرت تجربته . وكيف تمكن الطاعة الكثيرة فى الأيام القصيرة والشهور اليسيرة ؟ وهل يقول ذلك صاحبُ تحصيلٍ ومقايسة ، والبعيد من الملق والمخادعة .

وما قلتُ ذلك ــ حفظك اللهُ ــ ولا انتحلته ، إلاّ وبرهانى حاضر ، وشاهدى شاهد . وذلك أنّ للشّباب[1] سَكرة وطِماحاً ، وقِراعاً وصَولة . والهَرَمُ داخلٌ على جميع الأعضاء ، وآخِذ بقسطه من جميع الأجزاء . ألا ترى كيف يكلّ ناظره وسامعه ، وذائقُه وشامُّه ، وهاشمه وعامله ؛ وكيف تُنتقصُ على مرور الأيام قوّته ، وكذلك قلبه وكلّ ما بطَن من أمره ، على قدر ما نقص من قُوَى جسمه وتنقّص من قُوَى شهوته . [و] يخفّ عليه مخالفةُ هواه ، ومحاربة نَوازِعه[2] . ومن حَمَل[3] على نفسه فى كمال شبابه وأيّام سكرته ، وفى سلطان حِدّته وكمال قوّته ، فَظلَفَها مرّة[4] وكبحها

١١٠ و

(١) فى الأصل : « للشارب » .

(٢) فى الأصل : « موادعه » .

(٣) فى الأصل : « لمن جعل » .

(٤) ظلف نفسه : منعها هواها .

أخرى ، وعاين تلك التكاليف ، وغابَ تلك الرِّيح كان أبرزَ طاعةً ؛ إذْ كان أحملَ للمشقة .

وعلى قدر المشقَّة تكون المثوبة ، وتعظُم عند الله المنزلة ، وتقعُ له فى قلوب النَّاس المحبَّة . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسعد ابن أبى وقّاص ، حين وجَّهه إلى العراق : « يا سعد بنى وُهَيب[١] ، إن الله إذا أحبَّ عبداً حبَّبه إلى خلقه . فاعتبر منزلتَك من الله بمنزلتك من النَّاس ، واعلمْ أنَّ مالكَ عند الله مثلُ مالله عندك[٢] . ونحن نعتبر حالكَ عند الله بالذى نَجِد لك فى قلوب عباده . وقد ملَّكَ اللهُ بعضَ الناس أبدانَ بعض ، ولم يملِّك القلوبَ أحداً غيره » .

وأمّا قولهم : إن الغزارة مقرونة بالحداثة ، والحنكة موصولةٌ بطول التجربة ، فإنَّ الذِّهن الحديد والطَّبعَ الصحيح ، والإرادة الوافرة ، ينال فى الأيَّام اليسيرة ، ويُدرِك فى الدُّهور القصيرة ، ما لا تدركه العقول المخدوجة[٣] ، ولا الطبائع المدخولة ، والإرادة الناقصة ، فى الأيام الكثيرة ، والدُّهور الطويلة .

---

(١) هم بنو وهيب بن عبد مناف بن زهرة . وهو سعد بن أبى وقّاص بن وهيب . واسم أبى وقاص مالك . جمهرة أنساب العرب ١٢٩ والإصابة ٣١٨٩ وفى البيان ١ : ٣٦١ : « ياسعد ، سعد بنى أهيب » . وأهيب ووهيب لغتان .

(٢) إلى ينتهى الخبر فى البيان والتبيين .

(٣) المخدوجة : الناقصة ، من قولهم : خدجت الناقة : ألقت ولدها قبل أوانه لغير تمام . ويقال خدجت المرأة ولدها وأخدجته بمعنى واحد .

وربّما صادفَ القائلَ مع ذكائه وكثرة قراءته[1] وجودة اعتباره ، زماناً أكثر عجباً ، وأكثر معتبراً ، وإنْ كانت شهورهُ أقلَّ ، وأيامُه أقصر ، فينالُ مع قلّة الأيام مالا ينال سواه مع كثرتها ، ولا سيّما إذا أُعينَ بحفظٍ ، وأحسَّ من نفسه بفَضْلِ بيان .

١١٠ ظ

وليس من نَظَر فى العلم على الرّغبة والشهوة له كمن نظر فيه على المكسبة به والهرب إليه ؛ لأنَّ النفس لا تُسمِح بكلِّ قواها إلاَّ مع النشاط والشّهوة ، وهى فى ذلك لنفسها مستكرِهة ولها مكابِدة . والسآمة إلى من كانت هذه صفتَه أقربُ ، وله ألزم . ولولا ذلك لما ولّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُعاذَ بن جبلٍ اليمنَ ، وجعل[2] إليه قَبضَ الصّدَقات ، ومحاسبةَ العُمّال ، وقلَّده الأحكامَ وتعليم[3] الناس الإسلام ، وهو ابن ثمانى عشرة سنة . ولا يدفَعُ ذلك صاحبُ خَبَرٍ ولا حاملُ أثر .

وعلى مثل ذلك عَقَد لأُسامة بن زيدٍ الإمرةَ ، وأبَانه بالتّقدِمة على جِلّة الأنصار وكبار المهاجرين ، وخيار السَّلَف المتقدّمين .

وعلى مثل ذلك ولّى عَتّابَ بن أَسِيدٍ[4] مكّة ، وبها عظماء قريش وكبراء العرب وذَوُو الأخطارِ من كلِّ قبيلة ، وذوو الأسنان من كلِّ جيل .

---

(١) فى الأصل : « قوابله » بالإهمال .

(٢) فى الأصل : « وحمل » .

(٣) فى الأصل : « ويعلم » .

(٤) بفتح الهمزة ، كما فى الإصابة ٥٣٨٣ وقد أسلم عتاب يوم الفتح ، واستعمله رسول الله على مكة لما سار إلى حنين .

ومكّةُ فَتح الفُتوح ، وأمُّ القُرى ، وخاتمة الهِجرة وقِبلة العرب ، وموضع الحرم والموسِمِ الأعظم والحجِّ الأكبر ، والأصلُ والمفخر .

وقد رأيتم مابلغ بخالد بن يزيد فى السُّودد والمحبّة ، وقَوْد الجيوش والهَيْبة ، وهو ابن خمسَ عشرةَ سنة . وقد ذكر ذلك الكميت بن زيد فقال :

قاد الجيوش لخمسَ عشرةَ حِجّةً ولِداتُه عن ذاك فى أشـــغال[1]

قَعَدت بهم همّاتُهم وسما به هِمَمُ الملوك وسَوْرةُ الأبطال[2]

فأما ابن بِيضٍ[3] فقال :

بَلغتَ لعشرٍ مَضتْ من سِنيـ ـكَ ما يبلغُ السيِّد الأشيَبُ

فهمُّك فيهـــا جِسامُ الأمور وهَمُّ لداتك أنْ يلعبوا

---

(١) البيت فى فتوح البلدان ٦١٩ برواية « ساس الرجال لسبع عشرة » . وفى الأصل هنا : « بخمس عشرة » ، تحريف .

(٢) فى الأصل : « قعدت بهم هماته » . وعند البلاذرى أن الشعر مقول فى محمد بن القاسم .

(٣) ابن بيض ، بكسر الباء ، وهو حمزة بن بيض الحنفى . شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية ، كوفى خليع ماجن كان منقطعا إلى المهلب بن أبى صفرة وولده ، ثم إلى أبان بن الوليد ، وبلال بن أبى بردة ، واكتسب بشعره مالا بلغ ألف ألف درهم . ولم يدرك الدولة العباسية . الأغانى ١٥ : ١٤ – ٢٥ والمؤتلف ١٠٠ وحواشى الحيوان ٥ : ٤٥٤ – ٤٥٥ . وفى عيون الأخبار ١ : ٢٢٩ أن حمزة ابن بيض قال البيتين لمخلد بن يزيد بن المهلب .

وعلى مثل ذلك قال الفرزدقُ فى يزيدَ بن المهلَّب :

ما زال مُذْ عَقدَت يداه إزارَه ودنا وكان لخمســة الأشبارِ[1]

١١١ و وإذا الرِّجال رأوا يَزيدَ رأيتهم خُضُعَ الرقاب نواكسَ الأبصارِ

وعلى هذا المجرى مَدح الشاعر مَنْ مدحَ فقال :

مازِلْتَ فى عقــل الـكبيـ ـرِ وأنت فى سنِّ الصــغيرِ

وقد رأيتم ما بلغ محمد بن القاسم[2] من الفُتوح العظام والأيَّام الجسام ، والقهر للأعداء ، وبلوغ المحبَّة فى الأولياء ، وهو ابنُ خمسَ عشرةَ سنة . وقد ذكر ذلك زيادٌ الأعجمُ فقال :

ما إنْ سمعتُ ولا رأيتُ عجيبةً كمحمد بن القاسم بن محمد[3]

قاد الجيوشَ لِخمْسَ عشرة حِجَّةً يا قُربَ ذلك سُوددًا من مَولدِ[4]

---

(١) ديوان الفرزدق ٣٧٨ والخزانة ١ : ١٠٣ . والرواية فى الديوان : « فدنا فأدرك خمسة الأشبار » . وفى الخزانة : « وسما فأدرك خمسة الأشبار » .

(٢) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل ، أحد ولاة الحجاج ، غزا السند وفتحها فى أواخر أيام الحجاج : فتوح البلدان للبلاذرى ٦١٢ — ٦١٩ .

(٣) فى فتوح البلدان ٦١٩ وعيون الأخبار ١ : ٢٢٩ :

إن المروءة والسماحة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد

(٤) فى الأصل : « بخمس عشرة » والوجه ما أثبت لكن فى فتوح البلدان « ساس الجيوش لسبع عشرة حجة » ، وفى عيون الأخبار : « قاد الجيوش لسبع عشرة » .

وقال الآخر[١] :

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه عسير[٢]

وقال آخر[٣] :

إذا ما ترعرعَ فينا الغلام فليس يقال له من هُوَه[٤]

إذا لم يَسُدْ قبل شَدّ الإزار فذلك فينا الذى لا هُوَه

ولى صاحبٌ من بنى الشَّيصبان فطوراً أقولُ وطورا هُوَه[٥]

وزعموا أن عمرو بن سعيد[٦] قال له معاوية ـ وذلك قبل أن يَبلُغ ويحتلم ـ إلى مَن أوْصَى بك أبوك ؟ قال: إنّ أبى أوصَى إلىّ ولم يوصِ بى . قال : فبم أوصاك ؟ قال : أوصانى ألاّ يَفقد إخوانُه منه إلاّ وجهه[٧] .

---

(١) هو المعلوط بن بدل القريعى ، كما فى التنبيه على الحماسة لابن جنى ، وعيون الأخبار ٣ : ١٨٩ . وفى الحماسة بشرح المرزوقى ١١٤٨ : « وقال رجل من بنى قريع » .

(٢) فى الأصل : « كهل » ، صوابه فى المراجع المتقدمة . وأما « عسير » فالرواية فيها : « شديد » ؛ فإن البيت من مقطوعة دالية فى الحماسة .

(٣) هو حسان بن ثابت ، كما فى ديوانه ٤٢٢ واللسان : (شصب) وثمار القلوب ٥٥ . وللأبيات قصة فى الديوان واللسان . ورويت فى الحيوان ٦ : ٢٣١ بدون نسبة .

(٤) فى الديوان واللسان : « فما إن يقال له » .

(٥) الشيصبان ، بفتح الشين والصاد : أبو حى من الجن ، زعموا .

(٦) هو أبو أمية عمرو بن سعيد بن العاصى بن سعيد بن العاصى بن أمية ، المعروف بالأشدق . جمهرة أنساب العرب ٨١ وتهذيب التهذيب وتاريخ الطبرى ٧ : ١٧٨ — ١٨١ وحواشى البيان ٣ : ٣١٤ .

(٧) فى البيان ٣ : ٣١٦ : « إلا شخصه » . والخبر فى عيون الأخبار ١ : ٢٣٥ وأمالى المرتضى ١ : ٢٧٧ .

فهذا كلُّه دليلٌ واضح ، وبرهان بيِّن .

ولعلَّ قائلا أن يقول : إنَّما الفضل فى خشونة الملبس ؛ وليس ذلك لمن مدحتَ ، ولا هذه صفةُ من وصفت .

وهذا بابٌ ـ أبقاك الله ـ قد يغلط فيه العاقل ما لم يكن بارعاً ، والفَطِن مالم يكن ثاقباً ، والأريب مالم يكن كاملاً . ولو كان الفضل والرِّياسة والقدر والنَّباهة على قدر قَشَفِ الجلدة وبذاذة الهيئة ، وكثرة الصَّوم ، وإيثار الوَحْشة والسِّياحة ـ لكان عثمانُ بن مظعونٍ متقدِّماً لأبى بكر الصديق رضوان الله عليه ، ولكان بِلال بن رَباح غامراً لعثمان بن عفان رضى الله عنهما .

وقد قال ابن شهابٍ الزُّهرى : ليس الناسك[1] إلاَّ من غلب الحرامَ صَبرُه ، والحلالَ شكرُه .

فهذا ما حضرنا من القول ، وأمكننا من الاحتجاج . وما أشكُّ أنَّ مَن خَبرَ أمرك أكثرَ من اختبارى كان عنده أكثر من علمى . وعلى أنَّ منظرك ـ أسعدك الله ـ يُغنى عن المخبر ، والفِراسة فيك تكفى مؤونة التجربة لك . وقد تقيَّلتَ بحمد الله أخلاقَ شيخك[2] ، واحتذيت على مِثاله كما احتذى على مثال مَن كان قبله . ولولم يتعقَّبوا أمرك ، ويتصفَّحوا سيرتك فى نفسك ثم فى خاصَّتك وعامَّتك ، لكان فى صدق الفِراسة وظهور المحبَّة ما تقضى به النُّفوس ، ويستدِلُّ به المجرِّب .

١١٢ و

وظنُّ العاقل كيقين غيره .

---

(١) فى الأصل : « ليس الناس » . وفى البيان ٢ : ١٨٧ : « وقيل له أيضاً : ما الزهد فى الدنيا ؛ قال : ألا يغلب الحرام صبرك ، ولا الحلال شكرك » .

(٢) تقيله : تشبه به .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنك لن تنتفعَ بعقله حتى تنتفع بظنّه .
وقال أوس بن حجر :

الألمعى الذى يظن لكَ الظّنّ كأنْ قد رأى وقد سمِعا[1]

وقال وهو يمدح ابن كَلَدَة بصِدق الحسّ ، وصواب الحدْس ، وَجودَة الظن :

أريبٌ أديب أخو مأزِقٍ نِقاباً يخبِّر بالغائبِ[2]

وقال آخر[3] يمدح بمثل ذلك عبدَ الملك بن مَرْوان :

رأيتُ أبا الوليد غَداة جَمعٍ به شيبٌ وما فَقَدَ الشّبابا[4]
ولكنْ تَحتَ ذاكَ الشّيبِ حزمٌ إذا ما ظنّ أمرض أو أصابا[5]

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ ولقد صَدّقَ عليهم إبليسُ ظنّه[6] ﴾ . وقال : ﴿ إنّ بعضَ الظّنّ إثم[7] ﴾ . وفى ذكره البعضَ دليلٌ على أنّ سائر ذلك صواب وطاعة .

---

(١) ديوان أوس بن حجر ٥٣ والكامل ٧٣١ والحيوان ٣ : ٩٥ والبيان ٤ : ٦٨ يرثى به فضالة بن كلدة . ويروى : « يظن بك الظن » .

(٢) ديوان أوس ١٢ والحيوان ٣ : ٦٠ . والنقاب الرجل العالم بالأشياء المبحث عنها الفطن الشديد الدخول فيها . وقد وردت « نقابا » فى الأصل منصوبة ، ويروى : « نقاب » .

(٣) هو كثير . كما فى الحيوان ٣ : ٦٠ والبيان ٤ : ٦٧ .

(٤) جمع ، بالفتح ، هو المزدلفة .

(٥) أمرض : قارب الصواب فى الرأى وإن لم يصب كل الصواب . وفى الأصل : « أعرض » ، صوابه من الحيوان والبيان واللسان (مرض) .

(٦) الآية ٢٠ من سورة سبأ .

(٧) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

وكان من أسباب دَفْعى إليك هذا الكتابَ — أبقاكَ الله — دونَ أبى عبدِ الله[1] أكرمه الله ، أنكما قد تجريان فى بعض الأمور مجرًى وحداً ، ولأنك وإنْ كنتَ كثير الشُّغل فهو أقلُّ فراغًا منك على كثرة شُغلك ، وفرط عنايتك بما استكفاك واسترعاك . وإنْ جعلتَ لى قسمًا من وقت فراغك ، ونصيبًا من ساعة نشاطك . رجوتُ أن يصير إلى ما أمَّلناه عندك من الإنعام علىّ ، والاسترهان لشكرى ؛ فإنّ العرب لم تعظِّم شيئاً قَطُّ كتعظيمها موقعَ الإنعام والشكر والأحدوثة الحسَنة ، والذكر والتمييز ، والاستمداد للنعم ، والكفرُ حائل بين العَوْد والبَدْء .

١١٢ ظ

قال عنترة :

نُبِّيت بشرًا غير شاكرٍ نعمتى والكُفر مَخبَثةٌ لنفس المنعِمِ[2]

وقال السِّندىُّ :

فلم أُجزَ بالحسنى وعادت مَشاربى بلاقعَ يقروها الحمام المُقرقِرُ
تبدَّلتُ بالإحسان سوءًا وربّما تنكَّر للمعروف مَن كان يكفر

---

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن أبى دواد القاضى ، والد من كتب إليه الجاحظ : هذه الرسالة . وأبو دواد اسمه كنيته ، وقيل اسمه « دعمى » وقيل « طاحة » . ولى أحمد القضاء للمعتصم ثم للواثق ، وكان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق ووفور الأدب ، وهو صاحب محنة القول بخلق القرآن فى أيام المعتصم والواثق . ولد سنة ١٦٠ بالبصرة وتوفى سنة ٢٤٠ فى بغداد . تاريخ بغداد ٤ : ١٤١ — ١٥٦ ووفيات الأعيان ١ : ٢٢ — ٢٦ .

(٢) البيت من معلقة عنترة . والرواية : « نبئت عمرا » . انظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنبارى ٣٥٥ .

ويدل على حبِّهم للثناء وجميل الذِّكر قولُ الأسديّ :

فإنِّى أحبُّ الخلدَ لو أستطيعه وكالخلد عندى أن أموتَ ولم أُلَمْ[(١)]

وقال :

فأثنُوا علينا لا أبا لأبيكم بمَسعاتنا إنَّ الثناء هو الخُلْدُ[(٢)]

وقال الغَنَوىّ :

فإذا بلغتم أهلكم فتحدَّثوا إنَّ الحديث مَهالكٌ وخلود[(٣)]

فجعلوا الذكر بالجميل مثلَ الخلود فى النعيم .

وعلى هذا المعنى قال فى درك الثَّأر :

فقتْلاً بتقتيل وعقراً كعقركم جزاء العُطاس لا يموتُ من اثّأرْ[(٤)]

وقال حكيم الفرس حين بلَغه موتُ الإسكندر ، وهو قاتل دارا بن دارا :

ما ظننت أنَّ قاتل دارا يموت !

وهذا القول هو أمدح منه لقاتله . ولم أسمع للعجم كلمةً قطُّ أمدحَ منها .

فأمَّا العرب فقد أصبتُ لهم من هذا الضَّرب كلاماً كثيراً .

---

(١) الحيوان ٣ : ٤٧٥ والبيان ٣ : ٣٢٠ .

(٢) الحيوان ٣ : ٤٧٥ والبيان ٣ : ٣٢٠ . والرواية فيهما « بإحساننا » .

(٣) فى بعض نسخ الحيوان : « بلغتم أرضكم » و « متالف وخلود » . انظر الحيوان ٤ : ٤٧٥ .

(٤) هو مهلهل ، كما فى البيان ٣ : ٣٢٠ . وهو بدون نسبة فى الحيوان ٣ : ٤٧٥ . تحريف . وفى الأصل : «وعفوا كعفوكم »تحريف . والعقر : القتل والإهلاك . جزاء العطاس ، هو تشميت العاطس والدعاء له بالخير ؛ أى نعجل بذلك كقدر ما بين العطاس والتشميت . وانظر اللسان (عقب ١١٠ جزى ١٥٩) . لا يموت من اثأر ، أى لا يموت ذكره . اثأر : أدرك ثأره .

ومما يدلُّ على قدرِ عِظَم الشُّكر عند الشاكر والمشكور له من العرب ، قولُ أوسِ بن حجرٍ فى حَلِيمة[١] :

سنجزيكِ أو يَجزيكِ عنّا [مُثَوِّبٌ]
وحسبُكِ أن يُثْنَى عليكِ وتُحمَدِى[٢]

وقال بعض الشعراء[٣] :

فلم أجزِه إلاَّ الشُّكرَ جاهدًا
وحسبكَ منّى أن أقولَ فأَحمَدا[٤]

١١٤ و

وكانوا يرون للذّنب مالا يراه غيرهم . وقال امرؤ القيس بن حُجْر :

* وجُرح اللِّسان كجرح اليَدِ[٥] *

---

(١) هى حليمة بنت فضالة بن كلدة . وكانت قد أسدت إليه صنيعا حين جالت به ناقته فصرعته ، فى قصة رواها أبو الفرج فى الأغانى ١٠ : ٧ .

(٢) المثوب : المجازى ، يقال أثابه وأثوبه وثوّبه ، وفى الكتاب العزيز : « هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » . وموضع الكلمة بياض فى الأصل ، وإثباتها من ديوان أوس ٢٧ والحيوان ٣ : ٧١ والبيان ٣ : ٣٢٠ . ويروى : « عنى مثوب » ويروى : « وقصرك » بدل « وحسبك » ؛ وهما بمعنى .

(٣) هو أبو يعقوب الأعور ، كما فى الحيوان ٣ : ٧٢ .

(٤) فى الحيوان :

فلم أجزه إلا المودة جاهدا
وحسبك منى أن أود وأجهدا

وفى بعض نسخ الحيوان : « ان أود وأحمدا » .

(٥) صدره فى ديوان امرئ القيس ١٨٥ والبيان ١ : ١٥٦ :

* ولو عن نثا غيره جاءنى *

وقال جرير :

* ولَلسَّيفُ أشْوَى وَقعةً من لسانِيا[1] *

فى أشعار كثيرة .

ولست أمُتُّ إليك — أكرمك الله — بعدَ التوحيد ونَفْى التشبيه ، ونُصرتى للدِّين ، بأمرٍ أنا به أوثقُ من رغبتك فى شُكر الكرام والأُحدوثة الحسَنة . قال الله عز وجل : ﴿ ورفَعْنا لكَ ذِكرَك[2] ﴾ وقال : ﴿ وإنَّه لَذِكرٌ لكَ ولقومك[3] ﴾ . فلو كان حبُّ الذكر خطيئةً لما رَغَّبهم فيه ، ولا عُدَّ فى نِعَمه .

ولعل قائلًا أن يقول : وكيف لم تذكُر أميرَ المؤمنين ، والمعتصمَ بربِّ العالمين ، الذى حقَّق الله به الدِّين وسدَّد به الثُّغور ، وردَّ به المظالم ، وحَسَم به عِرق البَغْى ونواجمَ الفِتنة ؛ الذى لم يَزَلِ الله يَزيده فى كلِّ طَرفةٍ محبَّة ، ومع كلِّ محبَّة هَيْبة ، ومع كلِّ نِعمةٍ شُكراً ، ومع كل شُكرٍ فضلا . وهو المبتدئُ بهذا الأمرِ والقائم به ، والقطب الذى عليه تَدُور الرَّحَى ، وعلى مِثاله احتَذَى من احتذى ، وبلسانه نَطَق ، وعن رأيه صَدَر . وبيُمن نقيبته ظهر ، وبفَضْل قُوَّته نَهَض . وهو أوّل هذا الأمرِ ووسَطُه ، به يتمُّ إن شاء الله تعالى .

---

(١) صدره فى ديوان جرير ٦٠٦ والبيان ١ : ١٦٧ :

* وليس لسيفى فى العظام بقية *

أى هو يكسر العظم ويتجاوزه لا يغيب فيه . أشوى : من الشوى ، وهو إخطاء المقتل . يعنى أن لسانه أشد فتكا من سيفه ، على ما فى سيفه من قوة وفتك .

(٢) الآية ٤ من سورة الانشراح .

(٣) الآية ٤٤ من سورة الزخرف .

قلنا : إنَّ عقلَ الرَّسول يدلُّ على مُرسِله ، واعتدال القَناة يدلُّ على حِذْق المثقِّف ، ومَديحك الوزيرَ راجعٌ إلى مَن اختاره ، وإنَّ تصويبَ ظنٍّ المتفرِّس فيه ومديحَنا له غيرُ راجعٍ إلى وزيره والمحتذِى على مثاله ، بل قد علِم النّاسُ أنَّ الحظَّ الأكبرَ للآمرِ دونَ المطيع ، وللمعلِّم دون القائل ، ولأنّ المسبِّب فى عداله . . . . [1] وعند النَّظر والتحصيل ، أفضلُ من المسبَّب ، والمتبوعَ خير من التابع . ألا تَرَى أنَّ مَن مَدح الأنصارَ فهو للنبيِّ صلى الله عليه وسلم والمهاجرين أمدَحُ ، وإن لم يُظهِر ذكرَهم فى الوصف .

قال جرير : ١١٤ ظ

* تلكم قُريشىَ والأنصار أنصارى[2] *

وقال رؤبة :

* ومَنْ على المِنبر لى والمِنْبَرُ *

وربما كانت الكناية أبلغَ فى التعظيم ، وأدعى إلى التقديم ، من الإفصاح والشرح . وربّما أتى من السكوت بما يَعجِز القولُ عنه وقد بلغ أقصى حاجته وغايةَ أمنيَّته بالإيماء والإشارة ، حتى يكون تكلُّف القولِ فضلًا ، والكلامُ خَطَلا .

وما عسى أن أقولَ فيمن قد قوِىَ عقله بطبيعته ، وانتصف عزمُه من شهوته ، وكان عمله وَفْقَ علمه ، وعمله غامرًا لخصمه .

---

(١) بياض فى الأصل بمقدار كلمتين .

(٢) صدره فى ديوان جرير ٣١١ :

* إن الذين اجتنوا مجدا ومكرمة *

وفى الأصل : « نبهم قرشى والأنصار الصابرين » .

وقد يجرى الملكُ على عِرقٍ صالح ومنشأ سَوْء ، فيقدح ذلك فى عِرقه وإنْ لم يستأصله ، وقد يكون له عِرقٌ صالحٌ ومنشأ صِدقٍ ، وتكون أداتُه تامّةً ويكون مُؤْثِرًا لهواه ، فيكون فى الاسم وفى ظاهر الحكم كمن فسد عِرقُه وخَبُث منشؤه .

وقد جمع الله لأمير المؤمنين[1] مع كرم العُروق وصلاح المنشأ ، البُعدَ من إيثار الهوى . وهل رأيتَ أفعالًا أشبَه بأخلاقٍ ، ولا أخلاقًا أشبَه بأعراقٍ ، من أفعاله بأخلاقه ، وأخلاقه بأعراقه .

فنسأل الله الذى أسندنا بخلافته ، أن يمنَّ علينا بطُول بقائه ، وأن يَخصَّنا بحسن نظرِهِ كما خصَّنا بمعرفة حقِّه ، والاحتجاج لمُلْكه ، والذبِّ عن سُلطانه .

ولربّما كان اللِّسانُ أنفذَ من السِّنان ، وأقطعَ من السَّيف اليمان .

أطال الله بقاءكَ وحَفِظَك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامته لك .

* * *

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنه وتوفيقه وتأييده . والحمد لله أولاً وآخراً وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله وصحبه ، وسلامُه .

---

(١) يعنى الخليفة المعتصم .

٧

رسالة

إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دُواد
يخبرُه فيها بكتاب

الفُتيا

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة السابعة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة إلى أبى عبد الله أحمد بن أبى دؤاد الإيادى ، من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتبها إليه يخبره فيها بكتاب الفتيا » .

أما أبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد الإيادى فقد سبقت ترجمته فى أثناء الرسالة السابقة فأغنى ذلك عن إعادتها .

وقد أجرى الجاحظ ذكر كتاب الفتيا فى الحيوان ١ : ٩ قال : « وعبت كتابى فى القول فى أصول الفتيا والأحكام » .

وما هذه الرسالة إلا تقديم وعبارة إهداء لكتاب الفتيا ، وليست هى كتاب الفتيا بعينه .

ولم أجد لهذه الرسالة أصلا فى غير مجموعة مكتبة داماد ، وعليها اعتمادى فى إخراج هذه الرسالة .

بسم الله الرحمن الرحيم

أطال الله بقاءك وأعزّك ، وأصلح على يديك .

كان يقال : السُّلطان سُوق ، وإنّما يُجلَب إلى كلِّ سوق ما يَنفُق فيها .

وأنت أيُّها العالم معلِّم الخير وطالبُه ، والدّاعى إليه ، وحامل الناس عليه — مِنْ موضع السُّلطان بأرفع المكان ؛ لأنَّ مَن جعل الله إليه مظالمَ العباد ، ومصالحَ البلاد ، وجعله متصفِّحًا على القضاة[1] ، وعَتاداً على الوُلاة ، ثمَّ جعله الله مَنزِعَ العُلماء ، ومَفزَعَ الضُّعفاء ، ومستراح الحكماء ، فقد وضَعَه بأرفع المنازل ، وأسنى المراتب .

وقد قال أهلُ العلم ، وأهل التّجربة والفهم : « لَمَا يَزَعُ الله بالسُّلطان أكثرُ ممَّا يَزَع بالقرآن[2] » .

وقد كان يقال : شيئان متباينانِ ، إن صَلَح أحدُهما صلَح الآخر : السُّلطان والرعيّة .

فقد صَلح السُّلطان ، وعلى الله تمامُ النِّعمة فى صلاح الرعية ، حتى يُحقق الأثر ، وتَصدُقَ الشَّهادة فى الخبَر .

---

(١) إشارة إلى أنه كان قاضى القضاة .

(٢) فى اللسان (وزع) : « وفى الحديث : من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن » . قال : معناه أن من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان ممن تكفه مخافة القرآن والله تعالى . فمن يكفه السلطان عن المعاصى أكثر ممن يكفه القرآن بالأمر والنهى والإنذار .

فنسأل الذى مَنحك حُسن الرِّعاية أنْ يمنحنا حُسنَ الطَّاعة .

وقد نظرتُ فى التِّجارة التى اخترتَها ، والسُّوق التى أقمتَها ، فلم أر فيها شيئاً يَنفُق إلَّا العلمُ والبيانُ عنه ، وإلَّا العملُ الصالح والدُّعاء إليه ، وإلَّا التَّعاون على مصلحة العباد ، ونفْى الفساد عن البلاد .

وأنا ــ مدَّ الله فى عمرك ــ رجلٌ من أهل النَّظَر ، ومن حُمّال الأثر ، ولا أكمُلُ لكلِّ ذلك ولا أفِى ؛ إلَّا أنِّى فى سبيل أهله وعلى منهاج أصحابه . والمرء مع مَنْ أحبَّ ، وله ما اكتسب .

وعندى ــ أبقاك الله ــ كتابٌ جامعٌ لاختلاف الناس فى أصول الفُتيا ، التى عليها اختلفت الفُروع وتضادَّت الأحكام ، وقد جمعتُ فيه جميعَ الدَّعاوى مع جميع العلل . وليس يكون الكتابُ تامًّا ، ولحاجة الناس إليه جامعًا ، حتَّى تَحتجَّ لكلِّ قولٍ بما لا يُصابُ عند صاحبه ، ولا يبلُغه أهله ؛ وحتَّى لا ترضى بكشف قناع الباطل دون تجريده ، ولا بتَوْهينه دون إبطاله . وقد قال رسولُ ربِّ العالمين وخاتَمُ النبيِّين ، محمدٌ صلى الله عليه وسلم : « تَهادَوْا تحابُّوا » .

١١٦ و

فحثَّ على الهديّة وإن كان كُراعًا وشيئاً يسيرا . وإذا دعَا إلى اليسير الحقير فهو إلى الثَّمين الخطير أدعَى ، وبه أرضى .

ولا أعلم شيئاً أدعَى إلى التحابِّ ، وأوجبَ فى التَّهادى ، وأعلَى منزلةً وأشرفَ مرتبة ، مِن العلم الذى جعلَ الله العملَ له تبعًا ، والجنَّةَ له ثوابا .

ولا عُذرَ لمن كتب كتاباً وقد غاب عنه خَصمُه ، وقد تكفَّل بالإخبار عنه ، فى ترك الحِيطة له ، والقيام بكلِّ ما احتمله قولُه . كما أنَّه لا عُذر له فى التقصير عن فسادِ كلِّ قولٍ خالف عليه ، وضادَّ مذهبه ، عند من قرأ كتابه

وتفهّم أدخاله[١] ، لأنَّ أقلَّ ما يُزيل[٢] عذره ويزيح عِلّته ، أنَّ قولَ خَصمه قد استهدف لخصمه ، وأصحرَ لسانه[٣] ومكّنه من نفسه ، وسلّطه على إظهار عورته . فإذا استراحَ واضعُ الكتاب من شَغَب خصمه ومداراة جليسه ، فلم يبقَ إلّا أن يَقوى على كسر الباطل أو يعجزَ عنه[٤] .

ومن شُكر المعرفة بمَغاوِى الناس ومَراشدهم ، ومضارّهم ومنافعهم ، أنْ تحتمل ثِقل مؤونتهم فى تعريفهم[٥] ، وأن تتوخَّى إرشادهم ، وإن جَهِلوا فَضْلَ ما يُسدَى إليهم .

ولم يُصَنِ العلمُ بمثل بذله ، ولم يُستَدَبَق بمثل نشره . على أنَّ قراءة الكتب أبلغُ فى إرشادهم من تلاقيهم ، إذْ كان مع التلاق يكثر التَّظالُم ، وتفرِط النُّصرة ، وتشتدُّ الحميَّة . وعند المواجهة يُفرِط حبُّ الغلبة ، وشهوةُ المباهاةِ والرِّياسة ، مع الاستحياء من الرجوع ، والأنَفَة من الخضوع . وعَن[٦] جميع ذلك تحدث الضَّغائن ، ويَظْهر التباين . وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفة وهذه الحِلْية ، امتنعت من المعرفة[٧] ، وعميت عن الدَّلالة .

---

(١) الأدخال : جمع دخل بالتحريك ، وهو العيب والفساد .

(٢) فى الأصل : « يزيد » .

(٣) أصحر : ظهر وبرز .

(٤) الكلام بعده إلى « وقامت سوق العلم والبيان » فى ص ٢١٧ تجده مع خلاف يسير فى الحيوان ١ : ٨٤ – ٨٧ .

(٥) فى الحيوان : « فى تقويمهم » .

(٦) فى الأصل « وعند » ، ووجهه من الحيوان .

(٧) فى الأصل : « الفرقة » ، وفى الحيوان : « التعرف » .

وليست فى الكتب عِلّةٌ تمنع من دَرْك البُغية ، وإصابة الحُجّة : لأنّ المتوحّد بقراءتها ، والمتفرّد بفهم معانيها ، لا يُباهى نفسَه ، ولا يغالب عقْله .

والكتاب قد يفضُل صاحبَه ، ويرجُح على واضعه بأمور :

منها أنّه يوجَدُ[١] مع كل زمانٍ على تفاوت الأعصار ، وبُعد ما بين الأمصار . وذلك أمرٌ يستحيل فى واضع الكتاب ، والمنازِع بالمسألة والجواب . وقد يذهب العالم وتبقى كتبه ، ويَفْنَى المعقِّب[٢] ويبقى أثره . ولولا ما رسَمَتْ لنا الأوائل فى كتبها ، وخلَّدت من عجيب حِكَمها ، ودوّنَتْ من أنواع سِيَرها ؛ حتّى شاهدنا بها ما غابَ عنا ، وفتحنا بها المستغلِق علينا ، فجَمَعْنا إلى قليلنا كثيرَهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركُه إلّا بهم ـ لقد خَسَّ حظُّنا فى الحكمة ، وانقطع سببُنا من المعرفة ، وقَصُرت الهِمّة ، وضعفت النيَّة ، فاعتقَم الرأىُ وماتت الخواطر ، ونبا العقل[٣] .

١١٦ ظ

وأكثر مِن كتبهم نفعاً ، وأحسنُ ما تكلّموا به موقعاً ، كتبُ الله التى فيها الهُدى والرحمة ، والإخبار عن كلّ عِبرة ، وتعريفُ كلِّ سيِّئة وحسنة .

فينبغى أن يكون سبيلُنا فيمن بعدنا كسبيل مَن قبلنا فينا . على أنّا قد وجَدنا من العبرة أكثرَ ممّا وجدوا ، كما أنّ مَن بعدنا يَجِد من العِبرة أكثرَ مما وجدنا .

فما ينتظر العالمُ بإظهار ما عنده ، والنّاشر[٤] للحقّ من القيام بما يلزمه .

---

(١) فى الأصل : « يوخذ » .

(٢) فى الأصل : « العقب » ، وفى الحيوان « العقل » .

(٣) فى الحيوان : « وتبلد العقل » .

(٤) فى الحيوان : « والناصر » .

فقد أمكن القولُ وصلَح الدهر، وخَوى نجم التَّقيّة[1] ، وهبّت ريح العلماء، وكسَدَ الجهل والعيّ[2] وقامت سوق العلم والبيان[3] .

وهذا الكتاب – أرشدك الله – وإن حَسُن فى عينى، وحَلَا فى صدرى، فلستُ آمَنُ أن يعتريَنى فيه من الغلطِ ما يعترى الأبَ فى ابنه، والشّاعرَ فى قريضه .

والذى دعانى إلى وَضْعه مع إشفاق منه، وهيبتى لتصفُّحك له، أنّى حين علمتُ أنّ الغالبَ على إرادتك، والمستولىَ على مذهبك، تقريب العالم وإقصاء الجاهل، وأنّك متى قرأتَ كتاباً أو سمعتَ كلاما، كنتَ من وراءِ ما فيه من نقصٍ أو فضل، باتّساع الفهم، وصحة العلم؛ وأنّك متى رأيتَ زللًا غَفَرته وقوّمتَ صاحبه، ولم تُقرِّعْه به، ولم تَخْزِمْه له. ومتى رأيتَ صواباً أعلنته ورعيته، فدعوتَ إليه وأثْبَتَ عليه. ولأنّى حين أمنتُ عقابَ الإساءة، [و] وثقت بثواب الإحسان، كان ذلك موجباً لوضعه، ولم أستكرِهْ نفسى عليه، وصار ذلك موجباً لنَظْمه وموحيًا للتقرُّب به. والسّبب أحقُّ بالتّفضيل من المسبَّب؛ لأنّ الفعل محمول على سببه، ومضافٌ إليه، وعِيالٌ عليه، ومضمَّن به .

١١٧

وإحسانى – مَدّ الله فى عمرك – فى كتابى هذا إن كنت محسناً، صغيرٌ

---

(١) خوى : اختفى وذهب .

(٢) فى الأصل : « والعمل » ، صوابه من الحيوان .

(٣) فى الحيوان : « سوق البيان والعلم » . وإلى هنا ينتهى النص المقارب لنص الحيوان، الذى أشرت إليه فى ص ٢١٥ .

فى جنب إحسانك ، إذْ كنتَ المثيرَ له من مَرَاقِبِه ، والباعثَ له من مراقده . فلذلك صارَ أوفرُ النصيبَينِ لك ، وأمتنُ السببين مضافاً إليك . وإنْ كنتُ قد قصّرت عن الغاية ، فأنا المضيّع دونك . وإن كنت قد بلغتُها ففضلُك أظهر وحظُّك أوفر . لأنّى لم أنشط له إلّا بك ، ولا اعتمدت فيه إلّا عليك .

ولولا سوقُك التى لا ينفُق فيها إلّا إقامة السنّة ، وإماتة البدعة ، ودَفع الظُّلامة ، والنظر فى صلاح الأمّة — لكانت هذه السّلعة بائرة ، وهذا الجَلَب مدفوعًا ، وهذا العِلْق خسيسا .

فالحمد لله الذى عَمَرَ الدُّنيا بك ، وأخذ لمظلومها على يديك ، وأيّدَ هذا المُلْك بيُمنك ، وصَدَّق فِراسةَ الإمام فيك .

وأيّةَ منزلةٍ أرفعُ وأيّةُ حالةٍ أحمدُ ، ممّن ليس على ظهرها عالمٌ إلاّ وهو يَحِنُّ إليه ، أو قد رحل إليه ، أو قد صار إلى كنفِهِ وتحتَ جَناحه . وليس على ظهرها ظالمٌ إلاّ وهو يتّقيه ، ولا مظلوم إلّا وهو يستعديه .

ومن يَقِفُ على قدرِ ثوابِ مَن هذا قدرُه ، وهذه حاله ؟ !

وعندى — مدّ الله فى عمرك — كتبٌ سوى هذا الكتاب ، وليس يمنعنى مِن أن أهديَها إليك معًا إلّا ما أعرفه من كثرة شُغْلك ، وكثرةِ مايلزمك من التّدبير فى ليلك ونهارك . والعلم وإن كان حياةَ العقل ، كما أنّ العقلَ حياة الروح ، والرُّوح حياة البدن ، فإنّ حكمَه حكمُ الماء وجميعِ الغذاء ، الذى إذا فضل عَن مقدار الحاجة عاد ذلك ضررًا . وإنّما يسوغ الشّرابُ ويُستمرأ الطّعام الأوّلَ فالأوّل . فكذلك العلم يجرى مجراه ، ويذهب مذهَبه .

١١٧ ظ

ومن شأنِ النُّفوس الملالةُ لِمَا طالَ عليها ، وكثُر عندها . فليس لنا أن نكون من الأعوان على ذلك ، ومن الجاهلين بما عليه طبائع البشَر ؛

فإنّ أقواهم ضعيفٌ ، وأنشطَهم سؤوم ؛ وإن كانت حالاتُهم متفاوتةً فإنّ الضّعفَ لهم شامل ، وعليهم غالب .

فإذا قُرئ عليك — أيدك الله — هذا الكتابُ التمسنا أوقات الجمام(١) وساعاتِ الفراغ ، بقدر ما يُمكن من ذلك ويتهيَّأ . والله الموفِّق لذلك ، والمهيِّئ له . ثمَّ أتبعْنا كلَّ كتاب بما يليه إنْ شاء الله .

وليست بحمد الله من باب الطّفرة والمداخلة(٢) ، ولا من باب الجوهر والعَرَض ، بل كلُّها في الكتاب والسُّنّة ، وبجميع الأمّة إليها أعظمُ الحاجة .

ثم نسألُ الذى عرّفنا فضلك ، أن يصلَ حبلنا بحبلك ، وأن يجعلنا من صالحي أعوانك ،المستمِعين منك ، والناظرين معك ؛ وأن يُحسِّنَ في عينك ويُزَيِّنَ في سمعك ، ما تقرَّبْنا به إليك ، والتمسنا الدنوَّ منك ، إنّه قريب مجيب ، فعّالٌ لما يريد .

أطال الله بقاءك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامته لك في الدُّنيا والآخرة .

* * *

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنّه وتوفيقه . والله الموفق للصواب .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلامُه .

---

(١) الجمام ، كسحاب : الراحة .

(٢) انظر للطفرة والمداخلة حواشي الحيوان ٤ : ٢٠٨ .

٨

رسالة

إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هي الرسالة الثامنة من رسائل الجاحظ ، انفردت بها نسخة مكتبة داماد وعنوانها :

« رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتب بها إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب » .

وهي غير الرسالة التي كتب بها إليه في « المودة والخلطة » ، فهذه لم ترد في مجموعة داماد ، وإنما وردت في الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان ، وكذا في مختارات فصول الجاحظ نسخة المتحف البريطاني ، وقد نشرها السندوبي كذلك في رسائل الجاحظ .

وسأقوم بتحقيقها ونشرها إن شاء الله بعد الفراغ من هذه المجموعة : مجموعة داماد .

وأبو الفرج هذا هو محمد بن نجاح بن سَلمة ، كما في جمع الجواهر للحصري ١٢١ . وأبوه نجاح بن سَلمة كان على ديوان التوقيع في خلافة المتوكل وقتله سنة ٢٤٥ ووجه إلى ابنيه أبي الفرج وأبي محمد ، فأخذ أبو الفرج وهرب أبو محمد ، كما ذكر الطبري في حوادث تلك السنة .

والملحوظ في هذه الرسالة أن الجاحظ قد عني فيها بجمع أسماء من كنيته « أبو عثمان » التي هي كنيته أيضاً ، كما أنها قد سجلت للجاحظ قصيدة من شعره .

بسم الله الرحمن الرحيم

جُعِلتُ فِداك ، وأطال الله بقاك ، وأعزّك وأكرمك ، وأتمّ نعمته عليك وأيّدك .

قد نسخت لك - أعزّك الله - فى صدر هذا الكتاب قصيدةً قيلت فى أبى الفرج أدام الله عزّه ، ذكرُوا أن قائلها رجلٌ يكنى أبا عثمان ، ولا أدرى أهو أبو عثمان هشام بن المغيرة[1] ، أم أبو عثمان عَفّان بن أبى العاص[2] .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عنبسة بن أبى سفيان ، أم أبو عثمان سعيد ابن عثمان[3] ، ولا أدرى أهو أبو عثمان النَّهدى عبد الرحمن بن مِلّ[4] ، أم أبو عثمان ربيعة الرأىِ بن أبى عبد الرحمن[5] .

---

(١) جمهرة أنساب العرب ١٤٥ . وهو والد أبى جهل .

(٢) جمهرة أنساب العرب ٨٣ وهو والد عثمان .

(٣) جمهرة أنساب العرب ١١١ . وهو سعيد بن عثمان بن عفان .

(٤) فى الأصل : « مليل »، صوابه من الجمهرة ٤٤٧ وتهذيب التهذيب ٦ : ٢٧٧ وتقريب التهذيب . وهو عبد الرحمن بن مل - بتثليث الميم - بن عمرو بن عدى بن وهب بن ربيعة بن سعد بن جذيمة بن كعب بن رفاعة بن مالك ابن نهد .

(٥) هو ربيعة الرأى بن أبى عبد الرحمن فروخ التيمى ، أدرك بعض الصحابة والأكابر من التابعين ، وكان صاحب الفتوى بالمدينة . توفى سنة ١٣٦ . تهذيب التهذيب والمعارف ٢١٧ وصفة الصفوة ٢ : ٨٣ - ٨٦ .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن خالد بن أسيد[١] ، أم أبو عثمان إسحاق بن الأشعث بن قيس .

ولا أدرى أهو أبو عثمان المنذر بن الزُّبير بن العوّام[٢] ، أم أبو عثمان عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك[٣] .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن خالد بن أسيد[٤] ، أم أبو عثمان أبو العاص بن [بشر بن[٥]] عبد دُهمان ، وهو اسمُه .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن عبد الرحمن بن سَمُرة بن حبيب ابن عَبد شمس[٦] ، أمْ أبو عثمان عبد الله بن عامر بن كُرَيز[٧] .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن أسعد بن إمام المسجد الجامع الأعظم ، أم أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب[٨] .

---

(١) جمهرة أنساب العرب ١١٣ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ١٢٣ .

(٣) جمهرة أنساب العرب ٩٠ - ٩١ .

(٤) جمهرة أنساب العرب ١١٣ .

(٥) التكملة من جمهرة أنساب العرب ٢٦٦ .

(٦) جمهرة أنساب العرب ٧٤ . وفى الأصل : « بن جندب بن عبد شمس » ، صوابه من الجمهرة والإصابة ٣٤٦٩ .

(٧) الجمهرة ٧٤ ، ٧٥ ، ٣١١ .

(٨) عمرو بن عبيد بن باب : شيخ من شيوخ المعتزلة ، وأحد الزهاد المشهورين . توفى بحران سنة ١٤٤ ورثاه المنصور . قالوا : ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه . تاريخ بغداد ٦٦٥٢ والمعارف ٢١٢ .

ولا أدرى أهو أبو عثمان فيروز حُصَين العنبرى[(١)] ، أَمْ أبو عثمان ابن عُمَر بن أبى عثمان الشَّمَّرى[(٢)] .

ولا أدرى أهو أبو عثمان خالد بن الحارث بن سليمان الهُجَيْمِى[(٣)] ، أم أبو عثمان أبو العاص بن عبد الوهاب الثقفى[(٤)] .

---

(١) فى الأصل : « فيروز بن حصن » ، صوابه ما أثبت من البيان ٢ : ٤٣ وجمهرة أنساب العرب ٢٠٩ . وهو مولى حصين بن مالك بن الخشخاش العنبرى . قال ابن قتيبة فى المعارف ١٤٧ : « ومن موالى آل الخشخاش فيروز ، أعظم مولى بالعراق قدراً . وقد ولى الولايات وخرج مع ابن الأشعث ، فقال الحجاج : من جاءنى برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم ! فقال فيروز : من جاءنى برأس الحجاج فله مائة ألف درهم ! فلما هزم ابن الأشعث هرب إلى خراسان فأخذه يزيد بن المهلب فبعث به إلى الحجاج » . وقد نكل به الحجاج تنكيلا وقتله .

(٢) فى الأصل : « السمرى » ، صوابه من البيان ١ : ١٦ حيث ذكر أبوه « أبو حفص عمر بن أبى عثمان الشمرى » .

(٣) هو خالد بن الحارث بن عبيد بن سليمان الهجيمى البصرى ، كان من عقلاء الناس ودهاتهم ، وكان يقال له « خالد الصدق » . ولد سنة ١٢٠ وتوفى سنة ١٨٦ . ذكره فى البيان ٢ : ٢٢١ .

(٤) هو صاحب الرسالة التى رواها الجاحظ فى البخلاء ١٤١ – ١٥٣ وعقب عليها بذكر رد ابن التوأم عليها . وانظر أخبار أبى نواس لابن منظور ١٨٤ حيث ذكر أباه وإخوته ، ومنهم عبد المجيد الثقفى صاحب ابن مناذر الذى رثاه بقوله :

إن عبد المجيد يوم تولى   هد ركنا ما كان بالمهدود

ولا أدرى أهو أبو عثمان سَعِيد بن وهب الشاعر[١] ، أم أبو عثمان عمرُو الأعورُ الخارَكى[٢] .

ولا أدرى أهو أبو عثمان الحكم بن صخر الثّقفى[٣] ، أم أبو عثمان عمرو بن بكر المازنىّ .

ولا أدرى أهو أبو عثمان الأعور النحوىّ[٤] ، أم أبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ .

١١٩ و والذى لا أشك فيه أنّه لم يقرضها أبو عثمان عمرو بن حَزْرة ، ولا أبو عثمان عمرو المخلخل ، ولا أبو عثمان إبراهيم بن يزيد المتطبِّب ، ولا أبو عثمان سعيد بن حيان البزاز .

وقد بلغَنى عن أبى عثمان هذا المجهولِ موضعُه ، المغمور نسبه ، أنه قال : ما راكبُ الأسد الأسود ، والبحر الأخضر ، والمصبور على السّيف الحسام[٥] ،

---

(١) ذكره الجاحظ فى البيان ٣ : ١٦٢ - ١٦٣ وترجم له ابن المعتز فى طبقات الشعراء ٢٥٧ - ٢٦١ ، وكان شاعراً ماجناً ، وله خبر مع هارون الرشيد . وانظر الأغانى ٢١ : ١٠٤ وتاريخ بغداد ٩ : ٧٣ .

(٢) ترجم له المرزبانى فى معجمه ٢١٩ وقال : « أزدى بصرى أصله من خارك : قرية بفارس على البحر ، ماجن خبيث ، كان على عهد المخلخل الوراق » . وخارك ، بفتح الراء كما فى معجم البلدان ، قال ياقوت : « منهم الخاركى الشاعر ، فى أيام المأمون أو ما يقاربها .

(٣) ذكره أبو الفرج فى الأغانى ١٧ : ١٢١ فى رواية للعتبى عنه . والعُتْبى ، هو محمد بن عبد الله العتبى الأخبارى المتوفى سنة ٢٢٨ .

(٤) ذكره الجاحظ فى البخلاء ١٨٠ .

(٥) صبر على القتل صبراً : حبس حتى يقتل .

بأحقّ بجهد البلاء وشماتة الأعداء ، ممّن تعرّضَ للمتصفّحين(١) ، وتحكّك بالعيّابين ، وحكّم فى عِرض الحسَدةَ المغتابين .

فإن سَلِم فبحُسْن النيّة ، ولأنه مَدحَ كريماً ، ووصفَ حليماً . والكريم صَفوح ، والحليم متغافل . وإن ابتُلِىَ فبذنبٍ ، وما عفا اللهُ عنه أكبر .

وقال : اللهمّ اجعلْ هذا القولَ حسناً فى عينه ، خفيفاً على سمعه ، وألْهِمْه حُسنَ الظنّ به ، وبَسطَ العُذْر له ، إنّك سميعُ الدعاء ، رحيمٌ بالضعفاء .

والقصيدة هى قوله :

أقامَ بدارِ الخفض راضٍ بحظِّــــهِ
وذو الحِرص يسرى حين لا أحدٌ يَسرى

يظنُّ الرِّضا بالقَسْمِ شـــيئاً مهوَّناً
ودُون الرضـــا كأسٌ أمرُّ من الصَّبرِ

جَزِعتُ فلم أُعتِبْ فلو كنتُ ذا حِجاً
لقنَّعتُ نفسى بالقليـــل من الوَفْرِ

أظنُّ غبىَّ القـــوم أرغدَ عيشةً
وأجذلَ فى حال اليَســارة والعُسْرِ

تمرُّ به الأحـــداث تُرعِدُ مَرّةً
وتُبرِق أخرى بالخطـــوب وما يدرى

ســواء على الأيام صاحب حُنْـكةٍ
وآخرُ كابٍ لا يَرِيش ولا يَـــبرى

---

(١) المتصفح : المتأمل المتعرف .

فلو شـــاء ربِّى لم أكن ذا حفيظةٍ
طَلوبًا لغـــايات المكارم والفخرِ
خضَعتُ لبعض القـــوم أرجو نوالَه
وقد كنتُ لا أعطِى الدنيَّـةَ بالقَسْرِ
فلمَّا رأيت المرءَ يبـــذُل بِشرَه
ويَجعلُ حُسن البِشر واقيـــةَ التِّبْرِ[1]
ربَعتُ على ظَلْعى وراجعتُ منزِلى
فصِرْت حليفاً للدراســـة والفكرِ[2]
وشاورت إخـــوانى فقال حكيمهم
عليك الفـــتَى المُرِّىَّ ذا الخلق الغَمْرِ
فتًى لم يَقفِ فى الدهر موقفَ ظِنَّـةٍ
فيحتاجَ فيـــه للتَّنصُّل والعُذْرِ
أُعيـــذك بالرحمن من قولِ شامتٍ
أبو الفـــرج المأمولُ يزهد فى عَمرِو
ولو كان فيـــه راغبـاً لرأيتَـه
كما كان دهراً فى الرَّخاء وفى اليُسْرِ
أترضى - فدتك اليـومَ نفسى وأسرتى -
بتأخـــير أرزاقى وأنت تلى أمرى

١١٩ ظ

---

(١) أى يجعل بشره بدلا من بذله وعطائه .

(٢) ربع على ظلعه : توقف وانتظر . والظلع ، بالفتح : العرج أو شبيه به .

ألا يافتى الكُتّاب والعسكرِ الذى تأزّر بالحسنى وأُيِّد بالنّصرِ
أخافُ عليكَ العينَ أو نفسَ وامقٍ وذو الوُدّ منخوبُ الفؤاد من الذُّعر
وعهدى به واللهُ يُرشد أمرَه ويحفظُه فى القاطنين وفى السَّفْر
مُطِلاًّ على التدبير ما يستفزُّه مَكايدُ محتالٍ عقاربُه تَسرِى
برأيٍ يُزيل الطَّود من مستقرِّه وأوضحَ عند الخصم من وضَح الفجرِ
وعزمٍ كغرب المشرفىِّ مصمِّمٍ وقلبٍ ربيط الجأش منثلج الصدر
فيا ابن نجاحٍ أنجح اللهُ سعيكم وأيّدكم بالنّصر والعدد الدَّثْرِ[1]
قَعدتُ فلم أطلُب وجُلتُ فلم أُصِب خليلاً يواسينى ويَرغب فى شكرى
وإن أخفقَتْ كفِّى وقد علقتْكمُ فقد فال رأيى واستنمتُ إلى شعرى[2]
أعيذكَ بالرحمن أن تُشمِتَ العِدى فَلَلفقرُ خيرٌ من شماتةِ ذى الغمْرِ[3]
فإن تَرعَ وُدِّى بالقبول فأهلُه ولا يعرفُ الأقدارَ غيرُ ذوى القدر
وحسبكَ بى إن شئتَ ودًّا وخُلّةً وحسبك بى يوم النَّزاهة والصَّبر
ألا ربَّ شكرٍ دائرِ الرسم دارسٍ وشكرٍ كنقش الحِميريّة فى الصَّخر

قال أبو عثمان المجهول : إذا كان الممدوح ظاهرَ المحاسن كثير المناقب فلم يُجدِ الشاعرَ كان ألومَ .

---

(١) الدثر : الكثير .

(٢) استنام إليه : أنس به واطمأن إليه . وفى الأصل : « واستلمت » وإزاءها فى هامش الأصل الحرف « ظ » وتحته الحرف « ن » معناه الظاهر أنها « استنمت » .

(٣) الغمر بالكسر وبالتحريك أيضاً : الحقد والغل .

ونعوذ بالله أن يكون فيكم ما يستدعى الألفاظ الشريفةَ والمعانىَ النفيسة ، ويكونَ التقصيرُ منّى .

وكيفما تصرّفتْ بى الحالُ فإنّى لم أخرجْ من جهد المجتهدين الراغبين المخلصين . فإن وقعَتْ هذه القصيدة والتى قدّمنا قبلها بالموافقة فالحمد لله . وإن خالفت فنستغفر الله . وإن شيّعتم ضعفَها بقوّة كرمكم[1] ، وقوّمتم أودَها بفضل حلمكم ، كان فى ذلك بلاغٌ لما أمّلنا . والله الموفّق .

* * *

تمت الرسالة بعون الله وتوفيقه ، والله الموفّق للصواب برحمته والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

(١) شيعه تشييعاً : قواه .

٩

كِتَابُ

فَصْلِ مَا بَيْنَ العَدَاوَةِ وَالحَسَدِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هي الرسالة التاسعة من رسائل الجاحظ ، وعُنوانها :

« فصل ما بين العداوة والحسد » ، أي فرق ما بينهما .

وقد سجل الجاحظ في صدر هذه الرسالة أن هذه الرسالة مسبوقة بكتاب فضل الوعد ، وأن فضل الوعد مسبوق بكتاب أخلاق الوزراء .

أما الأول منهما فقد أشار إليه الجاحظ في مقدمة الحيوان ١ : ٩ . وأما الثاني منهما فلم أجدله ذكراً .

ويبدو أنه ألف هذه الرسالة لأبي الحسن عبيد الله بن يحيي بن خاقان ، وزير المتوكل ثم المعتمد ، كما تدل عليه أواخر هذه الرسالة في شعر الجاحظ وتعليقه على شعره ذلك .

وانظر لترجمة عبيد الله هذا تاريخ الطبري ١١ : ٤٤ ومروج الذهب ٤ : ١١٩ والتنبيه والإشراف للمسعودي ٣١٤ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ١٥٩ — ١٦٢ والوزراء والكتاب للجهشياري ٢٥٤ والفخري لابن طباطبا ٢١٦ ، ٢٢٨ .

وقد اعتمدت في إخراج هذه الرسالة على نسخة الأصل في مجموعة مكتبة داماد ، وهي النسخة الوحيدة التي نشر عنها الأستاذان الدكتور طه الحاجري ، والمستشرق باول كراوس نسختهما التي أشرت إليها بالرمز « ط » .

ومما يجدر ذكره أن للجاحظ رسالة أخرى في موضوع مماثل لهذا ، هي « رسالة الحاسد والمحسود » . وليست في مجموعتنا هذه ، فموعدها في النشر والتحقيق بعد الفراغ من نشر هذه المجموعة بعون الله وتوفيقه إن شاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

(1) أصحبَ الله مدّتك السعادةَ والسّلامة ، وقرنَها بالعافية والسُّرور ، ووصَلها بالنعمة التي لا تزُول ، والكرامة التي لا تحُول . ١٢٠ ظ

هذا كتابٌ - أطال الله بقاءك - نبيلٌ بارع ، فُصِل فيه بين الحسَد والعداوة ، ولم يسبقْنى إليه أحد ولا إلى كتاب فصل الوعد الذى تقدَّم هذا الكتاب ، ولا إلى كتاب أخلاق الوزراء الذى تقدَّم كتاب فصْل الوعد .

وإنَّما نبُلتْ هذه الكتب وحَسُنت وبَرَعتْ ، وبذَّت غيرَها ؛ لمشا كلتها شرفَ الأشراف ، بما فيها من الأخبار الأنيقة الغريبة ، والآثار الحسنة اللَّطيفة ، والأحاديث الباعثة على الأخلاق المحمودة ، والمكارم الباقية المأثورة ، مع ما تضمَّنْته(2) من سِيَر الملوك والخلفاء ووزرائهم وأتباعهم ، وما جرت عليه أحوالهم .

فأنا أسألك بساطع كرمك وناصع فضلك ، لمَّا(3) امتننتَ علىَّ بصرف عنايتك إلى قراءتها . فإنْ لم يمكنك تبحُّرها والتقصِّى لجميعها ، للأشغال التى

---

(1) صدرت هذه الرسالة بعبارة ليست من أسلوب الجاحظ ، ونصها : « الحمد لله رب العالمين كما هو أهله ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين كما أمر به ، وعلى آل محمد كما سنه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيراً » .

(2) فى الأصل : « ما تضمنتها » .

(3) لما ، هنا ، بمعنى إلا ، كما فى التنزيل العزيز : « إن كل نفس لما عليها حافظ » .

تَعروك ، فبحسبك[١] أن تقف على حدودها ، وتتعرّف معانىَ أبوابها بتصفّح أوائلها ؛ فإنّ معك قلباً به من اليقظة والذكاء ، والتوقّد والحفظ ، ما يكفى معه النّظر الخاطف[٢] .

إنه لم يخلُ زمنٌ من الأزمان فيما مضى من القرون الذاهبة إلاّ وفيه علماء محقّون، قد قرءوا كتب مَن تقدّمهم ، ودارسوا أهلها، ومارسوا [الموافقين[٣]] لهم ، وعانَوْا[٤] المخالفين عليهم ، فمَخَضوا الحكمة وعجموا عيدانها ، ووقفوا على حدود العلوم ، فحفظوا الأمّهات والأصول ، وعرفوا الشرائع والفروع ، ففَرَقوا ما بين الأشباه والنظائر ، وصاقبوا بين الأشكال والأجناس ، ووصلوا بين المتجاور والمتوازى[٥] ، واستنبطوا الغامض الباطن بالظاهر البيِّن ، واستظهروا على الخفىّ المشكل بالمكشوف المعروف ، وعُرفوا بالفهم الثّاقب والعلم الناصع ، وقضت لهم المِحنة بالذكاء والفطنة ، فوضعوا الكتب فى ضُروب العلوم وفنون الآداب لأهل زمانهم ، والأخلافِ من بعدهم . ١٢١ و
يزدلفون بذلك إلى الممتنّ عليهم بفضل المعرفة التى ركّبها الله فيهم ، وأبانهم من غيرهم ، وفضّلهم عليهم ، ويباهون به الأمم المخالفة لهم ، ويتبارون بذلك فيما بينهم . ولهم حُسّادٌ معارضون من أهل زمانهم فى تلك العلوم والكتب ،

---

(١) فى الأصل : « وبنفسك » .
(٢) فى الأصل : « نظر الخاطف » .
(٣) موضعها بياض فى الأصل .
(٤) من المعاناة . وفى الأصل : « وعابوا » .
(٥) فى الأصل : « بين المتجاوز والمتوارى » .

منتحلة يدّعون مثلَ دعاويهم ، قد وَسَموا أنفسَهم بسِمات الباطل[١] ، وتسمَّوْا[٢] بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقة ، ولبسوا لباس الزُّور متزخرفين متشبِّعين بما لا محصول له[٣] . يحتذون أمثلة المحقِّين فى زيِّهم وهَديهم ، ويقتفون آثارهم فى ألفاظهم وألحاظهم ، وحركاتهم وإشاراتهم ، ليُنسَبوا إليهم ويُحَلُّوا محلَّهم ، فاستمالوا بهذه الحيلة قلوبَ ضعفاء العامّة ، وجهلاء الملوك ، واتَّخَذهم[٤] المعادُون للعلماء المحقِّين عُدَّةً يستظهرون بهم عند العامّة . وحَملَ المدَّعيةَ للعلم المزوَّرِ الحسدُ على بَهْت العلماء المحقِّين ، وعَضْههم والطَّعن عليهم[٥] ، وجرّأهم على ذلك ما رأَوْا من صَغْو ضَعَفة القلوب وإذلّة الناس إليهم[٦] ، وميل جهلاء الملوك معهم عليهم ، وأمَّلوا أن ينالوا بذلك بشاشة العامة ، وتستوىَ لهم الرِّياسة على طَغام الناس ورَعَاعهم ، ويستخولوا رُعَاتَهم[٧] وقومَهم ، فهمرُوا وهدَروا[٨] وتوردَّوا

---

(١) أى بسمات غير حقيقية .

(٢) فى الأصل : « وسموا » .

(٣) تشبع : تزين بما ليس عنده . وفى الحديث : « المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبى زور » .

(٤) فى الأصل : « وانجدهم » .

(٥) العضه : أن يقول فيه ما لم يكن ؛ إفكا وبهتانا .

(٦) الصغو : الميل . وفى الأصل : « منه رأوا من صغو » .

(٧) فى الأصل : « رعاعهم » .

(٨) الهمر : الدمدمة بغضب . وجعلت فى ط : « فهمزوا » .

على أهل العلم بغباوتهم[١] ، وكشفوا أغطية الجهل عن أنفسهم ، وهتكوا ستراً كان مُسدَلا عليهم بالصَّمت . فقد قيل : « الصمت زَين العالم ، وسِتر الجاهل » ؛ طمعاً فى الرياسة وحبًّا لها . وقد قيل :

حبُّ الرياسة داءٌ لا دواء له وقلَّما تَجِدُ الراضين بالقسَمِ

ولم يخل زمنٌ من الأزمنة من هذه الطبقة ولا يخلو . وهلاكُ من هلك من الأمم فيما سلف بحبِّ الرياسة . وكذلك من يهلِك إلى انقضاء الدّهر فبحبِّ الرياسة .

١٢١ ظ وقد قيل : هلاكُ الناس منذ كانوا إلى أن تأتىَ الساعةُ بحبِّ الأمر والنَّهى ، وحبِّ السَّمع والطاعة .

فأشكل على العامّة أمرُ العالم الحقيقىّ والمدَّعى المجارى المنتحل للزُّور والباطل ؛ ثم ترادفَ عليهم من هذه العلل التى يعمى لها السبيل الواضح والطَّريق المنشأ[٢] ، على الجاهل المستضعف ؛ وذى الغَباء المسترهَف[٣] .

ولست آمَنُ ـ جعلنى الله فداك ـ أن تكون هذه الكتب التى أُعنَى بتأليفها ، وأتأنَّق فى ترصيفها ، يتولَّى عرضَها عليك من قد لبِس لباسَ الزُّور فى انتحال وضع مثلها ، ونسبَ نفسَه إلى القوّة على نظائرها ، والمعرفة بما يقاربها ، إن لم يكن أخاها فابنَ عمِّها ، وتشبَّعَ بما لم يُطعمْه الله منها .

---

(١) من قولهم : تورّدت الخيل البلدة ، إذا دخلتها قليلا قليلا قطعة قطعة . وفى الأصل : « توددوا » .

(٢) فى الأصل : « المنتا » .

(٣) من الرهيف ، وهو الرقيق اللطيف . وفى الأصل : « وذى الغنا » ، ووجهه ما أثبت .

ولعلَّ بعضَ من حَوْله[1] ، أو بعض من يهزل به ، ويرتع في عقله ويلهو بلبّه ، ويضعه على طَبطابة اللَّعب[2] ، وفى أرجوحة العبث ، يوهمه[3] الحسدَ له على ما يدّعى من ذلك ، ويتقدَّم إلى آخرين فى إيهامهم إياه ذلك ، فيزيده فعالُهم ضراوةً بادّعاء ما ليس معه وهو منه عارٍ . فإذا رجع إلى الحقائق علم أن َمثله كما قد قيل :

ومن يَســكن البحرَينِ يعظمْ طِحالُه
ويُغبَطْ بمـــا فى البطن والبطنُ جائع[4]

وقد قيل : « الذئب يُغبطُ وهو جائع » . فيلتوِى فى قراءتها ، ويقبض لسانه عن بَسطِ ما يحتاج أن ينشره منهـا ، ويقصِّر فى تفخيمِ حروفها ولا يملأ فمَه منها .

بلْ لا آمن أن يتجاوز ذلك إلى الطَّعن عليها بقولٍ أو إشارة ، فيوهم فسادَ معانيها ويُومى إلى سقوط ألفاظها ، من غير أن يُظهر المعاداة لها ، والحسدَ لمؤلّفها ، والحمل عليها بقولٍ يكون دليلاً على ما يضمر ، وهو أبلغ ما يكون من قلب المستمع وأنْجعُه فيـه[5] ، فيقع ذلك بِخَلَده . وقد قيل : « مَن يَسمع يَخَلْ » .

---

(١) فى الأصل : « ما حوله » .

(٢) الطبطابة : خشبة عريضة يلعب بها بالـكرة . وفى الأصل : « طبطاب » .

(٣) فى الأصل : « فيوهمه » .

(٤) البيت فى الحيوان ٤ : ١٣٩ والشعر والشعراء ٧٣١ وأمثال الميدانى ١ : ٢٥٥ .

(٥) فى الأصل : « وأنجعه » .

وليس يقابله أحدٌ بِرَدٍّ[١] ، ولا يوازيه بنزاع ، فيزداد نشاطاً عندما يرى من خلاء الأمر . وقد قيل : « كلُّ مُجْرٍ فى الخلاء يُسَرُّ[٢] » وكلُّ مناظر متفرّدٍ بالنظر مسرور ، وإنَّما يُعرَف جَرىُ الخيل عند المسابقة ، وبراعةُ النظر عند المخاصمة .

وقال لى بِشرٌ المريسى[٣] : عُرض كتابى على المأمون فى تحليل النَّبيذ ، وبحضرته محمد بن أبى العبّاس الطُّوسى ، فانبرى للطَّعن عليه والمعارضة للحُجج التى فيه ، وأسهبَ فى ذلك وخَطب ، وأكثر وأطنَب ، فقلِقَ المأمونُ واحتدم ، وهاج واضطرم ؛ لاستحقار الطُّوسى[٤] وخلاء المجلس له ، وكان ١٢٣ و

---

(١) فى الأصل : « بود » .

(٢) فى الأصل : « يسبق » ، صوابه من الحيوان ١ : ٨٨ و ٤ : ٢٠٧ والميدانى ٢ : ٧٣ وأمالى القالى ٢ : ٨٩ . ويروى أيضاً « مسر » كما فى البيان ١ : ٢٠٣ . وأصله أن الرجل يجرى فرسه فى المكان لا مسابق له فيه ، فهو مسرور بما يرى من فرسه . يضرب للرجل تكون فيه الخلة يحمدها من نفسه ولا يشعر بما فى الناس من الفضائل .

(٣) هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبى كريمة المريسى ، نسبة إلى مريس أو مريسة . ومريس : قرية بمصر ، اختلف فى ضبطها بفتح الميم وكسر الراء مخففة أو مثقلة ، أما مريسة فقد ضبطها صاحب القاموس كسكينة بكسر الميم وبتشديد الراء . كان أحد دعاة الجهمية ، وأبوه كان يهودياً قصارا صباغا . وإليه تنسب فرقة المريسية . توفى سنة ٢١٨ . تاريخ بغداد ٣٥١٦ والسمعانى ٥٢٣ ولسان الميزان ٢ : ٢٩ — ٣١ .

(٤) الاستحقار : الاحتقار والاستصغار .

يحبُّ أن يَزَعَه وازعٌ يكفُّه بحجّةٍ تُسكته ، فلما لم ير أحداً بحضرته يذبُّ عن كتابى قال متمثلاً :

يا لكِ من قُبَّرةٍ بمعمَرِ خلا لكِ الجوُّ فبيضى واصفِرى
ونقِّرى ماشئتِ أن تنقِّرى[1]

فما كان إلاَّ ريثَ فراغِه من التمثُّل بهذه الأبيات حتى استؤذن لى فدخلتُ عليه ، فقال : يأبا عبد الرحمن ، ما تقول فى النبيذ ؟ فقلت : حِلٌّ طِلقٌ يأمير المؤمنين . فقال : فما تقول فيما أسكر كثيره ؟ قلت : لعنَ الله قليلَه إذا لم يسكر [إلاّ[2]] كثيره . ثم قال : إنَّ محمداً يخالفك . فأقبلت على ابن أبى العباس فقلت له : ما تقول فيما قال أمير المؤمنين ؟ قال : لا خلافَ بينى وبينك . كلاماً يوهم به أهلَ المجلس ، حبًّا للتسلُّم منّى والتخلُّص من مناظرتى ، لا على حقيقة التحليل له . فاستغنمت ذلك منه وقلت له : فما لى لا أرى أثر قُواه فى عقلك ؟ فضحك المأمون ، فلمّا رأيت ضحكَه أطنبتُ فى معانى تحليل النبيذ ، وابن أبى العباس ساكتٌ لا ينطق ، وكان قبل دخولى ناطقاً لا يسكت . فلما رأى المأمونُ سكوتَه عند حضورى مع كثرة كلامه فى ثَلْب كتابى وعيبِه ـ كان ـ قبل دخولى ، قال متمثِّلاً :

مالكَ لا تنبحُ يا كلبَ الدَّوْمْ قد كنتَ نبّاحًا فما لك اليومْ[3]

---

(١) الرجز لطرفة ، قاله وهو صغير يصطاد القبر ، وهو ضرب من الطير . وقال ابن برى : هو لكليب بن ربيعة التغلبي وليس لطرفة . اللسان (قبر) . وذكر ابن قتيبة فى الشعراء ١٤٠ أنه أول شعر قاله طرفة . وانظر الحيوان ٣ : ٦٦ و ٥ : ٢٢٧ .

(٢) ليست بالأصل .

(٣) أنشده فى الحيوان ٢ : ٧٥ .

ثم نظرَ إلىَّ فقال : إنَّ الكتب عقولُ قومٍ وراءها عندهم حججٌ لها ، فما ينبغى أن يُقضَى على كتابٍ إلّا إذا كان له دافع عنه، وخَصمٌ يُبين عمّا فيه ؛ فإنّ أبناء النِّعَم وأولاد الأُسْد محسودون .

ثم قال : ياأبا عبد الرحمن ، بإزاء كل حاسد راهن .

وقد قيل فى مثلٍ من الأمثال : « الحَسَنُ[١] محسود » . وفى مثل آخر : « لن تعدَم الحسناء ذامًا[٢] » . وقال الأحنف بن قيس : ١٢٢ ظ

ولن تصادف مَرعًى ممرعًا أبدًا ... إلّا وجدت به آثار مأكولِ[٣]

يقول : يُعاثُ[٤] فى كلِّ [مرعًى[٥]] حَسَنٍ ويؤكل منه ، فيَعيبه ذلك .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ما أحدث الله بعبدٍ نعمةً إلّا وجدتَ له عليها حاسداً . ولو أنَّ امرأً كان أقْوَمَ من القِدْح لوَجدتَ له غامزاً[٦] » .

---

(١) فى الأصل : « الحسد » .

(٢) الذام ، بتخفيف الميم : العيب . ومثله الذيم . وضبطت فى ط بتشديد الميم سهوا .

(٣) وكذا فى أصل عيون الأخبار ٤ : ٩ . لكن فى أدب الدنيا والدين ١٣٥ « آثار منتجع » . والبيت فيه بدون نسبة .

(٤) فى الأصل : « يقال يعاب » .

(٥) تكملة يقتضيها القول .

(٦) القدح ، بالكسر : السهم .

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : الحاسد لا يملك إلا عنانَ حسَده ؛ لأنّه مغلوبٌ على نفسه .

وقال الخطّاب بن نُمَير السّعدىّ : الحاسد مجنون ؛ لأنه يحسُد الحسنَ والقبيح .

وقال المهلّب بن أبى صفرة : الحسد شِهابٌ لا يبالى من أصابَ ، وعلى مَن وقع .

والعداوة لها عقل تسوس به نفسَها فيَنجُم قرنُها ، وتُبدى صفحتها فى أوقات الهِتْر . وإلّا فإنها كامنةٌ تنتهز أزمنة الفرص . والحسَد مسلوب المعقول بإزاء الضّمير فى كلّ حينٍ وزمانٍ ووقت .

ومن لؤم الحسد أنه موَكَّل بالأدنى فالأدنى ، والأخصِّ فالأخصّ . والعداوة وإنْ كانت تقبِّح الحسَن فهى دونَ الحسد ؛ لأنَّ العدوَّ المباين قد يَحُول وليًّا منافقاً ، كما يَحُول المولَى المنافق عدوًّا مباينا .

والحاسد لا يزول عن طريقته إلّا بزوال المحسود عليه عندَه . والعداوة تَحدُث لعلّةٍ[1] ، فإذا زالت العلّة زالت معها . والحسد تركيب لعله يحسد عليه[2] فهو لا يزول إلّا بزواله . ومن هذا قال معاوية رحمه الله : يمكننى أن أُرضىَ الناس كلّهم إلّا حاسدَ نعمة ، فإنّه لا يرضيه منها إلّا زوالها .

وأعداء النِّعمة إذا شوركوا فيها ونالوا منها تزحزحوا عن عداوتها ، وكانوا من أهلها المحامينَ عنها ، والدافعينَ عن حماها .

---

(١) فى الأصل : « العلة » .

(٢) كذا فى الأصل .

ومن هذا قال المغيرة بن شُعبة : النعمة التى يُعاش فيها نعمةٌ محروسة ليس عليها ثائر يغتالها ، ولا ذو حسد يحتال فى غِيَرها .

١١ و وقال قتيبة بن مسلم : خير الخير وأحصنُه خيرٌ عِيشَ فيه . وكلُّ خيرٍ كان يُرضَخُ[1] بذلاً كان من المتالف ممنوعًا ، ومن الغِيَرِ آمنا .

وحُسَّاد النعمة إن أُعطوا منها وتَبَحبَحُوا فيها ، ازدادوا عليها غَيظًا وبها إغراء .

والعداوة تُخلِقُ وتُمَلّ ، والحسد غَضٌّ جديد ، حُرِم أو أعطِيَ[2] ، لا يبيد . فكل حاسدٍ عدوٌّ ، وليس كل عدوّ بحاسد . وإنَّما حمل اليهود على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم — وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أنّه نبيٌّ صادق ورسول مُحِقّ ، يقرءون بَعثه فى توراتهم ، ويتدارسونه فى بيت مِدْراسهم[3] — الحسدُ ، وحجز بين علمائهم والإيمان به ، ثم نَتَجَ لهم الحسدُ عداوتَه .

ومن الدليل على أنَّ الحسدَ آلم وآذَى وأوجعُ وأوضَع من العداوة ، أنّه مُغرًى بفعل الله عزّ وجلّ ، والعداوة عاريَة من ذلك لا تتّصل إذا اتّصلت إلّا بأفعال العباد . ولا يُعادَى على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم تسمع أحدًا عادى أحداً لانّه حسن الصورة جميلُ المحاسن ، فصيح

---

(١) رضخ له من ماله رضخا : أعطاه . والبذل : السخاء . وفى الأصل : « يوضح بدلا » .

(٢) فى الأصل : « إذا عطى » .

(٣) المدراس : الموضع الذى يدرس فيه . وفى الأصل : « مدارستهم » .

اللسان حسَن البيان . وقد رأيتَ حاسدَ هذه الطبقة وسمعتَ به ، وهم كثير تعرفهم بالخبَر والمشاهدة .

فهذا دليلٌ على أن الحسدَ لا يكون إلّا عن فساد الطبع ، واعوجاج التركيب ، واضطراب السُّوس(١) .

والحسد أخو الكذب ، يجريان فى مضمار واحد ؛ فهما أليفان لا يفترقان ، وضجيعان لا يتباينان . والعداوة قد تخلو من الكذب ؛ ألا ترى أنّ أولياء الله قد عادَوْا أعداء الله إذْ لم يستحلُّوا أن يكذبوا عليهم ؟ ! والحسد لا يبرأ من البُهت ، وكيف يبرأ منه وهو عموده الذى عليه يعتمد ، وأساسه الذى به البناء يُعقَد . وأنشد :

كضَرائر الحَسْناء قُلن لوجهها   كذباً وزوراً إنّه لدميمُ(٢)

والحسد نارٌ وَقودُه الرُّوح، لا تبُوخ أبدًا أو يَفْنَى الوَقود(٣) . والحسد لا يبلَى إلاّ ببِلى المحسود أو الحاسد . والعداوة جمر يُوقده الغضب ، ويطفئه الرِّضا ، فهو مؤمَّل الرُّجوع مرجوّ الإنابة(٤) . والحسد جوهرٌ والعداوة اكتساب .

١٢٣ وقال بعضهم : الحسد أنثى ، لأنّه ذليل ؛ والعداوة ذكرٌ فَحْل ، لأنَّها عزيزة .

---

(١) السوس ، بالضم : الطبع ، والخلق ، والسجية .

(٢) البيت لأبى الأسود الدؤلى . انظر حواشى البيان ٤ : ٦٣ . وفى البيان : « حسدا وبغيا » . والضرائر : جمع ضرة ، بالفتح وهى امرأة الزوج ، جمع نادر .

(٣) فى الأصل : « ويفنى الوقود » .

(٤) الإنابة : الرجوع ، وفى التنزيل العزيز : « منيبين إليه » .

والحسد وإنْ كان موكَّلا بالأدنى فالأدنى فإنّه لم يعرَ منه الأبعد فالأبعد. فقد رأينا وشاهدنا مَن كان يسكن العراق وينتحل العلم والأدب، انتهى إليه خبرُ مشاركٍ له فى الصناعة من أهل خراسان وجَنْبة بَلْخ[1] من اتّساق الرياسة فى بلده، وجميل حالِه ونبيل محلّه عند أهل مصره، وطاعةِ العامّة له، وترادُف الناس عليه، فطار قلبه فرَقًا، وأخذَتْه الأَرْباء[2]، وتنفّس الصُّعداء وانتفضَ انتفاضَ المُفْلس المطور[3]، فقال لى رجلٌ من إخوانى كان عَن يمينى، حين رأى ما رأى منه: بحقٍّ قال من قال: «لم يُرَ ظالم أشبه بمظلوم من حاسدِ نعمة؛ فإنّ نَفَسه متّصل، وكربَه دائم، وفِكرته لا تنام».

وهو فى أهل العلم أكثر، وعليهم أغلب، وبهم أشدُّ لصوقًا منه بغيرهم من الملوك والسُّوقة. وكأنّ من ناله التقصير فى صناعة العلم عن غايته القصوى[4] قد استشعر حسدَ كلّ ما يرِدُ عليه من طريف أدبٍ، أو أنيقِ كلام، أو بديعِ معنًى. بل قد وقع بخَلَده لضعفه، وقرّ فى رُوعه لخساسته[5]، أنّه لا ينال أحدٌ منهم رياسةً فى صناعة، ولا يتهيّأ له سياسةُ أهلها، إلّا بالطّعن

(١) فى الأصل: «وحه»، بدون نقط. والجنبة: الناحية. وانظر الحيوان ٤ : ٤٩.

(٢) الأرباء: جمع ربو، وهو البهر والنهيج وتواتر النفس.

(٣) هذا عكس ما أنشده فى الحيوان ٣ : ٢٢٨:

وكنت فيهم كممطور ببلدته فسر أن جمع الأوطان والمطرا

وفى الأصل: «المعلس» تحريف.

(٤) فى الأصل: «عن غاية القصوى».

(٥) الخسامة: الخسة والدناءة. وفى الأصل: «لخامته».

على نواصيهم[١] ، والعيب لِجِلّتهم ، والتحيُّف لحقوقهم .

قال لى مسلم بن الوليد الأنصارى الشاعر ، الذى يُعرَف بصريع الغوانى[٢] : خُيِّـل إلى نَوكَى الشُّعراء أنَّهم لا يُقضَى لهم بجودة الشِّعر إلّا بهجائى والطَّعن فى شعرى ، ولسانٍ يُهجَى به عرضى ، لا أنفكُّ متَّهما[٣] من غير جُرم ، إلَّا ما سبق إلى قلوبهم من وساوس الظنون والخواطر التى أوهمتهم أنه لا يسجَّل لهم بجودة الشعر إلَّا إذا استعملوا فىَّ ما خُيِّل إليهم .

وأخبرنى أشياخنا من أهل خراسان أنّ أبا الصَّات الهروىّ كان عند الفضل بن سهل ذى الرياستين بمرو ، فقرأ عليه كتاباً ألَّفه النَّضر بن شُميل ، فطعَن أبو الصَّلت فيه ، وكان الفضل عارفاً بالنضر الشُّميلىّ ، واثقاً بعلمه ، مائلاً إليه ، فأقبلَ على أبى الصَّلت وقال له : إن يحيى بن خالدٍ قال يومًا : إنّ كتبي لتُعرَضُ على من يغلَط فهمه عن معرفتها ، ويَجسُو ذهنُه عنها ، ولا يبلغ أقصى علمه ما فيهـا[٤] — يُعرِّضُ[٥] بإسماعيلَ بن صُبيح[٦] — فيطعنُ فيها ولا يدرى ما يُقرأ عليه منها . إلَّا أن نار الحسد تُلهِبه فيَهذى

١٢٤ و

---

(١) النواصى : جمع ناصية ، وهم الرؤساء والأشراف .

(٢) توفى مسلم بن الوليد سنة ٢٠٨ ، كما فى النجوم الزاهرة . ٢ : ١٨٦ . وكان قد اتصل بذى الرياستين الفضل بن سهل ، فولاه بريد جرجان ، وبها مات . معجم المرزبانى ٣٧٢ .

(٣) فى الأصل : «منهما» .

(٤) فى الأصل : « أمانيها » .

(٥) فى الأصل : « فعرض » .

(٦) كان إسماعيل بن صبيح كاتباً ليحيي بن خالد البرمكى . الجهشيارى ١٥٠ . وقلده إبراهيم الحرانى ديوان زمام الشام وما يليها . الجهشيارى ١٦٨ .

هَذَيانَ المريض ، ويهمِزُ همَزات الغَيْرَى[1] ، ثم لا يرضى أن يقفَ عند أوّل الطعن ويَميلَ عنه حتّى يستقصيَ على نفسه إظهارَ جهله عند أهل المعرفة ، باستيعابه الطَّعن على ما لم يبلغ درايتَه ، ولم يُحِط به علمه ، ثم يُنسيه جهلَه الطَّعنَ الذى تقدَّم منه فيها ، ويَحمله نوكُه على استعمال معانيها وألفاظها ، فى كتبه إلى إخوانه وأعوانه الذين شهدوه فى أوانِ طعنه عليها ، وحين ثَلْبه لها .

وقد عرفتُ حقيقةَ ما قال يحيى بن خالدٍ بالتَّجربة والابتلاء . وإنّى ربّما ألّفت الكتابَ المحكم المتقَن فى الدِّين والفقه ، والرسائل والسِّيرة ، والخُطَب والخراج والأحكام ، وسائر فنون الحكمة ، وأنسبهُ إلى نفسى ، فيتواطأ على الطَّعن فيه جماعةٌ من أهل العلم ، بالحسَد المركّب فيهم ، وهم يَعرِفون براعته ونَصاعته . وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلَّفاً لملِكٍ معه المقدرة على التقديم والتأخير ، والحطِّ والرّفع ، [والترغيب[2]] والترهيب ، فإنَّهم يهتاجون عند ذلك اهتياجَ الإبل المغتلمة ، فإن أمكنتْهم حيلةٌ فى إسقاط ذلك الكتاب عند السيِّد الذى أُلِّف له فهو الذى قصدوه وأرادوه ، وإنْ كان السيِّد المؤلَّفُ فيه الكتابُ نِحريراً نِقاباً ، ونِقريساً بليغاً ، وحاذقاً فطناً ، وأعجزتْهم الحيلة ، سرَقوا معانىَ ذلك الكتاب وألّفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً ، وأهدَوه إلى ملك آخر ، ومتُّوا إليه به[3] ، وهم قد ذمّوه وثَلَبوه لمّا رأوه منسوباً إلىّ ، وموسوماً بى .

---

(١) الهمز : العيب . والهماز : العياب . وفى الأصل : « همزان » ، تحريف .

(٢) ليست فى الأصل .

(٣) أى توسلوا به إليه . والمت : التوسل بحرمة أو قرابة .

١٢٤ ظ

وربّما ألفتُ الكتاب الذى هو دونَه فى معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيرى ، وأُحيله على من تقدّمنى عصرُه مثل ابن المقفّع والخليل ، وسَلْم صاحبِ بيت الحكمة(١) ، ويَحيى بن خالد ، والعَتّابىّ ، ومن أشبه هؤلاء من مؤلِّفى الكتب ، فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكَمَ من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتابِ وقراءته علىّ ، ويكتبونه بخُطوطهم ، ويصيِّرونه إمامًا يقتدون به ، ويتدارسونه بينهم ، ويتأدّبون به ، ويستعملون ألفاظَه ومعانيَه فى كتبهم وخطاباتهم ، ويروونه عنّى لغيرهم من طلاّب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة ، [و] يأتمُّ بهم قومٌ فيه ؛ لأنه لم يترجَم باسمى ، ولم يُنسَب إلى تأليفى .

ولربّما خرج الكتابُ من تحت يدى مُحصَفًا كأنّه متنُ حجرٍ أملسَ ، بمعانٍ لطيفةٍ محكمةٍ ، وألفاظ شريفة فصيحة ، فأخاف عليه طعنَ الحاسدين إنْ أنا نسبتُه إلى نفسى ، وأحسد عليه من أهمُّ(٢) بنسبته إليه لجودة نظامه وحسن كلامه ، فأُظهره مُبْهمًا غُفلًا فى أعراض أصول الكتب التى لا يُعرف وُضّاعها ، فينهالون عليه(٣) انهيال الرَّمْل ، ويستبِقون إلى قراءته سباقَ الخيل يوم الحَلْبة إلى غايتها .

وحسَدُ الجاهلِ أهونُ شوكةً وأذلُّ مِحَنا ، من حسَد العارف الفطِن ؛ لأنّ الحاسد الجاهل يبتدر إلى الطّعن على الكتاب فى أوّل وهلة يُقرأ عليه ، من

---

(١) ذكره ابن النديم فى الفهرست ١٧٤ قرينا لسهل بن هارون صاحب خزانة الحكمة ، وسعيدِ بن هارون شريك سهل بن هارون فى بيت الحكمة .

(٢) ط : « أهتم » ، خلافا لما فى الأصل .

(٣) فى الأصل : « عليها » .

قبل استتمام قراءته ورقةً واحدة ؛ ثم لا يرضى بأيسر الطعن وأخفِّه حتّى يبلغ منه إلى أشدِّه وأغلظه ، من قَبلِ أن يقف على فصوله وحدوده[1] . وليس ثَلْبُه مفسَّرًا مفصَّلا ، ولـكنه يُجمل ذلك ويقول : هذا خطأ من أوّله إلى آخره ، وباطل من ابتدائه إلى انقضائه ، ويحسب أنّه كلما ازداد إغراقًا[2] وطَعنًا وإطنابًا فى الحَمْل على واضع الـكتاب[3] ، كان ذلك أقربَ إلى القَبول منه . وهو لا يعلم أنَّ المستمع إليه إذا ظَهَر منه على هذه المنزلة استخَفّ به ، وبكّته بالجهل ، وعلم أنّه قد حكم من غـير استبراء ، وقضَى بغير رويّة ، فسقطَ عنه وبطل .

١٢٥ و

والحاسد العارف الذى فيه تقيَّة ومعه مُسكة ، وبه طَعْمٌ أو حياة[4] ، إذا أراد أن يغتال الـكتاب ويحتال فى إسقاطه ، تصفّح أوراقه ووقف على حدوده ومفاصله ، وردّد فيه بصره وراجعَ فـكره ، وأظهر عند السيِّد الذى هو بحضرته وجلسائه ، من التثبُّت والتأنّى حِبالةً يقتنص بها قلوبهم ، وسببًا يسترعى به ألبابهم[5] ، وسُلَّما يرتقى به إلى مرادِه منهم ، وبِساطًا يَفرِشُ عليه مصارعَ الُخدَع . فيوهم به القصـدَ إلى الحقّ والاجتباء له . فربّما استرعى[6] بهذه المخاتل والُخدَع قلبَ السيِّد الحازم .

فمن أعظم البلايا وأكبر المصائبِ على مؤلِّفى الـكتب إذا كان العارض

---

(١) فى الأصل : « وحروفه » . وانظر س ١١ .

(٢) فى الأصل : « غرقا » .

(٣) فى الأصل : « وضع الـكتاب » .

(٤) الطعم : العقل . وفى الأصل : « طعمة » .

(٥) فى الأصل : « يستدعى » .

(٦) فى الأصل : « استدعا » .

لها على السيِّد الذى منه تُرجَى أثمانها ، وعنده تنفقُ بضائع أهلها ، على هذه الصِّفة التى وصفتُها من الحسد والحذقِ بأسبابه ، والمعرفة بالوجوه التى تثلم المحسودَ وتهدُّه ، وتضع منه ومن كتبه . لا سيّما إنْ كان مع استبطان الحسَد واستعمالِ الدهاء والذَّكاء جليساً لازماً ، وتابعاً لايفارِق ، ومحدِّثاً لا يَرِيم ، وليست له رِعَةٌ[1] تحجُزُه عن الباطل ، ولا معه حذرٌ يبعثه على الفكر فى العواقب ؛ فإنّ هذا ربَّما وافقَ فترةَ السيِّد بطُول ترداد الكلام ، وكثرة تكراره عليه ، من تأكيدِ خطائه[2] ، ونُصرته قوله ، وذِياده عنه ، واحتجاجه فيه ، فيؤثِّر فى قلبه ، ويضجِّع رأيه[3] . فليس للسيِّد الذى يحبُّ أن تصير إليه الأمور على حقائقها ، وتُصوَّرَ له الأشياء على هيئاتها ، حيلةٌ فى ذلك إلاّ حسمَ مادّة هذا من أهل الحسَد ، بالإعراض عنهم ، والاحتجاز دونهم .

وربَّما بلغ من الحاسد جهد الحسد إذا لم يُعمَل بشهوته ، ولم تنفذ سهامُ لطائفه ، أن يقرَّ على نفسه بالخطأ ، ويعترفَ أنّ الطَّعن الذى كان منه فى الكتاب عن سهوٍ وغفلة ، وأنّه لم يكن بلغ منه فى الاستقصاء ما أراد ، وكان مشغولَ الفكر مقسَّم الذهن ، فلمّا فرغَ له ذهنُه وانفرد له همُّه راجع ما كان[4] بدرَ منه ، لتُظنَّ به الرِّعةُ ، ويقالَ إنّه لم يرجع عن قوله واعترفَ بالخطأ إلاّ من عقل وازع ، ودِينٍ خالص . وإنما ذلك حيلةٌ منه ودهاء

١٢٥ ظ

(١) الرعة : التقى والتحرج ، يقال ورِع يرِع ويَوْرَع رِعَة ووَرعا ، وورُع يورُع وروعا ووَراعة . وفى الأصل : « زعة » تحريف .

(٢) الخطاء ، كسحاب : الخطأ . وجعلت فى ط « خطابه » سهوا .

(٣) التضجيع : التوهين .

(٤) فى الأصل : « وكان » .

قدَّمه أمامَ ما يريد أن يوكِّد لنفسه ويوطِّد لها، من قبول القَول في سائر ما يَرِد عليه من الكتب عن غير مواقفةٍ على مَوَاضع، ويجعل ما قد تقدَّم له من الرُّجوع عن قوله عند ما تبيَّن له[1] خلافُ ما قال، أوثقَ أسباب عدالته، وأحكمَ عُرَى نَصَفته.

وكان يقال: مِن لطيف ما يستدعى به الصِّدقُ إظهار الشك في الخبر الذي [لا[2]] يُشَكُّ فيه.

وكان يقال: من غامض الرياء أن تُرَى بأنك لا ترائي. ومن أبلغ الطَّعن على ما تريد الطَّعن عليه أن تطعن ثم تستغفر الله، ثم تتمهَّل فترةً[3]، ثم تَعودَ لطعنٍ هو أعظم منه وأطمُّ من الأوَّل؛ ليُوثَق بك فيه، ويقالَ: إنَّ هذا لو كان عن حسدٍ ما رجَع عن الطعن الأوَّل.

وقد قيل: ذو الغِيبة المشهورُ بها المنسوب إليها يقلُّ ضررُه، ويضعُف كيده، لما شاع له في الناس وانتشر منه، فكان عندهم ظَنيناً متَّهماً، ومطبوعاً عليها، يستمعون منه على قضاء ذمام المجالسة والتلذُّذ به، من غير قبول[4] ولا اصطفاء له.

وإنما البليّة في غِيبة حُذّاق المغتابين الذين يسمعون، فيضحكون ولا يتكلَّمون. وأحذق منهم الذين يستمعون ويُسكِتون القائل ويدعون اللهَ

---

(١) في الأصل: «عند التبين له».

(٢) ليست في الأصل.

(٣) في الأصل: «ثم تمهل فترد».

(٤) في الأصل: «قول».

بالصَّلاح المقُول فيه ، فهم قد أسكتوا القائل المغتاب ودعَوا للمقُول فيه ، وأوكدوا قول القائل[1] ؛ لأنَّه لو حلَّ عندهم محلَّ البراءة مما قيل له لجُبِّه القائلُ ورُدِع عن قوله .

ومُظهِر التَّوقّى قليلهُ عند العامّة كثير . والمتورِّد المتقحِّم لا تكاد العامّة تقبل منه . ١٢٦

وقد قال بعض العلماء : إنَّ عُبيد الله[2] بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كان من نبلاء المغتابين وحُذَّاقهم حيثُ يقول :

مَسَّا تُرابَ الأرض ، منه خُلِقتُما ... وفيها المعادُ والمصير إلى الحشرِ

ولا تعجبا أن تُؤتَيا وتعظَّما ... فما حُشِيَ الإنسانُ شرًّا من الكِبرِ[3]

فلو شئت أدلى فيكما غير واحد ... علانيةً أو قال ذلك في سرٍّ[4]

فإن أنا لم آمُر ولم أنهَ عنكما ... ضحِكتُ له حتّى يلجَّ فيستشرى

ومن هذا سرق العتابيُّ[5] المعنَى حيث يقول :

إنْ كنتَ لا تحذر شتمى لما ... تعرِف من صفحى عن الجاهلِ

---

(١) يقال وكده توكيدا ، وأوكده ، وآكده إيكادا .

(٢) فى الأصل : « عبد الله » ، صوابه من البيان ١ : ٣٥٦ . وانظر الحيوان ١ : ١٤ .

(٣) فى المحبر ٢٩٧ : « لا تعجبا أن تؤتيا وتكلما » ، وفى البيان والحيوان : « ولا تأنفا أن ترجعا فتسلما » .

(٤) فى الأصل : « أدنى فيكما » ، صوابه من المراجع السابقة .

(٥) هو كلثوم بن عمرو العتابى ، من شعراء الدولة العباسية ، كان منقطعا إلى البرامكة فوصفوه للرشيد ووصلوه به ، فبلغ عنده كل مبلغ . الأغانى ١٢ : ٢ — ٩ وتاريخ بغداد ١٩٦١ ومعجم الأدباء ١٧ : ٢٦ . على أن الأبيات نسبت فى الخزانة ٤ : ١٢ إلى كعب بن زهير .

فاخشَ سكوتى سامعاً ضاحكاً فيك لشنويع من القائلِ
مقالةُ السُّوء إلى أهلها أسرعُ من منحدرٍ سائلِ
ومَن دعا الناسَ إلى ذمّه ذمّوه بالحق وبالباطل

وسئل القاسم بن معن عن ابن أبى ليلى ، فقلَّب كفَّيه[1] وقال :

من الناس من يَخفَى أبوه وجدُّه وجدُّ أبى ليلى لكالبدر ظاهرُ

فلم تثبت عليه به حجةٌ فى ذمٍّ له ولا مدح . وقد بلغ ما أراد .

وسئل يوماً عن علمه فقال : أوعُوه وَطْباً ، فإن كان محضاً أو مشُوباً أظهرَه الوطبُ وماخِضُوه[2] .

فإنْ قَدَحَ ـ جعلنى الله فداكَ ـ بالحسدِ قادحٌ فيما أؤلفه من كتابى لك ، وسبقَ إلى وهمك شكٌّ فيه ، أعلمتَنى النُّكتةَ التى قَدَح فيها ، ثم قابلْه بجوابى ، فإنى أرجو ألاَّ تحتاج إلى حاكم عند تجاثِى القولين بين يديك ، لعلوّ الحقّ على الباطل ، ودموغه إيَّاه .

١٢٠ ظ

والحسد أذلُّ نفساً من أن يُجاثىَ أحدًا ، والعداوة إنَّما قدّمت عليه لأنها عزيزةٌ منيعة .

ويقال : الحسد لا يبدو إلاّ فى العين وعلى اللسان المقصور عند أهله المؤتلفين على . . .[3] والعداوة تبدو وتَنجم قُرونها وينبسط لسانها عند الموافقين له والمخالفين عليه .

---

(١) فى الأصل : « كفه » .

(٢) يعنى من يمخضون الوطب .

(٣) بياض فى الأصل بمقدار كلمة .

وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شيبة فقال : ذاك امرؤ سِيطَ بالحسد وجُبِل عليه ، فليس له أخٌ في السرّ ولا عدوٌّ في العلانية[١] .

وسئل العَتَّابى عن أهل بغداد فقال : حُسّادٌ ، إخوانُ العلانيةِ ، وأعداء السّريرة ، يعطونك الـكلَّ[٢] ويمنعونك القُلَّ .

ومما يدلُّك على أنَّ الحسد أخسُّ وأغبَنُ من العداوة ، أنَّ المِلَل كلَّها ذمّتْه وعابته . ولا نعلم أنَّ شاذًّا من الشواذّ ، وشارداً من الشُّرّاد ، فضْلاً عن جِيل من الأجيال ، أمرَ بالحسد ؛ كما قيل : « عادِ مَن عاداك ، وقارعْ بالعداوة أهلها » . ثم عظُم شأنُ العداوة عندهم ، وجلَّ قدرُها لديهم ، حتّى اختلفوا في وجوه العمل فيها ؛ فمنهم مَن أمر بها على الحزم والعقل .

وقال الشَّعبىُّ لبِشر بن مروان : لو وجَّهتَ إلى عمرو بن محمد بن عقيل مولى آل الزُّبير — وكانَ شتَمه — مَن يأتيك به سحباً وجرًّا ! فقال بشر : إنّى مستعملٌ في عدوِّى قولَ القائل :

وعادِ إذا عاديتَ بالحزم والنُّهى تَنلْ ظفراً ممن تُريد وتَغلبُ

فكان بهذا ممن يرى المعاداةَ بالحزم ، ويغتالُها بالعقل والتأنِّى .

وكان عروة بن المغيرة يقول : شرُّ العداوة ما سُتِر بالمداراة ، وأشقاها للأنفس ما قُرِع بمثلها بادياً . وكان ينشد :

---

(١) انظر البيان ١ : ٤٧ ، ٣٤٠ والحيوان ٥ : ٥٩٢ وعيون الأخبار ٣ : ٧٣ .

(٢) انظر ماسبق في ص ٢٤٨ ، ٢٩٨ .

لا أتقي حَسَكَ الضَّغائن بالرُّقى فِعلَ الذليلِ ولو بقيتُ وحيدا[1]

١٢٧ و لكن أُعِدُّ لها ضغائنَ مثلها حتّى أداوىَ بالحقود حُقودا

كالخمْر خير دوائها منها بها تَشفى السَّقيمَ وتُبرئُ المنجودا[2]

فانتهى قوله إلى ابن شُبرمة فقال : « لله درُّ عُروةَ ، هذه أنفس العرب ! » .

فهؤلاء رأوا كشفَ المعاداة ولم يَرَوا التأنّي .

ومنهم من رأى المعاداةَ بعد الفِرار منها والإعذار فيها ، فإن هي أبت إلا المقارنة قارَنوها بمثلها .

قال شبيب بن شيبة : إذا رأيت الشرَّ قد أقبل إليك فتطامَنْ له حتّى يتخطّاك ، ولا تَهِجْه ولا تبحثْ عنه ؛ فإنْ أبَى إلاّ أن يَبرُكَ عليك فكن من الأرض ناراً ساطعة تتلظّى[3] . وأنشد :

إذا عاداكَ محتنِكٌ لبيبٌ فعادِ النَّومَ واحترسِ البيَاتا

ولا تُثِرِ الرَّبوضَ وخلِّ عنها وإن ثارت فكن شَبحًا مَواتا

---

(١) الحسك : جمع حسكة ، وهى الشوكة .

(٢) المنجود : المكروب . و نحوه قول أبي نواس :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

وأصل المعنى للأعشى حيث يقول :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

انظر سرقات أبي نواس لمهلهل بن يموت ص ٧٠ .

(٣) فى الأصل : « ساطعا سلق » .

تَجُزْكَ إلى سواكَ ونَحِّ عنها نخـير الشرِّ أسرعه فَواتا[1]
وإن مالت عليك وخفتَ منها فواجِهْها مجاهرةً صِلاتا[2]

ومنهم من أمر بقبول الإنصاف وترك المحاسبة . قال عبيد الله بن عبد الله ابن [عتبة بن] مسعود : إنّ الملاماتِ والمذمّاتِ كلَّها قبيحة ، وأقبح المَلامة والمذَمّة ما كانتا فى ترك نَصَفة أو شدّة منافسةٍ فى تعداد الذُّنوب . وأنشد :

منافسـةُ العدوِّ أو الصـديقِ تجرُّ إلى المذمّة والملامـه
إذا أعطاك نِصفًا ذو وِدادٍ وبعضَ النِّصف فانتهز السَّلامه[3]

ومنهم من قال : لا ترض من عدوّك إلاّ بالظُّلم ، ولا تقبلْ إنصافه ونافسه فى ذلك[4] . قال العباس بن عبد المطلب :

أبا طالب لا تقبل النِّصف منهم ولو أنصفوا حتى تَعُقَّ وتَظلما

ومنهم من أمر بمعونة الدهر على العدوّ إذا حمل عليه . قال : حدثنى إبراهيم بن شُعبة المخزومى قال : سمعت من حكى لى عن مُصعَب بن الزبير قال : إذا رأيت يد الدهر قد لطمتْ عدوّك فبادره برجلك ، فإنْ سلم من الدّهر لم يسلمْ منك . وأنشد :

إذا برِكَ الزّمانُ على عدوٍّ بنكبته أعنتَ له الزّمانا

١٢٧ ظ

---

(١) فى الأصل : « ونح عليها » .
(٢) مصدر صالتَ ، والفعل ومصدره لم يرد فى المعاجم المتداولة . ومادة (صلت) تدل على الظهور والسرعة .
(٣) النصف ، بالكسر : الانصاف .
(٤) فى الأصل : « من ذلك » .

قال العتّابى : قلت لطوق بن مالك[١] : إنّ من شرط الدهر ومن صناعة الزمان السّالب ، فإذا حملت الأيام على عدوّك ثِقلاً وأمكنتك منه فزِده ثِقلًا إلى ثقله . قال : فقال لى طَوْق : من لم ينتهز من عدوّه انتهزَ منه ، وحالت الأيام التى كانت بيضًا عليه سودًا . وأنشد :

لله درُّكَ ما ظننتَ بثائرٍ حَرّانَ ليس على التُّراب براقدِ
أحقدتَه ثم اضطجعتَ ولم ينم أسفًا عليك وكيف نومُ الحاقدِ
إن تُمكِنِ الأيامُ منك ، وعَلَّها ، يومًا تُوَفِّك بالصُّواع الزائد[٢]
ولئن سلمتَ لأتركنَّك عارضا بعدى لكل مُسالمٍ ومعاند

ومنهم من كان يرى جَبر كسرِ العدوّ وإقالةَ عثرته ، ونُصرتَه عند ونُوب الدّهر عليه .

قال : حدثنى ابن عبد الحميد قال ابن شُبرُمة[٣] : كانت الحرب يوم

---

(١) فى الأصل : « لمالك بن طوق » وفى هامشه : « لطوق بن مالك » ، وهو الصواب بدليل ما سيأتى بعده . وهو طوق بن مالك بن طوق بن مالك بن عتاب ، كما فى جمهرة أنساب العرب ٣٠٤ . وله خبر آخر مع العتابى فى الأغانى ١٢ : ٦ . وأبوه مالك بن طوق ، كان واليًا على الأهواز ، وكان شاعراً . الأغانى ١٧ : ١٥٧ . وهو صاحب رحبة مالك بن طوق ، أنشأها فى عصر الرشيد ، وهو القائل للرشيد حين أراد أن يفتك به :

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا
يلاحظنى من حيثما أتلفت

(٢) وعلها ، أى ولعلها . فى الأصل : « توفك » ، تحريف . والصواع : مكيال ، وربما شرب به .

(٣) هو عبد الله بن شبرمة بن حسان بن المنذر الضبى ، أبو شبرمة الكوفى القاضى ، ولاه أبو جعفر قضاء الكوفة . وكان ثقة فى الحديث ، شاعراً حسن الخلق جوادا . ولد سنة ٧٢ وتوفى سنة ١٤٤ . تهذيب التهذيب .

صِفِّينَ بين العرب مَحضةً لا شوبَ فيها ، فكانت محاربتهم كِدامًا واعتناقًا ، وكانوا إذا مرُّوا برجلٍ جريحٍ كانوا يقولون : خذله قومُه فانصروه ، وألقاه دهره بمَضْيعةٍ فردُّوه إلى أهله .

وقال ابن شُبرمة : مازلنا نسمع أنَّ المصيباتِ تنزِع السجيّات .

قال : وأنشَدَنى بعضُ أهل العلم فى هذا المعنى :

فلَوْ بِى بدأتم قبل من قد دعوتمُ　　لفرّجتُها وحدى ولو بلغَتْ جَهدى

إذا المرء ذو القربى وذو الحقد أجحفَتْ　　به سَنَةٌ سلَّتْ معيبتَه حقدى[1]

ومنهم من رأى الإفضال على عدوّه وتركَ مجازاته . وهذا كثير لا يُحتاج فيه إلى استقصاء شواهده .

قال غَيْلان بن خَرَشة الضَّبىّ[2] — وقال بعضهم : بل الأحنف ابن قيس[3] — لا تزال العرب بخيرٍ ما لبست العمائم وتقلَّدت السيوفَ وركبت الخيل ، ولم تأخذها حميّة الأوغاد . قيل : وما حميّة الأوغاد ؟ قال :

---

(١) نسب هذا البيت فى عيون الأخبار ٣ : ١٠٧ إلى أبى الأسود الدؤلى . وليس فى ديوانه المنشور فى نفائس المخطوطات . والسنة : الجدب والقحط .

(٢) غيلان بن خرشة ، كان سيد بنى ضبة بالبصرة ، وكان من البلغاء . الاشتقاق ١٩٤ وجمهرة ابن حزم ٢٠٤ . وكان غيلان أحد أصحاب أبى موسى الأشعرى ، ثم انتقض عليه وكان سبباً فى أن يعزل عثمان أبا موسى الأشعرى ويولى مكانه عبد الله ابن عامر . الجهشيارى ١٤٧ .

(٣) الذى فى البيان ٢ : ٨٨ و ٣ : ٩٨ أن القول للأحنف . والنص فيه : « وقال غيلان بن خرشة للأحنف ، يا أبا بحر ، ما بقاء ما فيه العرب ؟ قال : إذا تقلدوا السيوف ، وشدوا العمائم ... » . فالقول والجواب إنما هو للأحنف .

أن يَرَوا الحِلم ذُلاًّ ، والتَّواهُبَ ضَيماً[١] .

وقال الشَّعبيّ لرجل قال له : ألا تنتقم من فلانٍ فقد عاداك ونصَبَ لك ؟ فقال :

ليست الأحلامُ فى حال الرِّضا إنَّما الأحلام فى حال الغضَبْ

وأنشدنى بعض العلماء بيتين وقال : إنّ الزُّبيريّ[٢] كان كثيراً مايتمثّل بهما :

وإنِّى لِأعدائى على المقت والقلى بنى العمّ منهم كاشح وحسودُ

أذُبُّ وأرمى بالحصى من ورائهم وأبدأ بالُحسنَى لهم وأعــود

وكان عبد الملك بن مروان إذا أُنشِد :

إنى وإن كان ابن عمىَ كاشحًا لمُراجِمٌ من دونه وورائه[٣]

ومُعِيرُه نصرى وإن كان امرأً متزَحزحًا فى أرضه وسمــائه[٤]

وإن اكتسَى ثوبًا نفيساً لم أقل يا ليت أنّ علىَّ حسنَ ردائه[٥]

---

(١) فى حاشية هـ من نسخ البيان : « التواهب هو أن يترك من حقه لصاحبه عند الحاكم ، على وجه المروءة ومكارم الأخلاق . فإذا رأى أن ترك ذلك ذلة فتلك حمية الأوغاد ».

(٢) هو عبد الله بن مصعب ، كما فى تاريخ الطبرى ١٠ : ١١٢ . وكان عاملا للرشيد على المدينة واليمن . وانظر البيان ١ : ٣٢ و ٣ : ١١٠ .

(٣) الشعر لهذيل بن مشجعة البولانى ، كما فى الحماسة ١٨٦٠ بشرح المرزوقى . والكاشح : المضمر العداوة . وفى الحماسة : « غائبا لمقاذف من خلفه » .

(٤) فى الحماسة : « ومفيده نصرى » .

(٥) فى الأصل : « ثوباً نسيساً » ، تحريف . وفى الحماسة : « ثوباً جميلا » .

وإذا تخرّق فى غناه وفرّته وإذا تصعلك كنت من قرنائه[1]

قال : هذا والله من شعر الأشراف . نفى عن نفسه الحسدَ واللؤم والانتقام عند الإمكان ، والمسألةَ عند الحاجة .

ومنهم من أمرَ بالسَّفه فى العداوة واستعمالِ الْخُرق فيها .

حدّثنى نوح بن أحمد عن أبيه عن ابن عبّاس قال : جاء النابغةُ الجعدىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك من الشِّعر ما عفا الله عنه ؟ قال : نعم . قال : أنشدْنى منه . فأنشده :

وإنّا لقومٌ ما نعوِّد خيلَنا
إذا ما التقينا أن تَحِيدَ وتَنفِرا[2]
وتنكر يومَ الرَّوع ألوانَ خيلِنا
من الطَّعن حتى تحسبَ الجونَ أشقرا
وليس بمعروفٍ لنا أن نردَّها
صِحاحًا ولا مستنكَراً أن تعقَّرا
بَلغنا السَّماء مجدُنا وسناؤنا
وإنّا لنبغى فوق ذلك مَظْهرا

١٢٨

---

(١) التخرق : التوسع فى الإنفاق . ويقال وفره ماله : جعله وافرا لم ينقص منه .

(٢) الأبيات من قصيدة للنابغة الجعدى فى جمهرة أشعار العرب ١٤٥ — ١٤٨ . وهى أولى المشوبات . ورويت أيضاً فى الاستيعاب ص ١٥١٥ والخزانة ١ : ٥١٣ — ٥١٤ واللآلى ٢٤٧ ، ٧٧٢ .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أينَ يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنّة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلى الجنة إن شاء الله » .

ثم رجع فى قصيدته فقال :

ولا خير فى جهلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أورد الأمرَ أصدَرا

ولا خير فى حِلمٍ إذا لم تكن له بوادرُ تحمى صَفوَه أن يكدَّرا[1]

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا فضَّ الله فاك ! » . قال : فأتتْ عليه عشرون ومائة سنة ، كلّما سقطت له سِنٌّ اثّغَرت أخرى مكانها ؛ لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهذا أحسن ما رُوى فى البادرة التى يُصان بها الحلم .

وقال الشاعر الجاهلىّ[2] :

صَفحنا عن بنى ذُهلٍ وقلنا : القومُ إخوانُ

عسى الأيّامُ أن يَرجِعـ نَ حيًّا كالذى كانوا[3]

فلما صرّح الشّرُّ وأمسَى وهو عُريانُ

(١) البادرة : الكلام الذى يسبق من الإنسان فى الغضب ، كما فى اللسان (بدر) عند إنشاد هذا البيت .

(٢) هو الفند الزمانى ، واسمه شهل بن شيبان . شاعر جاهلى قديم ، كان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، شهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة . الخزانة ٢ : ٥٨ — ٥٩ والأغانى ٢٠ : ١٤٣ — ١٤٤ واللآلى ٥٧٩ . والقصيدة هى ثانى مقطوعة فى حماسة أبى تمام .

(٣) الحى : الواحد من أحياء العرب ، والبطن من بطونهم . وفى الحماسة : « قوما » .

مَشَينا مِشـــيةَ الليثِ بَدا والليثُ غضبانُ[١]
بضربٍ فيـه توهينٌ وتضجيعٌ وإذعانُ[٢]
وطعنٍ كفمِ الزِّق وَهىَ والزِّقُّ ملآنُ[٣]
وفى الشرّ نجــاةٌ حيـ نَ لا يُنجيكَ إحسانُ

حدثنا أبو مِسْهر عن أبيه عن خالد بن عَمرو الكلبيّ قال :

كنّا مع أبى بَرْزَة الأسلمىّ[٤] فى غَزاة ، فكان منّا رجل يمتار لنا المِيرةَ ويقوم بحوائجنا ، فإذا أقبلَ قلنا : جزاكَ الله خيرا . فغضب لدعائنا ، فشكونا ذلك إلى أبى برزة ، فقال أبو برزة : كنّا نسمع أنّ من لم يصلحه الخير أصلحَه الشرّ ، فاقلبوا له . فكنّا نقول له إذا أتانا بالحوائج : جزاك الله شرًّا وعَرًّا[٥] ، فيضحك لذلك .

وأنشدنى رجلٌ عن بعض الأعراب :

١٢٩ و

أرى الحلمَ فى بعض المواطن ذلّةً وفى بعضها عزًّا يُشرِّف فاعلُه
إذا أنت لم تدفَع بحلمك جاهلًا سفيهًا ولم تَقرِنْ به من يُجاهلُه
لبستَ له ثوبَ المـذلّة صاغراً فأصبحَ قد أودى بحقّك باطلُه

---

(١) فى الحماسة : « غدا » .

(٢) فى الحماسة : « وتخضيع » ، وهو اختلاط الصوت .

(٣) فى الحماسة : « غذا » بالذال المعجمة ، أى سال .

(٤) صحابى جليل ، وهو نضلة بن عبيد الأسلمى ، مشهور بكنيته ، نزل البصرة وشهد مع على قتال الخوارج بالنهروان ، وأتى خراسان فنزل مرو ، ومات بالبصرة سنة ٦٠ . الإصابة ٨٧١٠ والاستيعاب ٢٨٧٢ والاشتقاق ١٠٦ .

(٥) العر : الشر والشين ، وأصل معناه الجرب .

فأبقِ على جُهّـال قومك إنّه … لـكلّ حليمٍ موطنٌ هو جاهلُه[(١)]

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « استوصُوا بالغَوغاء خيراً ، فإنهم يطفئون الحريق ، ويسُدُّون البثوق[(٢)] » .

وقال أبو سلمى[(٣)] فى الجاهلية :

لا بدَّ للسُّـودَدِ من رِماحِ[(٤)] … ومن عَديد يُتَّقى بالراحِ[(٥)]

* ومن كلابٍ جَمَّةِ النُّباحِ *

وقال مسلم بن الوليد[(٦)] :

حلفتُ لئن لم تلقَنى سـفهاؤها … خُزاعةُ والحيَّانِ عوفٌ وأسلَمُ

لأرتجعنَّ الودَّ بينى وبينهـا … بِقافيةٍ تَفرِى العـروقَ فتحسِمُ

من اللاء لا يرجعن إلاّ شواردًا … لهنَّ بأفواه الرجال تهمْهُـمُ

أصابوا حليمًا فاستعدُّوا بجاهل … إذا الحلم لم يمنعك فالجهلُ أحزمُ

ولم نستقصِ الأبواب كلَّها بالمعارضة[(٧)] فى هذا الـكتاب ، ولو استقصينا

---

(١) أى لـكل حليم موطن يجب أن يجهل فيه وينزع عن حلمه .

(٢) البثوق : جمع بثق ، وهو منبعث الماء يخرقه السيل .

(٣) الحيوان ١ : ٣٥١ / ٣ : ٧٩ . والرجز بدون نسبة فى البيان ٣ . ٣٣٥ .

(٤) فى الحيوان والبيان : « من أرماح » .

(٥) فى الأصل : « ومن عداء » ، صوابه فى الحيوان والبيان .

(٦) الأبيات لم ترد فى ديوان مسلم ولا ملحقاته ، وفى الديوان ١٧٧ — ١٨٣ قصيدة على روى هذه الأبيات .

(٧) فى الأصل : « المعارضة » .

لطالت بنا الأيّام وتراخت الليالى إلى بلوغ الغاية فى تمام الكتاب . وإنما ذكرنا من كل باب عَرضَ فيه ما دلّ على معناه الذى إليه قُصِد .

ولم نر الحسَد أمرَ به أحدٌ من العرب والعجم فى حالٍ من الأحوال ، ولا ندبَ إليه ونبّه عليه . وقد نُبّه على العداوة وفصّل بين أحوالها بما قد بيّنّاه ، فظهر فضلُها على الحسد بذلك .

وكنت امرأً قليل الحُسّاد حتّى اعتصمتُ بعُروتك ، واستمسكتُ بحبلك واستذريت فى ظِلّك[1] ، فتراكمَ علىّ الحُسّاد وازدحموا ، ورمَونى بسهامهم من كل أوبٍ وأفق ، وتتايَعوا علىّ تتايُعَ الدَّبْرِ[2] على مُشتار العَسَل . ولئن كثروا لقد كثُر بهبوب ريحك إخوانى ، وبنَضْرة أيامك وزهرة دولتك خُلّانى .وأنا كما قلت :

فأكثرتَ حُسّادى وأكثرتَ خُلّتى
وكنتُ وحُسّادى قليلٌ وخُلّانى

فلمّا بلغت هذا الفصلَ من تأليف هذا الكتاب دخلَ علىّ عشرةُ نفرٍ من الكُتّابِ قد شملهم معروفك ، ورفع مراتبَهم جميلُ نظرك ، فهم من طاعتك والمحبّة لك على حسب ما أوليتَهم من إحسانك وجزيل فوائدك ، فأفاضوا فى حديثٍ من أحاديث الحسد ، فشعّب لهم ذلك الحديثُ شعوباً

---

(١) استذرى بالشجرة : استظل بها وصار فى دفئها . واستذرى بفلان : التجأ إليه . وفى الأصل : « واستذرأت » .

(٢) تتايع على الشىء : تهافت فيه وأسرع وتساقط . وفى الحديث : «ما يحملكم على أن تتايعوا فى الكذب ، كما يتتايع الفراش فى النار» . وفى الأصل: « تتابعوا على تتابع » ، صوابه بالياء والدبر : جماعة النحل .

افتنُّوا فيها ـ والحديث ذو شجون ـ فما برحوا حتَّى أتتنى رقعةُ أناسِيَةٍ[١] من الحسّاد فيها سهامُ الوعيد ، ومقدّمات التهديد والتحذير والتخويف ، للطَّعن على ما ألَّفت[٢] من الكتب إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يُجرَى علىّ ، فدفعت رُقعتَهم إلى من قرُب إلىّ منهم ، فقرأها ثم قال : « قاتَلَهم الله ! أبظالِم يرومون النَّيل ويلتمسون الشركة فى المعروف ! لَنزعُ الرُّوح بالكلاليب أهونُ من بذل معروفٍ بترهيب » . وأنشأ يقول :

أبقى الحوادث من خليـ ـلك مثل جندلة المرَاجمْ[٣]
قد رامنى الأعداء قبـ ـلك فامتنعتُ من المظالم

ودَفَعها إلى من قرُب منه فقرأها . وقال الثانى : « صَكَّة جُلمود ، لكل مُرعدٍ حَسُود ، يَستطر العُرف بالتهديد . خلِّ الوعيدَ ، يذهب فى البِيد » . وأنشأ يقول :

أَبرِقْ وأرعِدْ يا يزيـ ـدُ فما وعيدُك لى بِضائر[٤]

ودفعَها إلى الثالث فقرأها وقال : « سألوا ظلما ، وخوّفوا هَضمًا ، لَقُوا حرباً ولقيتَ سِلما » . وأنشأ يقول :

---

(١) أناسية : جمع إنسى أو أناس . وفى اللسان (أنس) : « ويبين جواز أناسى بالتخفيف ـ يعنى تخفيف الياء ـ قول العرب : أناسية كثيرة . والواحد إنسى وأناس إن شئت » .

(٢) فى الأصل : « ألف » .

(٣) الشعر لمعاوية ، فى أمالى القالى ٢ : ٣١١ . وفى الأصل : « أما الحوادث » و « المزاحم » ، صوابهما فى الأمالى وشرح القصائد السبع لابن الأنبارى ٣٢٩ .

(٤) البيت للكميت ، كما فى اللسان (برق ، رعد) ومجالس العلماء ١٤١ وشرح القصائد السبع ٥٢٣ .

زعم الفرزدقُ أن سيقتل مِربعاً أبشِرْ بطول سلامة يا مربعُ[1]

ودفعها إلى الرابع فقرأها وقال : « قول الذَّليل وبولُه سِيَّان » .
وأنشأ يقول :

ماضرَّ تغلبَ وائلٍ أهجوتَها أم بُلتَ حيثُ تناطحَ البحرانِ[2] ١٣٠ و

ودفعها إلى الخامس فقرأها وقال : « نهيق الحمار ، ودمُ الأعيار جُبارٌ جُبار[3] » . وأنشأ يقول :

ما أبالى أنَبَّ بالحزن تيسٌ أم لحانى بظهرِ غيبٍ لئيمُ[4]

ودفعها إلى السادس فقرأها وقال : « إذا عَلِقتك الأمجاد ، فليهُنْ عليك الحُسّاد » . وأنشأ يقول :

إذا أهلُ الكرامة أكرمونى فلا أخشى الهوانَ من اللئامِ

ودفعها إلى السابع فقرأها وقال : « كيف يخاف الضَّرَعة ، من هو فى ذى المَنَعة » . وأنشأ يقول :

---

(١) البيت لجرير فى ديوانه ٣٤٨ وجمهرة أنساب العرب ٢٨٣ والشعراء ٤٦٦ . ومربع ، هو مربع بن وعوعة بن سعيد ، كما فى جمهرة أنساب العرب . ومربع هذا هو راوية جرير ، وكان الفرزدق قد حلف ليقتلنه .

(٢) للفرزدق فى ديوانه ٨٨٢ والبيان ٣ : ٢٤٨ والخزانة ٢ : ٥٠١ ، وهو من قصيدة يذكر فيها تفضيل الأخطل إياه ، مادحا فى ذلك بنى تغلب ، ويهجو فيها جريرا . وتغلب هم قوم الأخطل . تناطح البحران : تقابلا . وانظر الحيوان ١ : ١٣ .

(٣) الأعيار : جمع عير بالفتح ، وهو الحمار الوحشى . والجبار : الهدر . وكذا وردت الكلمة مكررة .

كم تنبحون وما يغـــني نباحكم
ما يملك الـكلبُ غــير النَّبح من ضررِ

ودفعها إلى العاشر[١] فقرأها وقال : « نَوكى هلـكَى ، لم يعرفوا خَبَرك ، ولا درَوْا أمرك » . وأنشأ يقول :

فلو علم الـكلاب بنو الـكلاب بحالك عنـــد سيِّدنا لذلُّوا

وعندى صديقٌ لى من الشُّوقة له أدبٌ ، فقال لى بعقب فراغهم مُسِرًّا : إنّ هؤلاء الـكتّاب قد أظهروا الاستخفاف بقول الُحسّاد ، وضربوا الأمثال فى هوانهم عليك ، وعرفوا أنّك فى منعة من عزّ أبى الحسن أطال الله بقاءه ، ومعقلٍ لا يُسامَى ولا يُنال . وأنا أقول بالشُّفعَة[٢] :

توقّ قومًا من الحُسّاد قد قَصَدوا لحَطِّ قدرك فى سرٍّ وفى علَنِ

فقلت له : إنّى أقول بيتين هما جوابك وجواب الحُسَّاد :

إنَّ ابن يحيى عبيــدَ الله أمّننى
من الحوادث بعد الخوف من زمنى[٣]
فلستُ أحذر حُسَّادى وإن كثُروا
ما دمت مُمسِكَ حَبــلٍ من أبى الحسنِ

فلما رأى صديقى اقتفائى آثار الـكتَّاب ، باستهانتى للحساد عند اعتلاقى

---

(١) كذا فى الأصل بدون أن يذكر قبله ما قال الثامن والتاسع ، فقد يكون إغفالا من الجاحظ لهما ، وقد يكون سقطا من النسخة .

(٢) فى الأصل : « بالشفقة » .

(٣) يعنى عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وزير المتوكل ثم المعتمد . انظر مروج الذهب ٢ : ٣٧١ والتنبيه والإشراف ٣١٤ وإعتاب الـكتاب لابن الأبار ١٥٨ ، ١٦٢ والفخرى ٢١٦ ، ٢٢٨ .

٣٠

حبائلك أعزك الله ، أنشأ متمثلا بقول نصر بن سيار[١] :

إنّي نشأت وحُسّادى ذوو عددٍ   ياذا المعارج لا تنقص لهم أحدا[٢]

إنْ يحسدونى على ما قد بَنيت لهم   فمثل حُسن بلائى جرّ لى الحسدا

وليس العجب أن يكثروا وأنا أنعق بمحاسنك ، وأهتف بشكرك ، ولكن العجبَ كيف لا تتفتّت أكبادُهم كمدا .

وكان بعضهم يقول : اللهمّ كثّر حُسّادَ ولدى ؛ فإنّهم لا يكثرون إلّا بكثرة النِّعمة .

فإنْ كان والدِى سبقَ منه هذا الدُّعاء ، فإنّ الإجابة كانت مخبوءة إلى زمان عزّك ؛ فقد رأينا تباشيرها ، وبدت لنا عند عنايتك غايتُها .

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعلْ ولدى محسودين ، ولا تجعلهم مرحومين ؛ فإنّ يومَ المحسود يومُ عِزّة ، ويومَ الحاسد يومُ ذلّة .

---

(١) نصر بن سيار : أمير من الدهاة الشجعان ، كان أمير خراسان سنة ١٢٠ ولاه هشام بن عبد الملك ، ثم غزا ماوراء النهر ففتح حصونا وغنم كثيراً ، وعمل أيضاً على خراسان لمروان بن محمد آخر الأمويين ، وقد انتبه إلى استفحال الدعوة العباسية فكتب إلى بنى مروان بالشام فلم يأبهوا بالخطر ، وظل يكافح حتى عجز وتغلب أبو مسلم على خراسان ، فخرج نصر من مرو إلى قومس ، واستمر فى كفاحه إلى أن لحقه المرض فى مفازة بين الرى وهمذان ، ومات بساوة سنة ١٣١ . وفى الأصل : « يقول بشعر »

(٢) فى الكتاب العزيز : « من الله ذى المعارج » قال قتادة : ذى المعارج : ذى الفواضل والنعم ، وقيل معارج الملائكة ، وهى مصاعدها التى تصعد فيها وتعرج فيها . وقال الفراء : ذى المعارج من نعت الله ، لأن الملائكة تعرج إلى الله فوصف نفسه بذلك .

ويقال : إنّه لمّا مات الحجّاج سمعوا جاريةً[1] خلف جنازته وهى تقول :

اليوم يرحمنا من كان يحسدُنا والبوم نتبعُ من كانوا لنا تبعا

ويقال : إنّ زيادَ بن أبيه قال لِحُرَقَةَ ابنة النعمان[2] : أخبريني بحالكم .
قالت : إن شئتَ أجملتُ وإن شئتَ فسّرتُ . فقال لها : أجملى . فقالت :
« بتنا نُحسَد ، وأصبحنا نُرحَم[3] » . فخطبها زيادٌ وكانت فى دَيرٍ لها فكشفَتْ
عن رأسها ، فإذا رأسٌ محلوق ، فقالت : أرأسُ عروس كما ترى يا زياد ؟
وأعطاها دنانير فأخذتْها وقالت : جزَتْك يدٌ افتقرتْ بعد غنًى ، ولا جزَتك
يدٌ استغنتْ بعد فقر !

ولا نعلم الحسدَ جاء فيه شيء أكثر من حديث روى عن النبى صلى الله
عليه وسلم : « لاحَسدَ إلا فى اثنتين[4] : رجل آتاه الله حفظ القرآن فهو يقوم به

---

(١) فى البيان ٣ : ١٧٧ : « خرجت عجوز من داره وهى تقول » .

(٢) حرقة هذه بنت النعمان بن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى ابن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن عمم بن نمارة بن لخم . المؤتلف ١٠٣ . ولها مقطوعة فى الحماسة ١٢٠٣ بشرح المرزوقى رويت أيضاً فى المؤتلف . وبعض أخبارها فى البيان ٢ : ٨٩ / ٣ : ١٤٥ ، ١٦١ . وحرقة بضم الحاء المهملة وفتح الراء ، كما فى اللسان والقاموس . قال فى اللسان : « وحريق ابن النعمان ابن المنذر . وحرقة بنته » ، ومثله فى شرح الحماسة للتبريزى لكنه جعل أخاها « حرق » كزفر . وفيهما يقول الشاعر :

نقسم بالله نسلم الحلقه ولا حُريقاً وأخته الحرقه

(٣) أى كنا فى نعمة محسودين بالأمس ، فأصبحنا اليوم ولا حاسد لنا ، بل نحن فى موضع الرثاء .

(٤) فى الأصل : « اثنين » ، صوابه فى صحيح البخارى . انظر فتح البارى ٣ : ٢١٩ و ١٣ : ٢٥٣ وصحيح مسلم ١ : ٥٥٨ — ٥٥٩ والترغيب والترهيب ٣ : ١١ ومسند ابن حبان ١٢٥ ، ١٢٦ .

١٠

رِسَالَة

فِي صِنَاعَاتِ الْقُوَّاد

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هي الرسالة العاشرة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها في نسخة الأصل :

«رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، في ذم القواد » .

وفي مقدمة نسخة الأصل أيضاً أنها تسمى « صناعات القواد » وتسمى أيضاً « طبائع القواد ».

وجاء في جمع الجواهر للحصري ١١٦ : « وللجاحظ في هذا النوع رسالة كتب بها إلى المعتصم ، وقيل إلى المتوكل ، في الحض على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع الأدب » .

ثم روى الحصري طرفا من هذه الرسالة كانت موضع مقارنة في النص .

وجاء عنوانها في طراز المجالس ٦٧ « صناعات القواد » ثم ساق الرسالة بأكملها. وكان هذا النص موضع مقارنة أيضاً في نسخته المطبوعة والنسختين المودعتين بدار الكتب برقم ٦٦ ، ٦٧ أدب م .

وتمتاز هذه الرسالة بأنها قد سجلت كثيراً من الألفاظ الدخيلة والمولدة التي كان يستعملها الصناع والعمال وأصحاب المهن المختلفة .

بسم الله الرحمن الرحيم

[1]أرشدك الله للصَّواب ، وعرَّفكَ فضل أولى الألباب ، ووهب لك جميلَ الآداب ، وجعلك ممن يعرف عزَّ الأدب كما تعرف زوائد الغنى .　　١٣٣ ظ

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله فقلت له : يا أمير المؤمنين ، فى اللسان عشر خصال : أداة يَظهر بها البيان ، وشاهد يُخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق يُرَدُّ به الجواب ، وشافع تُدرَك به الحاجة ، وواصف تُعرف به الأشياء ، وواعظ يُعرَف به القبيح ، ومُعزٍّ يُرَدُّ به الأحزان[2] ، وخاصَّةٌ يُزهَى بالصَّنيعة[3] ، ومُلْهٍ يونِق الأسماع .

وقال الحسن البصرى : إنّ الله تعالى رفع درجةَ اللسان ، فليس من الأعضاء شىء ينطق بذكرِه غيره .

وقال بعض العلماء : أفضل شىء للرجلْ عقلٌ يُولَد معه ، فإنْ فاته ذلك

---

(١) قبله فى الأصل : « هذه رسالة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، منسوبة فى نسخة إلى ذم القواد ، وفى أخرى إلى كتاب صناعات القواد ، وفى أخرى إلى كتاب طبائع القواد » .

(٢) فى المطبوعة من الطراز : « ومفرد ترد به الأحزان » ، تحريف .

(٣) فى الأصل : «يذهب بالصنيعة» ، وأثبت ما فى النسخة المطبوعة من الطراز .

فمالٌ يُعظَّم به ، فإنْ فاته ذلك فعلمٌ يعيشُ به[1] ، فإن فاته ذلك فموتٌ يجتثُّ أصلَه .

وقال خالد بن صفوان : ما الإنسان لولا اللّسانُ إلاّ ضالّة ، أو بهيمةٌ مرسَلة ، أو صورة ممثَّلة[2] .

وذُكر الصَّمت والنطق عند الأحنف فقال رجلٌ : الصَّمت أفضل وأحمد . فقال : صاحب الصمت لا يتعدّاه نفعه ، وصاحب المنطق ينتفع به غيره . والمنطق الصَّوابُ أفضل[3] .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحم الله امرأ أصلحَ من لِسانه » .

قال : وسمع عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه رجلاً يتكلّم فأبلغَ فى حاجته ، فقال عمر : هذا والله السِّحرُ الحلال .

١٣٣ و وقال مَسلمة بن عبد الملك : إنّ الرجل ليسألنى الحاجة فتستجيبُ نفسى له بها ، فإذا لحنَ انصرفت نفسى عنها .

وتَقدم رجلٌ إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير ، إنَّ أبينا هلك ، وإن أخونا غصبنا ميراثَه . فقال زياد : الذى ضيعت من لسانك أكثر مما ضيَّعت من مالك[4] .

---

(١) ما بعد « يولد معه » ساقط من الطراز .

(٢) البيان ١ : ١٧٠ .

(٣) فى الأصل والطراز : « والصواب » ، صوابه من مطبوعة الطراز .

(٤) الخبر فى البيان ٢ : ٢٢٢ وعيون الأخبار ٢ : ١٥٩ ونزهة الألباء ١٢ .

وقال بعض الحكماء لأولاده : يا بنيّ أصلحوا من ألسنتكم ، فإنّ الرجل لتنوبُه النائبة فيستعير الدابّة والثياب ، ولا يقدر أن يستعير اللّسان .

وقال شَبيب بن شَيبة ورأى رجلاً يتكلّم فأساء القول ، فقال : يا ابن أخي ، الأدبُ الصالح خيرٌ من المالِ المضاعف .

وقال الشاعر[١] :

وكائن ترى من صامتٍ لك مُعجِبٍ زيادتُه أو نقصُه في التكلّمِ

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه فلم يبقَ إلاّ صورةُ اللحم والدّمِ

فخذْ يا أمير المؤمنين أولادَك بأن يتعلموا من كلّ الأدب ؛ فإنّك إن أفردتَهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيرِه لم يحسنوه .

وذلك أنّي لقيت حِزَاماً[٢] حين قدِمَ أمير المؤمنين من بلاد الرُّوم ، فسألته عن الحرب كيف كانت هناك ؟ فقال :

لقيناهم في مقدار صَحْن الإصطبل ، فما كان بقدرِ ما يَحُسُّ[٣] الرجلُ دابّتَه حتّى تركناهم في أضيقَ من مَمْرغة . وقتلناهم فجعلناهم كأنهم أنابير سِرجين[٤] ،

(١) هو زهير بن أبي سلمى ، كما في المعلقات برواية الزوزني ، وليس في رواية ابن الأنباري أو التبريزي أو ديوانه بشرح ثعلب وبشرح الشنتمري .

(٢) في الأصل : « خزاما » ، وأثبت ما في الطراز وجمع الجواهر . وفي جمع الجواهر : « وذلك أن حزاما صاحب خيلك حين سألته عن الوقعة ببلاد الروم » .

(٣) حس الدابة يحسها حساً : نفض عنها التراب ، وذلك إذا فرجنها بالمحسة . وفي مطبوعة الطراز فقط : « يحش » بالشين .

(٤) الأنابير : الأكداس ، جمع أنبار ، وهذه جمع نبر بالكسر .

فلو طُرحتْ رَوثةٌ ما سقطَتْ إلاَّ على ذَنَب دابّة .

وعمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

إن يَهدِمِ الصدُّ من جسمى مَعالِفَه
فإن قلبى بقَتِّ الوَجد معمورُ[(١)]

إنِّى امرؤ فى وَثاقِ الحبِّ يَكبحه
لجامُ هجرٍ على الأسقام معذورُ[(٢)]

علِّلْ بجُلِّ نبيلٍ من وصالك أو
حُسْنِ الرُّقاد فإنَّ النَّوم مأسورُ[(٣)]

أصاب حبلَ شِكال الوَصْل حينَ بدا
ومِبضع الصدِّ فى كفيه مشهورُ[(٤)]

لبستُ برقعَ هجر بعد ذلك فى
إصطبل وُدٍّ فرَوث الحُبِّ منثورُ[(٥)]

---

(١) القت : الفصفصة ، وهى من علف الدواب .

(٢) عذر الدابة عذرا : شد عليها العذار ، وهو السير الذى يكون عليه اللجام . وفى جمع الجواهر : « ويح امرئ فى وثاق الحب » .

(٣) فى جمع الجواهر : « أنل خليلك نيلا من وصالك » ، والمأسور : المشدود بالإسار ، وهو الحبل .

(٤) الشكال ، ككتاب : ما تشد به قوائم الدابة . وفى جمع الجواهر : « أمنت فتل شكالى حين ودعنى ومبضع الحب » .

(٥) فى الطراز : « إصطبل حب » .

قال : وسألت بَخْتِيَشُوع [الطبيب[١]] عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم فى مقدار صَحْن البِيمارستان ، فما كان بقدر ما يختلف الرجل مقعدين[٢] حتى تركناهم فى أضيقَ من مِحْقَنة ، فقتلناهم فلو طرحت مِبضَعًا ما سقط إلّا على أكحَلِ رَجُل[٣] . ١٣٣ ؛

وعمل أبياتًا فى الغزل فكانت :

شَرِب الوصلُ دَستَجَ الهجر فاستْطْـ ـلَقَ بطنُ الوِصال بالإسهالِ[٤]

ورمانى حِبِّى بقُولَنجِ بَينٍ مُذهِـلٍ عن مَلامة العُذّالِ[٥]

ففؤاد الحبيب ينحله السُّـ ـلُّ وقلبى معذَّبٌ بالمَـلالِ[٦]

وفؤادى مُبرسَم ذو سَقـامٍ يابْنَ ماسُوهَ ضلَّ عَنِّى احتيالى[٧]

لو ببقراط كان مابى وجالِيـ ـنُوسَ باتا منه بأكسَفِ بالِ

(١) التكملة من طراز المجالس وجمع الجواهر . وهو بختيشوع بن جبريل ابن بختيشوع ، وكان سريانيا نبيل القدر ، وكان يضاهى المتوكل فى اللباس والفرش، وكان عظيم المنزلة عنده ، ثم إنه أفرط فى إدلاله عليه فنكبه . وكان موته سنة ٢٥٦ . طبقات الأطباء ١ : ١٣٨ — ١٤٤ والقفطى ٧٢ — ٧٣ .

(٢) اختلف الرجل : ذهب إلى المتوضأ إذا أخذه بطنه .

(٣) الأكحل : عرق فى اليد إذا قطع لم يرقأ الدم .

(٤) الدستج ويقال الدستيج : آنية تحول باليد .

(٥) البيت ساقط من جمع الجواهر .

(٦) وهذا ساقط من الطراز .

(٧) كذا فى الأصل وإحدى مخطوطتى الطراز . يريد «ماسويه» . وفى سائر نسخ الطراز : « يابن السوء » . وفى جمع الجواهر : « يابن ماسويه » ولا يستقيم به الوزن . وابن ماسويه هو أبو زكريا يحي أو يوحنا ، خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل . الفهرست ٤١١ والقفطى ٢٤٨ — ٢٥٦ .

قال : وسألت جعفراً الخياطَ عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم فى مقدار سُوق الخُلقان ، فما كان بقدر ما يَخيط الرجل دَرْزًا[١] حتّى قتلناهم وتركناهم فى أضيق من جربّانٍ[٢] ، فلو طرحتْ إبرةَ ما سقطت إلّا على رأس رجل .

وعمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

فتَقتَ بالهجر دُروزَ الهوى إذْ وخزتنى إبرةُ الصّدّ

فالقلب من ضِيق سراويلهِ يعثُر فى بايكة الجهد[٣]

جشّمتَنى يا طيلسانَ النوى منك على شوزكتى وجدى[٤]

أزرار عينى فيك موصولة بعُروة الدمع على خدّى

يا كستبان القلبِ يا زيقَه عذّبنى التّذكارُ بالوعد[٥]

قد قصّ ما يعهد من وَصله مِقراضُ بينٍ مُرهَفُ الحدّ[٦]

---

(١) الدرز : موضع الخياطة ، كما فى شفاء الغليل ، ويقال للقمل والصئبان : بنات دروز ، ومنه أخذ الدرزى الخياط الذى صحفته عامة عصرنا بالترزى .

(٢) جربان القميص: جيبه ، يقال بضم الجيم والراء وبكسرهما ، وهو بالفارسية « كريبان » .

(٣) فى جمع الجواهر : « يعثر بى فى تكة الجهد » .

(٤) فى جمع الجواهر : «على سوء شقا جدى » ، وفيه أيضاً «حسدتنى » بدل : « جشمتنى » .

(٥) فى جمع الجواهر : « يادستبان القلب » ، كما أن سائر البيت فيه محرف .

(٦) فى جمع الجواهر : « ما أعرف من وصلة » .

يا حُجزة النَّفس ويا ذيلَها مالىَ من وصلِكَ من بُدُّ[١]
ويا جُربَّانَ سُرورى ويا جَيبَ حياتى حُلْتَ عن عهدى[٢]

قال : وسألت إسحاق بن إبراهيم عن مثل ذلك – وكان زرّاعًا[٣] – فقال :

١٣٤ و لقيناهم فى مقدار جَرِيبينِ من الأرض ، فما كان بقدر ما يَسْقِى الرجل مَشَارَةً[٤] حتّى قتلناهم ، فتركناهم فى أضيق من بَاب ، وكأنّهم أنابير سُنْبُل[٥] ، فلو طُرِح فدّان[٦] ما سقط إلّا على ظهر رجل[٧] .

وعمل أبياتًا فى الغزل فكانت :

زرعتُ هواه فى كراب من الصَّفا وأسقيتُه ماء الدوام على العهدِ[٨]

---

(١) الحجزة ، بالضم : معقد السراويل والإزار وفى الأصل والطراز المطبوع . « ياحزة النفس » ، وفى المخطوط : « ياحيرة النفس ويا ويلها » ، صوابه من جمع الجواهر .

(٢) سبق تفسير الجربان فى ص ٣٨٤ . وفى جمع الجواهر : « جيب غرامى » .

(٣) فى جمع الجواهر : « زارعا » .

(٤) المشارة ، بفتح الميم : الدبرة ، وهى البقعة من الأرض تزرع . وفى طراز المجالس : « من سانية » .

(٥) الأنابير ، سبق تفسيرها فى ص ٣٨١ .

(٦) الفدان : الذى يجمع أداة الثورين فى القران للحرث ، والآلة التى يحرث بها .

(٧) فى طراز المجالس : « على ظهر ثور » ، تحريف . وفى جمع الجواهر : « إلا على رأس رجل » وبعده فى جمع الجواهر : « فصاروا مثل أكوام التبن » .

(٨) فى جمع الجواهر : « فى جريب مثلث » .

وسَرجَنْتُه بالوصل لم آلُ جاهدًا ليُحرزَه السِّرجين من آفة الصّدِّ (١)
فلمّا تعالى النّبتُ واخضرَّ يانعاً جرى يرَقانُ البَين فى سُنْبُل الودِّ (٢)

قال : وسألت فرجًا الرُّخَّجىَّ (٣) عن مثل ذلك — وكان خبّازًا — فقال :

لقيناهم فى مقدار بيت التَّنُّور ، فما كان بقدر ما يخبِز الرجلُ خمسة أرغفة حتى تركناهم فى أضيق من حَجَر تنور ، فلو سقطت جمرة ما وقعت إلّا فى جَفنة خبّاز (٤) .

وعمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

قد عَجَن الهجرُ دقيقَ الهوى فى جَفنةٍ من خَشَب الصدِّ
واختمرَ البينُ فسارُ الهوى تُذكَى بسِرجينٍ من البُعدِ (٥)
وأقبل الهجرُ بمحراكه يفحص عن أرغفة الوَجدِ (٦)

---

(١) السرجين : السماد تدمل به الأرض ، معرب .

(٢) اليرقان : دود يكون فى الزرع ثم ينسلخ فيصير فراشاً . وفى جمع الجواهر : « وأفرك حب الحب فى سنبل الود » . وبعده بيتان ، وهما :

أتته أكف الهجر فيها مناجل فأسرعن فيه حين أدرك بالحصد
فياشؤم مالى إذ يعطل للشقا ويا ويح ثورى صار معلفه كبدى

(٣) نسبة إلى رخج ، كسكر ، وهى كورة ومدينة من نواحى كابل .

(٤) فى جمع الجواهر : « فلو طرحت جردقا لما وقع إلا فى خوان الخبز على كثرة القتلى » .

(٥) السرجين ، سبق تفسيره . وفى جمع الجواهر : « تزجى بشوك الهجر من بعدى » .

(٦) المحراك أداة تحرك بها النار . وفى جمع الجواهر : « وأقبل الصد بهجرانه » .

جَـرادق الموعِد مسْمومة مثرودة فى قَصعة الجهـدِ[١]

قال : وسألت عبد الله بن عبد الصمد بن أبى دَاوُد عن مثل ذلك — وكان مؤدِّبا — فقال :

لقيناهم فى مقدار صَحْن الكُتّاب[٢] ، فما كان بقدر ما يقرأ الصبىُّ إمامَه[٣] حتى ألجأناهم إلى أضيق من رَقْم[٤] فقتلناهم ، فلو سقطت دواةٌ ما وقعت إلّا فى حِجر صبىّ .

وعمل أبياتًا فى الغزَل فكانت :

قد أماتَ الهجرانُ صِبيانَ قلبى ففؤادى معذَّب فى خَبَـالِ[٥]

كسَر البينُ لَوح كِبدى فما أط مع ممن هويتُه فى وصـالِ[٦]

رفع الرقْم من حيـاتى وقد أط لَق مولاىَ حبلَه من حبـالى

مَشق الُحبُّ فى فؤادىَ لَوحَيـ نِ فأغرى جوانحى بالسُّلالِ[٧] ١٣٤ ظ

---

(١) الجرادق : جمع جردق ، وهو الرغيف ، فارسى معرب . وفى جمع الجواهر : « جرادقا للوعد مسمومة » .

(٢) الصحن : الساحة وسط الدار . والكتاب : موضع تعليم الصبيان ، وأصل الكتاب هؤلاء الذين يتعلمون الكتابة ، ثم أطلق الاسم مجازا على الموضع الذى يتعلمون فيه . وفى اللسان : « والكتاب موضع تعليم الكتاب » . وفى جمع الجواهر : « فى مقدار كتف » .

(٣) إمام الصبى : مايتعلمه كل يوم ، يقدر له على مقدار يومه .

(٤) فى جمع الجواهر : « من فم الرقم » . والرقم ، بسكون القاف : الرمز الكتابى المستعمل للتعبير عن أحد الأعداد ؛ وفتح القاف خطأ شائع .

(٥) جمع الجواهر : « موله ذو خبال » .

(٦) فى جمع الجواهر : « لوح وصلى » .

(٧) المشق : سرعة الكتابة ، ومد الحروف فى الكتابة . والسلال : السل .

لاقَ قلبي بنانُه فمداد الـ ـعَين من هجر مالِكي في انهمال(١)

كُرسُفُ البين سوّد الوجهَ من وصـ ـلي فقلبي بالبين في إشعال(٢)

قال : وسألت عليَّ بن الجهم بن يزيد(٣) — وكان صاحبَ حمام — عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم في مثل بيت الأنبار(٤) ، فما كان إلّا بقدر ما يغسل الرجل رأسَه حتى تركناهم في أضيقَ من باب الأتُّون ، فلو طرحت لِيفةً ما وقعت إلّا على رأس رجل .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

يا نُورةَ الهجر حالقتِ الصَّفا لما بدت لي لِيفةُ الصَّدّ(٥)

يا مِئزر الأسقام حتّى متى تُنقَع في حوض من الجَهْد

أوقِدْ أتُونَ الوصلِ لي مرّةً منك بزِنبيلٍ من الودّ(٦)

---

(١) أصله من لاق الدواة : أصلح مدادها . وفي طراز المجالس : « لاق قلبي مداده » ، وفي جمع الجواهر : « لاق كبدي دواته » .

(٢) الكرسف : القطن ، وكانوا يجعلونه هو أو الصوف في الدواة .

(٣) في جمع الجواهر : « وسألت الجهم بن بدر » .

(٤) لعله يعني البيت الذي تحفظ فيه الثياب . وفي اللسان : « والأنبار : بيت التاجر الذي ينضد فيه متاعه » . وبعده في جمع الجواهر : « فقاتلناهم بمقدار ما تحلق النورة ، ثم ألجأناهم إلى أضيق من الأبزن ، فهزمناهم بقدر ما يغسل الرجل وجهه ، فلو طرحت ليفة . . . . » .

(٥) جمع الجواهر : « بما بدا من ليفة » .

(٦) الأتون : الموقد ، وهو بتشديد التاء ، وتخفيفها من لغة العامة . والزنبيل بكسر الزاي كقنديل ، وقد تفتح ، وهو القفة .

فالبينُ مُذْ أوقِدَ حمَامُه قد هاج قلبي مسالخ الوجد[١]
أفسد خِطميَّ الصَّفا والهوى نُخَالَة النَّاقض للعهد[٢]

قال : وسألت الحسن بن أبي قماشة[٣] عن مثل ذلك — وكان كنَّاسًا — فقال :

لقِيناهم فى مقدار سَطح الإيوان ، فما كان إلّا بقدر ما يكنس الرجل زَبيلًا[٤] حتّى تركناهم فى أضيق من جُحر المَخرَج ، ثم قتلناهم بقدر ما يشارط الرجل على كَنْس كنيف ، فلو رميتَ بابنة وَردَانةٍ[٥] ما سقطتْ إلّا على فم بالوعة[٦] .

وعمل أبياتًا فكانت :

أصبح قلبي بَرْبَخًا للهوى تَسلَحُ فيه فَقْحةُ الهَجرِ[٧]
بنات وردان الهوى للبلى أصبَرُ من ذَا الوجدِ فى صدرى[٨]

---

(١) فى جمع الجواهر : « هيج قلبي مشلح الوجد » .

(٢) جمع الجواهر : « بحاله الناقص » .

(٣) جمع الجواهر : « الحسن بن أبي قماش » .

(٤) الزبيل : الزنبيل ، وهو القفة . وفى جمع الجواهر : « زنبيلا » .

(٥) بنت وردان ، هى المعروفة فى مصر بالخنفس . معجم المعلوف ٣٦ وانظر الحيوان ٢ : ١٥٣ و ٣ : ١٣ ، ٣٧١ و ٤ : ٣٩ ، ٢٧٢ ، ٣٠٠ . وابنة وردانة ، لعلها من لغة العامة فى عصره .

(٦) فى جمع الجواهر : « إلا على ظهر قتيل » .

(٧) البربخ : مجرى البول . يسلح ، من السلاح بالضم ، وهو النجو . وفى جمع الجواهر : « للهوى مخرجا » .

(٨) البيت ساقط من جمع الجواهر .

خَنافسُ الهِجران أثكلننى يومَ تولّى مُعرِضًا صبرى[١]
أسقم ديدانُ الهوى مُهجتى إذْ ساحَ البَينُ على عُمرى

١٣٥ و

قال : وسألت أحمدَ الشَّرابىَّ عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم فى مقدار صحن بيت الشَّراب ، فما كان بقدر ما يصفِّ الرجلُ دنًّا[٢] حتى تركناهم فى أضيق من رَطِليّة[٣] فقتلناهم ، فلو رميت تُفّاحةً ما وقعت إلا على أنف سكران .

وعمل أبياتًا فى الغزل فكانت :

شربت بكأس للهوى نبذة معًا ورقرقت خمر الوصل فى قدَح الهجْرِ[٤]
فسالت دِنان البين يدفعُها الصَّبا فكسَّرن قرَّابات حُزْنى على صدرى[٥]
وكان مِزاج الكأس غُلّةَ لوعةٍ ودورقَ هجرانٍ وقِنّينَتَىْ غدرِ

قال : وسألت عبد الله بن طاهر[٦] عن مثل ذلك — وكان طبّاخا — فقال :

لقيناهم فى مقدار صَحْن المطبخ ، فما كان بقدر ما يَشوِى الرجُل حَمَلًا حتّى

---

(١) جمع الجواهر : « نومى فولى معرضاً » .

(٢) جمع الجواهر : « بمقدار ما يبزل الرجل دنا » .

(٣) الرطلية ، بفتح الراء وكسرها : نسبة إلى الرطل ، والمراد وعاء أو كأس يسع رطلا من الشراب . وانظر الحيوان ٣ : ٢٣٦ . وبعده فى جمع الجواهر : « ثم سالت دماؤهم كالدردى ، فلو طرحت كأسا لما وقع إلا فى كف رجل » .

(٤) جمع الجواهر : « بكأس اللهو من راحة الهوى » .

(٥) القرابات : ضرب من الأوانى ، كما هو ظاهر ؛ ولم أجده فى المعاجم .

(٦) جمع الجواهر : « عبد الله الطاهرى » .

تركناهم فى أضيقَ من مَوقِد نار ، فقتلناهم فلو سقطت مِغرفةٌ ما وقعت إلا فى قِدر[١] .

وعمِل أبياتاً فى الغزل فكانت :

يا شبيهَ الفالوذ فى حُمرةِ الخـ دِّ ولَوزينجَ النُّفوسِ الظِّماءِ
أنت جَوزينجُ القُلوب وفى الّلِيـ نِ كلِينِ الخَبيصـةِ البيضـاءِ[٢]
عُدْتُ مُستَهتَرًا بسِكباجِ وُدِّ بعد جُوذَابةٍ بجَنْبِ شِواءِ[٣]
يا نسيمَ القُدور فى يوم عُرسٍ وشبيهًـا بشُـهدةٍ صفراءِ[٤]
أنت أشهَى إلى القلوب من الزُّبْـ دِ مع البَرْنِيان بعد الغَداءِ[٥]
أُطعِمَ الحاسدون ألوانَ غَمٍّ فى قِصـاعِ الأحزانِ والأدواءِ[٦]

---

(١) جمع الجواهر : «ولقيناهم فى مقدار مطبخ أمير المؤمنين ، فما كان إلا بمقدار ما يشوى الرجل حملا أو جديا ، أو يفرغ من طبخ ثلاثة ألوان أو يعقد فالوذجة ، حتى تركناهم فى أضيق من أثافى القدر ، فلو طرحت ملعقة لما وقعت إلا على بطن قتيل » .

(٢) فى جمع الجواهر : « الصفراء » .

(٣) السكباج : لحم يعالج بالخل والتوابل ، ويضاف إليه أحياناً الزعفران والسذاب . محاضرات الراغب ١ : ٢٩٢ وكتاب الطبيخ للبغدادى ٩ . والجوذاب ، بالضم : طعام يتخذ من سكر ورز ولحم . وانظر باقى صفته فى كتاب الطبيخ ٧٠ — ٧٢ .

(٤) جمع الجواهر : « ياقتار القدور » و « بشهدة بيضاء » .

(٥) البرسيان : ضرب من أجود التمر . وفى اللسان : « وأهل العراق يضربون الزبد بالبرسيان مثلا لما يستطاب » .

(٦) فى جمع الجواهر : « والضراء » .

قد غلا القلبُ مذ نأتْ عنك دارى غليانَ القدور عند الصَّلاءِ[١]

هام قلبى لمّا كسرن غضارا تِ سرورى مغارفُ الشَّحناء[٢]

فتفضّلْ على العميدِ بيومٍ جُد بوصلٍ يُكبَتْ به أعدائى[٣]

وتفضَّلْ على الكئيب ببَزْما وردِ وَصلٍ يَشفِى من الأدواء[٤]

١٣٥ ظ قال : وسألتُ — أطال الله بقاءك — محمد بن داود الطوسىَّ عن مثل ذلك — وكان فرّاشا — فقال :

لقيناهم فى مقدار صَحن بساط[٥] ، فما كان إلا بقدر ما يفرش الرجل بيتًا[٦] حتّى تركناهم فى أضيق من مِنصّة فقتلناهم ، فلو سقطت مِخدّة ماوقعتْ إلّا على رأس رجل .

ثم عمل أبياتًا فى الغزل فكانت :

كسَحَ الهجرُ ساحةَ الوصل لمّا غبّر البينُ فى وجوه الصَّفاء[٧]

وجرى البينُ فى مرافق ريشٍ هى مذخورةٌ ليوم اللقاءِ[٨]

---

(١) فى الأصل وطراز المجالس : « السلاء » ، صوابه فى جمع الجواهر .

(٢) الغضارات : الصحاف المتخذة من الغضار ، وهو الطين الحر .

(٣) العميد والمعمود : الذى عمده الحب ، أى أوجعه وأضناه .

(٤) البزماورد : ضرب من الخبز يحشى بشواء مدقوق مضاف إليه الخل والأفاويه. وانظر بقية صفته فى كتاب الطبيخ ٥٩ .

(٥) جمع الجواهر : « فى مثل تربيع الفسطاط » .

(٦) بعده فى جمع الجواهر : « أو بيتين » .

(٧) الكسح : الكنس . وفى الأصل والطراز : « كسر » تحريف . وفى جمع الجواهر : « كنس » ، وهى بمعنى كسح .

(٨) المرافق : جمع مرفقة ، وهى المخدة .

فرشَ الهجر فى بيوتِ همومٍ تحت رأسى وسادةَ البُرَحَاء[1]
حينَ هيّأت بيت خَيشٍ من الوصـ ـلِ لأبوابه ستور البهاء[2]
فرشَ البحرُ لى بيوتَ مُسوحٍ مُتَّكاها مَطارح الحصباء[3]
رِقَّ للصبِّ من براغيثِ وجدٍ تعترى جِلدَه صباحَ مساء[4]

قال : فضحك المعتصم حتى استلقَى ، ثم دعا مؤدِّب ولده فأمره أن يأخذهم بتعليم جميع العلوم .

* * *

تم كتاب الجاحظ ولله المنة ، وبيده الحول والقوة ، والله سبحانه الموفق للصواب .
والحمد لله أولا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه .
بعده زيادات ليست للجاحظ[5]

---

(١) فى الأصل ومخطوط الطراز : « لى بيوت » ، صوابه فى مطبوع طراز المجالس . والبرحاء : الشدة ، والمشقة . وفى جمع الجواهر :

فلقد بث فى فراش همومى تحت خدى وسائداً لضنائى

(٢) الخيش : ثياب رقاق النسج غلاظ الخيوط تتخذ من مشاقة الكتان .

(٣) المتكأ : ما يتوكأ عليه لطعام أو شراب أو حديث . وفى الأصل وطراز المجالس : « متكآتها من الحصباء » ، صوابه فى جمع الجواهر . والمطارح : جمع مطرح ، بالكسر ، وهو المفرش ، كما فى المعجم الوسيط .

(٤) فى جمع الجواهر : « من بواعث وجد قد تخالسنه » . وبعد هذا البيت فى جمع الجواهر بدلا من الكلام التالى هنا : « ياأمير المؤمنين ، إنما ينطق اللسان بما يتصور الجنان ، ويظهر فى الكلام ما يخطر على الأوهام ، فمن لم يعرف إلا شيئاً واحداً لم يتكلم عليه ، ومن كثر علمه كثرت خواطره ، واتسعت مذاهبه ، ورب هزل أنفع من جد إذا أصيب به موضع الحاجة ، ووضع بحيث تقع هم النفوس عليه . والسلام » . ثم قال الحصرى معقباً على هذه الرسالة :

« والجاحظ صنع هذه الأشعار لما وضع هذه الأخبار ، وكان قديراً على الشعر سراقاً له » .

(٥) وهى فى مقدار ثلاث ورقات من الأصل ، على لسان أهل الصناعات .

فهرس الكتب والرسائل

أبـو سلـوم المعتـــزلي

مكتبة الجاحظ

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

١٥٠ - ٢٥٥

بتحقيق وشرح

عبد السلام محمد هارون

رسائل الجاحظ

الجزء الثاني

ومعه الفهارس الفنية لمجموعة داماد

الناشر

مكتبة الخانجي بالقاهرة

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

القاهرة

مطبعة السنة المحمدية

١٧ شارع شريف باشا الكبير — عابدين

ت ٩٠٦٠١٧

١١

رِسَالَة

فِي النَّابِتَةِ

إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دُواد

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الحادية عشرة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها فى الأصل :

« رسالة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، إلى أبى الوليد محمد بن أحمد ابن أبى دواد فى النابتة » .

أما أبو الوليد فقد سبق التعريف به فى صدر الرسالة السادسة ، وهى : « رسالة نفى التشبيه » .

وأما النابتة فيعنى بهم الطوائف المبتدعة التى نشأت بعد مضى الصدر الأول من الإسلام ، ولا سيما بعد فتنة عثمان .

وأصل النابتة فى اللغة هم الأغمار من الأحداث ، فأطلق هذا اللفظ عليهم إشارة إلى ضعف آرائهم ووهن تفكيرهم ، وإلى أنهم طارئون على الأصول الدينية المتعارفة ، لايعتمدون فى ذلك على أساس وثيق .

والنابتة والنوابت تسمية قديمة وردت فى شعر أبى السرى الشميطى ، وهو قوله : (انظر البيان ٣ : ٣٥٦) :

لا حرورا ولا النوابت تنجو   لا ولا صحب واصل الغزال

والجاحظ يقرن النابتة بالمبتدعة إذ يقول فى موضعين من هذه الرسالة : « نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا » ص ١٢ س ٤ و ص ١٤ س ٧ .

وبالرافضة إذ يقول فى هذه الرسالة ص ١٨ س ٨ : « حتى نبتت هذه النابتة وتكلمت هذه الرافضة » .

وبالعوام إذ يقول فى ص ٢٠ س ٣ : « وقد كانت هذه الأمة لا تجاوز معاصيها الإثم والضلال إلا ما حكيت لك عن بنى أمية وبنى مروان وعمالها ومن لم يدن بإكفارهم ، حتى نجمت هذه النوابت ، وتابعتها هذه العوام ، فصار الغالب على هذا القرن الكفر » .

ويتحدث عن نابتة الموالى فى قوله ص ٢١ س ١ : « وقد نجمت من الموالى ناجمة ، ونبتت منهم نابتة » .

ولهذه الرسالة أصل أول ، هو مجموعة مكتبة داماد .

وقد نشرها للمرة الأولى من قبل « ڤان ڤلوتن » معتمدا على هذا الأصل نسخة مكتبة «داماد» ، وعنوانها مطابق للأصل « رسالة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دواد فى النابتة » .

ومن هذه النشرة نسخة بدار الكتب برقم ٧٦٠ أدب تيمور ، وهى فصلة من مجلة: Actes de XIe Cony. Intern des Or. كما ذكر بروكلمان ٣: ١١٣. وفى هذه النشرة تحريفات كثيرة أشرت إليها فى حواشى نشرتى هذه .

ونشرها كذلك الشيخ محمود عرنوس سنة ١٩٣٧ م بالمطبعة الإبراهيمية عن نسخة دار الكتب ٢٨٥٥ تاريخ ، المكتوبة سنة ١٣٣٢ هـ مع المقابلة على مخطوطتين فى المكتبة التيمورية برقم ٣٢١ ، ٢٠٨٧ تاريخ . وعنوانها عنده هو : « رسالة للجاحظ فى بنى أمية » .

وأعاد نشرها بعد ذلك السيد عزت العطار الحسينى فى سنة ١٣٦٥ هـ بعنوان : « رأى أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى معاوية والأمويين » مع أن عنوانها فى الأصل الذى نشر عنه نسخته وهو مخطوطة دار الكتب رقم ٢٨٥٥ تاريخ : « رسالة للجاحظ فى بنى أمية » .

وقد عنيت فى نشرتى هذه بالمقابلة على المخطوطات الثلاث :

١ — مخطوطة دار الكتب برقم ٢٨٥٥ تاريخ ، المكتوبة سنة ١٣٣٢ .

٢ — المخطوطة التيمورية الأولى برقم ١٠٨٧ تاريخ تيمور ، المكتوبة سنة ١٣١٧ هـ . وعنوانها الذى كتب بخط أحمد تيمور باشا :« رسالة للجاحظ فى ذم بنى أمية » .

٣ — المخطوطة التيمورية الثانية برقم ٣٢١ تاريخ تيمور ، المكتوبة ١٣١٩هـ. وعنوانها : « رسالة للجاحظ فى بنى أمية » .

بسم الله الرحمن الرحيم

أطال الله بقاءك، وأتمّ نعمتَه عليك، وكرامتَه لك .

اعلمْ، أرشدَ الله أمرك، أنّ هذه الأمّةَ قد صارت بعد إسلامها والخروج من جاهليّتها إلى طبقاتٍ متفاوتة، ومنازلَ مختلفة :

فالطّبقة الأولى : عصرُ النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعُمر رضى الله عنهما، وستُّ سنينَ من خلافة عثمان رضى الله عنه ؛ كانوا على التوحيد الصّحيح والإخلاص المُخلَص، مع الألفة واجتماع الكلمةِ على الكتاب والسنّة . وليس هناك عملٌ قبيحٌ ولا بدعةٌ فاحشة، ولا نَزْعُ يدٍ من طاعةٍ، ولا حسدٌ ولا غِلٌّ ولا تأوّل، حتّى كان الذى كان من قَتل عثمان رضى الله عنه وما انتُهِكَ منه، ومن خَبْطهم إيّاه بالسّلاح، وبَعْج بطنه بالحراب، وفَرْيِ أوداجه بالمشاقص[1]، وشَدْخ هامته بالعَمَد[2]، مع كفِّه عن البَسْط، ونَهيِه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قَبل ذلك مِن كم وجهٍ يجوز قَتْل من شَهِد الشهادة، وصلّى القِبلةَ[3]، وأكَلَ الذّبيحة ؛ ومع ضربِ نسائه بحَضْرته، وإقحام الرّجالِ على حُرمته، مع إتّقاء نائلة بنتِ الفُرافِصة[4] عنه بيدها، حتّى

(١) جمع مشقص، وهو من النصال : ما طال وعرض .

(٢) العمد : جمع عمود، وهو العصا، والخشبة القائمة فى وسط الخباء .

(٣) أى جهة القبلة، وجعلت فى المطبوعة « إلى القبلة » خلافا لما فى الأصل .

(٤) نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص، امرأة عثمان، تزوجها وهى مسلمة وكان أبوها نصرانيا . جمهرة ابن حزم ٤٥٦ .

أطَنُّوا إصبعين من أصابعها[١] ، وقد كَشَفتْ عن قِناعها ، ورفعَتْ عن ذيلها ؛ ليكونَ ذلك رِدْعًا لهم ، وكاسرًا من عزمهم ؛ مع وَطْئهم في أضلاعه بعد موته ، وإلقائهم على المزبلة[٢] جسدَه مجرَّدًا بعد سَحبِه ، وهي الجَزَرة[٣] التي جعلَها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كُفُوًا لبناته وأيامَاهُ وعقائله[٤] ؛ بعد السَّبِّ والتعطيش ، والحَصْر الشَّديد ، والمَنْع من القُوت ؛ مع احتجاجه عليهم ، وإفحامه لهم ، ومع اجتماعهم على أنَّ دمَ الفاسق حرامٌ كدم المؤمن ، إلَّا من ارتدَّ بعد إسلام ، أو زنى بعد إحصان ، أو قَتل مؤمناً على عَمدٍ ، أو رجلٌ عَدَا على النَّاسِ بسَيفِهِ فكان في امتناعهم منه عطبُه ؛ ومع إجماعهم[٥] على ألَّا يُقتَل من هذه الأمة مُوَلٍّ ، ولا يُجهَز منها على جريح .

١٤٠ و ثم مع ذلك كلِّه دَمَروا عليه[٦] وعلى أزواجه وحُرَمه ، وهو جالسٌ في محرابه ، ومُصحَفُه يلوحُ في حِجره ، لن يرى أنَّ موحِّداً يُقدم على قتل مَن كان في مثل صفتِه وحاله .

---

(١) الإطنان : سرعة القطع .

(٢) المزبلة ، بفتح الميم والباء وبضمهما : موضع الزبل ، وهو السرجين وما أشبهه.

(٣) الجزرة : ما يجزر ويذبح . ولعله إشارة إلى حديث ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة يؤتى بعثمان وأوداجه تشخب دما ، اللون لون دم ، والرائحة رائحة مسك » . الرياض النضرة ٢ : ١١٢ .

(٤) تزوج عثمان رقية بنت رسول الله ، وتزوج أيضا أم كلثوم بنت رسول الله .

(٥) قرأها فان فلوتن : « اجتماعهم » خلافا لما هو واضح في الأصل . لكن في التيموريتين : « اجتماعهم » .

(٦) دمروا عليه : هجموا ودخلوا بدون إذن . وفي الأصل والتيمورية الثانية : « ذمروا » بالذال المعجمة ، وفي التيمورية الأولى : « زمروا » ، وفي نسخة الدار : « دفروا » ، وجميع ذلك محرف .

لا جَرَم لقــد احتلبوا به دمًا لا تطير رغوتُه ، ولا تسكُن فَورته ، ولا يموت ثائره ، ولا يكلّ طالبُه . وكيفَ يَضيعُ دمٌ اللهُ وليُّه[1] والمنتقمُ له ؟!

وما سمعنا بدمٍ بعد دمِ يحيى بن زكريّا عليه السلام غلا غليانَه ، وقَتل سافحَه ، وأدرك بطائلته ، وبلغ كلّ مِحْنتِه[2] ، كدمه رحمةُ الله عليه .

ولقد كان لهم فى أَخْذِه وفى إقامته للناس والاقتصاص منه ، وفى بَيع ما ظَهَر من رِباعه[3] وحَدائقه وسائر أمواله[4] ، وفى حَبْسه بما بقىَ عليه ، وفى طَمْرِه حتّى لا يُحسَّ بذكره ، ما يُغنيهم عن قَتلِه إنْ كان قد ركب كُلّ ما قذفوه به ، وادَّعَوه عليه .

وهــذا كلُّه بحَضرة جِلّة المهاجرين ، والسَّلَف المقدَّمين ، والأنصار والتابعين .

ولــكنّ النّاسَ كانوا على طبقاتٍ مختلفة ، ومراتبَ متباينة : من قاتلٍ ، ومن شادٍّ على عَضُده ، ومن خاذلٍ عن نُصرته . والعاجزُ ناصرٌ بإرادته ، ومطيعٌ بحُسْن نِيَّته . وإنّما الشّكُّ منّا فيه وفى خاذله ، ومَن أراد عزلَه والاستبدالَ به . فأمّا قاتلُه والمعين على دمِه والمريدُ لذلك منه ، فضُلّالٌ لا شكّ

---

(١) قرأها ڤان ڤلوتن : « وكيف يضيع الله دم وليه » ، خلافا لما فى الأصل . ووردت على قراءته فى نسخة الدار والنسختين التيموريتين .

(٢) المحنة : البلية التى يمتحن بها الإنسان .

(٣) الرباع : المنازل والديار ، واحدها ربع بالفتح . كما يجمع الربع أيضاً على ربوع وأرباع .

(٤) فى الأصل : « أقواله » ، صوابه فى جميع المخطوطات وڤان ڤلوتن .

فيهم ، ومُرّاقٌ لا امتراء فى حكمهم . على [أنّ[1]] هذا لم يَعْدُ منهم الفجور ، إمّا على سوء تأويل ، وإمّا على تعمُّد للشَّقاء .

ثمّ مازالت الفتنُ متّصلة ، والحروب مترادفة ، كحرب الجمل ، وكوقائع صِفِّين ، وكيوم النَّهْرَوان ، وقبل ذلك يومُ الزّابوقة[2] وفيه أُسِر ابنُ حُنَيف[3] وقُتِل حُكَيم بن جَبَلة[4] .

إلى أن قَتَلَ أشقاها عليَّ بنَ أبي طالب رضوانُ الله عليه ، فأسعدهُ الله بالشَّهادة ، وأوجب لقاتله النارَ واللَّعنةَ .

إلى أنْ كان من اعتزال الحسَن عليه السلام الحروبَ وتخليتِهِ الأمورَ ، عند انتشار أصحابه ، وما رأى من الخَلَل فى عسكره ، وما عرف من اختلافهم على أبيه ، وكثرة تلوُّنهم عليه .

فعندها استوى معاويةُ على المُلك ، واستبدَّ على بقيّة الشُّورى ، وعلى

---

(١) التكملة من ڤان ڤلوتن وسائر المخطوطات .

(٢) الزابوقة : موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجمل أول النهار .

(٣) فى الأصل : « أبو حنيف » . وفى مخطوطة الدار : « ابن حنيفة » ، وإنما هو « ابن حنيف » ، كما فى التيموريتين . واسمه : « عثمان بن حنيف » . انظر الطبرى ٥ : ١٧٣ — ١٨٢ . وهو فى عداد الصحابة . الإصابة ٥٤٢٧ وجمهرة ابن حزم ٣٣٦ ووقعة صفين ١٥ .

(٤) حكيم بن جبلة بن حصين العبدى ، كان من عمال عثمان على السند ثم البصرة ، وكان بعد ذلك أحد قتلة عثمان رضى الله عنه . انظر مروج الذهب ١ : ٤٤٠ وجمهرة أنساب العرب ٢٩٨ . و « حكيم » بهيئة التصغير ، كما فى الإصابة ١٩٩١ . وقد ذكره ابن حجر فيمن له إدراك . وانظر صورة من شجاعته النادرة فى الطبرى ٥ : ٢٨٠ فى حوادث سنة ٣٦ .

١٤٠ ظ

جماعةِ المسلمين من الأنصار والمهاجرين فى العام الذى سَمّوْه عامَ الجماعة — وما كان عامَ جماعةٍ ، بل كان عامَ فُرْقة وقَهر وجَبْرِيّة وغَلَبة ، والعامَ الذى تحوّلت فيه الإمامة مُلكاً كِسرويّاً ، والخلافةُ غَصْبًا قيصريًّا ، ولم يَعْدُ ذلك أجمعَ الضّلالَ والفِسق .

ثمّ ما زالت مَعاصيه من جنسِ ما حكينا ، وعلى منازلِ ما رتّبنا ، حتّى ردَّ قضيّة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ردًّا مكشوفا ، وجَحد حُكمَه جحداً ظاهرا ، فى ولدِ الفراشِ وما يجبُ للعاهر[1] ، مع إجماع[2] الأمّةِ أنّ سُميّة لم تكن لأبى سُفيانَ فِراشًا ، وأنّه إنّما كان بها عاهراً ؛ فخرجَ بذلك من حُكم الفُجّار إلى حكم الكفّار .

وليس قتل حُجْر بن عدىّ ، وإطعام عمرو بن العاص خراجَ مصر ، وبيعته يزيد الخليع ، والاستئثارُ بالفىء ، واختيار الوُلاة على الهوى ، وتعطيلُ الحدود بالشّفاعة والقرابةِ ، من جِنْس جَحْد[3] الأحكام المنصوصة ، والشرائع المشهورة ، والسُّنن المنصوبة .

وسواءٌ فى باب مايستحقّ من الإكفار جَحدُ الكتاب وردُّ السنة ؛ إذْ كانت السنّة فى شُهرة الكتاب وظهوره ، إلّا أنّ أحدهما أعظم ، وعقاب الآخرة عليه أشدّ .

---

(١) إشارة إلى حديث « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر » .

(٢) قرأها ڤان ڤلوتن « اجتماع » سهوا ، خلافاً لما أثبت من الأصل . ووردت كقراءة ڤان ڤلوتن فى التيموريتين .

(٣) فى الأصل : «حد» ، صوابه من جميع المخطوطات وتصحيح ڤان ڤلوتن

فهذه أوّلُ كَفرةٍ كانت فى الأمّة .

ثم لم تكن إلّا فيمَنْ يدّعى إمامتها ، والخلافة عليها .

على أن كثيرًا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره . وقد أربَتْ عليهم نابتةُ عصرنا ، ومبتدعةُ دهرنا فقالت : لا تسبُّوه فإنّ له صُحبة ؛ وسبُّ معاوية بدعة ، ومن يبغضْه فقد خالفَ السُّنّة .

فزعمَتْ أنّ من السُّنّة تركَ البراءة ممن جحد السُّنّة .

ثمّ الذى كان من يزيدَ ابنِه ومن عُمّاله وأهل نُصرته ، ثم غَزْو مكّةَ ، ورمى الكعبةِ ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السّلام فى أكثر أهل بيته مصابيحِ الظّلام ، وأوتادِ الإسلام ؛ بعد الذى أعطى من نفسه من تفريق أتْباعه ، والرُّجوع إلى داره وحَرَمه ، أو الذّهاب فى الأرض حتى لا يُحَسّ به ، أو المقام حيث أمِرَ به ، فأبَوْا إلّا قَتْلَه والنُّزول على حكمهم . ١٤١ و

وسواء قَتَلَ نفسه بيده ، أو أسلَمها إلى عدوِّه وخَيَّر فيها من لا يبرُد غليلُه إلّا بشُرْب دَمِه .

فاحسِبوا قتلَه ليس بكفر ، وإباحةَ المدينة وهَتكَ الحُرمة ليس بحجّة ، كيف تقولون[1] فى رَمْى الكعبة ، وهدمِ البيت الحرام ، وقِبْلة المسلمين ؟

فإنْ قلتم : ليس ذلك أرادوا ، بل إنما أرادوا المتحرِّز به والمتحصِّن بحيطانه . أفما كان من حقِّ البيت وحَريمه أن يحصروه فيه إلى أن

(١) فى الأصل : « تقول » ، صوابه فى نسخة الدار .

يُعْطِىَ بيده ، وأىُّ شىء بَقِىَ من رجلٍ قد أُخِذت عليه الأرضُ إلَّا موضعَ قدمِهِ .

واحسُبْ ما[١] رَوَوْا عليه من الأشعار التى قولُها شِرك ، والتمثُّلُ[٢] بها كفر ، شيئًا[٣] مصنوعًا ، كيف يُصنَع بنَقْر القضيب بين ثَنِيَّتِي الحسين عليه السلام ، وحَمْلِ بناتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم حواسِرَ على الأقتاب العارية والإبلِ الصِّعاب ، والكشفِ عن عَورة علىِّ بن الحسين عند الشَّكِّ فى بلوغه على أنَّهم إنْ وَجَدوه وقد أنبتَ قتلوه ، وإن لم يكن أنبتَ حَمَلوه ، كما يَصنعُ أميرُ جيشِ المسلمين بذَرارِى المشركين ؟

وكيف تقولون[٤] فى قول عُبيد الله بن زياد لإخوته وخاصَّته : دعونى أقتلْه فإنَّه بقيَّةُ هذا النَّسل ، فأحسِمَ به هذا القَرْن[٥] ، وأُميتَ به هذا الدَّاء ، وأقطعَ به هذه المادَّة .

خَبِّرونا على ما تدلُّ[٦] هذه القسوةُ وهذه الغلظة ، بعد أن شفَوْا

---

(١) فى الأصل : « بما » ، صوابه فى جميع المخطوطات وفان فلوتن .

(٢) فى الأصل وفان فلوتن : « والمثيل » ، صوابه فى جميع المخطوطات .

(٣) فى الأصل وفان فلوتن : « وشيئاً » ، صوابه فى جميع المخطوطات .

(٤) فى الأصل ونسخة الدار وفان فلوتن : « تقول » ، والوجه ما أثبت من التيموريتين .

(٥) يعنى قرن الفتنة .

(٦) أثبت ألف « ما » الاستفهامية بعد الجار ، وهو قليل ، قرئ به فى قوله تعالى : « عما يتساءلون » . انظر البيان ٣ : ١٢٥ .

أنفسَهم بقتلهم ، ونالوا ما أحبُّوا فيهم . أتدلُّ على نَصبٍ وسوء رأى وحقدٍ وبَغضاء ونفاق ، وعلى يقينٍ مدخول وإيمان ممزوج ، أم تدلُّ على الإخلاص وعلى حبِّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم والحفظِ له ، وعلى براءة السَّاحةِ وصحّة السَّريرة ؟

فإن كان على ما وصفنا لا يعدو الفسقَ والضَّلال — وذلك أدنى منازِله — فالفاسق ملعونٌ ، ومن نهى عن لَعْن الملعون فملعون .

وزعمت نابتةُ عصرنا ، ومبتدعة دهرِنا ، أنَّ سبَّ وُلاةِ السُّوء فتنة ، ولعن الجَوَرَة بدعة ، وإنْ كانوا يأخذون السَّمىَّ بالسَّمىِّ ، والولىَّ بالولىِّ ، والقريبَ بالقريب ، وأخافوا الأولياء ، وآمنوا الأعداء ، وحكموا بالشفاعة والهوى ، وإظهار القُدرة ، والتهاون بالأمّة ، والقمع للرعيّة ، وأنهم فى غير مداراة ولا تقيّة ، وإنْ عدا ذلك إلى الكفر ، وجاوزَ الضَّلالَ إلى الجحد ، فذاك أضلُّ لمن كفَّ عن شتْمهم والبراءةِ منهم . ١٤١ ظ

على أنّه ليس من استحقَّ اسمَ الكفر بالقتل كمن استحقّه بردِّ السنّةِ وهدم الكعبة . وليس مَن استحقَّ الكفر بالتشبيه كمن استحقّه بالتجوير .

والنَّابتةُ فى هذا الوجه أكفرُ من يزيدَ وأبيه ، وابن زيادٍ وأبيه .

ولو ثبت أيضاً على يزيدَ أنّه تمثّل بقول ابن الزِّبَعْرَى[1] :

---

(١) هو عبد الله بن الزبعرى بن قيس بن عدى بن سعيد بن سهم القرشى . والزبعرى أبوه ، وهو بكسر الزاى وفتح الباء مقصور . ومعناه فى اللغة السيئ الخلق ، والغليظ . وكان عبد الله من أشعر قريش ، وكان شديداً على المسلمين ، ثم أسلم =

ليت أشياخِى ببدرٍ شَهِدوا جَزَعَ الخزرجِ مِن وَقْعِ الأَسَلْ
لاستطاروا واستهلُّوا فرحًا ثم قالوا يا يزيدًا لا تسَلْ (١)
قد قتلنا الغُرَّ من ساداتهم وعَدلنا مَيلَ بدرٍ فاعتدل (٢)

كانَ تجويرُ النَّابتىِّ لربِّه ، وتشبيهه بخلقه ، أعظمَ من ذلك وأفظَع .

على أنَّهم مُجمِعون على أنَّه ملعونٌ مَن قتل مؤمنًا متعمِّدًا أو متأوِّلا . فإذا كان القاتل سُلطانًا جائرا ، أو أميراً عاصيا ، لم يستحلُّوا سبَّه ولا خَلْعه ، ولا نفيَه ولا عَيبَه ، وإنْ أخافَ الصُّلحاء وقتل الفقهاء ، وأجاعَ الفقيرَ وظلمَ الضعيف ، وعطل الحدودَ والثُّغور ، وشرب الخمورَ وأظهر الفجور .

ثم ما زال الناس يتسكَّعُون مرّةً ويداهنونَهُم مرّة ، و.... نهم مرة ويشاركونهم مرّة ، إلّا بقيَّةً ممن عَصَى الله تعالى ذكرُه ، حتَّى قام عبدُ الملك بنُ مَرْوان ، وابنُه الوليد ، وعاملُهما الحجّاجُ بن يوسف ،

= فى الفتح سنة سنة ثمان واعتذر عن إيذاء المسلمين وقريش . الإصابة ٦٧٠٤ والمؤتلف ١٣٢ والاشتقاق ١٢٢ .

(١) جعلها ڤان ڤلوتن « يايزيد لافشل » : والبيت ليس من كلام ابن الزبعرى ، وإنما صنعه يزيد وأقحمه . وقصيدة ابن الزبعرى فى السيرة ٦١٦ جوتنجن وشرح شواهد المغنى للسيوطى ١٨٧ . وبعض أبياتها فى الحيوان ٥ : ٥٦٤ والاشتقاق .

(٢) فى الأصل والمخطوطات وڤان ڤلوتن : « وعدلناه ببدر » ، صوابه فى السيرة والحيوان وشرح شواهد المغنى .

ومولاه يزيدُ بن أبى مُسْلِم[1] ، فأعادُوا على البيت بالهَدْم[2] ، وعلى حَرَم المدينة بالغَزْو ، فهدموا الكعبة ، واستباحوا الحُرْمة ، وحوّلوا قِبلةَ واسط ، وأخَّروا صلاةَ الجمعة إلى مُغيرِبان الشَّمس . فإن قال رجلٌ لأحدٍ منهم : اتّق اللهَ فقد أخَّرت الصلاةَ عن وقتها ، قتَله على هذا القول جِهارًا غيرَ خَتْل ، وعلانيةً غيرَ سِرّ . ولا يُعلم القتل على ذلك إلّا أقبحَ من إنكاره ، فكيف يكفُر العبد بشىء ولا يكفُر بأعظم منه ؟ ١٤٢ و

وقد كان بعضُ الصَّالحين ربَّما وَعظ [بعضَ[3]] الجبابرة ، وخوَّفه العواقب ، وأراه أنَّ فى الناس بقيَّةً ينهَوْن عن الفساد فى الأرض ، حتَّى قام عبدُ الملك بن مَرْوان والحجاجُ بن يوسُف ، فزجرا عن ذلك وعاقبا عليه ، وقتَلا فيه ، فصاروا لا يتناهَوْن عن منكرٍ فَعَلوه .

فاحسُبْ أنَّ تحويل القبلة كان غَلطًا ، وهدمَ البيت كان تأويلا ، واحسُب ما رَوَوا من كلِّ وجه أنَّهم كانوا يزعمون أنَّ خليفة المرء فى أهله أرفعُ عنده

---

(١) فى الأصل : « يزيد بن أبى مسلمة » تحريف . وهو أبو العلاء يزيد ابن أبى مسلم الثقفى مولاهم ، واسم أبى مسلم « دينار » . كان يزيد مولى الحجاج وكاتبه ، ولما حضرت الوفاة الحجاج استخلفه على الخراج بالعراق ، فلما مات أقره الوليد بن عبد الملك ، ولما ولى أخوه سليمان عزله بيزيد بن المهلب . وفى سنة ١٠١ ولى إمارة إفريقية من قبل يزيد بن عبد الملك فحاول أن يسير فى أهلها بسيرة الحجاج فقتلوه سنة ١٠٢ . وفيات الأعيان ٢ : ٢٧٦ — ٢٧٨ والطبرى ٨ : ١٦٧ ونوادر المخطوطات ٢ : ١٧٨ .

(٢) انظر ما سبق فى ص ١٢ .

(٣) ليست بالأصل ولا فى المخطوطات ، والكلام يقتضيها .

من رسوله إليهم ، باطلاً ومصنوعاً مولَّداً . واحسُبْ وَسْمَ[١] أيدي المسلمين ونَقْشَ أيدي المسلماتِ ، وردَّهم بعد الهجرة إلى القُرى[٢] ، وقَتل الفقهاء ، وسبَّ أئمة الهدى ، والنَّصْبَ لعِترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لا يكون كفراً ، كيف نقول في جمع ثلاثِ صلواتٍ فيهنَّ الجمعةُ ولا يصلُّون أولاهنَّ حتَّى تصير الشَّمسُ على أعالي الجُدْران[٣] كالمُلاء المعصفَر . فإنْ نطَقَ مسلمٌ خُبط بالسَّيف ، وأخذته العَمَدُ ، وشُكَّ بالرِّماح .

وإن قال قائلٌ : اتَّقِ الله ، أخذته العزَّة بالإثم ، ثمَّ لم يرضَ إلاَّ بنثْر دماغه على صدره ، وبصَلْبه حيث تراه عيالُه .

ومما يدلُّ على أنَّ القوم لم يكونوا إلاَّ في طريق التمرُّد على الله عزَّ وجلَّ ، والاستخفاف بالدِّين ، والتَّهاون بالمسلمين ، والابتذال لأهل الحقّ ، أكْلُ أمرائهم الطَّعامَ ، وشُربُهم الشَّرابَ ، على منابرهم أيّامَ جُمَعهم وجُموعهم . فَعَل ذلك حُبَيش بن دُلْجة[٤] ، وطارقٌ مولى عثمان[٥] ، والحجَّاجُ بن يوسف

---

(١) جعلها عزت العطار « وشم » بالشين .

(٢) قرأها فان فلوتن : « قراهم » خلافا لما هو واضح في الأصل ، وإن كانت في المخطوطات « قراهم » أيضاً .

(٣) في الأصل : « الجدرات » ، صوابه في جميع المخطوطات وفان فلوتن .

(٤) في الأصل والمخطوطات وفان فلوتن : «حسن بن دلجة» ، صوابه في الطبري ٧ : ٨٤ وجمهرة أنساب العرب ٢٢٨ . قال ابن حزم : « بعثه مروان إلى الحجاز ، فبعث ابن الزبير ، الحنتف — يعني الحنتف بن السجف — فقتل حبيشاً وأفلت الحجاج يومئذ وكان مع حبيش . وكان هذا سنة ٦٥ كما في تاريخ الطبري .

(٥) هو طارق بن عمرو ، مولى عثمان بن عفان ، ولاه عبد الملك بن مروان إمارة المدينة بعد فتنة ابن الزبير في سنة ٧٣ . قال الطبري : « فوليها خمسة أشهر » . وفي تهذيب التهذيب ٥ : ٧ أن عبد الملك عزله في سنة ٧٣ وولى الحجاج بن يوسف .

وغيرهم . وذلك إنْ كان كفرًا كلّه فلم يبلغْ كفرَ نابتةِ عصرنا ، وروافضِ دهرنا ؛ لأنَّ جنس كفر هؤلاء غير كفر أولئك .

كانَ اختلافُ الناس فى القَدَر على أنَّ طائفةً تقول : كلُّ شىء بقضاء وقدر ، وتقول الطائفة الأُخرى : كل شىء بقضاء وقدر إلاَّ المعاصىَ . ولم يكن أحدٌ يقول إنَّ الله يعذِّب الأبناء ليغيظ الآباء ، وإنَّ الكفر والإيمانَ مخلوقانِ فى الإنسان مثل العمى والبصر . وكانت طائفةٌ منهم تقول إنَّ الله ١٤٢ ظ لا يُرَى ، لا تزيد على ذلك ، فإنْ خافت أنْ يُظَنَّ بها التشبيه قالت يُرى بلا كيفٍ ، تعرِّياً مِن التَّجسيم والتَّصوير ، حتَّى نبتت هذه النابتة ، وتكلَّمت هذه الرَّافضة ، فثبَّتتْ له جسماً ، وجعلت له صورة وحَدًا ، وأكفرتْ من قال بالرُّؤْية على غير الكيفية .

ثم زعم أكثرُهم أنَّ كلام الله حسن وبيِّن ، وحُجَّةٌ وبرهان ، وأنَّ التَّوراة غير الزَّبور ، والزَّبور غير الإنجيل ، والإنجيل غير القرآن ، والبَقَرة غير آل عِمْران ، وأنَّ الله تولَّى تأليفَه ، وجعلَه برهانَه على صدقِ رسوله ، وأنَّه لو شاء أن يزيد فيه زاد ، ولو شاء أن ينقصَ مِنه نَقَص ، ولو شاء أن يبدِّله بدَّله ، ولو شاء أن ينسخه كلَّه بغيرِه نَسَخه ، وأنَّه أنزله[1] تنزيلا ، وأنَّه فصَّله تفصيلا ، وأنَّه بالله كان دون غيره ، ولا يَقدر عليه إلا هو ، غير أنَّ اللهَ مع ذلك كلِّه لم يخلقْه . فأعطَوْا جميعَ صفات الخلْقِ ومَنَعوا اسمَ الخلق .

والعجَب أنَّ الخلْق عند العرب إنَّما هو التقدير نفسُه ؛ فإذا قالوا خَلَق

(١) كذا فى جميع النسخ . والأوفق « نزله » .

كذا وكذا ، وكذلك قال ﴿ أحسَن الخالِقِين[١] ﴾ وقال ﴿ تَخْلُقُونَ إفْكاً[٢] ﴾ وقال : ﴿ وإذْ تَخلُقُ مِن الطِّينِ كهيئَةِ الطَّيْرِ[٣] ﴾ فقالوا : صنعَه وجعلَه وقدَّره وأنزلَه ، وفصَّله وأحدثَه ، ومنعوا خَلقه . وليس تأويل خَلقَه أكثرَ من قدَّره . ولو قالوا بدل قولهم قَدَّره ولم يخْلُقْه : خلقَه ولم يقدِّره ، ما كانت المسألةُ عليهم إلاَّ من وجهٍ واحد .

والعجب أنَّ الذى منعه بزعمه أنْ يزعم أنَّه مخلوقٌ ـ أنَّه لم يسمع ذلك من سَلفِه وهو يعلم أنَّه لم يسمع أيضاً عن سلفه أنّه ليس بمخلوق . وليس ذلكَ بهم ، ولكن لِمَا كان الكلامُ من الله يقال عندهم على مثل خُروج الصَّوت من الجوف ، وعلى جهة تقطيع الحروف وإعمال اللِّسان والشَّفتين ، وما كان على [غير]هذه الصُّورة[٤] والصِّفة فليس بكلام .

١٤٣ ولمّا كنّا عندهم على غير هذه الصفة ، وكنا لكلامنا غير خالقين ، وجَبَ أنَّ الله عز وجَلَّ لكلامه غير خالق ، إذ كنَّا غيرَ خالقين لكلامنا . فإنَّما

---

(١) فى الآية ١٤ من سورة المؤمنون : « فتبارك الله أحسن الخالقين » وفى الصافات : « وتذرون أحسن الخالقين » .

(٢) الآية ١٧ من العنكبوت . وهى : « إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا » . والاقتباس بترك الواو والفاء ونحوها جائز كثير . انظر ما كتبت فى حواشى الحيوان ٤ : ٥٧ .

(٣) الآية ١١٠ من سورة المائدة .

(٤) فى الأصل : « وإن ما كان على هذه الصورة » ، صوابه وتكملته فى جميع المخطوطات .

قالوا ذلك لأنَّهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه فرقا ، وإن لم يقرُّوا بذلك بألسنتهم . فذاك معناهُم وقصدهم .

وقد كانت هذه الأمّةُ لا تجاوز معاصيها الإثمَ والضَّلال ، إلَّا ما حكيتُ لك عن بنى أميَّةَ وبنى مَرْوَانَ وعمَّالها ، ومَن لم يَدِنْ بإكفارهم ، حتَّى نجمت النَّوابتُ ، وتابعتْها هذه العوامُّ ، فصار الغالبُ على هذا القَرْن الكفرَ ، وهو التَّشبيه والجبر ، فصار كفرهم أعظمَ من كُفرِ من مضى فى الأعمال التى هى الفسقُ ، و [صاروا[1]] شركاء من كفر منهم ، بتولِّيهم وتركِ إكفارهم . قال الله عزّ من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ[2] ﴾ .

وأرجو أن يكون الله قد أغاث المحقِّينَ ورحِمهم ، وقوَّى ضعفَهم وكثَّر قلتهم ، حتى صارَ[3] وُلاةُ أمرِنا فى هذا الدَّهر الصَّعب ، والزَّمن الفاسد ، أشدَّ استبصاراً فى التَّشبيه من علِيتنا ، وأعلمَ بما يلزم فيه منَّا ، وأكشفَ للقِناع من رؤسائنا ، وصادفوا النَّاسَ وقد انتظموا معانىَ الفسادِ أجمع ، وبلغوا غاياتِ البِدَع ، ثم قرنوا بذلك العصبيَّةَ التى هلك بها عالَمٌ بعد عالَمٍ ، والحميَّةَ التى لا تُبقِى دينًا إلَّا أفسدَتْه ، ولا دُنْيَا إلَّا أهلكتْها ، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشُّعوبيَّة[4] ، وما قد صار إليه الموالى من الفَخْر على العَجَم والعرب .

---

(١) تكملة ضرورية .

(٢) الآية ٥١ من سورة المائدة .

(٣) فى الأصل وجميع المخطوطات : « حتى صاروا » .

(٤) انظر حواشى البيان ٣ : ٥ .

وقد نجمت من الموالى ناجمةٌ ، ونبتت منهم نابتةٌ ، تزعم أنّ المَولى بولايةٍ قد صار عربيًا ؛ لقول النبيّ صلى الله عليه وسلّمَ : « مَولى القَومِ منهم(١) » ، ولقوله : « الوَلاء لُحمةٌ كلُحمة النَّسَب ، لا يُباع ولا يُوهَب » .

قال : فقد علِمْنا أنّ العجمَ حين كان فيهم المُلك والنبوّة كانوا أشرفَ من العرب ، وأنّ الله لمّا حوّل ذلك إلى العرب صارت العربُ أشرفَ منهم .

قالوا : فنحن معاشرَ الموالى بقديمِنا فى العَجَم أشرفُ من العرب ، وبالحديث الذى صار لنا فى العرب أشرفُ من العجم(٢) . وللعرب القديمُ دونَ الحديث(٣) . ولنا خصلتان جميعًا وافرتانِ فينا ، وصاحبُ الخصلتين أفضلُ من صاحب الخَصلة .

١٤٣

وقد جعل الله المولى بعد أن كان عجميًا عربيا بوَلائهِ ، كما جعل حليف قريش من العرب قرشيًا بحِلفِه ، وجعل إسماعيلَ(٤) ، بعد أن كان أعجميًا(٥) ، عربيًا . ولولا قولُ النبى صلى الله عليه وسلم إنّ إسماعيلَ كان عربيًا ما كان عندنا إلّا أعجميًا ؛ لأنّ الأعجم(٦) لا يصير عربيًا ، كما أنّ العربىَّ لا يصير أعجميًا .

---

(١) انظر فتح البارى ١٢ : ٤١ .

(٢) فى الأصل : « فى العجم » ، صوابه فى المخطوطات وڤان ڤلوتن .

(٣) جعلها عزت العطار : « وللعرب الحديث دون القديم وللعجم القديم دون الحديث » . خلافا لما فى أصله وما فى أصل داماد .

(٤) فى الأصل والمخطوطات : « وبعد أن جعل إسماعيل » .

(٥) كذا فى الأصل ونسخة الدار . وفى التيموريتين وڤان ڤلوتن : « كان أعجمياً » بسقوط : « بعد أن » .

(٦) الأعجم والأعجمى سيان . ويقال رجل أعجم وقوم أعجم أيضاً ، وهم خلاف العرب .

فإنَّما علمْنا أنَّ إسماعيل صيَّره الله عربيًّا بعد أن كان أعجميًّا بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فكذلك حكمُ قوله : « مَولى القَومِ منهم » ، وقوله : « الوَلاء لُحمةٌ » .

قالوا : وقد جعل الله إبراهيم عليه السلام أبًا لمن لم يلدْ كما جعله أبًا لمن ولَد ، وجعل أزواجَ النبيِّ أمَّهاتِ المؤمنينَ ولم يلدنَ منهم أحداً ، وجعلَ الجارَ والدَ من لم يلدْ ، في قولٍ غير هذا كثيرٍ قد أتينا عليه في موضعه .

وليس أدعَى إلى الفساد ولا أجلبَ للشَّرِّ من المفاخرة ، وليس على ظَهرها إلا فَخُورٌ ، إلَّا قليل .

وأيُّ شيء أَغْيَظُ من أن يكون عبدُك يزعُم أنَّه أشرف منك وهو مقرٌّ أنه صار شريفاً بعِتْقِك إيَّاه .

وقد كتبتُ - مدَّ الله في عمرك - كتبًا في مفاخرة قحطان ، وفي تفضيل عدنان ، وفي ردِّ الموالي إلى مكانهم من الفَضْل والنَّقص ، وإلى قَدْر ما جعلَ الله تعالى لهم بالعرب من الشَّرف . وأرجو أن يكون عدلًا بينهم ، وداعيةً إلى صَلاحهم ، ومَنْبَهةً لما عليهم ولهم .

وقد أردتُ أن أرسلَ بالجزء الأوّل إليك ، ثم رأيتُ ألَّا يكون إلَّا بعد استئذانك واستئمارك ، والانتهاء في ذلك إلى رغبتك .

فرأيَكَ فيك موفَّقًا[1] ، إن شاء الله عزَّ وجل . وبه الثِّقة .

* * *

---

(١) جعلها ڤان ڤلوتن «موفق» ، كما في نسخة الدار والتيمورية الثانية . وما هو ظاهر في الأصل والتيمورية الأولى أوفق وأولى ؛ فإنه يطلب منه رأيه .

تمت الرسالة من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دُؤاد فى النَّابتة ، والله الموفِّق للصواب .

يتلوه كتاب الحجاب من كلامه أيضاً .

والحمد لله أولا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الثانية عشرة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتاب الحجاب »

ومن هذا الكتاب نسختان :

١ — نسخة الأصل ، وهى نسخة مكتبة داماد .

٢ — نسخة أخرى مضمنة فى كتاب طراز المجالس للخفاجى. ومنه ثلاث نسخ:

ا — النسخة المطبوعة بالمطبعة الوهبية سنة ١٢٨٤ . والنص فيها من ص ٧٣ إلى ص ٩٧ .

ب — مخطوطة الطراز رقم ٦٥ م أدب كتبت سنة ١٠٩٤ .

حـ — مخطوطة الطراز رقم ٦٧ م أدب كتبت سنة ١٠٢٢ .

وقد راجعت نسخة الأصل على نسخ طراز المجالس الثلاث : المطبوعة ، والمخطوطتين ، واستخلصت منها جميعاً ومن مراجع التحقيق والشرح نسختى هذه . وبالله التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

أطال الله بقاءك ، وجعلني من كل سوء فداءك ، وأسعدك بطاعته وتولاك ١٤٥ ظ بكرامته ، ووالى إليك مزيده .

إنه يقال ـ أكرمك الله ـ « إن السَّعيد من وُعظ بغيره ، وأن الحكيم من أحكمْته تجارِبُه » . وقد قيل : « كفاكَ أدباً لنفسك ما كرِهْتَ من غيرك » وقيل : « كفاكَ من سوء سماعُه[1] » ، وقيل : « إنَّ يقَظة الفهم للواعظ ممَّا يدعو النَّفس إلى الحذر من الخطاء[2] ، والعقلَ إلى تصفيته من القذى » .

وكانت الملوكُ إذا أتتْ ما يَجلُّ عن المعاتبة عليه ضُرِبت لها الأمثال ، وعُرِّض لها بالحديث . وقال الشاعر[3] :

العَبـد يُقرعُ بالعصا والحُرُّ تكفيه المَلامَهْ

وقال آخر[4] :

* ويكفيكَ سَوءاتِ الأمور اجتنابُها[5] *

---

(١) فى مخطوطتى طراز المجالس : « من سوء سماعه » ، وفى المطبوعة : « كفاك من سوء فعل سماعه » .

(٢) فى الطراز : « إن من يقظة ... مايدعو .. » .

(٣) هو يزيد بن مفرغ ، كما فى البيان ٣ : ٣٦ .

(٤) هو هلال بن خثعم ، كما فى الحيوان ١ : ٢٨٣ . وفى عيون الأخبار ٣ : ٢٢١ : « هلال بن جشم » .

(٥) صدره فى الحيوان وعيون الأخبار :

* وإن قراب البطن يكفيك ملؤه *

وقال عبد المسيح المتلمِّسُ :

لِذِى الحِـــلم قبلَ اليوم ما تُقرَعُ العصــا
وما عُلِّم الإنســـانُ إلاَّ لِيعلما[١]

وقال بعضهم : « فى خفىِّ التعريض ما أغنَى عن شنيع التَّصريح » .

وقد جمعتُ فى كتابى هذا ما جاء فى الحجاب من خبرٍ وشعرٍ ، ومعاتبة وعُذر[٢] ، وتصريح وتعريض ، وفيه ما كفى . وبالله التوفيق .

وقد قلت :

كفى أدباً لنفســك ما تراه لغـــيرك شائناً بين الأنامِ

ما جاء فى الحِجاب والنَّهى عنه

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه مِن الوُلاة اضطلعَ بأمانته وأمره : إذا عدل فى حكمه ، ولم يحتجب دون غيره ، وأقام كتابَ الله فى القريب والبعيد » .

وروى عنه عليه السلام أنّه وجّه علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه إلى بعض الوجوه ، فقال له فيما أوصاه به : « إنِّى قد بعثتُك وأنا بك ضنين فابرزْ للنــاس ، وقدِّم الوضيعَ على الشَّريف ، والضَّعيفَ على القوىّ ، والنِّساء قبل الرجال ، ولا تُدخلنَّ أحداً يغلبك على أمرك ، وشاور القرآن فإنّه إمامُك » .

١٤٦ و

---

(١) البيان ٣ : ٣٨ .
(٢) فى الأصل ومخطوطتى الطراز : « وغدر » ، صوابه من المطبوعة .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا استعمل عاملاً شرطَ عليه أربعا[١]: لا يركب برذونا ، ولا يتخذ حاجباً ، ولا يلبس كَتَّاناً ، ولا يأكل دَرْمَكاً[٢] .

ويوصى عمّاله فيقول : إيّاكم والحجابَ ، وأظهروا أمْرَكم بالبَرَاز ، وخذوا الذى لكم وأعطُوا الذى عليكم ، فإنّ امرأً ظُلِم حقّه مضطرٌّ[٣] حتى يَغْدُوَ به مع الغادين .

وكتب عمر رضوانُ الله عليه[٤] إلى معاوية وهو عامله على الشام :

« أمّا بعدُ فإنّى لم آلُكَ فى كتابى إليك ونفسى خَيْراً . إيَّاكَ والاحتجابَ دونَ الناس ، وأْذَن للضعيف وأدنِه حتى ينبسط لسانُه ، ويجترئَ قلبه ، وتعهَّد الغريب فإنّه إذا طال حبسُه وضاق إذنُه تَرَكَ حقّه ، وضعُف قلبه ، وإنما أتْوَى حقّه مَنْ حَبَسَه[٥] . واحرص على الصُّلح بين الناس ما لم يستبِنْ لك القضاء . وإذا حضرك الخصمان بالبيِّنة العادلة والأيمان القاطعة فأمضِ الحكم . والسلام » .

وكتب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى :

« آسِ بين الناس فى نظرك وحِجابك وإذنك[٦] ، حتى لا يطمعَ شريفٌ

---

(١) فى الأصل وطراز المجالس : « أربع » .

(٢) الدرمك : الدقيق النقى الحوارى . والمراد الخبز المتخذ منه .

(٣) فى المطبوعة من طراز المجالس : « مضض » ، تحريف .

(٤) فى طراز المجالس : « رضى الله عنه » .

(٥) أتواه : ذهب به ؛ والتوى : الهلاك .

(٦) فى البيان ٢ : ٤٩ : « آس بين الناس فى مجلسك ووجهك » . آس بينهم : سو بينهم واجعل كل واحد منهم أسوة خصمه .

فى حَيْفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . وأعلم أن أسعد الناس عند الله تعالى يومَ القيامة مَن سَعِد به النّاس ، وأشقاهم من شَقُوا بِهِ » .

وروى الهَيثم بن عدىّ عن ابن عباس قال : قال لى عبيد الله بن أبى المخارق القينىّ[1] :

استعملنى الحجاج على الفَلُّوجة العُليا[2] ، فقلت : أَمَا[3] ها هنا دِهقانٌ يُعاش بعقله ورأيه[4] ؟ فقيل لى : بلى ، ها هنا جميل بن بَصْبَهَرَّى[5] . فقلت : علىّ به . فأتانى فقلت : إن الحجّاجَ استعملنى على غير قرابة ولا دالّة ولا وسيلة ، فأشِرْ علىّ . قال :

١٤٦ ظ

لا يكونُ لك بوّابٌ حتّى إذا تذكّر الرجلُ من أهل عملك بابَك لم يَخَفْ حُجّابك ، وإذا حضركَ شريفٌ لم يتأخّر عن لقائك ولم يحكم على شرفك حاجبُك[6] . وليَطُلْ جلوسُك لأهل عملك يهبْك عُمّالك ، ويبقى مكانُك[7] . ولا يختلفْ لك حكمٌ على شريف ولا وضيع ، ليكنْ حكمُك واحداً على الجميع ، يثقِ الناسُ بعقلك . ولا تَقبل من أحدٍ هديّةً فإنّ صاحبَها لا يَرضَى بأضعافها مع ما فيها من الشُّهرة .

---

(١) فى طراز المجالس : « عبيد الله بن أبى المخترق القينى » .

(٢) هما فلوجتان : العليا والسفلى ، أو الكبرى والصغرى ، قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة ، قرب عين التمر .

(٣) فى الأصل : « أنا » ، والصواب فى طراز المجالس .

(٤) الدهقان : زعيم فلاحى العجم ، فارسى معرب .

(٥) كذا ضبط فى أصح نسخة من البيان والتبيين . انظر ٢ : ٢٦٣ و ٣ : ٣٦

(٦) على ، بمعنى مع . وفى طراز المجالس : « مع شرفك » .

(٧) طراز المجالس : « ويتق » .

من عهد إلى حاجبه

قال موسى الهادى لحاجبه : لا تحجُب الناسَ عنّى ؛ فإنّ ذلك يزيل التزكية ، ولا تُلقِ إلىّ أمراً إذا كشفتَه وجدتَه باطلًا ، فإنّ ذلك يُوتغ المملكة[١] .

وقال بعض الخلفاء لحاجبه : إذا جلستُ فأْذنْ للناس جميعًا علىّ ، وأبرز لهم وجهى ، وسكِّن عنهم الأحراس ، واخفِض لهم الجناح ، وأطِبْ لهم بشرَك ، وألِنْ لهم فى المسألة والمنطق ، وارفعْ لهم الحوائج ، وسوِّ بينهم فى المراتب ، وقدِّمهم على الكفاية والغَناء ، لا على الميل والهوى .

وقال آخر لحاجبه : إنّك عينى التى أنظرُ بها ، وجُنّةٌ أستنيم إليها ، وقد ولّيتُك بابى فما تُراك صانعًا برعيّتى ؟

قال : أنظرُ إليهم بعينك ، وأحملُهم على قدر منازلهم عندك ، وأضَعهم لك فى إبطائهم عن بابك ولزومهم خِدمَتك مواضعَ استحقاقهم ، وأرتِّبهم حيث وضعهم ترتيبُك[٢] ، وأُحسِنُ إبلاغك عنهم وإبلاغَهم عنك .

قال : قد وفَيت بما عليك ولك قولًا ، إن وفيتَ به فعلًا . والله ولىُّ كفايتك ومَعُونتك[٣] .

---

(١) أوتغه : أهلكه . وفى اللسان : « وفى حديث الإمارة : حتى يكون عمله هو الذى يطلقه أو يوتغه » ، أى يهلكه . وفى طراز المجالس : « يوقع المهلكة » .

(٢) وكذا فى عيون الأخبار ١ : ٨٣ ، لكن فى طراز المجالس : « مواضع استحقاقهم فى رتبهم حيث وضعهم ترتيبك » .

(٣) بدله فى عيون الأخبار : « قد وفيت مالك وما عليك إن صدقته بفعل » .

وعَهِد أميرٌ إلى حاجبه فقال : إنّ أداء الأمانة فى الأعراض أوجَبُ منها فى الأموال ؛ وذلك أنّ الأموالَ وقايةٌ للأعراض ، وليست الأعراض بوقاية للأموال . وقد ائتمنتك على أعراض الغاشِينَ لِبابى ، وإنّما أعراضُهم أقدارُهم ، فصُنْها لهم ، ووفِّرها عليهم . وصُنْ بذلك عرضى ، فلعمرى إنّ صيانتك أعراضَهم صيانةٌ لِعرضى ، ووقايتَك أقدارَهم وقايةٌ لقدرى ؛ إذ كنتُ الحظىَّ بزينِ إنصافهم إن أنصفوا ، والمبتلَى بشَين ظلمهم إن ظُلموا فى غِشيانهم بابى ، وحضورهم فِنائى .

١٤٧ و

أوفِ كلَّ امرئٍ قدرَه ، ولا تُجاوزْ به حدَّه ، وتوقَّ الجورَ فى ذلك التوقّيَ كلَّه . أقبلْ على من تحجب بإبداء البِشر وحلاوة العُذر ، وطلاقة الوجه ولِين القَول ، وإظهار الودّ ، حتّى يكون رضاه عنك لما يرى من بشاشتك به وطلاقتك له ، كرِضَا من تأذنُ له عنك لما يُمنحه من التكريم ، ويحويه من التعظيم ؛ فإنّ المنع عند الممنوع فى لين المقالة يكاد يكون كالنَّيل عند العطاء فى نفع المَنالة .

أَنْهِ إلىَّ حالاتِ كلِّ مَن يغشى بابى من وجيهٍ وخامل ، وذى هيئة وأخى رَثاثة ، فيما يحضُرون له بابى ، ويتعلّقون به من إتيانى .

لا تحتقرنَّ من تقتحمه العيون لرثاثةِ ثوبٍ أو لدمامة وجه ، احتقاراً يخفَى علىّ أثره ، فربّما بَذَّ مثلُه[1] بمخبره من يروقُ العيونَ منظرُه .

---

(١) بذ القوم يبذهم بذا : سبقهم وغلبهم وبذ فلانا ، إذا ما علاه وفاقه فى حسن أو عمل ، كائنا ما كان . فى طراز المجالس : « بز » تحريف ، فإن البز بالزاى معناه السلب ، ومنه قولهم فى المثل : « من عزبز » .

إنك إن نقصتَ الكريمَ ما يستحقُّه من مال لم يغضَب بعد أن تستوهبه منه ، وإن نقصتَه من قدره أسخطتَه أشدَّ الإسخاط ، إذا كان يريد دنياه ليصونَ بها قدرَه ، ولا يريد قدره ليُبقى به دنياه . فكن لتحيُّف عِرضه أشدَّ توقِّيًا منك لتحيُّف ماله[1] .

إن المحجوب وإنْ كان عدلُنا فى حجابه كعدلنا على المأذون له فى إذنه ، يتداخلُه انكسارٌ إذا حُجِبَ ورأى غيره قد أُذِن له . فاختصَّه لذلك من بشاشتك به ، وطلاقتك له ، بما[2] يتحلَّل به عنه انكسارُه . فلعمرى لو عَرف أنّ صوابنا فى حجابه كصوابنا فى الإذن لمن نأذن له ، ما احتجنا إلى ما أوصيناك به من اختصاصه بالبشر دون المأذون له .

إن اجتمعَ الأعلَون والأوسطون والأدنَون ، فدعوتَ بواحدٍ منهم دون مَن يعلوه فى القدر ، لأمرٍ لا بدّ من الدعاء به له ، فأظهِر العُذر فى ذلك لئلّا تخبثَ نفسُ من عَلاهُ ؛ فإنّ الناس يتغالب لمثل ذلك عليهم سوء الظُّنون . والواجبُ على من ساسَهم التوقِّى على نفسه من سُوء ظنونهم ، وعليهم تقويم نفوسهم ؛ إذْ هو كالرأس يألم لألم الأعضاء ، وهم كالأعضاء يألمون لألم الرأس . ١٤٧ ظ

المدائنى قال : قال زياد بن أبيه لحاجبه[3] :

---

(١) التحيف : التنقص . وفى طراز المجالس : « لتخيف » بالخاء ، وهما سواء فى المعنى . وفى اللسان (خيف) : « وتخيف ماله : تنقص من أطرافه ، كتحيفه ، حكاه يعقوب وعده فى البدل . والحاء أعلى » .

(٢) فى الأصل وطراز المجالس : « ما » ، والوجه ما أثبت .

(٣) الخبر فى الكامل ١٧٠ ليبسك والعقد ١ : ٧١ .

يا عَجلانُ : قد ولّيتك بابى ، وعزلتك عن أربعة[1] : طارقِ ليلٍ ؛ فشرٌّ ما جاء به أو خَيْر[2] . ورسولِ صاحب الثَّغر ؛ فإنّه إن تأخّر ساعةً بطل به عملُ سَنَة[3] . وهذا المنادى بالصلاة[4] . وصاحب الطّعام ؛ فإنّ الطعام إذا تُرِكَ بردَ ، وإذا أعيد عليه التسخين فسد .

الهيثم بن عدىّ قال : قال خالد بن عبد الله القسرىّ لحاجبه[5] : لا تحجبنَّ عنّى أحداً إذا أخذتُ مجلسى ؛ فإن الوالىَ لا يحتجب إلاّ عن ثلاث : إمّا رجلٌ عيِيٌّ يكره أن يُطّلع على عِيّه ، وإمّا رجلٌ مشتمل على سَوءة ، أو رجلٌ بَخيل يكره أن يدخل عليه إنسانٌ يسأله شيئاً .

أنشدنى محمودٌ الورّاقُ لنفسه فى هذا المعنى :

إذا اعتصَم الوالى بإغلاق بابه ... وردَّ ذوى الحاجات دون حجابه

ظننتُ به إحدى ثلاثٍ ، وربّما ... نزعت بظنٍّ واقع بصوابه

فقلتُ : به مَسٌّ من العِىّ ظاهر ... ففى إذْنه للناس إظهار ما بِهِ

---

(١) فى العقد : « عن أربع » . والأفصح التأنيث لنية أربع رجال ، ويجوز أن تحذف التاء ، كما فى حديث « وأتبعه بست من شوال » . الأشمونى ٤ : ٦١ .

(٢) فى الكامل : « فشر ما جاء به ، ولو جاء بخير ما كنت من حاجته » .

(٣) فى الكامل : « فإن إبطاء ساعة يفسد تدبير سنة » . وفى العقد : « فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة . فأدخله على وإن كنتُ فى لحافى » .

(٤) ورد المنادى بالصلاة فى كل من الكامل والعقد مقدما على الأربعة جميعها . وعبارة الكامل : « عزلتك عن هذا المنادى إذا دعا للصلاة فلا سبيل لك عليه » . وفى العقد : « هذا المنادى إلى الله فى الصلاة والفلاح لا تحجبه عنى فلا سلطان لك عليه » .

(٥) الخبر فى عيون الأخبار ١ : ٨٤ مع خلاف فى العبارة . وهو أيضاً فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١٧ : ٩٢ — ٩٣ مع جعل الخبر لأبرويز .

فإن لم يكن عيّ اللسان فغالبٌ   من البُخل يحمى مالَه عن طِلابه
فإن لم يكن هذا ولاذا فَرِيبةٌ   يصرّ عليها عند إغلاق بابه[١]

وأنشدنى بعض المحدثين فى ابن المدبّر[٢] :

لولا مقارفة الرِّيَبْ   ما كنتَ ممّن يحتجبْ
أوْلا فعِيٌّ منك أو   بُخلٌ على أهل الطّلَبْ
فاكشفْ لنا وجه الحجا   بِ ولا تُبالى مَن عَتَبْ

من ينبغي أن يُتّخذ للحجابة

قال المنصور للمهدىّ : لا ينبغى أن يكون الحاجب جهولاً ، ولا غبيًّا ، ولا عييًّا ، ولا ذَهولاً ولا متشاغلاً ، ولا خاملاً ولا محتَقَراً ، ولا جهماً ولا عَبوساً . فإنّه إن كان جهولاً أدخل على صاحبه الضَّرَرَ من حيث يقدّر المنفعة ، وإن كان عَييًّا لم يؤدِّ إلى صاحبه ولم يؤدِّ عنه ، وإن كان غبيًّا جَهِل مكانَ الشريف فأحَلّه غير منزلته ، وحطّه عن مرتبته ، وقدّم الوضيعَ عليه ، ١٤٨

(١) عند ابن أبى الحديد : « يكتمها مستورة بثيابه » .

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن عبيد الله بن المدبر ، شاعر كاتب متقدم ، من وجوه كتاب أهل العراق ، وذوى الجاه والمتصرفين فى كبار الأعمال ، وكان المتوكل يقدمه ويؤثره ويفضله ، ووزر للمعتمد على الله ، ومات سنة ٢٧٩ وهو يتقلد للمعتضد ديوان الضياع ببغداد . معجم الأدباء ١ : ٢٢٦ — ٢٣٢ والأغانى ١٩ : ١١٤ — ١١٩ وتاريخ الطبرى ١١ : ٣٤١ . وفى نصوص معجم الأدباء ما يدل على أنه كان شديد الحجاب .

وجهل ما عليه وماله . وإن كان ذَهولاً متشاغلاً أخلَّ بما يحتاج إليه صاحبُه في وقته ، وأضاعَ حُقوقَ الغاشِينَ لبابه ، واستدعى الذَّمَّ من الناس له ، وأذِن عليه لمن لا يحتاج إلى لقائه ولا ينتفع بمكانه . وإذا كان خاملاً محتَقراً أحلَّ الناسُ صاحبَه في محلِّه وقضَوْا عليه به . وإذا كان جَهماً عبوساً تلقَّى كل طبقةٍ من الناس بالمكروه ، فترك أهلُ النصائح نصائحَهم ، وأخلَّ بذوى الحاجات في حوائجهم ، وقلَّت الغاشيةُ لباب صاحبِه ، فِراراً من لقائه .

الهيثم بن عديّ عن مجالد عن الشَّعبيّ ، أن عبد الملك بن مروان قال لأخيه عبد العزيز بن مروان ، حينَ ولاَّه مصر :

إنّ الناس قد أكثروا عليك ، ولعلك لا تحفظ . فاحفظْ عنّي ثلاثا .

قال : قل يا أمير المؤمنين .

قال : انظر من تَجعلُ حاجِبَك ، ولا تجعلْه إلاّ عاقلاً فَهِماً مُفْهِماً ، صدُوقاً لا يُورِد عليك كذباً ، يُحسن الأداء إليك والأداء عنك . ومُرْهُ ألاَّ يقفَ ببابك أحدٌ من الأحرار إلاّ أخبرَك ، حتّى تكون أنت الآذِنَ له أو المانع ؛ فإنه إن لم يفعل كان هو الأميرَ وأنت الحاجب . وإذا خرجتَ إلى أصحابك فسلِّم عليهم يأنسوا بك . وإذا هممتَ بعقوبةٍ فتأنَّ فيها ؛ فإنّك على استدراكها قبل فوتها أقدرُ منك على انتزاعها بعد فوتها[1] .

وقال سهل بن هارون للفَضْل بن سَهْل :

إنّ الحاجبَ أحدُ وجهَيِ الملك ، يُعتَبَر عليه برأفته ، ويلحقُه ما كان في غلظته وفظاظته . فاتخذْ حاجبك سهلَ الطبيعة ، معروفاً بالرأفة ، مألوفاً منه

(١) في الأصل ومخطوطتي الطراز : « طولها » ، صوابه في مطبوع الطراز .

١٤٨ البرّ والرّحمة . وليكن جميل الهيئة حسن البسطة ، ذا قصدٍ فى نيّته وصالح أفعاله . ومُره فليضع الناسَ على مراتبهم ، وليأذنْ لهم فى تفاضُل منازلهم ، وليُعط كلاً بقِسطه من وجهه ، ويستعطفْ[1] قلوب الجميع إليه ، حتى لا يغشى البابَ أحدٌ وهو يخاف أن يقصَّر به عن مرتبته ، ولا أن يُمنع فى مدخل أو مجلسٍ أو مَوضعِ إذنٍ شيئاً يستحقُّه ، ولا أن يمنَع أحداً مرتبته[2] . وليضع كلاً عندك على منزلته . وتعهَّدْه فإن قصَّر مقصِّر قام بحسن خِلافته وتزيين أمره .

وقال كسرى أنوشِروان فى كتابه المسمى « شاهينى[3] » :

ينبغى أن يكون صاحبُ إذن الخاصّة رجلاً شريفَ البيت ، بعيد الهمّة ، بارعَ الكرم ، متواضعاً طلقاً ، معتدلَ الجسم بهىَّ المنظر ، ليّن الجانب ، ليس ببذِخ ولا بطرٍ ولا مرِح ، ليِّنَ الكلام ، طالباً للذِّكر الحسن ، مشتاقاً إلى محادثة العلماء ومجالسةِ الصُّلحاء ، محبًّا لكلِّ مازيَّن عمله ، معانداً للسُّعاة[4] ، مجانباً للكذَّابين ، صدوقاً إذا حَدَّث ، وفيًّا إذا وعد ، متفهِّماً إذا خُوطِب ، مجيباً بالصواب إذا رُوجع[5] ، منصِفاً إذا عامل ، آنساً مؤنساً ، محبًّا للأخيار ، شديد الحنوّ على المملكة ، أديباً له لطافةٌ فى الخدمة ، وذكاءٌ فى الفهم ، وبَسطةٌ فى المنطق ، ورفقٌ فى المحاورة ، وعلمٌ بأقدار الرجال وأخطارها .

---

(١) فى مطبوع الطراز : « وليستعطف » .

(٢) فى الأصل : « ولا أن يمتنع ولا مرتبته » ، وأثبت ما فى الطراز .

(٣) فى الطراز : « شاهى » .

(٤) فى الأصل : « للسعادة » ، صوابه فى الطراز .

(٥) فى الأصل ومخطوطتى الطراز : « راجع » ، وأثبت مافى الطراز المطبوع .

وقال فى حاجب العامّة :

ينبغى أن يكون حاجبُ العامّة رجلاً عبدَ الطّاعة ، دائم الحراسة للملك ، مَخُوف اليد ، خَشِنَ الكلام[1] مروِّعا ، غير باطشٍ إلاّ بالحقّ ، لا أنيسًا ولا مأنوسًا ، دائم العُبوس ، شديداً على المُريب ، غير مستخفٍّ بخاصّة الملك ومَن يهوى ويقرِّب[2] ، من بطانته .

محلُّ الحاجب وموضعه ممن يحجبه

قال عبد الملك لأخيه عبد العزيز ، حين وجّهه إلى مصر :

اعرف حاجبَك ، وجليسَك ، وكاتبَك . فإنَّ الغائب يُخْبِره عنك كاتبُك ، والمتوسِّم يعرفك بحاجِبك ، والخارج من عِندك يعرفك بجليسك . ١٤٩ و

وقال يزيد بن المهلب لابنه مَخْلَد حين ولاّه جُرجان : استظرِفْ كاتبكَ ، واستعقِلْ حاجبَك .

وقال الحجّاج : حاجب الرجل وجهُه ، وكاتبُه كلُّه .

وقال ابن أبى زُرعة : [قال[3]] رجلٌ من أهل الشام ، لأبى الخطاب الحسن بن محمد الطائى يعاتبه [فى حجابه[3]] :

هذا أبو الخطاب بدرٌ طالعٌ من دون مَطلعه حجابٌ مظلمُ
ويقال وجه المرء حاجبُه كما بلسان كاتبه الفتى يتكلّمُ

---

(١) فى الطراز : « حسن الكلام » .
(٢) فى الطراز : « ويقربه » .
(٣) التكملة من الطراز .

أُدنيتُ من قبل اللِّقاء، وبعده أُقصِيت، هل يَرضَى بِذا من يفهمُ
وإذا رأيتُ من الكريم فظاظةً فإليه من أخلاقه أتظلَّمُ

وقال الفضل بن يحيى: إنّ حاجب الرجل عاملُه على عِرضه، وإنّه لا عِوَض لحرٍّ من نفسه، ولا قيمة عنده لحرّيّته وقدره.

وأنشدنى ابن أبى كامل فى هذا المعنى:

واعلَمْنَ إن كنتَ تجهلُه أنّ عِرض المرء حاجبُه(١)
فيهِ تبدو محاسنُه وبه تبدو معايبُه

من عوتب على حجابه أو هُجِىَ به

إسحاق الموصلىّ عن ابن كُناسة قال:

خُبِّرت أنّ هانئ بن قبيصة وفدَ على يزيدَ بنِ معاوية، فاحتجب عنه أيامًا، ثم إنّ يزيد ركب يومًا يتصيّد فتلقّاه هانئ فقال: يا يزيد، إنّ الخليفة ليس بالمحتجب المتخلِّى، ولا المتطرِّف المتنحِّى(٢)، ولا الذى ينزل على الغُدران والفلوات، ويخلو للّذّات والشّهوات. وقد وَلِيتَ أمرَنا فأقِمْ بين أظهُرِنا، وسهِّل إذْننا، واعملْ بكتاب الله فينا. فإن كنت قد عَجَزتَ عمّا هنا

(١) نسب فى محاضرات الراغب مع رواية أخرى إلى يحيى بن المعلى. انظر المحاضرات ١: ١٠١. وهو بدون نسبة مع رواية: «إن كنت تعلمه» فى عيون الأخبار ١: ٨٤.

(٢) فى الطراز: «المختلى، ولا المتطرف المتنحى».

فارْدُدْ علينا بَيعَتَنا نُبايِـعْ من يعملُ بذلك فينا ، ويُقيمه لنا . ثم عليك بخلواتك وصيدك وكلابك .

قال : فغضب يزيد وقال : والله لولا أن أسُنَّ بالشام سُنَّة العراق لأقمتُ أوَدَك .

١ ظ ثم انصرف وما هاجه بشيء ، وأذِن له ، ولم تتغير منزلته عنده ، وترك كثيراً مما كان عليه .

المَوْصِلىُّ[1] قال : كان سعيد بن سَلْم[2] والِيًا على أرمينية ، فورد عليه أبو دُهْمان الغَلَّابى[3] ، فلم يصلْ إليه إلّا بعد حين ، فلما وصل قال ــ وقد مَثَل بين السِّماطين ــ :

والله إنّى لأعرف أقوامًا لو علموا أنَّ سَفَّ التُّراب يُقيم من أود أصلابهم لجعلوه مُسكةً لأرماقِهم ، إيثاراً للتنزُّه[4] عن العيش الرقيق الحواشِى . واللهِ

(١) هو إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، كان راوية للشعر حافظاً للأخبار ، ولد فى سنة ولادة الجاحظ سنة ١٥٠ وتوفى ٢٣٥ . وفيات الأعيان ١ : ٦٥ ومعجم الأدباء ٦ : ٥ — ٥٨ .

(٢) هو سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلى ، قدم بغداد وحدث بها وروى عنه ابن الأعرابى ، وكان عالماً بالحديث والعربية . تاريخ بغداد ٤٦٥٧ .

(٣) أبو دُهمان : شاعر من شعراء البصرة ، أدرك دولتى بنى أمية وبنى هاشم ، ومدح المهدى ، وكان طيباً ظريفاً مليح النادرة . الأغانى ١٩ : ١٥١ . ودهمان بضم الدال . والغلابى بتشديد اللام ، كما فى الأنساب للسمعانى . والخبر فى البيان ٢ : ٢٠٠ - ٢٠١ والمتكلم فيه هو سعيد بن سلم نفسه ، قال : « كنت والِيًا على أرمينية ، فغبر أبو دهمان على بابى أياماً ، فلما وصل إلىّ مثل بين يدى قائماً بين السماطين وقال : » .

(٤) التنزه : الابتعاد .

إنى لبعيدُ الوَثبة ، بطىء العَطفة[١] . إنّه واللهِ ما يثنينى عليك إلّا مثلُ ما يَصرفنى عنك ، ولأن أكونَ مُقلًّا[٢] مقرَّبًا أحبُّ إلىَّ من أن أكون مكثرًا مبعَدًا . واللهِ ما نسأل عملا لا نضبطه ولا مالًا إلّا ونحن أكثر منه ، وإنَّ الذى صار فى يدك قد كان فى يدِ غيرك[٣] ، فأمسَوْا واللهِ حديثًا ، إنْ خيراً فخيراً ، وإن شرًّا فشرًّا[٤] . فتحبَّب إلى عبادِ الله بحُسن البِشر ، ولِين الحجاب[٥] ؛ فإنّ حبَّ عباد الله موصولٌ بحبِّ الله ، وهم شهداء اللهِ على خلقه ، وأمناؤه على من اعوجَّ عن سبيله[٦] .

إسحاق بن إبراهيم المَوْصلى[٧] قال :

استبطأنى جعفر بن يحيى ، وشكا ذلك إلى أبى ، فدخلت عليه ــ وكان شديد الحِجاب ــ فاعتذرت إليه وأعلمته أنّى أتيته مراراً للسَّلام فحجبنى نافذٌ غلامُه .

---

(١) العطفة : الرجعة .

(٢) فى البيان والعقد ١ : ٧٢ : « مقلا » .

(٣) فى البيان : « وهذا الأمر الذى صار إليك وفى يديك قد كان فى يدى غيرك » .

(٤) كذا فى الأصل ومخطوطتى الطراز ، وهو أحد أوجه أربعة جائزة فى العدبية . وفى مطبوع الطراز والبيان : « إن خيراً فخير وإن شراً فشر » وهو الوجه الثانى . ويقال أيضاً برفع الكلمتين ، وبرفع الأولى ونصب الثانية .

(٥) وكذا فى الطراز . وفى البيان : « ولين الجانب » .

(٦) فى البيان : « ورقباؤه على من عاج عن سبيله » . وفى العقد : « على من اعوج عن سبيله » .

(٧) سبقت ترجمته ص ٤٢ .

فقال لى وهو مازحٌ : متى حجبَك فنِكْه . فأتيته بعد ذلك للسلام فحجبنى ، فكتبتُ إليه رقعةً فيها :

جُعِلتُ فداءَكَ من كلِّ سُوءٍ   إلى حُسْنِ رأيك أشكو أناسا
يَحُولون بينى وبين السَّلامِ   فما إن أُسلِّمُ إلّا اختلاسا
وأنفذتَ رأيك فى نافذٍ   فما زاده ذاك إلّا شِماسا

وسألتُ نافذاً أن يوصِّلها ففعَل ، فلما قرأها ضحك حتى فحص برجليه وقال: لا تحجبْه أيَّ وقتٍ جاء . فصرتُ لا أُحجَب .

وحُجِب أحمد بن أبى طاهر بباب بعض الكتّاب فكتب إليه :

ليس لحرٍّ من نفسه عِوَض ، ولا من قَدرِه خطر ، ولا لبذل حُرّيّته ثمن . وكلُّ ممنوع فمستغنًى عنه بغيره ، وكلُّ مانعٍ ما عنده ففى الأرض عِوَضٌ منه ، ومندوحةٌ عنه . وقد قيل : أرخصُ ما يكون الشىء عند غلائه .

١٥٠ و وقال بشار :

* والدُّرُّ يُتركُ من غلائه[1] *

ونحن نعوذ بالله من المطامع الدنيّة ، والهمّة القصيرة ، ومن ابتذال الحرّية ، فإنّ نفسى واللهِ أبيّةٌ ، ما سقطَتْ وراء همّة ، ولا خذلَها ناصرٌ عند نازلة ، ولا استرقَّها طمع ، ولا طُبِعت على طبع . وقد رأيتك ولّيتَ عرضَك

---

(١) صدره فى المختار من شعر بشار ص ٦٤ :

* وغلا عليك طلابه *

ومثله قول محمود الوراق فى نهاية الأرب ٣ : ٨٨ :

وإذا غلا شىء على تركته   فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

من لا يَصُونه ، ووكّلتَ ببابك من يَشِينُه ، وجعلت تَرْجُمانَ كرمك من يُكثِر من أعدائك ، وينقُص من أوليائك ، ويسيء العبارةَ عن معروفك ، ويوجّه وفودَ الذمّ إليك ، ويُضغن قلوبَ إخوانك عليه ؛ إذْ كان لا يَعرف لشريفٍ قدرا ، ولا لصديقٍ منزلة ، ويُزيل المراتب عن جهاتها ودرجاتها ، فيحُطُّ العَليَّ إلى مرتبة الوضيع ، ويرفع الدنيَّ إلى مرتبة الرفيع ، ويقبل الرُّشَى ، ويقدِّم على الهوَى . وذلك إليك منسوبٌ ، وبرأسك معصوب ، يَلزَمك ذنبُه ، ويحلُّ عليك تقصيره .

* * *

وقد أنشدنى أبو عليّ البصير[1] :

كم مِن فتًى تحمد أخلاقه وتسكن الأحرارُ فى ذمّته[2]

قد كثَّر الحاجبُ أعداءه وأحقدَ الناس على نعمته[3]

---

(١) هو أبو على الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس النخعى ، المعروف بالبصير ، لقب بذلك تفاؤلا ، أو لأنه كان يقوم من المجلس ويعود ولم يؤخذ بيده ، يفعل فعل البصير : كان من أهل الكوفة وسكن بغداد ، ومدح المتوكل وبقى إلى أيام المعتز ، وكان يتشيع تشيعاً فيه بعض الغلو . نكت الهميان ٢٢٥ — ٢٢٦ . وقال ابن المعتز فى ترجمته فى الطبقات ٣٩٨ : « وكان أبو على كاتباً رسالياً ليس له فى زمانه ثان ، شاعراً جيد الشعر ، وقد قلنا فى أخبار العتابى : إن هذا قلما يتفق للرجل الواحد ، لأن الشعر الذى للكتاب ضعيف جداً ، وكتابة الشعراء ضعيفة جداً ، فإذا اجتمعا فى الواحد فهو المنقطع القرين » .

(٢) البيتان فى عيون الأخبار ١ : ٨٥ بدون نسبة .

(٣) فى عيون الأخبار : « وسلط الذم على نعمته » .

وأُنشِدت لبعضهم :

يدلّ على سَروِ الفتى واحتماله
إذا كان سهلًا دونه إذنُ حاجبِه

وقد قيل ما البوّابُ إلا كربّه
إذا كان سهلًا كان سهلًا كصاحبه

وقال الطائى[١] :

حَشَم الصّديقِ عيونهم بحّاثةٌ لصديقِهِ عن صِدقه ونِفاقه
فلَيَنْظرَنّ المرء من غِلمانه فهمُ خلائقه على أخلاقه[٢]

وقال آخر :

اعرف مكانك من أخيـ ـكَ ومن صديقك بالحشَمْ

وقال ابن أبى عُيَينة :

١٥٠ ظ

إنّ وجه الغلام يخبر عمّا فى ضمير المولى من الكتمانِ
فإذا ما جهلتَ ودّ صديقٍ فامتحِنْ ما أردتَ بالغلمانِ

وقال آخر :

ومحنة الزائرين بيِّنة تُعرف قبل اللقاء بالحشَمِ

وأنشدنى عبد الله بن أحمد المِهْزَمى[٣] فى علىّ بن الجهم :

أعَلَىّ دونك يا علىُّ حجابُ يُدنَى البعيدُ وتحجب الأصحابُ

---

(١) أبو تمام . ديوانه ٤٠٥ .

(٢) فى الأصل : « فهم خلائقه » ، وأثبت ما فى الطراز وفى ديوان أبى تمام : « فهم دلائله » .

(٣) فى الطراز : « المهر » تحريف . وهو عبد الله بن أحمد بن حرب ، =

هذا بإذنك أمْ برأيك أم رأى هذا عليك العبـــدُ والبوّابُ
إنَّ الشريفَ إذا أمورُ عبيدهِ غَلَبَتْ عليـه فأمره مُرتابُ

وأخذَه من قول الطائيّ :

أبا جعفرٍ وأصـــولُ الفتى تدلُّ عليـــه بأغصانه
أليس عجيبـاً بأنْ امـرأ رجاك لحـــادثِ أزمانه
فتـــأمر أنت بإعطائه ويأمر فَتْحٌ بحــــرمانه
ولستُ أحبُّ الشريفَ الظريفَ يكون غـلاماً لغلمـــانه

وحُجب ابن أبى طاهرٍ بباب بعض الكتاب ، فكتب إليه :

« إنه من لم يرفعه الإذْن لم يضعْه الحجاب ، وأنا أرفعك عن هذه المنزلة ، وأربأ بعدوِّك عن هذه الخليقة ، وما أحد أقامَ فى منزلهِ ـ عظُم أو صغُر قدره ـ إلاّ ولو حاول حجابَ الخليفة عنه لأمكنه . فتأمّلْ هذه الحالَ[1] وانظُرْ إليها بعَين النَّصَفة ، تَرَها فى أقبح صورة ، وأدنا[2] منزلة . وقد قلت :

إذا كنتَ تأتى المرء تُعْظِم حقَّه ويَجهل منك الحقَّ فالهجرُ أوسعُ
فنى الناس أبدالٌ وفى العزِّ راحةٌ وفى اليأس عمّن لا يواتيك مَقنَع[3]
وإنّ امرأً يرضَى الهوانَ لنفسه حرِىٌّ بجدعِ الأنف والجدعُ أشنعُ

= المعروف بأبى هفان المهزمى ، وكان له محل كبير فى الأدب ، وحدث عن الأصمعى . تاريخ بغداد ٩ : ٣٧٠ .

(١) فى طراز المجالس : « الحالة » . والحال تذكر وتؤنث .

(٢) فى الأصل وطراز المجالس والعقد ١ : ٧٦ : « وأدنى » .

(٣) فى الأصل والطراز « مطمع » . وأثبت ما فى العقد .

فدعْ عنك أفعالاً يَشينك فِعلُها   وسهِّل حجاباً إذنُه ليس ينفعُ

١٥١ و   وحدّثنى عبد الله بن أبى مروانَ الفارسىّ قال :

ركبت مع ثُمامة بن أشرسَ إلى أبى عبّادٍ الكاتب ، فى حوائج كتب إلىَّ فيها أهلُ إرمينيّة من المعتزلة والشيعة ، فأتيناه فأعظمَ ثُمامةَ وأقعده فى صدر المجلس وجلس قُبالتَه ، وعنده جماعةٌ من الوجوه ، فتحدّثْنا ساعة ثم كلّمه ثمامةُ فى حاجتى ، وأخرجتُ كُتبَ القوم فقرأها ، وقد كانوا كتبوا إلى أبى عبّادٍ كتبا ، وكانوا أصدقاءه أيّام كونه بإرمينية ، فقال لى : بكِّر إلىّ غداً حتّى أكتبَ جواباتِها إنْ شاء الله . فقلت : جعلنى الله فداك ، تأمر الحاجبَ إذا جئتُ أن يأذنَ لى . فغضِب من قولى واستشاط وقال : متى حُجِبت أنا ، أوَلِى حاجبٌ[1] ، أو لأحد علىّ حجاب ! .

قال عبد الله : وقد كنت أتيتُه فحجبنى بعضُ غلمانه ، فحلَف بالأيمان المغلَّظة أن يقلعَ عينَىْ مَن حجبَنى ، ثم قال : يا غلامُ ، لا يبقَ فى الدار غلامٌ ولا منقطعٌ إلينا[2] إلاَّ أحضرتُمونيه الساعة ! قال : فأتى بغلمانِه وهم نحوٌ من ثلثمائة ، فقال : أشِرْ إلى مَن شئتَ فيهم . فغمزنى ثمامة فقلت : جُعِلتُ فِداك لا أعرفُ الغلامَ بعينه . فقال : ما كان لى حاجبٌ قطُّ ، ولا احتجبت ، وذلك لأنّه سَبق منّى قول ، لأنّى كنت وأنا بالرىّ وقد مات أبى وخلَّف لى بهـا ضِياعاً فاحتجت إلى ملاقاة الرجال والسُّلطان فيما كان لنا ، فكنت أنظر إلى الناس يَدخُلون ويَصِلون وأُحجَبُ أنا وأُقصَى ، فتتقاصر إلىّ نفسى ،

---

(١) فى الأصل : « ولى حاجب » ، صوابه من الطراز .

(٢) فى مطبوع الطراز : « لا تبق فى الدار غلاما ولا منقطعاً إلينا » .

ويضـيق صدرى ، فآليتُ على نفسى إن صرتُ إلى أمرٍ من السُّلطان ألاَّ أحتجبَ أبداً .

وحدَّثنى الزُّبير بن بكّار قال :

استأذن نافعُ بن جُبير بن مُطعِم[1] على معاوية ، فمنعه الحاجبُ فدقَّ أنفه ، فغضب معاوية وكان جُبَيرٌ عندَه ، فقال معاوية : يا نافع ، أتفعلُ هذا بحاجبى ؟ قال : وما يمنعنى منه وقد أساء أدبه وأسأتَ اختياره ؟ ! ثم أنا بالمكان الذى أنا به منك . فقال جُبَير : فَضَّ الله فاك ، ألاّ تقول : وأنا بالمكان الذى أنا به من عبد مناف ؟ ! قال : فتبسَّم معاوية وأعرضَ عنه . ١٥١

قال : وفَد رجلٌ من الأكاسرة على بعضِ ملوكهم ، فأقام ببابه حَولاً لا يصلُ إليه ، فكلَّم الحاجبَ فأوصل له رقعةً فيها أربعة أسطر :

السطر الأول فيه : الأمل والضرورة أقدَمانى إليك .

وفى الثانى : ليس على العَديم[2] صبرٌ على المطالبة .

وفى الثالث : الرجوع بلا فائدةٍ شماتةُ العدوِّ والقريب .

وفى الرابع : إمّا « نَعَمْ » مُثمِرة ، وإمّا « لا » مؤيسة ، ولا معنًى للحجاب بينهما .

---

(١) هو أبو عبد الله نافع بن جبير بن مطعم بن عدى النوفلى ، مدنى تابعى ثقة ، كان يحج ماشياً وناقته تقاد ، وكان فصيحاً عظيم النخوة جهير الكلام . توفى سنة ٩٩ تهذيب التهذيب ، وجمهرة أنساب العرب ١١٦ . وكان لجبير أبيه صحبة . الإصابة ١٠٨٧ وجمهرة أنساب العرب .

(٢) فى الأصل وإحدى مخطوطتى الطراز : « على العدم » ، ووجهه من المخطوطة الأخرى . والعديم : الفقير الذى لا يملك شيئاً . وفى مطبوعة الطراز : « المعدم » .

فوقَّع تحت كل سطرٍ منها : « زِهْ[(١)] » .

وأنشد الوليد بن عُبَيد البحترىّ[(٢)] فى ابن المدبّر[(٣)] يهجو غلامه بشراً :

وكم جئتُ مشتاقاً على بُعد غايةٍ إلى غير مشتاقٍ وكم ردّنى بشرُ[(٤)]

وما باله يأبَى دخولى وقد رأى خروجىَ من أبوابه ويدى صِفرُ

وأُنشِدت لبعضهم :

لعمرى لئن حجبتنى العبيدُ ببابك ما يَحجبـوا القافيهْ

سأرمى بهـا من وراء الحجاب جـزاء قروضٍ لـكم وافيه

تُصِمُّ السَّـميعَ وتُعمى البصـير ويُسأل من أجلهـا العافيه

وأنشدنى أحمد بن أبى فَنَن[(٥)] ، فى محمد بن حمدون بن إسماعيل :

ولقد رأيتُ بباب دارِك جفوةً فيها لحسن صنيعـةٍ تـكديرُ

---

(١) زِه : كلة فارسية تقال عند الاستحسان .

(٢) هو أبو عبادة البحترى الشاعر المشهور . ولد سنة ٢٠٦ وتوفى سنة ٢٨٤ .

(٣) إبراهيم بن المدبر ، مضت ترجمته فى ص ٣٧ .

(٤) فى ديوان البحترى ٧ :

فلم جئت طوع الشوق من بعد غايتى إلى غير مشتاق ولم ردنى بشر

وفى محاضرات الراغب ١ : ١٠٢ بدون نسبة :

ولم جئت مشتاقا على بعد شقة إلى غير مشتاق ولم ردنى بشر

(٥) هو أبو عبد الله أحمد بن صالح — وكنية صالح أبو فنن — شاعر مفلق مطبوع ، أكثر المدح للفتح بن خاقان ، وكان أسود اللون ، وهو القائل :

لئن حسبت سواد الليل غيرنى فإن قلبى فى حسنَى أبى دلف

طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٩٦ — ٣٩٧ وتاريخ بغداد ٤ : ٢٠٢ — ٢٠٣ وفوات الوفيات .

ما بال دارك حين تُدخَل جنّـةً وبباب دارك منكرٍ ونكيرُ

وأنشدنى أبو على الدِّرهمى اليمامىُّ فى أبى الحسن على بن يحيى :

لا يُشبه الرجلَ الكريمَ نجارُه ذا اللُّبِّ غيرُ بَشاشة الحجّابِ

وبباب دارك مَن إذا حيَّيتهُ جَعل التبرُّمَ والعُبوسَ ثوابى

أوصيتَه بالإذن لى فكأنّما أوصيتَه متعمِّدا لحجابى

وأنشدنى أبو على البصير فى أبى الحسن على بن يحيى :

فى كلِّ يوم لى ببابك وقفةٌ أطوى إليها سائر الأبوابِ

فإذا حضرتُ وغبتُ عنك فإنّه ذنبٌ عقوبتُه على البوّاب

١٥٢

وأنشدنى أبو على اليمامى ، وعاتب بعض أهل العسكر فى حاجِبِه[1] ، فلم يأذنْ له الحاجب بعد ذلك ، فكتب إليه :

صار العتابُ يزيدنى بُعدًا ويَزيد مَن عاتبتُه صدّا

وإذا شكوت إليه حاجِبَه أغْراه ذاك فزادنى ردّا[2]

وأنشدنى العجينىّ[3] فى بعض أهل العسكر ، يعاتبه فى حِجابه ويهجو حاجبَه :

إنما يحسُن المديح إذا ما أنشد المادح الفتى الممدوحا

وأرانى بباب دارك عمّرتُ طويلا مُقصًى مُهانًا طريحا

---

(١) فى الأصل : « حاجته » ، والوجه ما أثبت من مخطوطتى الطراز .

(٢) فى الأصل : « أعداه ذاك » ، صوابه من الطراز .

(٣) فى مطبوع طراز المجالس : « العجيبى » بالباء ، وفى إحدى المخطوطتين : « العمى » وفى الأخرى : « العجنى » .

إنّ بالباب حاجبًا لك أمسَى مُنْكرٌ عنده ظريفًا مليحا[١]
ما سألناه عنك قطُّ وإلّا ردّ من بُغضه مَرَدًّا قبيحا

وأُنشِدت لبعضهم فى هجاء حاجب :

سأتركُ بابًا أنت تملك إذنَه ولو كنتُ أعمى عن جميع المسالكِ
فلو كنتَ بوّابَ الجنانِ تركتُها وحوّلت رَحْلى مسرعًا نحو مالكِ[٢]

وكتب بعض الكتّاب إلى الحسن بن وهبٍ ، فى بوّابه :

قد كنت أحسب أنّ طرفَك مَلَّنى
ورُميتُ منكَ بجفوةٍ وعذابِ
فإذا هواكَ على الذى قد كان لى
وإذا بليّتُنا من البوّابِ
فاعلم ــ جعلتُ فداكَ ــ غيرَ معلِّمٍ
أنّ الأديب مؤدِّبُ الحجّابِ

وقال رَزِينٌ العَروضىّ[٣] لجعفر بن محمد بن الأشعث[٤] :

---

(١) منكر هذا : أحد الملكين : منكر ونكير .

(٢) مالك : خازن جهنم . وفى الأصل والطراز وعيون الأخبار ١ : ٨٥ والمحاسن والمساوى ١ : ١٢٦ : « رجلى » بالجيم ، تحريف . وحول رحله : حاد عن طريقه ، ومنه قوله ــ انظر دلائل الإعجاز ص ٢٣ :

يأيها الرجل المحول رحله هلا سألت عنَ آل عبد منافِ

وفى محاضرات الراغب ١ : ١٠٢ : « وعميت عنها مسرعاً » .

(٣) رزين العروضى ، وكنيته أبو زهير ، ذكره الجاحظ فى الحيوان ٧ : ٢١٧ وقال : « لم أر قط أطيب منه احتجاجاً ولا أطيب عبارة » .

(٤) فى الحيوان : « يهجو ولد عقبة بن جعفر » .

إن كنت تحجبني للذئب مزدهيًا فقد لعمرى أبوكم كلَّم الذيبا

فكيف لو كلَّم الليثَ الهصورَ إذاً تركتم الناسَ مأكولًا ومشروبا

هذا السُّنيديُّ ماساوى إتاوتَه يكلِّم الفيل تصعيداً وتصويبا

اذهَبْ إليك فما آسى عليك وما ألقى ببابك طَلَّاباً ومطلوبا

١٥٢ ظ

المدائنى قال : كان يزيد بن عمر الأسيِّدىَ[1] على شرطة البصرة ، فأتاه الفرزدق فى جماعةٍ فوقفَ ببابه ، فأبطأ عليه إذنه ، فقال ـ وكان [ابن[2]] عُمر يلقَّب الوَقَاحَ ـ :

ألم يكُ من نَكْس الزّمان على استه
وقوفى على باب الوَقاح أسائلُه[3]

فإن تك شُرْطيَّا فإنى لِغالبٍ
إذا نزلت أركانَ فَخٍّ منازلُه[4]

وقال أبو علىٍّ البصير[5] ، وحجَبَه محمد بن غسّان ، بعد أُنسٍ كانَ بينهما :

قد أتينا للوعدِ صَدرَ النَّهارِ فدُفِعْنا من دون بابِ الدارِ

---

(١) فى ديوان الفرزدق ٦٧١ : « يزيد بن عمير الأسيدى » .

(٢) تكملة ليست فى الأصل ولا فى الطراز ، وفى حواشى ديوان الفرزدق ، لابن حبيب : « كان يزيد يلقب الوقاح » .

(٣) فى الديوان : « أزاوله » .

(٤) لغالب ، أى ينتمى إلى أبيه غالب ويعتز به . وفى الديوان: « فإنى ابن غالب إذا جمعت أركان فج » . وفج تحريف ، وإنما هى: «فخ» كما فى الأصل والطراز . وفخ ، بالخاء : واد بمكة .

(٥) سبقت ترجمته فى ص ٤٥ .

وسمِعنا ، من غير قصدٍ لأن نسـ ـمعَ ، صوتَ الغناء والأوتارِ[١]
فأحطْنا بكل ما غاب من شأ نكَ عنّا خُـبْرًا بلا استخبارِ
فإذا أنتَ قد وَصلتَ صَبوحًا بغَبوقٍ ودُلجــةً بابتكارِ
وإذا نحن لا تخاطبنـــا الغلـ ـمانُ إلّا بالجحْـــد والإنكارِ
فانصرفنا وطالما قد تَلقَّـــو نا بأنسٍ منهــمْ وباستبشارِ
ذاكَ إذ كان مرّةً لك فينــا وطرٌ فانقضى من الأوطار[٢]
حين كُنّا المقدَّمين على النــا سِ وكنّا الشّعارَ دونَ الدّثارِ
كم تأنّيتُ وانتظـــرت فأفنيـ ـتُ تأنّيَّ كُلّه وانتظـــارى
فعليك السلام كُنّا من الأهـ ـلِ فصِرنا كسائر الزُّوّارِ[٣]

وله إليه أيضاً :

قد أطَلْنا بالباب أمسِ القُعودا وجُفينا به جفاءً شـــديدا
وذممنـــا العبيدَ حتى إذا نحـ ـنُ بلَونا المولَى عَذَرنا العبيدا[٤]
وعلى موعدٍ أتيناك معـــلو مٍ وأمرٍ مُؤكّد تأكيـــدا
١٥٣ و فأقمنا لا الإذنُ جاء ولا جا ءَ رسولٌ قال انصرفْ مطرودا
وصــبَرنا حتّى رأينــا قُبيلَ الـ ـظّهـر بِرذونَ بعضِهم مردودا

---

(١) هذا البيت ساقط من طراز المجالس .

(٢) فى الأصل وإحدى مخطوطتى الطراز : «وطرا» ،صوابه من مطبوع الطراز. وفى المخطوطة الأخرى : « وترا نقضى من الأوطار » .

(٣) فى الطراز : « من جملة الزوار » .

(٤) هذا البيت وسابقه بدون نسبة فى عيون الأخبار ١ : ٨٧ .

واستقرَّ المكانُ بالقوم والغد ... مانُ فى ذاك يمنحونا صدودا
ويُشيرون بالمضىّ فلمّا ... أحرجوا جرّدوا لنا تجريدا
فانصرفنا فى ساعةٍ لو طرحت الـ ... ـلحمَ فيها نِيًّا كُفيتَ الوَقودا
فلعمرى لو كنت تعتدّ لى ذنـ ... ـبًا عظيما وكنتَ فظًّا حقودا
وطلبتَ المزيدَ لى فى عذابٍ ... فوقَ هذا لَمَا وجدتَ مزيدا
كان ظنّى بك الجميلَ فألفيـ ... ـتُكَ من كلّ ما ظننتُ بعيدا
فعليك السلامُ تسليمَ من لا ... يَضمن الدهرَ بعدها أن يعودا

وله فى أحمد بن داود السَّيبى(١) وقصد إليه بكتاب إسحاق بن سعدٍ الكاتب :

يا ابن سعدٍ إن العقوبة لا تلـ ... ـزَم إلّا من ناله الإعذارُ
وابن داود مستخفٌّ وقد وا ... فَتْه مشحوذةٌ عليه الشِّفارُ
فاهـدِه للتى يكون له منـ ... ـها مَفرٌّ ما دامَ يُنجِى الفِرارُ
سامَنى أحمد بن داود أمراً ... ما على مثله لدَىَّ اصطبارُ
لى إليه فى كلّ يومٍ جديدٍ ... رَوحةٌ ماأُغِبُّها وابتكارُ
ووقوفٌ ببابه أُمنَع الإذ ... نَ عليه ويَدخل الزُّوَّارُ
خُطَّةٌ مَن يُقم عليها من النا ... سِ ففيها ذُلٌّ له وصَغارُ
لو ينال الغنى لما كان فى ذ ... لكَ حظٌّ ينالُه مختارُ

---

(١) نسبة إلى السيب ، بكسر أوله ، وهو كورة من سواد الكوفة . وفى مطبوع الطراز : « البسق » .

عزبَ الرأىُ فىَّ عنه وعزّتْـ ـهُ أناةٌ طويلةٌ وانتظارُ

وحُجِب بباب بعض الكُتَّاب فكتب إليه :

أقمتُ ببابك فى جفوةٍ يلوّن لى قولَه الحاجبُ

فيطمعنى تارةً فى الوصول وربّتَمَا قال لى : راكبُ

١٥٣ ظ

فأعلم عند اختلاف الكلامِ وتخليطِه أنّه كاذبُ

وأعزمُ عزماً فيأبى عَلَىَّ إمضاءَهُ رأيىَ الثاقبُ

وأنّى أراقب حتى يثو بَ للحرِّ من رأيه ثائبُ

فإن تعتذرْ تلفِنى عاذراً صَفوحاً وذاك هو الواجبُ

وإلا فإنى إذا ما الحبا لُ رثَّتْ قُواها ، لها قاضبُ

وقال لعلىِّ بن يعقوبَ الكاتبِ وحُجِب ببابه :

قد أتيناك للسّلام فصادفْـ ـنا على غير ما عَهِدنا الغلاما

وسألناه عنك فاعتلّ بالنّو مِ وما كان مُنكَراً أن تناما

غير أنّ الجواب كان جواباً سيّئاً يُعقِب الصّديقَ احتشاما

فانصرفنا نوجِّه العُذرَ إلاّ أنّ فى مضمَر القلوب اضطراما

يا ابنَ يعقوب لا يلومنّ إلاّ نفسَه بعدَ هذه مَن ألاما

وقال لعلى بن يحيى المنجِّم[1] ، وحجبَه غلامُه :

---

(١) هو أبو الحسن على بن يحيى بن أبى منصور المنجم ، فارسى الأصل ، وأسلم أبوه يحيى على يد المأمون . وأبو الحسن أديب شاعر مفتن فى علوم العرب والعجم ، وكان جواداً ممدحاً ، نادم المتوكل وعلت منزلته عنده ، ثم لم يزل مع الخلفاء يكرمونه واحداً واحداً إلى أيام المعتمد . ومات سنة ٢٧٥ . معجم المرزبانى ٢٨٦ — ٢٨٧ .

ليس يرضى الحرُّ الكريم ولو أقـ ـطعتَه الأرضَ أن يذلّ لعبدِ
فعليك السلامُ إلاَّ على الطر ق وحبّى كما علمتَ وودّى[١]

وقال أبو هِفّان[٢] لعلى بن يحيى ، يعاتبه فى حجابه :

أبا حسنٍ وفّنا حقّنا بحقّ مكارمك الوافيه
أأُحجَب دونك شرَّ الحجاب ويدخل دونى بنو العافيه[٣]
أعوذُ بفضلك من أن أُساء وأسألُ ربّى لك العافيه
فإنى امرؤٌ تتّقينى الملوكُ وتدخل فى حَلَق الصّافيه[٤]
كتبت على نفسِ من رامنى ببعض الأذى للرَّدى صافيه

وأُنشِدت لبرقوق الأخطل[٥] وحُجب بباب بعض الكُتّاب :

قد حُجِبنا وكان خطباً جليلا وقليل الجفاء ليس قليلا
لم أكن قبلها ثقيلا وهل يثـ ـقُل من خاف أن يكون ثقيلا
غير أنى أظنُّ لازال ذاك الـ ـظَّنُّ ينقاد أن يكون ملولا

٥٤

---

(١) الطرق ، كذا وردت فى الأصل والطراز .
(٢) هو عبد الله بن أحمد المهزمى ، المترجم فى ص ٤٦ .
(٣) العافية : طلاب الرزق ، واحدهم عاف . عفاه يعفوه : أتاه لطلب معروفه .
(٤) أى فى دروعى السابغات . وفى الأصل : « خلق الصافية » . وفى مطبوع الطراز : «فى حلق الصافية » ، وفى إحدى مخطوطتى الطراز : «حلق الصافية » وسقط البيت من المخطوطة الأخرى .
(٥) كذا . وفى طبقات الشعراء لابن المعتز ٤٢١ أن اسمه الأخيطل ، ويعرف ببرقوقا . وهو صاحب الشعر العجيب فى تشبيه المصلوب :

كأنه عاشق قد مد بسطته يوم الفراق إلى توديع مرتحل
أو قائم من نعاس فيه لوثته مواصل لتمطيه من الكسل

وأخذه من قول الآخر :

لمَّا تحاجبتَ وقد خِفت أن تدنوَ من ودِّك بالمقبلِ
أقللتُ إتيانكمُ إنَّه من خافَ أن يُثقِلَ لم يثقلِ[1]

وأنشدنى أبو عبد الرحمن العَطَوىّ[2] :

لأبى بكرٍ خليلى حُسنُ رأيٍ فى الحجابِ
يا أبا بكر سقاك الله من صوب السَّحابِ
لن ترانى بعدها من بَعدِها قارعَ بابِ
إن يَنُبْ خَطْبٌ فنى الرُّسْلِ بلاغٌ والكتابِ

ولخالدٍ الكاتب فى جعفر بن محمود :

احتجبَ الكاتبُ فى دهرنا وكان لا يحتجب الكاتبُ
القوم يَخلُونَ لحجّابهمْ فيُنكحُ المحجوب والحاجبُ

ولأبى سَعْدٍ المخزومىّ[3] فى الحسن بن سهل :

ترهَّبَ بَعدك الحسنُ بن سهلٍ فأغلقَ بابَه دون المديحِ

---

(١) فى مطبوع الطراز : « أقللت من إتيانكم » .

(٢) منسوب إلى جده عطية . وهو أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن ابن عطية العطوى . شاعر من أهل البصرة ، وكان يعد فى متكلمى المعتزلة . ويذهب مذهب الحسين النجار فى خلق الأفعال . قدم بغداد أيام أحمد بن أبى دواد واتصل به. وقد اختار له المبرد من شعره . تاريخ بغداد ٣:١٢٧ وأنساب السمعانى ٣٩٤ .

(٣) أبو سعد المخزومى ممن عرف بكنيته ، واسمه عيسى بن الوليد . وهو شاعر مقل من شعراء الدولة العباسية . عاصر دعبلا وعبد الله بن أبى الشيص . وفيه يقول ابن أبى الشيص :

=

كذبتُ له ولم أكذبْ عليه كما كذبَ النّصارى للمسيحِ

وأنشدنى البَلاذُرىّ فى بعض كتاب أهل العسكر :

أيحجُبنى من ليس من دون عرسه حِجابٌ ولا من دون وَجْعائه سِتر[(١)]

ومَن لو أماتَ اللهُ أهونَ خلقه عليـــه لأضحى قد تضمَّنَه قبرُ

وأنشدَنى حبيبُ بن أوسٍ ، فى موسى بن إبراهيم ، أبى المغيث :

أمُوَيسُ لا يُغنِى اعتذارُك طالباً وُدِّى فما بعد الهجاء عتابُ[(٢)]

هَبْ مَن له شىءٌ يريد حجابَه ما بالُ لاشىءٍ عليــه حجابُ ١٥٤

ما إن سمعتُ ولا أُرانى سامعاً يوماً بصحراء عليها بابُ[(٣)]

من كان مفقودَ الحيـاء فوجهُهُ من غــير بَوّابٍ له بوّابُ

ولآخر :

بَخِلَ الأمـــــيرُ بإذنه فجلستُ فى بيتى أمـــيرا

وتركت إمـــرتَه له والله محمـــودٌ كثـــيراً

= أبا سعد بحـــق الخمـــ س والفروض من صومك

أقلت الحـــق فى النسبـ ـة أم تحـــلُم فى نومك

الأغانى ١٨ : ٥٠ — ٥٤ .

(١) الوجعاء : الدبر .

(٢) مويس : تصغير ترخيم لموسى . وفى ديوان أبى تمام ٤٨٨ :

أمويس لا تغن اعتذارك طالبا عفوى فما بعد العقاب عتاب

(٣) فى ديوان أبى تمام : « أبدا بصحراء » .

وأنشدنى الزُّبير بن بكّارٍ لبعض الشعراء[١] :

سأترك هذا البابَ ما دام إذنُه ... علَى ما أرى حتّى يَلين قليــلا[٢]

إذا لم نجد للإذن عنــدك سُلَّما ... وجَدنا إلى ترك المجىء سبيلا[٣]

الزُّبير بن بكّارٍ قال : وقد ابنُ عمٍّ لداود بن يزيد المهلَّبىّ عليه فحجبَه ، وجعل يَمطُله بحاجته ، فكتبَ إليه :

أبا سليمانَ وعداً غيرَ مكذوبٍ ... اليأس أروَحُ من آمال عُرقوبِ

أرى حمامةَ مَطْلٍ غير طائرةٍ ... حتى تُنقِّب عن بعض الأعاجيب

لا تركبنَّ بشعرى غير مَركبِه ... فيركبَ الشِّعر ظهراً غير مركوب

لئن حُجبتُ فلم تأذن عليك فما ... شِعرى إذا سارَ عن أُذنٍ بمحجوبِ

إن ضاق بابُك عن إذنٍ شددت غداً ... رحلى إلى المَطَريِّين المناجيبِ[٤]

قومٌ إذا سئلوا رقّت وجوههم ... لا يستقيدون إلاّ للمواهيبِ

---

(١) هو أبو العميثل ، كما فى طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٧٨ . ونسبه المرزبانى فى معجمه ٤٣١ لأبى نبقة محمد بن هشام السدرى . وذكر أنه كان قد صار إلى باب رجل من وجوه أهل البصرة فأبطأ إذنه قليلا .

(٢) فى عيون الأخبار ١ : ٨٥ ومعجم المرزبانى : « حتى يخف » . وفى طبقات ابن المعتز ٢٨٧ : « حتى تلين » .

(٣) فى عيون الأخبار والعقد ١ : ٧٤ والمحاسن والمساوى ١ : ١٢٦ : « عندك موضعا » . وفى معجم المرزبانى : إذا لم أجد يوما إلى الإذن سلما » .

(٤) المـَطَريون ، يعنى بنى مطر ، وكانوا قوما ممدحين ، مدحهم مروان ابن أبى حفصة بقوله :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم ... أسود لها فى غيل خفان أشبل

وللأحوص بن محمد الأنصارىّ فى أبى بكر بن حزم :

أعجِبتَ أنْ ركب ابنُ حَزِمٍ بغلةً فركوبُه فوق المنابر أعجبُ

وعجبتَ أن جَعل ابن حزمٍ حاجباً سبحانَ مَن جَعلَ ابن حَزمٍ يُحجَبُ

وأنشِدت لابن حازمٍ[1] يعاتب رجلاً فى حجابه :

صحبتُك إذْ أنت لا تُصحبُ وإذْ أنت لا غيرك الموكبُ[2]

وإذْ أنت تفـــرح بالزائرين ونفسُك نفسَـــك تستحجبُ

وإذ أنت تُكثر ذمَّ الزمانِ ومشيُك أضعافُ ما تركبُ

٥٥

فقلتُ : كريمٌ له هِمّـــــةٌ تُنـــــال فأُدرِكُ ما أطلبُ

فنِلْتَ فأقصـــيتَنى عامداً كأنّىَ ذو عُـــرّةٍ أجربُ

وأصبحتُ عنك إذا ما أتيـ ـتُ دونَ الورى كلّهم أحجبُ

وأنشدنى أبو تمّامٍ الطائىّ :

ومحجّبٍ حاولتُه فوجــدتُه نَجْماً عن الرَّكب العُفاة شَسُوعَا[3]

لما عَدِمتُ نوالَه أعدمتُه شكرِى فرُحنا مُعدِمَين جميعاً

---

(١) هو محمد بن حازم بن عمرو الباهلى ، نشأ بالبصرة ، ثم سكن بغداد ، وهو من شعراء الدولة العباسية ، وكان كثير الهجاء للناس فاطرح ، ولم يمدح من الخلفاء إلا المأمون . الأغانى ١٢ : ١٥١ — ومعجم المرزبانى ٤٢٩ وتاريخ بغداد ٧٨١ .

(٢) فى مطبوع طراز المجالس : « المركب » بالراء .

(٣) يعرض فى هذا الشعر بإسحاق بن إبراهيم المصعبى ، كما فى ديوان أبى تمام ٤٩٨ .

ووقف العُتبيُّ بباب إسماعيل بن جعفرٍ يطلب إذنَه ، فأعلمه الحاجبُ أنه فى الحمّام ، فقال :

وأميرٍ إذا أردنا طعاماً قال حُجّابُه أتى الحمّاما
فيكون الجواب منّىَ للحا جب ما إن أردتُ إلاّ السّلاما
لستُ آتيكمُ من الدّهر إلاّ كلَّ يومٍ نَويتُ فيه الصّياما
إنّنى قد جعلتُ كلَّ طعامٍ كان حِلاًّ لكمْ علىَّ حراما

وأنشدنى إسحاق بن خلَفٍ البصرىُّ له :

أيَحْجُبنى أبو الحسَنِ وهذا ليسَ بالحسَنِ
وليس حِجابُه إلاّ عن الزّيتون والُجبُنِ

وأنشدنى بعضهم :

لا تتَّخِذْ باباً ولا حاجباً عليك من وجهك بوّابُ
أنت ولو كنتَ بِدَوِّيَّةٍ عليك أبوابٌ وحُجّابُ

ولعلى بن جبلة فى الحسن بن سهل :

اليأس عزٌّ والذّلّة الطّمَعُ يضِيق أمرٌ يوماً ويتّسِعُ
لا تستريثَنَّ إذنَ محتجبٍ إن لم تكن بالدُّخول تنتفع[1]
أحقُّ شىءٍ بطولِ مَهجَرةٍ من ليس فيه رِىٌّ ولا شِبَعُ[2] ١٥٥ ظ

---

(١) استراثه : استبطأه .

(٢) فى طراز المجالس : « يطول مهجره » ، وفى إحدى مخطوطاته : « بطول هجره » .

قُل لابن سهل فإنَّني رجلٌ إن لم تَدَعْني فإنني أدعُ[(1)]
اليأس مالي وجُنّتي كرمٌ والصَّبر والٍ عليَّ لا الجزعُ

ولأبي تمام الطائيّ في أبي المغيث[(2)] :

لا تَكلَفَنَّ وأرضُ وجهك وجهه في غير منفعةٍ ، مؤونةَ حاجبِ[(3)]
لا تمتهنَّ بالحجاب فإنني فَطِن البديهة عالم بمواربي[(4)]

ولبعض الشعراء في العباس بن خالد ، وخُبِّرت أنّه لابن الأعمش :

أتحجُبني فليس لديك نَيلٌ وقد ضيّعتَ مكرمةً ومجدا
وفي الآفاق أبدالٌ ورزقٌ وفي الدُّنيا مَراحٌ لي ومَغدى

وأنشدني أبو الخطاب ، لدِعبل ، في غَسّانَ بن عباد[(5)] :

اَقَطْعُ الرمال ونَقْل الجبال وشرب البحار التي تصطخبْ
وكشفُ الغِطاء عن الجنّ أو صُعودُ السَّماء لمن يرتقب
وإحصاء لُؤم سعيدٍ لنا أو الثُّكلُ في ولدٍ مُنتجَبْ

(١) في عيون الأخبار ١ : ٨٧ : « لما عدمت نواله أعدمته » .

(٢) هو أبو المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي انظر ص ٥٩ .

(٣) كلفه كلفا : أولع به وأحبه . وفي ديوان أبي تمام ٤٨٩ : « وأرض وجهك صخرة » .

(٤) المؤاربة : المداهاة ، يقال هو يؤارب صاحبه ، إذا داهاه . وفي الديوان : « لا تدهشني » و « ندس البديهة » . وفي مطبوع الطراز : « بمآربي » .

(٥) كان غسان بن عباد واليا على خراسان في عصر المأمون . الأغاني ١٤ : ٣٦ . وسيأتي ذكره ولده « محمد » قريبا .

أخفُّ على المرء من حاجةٍ تكلَّفَ غشيانَها مرتقِبْ
له حاجبٌ دونه حاجبٌ وحاجب حاجِبِه محتجِبْ

ولمرداس بن حزام الأسدى[١]، فى بَشِير بن جرير بن عبد الله :

أتيتُ بَشيراً زائراً فوجدته أخا كبرياء عالِماً بالمعاذر
فصدَّ وأبدى غلظةً وتجهُّماً وأغلقَ بابَ العُرف عن كلِّ زائرِ
حجاباً لحرٍّ لا جواداً بماله ولا صابراً عند اختلاف البواتر[٢]

وحُجب أبو العتاهيَة بباب أحمدَ بن يوسُفَ الكاتب ، فكتب إليه :

ألم تَرَ أنَّ الفقرَ يُرجَى له الغنى وأنَّ الغنى يُخشَى عليه من الفقرِ
فإن نِلتَ تيهاً بالذى نلتَ من غنىً فإنَّ غناىَ بالتكرُّم والصَّبرِ

١٥٦ و ولـه أيضاً فيـه :

إنِّى أتيتُـك للسَّـلا م تكلُّفاً منى وحُمقا
فصَدَدْتَ عنِّى نخوةً وتجبُّراً ولَوَيتَ شِدقا
فلوَ أنَّ رزقى فى يَدَيْـ ـكَ لما طلبتُ الدَّهرَ رزقا

---

(١) وكذا فى طراز المجالس وكنايات الجرجانى ٨٩ . وفى الحيوان ١ : ١٠٥ والمؤتلف ١٠٩ : « خذام » ، وفى معجم المرزبانى ٣٧٠ : « حذام » ، وفى الأغانى ١٠ : ٨٧ « جذام » . وفى ثمار القلوب ٢٠٨ « حرام » . وذكر الآمدى أنه شاعر إسلامى كان ينزل الكوفة ، وكان خبيثاً فاحشاً .

(٢) البواتر : السيوف القواطع . يعنى اختلافها فى الضرب .

(٣) قبله فى ديوان أبى العتاهية ٣٥٢ :

أبا جعفر إن الشريف يشينه تتايهه على الأخلاء فى الوفر

ولأحمد بن أبى طاهر :

ليس العجيب بأن أرى لك حاجبًا ولأنت عندى من حجابك أعجبُ

فلئن حُجِبتُ لقد حجبتُ معاشراً ما كان مثلُهمُ ببابك يُحجَب

وله فى بعض الكتاب :

ردَّنى بالذُّلِّ صاحبُه إذا رأى أنّى أطالبُه

ليس كَشْخانًا فأشتُمَه إنّما الكَشْخانُ صاحبُه[1]

وله أيضًا فى على بن يحيى يعاتبه فى بعض قصائده :

أصَوَابًا تراه أصلحك اللـــهُ فما إنْ رأيتُه بصوابِ

صرتُ أدعوكَ من وراء حجابٍ ولقد كُنْتَ حاجبَ الحجّابِ

أتى أبو العتاهية باب أحمد بن يوسفَ الكاتب[2] فى حاجةٍ فلم يؤذَن له ، فقال :

لئن عدتُ بعد اليومِ إنّى لظالمٌ سأصرف وجهى حيث تُبغَى المكارمُ

متى يُنجِح الغادى[3] إليك بحاجةٍ ونصفك محجوبٌ ونصفك نائم

ولآخر :

رأيتُك تطرُدنا بالحجـــا ب عنك برِفقكَ طَردًا جميلا[4]

---

(١) الكشخان : الديوث القواد .

(٢) وكذا فى المحاسن والمساوى ١ : ١٢٦ . وفى العقد ١ : ٧٣ : « إلى باب بعض الهاشميين » .

(٣) وكذا فى العقد وعيون الأخبار ١ : ٨٥ . وفى المحاسن والمساوى : « الغادى لديك » .

(٤) فى الطراز : « عنك بروقك » ، وفى إحدى مخطوطتيه : « بزوقك » .

ولكنْ فى طمع الطامعيـ ـنَ والحرّ من ذا يفكّ العقولا[1]

فهل لك فى الإذن لى بالرّحيـ ـلِ فقد أبَت النفسُ إلا الرحيلا

وحدّثنى أبو علىّ البَصير قال : حدَّثنى محمد بن غسّان بن عباد[2] قال : كنتُ بالرّقة ، وكان بها مُوسوَسٌ يقول الشّعر المُحالَ والمنكر ، فغدَّيتُه يومًا معى احتسابًا للثواب ، فأتانى من غدٍ وعندى جماعةٌ من العُمّال ، فحجبَه الغُلام ، فلمّا كان من غدٍ وقف على الباب وصاح : ١٥٦ظ

عليك إذنٌ فإنّا قد تغدّينـا لسنا نعود لأكلٍ قد تغدَّينا[3]

يا أكلةً سلفَتْ أبقت حرارتُها داءً بقلبكَ ما صُمنا وصلّينا

قال : وما علمتُه قال شعرًا على استواء غيرَ ، ولكنّى وُعظت به فوقع مكروهى على لسانى .

وأُنشِدت لحمّادِ عجردٍ يعاتب بعضَ الملوك :

إذا كنت مكتفيًا بالكتا بِ دونَ اللِّمام تركتُ اللِّماما

وإلّا فأوصِ هَداكَ المليـ ـكُ بوّابكم بى وأوصِ الغلاما

فإن كنتُ أُدخلت فى الزائريـ ـن ، إمّا قعودًا وإما قيـاما

وإنْ لم أكن منك أهلاً لِذاك فلا لومَ لست أحبُّ الملاما

فإنّى أذمُّ إليـك الأنا مَ أخزاهم الله ربّى أناما

فإنّى وجدتهمُ كلّهمْ يُميتون مجداً ويُحيون ذامًا[4]

---

(١) كذا فى الأصل والطراز .

(٢) سبقت ترجمة والده فى ص ٦٣ .

(٣) فى طراز المجالس : « نعود للأكل إنا قد تغذينا » .

(٤) الذام : العيب .

ولأبى الأسَد الشَّيبانىّ[١] ، يعاتب أبا دُلَف فى حجابه[٢] :

ليت شعرى أضاقت الأرضُ عَنّى ... أم نفِىٌّ من البـلاد طريدُ[٣]

أم قُدارٌ أم الحَبَابة أم أحـ ... ـمرُ لاقت به البـلاء ثمودُ[٤]

أم أنا قانعٌ بأدنى معـاشٍ ... هِمَّتى القوتُ والقليلُ الزهيدُ

مِقولى قاطعٌ وسيفى حسـامٌ ... ويدى حُرَّةٌ وقلبى شـديدُ

رُبَّ باب أعزّ من بابك اليو ... مَ عليـه عسـاكرٌ وجنودُ

قد ولجنـاه داخلينَ غدُوًّا ... ورَواحاً وأنت عنـه مَذودُ

فاكففِ اليوم مِن حجابك إذ لسْـ ... ـتَ أميرًا ، ولا خميسًا تقودُ

لن يقيم العزيز فى البلد الهُو ... ن ولا يكسَـدُ الأديبُ الجليد[٥]

كل مَن فرَّ من هوانٍ فإن الـ ... ـرُّحبَ يلقاه والفضـاء العتيد

---

(١) اسمه نباتة بن عبد الله الحمانى ، شاعر مطبوع متوسط الشعر من شعراء الدولة العباسية ، من أهل الدينور ، وكان طيبا مليح النوادر مداحا خبيث الهجاء . الأغانى ١٢ : ١٦٧ — ١٧١ . وانظر ديوان المعانى ٢ : ١٠٣ وطبقات الشعراء لابن المعتز ٣٤٨ .

(٢) كان قد زاره بالكرج فحجب عنه أياما ، كما فى الأغانى ١٢ : ١٦٩ :

(٣) الأغانى : « أم بفج أنا الغداة طريد » .

(٤) قدار ، هو قدار بن سالف الذى يقال له أحمر ثمود ، عاقر ناقة صالح . والحبابة : جارية يزيد بن عبد الملك ، وكانت قد أفسدت عليه نفسه بشدة تعلقه بها . أمالى الزجاجى ٧٤ والأغانى ١٣ : ١٥١ . والبيت لم يرد فى الأغانى .

(٥) فى الأغانى : « ولا يكسب الأريب » .

١٥٧ و ولعلىّ بن جبلة فى بعض الملوك :

حجابك ضيّقٌ ونداك نَزْرُ وإذنك قد يُراد عليه أجرُ
وذلٌّ أن يقوم إليك حرٌّ وطُلَّاب الثَّواب لديك نَقْرُ[1]

وأنشدنى اليمامىّ فى أبى الصَّقر إسماعيل بن بلبل ، يعاتبه فى حجابه :

لـكلِّ مؤمِّلٍ جدوَى كريمٍ على تأميله يومًا ثوابُ
وأنت الحرُّ ما خانتك نفسٌ ولا أصلٌ إذا وقع انتسابُ
وشكرى ظاهر ورجاىَ جَزلٌ ففيم جَزاىَ من ذلٍّ حِجابُ
وحقّ أن تـكافئنى مزيدًا بشكرى إذْ به نزلَ الـكتابُ

وأنشِدت لأبى مالك الأعرج[2] :

علَّقت عينى بباب الدار منتظراً منك الرسولَ تخلِّصُها من البابِ
لما رأيت رسولى لا سبيلَ له إلى لقائك من دفعٍ وحجّابِ
صانعت فيك بمثلَىْ ما أؤمِّله فيما لديك وهـذا سَعىُ خَيَّابِ

ولبشَّار بن برد ، فى عُبيد الله بن قزَعة :

إذا سُئل المعروفَ أغلَقَ بابَه فلم تَلقَه إلّا وأنت كَمِينُ
كأنَّ عُبيدَ الله لم يرَ ماجدًا ولم يدرِ أنَّ المـكرماتِ تـكون
فقل لأبى يحيى متى تدركُ العلا وفى كلِّ معروف عليك يَمِينُ

---

(١) النقر : القليل ، وأصل النقر والنقير النـكتة فى النواة .

(٢) هو أبو مالك النضر بن أبى النضر التميمى ، وفد على الرشيد ومدحه .
الأغانى ١٩ : ١٥٠ — ١٥١ .

وأنشدَ لأبى زُرعة — رجلٍ من أهل الشام — فى أبى الجهم بن سيف :

ولـكنْ أبو الجهم إن جئتَه   لهيفًا حُجِبت عن الحـــاجبِ
وليس بذى موعدٍ صـادق   ويبخَلُ بالموعد الـكاذبِ

وحُجِب سعيد بن حُمَيد بباب الحسن بن مَخْلَد[1] ، فـكتب إليه :

ربّ بِشرٍ يصيِّر الحرَّ عبدًا   لك غالته جفوةٌ فى الحجـابِ
وفتًى ذى خلائقٍ مُعجِبـاتٍ   أفسـدَتْهـا خلائقُ البوّابِ
وكريمٍ قد قصَّرت بأيادِيـ   ـهِ عبيدٌ تسىء للآداب[2]
لا أرى للـكريم أن يشترى الذ   ـيا جميعًا بوقْفةٍ بالبـاب
إنْ تركتَ العبيدَ والُحـكمَ فينا   صار فضـلُ الرءوس للأذناب
فأحلُّوا أشكالَهم رُتَبَ الفضْـ   ـل ،وحَطُّ الأحرارِ عَفْر التّرابِ[3]

157 ظ

وأُنشِدت لعبد الله بن العباس[4] :

أنا بالبـاب واقفٌ منذ أصبحْـ   ـتُ على السّرج ممسك بعنانى[5]
وبعين البوّاب كلُّ الذى بى   ويرانى كأنّه لا يرانى

---

(١) الحسن بن مخلد بن الجراح ، كان يخلف إبراهيم بن العباس الصولى على ديوان الضياع فى عصر المتوكل . إعتاب الـكتاب ١٥١ ، ثم صار وزيراً للمعتمد . إعتاب الـكتاب ١٦٢ والتنبيه للمسعودى ٣٢٠ .

(٢) فى مطبوع طراز المجالس : « بالآداب » .

(٣) فى الأصل وطراز المجالس : « وحط الأحرار » .

(٤) هو عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع بن يونس بن أبى فروة . وكان شاعراً مطبوعاً ومغنياً محسنا . الأغانى ١٧ : ١٢١ — ١٤١ .

(٥) ذكر أبو الفرج ١٧ : ١٢٥ من قصة هذا الشعر أن عبد الله بن العباس طلب من أحمد بن المرزبان أن يعرض له رقعة على الخليفة المنتصر . وكان نائماً ، =

وأنشدتُ لأبي عيينة المهلَّبي(١) ــ واسمه عبد الله بن محمد ــ(٢) يعاتب رجلًا من قومه :

أتيتُك زائراً لقضــاء حقٍّ فحالَ السِّتْرُ دونَك والحجابُ(٣)

ولستُ بساقطٍ في قدر قــومٍ وإن كرِهوا كما يقـع الذبابُ

ورائي مذهبٌ عن كلِّ ناءٍ بجانبِه إذا عــزَّ الذَّهابُ(٤)

وأنشدني ابنُ أبي فَنَن(٥) :

ما ضاقت الأرضُ على راغبٍ يطَّلبُ الرزق ولا ذاهبِ

بل ضاقت الأرضُ على صابرٍ أصبحَ يشكو جَفـوةَ الصَّاحبِ

مَن شَـتَمَ الحاجبَ في ذَنْبِه فإنَّما يَقصِــــد للصَّاحب

فارغبْ إلى الله وإحســانه لا تطلبِ الرزق من الطالبِ

= فلما انتبه من نومه وجد مكتوباً فيه هذان البيتان فأمر بإدخاله ، فدخل فعرفه أحمد خبره واعتذر إليه وعرض رقعته على المنتصر . والبيتان كذلك في العقد ١ : ٧٥ بدون نسبة .

(١) ذكر ابن المعتز في طبقات الشعراء ٢٨٨ أن « أبا عيينة » كنية لكل من كان من المهالبة .

(٢) ذكره في جمهرة أنساب العرب ٣٦٩ . وذكر ابن المعتز أنه صحب طاهر ابن الحسين فلم يرض صحبته وهجاه .

(٣) عيون الأخبار ١ : ٨٩ مع نسبته إلى عبد الله بن أبي عيينة . وكذا في المحاسن والمساوى ١ : ١٢٦ مع نسبته إلى عبد الله بن محمد بن أبي عيينة .

(٤) البيت لم يرد في المصادر المتقدمة . وفي طراز المجالس: « ورائي مذهبي » . وفيه نظر إلى قول الله : « أعرض ونأى بجانبه » .

(٥) اسمه أحمد بن صالح . سبقت ترجمته في ص ٥٠ .

قال المدائني : أتى عُويف القوافي[1] بابَ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فحُجِبَ أيّامًا ، ثم استأذنَ له حُبيش صاحبُ إذنِ عمر ، فلمّا قام بين يديه قال :

أجبني أبا حفص ، لقيتَ محمّدًا   على حَوْضه مستبشِرًا بِدُعا كا[2]

فقال عمر : أقول لبيّك وسَعديك ! فقال :

وأنت امرؤٌ كلتا يديكَ طليقةٌ   شِمالُك خيرٌ مِن يمينِ سِواكا
علامَ حجابي ، زادك اللهُ رِفعةً   وفضلًا ، وماذا للحجابِ دعاكا

فقال : ليس ذاكَ إلّا لِخير ! وأمر له بِصِلة .

المدائني قال : أقام عبد العزيز بن زُرارةَ الكلابيّ[3] ، بباب معاوية حينًا لا يُؤْذَن له ، ثم دخل فقال :

١٥٨

---

(١) هو عويف بن معاوية بن عقبة بن حصن ، سمى عايف القوافي بقوله :

سأكذب من قد كان يزعم أنني   إذا قلت قولا لا أجيد القوافيا

وهو شاعر من شعراء الدولة الأموية من ساكني الكوفة . معجم المرزباني ٢٧٧ — ١٧٨ والأغاني ١٧ : ١٠٥ — ١١٨ والخزانة ٣ : ٨٧ .

(٢) البيت وتاليه في الطبري ٨ : ١٣٧ . وفي الطبري : « مستبشراً من وراكا » .

(٣) عبد العزيز بن زرارة : أحد أشراف العرب وشعرائهم ، روى له الجاحظ شعراً في الحيوان ٣ : ٨٤ . ومدحه بعض الشعراء . الحيوان ٦ : ٣٢٩ ، وذكر أبو الفرج في الأغاني ١٠ : ٦٨ أنه هو الذي تكفل بدفن توبة بن الحمير في أيام مروان بن الحكم . وفي جمهرة أنساب العرب ٢٨٣ أنه وقف على باب معاوية مستأذناً ، وأنه توفي في عهده .

دخلتُ على معاويةَ بنِ حربٍ وكنتُ وقد يئستُ من الدخولِ
رأيتُ الحظَّ يسترُ عيبَ قومٍ وأيهاتَ الحظوظُ من العقول[1]

قيل لُحبّى المدنيّةِ : ما الجرحُ الذى لا يندمل ؟ قالت : حاجة الكريم إلى اللئيم ثم لا يُجدَى عليه[2] . قيل لها : فما الذّلّ ؟ قالت : وقوف الشريف بباب الدنىّ ثم لا يُؤذَن له . قيل لها : فما الشَّرف ؟ قالت : اعتقاد المِنَن فى أعناق الرجال ، تبقى للأعقاب فى الأعقاب[3] .

وقيل لعُروة بن عدىّ بن حاتم وهو صبىٌّ ، فى وليمة كانت لهم : قِفْ بالباب فاحجُبْ من لا تعرف وائذَنْ لمن تعرفُ[4] . فقال : لا يكون ــ والله ــ أوّلَ شىء استُكفيتُه منعُ الناس من الطّعام .

وأُنشِدتُ لأبى عُيينة المهلّبى[5] :

بُلغةٌ تحجُب الفتى عن دُناةٍ وعتابٌ يخاف أو لا يخاف[6]

---

(١) أيهات : لغة فى هيهات ، أى بعد .

(٢) فى عيون الأخبار ٣ : ١٣٩ : « ثم يرده » . جدا عليه : أعطاه .

(٣) فى مطبوع طراز المجالس : « فى الأحقاب » . والأحقاب : الدهور ، جمع حقب بالضم ، وهو مقدار ثمانين سنة .

(٤) فى مطبوع الطراز : « وأدخل من تعرف » .

(٥) انظر ما سبق فى ص٧٠ .

(٦) الدناة : جمع دنى ، وهو الخسيس الذى لاغناء عنده . ولم أجد هذا الجمع ، ولا هو منقاس فى دنى ، إلا أن يكون جمع دانئ بعد تسهيله . والدانئ : الخبيث البطن والفرج ، الماجن ، كما فى اللسان . وانظر أمالى الزجاجى ١٢٠ حيث أنشد قول القائل :

ورفضت صفحته التى لم أرضها وأزلت عن رتب الدناة مقامى

هو خيرٌ من الرُّكوب إلى با ... بِ حِجابٍ عنوانُهُ الانصرافُ

بئس للدولةِ التى تُرفع السِّـ ... ـفلةُ فيهـا وتَسقُط الأشرافُ

وأُنشِدت لموسى بن جابرٍ الحنفى[1] :

لا أشتهى يا قوم إلَّا مُكرَهًا ... بابَ الأمير ولا دفاعَ الحاجبِ[2]

ومن الرِّجال أسِـنّةٌ مذروبة ... ومزنَّدون شُهودُهم كالغائب[3]

منهم أُسـودٌ لا تُرام ، ومنهمُ ... مما قَمَشْتَ وضمَّ حبلُ الحاطبِ[4]

وأنشدَنى بعضُ أصحابنا :

إنى امرؤٌ لا أُرى بالباب أقرعُه ... إذا تَنَمَّرَ دونى حاجبُ البابِ

ولا ألوم امرأً فى ودِّ ذى شَرَفٍ ... ولا أُطالبُ وُدَّ الكاره الآبى[5]

وأنشدنى ابنُ أبى فَنَن :

الموت أهونُ مِن طول الوقوف على ... ٥٨

بابٍ ، علىّ لبوّابٍ عليـــه يدُ

(١) موسى بن جابر بن أرقم بن مسلمة الحنفى ، شاعر نصرانى جاهلى كثير الشعر ، وكان يلقب أزيرق اليمامة ، ويقال له ابن الفريعة كما كان يقال لحسان بن ثابت . المؤتلف ١٦٥ والمرزبانى ٣٧٦ .

(٢) الأبيات فى الحماسة ٣٦٣ — ٣٦٥ بشرح المرزوقى .

(٣) مذروبة : محددة ، أى يمضون فى الأمور مضاء هذه الأسنة . والمزند : البخيل . الشهود : الحاضرون : جمع شاهد . وأراد بالغائب الغائبين . يقول: لاغناء عندهم ، فحاضرهم كغائبهم .

(٤) فى الحماسة : « وبعضهم مما قمشت » .

(٥) فى الأصل : « ذى سرف » بالسين ، صوابه فى الطراز .

مالى أقيمُ على ذلِّ الحجابِ كأنْ قد مَلَّنى وطنٌ أو ضاقَ بى بَلَدُ

وأنشدنى الزبير بن بكّار لجعفرِ بن الزُّبير[١]:

إنَّ وُقوفى من وراء البابْ[٢] يَعدِلُ عندى قَلْعَ بعضِ أنيابْ[٣]

وأنشد لمحمود الورّاق :

شاد الملوكُ حصونَهم[٤] وتحصّنوا من كل طالب حاجةٍ أو راغبِ

غالَوْا بأبواب الحـديد لعزّها وتنوّقوا فى قُبْح وجه الحاجب[٥]

فإذا تَلَطَّف للدخـول إليهم راجٍ تلقَّوْه بوعـدٍ كاذب

فاضرعْ إلى مَلِكِ الملوكِ ولا تكنْ بادِى الضَّراعة طالبًا من طالب

وأنشدنى أبو موسى المكفوف :

لن ترانى لك العيونُ ببابِ ليس مثلى يُطيق ذُلَّ الحجابِ

ياأميراً على جَريبٍ من الأر ضِ له تِسعةٌ من الحجّابِ

---

(١) يقوله لعمر بن عبد العزيز ، كما فى الأغانى ١٣ : ١٠٠ .

(٢) قبله فى الأغانى :

* ياعمر بن عمر بن الخطاب *

وذلك أن أم عمر بن عبد العزيز هى أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب . سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ٥ وجمهرة أنساب العرب ١٠٥ .

(٣) فى الأصل وإحدى مخطوطتى الطراز : «عنى» موضع « عندى » ، صوابه فى الطراز والأغانى أنياب ، أى أنيابى . وفى الأصل والطراز : « قلع أنيابى » وفى مطبوع الطراز : « قلعهم أنيابى » ، والوجه ما أثبت . وفى الأغانى : « حطم بعض الأنياب »

(٤) فى حواشى الأصل : « قصورهم »

(٥) التنوق : التأنق ، وهو التجود والمبالغة .

قاعداً فى الحرب تحجبُ عنّا ... ما سمعنا إمارةً فى خرابِ

وأنشدنى أبو قَنْبَر الكوفىّ :

ولستُ بمتّخِذٍ صاحبًا ... يُقيم على بابه حاجبا[1]

إذا جئته قيل لى نائمٌ ... وإن غبتُ ألفيتُه عاتبا[2]

ويُلزم إخوانَه حقَّهُ ... وليس يَرَى حقَّهمْ واجبا

فلست بِلاقيه حتّى المماتِ ... إذا أنا لم أَلْقَه راكبا

وأنشدنى أبو بكر محمد بن أحمد ، من أهل رأس العَيْن[3] — لنفسه فى بعض بنى عمران بن محمدٍ الموصلىّ :

يا بَا الفوارسِ أنت أنت فتى النَّدَى ... شهدَتْ بذاك ولم تَزَلْ قحطانُ

فلأىّ شىءٍ دون بابك حاجبٌ ... من بُغضِه يتخبَّطُ الشَّيطانُ[4]

فإذا رآنى مالَ عنّى مُعرِضًا ... فكأنّنى من خوفه سرَطانُ

١٥٩

---

(١) الأبيات بدون نسبة أيضاً فى عيون الأخبار ١ : ٨٥ — ٨٦ .

(٢) وكذا فى طراز المجالس وفى عيون الأخبار :

إذا جئت قال له حاجة ... وإن عدت ألفيته غائبا

(٣) ويقال رأس عين أيضا : مدينة كبيرة قديمة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ، وفيها عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها فى موضع فتصير نهر الخابور . وفيها يقول الأسود بن يعفر :

وعمرو بن مسعود وقيس بن خالد ... وفارس رأس العين سلمى بن جندل

(٤) وكذا فى طراز المجالس ، لكن فى إحدى المخطوطتين : « من مسه » .

من عاتبَ على حجابِه والإذنِ لغيره

قال الأشهب بن رُمَيلة :

أبلغ أبا داود أنّى ابنُ عمّه ... وأنّ البَعيث من بنى عمٍّ سالِمِ[1]

أتُولِجُ بابَ الملك مَن ليس أهلَه ... وريشُ الذُّنابَى تابعٌ للقوادم

وقال عاصمٌ الزِّمَّانىُّ[2]، من بنى زِمَّان[3] :

أبلغ أبا مِسمعٍ عنى مغلغَلةً ... وفى العتابِ حياةٌ بين أقوامِ

أدخلتَ قبلى رجالاً لم يكن لهمُ ... فى الحقِّ أن يَلجوا الأبوابَ قُدّامِى

فقد جعلتُ إذا ما حاجةٌ عرضَتْ ... ببابِ دارك أدلُوها بأقوامِ

وقال هشام بن أبيضَ، من بنى عبد شمس :

وليس يَزيدُنى حَسَبى هواناً ... علىَّ ولا ترانى مستكينا

فإنْ قدّمتمُ قبلى رجالاً ... أرانى فوقَهم حسباً ودينا

ألسنا عائدين إذا رجعنا ... إلى ما كان قدَّمَ أوّلونا

فأرجِعَ فى أرومة عَبْشَمىٍّ ... ترى لى المجدَ والحسبَ السَّمينا

وقال دينار بنُ نُعيمٍ الكلبىّ :

أبلغْ أميرَ المؤمنينَ ودونَه ... فراسخُ تَطوِى الطَّرفَ وهو حديدُ

---

(١) فى مطبوع طراز المجالس : « وأن البعيثى » ، تحريف .

(٢) كذا . والذى فى البيان ٢ : ٣١٦ و ٣ : ٢٠٢ و ٤ : ٨٥ : « همام الرقاشى » وفى العقد ١ : ٦٨ : « هشام الرقاشى » .

(٣) فى الأصل : « مازن » ، صوابه من الطراز .

بأنّى لدى عبد العزيز مدفَّعٌ يقدَّم قبلى راسبٌ وسعيد
وإنّى لأدنَى فى القرابة منهما وأشرفُ إن كنتَ الشريفَ تُريدُ

المدائنى قال: أتى ابن فَضالة بن عبد الله الغنوىّ باب قُتيبةَ بنِ مسلمٍ، فأساء إذنَه فقال:

١٥٩ ظ

كيفَ المُقامُ أبا حفصٍ بساحتكم وأنت تُكرمُ أصحابى وتجفونى
أراهمُ حين أغشَى بابَ حجرتكمْ تُدعوهمُ النَّقَرَى دونى ويُقصونى
كم من أميرٍ كفانى اللهُ سَخْطتَه مذْ ذاك أوليتُه ما كان يولينى
إنّ أبَى لىَ أن أرضَى بمنقصةٍ عمٌّ كريمٌ وخالٌ غير مأفونِ
خالى كريمٌ وعمِّى غير مؤتَشَبٍ ضَخم الحَمالة أبّاءٌ على الهُونِ[1]

المدائنى قال: كان مَسْلمة بن عبد الملك تزوّجَ ابنةَ زُفَرَ بن الحارث الكلابىّ، وكان ببابه عاصمُ بن يزيد الهلالىّ، والهُذَيل وكوثرٌ ابنا زفر، فكان يأذن لهما قبل عاصم، فقال:

أمَسْلَمُ قد منَّيتنى ووعدتَنى مَواعدَ صدقٍ إن رجعتَ مؤمَّرا
أيُدعَى هُذيلٌ ثمّ أُدعَى وراءه فيا لكَ مَدْعًى ما أذلَّ وأحقرا
وكيف ولم يشفع لى اللّيلَ كلَّه شفيعٌ وقد ألقى قناعًا ومئزرا
فلستُ براضٍ عنك حتّى تحبَّنى كحُبِّك صِهرَيكَ الهُذيلَ وكوثرا

---

(١) المؤتشب: المخلوط غير الصريح فى نسبه. والحمالة، كسحابة: الدية يحملها قوم عن قوم.

وقال الأصحم ، أحدُ بنى سعد بن مالك بن ضُبيعة[١] بن قيس بن ثعلبة ، يذكر خالدَ بن عبد الله القسريَّ ، وأبان بنَ الوليد البَجَليّ ، وحجبَه خالد :

ومنزلةٍ ليست بدارِ تَثيَّةٍ أطال بها حبسى أبانٌ وخالدُه[٢]

فإنْ أنا لم أنزلْ بلاداً هُما بها فلا ساغَ لى من أعذب الماء باردُه

إذا ما أتيتُ البابَ صادفتُ عنده بَجيلةَ ، أمثالَ الكلاب ، تُراصِدُه

عليهمْ ثياب الخزِّ تبكى كما بكت كَراسيُّه ، من لُؤمه ، ووسائده

ويُدعَونَ قُدّامى ويُجعَل دوننا من السّاج مسمورًا تئطُّ حدائده[٣]

المدائنى قال : كان تَميم بن راشدٍ مولى باهلةَ ، حاجباً لقُتيبة بن مسلم بخراسان ، فكان يأذن لسُويد بن هَوبرٍ النَّهشليّ ، ومُجفَر بن جزيّ[٤] الكلابيّ ، قبل الحُضَين بن المنذر الرقاشي ، فقال الحُضَين[٥] :

إنّى لألقَى من تميمٍ وبابِهِ عَناءً ويدعو مُجفَرا وابن هَوبرا

نَزِيعَين من حيَّينِ شتَّى كأنَّما يرى بهما البوّابُ كسرى وقيصرا

١٦٠ و

---

(١) فى الأصل والطراز : « صعصعة » ، صوابه من جمهرة أنساب العرب ٣١٩ — ٣٢٠ .

(٢) التثية : التلبث والتحبس . تأيا : تحبس .

(٣) مسمورا ، أى مشدودا بالمسامير ، يعنى الباب . تئط : تصوت .

(٤) فى مخطوط الطراز : « محفر بن جزى » وفى المطبوع : « محفر بن حرب » .

(٥) فى الأصل والطراز : « الحصين » فى هذا الموضع والذى قبله . وصوابه « الحضين » بالضاد المعجمة وهو الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة ، شاعر فارس ، من كبار التابعين . مات على رأس المائة فى أمارة سليمان بن عبد الملك . جمهرة أنساب العرب ٣١٧ والمؤتلف ٨٧ والخزانة ٢ : ٨٩ — ٩٠ وتهذيب التهذيب والقاموس (حضن) .

وقال عُبَيد الله بن الحرّ الفاتكُ ، لعبد الله بن الزُّبير ، وشكا إليه مُصعبًا وحجّابَه :

أبلغ أمير المؤمنين نصيحتى فلستُ على رأيٍ قبيحٍ أُواربُه
أفى الحقّ أن أُجفَى ويجعلَ مصعب وزيريه مَنْ قد كنتُ فيه أحاربه[1]
وما لامرئٍ إلاّ الذى اللهُ سائقٌ إليه وما قد خَطَّ فى الزُّبر كاتبُه
إذا ما أتيتُ البابَ يدخَل مسلمٌ ويمنعنى أن أدخل البابَ حاجبُه
لقد رابنى من مُصعبٍ أنّ مصعباً لدى كلّ ذى غشّ لنا هو صاحبُه

وقال ابن نوفل[2] لخالد بن عبد الله القسرىّ ، وحجَبَه :

فلو كنتُ غَوْثيًا لأدنيتَ مجلسى إليك، أخا قَسْرٍ، ولكنّنى لخلُ[3]
رأيتك تُدنى ناشئاً ذا مجيزةٍ بمَحجِرِ عينيه وحاجبِهِ كُحلُ
فوالله ما أدرى إذا ما خلوتُما وأُرْخِيت الأستارُ أيُّكما الفحلُ

---

(١) فى مطبوع طراز المجالس : « وزيرا به من كنت » .

(٢) هو يحيى بن نوفل ، شاعر من شعراء الدولة الأموية كان معاصرًا للحكم ابن عبدل الأسدى . ذكره فى الحيوان والبيان . وانظر الأغانى ٢ : ١٤٤ .

(٣) غوثيا : نسبة إلى الغوث بن نبت ، من أجداد قسر ، وهو قسر بن عبقر ابن أنمار بن إراش بن عمرو بن الغوث . وفى الأصل وطراز المجالس وإحدى مخطوطتى الطراز : « عوثيا » ، وفى المطبوعة والمخطوطة الأخرى : « عوتيا » وانظر جمهرة أنساب العرب ٣٨٧ .

وقال عمرو بن الوليد[١] ، فى عُقبة بن أبى مُعَيط[٢] :

أفى الحق أن نُدنَى إذا ما فزعتمُ ... ونُقصَى إذا ما تأمنون ونُحجبُ

ويُجعلَ فوقى مَن يودُّ لوَانَّكم ... شهابٌ بكفَّىْ قابسٍ يتلهَّبُ[٣]

فما أنتمُ داويتمُ الكَلْمَ ظاهراً ... فمن لكُلومٍ فى الصُّدور تَحوَّبُ[٤]

فقلتُ وقد أغضبتمونى بفعلكم ... وكنت امرأً ذا مِرّةٍ حين أغضب

أمالىَ فى أعداءِ قومىَ راحةٌ ... ولاعند قومى إنْ تَعتَّبتُ مَعتَبُ[٥]

المدائنىُّ قال : كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج أن يستعمل مِسمَع ابن مالك[٦] على سجستان ، فولاّه إياها ، فأتاه الضَّحّاك بن هشام فلم يُنِلْه خيراً وأقصاه ، فقال :

وما كنت أخشى يابنَ كبشة أن أرى ... لبابك بوّاباً ولاستِك مِنبرا

(١) هو أبو قطيفة عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط الأموى ، وكان ممن نفاه ابن الزبير مع بنى أمية إلى الشام . الأغانى ١ : ٦ — ١٨ . ومعجم المرزبانى ٢٤٠ — ٢٤١ .

(٢) فى معجم المرزبانى أنه يقوله لعبد الملك بن مروان ، وكان تقدم عليه فى الإذن عبد الله بن جعفر وخالد بن يزيد بن معاوية .

(٣) فى معجم المرزبانى : «لو أنكم ضرام» .

(٤) فى معجم المرزبانى : « فهل أنتم » و « فمن لقروح » ثم قال : «ويروى : فإن أنتم» . ولم يرو المرزبانى البيتين بعده .

(٥) فى الأصل وإحدى مخطوطتى الطراز : « أعداء » ، وصوابه من المطبوع والمخطوطة الأخرى .

(٦) له أخبار فى الأغانى . وفى طراز المجالس : « سبع بن مالك » ، تحريف . وانظر جمهرة أنساب العرب ٢٣٠ .

١٦٠ ظ

وما شجَرَ الوادى دعوتَ ولا الحصَى
ولـكن دَعَوت الُحرقتين وجَحدرا(١)

أخذْنا بآفاق السماء فلم ندَعْ لعينك فى آفاقها الُخضرِ منظرا

من مُدح برفع الحجاب

قال أيمن بن خُرَيم(٢) فى بِشْر بن مروان :

ولو شاء بشرٌ كان مِن دون بابه طَماطمُ سُودٌ أو صَقالبةٌ حُمْرا(٣)

ولـكنَّ بشرًا أسهلَ الباب للتى يكون له مِن دونها الحمدُ والشُّكرُ

بعيدُ مَرادِ الطَّرف ما رُدَّ طرفَه حذارَ الغواشى بابُ دار ولاسِترُ(٤)

وله أيضاً فى عبد العزيز(٥) :

لِعبدِ العزيز على قومِه وغـــيرِهمُ مِنَنٌ ظاهرَه

---

(١) الحرقتان : سعد وتيم ابنا قيس بن ثعلبة بن عكابة ، كما فى جنى الجنتين ٤٠ واللسان (حرق ٣٢٩) وجحدر هو جحدر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة . جمهرة أنساب العرب ٣٢٠ . وشجر الوادى والحصى : مثل فى الـكثرة .

(٢) أيمن بن خريم بن الأخرم بن عمرو بن فاتك ، من شعراء الدولة الأموية ، ولأبيه صحبة برسول الله ورواية عنه . وجعله أبو الفرج فى الأغانى ٢١ : ٥ شيعيا ، ولـكن المسعودى فى التنبيه والإشراف ٢٦٣ عده عثمانيا ، وبذلك يكون قد اضطرب بين التيارين .

(٣) فى الأغانى ٢١ : ٨ : « أو صقالبة شقر » .

(٤) الغواشى والغاشية : من ينتابون من سؤال وزوار وأصدقاء .

(٥) هو عبد العزيز بن مروان . ونسبة الشعر إلى أيمن مقول فيها . ونسبه الجاحظ فى الحيوان ١ : ٣٨٢ والبخلاء ٢٢٠ إلى عمران بن عصام ، وأبو الفرج فى الأغانى ١ : ١٢٩ إلى نصيب . وديوان المعانى ١ : ٣٣ لعمران بن عصام ، ويروى لنصيب . وفى الشعر والشعراء ٣٧٤ لنصيب .

فبابُك ألينُ أبوابهم ودارُك مأهولةٌ عامره
وكلبُك أرأف بالمعتفين من الأمّ بابنتها الزائره
وكفُّك حينَ ترى السائلي نَ أندى من اللّيلة الماطره
فمنك العطاء ومنّا الثناء بكل مُحَبَّرة سائره

ولآخر أيضاً :

مالى أرَى أبوابهم مهجورةً وكأنَّ بابَكَ مجمعُ الأسواقِ
إنّى رأيتك للمكارم عاشقًا والمكرُماتُ قليلةُ العُشّاقِ

وللتيميّ[1] :

يزدحمُ الناسُ على بابه والمنهلُ العذبُ كثير الزّحامْ

ولأشجعَ بن عمرٍو السُّلَميّ :

على باب ابن منصورٍ علاماتٌ من البذلِ
جماعاتٌ وحَسْبُ البا بِ جودًا كثرةُ الأهلِ

١٦١ و

وأُنشِدتُ لعُمارة بن عقيل ، فى خالدِ بن يزيد :

تأبَى خلائق خالد وفِعالُه إلاّ تجنُّبَ كلّ أمرٍ عائبِ
وإذا حضرْنا الباب عند غَدائه أذن الغَداء برغم أنفِ الحاجبِ

وأُنشِدتُ لبعضهم :

أبلج بين حاجبيه نورُه إذا تغدّى رُفعت سُتوره

(١) فى الطراز : « وللتميمى » . وهو فى عيون الأخبار ١ : ٩٠ بدون نسبة .

ولثابت قُطَنَة[1] ، فى يزيد بن المهلّب :

أبا خالدٍ زدتَ الحيــاةَ محبّةً ... إلى الناس أنْ كنتَ الأميرَ المتوّجا

وحُقّ لهم أن يرغبوا فى حياتهم ... وبابُك مفتوحٌ لمن خاف أو رجا

تَزيد الذى يرجو نداك تفضُّلا ... وتُؤمن ذا الإجرام إنْ كان مُحرَجا

من أمَّل حجابَه ولم يُذمّ عليه

المدائنى قال : حضر أبو سفيانَ بنُ حربٍ بابَ عثمانَ بن عفّـانَ رضى الله عنه ، فحُجِبَ عنه ، فقال له رجلٌ يُغْرِيه به : حجبَك أميرُ المؤمنين يا أبا سفيان ؟ فقال : لا عَدِمتُ مِن قومى مَن إذا شاء أن يحجبَنى حجبَنى .

وأنشدنى الطائىُّ[2] فى إسحاقَ بنِ إبراهيم الموصلىّ :

يأيُّهـــا الملكُ المـأمول نائلُه ... وجُوده لمُراعى جُوده كَثَبُ[3]

ليس الحجابُ بمُقصٍ عنك لى أملاً ... إنّ السماءَ تُرَجَّى حين تحتجبُ

---

(١) فى الأصل والطراز : « بن قطبة » ، صوابه ما أثبت كما فى البيـان ١ : ١٤٩ ، ٢٣١ ، ٣٢٢ و ٤ : ٥١ . وهو أبو العلاء ثابت بن كعب ، شاعر فارس شجاع ، من شعراء الدولة الأموية ، وكان فى صحابة يزيد بن المهلب . ولقب « قطنة » لأن سهماً أصابه فى عينه فى بعض حروب الترك فـكان يجعل عليها قطنة . الأغانى ١٣ : ٤٧ – ٥٤ والشعراء ٦١٢ والطبرى ٨ : ١٨٥ والخزانة ٤ : ١٨٥ .

(٢) هو أبو تمام . ديوانه ٢٢ . وفيه : « وقال يعاتب أبا دلف ، وقيل عبد الله ابن طاهر » .

(٣) فى الديوان :

يأيها الملك النـــائى بغُرته ... وجوده لمرجى جوده كثب

وله أيضاً فى مالك بن طوق[1] :

قل لابن طوق رحى سعدٍ، إذا خبطتْ حوادثُ الدهر أعلاها وأسفلها
أصبحتَ حاتمها جوداً ، وأحنفها حلماً ، وكيِّسها علماً ودغفلها[2]
مالى أرى الحجرةَ الفيحاء مقفلةً عنِّى وقد طال ما استفتحتُ مقفلها
كأنَّها جنّةُ الفردوس مُعرضةً وليس لى عملٌ زاكٍ فأدخلها

١٦١ ظ

ولأبى عبد الرحمن العَطَوىّ فى ابن المدبّر :

إذا أنت لم ترسل وجئتُ فلم أصلْ ملأتُ بعذرٍ منك سمعَ لبيبِ
قصدتُك مشتاقاً فلم أر حاجبًا ولا ناظرًا إلّا بعينِ غضوبِ
كأنى غريمٌ مقتضٍ أو كأنّنى طُلوعُ رقيبٍ أو نُهوضُ حبيبِ
فقمتُ وقد فَكّ الحجابُ عزيمتى على شكر بُسطِ الراحتين وَهوبِ[3]
علىّ له الإخلاصُ ما ردعَ الهوى أصالةُ رأيٍ أو وقارُ مَشيبِ

وأنشدنى الخثعمىّ :

كيفما شئتَ فاحتجب يأبا اللّيْـ ـثِ ومن شئت فاتّخذْ بوّابا

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٣٦ .

(٢) الكيس النمرى ، من علماء النسب . انظر البيان ١ : ٣٢٢ ، ٣٥١ . ودغفل هو ابن حنظلة بن زيد الشيبانى النسابة ، أدرك الرسول ولم يسمع منه ، وغرق فى يوم دولاب فى قتال الخوارج سنة ٧٠ . الإصابة ٢٣٠٥ وابن النديم ١٣١ والميدانى ٢ : ٢٧٣ والمعارف ٢٣٢ والاشتقاق ٢١١ وتاريخ الإسلام ٢ : ٢٨٧ .

(٣) البسط ، بكسر الباء وضمها : المبسوطة . وفى قراءة عبد الله : « بل يداه بسطان » . وفى مطبوع الطراز : « سبط الراحتين » .

أنت لو كنت دون أعراضٍ قحطا نَ وأسبلَت دونها الأحسابا[١]

لرأيناك في مرايا أياديـ ـكَ يقينًا ولو أطلتَ الحجـابا

وأنشدني البلاذُريّ في عُبيد الله بن يحيي بن خاقان :

قالوا اصطبارُك للحجابِ وذُلّه عارٌ عليكَ يدَ الزّمانِ وعابُ[٢]

فأجبتُهم ولكلِّ قولٍ صادقٍ أو كاذبٍ عند الكريم جوابُ

إنّي لأغتفرُ الحجابَ لماجد ليست له مِنَنٌ عليَّ رِغابُ

قد يرفع [المرء] اللئيمُ حجابَه ضَعةً ، ودون العُرف منه حجابُ

والحرُّ مبتذَلُ النّوالِ وإن بدا من دونه سِترٌ وأُغلِقَ بابُ

* * *

تمّ كتاب الحجاب[٣] ، ولله الحمد والمنّة ، وبيده الحول والقوّة ، ١٦٢ و والله سبحانه الموفّق للصواب برحمته .

يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب « مفاخرة الغلمان والجواري » من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضاً ، والله المستعان وعليه التُّكلان ، إنّه سميعٌ مجيب الدعاء .

والحمد لله أولاً وآخرًا ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامُه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(١) في الطراز : « دونه الأبوابا » .

(٢) يد الزمان ، أي الزمان كله، كقولهم : « يدَ الدهر » و« يدَ المسند » . وانظر اللسان (يدى ٣٠٨ ــ ٣٠٩) .

(٣) بدله في الطراز : « وهذا آخر كتاب الحجاب » .

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الثالثة عشرة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان »

وقد ذكره ياقوت فى معجم الأدباء ١٦ : ١٠٧ باسم : « كتاب الجوارى » .

وقد نشر هذه الرسالة من قبل « شارل بلاَّ » فى دار المكشوف ببيروت سنة ١٩٥٧ .

ومن هذا الكتاب نسخة واحدة ، هى نسخة مكتبة داماد ، وهى الأصل المعتمد . وقد عنيت بمقابلتها على نشرة «شارل» ؛ لأبين بعض وجوه التصحيح لتلك النشرة ، موضحا بعض السهو فى الأسقاط أو فى قراءة الناشر لنصوص الأصل ، وله العذر فى ذلك ، فإن النسخة مهملة النقط فى كثير من كلماتها .

ولا يسعنى إلا أن أعترف للأستاذ « شارل » بفضل السبق فى نشر هذه الرسالة وإتحاف المكتبة العربية بها .

وللأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد نقد لنشرة شارل بلا فى الجزء الثانى من المجلد الثالث من مجلة معهد المخطوطات العربية ص ٣٣٥ عدد (نوفمبر سنة ١٩٥٧) ، أشار فيه إلى كتاب مماثل لكتاب الجاحظ هو (كتاب الحكايات) لقاضى القضاة بدر الدين العينى ، مخطوطة بورصة ، حسن جلبى ٥١ (٣٣) ورقة ٧ ب وما بعدها .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٦٣ ظ

بالله نستعين ، وإياه نستهدى ، وعليه نتوكل .

إنّ لكل نوع من العلم أهلاً يقصدونه ويؤثرونه ، وأصناف العلم لا تُحصَى ، منها الجزلُ ومنها السَّخيف . وإذا كان موضعُ الحديث على أنه مُضحِكٌ ومُلهٍ ، وداخلٌ في باب حدّ المزح ، فأبدلتِ السَّخافة بالجزالة انقلبَ عن جهته ، وصار الحديث الذى وُضع على أن يَسُرَّ النفوس يكرُبُها ويغمّها .

ومَن كان صاحبَ علمٍ ممرَّنًا موقَّحا[1] ، إلفَ تفكير وتنقيب[2] ودراسة ، وحِلفَ تبيُّن ، وكان ذلك عادةً له ، لم يَفسِره النَّظرُ فى كلّ فنٍّ من الجدّ والهزل ؛ ليخرج بذلك من شكل إلى شكل . فإنّ الأسماعَ قد تَمَلُّ الأصوات المُطرِبة ، والأوتارَ الفصيحة ، والأغانىَّ الحسنة ، إذا طالَ ذلك عليها .

وقد رُوِى عن أبى الدّرداء رضى الله عنه أنه قال : « إنّى لأستجمُّ نفسى[3] ببعض الباطل مخافةَ أن أحملَ عليها من الحقّ ما يُملّها » .

وقد روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : « العلم أكثر من أن يُحصَى ، فخذوا من كلّ شىء أحسنَه » .

---

(١) واضحة فى الأصل بوضع علامة الإهمال تحت الحاء . والموقح : الذى أصابته البلايا فصار مجربا .

(٢) فى الأصل : « وتنقب » ، ونظيره فى الحيوان ٣ : ٦ « إلف تفكير وتنقير ، ودراسة كتب وحلف تبين » .

(٣) فى الحيوان ٣ : ٧ . « إنى لأجم نفسى » .

ورُوى عن الشَّعبي أنه قال: « إنّ القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة » .

وبعض من يُظهر النسك والتقشُّف إذا ذُكِر الحِرُ والأير والنَّيك تقزّز وانقبض . وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجلٌ ليس معه من المعرفة والكرم[١] ، والنُّبل والوقار ، إلّا بقدر هذا التصنُّع .

ولو علم أنّ عبد الله بن عباسٍ أنشد فى المسجد الحرام[٢] وهو مُحرِمٌ :

وهُنَّ يمشين بنا هميسا إنْ تَصدُقِ الطَّيْرُ ننكْ لَمِيسا[٣]

فقيل له : إنّ هذا من الرَّفَث ! فقال : إنما الرَّفَث ما كان عند النساء .

وقول علىٍّ رضوانُ الله عليه ودخل على بعض أهل البصرة ، ولم يكن فى حَسَبه بذاك[٤] ، فقال : مَن فى هذه البيوت ؟ فقال : عقائل من عقائل العرب . فقال : « مَن يَطُلْ أيرُ أبيه ينتطِقْ به[٥] » . ١٦٤ و

فعلىٌّ فى التَّنزُّه يُعوَّل[٦] .

---

(١) فى الحيوان ٣ : ٤٠ : « من العفاف والكرم » .

(٢) انظر حواشى الحيوان فى هذا الموضع .

(٣) الهميس : المشى الخفى الحس . ولميس : اسم امرأة .

(٤) فى الحيوان : « وقال بن أبى طالب بن أبى طالب رضى الله حين دخل على بعض الأمراء .

(٥) معناه من كثر اخوته اشتد ظهره وعزّه بهم . مجمع الأمثال ٢ : ٢٢٨ .

(٦) فى الأصل : « افعلى على فى المتزه معول » . وفى الحيوان ٣ : ٤٢ : « فعلى على رضى الله عنه يعول فى تنزيه اللفظ وتشريف المعانى » .

وقول أبى بكرٍ الصديق رضى الله عنه لبُديل بن وَرقاء يومَ الحديبيَة ، وقد تهدَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عَضِضتَ ببَظْر اللات ، أنحنُ نخذُله[1] ؟ ! » .

وقول حمزة بن عبد المطّلب رضى الله عنه : « وأنت يا ابنَ مقطِّعة البُظور ممن يكثِّر علينا ! » .

وحديثٌ مرفوع : « مَن عَذيرى من ابن أمِّ سِباع[2] مقطِّعة البُظور » .

ولو تتبّعتَ هذا وشبهَه وجدته كثيرا .

وإنّما وُضعت هذه الألفاظُ ليستعملها أهل اللغة ، ولو كان الرأى ألّا يُلفظَ بها ما كان لأوّلِ كونِها معنًى ، ولكان فى التّحريم[3] والصَّون للُغة العرب أن تُرفع هذه الأسماء والألفاظ منها .

وقد أصاب كلَّ الصَّواب من قال : « لكلِّ مقامٍ مقال[4] » .

ولو كان ممّن يتصوّف ويتقشّف، عَلِم قول امرأة رِفاعةَ القُرظى[5] تجَبَهُه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم غيرَ محتشِمة : إنّى تزوّجت عبد الرحمن

---

(١) انظر التعليق عليه فى حواشى الحيوان ٣ : ٤٢ .

(٢) سباع هذا ، هو ابن عبد العزى الغبشانى . السيرة ٦١١ . وكانت أمه ختانة بمكة . السيرة ٥٦٣ .

(٣) فى الحيوان ٣ : ٤٣ : « فى الحزم » .

(٤) الحيوان ٣ : ٤٣ وأمثال الميدانى ٢ : ١٣٢ .

(٥) رفاعة بن سموأل القرظى . الإصابة ٢٦٦٣ .

ابن الزَّبِير[١] ، وإنّما معه مثل هُدبة الثّوب[٢] ، وكنت عند رِفاعة فطلَّقنى ــ ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما يَزيد على التبسُّم[٣] حتى قضتْ كلامها ــ فقال : « تريدين أن تَرجعى إلى رفاعة ؟ لا ، حتّى تذوقى من عُسَيلته ويذوقَ من عُسَيلتِكِ[٤] » . ورَوَاه[٥] ابن المبارك عن مَعمر عن الزُّهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها ــ لعلم أنّه على سبيل التَّصَنُّع والرِّياء .

ولو سمعوا حديثَ ابن حازِمٍ حين زعم أنَّه يُقيمُ ذكَرَه ويصعد السُّلَّم وامرأتُه متعلِّقة بذكرِه حتّى يصعَد .

وحديثَ ابن أخى أبى الزِّناد إذْ يقول لعمِّه : أنَخَرُ عند الجماع ؟ قال : يا بُنىَّ إذا خلوتَ فاصنع ما أحببت . قال : يا عمِّ ، أتنخَرُ أنت ؟ قال : يا بنىّ ، لو رأيت عمَّك يجامع لظننتَ أنّه لا يؤمن بالله العظيم !

---

(١) عبد الرحمن بن الزَّبِير ، بفتح الزاى وكسر الموحدة ، ابن باطيا القرظى . الإصابة ٥١١٣ .

(٢) فى الأصل : « الثور » ، وهو تحريف عجيب ، صوابه فى صحيح مسلم ١٠٥٥ وابن ماجه ٦٢١ واللسان (هدب) ، قال : « أرادت متاعه وأنه رخو مثل طرف الثوب لا يغنى عنها شيئاً » . والحديث أيضا فى صحيح البخارى (كتاب الطلاق) ولفظه فيه : « فذكرت أنه لا يأتيها ، وأنه ليس معه إلا مثل هدبة » . وهو أيضاً فى (كتاب اللباس) بلفظ . « وإنه والله ما معه يا رسول الله إلا مثل هذه الهدبة ، وأخذت هدبة من جلبابها » ونظير هذا اللفظ فى مسلم ١٠٥٦ . وانظر الموطأ ٥٣١ .

(٣) فى الأصل : « على الزبير » ، صوابه من صحيح البخارى (كتاب اللباس : باب الإزار المهدب) .

(٤) كناية عن المخالطة . وقد بسط الكلام عليها فى اللسان (عسل) .

(٥) فى الأصل : « وروى » . وإنما هو إسناد للحديث السابق . وهو فى صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة .

وهذان من ألفاظ المُجّان .

ورُوى عن بعض الصّالحين من التابعين رحمهُ الله ، أنه كان يقول في دعائه : اللهمّ قَوِّ ذكرى على نكاح ما أحللتَ لى .

ونحن لم نقصد فى ذكرنا هذه الأخبارَ الردَّ على من أنكرَ هذه الأمور ، ولكنّا لما ذكرنا اختصام الشّتاء والصيف[1] ، واحتجاج أحدهما على صاحبه ، ١٦٤ واحتجاج صاحب المعز والضّأن بمثل ذلك[2] ، أحببنا أن نذكر ما جَرى بين اللاّطة والزُّناة ، وذكرنا ما نقل حُمّال الآثار ورَوَته الرُّواة ، من الأشعار والأمثال ،وإن كان فى بعض البَطالات[3] ، فأردنا أن نقدِّم الحُجّة لمذهبنا فى صدر كتابنا هذا .

ونعوذ بالله أن نقول ما يُوتِغ ويُردِى[4] ، وإليه نرغب فى التأييد والعصمة ، ونسأله السلامة فى الدِّين والدُّنيا برحمته .

* * *

قال (صاحب الغلمان) : إنّ من فضل الغلام على الجارية أن الجارية إذا وُصفت بكمال الحسن قيل : كأنّها غلام ، ووصيفةٌ غُلاميّة .

قال الشاعر يصف جارية :

لها قدُّ الغلام وعارِضـــاهُ وتفتير للبتّالة الّعـــوبِ

---

(١) ذكره ياقوت فى معجم الأدباء ١٦ : ١٠٧ بلفظ « كتاب افتخار الشتاء والصيف » .

(٢) يشير إلى ما أورده فى كتاب الحيوان ٥ : ٤٥٥ — ٥١١ .

(٣) البطالة ، بفتح الباء : الهزل . بَطِل يبطَل بَطالة .

(٤) أوتغه وأرداه : أهلكه .

وقال :

فطِبْ لحديثٍ من نديم موافقٍ وساقيةٍ بَيْنَ المُرَاهَقِ والحُلْمِ[١]

إذا هى قامت والسُّداسىَّ طالَها وبين النَّحيف الجسمِ والحسَن الجسمِ[٢]

وقال والبة بن الحُباب :

وميراثيَّـــــة تمشى اختيالاً من التكريه قاتلة الكلام[٣]

لها زِىُّ الغـــلام ولم أقِسْها إليه ولم أُقصِّر بالغـــلامِ

وقال عُـكَّاشة[٤] :

مطمومة الشَّعْر فى قُمُصٍ مزرَّرةٍ فى زىّ ذى ذكرٍ سيماهُ سِيماها[٥]

وأكثر من قول الشاعر قول الله عزّ وجلّ : ﴿ يَطُوفُ عليهمْ غِلمانٌ لهمْ كأنَّهمْ لؤلؤٌ مكنونٌ[٦] ﴾ وقال تبارك وتعالى : ﴿ يَطُوف عَلَيهمْ وِلْدانٌ مُخلَّدُونَ . بأكوابٍ وأبارِيقَ[٧] ﴾. فوصفَهم فى غير موضعٍ من كتابه ، وشوّقَ إليهم أوْلياءهُ .

١٦٥ و قال (صاحب الجوارى) : قد ذكر الله جلَّ اسمُهُ الحُورَ العينَ أكثرَ مما ذكر الوِلدان ، فما حجَّتك فى هذا إلا كحجَّتنا عليك .

---

(١) أى بين المراهقة والاحتلام .

(٢) السداسى : الذى طوله ستة أشبار .

(٣) كذا ورد البيت محرفا .

(٤) هو عكاشة بن عبد الصمد العمى ، من أهل البصرة ، من بنى العم وهو شاعر مقل من شعراء الدولة العباسية ، له ترجمة فى الأغانى ٣ : ٧٣ — ٧٧

(٥) طم شعره : جزه أو عض منه .

(٦) الطور ٢٤ .

(٧) الواقعة ١٧ — ١٨ .

ومما صان الله به النســاء أنّه جعل فى جميع الأحكام شاهدَين : منها الإشراكَ بالله ، وقتلُ النّفْس التى حرَّم الله تعالى ؛ وجَعَل الشهادةَ على المرأة إذا رُميت بالزِّنى أربعةً مجتمعِين غير مفترقين فى موضعٍ، يشهدون أنَّهم رأوه مثلَ المِيل فى المُـكحُلَة[١] . وهذا شىءٌ عَسِير ؛ لمـا إراد الله من إغماض هذا الحدّ[٢] إذ جعل فيه الشَّدخَ بالحجارة .

وإنّما خلق الله الرِّجال بالنساء .

وريحُ الجارية أطيَبُ ، وثيابُها أعطَر ، ومِشيتها أحسن ، ونَغْمتها[٣] أرقّ ، والقلوب إليها أمْيَل . ومتى أردتَها من قُدَّامٍ أو خَلْفٍ من حيث يحسُن ويحلّ وجدتَ ذلك كما قال الشاعر :

وصيفةٌ كالغُلامِ تصلح لل * أمرَينِ كالغُصنِ فى تثنِّيهـــا[٤]

أكملَها اللهُ ثم قالَ لهـــــا لما استَتَمَّتْ فى حُسنِها : إيها[٥]

قال : ونظر بعض الخاجِّ إلى جاريةٍ كأنها دُمية فى محراب ، قد أبدت عن ذراعٍ كأنه جُمّارة ، وهى تـكلَّمُ بالرَّفث ، فقال : يا هذه ، تـكلَّمين بمثل هذا وأنت حاجّة ! قالت : لستُ حاجّةً ، وإنما يحجُّ الجملُ ، ألست ترانى

---

(١) الميل : المرود يكتحل به .

(٢) يعنى حد الزنى . ووقعت فى نشرة شارل « الحكم » ، خطأ مخالفا الأصل .

(٣) فى الأصل : « ومشيها أحسن » والوجه ما أثبت . و فى نشرة شارل : « ونغمها » ، خلافا لما فى الأصل الذى لم ينبه عليه .

(٤) فى الأصل : « للغلام » ، وصححها شارل بدون تنبيه .

(٥) إيها بمعنى حسبك ، كما فى اللسان .

جالسةً وهو يمشي ! قال : ويحكِ ، لم أر مثلَك فمن أنت ؟ قالت : أنا من اللواتي وصفهنَّ الشَّاعر[1] فقال :

دَقّت وجَلّت واسـبَكَرّت وأُكمِلتْ
فلو جُنَّ إنسـانٌ من الحسن جُنّتِ

قال (صاحب الغلمان) : إنّ أحداً لا يدخل الجنّة إلا أمردَ ، كما جاء في الحديث : « إنّ أهلَ الجنّة يدخلونها جُرْدًا مكحَّلين » . والنِّساء إلى المُرْدِ أمْيَل ، وله أشهى ، كما قال الأعشى :

وأرى الغـوانيَ لا يواصلن امرأً
فَقَـدَ الشّبابَ وقد يَصِلْنَ الأمردا[2]

وقال امرؤ القيس :

فيارُبَّ يومٍ قد أروحُ مرجَّـلًا
حبيبًـا إلى البيض الأوانسِ أملسا[3]
أراهن لا يُحبِبـنَ مَن قَلَّ ماله
ولا مَن رأين الشَّيب فيـه وقوَّسا

١٦٥ ظ

---

(١) هو الشنفرى الأزدى . المفضليات ١٠٩ والحيوان ٣ : ١٠٨ والبيان ٣ : ٢٢٤ ومجالس ثعلب ٤٢٦ .

(٢) ديوان الأعشى ١٥١ برواية : « إن الغوانى » .

(٣) ديوان امرئ القيس ١٠٦ — ١٠٧ . وصواب روايته : «ويارب يوم» ، وفى الديوان أيضاً : « إلى البيض الكواعب » . والأملس : الناعم ، أو النقى من العيوب . وقبله :

فيارب مكروب كررت وراءه وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا

وقال عَلقمة بن عَبَدَة :

فإنْ تسألونى بالنِّساء فإنّنى بَصيرٌ بأدواء النِّساء طبيبُ[١]

إذا شابَ رأسُ المرء أو قلّ ماله فليس له فى وِدّهن نصيبُ

يُرِدْنَ ثَراءَ المالِ حيث علمنه وشَرخُ الشَّباب عندهنّ عجيبُ

قال (صاحب الجوارى) : فإنّ الحديث قد جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « حُبِّبَ إلىَّ النِّساء والطِّيب ، وجُعِلَ قُرَّةُ عينى فى الصَّلاة[٢] » . ولم يأت للغلمان مثلُ هذه الفضيلة . وقد فُتِن بالنساء الأنبياء عليهم السلام ، منهم داودُ ، ويُوسفُ ، عليهما السلام[٣] .

قال (صاحب الغلمان) : لو لم يكن من بليّة النساء إلّا أنّ الزِّنى لا يكون إلّا بهنّ[٤] ، وقد جاء فى ذلك من التغليظ ما لم يأتِ فى غيره فى الكتاب نصًّا ، وفى الروايات الصحيحة . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إنَّه كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا[٥] ﴾ ، وقال : ﴿ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ

---

(١) ديوان علقمة ١٣١ — ١٣٢ والمفضليات ٣٩٢ والبيان ٣ : ٢٣٩ والشعر والشعراء ١٧١ .

(٢) الجامع الصغير ٣٦٦٩ . والرواية : « جعلت » .

(٣) فى الأصل : « عليهم السلام » .

(٤) كذا وردت العبارة محذوفة الجواب ، ونحو هذا كثير فى الكتاب العزيز وكلام العرب .

(٥) فى الأصل : « فاحشة ومقتا وساء سبيلا » . وهو تحريف للآية ٣٢ من سورة الإسراء . وفى سورة النساء ٢٢ : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » . وانظر ما كتبت فى تحريف آيات القرآن فى كتابى تحقيق النصوص ص ٣٩ .

يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا[١] ﴾ ، وقال : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ[٢] ﴾ . وقد جعل بينهما[٣] إذا لم يكن شهودٌ التلاعُنَ والفُرقة في عاجل الدُّنيا ، إلى ما أعدَّ للكاذب منهما[٤] من اللَّعن والغضب في الآخرة .

قال (صاحب الجوارى) : ما جَعَل الله من الحدّ على الزّانى إلّا ما جعل على اللُّوطىّ مثلَه . وقد رُوى عن على بن أبى طالبٍ رضى الله عنه ، أنّه أُتِىَ بلُوطىٍّ ، فأصعِدَ المئذنةَ ثم رُمِىَ منكَّساً على رأسه ، وقال : « هكذا يُرمَى به فى نار جهنّم » .

وحُدِّث عن أبى بكر ، رضى الله عنه ، أنّه أُتِىَ بلوطىٍّ فعرقَبَ عليه حائطا[٥] .

وحديث أبى بكر أيضاً رضى الله عنه ، أنّ خالد بن الوليد كتب إليه فى قومٍ لاطُوا ، فأمر بإحراقهم .

١٦٦ و وأحرقهم هشام بن عبد الملك ، وأحرقهم خالد بن عبد الله بأمر هشام .

وفى حديث مجاهد أنّ الذى يعمل عمَلَ قومِ لُوطٍ لو اغتسلَ بكلِّ قطرةٍ من السّماء وكلِّ قطرة فى الأرض لم يزَلْ نجِسًا .

---

(١) الفرقان ٦٨ — ٦٩ .

(٢) النور ٢ .

(٣) فى الأصل : « بينهم » .

(٤) فى الأصل : « منها » .

(٥) أصله عن عرقب الدابة : قطع عرقوبها ، وهو فى رجلها بمنزلة الركبة فى يدها . والمعنى هدم عليه جدارا .

قامت تثنَّت ، وإذا تكلَّمتْ تغنَّتْ ، تُقبِل بأربعٍ وتُدبِرُ بثمانٍ[1] ، وبين رجليها كالإناء المكفوء ، فزوِّجيها عُمرَ ابنَكِ» . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد تغاغلتَ فى النظر ياعدوَّ الله[2] ، وما ظننتُك من ذوِى الإربة[3] ! » ، فنفاه عن المدينة .

قال (صاحب الغلمان) : من عيوب المرأة أنّ الرجلَ إذا صاحبَها شيَّبتْ رأسَه ، وسهَّكت ريحَه ، وسوَّدت لونَه ، وكثُر بولُه . وهنّ مصايد إبليس وحبائلُ الشيطان ، يُتعِبن الغنيَّ ، ويكلِّفن الفقير ما لايجد . وكم من رجلٍ تاجرٍ مستُورٍ قد فلَّسته امرأتُه حتّى هامَ على وجهه ، أو جلسَ فى بيته ، أو أقامته من سُوقه ومَعاشه .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النِّساء[4] » .

قال (صاحب الجوارى) : قد جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تزوَّجوا فإنِّى مُكاثرٌ بكم الأممَ[5] » .

وجاء عنه : « إذا قضيتُم غزوَكم فالكَيْسَ الكَيْسَ » . يعنى النكاح .

---

(١) الإربة : البُغية فى النساء وطلبهن .

(٢) تقبل بأربع ، يعنى عكن بطنها ، أنها أربع . وتدبر بثمان ، يعنى أطراف العكن من عن يمين وشمال : أربع وأربع . انظر هذا التفسير النادر فى فتح البارى . وفى اللسان (ستت) : «تمشى على ست إذا أقبلت ، وعلى أربع إذا أدبرت» . وانظر اللسان (سدس) أيضا .

(٣) وقع فى نشرة شارل : « يا عبد الله » ، خلافا لما أثبت واضحا فى الأصل .

(٤) الحديث فى الجامع الصغير ٧٨٧١ .

(٥) الجامع الصغير ٣٢٨٧ .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « مِسكينٌ مِسكينٌ رجلٌ لا زوجةَ له . مسكينةٌ مسكينةٌ امرأةٌ لا بعلَ لها » .

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم : « تزوّجوا والتمِسُوا الولدَ ؛ فإنّهم ثمراتُ القلوب . وإيّاكم والعَجُزَ العُقُر » . ٦٦

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثرَ أهلِ عصره نساء ، وكذلك كانت الأنبياء عليهم السلامُ قبله .

وقد أنبأكَ الله عزّ وجلّ بخبر داود عليه السلامُ فى القرآن ، وما روى أنّه كان لسليمان عليه السلام .

وقد تزوّج ابنُ مسعودٍ فى مرضه الذى مات فيه .

وقال مُعاذ : زوِّجونى لا ألقى الله تعالى وأنا عَزَب[1] .

ورُوى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : إنى لَأُجْهِد نَفسى فى النِّكاح حتى يُخرِجَ الله منّى نسمةً تسبِّحه[2] .

وروى أنه قال : عليكم بالأبكار الشّوابَ ؛ فإنهنَّ أطيبُ أفواهًا ، وأنْتق أرحاما[3] .

والحديث فى هذا أكثر من أن نأتىَ عليه .

---

(١) نحوه ما جاء فى البخلاء ١٣٢ — ١٣٣ . « وقد قال أبو الدرداء فى وجعه الذى مات فيه : زوجونى فإنى أكره أن ألقى الله عَزبا » .

(٢) قرأها شارل : « شبهة بشيخه » ، مع وضوح ما أثبت من الأصل .

(٣) الجامع الصغير ٥٥٠٧ — ٥٥٠٩ . واللسان (نتق) . أنتق أرحاما : أكثر أولادا ، وأصل النتق الرمى ، يقال للمرأة ناتق لأنها ترمى بالأولاد رميا . وفى الأصل : « أفتق » ، تصحيف .

قال (صاحب الغلمان) : إنّ من عيوب الجوارى أنّ الرجل إذا اشترى الوصيفةَ إلى أن يستبرئها محرَّمٌ عليه[1] أن يستمتع بشىء منها قبل ذلك ، والوصيف لا يحتاج إلى ذلك . وقد قال الشاعر :

فديتُكَ إنّما اخترناكَ عَمْدًا لأنك لا تحيض ولا تَبِيضُ

وقد جاء فى الحديث أنّ الزِّنى فيه ست خصال : ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الأخرى . فأما التى فى الدنيا فيذهب بالبهاء ، ويعجِّل الفناء ، ويقطع الرِّزق من السماء . وأمّا اللواتى فى الآخــرة فالحسابُ ، والعذاب ، ودخول النار .

ورُوى عن مجاهدٍ ، قال : إنّ لأهل النار صرخةً من ريح الزُّناة .

وقالوا : إن أهل النار ليتأذَّونَ بِرِيح الزُّناة .

قال (صاحب الجوارى) : لم نسمع بعاشقٍ قَتَلَهُ حبُّ غلام . ونحن نعدُّ من الشّعراء خاصةً الإسلاميِّين جماعةً ، منهم جَميل بن مَعْمَر قتله حبُّ بُثينة ، وكُثيِّر قتله حبُّ عَزّة ، وعُرْوة[2] قتله حبّ عفراء ، ومجنون بنى عامر هيَّمْته ليلى ، وقَيس بن ذَرِيح قتلته لُبْنى ، وعبد الله بن عَجْلان[3]

---

(١) فى الأصل : « محرمة عليه » . والاستبراء : ألا يمسها حتى يستبرئها بحيضة ، أى يعلم براءتها من الحمل . قرأها شارل « يشتريها » خطأ .

(٢) عروة بن حزام العذرى . الشعر والشعراء ٦٠٤ — ٦١٠ والأغانى ٢٠ : ١٥٢ — ١٥٨ والخزانة ١ : ٥٣٣ — ٣٥٦ وتزيين الأسواق ٧٠ .

(٣) عبد الله بن عجلان النهدى ، شاعر جاهلى . يقول فى هند :

ألا إن هندا أصبحت منك محرما وأصبحت من أدنى حموتها حما

الشعر والشعراء ٦٩٥ . وانظر الأغانى ١٩ : ١٠٢–١٠٥ وتزيين الأسواق ٧٦ .

قتلتْه هند ، والغمر بن ضرار قتلتْه جُمْل . هؤلاء من أحصينا ، ومن لم نذكر أكثر .

٧. قال (صاحب الغلمان) : لو نظر كثيِّر وجميلٌ وعروةُ ، ومَن سمَّيتَ من نظرائهم ، إلى بعضِ خَدَم أهل عصرنا ممن قد اشتُرِىَ بالمال العظيم فَراهة وشَطاطاً[١] ونقاء لون ، وحُسنَ اعتدالٍ ، وجَودةَ قدّ وقَوام ، لنبذوا بُثَينة وعَزّة وعَفْراء من حالقٍ[٢] ، وتركوهُنّ بمزجَرِ الكلاب . ولكنك احتججتَ علينا بأعرابٍ أجلافٍ جُفاة ، غُذُوا بالبؤس والشَّقاء ونشؤوا فيه ، لا يعرفون من رَفَاغة العَيش[٣] ولذاتِ الدنيا شيئاً ، إنّما يسكنون القِفارَ ، وينفِرون من الناس كنُفور الوحش ، ويقتاتون القنافذَ والضِّباب ، وينقُفُون الحنظل[٤] ، وإذا بلَغ أحدُهم جُهْدَهُ بكى على الدِّمنة ونعَت المرأة ، ويشبّهها بالبقرة والظَّبية ، والمرأةُ أحسنُ منهما . نعم حتّى يشبِّهها بالحيّة ، ويسمِّيها شوهاء وجرباء ، مخافة العين عليها بزَعمه .

فأمّا الأدباء والظرفاء فقد قالوا فى الغلمان فأحسنوا ، ووصفُوهم فأجادوا ، وقدّموهم على الجوارى ، فى الجدّ منهم والهزل .

---

(١) الشطاط ، كسحاب : الطول واعتدال القوام ، وقيل حسن القوام .

(٢) الحالق : الجبل العالى . وفى الحديث : « فهممت أن أطرح بنفسى من حالق » .

(٣) الرفاغة : رغد العيش وطيبه .

(٤) ينقفون الحنظل : يشقونه عن الهبيد ، وهو حبه يستخرجونه ليأكلوه . وجعلها شارل : « وينفعون » بالعين ! وانظر الحيوان ٥ : ٤٤٣ .

وقال الشاعر يصف الغلام :

شـــبيهٌ بالقَضيبِ وبالـكثيب غريبُ الحسن في قدٍّ غريبِ
بَرَاه الله بدرًا فوقَ غصنٍ ونِيطَ بحقوه دِعصُ الـكثيبِ[1]
أغَنُّ تولَّدُ الشَّهواتُ منـــه فما تَعدوه أهواءُ القـــلوبِ
وما اكتحلت به عينٌ ففاتت مسلَّمَةَ الضَّمـــيرِ من الذُّنوبِ
شغَلتُ به الهَوَى ونَزَعْتُ عنه ولم أدنَس به دَنَسَ المُرِيبِ

وقال آخر :

كلِفتُ بظَـــبيٍ له ســـوالفُ أُدمانهْ[2]
قضـــيبٌ على رَمْـلةٍ على شُـــعبتَيْ بانه
له لحـــظُ وحشـيَّةٍ وألفـــاظُ إنســانَه

وقال أبو نواس :

سَقْيًا لغير العليـــاء والسَّنَدِ وغـــيرِ أطلال مَيَّ بالجَرَدِ[3]
ويا صبيبَ السَّحاب إن كنت قد جُـــدتَ اللِّوَى مرةً فلا تعُدِ
لا تَســقيَنْ بلدةً إذا عُدَّت الـ بُلدانُ كانت زيادةَ الـكبِدِ[4]

---

(١) الدعص : قوز من الرمل مجتمع . وفى الأصل . « دعص كثيب » .

(٢) الأدمانة ، بضم الهمزة : الظبية الخالصةالبياض ، ومثلها فى وزنها الخُصانة . وقد أنكر الأصمعى الأدمانة مع ورودها فى شعر ذى الرمة .

(٣) الجرد : جبل فى ديار بنى سليم . وفى الأصل : «بالجدد» ، صوابه فى ديوان أبى نواس ٢٦٥ .

(٤) زيادة الـكبد : هنة متعلقة منها تزيد على سطحها . وفى الأصل : «الـكمد» صوابه من الديوان .

١٦٧

إنْ أتحرّزْ من الغُـــراب بها يكن مَفَرِّى منه إلى الصُّرَدِ[١]

بحيث لا تجلب الفِجاجُ إلى أذنيك إلاَّ تَصـايُحَ النَّقَدِ[٢]

أحسنُ عندى من انكبابك بالـ فِهر مُلحَّـــا به على وتدِ[٣]

وُقوفُ ريحـــانةٍ على أُذنٍ وسَـيرُ كأسٍ إلى فمٍ بيـدِ

يَسقيكها من بنى العِباد رشاً منتسبٌ عِيـدُه إلى الأحدِ[٤]

إذا بنى الماء فوقها حَبَبًا صلَّبَ فوق الجبين بالزَّبَدِ

أشربُ من كفِّه الشمول ومن فيه رُضاباً [يجرى] على بَرَدِ[٥]

فذاك خيرٌ من البكاء على الـ رَّبعِ وأَشْفَى فى الرُّوح والجسَدِ

قال (صاحب الجوارى) : فقد قال أبو نُواسٍ الحكَمىُّ شاعركم أيضاً :

لا تبكِ ليـــلَى ولا تطرَبْ إلى هنــدِ

واشربْ على الوردِ من حمـــراءَ كالوردِ

---

(١) فى الأصل : « إذا تحدى مر الغراب بها » ، صوابه من الديوان . والصرد بضم ففتح طائر فوق العصفور .

(٢) الفجاج : جمع فج ، وهو الطريق الواسع . وفى الديوان : « الرياح » . والنقد : صغار الغنم ، واحدتها نقدة .

(٣) فى الديوان : « على الوتد » .

(٤) العباد : قوم من قبائل شتى من بطون العرب ، اجتمعوا على النصرانية ونزلوا بالحيرة .

(٥) الشمول : الخمر . وفى الأصل : « من كفه رضابا » ، صوابه فى الديوان . وكلمة « يجرى » ساقطة من الأصل . وفى الديوان : « تجرى » .

كأساً إذا انحدرتْ في حَلْقِ شاربِهــا
رأيتَ حمرتَهـا في العين والخــدِّ(١)

فالخمــــــر ياقوتةٌ والـكأسُ لؤلؤةٌ
من كفِّ لؤلؤةٍ ممشـــوقة القدِّ(٢)

تَسقيك من عَينهـا ســحراً ومن يدها
خمراً فما لك من ســكرينِ من بُدِّ(٣)

لى نَشوتانِ وللنَّدمانِ واحـــدةٌ
شيءٌ خُصِصتُ به من بينهم وحدى(٤)

وقال أيضاً :

دع عنك لَومى فإنَّ اللومَ إغراءُ ... وداوِنى بالتى كانتْ هى الداءُ(٥)
صَفراءُ لاتَنزِلِ الأحزانُ ساحتَها ... لو مَسَّها حجـــرٌ مسَّته سَرَّاءُ
من كفِّ ذاتِ حِرٍ في زِىِّ ذى ذكر ... لهـــا مُحِبَّانِ : لوطىٌّ وزنَّاءُ
قامت بإبريقها والَّليلُ معتكرٌ ... فَظَلَّ من وجهها فى البيت لألاءُ(٦)

---

(١) فى الديوان ٢٦٥ : « أجدته حمرتها » .

(٢) فى الديوان : « فى كف جارية » .

(٣) فى الديوان : « من يدها خمرا ومن فمها » .

(٤) الندمان ، بالفتح : النديم على الشراب ، يكون مفرداً ويكون جمعا كما هنا فى البيت .

(٥) ديوان أبى نواس ٢٣٤ .

(٦) فى الديوان : « فلاح من وجهها » .

فأرسلتْ من فم الإبريق صافيةً   كأنَّما أخذُها بالعين إغفاءُ[١]

فى فتيةٍ زُهُــــرٍ ذلَّ الزمانُ لهم   فما يصيبُهمُ إلاّ بمـا شاءوا[٢]

لِتلك أبكى ولا أبــكى لمنزلةٍ   كانت تكون بها هندٌ وأسماءُ[٣]

١٦٨

[قال صاحب الغلمان[٤]] . . . . . وقال النظام :

بانَ بك الشَّــكل والنَّظيرُ   وجلَّ عن وصفك الضَّميرُ[٥]

فليس يُخطِيكَ فى امتحــانٍ   صغـــيرُ أمرٍ ولا كبـــيرُ

خُلِقتَ من مثلِ لا عِيــانٍ   جسماً على أنَّه منـــيرُ

فأنت عنــد المَجَسِّ نارٌ   وأنت عنــد اللَّحاظ نورُ[٦]

وقال أبو هشامٍ الخرَّاز :

يا مَن تعدَّى العبادَ من شَبَهِهِ   لمَّا قَصُرنَ الصِّفاتُ عن كُنهِهِ

ويا غــــزالاً يَسبِى بلحظَتهِ   مكتحِلاً راحَ أو على مَرهِهِ[٧]

يَجعَلُ قتـــلَ النُّفوس نزهتَه   يوشكُ يُفنِى النُّفوسَ فى نُزَهِهِ

لبَّيك داعٍ دعَا فقلتُ له   والقَلبُ فى كربه وفى ولَهِهِ

---

(١) فى الأصل : « كأنها أخذها » ، وأثبت ما فى الديوان .

(٢) فى الديوان : « دارت على فتية دار الزمان بهم » .

(٣) فى الديوان : « كانت تحل بها » .

(٤) ليست فى الأصل .

(٥) يقول : بَعُد أن يكون لك مشاكل أو مناظر . وفى الأصل : « والضطير » ، والوجه ما أثبت .

(٦) فى الأصل : « عند المجس نور » ، والوجه ما أثبت

(٧) المرَهُ : ضد الكحل . وامرأة مرهاء : لا تتعهد عينها بالكحل .

هذا فـــؤادى أتاكَ مبتدعاً طَوعاً ولم يأتـكمْ على كُرْهِهِ

يَشرَهُ منكم إلى مواصـلةٍ يا بُوسَ قلبٍ يذوبُ من شَرهِهِ

فالآن قل للخيال يطرقُ مَنْ أعيا عليه وِصـــالُ منتبِهِهْ

وقال الحـكَمى[1] :

رَسْمُ الـكَرَى بين الجفون مُحِيلُ عفّى عليه بُـكاً عليكَ طويلُ

يا ناظـــراً ما أقلعَتْ نظراتُه حتّى تشحَّطَ بينهنَّ قتيلُ[2]

أحللتُ من قلبى هــواكَ محلَّةً ما حلَّهــا المشروبُ والمأكولُ

وقال أيضاً :

لى حبيبٌ كلَّمـــــا زاد فى جفـــوتهِ لى كان أشْهَى

هو وجـــهٌ كلُّه فى كلِّ ما نَظرتْ عيناكَ منه كان وجها

وكذا الدُّرّةُ لا يَدرِى الفـــتى أيُّهـا من أيّهـا فى العَينِ أبهى

وقال أيضاً :

١٦٨ ظ

أفنيتُ فيكَ معانىَ الشـكوى وصفاتِ ما ألقى من البـلوى[3]

قلَّبتُ آفاقَ الـكلام فما أبصرتُنى أغفلت عن معنى

وأعدُّ ما لا أشـــتكى عَبَثاً فأعودُ فيـــه مرّةً أخرى[4]

---

(١) أبو نواس . ديوانه ٣٨٨ ، يقوله فى صاحبته « جنان » . فالاستشهاد به هنا فى غير موضعه .

(٢) فى الديوان : « ما أقلعت لحظاته » . تشحط فى دمه وبدمه : تخبط فيه واضطرب .

(٣) هى أول مقطوعة فى غزل المذكر من ديوان أبى نواس ص ٤٠٢ .

(٤) كذا فى الديوان . وفى الأصل : « مالا أشتهى عبثا » .

فلو أنّ ما أشكو إلى بشرٍ لأراحنى ظنّى من الشكوى
لكننى أشكو إلى حجرٍ تنبو المعاولُ عنه بل أقسَى[1]

فهذا وشبهه من الشعر كثير.

وإذا جئتَ إلى أصحاب الهزْل كقول بعضهم ممّن ذمّ النساء:

هذه الخمرُ فاشربِ واسقنى يا ابنَ مصعبِ[2]
اسقنيها وغنِّنى: مَن لقلبٍ معذَّبِ
طمِعَتْ فىّ طَفْلَةٌ ربَّ راجٍ مجنَّبِ[3]
قلتُ لمّا رأيتها أسفرَتْ لى: تنقَّبى
لستُ والله مُدخِلًا إصبَعى جُحْرَ عقربِ

وقال آخر:

لا أبتغى بالمُردِ مطمومةً ولا أبيع الظّبىَ بالأرنبِ[4]
لا أدخِل الجُحْرَ يدى طائعًا أخشى من الحَيّة والعَقربِ

وقال آخر:

ليس لى فى الحِرِّ حاجه نيكُه عندى سَماجه[5]

---

(١) فى الديوان: «منه أو أقسى».

(٢) هذا البيت وتاليه فى ديوان أبى نواس ٢٤٨ برواية:

اسقنى يا ابن مصعب من سلافات زرنب
اسقنيها وغنِّنى: مَنْ لصب معذب

(٣) الطفلة، بالفتح: الرخصة الناعمة الرقيقة.

(٤) المطمومة، سبق تفسيرها فى ص ٩٦.

(٥) الحر بكسر الحاء وتشديد الراء كما ضبط فى الأصل: لغة فى الحر =

ما يَنيكُ الحرّ إلّا كلُّ ذى فقرٍ وحاجه
فإذا نكتم فنيكوا أمرداً فى لون عاجه

وقال يوسف لَقْوه[1] :

ما يساوى نَيكُ أنثى عند أيرى بَعرتَينِ
إنّما نَيكُ الجوارى حَلُّ دَيْنٍ بعدَ دينِ
١٦٩ و ليس للأيرِ حياةٌ غيرَ ريحِ الخصيتَينِ

وهو الذى يقول :

وعلى اللُّواط فلا تلُومَنْ كاتبًا إنّ اللُّواط سجيّةٌ فى الكاتبِ
ولقد يتُوب مِن المحارم كلّها ، وعن الخُصَى ما عاش ليس بتائب

وقال الحكَمىّ :

لَلَطمةٌ يلطِمنى أمردٌ تأخذُ منّى العينَ والفكّا[2]
أطيبُ من تُفّاحةٍ فى يدى معضوضةٍ قد ملئتْ مِسْكا

وقال آخر :

إنْ تَزنِ محصَنَةٌ تُرجَمْ علانيَةً وإن يَلُطْ عَزَبٌ لا يُرجمِ العَزَبُ

= بالتخفيف ، وهو الهن ، كما فى اللسان (حرح) . وأصله حرح ، فحذفوا الحاء الأخيرة وشددوا الراء .

(١) فى الأصل : «أبو يوسف لقوة» صوابه ما أثبت . وهو يوسف بن الحجاج الصيقل ، والصيقل لقب أبيه فيقال أيضاً يوسف بن الصيقل ، ولقوة لقب يوسف . وكان كاتباً مولده ومنشؤه بالكوفة ، وكان يصحب أبا نواس ويأخذ عنه ويروى له وكان فاسقا مجاهرا باللواط . وله أخبار مع هارون الرشيد . الأغانى ٢٠ : ٩٣-٩٦ .

(٢) لم أجده فى ديوان أبى نواس .

وقال آخر :

أيسرُ ما فيـــه من مفاضَلةٍ أمْنُكَ من طَمثِه ومن حَبَـلِه

وهذا قليلٌ من كثيرٍ ماقالوا ، فقد قالت الشعراء فى الغلام فى الجدِّ والهزل فأحسَنُوا ، كما قالت الشعراء فى الغَزَل والنَّسيب ، ولا يَضِير[1] المحسنَ منهم أقديمًا كان أو محدَثًا .

قال (صاحب الجوارى) : أمّا أنت فحيث اجتهدتَ واحتفلتَ جئت بالحكَمىّ ، والرَّقاشىّ ، ووالبة ، ونظرائهم من الفُسَّاق والمرغوب عن مذهبهم ، الذين نبغوا فى آخر الزمان ، سُقّاطٌ عند أهل المروءات ، أوضاعٌ عند أهل الفضل[2] ؛ لأنّهم وإن أسهبوا فى وصف الغلمان ، فإنما يمدحون اللِّواطَ ويُشِيدون بذكره .

وقد علمتَ ما قال الله تبارك وتعالى فى قوم لوطٍ ، وما عجّل لهم من الخزى والقذف بالحجارة ، إلى ما أعَدَّ لهم من العذاب الأليم . فمن أسوأُ حالًا ممن مَدَحَ ما ذمَّه الله ، وحَسَّنَ ما قبّح ! وأين قول من سمّيتَ من قول الأوائل فى الغزل والنَّسيب والنساء ! وهل[3] كان البكاء والتشبيب والعويل إلا فيهنَّ وعليهنّ ، ومن أجلهنّ ! وهل ذمّت العرب الشَّيبَ مع الخصال المحمودة التى فيه

---

(١) فى الأصل : « ولا يضر » .

(٢) الأوضاع : أراد به جمع الوضيع ، كما الأشراف جمع شريف ، وهو جمع لم يرد فى المعاجم .

(٣) الأصل : « وكل » .

١٩٦ظ إلا لكراهتهنّ له . قال شاعر الشعراء من الأوّلين والآخرين ، امرؤ القيس :

أراهُنّ لا يُحْبِبن من قَلّ ماله
ولا مَن رأينَ الشَّيبَ فيه وقوّسا[1]

وقال علقمة بن عَبَدة الفحلُ ، وكان نظيرَ امرئ القيس فى عصره :

إذا شابَ رأسُ المرء أو قلّ ماله فليس له فى ودّهنّ نصيبُ[2]
يُردْنَ ثَراءَ المال حيث علمْنَه وشَرخُ الشّبابِ عندهُنّ عجيبُ

وما قالت القدماء فى النسيب أكثرُ من أن نأتىَ عليه . وأين قولُ من ذكرتَ فى صفات الغلمان من قول امرئ القيس فى التشبيب حيث يقول :

وما ذَرفتْ عينــاكِ إلّا لتضربى
بسَهميكِ فى أعشــارِ قلبٍ مقتّــلِ[3]
أغــرّكِ منّى أنّ حُبّــكِ قاتلى
وأنّكِ مهمــا تأمرى القلبَ يفعــلِ

وقول الأعشى :

لو أسندَتْ ميّتــا إلى نحرها عاشَ ولم يُنقَــل إلى قابرِ[4]

---

(١) ديوان امرئ القيس ١٠٨ . وقد سبق فى ص ٩٨

(٢) ديوان علقمة ١٣٢ والمفضليات ٣٩٢ .

(٣) البيتان من معلقته . وانظر الميسر والأزلام من تأليفنا ص ٢٥ — ٣١ ففيه بحث مسهب .

(٤) ديوان الأعشى ١٠٥ .

حتّى يقــولُ الناس مما رأوا يا عجبًــــا للقاتلِ النـــاشرِ

وقال جرير :

إنّ الذين غَدَوْا بلبِّك غادروا وشَلًا بعينك لا يزالُ مَعِينا[1]

غَيَّضْنَ من عَبَراتهنَّ وقلنَ لى ماذا لقِيتَ من الهـوى ولقينا

وقال جميل :

خليـــلىَّ فيما عشتما هل رأيتُما قتيلًا بكى من حبِّ قاتِلِهِ قبلى[2]

وقال القُطامىّ :

يقتُلننا بحديثٍ ليس يعلمُــه مَن يتّقين ولا مكنونُه بادى[3]

فهنّ يَنبِذنَ من قولٍ يُصبْن بهِ مَواقعَ الماء من ذى الغُلّة الصادى

فهؤلاء القدماء فى الجاهلية والإسلام ، فأين قول من احتججتَ به من قولهم !

ولا نعلم أحداً قال فى الغلام ما قال الحكَمىّ وهو من المحدَثين . وأين يقع قوله من قول الأوائل الذين شبّبوا بالنساء ! فدَعْ عنك الرَّقاشىّ ووالبة والخرّاز[4] ومن أشبههم ؛ فليست لك علينا حجّة فى الشعراء . ١٧٠ و

---

(١) ديوان جرير ٥٧٨ . وقد ورد البيتان فى الأصل بتقديم ثانيهما على أولها ، والوجه ما أثبت من الديوان .

(٢) ديوان جميل ١٧٦ .

(٣) ديوان القطامى ٨ .

(٤) سبق فى ص ١٠٩ باسم « أبو هشام الخراز » .

وأخرى : ليس من قال الشعر بقريحته وطبعه واستغنى بنفسه ، كمن احتاج إلى غيره يطردُ شِعْرَه[1] ، ويحتذى مثالَه ، ولا يبلُغ مِعشَاره .

قال (صاحب الغلمان) : ظَلمتَ فى المناظرةِ ولم تُنصِف فى الحجَّة ؛ لأنا لم ندفع فضلَ الأوائل من الشعراء ، إنّما قلنا إنهم كانوا أعراباً أجلافاً جُفاةً ، لا يعرفون رقيقَ العيش ولا لذَّاتِ الدنيا ؛ لأنَّ أحدَهم إذا اجتهد عند نفسه شبَّه المرأة بالبقرة ، والظبية ، والحيّـة . فإنْ وصفَها بالاعتدالِ فى الخلقة شبّهها بالقضيب ، وشبَّه ساقَها بالبَرْدِيّة ؛ لأنّهم مع الوحوش والأحناش نشؤوا ، فلا يعرفون غيرها .

وقد نعلم أنّ الجارية الفائقة الُحسنِ أحسنُ من البقرة ، وأحسنُ من الظَّبية ، وأحسن من كلِّ شيء شُبِّهَتْ به .

وكذلك قولهم : كأنَّها القمر ؛ وكأنّها الشمس ؛ فالشَّمس وإن كانت حسنةً فإنما هى شىء واحد ، وفى وجه الإنسان الجميل وفى خلقهِ ضروبٌ من الُحسن الغريب ، والتركيب العجيب . ومن يشكُّ أنّ عينَ الإنسان أحسنُ من عين الظَّبى والبقرة ، وأن الأمر بينهما متفاوت !

وهذه أشياء يشترك فيها الغلمانُ والجوارى ، والحجَّة عليك مثلُ الحجّة لك فى هذه الصفات .

وأمّا احتجاجُك علينا بالقرآن والآثار والفقهاء ، فقد قرأنا مثل ما قرأت ، وسَمِعْنا من الآثار مثلَ ما سمعت . فإن كنت إلى سرور الدُّنيا تذهب ، ولذّاتها تريدُ ، فالقولُ قولُنا . كما قال الشاعر :

---

(١) الطرد والاطراد : الاصطياد ، والمراد التتبع .

ما العيش إلّا فى جُنون الصِّبا فإنْ تولى فزمانُ المُـدامْ
كأسًا إذا ما الشيخُ والَى بها خمسًا تردَّى برداء الغـلامْ

وإن كنتَ إلى التقشُّف والتزهيد فى اللَّذَّاتِ تَعمِد فترْكُ جميع الشَّهوات من النساء وغيرهنّ أفضل . فإنْ أنصفتَ فأْتِنا بمثل حجّتنا . فأمّا أن تتلو علينا القرآنَ وتأتيَنا بأحاديثَ أَلّفتَها فهذا منك انقطاع . ومَثَلنا ومثلك فى ذلك مَثَلُ بَصرىٍّ وكوفىٍّ تفاخَرا بعدد أشراف أهل البصرة وأشراف أهل الكوفة ، فقال البصرىّ للكوفىّ : ١٧٠ ظ

هاتِ فى أربعِ قبائل الكوفة مثلَ أربعة رجالٍ بالبصرة فى أربع قبائل : فى تميم الكوفة مثل الأحنف ، وفى بكر الكوفة مثل مالك بن مسمع ، وفى قيس الكوفة مثل قتيبة بن مسلم ، وفى أزد الكوفة مثل المهلب .

فقال الكوفىّ : مِخنف بن سُليم من أزد السَّراة ، وهم أشرف من أزد عُمان .

فقال البصرىّ : إنا لم نكن فى شرف القبائل وفرقِ ما بينهما[1] ، فإنما ذكرنا المهلّبَ بنفسه ، وما علمتُ أن أحداً يبلغ من جهله أن يفخر بمخنف ابن سليم فيفضّله على المهلب . وأخْمَل رجل من ولد المهلّب أشهر فى الولايات وفى الفرسان وفى الناس من مخنف . والمهلّب رجلٌ ليس له بالعراق نظيرٌ يقاومه ، ومناقبه وأيّامه وفتوحُه أكثر وأشهر من أن يجوز لنا أن نجعله إزاء مِخْنف . وما زالوا يقولون : « بصرة المهلّب » . ولو لم يكن للمهلّب إلّا أنه

(١) أى بين أزد السراة وأزد عمان ، أو لعلها : « بينها » أى بين القبائل .

وَلَدَ يزيدَ بن بن المهلّب كان كافيا[١] . ونحن إذا قلنا : ليس فى قيس الكوفة مثل قتيبة بن مسلم[٢] ، قال قائل : فزارة أشرف من باهلة . قلنا : ليس هذه معارضة ؛ فإنّما المعارضة أن تذكر أسماء بن خارجة ثم تقول ونقول ، فنذكر فتوح قتيبة العِظام ، والشّهامة والنفسَ الأبية ، والشّجاعةَ والحزمَ والرأى ، والوفاء ، وشرفَ الولاية ، ونذكر سُودَدَ أسماء ، وجودَه ونوالَه . فأمّا أن نتخطّى أنفسَهما إلى قبائلهما كما تخطّيتَ[٣] بدنَ المهلّب وبدن مِخنف إلى أَزْدِ عمانَ وأزدِ السَّراة ، فهذا ليس من معارضة العلماء .

وكذلك إذا ذكرنا عُبّادَ البصرة وزُهّادَها ونُسّاكها فقلنا : لنا مثل عامرِ ابن عبد قيس ، وهَرِم بن حَيّان[٤] ، وصِلَةَ بن أَشْيَم[٥] . قلتَ : فعُبّاد

(١) انظر جمهرة أنساب العرب ٣٦٧ — ٣٧٠ .

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلى عامل الحجاج على الرى ثم خراسان ، قام بأعمال جليلة فى الفتح الإسلامى ، وقتل غدراً بفرغانة سنة ٩٦ فقال فيه بعض الأعاجم : يامعشر العرب ، قتلتم قتيبة ! والله لو كان قتيبة منّا فمات فينا جعلناه فى تابوت ، فكنا نستفتح به إذا غزونا . المعارف ١٧٨ — ١٧٩ والطبرى فى حوادث سنة ٩٦ .

(٣) فى الأصل : « تخطأت » ، صوابه ما أثبت . وفى اللسان : « ولا يقال تخطأت » ، وهو دليل أنها كانت مستعملة فى لغة العامة .

(٤) هرم بن حيان العبدى ، أحد عمال عمر ، وبعثه عثمان بن أبى العاص إلى قلعة بجرة فافتتحها عنوة سنة ٣٦ . الإصابة ٤٩٤٧ وصفة الصفوة ٣ : ٣٧ . وانظر البيان ١ : ٣٩٣ .

(٥) هو أبو الصهباء صلة بن أشيم العدوى الناسك ، لقى جماعة من الصحابة ، وأسند عن ابن عباس وغيره . وقتل شهيداً فى غزاة فى أول إمرة الحجاج على العراق سنة ٧٥ فاجتمعت النساء عند زوجته الناسكة معاذة العدوية للتعزية فقالت : مرحبا ، إن كنتن جئتن لتهنئنى فمرحبا بكن . وإن كن جئتن لغير ذلك فارجعن . صفة الصفوة ٣ : ١٣٩ والإصابة ٤١٢٧ .

الكوفة : أويسٌ القَرَنى[1] ، والرَّبيع بن خُثَيم[2] ، والأسود بن يزيد النَّخَعى . وهذا جواب . ١٧١ و

فأمّا أن تذكرَ طِيبَ الدُّنيا والتمتُّع من لذّاتها وصفات محاسنها ، وتذكر ظرفاءها وأربابَها ، وتجيئَنا بأحاديث الزهّاد والفقهاء ، فقد انقطع الحِجَاج بيننا وبينك .

وقد قلنا فى صدر كتابنا[3] : إن الكلامَ إذا وُضِع على المزْح والهزل ، ثم أخرجتَه عن ذلك إلى غيره من الجدّ ، تغيّر معناه وبطَل .

وقد رُوى أنّ معاوية سأل عمرو بنَ العاصِ يومًا — وعنده شَبابٌ من قريش — فقال له : يا أبا عبد الله ، ما اللذّة ؟ فقال : مُر شبابَ قريش فليقوموا . فلما قاموا قال : « إسقاط المروءة » .

---

(١) هو أويس بن عامر القرنى ، بفتح القاف والراء ، نسبة إلى قرن بن ردمان ، وهم حى من مراد بن مذحج ، أدرك أويس حياة الرسول وشهد صفين مع على ، وفيها قتل . الإصابة ٤٩٧ وتهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ٢٢ وجمهرة أنساب العرب ٤٠٧ .

(٢) الربيع بن خثيم ، بضم الخاء بعدها ثاء مفتوحة ، ابن عائذ بن عبد الله الثورى الكوفى . قال له ابن مسعود : «لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبك» . توفى سنة إحدى ، وقيل ثلاث ، وستين . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ٣١ وابن النديم ٢٦٠ .

(٣) أقحم الجاحظ نفسه فيما اصطنع لنفسه من مناظرة بين صاحب الغلمان وصاحب الجوارى وانظر كذلك ص ١٢٥ س ٥ — ٦ .

قال الشاعر[١] فى مثل ذلك :

مَن راقبَ النّاسَ ماتَ غمّا وفاز باللّذّةِ الجسورُ

وقال الحكمىّ :

تجاسرتُ فكاشفتُ لكَ لمّا غلبَ الصّبرُ[٢]

وما أحسنَ فى مثلـ ـكَ أن ينهتِكَ السّترُ

قال (صاحب الجوارى) :

فنحن نترك ما أنكرتَ علينا ونقول : لو لم يكن حلال ولا حرام ، ولا ثواب ولا عقاب ، لكان الذى يُحصّله المعقولُ ويدركه الحِسُّ والوِجدان ، دالًّا على أنّ الاستمتاع بالجارية أكثر وأطولُ مدّة ؛ لأنه أقل ما يكون التمتّع بها أربعون عامًا ، وليس تجد فى الغلام معنًى إلّا وجدتَه فى الجارية وأضعافَه . فإن أردت التفخيذ فأردافٌ وثيرة ، وأعجاز بارزة لا تجدها عند الغلام . وإن أردت العِناق فالثّديُّ النواهد ، وذلك معدومٌ فى الغلام . وإن أردتَ طِيبَ المأتَى فناهيك ، ولا تجد ذلك عند الغلام . فإن أتوْه فى مَحاشّه[٣] حدثَ هناك من الطّفَاسة[٤] والقذر ما يكدّر[٥] كلّ عيش ، وينغّص كلّ لذّة .

---

(١) هو سلم بن عمرو الخاسر . انظر ترجمته وتحقيق اسمه فى حواشى الحيوان ٣ : ٩٠ . والبيتان كذلك له فى التمثيل والمحاضرة للثعالبى ٧٧ .

(٢) قبله فى ديوان أبى نواس ص ٤٢٢ :

أيا من طرفه سحر ومن مبسمه در

(٣) المحاش ، بتشديد الشين : جمع محشة ، وهى الدبر .

(٤) الطفاسة : القذر . طفس يطفس طفسا وطفاسة .

(٥) فى الأصل : « يكد » .

وفى الجارية من نَعمة البَشَرة ولدونة المفاصل ، ولطافة الكفَّين والقدمين ، ولين الأعطاف ، والتثنِّى وقلّة الحَشَن[١] وطِيب العرق ما ليس للغلام ، مع خصالٍ لا تحصى ، كما قال الشاعر[٢] :

... ...

يصفُ جَودة القَدّ وحُسنَ الخرط ، ويفرق بين المجدولة والسَّمينة .

وقولهم « مجدولة » يريدون جودةَ العَصَب وقلّة الاسترخاء ، ولذلك قالوا : خُمصانة وسَيفانة ، وكأنها جانٌّ[٣] ، وكأنَّها جَدْلُ عِنان[٤] ، وكأنّها قضيبُ خيزُران . والتثنِّى فى مِشية الجارية أحسنُ ما فيها ، وذلك فى الغلام عيبٌ ؛ لأنّه يُنسَب إلى التخنيث والتأنيث ـ وقد وصفت الشعراء المجدولةَ فى أشعارها ، فقال بعضهم :

لها قِسمةٌ من خُوط بانٍ ومن نقًا
ومن رشأ الأقواز جِيــدٌ ومَذْرِفُ[٥]

---

(١) الحشن : الوسخ ، واللزج من دسم البدن . وفى الأصل : « الحسو » ولا وجه له .

(٢) يعنى به أبا نواس ، كما هو عادته . ولعل الشعر الساقط من الأصل بعده ، قوله فى ديوانه ٣٨٨ :

فوق القصيرة والطويلةُ فوقها دون السمين ودونها المهزول

(٣) الجان : ضرب من الحيات دقيق خفيف .

(٤) أى عنان مجدول . وفى الأصل : « جذل عنان » . وانظر الحيوان ٦ : ٢٦٢ .

(٥) الأقواز : جمع قوز ، بالفتح ، وهو الكثيب من الرمل . وفى الأصل : « الأمرار » . والمذرف : المدمع ، يعنى العين . ذرف الدمع : سال . وفى الأصل : « ومرذف » .

وقال آخر :

مجدولة الأعلى كثيبٌ نصفها إذا مشَتْ أقعدها ما خلفَها

وقال الآخر :

ومجدولةٍ جدلَ العنانِ إذا مشَتْ ينوء بخصريها ثِقالُ الرَّوادِفِ

وقال الأحوص :

مِن المدمَجاتِ اللحمِ جَدْلًا كأنّها عِنانُ صَناعٍ أنعمَتْ أن تُحَوِّدا

وقالوا فى ذلك أكثرَ من أن نأتىَ عليه .

والغلام أكثر ما تبقى بهجته ونقاء خدّيه عشرةَ أعوام ، إلى أن تتّصل لحيتُه ويخرج من حدّ المُرودَة[1] ، ثمّ هو وَقّاحٌ طورًا ينتف لحيتَه ، وتارة يَهْلُبُها ليستدعىَ شهوةَ الرِّجال[2] . وقد أغنى الله الجارية عن ذلك ، لما وهب لها من الجمال الفائق ، والحسن الرائق .

فإن قلتَ : إنّ من النساء من يتحسّن ويستر عيبه[3] بخضاب الشعر وغيره ، كما قال الشاعر :

عجوزٌ ترَجّى أن تكون فتيّـــــــةً
وقد لحِبَ الجنبانِ واحدَوْدَبَ الظَّهر[4]

---

(١) فى الأصل : « المردة » . يقال فى المصدر مرد ومرودة أيضاً .

(٢) واضحة فى الأصل ، وقد ظنها شارل فى الأصل : « ليستبد عن سهوة » فصححها إلى « ليستبد على شهوة الرجل » . يهلبها : ينتفها .

(٣) فى طبعة شارل : « من يتحسن ويسترن عيبهن » ، خلافا لما فى الأصل .

(٤) نسبهما المبرد فى الكامل ١٧٦ إلى شيخ من الأعراب . وذكر أبو الحسن الأخفش فى حواشيه على الكامل بعدهما بيتين من القصيدة نسبا فى ديوان جران العود ١١ إلى الرحال بن عزرة بن المختار . وفى عيون الأخبار ٤ : ٤٤ : « كانت لرجل من الأعراب امرأة عجوزة ، وكانت تشترى العطر بالخبز فقال » . وأنشد البيتين .

تدسُّ إلى العطّار مِيرة أهلهـــا ولن يصلحَ العطّارُ ما أفسَد الدَّهر[(١)]

قلنا: قد يفعل ذلك بعض النساء إذا شُيِّبَتْ وليس كالغلام[(٢)]، لعموم هَلْبِ اللِّحَى فى الغلمان.

وذكرتَ الخِصْيانَ وحُسن قدودِهم، ونَعْمة أبشارِهم، والتلذُّذ بهم، وأنَّ ذلك شيء لا تعرفه الأوائل، فألجأْتَنا إلى أن نَصِفَ ما فى الخصيان وإن لم يكن لذلك معنًى فى كتابنا، إذ كنّا إنّما نقول فى الجوارى والغِلمان. ١٧٢ و

والخصيُّ — رحمك الله — فى الجملة ممثَّل به، ليس برجل ولا امرأة، وأخلاقه مُقسَّمة بين أخلاق النساء وأخلاق الصِّبيان، وفيه من العيوب التى لو كانت فى حَوْراء كان حقيقًا[(٣)] أن يُزهَد فيها منه؛ لأن الخصىَّ سريع التبدُّل والتنقُّل من حدِّ البَضاضة ومَلاَسة الجلد، وصفاء اللَّون ورقَّته، وكثرة الماء وبريقه، إلى التكسُّر والجمود والكمود، والتقبُّض والتجمُّد والتحدُّب، وإلى الهُزال وسوء الحال. لأنّك ترى الخصىَّ وكأنَّ السيوفَ تلمع فى وجهه[(٤)]، وكأنه مرآةٌ صِينيَّة، وكأنّه جُمّارة، وكأنّه قضيب فِضّةٍ قد مسَّه ذهب، وكأنَّ فى وجَناته الوردَ. فإن مَرِضَ مَرْضةً، أو طعنَ فى السنِّ ذهب ذَهابًا لا يعود.

---

(١) وكذا فى عيون الأخبار، والرواية المعروفة: «وهل يصلح العطار» كما فى الكامل، ورسالة التربيع والتدوير، والتمثيل والمحاضرة للثعالبى ٢١٩.

(٢) فى الأصل: «بالغلام».

(٣) فى الأصل: «حقيق».

(٤) فى الحيوان ١: ١٠٧: «فى لونه».

وقال بعض العلماء : إنّ الخصيّ إذا قُطع ذلك العضوُ منه قويتْ شهوتهُ ، وقويتْ مَعِدته ، ولانت جِلدتهُ ، وانجردت شَعرتهُ ، وكثرتْ دمعته ، واتّسعت فَتحتهُ ، ويصير كالبغل الذى ليس هو حِمَارًا ولا فَرسًا[1] ؛ لأنّه ليس برجلٍ ولا امرأة . فهو مذبذبٌ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

ويعرض للخَصيّ سُرعة الدَّمْعة والغضب ، وذلك من أخلاق النساء والصِّبيان . ويَعرض له حبُّ النميمة وضيقُ الصَّدر بمـا أُودِع من السِّرّ . ويعرض لهم البَول فى الفراش ولا سيَّما إذا باتَ أحدهم ممتلئًا من النَّبيذ .

ومما ناله[2] من الحسرة والأسف لما فاتهم من النّكاح مع شدّة حبِّهم للنساء ، أبغَضوا الفحول أشدَّ من تباغض الأعداء ، فأبغضوا الفحول بُغضَ الحاسد لذوِى النِّعمة .

وزعم بعضُ أهل التجربة من الشُّيوخ المعمَّرين أنَّهم اعتبروا أعمارَ ضروب الناس فوجدوا [طولَ[3]] أعمار الخصيان أعمَّ من جميع أجناس الرجال ، وأنهم لم يجدوا لذلك عِلّةً إلاَّ عدمَ النّكَاح . وكذلك طول أعمار البغال لقلة النَّزْو . ووجدوا أقل الأعمار أعمار العصافير ؛ لكثرة سفادها .

١٧٢ ظ

ثم الخصيُّ مع الرِّجال امرأةٌ ، ومع النِّساء رجل . وهو من النمائم والتحريش والإفساد بين المرء وزَوْجِه ، على ما ليس عليه أحد . وهذا من النَّفاسة والحسَد للفحول على النساء . ويعتريه إذا طعن فى السنّ اعوجاج فى أصابع اليد ، والتواءٌ فى أصابع الرِّجل .

---

(١) فى الأصل : « حمار وفرس » . وانظر الحيوان ١ : ١٠٨ .
(٢) كذا فى الأصل ، وسيأتى الضمير بعده لجماعة الخصيان ، وهو تعبير جائز .
(٣) التكملة من الحيوان ١ : ١٣٦ .

ودخل بعضُ الملوكِ على أهله ومعه خصيّ(١) فاستترت منه ، فقال لها : تستترين منه وإنما هو بمنزلة المرأة ! فقالت : ألموضِعِ المُثْلة به يحلُّ له ماحرَّم الله عليه .

مع أنَّ فى الخصىِّ عيوباً يطول ذِكرُها .

ولولا خوف الملال والسآمة على الناظر فى هذا الكتاب ، لقُلنا فى الاحتجاج عليك بما لا يدفعه من كانت به مُسكةُ عقل ، أوْ له معرفة . وفيما قُلنا ما أقنعَ وكفَى . وبالله الثِّقة .

* * *

وقد ذكرنا فى آخر كتابنا هذا مقطَّعاتٍ من أحاديث البطَّالين والظُّرفاء ، ليزيد القارئُ لهذا الكتاب نشاطا ، ويَذهبَ عنه الفتور والكَلال ، ولا قوّة إلا بالله .

١ — قال : مرض رجلٌ من عُتاة اللاَّطَة مرضًا شديدا ، فأيسوا منه ، فلما أفاقَ وأبلَّ من مرضِه ، دخل عليه جيرانُه فقالوا له : احمدِ الله الذى أقالكَ ، ودعْ ما كنتَ فيه من طلب الغلمان والانهماكِ فيهم ، مع هذه السنِّ التى قد بلغتَها . قال : جزاكم الله خيراً ؛ فقد علمتُ أنّ فَرط العناية والمودَّة دعاكم إلى عِظتى . ولكنّى اعتدتُ هذه الصناعةَ وأنا صغير ، وقد علمتم ما قال بعض الحكماء : ما أشدَّ فِطامَ الكبير !

(١) جعلت فى نشرة شارل : « خصيه » ، خلافاً لما فى الأصل .

قال الشاعر[١] :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يُوارَى فى ثَرى رمسِهِ[٢]

فقاموا مِن عنده آيسينَ من فلاحه .

٢ — قال : كان رجلٌ من اللاَّطة وله بنون لهم أقدارٌ ومروءات ، فشانَهم بمِشيته مع الغلمان وطلبِه لهم ، فعاتَبوه وقالوا : نحن نشترى لك من الوصائف على ما تشتهى ، تشتغل بهنّ ، فقد فضحتَنا فى الناس . فقال : هبكم تشترون لى ما ذكرتم فكيف لشيخكم بحرارة الجُلجُلتين ! فتركوا عتابه وعلموا أنّه لا حيلةَ فيه .

١٧٣ و

٣ — وقال بعض اللُّوطيين : إنَّما خُلق الأير للفَقْحة ، مدوَّرٌ لمدوَّرة ؛ ولو كان للحِرِ كان على صيغة الطَّبَرْزِين[٣] .

وقال شاعرهم :

إذا وجدتُ صغيراً وجأتُ أصلَ الحَمَاره[٤]

وإنْ أصبت كبيرا قصدت قَصدَ الحَرَاره

فما أبالى كبيراً قصدتُ أو ذا غَرَاره[٥]

٤ — وقيل لامرأة من الأشراف كانت من المتزوِّجات : ما بالُكِ مع

---

(١) هو صالح بن عبد القدوس ، كما فى الحيوان ٣ : ١٠٢ والبيان ١ : ١٢٠ والتمثيل والمحاضرة ٧٨ وتاريخ بغداد ٩ : ٣٠٣ ونهاية الأرب ٣ : ٨٢ .

(٢) فى الأصل : « فى الثرى رمسه » ، وصوابه من المراجع السابقة .

(٣) الطبرزين : فأس يعلقها الفارس فى سرج جواده . المعرب للجواليقى ١٩٤ ، والألفاظ الفارسية ١١١ .

(٤) الحمارة بفتح الحاء مع فتح الحاء وتشديد الراء وقد تخفف فى الشعر ، كما فى القاموس : شدة حر القيظ .

(٥) الغرارة ، كسحابة : قلة الفطنة للشر عن كرم وحسن خلق .

جمالك وشرفك لا تمكثين مع زوجك إلّا يسيراً حتى يطلِّقك ؟ قالت : يريدون الضِّيق ، ضيّق الله عليهم .

٥ — قال : طلّق رجلٌ امرأته ، فمرّ رجلٌ فى بعض الطُّرقات فسمع امرأةً تسأل أخرى عنها فقالت : البائسة طلّقها زوجُها ! فقالت : أحسَنَ باركَ اللهُ عليه . فقال لها : يا أمةَ الله ، من شأن النِّساء التعصُّب بعضُهن لبعض ، وأسمعكِ تقولين ما قلتِ . قالت : يا هذا ، لو رأيتَها لعلمتَ أنّ الله تعالى قد أحلَّ لزوجها الزِّنى ، من قُبح وجهها .

٦ — وقال مخنّثٌ لامرأة : يا معشرَ النِّساء ، مالكنّ هِمّةٌ إلّا طلب النَّيك ، لا تُؤثِرنَ عليه شيئاً . فقالت : إن أمرَأ[1] انتقلتَ من شهوتِه من طَبْع الرِّجال إلى طبع النساء حتّى عقَرْتَ لحيتَك له[2]، لحقيق ألّا تُلامَ عليه .

٧ — قال إسحاقُ الموصليّ : نظرتُ إلى شابٍّ مخنّثٍ حسنِ الوجه جدًّا قد هَلَب لحيته فشانَ وجهَه ، فقلت له : لِمَ تفعلُ هذا بلحيتك ، وقد علمتَ أنّ جمالَ الرجال فى اللِّحى ؟ فقال : يا أبا محمد[3] ، أيسرُّك بالله أنّها فى استِك ؟ قلت : لا والله ! فقال : ما أنصفتَنى ، أتكره أن يكون فى استك شىء وتأمرنى أن أدَعَه فى وجهى ! .

---

(١) قرأها شارل : « امرأ » ، مع وضوح ما أثبت من الأصل ، ولا يستقيم الكلام بدونه .

(٢) هو من قولهم عقر النخلة : قطع رأسها كله مع الجُمّار .

(٣) هى كنية إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، ويقال أيضاً له « أبو صفوان » كما فى الأغانى ٥ : ٤٩ .

٨ — وقال : اشترى بعض وُلاة العراق قَينةً بمالٍ كثير ، فجلس يومًا يشربُ وأمَرها أن تغنّيَه ، فكان أوّل صوتٍ تغنّت به :

أرُوح إلى القَصّاص كلَّ عشيّةٍ أرجِّى ثوابَ الله فى عدد الخطَى

١٧٣ ظ فقال للخادم : ياغلامُ ، خذْ بيد هذه الزّانية فادفعْها إلى أبى حَزْرة القاصّ . فمضى بها إليه فلقيَه بعد ذلك ، فقال : كيف رأيتَ تلك الجارية ؟ فقال : ما شئتَ أصلحك الله ، غير أنّ فيها خَصلتين من صفات الجنّة ! قال : ويلك ماهُما ؟ قال : البَرد ، والسَّعة .

٩ — قال : علِقَ رجلٌ من أهل المدينة امرأةً فطال عَناؤه وشقاؤه بها حتّى ظفِر بها ، فصار بها إلى منزل صديقٍ له مغنٍّ ، ثم خرج يشترى ما يحتاج إليه ، فقالت له : لو غنّيتَ لى صوتًا إلى وقت مجى صديقك !

فأخذ العودَ وتغنّى :

من الخفِرات لم تفضَحْ أخاها ولم ترفعْ لوالدها شنارا[١]

قال : فأخذت المرأةُ خُفَّها ولبستْ إزارَها وقالت : ويلى ويلى ، لا والله لا جلستُ ! فجَهَد بها فأبَتْ وصاحت ، فخشىَ الفضيحةَ فأطلقها . وجاء الرجلُ فلم يجدْها ، فسأله عنها فقال : جئتَنى بمجنونة ! قال : ما لها ويلك ؟ قال : سألتْنى أن أغنّيها صوتًا ففعلتُ ، فضربتْ بيدها إلى خفِّها وثيابها فلبستْ وقامت تولول ، فجهَدْتُ أن أحبسَها فصاحت فخلّيتُها . قال : وأىَّ شىء غنّيتَها ؟ فأخبره ، فقال : لعنك الله ! حُقّ لها أن تهرب !

---

(١) الشنار ، بالفتح: العيب .

قال : تَواصف قومٌ الجماعَ ، وأفاضوا فى ذكر النساء ، وإلى جانبهم مخنَّث فقال : بالله عليكم دعُوا ذِكر الحِرِ لعنَه الله ! فقال له بعضُهم : متى عهدُك به ؟ قال : مُذْ خرجتُ منه !

١٠ — قال : تزوّج رجلٌ امرأةً ، فمكثت عنده غيرَ بعيد ، ثم أتى الرجلُ بالذى زوّجه فقدَّمه إلى القاضى فقال : أصلحكَ الله ، إنّ هذا زوّجنى امرأةً مجنونة . قال : وأىَّ شىء رأيت من جنونها ؟ قال : إذا جامعتُها غُشِىَ عليها حتّى أحسبَها قد ماتت . فقال له القاضى : قم قَبّحك الله فما أنت لمثلِ هذه بأهل . وكانتْ رَبوخاً[1] .

١١ — قال : كانت عائشة بنت طلحة من المتزوّجات[2] ، فتزوّجها عُمر بن عبيد الله بن مَعْمَر التّيمىّ ، فبينا هى عنده تحدّثُ مع امرأةٍ من زُوّارِها إذْ دخل عُمر فدعا بها فواقَعها ، فسمِعت المرأة من النَّخير والشَّهيق أمراً عجيباً ، فلمّا خرجت قالت لها : أنتِ فى شرفكِ وقَدْرك تفعلين مثل هذا ! قالت : إنّ الدوابَّ لا تُجيد الشُّربَ إلاّ على الصَّفير !

١٧٤ و

١٢ — قال : وكانت حُبّى المدينيّة[3] من المغتلمات ، فدخلَ عليها نسوةٌ من المدينة فقُلن لها : يا خالةُ ، أتيناكِ نسألك عن القَبْع[4] عند الجماع يفعله النِّساء ، أهو شىء قديم أم شىء أحدثَه النِّساء ؟ قالت : يا بناتى ، خرجتُ

---

(١) الربوخ : التى يغشى عليها عند الجماع .

(٢) كذا فى الأصل . وعنى بها « المردفات » . انظر ما كتبت فى نوادر المخطوطات ١ : ٥٩ .

(٣) انظر الحيوان ٢ : ٢٠٠ و ٦ : ٧٥ .

(٤) القبع ، سيفسره الجاحظ فيما يلى .

للعمرة مع أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ، فلمّا رجعنا فكُنّا بالعَرْج نظر إلىّ زوجى ونظرتُ إليه ، فأعجبَه منّى ما أعجبَنى منه فواثبَنى ، ومرّت بنا عِيرُ عثمان فقبعتُ قبعةً وأدركنى ما يصيب بناتِ آدم ، فنفرتِ العيرُ – وكانت خمسَ مائة [(١)] – فما التقى منها بعيرانِ إلى الساعة .

والقَبْع : النَّخير عند الجمـــاع . والغربلة : الرَّهز . كذلك تسمِّيه أهل المدينة .

ويقال إن حُبَّى علّمت نساء أهل المدينة القَبْع والغَربلة .

١٣ — قال : وكانت خُليدةُ امرأةً سوداء ذاتَ خَلْق عجيب ، وكان لها دارٌ بمكّة تُكريها أيّامَ الحاجّ ، فحجّ فتًى من أهل العراق فاكترى منزلَها ، فانصرفَ ليلةً من المسجد وقد طافَ فأعيا ، فلما صَعِد السَّطحَ نظر إلى خليدةَ نائمةً فى القَمَر ، فرأى أهيأَ النّاسِ وأحسنَه خَلْقًا[(٢)] ، فدعَتْه نفسُه إليها فدنا منها ، فتركَتْه حتى رفَع برجليها فتابعَتْه وأرتْه[(٣)] أنها نائمة ، فنا كها ، فلمّا فرَغ ندِم فجعل يبكى ويلطِم وجهَه ، فتعاربَتْ[(٤)] وقالت : ما شأنك ؟ لسعَتْك حيّة ؟ لدغتْكَ عقرب ؟ ما بالك تبكى ؟ قال : لا والله ولكنّى نكتُك وأنا محرِم . قال : فتنيكنى وتبكى ؟ أنا والله أحقُّ بالبكاء منك . قمْ يا أرعن !

---

(١) قرأها شارل : « حمر مائة » مع وضوحها فى الأصل .

(٢) وحد الضمير ذهابا إلى المعنى ، أى من وُجِد ومن خُلق . انظر اللسان دثقل ٩٣ حنا ٢٢١ .

(٣) فى الأصل : « وأورته » .

(٤) فى الأصل : «فتعارفت » ، ولعل وجهه ما أثبت إن صح اشتقاقه من قولهم : امرأة عروب : ضحاكة متحببة إلى زوجها ؛ كما قالوا : تعربت المرأة : تغزلت .

١٤ — وقال ابن حَبَّى[1] لأمّه : يا أُمّه ، أىُّ الحالات أعجبُ إلى النّساء من أخذ الرجال إيّاهنّ ؟ قالت : يا بنىّ ، إذا كانت مُسِنَّةً مثلى فأبركها وألصقْ خدَّها بالأرض ثمّ أوعبْه فيها . وإذا كانت شابّةً فاجمعْ فخذيها إلى صدرها فأنت تدرك بذلك ما تريدُ منها وتبلغ حاجتك منها .

١٥ — وقال : اشترى قومٌ بعيراً وكان صَعباً ، فأرادوا إدخالَه الدّارَ فامتنع ، فجعلوا يضربونه وهو يأبَى ، فأشرفتْ عليهم امرأةٌ كأنّها شِقّةُ قمر ، فبُهتوا ينظرون إليها ، فقالت : ما شأنه ؟ فقال لها بعضهم : نريده على الدُّخول فليس يدخل . قالت : بُلَّ رأسَه حتّى يدخُل . ١٧٤ ظ

١٦ — قال : نظر رجلٌ بالمدينة إلى جاريةٍ سَرِيّةٍ ترتفع عن الخدمة ، فقال : يا جاريةُ ، فى يدك عمل ؟ قالت : لا ، ولـكنْ فى رجلى .

١٧ — قال بعضُهم : كنّا فى مجلس رجلٍ من الفقهاء فقال لى رجل : عندك حُرّةٌ أو مملوكة ؟ قلت : عندى أمُّ ولدٍ ، ولِمَ سألتَنى عن ذلك ؟ قال : إنّ الحرّة لها قدرُها فأردتُ أن أعلّمك ضرباً من النّيك طريفاً . قلت : قل لى . قال : إذا صرتَ إلى منزلكَ فنم على قفاك ، واجعل مخدّةً بين رجليك ورُكَبك[2] ليكون وِطاءً لك ، ثمّ ادعُ الجارية وأقم أيرك وأقعِدْها عليه ، وتحوّل ظهرها إلى وجهك ، وارفع رجليك ومُرها أن تأخذ بإبهامك كما يفعل الخطيبُ على المنبر ، ومُرها تَصعَد وتنزِل عليه ؛ فإنّه شىء عَجَب .

---

(١) انظر ما سبق فى ص ١٢٩ .

(٢) هو من وضع الجمع موضع المثنى ، وهو كثير فى كلامهم . انظر همع الهوامع ١ : ٥٠ — ٥١ .

فلمّا صار الرجلُ إلى منزله فعلَ ما أمره به ، وجعلت الجارية تعلو وتستفِل ، فقالت : يا مولاىَ ، مَن علّمك هذا النَّيك ؟ قال : فلانٌ المكفوف . قالت : يا مولاى ، ردّ الله عليه بَصَره !

١٨ — قال : كانت امرأة من قريش شريفةً ذاتَ جمال رائعٍ ومال كثير ، فخطبَها جماعةٌ وخطبها رجلٌ شريفٌ له مالٌ كثير ، فردّته وأجابت غيره ، وعزموا على الغدُوّ إلى وليّها ليخطُبوها[1] ، فاغتمّ الرجلُ غمًّا شديداً ، فدخلتْ عليه عجوزٌ من الحىّ فرأتْ مابه وسألته عن حاله فأخبرَها ، قالت : ما تجعل لى إنْ زوّجتُك بها ؟ قال : ألف درهم . فخرجتْ من عنده ودخلَتْ عليها ، فتحدّثتْ عندها مليًّا وجعلَتْ تنظر فى وجهها وتتنفّس الصُّعَداء ، ففعلتْ ذلك غير مرّة ، فقالت الجارية : ما شأنُكِ يا خالة ، تنظرين فى وجهى وتَتَنَفّسين ؟ قالت : يا بُنَيّة ، أرى شبابكِ ، وما أنعم الله عليكِ به من هذا الجمال ، وليس يتمّ أمرُ المرأة إلاّ بالزّوج ، وأراكِ أيِّمًا لا زوجَ لك . قالت : فلا يَغُمَّكِ الله ، قد خطبَنى غير واحدٍ وقد عزمتُ على تزويج بعضهم . قالت : فاذكرى لى مَن خطبك . قالت : فلان . قالت شريفٌ ، ومن ؟ قالت : فلان . قالت : شريف ، فما يمنعُك منه ؟ قالت : وفلانٌ — لصاحبِها — قالت : أُفٍّ أُفّ ، لا تريدينه[2] . قالت : وماله أليس هو شريفاً[3] كثير المال ؟ قالت : بلى ، ولكن فيه خصلةً أكرهُها لك . قالت : وما هى ؟

١٧٥ و

(١) فى الأصل : « يخطبوها » .

(٢) إخبار فى معنى النهى ، أى لا تريديه ولا تفكرى فى شأنه .

(٣) فى الأصل : « شريف » .

قالت : دعى عنكِ ذِكرَها . قالت : أخبرينى على كلِّ حال . قالت : رأيتُه يبول يوماً فرأيتُ بين رجليه رجلاً ثالثة . وخرجَتْ من عندها فأتته ، فقالت : أعِدْ إليها رسولَك . وأتاها الرجل الذى كانت أجابته ــ بعد مجىء الرسول ــ فردّته وبعثَتْ إلى صاحب المرأة : أنِ اغدُ بأصحابك . فتزوّجها فلما بَنَى بها إذا معه مثل الزِّرّ ، فلمّا أتتْها العجوز فقالت : بكم بِعتينى يالَخناء[1] ؟ قالت : بألف درهم . قالت : لا أكلتيها إلاّ فى المرض !

١٩ ــ قال : كان هشام بن عبد الملك يقبض الثِّياب[2] من عِظَم أيره ، فكتب إلى عامله على المدينة : « أمّا بعد فاشتر لى عِكاكَ النَّيك[3] » . قال : وكانَ له كاتبٌ مدينىٌّ ظريف ، فقال له : ويحك ، ما عِكاكُ النَّيك ؟ قال : الوصائف . فوجَّه إلى النَّخَّاسينَ فسألهم عن ذلك . فقالوا : عِكاكُ النَّيك الوصائفُ البيضُ الطِّوال . فاشترَى منهنّ حاجتَه ، ووجّه بهنّ إليه .

قال : وكانت بالمدينة امرأةٌ جميلةٌ وَضِيئة ، فخطبَها جماعةٌ وكانت لا تَرضَى أحدًا ، وكانت أمُّها تقول : لا أُزوجها إلاّ مَن ترضاه . فخطبها شابٌّ جميلُ الوجه ذو مالٍ وشرف . فذكرتْه لابنتها وذكرت حالَه وقالت : يا بنيّةُ إن لم تَزوّجى هذا فمن تَزَوَّجين ؟ قالت : يا أُمَّه : هو ما تقولين ، ولكنّى بلغنى

---

(١) كذا فى الأصل ، وهو وجه جائز فى العربية ، يزيدون بعد تاء المخاطبة وكافها ياء . انظر سيبويه ٢ : ٢٩٦ . وقد تكرر هذا الوجه فيما سيأتى من قوله : « لا أكلتيها » . واللخناء : الخبيثة رائحة المكان .

(٢) فى الأصل : « الثيب » .

(٣) العكاك : جمع عكة ، بالضم ، وأصل العكة زقيق صغير أصغر من القربة يتخذ للسمن .

عنه شىء لا أقدرُ عليه . قالت : يا بنيّتى لا تحتشمين من أمّك ، اذكرى كلّ شىء فى نفسك . قالت : بلغنى أنّ معه أيرًا عظيما وأخاف ألاّ أقوى عليه . فأخبرت الأمُّ الفتى فقال : أنا أجعلُ الأمرَ إليك تُدخلين أنتِ منه ما تريدُ وتحبسين ما تريد . فأخبرت الابنةَ فقالت : نعَمْ أرضى إن تكفّلتِ لى بذلك[(١)] . قالت : يا بنيّةُ والله إنّ هذا هو لشديدٌ علىّ ، ولكنّى أتكفّلُه لك . فتزوّجته . فلما كانت ليلةَ البناء قالت : يا أُمّه ، كونى قريبةً منّى لا يقتلْنى بما معه . فجاءت الأمّ وأغلقت الباب وقالت له : أنتَ على ما أعطيتَنا من نفسِك ؟ قال : نعم ، هو بين يديكِ . فقبضت الأمّ عليه وأدنته من ابنتها فدسّتْ رأسَه فى حِرِها وقالت : أزيدُ ؟ قالت : زيدى . فأخرجت إصبعًا من أصابعها فقالت : يا أُمّه زيدِى . قالت : نعم . فلم تزل كذلك حتّى لم يبق فى يدها شىء منه ، وأوعبَه الرجلُ كلَّه فيها ، قالت : يا أُمّه زيدِى . قالت : يا بنيّةُ لم يبقَ فى يدى شىء . قالت بنتُها : رحمَ الله أبى فإنه كان أعرفَ الناسِ بك ، كان يقول : إذا وقع الشىء فى يديك ذهب البركةُ منه . قومِى عنّى !

١٧٠ ظ

٢٠ — قال : تزوّج رجلٌ امرأةً وكان معه أيرٌ عظيم جِدًّا ، فلمّا نا كها أدخلَه كلَّه فى حِرِها ، ولم تكن تقوى عليه امرأة ، فلم تتكلّمْ ، فقال لها : أىُّ شىء حالُكِ خرجَ من خلفِك بعدُ ؟ قالت : بأبى أنتَ وهل أدخلتَه ؟

٢١ — قال : نظر رجلٌ إلى امرأةٍ جميلة سريّة ، ورجُلٌ فى دارها دميم مشوّهٌ يأمُر وينهى ، فظنّ أنّه عبدُها ، فسألها عنه فقالت : زَوجى . قال : يا سبحانَ الله ، مثلُكِ فى نِعمة الله عليكِ تتزوّجين مثل هـذا ؟ فقالت :

---

(١) فى الأصل : « ذلك » . وقرأها شارل : « تكفلت لى ذلك » خطأ .

لو استدبرَكَ بما يستقبلنى به لعَظُم فى عينك . ثم كشفَتْ عن فخذها فإذا فيه بُقَع خُضْر ، فقالت : هذا خطاؤه فكيف إصابته .

٢٢ — قال : وكانت بالمدينة امرأة ماجنة يقال لها سلاّمة الخضراء ، فأُخذت مع مخنَّثٍ وهى تنيكه بكيرِنْج[1] ، فرُفعتْ إلى الوالى فأوجعَها ضرباً وطافَ بها على جَمل ، فنظرَ إليها رجلٌ يعرفها فقال : ما هذا يا سلاّمة ؟ فقالت : بالله اسكُتْ ، ما فى الدُّنيا أظلمُ من الرجال ، أنتم تنيكونا[2] الدَّهرَ كلَّه فلمّا نكنا كم مرّةً واحدة قتلتمونا .

٢٣ — قال : تزوّج رجلٌ امرأةً فقيل له : كيف وجدتَها ؟ قال : كأنّ رَكَبَها دارةُ القمر[3] ، وكأنّ شُفْرَيها أيرِ حمارٍ مَثْنى .

٢٤ — وقال بعض العجائز المغتلمات :

وخضَبتُ ماصَبَغ الزّمانُ فلم يدُم صِبْغى ودامت صِبغةُ الأيّامِ[4]

أيّامَ أمْشِى والشّبابَ غريرةً وأناكُ مِن خلفى ومن قُدّامى

١٧٧ و

٢٥ — وقال سِيّاه ، وكان من مَرَدَة اللاطة ، واسمُه ميمون بن زياد ابن ثَرْوان ، وهو مولًى لخزاعة :

---

(١) الكيرنج : نموذج لقضيب الرجل ، والكلمة فارسية مركبة من « كير » بمعنى القضيب ، كما فى معجم استينجاس ١٠٦٨ ، و « رنج » وهو بالفارسية « رنك » ومعناه الشكل . وانظر حواشى الأغانى ١ : ١٦٩ طبع دار الكتب . وفى الأصل : « بكيدنج » ، صوابه ما أثبت .

(٢) كذا فى الأصل ، وقد يكون حكاية للغتها .

(٣) الركب ، بالتحريك : منبت العانة .

(٤) فى الأصل : « ماصنع » .

أَخُزاعُ إنْ عَدَّ القبائلُ فَخرَهم فضَمُوا أكفَّكُمُ على الأفواهِ
إلاّ إذا ذُكر اللّواطُ وأهلُه والفاتقون مشارجَ الأستاهِ
فهناك فافتخروا فإنّ لكم به مجدًا تليدًا طارفًا بسياهِ[1]

٢٦ — قال : وجاء سِياه إلى الكُميت فقال له : ياأبا عُمارة ، قد قلتُ على عروض قصيدتك :

* أبتْ هذه النّفسُ إلاّ ادّكارا[2] *

فقال : هات . فقال :

أبتْ هذه النفسُ إلاّ خَسارا وإلاّ ارتداداً وإلاّ ازورارا[3]
وحَمْلَ الدُّيوكِ وقَودَ الكلابِ فهذا هِراشًا وهذا نِقارا
وشُربَ الخمور بماء الغمام تنفجر الأرضُ عنه انفجارا

٢٧ — وقال : أخِذ « ديكٌ » ، وكان من كبار اللاّطة ، وهو رجلٌ من أهل الحجاز ، مع غلامٍ من قُريش كأنّه قديدَة[4] ، فقيل له : عدوّ الله هبك تُعذَر فى الغلمان الصِّباح فما أردتَ إلى هذا ؟ فقال : بأبى أنتم وأمّى ، قد والله علمتُ أنّه كما تقولون ، وإنّما نكتُه لشرفه .

---

(١) أى مجدا تليدا وطارفا : قديما وحديثا . وفى الأصل : « مجدا ليه » .
(٢) انظر الموشح للمرزبانى ١٩٣ .
(٣) فى الأصل : « وإلا ردا » . والكلمتان بعدها واضحتان فى الأصل . وقرأها شارل : « وإلا انفرارا » .
(٤) القديدة : تصغير القدّة بالكسر ، وهى واحدة القِد : سيور تقد من جلد فطير غير مدبوغ . انظر الحيوان ٤ : ١٢١ .

٢٨ — وقد يُضرب المثلُ فى اللّواط بالحجاز فيقال : « ألْوَطُ من ديك » ، كما يقول أهل العراق : « ألْوَطُ من سِياه » ، وهو كوفىّ .

وقد اختصرتُ كتابى هذا لئلا يملّه القارئ . وبالله التوفيق .

* * *

تم كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان ، والله المستعان ، وعليه التُّكلان ، ولا إله إلا هو .

يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب القيان من كلام أبى عثمان عمرو بن بحرٍ الجاحظ أيضاً ، والله الموفق للصواب . والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه . ١٧٦ ظ

١٤

كِتَابُ

القِيَانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الرابعة عشرة من رسائل الجاحظ فى مجموعة داماد ، وعنوانها :

« كتاب القيان »

ووردت فى معجم الأدباء ١٦ : ١٠٨ باسم « كتاب القينين والغناء والصنعة »

ومن هذه الرسالة نسختان :

الأولى : نسخة الأصل ، وهى نسخة مكتبة داماد .

والثانية : النسخة التى نشرها « يوشع فنكل » فى المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ هـ فى مجموع ثلاث رسائل .

أولاها : فى الرد النصارى .

والثانية : فى ذم أخلاق الكتاب .

والثالثة : كتاب القيان .

ونسخة يوشع فنكل نشرها عن أصل فى مكتبة نور الدين مصطفى فى ضمن مجموعة رسائل خطية للجاحظ وغيره برقم ١٠٠ وفى آخر ما نصه :

« استكتبه محمد بن خالد خليل الأزهرى الحسينى اللاذقى النائب فى مركز ولاية الموصل ، غرة ذى القعدة سنة ١٣١٧ » .

وقد حاولت أن أعثر على هذا المخطوط فلم أوفق ، فجعلت مطبوعة « يوشع فنكل » أساساً فى المقابلة ورمزت لها بالرمز « ط » .

ونص الرسالة فى نشرة « فنكل » يستوعب ما بين ص ٥٣ إلى ص ٧٥ .

ومهما يكن فالفضل الأول فى إظهار هذه الرسالة عائد إلى الأستاذ «يوشع فنكل» الذى أسجل له شكر قراء العربية لإسهامه فى نشر آثار شيخنا الجاحظ .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٧٧ ظ

من أبي موسى بن إسحاقَ بن موسى ، ومحمد بن خالد خذار خذاه ، وعبد الله بن أيوب أبي سُمير ، ومحمد بن حماد كاتب راشد ، والحسن بن إبراهيم ابن رباح ، وأبي الخيار ، وأبي الرنال[1] ، وخاقان بن حامد ، وعبد الله ابن الهيثم بن خالد اليزيديّ المعروف بمَشْرَطة ، وعلاك بن الحسَن ، ومحمد ابن هارون كتبة ، وإخوانهم المستمتعين بالنّعمة ، والمؤثرين للذّة ، المتمتّعين بالقيان وبالإخوان[2] ، المعِدّين لوظائف الأطعمة وصنوف الأشربة ، والراغبين بأنفسهم عن قبول شيء من الناس ، أصحاب الستر والستارات ، والشّرور والمروءات .

إلى أهل الجهالة والجفاء ، وغلظ الطّبع ، وفساد الحسّ .

سَلامٌ على من وفّق لرشده ، وآثَرَ حظَّ نفسه ، وعرف قدر النِّعمة ؛ فإنّه لا يشكر النّعمة مَن لم يعرفها ويعرف قدرها ، ولا يزاد[3] فيها من لم يشكرها ، ولا بقاء لها على[4] مَن أساء حملها .

وقد كان يقال : حَمْل الغِنَى أشدُّ من حمل الفَقر ، ومؤونة الشكر أضعفُ من مشقّة الصبر . جعلنا الله وإياكم من الشاكرين .

---

(١) كذا في النسختين .

(٢) في الأصل : « من القيان وبالإخوان » ، وأثبت ما في ط .

(٣) ط : « ولا يزداد » .

(٤) في ط : « عند » .

أمّا بعد فإنه ليس كلُّ صامتٍ عن حجّته مبطلاً فى اعتقاده ، ولا كلُّ ناطقٍ بها لا برهانَ له محقًّا فى انتحاله . والحاكم العادل من لم يعجَلْ بفصل القضاء دون استقصاء حُجَج الخصماء ، [و[١]] دون أن يحوّل[٢] القول فيمن حضر من الخُصَماء والاستماع منه ، وأن تبلغ الحجّة مداها من البيان ، ويشرك القاضى الخصمين فى فهم ما اختصما فيه ، حتى لا يكون بظاهر ما يقع عليه من حكمه أعلمَ منه بباطنه ، ولا بعلانيَةِ ما يفْلُج الخصامَ منه أطبَّ منه بسرِّه[٣] . ولذلك ما استعمل أهلُ الحزم والرويّة من القضاة طُولَ الصمت ، وإنعامَ التفهُّم والتمهّل ، ليكون الاختيار بعد الاختبار ، والحكم بعد التبيُّن[٤] .

وقد كُنّا ممسكين عن القول بحجّتنا فيما تضمّنه كتابُنا هذا اقتصارًا[٥] على أن الحقّ مكتفٍ[٦] بظهوره ، مُبِينٌ عن نفسه ، مستغنٍ عن أن يُستدَلَّ عليه بغيره ؛ إذْ كان إنّما يُستدَلُّ بظاهرٍ على باطن ، وعلى الجوهر بالعرض ، ولا يُحتاج أن يستدَلّ بباطن على ظاهر . ١٧٨ و

وعلمنا أنّ خصماءنا وإنْ موّهوا وزخرفوا ، غير بالغِينَ للفلَج والغلبة

---

(١) هذه من ط .

(٢) ط : « يجول » .

(٣) أفلجه على خصمه : غلبه . والخصام : جمع خصم ، كما قاله الزجاج . انظر تفسير أبى حيان ٢ : ١١٤ . أطب : أعلم . وفى ط : «أطيب منه لسره» ، تحريف .

(٤) ط : « اليقين » .

(٥) فى الأصل : « اقتصادا » ، صوابه فى ط .

(٦) ط : « مكيف » ، تحريف .

عند ذوى العَدْل دون الاستماع منا، وأنّ كلّ دعوى لا يفلج صاحبها بمنزلة ما لم يكن، بل هى على المدَّعِي كَلٌّ وكَربٌ حتّى تؤدِّيَه إلى مسَرة النُّجح أوراحة اليأس .

إلى أنْ تفاقَمَ الأمرُ وعِيلَ الصَّبر، وانتهى إلينا عيبُ عصابةٍ لو أمسكْنا عن الإجابة عنها والاحتجاج فيها، علماً بأنَّ من شأن الحاسد تهجينَ ما يَحسُد عليه، ومن خُلق المحروم ذمّ[1] ما حُرِم وتصغيرَه والطَّعنَ على أهله ــ كان لنا فى الإمساك سَعة. فإنّ الحسدَ عقوبةٌ موجبة للحاسد بما يناله منه ويَشينُه[2]، من عصيان ربّه واستصغار نعمته، والسَّخط لقَدَره[3]، مع الكرب اللازم والحزن الدائم، والتنفس صُعُداً[4]، والتشاغل بما لا يُدرَك ولا يُحصَى. وأنّ الذى يشكر فعلى أمرٍ محدودٍ يكون شكره، والذى يحسد فعلى مالا حدّ له يكون حسدُه. فحسده متّسع بقدر تغيُّر اتّساع ما حَسد عليه. لأنّا خفنا أن يظنّ جاهل أنّ إمساكنا[5] عن الإجابة إقرار بصدق العَضيهة[6]، وأن إغضاءنا لذى الغيبة[7] عجز عن دَفْعها.

---

(١) الكلمة ساقطة من ط، وجعل مكانها ناشرها [تقبيح] اقتراحا منه.

(٢) الكلمة مهملة النقط فى الأصل، وإعجامها من ط.

(٣) ط: « والسخط على القدرة ».

(٤) يقال: هو يتنفس الصعداء ويتنفس صعداً، الأولى ممدودة بضم ففتح، والأخيرة مقصورة بضمتين، وهو النفس بتوجع.

(٥) فى الأصل: « أن أمسكنا »، صوابه فى ط.

(٦) العضيهة: الإفك والبهتان.

(٧) ط: « عن ذى الغيبة ».

فوضعنا فى كتابنا هذا حُججاً على مَن عابنا بملك القيان ، وسبَّنا بمنادمة الإخوان ، ونَقَم علينا إظهارَ النِّعم والحديث بها . ورجونا النَّصر إذ قد بُدِينا والبادى أظلم ، وكاتب الحقّ فصيح - ويروى « ولسان الحقّ فصيح » - ونَفَس المُحرَجَ[1] لا يُقامُ لها ، وصَولة الحليم المتأنّى لا بقاء بعدها .

فبيَّنَّا الحجّة فى اطِّراح الغَيرة فى غير محرَّم ولا ريبة ، ثم وصَفْنا فضلَ النعمة علينا ، ونقَضْنا أقوال خصمائنا بقولٍ موجَزٍ جامعٍ لما قصدْنا . فمهما أطنبنا فيه فللشَّرح والإفهام ، ومهما أدمجنا وطوينا فليخفَّ حمله . واعتمدنا على أنَّ المطوَّل يقصَّر ، والملخَّص يختصَر ، والمطوىَّ يُنشَر ، والأصولَ تتفرع ، وبالله الكفاية والعون .

١٧٨ ظ

إنّ الفروع لا محالةَ راجعةٌ إلى أصولها ، والأعجاز لاحقةٌ بصدورها ، والموالىَ تبعٌ لأوليائها ، وأمور العالم ممزوجة بالمشاكلة ومنفردة بالمضادَّة ، وبعضها علّةٌ لبعض ، كالغيث علّةُ السَّحاب والسَّحابُ علّةُ الماء والرُّطوبة ، وكالحبّ عِلّته الزَّرعُ ، والزَّرعُ علّته الحبّ ، والدَّجاجة علّتها البيضة ، والبيضة[2] علّتها الدجاجة ، والإنسان علّتهُ الإنسان .

والفَلَك وجميع ما تحويه أقطار الأرض ، وكلُّ ما تُقِلُّه أكنافها للإنسان خَوَلٌ ومتاعٌ إلى حين . إلاّ أنّ أقربَ ما سُخِّر له من روحه وألطفَه عند نفسه « الأنثى » ؟ فإنّها خُلِقَتْ له ليسكنَ إليها ، وجُعلَت بينه وبينها مودّة ورحمة .

---

(١) ط : « المجروح » .

(٢) فى الأصل : « البيض والبيض » . صوابه فى ط .

ووجب أن تكون كذلك وأن يكون أحقَّ وأولى بها[١] مِن سائرِ ماخَوَّل[٢] إذْ كانت مخلوقةً منه . وكانت بعضاً له وجزءاً من أجزائه ، وكان بعضُ الشيء أشكلَ ببعض وأقرب به قُرباً من بعضه ببعض غيره . فالنساء حرثٌ للرجال ، كما النباتُ رِزقٌ لما جُعل رزقاً له[٣] من الحيوان .

ولولا المحنة والبلوى فى تحريم ما حرَّم وتحليل ما أُحلّ ، وتخليص المواليد من شُبهات الاشتراك فيها ، وحصول المواريث فى أيدى الأعقاب ، لم يكن واحدٌ أحقَّ بواحدةٍ منهن من الآخَر ، كما ليس بعضُ السَّوامِ أحقَّ برعْى مواقع السَّحاب من بعض ، ولكان الأمر كما قالت المجوس : إن للرجل[٤] الأقربَ فالأقربَ إليه رحماً وسبباً منهنّ . إلا أنّ الفرض[٥] وقع بالامتحان لخصّ المطلق ، كما فعل بالزَّرع فإنّه مرعًى لولد آدم ولسائر الحيوان إلاّ ما مَنَعَ منه التحريم .

وكلُّ شيء لم يُوجَد محرَّمًا فى كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمباحٌ مُطْلَق . وليس على استقباح الناس واستحسانهم قياسٌ ما لم تُخرِج من التحريم دليلًا على حسنه ، وداعيًا إلى حَلاله .

---

(١) ط : « أحق بها وأولى » .

(٢) فى الأصل : « لسائر ما خول » ، وتصحيحه وإثبات « من » فى ط .

(٣) فى الأصل « رزق له » ، صوابه فى ط .

(٤) فى الأصل وط : « ان الرجال » ، وقد ارتضيت ما اقترح ناشر ط من هذا التصحيح .

(٥) ط : « العرض » .

١٧٩ و

ولم نعلم للغَيرة فى غير الحرام وجهًا ، ولولا وقوع التحريم لزالت الغيرة ولزِمَنا قياس مَن أحقُّ بالنساء[١] ؛ فإنَّه كان يقال : ليس أحدٌ أولى بهنَّ من أحد[٢] ، وإنَّما هنَّ بمنزلة المَشَامّ والتُّفَّاح الذى يتهاداه الناسُ بينهم . ولذلك اقتصرَ من له العِدَّة على الواحدة منهنَّ ، وفرَّق الباقى منهنَّ على المقرَّبين . غير أنَّه لما عزم الفريضة بالفرق بين الحلال والحرام ، اقتصر المؤمنون على الحدِّ المضروب لهم ، ورخَّصوه فيما تجاوزَه[٣] . فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجابٌ ، ولا كانوا يرضَون مع سقوط الحجاب بنظرة الفَلْتة ولا لحظة الخُلْسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامَرة ، ويزدوجوا فى المناسمة والمثافَنة[٤] ، ويسمَّى المولَع بذلك من الرِّجال الزِّير ، المشتقَّ من الزيارة . وكلّ ذلك بأعين الأولياء وحضور الأزواج ، لا ينكرون ما ليس بمنكر إذا أمنوا المنكَر ، حتَّى لقد حَسِكَ فى صدر أخى بُثَينة من جميل ما حَسِكَ[٥] من استعظام المؤانسة ، وخروج العُذر عن المخالطة ، وشكا ذلك إلى زوجها وهزَّه ما حشَمه ، فكَمَنا لجميلٍ عند إتيانه بُثينة ليقتلاه ، فلما دنا لحديثه وحديثها سمِعاه يقول ممتحنًا لها : هل لك فيما يكون بين الرِّجال

---

(١) كلمة « قياس » ليست فى ط .

(٢) هذا ما فى ط . وفى الأصل : « واحد » .

(٣) هذا ما فى ط . وفى الأصل : « تجاوزوه » .

(٤) ناسمه مناسمة : دنا منه وشامّه ، وحادثه ، وسارّه . كما فى المعجم الوسيط . والثافنة : المجالسة والمحادثة . وفى الأصل : « المثاعه » . وفى ط : « المشافعة » ، والوجه ما أثبت .

(٥) الحسك : الضغن والحقد . وفى ط : « حصل ... ما حصل » .

والنساء ، فيما يشفى غليل العشق ويُطفئ نائرة الشوق ؟ قالت : لا . قال : ولمَ ؟ قالت : إنَّ الحبَّ إذا نُكِح فَسَد ! فأخرج سيفاً قد كان أخفاه تحت ثوبه ، فقال : أمَا والله لو أنْعَمتِ لى لملأتُه منك[1] ! فلمَّا سمعا بذلك وثِقا بغَيبه وركنا إلى عفافه ، وانصرفا عن قتاله ، وأباحاه النظرَ والمحادثة .

فلم يزل الرِّجال يتحدّثون مع النساء ، فى الجاهلية والإسلام ، حتَّى ضُرب الحجاب على أزواج[2] النبىّ صلى الله عليه وسلم خاصَّة .

وتلك المحادثة كانت سببَ الوُصلة بين جَميلٍ وبثينة ، وعَفراء وعُروة ، وكثيِّر وعزّة ، وقَيس ولُبنى ، وأسماء ومرقِّش ، وعبد الله بن عَجْلان وهِنْد[3] .

١٧٩ ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرِّجال للحديث ، ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً فى الجاهلية ، ولا حرامًا فى الإسلام .

وكانت ضُباعة ، من بنى عامر بن قُرط[4] بن عامر بن صعصعة ، تحت عبد الله بن جُدعانَ زماناً لا تلد ، فأرسلَ إليها هشامُ بن المغيرة المخزومىُّ :

---

(١) أى لو أجبتنى بنعم لملأت السيف من دمك .

(٢) ط : « نساء » .

(٣) انظر ما سبق فى رسالة مفاخرة الجوارى ص ١٠٤ – ١٠٥ .

(٤) فى الأصل : « قرطة » ، وأثبت ما فى ط . وفى جمهرة ابن حزم ٢٨٢ أن القرطاء بطن من عامر بن صعصعة ، من العدنانية ، وهم بنو قرط وقريط وقريطة بنى عبيد بن أبى بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وانظر معجم قبائل العرب ٩٤٥ . وفى الإصابة ٦٧٠ قسم النساء : « ضباعة بنت عامر بن قرط ابن سلمة بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة »

ما تصنعين بهذا الشَّيخ الكبير الذى لا يُولَد له ، قولى له حتَّى يطلِّقك[١] .
فقالت لعبد الله ذلك ، فقال لها : إنِّى أخاف عليكِ أن تتزوَّجى هشامَ بن المغيرة.
قالت : لا أتزوّجه . قال : فإن فعلتِ فعليك مائة من الإبل تنحرينها
فى الحزْوَرَة[٢] وتنسجين لى ثوباً يقطع ما بين الأخشَبَيْن[٣] ، والطوافُ
بالبيت عُريانة . قالت : لا أطيقه . وأرسلتْ إلى هشامٍ فأخبرته الخبرَ فأرسلَ
إليها : ما أيسَرَ ما سألكِ ، وما يَكرِثُك[٤] وأنا أيسرُ قريشٍ فى المال ،
ونسائى أكثر نساء رجل من قريش ، وأنت[٥] أجملُ النِّساء فلا تأبَيْ عليه .
فقالت لابن جُدعان : طلِّقْنى فإنْ تزوّجتُ هشامًا فعلىَّ ما قلتَ . فطلَّقها بعد
استيثاقه منها ، فتزوَّجها هشامٌ فنحر عنها مائةً من الجُزُر ، وجمع نساءه فنسجن
ثوباً يسعُ ما بين الأخشَبَين ، ثم طافت بالبيت عُريانة ، فقال المطَّلب
ابن أبى وَداعة : لقد أبصرتُها وهى عُريانةٌ تطوف بالبيت وإنِّى لَغلامٌ أتْبعها

---

(١) كلمة « حتى » ساقطة من ط .

(٢) فى الأصل وط : « الجزورة » صوابه ما أثبت والحزورة : سوق مكة ، وقد دخلت فى المسجد لما زيد فيه. معجم البلدان . والخبر فى الإصابة ٩٧٠ قسم النساء برواية أخرى .

(٣) الأخشبان : جبلان يضافان تارة إلى مكة وتارة إلى منى . أحدهما أبو قبيس والآخر قعيقعان .

(٤) كرثه الأمر يكرثه : ساءه واشتد عليه وبلغ منه المشقة . وفى ط . « يلويك » ، تحريف .

(٥) هذا ما فى ط . وفى الأصل : « فأنت » .

إذا أدبرتْ ، وأستقبِلها إذا أقبلت ، فما رأيت شيئاً مما خلق الله أحسنَ منها ، واضعةً يدَها على رَكَبِها وهى تقول :

اليومَ يبــدو بعضُه أو كلُّه فما بدا منـــــه فلا أُحِلُّه
كم ناظرٍ فيــه فما يَمَلُّه[1] أخثمٍ مثل القَعْب بادٍ ظـلُّه[2]

قال : ثم إنَّ النساء إلى اليوم من بنات الخلفاء وأمّهاتهن ، فمن دونهنَّ يَطُفن بالبيت مكشّفات الوجوه ، ونحو ذلك لا يكمل حجٌّ إلا به .

وأعرسَ عمر بن الخطّاب رضى الله عنه بعاتـكة ابنة زَيد [بن عمرو[3]] ابن نُفَيل ، وكانت قبله عند عبد الله بن أبى بكر ، فمات عنها بعد أن اشترط عليها ألا تتزوّج بعده أبدًا ، على أن يَنْحَلَها[4] قطعةً من ماله سوى الإرث ، فخطبها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأفتاها بأن يعطيَها مثلَ ذلك من المال فتصَدَّقَ[5] به عن عبد الله بن أبى بكر ، فقالت فى مرثيته : ١٨٠ و

فأقسمتُ لا تنفكُّ عينى سخينةً عليك ولا ينفكُّ جلدىَ أغبرا

---

(١) ط : « فما أبله » ، تحريف .

(٢) فى الأصل وط : « أجثم » بالجيم ، تحريف . والأخثم بالخاء المعجمة : المرتفع الغليظ . وفى قول النابغة :

وإذا لمست لمست أخثم جاثما متحيزاً بمكانه ملء اليد

(٣) التكملة من نوادر المخطوطات ١ : ٦١ وجمهرة أنساب العرب ١٥١ ، ١٥٢ والإصابة ٦٩٥ من قسم النساء .

(٤) ط : « ينحلها » .

(٥) أى فتتصدق . وفى ط : « فتتصدق » .

فلما ابتَنَى بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه أولَمَ ، ودعا المهاجرين والأنصار ، فلمّا دخل علىٌّ بن أبى طالب عليه السلام قَصَد لبيتِ حَجَلتها ، فرفعَ السِّجفَ ونظر إليها فقال :

فأقسمتُ لا تنفكُّ عينى سخينةً عليكَ ولا ينفكُّ جلدىَ أصفرا

فخجلت وأطرقت ، وساء عمرَ رضى الله عنه ما رأى من خجلها وتشوُّرِها[(١)] عند تعيير علىٍّ إيّاها بنقض ما فارقت عليه زوجَها ، فقال : يا أبا الحسن ، رحمك الله ، ما أردتَ إلى هذا ؟ فقال : حاجةٌ فى نفسى قضيتُها .

هذا . وأنتم تروون أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان أغيَرَ الناس ، وأنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال له : « إنى رأيت قصراً فى الجنة فسألت : لمن هـذا القصر ؟ فقيل : لعمر بن الخطاب . فلم يمنعنى من دخوله إلّا لمعرفتى بغيرتك » . فقال عمر رضى الله عنه : وعليكَ يُغَارُ يا نبىَّ الله !

فلو كان النظرُ والحديث والدُّعابة يُغار منها ، لكان عمر المقدَّمَ فى إنكاره ؛ لتقدُّمه فى شدّة الغيرة . ولو كان حرامًا لمنعَ منه ؛ إذ لا شكَّ فى زهده وورعه وعلمه وتفقُّهه .

وكان الحسن بن على عليهما السلامُ تزوَّج حفصةَ ابنة عبد الرحمن[(٢)] ، وكان المنذر بن الزُّبير يهواها[(٣)] ، فبلغ الحسنَ عنها شىء فطلَّقها ، فخطبها المنذر فأبت أن تتزوّجه وقالت : شهَّرنى ! . وخطبها عاصم بن عمر بن الخطاب

---

(١) التشور : الخجل . وفى الأصل : « نشوزها » .

(٢) حفصة ابنة عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق . جمهرة ابن حزم ١٢٣ .

(٣) المنذر بن الزبير بن العوام . الجمهرة ١٢٣ .

رضى الله عنها فتزوّجها ، فرقّى[١] المنذرُ عنها شيئاً فطلّقها ، وخطبها المنذر فقيل لها : تزوّجيه ليعلمَ الناسُ أنّه كان يعضَهُك[٢] . فتزوّجتْه فعلم الناس أنّه كذَب عليها ، فقال الحسن لعاصم : لنستأذنْ[٣] عليها المنذرَ فندخلَ إليها فنتحدّثَ عندها[٤] ، فاستأذناه ؛ فشاور أخاه عبد الله بنَ الزُّبير فقال : دعهما يدخلان . فدخلا فكانت إلى عاصمٍ أكثر نظراً منها إلى الحسن ، وكان أبسطَ للحديث . فقال الحسن للمنذر : خذ بيد امرأتك . فأخذَ بيدها وقام الحسن وعاصمٌ فخرجا . وكان الحسن يهواها وإنّما طلّقها لما رقّى إليه المنذر[٥] .

١٨٠ ظ

وقال الحسن يومًا لابن أبي عَتيق : هل لك فى العقيق[٦] ؟ فخرجا فعدل الحسن إلى منزل حَفْصة فدخل إليهما فتحدّثا طويلا ثم خرج ، ثم قال لابن أبي عتيق : هل لك فى العقيق ؟ قال : نعم . فنزل بمنزل حفصة ودخل ، فقال له مرّة أخرى : هل لك فى العقيق ؟ فقال : يا ابن أمّ ، ألا تقول : هل لك فى حفصة ! !

وكان الحسن فى ذلك العصر أفضلَ أهلِ دهره . فلو كان محادثةُ النساء

---

(١) يقال رقى فلان على الباطل ترقية ، إذا تقول مالم يكن وزاد فيه . وفى الأصل : « رقا » ، صواب كتابته من ط

(٢) عضهه عضها : قال فيه مالم يكن .

(٣) ط : « استأذن »

(٤) فى الأصل : فيدخل إليها فيتحدث عنها » ، وصوابه فى ط .

(٥) فى الأصل : « رقا » . وانظر ماسبق .

(٦) العقيق : واد عليه أموال أهل المدينة فيه عيون ونخل .

والنَّظرُ إليهنَّ حرامًا وعارًا لم يفعله ولم يأذن فيه المنذر بن الزُّبير ، ولم يُشِرْ به عبد الله بن الزُّبير .

وهذا الحديث وما قبله يُبطلان ما روت الحشويّة من أنَّ النظَر الأوّلَ حرام والثانىَ حرام ؛ لأنَّه لا تكون محادثةٌ إلّا ومعها ما لا يحصى عددُه من النَّظرِ . إلّا أن يكون عنَى بالنظرةِ المحرَّمَةِ النَّظَرَ إلى الشعَر والمجاسِد[1] ، وما تخفيه الجلابيبُ مما يحِلّ للزّوج والولىّ ويحرُم على غيرهما .

ودعا مصعبُ بن الزُّبير الشَّعبىَّ ، وهو فى قُبّةٍ له مجلَّلةٍ بوشى ، معه فيها امرأتُه[2] ، فقال : يا شعبىُّ ، مَن معى فى هذه القبّة ؟ فقال : لا أعلم أصلح الله الأمير ! فرفع السَّجفَ ، فإذا هو بعائشة ابنة طلحة .

والشعبىُّ فقيه أهلِ العراق وعالمهم ، ولم يكن يستحلّ أن ينظر إن كان النَّظرُ حرامًا .

ورأى معاوية كاتبًا له يكلِّمُ جاريةً لامرأته فاختـة بنتِ قَرَظة[3] ، فى بعض طُرق داره ، ثم خطب ذلك الـكاتبُ تلك الجارية فزوّجها منه ، فدخل معاوية إلى فاختة وهى متحشِّدة[4] فى تعبئة عِطر لعُرس جاريتها ، فقال : هوّنى عليك يا ابنة قَرَظة ، فإنى أحسب الابتناء قد كان منذُ حين ! ١٨ و

---

(١) المجاسد : جمع مجسد كمنبر ومصحف ، وهو القميص الذى يلى الجسد . وفى الأصل وط : « والنظر إلى الشعر والمحاسد » .

(٢) ط : « معه امرأته فيها » .

(٣) فاختة بنت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل . جمهرة أنساب العرب ١١٦ .

(٤) التحشد : التجمع .

ومعاوية أحد الأئمة ، فلما لم يقع عنده ما رأى من الكلام موقعَ يقينٍ ، وإنّما حلَّ محلَّ ظنٍّ وحِسبان[1] ، لم يقضِ به ولم يوجبْه ، ولو أوجبَه لحَدَّ عليه .

وكان معاوية يؤتى بالجارية فيجرِّدها من ثيابها بحضرة جلسائه ، ويَضَع القضيبَ على رَكَبها ، ثم يقول : إنّه لمتاعٌ لو وجَدَ متاعًا ! ثم يقول لصعصعة ابن صُوحان : خذْها لبعض ولدك ، فإنّها لا تَحلُّ ليزيد بعد أن فعلتُ بها ما فعلتُ .

ولم يكن يُعدَم مِن الخليفة ومَن بمنزلته فى القُدرة والتأتِّى[2] أن تقف على رأسه جارية تذبُّ عنه وتروِّحه ، وتعاطيه أخرى فى مجلسٍ عامٍّ بحضرة الرجال .

فمن ذلك حديث الوصيفة التى اطَّلعت فى كتاب عبد الملك بن مَرْوانَ إلى الحجّاج وكان يُسِرُّه[3] ، فلما فشا ما فيه رجَع على الحجّاج باللَّوم وتمثَّل :

ألم ترَ أنّ وشاة الرجا ... ل لا يتركون أديمًا صحيحا[4]

فلا تُفشِ سرَّك إلّا إليك ... فإنّ لكلّ نصيحٍ نصيحا

ثم نظر فوجد الجارية كانت تقرأ فنمَّت عليه .

ومن ذلك حديثُه حين نَعَس فقال للفرزدق وجرير والأخطل : مَن

---

(١) الحسبان ، بالكسر : الظن . وبضم الحاء بمعنى الحساب والعد .

(٢) ط : « التأنى » . والكلمة مهملة فى الأصل . والتأتى : من قولهم تأتى له الشىء ، أى تهيأ ، كما يقال تأتى لفلان أمره .

(٣) من الإسرار والإخفاء . وفى الأصل : « يستره » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٤) انظر حواشى الحيوان ٥ : ١٨١ . وقد سبق فى كتاب كتمان السر .

وصَفَ نُعاسًا بشعرٍ وبمثَلٍ يُصيب فيه[1] ويُحسن التمثيلَ ، فهذه الوصيفة له .

فقال الفرزدق :

رماه الكرى فى الرأس حتَّى كأنَّه
أميمُ جَلاميدٍ تركنَ به وَقْرا[2]

فقال : شدختَنى ويلكَ يا فرزدق ! فقال جرير :

رماهُ الكرى فى الرأس حتَّى كأنَّه
يَرَى فى سواد الليل قُنبرة سَقْرا[3]

فقال : ويلك تركتَنى مجنونًا ! ثم قال : يا أخطل فقل . قال :

رماه الكرى فى الرأس حتَّى كأنَّه
نديمٌ تروَّى بين ندمانه خمرا[4]

قال : أحسنتَ ، خُذْ إليك الجارية .

١٨١ ظ ثم لم يزل للملوك والأشراف إماءٌ يختلفن فى الحوائج ، ويدخلن فى الدواوين ، ونساءٌ يَجلِسْنَ للناس ، مثل خالصة جارية الخيزُران ، وعُتْبة جارية ربطة[5] ابنة أبى العباس ، وسُكَّر وتركيَّة جاريتى أمِّ جعفر ، ودُقاق جارية العبَّاسة[6] ، وظَلوم وقسطنطينة جاريتى أم حبيب ، وامرأة

---

(١) ط : « وتمثل نصيبا فيه » وما هنا صوابه .

(٢) الأميم : الذى أصيب فى أم رأسه .

(٣) فى الأصل وط : « فسله » وأثبت ما فى العقد ٥ : ٣٧٤ . والسقر : لغة الصقر . وفى ط : « سفرا » . وفى العقد : « صفرا » ، أى صفراء .

(٤) الندمان ، بالفتح : النديم على الشراب ، يقال للواحد وللجمع .

(٥) فى الأصل : « رابطة » ، صوابه فى ط وجمهرة أنساب العرب ٣٢ ، ٣٥٠ .

(٦) العباسة بنت المهدى . وفى الأصل « العباسية » ، صوابه فى ط .

هارون بن جعبويه[١] ، وحَمْدونة أمَة نصر بن السِّنديّ بن شاهَك[٢] . ثمّ كنّ يبرزْن للناس أحسنَ ما كنّ وأشبَهَ ما يتزيَّنّ به ، فما أنكر ذلك منكرٌ ولا عابَه عائب .

ولقد نظر المأمونُ إلى سُكَّرَ فقال : أحُرّةٌ أنت أم مملوكة ؟ قالت : لا أدرى ، إذا غضِبَتْ علىّ أمُّ جعفر قالت : أنت مملوكة ، وإذا رضِيَتْ قالت : أنتِ حُرّة . قال : فاكتبي إليها السّاعةَ فاسأليها عن ذلك . فكتبَتْ كتاباً وَصلَتْه بجناح طائرٍ من الهُدَى[٣] كان معها ، أرسلته تعلم أمَّ جعفرٍ ذلك ، فعلمت أمُّ جعفرٍ ما أراد فكتبتْ إليها : « أنتِ حُرّة » . فتزوّجها على عشرة آلاف درهم ، ثم خلا بها من ساعتها فواقَعها وخلّى سبيلَها ، وأمر بدفْع المال إليها .

والدّليل على أنّ النّظرَ إلى النساء كلِّهنّ ليس بحرام ، أنّ المرأة المعنّسة[٤] تبرزُ للرّجال فلا تحتشم من ذلك . فلو كان حرامًا وهى شابّة لم يحلّ إذا عُنِّست ، ولكنّه أمرٌ أفرط فيه المتعدُّونَ حدَّ الغَيرة إلى سُوء الخلق وضِيق العَطَن[٥] ، فصار عندهم كالحقّ الواجب .

---

(١) ط : « معبوبة » .

(٢) انظر البيان ٣ : ٣٦٧ .

(٣) الهدى : جمع هاد ، وهو الحمام المدرب الذى يسمى حمام الزاجل . انظر حواشى الحيوان ٢ : ٧٩ والحيوان ٣ : ٢١٣ ، ٢١٧ . وفى ط : « الهوى » تحريف .

(٤) المعنسة بفتح النون المشددة على الأصح ، ويقال بكسرها أيضا ، وهى التى بقيت زمانا بعد أن تدرك لا تتزوج .

(٥) فى الأصل وط : « وضيق الفطنة » . والتصحيح لناشر ط .

وكذلك كانوا لا يرون بأساً أن تنتقل المرأة إلى عدّة أزواج لا ينقلها عن ذلك إلاّ الموت ما دام الرجال يريدونها . وهم اليومَ يكرهون هذا ويستسمجونه فى بعض ، ويعافون المرأة الحرّةَ إذا كانت قد نكحت زوجاً واحداً ، ويُلزمون مَن خَطَبَها العارَ ويُلحقون به اللّومَ ، ويعيّرونها بذلك ، ويتحظّون الأمَةَ[1] وقد تداولها من لا يُحصَى عدده من الموالى . فمَنْ حَسَّن هذا فى الإماء وقبّحه فى الحرائر ! ولمَ [لَمْ[2]] يَغاروا فى الإماء وهنّ أمهاتُ الأولاد وحظايا الملوك ، وغارُوا على الحرائر . ألا ترى أنّ الغَيرةَ إذا جاوزَتْ ما حرّم اللهُ فهى باطلٌ ، وأنّها بالنّساء لضعفهنّ أولَع ، حتى يَغَرْنَ على الظّنّ والحُلْم فى النّوم . وتغار المرأة على أبيها ، وتعادِى امرأتَه وسُرِّيّتَه . ١٨٢ و

ولم تزل القيان عند الملوك من العرب والعجم على وجه الدّهر . وكانت فارس تعُدُّ الغناء أدباً والرُّومُ فلسفةً .

وكانت فى الجاهليّة الجرادتان لعبد الله بن جُدعان[3] .

---

(١) هذا الفعل لم يرد فى المعاجم المتداولة ، وهو من الحظوة بمعنى قرب المكانة . وقالوا : امرأة حظية : مفضلة على غيرها فى المحبة .

(٢) التكملة من ط .

(٣) فى العقد ٦ : ٢٨ أنهما كانتا قينتين لعاد . وفى جنى الجنتين ٣٣ أن الجرادتين قينتا معاوية بن بكر أحد العماليق . وكذا فى أمثال الميدانى (ألحن من جرادتين) . وفى اللسان والقاموس (جرد) أنهما مغنيتان للنعمان . لكن ما فى الأغانى ٨ : ٢ — ٣ مطابق لما ذكر الجاحظ هنا فى قصة طويلة . وفيهما يقول أمية بن أبى الصلت حين أحداهما إليه عبد الله بن جدعان :

عطاؤك زين لامرئ إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرئ بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

وكان لعبد الله بن جعفر الطيّار[١] جوارٍ يتغنّين، وغلامٌ يقال له «بديع» يتغنّى، فعابه بذلك الحكم بن مروان، فقال: وما علىَّ أن آخُذَ الجيِّدَ من أشعار العرب وأُلقيَه إلى الجوارى فيترنَّمن به ويشذِّرنَه[٢] بحلوقهنَّ ونغمهنَّ!

وسمع يزيد بن معاويةَ الغناء.

واتّخذ يزيد بن عبد الملك حَبَابة وسَلاَّمة[٣]، وأدخل الرجال عليهنَّ للسَّماع، فقال الشاعر فى حَبَابة:

إذا ما حَنَّ مِزهرُها إليها وحنَّتْ دونه أُذنُ الكرامِ
وأصغَوْا نحوهُ الآذانَ حتّى كأنّهمُ وما ناموا نيامُ[٤]

وقال فى سلاَّمة:

ألم تَرَها، واللهُ يكفيك شرَّها، إذا طرّبتْ فى صوتها كيف تصنعُ
تَردُّ نظامَ القولِ حتّى تردَّه إلى صُلصُلٍ من حلقها يترجَّعُ

وكان يسمع فإذا طرِبَ شقَّ بُرْدَه ثم يقول: أطير! فتقول حبابة: لا تطير[٥]؛ فإنَّ بنا إليك حاجة.

---

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبى طالب. والطيار لقب لجعفر. وفى الحيوان ٣: ٢٣٣: «ونحن نؤمن بأن جعفراً الطيار بن أبى طالب، له جناحان يطير بهما فى الجنة، جعلا له عوضا من يديه اللذين قطعتا على لواء المسلمين فى يوم مؤتة». وانظر جمهرة ابن حزم ٦٨ — ٦٩.

(٢) هو من قولهم: شذر النظم: فصله بالخرز ونحوه. وفى ط: «وينشدنه».

(٣) حبابة بتخفيف الباء الموحدة، وسلامة بتشديد اللام كما نص ابن الأثير فى الكامل ٥: ٥٠. ومما يؤيد ضبط حبابة بالتخفيف ما ورد فى الأغانى ١٣: ١٥٤:

أبلغ حبابة أسقى ربعها المطر ما للفؤاد سوى ذكراكم وطر

(٤) فى البيت إقواء ظاهر.

(٥) أى لا تطر. وفى ط: «لا تطر» بالنهى الصريح.

ثم كان الوليد بن يزيد المتقدِّمَ في اللهو والغزل ، والملوك بعد ذلك يسلكون على هذا المنهاج وعلى هذا السبيلِ الأوّل .

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، قبل أن تنالَه الخلافةُ يتغنَّى . فمّما يُعرَف من غنائه :

أَلِمَّا صاحِبَيَّ نزُرْ سُعادا لقُرب مَزارِها ودعَا البِعادا[1]

وله :

عاودَ القلبُ سُعادَا فَقَلاَ الطَّرفُ السُّهادا[2]

ولا نرى بالغناء بأساً إذا كان أصله شعراً مكسوًّا نغماً : فما كان منه صدقاً فحسَنٌ ، وما كان منه كذباً فقبيح .

وقد قال النبي عليه السلام : « إنَّ من الشِّعر لحِكمةً » .

وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : « الشعر كلامٌ ، فحَسَنُه حسنٌ ، وقبيحه قبيح » .

ولا نرى وزن الشعر أزالَ الكلامَ عن جهته ، فقد يوجد ولا يضرُّه ذلك ، ولا يزيل منزلته من الحكمة .

فإذا وَجَب أنّ الكلام غير محرّم فإنّ وزنه وتقفيته لا يوجبان تحريماً لعلّة من العلل . وإنّ الترجيع له أيضاً لا يخرج إلى حرام . وإنّ وزنَ الشعر من جنس وزن الغناء ، وكتاب العروض من كتاب الموسيقى ، وهو من

(١) في الأغاني ٨ : ١٤٥ : « لو شك فراقها وذرا البعادا » .

(٢) في الأصل و ط : « فعلا » ، وجعلها فنكل « فقلى » ، وما أثبت أقرب تصحيح . يقال قلاه يقلوه وقلاه يقليه : أبغضه .

كتاب حدّ النّفوس ، تحدُّه الألسنُ بحدّ مقْنِــع ، وقد يعرف بالهاجس كما يعرف بالإحصاء والوزن . فلا وجهَ لتحريمه ، ولا أصلَ لذلك فى كتاب الله تعالى ولا سنّة نبيِّه عليه السلام .

فإن كان إنّما يحرِّمه لأنه يُلهى عن ذكر الله فقد نجد كثيراً من الأحاديث والمطاعم والمشــارب والنّظر إلى الجنان والرّياحين ، واقتناص الصيد ، والتشاغل بالجماع وسائر اللذّات ، تصدُّ وتُلهى عن ذكر الله . ونعلم أنّ قَطعَ الدّهر بذكر الله لِمَنْ أمكنه أفضل ، إلاّ أنه إذا أدّى الرجلُ الفرضَ فهذه الأمور كلُّها له مباحة ، وإذا قصّر عنه لزمه المأثم .

ولو سلِم من اللَّهو عن ذكر الله أحدٌ لسَلِمَ الأنبياء عليهم السلام . هذا سليمانُ بن داودَ عليهما السلامُ ، ألهاه عَرضُ الخيل عن الصّلاة حتّى غابت الشّمس ، فعرقَبها وقطعَ رقابها .

وبعد فإنّ الرقيق تجارةٌ من التجارات تقع عليه المساوماتُ[1] والمشاراة بالثّمَن ، ويحتاج البــائع والمبتاع إلى أن يَستشِفّا العِلق[2] ويتأمّلاه تأمُّلا بيّنًا يجب فيه خيار الرؤية المشترطُ فى جميع البِياعات[3] . وإن كان لا يُعرَف مبلغهُ بكيلٍ ولا وزنٍ ولا عددٍ ولا مساحة ؛ فقد يُعرف بالحسن والقبح .

---

(١) ط : « المساومة » .

(٢) فى أصل ط : « ينشفا » ، وجعلها فنكل « ينتقيا » . وما أثبت من الأصل واضح صحيح .

(٣) فى الأصل : « المشــترطة من جميع البياعات » ، وأثبت ما فى ط . والبياعات ، بكسر الباء : جمع بياعة ، وهى السلعة .

ولا يقف على ذلك أيضاً إلاّ الثاقب فى نظره ، الماهر فى بَصره ، الطبُّ

بصناعته ؛ فإنّ أمرَ الحسن أدقُّ وأرقُّ من أن يدركَه كلُّ من أبصره . ١٨٣ و

وكذلك الأمور الوهميّة ، لا يُقضَى عليها بشهادة إبصار الأعين ، ولو قُضِيَ عليها بها كان كلُّ مَن رآها يقضى ، حتّى النَّعَمُ والحميرُ ، يحكم فيها لكلٍّ بصير العين يكون فيها شاهداً وبَصيراً للقلب ، ومؤدِّياً إلى العقل ، ثم يقع الحكم من العقل عليها .

وأنا مبيّن لك الحسن . هو التّمامُ والاعتدال . ولست أعنى بالتمام تجاوُزَ مقدار الاعتدال كالزيادة فى طول القامة ، وكدقّة الجسم أو عِظَم الجارحة من الجوارح ، أو سَعَة العين أو الفم ، مما يتجاوز مثلَه من الناس المعتدلين فى الخَلْق ؛ فإنّ هذه الزيادةَ متى كانت فهى نُقصانٌ من الحسن ، وإن عُدَّت زيادةً فى الجسم .

والحدودُ حاصرةٌ لأمور العالَم ، ومحيطة بمقاديرها الموقوتة لها[1] ، فكلُّ شىء خرجَ عن الحدِّ فى خُلُق ، حتى فى الدِّين والحكمة اللَّذَين هما أفضلُ الأمور ، فهو قبيحٌ مذموم .

وأمّا الاعتدالُ فهو وزن الشىء لا الكميّة[2] ، والكونُ كونُ الأرض لا استواؤها[3] .

ووزن النفوس فى أشباه أقسامها . فوزن خِلقة الإنسان اعتدالُ محاسنه وألاّ يفوتَ شىء منها شيئاً ، كالعين الواسعة لصاحب الأنف الصغير

---

(١) الموقوتة : المقدَّرة . وفى الأصل : « الموقوفة » .

(٢) فى الأصل : « لا للكمية » ، صوابه فى ط .

(٣) فى الأصل : « ولكن كون الأرض لاستوائها » . صوابه فى ط .

الأفطس ، والأنف العظيم لصاحب العين الضَّيِّقة ، والذَّقن الناقص والرأس الضخم والوجه الفَخْم لصاحب البدن المجدَّع النِّضو[١] ، والظَّهر الطويل لصاحب الفخذين القصيرتين[٢] ، والظَّهر القصير لصاحب الفخذين الطويلتين ، وكسَعَة الجبين بأكثر من مقدار أسفل الوجه .

ثم هذا أيضاً وزنُ الآنية وأصنافِ الفُرُش والوشْي واللباس ، ووزنُ القَنَوات التي تجرى فيها المياه .

وإنَّما نعنى بالوزن الاستواء فى الخرط والتركيب .

فلا بدَّ مما[٣] لا يمنع الناظر من النظر إلى الزَّرع والغرس والتفسُّح فى خضرته[٤] والاستنشاق من روائحه . ويسمَّى ذلك كلُّه له حِلاًّ[٥] ما لم يمد له يداً . فإذا مدَّ يداً إلى مثقالِ حبَّةٍ من خردل بغير حقِّها فعلَ ما لا يحلُّ ، وأكلَ ما يحرُم عليه .

١٨٣ ظ

وكذلك مكالمة القيان ومفاكهتهنَّ ، ومغازلتهنَّ ومصافحتهنَّ للسَّلام ، ووضعُ اليد عليهنَّ للتَّقليب والنظر ، حلالٌ ما لم يَشُبْ ذلك ما يحرُم .

---

(١) المجدع عنى به المنقوص الخلق . وأصله المجدع من النبات ، وهو ما قطع من أعلاه ونواحيه . والنضو ، بالكسر : المهزول .

(٢) فى الأصل و ط : « القصيرتين » ، و « الطويلتين » فيما سيأتى ، صوابه ما أثبت . والفخذ مؤنثة .

(٣) فى الأصل و ط : « فلا بد لما » .

(٤) ط : « والفرش والبنفسج » ، وما هنا صوابه .

(٥) فى الأصل و ط : « حل » ، تحريف .

وقد استثنى الله تبارك وتعالى اللَّمَمَ فقال : ﴿ الذينَ يجتنبونَ كبائرَ الإثم والفواحشَ إلاَّ اللَّممَ إنّ ربَّك واسعُ المغفرة[١] ﴾ . قال عبد الله بن مسعود ، وسُئل عن تأويل هذه الآية فقال : إذا دنا الرجلُ من المرأة فإنْ تقدَّم ففاحشة ، وإنْ تأخَّرَ فلممٌ . وقال غيره من الصَّحابة : القُبلة واللَّمس . وقال آخرون : الإتيان فيما دون الفرج .

وكذلك قال الأعرابيّ حين سئل عمّا نال مِن عشيقتِهِ ، فقال : ما أقربَ ما أحلَّ اللهُ مما حرّم الله !

فإن قال قائلٌ : فيما روى من الحديث : « فرِّقوا بين أنفاس الرجال والنِّساء » ، وقال : « لا يَخلُ رجلٌ بامرأة في بيتٍ وإن قِيلَ حَمْوُها ، ألاَ إنّ حَمْوَها الموت[٢] » وإنّ في الجمع بين الرِّجال والقيان ما دعا إلى الفسق والارتباط والعشق ، مع ما ينزل بصاحبه من الغُلمة التي تَضطرُّه إلى الفجور وتَحمِل على الفاحشة ؛ وأنَّ أكثر من يحضُر منازل القيان إنّما يحضُر لذلك لا لسماع ولا ابتياع .

قلنا : إن الأحكام إنّما تقع على ظاهر الأمور ، ولم يكلِّف الله العبادَ الحكمَ على الباطن ، والعملُ على النيّات ، فيُقضَى للرجل بالإسلام بما يظهر

---

(١) الآية ٣٢ من سورة النجم . وفي الأصل و ط : « والذين يجتنبون » وسبب هذا التحريف اشتباه بالآية ٣٧ من سورة الشورى .

(٢) الحمو ، بالفتح : لغة في حم المرأة ، إذ فيه ست لغات ذكرها الأشموني في ١ : ٧١ . وانظر صحيح مسلم ١٧١١ . وفي اللسان (حما) : « ألا حَمُوها الموت » بدون« إن » . وهذا على لغة من يعرب الحم بالحروف الثلاثة .

منه ولعله ماجدٍ فيه ، ويُقضَى أنه لأبيه ولعله لم يلدْهُ الأبُ الذى ادَّعى إليه قطّ ، إلاّ أنه مولود على فراشه ، مشهورٌ بالانتماء إليه . ولو كُلِّفَ من يشهد لرجلٍ بواحدٍ من هذين المعنيين على الحقيقة لم تَقُم عليه شهادَة . ومن يحضر مجالسنا لا يظهر نسباً مما ينسبونه إليه ، ولو أظهرَ ثمَّ أغضينا له عليه لم يلحقْنا فى ذلك إثم .

والحسب والنَّسب الذى بَلغ به القيانُ الأثمانَ الرغيبة إنما هو الهَوَى[1] . ولو اشترى على مثل شِرَى الرَّقيق لم تجاوز الواحدةُ منهنَّ ثمنَ الرأس الساذَج . فما كثر مَن بالَغَ فى ثمنِ جاريةٍ فبالعشقِ ولعله كان ينوى فى أمرها الرِّيبةَ ، ويجدُ هذا أسهلَ سبيلاً إلى شِفاء غليله[2] ثم تعذَّر ذلك عليه فصار إلى الحلال وإن لم ينْوِهِ ويعرفْ فضلَه[3] ، فباع المتاعَ وحَلَّ العُقَد[4] وأثقل ظهره بالعُبِيَّة[5] حتى ابتاع الجارية . ١٨٤ و

ولا يعمل عملاً ينتج خيراً غير إغرائه[6] بالقيان وقيادته عليهنّ ؛ فإنه لا ينجم[7] الأمرُ إلاّ وغايته فيهنّ العشق ، فيعوق[8] عن ذلك ضبط الموالى

---

(١) فى الأصل و ط : « لهواء » .

(٢) فى الأصل وط : « إلى إشفاء غليله » .

(٣) فى ط : « وتعرف فضله » ، وما هنا صوابه .

(٤) العقد : جمع عقدة ، وهى الضيعة . واعتقدها : اشتراها .

(٥) العبية بكسر العين وضمها وتشديد كل من الباء المكسورة والياء المفتوحة : الكبر والفخر . وفى ط : « بالعيبة » .

(٦) ط : « إغرابه » .

(٧) ط : « لا يتحمل » .

(٨) فى الأصل : « فيفرق » .

ومراعاة الرقباء وشدَّة الحجاب ، فيُضطر العاشق إلى الشراء ، ويحلّ به الفرَج[١] ، ويكون الشيطان المدحور .

والعِشقُ داء لا يُملَك دفعه ، كما لا يستطاع دفعُ عوارض الأدواء إلاّ بالحمية ، ولا يكاد يُنتَفع بالحمية مع ما تولّد الأغذية وتزيد فى الطبائع بالازدياد فى الطُّعم .

ولو أمكن أحداً أن يحتمىَ من كلّ ضرر ويقفَ عنْ كل غذاء ، للزمَ ذلك المتطبّبَ فى آفات صحته[٢] ، ونَحَل جسمُه وضَوِىَ لحمُه ، حتّى يؤمر بالتخايط ، ويشار عليه بالمنابة فى الطّيبات . ولو ملك أيضاً صرفَ الأغذية واحترس بالحمية ، لم يملك ضرر تغيّرُ الهواء ولا اختلاف الماء .

وأنا واصفٌ لك حدَّ العشق لتعرف حدَّه :

هو داء يُصيب الرُّوح ويشتمل على الجسم بالمجاورة ، كما ينال الروحَ الضعفُ فى البطش والوهنُ فى المرء ينهكه . وداء العشق وعمومه فى جميع البدن بحسب منزلة القلب من أعضاء الجسم . وصعوبة دوائه تأتى من قبل اختلاف عِلله ، وأنّه يتركب من وجوهٍ شتّى ، كالحمّى التى تَعرِض مركّبةً[٣] من البرد والبلغم . فمن قصدَ لعلاج أحد الخلطينِ كان ناقصاً من دائه[٤] زائداً فى داء الخلط الآخر ، وعلى حسب قوّة أركانه يكون ثبُوتهُ وإبطاؤه

---

(١) ط : « الفرح » .

(٢) فى الأصل : فى أوقات صحته » ، صوابه فى ط .

(٣) فى الأصل : « للركبة » ، وصوابه فى ط .

(٤) فى الأصل و ط : « دوائه » ، صوابه ما أثبت .

فى الانحلال . فالعشق يتركّب من الحبّ والهَوَى ، والمشاكلة والإلف ، وله ابتداء فى المصاعدة ، ووقوف على غاية ، وهبوطٌ فى التوليد إلى غاية الانحلال ووقف الملال .

١٨٤ ظ

والحبّ اسمٌ واقع على المعنى الذى رُسم به ، لا تفسير له غيره[١] ؛ لأنه قد يقال : إن المرء يحبُّ الله ، وإنّ الله جلّ وعزّ يحبّ المؤمن ، وإن الرجل يحبُّ ولده ، والولد يحبّ والدَه ويحبُّ صديقَه وبلدَه وقومه ، ويحبُّ على أى جهة يريد ولا يسمّى ذلك عشقاً . فيُعلم[٢] حينئذ أن اسم الحبّ لا يُكتفى به فى معنى العشق حتى تُضاف إليه العللُ الأُخر[٣] إلاّ أنه ابتداء العشق ، ثم يتبعه حبُّ الهوى[٤] فربّما وافق الحقّ والاختيار[٥] ، وربّما عَدَل عنهما . وهذه سبيل الهوى فى الأديان والبُلدان وسائر الأمور . ولا يميل صاحبُه عن حجّته واختياره فيما يهوى . ولذلك قيل : « عَين الهوى لا تصدُق » ، وقيل : « حبُّك الشىء يُعمِى ويُصمّ[٦] » . يتخذون أديانهم أرباباً لأهوائهم . وذلك أنّ العاشق كثيراً ما يعشق غير النّهاية فى الجمال ، ولا الغاية فى الكمال ، ولا الموصوف بالبراعة والرشاقة ، ثم إن سئل عن حجّته فى ذلك لم تقم له حجّة .

---

(١) ط : « لا يعتبر له غير » .

(٢) ط : « فنعلم » .

(٣) ط : « الأخرى » .

(٤) ط : « ثم يتبعه الهوى » .

(٥) ط : « والاختيار » .

(٦) أمثال الميدانى ١ : ١٧٩ وانظر الحيوان ٤ : ٣٨٦ .

ثم قد يجتمع الحبُّ والهوى ولا يسمَّيان عشقاً ، فيكون ذلك فى الولد والصديق والبلد ، والصِّنف من اللِّباس والفُرش والدوابّ . فلم نر أحداً منهم يسقم بدنه ولا تتلف روحُه من حبّ بلده ولا ولده ، وإن كان قد يصيبه عند الفراق لوعةٌ واحتراق .

وقد رأينا وبلغنا عن كثير ممن قد تَلِفَ وطال جُهده وضَناه بداء العشق .

فعلم أنّه إذا أضيف إلى الحبّ والهوى المشاكلةُ[1] ، أعنى مشاكلةَ الطبيعة ، أى[2] حبّ الرجالِ النساءَ وحبَّ النساءِ الرجالَ ، المركَّبَ فى جميع الفحول والإناث من الحيوان ، صار ذلك عشقاً صحيحاً . وإن كان ذلك عشقاً[3] من ذكرٍ لذكرٍ فليس إلا مشتقًّا من هذه الشهوة ، وإلاّ لم يسمَّ عشقاً إذا فارقت الشهوةُ .

ثم لم نره ليكونَ مستحكماً عند أوّل لُقياه حتّى يَعقِد ذلك الإلفُ ، وتغرِسَه المواظبةُ فى القلب ، فينبت كما تنبت الحَبّة فى الأرض حتّى تستحكم وتشتد وتثمر ، وربّما صار لها كالجذع السَّحوق والعمودِ الصُّلب الشديد . ١٨٥ و وربما انعقف فصار فيه[4] بَوار الأصل . فإذا اشتمل على هذه العلل صار عشقاً تاماً .

---

(١) فى الأصل : « والمشاكلة » والوجه حذف الواو كما فى ط .

(٢) فى الأصل : « أن » ، صوابه فى ط .

(٣) فى الأصل « وإن ذلك كان عشق » .

(٤) فى الأصل : « فيها » ، صوابه من ط .

ثم صارت قلّة العِيان تزيد فيه وتوقِد نارَه ، والانقطاعُ يسعِّره حتى يُذهَل العقلُ ويُنهَك البدن ، ويشتغل القلبُ عن كلِّ نافعة ، ويكون خيال المعشوق نُصبَ عين العاشق والغالبَ على فكرته ، والخاطرَ فى كلِّ حالة على قلبه .

وإذا طال العهدُ واستمرّت الأيام نقص[1] على الفرقة ، واضمحلَّ على المطاولة ، وإن كانت كلومُه وندوبُه لا تكاد تعفو آثارُها ولا تدرس رسومُها .

فكذلك الظَّفَر بالمعشوق يُسرع فى حَلِّ عِشقه . والعلّة فى ذلك أنّ بعض الناس أسرعُ إلى العشق من بعض ؛ لاختلاف طبائع القلوب فى الرِّقّة والقسوة ، وسرعة الإلف وإبطائه ، وقلّة الشّهوة وضعفها .

وقلَّ ما يظهر[2] المعشوق عِشقاً[3] إلاّ عداه بدائه ، ونكت فى صدره وشَغف فُؤادَه . وذلك من المشاكلة ، وإجابة بعض الطبائع بعضاً ، وتوَقان بعض الأنفس إلى بعض ، وتقارُب الأرواح . كالنائم يرى آخَر ينام ولا نومَ به فينعَس ، وكالمتثائب يراه من لا تثاؤب به فيفعل مثلَ فعله ، قسراً من الطبيعة .

وقلَّ ما يكون عشقٌ[4] بين اثنين يتساويان فيه إلّا عن مناسبةٍ بينهما

---

(١) فى الأصل : « تنقص » ، صوابه فى ط . وتنقص لم ترد إلا متعدية .

(٢) فى الأصل : « بأقل مما يظهر » . وفى ط : « فما يظهر » بإسقاط « بأقل » ، وأرى الصواب فيما أثبت . وانظر ما سيأتى فى الفقرة التالية .

(٣) ط : « عشقه » .

(٤) فى الأصل : « عشقا » ، صوابه ط .

فى الشَّبه فى الخَلْق والخُلُق وفى الظَّرف[1] ، أو فى الهوى أو الطِّباع . ولذلك ما ترى الحسن يعشق القبيح ، والقبيح يحبُّ الحسن ويختار الأقبح على الأحسن ، وليس يرى الاختيار فى غير ذلك فيتوهم الغلط عليه ، لكنّه لتعارف الأرواح وازدواج القلوب .

ومن الآفة عشق القِيان على كثرة فضائلهن ، وسكون النفوس إليهنّ ، وأنَّهنّ[2] يجمعن للإنسان من اللَّذَّات ما لا يجتمع فى شىء على وجه الأرض . ١٨٥ ط

واللذَّاتُ كلُّها إنّما تكون بالحواسّ ، والمأكول والمشروب حظٌّ لحاسّة الذَّوق[3] لا يشركها فيه غيرها . فلو[4] أكلَ الإنسانُ المسكَ الذى هو حظٌّ الأنف وجدَه بشِعًا واستقذَره ، إذ كان دمًا جامداً . ولو تنسّمَ أرواحَ الأطعمة الطيِّبة[5] كالفوا كه وما أشبهها عند انقطاع الشهوة ، أو ألحّ بالنَّظر إلى شىء من ذلك ، عاد ضرراً . ولو أدنى من سمعه كل طيِّب وطِيب لم يجد له لذّة .

فإذا جاء باب القيان اشترك فيه ثلاثة[6] من الحواسّ ، وصار القلب لها رابعًا . فللعين النَّظر إلى القينة الحسناء والمشهّية[7] إذ كان الحذق والجمال

---

(١) فى الأصل : « والخلق فى الظرف » . وإثبات الواو من ط .

(٢) ط : « ولأنهن » .

(٣) ط : « حظ حاسة الذوق » .

(٤) فى الأصل : « لو » ، وأثبت ما فى ط .

(٥) فى الأصل وط : « غير الطيبة » .

(٦) ط : « ثلاث » . وكلاهما جائز .

(٧) فى الأصل : « المشهة » ، صوابه فى ط .

لا يكادان يجتمعان لمستمتع ومرتع، وللسمع منها حظ الذى لا مؤونة عليه، ولا تطرب آلته[1] إلا إليه.

وللمس فيها الشهوة والحنين إلى الباه. والحواس كلها رواد للقلب، وشهود عنده.

وإذا رفعت القينة عقيرة حلقها تغنى حدق إليها الطرف، وأصغى نحوها السمع، وألقى القلب[2] إليها الملك، فاستبق السمع والبصر أيهما يؤدى إلى القلب ما أفاد منها قبل صاحبه، فيتوافيان عند حبة القلب فيفرغان ما وعياه، فيتولد منه مع السرور حاسة اللمس، فيجتمع له فى وقت واحد ثلاث لذات لا تجتمع له فى شىء قط، ولم تؤد إليه الحواس مثلها. فيكون فى مجالسته للقينة أعظم الفتنة؛ لأنه روى فى الأثر: «إياكم والنظرة فإنها تزرع فى القلب الشهوة». وكفى بها لصاحبها فتنة، فكيف بالنظر والشهوة إذا صاحبهما السماع، وتكانفتهما المغازلة.

إن القينة لا تكاد تخالص فى عشقها، ولا تناصح فى ودها؛ لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين، ليقتحموا فى أنشوطتها، فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ، وداعبته بالتبسم، وغازلته فى أشعار الغناء، ولهجت باقتراحاته، ونشطت للشرب عند شربه، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه، والصبابة لسرعة عودته، والحزن لفراقه. فإذا أحست بأن سحرها ١٨٦

(١) فى الأصل: «ولا تطرب الله» بهذا الإهمال، وأثبت ما فى ط.

(٢) ط: «والقلب القلب»، وما هنا صوابه.

قد نفذ فيه[١] ، وأنه قد تعقّل فى الشَّرَك ، تزيّدت فيما كانت قد شرعَتْ فيه ، وأوهمته أنَّ الذى بها أكثر مما به منها ، ثم كاتبتْه تشكو إليه هواه[٢] ، وتُقسم له أنَّها مَدَّت الدواةَ بدَمْعَتِها ، وبلَّت السِّحاءة بِريقِها[٣] ، وأنه شَجَنُها وشَجْوها فى فكرتها وضميرها ، فى ليلها ونهارها ، وأنَّها لا تريد سواه ، ولا تؤثر أحداً على هواه ، ولا تنوى انحرافاً عنه ، ولا تريده لماله بَلْ لنفسه : ثم جعلَتِ الكتاب فى سُدْسِ طُومار ، وختَمَتْه بزعفران ، وشدَّته بقطعة زِير[٤] ، وأظهرت سَتْرَه عن مواليها[٥] ، ليكون المغرور أوثق بها . وألحتْ فى اقتضاء جوابه ، فإن أجيبت عنه ادّعت أنها قد صيّرت الجوابَ سَلوتَها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته ، وأنشدت :

وصَحيفةٍ تحكى الضَّمير مليحةٍ نغماتُها

جاءت وقد قَرِح الفؤاد لطول ما استبطأتُها[٦]

فضحكت حين رأيتُها وبكيت حينَ قرأتُها

عينى رأت ما أنكرتْ فتبادرت عَبَراتُها

أظَلومُ ، نفسِى فى يدَيك : حياتُها ووفاتُها

(١) ط : « قد تقلب فيه » .

(٢) ط : « هواها » وكلاهما متجه . وانظر ما سيأتى من قوله : «على هواه» .

(٣) السحاءة ، بالكسر : ما يشد به الكتاب من قشرة قرطاسه .

(٤) الزير : وتر من أوتار العود .

(٥) ط : « دسره عند مواليها » .

(٦) يقال قرح قلبه من الحزن ، كأنه جرح . وفى ط : «فرح» ، وكلاهما متجه .

ثم تغنّتْ حينئذ :

بات كتاب الحبيب نَدمانى　　محدِّثى تارةً وريحانى(١)

أضحكنى فى الكتاب أوّله　　ثم تمادَى به فأبكانى

ثم تجنّتْ عليه الذُّنوبَ ، وتغايرتْ على أهله ، وحَمَتْه النظرَ إلى صَواحباتِها ، وسقَتْه أنصافَ أقداحها ، وجَمَّشته بعَضوض تفاحها(٢) ، وتحيّةٍ من ريحانها ، وزوّدته عند انصرافه خُصْلةً من شعرها ، وقِطعةً من مِرطها ، وشَظِيَّةً من مِضرابها(٣) ، وأهدت إليه فى النَّيروز(٤) تِكَّةً وسُكَّرًا ، وفى المِهرجانِ خاتمًا وتُفّاحة ، ونقشت على خاتَمها اسمَه ، وأبدت عند العثرة اسمَه(٥) ، وغنّته إذا رأته :

١٨٦ ظ

نظرُ المحبِّ إلى الحبيب نعيمُ　　وصدودُه خطرٌ عليكَ عظيمُ

---

(١) الندمان ، بالفتح : النديم . ط : « إن كتاب » .

(٢) الجمش والتجميش : المغازلة . والعضوض : ما يعض عليه فيؤكل ، كما فى القاموس .

(٣) المضراب : ما يضرب به العود .

(٤) انظر لما كتبت فى تحقيق النيروز والمهرجان نوادر المخطوطات ٢ : ٤ — ١٤ .

(٥) من مذاهب العرب أن الرجل منهم كان إذا خدرت رجله ذكر من يحب أو دعاه فيذهب خدرها . قال جميل :

وأنت لعينى قرة حين تلتقى　　وذكرك يشفينى إذا خدرت رجلى

وقال الموصلى :

والله ما خدرت رجلى وما عثرت　　إلا ذكرتك حتى يذهب الخدَر

انظر بلوغ الأرب ٢ : ٣٢٠ — ٣٢١ .

ثم أخبرتْه أنها لا تنام شوقاً إليه ، ولا تتهنّأ بالطعام وجداً به ، ولا تملّ ـ إذا غاب ـ الدُّموعَ فيـه ، ولا ذكرتْه إلا تنغّصت ، ولا هتفتْ باسمه إلّا ارتاعت ، وأنّها قد جَمَعتْ قنّينةً من دُموعها من البكاء عليه ، وتنشد عند موافاة اسمِه بيتَ المجنون :

وأهوى من الأسماء ما وافق اسمَها وَأشبَهَه ، أو كانَ منه مُدانِيا[1]

وعند الدُّعاء به قوله :

وداعٍ دعا إذْ نحن بالخيف من مِنًى
فهيّج أحزانَ الفؤادِ وما يدرى[2]
دعا باسم ليـلَى غيرَها فكأنّما
أطارَ بليلَى طائراً كان في صـدرى

وربّما قادها التّمويه إلى التصحيح ، وربّما شاركت صاحبَها في البلوى حتّى تأتى إلى بيته فتمكّنه من القبلة فما فوقها ، وتُفرِشه نفسَها إن استحلّ ذلك منها ، وربّما جحدت الصناعة لترحض عليه[3] ، وأظهرت العلّة والتأثت على الموالى ، واستباعت من السادة ، وادّعت الحريّة احتيالاً لأن يملكها ، وإشفاقاً أن يجتاحه كثرةُ ثمنها ، ولا سيّما إذا صادفتْه حلوَ الشمائل ، رشيق الإشارة ، عذبَ اللّفظ ، دقيق الفهم ، لطيفَ الحسّ ، خفيفَ الرُّوح . فإن كان يقول الشعر ويتمثّل به أو يترنّم كان أحظى له عندها .

---

(١) فى الأغانى ٢ : ٦ : « أحب من الأسماء » .

(٢) فى الأغانى ١ : ١٦٧ : « فهيج أطراب » .

(٣) كذا . وفى ط : « لترخص عليه » .

١٨٧ و

وأكثر أمرها قلة المناصحة ، واستعمال الغَدر والحيلة فى استنطاف ما يحويه المربوط والانتقال عنه . وربّما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنّهم يتحامَون من الاجتماع ، ويتغايَرُون عند الالتقاء ، فتبكى لواحدٍ بعين ، وتضحك للآخر بالأخرى ، وتغمز هذا بذاك ، وتعطى واحداً سرَّها والآخر علانيتَها ، وتُوهمه أنَّها له دونَ الآخر ، وأنَّ الذى تُظهِر خلافُ ضميرها . وتكتب إليهم عند الانصراف كتبًا على نسخة واحدة ، تذكر لكلٍّ واحدٍ منهم تبرُّمَها بالباقين وحرصَها على الخلوة به دونهم .

فلو لم يكن لإبليس شَرَكٌ يقتل به ، ولا عَلَمٌ يدعو إليه ، ولا فِتنة يستهوى بها إلّا القيانُ ، لكفاه .

وليس هذا بذمٍّ لهنَّ ، ولكنّه من فرط المدح . وقد[1] جاء فى الأثر : « خير نسائكم السَّواحر الخلّابات » .

وليس يُحسن هاروتُ وماروت ، وعصا موسى ، وسَحَرة فرعون ، إلّا دونَ ما يُحسِنه القيان .

ثم إذا منهنَّ الزِّنى غَلبه عليهنَّ مخارجُ بيوت الكشاخنة ترميهنَّ فى حُجور الزُّناة[2] . ثم هنَّ أمّهاتُ أولادٍ من قد بلغ بالحبِّ لهنَّ أنْ غفروا[3]

---

(١) فى الأصل و ط : « وإن » ، والتصحيح لفشكل .

(٢) فى الأصل : « ثم هذا منعهن الزنى أغلبه عليهن ومخارج بيوت الكشاخنة تربيتهن فى حجور الزناة » ، صوابه فى ط . والكشاخنة : جمع كشخان ، والكشخان : الديوث ، وهو القوّاد على أهله .

(٣) فى الأصل : « أمهات أولادهن » وفيها أيضاً زيادة « على » قبل « أن غفروا » ، وأثبت ما فى ط . وإفراد الضمير العائد على « من » ثم جمعه بعد ذلك مألوف فى كلام العرب ، ومنه قراءة : « لمن أراد أن يتموا الرضاعة » .

لهنّ كلَّ ذنب ، وأغضَوْا منهنّ على كلّ عيب .

وإذا كنّ فى منزل رجلٍ من السُّوقة عَذَرتهنّ[١] ، وإذا انتقلن إلى منازل الملوك زال العُذْر . والسببُ فيه واحد ، والعلّة سواء .

وكيف تَسلم القَينةُ من الفِتنة أو يمكنها أن تكون عفيفةً ، وإنما تُكتسب الأهواء ، وتُتعلَّم الألسنُ والأخلاقُ بالمنشأ ، وهى تنشأ من لَدُن مولدِها إلى أوانِ وفاتها بما يصدُّ عن ذكر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب والأخانيث ، وبين الخُلَعاء والمُجّان ، ومن لا يُسمع منه كلمةُ جِدٍّ ولا يُرجَع منه إلى ثقةٍ ولا دينٍ ولا صيانة مروّة .

وتروى الحاذقةُ منهن أربعةَ آلافِ صوتٍ فصاعداً ، يكون الصَّوتُ فيما بين البيتين[٢] إلى أربعة أبيات ، عددُ ما يدخل فى ذلك من الشِّعر إذا ضُرِب بعضه ببعض عشرةُ آلاف بيتٍ ، ليس فيها ذِكرُ الله إلّا عن غفلة ولا ترهيب [مِنْ] عقاب ، ولا ترغيبٌ فى ثواب ؛ وإنما بُنيتْ كلُّها على ذكر الزّنى والقيادة ، والعِشْق والصَّبوة ، والشَّوق والغُلْمة .

١٨٧ ظ

ثم لا تنفكُّ من الدراسة لصناعتها منكبّةً عليها[٣] ، تأخذ من المُطارِحين الذين طَرْحُهم كلُّه تجميشٌ وإنشادُهم مراودة[٤] . وهى مضطرّةٌ إلى ذلك فى صناعتها ؛ لأنّها إن جَفَتْها تفلّتت ، وإنْ أهملتْها نَقصتْ ، وإن لم تستفِد

---

(١) فى الأصل : « عيرهن » ، صوابه فى ط .

(٢) كلمة « بين » ساقطة من الأصل ثابتة فى ط .

(٣) فى الأصل : « ومنكبة عليها » ، والوجه إسقاط الواو كما فى ط .

(٤) التجميش : المغازلة . وفى الأصل : « وأشدهم مرواده » ، صوابه من ط .

منها وقفتْ . وكلٌّ واقف فإلى نقصانٍ أقرب . وإنَّما فَرق بين أصحاب الصناعات وبين من لا يُحسنُها التزيُّدُ فيها ، والمواظبةُ عليها . فهى لو أرادت الهُدى لم تعرفْه ، ولو بَغت الغفلة لم تقدر عليها ، وإنْ ثبَتت حُجَّة أبى الهُذَيل[1] فيما يجب على المتفكِّر زالت عنها خاصّته ؛ لأنَّ فكرها وقلبها ولسانها وبدنها ، مشاغيلُ بما هى فيه ، وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك فى نفسها لمن يلى مجالستها عليه وعليها .

ومن فضائل الرجل منّا أنّ الناس يقصدونه فى رَحلِهِ بالرَّغبة كما يُقصَد بها للخلفاء والعظماء ، فيُزار ولا يُكلَّف الزيارة ، ويُوصَل ولا يُحمَل على الصِّلة ، ويُهدَى له ولا تُقتَضى منه الهديَّة ، وتبيت العيون ساهرةً والعيون ساجمة ، والقلوب واجفة ، والأكباد متصدِّعة ، والأمانى واقفة ، على ما يحويه مِلكه وتضمُّه يده ، مما ليس فى جميع ما يباع ويُشترَى[2] ، ويستفاد ويُقتَنى ، بعد العُقَد النَّفيسة . فمن يبلغُ شيئاً من الثمن ما بلغت حبشيَّةُ جاريةُ عَوْن ، مائةَ ألفِ دينار وعشرون[3] ألفَ دينار .

ويرسلون إلى بيت مالكها بصنوف الهدايا من الأطعمة والأشربة ، فإذا جاءوا حَصَلوا على النظر وانصرفوا بالحسرة ، ويجتنى مَولاها ثمرةَ ما غَرسوا ، ويتملَّى به دونهم ، ويُكفَى مؤونةَ جواريه .

---

(١) أبو الهذيل محمد بن الهذيل المعروف بالعلاف المعتزلى . انظر الفرق بين الفرق ١٠٢ والملل ١ : ٦٢ والمواقف ٦٢١ ومفاتيح العلوم ١٨ .

(٢) فى الأصل : « ولا يشترى » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٣) ط : « وعشرين » .

١٨٨ و فالذى يقاسيه الناسُ من عَيلة العِيال ، ويفكِّرون فيه من كثرة عددهم وعظيم مؤونتهم ، وصعوبة خدمتهم ، [هو][1] عنه بمعزلٍ : لا يهتمّ بغلاء الدقيق ، ولا عَوَز السَّويق ، ولا عِزّة الزيت ، ولا فَساد النبيذ ؛ قد كُفِيَ حَسرتَه إذا نَزُر ، والمصيبةَ فيه إذا حَمَض ، والفجيعةَ به إذا انكسر .

ثم يَستقرض إذا أعسَرَ ولا يُرَدّ ، ويَسأل الحوائجَ فلا يُمنَع ، ويُلقَى أبدًا بالإعظام ، ويكنَّى إذا نودىَ ، ويُفدَّى إذا دُعى ، ويُحيَّا بطرائف الأخبار[2] ، ويُطْلع على مكنون الأسرار ، ويتغاير الرُّبطاء عليه ، ويتبادرون فى برّه ، ويتشاحُّون فى ودّه ، ويتفاخرون بإيثاره .

ولا نعلم هذه الصِّفة إلّا للخلفاء : يُعطَون فوق ما يأخذون ، وتحصُل بهم الرغائب ، ويُدرَك منهم الغنى .

والمقيِّن يأخذ الجوهر ويُعطى العَرَض ، ويفوز بالعين ويعطى الأثَر ، ويَبيع الرِّيح الهابَّةَ بالذَّهب الجامد ، وفِلَذ اللُّجين والعسجد . وبين المرابطين وبين ما يريدون منه خَرطُ القَتاد ؛ لأنّ صاحب القيان لو لم يترك إعطاء المربوط سُؤْله عِفّةً ونَزاهة ، لَتَرَكه حذقًا واختيارًا ، وشُحًّا على صناعته ، ودفعًا عن حريم ضيعته ؛ لأن العاشق متى ظفر بالمعشوق مرّةً واحدة نقص تسعةُ أعشار

---

(١) ليست فى الأصل ، وزادها فنكل .

(٢) ط : « بطريف الأخبار » .

عشقه ، ونقص من برّه ورفده بقدر ما نقص من عشقه . فما الذى يحمل المقيّنَ على أنْ يهبك جاريته ، ويكسِرَ وجهه ويصرف الرّغبة عنه .

ولولا أنّه مثَلٌ فى هذه الصناعة الكريمة الشريفة لِمَ يُسْقِط الغَيرةَ عن جواريه ويعنى بأخبار الرّقباء[1] ، ويأخذ أجرة المَبيت ويتنادم قبل العِشاء ، ويُعرِض عن الغَمْزة ، ويَغفِر القبلة ، ويتغافل عن الإشارة ، ويتعامى عن المكاتَبة ، ويتناسى الجارية يومَ الزِّيارة ، ولا يُعاتبها على المبيت ، ولا يفضّ ختام سِرّها ، ولا يسألها عن خَبَرها فى ليلها ، ولا يَعْبأ بأن تُقفَل الأبوابُ ، ويُشَدّدَ الحِجاب ، ويُعِدّ لكلّ مربوطٍ عُدّةً[2] على حِدَة ، ويَعرِف ما يَصلح لكلٍّ واحدٍ منهم[3] ، كما يميّز التاجرُ أصنافَ تجارته فيسعِّرها على مقاديرها . ١٨٨ ؛

ويعرف صاحب الضياع أراضيه لمزارع الخُضَر[4] والحِنطة والشعير . فمن كان ذا جاهٍ من الرُّبطاء اعتمدَ على جاهه وسأله الحوائج . ومن كان ذا مالٍ ولا جاهَ له استقرَضَ منه بلا عِينَة[5] . ومن كان من السُّلطان بسببٍ كُفِيت به عاديةُ الشُّرَط والأعوان ، وأُعلِنت فى زيارته الطبول والسُّرَانَى[6] ، مثل سلمة

---

(١) فى الأصل : « ويسى اختيار الرقباء » ، وأثبت ما فى ط .

(٢) فى الأصل و ط : « علة » ، صوابه فى ط .

(٣) فى الأصل و ط : « كل واحد منهم » ، والوجه ما أثبت .

(٤) الخضر : جمع خَضِرة ، وهى الخضراء من النبات .

(٥) العينة ، بالكسر : الربا .

(٦) السرانى : جمع سرناى . والسرناى بضم السين ، كلمة فارسية معناها البوق الذى ينفخ فيه ويزمر . معجم استينجاس ٦٧٨ والبيان والتبيين ١ : ٢٠٨ .

الفُقَّاعى[١] ، وحَمْدون الصَّحنانى[٢] ، وعلىّ الفامىّ[٣] ، وحَجَر التَّور[٤] ، وفَقْحة ، وابن دَجاجة ، وحَفْصَويه ، وأحمد شَعْرة ، وابن المجوسىّ ، وإبراهيم الفلام[٥] .

فأىُّ صناعة فى الأرض أشرف منها !

ولو يَعْلَمُ هؤلاء المسَمَّونَ فرقَ ما بين الحلال والحرام لم ينسُبوا إلى الـكَشْخ[٦] أهلها ؛ لأنّه قد يجوز أن تباع الجارية من المَلِىء فيصيبُ منها وهو فى ذلك ثقة ، ثم يرتجعُها صاحبُها بأقلَّ مما باعها به فيحصُل له الرِّبح ، أو تُزَوَّجَ ممن يثق به ويكون قصدُه للمتعة .

فهل على مزوَّجة من حَرَج ، وهل يفرُّ أحدٌ من سعة الحلال إلّا[٧] الحائن الجاهل[٨] ، وهل قامت الشهادة بزناء[٩] قطُّ فى الإسلام على هذه الجهة .

* * *

(١) الفُقّاعى : نسبة الفقاع ، كرمان ، وهو شراب يتخذ من الشعير .

(٢) الصحنانى : نسبة إلى الصحناء ، بالـكسر ، وهو إدام يتخذ من السمك ، فارسية ، والعرب تسميها الصير . ط : « الصحناوى » .

(٣) الفامى : نسبة إلى « فامية » مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص ، ويقال لها أيضاً « أفامية » . ط : « الفامى » ، تحريف .

(٤) أصل التور إناء من صفر أو حجارة كالإجانة . ط : « حجر النور » .

(٥) ط : « إبراهيم العلام » .

(٦) الـكشخ ، من قولهم للشاتم : لا تـكشخ فلانا ، أى لا تقل له يا كشخان . والـكشخان : الديوث ، كما سبق فى ص ١٧٥ .

(٧) فى الأصل : « إلى » ، ووجهه من ط .

(٨) الحائن : الهالك . ط : « الخائن » .

(٩) كذا فى الأصل ، وهى صحيحة وفى ط : «الزنا» . والزنى يمد ويقصر فإن

هذه الرسالة التى كتبناها من الرواة منسوبة إلى من سمَّيناها فى صدرها . فإن كانت صحيحةً فقد أدّينا منها حقَّ الرواية[١] ، والذين كتبوها أولى بما قد تقلَّدوا من الحجّة منها . وإن كانت منحولة من قِبَل الطُّفيليّين ؛ إذْ كانوا قد أقاموا الحجّة فى اطّراح الحشمة ، والمرتبطين[٢] ليسهّلوا على المقيِّنين ما صنعه المقترفون[٣] .

فإن قال قائل : إنَّ لها فى كل صنفٍ من هذه الثلاثة الأصناف حظًّا وسببًا فقد صدَق . وبالله سبحانه التوفيق[٤] .

* * *

= قصر كتب بالياء لأن أصله يائى . قال الجعدى :

كانت فريضة ما تقـــول كما　　كان الزناء فريضة الرجم

وهذا على القلب ، أى كما كان الرجم فريضة الزناء .

(١) ط : « منها الرواية » ، بإسقاط « حق » .

(٢) فى الأصل : « والمرتبكين » ، وفى ط : « والمرتـكبين » وانظر ما سبق .

(٣) ط : « المقرفون » .

(٤) بعده فى ط : « ومنه الهداية إلى الطريق ، والحمد لله وحده وكفى » .

١٧٩ و تمت الرسالة فى القيان ، من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله تعالى ومنّه وتوفيقه ، وتأييده ومشيئته .

والله سبحانه المسئول فى التجاوز عن الخطأ واللغو فى نقل ذلك[1] ، والمرتجى عفوُه ومغفرتُه برحمته .

يتلوه إن شاء الله : (كتاب ذمّ أخلاق الكُتَّاب) من كلامه أيضاً ، والله الموفِّق للصواب .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامُه ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

---

(١) إلى هنا ينتهى ختام النسخة فى ط .

١٥

كِتَابُ

ذَمِّ أخلَاقِ الكُتّاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الخامسة عشرة من رسائل الجاحظ فى مجموعة داماد ، وعنوانها :

« كتاب ذم أخلاق الكتّاب »

وجاء ذكره فى معجم الأدباء ١٦ : ١٠٩ برسم « كتاب رسالته فى ذم الكتاب » كما ذكر ياقوت أيضاً « كتاب رسالته فى مدح الكتاب » .

ومن هذه الرسالة نسختان :

الأولى : نسخة الأصل ، وهى نسخة مكتبة داماد .

والثانية : النسخة التى نشرها « يوشع فنكل » فى المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ هـ فى مجموع ثلاث رسائل ، كما سبق القول فى تقديم الرسالة الرابعة عشرة . وقد رمزت لها بالرمز « ط » .

ونص الرسالة فى نشرة « فنكل » يستوعب ما بين ص ٤٠ إلى ص ٥٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٩٠ ظ

حفظك الله وأبقاك وامتع بك .

قد قرأت كتابك ومدحتك أخلاق الكتّاب وأفعالهم[1] ، ووصفك فضائلهم وأيامهم ، وفهمته .

ومتى وقع الوصفُ من القائل تعصبًا ، والنعت من الواصف تألفًا ، قلّ شهداؤه وكثر خصماؤه ، وخفّت المؤونة على مجاوبيه فى دعواه ، وسهلت مناسبة الأدنياء له فى معناه . لأنّ أغاظ المحن ما عُرض على المشهود فأزاله ، وتصفّحه المعقولُ فأحاله .

وأضعفُ العلل ما التُمس بعد المعلول ، ونصبتَ له علمًا على الموجود بعد الوجود . وإذا تقدّم المعلولَ عِلّته[2] والمخبر عنه خبره ، استغنى عن الحاكم ، وظهر عَوار الشاهد .

فقد رأيتك أطنبتَ بإحماد هذا الصّنف من الناس ، وحكمتَ بفضيلة هذه الطبقة من الخلق ، فعلمتُ أنّ فرطَ الإعجاب من القائل متى وافقَ صناعة المادح رسخ فى التركيب هواه ، ورسبت[3] فى القلوب أوتاده ، واشتدّ على

(١) ط : « فعالهم » . والفعال بالفتح : العمل الحميد . لكن اتفقت النسختان فيما سيأتى فى أن تكون الكلمة « أفعالهم » .

(٢) فى الأصل : « عنه » .

(٣) كذا فى الأصل وط . وهى صحيحة . يقال : رسب : ذهب سفلا . وجبل راسب : ثابت .

المُناظِر[١] إفهامه ، وعلى الخاصم بالحقّ توقيفه ، وكان حكمُه فى صعوبة فَسْخه وتعذُّر دفعِه حكمَ الإجماع إذا لاقَى محكمَ التنزيل .

ولستُ أدعُ مع ذلك توقيفك على موضع زَللك[٢] فى الاحتجاج ، وتنبيهَك على النكتة من غَلطك فى الاعتلال ، بما لا يمكن[٣] السامعَ إنكارُه ولا ينسَاغُ[٤] له إبطاله . وأبيِّن مع ذلك رداءة مذاهب الكتّاب وأفعالهم[٥] ، ولؤم طبائعهم وأخلاقهم بما تعلم أنت والناظرُ فى كتابى هذا : أنّى لم أقل إلاّ بعد الحجّة ، ولم أحتجَّ إلاّ مع ظُهور العِلّة ، ثم أستشهِدُ مع ذلك الأضدادَ تبياناً[٦] ، وأجمع عليه الأعداء إنصافاً[٧] ، إذ كان فى ذلك من التبيان ما يبهرهم ، ومن القول ما يسكتهم .

ثم أقول : ما ظنُّك بقوم منهم أوّل مرتدّ كان فى الإسلام ، كَتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لخالف فى كتابه إملاءه ، فأنزل الله فيه آياتٍ من القرآن نَهى فيه عن اتخاذه كاتباً ، فهربَ حتى ماتَ بجزيرة العرب كافراً ، ١٩١ و وهو عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح[٨] .

---

(١) ط : « الناظر » ، وما هنا صوابه .

(٢) فى الأصل : « ذلك » ، صوابه فى ط . والزلل : الخطأ .

(٣) فى الأصل : « ينكر » ، صوابه فى ط .

(٤) الكلمة غير واضحة فى المصورة ، وقراءتها من ط .

(٥) انظر ماسبق أول الرسالة .

(٦) فى الأصل : « فلا تبيانا » ، صوابه فى ط .

(٧) فى الأصل : « فصافا » ، صوابه من ط .

(٨) فى الإصابة ٤٧٠٢ فى ترجمته : « فأزله الشيطان فلحق بالكفار ، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتل ـ يعنى يوم الفتح ـ فاستجار له عثمان فأجاره =

ثم استكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده معاويةَ بنَ أبي سفيان، فكان أوّل من غَدر في الإسلام بإمامِه، وحاول نَقضَ عُرَى الإيمان بأثامِه.

وكتب عثمان بن عفّان لأبي بكر رضوانُ الله عليهما ـ مع طهارة أخلاقه وفضائل أيّامه ـ فلم يمتْ حتى أدّاه عِرقُ الكتابة إلى ذمٍّ من ذمّه من أوليائه.

ثم كتب لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه زيادُ بن أبيه، فانعكسَ شرٌّ ناشئٌ في الإسلام، نُقِضت بدعوته السُّنّة، وظهرت في أيّام ولايته بالعراق الجَبْرية.

ثم كتب لعثمان بن عفان رضي الله عنه مَروانُ بن الحكم، فخانَه في خاتَمه، وأشعلَ الرّعيّة حرباً عليه في مُلكه.

ثم أفضى الأمر إلى علي بن أبي طالب رضوان الله عنه، فتبيّن من البصيرة في الكتّاب ما لم يرَ[1] التنويه بذكرِ كاتبٍ حتّى مات.

ولو كانت الكتابة شريفةً والخطُّ فضيلة كانَ أحقَّ الخلق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أولى الناس ببلوغ الغاية فيها ساداتُهم

= النبي صلى الله عليه وسلم». وذكر بعد ذلك أن عثمان أقره على مصر؛ وكان محموداً في ولايته. وأنه قال: «اللهم اجعل آخر عملي الصبح» فتوضأ ثم صلى فسلم عن يمينه ثم ذهب يسلم عن يساره فقبض الله روحه سنة ٥٩ في آخر عهد معاوية. فالقول بأنه مات كافرا موضع شك شديد. ونحو ذلك في الاستيعاب ١٥٥٣ وفيه أيضاً أنه أسلم أيام الفتح، فحسن إسلامه فلم يظهر منه شيء ينكر عليه بعد ذلك. وانظر جمهرة ابن حزم ١٧٠.

(١) في الأصل: «ترى»، صوابه في ط.

وذوو القدر والشرف فيهم . ولكنَّ الله منَع نبيَّه صلى الله عليه وسلم ذلك ، وجعل الخطَّ فيه دَنِيَّة ، وصَدَّ العِلْم به عن النبوّة[١] . ثم صيّر المَلِكَ فى مُلكه ، والشَّريفَ فى قومه يتبجَّح[٢] برداءة الخط ، ويذبل بشَنَج الكِتّاب[٣] . وإنَّ بعضهم كانَ يقصد[٤] لتقبيح خطِّه وإنْ كان حُلوا ، ويرتفع عن الكِتاب بيده — وإن كان ماهراً — وكان ذلك عليه سهلاً — فيكلِّفه تابعَه ، ويحتشم من تقليده الخطيرَ من جلسائه[٥] .

وكتب أحمد بن يوسف يوماً بين يدى المأمون خطّاً أعجبه فقال : وددتُ والله أنّى كتبتُ مثلَه وأنّى مُغرَمٌ[٦] ألفَ ألف . فقال له أحمد بن يوسف : لا تأسَ عليه يا أمير المؤمنين ، فإنَّه لو كان حَظًّا ما حُرِمَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

١٩١ظ ومع ذلك إنَّ سِنخ[٧] الكتابة بُنى على أنَّه لا يتقلَّدها إلاّ تابع ، ولا يتولاّها إلاَّ من هو فى معنى الخادم . ولم نرَ عظيماً قطُّ تولَّى كفاية نفسه[٨] ،

---

(١) فى الأصل : « على النبوة » ، وفى ط : « وسد العلم به على النبوة » .

(٢) التبجح : الفخر والتباهى . ط : « ينجبح » ، تحريف .

(٣) الشنج : التقبض والتقاص ، وفى الأصل : « بشنج » . وفى ط : « بقبح » .

(٤) فى الأصل : « كان أن بعضهم كان أن بعضهم كان يقصد » ، وأثبت ما فى ط .

(٥) أى أن يقلد القيام بالخط رجلا خطيراً من جلسائه فيكله إلى تابعه غير الخطير ، أو من هو فى معنى الخادم كما سيأتى .

(٦) فى الأصل : « مغرما » ، صوابه فى ط .

(٧) السنخ ، بالكسر : الأصل . وفى ط : « قبح » ، وما هنا صوابه .

(٨) كتبت « تولى » فى الأصل برسم « تولا » وفى ط : « تولاها بنفسه » .

أو شارك كاتبه في عمله . وكلُّ كاتب فمحكومٌ عليه بالوفاء ، ومطلوبٌ منه الصَّبر على اللأواء . وتلك شروطٌ متنوعة عليه ، ومحنةٌ مستكملة لديه .

وليس للكاتب اشتراط شيء من ذلك ، بل يناله الاستبطاء عند أول الزَّلَّة وإن أكدَى ، ويدركه العذْل[١] بأوَّل هفوةٍ وإن لم يرضَ[٢] .

يجب للعبد استزادةُ السيِّد بالشكوى ، والاستبدال به إذا اشتهى . وليس للكاتب تقاضي فائتِه إذا أبطأ ، ولا التحوُّل عن صاحبه إذا التوى . فأحكامُه أحكام الأرِقَّاء ، ومحلُّه من الخدمة محل الأغبياء .

ثم هو مع ذلك في الذِّروة القصوى من الصَّلَف ، والسَّنامِ الأعلى من البَذَخ ، وفي البحر الطامي من التِّيه والسَّرف[٣] . يتوهَّم الواحد منهم إذا عرَّض جُبَّتَه[٤] وطوَّل ذيلَه ، وعقَص على خدِّه صُدغَه ، وتحذف الشابورتين[٥] على وجهه ، أنَّه المتبوع ليس التابعَ ، والمليك فوق المالك .

ثم الناشئ فيهم إذا وطئ مقعد الرياسة ، وتورَّك مشورة الخلافة ، وحُجزت السِّلَّةُ دونه[٦] ، وصارت الدواةُ أمامَه ، وحفِظ من الكلام فَتِيقَه[٧] ، ومن العلم مُلَحَه ، وروى لبُزُرْجِمهر أمثالَه ، ولأردشير عَهْده ،

(١) ط : «العدل» ، وما هنا صوابه .

(٢) في الأصل : « يرضى » .

(٣) في الأصل : « والسرف » ، صوابه في ط .

(٤) في الأصل : « جبينه » ، صوابه في ط .

(٥) وفي ط : « وتحذف الشابورتين » ولم يتضح لي وجه العبارة .

(٦) لعله يعني سلة الشكاوى والرقاع .

(٧) الفتيق : الفصيح المنقح . والكلمة مهملة النقط في الأصل .

ولعبد الحميد رسائلَه ، ولابن المقفَّع أدبَه ، وصيَّر كتاب مَزْدَك[١] معدِنَ علمه ، ودفترَ كليلةَ ودمنة كنزَ حِكمته ـ [ظنَّ[٢]] أنَّه الفاروق الأكبر فى التدبير ، وابنُ عبّاسٍ فى العلم بالتأويل ، ومُعاذ بن جَبَلٍ فى العلم بالحلال والحرام ، وعلىُّ ابن أبى طالب فى الجرأة على القضاء والأحكام ، وأبو الهُذَيل العلّاف[٣] فى الجزء والطَّفرة[٤] ، وإبراهيم بن سيار النظَّام فى المكامنات والمجانسات[٥] ، وحسينٌ النَّجّار فى العبارات[٦] والقول بالإثبات ، والأصمعىُّ وأبو عبيدة فى معرفة اللغات والعِلم بالأنساب . فيكون أوّل بَدْوِه الطعنَ على القرآن فى تأليفه ، والقَضاء عليه بتناقضه . ثم يُظهِر ظَرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين مَن نَقَل الآثار . فإن استرجَحَ أحدٌ عنده أصحابَ الرسول صلى الله عليه وسلم فَتَل عند ذِكرهم شِدقه[٧] ، ولوى عند محاسِنهم كَشحَه . وإن ذُكر عنده

١٩٢ و

(١) فى الأصل : « مروك » ، صوابه فى ط . وانظر حواشى البيان ٣ : ٣٥٠ .

(٢) بها أو بمثلها يلتئم الكلام .

(٣) هو أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف المعتزلى . الفرق بين الفرق ١٠٢ والملل ١ : ٦٢ والمواقف ٦٢١ .

(٤) الجزء ، يعنى الجزء الذى لا يتجزأ . انظر حواشى الحيوان ٣ : ٣٨ ، والفرق بين الفرق ١١٣ . وفى الأصل وط : « الجر » ، تحريف . وانظر الكلام على الطفرة الحيوان ٤ : ٢٠٨ .

(٥) المكامنات ، يعنى بها الكمون ، وهو مذهب كلامى ، يزعم أصحابه أن النار كامنة فى الحجر ، وفى دهن السراج ، كما يكمن الدم فى الإنسان . وانظر حواشى الحيوان والمجانسات ، يعنى بها أن الحيوان . كله جنس واحد ، وأن أفعاله كلها من جنس واحد . انظر الفرق بين الفرق ١٢٠ — ١٢١ .

(٦) ط : « العبادات » . وانظر الفرق بين الفرق ١٩٥ — ١٩٨ .

(٧) فتل شدقه : لواه استنكاراً .

شُرَيح[١] جرَّحه ، وإن نعِتَ له الحسَنُ استثقله ، وإن وُصف له الشعبيُّ استحمقه ، وإن قيل له ابنُ جُبَير[٢] استجهله ، وإن قدِّم عنده النَّخَعيُّ[٣] استصغره .

ثم يقطع ذلك من مجلسه سياسةُ[٤] أردَشِير بابَكان[٥] ، وتدبيرُ أنو شِروان ، واستقامة البلاد لآل ساسان .

---

(١) هو أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس الكندى الكوفى القاضى ، كان من أبناء الفرس الذين كانوا باليمن ، واستقضاه عمر على الكوفة ، ثم عثمان ، وأقره على وكان يقول له : أنت أقضى العرب . وولاه زياد قضاء البصرة . توفى سنة ٧٢ . الإصابة ٣٨٧٥ وتهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣ وابن خلكان والمعارف ١٩١ .

(٢) هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدى الكوفى ، وكان مولى أسود لبنى والبة من بنى أسد . وكان كاتباً لعبد الله بن عتبة بن مسعود حين كان على قضاء الكوفة ، ثم كتب لأبى بردة بن أبى موسى ، ثم خرج مع ابن الأشعث فى جملة القراء . وقتل سنة ٩٥ . وكان فقيها عابداً . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ٤٢ والمعارف ١٩٧ .

(٣) هو أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعى الكوفى الفقيه . روى عن مسروق ، وعلقمة ، وشريح ، وروى عنه الأعمش ومنصور وحماد بن سليمان . ولد سنة ٥٠ وتوفى سنة ٩٦ . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ٤٧ . وفى عيون الأخبار ١ : ٢٣٠ : « وحمل الناس عن إبراهيم النخعى وهو ابن ثمانى عشرة سنة » . ومثله فى المعارف ٢٠٤ .

(٤) ط : « بسياسته » .

(٥) هو أردشير بن بابك ، أول ملوك الفرس الساسانية ، وهو الذى أزال ملوك الطوائف . مروج الذهب ١ : ٢٤٣ والتنبيه والإشراف ٨٧ والحيوان ١ : ٧٢ ، ١٣٩ .

فإنْ حذِر العيون وتفقَّده المسلمون ، رجع بذكر السُّنن إلى المعقول ، ومحكَمِ القرآنِ إلى المنسوخ ، ونَفَى ما لا يُدْرَك بالعِيان ، وشَبَّهَ بالشاهد[1] الغائبَ . لا يرتضى من الكُتُب إلَّا المنطق ، ولا يحمد إلَّا الواقف ، ولا يستجيد منها إلا السَّائر .

هذا هو المشهور من أفعالهم ، والموصوف من أخلاقهم .

ومن الدليل على ذلك ، أنه لم يُرَ كاتبٌ قطُّ جعل القرآن سميره ، ولا علمَه تفسيرَه ، ولا التفقُّه فى الدِّين شعارَه ، ولا الحِفظ للسُّنن والآثار عماده ، فإن وُجِد الواحدُ منهم ذاكراً شيئاً من ذلك لم يكن لدوران فكَّيه به طَلاقة ، ولا لمجيئه[2] منه حلاوة . وإن آثر الفردُ منهم السَّعْىَ فى طلب الحديث ، والتَّشاغُلَ بذكر كتب المتفقِّهين، استثقله أقرانُه ، واستوخَمَهُ أُلَّافه ، وقضَوا عليه بالإدبار فى معيشته ، والحِرفة فى صناعته ، حين حاولَ ما ليس من طَبعه ، ورامَ ما ليس من شكله .

قال الزُّهرىّ لرجل : أيُعجبك الحديث ؟ قال : نعم . قال : أمَا إنَّه لا يعجب إلَّا الفحولَ من الرِّجال ، ولا يُبغِضه إلَّا إناثهم !

ولئن وافقَ هـذا القولُ من الزُّهرى فيهم مذهبًا ، إنَّ ذلك لَبيِّنٌ فى شمائلهم ، مفهوم فى إشاراتهم .

---

(١) الشاهد : الحاضر . ومنه : « وذلك يوم مشهود » ، أى يحضره أهل السماء والأرض .

(٢) ط : « ولا المحبة » ، وما هنا صوابه .

وسئل ثمامة بن أشرس يومًا ، وقد خرج من عند عمرو بن مَسْعَدة[1] ، فقيل له : ياأبا معن ، مارأيتَ من معرفةِ هذا الرّجُل وبلوتَ من فَهمِه ؟ فقال : ما رأيتُ قومًا نفرَتْ طباعُهم عن قَبول العلوم ، وصغُرت هِمَمُهم عن احتمال لطائف التمييز ـ فصار العلمُ سببَ جهلهم ، والبيانُ عَلَمَ ضلالتهم ، والفَحْصُ والنظر قَائدَ غَيّهم[2] ، والحكمةُ مَعْدِنَ شُبَهِهم ـ [أكثر[3]] من الكُتّاب . ١٩٢

وذكر أبو بكرٍ الأصمُّ[4] ابنَ المقفَّع فقال : مارأيتُ شيئًا إلَّا وقليلُه أخفُّ من كثيره إلَّا العلم ، فإنّه كلَّما كثُر خفَّ محمِلُه . ولقد رأيتُ عبد الله ابن المقفَّع هذا فى غزارة علمه وكثرة روايته ، كما قال الله عزّ ذكره : ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا[5] ﴾ . قد أوهنَه علمُه ، وأذهلَه حلمُه ، وأعمتْه حكمتُه ، وحَيّرَتْهُ بصيرته .

---

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول ، أحد الكتاب فى زمان المأمون . ذكر الخطيب فى تاريخ بغداد ١٢ : ٢٠٣ أنه ابن عم إبراهيم بن عباس الصولى . ومسعدة ، بفتح الميم والعين كما ضبطه ابن خلكان . توفى سنة ٢١٧ .

(٢) فى الأصل : « قائد عيهم » ، وفى ط : « حايد عنهم » ، تحريف .

(٣) ليست فى الأصل ولا فى ط .

(٤) اسمه عبد الرحمن بن كيسان ، كان من أئمة المعتزلة ، ذكره عبد الجبار الهمدانى فى طبقات المعتزلة وقال : كان من أفصح الناس وأورعهم وأفقههم ، وله تفسير عجيب . وهو من طبقة أبى الهذيل العلاف وأقدم منه . لسان الميزان ٣ : ٤٢٧ .

(٥) الآية ٥ من سورة الجمعة .

وكنّا فى مجلس بشرِ بن المعتمر يومًا وعندهُ المُرْدار[١] ، وثمامة[٢] ، والعَلّاف[٣] ، فى جماعةٍ من المعتزلة وأصحاب الكلام ، فتذاكروا العوامّ واستحواذَ الفتنة عليهم فى التقليد ، واستغلاقَ قلوبِهم بكثيرٍ مما ليس فى طبعهم[٤] ، فتعظُّمهم[٥] وتقضى لكلٍّ من نَبُل مِنهم بالصّواب فى قوله وإنْ لم يعلموا[٦] . لا يَدِينون بالحقيقة ، ولا يَحمَدون إلا ظاهر الحِلْية .

---

(١) المردار ، هو أبو موسى عيسى بن صبيح ، تلميذ بشر بن المعتمر ، كما ذكر الرازى . وقال البغدادى فى الفرق ١٥١ : « وكان يقال له راهب المعتزلة ، وهذا اللقب لائق به إن كان المراد به مأخوذا من رهبانية النصارى . ولقبه بالمردار لائق به أيضاً ، وهو كما قيل :

وقلما أبصرت عيناك من رجل إلا ومعناه إن فكرت فى لقبه

يشير البغدادى بهذا إلى أن « مردار » بالفارسية معناه القذر أو الجيفة . انظر استينجاس ١٢١٢ . وهو بضم الميم بعدها راء ساكنة . وفى الأصل : « المردان » وفى ط : « المدكان » صوابهما ما أثبت . وانظر الملل والنحل ١ : ٨٨ والمواقف ٦٢٢ واعتقادات الرازى ٤٢ . ويقع محرفاً أيضا بالمزدار .

(٢) ثمامة بن أشرس المعتزلى البصرى ، ورد بغداد واتصل بهارون وغيره من الخلفاء . وله أخبار ونوادر يحكيها عنه أبو عثمان الجاحظ وغير واحد . تاريخ بغداد ٧ : ١٤٥ — ١٤٨ .

(٣) العلاف ، هو أبو الهذيل محمد بن الهذيل المعتزلى الذى تنسب إليه الهذيلية . وقد سبقت ترجمته فى ص ١٧٧ ، ١٩٢ وفى الأصل : « والقلال » . وفى ط : « العلال » بدون واو قبلها . والوجه ما أثبت .

(٤) فى الأصل : « ما ليس » ، صوابه فى ط . وفى ط بعده : « من طبعهم » .

(٥) فى الأصل : « فتعظمه » ، ووجهه من ط . والمراد : فتعظم العوام من يقلدونهم . وكأن فى العبارة نقصا .

(٦) فى الأصل : « وإن لم يعلمه » ، صوابه فى ط .

ومن الدليل على نَذَالة طبعهم ، والعلم بِفَسَالة رأيهم[١] ، تقديمهم بالفضل لمن لايفهمونه[٢] ، وقضاؤهم بالعلم لمن لايعرفونه ، حتَّى إنهم يضربون بالكاتب فيما بينهم المثل ، ويحكمون له بالبصيرة فى الأدب ، على غير مُعاشرةٍ جرتْ بينهم ، ولا محبّةٍ ظهرت له منهم . ليس إلّا أنَّ هممهم صَغُرت عنهم ، وامتلأتْ قلوبهم منهم ، فصار المحفوظُ من أقوالهم ، والذى يدينون به من مذاهبهم : كيف لايأمن فلانٌ الخطأ مع جلالته ، وكيف ينساغ لأحدٍ تجهيلُه مع نبله . فإنْ وُقفوا على تمييزه هابوه ، وإن دُعوا إلى تفهُّمِه أكبروه ، وقالوا : لم يُنْصَب هذا بموضعه إلّا لخاصّةٍ فيه وإن جهِلْناها ، وفضيلةٍ موسومة وإن قَصُرَ عِلْمُنَا عنهم . ولعلّهُ عُمَرَ بن فَرَجٍ[٣] فى السَّفَه والمباهتة ، وإبراهيم ابن العبَّاس فى الشَّرَه والرَّقاعة ، ونَجَاح بن سَلَمَة[٤] فى الطَّيش والسخافة ، وأحمد بنُ الخصيب[٥] فى اللُّؤم والجهالة ، وآلُ وهب فى النَّهَم والنَّذالة ، ١٩٣ و

---

(١) الفسالة : الضعف . وفى الأصل : « بفسالة » ، وفى ط : « بسفالة » ، كلاهما محرف عما أثبت .

(٢) فى الأصل : « لا يفهموه » ، ووجهه من ط .

(٣) فى معجم البلدان عند الكلام على « رخج » ، كسكر ، وهى كورة ومدينة من نواحى كابل : « وينسب إلى الرخج فرج ، وابنه عمر بن فرج ، وكانا من أعيان الكتاب فى أيام المأمون إلى أيام المتوكل ، شبيها بالوزراء وذوى الدواوين الجليلة . وله أخبار فى الأغانى ٩ : ١٠٩ و ١٩ : ١٤١ وإعتاب الكتاب ١٤٥ .

(٤) سبقت ترجمته فى ١ : ٣٢٣ .

(٥) كان أحمد بن الخصيب كاتبا للواثق ، ثم نكبه حينا عمل محمد بن عبد الملك الزيات قصيدة وأوصلها إليه على أنها لبعض أهل العسكر . وفيها :

وابن الخصيب الذى ملكت راحته ... خلافة الشام والقازن والقفل

فنيل مصر وبحر الشام قد جريا ... بما أراد من الأموال والحلل =

ويحيى بن خاقان[1] فى الذُّلّ والفاقة ، وموسى بن عبد الملك فى الوَخَم والبلادَة ، وابن المدبِّر فى الخِبّ والمكابرة[2] ، والفضل بن مروان فى الفَـدامة مقصورةً[3] .

وفى عمر بن فرج يقول الشاعر :

لا تطلبِ الخيرَ من بنى فَرَجٍ لا باركَ اللهُ فى بنى فَـرَجِ

والعَنْ إذا ما لقيتَه عُمَـرًا لَعنًا يقينًا بأعظم الهَـرَجِ

فلعنةٌ إنْ لَعَنْتَها عُمَـرًا تَعْدِلُ مقبـولةً من الحِجَجِ

ليس على المفـترِى على عُمَرٍ من ضَرْبِ حَدٍّ يُخْشَى ولا حرجِ

وخُبِّرْت أنّ أبا العتاهية أتى يحيى بن خاقان يومًا ليسلِّم عليه ، فلم يأذنْ له حاجبُه فانصرفَ ، وأتاه يومًا آخرَ فصادفَه حينَ نزل فسلَّم عليه ، ودخل يحيى إلى منزله ولم يأذَنْ له ، فكتب إليه أبو العتاهية من ساعته رُقْعَةً فيها :

= وانظر إعتاب الكتاب ١٣٨ وجمع الجواهر ١٦٨-١٧٢ . وقد سرد الحصرى كثيراً من هجاء الأدباء له ، كما ذكر أنه كان القائم بأمر المنتصر بعد قتله أباه المتوكل واستيلائه على الخلافة ، فلما مات المنتصر أقره المستعين أحمد بن المعتصم على ما كان .

(١) يحيى بن خاقان : والد عبيد الله بن يحيى ، من كتاب الحسن بن سهل . انظر كتاب بغداد لابن طيفور ١٦٠ . وانظر كذلك التنبيه والإشراف ٣١٤ والوزراء والكتاب للجهشيارى ١٨٣ ، ١٨٦ والأغانى ٣ : ١٦٣ ، ١٨٠ : ٣٥ و ٢٠ : ٤٩ .

(٢) كذا فى الأصل و ط . ولعلها : « المكايدة » .

(٣) فى الأصل و ط : « مقصودة » . والوجه ما أثبت ، أى مقصورة عليه .

أراكَ تُراعُ حين تَرَى خيالى ... فما هذا يَرُوعُك من خيالى[١]

لعلك خائف منّى سؤالا ... ألا فلَكَ الأمانُ من السُّؤالِ

كفيتُكَ إنَّ حالَكَ لم تَمِل بى ... لأطلبَ مثلَهَا بدلًا بحالِى[٢]

وإنَّ العُسْرَ مثل اليُسر عندى ... بأيِّهما مُنِيتُ فما أُبالى

فلما قرأ يحيى بن خاقان رُقْعَتَهُ ووثق بأمانِهِ من السُّؤال أَذِنَ له ، فخرج الحاجب فوجَده قد انصرف ، ولم يَعُدْ إليه ، ولا التقيا بعد ذلك .

وَجَلَسَ الجاحظ[٣] يومًا فى بعض الدواوين ، فتأمّل الكُتَّاب فقال : خَلَقٌ حُلوة ، وشمائلُ معشوقة ، وتظرُّف أهل الفهم ، ووقار أهلِ العلم ، فإن ألقيت عليهم الإخلاصَ وجدتَهم كالزَّبد يَذْهب جُفاء ، وكنَبْتة الرَّبيع يُحرقها الهَيْف من الرياح[٤] ؛ لا يستندون من العلم إلى وثيقةٍ ، ولا يدينون بحقيقةٍ ؛ أخفرُ الخلق لأماناتهم ، وأشراهم بالثمن الخسيس لعهودهم ؛ الويلُ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون .

١٩٣ ظ

ثم وَصَفَ أصحاب الصناعات ، وذكر تعاطف أهلها على نظرائهم ، وتعصُّب رجالها على غيرهم فقال :

---

(١) أى فما ذا يروعك . والخبر فى الأغانى ٣ : ١٦٣ .

(٢) فى الأصل : « بحال » ، صوابه فى ط والأغانى .

(٣) فى الأصل : « وحبس الجاحظ » ، والوجه ما أثبت من ط . على أن الخبر التالى يبدو أنه دخيل على الكتاب .

(٤) الهيف ، بالفتح : ريح حارة تأتى من قبل اليمن . وهى النكباء التى تجرى بين الجنوب والدبور .

لا أعلم أهل صناعة إلا وهم يجرُون فى ذلك إلى غاية محمودة ، ويأتون منه آيةً مذكورة ، إلا الكُتّاب ، فإنّ أحدهم يتحاذق عند نظرائه بالاستقصاء على مثله ، ويسترجح رأيه إذا بلغ فى نكايه رجلٍ من أهل صناعته .

ثم ضرب لهم فى ذلك مثلا ، ثم قال : هم كالهرِمة[1] من الكلاب فى مرابضها ، يمرُّ بها أصناف الناس فلا تحرَّكُ[2] ، وإن مرَّ بها كلبٌ مثلها نهضَتْ إليه بأجمعها حتى تقتلَه .

وحدثنى عُمَر بن سيف ، أنه حضر مجلس أبى عبّاد ثابت بن يحيى[3] يومًا فى منزله ، وعنده جماعة من الكتاب ، فذكر ما هم عليه من ملائم الأخلاق ومدانس الأفعال ، قال : ووصف تقاطعهم عند الاحتياج ، و [عدم] تعاطفهم عند الاختلال[4] ، وزُهدَهم فى المواصلة فقال :

معاشر الكتاب ، ما أعلم أهل صناعة أملأ لقلوبِ العامّة منكم ، ولا النعمُ على قومٍ أظهر منها عليكم . ثم إنّكم فى غاية التقاطع عند الاحتياج ، وفى ذِروة الزُّهد فى التعاطف عند الاختلال . وإنّه ليبلغنى أنّ رجلًا من القصابين يكون

---

(١) فى الأصل : « كالهرهة » . وفى ط : « كالهرهرة » .

(٢) أى تتحرك ، بحذف إحدى التاءين . وفى ط : « تتحرك » .

(٣) كان أبو عباد ثابت بن يحيى من كتاب المأمون ثم من وزرائه . انظر التنبيه والإشراف ٣٠٤ ومختصر تاريخ ابن عساكر ٣ : ٣٧٢ .

(٤) الاختلال : الفقر والإعدام . وكلمة : « عدم » من مقترحات « فنكل » لاستقامة الكلام .

فى سُوقِهِ ، فيتلَف ما فى يديه ، فيخلّى له القصّابون سُوقَهم يومًا ، ويجعلون له أرباحَهم ، فيكون بربحِها منفرداً ، وبالبيع مُفرَدا ، فيسدُّون بذلك خَلّته ، ويَجبُرون منه كسرَه . وإنّكم لتَناكرون عند الاجتماع والتعارُف ، تناكُرَ الضِّباب والسَّلاحف ، ثم مع استحواذكم على صناعتكم ، وقلّة ملابسة أهل الصناعاتِ لها معكم ، لم أرَ[1] صناعة من الصناعات إلّا وقد يجمع أهلَها غيرَها إليها فيعانونها[2] جميعاً ، وينزلون[3] لضربٍ من التجاراتِ معاً ، إلّا صناعتكم هذه ؛ فإنّ المتعاطىَ لها منكم ، والمتسمّىَ بها من نظرائكم ، لا يليق به ملابسةُ سِواها ، ولا ينساغ له التّشاغل بغيرها . ثم كأنكم أولاد عَلّاتٍ ، وضرائر أُمَّهات ، فى عداوةِ بعضكم بعضا ، وحَنَقِ بعضِكم على بعض . أُفٍّ لكم ولأخلاقكم !

١٩٤ و

إنّ للكُتّابِ طبائع لئيمة ، ولولا ذلك لم يكن سائرُ أهلِ التجاراتِ والمكاسب بنظرائهم بَرَرةً ، ومن وَرائهم لهم حَفَظَة ، وأنتم لأشكالكم مُذِلّون ، ولأهل صنائعكم قالُون . قَبّحَ اللهُ الذى يقول قَضَينا فى الأمور بالأغلب . وعرفنا علل الناس فى مكاسبهم[4] وتعامُلهم ، فمن كانت علّته أكرمَ كان كرمُ فَعاله أعمَّ .

ولستُ أعلَمَ عِلّةً فى مكتسبٍ أنبلَ عند الخاصّة من مكسبكم .

---

(١) فى الأصل : « ولم أر » . والوجه حذف الواو كما فى ط .

(٢) فى الأصل وط : « فيعاونونها » ، صوابه فى ط من تصحيح « فنكل » .

(٣) فى الأصل وط : « ويتركون » . وهذا من تصحيح « فنكل » .

(٤) ط : « تكاسبهم » .

ثمَّ وَصَفَ مَن سلف من هذه الطّبقة يومًا فقال : كتب سالمٌ[1] لهشام ابن عبد الملك ، وكان أشدَّ الناسِ غَلطًا ، وأضعفَهم رأيًا ، وكان هشامٌ يُحضِره فيَسمع من ضَعْفِه ويستميحه الرأيَ ، يهزأ به .

ثم كتب لهم مَسْعَدة[2] وكان مؤدِّبًا ، وكانت ضَعْفة المؤدِّبين فيه[3] .

ثم كتب لهم عبدُ الحميد[4] وكان معلِّما ، وبتحامله على نصر بن سيار انتقضت خراسان ، وزال ملك بنى مَرْوان .

ثم كتب لبنى العباس عبد الله بن المقفَّع ، فأغرى بهم عبد الله بن على[5] ، ففُطِن له وقُتل وهُدم البيتُ على صاحبه .

ثم كتب لهم يونس بن أبى فروة[6] ، وكان زنديقًا ، فطُلب فاختفى

---

(١) كان سالم هذا مولى لسعيد بن عبد الملك ، وكتب لهشام كما فى التنبيه والإشراف ٢٧٩ . وكتب أيضاً للوليد بن يزيد كما فى الجهشيارى ٦٨ .

(٢) مسعدة الكاتب هذا ، والد عمرو بن مسعدة الذى سبقت ترجمته فى ص ١٩٥ . وكان مسعدة مولى لخالد القسرى ، وكان فى ديوان الرسائل بواسط ، كما فى عيون الأخبار ٣ : ١٧٣ .

(٣) الضعفة : ضعف الفؤاد وقلة الفطنة ، كما فى المعجم الوسيط .

(٤) هو أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بن سعد ، وكان من أهل الشام ، وكتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وقتل معه فى مدينة بوصير بمصر سنة ١٣٢ . وفيات الأعيان وسرح العيون ١ : ٢٥٦

(٥) انظر ابن خلكان ١ : ١٥ فى ترجمة الحسين بن منصور الحلاج .

(٦) ويقال له أيضاً يونس بن فروة ، كما فى الحيوان ٤ : ٤٤٦ حيث أورد الجاحظ شعرا يؤيد هذه التسمية . وكذا ورد بها فى جمع الجواهر ٢٠٩ والعمدة ٢ : ١٨٥ . والمعروف « ابن أبى فروة » كما فى لسان الميزان ٢ : ١٨٥ و ٦ : ٣٣٥ =

بالكوفة والنّيل(١) حتّى هَلَك .

واستكتب الرشيدُ أَزدَانقاذار(٢) على ديوان الخراج ، وكان ثَنَويًّا . ١٩٤ ظ

ثم لم ينوِّهوا بذكر كاتبٍ حتّى وليَ المأمون ، فقدِم معه ابن أبى العباس الطُّوسى ، فبه انتشرت السِّعاية بالعراق .

واستكتب أبا عبّاد(٣) ، وكان بالرّىّ مؤدِّبًا ، وكان سخيفا حديدا ، ولم يزل بمكانه فى ديوانه قيِّمًا لابن أبى خالد الأحول(٤) والاسمُ له .

ثم كتب له(٥) رجاء بن أبى الضحّاك(٦) ، وكان أظلمهم وأغشمهم ، واستخلف حفصويه على ديوان الخراج ، وكان ركيكا لسعايته .

= وأمالى المرتضى ١ : ١٣١ نقلا من كل منهما عن الحيوان ، والوزراء للجهشيارى ١٣٠ . وذكرهو وصاحب لسان الميزان أنه كان كاتبا لعيسى بن موسى . وهو من أجداد الفضل بن الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبى فروة — واسم أبى فروة كيسان — مولى الحارث الحفار . وإنما قيل له أبو فروة لأنه أدخل المدينة وعليه فروة ، فاشتراه عثمان وأعتقه وجعل يحفر القبور .

(١) النيل : بليدة فى سواد الكوفة . ط : « واكتبل » ، تحريف .

(٢) فى الأصل وط : « يزدا بعادان » ، تحريف ما أثبت . وانظر البيان ١ : ٧٢ والجهشيارى ١٦٩ .

(٣) اسمه ثابت بن يحيى ، كما فى التنبيه والإشراف ٣٠٤ . وكان مع ذلك من خواص المأمون ، كما فى مروج الذهب ٤ : ١٨ .

(٤) هو أحمد بن أبى خالد الأحول ، كما فى التنبيه والإشراف ٣٠٤ . وانظر نوادر المخطوطات ٢ : ١٩٩ والجهشيارى ٣١٨ .

(٥) فى الأصل : « لهم » ، صوابه فى ط .

(٦) له خبر فى العقد ٢ : ١٥٥ . وهو والد الحسن بن رجاء . وكان شاعراً . الفهرست ٢٣٦ . وكان على الخراج فى خلافة المعتصم . الطبرى (حوادث ٢٢٦) ، وتهذيب ابن عساكر ٥ : ٣١٦ .

ثم كتب لهم ابن يزداد[1] ، وكان أشقاهم ، حتى هلك .

وكتب لهم عمرو بن مسعدة ، وكان رسائليا فقط .

واسترجح المأمون وهو بخراسان قبل مقدمه من كتاب العراق على غير بَلْوَى[2] إبراهيم بن إسماعيل بن داود ، وأحمد بن يوسف ، فلما قدِم امتحنهما فتعنَّتا[3] ، فاستنهضهما فى الأعمال ففشلا ، فلم يعملا على شىء حتّى هلكا .

وكان إبراهيم شُعوبيا ، وكان يتهم بالثَّنوِيّة . فإن كان ذلك صحيحاً فقد كانت صَبابتُه بها على جهة التقليد فيها ، لا على جهة التفتيش والاحتجاج فيها . وهذه علة المرتدّ من سائر الكُتَّاب .

وقد قال أهل الفطن : إنّ محض العمى التقليد فى الزندقة ؛ لأنّها إذا رسَخَتْ فى قلبِ امرئٍ تقليداً أطالت جرأته ، واستغلق على أهل الجدل إفهامه .

وكان أحمد بن يوسف مأفونا ، وهو أول من قُرِف بالآفةِ المخالفة لطبع الكُتّاب .

واستَقْضَى على ديوان الخراج والجند إبراهيمَ الحاسب ، والحسنَ ابن أبي المشرف . فلَقِن إبراهيم من سائر الآداب والعلوم علمَ الحساب فقط ، ولم يُفزَع إليه فى قضيةٍ ولا رأيٍ حتى هلَك ، فكان الذى وضعه وأدناه شرهُه ، وهى علّةٌ قائمة فى كُتّاب الجند خاصة .

---

(١) اسمه محمد بن يزداد بن سويد . وقد توفى المأمون وهو على وزارته . التنبيه والإشراف ٣٠٤ .

(٢) البلوى : الاختبار .

(٣) ط : « فنعسا » .

واستضعف ولاةُ الدواوين الحسنَ بن أبي المشرف عند قول الفضل مروان له وهو على الوزارة[١] : « يا حسَنُ ، احتجنا إلى رجلٍ جزلٍ في رأيه ، متوفّر لأمانته ، متصرّف في الأمور بتجربته ، مستقدرٍ على الأعمال بعلمه ، تصف لنا مكانَه ، وتُشير علينا به ، فنقلّده جسيماً من عملنا » . فأجابه سريعاً قال : وجدتُه لك ـ أصلحكَ الله ـ كذلك . قال : من هو ؟ قال : أنا . وألحّ عليه في قوله ، فتبسّم الفضل وقال : هذا مِن غيرك فيك أحسنُ منك بلسانك لك ، نعُود وننظر إن شاء الله !

١٩٥ و

وحسبُك بقومٍ أنبلُهم أخسُّهم[٢] في الرِّزق مرتبة ، وأعظمهم غَناء أقلُّهم عند السُّلطان عقلاً . يُرزَق صاحب ديوان الرسائل ـ وبلسانه يخاطَب الخلق ـ العُشرَ من رزقِ صاحب الخراج . ويرزق المحرِّر ـ وبخطّه يكون جمالُ كتبِ الخليفة ـ الجزاء من رزق صاحب النَّسخ في ديوان الخراج . لا يَحضر كاتب الرسل لنائبةٍ ، ولا يُفزَع إليه في حادثة . فإذا أبرمَ الوُزراء التدبيرَ ، ووقفوا منها على التقدير ، طُرحت إليه رقعةٌ بمعانى الأمر ليتّسقَ فيه القولَ ، فإذا فَرَغ من نظامه واستوى له كلامُه ، أحضر له محرِّرَه[٣] فجلس في أقرب المواطن من الخليفة ، وأمتع المنازل من المختلفة[٤] ، فإذا تقضّى[٥] ذلك فهما والعوامَ سواء .

---

(١) وزارته للمعتصم ، وكان الفضل هذا كاتباً للمعتصم قبل الخلافة . فلما استخلف استوزره . التنبيه والإشراف ٣٠٨ .

(٢) في الأصل : « أحسنهم » ، صوابه في ط .

(٣) ط : « محررا » .

(٤) المختلفة : الذين يختلفون إليه ، أي يترددون . ط : «وأمتع المنازل» بالتاء .

(٥) ط : « انقضى » .

هذا وليست صناعتهما بفاشيةٍ فى الكُتّاب ، ولا بموجودة فى العوامّ ؛ فأغزرهم علماً أمهنهم ، وأقربهم من الخليفة أهوَنُهم . فكيف بكاتب الخراج الذى علمه ليس بمحظور ، وإشراك الناس فيه ليسَ بممنوع ، يصلح لموضعه كلُّ من عَمِل وعُمِل عليه ، أحمد أحواله عند نفسه التعقُّد على الخصوم ، وأسعد أموره التى يرجو بها البلوغَ الشَّرهُ ومنعُ الحقوق . وأحذق ما يكون بصناعته عند نفسه حين يأخذ بإبطال السُّنن ، ويعمل بفلتات الدفوع .

ولذلك ما ذكر أنّ بعضَ رجال الشَّعبيّ قال له : يا أبا عَمرو ، الكُتّاب شرار خلق الله ! فقال[1] : لا تفعل[2] .

ولكنَّ الشعبيَّ كان لسلطانه مُدارِياً .

١٩٥ ط ومن كتاب الجند : محمود بن عبد الكريم ، كان حُمَيد بن عبد الحميد عند دخول المأمون مدينة السلام وبعد سكون الهَيْج وخمود النّائرة[3] ، رفع إلى المأمون يذكر أن فى الجند دغلاً كثيراً[4] ممن دخل فيهم بسبب تلك الحروب فى أيام الأجناد ـ [وهم[5]] قومٌ من غير أهل خراسان ممّن تشبّه بهم وادّعى إليهم من الأعراب والدُّعّار[6] ، وممن لا يستحقّ الدِّيوان ،

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من ط .

(٢) أى لاتقل ذاك .

(٣) النائرة : الفتنة الحادثة والشر والهيج . ط : « الثائرة » .

(٤) فى الأصل : « دغل كثير » ، صوابه فى ط .

(٥) ليست فى الأصل .

(٦) ط : « والدعاة » .

وقومٌ من أهل خراسان صارت لهم الخواصُّ السَّنيّة ، [و] لم يكن لهم من الغَناء ما يستحقُّون به مثلَها — وذكر أنَّ بيت المال لا يحتمل ذلك ، وسأل المأمونَ أن يولِّيَه تصنيفَ الجند . ولم يكن مذهب حُميدٍ فى ذلك التوفير على المأمون ، ولا الشفقةَ على بيتِ مال المسلمين ، ولكنه تعصَّب على أبناء أهل خراسان ، واضطغن عليهم محاربتَهم إياه أيَّام الحسن بن سهل مع ولَدِ محمد ابن أبى خالد[(١)] وغيرهم ، وما كانوا قد انتحَوْهُ به[(٢)] من تلك الوقائع والهزائم ، وما ذهب له من الأموال بذلك السَّبب .

فولّاه المأمونُ التصنيف ، وأمَر للجند برزق شهرين ، فولّى حُميدٌ العطاءَ والتصنيفَ محمودَ بن عبد الكريم الكاتب ، وعرف محمود ما غَزَا حُميدٌ[(٣)] ، فتحاملَ على الناس واستعمل فيهم الأحقاد والدِّمن ، نخفض الأرزاق[(٤)] ، وأسقَطَ الخواصَّ ، وبعث فى الكُوَر وأنحى على أهل الشَّرف والبُيوتات ، حسداً لهم وإشفاءً لغليل صاحبه منهم[(٥)] ، فقصَد لهم بالمكروه والتعنُّت ،

---

(١) انظر الجهشيارى ٣٠٢ . وقد ذكر أن محمداً غلب على بغداد وحارب الحسن ابن سهل ، وذكر الطبرى فى حوادث سنة ٢٠١ أن ولده عيسى بن محمد بن أبى خالد وإخوته أبناء محمد قاموا مقام أبيهم فى تلك الحرب . وأن حميداً الطوسى جاء فى طلب بنى محمد حتى انتهى إلى المدائن . ط : « ولده محمد بن أبى خالد » ، تحريف .

(٢) أى قصدوه به .

(٣) غزا ، أى قصد وأراد . وفى الأصل وط : « عزا » ، ووجهه ما أثبت .

(٤) فى الأصل : « خفظ الأرزاق » ، وفى أصل ط : « وحفظ الأرزاق » ، وقد جعلها « فنكل » : « وخفض » .

(٥) يقال أشفى المريض إشفاء : وصف له الدواء الشافى . وفى أصل ط : « وأشفى لغليل صاحبه منه » . وقد جعلها فنكل : « وشفاء لغليل صاحبه منهم » .

فامتنعت طائفة من الناس من التقدُّم إلى العطاء وتركوا أسماءهم ، وطائفة انتدبوا مع طاهر بن الحسين بخراسان ، فسقط بذلك السبب بشرٌ كثير .

ثم إنَّ المأمون أمر للناس بتمام عطاياهم[1] ، واكتسب محمود بن عبد الكريم المذمَّة ، وصار مَلعنةً في محالِّ بغداد وفي مجالسها وطرقها .

ومنهم : زيد بن أيوب الكاتب ، عمل في ديوان الجند أربعين سنة ، ثم صار في آخر عُمره قوّادًا ليحيى بن أكثم القاضي[2] . وذلك أن المأمون أمرَ له بفَرض ، فصيَّر يحيى بن أكثم أمرَ ذلك الفرضِ إلى زيد بن أيوب ، وأمره ألاّ يفرضَ إلاّ لأمردَ بارع الجمال ، حسنِ القَدِّ والصُّورة . فكان أمر ذلك الفرض مشهوراً متعالَماً . ففي ذلك يقول الحسن بن علي الحِرمازيّ لزيد ابن أيوب :

١٩٦ و

يا زيد يا كاتب فَرضِ الفِراشْ   أكلُّ هذا طلبٌ للمعاشْ
مالى أرى فرضَك حُملانهم   يثْبتُ في القرنينِ قَبلَ الكِباشْ[3]

---

(١) ط : « أعطياتهم » ، وهي أمثل .

(٢) يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن ، من ولد أكثم بن صيفي ، وكان فقيها عالماً ، روى عنه الترمذي والبخاري في غير الجامع . وغلب على المأمون فولاه قضاء القضاء وتدبير أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل شيئاً في تدبير الملك إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم . وفي أيام المتوكل عزل القاضي محمد بن أحمد ابن أبي دُواد وفوض إليه ولاية القضاء ، ثم عزله المتوكل سنة ٢٤٠ وأخذ أمواله . وتوفي سنة ٢٤٦ وله ثلاث وثمانون سنة . تاريخ بغداد ١٤ : ١٩١ – ٢٠٤ ووفيات الأعيان ٢ : ٢١٧ – ٢٢٤ وثمار القلوب ١٢٢ – ١٢٤ وتهذيب التهذيب .

(٣) كذا ورد البيت .

وعلى ذلك فإنَّه لم يبلغنى أنَّه كان فى ولاةِ ديوان الجند ولا فى كُتَّابهم مثل المعلَّى بن أيوب فى نُبله وارتفاع همته ، وكرم صُحبته ، وعفافه ، وجميل مَذْهبه ، وشدة محاماته عمن صحبه وتحرَّمَ به . فكان المأمون يعرف له ذلك ومَن بعده من الخلفاء ، فثبتت وطأته ، ودامت ولايتُه ، وحُمِد أثره .

* * *

قد أتينا على بعض ما أردنا فيما له قصَدْنا ، ولم نستعمل الانتزاعات فيما ذكرنا ، وأعرضْنا عن التأويلات فيما وصفنا ، وقَصَدنا إلى المأثور فحكيناه ، وإلى المذكور فى الأزمنة فأجريناه ، لئلا يجدَ الطاعنُ فيما وصفنا مَقالا ، والمنكِر لذمّ ما ذممنا مَساغا ، وعلِمنا أنّ من عاندَ مع ذلك فقد دَفع عِياناً وأنكر كائنا مذكوراً . وفى ذلك دليلٌ باهر على اضمحلاله ، وشاهدٌ عدلٌ لأضداده .

ولو حكينا كلّ ما فى هذا الجنسِ من الأقوال ، وما يدخله من المقايسات والأشكال ، لطالَ الكتاب ، ولملّه الناظر المعجاب ، فاكتفينا بالجزء[1] من الكتاب ، والبعضِ دون التمام ، وعلمنا أنّ الناظر فيه إنْ كان فطناً أقنعَه القليلُ فقضَى ، وإن كان بليداً جهولا لم يزده الإكثارُ إلاّ عِيًّا ، ومن العلم بما له قصَدْنا إلاّ بعداً . وبالله الكفاية والتوفيق .

* * *

تمّ كتاب « ذم أخلاق الكتّاب » بعون الله ومنّه ومشيئته وتوفيقه ، والله تعالى الموفّق للصواب . والحمد لله أولا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين[2] وسلامه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . ١٩٦ ط

---

(١) ط : « بالجبر » . (٢) إلى هنا ينتهى اتفاق الخاتمة فى نسخة الأصل وط . وما بعده ليس فى ط . وبدله فيها : « وهو حسبنا ونعم الوكيل . فرغ من تنميقه صبيحة يوم السبت لثمان وعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ست وثمانين وألف » .

١٦
كِتَابُ
البغال

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذا هو الكتاب السادس عشر من مجموعة رسائل الجاحظ ، وله أصل واحد هو نسخة مكتبة داماد ، وعنوانه فيها :

كتاب « القول فى البغال »

وقد ذكر الدكتور داود الجلبي فى « مخطوطات الموصل ص ٢٦٤ — ٢٦٥ » فى مجموعة رسائل الجاحظ التى كانت محفوظة فى مكتبة أمين بن أيوب الجليلى بالموصل نسخة أخرى من هذا الكتاب عنوانها : كتاب « البغال ومنافعها » . ولكن من المؤسف أن تلك المجموعة قد فقدت بعد وفاة صاحبها ولم نهتد إلى الآن إلى موضعها .

ولم يذكر هذا الكتاب أحد ممن ترجم للجاحظ ، ولا أجرى هو له ذكرا فيما سلف من كتبه . ولكن الكتاب ينطق بلا ريب أنه من تأليف الجاحظ ، ينطق أسلوبه ومنهجه ، وتنطق رجاله وحوادثه بأنه للجاحظ ، لاريب عندى فى ذلك .

وقد نشره عن نسخة داماد للمرة الأولى المستشرق : « شارل بلا » فى مطبعة الحلبي سنة ١٣٧٥ وعلق عليه تعليقات مفيدة ، ولكنه وهم كثيراً من الوهم فى قراءة نسخة داماد . وقد كتبت فى ذلك بعض تصحيحات نشرتها فى مجلة معهد المخطوطات العربية (عدد شوال سنة ١٣٧٥) فى الجزء الأول من المجلد الثانى ، فليرجع إليه .

وقد أمكننى أن أستدرك فى نشرتى هذه أضعاف ما نشرته من قبل فى مجلة المعهد ورمزت إلى نشرته هذه بالرمز « ط » .

ويفهم من مقدمة الجاحظ لهذا الكتاب أنه ألفه بعد كتاب الحيوان[1] أى أنه ألفه وهو مفلوج أيضاً .

وقد جريت فى إضافة عنوانات لهذا الكتاب كما جريت على ذلك فى كتاب الحيوان ، وذلك حرصاً منى على بيان معالمه المتفرقة ، وتوضيح فصوله ؛ وميزتها عن الأصل بجعلها بين علامتى الزيادة [ ]

وإليك نص الكتاب :

---

(١) انظر ما كتبت لتأريخ كتاب الحيوان فى تقديم كتاب الحيوان ص ٢٤-٢٧ من الجزء الأول .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وعلى اسم الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وصلى الله على سيدنا محمد خاصة ، وعلى أنبيائه عامة .

[مقـــدمة]

كان وجه التدبير فى جملة القول فى البِغال ، أن يكون مضموما إلى جملة القول فى الحافر كله ، فيصيرَ الجميع مُصْحَفًا تامًّا ، كسائر مَصاحف « كتاب الحيوان » . والله المقدِّر والكافى .

وقد منع من ذلك ما حدَث من الهمّ الشاغل ، وعَرَضَ من الزَّمانة ، ومن تخاذُل الأعضاء ، وفساد الأخلاط ، وما خالط اللسان من سوء التَّبيان ، والعجزِ عن الإفصاح ، ولن تجتمعَ هـــذه العِلَلُ فى إنسانٍ واحد ، فيسلمَ معها العقلُ سلامةً تامَّة .

وإذا اجتمع على الناسخ سوءُ إفهام المُمْلِى ، مع سوء تفهُّم المُستملِى ، كان تركُ التكلُّف لتأليف ذلك الكتاب أسلمَ لصاحبه من تكلُّف نظمه على جمع كلِّ البال ، واستفراغ كلِّ القُوَى .

فأمّا الهمة(١) وتشعُّب الخواطر المانعة من صحة الفِكر ، واجتماع البال ، فهذا ما لا بُدَّ من وقوعه .

فليكنِ العذرُ منك على حسب الحال ، والخِيَرة فيما صنَعَ الله . وقد علمنا أن الخِيَرة مقرونة بالكُرْه ، وبالله التوفيق .

---

(١) كذا بالأصل ، ولعله : « فأما فتور الهمة » ، أو نحو ذلك .

[عناية الأشراف بالبغال]

نبدأ إن شاء الله ، بما وَصَفَ الأشرافُ من شأن البغلة ، فى حُسن سيرتها ، وتمام خَلقها ، والأمور الدالّة على السرّ الذى فى جَوْهَرها ، وعلى وجوه الارتفاق بها ، وعلى تصرّفها فى منافعها ، وعلى خِفّة مئونتها فى التنقّل فى أمكنتها وأزمنتها ، ولِمَ كَلِفَ الأشرافُ بارتباطها ، مع كثرة ما يزعمون من عيوبها ؟ ولِمَ آثروها على ما هو أدْوَمُ طهارةَ خُلُقٍ منها ؟ وكيف ظهر فضلُها مع النقص الذى هو فيها ؟ وكيف اغتفروا مكروهَ ما فيها ، لِمَا وجدوا من خصال المحبوب فيها ؟ حتى صار الرجل منهم يُنشد العُذّالَ فيها كقول السّعدىّ[1] :

أَخٌ لِي كَأَيَّامِ الحَيَــاةِ إِخَاؤُهُ ... تَلَوَّنُ أَلْوَانًا عَلَيَّ خُطُوبُهَــا
إِذَا عِبْتُ مِنْهُ خَصلَةً فَهَجَرْتُهُ ... دَعَتْنِي إِلَيهِ خَصْلَةٌ لَا أَعِيبُهَا[2]

١٩٨ و

ولقد كَلِف بارتباطها الأشراف ، حتى لُقِّبَ بعضُهم من أجل استهتاره بها بـ « رَوّاض البغال[2] » ، ولقّبوا آخر : بـ « عاشق البغل » ؛ هذا مع طِيب مَغارسهم ، وكَرَم نصابهم ، ولذلك قال الشاعر :

وتَشَغْلَبَ الرَّوّاضُ بَعْدَ مِرَاحِهِ ... وأُنْسِلَ بَيْنَ غِرَارَتَيْهِ الأَعْوَرُ

وهجاه أيضاً الفَرَزْدق[3] بأمر الحجّاج ، ففحُش[4] عليه ، حتى قال :

وأفْلَتَ رَوّاضُ البِغَــالِ ولَمْ تَدَعْ ... لهُ الخَيْلُ مِنْ أحْرَاحِ زَوجَيْهِ مَعْشَرا[5]

---

(١) هو حريش السعدى ، كما سبق فى ١ : ٣٧ . وقد ورد البيتان بدون نسبة فى عيون الأخبار ٣ : ١٧ وغرر الخصائص ٣٠١ .

(٢) انظر ما سيأتى فى ص ٢١٨ (٣) ديوان الفرزدق ٢٩٧ .

(٤) كذا ضبطت الحاء بالضم فى الأصل . يقال فَحَش وفحُش وأفحش .

(٥) فى الأصل : « زوجته شعرا » ، صوابه من الديوان . وكان عبد الرحمن =

وقال لشريف آخر :

ما زِلْتُ فِي الحَلَبَاتِ أَسْبِقُ ثَانِياً حَتَّى رُمِيتُ بِعَاشِقِ البَغْـــــلِ
لَوْ كَانَ شَاوَرُ مَا عَبَـــأْتُ بِهِ يَوْمَ الرِّهَانِ وساعَةَ الحَفْــــلِ

وشاوَرُ هــذا : رائضٌ كان ببغداد ، والشاعر رجلٌ من بني هاشم ؛ ولم يَعْنِ بقوله « ما زلتُ فى الحَلَبات أسبق ثانيا » : أنه جاء ثانىَ اثنين ، وإنما ذهب إلى أنه جاء متمهِّلا ، وقد ثَنَى من عِنانه .

وكتب رَوْح بن عبد الملك بن مروان إلى وكيلٍ له : « أبغِنى بغلةً حَصَّاء الذَّنَبِ (١) ، عظيمة المَحْزِم ، طويلة العُنق ، سَوْطُها عنانُها ، وهَواها أمامها (٢) » .

وكان مَسْلَمة بن عبد الملك يقول : « ما ركب الناسُ مثلَ بغـــلةٍ قصيرة العِذَار ، طويلةِ العِنان (٣) » .

= ابن العباس ، قد انهزم فأخذت جاريتاه يوم الزاوية ، كما فى شرح الديوان نقلا عن ابن حبيب .

(١) الحصاء : مؤنث الأحص ، وهو القليل شعر الثنة والذنب .

(٢) مثل قول عروة بن حزام :

هواى أمامى ليس خلفى معـــرج وشوق قلوصى فى الغــــدو يمان

(٣) أورد هذا الخبر صاحب العقد ٦ : ٢٢٩ مختلطا بسابقه .

وقال صَفوان بن عبد الله بن الأهتم، لعبد الرحمن بن عَبّاس[1] بن ربيعة ابن الحارث بن المُطَّلب، وكان ركّاباً للبغلة: «مالك وهذا المركَب الذي لا تُدرِكُ عليه الثار، ولا يُنجيك يومَ الفِرار»؟ قال: «إنها نزلت عن خُيَلاء الخيل، وارتفعت عن ذِلّة العَيْر، وخير الأمور أوساطها». فقال صفوان: «إنّا نُعلِّمكم، فإذا علِمتم تعلَّمنا منكم!».

١٩٨ ظ وهو الذي كان يُلقَّب: «روّاض البغال»؛ لحذقه بركوبها، ولشَغَفه بها، وحُسن قيامه عليها. وكان يقول: «أريدها واسعةَ الجُفرة[2]، مُنْدَحَّةَ السُّرَّة[3]، شديدةَ العَكْوة[4]، بعيدةَ الخطوة، ليِّنة الظهر، مُكْرَبَةَ الرُّسْغ[5]، سَفْواءَ جَرْداءَ عَنْقاء[6]، طويلةَ الأنقاء[7]».

وقال ابن كُناسة[8]: سمعتُ رجلاً يقول: «إذا اشتريتَ بغلةً فاشترِها

---

(١) في الأصل: «بن عياش»، تحريف، صوابه في جمهرة ابن حزم ٧٠-٧١ ونسب قريش للزبيري ٨٨.

(٢) جفرة الفرس: وسطه.

(٣) يقال اندح بطنه اندحاحا: اتسع، وكذلك السرة.

(٤) العكوة بضم العين وفتحها: أصل الذنب.

(٥) المكرب: الشديد.

(٦) السفواء: الخفيفة شعر الناصية. والجرداء: القصيرة الشعر. والعنقاء: الطويلة العنق.

(٧) الأنقاء: جمع نقى ونقو، بكسر أولها، وهو كل عظم فيه مخ.

(٨) هو أبو يحيى محمد بن عبد الله بن عبد الأعلى الأسدى. وكناسة لقب أبيه عبد الله. وكان محمد شاعراً من شعراء العباسية، كوفى المولد والنشأة، قد حمل عنه شىء =

طويلة العُنق ، نَجْدَةً في نَجائها[1] مُشرِفة الهادي[2] ، نَجْدَةً في طِباعها ، ضَخْمة الجوْف ، نجدةً في صبرها » .

والعرب تصف الفرس بسَعَة الجوف . قال الراجز :

غَشَمْشَمٌ يَعْلُو الشَّجَرْ[3] بِبَطْنِهِ يَعْدُو الذَّكَر

قال الأصمعيّ : لم يسبِق الحَلْبَةَ قطُّ أهضم[4] .

وقال يونُس : كان نابغة الجَعْدِيّ[5] أوصفَ النّاس لِفرس ، قال : فأنشدت رُؤْبَةَ قوله :

= من الحديث . وهو صاحب الجارية الشاعرة المغنية « دنانير » . ولد سنة ١٢٣ . وتوفى سنة ٢٠٧ . فهرست ابن النديم ١٠٥ والأغانى ١٢ : ١٠٥ — ١١٠ والورقة لابن الجراح ٨١ — ٨٣ .

(١) النجاء : السرعة . (٢) الهادى : العنق ، جمعه هواد .

(٣) فى أمثال الميدانى ٢ : ٣ عند قولهم « غشمشم يغشى الشجر » : « يراد به السيل لأنه يركب الشجر فيدقه ويقلعه ويراد أيضاً الجمل الهائج » .

(٤) الأهضم : المنضم الجنبين الخميص البطن . وانظر الحيوان ٣ : ٢٥٢ واللسان (هضم) .

(٥) هو عبد الله بن قيس ، وقيل قيس بن عبد الله ، من جعدة بن كعب بن ربيعة . وكان معمراً نادم المنذر أبا النعمان ، فيقال إنه كان أقدم من النابغة الذبيانى . وأدرك الإسلام ولقى الرسول فأسلم . الاستيعاب ١٥١٤ وأسد الغابة ٥ : ٢ — ٤ والإصابة ٦ : ٢١٨ والمعمرين ٦٤ وابن سلام ١٠٣ والأغانى ٤ : ١٢٧ والخزانة ١ : ٥١٢ والمؤتلف ١٩١ والمرزبانى ٣٢١ والشعراء ٢٤٧ . والخبر فى ابن سلام ١٠٧ . ويقال « نابغة » « والنابغة » بأل . وأنشد فى اللسان (نبغ) مطابقاً لما فى كتاب سيبويه ٢ : ٢٤ :

ونابغة الجعدى بالرمل بيته عليه صفيح من تراب موضع

فإنْ صَدَقُوا قَالُوا : جَوَادٌ مُجَرَّبٌ ضَلِيعٌ ، ومِنْ خَيْرِ الجِيَادِ ضَلِيعُها
فقال : ما كنتُ أظنُّ المرْهَف منها إلا أسرع[1] .
قالوا : ولم يكن رؤبة وأبوه صاحبَيْ خيل[2] .

وقال سليمان بن عليّ لخالد بن صَفْوان ، ورآه على حِمار : ما هذا يا أبا صفوان ؟ قال : أصلح اللهُ الأمير ، ألا أُخبرك عن المَطايا ؟ قال : بَلَى . قال : « الإبل للحمْل والزَّمْل[3] ، والبغال للأسفار والأثقال ، والخيل للطَّلَب والهرب ، والبَراذين للجَمال والوطاءة[4] ، وأما الحمير فللدَّبيب والمَرْفَق » .

قالوا : وكانت للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بغلة تسمَّى « دُلْدُل[5] » ، وحمار يُسَمَّى « يعفُور[6] » ، وفرس يُسَمَّى « السَّكْب[7] » ، وله ناقتان : « العَضْباء » ، « والقَصْواء[8] » .

---

(١) المرهف : الخميص البطن المتقارب الضلوع .

(٢) بعده عند ابن سلام : « ولـكن كانا صاحبي إبل ونعتها » .

(٣) يقال زملت الرجل على البعير ، إذا جعلته زميلا يردفك أو يعادلك .

(٤) الوطاءة : السهولة والمواتاة . وفى الأصل : « والوطا » .

(٥) أهداها إليه المقوقس مع حمار يقال له عفير . سيرة ابن سيد الناس ٢ : ٣٢٢

(٦) أهداه إليه فروة بن عمرو الجذامى ، مع بغلة يقال لها : « فضة » . ابن سيد الناس .

(٧) أفراس الرسول عدها ابن سيد الناس ٢ : ٣٢٠ — ٣٢١ سبعة أفراس اتفق عليها ، وقيل خمسة عشر . وعدها ابن الـكلبي فى نسب الخيل ٨ خمسة وابن الأعرابي فى أسماء خيل العرب ٥١ خمسة أيضاً .

(٨) الحيوان ١ : ١٦٠ . وعد ابن سيد الناس ٢ : ٣٢٢ ناقة ثالثة ، تسمى : « الجدعاء » .

قالوا : وكان علىّ بن أبى طالب ، رضوان الله عليه ، يُكثر ركوب بغلة عبد الله بن وَهْب[١] الشهباء ، التى غَنِمها يوم النَّهْرَوان . هذا فى قول الشيعة ، وأما غيرهم فينكرون أن يكون علىّ ، كرّم الله وجهه ، يرى أن يغنم شيئاً من أموال أهل الصلاة ، كما لم يغنم من أموال أصحاب الجمل .

قال البُقْطُرِىّ[٢] ، ويُكنى أبا عثمان ، واسمه فَهدان : ١٩٩ و

لقى رجلٌ بكرَ بنَ عبد الله المُزَنِىّ[٣] ، فقال له : رأيتك على فرس كريم ، ثم رأيتك على عَيْرٍ لئيم ، ثم رأيتك قد أدْمَنْتَ ركوب هذه البغلة ! قال : البغال أعدل ، وسيرُها أقصد .

علىّ بن المَدِينىّ[٤] قال : حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم[٥] قال :

---

(١) عبد الله بن وهب الراسبي : نسبة إلى راسب بن ميدعان . وكان مع على فى حروبه ، ثم خرج عليه فى أربعة آلاف ، وبايعه الخوارج سنة ٣٧ ، وقتل يوم النهروان سنة ٣٨ . انظر الطبرى ٦ : ٤٢ والتنبيه والإشراف ٢٥٦ والكامل ٥٢٧ . ٥٥٩ والاشتقاق ٥١٥ وجمهرة أنساب العرب ٣٨٦ .

(٢) فى القاموس : « وكعصفر : رجل » ، فلعله منسوب إلى جده . أو لعله منسوب إلى بقطر بفتح الباء أو ضم الباء والقاف . ولم يصرح الجاحظ باسمه إلا فى هذا الوضع . ويأتى أحياناً برسم « اليقطرى » بالياء . انظر فهارس الحيوان والبيان .

(٣) انظر ترجمته فى البيان ١ : ١٠٠ .

(٤) أبو الحسن على بن عبد الله بن جعفر بن نجيح السعدى، المعروف بابن المديني. روى عنه البخارى وأبو داود ، وروى أكثر من مائة ألف حديث . ولد بالبصرة سنة ١٦١ وتوفى سنة ٢٣٤ . السمعانى ٥١٦ وتهذيب التهذيب ٧ : ٣٤٩ — ٣٦٧ .

(٥) هو أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهرى ، من أهل المدينة . روى عنه أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين ، وعلى بن المدينى وغيرهم. توفى سنة ٢٠٨. تاريخ بغداد ١٤ . ٢٦٨ وتهذيب التهذيب ١١ : ٣٨٠ .

حدّثنى أبى عن أبى إسحاق ، قال : حدثنى حَكِيم بن حَكِيم[١] ، عن مسعود بن الحَكَم[٢] ، عن أمه[٣] ، قالت : كأنى أنظر إلى علىّ بن أبى طالب ، رضوان الله عليه ، على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء[٤] ، فى شِعْب الأنصار » .

ويروى عن عبد الرحمن بن سَعْد ، قال : رأيت عثمان بن عفّان رضى الله عنه ، على بغلة بيضاء ، يَصْفِر لحيته[٥] .

ومن حديث الزُّهْرىّ وغيره ، عن كَثِير بن العبّاس[٦] ، عن أبيه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ حُنَيْن على بغلته الشَّهْباء » فى حديث طويل فى المغازى .

وفى هذا الحديث : فحضَّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « الآن حَمِيَ الوطيس » . وهذه كلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يسبقه

(١) حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف الأنصارى الأوسى . روى عن مسعود ابن الحكم . تهذيب التهذيب ٢ : ٤٤٨ . وحكيم بفتح الحاء وكسر الكاف اسمه واسم والده ، وعباد بتشديد الباء ، وحنيف بالتصغير .

(٢) مسعود بن الحكم بن الربيع بن عامر بن خالد الزرقى الأنصارى. روى عن أمه وكانت صحابية ، كما روى عن عمر وعثمان وعلى ، وممن روى عنه حكيم بن حكيم. تهذيب التهذيب ١٠ : ١١٦ .

(٣) يقال اسمها اسماء ، ويقال هى حبيبة بنت شويق. الإصابة ٤٩٠ ١ من قسم النساء.

(٤) فى الإصابة فى ترجمة أم مسعود : « البيضاء » . وذكر ابن سيد الناس ٢: ٣٢٢ أن بغلته الشهباء كان يقال لها « دلدل » ، أهداها له المقوقس .

(٥) فى الأصل : « يصفر لحيته » .

(٦) كثير بن العباس بن عبد المطلب. جمهرة ابن حزم ١٨ ، ٣٨ والمعارف ٥٣ وتهذيب التهذيب ٨ : ٤١٠ والإصابة ٧٤٧٤ وهو بفتح الكاف وكسر الثاء .

إليها أحد ، وكذلك قوله : « مات حَتْفَ أنْفِه » ، وكذلك قوله : « كلّ الصيد فى جَوْف الفَرَا » ، وكذلك قوله : « هُدْنَةٌ على دَخَن » ، وكذلك قوله : « لا يُلْسَع المؤمن من جُحْرٍ مرّتَيْن » . فصارت كلها أمثالاً[1] .

قالوا : وكان ابن أبى عَتِيق يركب البغال ، وكذلك ابن أبى رَبيعة . وكان هِشام بن عبد الملك أكثرَ الناس ركوباً لها .

وعن أبى الأشهب ، عن الحسَن قال : قال قوم وعُثمان رضى الله عنه محصور : « لو بعثتم إلى أمّ المؤمنين رضى الله عنها فركبت ، فلعلّهم أن يكفّوا » .فأرسلوا إلى أمّ حَبيبة بنت أبى سفيان ، واسمها رَمْلة[2] ، فجاءت على بغلة شهباء فى مِحَفّة . قالوا : مَن هذه ؟ قالوا : أمّ المؤمنين ، أمّ حَبيبة . قالوا : لا ـ والله ـ لا تدخل ، فردُّوها .

وقالوا : وقع بين حَيَّيْن من قُريش مُنازَعة ، فخرجت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها على بغلة ، فلقيها ابن أبى عَتيق ، فقال : إلى أين ـ جُعِلْتُ فِداك ؟ قالت : أُصلِح بين هذين الحيَّين. قال : واللهِ ما غَسَلنا رُءوسَنا من يوم الجَمَل ، فكيف إذا قيل : يوم البغل ! فضحكتْ وانصرفت .

هذا ـ حفظك الله ـ حديثٌ مصنوع ، ومن توليد الرّوافِض ، فظنّ الذى ولّد هذا الحديث ، أنه إذا أضافه إلى ابن أبى عَتيق ، وجعله نادرةً

٤٩

---

(١) انظر البيان ٢ : ١٥ — ١٦ والحيوان ١ : ٣٣٥ .

(٢) وقيل اسمها هند ، ورملة أصح . الإصابة ٤٣٢ من قسم النساء . وانظر جمهرة ابن حزم ١١١ ، ١٩١ ونسب قريش ١٢٤ .

ومُلحة ، أنه سيشيع ، ويجرى عند الناس مَجْرَى الخبر عن أمّ حَبيبة وصفيَّة . ولو عرف الذى اخترع هذا الحديثَ طاعةَ الناس لعائشة ـ رضى الله عنها ـ لمَا طمِع فى جَواز هذا عنه .

وقال علىّ بن أبى طالب ـ كرّم الله وجهه ـ : « مُنِيتُ بأربعة : مُنِيت بأشجع الناس ، يعنى الزُّبَيْر ؛ وأجودِ الناس ، يعنى طَلْحَة ؛ وأنضّ الناس[1] ، يعنى يَعْلَى بن مُنْيَة[2] ؛ وأطوَعِ الناس فى الناس ، يعنى عائشة » .

ومن بعدِ هذا ، فأىُّ رئيس قبيلٍ من قبائل قُرَيش كانت تبعث إليه عائشة ـ رضى الله عنها ـ رَسولاً فلا يُسارع ، أو تأمره فلا يُطيع ، حتى احتاجت أن تركب بنفسها ؟ وأىّ شىء كان قبل الركوب من المُراسلة والمُراوضة والمُدافعة والتقديم والتأخير ، حتى اضطرّها الأمر إلى الرُّكوب بنفسها ؟ وإنّ شرًّا يكون بين حَيَّيْن من أحياء قُريش ، تفاقَم فيه الأمرُ ، حتى احتاجت عائشة ـ رضى الله عنها ـ إلى الركوب فيه ، لَعظيمُ الخطَر ، مُستَفيضُ الذِّكر ؛ فمَن هذا القبيلان ؟ ومن أىّ ضربٍ كان هذا الشرّ ؟ وفى أىّ شىء كان ؟ وما سببُه ؟ ومَن نطَق من جميع رجالاتِ قُرَيش فعصَوْه وردُّوا قولَه ، حتى احتاجت عائشةُ فيه إلى الركوب ؟ ولقد ضربوا قواديم الجمل ، فلما برَك ومال الهَوْدَجُ صاح الفريقان : « أمَّكم ! أمَّكم » .

---

(١) أى أجودهم وأسخاهم ، من قولهم : نض إليه من معروفه شىء ينض نضاً ونضيضاً ، أى سال . وقد شارك فى وقعة الجمل مع عائشة بستمائة بعير وستمائة ألف درهم . الطبرى ٥ : ١٦٦ . كما اشترى لها الجمل الذى ركبت عليه بمائتى دينار ، واسم الجمل « عسكر » الطبرى ٥ : ٢٠٣ .

(٢) منية : اسم أمه وقيل اسم أبيه . الإصابة ٩٣٦ وجمهرة ابن حزم ٢١٣ ، ٢٢٩ . وفى الأصل : « منبه » ، تحريف . واسم أبيه أمية بن أبى عبيدة بن همام .

فأمرُ عائشة أعظمُ ، وشأنها أجلّ ، عند مَن يعرف أقدار الرجال والنساء ، من أن يُجوِّز مثلَ هذا الحديث المولَّد ، والشرّ المجهول ، والقبيلتين اللتين لا تُعْرَفان .

والحديث ليس له إسناد ؛ وكيف وابن أبي عَتيق شاهِدٌ بالمدينة ، ولم يعلم بركوبها ، ولا بهذا الشرّ المتفاقِم بين هذين القبيلين ؟ ثم ركبت وحدها ، ولو ركبت عائشة لمَا بقيَ مُهاجريّ ولا أنصاريّ ، ولا أمير ولا قاضٍ إلّا ركب ؟ فما ظَنُّكَ بالسُّوقة والحُشْوة ، وبالدَّهْماء والعامّة . ٢٠٠ و

[رواة الأخبار]

وما هو إلّا أن ولّد أبو مِخْنَف[1] حديثاً ، أو الشَّرْقِيُّ بن القُطاميّ[2] ، أو الكلبيّ[3] ، أو ابن الكلبيّ[4] ، أو لَقيط المُحَارِبيّ[5] ، أو شَوْكَر[6]

---

(١) أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي . انظر حواشي البيان ١ : ١١٨ ، ٣٦١ .

(٢) انظر لترجمته حواشي البيان ١ : ٣٦٠ .

(٣) الكلبي هو أبو النضر محمد بن السائب الكلبي ، صاحب التفسير ، الكوفي المتوفى سنة ١٤٦ . انظر الفهرست ١٣٩ — ١٤٠ والسمعاني ٤٨٥ .

(٤) هو أبو المنذر هشام بن محمد ، النسابة المتوفى سنة ٢٠٤ . الفهرست ١٤٠ — ١٤٣ والسمعاني ٤٨٥ — ٤٨٦ ونزهة الألباء ١١٦ .

(٥) هو أبو هلال لقيط بن بكر المحاربي الكوفي . المتوفى سنة ١٩٠ . فهرست ابن النديم ١٣٨ . وقد روى له الجاحظ في البيان ٢ : ١٦٢ .

(٦) وكذا ورد اسمه مجرداً عن النسبة في الحيوان ٥ : ٣٠٢ . وترجم له في لسان الميزان ٣ : ١٥٨ وذكر أنه أخباري مؤرخ ، شيعي ، كان في المائة الثانية . وذكره عمر بن شبة في أهل البصرة وقال: كان يضع الأخبار والأشعار . وفيه يقول خلف الأحمر :

أحاديث ألفها شوكر ... وأخرى مؤلفة لابن داب =

أو عَطَاء المِلْط[1] ، أو ابن دَأْب[2] ، أو أبو الحَسَن المدائنى[3] ثم صوَّره فى كِتاب ، وألقاه فى الورّاقين ، إلّا رواه مَن لا يحصّل ولا يتثبّت ولا يتوقّف . وهؤلاء كلّهم يتشيّعون .

وكان يونُس بن حَبيب يقول : « يا عجبًا للناس ، كيف يكتبون عن حَمَّاد وهو يصحِّف ويكذب ويلحَن ويكسِر » !

ومن أراد الأخبار فليأخذْها عن مثل قَتَادة[4] ، وأبى عمرو بن العَلاء

= وذكر فى لسان الميزان ٤ : ٤٠٩ أنه كان يضع الحديث بالسند كما كان يضعه ابن داب بالمدينة . ففيه نص على أنه رحل إلى السند . وانظر تاريخ بغداد ١١ : ١٥٢ .

(١) كان عطاء الملط شاعراً معاصراً لبشار ، وله معه خبر فى الأغانى ٣ : ٥٩ — ٦٠ . وله خبر آخر مشهور مع قريب والد الأصمعى فى الأغانى ٥ : ١٠٢ وأشير إليه فى مجالس العلماء للزجاجى ٧٢ — ٧٣ . وفى الأغانى ١٥ : ٤٠ رواية منسوبة إليه . وورد فى الخامس من الأغانى برسم « عطاء الملك » محرفا . وأصل معنى الملط ، بالكسر ، هو الخبيث .

(٢) هو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب النسابة الأخبارى . وكان صاحب حظوة عند الهادى ، وروى عنه شبابة بن سوار . ومحمد بن سلام الجمحى . انظر لسان الميزان ٤ : ٤٠٨ والمعارف ٢٣٤ وتاريخ بغداد ١١ : ١٤٨ وروى الخطيب عن خلف الأحمر أنه قال: آفتنا بين المشرق والمغرب : ابن دأب يضع الحديث بالمدينة ، وابن شوكر يضع الحديث بالسند . صوابه « وشوكر » .

(٣) هو أبو الحسن على بن محمد المدائنى صاحب الأخبار والتصانيف الكثيرة ، المتوفى سنة ٢١٥ . الفهرست ١٤٧ — ١٥٢ ولسان الميزان ٤ : ٢٥٣ ونوادر المخطوطات ١ : ٥٨ — ٥٩ .

(٤) قتادة بن دعامة السدوسى ، سبقت ترجمته فى ص ٥٧ .

وابن جُعْدُبة[١] ، ويونُس بن حَبيب ، وأبى عُبَيْدَة ، ومَسْلَمَة بن مُحَارِب[٢] ، وأبى عاصم النَّبيل[٣] ، وأبى عُمَر الضَّرير[٤] ، وخَلَّاد بن يزيد الأرقط[٥] ، ومحمد بن حَفْص - وهو ابن عائشة الأكبر ، وعُبَيْد الله بن محمد - وهو ابن عائشة الأصغر[٦] ، ويأخذها عن أبى اليَقْظَان سُحَيْم بن قادم[٧] . فإنَّ

---

(١) هو يزيد بن عياض بن يزيد بن جعدبة الليثى المدنى ، حجازى انتقل إلى البصرة فسكنها ، وقدم بغداد فحدث بها عن عبد الرحمن الأعرج ، ومحمد بن المنكدر وابن شهاب الزهرى وغيرهم . ومات بالبصرة فى زمان المهدى . تاريخ بغداد ١٤ : ٣٢٩ — ٣٣٢ ولسان الميزان ٦ : ٧٧٤ والخلاصة ٤٠٨ . ويأتى محرفاً باسم « ابن جعدية » .

(٢) هو مسلمة بن عبد الله بن محارب الفهرى البصرى النحوى المقرئ ، ترجم له فى لسان الميزان ٦ : ٣٤ وقال : « كان صاحب فصاحة » .

(٣) هو أبو عاصم الضحاك بن مخلد الشيبانى البصرى . كان فقيها ثقة كثير الحديث ، وكان فيه مزاح . ولد سنة ١٢٢ وتوفى سنة ٢١٣ . تهذيب التهذيب وتذكرة الحفاظ ١ : ٣٣٣ وتهذيب الأسماء ٧٣٧ .

(٤) من يقال له أبو عمر الضرير كثير ، منهم حفص بن عمر بن عبد العزيز الدورى المقرئ الضرير الأصغر ، ومنهم حفص بن عمر الضرير الأكبر . وثلاثة غيرها . انظر تهذيب التهذيب ٢ . ٤٠٨ — ٤١٣ ونكت الهميان ١٤٦ والخلاصة ٧٤ — ٧٥ .

(٥) خلاد بن يزيد الأرقط الباهلى : أحد رواة الأشعار ، والعارفين بأخبار القبائل . وهو صهر يونس بن حبيب البصرى ، روى عن سفيان الثورى ، وعنه عمر ابن شبة . وكان يقول فيه : « كان من الجبال الرواسى نبلا » . توفى سنة ٢٢٠ . فهرست ابن النديم ١٥٦ وتهذيب التهذيب ٣ : ١٧٦ .

(٦) انظر حواشى الحيوان ٢ : ١٢ .

(٧) المعروف فى اسمه « سحيم بن حفص » . قال ابن النديم : كان عالما بالأخبار والأنساب ، ثقة فيما يرويه ، وتوفى سنة ١٩٠ . الفهرست ١٣٨ .

هؤلاء وأشباههم مأمونون ، وأصحاب تَوَقٍّ وخَوْف من الزوائد ، وصَوْن لِمَا فى أيديهم ، وإشفاق على عَدالتهم .

[الحاجة إلى البغال]

ولما خرج قَطَرِىّ بن الفُجَاءة ، أحبّ أن يجمع إلى رأيه رأىَ غيره ، فدسَّ إلى الأحْنَف بن قَيْس رجُلاً ، ليجرىَ ذِكرَه فى مجلسه ، ويحفظ عنه ما يقول . فلما فعل قال الأحنف : « أمَا إنهم إنْ جَنَبوا بناتِ الصَّهَّال[1] ، وركبوا بناتِ النَّهَّاق ، وأمسَوْا بأرضٍ وأصبحوا بأرضٍ ، طال أمرهم » .

قالوا : فلا نرى صاحبَ الحرب يستغنى عن البغال ، كما لا نرى صاحب السِّلْم يستغنى عنها ، ونرى صاحب السَّفَر فيها كصاحب الحضَر .

قال الأصمعىّ عن جَرير بن حازِم عن الزُّبَير بن الخِرِّيت[2] ، عن أبى لَبيد — واسمه لِمَازَة بن زَبَّار[3] — قال : مرّ بنا زياد فى سِكّتنا هذه ، وهو على بغلةٍ قد لوى رَسَنها على عُنقها تحت اللِّجَام ، ومعه رجُل أو رجُلان .

---

(١) انظر ما سبق من التعليق فى ١ : ٤٢ .

(٢) الزبير بن الخريت البصرى ، روى عن السائب بن يزيد ، وأبى لبيد ، وعكرمة ومحمد بن سيرين ، والفرزدق الشاعر . وعنه جرير بن حازم وأخوه الحريش بن الخريت وحمادة بن زيد وجماعة . تهذيب التهذيب ٣ : ٣١٤ . والخريت ، بكسر المعجمة وتشديد الراء المهملة المكسورة ، كما فى التقريب .

(٣) لمازة بن زبار الأزدى الجهضمى البصرى ، روى عن عمر وعلى وأنس وغيرهم . وعنه الزبير هذا ، ويعلى بن حكيم ، ومحمد بن ذكوان وغيرهم . تهذيب التهذيب ٨ : ٤٥٧ — ٤٥٨ . و « لمازة » بكسر اللام وتخفيف الميم بالزاى . وزبار ، بفتح الزاى وتثقيل الموحدة وآخره راء ، كما فى التقريب . وفى الأصل : « لماذة بن زياد » تحريف .

هذا وزياد على العراقِ أجمع .

قال : وتهيَّأ الناسُ لخالد بن عبد الله[1] مَقْدَمَه من الشأم ، وركب ابن هُبَيْرة[2] بغلته ، ووقف له في المَضِيق . فلما طلع خالد غَمَزَ ابن هُبَيْرةَ بغلتَه غمزةً فإذا ابنُ هبيرة بينه وبين الذي كان يُسايره ، فقال : كيف أنت يا أبا الهيثم ؟ وَلِيتَ مِنَّا أمرًا تولَّى الله أحسنه ، ولك منا المكافأة ! فقال له خالد : فَرَرْتَ منّى فِرارَ العبد ! فقال عمر : حين نِمْتَ عن حفظى نومَ الأَمَة ! فانتهى الخبر إلى هشام ، فقال : « قاتلَهُ الله » !

٢٠٠ ظ

[حمل البغال للهدايا]

قالوا : والهدايا النفيسة ، والطُّرَف العجيبة ، والكَرَامات الثمينة ، التى أهدتْها بِلْقِيس بنت ذى شَرْح[3] إلى سليمان بن داود ، هى الهدايا التى أخبر

---

(١) خالد بن عبد الله القسرى : أمير العراقين (الكوفة والبصرة) من قبل هشام بن عبد الملك الأموى . أقام بالكوفة زماناً إلى أن عزله هشام سنة ١٢٠ وولى مكانه يوسف بن عمر ، وأمره أن يحاسبه ، فسجنه يوسف وعذبه ثم قتله بالحيرة فى أيام الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ . الطبرى ٩ : ١٧ والمعارف ١٧٤ ووفيات الأعيان ١ : ١٦٩ — ١٧٠ .

(٢) هو عمر بن هبيرة الفزارى ، كان والياً على العراقين ليزيد بن عبد الملك معظم مدة خلافته من سنة ١٠٢ إلى سنة ١٠٥ حين تولى الخلافة بعده هشام ، فعزل عمر واستعمل خالد بن عبد الله القسرى . الطبرى ٨ : ١٦٧ والمعارف ١٥٩ والاشتقاق ٥١٨ .

(٣) فى الأصل : « شرج » ، تصحيف . وذو شرح هو ابن ذى جدن بن أيلى شرح بن الحارث بن قيس بن صيفى بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وانظر الإكليل للهمدانى ٨ : ١٧ ، ٣٠ . وفى الطبرى ١ : ٢٥٤ أن بلقيس هى بلقمة بنت اليشرح ، ويقول بعضهم : ابنة إيلى شرح ، ويقول بعضهم : ابنة ذى شرح=

الله عن سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ أنه قال : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ[١] ﴾ . ولم تكن المِلكة تبتهج بتلك الهدايا ـ وهى إلى سليمان ، وسليمان هو الذى أعطاه الله مُلكاً لا ينبغى لأحدٍ من بعده ـ إلاَّ وهى هدايا شريفة .

قالوا : فهذه الهدايا الشريفة إنّما كانت على البغال الشُّهب .

[إيثار البغال فى الركوب]

وكان ممن يركبها كثيراً إسماعيلُ بن الأشْعث[٢] ، وعبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث[٣] .

قال : وقال حَوْشَب بن يزيد بن رُوَيْم[٤] لعبد الرحمن بن محمد

= ابن ذى جدن بن إيلى شرح بن الحارث بن قيس بن صيفى بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وفى الإكليل ٨ : ٢٤٢ أنها بنت الهدهاد بن شرحبيل . وفى جمهرة أنساب العرب ٤٣٩ بلقيس بنت إيلى أشرح بن ذى جدن بن إيلى أشرح بن الحارث ابن قيس بن صيفى .

(١) سورة النمل ٣٦ .

(٢) فى بعض نسخ البيان ٣ : ٢٥٧ : « إسماعيل بن محمد بن الأشعث » .

(٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس بن معديكرب الكندى ، القائد الأموى الخارج على عبد الملك والحجاج . جمهرة أنساب العرب ٤٢٥ وكان لابن الأشعث هذا مع عبد الملك أربع وقعات ما بين سنتى ٨٢ ، ٨٣ . المعارف ١٥٦ والطبرى ٧ : ٣ — ٤٢ . وكانت وفاته سنة ٨٥ .

(٤) فى جمهرة ابن حزم ٣٢٥ : « حوشب بن زيد بن الحارث بن رويم » . وذكر أنه ولى شرطة الحجاج . وفى الأغانى ٢٠ : ١٨ « حوشب بن يزيد بن الحارث بن الحويرث ابن رويم الشيبانى » .

ابن الأشعث : دَعْنى أهيِّج عليك عمَّك أبا الفضل إسماعيل بن الأشعث . قال : لا تعرِّضْنى له ، فإنه ضعيف ، فأشفِقْ[1] عليه . فقال : يا أبا الفضل ، إنّ ابن أخيك زعم أنّ بغلتك جَلّالة . قال : لكنّ بغلته لو أفلتَت ما تركتْ بيتَ زانية ولا بيتَ خمّار ، إلّا وقفتْ عليه ! قال عبد الرحمن : ما كان أغنانا عمّا أظهرتَ لنا من ضَعْف شيخنا !

ولمّا وفدتْ عائشةُ بنت طَلْحة[2] على عبدِ الملك بن مروان ، وأرادت الحجّ ، حَمَلَها وأحشامَها[3] على ستّين بغلاً من بغال الملوك ؛ فقال عُرْوَة ابن الزُّبَيْر :

يَا عَيْشُ يا ذَاتَ البِغَالِ السِّتِّينْ أَكُلَّ عَامٍ هٰكذَا تَحُجِّينْ[4]

---

(١) لم يظهر من هذه الكلمة فى الأصل إلا « فا » .

(٢) عائشة بنت طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ابن مرة . وطلحة هذا من المهاجرين الأولين ، ومن العشرة المسمين للجنة . المعارف ١٠٠ — ١٠٣ ونوادر المخطوطات ١ : ٧٠ — ٧٣ والأغانى ١٠ : ٥١ — ٥٧ والإصابة ٤٣٥٩ والرياض النضرة ٢ : ٢٦٢ .

(٣) الحشم : الأتباع والمماليك والخدم . وفى القاموس : « وحشمة الرجل وحشمه ، محركتين ، وأحشامه : خاصته الذين يغضبون له من أهل وعبيد أو جيرة » .

(٤) نوادر المخطوطات والأغانى ١٠ : ٥٦ . وبعده فى الأغانى : « فأرسلت إليه : نعم يا عُرَيّة ، فتقدم إن شئت . فكف عنها ولم تتزوج حتى ماتت » . وكانت قد تزوجت من قبلُ عبد الرحمن بن أبى بكر ، ثم مصعب بن الزبير ، ثم عمر ابن عبيد الله بن معمر .

وكان مروان أبو السِّمط[1] يركب بغلةً له بالبصرة، لا يكاد يفارقها. فقال الجمّاز[2] وهو يهجوه:

٢٠١ و

اجتمعَ النّاسُ وصاحوا: الحريقْ ... ببابِ عثمانَ وسُوقِ الرَّقيقْ
فجاء مروانُ على بغلةٍ ... فأنشدَ الشِّعرَ فأطفأ الحريقْ

يَرمِي شعرَه بالبَرْد. وكان حسدَه حين سمع قائلاً يقول: لم يُصِبْ شاعرٌ قطُّ ما أصاب أبو السِّمْط، ولا أصاب حجّامٌ ما أصاب أبو حرملة.

وقد هجاه أيضاً فقال:

يا أبا السِّمْطِ، حزيرا ... نُ وتمّوزُ وآبُ
كُنْ لنا منها مُجيراً ... لكَ في ذاكَ ثوابُ
بِشُعَيْرٍ يُذهِبُ الحرَّ ... ويَهنِينا الشّرابُ[3]

---

(١) هو أبو السمط مروان بن أبي الجنوب بن مروان بن أبي حفصة، وكان شاعراً ساقط الشعر بارده، عاصر الواثق والمتوكل، وله في المتوكل وأحمد بن أبي دواد قصائد عدة، كما كانت له مساجلات مع علي بن الجهم. تاريخ بغداد ١٣ : ١٥٣، وطبقات ابن المعتز ٣٩٢ والأغاني ١١ : ٢. أما مروان بن أبي حفصة الأكبر جده فله ترجمة في الشعر والشعراء ٧٣٩ ومعجم المرزباني ٣٩٦ وابن خلكان ٢ : ٨٩، وطبقات ابن المعتز ٤٢ وتاريخ بغداد ١٣ : ١٤٢. ومما جعل المؤرخين يخلطون بينهما أن كلا منهما يكنى «أبا السمط». والأصح أن الأكبر منهما يكنى «أبا الهيذام». لكن جرى الجاحظ في البيان ١ : ٦٣ على تكنية الأصغر منهما بأبي السمط.

(٢) الجماز لقب له، ومعناه الوثاب. وهو محمد بن عمرو بن عطاء بن ريسان. شاعر أديب بصري، وكان ماجناً خبيث اللسان، معاصراً لأبي نواس، وكان أكبر منه سناً. دخل بغداد في أيام الرشيد والمتوكل، وأعجب به المتوكل يوماً، فأمر له بعشرة آلاف درهم. فأخذها وانحدر فمات فرحاً بها. تاريخ بغداد ٣ : ١٢٥، وابن خلكان في ترجمة يوسف بن عبد البر.

(٣) الشعير هنا: مصغر الشعر.

وقال ابن سيرينَ لرجلٍ : ما فعلتْ بغلتُك ؟ قال : بِعْتُها . قال : ولِمَ ؟ قال : لِمَؤُونتها . قال : أفتراها خلَّفت رزقَها عندك ؟

وذكر يوسُف بن خالد السَّمْتيُّ[١] ، عن مُجالد[٢] ، فيما أحسِبُ ، قال : بال بغلى فتنحَّيْتُ . فقال الشَّعْبيّ : ما عليك لو أصابك .

قال : وكانت لابن سيرين بغلتان : بغلة لخاصّة نفسه ، وبغلة للعاريّة[٣] .

وكتب سليمان بن هِشام إلى أبيه : إنَّ بغلتى قد عَجَزت ، فإن رأيتَ أن تأمُرَ لى بدابّة فافعل . فكتب إليه : « قد فهمتُ كتابك ، وما ذكرتَ مِن ضَعف بغلتك ، وما ذاك إلاّ لِقلة تعهُّدك ، فتفقَّدْها ، وأحْسِنِ القيام عليها . ويرى أمير المؤمنين فى ذلك رأيَه » .

---

(١) هو أبو خالد يوسف بن خالد بن عمير السمتى الليثى . والسمتى : نسبة إلى السمت ، أى الهيئة ، كما فى الأنساب وتهذيب التهذيب . وكان له بصر بالرأى والفتوى ، وهو أول من جلب رأى أبى حنيفة إلى البصرة ، وأول من وضع كتاباً فى الشروط ، وهو علم يتناول أدب القضاء والشروط والمواثيق . وكان أحد رجال الجهمية . توفى سنة ١٩٠ . تهذيب التهذيب والسمعانى ٣٠٦ وكشف الظنون (علم الشروط والسجلات) .

(٢) هو أبو عمرو مجالد بن سعيد بن عمير بن بسطام الكوفى ، من رواة الشعبى ، وروى عنه جرير بن حازم ، وشعبة ، والسفيانان ، وابن المبارك وغيرهم . تهذيب التهذيب .

(٣) العارية والإعارة : الاستعارة ، منسوبة إلى العارة ، يقال أعرته الشىء أعيره إعارة وعارة ، كما يقال أطعته إطاعة وطاعة . وقال الجوهرى : كأنها منسوبة إلى العار ، لأن طلبها عار وعيب .

[نوادر وأخبار في البغال]

ومن النوادر ، قال : ادّعى رجل على الهَيْثَم بن مُطَهَّر الفَأفاء[1] أنه سرَق بغلا ؛ فقال له الوالى : ما يقولُ ؟ قال : ما أعرفُ مما يقول شيئاً ؛ قال : أصلحك اللهُ ، إنه سكران فاستنكِهْهُ . قال : لأىّ شىء يَسْتنكهنى ؟ آكَلْتُ البغل ؟

وقال آخر يهجو رجلاً :

يا حابسَ الرَّوْثِ فى أعفاجِ بَغْلَتِهِ شُحًّا على الحَبِّ مِنْ لَقْطِ العَصافيرِ

وهذا شبيه بقول الشاعر[2] :

رأيتُ الخبزَ عزَّ لديكَ حتَّى حَسِبْتُ الخبزَ فى جَوِّ السَّحابِ
وما رَوَّحْتَنا لتذُبَّ عنَّا ولٰكِنْ خِفْتَ مَرْزِئَةَ الذُّبابِ

٢٠١ ظ

وهذا ليس من الهجاء الموجِع ، وإنما الهجاء ما يكون فى الناس مُثْلَة .

قالوا لحَمدانَ أبى سَهْل الأَحْيانىّ : علمتَ أن بِرْذَون صاحبِ الحبْس

(١) الهيثم بن مطهر ، ذكره الجاحظ فى البيان ٢ : ٢٦٩ وابن قتيبة فى عيون الأخبار ١ : ١٦٠ . وكان فى أيام المهدى ، وهو من أصحاب النوادر ، وكان من المُمرجان

(٢) البيتان بدون نسبة فى الحيوان ٣ : ٣١٧ والعقد ٦ : ١٩١ . وهما لأبى الشمقمق كما فى عيون الأخبار ٢ : ٣٦ ، ٣ : ٣٤٧ . وجاء فى البخلاء ٦٤ : « وكان أبو الشمقمق يعيب فى طعام جعفر بن أبى زهير ، وكان له ضيفاً ، وهو مع ذلك يقول » كما أعادهما فى ١١٤ بدون نسبة . وقد نسب البيت الثانى مع سابق له غير المروى هنا إلى أبى الشيص فى محاضرات الراغب ١ : ٣١٨ ، وإلى أبى نواس فى المحاسن والأضداد ٥٠ والمحاسن والمساوى ٢ : ٢٠٣ .

نَفَقَ ؟ قال : وَا لَهفَاهُ ! كنتُ أرجو أن يكسدَ فيخسَرَ ، فإذا هو قد باع وربح . فظنّ أنّ قوله : قد نَفَقَ ، من نَفاق السِّلعَة .

ومثل هـذا وليس من ذكر البغال فى شىء ، ما سمع رجلٌ رجلا يُنشد قوله :

وكانَ أخِلاَّئِى يَقُولُونَ مَرْحَبًا فَلَمَّا رَأَوْنِى مُعْدِمًا مَاتَ مَرْحَبُ

فقال : مَرْحَبٌ[1] لم يمُتْ ، قتله على بن أبى طالب عليه السلام !

ونظر أبو الحارث جُمَيْن[2] إلى أتانِ وحْش يُنْزَى عليها حِمارٌ أهلىٌّ ، فأنشد :

لَوْ بِأَبَانَيْنِ جَاءَ يَخْطُبُهَا زُمِّلَ ما أنفُ خَاطِبٍ بِدَمِ[3]

---

(١) هو مرحب اليهودى ، قتله على بن أبى طالب فى غزوة خيبر ، وكان خرج إليه محمد بن مسلمة فضربه فقطع رجليه وسقط ، ثم مر به على فضرب عنقه . إمتاع الأسماع ٣١٥ . وفى السيرة ٧٦١ أن الذى قتله هو محمد بن مسلمة .

(٢) أبو الحارث جمين ، أو جميز ، أحد أصحاب الفكاهة من معاصرى الجاحظ ودعبل بن على ، وسيابة . انظر بعض أخباره فى الأغانى ١ : ٣٧ و ١١ : ٦ و ١٧ : ٤٤ وجمع الجواهر للحصرى ٦٣ ، ٦٤ . وذهب صاحب القاموس إلى أن لفظ « جمين » خطأ ، والصواب « جميز » ، قال فى مادة (جمن) : « ضبطه المحدثون بالنون ، والصواب بالزاى المعجمة . أنشد أبو بكر بن مقسم :

إن أبا الحارث جميزا قد أوتى الحكمة والميزا » .

(٣) البيت لمهلهل فى اللسان (أبن) ومعجم مااستعجم ومعجم البلدان (أبانان) حيث وردت قصة البيت . وزمل بالدم : لطخ به . وفى الأصل : « زمل » تحريف ، صوابه فى اللسان . ويروى : « ضرج » كما فى معجم البلدان ومعجم ما استعجم و « ما » بعده زائدة . أراد : ضرج أنف خاطب .

ونظر إلى بِرْذَوْنٍ يُسْتَقَى عليه الماء ، فأنشد :

وَمَا المَرْءُ إلاَّ حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ فَفِي صَالِحِ الأَعْمَالِ نفسَكَ فَاجْعَلِ [1]

هذا لو هَمْلَجَ لَمْ يُصِبْه ما أصابه [2] .

قالوا : وكان لأبي الحارث بغلٌ قَطُوف [3] ، فلما أعياه استقى عليه الماء ؛ فرآه يوماً في الطريق ، وعليه مَزادة ثقيلة ، وهو يمشي تحتها مشيًا وطيئًا ؛ فقال : لو مشى تحت الخفيف كما يمشي تحت الثقيل ، وكان الإنسان أحبَّ إليه من الرّاوِيَةِ [4] ، ربح هو الكرامةَ ، وربحت أنا الوَطاءةَ [5] !

قال : ونظر أعرابيٌّ إلى بغلِ سَقَّاء ، وقد تفاجَّ ليبول ، فاستحثّه بالمِقْرَعة ، وقطعَ عليه البول . فقال الأعرابيّ : إنّها إحدى الغوائل ، قطَعَ اللهُ منك الوتين [6] !

قال إبراهيم بن داحة [7] : كان في طريق المَوْصِل سِكَّةُ بَرِيد [8] ، وبقرب السكّة مسجد ومُستَراحٌ للمُسافر ، وفي تلك السكّة بغل لا يُرام

---

(١) البيت لمنقر بن فروة المنقرى ، كما في البيان ٣ : ٢٢٨ . وتمثل به أبو الحارث كما في البيان ٢ : ١٠٣ و ٣ : ٢٢٨ . وفي الأصل : « فاجعلا » ، تحريف .

(٢) هملج : سار سيرا حسنا في سرعة وبخترة .

(٣) القطوف : السيء السير البطيء .

(٤) الراوية : المزادة فيها الماء .

(٥) الوطاءة : اللين والسهولة . وفي الأصل : « الوطا » .

(٦) الوتين : عرق في القلب .

(٧) ذكره الجاحظ في البيان ١ : ٨٤ في جماعة من مشايخ الشيع .

(٨) في الأصل : « مريد » .

ولا يمانع ، وكان إذا انفلتَ من قَيْده وسِلْسِلته ، وقد عاين بِرْذَوْنًا أو بغلاً أو فرسًا ، اغتصبه نفسَه ، واقتسره اقتسارا ، فلا ينزِع عنه حتى يَكُومَه ، وربما قتله ، لِعِظَم جُرْدانه ، وإن كان عليه راكبُه صرَعَه ، وربما قتَله ، حتى جاء شيخٌ أعرابىّ على فرس له أعرابىّ أعجَفَ بادى الحراقيف[1] ، حتى نزل عن فرسه على دُكّان ذلك المسجد ، وعلّق المِخْلاة فى رأسه ، وحلّ حزامَه ، وترك عليه سَرْجَه ، وأخذ مِخْلاتَه ، وجاء البغل قد أدلَى ، يُريد أن يركب فرسَ الأعرابىّ ، فجمع رجليْه ، فواتَرَ على جبهة البغل ، وعلى حِجَاج عينيه ، فرمَحَه خمسَ رمحاتٍ أو ستًّا متواليات ، كلُّها يقع حافرًا رجليْه معًا ، فنكصَ البغل شيئًا يسيرًا[2] ، ثم عاوَده ، فنثر على وجهه وحِجاج عينيه مثلَ ذلك العدد ، فى أسرعَ من اللّحظ ، وفرسُ الأعرابىّ فى ذلك كلِّه واقفٌ لا يتحلحَل ، والأعرابىّ قد ضحك حتى استلق ، فولّى البغل يريد السكّة ، فشدّ عليه فرسُ الأعرابىّ من بين يديه ، فلحقه الفرس فعضّضه ، وكامه الفرسُ ، ورجع الفرسُ إلى موضعه ، ودخل البغل السكّة ، فكبّروا عليه[3] ، ونثروا عليه الرّوث اليابس ، وشمِتَ به جميع النّاسة ، وافترّوا عليه ، فترك البغلُ ذلك الخُلُق . وقال الأعرابىّ وكأنه يُخاطب البغل :

ظَنَنْتَ فُرَيْسَ الشّيْخِ يا بَغْلُ نُهْزَةً
فَجِئْتَ مُدِلاًّ كالهِزَبْرِ تُطَاوِلُهْ

(١) الحرقفة : عظم رأس الورك ، وجمعها حراقف وزيادة الياء فى مثل هذا جائز فى مذهب الكوفيين .

(٢) نكص : رجع .

(٣) افتر افترارا : ضحك وأبدى أسنانه .

فَوَلَّيْتَ مَفْلُولًا وطَابَقْتَ مُذْعِنًـــا
كما طَابَقَتْ لِلبغــلِ يومًا حَلَائِلُه[1]

قال : وقدّموا إلى سُليمان بن عبد المَلِك جَدْيًا سمينًا ، فقال لأبي السَّرايا[2] — وكان من مجانين الأعراب — كُلْ منْ شَحْمِ كُلْيَتِه ، فإنه يَزيد في الدِّماغ . قال : لو كان الأكل من كُلَى الجدى يزيد في الدِّماغ ، كان رأسُ الأمير أعظمَ من رأس البغل !

وإنما قال « الأمير » ، لأن سليمان كان يومئذٍ وليَّ عهْد .

وقد غَلِط مَن زعم أنّهم كانوا وضعوا قُدّام سليمان جَدْيا ، وإنما كان يأكل ملوكُهم الحُملان ، لأنّها هناك أطيَب ويسمّونها : « العَمَارِيس » .

٢٠٢ ظ

ولمّا قدِم عبد الملك بالكوفةِ ، وضعوا بين يديه جديًا ، قال : فهلاّ جعلتموه عُمْرُوسًا ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، تلك عماريس الشام ؛ فأمّا العِراقُ[3] فجِداؤها أطيب وأكرَم[4] .

وتفاخر ناس بِكِبَر الأيور ، وشيخٌ جالسٌ لا يخُوض معهم ؛ فلما أكثروا قال الشيخ : لو كان كِبر الأيورِ مَجدًا كان البغل من بنى هاشم !

---

(١) البعل : الزوج ووردت فى ط : « للبغل » ، تحريف . والحلائل : جمع حليلة ، وهى الزوجة . طابقت له : انقادت له ووافقته وأذعنت .

(٢) فى الأصل : « لأبى السربال » ، صوابه من البيان ٢ : ٢٣٨ حيث الخبر .

(٣) قرأها ناشر ط سهوا «الشام» ، وقال : « لعل الصواب العراق » مع وضوح كلمة « العراق » فى الأصل .

(٤) بدله فى الحيوان ٥ : ٤٦٢ : « فأين أنتم عن العماريس ؟ فقيل له : عماريس الشام أطيب » .

وشهد مُزَبِّد المَدِينى[١] عند قاضى المدينة بشهادة ؛ وكان ذلك القاضى مُفْرِطَ الحِدّة ، شديدَ البَطْش ، سريعَ الطِّيَرة ، فقال له القاضى : أعَلَىَّ تجترئ وعندى تشهد ؟! جُرَّا برجليه وألقِيَاه تحت البغلة ! فلما أمعنا به نحوَ البغلة ، التفتَ إلى القاضى فقال : أصلحك الله ، كيف خُلقها ؟ فضحك وخلّى سبيله .

وكان نُمَيْـلة بن عُـكّاشة النُّمَيرى[٢] مُتكايِسًا ؛ فدخل دار بِلال ابن أبى بُرْدة ، فرأى ثورًا مجلَّلا ، فقال : سبحان الله ! ما أفرهها مِن بغلة لولا[٣] أنّ حوافرَها مشقوقة !

قالوا : ورأى الطائفُ بالليل شخصًا عظيما قد انخنس[٤] عنه ، فشدَّ نحوه ، فإذا حَمْدُويَة المُخنَّث قد جلس كأنه يَخْرأ ، ولم يكن به خِراء ، وكان قد جلس على رَوْث ؛ فقال له : أنت أىّ شىء تصنعُ هاهنا هذه الساعةَ ؟ قال : خرجتُ أخرأ . فنظروا فإذا تحته رَوْثة ، قالوا : ما لكَ ، صرتَ بغلًا ؟ قال : هذا زيادة عليكم ، كل إنسان يخرأ ما يشاء !

قال أبو الحسن[٥] : نظر جُحًا[٦] إلى رجل بين يديه يسير على بغلة ،

---

(١) مزبد المدينى ، من مشهورى أصحاب النوادر والفكاهة . ويقع التحريف فى اسمه كثيرا فيقال : « مزيد » . وانظر تحقيق ضبط اسمه والإشارة إلى ترجمته فى حواشى البيان ٢ : ١٠٢ .

(٢) وردت فى ط « النهدى » ، خلافا لما فى الأصل .

(٣) فى الأصل : « لو » والوجه ما أثبت

(٤) انخنس : رجع وتأخر .

(٥) أبو الحسن على بن محمد المدائنى المتوفى سنة ٢١٥ . ترجمته فى البيان ٢ : ١٨٠

(٦) هذا دليل على قدم هذا الشخص . وقد أجرى له ابن النديم المتوفى سنة =

فقال للرجل : الطريقَ ياحِمْصِيّ ! فقال الرجل : ما يُدْرِيك أنى حمصيّ ؟ قال : رأيتُ حِرَ بغلتك ، فإذا هو يُشبه الحاء ، ورأيت فَقْحَتَها فرأيتها تُشبه الميم ، ورأيت ذَنَبها فإذا هو يشبه الصاد ، فقلتُ : إنّك حمصيّ !

قالوا : وابتاع عِبَاديٌّ بغلًا ، فمرّ بالحيّ ، فقالوا : باركَ الله لك ! قال : لاتقولوا هكذا . فكيف نقول ؟ قال : قولوا : لا باركَ الله لك فيه ! قالوا : سبحان الله ! أيقول هذا أحدٌ لأحدٍ له فيه رأى ؟ قال : قولوا كما أقول لكم ! قالوا : لا باركَ الله لك فيه ! قال : وقولوا : وأعضَّك بِبَظْر أمّك[1] ! قالوا : نعم ، قال : إنْ أنا أعرتُكموهُ أبداً ! ٢٠٣ و

وهذا يُشبه حديث سِنْدِيَةَ الطحّانة ، وكانت تطحن بالنهار ، وتؤدّى الغلّة وتخدم أهلَها بالليل ، فانكسفت الشمس يوماً ، فقالت لها مَوْلاتها : اذهبى ياشَهدة[2] ، أنتِ حُرّة لوجه الله ! قالت : أليس قد صرتُ حُرّة ! ثم عدَتْ

= ٣٨٥ ذكرا فى الفهرست ص ٤٣٥ إذ ذكر كتاب « نوادر جحا » بين أسماء الكتب التى ألفت فى نوادر المغفلين . وفى القاموس : « وجحاً كهدى ! لقب أبى الغصين دجين بن ثابت ، ووهم الجوهرى » . قال الشارح : « أى فى قوله إن جحا اسمه » . ونقل عن كتاب المنهج المطهر للقلب للشعرانى : « عبد الله جحا تابعى كما رأيته بخط الجلال السيوطى . قال : وكانت أمه خادمة لأم أنس بن مالك ، فلا ينبغى لأحد أنْ يسخر به إذا سمع ما يضاف إليه من الحكايات المضحكة » . وفى اللسان : « وجحا اسم رجل ، قال الأخفش : لا ينصرف لأنه مثل عمر . قال الأزهرى : إذا سميت رجلا بجحا فألحقه بباب زفر » .

وانظر القاموس (دجن ، غصن) .

(١) عضه : قال له اعضض به . وقد وقع ناشر ط هنا فى تحريف وتخريج نبهت عليه فى مجلة معهد المخطوطات .

(٢) كذا . وسبق أن اسمها « سندية » .

من بين يديها[1] ، فقامت على باب الدار رافعةً صوتها تقول : مَن قال لى زانية فهى زانية ، من قال لى لِصّة فهى لصة ، من قال لى قوّادة فهى قوادة . هاتى الآنَ رَحًى لك[2] !

وأخبرنى أبو الزُّبير[3] ـ كاتب محمد بن حسان[4] ـ ، قال : وقف الهيثم بن مُطَهَّر الفأفاء[5] على باب الخيزُران[6] ينتظر رجلا يخرج من عندها ، فبعث إليه عمر الكلوَذانى[7] : قد نُهينا أن نجعل ظهور دوابّنا

(١) فى ط : « عادت من بين يديها » ، خلافاً لما فى الأصل .

(٢) فى الأصل : « هات الآن رحالك » . وإنما تقول لمولاتها : قد أصبحت الآن فى حاجة إلى رحى تطحنين بها بعد أن صرتُ أنا حرة .

(٣) فى الأصل : « أبو الزبرقان » . وانظر البيان ١ : ٨٨ .

(٤) انظر البيان ١ : ٨٨ . (٥) انظر ما سبق فى ص ٢٣٤

(٦) هى الخيزران ابنة عطاء ، مولدة من جرش باليمن ، وكانت أم ولد للمهدى ، وهى أم موسى الهادى وهارون الرشيد . وكان لها شأن فى الدولة العباسية . توفيت سنة ١٧٤ فى خلافة الرشيد . انظر التنبيه والإشراف ٢٩٧ والجهشيارى ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٣٦ ، ١٥٧ ، ١٧٨ ، ٢٢١ والطبرى فى حوادث سنة ١٧٠ ، ١٧٤ والبيان ٢ : ٢٦٩ .

(٧) ذكر الطبرى فى حوادث سنة ١٦٧ أن المهدى جد فى طلب الزنادقة والبحث عنهم فى الآفاق وقتلهم . وولى أمرهم عمر الكلواذى . وفى الجهشيارى ١٥٦ : « وجدَّ المهدى فى طلب الزنادقة . وقلد عمر الكلواذانى طلبهم فظفر بجماعة منهم ، وظفر فيهم بيزيد بن الفيض كاتب المنصور ، فأقر بالزندقة فحبس وهرب من الحبس » . والكلواذى والكلواذانى : نسبة إلى كلواذى ، من قرى بغداد على خمس فراسخ منها . وقد وردت هنا « الكلوذانى » ويبدو أنها نسبة ثالثة . انظر السمعانى ٤٨٦ . ويقال فى النسبة إليها أيضاً « كلوذى » كما فى معجم البلدان ، نسبة رابعة . وفى كلواذى يقول أبو نواس :

أحين ودعنا يحيى لرحلته ... وخلف الفرك واستملى لكلواذى

مجالس[١] ، فانزل عن ظهر دابّتك ؛ فالأرض أحملُ لثقلِك . فقال للرسول : إني أنتظر رجلا قد حانَ خروجُه ، فبعث إليه : أن انزلْ عن دابتك ، فإذا خرج صاحبُك فاركبْ والحقْ به . فقال للرسول : أعْلِمْهُ أنّي أعرج ، وأنا مع هذا رجُل مُثْقَل باللحم ، ولا آمَن أن يسبقَني الرجل سبقاً بعيداً ، فلا ألحقَه . فردّ الرسول ، فقال : يقول لك : إنْ أنت نزلتَ ، وإلّا أنزلناك صاغراً . فقال الهيثم : قلْ له : إن كنتَ إنّما تنظر للبغل ، فهو حبيسٌ[٢] في سبيل الله ؛ إنْ أنزلتني عنه ، إنْ أقضمتُه حبّة شعيرٍ شهراً ، فسلْه الآن : أيّما أحبُّ إليه : ركوبي له ساعةً ، أو حِرْمان الشعير شهراً ! فلما جاءته الرسالة قال : ويْلَكم ! هذا شيطان ! دَعوه في لعنة الله .

قال : ونظر إليه جعفر والفضل ابنا يحيي[٣] ، وهو واقف في ظلّ قصر من قصور الشَّمّاسيّة[٤] ، فنظر إلى شيخ عجيبِ الخِلْقة ، وإذا تحته بغلٌ أعجف ، يكاد يسقط هُزالًا وضَعفا ؛ فقالا له : يا شيخ ، لَولا تعالجُ بغلَك هذا حتّى يَعودَ سميناً فارهًا في أيّامٍ يسيرة ، بأيسر مئُونة ؟ قال : بأيِّ شيء أعالجه ؟ قال : ٢٠٣ ظ

---

(١) إشارة إلى حديث : « لا تجعلوا ظهور دوابكم مجالس » .

(٢) في بعض نسخ البيان ٢ : ٢٦٩ « حبس » حيث أورد الخبر مختصراً هناك .

(٣) هو يحيي بن خالد البرمكي ، وزير هارون الرشيد ، وهو الذى نشأ هارون ورباه . وكان يقول له : يا أبي ، إلى أن نكب البرامكة فغضب عليه وحبسه فمات في الحبس سنة ١٩٠ . وكان له من الأبناء : جعفر ، والفضل ، ومحمد ، وموسى . وفيهم يقول القائل :

أولاد يحيي أربع كأربع الطبــائع

انظر ابن خلكان ٢ : ٢٤٢ — ٢٤٦ .

(٤) الشماسية : موضع مجاور لدار الروم التى في أعلى مدينة بغداد .

تأخذ عشرة أمْناء مِسْك وعَنْبَر(١) ، وتعجنها بعشرة أمْناء من بانِ الغاليَة ، وتَطْليه به طَلْيةً واحدة . فتجافى عن سرجه فولّى(٢) وجوهَهما ظهرَه ، ثم ضرط ضرطةً صُلْبة ؛ قالا : ما هذا ؟ قال : هذا لكما على الصِّفة ، ولو قد أنجَعَ الدَّوَاء خَرِينا عليكم !

وحدَّثونا عن هِشام بن حسّان(٣) ، عن محمّد بن سِيرِين ، قال : كان رجلٌ عيّاب ، فأبصر بغلةً تحت شُرَيح(٤) ، فقال : أبا أميّة ، إنَّ بغلتك لَفارهة ! قال : إنها إذا رَبَضَتْ لم تَقُمْ حتى تُبْعَث . قال : لا خير فيها إذَنْ !

قال أبو الحسن : كان هشامُ بن عبد الملك يوماً على باب يزيد بن عبد الملك ينظر إلى بغالٍ تُعْرَض ، فنظر إلى بغلٍ منها لم يَرَ الناسُ مثلَه فى تمام خَلْق ، وطَهارة خُلُق ، ولِين سيرة ، وحُسْن صورة ، فقال : ما يصنع أميرُ المؤمنين بهذه الدوابّ كلِّها ؟ لو أن رجلا اجتزأ بهذا البغل وحده ، لكان مكتفياً .

قال : فلمّا وَلِيَ هشام ، اتّخذ البراذين البُخَارِيّة ، والبغال الفُرْهَة(٥) ؛

---

(١) الأمناء : جمع مَناً ، وهو ميزان يوزن به ، وقدره رطلان ، كما فى المصباح .

(٢) فى الأصل : « مولى » .

(٣) توفى سنة ١٤٦ . وانظر ترجمته ومراجعها فى حواشى البيان ١ : ٢٩١ .

(٤) هو أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس الكندى الكوفى القاضى . استقضاه عمر على الكوفة ، ثم عثمان ، وأقره على . وكان يقول له : أنت أقضى العرب ! وولاه زياد قضاء البصرة . توفى سنة ٧٢ . المعارف ١٩١ والإصابة ٣٨٧٥ وتهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ٢٠ وابن خلكان .

(٥) الفاره : النشيط الحاد القوى . ويجمع على فواره . ويجمع نادراً على فره وفره ، بضمتين وبضمة واحدة ، كما يجمع على فرهة مثل صاحب وصحبة ، وسيبويه يرى الأخير اسم جمع وليس بجمع .

فأذكره رجلٌ ذلك الكلام ، فقال : وأنا على الرأى الأول ، ولكن تأتينا أشياء نحسُد الناس عليها .

[ما قيل من الشعر فى البغال]

قال : وكان عند محمد بن سليمان[١] رجل مُغَفَّل ؛ فأنشد رجلٌ رجزاً قيل فى عُمَر بن هُبَيْرة :

جَاءَتْ بِهِ مُعْتَجِراً بِبُرْدِهِ سَفْوَاءُ تَرْدِى بِنَسِيجِ وَحْدِهِ[٢]
تَقْدَحُ قَيْسٌ كُلُّهَا بِزَنْدِهِ

فقال الشيخ : بأبى هو وأمّى — صلى الله عليه وسلم ! لأنّه ظنّ حين سمع بذكر البُرْد والبغلة ، أنه النبىّ صلى الله عليه وسلم .

وإنما هذا كقول أبى دَهْبَل[٣] :

---

(١) محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس العباسى ، والى البصرة ثم الكوفة فى عهد المنصور . ثم ولاه المهدى ثم عزله ، ثم أعاده الهادى وأقره الرشيد . ثم نقم عليه واستصفى أمواله . وتوفى سنة ١٧٣ . لسان الميزان ٥ : ١٨٨ وتاريخ بغداد ١٧٩٥ وجمهرة ابن حزم ٢٢ ، ١٤٦ ، ٢١٦ ، ٣١٦ .

(٢) الرجز لدكين بن رجاء الفقيمى ، كما فى اللسان (وحد ، عجر ، سفا) .

(٣) اسمه وهب بن زمعة الجمحى ، من بنى جمح ، وأكثر أشعاره فى عبد الله ابن عبد الرحمن الأزرق والى اليمن ، وفيه يقول القصيدة التى منها البيت التالى . وهو من شعراء الدولة الأموية ، وكان له غزل فى عاتكة بنت معاوية بن أبى سفيان ، وفيها يقول :

ثم خاصرتها إلى القبة الخضـ ـراء تمشى فى مرمر مسنون

ودهبل ، بفتح الدال والباء . الشعر والشعراء ٥٩٦ والأغانى ٦ : ١٢٩ والمؤتلف ١١٧ والاشتقاق ١٢٩ .

تَحمِلُهُ النَّاقةُ الأدماء مُعْتَجِرًا ... بالبُرْدِ، كالبَدْرِ جَلَّى ليلةَ الظُّلَمِ[(١)]

ومثل قول ابن المَوْلَى[(٢)] لجعفر بن سليمان :

أَوْحَشَتِ الجَمَّاء مِنْ جَعْفَرٍ ... فَجَانِبَا عَيْنِ أبي مشعرِ[(٣)] ٢٠٤ و

لَمَّا غَدَا تَحمِلُهُ بَغْلةٌ ... مُعْتَجِرًا كالقَمَرِ الأزهَرِ

ولمَّا قال المَدِينِيُّ[(٤)] وهو بالحجاز ، وذَكَرَ أبا البَخْتَرِيّ[(٥)] وهو قاضٍ

---

(١) معتجراً : معتما . والاعتجار : لى الثوب على الرأس من غير إدارة تحت الحنك .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن مسلم بن المولى ، مولى الأنصار ، من مخضرمى الدولتين . الأغانى ٣ : ٨٥ — ٩٣ .

(٣) الجماء : موضع من ضواحى المدينة ، وكان جعفر والياً على المدينة وله بها قصور ، ثم عزل عنها ، كما فى معجم البلدان ومعجم ما استعجم . وعين أبى مشعر ، لم أجدها فى كتب البلدان .

(٤) فى الأغانى ٧ : ١٥٠ : « دعى رجل من أهل الأدب إلى بعض المواضع فسقوه نبيذاً غير الذى كانوا يشربون منه ، فقال فيهم :

نبيذان فى مجلس واحد ... لإيثار مثر على مقتر

فلو كان فعلك ذا فى الطعام ... لزمتَ قياسك فى المسكر

وبعدها البيتان . فبلغت الأبيات أبا البخترى فبعث إليه بثلثمائة دينار » . وفى تاريخ بغداد ١٣ : ٤٨٢ أن الشعر للعطوى .

(٥) هو وهب بن وهب بن كثير بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب . أبو البخترى القرشى المدنى ، وكان قد انتقل عن المدينة إلى بغداد فسكنها . وولاه هارون الرشيد القضاء بعسكر المهدى ، ثم عزله فولاه المدينة ، ثم عزل فقدم بغداد وأقام بها حتى مات . وكان جواداً سخياً . توفى سنة ٢٠٠ . تاريخ بغداد ١٣ : ٤٨١ — ٤٨٧ ولسان الميزان ٦ : ٢٣١ — ٢٣٤ والأغانى ٧ : ١٥٠ . والبخترى ، بفتح الباء وسكون الخاء المعجمة وفتح التاء .

ببغداد ، وإنما ضَرَب به المَثَل ، ولم تكن قصيدته موجَّهة إليه ، فلما سمع قوله أبو البَخْتَرِىّ :

لَوْ كُنْتَ تَطْلُبُ شَأْوَ الكِرَامِ فَعَلْتَ فَعَالَ أَبِى البَخْتَرِى[1]
تَتَبَّعَ إِخْوَانَهُ فى البِلَادِ فَأَغْنَى المُقِلَّ عَنِ المُكْثِرِ

قال : يا غلام ، علىَّ بأربعمائة درهم ، وتَخْتٍ فيه أربعون ثوباً ، وبغلة ناجية[2] . فأعطاه ، أو فبعث بها إليه .

وقال بعض المُحارَفين[3] الفُقَراء ، أو الطِّيَاب[4] الشعراء :

أَتُرَانِى أَقُولُ يَوْمًا مِنَ الدَّهْـ ـرِ لِبَعْضِ التُّجَّارِ أَفْسَدْتَ مَالِى
أَوْ تُرَانِى أَقُولُ : مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ لِدَوَابِى بِذَا الشَّعِيرِ جِمَالِى[5]
أَوْ تُرَانِى أَقُولُ : يَا قَهْرَمَانِى سَلْ غُلَامِى مُوَفَّقًا عَنْ بِغَالِى
أَوْ تُرَانِى أَمُرُّ فَوْقَ رِوَاقٍ لِىَ عَالٍ فى مَجْلِسٍ لِىَ عَالِى
أَسْرِجُوا لِى ، فَيُسْرِجُونَ دَوَابِى فَأَقُولُ : انْزِعُوا السُّرُوجَ ، بَدَا لِى[6]

---

(١) ورد البيت بالخرم فى أوله . وفى الأغانى : « ولو كنت » و : « صنعت صنيع » ، وفى هامش الأصل : « كفعل » عن نسخة ، أى فعلت كفعل .

(٢) التخت : وعاء تصان فيه الثياب . والناجية : السريعة .

(٣) المحارف ، بفتح الراء : المحدود المحروم الذى لايصيب خيراً من وجه توجه له .

(٤) الطياب : جمع طيب ، مثل جيد وجياد . والطيب : الفكه المزاح . انظر الحيوان ٣ : ٢٧ والبيان ٣ : ١١٥ ، ١٥٢ وسيبويه ٢ : ٢١١ .

(٥) خفف باء الدواب للضرورة .

(٦) انظر الحاشية السابقة . وبدا لى : أى تغير رأيى على ما كان عليه . ومنه قوله :

لعلك والموعود حق لقاؤه بدا لك فى تلك القلوص بداء

هَدَايَانَا كَمَا تَرَى وفُضُـــولًا ... دَائِمَ النُّوكِ مِنْ عَظِيمِ المِحَالِ[1]

ومن هذا الباب قول الآخر[2] :

أُخَىَّ قَدْ أَوَّبَ الحَجِيجِ ومَا ... أَمْلِكُ لَا بَغْـلَةً وَلَا فَرَسَا[3]

اللهُ بَيْنِى وَبَيْنَ كُلِّ أَخٍ ... يَقُولُ : اجْدَمْ وقَائِلٍ : عَدَسَا[4]

وقال رجل من بنى شَيْبان ، واقترض ، فندِمَ بعد أن ركب البغال المقصَّصة[5] بدَلًا من النجائب والخيل :

بُدِّلْتُ بَعْدَ نَجَائِبِى ورَكَائِبِى ... أَعْوَادَ سَرْجٍ مُقَصَّصٍ هِمْلَاجِ

ووَقَعْتُ فى عَدَسٍ كَأَنِّىَ لم أَزَلْ ... شَنِقًا لِقَوْلِى لِلنَّجَائِبِ : عَاجِ[6]

واللهِ لَوْلَا أَنْ أُضَيِّعَ غَزْوَتِى ... لَرَجَعْتُ مُنْقَلِبًا لَهَا أَدْرَاجِى[7]

٢٠٤ ظ

---

(١) المحال ، بالكسر : المكر . وبالضم : المستحيل .

(٢) هو بشر بن سفيان الراسبى ، كما فى اللسان (عدس) .

(٣) يقال أوب وتأوب وأيب ، كله بمعنى رجع .

(٤) اجدم : زجر للخيل . وعدس : زجر للبغل . وعدس ، بالبناء على السكون ، وأعربه الشاعر للضرورة كما فى اللسان (عدس) .

(٥) عنى بالمقصص المقصوص الذنب . ويقال لها أيضا « المحذفة » . وانظر ما سيأتى فى ٢٠٩ ظ .

(٦) شنق شنقاً : هوى شيئاً فصار كأنه معلق به . ورجل شنق : معلق القلب . وعاج : زجر للناقة ، يقال بالتنوين وعدمه .

(٧) يقال رجع درجه ، بالتحريك ، وأدراجه ، أى رجع فى طريقه الذى جاء فيه .

وقال الحسن بن هانئ :

غَنِيتُ بِمَرْكَبِ البِرْذَوْنِ حَتَّى ... أَطَاحَ الكِيسَ إغْلاَءُ الشَّعِيرِ (١)

فَحُلْتُ إلَى الْبِغَالِ فَأَعْوَزَتْنِي ... وحُلْتُ مِنَ الْبِغَالِ إلَى الْحَمِيرِ

فَأَعْيَتْنِي الْحَمِيرُ فَصِرْتُ أَمْشِي ... أُزَجِّي المَشْيَ كالرَّجُلِ الْكَسِيرِ (٢)

ومَا بِي ، والْحَمِيدُ اللهُ ، كَسْرٌ ... ولَكِنْ فَقْدُ حُمْلاَنِ الْأَمِيرِ (٣)

وقال رَبيعة الرَّقّيّ (٤) :

وبَلاَئِي أَنَّ أُمِّي ... أَثْقَلَتْنِي بِإِزَارِي

فإِذَا مَا قُمْتُ أَمْشِي ... هَمَّ خَصْرِي بِانْبِتَارِ

كلَّ ذَا أَحْمِلُ وَحْدِي ... أَيْنَ مِنْ أُمِّي فِرَارِي

أُمَّتَا هٰذَا ورَبِّي ... حِمْلُ بِرْذَوْنٍ بُخَارِي

أُمَّتَا لَسْتُ بِبِرْذَوْ ... نٍ وَلاَ بَغْلِ مُكَارِي

---

(١) ط : «عنيت» بالعين المهملة خلافاً للأصل . وفى الديوان : «أضر الكيس» .

(٢) فى الديوان : « أزجى الرجال » . والتزجية : الدفع بالرفق ، والسوق اللين .

(٣) الحملان ، بالضم : مصدر حمل يحمل حملانا ، ثم يطلق على ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة .

(٤) هو أبو شبابة أو أبو ثابت ، ربيعة بن ثابت بن لجأ بن العيزار بن لجأ الأسدى الرقى ، من شعراء الدولة العباسية . ولد بالرقة وبها نشأ ، فأشخصه المهدى إليه فمدحه ، وكان ضريراً . وهو القائل :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى ... يزيد سليم والأغر ابن حاتم

معجم الأدباء ١١ : ١٣٤ — ٢٣٦ ونكت الهميان ١٥١ — ١٥٢ وطبقات ابن المعتز ١٥٧ — ١٧٠ والأغانى ١٥ : ٣٧ — ٤٢ .

وقال الحكم بن عَبْدَل[1] :

مَرَرْتَ عَلَى بَغْلٍ تَزُفُّكَ تِسْعَةٌ ... كأنَّكَ دِيكٌ مائلُ الرَّأْسِ أعْوَرُ[2]

تَخَايَلْتَ فى جِنِّيَّةٍ لِتَرُوعَنَا ... وأنْتَ إلَى وَجْهٍ بِزِينَكَ أفْقَرُ[3]

وقال حَنْظلة بن عَرادة[4] :

تَخَيَّرْتُ المُلُوكَ فَحَطَّ رَحْلِي ... إلَى سَلْمٍ ولَمْ يُخْطِ اخْتِيَارِى[5]

يَقُولُونَ اعْتَذِرْ مِنْ حُبِّ سَلْمَى ... إذَنْ لا يَقْبَلُ اللهُ اعْتِذَارِى

إذَا مَرَّتْ بِجِسْرِكُمُ بِغَالِى ... فَقُومُوا فَانْظُرُوا فى شَأْنِ دَارِى

وقُومُوا ظَالِمِينَ فَهَدِّمُوهَا ... وأَلْقُوا مِنْ صَحِيفَتِكُمْ صِغَارِى

وحمل أبو دُفافة بن سعيد بن سَلْم[6] دِعْبِلاً الشاعر على بغل ، فوجده ـ زَعَمَ ـ ذا عيوبٍ فكتب إليه : ٢٠٥ و

---

(١) الحكم بن عبدل بن جبلة الأسدى من شعراء الدولة الأموية . وكان أعرج أحدب هجاء خبيث اللسان ، منزله ومنشؤه الكوفة . الأغانى ٢ : ١٤٤ — ١٥٣ .

(٢) وكذا فى الحيوان ٢ : ٣٠٥ . وفى اللسان (زين) : « مائل الزين » . والزين : العرف .

(٣) فى الحيوان : « تخيرت أثواباً لزينة منظر » .

(٤) حنظلة بن عرادة ، من شعراء الدولة الأموية ، وكان صاحب سلم بن زياد والى خراسان فى أيام يزيد بن معاوية . انظر الحيوان ١ : ٢٢٦ والجهشيارى ٢٦٢ ونوادر المخطوطات ٢ : ٣٥٥ والاشتقاق ٢٤٧

(٥) يعنى سلم بن زياد .

(٦) فى الأغانى ١٨ : ٣٥ أن دعبلا قال : « مدحت عبد الرحمن بن خاقان وطلبت منه برذونا لحمله إلى غامزاً (أى به غمز ، وهو الظلع . وفى الأصل : غامرا) فكتبت إليه » . وأنشد البيتين . ثم قال : « فبعث إلى ببرذون غيره فاره ، بسرجه ولجامه والسى درهم » .

حُمِلتُ عَلَى أعْرَجٍ حَارِنٍ فَلاَ لِلرُّكُوبِ وَلا لِلثَّمَن[١]

حَمَلتَ عَلَى زَمِنٍ شَاعِرًا فَسَوْفَ تُكَافَا بِشُكْرٍ زَمِنٍ[٢]

وخرج أبو هَرْمَةَ الفَزَارِيّ من منزله على بغلةٍ فارهة ، فشرب بكلّ ما معه واحتاج ، فبادل بالبغلة حمارةً ، وقال :

خَرَجْتُ بِبَغْلَةٍ مِن عِنْدِ أَهْلِي فَجِئْتُ بِهَا وقدْ صارَتْ حِمارهْ

فَمَنْ يَكُ سَائِلاً عَنّي فإنّي أنَا الغَاوِي خَلِيعُ بَنِي فَزارَهْ

وبادلَ محمد بن الحارث[٣] قَيْنَةً ببرذون ؛ فألفاه صديقٌ له صلاةَ الغداة وقد ركبه ، فقال :

عُجْتُ بالسَّابَاطِ يَوْمًا فإذَا القَيْنَةُ تُلْجَمْ

قَيْنَةٌ كَانَتْ تُغَنِّي مُسِخَتْ بِرْذَوْنًا أدْهَمْ

وقال الآخر :

يَا فَتْحُ لَوْ كُنْتَ ذَاخَزٍّ أُجَرِّرُهُ

تَحْتِي سَلِيمُ الشَّظَا مِنْ نَسْلِ حَلاّبِ[٤]

---

(١) الحارن : ذو الحران ، وهو الذي لاينقاد ، إذا اشتد به الجرى وقف . وفى الأغانى : « غامر » . صوابه « غامز » وقد سبق تفسيره .

(٢) الزمانة : العاهة . وفى الأغانى : « على زمن غامر » صوابه « غامز »

(٣) فى معجم المرزبانى ٤٣٤ : « محمد بن أبى الحارث السكوفى . ذكر دعبل أن له أشعاراً كثيرة حساناً ، وكان لبعض إخوانه جارية مغنية فباعها وأخذ بثمنها برذوناً فقال محمد . . » . وأنشد البيتين مع تقديم الثانى منهما على الأول

(٤) فى الأصل و ط : « جلاب » ، صوابه بالحاء المعجمة . وهو فرس لبنى تغلب من نتاج أعوج . انظر القاموس واللسان (حلب) والخيل لابن السكلبى ١٤ ولأبى عبيدة ٦٧ ونهاية الأرب ١٠ : ٤٠ والعمدة ٢ : ١٨٢ .

أَوْ كُنْتُ ذَا بَغْلَةٍ سَــــفْوَاءَ نَاجِيَةٍ
وشَــــاكِرِيَّيْنِ لَمْ أُحْبَسْ عَنِ البَابِ[1]

أَزْرَى بِنَــــا أَنَّنَا قَلَّتْ دَرَاهِمُنَا
والفقــرُ يُزْرِي بآدابٍ وأَحْسَــابِ

وقال أبو العتاهية فى عبد الله بن مَعْن بن زائدة :

أُخْتُ بَنِي شَيْبَانَ مَرَّتْ بِنَا   مَمْشُوطَةً كَوْرًا عَلَى بَغْلِ[2]
تُكْنَى أَبَا الفَضْلِ فَيَامَنْ رَأَى   جَارِيَةً تُكْنَى أَبَا الفَضْــــلِ

وأشعار ذكروا فيها البغال بالتهجين ، ولم يقصدوا إلى أعضائها بشىء ، ومنها ما أرادوا بها من تحياز ركوبها[3] ، قال بعضهم فى هجاء الموالى :

تَأَمَّلْتُ أَسْوَاقَ العِرَاقِ فَلَمْ أَجِدْ   دَكَاكِينَهَا إِلَّا عليها المَوَالِيَا
جُلُوسًا عليهـــا يَنْفُضُونَ لِحَاهُمُ   كَمَا نَفَضَتْ عُجْفُ البِغَالِ المَخَالِيَا

٢٠٥ ظ

وقال طارق بن أثال الطائى :

مَا إِنْ يَزَالُ بِبَغْدَادٍ يُزَاحِمُنَــا   عَلَى البَرَاذِينِ أَمْثَالُ البَرَاذِينِ[4]

---

(١) الشاكرى : الأجير المستخدم ، معرب جاكر . كما فى القاموس . وانظر حواشى الحيوان ١ : ١٣٠ .

(٢) ممشوطة ، أى ممشوطة الشعر . وفى الأصل : « منشوطة » ، وأثبت ما فى الأغانى . والكور ، أصله من إدارة العمامة على الرأس ، والمراد إدارة شعرها كما تدار العمامة .

(٣) كذا وردت هذه العبارة . وجعلت فى ط : « بها غبار ركوبها » ! .

(٤) أنشد الشعر فى البيان ١ : ٢٢٧ و ٣ : ٢٢٧ . وهو فى مجالس ثعلب ١٧٨ بدون نسبة .

أعطاهمُ اللهُ أمـوالاً ومَنْزِلَةً مِنَ الملوكِ بلاَ عقـلٍ ولاَ دِينِ
ما شِئْتَ مِنْ بَغْلةٍ سفْوَاءَ ناجيَةٍ وَمِنْ ثيابٍ وقَوْلٍ غَيْرِ مَوْزُونِ (١)

وقال بعضهم فى تشبيه الشىء بالشىء ، وهذا شعر ينبغى أن يُحفظ :

وهَيَّجَ صَوْتُ النَّـاعجات عَشِيَّـةً
نَوَائحَ أمْثـالَ البِغـالِ النَّـوافِرِ (٢)
يُخَمِّطْنَ أطْـرافَ الأنُوفِ حَـوَاسِراً
يُظاهِرْنَ بالسَّـوْءاتِ هُدْلَ المَشـافِرِ
بَـكَى الشَّجْوَ مَا دُون اللَّهَى مِنْ حُلُوقِها
ولَمْ يَبْـكِ شَجْوًا ما وَرَاءَ الحَنـاجِرِ

وما سمعنا فى صفة النوائح المستأجَرات ، وفى اللواتى ينتحلن الحُزْن وهُنَّ خاليّاتُ بالٍ ، بأحسنَ من هذا الشعر .

وها هنا باب من الشعر حَسَن ، وليس من هذا بعينه ، ولكنه قد يُشا كله من باب . قال الشاعر :

ألاَ لاَ يُبَالِي البُرْدُ مَنْ جرَّ فَضْلَهُ كما لاَ تُبَالِي مُهْرَةٌ مَنْ يَقُودُهَا (٣)

وقال آخر :

لاَ يَحْفِلُ البُرْدُ مَنْ أبْلى حَوَاشِيَهُ ولاتُبَالِيعَلَى مَن راحَتِ الإبلُ (٤)

---

(١) فى البيان : « ومن أثاث » ، وفى مجالس ثعلب : « ومن فعال » .

(٢) الناعجات : الإبل السراع ، أو البيض الكريمة . وجعلت فى ط : « النائحات » خلافاً لما فى الأصل .

(٣) البيت فى البيان ٣ : ٨٢ .

(٤) فى البيان ٣ : ٨٢ : « من يلى حواشيه » .

وقال آخر :

أَهِينُوا مَطَايَاكُمْ فَإِنِّي رَأَيْتُهُ
يَهُونُ عَلَى البِرْذَوْنِ مَوْتُ الفَتَى النَّدْبِ (١)

وقال آخر (٢) :

وإنِّي لَأَرْثِي لِلْكَرِيمِ إذَا غَدَا إلَى طَمَعٍ عِنْدَ اللَّئِيمِ يُطَالِبُهْ (٣)
وأَرْثِي لَهُ مِنْ مَجْلِسٍ عِنْدَ بَابِهِ
كَمَرْثِيَتِي لِلطِّرْفِ والعِلْجُ رَاكِبُهْ (٤)

٢٠٦ و

وقال مُسلم بن الوليد فى برذون ابن أبى أُميَّة (٥) :

قُلْ لِابْنِ أُمَيٍّ : لَا تَكُنْ جَازِعًا لَا يَرْجِعُ البِرْذَوْنُ بِاللَّيْتِ (٦)

---

(١) فى البيان ٣ : ٨٢ : « فإنى وجدته » . الندب : الخفيف فى الحاجة الظريف ، لأنه إذا ندب لحاجة خف لقضائها .

(٢) هو عبيد الله بن عكراش ، كما فى عيون الأخبار ١ : ٨٩ وأنشده بدون نسبة فى البيان ٣ : ٢٠٨ .

(٣) فى البيان : « على حاجة » ، وفى عيون الأخبار « على طمع » .

(٤) مجلس ، أى جلوس . والطرف ، بالكسر : الفرس الكريم الطرفين ، أى الأبوين . والعلج : الرجل من كفار العجم .

(٥) هو محمد بن أمية بن أبى أمية ، ويقال محمد بن أبى أمية ، كاتب شاعر ظريف غزل ، كان ينادم إبراهيم بن المهدى . وهو من أهل بيت كثر فيهم الشعراء ، لذلك اختلطت أشعارهم واختلفت الروايات أيضاً فى أنسابهم . تاريخ بغداد ٢ : ٨٥ والأغانى ١١ : ٣٠ — ٣٥ وطبقات ابن المعتز ٣٢٢ فى ترجمة عبد الله بن أبى أمية .

(٦) أنشد هذه الأبيات فى الأغانى ١١ : ٣٢ . قال : « وكان لمحمد بن أمية =

طَأْمَنَ مِنْ جَأْشِكَ فِقْدانُهُ وكُنْتَ فِيهِ عَالِيَ الصَّوْتِ (١)

وكُنْتَ لاَ تَنْزِلُ عَنْ ظَهْرِهِ ولَوْ مِنَ الْحُشِّ إلى البَيْتِ (٢)

ما مَاتَ مِنْ سُقْمٍ ولٰكِنَّهُ ماتَ مِنَ الشَّوْقِ إلى المَوْتِ (٣)

وأنشد :

بَكَتْ عَيْنِي لِبِرْذَوْنِي السَّمَنْدِي بُكاءَ أخِي مُحافَظَةٍ ووُدِّ (٤)

وكانَ لَنَا حَمُولَةَ كُلِّ زِقٍّ وكانَ لِكُلِّ سكبان مؤدّى (٥)

= برذون يركبه ، فنفق فلقيه مسلم وهو راجل ، فقال : ما فعل برذونك ؟ قال : نفق . قال : الحمد لله، فنجازيك إذاً على ما كان منك إلينا » . ثم أنشد هذا الشعر .

وفى الأصل : « قل لابن مى » ، وهو مع استقامة وزنه عسر التخريج ، وأثبت ما فى الأغانى وديوان مسلم ٢١٥ . وتخرج هـذه الرواية على الخزم ، بالزاى ، وهو زيادة حرف فى أول البيت . وربما جاء بالحرفين والثلاثة ، ولم يأتوا بأكثر من أربعة . وليس الخزم عندهم بعيب . انظر العمدة ١ : ٩٢ . والليت ، أراد به قول « ليت » : ونحوه قول القائل (اللسان لهف) :

فلست بمدرك ما فات منى بلهف ولا بليت ولا لوانى

(١) فى الديوان : « طأطأ من تيهك » . وفى الأغانى : « طامن أحشاءك » .

(٢) الحش : المتوضأ ، ومكان قضاء الحاجة .

(٣) فى الديوان والأغانى : « ما مات من حتف » .

(٤) السمندى ، يعنى به الشبيه بالسمند ، وهو الفرس بالفارسية . أو المنسوب إلى سمندو . وهى قلعة بالروم .

(٥) كذا ورد فى الأصل

[طبائع البغال وما قيل فيها]

قال : ركب صَخْر بن عُثمان[١] بغلاً ، ليبكِّر عليه فى حاجة ، فقال له عثمان بن الحَكَم[٢] ، وهو سيِّد ثقِيف فى عصره : إن كنتَ تركبه على أنه عدوٌّ فاركبه ، وإلا فدعْه .

وقال أبو الحسَيْن النخّاس ــ واسمُه الحارث[٣] ، وهو الذى يقال له مؤمنُ آل فِرْعَوْن ــ إنما يَجمَح البرذون[٤] ليصرعَ[٥] راكبه فقط ، ألَا تراه إذا سقط عنه ، أو رمى بنفسه عن ظهره ، وقف البرذون ؛ إلّا برذوناً واحداً ، فإنّى رأيتُه شدَّ عليه بعد أن ألقاه ، يكدِمُه ويرمَحُه ، وكان الناس يُشدُّون عليه ، فيتنحّى عنه ويشُدّ عليهم ، فإذا أجفلوا من بين يديه رجع إليه يكدِمه ويرمَحُه .

وقال مَن يذمّ البغال : البغل كثير التلوُّن ، به يُضْرَب المثل ، وهو مع هذا قتّالٌ لصاحبه . قال ابن حازم الباهلىّ[٦] :

---

(١) لعله ولد التالى .

(٢) هو عثمان بن الحكم بن صخر الثقفى . أورد له أبو الفرج خبرين فى الأغانى ٦ : ٢٣ و ١٧ : ١٧ كما روى له الجاحظ خبراً فى ١ : ١٠٤ والبيان ٢ : ٢٣٥ .

(٣) انظر البيان ٢ : ١٧٦ .

(٤) البرذون : ضرب من الدواب يخالف الخيل العراب ، عظيم الخلقة ، غليظ الأعضاء . ويقال برذن الرجل : سافر بالبراذين ، كما فى تثقيف اللسان .

(٥) ط : « ليتمرغ » خلافاً لما هو واضح فى الأصل .

(٦) هو أبو جعفر محمد بن حازم بن عمرو الباهلى ، مولده ومنشؤه بالبصرة ، وسكن بغداد . وهو شاعر مطبوع من شعراء الدولة العباسية ، إلا أنه كان كثير الهجاء للناس فاطرح ، ولم يمدح من الخلفاء إلا المأمون . تاريخ بغداد ٧٨١ ومعجم المرزبانى ٤٢٩ والأغانى ١٢ : ١٥١ — ١٦٠ والورقة ١٠٩ — ١١٢ وطبقات ابن المعتز ٣٠٧ — ٣١٠ .

مَالِي رَأَيْتُكَ لَا تَدُو مُ على المَوَدَّةِ لِلرِّجَالِ[١]
مُتَبَرِّمًا أَبَدًا بِمَنْ آخَيْتَ ، وَدُّكَ فى سَفَالِ[٢]
خُلق جَدِيدٌ كُلَّ يَوْ مٍ مِثْلُ أَخلاقِ البِغَالِ

٢٠٦ ظ

وقال آخر فى تلوّن أخلاقه :

وَمَتى سَبَرْتَ أَبَا العَلَاءِ وَجَدْتَه مُتلوّنًا كَتَلَوُّنِ البَغْلِ

قال آخر :

يَزِيدُ تُزْرِي به عِنْدِي سَجِيَّتُهُ كالبَغْلِ،لاشاعِرٌ فَحْلٌ ولا راوِي

وقال عثمان بن الحكم[٣] : كان عندنا فى الحىّ فتًى ولدتْهُ امرأة مذكَّرة ، لرجل مؤنَّث : فما رأيتُ ولا سمعت بخُلق رديٍّ من أخلاق البغال ، إلّا وقد رأيته فيه[٤] .

وقال آخر[٥] :

الشُّؤْمُ مِنْهَا فى ذَوَاتِ الحِجْلِ[٦] وغُرَّةٍ تَصْدَعُ جَمْعَ الشَّمْلِ

---

(١) هذا البيت أحد ستة أبيات من هذه المقطوعة فى الأغانى ١٢ : ١٥٧ قالها لصديق قديم له نال مرتبة من السلطان وعلا قدره ، فجفا محمداً وتغير له .

(٢) السفال ، كسحاب : نقيض العلاء . والبيت وتاليه لم يروهما أبو الفرج .

(٣) سبقت ترجمته قريباً .

(٤) نحو هذا المعنى فى الحيوان ١ : ١٠٣ إذ يقول أن ابن المذكرة من النساء والمؤنث من الرجال يكون أخبث نتاجاً من البغل

(٥) هو العكلى الراجز ، كما سيأتى فى (٢٢٥ و) . وهو أبو حزام غالب ابن الحارث . وكان أعرابياً فصيحاً يفدعلى أبي عبيد الله وزير المهدى. قال الخوارزمى : « وشعره عويص لأنه أكثر فيه من الغريب فلا يقف عليه إلا العلماء . وكان يؤخذ عنه اللغة ، أدركه الكسائى واستشهد ببعض شعره » . انظر شروح سقط الزند ١٤٦٥ — ١٤٦٧ . وله ثلاث أراجيز فى الجزء الأول من مجموع أشعار العرب ١ : ٧٥ — ٧٨ .

(٦) سيرد هذا الشطر والأشطار الخمسة بعد فى (٢٢٥ ظ) .

وهْوَ خِلافُ الفرَسِ الهِبَلِّ[١] وكُلِّ طِرْفٍ ذائلٍ رِفَلِّ[٢]

قَدْ حَذِرَ النّـاسُ أَذاهُ قَبْلِي وعَدَّدُوا كُلَّ قَتِيـلِ بَغْلِ

مِنْ ناشئٍ غِرٍّ وكَهْلٍ جَزْلِ وسـائسٍ ورائضٍ مُدِلِّ

وكُلُّهُمْ قالَ بِقَوْلٍ عَـدْلِ ولَيْسَ يُحْصِي عَيْبَهُ ذُو عَقْلِ

إلّا الّذِي يَعْلَمُ عَدَّ الرَّمْلِ مِنهم أبُو الفَضْلِ أخِي وشَكْلِي

مُجَرَّحُ الوَجْهِ كَسِيرُ الرِّجْلِ ومَزْيَدٌ وجابِرُ المُسْتَمْلِي

كان مَعْبدُ بن أخضر المازِنِيّ ـ وهو أخو عبّاد بن أخضر[٣] قاتلِ أبي بلال الخارجي[٤] ـ عند سعيد بن عبد الرحمن بن عَتّاب[٥] ، فخرج

---

(١) الهبل : الطويل العظيم .

(٢) الطرف ، بالكسر : الكريم الطرفين ، أي الأبوين . والذائل : الطويل الذيل . وكذلك الرفل .

(٣) عباد بن أخضر نسبة إلى زوج أمه ، كما في جمهرة ابن حزم ٢١١ إذ يقول : «وأخضر الذى نسب إليه هو زوج أمه» . وبهذه النسبة ورد في الطبري ٦ : ٢٧١ . وهو عباد بن علقمة بن عباد بن جعفر التميمي .

(٤) هو أبو بلال مرداس بن أدية ـ بهيئة التصغير ـ أحد الخوارج ، خرج في أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة على عبيد الله بن زياد ، فبعث إليه زرعة بن مسلم العامري فهزم زرعة ، ثم وجه إليه عباد بن الأخضر فهزمه وقتله سنة ٦١ وهي سنة مقتل الحسين . الطبري ٦ : ٢٧١ ولسان الميزان ٦ : ١٤ وجمهرة ابن حزم ٢١١ .

(٥) سعيد بن عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد الأموي ، كان سيداً ممدحاً ، تزوج الحجاج ابنته ، وتزوج بنت عبيد الله بن زياد ، فولدت له عتاب بن سعيد . جمهرة أنساب العرب ١١٣ والاشتقاق ٧٨ ونسب قريش ١٩٦ . ومدحه الراعي . انظر الأغاني ٢٠ : ١٦٨ .

من عنده يوماً على بغل فصرعه ، وكسر سرجه ، فركبه عُرْياً ، وانصرف إلى أهله ، فقال :

أَمَا واللهِ يَا بنَ أَبِي سَـعِيدٍ جَزَاكَ اللهُ شَرًّا مِنْ عَمِيـدِ
فَلَوْ فِي دَارِ طَلْحَةَ دُقَّ سَرْجِي لَأَدَّانِي عَلَى سَرْجٍ جَـدِيدِ[1]

فبعثَ إليه طلحة بسَرج .

٢٠٧ و وأما ربيعة بن أبي الصَّلْت[2] ، فقتله بغلٌ على باب عبد الله بن عبّاس . ومن وَلده كَلَدَة بن ربيعة ، وكان شريفاً شاعراً .

ومِمَّن قتلتْه بغلته ، خالد بن عثمان بن عفّان ، رضى الله عنه ؛ وذاك أن

---

(١) هو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعى ، الذى يقول له الشاعر :

نضر الله أعظماً دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

انظر العقد ١ : ٣٤٠ إذ جعله أحد خمسة أجواد بالبصرة ، على حين عدهم صاحب الأمالى ٣ : ٢٠ ثلاثة أجواد . وانظر جمهرة أنساب العرب ٢٠٥ ، ٢٣٨ . وولاه زياد بن مسلمة على سجستان فتوفى وهو وال بها نحو سنة ٦٥ . وانظر الشعور بالعور للصفدى ١٦٣ - ١٦٤ مخطوطة دار الكتب .

(٢) هو ربيعة بن أمية بن أبى الصلت الثقفى ، ولى بعض الولايات بالإسلام ، كما فى جمهرة أنساب العرب ٢٦٩ . وكان لأمية بن أبى الصلت أربعة بنين : عمرو ، وربيعة ، ووهب ، والقاسم . وكان القاسم وربيعة شاعرين أيضاً . وربيعة هو القائل :

وإن يك حياً من إياد فإننا وقيساً سواء ما بقينا وما بقوا
ونحن خيار الناس طراً بطانة لقيس ، وهم خير لنا إن هم بقوا

الأغانى ٣ : ١٧٩ — ١٨٠ والإصابة ٢ : ١٩٧ والاشتقاق ٣٠٤ . وقال ابن دريد عند الكلام على ثقيف : « ومن رجالهم ربيعة بن أبى الصلت ، صاحب ربيعتان : نهر بقرب الأبلة . ومن ولده كلدة بن ربيعة » .

خالداً كان بالسُّقْيا[١]، فقال : هذا يوم الجمعة ، لئن لم أُجَمِّع[٢] مع أمير المؤمنين إنها لَلسَّوْءة السَّوءى ! فركب بغلةً له لا تُسايَر ، فسار سبعين مِيلاً ، فأتى المدينة فى وقت الصلاة : فخرَّ ميِّتا ، ونجتِ البغلة .

ومن قتلته البغال ، المُنذِر بن الزُّبير[٣] ، وكان يُكنى أبا عثمان ؛ حَمَلَ على أهل الشام وهو على بغلةٍ وَرْدةٍ[٤] ، بعد أن ألحَّ عليه عبد الله بن الزُّبير يَذْمُره[٥] ؛ فلما سمعت البغلةُ قَعْقَعة السِّلاح نفرت ، فتوقَّلتْ به فى الجَبَل[٦] ، حتى أخرجتْه من حدود أصحابه ؛ فاتَّبعه أهل الشام ؛ فناداه عبد الله : انجُ أبا عثمان ، فِداكَ أبى وأمّى ! فعثَرت البغلة ، ولحقه أهلُ الشام ، فقتلوه .

---

(١) السقيا : موضع بين مكة والمدينة .

(٢) جمع الناس تجميعاً : شهدوا الجمعة وقضوا الصلاة . وكذا ضبطت فى الأصل بتشديد الميم ، وضبطت فى ط بفتح الهمزة وسكون الجيم خطأ .

(٣) هو أبو عثمان المنذر بن الزبير بن العوام ، أخو عبدالله بن الزبير ، وقتل معه . جمهرة ابن حزم ١٢٢ ، ١٢٣ . وكان مقتل أخيه عبد الله سنة ٧٣ فى حربه مع الحجاج سنة ٧٣ كما فى الطبرى ٧ : ٢٠٢ .

(٤) الوردة بالفتح : ما لونها الوردة بالضم ، وهى حمرة تضرب إلى صفرة . يقال فرس وَرد ، والأنثى وَردة . ويقال عشية وردة : قد احمر أفقها . وفى الأصل : « ورد » ، تحريف .

(٥) ذمره ذمرا : حثه مع لوم واستبطاء . ويقال ذمره تذميرا : حضه وشجعه .

(٦) توقلت توقلا : أسرعت فى الصعود .

ولذلك قال يزيد بن مُفَرِّغ في هجائه لعبيد الله بن زياد[١] :

لَابْنُ الزُّبَيْرِ غَدَاةَ يَذْمُرُ مُنْذِرًا أَوْلَى بِغَايَةِ كُلِّ يَوْمِ دِفَاعِ
وأَحَقُّ بالصَّبْرِ الجَمِيلِ مِنِ امْرِئٍ كَزٍّ أَنَامِلُهُ قَصِيرِ البَاعِ[٢]

قال : وأردف عبّاسًا المَشُوقَ الشاعر[٣] ، بعضُ الفتيان خلفه على بغلة له ، ووعده أن يهبَ له ويكسُوَه ، وحَرَنَ البغل ، فسقط الرجلُ فاندقّت فخِذاه ، فقال المَشُوق :

لَيْتَ مَا أَمْشِي بِرِجْلَيْـ ـكَ بِرِجْلِي وبِكَفِّي
لَيسَ لِلبَغْلَةِ ذَنْبٌ إنَّمَا الذَّنْبُ لِحُرْفِي[٤]

وممن صرعته بغلته : البَرْدَخْت[٥] الشاعر ، واسمه عليّ بن خالد ـ

---

(١) لم يظهر من هذه الكلمة في الأصل إلا اللام تليها ضمة وياء ساكنة ودال . وهو عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، المترجم في حواشي البيان ١ : ٣٢٥ . وهو غير عبيد الله بن زياد بن أبيه .

(٢) كز اليدين : بخيل . والكزازة : اليبس والانقباض .

(٣) كان معاصراً لإبراهيم بن السري الزجاج ، كما في مجالس العلماء ص ٣١٠ . وفي المصون للعسكري ص ٨٠ : « وسمي المشوق بقوله :

* كأن سماءه عين المشوق * »

وصدر هذا البيت كما في المصون :

* حمى فيها الكرى عيني بيتٌ *

(٤) الحرف ، بالضم : الحرمان . وفي اللسان : « والحرف : الاسم من قولك : رجل محارف ، أي منقوص الحظ لا ينمو له مال » . وفي الأصل : « ليت للبغلة ذنب » ، صوابه ما أثبت . وقد جعلت في ط : « ليت للبغلة ذنبا » .

(٥) البردخت : لقب له ، واسمه علي بن خالد الضبي . ومن الظاهر أنه كان معاصراً لجرير . ذكره المرزباني في معجمه ٢٨٠ — ٢٨١ . وانظر الشعراء ٦٩٢ — ٦٩٣ والأمالي ٣ : ٧٩ وذيل اللآلي ٣٩ .

وهو الذى كان هجا جَرير بن عطيّة ، فقال جرير : مَن هذا الهاجى ؟ قالوا : البَردخت . قال : وأىّ شىء البردخت[١] ؟ قالوا : الفارغ . قال : فلستُ أوّل مَن صيَّر لهذا شُغْلاً[٢] . ٢٠٧ ظ

وكان زَيْدٌ الضّبّىّ[٣] هو الذى حمله على ذلك البغل الذى صرعه ، فقال :

أَقُولُ لِلبغْلِ لَمَّا كادَ يَقْتُلُنِى لا بَارَكَ اللهُ فى زَيْدٍ وما وَهَبَا

أَعْطَانِىَ الحَتْفَ لمّا جِئْتُ سَائِلَهُ وأَمْسَكَ الفِضَّةَ البَيضاءَ والذَهَبَا

وهو الذى كان هجا زيداً بأنه حديث الغِنَى ، وأتاه وهو أمير فى يوم حَفْلِه ، فقال[٤] :

ولَسْتُ مُسَلِّماً مَا دُمْتُ حَيًّا على زَيْدٍ بِتَسْلِيمِ الأَمِيرِ

فقال زيد : لا أُبالى والله ! فقال هو :

أَتَذْكُرُ إذْ لِحَافُكَ جِلْدُ شَاةٍ وإذْ نَعْلاكَ مِنْ جِلْدِ البَعِيرِ

قال : إى والله : قال :

فَسُبْحَانَ الّذِى أَعْطَاكَ مُلْكاً وعَلَّمَكَ الجُلُوسَ عَلَى السَّرِيرِ

قال زيد : نعم ، سبحانه ! فخرج وعليه فَضْل .

قالوا : ونَفَر بغلٌ كان تحت محمد بن هارون ، أخى سهل بن هارون

---

(١) لفظه فى الفارسية « بَرداخَتْ » . انظر معجم استينجاس ٢٤٠ .

(٢) فى الشعر والشعراء : « ما كنت لأشغل نفسى بفراغك » .

(٣) هو أبو حصين زيد بن حصين بن زهير الضبى ، أحد بنى السيد ، كان والياً على أصبهان . جمهرة أنساب العرب ٢٠٤ وأمالى القالى ٣ : ٧٩ .

(٤) الأبيات التالية بدون نسبة ومع خلاف فى الرواية ، فى البيان ٤ : ٥١ .

البليغ الكاتب الشاعر . قالوا : وإنما كان البغل ارتدَّ فزعاً ، فقُطِع من جوفه بعضُ العلائق ، فمات على ظهره ، فى وسط مُرَبَّعة باب عثمان نهارًا .

وقد تَصْدم الدابّةُ الدابةَ ، فيموت الراكبان والمركوبان .

[الوقوع على البغال]

وخبّرنى سعيد بن أبى مالك[1] أن غلاماً كان لبعض أهل القطيعة[2] ينيك بغلةً لمولاه ؛ وأنها فى بعض الأيام وقد أدعم[3] فيها ، فاستزادته ، فتأخّرت وتأخّر ، حتى أسندته إلى زاوية من الإصْطَبل ، فضغطته حتى مات . ودخل بعضُ الغلمان لبعض الحوائج ، فرأى الباب عليهما مُغلقاً ، فنادى باسم الغلام فلم يُجِبْه ؛ فقلع الباب ، فإذا الغلام مُسْنَد إلى الزاوية وقد مات ، وهى تضغطه ، فصاح فتنحَّتْ وسقط الغلام ميّتًا .

ويقولون : إنها تفضح السائس الذى يكومُها ، لأنها تتلمَّظ إذا عاينَته ، ولا تفعل ذلك بغيره ، فهى إمّا أن تَقْتُل ، وإمّا أن تفضَح .

٢٠٨ و وأنشدوا لقيس بن يزيد ، فى هجائه ابنَ أبى سَبْرة[4] حين رماه بِنَيْك بغلته ، قال :

---

(١) فى الأصل : « سعد بن أبى ملك » اتباعاً للرسم القديم . وانظر البيان ٢ : ٢٣٩ .

(٢) هى قطيعة الربيع ، منسوبة إلى الربيع بن يونس حاجب المنصور ، بالقرب من كرخ البصرة . انظر الحيوان ١ : ١٧٢ و ٣ : ٣٠٣ .

(٣) المعروف فى هذا الفعل « دعم » الثلاثى .

(٤) هو أبو نوفل الجارود بن أبى سبرة سالم بن سلمة الهذلى البصرى . روى عن أبى ، وطلحة بن عبيد الله ، وأنس ، وروى عنه قتادة وثابت البنانى . وكان من رجال الشيعة شاعراً خطيباً ، توفى سنة ١٢٠ . تهذيب التهذيب .

نُبِّئْتُ بَغْلَتَكَ الَّتِي أَتْلَدْتَهَا لا تَسْتَقِرُّ لَدَيْكَ مَا لَمْ تُسْنَدِ(١)
تَدْنُو بِمُؤْخِرِهَا إِلَيْكَ إِذَا رَأَتْ أَنْ قَدْ عَلَوْتَ لها جِدَارَ المِذْوَدِ

قالوا : ولما أخذ فِتْيانٌ من فتيان بنى كُلَيْبٍ الفرزدقَ ، وأتوه بأتانٍ ، وقالوا : والله لتنزُوَنَّ عليها ، كما رَمَيتَ بذلك عطيَّة بن الخَطَفَى(٢) ، أو لنقتلنَّك ! قال : إن كان فهاتوا الصخرة التى كان يقوم عليها إذا ناكها ، حتى أنالهَا ! فضحكوا جميعًا من ظَرْفه ، وخلَّوْا سبيله .

[من قتلته البغال]

وممن قتلته البغال : زيد بن حُلَق(٣) الرّائض ، وولَد حُلَق معروفون عندنا بالبصرة .

وممن قتلتِ البغال(٤) : محمد بن سعيد بن حازم المازنى ، وعمرو ابن هَدّاب(٥) أحدُ عمومته ، قتله بغلٌ بتُسْتَر .

ومات المهلَّب بن أبى صُفْرة على ظهر دابّته بالطّالَقان(٦) .

---

(١) المتلد والتلاد : المال القديم من حيوان وغيره يورث عن الآباء . يقال تلد المالُ وأتلده هو .

(٢) هو والد جرير بن عطية .

(٣) كذا بوضع علامة الإهمال تحت الحاء المضمومة فى الأصل .

(٤) جعلت فى ط : « قتلته البغال » ، خلافاً للأصل .

(٥) هو عمرو بن هداب بن سعيد بن مسعود المازنى ، ولى فارس لمنصور ابن زياد . جمهرة ابن حزم ٢١٢ . وذكر فى الحيوان ٣ : ٣٥ أنه كف بصره .

(٦) الطالقان ، بفتح اللام : بلدتان إحداهما بخراسان . والأخرى بين قزوين وأبهر .

ومات إياس بن هُبَيْرة العَبْشَمِيّ صاحب الحَمَالة ، على ظهر حمار .

ولم يمتْ على ظهرِ حمارٍ كريمٌ .

[صرع البغال]

وكانت بغلة أعيَن المتطبِّب[1] تُصْرَع ، وكان أعين يُصْرَع ، فصُرِعا مرَّةً معًا قِبَالةَ دُور بني السَّمْهَرِيّ ، فقام رجالٌ منهم فأدخلوه الدار ، فنوَّموه على فِراش ، ووكَّلوا بالبغلة مَن أدخلها الإصطبل ، فلمَّا أفاق وفتح عينيه أنكر موضعَه ، فقالوا : إنما أنت في دار بني السَّمْهَرِيّ ، وهم إخوتُك وأهلك . فقال : كيف أشكركم وأنتم أعَدُّ وأيسر ؟ ولكن أُعَلِّمكم بعضَ ما لا غِنَى بكم عنه : إذا أتَى أحدُكم الغائطَ فليمتسحْ بِشِقَق القَصَب ، فإنه إن كان هناك شيء من هذه الأورام[2] حلَقَه واستأصله على الأيام ، وإن لم يكن هناك شيء لم تعرِض له هذه العِلَّة ما دام يستعمل القصب . وإن خرجتْ على أحدٍ منكم بَثْرة فلا يحكَّها ، وإن دَغْدَغَتْه ووجدَ فيها أُكالًا ، فإنَّ ذلك الحكَّ ربَّما أنفر ذلك المكان ، وجذب إلى مكانه من الفساد ما يصير به بَثْرة ، فإنْ حكَّ البثرة فربَّما صارت خُرَاجًا .

٢٠٨ ظ

وقال لي كَمْ شئتَ[3] من أصحاب القَصَب والبَوَاري : نحن لا تعترينا البواسير ؛ لطول قعودنا على القَصَب والبواري .

---

(١) ذكره الجاحظ في الحيوان ٢ : ٢٢٣ وذكر أنه كان له بغل يصرع ، فكان ربما اتفق أن يصرعا جميعا . ثم قال : « وقد رأى ذلك كثير من أصحابنا البصريين » . فهو معاصر للجاحظ أو قريب من عصره .

(٢) في الأصل : « الأرواح » . وانظر ما سيأتي .

(٣) عبارة يكثر الجاحظ من تردادها ، وكأنها من لوازمه ، يريد بها الكثير من الناس . انظر الحيوان ٣ : ١٧٨ ، ٢٣١ و ٤ : ٤٦ و ٥ : ٣٧٤ .

ذكر الانتفاع بالبغال فى البرد

فى الجاهلية والإسلام، وتعرُّف حقائق الأخبار، وأنها آلة من آلات السلطان عظيمة، ولا بدَّ للسلطان والملوك من تعرُّف الأخبار

قيل لشيخ ذى تجربة : ما أذهب مُلْكَ بنى مروان؟ قال : ما زال ملكهم قائما حتى عَمِيَتْ عليهم الأخبار . وذلك أن نَصْرَ بن سَيَّار ، كان صاحبَ خُرَاسان ، قبل خروج أبى مُسْلِم وقوَّةِ أمره ، إلى أن قَوِيَ عليه حتى هرب منه . وذلك أنه ، وإن كان واليًا لأربعة خلفاء[1] ، فإنه كان مأموراً بمُكاتبة صاحب العراق ، وإن كان صاحب العراق لا يقدر على عَزْله ، وقد كان يزيد ابن عُمَر[2] يخاف أن يُوَلَّى مكانَه نصرُ بن سَيَّار ، أو مِسْوَرُ بن عمرو ابن عباد[3] ، فاحتال لِمِسْوَر ، ولم تمكنه الحيلة فى نصر ، فكان إذا كتب

(١) ولى نصر بن سيار لهشام بن عبد الملك سنة ١٢٠ ، ثم الوليد بن يزيد ، ثم يزيد بن الوليد ، وإبراهيم بن الوليد ، ومروان بن محمد ، كما فى كتب التاريخ . فكأن الجاحظ لم يعتد بولايته لإبراهيم بن الوليد ، فإنه كما ذكر الطبرى ٩ : ٤٦ فى حوادث سنة ١٢٧ « لم يتم له أمر » قال : « وكان يسلم عليه جمعة بالخلافة وجمعة بالإمرة ، وجمعة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالإمرة ، فكان على ذلك أمره حتى قدم مروان بن محمد فخلعه » .

(٢) يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى ، من قواد الأمويين ، ولى قنسرين ، للوليد بن يزيد ، ثم العراقين فى أيام مروان بن محمد . ولما قامت الدولة العباسية أرسل السفاح إليه أخاه المنصور لحربه ، فأعياه أمره ، فبعث إليه السفاح من قتله بقصر واسط سنة ١٣٢ . وكان جوادا نبيلا جميل المرآة . ابن خلكان والمعارف ١٧٩ وجمهرة ابن حزم ٢٥٥ والاشتقاق ٢٨٤ . قال ابن دريد : وكان من رجال أهل الشام عقلا ولسانا .

(٣) المسور بن عمرو بن عباد بن الحصين التميمى . كان من سادات أهل =

إليه بالرأى الذى يحسم به من أسباب قوّة المسوّدة[١]، كتب بذلك إلى يزيدَ، فكان يزيد لا يرفع خبره ولا يُمِدّه بالرجال، طَمَعًا فى أن يُهْزَم أو يُقْتَل، ونَسِيَ يزيدَ أن غَلَبة أبى مُسْلِم على خُراسان، سببٌ لغلبته على الجبال، وإذا استحكم له ذلك، لم يكن له هِمّة إلا صاحب العراق. فلما طوى أخبار نصر، سدَّ وجهَ الرأى والتدبير على مروان، حتى كان الذى كان.

قالوا: ولما بلغ المأمونَ اختلاطٌ من حال البريد، وجّه ثُمامَةَ بن أشرَس[٢]، ليتعرّف له ذلك. فلما رجع إليه وسأله، قال: يا أمير المؤمنين، تركتُ بغلًا على مِعْلَف كذا وكذا وهو يقرأ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾. ومررتُ بِسكّة أخرى، فإذا بغلٌ قد عَدَا على رجل عليه طَيْلَسانٌ أخضر، يظنّه حُزْمَةَ عَلَف، فعدا الرجل وعدا خلفَه البغل، فصحْتُ بالرجل: اطرح الطيلسان! فلما طرحه وقف البغل يشمّه.

٢٠٩ و

ومررتُ بسكّة أخرى، وإذا على المِعْلَف بغلٌ، وإذا هو يغنّى:

ولَقَدْ أَبِيتُ عَلَى الطَّوَى وأَظَلُّهُ حَتّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ المَأْكَلِ[٣]

= البصرة. جمهرة ابن حزم ٢٠٧. وفى المعارف ١٨٢ أنه كان «سيد بنى تميم فى زمانه ورأسهم فى فتنة ابن سهيل». وفيه يقول الراجز:

أنت لها يا مسور بن عباد إذا انتضين من جفون الأغماد

(١) المسودة: رجال الدعوة العباسية.

(٢) انظر حواشى البيان ١: ١٠٥.

(٣) البيت لعنترة فى ديوانه ١٨١ واللسان (ظلل) والمقصور والممدود ٦٨ والأغانى ٧: ١٤٣، ١٤٤. وفى الموضع الأخير أن النبى صلى الله عليه وسلم أنشد هذا البيت فقال: «ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنترة».

[ما قيل في البريد وبغاله]

ومما قالوا في شأن البريد وأصحابه، قول ابن أبي أُمَيَّة(١) :

إنَّ ابنَ شاهَكَ قد وَلَّيْتَه عَمَلاً
أضحى وحقُّكَ عنهُ وهْوَ مَشغولُ(٢)

بِسِكَّةٍ أُحْدِثَتْ لَيْسَتْ بشارِعَةٍ
مِنْ دُونِها غَيْضَةٌ في وَسْطِها غِيلُ(٣)

تَرَى فَرَانِقَها في الرَّكْضِ مُنْدَفِعاً
تجْرِي خَرِيطَتُهُ والبَغْلُ مَشْكُولُ(٤)

وقال دِعْبِلٌ في بعض رجال العَسْكَر، ممن كان وليَ البريد :

أَلا أَبْلِغَا عَنِّي الإمامَ رِسالةً ... رِسالةَ ناءٍ عَنْ جَنابِكَ شاحِطِ

بأنَّ ابنَ زَيْدِجِينَ يَشْحَجُ شاحِجٌ ... بُمُرٍّ عَلَى القِرْطاسِ أَقْلامَ غالِطِ

أَحَبَّ بِغالَ البُرْدِ حُبًّا مُداخِلًا ... يُكَلِّفُهُ إِثْباتَها في الشَّرائِطِ

ولَوْلا أَميرُ المُؤْمِنِينَ لأَصْبَحَتْ ... أُيُورُ بِغالِ البُرْدِ حَشْوَ الخَرائِطِ

وقال دِعْبِلٌ أيضاً :

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي إمامَ الهُدَى ... قافِيَـــةً لِلعِرْضِ هَتَّاكَهْ

---

(١) سبقت ترجمته في ص ٢٥٣ .

(٢) ابن شاهك ، بفتح الهاء ، هو السندي بن شاهك . وكان ذا منزلة عند الرشيد والمأمون . المعارف ١٦٩ والتنبيه والإشراف ٣٠٢ والجهشياري ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٣) الغيضة : مغيض الماء . والغيل : الشجر الملتف . وفي الأصل : « ميل » ، تحريف .

(٤) الفرانق ، بضم الفاء : الدليل يكون أمام البريد ، معرب « دَرْوانه » بالفارسية . و « تجرى » جعلت في ط : « يجرى » مع وضوحها في الأصل .

هٰـذَا جَنَاحُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِى قَدْ قَصَّـهُ بِوَلْيِكَ الحَاكَهْ
أَضْحَتْ بِغَالُ الْـبُرْدِ مَنْظُومَةً إِلَى ابْنِ زَيْدٍ تَحْمِـلُ الْحَاكَهْ

وذكر الفرزدق فى مرثيةِ وَكِيع بن أبى سُود[1] البُردَ ، فقال :

لِتَبْكِ وَكِيعًا خَيْلُ لَيْـلٍ مُغِيرَةٌ
تَسَاقَى الْمَنَايَا بِالرُّدَيْنِيَّةِ السُّـمْرِ[2]
لَقُوا مِثْلَهُـمْ فَاسْتَهْزَمُوهُمْ بِدَعْوَةٍ
دَعَوْهَا وَكِيعًا وَالْجِيَادُ بِهِـمْ تَجْرِى
وَبَيْنَ الَّذِى يَدْعُو وَكِيعًا وَبَيْنَـهُ ٢٠٩ ظ
مَسِيرَةُ شَهْرٍ لِلْمُقَصَّصَةِ الْبُـتْرِ[3]

وقال ابن الْمُعَذَّل[4] فى جاريةٍ لبعض وَلَد سعيد بن سَلْم ، وقد وَلِىَ البريد :

---

(١) هو أبو مطرف وكيع بن حسان بن قيس بن أبى سود الغدانى التميمى ، غلب على خراسان فى أيام سليمان بن عبد الملك ، وظل بها تسعة أشهر بعد قتله قتيبة بن مسلم حتى وليها يزيد بن المهلب سنة ٩٧ . المعارف ٨٣ والجمهرة ٢٢٦ والطبرى ٨ : ١١٦ .

(٢) ديوان الفـرزدق ٢٤٦ والحيوان ٣ . ٩٥ — ٩٦ والكامل ٧٦٥ ليبسك .

(٣) انظر ما سبق فى ص ٢٤٧ .

(٤) هو أبو القاسم عبد الصمد بن المعذل بن غيلان ، شاعر من شعراء الدولة العباسية بصرى المولد والمنشأ . توفى فى حدود سنة ٢٤٠ . وكان هجاء خبيث اللسان . وكان هووأبوه وجده وأخوه أحمد بن المعذل شعراء . الأغانى ١٢ : ٥٤ وفوات الوفيات ١ : ٣٥٣ وطبقات ابن المعتز ٣٦٨ .

دَهَتْكَ بِعِلَّةِ الْحَمَّامِ فَوزْ ... ومالَ بِهَا الرَّسُولُ إلى سَعِيدِ
أَرَى أَخْبَارَ دَارِكَ عَنْكَ تَخْفَى ... فَكَيْفَ وَلِيتَ أَخْبَارَ الْبَرِيدِ

ولمّا فخّم ابنُ غَسطَة[١] عظيمُ الروم شأنَ مُلكه ، ثم قال للرسول : هل عندكم بعض ما تُعارضونِي[١] به ؟ قال : نعم ، لِملِكنا أربعون ألف بغل موقوفة على إبلاغ رسائله وأخباره ، من واسِطة مُلكه إلى أقطار سلطانه . فأفحمه .

يعنى بغال البريد . قال هذا وحال البُرُد على غير هذه الحال ، ولم يعرفوا توجيه الخرائط فى الماء[٢] ، وعلى أيدى الرجال .

وابن غسطَة هو الذى ذكره سَلْم الخاسِر[٣] فى قصيدته التى مدح فيها الرَّشيد ، قال :

---

(١) فى الأصل : « غطسة » فى هذا الموضع وتاليه . وانظر ص ٢٧٠ .

(٢) كذا فى الأصل . وهو وجه جائز فى العربية ، إذا اجتمعت نون الرفع مع نون الوقاية جاز حذف إحداها ، وإثباتهما مع الإدغام . وفى المغنى ٢ : ٢٥ : « ونحو تأمرونى يجوز فيه الفك ، والإدغام ، والنطق بنون واحدة . وقد قرئ بهن فى السبعة . وعلى الأخيرة فقيل النون الباقية نون الرفع ، وقيل نون الوقاية » .

(٣) الخريطة : هنة مثل الكيس تكون من الخرق والأدم تشرج على مافيها . ومنه خرائط كتب السلطان وعماله . وهذا النص من الجاحظ يدل على تعدد طرق إرسال البريد . والمراد بتوجيهها فى الماء أن تجعل فى السفن أو أن يحملها السباحون .

(٤) هو سلم بن عمرو بن حماد بن عطاء . وسمى الخاسر لكونه باع مصحفاً واشترى به طنبوراً . ومدح المهدى ، وهارون ، وابنه محمد بن زبيدة . وهو راوية بشار بن برد وتلميذه ، وعنه أخذ . ومن بحره اغترف ، وعلى مذهبه ونمطه قال الشعر ، كما ذكر أبو الفرج . ومات أيام الرشيد سنة ١٨٦ . ابن خلكان ١ : ١٩٨ ومعجم الأدباء ١١ : ٢٣٦ وتاريخ بغداد ٩ : ١٣٦ وطبقات ابن المعتز ٩٩ =

مَنَعَ ابنُ غسطة رأْسَهُ بِخَرَاجِهِ ولقد يكُونُ وما عليهِ خَرَاجُ[1]

قالوا : ولمّا رأى نصرٌ أنّ يزيد بن عُمَر[2] يُميتُ أخباره ، ليموت ذِكره عند الخليفة كتب إليه[3] :

أَبْلِغْ يَزِيدَ وخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ وقَدْ عَلِمتَ بأَنْ لاَ خَيْرَ فى الكَذِبِ

= والأغانى ٢١ : ٧٣ . ومن عجب أن يسميه ابن خلكان « سالم بن عمرو » مع أنه يروى فى ترجمته قول أبى العتاهية فى هجائه :

تعالى الله ياسلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال

(١) فى الأصل : « ابن غطسة » تحريف . وجعلها « غسطة » للشعر ، وإنما هى « أغسطة » كما فى الطبرى ٩ : ٧٠ ، ١٠ : ٧٠ والتنبيه والإشراف ١٤٢ . وفى هذا الأخير : « رينى امرأة أليون بن قسطنطين ، وتفسير رينى : صلاح . ثم لقبت بعد ذلك أغسطة ، وملك معها ابنها قسطنطين بن أليون ، فلم يزالا ملكين بقية أيام المهدى وأيام الهادى وصدرا من خلافة الرشيد » . فقسطنطين هذا هو الذى يعنيه بابن غسطة ، وذكر الطبرى فى سنة ١٨٢ : « وفيها سملت الروم عينى ملكهم قسطنطين بن أليون ، واقروا أمه رينى ، وتلقب أغسطة » . وذلك فى أيام الرشيد.

(٢) سبقت ترجمته وترجمة نصر فى ص ٢٦٥ .

(٣) فى الطبرى ٩ : ٦٢ أن نصر بن سيار كتب إلى مروان بن محمد يعلمه بحال أبى مسلم وخروجه ، وكثرة من معه ومن تبعه ، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد ، وكتب إليه بأبيات شعر أولها :

أرى بين الرماد وميض جمر فأحج بأن يكون له ضرام

فكتب إليه : « الشاهد يرى مالا يرى الغائب ، فاحسم الثؤلول قبلك » . فقال نصر : « أما صاحبكم فقد أعلمكم ألا نصر عنده » . فكتب إلى يزيد بن عمر يستمده :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه وقد تبينت ألا خير فى الكذب
أن خراسان أرض قد رأيت بها بيضا لو افرخ قد حدثت بالعجب =

وكتب إليه[١] :

أَرَى تَحْتَ الرَّمَادِ وَمِيضَ نَارٍ فَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ضِرَامُ[٢]

فَإِنَّ النَّارَ بِالْعُودَيْنِ تُذْكَى وإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا الْكَلَامُ

فَقُلْتُ تَعَجُّبًا : يَالَيْتَ شِعْرِي أَأَيْقَاظٌ أُمَيَّــــةُ أَمْ نِيَامُ

حدثنى علىّ بن المدينى[٣] ، قال : كان يزيد بن زُرَيْع[٤] إذا سمع

= فراخ عايين إلا أنها كبرت لما يطرن وقد سربلن بالزغب
فإن يطرن ولم يحتل لهن بها يلهبن نيران حرب أيما لهب

فقال يزيد : « لا غلبة إلا بكثرة ، وليس عندى رجل » .

وانظر العقد ٤ : ٢١٠ حيث ذكر رد نصر بن سيار يقول له : « الثؤلول قد امتدت أغصانه، وعظمت نكايته » . فوقع عليه مروان : « يداك أوكتا وفوك نفخ » .

(١) أى إلى يزيد بن عمر بن هبيرة . وكذا فى البيان ١ : ١٥٨ . لكن ذكر الطبرى وصاحب العقد ٤ : ٢١٠ أنه كتب بهذا الشعر إلى مروان بن محمد . كما سبق القول . وذكر صاحب العقد فى ٤ : ٤٧٧ أنه كتب به إلى هشام بن عبد الملك . وصاحب العقد ٤ : ٢١٠ .

(٢) انظر رواية الأبيات فى الطبرى ٩ : ٩٢ والبيان ١ :١٥٨ وعيون الأخبار ١ : ١٢٨ والعقد ١ : ٩٤ و ٤ : ٢١٠ ، ٤٧٨ .

(٣) سبقت ترجمته فى ص ٢٢١ .

(٤) هو أبو معاوية يزيد بن زريع التميمى البصرى الحافظ . روى عن شعبة والثورى وسعيد بن أبى عروبة وغيرهم . وروى عنه ابن المدينى ، وابن المبارك ، وابن مهدى وغيرهم . وفيه يقول ابن حنبل : « كان ريحانة البصرة ، ما أتقنه وما أحفظه ! » . ولد سنة ١٠١ وتوفى سنة ١٨٢ . تهذيب التهذيب ١١ : ٣٢٥ وتذكرة الحفاظ ١ : ٢٣٦ وصفة الصفوة ٣ : ٢٧٦

أصحابَ الحديث يخوضون فى أبى حَنيفة ، وفى كيف عظُم شأنه بعد خموله ، قال : هيهات ! طارت بفُتْياهُ البغالُ الشُّهب !

٢١٠ و قالوا : ووَجَّه معاوية لما كلّموه فى يزيدَ بن ربيعة بن مفرِّغ[٢] رجلا مجرِّدًا[١] ، لإخراجه من السجن ، فخرج حتى أتى سِجِسْتانَ فأخرجه ، فبلغ ذلك عبّاد بن زياد[٣] ، فأرسل إلى خَمْخام[٤] ، فلما رأى عهد معاوية كفَّ ، وأقبل خَمْخام بابن مفرِّغ على بغلةٍ من بغال البريد ، وأنشأ ابن مفرِّغ يقول :

---

(١) انظر حواشى البيان ١ : ١٤٣ و ٣ : ٣٦ .

(٢) كذا . ولعلها « مُبْردا » أى بريداً . وفى الأغانى ١٧ : ٦٠ : « وجه رجلا من بنى أسد يقال له خمخام ، ويقال جهنام ، بريداً إلى عباد » . وفى اللسان (عدس) أن خمخاما كان مولاه على البريد .

(٣) هو أبو حرب عباد بن زياد بن أبى سفيان ، ولى لمعاوية سجستان سبع سنين . وفيه يقول ابن مفرغ :

* سبق عباد وصلت لحيته *

وكان هجاء ابن مفرغ له سبباً فى أن يسجنه أخوه عبيد الله بن زياد وكان والى خراسان ، ثم إن عبيد الله بن زياد أمر بابن مفرغ فحمل إلى سجستان إلى عباد وابن زياد فحبس بها ، فلما طال حبسه بعث رجلا بالشعر إلى معاوية وشفع له اليمن عند معاوية ، فأمر باطلاقه على النحو الذى رواه الجاحظ ، انظر الشعر والشعراء ٣١٩ — ٣٢٤ واللسان (عدس) ، ولترجمة عباد المعارف ١٥١ — ١٥٢ والخزانة ٢ : ٥١٧ . وفى النجوم الزاهرة ١ : ١٤٤ أن بدء ولاية عباد لخراسان كان سنة ٥٣ .

(٤) وكذا فى الشعر والشعراء ٣٢٤ . وفى الخزانة ٢ : ٢١٦ والأغانى ١٧ : ٦٤ ، ٦٨ ولسان العرب (عدس) : « خمخام » بخاءين . وفى الأغانى ١٧ : ٦٠ أنه يقال له أيضاً « جهنام » .

عَـــدَسْ ما لِعَبّادٍ عَلَيْكِ إمارَةٌ
نَجَوْتِ وهـــذا تحملين طَلِيقُ[1]

طَلِيقُ الَّذِى نَجّى مِنَ الكَرْبِ بَعْدَ ما
تلاحَمَ فى دَرْبٍ عليـــكِ مَضِيقُ[2]

[قولهم للبغلة : عدس]

قوله : « عَدَسْ ما لعبّاد عليكِ إمارة » ، فزعم ناس أن « عدس » اسم لكلّ بغلة كمن[3] ، وذهبوا إلى قول الشاعر :

إذَا حَمَلْتُ بِزَّتِي عَلَى عَدَسْ عَلَى الَّتِي بَيْنَ الحِمارِ والفَرَسْ[4]
فَمَا أُبالِي مَنْ غَزَا ومَنْ جَلَسْ

قالوا : وإنما قوله « عَدَسْ » على مثل قول خالد بن صَفْوان حين فاخر اليمانيةَ ، وقال : «والله ما منهم إلاّ ناسِجُ بُرد ، أو سائس قِرْد ، أو دابغ جِلد ، أو راكبُ عَرْد[5] ، غرّقتهم فأرة ، وملَكتهم امرأة ، ودلّ عليهم هُدْهُد » .

---

(١) البيت من شواهد النحو . انظر الخزانة ٢ : ٥١٤ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٢٩١ . يجعلونه شاهداً لورود « هذا » بمعنى « الذى » .

(٢) أى طليق للذى خلصه من الحبس . وفى الأصل : « فى رزب » صوابه من المراجع المتقدمة .

(٣) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصل ، وهى مقحمة . وانظر الخزانة ٢ : ٥١٧ س ٨ .

(٤) الرجز فى اللسان والصحاح (عدس) والمخصص ٦ : ١٨٣ والمقاييس (عدس ، طفو) .

(٥) العرد ، بالفتح : الحمار . ذكر هذا المعنى صاحب القاموس ولم يذكره ابن منظور . وانظر هذا الخبر والقول فيه بتفصيل وتحقيق فى الحيوان ٦ : ٢٥٢ والبيان ١ : ٣٣٩ .

وقال آخرون : قولهم : « عَدَس » للبغلة مثل قولهم : « سَأْسَأْ » للحمار ، و « حا[١] » للجَمَل ، و « حَلْ[٢] » للناقة . ألا تراه حين سَخِرَ الأعرابيّ من صاحبه ، وحين جهّله قال :

يَقُولُ لِلنَّاقَةِ قَوْلاً لِلجَمَلْ يَقُولُ حَا ثُمَّ يُثَنِّيهِ بِحَلْ[٣]

قالوا : ألا ترون أنّ الفرزدق لما خلع لجام بغلته ، وأشرعها فى ثِغاب مسجد بنى أُسَيِّد[٤] ، قال له جَرنْفَشٌ المجنون[٥] : نَحِّ بغلتَك ، جَدَّ الله ساقَيْكَ[٦] ! قال الفرزدق : ولِمَ عافاكَ الله ؟ قال : لأنك زانى الكَمَرة[٧] ،

---

(١) كذا ورد فى الأصل بالحاء مع القصر ، وهى صحيحة ، كما فى اللسان (حا ٣٣٣) ، وشرح الرضى للكافية ٢ : ٧٧ حيث نصا على جواز القصر فى حاء التى يجوز فيها مع الهمز التنوين وعدمه . وسبق فى رسائل الجاحظ ١ : ٤٨ « جاه » مطابقاً للحيوان ٧ : ٤٤ واللسان (جوه) والمخصص ٧ : ٨٠ . وهذه مبنية على كسر الهاء وربما سكنت كما فى المخصص ، وربما قالوا جاه بالتنوين . وأنشد فى اللسان :

إذا قلت حاهٍ لج حتى ترده قوى آدم أطرافها فى السلاسل

(٢) يقال بسكون اللام وبكسرها منونة ، كما يقال حلى . وانظر ما سبق فى ١ : ٤٨ . (٣) انظر الحيوان ٧ : ٤٤ .

(٤) الثغاب : جمع ثغب ، وهو مجرى الماء . وفى الأصل : « ثغار » . وفى البيان ٢ : ٢٣٠ : « وأدنى رأسها من الماء » . وفى العقد ٦ : ١٥٥ : « ولما قرب الفرزدق رأس بغلته من الماء » . وبنو أسيد ، هم بنو أسيد بن عمرو بن تميم . وأسيد بهيئة التصغير .

(٥) فى الأصل : « جز نبذ » ، صوابه من البيان والعقد حيث ورد بلفظ « الجرنفش » . وأصل معنى الجرنفش العظيم الجسم من الرجال . والجرنفش هذا من بنى سدوس . انظر ما سيأتى من تعليق .

(٦) الجد : القطع . وفى البيان : « حلق الله ساقيك » . والحلق كناية عن الشؤم والإهلاك والقتل . وفى العقد وبعض أصول نسخ البيان : « حلق الله شأفتك » .

(٧) الكمرة : رأس الذكر .

كذوب اللسان[١] . فلما سمع ذلك منه ركب بغلته ، وقال : «عَدَسْ[٢] ،
كما يقال للفرس « إجْدَمْ[٣] » ، وللثور : « وَحْ[٤] » .

[أشعار في البريد]

وقد ذكر امرؤ القيس البريد ، فقال :

وَنَادَمْتُ قَيْصَرَ فى مُلْكِهِ   فأَوْجَهَنِي ورَكِبْتُ البَرِيدَا[٥]

إذَا مَا ازْدَحَمْنَـا عَلَى سِكَّةٍ   سَبَقْتُ الفُرَانِقَ سَبْقًا بَعِيدَا

٢١٠ ظ

ومما قالوا فى البريد ، قول الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

طَالَ لَيْلِي وبِتُّ أَسْقِى المُدَاما   إذْ أَتَانِي البَرِيدُ يَنْعَى هِشاما[٦]

---

(١) فى البيان : « كذوب الحنجرة » ، وفى العقد : « الحجرة » ، تحريف .

(٢) فى البيان والعقد أن الجرنفش لما قال له الفرزدق ما قال نادى : يا بنى سدوس ! فلما اجتمعوا عليه قال : سودوا الجرنفش عليكم فإنى لم أر فيكم أعقل منه .

(٣) إجدم وهجدم على البدل من الهمزة ، كلاهما من زجر الخيل . وفى القاموس بوصل الهمزة . وفى اللسان مرة بوصلها ومرة بقطعها . وانظر ما سبق فى الرسائل ١ : ٤٨ .

(٤) فى الأصل : « روح » ، تحريف ، صوابه من اللسان (وحح) وشرح الأشمونى للألفية ٤ : ٢٠٩ . قال فى اللسان : « وإذا طردت الثور قلت له قع قع ، وإذا زجرته قلت له وح وح » .

(٥) ديوان امرئ القيس ٢٦٢ ملحق الطوسى واللسان (وجه) والشعر والشعراء ٦٧ . أوجهه : جعل له وجهاً عند الناس وقدراً .

(٦) قال هذا الشعر حينما أتاه نعى عمه هشام بن عبد الملك وأوشك أن يبايع بالخلافة . الأغانى ١٦ : ١٠٧ . وفى الأغانى ٦ : ١٠٥ أيضاً أنه لما نعى هشام قال : والله لأتلقين هذه النعمة بسكرة قبل الظهر . ثم أنشأ يقول : =

وأَتَانِي بِحُلَّةٍ وقَضِيبٍ وأَتَانِي بِخَاتَمٍ ثُمَّ قَامَا[1]

وذكر البريدَ الكُمَيْتُ في مديح أسماء بن خارجة[2]، فقال:

إِذَا مَا مَاتَ أَسماءُ بْنُ حِصْنٍ فلاَ مطَرَتْ عَلَى الأَرْضِ السَّماءُ[3]

ولاَ قَامَ البَرِيدُ بِغُنْمِ جَيْشٍ ولاَ حَمَلَتْ عَلَى الطُّهْرِ النِّسَاءُ[4]

فَيَوْمٌ مِنْكَ خَيْرٌ مِنْ رِجَالٍ يَرُوحُ عَلَيْهِمُ نَعَمٌ وشَاءُ

= طاب يومى ولذ شراب السلافه إذ أتانى نعى من بالرصافه

وأتانا البريد ينعى هشاما وأتانا بخاتم للخلافه

فاصطحبنا من خمر عانة صرفا ولهونا بقينة عزافه

ثم حلف لا يبرح موضعه حتى يغنى فى هذا الشعر ويشرب عليه .

(١) بعدهما فى الأغانى :

فجعلت الولى من بعد فقدى يفضل الناس ناشئاً وغلاما

ذلك ابنى وذاك قرم قريش يفضل الناس ناشئاً وغلاما

ولكنه لم يهنأ بولديه وليى عهده : الحكم وعثمان ، إذ قتلا بعد أن وثب عليه يزيد بن الوليد بن عبد الملك بالخلافة ، فخلعه وقتله سنة ١٢٦ . وأقام هذا فى خلافته ستة أشهر وتوفى سنة ١٢٧ . انظر التنبيه والإشراف ٢٨٠ – ٢٨١ وتاريخ الطبرى وجمهرة أنساب العرب ٨٩ – ٩١ .

(٢) ترجم فى البيان ٢ : ٧٢ .

(٣) لم ينسبها أبو الفرج فى الأغانى إلى الكميت . ونسبها فى ١٣ : ٤٠ إلى عبد الله بن الزبير الأسدى . وفى ١٧ : ١٠٨ إلى عويف القوافى . وسماه الشاعر أسماء بن حصن لأنه أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة . وفى الموضع الأول من الأغانى : « إذا مات ابن خارجة بن حصن » . وفى الثانى : « إذا ما جاء يومك يا ابن عوف » ! !

(٤) فى الموضع الأول من الأغانى : « ولا رجع الوفود » . وفى الثانى : « ولا سار الخميس » .

وقال أيمنُ بن خُرَيْم الأسدىّ[١] :

رَكِبْتُ مِنَ المُقَطَّمِ فى جُمَادَى   إلَى بِشْرِ بنِ مَرْوَانَ البَرِيدَا[٢]

فَلَوْ أَعْطَاكَ بِشْرٌ أَلْفَ أَلْفٍ   رأى حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَزِيدَا

وقال آخر :

إذَا مَا بَرِيدُ الشَّـــامِ أَقْبَلَ نَحْوَنَا

بِبَعْضِ دَوَاهِى الدَّهْرِ سَارَ فَأَسْرَعَا[٣]

فإنْ كَانَ شَرًّا سَـــارَ يَوْمًا وَلَيْلَةً

وإنْ كَانَ خَـــيْرًا قَصَّدَ السَّيْرَ أَرْبَعَا[٤]

---

(١) هو أيمن بن خريم بن الأخرم بن عمرو بن فاتك الأسدى . كان يسمى خليل الخلفاء لإعجابهم به فى تحديثه ، لفصاحته وعلمه . وهو من شعراء الدولة الأموية . ولأبيه صحبة برسول الله ورواية عنه ، واختلف فى صحبته هو . وقد جعله أبو الفرج فى الأغانى ٢١ : ٥ شيعياً ، على حين عده المسعودى فى التنبيه والإشراف ٢٥٣ عثمانيا . فهو قد اضطرب بين تيارين . وانظر الإصابة ١ : ٩٤ وتهذيب ابن عساكر ٣ : ١٨٧ والشعراء ٥٢٦ .

(٢) البيتان فى معجم البلدان ٧ : ١٢٧ ورواهما صاحب الأغانى ١ : ١٢٧ و ٢١ : ٨ من أبيات فى قصة مع عبد العزيز بن مروان الذى غضب عليه لنفاسته على نصيب الشاعر ، فاستأذنه بعد ذلك فى الانصراف ، فمضى لوجهه حتى لحق ببشر ابن مروان فى العراق .

(٣) البيتان بدون نسبة أيضاً فى البيان ٣ : ٢٣٠ . وفيه : « ببعض الدواهى المفظعات » .

(٤) قصَّد السير : فصله ، كما يقال قصد العظم : كسره وفصله . وفى الأصل : « قصر » ، صوابه مما اتفقت عليه نسخ البيان . و « قصر » بالراء لا يستقيم بها المعنى ، إذ المعنى هنا على البطء لا على تقصير السير والإسراع فيه .

[رؤيا البغال وتأويلها]

سمعت أبا شُعْبة الأعمى المُعبّر، ونحن بالنَّهْرَوان، سنةَ قدم الحسنُ ابن سَهْل، وهو يقول لمُوَيْس بن عِمْران[١] : اذكرْ لإخوانك هؤلاء رُؤْياك، وتعبيرى لها . قال : نعم، قلتُ لك : رأيتُ فيما يرى النائم كأنّى على بغلٍ بريدٍ، فقلتَ لى : تحمّ يومين وثُلُثَىْ يوم، فكان كما قلتَ ؛ فسألتُك عن العلّة، فقلتَ : لأن تشريف ذَنَب البغلة تشريفتان وثُلثا تشريفة[٢] .

وقال الأصمعىّ : أرسل الحجّاج إلى الجرْمىّ المعبِّر، يسأله عن رجل رأى كأنّه على بغلة، وكأنه على شَرَف[٣]، وكأنه يستفّ تُرابًا، فقال له : أما البغلُ فطول عُمُر، وأما الشرف فشَرَفٌ من شرف الدنيا، وأما التّرابُ ففَىْءٌ تأكله .

وقالوا : وسأل بعض المِصريّين القرّاء المعبّر، فقال : رأيتُ كأنّ معى درهمًا بَغْليًّا[٤] . قال : لستَ تمسى حتى تأكلَ شيئًا طيّبًا . فكان كذلك .

---

(١) مويس بن عمران : معاصر للجاحظ، ومن أصحاب النظام . واتهمه أبو شعيب القلال بالبخل واحتج لذلك، مع أن الجاحظ ينوه فى كتابه البخلاء ٦٣ بسخائه . وينوه أيضا بصدقه فى كتاب الحيوان ٥ : ٤٦٨، قال فيه : « كان هو والكذب لا يأخذان فى طريق » .

(٢) المراد بالتشريف رفع بعض أجزاء الذنب للزينة ونحوها .

(٣) الشرف : الموضع المرتفع .

(٤) كتب الأب أنستاس مارى تحقيقاً فى حواشى النقود العربية ص ٢٢ : أنقله هنا لنفاسته : « البغلية : نسبة إلى بغل، وهو اسم يهودى ضرب تلك =

٢١١ و

ثم أتاه بعد أيام ، فقال : رأيتُ فيما يَرى النائم كأنّ معى درهماً بَخِيّاً[١] . قال : لستَ تَمُسى حتى تُضرَب ضرباً وجيعاً ! فكان كذلك . فسأله عن العلّة ، فقال : الدرهم البغلىّ مكتوب عليه بالفارسيّة : « خُشْ بخُر[٢] » ترجمة

= الدراهم ، وكان يعرف برأس البغل . قاله صاحب البرهان القاطع . وقال صاحب البرهان فى مادة (درخش) : درخش اسم بيت نار ، بناه رأس اليهود المعروف برأس البغل ، وهو الذى ضرب بعد ذلك الدراهم البغلية فسميت باسمه ، وذلك فى مدينة أرمية التى بنى فيها ذلك البيت بيت النار ، وهو الذى بنى شيراز أيضا .

وجاء فى مجمع البحرين : الدرهم البغلى ، بسكون الغين وتخفيف اللام : منسوب إلى ضراب مشهور باسم رأس البغل . وقيل هو بفتح الغين وتشديد الياء ، [أى بَغَلِيّ] بلدة قريبة من الحلة ، وهى بلدة مشهورة بالعراق . والأول أشهر على ماذكره بعض العارفين ، وقدرت سعته بسعة الراحة ، وبعقد الإبهام . وهو الدرهم الشرعى دون البغلى . عرف ذلك بالاختبار » . اهـ .

قلت : ومن النصوص التى ورد فيها ماجاء فى كتاب الديارات للشابشتى ص ١٢٤ لمصعب الكاتب فيه :

واخشع فى مشيي وأصرف ناظرى وسجادتى فى الوجه كالدرهم البغلى

وإكمالا لبحثه كذلك أذكر ماجاء فى حياة الحيوان للدميرى ١ : ٩٣ فى ترجمة عبد الملك بن مروان : « وكانت الدراهم فى ذلك الوقت إنما هى الكسروية التى يقال لها اليوم البغلية ، لأن رأس البغل ضربها لعمر رضى الله عنه بسكة كسروية فى الإسلام ، مكتوب عليها صورة الملك ، وتحت الكرسى مكتوب بالفارسية : نوش خور ، أى كل هنيئاً » .

(١) لم يذكره أنستاس ، لكن جاء فى القاموس : « ودرهم بخى ، وقد تشدد الخاء : كتب عليه : بخ . ومعمعى : كتب عليه : مع » .

(٢) خُش ، هى خوش ، وهى بمعنى اللذيذ الحسن الطيب . وخر ، هى فى الكتابة الفارسية « خور » بمعنى كل والباء تزاد أحيانا قبل الأمر فى الفارسية . وعند الدميرى ١ : ٩٣ : « نوش خور » ، تحريف .

هذه الكلمة : « كُلْ طَيِّبًا » . والدِّرهم البغلىّ مكتوب عليه : « ضُرب هذا الدرهم » . وهما مختلفان .

وأنشد الحكَمُ بن عَبْدَلٍ[1] أسماء بن خارجة[2] شعراً ذكر [فيه] أنه رآه فى المَنام[3] ، فقال :

أَغْفَيْتُ قَبْلَ الصُّبْحِ نَوْمَ مُسَهَّدٍ ⁂ فى ساعةٍ ماكُنْتُ قَبْلُ أَنَامُهَا

فرأيْتُ أَنَّكَ رُعْتَنِى بِوَلِيدَةٍ ⁂ مَغْنُوجَةٍ حَسَنٍ عَلَىَّ قِيَامُهَا[4]

وبِبَدْرَةٍ حُمِلَتْ إلَىَّ وبَغْلَةٍ ⁂ شَهْبَاءَ نَاجِيَةٍ يَصِلُّ لِجَامُهَا[5]

فَدَعَوْتُ رَبِّى أَنْ يُثِيبَكَ جَنَّةً ⁂ عِوَضًا يُصِيبُكَ بَرْدُهَا وسَلاَمُهَا

قال أسماء : كلَّ ما رأيتَه فى النوم فهو عندنا كما رأيتَ ، إلّا البغلة فإنّها دَهماء ! قال : أعتق ما أملك إن كان رآها إلاّ دهماء[6] ، ولكنّه غلِطَ .

---

(١) سبقت ترجمته فى ص ٢٤٩ . (٢) سبقت الإشارة إليه فى ص ٢٧٦ .

(٣) قصة الأبيات فى الأغانى ٢ : ١٤٦ مخالفة لما هنا . فقد ذكر أبو الفرج أنه كانت لابن عبدل الأسدى حاجة إلى عبد الملك بن مروان ، فجعل يدخل عليه ولا يتهيأ له الكلام ، حتى جاءه رجل فقال : إنى رأيت لك رؤيا . فقال : هاتها . فقصها عليه ، فقال ابن عبدل : وأنا قد رأيت أيضا . قال : هات ما رأيت . فقال . . » . وأنشد الأبيات .

(٤) فى الأغانى : « تحبونى فيما أرى بوليدة » . والمغنوجة ، لم أجدها فى المعاجم . وإنما ذكروا المغناج والغنجة . والغُنْج : حسن الدل ، والتكسر والتدلل .

(٥) بدله فى الأغانى ٢ : ١٤٦ :

ليت المنابر يا ابن بشر أصبحت ⁂ ترقى وأنت خطيبها وإمامها

(٦) هذا شاهد على أن الاحتراز فى حكاية أيمان الطلاق والعتاق كان من =

[استطراد لغوى يتعلق بالبغال]

ومما اشْتُقَّ من اسم البغل : « الدرهم البغلىّ[١] » . وفى بنى تَغْلِب[٢] « رأس البغل » وهو رئيس من رؤسائهم[٣] ، وهو الذى كان إبراهيم ابن هانئ الخليع[٤] نُسِب إليه .

وإذا كان الإنسان عظيم الرأس لقَّبوه : « رأس البغل » .

والبَغلات : جَوارٍ من رقيقِ مصر ، نِتاج ما بين الصَّقالِبة وجنس آخر[٥] ، والواحدة منهنَّ يقال لها : « بَغلة » ، ولهنَّ أبدان ووَثارة وحَدارة[٦] .

= منهج القدماء . فعدل عن حكاية قوله « إن كنت رأيتها إلا دهماء » إلى هذا الأسلوب . ونحوه فى الأغانى : « قال : هى هى وإلا فعليه وعليه » بدل أن يقول : « فعلىَّ وعلىَّ » .

(١) سبق الكلام عليه فى ص ٢٧٨ – ٢٧٩ .

(٢) فى شفاء الغليل ٤٤ عند الكلام على (بغل) : « وفى بنى ثعلب » .

(٣) فى شفاء الغليل : « رئيس معروف » .

(٤) إبراهيم بن هانئ : « أحد معاصرى الجاحظ ، قال فيه : وكان ماجنا خليعاً كثير العبث متمرداً » . البيان ١ : ٩٣ . وروى عنه خبراً فى البخلاء ١١٤ . وانظر الحيوان ٣ : ١١٠ ، ٤ : ١٥٣ و ٥ : ٣٨١ ولسان الميزان ١ : ١١٨ .

(٥) فى شفاء الغليل ٤٤ نقلا عن كتاب البغال : « نتج بين الصقالبة وجنس آخر » .

(٦) الوثارة : السمن وكثرة الشحم . والحدارة ، بالحاء المهملة : الامتلاء باللحم والشحم ، يقال حدُر يحدر حدارة . وجعلت فى ط : « جدارة » خطأ وخلافاً لما هو واضح فى الأصل .

[معنى البغلة عند المصريين]

ويُرْوَى عن بعض العِراقيّين ، قال : كنتُ عندَ قاضي مصر ، وهو يقول لبعض جُلسائه : عندى جارية أطَؤُها منذ حين ، وقد اعترانى شَبَق ، وأنا على أن أشتريَ بغلة . قلت : وما تصنع ببغلة ؟ قال : أطؤها ، وأُصيبُ منها . فقلتُ في نفسي : هذا أمْجَن الناس وأحمقهم ، يتكلّم بهذا وهو قاضٍ ؟ ! ثم حكيتُ ذلك عند رجل من أهل مصر ، فقال : عافاك الله ، ما منّا من أحدٍ إلّا وعنده بَغَلات ينيكهنّ ! فتعجّبتُ ، فلما رأى إنكارى ذلك ، فسَّرَ لى معنى البغلة عندهم .

٢١١ ظ

[ما قيل من الأمثال في البغال]

قالوا : وإذا عظمت المرأة ، وعظُم بطنها ، قالوا : « ما هى إلّا بغلة » ، وما رأسُ فلان إلّا رأس بغل ، وما أيره إلّا أير بغل ، وما خُلُقه إلّا من أخلاق البغال .

[بعض ما أضيف إلى الرأس]

والمثل السائر : « كأنه جاء برأس خاقان[١] » ، « ورأسُ الجالوت[٢] » ،

---

(١) مجمع الأمثال في قولهم : « جاء برأس خاقان » وفى « أباى ممن جاء برأس خاقان » قال الميدانى في الموضع الثانى : « قال حمزة : هذا مثل مولد حكاه المفضل بن سلمة في كتابه المترجم بالكتاب الفاخر في الأمثال . قال : والعامة تقول : كأنه جاء برأس خاقان . وخاقان هذا كان ملكا من ملوك الروم خرج من ناحية باب الأبواب وظهر على إرمينية ، وقتل الجراح بن عبدالله عامل هشام بن عبد الملك عليها ، وغلظت نكايته في تلك البلاد ، فبعث هشام إليه سعيد بن عمرو الحرشى وكان مسلمة صاحب الجيش ، فأوقع سعيد بخاقان ففض جمعه واحتز رأسه وبعث به إلى هشام ، فعظم أثره في المسلمين وفخم أمره ، ففخر بذلك حتى ضرب به المثل » . وانظر الفاخر ص ٩٨ والاقتضاب ٤٩ .

(٢) في ثمار القلوب ٢٥٧ : « رأس الجالوت : رئيس اليهود ، كما أن الأسقف =

و« رأسُ الفاعوس[١] »، و « رأسُ الـكتيبة والقبيلة » . فلذلك قال عمرو بن كلثوم :

بِرَأْسٍ مِنْ بَنِي جُشَمَ بْنِ بَكْرٍ نَدُقُّ بِهِ السُّهُولَةَ وَالحُزُونَا[٢]

وقال أبو المهوِّش الأسدِيّ[٣] :

تَرَاهُ يُطَوِّفُ الآفَاقَ حِرْصًا لِيَأْكُلَ رَأْسَ لُقْمَانَ بْنِ عَادِ[٤]

ورأس بن أبى الرأس القائد، مشهورٌ معروف .

ويقولون : « هذا على رأس الثُّمام[٥] » .

= رئيس النصارى ، والموبذ رئيس المجوس » . وجاء فى مفاتيح العلوم للخوارزمى ٢٤ : « والجالوت الجالية أعنى الذى جلوا عن أوطانهم ببيت المقدس . ويكون رأس الجالوت من ولد داود عليه السلام . وتزعم عامتهم أنه لا يرأس حتى يكون طويل البـاع ، تبلغ أنامل يديه ركبتيه إذا مدهما » .

قلت : وهو بالعبرية « رُوش جالويُوت » .

(١) الفاعوس : الأفعى .

(٢) البيت من معلقته المشهورة .

(٣) هو حوط بن رئاب ، أو ربيعة بن وثاب ، من المخضرمين الذين أدركوا الرسول ولم يروه . الإصابة ٢٠١٩ والخزانة ٣ : ٨٦ ، ١٤٢ والشعراء ٢٢ وسمط اللآلى ٨٦٣ والبخلاء ٢١٦ والبيان ١ : ٢٠٧ و ٣ : ٣٢١ .

(٤) البيان ١ : ١٩٩ ، ٣ : ٣٢١ وثمار القلوب ٢٥٧ والاقتضاب ٤٩ والعقد ٢ : ٤٦٢ وأخبار الظراف ٢٤ . ويروى : « يطوف فى الآفاق » . والبيت يروى أيضاً ليزيد بن الصعق ، كما فى معجم المرزبانى ٤٩٤ وكنايات الجرجانى ٧٣ والاقتضاب ٣٨٨ .

(٥) ويقال أيضا « على طرف الثمام » ، كما فى اللسان . قال : « وذلك أن الثمام لا يطول فيشق تناوله » . والثمام : نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص ، وربما حشى به وسد به خصاص البيوت .

وبالشّام موضع يقال له : « بيتُ رأسٍ » تُباع فيه الخمر ؛ ولذلك قال الشاعر[1] :

* مُجاجَةَ كَرْمَةٍ مِنْ بَيْتِ رأْسٍ[2] *

وبيت رأس بالشام مثل . . . . أبيات[3] ، وبيت لِهْيا[4] .

ويقال : فلان رأس من الرءوس .

والرأس : رئيسُ السُّوّاس .

[التبغيل]

ومن سَيْر الإبل سيرٌ يُسَمَّى : « التبغيل[5] » ، قال الراعى :

وإذَا ترَقَّصتِ المَفاوِزُ غادَرَتْ رَبِذًا يُبَغِّلُ خَلْفَها تبْغِيلًا[6]

---

(١) هو أبو نواس كما فى معجم البلدان (بيت رأس) .

(٢) ويروى : « مجاج سلافة » . وصدره :

* وتبسم عن أغر كأن فيه *

(٣) كذا وردت الكلمة مع انطماس الكلمة التى قبلها . ولعلها « بيت النار » وهى قرية كبيرة من قرى إربل . ذكره ياقوت .

(٤) لهيا ، بكسر اللام كما فى معجمى ياقوت والبكرى ، وبفتحها فى القاموس وتاج العروس . قال ياقوت : « كذا يتلفظ به ، والصحيح بيت الإلٓهة ، وهى قرية مشهورة بغوطة دمشق .

(٥) التبغيل : مشى فيه سعة ، وقيل هو مشى فيه اختلاف واختلاط بين الهملجة والعنق .

(٦) جمهرة أشعار العرب ١٧٣ وشرح السبع الطوال ٥٧٢ واللسان (بغل ، رقص) . وانظر لقصيدة الراعى الجمهرة والخزانة ١ : ٥٠٢ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٢٥١ .

[البغيلة]

والبُغَيْلة : اسم ناقةٍ كانت لجميل بن مَعْمَر ، ولذلك قال :

أضَرَّ بأخفافِ البُغَيْلةِ أنَّها حِذارَ ابنِ رِبْعى بهنَّ تَحُومُ[1]

ولذلك قال الرَّقَاشى[2] فى صفة ناقةٍ له تسمَّى « سَرْوة » :

لَعَمْرُكَ مَا البُغَيْـلةُ حِينَ تَغْدُو
وصَيْدَحُ حِينَ تَسْرَحُ فى الرِّحابِ[3]
كسَرْوَةَ حِينَ تَذْرَعُ عَرْضَ خَرْقٍ
بَعِيـدِ الآلِ مُشْتَبِهِ الظِّرابِ[4]

---

(١) ابن ربعى هذا هو عامر بن ربعى بن دجاجة ، وكان والياً على بلاد عذرة كما فى الأغانى ٧ : ٨٨ . وذكر أن رهط بثينة استعدوا عليه عامر بن ربعى ، وذكروا أنه يهجوهم ويغشى بيوتهم ، ويشبب بنسائهم ، فأباح دمه وطلبه . وفى الأغانى : « بهن رجوم » .

(٢) هو الفضل بن عبد الصمد الرقاشى ، أحد شعراء الدولة العباسية . وممن مدح هارون والأمين والبرامكة ، وكان هو وأبو نواس يتهاجيان . انظر ترجمته فى الأغانى ١٥ : ٣٤ — ٣٥ وتاريخ بغداد ١٢ : ٢٤٥ — ٢٤٦ وما كتبت فى حواشى الحيوان ٢ : ٦١ .

(٣) صيدح : ناقة ذى الرمة ، التى يقول فيها :

سمعت الناس ينتجعون غيثاً فقلت لصيدح : انتجعى بلالا

ديوانه ٤٤٢ . وانظر الديوان أيضاً ص ٨٧ ، ١٥٤ ، ٣٢٤ .

(٤) ط : « بسروة » خلافا لما هو واضح فى الأصل . والظراب : الروابى الصغار ، واحدها ظرب ككتف

[مما قيل فى البريد]

ومما قالوا فى البريد ، قال رجل من الأنصار[١] عند وِلاية عُمَر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه :

٢١٢ و ثُمَّ جاءَ البَرِيدُ يُخْبِرُ أَنَّ الْـ ــقَوْمَ طُرًّا لَمْ يُحْرَمُوا التوْفِيقَا[٢]

مِنْ سُكُونٍ وأُلْفَةٍ وَاجتماعٍ لَمْ يُفَارِقْ مِنْهُمْ فَرِيقٌ فَرِيقَا

قَلَّدُوا الأَمْرَ سَيِّدَ النَّاسِ كلِّ الـ ــنَّاسِ نَفْسًا وأُسرةً وعُرُوقَا

مَنْ أَبُوهُ عَبْدُ العزيزِ بْنُ مَرْوَا نَ ومَنْ كان جَدُّهُ الفارُوقَا[٣]

وقال ابن أُذَيْنة اللَّيْثِىّ[٤] :

---

(١) هو عتبة بن شماس ، كما فى الحيوان ٣ : ٥٢١ والعقد ٣ : ٢٩١ والكامل ٣٩٩ .

(٢) القوم ، كتب فوقها فى الأصل « الناس » .

(٣) هذا البيت مع بيت آخر قبله وبيت آخر بعده فى الحيوان والعقد والكامل فأول الأبيات الثلاثة التى رويت وحدها فى هذه المراجع :

إن أولى بالحق فى كل حق ثم أحرى بأن يكون حقيقا

وآخرها :

رد أموالنا علينا وكانت فى ذرى شاهق يفوت الأنوقا

وفى سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ٨ بدون نسبة أبيات ثلاثة ، هى :

إن أولى بالحق فى كل حق ثم أولى بأن يكون حقيقا

بالتقى والنهى وأخلاقه اللا تى تأبى بغيره أن تليقا

من أبوه عبد العزيز بن مروا ن ومن كان جده الفاروقا

(٤) هو عروة بن أذينة . وأذينة لقب أبيه واسمه يحيى . كان عروة شاعرا مقدما من أهل المدينة كما يعد فى فقهائها ومحدثيها . كذلك ، لكن غلب عليه الشعر =

أتانا البَرِيدُ التَّغْلِبيُّ فراعَنَا لَهُ خَبَرٌ شَفَّ الفُؤادَ فَأَنْعَمَا[١]

بِمَوْتِ أبي حَفْصٍ فلا آبَ راكِبٌ
بِمَوْتِ أبي حَفْصٍ أخَبَّ وأرْسَما[٢]

وذكر يزيد بن معاوية البريد، فقال :

جَاءَ البَرِيدُ بِقِرْطَاسٍ يَخُبُّ بِهِ
فأَوْجَسَ القَلْبُ من قِرْطَاسِهِ فَزَعَا[٣]

قُلْنَا : لَكَ الوَيْلُ مَاذَا في صَحِيفَتِكُمْ
قَالُوا : الخَلِيفَةُ أمْسَى مُدْنَفًا وَجِعَا[٤]

فَمَادَتِ الأَرْضُ أوْ كَادَتْ تَمِيدُ بنا
كأنَّ أغبرَ مِنْ أركانِهَا انقلعا[٥]

= الاغانى ٢١ : ١٠٥ — ١٢١ والشعراء ٥٦٠ والمؤتلف ٥٤ واللآلئ ٢٣٦ . وترجم له ابن خلكان عرضاً فى أثناء ترجمة سكينة بنت الحسين .

(١) ط : «شق»، خلافا لما هو واضح فى الأصل . وشف الفؤاد: لذعه وأحرقه. وأنعم، أى زاد.

(٢) يقال جاءوا مخبين: تخب بهم دوابهم . والخبب : ضرب من العدو ويقال أرسم الرجل بعيره : حمله على الرسيم ، وهو من سير الإبل فوق التمييل .

(٣) قبله فى الأغانى ١٦ : ٣٣ : «عن الشعبى أن معاوية مات ويزيد بالصائفة، فأتاه البريد بنعيه ، فأنشأ يقول ». ونحوه فى العقد ٤ : ٣٧٣ . والصائفة : الغزوة بالصيف . وفى ط : « عن قرطاسه » خلافا لما هو واضح فى الأصل . وفى الكتاب العزيز : « فأوجس منهم خيفة » .

(٤) فى الأغانى : « قال : الخليفة أمسى مثبتا » وفى العقد : « قالوا : الخليفة أمسى مثبتا » .

(٥) فى الأغانى : « مادت بنا الأرض » . و « وكأن أغبر » كذا وردت =

[ضروب من البغال]

وقد كان أيضاً بالكوفة [نِتاجٌ[١]] بين الخراسانية والهنديات ، وكان أملحَ وأحسنَ قدوداً من البَغَلات اللواتي بمصر ؛ وكانت ألوانهنّ تجيء ذهبيّةً ، لها حَلاوة الهِندية[٢] ، ورَوْعة الخَراسانية .

[جوارى الكوفة والبصرة]

وكذلك مُطَّهَمات جوارى الكوفة ، زُرقاً تجدهنّ ، إلاّ الواحدةَ بعد الواحدة ، وإنّما الثمينات المرتفعات ، والغوالى الخطيراتُ بَصْريّاتٌ ، مثل عجوز عُمَير[٣] ، ومُتَيّم[٤] ، وبَذْل[٥] ، وعَرِيب[٦] ،

= فى الأصل والعقد . والأوفق رواية الأغانى : « كأن ما عـزّ » . وبعد هذا البيت فى الأغانى بيتان ، وفى العقد بعده ستة أبيات ليس منها بيتا الأغانى .

(١) بمثلها يلتئم الكلام ، وهى من اقتراح شارل . (٢) فى الأصل : « الهند » .

(٣) لم أجد لها خبراً . وفى الأغانى ٢٠ : ٤٣ : « كان بالكرخ نخاس يكنى أبا عمير ، وكان له جوار قيان ، لهن ظرف وأدب » .

(٤) هى متيم اللبانة ، بنت عبد الله بن إسماعيل المراكبى . وكانت صفراء مولدة من مولدات البصرة ، وبها نشأت وتأدبت وغنت ، وأخذت عن أسحاق وأبيه من قبله . وكانت من تخريج بذل وتعليمها . وكانت مولاة عريب ثم اشتراها على بن هشام فحظيت عنده حظوة شديدة وتقدمت على جواريه أجمع عنده ، وهى أم ولده كلهم . الأغانى ٧ : ٢٩٠ - ٣٥ وانظر طبقات ابن المعتز ٤٢٠ .

(٥) كانت بذل صفراء من مولدات المدينة ، وربيت بالبصرة . يقال إنها كانت تغنى ثلاثين ألف صوت ، ابتاعها جعفر بن موسى الهادى فأخذها منه الأمين وأعطاه مالا جزيلا ، ثم وقعت إلى المأمون ثم المعتصم ، وعملت لعلى بن هشام كتاباً فى الأغانى يشتمل على اثنى عشر ألف صوت . الأغانى ٧ : ٣١ و ١٥ : ١٣٨ - ١٤٠ . وبذل هذه هى بذل الصغيرة المغنية .

(٦) كانت عريب جارية لعبد الله بن إسماعيل المراكبى صاحب مراكب الرشيد =

وبَذْل[١] : جارية المَرَاكِبي[١] ، وشارِيَة[٢] : جارية إبراهيم بن المَهْدى ، وزِرْياب الكُبْرَى[٣] ، وعَسَاليج[٤] : جارية الأحْدَب[٥] ، وفضل[٦] :

= وهو الذى رباها وأدبها وعلمها الغناء . ويقال إنها بنت جعفر بن يحيى ، وأن البرامكة لما انتهبوا سرقت صغيرة ، ووقعت حينا فى ملك الأمين ، ثم رجعت إلى صاحبها ثم إلى المأمون ثم المعتصم . ولدت سنة ١٨١ وعاشت ستا وتسعين سنة . وقد أسهب أبو الفرج فى نعتها وتقريظها . الأغانى ١٨ : ١٧٥ — ١٩١ .

(١) بذل هذه ، هى بذل الكبيرة ، أو الكبرى . ذكرها أبو الفرج فى الأغانى ٧ : ٣١ و ٩ : ٣٤ و ١٧ : ١٣٢ . والمراكبى ، هو عبد الله بن إسماعيل ، وكان صاحب مراكب الرشيد . الأغانى ١٨ : ١٧٧ .

(٢) فى الأصل : « شارى » تحريف . وهى شارية البصرية المولدة ، اشتراها إبراهيم بن المهدى بثمانية آلاف درهم . وذكروا أن المعتصم أعطى بها سبعين ألف دينار فامتنع عن بيعها . الأغانى ١٤ : ١٠٥ — ١١٠ .

(٣) هى زرياب الواثقية . ذكر أبو الفرج فى الأغانى ٩ : ٣٤ أنها كانت ممن يغير الغناء القديم . وذكر فى ٩ : ١٣٦ أنها غنت فى حضرة عبد الله بن المعتز . وفى المغنين أيضاً « زرياب » وهو عبد أسود كان لإبراهيم الموصلى ، وكان مطبوعا على الغناء ، علمه إبراهيم ، وكان ربما حضر مجلس الرشيد يغنى فيه ، ثم انتقل إلى بنى الأغلب فأخفق وأخرجوه ، فجاز البحر إلى الأندلس . فكان عند عبد الرحمن ابن الحكم . العقد ٦ : ٣٤ .

(٤) ذكر أبو الفرج فى الأغانى ١٧ : ١٣٢ أنها كانت لرقية بنت الفضل ابن الربيع ، اشترتها من آل يحيى بن معاذ .

(٥) الأحدب القين ، كان من أصحاب القيان ، كما يفهم من الأغانى ١٧ : ١٣٣ وذكر أن عبد الله بن العباس الربيعى كان يعشق مصابيح ، جارية الأحدب القين ، ثم قال : « هكذا ذكر شيبة بن هشام من أمر مصابيح ، وهى مشهورة من جوارى آل يحيى بن معاذ . ولعلها كانت لهذا القين قبل أن يملكها آل يحيى وقبل أن تصل إلى رقية بنت الفضل بن الربيع . فلعل هذا النص يفسر ما ذكر الجاحظ أن « عساليج جارية الأحدب » أيضاً .

(٦) كانت فضل شاعرة من أحسن خلق الله خطا ، وأفصحه كلاما ، وأبلغه فى =

جارية العَبدىّ[١] . وقَبل هذا سَلْسَلُ[٢] وأشباه سلسل .

[أخبار فى البريد]

وبُرُد كُتُب الملوك كانت تختلف ما بين فَرْغانة القُصْيا[٣] إلى الشوس الأقصى ، وكانت البُرُد منظومة إلى كِسرى ، من أقصى بلاد اليمن إلى بابه ، أيام وَهْرِز[٤] ، وأيام قُتل مسروق[٥] عظيم الحَبَشة . وكذلك كان عظيم الروم . قال امرؤ القيس :

= مخاطبة . وكانت من مولدات البصرة ، ونشأت فى دار رجل من عبد القيس ، وباعها بعد أن أدبها وخرجها ، فاشتريت وأهديت إلى المتوكل ، ولم تكن تعرف بعد أن أعتقت إلا بفضل العبدية . الأغانى ١٧ : ٤ — ٨ و ٢١ : ١١٤ — ١٢٠ .

(١) فى الأصل : « العباد » . وانظر الحاشية السابقة .

(٢) ط : « وقيل لهذا السلسل » ، خلافا لما أثبته واضحاف الأصل . وسلسل هذه كانت جارية لبعض المغنين بالبصرة ، قال أبو الفرج : كانت من أحسن الناس وجها وغناء . وفيها يقول أبان بن عبد الحميد :

فتنت سلسل قلب ابن قطن ثم ثنت بابن صخر فافتتن
فأتيت اليوم كى أنقذهم فإذا نحن جميعا فى قرن

وفى المغنين أيضا « سلسل » وكان مولى لبنى هاشم . الأغانى ٩ : ٢٢ — ٢٣ .

(٣) كذا فى الأصل ، وهى صحيحة ، يقال قصوى وقصيا . وفى اللسان : « أهل الحجاز قالوا : القصوى ، فأظهروا الواو وهو نادر ، وأخرجوه على القياس إذ سكن ماقبل الواو . وتميم وغيرهم يقولون : القصيا » . وجاء فى تفسير الأشمونى لقول ابن مالك :

بالعكس جاء لام فعلى وصفا وكون قصوى نادرا لا يخفى

« وأما قول الحجازيين القصوى فشاذ قياسا فصيح استعمالا ، نبه به على الأصل . وتميم يقولون القصيا على القياس » .

(٤) وهرز : أحد قواد كسرى الذين أرسلهم إلى اليمن كما سبق فى ١ : ٢٠١ . وانظر السيرة ٤٣ .

(٥) هو مسروق بن أبرهة الحبشى حاكم اليمن . وفى دهره خرج سيف =

ونَادَمْتُ قَيصَرَ فِي مُلْكِهِ فَأَوْجَهَنِي ورَكِبْتُ البَرِيدَا[١] ٢١٢ ظ

إِذَا مَا ازْدَحَمْنَا عَلَى سِكَّةٍ سَبَقْتُ الفُرَانِقَ سَبْقًا بَعِيدَا

وكذلك كانت بُرُد كسرى إلى الحِيرة: إلى النعمان وإلى آبائه. وكذلك كانت بُرُدُه إلى البحرَيْن: إلى المُكَعْبَر مَرْزُبان الزَّارَة[٢]، وإلى مشكاب[٣]، وإلى المُنْذِرِ بن ساوَى[٤]، وكذلك كانت بُرُده إلى عُمان، إلى الجُلَنْدَى

= ابن ذي يزن مستغيثاً بقيصر، ثم بكسرى، لينقذا اليمن من ظلم الحبشة، فبعث معه كسرى جيشا يقوده وهرز السالف الذكر. ووهرز هذا الذى قتل مسروقا وأزال ملك الحبشة على اليمن بعد أن تداوله أربعة منهم فى اثنين وسبعين سنة، وهم أرياط، وأبرهة، ويكسوم بن أبرهة، ثم مسروق بن أبرهة. السيرة ٤٢ — ٤٥.

(١) سبق البيتان فى ص ٢٧٥.

(٢) الزارة: قرية كبيرة بالبحرين. وفتحت الزارة فى سنة ١٢ فى أيام أبى بكر الصديق. معجم البلدان، قال: « ومنها مرزبان الزارة، وله ذكر فى الفتوح ». وفى معجم ما استعجم أنها مدينة من مدن فارس، وهى التى بارز البراء بن مالك مرزبانها فصرعه فقطع يديه، فأخذ سواريه ومنطقته ». ثم قال: « وأصل الزارة الأجمة أجمة القصب ». وفى الإصابة ٦١٧ فى ترجمة البراء ابن مالك أنه فى يوم تستر حمل وحمل الناس معه، فقتل مرزبان الزارة من عظماء الفرس وأخذ سلبه، فانهزم الفرس وقتل البراء.

(٣) وردت فى ط: « مسكاب »، وهى فى أصلها بالشين المعجمة.

(٤) فى الأصل: « شاوى »، تحريف. وفى جمهرة أنساب العرب ٢٣٢: « ومن بنى عبد الله بن زيد بن عبد الله بن دارم — وهو الأسبذى، نسب إلى الأسبذ، وهى قرية بهجر — المنذر بن ساوى صاحب هجر ». وانظر المحبر ٢٦٥. وفى السيرة ٩٤٥ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن الحضرمى قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوى العبدى، فأسلم فحسن إسلامه، ثم هلك بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ردة أهل البحرين ». وترجم له فى الإصابة ٨٢١٢ وذكر أنه المنذر ابن ساوى بن الأخنس بن بنان بن عمرو بن عمرو بن عبد الله بن زيد بن عبد الله ابن دارم. و « ساوى » ضبطه فى الإصابة ٨٤٦١ بفتح الواو مقصوراً.

ابن المستكبر[١]. فكانت بادية العرب وحاضرتها معمورتين بِبُرُده ، إلّا ما كان من ناحية الشام ؛ فإنّ تلك الناحيةَ من مملكة خَثْعَم وغَسّان إلى الروم ، إلّا أيّامَ غلبتْ فارسُ على الروم . ولذلك صرنا نرى النواويس بالشّامات إلى قُسطنطينية[٢] .

وهل كانت بُرُد كسرى إلى وَهْـرِزَ[٣] ، وباذَام[٤] ، وفَيْرُوزِ ابن الدَّيْلَمِيّ[٥] ، وإلى اليَمَن ، وإلى المُكَعْبَر مَرْزُبان الزارة ، وإلى النُّعمان بالحيرة ، إلّا البغال ؟ وهل وجدُوا شيئاً لذلك أصلحَ منها ؟

---

(١) هو الجلندى بن كركر بن المستكبر بن مسعود . جمهرة أنساب العرب ٣٧٤ . وفى المحبر ٧٧ : « الجلندى بن المستكبر » . وفيه ص ٢٦٥ أن ملوك فارس كانت تستعمل بنى المستكبر على عمان . وفى الإصابة ١٢٩٢ أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث إليه عمرو بن العاص يدعوه إلى الإسلام ، فأسلم وقال :

فيا عمرو قد أسلمت لله جهرة ينادى بها فى الواديين فصيح

(٢) جعلت فى ط : « القسطنطينية » . والنواويس : مقابر النصارى ، جمع ناوس . والشامات : بلاد الشام ، وتشمل الثغور ، وهى المصيصة وطرسوس وأذنة وأنطاكية وجميع العواصم من مرعش والحدث وبغراس إلى غير ذلك . وللجاحظ ولوع بهذه التسمية . انظر الحيوان ١ : ٨٣ و ٣ : ٣١٢ ، ٤٠٤ ، ٤٥٣ .

(٣) انظر ماسبق فى ص ٢٩٠ .

(٤) ويقال أيضاً : « باذان » بالنون . التنبيه والإشراف ٢٤١ والسيرة ٤٦ والإصابة ٧٥٥ والصحاح (نطف) وحواشى الاشتقاق ٢٢٦ وجمهرة أنساب العرب ٥١٢ ومعجم استينجاس ١٤١ . وفى القاموس : « وباذان الفارسى من الأبناء ، أسلم فى حياة النبى » . وكان باذان من الأبناء الذين بعثهم كسرى إلى اليمن ، وكان ملك اليمن فى زمانه ، وأسلم باذان لما هلك كسرى وبعث بإسلامه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاستعمل على بلاده وهو أول من أمر فى الإسلام على اليمن . وكان مصرعه على يد العنسى الكذاب .

(٥) فى الجمهرة ٥١٢ : « ودادويه وفيروز المعروف بابن الديلمى لهما صحبة » . =

[ما قيل من الشعر فى البغال]

ومما ذكروا به شأن البغال فى الشعر وغيره ، قول الشاعر[١] :

جَعَـــلَ ابْنُ حَزْمٍ حَاجِبَيْنِ لِبَابِهِ
سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ ابْنَ حَزْمٍ يُحْجَبُ[٢]

وعَجِبْتُ أَنْ رَكِبَ ابْنُ حَزْمٍ بَغْـلَةً
ورُكُوبُهُ فَوْقَ المَنَـابِرِ أَعْجَبُ

وقال أعْشَى هَمْدان ، فى خالد بن عَتَّاب بن وَرْقَاء[٣] ـ وكُنيةُ خالد أبو سليمان ، اكتنى بكنية خالد بن الوليد[٤] ، فقال :

= وكان فيروز من أبناء الأساورة من الذين كان كسرى قد بعثهم إلى قتال الحبشة . وقد وفد على رسول الله ثم رجع إلى اليمن فأعان على قتل الأسود العنسى . وهو صحابى روى عنه أبناؤه الضحاك ، وسعيد ، وعبد الله . ويقال له فيروز الديلمى ، وابن الديلمى ، الإصابة ٧٠٠٤ . وفيروز ، بفتح الفاء ، كما فى القاموس . توفى سنة ٥٣ باليمن فى خلافة معاوية .

(١) هو الأحوص بن محمد الأنصارى كما سبق فى كتاب الحجاب ص٦١ .

(٢) ابن حزم هذا هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى القاضى ، كان عاملا على المدينة والحج من قبل سليمان بن عبد الملك . الأغانى ٤ : ٤٣ . وترجم له فى تهذيب التهذيب ١٢ : ٣٨ — ٤٠ وذكر أن عمر بن عبد العزيز استعمله على المدينة والقضاء وموسم الحج . واختلف فى سنة وفاته من سنة ١٠٠ إلى سنة ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ . وفى كتاب الحجاب تأخير هذا البيت عن لاحقه مع خلاف فى الرواية أيضاً .

(٣) خالد بن عتاب بن ورقاء الرياحى ، كان من عمال الحجاج على الرى ثم غضب عليه وطلبه ، فهرب إلى الشام ، واستجار بزفر بن الحارث الكلابى ، فراجع عبد الملك فى أمره فأجاره وكان له أثر عظيم فى قتال الخوارج . الأغانى ١٦ : ٤١ — ٤٢ والطبرى ٧ : ٢٥٢ — ٢٥٤ والحيوان ٥ : ٥٩٠ .

(٤) إذ كان خالد بن الوليد بن المغيرة ، القائد المشهور ، يكنى أبا سليمان ، وسليمان ولده . انظر جمهرة ابن حزم ص ١٤٧ . كما كان يلقب سيف الله . الإصابة ٢١٩٧ حيث أورد حديث : « نعم عبد الله هذا سيف من سيوف الله » .

تُمَنِّينِي إِمَارَتَهَا تَمِيمٌ ... وما أُمِّي بِأُمِّ بَنِي تَمِيمِ (١)

وكانَ أبُو سُلَيْمَانٍ خَلِيلِي ... ولكِنَّ الشِّرَاكَ مِنَ الأَدِيمِ (٢)

أَتَيْنَا أَصْبَهَانَ فَهَزَّلَتْنَا ... وكُنَّا قَبْلَ ذَلِكَ فِي نَعِيمِ (٣)

أَتَذْكُرُنَا ومُرَّةَ إِذْ غَزَوْنَا ... وأَنْتَ عَلَى بُغَيْلِكَ ذِي الوُشُومِ (٤)

ويُرْكَبُ رَأْسَهُ فِي كُلِّ وَهْدٍ ... ويَعْثُرُ فِي الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ (٥)

٢١٣ و وَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا طَيْلَسَانٌ ... نَصِيبِيٌّ وإِلَّا سَحْقُ نِيمِ (٦)

(١) وكذا فى الأغانى ٥ : ١٤٣ . والأم ، بالفتح : القصد والطريقة . وفى البيان ٤ : ٥٠ : « وما أمرى وأمر بنى تميم » .

(٢) فى الأغانى : « وكان أبو سليمان أخا لى » .

(٣) كان أعشى همدان قد رحل مع خالد بن عتاب إلى أصبهان حين وليها ، وكان من قبل قد منّاه وقال له : متى استعملت فخذ خاتمى واقض فى أمور الناس كيف شئت . فلما وصل إلى عمله جفاه وتناساه .

(٤) كذا فى الأصل والأغانى ونسخة ه من البيان . والأوفق « الوسوم » بالسين ، جمع وسم ، وهو أثر الكى . إذ كثر استعمال الوشم فيما تصنعه المرأة من غرز يدها أو ذراعها بالإبرة ، ثم حشوها بالكحل أو بالنؤور .

(٥) فى الأغانى والبيان : « فى كل وحل » .

(٦) ط : « فليس » ، خلافاً لما فى الأصل والبيان والأغانى . والطيلسان : ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف أو يحيط بالبدن ، ليس به تفصيل أو خياطة . فارسى معرب . انظر المعجم الوسيط . نصيبى : نسبة إلى نصيبين من مدن الجزيرة . والسحق : البالى . والنيم : فرو قصير إلى الصدر . ولفظ « نيم » فارسى معناه النصف أو الوسط . وبعد هذا البيت فى الأغانى :

فقد أصبحت فى خز وقز ... تبختر ما ترى لك من حميم

وتحسب أن تلقاها زمانا ... كذبت ورب مكة والحطيم

وللقصة بقية فى الأغانى .

[بغلة عكرمة]

وكان عِكْرِمة بن رِبْعىّ التَّيْمِىّ(١) ، الذى يقال له « الفيّاض » ، يُعْجَبُ ببغلة عنده(٢) ، وكان على شُرَط الحجّاج ، وكان لا يأتى الحجّاجَ فى مَوْكِبه مع الأشراط والوُجوه إلّا عليها ، وفيها يقول عِكرمة :

لَمْ أرَ شَيْئًا بَيْنَ شَيْئَيْنِ مِثْلَهُ
أَشَدَّ انْتِزَاعًا لِلتَّشَابُهِ فِى الأَصْلِ(٣)

تقسّمه أطرافُهُ فاستزالها
بِقِسمةِ عَدلٍ مِن يَدَىْ حَكَمٍ عَدلِ

وأنشد أبو زَيْدٍ النحوىّ :

فكَيْفَ بِأَطْرَافِى إذَا ماشَتَمْتَنِى وما بَعْدَ شَتْمِ الوَالِدَيْنِ صُلُوحُ(٤)

---

(١) هو عكرمة بن ربعى بن عمير بن صبيح بن لأى بن مـوألة . كان من أجواد الإسلام ، بل كان واحداً من ثلاثة أجواد بالكوفة ، ثانيهم عتاب بن ورقاء وثالثهم أسماء بن خارجة . انظر المحبر ١٥٤ والعقد ١ : ٣٤٠ و ٦ : ٩٨. وكان كاتبا لبشر بن مروان فى الكوفة ، وقد مدحه الأخطل . الأغانى ٧ : ١٧٨ . ويعد من أبطال ألف ليله وليلة . انظر الليلة ٦٨٣ ، ٦٨٤ .

(٢) ط : « ببغلة عذرة » ، خلافاً لما هو واضح فى الأصل .

(٣) ط: « للنسابة » ، تحريف . وزيدت فيها واو فى البيت ، وليس ما يدعو إليها ؛ فإن الخرم كثير فى شعر العرب .

(٤) أنشده فى اللسان والمقاييس (صلح ، طرف) وإصلاح المنطق ١٢٤ . ونسب فى اللسان (طرف) إلى عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . أراد بالأطراف أبويه وإخوته وأعمامه وكل قريب محرم له . والصلوح : الصلاح .

[شبه البغل بوالديه]

وقال أصحاب البغال : لا نعلم شيئاً من الحيوان رُكِّبَ بين شيئين نزع إليهما نزعًا سواء لايغادر[1] شيئًا غير البغل ، فإنّ شَبَه أبويْه عليه بقسمة عدْل ، وقد ذكر ذلك محمد بن يَسِير[2] فى شعره الذى طلب فيه من مُوَيْس ابن عِمران[3] بغلةً لرحلةٍ[4] ، فقال :

أَصُمُّ عَلَىَّ مآرِبًا قَدْ أَصْبَحَتْ ... شَتَّى بَدَادِ شَتِيتَةَ الْأَوْطَانِ[5]

بِزَفُوفِ سَاعَاتِ الكَلَالِ دَلِيقَةٍ ... سَفْوَاءَ أَبْدَعَ خَلْقَهَا أَبَوَانِ[6]

لَمْ يَعْتَدِلْ فِى المَنْصِبَيْنِ كِلَاهُمَا ... عِنْدَ التَّنَاسُبِ مِنْهُمَا الجِنْسَانِ

إِلَّا تَكُنْ لِأَبٍ أَغَرَّ فَإِنَّهَا ... تَنْمِى إِلَى خَالٍ أَغَرَّ هِجَانِ

---

(١) ط : « لايقادر » ، تحريف .

(٢) سبقت ترجمته بتفصيل فى حواشى البيان ١ : ٦٥ .

(٣) مضت ترجمته فى ص ٢٧٨ .

(٤) فى الأصل : « لرجله » ، وجعلت فى ط : « لرحله » ، والوجه ماأثبت .

(٥) المآرب : جمع مأرب ، وهو الحاجة . وفى الأصل : « ماارما » . بداد ، بالبناء على الكسر : أى متبددة متفرقة .

(٦) أى زفوف فى ساعات الكلال والتعب . والزفوف : السريعة السير . والدليقة ، أراد بها الشديدة الدفعة . وفى اللسان : « وخيل دلق ، أى مندلقة شديدة الدفعة » . والمعروف فى وصف المفرد « دلوق » لا « دليق » . والسفواء ، قال أبو عبيدة : هى الخفيفة الناصية ، وذلك مما تمدح به البغال ، ويستحب السفا فى البغال ويكره فى الخيل . وأنكر هذا الأصمعى وقال : السفواء بمعنى السريعة لاغير .

نَزَعَتْ عَنِ الْخَيْلِ العِتَاقِ نَجَاءَهَا مِنْهَا، وعِتْقَ سَوَالِفٍ و لَبَانِ[١]

ولَهَا مِنَ الأَعْيَارِ عِنْدَ مَسِيرِهَا جِدٌّ وطُولُ صَبَارَةٍ ومِرَانِ[٢]

قال ذلك لأن حافرَ العَيْرِ أوْقَحُ الحوافر[٣]، فأعطاه أبوه من الخصْلة التى بَانَ بها من سائر الحوافر .

[الخلق المركب]

قالوا : وليس فى جميع الخلق المركَّب مثل الراعِبِيّ[٤]، الذى هو من نِتاج ما بين الوَرَشان والحَمام : لم يأخذ من هِداية أمّه شيئاً ، ولم يُعْطِه أبوه من طول عمره شيئاً .

٢١٣ ظ

ومن المركَّب : السِّمْع ، والعِسْبار[٥] . وكما تحكى الفلاسِفة والمجرِّبون عن الـكَوْسَج ، واللُّخْم[٦] .

---

(١) النجاء : السرعة . والسوالف : جمع سالفة ، وهى ماتقدم من العنق . واللبان ، كسحاب : ماجرى عليه اللبب من الصدر .

(٢) الذى فى المعاجم « المرانة والمرونة » ، وهى الدربة والقدرة فى العمل .

(٣) الوقاحة : الصلابة .

(٤) انظر الحيوان ١ : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٧ ، ١٣٨ . و ٣ : ١٦٢ ، ١٦٣ ، ٢٠٢ .

(٥) السمع ، بالكسر : ولد الذئب من الضبع فيما زعم العرب . والعسبار: ولد الضبع من الذئب فى زعمهم . الحيوان ١ : ١٨١ و ٦: ١٥٠ .

(٦) الكوسج : حيوان بحرى يتولد بين اللخم وسمكة أخرى ، كما فى الحيوان ٧ : ١٢٦ . وفى ١ : ٣١ أنه ليس له أب يعرف . فاللخم على هذا أمه . واللخم من حيوان البحر الذى يلد ، كما فى الحيوان ٧ : ١٢٦ . ويفهم من الدميرى أن الكوسج واللخم والقرش سواء .

والدَّجاج الخِلاسِيّ ، من بين النَّبَطِيّ والهِنْدِيّ . وإذا كان مثلُ ذلك بين البيضاء والحبشيّ فهو خِلاسيّ ، فإذا كان بين البيضاء والسِّنْدِيّ فهو يَبْسَرِيٌّ . وكذلك الخِلاسِيُّ من الكلاب الذى بين الكُرْدِيّ وبين السَّلُوقِيّ[١] .

ومثل الجَمَّازات التى تجىء بين فَوَالِج البُخْت وقِلاص العِراب[٢] ، ومثل البِرْذَوْن الشَّهْرِيّ من الرَّمَكة والفرس العتيق[٣] .

قالوا : فليس يعتدل فى شىء من ذلك الشَّبَهُ ، كما يعتدل فى البغل .

ولذلك قال الشاعر السَّوّاق[٤] ، وهو إبراهيم مولى المَهالِبة :

تَسَاهَمَ فِيهِ الخالُ والعَمُّ مِثْلَمَا ... تَسَاهَمَ فِى البَغْلِ الحِمارَةُ والطِّرْفُ

فزعم فى هذا الشعرِ أنّ هذا البغل أبوه فرس ، وأمّه أتانٌ . وهذا خِلاف ما رواه أبو عُبَيْدة . وأنشد أبو عبيدة :

---

(١) انظر الحيوان ١ : ٣١١ - ٣١٢

(٢) انظر الحيوان ٥ : ٤٥٩ . وجاء فى ٧ : ٢٤٢ : « وقد تقسع أرحام القلاص العربية لفوالج كرمان ، فتجىء بهذه الجمازات » .

(٣) فى اللسان : « والشهرية : ضرب من البراذين ، وهو بين البرذون والمقرف من الخيل » . والرمكة : أنثى البراذين

(٤) السواق ، المراد به بائع السويق . انظر المعجم الوسيط . وفى أنساب السمعانى ٣١٦ أن السواق نسبة إلى بيع السويق . ومثله ما ورد فى الأنساب ٣١٨ أنه يقال سويق وسواق أيضاً لبائع السوق . أقول : فهو كما يقولون بزاز وعطار ، لبائع البز والعطر . ولم أجد خبرا لإبراهيم هذا إلا ماورد فى العقد ٥ : ٣٧٩ - ٣٨١ حيث روى قصة طريفة له ، وسماه « إبراهيم السويق » .

وشَارَكَهَا فِي خِيمِهَا وَهْوَ رَاغِــــمٌ
كَمَا شَارَكَتْ فِي البَغْلِ عَيْرًا حُجُورُهَا[1]

لأنهم[2] يقولون : إذا كانت الأم رَمَكَةً ، خرج البغل وَثِيجًا[3] قويًّا عريضًا ، وإذا كانت الأم حِجْرًا خرج البغل مُسَلَّكًا[4] ، طويل العنق ، وفيه دِقَّة .

وذُكر عن بعض الناس أنّه شتم بعض الأشراف ، فقال : « عجبتُ لقوم إذا قيل لهم : من أبوكم ؟ قالوا : أمُّنا فرس » .

[رجع إلى ذكر بغلة عكرمة]

ثم رجع القول بنا إلى ذكر بغلة عِكْرِمة بن رِبْعِيّ .

قالوا : فلما ألحّ عِكْرِمة في ركوب ذلك البغل إلى باب الحجّاج ، كتب إليه بعضُ بني عمّه ، يردُّ عليه امتداحه البغل باستواء الشَّبَه فيه ، ويُخوِّفه بالحجّاج إن ارتفع إليه في الخبرِ أنّ صاحب أشراطِهِ يأتي بابَه في فُرسان أهل العِراق والشام ووجوهِهم ، على بغل .

وقال في كلمة له :

فَكَيْفَ بِغُرْمُولٍ وعُمْـــرٍ سِوَى الَّذِي ٢١٤ و
يَكُونُ لِعَــيْرِ الأَهْلِ والفَرَسِ الفَحِلِ

---

(١) الخيم ، بالكسر : الطبيعة والسجية . والحجور : جمع حجر بالكسر ، وهى الفرس الأنثى ، لم يدخلوا فيه الهاء لأنه اسم لا يشركه فيه المذكر .

(٢) فى الأصل : « كأنهم » .

(٣) الوثيج : القوى المكتنز الكثير اللحم .

(٤) فى اللسان : « ورجل مسلك : نحيف . وكذلك الفرس » .

ورأسٍ يَجُوزُ الخالَ والعَمَّ بعْدَ ما
تحوّلَ شحّاجًا خِلافًا عَلَى الأصلِ
ولَيْسَ شَحِيجُ البَغْلِ مِنْ عَزْفِ نَاهِقٍ
وقَدْ بَاعَدَ اللهُ الشَّحِيجَ مِنَ الصَّهْلِ
مَتَى كَانَ ذُو الأَشْرَاطِ يَرْكَبُ بَغْلَةً
ويَتْرُكُ طِرْفًا ذَا تَمامٍ وذَا نُبْلِ
عَذِيرِى مِنَ الحجَّاجِ إنْ ذَاكِرٌ نَعَى
عليْكَ رُكُوبَ البَغْلِ فِى ساعَةِ الحَفْلِ
فَمَا لَكَ تَجْتَابُ الهُوَيْنَى مُهَمْلِجًا
إلَى بَابِ حَجَّاجٍ عَلَى المَرْكَبِ الرَّذْلِ
أُعِيذُكَ بِالرَّحْمٰنِ مِنْ زِيِّ تَاجِرٍ
شَقِيٍّ لَئِيمِ الكَسْبِ ذِى خُلُقٍ نَذْلِ
بَغِيضٍ إلَى جَارَاتِهِ وبَنَاتِهِ
وعِرْسٍ لَهُ عَرْجَاءَ بَارِزَةِ الرَّحْلِ (١)
إذَا زَارَهُ مِنْهُمْ شَقِىٌّ لِحَاجَةٍ
تَوَثَّقَ مِنْ بَابِ الخِزَانَةِ والقُفْلِ (٢)

---

(١) رحل الرجل : منزله ومسكنه وبيته . أراد أنها بارزة البيت غير مكنونة . وفى ط : « الرجل » بالجيم ، خلافا لما هو واضح مقيد بعلامة الإهمال فى الأصل .

(٢) ط : « يوفق » ، تحريف .

وأَنْتَ امْرُؤٌ تَنْــدَى بَنَانُكَ بِاللُّهَى
إِذَا سَاءَ ظَنُّ النَّاسِ فِي الزَّمَنِ المَحْلِ[١]
بَقِيَّـــــــةُ أَشْيَاخٍ كَسَوْكَ ثِيَابَهُمْ
وَأَنْتَ وَلِيُّ القَوْمِ فِي البَأْسِ وَالبَــذْلِ

[صفة البغال فى الشعر]

ولما قال الحَكَم بن قَنْبَر[٢] فى قصيدته فى البغل[٣] ، وفيما يصلُح له ، ويُرْتَفَق به منه ، وفيها يقول :

وفِي الرَّدَاغِ ، فَإِنَّ الوَحْــلَ مَزْلَقَةٌ
وفِي الطَّحِينِ ، وفِي الحَاجَاتِ ، والرِّحَلِ[٤]

وقال مُسلم بن الوليد الأنصاريّ ـ والحكَم بن قَنبر مازنيّ ، وكان الحكَم قد عظُم شأنه فى بنى تميم ، حتى كان يصلِّى على جنائزهم ، فلما لجَّ فى رأى الشُّعوبيّة ، وقال فى ذلك الأشعار ، ضربته بنو مازنٍ ، وهم مواليه ، فلما ألحُّوا عليه فى الضرب ، نادى : يا آل تميم ! فقال أعرابىّ :

يَدْعُو تَمِيمًا ، وتَمِيمٌ تَضْرِبُهُ تَلْطِمُهُ طَوْرًا ، وطَوْرًا تَرْكَبُهْ

---

(١) اللهى ، بالضم : جمع لهوة ولهية ، بضم اللام فيهما ، وهى العطية ، وقيل أفضل العطايا وأجزلها .

(٢) الحكم بن محمد بن قنبر المازنى البصرى ، من شعراء الدولة الهاشمية . كان يهاجى مسلم بن الوليد مدة ، ثم غلبه مسلم . الأغانى ١٣ : ٨ ـ ١٠ . وانظر أوراق الصولى ١ : ٣٠ ، ٢١٥ حيث أورد له خبراً وشعراً .

(٣) فى الأصل : « البغلة » ، تحريف .

(٤) أى السير فى الرداغ . والرداغ : جمع ردغ ، وهو الماء والطين والوحل .

وقال مُسْلِم بن الوليد :

٢١٤ظ

تَرَكْتَ صِفَاتِ الخيلِ والخيلُ مَعقِـلٌ
وأصبحتَ فِي وَصفِ البِغالِ الكَوَادِنِ[1]

حَنَنْتَ إِلَيْهَا رَغْبَـــةً فِي أُيُورِهَا
فَدُونَكَ أَيْرَ البَغْلِ يَا عَبْـدَ مَازِنِ[2]

... ...

... ...

وبغلته ودابّته ، قال بعضُ الشُّعراء[3] يُخاطب دابّته :

فَهَبِيهَـا لَيْــلَةً أَدْلَجْتُهَا
فَكُلِي إِنْ شِئْتِ تِبْنًا أَوْ ذَرِي

قَدْ أَتَى مَوْلَاكِ خُـبْزٌ يَابِسٌ
فَتَغَدَّيْ وتَعَزَّيْ واصْــبِرِي[4]

---

(١) الكوادن : جمع كودن ، وهو البغل ، والبرذون الهجين .

(٢) بعده بياض فى الأصل بمقدار سطرين ، لعلهما بيت ثالث لمسلم ـ والشعر مع ذلك لم يرد فى ديوانه ـ ثم تعقيب يذكر فيه الجاحظ أنه سيقول فيمن ذكر برذونه وبغلته ودابته .

(٣) هو حمزة بن بيض . كما فى الأغانى ١٥ : ١٦ وكان قد خرج فى سفر فنزل بقوم لم يحسنوا ضيافته ، وأتوه بخبز يابس وألقوا لبغلته تبنا ، فأعرض عنهم وأقبل على بغلته يقول هذا الشعر . وفى الأغانى : « أحنقنا ليلة » .

(٤) فى الأغانى : « قد أتى ربَّك » . وفى الأصل : « فتغرى فتعرى » ، صوابه من الأغانى .

وقال آخر :

بِتُّ ظَمْآنَ وَبَاتَتْ بَغْلَتِي ... تَشْتَكِي الخَلْوَةَ فى بَيْتِ عُمَرْ

صُمْتِ يَا بَغْلَةُ مِنْ غَيْرِ تُقًى ... أَبْشِرِي بِالصَّوْمِ فى شَهْرِ صَفَرْ

وقال آخر :

وَإِنِّى إِذَا مَا المَرْءُ آثَرَ بَغْلَهُ ... عَلَى نفسِهِ آثَرْتُ نفسِى عَلَى بَغْلِي

وأَبْذُلُهُ لِلْمُسْتَعِيرِينَ لَا أَرَى ... له عِلَّةً ما دَامَ يَنقادُ فِي الحَبْلِ

وقال آخر :

أَيَا مُنْزِلِي مالِي عليكَ كَرَامَةٌ ... إِذَا أَنْتَ لَمْ تُكْرِمْ عليكَ جَوَادِي

وقال دِعْبِل :

أَتَيْتُ ابْنَ عِمرانَ فِي حاجَةٍ ... هُوَيْنَةِ الخَطْبِ فَأَلْتَامَهَا

تَظَلُّ جِيَادِي عَلَى بَابِهِ ... تَرُوثُ وتَأْكُلُ أَرْوَاثَهَا

غَوَارِثَ تَشْكُو إِلَى الخَلَا ... أَطَالَ ابْنُ عِمْرَانَ إِغْرَاثَهَا

وقال ابن حازم[1] :

وخَلَّيتُ بِرْذَوْنِي يَلُوكُ شَكِيمَهُ ... خَلِيطَاهُ نَغْفٌ دَارِسٌ وطُلُولُ

٢١٥ و

وقال سَهْل بن هارون : بُعِثْتُ وأنا صبيٌّ إلى جارٍ لنا أستعير منه بغلًا ، فزعم أنه مبطون ، فَغَبَرْتُ أيامًا ، ثم كتبتُ إليه[2] :

---

(١) هو محمد بن حازم ، سبقت ترجمته فى ص ٦١ .

(٢) بدله فى الحيوان ٣ : ٦٦ : « قال سهل بن هارون ، وهو يختلف إلى الكتاب ، لجار لهم » .

نُبِّئْتُ بَغْلَكَ مَبْطُــونًا فَزِعْتُ لَهُ
فَهَلْ تَمَاثَلَ أَوْ نَأْتِيــهِ عُوَّادَا (١)

[ما قيل فى طول عمر البغل]

قال أهل التجربة : ليس فى جميع الحيوان الذى يُعايش الناس ، أطولُ عمرًا من البغل ، ولا أقصرُ عمرًا من العُصفور ، وظنّوا أنّ ذلك لكثرة سِفاد العصفور ، وقلّة ذلك من البغل (٢) .

قالوا : ولذلك وجدنا طول الأعمار فى الرُّهبان وأصحاب الصَّوامع خاصَّة ، وفى الخِصيان عامَّة . ولذلك قال الراجز :

أُحِبُّ أَنْ أَصْطَادَ ضَــبًّا سَحْبَلَا (٣)
وخَرَبًا يَرْعَى رَبيعًا أَرْمَــــلَا (٤)

لجعله أرمل ، ليكون أقوى له وأسمن (٥) .

قالوا : وقال معاوية : ما رأيتُ رجلا قَطُّ يستكثر من الجِماع ، إلّا رأيت ذلك فى مُنَّته (٦) .

---

(١) فى الحيوان : « فقلت له » . وفى بعض نسخ الحيوان : « فرغت » ، وأثبت ما فى الأصل . تماثل : دنا من الشفاء .

(٢) انظر الحيوان ١ : ١٣٧ و ٥ : ٢٠١ ، ٢٢٣ و ٧ : ٢٢١ .

(٣) السحبل : العظيم المسن من الضباب .

(٤) الخرب ، بالتحريك : الذكر من الحبارى . وفى الحيوان : « أوجرذا » وفى اللسان (رمل ، سحبل) : « رعى الربيع والشتاء أرملا » .

(٥) فى الحيوان : « لجعله أرمل لا زوجة له ليكون أسمن له ؛ لأن كثرة السفاد مما يورث الهزال » .

(٦) المنة ، بالضم : القوة . وانظر الحيوان ١ : ١٣١ والبيان ٢ : ٨١ .

وقال معاوية : كلّ خصال الشباب قد كان فيّ ، إلّا أنى لم أكن نُكَحةً[1] ، ولا صُرَعَةً[2] ، ولا طُلَعةً[3] ، ولا ضُحَكة ، ولم أكُ سِبًّا[4] .

قالوا : والبغل أطول عمرًا من كلّ شيء من الحيوان ، ممّا يُعايِش الناس فى دُورِهم .

قالوا : وكلّ شيء يُنْتَجُ ويولد ويتربَّى[5] فى منازل الناس ، من طائر وسبُع وبهيمة ، إذا تحوّل صاحب الدار ، لم يتحوّل معه منها شيء ، وآثرت الأوطانَ على صاحب الدار ، إلّا الكلبَ ، فإنه يؤثِره على وطنه ، ويموت دونه ، ويصبِر على جَفائه وإقصائه[6] .

[قصيدة لابن داحة يذكر فيها أعمار الحيوان الذى يعايش الناس

وأنشد إبراهيم بن داحة ، لرجل ذهب عنّى اسمه ، قصيدةً وصف فيها أعمار الحيوان التى تعايش الناس ، فقال لأخيه :

٢١٥ ط

عَزَمْتُ عَلَى ذَمّ البَعِيرِ مُوَفَّقًا
وأنْ لَيْسَ فِي المَرْكوبِ أجْمَعُ مِنْ بَغْلِ[7]

---

(١) النكحة ، بضم ففتح : الكثير النكاح . وفى ط : «ملحة» ، تحريف .

(٢) الصرعة : الشديد الصراع ، يصرع الرجال ولا يصرعونه ، وهو أيضاً : الحليم عند الغضب لأن حلمه يصرع غضبه ، وليس هذا المعنى الأخير مرادا .

(٣) الطلعة : الكثير التطلع إلى ما يهوى .

(٤) السب ، بالكسر : الكثير السباب .

(٥) ط : « وربى » ، خلافا لما فى الأصل .

(٦) انظر الحيوان ٥ : ٣١٤ .

(٧) فى الأصل : « وأن ليس فى البغل كوب » ، والتصحيح هنا لشارل .

وأَنَّ اقْتِنَاءَ الإِبْلِ مُوقٌ وحِرْفَةٌ
يَبِيتُ عَلَى يُسْرٍ ويَغْدُو عَلَى ثُكْلِ[1]

وبَيْنَ المَنَايَا والبَرَاذِينِ نِسْبَةٌ
وكُلُّ نِتَاجِ النَّاسِ خَيْرٌ مِنَ الإِبْلِ[2]

وقُلْتُ وشَاهَدْتُ البِغَالَ وغَيْرَهَا
فَأَحْمَدْتُها فِي العُمْرِ والهَرَمِ المُبْلِي

ولَيْسَ لَهَا بَذْخُ الخُيُولِ وكِبْرُها
ولَا ذِلَّةُ العَيْرِ الضَّعِيفِ عَنِ الرَّحْلِ[3]

ومُؤْنَتُهُ فِي الصَّيْفِ والشَّتْوِ واحِدٌ
ولَا خَيْرَ فِي المُؤْنَاتِ مِنْ حَامِلِ الكَلِّ[4]

ولَا تَرْكَبُ الأَرْمَاكَ والحِجْرُ دُونَهَا
لَدَى المِصْرِ والبَغْلَاتُ تَرْكَبُ كَالبَغْلِ[5]

وقَدْ فَرَّقَ الرَّحْمٰنُ بَيْنَ شُكُولِها
كَمَا بَيْنَ عَيْرِ الوَحْشِ والآخَرِ الأَهْلِي[6]

---

(١) الموق : الحمق . والحرفة والحرف ، بضم الحاء فيهما : الحرمان والفقر .

(٢) النسبة ، بكسر النون وضمها : القرابة .

(٣) البذخ ، بالتحريك : التكبر . وسكون الذال للشعر .

(٤) الكل ، بالفتح : الثقل .

(٥) جعلت فى ط : « لدى المصد » .

(٦) فى الأصل : « بين شكولهم » .

وفى البَغْـــلِ فِى كُلِّ الأُمُورِ مَرَافِق
ومَرْكَبُ قَاضٍ أَوْ شُيُوخٍ ذَوِى فَضْلِ
فَيَرْكَبُها والخَيْـــــلُ مُحْدِقَةٌ بِهِ
ويُؤْثِرُها يَوْمَ المُبَاهاةِ والحَفْـــلِ
وقَدْ جَاوَزَتْ فِى السَّـــوْمِ كُلَّ مُثَمَّنٍ
مِنَ الرَّائِـعِ المَنسوبِ والجَامِلِ البُزْلِ (١)
يَفوتُ هَمَالِيجَ البَرَاذِينِ سَـــــيْرُها
عَلَى قِحَةِ الأَعْيارِ مِنْ شَبَهِ النَّجْـلِ (٢)

[ركوب البغلة والطمع فى القضاء]

ونحن بالبصرة إذا رأينا الرجل يطلب الرأى ، ويركب بغلا ، ويُردف خلفه غُلَامًا ، قضينا بأنه يطمع فى القضاء . قال ابنُ المرَزِّق (٣) :

إِذَا رَكِبَ الشَّيْخُ الشَّرِيفُ بُغَيْـــلَةً
ونَاظَرَ أَهْلَ الرَّأْيِ عِنْـدَ هِلَالِ (٤)

---

(١) الجامل : القطيع من الإبل . والبزل : جمع بازل ، وهو البعير فى السنة الثامنة أو التاسعة . وفى الأصل : « والحامل البزل » .

(٢) القحة : صلابة الحافر . والنجل : النسل .

(٣) هو عباد بن المرزق الحضرمى ، ويعرف بالمخرق ، وهو القائل :

أنا المخرق أعراض اللئام كما كان المرزق أعراض اللئام أبى

المؤتلف ١٨٦ والحيوان ٥ : ١٦٩ .

(٤) هو هلال بن يحيى بن مسلم البصرى ، وهو هلال الرأى . وفيه يقول بشار (الأغانى ٣ : ٣٤) :

فَذَاكَ الَّذِى يَبْغِى القَضَاءَ بِسَمْتِهِ ... ... [١] الذِّئْبُ أمّ غَزَالِ

فَإنْ أرْدَفَ العَبْدَ الصَّغِيرَ وَرَاءَهُ فَوَيْلٌ لِأَيْتَامٍ وإرْثِ رِجَالِ

وَإنْ رَكِبَ البِرْذَوْنَ واشْـتَدَّ خَلْفَهُ

فَصَاحِبُ أشْرَاطٍ وحَمْـلِ إلَالِ [٢]

وقال ابن مُناذِر [٣] فى واحدٍ من هذا الشكل :

رَأيْتُ أبَا مُوسَى يَغُرُّ بِسَمْتِهِ وَيَقْسِمُ فِي الجِيرَانِ كُرَّ طَعَامِ [٤]

وَيَخْدَعُهُـمْ واللهُ غَالِبُ أمْرِهِ بِقَدٍّ كَقَـدِّ المَشْرَفِىِّ حُسَامِ

يُرِيدُ قَضَاءَ المِصْرِ والمِصْرُ مُنْكِرٌ لِـكُلِّ مُرَاءٍ مُهْتَرٍ بِغُـلَامِ

بِبِشْرٍ وسمتٍ واكْتِئَابٍ وخَشْعَةٍ وَكَثْرَةِ تَسْبِيحٍ ولِينِ كَلَامِ

وَيَرْكَبُ بَغْلًا ثُمَّ يُرْدِفُ خَلْفَهُ غُلَامًا كما أبْصَرْتَ شِقَّ جِلَامِ [٥]

٢١٦ و

= إذا ما شئت صبحنى هـلال وأى الناس أثقل من هلال

وانظر لسان الميزان ٦ : ٢٠٢ - ٢٠٣ . وفى أنساب السمعانى ٢٤٦ فى ترجمة (الرائى) : « عرف بهذا الاسم هلال بن يحيى بن مسلم ، إنما قيل له الرائى لأنه كان ينتحل مذهب الكوفيين ورأيهم ، فعرف بالرأى » . وفى القاموس : « وهلال الرأى من أعيان الحنفية » .

(١) بياض فى الأصل .

(٢) الإلال : جمع ألة ، وهى الحربة ذات النصال العريض .

(٣) هو محمد بن مناذر .

(٤) الكر : ستون قفيزا ، قال ابن سيده : « يكون بالمصرى أربعين إردبا » اللسان (كرر) . والطعام . قال الخليل : العالى فى كلام العرب أن الطعام هو البر خاصة . وقال ابن الأثير : الطعام عام فى كل مايقتات من الحنطة والشعير والتمر .

(٥) جِلام ، مع ضبط الجيم بالكسر كما فى الأصل ، هو جمع الجَلَم ، وهو القمر ، والهلال ليلة يهل .

يُرِيدُ هِلَالًا لَا يُحَاوِلُ غَيْرَهُ وَقِدْمًا سَمَا لِلرَّأْيِ غَيْرَ مُسَامِ (١)

سَوَاءٌ لِذِي الرَّأْيِ الشَّرِيفُ وَغَيْرُهُ إِذَا كُنْتَ ذَا حِفْظٍ فَلِجْ بِسَلَامِ (٢)

بَصِيرٌ فَقِيهًا فِي شُهُورٍ يَسِيرَةٍ فَيَالَكَ حِفْظًا لَمْ يُشَبْ بِغَرَامِ

وَلَوْ كَانَ خَيْرًا كَدَّ (٣) ... كَمَا كَدَّ ذَا الْآثَارِ بُعْدُ مَرَامِ

وَمَا ضَرَّ سَلْمَانًا (٤) وَكَعْبًا (٥) وَبَعْدَهُ

شُرَيْحًا (٦) وَسَوَّارًا (٧) وَرَهْطَ هِشَامِ (٨)

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٣٠٧ .

(٢) ذو الرأى : لقب هلال بن يحيى . لِجْ : أمر من الولوج ، ولج يلج : دخل .

(٣) بعده بياض فى الأصل .

(٤) أبو عبد الله سلمان بن ربيعة الباهلى ، وهو سلمان الخيل ، لأنه كان يلى الخيول فى زمن عمر ، الذى ولاه قضاء الكوفة ، ثم ولى غزو إرمينية فى زمن عثمان ، فقتل ببلنجر سنة ٢٥ . وهو أول قاض استقضى بالكوفة . تهذيب التهذيب ٤ : ١٣٦ وجمهرة ابن حزم ٢٤٧ والمعارف ١٩١ .

(٥) هو كعب بن سور ، بضم السين كما فى الإصابة ٧٤٨٧ والقاموس . وكان قاضى البصرة لعمر ـ وهو أول قاض عليها ـ ولاه حين استحسن حكمه بين المرأة وزوجها ، وحكم لها فى كل أربع ليال بليلة . وخرج مع عائشة يوم الجمل ناشر المصحف يمشى بين الصفين ، فجاءه سهم غرب فقتله . الإصابة والمعارف ١٩٠ ، ٢٤٣ وجمهرة أنساب العرب ٣٨٠ .

(٦) شريح ، سبقت ترجمته فى ص ١٩٣ .

(٧) هو سوار بن عبد الله بن قدامة بن عنزة العنبرى . كان فقيها ولاه أبو جعفر القضاء بالبصرة سنة ١٣٨ ومات وهو أمير البصرة وقاضيها سنة ١٥٦ . تهذيب التهذيب ٤ : ٢٦٩ و جمهرة ابن حزم ٢٠٩ وهو غير حفيده المشهور سوار ابن عبد الله بن سوار بن عبد الله ، المترجم فى تهذيب التهذيب ٤ : ٢٦٨ وتاريخ بغداد ٩ : ٢١٠ .

(٨) لعله هشام بن المغيرة ، ولى قضاء البصرة والكوفة ما بين سنتى ٦٤ ، ٧٤ كما فى النجوم الزاهرة ١ : ١٦٢ ، ١٨٠ ، ١٨٤ والطبرى ٧ : ٢١٠ .

وَيَاسًا ويَاسًا والفَلَاَبِىَّ بَعْـدَهُ أُلَاكَ الأُولَى كَانُوا نُجُومَ ظَلَامِ[١]

ومَا عَرَفُوا النُّعْمَانَ . . . .[٢] وَلَا زُفَرَ الْمَشْقِيِّ صَـوْبَ غَمَامِ

لَقَدْ تَابَ مِمَّا أَحْدَثَ القَوْمُ تَوْبَةً لِسَاعَةِ إِخْلَاصٍ ووقْتِ حِمَامِ

[تشبيه الأسد بالبغل]

قالوا : ويشبِّهون الأسَد بالبغل ، إذا كان الأسدُ تامَّ الخَلْق . قال نَهْشَل ابن حَرِّىّ :

وما سَبَقَ الحَوَادِثَ لَيْثُ غابٍ يَجُرُّ لِعِرْسِـهِ جَزَرَ الرِّفَاقِ

كُمَيْتٌ تَعْجِزُ الخُلَعَــاءَ عَنْـهُ

كَبَغْلِ السَّرْجِ حَطَّ مِنَ الوِثَاقِ[٣]

وقال أبو زُبَيْدٍ الطائىّ[٤] :

مِنَ الأُسْــدِ عادىّ . . .[٥] بِصَوْتِهِ

رُءوسَ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ . . .[٥]

---

(١) ياساو وياسا ، كذا ورد فى الأصل .

(٢) بياض فى الأصل . والنعمان ، هو أبو حنيفة إمام المذهب .

(٣) الخلعاء : جمع خليع ، وهو الصياد . وفى الأصل : « الخلفاء » ، ولا وجه له . حط : أسرع واعتمد فى سيره .

(٤) أبو زبيد حرملة بن المنذر بن معديكرب الطائى ، يذكر فى مخضرمى الجاهلية والإسلام ، كما يذكر فى الإسلاميين . وكان نصرانيا مات على دينه . وعرف بنعته للأسد . الأغانى ١١ : ٢٣ والشعر والشعراء ٢٦٠ وابن سلام ٥٠٥ والمعمرين ٨٦ والإصابة ١٩٦٧ والخزانة ٢ : ١٥٥ ومعجم الأدباء ١٠ : ٢٠٠ .

(٥) بياض فى الأصل . ولعل الكلمة الأخيرة « ويعقر » .

٢١٦ ظ

كأنَّ اهتزامَ الرَّعْدِ خِيطَ بجَوْفِهِ إذا جُرَّ فيهِ الخيزُرانُ المُعَتَّرُ[١]

فأبصَرَ رَكْباً رائحِينَ عَشِيَّةً فقالُوا : أبغلٌ مائلُ الرَّجْلِ أشْقَرُ

أمِ اللَّيْثُ ؟ فاسْتَنْجُوا . . . .

فهذا وربِّ الرَّاقِصاتِ المُزَعْفَرُ[٢]

ولأبى زُبَيْدٍ مثلُها ، فى قصيدته التى ذكر فيها شأن كلبه ، وشأن الأسد ، فقال[٣] :

فجالَ أكْدَرُ مُشتالاً كعادتِهِ

حتَّى إذا كانَ بينَ البئرِ والعَطَنِ[٤]

لاقَى لدَى ثُلَلِ الأطْواءِ داهِيَةً

أسْرَتْ وأكْدَرَ تحْتَ اللَّيلِ فى قَرَنِ

---

(١) خيط بجوفه ، أى احتواه واشتمل عليه ، مثله فى قول النابغة الجعدى فى اللسان (هضم) :

خيط على زفرة فتم ولم يرجع إلى دقة ولا هضم

وفى الأصل : « خبط جوفة » ، تحريف . والخيزران ، عنى به الرماح . المعتر ، هو من عتر الرمح يعتر عتراً وعتراناً : اشتد واضطرب واهتز .

(٢) استنجوا : أسرعوا السير . وفى الحديث : « إذا سافرتم فى الجدب فاستنجوا » . وموضع النقط بعدها بياض فى الأصل . الراقصات : الإبل تسير الرقص ، وهو ضرب من الخبب . والمزعفر : الأسد الورد ، لأنه ورد اللون ، وقيل : لما عليه من أثر الدم .

(٣) الأبيات فى الحيوان ٢ : ٢٧٤ — ٢٧٦ والأغانى ١١ : ٢٥ ومعجم الأدباء ١٠ : ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٤) انظر الحيوان لمقارنة الروايات فى هذه الأبيات وتفسيرها .

إلى مُقَابَلِ خَطْوِ السَّــــاعِدَيْنِ لَهُ
فَوْقَ السَّرَاةِ كَذِفْرَى الفَالِجِ الغَضِنِ
رِئْبَالُ غَابٍ فَلاَ قَحْمٌ ولاَضَرَعٌ كَالبَغْلِ حَطَّ مِنَ المحلين فى شَطَنِ

[الحمير الأخدرية]

وزعم ناسٌ من العلماء أنَّ الحمير الأخْدَرِيَّة[1] ، وهى أعظم حَمير الوحْش وأتمُّها ، زعموا أنَّ أصل ذلك النِّتاج أن خيلاً لكسرى[2] توحَّشت ، وضَرَبتْ فى العانات ، فكان نِتاجها هذه الحَميرَ التى لها هذا التمام .

وقال آخرون : الأخدَرِيَّةَ هى الحُمُرُ التى تكون بكاظِمةَ ونواحيها ، فهى كأنها بَرِّيَّة بَحريَّة .

قالوا : ولا يجىء فيما بين الخيل والحَمير إلَّا البغال ، وليس للبغل نسْل يعيش ، ولا نجل يبقى ، فكيف لقِحت هذه الأُتُن من تلك الخيل حميراً ، ثمّ طبَّقت تلك الصحارى بالحُمُر الخالصة ؟

وقالوا : كان الملك من الأكاسِرَة إذا اصطاد عَيْرًا وسَمَه باسمه ، وبيومه الذى اصطاده فيه ، وأطلقه ، فإنْ تهيَّأ أن يَصطاد ذلك العَيرَ بعينه ملكٌ مِن بعده ، وَسَمَه مع وسم الملكِ الذى قبلَه بمثل تلك السِّمَة وخلَّاه يذهب ، فكان هذا الصنيعُ بعضَ ما كانوا يعرفون به حَمير الوحش . فعسى أن تكون هذه الحَمير أو بعضُها صار فى ذلك الصُّقع الذى هذا صِفَتُه ، فإنَّ للماء والتربة

---

(١) نسبة إلى أخدر ، وهو فرس كان لأردشير بن بابك ، كما فى الحيوان ١ : ١٣٩ . وقيل كان لسليمان بن داود . اللسان (خدر) .

(٢) عيَّنه فى الحيوان ١ : ١٣٩ بأنه أردشير بن بابك ، كما فى الحاشية السابقة .

٢١٧ و

والهواء فى هذا عملاً ليس يخفى على أهل التجربة .

[و] كلُّ عربىّ تراه بخُراسان أصهبَ السِّبال ، أحمرَ اللون ، مفطوح القفا ، فإنّ الأعرابىّ الذى انتقل إلى ما هناك كان على ضدّ ذلك[1] .

[أثر البيئة فى الحيوان]

وقد رأينا بلاد التُّرْك ، فرأينا كلّ شىء فيها[2] تركيًّا . ومَن رأى دوابّهم وإبلهم عَلِمَ أنّها تركيّة . وحَرّةَ بنى سُلَيْم التى جميع طيرها ، وسباعها وهوامّها وأهلها كلّهم سُود[3] . وهذا كثير جدًّا .

وقد نرى جَراد البقْل وديدانَه خُضْرًا[4] ، ونرى قمل رأس الشابّ [الأسود الشعر : أسود[5]]، و [نراه فى رأس] الشيخ [الأبيض الشعَر : أبيض]، و [نراه فى] رأس الخاضب بالحُمرة :[أحمر] . نعم حتى إنك لترى فى القملة شُكْلَةً[6] إذا كان خِضاب الشيخ ناصِلا .

وهكذا طبع الله الأشياء .

---

(١) انظر أثر البيئة فى الحيوان ٤ : ٧٠ — ٧٢ .

(٢) فى الأصل : « فيه » .

(٣) انظر الحيوان ٤ : ٧١ و ٥ : ٣٨٠ وماسبق فى رسائل الجاحظ ١ : ٢١٩ — ٢٢٠ .

(٤) فى الأصل : « خضر » .

(٥) هذه التكملة وما يليها من الحيوان .

(٦) الشكلة ، بالضم : اختلاط البياض بالحمرة .

ضربهم المثل فى أير البغل

قال أبو شُراعة(١) :

[أيْرُ] حِمَارٍ فى حِرِامِّ شِعْرِى وأيْرُ بَغْلٍ فى حِرِامِّ قَدْرِى
لَوْ كُنْتُ ذَا مَالٍ دَعَانِى السِّدْرِى(٢)

وقال أبو فِرعَوْن(٣) :

أيْرُ حِمَارٍ فى حِرِامِّ عَدْنَانْ وأيْرُ بَغْلٍ فى حِرِامِّ قَحْطَانْ

---

(١) هو أحمد بن محمد بن شراعة ، من شعراء البصرة فى عهد الدولة العباسية . قال أبو الفرج : « جيد الشعر جزله ، ليس برقيق الطبع ولا سهل اللفظ ، وهو كالبدوى فى مذهبه » . ثم ذكر أنه كانت به لوثة وهوج . الأغانى ٢٠ : ٣٥ - ٤٢ وطبقات ابن المعتز ٣٧٥ - ٣٧٦ .

(٢) فى الأغانى : « لو كنت ذا وفر » . والسدرى هذا ، هو أبو نبقة محمد ابن هاشم (فى الأصل : هشام) بن أبى خميصة ، كان يصحب الجماز والجاحظ وأدباء البصرة . وكان مولى لبنى عوال فاشترى المتوكل ولاءه بثلاثين ألف درهم . معجم المرزبانى ٤٣١ . وكان راوية للسيد الحميرى. طبقات ابن المعتز ٣٣ ، ٣٦ . وذكره الجاحظ فى الحيوان ١ : ٢٤٣ و ٣ : ١١١ و ٥ : ٣٩٨ و ٦ : ١٠٩ وروى عنه ، كما ذكره فى البخلاء ٨٨ ، ٨٩ . وانظر ذيل نوادر القالى ص ١٣٠ ومجالس ثعلب ٨٦ ، ١٣٨ ، ٢١٧ ، ٥٠٩ .

(٣) هو شويس الساسى التميمى العدوى ، من عدى الرباب . أعرابى بدوى قدم البصرة يسأل الناس بها . الورقة لابن الجراح ٥٣ . وذكره البيهقى فى المحاسن والمساوى باسم أبى فرعون الأعرابى الساسى . وفى الفهرست لابن النديم ٢٣٣ : « أبو فرعون الشاسى ثلاثون ورقة » . وفى الإمتاع والمؤانسة ٢ : ٥٣ و ٣ : ٣٤ : « أبو فرعون الشاشى » . وانظر طبقات ابن المعتز ٣٧٦ والحيوان ٦ : ٧٨ و ٧ : ٢٦٢ . وفى تاج العروس (سوس) : « وأبو فرعون الساسى : شاعر قديم قيده ابن الخشاب بخطه » .

ما النَّـــــاسُ إلَّا نَبَطٌ وخُوزَان(١)

كَكَهْمَسٍ أوْ عُمَرَ بْنِ مِهْـرَانْ(٢)

ضاقَ جِرابِي عَنْ رَغِيفِ سَـلْمانْ

وأنشد :

وعُظْمُ أيرِ البَغلِ فى رَهْــزِ فَرَسْ(٣)

وطُولُ دَحسِ جَمَـــــلٍ إذا دَحَسْ(٤)

والمذكور بطول الـكَوْم : الخنزير ، والوَرَل ، والذُّباب ، والجمل .

---

(١) خوزان : جمع الخوز ، على طريقه الجمع فى اللغة الفارسيه ، والخوز : أهل خوزستان .

(٢) كهمس ، ذكر فى طبقات ابن المعتز ٣٧٦ بلفظ أبى كهمس ، وذكر أن أبا فرعون سأله فأعطاه رغيفاً من الخبز الحوارى كبيراً ، فصار إلى حلقة بنى عدى فوقف عليهم وهم مجتمعون، فأخرج الرغيف من جرابه وألقاه فى وسط المجلس وقال: يابنى عدى ، استفحلوا هذا الرغيف ـ أى اتخذوه فحلا ـ فإنه أنبل نتاج على وجه الأرض ! وعمر بن مهران ذكره الجاحظ فى البيان ٣ : ٢٨٠ وابن قتيبة فى عيون الأخبار ٢ : ٢٠٨. وذكر الجهشيارى ٢٢١ أنه كان كاتباً للخيزران . وجعل فى ط : « عمرو بن مهران » . خلافاً لما فى الأصل .

(٣) فى الحيوان ٧ : ٢٥٠ :

* فى عظم أير الفيل فى رهز الفرس *

وانظر لذلك الحيوان ٧ : ١١٨ .

(٤) فى الحيوان : « وطول عيس » . والعيس ، بالفتح : ضراب الإبل . والدحس : كناية عنه ، من قولهم دحس الثوب فى الوعاء دحساً : أدخله . والـكوم ، بالفتح : السفاد .

وأنشد :

وَمَا الخَنْزِيرُ والوَرَلُ المُذَكّى ولاَ كَوْمُ الذُّبَابِ كَكَوْمِ بِشْرِ [١]

والعصفور وإن كان كثير عَدَدِ السِّفاد ، فإن الإنسان أكثر منه إذا

٢١ ظ حُصِّلتِ الأمور ؛ لأنَّ الإنسان إذا كان يَهِيج الليلَ والنهار ، والصَّيفَ والشتاء ، فليس ذلك لشيءٍ غيره [٢] ؛ ويطأ الحبالَى ، ويريدها وتريده [٣] .

وقيل لشيخٍ أعرابيٍّ [٤] : امرأتك حُبلى ؟ فقال : « لا والذى فى السماء بيته [٥] ، ما لها ذَنَب تشتال به [٦] ، لا أتيتها إلّا وهى ضَبِعة [٧] .

ومن النوادِر فى غير هذا ، قال مَسعَدة : قيل لأبى القاسم بن بحرٍ السَّقّاء [٨] : ويْحَك ! متى دخلتَ بامرأتك ، ومتى حبلت ؟ وإنما كان هذا أمس ! قال : « كان الإناء ضارياً [٩] » .

---

(١) المذكى : المسن . ومنه قولهم : « جري المذكيات غلاب » .

(٢) انظر الحيوان ٥ : ٢١٨ و ٧ : ١٦ .

(٣) أى بخلاف سائر الحيوان ، فإن الأنثى إذا حملت لم تقبل الذكر .

(٤) فى البيان ٢ : ٨١ : « وقال أبو سليمان الققعسى لرجل من طيءٍ : أبامرأتك حمل » .

(٥) فى البيان : « لا وذو بيته فى السماء » ، أى الذى .

(٦) تشتال به ، أراد ترفعه . يقال شالت الناقة بذنبها واشتالته واستشالته : رفعته ليعلم أنها لاقح .

(٧) الضبعة : الشديدة الشهوة . وفى البيان : « وما آتيها إلا وهى ضبعة » .

(٨) ذكره فى البخلاء ١١٢، ١١٣ والبيان ٤ : ١٩ ، كما أورد له المبرد فى الكامل ٤١٩ والحصرى فى جمع الجواهر ١٦٠ القصة التى وردت فى البخلاء ، مع اختلاف فى الألفاظ .

(٩) الضاري : الذى ضرّى بالخمر وعودبها ، فإذا جعل فيه العصير صار مسكراً . وهو كناية .

وقيل لحفص مولى البكرات[1] : بامرأتك حمل ؟ قال : شيء ليس بشيء !
وقال [ابنُ] النُّوشَجَانى[2] : جئتُ من خُرَاسان ، فسِرْتُ فى بعض الصحارى فى غِبِّ مَطَر ، فكنت قد أرى فى الطين الذى قد قَبَّ[3] آثارَ أرجُل البهائم والسِّباع المِيلَ والمِيلين ، وكنت لا أزال أرى أثر دابّةٍ لها ستّ أرجُل ، فلما طال ذلك علىّ سألتُ الجمّال ـ أو المُكارِىَ ـ فقلت : ويلكَ ، تعرف دابة لها ستُّ أرجُل ؟ وأشرتُ بيدى إلى تلك الآثار . فقال : إنّ الخنزير طويل المكث فى سِفاده ، وربّما مكث على الخنزيرة طويلاً وهى ترتع ، ويداه على كتفيها ، ورجلاه خَلْفَ رجليها ، فلا يكاد أن يقضىَ وطره إلّا بعد أن يقطع من الأرض شيئاً كثيراً ، فمن هناك ترى ستَّ قوائم .

وقال الفرزدق فى هجائه عُمر بن يزيد الأُسَيِّدى[4] ، وكان طلب منه وقْرَ بغلٍ رَطْبَةً[5] ، فلم يفعل ، فقال[6] :

---

(١) كذا . ولعلها « مولى البكراوى » . والخبر فى البيان ٤ : ١٨ . وسنده: « مسعدة بن المبارك قال : قلت للبكراوى » .

(٢) التكملة قبله من الحيوان ٧ : ٢٤٩ حيث ورد الخبر مع خلاف فى اللفظ . والنوشجانى : نسبة إلى نوشجان ، بضم النون وفتح الشين . مدينة بفارس .

(٣) قب : يبس وجف . يقال قبت الرطبة وقب النبت ، أى يبس .

(٤) فى الأصل : « الأسدى » تحريف . وهو عمر بن يزيد بن عمير الأسيدى ، نسبة إلى أسيد بن عمرو بن تميم . وانظر جمهرة الأنساب ٢١٠ والكامل فى حوادث سنة ١٠٩ . وعمر قائد من قواد الأمويين . وذكر أبو الفرج فى الأغانى ١٩ : ٤٢ أنه أدخل الحبس فأصبح ميتاً ، فسمعوا أنه مص خاتمه وكان فيه سم فمات . وذكر ابن الأثير فى الكامل أن الذى قتله مالك بن المنذر بن الجارود . والخبران لا تناقض بينهما؛ فإن مالكا كان قد أمر به فلويت عنقه قبل أن يدخله السجن .

(٥) الرطبة ، بالفتح : الفصفصة ، وهى نبات كالبرسيم .

(٦) ديوان الفرزدق ٨٧٣ . وفيه : « فسأله أن يبعث إليه بشيء لم يرضه ، فقال » .

يا عُمَرَ بْنَ يَزِيدٍ إنِّى رَجُلٌ أَكْوِى مِنَ المَسِّ أَقْفَاء المَجَانِينِ
يا لَيْتَ رَطْبَتَكَ المُهتَزَّ نَاضِرُها كَانَتْ أَبُورَ بِغَالٍ فِي البَسَاتِينِ[1]
حَتّى تَحَبَّلَ مِنْهَا كُلُّ كَوْسَلَةٍ قَنْفَاء خَارِجَةٍ مِنْ أَوْسَطِ الطِّينِ[2]

وقال آخر :

عَرَادَ ، إنْ كُنْتِ تُحِبِّينَ الغَزَلْ والنَّيْكَ حتّى تَأْجَمِيهِ والقُبَلْ[3]
فَإِنَّ عَمْرًا قد أَتَاكِ أو أَظَلّْ يَحْمِلُ أَيْرًا مِثْلَ جُرْدَانِ الجَمَلْ
لَوْ دُسَّ فِي مَتْنِ صَفَاةٍ لَدَخَلْ

٢١٨ و

قال : نرى أنه إنما أراد الصلابة .

وقالوا : أير الثّور أطول وأصلب .

قال صاحب البغل : ليس بأطول ، ولو كان أطوَل كانت البقرةُ لا تَقِف للثور ، وإنما يكُومها وهي تعدو ، وهو لا يُدخل قَضيبه فى حَياء البقرة . والبغلة تقف للبغل ، وتطلب ذلك منه ، لسَوَسٍ شديد[4] ، وإرادة تامّة .

---

(١) فى الديوان : « أمست » موضع : « كانت » .

(٢) فى الأصل : « حتى تحبلك » ، وأثبت ما فى الديوان . وتحبل ، أى تتحبل ، بحذف إحدى التاءين . تحبل الصيد : صاده بالحبالة . والكوسلة : الفيشلة ، وفى الديوان : « كل فيشلة » . والقنفاء : الغليظة .

(٣) أجم الشىء يأجمه ، وأجِه يأجَمه : مله من الدوامة عليه .

(٤) السوس ، بالتحريك : مصدر سوست الدابة : أصابها السوس ، وهو داء يحدث فى عجزها . وانظر ما سيأتى عند قوله : « وتقول العرب » . . . الخ .

وقال صاحب الثور : إنَّ أصل غُرمول البغل لا ينطبق على ظَبْيَة البغلة[١] كانطباق أير الرجُل على فرج المرأة حتَّى لا يبقى منه قليل ولا كثير ، ويفضُل من أير البغل نحوٌ من نصفه[٢] ، وذلك أنَّ مقاديم أيور الحافر فيها الاسترخاء ، وأصولها لا تصير إلى أجواف الإناث ، وإنما يصل من الصُّلب المتوتِّر مقدارُ نصفه فقط . والثور أوَّلُ قضيبه وآخره عصب مُدْمَج ، وعَقَب مُصْمَت ، وأنت تُقِرّ أنها لو وقفت لخرقها . والبقرة في وقت نَزْو الثَّور عليها كأنَّها تستكرهه .

قال صاحب البغل : أليس قد أقررتَ أنه وإنْ كان في غاية الصَّلابة ، أنه إنما يُدخل فيها بعضَ قضيبه ، وهذا المفخر إنما هو للإنسان . قال : رأيتُ ثورًا نزا على بقرة ، فأخطأ قضيبُه المسلكَ ، فمرت البقرة من بين يديه ، ومرَّ قضيبُه على ظهرها ؛ فما كان بين طرَفه وبين سَناسِنِها إلَّا القليل[٣] . وفى رأسه عُجْرَة ، ودون ذلك تخَصُّرٌ قد دقَّ جدًّا .

قال بعض الشعراء ، وهجا معلِّمَ كُتَّاب :

كَأَنَّهُ أَيْرُ بَغْـلٍ فِي تَهَـكُّمِهِ ... وفى الصَّرَامَةِ سَيْفٌ صَارِمٌ ذَكَرُ[٤]

---

(١) فى الأصل : « طحية البغلة » تحريف . والظبية من الفرس : مشقها ، وهو مسلك الجردان فيها . الأصمعى : يقال لكل ذات خف أو ظلف : الحياء ؛ ولكل ذات حافر : الظبية .

(٢) الكلمة غير واضحة فى الأصل .

(٣) السناسن : حروف فقار الظهر . وفى الأصل : « سنامها » . والسنام إنما يكون للبعير والناقة .

(٤) التهكم : التكبر .

قالوا : وشكت امرأة مُؤرِّج الأزدِي[١] عِظَم أيرِ زوجها إلى الوالى ، واسمها خَوْصاء ، [فقالت] :

إنّى أعوذُ بالأميرِ العَدْلِ مِنْ مُنْتِنِ الرِّيحِ خَبيثٍ وَغْلِ
يَحْمِلُ أيْرًا مِثْلَ أيرِ البَغْلِ

٢١٨ ظ ويقال لأيرِ الإنسان : ذَكَر ، وأيْر .

وجُرْدان الحمار والبغل و [غُرْمولها[٢]] ، والجميع : جَرادين وغراميل .

ويقال : نَضِيّ الفرس ، ومِقْلَم البعير . ووِعاء مِقْلمه يقال له : الثِّيل[٣] .

ووعاء الجُرْدان وجميع الحافر يقال له : القُنْب .

ويقال : قَضِيبِ التيس ، وقضيب الثور ، وعُقْدة الكلب .

وتقول العرب : صَرَفَت البقرة ، فهى صارف ؛ وسَوِسَتِ البغلة .

ويقال : هى امرأة هَدْمَى[٤] ، وغَلِمة . وقال أكثر العلماء : مايقال مُغْتَلِمة .
وشاة حَرْمَى ، وناقة ضَبِعَة ، وفرس وَدِيق ، وكلبة مُجْعِل .

ويقال : حِرُ المرأة ، والفَرْج ، وظَبْية الفَرَس[٥] ، وكذلك من الحافر .

---

(١) هو أبو فيد مؤرج بن عمرو السدوسى البصرى ، كان من أعيان أصحاب الخليل وأبى زيد ، يقال إن الأصمعى كان يحفظ ثلث اللغة ، والخليل ثلثها ، ومؤرج الثلثين ، وكان أبو مالك يحفظ اللغة كلها . توفى سنة ١٩٥ . نزهة الألباء وإرشاد الأريب ، وبغية الوعاة .

(٢) تكملة يقتضيها السياق .

(٣) بكسر الثاء وفتحها .

(٤) كذا فى الأصل ، والمعروف «هدمة» ، وأصله فى الناقة إذا اشتدت ضبعتها .

(٥) انظر ماسبق فى ص ٣١٩ س ١ .

وحَيَاء الشَّاة ، وكذلك من الخفّ كلّه . وثَفْرُ الكلبة ، وكذلك من السّباع كلّها . وتستعير الشعراء بعض هذه من بعض ، إذا احتاجت إلى إقامة الوزن .

فإذا حملت الشاة فهى : حامل ، والبقرة كذلك . والفرسُ عَقوق ، وكذلك الرَّمَكة . والأتان جامعٌ ، وبغلةٌ جامع . وكلبة مُجِحّ[1] ، وكذلك السّباع .

ويقال : إن أكبر الأيور أيرُ الفيل ، وأصغرها أيرُ الظبى[2] ، وليس فى الأرض حجم أيرٍ ظاهرٌ فى كلّ حال ، إلّا أيرُ الإنسان والقِرْد والكلب . وأمّا البَطّ[3] فقضيبه يظهر عند القمط . وأطول أيور الناس ما كان ثلاثةَ عشر إصبعا .

ورَوَوْا عن ابنٍ لجعفرِ بن يحيَى كان صَيْرَفيّا ، وقد كان ولّاه المأمون طساسيج عِدّة[4] ، أنه خرج من الدنيا وما كلّم امرأةً قطّ .

وخبّروا عن أبى زيد الكتّاف ـ وتأويل الكتّاف أنه كان ينظر فى الأكتاف[5] ، وهو إفريقىّ ـ وكان هَرْثَمة[6] قدم به على الرشيد ، يُعَجّبه

---

(١) بتقديم الجيم على الحاء .

(٢) انظر الحيوان ٧ : ١١٨ .

(٣) فى الأصل : « والبطة » بالتأنيث وإسقاط « أما » قبله . وانظر الحيوان ٧ : ١١٨ .

(٤) الطسوج : الناحية .

(٥) جمع كتف ، وذلك للفراسة . وفى الحيوان ٥ : ٣٠٣ عند الكلام على الفراسة : « كما ينظر بعضهم فى الخيلان وفى الأكتاف وفى أسرار الكف » .

(٦) هرثمة بن أعين : قائد عباسى ، ولاه الرشيد مصر سنة ١٧٨ ثم إفريقية ، ثم عقد له على خراسان ، ثم قاد الجيوش للمأمون فى أيام الفتنة بينه وبين الأمين ، ثم غدر به المأمون فحبسه حتى مات سنة ٢٠٠ . النجوم الزاهرة والطبرى فى حوادث ١٧٨ ، ٢٠٠ .

من كِبَر خَلقه وعِظَم بدنه ؛ فرأيتُ ناسًا[1] زعموا أنه قال : غَبَرت طولَ عمرى لا أقدر على امرأةٍ تحتمِل ما عندى ، حتَّى دُلِلْتُ على امرأة ؛ فلما دخلت بها أدخلتُ من أيرى قدرَ نِصْفه ، وقلتُ فى نفسى : هى وإن احتملت نصف الطُّول فإنها لا تحتمل الغِلَظ ! فلمَّا لم أرَها توجَّعَت منه زِدتُها ، ثم زدتها حتى أدخلتُه ، ثم قلتُ لها : قد دخل كلّه ، فتأذنين فى إدخاله وإخراجه ؟ قالت : وقد دخل منه شىء بعد ؟ !

وقال أبو السَّرِىّ بكر بن الأشقر[2] : بلغنى أنَّها قالت له : سقطتْ بَعوضةٌ على نخلة ، وقالت للنخلة : استَمسكى فإنى أريد أن أطير ! فقالت النخلة : والله ماشَعَرتُ بوقوعكِ ، فكيف أشعر بطيرانك ؟ ! ٢١٩ و

[مما جاء فى ذم البغال]

قال : وذمّ رجل البغلَ ، فقال : لا لَحْم ولا لبَن ، ولا أدَب ولا لَقَن ، ولا فَوْتَ ولا طلَب ؛ إن كان فحلًا قتل صاحبه ، وإن كانت أنثى لم تنسِل .

وكُلُّ مُرَكَّب من جميع الأجناس له نجْلٌ غيرَه ، كالبُخْت بين العِراب والفوالج ، وكالراعِبىّ من بين الحمام والوَرَشان ، وكالإبل منها الصَّرْصَرانِىّ[3] والبَهْوَنِىّ[4] ، وهما اللذان أبوهما عربىّ وأمُّهما بُخْتِيَّة ، وهو من أقوى الإبل

---

(١) فى الأصل : « زمانا » .

(٢) فى البيان ٢ : ١٧٧ من يدعى « بكر بن الأشعر » ، وذكر أنه كان سجاناً .

(٣) جاء فى الحيوان ١ : ١٣٨ : « متى ضربت فحول العراب فى إناث البخت جاءت هذه الإبل البهونية والصرصرانية » .

(٤) فى الأصل : « البهودى » ، صوابه من الحيوان . وانظر اللسان والقاموس (بهن) والمخصص ٧ : ١٣٥ .

على الحمل ، وأشدُّها سيرًا ، على قُبح خلقته ، وسَماجة فى مَقاديمه[١] ، وكالشِّهرىّ والهَجين[٢] .

وإذا صرتَ إلى البغال ، صِرتَ إلى سَوِيّين فى الأُنثى لا يُفادَى وليدُه[٣] ، وإلى غُلمة فى الذَّكَر لا توصف ، ثم هى مع هذا لا تتلاقح .

وزعم أهل التجربة أنّ الكَوْم الذى يخلق اللهُ تعالى منه الولدَ من بين الرجل والمرأة ، أنّ سببَ[٤] التلاقُح [ما] يَحضُرُهما [من] إفراط الشَّهْوَة ، فى ذلك الكَوْم ، فإذا أفرطَت الشَّهوةُ دنَتِ الرحم[٥] وانفتح المَهْبِل ، وهو فَمُ الرَّحم ، فتصير تلك النُّطفة أكثر وأحدّ ، فيصير زَرْقُ الإحليل ومَجُّه لها أبعدَ غاية .

وقال أهل التجربة : قلّ ما تلقح منهن امرأة إلّا ارجَّة[٦] .

والبغلة والبغل يعتريهما من الشَّبَق ما لا يعترى إناث السنانير ، ثم هى مع ذلك لا تتلاقح ، فإن لَقِحت فى النُّدرة أخْدَجَت[٧] .

---

(١) فى اللسان : « وقادم الإنسان : رأسه ، والجمع القوادم ، وهى المقادم ، وأكثر ما يتكلم به جمعاً ، وقيل لا يكاد يتكلم بالواحد منه » . وجعلت فى ط : « مقاديره » خطأ .

(٢) فى اللسان : «والشهرية : ضرب من البراذين ، وهو بين البرذون والمقرف من الخيل » . والهجين : الذى أبوه عربى وأمه غير عربية .

(٣) هذا مثل للكثرة . وانظر حواشى الحيوان ٢ : ٧١ .

(٤) لم يظهر من الكلمة فى الأصل إلا فتحتان وبقية الباء .

(٥) لم يبد من هذه الكلمة فى الأصل إلا طرف الميم .

(٦) فى الأصل : « لرحه » .

(٧) أخدجت : جاءت بولدها ناقص الخلق وقد تم وقت حملها .

وقال الشاعر فى سَوَسِ البغلة[١] :

وقَدْ سَوِسَتْ حَتَّى تقَاصَرَ دُونَهَا هِيَاجُ سَنَانِيرِ القُرَى فِي الصَّنَابِرِ[٢]

وذلك من عيوبها .

قالوا : ولم تأخذ صَهيلَ الأخوال ، ولا نَهيق الأعمام ، وخرجت مقاديرُ غراميلها عن غراميل أعمامها وأخوالها . فإن زعمتم أنّ أعمارها أطول ، فعيوبها أكثر ، وأيام الانتفاع بها أقلّ ، وباعَتُها أفجر ، والخصومة معهم أفحش ، وخسرانُها يُوفى على أضعاف ربحها ، وشرُّها غامرٌ لخيرها .

ومما تخالف أخلاقَ سائر المركوبات : أنك إذا سِرتَ على الإبل والخيل والحمير والبقر ، فى الأسفار الطِّوال ، فى سواد ليلِك ، إلى انتصاف نهارك ، ثم صارت إلى المنزل عند الإعياء والكلال ، طلب جميعُ المركوبات المراعىَ والأَوَارِيَّ[٣] ، وأخرجت البغالُ بعقب ذلك التعبِ الطويل ، أيورًا كجِعاب القِسِيّ ، تضرب بها بطونَها وصدورَها ، حتّى كأنها تتعالج به من أَلَم السَّفَر . وكُلُّ دابة سِواها إذا بلغت لم يكن لها هِمّة إلّا المَراغة[٤] والرُّبوض ، والأكل والشُّرب .

٢١٩ ظ

---

(١) سبق تفسير السوس فى ص ٣١٨ .

(٢) الصنابر : جمع صنبر ، كهزبر ، ويقال أيضاً بتشديد النون مفتوحة أو مكسورة مع كسر الصاد ، وهى الريح الباردة .

(٣) الأوارى : جمع آرى بتشديد الياء ، وهو معلف الدابة ومحبسها .

(٤) المراغة : اسم من مرغه فى التراب : جعله يتقلب فيه . ونظير هذا النص فى الحيوان ٣ : ١٦٠ .

وهى مع ذلك من أغلم الدوابّ ، وأبعدها من العِتق[١] ، ولم نجد عِظَم الأيور فى جميع الحيوان فى أشراف الحيوان إلّا فى الفَرْط ، وذلك عامّ فى الزنوج والُحبْشان ، وتجده فى الحمير والبغال .

قالوا : وأير الفيل كبير ، ولم يخرج من مقدار بدَنه .

ولَعمرى إنّ الرجال ليتمنّوْن عِظَم الأيور كما تتمنّى النساء ضِيقَ الأحراح .

قال محمد بن مُنَاذِر ، وأبو سعيد راوية بشّار ، قالا :

ضَحِكَ بشّارٌ الأعمى يوماً ونحن عنده ، بعد أنْ أطال السكوت ، فقلنا : ما الذى أضحكك يا أبا مُعاذ ؟ قال : أضحكنى أنّه ليس على ظَهْرها رجلٌ إلّا وبودِّه أن أيره أكبر ممّا هو عليه ، ولا على ظهرها امرأة إلّا وبودّها أن حِرَها أضيَق ممّا هو عليه . فلو أعطى الله الرجال سُولَهم[٢] فى العِظَم ، وأعطى النساء سُولهنّ[٣] فى الضِّيق ، لَوقع العجْز ، وبطل التناكُح ، وبطل ببطلان التناكُح التلاقُح . وهذا لُطفٌ من ربّك .

قالا : وقال لنا يوماً ونحن جماعة : أتدرون أىُّ الرجال يتمنّوْن ضِيق الأحراح ، وأيّهم يتمنّى سَعتها ؟ قلنا : لا . قال : إنّما يتمنّى السَّعة كلّ ردىّ النَّعْظ ، مُسترخى عَصَب الأير ، وإنّما يتمنّى الضِّيق كلّ متوتّر العَصَب ، شديد النَّعْظ .

---

(١) ط : « العيف » ، خلافاً لما هو واضح فى الأصل .

(٢) السول والسؤل : الأمنية التى سألتها ، وهو بضم السين ، وبالهمز وغير الهمز ، وبهما قرئ قوله تعالى : «قال قد أوتيت سؤلك ياموسى » .

(٣) فى الأصل : « سولهم » .

قال : وذمّ آخرُ البغل ، فقال : عظيم الغُرمول ، كبير الرأس ، عقيم الصُّلب ، قبيح الصوت ، بطيء الحُضْر ، مِهْياف إلى الماء[١] ، متلوِّن الأخلاق ، كثير العِلَل ، فاجِر البائع ، قتّال لراكبه ، شديدُ العداوة لرائضه ، حَرونٌ عند الحاجة . والحِران إليه أسرَع ، ودواؤه أعسر . إن كان أغرَّ[٢] كان سَمِجاً ، وإن كان مُحجَّلا كان مَشُوماً[٣] . ولم يتواضع الملوك والأشراف بركوبه إلَّا لإفراط نذالته ، ولا ركبه الرُّؤساء فى الحرب إلَّا لظهور عجزه . وفى الأنبياء راكبُ البعيرِ ، وراكب الحمارِ . وكلٌّ ذى عزمٍ منهم فركّاب خيل ومُرتبِط عتاق[٤] ، وليس فيهم راكب بغل ، وإنما كانت بغلة النبى صلى الله عليه وسلم ، هديَّةً من المُقَوْقِس[٥] ، قَبِلَها على التألُّف ، وعلى مثال ما كان يُعطِى المؤلَّفة قلوبُهم . ولم يجعلْها اللهُ شِرًى[٦] ، ولا تِلادًا ولا هدِيّةَ سِلْم .

٢٢٠ و

باب

[فى مدح البغال وذمها]

يُروى عن ابن عبّاس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه نهى أن يُنزَى

---

(١) المهياف والهيوف : الذى لا يصبر على العطش .

(٢) فى الأصل : « أغم » ، ولا وجه له هنا . والأغر : ذو الغرة ، وهى بياض فى الجبهة .

(٣) التحجيل : بياض يكون فى القوائم .

(٤) ط : « بعتاق » ، خلافاً لما فى الأصل . وارتبط الخيل : ربطها وأعدها .

(٥) كانت تلك البغلة شهباء يقال لها « دلدل » . وفى عيون الأثر ٢ : ٣٢٢ أسماء خمس بغلات أخر غيرها ، فارجع إليه . وانظر ماسبق فى ٢٢٠ ، ٢٢٢ .

(٦) ط : « ولم يخطئ الله شراء » ، خلافاً لما فى الأصل . والشرى ، بالقصر كالشراء بالمد .

حمارٌ على فَرَس ، ونهانا أن نأكل الصَّدَقة ، وأمرنا أن نُسْبِغ الوضوء .

وعن عليّ كرّم الله وجهه قال : نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أن يُنزَى الحمارُ على فرس .

وقال الآخر فى عيب البغلة : شديدةُ السَّوَس[1] ، وذلك مما ينقُص قُواها ، ويُوهِن أمرها ، وهى فى ذلك أهيَجُ من هِرّة وإن كانت لا تصيح صِياحَها[2] ، ولا تَضْغو ضُغاءها ، وإنما ذلك لأنّ الحافر فى هذا الخُلق خِلاف البُرْثُن . ألا ترى أنّ الكلب والسِّنَّوْر إذا ضُربا صاحا ، وكذلك الأسد والنَّمِر والبَبْر والثعلب والفَهْد وابن آوى وعَناق الأرض . ولو أخَذْتَ الحافر فقمطته ، فرساً كان أو برذوناً أو بغلاً أو حماراً ، ثم ضربته أنت بعصاً لم يصِحْ ، وإن كان يجدُ فوق ما يجد غيرُه من الألَم .

والبغلة مع ذلك تَلقَح ولا تَنسِل ، فصار حَمْلها بلاء على صاحبها ، لأنَّها إن وضعته لم يعِشْ . وكلّ حامل من جميع الإناث ، من شاة أو بقرة أو ناقة أو أتان أو رَمَكة أو حِجْر ، فإنّ حَمْلها يكون زائداً فى ثمنها ، ولا تُرَدُّ تلك الحوامل بعيب الحمل ؛ إلَّا المرأة والبغلة . فأمَّا المرأة فلِشِدَّة الوِلادة عليها ، ولأنّ حَدَثَ الموتِ من أجْل مَشَقَّة الوِلادة عليها من بين جميع الحيوان أسرَع . وأمَّا البغلة فلأنَّها إذا أقربَت[3] عجزت عن حَمْلها ، وإذا وضعت لم يُنتفع بولدها .

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٣١٨ ، ٣٢٤ .

(٢) فى الأصل : « لا تضبح ضباحها » .

(٣) أقربت الحامل فهى مقرب : دنا ولادها . يقال أقربت الشاة والأتان ، ولا يقال للناقة فى ذلك إلا أدنت فهى مدنٍ .

والبغلة إذا كامها البِرْذَوْن لم يصبِر عنها ، واشتدّ حِرْصُه عليها . فسألت أبا يزيد الإقليدِسِيّ(١) عن ذلك ، فقال : لأنها أطيب خَلْوة ! فلقَّبناه : « خَلْوة البغلة » !

[أكل لحوم الخيل]

وأكل القديد فى الضرورة ردئٌ للحافر كله ، وهو للبغلة أردأ .

وأهل البحرين يَعلفون دوابَّهم الحشيش ، وقد استمرّت على ذلك .

وقال القعقاع بن خُلَيْد العَبْسِي(٢) :

أَكَلْنَا لُحُومَ الخَيْـــلِ رَطْبًا ويَابِسًا
وأَكْبَادُنَا مِنْ أَكْلِنَا الخَيْلَ تَقْرَحُ(٣)

ونَجلِســـــنا حَوْلَ الطُّوَانَةِ جُوَّعًا
ولَيْسَ لَنَا حَوْلَ الطُّوَانَةِ مَسرحُ(٤)

---

(١) ذكر السمعانى فى الأنساب ٤٧ هذه النسبة وقال : لعلها نسبة إلى معرفة كتاب إقليدس أو نسخه . وضبطها بكسر الهمزة وسكون القاف وكسر اللام بعدها الساكنة آخر الحروف وكسر الدال المهملة .

(٢) القعقاع بن خليد بن جزء بن حارث بن زهير العبسى . وكان مع مسلمة ابن عبد الملك بالقسطنطينية ، فكتب إلى الوليد بن عبد الملك هذا الشعر يشكو فيه ما نالهم من الجهد . معجم المرزبانى ٣٢٩ . وقد ورد نسبه كما سبق فى جمهرة ابن حزم ٢٥١ . وجاء اسمه فى الأغانى ١٣ : ١٥٠ ومعجم البلدان (طوانة) حيث روى ياقوت الشعر التالى : « القعقاع بن خالد » .

(٣) أنشد هذا البيت وحده فى معجم المرزبانى . وقبله فى معجم البلدان :

فأبلغ أمـــير المؤمنين رسالة سوى ما يقول اللوذعى الصمحمح

(٤) الطوانة : بلد بثغور المصيصة . وفى معجم البلدان :

وليس تُوافق لحومُ الخيل أُمّةً من الأمم كما توافق الأتراكَ ، وكذلك اللّحم صِرْفًا .

وذكر النَّمِر بن تَوْلَب سوء موافقة أكل اللّحم للخيل ، فقال[1] :

لِلّهِ مِنْ آيَاتِهِ هٰذَا القَمَرْ والشَّمْسُ واللَّيْلُ وآيَاتٌ أُخَرْ[2]
إنَّا أَتَيْنَاكَ عَلَى بُعْدِ السَّفَرْ نَقُودُ خَيْلًا ضُمَّرًا فِيهَا ضرر[3]
نُطْعِمُهَا اللَّحْمَ إذا عَزَّ الشَّجَرْ[4] والخَيْلُ فى إطْعَامِهَا اللَّحْمَ عَسَرْ[5]

= ونحسبها حــول الطوانة طلعاً وليس لها حول الطوانة مسرح
وبعــده :
فليت الفزارى الذى غش نفسه وغش إأمــير المؤمنين يبرح
يعنى عمر بن هبيرة الفزارى ، وكان القعقاع يصاوله تصاول الفحلين ، كما ذكر المرزبانى .

(١) قال هذا حين وفد على النبى صلى الله عليه وسلم . الإصابة ٨٨٠٣ والأغانى ١٩ : ١٥٩ والشعراء ٢٦٨ . وبعض الأشطار التالية فى الحيوان ٧ : ١٤٥ واللسان (لحم) . وقبلها فى الأغانى والإصابة :

* ياقوم إنى رجل عندى خبر *

(٢) الأغانى والإصابة : « والشمس والشعرى » .

(٣) فى الأغانى : « خيلا رجعا فيها ضرر » . وفى الإصابة : « خيلا وجعا فيها ضرر » . وفى الشعراء : « ضمرا فيها عسر » .

(٤) فى الأغانى عن ابن حبيب : « قال الأصمعى : أطعمها اللحم : أسقيها اللبن . والعرب تقول : اللبن أحد اللحمين » . وهو تفسير عجيب ، نقله المرزوقى فى شرح الحماسة ٧٢٦ . ونقله كذلك صاحب اللسان أيضاً فى (لحم) ثم قال : « وقال ابن الأعرابى : كانوا إذا أجدبوا وقلّ اللبن يبسوا اللحم وحملوه فى أسفارهم وأطعموه الخيل . وأنكر ما قال الأصمعى وقال : إذا لم يكن الشجر لم يكن اللبن » وفى الأغانى أيضاً عن ابن الأعرابى : « كانت العرب إذا لم تجد العلف دقت اللحم اليابس فأطعمته الخيل » .

(٥) فى الشعراء والحيوان واللسان : « ضرر » .

وقال الآخر :

وخَيْلُكَ بِالْبَحْرَيْنِ تَعْتَلِفُ النَّوى ... ولَلتَّمْرُ خَيْرٌ مِنْ حَشِيشٍ وَأَنْفَعُ

[معارف شتى فى ألوان الدواب]

وقال بعض من يمدح البغل : البِرذون إذا كان أسود قالوا : أدهم ، وكذلك الفرس . والحمار إذا كان أسود قالوا : أسود . وألحقوا البغل بالخيل ، فقالوا : بَغْلٌ أدهم .

وقال بعضهم : البغل يؤخِّر سَرجُه كما يؤخِّر سَرجِ الحمار ، وموضع اللَّبَب من الخيل يكون قُدَّامَ ، وإن رَكِب الغلام البغل عُرْياً ، ركب فيه على مركب الحمار ، وهو مؤخّره ، فإن ركب الخيل ركب المقاديم .

حدَّثنى بعض أهل العلم ، قال : قال شيخ من الملوك لعبد الله بن المُقَفَّع : إن ابنى فلاناً يتكلّم بكلامٍ لا نعرفه ، فأُحِبّ أن تجالسه ، فإن كانَ كلامُه هذا من غريب كلام العرب ، فهو على حالٍ لم تخرج من هذه اللغة ، وإن كان شيئاً يبتدعه عالجناه بالتقويم . فأتاه ابن المقفّع ، فسمعه يقول : يا غلامى أسرِجْ لى بِرْذَوْنى الأسود . فقال : قل ، أصلحكَ الله : البرذون الأدْهَم ، وإيّاك أن تقول : الأسود . قال : لا أقول إلاّ الأسود ؛ لِمَ ؟ لأنه ليس بأسود ؟ قال : بَلَى هو أسود ، ولكن لا يقال له أسود . قال : فمكث ساعةً ، ثم قال : ياغلام أسرِجْ لى حمارى الأدهم . قال : قلت : لا تقُل للحمار : أدهم ، إنما يقال له : أسود . قال : فقال لى : لِمَ يقال له أسود ؟ قلت : لأنه أسود . قال : قد نهيتَنى أن أقول : برذونٌ أسود ، وهو أسود . قال : قلت له : هكذا تقول العرب . قال :

إمّا أن تكون العرب أموَقَ الخَلق ، وإما أن تكونوا أنتم أكذبَ الخلق ! قال : فرجعتُ إلى أبيه فقلت له : إن كان عندك علاج فدارِكْه ، وما أظنّ ، والله ، إنّ ذلك عند الجاليِنوس[1] !

[بغلة أبي دلامة وما قال فيها من شعر]

قال أبو دُلامة[2] في بغلته . والمَثَل في البغال بغلة أبي دُلامة[3] . وفي الحمير حمار العِبادىّ[4] ، وفي الغنم شاة مَنيع[5] ، وفي الكلاب كلبةُ

---

(١) ترجمته في حواشي البيان ٣ : ٢٧ . وقد ورد هنا بلام التعريف .

(٢) أبو دلامة : زند بن الجون . ويقال « زيد » بالباء ، ويصحف إلى « زيد » بالياء ، من سودان الشعراء ومواليهم ، أدرك آخر أيام بني أمية ولم يكن له في أيامهم نباهة ، ثم نبغ في أيام بني العباس وانقطع إلى السفاح والمنصور والمهدي ، فكانوا يقدمونه ويستطيبون مجالسته ونوادره . ودلامة بضم الدال ، وكنى أبا دلامة باسم جبل بمكة يقال له أبو دلامة ، كانت قريش تئد فيه البنات في الجاهلية . توفي سنة ١٦١ . الشعراء ٧٥١ — ٧٥٣ وتاريخ بغداد ٨ : ٤٨٨ — ٤٩٣ والمؤتلف ١٣ والأغاني ٩ : ١١٥ — ١٣٥ ومعجم الأدباء ١١ : ١٦٥ — ١٦٨ ووفيات الأعيان .

(٣) يضرب بها المثل في كثرة العيوب . ثمار القلوب ٢٨٨ — ٢٩١ .

(٤) الوجه « حمارا العبادي » بالتثنية ، كما في ثمار القلوب ٢٩٢ والتمثيل والمحاضرة ٣٤٣ وأمثال الميداني ٢ : ٩٧ إذ يقال في المثل « كحماري العبادي » إذا كانا ساقطين . والعبادي : منسوب إلى العباد ، وهم أفناء من العرب نزلوا الحيرة وكانوا نصارى ، منهم عدي بن زيد العبادي ، قالوا : قيل له : أي حماريك شر ؟ قال : هذا ثم هذا ! قال .

رجسان مالهما في الناس من مثل ... إلا حمارا العبادي الذي وصفا

وقيل للرقاشي : أيما أنذل وأسفل ، الكناس أو الحجام ؟ فأنشد قول الشاعر :

حمارا العبادي الذي سيل فيهما ... وكانا على حال من الشر واحد

سيل ، أي سئل .

(٥) هو منيع البقال ، كما في الأغاني ١٢ : ١٢٨ . قال : جمعت شاة منيع البقال =

حَوْمل[1] : فقال أبو دُلامة يصف بغلته[2] :

أبعْدَ الخَيْلِ أركَبُها وِرَادًا وشُقْرًا فى الرَّعِيلِ إلى القِتَالِ[3]

رُزِقْتُ بُغَيْلَةً فِيهـا وِكَالٌ وخَيْرُ خِصَالِها فَرْطُ الوِكَالِ[4]

رأيتُ عُيُوبها كَثُرَتْ وعالَتْ ولو أفْنَيْتُ مُجْتَهِدًا مقالى[5]

تَقُومُ فما تَرِيمُ إذَا اسْتُحِثَّتْ وتَرمَحُ باليمِينِ وبالشِّمالِ[6]

= على دار محمد بن يسير الشاعر وهو غائب ، وكانت له قراطيس فيها أشعار وآداب مجموعة ، فأكلتها كلها ، وقال فى ذلك شعرا .

(١) قالوا فى أمثالهم : « أجوع من كلبة حومل » . الحيوان ١ : ٢٩١ وثمار القلوب ٣١٥ والتمثيل والمحاضرة ٣٥٥ والميدانى ١ : ١٦٩ — ١٧٠ . وحومل هذه امرأة من العرب ، كانت تجيع كلبة لها وهى تحرسها ، فكانت تربطها بالليل للحراسة وتطردها بالنهار ، وتقول : التمسى لا ملتمس لك . فلما طال ذلك عليها أكلت ذنبها من شدة الجوع . قال الكميت يذكر بنى أمية ، ويذكر أن . رعايتهم للأئمة كرعاية حومل لكلبتها :

كما رضيت جوعاً وسوء رعاية لكلبتها فى سالف الدهر حومل

(٢) أنشدها الثعالبى فى ثمار القلوب ٢٨٨ — ٢٩١ والشريشى فى شرح المقامات ٢ : ٢٧٣ .

(٣) الوراد : جمع ورد ، بالفتح . والوردة بالضم : حمرة تضرب إلى صفرة حسنة . وفى الثمار : « أركبها كراماً وبعد الغر من خضر البغال » .

(٤) الوكال بكسر الواو وفتحها : الفتور ، كأنها تتكل على صاحبها فى العدو ، تحتاج إلى الضرب . الثمار : « رزئت ببغلة » و « ليت ولم يكن غير الوكال » .

(٥) عالت ، بالعين المهملة : زادت كما تعول الفريضة أى تزيد . ط : « غالت » خلافاً لما فى الأصل . وفى الثمار : « رأيت عيوبها وعييت فيها » . وبعده فى الثمار :

لما وفيتها بالقـول حقاً وخير خصالها شر الخصال

فأهون عيبها أنى إذا ما نزلت فقلت أمشى لا تبالى

(٦) ما تريم : ما تبرح . وفى الثمار :

تقوم فما تسير هناك سيراً وترمحنى وتأخذ فى قتالى

وحين ركبتها آذيت نفسى بضرب باليمين وبالشمال

رِيَاضَةُ جَاهِلٍ وعُلَيجٍ سَوْءٍ مِنَ الأكرادِ أحْبَنَ ذِى سُعَالِ[(١)]

شَتِيمِ الوَجْهِ هِلْبَاجٍ هِدَانٍ نَئُوسٍ يَوْمَ حَلٍّ وارْتِحَالِ[(٢)]

فَأَدَّبَهَا بِأَخْلاقٍ سِمَاجٍ جَزَاهُ اللهُ شَرًّا عَنْ عِيَالِي

فلمَّا هَدَّنِي وَنَفَى رُقَادِي وطَالَ لِذَاكَ هَمِّى وَاشْتِغَالِي

أتَيْتُ بِهَا الكُنَاسَةَ مُسْتَبِيعًا أفكِّرُ دَائبًا كَيْفَ احْتِيَالِي[(٣)]

لِعُهْدَةِ سِلْعَةٍ رُدَّتْ قَدِيمًا أطُمُّ بها على الدَّاءِ العُضَالِ[(٤)]

فَبَيْنَا فِكْرَتِى فى القَوْمِ تَسْرِى إذا ما سِمْتُ أرْخِصُ أمْ أغَالِى[(٥)]

أتَانِى خَائِبٌ حَمِقٌ شَقِيٌّ قَدِيمٌ فى الخَسَارَةِ والضَّلالِ

وَرَاوَغَنِى لِيَخْلُوَ بِى خِدَاعًا ولاَ يَدْرِى الشَّقِيُّ بِمَنْ يُخَالِى[(٦)]

فَقُلْتُ: بِأرْبَعِينَ، فقال: أحْسِنْ فإنّ البيعَ مُرْتَخَصٌ وغَالِ

---

(١) عليج: مصغر علج، وهو الضخم القوى من كفار العجم. والأحبن: من عظم بطنه خلقة أو من داء. ط: «أجبن» خطأ ومخالف للأصل.

(٢) الشتيم: الكريه الوجه. والهلباج: الأحمق. والهدان: الأحمق الجافى الوخم. والحل، بالفتح: مصدر حل المكان وبالمكان: نزل به.

(٣) الكناسة، بالضم: محلة بالكوفة. والمستبيع: طالب البيع، يقال استباعه الشيء: سأله أن يبيعه منه. والبيع من الأضداد، يقال للبيع وللشراء. وفى الأصل: «مستغشياً»، صوابه من ثمار القلوب.

(٤) العهدة: العيب. والسلعة: شبيه بالغدة.

(٥) فى الأصل: «تسدى». وفى الثمار: «فى السوم تسرى». وسمت، بالبناء للمجهول، أى سامنى المشترى.

(٦) أصل المخالاة المصارعة، كأن كل واحد منهما يخلو بصاحبه، والمراد هنا المخادعة.

فَلَمَّا ابْتَاعَهَــا مِنِّى وبُتَّتْ لَهُ فى البيع غَيْرِ المُسْتَقَــالِ

أَخَذْتُ بِثَوْبِهِ وبَرِئْتُ مِمَّا أُعُدُّ عَلَيْكَ مِنْ شَنِعِ الخِصَالِ

بَرِئْتُ إِلَيكَ مِن مَشَشٍ قَدِيمٍ ومِنْ جَرَذٍ وتَخْرِيقِ الجِلالِ (١)

ومِنْ فَرْطِ الحِرَانِ ومِنْ جِمَاحٍ ومِنْ ضَعْفِ الأَسَافِلِ والأَعَالِى

ومِن عَقَدِ اللِّسَانِ ومِنْ بَيَاضٍ بِنَاظِرِها ومِنْ حَلِّ الحِبَـالِ (٢)

وعُقَّــالٍ يُلازِمُها شَـدِيدٍ ومِنْ هَدْمِ المَعالِفِ والرِّكَالِ (٣)

ومِنْ شَدِّ العِضَاضِ ومِنْ شِبَابٍ إِذَا مَاهَمَّ صَحْبُكَ بِالزِّيالِ (٤)

تَقَطَّعُ جِلْدَها جَرَبًا وحَكًّا إِذَا هُزِلَتْ وفى غَــيْرِ الهُزَالِ

وأَقْطَفُ من دَبِيبِ الذَّرِّ مَشْيًا وتَنْحِطُ من مُتَابَعَةِ السُّــعَالِ (٥)

---

(١) المشش : ورم يأخذ فى مقدم عظم الوظيف أو باطن الساق . والجرذ : تزيد وانتفاخ عصب يكون فى عرقوب الدابة . والجلال : جمع جل ، بالضم ، وهو ما تلبسه الدابة لتصان به . وفى الثمار : « ومن بلل المخالى » : جمع مخلاة .

(٢) العقد ، بالتحريك : الاعوجاج والالتواء . وفى الثمار :

ومن عض اللسان ومن خراط إذا ماهم صحبك بارتحال

(٣) العقال ، كرمان : انقباض فى بعض العضلات يمنع الحركة وقتاً . والركال : مصدر راكله ، والركل : الرفس .

(٤) شد ، بالدال كما فى الأصل ، ولا بأس بها وإن كان الأوفق « شر » والشباب ، بالكسر ، هو من الفرس : أن ينشط ويرفع يديه . والزيال : المفارقة . وقد ورد هذا البيت فى الأصل بعد تاليه . ووجه ترتيبه ما أثبت .

(٥) أقطف من القطف والقطاف ، وهو تقارب الخطو وبطؤه . والذر : صغار النمل . تنحط ، من النحيط ، وهو أن تزفر من الجهد .

وتكسِرُ سَرجَها أبدًا شِماسًا ... وتسقُطُ فى الوُحولِ وفى الرِّمالِ (١)

ويُهزِلُها الجِمامُ إذا خَصِبنا ... ويُدبِرُ ظهرَها مَسُّ الجِلالِ (٢)

تَظَلُّ لِرَكْبَةٍ منها وقِيذًا ... يُخافُ عليكَ مِنْ ورمِ الطِّحالِ (٣)

وتَضرِطُ أربعينَ إذا وقَفْنا ... على أهلِ المَجالسِ للسُّؤالِ

فتُخرِسُ مَنطِقى وتَحُولُ بَيْنى ... وبَيْنَ كَلامِهِمْ مِمَّا تُوالى

وقد أعيَتْ سياستُها المُكارِى ... وبيطارًا يُعقِّلُ بالشِّكالِ (٤)

٢٢٢

حَرُونٌ حينَ تَركَبُها لِحُضْرٍ ... جَمُوحٌ حِينَ تَعزِمُ للنِّزالِ

وذِئبٌ حينَ تُدنِيها لِسَرْجٍ ... ولَيْثٌ عِندَ خَشْخَشَةِ المَخالِى (٥)

وفَسْلٌ إنْ أردْتَ بِها بُكُوراً ... خَذُولٌ عِندَ حاجاتِ الرِّحالِ

وألْفُ عَصًا وسَوْطٍ أصبَحِيٍّ ... ألَذُّ لها مِنَ الشُّرْبِ الزُّلالِ (٦)

---

(١) الشماس : نفور الدابة . وفى ط : «وتلق» ، خلافاً لما هو واضح فى الأصل .

(٢) الجمام ، كسحاب : الراحة . وفى ط : « الحمام » خلافاً لما فى الأصل وفى الثمار : « الحمام إذا حصينا » . ويدبر ، من الإدبار ، وهو أن يصيبه بالدبر ، وهو القرحة .

(٣) الوقيذ : الشديد المريض الذى أشرف على الموت .

(٤) المكارى ، بضم الميم ، وهو الذى يكرى دابته ، أى يؤجرها .

(٥) المخالى : جمع مخلاة بكسر الميم ، وهى ما يوضع فيها الخلى ، الحشيش الذى يحتش .

(٧) السوط الأصبحى : منسوب إلى ذى أصبح ، وهو ملك من ملوك حمير تنسب إليه السياط .

وتُصْعَقُ مِنْ صُقَاعِ الدِّيكِ شَهْرًا ... وتُذْعَرُ لِلصَّفِيرِ ولِلْخَيَالِ[١]

إذَا اسْتَعْجَلْتَهَا عَثَرَتْ وبَالَتْ ... وقَامَتْ سَاعَةً عِنْدَ المَبَالِ

ومِثْفَارٌ تُقَدِّمُ كُلَّ سَرْجٍ ... تُصَيِّرُ دَفَّتَيْهِ عَلَى القَذَالِ[٢]

وتَخْفَى فى الْوُقُوفِ إذَا أَقَمْنَا ... كَمَا تَخْفَى الْبِغَالُ مِنَ الكَلالِ

ولَوْ جَمَّعْتَ مِنْ هَنَّا وهَنَّا ... مِنَ الْأَتْبَانِ أَمْثَالَ الْجِبَالِ[٣]

فَإِنَّكَ لَسْتَ عَالِفَهَا ثَلاثًا ... وعِنْدَكَ مِنْهُ عُودٌ لِلْخِلالِ

وكَانَتْ قَارِحًا أَيَّامَ كِسْرَى ... وتَذْكُرُ تُبَّعًا قبلَ الفِصَالِ[٤]

وقَدْ قَرِحَتْ ولُقْمَانٌ فَطِيمٌ

وذُو الْأَكْتَافِ فى الحِجَجِ الخَوَالِى[٥]

وقَدْ أَبْلَى بِهَا قَرْنٌ وقَرْنٌ ... وآخِرُ يَوْمِهَا لِهَلاكِ مَالِى[٦]

---

(١) صقع الديك صقعاً وصقاعاً : صاح ورفع صوته .

(٢) المثفار ، بالثاء المثلثة : التى ترمى بسرجها إلى مؤخرها . والثفر : السير الذى فى مؤخر السرج . وفى الأصل : « منفار » بالنون ، تصحيف . والدفتان : الجانبان . والقذال : مؤخر الرأس .

(٣) الأتبان : جمع تبن ، بالكسر ، وهو ماتهشم من سيقان القمح ونحوه بعد درسه ، تعلفه الماشية .

(٤) القارح : مااستتم الخامسة . والفصال : الفطام .

(٥) قرحت ، من باب فرح : استتمت الخامسة وسقطت سنها التى تلى الرباعية . وذو الأكتاف : لقب ملك من ملوك فارس ، وهو سابور الثانى .

(٦) فى الثمار :

فقد مرت بقرن بعد قرن ... وآخر عهدها بهلاك مالى

فَأَبْدِلْنِي بِهَا يَارَبِّ بَغْلاً   يَزِينُ جَمَالُ مَرْكَبِهِ جَمَالِي
كَرِيماً حِينَ يُنْسَبُ وَالِدَاهُ   إِلَى كَرَمِ الْمَنَاسِبِ فِي الْبِغَالِ

[أشعار أخرى فى البغال]

وأنشد إبراهيم بن داحة لأبى الوزير المعلّم(١) فى ركوب البغال ، لنخّاس الحجّاج بن يوسف ، فى كلمة طويلة لم أحفظ منها إلّا هذه الأبيات :

حَمِدْتُ إِلٰهِي إِذْ رَأَيْتُكَ مُغْرَماً   بِكُلِّ كَثِيرِ الْعَيْبِ جَمٍّ جَرائِمُهْ
عَلَى كُلِّ شَحَّاجٍ يُضَارِعُ صَوْتُهُ   شَحِيجَ غُرابٍ فاحِمُ اللَّوْنِ قاتِمُهْ
يُفَزِّعُ مِنْهُ كُلَّ غادٍ لِطِيَّةٍ   وَيَهْرُبُ مِنْهُ فِي الرَّوَاحِ خُشَارِمُهْ(٢)

٢٢٢ ظ

وما لَكَ منه مَرْفِقٌ غَيْرَ أَنَّهُ   يُقَرِّبُ أَرْحَامَ الْحُجُورِ تَفَاقُمُهْ(٣)
وأَنَّكَ غَلَّابٌ لِكُلِّ مُخَاصِمٍ   تُجَادِلُهُ طَوْراً وَطَوْراً تُلاطِمُهْ
لِفَرْطِ عُيُوبِ الْبَغْلِ صِرْتَ مُوَقَّحاً
فَهَمُّكَ خَصْمٌ أَوْ بَذِيٌّ تُشَاتِمُهْ(٤)
تُكَذِّبُه فى الْعَيْبِ وَالْعَيْبُ ظَاهِرٌ
وَيَعْلَمُ كُلُّ النَّاسِ أَنَّكَ ظَالِمُهْ(٥)

---

(١) ذكره الجاحظ فى البيان ١ : ٢٥٢ وقال : « وما كان عندنا بالبصرة رجلان أروى لصنوف العلم ولا أحسن بيانا من أبى الوزير وأبى عدنان المعلمين » .

(٢) الخشارم ، بضم الخاء : الرجل المتطير .

(٣) كلمة « منه » ساقطة من الأصل . والحجور : جمع حجر ، بالكسر ، وهى الأنثى من الخيل . والبيت شديد التحريف فى ط .

(٤) ط : « فيصدر خصم » ، خلافا لما فى الأصل .

(٥) ط : « تهدبه فى العيب » ، خلافا لما فى الأصل .

فَصَارَ لِنَخَّاسِ البِغَالِ فَضِيلَةٌ   عَلَى كُلِّ نَخَّاسٍ وخَصْمٍ يُصَادِمُهْ

فَلَا زَالَ فَحَّاشًا وَقَاحًا مُلَعَّنًا   وآكِلَ سُحْتٍ لا تَجِفُّ مَلَاغِمُهْ[1]

يُلَاطِمُ فِي ظَهْرِ الطَّرِيقِ شَرِيكَهُ   وَتَنْشَقُّ مِنْ فَرْطِ الصِّيَاحِ غَلَاصِمُهْ

وهذا كقوله :

أَكُولٌ لِأَرْزَاقِ العِيَالِ إِذَا شَتَا   صَبُورٌ عَلَى سُوءِ الثَّنَاءِ وَقَاحُ[2]

ومثل قوله[3] :

إِنْ يَغْدِرُوا أَوْ يَفْجُرُوا   أَوْ يَبْخَلُوا لَمْ يَحْفِلُوا

وغَدَوْا عَلَيْكَ مُرَطَّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا[4]

كَأَبِي بَرَاقِشَ كُلَّ يَوْمٍ لَوْنُهُ يَتَبَدَّلُ[5]

---

(١) الملاغم : جمع ملغم ، بفتح الميم ، وهو الفم والأنف وما حولها .

(٢) البيان ٣ : ٣٣٣ وعيون الأخبار ٢ : ٢٩ . وفى الأخير : « لأرزاق العباد » . والثناء : ما أخبرت به عن الرجل من قبيح أو حسن . والوقاح ، كسحاب : الصلب الوجه القليل الحياء ، والأنثى وقاح أيضاً ، بغير هاء .

(٣) قال أبو عبيدة إنه من الشوارد التى لا أرباب لها . البيان ٣ : ٣٣٣ . وانظر عيون الأخبار ٢ : ٢٩ وديوان المعانى ١ : ٨٢ وأمالى القالى ٣ . وخزانة الأدب ٣ : ٦٦٩ والصناعتين ١٠٣ ومحاضرات الراغب ١ : ١٥٠ .

(٤) ترطيل الشعر : تليينه بالدهن والمسح حتى يلين ويبرق . وجعلت فى ط : « مرجلين » خلافا للأصل ، وإن كان رواية البيان ومعظم المراجع .

(٥) أبو براقش ، بفتح الباء : طائر كالعصفور حسن الصوت طويل الرقبة والرجلين أحمر المنقار ، يتلون فى كل ساعة ، يكون أحمر وأزرق وأخضر وأصفر ، ولعل السبب فى هذا ما ذكر الأزهرى ، أنه شبيه بالقنفذ : أعلى ريشة أغبر ، وأوسطه أحمر ، وأسفله أسود ، فإذا انتفش تغير ألوانا شتى .

ومثل قوله[١] :

لِيَهْنِكَ بُغضٌ في الصَّديقِ وظِنَّةٌ
وتَحْديثُكَ الشَّيْءَ الَّذي أنْتَ كاذِبُهْ[٢]

وأنَّكَ مَشْنُوءٌ إلَى كُلِّ صاحِبٍ
بَلاكَ ومِثْلُ الشَّرِّ يُكْرَهُ جانِبُهْ[٣]

وأنَّكَ مُهْدِي لِلْخَنَا نَطِفُ النَّثَا
شَديدُ السِّبَابِ رافِعُ الصَّوْتِ غالِبُهْ[٤]

أمّا قوله « مُغرَمًا بكلِّ كثير العيب[٥] » ؛ فلأنَّ البغال هي المَثَل في كثرة العيوب ، وتلوُّن الأخلاق .

وأما قوله « جمٌّ جرائمه » ، فلصَرْعاها وقَتْلاها .

وأما قوله « على كل شحّاج » ؛ فلأن الشحيج صوتُ الغُراب .

٢٢٣ وإنما عارض أبو دُلامة أبا خُنَيْس ببغلته حيث قال :

أُبعدْتِ مِنْ بَغْلَةٍ مُواكِلَةٍ تَرْمَحُنِي تارَةً وتَقْمِصُ بِي

---

(١) هو حُسيل — أو حسين — بن عرفطة بن نضلة . انظر تحقيق ذلك في حواشي البيان ٣ : ٢٤٩ وللأبيات البيان والحيوان ٣ : ١٠٢ ، ٤٩٤ .

(٢) ليهنك : ليهنئك ، سهلت همزتها . والكلام تهكم . هنأه الشيء : كان له هنيئاً سائغاً .

(٣) المشنوء : المبغض . بلاك : اختبرك .

(٤) في البيان والحيوان : « مهداء الخنا » . والخنا : الفحش . والنطف : الملطخ بالعيب» . والنثا ، بتقديم النون على الثاء : ماأخبرت به عن الرجل من خير أو شر .

(٥) انظر البيت الأول من مقطوعة أبي الوزير ص ٣٣٧ .

تَـكادُ عِنْدَ المَسِـيرِ تَقْطَعُنِي رَاكِبُهَا رَاكِبٌ عَلَى قَتَبِ[١]

إِنْ قُمْتُ عِنْدَ الإِسْرَاجِ أُثْفِرُهَا تَطْرِفُ مِنِّى العَيْنَيْنِ بِالذَّنَبِ[٢]

وعِنْدَ شَدِّ الحِـزَامِ تَنْهَشُنِى مَانِعَـةً لِلْجَـامِ واللَّبَبِ[٣]

لَيْسَ لها سِيرَةٌ سِوَى الوَثْبِ كَرَقْصِ زَنْجٍ يَنْزُونَ لِلطَّرَبِ

وَهْيَ إِذَا مَا عَلَفْتُهَا جَهَـدَتْ لَا تَأْتَلِي فِي الجِهَادِ عَنْ حَرَبِ[٤]

قَدْ أَكَلَتْ كُلَّ مَا اشْتَرَيْتُ لها مِنْ رِزْقِ شَعْبَانَ أَمْسِ فِي رَجَبِ

تَمُرُّ فِيمَـا نَمَا لِعَلْفَتِهَا إِنْ لَمْ تُعَلَّلْ بِالشَّوْكِ والقَصَبِ[٥]

وإنما هجاها بكثرة الأكل ، فقدَّمها على كلّ مُعتلِف ، بسوء الرأى فيها ، وبإفراط الشعراء وزياداتهم ، وإنّما الأكل الشديدُ فى البَرَاذين والرَّمَك ، ثم التى معها أفلاؤها .

وقيل لرجل من العرب : أىّ الدوابّ آكَل ؟ قال : بِرْذَوْنة رَغُوث[٦] . لأنهم يقولون : بِرْذَوْن وبِرْذَوْنة . ولا يقولون فَرَس وفرسة ، بل يقولون :

---

(١) أى كالراكب على القتب ، وهو إكاف البعير يكون على قدر سنامه . أراد خشونة مركبها .

(٢) أثفر الدابة : جعل لها ثفرا ، وهو بالتحريك : السير فى مؤخر السرج .

(٣) اللبب : مايشد على صدر الدابة أو الناقة ، يكون للسرج أو الرحل ، يمنعهما من الاستئخار .

(٤) الحرب ، بالتحريك : النهب والسلب .

(٥) نما ينمو : زاد . وفى الأصل: « نها » .

(٦) الرغوث : المرضعة . والخبر فى الحيوان ١ : ١١٢ والبيان ٣ : ٢١٢ .

فرس للأنثى والذَّكَر ، فإذا أرادوا الفرق والتفسير قالوا : حِجْر وحِصان .
وأنشد :

أُرَيْتَكَ إنْ جالَتْ بِكَ الخيْلُ جَوْلَةً
وأنْتَ علَى بِرْذَوْنَةٍ غَيرِ طائِلِ[1]

وأنشدوا :

تَزَحْزَحِي إلَيْكِ يا بِرْذَوْنَهْ   إنَّ البَرَاذِينَ إذَا جَرَيْنَهْ[2]
مَعَ الجِيَادِ سَاعَةً أَعْيَيْنَهْ

والنِّعاج أيضاً قد تُوصف بدوام الأكل ، حتى زعم بعض الناس أنَّ النِّساء[3] فى الجملة آكَلُ من الرجال ؛ لأن أكل النساء يكون متفرِّقاً ، من غُدْوَة إلى الليل ، والرجل أكله فى الدَّفعة أكثر من هذا فى الجملة . ٢٢٣

[بعض ألوان الحيوان]

وقال بعضهم : البغال هى الشُّهب ، والإبل هى الحُمر ، والخيل هى الشُّقْر ، والحمير هى الخُضْر ، والسنانير هى النُّمر[4] ؛ وإن كان الناس فى الحمار الأسود أرغَب ، وكذلك هُمْ فى ألوان الثيران ، لمكان البغال .

---

(١) أريتك ، أى أرأيتك ، ومعناه أخبرنى . وفى الحيوان ٢ : ١٨٥ : « أريت إذا ماجالت الخيل » . وفى اللسان (برذن) : « رأيتك إذ جالت » . غير طائل ، يقال للشيء الخسيس الدون : ماهو بطائل ، الذكر والأنثى فيه سواء . وأنشد :

* لقد كلفونى خطة غير طائل *

(٢) الرجز فى الحيوان ٢ : ٢٨٣ .

(٣) جعلت فى ط : « الشاء » فى هذا الموضع وتاليه ، وليس ما يقتضى هذا . وانظر الحيوان ١ : ١١٢ .

(٤) جمع أنمر ونمراء ، وهو ما فيه بقعة بيضاء وبقعة أخرى على أى لون كان .

وقال بعض العرب لبعض الملوك : « هل لكم فى النساء الزُّهْر ، والخيل الشُّقْر ، والنُّوق الحُمر » ؟

وقالت بنت الخس[1] : « الحمراء غَدْرَى ، والصَّهباء سَرْعَى ، والدَّهماء نَهْبَى » .

وإنما صار الناس يتّخذون السنانير النُّمْر ؛ لأنها أصيد ، فهى السَّنانير الخُلّص ، والألوان الأُخَر داخلة على هذه الألوان ، وكذلك ألوان جميع ما ذكرنا ، وأصناف البهائم على ما ذكرنا ؛ وأما ألوان الأُسد فمتشابهة ، لا اختلاف فيها إلا بالشىء اليسير ، والناس يختلفون فى الألوان وكذلك الكلاب والسنانير والخيل والبغال[2] والحمام والحيّات والطير ؛ فأما أنواع الطير ومغنّياتها ، والبُزاة[3] والصُّقور والشواهين ، فلا اختلاف بينها .

باب

ما جاء من الشعر فى ذم البغل

قال أبو دَهْبَلٍ الجُمَحِىّ[4] :

حَجَرٌ تُقَلِّبُهُ وهل تُعطى عَلَى المَدْحِ الحِجَارَهْ
كالبَغْلِ يُحْمَدُ قائماً وتَذُمُّ سِيرَتَهُ المَشَارَهْ[5]

---

(١) هى هند بنت الخس ، بضم الخاء وتشديد السين ، بن حابس بن قريط الإيادية ، وكانت ذات فصاحة وحكمة وجواب عجيب . انظر حواشى البيان ١ : ٣١٢ .

(٢) فى الأصل : « والـ » مع انطماس بقية الكلمة وظهور الجزء الأعلى من الألف واللام الأخيرة .

(٣) فى الأصل : « والبر » ، مع انطماس بقية الكلمة .

(٤) سبقت ترجمته فى ص ٢٤٤ .

(٥) المشارة : مصدر ميمى من شار الدابة ، إذا أجراها ليعرف قوتها وسيرتها . وقد ضبط هذا البيت فى ط خطأ .

وقال سهم بن حَنْظَلة الغَنَوِىّ[1] :

فأمَّا كِلَابٌ فَمِثْلُ الكِلَا ... بِ لَا يُحْسِنُ الكَلْبُ إلا هَرِيرَا

وأمَّا نُمَيْرٌ فَمِثْلُ البِغَا ... لِ : أشْبَهْنَ آبَاءَهُنَّ الحَمِيرَا[2]

٢٢٤ و

وقال حسّان بن ثابت :

لا بأْسَ بالقومِ مِنْ طُولٍ ومن عِرَضٍ

جِسْمُ البِغالِ وأَحْلامُ العَصَافِيرِ[3]

وقال آخر :

ولئنْ نَاكَحْتُمُونا لَبِمَا ... نَاكَحْتْ قَبْلَكُمُ الخَيْلَ الحُمُرْ

وقال ابن الزَّبِير الأسَدِىّ[4] لعبد الرحمن بن أمّ الحَكَم[5] :

---

(١) هو سهم بن حنظلة بن حلوان بن خويلد ، من غنى بن أعصر ، فارس مشهور شاعر محسن . المؤتلف ١٣٦ وذكر فى الإصابة ٣٧٠٣ عن المرزبانى أنه شاعر شامى مخضرم .

(٢) البيتان فى الحيوان ١ : ٢٥٨ . وبعدها فيه :

وأما هلال فعطارة ... تبيع كباء وعطراً كثيرا

(٣) ديوان حسان ٢١٤ من قصيدة يهجو بها رهط الحارث بن كعب المجاشعى وهم قبيل النجاشى الشاعر . وفى ط : « ومن عظم » خلافاً لما فى الأصل ، وإن كان مطابقا لرواية الديوان .

(٤) هو عبد الله بن الزَّبير - بفتح الزاى - بن الأشيم بن الأعشى بن بجرة ، ينتهى نسبه إلى أسد بن خزيمة ، وهو شاعر كوفى المنشأ والمنزل ، من شعراء الدولة الأموية ، ومن شيعتهم والمتعصبين لهم ، فلما غلب مصعب بن الزبير على الكوفة أتى به أسيرا ، فمن عليه ووصله ، فمدحه وأكثر من مدحه وانقطع إليه ، فلم يزل معه حتى قتل . وعمى بعد ذلك ومات فى خلافة عبد الملك . الأغانى ١٣ : ٣١ - ٤٧ والخزانة ١ : ٣٤٥ ومعاهد التنصيص ١ : ١٠ . ولم يذكره الصفدى فى نكت الهميان .

(٥) كان عبد الرحمن قد قدم الكوفة فى هيئة رثة ، فلما ولى الكوفة من =

تَشَغَّلْتَ لَمَّا أَنْ أَتَيْتَ بِلَادَهُمْ وفِي أَرْضِنَا أَنْتَ الْهُمَامُ الْقَلَمَّسُ[(١)]

أَلَسْتَ بِبَغْلٍ أُمُّهُ عَرَبِيَّــةٌ أَبُوهُ حِمَارٌ أَدْبَرُ الظَّهْرِ يُنْخَسُ[(٢)]

وقال خالد بن عبّاد[(٣)] يهجو أبا بكر بن يزيد بن معاوية[(٤)] :

سَمِينُ البَغْلِ مِنْ مالِ اليَتَامَى رَخِيُّ البالِ مهزُولُ الصَّدِيقِ

وقال سِنان بن أبي حارثة[(٥)] :

تَعَرَّضَ عَبْسٌ دُونَ بَدْرٍ سَفَاهَــــةً

أَلَا عَجَبُ العجْباءِ مِنْ جَهَلِ البَغْـلِ[(٦)]

= قبل خاله معاوية واكتسب وأثرى ، مدحه عبد الله بن الزبير فلم يثبه شيئاً ، فقال هذا يهجوه .

(١) فى الأغانى : « تنغلت لما أن أتيت بلادكم وفى مصرنا » . والقلمس : السيد العظيم الواسع الخلق .

(٢) فى الأغانى بعد إنشاد البيتين : « كان بنو أمية إذا رأوا عبدالرحمن يلقبونه البغل ، وغلبت عليه حتى كاد يشتم من ذكر بغلا ، يظنه يعرض به » .

(٣) كذا فى الأصل ، وقد سبق فى ص ٢٩٣ : « خالد بن عتاب » .

(٤) ذكره ابن قتيبة فى المعارف ١٥٣ وابن حزم فى الجمهرة ١١٢ فى جماعة ولد يزيد بن معاوية .

(٥) سنان بن أبى حارثة المرى . أحد ثلاثة نفرها وأعلى وجوههم فلم يوجدوا . الحيوان ٣ : ٤٩٠ و ٦ : ٢٠٩ والأغانى ٩ : ١٤٤ . وهو والد هرم ممدوح زهير بن أبى سلمى . وانظر جمهرة ابن حزم ٢٥٢ . وترجم له المرزبانى فى معجمه ٣٨٦ - ٣٨٧ .

(٦) ط : « لأعجب للعجباء » ، خلافا لما فى الأصل .

وقال شَبِيب بن البَرْصاء يهجو عَقِيل بن عُلَّفة :

أَلا أَبْلِغْ أَبَا الجَرْبَاءِ عَنِّى ... بِآيَاتِ التَّبَاغُضِ والتَّقَالِى(١)

فَلَا تَذْكُرْ أَبَاكَ العَبْدَ وافخَرْ ... بِأُمٍّ لستَ تَكْرَهُهَا وخَالِ(٢)

فَهَبْهَا مُهْرَةً لَقِحَتْ لِعَيْرٍ ... فَكَانَ جَنِينُهَا شَرَّ البِغَالِ(٣)

قال أبو عُبَيْدة : كان الفرزدق عَبِث بأبى الحسناء(٤) ، وكان مُكارِىَ بغال ، ينزل فى مَقبرة بنى هِزّان ، يُكرِى إلى الكوفة ، أيامَ كانت الطريق على الظَّهر ، فقال :

لِيَبْكِ أَبَا الحَسْنَاءِ بَغْلٌ وبَغْلَةٌ ... ومِخْلَاةُ سَوْءٍ بَانَ عَنْهَا شَعِيرُهَا

وقال الكُمَيْت :

تَمْشِى بِهَا زُبْدُ النَّعَا ... مِ تَمَاشِىَ الآمِ الزَّوَافِرْ(٥)

والأَخْدَرِىُّ بِعَانَتَيْهِ ... خَلِيطَ آجَالٍ وبَاقِرْ(٦)

---

(١) الجرباء : ابنة عقيل بن علفة ، وكان يكنى بها ، كما كان يكنى بأبى العميس ، الأغانى ١١ : ٨١ . والأبيات فى الأغانى ١١ : ٩٠ .

(٢) الأغانى : «لست مكرمها» . (٣) الأغانى : «وهبها مهرة لقحت ببغل» .

(٤) فى الشعراء ٤٤٥ : «وكان الفرزدق معنا مفننا يقول فى كل شىء ، وسريع الجواب ، فمر بقوم ولهم جنازة ، فقال : ماهذا ؟ فقالوا : مات أبوالخنساء صاحب البغال فقال . . . . » . وفيه : « ليبك أبا الخنساء » و « قد أضيع شعيرها » . وبعده فيه :

ومجرفة مطروحة ومحسة ... ومقرعة صفراء بال سيورها

(٥) الآم : جمع أمة . وفى الأصل : « الآمى » ، تحريف . وانظر اللسان (أما ٤٧) حيث أنشد هذا البيت . والزوافر : الإماء اللاتى يحملن الأزفار ، جمع زفر ، بالكسر ، وهو الحمل .

(٦) الأخدرى : الحمار الوحشى ، منسوب إلى فحل يدعى «أخدر» . والآجال : جمع إجل ، بالكسر ، وهو القطيع من بقر الوحش والظباء . والباقر : جماعة البقر .

٢٢٤ ظ

قال : وفد المُغيرة بن عبد الرحمن الرِّياحيّ على معاوية فى وفْد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، وَلِّنى خُرَاسان . قال : ما هِجاء ما لا هِجاء له ؟ قال : فَشُرَط البصرة . قال : انظُر غيرَ هذا . قال : فاحمِلنى على بغل ، ومُرْ لى بقطيفةِ خزّ . فلامه أصحابه ، فقال : أمّا أنا فقد أخذت شيئاً !

[أخبار فى البغال]

قالوا : ولما أقبل مسروق بن أبرهة الأشرم[1] بالحبَشَة ، فصافَّ جندَ وَهْرِز الفارسيّ ، حين كان استجاش ابنُ ذى يَزَن[2] بفارِس ، فوجَّه كِسرى معه وَهْرِزَ الأُسوار فى ثلاثِ مائة كان أخرجهم من الحبس ، على أنّهم إن ظَفِرُوا كان الظَّفَرُ له ، وإن قُتِلوا كان قد أراح الناسَ من شرِّهم . وكان وَهْرِز شيخًا كبيرًا ، قد شدَّ حاجبَه بِعِصابة ، فقال : أرُونى مَلِكَهم . قالوا : هو صاحبُ الفيل . قال : كفُّوا عنه ؛ فإنه على مركبٍ من مراكب الملوك ! وقد أطال الوقوف . فنزل مسروق عن الفيل ، فركب فرسًا ؛ فقيل له : قد نزل عن الفيل ، وركب فرسًا . فقال : دَعُوه ، فإنه على مركَب من مراكب الفُرسان ! وأطال الوقوف حتى ملَّ ظهر الفرس ، وأتوه ببغل فركبه ، فقيل لوَ[هرِز : قد[3]] نزل عن الفرس ، وركب البغل . قال : عن مراكب الملوك ، وعن معاقل [الفُرسان[4]] ، ثم ركب البغل ابن الحمار ! وكان على مسروق تاجُه ، وياقوتة معلَّقة بين عينيه ، فقال وَهْرِز لمن حوله : إنى راميه ،

---

(١) مسروق ، هو أخو يكسوم بن أبرهة ، وكلاهم كان ملكا على اليمن من قبل الحبشة ، وفى عهده تخلصت الحبشة من حكم اليمن بمجهود سيف بن ذى يزن الحميرى .

(٢) هو سيف بن ذى يزن . استجاش : طلب جيشاً . وانظر قصة ذلك فى سيرة ابن هشام ٤١ — ٤٥ . والخبر فى السيرة والحيوان ٧ : ١٨٢ .

(٣) موضع هذه التكملة بياض فى الأصل .

(٤) لم يظهر فى الأصل إلا بقية حرف النون .

فإنْ رأيتموهم يجتمعون عليه ، ولا ينفرجون عنه ، فقد قتلته ، فشُدُّوا عليهم شَدَّةً واحدة ، وإن تفرَّقوا فإنما هي رَمْية . فرمى فأصاب نفسَ الياقوتة المعلقة بين حاجبيْه ، ففلقتْها ، وغابت النُّشَّابة في رأسه ، فاجتمعوا عليه ، ولم يتفرَّقوا عنه ، فشدُّوا عليهم شدَّةً واحدة كانت إيّاها .

وبلغني عن عليّ بن زيد بن جُدْعان[1] ، قال :

شَخَصَ أبو سفيان إلى معاوية بالشام ، في ولاية عُمر رضي الله عنه ، ومعه ابناه عُتْبة وعَنْبَسة ، فكتبتْ إليه هند[2] : « قد قَدِمَ عليك أبوك وأخَوَاك ، فلا تَغذِمْ لهم[3] ، فيعْزِلَكَ عُمَر . احمِلْ أباكَ على فرس وأَعْطِه ثلاثة آلاف درْهم ، واحمِلْ عُتبة على بغل وأعطِه ألفَيْ درهم ، واحمِلْ عَنْبَسَة على حمار وأعطِه ألف درهم » .

فلما فعل ذلك بهم قال أبو سفيان : أشهد أنّ هذا عن رأى هِنْد ، بصِفة جوائز ملوك الشام ، وما لخلفاء الشام والدَّراهمَ ، ما يعرفون إلّا الدنانير !

---

(١) هو أبو الحسن علي بن زيد بن أبي مليكة جدعان القرشي التيمي البصري الشيعي الضرير . أحد أوعية العلم في زمانه . روى عن أنس وابن المسيب وجماعة، وروى له مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة . توفي سنة ١٣٩ وقيل سنة ١٣١ . نكت . الهميان ٢١٢ .

(٢) هي هند بنت عتبة بن ربيعة والدة معاوية . وكانت من ذوات الرأي . انظر البيان ٢ : ٥٦ والعقد في مواضع مختلفة بتتبع فهارسه .

(٣) غذم له من ماله شيئاً : أعطاه منه شيئاً كثيرا . وفي الأصل : « تعذم » .

باب
ما قالوا من الشعر فى عقم البغل

قال النابغة الجعدى :

وهَبْنَا لَكُمْ مَا فِيهِ نَرْجُو صَلَاحَكُمْ
وسَوْفَ نُلَاقِيهِ إِذَا البَغْلُ أَحْبَلَا
ومِنْ دُونِ أَوْلَادِ الْبِغَالِ وحَمْلِهَا
إِلى ذَاكَ ما شَابَ الغُرابُ ورَجَّلَا[1]

وقال العُكْلىّ :

قد يُلْقِحُ البَغْلَةَ غَيْرُ البَغْلِ لَكِنَّهَا تَعْجَلُ قَبْلَ المَهْلِ
. . . . . ة[2] مَشْغُولَةٌ بِالْحَمْلِ
عَنْ مَرْفَقِ الطَّحْنِ وحَمْلِ الرَّجْلِ[3]
وثَقَلِ[4] السَّفْرِ ومَيْرِ الأَهْلِ ولَا تُسَاوِى حَفْنَةً مِنْ زِبْلِ[5]
مَا كَانَ فِيهَا مِنْ كِرَامِ الفَحْلِ دُودَةُ خَلٍّ خُلِقَتْ مِنْ خَلٍّ[6]
وكُلُّ أُنْثَى غَيْرِهَا فى الحَمْلِ تَزْدَادُ فى القِيمَةِ عِنْدَ السَّحْلِ[7]

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) لم يظهر من هذه الكلمة فى الأصل إلا هذا الحرف .

(٣) المراد حمل الناس .

(٤) الثقل ، بالتحريك : متاع المسافر .

(٥) فى الأصل : « ولا يساوى » .

(٦) انظر لديدان الخل الحيوان ٢ : ١١١ و ٣ : ٣٩٦ .

(٧) يقال سحله مائة درهم سحلا : نقده . والسحل : النقد من الدراهم .

مَلْعُونَةٌ بِنْتُ لَعِينٍ نَذْلِ ... قَتَّالَةٌ لِلفَارِسِ الْأَبَلِّ[1]

لَمْ يَعْتَدِلْ مَنصِبُهَا فى الْأَصْلِ ... مِنْ غيرِ شَكْلٍ خُلِقَتْ وشَكْلِ

فى أَدَبِ الخِنْزِيرِ يومَ الْحَفْلِ ... ومُوقُهَا مُوقُ رَضِيعٍ طِفْلِ

أَوْ عَقْلُ أَفْعَى وهِجَفٍّ هِقْلِ[2] ... أَوْ حُوتِ بَحْرٍ قُذِفَتْ فى سَهْلِ[3]

أَوْ جَيْأَلٍ يَكْتِفُهَا بِحَبْلِ[4] ... كُلُّ حُمَيْمِقٍ وكُلُّ فَسْلِ

وكُلُّ غِرٍّ جَاهِلٍ وغُفْلِ

لَيْسَ لها فى الكَيْسِ رِفْقُ النَّمل[5]

أَوْ ذِئْبِ قَفْرٍ مُجْمِعٍ لِلخَتْلِ ... أَوْ تَتْفُلٍ راوَغَ كَلْبَ الْمُشْلِى[6]

أَوْ خُزَزٍ وثَّبَ خَوْفَ الْقَتْلِ[7] ... أَمَا تَرَاهَا غَايَةً فى الجَهْلِ[8]

والشُّؤْمُ مِنْهَا فى ذَوَاتِ الحِجْلِ[9] ... وغُرَّةٍ تَصْدَعُ جَمْعَ الشَّمْلِ

---

(١) الأبل : الشديد الخصومة ، أو الذى لا يستحيى .

(٢) الهجف من النعام : الجافى الثقيل . والهقل : الظليم ، أى ذكر النعام .

(٣) الحوت : السمكة ، وأنث ضميره لمعناه .

(٤) الجيأل : الضبع ، معرفة بغير ألف ولام ، وقالها كراع بالألف واللام . وأنشد للعجاج :

* وصاحب الإقتار لحم الجيأل *

(٥) الرفق : لطافة الفعل . ط : « نمل » خلافا لما فى الأصل .

(٦) التتفل بضم التاء والفاء وفتحهما وكسرهما ، وبفتحها مع ضم الفاء ، وبكسرها مع فتح الفاء : الثعلب .

(٧) الخزز ، كصرد : الذكر من الأرانب .

(٨) مع وضوح هذه الكلمة فى الأصل ذكر ناشر ط أنها غير مقروءة !

(٩) هذا الشطر وما بعده إلى آخر الأرجوزة سبق فى ص ٢٥٦ – ٢٥٧ .

فَهِىَ خِلَافُ الفَرَسِ الهِبَلِّ وكُلِّ طِرْفٍ ذَائِلٍ رِفَلِّ
قَدْ حَذِرَ النَّاسُ أَذَاهَا قَبْلِي وعَدَّدُوا كلَّ قَتِيلِ بَغْلِ

فقال أخوه ناقضاً عليه، وهو فى ذلك يُقَدِّم البغلة على البغل، وهكذا هُما عند الناس فى جملة القول، فقال:

عَلَيْكَ بِالبَغْلَةِ دُونَ البَغْلِ فإِنَّهَا جَامِعَةٌ لِلشَّمْلِ
مَرْكَبُ قاضٍ وإمامٍ عَدْلِ وتاجرٍ وسَيِّدٍ وكَهْلِ
وهاشِمِىٍّ ذِى بَهًا وَفَضْلِ[1] تَصْلُحُ فى الْوَحْلِ وَغَيْرِ الْوَحْلِ
والسَّقْىِ والطَّحْنِ وحَمْلِ الرَّجْلِ وهْىَ فى المَشْىِ وتَحْتَ الرَّحْلِ[2]
أَوْطَا وأَنجى مِنْ مَطَايَا الإِبْلِ وكُلِّ جَمَّازٍ وذَاتِ رَحْلِ[3]
وطُولُ عُمْرٍ غَيْرَ قِيلِ البُطْلِ[4] تَقَدُّمُ فى ذَلِكَ غَيْرَ الأَهْلِ
والخَيْلَ والإِبلَ وكُلَّ فَحْلِ قَدْ قَتَلَ العُصْفُورَ فَرْطُ الجهلِ
ولَوْ دَرَى كَانَ قَلِيلَ الشُّغْلِ بِلَذَّةٍ تُسْلِمُهُ لِلْقَتْلِ[5]

---

(١) فى الأصل: «ذو بها».

(٢) كتب تحتها فى الأصل «ح» علامة الإهمال. لكن جعلت فى ط «الرجل» بالجيم خلافا لما فى الأصل.

(٣) وضع تحت الحاء فى الأصل «ح» علامة للإهمال. لكن جعلت فى ط «رجل» بالجيم.

(٤) القيل، بالكسر: القول. والبطل، بالضم: الباطل.

(٥) يعنى كثرة سفاده لأنثاه، وذلك سبب لقصر عمره. الحيوان ١ : ١٣٧ و٢ : ٣٣٠ و ٥ : ٢٠٧، ٢٢٣ و ٧ : ٢٢١.

فَدَعْ مَدِيحِي وهِجَـاءَ بَغْلِي فَلَوْ ذَمَمْتَ الْقَمَرَ الْمُجَلِّي

وَجَدْتَ فِيـهِ بَعْضَ مَا قد يَقْلِي[1]

ولما تعاور أبا الخطّاب الأعمى[2] أبو دُلَف[3]، وجعفر بن أبي زُهَيْر[4]، وهما يتعصّبان لمَعْدَانَ الأعمى[5]، فقال:

كمَا شَدَّ عَيْنَ البَغْـلِ طَحَّانُ قَرْيَةٍ

لِيَجْمَعَ بَالَ البَغْلِ لِلدَّوْرِ والطَّحْنِ[6]

ولَوْ أَنَّ عَيْنَ الْبَغْلِ زَالَ عِصَـابُهَـا

لحَاكَى شِهَـابَ القَذْفِ فى أَثَرِ الجِنِّى

---

(١) أى بعض ماقد يقليه القمر، أى يكرهه غاية الكراهة. وجملت فى ط: «بعض مالعلى»، خلافا لما فى الأصل.

(٢) هو أبو الخطاب محمد بن سواء بن عنبر السدوسى العنبرى البصرى، روى عن سعيد بن أبي عروبة وشعبة وأبي معشر وغيرهم. وروى له البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة. توفى سنة ١٨٧. تهذيب التهذيب ٩: ٢٠٨ ونكت الهميان ٢٥٢.

(٣) هو أبو دلف القاسم بن عيسى بن إدريس العجلى، نسبة إلى عجل بن لجيم ابن صعب. وهو أحد قواد المأمون ثم المعتصم من بعده. وكان كريما سريا جوادا ممدحاً شجاعا ذا وقائع مشهورة. توفى ببغداد سنة ٢٢٥. تاريخ بغداد ٦٨٦٩ ووفيات الأعيان ١: ٤٢٣ - ٤٢٥.

(٤) ذكره الجاحظ فى البخلاء ٦٤ وذكر لأبى الشمقمق هجاء فيه تجد تخريجه فى الحيوان ٣: ٣١٧. واسم أبى زهير وهب، كما يفهم مما سيأتى.

(٥) هو أبو السرى معدان الأعمى المديبرى، نسبة إلى المدبير على هيئة التصغير وهو موضع قرب الرقة. وكان معدان أحد الشميطية. انظر حواشى الحيوان ٥: ٢٣٦.

(٦) فى الأصل و ط: «ليجمع مال»، والوجه ماأثبت.

وقال أيضاً :

وليس الْعَمَى فى كُلِّ حال نَقِيصَةً
وَنَقْصُ الْعَمَى أجدَى عليكَ مِنَ البَصَرْ

فَسَائِلْ بِغَالِ الطَّحْنِ إنْ كُنْتَ جاهِلاً
ولو حَجَبُوا تِلكَ العُيونَ عن النَّظَرْ

ولَوْلاَ انْطِبَاقُ العَيْنِ مَا كَانَ طَاحِنٌ
ولاَ كَانَ مَطْحُونٌ بصَخْرٍ وَلاَ مَدَرْ[1]

لأنَّ أبا دُلَف كان قال :

وليس لِمَكْفُوفٍ خَوَاطِرُ مُبْصِرٍ
وذُو العَيْنِ والتَّمْييزِ جَمُّ الخوَاطِرِ

لأن أبا الخطّاب كان فخر عليهم بجودة حِفْظ العُميان ، وكان جعفر ابن وهْب[2] قد قال :

هلِ الحِفْظُ إلاَّ لِلصَّبِيِّ ، وذُو النُّهَى
يُمَارِسُ أشغالاً تُشَرِّدُ بالذِّكرِ[3]

فَإنْ كَانَ[4] قَلْبُ الْغُمْرِ للحِفظِ فارغًا
تناوَلَ أقصاهُ وإنْ كانَ لا يَدْرِي

(١) أهل المدر : أهل القرى؛ لأن بيوتها مبنية بالمدر ، وهو الطين . وهم أهل الحضر . وأهل الصخر : أهل الجبال والصحارى .

(٢) هو جعفر بن أبى زهير ، كما يفهم من الحديث .

(٣) ط : « للذكر » ، خلافا لما فى الأصل .

(٤) لم يظهر من هاتين الكلمتين فى الأصل إلا النون الأخيرة .

يَهُذُّ أُمُورًا ليس يَعْرِفُ قَدرَهَا
وهل يَعْرِفُ الأقدارَ غيرُ ذَوِى القَدْرِ[١]

وقال أبو دُلَف فى بعض تلك المسابقات :

ولَيْسَ فَرَاغُ القَلْبِ مَجْدًا ورِفعَةً
ولٰكنَّ شُغْلَ القَلْبِ لِلْهَمِّ دافِعُ
وذُو المَجْدِ محمولٌ عَلَى كُلِّ آلَةٍ وكُلُّ قَصِيرِ الهَمِّ فى الحىِّ وادِعُ

فزعم أنَّ الأعمى إنّما يحفظ لقلّة خواطره وشواغله . وعلى قدر الشواغل والخواطر تنبعث الهمة ، وتصحّ الرويّة ، وتبعُد الغاية .

[الانتفاع بالبغال فى الطحن]

وقالوا : طَحْن الحمير والبغال والبقر والإبل ، لا يجىء إلّا مع تغطية عيونها ، ومَنافع الطحن عظيمة جدًّا ؛ وطحن البغال أطيَب وأربَع[٢] ، وكَيل ما تطحن أكثر ؛ وطَحين أرحاء القُرَى لا يكون له طِيب ، لأنَّ أرحاء الماء ، التى هى أرحاء القُرى ، تحقُ الدَّقيقَ[٣] ، وتُفسد الطَّعم . فهذه المنفعة الكثيرة ، للبغال فيها ما ليس لغيرها .

٢٢٦ ظ

ولو كُلِّفَ البِرْذَونُ الطَّحنَ لَهرِجَ فى ليلةٍ واحدةٍ[٤] .

---

(١) هذّ الحديث هذا : سرده وأسرع فى قراءته .

(٢) أربع : أكثر ريعاً ، والريع بفتح الراء : النماء والزيادة .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) هرج يهرج هرجاً ، بالتحريك : أخذه البهر فلم ينبعث .

والبغل لا يَصرَد كما يصرَد الحمار ، ولا يهرَج كما يهرج البرذون .

وفى أمثال العامّة : الحمار لا يَدْفأ فى السنة إلّا يوماً واحداً ، وذلك اليومَ أيضاً لا يَدفأ ، كأنهم قضَوْا بذلك إذ كان عندهم فى الصَّرَد ووِجدان البرد ، فى مجرَى العنز والحيَّة والجرادة ، وإن كان المثل قد سبق فى غيره ، يقال[١] : « أصرد من جَرادة » ، و « أصرد من حيّة »[٢] .

[مقايسة بين الفيل والبغل]

وقال بعض من يحمَد البغل : البغل لا يصرَد كما يصرَد الحمار ، ولا يهرَج كما تهرَج الرَّمَكة فى الحرّ ، والبغل يطحن ، وهو فوق كلّ طاحن . ولو طحن البرذون يوماً واحداً فى الصَّيف لسقط . ألَا ترى أن الثور يطحن والجاموس أقوى منه وهو لا يطحن ، وهو أيضاً مما يهْرَج .

وليس البغل كالفِيَلة : الفيلة لا تلقح إلّا فى أماكنها ، والبغلة قد تلقَح فى جميع البُلدان ، ولكنّ أولادها لا تعيش ، والفيل الشابّ لا ينبت نابه عندنا .

ولما سمع أبو الربيع الغَنَوىّ أنّ كسرى كان يعُول تسعمائة فيل ، ويُنفق عليها وعلى سُوّامها ، ويقوم بشأنها ومَئونتها ، قال :

يزعُمون أنه كان مُصْلِحاً ، وسائساً مدبِّراً ؛ كان ـ والله ـ عندى يحتاج

---

(١) فى الأصل : « قال » .

(٢) انظر لصرد الجرادة الحيوان ٥ : ٥٥٢ و الحية ٦ : ٥٥ والعنز ٥ : ٤٦٠ و ٦ : ٥٥ .

إلى أن يُحْجَرَ عليه ، انظروا كم كان يستهلك من الأموال عليها فى غير ردٍّ[1] ، فإن كان يريد أن يباهِيَ بها ، ويهوِّل بها فى الحروب ، حَبَس منها بقدرِ ذلك .

ولقد رأى رجل فى المنام أنّه ركب فيلا ، وقَصّ رُؤْياه على ابن سِيرين ، فقال : « أمرٌ جسيم ، ولا منفعة فيه » .

والفِيَلة إنمـا يفتخر بها السُّودان ، كالحبَشة والهِنْد ، فأمَّا ملوك العراق فإنّما يتّخذون منها بقدر ما يقال إنّ عندهم من كلّ شيء شيئاً . وأيضاً لأنّ الفيل خَلْقٌ عجيب ، ومعتبَر لمن فـكّر . وكلّ شيء عجيبٍ فهو أبعثُ على التفـكير من غيره .

[حديث إنزاء الحمير على الخيل]

ولمـا رَوَى المدائنيّ والواقديّ[2] وغيرهما ، أنّ عليّ بن أبى طالب عليه السلام ، لمّا استأذن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى إنزاء الحمير على الخيل ، قال : « إنَّما يَفعَلُ ذلِكَ الَّذِينَ لا يَعلَمُونَ » . قال قوم : جاء الحديث عامًّا فى ذكر الخيل ، ولم يَخُصّ العِتاق دون البراذين ؛ لأنّ اسم الخيل واقع عليهما

٢٢٧ و

(١) الرد : النفع والفائدة ، يقال هو أرد عليه ، أى أنفع .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدى الأسلمى . فالواقدى نسبة إلى جده ، والأسلمى : نسبة إلى مواليه من بنى أسلم . وكان من أهل المدينة وانتقل إلى بغداد ، وولى القضاء بها للمأمون . وكان عالما بالمغازى والسير والفتوح والأخبار . ولد سنة ١٣٠ وتوفى سنة ٢٠٧ . الفهرست لابن النديم ١٤٤ وتاريخ بغداد ٣ : ٣ – ٢١ والمعارف ٢٢٦ وابن خلـكان ١ : ٥٠٦ والسمعانى ٥٧٧ .

جميعاً ، قال الله سبحانه : ﴿ والخَيْلَ وَالبِغَالَ والحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها[1] ﴾ ، أفتظنُّون أنه ذكر إنعامه عليهم بما خوّلهم من المراكب ، فذكر البغال والحمير وترك البراذين ؟

فأمّا أبو إسحاق[2] فإنه قال : هذا الحديث مختلفٌ فيه ، وله أسانيد طِوال ، ورجالٌ ليسوا بمشهورين من الفقهاء بحمل صحيح الحديث . ويجوز أن ينهى عن إنزاء الحمير على الحُجور والرَّماك جميعاً ، فإن جلب جالب ذلك النِّتاج جاز بيعُه وابتياعه ، ومِلْكه وعتقه . وخِصاؤه فى الأصل حَرام .

وقد أهدى المُقَوْقِس عظيمُ القِبْط إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم خَصيًّا[3] ؛ وكان هذا الخَصِىّ أخا مارية أمّ إبراهيم ابن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقبل هديّته ، وأرسل إليه ببغلة من نِتاج ما بين حِجْر وعَيْر ، وليس فى هذين[4] [الكلام ، إنما[5]] الكلام فى الإخصاء وحدَه ، والإنزاء وحدَه فى أصل العَمل ، فأما إذا ما تمّ الأمر بينهما، فإن بيعهما وابتياعهما حَلال .

قال : ولا نترك قولاً عامًّا قاله الله تعالى فى كتابه ونصّه ، لحديث لا ندرى كيف هو ، وقد قال الله جلّ وعزّ ، وهو يريد إذكار الناس نِعمَهُ السابغة ، وأياديَه الجلّة حين عدّد عليهم ، فقال : ﴿ وَالخَيْلَ وَالبِغَالَ والحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ ؛ فمن أين جاز لنا أن نخصّ شيئاً دون شىء .

---

(١) الآية ٨ من سورة النحل .

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، شيخ الجاحظ .

(٣) انظر الحيوان ١ : ١٦٣ . ولم يذكر فيه أنه أخو مارية .

(٤) فى الأصل : « بين هذين » .

(٥) موضعهما بياض فى الأصل بمقدار كلمتين .

باب

ماجاء فى الكوادن

قال الشاعر[1] :

جُنَادِفٌ لاحِقٌ بالرَّأْسِ مَنْكِبُهُ   كأنَّه كَوْدَنٌ يُوشَى بكُلَّابِ[2]

وكلُّ غليظٍ بعيد من العَنَق فهو كَوْدَن ، قال ابن قَمِيئة[3] :

يَسَرٌ يُطْعِمُ الأَرَامِلَ إذْ قَـــلَّصَ دَرُّ اللِّقَاحِ فى الصِّنَّبْرِ[4]

ورأَيْتَ الإِمَاءَ كالجِعْثِنِ البَا   لِي عُكُوفاً عَلَى قُرَارَةِ قِدْرِ[5]

ورَأَيْتَ الدُّخَانَ كالكَوْدَنِ الأَضْـــخَمِ يَنْبَاعُ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ[6]

٢٢٧ م

---

(١) هو جندل بن الراعى ، يهجو جريرا ، أو يهجو عدى بن الرقاع . اللسان (جندف ، كدن ، وشى) ونسبه فى اللسان (كلب) لجندل أو لأبيه الراعى .

(٢) الجنادف : الغليظ القصير الرقبة . والكودن : البرذون . ويقال أوشاه يوشيه ، إذا استحثه بمحجن أو كلاب .

(٣) هو عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة . دخل بلاد الروم مع امرىء القيس فهلك فقيل له « عمرو الضائع » . المؤتلف ١٦٨ والخزانة ٢ : ٢٤٩ والأغانى ١٦ : ١٦٣ والشعراء ٣٣٦ وابن سلام ٥٩ .

(٤) هذا صواب ما فى الحيوان ٥ : ٧٣ : « ليس طعمى طعم الأنامل » . وفى ٦ : ٣٥٦ : « ليس بالمطعم الأرانب » . واليسر : اللاعب بقداح الميسر . واللقاح : جمع لقحة ، وهى الناقة الحلوب . قلص درها : ارتفع لبنها . والصنبر : شدة البرد .

(٥) الجعثن : أصل كل شجرة إلا شجرة لها خشب . شبههن به فى التقبض وتشوه الخلق مما أضر بهن الجرب وسوء الغذاء . عكوفا : مستديرات حولها . والقرارة ، بالضم : ما لزق بأسفل القدر من مرق ، أو حطام تابل محترق ، أو سمن أو غيره .

(٦) فى الحيوان : « كالودع الأهجن » . ينباع : يجرى جريا لينا .

حَاضِرٌ شَرُّكُمْ وَخَيْرُكُمْ دَ رُّ خَرُوسٍ مِنَ الْأَرَانِبِ بِكْرِ(١)

وفى ذمّ البغال يقول عَرْهَم بن قَيْس الأسَدِى(٢) :

إِنَّ الْمُذَرَّعَ لَا تُغْنِي خُئُولَتُهُ

كَالْبَغْلِ يَعجِزُ عَنْ شَوْطِ الْمَضَامِيرِ(٣)

وقال الفرزدق :

سِوَى أَنَّ أَعرافَ الكَوادِنِ مِنْقَرًا قَبِيلَةُ سَوْء بارَ فى النَّاسِ سُوقُها(٤)

وإنما قالت حُمَيْدة بنت النُّعْمان بن بَشِير لزَوْجها رَوْح بن زِنْباع :

وهَلْ أَنَا إِلَّا مُهْرَةٌ عَرَبِيَّةٌ سلِيلَةُ أَفْرَاسٍ تَجَلَّلَهَا بَغْلُ(٥)

فإِنْ نُتِجَتْ مُهْرًا كَرِيمًا فَبِالْحَرَى

وإِنْ يَكُ إِقْرَافٌ فَمِنْ قِبَلِ الْفَحلِ(٦)

(١) الدر : اللبن . والخروس : البكر فى أول حملها . وانظر حواشى الحيوان ٥ : ٧٣ والمعانى الكبير لابن قتيبة ٢١٠ . وفى كثير من الروايات : « شركم حاضر » .

(٢) فى اللسان (ذرع) : « قال ابن قيس العدوى » . وقد ذكر فى تهذيب الأسماء ٧٩٦ عرهم بن قيس العدوى . والعدوى : نسبه إلى عدى بن نوفل أسد بن عبد العزى . انظر ابن حزم ١٢٩ .

(٣) المذرع : الذى أمه أشرف من أبيه . وفى اللسان : « لا تعنى خؤولته » ، وما هنا صوابه . وفيه أيضاً : « عن شوط المحاضير » .

(٤) فى ديوان الفرزدق ٥٧١ : « خلا أن » .

(٥) انظر سمط اللآلى ١٧٩ حيث تخريج الشعر وتحقيقه .

(٦) كذا بالإقواء هنا ، وفى الأغانى ٨ : ١٣٤ وسمط اللآلى : « فما أنجب الفحل » ، بدون إقواء .

فوضعت البغل فى موضعه . فقال رَوْح[1] :

رَضَى الأَشْيَاخُ با[لفِطْيَوْنِ[2]] بعلاً
وتَرْغَبُ فى المَنَاكِحِ عَنْ جُـــذَامِ

يَهُودِيٌّ له بُضْعُ الجوارِي فقُبحًا لِلكُهُولِ ولِلْغُلَامِ[3]

وقال الآخر :

وما كَثُرَتْ بَنُو أسَدٍ فَتُخْشَى لِكَثْرَتِهِمْ ولا طَابَ القَلِيلُ
قُبَيِّلَةٌ تَذَبْذَبُ فى مَعَـــدٍّ أنوفهمُ أذَلُّ مِنَ المَسِيلِ
تَمَنَّى أنْ تَكُونَ أخَا قُرَيْشٍ شَحِيجَ البَغْلِ مُلْتَمِسَ الصَّهِيلِ

---

(١) الشعر التالى نسب فى الأغانى ٨ : ١٣٤ إلى ابن عم لروح بن زنباع . أما روح فقد روى له أبو الفرج :

فما بال مهر رائع عرضت له أتان فبالت عند جحفلة الفحل
إذا هو ولى جانباً ربخت له كما ربخت قمراء فى دمث سهل

(٢) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباته من الأغانى ٨ : ١٣٤ ، وروايته فيها :

رضى الأشياخ بالفطيون فحلا وترغب للحماقة عن جذام

ورضى ، بفتح الضاد مع القصر : لغة فى رضى لطئ . وكذا لغتهم فى كل ياء انكسر ما قبلها ، يقولون بَقَى ورَضَى وفنى . اللسان (بقى ٨٦) .

والفطيون : ملك اليهود بالمدينة ، واسمه عامر بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو . وكان يعتذر النساء قبل أزواجهن ، أى يفترعهن . انظر الاشتقاق ٤٣٦ ونوادر المخطوطات ٢ : ١٣٦ - ١٣٧ والأغانى ٢ : ١٨٠ . وفى ط : « بغلا » بالغين المعجمة ، خلافاً لما فى الأصل .

(٣) فى الأغانى : « بضع العذارى » . والبضع ، بالضم : الفرج ، والجماع ، والنكاح .

وقال زيادٌ الأعْجَم[١] :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ البَغْلَ يَتْبَعُ إِلْفَهُ كَمَا عَامِرٌ واللُّؤْمُ مُؤْتَلِفَانِ

وقال الكُمَيْت :

٢٢٨ و وما حَمَلُوا الحَمِيرَ عَلَى عِتَاقٍ مُطَهَّمَةٍ فَيُلفَوْا مُبْغِلِينَا

وما سَمَّوا بِأَبْرَهَةَ اغْتِبَاطاً بِشَرٍّ خُتُونَةٍ مُتَزَيِّنِينَا

باب

ذكر ركوب نساء الأشراف البغال

قال : لمّا أُهديَتْ ابنة عبد الله بن جعفر إلى يزيد بن معاوية على بغلة ، قال يزيد[٢] :

جَاءَتْ بِهَا دُهْمُ البِغَالِ وشُهْبُهَا مُسَيَّرَةً فى جَوْفِ قَرٍّ مُسَيَّرِ[٣]

مُقَابَلَةٌ بينَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ عَلِيٍّ والجَوَادِ ابْنِ جَعْفَرِ[٤]

مَنَافِيَّةٌ غَرَّاءُ جَادَتْ بِوُدِّهَا لِعَبْدِ مَنَافٍ أَغَرَّ مُشَهَّرِ[٥]

---

(١) هو زياد بن سلمى ، ويقال زياد بن جابر بن عمرو بن عامر ، من عبد القيس ، وكان ينزل إصطخر ، وكانت فيه لكنة ، فلذلك قيل له الأعجم . وهو من شعراء الدولة الأموية ، وطال عمره ووفد على هشام بن عبد الملك . الشعراء ٣٩٥ والخزانة ٤ : ٩٨ والمؤتلف ١٣١ .

(٢) فى الأغانى ١٦ : ٨٧ أن الشعر لخالد بن يزيد ، وأنه هو الذى تزوج بنت عبد الله بن جعفر بن أبى طالب .

(٣) وكذا ورد البيت بالخرم فى الأغانى . وفى الأغانى : «مقنعة» بدل «مسيرة» . والقر ، بالفتح : الهودج . وفى الأغانى : « فى جوف حدج مخدر » .

(٤) فى الأغانى : « والحوارى وجعفر » .

(٥) فى الأغانى : « منافية جادت بخالص ودها » .

وقال ابن أبي رَبيعة :

هِيَ الشَّمسُ تَسْرِي بِهـا بَغْلَةٌ ... وما خِلْتُ شَمْسًا بِلَيلٍ تَسيرُ[١]

وقال الآخر[٢] :

مَرَّتْ تُزَفُّ على بَغْـــلَةٍ ... وفَوقَ رِحَالَتِهَا قُبَّـهْ[٣]

زُبَيْرِيَّةٌ مِنْ بَنـاتِ الَّذِي ... أَحَلَّ الحَرَامَ مِنَ الكَعْبَهْ[٤]

تُزَفُّ إلى مَلِكٍ ماجِـــدٍ ... فَلَا بِالرِّفَا ، وبِهَا الوَجْبَهْ[٥]

ولقى عُمَر بن أبي ربيعة عائشة بنت طَلْحة ، وهى على بغلة ، فاستوقفها وأنشدها[٦] :

يارَبَّةَ البَغْلَةِ الشَّهْباءِ هل لَكمُ ... فى عاشِقٍ دنِفٍ لاتُرْهِقِى حَرَجا[٧]

---

(١) فى ديوان عمر ١٦٣ : « تسرى على بغلة » .

(٢) هو السيد الحميرى ، قاله حينما مرت عليه بالأهواز أسماء بنت يعقوب ، وهى من ولد عبد الله بن الزبير ، وقد زفت إلى إسماعيل بن على بن عبد الله بن عباس . الأغانى ٦ : ٣٠ و ٧ : ١١ .

(٣) وكذا فى الأغانى ٦ : ٣٠ لكن فى ٧ : ١١ : « أتتنا تزف » .

(٤) كان أهل الشام يسمون عبد الله بن الزبير « المحل » ؛ لأنه أحل الكعبة بمقامه فيها ، وكان أصحابه أحرقوها بنار استضاءوا بها . كما كان أهل الحجاز يسمون الحجاج بن يوسف « المحل » أيضاً ، لعدوانه على البيت . الأغانى ٦ : ٢٩ - ٣٠ .

(٥) الوجبة : السقوط مع صوت شديد . وفى الأغانى : « فلا اجتمعا وبها الوجبه » ، و « فلا اجتمعوا وبه » .

(٦) القصة بتفصيل فى الأغانى ١ : ٧٩ .

(٧) فى الديوان ٤٦١ : « هل لكم أن ترحمى عمرا » . وفى الأغانى : « هل لك فى أن تنشرى ميتاً » .

قَالت : بِدائِكَ مُتْ أوعِشْ تُعالِجُهُ فما نَرَى لَكَ فيما عِندَنا فَرَجا
قد كُنْتَ حَمَّلْتَنِي غَيْظًا أُعالِجُه
وإنْ تَرِحْنِي فَقَدْ عَنَّيْتَنِي حِجَجَا[١]
فَقُلْتُ : لا والَّذِي حَجَّ الحَجِيجُ لَهُ مَامَحَّ حُبُّكِ مِنْ قَلْبِي وما نَهَجَا[٢]

وقال الآخر[٣] :

قِفِي يا رَبَّةَ البَغْلِ أُخَبِّرْكِ عَلَى رَجَلِ[٤]
فبينا ذَاكَ إذْ نَادَى مُنَادٍ غَيْرَ ما خَتْلِ[٥]
فَعُجْنَا بِامْرِئٍ ضَخْمٍ على أهْوَجَ كالهِقْلِ[٦]
وعُجْنَا كُلَّ مُسْوَدٍّ ومَمْسُودِ القَرَا عَبْلِ[٧]
إذَا لَمْ تَكُ ذا رَأْيٍ وذا قَوْلٍ وذا عَقْلِ
وَقَالَتْ أُخْتُها الصُّغْرَى رَدَدْنَاهُ إلى غُفْلِ[٨]

٢٢٨ ظ

(١) الديوان : « حملتنى غيظا » و « فإن تقدنى » ، أى تنصفنى من نفسك . وفى الأغانى : « حملتنا غيظا نعالجه فإن بعدنا » .

(٢) مح : أخلق وبلى ، وكذلك نهج .

(٣) هو ابنة الخس ، كما فى اللسان (حجا) ما عدا البيت السابع « ترى الفتيان » فإنه مضمن فى الشعر وقائله هو عثمة بنت مطرود البجلية ، كما فى أمثال الميدانى .

(٤) الرجل : الخوف والفزع من فوت الشىء ، يقال : أنا من أمرى على رجل ، أى على خوف من فوته .

(٥) فى ط : « قدرنا ذلك » خلافا لما هو واضح فى الأصل . والختل : الخداع .

(٦) أهوج ، تعنى به بعيرا . والهقل : الظليم ، وهو ذكر النعام ، شبهه به .

(٧) المسود : المجدول الخلق . والقرا : الظهر . والعبل : الضخم .

(٨) فى اللسان (حجا ١٨٠) :

قالت قالة أختى وحجواها لها عقل

تَرَى الفِتْيَانَ كالنَّخْلِ وما يُدْرِيكَ مَا الدَّخْلُ[1]
ولَيْسَ الشَّأْنُ فى الوَصْلِ ولٰكن يُعرف الفَضْلُ

باب

[ذكر أخبار ومسائل شتى]

وحدّث مُصْعَبٌ الزُّبَيْرِىّ[2] عن بعض أشياخه ، قال : إنّا لَبِالأَبْطَح أيّامَ الموسِم ، إذ أقبل شيخٌ أبيضُ الرأس واللحية ، على بغلة شهباء ، وما نَدْرِى أهو أشدّ بياضًا ، أم بغلته ، أم ثيابُه ، فاندفع يغنِّى :

أسعِدِينى بِعَبْرَةٍ أسرابِ مِنْ دُمُوعٍ كَثِيرَةِ التَّسْكَابِ[3]
فَارَقُونِى وقد عَلِمْتُ يَقِينًا مَا لِمَنْ ذاقَ مِيتَةً مِنْ إيَابِ

---

(١) وكذا فى أمثال الميدانى والبيان ١ : ٢٢٠ وشرح الحماسة للمرزوقى ٩٢٤ وفيه إقواء . وفى اللسان (دخل) : « بالدخل » ، فلا إقواء فيه .

(٢) هو أبو عبد الله مصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى ، صاحب كتاب « نسب قريش » الذى نشره بروفنسال ١٩٥٣ . وهو عم الزبير بن بكار . وكان مصعب صاحب رواية ونسب ، وروى له أبو الفرج فى الأغانى أشعاراً . ولد سنة ١٥٦ وتوفى سنة ٢٣٦ . الفهرست ١٦٠ وتاريخ بغداد ١٣ : ١١٢ - ١١٤ وشذرات الذهب ٢ : ٨٦ .

(٣) لكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وداعة السهمى فى الأغانى ١ : ١٢٤ و ٢ : ١١٨ و ٨ : ١٠٥ ، ١٠٦ ومعجم البلدان (صفى السباب) . ط : « أسعدانى » خلافاً لما هو واضح فى الأصل ، وإن كانت « أسعدانى » إحدى روايتى أبى الفرج . وكثير بفتح الكاف وكسر الثاء ، وترجمته فى المؤتلف ١٦٩ ومعجم المرزبانى ٣٤٨ . وضبط سهوا فى جمهرة ابن حزم ١٦٤ بهيئة التصغير .

ثم ضرب دابته وذهب ، فأدركناه ، فإذا هو حُنَيْنٌ النَّخَعِىّ[(١)] ، وكان نصرانيًّا مستهترًا بالغناء .

ومن حديث المُغيرة بن عَنْبَسَة عن بعض أشياخه قال : قال كعب الأحبار[(٢)] . . . .[(٣)] فإذا هو شيخ أبيض الرأس واللحية ، أبيض الثياب ، على بغلة بيضاء .

وحدّثنى صديقٌ لى ، قال : أوّلَ يوم دخلتُ الرَّقّة ـ وذلك فى أيام الرشيد ـ استقبلَنى الشاعر اليَمَامىّ المتكلم[(٤)] ، الذى يقول : « إنى تَيْمىّ » ، فإذا هو أسود ولحيتُه سوداء ، وثيابُه سُود ، وعمامته سوداء ، وسرجه أسود ، وسَمُّور سرجه أسود[(٥)] ، وهو على بِرْذَون أدهم ، وقد ركبه غُبارٌ ، فقلتُ : أعوذ بالله من هذا الزِّىّ ! أهل خُراسان الذين هم أهل الدَّعْوَة ، ومَخْرَج الدولة ، لا يتكلّفون جميع هذه الخِصال كلّها لأنفسهم ،

---

(١) ترجم له أبو الفرج فى ٢ : ١١٦ – ١٢٣ . وهو حنين بن بلوع الحيرى . وكان شاعراً مغنياً فحلا من فحول المغنين ، غنى لهشام بن عبد الملك ، وكان خالد بن عبد الله القسرى قد حرم الغناء بالعراق وأذن له خاصة به حين أعجب بصوته .

(٢) هو كعب بن ماتع الحميرى ، كان يهودياً وأسلم فى خلافة عمر ، وكان يقص فبلغه حديث النبى صلى الله عليه وسلم « لا يقص إلا أمير أو مأمور أو محتال » فترك القصص ، حتى أمره معاوية فصار يقص بعد ذلك . ومات بحمص سنة ٣٢ . الإصابة ٧٤٩٠ والمعارف ١٨٩ .

(٣) بياض فى الأصل بمقدار كلمات ثلاث .

(٤) ذكره الصولى فى الأوراق ٧٦ باسم « التيمى بن محمد » ، وذكر قصة له مع الرشيد . وانظر الحيوان ٤ : ٢٤ والبيان ١ : ٤٠ .

(٥) السمور : دابة تسوى من جلودها فراء غالية الأثمان .

واكتَفَوا بسَواد ثيابهم ! وإذا هو يتعرَّض لصاحب الأخبار ، طمَعًا في أن يَرفع خبره ، فينال بذلك مرتبةً ، فقلتُ له : والله إنّ هذا الزيّ لَقبيح من أهل هذه الدولة ، فما ظَنُّكَ بإنسان يمانيّ مرّةً وتَيميّ مرّة ؟! والله أنْ لو رُفعتَ في الخبَرِ ، لارتفعتُ معك حتى أُخبِرَ عنك !

وحدّثني عمرو القصافيّ الشاعر[1] ، قال : دعانا فلان بن فلان الفلانيّ ، وهم قوم يُعْرَفون بالدِّعوة[2] ، فدعانا إلى منزله في أيام دِعوتهم إلى العرب ، فإذا هو قد ضرب خيمةً ، وإذا حوله غُنيمات ، وإذا في الدار بعير أجربُ ، وريح الهِناء والقَطِران[3] ؛ فدعا بالطّعام ، فإذا خُبزة قد ثُرِّد نصفها في لبن ، وكَسَر بين أيدينا النصفَ الآخر ، ثم دعا بالنبيذ ، فإذا هو في عُسٍّ خَشَب ، وإذا نبيذُ تمر ، ثم دعا بنُقْل فإذا بأَقِطٍ ومُقْلٍ وتَنُّوم[4] ، ثم دعا برَيْحان ، فإذا خُزَامَى وعُبَيْثَرانٌ[5] وشِيح ، وإذا عنده شادٍ وهو يغنّي ، فتًى أمردُ

---

(١) هو عمرو بن نصر التيمى القصافى البصرى ، من إخوان محمد بن يسير . وكان مشهورا بالعين ، يعين كل شيء يستحسنه ، فعان حسناء مغنية ، فانصرفت محمومة شاكية العين ، فقال فيه ابن يسير :

إن عمراً جنى بعينيه ذنبا قل منى عليه فيه الدعاء

الأغانى ١٢ : ١٢٨ وطبقات ابن المعتز ٣٠٥ وكتاب الورقة ٧ .

(٢) الدعوة ، بالكسر : أن ينتسب الإنسان إلى غير أبيه وعشيرته . وفى الحديث : « لا دعوة فى الإسلام » .

(٣) الهناء ، بالكسر : القطران ، أو ضرب منه ، تهنأ به الإبل ، أى تطلى ، من جرب أو نحوه .

(٤) التنوم : شجر له حمل صغار كمثل حب الخروع ، يتفلق عن حب يأكله أهل البادية .

(٥) العبيثران ، بفتح العين مع فتح الثاء وضمها : نبات له قضبان دقاق طيب الريح .

أجرَدُ أبيض ، [فقال صا]حبي[١] : ما اجتمع هذا الذى رأينا فى بيت هذا الفتى عند عَقِيل بن عُلَّفة[٢] ، ولا عند الزِّبْرِقان بن بَدْر[٣] ، ولا عند عَوْف بن القَعْقَاع[٤] ؛ فإن هؤلاء كانوا مَرَدة الأعراب .

[ما قيل فى حب ركوب البغال]

وقال أبو الشَّمَقْمَق[٥] فى حُبّ ركوب البغال ، وكان قال . . . .[٦] أَخْبِرْنى عن اسمك وبَلدِك ونَسَبك وشهوَتِك . قال : أمّا اسمى ونَسَبى فأنا مَرْوان بن محمد ، مولى مروان بن محمد ، وأمّا بَلَدِى فالبصرة ، وأمّا شهوتى فالنبيذ على اللحم السمين . فقال أبو الشمقمق[٧] :

مُنَاىَ مِنْ دُنْيَاىَ هاَتِى التى تَسْــلَحُ بالرِّزْقِ عَلَى غيْرِى

(١) لم يظهر من هاتين الـكلمتين إلا هذا الجزء فى الأصل .

(٢) سبقت ترجمته فى ص ٣٤٥ .

(٣) الزبرقان لقب له ، واسمه الحصين بن بدر ، سمى الزبرقان لحسن وجهه ، وهو من الصحابة الذين نادوا رسول الله من وراء الحجرات حين وفدوا فى بنى تميم . الإصابة ٢٧٨٢ والمعارف ٣٦ ، ١٣١ والسيرة ٩٣٥ وزهر الآداب ١ : ٥ - ٦ .

(٤) عوف بن القعقاع بن معبد بن زرارة التميمى الدارمى . صحابى وفد مع أبيه إلى رسول الله وهو غلام . الإصابة ٦٠٩٥ ، ٧١٢٢ .

(٥) هو أبو محمد مروان بن محمد ، المعروف بأبى الشمقمق ، من شعراء البصرة ، قال المبرد : كان ربما لحن ويهزل كثيراً ويجد فيكثر صوابه . قدم بغداد فى أيام الرشيد ، وصاحب أبا نواس وأبا العتاهية ، وله قصة مع بشار ؛ توفى نحو سنة ١٨٠ . تاريخ بغداد ١٣ : ١٤٦ وابن خلكان فى تضاعيف ترجمة يزيد بن مزيد وطبقات ابن المعتز ١٢٦ - ١٣٠ .

(٦) بياض فى الأصل بمقدار كلمتين ، لعلهما « له رجل » .

(٧) المقطوعة التالية مما لم يرو فى ديوانه .

الجَرْدَقُ الحاضِرُ مَعْ بَضْعَةٍ   مِنْ ماعِزٍ رَخْصٍ ومِنْ طَيْرِ[١]

وجَرَّةٌ تَهْدِرُ مَلآنَةٌ   تَحْكِى قِراءَةَ القَسِّ فى الدَّيْرِ[٢]

وجُبَّةٌ دَكْناءُ فَضْفاضَةٌ   وطَيْلَسانٌ حَسَنُ النَّيْرِ

وبَغْلَةٌ شَهْباءُ طَيَّارَةٌ   تَطْوِى لِيَ البُلْدانَ فى السَّيْرِ

٢٢٩ ظ

وقَيْنَةٌ حَسْناءُ مَمْكُورَةٌ   يَصْرَعُها الشَّوْقُ إلى أَيْرِى[٣]

وبَدْرَةٌ مَمْلُوءَةٌ عَسْجَدًا   ما بِالَّذِى أَذْكُرُ مِنْ ضَيْرِ

ومَنْزِلٌ فى خَيْرِ ما جِيرَةٍ   قَدْ عُرِفُوا بِالخَيْرِ والمَيْرِ[٤]

وصاحِبٌ يَلْزَمُنِى دَهْرَهُ   مِثْلَ لُزُومِ الكَيْسِ لِلسَّيْرِ

مُساعِدٌ يُعْجِبُنِى فَهْمُهُ   مُرْتَفِعُ الهِمَّةِ فى الخَيْرِ

كَمْ مِنْ فَتًى تُبْصِرُ ذا هَيْئَةٍ   أَبْلَدَ فى المَجْلِسِ مِنْ عَيْرِ

وذكر أيضاً البغال ، فقال[٥] :

ما أَرانِى إلاَّ سَأَتْرُكُ بَغْدا   دَ وأَهْوِى لِكُورَةِ الأَهْوازِ[٦]

حَيْثُ لا تُنْكَرُ المَعازِفُ واللَّهْـ   ـوُ وشُرْبُ الفَتَى مِنَ القَمَّازِ

---

(١) الجردق : الرغيف ، فارسى معرب .

(٢) يعنى جرة النبيذ . والقراة : القراءة ، أى صوت نشيشها يشبه صوت القس . ط : « تحلى » خلافا لما فى الأصل .

(٣) المكورة : المدمجة الخلق المستديرة الساقين .

(٤) أى فى خير جيرة ، وهم الجيران . و « ما » زائدة . والمير : الطعام .

(٥) القصيده مما لم يرو فى ديوانه .

(٦) بغداد كذا وردت بالأصل هنا بدالين مهملتين ، وفى الموضع التالى بدال مهملة ثم بذال معجمة .

وجَوَارٍ كأنّهنّ نُجُومُ اللّيلِ زُهْرٌ مِثْلُ الظّباءِ الجوازِى[1]

واضِحَاتُ الْخُدودِ أُدْمٌ وبِيضٌ فَاتِنَاتٌ مِيلٌ مِنَ الأعْجَازِ[2]

بَيْنَ عَوّادَةٍ وَأُخْرَى بِصَنْجٍ فى بَسَاتِينِهَا وفِى الأَحْوَازِ

ذَاكَ خَيْرٌ مِنَ التَّرَدُّدِ فى بَغْدَاذَ تَنْزُو بِىَ البِغَالُ النَّوازِى[3]

كُلَّ يَوِمٍ فى كُمّةٍ وقَمِيصٍ ورِداءٍ مِنَ الغُبَارِ طِرازِى[4]

لَمْ يَحُكْهُ النَّسّاجُ يومًا لِبَيْعٍ لا ولا يُشْتَرَى مِنَ الْبَزّازِ

أَخَذَتْ أهلَهَا الشّياطِينُ بالرّكْضِ لِطُولِ الشّقَاءِ والإِعْوَازِ

كُلُّ شَيْخٍ تَخَالُه حِينَ يبدُو فَوقَ بِرذَوْنِهِ كَشَخْصٍ حِجَازِى

وَجَمِيلُ الفُسَيْلُ أعْنِى ابْنَ مَحْفُو ظٍ عَدُوُّ النَّدَى وسِلْمُ المَخَازِى

أَلِفَتْ اِسْتُهُ الفَيَاشِلَ حَتّى مَا تَشَكّى لِلطّعْنِ بالعُكّازِ

يأخُذُ الأَسْوَدَ الّذِى يَفْرَقُ الحَوّاءُ مِنْهُ كَدَسْتَجِ المِنْحَازِ[5]

لَيْثُ غَابٍ بِدُبْرِهِ حِينَ يَلْقَى وجَبَانٌ فى الحربِ يومَ البِرَازِ

---

(١) الزُّهر : البيض . والجوازئ : التى تجزأ بالرطب عن الماء ، أى تكتفى به .

(٢) الميل : جمع ميلاء ، وهى المائلة ، أثقلهن أعجازهن فملن فى مشيتهن . ط : « مثل من الإعجاز » ، خلافا لما فى الأصل .

(٣) بغداذ : لغة فى بغداد ، وفى ط : « بغداد » خلافاً لما فى الأصل .

(٤) يعنى الغبار الذى تثيره البغال .

(٥) يفرق ، من الفَرَق ، وهو الخوف . والدستج : اليد ، معرب دستك . انظر معجم استينجاس ٥٢٣ . والمنحاز : الهاوَن ، أى المِـدق .

٢٣٠ و

بَعُدتْ دَارُهُ فَلاَ رَدَّهُ اللّــــهُ ولا زَالَ نَائِىَ الدَّارِ شَازِى[١]

ذَاكَ شَخْصٌ بِهِ عَلَىَّ هَوَانٌ كَهَوَانِ الْخُصَى عَلَى الخَبَّازِ[٢]

[الخلق المركب]

أمّا ما ذكرنا من أجناس الحيوان المركّبات، كالبغل والشِّهرى[٣]، والمُقْرِف[٤]، والهَجين، وكالبُخْت والبَهْوَنَى[٥]، والصَّرْصَرَانىّ[٦]، والطير الوَرْدَانىّ[٧]، والحمام الراعِبىّ[٨]، فقد عرفنا كيف تراكيب ذلك، وعرفنا اختلاف الآباء والأمّهات. فأمّا السِّمْع والعِسْبار[٩]

(١) فى الأصل و ط : « سازى »، صوابه بالشين المعجمة. والشازى : القلِق، مقلوب شائز مع التسهيل، يقال شئز أى قلق. وأنشدوا لرؤبة :

* شازٍ بمن عوّه جدب المنطلق *

(٢) الخصى : جمع خصية. وفى الأصل وط : « الحصى » صوابه ما أثبت، والخصى من أهون اللحوم. والخباز : المراد به الطاهى الذى يجمع بين الخبز والطهو. انظر تحقيق هذا فى حواشى الحيوان ٥ : ٤٥٧.

(٣) الشهرى، بالكسر : ضرب من البراذين، وهو بين البرذون والمقرف من الخيل.

(٤) المقرف، بكسر الراء : الذى أمه عربية وأبوه عجمى.

(٥) انظر ما سبق فى ص ٣٢٢.

(٦) الصرصرانى من الإبل : ما بين البخت والعراب.

(٧) الوردانى : ضرب من الحمام المشترك الخلق. انظر الحيوان ١ : ١٠٣ و ٣ : ١٦٣، ٢٠٢.

(٨) الراعبى : ضرب آخر من الحمام المركب، واسمه مشتق من الترعيب، وهو شدة الصوت. انظر الحيوان ١ : ١٣٧، ٢٢٢ و ٣ : ١٦٢، ٢٠٢.

(٩) انظر ما سبق فى ص ٢٩٧.

والدَّيْسَم[١] والعُدَار[٢] والزّرافة ، فهذا شيء لم أُحقّه .

وقد أكثر[٣] الناسُ فى هـذا وفى اللَّخْم ، وفى الكَوْسج[٤] ، وفى الدُّلفين[٥] ، وفيما يترا كبُ بين الثعلب والسِّنَّوْر البرّىّ[٦] ، فإنّ هذا كلّه إنما نسمعه فى الأشعار ، فى البيت بعد البيت، ومن أفواه رجالٍ لا يُعْرفون بالتحصيل والتثبُّت ، وليسوا بأصحاب توقٍّ وتوقُّف .

وإذا كان إياس بن مُعاوية القاضى[٧] زعَم أن الشَّبُّوطة إنما خُلِقَت من بين الزَّجْر والبُنّىّ[٨] ، وأنّ من الدليل على ذلك أن الشبّوطة لا يُوجد فى جوْفها بَيْضٌ أبداً ، لأنها كالبغلة ، فأنا[٩] رأيتُ فى جوفها البيْض مرارًا ، ولكنّه بَيضٌ سَوْء لا يؤكل ، ليس بالعظيم ، ولا يستطيل فى البَطْن كما يستطيل بيضُ جميع أناث السمك .

---

(١) الديسم : ولد الذئب من الكلبة . الحيوان ١ : ١٨٣ .

(٢) العدار ، بضم العين ، ذكر الجاحظ فى الحيوان ٧ : ١٧٨ أنها دابة تنكح الناس باليمن .

(٣) فى الأصل : « أكثروا » .

(٤) انظر ما سبق فى ص ٢٩٧ .

(٥) الدلفين : ضرب من السمك الذى يلد . الحيوان ٧ : ١٢٦ . وفى القاموس : « الدلفين بالضم : دابة بحرية تنجى الغريق » .

(٦) فى الحيوان ١ : ١٤٥ أن الثعلب يسفد الهرة الوحشية فيخرج بينهما ولد ، وأنشد لحسان :

يبيت أبوك بها مغـدفا كما ساور الهـرة الثعلب

(٧) انظر حواشى البيان ١ : ٩٨ .

(٨) انظر الحيوان ٦ : ١٨ .

(٩) فى الأصل : « وأنا » .

والشَّبُّوط جنس يكون ذُكرانه أكثرَ ، فلا يكاد إنسانٌ يَقلّ أكله للشبوط يرى بيضَ الشَّبُّوط . فإذا كان إياسٌ يغلط هذا الغلَط ، فما ظنُّك بمن دونه .

[زواج الإنس بالجن]

وقد يكون هذا الذى نَسمعه من اليمانيَة والقَحْطانية ، ونقرؤه فى كتب السِّيرة ، قَصَّ به القُصّاصُ ، وسَمَرُوا به عند الملوك .

وزعموا أنّ بِلقيس بنت ذى مشرح[1] ، وهى ملكة سبأ ، ذكرها الله فى القرآن ، فقال : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ[2] ﴾ ، زعموا أن أمّها جِنّيّة ، وأن أباها إنسىّ[3] ، غير أن تلك الجنّيّة وَلَدَت إنسيّةً خالصةً صِرْفًا بحتًا ، ليس فيها شَوْب ، ولا نَزَعَها عِرْق ، ولا جَذَبها شَبَه ، وأنّها كانت كإحدى نساء الملوك .

فأحسَبُ أنّ التناكُح يكون بين الجنّ والإنس ، من أين أوجبوا التلاقُح ، ونحن نجد الأعرابىّ والشابَّ الشَّبِق ، ينيكان الناقة والبقرة والعنز والنعجة ، وأجناساً كثيرة ، فيُفرِغون نُطَفهم فى أفواه أرحامها ، ولم نر ولا سمعنا على طول الدهر ، وكثرةِ هذا العمَل الذى يكون من السُّفهاء ، ألقحَ منها شيء من هـذه الأجناس ، والأجناس على حالهم من لحم ودَم ، ومن النُّطف خُلِقوا . وأصل الإنسان من طين ، والجانّ خُلِق من نار السَّموم ، فشَبَهُ ما بين الجنّ والإنس ، أبعد من شَبَه ما بين الإنسان والقِرْد . وكان ينبغى للقِرَدة أن تَلقَح من الإنسان . ٢٣٠ هـ

(١) كذا فى الأصل . وانظر ما سبق فى ص ٢٢٩ .

(٢) الآية ٢٣ من سورة النمل .

(٣) انظر الحيوان ١ : ١٧٧ و ٦ : ١٨٧ ، ٢٦٩ .

[الصرع والاستهواء]

ومن العَجَب أنّهم يزعُمون أنّما تُصرَع المرأةُ لأنّ واحدًا من الجنّ عشِقها، وأنه لم يأتِها إلّا على شهوة الذّكَر للأنثى، أو شهوة الأُنثى للذّكَر.

وقيل لعَمْرو بن عُبَيْد[١]: أيكون أن يَصْرع شيطانٌ إنساناً؟ قال: لو لم يكن ذلك لما ضرب اللهُ به المَثَل لآكل الرِّبا حيث يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ[٢]﴾. فهذا شيء واضح. قال[٣]: ثم وقَفْنا على رجلٍ مصروع، فقلتُ له: أرأيتَ هذا الصَّرْع، تزعُم أنه من شيطانه؟ قال: أمّا هذا بعينه فلا أدرى أمِن فَساد مِرّة وبَلْغَمٍ، أم من شيطان؛ وما أُنكِر أن يكون خَبْطَ شيطانٍ وصرعَه، وكيف لا يجوز ذلك مع ما سمعنا فى القرآن؟

قال: وسمعته، وسأله سائلٌ عن رجلٍ هامَ على وجهه، مثل عَمْرو بن عَدِىّ[٤]

---

(١) سبقت ترجمته فى ١ : ٣٢٦.

(٢) الآية ٢٧٥ من سورة البقرة.

(٣) أى قال القائل، لا الجاحظ، فإن الجاحظ ولد سنة ١٥٥ بعد وفاة عمرو بن عبيد سنة ١٤٢.

(٤) فى الأصل: «عمرو بن عدس» تحريف. وانظر الحيوان ١ : ٣٠٢ و ٦ : ٢٠٩. حيث ذكر فى الموضع الأخير أن الجن ردته على خاله جذيمة بعد سنين وسنين. وهو عمرو بن عدى بن نصر، أحد ملوك الحيرة، وهو الذى حارب الزباء ثأراً لخاله جذيمة. فسار إليها فى ألفى دارع على ألف بعير فى جوالق، بحيلة دبرها قصير الذى جدع أنف نفسه احتيالا، وانتهى الأمر بمقتل الزباء. انظر كامل ابن الأثير ١ : ١٩٨ والطبرى ٢ : ٣١ ومروج الذهب ١ : ٢٨٠ وشرح المقامات للشريشى ٢ : ٧ وأمثال الميدانى فى (خطب يسير فى خطب كبير) ١ : ٣١٣ و (كبر عمرو عن الطوق) ٢ : ٧٥ والعمدة ٢ : ١٧٨.

صاحب جَذيمة الوضاح[١] ، ومثل عُمَارة بن الوليد[٢] ، وطالب بن أبى طالب[٣] ، فقال : قد قال الله : ﴿ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فى الأرض[٤] ﴾ .

وأنا أعلم أنّ فى الناس مَن قد استهوته الشياطين ، ولستُ أقضى على الجميع بمثل ذلك . وقد قالوا فى الغَرِيض المغنّى[٥] ، وسَعْد بن عُبادة[٦] وغيرهما ، وهذا عندنا قولٌ عدلٌ .

---

(١) هو جذيمة بن مالك بن فهم بن عمرو بن دوس بن الأزد . كان ثانى ملوك الحيرة . وأول ملوكها أبوه مالك بن فهم ، كما فى العمدة ٢ : ١٧٨ . وجذيمة هذا خال عمرو بن عدى . وسمى الوضاح لوضح كان به ، أى برص . ويسمى «الأبرش» أيضاً لذلك .

(٢) هو عمارة بن الوليد بن المغيرة ، وهو الذى نزل فيه قول الله : « ذرنى ومن خلقت وحيداً » ، قال ابن حجر فى الإصابة ٦٨١١ : « الصواب أنه مات كافرا ، لأن قريشاً بعثوه إلى النجاشى فجرت له معه قصة ، فأصيب بعقله وهام مع الوحش » . وانظر الحيوان ٦ : ٢١٠ .

(٣) الحيوان ٦ : ٢٠٩ والاشتقاق ٦٣ وجمهرة أنساب ابن حزم ١٤ . وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنشد له ابن هشام فى السيرة شعراً يمدح فيه رسول الله ويبكى أصحاب القليب من قريش يوم بدر .

(٤) الآية ٧١ من سورة الأنعام .

(٥) الغريض لقب له ؛ لأنه كان طرى الوجه غض الشباب . واسمه عبد الملك ، وكان من الموالى ، ونشأ خياطاً ثم أخذ الغناء بمكة عن ابن سريج وذكر أبو الفرج فى الأغانى ٢ : ١٣٦ ، ١٤٣ أن الجن نهته أن يغنى لحنه الذى يقول فيه :

تشرب لون الرازقى بياضه أو الزعفران خالط المسك رادعه

فمكث على ذلك دهراً ، فلما أغضبه مواليه تغناه، فقتلته الجن فى ذلك .

(٦) سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرجى ، كان سيد الخزرج وممن =

[رجع إلى زواج الإنس بالجن]

وكلّ ما قالوا من أحاديثهم فى الخلق المركّب ، فهو أيسر من قولهم فى وِلادة بِلقيس[(١)] .

وهم يَرْوُون فى رواياتهم فى تزويج الإنسان من الجنّ ، حتى جعلوا قول الشاعر[(٢)] :

يَا قَاتَلَ اللهُ بَنِي السِّعْلاَةِ عَمْرًا وقَابُوسًا شِرَارَ النَّاتِ

ـ يريد : الناس ـ أنه الدليل[(٣)] على أن السِّعلاة تلِد الناس .

هـذا سوى ما قالوا فى الشِّقّ[(٤)] ووَاق وَاق[(٥)] ودُوَال باى[(٦)] ، وفى الناس والنَّسْناس[(٧)] .

= له بلاء حسن فى الإسلام ، وكان يكتب فى الجاهلية ، ويحسن العوم والرمى . توفى بحوران لسنتين ونصف من خلافة عمر . المعارف ١١٢ والسيرة ٢٩٨ والاشتقاق ٤٥٦ . وذكر الجاحظ فى الحيوان ٦ : ٢٠٩ أن الجن قد رثته بشعر .

(١) انظر ما سبق فى ص ٣٧١ . وخبر ولادتها من جنية فى التيجان لوهب ابن منبه ص ١٣٥ – ١٣٧ .

(٢) هو علباء بن أرقم ، كما فى حواشى الحيوان ٦ : ١٦١ حيث تخريج الرجز

(٣) فى الأصل : « أن الدليل » .

(٤) انظر الحيوان ١ : ١٨٩ و ٦ : ٢٠٦ و ٧ : ١٧٨ .

(٥) زعموا أنه نتاج ما بين نبات وحيوان . الحيوان ١ : ١٨٩ . وانظر أيضاً ٧ : ١٧٨ وحياة الحيوان للدميرى فى آخر الـكلام على (السعلاة) .

(٦) زعموا فيه كما زعموا فى سابقه . الحيوان ١ : ١٨٩ و ٧ : ١٧٨ . وفى معجم استينجاس ٥٣٩ أن « دوال پاى » يطلق على جنس هندى يزعمون أنه له أرجلا دقيقة مرنة شبيهة بالسيور ، فهو كسيح يتحين فرصة العثور على المسافرين ويلح عليهم ليحملوه .

(٧) زعموا أن الناس مركب بين الشق والإنسان . الحيوان ١ : ١٨٩ .

ولم يرضَ الكُمَيت بهذا حتى قال :

* نِسْنَاسُهُمْ والنَّسَانِسَا[1] *

فقسم الأقسام على ثلاثة : على الناس ، والنَّسْناس ، والنَّسانِس .

وتزعُم أعراب بنى مُرّة أنّ الجن إنما استهوَتْ سِناناً[2] لتستفحله إذْ كان مُنْجباً ، وسنانٌ إنّما هام على وجهه . وقال رجل من العرب : « والله لقد كان سِنانٌ أحزمَ من فَرْخ العُقاب[3] » .

٢٣١ و

[البراذين والخيل]

وقال محمد بن سَلّام الجُمَحِيّ : قلت ليونس بن حبيب : آلبراذين من الخيل ؟ فأنشدني :

وإنّى امْرُؤٌ لِلْخَيْلِ عِنْدِى مَزِيَّةٌ ... عَلَى فَارِسِ البِرْذَوْنِ أو فَارِسِ البَغْلِ

وقالوا : إنما ذهب الشاعر من اسم الخيل إلى العِتاق .

وإنما يُوصف الفرس العتيق بصفة الإنسان من بين جميع الحيوان ، يقولون : فرَس كريم ، وفرس جَواد ، وفرس رائع .

---

(١) وكذا أنشد هذا الجزء فى الحيوان ١ : ١٧٨ .

(٢) هو سنان بن أبى حارثة المرى ، والد هرم بن سنان ممدوح زهير كما سبق فى حواشى ص ٣٤٤ . وتجد زعم استهوائه ـ أى الذهاب به ـ فى الحيوان ٣ : ٤٩٠ و ٧ : ٢٠٩ والأغانى ٩ : ١٤٤ .

(٣) الحيوان ٧ : ٢٤ وأمثال الميدانى ١ : ٢٠٢ . حين فسر حزم فرخ العقاب فى إسهاب .

فأمَّا قولهم « كريم » و « عتيق » ، فإنَّما يريدون أن يُبْرِءوه[١] من الهُجنة والإقراف ، وكيف يجعلون البرذون لاحقاً بالعتيق ، وإنْ دخل الفرسَ من أعراق البراذين شيء هجَّنه ؟

وفى القرآن : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ[٢] ﴾ حين أراد أن يعدِّد أصناف نِعَمِه ؛ أفتراه ذكر نِعَمَه فى الحمار والبغل ، ويدَعُ نِعْمته فى البراذين ، والبراذينُ أكثر من البغال ، ولعلَّها أكثر من الحمير الأهليّة ، التى هى للركوب ، لأنّ الله تعالى قال : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ ؟ وحُمُر الوَحْش وإن كانت حميرًا فليست بمراكب . وفُرْسان العَجَم تختار فى الحرب البَراذين على العِتاق ، لأنها أحسن مُواتاة . والفحْل والحِصان من العِتاق ربَّما شمَّ ريح الحِجْر فى جيش الأعداء ، فتقحَّم بفارسه حتّى يعطَب ، ولذلك اختاروا البراذين للصَّوالجة والطَّبْطابات[٣] والمُشاولة[٤] ، وإنما أرادوا بذلك كلِّه أن يكون دُربةً للحرب وتمريناً وتأسيسًا .

فأكثر الحمير والبغال تُتَّخذ لغير الركوب ، وليس فى البراذين طحّانات ولا نقّالات ، ولا تُكْسَح عليها الأرض إلا فى الفَرْط . فكيف يدع ذكر ماهو أعظم فى المنفعة ، وأظهرُ فى النِّعمة ، مع الجمال والوطاءة[٥] إلى ذكرِ مالا يُدانيه ؟

---

(١) أى يبرئوه ، يقال أبرأه من العيب إبراء وبرأه تبريئاً ، أى خلصه ونزهه .

(٢) الآية ٨ من سورة النحل .

(٣) جمع طبطاب ، وهو مضرب الكرة . انظر ما سبق فى ١ : ٢١ .

(٤) المشاولة : المطاعنة بالرماح . وانظر ما سبق فى ١ : ٢٠ .

(٥) الوطاءة : اللين والسهولة . وفى الأصل : « الوطا » . وانظر ما سبق فى ص ٢٢٠ ، ٢٣٦ .

[ركوب البغال واختيارها للحرب]

قال : وممّا يهجّن شأنَ البغل ويُخبِر[1] عن إبطائه عند الحاجة إلى سُرعته ، أنّ القائد الشُّجاع ، والرئيس المُطاع ، إذا أراد أن يُعلِم أصحابَه أنه ٢٣١ ظ لا يفِرُّ ، حتى يفتحَ اللهُ عليه أو يُقتَل ، ركب بغلاً . ولذلك قال الشاعر :

إذا رَكِبَ الأَسْوَارُ بَغْلاً وبَغْلَةً ... لدَى الحَرْبِ والهَيْجاء قَدْ شُبَّ نَارُهَا[2]

فَذاكَ دليلٌ لا يُخِيلُ ، وعَزْمَةٌ ... على الصَّبْرِ حتّى يُسْتَبانَ بِشَارُهَا[3]

وذُو الصَّبْرِ أَوْلَاهُمْ بِكُلِّ سَلَامَةٍ ... وبِالصَّبْرِ يَبْدُو عُقْبُهَا وعِيَارُهَا[4]

ذهب إلى قول أبي بكر ، رضى الله عنه ، لخالد بن الوليد : « احْرِصْ عَلَى الموت تُوهبْ لك الحياة » .

يقول : إذا صبَرتم ولم تفرّوا ، هزمتُم العدوّ ، فصار صبركم سببًا لحياتكم .

وحدّثني نَهِيك بن أحمد بن نَهِيك ، كاتبُ عبد الله بن طاهر ، قال : اقتتل أصحاب الأمير عبد الله بن طاهر ، وأصحاب نَصْر بن شَبَث يومًا على باب كَيسوم[5] ، ونصرٌ في آخرِ القوم جالسٌ على مصلًّى ، محتبٍ بحمائل سيفه ،

---

(١) في ط : « ويحيد » ، خلافا لما أثبت واضحا من الأصل .

(٢) الأسوار ، بضم الهمزة وكسرها : الجيد الرمي بالسهام ، والجيد الثبات على ظهر الفرس ، وأصله قائد الفُرس .

(٣) لا يخيل : لا يشتبه ويشكل والبشار : المباشرة ؛ باشر الأمر : حضره بنفسه .

(٤) العيار : مصدر عار الفرس يعير : ذهب كأنه منفلت عن صاحبه .

(٥) كيسوم : قرية من أعمال سميساط ، فيها حصن كبير على تلعة ، كان ذلك الحصن لنصر بن شبث تحصن فيه من المأمون حتى ظفر به عبدالله بن طاهر فأخرجه . انظر معجم البلدان ، وكان إخراجه من الحصن سنة ٢٠٩ بعد حرب دامت خمس سنوات . الطبري وابن الأثير في حوادث سنة ٢٠٩ واليعقوبي ٣ : ١٨٣ . وفي ط : « كيوم » خلافا لما في الأصل .

وبين يديه بغل مُسْرَج مجلّل ، واللهِ ما أدرى أكان الجُلّ تحت اللِّبْد ، أم كان فوق السَّرج ، وشدّ عُزَيز على أصحاب نصر شَدَّةً كَشَفَتْهم[1] ، حتى جاوزوا مكان نصر ، وصار عُزيز بحذاء نصر ، ونصرٌ جالس ؛ فلما رأى ذلك وثب وَثْبةً فإذا هو على ظهر البغل ، وقال : مكانَك يا عزيز ! أتبلغ إلى موضعى ، وتطأ حريمى ؟! ثم شدّ نحوه على بغلهِ ، وعُزَيز على برذونٍ ، فعزف — والله — عزيزٌ عنه ، وعزيز يومئذ فارس العسكر غير مُدافَع .

[نقد تشبيه البغل بالكلب]

وأنشدوا فى البغل :

أَرَدْتَ مَديحَ البَغْلِ يا شَيْخَ مَذْحِجٍ ... فَجِئْتَ بِشَيْءٍ صَيَّرَ البَغلَ كالْكَلْبِ
وحَسْبُكَ لُؤْمًا بالْكِلاَبِ ودِقَّةً ... وقَدْ ثَمَّنُوا شَرْوَاهُ شَأْوًا مِنَ التُّرْبِ[2]

لأن فى الحديث : إنّ دِيَةَ الكلب زَبِيلٌ من تُراب ، حَقّ على القاتل أن يفعله ، وحَقّ على صاحب الكلب أن يَقْبَله[3] .

تم الكتاب بعون الله تعالى ومنّه

يتلوه كتاب الحنين إلى الأوطان ، والحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وسلامُه .

---

(١) ط : « نسفتهم » ، خلافا لما هو واضح فى الأصل .

(٢) الدقة : الخسة والحقارة . والكلمة واضحة فى الأصل ، ووردت فى ط : « وذمة » . وشروى الشىء : مثله . والشأو : زبيل من تراب يخرج من البئر .

(٣) انظر الحديث فى الحيوان ١ : ٢٩٣ مطولا مع تفسير الجاحظ له . وهو من حديث عبد الله بن عمر .

١٧

رسالة

الحنين إلى الأوطان

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذا هو الكتاب السابع عشر من مجموعة رسائل الجاحظ ، وعنوانه :

« رسالة فى الحنين إلى الأوطان »

وقد ذكره بروكلمان فى كتابه ٣ : ١١٦ ليسرد مخطوطاته ومطبوعاته ، وهى نسخة داماد إبراهيم ٧٤٩ : ١٧ ونسخة الموصل ١٣٦ ، ٣٣٣ ، ٦ ، ٢٦٥ : ١٥ .

ولم تبق من مخطوطات هذا الكتاب إلا مخطوطة داماد إبراهيم ، وأما نسخة الموصل وهى التى كانت محفوظة فى مكتبة أمين الجليلى فقد فقدت فلم يعرف مصيرها ، كما ذكر الدكتور داود الجلبى مؤلف كتاب مخطوطات الموصل[1] .

ولم أجد لهذه الرسالة ذكراً فى مرجع من المراجع القديمة ، ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين ، ومنهم الأستاذ حسن السندوبى فى كتابه (أدب الجاحظ ص ١٥٣) أن يزعم أنه ليس للجاحظ . وقد ساق الأستاذ السندوبى هذه الرسالة فى ثبت الكتب التى نسبت للجاحظ وليست له ، وقال : من قرأ هذا وقرنه بشىء من كتب الجاحظ أو وازن بينه وبين طريقته فى التأليف ، لا يشك مطلقا فى أن الجاحظ منه براء ، وأنه من تلفيق الوراقين الذين يجمعون شتى العبارات إلى بعضها فى كتاب ، ثم ينسبونه إلى مؤلف مشهور ليلق الرواج عند الناس . ومن العجب أن الشيخ طاهر الجزائرى رحمه الله وهو الذى وقف على طبعه يخدع به ، ولا يفطن إلى أن نسبته إلى الجاحظ كذب وافتراء » .

وقال بروكلمان فى كتابه ٣ : ١٢٨ : « أما اتهام السندوبى فى الرسائل ١٥٣ لكتاب الحنين إلى الأوطان بأنه منحول للجاحظ فهذا أمر يعسر القطع به » .

وفى الحق أن هذا الكتاب لا يحمل سمة من السمات التى توحى بأن الكتاب ليس من صنع الجاحظ ، فهو جار على طريقته فى التأليف ونهجه ، فإنه اختيارات

---

(١) انظر مقدمة مجموع رسائل الجاحظ نشر باول كراوس والدكتور محمد طه الحاجرى ص (و) .

مختلفة تتعلق بموضوع الحنين إلى الأوطان ، يربط الجاحظ بينها ويبوبها ذلك التبويب الساذج الذى عهدناه من الجاحظ . وأسلوبه التعبيرى لا يجافى ما عهدناه أيضاً من بيانه . ومقدمة الكتاب آية على ذلك .

كما أنه ليس فى نصوص الكتاب ، ولا فى رجاله ، ولا فى حوادثه ما يجاوز زمنه زمان الجاحظ .

ونلقى كذلك كثيراً من النصوص المشتركة بين الكتاب وبين سائر كتب الجاحظ . وتلك سمة نعرفها من سمات تأليفه[1] .

وهو كذلك يذكر أقوال الفرس ، وكلام الحكماء والفلاسفة ونوادر الأعراب وأهل البادية فيما يعن من مناسبة . وقد جرى على هذا النمط فى سائر كتبه .

أما ما ورد فى ص ٢٣٧ و — ٢٣٧ ظ من قوله : « وقال أبو عثمان . . . » فله نظير فى كتبه .

ففى الحيوان ٧ : ١٦٨ : « قال أبو عثمان : ومما أكتب لك من الأخبار العجيبة » . وفى ٧ : ١٨٣ : « قال أبو عثمان : وقد رأيت أنا فى عين الفيل من صحة الفهم والتأمل إذا نظر بها » . وفى ٧ : ٢٠٨ : « وقال أبو عثمان : ويوصف جلد الفيل وجلد الجاموس بالقوة » .

وفى الجزء الأول من هذه الرسائل ص ٢٦٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٧٩ . وكذا فى الجزء الثانى منها ص ١٩٩ نصوص مصدرة بعبارة «قال أبو عثمان» .

وليس هذا يبدع فى كتب الرعيل الأول من علماء العرب وأدبائهم، فعلى ذلك كله تنتفى الريبة فى أن يكون هذا الكتاب منحولا ، بل هو جاحظى جاحظى .

وأما بعد فإن لهذا الكتاب أصلين هما :

١ — الأصل الأول نسخة داماد ، وهى المعبر عنها بالأصل .

٢ — الأصل الثانى النسخة التيمورية ، وهى فى الخزانة التيمورية الملحقة بدار الكتب برقم (٣٥١ أدب مجاميع) . وهى مجموعة تشتمل على :

١ — كتاب المبهج للثعالبى ص ٢ — ٤٣ .

٢ — التشابه للثعالبى ص ٤٤ — ٨٥ .

---

(١) انظر على وجه المثال ما ورد فى كتاب مناقب الترك ص ٦٤ — ٦٥ من الجزء الأول من الرسائل، مما يتعلق بذكر الحنين إلى الأوطان ، وما سيرد فى حواشى هذا الكتاب .

٣ — رسالة فى الحنين إلى الأوطان ص ٥٩ — ٧٠ .

٤ — الوشى المرقوم فى حل المنظوم لابن الأثير ٧٢ — ١٧٩ .

٥ — الطرائف واللطائف للثعالبى ، وضم إليه المقدسى كتاب اليواقيت . ص ١٨٠ — ٣٢١ .

٦ — مرآة المروءات للثعالبى ٣٢٢ — ٣٤٨ .

والمجموعة بخط أمين العمرى سنة ١١٧١ وفيها نصوص على المقابلة على الأصول التى نقل عنها .

فمن نتاج هاتين النسختين ، والمقابلة على النسخة المطبوعة التى نشرها الشيخ طاهر الجزائرى بمطبعة المنار سنة ١٣٣٣ عن نسخة التيمورية . وهى فى ٣٨ صفحة رجع فى تصحيحها كما يقول إلى « كثير من أمهات كتب الأدب فصحت بقدر الإمكان » صنعت نسختى هذه .

وأحب أن أذكر أن الشيخ الجزائرى مع فضله الظاهر فى تصحيح النسخة لم يتبع النهج العلمى للنشر ؛ إذ نراه قد بدل كثيراً من النصوص دون الإشارة إلى مافى أصله المخطوط ، كما يتضح من المقارنة التى أجريتها فى نشرتى هذه .

وقد أشرت إلى نشرته بالرمز (ط) .

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ لكلّ شيء من العلم، ونوعٍ من الحكمة، وصِنفٍ من الأدب، سببًا يدعو إلى تأليف ما كان فيه مشتّتًا، ومعنًى يحدو على جمع ما كان منه متفرقًا[1]. ومتى أغفل حَمَلةُ الأدب وأهل المعرفة تمييزَ الأخبار واستنباط الآثار، وضمَّ كلّ جوهرٍ نفيسٍ إلى شِكله، وتأليف كلّ نادر من الحكمة إلى مِثله — بطَلت الحكمةُ وضاع العلم، وأُميت الأدبُ، ودَرَس مستور كلّ نادر.

ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر، ونقرهم آثار الأوائل فى الصَّخر، لبطَل أولُ العلم وضاع آخِره. ولذلك قيل: «لا يزالُ الناس بخيرٍ ما بقىَ الأولُ يتعلمُ منه الآخِر».

وإن السبب الذى بعثَ[2] على جمع نتفٍ من أخبار العرب فى حنينها إلى أوطانها، وشوقها إلى تُربها وبلدانها، ووصفها فى أشعارها توقُّدَ النار فى أكبادها، أنّى فاوضتُ بعضَ من انتقل من الملوك [فى[3]] ذكر الدِّيار، والنِّزاع إلى الأوطان، فسمعته يذكر أنه اغترب من بلدِه[4] إلى آخرَ أمهدَ من وطنه، وأعمر مِن مكانه، وأخصبَ من جَنابه. ولم يزلْ

---

(١) فى الأصل: «جمعهم»، صوابه فى التيمورية و ط. وكلمة «منه» ثابتة فى الأصل فقط.

(٢) الذى بعث، ساقطة من ط والتيمورية.

(٣) ساقطة من الأصل، وإثباتها من التيمورية. وفاوض لاتتعدى إلى اثنين.

(٤) ط والتيمورية: «من بلد».

عظيمَ الشأنِ جليلَ السُّلطان ، تدين له من عشائر العرب ساداتُها وفِتيانها ، ومن شعوب العجم أنجادها وشُجعانها ، يقود الجيوش ويَسُوس الحروب ، وليس ببابه إلا راغبٌ إليه ، أو راهبٌ منه ؛ فكان إذا ذكر التُّربة والوطنَ حنّ إليه حنينَ الإبل إلى أعطانها ، وكان كما قال الشاعر :

إذا ما ذكرتُ الثَّغر فاضت مدامعى وأضحى فؤادى نُهبةً للهَماهِمِ[1]

حنيناً إلى أرضٍ بها اخضرَّ شاربى وحُلَّت بها عنِّى عُقودُ التمائمِ

وألطفُ قومٍ بالفتى أهلُ أرضه وأرعاهمُ للمرء حقَّ التقادُمِ

وكما قال الآخر[2] :

يَقَرُّ بعينى أن أرى مَنْ مكانُه ذُرى عَقِدات الأبرق المتقاودِ[3]

وأن أردَ الماء الذى شربتْ به سُليمى وقد ملّ السُّرى كلُّ واخدِ[4]

وأُلصق أحشائى ببرد ترابها وإن كان مخلوطاً بُسمِّ الأساودِ[5] ٢٣٣ و

---

(١) المحاسن والمساوى للبيهقى ١ : ٤٩١ . والهمهمة : الكلام الخفى ، والمراد الهواجس .

(٢) هو نبهان بن عكى العبشمى ، كما فى الكامل ٣١ واللآلى ٢٢٦ وزهر الآداب ٩٤٠ نقلا عن المبرد . وعزيت النسبة فى زهر الآداب أيضا إلى حليمة الخضرية فى رواية الزبير بن بكار . وانظر أمالى القالى ١ : ٦٣ وعيون الأخبار ٤ : ١٣٨ .

(٣) العقد بفتح فكسر : المتراكم من الرمل ، واحدته عقدة . والمتقاود : المستطيل على وجه الأرض ، يقال قاد ، وانقاد ، وتقاود ، أى استطال .

(٤) الواخد ، بالخاء المعجمة ، عنى به من وخد به بعيره ، أى أسرع ووسع الخطو . وفى الكامل : « كل واجد » بالجيم .

(٥) كذا فى الأصل والتيمورية ، فالضمير فى « ترابها » عائد إلى العقدات . وفى سائر المراجع : « ببرد ترابه » ، بعود الضمير إلى الماء .

فقلت : لئن قلتَ ذلك لقد قالت العجم : مِن علامة الرُّشد أن تكون النفسُ إلى مَولِدِها مشتاقة ، وإلى مَسقِط رأسها توّاقة[١] .

وقالت الهند : حُرمة بلدِك عليك مِثل حرمة أبويك[٢] ؛ لأنّ غذاءك منهما ، وغذاءهما منه[٣] .

وقال آخر : احفظ بلداً رشَّحك غِذاؤه[٤] ، وارعَ حِمًى أكنَّك فِناؤه[٥] . وأولَى البُلدان بصبابتك إليه بلدٌ رضِعتَ ماءه ، وطعِمتَ غذاءه .

وكان يقال : أرضُ الرجُلِ ظِئرُه ، ودارُه مَهده[٦] . والغريب النائى عن بلده ، المتنحّى عن أهله ، كالثّور النادِّ عن وطنه[٧] ، الذى هو لكلّ رامٍ قَنيصة .

---

(١) وكذا فى محاضرات الراغب ٢ : ٢٧٦ . وفى المحاسن والمساوى ١ : ٤٩٦ « إلى أوطانها مشتاقة ، وإلى مولدها تواقة » .

(٢) ط فقط : « كحرمة » .

(٣) ط : « لأن غذاك منهما وأنت جنين » وكلمة « وأنت جنين » لم ترد فى أصل أو مرجع . انظر ديوان المعانى ٢ : ١٨٨ . وفى الأصل والتيمورية وديوان المعانى : « وغذاءهما منك » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٤) الترشيح : التربية والتقوية . فى الأصل والتيمورية : « أرشحك » ، والوجه ما أثبت من محاضرات الراغب ٢ : ٢٧٦ .

(٥) فى الأصل : « أكدك » وفى هامشه : « ظ : أكنك » أى الظاهر أن صوابه « أكنك » . وفى التيمورية : « أكداك » ، وما أثبت مطابقاً لما فى ط ومحاضرات الراغب هو الصواب .

(٦) ديوان المعانى ٢ : ١٨٨ .

(٧) ند يند ندودا : شرد وذهب على وجهه . التيمورية « الناذ » ، صوابه فى الأصل وط .

وقال آخر : الكريم يحنُّ إلى جَنابه ، كما يحنُّ الأسَد إلى غابِه[١] .

وقال آخر : الجالى عن مسقط رأسه ومحلِّ رضاعِه ، كالعَير الناشط عن بلده[٢] ، الذى هو لكل سبعٍ قنيصة ، ولكلِّ رامٍ درِيئة .

وقال آخر : تُربة الصبا تَغرس فى القلب حُرمة وحلاوة ، كما تغرس الولادةُ فى القلب رقّةً وحفاوة .

وقال آخر : أحقُّ البُلدان بنزاعكَ إليه بلدٌ أمصَّكَ حَلَبَ رَضاعِه .

وقال آخر : إذا كان الطائر يحنُّ إلى أوكاره ، فالإنسانُ أحقُّ بالحنين إلى أوطانه .

وقالت الحكماء[٣] : الحنين من رقّة القلب ، ورقّة القلب من الرِّعاية ، والرِّعاية من الرَّحمة ، والرَّحمة من كرم الفطرة ، وكرم الفطرة من طهارة الرِّشدة ، وطهارة الرِّشدة من كرم المحتد .

وقال آخر : ميلك إلى مولدك[٤] من كرم محتِدك .

وقال آخر : عُسرك فى دارك أعزُّ لك من يُسرك فى غربتك[٥] .

---

(١) كلمة « الأسد » ساقطة من الأصل والتيمورية ، وإثباتها من زهر الآداب وط .

(٢) الناشط : الثور الوحشى يخرج من بلد إلى بلد ، ومن أرض إلى أرض . وفى المحاسن للبيهقى ١ : ٤٩٠ : « الناشز » ولا وجه له . وانظر سائر الرواية فيه .

(٣) انظر ديوان المعانى ٢ : ١٨٨ .

(٤) فى محاضرات الراغب ٢ : ٢٧٦ : « ميلك إلى بلدك » .

(٥) فى المحاسن والمساوى ١ : ٤٩٠ : « عسرك فى بلدك خير من يسرك فى غربتك » .

وأنشد :

لقربُ الدار فى الإقتــار خيرٌ من العيش الموسَّع فى اغترابِ[١]

وقال آخر : الغريب[٢] كالغَرْس الذى زايل أرضــه ، وفقد شِرْبَه ، فهو ذاوٍ لا يثمر ، وذابلٌ لا ينضُر[٣] .

وقال بعض الفلاسفة : فطرة الرجل معجونةٌ بحبِّ الوطن[٤] .

ولذلك قال بُقراط : يُدَاوَى كلُّ عليلٍ بعقاقير أرضه ؛ فإنّ الطبيعة تَتَطلّع[٥] لهوائها ، وتنزِع إلى غذائها[٦] .

ظ ٢٣٣

وقال أفلاطون : غذاء الطبيعة من أنجع أدويتها[٧] .

وقال جالينُوس : يتروّح العليل بنسيم أرضه ، كما تنبت الحبة ببَلِّ القَطْر[٨] .

والقول فى حبِّ الناس الوطن وافتخارهم بالمحالِّ قد سبق ، فوجدنا الناسَ بأوطانهم أقنعَ منهم بأرزاقهم[٩] .

---

(١) ديوان المعانى ٢ : ١٨٨ .

(٢) فى المحاسن المساوى : « الغريب عن وطنه ومحل رضاعه » .

(٣) هذا الوجه من المحاسن والمساوى . وفى الأصل والتيمورية : « وذليل لا ينصر » . (٤) المحاضرات ٢ : ٢٧٦ .

(٥) كذا فى الأصل والتيمورية ، أى تتطلع بحذف إحدى التاءين . وفى ديوان المعانى : « تتطلع » ، مع نسبة القول إلى أفلاطون .

(٦) فى المحاسن : « فإن الطبيعة تنزع إلى غذائها » فقط .

(٧) ديوان المعانى ٢ : ١٨٨ .

(٨) ديوان المعانى : « يبل المطر إذا أصاب الأرض » ١٨٨ وفى المحاسن : « كما تتروح الأرض الجدبة ببلل المطر » . وفى ط : « الأرض الجدبة ببلل القطر » .

(٩) فى الحيوان ٣ : ٢٢٧ وكذا رسائل الجاحظ ١ : ٦٤ : « قال ابن الزبير : ليس الناس بشىء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم » .

ولذلك قال ابن الزُّبير : « لو قَنِع الناس بأرزاقهم قناعتَهم بأوطانهم ما اشتكى عبدٌ الرِّزق[١] » .

وترى الأعرابَ تحنُّ إلى البلد الجَدْب ، والمحلِّ القفر ، والحجَر الصَّلْد ، وتستوخِم الرِّيف ، حتَّى قال بعضُهم :

أتجلِينَ فى الجالينَ أم تتصــبَّرى على ضيق عيشٍ والـكريمُ صبورُ[٢]
فبالمِصر بُرغوثٌ وحُمّى وحَصْبَةٌ ومُومٌ وطاعونٌ وكلُّ شُرورِ[٣]
وبالبيد جوعٌ لا يزالُ كأنَّه رُكامٌ بأطراف الإكام يَمُــورُ

وترى الحضَرىَّ يُولد بأرضِ وباءٍ ومُوتانٍ[٤] وقلَّة خِصْب ، فإذا وقع ببلادٍ أريفَ من بلاده ، وجَنابٍ أخصبَ من جَنابه ، واستفاد غنًى ، حنَّ إلى وطنه ومستقَرِّه .

ولو جمعنا أخبارَ العرب وأشعارَها فى هذا المعنى لطال اقتصاصُه ، ولـكن توخَّينا تدوينَ أحسنِ ما سَنَح من أخبارهم وأشعارهم ، وبالله التوفيق .

ومما يؤكِّد ما قلنا فى حبِّ الأوْطان قولُ الله عزّ وجلّ حين ذكر الدِّيار

---

(١) محاضرات الراغب : « قنوعهم بأوطانهم لما شكا عبد رزقه » .

(٢) أراد : أم تتصبرين . فحذف النون لغير جازم كما أنشدوا من قوله :

أبيت أسرى وتبيتى تدلـكى وجهك بالعنبر والمسك الذكى

الخصائص ١ : ٣٨٨ والخزانة ٣ : ٥٢٥ . وانظر الحماسة بشرح المرزوقى ٢٩٤ ، ٤٠٧ .

(٣) فى البيت إقواء . والموم : الجدرى الـكثير المتراكب .

(٤) الموتان ، بالضم : الموت الـكثير الوقوع .

يخبر عن مواقعها من قلوب عباده[١] فقال : ﴿ ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من ديارِكم ما فعلوه إلاّ قليلٌ منهم[٢] ﴾ ، فسوّى بين قتل أنفسهم وبين الخروجِ من ديارهم . وقال تعالى : ﴿ وما لنا ألا نقاتلَ فى سبيلِ اللهِ وقد أُخرِجنا من ديارنا وأبنائنا[٣] ﴾ .

وقال عمر رضى الله عنه : « عمّر الله البلدانَ بحبّ الأوطان[٤] » .

وكان يقال : لولا حبُّ الناس الأوطانَ لخسِرت البُلدان .

وقال عبد الحميد الكاتب ، وذكر الدُّنيا : « نفَتْنا عن الأوطان ، وقطعتنا عن الإخوان » .

وقالت الحكماء : أكرم الخيل أجزعُها من السَّوط[٥] ، وأكيس الصِّبيان أبغضُهم للكُتّاب[٦] ، وأكرم الصَّفايا أشدُّها ولَهاً إلى أولادها ، وأكرم الإبل أشدُّها حنيناً إلى أوطانها ، وأكرم المِهارة[٧] أشدُّها ملازمةً لأمّها ، وخير الناسِ آلَفُهم للناس . ٢٣٤ و

وقال آخر[٨] : من أمارات العاقل برُّه لإخوانه ، وحنينه لأوطانه ، ومداراته لأهل زمانه .

---

(١) انظر نحو هذا والاستشهاد بالآيتين الكريمتين فى البيان ٣ : ٢٢٨ .

(٢) الآية ٦٦ من سورة النساء .

(٣) الآية ٢٤٦ من سورة البقرة .

(٤) هذا ما فى الحيوان ٣ : ٢٢٧ بدون نسبة القول إلى عمر . وفى الأصل والتيمورية : « لحب الأوطان » . وفى المحاسن : « بحب الأوطان عمرت البلدان » .

(٥) ديوان المعانى ٢ : ١٨٧ : « أشدها خوفا من السوط » .

(٦) ديوان المعانى : « للمكتب » . والعبارة بعده تخالف ما هنا .

(٧) المهار والمهارة ، بكسر الميم فيهما : جمع مهر ، بالضم ، وهو ولد الفرس والرمكة ونحوها .

(٨) ديوان المعانى : « وقال بزرجمهر » .

واعتل أعرابيٌّ في أرض غربة ، فقيل له : ما تشتهى ؟ فقال : حِسْل فلاة ، وحَسْو قلات[1] .

وسئل آخر فقال : مَحْضًا رويًّا[2] ، وضبًّا مشويًّا .

وسئل آخر فقال : ضبًّا عنينًا أعور .

وقالت العرب : حماك أحمى لك ، وأهلك أحفى بك .

وقيل : الغُربة كُربة ، والقلّة ذلة[3] . وقال :

لا ترغبوا إخوتى فى غربة أبدًا إنّ الغريب ذليلٌ حيثما كانا

وقال آخر :

وقال آخر : لا تنهض من وكرك فتنقُصَك الغُرْبة[4] ، وتَضيمَك الوَحدة[5] .

وقال آخر : لا تجفُ أرضًا بها قوابلُك ، ولا تشكُ بلداً فيه قبائلك[6] .

---

(١) الحسل ، بالكسر : ولد الضب . والقلات : جمع قلت ، وهى نقرة فى الجبل تمسك الماء . وفى محاضرات الراغب : « قلاة » تحريف .

(٢) المحض : اللبن الخالص لم يخالطه ماء ، حلوا كان أو حامضا . وفى الأصل والتيمورية : « محضا » ، تصحيف صوابه فى المحاسن ١ : ٤٨٧ .

(٣) فى المحاسن ١ : ٤٩٠ : « الغربة ذلة ، والذلة قلة » .

(٤) كذا فى المحاسن . وفى الأصل والتيمورية : « فتنقصك » فقط .

(٥) كذا فى المحاسن . وفى الأصل والتيمورية : « الواحدة » .

(٦) ديوان المعانى ٢ : ١٨٧ : « لا تشك بلدا فيه قبائلك ، ولا تجف أرضا فيه قوابلك » . وفى محاضرات الراغب ٢ : ٢٧٦ : « لا تجف بلدا فيه قوابلك ، وأرضا تبنكها قبائلك » . وتبنك بالمكان : أقام به .

وقال أصحاب القِيافة فى الاسترواح : إذا أحسَّت النفس بمولدها[١] تفتَّحتْ مَسامُّها فعرفَتِ النَّسيم .

وقال آخر : يحنُّ اللبيب إلى وطنه ، كما يحنُّ النَّجيبُ إلى عَطَنه[٢] .

وقال : كما أنَّ لحاضنتك حقَّ لبنها ، كذلك لأرضك حرمة وطنها .

وذكر أعرابىٌّ بلدةً فقال : رملةٌ كنتُ جَنينَ رُكامها ، ورضيعَ غمامها ، فحضنتنى أحشاؤها ، وأرضعتنى أحساؤها[٣] .

وشبَّهت الحكماء الغريبَ[٤] باليتيم اللَّطيم الذى ثَكِلَ أبَويه ، فلا أمَّ ترأمه ، ولا أبَ يَحدِب عليه .

وقالت أعرابية : إذا كنت فى غير أهلك فلا تنسَ نصيبك من الذلّ[٥] .

وقال الشاعر[٦] :

لَعمرِى لَرَهطُ المرءِ خيرٌ بقيَّةً ... عليه وإن عالَوْا به كلَّ مركبِ[٧]

---

(١) المراد بالمولد هنا موضع الولادة .

(٢) النجيب من الإبل : الكريم العتيق . وانظر ديوان المعانى ٢ : ١٩٠ وزهر الآداب ٦٨١ .

(٣) الأحساء : جمع حسى بالكسر ، وهو سهل من الأرض يستنقع فيه الماء .

(٤) وكذا فى المحاسن ١ : ٤٩٠ . وفى التيمورية : « الغربة » ، تحريف .

(٥) ديوان المعانى ٢ : ١٨٩ .

(٦) هو خالد بن نضلة ، كما فى الحيوان ٣ : ١٠٣ والبيان ٣ : ٢٥٠ . والشعر فى الحماسة بشرح المرزوقى ٣٥٨ بدون نسبة .

(٧) أى أركبوه المراكب الصعبة المكروهة . وبين البيت وتاليه فى الحيوان والحماسة :

من الجانب الأقصى وإن كان ذا ندى ... كثير ولا ينبيك مثل المجرب

إذا كنتَ فى قومٍ عِدًى لستَ منهمُ   فكُلْ ماعُلِفتَ من خبيثٍ وطيّبِ

وفى المثل : « أوضَحُ من مرآة الغَريبة[١] » . وذلك أن المرأة إذا كانت هدِيًا فى غير أهلها[٢] ، تتفقّد من وجهِها وهيئتها ما لا تتفقّده وهى فى قومها وأقاربها ، فتكون مرآتُها مجلوّةً تتعهّد بها أمرَ نفسها . وقال ذو الرمّة :

لها أُذنٌ حَشْرٌ وذِفرَى أسيلةٌ   وخدٌّ كمِرآة الغَريبةِ أسجَحُ[٣]

٢٣٤ ط

وكانت العرب إذا غزتْ وسافرتْ حملتْ معها من تُربة بلدِها رملاً وعَفَرًا تستنشقه[٤] عند نَزْلةٍ أو زكام أو صُداع . وأُنشِد لبعض بنى ضَبّة :

نسيرُ على علمٍ بكُنهِ مسيرِنا   وعُدّةِ زاد فى بقايا المزاود[٥]

ونحمل فى الأسفار ماء قَبيصةٍ   من المنشأ النائى لحبِّ المراودِ[٦]

وقال آخر : أرضُ الرّجل أوضحُ نسبه ، وأهله أحضَرُ نَشَبه .

وقيل لأعرابىٍّ[٧] : كيف تصنع فى البادية إذا اشتدَّ القيظُ وانتعل كلُّ شىء ظلّه ؟ قال : وهل العيش إلا ذاك ، يَمشى أحُدنا ميلاً فيرفَضّ

---

(١) مجمع الأمثال ٢ : ٣٠٤ .

(٢) الهدى : العروس تهدى إلى زوجها .

(٣) ديوان ذى الرمة ٨٨ والكامل ٥ واللسان والمقاييس (سجح) . والأسجح : الحسن المعتدل . التيمورية : « أسمح » ، تحريف . والبيت فى صفة ناقة . ويروى : « وخد » .

(٤) محاضرات الراغب ٢ : ٣٧٦ : « فتنشقه » .

(٥) ط فقط : « بعفة زاد فى بطون » .

(٦) ط فقط :

ولا بد فى أسفارنا من قبيصة   من الترب نسقاها لحب الموالد

(٧) ديوان المعانى ٢ : ١٨٩ والمحاسن ١ : ٤٨٩ .

عَرَقاً[١] ، ثم ينصِب عصاه ويلقى عليها كساءه ، ويجلس فى فيئه يكتال الرِّيح[٢] ، فكأنَّه فى إيوان كسرى !

وقيل لأعرابىٍّ : ما أصبرَكم على البدو ؟[٣] قال : كيف لا يصبر مَن وِطاؤه الأرض ، وغِطاؤه السماء ، وطعامُه الشَّمس ، وشرابه الريح ! والله لقد خرجنا فى إثر قومٍ قد تقدَّمونا بمراحل ونحن حُفاة ، والشَّمس فى قُلَّة السماء ، حيث انتعل كلُّ شىء ظِلَّه ، وأنَّهم لأسوأُ حالاً منّا ، إنّ مِهادهم للعَفَر ، وإنَّ وِسادهم للحَجَر ، وإنّ شِعارهم للهواء ، وإنّ دِثارهم للخَواء[٤] .

وحدّثنى التوّزِىُّ[٥] عن رجلٍ من عُرينة قال : حدّثنى رجلٌ من بنى هاشمٍ قال : قلتُ لأعرابىٍّ من بنى أسد : مِن أينَ أقبلت ؟ قال : من هذه البادية . قلت : وأين تسكنُ منها ؟ قال : مَساقط الحِمَى حِمَى ضَرِيّة[٦] ، بها لَعمر الله ما نُريد بدَلاً ، ولا نبغى عنها حِوَلا[٧] ، أمّا الفَلَوات ،

---

(١) زاد فى المحاسن : « كأنه الجمان » .

(٢) المحاسن : « وتقبل عليه الرياح من كل جانب » .

(٣) التيمورية : « البرد » ، تحريف .

(٤) الخواء : الهواء بين السماء والأرض .

(٥) التوزى ، بتشديد الواو : نسبة إلى توز ، ويقال فيها أيضاً توج ، بلدة بفارس . وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون ، تلميذ أبى عبيدة والأصمعى . توفى سنة ٢٣٣ . بغية الوعاة وإنباه الرواة ٢ : ١٢٦ .

(٦) حمى ضرية : قرية فى طريق مكة من البصرة .

(٧) فى معجم البلدان (ضرية) : « بأرض لعمر الله ما نريد بها بدلا عنها ولا حولا » .

فلا يَملَوَّلِح ماؤها[١] ، ولا يَحمَى ترابُها ، ولا يُمعِرُ جنابها[٢] ، ليس فيها أذًى ولا قذًى ، ولا أنينٌ ولا حُمَّى[٣] ؛ فنحنُ بأرفهِ عيشٍ وأرفغِ نَعْمة[٤] ! قلت : فما طعامُكم فيها ؟ قال : بَخٍ بَخٍ ! عيشُنا واللهِ عيشٌ تَعَلَّل جادبه[٥] ، وطعامُنا أطيب طعامٍ وأهنؤه : الهَبيد[٦] والضِّباب واليرابيع ، والقنافذ والحيّات ، وربّما واللهِ أكلْنا القَدّ[٧] ، واشتوينا الجِلْد ، فلا نعلم أحدً أخصبَ منّا عيشًا ، فالحمدُ لله على ما بَسَط من السَّعة ، ورَزَق من الدَّعة ، أو ما سمعتَ قول قائلنا — وكان والله عالمًا بلذيذ العيش : ٢٣٥ و

إذا ما أَصَبْنا كلَّ يومٍ مُذَيقةً وخمسَ تُميراتٍ صغارٍ كنائزِ[٨]

---

(١) في معجم البلدان : « قد نفحتها الغدوات ، وحفتها الفلوات ، فلا يملولح ترابها » . وفي ط كذلك ، لكن فيه : « فلا يملولح ماؤها » .

(٢) أمعرت الأرض : لم يك فيها نبات . وأرض معرة ، إذا انجرد بنتها .

(٣) في معجم البلدان : « ولا عك ولا موم ولا حمى » .

(٤) رفغ عيشه بالضم رفاغة : اتسع . والرفاغة والرفاغية : سعة العيش والخصب .

(٥) الجادب : العائب . تعلل : لم يجد مقالا . قال ذو الرمة :

فيالك من خد أسيل ومنطق رخيم ومن خلق تعلل جادبه

ديوانه ٤٣ واللسان (جدب) . وفي معجم البلدان والمحاسن والتيمورية وط : « جاذبه » تحريف .

(٦) الهبيد : حب الحنظل ، تنقعه الأعراب في الماء أياما ، ثم يطبخ ويؤكل ، وانظر الحيوان ٥ : ٤٤٣ .

(٧) القد ، بفتح القاف : جلد السخلة . وفي اللسان : « وفي حديث عمر رضي الله عنه : كانوا يأكلون القد . يريد جلد السخلة في الجدب » .

(٨) المذيقة : تصغير المذقة بالفتح ، وهي الشربة من اللبن المذوق بالماء . والكنائز : جمع كنيز ، وهو التمر يكنز للشتاء في قواصر وأوعية . وفي الأصل والتيمورية والمحاسن : « كوانز » ، ولم أجد له وجها .

فنحنُ ملوكُ الأرضِ خِصْبًا ونَعْمَةً ونحن أسودُ الغابِ عند الهَزاهزِ[١]

وكم متمنٍّ عيْشَنا لا ينـــاله ولو ناله أضحى به حَقّ فائزِ[٢]

ولهذا خبر طويلٌ وصفَ فيه نُوقًا أضَلَّها، واقتصرنا منه على ما وصف من قناعته بوطنه[٣].

قال الهاشمىّ: فلما فرغَ من نعتِه قلت له: هل لكَ فى الغَداء؟ قال: إنّى والله غاوى إغباب[٤]، لاصقُ القلبِ بالحجاب، مالى عَهْدٌ بمَضَاغٍ إلا شِلوِ يربوعٍ وجَد مَعمعةً منّى فانسَلَتَ[٥]، فأخذت منه بنافقائه وقاصعائه ودامّائه وراهطائه[٦]، ثم تنفّقتُه[٧] فأخرجته، ولا والله ما فرحتُ بشىء فرحى به، فتلقّــانى رُوَيعٍ ببطن الخَرْجاء[٨]، يُوقد نُويرةً تخبو طَورًا

---

(١) معجم البلدان: «شرقا ومغربا» وفيه وفى المحاسن: «أسود الناس». والهزاهز: الفتن يهتز فيها الناس.

(٢) فى معجم البلدان: «جد فائز».

(٣) انظر بقية الخبر فى معجم البلدان.

(٤) الغاوى: الجائع الخالى الجوف. والإغباب: مصدر أغب، والمراد ترك الأكل يوما، كالإغباب فى الزيارة. وفى الأصل والتيمورية و ط: «غاو أغباب».

(٥) المضاغ، بالفتح: يمضغ. والشلو بالكسر: العضو، والقطعة من اللحم. والمعمعة: الدمشقة، وهى عمل فى عجلة. وفى ط والتيمورية: «معمعة فانسلت منى».

(٦) كل هذه أسماء خاصة لجحرة اليربوع. انظر الحيوان ٥: ٢٧٦، ٤٤٧. فى الأصل والتيمورية: «ودامياته»، تحريف.

(٧) تنفق اليربوع وانتفقه: استخرجه من نافقائه.

(٨) رويع: مصغر راع. والخرجاء: موضع بين مكة والبصرة. وفى الأصل والتيمورية: «الجرما».

وتسمو[١] أخرى ، فدَسَسْتُه فى إرَته[٢] فخمدتْ نُوَيرتُه ، ولا والله ما بلغ نُضجَه حتَّى اختلسَ الرُّوَيعِي منه ، فغلبني على رأسه وجَوْشه[٣] ، وصدره وبدنه ، وبقيَ بيدى رِجلاه ووركاه ، وفقرتان من صُلبه[٤] ، فكان ذلك ممَّا أنعمَ الله به علىَّ[٥] ، فاغتبقتُها على نَكْظٍ مُنْكِظ[٦] ، وبَوْصٍ بائص[٧] عن عراكه إيَّاى ، غير أنَّ الله أعانني عليه . فذلك والله عهدى بالطَّعام ، وإنى لذو حاجةٍ إلى غِذاء أنوِّه به فؤادى[٨] ، وأشُدُّ به آدى[٩] ، فقد والله بلغ منى المجهود ، وأدرك منِّى المجلود[١٠] .

يصف هذا البؤس والجهد ، ويتحمَّل هذه الفاقة ، ويصبر على الفقر ، قناعةً بوطنه ، وحبًّا لعطنه ، واعتداداً بما وصَف من رفاغة عيشه .

---

(١) النويرة : مصغر النار . تسمو : ترتفع وتشتعل . التيمورية : « وتشبوا » تحريف ما أثبت من الأصل .

(٢) الإرة : موضع النار . التيمورية : « اربه » ، تصحيف .

(٣) الجوش ، بفتح الجيم : الصدر والوسط ، مثل الجَوْشوش . وفى الأصل والتيمورية : « حوشه » ، تصحيف .

(٤) فى الأصل : « وفقرتان صلبه » وفى التيمورية : « وفقرتا صلبه » . والجمع بينهما يقتضى ما أثبت .

(٥) فى الأصل والتيمورية : « إياه » .

(٦) النكظ والإنكاظ : الإعجال .

(٧) البوص : البعد . والبائص : البعيد . ط والتيمورية : « بوض بايظ » ، تحريف .

(٨) التنويه : الرفع والتقوية .

(٩) الآد : الصلب .

(١٠) المجلود : مصدر من الجلد ، بمعنى الشدة والقوة والصبر . ومثله المحلوف والمعقول بمعنى الحلف والعقل .

وحدَّثنا سليمان بن معبد[1] ، أنَّ الوليد بن عبد الملك أراد أن يُرسل خيله ، فجاء أعرابىٌّ له بفرسٍ أنثى ، فسأله أن يُدخلَها مع خيله ، فقال الوليد لقهرمانه أُسَيْلِمَ بن الأحنف : كيف تراها يا أسيلم ؟ فقال يا أمير المؤمنين ، حجازيّة ، لو ضمَّها مضمارك ذهبت[2] . قال الأعرابى : أنت والله منقوص الاسم ، أعوج اسم الأب[3] ! فأمر الوليدُ بإدخال فرسِه ، فلمّا أجريت الخيلُ سَبق الأعرابىُّ على فرسه ، فقال الوليد : أَوَاهِبُها لى أنتَ يا أعرابىّ ؟ فقال : لا والله ، إنّها لقديمةُ الصُّحبة ، ولها حقٌّ ، ولكن أحملُك على مُهرٍ لها سَبق عاماً أوّلَ وهو رابضٌ . فضحك الوليدُ وقال : أعرابىٌّ مجنون ! فقال : وما يضحككم ؟ سبقَتْ أمُّه عاماً أوّل وهو فى بطنها ! فاستظرفه واحتبسه عنده فمرضَ ، فبعَثَ إليه الوليدُ بالأطبّاء ، فأنشأ يقول :

٢٣٥ ظ

جاء الأطبّاء من حِمصٍ تخالهم من جهلهم أن أُداوَى كالمجانينِ

قال الأطبّاء: ما يَشْفيكَ؟ قلتُ لهم شمُّ الدُّخانِ من القسرينِ يشفينى[4]

---

(١) سليمان بن معبد ، أبو داود السنجى النحوى . روى عن النضر بن شميل والأصمعى والهيثم بن عدى وغيرهم ، وعنه مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم . وكان ثقة . توفى سنة ٢٥٧ . تاريخ بغداد ٩ : ٥١ وتهذيب التهذيب ٤ : ٢١٩ .

(٢) فى الأصل والتيمورية : « مضيا بك » ، والوجه ما أثبت . والخبر بإيجاز فى معجم البلدان (القسرين ، الجنينة) .

(٣) منقوص الاسم ، عنى به أنه مصغر أسلم . أعوج اسم الأب ، لأن الأحنف هو الأعوج الرجل .

(٤) القسرين : موضع من بلاد عكل . الأصل والتيمورية : « من النسرين » صوابه فى معجم البلدان ، وروايته : « دخان رمث من القسرين » .

إنِّى أحِنُّ إلى أدخان مُحتطَبٍ من الجُنينةِ جزلٍ غير موزونِ[١]

فأمر الوليد أن يُحمل إليه من رمثٍ سليخة[٢] ، فوافَوه وقد مات[٣] .

فهو عند الخليفة ، وببلدٍ ليس فى الأقاليم أريَفُ منه ، ولا أخصبُ جَناباً ، يحنّ إلى سَليخة رمثٍ[٤] ، حبًّا للوطن .

وحكى أبو عبد الله الجعفرى عن عبد الله بن إسحاقَ الجعفرىّ قال : أمرتُ بصهريجٍ لى فى بستانٍ ، عليه نخلٌ مُطلٌّ [أن يُملأَ[٥]] ، فذهبتُ بأمِّ الحسام[٦] المرّيّة وابنتها ـ وهى زوجتى ـ فلمّا نظرتْ أمُّ الُحسام إلى الصِّهريج قعدتْ عليه وأرسلتْ رجليها فى الماء ، فقلت لهـا : ألا تَطُوفين معنا على هذا النَّخل ، لنجنىَ ماطابَ من ثَمَرِه ؟ فقالت : ها هنا أعجبُ إلىّ . فدُرنا ساعةً وتركناها ، ثم انصرفنا وهى تُخضخِض رجليها فى المـاء وتحرِّك شفتيها ، فقلت : يا أمّ الُحسام ، لا أحسبك إلا وقد قلتِ شعراً . قالت : أجل . ثم أنشدتنى :

أقول لأدنى صـاحبىَّ أُسِرُّه وللعين دمعٌ يَحدِر الـكُحلَ ساكبُه

(١) الأدخان : جمع دخن ، بالتحريك ، وهو الدخان . والجنينة : ثنى من القسرير ، وهو واد من ضرية . غير موزون ، عنى أنه خفيف .

(٢) الرمث ، بالـكسر : شجرة من الحمض . والسليخة : خشبه اليابس ليس فيه مرعى . وفى الأصل والتيمورية : « من رمل سليحة » ، والوجه ما أثبت .

(٣) ط : « فوافوه به » . وكلمة « به » لم ترد فى النسختين .

(٤) ط والتيمورية : « رمل سليحة » .

(٥) التـكملة من التيمورية .

(٦) فى محاضرات الراغب ٢ : ٢٧٦ : « زينب أم حسانة الضبية » . والخبر فيه مختصر محرف .

لعمري لِنِهيٌ باللِّوى نازح القَذَى ... نقيُّ النواحي غير طَرْقٍ مَشاربُه[1]

بأجــــرعَ مِمراعٍ كأنَّ رياضَه ... سِخَابٌ من الكافور والمسك شائبُه[2]

أحبُّ إلينا من صهاريج مُلِّئت ... للعبٍ فلم تَملُح لدىّ ملاعبُه

فياحبّذا نجـدٌ وطيبُ ترابه ... إذا هضَبتْه بالعشيِّ هواضبُه[3]

وريح صَبَا نجـدٍ إذا ما تنسَّمتْ ... ضحىً أوسرتْ جُنحَ الظلام جنائبُه[4]

٢٣٦

وأنشد أبو النصر الأسديّ[5] :

أحبُّ الأرضَ تسكنُها سليمى ... وإن كانت توارثها الجُدوبُ[6]

وما دهري بحبِّ تراب أرضٍ ... ولـكن من يحلُّ بها حبيبُ[7]

وأنشدنى حمّاد بن إسحاق الموصلى :

أحبُّ بلاد الله ما بين صارةٍ ... إلى غطفانَ إذ يصوب سحابُها[8]

---

(١) الطرق ، بالفتح : المطروق ، الذى تبول فيه الإبل وتبعر .

(٢) الأجرع : المكان الواسع فيه حزونة وخشونة . والممراع : من قولهم مرع الوادى : أخصب وأكلأ . وفى النسختين : « مجراع » ، صوابه من معجم البلدان (نجد) . وفى الأصل والتيمورية : « كأن رجاجه » . وفى معجم البلدان : « كأن رياحه » ! ، والوجه ما أثبت .

(٣) يقال هضبتهم السماء ، أى مطرتهم .

(٤) الجنائب : جمع جنوب ، وهى الريح التى تقابل ريح الشمال .

(٥) الشعر فى ديوان المعانى ٢ : ١٨٩ لأحمد بن إسحاق الموصلى .

(٦) الجدوب : جمع جدب . التيمورية : « الجذوب » ، تصحيف .

(٧) يقال ما دهرى بكذا وما دهرى كذا ، أى همى وإرادتى وعادتى . ط والتيمورية : « وما عهدى » ، وأثبت ما فى الأصل وديوان المعانى .

(٨) معجم البلدان (منعج) ومحاضرات الراغب ٢ : ٢٩٦ وزهر الآداب ٦٨٢ والقالى ١ : ٨٣ . وصارة : جبل فى ديار بنى أسد . ورواية سائر المصادر :

أحب بلاد الله ما بين منعج ... إلى وسلمى أن يصوب سحابها

بلاد بها نيطت عليَّ تمائمي وأول أرضٍ مسَّ جلدى ترابُها[١]

قال : ولمّا حُملت نائلة بنتُ الفَرافِصة[٢] الكلبية إلى عثمان بن عفّان رضى الله عنه ، كرهتْ فراق أهلها ، فقالت لضبٍّ أخيها[٣] :

ألستَ ترى بالله يا ضَبُّ أننى مرافقةً نحوَ المدينةِ أركُبا[٤]

أما كان فى أولاد عوف بن عامرٍ لكَ الويل ما يُغنى الخباء المطنَّبا[٥]

أبَى اللهُ إلاّ أن أكون غريبةً بيثربَ لا أمًّا لدىَّ ولا أبا

قال : وزُوِّجت من أبان[٦] فى كلبٍ امرأةٌ ، فنظرتْ ذات يومٍ إلى ناقةٍ قد حنَّت فذكرتْ بلادَها وأنشأتْ تقول :

ألا أيُّها البَكْرُ الأبانىُّ إننى وإياكَ فى كلبٍ لمغتربانِ

تحِنُّ وأبكى ذا الهوى لصبابةٍ وإنَّا على البَلوَى لمصطحبانِ[٧]

وإنَّ زماناً أيُّها البكرُ ضمَّنى وإيّاكَ فى كلبٍ لشرُّ زمانِ

وقال آخر :

ألاَ يا حبَّذا وطنى وأهلى وصَحْبى حين يُذَّكرُ الصِّحابُ

وما عَسَلٌ ببارد ماءِ مُزنٍ على ظمأٍ لشاربه يُشابُ

بأشهَى من لقائكمُ إلينا فكيف لنا به ، ومتَى الإيابُ

---

(١) معجم البلدان : « بها حل الشباب تميمتى » .

(٢) فى اللسان : « كل مافى العرب فرافصة بضم الفاء ، إلا فرافصة أبا نائلة امرأة عثمان رحمه الله ، بفتح الفاء لاغير » .

(٣) القصة بتفصيل فى الأغانى ١٥ : ٦٧ .

(٤) التيمورية والأغانى : « يا ضب بالله » . والأركب : جمع ركب .

(٥) الأغانى : « لقد كان فى أبناء حصن بن ضمضم » .

(٦) هم أبان بن دارم بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . وفى حماسة ابن الشجرى ١٧٣ : « من بنى مازن » .

(٧) ابن الشجرى : « إن ذا لبلية » .

وأنشد الغنوىّ لبعض الهذليين[(١)] :

وأرى البلادَ إذا سكنتِ بغيرها جَدْباً وإن كانت تُطَلُّ وتُجنِبُ[(٢)]

وأرى العدوَّ يُحبُّكم فأحبُّه إن كان يُنسَبُ منكَ أو يتنسَّبُ[(٣)]

وأرى السَّميَّةَ باسمكم فيزيدها حبًّا إلى . . . .[(٤)] ٢٣٦ ط

قال : ومن هذا أخذ الطائىُّ قوله :

كم منزلٍ فى الأرض يألفه الفتى وحنينُه أبدًا لأوّلِ منزلِ[(٥)]

وأنشد أبو عمرو البَجَلى :

تمتّعْ من شميم عَرارِ نجدٍ فما بعد العشيّةِ من عَرارِ[(٦)]

---

(١) هو أبو ذؤيب الهذلى . ديوان الهذليين ١ : ٦٣ وشرح أشعار الهذليين للسكرى ١ : ٢٠٥ . وفى شرح السكرى أنها تروى أيضاً لرجل من خزاعة . وقال زبير : هى لابن أبى دباكل .

(٢) تطل : يصيبها الطل . تجنب : تصيبها الجنوب . ومع الجنوب خير وتلقيح . وفى الديوان والشرح : « وتخصب » ، بالبناء للمفعول وللفاعل .

(٣) وكذا فى الديوان . وفى التيمورية : « منكم أو تنسب » ، وفى شرح الديوان : « منك أو لا ينسب » .

(٤) بياض فى النسختين ، والبيت لم يرو فى الديوان ولا فى شرحه .

(٥) ديوان أبى تمام ٤٥٧ من أبيات أربعة وأخبار أبى تمام للصولى ٢٦٢ ، والمحاسن والمساوى ١ : ٤٩١ وديوان المعانى ٢ : ١٨٨ . وذكر الصولى عن محمد ابن داود أنه مأخوذ من قول ابن الطثرية :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وقال : وهو عندى بقول كثير أشبه :

إذا وصلتنا خلة لتزيلها أبينا وقلنا : الحاجبية أول

ونحوه فى دلائل الإعجاز ٢٤٦ .

(٦) للصمة بن عبد الله القشيرى . الحماسة ١٢٤٠ بشرح المرزوقى . وهى =

ألا يا حبّذا نَفَحاتُ نجدٍ وريّا روضِه غِبَّ القِطارِ
وعيشك إذ يحُلُّ القومُ نجداً وأنت على زمانك غيرُ زارِ
شهورٌ ينقضين وما شعرنا بأنصافٍ لهنَّ ولا سِرارِ
فأمّا ليلهنّ فخيرُ ليلٍ وأقصر ما يكون من النّهارِ[1]

وقال آخر[2] :

ألا هل إلى شمِّ الخُزامى ونظرةٍ إلى قرقرى قبلَ المماتِ سبيلُ[3]
فأشربَ مِن ماء الحجَيلاء شربةً يُداوى بها قبلَ المماتِ عليلُ[4]
فيا أثلاثِ القاعِ ، قلبي موكَّلٌ بكنَّ وجدوى خيرِكنَّ قليلُ
ويا أثلاثِ القاعِ قد ملَّ صُحبتى مَسيرى فهل فى ظِلِّكنَّ مَقيلُ

= بدون نسبة فى أمالى القالى ١ : ٣٢ والمحاسن ١ : ٥٠٦ وزهر الآداب ٦٨٥ ومعجم البلدان (الضمار ، المنيفة) . والعرار : كسحاب : بقلة صفراء ناعمة طيبة الريح ، الواحدة عرارة .

(١) فى المحاسن : « وأنضر ما يكون » وفى معجم البلدان :

تقاصر ليلهن فخير ليل وأطيب ما يكون من النهار

(٢) هو يحيى بن طالب الحنفى كما فى الأغانى ٢٠ : ١٤٩ ، ١٥٠ عند ترجمته وذكر أنه من شعراء الدولة العباسية . وكذا نسب فى معجم البلدان (القاع ، قرقرى ، الحجيلاء) وأمالى القالى ١ : ١٢٣ . وفى حماسة ابن الشجرى ١٦٤ خطأ : « يحيى ابن أبى طالب » .

(٣) فى الأصل والتيمورية : « بنظرة » ، وأثبت ما فى سائر المراجع .

(٤) الحجيلاء : بئر باليمامة . وفى الأصل والتيمورية : « الحجيلات » ، صوابه فى معجم البلدان والأغانى واللآلى ٣٦٣ .

أُريدُ انحدارًا نحوها فيردُّنى ويمنعنى دَيْنٌ علىَّ ثقيـلُ[1]

أحدِّث نفسى عنكِ إذْ لستُ راجعًا إليكِ ، لحزنى فى الفؤادِ دخيلُ[2]

وأنشد للمجنون :

إلى عامرٍ أصبو ، وما أرضُ عامرٍ هى الرَّملةُ الوعساء والبلد الرَّحبُ[3]

معاشِر بيضٌ لو وردتَ بلادَهم وردتَ بحورًا ماؤها للنَّدى عذبُ

إذا ما بدا للنـــــاظرين خيامُهم فثَمَّ العِتاقُ القُبُّ والأسَل القَضْبُ[4]

وأنشدنا المازنى[5] :

اقرأ على الوشَلِ السَّـلامَ وقل له : كلُّ الموارد مُذ هُجرتَ ذميمُ[6]

جَبَل يُنيف على الجبـال إذا بدا بين الغدائر والرِّمال مقيمُ[7]

٢٣٧

(١) كان قد خرج إلى مدينة الرى هرباً من دين ثقيـل عليه . ويذكر أبو الفرج أن الرشيد غنى هذا الشعر فسأل عن قائله ، فلما علم بقصته كتب إلى عامله بالرى بقضاء دينه وإعطائه نفقة . وإنفاذه إليه على البريد ، فوصل الكتاب يوم مات يحيى بن طالب .

(٢) فى الأصل والتيمورية : « واجدا » ، تحريف صوابه فى معجم البلدان .

(٣) الوعساء : السهلة اللينة .

(٤) القب : الضوامر . والأسل : الرماح . والقضب من الشجر ، كل شجر سبطت أغصانه وطالت .

(٥) المازنى ، هو أبو عثمان بكر بن محمـد بن بقية ، روى عن أبى عبيدة والأصمعى وأبى زيد ، وعنه المبرد وجماعة . توفى سنة ٢٣٠ وقيل ٢٤٩ أو ٢٤٨ . بغية الوعاة ٢٠٢ وإنباه الرواة ١ : ٢٤٦ وفيه مراجع ترجمته .

(٦) لأبى القمقام الأسدى فى الحماسة ١٣٧٧ بشرح المرزوقى ومعجم البلدان (الوشل) .

(٧) فى معجم البلدان : « بين الربائع والجثوم » . والبيت وتاليه لم يرويا فى الحماسة .

تسرى الصَّبا فتبيتُ فى ألواذه ويبيت فيه من الجنوب نسيم[١]
سَقيًا لظلِّكَ بالعشىّ وبالضُّحى ولبرد مائكَ والمياهُ حميمُ
لو كنت أملك برد مائك لم يذقْ ما فى قلاتِكَ ما حييتُ لئيم[٢]

وقالت امرأةٌ من عقيل :

خليلىَّ من سكانِ ماوانَ هاجنى هبوبُ الجَنوبِ مَرُّها وابتِسامها[٣]
فلا تَسألانى ما ورائى فإنَّنى بمنزلةٍ أعيا الطبيبَ سَقامُها

وقال آخر :

ألا ليتَ شعرى والحوادثُ جَمّةٌ متَى تجمعُ الأيامُ يومًا لنا الشَّملا
وكلُّ غريبٍ سوف يُمسى بذِلَّةٍ إذا بانَ عن أوطانه وجفا الأهلا

وقال آخر :

ألا ليتَ شعرى يَجمعُ الشَّملُ بيننا بصحراءَ من نجرانَ ذاتِ ثرًى جعدِ[٤]
وهل تَنفُضَنَّ الرِّيحُ أفنانَ لِمَّتى على لاحقِ الرِّجلين مضطمِرٍ وَردِ[٥]

---

(١) الألواذ : المنعطفات والنواحى ، واحدها لوذ . وفى معجم البلدان : « فى أكنافه » .

(٢) فى الحماسة ومعجم البلدان : « منع مائك » . والقلات : جمع قلت ، وهى حفرة فى الجبل يستنقع فيها ماء المطر .

(٣) لعلها قصدت ابتسام سحاب الجنوب عن البرق .

(٤) التيمورية : « يجمع الدهر » . وفى ديوان المعانى ٢ : ١٨٨ : « هل تحنن ناقتى » .

(٥) اللاحق : الضامر . وفى ديوان المعانى : « لاحق الإطلين » ، وهو الأمثل والإطل : الخاصرة . والمضطمر : الضامر .

وهل أردنّ الدّهرَ حِسْىَ مُزاحمٍ   وقد ضربته نفحة من صَبا نجدِ[١]

وقال آخر :

وأزلني طولُ النّوى دارَ غَرْبةٍ   إذا شئتُ لاقيتُ امرأً لا أشاكله[٢]

فحامقتُه حتّى يقالُ سجيّةٌ   ولو كان ذا عقلٍ لكنتُ أعاقله

ولو كنتُ فى قومى وجُلِّ عشيرتى   لألفَيت فيهم كلّ خِرقٍ أواصله

وأنشد لذى الرمة :

إذا هبّت الأرواحُ من نحو جانبٍ   به أهلُ مىّ هاجَ قلبى هبوبُها[٣]

هوًى تذرِف العينانِ منه ، وإنّما   هوى كلّ أرض حيث حلّ حبيبُها[٤]

وقال أبو عثمان[٥] :

رأيت عبداً أسود حبشيًا لبنى أُسيد[٦] قدم من شِقّ اليمامة فصار ناظورًا[٧] ، وكان وحشيًا مجنونًا[٨] لطول الغُربة مع الإبل ، وكان لا يلقى ٢٣٧ ظ

---

(١) ديوان المعانى : « حسمى مزاحم » ، وما هنا صوابه .

(٢) البيتان فى البيان ١ : ٢٤٥ و ٢ : ٢٣٥ و ٤ : ٢١ وعيون الأخبار ٣ : ٢٤ والغربة ، بالفتح : النوى والبعد ؛ وبالضم : الاغتراب .

(٣) ديوان ذى الرمة ٦٦ والأغانى ١٦ : ١٢٥ . وفى الديوان : « هاج شوقى » .

(٤) فى الديوان والأغانى : « كل نفس » .

(٥) الخبر فى البيان ٢ : ٧١ — ٧٢ .

(٦) فى الأصل وبعض نسخ البيان : « أسد » .

(٧) الناظور للزرع والنخل وغيرها : حافظه ، وهو بالظاء المعجمة من لغة أهل السواد ، قال بعضهم : وليست بعربية محضة . وفى الأصل : « ناظوريا » وفى التيمورية « ناطوريا » ، صوابه فى البيان .

(٨) فى البيان : « محرما » .

إلاّ الأكَرَةَ ، فلا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامَهم ، فلمّا رآنى سكن إلىّ ، وسمعتُه يقول : لعَن الله أرضًا ليس بها عَرَب[1] ، قاتل الله الشاعرَ حيث يقول :

* حرُّ الثرى مُستعرب التُّرابِ *

أبا عثمان ، إنّ هذه العُرَيبَ فى جميع الناس كمقدار القُرحة فى جِلْد الفرس ، فلولا أنّ الله رقّ عليهم فجعلهم فى حَشَاةٍ[2] لطمست هذه العجم آثارهم[3] . أترى الأعيار إذا رأت العِتاقَ لا ترى لها فضلا ! واللهِ ما أمر اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم بقتالهم ، إذْ لا يدينون بدينٍ ، إلّا لضنّه بهم ، ولا ترَكَ قبولَ الجزيةَ منهم إلّا تنزيهًا لهم .

وقيل لأعرابىّ : ما السُّرور ؟ فقال : أوبةٌ بغير خيبة ، وألفةٌ بعد غيبة .

وقيل لآخر : ما السُّرور ؟ قال : غيبةٌ تُفيد غنًى ، وأوبةٌ تُعقِب مُنًى . وأنشأ يقول :

وكنت فيهم كممطورٍ ببلدته يُسَرُّ أن جمع الأوطانَ والمطرا[4]

وأحسن ما سمعنا فى حبِّ الوطن وفرحة الأوبة قوله[5] :

---

(١) فى الأصل والتيمورية : « عرف » ، صوابه فى البيان .

(٢) يقال أرض حشاة : سوداء لا خير فيها ، أو أرض قليلة الخير . وفى البيان : « حاشية » .

(٣) البيان : « هذه العُجمان آثارهم » .

(٤) فى الحيوان ٣ : ٢٢٨ وديوان المعانى ٢ : ١٩٠ : « فسر أن جمع » .

(٥) هو عبد ربه السلمى ، أو سليم بن ثمامة الحنفى ، أو معقر بن حمار البارق ، كما فى اللسان (عصا) . ونسب إلى مضرس الأسدى فى البيان ٣ : ٢٤٠ . ونسب فى المؤتلف ٩٢ والاشتقاق ٤٨١ إلى معقر بن حمار .

وباسَرتها فاستعجلتْ عن قِناعِها ... وقد يستخفُّ [الطامعين] المُياسر[1]

مشمِّرة عن ساق خَدلاء حُرَّة ... تُجارى بنيها مرّةً وتُحاضِر[2]

وخبَّرها الرُّوَّاد أن ليس بينها ... وبين قُرى نجرانَ والدَّربِ صافر[3]

فألقت عصاها واستقرَّت بها النوى ... كما قَرَّ عينًا بالإياب المسافر[4]

وقيل لبعض الأعراب : ما الغبطة ؟ قال : الكفاية مع لزوم الأوطان[5] ، والجلوسُ مع الإخوان . قيل : فما الذِّلّة ؟ قال : التنقُّل في البلدان ، والتنحِّي عن الأوطان .

وقال آخر :

طلب المعاشِ مفرِّقٌ ... بين الأحبّة والوطنْ

ومصيِّرٌ جَلْدَ الرجا ... ل إلى الضَّراعة والوهَن

حتى يُقادَ كما يُقا ... دُ النِّضو في ثِني الرَّسَنْ

ثم المنيَّة بعدهُ ... فكأنه ما لم يكُنْ

ووجدنا من العرب : مَن قد كان أشرفَ على نفسه ، وأفخر في حسبه ؛ ومن العَجم : من كان أطيبَ عنصراً وأنفسَ جوهراً — أشدَّ حنيناً إلى وطنه ، ونزاعًا إلى تُربته .

---

(١) في التيمورية : « وباشرتها » ، و « المباشر » . وقبل الكلمة الأخيرة من البيت بياض في النسختين بمقدار كلمة جعل موضعه في ط « الطامعين » التي أثبتها .

(٢) الخدلاء : الممتلئة الساق . وفي النسختين و ط : « حولاء » . وفي التيمورية بعدها : « جسرة » .

(٣) الرواد : جمع رائد . التيمورية : « الوارد » . وفي اللسان (كفر ، عصا) : « نجران والشام كافر » . وفسر الكافر في الموضعين بأنه المطر .

(٤) يضرب مثلا لكل من وافقه شيء فأقام عليه .

(٥) في المحاسن والمساوى ١ : ٤٩٠ : « ولزوم الأطان » .

٢٣٨ و

وكانت الملوك على قديم الدَّهر لا تؤثِر على أوطانها شيئاً .

وحكى المُوبَذ[١] أنّه قرأ فى سيرة إسْفَنْدِيار بن يستاسف[٢] بن لُهْراسف[٣] ، بالفارسيّة ، أنّه لمـا غزا بلادَ الخزر ليستنقذ أختَه من الأسر ، اعتلَّ بها ، فقيل له : ما تشتهى ؟ قال : شَمَّةً من تُربة بلخ ، وشَربةً من ماء واديها .

واعتلَّ سابور ذو الأكتاف[٤] بالرُّوم ، وكان مأسورًا فى القِدّ ، فقالت له بنت ملك الرُّوم وقد عشِقَتْه : ما تشتهى مما كان فيه غذاؤك ؟ قال : شَربةً من ماء دِجْلة ، وشَمَّةً من تربة إصطخر ! فغبرت عنه أيامًا ثم أتته يومًا بماء الفرات ، وقَبضةً من تراب شاطئِه[٥] ، وقالت : هـذا من

(١) الموبذ : قاضى المجوس ، ورئيس الكهنة . فارسى معرب . وانظر التنبيه والإشراف ٩٠ .

(٢) فى الأصل والتيمورية : « ويستاسف » ، وإنما المراد الابن فقط . وانظر معجم استينجاس ٥٨ والتنبيه والإشراف ٨٧ . ويقال فى والده أيضاً « كيبشتاسب » كما يأتى بصور أخرى فى كتب العرب . انظر الطبرى ٢ : ٥٦ . ولفظه فى الفارسية « گشتاسپ » . استينجاس ١٠٩١ .

(٣) فى الأصل : « بهراسف » بإهمال نقط الحرف الأول ، وإنما هو « لهراسف » كما فى التيمورية ومعجم استينجاس ١١٣٣ . ولفظه فى الفارسية : « لُهراسب » .

(٤) هو التاسع من ملوك الفرس الساسانية ، وهو سابور بن هرمز بن نرسى ابن بهرام . ذكر المسعودى فى التنبيه ٨٨ أنه ملك ٧٢ سنة . وهو غير سابور بن أردشير بن بابك فإن هذا هو الثانى من ملوك الساسانية . التنبيه ٨٧ . وانظر الطبرى ٢ : ٥٩ ، ٦٦ . والخبر فى محاضرات الراغب ٢ : ٢٧٦ موجزا .

(٥) التيمورية : « شاطبه » ، تحريف .

ماء دِجلة ، وهــذه من تربة أرضك ، فشرب واشتمّ من تلك التُّربة فنَقِه من مرضِه[١] .

وكان الإسكندرُ الرُّومىّ جال فى البُلدانَ[٢] وأخْرَبَ إقليم بابل ، وكنز الـكنوزَ وأبادَ الخَلْق ، فمرض بحَضْرة بابل[٣] ، فلما أشفَى أوصى إلى حكمائه ووزرائه أن تحمل رِمّته فى تابوتٍ من ذهبٍ إلى بلده ؛ حبًّا للوطن .

وامّا افتتح وَهرِز بن شير زاذ بن بهرام جور[٤] اليمن ، وقتــل ملك الحبشة المتغلب ـ كان[٥] ـ على اليمن ، أقام بها عاملاً لأنوشِروان ، فبنى نجران اليمن — وهى من أحصن[٦] مدن الثغور — فلمّا أدركته الوفاةُ أوصى ابنه شير زاذ أن يحمل إلى إصطخر ناوسَ أبيه ، ففعل به ذلك .

فهؤلاء الملوك الجبابرة الذين لم يفتقدوا فى اغترابهم نعمة ، ولا غادروا فى أسفارهم شهوة ، حنّوا إلى أوطانهم ، ولم يؤثروا على تُربهم ومساقط رءوسهم شيئاً من الأقاليم المستفادة بالتغازِى[٧] والمدن المغتصبة من ملوك الأمم .

وهؤلاء الأعراب مع فاقتهم وشدّة فقرهم يحنّون إلى أوطانهم ، ويقنعون بتُربهم ومحالِّهم .

---

(١) نقه من مرضه : برئ ولا يزال به ضعف التيمورية : «فقاق» ، تحريف .

(٢) التيمورية : « جال البلدان » ، تحريف . وجال فعل لازم .

(٣) الحضرة : قرب الشىء ، يقال كنا بحضرة ماء ، أى عنده . وفى النسختين: « بحظيرة بابل » ، تحريف .

(٤) وهرز ، سبقت ترجمته فى ١ : ٢٠١ .

(٥) كلة « كان » ساقطة من التيمورية .

(٦) التيمورية : « أحسن » بالسين .

(٧) التغازى : تفاعل من الغزو ، وإن لم تصرح به المعاجم .

ورأيتُ المتأدِّب من البرامكة المتفلسف منهم ، إذا سافر سفراً أخذ معه من تربة مولده فى جِرابٍ يتداوى به .

ومن أصدق الشواهد فى حبِّ الوطن أن يوسف عليه السلام ، لمّا أدركته الوفاة أوصَى أن تُحمَلَ رِمّته إلى موضع مقابر أبيه وجدِّه يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام .

٢٣٨ ظ

وروى لنا أنَّ أهل مِصر منعوا أولياءَ يوسف من حمله ، فلمّا بعث الله موسى عليه السلام وأهلك على يديه فرعَون وغيره من الأمم ، أمره أن يحمل رِمّته إلى تربة يعقوب بالشّام ، وقبره عَلَمٌ بأرض بيت المقدس بقرية تسمَّى حسامى[1] .

وكذلك يعقوب ، مات بمصر فحملت رِمّته إلى إيلياء[2] ، قريةِ بيت المقدس ، وهناك قبر إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام .

---

(١) كذا فى النسختين ، وإنما هى « حِسمَى » . وفى معجم البلدان أنها أرض بين أيلة وجانب تيه بنى إسرائيل . وفى التكوين ٥٠ : ٢٦ : « ثم مات يوسف وهو ابن مائة وعشر سنين ، فحنطوه ووضع فى تابوت فى مصر » . لكن فى الطبرى ١ : ١٨٧ : « وأوصى يوسف أن يحمل جسده حتى يدفن إلى جنب آبائه ، فحمل موسى تابوت جسده عند خروجه من مصر » .

(٢) فى التكوين ٥٠ : ٥ قول يوسف : « أبى استحلفنى قائلا : ها أنا أموت ، فى قبرى الذى حفرته لنفسى فى أرض كنعان هناك تدفننى . فالآن أصعد لأدفن أبى وأرجع » . وفى الطبرى ١ : ١٨٧ عند الكلام على يعقوب أنه « تقدم إلى يوسف عند وفاته أن يحمل جسده حتى يدفنه بجنب أبيه إسحاق ، ففعل يوسف ذلك به ومضى به حتى دفنه بالشام ثم انصرف » .

ومن حبِّ النّاس للوطن، وقناعتهم بالعطن، أنّ إبراهيم لمّا أتى بهاجَر أمِّ إسماعيل مكّة فأسكنها، وليس بمكّة أنيسٌ ولا ماء، ظمِئ إسماعيل فدعا إبراهيمُ ربَّه فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ[1]﴾، أجابَ الله دعاءه إذ رضى به وطنًا، وبعث جبريل عليه السلام فركض موضعَ زمزم برجله، فنبع منه زمزم.

ومرّ بإسماعيل وأمّه فِرقةٌ من جُرهم، فقالوا: أتأْذنون لنا أن ننزل معكم؟ فقالت هاجر: نَعَمْ ولا حقّ لكم فى الماء، فصار إسماعيل وولدُه قُطّانَ مكّةَ، لدعوة إبراهيم عليهما السلام.

نعم، وهى مع جدوبتها خير بقاع الأرض، إذ صارت حرمًا، ولإسماعيل وولده مَسكنًا، وللأنبياء مَنسِكًا ومجمعًا على غابر الدّهر.

وممّن تمسّك من بنى إسرائيل عليه السلام بحبِّ الأوطان خاصّةً، ولدُ هارون، وآلُ داود؛ لم يمت منهم ميّت فى إقليم بابل فى أىِّ البُلدان مات، إلّا نبشُوا قبرَه بعد حول، وحملت رِمّته إلى موضع يدعى الحصاصة بالشّام فيُودَعُ هناك حولاً، فإذا حال الحولُ نُقِلت إلى بيت المقدس.

وقال الفرزدق[2]:

لَكِسرى كان أعقلَ من تميمٍ ليالىَ فرّ من بلد الضِّبابِ
فأسكنَ أهلَه ببلادِ ريفٍ وجنّاتٍ وأنهارٍ عِذابِ

---

(١) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم.

(٢) لم أجد الشعر فى ديوانه. ونسب فى الحيوان ١ : ٢٥٦ إلى أبى ذباب السعدى، وفى ٦ : ١٠١ إلى التيمى.

فصـــار بنُو بنيهِ بهـــا مُلوكًا وصِرْنا نحن أمثالَ الـكلابِ
فلا رحِمَ الإلهُ صَـــدى تميمٍ فقد أزرَى بنَا فى كلِّ بابِ

وقال آخر فى حبِّ الوطن :

سقى الله أرضَ العـاشقين بغيثِهِ وردَّ إلى الأوطان كلَّ غَريبِ
وأعطَى ذَوِى الهيئاتِ فوقَ مُنامُ ومَتَّع محبوبًا بقرب حبيبِ

تمت الرسالة فى الحنين إلى الأوطان من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله ومنّه ، وبتمامها تم جميع الجزء من كلامه ، والله الموفق للصّواب برحمته ، والحمد لله أولاً وآخرًا ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيِّبين الطاهرين وسلامه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

أنهاه مطالعة العبد الفقير أحمد شهاب الدين المصرى .

الفهارس الفنيـــة

١ — فهرس القرآن

مرتباً حسب المواد اللغوية

٢ — فهرس الحديث

٣ — فهرس الأمثال

٤ – فهرس الأشعار

(١) ويقال إنه للفضل بن العباس.

أجزاء أبيات

٥ — فهرس الأرجاز

٦ — فهرس اللغة(*)

(١) الألفاظ العربية

(*) يشمل ما فسره الجاحظ وقد وضعت أرقامه بين قوسين ( ) ، وما قمت بتفسيره فى الحواشى وقد جرد من الأقواس . وما وضع تحته خط فهو مما لم يرد فى المعاجم . كما يشمل الفهرس أيضاً مسائل العربية .

ب ـ الكلمات غير العربية

٧ — فهرس الأعلام(*)

(*) الأرقام الموضوعة بين قوسين تدل على مواضع الترجمة . وما وضع بعده (ح)، فهو مما ورد في الحواشي .

---

(١) تهذيب التهذيب ٢ : ٨٨ .

(ح)

(خ)

(د)

(س)

(ش)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

٨ — فهرس القبائل والطوائف ونحوها

٩ — فهرس البلدان والمواضع ونحوها

١٠ — فهرس الكتب (*)

(*) ما قرن منها بنجم فهو من تأليف الجاحظ .

مراجع الشرح والتحقيق

أخبار أبي تمام للصولي . لجنة التأليف ١٣٥٦ .

أخبار الظراف والمتماجنين ، لابن الجوزي . دمشق ١٣٤٧ .

أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، للقفطي . السعادة ١٣٢٦ .

أخبار أبي نواس ، لابن منظور . الاعتماد ١٣٤٣ .

أدب الدنيا والدين ، للماوردي . الأميرية ١٣٤٣ .

أساس البلاغة ، للزمخشري . دار الكتب ١٣٤١ .

الاستيعاب ، لابن عبد البر . حيدر أباد ١٣١٨ .

أسد الغابة ، لابن الأثير . الوهبية ١٢٨٦ .

أسماء خيل العرب ، لابن الأعرابي . ليدن ١٩٢٨ م .

أسماء المغتالين من الأشراف ، لابن حبيب (في نوادر المخطوطات) .

الاشتقاق ، لابن دريد . تحقيق عبد السلام هارون . السنة ١٣٧٨ .

الإصابة ، لابن حجر . السعادة ١٣٢٣ .

إعتاب الكتاب ، لابن الأبار . تحقيق د . صالح الأشتر . دمشق ١٣٨٠ .

اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي . لجنة التأليف ١٣٥٦ .

الأغاني ، لأبي الفرج . التقدم ١٣٢٣ .

الأغاني ، لأبي الفرج . دار الكتب من سنة ١٣٤٥ .

الاقتضاب ، لابن السيد . بيروت ١٩٠١ م .

الإكليل . للهمداني . تحقيق الأب أنستاس ماري . بغداد ١٩٣١ م .

ألف ليلة وليلة . بولاق ١٢٥١ .

الألفاظ الفارسية المعربة ، لأدى شير . بيروت ١٩٠٨ م .

أمالي الزجاجي . تحقيق عبد السلام هارون . المدني ١٣٨٢ .

أمالي القالي . دار الكتب ١٣٤٤ .

أمالي المرتضى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . الحلبي ١٣٧٣ .

إمتاع الأسماع ، للمقريزي . تحقيق محمود شاكر . لجنة التأليف ١٩٤١ .

إنباه الرواة ، للقفطي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار الكتب ١٣٦٩ .

الأنساب ، للسمعاني ، ليدن ١٩١٢ م .

الأوراق ، للصولي . الصاوي ١٩٣٦ م .

البخلاء ، للجاحظ . تحقيق د. طه الحاجري . دار الكاتب المصري ١٩٤٨ م .

البداية والنهاية ، لابن كثير . السعادة ١٣٢٨ .

بغية الوعاة ، للسيوطي . السعادة ١٣٢٦ .

بلوغ الأرب ، للآلوسي . الرحمانية ١٣٤٣ .

البيان والتبيين ، للجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٨١ .

تاريخ الإسلام ، للذهبي . القدسي ١٣٦٧ .

تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي . السعادة ١٣٤٩ .
تاريخ الطبري . الحسينية ١٣٢٦ .
تحقيق النصوص ونشرها ، تأليف عبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٧٤ .
تذكرة الحفاظ ، للذهبي . حيدر أباد ١٣٣٣ .
تذكرة داود الأنطاكي . الشرفية ١٣١٧ .
التربيع والتدوير ، للجاحظ . في مجموعة رسائل الجاحظ . التقدم ١٣٢٤ .
تزيين الأسواق ، لداود الأنطاكي . الأزهرية ١٣٢٨ .
تفسير أبي حيان ، البحر المحيط . السعادة ١٣٢٨ .
تفسير ابن كثير . الاستقامة ١٣٧٣ .
تقريب التهذيب ، لابن حجر . الهند ١٣٢٠ .
التمثيل والمحاضرة ، للثعالبي . تحقيق عبد الفتاح الحلو . الحلبي ١٣٨١ .
التنبيه والإشراف للمسعودي . الصاوي ١٣٥٧ .
التنبيه على شرح مشكلات الحماسة ، لابن جني . (مصورة خاصة من مخطوطة أحمد الثالث) .
تهذيب الأسماء واللغات ، للنووي ، تحقيق وستنفلد . طبع غوطا ١٢٤٢ .
تهذيب تاريخ ابن عساكر . لعبد القادر بدران . دمشق ١٣٣٢ .
تهذيب التهذيب ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٢٧ .
التيجان ، لوهب بن منبه . حيدر أباد ١٣٤٧ .
ثمار القلوب ، للثعالبي . الظاهر ١٣٢٦ .
الجامع الصغير ، للسيوطي . حجازي ١٣٥٢ .
جمع الجواهر ، للحصري . الرحمانية ١٣٥٣ .
جمهرة أشعار العرب ، لأبي زيد القرشي . بولاق ١٣٠٨ .
جمهرة الأمثال ، للعسكري . بمباي ١٣٠٦ .
جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم ، تحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف ١٣٨٢ .
جنى الجنتين ، للمحبي . الترقي بدمشق ١٣٤٨ .
جوامع السيرة ، لابن حزم . تحقيق إحسان عباس وناصر الأسد . دار المعارف ١٩٥٦ م .
حاشية الصبان على الأشموني . عيسى الحلبي ١٣٦٦ .
حسن المحاضرة ، للسيوطي . الموسوعات ١٣٢١ .
حماسة البحتري . الرحمانية ١٣٢٩ م .
حماسة أبي تمام . السعادة ١٣٣١ .
حماسة ابن الشجري . حيدر أباد ١٣٤٥ .
حياة الحيوان ، للدميري . صبيح بالقاهرة .
الحيوان ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون . الحلبي ١٣٦٦ .
خزانة الأدب ، للبغدادي . بولاق ١٢٩٩ .
الخصائص ، لابن جني . تحقيق محمد علي النجار . دار الكتب ١٣٧٦ .
خلاصة تذهيب الكمال ، للخزرجي . الخيرية ١٣٢٢ .
الخيل ، لأبي عبيدة . حيدر أباد ١٣٥٨ .
دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني . السعادة ١٣٣٧ .
الديارات ، للشابشتي . تحقيق كوركيس عواد . بغداد ١٩٥١ م .

ديوان الأخطل . بيروت ١٨٩١ م .
« أبي الأسود الدؤلي (ضمن نفائس المخطوطات) . بغداد ١٣٧٣ .
« الأعشى . تحقيق جاير . فينا ١٩٢٧ م .
« امرئ القيس . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . المعارف ١٩٥٨ م .
« أوس بن حجر . تحقيق د . محمد يوسف نجم . بيروت ١٣٨٠ .
« البحتري . هندية ١٣٢٩ .
« بشار بن برد . شرح ابن عاشور . لجنة التأليف ١٣٦٩ .
« أبي تمام . بيروت ١٣٢٣ .
« جرير . الصاوي ١٣٥٣ .
« جميل . جمع وتحقيق د . حسين نصار . دار مصر ١٣٨٢ .
« حسان بن ثابت . الرحمانية ١٣٤٧ .
« حميد بن ثور . تحقيق الميمني . دار الكتب ١٣٦٩ .
« ذي الرمة . كمبردج ١٩١٩ م .
« زهير ، بشرح ثعلب . دار الكتب ١٣٦٣ .
« زهير ، بشرح الشنتمري . النعاني ١٣٤٧ .
« الشماخ . السعادة ١٣٢٧ .
« أبي العتاهية . بيروت ١٩١٤ م .
« علقمة الفحل . الوهبية ١٢٩٣ .
« عنترة . الرحمانية .
« الفرزدق . الصاوي ١٣٥٤ .
« القطامي . ليدن ١٩٠٢ م .
« لبيد . تحقيق د . إحسان عباس . الكويت ١٩٦٢ م .
« أبي محجن الثقفي . الأزهار بالقاهرة .
« مسلم بن الوليد . تحقيق د . سامي الدهان . دار المعارف ١٣٧٦ .
« المعاني ، للعسكري . القدسي ١٣٥٢ .
« النابغة الذبياني . الوهبية ١٢٩٣ .
« أبي نواس . العمومية ١٨٩٨ م .
« الهذليين . دار الكتب ١٣٥٠ .
ذيل الأمالي ، للقالي . دار الكتب ١٣٤٤ .
الرياض النضرة ، للمحب الطبري . الحسينية ١٣٢٧ .
زهر الآداب ، للحصري . تحقيق علي البجاوي . الحلبي ١٩٥٣ م .
سرح العيون ، لابن نباتة . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . المدني ١٣٨٣ .
سرقات أبي نواس ، لمهلهل بن يموت . تحقيق د . محمد مصطفى هدارة . مخيمر ١٩٥٧ م .
سفر التكوين .
سمط اللآلي ، للراجكوتي . لجنة التأليف ١٣٥٤ .
سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . الحلبي ١٣٧٣ .
سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي . المؤيد ١٣٣١ .
السيرة ، لابن هشام . جوتنجن ١٨٥٩ م .

شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلي . القدسي ١٣٥١ .
شرح أشعار الهذليين ، للسكري . تحقيق عبد الستار فراج ومراجعة محمود شاكر . المدني ١٩٦٣م .
شرح الألفية ، للأشموني . عيسى الحلبي ١٣٦٦ .
شرح الحماسة ، للتبريزي . تحقيق محمد محيي الدين . حجازي ١٣٥٨ .
شرح الحماسة ، للمرزوقي . تحقيق عبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٧٢ .
شرح الشافية ، للرضي . حجازي ١٣٥٦ .
شرح شواهد الألفية ، للعيني (بهامش خزانة الأدب) .
شرح شواهد المغني ، للسيوطي . البهية ١٣٢٢ .
شرح المقامات ، للشريشي . بولاق ١٣٠٠ .
شرح القصائد السبع الطوال ، لابن الأنباري . تحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف ١٩٦٣ .
شرح القصائد العشر ، للتبريزي . السلفية ١٣٤٣ .
شرح الكافية ، للرضي . الآستانة ١٢٧٥ .
شرح المعلقات السبع للزوزني . السعادة ١٣٤٠ .
شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . الحلبي ١٩٦٣ م .
شروح سقط الزند ، تحقيق لجنة أبي العلاء . دار الكتب ١٣٦٨ .
الشعر والشعراء ، لابن قتيبة . تحقيق أحمد شاكر . الحلبي ١٣٧٠ .
الشعور بالعور ، للصفدي . (مخطوطة دار الكتب رقم ١٨٣٤ تاريخ) .
شفاء الغليل ، للخفاجي . السعادة ١٣٢٥ .
صحيح البخاري ، بهامش فتح الباري .
صحيح مسلم . بعناية محمد فؤاد عبد الباقي . الحلبي ١٣٧٥ .
صفة الصفوة ، لابن الجوزي . حيدر أباد ١٣٥٦ .
الصناعتين ، للعسكري . الحلبي ١٣٧١ .
طبقات الأطباء ، لابن أبي أصيبعة . الوهبية ١٢٩٩ .
طبقات الشعراء ، لابن سلام . تحقيق محمود شاكر . المعارف ١٩٥٢ م .
طبقات الشعراء ، لابن المعتز . تحقيق عبد الستار فراج . المعارف ١٣٧٥ .
الطبيخ ، للبغدادي . الموصل ١٣٥٣ .
طراز المجالس ، للخفاجي . الوهبية ١٢٨٤ .
العثمانية ، للجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون . دار الكتاب العربي ١٣٧٤ .
العقد الفريد ، لابن عبد ربه . لجنة التأليف ١٣٧٠ .
العمدة ، لابن رشيق . هندية ١٣٤٤ .
عيون الأثر ، لابن سيد الناس . القدسي ١٣٥٦ .
عيون الأخبار ، لابن قتيبة . دار الكتب ١٣٤٣ .
غرر الخصائص ، للوطواط . بولاق ١٢٧٤ .
الغريب المصنف ، لأبي عبيد . (مخطوطة دار الكتب ١٢١ لغة) .
الفاخر ، للمفضل بن سلمة . تحقيق عبد العليم الطحاوي . الحلبي ١٣٨٠ .
فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، لابن حجر . بولاق ١٣٠١ .
فتوح البلدان ، للبلاذري . تحقيق عبد الله وعمر الطباع . دار النشر للجامعيين ببيروت ١٣٧٧ .
الفخري ، لابن طباطبا . الموسوعات ١٣١٧ .

الفرق بين الفرق ، للبغدادي . المعارف ١٣٢٨ .
الفهرست ، لابن النديم . الرحمانية ١٣٤٨ .
فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبي . بولاق ١٢٨٣ .
الكامل ، لابن الأثير . بولاق ١٢٩٠ .
الكامل ، المبرد . ليبسك ١٨٦٤ م .
الكتاب ، لسيبويه . بولاق ١٣١٦ .
كتاب بغداد ، لابن طيفور . عزت الحسيني ١٣٦٨ .
كشف الظنون ، لحاجي خليفة . تركيا ١٣١٠ .
الكنايات ، للجرجاني . السعادة ١٣٢٦ .
اللآلي = سمط اللآلي .
لسان الميزان ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٣٠ .
مجالس ثعلب ، تحقيق عبد السلام هارون . المعارف ١٣٦٩ .
مجالس العلماء ، للزجاجي . تحقيق عبد السلام هارون . الكويت ١٩٦٢ م .
مجلة الثقافة . العدد ٢٢٤ .
مجمع الأمثال للميداني . البهية ١٣٤٢ .
مجموع أشعار العرب ، بعناية وليم بن الورد البروسي . ليبسك ١٩٠٣ .
مجموعة المعاني ، لمجهول . الجوائب ١٣٠١ .
المحاسن والأضداد ، للجاحظ . الجمالية ١٣٣٠ .
المحاسن والمساوى ، للبيهقي . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . نهضة مصر ١٣٨٠ .
محاضرات الأدباء ، للراغب الأصفهاني . الشرفية ١٣٢٦ .
محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر ، للبستوى على دده . بولاق ١٣٠٠ .
المحبر ، لابن حبيب . تحقيق د . إيلزة ليختن . حيدر أباد ١٣٦١ .
المختار من شعر بشار ، للخالديين . الاعتماد ١٣٥٣ .
المخصص ، لابن سيده . بولاق ١٣١٨ .
مسند ابن حبان . تحقيق أحمد شاكر . دار المعارف ١٣٧٢ .
المصاحف ، للسجستاني . تحقيق د . أرثر جفرى . الرحمانية ١٣٥٥ .
المصون ، لأبي أحمد العسكري . تحقيق عبد السلام هارون . الكويت ١٩٦٠ م .
المعارف ، لابن قتيبة . الإسلامية ١٣٥٣ .
المعاني الكبير ، لابن قتيبة . حيدر أباد ١٣٦٨ .
معاهد التنصيص ، للعباسي . البهية ١٣١٦ .
معجم الأدباء ، لياقوت . دار المأمون ١٣٢٣ .
معجم البلدان ، لياقوت . السعادة ١٣٢٣ .
معجم الحيوان ، للمعارف . المقتطف ١٩٣٢ م .
معجم الشعراء ، للمرزباني . القدسي ١٣٥٤ .
المعجم الفارسي الإنجليزي ، لاستينجاس . لندن ١٩٣٠ م .
معجم قبائل العرب ، لعمر رضا كحالة . الهاشمية بدمشق ١٣٦٨ .
معجم ما استعجم ، للبكري . تحقيق مصطفى السقا . لجنة التأليف ١٣٧١ .
المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية) . مطبعة مصر ١٣٨٠ .

المعرب ، للجواليقي . تحقيق أحمد شاكر . دار الكتب ١٣٦١ .
المعمرين ، للسجستاني . السعادة ١٣٢٣ .
مغني اللبيب ، لابن هشام . التقدم ١٣٤٨ .
مفاتيح العلوم ، للخوارزمي . محمد منير ١٣٤٢ .
المفضليات ، للمفضل الضبي . تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . المعارف ١٣٧١ .
المقصور والممدود ، لابن ولاد . السعادة ١٣٢٦ .
الملل والنحل ، للشهرستاني . الأدبية ١٣١٧ .
المواقف ، للعضد . العلوم ١٣٥٧ .
المؤتلف والمختلف للآمدي . القدسي ١٣٥٤ .
الموشح ، للمرزباني . السلفية ١٣٤٣ .
الموطأ ، لمالك بن أنس . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . الحلبي ١٣٧٠ .
النجوم الزاهرة ، لابن تغري بردي . دار الكتب ١٣٤٨ .
نزهة الألباء ، لابن الأنباري . القاهرة ١٢٩٤ .
النزهة المبهجة ، لداود الأنطاكي ، بهامش تذكرة داود .
نسب الخيل ، لابن الكلبي . ليدن ١٩٢٨ م .
نسب قريش ، للزبيري . تحقيق بروفنسال . دار المعارف ١٩٥٣ م .
نفائس المخطوطات . تحقيق محمد حسن آل ياسين . النجف وبغداد ١٣٧٢ — ١٣٧٥ .
النقود العربية وعلم النميات ، للأب أنستاس ماري . العصرية ١٩٣٩ م .
نكت الهميان ، للصفدي . تحقيق أحمد زكي باشا . مصر ١٩١٠ م .
نهاية الأرب ، للنويري . دار الكتب ١٣٤٢ .
نوادر المخطوطات . تحقيق عبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٧٠ — ١٣٧٤ .
همع الهوامع ، للسيوطي . السعادة ١٣٢٧ .
الورقة ، لابن الجراح ، تحقيق عزام وفراج . دار المعارف ١٣٧٢ .
الوزراء ، والكتاب ، للجهشياري . تحقيق السقا والأبياري وشلبي . الحلبي ١٩٣٨ م .
وفاء الوفاء ، للسمهودي . السعادة ١٣٧٤ .
وفيات الأعيان ، لابن خلكان . الميمنية ١٣١٠ .
وقعة صفين ، لنصر بن مزاحم . تحقيق عبد السلام هارون . المدني ١٣٨٢ .

استدراك وتذييل

١ : ١٢ س ١٣ من الحواشي : «اسم أبيه أمية بن عبيدة» . هذا ما ورد فى هذا الموضع من الجمهرة ص ٢١٣ . لكن فى ص ٢٢٩ منها «أمية بن أبي عبيدة بن همام بن الحارث» . وهذا يطابق ما فى الإصابة ٩٣٦٠ .

١ : ٦٠ س ٦ : «لأنسوك أدب البصريين» . كذا وردت فى الأصل بالباء . وأرى أن صوابها «المصريين» . وجاء فى حسن المحاضرة للسيوطى ٢ : ١٩٩ : «من أقام بمصر سنة وجد فى أخلاقه رقة وحسناً» .

١ : ٨٣ س ١ : «فيروزا شاهى» جاء فى جمهرة أنساب العرب ٨٩ أن أم يزيد هى «شاهفريد بنت كسرى بن فيروز بن يزدجرد» .

١ : ٨٣ س ١ : «أم يزيد الناقص والوليد» ، كذا فى الأصل ، وصوابه «أم يزيد الناقص ابن الوليد» .

٢ : ٧٤ س ١٠ البيتان رويا فى وفيات الأعيان منسوبين إلى الفراء فى ترجمته ٢ : ٢٢٩ .

٢ : ٣٤٥ س ١ من الحواشي : «بأبى المميس» ، كذا فى الأغانى ، وصوابه «بأبى العملس» ، والعملس ولده .

كما حدث سهو فى ترقيم حواشى الصفحات ١٦٦ ، ٢١٤ من الجزء الأول و١٠٢ ، ٢٧٢ من الجزء الثانى .

تصحيح أخطاء مطبعية

ص	س	الخطأ	الصواب	ص	س	الخطأ	الصواب
١ : ٢٤	٣ ح	فى اسم	فى اسم أبيه	٢ : ١٠١	١ ح	الحكم عتيبة	الحكم بن عتـ
٣٨	٥ ح	عمر بن أبان	عمرو بن أبان	١٥٩	١٠	سلامة	سلامة
٤٨	٨ ح	والفرانق	والفرانق	١٦٢	١ ح	الموقوفة	الموقوتة
٢٢٣	٧ ح	٢ : ٣٢٤	١ : ٣٢٤	١٧٨	١٤	سؤلُه	سؤلَه
٢٣٧	٣ ح	التتابع	التتايع	٢٠٥	١١	الجزاء	الجزء
٢٣٧	٤ ح	التتايع	التتابع	٢٢٦	١٧ ح	ص ٥٧	١ : ٥٧
٢٧٧	٧	أوحن	أوحق	٢٤٠	١٠ ح	عضه	أعضه
٢ : ١٥	٩	ويقـ نهم	ويقاربونهم	٢٦٧	٧ ح	« دپروانه »	« پروانه »
٦٠	٤	وقد ابن	وفد ابن	٣٠٦	١	وحرفة	وحُرفة
٨١	٦	حرا	حرُ	٢٧١	١٢	فأحسب	فاحسب

محتويات الكتاب

الجزء الأول

ص

الجزء الثانى

الفهارس

أبــو سلــوم المعتـــزلي

مكتبة الجاحظ

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

١٥٠ - ٢٥٥

بتحقيق وشرح

عبد السلام محمد هارون

رسائل الجاحظ

الجزء الثالث

القسم الأول من

الفصول المختارة من كتب الجاحظ

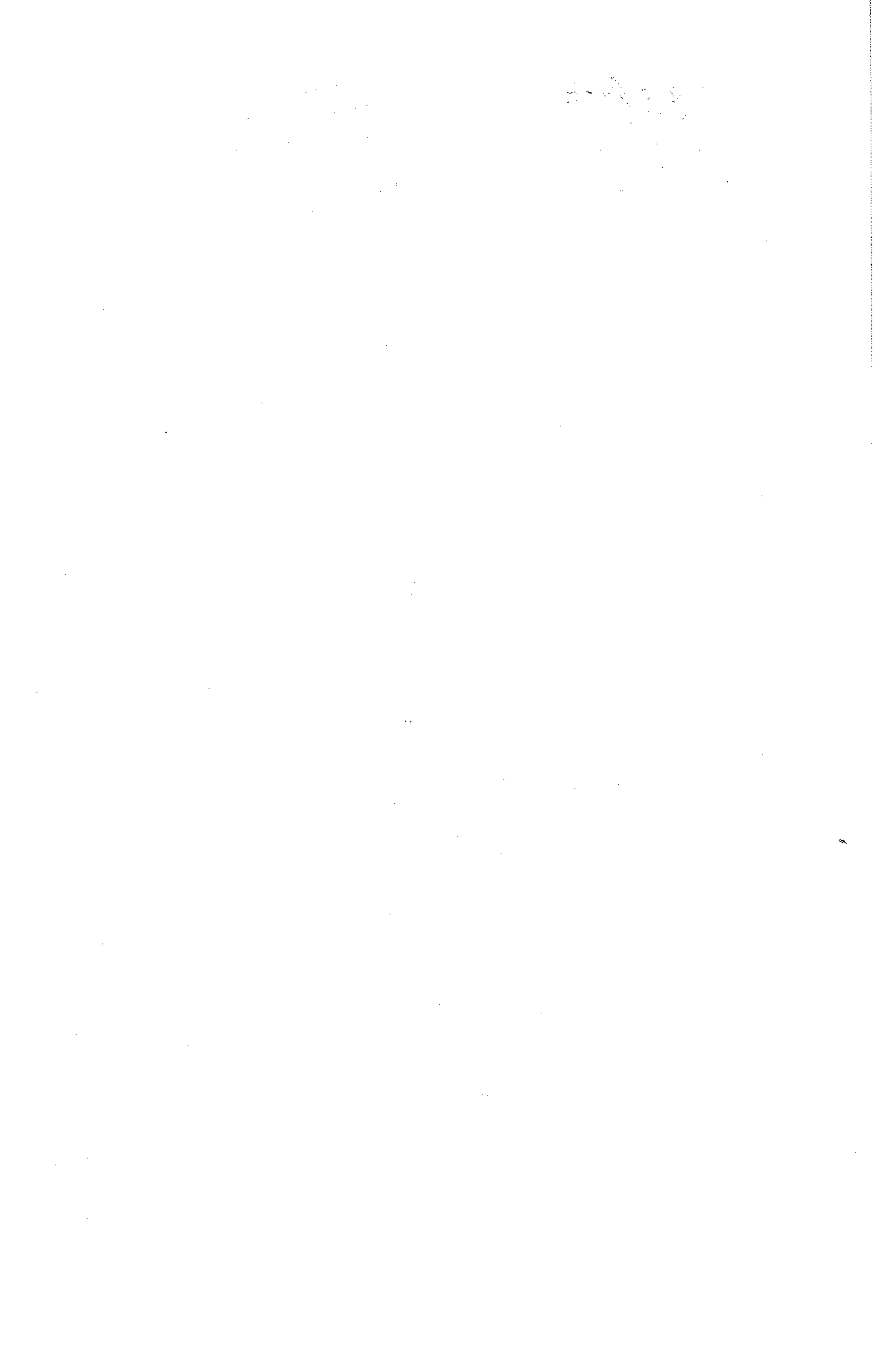
اختيار الإمام عبيد الله بن حسان

[الطبعة الأولى]

١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م

الناشر

مكتبة الخانجي بمصر



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أيدك الله ، وأسبغ عليك من عظيم فضله وجميل نعمته ، ماترضى به وتطمئن إليه . وحفظك أخاً كريماً ترعى الود ، وتقيم على العهد .

وكنت قد وعدتك من قبل أن أتبع المجموعة الأولى من الرسائل ، وهى (مجموعة مكتبة داماد) ، بمجموعة أخرى لاتقل عنها قدراً إن لم تفقها ، وهى (مجموعة مختارات عبيد الله بن حسان) .

وعدت عواد أن أبادر بإنجاز هذا الوعد ، مع بقائى عليه ، علم الله ، وامتداد بصرى إلى صونه ورعايته .

فلما أذن الله ، وله الحمد ، أن أنهض بإتمام تحقيق هذه المختارات ، ضاعفت شكره ، وسعيت إلى نشرها بين يديك ،لتعلم أنى على موعدى .

وقد أشرت فى مقدمة الجزء الأول من رسائل الجاحظ إلى حصر أبرز المجموعات التى حفظت بها هذه الرسائل ، وهى :

١ ــ مجموعة مكتبة داماد (وقد نشرتها سنة ١٣٨٤ فى جزأين بهما ١٧ كتاباً ورسالة) .

٢ ــ مجموعة فان فلوتن .

٣ ــ مجموعة الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان .

٤ ــ مجموعة محمد ساسى المغربى .

٥ ــ مجموعة ريشر .

٦ — مجموعة حسن السندوبى .

٧ — مجموعة يوشع فنكل .

٨ — مجموعة بول كراوس وطه الحاجرى .

ولست أعيد القول فيما اشتملت عليه كل مجموعة من هذه المجموعات الثمانية ، فإنها مسطورة بالتفصيل فى مقدمة الجزء الأول من الرسائل .

وإنما يعنينى القول فى مجموعة واحدة هى المجموعة الثالثة من هذه المجموعات، وهى (الفصول المختارة من كتب الجاحظ) ، إذ هى الأصل الذى اعتمدت عليه فى إخراج الجزأين الثالث والرابع من رسائل الجاحظ .

وقد طبعت هذه المجموعة من قبل محرفة مبتورة ، على هامش كامل المبرد بمطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٣ بعناية الشيخ على بن أحمد الهوارى .

وكان الذى حدانى إلى إعادة نشر هذه الفصول المختارة أمور :

أولها : مالها من القدر الأدبى والتاريخى ، إذ أنها تشتمل على عيون من كتب الجاحظ ، هى فى قمة ما أنشأه ، من حيث موضوعاتها المختلفة فى الشئون الإنسانية العامة . فهى دراسات نفسية واجتماعية ، ودينية وكلامية وجدلية ، وأدبية عالية ، وترفيهية سامية ، وإن كانت معظم كتب الجاحظ تلم بأطراف مما ذكرت ، ولكن التناول العميق لهذه الدراسات ، مما اختصت به أفراد هذه المجموعة النادرة .

فلا ريب أن الجاحظ قد تكلم فى الحاسد والمحسود فى أثناء كتبه كلاماً عابراً ، ولكنه حين يخص هذا الأمر بالدراسة والقول المستفيض ، يضىء لنا جميع الجوانب التى يمكن أن تحيط به ، بقدر ما يثير إعجابنا وإمتاعنا .

وهو حين يقدم دراسة عن المعلمين ، يبسطها لنا مستوعباً أقصى مايمكن كتابته فى هذا اللون الأدبى من الكتابة فى طائفة عظيمة من طوائف الناس .

وحين يتكلم على النساء والمرأة يجلو صفحة عريضة من نظرته ونظرة

دنياه ، بل دنيانا نحن ، إلى نصف هذا البشر الذى يعاملنا ونتعامل معه ، فى ثقة العالم وصراحة الدارس الموضوعى .

كما أن الدراسة التاريخية والسياسية فى «مناقب الترك» تطلعنا على جوانب كانت غامضة على الكثير منا ، إذ فيها تباين نظرة الناس إلى هذا العنصر البشرى وغيره من عناصر الدولة الإسلامية فى ذلك العهد السحيق . وهى وثائق سياسية لها قدرها السياسى إلى جانب قدرها الاجتماعى والإنسانى . وهو الأمر الذى دعا أحد الأدباء[1] إلى أن يضع كتاباً عنوانه : « الترك فى مؤلفات الجاحظ » ، وهو بحث له قدره ووزنه .

وكتابه فى « المعلمين » حملنى من قبل أن أكتب فى هذا الجانب دراسة مستفيضة نشرت فى مجلة « الكتاب » فى عدد أغسطس سنة ١٩٤٦ .

وآراء الجاحظ فى « حجج النبوة » ، و « خلق القرآن » جديرة بأن تلقى دراسة وتمحيصاً .

وكتاب « الرد على النصارى » مظهر مضىء من مظاهر الحركات الفكرية التى كانت سائدة فى أزهى العصور الإسلامية ، ونموذج رائع للجدال العلمى الرفيق مع أهل الكتاب بالتى هى أحسن .

وفى الحق أن فى كل كتاب أو رسالة فى هذه المجموعة التى بلغ تعدادها ٢٩ تسعة وعشرين كتاباً أو رسالة ، مثاراً للبحث والتأمل ، والمتعة التى لا حدود لها .

وإنا لنجد بين القدماء من يغلو فى تقدير كتب الجاحظ ، ويتجاوز حدود الوقار فيقول[2] : « رضيت فى الجنة بكتب الجاحظ عوضاً عن نعيمها » .

---

(١) هو الأديب زكريا الكتابجى . وقد نشر كتابه فى دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٧٢ .

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن حمود الزبيدى الأندلسى ، تلميذ السيرافى والفارسى والقالى . بغية الوعاة ٢٢٨ .

والأمر الثانى : أن النشرة الأولى لهذه المجموعة نشرة غير علمية ، وإن كان لناشرها المغمور فضل السبق فى إظهارها ، وتمكين الباحث إلى قدر ما من الاستعانة بها فى المجال العلمى .

وثالثها : أن بتلك النسخة المطبوعة سقطاً كبيراً تناول نحو عشر رسائل . وهو قدر كبير كان لابد من إثباته فى نشرة جديدة، كتب الله لى فضل إخراجها .

وهذا السقط يبدأ من منتصف كتاب النصارى إلى أوائل كتاب « النبل والتنبل وذم الكبر » .

ورابعها : أن أصل النسخة المطبوعة غير معروف ، شأنها فى ذلك شأن كثير مما نشر من أفراد التراث العربى وأظهرته المطابع فى هذا العهد المتطلع إلى النهوض من عثرات التخلف .

وخامسها : أن مخطوطة التيمورية التى جعلتها أحد أصول التحقيق فى نسختى هذه ، تنتمى إلى أصل عتيق ، ففى نهايتها نجد هذا النص :

« انتهاء الفصول التى اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة فى يوم الجمعة المبارك الموافق لثلاث خلت من شهر ذى القعدة من شهور سنة ١٣١٥ خمسة عشر وثلاثمائة بعد الألف من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم . وقد تم نسخها بيد العبد الحقير، المعترف بالعجز والتقصير ، عبد أهل السنة والجماعة ، الخاضع لله بالدعاء والطاعة ، الراجى لطف ربه الغنى ، محمد بن عبدالله بن إبراهيم الزمرانى ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين بمنه وكرمه ، والصلاة والسلام على خير خلقه ، والحمد لله وحده . تمت بحمد الله وعونه وحسن توفيقه آمين .

وقد نقلت هذه النسخة المباركة من نسخة تاريخها فى أوائل شهر رجب الأصم سنة ٤٠٣ ثلاث وأربعمائة، كاتبها أبى القاسم (كذا) عبيد الله بن على » .

وهذه النسخة التيمورية وقرينتها نسخة الأزهر المودعة برقم [٢٣١] أباظة ٦٨٣٦ كتبهما وراق واحد، هو محمد بن عبدالله بن إبراهيم الزمرانى ، كتب نسخة التيمورية سنة ١٣١٥ ومن قبلها نسخة الأزهر سنة ١٣١٣ . وفى آخر نسخة الأزهر ما نصه :

« انتهاء الفصول التى اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة خامس يوم شهر محرم الحرام افتتاح سنة ٣١٣ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحية ، بقلم العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير محمد بن عبدالله بن إبراهيم الزمرانى ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين » .

وقد رجح لدى أن هاتين النسختين منقولتان من نسخة واحدة هى التى أشار إليها الناسخ فى ختام التيمورية .

لذلك ، ولأن الكاتب للنسختين وراق واحد ، ولأن التحريف والأسقاط والزيادات فيهما واحدة اعتمدت على النسخة التيمورية ، واكتفيت بها عن صنوها نسخة الأزهر .

وهذه النسخة التيمورية تعد من حيث الصحة والكمال فوق نسخة المتحف البريطانى .

وعلى هذا فقد استقرت المقابلة فى نشرتى هذه على ثلاثة أصول :

١ ــ الأصل الأول : نسخة المتحف البريطانى ، وهى أقدم الأصول الثلاثة تاريخاً ، وكتب على صدرها :

« هذا كتاب مختارات فصول الجاحظ عفى عنه ، كتب برسم خزانة الأمير الفاضل موسيو كريمر النمساوى[1] ، بمحروسة مصر سنة ١٨٧٧ م » . وهى تقابل سنة ١٢٩٤ الهجرية .

---

(١) هو البارون النمساوى فون كريمر (١٨٢٨ – ١٨٨٩) . ولد فى فيينا وتخرج فى جامعتها ، فأرسلته دولته قنصلا لها بمصر ثم ببيروت سنة ١٨٧٠ . وكان من أصحاب النشاط =

ومنها نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٦٩ وهى فى ٢٩٩ لوحاً فى مجلدين ، تشتمل صفحة اللوح على ١٧ سطراً بكل سطر نحو ثمانى كلمات . وقد التزم فيها علامات الإلحاق فى أسفل الصفحات اليمنى . وقد كتبت النسخة بخط نسخى جيد مجرد من الضبط . وجاء فى خاتمتها :

« انتهاء الفصول التى اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله تعالى . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة يوم الجمعة المبارك الثامن عشر من شهر صفر الخير من سنة ١٢٩٤ بعد الألف من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية ، على يد كاتبها الفقير عبد الله المنصورى . اللهم اغفر له ولوالديه . آمين آمين .

وقد رمزت إلى هذه النسخة فى التعليقات والمقابلات بالرمز (ب) إشارة إلى المتحف البريطانى .

٢ ــ الأصل الثانى : نسخة المكتبة التيمورية ، وهى مودعة بدار الكتب المصرية برقم ١٩ أدب تيمور . وكتب على صدرها :

« هذا كتاب مختارات فصول الشيخ الهمام، العالم العلامة والبحر الفهامة، أبى عثمان الجاحظ ، تغمده الله برحمته ، وأسكنه فسيح جنته ، بمنه وكرمه . آمين » .

وهى كتلك مكتوبة بالخط النسخى الجيد ، مجردة من الضبط ، إلا ما قام به المغفور له أحمد تيمور باشا من بعض الضبط والمقابلات فى الرسالة الأولى منها ، وهى « رسالة الحاسد والمحسود » . وهى مقابلات على مطبوعة الساسى فى مجموع رسائله . وكذلك بعض المقابلات على تلك المطبوعة أيضاً فى رسالة الجاحظ إلى الفتح بن خاقان فى « مناقب الترك وعامة جند الخلافة ».

= السياسى والاستشراقى . وقد ابتاعت مكتبة المتحف البريطانى مكتبته الشرقية، كما ذكر نجيب العقيقى فى كتابه المستشرقون ٢ : ٦٣١ . ومن منشوراته : المغازى للواقدى بمقدمة وشروح انجليزية (كلكتا وبرلين ١٨٥٥ — ١٨٨٨) ، والقصيدة الحميرية لنشوان بن سعيد الحميرى (ليبزيج ١٨٦٥) .

وهى فى ٢٠٨ ورقة عدد صفحاتها ٤١٧ صفحة ، بكل صفحة ٢١ واحد وعشرون سطراً بكل سطر نحو ١١ كلمة .

وقد أشرت إلى ختام هذه النسخة فيما سبق .

ورمزت لهذه النسخة بالرمز (م) مقتبساً من التيمورية .

٣ - الأصل الثالث : أصل استئناسى ، هوالنسخة المطبوعة بهامش كامل المبرد فى مطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٣ وعنوانها : « الفصول المختارة من كتب الإمام أبى عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هجرية ، اختيار الإمام عبيد الله بن حسان رحمه الله ونفعنا به آمين » .

وخاتمتها : « انتهت الفصول التى اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله تعالى ، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله وصحبه أجمعين » .

وهى فى جزأين : الأول فى ٣٩٦ صفحة ، والثانى فى ٣٠١ صفحة . وهذه النسخة بها كثير من النقص كما أشرت إلى ذلك من قبل ، ولكنها مصححة محررة بشىء من العناية ، قام على تصحيحها مقرونة بكامل المبرد « راجى عفو البارى ، على بن أحمد الشهير بالهوارى » .

ولايعلم الأصل الذى طبعت منه ، ولاريب أنه غير النسخ التى سبق الكلام عليها ، أى النسخة الأزهرية ونسخة تيمور ، ونسخة المتحف البريطانى .

وقد أشرت إليها بالرمز (ط) .

وإليك فهرسها مقارناً بفهرس النسخة التيمورية ونسخة المتحف البريطانى :

فالرقم الأول لصفحات التيمورية ، يليه رقم ألواح مصورةنسخة المتحف البريطانى ،وبعده أرقام صفحات النسخة المطبوعة على هامش الكامل للمبرد :

	التيمورية	المتحف البريطانى	مطبوعة هامش الكامل
١ ـــ الحاسد والمحسود	٢ ـــ ١٣	٢ و ـــ ٨ و	١ : ٢ ـــ ١٦
٢ ـــ المعلمين	١٣ ـــ ٣٢	٨ ظ ـــ ١٩ و	١٧ ـــ ٣٠
٣ ـــ التربيع والتدوير	٣٢ ـــ ٦٩	١٩و ـــ ٣١ ظ	٣٠ ـــ ٩٧
٤ ـــ مدح النبيذ	٧٠ ـــ ٨١	٤٢و ـــ ٤٩ و	٩٧ ـــ ١٢٠
٥ ـــ طبقات المغنين	٨١ ـــ ٨٦	٤٩و ـــ ٥٢ و	١٢٠ ـــ ١٣٠
٦ ـــ النساء	٨٦ ـــ ١٠٤	٥٢و ـــ ٦٢ و	١٣٠ ـــ ١٦٦
٧ ـــ مناقب الترك	١٠٥ ـــ ١٤٣	٦٢و ـــ ٨٨ و	١٦٦ ـــ ٢٧٥
٨ ـــ حجج النبوة	١٤٣ ـــ ١٩٠	٨٨و ـــ ١٢١ و	٢٧٥ ـــ ٣ : ١١٧
٩ ـــ خلق القرآن	١٩٠ ـــ ٢٠٢	١٢١ و ـــ ١٢٩ظ	١١٧ ـــ ١٤٨

(١) نشر أيضاً فى صدر مجموعة الساسى ٢ ـــ ١٣ بأرقام مستقلة عن المجموعة ، كما ورد فى دراسات ريشر ١٨٠ ـــ ١٨٢ .

(٢) هو أيضاً فى مجموعة ريشر ١٠١ ـــ ١٠٨ .

(٣) نشر فى مجموعة فان فلوتن ٨٦ ـــ ١٥٦ والساسى ٨٢ ـــ ١٤٧ وريشر ٢١٢ ـــ ٢٥٥ والسندوبى ١٨٧ ـــ ٢٤٠ ، ونشره مستقلا شارل بلا فى دمشق سنة ١٩٥٥ .

(٤) السندوبى ٢٥٨ ـــ ٢٩١ وريشر ١١١ ـــ ١١٢ .

(٥) مجموعة الساسى ١٨٦ ـــ ١٩٠ وريشر ٢٠٤ ـــ ٢٠٦ .

(٦) أو العشق والنساء . مجموعة الساسى ١٦١ ـــ ١٦٩ وريشر ١٨٨ ـــ ١٩٤ والسندوبى ٢٦٦ ـــ ٢٧٦ .

(٧) سبق نشره من مجموعة داماد فى ١ : ٨٦ . وهو فى مجموعة ريشر ٢٠٧ ـــ ٢١٠ باسم فضائل الأتراك ، ذكر فيها محتوياته .

(٨) نشر أيضاً فى مجموعة ريشر ١١٢ ـــ ١٥٩ والسندوبى ١١٧ ـــ ١٥٤ . وهو فى الحيوان ١ : باسم «كتاب الحجة فى تثبيت النبوة» .

(٩) لم ينشر منه شىء إلا فى هامش الكامل . وانظر الحيوان ١ : ٩ إذ أشار إليه .

	التيمورية	المتحف البريطانى	مطبوعة هامش الكامل
١٠ — الرد على النصارى	٢٠٢ — ٢٣٦	١٢٩ظ — ١٥٥ظ	١٤٨ — ١٨٤
١١ — الرد على المشبهة	٢٣٦ — ٢٤٤	١٥٥ظ — ١٦١ و	—
١٢ — مقالة العثمانية	٢٤٤ — ٢٦١	١٦١ و — ١٧٥ و	—
١٣ — المسائل والجوابات فى المعرفة	٢٦١ — ٢٧٥	١٧٥ و — ١٨٥ظ	—
١٤ — المعاد والمعاش	٢٧٥ — ٢٨٢	١٨٥ظ — ١٩٠ظ	—
١٥ — الجد والهزل	٢٨٢ — ٢٨٧	١٩١ظ — ١٩٤ظ	—
١٦ — الوكلاء	٢٨٧ — ٢٩٣	١٩٤ظ — ١٩٩ و	—
١٧ — الأوطان والبلدان	٢٩٣ — ٣١٩	١٩٩ و — ٢١٩ظ	—
١٨ — البلاغة والإيجاز	٣١٩ — ٣٢٠	٢١٩ظ — ٢٢٠ظ	—

(١٠) مجموعة ريشر ٤٠—٦٧ ويوشع فنكل ١٠—٣٨ و قد أشار إليه الجاحظ فى الحيوان ١ : ٩ بقوله « وكتابى على النصارى واليهود » والكتاب يتناولها معاً ، ولكن هكذا وردت تسميته مختصرة فى المخطوطات والمطبوعات .

(١١) لم تنشر قبل . ولكن نشر مثيل لها فى الموضوع ، وهو « نفى التشبيه » . انظر الجزء الأول من الرسائل ٢٨٣ — ٣٠٨.

(١٢) نشر السندوبى خلاصتها فى مجموعته ص ١ — ١٢ . ونشرت كاملة بتحقيق عبد السلام هارون . دار الكتاب العربى ١٣٧٤ — ١٩٥٥ . وانظر الحيوان ١ : ١١ .

(١٣) لم يسبق نشر شيء منها . وهى وسابقتها مما سقط من النسخة المطبوعة على هامش الكامل . وانظر الحيوان ١ : ٩ .

(١٤) سقط من النسخة المطبوعة على هامش الكامل أيضاً . وسبق نشره من مجموعة داماد فى الجزء الأول من الرسائل ١ : ٨٧ — ١٣٣ .

(١٥) سبق فى مجموعة داماد بالجزء الأول ص ٢٢٧ — ٢٧٨ . (١٦) مجموعة الساسى ١٧٠ — ١٧٢ وريشر ١٩٤ — ١٩٥ .

(١٧) ويسمى أيضاً « الأمصار وعجائب البلدان ». وهو غير كتاب « الحنين إلى الأوطان» الذى سبق نشره فى الرسائل بتحقيقنا ٢ : ٣٧٩.

(١٨) لم تنشر من قبل .

	التيمورية	المتحف البريطانى	مطبوعة هامش الكامل
١٩ — تفضيل البطن على الظهر	٣٢٠ — ٣٢٩	٢٢٠ظ — ٢٢٧ظ	—
٢٠ — النبل والتنبل وذم الكبر	٣٢٩ — ٣٤٢	٢٢٧ظ — ٢٣٨ظ	١٨٤ — ١٩٩
٢١ — المودة والخلطة	٣٤٢ — ٣٥٢	٢٣٨ظ — ٢٤٥ظ	١٩٩ — ٢١٢
٢٢ — استحقاق الإمامة	٣٥٢ — ٣٥٨	٢٤٥ظ — ٢٥٠ظ	٢١٢ — ٢٢٠
٢٣ — استنجاز الوعد	٣٥٨ — ٣٦٢	٢٥٠ظ — ٢٥٤ و	٢٢٠ — ٢٢٧
٢٤ — تفضيل النطق على الصمت	٣٦٢ — ٣٧٠	٢٥٤ و — ٢٦٠ظ	٢٢٧ — ٢٣٨
٢٥ — صناعة الكلام	٣٧٠ — ٣٧٦	٢٦٠ظ — ٢٦٥ و	٢٣٨ — ٢٤٦
٢٦ — مدح التجارة وذم عمل السلطان	٣٧٦ — ٣٧٩	٢٦٥ و — ٢٦٨ و	٢٤٦ — ٢٥١
٢٧ — الشارب والمشروب	٣٧٩ — ٣٩١	٢٦٨ و — ٢٧٨ظ	٢٥١ — ٢٦٩
٢٨ — استحقاق الإمامة	٣٩١ — ٤٠٧	٢٧٨ظ — ٢٩١ و	٢٦٩ — ٢٩١
٢٩ — مقالة الزيدية والرافضة	٤٠٨ — ٤١٧	٢٩١ و — ٢٩٩ و	٢٩١ — ٣٠١

---

(١٩) لم تنشر من قبل .

(٢٠) لم ينشر منها إلا قطعة على هامش كامل المبرد .

(٢١) هى رسالة إلى أبي الفرج السندوبى ٣٠٠ — ٣١٦ . وقد سبقت فى ١ : ٣٢١ — ٣٣٢ .

(٢٢) ريشر ١٦٨ — ١٧٩ والسندوبى ٢٤١ — ٢٦٠ .

(٢٣) الساسى ١٧٣ — ١٧٧ وريشر ١٩٥ — ١٩٩ .

(٢٤) الساسى ١٤٨ — ١٥٤ وريشر ١٨٢ — ١٨٦ .

(٢٥) ريشر ١٥٩ — ١٦٣ .

(٢٦) الساسى ١٥٥ — ١٦٠ وريشر ١٨٦ — ١٨٨ .

(٢٧) ريشر ١٦٣ — ١٦٨ والسندوبى ٢٧٦ — ٢٥٨ .

(٢٨) السندوبى ٢٤١ — ٢٥٩ .

(٢٩) لم يسبق نشرها إلا فى الفصول المختارة على هامش الكامل . وقد أشار إليها الجاحظ فى الحيوان ١ : ٧ .

جامع الفصول المختارة :

أجمعت المخطوطات والمطبوعات أن جامع هذه الفصول ومختارها هو (عبيد الله بن حسان) لم تزد على ذلك شيئاً . فليس هناك مايدل على بلده ، ولا على نسبته ، أو مايدل على صفته العلمية بين أهل العلم من الفقهاء ، أو المحدثين أو المؤرخين ، أو المشتغلين بعلوم العربية . وليس هناك أيضاً مايعين مولده أو ينص على سنة وفاته .

وقد بحثت ما أمكنني البحث ، وتقصيت ما أمكن التقصى ، أن أعثر له على ترجمة أو خبر فيما لدى من المراجع ، وكذا في جميع المظان ، ولاسيما تلك التي تعنى بتراجم الرجال من أهل الحديث أو الأدب أو علوم العربية ، وساءلت عنه فلم أجد له ترجمة أو خبراً .

ولكن ما لاريب فيه أنه أديب قديم جداً ، أمكنه أن يظفر بجمهرة عظيمة من كتب الجاحظ قبل أن تبيد ويعفى عليها الزمان ، فحفظها لنا ، واستحق بذلك أن يخلد اسمه على كتب صانها وانتزعها من أكف البلى والضياع .

وإذا حاولنا أن نعرف زمنه استطعنا أن نقول : إن حياته لم تتجاوز القرن الخامس الهجرى ، إن لم نقل الرابع ، أى إنه قريب عهده من عصر الجاحظ نفسه المتوفى سنة ٢٥٥ ، أى فى النصف الثانى من القرن الثالث .

وهذا مستفاد مستخلص مما كتبه الوراق محمد بن عبدالله الزمرانى فى ختام النسخة التيمورية ، إذ نص على أنه نقل نسخته من نسخة تاريخها فى أوائل شهر رجب الأصم سنة ٤٠٣ ثلاث وأربعمائة ، كاتبها أبى القاسم (كذا) عبيد الله بن على [1].

---

(١) أمكننى أن أعثر على ترجمة لهذا الفاسخ القديم ، فهو أبوالقاسم عبيد الله بن على بن عبدالله الرقى . قال الخطيب : سكن بغداد فى درب أبى خلف من قطيعة الربيع . وكان أحد العلماء بالنحو والأدب واللغة ، عارفاً بالفرائض وقسمة المواريث ، وحدث شيئاً يسيراً عن أبى أحمد الفرضى كتبت عنه وكان صدوقاً . وسألته عن مولده فقال : ولدت فى سنة إحدى وسبعين وثلثمائة . ومات فى يوم الخميس الثانى من شهر ربيع الآخر سنة خمسين وأربعمائة . ودفن فى يومه فى مقبرة باب حرب . تاريخ بغداد ١٠ : ٣٨٧ — ٣٨٨ .

ومما لا ريب فيه أيضاً أن عبيد الله بن حسان قد جمع فأحسن التأليف ، واختار فأجاد الاختيار ، وكأنه لم يرتفع إلى القدر الذى يرقى به إلى أن يوضع فى دائرة المترجمين الأعلام .

وأما بعد، فهذا جهد متواضع أضمه إلى ماسبق لى من جهود . وعسى أن أوفق فيما أستقبل من دهرى إلى أن أقوم بنشر مالم تمسه يد التحقيق منى من مؤلفات شيخنا الجاحظ وآثاره الحسان ، مما أفلتته عوادى الزمان وصار إلينا كنزاً وذخراً .

والله الموفق والمستعان .

مصر الجديدة فى { أول ربيع الثانى سنة ١٣٩٩هـ
٢٨ من فبراير سنة ١٩٧٩ م }

عبد السلام محمد هارون

١

من كتابه في

الحاسِد والمحسود

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

١ – فصل
من صدر كتابه
في الحاسد والمحسود[١]

وهَبَ الله لك السلامة ، وأدام لك الكرامة ، ورزقَكَ الاستقامة ، ورفع عنك النَّدامة .

كتبت إليّ – أيَّدكَ الله – تسأَلني عن الحسد ما هو ؟ ومن أَين هو ؟ وما دليلُه وأفعاله ؟ وكيف تُعرف أُموره وأَحواله[٢] ، وبم يُعرف ظاهره ومكتومه ،وكيف يعلم مجهوله ومعلومه ، ولم صارفى العلماء[٣] أَكثَرَ منه فى الجهلاء ؟ ولم كثُر فى الأَقرباء وقلَّ فى البعداء[٤] ؟ وكيف دبَّ فى الصَّالحين أَكثَرَ منه فى الفاسقين ؟ وكيف خُصَّ به الجيران مِنْ بَيْن جميع أَهل الأَوطان[٥] .

والحسد – أَبقاك الله – داءٌ يَنهك الجسد ، ويُفسد الودّ[٦] ، علاجُه

(١) نشرت كاملة من قبل فى مجموعة رسائل الجاحظ نشرة الساسى ١٣٢٤. وقد أشرت إليها بالرمز « مج » .

(٢) مج : « وكيف تفرقت » . وفى ب : « أموره أحواله » ،تحريف .

(٣) ب : « ولم صاروا العلماء » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٤) مج : « وقل منه فى البعداء » .

(٥) مج : « من جميع الأوطان » .

(٦) م : « الرد » تحريف . وفى ط ، مج : « الأود » ، وهى بضم الواو جمع ود بالكسر وهو الحبيب ، مثل قدح وأقدح .

عَسِر[١] ، وصاحبه ضجِر[٢] . وهو بابٌ غامضٌ وأمر متعذِّر ، وما ظهر منه فلا يُداوَى ، وما بطن منه فمُداويهِ فى عَناء . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « دبَّ إليكم داءُ الأُممِ[٣] من قبلِكم : الحَسَدُ والبغضاء » .

[وقال بعض الناس لجلسائه : أىُّ الناس أقلُّ غفلة ؟ فقال بعضهم : صاحبُ ليلٍ ، إنَّما همُّه أن يُصبح . فقال : إنه لكذا وليس كذا . وقال بعضهم : المسافر ، إنَّما همُّه أن يقطع سفره . فقال : إنه لكذا وليس كذا . فقالوا له : فأخبرنا بأقلِّ النَّاس غفلة . فقال : الحاسدُ ، إنما همُّه أن ينزِع الله منك النعمةَ التى أعطاكها ، فلا يغفُل أبداً .

ويروى عن الحسن أنه قال : الحسد أسرعُ فى الدِّين من النار فى الحطب اليابس[٤]] .

وما أُتِىَ المحسودُ من حاسده إلَّا من قبل فَضْل الله عنده ونعمه عليه[٥] قال الله عزّ وجلّ : ﴿ أم يَحْسُدون النَّاسَ على ما آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ فقد آتينا آلَ إبراهيمَ الكتابَ والحِكمَة وآتيناهُمْ مُلكاً عظيماً[٦] ﴾ .

والحسد عَقِيدُ الكُفر ، وحليفُ الباطل ، وضدُّ الحقّ ، وحربُ البيان . فقد ذمَّ الله أهل الكتاب به فقال : ﴿ وَدّ كثيرٌ من أهلِ الكتاب لو يَرُدُّونكم من بعد إيمانِكم كُفَّاراً حَسَداً من عِنْدِ أنفسهم[٧] ﴾ .

---

(١) ب : « وعلاجه عسير » م « علاجه عسير » ، وأثبتت ما فى ط ، ومج .
(٢) م « ضجير » ، تحريف .
(٣) داء الأمم ، ساقطة من ب . والحديث رواه أحمد والترمذى . الجامع الصغير ١ : ٥٦٣ .
(٤) هذه التكملة من ط ، مج .
(٥) مج : « من قبل فضل الله تعالى إليه ونعمته عليه » .
(٦) الآية ٥٤ من سورة النساء .
(٧) من الآية ١٠٩ من سورة البقرة .

منه تتولد العداوة[١]، وهو سببُ كلِّ قطيعة، ومُنتج[٢] كلِّ وحشة، ومفرِّق كلِّ جماعة، وقاطع كلِّ رحمٍ بين الأَقرباء[٣]، ومُحدث التفرُّق بين القُرَناء، ومُلْقح الشرِّ بين الخلطاء[٤]، يكمُن في الصدر كمونَ النَّار في الحجر.

ولو لم يدخل على الحاسد بعدَ[٥] تراكُم الغموم على قلبه، واستمكان[٦] الحزن في جوفه، وكثرة مَضَضه ووَسواسِ ضميره، وتنغُّص[٧] عمره وكدَرِ نفسه ونكد عيشه[٨]، إلا استصغارُه[٩] نعمةَ الله عليه[١٠]، وسخطُه على سيِّده بما أَفاد غيره[١١]. وتمنِّيه عليه أَن يرجع في هبته إيَّاه، وأَن لا يرزق أَحداً سواه، لكان عندَ ذوى العقول مرحوماً[١٢]، وكان لديهم[١٣] في القياس مظلوماً. [وقد قال بعضُ الأَعراب: ما رأَيتُ ظالماً أَشبه بمظلومٍ من الحاسد: نَفَسٌ دائم، وقلبٌ هائم، وحزنٌ لازم[١٤]]

---

(١) مج: «فنه»، ب فقط: «يتولد».
(٢) ب: «وسخ» بإهمال الحرف الثانى، ولعلها «سنخ» بكسر السين، بمعنى الأصل، وأثبت ما فى سائر النسخ.
(٣) ب، ط: «من الأقرباء».
(٤) ب، ط: «بين الحلفاء».
(٥) م: «غير».
(٦) ب، ط: «واستكان»، تحريف.
(٧) مج: «وتنغيص».
(٨) مج: «ونكد لذاذة معاشه».
(٩) م: «إلى».
(١٠) ط، م: «نعمة الله» فقط، وفى مج: «لنعمة الله عنده»، وأثبت ما فى ب.
(١١) مج: «بما أفاده الله عبده».
(١٢) م، ط: «مرجوماً» بالجيم. وفى هامش م: «لعله مرحوماً».
(١٣) مج: «وكان عندهم» وكذا أثبتت بخط مخالف فوقها فى م.
(١٤) التكملة من ط، مج.

والحاسد مخذول وموزور[١] ، والمحسود محبوب ومنصور . والحاسد مغموم ومهجور ، والمحسود مَغْشِيٌّ ومَزُور[٢] .

والحسد — رحمك الله — أول خطيئة ظهرت فى السموات ، وأول معصية حدثَت فى الأرض ، خُصَّ به أفضلُ الملائكة فعصَى ربَّه ، وقايسه فى خلقه[٣] ، واستكبر عليه فقال : ﴿خَلَقْتَنِى من نارٍ وخَلَقْتَه مِنْ طِينٍ[٤]﴾ ، فلعنَه وجعله إبليساً ، وأنزله من جواره بعد كان أنيسًا ، وشوّه خلقه تشوبهاً ، وموّه على نبيِّه[٥] تمويهاً نسِيَ به عزمَ ربِّه ،فواقع الخَطيئة ، فارتدع المحسود[٦] وتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحاسد فى حسده[٧] فشَقِيَ وغَوى .

وأما فى الأرض فابنا آدم[٨] حيث قَتل[٩] أحدُهما أخاه ، فعصى ربَّه وأثكل أباه . وبالحسد طوّعت له نفسُه قتلَ أخيه فقتلَه فأصبح من الخاسرين .

لقد حمله الحسدُ على غاية القسوة[١٠] ، وبلغ [به[١١]] أقصى حدود

(١) موزور ، من الوزر ، وهو الذنب والإثم ، ويقال مأزور ، أيضاً بالإبدال ، ومنه فى الحديث : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » . وفى مج : « ومأزور » على الإبدال .

(٢) مغشى : يغشاه الناس ويزورونه . م : « مغمور ومسرور » وبخط مخالف فوقها : « مغشى ومزور » كما فى مج . وفى ب : « مغشى ومسرور » .

(٣) مج وتعليقات م : « وقايسه بخلقه » .

(٤) من الآية ١٢ من الأعراف ، ٧٦ من سورة ص .

(٥) ب ، ط : «على مثله» ، م : « على تمثيله » ، مج : «على أنبيائه» ولعل وجهه ما أثبت .

(٦) ب : « فارتجع » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .

(٧) مج وبخط مخالف فى م : « على حسده » .

(٨) ب فقط : « فأبناء آدم » ، تحريف .

(٩) ب ، ط : « حسد » موضع « حيث قتل » .

(١٠) ب ، ط : « فقد حمله الحسد إلى غاية القسوة » .

(١١) التكملة من م ، مج .

العقوق ، فأنساه من رَحِمه جميعَ الحقوق[١] ، إذْ ألْقى الحجر عليه شادخاً[٢] وأصبح عليه نادماً صارخاً .

ومن شأْن الحاسد إن كان المحسود غنيًّا أن يوبِّخه على المال فيقول[٣] : جَمَعه حراماً ومنعه أثَاماً[٤] . وألَّبَ[٥] عليه محاويجَ أقاربه فتركهم له خُصَماءَ[٦] ، وأعانهم فى الباطن وحمل المحسود على قطيعتهم فى الظاهر وقال له[٧] : لقد كفروا معروفَك ، وأظهروا فى الناس ذمَّك ، فليس[٨] أمثالهم يُوصلون ، فإنهم لا يَشْكرون . وإن وجد له[٩] خصماً أعانه عليه[١٠] ظلماً ، وإنْ كان ممن يعاشره فاستشارَهُ غَشَّه ، أو تَفَضَّل عليه بمعروفٍ كَفَره[١١] ، أو دعاه إلى نصرٍ خذله ، وإن حضَر[١٢] مَدْحَه ذَمَّه وإن سُئل عنه همزه ، وإن كانت[١٣] عنده شهادةٌ كتمها ، وإن كانت منه إليهِ زَلَّة[١٤] عظَّمها ، [وقال : إنَّه[١٥]] يحب أن يعاد ولا يعود ، ويُرى عليه العُقود[١٦] .

---

(١) ب ، ط : « من رحمته » ، وأثبت ما فى م ، وهذه العبارة ساقطة من مج .
(٢) الشدخ : الكسر والتهشيم . ماعدا مج : « تفادخا » ، والمعروف الفدخ ، فدخه يفدخه فدخاً : شدخه .
(٣) م ، مج : « وقال » .
(٤) الأثام ، كسحاب : الإثم والذنب . ماعدا مج : « أيتاماً » .
(٥) ألبهم تأليباً : جمعهم على عداوته . ماعدا مج : « وغلب » .
(٦) خصماء : جمع خصيم ، وهو المخاصم ، كالجليس بمعنى المجالس . ب ، ط : « خصما »
(٧) ب ، ط : « فقال » فقط .
(٨) ب ، ط : « ليس » فقط . م : « وليس » ، وأثبت ما فى مج .
(٩) ط ، ب : « لهم » ، صوابه فى م ، مج .
(١٠) م : عليهم » ، تحريف .
(١١) ب : « أو يفصل عليه معروف كفره » ، صوابه فى سائر النسخ .
(١٢) م ، مج : « أو حضر » .
(١٣) مج : « أو كانت » .
(١٤) الزلة : الخطيئة والسقطة . ب فقط : « ذلة » تحريف .
(١٥) التكملة من مج .
(١٦) هذا ما فى مج . وفى سائر النسخ : « القعود » . وكان العرب يقعدون الخزر لرؤسائهم وملوكهم . انظر ما سيأتى فى نهاية هذا الفصل ص ١٠ .

وإن كان المحسود عالماً قال : مبتدع ، ولرأيه مُتَّبِع[1] ، حاطبُ ليلٍ ومبتغى نَيْل[2] ، لا يدرى[3] ما حمل ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل[4] . قد أقبل بوجوه النّاس إليه ، وما أحمقهم إذ انثالوا عليه[5] . فقبّحه الله من عالمٍ ما أعظم بليّته[6] ، وأقلّ رِعَته[7] ، وأسوأ طعمته[8] .

وإن كان المحسود ذا دِينٍ قال : مُتَصنِّعٌ يغزو ليُوصَى إليه[9] ، ويحجُّ ليثنَى بشىءٍ عليه[10] ، ويصوم لتُقبَل شهادته[11] ، ويُظهِر النُّسك ليُودَع المالُ بيتَه ، ويقرأُ فى المسجد ليزوِّجه جارُه ابنتَه ، ويَحضُر الجنائز لتُعرَف شُهرته .

وما لقيتَ[12] حاسداً قطُّ إلَّا تبيَّن لكَ[13] مكنونُه بتغيُّر لونه وتخوُّص عينه[14] وإخفاء سلامه ، والإقبالِ على غيرك والإعراض

(١) أى إنه يتبع غيره فى الرأى ، ليس بذى رأى . ب ، ط : « لرأيه » بسقوط الواو .
(٢) مج : « ومتبع نيل » .
(٣) م ، مج : « ما يدرى » .
(٤) ب ، ط : « فأقبل على الحيل » .
(٥) انثالوا عليه : انصبوا وتتابعوا . ب : « انتالوا » صوابه فى سائر النسخ .
(٦) ب : « بالتيه » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٧) الرعة ، كعدة : الورع والكف عن السوء والقبيح . م ، مج : « رعيته » وهى الاسم من الرعى ، كما فى اللسان (رعى ٤٢) .
(٨) الطعمة ، بالضم والكسر : وجه المكسب » .
(٩) ب ، ط : « يتصنع أن يوصى إليه » ، صوابه فى م ، مج .
(١٠) ب « ويحج لشىء عليه » م ، مج : « ليثنى عليه » ، وأثبت ما فى ط . وما بعده من الكلام إلى « بيته » ساقط من مج .
(١١) ب ، م : « ليقبل شهادته .
(١٢) م : « وما رأيت » .
(١٣) كلمة « لك » ساقطة من ط ، م وبدلها فى ب : « لى » .
(١٤) التخوص ، من الخوص ، وهو ضيق العين وغئورها . والمعروف المخاوصة والتخاوص . م : « وتغوص » مج : « وتخويص » ، وأثبت ما فى ب ، ط .

عنك[١] ، والاستثقالِ لحديثك[٢] ، والخلاف لرأيك[٣] .

وكان عبد الله بن أُبيّ[٤] ، قبل نفاقه ، نسيجَ وحدِه[٥] لجودة رأيه وبُعد همّته ، ونُبل شيمته ، وانقياد العشيرة له بالسِّيادة ، وإذعانهم له بالرِّياسة . وما استوجَبَ ذلك إلّا بعدما استجمع له لُبُّه[٦] ، وتبيَّن لهم عقله ، وافتقدوا منه جهله[٧] ، ورأوه لذلك أهلًا ، لمَّا أَطاق [له[٨]] حملًا.فلما بعث الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم وقدِمَ المدينة ،ورأى هو عزّ رسول الله صلى الله عليه وسلم[٩] شمَخ بأَنفه[١٠] فهدم إسلامَه لحسده[١١] ، وأَظهر نفاقه.وما صار منافقاً حتَّى كان حسوداً ، ولا صار حسوداً حتَّى صار حقوداً . فحُمِقَ بعد اللُّبّ[١٢] ، وجَهِل بعد العَقْل ، وتبوّأَ النَّار بعد الجنَّة .

---

(١) مج : « والإعراض عنك والإقبال على غيرك » .

(٢) ب ، ط : « والاستقبال لحديثك » ، تحريف .

(٣) بعده في مج : ولذلك قال القائل :

طـال على الحاسد أحزانه ... فاصفر من كثرة أحزانه

دعه فقد أشعلت في جوفه ... ما هاج منه حر نيرانه

العيب أشهى عنده لذة ... من لذة المال لخزانه

فارم على غاربه حبله ... تسلم من كثرة بهتانه

وقد انفردت نسخة ط بهذا الإنشاد في نهاية هذا الفصل ، كما سيأتي .

(٤) عبد الله بن أبي بن سلول ، رأس المنافقين في أول الإسلام . وسلول جدته نسب إليها . وجده مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم الحبلى بن غنم بن عوف بن الخزرج . وابنه عبد الله ابن عبد الله كان من فضلاءالصحابة بدرياً ، قتل يوم اليمامة . جمهرة أنساب العرب ٣٥٤-٣٥٥.

(٥) يقال هو نسيج وحده ، أي لا نظير له ، كما أن الثوب إذا كان كريماً لم ينسج على منواله غيره لدقته . ط : « يسبح وحده » وكذا في أصل م . وأثبت ما في ب ، ومج .

(٦) م : « له إليه » ، ط : « لهم لبه » ، وأثبت ما في ب ، مج .

(٧) ب : « وفقد بينهم جهله » ، والوجه ما أثبت من سائر النسخ .

(٨) التكملة من م ، مج .

(٩) ب ، م ، ط : « ورأى غيره » وصححت في م : « ورأى عز رسول الله » ، وأثبت ما في مج .

(١٠) شمخ بأنفه : تكبر . ماعدا مج : « تشمخ بأنفه » ، تحريف .

(١١) مج : « فحسده فهدم إسلامه » .

(١٢) اللب : العقل . ب فقط : « بعد الله » تحريف .

ولقد خطب النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة فشكاه إلى الأنصار . فقالوا : يا رسول الله لا تَلُمْه[١] ، فإنَّا كنا عقدْنا له الخرَز[٢] قَبل قدومك لنتوِّجَه .

ولو سَلَّم المخذول[٣] قلبَه من الحسد لكان من الإسْلام بمكان ، ومن السُّودد فى ارتفاع . فوضعه اللهُ لحسده ، وأظهَرَ نفاقه[٤] . [ولذلك قال القائل :

طال على الحاسد أحزانُه فاصفرّ من كثرة أحزانه
دعْهُ فقد أشعلتَ فى جوفه ما هاجَ من حرِّ نيرانه
العيبُ أشهى عنده لذّةً من لذّة المال لخُزّانه
فارمِ على غاربه حبلَه تَسلمُ من كثرة بهتانِه[٥]]

(١) ب فقط : « لا تكلمه » .

(٢) خرزات الملك : جواهر تاجه . ويقال : كان الملك إذا ملك عاما زيدت فى تاجه خرزة ليعلم عدد سنى ملكه .

(٣) يعنى عبد الله بن أبى ، خذله الله . ط ، ب : « للمخذول » . سلم قلبه من الحسد : وقاه إياه وبرأه منه .

(٤) مج : « بحسده وإظهار نفاقه » .

(٥) التكملة من ط . وقد وردت فى مج قبل هذا الموضع كما سبقت الإشارة إليه فى ص ٩ . وأثبتها أحمد تيمور بخطه فى هذا الموضع .

٢ – فصل
في حسد الجيران

وذلك أنَّ الجيران – يرحمك الله – طلائعُ عليك، وعيونهم نواظرُ إليك، فمتى[١] كنتَ بينهم مُعْدِماً[٢] فأيسرت، فبذلت وأعطيت، وكسوت وأطعمت، وكانوا في مثل حالك فاتّضعوا، وسُلبوا النعمة وأُلبِستَها [أنت[٣]]، فعظمت عليهم بليّة الحَسد، وصاروا[٤] منه في تنغيص آخر الأبد[٥]. ولولا أن المحسود بنصر الله إيّاه مستور، وهو بصنعه محجوب[٦] لم يأْت عليه يوم إلَّا كان مقهوراً، ولم تأْت ليلة إلا وكان عن منافعه مقصوراً. ولم يُمْسِ إلَّا وماله مسلوب، ودمُه مسفوك، وعرضه بالضَّرب منهوك.

---

(١) ب، مج: « فعسى ».
(٢) معدماً، ساقطة من ب.
(٣) التكملة من مج.
(٤) ب فقط: « وساروا ».
(٥) م: « لآخر الأبد ».
(٦) ما عدا مج: « محجور » بالراء.

٣ — فصل منه

وأنا أقول حقاً[1] : ما خالط الحسد قلباً إلَّا لم يمكنه ضبطه ، ولا قدر على تَسْجِينِهِ[2] وكتمانه ، حتى يتمرَّد عليه بظهوره وإعلانه ، فيستعبده[3] ويستميله[4] ، ويستنطقه لظهوره عليه[5] فهو أَغلب على صاحبه من السيِّد على عبده ، ومن السُّلطان على رعيَّته ، ومن الرَّجل على زوجتِه ومن الآسر على أَسيره[6] .

وكان ابنُ الزُّبير بالصبر موصوفاً ، وبالدَّهاء معروفاً ، وبالعقل موسوماً ، وبالمداراةِ منهوماً[7] ، فأَظهر بلسانه حسداً كان أَضبَّ عليه[8] أَربعين سنةً لبني هاشم ، فما اتَّسع قلبه لكتمانه ، ولا صَبرَ على اكتتامه ، لمَّا طالت[9] في قلبه طائلته[10] أَظهره وأَعلنه ، مع صبره على المكاره ، وحمله نفسَه على حتفها[11] ، وقلة اكتراثه والتفاته

---

(١) مج : « وأقول » .

(٢) التسجين : تفعيل من السجن ، أى الحبس ، والمراد الكتمان . وفى اللسان : « وسجن الهم يسجنه ، إذا لم يبثه » . وأنشد :

ولا تسجنن الهم إن لسجنـه عناء وحمله المهارى النواجيا

والكلمة محرفة فى النسخ ، فهى فى ب : « تسخينه » وسائر النسخ : « تشحينه » ، والوجه ما أثبت .

(٣) ب ، ط : « فليستعبده » . وفى هامش م : « فيستفيده » ، وما أثبت من مج .

(٤) ما عدا ط : « ويستعمله » .

(٥) ب م : « لقهوره عليه » ، مج : « لقهره عليه » ، وأثبت ما فى ط وهامش م .

(٦) ب : « على الأسيرة » م : « أسيرته » ط : « الأسير » وأثبت ما فى مج .

(٧) المنهوم بالشىء : المولع به . وفى الحديث : « منهومان لا يشبعان : منهوم بالمال ومنهوم بالعلم . ط فقط : « متهوماً » .

(٨) يقال أضب فلان على غل فى قلبه ، أى أضمره وأخفاه . م ، ط : « واظب عليه » تحريف . والكلام بعده إلى « اكتتامه » ساقط من مج .

(٩) م : « لما طال » .

(١٠) ما عدا مج : « طيلة »

(١١) الحتف : الهلاك . ما عدا مج : « خسفها » .

لأَحجار المجانيق التى[١] [كانت[٢]] تمرّ عليه فتذهب بطائفة من قومه[٣] ما يلتفت إليها .

حُدِّثت بذلك عن علىّ بنُ مُسْهِر[٤] عن الأَعمش،عن صالح بن حَبَّاب[٥] ، عن سعيد بن جُبَير قال : قُدتُ ابنَ عباس[٦] حتَّى أَدخلتُه على ابن الزُّبيرِ ، قال : أَنت الذى تؤنِّبنى ؟ قال : نعم ، لأَنِّى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس بمؤمن من بات شبعاناً[٧] وجارُه طاوٍ[٨] » . فقال له ابن الزُّبير : لمن قلت ذلك ؟ إِنِّى[٩] لأَكتم بُغضَكم أَهلَ البيت مُذْ[١٠] أَربعين سنة . فحسر ابن عباس عن ذراعيه كأَنَّهما عَسيبا نخل ،ثم قال لابن الزبير : نعم فليبلغ ذاك منك ، ما عرفتُك .

ولقد أَجلْتُ الرأْى ظهراً لبطن وفكَّرت فى جوابه لابن عباس أَن أَجد له معنى سوى الحسد فلم أَجده ، وكانت وخْزَةً[١١] فى قلبه فلم

---

(١) ب : « الذى » ، تحريف .
(٢) التكملة من مج .
(٣) ب ، م : « ثوبه » ، وأثبت ما فى ط ، مج . وهامش م .
(٤) بضم الميم وسكون المهملة وكسر الهاء ، كما فى التقريب . وهو أبو الحسن على بن مسهر القرشى الكوفى قاضى الموصل . ذكره ابن حيان فى الثقات وقال : مات سنة ١٨٩ . تهذيب التهذيب .
(٥) مج : « طلح بن حيان » . ولعله « صالح بن حبان » المترجم فى تهذيب التهذيب .
(٦) كان عبد الله بن عباس رضى الله عنه قد عمى فى آخر عمره ، كما عمى أبوه وجده . وقال له معاوية يوماً : ما لكم تصابون فى أبصاركم يا بنى هاشم ؟ فقال له : كما تصابون فى بصائركم يا بنى أمية ! نكت الهميان ١٨٠ — ١٨٢
(٧) كذا جاء مصروفاً منوناً ، وهذا بالنظر إلى أن مؤنثه شبعانة . وبالنظر إلى أن مؤنثه شبعى يمنع من الصرف ، وكلاهما مسموع . وفى مج : « شبعان » بالمنع من الصرف .
(٨) الطاوى : الجائع الخالى البطن ، كأنه طوى بطنه .
(٩) ب : « لأنى » .
(١٠) م : « منذ » .
(١١) الوخزة : الطعنة . ب ، م : « وخذة » بالذال ، تحريف ، وليس لوخذ مادة فى المعاجم المتداولة . وفى مج : « وخزة ثقيلة فلم يبدها له » .

يُبدِها . وفروعُ بنى هاشم حول الحرم باسقة ، وعروق دَوْحاتهم بين أَطباقها راسية ، ومجالسُهم من أَعاليها عامرة[١] ، وبحورها بأَرزاق العبَاد[٢] زاخرة ، وأَنجمُهَا بالهدى زاهرة . فلمَّا خلت البطحاءُ من صناديدها استقبله بما أَكنَّ فى نفسه[٣] .

والحاسد لا يغفل عن فرصته إلى أَن يأْتِيَ الموتُ على رِمّته ، وما استقبلَ ابنَ عبّاسٍ بذلك إلَّا لمَّا رأَى عمرَ قدَّمه[٤] على أَهل القَدَم ، ونَظَر إليه وقد أَطاف به أَهل الحَرَم ، فأَوسعهم حُكْماً ، وثَقَبوا منه رأْياً وفهماً[٥] ، وأَشبعَهم[٦] علماً وحِلماً .

---

(١) مج : « غامرة » .
(٢) ب ، ط : « بأوراق العباد » م : « بأوراق العبادة » . والصواب من مج .
(٣) مج : « بما أكن فى نفسه » .
(٤) م ، ط : « لما رأى من تقدمه » .
(٥) ثقب رأيه ثقوباً : نفذ . وفى قول أبى حية النميرى :

ونشرت آيات عليه ولم أقـــل من العلم إلا بالذى أنا ثاقبــه

ط : « ونقبوا » . مج : « وتعصبوا » .
(٦) ب : « وأسبقهم » ط ، م : « وسبقهم » ، وأثبت ما فى مج .

٤ – فصل

وكيف يَصبر من استكنّ الحسدُ فى قلبه على أمانيه[١] . ولقد كان إخوةُ يوسفَ حُلماء ، وأَجلَّةً علماء ، وَلَدَهُم الأنبياء،فلم يَغفلُوا عمَّا قَدَح فى قلوبهم من الحسد ليوسف ، حتَّى أَعطَوْا أَبَاهم المواثيقَ المؤكَّدة ، والعهودَ المقلَّدة[٢] ، والأَيمانَ المغلَّظة ، إنَّهم له لحافظون ، وهو شقيقُهم وبَضعةٌ منهم . فخالفوا العهود ووثبوا عليه بالظلم والقوة[٣] ، وأَلقَوْه فى غَيابة الجُبّ ، وجاءُوا على قميصه بدمٍ كذب ، فبظلمهم يوسفَ ظَلموا أَباهم ، طمعاً أَنْ يخلوَ لهم وجهُ أَبيهم ويتفرّدوا بحبِّه[٤] ، وظنُّوا أَنَّ الأَيَّام تُسْليه ، وحبَّه لهم من بعد غمِّه[٥] يُلْهيه ، فأَسالوا عَبْرتَه وأَحرقوا قلبه .

وكيف لا تقرُّ أَعين المحسودين[٦] بعد يوسف وقد ملَّكه الله خزائن الأَرض ، بصبره على أذى حُسَّاده ومقابلته[٧] إيّاهم بالعفو والمكافأَة ، وحُسن العشرة[٨] والمواخاة ، بعد إمكانه منهم[٩] لمَّا أَتوه ممتارين ، ووفدوا عليه خائفين وهم له منكرون ، فأَحسنَ رِفدهم ، وأَكرمَ قِراهم[١٠] ،

(١) ب : « أمانته » م : « إماتته » ط : « إمامته » ، وأثبت ما فى مج .
(٢) يقال قلده الأمر : ألزمه إياه . ماعدا مج : « المقبلة » .
(٣) والقوة ،ساقطة من ط ، م ، مج .
(٤) م : « وينفردوا بحبه » .
(٥) فى هامش م : « عن بعده عنه » مج : « من بعده عنه » .
(٦) ب : « لا تفتر » ، م : « وكيف تغتر » ،وأثبت ما فى ط ، مج. وفى ط ، م: « الحاسدين » .
(٧) مج : « ومقاصته » . وكذلك هامش م .
(٨) ما عدا مج : « بحسن العشرة » .
(٩) ب فقط : « منه » تحريف .
(١٠) ما عدا مج : « وكرم قراهم » .

فأَقَرُّوا له لمَّا عرفوه بالإذعان ، وسأَلوه بعد ذلك الغفران ، وخرُّوا له سُجَّداً لمَّا وردُوا عليه وفداً[(١)] .

فإذا أَحسستَ – رحمك الله – من صديقك بالحسَد فأَقلِلْ ما استطعت من مُخالطته ، فإنَّه أَعون الأَشياءِ لك[(٢)] على مسالمته . وحصِّن سرّك منه تسلم من شرِّه وعوائق ضُرِّه[(٣)] . وإيَّاك والرغبة فى مشاورته ، ولا يَغُرنَّك خُدعُ مَلَقِه ، وبيان ذَلَقِه[(٤)] ، فإنَّ ذلك من حبائل نفاقه .

فإن أَردتَ أَن تعرف آيةَ مِصداقه فأَدنِيَنْ[(٥)] إليه من يُهينُك عنده ، ويذمُّك بحضرته ، فإنَّه سيَظْهَر[(٦)] من شأْنه لك ما أَنتَ به جاهلٌ ، ومن خلاف المودّة ما أَنت عنه غافل . وهو أَلحُّ[(٧)] فى حسده لك من الذُّباب ، وأَسرع فى تهريقك[(٨)] من السَّيل إلى الحَدُور[(٩)] .

---

(١) مج : « لما قدموا عليه وفداً » .

(٢) ب فقط : « فإنه أهون » تحريف . وكلمة « لك » من مج وهامش م .

(٣) ط فقط : « وبوائق ضره » .

(٤) الذلق : فصاحة اللسان . ما عدا مج : « زلقه » تحريف .

(٥) ب : « فدنين » تحريف ، وأثبت ما فى م ، ط . وفى هامش م : « فدس » ، وهى ما جاءت به نسخة مج .

(٦) م فقط : « يظهر » وحورت فيها إلى « سيظهر » .

(٧) « ألح » بالحاء المهملة ، كما فى الدرة الفاخرة للأصبهانى ٣٦٩ . ونظيرها فيما أورده : ألح من الخنفساء ، ومن الكلب ، ومن الحمى . وفى مج : « ألج » بالجيم ، وهو المطابق لما فى جمهرة الأمثال للعسكرى ١٨٠ حيث أورد هذه الأمثال كلها بصورة « ألج » بالجيم . وكلاهما اقتصر فى التفسير على « ألح من كلب » واتفقا فى قولهما « لأنه يلح بالهرير على الناس » ، ولا ريب فى أخذ العسكرى المتوفى نحو سنة ٤٠٠ عن حمزة الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥١ . كما صرح بذلك العسكرى فى مقدمة كتابه ص ٦ . وهذا مما يؤيد رواية « ألح » بالمهملة ، إذ يقال ألح عليه ، ولا يقال ألج عليه .

(٨) ط ، مج : « تمزيقك » .

(٩) الحدور ، بالفتح : الموضع المنحدر . ب : « الحدود » ، تحريف .

وما أُحِبُّ أن تكون عن حاسدك غبيًّا، وعن وهمك[١] بما في ضميره نسِيًّا[٢]. إلَّا أن تكون للذلِّ محتملًا، وعلى الدناءة مشتملًا[٣]، ولأخلاق الكرام مجانباً، وعن محمود شِيَمهم ذاهباً، أو تكون بك إليه حاجة[٤] قد صيَّرَتْك[٥] لسهام الرُّماة هدفاً، وعرضَك لمن أرادك غَرَضاً[٦].

وقد قيل على وجه الدَّهر[٧]: «الحرّة تَجُوع ولا تأْكل بثدييها[٨]».

وربَّمَا كان الحسودُ[٩] للمصطنِع إليه المعروفَ أكفَرَ له وأشدَّ احتقاداً[١٠]، وأكثر تصغيراً له من أعدائه.

٥ — فصل منه [١١]

ومتى رأيت حاسداً يصوِّب لك رأياً إن كنت[١٢] مصيباً، أو يرشدك

---

(١) وهم إلى الشيء وفيه: ذهب وهمه إليه. مج: «فهمك».
(٢) ب: «بما في ضمير نسياً»، صوابه في سائر النسخ.
(٣) ب: «مستمثلا»، صوابه في سائر النسخ.
(٤) ما عدا مج: «أوتكون بك لحاجة».
(٥) ب: «صيرتها»، صوابه في سائر النسخ.
(٦) ما عدا مج: «لمن أبادك».
(٧) أي في قديم الزمان. ب: «الأرض»، م، ط: «العرض»، صوابهما في مج.
(٨) ب: «تأكل ثدبها» وهي رواية صحيحة مثلها في المستقصى ٢: ٢٠: «ثدييها» بدون باء. قال الزمخشري: معناه جعل ثدييها، كقوله:
* يأكلن كل ليلة إكافا *
أي ثمن إكاف. والجعل، بالضم: أجر العامل ونحوه ويروى: «تجوع الحرة»، و «قد تجوع الحرة»: انظر الفاخر ١٠٩ والميداني ١١٠: وجمهرة العسكري ٢٦١، ٤٩٤.
(٩) ب، ط: «الحسد» مج: «الحاسد»، وأثبت ما في م.
(١٠) احتقد عليه: حقد. ط: «احتقاداً منه». و «منه» مقحمة. وفي مج: «وأشد اجتهاداً»، تحريف.
(١١) منه، ساقطة من ب.
(١٢) ب، ط، مج: «وإن» في هذا الموضع وتاليه، والصواب ما في م بدون واو.

إلى صواب إن كنت مخطئاً ، أَو أفصحَ[(١)] لك بالخير فى غَيبتِهِ عنك[(١)] ، أَو قصَّر من غِيبتِهِ لك[(٢)] .

فهو الكَلْب الكَلِب ، والنَّمر النَّمِر[(٣)] والسُّمُّ القِشب[(٤)] ، والفَحلُ القَطِم[(٥)] ، والسَّيل العَرِم[(٦)] . إن مَلَكَ قتل وسَبَى[(٧)] ، وإن مُلِكَ عَصَى وبَغَى . حياتُك موتُه ، وموتُك عِرْسُه وسروره[(٨)] . يصدِّق عليك كلَّ شاهدِ زُور ، ويكذِّب فيك[(٩)] كلَّ عدلٍ مرضىّ . لا يحبُّ من النَّاس إلَّا مَن يُبغضك ، ولا يُبغض إلَّا من يحبُّك . عدوُّك بطانةً وصديقُك عَلانيَة[(١٠)] .

وقلتَ : إنَّك ربَّما غَلِطت فى أَمره لما يَظهر لَك من برِّه . ولو كنت تعرف الجليل من الرأْى[(١١)] ، والدقيقَ من المعنى ، وكنتَ فى مذاهِبك فَطِناً نِقاباً[(١٢)] ، ولم تكُ فى عَيب مَن ظهر لك عَيبُه[(١٣)] مُرتاباً ،

---

(١) م : « أو أنصح لك بالخير فى غيبة لك » مج : « أونصح لك فى غيبه عنك » ، ب : « أو أفصح لك بالخير فى غيبه عنك » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٢) ب ، م : « من غيبه » ، وأثبت ما فى ط .

(٣) يقال نَمِر ينمر نَمراً ، إذا غضب وساء خلقه . ب : « والنمر والنمر » ، صوابه فى م ، ط . وفى مج : « والنمر الحرب » . وهو الذى قد كلب واشتد غضبه .

(٤) القشب : المخلوط .

(٥) القطم : الشديد الشهوة إلى الضراب .

(٦) العرم : السيل الذى لا يطاق .

(٧) وسبى ، ساقطة من ب .

(٨) ب فقط : « وسوره » ، تحريف .

(٩) ب فقط : « عليك » .

(١٠) مج : « عدوك بطانته ، وصديقك علاوته » .

(١١) م فقط : « الكليل » وصححت فوقها بالجليل .

(١٢) النقاب ، بالكسر : العالم بالأشياء المبحث عنها الفطن الشديد الدخول فيها . وفى قول أوس بن حجر :

نجيح جواد أخو مأقط نقاب يحدث بالغائب

ب ، ط : « نهايا » ، صوابه ، فى م ، مج .

(١٣) مج : « من أوضح لك عيبه » .

لاستغنيت بالرَّمز عن الإشارة ، وبالإشارة عن الكلام ، وبالسِّرّ عن الجهر ، وبالخفض عن الرفع[١] ، وبالاختصار[٢] عن التطويل ، وبالجُمَل عن التفصيل ، وأَرحتنا من طلب التّحصيل[٣] ولكنى أَخاف عليك أَنَّ قلبك لصديقك غير مستقيم ، وأَن ضمير قلبك له غير سليم[٤] ، وإن رفعت القذى عن لحيتِه[٥] ، وسوَّيت عليه ثوبَه فوق مركبه ، وقبّلتَ صبيَّه بحضرته ، ولبست له ثوبَ الاستكانة عند رؤيته ، واغتفرت له الزَّلَّة[٦] ، واستحسنتَ كُلَّ ما يقبحُ من جهته[٧] ، وصدَّقتَه على كذبه ، وأَعنتَه على فَجْرته . فما هذا العَنَاءُ[٨] ! كأَنَّك لم تقرأ المعوِّذة ، ولم تسمع مخاطبته[٩] نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، فى التَّقدِمة إليه بالاستعاذة من شرِّ حاسدٍ إذا حسد .

أَتطلب[١٠] وَيحك أَثراً بعد عَين ، أَوْ عطراً بعد عَرُوس[١١] ، أَو تريد أَن تجتنِىَ عنباً من شوك ، أَوْ تلتمسَ حلبَ لبنٍ من حائل[١٢] .

---

(١) ماعدا مج : « وبالجهر عن الرفع » .
(٢) ب ، ط : « والاختصار » .
(٣) ب : « عن طلب التحصيل » .
(٤) ب : « أن قلبك لصديقك غير سليم له » . وفيه نقص وتحريف .
(٥) فى هامش م : « عن عينه » وليست بشىء . وقد تكون : « عن جبته » .
(٦) الزلة ، بفتح الزاى : السقطة والخطيئة . ب فقط : « الذلة » تحريف .وفى مج : « الزلة بعد زلته » .
(٧) مج : « من شيمته » .
(٨) ما عدا مج : « فما هذا الغباء » ، ولا يقولها الجاحظ . وفى مج : « فما هذا العناء ، وما هذا الداء العياء » .
(٩) ب ، : « ولم تسمع على مخاطبته » ، مج : « ولم تسمع مخاطبة الله تعالى لنبيه » .
(١٠) ب ، م : « تطلب » .
(١١) ب فقط : « وعطراً بعد عروس » وكذلك فيما بعده « وتريد أن تجتنى .. » .
(١٢) م : « وتلتمس » . والحائل : الناقة انقطع حملها سنة أو سنوات حتى تحمل . ب ، ط : « من جمل » ، صوابه فى م ، مج .

إنَّك إذن أعيا من باقل، وأحمقُ من الضبع، وأغْفَل من هَرِم[١] .

إنْ كنتَ تجهَلُ بعد ماأعلمناك ،وتعوجُّ بعدما قوَّمناك، وتَبَلَّدُ[٢] بعدما ثقَّفناك[٣] ، وتضلُّ إذْ هديناك، وتنسَى إذْ ذكَّرناك[٤] ، فأنت كمن أضلَّه الله على علمٍ فبطَلَت عنده المواعظ، وعمِيَ عن المنافع[٥] ؛ فخَتَم[٦] على سمعه وقلبه ،وجَعل على بصره غشاوة . فنَعُوذ[٧] بالله من الخذلان .

إنَّه لا يأْتيك ولكن يُنادِيك[٨] ولا يحاكيك ولكن يوازيك[٩] . أَحسنُ ما تكون عنده حالًا [أقلُّ ما تكون مالًا، وأكثرَ ما تكون عيالًا. [وأعظمَ[١٠]] ما تكون[١١] ضلالًا . وأفرحُ[١٢] ما يكون بك أقربَ ما تكون[١٣] بالمصيبة عهداً، وأبعدَ ما تكون من الناس حمداً[١٤] .

فإذا كان الأمر على هذا فمجاورةُ الموتى، ومخالطة الزَّمنَى،

---

(١) الهرم : المسن الذى بلغ أقصى الكبر .
(٢) تبلد ، أى تتبلد ، بحذف إحدى التاءين . م فقط : « وتتبلد » .
(٣) ب فقط : « شففناك » تحريف .
(٤) مج وحواشى م : « لما ذكرناك » .
(٥) ب فقط : « وعز من المنافع » .
(٦) ب فقط : « وختم » .
(٧) ب فقط : « ونعوذ » .
(٨) مج : « ولكنه يناديك » .
(٩) ب : « يواذيك » تحريف ، وفى مج : « ولكنه يوازنك » .
(١٠) التكملة من مج .
(١١) ماعدا مج : « ما يكون » .
(١٢) ب فقط : « وأفرج » بالجيم ، صوابه فى سائر النسخ .
(١٣) ماعدا مج : « ما يكون » ، تحريف .
(١٤) ماعدا مج : « وأبعد ما يكون » بالياء ، مع سقوط الكلمات بعدها .

والاجتنان بالجدران[١] ، ومَصْر المُصران[٢] ، وأكل القِرْدان[٣] ، أهون من معاشرته ، والاتّصال بحبله .

والغِلّ نتيج الحسدِ[٤] ، وهو رضيعُه[٥] ، وغصنٌ من أغصانه ، وعَون من أعوانه ، وشُعبةٌ من شُعَبه ، وفِعلٌ من أفعاله[٦] ، كما أنّه ليس فرعٌ إلّا له أصل ، ولا مولودٌ إلّا له مُولِد ، ولا نباتٌ إلّا من أرض ، ولا رضيعٌ إلّا من مُرضع[٧] ، وإن تغيّر اسمه ؛ فإنّه[٨] صفة من صفاته ، ونبت من نباته ، ونعتٌ من نعوته .

ورأيتَ الله جل جلاله ذكَر الجنّةَ فى كتابه فحلّاها بأحسن حِلْية ، وزيّنها بأحسنِ زينة ، وجعلَها دارَ أوليائه ومَحلَّ أنبيائه ، ففيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر[٩] . فذكر فى كتابه ما منَّ به عليهم من السُّرور والكرامة عندما دَخلوها وبوّأها لهم فقال : ﴿ إن المتّقين فى جَنّاتٍ وعُيون . ادخُلُوها بسَلامٍ آمِنينَ . ونَزَعْنا ما فى صُدورِهِمْ من غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ مُتَقابلينَ . لا يَمَسُّهُمْ فيها نَصَبٌ وما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِين[١٠] ﴾ .

---

(١) ب : « والأكسل بالجدران » م : « والكسل » وصححها أحمد تيمور بلفظ : « والاجتنان » ، موافقاً ما فى ط . والاجتنان : الاستتار . وفى مج : « والاكتنان بالجدران » وهما بمعنى .

(٢) مصر المصران : استخراج ما فيها . وفى مج : « ومص المصران » .

(٣) جمع قراد بالضم ، وهو دويبة تعض الإبل .

(٤) ب ، مج : « ينتج الحسد » .

(٥) هذا ما فى مج . وفى ب ، ط : « ورضيعه » فقط . وفى م : « ورضيع رضيعه » .

(٦) بعده فى مج : « وحدث من أحداثه » .

(٧) مج : « إلا له مرضع » .

(٨) ب فقط : « فهو » .

(٩) ب فقط : « على لب بشر » .

(١٠) الآيات ٤٥ — ٤٨ من سورة الحجر .

فما أنزلهم دارَ كرامته إلَّا بعد ما نزع الغِلَّ والحسدَ من قلوبهم[١] ، فتهنّوا بالجنّة ، وقابلوا إخوانَهم على السُّرر ، وتلذَّذوا بالنظر فى مقابلة الوجوه لسلامة صدورهم، ونزع الغِلّ من قلوبهم[٢] . ولو لم ينزع ذلك من صدورهم ويخرجْه من قلوبهم ، لافتقدوا لذَاذة الجنَّة[٣] ، وتدابَرُوا وتقاطَعوا وتحاسدوا ، وواقعوا الخطيئة[٤] ، ولَمسَّهم فيها النَّصَب ، وأُعقبوا منها الخروجَ ؛ لأَنَّه عزّ وجلّ فضَّل بينهم فى المنازل ، ورفع درجاتِ بعضهم فوقَ بعض فى الكرامات[٥] ، وسَنَّى العطيات .

فلمَّا نزع الغِلَّ والحسَدَ[٦] من قلوبهم ظنَّ أَدناهم منزلةَ فيها[٧] ، وأَقربُهم بدخول الجنَّة عهداً ، أَنَّه أَفضلهم منزلةً ، وأَكرمُهم درجة ، وأَوسعُهم داراً بسلامة قلبه[٨] ، ونزع الغلِّ من صدره ، فقرَّت عَينُه وطاب أُكله . ولو كان غير ذلك لصاروا إلى التنغيص[٩] فى النظر بالعيون[١٠] ، والاهتمام بالقلوب ، ولحدثت[١١] العيوبُ والذُّنوب .

وما أَرى السّلامةَ إلَّا فى قطع الحاسد ، ولا السُّرورَ إلَّا فى افتقاد

---

(١) بعده فى مج : « فبافتقاد الغل والحسد تهنوا بالجنة » .
(٢) مج : « بسلامة صدورهم ، ونزع الحسد والغل من صدورهم » .
(٣) م : « لذاذات الجنة » .
(٤) مج : « وأوقعوا الخطيئة » م : « وواقعوا الخطية » .
(٥) ب فقط : « فى الدرجات » .
(٦) ب ، مج : « الحسد والغل » .
(٧) م فقط : « فيهم » .
(٨) م : « لسلامة قلبه » .
(٩) ب ، ط : « التبغيض » .
(١٠) ب فقط : « بالعيوب » .
(١١) ب : « ولحدث لحيهم » م : « ولحدث فيهم » ط : « وحدثت فيهم » . وأثبت مافى مج .

وجهه ، ولا الرّاحةَ إلّا فى صَرْم مداراته(١) ، ولا الرِّبح إلّا فى ترك مصافاته(٢) .

فإذا فعلتَ ذلك فكل هنيًّا مريًّا(٣) ، [ونم رَضيًّا(٤)] ، وعش فى السُّرور مَليًّا(٥) .

ونحن نسأَل اللهَ الجليل أَن يُصفِّىَ كدرَ قلوبنا(٦) ، ويجنِّبنا وإياك [دناءة الأَخلاق ، ويرزقنا وإيّاك(٧)] حُسْن الأُلفة والاتِّفاق(٨) ، ويُحسِنَ(٩) توفيقك وتسديدك . والسَّلام .

---

(١) ب ، م : « مداواته » ، تحريف

(٢) ب ، م ، ط : « مكافأته » ، وأثبت ما فى مج وهامش م .

(٣) ب ، م : « فكل هنيئاً مريئاً » ، وأثبت ما فى ط . وفى مج : « فكل هنيئاً واشرب مريئاً » .

(٤) هذه من مج .

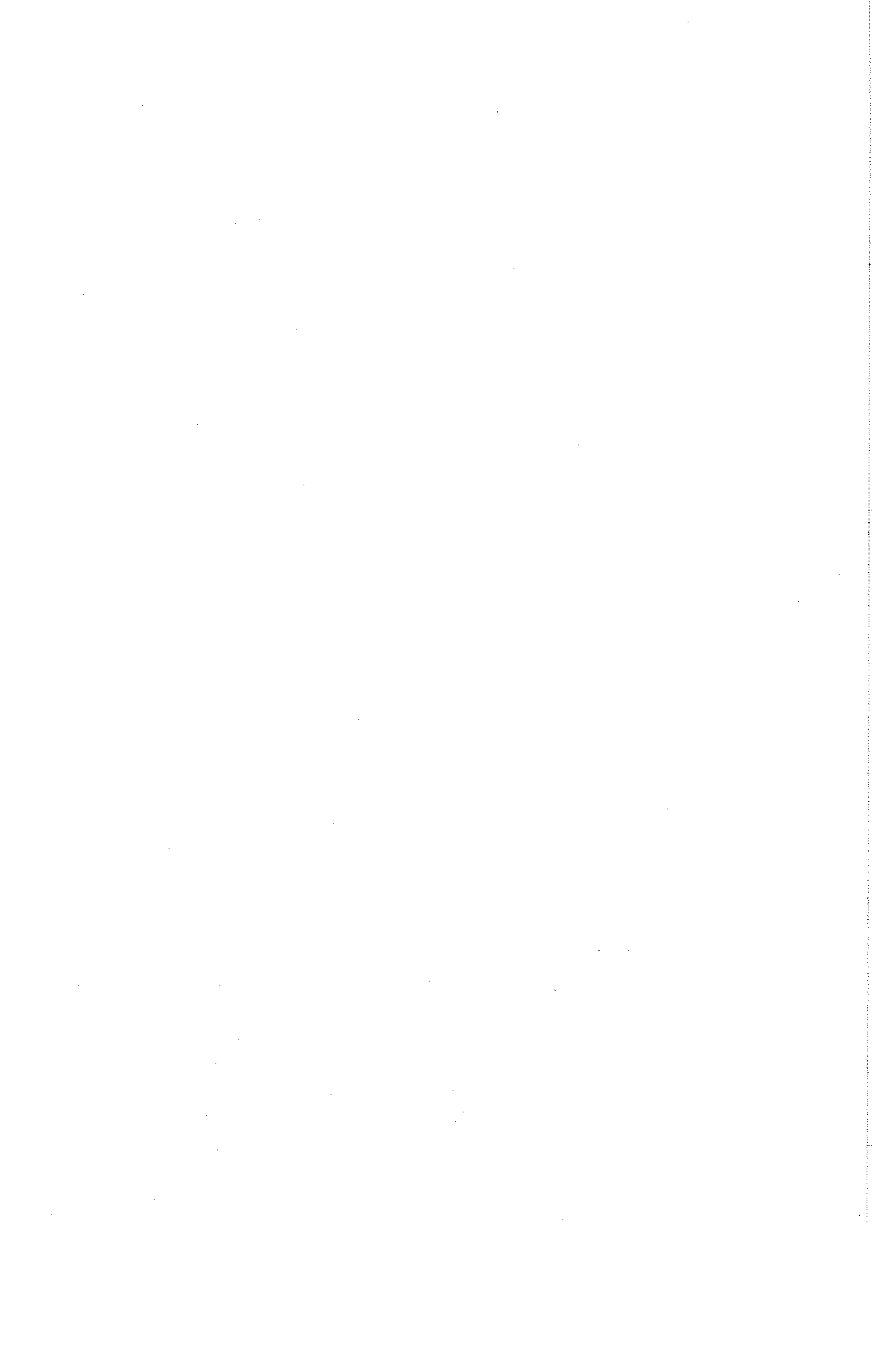
(٥) ملياً ، أى زماناً طويلا . ب فقط : « مريئاً » ، تحريف .

(٦) ما عدا مج وأسفل م : « كدر صدورنا » .

(٧) التكملة من م ، مج .

(٨) ب ، ط ، : « سوء الألفة والاتفاق » .

(٩) ب ، م : « وحسن » ، وأثبت ما فى ط . وفى مج : « أحسن الله » .



٢

من كتابه في

المعلّمين



١ — فصل

من صدر كتابه فى المعلمين[١]

أعانك الله على سَوْرة الغَضَب[٢] ، وعصَمكَ من سَرَف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوّة إلى حبِّ الإنصاف ، ورجَّح[٣] فى قلبك إيثارَ الأَناة . فقد استعملتَ فى المعلِّمين نوك السُّفهاء[٤] ، وخَطَل الجُهَلاء ، ومُفاحَشَة الأَبذِياء ، ومُجانبة سُبل الحكماء ، وتهكُّم المقتدرين[٥] ، وأَمْنَ المغْتَرِّين . ومن تعرَّض للعداوة وجدها حاضرة ، ولا حاجةَ بك إلى تكلُّف ما كُفِيت[٦] .

٢ — فصل منه

ولولا الكتابُ لاختلَّت أَخبار الماضين ، وانقطعت آثار الغائبين . وإنَّما اللسانُ للشاهد لك[٧] ، والقلمُ للغائبِ عنك ، وللماضى قبلَك والغابرِ بعدك[٨] . فصار نفعُه أَعمّ ، والدَّواوينُ إليه أَفْقر .

---

(١) لى بحث عنوانه (الجاحظ والمعلمون) فى مجلة الكتاب ، عدد أغسطس ١٩٤٦ .

(٢) سار يسور سوراً : ثار . ب : « صورة » تحريف . م : « ثورة » ، والوجه ما أثبت من ط . وأنشد فى اللسان (عفا ٣٠٦) :

خذى العفو منى تستديمى مودتى ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب

وانظر لنسبة هذا البيت عيون الأخبار ٣ : ١١ / ٤ : ٧٧

(٣) ب : « ورهج » ، والصواب من ط ، م .

(٤) النوك ، بالضم والفتح : الحمق . ب ، م : « نوق » ، صوابه فى ط .

(٥) التهكم : التكبر ، والتبختر طرباً .

(٦) ب فقط : « ما كفيت منه » .

(٧) المراد بالشاهد : الحاضر .

(٨) المراد بالغابر هنا الباقى ، والغابر من الأضداد ، يقال للماضى وللباقى أيضاً . ب ، م : « والعابر » بالمهملة ، صوابه فى ط .

والمِلكُ المُقيمُ بالواسطة(١) لا يدرك مصالحَ أطرافه وسدَّ ثغوره ، وتقويمَ سُكَّان مملكته ، إلَّا بالكتاب .

ولولا الكتاب ما تمّ تدبير(٢) ، ولا استقامت الأُمور . [وقد(٣)] رأينا عمودَ صلاحِ الدِّين والدُّنيا إنَّما يعتدل فى نِصابه ، ويقوم على أَساسه بالكتاب والحساب(٤) .

وليس علينا لأَحدٍ فى ذلك من المنَّة بعد الله الذى اخترع ذلك لنا ودلَّنا عليه ، وأَخذ بنواصينا إليه ، ما للمعلمين الذين سخَّرهم لنا ، ووصل حاجتَهم إلى ما فى أَيدينا . وهؤلاء هم الذين هجوتَهم وشكوتَهم وحاججتَهم وفَحَشت عليهم ، وأَلزمت الأَكابرَ ذنبَ الأَصاغر ، وحكمت على المجتهدين بتفريط المقصِّرين ، ورثَيْتَ لآباء الصِّبيان مِنْ إبطاء المعلِّمين عن تحذيقهم(٥) ، ولم تَرْثِ للمعلِّمين مِن إبطاء الصِّبيان عمّا يراد بهم ، وبُعدِهم عن صرف القلوب لما يحفظونه ويدرسُونه . والمعلِّمون أَشقى بالصِّبيان من رُعاة الضَّأْن ورُوَّاض المِهارة(٦) .

ولو نظرتَ من جهة النظر علمتَ أَنَّ النعمةَ فيهم عظيمةٌ سابغة ، والشكرَ عليها لازم واجب .

---

(١) أى حاضرة الملك ، وهى فى وسط البلاد غالباً .

(٢) م : « لم يتم » ط : « لما تم » .

(٣) التكملة من م ، ط .

(٤) ب ، ط : « فى الكتاب والحساب » ، وأثبت ما فى م .

(٥) ط فقط : « عن إبطاء » تحريف . والتحذيق : إكساب المهارة والإتقان فى العلم والعمل وفى جميع النسخ : « تحديقهم » بالدال المهملة ، والوجه ما أثبت .

(٦) المهار والمهارة ، بكسر الميم فيهما : جمع مهر ، بالضم ، وهو ولد الرمكة والفرس .

٣ - فصـــل منه[١]

وأجمعوا على أنَّهم لم يَجدوا كلمةً أقلَّ حرفاً ولا أكثر رَيْعاً ، ولا أعمّ نفعاً ، ولا أحثَّ على بيان[٢] ، ولا أدعى إلى تبيُّن ، ولا أهجى لمن ترك التفهُّمَ وقصَّر في الإفهام ، من قول أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضوان الله عليه : « قِيمة كلِّ امرئٍ ما يحسن » .

وقد أحسَنَ من قال : « مُذاكرة الرِّجالَ تلقيحٌ لألبابها » .

وكرهت الحكماءُ الرؤساءُ ، أصحابُ الاستنباط والتفكير[٣] ، جودةَ الحفظ[٤] ، لمكان الاتِّكال عليه[٥] ، وإغفال العقل من التمييز ، حتَّى قالوا : « الحِفْظ عِذْقُ الذِّهن » . ولأنَّ مستعمِل الحفظ لا يكون إلَّا مقلِّدا ، والاستنباط هو الذى يفضى بصاحبه إلى برد اليقين ، وعزّ الثقة .

والقضيَّة الصحيحة والحُكم المحدود : أنَّه متى أدام الحفظَ أضرَّ ذلك بالاستنباط ، ومتى أدام الاستنباط أضرَّ ذلك بالحِفْظ ، وإن كان الحفظُ[٦] أشرَفَ منزلة منه .

ومتى أهملَ النظرَ لم تسرع إليه المعانى[٧] ، ومتى أهمل الحفظَ[٨]

---

(١) منه ، هنا ساقطة من ب .

(٢) الحث : الحض . ب فقط : « ولا أحس » ، تحريف .

(٣) م : « والتفكر » .

(٤) الكلام بعده إلى كلمة « الحفظ » التالية ساقط من م .

(٥) ب : « لمكان اتكال عليه » .

(٦) ب ، م : « التحفظ » .

(٧) ب : « لم يسرع إليه المعانى » .

(٨) ب فقط : « التحفظ » .

لم تَعلَقْ بقلبه(١) ، وقلَّ مُكثُها فى صدره .

وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط . والذى (٢) يُعالَجانِ به ويستعينان متَّفَقٌ عليه(٣) ، [ألَا (٤)] وهو فراغُ القلب للشىء ، والشَّهوةُ له ، وبهما يكون التّام ، وتظهر الفضيلة(٥) .

ولصاحب الحفظ(٦) سببٌ آخر يتَّفقان عليه ، وهو الموضعُ والوقت .

فأمَّا الموضع فأيّهما يختاران(٧) إذا أَرادا(٨) ذلك الفَوْق(٩) دون السُّفل(١٠) .

وأمَّا السَّاعات فالأَسحار دون سائر الأَوقات ، لأَنَّ ذلك الوقتَ قبلَ وقت الاشتغال ، وبِعَقِبِ تَمامِ الراحة والجَمام(١١) ، لأَنَّ للجَمام (١٢) مقداراً هو المصلحة ، كما أَنَّ للكدّ مقداراً هو المصلحة .

٤ — فصل منه

ويُستدَلُّ أَيضاً بوصايا الملوك للمؤدِّبين فى أَبنائهم ، وفى تقويم

---

(١) فى جميع النسخ : « لم يعلق بقلبه » ، والضمير راجع إلى المعانى .
(٢) م ، ب « واللذين » ط : « واللذان » ، والوجه ، ما أثبت .
(٣) ب : « مشفق عليه متفق عليه » .
(٤) التكملة من ط .
(٥) ب فقط : « ويظهر الفضيلة » .
(٦) ب فقط : « التحفظ » .
(٧) م ، ط : « يختار » .
(٨) م : « أراد »
(٩) ب : « الغرف » ، م ، ط : « الفرق » ، وأرى الوجه فيما أثبت .
(١٠) ط فقط : « الشغل » . والسفل ، بضم السين وكسرها : مقابل الفوق .
(١١) الجمام كسحاب : الراحة . م ، ط : « والحمام » بالحاء المهملة ، تحريف . وفى جميع النسخ : « وتعقب تمام » ، وأثبت ما رأيته الصواب ، كما يصح أن تكون : « ويعقب » .
(١٢) م ، ط : « للحمام » ، تحريف

أحداثهم ، على أنَّهم قد[١] قلَّدوهم أمورهم وضميرهم ببلوغ التَّمام[٢] فى تأديبهم . وما قلَّدوهم ذلك إلَّا بعد أن ارتفع إليهم فى الحنوّ حالُهُم[٣] فى الأدب ، وبعد أن كشفهم الامتحان وقاموا على الخلاص .

وأنت – حفظك الله – لو استقصيت عددَ النحويِّين والعروضِيِّين والفَرضيِّين ، والحُسَّاب ، والخطَّاطين ، لوجدت أكثرَهم مُؤدِّبَ كبارٍ ومعلِّمَ صغار ، فكم تَظنُّ[٤] أنَّا وجدنا منهم ، من الرُّواة والقضاة والحكماء ، والوُلاة من المناكير والدُّهاة ، ومن الحُماة والكُفاة ، ومن القادة والذَّادة[٥] ، ومن الرُّؤساء والسَّادة ، ومن كبار الكتاب والشعراء ، والوزراء والأُدباء ، ومن أَصحاب الرسائل والخطابة ، والمذكورين بجميع أَصناف البلاغة ، ومن الفُرسان وأَصحاب الطعان ، ومن نديمٍ كريم ، وعالمٍ حكيم ، ومن مليحٍ ظريف ، ومن شابٍّ عفيف .

ولا تعجَلْ بالقضيَّة حتى تستوفىَ آخر الكتاب[٦] ، وتبلغَ أَقصى العذر ، فإنك إنْ كنت تعمّدت تذمَّمت[٧] ، وإن كنت جهلت تعلَّمت ، وما أظن من أحسن بك الظَّنَّ إلَّا وقد خالف الحزم .

٥ – فصل منه

قال المعلِّم : وجدْنا لكلِّ[٨] صنفٍ من جميعِ ما بالناس إلى تعلُّمه

(١) قد ، ساقطة من ب .
(٢) فى جميع النسخ : « بلوغ » .
(٣) ب : « حالتهم » .
(٤) م : « فلم يظن » تحريف . ب : « فكم نظن » ، وأثبت ما فى ط .
(٥) جمع ذائد ، وهو المدافع والرجل الحامى الحقيقة . م : « والزادة » تحريف .
(٦) م : « حتى تستو آخر الكتاب » ، تحريف .
(٧) تذمم : استنكف . يقال : لو لم أترك الكذب تأثماً لتركته تذمماً . ب : « ترمت » صوابه بالذال كما فى ط ، م .
(٨) ب ، ط : « كل » ، والوجه ما أثبت من م .

حاجة ، معلمين(١) ، كمعلِّمِى(٢) الكِتابِ والحساب ، والفَرائض والقرآن ، والنحو والعروض والأشعار ، والأخبار والآثار ، ووجدنا الأوائل كانوا يتّخذون لأبنائهم من يعلّمهم الكتابة(٣) والحساب ، ثم لَعِب الصَّوالجة ، والرَّمى فى التَّنْبُوك(٤) ، والمجثَّمة(٥) ، والطَّير الخاطف ، ورَمْى البنجكاز(٦) . وقبل ذلك الدَّبُّوق(٧) والنَّفخ فى السَّبَطانة(٨) . وبعد ذلك الفُروسيّة ، واللَّعب بالرِّماح والسُّيوف ، والمشاولة(٩) والمنازلة والمطاردة ، ثم النُّجوم واللُّحون ، والطبّ والهندسة ، وتعلُّم النَّرْد والشِّطْرَنج ، وضرب الدُّفوف وضرب الأوتار ، والوقع والنَّفْخ فى أصناف المزامير.

ويأمرون بتعليم أبناء الرعيّة الفِلاحةَ والنِّجارة(١٠) ، والبُنيانَ والصِّياغة والخياطة ، والسَّرد والصَّبْغ(١١) ، وأنواع الحياكة . نَعَمْ حتَّى علَّموا البلابل وأصناف الطَّير الألحانَ .

---

(١) ط : « المعلمين » .

(٢) ب فقط : « كمعلم » .

(٣) الكتاب : الكتابة . م فقط : « الكتابة »

(٤) هى كذلك فى الفارسية. انظر استينجاس ٣٢٧ وقد فسرها بالقوس الخفيفة : Weak bow ولعل مايقابلها بالعربية « المقتدرة » . وفى المخصص ٦ : ٣٩ عن ثعلب : قوس مقتدرة : خفيفة متوسطة . ب : « التبنوك » صوابه فى م ، ط .

(٥) المجثمة : كل حيوان ينصب ويرمى ويقتل . وفى الحديث أنه نهى عن المصبورة والمجثمة

(٦) م : البنجكار » بالراء المهملة ، تحريف . وهى لفظة فارسية مكونة من كلمتين بنج بمعنى خمسة . وكاز بمعنى الغصن ولعلها خمس خشبات تنصب هدفاً .

(٧) فى القاموس والتاج أن الدبوق كتنور : لعبة يلعب بها الصبيان . ب : « الدبوب » وأثبت ما فى ط ، م .

(٨) السبطانة محركة ، كما فى القاموس : قناة جوفاء يرمى بها الطير . وفى اللسان : قناة جوفاء مضروبة بالعقب يرمى بها الطير ، وقيل يرمى فيها بسهام صغار ينفخ فيها نفخاً ، فلا تكاد تخطئ . وفى جميع الأصول : « الشيطار » ، صوابه ما أثبت .

(٩) يراد به حمل الأثقال ، من قولهم شاول الحجر : رفعه ، فانشال . والمشوال : حجر يشال . يقال شال به وأشاله وشاوله .

(١٠) ب ، ط : « والتجارة » ، والوجه ما أثبت من م .

(١١) السرد : الخرز فى الأديم ، وهو أيضاً نسج الدروع . ب : « والصبع » بالعين المهملة صوابه فى ط ، م .

وناساً[١] يعلّمون القرود والدِّبَبة والكلابَ والظِّباءَ المكِّيّة[٢] والبَبّغاءَ ، والسَّقر[٣] وغراب البَيْن ، ويعلِّمون الإبلَ ، والخَيْلَ ، والبغالَ ، والحميرَ ، والفيلةَ ، أَصنافَ المشى ، وأَجناس الحُضْر[٤] ، ويعلِّمون الشَّواهين والصُّقور والبوازى[٥] ، والفهود ، والكلاب ، وعَنَاقَ الأَرض ، الصَّيد .

ويعلِّمون الدَّوابَّ الطَّحنَ ، والبخاتىَّ الجمز[٦] حتَّى يَرُوضوا الهِملاج والمِعناق[٧] ، بالتخليع وغير التخليع[٨] ، وبالموضوع والأَوسط والمرفوع .

ووجدنا للأَشياء كلِّها معلمين .

وإنَّما قيل للإنسان العالَم الصَّغير ، سليل العالم الكبير[٩] ، لأَنَّ فى الإنسان من جميع طبائع[١٠] الحيوان أَشكالًا ، من خَتْل الذئب[١١]

---

(١) كذا بالنصب فى جميع النسخ ، بإضمار « وجدنا » . وانظر ما سبق فى أول هذا الفصل .

(٢) الذى ذكره الجاحظ فى الحيوان هو الغنم المكية. انظر ٢ :١٧٩/٦ : ٣١٦ : ٧ : ١٠٤ ومثلها فى ذلك الغنم الحبشية . انظر الحيوان ٦ : ٣١٦ عند تفسير الجاحظ لقصيدة بشر بن المعتمر :

والدب والقـرد إذا علما والفيـل والكلبـة واليعر

(٣) السقر : الصقر . وانظر لتعليمه ما جاء فى الحيوان ٤ : ٤٧ . ب : « والسقل » م ، ط : « والسعل » ، صوابهما ما أثبت .

(٤) ط : « الخطو » .

(٥) البوازى : جمع البازى . وفى جميع النسخ : « البوازين ». وانظر لتعليم البوازى ماجاء فى الحيوان ٤ : ٤٧ .

(٦) الجمز : الوثب . م ، ط : « الهمز » تحريف .

(٧) الهملجة : حسن سير الدابة فى سرعة . والمعناق : السريع ، أعنقت الدابة فهى معنق وعنيق ومعناق . فى الأصول : « والعناق » .

(٨) فى القاموس : المخلع الأليتين ، كمعظم : المنفكهما ، والتخليع مشيه ، أى مشى المخلع .

(٩) ب فقط : « وسليل العالم الكبير » . وما أثبت من م ، ط يطابق ما فى الحيوان ١ : ٢١٢.

(١٠) ب ، م : « طبايع » بالتسهيل .

(١١) الختل : الخداع . وختل الذئب الصيد : تخفى له. م ، ب : « حيل الذئب » . وفى الحيوان : « غدر الذئب » .

ورَوَغان الثعلب(١) ، ووثوب الأَسد ، وحِقْد البعير ، وهِداية القَطاة . وهذا كثير ، وهذا بابَةٌ(٢) .

ولأنَّه يحكى كلَّ صوتٍ بفيه ، ويصوِّر كل صورةٍ بيده . ثم فضَّله الله تعالى بالمنطِق والرّوِيّة(٣) وإمكان التصرف .

وعلى أَنا لا نعلم أَنَّ لأَحدٍ من جميع أَصناف المعلِّمين لجميع هذه الأَصناف — كفضيلة المعلِّمِ من الناس الأَحداثَ المنطقَ المنثور(٤) ، ككلام الاحتجاج والصِّفات ، والمناقلات من المسائل والجوابات فى جميع العلامات ، بين الموزون من القصائد(٥) والأَرجاز ، ومن المزدَوِج والأَسجاع(٦) ، مع الكِتابِ والحساب ، وما شاكل ذلك ووافَقَهُ واتَّصل به ، وذَهَب مذهبَه .

وقالوا : إنَّما اشتُقَّ اسم المعلِّم من العِلْم ، واسم المؤدِّب من الأَدب . وقد علمنا أَنَّ العلم هو الأَصل ، والأَدب هو الفرع .

والأَدب إمَّا خُلُق وإمَّا رواية ، وقد أَطلقوا له اسم المؤدِّب على العموم .

---

(١) ب : « وزوغان » تحريف ، وإنما يقال راغ الثعلب روغاناً . وفى أمثالهم : « أروغ من ثعلب » ، و « أروغ من ثعالة » . وانظر الدرة الفاخرة ٢٠٩ وجمهرة العسكرى ١ : ٥٠٠ والمستقصى ١ : ١٤٥ والميدانى ١ : ٢٩٠ . والروغان : المخادعة .

(٢) البابة : الوجه . والبابات : الوجوه ، وفى الأصول : « وهذا بابه » .

(٣) الروية : التفكر فى الأمر ، والتمهل فى الفكر . وفى جميع النسخ : « الرؤية » والوجه ما أثبت . وإلا فالرؤية مشتركة بين جميع ضروب الحيوان .

(٤) م ، ب : « الأحداث هى من المنطق المنثور » ، وعبارة « هى من » مقحمة لم ترد فى ط .

(٥) ب : « عن القصائد » ، صوابه فى م ، ط .

(٦) فى جميع النسخ : « من المزدوج » بدون واو . والمزدوج ضرب غير الرجز ، مثل له الجاحظ فى البيان ٢ : ١١٦ — ١١٧ . كما أورد نماذج للأسجاع فى ١ : ٢٨٤ — ٢٩٠ ، وفى السجع يغلب التزام التقفية . وفى الازدواج مراعاة للتزاوج فى المعانى ، وقد يصحب بالتزام القافية . وفى جميع النسخ : « والأسماع » والوجه ما أثبت .

والعلم أصلٌ لكلِّ خير ، وبه ينفصل الكرم من اللُّؤْم ، والحلال من الحرام . والفضلُ من الموازنةِ بين أَفضل الخيرين ، والمقابلة بين أَنقص الشرين .

فلم يَعْرِضوا لأَحدٍ من هذه الأَصناف التى[(١)] اتَّخذ النَّاس لها المعلِّمين من جميع أَنواع الحق والباطل ، والسَّرف والاقتصاد ، والجِدِّ والهزل ، إلَّا هؤلاءِ الذين لا يعلِّمون إلَّا الكتاب[(٢)] والحسابَ ، والشِّعر ، والنحو ، والفرائض ، والعَروض . وما بالسماءِ[(٣)] من نجوم الاهتداءِ والأَنواءِ والسُّعود ، وأَسماءِ الأَيَّام والشُّهور ، والمناقلات[(٤)] .

ويمنعهم العَرَامة[(٥)] ، ويأْخذهم بالصَّلاة فى الجماعة ، ويُدَرِّسُهُم القرآنَ[(٦)] ، ويهدِّن[(٧)] أَلسنتهم برواية القصيد والأَرجاز ، ويُعاقب على التَّهاوُن ، ويضرب على الفِرار[(٨)] ، ويأْخذُهم بالمناقلة[(٩)] ، والمناقلة [من[(١٠)]] أَسباب المنافسة .

لحقير[(١١)] بخلاف هذه السِّيرة ، وبضدِّ هذه المعاملة .

---

(١) ب ، م : « الذى » ، صوابه فى ط .

(٢) الكتاب : الكتابة . ط فقط : « الكتابة » .

(٣) ب : « وما السماء » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) فى القاموس : «والمناقلة فى المنطق : أن تحدثه ويحدثك» . وفى أساس البلاغة : « وناقله الحديث ، إذا حدثته وحدثك . وناقل الشاعر الشاعر : ناقضه » .

(٥) العرامة ، بالمهملة : الشراسة والأذى . م : « الغرامة » . تحريف .

(٦) يقال درسته الكتاب درساً ، وأدرسته إدراساً ، ودرسته إياه تدريساً . وأصل الدرس التذليل ، يقال درست الكتاب أدرسه درساً ودراسة ، أى ذللته بكثرة القراءة حتى خف حفظه .

(٧) يقال هدنوه بالقول حتى رضى وسكن . وتهدين المرأة ولدها : تسكينها له بكلام إذا أرادت إنامته . ط فقط : « ويهذبون ألسنتهم » .

(٨) ب فقط : « على الضرار » .

(٩) انظر ما سبق فى الحاشية الرابعة .

(١٠) تكملة يلتئم بها الكلام .

(١١) يبدو أن الكلام بترا . كما يبدو أن هذه الكلمة محرفة عن «لحقيق» . وهذا فى كله نطاق الدفاع عن المعلم .

٦ — فصــل منه

وقد ذهب قومٌ إلى أنّ الأَدبَ حُرْف[(١)] ، وطلبَه شُؤم . وأَنشد قول الشاعر :

ما ازددت فى أَدبى حَرفاً أُسرُّ به إِلّا تزيَّدتُ حُرْفاً تحته شُوم[(٢)]

إِن المقدَّم فى حِذقٍ بصنعتــــه أَنَّى توجَّهَ فيها فهو محـروم[(٣)]

ولم نر شاعراً نال بشعره الرَّغائب ، ولا أَديباً بلغ بأَدبه المراتب ، ذكَرَ يُمْن الأَدب ، ولا بركةَ قولِ الشعر[(٤)] . فإِذا حُرم الواحدُ منهم ، والرجل الشاذُّ ذُكَرَ حُرْف الأَدب[(٥)] وشؤم الشعر . وإِن كان عددُ من نال الرغائبَ أَكثرَ من عددٍ من أَخفق .

ومهما عَيَّرنا مَنْ كان فى هذه الصِّفة[(٦)] فإِنا غير مُعايرين[(٧)] لأَبى يعقوب الخُرَيمى[(٨)] ؛ لأَنّه نال بالشِّعر وأَدرك بالأَدب .

---

(١) الحرف ، بالضم : الحرمان ، من قولهم : رجل محارف ، أى منقوص الحظ لا ينمو له . ومثله « الحرفة » بالكسر : اسم كذلك ، يقال : أدركته حرفة الأدب . ط فقط : « خرق » ، وهو الحمق .

(٢) فى البيت مجانسة بين الحرف والحرف بالضم .

(٣) ب فقط : « فى حزق بصنعته » ، تحريف .

(٤) الكلام بعده إلى كلمة « الشعر » التالية ساقط من م .

(٥) فى الأصول : « فإنما حرم» . والوجه ما أثبت. وفى ط فقط : « خرق الأدب » .

(٦) ط : « الصنعة » .والتعبير هنا بمعنى الموازنة.

(٧) المعايرة ، من قولهم : عاير بينهما : قدرهما ونظر ما بينهما . وفى الأصول : « غير عايرين » .

(٨) الخريمى بالراء المهملة : نسبة إلى خريم بن عامر المرى،وكان لأبى يعقوب اتصال به وبآله فنسب إليه . وفى جميع الأصول: « الخزيمى » ، تحريف . واسمه إسحاق بن حسان بن قوهى، وقد ذكره البغدادى فى التاريخ ٣٣٦٩ وقال: « أصله من خراسان من بلاد السغد » ، وقال : « ولهمدائح فى محمد بن منصور بن زياد،ويحيى بن خالد وغيرهما . وقال أبو حاتم السجستانى : الخريمى أشعر المولدين ، وروى عنه شيئاً يسيراً من شعره أبو عثمان الجاحظ ، وأحمد بن عبيد ابن ناصح » وانظر لخريم الناعم قاموس الزركلى وأمثال الميدانى ٢ : ٢٨١ . وكان إسحاق هذا من العميان روى له الجاحظ شعراً يذكرفيهعماه فى الحيوان ٣ : ١١٣ . وانظر نكت الهميان ٧١ وعيون الأخبار ٤ : ٥٧ .

وليس الذى يحمل[1] أكثر الناس على هذا القول إلّا وِجدانُ المعانى والألفاظ ، فإنهم يكرهون أن يُضيعوا باباً من إظهار الظَّرف وفَضْل اللسان[2] وهم عليه قادرون .

٧ — فصل

وقد قالوا : الصبىُّ عن الصبى أفهَمُ ، وبه أشكل . وكذلك الغافل والغافل[3] ، والأحمق والأحمق ، والغبىُّ والغبىّ ، والمرأةُ والمرأة . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ولو جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لجعلناهُ رَجُلًا[4] ﴾ . لأنَّ الناس عن النَّاس أفهم ، وإليهم[5] أسكن . فممّا أعان الله تعالى به الصِّبيان ، أنْ قرَّب طبائعَهم ومقاديرَ عقولهم من مقادير عقول المعلِّمين[6] .

وسمع الحجَّاجُ — وهو يسيرُ — كلامَ امرأةٍ من دار قومٍ ، فيه تخليطٌ وهذَيان ، فقال : مجنونة ، أو ترقِّص صبياً !

ألا ترى أنَّ أبلغ الناس لساناً ، وأجودَهم بياناً وأدقَّهم فطنةً ، وأبعدَهم رويَّة[7] ، لو ناطق طفلًا أو ناغَى صبيًّا ، لتوخَّى حكايةَ مقادير عقول الصِّبيان ، والشَّبَهَ لمخارج كلامهم ، وكان لا يجد بدًّا من أن ينصرف[8] عن كلِّ ما فضَّله الله به بالمعرفة الشريفة ، والألفاظ الكريمة . وكذلك تكون المشاكلة[9] بين المتَّفقِين[10] فى الصناعات .

(١) م : « وأليس » ، تحريف . ب ، م : « يجعل » ، صوابه فى ط .
(٢) م ، ط : « الشأن » .
(٣) م : « العاقل والعاقل »
(٤) الآية ٩ من سورة الأنعام .
(٥) ب ، م : « وإليه » تحريف .
(٦) ب ، ط : « العالمين » .
(٧) ب ، م : « رؤية » ، صوابه فى ط . وانظر ما سبق فى حواشى ص ٣٤ .
(٨) ب ، م : « يصرف » ، وأثبت ما فى ط .
(٩) ب ، م : « يكون مشاكلة » ، صوابه فى ط .
(١٠) م : « المتقين » ، صوابه فى ب ، ط .

٨ – فصـل

فى رياضة الصبى

وأمَّا النَّحو فلا تشغل قلبَه[١] منه إلَّا بقدر ما يؤدِّيه إلى السلامة من فاحشِ اللَّحن ، ومن مقدارِ جهل العوامّ فى كتابٍ إن كتبه[٢] ، وشعرٍ إن أنشده ، وشيءٍ إن وصفَه . وما زاد على ذلك فهو مَشغلةٌ عمَّا هو أولى به ، ومُذهلٌ عمَّا هو أَردُّ عليه[٣] منه من رواية المثل والشاهد[٤] ، والخَبرِ الصادق ، والتعبيرِ البارع[٥] .

وإنَّما يرغب فى بلوغ غايته ومجاوزة الاقتصار فيه ، مَنْ[٦] لا يحتاج إلى تعرُّف جسيمات الأُمور ، والاستنباط لغَوامض التدبُّر ، ولمصالح العباد والبلاد ، والعلمِ بالأَركان[٧] والقُطبِ الذى تدور عليه الرَّحى ؛ ومَن ليس له حظٌّ غيره ، ولا معاشَ سواه.

وعَويص النحو[٨] لا يجرِى فى المعاملات ولا يُضطَرٌّ إليه شيء .

---

(١) م ، ب : « قلبهم » ، صوابه فى ط .
(٢) ط : « فى كتاب كتبه » .
(٣) أرد عليه : أنفع له . وهذا الأمر لا رادة له ، أى لا فائدة له .
(٤) هذا ما فى ط . وفى م ، ب : « المثل الشاهد » .
(٥) ب ، م : « والفقير البارع » ، صوابه فى ط .
(٦) م : « عمن » ، تحريف .
(٧) ب ، ط : « والعلم وبالأركان » ، صوابه فى م .
(٨) ب ، م : « وغويص النحو » ، صوابه فى ط .

فمن الرأْى أَن يُعتمد به[١] فى حساب العَقْد[٢] دون حساب الهِنْد ، ودون الهندسة[٣] وعَويص[٤] ما يدخل فى المساحة . وعليك فى ذلك بما يحتاج إليه كُفاة السُّلطان وكُتَّاب الدواوين .

وأنا أَقول : إن البلوغ فى معرفة الحساب الذى يدور عليه العمل ، والتَّرقِّى فيه[٥] والسبب إليه ، أَردُّ عليه من البلوغ فى صناعة المحرِّرين ورءُوس الخطَّاطين ؛ لأَنَّ فى أَدنى طبقات الخطِّ مع صحَّة الهجاءِ بلاغاً . وليس كذلك حالُ الحساب .

ثمّ خذه[٦] بتعريف حجج الكتَّاب وتخلُّصهم باللفظ السَّهل القريب المأْخذ إلى المعنى الغامض[٧] . وأَذِقْهُ حلاوة الاختصار ، وراحةَ الكفاية ، وحذِّره التكلُّف واستكراهَ العبارة[٨] ؛ فإنَّ أَكرم ذلك كلِّه ما كان إفهاماً للسامع ، ولا يُحوِج إلى التأْويل والتعقُّب ، ويكون مقصوراً على معناه لا مقصِّراً عنه ، ولا فاضلًا عليه .

فاختر من المعانى ما لم يكن مستوراً باللفظ المتَعقِّد[٩] ، مُغْرِقاً فى الإِكثار والتكلُّف[١٠] . فما أَكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع

---

(١) ب : « أن يصمد به » ، وأثبت ما فى م ، ط .

(٢) حساب العقد : ضرب منه يكون بأصابع اليدين . وفى الحديث أنه « عقد عقد تسعين» وقد ألفت فيه كتب وأراجيز . انظر الخزانة ٣ : ١٤٧ بولاق والحيوان ١ : ٣٣ والبيان ١ : ٧٦ وفتح البارى ١٣ : ٩٥ — ٩٦ والألف المختارة من صحيح البخارى ٨٩٦، ٩٢٥.

(٣) م : « ودون حساب الهندسة » .

(٤) ب ، م : « وغويص » ، تحريف .

(٥) ب ، م : « والتوقى » ط : « والتوفى » ، والوجه ما أثبت .

(٦) ط فقط : « ثم خذ » .

(٧) ب : « المغامض » ، صوابه فى م ، ط .

(٨) ب : « واستكراثه العبارة » ، صوابه فى م ، ط .

(٩) ب ، ط : « المنعقد » ، وأثبت ما فى م .

(١٠) فى جميع الأصول : « مفرقاً » بالفاء ، والوجه ما أثبت .

بَرَاعة اللَّفظ وغموضِه على السامع بعد أَن يتَّسق له القول[(١)] ، وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه العبارة . فالمعنى بعدُ مقيمٌ على استخفائه وصارت العبارة لغواً وظرفاً خالياً .

وشرٌّ البلغاءِ من هيَّأَ رسم المعنى قبل أن يهيِّئ[(٢)] المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشَغَفاً بذلك الاسم ، حتَّى صار يجُرُّ إليه المعنى جَرًّا ، ويُلزِقه به إلزاقاً . حتَّى كأَنَّ الله تعالى[(٣)] لم يخلق لذلك المعنى اسمًا غيره ، ومنعَه الإفصاحَ عنه إلَّا به .

والآفة الكبرى أَن يكون ردىءَ الطَّبع[(٤)] بطىءَ اللفظ ، كليلَ الحدِّ ، شديدَ العُجْب ، ويكونَ مع ذلك حريصاً على أَن يُعدَّ فى البلغاءِ ، شديدَ الكَلَف بانتحال اسم الأُدباء[(٥)] . فإذا كان كذلك خفِىَ عليه فرقُ ما بين إجابة الأَلفاظ واستكراهه لها .

وبالجملة[(٦)] إنَّ لكل معنًى شريفٍ أَو وضيعٍ ، هزلٍ أَو جدٍّ[(٧)] ، وَحزم أَو إضاعة[(٨)] ، ضرباً[(٩)] من اللفظ هو حقُّه وحظُّه ، ونصيبُه الذى لا ينبغى أَن يجاوزه أَو يقصِّر دونه[(١٠)] .

ومن قرأَ كتبَ البلغاءِ ، وتصفَّح دواوين الحكماءِ ، ليستفيد

---

(١) م : « يتسوله القول » ط : « يتبين له القول » . وأثبت ما فى ب .

(٢) ب فقط : « يهيا » .

(٣) ب ، م : « كأن الله مراده تعالى » !

(٤) ب : « ردى الطبع » بالتسهيل .

(٥) ط فقط : « الأدب » .

(٦) ب : « والجملة »

(٧) ط : « هزلا أو جداً » .

(٨) ب ، م : « أو حزم » ، ط : « وحزم أوضاعه » ، والوجه ما أثبت .

(٩) ط : « ضرب » ، تحريف .

(١٠) ب : « ويقصر دونه » .

المعانىَ ، فهو على سبيلِ صَواب . ومَن نظر فيها ليستفيد الأَلفاظ فهو على سبيل الخطأ . والخُسرانُ ها هنا فى وزن الرِّبح هناك ؛ لأَنَّ من كانت غايته انتزاعَ الأَلفاظ[١] حملَهُ الحرصُ عليها ، والاستهتارُ بها إلى أَنْ يستعملَها قبلَ وقتِها ، ويَضعَها فى غير مكانها . ولذلك قال بعض الشُّعراء[٢] لصاحبه : أَنا أَشعر منك ! قال صاحبه : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأَنِّى أَقول البيت وأَخاه ، وأَنت تقول البيتَ وابن عمِّه .

وإنَّما هى رياضة وسياسة[٣] ، والرفيق : مصلحٌ وآخَرُ مفسد[٤] . ولا بدَّ من هِدانٍ وطبيعةٍ مناسبة[٥] .

وسماع الأَلفاظ ضارٌّ ونافع[٦] .

فالوجه النافع : أَن يَدور فى مسامعه ، ويغبَّ فى قلبه[٧] ، ويختمر[٨] فى صدره ، فإذا طال مكثُها تناكحت ثم تلاقحت فكانت[٩] نتيجتها أَكرمَ نتيجة ، وثمرتُها أَطيبَ ثَمَرة ؛ لأَنَّها حينئذ تخرج غير مُستَرَقةٍ ولا مختلَسة[١٠] ولا مغتصَبة ، ولا دالَّةٍ على فَقر ؛ إذْ لم يكن القصد إلى شىءٍ بعينه ، والاعتمادِ عليه دونَ غيره . وبَيْنَ الشىء إذا عشَّش فى

---

(١) ب : « أنواع » م : « انتواع » ، صوابهما فى ط .

(٢) هو عمر بن لجأ ، كما فى مقدمة الشعر والشعراء ٩٠ .

(٣) م ، ط : « وسياحة » .

(٤) ط ، ب : « والآخر مفسد » .

(٥) الهدان : المهادنة . م . ط : « هذان » مع سقوط واو « وطبيعة » من ط .

(٦) ب ، م : « ضارة ونافعة » .

(٧) يغب : يمكث ، ومنه قولهم : « رويد الشعر يغب » ، أى دعه يمكث يوماً أو يومين . م ، ط : « ويغيب فى قلبه » .

(٨) هذا الصواب من ب : وفى م ، ط : « ويخيم » .

(٩) ط : « وكانت » .

(١٠) هذا الصواب من م ، ط . وفى ب : « ولا محترسه » .

الصَّدر ثم باض ، ثم فَرَّخ ثم نهض ، وبين أن يكون الخاطر مختاراً ، واللفظ اعتسافاً واغتصاباً ، فرقٌ بيِّن .

ومتى اتَّكَلَ صاحبُ البلاغة على الهوينَى والوِكال ، وعلى السَّرِقة والاحتيال ، لم ينَلْ طائلًا ، وشقَّ عليه النزوع ، واستولى عليه الهوان ، واستهلكه سوءُ العادة .

والوجه الضارّ : أن يتحفَّظ ألفاظاً بعينها[1] من كتابٍ بعينه ، أو من لفظ رجل ، ثم يريد[2] أن يعدَّ لتلك الألفاظ قسمها من المعانى ، فهذا لا يكون إلا بخيلًا فقيراً ، وحائفاً[3] سروقاً ، ولا يكون إلَّا مستكرِهاً لألفاظه ، متكلِّفاً لمعانيه ، مضطرب التأليف منقطع النظام . فإذا مرَّ كلامُه بنقَّاد الألفاظ وجهابذة المعانى استخفُّوا عقله ، وبَهرَجُوا علمه .

ثم اعلم أنَّ الاستكراه فى كل شىءٍ سَمِج ، وحيث ما وقع فهو مذموم ، وهو فى الطُّرَفِ أسمج ، وفى البلاغة أقبح . وما أحسن حاله ما دامت الألفاظ مسموعة من فمِه[4] ، مسرودة فى نفسه[5] ، ولم تكن مخلَّدة فى كتبه .

وخير الكتب ما إذا أعدتَ النَّظر فيه زادَك فى حسنه ، وأوْقفكَ على حدِّه[6] .

---

(١) تحفظ الكتاب : استظهره شيئاً بعد شىء . م ، ط : « أن يحفظ » .
(٢) م فقط : « أن يؤيد » .
(٣) من الحيف والجور . ب : « وحايفا » بالتسهيل .
(٤) ب : « من فهمه » ، صوابه فى م ، ط .
(٥) مسرودة : منتظمة متتابعة . ب : « مسرورة » .
(٦) م : « أوقف » ب : « وأوقف » ، والوجه ما أثبت من ط .

٩ – فصل

فى ذم اللواط

والذى يدلُّ على أَنَّ هذه الشَّهوةَ معيبةٌ فى نفسها[١] ، قبيحة فى عينها ، أَن الله تعالى وعزّ لم يعوِّض فى الآخرة بشَهوةِ الوِلْدانِ من تَرَك لوجْهِه فى الدُّنيا شهوة الغِلْمان ، كما سقى فى الآخرة الخمرَ مَنْ تَرَكها له فى الدُّنيا ، ثمّ مَدحَ خمر الجنَّةِ بأَقصر الكلام ، فنَظَم به جميع المعانى المكروهةِ فى خَمْر الدنيا فقال: ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ولا يُنْزَفُون[٢] ﴾ . كأَنه تبارك وتعالى قال : لا سُكر فيها ولا خُمار[٣] .

وفى اكتفاءِ الرِّجال بالرِّجال والنِّساءِ بالنِّساءِ انقطاعُ النَّسل ، وفى انقطاع النَّسل بُطلانُ جميعِ الدِّين والدنيا . وغِشيانُ الرَّجلِ الرجلَ والمرأَةِ المرأَةَ من المنكوسِ المعكوس[٤] ، ومن المُبدَل المقلوب ؛ لأَنَّ الله جلّ ذكره إِنَّما خلق الذَّكرَ للأُنثى ، وجعل بينهما أَسباب التحابِّ وعلائق الشِّرْكةِ ، وعلل المشاكلة[٥] وجعل الذَّكر طِبْقاً للأُنثى ، وجعل الأُنْثى سكناً للرجل . فقلب هؤلاءِ الأَمرَ وعكَسُوه ، واستقبلوا من اختار اللهُ لهم بالردِّ والزُّهدِ فيه .

---

(١) م ، ب : « معيبة نفسها » .

(٢) الآية ١٩ من سورة الواقعة .

(٣) الخمار ، بالضم : ما أصاب من ألم الخمر وصداعها وأذاها .

(٤) ب فقط : « من المنكوس والمعكوس » .

(٥) ب فقط : « المشاركة » .

١٠ – فصل

ومن المعلمين ثم مِن البلغاء المتأدِّبين[١] : عبد الله بن المقفَّع ، ويكنى أَبا عَمرو ، وكان يتولَّى لآلِ الأَهتم[٢] ، وكان مقدَّماً فى بلاغة اللسان والقلمِ والتَّرجمة ، واختراع المعانى وابتداع السِّيَر . وكان جواداً فارساً جميلًا ، وكان إذا شاءَ أَن يقول الشعرَ قاله ، وكان يتعاطى الكلام . ولم يكن يُحسن منه لا قليلًا ولا كثيراً . وكان ضابطاً لحكايات المقالات ، ولا يعرف من أَين غُرّ المغترُّ ووَثِق الواثق . وإذا أَردت أَن تعتبر ذلك ، إنْ كنتَ من خُلَّص المتكلِّمين ومن النُّظَّارين ، فاعتبر ذلك بأَنْ تنظرَ فى آخر رسالته (الهاشمية) ، فإِنَّك تجدُه جيِّد الحكاية لدَعوى القوم ، رديَّ المدخل فى مواضع الطَّعن عليهم .

وقد يكون الرجُل يُحسن الصِّنف والصنفين من العلم ، فيظنُّ بنفسه عند ذلك أَنَّه لا يَحمل عقلَه على شيءٍ إلَّا نَفَذ به فيه[٣] ، كالذى اعترى الخليلَ بن أَحمدَ بعد إحسانه فى النحو والعروض ، أَن ادَّعى العلمِ بالكلام وبأَوزان الأَغانى[٤] ، فخرج من الجهل إلى مقدارٍ لا يبلغه أَحدٌ إلَّا بخِذلان الله تعالى . فلا حرمنا الله تعالى عِصمتَه ، ولا ابتلانا بخِذلانه .

١٠م – فصل[٥]

وهذان الشاعران جاهليَّان[٦] ، بعيدان من التوليد ، وبنَجْوةٍ من التكليف .

---

(١) ب : « ثم البلغاء المتأدبين » ، بإسقاط « من» .

(٢) انظر طرفاً من أخبارهم فى الأغانى ١٣ : ٥٨ .

(٣) م : « إلا تعدته فيه » ، ط : « إلا بعد به فيه » . والوجه ما أثبت من ب .

(٤) م : « المغانى » .

(٥) لم ترد هذه الكلمة فى ب . والاختيار التالى مقتضب لا يمت إلى ماقبله ولا إلى مابعده بصلة .

(٦) ب : « جاهلان » ، تحريف .

١١ ــ فصــل

ومن خصال العبادة وإن كانت كلُّها راجحة فليس فيها شيءٌ أَردّ في عاجل[١] ، ولا أَفضلَ في آجل من حُسْنِ الظنّ بالله تعالى وعزّ[٢] .

ثم اعلم أَنَّ أَعقلَ النَّاس السُّلطانُ ومَن احتاج إلى معاملته ، وعلى قدر الحاجة إليه ينفتح له باب الحيلة ، والاهتداءُ إلى مواضع الحجة . وما أَقربَ فضل الرَّاعي على الرعية من فضل السَّائس على الدابَّة . ولولا السُّلطانُ لأَكل النَّاسُ بعضُهم بعضاً ، كما أَنَّه لولا المُسِيم لوثَبَ السِّباعُ على السَّوام[٣] .

ودَعْني من تدريسه كتب أَبي حنيفة[٤] ، ودعني مِن قولهم : اصرفْه إلى الصَّيارفة ؛ فإنَّ صناعة الصَّرف تَجْمع[٥] مع الكتَاب والحساب المعرفةَ بأَصناف الأَموال ، ولا تجد بُدًّا[٦] من حِلَّة السُّلطان[٧] .

ودَعني مِن قول من يقول : قد كانت قريش تجّاراً ؛ فإن هذا بابٌ لا ينقاس ولا يطَّرد . ومَن قاس تُجّار الكَرْخ وباعَتَه ، وتجّار الأَهواز والبصرة ، على تُجّار قريش ، فقد أَخطأَ مواضع القياس ، وجَهل أَقدارَ العلل .

---

(١) أرد ، أى أنفع .

(٢) وأعز ، ساقطة من م .

(٣) المسيم : الراعى ، أسامها إسامة : خلاها ترعى ، ومثله سامها سوماً ، والسوام : الإبل الراعية تسوم حيث شاءت ، وهو اسم جمع للسائم والسائمة ، وميمها مخففة ، وضبطت فى طبعة القاموس بالتشديد خطأ . وفى ب ، م : « لأثب السباع » ، صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « من تدرسه » ط : « من تدريس » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما أسلفت من حاشية على « ويدرسه القرآن » فى أواخر الفصل الخامس ص ٣٥ . والضمير عائد إلى الصبى .

(٥) ب ، م : « يجمع » ، صوابه فى ط .

(٦) ب فقط : « يدان بالياء » ، تحريف .

(٧) ب ، م : من جلة السلطان » بالجيم . والمراد أنها لها علاقة بالسلطان .

قريش[١] قومٌ لم يزل الله تعالى يقلِّبهم فى الأَرحام البريئة من الآفات[٢] ، وينقلهم من الأَصلاب السليمة من العاهات ، ويعبِّيهم لكل جسيم[٣] ، ويربِّيهم لكل عظيم .

ولو علم هذا القائل ما كانت قريش عليه فى التِّجارة لعرَف اختلاف السُّبُل ، وتَفاوُتَ ما بين الطُّرق . ولو كانت علَّتهم فى ذلك كعلَّة تجَّار الأُبُلَّة[٤] ، ومحتكرى أَهل الحيرة ، لثلَمت دقَّة التجارة فى أَعْراضهم[٥] ولنَهَك سخف التربُّح[٦] من مروءاتهم ، ولصغَّر ذلك من أَقدارهم فى صدور العرب ، ولوضع من علوِّهم عند أَهل الشرف . وكيف وقد ارتحلت إليهم الشُّعراء كما ارتحلت إلى الملوك العظماء ، فأَسنَوْا لهم العطيَّة ، ولم يقصِّروا عن غاية ، فسقَوُا الحجيج وأَقاموا القِرى لزوّار الله تعالى ، وهم بِوادٍ غيرِ ذى زرع . فلو أَنَّه كان معهم من الفضل ما يَبْهَر العقول ، ومن المجدِ ما تَحْرَج فيه العيون[٧] ، لما أَصلح طبائعَهم الشىءُ الذى يفسد جميع الأُمة[٨] . ولقد أَورث ذلك صدورَهم من السَّعَة بقدر ما أَورث

(١) م فقط : « وقريش » .

(٢) ب ، م : « البرية » بالتسهيل .

(٣) عباه تعبية وتعبئة : هيأه وأصلحه . م ، ط : « ويبقيهم » . وأثبت ما فى ب .

(٤) الأبلة : بلدة على شاطىء دجلة البصرة ، وهى أقدم منها ، لأن البصرة مصرت فى أيام عمر ، وكانت الأبلة حينئذ مدينة فيها مسالح وقائد من قبل كسرى .

(٥) فى جميع الأصول : « أغراضهم » بالغين المعجمة ، وإنما يثلم العرض ، بالعين المهملة أى يطعن فيه ، وفى أساس البلاغة : « هذا مما يكلم الدين ويثلم اليقين » .

(٦) ب ، م : « التّربح » ط : « الربح » ، والوجه ما أثبت من الجمع بينهما . والتربح : طلب الربح والمكسب .

(٧) حرجت عينه حرجاً : حارت ، قال ذو الرمة :

تزداد للعين إبهاجاً إذا سفرت   وتحرج العين فيها حين تنتقب

وقيل معناه أنها لا تنصرف ولا تطرف من شدة النظر . وفى جميع الأصول : « ما يخرج فيه العيون » وهو من ملح التصحيف .

(٨) ب ، م : « لما صلح » ، صوابه فى ط .

غيرهم من الضِّيق . ولو كانت سُبُلهم[(١)] عند الملوك إذا وفدوا عليهم ، أَوْ وَرَدوا[(٢)] بلادهم بالتجارات ،سُبُلَ[(٣)] غيرِهم من التُّجَّار لما أَوجَهُوهم وقرّبوهم[(٤)] ، ولَما أَقاموا لهم قِرى الملوك وحبَوْهم بكرامة الخاصّ .

وإذا كانت قريش حُمساً تَنَسَّكُ فى دينها ، وتتأَلَّه فى عبادتها[(٥)] وكان مانعاً لهم من الغارات والسِّباء ، ومن وطءِ النِّساء من جهة المَغنم ، ولذلك لم يَئدوا البناتِ ولا ولدت منهم امرأَةُ غيرهم من جهة السِّباء[(٦)] ، ولا زوّجوا أَحداً من العرب حتَّى يتحمّس ويدينَ بدينهم . ولذلك لمَّا صاروا إلى بناءِ الكعبة لم يُخرجوا فى بنائها من أَموالهم إلَّا مواريثَ آبائهم ونسائهم[(٧)] ، خوفاً من أَن يخالطه شىءٌ من حرام ، إِذْ كانت[(٨)] أَرباح التجارات مَخُوفاً عليها ذلك . فلما كانوا بوادٍ غير ذى زرع ويحتاجون إلى الأَقوات[(٩)] ، وإقامة القِرَى ، لم يجدوا بدّاً من أَن يتكلَّفوا ما يُعيشهم ويصلح شأْنهم ، فأَخذوا الإِيلاف[(١٠)] ، ورحلوا إلى الملوك بالتِّجارات . فهذا هو السبب .

---

(١) ب : « سلبهم » . تحريف .
(٢) ب : « وأوردوا » .
(٣) ب ، م : « سبيل » .
(٤) وجهه السلطان توجيهاً ، وأوجهه إيجاهاً : شرفه ، وأوجهته : صادفته وجيهاً .
(٥) تتأله : تتنسك وتتعبد . ط : « وتناله فى عبادتها » ، تحريف .
(٦) ب ، م : « وغيرهم من جهة السباء » . والمراد لم يعتدوا على نساء غيرهم من القبائل الأخرى فيلدن لهم .
(٧) من أموالهم ، ساقطة من ب .
(٨) ب ، م : « إذا كانت » ، والوجه ما أثبت من ط .
(٩) ب ، م : « إلى الأوقات » ، والصواب فى ط .
(١٠) الإيلاف : العهد والذمام والإجارة . وكان الإخوة الأربعة : هاشم ،وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل ، بنو عبد مناف ، يجيرونقريشاً بميرهم ، وكانوا يسمون المجيرين . فأما هاشم فإنه أخذ حبلا من ملك الروم ، وأخذ نوفل حبلا من كسرى ، وأخذ عبد شمس حبلا من النجاشى ، وأخذ المطلب حبلا من ملوك حمير ، فكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بحبال هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم .

فانظر كم بين علَّتهم وعلَّةِ غيرهم! فيسرُّك بعد هذا أن يتحوّل ابنُك في مسلاخ صالح الزَّرازريشى[١] ، أو في طباع ابن بادام[٢] ، أو في عقل ابن سامرى[٣] .

فإنْ زعموا أنَّ أصحاب السلطان بِعَرَض مكروهٍ فليعلموا أنَّ كلَّ مسافرٍ فبعرَض مكروه[٤] ، وقد قال بعض الحكماء : « المسافرُ ومتاعُه على قَلَت إلا من حفظَ الله[٥] » ، يعني على هلاك .

وراكب البحر أشدُّ خطراً ، ومشترى طعام الأهواز أشدُّ تهوُّراً[٦] ، ورافع الشِّراع بعَرَض هَلَكة . والمتعرِّض للمِلاحة[٧] والمعرِّض نفسَه للسِّباع أقلُّ شفقة[٨] . وسكان الجزائر والسواحل أحقّ بالتعرُّض ، وأولى بالخوف . والمنهوم بالطعام الردئ[٩] ، والمدمنُ للشَّراب أشبه بأصحاب التغْرير[١٠] ، والمتبارِي في ذلك والمتزيِّدُ منه أحقُّ بتوقُّع الحِدثان وحوادث الأزمان ، قد جرت عليه عادةُ الدهر[١١] وسِيرةُ الأيام . وهذا كلُّه أحقُّ بالاهتمام .

---

(١) ب : « الدزازريشى » ط : « الذرايرى » ، وأثبت ما في م . وأصل معنى المسلاخ الجلد ، والمراد أن يكون مثله .

(٢) ط ، ب : « ابن آدم » ، وأثبت ما في م . وبادام ، من الأعلام الفارسية ، ويقال أيضاً باذام . وانظر حواشي رسائل الجاحظ ٢ : ٢٩٢ .

(٣) ب ، ط : « وفي عقل » .

(٤) ط : « بعرض مكروه » .

(٥) الذي في البيان ٢ : ١٠٥ واللسان (قلت) : « وقال أعرابي : إن المسافر ومتاعه لعلى قلت إلا ما وقى الله » . وفي جميع الأصول : « على قلة » تحريف .

(٦) التهور : السقوط ، والمراد التعرض للخطر .

(٧) في جميع النسخ : « للملام » والوجه ما أثبت .

(٨) الشفقة : الخوف من وقوع مكروه . ولعله يعني أنهما أكثر أمناً من التاجر الذي يستعمل السفر .

(٩) ب ، م : « الردى » بالتسهيل .

(١٠) ب : « التعزير » . والتغرير : حمل النفس على الغرر ، وهو الخطر والهلكة .

(١١) سقطت كلمة « قد » من ط . وبدلها في ب : « حتى » .

وإن كنت إلى الإشفاق تذهب ، وإلى إعطاءِ الحزمِ أكثر من نصيبه ، وكيف دار الأَمر فإِنَّ التاجر قد استشعر الذُّلَّ ، وتغَشَّى ثوب المذَلَّة .

وصاحب السلطان قد تجاوز حدَّ العزِّ والهيبة . وإنما عيبُه سُكْرُ السُّلطان[١] ، وإفراط التعظيم . قد استَبطَن بالعزّ ، وظاهَرَ بالبِشْر واستحكمت تجربته ، وبعُدَت بصيرته حتَّى عرف مصلحة كلِّ مِصْر[٢] ، وإصلاح كلِّ فاسد ، وإقامةَ كلِّ معوجّ ، وعمارةَ كلِّ خرب .

ولا أعلم فى الأَرض أَعمّ إفلاساً ولا أَشدَّ نكبةً ، ولا أكثر تحوُّلًا[٣] من يُسر إلى عسر ، ولا رأَينا الجَوائح[٤] إلى أَحدٍ أهدى منها إلى أَموال الصَّيارفة . فكيف يُقاس شأْنُ قومٍ تعمُّهم المَعاطب[٥] بشأْن قوم أَهلُ السَّلامةِ فيهم أَكثر ، والنَّكَباتُ فيهم أَقلّ .

وبعد هذا فإِنى أَرى أَلَّا تستكرهه فتبغِّض إليه الأَدب ، ولا تهملَّه فيعتادَ اللهو .

على أَنِّى لا أَعلم فى جميع الأَرض شيئاً أَجلبَ لجميع الفساد من قُرناءِ السَّوءِ ، والفراغِ الفاضل عن الجَمام[٦] .

---

(١) هو ما يسمونه المدح بما يشبه الذم . وسكر السلطان : نشوته والشعور بالزهو . وفى اللسان : « السكر ثلاثة : سكر الشباب ، وسكر المال ، وسكر السلطان » . ط ، م : « شكر » بالشين المعجمة ، تحريف .

(٢) المصر : واحد الأمصار ، للمدينة الكبيرة . ط فقط : « كل مضر » ، تحريف .

(٣) ب : « تجولا » بالجيم .

(٤) الجوائح : جمع جائحة ، وهى الشدة والنازلة العظيمة التى تجتاح المال ، أى تذهب به وفى جميع النسخ : « الحوائج » ، صوابه ما أثبت .

(٥) المعاطب : المهالك ، واحدها معطب . ب ، م : « المعاطر » بالراء ، صوابه فى ط .

(٦) الجمام ، كسحاب : الراحة . ط فقط : « الجهاد » محرف .

درِّسه العلمَ[١] ما كان فارغاً من أَشغال الرجال ، ومطالبِ ذَوِى الهِمَمَ . واحتلْ فى أَن تكون أَحبَّ إِليه من أُمِّه . ولا تستطيع أَن يَمحضك المِقَةَ ، ويُصفِىَ لك المودَّة مع كراهته لما تحملُ إليه من ثِقَل التـأْديب عند من لم يبلغ[٢] حالَ العارف بفضلِه[٣] .

فاستخرجْ مكنونَ محبَّته ببِرِّ اللِّسان ، وبذْلِ المال . ولهذا مقدارٌ من جازَه أَفرط[٤] . والإِفراطُ سَرَف . ومن قصَّر عنه فرّط ، والمفرِّط مِضياع[٥] .

ولا تستكثرنَّ هذا كلَّه فإِنَّ بعضَ النِّعمة فيه تـأْتى على أَضعاف النعامة[٦] ، والذى تحاول من صَلاح[٧] أَمر من تؤمِّل فيه أَن يقوم فى أَهلِكَ مَقامك ، وإِصلاح ما خلَّفتَ كقيامِك ، لحقيقٌ بالحَيطة عليه ، وبإِعطائهِ[٨] المجهود من نفسك .

وقال زكريا عليه السلام : ﴿ ربِّ لا تَذَرْنى فرداً وأَنتَ خيرُ الوَارِثين[٩] ﴾ . فَعَلِمَ الله تبارك وتعالى ، فوهب له غلاماً ، وقال الله

---

(١) انظر للتدريس مامضى فى حواشى ص ٣٥ . ط : « فى دراسة العلم » كأن الكلام متصل بما قبله . وهو تحريف .
(٢) ب ، م : « التأديب عنه من يبلغ » ، صوابه فى ط .
(٣) أى العارف بفضل التأديب . وفى جميع الأصول : « بفضل » .
(٤) جازه : تجاوزه . وفى جميع الأصول : « من حازه » بالحاء المهملة ، تحريف .
(٥) م : « مضاع ».
(٦) كذا فى جميع الأصول .
(٧) ط : « إصلاح » .
(٨) م ، ب : « وبإعطاء » .
(٩) الآية ٨٩ من سورة الأنبياء .

عزّ وجلّ : ﴿ وليس الذَّكَرُ كالأُنْثَى[١] ﴾ .

اعلم أَنَّه أَعطاك ولداً عَبْرَةَ عَيْنِ العدوّ[٢] ، وقُرَّةَ عينِ الصديق الولىّ. فاحمدِ الله وأَخلِصْ فى الدُّعاءِ ، وأَكْثِرْ من الخَيْر إِنْ شاءَ الله تعالى .

(١) الآية ٣٦ من سورة آل عمران .

(٢) العبرة ، بالفتح : الدمعة ، وفى أساس البلاغة : يقال أراه عبر عينيه ، وإنه لينظر إلى عبر عينيه ، أى ما يكرهه ويبكى منه . ومنه قوله يصف رجلا قبيحاً له امرأة حسناء :

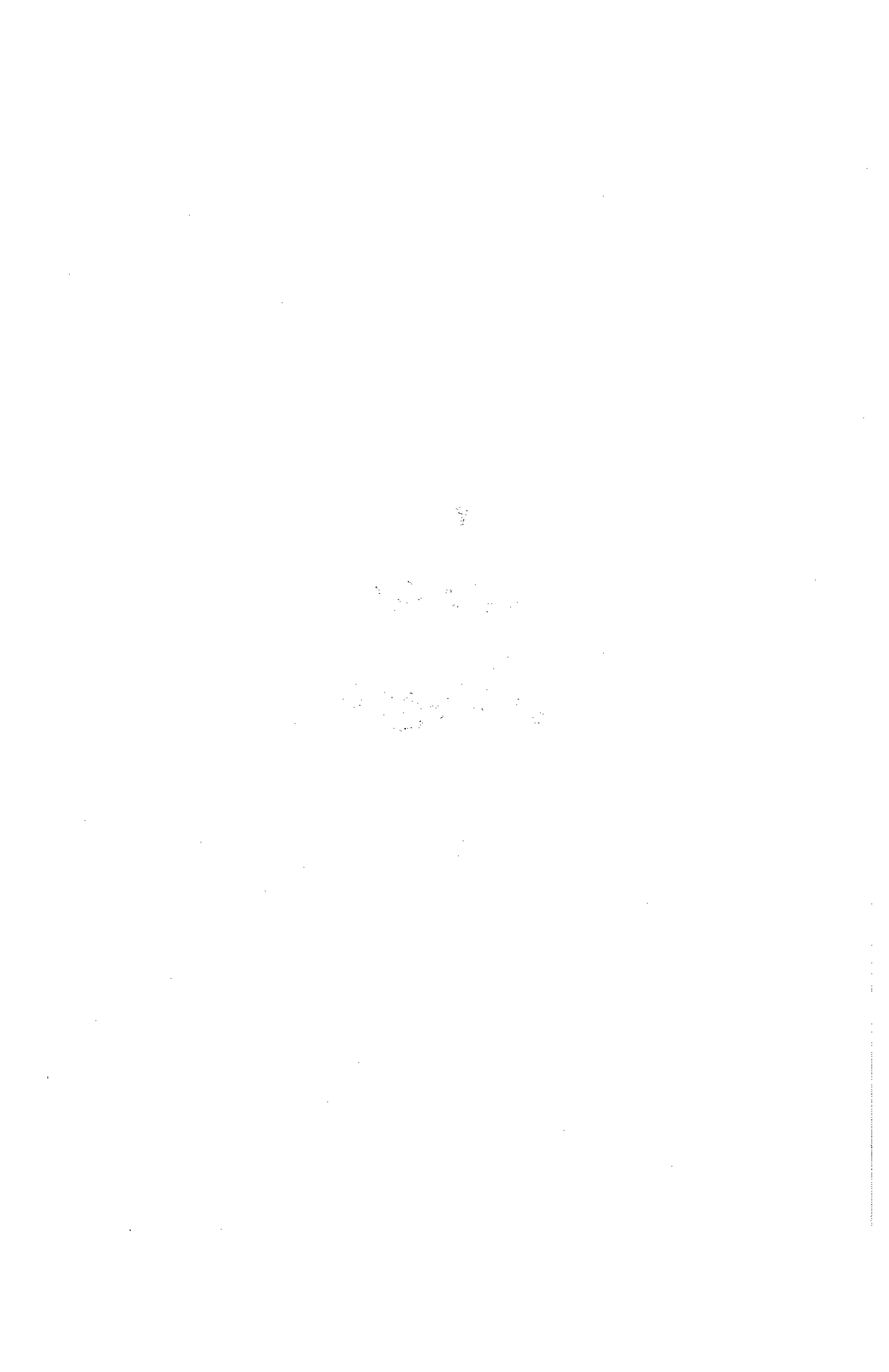
إذا ابتز عن أوصاله الثوب عندها رأت عبر عينيها وما عنه مخنس

وفى جميع الأصول : « غيرة عين العدو » ، تحريف .

٣

من كتابه في

التَّربيع والتَّدوير



١ ـ فصل

من كتاب التربيع والتدوير[١]

فانظر فى مسالمة النفوس[٢] مع تقارب منازلها ، ولِمَ تجاذبت عند تقارب مراتبها ، ولِمَ اختلفَ الكثير واتّفق القليل ؟ ولِمَ كانت الكثرة علةً للتخاذل ، والقلّة سبباً للتناصر ؟ وما فرق ما بين المجاراة[٣] والتحاسد ، وبين المنافسة والتغالب ، فإنك متى عرفت ذلك استرحت منّا ورجَوْنا أن نستريحَ منك .

وكيف يعرف السَّببَ من يجهل المسبَّب ، وكيف يعرف الوصل من يجهل الفصل ، وكيف يعرف الحدود من لم يسمع الفصول . بل كيف يعرف الحجّة من الشُّبهة ، والغدر[٤] من الحيلة[٥] ، والواجبَ

---

(١) هذه الرسالة التى وجهها الجاحظ إلى أحمد بن عبد الوهاب ، نشرها كاملة فان فلوتن فى ليدن سنة ١٩٠٣ . وتابعه محمدالساسى فنشرها فى مجموعة رسائل سنة ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٧ م. ثم السندوبى فى رسائل الجاحظ سنة ١٩٣٣ . ثم نشرها محققة شارل بلا فى دمشق سنة ١٩٥٥. وقد رمزت لنسخته بالرمز (ش) .

وقد أشار إليها الحصرى فى جمع الجواهر ٢٦٠ . حيث أورد فقرات من رسالة لأبى بكر الخوارزمى ، وجهها إلى بديع الزمان الهمذانى ، وقال الحصرى فى أعقابها : « وهى طويلة جداً مر له فيها إحسان كثير . وإنما احتذى فى أثرها مثال رسالة أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لأحمد بن عبد الوهاب ، المعروفة برسالة الطول والعرض ، وتعرف برسالة التوسع (التربيع) والتدوير ،ورسالة المفاكهات . واتبع أيضاً طريق أبى الفضل بن العميد فى رسالة لابن سمكة النحوى».

ورسالة الخوارزمى نشرت كاملة فى مجموعة رسائله المطبوعة بالقاهرة سنة ١٧٢ . وفى ديباجتها : « وكتب بها إلى أبى الحسن البديهى الشاعر يعبث به » . والوجه ما ذكره الحصرى .

وقد عثرت على بعض ردود لأحمد بن عبد الوهاب فيما يتعلق بالرسالة ، وذلك فى الهوامل والشوامل لأبى حيان التوحيدى ومسكويه ، فى الصفحات ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧ .

(٢) مج ، ش : « لم تسالمت النفوس » .

(٣) ب : « المجازات » م ، ط : « المجازاة » ، صوابها فى مج .

(٤) هذا ما فى ب ومج . وفى سائر النسخ : « والعذر » .

(٥) ب فقط : « من الجبلة » .

من الممكن، والغُفْلَ من الموسوم ، والمُحال من الصَّحيح ، والأَسرارَ من المجهول ومن كبار الدلائل الخفيَّة[١] وما يُعلم مما لا يُعلم ، وما يُعلم باللفظ دون الإشارة مما لا يعلم إلَّا بالإشارة دون اللفظ ، وما يعلم معتمداً ولا يعلم مكيَّفاً ولايعلم معتقداً[٢] . وما المستغلق الذى يجوز أن يفارقه استغلاقه ، والمستبهمُ الذى لا يفارقه استبهامه ، ومن هو طائرٌ مع العوامّ حيث طارت ، وساقطٌ معها حيث سقطت ، مع الزِّراية والرَّغبة عنها[٣] . قد طَلَبها بفضل طلبه لنفسه[٤] ،وجرى معها بقدر مناسبتهاالقَدْره.

فاعرف الجنسَ من الصِّنف ، والقسم من النِّصف ، وفرقَ ما بين الذم واللَّوم ،وفصلَ ما بين الحمد والشكر ، وحدَّ الاختيار من الإمكان ، والاضطرار من الإيجاب . وسنعرِّفك من جملة ما ذكرنا باباً باباً أَنت إليه أَحوجُ ، وهو علينا أَرَدّ .

٢ ــ فصــل

وما فى الأَرض[٥] إقرارٌ أَثبتُ ، ودليلٌ أَوضحُ ، وشاهد أَصدق ، من شاهدى عليك على ما ادّعيتَ لنفسك من الرِّفعة مع ما ظهر من حسدك لأَهل الصَّنعة[٦] . وهل يكون كذلك[٧] إلَّا فاسدُ الحسّ ظاهرُ العُنود[٨] ، أَو جاهلٌ بالمحال .

---

(١) مج ، ش : « والأسرار المجهولة من ذوات الدلائل الخفية » .

(٢) كذا فى ب ، م، ط . وفى مج :« وما يعلم معتقداً ولايعلم مكيناً ، مما ييعلم مكيناً ولايعلم معتقداً » . وفى ش : « وما يعلم معتقداً ولا يعلم يقيناً ولا يعلم معتقداً » .

(٣) ب ، م : « ورغبة عنها » .

(٤) مج : « قد ظلمها بفضل ظلمه لنفسه » .

(٥) مج ، ش : « وهل فى الأرض » .

(٦) مج ، ش : « لأهل الضعة » .

(٧) مج ، ش : « وهل تكون بعد ذلك » .

(٨) م : « العتود » بالتاء ، تحريف ، ط : « العناد » والعنود والعناد بمعنى ، وهما الميل عن الحق مع العلم به .

وبعد فأنت ـ أبقاك الله[١] ـ فى يدك قياسٌ لا يكسر[٢] ، وجَوابٌ لا ينقطع[٣] ، ولك حدٌّ لا يُفَلّ وغربٌ لا ينثَنِى[٤] ، وهو قياسك الذى إليه تنسب ، ومذهبك الذى إليه تذهب : أَنْ تقول[٥] : وما علىّ أَن يرانى الناس عريضاً وأَكون فى حكمهم غليظاً وأَنا عِندَ الله[٦] تعالى طويلٌ جميل ، وفى الحقيقة مقدودٌ رشيق . وقد علموا ـ حفِظك الله ـ أَنَّ لك مع طول البادّ[٧] راكباً ، طُولَ الظَّهر جالساً[٨] ، ولكنْ بينهم فيك إذا قمتَ اختلاف ، وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل .

ومن غريب ما أُعطيتَ ، ومِن بديع ما أُوتيتَ أَنَّا لم نر مقدوداً واسع الجُفرة غيرك[٩] ، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك . فأَنت المديد وأَنت البسيط ، وأَنت الطويل وأَنت المتقارب .

فيا شعراً جمعَ الأَعاريض ، ويا شخصاً جمع الاستدارةَ والطُّول .

بل مايهمُّك[١٠] من أَقاويلهم ، ويتعاظمُك من اختلافهم ، والراسخون فى العلم ، والناطقون بالفهم ، يعلمون أَنَّ استفاضَة عَرِضك قد أَدخلت

---

(١) مج : « وبعد أبقاك الله فأنت » .

(٢) مج ، ش : « لا ينكسر » .

(٣) م ، ط ، ب : « وجوار لا يقطع » ، صوابه فى مج ، ش .

(٤) ب : « لا بشىء » م : « لا شىء » تحريف . ط : « لا يشى » ، وأثبت ما فى مج ، ش .

(٥) هذا ما فى مج ، ش . وفى سائر النسخ : « أو تقول » .

(٦) ب ، م ، ط : « وأنا عبد الله » .

(٧) الباد : « باطن الفخذ » وما يلى السرج من فخذ الفارس . ب ، م ، ط : « البال » صوابه فى سائر النسخ . وفى م : « أن ذلك » ، تحريف .

(٨) كلمة « طول » الأخيرة من مج ، ش .

(٩) الجفرة ، بالضم : الجوف ، وجفرة كل شىء : وسطه ومعظمه . ط فقط : « أوسع الجفرة » ، تحريف .

(١٠) ب ، م : « بل ما يهما » ، صوابه فى سائر النسخ .

الضَّيم على ارتفاع سَمْكك[1] ، وأَنَّ ما[2] ذهب منك عرضاً قد استَغْرَق ما ذهبَ منك طولًا. ولئن[3] اختلفوا فى طولك لقد اتَّفقُوا فى عرضك[4]. وإن أكانوا قد سلَّموا لك بالرَّغْم[5] شطراً، فقد حَصَّلتَ[6] ما سلَّموا وأَنت على دعواك فيما لم يُسَلِّموا .

ولَعمرى إنَّ العيون لتُخطئُ ، وإن الحواسّ لَتَكْذِب ، وما الحكمُ القاطعُ إلَّا للذِّهن ، وما الاستبانةُ الصَّحيحةُ إلَّا للعقل ؛ إذ كانَ زِماماً على الأَعضاء[7] ، وعِياراً على الحواسّ .

ومما يُثبت أَيضاً أَنَّ ظاهرَ عَرْضِك مانعٌ من إدراك حقيقة طولك قولُ[8] أَبى دُوَادٍ الإِيادىّ فى إبلِه :

سَمِنَتْ فاستَحَشَّ أَكرعُها لا الـ ـنِّىُّ نَىٌّ ولا السَّنامُ سَنامُ[9]

ولو لم يكن فيك من العَجَب إلَّا أَنَّك أَوّلُ من عوّده الله تعالى بالصَّبْر[10] على خَطاءِ الحسّ[11] وبالشُّكر على صواب الذهن ، لقد

(١) الضيم : الظلم وانتقاص الحق . ما عدا مج ، ش : « قد أدخلت الميم فى ارتفاع سمكك » ، تحريف .

(٢) ب فقط : « وإنما » ، تحريف .

(٣) ما عدا مج ، ش : « وإن » .

(٤) ما عدا مج ، ش : « لقد اختلفوا » تحريف . ب : « على رضك » م ، ط : « على عرضك » ، وأثبت ما فى مج ، ش .

(٥) ما عدا مج ، ش : « بالزعم » .

(٦) ب فقط : « فقد حصلك » تحريف .

(٧) ب فقط : « إذ كانا ذماما » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٨) ب ، م : « وقول » ، تحريف .

(٩) ديوان أبى دواد ٣٣٩ والأصمعيات ١٨٨ واللسان (حشش) . استحش : استدق . والنى ، بالفتح : الشحم . ط : « لا النىء نىء » ، تحريف .

(١٠) ب ، م ، ط : « بالصد » ، صوابه فى مج ، ش .

(١١) ب ، م : « على خطأ الحس » ، والخطاء والخطأ بمعنى ، وكثيراً ما يستعمل الجاحظ « الخطاء » بالمد . انظر الحيوان ١ : ٢١٣ / ٣ : ٢٥٨ ، ٥٠٠ والبيان ٤ : ١٦ ، ٦٧ ورسائل الجاحظ : ١ : ٣٥٣ .

كنت فى طُولك غايةً للعالمين[١] ، وفى عرضك مناراً للمضِلّين .

وقد تظَلَّم[٢] المربوع مثلى من الطويل مثل عُمر ، ومن القصير مثل عَمرو[٣] إذ زعم[٤] أنه أفرط فى الرَّشاقة ونُسب إلى القضافة ، لأَنَّ إفراط عرضه غَمَرَ[٥] الاعتدالَ [من طوله ، وكلاهما يحتاج إلى الاعتذار ، ويفتقر إلى الاعتدال[٦]] .

والمربوع بحمد الله تعالى قد اعتدلت أَجزاؤه فى الحقيقة ، كما اعتدلَتْ فى المنظر[٧] ، فقد استغنى بعزِّ الحقيقة[٨] عن الاعتذار ، وبحكم الظاهر عن الاعتلال[٩] .

وقد سمِعنا من يذمُّ الطِّوال كما سمعنا من يُزرى على القصار ، ولم نَسْمَع أَحداً[١٠] ذمّ مربوعاً ولا أَزرى عليه ، ولا وقف عنده ولا شكَّ فيه . ومن[١١] يذمُّه إلَّا من ذمّ الاعتدال ، ومن يُزرى عليه إلَّا من أَزْرى على الاقتصاد ، ومن يَنصب للصَّواب الظاهر[١٢] إلَّا المعاند ، ومن يُمارى فى العيانِ إلَّا الجاهل ؛ بل من يُزْرِى على أَحد بتفاقم التركيب[١٣] ،

(١) مج ، ش : « آية للسابلين » والمراد بالسابل هنا : السالك فى الطريق .
(٢) ما عدا مج ، ش : « وقد تكلم » ، تحريف .
(٣) مج ، ش : « من الطويل مثل محمد ومن القصير مثل أحمد » .
(٤) مج ، ش : « إذ زعم أحمد » .
(٥) ب ، م : « عمر » بالعين المهملة ، تحريف .
(٦) ما بين الحاصرتين ساقط من ب ، لكن فى ط : « ويفتقر إلى الاعتدال » .
(٧) ب فقط : « فى المنظرة » .
(٨) ب ، م : « بعد الحقيقة » ، ط : « بعدل الحقيقة » ، وأثبت ما فى مج ، ش .
(٩) الاعتلال : بيان العلة . ما عدا مج ، ش : « الاعتدال » .
(١٠) ب ، ط : « ولم يسمع أحد » م : « ولم يسمع أحداً » ، والوجه ما أثبت من مج ، ش
(١١) الكلام بعده إلى « أزرى على الاقتصاد ومن » ، ساقط من م .
(١٢) نصب له : عاداه وتجرد له . ط : « ومن يعيب الصواب الظاهر » ، صوابه فى سائر النسخ .
(١٣) تفاقم التركيب : أن يجرى على غير استواء ، وأصله من تفاقم الأمور وتراكبها .

وبسوءِ التنضيد[١] مع قول الله عز وجل : ﴿ ما تَرَى فى خَلْق الرَّحْمنِ مِنْ تفَاوُتٍ[٢] ﴾ .

وبعد فأَىٌّ قدٌّ أَرداُ[٣] ، وأَىُّ نظامٍ أَفسدُ من عَرْضٍ مجاوزٍ للقَدْر[٤] ، أَو طُولٍ مجاوزٍ للقصد . ومتى يَضرِبِ العَرْض بسهمه على قدر حقِّه ، ويأْخذِ الطُّول من نصيبه على مثل وزنِه ، خرجَ الجسم من التقدير ، وجاوزَ التعديل . فإذا خرج من التقدير تفاسد ، وإذا تفاسَد وجاوز التَّعديلَ تباين .

ولو جاز هذا الوصفُ ، وحَسُنَ هذا النَّعت[٥] ، كان لإبراهيم ابن السِّندىّ[٦] [من الفضيلة[٧]] ما ليس لأَحمد بن عبد الوهاب .

وهذا كله بعد أَن يصدِّقوك[٨] على ما ادّعيتَ لطولك فى الحقيقة ، واحتججتَ [به[٩]] لِعَرْضك فى الحكومة . كما أَنَّك بإعمالك لما يَنْفِيهِ

(١) ب فقط : « التنضديد » ، تحريف .
(٢) الآية ٣ من سورة الملك أو تبارك .
(٣) كلمة « فأى » ساقطة من ب.
(٤) ط فقط : « للقد » .

(٥) ب ، م : « حسن هذا النعت »بلا واو قبله . ط : « من حسن النعت هذا » .تحريف .
(٦) مج ، ش : « كان لقاسم التمار » . وإبراهيم بن السندى بن شاهك ، يروى عنه الجاحظ كثيراً . وأبوه السندى بن شاهك كان يلى الجسرين ببغداد للرشيد : انظر الجهشيارى ٢٣٦ – ٢٣٧ . وقد نعت الجاحظ إبراهيم هذا بأنه « مولى أمير المؤمنين » . الرسائل ٤٧ ساسى،

وكذلك قاسم التمار ، كان من الرجال الذين يروى عنهم الجاحظ كثيراً . انظر فهارس الحيوان والبيان .

(٧) التكملة من مج ، ش .
(٨) ط فقط : « صدقوك » .
(٩) التكملة من مج ، ش .

العِيان[١] ، واستشهادك[٢] لما تنكره الأذهان[٣] ، معترضٌ[٤] للصِّدق من المتكرِّم ، ومتحكِّك بالْحِلم من المُتغافِل . وأيُّ صامت لا يُنطقه هذا المذهب ، وأيُّ ناطق لا يُغْرِيه هذا القول[٥] .

وإذا كان هذا ناقضاً لعزم المتسلِّم[٦] فما ظَنُّك بعادة المتكلِّف[٧] .

فأَنشُدُك اللهَ أن تغرىَ بك السُّفهاءَ ، وتنقض عزائم الحكماء[٨] .

وما أدرى – حفظك الله – بأىِّ الأمرين أنت أعظم إثماً ، وفى أيِّهما أنت أفحش ظلماً : أبتعرُّضك للعوامّ ، أمْ بإفسادك حكم الخواصّ[٩] .

وبعد فما يحوجك إلى هذا ، وما يَدْعوك إليه وأشباهُك من القصار كثير ، ومَن ينصرك منهم غير قليل[١٠] .

٣ – فصل

وقلتَ : ولولا فضيلة العَرْض على الطول لمَا وصف الله تعالى وعزَّ ، الجنَّةَ بالعَرْض دون الطُّول ، حيثُ يقول : ﴿ وجَنَّةٍ عَرْضُها كعرض السَّماء والأَرض[١١] ﴾ . فهذا برهانك الواضح[١٢] .

---

(١) ب : « يتقنه العيان » م ، ط : « تيقنه العيان » ، صوابه من مج ، ش .
(٢) ب ، م : « واستشهارك » ، صوابه فى ط ، مج ، ش .
(٣) ما عدا مج ، ش : « لما تذكره الأذهان » ، تحريف .
(٤) مج ، ش : « متعرض » ، والوجه ما فى سائر النسخ ، والمراد لا يمكن تصديقه .
(٥) ما عدا مج ، ش : « لا يغويه هذا القول » .
(٦) ب ، م : « قضاء لعزم » ط : « قضاء العزم » ، والوجه ما أثبت من مج ، ش .
(٧) مج ، ش : « بعداوة المتكلف » .
(٨) ش : « الحلماء » .
(٩) ما عدا مج ، ش : « بتعرضك للعوام أو بإفسادك حكم الخواص » .
(١٠) ما عدا مج ، ش : « غير دذليل » .
(١١) من الآية ٢١ من سورة الحديد ، وأولها : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم » . وفى ب فقط : « عرضها السموات والأرض » وهى من الآية ١٣٣ من آل عمران ، وأولها : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » .
(١٢) مج ، ش : « فهذه براهينك الواضحة ، ودلائلك الظاهرة » .

ولو لم يكن فيك من الرضا والتسليم، ومن القناعة والإخلاص إلّا أنّك تَرَى[١] ما عند الله خيراً لك مما عند الناس، وأن الطُّول الخفيَّ أحبُّ إليك من الطُّول الظاهر، لكانَ[٢] في ذلك ما يقضى لك بالإنصاف، ويحكُمُ لك بالتوفيق.

وأنا – أبقاك الله – أعشَقُ إنصافك كما تُعْشَق المرأةُ الحسناء[٣]، وأتعلَّم خضوعَك للحقّ كما أتعلم التفقُّه في الدين[٤]. ولرُبَّما ظننتُ أنَّ جَورَك إنصافُ قومٍ آخرين، وأن تَعَقُّدك سَماحُ رجال منصفين[٥].

وما أَظنُّك صرتَ إلى معارضة الحجّة بالشبهة، ومقابلة الاختيار بالاضطرار، واليقينِ بالشَّكِّ، واليقظة بالحُلْم إلّا لِلذى[٦] خُصِصتَ به من إيثار الحقّ، وأُلهمتَهُ من فضيلة الإنصاف، حتَّى صرتَ أحوجَ ما تكون إلى الإنكار أذعَنَ ما تكونُ بالإقرار؛ وأشدَّ ما تكون إلى الحيلة فقراً أشدَّ ما تكون للحجَّة طلباً. غير أنَّ ذلك بطَرْفٍ ساكن، وصوتٍ خاضع، وقلبٍ جامع، وجأْش رابطٍ[٧]، ونيّةٍ جَسُور، وإرادة تامَّة، مع غفلةِ كريم، وفِطنة عليم. إن انقَطَع خصمُك تغافلت، وإن خَرِق[٨]

---

(١) ب، م: «أنك ترى» بإسقاط «إلا».

(٢) ب، م، ط: «لكن»، تحريف.

(٣) مج، ش: «أتعشق إنصافك كما أتعشق المرأة الحسناء».

(٤) ب فقط: «الفقه في الدين».

(٥) ب، م: «وأن يعقدك سماع رجال منصفين» ط: «وأنك يقنعك سماع رجال منصفين»، والوجه ما أثبت من مج، ش.

(٦) ب، م: «إلا الذى».

(٧) ب فقط: «راطب». والجأش: النفس أو القلب، والرابط: الثابت الذى لا يرتاع.

(٨) خرق يخرق خرقاً: حمق ولم يرفق. مج، ش: «وإن خرف»، تحريف.

تَرَفَّقت[١] ، غير منخوبٍ ولا متشعِّب[٢] ، ولا مَدخولٍ ولا مشترَك ، ولا ناقص النَّفس ، ولا واهن العَزْم ، ولا حسودٍ ولا منافس ، ولا مُغالبٍ ولا مُعاقِب[٣] . تَفُلُّ الحَزَّ[٤] وتُصيب المَفْصِل ، وتقرِّب البعيدَ وتُظهر الخفيّ ، وتُميِّز الملتبس[٥] وتلخِّص المشكل ، وتعطِي المعنى حقَّه من اللفظ كما تُعطِي اللفظَ حظَّه من المعنى[٦] . وتُحِبُّ المعنى إذا كان حيًّا يلوح ، وظاهراً يَصيح[٧] ، وتُبغضه مستهلَكاً بالتعقيد ، ومستوراً بالتغْريب[٨] .

وتزعم أن شر الألفاظ ما غرَّق[٩] المعانيَ وأخفاها ، وسترها[١٠] وعمّاها ، وإن راقت سَمع الغُمْر ، واستمالت قلبَ الرِّيِّض[١١] .

أَعجب الألفاظ عندك مارقَّ وعذُب ، وخفَّ وسهُل ، وكان موقوفاً على معناه ، ومقصوراً عليه دون ما سواه . لا فاضلٌ ولا مقصِّر ، ولا مشترَك ولا مستَغْلِق ، قد جمع خِصال البلاغة[١٢] ، واستوفى خلال المعرفة[١٣] .

---

(١) ما عدا مج ، ش : « توقفت » ، تحريف .

(٢) مج ، ش : « ولا متشغب » بالغين المعجمة .

(٣) ب ، م : « ولا متغالب ولا معاقب » ، ط : « ولا متغالب ولا متعاقب » ، وصوابهما في مج ، ش .

(٤) الحز : « أراد به موضع الحز ، أي القطع . الفل : الكسر والضرب . ط : « يفل الحد » ، مج ، ش : « تقل الحز » ، والوجه ما أثبت . وانظر البيان ١ : ١٤٧ . وقد ورد هذا الفعل « تفل » وما بعده من الأفعال في ب ، م ، ط بياء الغائب : والوجه أن تكون كلها بتاء الخطاب كما أثبت من مج ، ش .

(٥) ب ، فقط : « الملبس » .

(٦) مج ، ش : « حقه من المعنى » .

(٧) م : « يصبح » ، صوابه في سائر النسخ .

(٨) ب : « بالتعزيب » ط : « بالتقريب » ، صوابه من سائر النسخ .

(٩) ط فقط : « ما أغرق » .

(١٠) ط فقط : « وأسرها » .

(١١) الريض : الذي بدئ في رياضته . وانظر البيان ١ : ٢٠٣ . ط : « المريض » تحريف .

(١٢) ما عدا مج ، ش : « وقد جمع خصائك البلاغة » ، والوجه ما أثبت منهما .

(١٣) ب فقط : « خلاك المعرفة » .

فإذا كان الكلامُ على هذه الصِّفة ، وأُلِّف على هذه الشَّريطة ، لم يكن اللفظ أَسرعَ إلى السَّمع من المعنى إلى القلب ، وصار السامع كالقائل ، والمتعلِّم كالمعلِّم ، وخفت المؤْنة واستغنى عن الفِكرة ، وماتت الشُّبهةُ وظهرت الحُجَّة ، واستبدلوا بالخلاف وِفاقاً ، وبالمجاذبة موادعة ، وتهنَّئُوا بالعلم[(١)] ، وتقنَّعوا ببَرْدِ اليقين ، واطمأَنُّوا بثَلَج الصُّدور ، وبَانَ المنصِفُ من المعانِد ، وتميَّز الناقصُ من الوافر ، وذُلَّ الخطِلِ[(٢)] وعِزّ المحصِّل ، وبَدَتْ عَورةُ المُبْطل ، وظهرت براءَة المُحِقّ .

وقلت : والنَّاس وإنْ قالوا فى الحَسَن : كأَنَّه طاقَةُ رَيحان ، أَو خُوط آس[(٣)] ؛ وكأَنَّه قَضِيب خَيزُران ، وكأَنَّه غُصْن بان ، وكأَنَّه رمحٌ رُدَينِىٌّ ، وكأَنَّه صفيحةُ يَمانٍ[(٤)] ، وكأَنَّه سيفٌ هُندُوانىّ ، وكأَنَّه جانٌّ ، وكأَنَّه جَدْل عنان[(٥)] ؛ فقد قالوا : كأَنَّه المُشْترِى ، وكأَنَّ وجهَه دينارٌ هِرَقلىّ . وما هو إلَّا البحر ، وما هو إلَّا الغيث . وكأَنَّه الشمس ، وكأَنَّها دارة القمر[(٦)] ، وكأَنَّها الزُّهَرة ، وكأَنَّها دُرَّة ، وكأَنَّها غمامة ، وكأَنَّها مهاة[(٧)] .

---

(١) ما عدا مج ، ش : « ورهبوا بالعلم » .

(٢) الخطل : العجل الأحمق . ب ، م : « ودل الخطل » بالدال المهملة ، صوابه فى سائر النسخ .

(٣) الخوط ، بالضم : الغصن الناعم ، أو الغصن لسنة . والآس : ضرب من الرياحين ، وخضرته دائمة أبداً ويسمو حتى يكون شجراً عظاماً ، الواحدة آسة .. مج ، ش ، : « وكأنه خوط بان » .

(٤) الصفيحة : وجه كل شىء عريض ، كوجه السيف أو اللوح أو الحجر . واليمانى : السيف المنسوب إلى اليمن . ب ،م، ط : « صحيفة يمان » تحريف . وفى مج ، ش : « صفيحة يمانية » .

(٥) يعنى ما جدل من الأعنة ، سماه بالمصدر . وانظر الحيوان ٦ : ٢٦٢ ورسائل الجاحظ ٢ : ١٢١ . ما عدا مج ، ش : « جدل عيان » تحريف .

(٦) ب ، م : « وكأنه دارة القمر » .

(٧) ط فقط : « وكأنه الزهرة » ، وكأنه غمامة ، وكأنه مهاة » .

وقد نراهم[١] وصفوا المستدير والعريضَ بأَكثرَ مِمَّا وصَفُوا القضيفَ الطَّويل[٢] .

وقلت : ووجدنا الأَفلاكَ وما فيها ، والأَرضَ وما عليها ، على التَّدوير دون التطويل ، كذلك[٣] الورَق والحَبُّ ، والثَّمَر والشجر .

وقلت : والرُّمح وإن طال[٤] فإن التَّدوير عليه أَغلب[٥] ؛ لأَنَّ التَّدوير قائم فيه مُوصَّلًا ومُفصَّلا[٦] ، والطُّولَ لا يوجد فيه إلَّا مُوصَّلا[٧] . وكذلك الإنسان وجميع الحيوان .

وقلت : ولا يوجَد التربيع إلَّا فى المصنوع دون المخلوق ، وفيما أُكرِهَ على تركيبه دون ما خُلِّيَ وسَوْمَ طبيعته[٨] .

وعلى أَنَّ كل مُرَبَّع[٩] ففى جوفه مدوَّر ، فقد بان المدوّر بفضله[١٠] ، وشارك المطوَّل فى حصّته .

ومن العجب أَنَّك تزعُم أَنَّكَ طويلٌ فى الحقيقة ثم تحتجُّ للعرَض والاستدارة ، وقد أَضْربتَ عمَّا عند الله صفحاً[١١] ، ولَهِجتَ بما عِند النَّاس .

(١) ب فقط : « وقد نراه » .
(٢) القضافة : قلة اللحم ودقة العظم . م ، ط : « القضيب » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٣) ط فقط : « وكذلك » .
(٤) ما عدا مج ، ش : « والريح وإن طالت » ، تحريف .
(٥) ما عدا مج ، ش : « عليها أغلب » .
(٦) ما عدا مج ، ش : « فيها » فى هذا الموضع وتاليه ، تحريف . وفى مج ، ش : « موصولا ومفصلا » .
(٧) مج ، ش : « إلا موصولا » .
(٨) سوم طبيعته ، بالفتح ، أى وفق طبيعته وهواها . ط فقط : « رسوم طبيعته » ، تحريف . وقد ضبطت « سوم » فى ش بضم السين وتشديد الواو المكسورة سهواً .
(٩) ما عدا مج ، ش : « كل مرتفع » ، تحريف .
(١٠) م فقط : « بفصله » بالصاد المهملة .
(١١) يقال ضرب عنه صفحاً ، إذا أعرض ، كأنه ولاه صفحة وجهه . ب : « وقد اضطربت » ، م ، ط : « وقد أضربت » ، صوابه فى مج ، ش .

فأَمَّا حَوَر العين فقد انفردت بحسنه ، وذهبتَ ببهجته ومِلحه ، إلَّا ما أَبانَكَ الله تعالى به من الشُّكْلة[1] فإنَّها لا تكون فى اللِّئام ، ولا تُفارِق الكرام[2] .

وأَمَّا سواد الناظر وحُسن المحَاجر ، وهَدَبُ الأَشفار[3] ، ورقَّة حواشى الأَجفان ، فعلى أَصل عُنصُرِك ومجارى أَعراقك[4] .

وأَمَّا إدراكك الشخصَ البَعيدَ ، وقراءتُك الكتابَ الدَّقيقَ ونَقْشَ الخاتَم قبل الطَّابَع ، وفهم المُشكِل قبل التأَمُّل ، مع وَهْن الكَبْرَة وتقادُم الميلاد ، ومع تخوُّن الأَيَّام وتنقُّص الأَزمان ، فمن تُوتِيا الهند ، ولترك الجماع[5] ، ومن الحِمْية الشَّديدة وطول استقبال الخُضْرة[6] ، فأَنتَ يا عمِّ حين تُصلِح ما أَفْسده الدهر ، وتسترجع ما أَخذَتْه الأَيَّام ، لكما قال الشاعر :

عجوزٌ تُرَجِّى أَنْ تكونَ فَتيَّةً
وقد لحِبَ الجنبانِ[7] واحدَوْدَبَ الظَّهْرُ

تدسُّ إلى العطَّار سِلعةَ أَهلِهـــا
ولن يُصلحَ العطَّارُ ما أَفسَدَ الدَّهرُ[8]

---

(١) الشكلة ، بالضم : كهيئة الحمرة تكون فى بياض العين . ب ، م : « المشكلة » ط : « المشاكلة » ، صوابهما فى مج ، ش .

(٢) أنشد الجاحظ لهذا شاهداً فى التربيع والتدوير ٢٢ والحيوان ٣ : ٢٣٠ / ٥ : ٣٣٠ :

ولا عيب فيها غير شكلة عينها كذلك عتاق الطير شكل عيونها

(٣) الهدب فى أشفار العين : طول الشعر النابت على حروفها .

(٤) ما عدا مج ، ش : « وجائز أعراقك » .

(٥) ما عدا مج ، ش : « فمن توتياء الهند وترك الجماع » .

(٦) م ، ط : « الحضرة » بالحاء المهملة ، تحريف .

(٧) نسبهما المبرد فى الكامل ١٧٦ إلى شيخ من الأعراب . وذكر أبو الحسن الأخفش فى حواشيه على الكامل بعدهما بيتين من القصيدة نسبا فى ديوان جران العود « إلى الرحال بن عزرة ابن المختار . وفى عيون الأخبار ٤ : ٤٤ : « كانت لرجل من الأعراب امرأة عجوزة ، وكانت تشترى العطر بالخبز ، فقال » . وأنشد البيتين . وانظر رسائل الجاحظ ٢ : ١٢٢ . والتمثيل والمحاضرة ٢١٩ . ط : « وقد يبس الجنبان » .

(٨) الكلام بعده إلى « مريضاً موئساً » ساقط من ب .

وكيف أَطمع[1] فى نزوعك[2] عن اللَّجاج وقد مَنَعْتنيه قبله[3] . وكيف أَرجو إقرارك جهراً وقد أَبيته سرًّا[4] ، وكيف تجود[5] به صحيحاً مطمعاً وقد بَخِلتَ به مريضاً مؤيساً .

وكيف يرجو خَيرك من رآك تُطاوِل أَبا جعفرٍ وتُحاسِنُه[6] ، وتنافره وتراهنه ، ثمّ لاتفعلُ ذلك[7] إلَّا فى المحافل العِظام ، وبحضرة كبار الحُكَّام ، ثم تستغرِبُ ضحِكاً من طمعِه فيك[8] ، وتعجِّب الناس من مجاراته لك[9] .

وأَشهد لك بعد هذا أَنك ستحاسِنُ[10] عَمْراً الجاحظ وتُعاقِله[11] ، ثم تظارِفُه وتُطاوِله[12] ، وتتغنَّى[13] مع مُخارق ، وتنكر فضل زَبْزَب[14] ، وتستجهل النَّظَّام ، وتستغبِى[15] قيس بن زهير ، وتستخفُّ

(١) م ، ط : « يطمع » .
(٢) م : « تروعك » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٣) كذا فى مج ، ش . وفى م : « وقد سعسه قبل المجاج » وفى ط : « وقد سقيته قبل المجاج » .
(٤) م ، ب : « وقد أتيته سراً » ، صوابه فى مج ، ش .
(٥) م فقط : « يجود » تحريف .
(٦) ب ، م : « وتحاشنه » ، وفى سائر النسخ : « تحاشنه » ، والوجه ما أثبت ، وهو مفاعلة من الحسن .
(٧) كلمة « ثم » من مج ، ش فقط . ب : « لا تعقل » م : « لا يعقل » ، صوابهما فى سائر النسخ .
(٨) ب فقط : « من طعمة فيك » .
(٩) ما عدا مج ، ش : « من محاولته لك » ، تحريف .
(١٠) ب ، م : « ستحاشن » ، وفى سائر النسخ : « ستخاشن » ، والوجه ما أثبت .
(١١) أراد تباريه فى العقل . ما عدا مج ، ش : « وتغافله » .
(١٢) مفاعلة من الظرف والطول . ماعدا مج ، ش : « ثم تطارقه » وفى م : « ثم تطارقه وتتطاوله » .
(١٣) مج ، ش : « وتغنى » .
(١٤) ذكره الجاحظ فى رسالة الجد والهزل ، مقروناً بالمهارة فى الشطرنج . رسائل الجاحظ ١ : ٢٦٦ . وفى مج ، ش : « فضل زرزور »
(١٥) ب ، م : « وتستغنى » ، صوابه فى سائر النسخ .

الأَحنف بن قيس[١] وتبارزُ علىّ بن أَبى طالب ، ثم تخرج من حدِّ الغَلَبة إلى حدِّ المراء[٢] ، ومن حد الأَحياء[٣] إلى حُدود الموْتَى .

هذا وليس لك مساعدٌ ، ولا معك شاهدٌ واحد ، ولا رأَيت أَحداً يقِفُ فى الحكم عليك[٤] ، أَوْ ينتظر تحقيقَ دعواك ؛ ولا رأَيتُ منكِراً يُخْليك من التأْنيب ، ولا مؤنِّباً يُخْليك من الوعيد ، ولا مُوعِداً يُخْليك مِن الإِيقاع ، ولا مُوقِعاً يَرْثِى لك ، ولا شافعاً يشفع فيك .

يا عمِّ ، لِمَ تحمُلنا على الصِّدق ؟ ولِمَ تُجرِّعُنا مرارةَ الحق ؟ ولِمَ تُعرِّضنا لأَداء الواجب ؟ ولِمَ تَستكثر من الشُّهود عليك ؟ ولِمَ تَحمل الإِخوانَ على خلاف محبَّتهم فيك ؟

اجعلْ بدلَ ما تَجْنِى على نفسك أَن تجنِىَ على عدوِّك ، وبدلَما يَضطرُّ الناسَ أَن يصدِّقوا فيك أَن تَضطرَّهم إلى أَن يُمسكوا عنك .

ولا بدَّ — يرحَمُك اللهُ — لمن فاتَه الطُّول من أَن يُلقِىَ بيدِه[٥] ، إنَّما يقولُ[٦] خلافَ ما يجِدُهُ فى نفسه . فوالله إنك لجيِّدُ الهامة[٧] ، وفى ذلك خَلَفٌ لحُسْن القامة[٨] .

وإنَّكَ لحسَنُ الخطِّ ، وفى ذلك عوضٌ[٩] من حُسْن اللَّفظ . وإنَّك

---

(١) وكان الأحنف معروفاً بالحلم .

(٢) المراء والمماراة : المخالفة والجدال .

(٣) ب ، م : « العنك »، ط : « الفتك » ، وأثبت ما فى مج ، ش .

(٤) ما عدا مج ، ش : « اتفق فى الحكم عليك » :

(٥) مج ، ش : « من أن يلقى بيده إلى التهلكة » .

(٦) مج ، ش : « أو أن يقول » .

(٧) ب فقط : « لجميد الهامة » ، تحريف .

(٨) مج ، ش : « خلف من حسن القامة » .

(٩) ب ، م : « وإنك لعوض » ، تحريف . ط : « وذلك عوض » . وأثبت مافى مج ، وش .

لتَجِدُ مقالاً[١] ، وإنَّك لتُعدُّ خصالا . فقُلْ معروفاً فإنَّا من أعوانك ، واقتصِدْ فإنَّا من أنصارك . وهاتِ فإنَّك لو أَسرفْتَ لقلْنا قد اقتصدت ، ولو جُرْتَ لقلنا قد اهتديت[٢] ، ولكنك تجيءُ بشيءٍ ﴿ تَكاد السَّموات يتفطَّرْنَ منه وتَنْشقُّ الأَرضُ وتَخِرُّ الجِبالُ هَدًّا[٣] ﴾ .

لو غششناك لساعدناك ، ولو نافقناك لأَغرَيْنَاك .

٣ – فصل

وقد كنتُ – أطال الله بقاءَكَ – فى الطُّول زاهداً ، وعن القصر راغباً[٤] ، وكنتُ أَمدح المربوعَ وأَحمد الاعتدال . ولا واللهِ لن يقوم خيرُ الاعتدالِ بشَرِّ قِصَر العُمْر ، ولا جمالُ المربوع بما يَفُوت من منفعةِ العلم .

فأَمَّا اليومَ فياليتَنى[٥] كنتُ أَقصَرَ منك وأَضْوَى ، وأَقل منك وأَقما[٦] .

وليس دُعائى لك بطول البقاءِ طلباً للزيادة[٧] ، لكن[٨] على جهة التعبُّد والاستكانة ، فإذا سمعتنى أَقول أَطال الله بَقاءَك فهذا المعنى أُريد ، وإذا رأَيتنى أَقول لا أَخلَى الله مكانَكَ فإلى هذا المعنى أَذهب .

---

(١) ما عدا مج ، ش : « وإنا لنجد مقالا » .

(٢) جار عن الطريق يجور ، إذا مال وضل . ب ، م : « حرت » بالحاء المهملة ، صوابه فى سائر النسخ .

(٣) الآية ٩٢ من سورة مريم .

(٤) ب ، م : « وعن القصور راغباً » .

(٥) ب ، م : « فبالشيء » ط : « بما فليتنى »، صوابهما فى مج ، ش .

(٦) أقما : تسهيل أقمأ من القماءة ، وهى صغر الجسم . وكتبت فى م ، ط : « أقمى » ، وهو مذهب جائز فى الرسم . وفى مج ، ش : « وأوهى » .

(٧) م فقط : « للزيارة » . وكلمة « طلباً » ساقطة مما عدا مج ، ش .

(٨) ب : « لا لكن » م ، ط : « لكن » ، وأثبت ما فى مج ، ش .

وقد زعموا ، جُعلت فِداءَك، أَنَّ كلَّ ما طال عمرُه من الحيوان زائدٌ فى شدَّة الأَركان ، وفى طُول العمر وصِحَّة الأَبدان ، كالوَرَشان والضِّباب وحُمُر الوَحْش ، وكلَحمِ النَّسر لمن أَكلَه ، ولحمِ الحيَّة لمن استحلَّه فإذا كان هذا حقًّا[1] وكان نافعاً ، وكنتَ له مستعملًا وفيه متقدِّماً ، وتراه رأْياً ، أَخذْنا منه بنصيب ، وتعلَّقنا منه بسبب .

وفيك أَمران غريبان ، وشاهدانِ بديعان : جواز الكَونِ والفسادِ عليك ، وتعاوُرُ النُّقصان والزِّيادة إيَّاك. وجوهرك فلكىٌّ وتركيبُك أَرْضىّ . فمنك طول البقاء ، ومَعَك دليلُ الفناء . وأَنت علَّةٌ للمتضادّ[2] وسببٌ للمتنافى . وما ظنُّك بخلْقٍ لا تضرُّه الإحالة ، ولا يُفسِده التَّناقض .

٤ – فصــل

جُعلتُ فداك ، قد شاهدتَ الإنسَ منذ خلقوا ، ورأَيتَ الجنَّ قبل أَن يُحْجَبوا ، ووجدتَ الأَشياءَ بنفسك خالصةً وممزوجة ، وأَغفالًا وموسومة[3] ، وسالمةً ومدخولة ، فما يخفى[4] عليك الحجَّةُ من الشُّبهة ، ولا السَّقَم من الصِّحة ، ولا المُمكنُ من الممتنِع ، ولا المستغلِقُ من المُبْهَم ، ولا النَّادرُ من البَديع ، ولا شِبْهُ الدَّليل من الدَّليل .

وعَرَفتَ علامةَ الثِّقة من علامة الرِّيبة ، حتَّى صارت الأَقسامُ عندك محصورةً ، والحدودُ محفوظة ، والطَّبقاتُ معلومة ، والدُّنيا بحذافيرها

---

(١) مج ، ش : « هذا الأمر حقاً » .

(٢) م فقط : « للمتضارب » .

(٣) ما عدا مج ، ش : « وأغفالا موسومة »، تحريف . فإن الأغفال مالاسمة عليها ، والموسومة : ذوات السمات ، وهى العلامات .

(٤) ط فقط : « فما تخفى » بالتاء .

مصوّرة . ووجدت السبب كما وجدتَ المسبَّب ، وعرفت الاعتلال كما عرفت الاحتجاج ، وشاهدت العلل وهى تُولَد ، والأَسبابَ وهى تُصنَع ، فعرفتَ المصنوعَ من المخلوق ، والحقيقةَ من التَّمويه .

٥ – فصل

إنَّك[١] – جُعِلتُ فداكَ – كما أَنَّك لم تكن فكنت ، فكذا لا تكون[٢] بعد أَن كنتَ . وكما زدتَ فى الدَّهر الطويل فكذا تنقُص فى الدَّهر الطويل . وكلُّ طويل فهو قصير ، وكل متناهٍ فهو قليل . فإِيَّاك أَنْ تظنَّ أَنَّك قديمٌ فتكفُرَ ، وإِيَّاك أَن تنكر أَنَّك مُحْدَث فتشرِك ؛ فإِنَّ للشَّيطان فى مثلك أَطماعاً لا يصيبُها فى سِواك ، ويجد فيك عِللًا لا يجدُها فى غيرك[٣] .

٦ – فصل

وقد علمتَ أَنَّ الخبرَ إِذا صحَّ أَصلُه وكان للنَّاسِ علَّةٌ فى نَشْء ، كان فى الدلالة على الحقِّ كالعِيان ، وفى الشِّفاءِ[٤] كالسَّماع .

على أَنَّ الخبر لا يُعرفُ به تكيُّف الأُمور[٥] ولكن تُعرف به جُمَلُ الأَشياء ، إِلَّا خَبَرَك فإِنَّك لا تحتاج إلى إِشارة ولا إلى علَّة ، ولا إلى

---

(١) ما عدا مج ، ش : « أنا » ، تحريف .
(٢) ب فقط : « لا يكون » ، تحريف .
(٣) ما عدا مج ، ش : « غليلا لا يجدها فى غيرك » ، تحريف .
(٤) ب : « فى الشفا » ط : « فى الشفاه » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .
(٥) ب ، م : « فكيف »، صوابه فى ط ، مج ، ش وهامش م .

تفسير[١] حتَّى يقوم خَبرُك فى الشفاءِ[٢] وفى كيفية الشَّىءِ[٣] مقامَ العِيان .

وقد كنت أَتعجَّب من محمد بن عبد الملك[٤] وأَقول : ما يقولون فى رجلٍ لم يقل قطُّ بعد انقضاءِ خصومته وذَهابِ خَصْمه : لو كنتُ قلتُ كذا[٥] كان أَفضل ، أَو كنتُ لم أَقلْ كذا كان أَمثل ! فما بال عَفْوِه أَكثَرَ من جَهْدكم ، وبديهتِه أَبْعَدَ من أَقصى فكرتكم ؟ !

فلمَّا رأَيتُك علمتُ أَنَّك عذابٌ صبَّه الله تعالى على كلِّ رفيع ، ورحمةٌ أَنشأَها الله لكلِّ وضيع .

فخبِّرنى عَمَّا جرى[٦] بينك وبين هِرْمِس فى طبيعة الفَلَك ، وعن سماعك مِن أَفلاطون ، ومادار بينك وبين أَرسطاطاليس[٧] ، وأَىَّ نوعٍ اعتقدتَ وأَىَّ شىءٍ اخترت ؟ فقد أَبتْ نفسى غَيْرك ، وأَبَتْ أَن تتشفَّى[٨] إلَّا بخبرك .

ولولا أَنِّى كلِفٌ برواية الأَقاويل ، ومُغرَمٌ بمعرفة الاختلاف وأَنِّى لا أَستجيزُ[٩] مسأَلتَك عن كلِّ شىءٍ ، وابتذالَك فى كلِّ أَمر ، لما سمعتُ من أَحدٍ سواك ، ولما انقطعتُ إلى أَحدٍ غيرِك .

---

(١) ما عدا مج ، ش : « إلى نفس » .
(٢) ب : « فى الشفا » ، ط : « فى الشفاه » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .
(٣) م فقط : « وفى كيفية إقامة الشىء » .
(٤) ما عدا مج ، ش : « من عبد الملك » .
(٥) ما عدا مج ، ش : « لو قلت كذا » .
(٦) ما عدا مج ، ش : « فخبرنى ما جرى » .
(٧) ب فقط : « أرسطوطيلس » .
(٨) ب : « وأنت أن تشتنى » م : « وآيت أن تشتنى » ، صوابهما فى ط ، مج ، ش .
(٩) ب : « وأنى لأستجيز » ط : « وأنى أستجيز » ، صوابهما فى م ، مج ، ش .

اعلمْ ، جُعِلتُ فِداك ، أنّى لم أُرِد بمزاحك إلّا أنْ أُضحِكَ سِنَّك ، ولا كانت غايتى فيك إلّا لأَنْفُقَ عندك . وقد كنتُ خفتُ أن لا أكونَ وقفْت على حدِّهِ(١) ، وأشفقتُ من المجاوزة لقدره .

والمزاح بابٌ ليس المخوفُ فيه التقصير ، ولا يكون الخطأُ فيه من جهة النُّقصان . وهو بابٌ متى فتَحه فاتحٌ ، وطرَّق له مطرِّق(٢) ، ولم يملك مِن سدِّه [مِثْلَ(٣)] الذى يملك مِن فَتْحه ، ولم يَخرُج بقدرِ ما كان قدَّم من نفسه(٤) ، لأَنَّه بابٌ أَصلُ بنائِه على الخطأ ، ولا يخالطه من الأَخلاق إلّا ما سَخُف . ومِنْ شأْنِه التزيد ، وأَن يكون صاحبُه قليل التحفُّظ .

ولم نَرَ شيئاً أَبعدَ من شيءٍ(٥) ولا أَطولَ له صُحبة(٦) ولاأَشدَّ خلافاً ولا أَكثر له خُلْطةً ، من الجِدِّ والمُزَاح ، والمناظرة [والمراء(٧)] .

فإن كنتُ لم أَقصِّر عن الغاية ، ولم أَتجاوزْ حدَّ النهاية فَبِمَا أَعرفُ من يُمْن مكالمتك ، وبَرَكة مُكاتَبتِك ، ومِنْ حسن تقويمك(٨) وجودة تثقيفك . وإنْ كنتُ أَخطأْتُ الطَّريق ، وجاوزتُ المقدار ، فما كان ذلك عن جهلٍ بفضلك ، ولا إنكارٍ لحقِّك ، ولكنَّ حدودَ الأَشياءِ إذا خفيتْ ، ومقاديرَها إذا أَشكلَتْ ، ولم يكنْ مع النَّاظر فيها مثلُ

(١) ما عدا مج ، ش : « وقعت على حده » .
(٢) م : « أو طرق له مطرق » .
(٣) التكملة من مج ، ش .
(٤) مج ، ش : « فى نفسه » .
(٥) ما عدا مج ، ش : « من شر » ، تحريف .
(٦) ما عدا مج ، ش : « ولا أبعد له صحبة » ، ولكن فى م : « صحة » .
(٧) التكملة من مج ، ش .
(٨) ب ، ط : « تقويتك » ، صوابه فى سائر النسخ .

تمامك ، ولا مع المتكلِّف لها[1] مثلُ كمالك ، دخَل عليه من الخَلَل بقدر عَجْزه ، وسَلِم منه بقدر نَفَاذِه . نَعَمْ ولو كان من العلماءِ الموصوفين ، ومن الأُدباءِ المذكورين .

و[من[2]] المزاح — جعلت فداك — باب مَكْر وجنسُ خُدَع[3] يتَّكل المرءُ[4] فى إساءته إلى جليسه ، واستماعِه لصديقه على أَن يقول «مَزَحْتُ» ، وعلى أَن يقول عند المحاكمة : « عَبِثْتُ[5] » ، وعلى أَن يقول : مَن يغضَبُ من المُزاح إلَّا كزُّ الخلق ؟ ! ومن يَرغب عن المفاكَهة إلَّا ضيِّق العَطَن ؟ !

وبعد فمتى أَعدَّتِ النفسُ عذراً كانت إلى القبيح أَسرع ، ومتى لم تُعدَّه[6] كانت عنه أَبطأَ .

ومن أَسباب الغلطِ فيه ومن دواعى الخطأ إليه أَن كثيراً ممن تُمازحه[7] يضحك وإن كنت أَغضبتَه ، ولا يقطع مزاحكَ وإن كنت قد أَوجعته . فإِنْ حَقَد ففى الحقد الدَّاء ، وإِنْ عَجِلَ فذلك البلاء .

فإن قلت : فما أَدخلك فى شيءٍ هذه سَبيلُه[8] ، وهكذا جوهرُه وطريقُه ؟ قلت : لأَنى حين أَمنتُ عقابَ الإِساءة ، ووثقت بثوابِ

---

(١) ط فقط : « بها » .

(٢) التكملة من م ، مج ، ش .

(٣) ب : « باب مكدر جنس خدع » م ، ط : « نكد وجنس خدع » ، صوابهما فى مج ، ش .

(٤) ب فقط : « للمرء » ، تحريف .

(٥) مج ، ش : « لعبت » .

(٦) ماعدا مج ، ش : « ومتى لم تجده » .

(٧) ب : « يمازحه » ، تحريف .

(٨) السبيل : الطريق ، مذكر ويؤنث . وفى الكتاب العزيز : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة » . م فقط : « هذا سبيله » .

الإحسان ، وعلمتَ أنّك لا تقْضِى إلا على العَمْد[١] ، ولا تعذِّب[٢] إلى على القَصْد ، صار[٣] الأَمن سائقاً ، والأَملُ قائداً .

وأَىُّ عملٍ أَردُّ ، وأَىّ مَتْجرٍ أَربَحُ ممَّا جَمَع السلامةَ والغنيمة ، والأَمْنَ والمثوبة .

ولو كان هذا ذنباً كنت شريكى فيه ، ولو كان تقصيراً لكنتَ سببى إليه ، لأَنَّ دوام التَّغافُلِ شبيهٌ بالإهمال ، وتَرْكَ التعريف يورث الإغفال ، والعَفوَ الشائِعَ والبِشْرَ الدَائمَ يُؤْمنان من المكافأَة[٤] ، ويَذْهَبان بالتحفُّظ ؛ ولذلك قال عُيينة بن حِصْنٍ لعثمانَ بنِ عفَّان : «عُمَر كان خيراً لى منك ، أَرْهبنى[٥] فاتَّقانى ، وأَعطانى فأَغنانى» .

فإن كنت اجترأْت عليك فلم أَجترئْ[٦] عليك إلَّا بك[٧] ؛ وإن كنتُ أَخطأْتُ فلم أُخْطِئْ عليك[٨] إلَّا لك ؛ لأَنَّ حُسْنَ الظنِّ بك والثِّقَةَ بِعفوِك[٩] سببٌ إلى قلة التحفُّظ[١٠] ، وداعيةٌ إلى ترك التحرزُ[١١] .

---

(١) م ، ط : «لا تقتص» ب : «لا تقض» صوابهما فى مج ، ش. وفى ط : «إلا على العهد» ، تحريف .

(٢) ما عدا مج ، ش : «ولا تقرب» ، تحريف .

(٣) ب : «سار» ط : «ترى» ، صوابهما فى سائر النسخ .

(٤) ب : «المكافات» ، تحريف .

(٥) ب : «رهى» م ، ط : «رهبنى» ، صوابهما فى مج ، ش . وفى المعارف لابن قتيبة ١٣٢ : «فإنه أعطانا فأغنانا ، وأخشانا فاتقانا» . وفى أسد الغابة ٢٠٥٥ فى ترجمة عينية : «وتزوج عثمان بن عفان ابنته ، فدخل عليه يوماً فأغلظ له ، فقال له عثمان : لو كان عمر ما أقدمت عليه بهذا . فقال : إن عمر أعطانا فأغنانا ، وأخشانا فاتقانا» .

(٦) ب فقط : «فلم أجتر» .

(٧) ما عدا مج ، ش : «إلا به» .

(٨) عليك ، ليست فى مج ، ش . وفى م : «فلم أخط» وفى ط : «فلم أخطأ» وكلاهما صحيح . يقال خطىء يخطأ ، وأخطأ يخطىُ ، ويسهل المضارع منهما فيجزم بحذف الألف أو الياء.

(٩) ب فقط : «والشفقة» ، تحريف .

(١٠) ط فقط : «قلة فى التحفظ» .

(١١) م ، ط : «التجوز» .

وبعدُ فمَنْ وَهَبَ الكبيرَ كيف يقِف عندَ الصغير[١] ، ومن لَمْ يزل يعفو عن العمد[٢] كيف يعاقب على السَّهو ؟ !

ولو كان عِظَمُ قَدْرى هو الذى عظَّم ذنبى لكان عِظَمُ قدرى هو الذى شَفَع لى . ولو استحقَقْتُ عقابَك بإقدامى عليك مع خوفِى لك[٣] لاستوجَبْتُ[٤] عفوَك عن إقدامى عليك بحسن ظنِّى بك[٥] .

على أَنِّى متى أَوجبْتُ لك العفو فقد[٦] أَوجبتُ لك الفضل ، ومتى أَضَفْت إليك العِقابَ فقد وصفتُك بالإِنصاف . ولا أَعلم حالَ الفَضْل إِلَّا أَشرفَ من حال العدل ؛ والحالَ التى توجب لك الشُّكر إِلَّا أَرفعَ من الحال التى توجب لك الصبر[٧] .

وإنْ كنتَ لا تَهَبُ عِقابى لحُرْمتى فهبْه لأَياديكَ عندى ؛ فإِنَّ النِّعمة تشفع فى النِّعمة[٨] .

فإِنْ لم تفعل ذلك للحُرمة فافعلْه لحُسْن الأُحدوثة[٩] ، وعُدْ إلى حُسن العادة . وإنْ لم تفعل ذلك لحُسن العادة فائت ما أَنتَ أَهلُه .

واعلم أَنِّى وإِيَّاكَ متى تحاكَمْنا إلى كَرمِك قُضِىَ لى عليك ، ومتى ارتفَعْنا إلى عدلك حَسُن العفو عنِّى عندك .

---

(١) م : « يعف عن الصغير » ب ، ط : « يعف عند الصغير » ، صوابهما فى مج ، ش.
(٢) ب ، م : « ولمن لم يزل يعفو العمد » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٣) ش فقط : « منك » .
(٤) م : « لاستجبت » ، تحريف .
(٥) ما عدا م ، ط : « لحسن ظنى بك » .
(٦) التكملة من مج ، ش .
(٧) بعده فى بعض نسخ ش : « ولا الحال التى توجب لك الصبر إلا أرفع من الحال التى توجب العذر » .
(٨) ش فقط : « فى النقمة » .
(٩) م ، ط : « لحب الأحدوثة » .

وفَصْلُ[١] ما بيننا وبينَك ، وفَرْقُ ما بَيْنَ أَقدارنا وقدرِك[٢] ، أَنَّا نُسيء وتَغفِر، ونُذنِب وتَسترُ ، ونعوَجُّ وتُقَوِّم ، ونَجهَلُ وتُعلِّم ؛ وأَنَّ عليكَ الإِنعامَ وعلينا الشُّكر . ومن صِفاتك أَنْ تفعَلَ[٣] ومن صفاتنا أَن نَصِفَ .

وإِذا فعلتَ ما تقدر عليه من العقاب كنتَ كمن فعَلَ ما يقدر عليه من التعرُّض ، وصرتَ ترغب عن الشُّكر كما رغبنا عن السّلم[٤] ، وصار التعرُّض لعفوك بالأَمنِ باطلًا ، والتعرُّض لعقابك بالخوف حقًّا ، ورغِبتَ عن النُّبل والبهاء ، وعن السُّؤدُد والسَّنَاء ، وصرتَ كمن يَشفى غيظاً أَو يُداوِى حقداً ، أَو يظهرُ القُدرة أَو يحبُّ أَن يُذكَرَ بالصولة .

ولم نجدْهُم - أَبقاكَ الله - يَحمَدون القُدرة إِلَّا عند استعمالها فى الخير ، ويذُمُّون العجزَ إِلَّا لما يَفُوتُ به من إِتيان الجميل .

وأَنَّى لك بالعقابِ وأَنت خيرٌ كلُّك ، ومن أَين اعترالك المنْعُ وأَنت أَنهجْتُ الجُودَ لأَهله[٥] . وهل عندك[٦] إِلا ما فى طبعك ، وكيف لك بخلاف عادتك ؟ فلمَ تَستكرِهُ نفسَك على المكافأَة وطباعُها الصَّفح[٧] ؟ ولِمَ تكُدُّها بالمناقَشَة ومَذهبُها المسامحة[٨] ؟

---

(١) ب ، م : « وفضل » بالضاد المعجمة .

(٢) م ، ط : « قدرنا وقدرك » .

(٣) ب فقط : « تغفل » ، تحريف .

(٤) ش : « التسليم »

(٥) أراد بين طريقه ومنهاجه . والفعل بهذا المعنى لم يرد فى المعاجم المتداولة .

(٦) ما عدا مج ، ش : « وهل عنك » ، تحريف .

(٧) م : « وطباع الصفح » ، تحريف . وفى مج ، ش : « وطباعك الصفح » . وأثبت ما فى ب ، ط .

(٨) بالمناقشة ، من إحدى نسخ ش . وفى سائر النسخ : « المنافسة » . والمناقشة : استقصاء الحساب . ما عدا مج ، ش : « زومذهبها السماحة » .

سبحانَ مَنْ جَعل أَخلاقَك وَفْق أَعراقك ، وفِعلَكَ وَفْق عملك ، ومَنْ جَعَل ظنَّك أكثر من يقيننا[١] ، وفِراسَتَك أَثقبَ من عِياننا[٢] ، وعَفْوَك أَرجحَ من جُهْدنا ، وبَدَاهَتَك أَجودَ من تفكُّرنا ، وفِعلَكَ أَرفعَ من وصفنا ، وغَيْبَتَك أَهْيَبَ من حضور السَّادة[٣] ، وعَتْبَكَ[٤] أَشدَّ مِن عقاب الظَّلَمة .

وسُبحانَ من جعلك تعفو عن المتعمِّد،وتَتجافَى عن عِقاب المُصِرّ[٥] ، وتَتغافُل عن المُناوِى[٦] وتصفح عن المتهاون[٧] حتَّى إذا صرت إلى من ذنبه نسيانٌ[٨] وتوبتُه إخلاص ، وهَفْوتُه بِكرٌ ، وشفاعته الحُرْمَة[٩] ومن لا يعرفُ الشُّكرَ إلَّا لك ، والإنعام إلَّا منك ، ولا العلمَ[١٠] إلَّا من تأْديبك ، ولا الأَخلاقَ إلَّا من تقويمك ، ولا يقصِّر[١١] فى بعض طاعتك إلَّا لما رأَى من احتمالك ، ولا نَسِىَ بعضَ ما يجبُ لك إلَّا لما داخَله من تعظيمك - صِرْتَ تتوعَّده بالصَّرْمِ[١٢] وهو دليلُ كلِّ بليَّة ، وتستعمل الإعراضَ وهو قائدُ كلِّ هَلكة .

وقد علمتَ أَنَّ عتابك أَشدُّ من الصَّريمة ، وأَنَّ تأْنيبك أَغلَظُ من

---

(١) ش : « أقوى من يقيننا » .
(٢) أثقب : أضوأ وأنفذ . وهذا ما فى م ، وفى سائر النسخ : « أقوى من عياننا » .
(٣) ما عدا مج ، ش : « الشاكة » . والسادة : جمع سيد .
(٤) ما عدا مج ، ش : « وعينك » ، تحريف .
(٥) ط فقط : « عذاب المصر » .
(٦) من المناوأة ، وهى المعاداة . م ، ط : « المنادى » تحريف .مج ، ش : « المبادى » ، وأثبت ما فى ب .
(٧) م ، ب : « التهادن » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٨) ما عدا مج ، ش : « شيان » .
(٩) م ، ط : « وشفعته الحرمة » مج ، ش : « وشفيعه حرمة » ، وأثبت ما فى ب .
(١٠) ب : « والعلم » بإسقاط « لا » .
(١١) مج ، ش : « ومن لا يقصر » .
(١٢) ما عدا مج ، ش : « صرت تتعود » . ط فقط : « بالصد » .

العقوبة ، وأَنَّ مَنْعَك إذا مَنعتَ فى وزن إعطائكَ إذا أَعطيت ، وأَنَّ عِقابَك على حسَب ثَوَابك ، وأَنَّ جزعى من حرمانك فى وَزْنِ سُرورى بفوائدك ، وأَنّ شَيْنَ غضبِك كزَيْنِ رضاك[١] ، وأَنَّ موت ذكرى بانقطاع سببى منك كحياةِ ذِكرى مع اتِّصال سببى بك .

وما[لى[٢]] اليوم عملٌ أَنا إليه أَسكَنُ ، ولا شفيعٌ أَنا به أَوْثَقُ ، مِنْ شدَّة جزعى من عتبك ، وإفراط هَلَعى من خَوْفك . ولستَ مِمَّن إذا جادَ بالصَّفح ومَنَّ بالعفو لم يكن لصاحبِه منهُ إلَّا السَّلامة والنَّجاةُ من الهَلَكَة . بل تَشْفَعُ ذلك بالمراتب الرَّفيعة ، والعطايا الجزيلة ، والعزِّ فى العشيرة، والهيبة فى الخاصَّة والعامَّة ، مَعَ طِيب الذِّكر وشَرَف العُقْب[٣] ، ومحَبَّةِ الناس[٤] .

وأَما ذِكرىَ القَدَّ والخَرْط، والطُّولَ والعَرْض، وما بيننا وبينك فى ذلك[٥] من التنازع ، والتَّشاجُر والتنافر[٦] ، فإنَّ الكلام قد يكون فى لفظِ الجدِّ وهو مِزاح[٧] .

ولو استعمل الناس الدَّماثةَ فى كلِّ حال ، والجِدَّ فى كلِّ مقال ، وتركوا التسمُّح والتَّسهيل وعَقَدوا فى كلِّ دقيق وجليل[٨] ، لكان

---

(١) الزين : الحسن . ما عدا مج ، ش : « كذم رضاك » .
(٢) التكملة من ط ، مج ، ش .
(٣) العقب ، بالضم : العاقبة . وفى كتاب الله : « هو خير ثواباً وخير عقباً » .
(٤) مج ، ش : « ومحبة النفس » .
(٥) ب ، م : « وبيننا وبينك فى ذلك » بسقوط « ما » .
(٦) مج ، ش : « والتحاكم والتنافر »
(٧) مج ، ش : « فى لفظ الجد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد » .
(٨) مج ، ش : « وعقدوا أعناقهم فى كل دقيق وجليل » .

الشرّ صُراحاً خيراً لهم ، والباطلُ محضاً أَرَدَّ عليهم . ولكنْ لكلٍّ شيءٍ قَدْر ، ولكلِّ حالٍ شِكْل . فالضَّحِك فى موضعه كالبُكاءِ فى موضعه ، والتبسُّم فى موضِعِه كالقُطوب فى موضعه . وكذلك المنْعُ والبَذْل ، والعقاب والعَفْو ، وجميعُ القبض والبسط .

فإنْ ذَممنا المِزاح ففيه لعمرى ما يُذَمّ ، وإنْ حمِدناه ففيه ما يُحمد. وفَصْل[1] ما بينه وبين الجدِّ أَنَّ الخطأَ إلى المزاح أَسرع ، وحالَه بحال السُّخف أَشبه. فأَمَّا أَن يُذَمَّ حتَّى يكون كالظُّلم ، ويُنْفَى[2] حتَّى يصير كالغَدْرِ فَلاَ[3] ؛ لأَنَّ المِزاح مما يكون مرّةً حسناً ومرّةً قبيحاً . فإذا صِرْنا إلى الجِدِّ[4] ، ورغِبْنا عن الهَزْل وتركنا المزاح ، وجلسنا للحُكْم[5] ، فقد أَغناك الله تعالى عن الحُجَّة ، كما سلَّمك من الشبهة ، ولم نكلِّفْك الاحتجاجَ كما نرغب بك عن الاعتلال[6] ، فأَصبحتَ لا محتجًّا ولا مَحجوجاً ، ولا غُفْلا ولا موسوماً ، ولا مَلُوماً ولا معذوراً[7] ، ولا فيك اختلاف ولا بك حاجةٌ إلى الائتلاف .

وليس مع العِيان وَحْشة ، ولا مع الضَّرورة وَجْمَة[8] ، ولا دون اليقين وقفة .

(١) ب فقط : « وفضل » .
(٢) ما عدا مج ، ش : « ويبقى » .
(٣) ب ، م : « كلا » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٤) مج ، ش : « فإذا ملنا إلى الجد » .
(٥) مج ، ش : « للحكمة » .
(٦) مج ، ش : « ولم يكلفك الاحتجاج كما رغب بك عن الاعتدال » .
(٧) ب : « وملوماً » بإسقاط « لا » . وفى م : « ولا ملوماً ولا معذولا » .
(٨) الوجمة من الوجوم ، وهو السكوت على غيظ أوهم أو كآبة .ب فقط : « وجهة » .

وهل فى تمامكَ ريب (١) حتّى يُعالج بالحجّة ؟ وهل يَرُدُّ فضلك جاحدٌ (٢) حتّى يُثْبَتَ بالبيِّنة (٣) .

وهل لك خَصْمٌ فى العلم أَو نِدٌّ فى الفَهْم (٤) ، أَو مُجَارٍ فى الحِلْم ، أَو ضدٌّ فى العزم (٥) ؟

وهل يَبلُغك الحَسَد أَو تضرُّك العَيْن (٦) ، أَو تَسْمو إليك المُنَى أَو يطمعُ فيك طامع (٧) ، أَو يتعاطَى شَأْوَكَ باغ ؟

وهل غايةُ الجميلِ إلَّا وصْفُك ، وهل زَيْنُ البليغ إلَّا مدحُك ، وهل يأْمُل الشريف (٨) إلَّا اصطناعَك ؟ وهل يقدِّر الملهوفُ إلَّا غياثك (٩) ؟ وهل للطُّلَّابِ غايةٌ سِواك ؟ وهل للغَوانى مَثَلٌ غيرك ؟ وهل للماتِح (١٠) رجَزٌ إلَّا فيك ، وهل يَحدُو الحادِى إلَّا بك (١١) ؟

ولولا أَنْ يأْخذ الواصف لك بنصيبه منك،وبحصَّته من الصِّدق (١٢) ،

---

(١) ما عدا مج ، ش : « وهل فيك ريب » .
(٢) ب : « ماد » ، م ، ط : « حاد » ، صوابهما فى مج ، ش .
(٣) ب ، م : « حتى تثبت بالصيغة » ط : « حتى تثبت بالصبغة » صوابهما فى مج ، ش .
(٤) ما عدا مج ، ش : « أويد فى الفهم » تحريف . والند ، بالكسر : النظير والمثيل .
(٥) المجارى : الشبيه ، وأصله من يجرى مع غيره . ما عدا مج ، ش : « أو مجاز » تحريف .
(٦) مج ، ش : « وهل يتبلغك الحسد » . ب ، م : « أو يضرك العين » .
(٧) ما عدا مج ، ش : « طاغ » ، تحريف .
(٨) ب ، م : « يؤمل » .
(٩) مج ، ش : « وهل يرجو الملهوف إلا غياثك » .
(١٠) كانوا يرجزون عند المتح ، وهو الاستقاء من أعلى البئر . ماعدا مج ، ش : « وهل للمادح » ، تحريف .
(١١) ش : « أوهل » ، مج ش : « إلا بذكرك » .
(١٢) ش : « من الصدق فيك » .

وبسهمِه من الشُّكر[١] لك، لكانَ الإطنابُ عندهم فى وصفك لَغْواً، ولكان تكلُّفه فَضْلًا .

ومَنْ هذا الذى يَضَعُه[٢] أَن يكون دونك ، أَو يُهجَى بالتَّسليم[٣] ، ولم نَعُدَّ[٤] إقرارَه إحساناً ، وخُضوعَه إنصافاً ؟

وهل تقع الأَبصار إِلَّا عليك ، وهل تُصْرَفُ الإشارة إِلَّا إليك[٥] ؟

وأَىُّ أَمرِك ليس بغايةٍ ، وأَىُّ شىءٍ منك ليس فى النهاية ؟ وهل فيك شىءٌ يَفُوق شيئاً أَو يفوقُه شىءٍ ؟ أَو يقال : لو لم يكن كذا لكان [أَحسن[٦]] ، أَو لو كان كذا لكان أَتَمَّ ؟

وأَين الحُسْنُ الخالصُ والجمالُ الفائق ، والمِلْح المحْضُ والحلاوةُ التى لا تستحيل ، والتَّمام الذى لا يُحيل[٧] ، إِلَّا فيك ، أَو عندَك ، أَو لكَ أَو معك ؟

لا بل أَينَ الحُسن المُصْمَتُ والجمالُ المفْرد ، والقَدُّ العجيب ، والمِلْح المنثور والفضل المشهور ، إِلَّا لك وفيك ؟

وهل على ظهرها جميلٌ حسيبٌ أَو عالم أَديب[٨] إِلَّا وظلُّك أَكبر

---

(١) ما عدا مج ، ش : « وشيمته من الشكر » .
(٢) ط : « نصفه » .
(٣) ب : « أوتهجى بالتسليم » ، تحريف صوابه فى م ، ط . وفى مج ، ش : « ويمتحن بالتسليم لك » .
(٤) ما عدا مج : « أو تعد » .
(٥) ب ، م : « وهى تعرف الإشارة إلا إليك » ، وأثبت ما فى ط . على أن هذه الفقرة بتمامها لم ترد فى نسخ التربيع والتدوير .
(٦) التكملة من مج ، ش .
(٧) ط فقط : « لا يحل » .
(٨) مج : « أو عالم أديب » ب ، ط ، م : « وعالم أديب » ، وأثبت ما فى ش . والأريب : العاقل ذو الدهاء .

من شَخْصه ، وظنُّك أكثرُ مِنْ علمه ، واسمُك أفضلُ من معناه ، وحُلْمُك أثبت من نَجْواه ؟

ولربَّما رأيتُ الرجلَ حسناً جميلًا ، وحُلواً مليحاً ، وعتيقاً رشيقاً ، وفخْماً نبيلًا[١] ، ثم لا يكون موزونَ الأعضاءِ ولا معتدلَ الأجزاء .

وقد تكون[٢] أيضاً الأقدارُ مُتساويةً غير متقاربة ولا متفاوتة[٣] ويكون قصداً ، ومقداراً عَدْلًا ، وإنْ كانت هناك دقائقُ خفيَّةٌ لا يراها الغبيّ[٤] ، ولطائفُ غامضةٌ لا يعرفها إلَّا الذكيّ .

فأمَّا الوزن المتحقّق[٥] ، والتَّعديل الصحيح ، والتركيب الذى لا يفضحه التفرُّس ، ولا يحصُره التعنُّت[٦] ، ولا يتعلَّل جادِبُه[٧] ، ولا يطمَعُ فى التمويه ناعته[٨] ، فهو الذى خُصِصْتَ به دون الأَنام ، ودامَ لك على الأيَّام .

وكذا الحُسْن إذا كان حرًّا مُرسَلًا ، وعَتيقاً مُطْلقاً[٩] ، لا يتحكَّم

---

(١) الفخم : العظيم القدر . وفى حديث أبى هالة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان «فخماً مفخماً » ، أى عظيماً معظماً فى الصدور والعيون . ما عدا مج ، ش : « وفخيماً نبيلا » ، ولم تعرف المعاجم الفخيم .

(٢) ب فقط : « وقد يكون » .

(٣) التكملة من مج ، ش .

(٤) مج ، ش : « إلا الألمعى » .

(٥) ب : « التحقيق » م : « التحقق » مج ، ش : « المحقق » ، وأثبت ما فى ط .

(٦) ما عدا مج ، ش : « التغيب » .

(٧) الجادب : العائب . قال ذو الرمة :

فيالك من خــد أسيل ومنطق رخيم ومن خلق تعلل جادبه

يقول : لا يجد فيه مقالا ولا عيباً يعيبه به ، فيتعلل بالباطل وبالشىء يقوله وليس بعيب . ما عدا مج : « جاذبه » بالذال المعجمة ، تحريف .

(٨) ما عدا مج ، ش : « غايته » ، تحريف .

(٩) بفقط : « وعتقاً مطلقاً » ، تحريف .

عليه الدَّهر[١] ، ولا يُذْبِلُه الزمان[٢] ، ولا يحتاج إلى تعليق التَّمائم ، ولا إلى الصَّون والكِنِّ ، ولا إلى المِنْقاش والكُحْل[٣] .

ولو لم يكنْ لحُسْنِ وجهك إلَّا أَنه قد سُهِّل فى العيون تسهيلًا ، وحُبِّب إلى القلوب تحبيباً ، وقُرِّب إلى النفوس تقريباً ، حتَّى امتزج بالأَرواح وخالَط الدِّماء ، وجرى فى العُروق وتمشَّى فى العَظْم بحيث لا يبلغه السَّمَر ولا الوهم[٤] ، ولا السُّرور الشديد ، ولا الشَّراب الرقيق ، لكان فى ذلك المزيَّةُ الظاهرةُ ، والفضيلة البيِّنة .

ولو لم يكن لك إلَّا أَنَّنا لا نستطيع أَن نقول فى الجملة ، وعند الوصف والمِدْحة : لهو أَحسَنُ من القمر[٥] ، وأَضوأُ من الشمس ، وأَبْهَى من الغَيْث ، وأَحسن من يَوْمِ الحِلْية[٦] ؛ وأَنَّا لا نستطيع أَن نقول فى التَّفاريق : كأَنَّ عُنقَه إبريقُ فِضَّة ، وكأَنَّ قدمَه لسانُ حيَّة ، وكأَنَّ وجهه ماويّة[٧] ، وكأَن بَطْنَه قُبْطيَّة[٨] ، وكأَنَّ ساقه بَرْديَّة[٩] ، وكأَنَّ لسانَه وَرَقة ، وكأَن أَنْفَه حدُّ سيف ، وكأَنَّ حاجِبَه خُطَّ بقلَم[١٠] ، وكأَنَّ لونَه الذَّهب ، وكأَنَّ عوارِضَه البَرَد ، وكأَنَّ فاه خاتَم ، وكأَنَّ

(١) ما عدا مج ، ش : « الذهن » .
(٢) ما عدا مج ، ش : « ولا يديله الزمان » .
(٣) المنقاش : آلة النقش ، والمراد به ما ينتف به الشعر ، مج ، ش : « المناقيش » .
(٤) مج ، ش : « السم ولا الوهم » . والسمر : الحكايات التى يسمر بها ليلا .
(٥) ط ، مج ، ش : « هو أحسن من القمر » .
(٦) يوم الحلية : يوم الزينة فى الأعياد ونحوها . مج ، ش : « يوم الحلبة » بالباء الموحدة .
(٧) الماوية : المرآة . مج ، ش : « وكأن عينه » .
(٨) القبطية ، بالضم : ثياب من كتان مصر بيض رقاق . ط : « قنطية » تحريف .
(٩) البردية ، بالفتح : واحدة البردى ، وهو نبت مائى معروف يضرب به المثل فى فى الغضاضة واللين .
(١٠) ب ، م : « تعلم » تحريف . فى ط : « قلم » وأثبت ما فى مج ، ش .

جبينَه هِلال . ولهو أَطْهَر من الماء ، وأَرقُّ طباعاً من الهَوَاء ، ولهو أَمضَى من السَّيل، وأَهدى من النَّجم — لكان فى ذلك البرهانُ النيِّرُ ، والدليل البيِّن .

وكيف لا تكون كذلك وأَنتَ الغايةُ فى كلِّ فضل ،والمَثَلُ فى كُلِّ شَكْل . وأَمَّا قول الشاعر(١) :

يَزيدك وجهُــه حُسنــاً إذا مازِدتَــه نَظَــرا

وقول الدِّمشقيِّين : ما تأَمّلْنا قطُّ تأْليف مسجدنا ، وتركيبَ مِحرابنا وقُبَّة مُصَلَّانا إلَّا أَثار لنا التأَمُّلُ ، واستخرج لنا التفرُّس ، غرائبَ حسنٍ لم نَعرِفْها(٢) ، وعجائبَ صنعةٍ لم نقِفْ عليها . وما ندرى أَجَوَاهِر مقطَّعاته أَكرمُ فى الجواهر ، أَم تنضيد أَجزائه فى تنضيد الأَجزاءِ(٣) ؟ فإنَّ ذلك معنًى مسروقٌ منّى فى وصفك ، ومأْخوذٌ من كتبى فى مدحك .

والجملةُ التى تنفى الجِدالَ ، وتَقطَعُ القِيلَ والقال ، أَنِّى لم أَركَ قطُّ إلَّا ذكرتُ الجَنَّة ، ولا رأَيتُ أَجملَ الناس فى عَقِب رؤيتك ! إلَّا ذكرتُ النار !

ولا تَعجَبْ أَيُّها السامعُ واعلم أَنِّى مقصِّر . وإذا رأَيتَه علمتَ أَنِّى مقصِّر . وإذا رأَيتَه علمت أَنِّى فيما يجب له مفرِّط .

هو رجلٌ طينتُه حُرَّة ، وعِرقُه كريم ، ومَغرِسُه طيِّب ، ومَنشؤُه

(١) هو أبو نواس . ديوانه ١٢٥ ودلائل الإعجاز ١٩٤ ومعاهد التنصيص ١ : ٢٨ وديوان المعانى ١ : ٣٣١ .

(٢) ط فقط : « التغرس بين غرائب حسن لم نعرفها » ، تحريف .

(٣) ب فقط : « تنضيض » ، محرفة . وفى ش : « فى تنضيدات الأجزاء » وفى مج : « أمجواهر تنضيدات أجزائه فى تنضيدات الأجزاء » .

محمود ، غُذِىَ فى النَّعمة(١) ، وعاش فى الغبطة، وأَرْهَفَه التَّأْديب ، ولطَّفه طول التفكير(٢) ، وخامَرَهُ الأَدب ، وجرى فيه ماءُ الحياء . فأَفعالُه كأَخلاقه ، وأَخلاقُه كأَعراقه ، وعادتُه كطبيعته ، وآخِرُهُ كأَوّله ، تحكى اختياراتُه التَّوفيقَ ، ومذاهبُه التَّسديدَ . لا يَعرِف التكلُّف ، ويرغَب عن التجوُّز(٣) ، وينبُل عن ترك الإنصاف(٤) . لا تمتنِع عليه معرفة المُبْهَم(٥) ، ولا يُلَحَّجُ باستبانة المُشْكل(٦) ، ولا يعرِف الشكَّ إلَّا فى غيره ، ولا العِيَّ(٧) إلَّا سماعاً .

فمن يطمع فى عَيْبِك(٨) ، بل من يطمع فى قدرك . وكيف وقد أَصبحتَ وما على ظهرها خَوْدٌ(٩) إلَّا تعثُر باسمك(١٠) ، ولا قَينةٌ إلا وهى تَغَنَّى بمدْحِك(١١) ، ولا فتاةٌ إلَّا تشكو تباريحَ حبِّك(١٢) ، ولا محجوبةٌ

---

(١) ب فقط : « غذى » ، تحريف. مج ، ش : « بالنعمة » .
(٢) مج : « وألطفه طول التفكر » ش . : « وألطفه طول الفكرة » .
(٣) ما عدا مج ، ش : « التجرد » .
(٤) كلمة « ترك » من مج ، ش فقط ، وفى ب : « عن الأوصاف » . م ، ط : « عن الإنصاف » .
(٥) ب ، م : « لا يمتنع عليه معروفه المبهم » صوابه فى سائر النسخ .
(٦) يقال لحج عليه الخبر تلحيجاً ، إذا خلطه عليه وأظهر غير مافى نفسه .ب ، م ، ط: « ينجح باستبانته المشكل » ، تحريف . وفى مج « ولا يلتحج باستبانة المشكل ».
(٧) ما عدا مج ، ش : « ولا ألغى » بالغين المعجمة ، تحريف .
(٨) ما عدا مج ، ش : « فى عينك » ، بالنون .
(٩) الخود ، بفتح الخاء : الشابة الناعمة الحسنة الخلق . ب ، م : « جود » ، ط : « جواد » ، صوابهما فى مج ، ش .
(١٠) مج ، ش : « إلا وهى تعثر باسمك » ، أراد يعتريها الاضطراب لتقع فى العثار .
(١١) ما عدا مج ، ش : « إلا وهى تبغى » ، وفى ط أيضاً : « تمدحك » .
(١٢) ب : « إلا وتشكو » م: « ولا فتاة تشكو إلا تباريح حبك » ، وأثبت ما فى ط . وفى مج ، ش : « إلا وهى تشكو تباريح حبك » .

إلَّا وهى تَنْقُب الخروقَ لمرِّك[١] ، ولا عجوزٌ إلَّا وهى تدعو لك ، ولا غَيورٌ إلَّا وقد شقِيَ بك[٢] .

فكم من كبد حَرَّى[٣] مُنْضَجة ، ومَصدوعةٍ مفرَّثة[٤] ، وكم حشاً[٥] خافقٍ وقلبٍ هائم ، وكم عينٍ ساهرةٍ[٦] وأُخرى جامِدة[٧] وأُخرى باكية ؟ وكم عَبْرَى مولَّهة وفتاةٍ معذَّبة ، قد أَقرحَ قلبَها الحُزْن ، وأَجمَدَ عينَها الكمَد ، واستبدلت بالحَلْى العُطلة[٨] وبالأُنْسِ الوَحْشة ، وبالتكحيل المَرَه[٩] ، فأَصبحتْ والهة مبهوتة[١٠] ، وهائمة مجهودة ، بعدَ ظَرْف ناصع[١١] ، وسِنٍّ ضاحك ؛ وبعد أن كانت ناراً تتوقَّد وشُعلةً تتوهَّج .

وليس حُسنُك — أَبقاكَ الله — الحُسْنَ الذى تبقى معه تَوْبة ، أو تَصِحُّ معه عقيدة[١٢] ، أَو يَدُومُ معه عهد[١٣] ، أَو يثبت معه عَزْم ،

---

(١) ط فقط : « تثقب » بالثاء المثلثة .
(٢) ب ، ط : « شقى » بالفاء ، صوابه فى سائر النسخ .
(٣) ب ، م : « حسوى » ، والصواب فى سائر النسخ .
(٤) مفرثة : مفتتة . ب : « ومعربة » م : « ومعرية » ط : « ومعذبة » ، صوابها فى مج ، ش .
(٥) ش فقط : « وكم من حشا خافق » .
(٦) ش فقط : « وكم من عين ساهرة » .
(٧) الجامدة : التى لا تدمع . مج فقط : « جاهدة » .
(٨) كذا فى جميع النسخ . وفى المعاجم أن « العطلة » بالضم : اسم للتعطل ، وهو خلو المرأة من الحلى ، وخلو العامل من العمل .
(٩) المره : خلو العين من الكحل ، أو فسادها لتركه . والنعت أمره ومرهاء .
(١٠) المبهوت : المتحير ، والذى اعترته الدهشة .
(١١) الناصع : الخالص الظاهر . فى الأصول : « طرف » بالمهملة ، صوابه بالظاء المعجمة .
(١٢) ب ، م : « أو يصح معه عقدة » ، صوابه فى سائر النسخ .
(١٣) ب ، م : « عهدة » .

أَو يُمهِلُ صاحبه للتثبُّت (١) ، أَو يتَّسع للتحيُّر (٢) ، أَو يُنهنِهُهُ زَجْر (٣) ، أَو يفيده خوفٌ (٤) . هو ـ أَبقاك الله ـ شيءٌ يَنْقُضُ العادةَ (٥) ، ويَفسخ المُنَّة ، ويُعجِل عن الرويَّة (٦) ، ويطوِّح بالعَزَاء (٧) ، ويُنْسى معه العواقب .

ولو أَدركك (٨) عمر بن الخطاب لصَنَع بك أَعظَمَ (٩) ممَّا صنع بنصر ابن الحجَّاج (١٠) ، ولرَكِبَك بأَعظمَ ممَّا ركب جَعْدَةَ السُّلَمى (١١) . بلْ لدعاه الشُّغْل بك إلى ترك التَّشاغُل بهما ، والغيظُ عليكَ إلى الرَّحمة لهما .

---

(١) مج ، ش : « التثبت » .

(٢) ب ، م : « أو تتسع » .

(٣) نهنه عن الأمر فتنهنه : كفه وزجره فكف ، وأصلها نهه ، بالتضعيف ، فأبدلت الهاء الثانية نوناً . ما عدا مج ، ش : « أو ينهيه » ، تحريف .

(٤) ب : « خوفاً » ، تحريف . ومج ، ش : « أو يهذبه خوف » .

(٥) ط فقط : « ينقص العادة » ، تحريف .

(٦) المنة ، بالضم : القوة . روى فى الأمر تروية : نظر وفكر ، والاسم الروية . ب ، م : « عن الرؤية » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٧) مج ، ش : « ويطرح » ب فقط : « بالعرى » .

(٨) ب ، م : « أدرك » .

(٩) ط فقط : « أحسن »، ووجهها « أخشن » .

(١٠) ط فقط : « حجاج » . وهو نصر بن الحجاج بن علاط السلمى . وكان قد عشقته فريعة بنت همام ، أم الحجاج بن يوسف ، وهى إذ ذاك تحت المغيرة بن شعبة ، فمر عمر ابن الخطاب ذات ليلة فسمعها تقول :

ألا سبيل إلى خمر فأشربها أو لا سبيل إلى نصر بن حجاج

فسير عمر نصراً إلى البصرة ، فنزل على مجاشع بن مسعود فعشق امرأته شميلة وعشقته ، وعرف مجاشع ذلك فأخرجه من منزله ، فنزل على بعض السلميين فرض من حبها مرضاً شديداً فتمثل به أهل البصرة فقالوا : « أدنف من المتمنى » . كما قيل « أصب من المتمنية » ، وهى فريعة بنت همام . جمهرة الأمثال ١ : ٥٨٨ والميدانى ١ : ٣٧٩ والمستقصى ١١٩ .

(١١) أدرك جعدة هذا زمان الجاهلية ، وكان غزلا صاحب نساء يحدثهن ويمازحهن ، فكن يجتمعن عنده ، فيأخذ المرأة فيعقلها ثم يأمرها بأن تمشى ، فتعثر فتقع فتتكشف ، فيتضاحكن من ذلك ، فنفاه عمر من المدينة إلى عمان . الإصابة ١٢٨٥ .

فمن كان عيب حُسْنِه[١] الإفراطَ ، [والطعنُ[٢]] عليه من جهة الزِّيادة ، كيف يرومُه عاقلٌ أَو يَنْتَقِصُه عالِم .

وما نَدْرِى[٣] فى أَىِّ الحالين أَنت أَجمل ، وفى أَىِّ المنزلتين أَنتَ أَكمَل ، إذا فرّقناك أَو إذا جمعناك[٤] ، وإذا ذكرناك كلَّكَ[٥] أَمْ إذا تأَمّلنا بعضَك ؟

فأَمَّا كفُّك فهى التى لم تُخلَقْ إلَّا للتقبيل والتوقيع ، وهى التى يَحسُنُ بحُسْنِها كلُّ ما اتَّصل بها ، ويختال بها كلُّ ما صار فيها[٦] .

وكما أَصبَحْنا وما ندرى: آلكأْسُ التى[٧] فى يدك أَجملُ أَمِ القلمُ ، أَم الرُّمح الذى تحمله أَم المِخْصَرة ، أَم العِنانُ الذى تمسكه ، أَم السَّوطُ الذى تعلِّقه ؟

وكما أَصبَحْنا وما ندرى أَىُّ الأُمور المتَّصلةِ برأْسك أَحسنُ ، أَم أَيُّها أَجمل وأَشكل : آللِّمَّةُ أَم مَخَطُّ اللِّحية[٨] ، أَم الإكليلُ أَم العِصابة ، أَم العِمامةُ أَم القِناعُ أَم القَلَنْسُوة ؟

وأَمَّا قدمُك فهى التى يَعلَمُ الجاهلُ كما يعلم العالمُ ، ويعلم البعيد

---

(١) ب ، م : « حسبه » بالباء .
(٢) التكملة من مج ، ش .
(٣) ب ، م : « وما يدرى » .
(٤) هذا ما فى مج . وفى ب ، م ط : « وإذا جمعناك » . والذى فى ش : « إذا فرقناك أم إذا تأملنا بعضك » . بهذا النقص .
(٥) م ، ط : « ذكرناك كلك » . وبعده فى مج : « أو إذا تأملنا بعضك » .
(٦) ب ، م : « ويحتال » بالمهملة ، صوابه فى سائر النسخ . وفى ب ، م : « كل من صارفيها » ، تحريف .
(٧) م ، ط : « الذى » ، صوابه فى ب فإن الكأس مؤنثة . وفى مج ، ش : « الكأس فى يدك » .
(٨) مخط اللحية : خطوطها وهيئة خرطها . م ، ط : « محط اللحية » ، تحريف .

الأَقصى، كما يعلم القريب الأَدنى، أَنَّها[١] لم تُخْلَق إلَّا لمنبرٍ عظيم، أَو ركابِ طِرْفٍ كريم.

وأَمَّا فُوك[٢] فهو الذى لا ندرى: أَىُّ الذى تتفوَّهُ[٣] به أَحسن، وأَىُّ الذى يبدو منه أَجمل[٤]: الحديث أَم الشعر، أَم الاحتجاج، أَم الأَمر والنهى، أَم التعليم والوصف؟

وعلى أَنَّنا لا ندرى أَىُّ أَلسنتِكَ أَبلَغُ، وأَىُّ بَيانِكَ أَشفى: أَقلمك أَبلغ أَم [خطُّك، أَم[٥]] لفظُكَ؟ أَم إشارتُك أَم عَقْدك[٦]؟ وأَنت فى ذلك فوقهم - والحمدُ لله - وواحدُهم. وأَعيذك بالله تعالى[٧].

وقد علِمْنا أَنَّ القَمَر، وهو[٨] الذى يُضرَب به الأَمثالُ، ويُشَبَّه به أَهلُ الجمالِ، يبدو مع ذلك ضئيلًا ونِضواً، ويظهر معوجًّا شخْتاً[٩]؛ وأَنت أَبداً قمرٌ بدر، وفَخمٌ غَمْر[١٠].

ثمّ مع ذلك يَحترق فى السِّرار[١١]، ويُتشاءَمُ به فى المحَاق، ويكون نحساً كما يكون سَعداً، ويكون ضَرًّا كما يكون نَفْعاً، ويَقرِض

---

(١) ب، م: «إلا بها»، صوابها فى سائر النسخ.

(٢) ما عدا مج، ش: «قولك».

(٣) ب فقط: «تثقوه»، تحريف.

(٤) ط: «تبدأ به» ب: «نبدو به» م: «تبدو به» صوابه فى مج، ش.

(٥) التكملة من مج، ش.

(٦) العقد: ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين، ويقال له حساب اليد أيضاً. وفى الحديث أنه: «عقد عقد تسعين». وقد ألفت فيه كتب وأراجيز. انظر الخزانة ٣: ١٤٧ والحيوان ١: ٣٣ والبيان ١: ٧٦.

(٧) بعده فى مج، ش: «وأنت تجوز الغاية وتفوق النهاية».

(٨) وهو، ساقطة من ب، وبدلها فى مج، ش: «هو» بدون واو.

(٩) ويظهر، ساقطة من ب، م. والشخت: الدقيق الضئيل.

(١٠) ش: «وبحر غمر». ط: «وفخم ذمر»: والذمر، بالكسر: الشجاع، والظريف اللبيب المعوان. وأما الغمر، بالفتح، فهو الواسع الخلق الكثير المعروف.

(١١) السرار، بكسر السين وفتحها: آخر ليلة فى الشهر، وفيها يستسر القمر.

الكَتَّان ، ويُشحِبُ الأَلوان[١] ، ويخمّ فيه اللَّحم[٢] . وأنت دائمُ اليُمْن ، ظاهرُ السَّعادة ، ثابتُ الكمال ، شائعُ النَّفع ، تكسُو مَنْ أَعراهُ ، وتُكنّ من أَشحبه[٣] .

وعلى أَنَّه مَحَقَ حُسْنَه المحاق[٤] ، وشانَهُ الكَلَف ، وليس بذى توقُّدٍ واشتعالٍ ، ولا خالصٍ ولا مُتلألئ ، ويَعْلُوه بَرَد[٥] ويكسِفه ظِلّ[٦] ، ثم لا يُعتبر ذلك إلَّا عند كمالِهِ ، وليلةَ فَخْرِه واحتفاله .

وكثيراً ما يَعترِيه الصُّفار[٧] من بُخَار البحار . وأَنتَ ظاهر التَّمام ، دائمُ الكَمال ، سليمُ الجَوْهَر ، كَريم العُنصُر ، ناريُّ التوقُّد ، هوائيُّ الذِّهن[٨] بريُّ اللَّون[٩] ، رُوحانيُّ البدن .

وإن احتجُّوا عليك له بالجَزْر والمدِّ، احتججتَ عليهم بالحلم والعلم، وبأَنَّ طاعتك اختيارٌ ، وطاعته طباع واضطرار[١٠] ، وبأَنَّه له سِيرةً

---

(١) لم أجد فى المعاجم إلا : « شحب » اللازم . والشحوب : تغير اللون ، والهزال .

(٢) خم يخم بكسر عين المضارع وفتحها ، خماً وخموماً : أنتن. ط ، م : « ويختر »، ووجه هذه « يخنز » بالنون والزاى ، خنز اللحم أيضاً : فسد وأنتن .

(٣) ما عدا مج ، ش : « شحبة » .

(٤) المحاق بفتح الميم وضمها : ليال ثلاث فى آخر الشهر . ب ، م : « المحوق » ، تحريف .

(٥) ش فقط : « يعلوه الغيم » .

(٦) ب ، م : « وتكسفه ظل » . وفى مج ، ش : « ويكسوه ظل الأرض » . والكسوف والخسوف مشتركان بين الشمس والقمر ، وإن كان الخسوف فى القمر أكثر والكسوف فى الشمس أغلب .

(٧) الصفار : بالضم : صفرة تعلو اللون والبشرة . اللسان (صفر ١٣٤) .

(٨) ما عدا مج ، ش : « هوائى الدهر » .

(٩) برى : مسهل برىء ، وبراءة اللون : صفاؤه ونقاؤه . مج ، ش : « درى اللون »

(١٠) الطباع ، ككتاب ، والطبع والطبيعة ، كلها بمعنى السجية يجبل عليها الإنسان وغيره ط فقط : « طبع » . وانظر الحيوان ٢ : ١٣١ / ٤ : ٤٥٢ / ٥ : ٤٨ ورسائل الجاحظ ١ : ١٠٤ ، ١١٢ .

قد قُصِرَ عليها ، ومَنازِلَ لا يُجاوزها ، ولا يُمكنه البَدَوات[١] ، وليس فى قُواهُ فضلٌ للتصرُّف[٢] .

على أَنَّ ضِياءَه مستعارٌ من الشَّمس ، وضِياؤك عاريَّةٌ عند جميع الخلْق[٣] . وكم بين المُعِير والمُستعير ، والمتبيِّن والمتحيِّر ، وبين العالِم ومالا خيرَ فيه .

تُعِير نَسِيمَ الهواءِ طِيباً[٤] ، وتُرابَ الأَرضِ عَبَقاً .

إنْ تفتَّيتَ فالرَّشاقة والمِلْح[٥] ، وإنْ تنسَّكتَ فالرَّهبانية والإخلاص[٦] ، وإن ترزَّنت فثَهْلانُ ذُو الهَضَبات ما يتحلحل[٧] .

وطِباعُك[٨] ـ جُعِلتُ فِداك ـ طِباعُ الخَمْر ، إلَّا أَنَّك حَلالٌ كلُّك . وجَوهرُك جوهرُ الذَّهب إلَّا أَنَّك رُوحٌ كما أَنت . وقد حَوَيتَ خِصال الياقوت إلَّا ما زادك الله ، وأَخذْتَ خِصال المُشترِى[٩] إلَّا ما فضَّلك الله به ، وجمعتَ خِلال الدُّرِّ إلَّا ما خُصِصتَ به دونه . فلك من كلِّ

(١) البدوات : جمع بداة ، كما يقال قطاة وقطوات . والبدوات : الآراء تظهر للمرء فيختار بعضاً ويسقط بعضاً . ط فقط : « البدار » . مج ، ش : « لا تمكنه » بالتاء .

(٢) ما عدا مج ، ش : « وليس فى قوله » ، تحريف . وفى ط أيضاً : « فضل للتعرف » .

(٣) أى يستعيره جميع الخلق ، لا ضياء لهم إلا منه .

(٤) ب ، م : « يعير » ، ط : « يعيره » ، وفيها جميعاً : « الهوى » ، والوجه ما أثبت . والذى فى مج ، ش : « فلا زالت الأرض بك مشرقة ، والدنيا معمورة ، ومجالس الخير مأهولة ونسيم الهواء طيباً ، وتراب الأرض عبقاً » .

(٥) ما عدا مج ، ش : « إن هبت » ، وفى ط فقط أيضاً : « فللرشاقة » .

(٦) ما عدا مج ، ش : « وإن تمكنت » .

(٧) ب : « يتحلل » ط : « يتخلخل » ، صوابه فى سائر النسخ . يتحلحل : يتحرك ويبرح مكانه . وهو ناظر إلى قول الفرزدق فى ديوانه ٧١٧ :

فادفع بكفك إن أردت بناءنا ثهلان ذا الهضبات ، هل يتحلحل

(٨) يعنى طبعك ، انظر ما سبق فى حواشى ص ٩١ .

(٩) يسميه المنجمون السعد الأكبر ، لأنه فوق الزهرة فى السعادة . وأضافوا إليه الخيرات الكثيرة والسعادة العظيمة . عجائب المخلوقات ٢٥ .

شيء[١] صَفوتُه وشَرَفُه ، ولُبابُه وبهاؤه . وهل يَضِيرُ القَمرَ[٢] نُباحُ الكلب[٣] ، وهل يُزعزِعُ النَّخلةَ سُقوطُ البعوضة ؟ !

فأَمّا القول فى المِزاح فقد بقِىَ أَكثرُه ومَضَى أَقلُّه .

وقد ذهَبَ النَّاسُ فى المِزاح فى مذاهبَ متضادَّة ، وسَلَكوا منه فى طرقٍ مختلفة ، فزعَم بعضُهم أَنَّ جميع المزاح خيرٌ من جميع الجِدِّ ، وزَعم آخرون أَنَّ الخير والشَّرَّ عليهما مقسومانِ ، وأَنَّ الحمدَ والذمَّ بينهما نِصفان[٤] .

وسنأْتِى على جُملِ هذه الأَقاويل ، ثم نذكر جملةَ ما نقول إنْ شاءَ الله .

فأَمّا المُحامِى عن الهَزْل والمفضِّلُ للمَزْح فإنَّه قال :

أَوّل ما أَذكرُ من خِصال الهَزْل ، ومن فضائل المَزْح ، أَنَّه دليلٌ على حُسنِ الحالِ وفراغِ البال ، وأَنَّ الجِدَّ لا يكون إلَّا من فضل الحاجة ، والمَزْحَ لا يكون إلَّا من فَضْلِ الغِنَى ، وأَنَّ الجِدَّ نَصَبٌ[٥] ، والْمَزحَ جَمَام[٦] ، والجِدَّ مَبْغَضَةٌ والْمَزْحَ محبَّة . وصاحبُ الجدِّ[٧] فى بلاءِ ما كان فيه ، وصاحب المزح فى رخاءٍ إلى أَنْ يَخرُجَ منه .

---

(١) ب فقط : « فى كل شيء » .
(٢) ب : « يغير القمر » م : « يغير القهر » ط : « يغير الفهد » صوابه فى مج ، ش والحيوان ١ : ١٣ .
(٣) مج ، ش والحيوان : « نباح الكلاب » .
(٤) م فقط : « نصفا » .
(٥) ب : « وأن الغضب جد » م ، ط : « وأن النصب جد » ، صوابهما فى مج ، ش.
(٦) الجمام ، كسحاب : الراحة .
(٧) ب ، م : « صاحب الجد » ، بدون واو .

والجِدُّ مؤلِم وربّما عرّضك لأَشدَّ منه ، والمَزْح مُلِذٌّ[١] وربّما عرّضك لأَلذَّ منه . فقد شاركَه فى التَّعريض للخير والشَّرِّ ، وبايَنَه بتعجيل الخَيْر دون الشَّرّ .

وإنما تشاغَلَ الناس ليَفرُغوا[٢] ، وجَدُّوا ليَهْزِلوا ، كما تذَلَّلوا ليعزُّوا ، وكدُّوا ليستريحوا ، وإنْ كان المِزاح إنَّما صار معيباً ، والهزلُ مذموماً ، لأَنَّ صاحبَه لا يكون إلَّا معرَّضاً لمجاوزة الحَدَّ ، ومُخاطراً بمودّة الصَّديق .

فالجِدُّ داعيةٌ إلى الإفراط ، كما أَنَّ المزاح داعيةٌ إلى مجاوزة القدر والتجاوز للجدِّ[٣] قاطع[٤] بين الفريقين فى جميع النوعين .

فقد ساواه المزح فيما هو له[٥] وبايَنَه فيما ليس له . وإن كان المزْح إنَّما صار قبيحاً لأَنَّ الذى يكون بعده جِدّ، [ولم يَصِر الجدُّ قبيحاً لأَن الذى يكون بعده مَزْح[٦]] ، وكان[٧] الجِدُّ فى هذا الوزن أَقبح ، وكان المزح[٨] على هذا التقدير أَحسن، لأَنَّ ما جعل الشيء قبيحاً أَقبحُ من الشَّيء ، كما أَنَّ ما جعل الشَّيء حسناً أَحْسَنُ من الشيء .

فأَمَّا الذى عَدَل بينهما فإنَّه زعمَ أَنَّ المِزاحَ فى موضعه ، كالجدِّ فى موضعه ، كما أَنَّ المنْع فى حقِّهِ كالبذْل فى حقِّه .

---

(١) ط فقط : « مله » .
(٢) ط فقط : « ليفزعوا »
(٣) ب ، م : « والتجاوز ولجد » ط : « والتجاوز لجد »، صوابهما فى مج ، ش .
(٤) ما عدا مج ، ش : « قالع » .
(٥) ب فقط : « فيما له » .
(٦) ما بين المعقفين ساقط من ب . وفى مج ، ش : « لأن الذى بعده المزح » .
(٧) ب ، م ، ط : « كان » بدون واو .
(٨) ما عدا مج ، ش : « وكان الوزن » ، تحريف .

قال[١] : ولكلِّ شيءٍ موضعٌ ، وليس شيءٌ يصلُح فى كلِّ موضع . وقد قَسَّم الله تعالى الخِيَرة[٢] على المَعْدَلة ، وأجرى جميعَ الأُمور إلى غاية المصْلَحة ، وقسَّط أَجزاءَ المثُوبة على العزيمةِ والرُّخصة[٣] ، وعلى الإعلانِ والتَّقيَّة ، وأَمَر بالمداراة كما أَمر بالمباداة[٤] ، وجوَّز المعاريضَ كما أَمَر بالإِفصاح ، وسوَّغ المُباحَ كما شدَّد أَمرَ المفْروض[٥] ، وجعل المُباحَ جَماماً للقلوب[٦] ، وراحةً للأَبدان ، وعَوناً على معاودة الأَعمال ، فصار الإِطلاقُ كالحَظْر ، والصَّبْرُ كالشُّكر .

فليس للإِنسان من الخِيَرَة فى الذِّكر شيءٌ إلَّا وله فى النِّسيان مثلُه ، ولا فى الفِطنةِ شيءٌ إلَّا وله فى الغَفْلة مثله ، ولا فى السَّرَّاءِ إلَّا وله فى الضَّرَّاءِ مثلُه .

ولو لم يرزُقِ الله تعالى العبادَ إلَّا بالصَّواب مَحْضاً ، وبالصِّدق بَحْتاً[٧] ، وبمُرِّ الحقِّ صفحاً[٨] ، لهلَكت العوامُّ ، ولانتقض[٩] أَمرُ الخاصّ .

---

(١) مج فقط : « فقال » .
(٢) مج فقط : « الخير » . والخيرة : الاختيار .
(٣) ط فقط : « وعلى الرخصة » .
(٤) المباداة : المجاهرة . ط فقط : « بالمبادأة » بالهمزة ، تحريف .
(٥) مج ، ش : « فى المفروض » .
(٦) ما عدا مج ، ش : « وجعل الحمام » ، تحريف . والجمام ، كسحاب : الراحة . ب : « حماماً » م : « حمام » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٧) مج ، ش : « وبالصدق صرفا » .
(٨) الصفح : البسط .
(٩) انتقض : انتكث . ب ، م : « ولا ينقض » ط : « ولم ينقض » ، ووجههما ما أثبت . وفى مج ، ش : « وانتقض » .

ولو ذكَر الإنسانُ كلَّ ما أُنسِيَه[١] لشَقِيَ ، ولَوْ جَدَّ فى كلِّ شىء لانتكث[٢] .

وقد يكون الذِّكر إلى الهَلَكة سُلَّما كما يكون النِّسْيانُ للسَّلامة سبباً . وسبيلُ المزاح والجِدِّ كسبيل المنْع والبذل . وعلى ذلك يجرى جميعُ القَبْض والبسط .

فهذا وما قبله جُمَلُ أقاويلِ القوم .

ونحنُ نعوذ بالله أن نجعل المزاح فى الجملة كالجدِّ فى الجملة ، بل نزعُم أنَّ بعض الْمَزحِ خيرٌ مِن بعضِ الجِدِّ ، وعامَّة الجِدِّ خيرٌ من عامَّة الهزل . والحقُّ أن يُنضَح[٣] عن بعض المزْح ، ويُحتجّ لجمهور الجِدّ[٤] . وكيف لنا بذمِّ[٥] جميعِ المزْح مع ما نحن ذاكرون .

وقد مَزَح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم[٦] . ولا يقال : كان فيه مُزاح ، ولا يقال مَزَّاح[٧] . وكذا الأئمّة ومن تبذَّل[٨] فى بعض الحالاتِ من أهل الحِلْم والوقار .

وقال عمر رضوان الله تعالى عليه : « إنَّا إذا خَلَوْنا كُنَّا كأَحَدِكم » .

وقد كان عُمرُ عبوساً قطوباً .

---

(١) ط فقط : « أتيته » ، تحريف .
(٢) ما عدا مج ، ش : « مما لا تنكث » ، تحريف .
(٣) النضح : الدفاع والذب بالحجة . م : « ينضج » ط : « ينصح » ، محرفتان .
(٤) ط : « ويجنح » .
(٥) ط : « وكيف يتم لنا بذم » م : « وكيف لنا بم » ، صوابهما فى سائر النسخ .
(٦) بعده فى ب ، ط : « وعلى آله » .
(٧) ط فقط : « مزح » ، تحريف .
(٨) ب ، م : « ومن تبدل لى » ، صوابه فى ط . وفى مج ، ش : « ومن هزل » .

وكان زيادٌ مع كُلوحِهِ وقُطوبِهِ(١) ، يمازِح أهلَه فى الخَلَا كما يَجِدُّ فى الملَا .

وكان الحجَّاج مع عُتوِّه وطُغيانه ، وتمرُّدِه وشدَّة سلطانه ، يُمازِح أَزواجَه ويرقِّص صِبيانِه . وقال له قائل(٢) : أيمازِح الأَميرُ أَهلَه ؟ قال : «والله إنْ تَرَوْنى(٣) إلَّا شيطاناً ؟ والله لربَّما رأَيتُنِى وإنِّى لأُقبِّل رِجْلَ إحداهنّ ! » .

فقد ذكرنا خَير العالَمين، وجِلَّةً من خيار المسلمين، وجبّاراً عَنيداً، وكافراً لعيناً .

وبعدُ فمن حرَّم المِزاحَ وهو شُعبةٌ من شعب السُّهولة ، وفَرْعٌ من فروع الطَّلاقة . وقد أَتانا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفيَّة السَّمْحة ، ولم يَأْتنا بالانقباضِ والقَسْوة ، وأَمرنا بإفشاءِ السلام ، والبِشْرِ عند الملاقاة ، وأَمَرَنَا بالتوادُدِ(٤) والتَّصافح والتَّهادى .

٧ — فصــــل

قد اعتذرنا(٥) فى مَعصيتك والخلافِ على محبَّتك مرَّةً بالمزاح ، ومرّة بالنِّسيان ، ومرّةً بالاتكال على عَفْوِك وعلى ما هو أَولَى بك .

(١) الكلوح : التكشر وبدو الأسنان فى العبوس . والقطوب : تزوى ما بين العينين عند العبوس . ب ، م : « وكان زياد معه كلوحة وقطوبة » ، ط : « وكان معه زيادة كلوحة وقطوبة » ، صوابهما فى مج ، ش .

(٢) ب : « قايد » م ، ط : « قائد » ، صوابهما فى مج ،ش . والقائل هذا هو عنبسة ابن سعيد ، كما سيأتى فى الفصل الرابع من كتاب النساء .

(٣) كذا فى جميع النسخ بحذف إحدى النونين ، وهو جائز فى العربية . وفى المغنى فى باب النون : « ونحو تأمرونى يجوز فيه الفك ، والإدغام ، والنطق بنون واحدة . وقد قرىء بهن فى السبعة . وعلى الأخيرة قيل النون الباقية نون الرفع ، وقيل نون الوقاية . وهو الصحيح » .

(٤) كذا بالفك فى جميع النسخ ، و فى مج فقط : « بالتزاور » .

(٥) ما عدا مج ، ش : « قد اعتدنا » .

والجملةُ[١] أنَّا لو تعمدنا ثم أَصرَرْنا ثم أنكَرْنَا ، لكان فى فَضْلك ما يتغمَّدنا[٢] ، وفى كَرَمك ما يُوجِب التَّغافُلَ عنَّا[٣] . فكيف وإنَّما سَهَوْنا ثمّ تذكَّرنا ، واعتذرنا ثمّ أَطنبنا .

فإنْ تقبل[٤] ، فحظَّكَ أَصبْتَ ، ولنفسك نَظَرت . وإنْ لم تَقبلْ فاجهَدْ جَهْدَك[٥] ، ولا أَبقَى اللهُ عليك إنْ أَبقيتَ ، ولا عفا عنك إنْ عفوتَ . وأَقول كما قال أخو بنى مِنْقر[٦] :

فما بُقْيَا علىَّ تركتُمـــانى ولكنْ خِفْتُما صَرَدَ النِّبالِ[٧]

واللهِ لَئِن رميتَنى ببَجِيلةَ لأَرمينَّك بكِنانة ، ولئنْ نهضْتَ بصالح بن علىٍّ لأَنهضنَّ بإسماعيل بن علىّ[٨] ، ولئن صُلْتَ علىّ بسليمان بن وهب[٩] لأَدمغنَّك بالحَسنِ بنِ وهب ، ولئن تِهْتَ[١٠] علىّ بمنادمة جعفر الخياط[١١]

---

(١) مج ، ش : « وفى الجملة » .
(٢) ما عدا مج ، ش : « ما يتغمده » .
(٣) ما عدا مج ش : « التغافل عنه » .
(٤) ب ، م : « فلم تقبل » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٥) مج ، ش : « فاجهد جهدك ثم اجهد جهدك » .
(٦) هو اللعين المنقرى . الحيوان ١ : ٢٥٦ واللسان (صرد ٢٣٦ ، بقى ٨٦) .
(٧) البيت من أبيات يخاطب بها جريراً والفرزدق . والصرد : الإصابة ، والخطأ ، فهو من الأضداد . فعلى الأول يراد : خفتما أن تصيب نبالى ، وعلى الثانى يراد : خفتما أن تخطىء نبالكما . والبقيا : الاسم من قولهم : أبقيت على فلان ، : إذا أرعيت عليه ورحمته .
(٨) مج ، ش : « بأحمد بن خلف وبإسماعيل بن على . وإسماعيل هو ابن على بن عبد الله ابن العباس . وهو عم السفاح والمنصور . ولى لأبى جعفر فارس والبصرة . المعارف ١٦٣ والطبرى ٨ : ٨٥ .
(٩) ابن وهب ساقطة من ب .
(١٠) ب ، م : « بهت » ، صوابه فى سائر النسخ .
(١١) هو جعفر بن دينار الخياط ، أحد قواد المأمون والمعتصم والمستعين والواثق والمتوكل . وجهه المأمون سنة ٢١٥ إلى صاحب حصن سنان فى حرب الروم . كما وجهه المعتصم سنة ٢٢٢ إلى الأفشين مدداً له . الطبرى ٨ : ٦٢٣ و ٩ : ٢٩ .

لأتيهن[1] عليك بحِسْبة[2] وهب الدَّلَّال[3] .

وأنا أرى لك أنْ تقبل العافية ، وترغب إلى الله تعالى فى السّلامة . واحذَر البَغْىَ فإنَّ مصرَعَه وخيم ، واتَّقِ الظُّلم فإنَّ مَرعاهُ وبيل .

وإياك أنْ تتعرَّض لجريرٍ إذا هجا ، وللفَرزدقِ إذا فَخَر ، ولهرْثَمَةَ إذا دبَّر[4] ، ولقَيْس بنُ زُهيرٍ إذا مكَر[5] ، وللأغلب إذا كرّ[6] ، ولطاهرٍ إذا صال[7] . ومَن عَرَفَ قدْرَه عَرَفَ قدرَ خَصمِه ، ومن جَهِلَ نَفْسَه لم يعرِفْ قدرَ غيره .

وعليك بالجادَّة ودع البُنَيَّات[8] فإنَّ ذلك أَمثلُ لك .

(١) ما عدا مج ، ش : « لأبهتن » .

(٢) ب : « بجبسة » . تحريف ما أثبت من م ، ط . والحسبة : الاكتفاء ، والمراد بكفايته لى . وفى مج مع تصحيح : « بمجالسة » ، وفى ش : « بجسة » .

(٣) فى البيان ٤ : ١٣ من يدعى وهبا المحتسب .

(٤) هرثمة بن أعين : قائد عباسى ، ولاه الرشيد مصر ثم أفريقية ، ثم عقد له على خراسان ثم قاد الجيوش المأمون أيام الفتنة ، ثم حبسه حتى مات سنة ٢٠٠ . النجوم الزاهرة والطبرى فى حوادث سنة ٢٠٠ .

(٥) قيس بن زهير سيد بنى عبس ، وكان يقال فيه « أدهى من قيس بن زهير » . جمهرة العسكرى ١ : ٥٤٧ والميدانى ١ : ٢٥٠ والمستقصى ١ : ١٢١ .

(٦) الأغلب بن جشم بن سعد بن عجل بن لجيم ، العجلى ، وهو أحد المعمرين ، عمر فى الجاهلية عمراً طويلا ، وأدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه وهاجر ، ثم كان فيمن توجه إلى الكوفة مع سعد بن أبى وقاص ، فنزلها واستشهد فى وقعة بنهاوند ، فقبره هناك فى قبور الشهداء . وانظر أخباره فى الأغانى ١٨ : ١٦٤ – ١٦٧٩ والشعراء ٥٩٥ .

(٧) طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن حمزة الرستمى ، من ولد رستم بن دستان وهم موالى خزاعة فى الإسلام وإليهم ينتمون ، وقد ندبه المأمون للقاء على بن عيسى بن ماهان قائد الأمين ، فهزم جيشه وفض جموعه سنة ١٩٥ فحينئذ سلم على المأمون بإمرة المؤمنين ، وسمى طاهر ذا اليمينين ، لأن المأمون كتب إليه لما فرغ من أمر المخلوع : يا أبا الطيب ، يمينك يمين أمير المؤمنين ، وشمالك يمين فبايع بيمينك يمين أمير المؤمنين . التنبيه والإشراف ٣٠٠ – ٣٠١ وثمار القلوب ٢٩١ .

(٨) البنيات : جمع بنية ، تصغير ابنة . وبنيات الطريق ، هى الصعاب والمعاسف . يقال للرجل فى الوعظ : الزم الجادة ودع بنيات الطريق . وقال محمود الوراق :

تنكب بنيات الطريق وجورها فإنك فى الدنيا غريب مسافر

ثمار القلوب ٢٧٨ . وفى اللسان (بنى ٩٨) أن بنيات الطريق هى الطرق الصغار تتشعب من الجادة ، وتسمى أيضاً الترهات .

وأنت ـ والله يا أخى ـ تَعلمُ عِلم الاضطرار وعلمَ الاختيار وعلم الأَخبار ، أَنّى [١] أَظهرُ منك حرباً ، وأَلطف كيداً ، وأَكثر علماً ، وأَوْزَن حِلماً ، وأَخفُّ روحاً ، وأَكرمُ عيناً ، وأَقلُّ غَثًّا [٢] وأَحسَنُ قدًّا وأَبعدُ غَورا ، وأَجْمَلُ وجهاً ، وأَنصع ظرفاً [٣] . وأَكثر مِلْحاً [٤] ، وأَنطَقُ لساناً وأَحسَنُ بياناً ، وأَجهر جَهارةً ، وأَحسن شارة [٥] .

وأَنت رجلٌ تشدو من العلم ، وتَنتِف من الأَخبار [٦] ، وتموِّه نفسَك [٧] ، وتُعِزُّ مِن قَدْرِك ، وتتهيَّأُ بالثِّياب ، وتتنبَّل بالمراكب ، وتتحبَّب بحُسْن اللقاءِ [٨] ، ليس عندك إلَّا ذاك . فلِمَ تُزاحِمُ البحرَ بالجداول [٩] ، والأَجسامَ بالأَعراض ، وما لا يتناهى بالجزءِ الذى لا يتجزَّأُ .

فأَمّا البادُّ والقامة [١٠] ، فمن يَعدِلُ بين القَناةِ والكُرَة ، ومن يميِّل بينَ النخلة والدَّقَل [١١] ، وبين رَحَى الطَّحّان وبين سيفٍ يمان . وإنما يكون التَّمييل [١٢] بين أَتمّ الخيرين وأَنقَصِ الشَّرّين ، وبين المتقاربين

---

(١) ب ، م : « أى » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٢) الغث : الردىء من كل شىء . ب : « غشا » ش : « عيبا » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .
(٣) الناصع : الخالص الواضح . ط فقط : « طرفا » .
(٤) الملح ، بالكسر : الحسن . يقال ملح يملح ملوحة وملاحة وملحاً ، أى حسن .
(٥) الشارة : الحسن والهيئة واللباس . ط ، مج ، ش : « إشارة » .
(٦) النتف : الانتزاع . ويقال رجل نتفة ، بضم ففتح ، ينتف من العلم شيئاً ولا يستقصيه .
(٧) أصل التمويه الطلاء بالذهب أو بالفضة .
(٨) ما عدا مج ، ش : « لحسن اللقا » .
(٩) ما عدا مج : « البحر بالجداول » . والجدول بفتح الجيم وكسرها : النهر الصغير ،
(١٠) الباد : أصل الفخذ . ب ، م : « فامك الباد والعامة » ط : « فإنك الباد والعامة » صوابهما فى مج ، ش .
(١١) ماعدا ب : « يمثل » . والتمثيل بين الشيئين : الموازنة بينهما . وانظر الحيوان ٢ : ٩٨ ، ١٥١ واللسان (ميل ١٦٠) . ب ، م : « النحلة » ، صوابه فى سائر النسخ . والدقل : ضرب من النخل ردىء التمر . ب ، م : « والدكل » ط : « والدكلى » ، صوابهما فى مج ، ش .
(١٢) فى جميع النسخ : « التمثيل » ، والوجه ما أثبت .

دونَ المتفاوِتين . فأمّا الخَلُّ والعَسَل ، والحَصاةُ والجَبَل ، والسّمُّ والغِذاءُ ، والفقرُ والغنى[١] ، فهذا مما لا يَخْطأُ فيه الذِّهن[٢] ولا يَكذِب فيه الحِسّ .

والخطأُ ثلاث : خطأُ الحِسّ ، وخطأُ الوَهْم ، وخطأُ الرأى . كل ذلك سبيله التنبيه والتذكير[٣] ، والتقويم والتأْنيب[٤] .

والعَمْد نوعٌ واحد ، وسبيلُه القَمْعُ والحَظْر ، والضَّرب والقتل . وأوّلُ ذلك أنْ يهجره صاحبُ الحكمة[٥] ، ولا يُطمعه فى وعظٍ ولا مجالسة .

وقد رأيتَ مَن يعاند الحقَّ إذا كانت المعرفة عِياناً . وأنت لا ترضى بجحد العِيان[٦] حتّى تدعوَ إليه ، ولا ترضى بالدُّعاءِ إليه حتّى تعادىَ فيه ، ولا ترضى بالعداوة حتّى يكون لك فى ذلك الرياسة[٧] ، ولا ترضَى بالرِّياسة دون السَّابقة[٨] ، ولا بالطَّارف دون التَّالد ، ولا بالتَّالد دون الأَعراقِ التى تسرى ، والمواليد التى تَنْمِى . ولا ترضى بأَن يكون أَوّلًا حتى تكون آخِراً[٩] ، ولا بالمداراة دون المباداة[١٠] ،

---

(١) ب فقط : « والغنا » .

(٢) هذا ما فى ب . يقال خطئ يخطأ خطأ ، من باب فرح . م ، ط : « يخطى » مسهل أخطأ يخطئ . وفى مج ، ش : « يخطئ » .

(٣) م فقط : « التثنية » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « والتأنيث » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٥) ش فقط : « أن يبهرجه صاحب الحكمة » .

(٦) ما عدا مج ، ش : « بحجة العيان » .

(٧) مج ، ش : « لك فيه الرياسة » ، وأثبت ما فى م ، ب . وفى ط : « لك الرسالة » وهذه محرفة .

(٨) كلمة « دون » ساقطة من ط . والسابقة : السبق والتقدم .

(٩) ب : « ولا يرضى بأن يكون أولا حتى يكون آخراً » . ومثله فى م مع البدء بقوله : « ولا يرضى » . مج ، ش ، ط : « ولا ترضى بأن تكون أولا حتى تكون آخراً » . ولعل الوجه ما أثبت .

(١٠) المباداة : المجاهرة كما سبق فى

ولا بالجِدال دون القتال . وحتّى ترى أَنَّ التقيَّة حرامٌ[١] وأَنَّ التقصير كُفر .

وحتّى لو كنت إمامَ الرافضة لقُتِلتَ فى طرفةٍ[٢] ولو قُتلتَ فى طرفة[٣] لهلكت الأُمّة ، لأَنَّك رجلٌ لا عَقِبَ لك . والإمامةُ[٤] لا تصلح اليوم[٥] فى الإِخْوة ، ولو صلحت فى الإِخوة[٦] كانت تصلُح فى ابن العمّ ، ثمّ دنت من الأَرحام شيئاً[٧] فصارت لا تصلُح إلّا فى الولد. وفى هذا القياسِ أَنَّها بعد أَعوامٍ لا تَصلحُ[٨] إلّا ببقاءِ الإمام نفسه إلى آخر الأَبد . وهذا هو علّة أَصحاب التناسخ[٩] . وأَنت رافضىٌّ ولم يكن هذا عندك .

فأَهدِ إلىّ الآن من خالص التُّوتيا[١٠] كما أَهديت إليك بابَ التناسُخ .

وأَنت ترى القَتْل فى حقّ المعاندة شهادةً ، وترى أَنَّ مُباينةَ

(١) التقية : أن يظهر أمراً وباطنه بخلاف الظاهر ، يفعل ذلك اتقاء .
(٢) ب : « لو قلت فى طرفة » ، م : « لو قلت فى طرفة » ، ط : « وكنت فى طرف » ، والصواب من مج ، ش . والمراد طرفة عين .
(٣) التكملة من مج ، ش .
(٤) ب : « والإماة » م : « والإماءة » ، والصواب فى سائر النسخ .
(٥) التكملة من مج ، ش .
(٦) مج ، ش : « ثم إنها دنت من الأرحام بعد ذلك » .
(٧) ب ، م فقط : « لا يصلح » ، تحريف .
(٨) مج ، ش : « المناسخة » .
(٩) ب ، م : « فاهد الأن الأن من خالبن التوتيا » ط : « فاهد الآن من لبن التوتيا » صوابهما فى مج ، ش . وفى اللسان : « التوتياء معروف حجر يكتحل به» . وهو باللاتينية : (Tutia) وبالإنجليزية : (Tuty) . وقد عرفها الطبيب محمد شرف بأنها أوكسيد الزنك غير النقى » . قال داود : « وأصل التوتيا إما معدنى يوجد فوق الأقليميا ... وإما مصنوع من الأقليميا المسحوقة » .

المنصِفين فى تعظيم العُنود سعادة [(١)] ، وأنَّ الرياسة فى دَفع الحقائق مَرْتبة ، وأنَّ الإقرار بما يظهر لِلعيون ضَعَة [(٢)] ، وأنَّ الشُّهرة [(٣)] بالمغالبة رِفعة .

أظهرُ القوم عندك حجّةً أرفعُهم صوتاً ،[وأخلقُهم [(٤)]] للتَّوبة أصلبُهم وجهاً ، وأحسنهم تَقيَّةً أقلُّهم تَحَرُّجاً [(٥)] ، وأحسَنُهم إنصافاً أشدُّهم شَغَباً .

تَعشَق المتهوِّر [(٦)] ، وتَكْلَفُ بالجَموح ، وتُصافِى الوَقَاح . والأديبُ عندك مَن يعيبُ أحاديثَ الجلساء ، واعتَرَض [(٧)] على نوادر الإخوان ، وغَمزَ فى قفا النَّديم [(٨)] ، ونَصَبَ للعالِم ، وأبغَضَ العاقل [(٩)] ، واستثقل الظَّريف ، وحَسَدَ على كلِّ نعمة ، وأنكَر كلَّ حقيقة .

جُعِلتُ فداك . إنَّما أُخرجُك من شىء إلى شىء [(١٠)] ، وأُوردُ عليك البابَ بعد الباب ،[لأنَّ [(١١)]]من شأْن النَّاس مَلالةَ الكثير ، واستثقالَ الطَّويل وإنْ كثُرَتْ محاسنُه وجَمَّت فوائده . وإنَّما أردتُ أن يكون استطرافك للآتى [(١٢)] قبلَ أن ينقضِىَ استطرافُكَ للماضى ؛ ولأنَّك متى

---

(١) العنود ، بالضم : الميل والجور عن القصد . ما عدا مج ، ش : « العمود » .
(٢) ماعدا مج ، ش : « بما يظهر العيون » وفى م أيضاً : « صفة » ، تحريف .
(٣) ما عدا مج ، ش : « الشهوة » ، تحريف .
(٤) التكلة من مج ، ش .
(٥) ما عدا مج ، ش : « وأحسنهم بغية أقلهم خرجا » ، تحريف .
(٦) مج : « المتهود » ، تحريف .
(٧) ب ، م : « وأعرض » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٨) كناية عن الغيبة . والغمز : العيب .
(٩) ب ، م : « للعاقل » ، صوابه فى سائر النسخ .
(١٠) م ، ط : « من موسى إلى شىء » ، تحريف .
(١١) التكلة من مج ، ش .
(١٢) مج ، ش : « للتالى » .

كنت للشيء متوقِّعاً ، وله منتظراً[١] ، كان أحظى[٢] لما يَرِدُ عليك ، وأشْهَى لما يُهدَى إليك . وكلُّ منتظرٍ معظَّم ، وكلُّ مأْمولٍ مكرّم .

كلُّ ذلك[٣] رغبةً فى الفائدة ، وصَبابةً بالعلم ، وكَلَفاً بالاقتباس ، وشُحًّا على نصيبى منك ، وضَنًّا بما أُؤَمِّلُه عندك ، ومداراةً لطِباعِك ، واستزادةً من نشاطك . ولأنّك على كلِّ حالٍ بَشَر ، ولأَنّك مُتناهى القوّة مدبِّر .

٨ — فصــــل

والعقلُ — حفظك الله — أطولُ رقدة من العين[٤] ، وأحوج إلى الشَّحذ من السَّيفِ[٥] ، وأَفْقَر إلى التَّعاهُد ، وأَسرعُ إلى التغيُّر ، وأَدواؤهُ أَقْتَل ، وأَطبَّاؤه أَقلّ . فمن تداركَه قبل التَّفاقُم أدرك أكثر حاجتِه ، ومن رامَه بعد التَّفاقُم لم يدركْ[٦] شيئاً من حاجته .

ومن أكبر أَسبابِ العلم كثرةُ الخواطر ، ثُمّ معرفةُ وجوهِ المطالب .

[ثمّ[٧]]فى الخواطر الغثُّ والسَّمين ، والفاسدُ والصَّحيح ، والمسرعُ إليك والبطىءُ عَنك ، والدَّقيق الذى لا يكاد يُفهَم ، والجليل الذى لا يَلْقى الفَهم . ثم هى على طبقاتها فى التقديم والتأْخير ، وعلى منازلها فى التَّبايُن [والتَّمييز[٨]] .

---

(١) مج ، ش : « منتظراً وله متوقعاً » .
(٢) م فقط : « أخطأ » ، محرف .
(٣) ط : « وذلك » .
(٤) ب فقط : « رفدة من العين » .
(٥) ما عدا مج ، ش : « من الشيب » ، تحريف .
(٦) ب ، م : « ولم يدرك » . والواو مقحمة .
(٧) التكملة من مج ، ش .
(٨) التكملة من مج ، ش .

وللمَطَالب طُرق ، ولدَرْك الحقائق أبواب ؛ فمَنْ أخطأها وانتَظَر[١] كان أسوأ حالاً ممّن لم يخطئها ولم يَنتظِر[٢] . وعلى قَدْر صحّة العقل يصحُّ الخاطر ، وعلى قدر التفرُّغ يكون التنبُّه .

هذا[٣] جِماعُ هذا الكتابِ وجمهرتُه ، وأقسامُه وجملته .

ثُمّ مِن أنفع أسبابه الحِفْظُ لما قد حُصِّل ، وَالتقييد لما وَرَد ، والانتظار لما لم يرد[٤] ، وأنْ لا تُخْلِيَ نفسَك من الفِكرَة إلّا بقَدْر جَمَام الطَّبيعة ، وأنْ تعلم أنَّ مكان الدَّرس من الحِفْظ كمكان الحِفْظ من العلم ، وأنْ تعرفَ فصْلَ[٥] ما بين طَلبِ العلم للمنافَسَةِ والشُّهرة[٦] ، وبين طلبِه للرَّغبة والرَّهبة ، وتَعلَمَ أنَّ العلم لا يجود بمكنونه ، ولا يسمح بسرِّه ومخزونه ، إلّا لمن رغِبَ فيه لكرم عُنصُرِه ، وفَضَّله لحقيقةِ جوهره ، ورَفَعه عن التكسُّب ، وصانَهُ عن التبذُّل . وأنَّه لا يُعطيك خالصَ الحِكمة حتَّى تُعطِيَهُ خالص المحبّة . كان يُقال : « مَنْ شابَ شِيبَ له[٧] » .

وخَصْلةٌ ينبغى أن تعرفَها وتقفَ عندها[٨] ، وهو أن تبدأ من العلم

(١) ما عدا مج ، ش : « ونظر » .
(٢) ما عدا مج ، ش : « ولم ينظر » .
(٣) مج ، ش : « هذه » . وجماع كل شيء : مجتمع أصله ، والجامع للأشياء الشامل ما فيها
(٤) ب : « وانتظار كما لم يرد » ، صوابه فى م ، ط . وفى مج ، ش : « والانتظار لما يرد » .
(٥) الفصل : الفرق . ما عدا مج ، ش : « فضل » .
(٦) ما عدا مج ، ش : « للمناسبة والشهوة » . وفى مج ، ش : « للمنافسة والشهوة » والوجه ما أثبت .
(٧) الشوب : الخلط .
(٨) م : « وخصلة ينبغى أن يعرفها ويقف عندها وهو أن يبدأ من العلم بالمهم ويختار » .. إلخ ، تحريف . وفى مج ، ش : « وخصلة ينبغى أن تعرفها وتصطنعها وتتذكرها وتقف عندها » .

بالمهمِّ ، وتختار من صنوفه ما أنت أنْشَطُ له[١] ، والطَّبيعةُ به أعْنَى ؛ فإنَّ القَبول[٢] على قَدْر النَّشاط ، والبلوغَ فيه على قدر العناية .

ثُمّ من أفضل أسبابه تخليصُ أخلاقه[٣] ، وتمييزُ أجناسه ، والمعرفةُ بأقداره ، حتَّى تُعطَى كلّ معنى حقَّه من التقريب والرِّفعة[٤] ، وقِسطَه من الإبعاد والضَّعَة ، حتَّى لا تتشاغلَ[٥] إلَّا بالسَّمين الثمين ، وبالخطير النَّفيس ، ولا تُلقِيَ إلَّا الغَثَّ الخسيس ، والحقير السخيف . فإنَّك متى كنتَ كذلك لم تَعتبِرْ فَضْل[٦] ما بين النَّظَرين ، ولا صَرْفَ ما بين النَّعْلين[٧] .

الكَيْس كلُّ الكَيس ، والحِذْقُ كلُّ الحذق : أَنْ لا تَعْجَلَ ولا تبطئَ ، وأَنْ تَعلمَ أنَّ السُّرعة غير العَجَلة ، وأنَّ الأَنَاةَ خِلافُ الإبطاء . وأَنْ تكون على يقينٍ من دَرْك الحقِّ إذا وَفَّيته شرطه[٨] ، وعلى ثقةٍ من ثَوَاب النَّظر إذا أعطيتَه حقَّه .

هذا[٩] جملةُ ما للعُذر فى هذه المسأَلة ، وجملةُ الحُجَّة فيما قدَّمنا من الافتنان والإطالة . فإنْ كُنَّا أصبْنا فالصَّوابَ أردنا ، وإنْ كنَّا أخطأْنا فما ذاك عن فسادٍ من الضمير ، ولا قِلَّة احتفالٍ بالتقصير . ولعلّ طبيعةً

---

(١) ما عدا مج ، ش : « ما أنت أبسط له » .
(٢) ما عدا مج ، ش : « فإن القول » ، تحريف .
(٣) ما عدا مج ، ش : « تلخيص » . والتلخيص : التبيين والشرح .
(٤) ما عدا مج ، ش : « حتى يعطى كل معنى حقه من التقرب والرفعة » .
(٥) ما عدا مج ، ش : « حتى لا يتشاغل » .
(٦) ش : « لم تميز فصل » ، مج : « لم تميز فضل » .
(٧) ط ، مج ، ش : « ولا فرق ما بين النعتين » . والصرف : الزيادة والفضل .
(٨) ب فقط : « أوفيته » .
(٩) مج ، ش : « هذه » .

خانت ، أَو لعلّ عادةً جذبَت[١] ، أَو لعلّ سهواً اعترض ، أَو لعلّ شُغلًا مَنَع .

خفِّض عليك أَيُّها السامع ، فإِنَّ الخطأَ كثير عامّ[٢] ، وغالبٌ مُسْتَوْلٍ ، والصَّوابَ قليلٌ خاصّ ، ومقموع مُسْتخفٍ .

فوجِّهِ اللائمةَ إِلى أَهلها ، وأَلْزِمْها مَنْ هو أَحقُّ بها ، فإِنَّهم كثير ومكانهم مشهور[٣] .

اعجبْ من الصَّواب لا تعجَبْ من الخطأ . اعجبُ من أَنَّ العجبَ قد ذهب . اعجبْ ممن تعجَّبَ وفيه العَجَب أَعجب . وكيف التعجُّبُ والأُمور كلُّها عَجَب[٤] ؟!

كنت[٥] أَتعجَّبُ من كلِّ فعل خرج من العادة ، فلمَّا[٦] خرجت الأَفعالُ بأَسرها من العادة صارت[٧] بأَسرها عجباً ، فبدخولِ كلِّها فى باب العَجَب خرجَتْ بأَجملها من باب العَجَب .

وقد ذكر[٨] الله تعالى ذكرُه التعجُّبَ فى كتابه جلَّ جلاله . وقد تعجَّب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آلِه فى زمانِه ، وفى الناس

---

(١) مج ، ش : « أو لعل علة حدثت » .
(٢) ما عدا مج ، ش : « كبير عام » ، تحريف .
(٣) ما عدا مج ، ش : « ومكانك مشهور » .
(٤) هذه الفقرة كلها ليست فى مج ، ش . وهى نص ما فى م ، ط . لكن فى ب : « أعجب الصواب لا تعجب وفيه العجب أعجب . وكيف التعجب والأمور كلها عجب » .
(٥) ما عدا مج ، ش : « كيف » .
(٦) ما عدا مج ، ش : « كما » .
(٧) من العادة ، ساقطة من ط . وفى ب ، م : « سارت » ، وفى ط : « وسارت » ، تحريف .
(٨) ماعدا مج ، ش : « وقد ذكرنا » ، تحريف .

يومئذ النَّاقِصُ والوافر ، والمشُوب والخالص ، والمستقيم والمعوَجّ . وقال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وإنْ تَعْجَبْ فعَجَبٌ قَوْلُهم[١] ﴾ ، وقال له[٢] : ﴿ بَلْ عجِبْتَ ويَسْخَرُون[٣] ﴾ .

واعلمْ أنَّه لم يبق من المتعجِّب الفاتك[٤] إلَّا نصيبُ اللِّسان ، ولا من المستمِع الفاتك[٥] إلَّا حِصَّة السَّمع . فأمَّا القلوب فخاوية قاسية ، وراكدةٌ خامدة ، لا تَسمع داعياً ولا تُجيب سائلًا ، قد أغفلها سوءُ العادة[٦] ، واستولَى عليها سُلطان السُّكرة[٧] .

فدعْ عنكَ ما لست مِثلَه[٨] ، فإنَّ فيما أُورده عليك شغلًا شاغلًا[٩] ، وهمًّا داخلًا .

اعلمْ أنَّ الله تعالى قد مسخَ الدنيا بحذافيرها ، وسَلَخَهَا من جميع معانيها . ولو مَسَخها كما مسخ بعض المشركين قِرَدةً ، أو كما مسخ بعض الأُمَم خنازيرَ ، لكان قد بقَّى بعضَ أُمورها ، وحبس عليها بعضَ أعراضها ، كبقيَّة ما مع القرد في ظاهِرِه[١٠] من شَبَه الآدمّى ، وبقيَّةِ ما مع الخنزير

---

(١) الآية ٥ من سورة الرعد .

(٢) له ، ساقطة من مج ، ش ، ط .

(٣) الآية ١٢ من سورة الصافات .

(٤) الفاتك : كل من يهجم على الأمور العظام غير مبال بما يفعل ، وأصل الفتك القتل مجاهرة . ما عدا مج ، ش : « القائل » .

(٥) ما عدا مج ، ش : « القائل » .

(٦) أغفلها : جعلها غافلة .

(٧) السكرة : حالة بين العقل وعدمه ، وغلبة اللذة على الشباب . ما عدا مج ، ش « السكر » .

(٨) مج ، ش : « ما لست منه » .

(٩) ما عدا مج ، ، ش : « وعليك شغلا شاغلا » ، تحريف .

(١٠) ب ، م : « فى ظاهرة » ، تحريف .

فى باطنِه من شبه البشرىّ [1] . لكنّه جل ذكره مسخَ الدُّنيا مسخاً متتبّعاً ، ومُستقصًى مستفرَغاً ، فَبَيْنَ حَالَيْها [2] جميعُ التضادّ ، وبين مَعنَيَيْها [3] غايةُ الخلاف .

فالصوابُ اليومَ غريب ، وصاحبُه مجهول . والعجب ممن [4] يصيب وهو مغمور ، ويقول وهو ممنوع ، فإنْ صرتَ عليه عوناً مع الزّمان قتلتَه ، وإن أمسكت عنه فقد وفّرته [5] .

ولسنا نُريد منك النُّصرة ولا المعونة ، ولا التأْنيسَ ولا التعزية [6] . وكيف أَطلب منك ما قد انقطع سبَبُه ، واجتُثَّ أَصلُه . وقد كان يقال : « مَنْ طلب عيباً وجدَه » .

هذا فى الدهر الصَّالح دون الفاسد . فإنْ أَنصفْتَ فقد أَغْرَبت ، وإنْ جُرتَ فلم تَعْدُ ما عليه الزَّمان .

وهَبَ الله لنا ولك الإنصاف ، وأَعاذنا وإيَّاك من الظُّلم . والحمد لله كما هو أهلُه ، ولا حولَ ولا قوة إلَّا بالله العلى العظيم [7] .

وصلى الله على سيدنا محمد خاصة ، وعلى أَنبيائه عامة ، وسلَّمَ .

---

(١) م ، ط : « الهشر » .
(٢) ما عدا مج ، ش : « حاليهما » .
(٣) ما عدا مج ، ش : « معنييهما » .
(٤) ما عدا مج ، ش : « من » .
(٥) مج ، ش : « رفدته » .
(٦) م : « ولا التأنيث ولا التغرية » ، تحريف .
(٧) العلى العظيم ، من ب فقط . وبدل هذا فى كل من مج ، ش : « وهو حسبنا ونعم الوكيل والمعين » ، كما أن عبارة الصلاة والتسليم التالية ليست فيهما .

٤

من رسالة في

مَدْحِ النَّبِيذِ وصِفَةِ أَصْحَابِه

إلى الحسن بن وهب



فصـــــل

من صدر رسالته إلى الحسن بن وهب(١)
فى مـدح النبيذ وصفة أصحـابه

أَنا ـ أَبقاك الله ـ الطالبُ المشغول ، والقائل المعذور ، فإِنْ رأَيتَ خطأً فلا تنكر فإِنِّى بصَددِه وبعَرَضٍ منه ، بل فى الحال التى تُوجبه(٢) ، والسَّببِ الذى يؤدِّى إِليه . وإِنْ سمعتَ تسديداً فهو الغريب الذى لا نجده(٣) . اللهم إِلَّا أَن يكون من بركة مكاتبتك ، ويُمن مطالبتك . ولأَنَّ ذكرك يَشْحَذ الذِّهن ، ويصوِّرك فى الوهم ، ويَجلُو العقل ؛ وتأْميلك ينفِى الشُّغل .

ولا يُعجبنى ما رأَيتُ من قلَّة إِطنابك(٤) فى هذا النَّبيذ ، وقلَّة تلهِّيك بهذا الشرابِ وأَنت تجد من فَضْل القول وحُسْن الوصف مالا يُصاب عند خطيبٍ ، ولا يُوجَدُ عند بليغ . وأَنت ولو مَشَيتَ الخُيَلاءَ ، وحَقَّرت العظماءَ ، وأَرغَبْتَ الشعراءَ ، وأَعطيتَ الخطباءَ ، لِيكونَ القولُ منهم موصولًا غير مقطوع ، ومبسوطاً غير مقصور ، لكنتَ بعدُ مقصِّراً فى أَمره ، مفرِّطاً فى واجِب حقِّه . فلا تأْديبَ اللهِ قَبِلتَ ، ولا قولَ الناصح سَمِعت .

---

(١) الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين ، كاتب شاعر ، كان معاصراً لأبى تمام والبحترى ، ومحمد بن عبد الملك الزيات . وقد رثاه البحترى بعد وفاته ، فوات الوفيات ١ : ٢٦٧–٢٦٩ . وفى سنة ٢٢٩ يذكر الطبرى أن الخليفة الواثق ألزمه فيمن ألزمهم من الكتاب أن يؤدى أربعة عشر ألف دينار ، كما ألزم أخاه سليمان بن وهب كاتب إيتاخ أن يؤدى أربعمائة ألف دينار .

(٢) ب : « يوجبه » ، صوابه فى م ، ط .

(٣) ط : « لا تجده » بالتاء .

(٤) الإطناب : المبالغة فى المدح أو الذم . والمطنب : المداح لكل أحد . ب : « أظانك » تحريف ، وفيها أيضاً : « ولم يعجبنى » .

قال الله تبارك وتعالى[١] : ﴿وأَمَّا بِنِعْمَةِ ربِّكَ فَحَدِّثْ[٢]﴾. وقال الأَوَّل : « استدِمِ النِّعمة بإِظهارها ، واستَزِدْ الواهبَ بإِدامة شكره[٣] ».

بل كيف أَنِستَ بالجلساءِ[٤] ، وأَرسلتَ إِلى الأَطبَّاء ولم يكن فى قربك [منه[٥]] ما يغنيك ، وفى النظر إِليه ما يَشفيك ؟ ولِمَ ملكتَ نفسَك دون أَن تهذِىَ[٦] ، ولم رأَيت الوقارَ مُروءَةً قبل أَن تستخِفّ[٧] ولم كان الهذيانُ هو الهذيان ، والسُّخف هو المروءة ، والتَّناقض هو الصِّحّة وإِلَّا بأَىّ شىءٍ خُصصتَ[٨] ، وبأَىِّ معنًى أُتيتَ ، [٩] ولِمَ لمْ تخلع فيه العِذار ، ولم تخرج فيه عَنْ كل مقدار[١٠] .

وأَىُّ شىءٍ أَجْرَبَ جلدَك وأَماتَ حالك ، وأَضعف مَسرَّتك[١١] ، وأَوحش منك رفيقَك ، إِلَّا العقوبةُ المَحْضة ، وإِلَّا الغضبُ والعقاب ، وحرمك الثَّوابَ إِلَّا التهاونُ فى أَمره ، وقلَّةُ الرِّعاية لحقِّه .

وكيف صارت أَمراضى أَمراضَ الأَغنياءِ وأَمراضُك أَمراضَ الفقراءِ إِلَّا لمعرفتى بفضله ، واستخفافِكَ بقَدْره . أَلا تَرَى أَنِّى مُنقرِسٌ مفلوج ، وأَنت أَجْرَبُ مَبْسور[١٢] .

---

(١) بدله فى ط : « سمعت قول الله تبارك وتعالى » بتكرار «سمعت» .
(٢) الآية ١١ منسورة الضحى.
(٣) ط : «المواهب بإدامة شكرها» .
(٤) ب ، م : «أيست بالجلساء» ، تحريف .
(٥) التكلة من م .
(٦) ب ، م : « أن تهدى » بالدال المهملة .
(٧) ب : « تستخفى » .
(٨) ب ، م : « خصصته » .
(٩) ب ، م : « أتيته ».
(١٠) ب ، م : « من كل مقدار » .
(١١) ب ، م : « وضعف مسرتك » .
(١٢) المبسور : من به البواسير . والباسور : علة تحدث فى المقعدة . وفى جميع النسخ : « مستور » ، ولا وجه له .

فإنْ تُبْتَ فما أقرب الفرَج ، وأسرعَ الإجابة . وسنفرُغ لك إنْ شاءَ الله قريباً ، وتفلح سريعاً .

وإنْ أصررْتَ وتتايعت وتماديتَ[١] أتاك والله من سَفِلة الأدواء ، وزُوِىَ عنك من عِلْية الأمراض ، ما يضعُك موضعاً لا ارتفاعَ معه ، ويُلزِق بعَقِبك عاراً لا زوالَ له. ثم تُتبِعُ أشياخك السُّبّة، وتُتبِعُهم المذمّة .

عَلِمَ اللهُ أنَّه استظْرَفَك واستملحك ، واستَحْسَن قَدَّك ، واسترجح عَقْلَك ، وأَحسَنَ بك ظنًّا ، ورآك[٢] لنفسِهِ أهْلًا ، ولاتِّخاذه موضعاً ، وللأُنس به مكاناً ، وأنت لاهٍ عنه زارٍ عليه ، متهاونٌ به ، قد أقبلْتَ على ديوانك تُشغَل بملازمته ، وتَدعُ ما يجب عليك من صِفاته ، والدُّعاءِ إلى تعظيمه . بلْ هل كنتَ من شِيعته والذابِّين عن دَوْلته ، والمعروفين بالانقطاع إليه ، والانبتات فى حبله[٣] ، إلّا أن يكون عندك التقصيرُ لحقِّه ، والتَّهاونُ بـأمرِهِ اللازِم ، ونَهْىُ الناس عنه .

ولو خرجتَ إلى هذا لخرجتَ من جميع الأخلاق المحمودة ، والأفعال المرضية . وأحسَب أنَّك لا تعظِّمه ولا ترقُّ له . ولو لم تتعصَّب إلَّا لجماله وحسنه ، ولو لم تُحافظ على نقائه وعِتْقه لكان ذلك واجباً ، وأمراً معروفاً . فكيف مع المناسبةِ التى بينكما ، والشَّكلِ الذى يجمعكما . فإنْ كان بعضُك لا يصون بعضاً وأنت لا تعظِّم شقيقاً ، فأنت والله من حِفْظِ العشيرة أبْعَدُ ، ولمعرفة الصَّديقِ أنكر .

ولقد نعيت إلىّ لُبّك ، وأثكَلْتَنِى حِفاظَك[٤] ، وأفسدت عندى كلَّ

(١) التتايع : التهافت فى الشر ، والوقوع فيه . ب ، م : « تتابعت » ، صوابه فى ط .
(٢) ب ، م : « وزادك » ، صوابه فى ط .
(٣) الانبتات : الانقطاع . والمراد به الملازمة وتوثق الصلة .
(٤) أثكله الأمر : جعله يفقده ، يقال أثكلها الله ولدها ، وأثكله الله أمه ، إذا أصابهما بفقدهما . ب : « أتكلتنى » صوابه فى ط ، م .

صحيح . وقد كان يقال : « لا يزال النَّاس بخيرٍ ما تعجَّبُوا من العَجَب ».
قال الشاعر[١] :

وهُلك الفتى أَنْ لا يَرَاحَ إلى النَّدَى وأَن لا يرى شيئاً عجيباً فيَعْجَبا

قال بكر بن عبد الله المُزَنِيّ[٢] : « كنا نتعجَّب من دهرٍ لا يتعجَّب أَهلُه من العجب فقد صرنا فى دهرٍ لا يَستحسِنُ أَهله الحَسَن . ومَن لا يستحسِن الحَسَن لم يستقبح القبيح » .

وقال بعضهم : « العَجب تَركُ التعجُّب من العَجَب » .

ولم أَقُلْ ذلك إلَّا لأَن تكون به ضنيناً[٣] ، وبما يجب له عارفاً . ولكنَّك لم توفِّر حقَّه ولم توفِ نصيبه[٤] .

فإن قلت : ومَنْ يقضِى واجبَ حقِّه ، ويَنتهِضُ بجميع شكره ؟ قلنا : فهل أَعذَرْتَ فى الاجتهاد حتَّى لا يُذمَّ إلَّا تعجُّبُك ، وهل استغرقْتَ الاعتذارَ حتَّى لا تعابَ إلَّا بما زاد على قوّتك . ولولا أَنك عين الجَوَاد[٥] لم نطلبْهُ منك . ولولا ظَنُّك[٦] لم نَحْمَدْك عليه . ولولا معرفتُك

(١) هو حارثة بن بدر الغدانى ، كما فى الحيوان ٣ : ٨٠ والبيان ٣ : ٢١٩ والأغانى ٢١ : ٣١ وأمالى المرتضى ١ : ٣٨٨ ويقال إن حارثة قد تمثل به . ونسب فى معجم البلدان ٢ : ٢٥٤ إلى عمرو بن النعمان البياضى . وانظر أمالى الزجاجى ٣٠ .

(٢) بكر بن عبد الله المزنى : نسبة إلى مزينة ، أبو عبد الله البصرى ، ثقة ثبت . مات سنة ست ومائة . تقريب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ١٧١ . وفى جميع النسخ : « المرى » ، صوابه ما أثبت . وانظر الحيوان ٦ : ٥٠٨ - ٧ : ٢٠٢ ، ٢٥٤ . ولبكر هذا أقوال مأثورة فى مواضع كثيرة من البيان والتبيين . وكان من النساك والزهاد من أهل البيان .

(٣) ب : « ظنينا » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) ط : « ولم تعرف نصيبه » .

(٥) عين الجواد ، أى نفسه ، والمراد الجواد الكامل ، الجامع لأسباب السخاء ، وفى الحماسة ١٦٩١ بشرح المرزوقى ، قول عبد العزيز بن زرارة الكلابى :

فإلا أكن عين الجواد فإننى على الزاد فى الظلماء غير شتيم
وإلا أكن عين الشجاع فإننى أرد سنان الرمح غير سليم

ب : « عين الجوار » ط : « عين الجود » . والضمير فى « لم نطلبه » عائد إلى النبيذ المفهوم من الكلام .

(٦) م : « ضنك » .

بفَضْله لم نعجب من تقصيرك فى حقِّه ، ولولا أَنَّ الخطأَ فيك أَقبح ، والقبيحَ منك أَسمج ، وهو فيك أَبْيَنُ والنَّاسُ به أَكلف[(١)] ، والعيونُ إليه أَسرع – لكان كتابُنا كتابَ مُطالبة ، ولم يكن كتاب معاتبة ، ولشَغَلنا الحِلمُ لك عن الحلم عليك ، والقولُ لك عن القول فيك .

وقد كنتُ أَهابك بفضلِ هيبتى لك ، وأَجترئُ عليك بفَضْل بَسْطِك لى ، فمنعنى حِرصُ الممنوع ، وخوفُ المشْفق ، وأَمْن الواثق ، وقناعة الراضى .

وبعد فمن طَلب ما لا يُجاد به ، وسَأَل ما لا يُوهَب مثلُه مِمَّن يجود بكلِّ ثمين ، ويَهَبُ كلَّ خطير ، فواجبٌ أَن يكون من الردِّ مشفِقاً ، وبالنُّجح مُوقِناً .

وإن كان ، أَبقاك اللهُ[(٢)] ، أَهلًا لأَن يُمنَع ، وكنتَ حفظك الله أَهلًا أَن تَبذُل ، وجب أَن تكون[(٣)] باذلًا مانعاً ، وساكناً مطمئنًّا ، إلَّا أَن يكون الحرب سِلماً سِجالًا ، والحالاتُ دُوَلا .

ولهذه الخصالِ ما وقع الطَّلَب ، وشاع الطمع .

فإنْ منعتَ فعذرك مبسوطٌ عندَ من عرف قدره[(٤)] ، وإنْ بذَلتَ فلم تَعْدُ الذى أَنت أَهلُه عند من عرف قَدْرَك ، إلَّا أَنَّه لا يجودُ بمثله إلَّا غنىٌّ عند جميع الناس ، أَو عاقلٌ فوق جميع الناس .

وكيف لا أَطلُبُ طلبَ الجرىءِ المتهوِّر ، وأُمسك إمساكَ الهائب

---

(١) م ، ط : « فيه أكلف » .
(٢) فى جميع النسخ : « أبقاه الله » ، والوجه ما أثبت .
(٣) ب ، ط : « يكون » .
(٤) ط : « قدرك » . والمراد قدر النبيذ .

الموقَّر. وليس في الأَرض خَلْقٌ يُغتَفَر [١] في وصفه المحالُ ولا يُستحسَنُ الهذَيانُ سواه ؟ !

على أَنَّ مِن الهذيان ما يكون مفهوماً، ومن المحال ما يكون مسموعاً [٢] .

فمن جهِلَ ذلك ولم يعرفْه ، وقصَّر ولم يبلغْه [٣] ، فلْيسمعْ كلامَ اللَّهْفان والثَّكلان ، والغَضْبانِ والغَيْران، ومرقِّصةِ الصِّبيان ، والمُنْعِظِ [٤] إذا دنا منه الحَلَق .

حتَّى إذا استوهَبَك لم تهبْ له منه [٥] حتَّى تقفَ وقفة ، وتُطرِقَ ساعة [٦] ، ثم تستحسن وتستشير ، ثم تشفَّع [٧] على مُستوهِبه ، وتُعجِّبَ من شاربِه ، ثم تُطيلَ الكتاب بالامتنان ، وتُسطِّر فيه بتعظيم الإنعام مع ذكر مناقبه ، ونَشْر محاسنه [٨] بقدر الطاقة. وإنْ لم تبلغ الغاية فاعرِفْ وزْنَه ، واشهدْ بطيبه ، وأَرِّخْ ساعته [٩] ، واشهَرْ في النَّاس يومَه [١٠] .

وما ظنُّك بشيءٍ لا تقدر أَن تشرد في ذكره [١١] وتفرِّطَ في مدحه ،

---

(١) ب ، م : «يفتقر» .
(٢) ما يكون، ساقطة من ب، م .
(٣) ب فقط : «فلم يبلغه» .
(٤) ب : « المنفظ » م : « والمنفط » ط : « والمتعظ » صوابهما ما أثبت . والحلق : الذى فسد عضوه فانعكس ميل شهوته . وهو من ألفاظ المولدين . وانظر شفاء الغليل ص ٧٠ والحيوان ١ : ٢٢٥ — ٣ : ١٦٦ . وفى جميع النسخ : « والحلق » ، والواو مقحمة .
(٥) ب ، م : «وحتى واتاك أن يهب لى منه » وليس له وجه . وأثبت ما فى ط .
(٦) ط : «وتطرقه ساعة» .
(٧) فى جميع النسخ : «تشفع» .
(٨) ب ، م : «وبشر محاسنه» .
(٩) فى جميع النسخ : «وأرح» بالحاء المهملة .
(١٠) فى جميع النسخ : « وأشهد » بالدال .
(١١) الشرود : الذهاب والهرب . م ، ط : « تسرد فى ذكره » .

وتقصيرك واضح فى لونه[١]، مكتوب فى طعمه[٢]، موجودٌ فى رائحته[٣]، إذْ كان كلُّ ممدوح يقصُر عن مدحه وقدره، ويَصغُر فى جنبه.

ولو لم يُستدَلّ على سعادة جَدِّك، وإقبالِ أَمرك، وأَنَّ لك زِىَّ صِدْقٍ فى[٤] المعلوم، وحَظًّا[٥] فى الرِّزق المقسوم، وأَنَّك ممن تبقى نِعمُه، ويدومُ شكره، ويَفهم النِّعمة ويَرُبُّها[٦]، ويدْرأُ عنها ويَستديمُها[٧]، إلَّا أَنَّه وقع فى قَسْمك، وكان فى نصيبك – لكان ذلك أَعظمَ البرهان، وأَوضحَ الدلالة.

بل لا نقول: إنَّه وقع اتفاقاً وغَرْساً نادراً، حتَّى يكون التَّوفيق هو الذى قصد به، والصُّنعُ هو الذى دلَّ عليه.

ولو لم تملكْ غيره لكنتَ غنيًّا، ولو ملكت كلَّ شىءٍ سواهُ لكنت فقيراً. وكيف لا يكون كذلك وهو مُستراحُ قلبِكَ، ومَجالُ عَقلك، ومرتَعُ عينك[٨]، وموضعُ أُنسك، ومُستنبَط لذَّتك، وينبوعُ سرورك، ومِصباحُك فى الظَّلام، وشِعارك من جميع الأَقسام.

وكيف وقد جمع أُهبة الجَلال، ورشاقة الخِلال، ووقار البَهاءِ،

---

(١) فى الأصول: «فى كونه».

(٢) ب: «مكثور فى طعمه» م: «مكثوب فى طعمه» ط: «مكتوباً فى طعمه»، ولعل الوجه ما أثبت.

(٣) ط فقط: «موجوداً» بالنصب.

(٤) ب، م: «ذى صدق»، تحريف. والزى: اللباس والهيئة والمنظر، وأصله زوى، تقول منه زييته، والقياس زويته.

(٥) ب: «وخطا» م: «وخطأ»، صوابهما فى ط.

(٦) رب النعمة: حفظها ورعاها. وفى الحديث: «لك نعمة تربها». ط فقط: «تربيها»

(٧) ب، م: «ويذرعنها»، صوابه فى ط.

(٨) يرتع: يلهو ويلعب وينعم. وفى الأصول: «ومربع عينك»، والوجه ما أثبت. ومنه قول المتنبى:

حشاى على جمر ذكى من الهوى ... وعيناى فى روض من الحسن ترتع

وشَرف الخير [١] ، وعزّ المجاهَرَة [٢] ولذّة الاختلاس ، وحلاوةَ الدَّبيب [٣] .

وسأَصف لك شَرَفَ [٤] النبيذِ فى نفسه ،وفضيلتَه على غيره ، ثم أَصِفُ فَضْل شرابك على سائر الأَشربة ، كما أَصِفُ فضلَ النَّبيذ على سائر الأَنبذة ؛ لأَنَّ النبيذ إذا تمشَّى فى عظامك ، والتبسَ بأَجزائك ، ودبّ فى جَنَانك ، مَنَحكَ صِدقَ الحسِّ ، وفَراغَ النفس ، وجعلَكَ رخىّ البال ، خلىّ الذَّرع [٥] ، قليل الشَّواغل ، قريرَ العين ، واسعَ الصَّدر ، فَسيح الهِمم [٦] حسنَ الظنّ . ثم سَدَّ عليك أَبوابَ التُّهم ، وحسّن دونَك الظَّنّ وَخواطر الفهم [٧] ، وكفاك مَئُونة الحِراسة ، وأَلَمَ الشَّفقة ، وخَوف الحَدثَان ، وذُلّ الطمع وكَدَّ الطلب [٨] ، وكلَّ ما اعترضَ على السُّرور وأَفسَدَ اللَّذَّة ، وقاسَمَ الشهوة ، وأَخلَّ بالنعمة [٩] .

وهو الذى يردُّ الشُّيوخ فى طبائع الشُّبّان ، ويَرُدُّ الشُّبّانَ فى نَشاط الصِّبيان ، وليس يخاف شاربُه [١٠] إلّا مجاوزةَ السُّرور إلى الأَشر ، ومجاوزةَ الأَشَر إلى البطر .

---

(١) م فقط : « الخيل » ، تحريف .

(٢) ط فقط : « المجاهدة » ، والوجه فى ب ، م .

(٣) أصل الدبيب المشى على هينة ، واستعمل مع الاختلاس فى معانى التوصل إلى المعشوق فى خفية . وفى جميع الأصول : « الزبيب » .

(٤) ب : « شرب » ، تحريف .

(٥) الذرع : الطاقة والوسع . م : « على الذراع » تحريف ، وفى ب : «خالى الذرع» ، وأثبت ما فى ط .

(٦) ب ، م : « الهم » .

(٧) ب ، م : « الظن خواطر الفقه » .

(٨) م : « وكمد الطلب » .

(٩) ب ، م : « واختل بالنعمة » .

(١٠) ب : « نجاة شاربه » م : « نجات شاربه » ، صوابهما فى ط .

ولو لم يكن من أَياديه ومِنَنِهِ ، ومن جميل آلائه ونِعَمِه [١] ، إلَّا أنَّك ما دُمتَ تمزُجه بُروحك ، وتُزاوِج بينه وبين دَمِكَ فقد أَعفاك من الجد ونَصبِه ، وحبَّب إليك المزاحَ والفكاهة ، وبغَّض إليك الاستقصاءَ والمحاولة ، وأَزال عنك تعقُّد الحِشْمة وكدَّ المروءة ، وصار يومُه جمالًا لأَيّام الفكرة ، وتسهيلًا لمعاودة الرّوِيّة [٢] ، لكان فى ذلك ما يوجب الشُّكر ، ويُطيب الذكر [٣] . مع أَنَّ جميع ما وصفناه وأَخبرنا به عنه يقوم بأَيسر الجرم [٤] ، وأَقلّ الثمن .

ثم يعطيك فى السَّفَر ما يُعطيك فى الحضَر ، وسواءٌ عليك البساتينُ والجِنَان [٥] . ويَصلحُ بالليل كما يصلُح بالنهار ، ويَطيب فى الصَّحو كما يطيب فى الدَّجْن ، وَيَلَذُّ فى الصيف كما يَلَذُّ فى الشتاء ، ويجرى مع كلِّ حالٍ . وكلُّ شيءٍ سواهُ فإنَّما يصلُح فى بعض الأَحوال .

ويدفع مَضَرّة الخُمار ، كما يَجلب منفعةَ السُّرور .

إن كنتَ جذلًا [كان [٦]] بارًّا بك ، وإن كنت ذا همٍّ نفاهُ عنك .

وما الغيثُ فى الحرث بأَنفَعَ منه فى البَدَن ، وما الرِّيش السُّخَام [٧] بأَدفأَ منه للمقرور [٨] .

---

(١) ب ، م : « بلائه ونعمه » .

(٢) الروية : التفكر فى مهل . ب ، م : « الرؤية » .

(٣) م ، ط : « ويطنب الذكر » . والإطناب : الإطالة .

(٤) الجرم ، بالفتح : الكسب .

(٥) البستان : جنينة فيها نخيل متفرقة ، معرب . والجنة : الحديقة ذات النخل والشجر .

(٦) التكملة من ط . والجذل : الفرح .

(٧) السخام ، كغراب : اللين الحسن ، أو ما كان ليناً تحت الريش الأعلى . وفى جميع الأصول : « السجام » ، صوابه ما أثبت .

(٨) المقرور : الذى أصابه البرد . م : « بأذنى منه » تحريف .

ويُستمرأ به الغِذاءُ[١] ويدفع به ثِقَل الماء ، ويُعالَج به الأَدواء ، ويحمرُّ به الوجنتان ، ويُعدَل به قضاءُ الدَّين .

إن انفردتَ به أَلهاك ، وإن نادمت به سوّاك .

ثم هو أَصنع للسُّرور من زلزل[٢] ، وأَشدُّ إطراباً من مُخارِق[٣] ، وقدر احتياجهما إليه كقدر استغنائه عنهما ؛ لأَنَّه أَصل اللذات وهى فرعُه ، وأَوّل السرور ونتاجُه .

ولله درُّ أَوّلٍ من عمِله وصنعَه[٤] ، وسَقيًا لمن استنبطه وأَظهره . ماذا دبَّر ؟ وعلى أَىّ شىءٍ دَلّ ؟ وبأَىِّ معنًى أَنعم ؟ وأَىَّ دفينٍ أَثار ؟ وأَىّ كنزٍ استخرج .

ومِن استغناء النَّبيذ بنفسه ، وقلَّة احتياجه إلى غيره ، أَنَّ جميع ما سواه من الشراب يُصلحه الثَّلج ، ولا يَطيبُ إلَّا به .

وأَوّلُ ما يُثْنَى عليه به ، ويُذكَر منه[٥] ، أَنَّه كريم الجوهر ، شريفُ النَّفس ، رفيع القدر ، بعيد الهَمّ . وكذلك طبيعته المعروفة[٦] وسجيَّته الموصوفة . وأَنَّه[٧] يسرُّ النفوس ويحبِّب إليها الجُود ، ويزيِّنُ لها الإحسان ، ويرغِّبُها فى التوسُّع ، ويُورِثُها الغنى ، ويَنفِى عنها الفقر ،

---

(١) م : « ويستمرى » بالتسهيل .

(٢) زلزل ، بفتح الزاءين : مغن ضارب بالعود يضرب به المثل ، وإليه تضاف بركة زلزل ببغداد ، تعلم على إبراهيم الموصلى ، وله أخبار مع هارون الرشيد مذكورة فى الأغانى .

(٣) مخارق : أحد كبار المغنين فى الدولة العباسية ، غنى لهارون والمأمون والأمين والمعتصم والواثق . وأخباره مسهبة فى الأغانى .

(٤) ب : « أول من صنعه » ، فقط .

(٥) م ، ط : « مانثنى عليه به » وفى ط أيضاً : « ونذكر منه » .

(٦) طبيعته ، ساقطة من ب ، م .

(٧) ب ، م : « وأن » .

ويملؤها عزًّا ، ويَعِدُها خيراً ، ويحسِّنُ المسارّة (١) ، ويصيرَ به النَّبتُ خِصْباً والجنابُ مَرِيعاً (٢) ، ومأْهولًا مُعْشباً .

وليس شيءٌ من المأْكول والمشروب أَجمعَ للظُّرفاء ، ولا أَشدَّ تـأَلُّفاً للأُدباءِ ، ولا أَجلبَ للمؤْنِسين ، ولا أَدعى إلى خلافِ المُمْتِعِينَ (٣) ، ولا أَجدرَ أَن يُستدامَ به حديثُهم ويُخرجَ مكنونَهم ، ويطولَ به مجلسُهم ، مِنْـه .

وإنَّ كلَّ شرابٍ وإن كان حلَا ورَقّ (٤) ، وصفا ودَقّ ، وطابَ وعذُب ، وبرد ونقخ (٥) ، فإنَّ استطابتك لأَوّلِ جُرعةٍ منه أَكثر (٦) ، ويكون من طبائعك أَوقَع . ثم لا يزال في نقصانٍ إلى أَن يعود مكروهاً وبليّة (٧) ، إلا النبيذ ، فإنَّ القدحَ الثانيَ أَسهلُ من الأَوّل ، والثالث أَيْسَرَ (٨) ، والرابع أَلذُّ ، والخامس أَسلس ، والسادس أَطرب ، إلى أَن يُسْلِمَك (٩) إلى النَّوم الذي هو حياتك ، أَو أَحد أَقواتك (١٠) . ولا خير فيه إذا كان إسكاره تغلُّباً ، وأَخْذُه بالرأْس تعسُّفاً ، حتَّى يُميت الحسَّ

---

(١) م فقط : « السارة » .

(٢) المريع : المخصب ، يقال مكان مرع ومريع : خصيب مرع ناجع . قال الأعشى :

سلس مقلــده أسيـــــ ـــل خــده مرع جنــــابه

ب ، م : « مربعان ، صوابه في ط .

(٣) في الأصول : « الممتنعين » ، ولا وجه له .

(٤) ط ، م : « وإن حلا ورق » .

(٥) النقاخ : الماء العذب البارد الذي ينقخ العطش ، أي يكسره ببرده . وفي جميع الأصول : « ونفح » ، والوجه ما أثبت .

(٦) م : « الأول جرعه منها » . وفي ب ، م . « كثر » ، وفي ط : « لأول جرعة منها كثير » . والوجه ما أثبت .

(٧) ب فقط : « وبرية » ، تحريف .

(٨) ب فقط : « أسر » .

(٩) في جميع الأصول : « يسلسك » ، ولا وجه له .

(١٠) ب : « وأحد أقواتك » .

بحدَّته ، ويَصْرعَ الشارب بسَوْرته [١] ، ويورث البُهْرَ بكِظَّته ، ولا يَسرِى فى العُروق لغِلَظه [٢] ، ولا يجرى فى البدن لرُكوده ، ولا يدخل فى العُمْق ولا يدخُل الصَّميم .

ولا والله حتَّى يغازل العقلَ ويعارضَه ، ويدغدغه ويُخادعَه [٣] ، فيسرَّه ثمّ يهزَّه [٤] ، فإذا امتلأ سروراً وعاد مَلِكاً محبوراً ، خاتله السُّكر وراوَغَه ، وداراه وما كَرَه ، وهازَلَه وغانَجَه . وليس كما يغتصب السّكَر [٥] ، ويعتسف الداذيّ [٦] ، ويفترس الزّبيب ؛ ولكن بالتفتير والغَمْز ، والحيلة والخَتْل [٧] ، وتحبيب النوم ، وتزيين الصَّمت .

وهذه صفةُ شرابك إلَّا مالا نُحيط به [٨] ، ونعوته تتبدَّلُ [٩] إلَّا ما يقبح منها الجهل به .

وخيرُ الأَشربة ما جمع المحمودَ من خصالها وخصالِ غيرها . وشرابك هذا قد أَخذ من الخمر دبيبهَا فى المفاصل [١٠] ، وتمشّيَها فى العِظام ولونَها الغريب ؛ وأَخذَ بَرْدَ الماءِ ورقَّة الهواءِ ، وحركةَ النار ، وحُمرةَ

---

(١) ب ، م : « ويسرع » بالسين ، تحريف . وسورة الشراب : تناوله للرأس ووثوبه فيه .
(٢) ط : « لغلظته » .
(٣) الدغدغة : حركة فى نحو الإبط أو البطن أو الأخمص يحدث عنه انفعال .
(٤) م : « ويسره ثم يهمزه » .
(٥) السكر ، بالتحريك : الخمر نفسها .
(٦) الداذى : شراب يتخذ من نبت له عنقود مستطيل ، وحبه كحب الشعير ، طيب الرائحة جيد الإسكار . قال :

شربنا من الداذى حتى كأننا ملوك لنا بر العراقين والبحر

(٧) فى جميع النسخ : «والحيل» ، والوجه ما أثبت .
(٨) ب ، م : « إلا مالا يحيط به » .
(٩) ب ، م : « وبعث بتبدل » ، ط : « ونعوته بتبدل » ، والوجه ما أثبت .
(١٠) م ، ط : « زينتها فى المفاصل » ، صوابه فى ب . وفى ب أيضاً : « فقد أخذ » .

خدِّك إذا خَجِلت ، وصفرةَ لونِك إذا فَزِعْتَ ، وبياض عارضَيْك إذا ضحِكت [١] .

وحسبي بصفاتك عوضاً من كلِّ حَسَن ، وخلفاً من كلِّ صالح . ولا تعجبْ أنْ كانت نهايةَ الهمّة وغايةَ المُنْية ؛ فإنَّ حُسْنَ الوجوهِ إذا وافق حُسْنَ القوام وشدَّةَ العقل ، وجودةَ الرأى ، وكثرة الفَضْل [٢] وسَعَة الخُلُق ، والمغْرِسَ الطيّبَ والنصابَ الكريم ، والظَّرف الناصع [٣] ، واللِّسان الفَخْم [٤] والمخرجَ السَّهلَ والحديث المُونِق ، مع الإشارة الحَسَنة والنُّبل فى الجِلْسة ، والحركة الرّشيقة واللَّهجة الفصيحة ، والتمهُّل فى المحَاوَرَة [٥] والهَزّ عند المناقلة [٦] ، والبَديهِ البديع والفكر الصحيح ، والمعنى الشريف ، واللفظِ المحذوف ، والإيجاز يَوْم الإيجاز والإطناب يَوْم الإطناب [٧] ، يَفُلُّ الحَزّ [٨] ويُصيب المفصِل ، ويبلغ بالعفو ما يقصّر عَنْهُ الجَهْدُ ، كان أكثَرَ لتضاعف الحُسْن ، وأحقَّ بالكمال . والحمد لله .

وإنَّ التاج بَهِىٌّ [٩] وهو فى رأسِ الملوك أَبهى ، والياقوتَ الكريم حَسَنٌ وهو فى جِيد المرأةِ الحسناء أَحسن ، والشِّعْر الفاخر حسَنٌ وهو من فى

---

(١) العارض : جانب الوجه ، وصفحة الخد ؛ وهما عارضان . ط : « وبياض عارضك » بالإفراد .

(٢) فى جميع الأصول : « الفعل » .

(٣) م ، ط : « والطرف الناصع » صوابه فى ب . وانظر ما سبق فى ص ١٠٠ .

(٤) ط فقط : « المعجم » .

(٥) فى جميع النسخ : « المجاوزة » والوجه ما أثبت .

(٦) المناقلة : مراجعة الكلام فى صخب وتنازع . والهذ : سرعة فى الكلام والقراءة . وفى جميع الأصول : « والهز » بالزاى ، تحريف .

(٧) المراد باليوم هنا الوقت . ب : « يؤم » بالهمز فى هذا الموضع وسابقه ، تحريف .

(٨) يفل : يكسر ويضرب . ب ، م : « يقل » بالقاف ، تحريف .

(٩) ب ، م : « التاج بهى » .

الأَعرابِّى أَحسن . فإِنْ كان من قولِ المنشد وقريضِه ، ومن نَحْتِه وتحبيره ، فقد بلغَ الغاية وأَقام النهاية .

وهذا الشرابُ حسَنٌ وهو عندك أَحسَن ، والهديَّة منه شريفةٌ وهى منكَ أَشرف .

وإِن كنتَ قدَّرتَ أَنِّى إِنَّما طلبته منك لأَشربَه أَو لأَسقيَه ، أَو لأَهَبَه ، أَو لأَتحسَّاه فى الخَلا ، أَو أُديرَهُ فى الملا (١) أَو لأَنافس فيه الأَكْفاءَ ، واجترَّ زيادة الخُلَطاءِ (٢) ، أَو لأَبتذِلَه لعيون النُّدَماءِ ، أَو أَعرِّضه لنوائب الأَصدقاءِ فقد أَسأْت بى الظنَّ ، وذهبت من الإِساءَة بى فى كلِّ فنّ (٣) ، وقصّرت به فهو أَشدُّ عليك ، ووَضعْتَ منه (٤) فهو أَضرُّ بك .

وإِنْ ظننت أَنِّى إِنما أُريده لأُطرف به معشوقةً (٥) ، أَو لأَستميل به هَوَى ملِك ، أَو لأَغسل به أَوضار الأَفئدة (٦) ، أَو أَداوِىَ (٧) به خطايا الأَشربة ، أَو لأَجلوَ به الأَبصار العليلةَ ، وأُصلحَ به الأَبدان الفاسدة ، أَو لأَتطوّع به على شاعر مُفْلق (٨) أَو خطيب مِصْقَع ، أَو أَديب مُدقِع ، ليَفْتِق لهم المعانىَ (٩) ، وليخرج المذاهب ، ولِمَا فى جانبهم من

---

(١) ب فقط : « أو أدير فى الملا » . والملا : المتسع من الأرض .

(٢) الاجترار : الاجتذاب والاجتلاب . ب ، م : « واختر » ط : « وأختبر » والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٦ : ١٣ ورسائل الجاحظ ١ : ١٠٢ . والخلطاء : جمع خليط ، وهو الصاحب ، والجار المصافى . ب ، م : « الخطا » ط : « الخطأ » ، والصواب ما أثبت .

(٣) ب ، م : « غن » ، صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « ووصفت منه » .

(٥) الإطراف : الإتحاف ، أطرفه بالشىء : أتحفه به . ب ، م : « لأظرف » صوابه بالطاء المهملة كما فى ط .

(٦) الوضر : الدرن والوسخ ، جمعه أوضار . ط : « وضر الأفئدة » .

(٧) م ، ط : « أو أودى » ، صوابه فى ب .

(٨) المفلق : الذى يأتى بما يعجب من الشعر . م : « مغلق » ، تحريف .

(٩) فى جميع الأصول : « ليفيق » ، والوجه ما أثبت .

الأَجْر ، وفى أَعناقهم من الشكر(١) ، ولينفُضوا(٢) ما قالت الشعراءُ فى الحمد ، وليرتجعوا ما شاع لهم من الذِّكر(٣) ؛ فإِنِّى أُريد أَنْ أَضعَ من قَدْرها ، وأَن أَكسر من بالها(٤) ، فقد تاهت وتِيهَ بها . أَو لأَن أَتفاءَل برؤْيته(٥) وأَتبرَّك بمكانه ، وآنَس بقُربه ، أَو لأَشفى به الظماءَ(٦) ، أَو أَجعله إِكسير أَصحابِ الكيمياءِ(٧) ، أَو لأَنْ أَذْكُرَك كلَّما رأَيتُه ، وأُداعبك كلَّما قابلته(٨) أَو لأَجتلب به اليُسْرَ(٩) وأَنْفِىَ العسر . ولأَنَّه والفَقْرَ لا يجتمعان فى دار ، ولا يُقيمان فى رَبْع . وَلأَتعرّف(١٠) به حُسْنَ اختيارك ، وأَتذكَّر به جَودة اجتبائك(١١) . أَو لأَن أَستدلَّ به على خالص حُبِّك ، وعلى معرفتك بفضلى ، وقيامِك بواجب حقِّى – فقد أَحسنتَ بِىَ الظنّ ، وذكرت من الإِحسان فى كلِّ فن . بل هو الذى أَصونُه صيانةَ الأَعراض ، وأَغار عليه(١٢) غَيْرةَ الأَزواج .

---

(١) فى جميع الأصول : « وفى أعنائهم من الشكر » ، والصواب ما أثبت .

(٢) النفض : الاستقصاء . ب : « ولينغضوا » ط : « ولينقضوا » ، صوابهما فى م.

(٣) ط : « وليرتجفوا مما شاع لهم من الذكر » ، تحريف .

(٤) البال : القلب ، والنفس ، والخاطر ، والأمل .

(٥) ب ، م : « إلى رؤيته » .

(٦) الظماء : مصدر ظمىء يظمأ ظمأ وظماء وظماءة . ب : « الظمأ » ط : « الظمآن » .

(٧) الإكسير : مادة مركبة كان القدماء يزعمون أنها تحول المعدن الرخيص إلى ذهب ، وشراب فى زعمهم يطيل الحياة ، معرب . ويسمى أيضاً حجر الفلاسفة . انظر استينجاس ٨٩ .

(٨) ب ، م : « وأعبك كلما قابلته » ، صوابه فى ط .

(٩) ب : « أو لأحتلب » بالحاء المهملة . وفى م : « البشرى » موضع « اليسر » .

(١٠) ب فقط : « أو لأتعرف » .

(١١) الاجتباء ، بالجيم : الاختيار والاصطفاء . وفى الكتاب العزيز : « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ، « شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم » ، « ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء » . وفى جميع الأصول : « احتبائك » بالحاء المهملة ، تحريف .

(١٢) غار يغار غيرة : ثارت نفسه لإبدائها زينتها ومحاسنها لغيره ، أو لانصرافها عنه إلى آخر . م فقط : « وأغير » ، تحريف .

واعلمْ أنَّك إن أكثرت لى منه خرجتُ إلى الفساد ، وإن أقللتَ أقسمت على الاقتصاد،

وأنا رجلٌ من بنى كنانة ، وللخلافة قرابة ،ولى فيها شُفعة[١] ، وهم بَعْدُ[٢] جنسٌ وعَصَبة ، فأقلُّ ما أَصنعُ إنْ أكثرتَ لى منه أنْ أطلُب المُلْك ، وأقلُّ مايصنعون بى أن أُنْفَى من الأَرض . فإنْ أقللتَ فإنَّك الولدُ الناصح ، وإنْ أكثرتَ فإنَّك الغاشُّ الكاشح . والسلام .

---

(١) ب : « وفيها شفعة » .
(٢) ب : « أبعد » ، تحريف .

٥

من كتابه في

طبقات المغنين

فصـــــل

من صدر كتابه فى طبقات المغنين

ثمّ إنَّا وجَدْنا الفلاسفةَ المتقدِّمين فى الحكمة ، المحيطين بالأُمور معرفةً ، ذكَروا أَنَّ أُصولَ الآدابِ التى منها يتفرَّعُ العلمُ لذَوِى الأَلباب أَربعة :

فمنها النُّجومُ وبروجُها ، وحسابُها الذى يعرف به[1] الأَوقاتُ والأَزمنة ، وعليها مِزاج الطَّبائعِ وأَيّامِ السَّنَة .

ومنها الهندسةُ وما اتَّصل بها من المساحة والوزن والتقدير ، وما أَشبه ذلك .

ومنها الكِيمياءُ والطِّبُّ اللَّذان بهما صلاحُ المعاش وقِوامُ الأَبدان ، وعِلاجُ الأَسقام ، وما يتشعَّب من ذلك .

ومنها اللُّحونُ ومعرفة أَجزائها وقَسْمها ،ومَقاطعها ومخارجها ووزنها ، حتَّى يستوىَ على الإِيقاع ويدخلَ فى الوتَر وغير ذلك ممَّا اقتصرنا من ذكره على أَسمائه وجُمَله ، اجتناباً للتَّطويل ، وتوخِّياً للاختصار . وقَصْدنا للأَمر الذى إِليه انتهينا ، وإِيَّاه أَردنا . والله الموفق وهو المستعان .

ولم يزَلْ أَهلُ كلِّ علمٍ فيما خلا من الأَزمنة يركبون مِنهاجَه ، ويسلكون طريقَه ، ويَعرِفون غامضَه ، ويسهِّلون سبيلَ المعرفة بدلائله ، خلَا الغِناءَ ، فإِنَّهم لم يكونوا عَرَفُوا عِلله وأَسبابَه ووزنَه وتصاريفه ، وكان علمُهم به على الهاجس وعلى ما يسمعون من الفارسيَّة والهندية[2]

---

(١) ب ، م : « بها » ، صوابه فى ط .
(٢) ب فقط : « والفهلندية » .

إلى أَن نظر الخليل البَصرىُّ فى الشِّعرِ ووزنِه ، ومخارجِ أَلفاظه ، وميّزَ ما قالت العرب منه ، وجمعه وأَلَّفه ، ووضع فيه الكتابَ الذى سمَّاه العَروض ، وذلك أَنَّه عرضَ جميعَ ما رُوِى من الشِّعر وما كان به عالماً ، على الأُصول التى رسَمَها ، والعِلَل التى بيَّنها ، فلم يجد أَحداً من العرب خرجَ مِنها ، ولا قصَّر دُونَها . فلمَّا أَحكمَ وبلغ منه ما بلَغ ، أَخذَ فى تفسير النَّغَم واللُّحون ، فاستدرك منه شيئاً ، ورَسَم له رسماً احتذَى عليه مَن خلفه ، واستتمَّه من عُنِىَ به[1] .

وكانَ إِسحاقُ بن إِبراهيم الموصلىُّ أَوّلَ مَن حذا حَذْوَه ، وامتثلَ هَدْيه ، واجتمعت له فى ذلك آلاتٌ لم تجتمعْ للخليل بن أَحمد قبله[2] ، منها معرفتُه بالغناء ، وكثرةُ استماعه إِيَّاه وعلمُه بحَسنِه من قبيحه ، وصحيحِه مِن سقيمه .

ومنها حِذقُه بالضَّرب والإِيقاع ، وعلمُه بوزنها . وأَلَّف فى ذلك كُتباً مُعجبة ، وسهَّلَ له فيها ما كان مُستصعِباً على غيره ، فصنع الغناءَ بعِلمٍ فاضل ، وحِذْق راجح ، ووَزْنٍ صحيح ، وعلى أَصلٍ مستحكمٍ له دلائلُ صحيحة واضحة ، وشواهدُ عادلة[3] . ولم نر أَحداً وَجَد سبيلاً إِلى الطَّعن عليه والعيب له .

وصنع كثيرٌ من أَهل زمانه أَغانىَّ كثيرة بهاجسِ طبْعِهم[4] والاتِّباع لمن سَبَقَهم ، فبعضٌ أَصاب وجْهَ صَوابِه[5] ، وبعضٌ أَخطأَ ، وبعضٌ قصَّر فى بعضٍ وأَحسَنَ فى بعض .

---

(١) ط : « واستمد من عنى به » .
(٢) ب ، م : « قبلها » صوابه فى ط .
(٣) ب ، م : « وشواهده عادلة » .
(٤) ب فقط : « بها حبس طبعهم » .
(٥) ب ، م : « وجهل صوابه » .

ووجدنا لكلِّ دهرٍ دَولةً للمغنِّين يَحملون الغناءَ عنهم ، ويُطارِحون به فِتيانَ زمانهم ، وجوارىَ عصرِهم . وكان يكون فى كلِّ وقتٍ من الأَوقات قومٌ يتنادمون ، ويَستحسنون الغناءَ ، ويميِّزون رديَّه من جيِّده، وصوابَه من خطائه (١) ، ويجمعون إلى ذلك محاسنَ كثيرةً فى آدابهم وأَخلاقهم ، ورُوَائهم وهيئاتهم (٢) ، فلم نجدْ هذه الطبقةَ ذُكِرُوا . ووَجَدْنا ذكر الغناءِ وأَهلِه باقياً .

وخُصصنا فى أَيَّامنا وزماننا بِفتْيةٍ أَشراف (٣) ، وخُلَّانٍ نِظاف ، انتظم لهم من آلات الفُتوَّة وأَسباب المروءة ما كان محجوباً عن غيرهم ، معدوماً مِن سواهم ، فحملَنى الكَلَفُ والمودّة لهم (٤) والسُّرور بتخليد فخرهم (٥) وتشييد ذكرهم والحرصُ على تقويم أَوَدِ ذِى الأَوَدِ منهم حتَّى يلحق بأَهل الكمال فى صناعته ، والفضلِ فى معرفته ، على تمييز طبقة طبقة منهم ، وتسميةِ أَهل كلِّ طبقةٍ بأَوصافهم ، وآلاتهم وأَدواتهم ،والمذاهب التى نَسبوا إليها أَنفسَهم ، واحتملَهم إخوانُهم عليها . وخلطنا جِدًّا بهَزْل ، ومزجنا تقريعاً بتعريض (٦) ، ولم نُرِدْ بأَحدٍ ممَّن سمَّينا سُوءًا ، ولا تعمَّدنا نقداً (٧) ولا تجاوزنا حَدًّا .

ولو استعملنا غير الصِّدق لفضَّلنا قوماً وحابَيْنا آخَرين . ولم نفعَلْ

---

(١) الخطاء ، كسحاب : الخطأ . ط : « خطئه » . والجاحظ يميل إلى استعمال الممدود .
(٢) م : « ورواتهم » ب : « ومروءاتهم » ، والوجه ما أثبت من ط . والرواء : المنظر ، والمنظر الحسن .
(٣) م : « بقتنة » .
(٤) لهم ، ساقطة من ب .
(٥) م ، ب : « بتجلية فخرهم » .
(٦) التقريع : التأنيب والتعنيف . ب : « تفريعاً » بالفاء ، م ، ط « تعريفاً » ، صوابها ماأثبت . والتعريض : الذم الذى لايصرح به .
(٧) ب ، م : « صحا »

ذلك ، تجنُّباً للحيف[١] ، وقصداً للإنصاف[٢] . وقد نعلم أنَّ كثيراً منهم سيُبالغ فى الذمّ ، ويحتفل فى الشتم[٣] ، ويذهب فى ذلك غير مذهبنا .

وما أيسرَ ذلك فيما يجبُ من حُقوق الفِتيان وتفكيهِهم ، والله حسيبُ من ظلم ، عليه نتوكل وبه نستعين ، وهو ربُّ العرش العظيم .

ولم نَقصِدْ فى وصف مَنْ وصفْنا من الطبقات التى صنَّفنا منهم ، إلَّا لمن أَدْرَكْنا من أهل زماننا ممَّن حصل بمدينة السلام ، إذْ مَن خرج عنها ونزع إلى الفتوّة بعد التَّوبة ، وإلى أخلاق الحَدَاثة بعد الْحُنْكة[٤] ، وذلك فى سنة خمس عشرة ومائتين[٥] . فرحم الله امرأً أحسنَ فى ذلك أَمرنا[٦] ، وحذَا فيه حَذْونا ، ولم يَعجَل إلى ذمِّنا ، ودعَا بالمغفرة والرحمة لنا .

وقد تركْنا فى كلِّ بابٍ من الأَبواب التى صنَّفنا فى كتابنا ، فُرَجاً[٧] لزيادةٍ إن زادت ، ولاحقةٍ إنْ لحقت ، أَوْ نابتةٍ إن نبتتْ . ومَنْ عسَى أَن ينتقل به الحِذْقُ من مرتبته إلى ما هو أَعلى منها ، أَو يعجزُ به القصور عَمَّا هو عليه منها إلى[٨] ما هو دونَها ، إلى مكانه الذى إليه نَقَلَهُ ارتفاعُ درجةٍ أَو انحطاطُها ، ومَنْ لعلَّنا نصير إلى ذكره ممن

---

(١) م ، ط : « تحببا » .
(٢) ط : « بل قصداً للإنصاف » .
(٣) ط : « ويحتمل فى الشتم » .
(٤) الحنكة والحنك ، بضم الحاء فيهما : التجربة والبصر بالأمور .
(٥) هذا تسجيل للسنة التى تم فيها أو بعدها تأليف هذه الرسالة .
(٦) ب : « من أحسن فى ذلك أمرنا » .
(٧) الفرج : جمع فرجة ، والمراد الفراغ الذى يكتب فيه . ب فقط : « فرحاً » بالحاء المهملة ، تحريف .
(٨) إلى ، ساقطة من ب .

عَزَب عنَّا ذِكره ، وأُنسِينا اسمَه ، ولم يُحِطْ علمُنا به ، فنصيِّره فى موضعه ، ونُلحِقُه بأَصحابه .

وليس لأَحدٍ أَن يثبت شيئاً من هذه الأَصناف إلَّا بعلمنا[١] ، ولا يستبدَّ بأَمرٍ فيه دوننا . ويُوردُ ذلك علينا فنمتحنُه[٢] ، ونُعرِّفه[٣] بما عنده ، ويصير إلى ترتيبه فى المرتبة التى يستحقُّها ، والطَّبقة التى يحتملها .

فلما استتبَّ لنا الفراغُ مما أَردنا من ذلك خَطَر ببالنا كثرةُ العيّابين من الجُهّال بربِّ العالمين، فلم نأْمَنْ أَن يُسرعوا[٤] بسَفهِ رأْيهم وخِفَّة أَحلامهم إلى نقْضِ كتابنا وتبديله ، وتحريفه عن مواضعه ، وإزالته عن أَماكنه التى عليها رسَمْنا ، وأَن يقول كلُّ امرئٍ منهم فى ذلك على حاله ، وبِقدر هواه[٥] ورأْيه ، وموافقته ومخالفته ، والميلِ فى ذلك إلى بعض ، والذمِّ لطبقة والحمدِ لأُخرى ، فيهجِّنوا كتابنا ، ويُلحقوا بنا ما ليس من شَأْننا .

وأَحببنا أَن نأْخذَ فى ذلك بالحزم ، وأَن نحتاط فيه لأَنفسنا ومَن ضمّه كتابُنا ، ونُبادر إلى تفريق نسخٍ[٦] منها وتصييرها فى أَيدى الثِّقات والمستبصرين ، الذين[٧] كانوا فى هذا الشأْن ، ثم ختموا ذلك

---

(١) ط : « بعلمها » ، تحريف .

(٢) فى جميع الأصول : « فيمتحنه » ، والوجه ما أثبت .

(٣) فى جميع الأصول : « ويعرفه » بالياء .

(٤) ب فقط : « فلم نأمن من أن يسرع » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٥) فى جميع النسخ : « ولقدر هواه » .

(٦) فى جميع النسخ : « نسخة » .

(٧) الذين ، ساقطة من ب ، م .

بالعُزْلة والتّوبة منه ، كصالح بن أَبى صالح ، وكأحمد بن سلّام ، وصالح مولى رشيدة[١] .

ففعلنا ذلك وصيّرناه أمانة فى أعناقهم ، ونسخةً باقية فى أيديهم ، ووثِقْنا بهم أُمناءَ ومُستوْدَعين[٢] وحَفَظةً غيرَ مضيِّعين ولا متَّهَمين . وعلمْنا أَنَّهم لا يَدعُون صيانةَ ما استُودِعوا ، وحِفْظَ ما عليه ائتُمِنوا.

فإن شِيبَ[٣] به شوبٌ يُخالفه ، وأُضيف إليه[٤] مالا يلائمه ، رجعنا[٥] إلى النُّسخة المنصوبة ، والأُصول المخلَّدة عند ذوى الأَمانةِ والثِّقة ، واقتصرْنا عليها ، واستعلينا بها على المبطلين[٦] ، ودفعنا بها[٧] إدغال المُدْغلين ، وتحريف المحرِّفين ، وتزيُّد المتزيِّدين ، إن شاءَ الله .

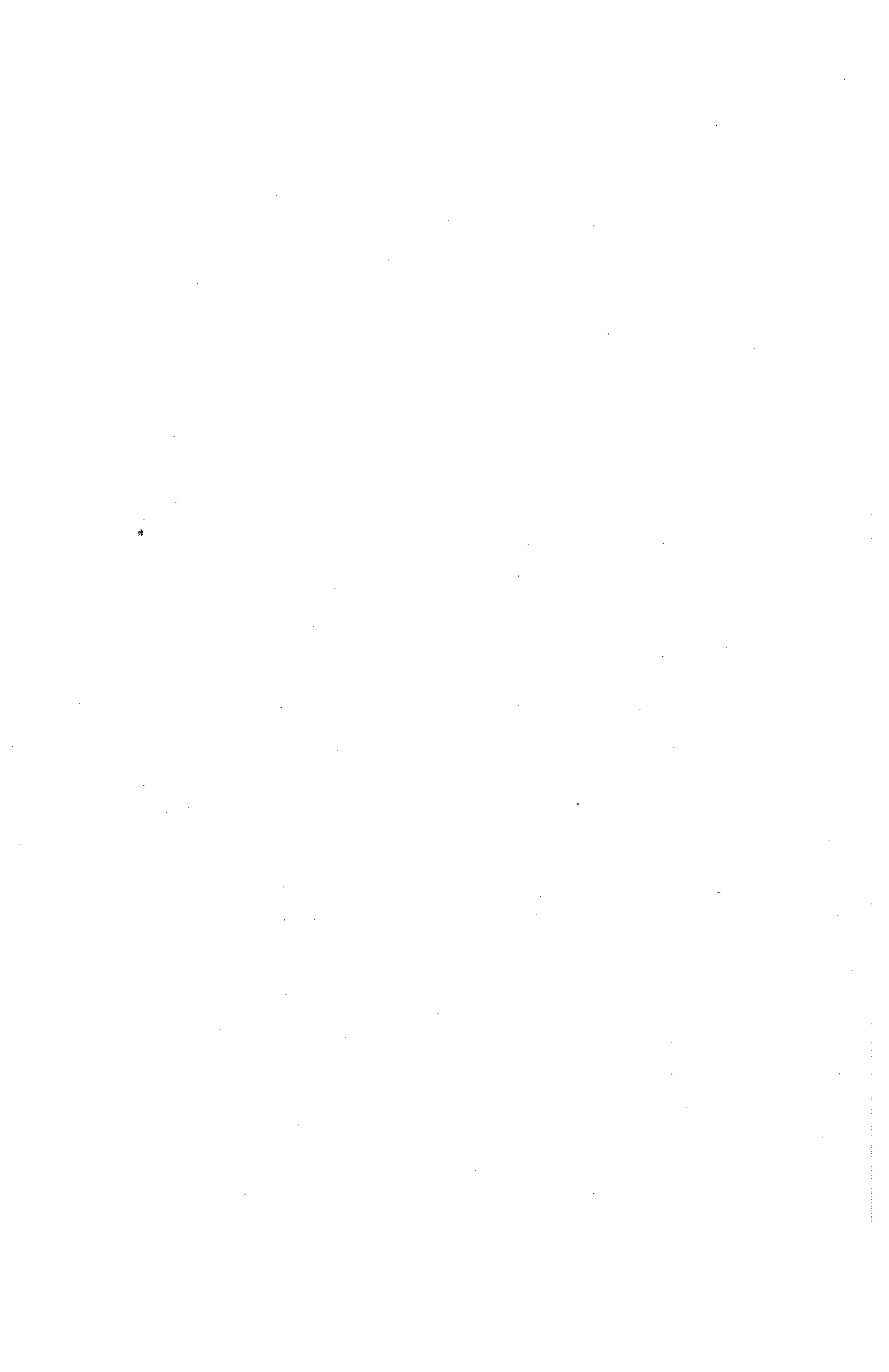
ولا قوة إلّا بالله العلى العظيم .

(١) لم أجد ترجمة لأحد هؤلاء الثلاثة ، ولم يرد لهم ذكر فيما سبق من مكتبة الجاحظ .
(٢) ب ، م : « وأمنا ومستودعين » ، صوابه فى ط .
(٣) ط : « إذا شيب » م : « فإن شئت » ، صوابهما فى ب .
(٤) إليه ، ساقطة من ب ، م .
(٥) فى جميع النسخ : « وجعلنا » .
(٦) ب ، م : « به على المبطلين » .
(٧) ب ، م : « به » .

٦

من كتابه في

النساء



١ – فصــــل
من صدر كتابه فى النساء

إنَّا لمَّا ذكرنا فى كتابنا هذا الحبّ الذى هو أَصلُ الهوى ، والهوى الذى يتفرَّع منه العِشق، والعِشْقَ الذى يهيم له الإِنسانُ على وجهه أَو يموتُ كمداً على فِراشه . وأَوّل ذلك إدخالُ الضَّيم على مروءته ، واستشعارُ الذِّلَّة لمن أَطاف بعشيقته .

ولم نُطنِب مع ذلك فى ذكر ما يتشعَّب من أَصل الحبِّ من الرَّحمة والرِّقَّة ، [وحبِّ الأَموال النَّفيسة والمراتبِ الرفيعة(١)] ، وحبِّ الرعيّة للأَئمة ، وحبِّ المُصطَنَع لصاحب الصَّنيعة ، مع اختلاف مواقع ذلك من النفوس ، ومع تفاوُتِ طبقاته فى العواقب ، احتجْنا إلى الاعتذار من ذكر العِشقِ المعروف بالصَّبابة ، والمخالفة على قوّة العزيمة ، لنجْعلَ(٢) ذلك القدرَ جُنَّةً دون من حاولَ(٣) الطَّعن على هذا الكتاب ، وسَخَّف الرأى الذى دعا إلى تأْليفه ، والإشادة بذكره(٤) . إذا كانت الدُّنيا لا تنفكُّ من حاسدٍ باغٍ ، ومن قائلٍ متكلف ، ومن سامعٍ طاعن ، ومن مُنافسٍ مقصِّر . كما أَنَّها لا تنفكُّ من ذى سلامةٍ متسلِّم ، ومن عالم متعلِّم ، ومن عظيم الخَطَر حسن المحضر ، شديدِ المحاماة على حقوق الأُدباء ، قليل التسرُّع إلى أَعراض العلماء .

وإنما العشقُ اسمٌ لِمَا فَضَل عن المقدار الذى اسمُه حبٌّ . وليس

---

(١) التكملة من م ، ط .
(٢) ب ، م : « ليجعل » .
(٣) ب ، م : « ما حاول » .
(٤) ب ، م : « والإشارة بذكره » ، صوابه فى ط .

كلُّ حبٍّ يسمَّى عشقاً ، وإنما العشق اسمٌ للفاضل عن ذلك المقدار ، كما أنَّ السَّرف اسمٌ لما زاد على المقدار الذى يُسمَّى جُوداً ، والبُخلَ اسمٌ لما نقص عن المقدار الذى يسمَّى اقتصاداً ، والجبنَ اسمٌ لما قَصَّر عن المقدار الذى يسمَّى شجاعة .

وهذا القول ظاهرٌ على ألسنة الأُدباء ، مُستعمَلٌ فى بيان الحكماء . وقد قال عُروة بن الزبير :[١] « والله إنى لأَعشَق الشَّرف كما تُعْشق المرأةُ الحسناءُ » .

وذكر بعضُ الناس رجلًا كان مُدقِعاً محروماً ، ومنحوس الحظِّ ممنوعاً ؛ فقال : ما رأيت أحداً عَشِق الرِّزق عِشْقَه ، ولا أبغضَه الرزقُ بُغضَه !

فذكر الأوّلُ عِشقَ الشَّرف ، وليس الشَّرف بامرأة ، وذكر الآخر عشق الرزق والرزق اسمٌ جامعٌ لجميع الحاجات .

وقد يستعمل الناس الكناية[٢] ، وربَّما وضعوا الكلمة بدل الكلمة ، يريدون أن يَظهرَ المعنى[٣] بألين اللفظ ، إما تَنْويهاً وإمَّا تفضيلًا[٤] ، كما سمَّوا المعزول عن ولايته مَصروفاً ، والمنهزم عن عدوِّه مُنْحازاً . نَعَمْ ، حتَّى سمَّى بعضُهم البخيل مقتصداً ومصلحاً[٥] ، وسُمِّى عامل الخراج المتعدِّى بحقِّ السلطان مستَقْصياً[٦] .

---

(١) م : « وقال عروة » فقط .
(٢) ط : « الكتابة » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٣) م فقط : « يظهروا المعنى » .
(٤) فى جميع الأصول : « إما تنوها وإما تفصلا » ، والوجه ما أثبت . والتنويه : الإظهار والإشادة والتعريف .
(٥) م : « أو مصلحاً » .
(٦) فى جميع الأصول : « مستعصياً » بالعين ، والوجه ما أثبت . والاستقصاء : بلوغ الغاية القصوى .

ولما رأينا الحُبَّ من أكبر أسباب جِماع الخير ، ورأينا البُغض من أكبر أسباب الشر ، أَحْبَبْنَا[١] أن نذكر أبواب السَّبب الجالب [للخير ، ليفرق بينه وبين أبواب السبب الجالب[٢]] للشر حتَّى نذكر أُصولهما وعِلَلَهما الداعيةَ إليهما ، والموجِبة لكونهما .

فتأمَّلْنا شأْن الدنيا فوجدنا أكبر نَعِيمِها وأكملَ لذَّاتها ، ظفرَ المحبِّ بحبيبه ، والعاشقِ بطِلْبَتِه[٣] ، ووجدنا شِقوَة الطالب المُكْدِي وغَمَّه ، فى وزن سعادةِ الطالب المُنْجِحِ وسرورِه ، ووجَدْنا العشق كلَّما كان أَرسخ ، وصاحبُه به أكلف ، فإنَّ موقع لذَّة الظفر منه أَرسخ ، وسُرورَه بذلك أَبهج .

فإنْ زعم زاعمٌ أنَّ موقعَ لذَّة الظَّفر بعدوِّه المُرصِد أَحسنُ من موقع لذَّة الظفر من العاشق الهائم بعشيقته[٤] .

قلنا : إنَّا قد رأينا الكرام والحلماءَ ، وأَهل السُّودد والعظماءَ ، ربَّما[٥] جادوا بفضلهم من لذَّة شفاءِ الغَيْظ ، ويعدُّون ذلك زيادةً فى نُبْل النفس ، وبُعد الهمّة والقَدْر . ويُجودون بالنَّفيس من الصامت والناطق ، وبالثَّمين من العُروض[٦] . وربَّما خرجَ من جميع ماله ، وآثَرَ طِيبَ الذِّكر على الغِنى واليُسْر . ولم نرَ نفْس العاشق تسخُو بمعشوقه ، ويجود بشقيقة نفسه[٧] لوالدٍ ولا لولد بارٍّ ، ولا لذى نعمةٍ سابغة[٨] يخاف سَلْبَها ، وصَرْف إحسانِه عنه بسببها .

(١) ط : « أجتنبنا » ، صوابه فى ب ، م .
(٢) ما بين المعقفين ساقط من ب .
(٣) الطلب والطلبة ، بكسر الطاء فيهما : ما يطلبه العاشق ويهواه ، الأخيرة عن اللحيانى . وفى جميع النسخ : « بطليبه » .
(٤) ب : « لعشيقته » ، صوابه فى م ، ط .
(٥) ب : « وربما » ، صوابه فى م ، ط .
(٦) العروض : الأمتعة ، سوى الدراهم والدنانير فإنها عين ، واحدها عرض ، بالفتح .
(٧) ب : « لشقيقة نفسه » ، تحريف ب : « بعشيقة نفسه » ، وأثبت ما فى ط .
(٨) السابغة : الكاملة الوافية . ب فقط : « السابعة » بالعين المهملة ، تحريف .

ولم نر الرِّجال يَهَبُون للرِّجال إلَّا مالا بالَ به[1] ، فى جَنْب ما يهبون للنِّساءِ . حتَّى كأَنَّ العِطر والصِّبغ[2] ، والخِضاب والكحل ، والنَّتف والقصّ ، والتحذيف والحلْق ، وتجويدَ الثِّياب وتنظيفها ، والقيامَ عليها وتعهُّدها ، مِمَّا لم[3] يتكلَّفوه إلَّا لهنّ ، ولم يتقدَّموا فيه إلَّا من أَجلهنّ ، وحتَّى كأَنَّ الحِيطانَ الرَّفيعة ، والأَبوابَ الوثيقةَ ، والسُّتور الكثيفة[4] ، والخِصْيان والظُّؤورة ، والحُشوة والحواضِنَ لم تُتَّخذْ[5] إلَّا للصَّون لهنّ ، والاحتفاظ بما يجب من حفظ النِّعمة فيهنّ .

٢ — فصل منه

وبابٌ آخر : وهو أَنَّا لم نجدْ أَحداً مِن الناس[6] عشِق والدَيهِ ولا وَلَده ، ولا من عَشِق مراكبَه ومنزِله ،كما رأَيناهم يموتون من عِشق النِّساء الحرام. قال الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ من النِّساءِ والبَنِينَ والقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّة والْخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأَنْعَامِ والْحَرْثِ[7] ﴾ . فقد ذكر[8] تبارك وتعالى جملةَ أَصنافِ ما خوَّلهم من كرامته ، ومَنَّ عليهم من نعمته ، ولم نَرَ النَّاسَ[9] وَجَدُوا بشيءٍ من هذه الأَصناف وَجْدَهم بالنِّساءِ . ولقد قدَّم ذكرهنّ فى هذه الآية على قدر تقدُّمهنّ فى قلوبهم .

---

(١) ب ، م : « يتهبون » فى هذا الموضع وتاليه ، صوابه فى ط : والاتهاب : قبول الهبة ، ولا وجه له هنا . وفى ب ، م أيضاً : « إلا بما لا بال له » ، صوابه فى ط .

(٢) ب : « والصبع » ، صوابه فى م ، ط .

(٣) ب ، م : « ما لم » ، صوابه فى ط ..

(٤) الستور : جمع ستر ، بالكسر . ب فقط : « والسطور » ، تحريف .

(٥) ب ، م : « لم يتخذ » ، ط : « لم يتخذن » ، والوجه ما أثبت .

(٦) كلمة « الناس » ساقطة من ب ، م ثابتة فى ط .

(٧) الآية ١٤ من سورة آل عمران .

(٨) ب : « فقد دل » ، صوابه فى م ، ط .

(٩) ب : « ولم ير الناس » ، وأثبت ما فى م ، ط .

فإن قال قائل : فقد نجدُ الرجلَ الحليمَ ، والشَّيخَ الرّكينَ، يسمع الصَّوت المُطرِبَ من المغنّى المصيبِ، فينقلُه ذلك إلى طَبْع الصِّبيان ، وإلى أفعال المجانينِ ، فيشقُّ جيبَه ، وينقُض حُبْوَتَه ، ويفدِّى غيرَه [(١)] ، ويَرقُص كما يرقُص الحدَثُ الغرير ، والشابُّ السَّفيه . ولم نجد أحداً فعلَ ذلك عند رؤية معشوقِه .

قلنا : أمَّا واحدةً فإنَّه لم يكن ليدعَ التَّشاغُلَ بشمِّها وبرَشْفِها ، واحتضانِها ، وتقبيلِ قدمَيْها ، والمواضع التى وطِئَتْ عليها[(٢)] ، ويتشاغلَ بالرَّقص المباين لها ، والصُّراخِ الشاغلِ عنها . فأمَّا حلُّ الحُبْوة ، والشَّدُّ حُضْراً عند رؤية الحبيبة[(٣)] فإنَّ هذا مما لا يحتاج إلى ذكره[(٤)] ، لوجودِه وكثرة استعمالهم له ، فكيف وهو إن خَلا بمعشوقه لا يظنّ[(٥)] أنَّ لذَّة الغِناء تشغله[(٦)] بمقدار العُشْر من لذته ، بل ربَّما لم يخطر له ذلك الغناءُ على بال .

وعلى أنَّ ذلك الطرب مجتازٌ غير لابث[(٧)] ، وظاعنٌ غير مقيم ؛ ولذَّة المتعاشقين راكدة أبداً[(٨)] مقيمة غير ظاعنة .

وعلى أنَّ الغِناءَ الحسَنَ من الوَجْهِ الحسن والبَدَنِ الحسن ، أحسن ،

---

(١) ب : « ويغذى » م : « ويقدى » ، صوابهما فى ط .
(٢) فى جميع النسخ : « عليه » تحريف .
(٣) الحضر ، بالضم : أصله عدو الفرس . ب : « والشد خسراً » م : « والشد خصراً » . وفى ط : « والصراخ عند رؤية الحبيبة » ، صوابه ما أثبت .
(٤) ب ، م : « مالا يحتاج إلى ذكره » .
(٥) ب ، م : « فكيف وإن هو خلا بمعشوقه فظن » ، صوابه فى ط .
(٦) ب : « يشغل » م : « تشغل » ، والوجه ما أثبت من ط .
(٧) ب : « ثابت » .
(٨) ب ، م : « راكدة لا بد » .

والغناء[1] الشهيّ من الوجه الشَّهيِّ والبدنِ الشهيِّ أشهى . وكذلك الصوت النَّاعم الرّخيم من الجارية النَّاعمة الرَّخيمة .

وكم بين أن يُفَدَّى إذا شاع فيكَ الطَّربُ مملوكُك ، وبين أن يفدَّى أَمَتُك[2] ؟

وكم بينَ أَن يُسمَعُ الغناءُ من فم تشتهى أَن تُقبِّله[3] ، وبين فم تشتهى أَنْ تصرِفَ وجهَك عنه .

وعلى أَنَّ الرجالَ دخلاءُ على النِّساءِ فى الغناءِ ، كما رأَينا رجالًا ينوحون ، فصارُوا دخلاءَ على النوائح .

وبعدُ ، فأَيُّما أَحسنُ وأَملَحُ[4] ، وأَشهى وأَغنج ، أَنْ يغنِّيَك فحلٌ ملتفُّ اللِّحية ، كَثُّ العارضَينِ ، أَو شيخٌ منخلع الأَسنان ، مغضَّن الوجه ، ثم يغنِّيَك إذا هو تغنَّى بشعرِ ورقاءَ بنِ زُهيرٍ :

رأَيتُ زهيراً تحتَ كلكلِ خالدٍ فأَقبلتُ أَسعَى كالعَجُول أُبادِرُ[5]

أَم تغنِّيك جاريةٌ كأَنَّها طاقةُ نَرْجس ، أَو كأَنَّها ياسَمِينةٌ ، أَو كأَنَّها خُرِطت من ياقوتةٍ ، أَو من فِضّةٍ مجلوَّة[6] ، بشِعرِ عُكَّاشة بن مِحْصَن[7] :

---

(١) ب : والغنى » تحريف ما فى م ، ط .

(٢) كذا وردت « يفدى » بالياء فى جميع النسخ ، ولها وجهها .

(٣) ب ، م : « يشتهى أن بقبله » صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « وبعد فإنما » ، صوابه فى ط .

(٥) كنايات الجرجانى ٣٥ . وانظر للشعر ومقتل زهير بن جذيمة العبسى ، الأغانى . ١٠ : ١١ — ١٥ .

(٦) انظر نحو هذا الكلام لثمامة بن أشرس مع المأمون فى زهر الآداب ٦٠٩

(٧) كذا . وعكاشة بن محصن صحابى لم يؤثر عنه شعر . انظر الإصابة ٥٦٢٦ . وإنما الشعر لعكاشة بن عبد الصمد العمى البصرى ، وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الهاشمية . وأخوه أبو العذافر العمى شاعر أيضاً . وبنو العم : قوم نزلوا ببنى تميم بالبصرة أيام عمر بن الخطاب فأسلموا وغزوا مع المسلمين وحسن بلاؤهم ، فقال لهم الناس : أنتم وإن لم تكونوا من العرب ، إخواننا وبنو العم ، فعرفوا بذلك فصاروا فى جملة العرب .

من كفِّ جاريةٍ كأنَّ بَناتَهـــا مِنْ فضَّة قد طُرِّفَت عُنَّابا[1]
وكأنَّ يُمناها إذا نطقت بـــه أَلقَتْ على يَدِها الشِّمالِ حسابا[2]

٣ – فصـــل منـــه

فأمَّا الغِناءُ المُطرب فى الشِّعر الغزِل فإنَّما ذلك من حقوق النِّساءِ . وإنَّما ينبغى أن تغنِّى[3] بأشعار الغزل والتشبيب[4] ، والعِشق ، والصَّبابة بالنساءِ اللواتى فيهنَّ نطقَت تلك الأشعار ، وبهنّ شبَّب الرِّجال ، ومن أجلهنّ تكلَّفوا القول فى النَّسيب[5] .

وبعدُ ، فكلُّ شيءٍ وطِبْقُه ، وشِكْله ولِفْقُه ، حتَّى تخرج الأُمورُ موزونة معدَّلةً ، ومتساوية مُخْلصَة[6] .

= وفى النقائض ٣٦٠ أن بنى العم ، هم مرة بن مالك بن حنظلة . والبيتان بدون نسبة فى الأمالى ١ : ٣٢٠ وحماسة ابن الشجرى ٢٦٠ ونسبا فى الأغانى ٣ : ٧٣ وسمط اللآلىء ٥٢٦، وزهر الآداب ٦٠٩ ونهاية الأرب ٥ : ١١٤ إلى عكاشة العمى . ونسبا فى العقد ٦ : ٧٤ إلى عكاشة بن الحصين خطأ . وقبلهما فى سمط اللآلى :

هبوا فقد عذب النسيم وطابا والدهر يذهب بالنعيم ذهابا
حثوا على حسن الصبوح فقد نضا نور الصباح من الدجى جلبابا

وقبلهما فى الأغانى ثلاثة أبيات هى والبيتان خمسة ، فى صوت من المائة المختارة :

ياليلة جمعت لنا الأحبابا لوشئت دام لناالنعيم وطابا
بتنا نسقاها شمولا قرقفا تدع الصحيح بعقله مرتابا
حمراء مثل دم الغزال وتارة عند المزاج تخالها زريابا

(١) يقال طرفت الجارية بنانها ، إذا خضبت أطراف أصابعها بالحناء . وهذا البيت ساقط من م .

(٢) فى الأمالى وابن الشجرى : « نطقت بها » . وفى نهاية الأرب : : « نطقت به » كما هنا . وفى العقد والزهر : « إذا ضربت بها » . وفى ب ، م : « على يده الشمال » صوابه فى ط وحماسة ابن الشجرى . وفى جميع النسخ : « حبابا » وصوابه فى جميع المراجع . وفى الأمالى والعقد ونهاية الأرب : « تلقى على يدها الشمال » ،وفى زهر الآداب : « تلقى على الكف الشمال».

(٣) ب فقط : « نغنى » .

(٤) ب ، م : « والشبيب » ، صوابه فى ط .

(٥) ط : « فى التشبيب » .

(٦) ب : « متساوية مخلصة » .

ولو أَنَّ رجلًا من أَدمثِ الناس وأَشدِّهم تلخيصاً لكلامه ، ومحاسَبَة لنفسه[١] ، ثم جَلس مع امرأَةٍ لا تُزَنُّ بمنطق[٢] ، ولا تعرف بحسنِ حديث[٣] ، ثم كان يعشقها ، لتَناتَجَ بينهما من الأَحاديث ، ولَتلاقَحَ بينهما[٤] من المعانى والأَلفاظ ، ما كان لا يجرى بين دَغْفَل ابن حنظلة[٥] ، وبين ابن لسان الحُمَّرة[٦] . وإِنَّما هذا على قدر[٧] تمكُّن الغَزَل فى الرَّجُل .

٤ — فصـل منـه

والمرأَة أَيضاً أَرفعُ حالًا من الرَّجل فى أُمور . منها : أَنَّها التى تُخْطَب وتُراد ، وتُعشق وتُطلب ، وهى التى تُفَدَّى وتُحْمَى . قال عَنْبسة بن سعيد[٨] للحجَّاج بن يوسف : أَيفدِّى الأَميرُ أَهلَه ؟ . قال : والله إن تعدُّونى إلَّا شيطاناً ، والله لربَّما رأَيتُنى أُقبِّل رِجْلَ إحداهنّ !

---

(١) م : « لكلامه ومحاسنه » فقط . وفى جميع النسخ : « محاسنه » بالنون ، والوجه ما أثبت .

(٢) زنه بالخير أو بالمال ، أو بالعلم زنا ، وأزنه إزنانا : ظنه به . ب ، م : « لا يزن بمنطق » .

(٣) ب ، م : « ولا يعرف بحسن حديث » .

(٤) ب : « والتلاقح بينهما » . والذى فى ط : « ما كان الناتج بينهما من الأحاديث والمتلاقح بينهما من المعانى والألفاظ إلا ما كان يجرى بين دغفل بن حنظلة » .

(٥) ودغفل هذا هو دغفل بن حنظلة بن زيد الشيبانى الذهلى النسابة الخطيب . أدرك الرسول الكريم ولم يسمع منه . غرق فى يوم دولاب فى قتال الخوارج سنة ٧٠ . الإصابة ٢٣٩٥ وابن النديم ١٣١ والمعارف ٢٣٢ والاشتقاق ٢١١ وتاريخ الإسلام للذهبى ٢ : ٢٨٧ . وانظر أخباره وأقواله فى البيان والتبيين .

(٦) فى جميع النسخ : « وبين بشار بن الحمرة » ، والوجه ما أثبت . وابن لسان الحمرة هذا هو عبيد الله بن الحصين ، أو ورقاء بن الأشعر ، كما فى القاموس والمعارف ٢٣٣ . وهو أعرابى من بنى تيم الله بن ثعلبة ، وكان من علماء زمانه ، قال ابن قتيبة : « وكان أنسب العرب وأعظمهم بصراً » . دخل الكوفة وعليها المغيرة بن شعبة ، فسأله المغيرة عن طبائع قبائل من العرب ، وعن خلق النساء ، فأجاب أجوبة ممتعة ، سردها أبو الفرج فى الأغانى ١٤ : ١٣٨ .

(٧) ب : « على قدر » ، صوابه فى م ، ط .

(٨) هو عنبسة بن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية ، كان من جلساء الحجاج ، كما فى الاشتقاق ٧٩ وجمهرة ابن حزم ٨١

٥ – فصــل منــه

وإنّمَا يملك المولى مِن عبدِه بدنَه ، فأَمَّا قلبُه فليس له عليه سلطان . والسُّلطانُ نفسه وإن ملك رقابَ الأُمّة[١] ، فالناس يختلفون فى جهة الطَّاعة ، فمنهم من يطيع بالرَّغْبة ، ومنهم من يُطيع بالرَّهبة ، ومنهم مَن يطيع بالمحبَّة ، ومنهم من يُطيع بالدِّيانة .

وهذه الأَصناف ، وإن كان أَفضلَها طاعةُ الديانة فإنَّ تلك المحبَّة ما لم يمازجْها هوًى لم تَقْوَ[٢] على صاحبها قوَّة العِشْق . وفى الأَثر المستفيض والمثلِ السائر : « إن الهَوَى يُعمِى ويُصمّ » ؛ فالعِشْق يَقتُل .

٦ – فصــل منــه

وممَّا يُستدلُّ به على تعظيم شأْن النِّساءِ أَنَّ الرجل يُستحلَفُ بالله الذى لا شىءَ أَعظمُ منه ، وبالمشْى إلى بيتِ الله ، وبصَدقةِ ماله ، وعتق رَقيقهِ . فيسهُل ذلك عليه[٣] ، ولا يأْنفُ منه . فإن استُحْلِفَ بطلاقِ امرأَته تربَّد وجهُه[٤] ، وطار الغضبُ فى دِماغه ، ويمتنع[٥] ويَعصِى ، ويغضَب ويأْبى ، وإن كان المُحْلِف سلطاناً مَهيباً ، ولو لم يكن يحبُّها[٦] ، ولا يستكثر منها ، وكانت نفسُها قبيحة المنظر ، دقيقةَ الحسب ، خفيفةَ الصَّداق ، قليلة النَّسب .

ليس ذلك إلَّا لما قد عظَّم الله من شأْن الزَّوجات فى صدور الأَزواج[٧] .

---

(١) رقاب ، ساقطة من ب .
(٢) فى جميع الأصول : « لم يقو » ، ومرجع الضمير إلى المحبة .
(٣) م : « فيسهل عليه ذلك » .
(٤) تربد : احمر حمرة فيها سواد عند الغضب . ب : « تزبد » م : « يزيد » ، صوابهما فى ط .
(٥) فى جميع الأصول : « ويمنع » .
(٦) ب : « ولم يكن محبها » .
(٧) ب : « الرجال » .

٧ ـ فصل منه فى ذكر الولد

وبابٌ آخر : وهو أنَّا لو خَيَّرنا رجلًا بين الفَقْر[١] أيَّامَ حياتِه ، وبين أَنْ يكون ممتَّعاً بالباهِ أيَّام حياته ، لاختار الفقرَ الدَّائم مع التمتُّع الدائم .

وليس شيءٌ ممَّا يُحدث الله لعباده من أصنافِ نِعمِه وضرُوبِ فوائده ، أبقى ذكراً ، ولا أجلَّ خطراً[٢] من أن يكون للرجل ابنٌ يكون ولىَّ بناتِه ، وساترَ عورةِ حُرَمه ، وقاضىَ دَيْنِه ، ومُحيىَ ذِكرِه ، مخلصاً فى الدُّعاءِ له بعد موته ، وقائماً بعده فى كلِّ ما خلَّفه مقامَ نفسه .

فمنْ أقلُّ أسفاً على ما فارق ، ممَّن خلَّف كافياً مجرَّباً ، وحائطاً من وراء المال مُوفَّراً ، ومن وراءِ الحرم حامياً ، ولسلفِه فى النَّاس مُحَبَّباً . وقال رجلٌ لعبد الملك بن مروان ، وقد ذُكِرَ ولدٌ له[٣] : « أراك الله فى بنيك ما أرَى أباك فيك ، وأرَى بنيك فيك ما أراك فى أبيك ! » .

ونظر شيخٌ وهو عند المهلَّب إلى بنيه قد أقبلوا فقال : « آنَس الله بكم لاحِقَكم ، فو الله إنْ لم تكونوا أسباط نُبُوَّة[٤] إنَّكم أسباط مَلْحمة » .

وليسق النِّعْمة فى الولدَ المحيي[٥] ، والخلف الكافى ، بصغيرةٍ .

---

(١) ب : « الفقراء » ، تحريف .

(٢) ط : « ولا أجمل خطراً » .

(٣) ب : « ولسفه ذكر ولد له » بهذا النقص والتحريف . والإكمال والتصحيح من م ، ط ، مع زيادتى لكلمة « وقد » . وفى البيان ٢ : ١٤٥ : « وقال مدينى لعبد الملك بن مروان ودخل عليه بنوه » . على أن الخبر قد روى فى مجالس ثعلب ٢٢٧ فى قصة دخول الوفود إلى الوليد بن يزيد حين بايع لابنيه الحكم وعثمان .

(٤) ب فقط : « بنوة » بتقديم الباء .

(٥) ب ، م : « المحوى » صوابه فى ط . والمراد المحيى لذكر والده .

٨ — فصـــل منـــه

وباب آخر : وهو أنَّ الله تعالى خلق من المرأة ولداً من غير ذكر ، ولم يخلُق من الرّجل ولداً من غير أُنثى . فخصَّ بالآيةِ العجيبة والبرهان المنيرِ المرأة دون الرّجُل ، كما خلق المسيحَ فى بطن مريمَ من غير ذكر .

٩ — فصل منه فى ذكر القرابات

وأمَّا أنا فإنِّى أقول : إنَّ تباغض الأقرباء عارضٌ دخيل ، وتحابَّهُم واطدٌ أصيل ، والسَّلامة من ذلك أعمّ ، والتَّناصر أظهر ، والتَّصادق فى المودَّة أكثر . فلذلك القبيلةُ تنزِلُ معاً وترحلُ معاً ، وتُحارب من ناوأها معاً ، إلَّا الشاذَّ النادر ، كخروج غنىٍّ وباهلة من غطفان ، وكنزول عبسٍ فى بنى عامر ، وما أشبه ذلك[1] . وإلَّا فإنَّ القرابة يدٌ واحدة على من ناوأهم[2] ، وسيفٌ واحد على من عاداهم[3] ، وما صلاحُ شأْنِ العشائر إلَّا بتقارب سادَتِهم فى القدْر ، وإنْ تفاوتوا[4] فى الرِّياسة والفضل ، كما قال[5] فى الأثر المستفيض : « لا يزال النَّاسُ بخير ما تفاوتوا ، فإذا تقاربُوا هلكوا » .

وحالُ العامَّة فى ذلك كحال الخاصَّة .

١٠ — فصـــل منـــه

وقضيَّةٌ واجبة : أنَّ الناس لا يُصلحهم إلَّا رئيسٌ واحد ، يجمع شَمْلَهم ، ويكفيهم ويحميهم مِن عدوّهم ، ويَمنع قويَّهم من ضعيفهم .

---

(١) ذلك ، من ط فقط .
(٢) م : « ناوى لهم » ، تحريف .
(٣) م : « من عادهم » ، تحريف .
(٤) م ، ب : « وإن يتفاوتوا » .
(٥) كذا . والوجه « قيل » .

وقليلٌ له نظام ، أقوى من كثيرٍ نَشَرٍ[1] لا نظام لهم ، ولا رئيسَ عليهم .
إذْ قد علم الله[2] أنَّ صلاحَ عامَّة البهائم فى أن يجعل لكلِّ جنسٍ[3] منها
فحلًا يُورِدها الماءَ ويُصدِرها ، وتتبعُه إلى الكلأ ، كالعَيْر فى العانة[4] ،
والفحل من الإبل فى الهجمة[5] ، وكذلك النَّحلُ العَسَّالة[6] ،
والكراكىّ[7] ، وما يحمى الفرسُ الحِصانُ الحُجورَ فى المُروج[8] ،
فجعل منها رءُوساً متبوعة ، وأذناباً تابعة .

ولو لم يُقِمِ اللهُ للنَّاسِ الوزَعَة من السُّلطان ، والحُماةَ من المُلوكِ وأهلِ
الحِياطة عليهم من الأئمة — لعادوا نَشَراً[9] لا نظامَ لهم ، ومُستكلِبينَ
لا زاجر لهم ، ولكان مَن عَزَّ بَزّ[10] ، ومَنْ قدر قهر ، ولمَا زال اليُسر
راكداً ، والهَرْج ظاهراً ، حتَّى يكون التغابُنُ والبَوَار[11] ، وحتَّى تنطمسَ

(١) النشر ، بالتحريك : القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس . وهذه الكلمة ساقطة من ط .
(٢) ط : « الله سبحانه وتعالى » .
(٣) ب : « فى كل جنس » .
(٤) العانة : القطيع من حمر الوحش . وانظر لعير العانة الحيوان ١ : ١١٠ ، ١٩٥ / ٧ : ١٤١ . وفى جميع النسخ : « الغابة » ، صوابه ما أثبت .
(٥) فى الأصول : « والفحل فى الإبل » . وفى ط أيضاً : « والهجمة » ، والوجه ما أثبت .
(٦) انظر الحيوان ١ : ١٩ / ٣ : ٣٢٩ / ٥ : ٤١٧ .
(٧) الحيوان ٣ : ٣٢٨ ، ٤٠٦ / ٥ : ٤١٩ .
(٨) الحجور : جمع حجر ، بالكسر ، الفرس الأنثى . ويقال فى جمعه أحجار وحجورة أيضاً . وانظر الحيوان ٧ : ١٤١ .
(٩) انظر للنشر ما سبق قريباً فى هذه الصفحة . ب : « نشزا » ط : « نثرا » ، صوابهما فى م .
(١٠) ب : « من عز يزل غيره » ، صوابه فى م ، ط . وانظر جمهرة العسكرى ٢ : ٢٨٨ والفاخر ٨٩ والميدانى ٢ : ٢٣٥ والمستقصى ٢ : ٣٥٧ واللسان (بزز) . ومعناه من غلب سلب . قاله جابر بن رألان السنبسى لما أقرع النعمان يوم بؤسه بينه وبين صاحبيه ، فقرعهما فخلى سبيله .
(١١) التغابن : أن يغبن القوم بعضهم بعضاً . ب : « التغانى » ، صوابه فى م ، ط .

منهم الآثار [١] ؛ ولكانت الأَنعام طعاماً للسِّباع ، وكانت عاجزة عن حماية أنفُسها ، جاهلةً بكثير من مصالح شأْنها .

فوصَلَ الله تعالى عجزَها بقوَّةِ مَن أَحوجَه إِلى الاستمتاع بها ، ووَصَلَ جهلها بمعرفةِ مَنْ عرف كيف وجهُ الحيلة فى صَوْنها والدِّفاعِ عنها .

وكذلك فرض على الأَئِمّة أَنْ يحوطوا الدَّهْماءَ [٢] بالحِراسةِ لها ، والذِّيادِ عنها [٣] ، وبِردِّ قويِّها عن ضعيفِها [٤] ،وجاهِلها عن عالمها ، وظالمِها عن مظلومها ، وسفيهها عن حليمها .

فلولا السَّائس ضاع المَسُوس ، ولولا قُوَّةُ الراعى لهلكت الرَّعيَّة [٥] .

١١ — فصل منه

وانفرادُ السيِّد بالسيادة كانفراد الإِمام بالإِمامة . وبالسَّلامة من تنازع الرؤساءِ تجتمع الكلمة ، وتكون الأُلفة ، ويصلُحُ شأْنُ الجماعة . وإذا كانت الجماعة انتهت الأَعداء ، وانقطعت الأَهواء [٦] .

١٢ — فصل منه

ولسنا نقول ولا يقول أَحدٌ ممن يعقل : إنَّ النِّساءَ فوق الرِّجال ، أَو دونهم بطبقةٍ أَو طبقتين ، أَو بأَكثر [٧] ، ولكنَّا رأَينا ناساً يُزْرُون عليهنَّ أَشدَّ الزِّراية ، ويحتقرونهنَّ أَشدَّ الاحتقار ، ويَبْخسونهنّ أَكثرَ حقوقهنّ .

(١) ب ، م : « ينطمس » ، وفى ب : « منه الآثار » ، صوابه فى م ، ط .
(٢) ب : « أن يحيط الدهماء » ط : « أن يحوطوها » م : « أن يحوط الدهماء » ، والوجه ما أثبت .
(٣) فى الأصول : « والذيادة عنها » ، صوابه ما أثبت . والذياد والذود : الدفاع .
(٤) ب : « وترد » ، م ، ط : « ويرد » ، والوجه ما أثبت .
(٥) ب : « هلكت الرعية » .
(٦) ب ، م : « وانقطع الأهواء » .
(٧) ب ، م : « إلا بأكثر » ، صوابه فى ط .

وإنَّ من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفيرَ حقوق الاباء والأعمام إلَّا بأن ينكر حقوق الأُمَّهات والأخوال ، فلذلك ذكرنا جملةَ ما للنِّساءِ من المحاسن .

ولولا أنَّ ناساً يفخرون بالجَلد وقُوّة المُنَّة ، وانصرافِ النَّفس عن حبِّ النِّساءِ ، حتَّى جعَلُوا شدَّة حُبِّ الرَّجلِ لأَمَتِه ، وزَوجتِه وولدِه ، دليلًا على الضَّعف ، وباباً من الخوَر ، لما تكلَّفنا كثيراً مما شرطناه فى هذا الكتاب .

١٣ — فصل منه

كما نحبُّ أن يخرجَ هذا الكتابُ تامًّا ، ويكونَ للأَشكالِ الدَّاخلةِ فيه جامعاً ، وهو القول فيما للذُّكور والإناث فى عامَّة أَصناف الحيوان ، وما أَمكن من ذلك ، حتَّى يحصَّل ما لكلّ جنسٍ منها[١] من الخِصال المحمودة والمذمومة . ثم يُجمعَ بين المحاسن منها والمسَاوى ، حتَّى يستبينَ لقارئ الكتاب نقصانُ المفضولِ من رجحان الفاضل ، بما جَاءَ فى ذلك من الكتابِ النَّاطق ، والخبرِ الصَّادق ، والشَّاهد العَدْل ، والمثل السائر . حتَّى يكون الكتاب عربيًّا أَعرابيًّا ، وسُنِّيًّا جماعيًّا ، وحتى يُجتَنَبَ[٢] فيه العويصُ والطُّرُق المتوعِّرة ، والأَلفاظُ المستنكرة ،وتلزيقُ المتكلِّفين[٣] ، وتلفيق أَصحاب الأَهواء من المتكلمين ، حتَّى نظرنا[٤] لمن لا يعلمُ مقاديرَ ما استخزَنها اللهُ من المنافع ، وغشَّاها من البرهانات[٥] ، وأَلزمَها من الدَّلالة عليه ، وأَنطقها به من الحُجَّة له .

(١) منها ، ساقطة من م ، ط .
(٢) ب : « وحتى يجبب » صوابه فى م ، ط .
(٣) فى اللسان : « الملزق — بتشديد الزاى — : الشيء ليس بالمحكم » .
(٤) ب ، م : « نظر » ، ط : « نظرا » ، والوجه ما أثبت .
(٥) ط فقط : « البراهين » .

فمنع من ذلك فرْط الكِبْرَة[١] ، وإفراط العِلَّة ، وضعفُ المُنَّة ، وانحلال القوَّة .

فلما[٢] وافق هذا الكتابُ منَّا هذه الحال ، وأَلفى[٣] قلوبَنا على هذه الأَشغال ، اجتنبْنا أَن نقصِد من جميع ذلك إلى فرق ما بين الرجُل والمرأَة .

فلمَّا اعتزمنا على ما ابتدأْنا به وجدناه قد اشتمل على أَبواب يكثرُ عددها ، وتبعُد غايتها ، فرأَينا ، والله الموفِّقُ ، أَنْ نقتصرَ منه[٤] على ما لا يبلغُ بالمستمع إلى السّآمة ، وبالمأْلوف إلى مجاوَزَة القدْر .

وليس ينبغى لكتُب الآداب والرِّياضَات أَن يحمل أَصحابُها على الجِدِّ الصِّرف ، وعلى العَقْل المحض ، وعلى الحقِّ المُرّ ، وعلى المعانى الصَّعبة ، التى تَستكِدُّ النُّفوسَ ، وتَستفرِغُ المجهود .

وللصبر غايةٌ ، وللاحتمال نهاية .

ولا بأْسَ بأَن يكون الكتاب موشَّحاً ببعض الهزل . وعلى أَنَّ الكتاب إذا كثُر هَزْله سَخُف ، كما أَنَّه إذا كثر جِدُّه ثَقُل .

ولا بدَّ للكتاب من أَن يكون فيه بعضُ ما ينشِّط القارئَ ، ويَنْفِى النُّعاسَ عن المستمِع . فمن وجد فى كتابنا هذا بعض ما ذكرنا ، فليَعْلم أَنَّ قصدنا فى ذلك إنَّما كان على جهة الاستدعاءِ لقلبه ، والاستمالةِ لسمعِه وبَصَره . واللهَ تعالى نسأَل التوفيق .

---

(١) فى جميع الأصول : « الكبوة » ، وجهه ما أثبت .
(٢) ب ، م : « فا » .
(٣) فى جميع الأصول : « وألقى » بالقاف .
(٤) ب : « أن أقتصر منه » .

١٤ — فصل منه فى ذكر العشق

ورجلان من الناس لا يَعْشقانِ عِشْق الأَعراب :

أَحدهما الفقير الْمُدقِع ، فإِنَّ قلبه يُشْغَلُ عن التوغُّل فيه وبلوغ أَقصاه .

والملكُ الضَّخمُ الشَّأْن ، لأَنَّ فى الرِّياسة الكبرى ، وفى جوازِ الأَمر ونَفاذِ النَّهى ، وفى مِلْك رقابِ الأُمم ، ما يَشغَلُ شَطْرَ قُوى العقل عن التوغُّل فى الحب ، والاحتراقِ فى العشق .

١٥ — فصل منه

كثيراً ما يعترى العُشَّاقَ والمحبِّينَ غير المُحْترِقين[١] ، كالرّجل تكون له[٢] جاريةٌ وقد حَلَّت من قلبه مَحَلاًّ ، وتمكَّنتْ منه تمكُّناً ، ولا يجتثُّ أَصلَ ذلك الحبِّ الغضْبةُ تعرِض ، وكثرةُ التأَذِّى بالخلافِ يكون منها ، فيَجِدُ[٣] الفترة عنها [فى[٤]]بعضِ هذه الحالات التى تعرِض ، فيُظنُّ أَنَّه قد سلا ، أَو يُظنُّ أَنَّه فى عَزَائِهِ عنها[٥] على فقدها مُحتمِلًا ، فيبيعها[٦] إن كانت أَمة ، أَو يطلِّقها[٧] إن كانت زوجة ، فلا يَنْشَب ذلك الغضبُ أَنْ يزول ، وذلك الأَذى أَنْ يُنسَى ، فتتَحرَّكُ له الدفائن[٨] ، ويُثْمِر ذلك الغرْس ، فيُتبعُها قلبه ، فإِمَّا أَنْ يسترجعَ

(١) ب : « المحترفين » بالفاء .
(٢) ب ، م : « لا يجنب » ، صوابه فى ط .
(٣) ط فقط : « فيوجد » .
(٤) ليست فى الأصول .
(٥) ط : « فتظن » و « أو تظن أنه »، صوابه فى ب ، م . والعزاء : الصبر . ب : « فى غراية عنها » م ، ط : « فى عزاية عنها » ، والوجه ما أثبت .
(٦) م ، ط : « مبيعها » ، صوابه فى ب .
(٧) م ، ط : « أو طلاقها » .
(٨) ب : « فيتحرك له الدفائن » .

الأَمَةَ من مُبتاعها ، بأَضعافِ ثمنها ، أَو يسترجع الزوجة بعد أَن نُكِحَتْ . فإِنْ تصبَّرَ وأَمكنه الصَّبر لم يزَلْ معذَّباً ، وإِنْ أَطاع هواه واحتمل المكروه فهذا هو العَقَابيل والنُّكْس[١] .

فليحذَر الحازمُ الفَتْرةَ فى حبِّ حبيبه ، والغَضْبة التى تُنْسِيه عواقبَ أَمْرِه .

١٦ ــ فصل منه

قال إبراهيم بن السِّنْدىّ[٢] : حدَّثنى عبد الملك بن صالح[٣] قال : بينا عيسى بن موسى[٤] قد خَلَا بنفسه[٥] ، وهو قد كان استكثر من النِّساءِ حتَّى انقطع ، إذ مَرَّت بهِ جاريةٌ[٦] كأَنَّها جانٌّ ، وكأَنَّها جَدْل عِنان[٧] ، وكأَنَّها جُمَّارة ، وكأَنَّها قَضِيبُ فِضَّة ، فتحرّكَتْ نفسُه ، وخاف أَن تَخذُلَه قُوّته ، ثم طمِع فى القوّةِ[٨] لطُول التَّرْك ، واجتماعِ الماءِ ، فلمّا صَرعَها ، وجلس منها ذلك المجلس خطر على باله لو عَجَزَ كَيْف يكون حاله[٩] ؟ فلما فكَّر فَتَر ، فأَقبلَ كالمخاطب لنفسه فقال : إنَّكِ لتجلسينى هذا المجلسَ ، وتحملينى على هذا المركَب ، ثم

(١) العقابيل : بقايا العلة والعشق والمرض ، الواحد عقبول وعقبولة . والنكس ، بالضم : عود المرض بعد النقه . وفى الأصول : « العقاقيل » ولا وجه له .

(٢) إبراهيم بن السندى ، سبقت ترجمته فى ص ٦٠ . ب : « بن السدى » م ، ط : « بن السبيدى » ، صوابهما ما أثبت .

(٣) انظر البيان والتبيين ١ : ٣٣٤ .

(٤) هو عيسى بن موسى بن محمد بن عبد الله بن العباس ، أحد ولاة العباسيين وقوادهم . وأبوه موسى هو أخو السفاح والمنصور . انظر المعارف ١٦٥ .

(٥) ب ، م : « قد خلى بنفسه » تحريف .

(٦) ب : « إذ مرت جارية » .

(٧) أى عنان مجدول . وانظر الحيوان ٦ : ٢٦٢ ورسائل الجاحظ ٢ : ١٢١ .

(٨) ط : « فى لقوة » .

(٩) ب : « عن عجز كيف يكون حاله » ، تحريف .

تَخذُلِينى هذا الخِذلان[١] وتُغَشِّينى مثلَ هذا الذُّلِّ ، ولولا حَيرة الخجَل[٢] لم أَستعمل مالَا يقتل ! وذلك أَنَّه حين رأَى أَنَّ أَبلغ الحيل فى توهيمها أَن العجز لم يكن من قبله أَن يقولَ لها : تَعَرَّضين لى وأَنت تَفِلةٌ ، ثم لا تُرْخِينَ بادَّيْك[٣] ، ولا تَستهدِفينَ لسيِّدك ، ولا تُعينين على نَفْسِك ، حتَّى كأَنَّكِ عند عبدٍ يُشْبِهُك ، أَو سُوقةٍ لا يقدر إلَّا على مِثلك[٤] . أَمَا لو كُنتِ[٥] من بنات ملوك العَجَم لأَلفاكِ سيِّدُكِ على أَجودِ صنعة ، وعلى أَحسَنِ طاعة ، إذْ كلُّ رجلٍ ينبسِط للتمتُّع مع التَّفَل[٦] .

١٧ — فصل منه

ولم أَسمعْ ولم أَقرأْ فى الأَحاديث المولَّدة ، فى شأْن العُشَّاق ، وما صَنَع العشقُ فى القلوب والأَكبادِ والأَحشاءِ ، والزَّفراتِ والحنين ، وفى التَّدليهِ والتَّوْليهِ[٧] ، متى تستعر الدَّمعَة[٨] ، ومتى يُورث العَيْنَ الجُمودُ[٩] .

---

(١) ب ، م : « لتجلسنى » و « وتحملنى » ، و « تخذلنى » ، والصواب فى ط . واجتماع نون الرفع مع نون الوقاية يجوز فيه حذف أحدهما أو إبقاؤهما معاً مع الفك ، ومع الإدغام ، كما فى المغنى ٣٨٠ . قال : « ونحو تأمروننى يجوز فيه الفك ، والإدغام ، والنطق بنون واحدة » .

(٢) ب ، م : « خيرة الخجل » بالخاء المعجمة ، تحريف .

(٣) البادان : باطنا الفخذين ، وما بين الرجلين ، ومنه قول الدهناء بنت مسحل : « إنى لأرخى لك بادى » . اللسان (بدد ٤٦) . ب : « لا ترحين » بالحاء المهملة ، ط ، م : « لا ترجين » ، والصواب ما أثبت . وفى ط أيضاً « بادئك » ، صوابه فى ب ، م .

(٤) ب : « على ملكك » م : « على ملك » ، صوابهما فى ط .

(٥) لو ، ساقطة من ب ، م .

(٦) ب : « يبسط » م : « تنبسط » ، صوابهما فى ط . وفى ب أيضاً : « مع الثقل » . وفى ط : « للمتمتع » ، تحريفان .

(٧) دلهه الحب تدليهاً : حيره وأدهشه ، فهو مدله . وكذا ولهه توليها : حيره وأذهب عقله . وفى م ، ط : « التدلية والتولية » ، صوابهما فى ب .

(٨) فى جميع الأصول : « ومتى » ، والوجه حذف الواو . وفى ب فقط : « الدمع » ، تحريف .

(٩) جمود العين : قلة دمعها . ب ، م : « متى يورب » ، والوجه ما أثبت . وفى ط : « ومتى يعترى » .

١٨ — فصل منه

ونحن وإنْ رأينا أنَّ فَضْلَ الرَّجلِ على المرأة ، فى جملة القول فى الرِّجال والنساءِ ، أكثرَ وأظهر ، فليس ينبغى لنا أن نقصِّر فى حقوق المرأة . وليس ينبغى لمن عظَّم حقوق الآباءِ أن يصغِّر حقوق الأُمَّهات ، وكذلك الإِخوة والأَخوات ، والبَنُونَ والبنات . وأنا وإن كنتُ أرى أنَّ حقَّ هذا أعظم فإِنَّ هذه أرحم .

١٩ — فصل من احتجاجه للإماء[١]

قال بعضُ من احتجَّ للعلة التى من أجلها صار أكثر الإماءِ أحظَى عند الرِّجال من أكثَرِ المهيرات[٢] : أنَّ الرجل قبل أن يَملِكَ الأَمَةَ قد تأمَّلَ كلَّ شيءٍ منها وعَرَفه ، ما خلا حُظْوة الخَلْوة ، فأَقدمَ[٣] على ابتياعها بعد وقُوعها بالموافقة . والحُرَّةُ إنَّما يُستشار فى جَمَالها النِّسَاء ، والنِّساء لا يُبْصِرن من جمالِ النساء وحاجاتِ الرِّجال وموافَقَتِهِنَّ قليلًا ولا كثيراً . والرِّجالُ بالنِّساءِ أَبصر . وإنَّما تَعرِف المرأةُ من المرأة ظاهرَ الصِّفة ، وأَمَّا[٤] الخصائصُ التى تقع بموافقة الرِّجال فإنَّها لا تعرف ذلك .

وقد تُحْسِن المرأةُ أن تقول : كأَنَّ أنفَها السَّيف ، وكأَنَّ عَينَها عينُ غَزَال ، وكأَنَّ عُنُقَها إبريقُ فضة ، وكأَنَّ ساقَها جُمَّارة[٥] ، وكأَنَّ شَعْرها

---

(١) م فقط : « فى الإماء » .

(٢) المهيرة : التى تعطى المهر من الحرائر .

(٣) ب فقط : « فأقبل » .

(٤) ب : « فأما » .

(٥) ب فقط : « وكأنها » . والجمار : شحم النخل ، تشبه به الساق فى اللين والبياض . وفى الحديث : « كأنى أنظر إلى ساقه فى غرزه كأنها جمارة » .

العناقيد ، وكان أَطرافَها المدارَى[1] ، وما أَشبه ذلك :

وهناك[2] أَسبابٌ أُخَرُ بها يكون الحبُّ والبغض .

٢٠ — فصل منه

وقد علِم الشاعرُ وعَرَف الواصفُ ، أَنَّ الجارية الفائقة الحسنِ أَحسَنُ من الظَّبية ، وأَحسَنُ من البقَرة ، وأَحسَنُ من كلِّ شيءٍ تشبَّه به ، ولكنَّهم إذا أَرادوا القولَ شبَّهوها بأَحسنِ ما يجدون .

ويقول بعضُهم : كأَنَّها الشمس ، وكأَنَّها القمر ! والشَّمسُ وإن كانت بهيَّةً فإنَّما هى شىءٌ واحد ، وفى وجه الجاريةِ الحسناءِ وخَلْقها ضروبٌ من الحسن الغريب والتركيب العجيب .

ومَنْ يشكُّ أَنَّ عينَ المرأَةِ الحسناءِ أَحسَنُ من عين البقرة ، وأَنَّ جِيدَها أَحسنُ من جِيد الظبية ، والأَمر[3] فيما بينَهما متفاوِت ، ولكنَّهم لو لم يفعلوا هذا وشِبْهَه لم تَظهر بلاغتُهم وفِطْنتُهم .

٢١ — فصل منه

ورأَيتُ أَكثرَ النَّاس من البُصَراء بجواهرِ النساءِ[4] ، الذين هم جَهابذةُ هذا الأَمر ، يقدِّمون المجدُولة[5] ، والمجدُولة من النساءِ تكون فى منزلةٍ بين السَّمينة والممشوقة .

ولا بدَّ من جَودة القَدّ ، وحُسْن الخَرْط ، واعتدالِ المَنكبين ،

---

(١) أطرافها ، أى أطراف أصابعها . والمدارى بكسر الراء وفتحها : جمع مدرى ومدراة ، وهى شيء يعمل من حديد أو خشب على هيئة سن من أسنان المشط . تشبه به فى الدقة .

(٢) ب : « هناك » بدون واو .

(٣) الواو ساقطة من ب .

(٤) ب : « لجواهر النساء » .

(٥) ب ، م : « المجذولة » . فى هذا الموضع وتاليه ، تصحيف .

واستواءِ الظَّهر ، ولا بدَّ من أن تكون كاسيةَ العِظام ، بين الممتلئة والقَضِيفة .

وإنَّما يريدون بقولهم : مجدُولة[١] ، جودةَ العَصَب ، وقِلَّة الاسترخاءِ ، وأن تكون سليمةً من الزَّوائد والفُضول .

وكذلك قالوا : خُمصانة وسَيْفانة[٢] ، وكأنَّها جانٌّ ، وكأنَّها جَدْل عِنان[٣] ، وكأنَّها قضيبُ خَيزُران .

والتثنِّي في مَشْيها أحسَنُ ما فيها ، ولا يمكن ذلك الضَّخمةَ والسَّمينةَ ، وذاتَ الفضول والزَّوائد .

على أنَّ النَّحافة في المجدُولة[٤] أعمّ ، وهى بهذا المعنى أعرف[٥] ، تُحبَّبُ على السِّمان الضخام[٦] ، وعلى الممشوقات والقِضاف[٧] ، كما يحَبَّب هذه الأصناف على المجدُولات[٨] .

ووصفوا المجدُولة بالكلام[٩] المنثور فقالوا : « أعلاها قَضيب ، وأسْفَلُها كثيب » .

---

(١) ب ، م : « مجذولة » ، تصحيف ما فى ط .
(٢) الخمصانة ، بفتح الخاء وضمها : الضامرة البطن . والسيفانة : الطويلة المشوقة الضبامرة . ب : « خصانه » ، صوابه فى م ، ط . وفى ط : « سيقانة » ، صوابه بالفاء كما فى ب ، م .
(٣) انظر الحاشية ٧ من ص ١٥٥ .
(٤) ب ، م : « المجذولة » فى هذا الموضع وتاليه ، والصواب فى ط .
(٥) بعدها فى جميع النسخ : « ولم أر المجدولة أعم وهى بهذا المعنى أعرف » ، وهو تكرار لما سبق .
(٦) ب ، م : « تجيب على أصحاب السمان الضخام » ، وأثبت ما فى ط .
(٧) القضيفة : الدقيقة النحيفة لا عن هزال . ب ، م : « أصحاب المشوقات والقضاف » .
(٨) ب : « كما يجيب » ، وأثبت ما فى م ، ط . وفى ب ، م أيضاً : « أصناف المجذولات » ، صوابه فى ط .
(٩) ب : « المجزولة » م : « المجذولة » ، صوابه فى ط .

٧

من رسالة في

مَناقب التُّرك وعامَة جُند الخِلافة



فصل من صدر رسالته إلى الفتح بن خاقان [١]
فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة [٢]

وفَّقك الله لرُشدك[٣] ، وأعان على شكرك[٤] ، وأصلحك وأصلح على يديك ، وجعلنا وإيَّاك ممن يقول بالحقِّ ويعملُ به ، ويُؤْثره ، ويحتمل ما فيه مما قد يصدُّ عنه[٥] ، ولا يكون حظُّه منه[٦] الوصفَ له ، والمعرفةَ به ، دون الحثِّ عليه ، والانقطاعِ إليه ، وكَشْفِ القناع فيه[٧] ، وإيصاله إلى أهله ، والصَّبرِ على المحافظةِ فى أنْ لا يصلَ إلى غيرهم ، والتَّثبُّتِ فى تحقيقه لديهم ؛ فإنَّ الله تعالى لم يُعلِّم النَّاسَ ليكونوا عالمين دون أن يكونوا عامِلين ، وإنَّما علَّمهم ليعملوا[٨] ، وبيَّن لهم ليَتَّقوا[٩] التورُّطَ فى وسَط الخَوْف ، والوقوعَ فى المضارّ ، والتوسُّط فى المهالك . فلذلك طلبَ الناس التبيُّن[١٠] .

(١) الفتح بن خاقان هذا هو وزير المتوكل العباسى . وكان أديباً شاعراً فصيحاً بارع الذكاء . وكانت له خزانة كتب حافلة ، وله مؤلفات منها : كتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصيد والجارح ، وكتاب الروضة والزهر . وقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ .

وهو غير الفتح بن محمد عبيد الله بن خاقان ، صاحب قلائد العقيان . انظر فهرست ابن النديم ١٦٩ — ١٧٠ وفوات الوفيات ٢ : ١٥٣ — ١٥٤ .

(٢) نشرت كاملة فى ليدن ١٩٠٣ م بعناية فان فلوتن ، كما نشرها الساسى فى مجموع رسائله سنة ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٧ م كما نشرت فى رسائل الجاحظ بتحقيق سنة ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م . وقد رمزت للأولى هنا بالرمز (ن) وللثانية بالرمز (مج) .

(٣) فى جميع الأصول : « وأرشدك » ، وأثبت ما فى مج والرسائل ١ : ٥ هارون .

(٤) ط ، م : « وأعانك على شكره » .

(٥) ب : « يصدر عنه » ، وأثبت ما فى م ، ط . وفى مج والرسائل : « مما قد يصده عنه »

(٦) منه ، ساقطة من الأصول ، ثابتة فى مج والرسائل .

(٧) مج فقط : « عنه » .

(٨) ب ، ط : « ليعلموا » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٩) ب : « ليتقنوا » صوابه فى م ، ط والرسائل . وبعد هذه الكلمة فى مج فقط : « والخوف الوقوع فى المضار ، والتورط فى المهالك ، طلب الناس التبين » .

(١٠) م ، ط فقط : « التبيين » .

ولحبِّ السَّلامة من الهَلَكة ، والرَّغبة فى المَنفعة احتملوا[١] ثِقَل التعلم ، وتعجَّلُوا مكروه ثِقَل المعاناة[٢] .

ولقلَّة العاملين وكثرة الواصِفين قال الأوّلون : العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العاملين .

وإنَّما كثُرت الصِّفاتُ وقلَّت الموصوفاتُ لأنَّ ثواب العمل مؤجَّل ، واحتمالَ ما فيه معجَّل .

وقد أعجبنى ما رأيتُ من شغَفِك[٣] بطاعة إمامك ، واحتجاجك لتدبير خليفتك ، وإشفاقِك من كلِّ خَللٍ يدخله وإنْ دقَّ ، ونالَ سُلطانَه[٤] وإنْ صغُر ، ومن كلِّ أَمْرٍ خالَفَ هواه وإنْ خفىَ مكانه ، وجانَب رضاه وإنْ قلَّ ضرره . ومن تخوُّفك[٥] أن يجدَ[٦] المتأوِّل إليه متطرَّقاً ، والعدوُّ عليه متعلَّقاً ؛ فإن السُّلطان لا ينفكُّ من متأوِّلٍ ناقمٍ ، ومن محكومٍ عليه ساخط ، ومن معزول[٧] عن الحكم زارٍ ، ومن متعطِّل متصفِّح ، ومن مُعجَبٍ برأيه ، ذى خَطَلٍ فى بيانِه ، مُولعٍ بتهجين الصَّواب ، وبالاعتراض على التَّدبير ، حتَّى كأنَّه رائدٌ لجميع الأُمة ، ووكيلٌ لسكَّان جميع المملكة ؛ يضَعُ نفسَه فى مواضع الرُّقباء ، وفى مواضع التصفُّح على الخلفاءِ والوُزراءِ . لا يَعْذِرُ وإنْ كانَ مَجازُ العُذْر ظاهراً ، ولا يقف فيما يكون للشَّكِّ محتمِلا ، ولا يصدِّق بأنَّ الشاهدَ

(١) ب فقط : « احتمل » .
(٢) مج والرسائل : « مكروه المعاناة » .
(٣) ب فقط : « شغلك » .
(٤) ط فقط : « ونول سلطانه » .
(٥) ب ، م : « وإن تخونك » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٦) فى جميع الأصول : « أن تجد » ، صوابه فى مج والرسائل .
(٧) مج والرسائل : « معدول » بالدال ، وله وجهه .

يرى ما لا يرى الغائب ، وأنّه لا يَعرف مَصادر الرَّأى من لم يَشْهَد مواردَه ، ومُسْتَدْبَرَه من لم يَعرِفْ مُستقبلَه .

ومن محرومٍ قد أَضْعَفه الحِرمان ، ومن لئيم قد أَفسَدَهُ الإِحسان ، ومن مستبطئٍ قد أَخَذَ أَضعافَ حقِّه ، وهو لجهله بقَدْره ، ولضِيق ذَرْعِه ، وقلّةِ شُكره ، يظنُّ أَنَّ الذى بَقِىَ له أكثر ، ولحقِّهِ أَوْجَب .

ومن مستزيدٍ لو ارتجَعَ السُّلطانُ سالفَ أَياديه البيضِ عنده ، ونِعمتَه السَّالفة عليه ، لكان[1] لذلك أَهلًا ، وله مستحقًّا . قد غرَّه الأَمل[2] ، وأَبطَرُه دَوامُ الكِفاية ، وأَفسده طولُ الفراغ .

ومِن صاحبِ فتْنة[3] خامل فى الجماعة ، رئيس فى الفُرقة نَعَّاق فى الهَرْج ، قد أَقصاه عِزُّ السُّلطان[4] ، وأَقام صَغْوَه ثِقافُ الأَدب[5] ، وأَذلَّه الحُكْم بالحقّ[6] ، فهو مَغِيظٌ لا يجد غير التشنيع[7] ، ولا يتشفَّى بغير الإِرجاف ، ولا يستريح إِلَّا إِلى الأَمانىّ[8] ، ولا يأْنس إِلَّا بكلِّ مُرجِفٍ كذَّاب ، ومُفتونٍ مُرْتاب ، وخارصٍ لا خير فيه ، وخالفٍ لا غَنَاءَ عنده ، يُريد أَن يسوَّى بالكُفاة ، ويُرفَع فوق الحُماة ، لأَمْرٍ ما سَلَفَ[9] له ، ولإِحسانٍ كانَ من غيره[10] ، وليس ممن يربُّ قديمَ مجد[11] ، ولا يحفل

---

(١) ب ، م : « ولكان » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) ب ، مج ورسائل الجاحظ : « الإملاء » .

(٣) ط : « للفتنة » .

(٤) وكذا فى مج . وفى رسائل الجاحظ : « قد أقصاه السلطان » .

(٥) الصغو ، بالكسر والفتح : الميل . وفى جميع النسخ : « صغره » ، صوابه فى مج .

(٦) ب ، م : « الحلم بالحق » وفى ط « الجهل بالحق » ، صوابهما فى مج ورسائل الجاحظ .

(٧) ب : « التشييع » ، صوابه فى م ، ط ، مج ورسائل الجاحظ .

(٨) ب : « إلا بالأمانى » .

(٩) ب : « لايسلف له » م ، ط : « لا أب سلف له » ، صوابهما فى رسائل الجاحظ . وفى مج : « لأمر سلف له .

(١٠) ط فقط : « وإحسان كان من غيره » .

(١١) ط : « يربه قديم مجد » . مج ورسائل الجاحظ : « يرب قديمابحديث » .

بُدروس شرف[١] ، ولا يَفْصِل بين ثواب [المحتسبين ، وبين الحفظ لأَبناءِ[٢]] المُحْسنين .

وكيف يعرف فَرقَ ما بين حَقِّ الذِّمام[٣] وثَوابِ الكِفاية مَنْ لا يعرف طبقاتِ الحقِّ فى مراتبه ، ولا يَفْصِلُ بين طبقات الباطل[٤] فى منازله .

ثم اعلمْ[٥] بعد ذلك أَنَّك بنفسك بدأْتَ فى تعظيم إِمامك ، والحفظِ لمناقب أَنْصار خليفتك[٦] ، وإِيَّاها حُطْتَ بحياطتك[٧] لأَشياعِه ، واحتجاجك لأَوليائه ، ونعم العون أَنت ، إِن شاءَ الله ، على ملازمةِ الطَّاعة ، والمُوازرة على الخير[٨] ، والكفايةِ لأَهل الحقِّ .

وقد استدلَلْتُ بالذى أَرى من شدة عِنايتك[٩] وفَرط اكتراثك ، وتفقُّدِك لأَجناس الأَعداءِ[١٠] ، وبحثك عن مناقب الأَولياءِ ــ على أَنَّ ما ظَهَر من نُصحِك أَمَمٌ فى جَنْب ما بَطَنَ من إِخلاصك[١١] . فأَمتع

---

(١) ط : « ولا يحفل به رءوس شرفا » صوابه فى سائر النسخ .

(٢) التكملة من مج والرسائل .

(٣) الذمام ، بكسر الذال : الحق والحرمة ، وكل حرمة تلزمك إذا ضيعتها المذمة . ب : « فوق ما بين حق الزمام » ، تحريف .

(٤) ب فقط : « المبطل » ، تحريف .

(٥) مج والرسائل : « ثم أعلمتنى » .

(٦) ب : « والحفظ بمناقب أبصار لخليفتك » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٧) فى الأصول : « لحياطتك » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٨) ب فقط : « والموازنة » ، تحريف .

(٩) من ، ساقطة من ب ، م . وكلمة « شدة » من مج والرسائل .

(١٠) فى الأصول : « ولفقدك » ، صوابه فى مج والرسائل . وفى مج والرسائل : « لأخابير الأعداء » . والأخابير : جمع جمع الخبر ، كما فى اللسان .

(١١) الأمم : اليسير . وأنشد ياقوت فى معجم البلدان :

تسألنى برامتين سلجما يا هند لو سألت شيئاً أمما
جاء به الكرى أو تيمما

الله بك خليفتَه ، ومَنَحنا وإيَّاك محبَّتَه ، وأَعاذنا وإيَّاك من قَول الزُّور ، والتقرُّب بالباطل ، إنَّه حميدٌ مَجيد ، فعَّالٌ لما يريد .

وذكرتَ أنَّك جالستَ أَخلاطاً من جُند الخلافة ، وجماعاتٍ من أَبناءِ الدَّعوة ، وشيوخاً من جِلَّة الشِّيعة[1] ، وكُهولًا من أَبناءِ رجال الدولة ، المنسوبين إلى الطاعة والمُناصحة ، ومحبَّة الدَّيْنُونة[2] دون محبَّة الرَّغبة والرهبة ، وأَنَّ رجُلًا من عُرْض تلك الجماعة[3] ارتجل الكلام ارتجالَ مستبدٍّ ، وتفرَّد به تفرُّدَ مُعجَب ، وأَنَّه تعسَّف المعانىَ وتهجَّم على الأَلفاظ[4] فزعم أَنَّ جند الخلافة اليومَ على خمسة أَقسام : خُراسانىٌّ ، وتُركىٌّ ، ومَولىً ، وعربىٌّ ، وبَنَوىٌّ[5] ، وأَنَّه أَكثَرَ حمدَ الله وشُكره على إحسانه ومِنَّته ، وعلى جميع أَيادِيه ، وسبوغ نِعَمه[6] ، وعلى شُمول عافيته ، وجزيل مواهبه ، حين أَلَّف على الطاعة هذه

---

(١) الجلة : جمع جليل ، وهو ذو الخطر والشأن . وفى الأصول : « من جملة الشيعة » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٢) الدينونة : الطاعة ، من الدين بالكسر . وهذا ما فى م . وفى ب : « ومحبة الدنيوية » ، وفى ط والرسائل : « والمحبة الدينية » . وفى مج : « والمناصحة الدينية . والدينونة لم ترد فى المعاجم المتداولة . وفى اللسان (كون) : « قال الفراء : العرب تقول فى ذوات الياء مما يشبه زغت وسرت : طرت طيرورة ، وحدت حيدودة ، فيما لا يحصى من هذا الضرب .

فأما ذوات الواو مثل قلت ورضت فإنهم لا يقولون ذلك . وقد أتى عنهم فى أربعة أحرف ، منها الكينونة من كنت ، والديمومة من دمت ، والهينوعة من الهواع ، والسيدودة من سدت » .

(٣) ب ، م : « الجملة » ، وأثبت ما فى ط ومج والرسائل . وبعده فيهما : « ومن حاشية تلك الجلة » .

(٤) فى جميع الأصول : « وتهكم » بالكاف ، صوابه فى مج والرسائل .

(٥) البنوى : نسبة إلى واحد الأبناء . ويقال أيضاً « أبناوى » نسبة إلى الجمع ، وهم قوم أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن حين جاء يستنجده على الحبشة ، فنصروه وملكوا اليمن وتديروها ، وتزوجوا فى العرب فقيل لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم ، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم . اللسان (بنو) والتنبيه والإشرف ٤٢١ . ويبدو أن جميع الذين اجتذبتهم الحروب من الفرس إلى جزيرة العرب كان العرب يسمونهم الأبناء . وفى جميع الأصول : « وبنونى » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٦) مج والرسائل : « وسابغ نعمه » .

القلوبَ المختلفة ، والأجناسَ المتباينة ، والأهواءَ المتفرقة ، وأنَّك اعترضت على هذا المتكلِّم المستبدِّ ، وعلى هذا القائل المتكلِّفِ الذى قسَّم هذه الأقسام ، وخالفَ بين هذه الأركان ، وفضَّل بين أنسابهم . وأنَّك أنكرت ذلك عليه أشدَّ الإنكار ، وقذعته أشدَّ القذْع .

وزعمت أنَّهم لم يخرجوا من الاتِّفاق ، أوْ مِن شيءٍ يَقرُب من الاتِّفاق[١] ، وأنَّك نَفَيْتَ[٢] التباعُدَ فى النَّسَب ، والتَّبايُنَ فى السَّبب .

وقلتَ : بل أَزْعُمُ أنَّ الخراسانىَّ والتُّركىَّ أخَوانِ ، وأن الحيِّز واحد ، وأنَّ حُكْمَ ذلك الشَّرق[٣] ، والقضيَّة على ذلك الصُّقْع[٤] متَّفِق غير مختلف ، وَمتقاربٌ غيرُ متفاوت ، وأنَّ الأعراقَ فى الأصل إن لا تكن[٥] كانت راسخة ، فقد كانت متشابهة ، وحُدود البلاد المشتملةِ عليهم إن لا تكن[٦] متساويةً فإنَّها متناسِبة ، وكلُّهم خُراسانىٌّ فى الجملة ، وإن تميَّزُوا ببعض الخصائص ، وافترقوا ببعضِ الوجُوه .

وزعمتَ أنَّ اختلاف التركىِّ والخُراسانِّى ليس كاختلاف ما بين الرُّومىِّ والصَّقْلبىّ ، والزِّنجِّى والحبشىّ ، فضلًا على ما هو[٧] أبعدُ جوهراً ، وأشدُّ خلافاً ، بل كاختلاف ما بين المَدَرىِّ والوَبَرىِّ ، والبدَوىِّ والحَضَرىّ ، والسُّهلىِّ والجَبَلىّ ، وكاختلاف ما بين مَن نزل البُطونَ وبين

---

(١) أو من شيء يقرب من الاتفاق ، ساقط من م ، ط وإن كان قد ورد بهامش م بخط مخالف .

(٢) مج والرسائل : « وأنك أنكرت » .

(٣) ب فقط : « الشرف » بالفاء ، صوابه فى سائر النسخ .

(٤) ط : « والقضاء » بدل « القضية » . وفى م : « ذلك الصنع » ، تحريف .

(٥) ط : « إذا لم تكن » مج : « إن لم تكن راسخة » .

(٦) مج : « إن لم تكن » .

(٧) مج والرسائل : فضلا عما هو .

من نزل النجود(١) ، وبين من نزل الأغوار(٢) .

وزعمتَ أنَّ هؤلاءِ وإن اختلفوا فى بعض اللُّغة ، وفارقَ بعضُهم بعضاً فى بعض الصُّورة(٣) ، فقد نجد أنَّ عُلْيا تَميمٍ(٤) ، وسُفلَى قَيْس ، وعَجُز هَوازن(٥) ، وفصحاءِ الحجاز ، خلافُ لغةِ حِمْيَرَ(٦) وسكَّانِ مَخاليف اليمن ، وكذلك الصُّورة والصُّورة ، والشَّمائل والشَّمائل ، والأَخلاق والأَخلاق . وكلُّهم مع ذلك عربىٌّ خالصٌ غير مَشُوب ، ولا مُعَلْهَج ولا مذرّع(٧) ولا مزلَّج(٨) . ولم يختلفوا كاختلاف ما بين

(١) النجود : جمع نجد ، وهو ما غلظ من الأرض وارتفع واستوى ، والجمع أنجد ، وأنجاد ، ونجاد ، ونجود ، ونجد . ب ، ط : « البحور » تحريف ، صوابه فى م مع أثر تصحيح ، وكذا فى مج والرسائل .

(٢) الأغوار : جمع غور ، وهو ما انخفض من الأرض . ب : « الأهواز » م : « الأغوال » ، صوابهما فى ط ، مج والرسائل .

(٣) ب : « وقارب بعضهم بعضاً وبعض للصورة » ،صوابه فى م ، ط ، مج والرسائل ، لكن فى ط : « وبعض الصورة » تحريف .

(٤) مج والرسائل : « فقد تخالفت عليا تميم » . وعليا تميم ، أو عالية تميم هم بنو عمرو بن تميم ، وهم بنو الهجيم والعنبر ومازن ، كما فى اللسان (علا ٣٢٦) . وفى الصاحبى ٢٨ والمزهر ١ : ٢١١ : « أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم » . وفى البرهان للزركشى : ٢٨٣ : « وأما سفلى تميم فبنو دارم » . وهم بنو دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ابن تميم .

(٥) فى الصاحبى ٢٨ والمزهر ١ : ٢١٠ : « العجز من هوازن ، وهم الذين يقال لهم عليا هوازن ، وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف » . وفى اللسان : « عجز هوازن : بنو نصر بن معاوية ، وبنو جشم بن بكر ، كأنه آخرهم » . ويبدو أن الوصف بالعليا والسفلى راجع إلى الموقع الإقليمى . فعليا تميم : من يسكنون العالية ، وهى ما ولى الحجاز وتهامة . وسفلاهم : من يسكنون السافلة ، وهى ما ولى العراق . وتميم كلها مشهود لها بالفصاحة .

(٦) مج والرسائل : « وهى فى أكثرها على خلاف لغة حمير » .

(٧) المعلهج : الهجين ، وهو العربى المولود من أمة . والمذرع : الذى أمه عربية وأبوه عربى . وأنشد :

إذا باهلى عنده حنظلية لها ولد منه فذاك المذرع

وفى جميع النسخ : « ولا مربوع » ، صوابه فى مج والرسائل وهامش م .

(٨) المزلج : الدعى ، والملزق بالقوم وليس منهم ، كأنهم يزلجونه عن أنسابهم لعدم أصالته . ب فقط : « مزنج » ، صوابه فى م ، ط ومج والرسائل .

قَحَطانَ وعَدْنان ، مِنْ قِبَلِ ما طبع اللهُ عليه تلك التُّربةَ من خصائص الغرائز ، وما قَسَم لأَهلِ كلِّ جزيرةٍ من الشَّكل والصُّورة ، ومن الأَخلاق واللغة .

فإنْ قلتَ : وكيف صار أَولادُهما جميعاً عَرَباً ، مع اختلاف الأُبوَّة ؟

قلنا : إنَّ الجزيرة لمَّا كانت واحدةً فاستوَوْا[١] فى التُّربة وفى اللُّغة ، وفى الشَّمائل والهمّة ، وفى الأَنَف والحميَّة ، وفى الأَخلاق [والسجيَّة[٢]] ، فسبكوا سبكاً واحداً ، تشابهت الأَجزاءُ وتناسبت الأَخلاط[٣] ، حتى صار ذلك أَشدَّ تشابهاً فى باب الأَعمِّ والأَخصّ ، وفى باب الوفاق والمباينة[٤] من بعضِ الأَرحام ، وجرى عليهم حُكم الاتِّفاق فى الحسَب[٥] ، وصارت هذه الأَسبابُ وِلادةً أُخرى حتَّى تناكَحُوا عليها ، وتصاهَروا من أَجْلها . وامتنعت عَدنانُ قاطبةً من مناكحة بنى إسحاق ، وهو أَخو إسماعيل ، وجادُوا[٦] بذلك فى جميع الدَّهر لبنى قحطان[٧] .

فنى إجماع الفريقين على التَّناكُح والتَّصاهُر ، ومنعِهما ذلك جميعَ الأُمَم ، ككسرى[٨] فمن دونه ، دليل على أَنَّ النَّسبَ[٩] عندهم متَّفق ، وأَنَّ هذه المعانىَ قد قامت عندهم مقامَ الولادةِ والأَرحامِ الماسَّة .

---

(١) ط فقط : « استووا » بدون فاء .
(٢) التكلة من مج والرسائل .
(٣) ب ، م : « وتباينت الأخلاط » ، ط : « وتباينت الأخلاق » ، صوابهما فى مج والرسائل .
(٤) فى الأصول : « وفى باب الوفاق وفى البنية » ، صوابه فى مج والرسائل .
(٥) فى الأصول : « وفى الحسب » ، والوجه حذف الواو كما فى مج والرسائل .
(٦) جادوا ، أى سمحوا . وفى الأصول : « وجازوا » ، صوابه فى مج والرسائل .
(٧) فى الأصول : « وكبنى قحطان » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .
(٨) ب فقط : « كسرى » .
(٩) ب ، م : « دليل على النسب » ، تحريف .

وزعمت أَنَّه أَراد الفُرقة والتَّحْزِيب[١] ، وأَنك أَردت الأُلفة والتقريب[٢] .

ثم زعمت أَيضاً أَن البَنَوِىَّ[٣] خُراسانىٌّ ، وأَنَّ نسب الأَبناءِ نسب آبائهم ، وأَنَّ حُسْنَ صنيعِ الآباءِ ، وقديمَ فَعالِ الأَجداد ، هو حَسَبُ الأَبناءِ ، وأَنَّ الموالىَ بالعرب أَشبَهُ ، وإليهمْ أَقرب ، وبِهِمْ أَمَسُّ ؛ لأَنَّ السُّنَّةَ[٤] قد نقلت الموالىَ إلى العرب فى كثيرٍ من المعانى ، لأَنهم عربٌ فى المدَّعَى ، وفى العاقِلة ، وفى الوراثة[٥] . وهذا تأْويل قوله[٦] : « مَولَى القومِ منهم[٧] » . و « الولاءُ لُحمةٌ كلُحْمة النَّسَب[٨] » .

ثم زعمتَ أَنَّ الأَتراك قد شاركوا القومَ فى هذا النَّسب ، وصاروا من العرب بهذا السَّبب ، مع الذى بانُوا به من الخلال ، وحُبُوا به من شرَف الخصال .

على أَنَّ ولاءَ الأَتراك للُبابِ قريش ،ولِمُصَاصِ عبدِ مناف ،[وهم[٩]] فى سرِّ هاشم ، وهاشمٌ مَوضِعَ العِذار من خَدِّ الفرس ، ومحلَّ العِقْد

---

(١) التحزيب : أن يجعلهم أحزاباً وفرقاً . ب : « والتخريب » م : « والتخويف » ط : « والتحزب » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٢) ط فقط : « والتقرب » .

(٣) فى الأصول : « البنوتى » صوابه فى مج والرسائل . وانظر ما سبق فى صفحة ١٦٧ .

(٤) ب ، م : « الشبه » ط : « النسبة » صوابهما مج والرسائل .

(٥) فى الأصول : « الراية » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٦) مج : « قوله عليه الصلاة والسلام » .

(٧) ويروى : « من أنفسهم » . الجامع الصغير ٩١٢٤ . وأخرجه البخارى عن أنس .

(٨) أخرجه الطبرانى عن عبد الله بن أبى أوفى ، والحاكم والبيهقى عن ابن عمر . الجامع الصغير ٩٦٨٧ .

(٩) التكملة من رسائل الجاحظ .

من لَبَّة الكَعَاب[١] . وهو[٢] الجوهر المكنونُ ، والذَّهَب المصفَّى ، وموضع المُخَّة من البيضة[٣] ، والعَين فى الرأس[٤] ، والرُّوح من البدن . وهُم الأَنْف المقدَّم ، والسَّنام الأَكْوَم ، والطِّينة البيضاء ، والدُّرَّة الزهراءُ ، والرَّوضة الخضراء ، والذَّهبُ الأَحمر .

فقد شاركوا العرَب فى أَنسابهم ، وفَضَلوهم بهذا الفضْل الخاصِّ الذى لا يبلُغه فضْلٌ وإنْ بَرَع ، بل لا يَعْشُره شَرفٌ وإنْ عَظُم ، ولا مجدٌ وإنْ قَدُم .

فزعمتَ أَنَّ أَنساب الجميع متقاربةٌ غيرُ متباعدة ، وعلى حسَب ذلك التَّقارُبِ تكون الموازرة والمكانَفة[٥] ، والطاعةُ والمُناصَحة ، والمحبَّةُ للخلفاءِ والأَئمة .

وذكرتَ أَنَّه ذكرَ جُملًا من مفاخر هذه الأَجناس ، وجمهرةً من مناقبِ هذه الأَصناف ، وأَنَّه جمعَ ذلك وفَصَّله ، وأَجمَلَه وفسَّره ، وأَنَّه أَلغَى ذِكر الأَتراك فلم يعرِضْ لهم[٦] ، وأَضرَبَ عنهم صفحاً فلم يُخبِرْ عنهم ، كما أَخبَرَ عن[٧] حُجَّة كلِّ جيل ، وعن بُرهانِ كلِّ صنف . فذكَر أَنَّ الخراسانىّ يقول : نحنُ النُّقباءُ ، وأَبناءُ النُّقباءِ ، ونحن النُّجباءُ وأَبناءُ النُّجباءِ ، ومِنَّا الدعاة قبل أَن تظهر نقابةٌ[٨] ، أَو تُعرفَ

---

(١) فى رسائل الجاحظ : « الكاعب » ، وهما سواء . يقال جارية كعاب ومكعب ، وكاعب : نهد ثديها . واللبة بالفتح ، واللبب بالتحريك : موضع القلادة من الصدر .

(٢) وهو ، ليست فى رسائل الجاحظ . كما أن وجهها « وهم » .

(٣) محة البيضة ومحها : ما فى جوفها من صفرة . ب فقط : « المخة » تحريف .

(٤) مج فقط : « من الرأس » .

(٥) المكانفة ، بالنون : المعاونة ، ومثلها المكاتفة ، بالتاء ، كما فى المعجم الوسيط . ب ، م : « والمكايفة » . صوابها فى ط ومج . وفى رسائل الجاحظ : « والمكاتفة » بالتاء .

(٦) ط فقط : « بهم » .

(٧) ط فقط : « خبر » .

(٨) النقيب : العريف على القوم المقدم عليهم ، الذى يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم . والنقابة بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم .

نَجابة ، وقبل المغالبة والمبادأة[١] ، وقبل كَشف القِناع وزوال التَقيَّة .

وبنا زالَ مُلْك أعدائنا عن مُستَقرِّه ، وثبَت مُلْك أوليائِنا فى نصابه ، وبَيْنَ ذلك ما قُتِلْنا وشُرِّدْنا ، ونُهِكْنا ضَرباً وطَلبا ، وبُضِعْنا بالسُّيوفِ الحداد ، وعُذِّبنا بألوان العذاب .

وبنا شَفَى الله تعالى الصُّدور ، وأُدرِكَ الثَّأْر ، ومنَّا الاثنَى عَشَر النُّقَباءُ ، والسَّبعون النُّجَباءُ . ونحن الخَنْدقية وأَبناءُ الخَنْدقيَّة[٢] ، ونحن الكفَّيّة وأَبناءُ الكفِّيَّة[٣] ، ومنَّا المُستجيبة ، ومن[٤] بهرج النيمية ، ومنا نيم خزان[٥] ، وأَصحاب الْجَوْزبَيْن[٦] ، ومنا الزَّغَنْدِيَّة[٧] ، والآزاذمَرديَّة[٨] .

ونحنُ فتحنا البلادَ ، وقَتَلنا العدوَّ بكلِّ واد ، ونحن أَصلُ هذه الدَّولة ، ومَنبِت هذه الشَّجرَة ، وأَصحابُ هذه الدَّعوة ، ومِنْ عِندِنا هبَّت هذه الرِّيح .

والأَنصارُ أَنصارانِ : الأَوس والخزرج ، نصروا النبيّ صلى الله عليه وسلم فى أَوّلِ الزَّمان ، وأَهل خُراسانَ نصروا ورثَتَه فى آخر الزمان ، غَذَانا بذلك آباؤنا ، وغَزَوْنا به أَبناءَنا ، وصار لنا نسباً لا نُعرَف إلَّا به ، وديناً لا نُوالِى إلَّا عليه .

---

(١) فى الرسائل : « والمباراة » وبالراء .

(٢) الخندقية : أصحاب الخنادق أيام نصر بن سيار ، كما سيأتى فى أول ص١٧٦ .

(٣) ط فقط : « الكتفية وأبناء الكتفية » .

(٤) م ، ط : « ومنا » وفى ط والرسائل بعده : « يهرج التيمية » وفى مج : « يمرج التيمية » .

(٥) ط فقط : « تيم خزان » .

(٦) ب ، م : « الجوزتين » . وفى ط : « الحوزتين » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٧) زغند ، فى الفارسية بمعنى صوت الحيوان الوحشى . وسيأتى فى ص ١٧٩ : « ولنا الأصوات التى تسقط الحبالى » .

(٨) الآزاذ مردية : اسم كان يطلق على طبقة الأشراف من الفرس . انظر مقال الدكتور كراوس فى مجلة الثقافة العدد ٢٢٤ . ب : « والآذاذمردية » م : « والأزادردية » ط : « والأمزامردية » ، صوابه فى مج والرسائل .

ثمّ نحنُ على وتيرةٍ واحدة ، ومنهاجٍ غير مشترك ، نُعرف بالشِّيعة ، ونَدِين بالطَّاعة ، ونُقتَلُ فيها ، ونَموتُ عليها . سِيمانا موصوفٌ ، ولِباسنا معروف ، ونحن أَصحاب الرَّايات السُّود ، والروايات الصحيحة[١] ، والأَحاديثِ المأْثورة ، والذين يَهدِمون مُدُن الجبابرة ، وينتزعون المُلْك من أَيدِى الظَّلمة . وفينا تقدَّم الخبر ، وصَحَّ الأَثر . وجاء[٢] فى الحديث صفةُ الذين يفتحون عَمُّورِيَّة[٣] ، ويظهرون عليها[٤] ، ويقتلون مقاتليها[٥] ، ويَسْبُون ذراريَّها ، حيث قالوا فى نعتهم : « شُعورهم شعورُ النِّسَاء ، وثيابهم ثياب الرُّهبان » . فصدَّق الفعلُ القولَ ، وحقَّق الخَبرَ العِيان .

ونحن الذين ذكرَنا ، وذَكر بلاءَنا[٦] إمامُ الأَئمَّة ، وأَبو الخلائف العشرة[٧] محمد بن على ، حين أَراد توجيه الدُّعاة إلى الآفاق ، وتفريقَ شِيعته فى البُلدان :

---

(١) فى الأصول : « فى الروايات الصحيحة » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٢) ب ، ط : « جاء » بدون واو .

(٣) عمورية ، بتشديد الميم المضمومة والياء : بلدة فى الروم فتحها المعتصم العباسى سنة ٢٢٣ . ولهذا الفتح قصة عجيبة مذكورة فى كتب التاريخ . وفيه يقول أبو تمام :

يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب

(٤) عليها ، ساقطة من م .

(٥) كذا فى مج والرسائل وم . وفى ب : « مقاتلها » وفى ط : « مقاتلتها » .

(٦) ب ، م : « بلاد ناء » ، صوابه فى ط .

(٧) يعنى خلفاء العباسيين العشرة الذين أدرك الجاحظ آخرهم ، وهو الخليفة المتوكل . وهم على الولاء : أبو العباس السفاح ، وأبو جعفر المنصور ، ثم المهدى ، والهادى ، والرشيد ، والأمين ، والمأمون ، والمعتصم الذى كان يسمى « الخليفة المثمن » ، لأنه الثامن من خلفاء بنى العباس ، أو لأنه مات عن ثمانية بنين وثمانى بنات ، وخلف فى بيت المال ثمانية آلاف ألف دينار ، وثمانية آلاف ألف درهم ، كما ذكر المسعودى فى التنبيه والإشراف ٣٠٧ . ثم تاسعهم الخليفة الواثق ، والعاشر الخليفة المتوكل المقتول بالجعفرية من سر من رأى سنة ٢٤٧ .

وقد توالى بعد هؤلاء الخلائف العشرة من العباسيين ٢٦ خليفة كان آخرهم المستعصم بالله الذى قتله هولاكو ملك التتر حين استولى على بغداد سنة ٦٥٦ .

«أمّا البصرة وسوادُها فقد غلب عليها عثمان ، وصنائِعُ عثمان ، فليس بها من شيعتنا إلّا القليل .

وأمّا الكوفة وسوادُها فقد غَلَب عليها عليٌّ وشيعةُ عليّ ، فليس بها من شيعتنا إلّا القليل .

وأمّا الشام فشيعة بنى مَرْوان ، وآلِ بنى سُفيان .

وأمّا الجزيرة فخارجَةٌ ، وحَرُورية ومارقة .

ولكن عليكم بهذا الشَّرق فإنَّ هُناك[1] صدوراً سليمة ، وقلوباً باسلة ، لم تُفْسِدْها الأهواء ، ولم تُخامِرْها الأدواء ، ولم تعتَقِبْها البِدَع ، وهم مَغِيظون[2] مَوتُورون . وهناك العَدد والعُدَّة ، والعَتَاد والنَّجدة » .

ثم قال : « وأنا أتفاءَلُ إلى حيث ما تَطلع[3] » .

فكنَّا خَيْرَ جندٍ لخير إمام ، وصدَّقنا ظنَّه ، وثبَّتنا رأيه ، وصَوَّبنا فِراسَته .

وقال مرّةً أخرى : «إنَّ أمْرَنا هذا شرقيٌّ لا غربيٌّ ، ومُقبِلٌ غيرُ مدبر ، يطلعُ كطلوع الشمس ، ويمتدُّ على الآفاق امتدادَ النَّهار ، حتَّى يَبلُغ[4] حيث ما تبلغُه الأخفاف[5] ، وتناله الحَوَافِر » .

قالوا : ونحن قتلنا الصَّحصحيَّة[6] ، والدَّالقيَّة[7] ، والذَّكوانية ،

---

(١) ط فقط : « هنالك » .

(٢) ط فقط : « مغبطون » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٣) ب : « ما نطلع » ، تحريف . والمراد : حيثما تطلع الشمس . وفى مج : « حيث يطلع النهار » ، وفى الرسائل : « حيث يطلع منه النهار » .

(٤) فى الأصول : « حتى تبلغ » ، صوابه بالياء كما فى مج والرسائل .

(٥) أى أخفاف الإبل . ب ، م : « الإخفاق » ، صوابه فى ط ، مج والرسائل .

(٦) الصحصحية : نسبة إلى صحصح ، وكان أحد المتكلمين . انظر الحيوان ٣ : ٣٩٥ والبخلاء ٤ والطبرى فى حوادث سنة ١٣٢ . وفى الأصول : « الصحيحة » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٧) م ، ب : « الدالفية » بالفاء . وبدله فى الطبرى : « الدوكانية » .

والرّاشديّة . ونحن أَصحابُ[١] الخنادق ، ونُباتة بن حنظلة[٢] ، وعامر ابن ضُبارة[٣] ، وأَصحابُ ابن هُبيرة . فلنا قديمُ هذا الأَمر وحديثُه ، وأوّلُه وآخِره[٤] .

ومنّا قاتل مَرْوان .

ونحن قومٌ لنا أَجسامٌ وأَجرام ، وشُعور وهام ، ومناكبُ عظام ، وجباهٌ عِراض ، وقَصَرٌ غِلاظ[٥] ، وسَواعدُ طِوال .

ونحن أَولَدُ للذُّكورة ، وأَنسَلُ بُعولةً ، وأَقلُّ ضَوًى وضُئولة ، وأَقلُّ إتآما[٦] ، وأَنتَقُ أَرحاماً[٧] ، وأَشدُّ عصباً ، وأَتمُّ عظاماً . وأَبدانُنا أَحملُ للسِّلاح ، وتجفافنا أَملأُ للعيون[٨] .

(١) بعده فى مج والرسائل : « أيام نصر بن سيار ، وابن جديع الكرمانى ، وشيبان بن سلمة الخارجى » . وابن جديع هذا هو على بن جديع الكرمانى ، كما فى حواشى رسائل الجاحظ ١ : ١٧ .

(٢) ب : « وبنانه بن حنظلة » ، م : « وبناته » صوابهما فى ط ، مج والرسائل . وفيهما : « ونحن أصحاب نباتة بن حنظلة » . وكان نباتة هذا والياً على جرجان . وانظر جمهرة ابن حزم ٢٨٢ . وهو نباتة بن حنظلة بن ربيعة بن عبد قيس بن ربيعة بن كعب بن عبد الله بن أبى بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وانظر خبر مقتله فى تاريخ الطبرى سنة ١٣٠ .

(٣) كان عامر بن ضبارة هذا من قواد ابن هبيرة . وانظر الاشتقاق ٢٨٩ ، ٢٩٠ وجمهرة ابن حزم ٢٥٤ . وفى الأصول : « بن ضبابة » صوابه بالراء كما فى مج والرسائل والتنبيه والإشراف ٢٨٣ والطبرى ٧ : ٤٠٥ . قتله قحطبة بن شبيب الطائى بأصبهان فى حروب أبى مسلم الخراسانى سنة ١٣١ .

(٤) فى الطبرى أن قاتل مروان بن محمد ، هو رجل من أهل البصرة يقال له المغود ، طعنه وهو لا يعرفه فصرعه ، فصاح صائح : صرع أمير المؤمنين ! وابتدروه ، فسبق إليه رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمان فاحتز رأسه . انظر حوادث سنة ١٣٢ .

(٥) القصر ، بالتحريك : جمع قصرة ، وهى أصل العنق . وبه فسر ابن عباس قوله تعالى : « إنها ترمى بشرر كالقصر » فى قراءته بفتح الصاد .

(٦) الإتآم : أن تلد المرأة اثنين فى بطن .

(٧) أنتق أرحاماً ، أى أكثر ولادة . والمرأة ناتق ، لأنها ترمى بالأولاد رمياً . والنتق : الرمى والنفض .

(٨) فى الأصول ومج وأصل الرسائل ١ : ١٨ : « وأخفافنا » . والوجه ما أثبت . وانظر حواشى الرسائل . والتجفاف ، بفتح التاء وكسرها : ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح فى الحرب . وانظر ص ١٧٨ .

ونحن أكثر مادّةً ، وأكثر عَدداً وعُدَّة ، ولو أنَّ يأجوج ومأجوج كاثَرُوا[١] مَنْ وراءَ النَّهرِ منَّا لَظَهروا عليهم بالعَدَد .

فأمَّا الأَيْدُ وشِدَّةُ الأَسْر فليس لأَحدٍ بعد عادٍ وثمودَ والعمالقةِ والكنعانيِّين مثلُ أَيْدِنا وأَسْرِنا .

ولو أنَّ خُيولَ الآفاق ، وفُرسانَ جميعِ الأَطراف جُمِعُوا فى حَلْبةٍ واحدة لكنَّا أكثرَ فى العُيون ، وأهولَ فى الصُّدور .

ومتى رأيتَ مواكبَنا وفُرساننا وبُنودَنا التى لا يحملها[٢] غيرُنا علمت أنَّا لم نُخلَقْ إلَّا لقلب الدُّوَل ، وطاعةِ الخُلفاءِ ، وتأْييد السُّلطان .

ولو أنَّ أهلَ تُبَّت ، ورجال الزَّابجَ[٣] ، ورجالَ وفُرسان الهند[٤] ، وحَلْبَة[٥] الرُّوم ، هَجَم عليهم هاشم بن أشتاخنج[٦] لمَا امتنعوا من طَرْحِ السّلاح ، والهربِ فى البلاد .

ونحن أصحابُ اللِّحَى ، وأربابُ النُّهَى ، وأهل الحِلْم والحِجَا[٧] ، وأهلُ الثَّخانة فى الرأْى[٨] ، والبُعدِ مِن الطَّيش .

---

(١) كاثروهم : باروهم فى الكثرة . م فقط : « كثروا » ، تحريف .

(٢) ب ، م : « يحمله » ، صوابه فى ط ، مج والرسائل .

(٣) الزابج ، بفتح الباء وكسرها : جزيرة فى أقصى بلاد الهند فى حدود الصين . وفى الحيوان ٧ : ٣٣٠ : « ويزعم تجار التبت ممن قد دخل الصين والزابج » . وفى الأصل ، وهو هنا ب فقط : « الزنج » إذ لم ترد « رجال الزابج » فى كل من م ، ط .

(٤) هذا ما فى ط . وفى ب ومج والرسائل : « وفرسان الهند » ، وفى م : « وفرسان ورجال الهند » .

(٥) الحلبة ، بالفتح : جماعة الخيل فى السباق ، والمراد هنا الفرسان .

(٦) كان قد عصى وخالف فى إفريقية ، فقتله أبو جعفر المنصور سنة ١٥٢ كما فى الطبرى .

(٧) كتبت فى م ، ط : « الحجى » بالياء ؛ والكلمة واوية بمعنى العقل والفطنة ، يقال حاجيته فحجوته .

(٨) ثخانة الرأى : قوته وجزالته . ب : « التجانة » م ، ط : « الثجانة » ، صوابهما فى مج والرسائل .

ولسنا كجُنْد الشَّام المتعرِّضِين للحُرَم ، والمنتهكين لكلِّ مُحَرَّم .

ونحن ناسٌ لنا أَمانة ، وفينا عفَّة . ونحن نجمع بين النَّزاهة والقَناعة ، والصَّبر على الخِدْمة ، وعلى التجمير وبُعْدِ الشُّقة[1] .

ولنا الطبول المَهُولة والبُنود العظام[2] .

ونحن أَصحاب التَّجافيف والأَجراس[3] ، والبازَفكَنْد[4] ، واللُّبود الطِّوال ، والأَغماد المعقَّفة[5] والقلانس الشاشيّة[6] ، والخيول الشِّهْرية[7] ، ولنا الكافِركُوبات[8] ، والطَّبَرْزِينات فى الأَكفّ[9] ، والخناجرُ فى الأَوساط .

---

(١) تجمير الجيش : إبقاؤه فى ثغر العدو ، وأصل معناه التجميع . مج والرسائل : « عند بعد الشقة » .

(٢) وكذا فى مج . لكن فى الرسائل : « ولنا الطبول المهولة العظام والبنود » . والبنود : جمع بند ، وهو العلم الكبير ، فارسى معرب .

(٣) انظر للتجافيف ما مضى فى ص ١٧٦ .

(٤) مج والرسائل : « والبازتكند » . وفى البيان ١ : ٩٥ — ٣ : ١١٥ : « بازيكند » أيضاً . وضبطت فى أعلى نسخ البيان بفتح الزاى وضم الياء المثناة وفتح الكاف . وفى هامشها : « بازيكند : نوع من الثياب ، فارسية » . ويبدو أنه كساء يلقى على الكتف . وباز فى الفارسية بمعنى الكتف .

(٥) الأغماد : جمع غمد ، وهو جفن السيف . فى الأصول : « والأعمدة » ، صوابه فى مج والرسائل . والمعقفة : المعوجة ، وذلك لاعوجاج السيوف التى تشتمل عليها . ب : « والمعقفة » والواو مقحمة . وفى ط : « والحقفة » وفى م : « والمقفة » ، صوابها ما أثبت .

(٦) نسبة إلى الشاش ، وهو نسيج رقيق من القطن تضمد به الجروح ، ويستعمل أيضاً لفافة للعامة ، ولفظه مولد . ب ، م : « الشباسية » صوابه فى ط ومج والرسائل .

(٧) الشهرية ، بالكسر كما فى اللسان والقاموس . وذكر ابن منظور أنه ضرب من البراذين . وزاد صاحب اللسان أنه بين البرذون والمقرف من الخيل .

(٨) جمع كافركوب ، وفى هامش ل من نسخ البيان أن كافركوب هى المقرعة .

(٩) الطبرزينات : جمع طبرزين ، وهو فأس تستعمل فى القتال عند الفرس ، مركب من « تبر » بمعنى الفأس . و « زين » بمعنى السرج ، ولعله سمى بذلك لالتزام وضعه بجانب السرج . استينجاس ٢٧٠ والمعرب ١٩٤ والألفاظ الفارسية لأدى شير ١١١ .

ولنا تعليقُ السيوف وحُسْنُ الجِلْسة على ظُهور الخيل ، ولنا الأَصوات التى تُسقِط الحبالَى .

وليس فى الأَرض صناعةٌ غريبةٌ [١] ، من أَدبٍ وحكمة وحساب وهَندسة ، وارتفاع بناءٍ وصَنْعة [٢] ، وفقهٍ ورواية ، نظرَتْ فيها الخُراسانيَّة إلَّا فرعَتْ فيهَا الرُّؤساءَ [٣] ، وبذَّت فيها العُلماءَ [٤] .

ولنا صنعةُ السِّلاح ، عُدَّةً للحرب [٥] ، وتثقيفاً ودُربة للمجاولة والمُشَاولةَ [٦] ، وللكرِّ بعدالفَرّ ،مثل الدَّبُّوق [٧] ،والنَّزْو على الخيل صغاراً ، ومثل الطَّبْطاب والصَّوالجة كِباراً [٨] . ثمّ رمى المُجثَّمة [٩] والبُرجاس [١٠] والطائر الخاطف [١١] . فنحن أَحقُّ بالأَثَرة ، وأَولى بشَرَف المنزلة .

قلت : وزعم أَنَّ العربي يقول :إن تكن القُرْبَةُ [١٢] تُستحَقُّ بالأَنساب

(١) فى الأصول : « عراقية ولا حجازية » وهو تحريف ساق إلى تحريف . والوجه ما أثبت من مج والرسائل .

(٢) مج والرسائل : « وإيقاع وصنعة » .

(٣) فرع فلان فلاناً : علاه وفاقه . فى الأصول : « فرغت منها الرؤساء » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٤) بذهم : غلبهم وسبقهم . فى الأصول : « وبدت » صوابه بالذال المعجمة كما فى مج والرسائل .

(٥) العبارة هنا موجزة إيجازاً شديداً . وانظر الرسائل ١ : ٢٠ .

(٦) المشاولة : أن يتناول بعضهم بعضاً عند القتال بالرماح .

(٧) فى اللسان : «الدبوق لعبة يلعب بها الصبيان، معروفة » .وفى القاموس : «لعبة معروفة» .

(٨) الطبطاب ، بالفتح : مضرب الكرة . والصولجان : المحجن ، أى العصا المعوجة الطرف ، ويستعملها الفرس للعب بالكرة وهم على ظهور الخيل . استينجاس ٧٩٦ واللفظ معرب من الفارسى « شوجان ». والجمع صوالجة . فى مج والرسائل : « والصوالج الكبار». ويبدو أن ما هنا هو الوجه لأنه مايقابل « صغاراً » السابقة .

(٩) المجثمة : مانصب من الحيوان للرمى والقتل . ب فقط : « المجثة » تحريف .

(١٠) البرجاس ، بضم الباء وفتحها : غرض فى الهواء على رأس رمح أو نحوه . كما فى : الألفاظ الفارسية ١٨ ومعجم استينجاس ١٧٠ . ولفظه فارسى . ب ، م : « والبرحاسب » ط : « والبرحاسبارا » ، تحريف ما فى مج والرسائل .

(١١) مج والرسائل : « الخطاف » .

(١٢) ب : « القرية » تحريف » . وفى ط : « القربى» ، وأثبت ما فى م ، مج والرسائل .

الثابتة ، والأرحام الشابكة ، وبالقِدْمة[١] ، وبطاعة الآباءِ والعشيرةِ ، وبالشُّكر النافع ، والمديح الباقى[٢] ، وبالشعر الموزون الذى يبقى بَقاءَ الدهر ، ويلوحُ مالاحَ نجم ، ويُنشَد ما أُهِلَّ بالحجّ ، وما هَبَّت الصَّبا ، وما كان للزَّيت عاصر . وبالكلام المنشور ، والقول المأثور ، وبصفة مَخرج الدولة ، والاحتجاج للدَّعوة ، وتقييد المآثر ، إذْ لم يكن ذلك من عادة العجم ، ولا كان يَحفظ ذلك معروفاً لسوى العرب ، ونحن نرتبطُها بالشِّعر المقفى ، ونقيِّدها بحفظ الأُمِّيِّينَ[٣] الذين لا يَتّكلون[٤] على الكتب المدوّنة ، والخطوط المطرّسة[٥] .

ونحن أَصحاب التفاخر والتنافر ، والتَّنازُع فى الشَّرف ، والتحاكم إلى كلِّ حَكَم مُقْنع ، وكاهنٍ سَجَّاع[٦] .

ونحن أَصحاب[٧] التعايرُ بالمثالب ، والتفاخُر بالمناقب .

ونحن أَحفَظُ لأنسابنا ، وأَرعى لحقوقنا[٨] ، وتقييدِها[٩] أَيضاً بالمنثور المرسَل ، بعد الموزون المعدَّل ، بلسانٍ أَمضَى من السِّنان ، وأَرهَف

---

(١) م : وبالقدومة » صوابه فى ب ، ط ومج والرسائل .
(٢) فى جميع الأصول : « والمدمج الباقى » ، صوابه فى مج والرسائل . وفيهما : « والمديح الكافى » .
(٣) ب : « الأمتين » ب : « الأمين » مع تشديد الميم ، صوابه فى ط ومج والرسائل .
(٤) ط فقط : « لا يتكلمون » ، تحريف .
(٥) التطريس ، كما فى القاموس : إعادة الكتابة على المكتوب .
(٦) السجاع : الذى يستعمل السجع ، وهو الكلام المقفى ، أو الكلام الذى له فواصل ، وكان ذلك من دأب الكهان ، كما نراه فى سيرة ابن هشام من أقوالهم . وفى جميع الأصول وكذلك مج : « شجاع » بالشين المعجمة ، صوابه فى رسائل الجاحظ ١ : ٢٢ ،
(٧) ب : « ونحن بنا » ، وأثبت ما فى م ، ط . وفى مج والرسائل : « ولنا » .
(٨) ط فقط : « وأدعى لحقوقنا » .
(٩) م فقط : « وتقييد » .

من السَّيف الحسام ، حَتَّى نذكِّرهم ما قد درس رسمُه ، وعفا أثره . وبين القتال من جهة الرَّغبة والرَّهبة فرق . وليس المعرق فى الحِفاظ كمن هذا فيه حادث[(١)] . وهذا بابٌ يتقدَّم التالدُ القديمُ الطارفَ الحديث[(٢)]

وطُلاَّب الطَّوائل رجلان : سِجستانىٌّ وأعرابىّ . وهل أَكثَرُ النُّقباء إلَّا من صميم العرب ، ومن صَليبةِ هذا النَّسَب ، كأبى عبد الحميد قَحطبة بن شبيب الطائىّ[(٣)] ، وأبى محمد سُليمان بن كثير الخُزَاعىّ[(٤)] ، وأبى نصر مالك بن الهيثم الخزاعىّ[(٥)] ، وأبى داود خالد بن إبراهيم الذُّهلىّ ، وكأبى عمروٍ لاهزِ بن قُرَيظ المَرَئىّ[(٦)] ، وأبى عُتَيبة موسى

---

(١) ط فقط : « كمن هذى فيه حادثا » .

(٢) ب فقط : « والطارف الحديث » تحريف .

(٣) قطبة بن شبيب الطائى ، صحب أبا مسلم الخراسانى ، فى اثنى عشر رجلا من النقباء اختارهم له أبو محمد الصادق ، فكان شريكاً لأبى مسلم فى إقامة الدعوة العباسية بخراسان ، وقاد جيوش أبى مسلم فكان مظفراً . ومات غرقاً فى الفرات سنة ١٣٢ حين بدأت الخلافة العباسية . انظر الطبرى فى حوادث سنة ١٠٠ ، وسنة ١٣٢ . ط : « كعبد الحميد بن قحطبة » ، صوابه فى سائر النسخ ومج والرسائل .

(٤) كان سليمان بن كثير الخزاعى أحد النقباء الاثنى عشر من دعاة الدولة العباسية وأنصار أبى مسلم ، ولكن أبا مسلم شك فى أمره وأمر بضرب عنقه فى سنة ١٣٢ . الطبرى ٧ : ٤٥٠ وابن الأثير ٥ : ٤٣٧ .

(٥) أبو نصر هذا : أحد النقباء ، وكان المنصور قد أمر بقتله بعد قتله لأبى مسلم ، ولكنه أظهر من الطاعة والنصح ما غير رأى المنصور فيه ، فمن عليه واستعمله على الموصل . وذلك فى سنة ١٣٧ . الطبرى وابن الأثير .

(٦) لاهز بن قريظ ، بالظاء المعجمة كما فى الطبرى وابن الأثير ورسائل الجاحظ . وفى الأصول : « بن قريط » بالطاء المهملة . وفى مج : « بن طريز » ، صوابهما ما أثبت . ونسبته من الجمهرة ٢١٤ : لاهز بن قريظ بن سرى بن الكاهن بن زيد بن عصية بن امرئ القيس . كان من وجوه أهل دعوة بنى العباس وضرب أبو مسلم عنقه صبراً لأنه قرأ بحضرة نصر بن سيار : « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين » ، ففهمها نصر وهرب . فنسبته « المرئى » هى إلى امرئ القيس . وفى الأصول ومج : « المزنى » ، تحريف . وما بعده من الكلام إلى : « ومن كان يجرى » ساقط من ط .

ابن كعب المَرَئىّ[١] ، وأبى سهل القاسم بن مُجاشع المرَئىّ[٢] . ومن كان يجرى مجرى النُّقباء ولم يَدخُل فيهم ، [مثل[٣]] مالك بن الطوّاف[٤] المَرَئىّ[٥] .

وبعد ، فمن هذا الذى باشر قَتْل مَرْوانَ[٦] ، ومن هَزَم ابنَ هُبيرة ، ومن قَتَل ابن ضُبَارة ، ومن قتل نُباتةَ بن حَنظلَة ، إلَّا عربُ الدَّعوة ، والصَّميم من أَهل الدولة ؟ ومن فَتح السِّند إلَّا موسى بن كعب ، ومَن فتح إفريقيَّة إلَّا محمَّد بن الأَشعث ؟

وقلت : وقال : ويقُول الموالى[٧] لنا النَّصيحة الخالصةُ ، والمحبَّة الرَّاسخة . ونحنُ موضع الثِّقة عند الشِّدَّة ، وعلل المَولَى[٨] من تحت موجبةٌ لمحبَّة المولى من فَوق ؛ لأَنَّ شَرفَ مولاه راجعٌ إليه ، وكرَمَه زائدٌ فى كرمه ، وخمولَه مُسقِطٌ لقَدْره ، وبِوُدّه[٩] أَنَّ خصال الكرم كلَّها اجتمعت فيه ، لأَن ذلك كلَّما[١٠] كان مولاه أَكبر وأَشرفَ وأَظْهر ، كان هو بها أَشرفَ وأَنبل ، ومولاك أَسلم لك صدراً ، وأَودُّ ضميراً ، وأَقلُّ حسداً .

---

(١) فى الطبرى ٧ : ٣٨٠ : « ومن تميم : موسى بن كعب أبو عيينة » كما فى مج ، لا أبو عتيبة بالتاء كما هنا وكما فى الرسائل . ولاهز بن قريظ ، والقاسم بن مجاشع ، كلهم من بنى امرئ القيس » ب : « المرائى » م : « المزانى » تحريف والصواب « المرئى » نسبة إلى امرىء القيس.

(٢) ب : « المزنى » م : « المزانى » ، صوابهما ما أثبت . وانظر الحواشى السابقة .

(٣) التكملة من مج والرسائل .

(٤) م : « الطراف » وفى الطبرى : « بن طريف » وفى ابن الأثير : « بن طرافة » ، وجعلا نسبته « الخراسانى » .

(٥) فى مج : « المزانى » وفى ط والرسائل : « المزنى » .

(٦) انظر ما سبق فى ص ١٧٦ س ٤ .

(٧) ب فقط : « للوالى » ، تحريف .

(٨) ب فقط : « الموقى » ، تحريف .

(٩) ب : « ويوده » م : « ويؤده » ، صوابه فى سائر النسخ .

(١٠) مج والرسائل : « لأنه كلما » .

وبَعْدُ ، فالوَلاءُ لحمةٌ كلحمة النَّسب[١] ، فقد صار لنا النَّسب الذى يصوِّبه العربىّ[٢] ، ولنا الأَصلُ الذى يفتخر به العجمىّ .

قال : والصَّبر ضروبٌ ، فأَكرمها كلِّها الصَّبرُ على إفشاء السرّ ، وللمولَى فى هذه المكرُمة ما ليس لأَحدٍ ، ونحن أَخصُّ مدخلًا ، وأَلطف فى الخِدمة مَسلكاً . ولنا مع الطَّاعة والخِدمة ، والإخلاصِ وحُسْن النِّيَّة ، خِدمةُ الأَبناء للآباء ، والآباءِ للأَجداد[٣] ، وهم بمَوالِيهم آنَسُ ، وبناحيتهم أَوثَق ، وبِكفايتهم أَسرّ .

وقد كان المنصور ، ومحمّد بن على ، وعلىُّ بن عبد الله ، يخصُّون مواليَهم بالمواكلة والبَسْط والإيناس ، لا يُبهرِجونَ الأَسودَ لسواده ، ولا الدَّميمَ لدمامته ، ولا ذا الصِّناعة الدنيئة لدناءتها . ويُوصون بحفظهم أَكابرَ أَولادِهم ، ويجعلون لكثيرٍ من موتاهم الصَّلاَةَ على جنائزهم[٤] ، وذلك بحضرةٍ من العمومة ، وبنى الأَعمام والإخوة .

ويتذاكرون إكرامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة مولاه ، حين عقد له يوم مُؤْتة على جِلَّة بنى هاشم ، وجَعَلَه أَمير كلِّ بلدةٍ[٥] يطؤُها .

ويتذاكرون حُبَّهُ لأُسامة بن زيد ، وهو الحِبُّ ابنُ الحِبّ . وعقدَ له على عُظماءِ المهاجرين وأَكابر الأَنصار .

---

(١) مج : « وبعد فقالوا : لاحمة كلحمة النسب » ، تحريف .

(٢) ب : « تضقٔ به العربى » م : « تضبوى به العربى » ط : « تقوى به العربى » ، صوابه من مج والرسائل .

(٣) فى جميع النسخ : « والأجداد للأجداد » ، والوجه ما أثبت من مج والرسائل .

(٤) ط فقط : « ويجلون الكثير من موتاهم فى الصلاة على جنائزهم » .

(٥) ب فقط : « بلد » ، تحريف .

ويتذاكرون صنيعه بسائر مواليه كأبى أَنسَة[١] وشُقْران[٢] ، وفلان وفلان .

قالوا : ولنا صاحب الدولة : أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم ، وأبو سَلَمة حَفْص بن سليمان . وأبو مسلمٍ مولى الإمام ، وعليهما دارت رحَى الدَّولة ، وتمّ الأَمرُ واتَّسق نظام الملك .

قالوا : ولنا من رءُوس[٣] النُّقباء : أبو منصورٍ مولى خُزاعة ، وأبو الحكم عيسى بن أَعْيَن مولى خُزاعة ، وأبو حمزة عَمرو بن أَعْيَن[٤] مولى خزاعة ، وأبو النَّجم عمران بن إسماعيل[٥] مولى آل أبى مُعَيط[٦] .

فلنا مناقب الخُراسانيَّة ، ولنا مناقبُ الموالى فى هذه الدَّعوة . ونحن منهم وإليهم ، ومن أَنفسهم ، لا يدفع ذلك مسلم . ولا ينكره مؤمن . خدمناهم كباراً ، وحملناهم على عواتقنا صغاراً .

هذا مع حقِّ الرَّضاع والخُؤولة ، والنُّشوء فى الكُتَّاب ، والتقلُّب فى تلك العِراص التى لم يبلغْها إلَّا كلُّ سعيدِ الجَدّ ، وجيهٍ فى الملوك .

فقد شارَكْنا العربىَّ فى فخره ، والخراسانىَّ فى مجدِه ، والبنوىّ فى فضله[٧] ، ثم تفرَّدْنا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سابقُونا إليه[٨] .

(١) اختلف فى اسمه ، فقيل أنسة أيضاً ، كما فى الإصابة ٢٨٥ . وكان حبشياً كما فى جوامع السيرة لابن حزم ١١٤ . وكان يأذن على النبى صلى الله عليه وسلم . ومات فى خلافة أبى بكر .

(٢) شقران ، يقال كان اسمه صالح بن عدى . وكان حبشياً أهداه عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله . الإصابة ٣٩١١ . وهو أحد من دلى رسول الله فى قبره . جوامع السيرة ٢٦٥ . وذكر ابن هشام فى السيرة ١٠١٨ أنه تولى صب الماء عليه فى غسله .

(٣) فقط : « رؤساء » .

(٤) فى الأصول : « عمر بن أعين » ، صوابه فى مج والرسائل والطبرى ٦ : ٥٦٢ »

(٥) فى الأصول : « عامر بن اسماعيل » ، صوابه فى مج الرسائل والطبرى ٦ : ٥٦٢ .

(٦) ط فقط : « مولى أبى معيط » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٧) البنوى : نسبة إلى الأبناء ، كما سبق فى ١٦٧ . ط : « والنبوى » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٨) مج والرسائل : « ولا سبقونا إليه » ، وهو الوجه .

قالوا : ونحن أشكلُ بالرعيَّة ، وأقربُ إلى طباع الدَّهماء ، وهم[(١)] بنا آنَس ، وإلينا أسكَن ، وإلى لقائنا أحَنّ . ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطَف ، وبهم أشبه . فمن أحقُّ بالأَثَرة ، وأولى بحُسْن المنزلة ممَّن هذه الخصالُ له ، وهذه الخلالُ فيه .

وقلت : وذكرت أنَّ البنوىّ قال : نحن أصلُ خراسانى[(٢)] ، وهو مخرج الدولة ، ومطلع الدَّعوة ، ومنها نَجَم هذا القرنُ ، وصبأ هذا النَّابُ ، وتفجَّر هذا الينبوع ، واستفاضَ هذا البحر ، حتَّى ضرب الحقُّ بجِرانه[(٣)] ، وطَبَّق الآفاقَ بضيائه ، فأبرأ من السُّقم القديم ، وشفى من الداءِ العُضال ، وأغنى من العَيْلة ، وبصَّر من العمى .

وهذه بغدادُ وهى مستقَرُّ الخلافة ، والقَرارُ بعد الجَوْلة[(٤)] ، وفيها بقيّة رجالِ الدَّعوة ، وأبناءُ أبناءِ الشِّيعة[(٥)] ، وهى خُراسان العراق ، وبيتُ الخلافة[(٦)] وموضعُ المادَّة .

وأنا أعرَقُ[(٧)] فى هذا الأمر من أبى ، وأكثر تردداً فيه من جدِّى ، وأحقُّ بهذا الفضل من المولى والعربىّ .

ولنا بعدُ فى أنفسنا مالا يُنكَر من الصَّبر تحت ظلال السُّيوف

---

(١) م فقط : « وهما » .
(٢) ب ، م : « أصلى » ، صوابه فى ط . وفى مج والرسائل : « أنا أصلى خراسان » .
(٣) ضرب بجرانه : استقر وثبت . وأصل الجران باطن عنق البعير . فإذا برك واستقر قيل ألقى جرانه .
(٤) ب ، م ، مج والرسائل : « الحولة » ، وهى بالحاء المهملة المفتوحة : التحول والتنقل » . وما هنا من ط .
(٥) مج والرسائل : « وأبناء الشيعة » .
(٦) بعده فى الأصول : « وفيها بقية رجال الدعوة » ، وهو تكرار لما سبق .
(٧) ب ، ط : « أعرف » ، صوابه فى م ، مج والرسائل .

القِصار ، والرِّماح الطوال ، ولنا معانقةُ الأَبطال عند تحطُّم القَنا ، وانقطاع الصفائح[١] ، ولنا المواجأة بالسَّكاكين ، وتلقِّى الخناجر بالعُيون .

ونحن حماةُ المُستلحَم ،وأَبناءُ المضايق ، ونحن أَهلُ الثَّبات عند الجَوْلة ، والمعرفة عند الحَيْرة[٢] ، وأَصحاب المشهّرات[٣] ، وزينةِ العساكر وحُلَى الجيوش[٤] ، ومَن يمشى فى الرُّمح ، ويختال بين الصَّفَّين. ونحن أَصحابُ الفتك والإِقدام .

ولنا بعدُ التَّسلُّقُ ونَقْبُ المدُن ، والتقحُّمُ على ظُبات السُّيوف[٥] ، وأَطرافِ الرماح ، ورَضْخُ الجندل ، وهَشْم العُمد ، والصَّبرُ تحت الجراح[٦] ، وعلى جَرِّ السلاح[٧] ، إذا طار قلبُ الأَعرابىِّ ، وساءَ ظنُّ الخُراسانى .

ثم الصَّبرُ تحتَ العُقوبة ، والاحتجاجُ عند المسأَلة ، واجتماع العقل ، وصِحَّة الطَّرْف ، وثباتُ القدمين ، وقلَّة التَّكفِّى بجبل العُقَابَيْن[٨] ،

---

(١) الصفائح : جمع صفيحة ، وهى السيف العريض .

(٢) فى الأصول ، مج : « الخبرة » ، صوابه فى الرسائل .

(٣) المشهرات : الحلل الفاخرة الموسومة بالشهرة لحسنها ، كما فى الفائق للزمخشرى ، عند حديث عمر : « وفد إليه عامله من اليمن وعليه حلة مشهرة » : ط فقط : « المشتهرات » .

(٤) الحلى بكسر الحاء وضمها : جمع حلية ، بالكسر ، وهى كل ما حليت به امرأة أو سيفاً ونحوه . ب فقط : « والحلى الجيوش » ، تحريف .

(٥) الظبات : جمع ظبة ، وهى حد السيف والخنجر وما أشبه ذلك.وفى ب فقط : « ظباة » ، وهو خطأ .

(٦) فى الرسائل : « على الجراح » .

(٧) يقال أجره الرمح إجراراً ، إذا طعنه به فمشى وهو يجره .

(٨) التكفى : التميل والتقلب . والعقابان : خشبتان يشبح بينهما الرجل فيجلد . انظر اللسان (عقب) وجنى الجنتين ٨٠ .

والبعد من الإقرار(١) ، وقلَّة الخضوع للدَّهر ، والخضوع عندَ جَفْوةِ الزُّوّار(٢) ، وجفاء الأَقارب والإخوان. ولنا القتالُ عند أَبواب الخنادق ورءُوس القناطر(٣) .

ونحن الموتُ الأَحمرُ عند أَبواب النُّقَب ، ولنا المواجأَة فى الأَزِقَّة ، والصَّبرُ على قتال السُّجون . فَسَلْ عن ذلك الخُلَيْدِيّة(٤) والكتفية والبلالية ، والحزبية ، ونحن أَصحاب المكابرات(٥) ،وأَرباب البَيَات(٦) ، وقَتْلِ النَّاس(٧) جهاراً فى الأَسواق والطُّرقات .

ونحن نجمع بين السَّلَّة والمُزاحَفة . ونحن(٨) أَصحاب القنا الطِّوالِ ما كُنَّا رَجَّالةً ،والمطاردِ القِصارِ ما كنَّا فرساناً(٩) . فإِنْ صرنا كُمُناً(١٠) فالحتفُ القاضى ، والسُّمُّ الزُّعاف(١١) ، وإِنْ كنَّا طلائعَ فكلُّنا يقوم مقامَ أَميرِ الجيش . نُقاتل باللَّيل كما نقاتل بالنهار ، ونقاتل فى الماءِ كما نُقاتل على الأَرض(١٢) ، ونقاتل فى القرية كما نُقاتل فى المحلَّة .

---

(١) ط : « من الفرار » .

(٢) مج : « حفوة الزوار » بالحاء المهملة .

(٣) ب فقط : « والروس القناطر » ، تحريف .

(٤) طائفة منسوبة إلى خليد . وفى البخلاء ٤١ — ٤٣ : « فسل عن الكتيفية والخليدية والحربية والبلالية » . والظاهر أنهم طوائف من أهل الشغب والفوضى . م ، ط : « الخلدية » فإن صحت كانت بضم الخاء وفتح اللام ، فإن المبرد يجيز الحذف فى فعيل مضموم الفاء باطراد .

(٥) ط فقط : « المكابدات » بالدال .

(٦) وكذا فى مج والرسائل . وفى ط فقط : « البينات » .

(٧) ب فقط : « وفتيل الناس » ، تحريف .

(٨) فى جميع النسخ : « وبين » ، والوجه ما أثبت من مج والرسائل .

(٩) المطارد : جمع مطرد ، بالكسر ، وهو الرمح القصير .

(١٠) جمع كمين ، وهم الذين يكمنون ويختفون فى الحرب ، وفى ط : « كمينا » .

(١١) الذعاف : الوحى السريع ، ويقال أيضاً الزعاف بالزاى . وفى ب ومج : «الزعاف» بالزاى .

(١٢) م فقط : كما على الأرض » .

ونحن أَفتك وأَخشب[١] . ونحن أَقطع للطريق ، وأَذكَرُ فى الثُّغور[٢] ، مع حسن القُدود ، وجَودة الخَرْط ، ومقادير اللِّحَى ، وحُسْن العِمَّة ، والنفس المُرّة ، وأَصحاب الباطل والفُتوّة[٣] ، ثم الخطِّ والكتابة ، والفِقْه والرِّواية .

ولنا بغدادُ بأَسرِها ، تسكُن ماسَكَنَّا ، وتتحرَّك ما تحرَّكنا . والدُّنيا كلُّها معلَّقة بها ، وصائرةٌ إلى مَغْناها[٤] ، فإذا كان هذا أَمرَها وقَدْرها فجميعُ الدُّنيا تبَعٌ لها ، وكذلك أَهلُها لأَهلها ، وفُتَّاكُها لفُتَّاكها ، وخُلَّاعَها لِخُلَّاعِها ، ورؤساؤها لرؤسائها ، وصُلَحاؤها لصُلحائها .

ونحن تَربيةُ الخُلفاءِ ، وجِيرانُ الوُزراءِ[٥] ، وُلدنا فى أَفْنيةِ مُلوكنا[٦] ، ونحن أَجنحةُ خلفائِنا ، فأَخَذْنا بآدابهم ، واحتذَيْنا على مثالهم ، فلسنا نَعرِف سِواهم ، ولا نُتَّهم بغيرهم[٧] ، ولم يطمع فينا أَحدٌ قطُّ[٨] مِنْ خُطَّابِ مُلكهم ، وممن يترشَّح للاعتراض عليهم . فمن أَحقُّ بالأَثَرةِ ، وأَولى بالقُرْب فى المنزلة ممَّن هذه الخصالُ فيه ، وهذه الخِلال له[٩] .

إنْ ذهبنا ، حَفِظك الله ، بعقِب هذه الاحتجاجات ، وعند مُنقطَع

---

(١) أى أشد غلاظة وخشونة .

(٢) جمع ثغر ، وهو الموضع يخاف هجوم العدو منه . ب فقط : « الصغور » ، تحريف .

(٣) ط فقط : « وأصحاب الفتوة » .

(٤) المغنى : المنزل يقام فيه طويلا . مج والرسائل : « معناها » بالعين المهملة .

(٥) ب : « وجيران والوزراء » ، تحريف .

(٦) الفناء : ساحة الدار ، والجمع أفنية . ب فقط : « أثنية » ، تصحيف .

(٧) مج والرسائل : « ولا نعرف بغيرهم » .

(٨) فى جميع الأصول : « ولم يطمع فينا أحد قط أحداً » صوابه فى مج والرسائل .

(٩) بعده فى مج والرسائل : بسم الله الرحمن الرحيم »

هذه الاستدلالات نَستعمل المفاوضة[١] بمناقب الأَتراك ، والمقارنة[٢] بين خصالهم وخصال كلِّ صنف من هذه الأَصناف ، سلكنا فى هذا الكتاب سبيلَ أَصحابِ الخصومات فى كتبهم ، وطريقَ أَصحاب الأَهواءِ فى الاختلاف الذى بينهم .

وكتابنا هذا إنَّما تكلَّفناه لنؤلِّف بين قلوبهم إن كانت مختلفة[٣] ، ولنزيد فى الأُلفة إنْ كانت مؤتلفة ، ولنُخبِرَ عن اتِّفاق أَسبابهم ، لتجتمع كلمتهُم ، ولِتسلمَ صُدورُهم ، وليعرف مَنْ كان لا يعرف منهم موضعَ التَّفاوُتِ فى النَّسب كم مقدارُ الخلافِ فى الحَسب ، لئلا يُغيِّر بعضَهم مغيِّر ، ويُفسدهُ[٤] عدوٌّ بأَباطيلَ مُّوهة ، وشُبُهات مزَّورة ، فإنَّ المنافق العليمَ ، والعدوّ ذا الكيد العظيم قد يصوِّر لمن دونه الباطلَ فى صورة الحقِّ ، ويُلبس الإضاعة ثيابَ الحزم[٥] .

إلَّا أنَّا على حالٍ[٦] ، سنذكر جملًا من أَحاديثَ رويناها ، وأُمورٍ[٧] رأَيناها وشاهدناها ، وقصصاً تلقَّفناها من أَفواه الحكماءِ وسمعناها .

وسنذكر ما حُفظ لجميع الأَصناف من الآلات والأَدوات ، ثم ننظر أَيُّهم لها أَشدُّ استعمالا ، وبها أَشدُّ استقلالا ، ومَنْ أَثقبُ حَسَباً[٨] ،

---

(١) ب : « يستعمل » م ، ط : « تستعمل » ، والوجه ما أثبت من مج والرسائل .
(٢) فى جميع الأصول : « والمقاربة » ، والوجه ما أثبت . وفى مج والرسائل : « والموازنة » .
(٣) فى الرسائل فقط : « التى كانت مختلفة » .
(٤) ب ، م : « ومفسدة » ، صوابه فى ط ، مج والرسائل . وفى الأخيرتين : « فلا يغير بعضهم مغير ، ولا يفسده » .
(٥) ب ، م : « ثبات الحزم » ، صوابه فى ط ، مج والرسائل .
(٦) مج فقط : « على كل حال » .
(٧) م ، ط فقط : « وأموراً » .
(٨) مج والرسائل : « كيسا » . والكيس ، بالفتح : العقل ، وتوقد الذهن .

وأيقظُ عيناً ،وأزكى نَفْساً ، وأشدُّ غَوراً[١] ، وأعمُّ خواطرَ[٢] ، وأكثر نفعاً في الحروب وضَرًّا ، وأدربُ دُربةً ، وأغمض مكيدةً ، وأشدُّ احتراساً ، وألطفُ احتيالًا ، حتَّى يكون الخيارُ في يد النَّاظر في هذا الكتاب ، المتصفِّحِ لمعانيه ، والمقلِّب لوجوهِه ، والمفكِّر في أبوابه ، والمقابِلِ بين أوَّله وآخِره . ولا نكونُ نحن انتحلنا شيئاً دون شيء ، وتقلَّدنا تفضيل بعضٍ على بعض ، بلْ لعلَّنا أن لا نُخبر عن خاصَّةِ ما عندنا بحرفٍ واحد .

فإذا دبَّرنا كتابَنا هذا التَّدبير ، وكان موضوعاً على هذه الصِّفة كان أبعدَ له[٣] مِنْ مذاهب الجِدال والمراء ، واستعمال الهوى[٤] .

وقد ظنَّ ناسٌ كثير أنَّ أسماءَ أصنافِ الأجناد لمَّا اختلف في الصُّورةِ والخطِّ والهجاءِ ،أنَّ حقائِقها ومعانيَها على حَسَب ذلك .وليس الأمر على ما يَتوهَّمون[٥] .

ألا ترى أنَّ اسم الشَّاكرية[٦] وإن خالفَ في الصُّورة والخطِّ والهجاءِ اسمَ الجنديِّ فإنَّ المعنى فيهمَا ليس ببعيد ، لأنَّهم يرجعون إلى معنًى واحد ، وعلمٍ واحد[٧] . والذى يرجعون إليه طاعةُ الخُلفاء وتأْييدُ السُّلطان .

وإذا كان[٨] المولَى منقولًا إلى العرب في أكثر المعاني ، ومجعولًا

---

(١) مج والرسائل : « وأبعد غوراً » .

(٢) ب ، م : « خواطرا » تحريف .

(٣) وكذا في مج والرسائل . وفي م : « كان العدلة » ، وفي ط : « كان العدل له .

(٤) ب : « الهوا » م ، ط : « الهواء » ، صوابه في مج والرسائل .

(٥) ب : « تتوهمون » .

(٦) الشاكرية : ضرب من الجنود . وفي القاموس : « الشاكرى : الأجير المستخدم ، معرب « جاكر » . وانظر الحيوان ٢ : ١٣٠ .

(٧) مج والرسائل : « وعمل واحد » .

(٨) م : « فإذا » .

منهم فى عامَّة الأَسباب لم يكن بأَعجبَ من جعل الخال والدا[١] ، والحليفِ من الصَّميم ، وابن الأُختَ من القوم .

وقد جعل الله ابن الملاعَنةِ المولودَ على فِراش البَعْل منسوباً إلى أُمَّه ، وقد جعَل[٢] إسماعيلَ وهو ابن أَعجميَّين عربيًّا ، لأَنَّ الله تعالى لمَّا فتق لهاتَهُ بالعربيَّة المُبينة على غير التلقين[٣] والتَّرتيب ، وفَطَره على الفصاحة العجيبة على غير النشوءِ والتمرين ، وسَلخ طِباعه من طبائع العجم ، ونقل إلى بدنه تلك الأَجزاءَ ، وركَّبه اختراعاً على ذلك التركيب ، وسوّاه تلك التسوية ، وصاغَه تلك الصِّيغة ، ثمّ حَماه من طبائِعهم ، ومَنعَه من أَخلاقهم وشمائلهم ، وَطَبعه من كرمهم وأَنفَتهم وهِمَمِهم على أَكرمها وأَسناها ، وأَشرفِها وأَعلاها ، وجعل ذلك برهاناً على رسالته ، ودليلًا على نبوَّته ، وصار أَحقَّ بذلك النسب[٤] ، وأَولى بشرف ذلك الحَسَب .

وكما جُعل إبراهيمُ أَباً لمن لم يلد[٥] ، فالبنوىُّ خُراسانىٌّ من جهة الولادة ، والمولى عربىٌّ من جهة المدَّعَى والعاقلة .

ولو أَحاط علمنا بأَنَّ زيداً لم يخلق من نَجْل عَمرٍو إلَّا عهاراً[٦] لنفَيْناه عنه ، وإنْ أَيقنَّا أَنَّه لم يُخلَقْ إلَّا من ماءِ صُلبه .

وكما جعل النبىُّ أَزواجَه أُمّهاتِ المؤمنين ، وهنّ لم يلِدْنَهم ولا

---

(١) ب : « جعله الخال والدا » .
(٢) فى الرسائل : « وقد جعلوا » .
(٣) م ، ط : « التعين » ، صوابه فى ب . مج والرسائل .
(٤) ب : « بهذا النسب » ، وفى مج والرسائل : « فكان أحق بذلك النسب » .
(٥) فى الرسائل : « لمن لم يلده » .
(٦) ط : « لم يخلق إلا من نجل عمرو » . فقط وهو تحريف . والنجل : النسل والولادة .

أَرضَعْنَهم . وفى بعض القراءات :﴿ وأزواجُهُ أُمَّهاتهمْ ، وهو أَبٌ لَهُمْ[١] ﴾ على قوله : ﴿ مِلَّةَ أَبيكُمْ إبراهِيمَ[٢] ﴾ ، وجَعل المرأَةَ من جهة الرَّضاع أُمًّا ، وجعل امرأَةَ البعل أُمَّ ولدِ البعلِ من غيرها ، وجعل الرَّابَّ والدًا[٣] . وجُعِل العَمّ فى كتاب الله أباً . وهم عبيده[٤] لا يتقلَّبُون إلا فيما قلَّبهم فيه .

وله أن يجعلَ من عباده[٥] من شاءَ عربيًّا ،ومن شاءَ أَعجميًّا ، ومن شاءَ قرشيًّا ، ومن شاءَ زنجيًّا . كما أَنَّ له أَن يجعل من شاءَ ذكراً ومن شاءَ أُنثى ، ومن شاءَ خُنْثَى ، ومن شاءَ أَخرجَه من ذلك[٦] فجعله لا ذكراً ولا أُنثى ولا خنثى .

وكذلك خلق الملائكة ، وهم أَكرمُ على الله من جميع الخليقة . ولم يجعلْ لِآدم[٧] أباً ولا أُمًّا ، وخَلقَه من طينٍ ونَسَبه إليه ، وخلق حَوّاءَ[٨] من ضِلَع آدم ، وجعلها له زوجاً وَسَكَنا .

وخَلَق عيسى من غير ذكرٍ ، ونسبه إلى أُمِّه التى خَلقَه منها . وخلق الجانَّ من نار السَّموم ، وآدمَ من طين ، وعيسى من غير

---

(١) هى قراءة أبى وعبد الله بن مسعود فى الآية ٦ من سورة الأحزاب . انظر تفسير أبى حيان ٧ : ٢١٢ .

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .

(٣) الراب : فاعل من ربه يربه ربا ، بمعنى رباه حتى يفارق الطفولية ، كان ابنه أو لم يكن .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة الأنعام الآية ٧٤ : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر » قيل أن آزر عم إبراهيم وليس اسم أبيه . قال أبو حيان فى تفسيره ٤ : ١٦٤ : « وهو قول الشيعة ، يزعمون أن آباء الأنبياء لايكونون كفاراً . وظواهر القرآن ترد عليهم ولا سيما محاورة إبراهيم مع أبيه فى غير ما آية » .

(٥) ب فقط : « وهم عبيد » ، وفى مج : « وهم عباده » ، وأثبت ما فى م ، ط والرسائل .

(٦) مج والرسائل : « أفرده من ذلك » .

(٧) مج فى الأصول : « فلم يجعل لآدم » ، والوجه ما أثبت . والذى فى مج والرسائل : « وخلق آدم فلم يجعل له » .

(٨) ب ، م : « حوى » .

نُطْفة ، وخلق السَّماءَ من دُخانٍ ، والأَرضَ من الماء . وخلق إسحاق من عاقرٍ .

وأَنطَقَ عيسى فى المهد ، وأَنطقَ يحيى بالحكمة وهو صبىٌّ ، وعلَّم سُليمانَ مِنطقَ الطَّيرِ ، وكلامَ النَّمْل . وعَلَّم الحَفَظَة من الملائكة جميعَ الأَلسنة حتَّى كتبوا بكلِّ خطٍّ ، ونَطَقوا بكلِّ لسان . وأَنطقَ ذئبَ أُهبانَ ابن أَوس[1] .

والمؤمنون من جميع الأُمم إذا دخلوا الجنَّةَ ، وكذلك أَطفالُهم والمجانينُ منهم ، يتكلَّمون ساعةَ يدخلون الجَنَّة بكلامِ أَهلِ الجنَّة ، على غير الترتيب والتنزيل ، والتعليمِ على طُول الأَيَّام والتلْقين . فكيف يتعجَّب الجاهلون من إنطاق إسماعيل بالعربيَّة على غير تعليم الآباء ، وتأْديب الحواضِنِ ؟ !

وهذه المسأَلةُ ربَّما سأَل عنها بعضُ القحطانية ، ممَّن لا علم له ، بعضَ العدنانية[2] ، وهى على حال القحطانيَّة أَشدُّ[3] .

فأَمَّا جواب العدنانىِّ فسَلِسُ النِّظام ، سهلُ المخرج ، قريبُ المعنى ؛ لأَنَّ بنى قحطان لا يدَّعون لقحطان نُبُوَّةً[4] فيعطيَه الله تعالى مثلَ هذه الأُعجوبة .

وما الذى قَسَم اللهُ بينَ النَّاس من ذلك إلَّا كما صنع الله فى طينة

---

(١) أهبان هذا : أحد الصحابة ، ذكروا أن الذئب كلمه ثم بشره بالرسول . انظر تفصيل ذلك فى ثمار القلوب ٣٠٩ . وانظر كذلك الحيوان ١ : ٢٩٨ / ٣ : ٥١٣ / ٤ : ٨٠ / ٧ : ٥٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ والإصابة ٣٠٥ .

(٢) ب ، م : « لبعض العدنانية » ، صوابه فى ط ، مج والرسائل .

(٣) مج : « وهى على القحطانى أشد » .

(٤) ب فقط : « بنوة » بتقديم الباء ، تحريف .

الأَرض[1] ، فجعل بعضَها حجراً ، وبعضَ الحجر ياقوتاً ، وبعضَه ذهباً ، وبعضه نُحاساً ، وبعضَه رَصاصاً ، وبعضه صُفْراً[2] ، وبعضَه حديداً ، وبعضه تراباً ، وبعضَه فَخَّارا . وكذلك الزَّاج ، والمَغْرَةُ ، والزِّرنيخ ، والمرْتَكُ ، والكِبريت ، والقارُ ، والتُّوتيا ، والنُّوشادر[3] ، والمرقشيشا[4] ، والمِغناطيس[5] .

ومَن يُحصى عَددَ جواهرِ الأَرض وأَصنافَ الفِلِزّ[6] ؟ !

وإذا كان الأَمرُ على ما وصَفْنا فالبَنَوىُّ[7] خُراسانىٌّ . وإذا كان الخراسانى مولًى والمولى عربىٌّ[8] ، فقد صار الخراسانى والبَنوىّ والمولى والعربىُّ[9] شيئاً واحداً . وأَدنى ذلك أَن يكون الذى معهم[10] من خصال الوِفاق غامراً لما مَعهم من خصال الخِلاف ، بل هم فى مُعظم الأَمر ، وفى كُبْرِ الشَّأْن[11] وعمود النَّسَب متَّفقون . فالأَتراك خراسانية ،

---

(١) م فقط : « إلا كما صنع فى طينة الأرض » .

(٢) الصفر ، بالضم : النحاس الأصفر .

(٣) انظر حواشى الحيوان ٣ : ٣٧٧ / ٥ : ٣٤٩ .

(٤) المرقشيشا ، هو ما يعرف بحجر الماركزيت ، كما فى معجم أستينجاس ١٢١٨ . وقد وردت فى مج والرسائل : « المرقثيثا » بالثاء بدل الشين الثانية . كما وردت بالثاء أيضاً فى تذكرة داود عرضاً فى الكلام على « المغنيسيا » إذ يقول : « حجر كالمرقشيثا » . وعقد له رسماً فى المعتمد لابن رسولا ٣٤٢ بلفظ « مرقشيثا » .

(٥) ذكرداود فى تذكرته أنه يسمى حجر المعْود وحجر الحديد . وقال : « وأجوده اللازوردى الرزين الصافى « الجاذب للحديد » . ومثله فى المعتمد لابن رسولا .

(٦) الفلز : جميع جواهر الأرض من الذهب والفضة والنحاس وأشباهها . ب فقط : « الفلل » ، تحريف .

(٧) ط : « فالنبوى » ، تحريف . وانظر ما سبق فى ١٦٧ .

(٨) ط : « عربياً » .

(٩) فى جميع الأصول : « والمولى مولى والعرب » ، صوابه فى مج والرسائل .

(١٠) ب فقط : « معه » .

(١١) الكبر ، بكسر الكاف وضمها : الرفعة فى الشرف .

وموالى الخلفاء قُصْرةً[١] ، فقد صار فضْل التُّركِ إلى الجميع راجعاً ، وصار شرفهم زائداً فى شرفهم .

وإذا عرف سائرُ الأَجنادِ ذلك سامحت النُّفوس ، وذهب التَّعقيد ، ومات الضِّغن ، وانقطع سببُ الاستثقال ، فلم يبقَ إلَّا التحاسدو التنافس الذى لا يزال يكون بين المتقاربَينِ فى القرابة ، وفى الصِّناعة ، وفى المُجاورة .

على أَنَّ التوازر والتَّسالم فى القرابات وفى بنى الأَعمام والعشائر أَفشى وأَعمُّ من التَّخاذُل والتعادى .

ولحبِّ التناصر والحاجة إلى التعاوُن انضمَّ بعض القبائل فى البوادى إلى بعض ، ينزلون معاً ، ويَظْعَنون معاً . ومن فارق أَصحابه أَقلُّ ، ومن نَصر ابن عمِّه أَكثر ، ومن اغتبط بنعمته وتمنَّى بقاءها والزيادةَ فيها أَكثر ممن بغاها الغوائِل[٢] وتمنَّى انقطاعَها وزوالها .

ولا بدَّ فى أَضعافِ ذلك من بعض التَّنافس والتَّخاذلُ ، إلَّا أَنَّ ذلك قليلٌ من كثير .

وليس يكون[٣] أَن تصفوَ الدُّنيا ، وتنقَى[٤] من الفَسادِ والمكروه ، حتَّى يموت جميع الخلاف[٥] ، وتستوىَ لأَهلها ، وتتمهّد لسكَّانها[٦] على ما يشتهون ويَهْوَوْن ؛ لأَنَّ ذلك من صفة دار الجزاءِ ، وليس كذلك صفةُ دار العمل .

---

(١) قصرة ، بضم القاف ، أى أدنى إليهم . كما يقال هو ابن عمى قصرة ، أى دانى النسب .

(٢) الغوائل : المهلكات . ويقال بغيتك الشىء : طلبته لك وتمنيته . وفى كتاب الله : « يبغونكم الفتنة » ، أى يبتغونها لكم .

(٣) وكذا فى مج . وفى الرسائل : « وليس يجوز » .

(٤) ب : « أن يصفو الدنيا ويبق » م ، ط : « أن تصفو الدنيا ويبقّ » ، صوابهما فى مج والرسائل . ونقى الشىء ينقى نقاء : صار نقياً خالصاً .

(٥) فى جميع الأصول : « وحتى » ، صوابه فى مج والرسائل . وفى الرسائل أيضاً : « جميع الخلائق » .

(٦) فى جميع الأصول : « ويستوى لأهلها ويتمهد لسكانها » ، صوابه فى مج والرسائل .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتابٌ كتبته أيّامَ المعتصِم بالله[١] رضى الله عنه ونَضَّر وجهَه ، فلم يَصلْ إليه لأَسباب يطول ذكرها[٢] ، فلذلك لم أَعرِضْ للإخبار عنها ، وأَحببت أَن يكون كتاباً قَصْداً ، ومذهباً عَدْلًا ، ولا يكونَ كتابَ إسرافٍ فى مديح قوم ، وإغراقٍ فى هجاءِ آخَرين ؛ فإنَّ الكتابَ إذا كان كذلك شابَهُ الكذب[٣] وخالطه التزيُّد ، وبُنى أَساسه على التكلُّف[٤] ، وخرج كلامُه مَخرج الاستكراهِ والتَّغْليق[٥] .

وأَنفع المدائح للمادح ، وأَجداها على الممدوح ، وأَبقاها أَثراً وأَحسنُها ذكراً ، أَن يكون المديح صِدقاً ، ولِظاهرِ حالِ الممدوح موافقاً ، وبه لائقاً ، حتَّى لا يكون من المعبِّر عنه والواصفِ له إلَّا الإشارةُ إليه ، والتَّنبيهُ عليه .

وأَنا أَقول : إن كان لا يمكن ذكرُ مناقب الأَتراك إلَّا بذكر مثالب سائر الأَجناد ، فتَرْكُ ذكرِ الجميع أَصوَب ، والإضراب عن هذا الكتاب أَحزم .

---

(١) هو محمد بن هارون الرشيد ، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المأمون سنة ٢١٨ . وتوفى بسر من رأى سنة ٢٢٧ . وولى الخلافة بعده ولده هارون الواثق .
(٢) مج والرسائل : « يطول شرحها » .
(٣) هذا مافى الرسائل . وفى جميع الأصول : « شانه » فقط . وفى مج : « شانه الكذب » .
(٤) فى جميع الأصول : « فىالتكلف » .
(٥) التغليق ، المراد به العسر ، كما يغلق الباب تغليقاً . وفى جميع الأصول وكذا فى مج والرسائل : « التعليق » ، والوجه ما أثبت .

وذكرُ الكثير من هذه الأَصناف بالجميل لا يقوم إلّا بالقليل من ذكر بعضِهم بالقبيح ، وهو معصية[١] وبابٌ من ترك الواجب . وقليلُ الفريضة أَجدَى علينا ، لأَن ذكر الأَكثر بالجميل نافلة ، وبابٌ من التطوُّع ؛ وذكر الأَقلِّ بالقبيح معصية ، وبابٌ من ترك الواجب . وقليل الفريضة أَجدى علينا من كثيرِ التطوُّع .

ولكلِّ الناس نصيبٌ من النَّقص ، ومقدارٌ من الذُّنوب ، وإنَّما يُتفاضَل بكثرة المحاسِن وقلَّة المساوِى . فأَمَّا الاشتمالُ على جميع المحاسن ، والسَّلامةُ من جميع المساوى ، دقيقِها وجليلِها ، ظاهِرها وخفيِّها ، فهذا لا يعرف فيهم[٢] .

فإذا كان الخلطاءُ من جمهور الناس وأَهلِ المَعايش[٣] من دهماءِ الجماعة[٤] يرون ذلك واجباً فى الأَخلاق ، ومصلحةً فى المعاش ، وتدبيراً فى التَّعامُل ، على ما فيهم من مشاركة الخطأ للصَّواب ، وامتزاج الضَّعف بالقوَّة ، فلسنا نشكُّ أَنَّ الإِمام الأَكبرَ[٥] ، والرئيس الأَعظم مع الأَعراق الكريمة ، والأَخلاق الرفيعة ، والتمام فى الحلم والعلم ، والكمال فى العَزْم والحزم ، مع التمكين والقدرة ، والفضيلة والرِّياسة والسيادة ، والخصائص التى معه من التوفيق والعِصمة ، والتَّأْييد وحُسن المعونَة — لم يكن الله ليجلِّله لِباس الخلافة ، ويحبوَه ببهاءِ الإِمامة[٦] ، وبأَعظم نعمةٍ

(١) ب : « لم نعصيه » م : « معصية » فقط . وأثبت ما فى ط .

(٢) فى جميع الأصول : « فهذا مايعرفونه » ، صوابه فى مج والرسائل مع سقوط كلمة « فيهم » منهما .

(٣) فى جميع الأصول : « وأهل المقايس » . وفى مج : « وأصحاب المقايس » ، وأثبت ما فى الرسائل .

(٤) ط فقط : « من زعماء الجماعة » .

(٥) ب فقط : « فى أن الإمام الأكبر » .

(٦) ب : « بهاء الإمامة » ، وفى مج والرسائل : « بتاج الخلافة » .

وأَسبغِها ، وأَفضلِ كرامةٍ وأَسناها ، ثُم وَصَل طاعتَه بطاعته ، ومعصيتَه بمعصيته ، إلَّا ومعه من الحلم فى موضع الحلم ، والعَفْوِ فى موضع العفو ، والتَّغافُلِ فى موضع التَّغافل ، مالا يبلغه فَضْلُ ذى فضل ، ولا حِلمُ ذى حلم .

ونحن قائلون ، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلى العظيم ، فيما انتهى إلينا من القول فى الأَتراك .

زعم محمَّدُ بن الجَهْم وثُمامة بن الأَشرس[١] والقاسم بن سَيَّار[٢] فى جماعةٍ ممن يغشى دارَ الخلافة[٣] ، وهى دار العامَّة[٤] ، قالوا جميعاً :

بينا حُمَيد بن عبد الحميد جالساً ومعه إخشيد الصُّغدى[٥] ، وأَبو شجاع شبيب بن بُخار خُداى[٦] البلخى ، ويحيى بن مُعاذ ، ورجالٌ من المعدودين المتقدِّمين فى العلم بالحرب ، من أَصحاب التجارب والمِراس ، وطُول المعالجة والمعاناة بصناعة الحرب ، إذْ خرجَ رسولُ المأْمون فقال لهم : يقول لكم مفترقين ومجتمعين : فليُثبت[٧] كلٌّ

(١) ب : « الأشرث » ، تحريف . وهو ثمامة بن أشرس النميرى مولى بنى نمير . كان زعيم القدرية فى زمان المأمون والمعتصم والواثق . وهو الذى دعا المأمون إلى الاعتزال . انظر الفرق بين الفرق ١٥٧ . وتروى عنه قصص تشير إلى استخفافه بالدين ، من ذلك أنه رأى الناس يوم جمعة يتعادون إلى المسجد الجامع ، لخوفهم من فوت الصلاة ، فقال لرفيق له : انظر إلى هؤلاء الحمير والبقر ! ثم قال : ماصنع ذاك العربى بالناس . تأويل مختلف الحديث ٦٠ . قتل ثمامة فى زمان الواثق الذى تولى الخلافة من ٢٢٧ — ٢٣٢ . وقيل مات سنة ٢١٣ . انظر الفرق ١٥٩ ولسان الميزان ٢ : ٨٤ وتاريخ بغداد ٧ : ١٤٥ — ١٤٨

(٢) ب : « يسار » ، صوابه فى سائر النسخ والحيوان ٤ : ٤٤٢

(٣) ط فقط : « ممن يغشون دار الخلافة » .

(٤) ط فقط : « وهى دار الإمامة » .

(٥) مج : « يخشاد الصغدى » ، وفى الرسائل : « بخشاد الصغدى » .

(٦) ب : « نجار خداى » ، وأثبت مافى م ، ط ، مج . وفى الرسائل ١ : ٤٠ : « بخارا خداى » .

(٧) مج والرسائل : « فليكتب » .

رجلٍ منكم دَعْواه وحُجَّته ، يقول لكم : أَيُّما أَحبُّ إلى كلِّ قائد منكم ، إذا كان فى مائةٍ من نخبته وثقاته[١] : أَن يلقى بهم مائةَ تركىٍّ أَو مائة خارجى ؟

فقال القوم جميعاً :[لأَنْ[٢]] نلقى مائة تركىٍّ أَحبُّ إلينا من أَن نلقى مائةَ خارجىّ ! وحُميدٌ ساكت ، فلمَّا فرغ القومُ جميعاً من حُجَجهم قال الرسول لحُميد : قد قال القومُ فقُلْ واكتُبْ قولك ، وليكنْ حُجَّةً لك أَو عليك . قال : بل أَلقى مائةَ خارجىٍّ أَحبُّ إلىّ ؛ لأَنِّى وجدتُ الخصالَ التى فَضَل بها التركىُّ جميع المقاتِلة غَيْرَ تامَّةٍ فى الخارجى ، ووجدتُها تامّةً فى التركىّ . ففَضلُ التركىِّ على الخارجىِّ بقدر فَضْل الخارجىِّ على سائر المقاتلة . وذلك بأَنَّ التركىّ بَانَ من الخارجىِّ بأُمورٍ ليسٍ فيها للخارجىِّ دَعْوَى ولا مُتعلَّق . على أَنَّ هذه الأُمورَ التى بان بها التركىُّ من الخارجى أَعظَمُ خطراً وأَقلُّ نَفْعاً ممَّا شاركه الخارجىُّ فى بعضه .

ثم قال حميد : والخصال التى يصول بها الخارجىُّ على سائر الناس : صِدْقُ الشَّدَّة عند أَوّل وهلة ، وهى الدَّفعة التى يبلغون بها ما أَرادوا ، وينالون بها ما أَمَّلوا .

والثانية : الصَّبر على الخَبَبَ[٣] ، وعلى طُول السُّرَى حتَّى يُصبِّحوا القوم الذين مَرَقُوا بهم غارِّين[٤] ، فيهجمُوا[٥] عليهم وهم بَسُوءٌ[٦]

(١) ب : « من نخبه » . وفى مج والرسائل : « إذا كان فى عدته من صحبه وثقاته » .

(٢) هذه من ط والرسائل .

(٣) الخبب : ضرب من العدو السريع . ب : « الحنب » تحريف .

(٤) المروق : المرور بسرعة كما يمرق السهم من الرمية . غارون : غافلون . ب : «غازين» .

(٥) ب فقط : « فهجموا » .

(٦) فى الأصول : « بشر » ، ولا وجه له . والوجه ما أثبت من مج والرسائل . وهو من قولهم : ناقة بسوء ، بفتح الباء : لا تمنع الحالب . وهذا مثل للضعف .

ولحمٍ على وَضَمٍ [١] ، فيُعجِّلوا بهم عن الرّوِيّة [٢] ؛ وعن ردِّ النَّفْس بعد الجَوْلة [٣] والنَّزْوة ، لا يظنون أنَّ أحداً يقطع فى ذلك المقدارِ من الزّمان ذلك المقدارَ من البلاد .

والثالثة : أنَّ الخارجىَّ موصوفٌ عند الناس بأنَّه إنْ طَلَبَ أدرَك ، وإن طُلِبَ فات .

والرابعة : خِفَّة الأزواد [٤] ، وقلَّة الأمتعة ، وأنَّها تَجْنُب الخيل [٥] ، وتركَب البِغال ، وإن احتاجت أمسَتْ بأرضٍ وأصبحتْ بأُخرى [٦] ، وأنَّهم قومٌ حين خرجوا لم يخلِّفوا الأموالَ الكثيرة ، والجنانَ الملتفَّة ، والدُّور المشيَّدة ، ولا ضِياعاً ولا مُستغَلَّات ، ولا جوارىَ مطهَّمات ، وأنَّهم [٧] لا سَلبَ لهم ، ولا مالَ معهم ، فيرغبَ الجندُ فى لِقائهم ، وإنَّما هم كالطَّير لا تدَّخر ، ولا تَهتمُّ [٨] لغدٍ ، ولها فى كل أرضٍ من المياه والبُزُور [٩] مَا يَقُوتها . وإن لم تجد ذلك فى بعض البلادِ فأجنحتُها تقرِّب لها البعيد، وتسهِّل لها الحُزُون . وكذلك الخوارج لا يمتنع عليهم القِرَى والطُّعم [١٠] ،

---

(١) الوضم : جمع وضمة ، وهو كل شىء يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير ، يوقى به الأرض . واللحم على الوضم مثل للضعف وعدم الامتناع .

(٢) فى جميع الأصول : « على الرؤية » ، والوجه ما أثبت من مج والرسائل .

(٣) ب ، م : « بعد الحولة » بالحاء المهملة .

(٤) ب فقط : « الأزواج » تحريف . والأزواد : جمع زاد ، وهو الطعام ولاسيما فى والسفر .

(٥) تجنبها : تقودها إلى جنب البغال . والضمير للخوارج .

(٦) ب فقط : « وأضحت بأخرى » .

(٧) ب ، م : « أنهم » بدون واو .

(٨) ب : « ولا تهم لغد » .

(٩) فى جميع الأصول : « والبرور » ، ولا وجه له . وفى مج والرسائل : « والأقوات » .

(١٠) مج والرسائل : « والمطعم » . والطعم ، بالضم : الطعام .

فإنْ يمتنعْ[(١)] عليهم ففى بنات أَعْوجَ[(٢)] وبنات شَحّاج[(٣)] ، وخِفَّة الأَثقال ، والقُوّة على طول الخَبَب ما يأْتيها بأَرزاقها ، وأَكثَرَ من أَرزاقها .

والخامسة : أَنَّ الملوك إذا أَرسلوا إليهم أَعدادَهم ليكونوا فى خفَّة أَزوادهم وأَثقالهم ، وليَقْوَوْا على التنقُّل كقوَّتهم[(٤)] ، لم يَقْوَوْا عليهم ، لأَنَّ مائة[(٥)] من الجند لا يقومون لمائةٍ من الخوارج . وإن كثَّفوا الجيش وضاعفوا العدد[(٦)] ثَقُلُوا عن طلبهم ، وعن الغَوْث إنْ طلبَهُم عدُوُّهم . ومتى شاءَ الخارجىُّ أَن يَقْرُب منهم ليتطرَّفَهم[(٧)] ، أَو لِيُصيبَ الغِرَّة[(٨)] أَو ليثبتهم[(٩)] ، فعل ذلك[(١٠)] ، ثقةً بأَنَّه يغنم[(١١)] عند الفرصة ورؤية العَوْرة ، ويمكنه الهربُ عند الخوف ، وإن شاءَ كَبَسهم[(١٢)] ليقطع نظامهم ، أَو ليقتطع القِطعةَ منهم .

---

(١) فى الأصول : « تمتنع » ، وأثبت ما فى مج . وفى الرسائل : « فإن تمنع » .

(٢) ط : « أعواج » تحريف . وأعوج هذا : فرس كان لكندة ، فأخذته بنو سليم فى بعض أيامهم ، فصار إلى بنى هلال . وليس فى العرب فحل أشهر ولا أكثر نسلا منه .

(٣) بنات شحاج ، هى البغال ، لأنها تشحج بصوتها . وفى مج والرسائل : « وبنات شحاج وبنات صهال » . وبنات صهال يعنى بها الخيل فإن الصهيل لها . وبنات صهال لم ترد فى اللسان ولا القاموس ، ولكن وردت فى المزهر ١ : ٥٢٥ .

(٤) ب : « كقولهم » ، صوابه فى م ، ط ومج والرسائل .

(٥) ب : « لامابة » تحريف .

(٦) مج والرسائل : « وإن كثفوا الجيش بالجيش ، وضاعفوا العدد بالعدد .

(٧) التطرف : الإغارة من حول العسكر . ب : « لينظر فيهم » . م ، ط : « ليتطرقهم » بالقاف ، صوابه فى مج والرسائل .

(٨) الغرة ، بالكسر : الغفلة . ب : « العراة » ، صوابه فى م ، ط ، مج والرسائل .

(٩) أثبته : جرحه جراحة لا يقوم معها . وفى الكتاب العزيز : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك » فى الآية ٣٠ من الأنفال . وفى مج والرسائل : « أو ليسلبهم » .

(١٠) ب ، مج : « فعل » بإسقاط « ذلك » .

(١١) فى الأصول : « يقيم » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(١٢) الكبس : الاقتحام ، كالتكبيس والتكبس . ب : « كيسهم » بالياء المثناة التحتية ، تحريف .

قال حُمَيد : فهذه هي مفاخرُهم وخصالهم ، التي بها كَرِه القُوّاد لقاءهم .

قال القاسم بن سيَّار : وخَصلة أُخرى ، وهي التي رَعَبت القلوب[١] وَحَشَتْها[٢] ، ونَقَضَت العزائمَ[٣] وفَسختْها ، وهو ما تَسْمعُ الأَجنادُ ومُقاتلةُ العوامِّ مِن ضرب المثل بالخوارج ، كقول الشاعر :

إذا ما البخيل والمحاذِر للقِرَى
رأى الضَّيفَ مثلَ الأَزرقيِّ المجفَّفِ[٤]

هذه زيادةُ القاسم بن سَيَّار .

فأَمّا حُمَيد[٥] فإنَّه قال :

فأَمّا الشّدةُ فالتُّركيُّ فيها أَحمدُ أَثرًا ، وأَجمع أَمراً ، وأَحكَم شأْنا ؛ لأَنَّ التركي مِن أَجْلِ أَنْ تَصدُقَ شَدَّتُه ويتمكَّن عزمُه ، ولا يكون مُشتَرَك العزم ، ومُنْقسمَ الخواطر ، قد عَوّدَ بِرذونَه أَن لا ينثنيَ وإن ثناه ، أَنْ يملأَ فُروجَه[٦] ، إلَّا أَن يُديره مرّةً أَو مرّتين ، وإلَّا فإنَّه لا يدع سَنَنَه ، ولا يقطع ركْضَه[٧] ، وإنَّما أَراد التركيُّ أَن يوئِس نفسَه من البَدَوات[٨] ،

(١) ط فقط : « أرعبت » . يقال رعب فلاناً رعباً : خوفه وأفزعه ، كما يقال أرعبه إرعاباً .

(٢) أي ملأتها من الرعب . وفي م : « وجشتها » ، وفي مج والرسائل : « وخلعتها » .

(٣) ب : « ونقضتها العزائم » .

(٤) ب : « إذا ما المخيل ، تحريف . وفي ط : « إذا ما رأى الخيل المحاذي للقرى » تحريف أيضاً ، صوابه في م ، ومج والرسائل . ب ، م : « الصيف » بالصاد المهملة ، تحريف . والمجفف : الذي جفف فرسه بالتجفاف ، وهو ما جلل به من سلاح وآلة تقيه الجراح . وفي ب : « المخفق » وفي م ، ط : « المخفف » صوابهما في مج والرسائل .

(٥) م ، ط : « وأما حميد » .

(٦) ط فقط : « فلا يملأ فروجه » تحريف . والفروج : مابين قوائم الفرس . وكنى بملئها عن الإسراع وشدة العدو حتى لاتكاد تظهر تلك الفروج للنظر .

(٧) ب فقط : « ركده » تصحيف .

(٨) ب فقط : « يوبس » بالباء ، تحريف . والبدوات : الخطرات والآراء تبدو وتظهر . ط فقط : « البدرات » .

ومن أن يعتريه التَّكذيب[1] بعد الاعتزام ، لهول اللقاء ، وحُبِّ الحياة ، لأنَّه إذا علم أنَّه قد صيَّر بِرذونَه إلى هذه الغاية حتَّى لا ينثنيَ ، ولا يجيبَه إلى التصرُّف معه إلَّا بأَنْ يصنع شيئاً بين الصَّفَّين فيه عَطبُه ، لم يُقْدِم على الشَّدَّة إلَّا بعد إحكام الأَمر ، والبَصَر بالعورة[2] . وإنَّما يريد أن يشبِّه نفسه بالمُحْرَج[3] الذى إذا رأى أشدَّ القتال لم يَدعْ جُهْداً ولم يدَّخر حِيلة ، ولينفِيَ[4] عن قلبه خواطرَ الفِرار ، ودواعيَ الرُّجوع .

وقال : الخارجيُّ عند الشَّدَّة إنَّما يعتمد على الطِّعان . والأَتراك تطعُن طعنَ الخوارج ، وإنْ شَدَّ منهم أَلفُ فارسٍ فرموا رِشْقاً واحداً[5] صرعوا أَلفَ فارس ، فما بَقاءُ[6] جيشٍ على هذا النَّوع من الشَّدِّ[7] ؟! والخوارج والأَعراب ، ليست لهم رمايةٌ مذكورةٌ على ظُهور الخيل ، والتُّركيُّ يرمى الوَحْشَ ، والطَّيرَ ، والبُرجاس[8] ، والنَّاسَ[9] ، والمجثَّمة[10] ، والمُثُلَ الموضوعة ، والطَّير الخاطف[11] ، ويرمى وقد ملأَ فُروج دابَّته

---

(١) التكذيب : الإحجام ، يقال للرجل إذا حمل ثم ولى ولم يمض : قد كذب عن قرنه تكذيباً .

(٢) العورة : موضع الخلل عند العدو . ويقال بيوت عورة ، أى ممكنة للسراق، لخلوها وأنها غير حريزة . وفى جميع الأصول : « بالعودة » . وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٣) فى جميع الأصول : « بالمخرج » ، صوابه بالحاء المهملة كما فى مج والرسائل .

(٤) ب فقط : « ولينقى » بالقاف ، صوابه فى م ، ط ، مج والرسائل .

(٥) الرشق بالكسر : الاسم من الرشق ، ورشقاً واحداً ، أى وجهاً واحداً بجميع سهامهم .

(٦) فى جميع الأصول ، مج : « بقى » ، صواب رسمه من الرسائل .

(٧) هذا ما فى ب . و فى م ، ط ومج والرسائل: « من الشدة » .

(٨) البرجاس ، بضم الباء ، سبق تفسيره فى ص ١٧٩ .

(٩) انظر ما سيأتى فى ٢٠٦ س ٤ .

(١٠) المجثمة ، سبق تفسيرها فى ص ٣٢ . ب فقط : « المجثة » ، تحريف .

(١١) م ، ط : « والطائر الخاطف » .

مُدْبِراً ومُقْبلًا[١] ، ويَمْنةً ويَسْرة ، وصُعُدا وسُفْلا ، ويرمى بعشرة أَسهم[٢] قبل أَن يفوِّق الخارجيُّ سهماً واحداً . ويركُضُ دابَّتَه منحدِراً من سهل ، أَو متسفِّلا إلى بطنِ وادٍ بأَكثرَ ممَّا يمكن الخارجيَّ على بسيط الأَرض .

والتركيُّ له أَربعةُ أَعين[٣] : عينان فى وجهه ، وعينان فى قَفاه .

وللخارجيِّ عيب فى مستدبَر الحرب ، وللخراسانى عيبٌ فى مُستقبَل الحرب .

فعيب الخراسانيَّة أَنَّ لها جولةً عند أَوّل الالتقاء[٤] ، فإنْ ركِبُوا أَكساءَهم[٥] كانت هزيمتهم ، وكثيراً ما يَثُوبون ، وذلك بعد الخِطار بالعَسكر ، وإطماع العدوِّ فى الشدَّة .

والخوارج إذا وَلَّوا فقد ولَّوْا ، وليس لهم بعد الفَرِّ كَرٌّ إلَّا ما لا يُعدّ .

والتركيُّ ليست له جَولةُ الخراسانىّ ، وإذا أَدبَرَ فهو السمُّ الناقع ، والحَتْف القاضى ، لأَنَّه يُصِيب بسهمِه وهو مُدْبر ، كما يُصيب بسهمه وهو مقبلٌ ، ولا يُؤمن وَهَقُه[٦] .

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٢٠١ .

(٢) ب : « لعشرة أسهم » محرف ، م : « العشرة أسهم » ؛ وهو خطأ ، وفى ط : « العشرة الأسهم » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٣) مج والرسائل : « والتركى أربعة عين » . وقد وردت « أربعة » مؤنثة مع العين المؤنثة ، وهو وجه جائز فى العربية مذكور فى المطولات . وانظر الصبان ٤ : ٦٢ حيث ذكر ابن هشام أن ما كان لفظه مذكراً ومعناه مؤنثاً ، أو بالعكس ، فإنه يجوز فيه وجهان .

(٤) م : « الألقاء » ، صوابه فى ب ، ط .

(٥) الأكساء : جمع كسء ، بالضم ، وهو مؤخر كل شىء . يقال ركب كسأه : وقع على قفاه . والمراد : أدبروا وتأخروا . ب فقط : « كسأهم » ، بالإفراد .

(٦) الوهق ، بالتحريك : حبل شديد الفتل يرمى وفيه أنشوطة ، فتؤخذ فيه الدابة والإنسان . ب فقط : « رهقه » ، تحريف .

قال : وهم علَّموا الفُرسانَ حملَ قَوسين وثلاثِ قِسىٍّ ، ومن الأَوتار على حَسَب ذلك[١] .

والتركىُّ فى حال شَدَّته معه كلُّ شىءٍ يحتاج إليه ، لنفسه ، ولسلاحه ، ولدابَّته ، وأَداةِ دابَّته[٢] . فأَمَّا الصَّبر على الخَبَب[٣] ومواصلة السَّير ، وعلى طُول السُّرى وقَطع البِلاد [فعجيبٌ جدًّا[٤]] .

فواحدةٌ[٥] : أَنَّ فرَس الخارجِّى لا يصبر صَبْرَ برذَون التركىّ .

والخارجىُّ لا يحسن أَن يعالج فرسَه إِلَّا مُعالجةَ الفُرسان لخيولهم ، والتركىُّ أَحذَقُ من البَيطار ، وأَجود تقويماً لبِرْذَوْنهِ على ما يريد من الرَّاضة[٦] ، وهو استَنْتَجَهُ ، وهو ربَّاه فِلْواً ، ويَتْبعُه إِنْ سمَّاه[٧] ، وإِنْ ركَضَ ركضَ خَلْفه ، قد عوَّده [ذلك[٨]] حتَّى عرفه ، كما يعرف الفرس : اجدَم[٩] ، والناقة : حَلى[١٠] ، والجمل : جاهِ[١١] ، والبغل : عَدَسْ ، والحمارُ : سأْسأْ ؛ وكما يعرف المجنونُ لقبه ، والصبىُّ اسمَه .

(١) م ، ط : « على حساب ذلك » .
(٢) ب فقط : « وأداءة دابته » ، تحريف .
(٣) انظر ما معنى فى ص ٨٩ . وفى ب : « الجنب » ، تحريف
(٤) التكملة من مج والرسائل .
(٥) ط فقط : « فظاهر » .
(٦) الراضة : جمع رائض ، وهو من يروض الدابة ويسوسها ويذللها .
(٧) ب ، م والرسائل : « وتتبعه إن سماه » ، وأثبت ما فى ط .
(٨) التكملة من مج والرسائل .
(٩) أجدم ، بوصل الهمزة بعدها جيم ودال مهملة ، وهو زجر للفرس ، ومثله « هجدم » بالهاء . وفى الأصول : « اجذم » بالذال المعجمة ، صوابه فى مج ومعظم أصول الرسائل . انظر : ١ : ٤٧ .
(١٠) يقال فى زجر الناقة : حل ، وحلى أيضاً . وأنشدوا لأبى النجم :
* وقد حدوناها بحوب وحلى *
(١١) جاه ، بكسر الهاء : زجر للإبل . وربما قيل جاه بالتنوين ، وكذلك جوه جوه بسكون الهاء . ومثله جأ ، وشأ ، كما يقال جىء جىء : أمر لها بورود الماء وهى على الحوض . وجؤجؤ : أمر لها بورود بالماء وهى بعيدة منه ، أوهو زجر لها لا أمر بورود الماء . وفى م ، ط : « جأ » . وأثبت ما فى ب ، مج والرسائل .

ولو حصَّلت مُدَّةَ عُمرِ التُّركيِّ وحَسَبت أَيَّامَه لوجدتَ جُلوسَه على ظهر الأَّرض نادراً[١] . والتركيُّ يركب فَحلًا أو رَمَكةَ[٢] ، ويخرج غازياً أَو مسافراً ، أَو متباعداً فى طلب صيد ، أَو سببٍ من الأَّسباب ، فتتبعُه الرَّمَكةُ وأَفلاؤُها ؛ إنْ أَعياه اصطيادُ النَّاسِ اصطادَ الوحش ، وإنْ أَخفقَ منها واحتاجَ إلى طعامٍ فصَدَ دابَّةً من دوابِّه ، وإنْ عَطِشَ حَلَب رَمَكة من رِماكه ، وإن أَراحَ واحدةً ركبَ أُخرى ، من غير أَن ينزلَ إلى الأَّرض .

وليس فى الأَّرض أَحدٌ إلَّا وبدنُه ينتقض[٣] عن اقتيات اللَّحم وحدَه ـ غَيْره ، وكذلك دابّته تكتفى بالعُنقُر[٤] والعُشب والشَّجر ، لا يُظِلُّها من شمسٍ ، ولا يُكنُّها من برد .

قال : وأَمَّا الصبر على الخبَب[٥] فإنَّ الثَّغريِّين[٦] ، والفُرانقيِّين[٧] ، والخِصيان ، والخوارج ، لو اجتمعتْ قُواهم فى شخصٍ واحد لما وَفَوْا بتركيٍّ واحد . والتركيُّ لا يبقَى معه مع طولِ الغاية إلَّا الصَّميمُ من دوابِّه ، والذى يقتله التركيُّ بإتعابه له . وينْفِيهِ[٨] عند غَزَاته هو الذى لا يصبر

---

(١) نادراً ، ساقطة من ب . وفى م : « نادر » محرف . وفى مج والرسائل : « لوجدت جلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على ظهر الأرض » .

(٢) الرمكة ، بالتحريك : الأنثى من البراذين . وفى جميع الأصول : « فحل أرماكه » ، وأثبت مافى مج والرسائل .

(٣) ينتقض : يفسد ويهزل . وفى جميع الأصول : « ينتفض » بالفاء ، ولا وجه له .

(٤) العنقر ، كعصفر : أصل القصب والبردى والبقل مادام أبيض مجتمعاً .

(٥) ب : « الجنب » ، تحريف . وانظر ١٩٩ .

(٦) الثغريون : نسبة إلى الثغر ، وهو واحد ثغور الشام . ومن أشهرها : أنطاكية ، وبغراس ، والمصيصة . وأصل أهلها من الروم .

(٧) نسبة إلى الفرانق بالضم ، يعنى بهم عمال البريد ، ويبدو أنهم كانو من غير العرب . والفرانق : الذى يدل صاحب البريد على الطريق ، معرب « بروانك » . ب ، م : « والغزانقيين» ط : « والفزانقيين » ، صوابهما ما أثبت .

(٨) فى جميع الأصول : « ويبقيه » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

معه فرسُ الخارجي ، ولا يبقَى معه كلُّ بِرذونٍ بخاريّ(١) ، ولو ساير خارجيًّا لاستفرغ جُهدَه(٢) قبل أن يبلغ الخارجيُّ عفوه .

والتركيُّ هو الراعي ، وهو السَّائس ، وهو الرائِض ، وهو النخَّاس(٣) ، وهو البَيْطار ، وهو الفارسُ . فالتركيُّ الواحدُ أُمّةٌ على حدة .

قال : وإذا سار التركيُّ في غير عساكر الترك فسار القومُ عشرةَ أميال سار التركيُّ عشرين مِيلًا ، لأنَّه ينقطع عن العسكر يمنة ويسرة ، ويَصعَدُ في ذُرَى الجبال ، ويَستبطِنُ قعورَ الأَودية ، في طلب الصيد ، وهو في ذلك يرمي كلَّ ما دبَّ ودرج ، وطارَ ووقع .

قال : والتركيُّ لم يَسِر في العسكر سَيْرَ النَّاسِ قطُّ ، ولا سارَ مستقيماً قط(٤) .

قال : وإذا طالت الدُّلجة ، واشتدَّ السَّير ، وبَعُدَ المنزلُ ، وانتصفَ النَّهار ، واشتدَّ التعب ، وشَغَل الناسَ الكلالُ(٥) ، وصمت المتسايرون فلم يَنطِقوا ، وقَطَعَهم ما همْ فيه عن التَّشاغل بالحديث ، وتفسَّخَ(٦) كلُّ شيءٍ من شدَّة [الحرّ ، وجَمَد كل شيءٍ من شدَّة(٧)] البَرْد ، وتمنى كلُّ جليدِ القُوى على طُول السُّرى أنْ تُطوى له الأَرض ، وكلَّما رأَى خيالًا(٨)

---

(١) ط فقط : « نجاري » ، تحريف .

(٢) هذا الصواب من م ، مج . وفي الرسائل : « لاستفرغ وسعه » . وفي ب : « لا استفرغ جهده » . وفي ط « لايستفرغ جهده » ، محرفتان .

(٣) ب ، م : « النحاس » ، تحريف . والنخاس ، بالخاء المعجمة : بائع الدواب ، سمى بذلك لنخسه إياها حتى تنشط .

(٤) ب : « ولا مدار » ، صوابه في م ، ط .

(٥) في جميع الأصول : « الكلام » ، ولا يستقيم مع مابعده . والصواب من مج والرسائل . والكلال : التعب والإعياء .

(٦) التفسخ : عدم الطاقة وقلة الاحتمال . م فقط : « وتفسح » ، تحريف .

(٧) التكملة من مج والرسائل ، لكن في الرسائل : « وخمد » بالخاء .

(٨) الخيال : مانصب في الأرض ليعلم أنها حمى فلا تقرب . والخيال والخيالة أيضاً : ماتشبه لك في اليقظة أو الحلم من صورة

أَو عَلماً استبشَرَ به ، وظن أَنَّه قد بلغ المنزل ، وإذا بلغه الفارس نزلَ وهو متفحجٌ[(١)] ، كأَنَّه صبيٌّ محقونٌ[(٢)] ، يئنُّ أَنينَ المريض ، ويستريح إلى التثاؤب[(٣)] ، ويتداوَى مما به بالتمطِّى والتضجُّع . وترى التركيَّ فى تلك الحال ، وقد سار ضِعفَ ما ساروا ، وقد أَتعبَ مَنكِبَيه كثرةُ النَّزْع[(٤)] ، يرى بقرب[(٥)] المنزلِ عَيْراً أَو ظَبْياً ، أَو عرَضَ له ثعلبٌ أَو أَرنب ، كيف يركُض ركضَ مبتدئٍ مستأْنِف ، حتّى كأَنَّ الذى سار ذلك السَّير ، وتَعِب ذلك التَّعبَ غيرُه .

وإنْ بلغ النَّاسُ وادياً فازدحموا على مَسلكه أَو على قنطرته ، بَطَنَ[(٦)] بِرذونَه فأَقْحمَه ثم طلع من الجانب الآخَر كأَنَّه كوكبٌ . وإن انتهَوْا إلى عَقَبةٍ صَعْبة ترك السَّنَن[(٧)] ، وذهبَ فى الجَبَل صُعُدا ، ثم تدلَّى من موضعٍ يَعجِز عنه الوَعِل ، وأَنت تحسَبه مخاطراً بنفْسه ، لِلَّذى ترى من مُطَّلعه . ولو كان فى كل ذلك مخاطراً لما دامت له السَّلامةُ ، مع تتابع ذلك منه .

---

(١) متفحج : قد فتح ما بين رجليه ، وذلك من تأثير طول الركوب . ب : « متفححح » م ، ط : « متفجح » بتقديم الجيم على الحاء ، ولا مادة لهذه فى العربية ، وصوابها ماأثبت من مج والرسائل .

(٢) محقون : قد أعطى الدواء بالحقنة . وفى جميع الأصول : « مجنون » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٣) ب : « التناوب » ، م ، ط « التثواب » ، والصواب ما أثبت من مج والرسائل .

(٤) النزع فى القوس : مد وترها ليرمى بسهامها .

(٥) فى جميع الأصول : « لقرب » باللام ، والوجه ما أثبت . وفى مج والرسائل : « قرب المنزل » .

(٦) بطنه بطناً : ضرب بطنه . ب : « فطن » ، بالفاء ، صوابه فى م ، ط ، مج والرسائل .

(٧) السنن ، بالتحريك : نهج الطريق ومحجته . م ، ط : « السير » تحريف .

قال : ويَفخَرُ[1] الخارجىُّ بأنَّه إذا طَلَب أدركَ ، وإذا طُلِب فات[2] .

والتركىُّ ليس يُحْوَج إلى أن يَفُوت ، لأنَّه لا يُطلَب ولا يُرام . ومَن يرومُ مالا يُطمع فيه ؟ !

فهذا دليلٌ على أنّا قد علمنا أنَّ العلَّة التى عمَّت الخوارج بالنَّجدة استواءُ حالاتهم فى أشدِّ الديانة[3] ، واعتقادُهم بأنَّ القتالَ دِين ؛ لأنّنا حين وجدْنا السِّجستانىَّ ، والجَزرىّ[4] ، واليمانىَّ ، والمغربى ، والعُمانىَّ ، والأَزرَقىَّ منهم والنَّجْدىّ[5] ، والإباضىَّ ، والصُّفْرى[6] ، والمولى والعربىّ ، والعجمىّ والأعرابىّ ، والعبيدَ والنِّساء ، والحائك والفلّاح ، كلُّهم يُقاتِل مع اختلافِ الأنساب ، وتَبايُن البُلدان — علمْنا أنَّ الدِّيانة هى التى سوَّت بينهم فى ذلك ، كما أنَّ كلَّ حجّامٍ فى الأرض من أىِّ جنسٍ كان ، ومن أهلِ أىِّ بلد كان ، فهو يحبُّ النبيذ . وكما أنَّ

(١) فى جميع الأصول : « ويعجز » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٢) مج والرسائل : « لم يدرك » .

(٣) مج والرسائل : « فى الديانة » .

(٤) ب : « والحزرى » ط : « والخزرى » ، وأثبت ما فى م ومج والرسائل .

(٥) نسبة إلى نجدة بن عامر ، أو ابن عاصم ، الحنفى . ويقال لهم « النجدات » أيضاً . وكان نجدة ممن خرج مع ابن الزبير ثم فارقه هو ونافع الأزرق من الخوارج ، فصار نافع إلى البصرة ونجدة إلى اليمامة ، وذلك فى سنة ٦٤ . الملل والنحل ١ : ١٦٥ والطبرى فى حوادث ٦٤ . ثم صار إلى الطائف ثم إلى البحرين ، ووجه إليه مصعب بن الزبير بخيل بعد خيل فهزمهم ، وظل خمس سنوات هو وعماله بالبحرين واليمامة وعمان وهجر والعرض ، ثم نقم عليه الخوارج فخلعوه بعد أن كان يسمى أمير المؤمنين ، وأقاموا أبا فديك مكانه سنة ٧٣ وقتل نجدة فى تلك السنة . الطبرى والفرق بين الفرق ٦٧ والمواقف ٦٢٩ .

(٦) الصفرية ، بضم الصاد : طائفة من الخوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأصفر ، ويقال لهم الزيادية أيضاً . وقولهم كقول الأزارقة فى أن أصحاب الذنوب مشركون ، غير أن الصفرية لا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم ، وهم يرون ذلك . انظر آراءهم فى الملل ١ : ١٨٣ والفرق ٧٠ والسمعانى ٣٥٤ والمواقف ٦٤٠ ومفاتيح العلوم ١٦ والكامل ٦٠٤ . ط : « والصفوى » تحريف .

أَصحاب الخُلقانِ[١] ، والسَّمَّاكين ، والنَّخَّاسين والحاكَةَ ، فى كلِّ بلدٍ ومن كلِّ جنس ، شِرار خلْق الله فى المبايَعَة والمعاملة . فعلْمنا بذلك أَنَّ ذلك خلقةٌ فى هذه الصِّناعات ، وبِنيةٌ فى هذه التِّجارات ، حتَّى صاروا من بين جميع الناس كذلك .

قال : ورأَيناهُ فى بلادِهِ ليس يُقاتل على دين ، ولا على تأْويل ، ولا على مُلْك ولا على خَرَاج ، ولا على عَصبية ، ولا على غَيرةٍ دونَ الحُرْمة ، ولا على حميَّة ولا على عداوة ، ولا على وطنٍ ولا على مَنْع دارٍ[٢] ولا مال ، وإنَّما يقاتل على السَّلْب والخيارُ فى يده . وليس يخاف الوعيدَ إن هرب ، ولا يرجو الوَعْدَ إنْ أَبلى عذراً . وكذلك هم فى بلادهم وغَاراتِهم[٣] وحروبهم .

وهو الطالب غير المطلوب ، ومن كان كذلك فإنَّما يأْخذ العفو من قوَّته ، ولا يحتاج إلى مجهوده ، ثم مع ذلك لا يقوم له شىءٌ ، ولا يطمع فيه أَحد ، فما ظنُّك بمن هذه صِفَتُه ، أَنْ لو[٤] اضطرَّه إحراجٌ أَو غَيْرةٌ[٥] ، أَو غضَبٌ أَو تديُّن ، أَو عَرَضَ له بعضُ ما يصحب المقاتلَ المحامىَ من العلل والأَسباب .

قال : وقناةُ الخارجىِّ طويلةٌ صمَّاءُ ، وقَناة التركىِّ مِطردٌ أَجوَف[٦] . والقَنَا الجُوف القصارُ أَشدُّ طعنةً ، وأَخفُّ مَحمِلا . والعجم تجعل القَنا الطِّوالَ للرَّجّالة ، وهى قَنا الأَبناءِ[٧] على أَبوابِ الخنادق والمضايق .

(١) يراد بهم من يبيعون الخلقان من الثياب ، جمع خلق ، بالتحريك ، وهو البالى . وانظر الحيوان ٢ : ١٠٥ .

(٢) ب فقط : « ومنع دار » .

(٣) فى الأصول : « وعاداتهم » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٤) ب ، م : « أولو » ط : « ولو » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٥) ب ، م : « إخراج أو غيره » ط : « إحراج أو غيره » ، صوابه من مج والرسائل .

(٦) المطرد ، بكسر الميم : رمح قصير .

(٧) ب : « قناء » ، وإنما تجمع القناة على قنوات وقنا وقنى ، الأخيرة على وزن فعول . وفى مج والرسائل : « قنى الأبناء » . والأبناء سبق القول عليهم فى ص ١٦٧ .

والأَبناء فى هذا الباب لا يَجرون مع الأَتراك والخراسانية ، لأَنَّ الغالب على الأَبناءِ المطاعنةُ على أَبواب الخنادق ، وفى المضايق ، وهؤلاء أَصحاب الخيل والفُرسان ، وعلى أَصحاب الخيل والفرسان يدور أَمر الفروسيَّة[(١)] . لهم الفَرُّ والكَرّ . والفارس هو الذى يطوى الجيش طىَّ السِّجِلّ[(٢)] ، ويفْرِقُهم فَرْق الشَّعر[(٣)] . وليس يكون الكمين ولا الطَّليعة ولا السَّاقَة إِلَّا الكبارَ منهم[(٤)] . وهم أَصحاب الأَيَّام المذكورة ، والحروبِ الكِبار ، والفتوح العظام .

٢٤ — فصل منها

والشحُّ على الوطن ، والحنين إِليه ، والصَّبابةُ به ، مذكورٌ فى القرآن[(٥)] ، مخطوط فى الصُّحف بين جميع الناس ، غير أَنَّ التركىَّ للعللِ التى ذكرناها أَشدُّ حنيناً ، وأَكثر نُزُوعاً[(٦)] .

وباب آخر مما كان يدعوهم إِلى الرُّجوع قبل ثَنْى العَزْم[(٧)] والعادةِ المنقوضة : وذلك أَنَّ التُّركَ قومٌ يشتدُّ عليهم الحَصْر[(٨)] والجُثوم[(٩)] ،

(١) ب ، م : « الفروس » ، صوابه فى ط . و فى مج والرسائل : « تدور الجيوش »

(٢) السجل : الصحيفة ، والكتاب الكبير ، والسجل : الكاتب أيضاً أو ملك يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه ، وبهما فسرت الآية الكريمة : « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب » فى الآية ١٠٤ من الأنبياء . ب : « على السجل » ، صوابه فى م ، ط ومج والرسائل .

(٣) مج والرسائل : « ويفرقهم تفريق الشعر » .

(٤) فى الرسائل فقط : « وليس يكون الكمين إلا منهم ولا الطليعة ولا الساقة » .

(٥) فى آيات كثيرة فيها ذكر « الديار » . ينظر لها المعجم المفهرس .

(٦) النزوع والنزاع أيضاً : الحنين والاشتياق إلى الأهل والوطن . ب : « نزعا » تحريف . وفى مج : « نزاعا » . وأصل النزاع المغالبة ، يقولون : نازعتنى نفسى إلى هواها أى غالبتنى . كما يقولون نزع إلى أهله ووطنه نزوعاً .

(٧) ب ، م : « عزم الثانى » ، وأثبت مافى ط . وفى مج والرسائل : « قبل العزم الثابت » .

(٨) فى جميع الأصول وكذا فى مج : « الحضر » ، وأثبت مافى الرسائل .

(٩) جثم جثوماً : لزم مكانه فلم يبرحه . وهذه الكلمة ساقطة من ط . وفى ب : «الختوم» وفى م : « الحتوم » ، صوابها من مج والرسائل .

وطُول اللُّبث والمُكث ، وقلّة التصرُّف والتحرُّك(١) . وأَصلُ بِنيتهم إنَّما وضع على الحركة ؛ وليس للسُّكون فيهم نصيب ، وفى قُوى أَرواحهم فضْلٌ على قُوى أَبدانهم ، لأَنهم أَصحابُ توقُّدٍ وحرارة ، واشتعَال وفطنة(٢) ، كثيرةٌ خواطرهم ، سريعٌ لحظُهم . وكانوا يرون الكِفاية مَعْجَزةً ، وطُولَ المُقام بُلْدة(٣) ، والرَّاحةَ عُقلة(٤) والقناعةَ من قِصر الهمّة ، وأَنَّ تَركَ الغزوِ يورث الذِّلَّة .

وقد قالت العرب فى مثلِ ذلك : قال عبد الله بن وهبٍ الرَّاسِبىّ(٥) : « حبُّ الهُوَينَى يُكسب النَّصَب » .

والعرب تقول : « من غلا دماغُه فى الصَّيف غلَتْ قِدرُه فى الشِّتاء » .

وقال أَكثم بن صَيفىّ : « ما أَحبُّ أَنِّى مكفىٌّ كلَّ أَمرِ الدُّنيا » ، قيل : ولِمَ ؟ قال : « أَخاف عادة العَجْز(٦) » .

فهذه كانت عِللَ التُّرك فى حبُّ الرُّجوع ، والحنينِ إلى الوطن .

ومِن أَعظم ما كان يدعوهم إلى الشُّرود ، ويبعثهم على الرجوع ، ويُكرِّه عندهم المُقام ، ما كانوا فيه من جهلِ قُوّادهم بأَقدارهم ، وقلّة معرفتهم بأَخطارهم ، وإغفالِهم موضعَ الردِّ عليهم(٧) ، والانتفاعِ

(١) ب ، م : « والتحرق » ط : « والتحرف » ، صوابهما فى مج والرسائل .

(٢) هذا ما فى ط . وفى ب ، م ومج والرسائل : « واشتغال » بالغين المعجمة .

(٣) البلدة بضم الباء وفتحها : ضد الذكاء والنفاذ والمضاء فى الأمور ، ومثلهما البلادة . ط ، ومج والرسائل : « بلادة » .

(٤) عقلة ، بضم العين المهملة : أى تعقل صاحبها وتحبسه عن الانطلاق . ط فقط : «غفلة ».

(٥) الراسبى : نسبة إلى راسب بن ميدعان بن مالك بن نصر بن الأزد . وكان عبد الله هذا قد خرج على على فى أربعة آلاف ، وبايعه الخوارج لعشر خلون من شوال سنة ٣٧ وقتل يوم النهروان سنة ٣٨ كما فى الطبرى . وانظر التنبيه والإشراف ٢٥٦ وجمهرة ابن حزم ٣٨٦ .

(٦) م : « عارة العجز » . تحريف . وفى الرسائل : « أخاف العجز » .

(٧) الرد : النفع ، من قولهم : هذا أرد من ذاك ، أى أنفع .

بهم ، ولأنّهم حين جعلوهم أُسوَة أجنادهم[١] لم يقنعوا أن يكونوا فى الحاشية والحُشْوة ، وفى غِمارِ العامَّة[٢] ، ومن عُرْض العساكر ، وأَنِفوا [من ذلك[٣]] لأنفسهم ، وذكروا ما يجبُ لهم ، ورأَوْا أنَّ الضَّيم لا يليق بهم ، وأنَّ الخمولَ لا يجوز عليهم ، وأنَّهم فى المُقام على مَن لم يعرف حقَّهم أَلْوَمُ ممَّن مَنَعهم حقَّهم . فلما صادفوا مَلِكاً حكيماً ، وبأقدار النَّاس عليماً ،لا يميل إلى سوءِ عادة ،ولا يَجنَحُ إلى هوًى ، ولا يتعصَّب لبلدٍ على بلد ، يدور مع التَّدبير حَيثُما دار[٤] ، ويقيم مع الحَزْم حيثُما أَقام ــ أَقاموا إقامة من مُنِح الحظَّ[٥] ، ودان بالحقِّ[٦] ، ونَبذ العادة ، وآثر الحقيقة ، ورَحَلَ نفسه لِقَطيعة وطنه[٧] ، وآثر الإمامة على مُلك الجَبَريَّة ، واختار الصَّواب على الإِلْف .

ثم اعلمْ بعد ذلك كلِّه أَنَّ كلَّ أُمّة وقرنٍ وجيل وبنى أَبٍ وجَدْتَهم قد بَرَعوا فى الصناعات ، وفَضَلوا الناسَ فى البيان ، أَوْ فاقوهم فى الآداب[٨] أَو فى تأْسيس الملك ، أَو فى البَصر بالحرب[٩] . فإنَّك لا تجدهم فى الغاية وفى أَقصى النهاية ، إلَّا أَنْ يكون الله تعالى قد سخَّرهم لذلك المعنى بالأَسباب ، وقَصرهم عليه بالعلل التى تُقابِل تلك

---

(١) وكذا فى مج . وفى الرسائل : « حتى جعلوهم » ، بإسقاط « ولأنهم » .

(٢) الغمار : جمع غمرة ، بالفتح ، وهى الزحمة من الناس والماء ، وفى حديث أويس : « أكون فى غمار الناس » ، أى جمعهم المتكاثف . وفى الأصول : « غمارة العامة » صوابه فى مج والرسائل .

(٣) التكملة من مج والرسائل .

(٤) ط : « مع التدبير مادار » .

(٥) هذا مافى ط . وفى م : « فهم الحظ » ، وفى ب : « فهم الخط » .

(٦) فى جميع الأصول : « ودار بالحق » ، وأثبت مافى مج والرسائل .

(٧) رحل نفسه لكذا ، إذا صبر على أذاه . وفى جميع الأصول : « ووصل نفسه بقطيعة وطنه » ، وأثبت مافى مج والرسائل .

(٨) ب ، م : « وأفاقوهم فى الآداب » ، وفى ط : « وفاقوهم » .وأثبت مافى مجوالرسائل .

(٩) فى جميع النسخ : « أو فى النصر بالحرب » ، صوابه فى ج والرسائل .

الأُمور ، وتَصْلُح لتلك المعانى ، لأَنَّ من كان متقسِّم الهوى ، مُشتَرَك الرّأْى ، متشعِّبَ النَّفْس[١] ، غير موفَّر على ذلك الشىء ، ولا مهيَّأً له ، لم يَحذِق من تلك الأَشياءِ شيئاً بأَسْره ، ولم يبلغ فيه غايته ، كأَهل الصِّين فى الصِّناعات ، واليونانيِّين فى الحِكَم والآداب ، والعربِ فيما نحن ذاكروه فى موضعه ، والسَّاسانِ[٢] فى الملك ، والأَتراك فى الحروب .

أَلا ترى أَنَّ اليونانيِّين الذين نظروا فى العِلَل لم يكونوا تُجَّاراً ولا صُنَّاعاً بأَكفِّهم ، ولا أَصحابَ زرعٍ وفِلاحة ، وبناءٍ وغَرْس ، ولا أَصحاب جمعٍ ومَنْع وكدٍّ[٣] . وكانت الملوك تفرِّغُهم[٤] ، وتُجرِى عليهم كفايتَهم ، فنظَروا حين نَظَروا بأَنفسٍ مجتمعة ، وقوّةٍ وافرة ، وأَذهانٍ فارغة ، حتَّى استخرجوا الآلاتِ والأَدوات ، والملاهىَ التى تكون جَمَاماً للنفس ، وراحةً بعد الكَدِّ ، وسُروراً يداوى قرْحَ المهموم[٥] ، فصنعوا من المرافق ، وصاغُوا من المنافع ، كالقَرِسطُونات[٦] ، والقَبّانات ،

---

(١) الرسائل فقط : « ومتشعب النفس » .

(٢) مج والرسائل : « وآل ساسان » .

(٣) فى مج والرسائل : « ومنع ، وحرص وكد » .

(٤) ب ، ط : « تفزعهم » ، صوابه فى م والرسائل .

(٥) القرح ، بالفتح والضم : الجرح . ب : « فرج المهموم » م : « فرح المهموم ، ط : « فرح الهموم » ، وأثبت ما فى مج . وفى الرسائل : « قرح الهموم » .

(٦) فى النزهة المبهجة لداود الأنطاكى بهامش تذكرة داود ١ : ١٥ : « علم مركز الأثقال مثل القرصطيون ، يعنى القبان » . كما جاء فى كتاب التربيع والتدوير ص ١٣٨ ساسى : « وخبرنى عن القرسطون كيف أخرج أحد رأسيه ثلاثمائة رطل زاد ذلك أم نقص ، ووزن جميعه ثلاثون رطلا زاد ذلك أو نقص » . وانظر الحيوان ١ : ٨١ . ويبدو أنه ضرب من الميزان القبان .

والأَسْطُرلابات(١) ، وآلة الساعات ، وكالكونيا(٢) ، والكسيران(٣) والبِرْكار(٤) ، وكأَصناف المزامير والمعازِف ، والطبّ(٥) والحساب ، والهندسةِ ، واللحون ، وآلات الحرب ، وكالمجانيق ، والعَرّادات(٦) ، والرّتيلات(٧) ،والدّبّابات ، وآلة النَّفّاطين ، وغير ذلك مما يطول ذِكره(٨) .

وكانوا أَصحابَ حِكمة ، ولم يكونوا فَعَلةً . يصوِّرون الآلة ، ويَخرِطون الأَداة(٩) ، ويَصُوغون المُثُل ولا يحسنون العمل بها(١٠) ، ويشيرون إليها ولا يمسُّونها ، يُرَغِّبون فى التعليم(١١) ، ويَرغَبون عن العمل .

فأَمَّا سكّان الصِّين فإنَّهم أَصحاب السَّبْكِ والصِّياغة ، والإفراغ والإذابة ، والأَصباغِ العجيبة ، وأَصحابُ الخَرْط والنَّجْر(١٢) والتَّصاوير ،

(١) الأسطرلاب أو الأصطرلاب : مقياس النجوم ، هو باليونانية : أصطرلابون . وأصطر هو النجم ، ولابون هو المرآة . وقد يهذى بعض المولعين بالاشتقاقات فى هذا المعنى بمالامعنى له ، وهو أنهم يزعمون أن لاب اسم رجل وأسطر جمع سطر . وهذا اسم يونانى ، اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف . انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ١٣٤ والحيوان ١ : ٨١/٢ : ٢٤٢ . وقد وقع صاحب القاموس فى هذا الوهم الذى نبه عليه الخوارزمى فى مادة (لوب) .

(٢) ب ، ط: « وكالكرنيا » وفى م: « والكرنبا » ، وأثبت مافى مج والرسائل .وجاء فى مفاتيح العلوم: « الكونيا » بالواوكما أثبت وقال : « للنجارين يقدرون بها الزاويةالقائمة » .

(٣) كذا فى جميع الأصول . وفى مج : « والكشتوان » ، وفى الرسائل : « وكالشيزان » .

(٤) فى جميع النسخ « والبوكار » ، صوابه فى مج والرسائل . والبركار : آلة هندسية مركبة من ساقين متصلتين ، تثبت إحداهما وتدور حولها الأخرى، ترسم بها الدوائر والأقواس ، وهى فى العامية المصرية « البرجل » ، وفى الفارسية : « بركار » .

(٥) مج والرسائل : « وكالطب » .

(٦) العرادة : منجنيق صغير . والمنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة ونحوها فى القتال . وانظر حواشى البيان ٣ : ١٧ . ط : « والقرادات » ،تحريف .

(٧) انظر ما سبق فى حواشى ١ : ٦٩

(٨) ب فقط : « يطيل ذكره » ، تحريف .

(٩) م فقط : « الادات » ، تحريف .

(١٠) فى جميع الأصول : « به » ، صوابه فى الرسائل . وفى مج : « ويصوغون المثال ولا يحسنون العمل به » .

(١١) مج والرسائل : « فى العلم » .

(١٢) مج والرسائل : « والنحت » .

والنَّسج والخَطّ[(١)] ، ورِفْق الكَفّ فى كلِّ شىءٍ يتولَّوْنه ويُعانُونه ، وإن اختلفَ جوهرُه ، وتباينت صنعته ، وتفاوت ثمنه[(٢)] .

فاليونانيُّون يعرفون العِلل ولا يباشرون العَمَل ، وسُكَّان الصِّين يباشرون العمل ولا يعرفون العِلل ؛ لأنَّ أُولئك حكماءُ ، وهؤلاءِ فَعَلة .

وكذلك العرب لم يكونوا تجّاراً ولا صُنَّاعاً ، ولا أَطبَّاءَ ولا حُسَّاباً ولا أَصحابَ فلاحة ، فيكونُوا مَهَنة[(٣)] ، ولا أَصحابَ زرعٍ ، لخوفهم صَغَارَ الجِزْية[(٤)] . ولم يكونوا أَصحاب جمعٍ وكَسْب ، ولا أَصحابَ احتكارٍ لما فى أَيديهم ، وطلبٍ لما عند غيرهم ، ولا طلبوا[(٥)] المعاشَ من أَلسنةِ الموازين ورءُوس المكاييل ، ولا عَرَفوا الدَّوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقرَ المُدْقِع الذى يَشغَل عن المعرفة ، ولم يستغنوا الغَنَاءَ الذى يورث البُلْدة[(٦)] ، والثَّروة التى تُحدث الغِرَّة[(٧)] ، ولم يحتملوا ذلاًّ قطُّ فيميت قلوبهم ، ويصغِّر[(٨)] عندهم أَنفسَهم . وكانوا سُكَّانَ فيافٍ ، وتربية العَرَاء ، لايعرفون الغَمَقَ ولا اللَّثَقَ[(٩)] ، ولا البُخَار ولا الغِلَظ[(١٠)] ،

---

(١) فى الرسائل : « والنسخ والخط » .

(٢) ثمنه ، ساقطة من م .

(٣) فى حديث عائشة : « كان الناس مهنة أنفسهم » ، جمع ماهن ، ككاتب وكتبة ، ويقال مهان أيضاً ككاتب وكتاب .

(٤) الصغار ، بالفتح : الذل والضيم .

(٥) ب : « ولا طلب » .

(٦) الغناء ، بالفتح : ضد الفقر ، وهو الغنى بالكسر والقصر . ب : « الغناء » م : « الفناء » ، وجههما ما أثبت من مج . وفى ط ، والرسائل : « الغنى » . والبلدة ، : بضم الباء وفتحها : ضد النفاذ والذكاء والمضاء فى الأمور . وفى ط : « البلادة » وفى مج : « التبليد » .

(٧) ب ، م : « العزة » صوابه فى ط ومج والرسائل . والغرة : الغفلة .

(٨) ب : « أو تصغير » صوابه فى م ، ط . وفى مج : « أو يصغر » ، وفى الرسائل : « ويصغر » .

(٩) الغمق ، بالتحريك : الندى والرطوبة والوخامة . واللثق : الندى مع سكون الريح .

(١٠) فى جميع النسخ : « الغلط » بالطاء المهملة ، صوابه بالظاء المعجمة ، وهو ضد الرقة فى الخلق والطبع والعيش ، والمراد غلظ الهواء .

ولا العَفَن ، ولا التَّخَم (١) . أذهانٌ حديدة (٢) ، ونفوسٌ منكرة . فحين حملوا حدَّهم (٣) ، ووجَّهوا قواهم إلى قول الشعر ، وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة (٤) ، وتصاريف الكلام ، وقيافة البَشَر بعد قيافة الأثَر ، وحفظ النَّسَب ، والاهتداءِ بالنجوم ، والاستدلالِ بالآثار ، وتعرُّفِ الأنواء (٥) ، والبصَر بالخَيْل والسِّلاح وآلة الحرب ، والحفظِ لكلِّ مسموع ، والاعتبارِ بكلِّ محسوس ، وإحكام شأن المناقب والمثالب ، بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كلَّ أُمنيَّة . وببعض هذه العلل صارت نفوسُهم أكبر ، وهِمَمُهم أرفع ، وهم من جميع الأُمم أفخر (٦) ، ولأيَّامهم أذكَر .

وكذلك الترك ، أصحاب عَمَدٍ ، وسُكَّان فيافٍ ، وأرباب مَواشٍ . وهم (٧) أعرابُ العَجَم ، كما أنَّ هُذيلًا أكرادُ العرب ، لم تشغلهم الصِّناعاتُ ولا التجارات ، ولا الطبُّ والفلاحة والهندسة ، ولا غِراسٌ ولا بُنْيانٌ ، ولا شَقُّ أنهار ، ولا جِبايةُ غَلَّات ، ولم يكن [هَمُّهم غيرَ الغارة والغزْوِ والصَّيد ، وركوب الخيْل ، ومقارعةِ الأبطال ، وطلبَ الغنائم ، وتدويخ البلاد . وكانت (٨)] هِمَمُهم إلى ذلك مصروفة ، وكانت لهذه المعاني والأسبابِ مُسَخَّرةً ، ومقصورةً عليها وموصولةً بها ، أحكموا ذلك الأمر بأسْرِه ، وأتَوْا على آخره ، وصار ذلك هو صناعتَهم وتجارتَهم ، ولذَّتَهم في الحربِ وفخرَهم ، وحديثَهم وسَمَرَهم .

فلما كانوا كذلك صارُوا في الحرب كاليونانيِّين في الحكمة ،

---

(١) التخم : الوخم ، وهو الوباء .
(٢) مج والرسائل : « حداد » .
(٣) ب فقط : « أحدهم » ، تحريف .
(٤) ط فقط : « وتثقيف اللغة » ، تحريف .
(٥) ط : « الأنوار » ، تحريف .
(٦) وكذا في مج ، لكن في الرسائل : « وهمهم أرفع من جميع الأمم وأفخر » .
(٧) ب : « والترك » . (٨) التكملة من م ، ط ، مج والرسائل .

وأهل[1] الصِّينِ فى الصناعات ، والأعرابِ فيما عددنا ونزّلنا[2] ، وكالسَّاسان[3] فى الملك والسياسة .

ومِمَّا يُستدَلُّ به على أَنَّهم قد استقصَوْا هذا البابَ واستفرغوه ، وبلغوا أقصى غايته وتعرَّفوه ، أَنَّ السَّيف إلى أَن يتقلَّده متقلِّد ، أو يضرب به ضارب[4] ، قد مرَّ على أيدٍ كثيرة ، وعلى طبقاتٍ من الصُّنَّاعِ ، كلُّ واحدٍ منهم لا يعمل عملَ صاحبِه ولا يُحسنه ، ولا يدَّعيه ولا يتكلَّفه ؛ لأَنَّ الذى يُذيب حديد السَّيف ويُميعه ويصفِّيه ويُهذِّبه ، غيرُ الذى يمدُّه ويَمْطُله[5] ، والذى يمدُّه ويمطله[6] غير الذى يَطبعه ويسوِّى متنَه ، ويقيم خَشِيبته[7] ، والذى يَطْبعه ويسوِّى متنَه غير[8] الذى يَسقيه ويُرهِفه ، والذى يسقيه ويُرهفه ، غير الذى يركِّب قبيعتَه ، ويَستوثقُ من سِيلانه[9] ، والذى يَعمل مسامير السِّيلانِ ، وشاربَىِ القبيعة[10] ونَعْلَ السَّيف[11] غير الذى ينحت خشب غِمْده . والذى ينحت خَشَب غِمده غيرُ الذى يدبغُ جِلده ، والذى يدبغ جلدَه غير الذى يحلِّيه ، والذى يحلِّيه ويركِّب نصله غير الذى يَخْرِز حمائله .

---

(١) ب فقط : « وأصل » ، تحريف .
(٢) ب ، م : « ونولنا » ط : « ونوعنا » ، صوابهما فى مج والرسائل .
(٣) مج والرسائل : « وكآل ساسان » .
(٤) فى جميع النسخ : « ويضرب به ضارب » ، صوابه فى مج والرسائل .
(٥) المطل : المد والبسط . ط : « ويمطه ؟ » .
(٦) ط : « ويمطه » .
(٧) يقال سيف مشقوق الخشيبة : عرض حين طبع . ب فقط : « خشابته » .
(٨) ب ، م : « سوى » .
(٩) السيلان ، بالكسر : سنخ قائم السيف ، أى أصل مقبضه .
(١٠) القبيعة : ما على مقبض السيف من فضة أو حديد . والشاربان : أنفان طويلان فى أصل مقبض السيف . وفى ب : « وشادى القبيعة » وفى م ، ط : « وشاذى القبيعة » .
(١١) نعل السيف : الحديدة التى تكون فى أسفل جفنه من حديدة أو فضة ، وفى الحديث : « كان نعل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضة » . مج والرسائل : « ونصل السيف » .

وكذلك السَّرجُ ، وحالات السَّهم والجَعْبة والرُّمح ، وجميع السلاح مما هو جارحٌ[(١)] أو جُنَّة .

والتُّركيُّ يعمل هذا كلَّه بنفسه ، من ابتدائه إلى غايته ، ولا يستعينُ برفيقٍ ، ولا يَفزَع إلى رأى صديق ، ولا يختلف إلى صائغ ، ولا يَشْغَل قلبه بمِطاله وتسويفه[(٢)] ، وأكاذيبِ مواعيده ،وبغُرْم كِرائِه[(٣)] .

وليس فى الأرض كلُّ تركيّ كما وصَفْنا ، كما أنَّه ليس كلُّ يونانيٍّ حكيماً ، ولا كلُّ صينيٍّ حاذقاً ، ولا كلُّ أعرابيٍّ شاعراً فائقاً[(٤)] ، ولكنّ هذه الأُمورَ فى هؤلاءِ أعمُّ وأتمُّ ، وفيهم أظهر وأكثر .

قد قلنا فى السَّببِ الذى تكاملَتْ به النَّجدةُ والفروسيَّةُ فى التُّركِ دونَ جميع الأُمم ، وفى العلل[(٥)] التى من أجلها نظموا جميعَ معانى الحرب ، وهى معانٍ تشتمل على مذاهبَ غريبةٍ ، وخصالٍ عجيبة ،فمنها مَا يُقْضَى[(٦)] لأهله بالكرم ، وببُعد الهمّةِ ، وطلب الغاية . ومنها ما يدلُّ على الأدب السَّديد[(٧)] ، والرّأى الأصيل ، والفِطنة الثَّاقبة ، والبصيرة النافذة .

أَلَا ترى أنَّه ليس بدٌّ لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والحَزْم والعزم ، والصَّبر والكِتمان ، ومن الثَّقافة وقِلَّة الغَفْلة ، وكثرة التَّجرِبة ؟ ولا بدَّ من البصَر بالخيلِ والسِّلاح[(٨)] ، والخبرةِ بالرِّجال والبلاد ،

(١) م ، ط : « خارج » ،صوابه فى ب ، ومج والرسائل .

(٢) م ، ط: «بمطله وتسويفه» . والمطل والمطال: التسويف وتأجيل موعد الوفاء بالشىء.

(٣) هذا الصواب من مج والرسائل . وفى ب : « وبعزم كرائه » ، وفى م : « وبغرم كرائه » وفى ط : « ويغرم كراءه » .

(٤) مج والرسائل : « قائفاً » . القائف : الذى يتتبع الآثار ويعرفها ، ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه . وأثبت مافى سائر النسخ

(٥) كذا فى مج والرسائل . وفى جميع النسخ : « فى العلل » بسقوط الواو .

(٦) فى الأصول : « يفضى » بالفاء ، وأثبت مافى مج والرسائل .

(٧) كذا فى مج والرسائل . وفى ب: « الأرب الشديد » ،وفى م ، ط: « الأدبالشديد » .

(٨) ب : « فى الخيل والسلاح » ، وفى مج : « من البصر فى الخيول والسلاح » .

والعلم بالمكان والزَّمان والمكايد ، وبما فيه صلاحُ الأُمورِ كلِّها[١] .

والمُلْك يَحتاج إلى أَواخٍ شِداد ، وأَسبابٍ مِتان ، ومن أَمتنها سبباً ، وأَعمِّها نفعاً ، ما ثبَّته فى نصابه[٢] ، وسَكَّنه فى قراره ، وزاده فى تمكينه وبهائه ، وقطعَ أَسبابَ المطمعة فيه ، ومنع أَيدىَ البُغاة من الإشارة إليه ، فضلًا عن البسط عليه .

قد قلنا فى مناقب جميع الأَصنافِ بجُمَلِ ما انتهى إلينا ، وبَلغَه علمُنا ، فإنْ وقَع بالموافقة فبتوفيقٍ من الله تعالى وصُنْعِهِ ، عزّ ذكره . وإنْ قصَّر دون ذلك فالذى قصَّر بنا[٣] نُقصانُ علمنا ، وقلَّةُ حفظنا ، وأَسماعنا[٤] . فأَمّا حُسْن [النيَّة[٥]] ، والذى[٦] نضمر من المحبَّة والاجتهادِ فى القُربة ، فإنَّا لا نرجع فى ذلك إلى أَنفسنا بلائمةٍ . وبين التقصير من جِهَة العجز وضَعْف القوّة[٧] فرق .

ولو كان هذا الكتاب من كُتب المناقضات ، وكُتب المسائل والجوابات ، وكان كلٌّ صنف من هذه الأَصناف يريد الاستقصاء على صاحبه ، ويكون غايتُه إظهارَ نفسه وإن لم يصل إلى ذلك إلَّا بإظهار نَقْص أَخيه ووليِّه ، لكان كتابُنا كبيراً ، كثير الورق عظيماً . ولكنَّ القليل الذى يَجْمع ، خيرٌ من الكثير الذى يفرِّق .

ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ، ونسأَله العون والتسديد ، إنَّه سميعٌ قريب ، فعَّالٌ لما يريد .

---

(١) فى الرسائل : « صلاح هذه الأمور كلها » .
(٢) ب : « مابثته فى نصابه » م : « ماتثبته » فقط ، صوابهما فى ط ، مج والرسائل .
(٣) ب ، م : « فما الذى قصر بنا » ، صوابه فى ط ومج والرسائل .
(٤) مج والرسائل : « وسمعنا » .
(٥) التكملة من مج والرسائل . وفى م : « وأما حسن » فقط . وفى ط : « وزيما حسنه » .
(٦) ط : « الذى » بطرح الواو .
(٧) مج والرسائل : « وضعف العزم » .

٨

من كتابه في

حُجَجِ النُّبُوَّة



٢٥ – فصل[1] من صدر كتابه

فى حجج النبوة

الحمد لله الذى عرَّفنا نفسَه ، وعلَّمنا دينَه ، وجَعَلنا من الدُّعاةِ إليه ، والمحتجِّين له . فنحن نسأَله تمامَ النِّعمة ، والعونَ على أداءِ شُكره ، وأَنْ يوفِّقنا للحقِّ برحمته ، إنَّه ولىُّ ذلك ، والقادرُ عليه ، والمرغوب إليه فيه ، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

ثم إنَّا قائلون فى الأَخبار ، ومخبرون عن الآثار ، ومفرِّقون بين أَسباب الشُّبهة ، وأَسباب الحُجَّة ، ثمَّ مفرِّقون بين الحجّة التى تَلزم الخاصَّةَ دون العامَّة ، ومُخبرون عن الضَّرب الذى يكون الخاصَّةُ فيه حجّةً على العامَّة ، وعن الموضع الذى يكون القليلُ فيه أَحقَّ بالحجة من الكثير ، ولِم شاعَ الخبرُ وأَصلُه ضعيف ؟ ولِم خَفِىَ وأَصلُه قوىّ ؟ وما الذى يُؤمَن من فساده وتبديله مع تقادُم عصره ، وكثْرة الطاعنين فيه[2] ، وعن الحاجة إلى رواية الآثار ، وإلى سماع الأَخبار ، وعن أَخلاقِ النَّاس وآبائهم ، ومذاهب أَسلافهم ، وعن سِيرَ الملوك قبلهم[3] ، وما صنعت الأَيَّامُ بهم ، وعن شرائع أَنبيائهم ، وأَعلام رسلهم ، وعن أَدب حكمائهم ، وأَقاويل أَئمَّتهم وفُقَهائهم ، وعن حالاتِ من غاب عن أَبصارهم فى دهرهم ، ولِم كان الإِخبار على النَّاس[4] أَخفَّ من الكتمان ؟ ولِم

(١) ب فقط : « فصل منها » .
(٢) كلمة « فيه » من ط فقط .
(٣) ب : « وعن سر الملوك قبلهم » ، تحريف .
(٤) ب ، م : « عن الناس » .

كان الصَّمتُ أثقلَ عليهم من الكلام ؟ وما الضَّربُ الذى يَقدِرون على كتمانه وطيِّه ، والضَّربُ الذى لا يقدرون إلَّا على إذاعته ونَشْره ؟ ولِم اجتمعت الأُمم على الصِّدق فى أُمور ، واختلفت فى غيرها ؟ ولِم حَفِظَتْ أُموراً ونسيتْ سواها ؟ ولِم كان الصِّدق أكثر من الكذب ؟ ولِم كان الصَّمتُ أثقل والقول أفضل ؟

والعجب مِن تركِ الفُقهاءِ تمييزَ الآثار ، وتَرْكِ المتكلِّمين القولَ فى تصحيح الأَخبار ، وبالأَخبار يعرِفُ النَّاسُ النبيَّ من المتنبِّى[1] ، والصَّادقَ من الكاذب ، وبها يعرفون الشَّريعة من السُّنَّة ، والفريضَة من النافلة ، والحَظْر من الإباحة ، والاجتماع من الفُرقة ، والشُّذوذ من الاستفاضة[2] ، والرَّدَّ من المعارضة ، والنَّارَ من الجنَّة ، وعامَّةَ المفسَدةِ من المصْلحة[3] .

فإذا نزَّلْتُ الأَخبارَ منازِلَها وقسَّمتُها ، ذكرتُ حجج الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودلائلَه وشرائعَه وسُنَنَه ، ثم جنَّست الآثارَ على أقدارها ، ورتَّبتُها فى مراتبها ، وقرّبتُ ذلك واختصرتُه ، وأَوضحتُ عنه وبيَّنتُه ، حتَّى يستوىَ فى معرفتها مَنْ قلَّ سماعُه وساءَ حِفظُه ، ومَن كثُر سماعه وجاد حِفظه ، بالوجوهِ الجليلة ، والأَدلَّة الاضطراريّة .

ولم أُرِدْ فى هذا الكتابِ جمعَ حُجج الرَّسول عليه السلام ، وتَفْصيلَها والقولَ فيها ، لنقضٍ مَسَّها[4] ، أَو لوَهْن كان فى أَصلها من ناقليها

---

(١) ب : «المتنبئ» بالهمز .
(٢) م فقط : « الإفاضة » .
(٣) م ، ط : « والمصلحة » .
(٤) ب : « لبغض سببها » ط : « لبغض مسها » م : « لبعض مسها » ، والوجه ما أثبت .

والمخبرِينَ عنها ، أَو لأَنَّ طعْنَ الملحِدين نَهَكها وفرَّق جَماعتَها ، ونَقَض قُواها . ولكنْ لأُمورٍ سأَذكرها وأَحتجّ .

وكيف تقصُر الحُجّة عن بُلوغ الغاية ، وتنقُص عن التمام[١] ، والله تعالى المتوكِّل بها ، ومُسخِّر أَصنافِ البريَّة ومهيِّج النُّفوسِ على إبلاغها[٢] ، وقد أَخبر بذلك عن نَفْسه فى محكمِ كتابه عَزَّ ذكرهُ[٣] ، حين قال : ﴿ هو الذى أَرسَلَ رَسُولَه بِالهُدَى ودِينِ الحَقِّ ليُظْهِرَه على الدِّينِ كُلِّه ولو كَرِه المُشْركون[٤] ﴾ . وأَدنى منازل الإِظهار إظهار الحجَّة على من ضارَّه وخالف عليه .

وقال عزّ ذكره : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بأَفْواهِهِمْ واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ ولو كَرِهَ الكافرون[٥] ﴾ .

وأَخْبَرَ أَنَّه أَمَرَ الأَحمر والأَسود ، ولم يكُنْ ليأْمر الأَقصى إلَّا كما يأْمر الأَدنَى[٦] ويأْمر الغائب على الحاضر[٧] ، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : ﴿ وما أَرسَلْناك إلَّا كافَّةً للنَّاسِ بشيراً ونَذِيراً[٨] ﴾ .

فأَقول : إنَّ كلَّ مُطيقٍ محجوج[٩] ، والحُجّة حُجّتان : عِيانٌ ظاهر ،

---

(١) ب : « وينقص عن التمام » ، والوجه ما فى م ، ط .
(٢) ب ، م : « عن إبلاغها » .
(٣) ب : « عن ذكره » ، تحريف .
(٤) الآية : ٣٣ من سورة التوبة . وفى الكتاب العزيز أيضاً : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » . الآية ٢٨ من سورة الفتح .
(٥) الآية ٨ من سورة الصف .
(٦) كلمة « إلا » ليست فى جميع النسخ ، كما أن كلمة : « يكن » ساقطة من ب .
(٧) كذا فى الأصول ، والوجه : « إلا كما يأمر الحاضر » .
(٨) الآية ٢٨ من سورة سبأ .
(٩) المطيق : القادر ، والمراد المكلف . وفى ط : « منطيق » . والمنطيق : البليغ ، ولا وجه له هنا .

وخَبَرٌ قاهر. فإذا تكلّمنا فى العِيان وما يفرّع منه[١] فلا بدّ من التعارف فى أَصله وفرعِه منه . ولا بدّ من التّصادُق فى أَصله ، والتّعارُف فى فرعه . فالعقلُ هو المستدِلّ ، والعِيان والخبر هما عِلّة الاستدلالِ وأَصلُه ، ومُحالٌ كونُ الفرع مع عدمِ الأَصل ، وكونُ الاستدلال[٢] مع عدم الدّليل . والعَقْل مضمَّن بالدّليل ، والدّليل مضمَّن بالعَقْل ، ولا بدّ لكلِّ واحدٍ منهما من صاحبه[٣] ، وليس لإبطال أَحدهما وجهٌ مع إيجاب الآخر .

والعقل نوعٌ واحد ، والدّليل نوعان : أَحدهما شاهِدُ عِيانٍ يدلّ على غائب ، والآخر مجىءُ خبرٍ يدلّ على صدق .

ثم رجعَ الكلام إلى الإخبار عن دلائل النبى صلى الله عليه وسلم وأَعلامه ، والاحتجاج لشواهده وبُرهانِه ، فأَقول :

إنّ السلف الذين جمعوا القرآنَ[٤] فى المصاحف بعدَ أَنْ كان متفرقاً فى الصُّدور ، والذين جَمعُوا النّاسَ على قراءَة زيدٍ ، بعد أَن كان غيرُها[٥] مُطلَقاً غيرَ محظورٍ ، والذين حَصّنوه ومَنعوه الزِّيادةَ والنقصان لو كانوا جمعوا علاماتِ النبى صلى الله عليه وسلم ، وبُرهانَه ، ودلائلَه وآياتِه وصنُوفَ بدائعه ، وأَنواعَ عجائبِه فى مُقَامِهِ وظعنه[٦] ، وعند دعائه واحتجاجِه فى الجَمْع العظيم ، وبحضرة العددِ الكثير الذى

(١) ب : « وما يفرغ » ، تحريف .
(٢) ب ، م : « ويكون » ، صوابه فى ط .
(٣) ط فقط : « من صاحب » .
(٤) ب فقط : « جعلوا القرآن » .
(٥) أى غير قراءة زيد .
(٦) الظعن ، بالفتح والتحريك : السير والارتحال . ب فقط : « وطعنه » بالطاء المهملة ، تحريف .

لا يستطيعُ الشَّكَّ فى خبرِهم إلَّا الغبىُّ الجاهلِ ، والعدوُّ المائِل ، لما استطاعَ اليومَ أن يدفع كَوْنَها وصحَّةَ مَجيئها[١] ، لا زنديقٌ جاحدٌ ، ولا دُهرىٌّ معانِد ، ولا متطرِّفٌ ماجن ، ولا ضعيفٌ مخدوع ، ولا حَدَثٌ مَغْرور ؛ ولكان مشهوراً فى عوامِّنا كشهرته فى خواصِّنا ، ولكان استبصارُ جميعِ أَعيانِنا فى حقِّهِم كاستبصارهم فى باطلِ نَصاراهم ومَجوسهم ، ولما وجَد الملحِدُ مَوضِعَ طمعٍ فى غنىٍّ يستميله[٢] ، وفى حَدَث يموِّه له[٣] .

ولولا كثرةُ ضُعفائنا مع كثرة الدُّخلاءِ فينا ، الذين نَطَقوا بأَلسنتنا ، واستعانُوا بعقولنا على أَغبيائنا وأَغمارنا ، لما تكلَّفنا كَشْفَ الظَّاهر ، وإظهارَ البارز ، والاحتجاجَ الواضح .

إلَّا أَنَّ الذى دعا سلفَنا إلى ذلك ، الاتِّكالُ على ظهورها واستفاضةِ أَمرها .

وإذ كان[٤] ذلك كذلك فلم يُؤْتَ من أُتِىَ من جُهَّالنا وأَحداثنا ، وسفهائنا وخُلعائنا[٥] إلَّا من قِبَلِ ضعف العِناية ، وقلَّة المبالاة ، ومن قِبَلِ الحداثة والغَرارة ، ومن قبلِ أَنَّهم حملوا على عقولهم من دقيق الكلام قبلَ العلم بجليله ما لم تبلغْه قُواهم ، وتتَّسعْ له صدورهم ، وتحملْه أَقدارُهم ، فذهبوا عن الحقِّ[٦] يميناً وشِمالًا ، لأَنَّ مَن لم يَلزم الجادّةَ تخبَّطَ ، ومَنْ تناول الفَرعَ قبل إحكام الأَصل سَقَط ، ومن خَرَق بنفسه

---

(١) ب : « وصحة بحيها » ، صوابه فى م ، ط .

(٢) فى جميع الأصول : « يستمليه » . واستملاه الكتاب : سأله أن يمليه عليه . ولا وجه له هنا .

(٣) م ، ط : « مموه له » .

(٤) ب ، م : « وإن كان » ، وأثبت مافى ط .

(٥) الخليع : المستهتر بالشرب واللهو ، وأصله الشاطر الخبيث الذى خلعته عشيرته وتبرءوا منه . ط : « وخلفائنا » ، تحريف .

(٦) ط فقط : « عن الحمق » ، محرف .

وكلَّفها فوق طاقتها[١] ، ولم ينَلْ مالا يقدر عليه تفلَّتَ منه ما كان يقدر عليه[٢] .

فإذا كانوا كذلك فإنَّما أُتوا من قِبَلِ أنفسهم ، ولم يُؤتَوْا من سَلَفهم ، أو لأَنَّ الله تبارك وتعالى صَرف أَسلافنَا بنسيانٍ أو غيره ليمتحن بذلك غيرَهم فى آخر الزَّمان ، وليعرِّضَهُم لطاعته بالذبِّ عن دينه ، والاحتجاج لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وليجرىَ هذا الخيْرَ على أَيديهم ، كما أَجرى أَكثَرَ منه على أَيدى أَسلافهم ، لئلَّا يُبخَس أَحدُ خليقته[٣] من العُلماءِ والفقهاءِ ، ولأَن يَجعَلَ فضلَه مقسَّما بين جميع الأَولياءِ ، وإن كان الأَوَّل أَحقَّ بالتقديم ، والآخِرُ أَحقَّ بالتأْخير ، لِلذى[٤] قدَّموا من الاحتمال ، وأَعطَوْا من المجهود ، ولأَنَّهم أَصلُ هذا الأَمرِ ونحنُ فرعُه ، والأَصل أَحقُّ بالقوَّة من الفرع . وهم السابقون ونحن التابعون ، وهم الذين وطَّئوا لنا ، وكلَّفونا ما لم نكن لنكلِّفَه أَنفُسَنا ، فتجرَّعوا دُوننا المُرَار[٥] ، ومَنحونا رُوحَ الكفاية . ولأَنَّ الله تعالى اختارهم لصحبة نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، ولأَن القرآنَ نَطَق بفضيلتهم ؛ والله تعالى أَعلَمُ بمن بعدهم ، والذى جَمَعَ أَسلافَنا[٦] الذين جمعوا النَّاسَ على قراءة زيد ، دون أُبَىٍّ بن كعبٍ وعبدِ الله بن مسعود ، والذين رأَوْا من قول عبد الله فى المعوِّذتين[٧] ، وقول أُبىٍّ فى سورتى الحَفْد والخَلْع[٨] .

(١) ب ، م : « طاقته » .
(٢) عليه ، ساقطة من ب .
(٣) ب ، م : « لئلايبخس من أحد خليقته » .
(٤) ب ، م : « للذين » ، تحريف .
(٥) المرار ، بالضم : شجر مر .
(٦) أى والله تعالى هو الذى جمع الأسلاف .
(٧) انظر فى ذلك البرهان ١ : ٢٥١ والإتقان ١ : ١٨٤ . وانظر لتعليل عدم كتابته للمعوذتين ولأم الكتاب فى مصحفه ، مقدمه كتاب المبانى نشرة آرثر جفرى ص ٩٣ ، ٩٦ — ٩٧.
(٨) هذا التصويب من الإتقان للسيوطى ١ : ١٨٤ . وفى جميع الأصول =

ومِنْ تعلُّق الناسِ بالاختلاف ، فكانوا لا يزالون قد رأَوْا الرّجلَ يروى الحرفَ الشاذَّ ، ويقرأ بالحرف الذى لا يعرفونه ، فرأَوْا أَنَّ تحصينَه لا يتمُّ إلَّا بحمل الناس على المقروءِ عندهم[1] ، المشهورِ فيما بينهم ، وأَنَّهم إن لم يشدِّدوا فى ذلك لم ينقطع الطمع ، ولم ينزجر الطير[2] ، لأَنَّ رجلًا من العرب لو قرأَ على رجلٍ من خطبائهم وبُلغائهم سورةً واحدة ، طويلة أَو قصيرة ، لتبيَّن له فى نظامها ومَخرجها ، وفى لفظها وطَبْعها ، أَنَّه عاجزٌ عن مثلها . ولو تحــدَّى بها أَبلغَ العربِ لظهر عجزُه عنها . وليس ذلك[3] فى الحرف والحرفين ، والكلمة والكلمتين .

أَلا ترى أَنَّ الناسَ قد كان يتهيَّأُ فى طبائعهم ، ويَجرِى على أَلسنتهم أَن يقول رجلٌ منهم : الحمد لله ، وإنَّا لله ، وعلى الله توكَّلْنا ، وربُّنَا الله ، وحَسْبُنا اللهُ ونعم الوكيل ، وهذا كلُّه فى القرآن ، غير أَنَّه متفرِّق غير مجتمع ؛ ولو أَراد أَنطَقُ النَّاسِ أَن يؤلِّف من هذا الضَّرب سورةً واحدة ، طويلةً أَو قصيرة ، على نَظْم القرآن وطَبْعه ، وتأْليفه ومخرجه لما قَدَر عليه ، ولو استعان بجميع قَحْطان ومَعدِّ بنِ عدنان .

ورَأَوا[4] بفهمهم وبتوفيقِ الله تعالى لهم أَن يحصِّنوه ممَّا يشكلُ ، ويمكنُ أَنْ يُفتعَل مثلُه من الحرف والحرفين ، والكلمة والكلمتين ،

= : « سورتى العرب » ووجهه ما أثبت من الإتقان . وانظر النصوص فيه . وجاء فى كتاب مقدمتان فى علوم القرآن ص ٧٥ : « وأما ما ذكر عن أبى بن كعب أنه عد دعاء القنوت : «اللهم إنا نستعينك» إلى آخره ، سورة من القرآن ، فإنه إنصح ذلك عنه فإنه كتبها فى مصحفه لا على أنها من القرآن ، بل ليحفظها ولا ينساها احتياطاً ، لأنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم كان يقنت بها فى صلاة الوتر » .

(١) ب : « المكروه عندهم » م : « المكروه » فقط ، صوابهما فى ط .

(٢) م فقط : « الطين » .

(٣) ذلك ، ساقطة من ب ، م .

(٤) ب فقط : « فرأوا » .

وقد كانوا عرفوا الابتداعَ الكثير[1] على البلغاء والشُّعراء، وخافوا إنْ هم لم يتقدَّموا فى ذلك أنْ يتطرَّفُوا عليه، كما تطرّفُوا على الرواية[2]، لأَنَّهم حين رأَوْا كثرةَ الرّواية فى غير ذوِى السابقة، ورأَوا كثرةَ اختلافها، والغرائبَ التى لا يعرفونها، لم يكن لهم إلَّا تحصينُ الشيء الذى عليه مدارُ الأَمر، وإن كانوا يعلمون أَنَّ الله بالغُ أَمرِه.

فعلَى الأَئمَّة أَن تَحُوط هذه الأُمّة، كما حاط[3] السّلَفُ أَوّلها، وأَن يعملوا[4] بظاهر الحيطة، إذْ كان على الناسِ الاجتهاد[5]، وليس عليهم عِلم الغُيوب. وإنَّما ذلك كنحوِ رجُلٍ أَبصر نبيًّا يُحيي الموتَى فعَرفَ صِدقَه، فلمَّا انصرفَ سأَله عنه بعضُ من لم يَرَ ذلك ولا صَحّ عنده، فعليه أَن لا يكتُمه، وإن كان يعلم أَنَّ الله تعالى سيُعْلِمه ذلك من قِبَلِ غيره، وأَنَّه عزّ ذكرهُ سيُسمِعُه صِحَّته على حُبِّه وكرهه.

ورأَوْا أَنَّ قراءَةَ زيدٍ أَحقُّ بذلك، إذْ كانت آخر العَرْض، ولأَنَّ الْجمْعَ الذين سمِعُوا آخر العرض أَكثَرُ ممَّن سمع أَوّلَه، فَحملُوا النَّاسَ على قراءَة زيد، دونَ أُبيٍّ وعبدِ الله، وإنْ كان الكلُّ حَقًّا، إذ كان رُبَّ حقٍّ فى بعض الزَّمان أَقطعُ للقيل والقال، وأَجدرُ أَن يُميتَ الخلاف، ويحسمَ الطمع. فتركوا حقًّا إلى حقٍّ العملُ به أَحَقّ.

ولو أَنَّ فقيهاً رأَى إطباقَ العلماء على صوم يوم عَرَفة، واستنكارَهُم الإفطارَ فيه، فأَفطرَ وأَظهرَ ذلك ليُعلمهم موضعَ الفريضةِ من النافلة،

(١) ب: « امتناع الكثير »، م: « المبتاع الكثير » وأثبت ما فى ط.

(٢) المتطرف: الذى لا يثبت على أمر. وفى الأصول: « أن يتطرقوا عليه كما تطرقوا على الرواية »، مع سقوط « على الرواية » من م. والصواب ما أثبت.

(٣) ب، م: « أحاط ».

(٤) ب، م: « وأن يعمل »، صوابه فى ط.

(٥) ب، م: « إذا كان ». وكلمة « على » ساقطة من ب.

أو خاف أن يَلحق الفرضَ على تطاوُل الأيّام ما ليس فيه — كان مصيباً ، ولكان قد ترك حقًّا إلى أحقَّ منه .

وللحقِّ درجاتٌ ، وللخلاف درجاتٌ ، وللحرام درجات . ألا ترى أنَّ لوليِّ المقتول أن يَقتُلَ ويصفح ، وأنَّه إنْ قَتلَ قتَلَ بحقٍّ ، وإنْ صفَح صفح بحقٍّ ، والصَّفح أفضَلُ من القتل .

ولو أنَّ رجلًا أخرج ساكناً بيتاً له[١] ، أو اقتضى ديناً له ساعة مَحَلِّه[٢] ، أو طلَّق زوجته وما دَخَل بها[٣] — لكان ذلك له ، ولحقٍّ فعل[٤] . وغير ذلك الحقِّ أولى به .

وكيف لا يكون أولى به وهو أحسن ، والثَّواب فيه أعظم ، وإلى سلامة الصُّدور أقرب .

وقد يكون الأمرانِ حسنَينِ ، وأحدُهما أحسن . وقد يكون الأمران قبيحين ، وأحدهما أقبح .

وبعدُ ، فعلى الناس طاعةُ الأئمَّة فى كلِّ ما أمَرُوا به ، إلَّا فيما تبيَّن أنَّه معصية . فأمّا غير ذلك فإنَّه واجبٌ مفروض ، ولازم غير مرفوع .

وعَلِمُوا أيضاً أنَّهم لا يبقَوْن إلى آخر الزمان ، وأنَّ مَنْ يجىءُ بعدَهم لا يقوم مَقامهم ، ولا يُفصِّل الأُمور تفصيلهم . ولو عَرَفوا كمعرفتهم ، وأرادوا ذلك كإرادتهم ، لما أُطيعوا كطاعتهم .

وعلموا أنَّ الأكاذيبَ والبِدعَ ستكثُر ، وأنَّ الفِتَن ستُفْتَح ، وأنَّ

---

(١) بيتا ، ساقطة من ب ، م .
(٢) ب ، م : « واقتضى » . ومحل الدين : وقت حلول أدائه . وفى ط : « عند حلول أجله »
(٣) ب ، م : « ولما دخل بها » ووجه هذه : « ولما يدخل بها » .
(٤) ب ، م : « ولحق فعله »

الفساد سيَفشو ، فكرهوا أَنْ يجعلوا للمتطرِّفين علَّة[١] ، ولأهل الزَّيغ حُجَّة .

بل لا شَكَّ[٢] أَنَّهم لو تركوا الناس عامّةً يقرءُون على حرفِ فلانٍ وكلِّ ما أَجاز فيه فلانٌ عن فلان ، لألحق قومٌ في آخر الزَّمان بهم ما ليس منهم ، ولا يَجرى مجراهم ، ولا يَجوز مَجازَهم .

٢٦ – فصل منه فى الاحتجاج للجمع على قراءة زيد

ولو كان زيدٌ من آل أَبى العاص ، أَو من عُرْض بنى أُميّة ، لوجد ابنُ مسعودٍ متعلَّقاً .

ولو كان بدلَ زيدٍ عبدُ الرحمن بن عوف لوَجَد إلى القول سبيلًا .

ولو كان ابن مسعودٍ رجلًا من بنى هاشم لوجدَ للطَّعن موضعاً .

ولو كان عثمان رضى الله تعالى عنه استبدَّ بذلك الرأى على علىٍّ بن أَبى طالب كرَّم الله وجهه ، وسعدٍ وطلحةَ والزُّبير رحمهم الله ، وجميعِ المهاجرين والأَنصار ، لوَجَد للتُّهمة مساغاً .

فأَمّا والأَمرُ كما وصفنا ونَزَّلنا ، فما الطاعن على عثمان إلَّا رجلٌ أَخطأَ خُطّةَ الحقّ[٣] ، وعَجِلَ على صاحبه . ولكلِّ بنى آدمَ من الخطأ نصيب ، والله عز ذكره يغفر له ويرحمه .

---

(١) فى جميع الأصول : « للمتطرقين » . وانظر ماسبق فى حواشى ٢٣٠ .

(٢) ب : « بل شك » ، صوابه فى م ، ط .

(٣) ب ، م : « أخطأ خطه » مع سقوط كلمة « الحق » ، والصواب فى ط .

والذى يخطِّئُ عثمان فى ذلك فقد خطَّأَ عليًّا وعبدَ الرحمن وسعداً ، والزُّبيرَ وطَلحة ، وعِلْية الصَّحابة[١] .

ولو لم يكن ذلك رأْىَ علىٍّ لغَيَّرَه ، ولو لم يمكنْه التغيير لقال فيه ، ولو لم يمكنه فى زمنِ عثمان لأَمكنَه فى زَمن نفسه ، وكان لا أَقلَّ من إظهار الحُجّة إنْ لم يَملِك تحويلَ الأُمّة ، وكان لا أَقلَّ من التَّجربة إن لم يكن من النُّجح على ثقة ، بل لم يكن لعثمان فى ذلك ما لم يكن لجميع الصَّحابة ، وأَهل القَدَم والقُدْوة . ومع أَنَّ الوجه فيما صنعوا واضح ، بل لا نَجِدُ لمَا صنعوا وجهاً غير الإِصابة والاحتياط ، والإِشفاقِ والنظر للعواقب ، وحَسْمِ طعنِ الطاعن .

ولو لم يكن ما صنعوا لله تعالى فيه رضاً[٢] لما اجتمع عليه أَوّلُ هذه أَول الأُمّةِ وآخِرُها . وإِنَّ أَمراً اجتمعتْ عليه المعتزلة والشِّيعة ، والخوارجُ والمُرْجِئة ، لظَاهرُ الصَّوابِ ، واضحُ البرهان ، على اختلاف أَهوائهم ، وبغيتهم لكلِّ ما ورد عليهم .

فإن قال قائل : هذه الروافضُ بأَسْرها تأْبى ذلك وتنكره ، وتطعن فيه ، وترى تغييره[٣] .

قلنا : إنَّ الروافض ليست مِنَّا بسبيل ، لأَنَّ من كان أَذَانُه غيرَ أَذاننا ، وصلاتُه غيرَ صلاتنا ، وطلاقُه غيرَ طلاقنا ، وعتقُه غيرَ عتقنا ، وحجَّتُه غيرَ حجَّتنا ، وفقهاؤه غير فقهائنا[٤] وإمامه غير إمامنا ،

---

(١) ط : « وما عليه الصحابة » .
(٢) م فقط : فيما صنعوا » مع سقوط كلمة « فيه » من ب ، م . وأثبت ما فى ط .
(٣) ب ، م : « لغيره » ، والوجه ما أثبت من ط .
(٤) غير فقهائنا ، ساقط من ب ، م .

وقراءته غَيْرَ قراءتنا ، وحلالُه غَيْرَ حلالنا ، وحرامه غيرَ حرامنا ، فلا نحنُ منه ولا هو منّا[١] .

ولأىِّ شىءٍ حامَتْ[٢] عن قراءة ابنِ مسعود ، فو اللهِ ما كان أحدٌ أَفرطَ فى العمريَّة منه ، ولا أَشدَّ على الشِّيعة منه ، ولقد بَلَغَ من حبِّه لعمر رضى الله عنه أَن قال : لقد خشيت اللهَ تعالى فى حبِّى لعمر . فلِمَ يُحامُون عنه وهو كان شجاهم[٣] لو أَدركَهم .

٢٧ — فصل منه

فآمن اللهُ رجلًا فارقَهم ولزم الجماعةَ ، فإِنَّ فيها الأَنَسَة والحُجَّة[٤] ، وتَرَكَ الفُرقةَ فإِنَّ فيها الوَحشةَ والشُّبهة . والحمد لله الذى جَعلَنا لا نفرِّق بين أَئمتنا ، كما جعلنا لا نفرِّق بين أَنبيائنا .

٢٨ — فصل منه

والذى دعانا إلى تـأْليف حُججِ الرّسولِ ونَظْمها ، وجَمْعِ وجوهِها وتدوينِها — أَنَّها متى كانت مجموعةً منظومة ، نَشِط لحفظها وتفهُّمها مَنْ كان عسى أَن لا يَنْشَطَ لجمعها ، ولا يقدرَ على نَظْمها ، وجمعِ متفرِّقها ، وعلى اللَّفظ المُؤْثر عنها[٥] ، ومَنْ كان عسى أَن لا يعرف وجه مَطلبها ، والوقوعِ عليها .

---

(١) ب ، م : « ولا نحن منه ولا هو منا » ، صوابه فى ط .

(٢) فى جميع الأصول : « جانب » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .

(٣) أصل الشجا : ما يعترض فى حلق الإنسان والدابة من عظم أوعود أو غيرهما ، ومنه قول سويد بن أبى كاهل فى المفضليات ١٩٨ :

ويرانى كالشجا فى حلقه عسراً مخرجـه مـا ينتزع

وفى م فقط : « سحاهم » تحريف .

(٤) الأنس ، بالضم ، والأنسة ، بالتحريك : الطمأنينة . ط فقط : « الأنس » .

(٥) كذا فى جميع النسخ . وأراها « المأثور عنها » . يقال أثر الحديث أثرا : نقله ورواه عن غيره ، فهو مأثور .

ولعلَّ بعض الناس يعرف بعضَها ويَجهلُ بعضها .

ولعلَّ بعضهم وإن كان قد عَرفَها بحقِّها وصِدْقها فلم يعرفْها من أسهلِ طُرقها ، وأقربِ وجوهها .

ولعلَّ بعضهم أن يكون قد عَرف فنسيَ ، أو تهاون بها فعَمِىَ ، بل لا نشكُّ أنَّها إذا كانت مجموعة محَبّرة[١] ، مستقصاةً مفصَّلة ، أنَّها ستزِيد[٢] فى بصيرة العالِم ، وتَجْمع الكلّ لمن كان لا يعرف إلَّا البعض ، وتُذكِّر النَّاسِىَ ، وتكون عُدَّةً على الطاعن[٣] .

ولعلَّ بعضَ من أَلحَدَ فى دينه ، وعَمِىَ عن رُشْدِه ، وأخطأً موضعَ حَظِّه[٤] أن يدعُوَه العُجْبُ بنفسه ، والثِّقةُ بما عنده ، إلى أن يلتمس قراءتَها ، ليتقدَّم[٥] فى نَقْضها وإفسادها ، فإذا قرأها فهمها ، وإذا فهمها انتبهَ من رَقْدته[٦] ، وأَفاقَ مِنْ سكرته[٧] ، لعزِّ الحقِّ ، وذُلِّ الباطل ، ولإشراف الحجَّة على الشُّبهة[٨] ، ولأَنَّ من تفرَّد بكتابٍ فقرأه ليس كمن نازع صاحبَه وجاثاه[٩] ، لأَنَّ الإنسان لا يُباهِى بنفسه[١٠] ،

---

(١) من تحبير الخط والشعر ونحوهما ، أى تحسينه ، ب ، م : « مخيرة » صوابه فى ط .

(٢) ب ، م : « سيزيد » ، صوابه فى ط .

(٣) فى جميع الأصول : « ويجمع » و « يذكر » و « يكون » ، صوابها كلها بالتاء كما أثبت .

(٤) ب فقط : « خطه » ، تحريف .

(٥) ب ، م : « ليقدم » ، صوابه فى ط .

(٦) م فقط : « فإذا قرأها وفهمها انتبه من رقدته » .

(٧) ب ، م : « عن سكرته » .

(٨) ب فقط : « ولإشراق » بالقاف .

(٩) المجاثاة : أن يجلس مع خصمه على ركبتيه للخصومة . وفى البيان والتبيين ٣ : ٦ : « وبالأرجاز عند المتح وعند مجاثاة الخصم » . وفى ب ، م : « وحاثاه » ، وفى ط : « وجافاه » صوابهما ما أثبت .

(١٠) ب ، م : « نفسه » ، صوابه فى ط .

والحقُّ بعدُ قاهرٌ له . ومع التَّلاقى يحدُث التَّباهى ، وفى المحافل يقلُّ الخُضوع ، ويشتدُّ النُّزوع .

ثمّ رجَع الكلامُ إلى حاجة النَّاسِ إلى استماع الأَخبار ، والتفقُّه فى تصحيح الآثار ، فأَقول : إنَّ الناس لو استغنَوْا عن التَّكرير (١) ، وكُفُوا مَئونةَ البحثِ والتنقير (٢) لَقلَّ اعتبارُهم (٣) . ومن قلَّ اعتبارُه قلَّ عِلمُه ، ومَن قلَّ علمه قَلَّ فضلُه ، ومن قَلَّ فضلُه كثُر نقصه ، ومن قلَّ علمه وفَضْلُه وكثُر نقصه لم يُحمَد على خيرٍ أَتاه ، ولم يُذَمّ على شرٍّ جناه ، ولم يَجِدْ طعمَ العِزّ ، ولا سُرور الظَّفَر ، ولا رَوْح الرّجاءِ ، ولا بَرْدَ اليقين ، ولا راحة الأَمن .

وكيف يُشكر من لا يقصد ، وكيف يُلام من لا يتعمّد ، وكيف يُقْصَد من لا يعلم . وما عسى أَن يَبلُغَ قدرُ سرورِ من لا يحسن من السُّرور إلَّا ما سُرَّ به حَواسُّه (٤) ومَسَّه جِلدُه (٥) .

وكيف يأْتى أَربحَ الأَفعال ، وأَبعدَ الشرّيْن من ركِّب فى شراسة السِّباع (٦) وغَباوة البهائم ، ثمّ (٧) لم يُعط الآلةَ التى بها يستطيع التفرقة (٨) بين ما عليه وله ، والعِلمَ بمصالحِهِ ومفاسده ، فيقوى بها على عصيان طبائعِه ، ومُخالفةِ شَهَواته ، وبها يعرف عواقبَ الأُمور ، وما تأْتى به

(١) فى جميع الأصول : « قد استغنوا عن التكرير » ، والصواب ما أثبت .
(٢) ب فقط : « وكفوا عن مئونة البحث والتنقير » .
(٣) ب ، ط : « لقلة اعتبارهم » ، صوابه فى م .
(٤) ب ، م : « وحواسه » ، والوجه حذف الواو كما فى ط .
(٥) ب فقط : « ومس جلده » .
(٦) ب ، م : « من ركب فى شرارة السباع » ، ط : « من ركب شراسة السباع » صوابهما ما أثبت .
(٧) ثم ، ساقطة من ب .
(٨) ب ، م : « تفرقة » .

الدُّهور[١] ، وفضْلَ[٢] لذَّةِ القلب على لذَّة البدن .

وإنَّ سرور الجـاهل لا يَحسُن فى جَنْب سرور العالم ، وإنَّ لذَّةَ البهائم لا تَعشُر[٣] لذَّة الحكيم العالم .

وأىُّ سرور كسرور العزِّ والرِّياسة ، واتِّساعِ المعرفة ، وكثرةِ صواب الرَّأْى ، والنُّجح الذى لا سَبَبَ له إلَّا حُسْنُ النَّظر والتقدُّم[٤] فى التدبير ، ثم العلمُ بالله وحده ، وأنَّك بعرض ولايته والجاهِ عنده ، وأنَّه الذى يرعاك ويكفيك ، وأنَّك إذا عملت اليسيرَ[٥] أعطاك الكثير ، ومتى تركت له الفانىَ أعطاك الباقى ، ومتى أدبرتَ عنه دعاك ، ومتى رجعتَ إليه اجتباك ، ويحمدك على حقك ، ويُعطيك على نظرك لنفسك ولا يُفْنيكَ إلَّا ليُبْقيَك[٦] ، ولا يُميتُك إلَّا ليحييَك ، ولا يمنُعك إلَّا ليعطيك . وأنَّه المبتدئ بالنعمة قبل السؤال ، والناظر لك فى كلِّ حال .

وهذا كلُّه لا يُنال إلَّا بغريزة العقل . على أنَّ الغريزة لا تنال ذلك بنفسها ، بما باشرَتْه حواسُّها ، دون النَّظر والتفكُّر ، والبحثِ والتصفُّح .

ولن ينظر ناظرٌ ولا يفكر مفكِّرٌ[٧] دون الحاجة التى تبعثُ على

---

(١) ب : « وما يأتى به الدهور » .

(٢) الفضل : الزيادة . وفى ب ، م : « وفضلة » ، وإنما الفضلة والفضالة : البقية من الشىء ، فالوجه ما أثبت من ط .

(٣) تعشرها : تبلغ عشرها . ب ، م : « لا يعشر » ، صوابه ما أثبت . وفى ط : « لاتعادل » .

(٤) فى جميع الأصول : « والتقديم » .

(٥) ب : « علمت اليسير » .

(٦) ب ، ط : « ولا يغنيك » ، وأثبت مافى م . وفى جميع الأصول : « إلا ليقيك » . والمراد بالإبقاء هنا الإبقاء الأبدى فى الآخرة .

(٧) ب : « ولم ينظرنا ولا فكر مفكر » ، صوابه فى م ، ط .

الفكرة[١] ، وعلى طلب الحيلة . ولذلك وضع الله تعالى فى الإنسان طبيعة الغضب ، وطبيعةَ الرضا ، وطبيعة البُخْل والسخاء ، والجزع والصَّبر ، والرِّياءِ والإخلاص ، والكِبْر والتَّواضُع ، والسُّخط والقناعة ، فجعلها عروقاً . ولن تفِيَ[٢] قوّة غريزة العقل بجميع[٣] قوى طبائعه وشَهواته ، حتَّى يقيم ما اعوجَّ منها[٤] ، ويسكِّن ما تحرّك ، دون النَّظر الطويل الذى يشدُّها ، والبحث الشديد الذى يشحَذها ، والتجارب التى تُحَنِّكُها[٥] ، والفوائد التى تزيد فيها[٦] . ولن يكثُر النظر حتَّى تكثُر الخواطر[٧] ، ولن تكثر الخواطر حتى تكثُر الحوائج[٨] ، ولن تَبعُد[٩] الرّؤية إلَّا لبعد الغاية وشدَّة الحاجة .

ولو أنَّ الناس تُركوا وقدْرَ قُوَى غرائزِهم[١٠] ، ولم يُهاجُوا بالحاجة على طلب مصلحتهم والتفكُّر فى معاشِهم ، وعواقِب أُمورهم ، وأُلجئوا إلى قدر خواطرهم التى تولِّدها مباشرةُ حواسِّهم ، دون أن يُسمِعهم الله تعالى خواطرَ الأوّلين ، وأدبَ السَّلَف المتقدِّمين ، وكُتُبَ ربِّ العالمين ، لمَا أَدركوا من العلم إلَّا اليسير[١١] ، ولمَا ميَّزوا من الأُمور إلَّا القليل .

---

(١) ب فقط : « على الفكر » .

(٢) ب فقط : « ولم يف » ، تحريف .

(٣) يقال هذا الشىء لا يفى بذلك ، أى يقصر عنه ولا يوازيه . وفى جميع النسخ : « لجميع » ، والصواب ما أثبت .

(٤) ب ، م : « ماعدا منها » ، صوابه فى ط .

(٥) يقال حنكته التجارب : حنكا ، بالفتح ، وحنكاً بالتحريك ، وأحنكته وحنكته تحنيكاً ، واحتنكته : أى هذبته وأحكمته . ب : «الذى يحنكها » م : « التى يحكنها » ، ، صوابهما فى ط .

(٦) ب ، م: « التى يزيد فيها » ، صوابها فى ط .

(٧) ب ، م : « يكثر الخواطر » ، وأثبت مافى ط .

(٨) ب : « ولم يكثر » صوابه فى م ، ط ، وفى ب ، م : « حتى يكثر الحوائج » ، وأثبت مافى ط .

(٩) ب : « ولن يبعد » صوابه فى م ، ط .

(١٠) م : « تركوا قدر قوى غرائزهم » .

(١١) ب : « الستر » م : « التستر » ، صوابهما ط .

ولولا أَنَّ الله تعالى أَراد تشريف العالِم وتربيتَه[(١)] ، وتسويدَ العاقِل ورفْعَ قدره ، وأَنْ يجعله حكيماً ، وبالعواقب عليماً ، لمَا سخَّر له كلَّ شيءٍ ، ولم يسخِّرْه لشيءٍ ، ولَمَا طبعه الطَّبعَ الذى يجىءُ منه أَريبٌ حكيم ، وعالمٌ حليم .

كما أَنَّه عزَّ ذكرُه لو أَراد أَن يكون الطفل عاقلًا ، والمجنون عالماً ، لطبعهم طبعَ العاقل ، ولسوَّاهم تسويةَ العالِم ، كما أَراد أَن يكون السَّبُع وثَّاباً ، والحديدُ قاطعاً ، والسمُّ قاتلًا ، والغِذاءُ مقيماً ؛ فكذلك أَراد[(٢)] أَن يكون المطبوع على المعرفة عالماً ، والمهيَّأُ للحكمة حكيماً ، وذو الدَّليل مستدِلاًّ ، وذو النِّعمة مستنفعاً بها[(٣)] .

فلمَّا علِمَ الله تبارك وتعالى أَنَّ الناس لا يُدركون مصالحهم بأَنفُسهم ، ولا يَشعُرون بعواقب أُمورهم بغرائِزهم ، دون أَن يردَّ عليهم آداب المرسلين ، وكُتب الأَوَّلين ، والأَخبار عن القرون ، والجبابرة الماضين — طبَعَ كلَّ قرنٍ من الناس على أَخبار من يَليه ، ووضع القَرن الثانىَ دليلًا يُعلَم به صدقُ خبرِ الأَوّل ؛ لأَنَّ كثرة السَّماع للأَخبار العجيبة ، والمعانى الغريبة ، مَشْحَذةٌ للأَذهان ، ومادَّةٌ للقلوب ، وسببٌ للتفكير ، وعِلَّةٌ للتَّنقير[(٤)] عن الأُمور .

وأَكثر النَّاس سماعاً أَكثرهُم خواطرَ ، وأَكثرهم خواطرَ أَكثرهم تفكُّراً ، وأَكثرهم تفكُّراً أَكثرهم علماً ، وأَكثرهم علماً أَرجحهم عملًا . كما أَنَّ أَكثر البصراءِ رؤيةً للأَعاجيب أَكثرهم تجاربَ[(٥)] ، ولذلك

(١) ب ، م : « وترتيبه » .
(٢) أراد ، من ط فقط .
(٣) ب ، م : « والدليل مستدلا والنعمة مستنفعاً بها » ، صوابه فى ط .
(٤) ب ، م : « للتبقير » ، صوابه فى ط .
(٥) فى جميع الأصول : « تجارباً » ، والصواب ما أثبت .

صار البصير أكثر خواطر[١] من الأعمى ، وصار السميع البصير أكثر خواطرَ من البصير .

وعلى قدر شِدَّة الحاجة تكون الحركة ، وعلى قدر ضَعْف الحاجة يكون السُّكون ، كما أَنَّ الرَّاجيَ والخائف دائبان ، والآيس والآمِن وادِعان .

وإذا كان[٢] الله تعالى لم يَخلُق عباده فى طبع عيسى بن مريم ، ويحيي بن زكريا ، وآدم أَبى البشر ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وخَلَقَهم منقوصين[٣] ، وعن دَرْك مصالحهم عاجزين ، وأَراد منهم العبادة ، وكلَّفهم الطَّاقة[٤] ، وتَرَك العِنان[٥] للأَمل البعيد ، وأَرسل إليهم رسلَه ، وبعث فيهم أَنبياءه ، وقال : ﴿ لِئلَّا يكونَ للنَّاسِ على الله حُجَّةٌ بعد الرسل[٦] ﴾ ، ولم يُشهِد أَكثَرَ عباده حُجَجَ رُسُلِه[٧] عليهم السلام ، ولا أَحضَرَهُمْ عجائب أَنبيائِه[٨] ، ولا أَسمَعَهُم احتجاجَهم ، ولا أَراهم تدبيرَهم — لم يكن بدٌّ من أَن يُطْلِع[٩] المُعاينين على أَخبار الغائبين ، وأَن يسخِّر أَسماعَ[١٠] الغائبين لأَخبار المعاندين ، وأَن يخالف بين طبائع

---

(١) ب ، م : « خواطرا » فى هذا الموضع وتاليه ، صوابه فى ط .
(٢) ب : « وإن كان » ، تحريف .
(٣) ط فقط : « ناقصتين » .
(٤) كذا فى جميع النسخ . والمراد : مايطيقون . لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .
(٥) العنان : السير أو الحبل الذى تمسك به الدابة . وإطلاق العنان هنا كناية عن اتساع مدى الأمل . وفى جميع الأصول : « العيان » ، والوجه ما أثبت .
(٦) الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٧) ب ، م : « وحجج رسله » ، صوابه فى ط .
(٨) ب : « ولا أخبر » م : « ولا أخضر » ، صوابهما فى ط .
(٩) ب ، م : « يطمع » ، وجهه فى ط .
(١٠) ب ، م : « يسحر » ، صوابه فى ط .

المُخْبرين ، وعِلَلِ الناقلين [١] ، ليدلَّ السامعين ، ومن يجيب من الناس [٢] .

على أَنَّ العددَ الكثيرَ المختلفى العلل ، المتضادِّى الأَسباب ، المتفاوتى الهِمَم ، لا يتَّفقون على تخرُّص الخبر فى المعنى الواحد [٣] ، وكما لا يتَّفقون على الخبر الواحد على غير التَّلاقى والتراسل إلَّا وهو حقٌّ . فكذلك [٤] لا يمكن مثلَهم فى مثل عللهم التَّلاقى عليه ، والتَّراسلُ فيه .

ولو كان تلاقيهم ممكناً ، وتراسُلُهم جائزاً لظهر ذلك وفشا ، واستفاضَ وبدا .

ولو كان ذلك أَيضاً ممكناً ، وكان قولًا متوهَّماً لبطلتِ الحُجَّة ، ولنُقِضَتِ العادة [٥] ، ولفَسَدت العبرة ، ولعادت النَّفسُ بعلَّة الإخبار جاهلة ، ولكان لِلناس [٦] على الله أَكبرُ الحجّة . وقد قال الله جل وعز : ﴿ لئلَّا يَكُون للنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُل [٧] ﴾ ، إذْ كلَّفهم [٨] طاعةَ رُسلِه ، وتصديقَ أَنبيائه ورسله وكتبه [٩] ، والإيمانَ بجنَّته وناره ، ولم يضَعْ لهم دليلًا على صِدق الأَخبار ، وامتناع الغَلَط فى الآثار ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

---

(١) ب الفقط : « وعلى الناقلين » ، تحريف .

(٢) ط فقط : « ومن يحبب » .

(٣) التخرص ، المراد به الحزر والتقدير والفهم . وسيأتى فى ٢٤٨ س ١٢ : « لايتفقون على تخرص الخبر الواحد فى المعنى الواحد فى الزمن الواحد » .

(٤) ب ، م : « فلذلك » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « ولانقضت » ، تحريف .

(٦) ب : « الناس » ، محرفة .

(٧) من الآية ١٦٥ من سورة النساء .

(٨) ط : « إذا كلفهم » .

(٩) ب : « أنبيائه وكتبه » م : « أنبيائه ورسله » ، وأثبت النص كاملا من ط .

واعلمْ أَنَّ الله تعالى إنَّما خالف بين طبائع الناس ليوفِّق بينهم ، ولم يحبَّ أن يوفِّق بينهم فيما يخالف مصلحتَهم ؛ لأَنَّ الناسَ لو لم يكونوا مسخَّرين بالأَسباب المختلفة ، وكانوا مجْبَرين[1] فى الأُمور المتَّفقة والمختلفة ، لجاز أن يختاروا بأَجْمعهِم التجارة والصناعة ، ولجاز أَن يطلبوا بأَجمعهم المُلكَ والسِّياسة[2] . وفى هذا ذهابُ العَيش ، وبُطلان المصلحة ، والبَوَار والتَّواءِ[3] .

ولو لم يكونوا مسخَّرين بالأَسباب ، مُرتَهَنين بالعِلَل لرغبوا عن الحِجامة أَجمعين ، والبيطرةِ ، والقِصابة ، والدِّباغة . ولكنْ لكلِّ صنفٍ من الناس مُزَيَّنٌ عندهم ما هم فيه ، ومُسهِّلٌ ذلك عليهم . فالحائك إذا رأَى تقصيراً من صاحبه أَو سوءَ حِذْقٍ أَو خرقا[4] قال له : يا حجَّام ! والحجَّام إذا رأَى تقصيراً من صاحبه قال له : يا حائك ! ولذلك لم يُجْمعوا على إسلام أَبنائهم فى غير الحِياكة والحِجامة ، والبيطرة والقِصابة .

ولولا أَنَّ الله تعالى أَراد أَن يجعل الاختلاف سبباً للاتِّفاق والائتلاف ، لما جعل واحداً قصيراً والآخرَ طويلًا ، وواحداً حسَناً وآخرَ قبيحاً ، وواحداً غنيًّا وآخر فقيرا[5] ، وواحداً عاقلًا وآخر مجنوناً ، وواحداً ذكيًّا وآخر غبيًّا . ولكنْ خالفَ بينهم ليختبرهم ، وبالاختبار يُطيعون ، وبالطَّاعة يَسعدون . ففرَّق بينهم ليجمعَهم ، وأَحبَّ أَن يجمعهم على

---

(١) ب فقط : « مخبرين » تحريف .
(٢) ط : « لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة » بسقوط ماقبل « بأجمعهم » الثانية .
(٣) التوى ، مقصور : الهلاك ، كما فى اللسان والقاموس . وفى ب : « النواء » ، وفى م ، ط : « التواء » ، صوابهما ما أثبت .
(٤) الخرق ، بالضم ، وبالتحريك : ضد الرفق ، وأن لايحسن الرجل العمل .
(٥) ب ، م : « والآخر فقيراً » .

الطَّاعة ليجمهم على المَثُوبة . فسبحانه وتعالى ، ما أَحسنَ ما أَبلى وأَوْلَى ، وأَحكم ما صنع ، وأَتْقَنَ ما دبَّر ! لأَنَّ الناس لو رغبوا كلُّهم عن عار الحياكة [1] لبقِينا عُراةً . ولو رغبوا بأَجمعهِم عن كدِّ البناءِ لبقينا بالعَرَاءِ . ولو رغبوا عن الفِلاحة لذهبت الأَقوات ، ولَبطلَ أَصلُ المعاش . فسخَّرهم على غير إكراه ، ورغَّبهم من غير دعاء .

ولولا اختلافُ طبائِع الناس وعِلَلِهم لما اختاروا من الأَشياء إلَّا أَحسنَها ، ومن البلادِ إلَّا أَعْدَلَهَا ، ومن الأَمصار إلَّا أَوْسَطها . ولو كانوا كذلك لتناجَزُوا على طلب الأَواسط [2] ، وتشاجَروا على البلاد العُلْيا ، ولمَا وسِعَهمْ بلدٌ ، ولما تَمَّ بينهم صُلح . فقد صار بهم التَّسخير إلى غاية القناعة .

وكيف لا يكون كذلك وأَنت لو حوّلتَ ساكِنِى الآجام إلى الفيافى ، وساكنى السَّهل إلى الجبال ، وساكنى الجبالِ إلى البحار ، وساكنى الوَبَرِ إلى المدَر ، لأَذاب قلوبهم الهمّ ، ولأَتى عليهم فَرطُ النِّزاع .

وقد قيل [3] : « عَمَّر اللهُ البُلدانَ بحبِّ الأَوطان » .

وقال عبدُ الله بن الزُّبير رحمه الله تعالى : « ليس الناسُ بشىءٍ من أَقسامهم أَقنَعَ منهم بأَوْطانهم » .

وقال معاويةُ فى قومٍ من اليمن رَجَعوا إلى بلادهم بعد أَن أَنزلهم من

---

(١) ب فقط : « لوغربوا » تحريف . وفى ب ، م : « من عار الحياكة » ، صوابه فى ط .

(٢) فى اللسان : « تناجز القوم : تسافكوا دماءهم ، كأنهم أسرعوا فى ذلك » . ب ، ط : « طلب الواسط » ، وأثبت مافى م .

(٣) وكذا فى الحيوان ٣ : ٢٢٧ . ونسب القول إلى عمر رضى الله عنه فى رسالة الحنين إلى الأوطان . انظر رسائل الجاحظ ٢ : ٣٨٩

الشام منزلًا خِصْباً ، وفَرض لهم فى شَرَف العطاء[١] : « يصلون أوطانَهم بقطيعةِ أَنْفُسهم » .

وقال الله جلَّ وعز : ﴿ ولَوْ أَنَّا كتَبْنا عليْهم أَن اقتُلُوا أَنفُسَكم أَو اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوه إِلَّا قليلٌ منهم[٢] ﴾ . فقرن الضَّنَّ بالأَوطان إلى الضَّنِّ بمهج النفوس[٣] .

وليس على ظهرها إِنسانٌ إِلَّا وهو مُعْجبٌ بعقْله ، لا يسرُّه أَن له بجميع ما لَهُ ما لِغيره ، ولولا ذلك لماتوا كمداً ، ولذَابوا حَسَدا ، ولكن كلٌّ إِنسان وإِن كان يرى أَنَّه حاسد فى شىءٍ فهو يرى أَنَّه محسود فى شىء .

ولولا اختلافُ الأَسباب لتنازعوا بلدةً واحدةً ، واسمًا واحداً ، وكُنيةً واحدة . فقد صاروا كما ترى مع اختيار الأَشياءِ المختلفة[٤] إلى الأَسماء القبيحة ، والأَلقاب السّمْجة[٥] . والأَسماءُ مبذولةٌ ، والصّناعات مُباحة ، والمَتاجر مُطلقة ، ووجوه الطُّرق مُخَلَّاة[٦] ، ولكنَّها مُطلَقة فى الظاهر ، مقسَّمة فى الباطن ، وإِن كانوا لا يشعرون بالذى دبَّر الحكيم من ذلك ، ولا بالمصلحة فيه .

فسبحانَ من حبَّب إلى واحدٍ أَنْ يسمِّيَ ابنه محمَّداً ، وحبَّب إلى آخر أَنْ يسمِّيه شيطاناً[٧] ، وحبَّب إلى آخر أَن يسمِّيَه عبدَ الله ، وحبّب

---

(١) ب ، م : « فى شوف العطاء » ، ط : « فى شون العطاء » . والوجه ما أثبت .
(٢) من الآية ٦٦ من سورة النساء .
(٣) ب ، م : « الظن » فى الموضعين ، صوابه فى ط .
(٤) كلمة « الأشياء » من ط فقط . وفى م : « مع اختبار مختلفة » . وصواب الكلام فى ط .
(٥) السمج ، بالفتح ، وككتف : القبيح . ب فقط : « السمحة » تحريف .
(٦) ب : « مخلاة » ، صوابه فى م ، ط .
(٧) ب ، م : « شيطان » .

إلى آخر أن يسمّيَه حماراً[١] ، لأنَّ الناس لو لم يُخالَفْ بين عِلَلهم فى اختيار الأَسماءِ والكُنَى ، جاز[٣] أن يجتمعوا على شيءٍ واحد ، وكان[٢] فى ذلك بُطلان العَلَامات ، وفسادُ المعاملات .

وأَنت إذا رأَيتَ أَلوانَهم وشمائلَهم واختلافَ صُوَرِهم ، وسَمِعتَ لُغاتِهم ونَغَمهم[٤] علمت أَنَّ طبائِعهم وعِلَلَهم المحجوبةَ الباطنة ، على حَسَب أُمورهم الظاهرة .

وبعضُ الناس وإن كان مسخَّراً للحِياكة[٥] فليس بمسخَّر للفِسق والخيانة[٦] ، وللإِحكام[٧] والصِّدق والأَمانة .

وقد يسخِّر اللهُ الملكَ[٨] لقومٍ بأَسبابٍ قديمة وأَسباب حديثة ، فلا يزال ذلك الملكُ مقصوراً عليهم ، ما دامت تلك الأَسبابُ قائمة ، إذا كانوا للمُلْكِ مسخَّرين[٩] ، وكان النَّاس لهم مسخَّرين ، بالجبريَّة[١٠] والنَّخْوة ، والفَظاظةِ والقسوة ، ولطُول الاحتجاب والاستتار ، وسُوءِ اللِّقاءِ والتضييع .

---

(١) ب فقط : « حمار » . وممن سمى به « معقر بن حمار البارق » ، وممن لقب بذلك « مروان الحمار » .

(٢) ط : « وجاز » بزيادة واو .

(٣) ط : « كان » بدون واو .

(٤) م : « ونغاتهم » .

(٥) ب : وإن كانوا مسخراً للحياكة » ط : « وإن كانوا مسخرين للحياكة» . والوجه ما أثبت من م .

(٦) ب : « للتفسيق والخيانة » .

(٧) ب ، ط : « والأحكام » .

(٨) ط : « يسخر الملك » ب ، م : « يسخر الملة الملك » ووجه هذه الأخيرة ما أثبت .

(٩) ب : « فليس إذ كانوا »، م ، ط : « فليس إذا كانوا ». والوجه حذف « فليس ». وفى ب ، م : « المسخرين » .

(١٠) الجبرية : الكبرياء . وانظر لغاتها الثلاث عشرة فى القاموس . وفى ب ، م : « لجبرية » .

وقد يكون الإنسانُ مسخَّراً لأَمرٍ ، ومخيَّراً فى آخر .

ولولا الأَمر والنَّهى لجاز التسخير فى دقيق الأُمور وجليلها ، وخفيِّها وظاهرها ؛ لأَنَّ بنى الإنسان[1] إنما سُخِّروا له إرادة العائدة عليهم[2] ، ولم يسخَّروا للمعصية ، كما لم يسخَّروا للمَفْسَدة .

وقد تستوى الأَسباب فى مواضع ، وتتفاوت فى مواضع[3] . كلُّ ذلك ليجمع الله تعالى لهم مصالح الدُّنيا ، ومراشدَ الدِّين .

أَلَا ترى أَنَّ أُمةً قد اجتمعت على أَنَّ عيسى عليه السلام هو الله ، وأُمَّة قد اجتمعت على أَنَّه ابن الله ، وأُمّةً اجتمعت على أَنَّ الآلهة ثلاثة ، عيسى أَحدها . ومنهم يتبدَّد[4] ، ومنهم من يتدهَّر[5] ، ومنهم من يتحوَّل نِسطوريًّا بعد أَن كان يَعقوبيًّا ، ومنهم من أَسلم بعد أَن كان نَصرانيًّا . ولستَ واجداً[6] هذه الأُمّة مع اختلاف مذاهبها ، وكثرة تنقُّلها ، انتقلت مرّة واختلفت مرّةً ، متعمدة أَو ناسيةً ، فى يومٍ واحد ، فجعلته – وهو الجمعة – يومَ السَّبت ، ولم تَخطُب فى يوم جُمُعةٍ بخطبةٍ يوم خميس ، ولا غلِطَتْ فى كانونَ الأَوّلِ فجعلته كانونَ الآخِر ، ولا بين الصَّوم والإفطار ؛ لأَنَّ الباب الأَوّل فى باب الإمكان

---

(١) ب ، م : « لأن الإنسان » ، تحريف .

(٢) م : « الفائدة عليهم » .

(٣) ب : « وقد يستوى » و « يتفاوت » ، صوابهما فى م ، ط .

(٤) يريد : يعبد البد ، بالضم ، وهو الصنم . ب : « يتدبد » م : « يتدبر » ط : « يتذبذب » . وأرى أن الجاحظ قد اشتق هذا الفعل من «البد» ، كما اشتق الفعل التالى من الدهر ، وكلاهما لم تذكره المعاجم .

(٥) يتدهر ، أراد يدين بمذهب الدهرية ، بضم الدال نسبة غير قياسية إلى الدهر بالفتح . وانظر آراءهم المتفرقة فى الحيوان ١ : ٢/١٧ : ٤/١٣٩ ، ٨٥ : ٥/٤٣٢ ، ٤٠ : ٦/٣٢٧ : ٢٦٩ ، ٢٧٠ بالإضافة إلى مادة (الدهرية) فى دائرة المعارف الإسلامية ٩ : ٣٣٧/ ٣٤٠

(٦) م فقط : « واجدة » تحريف .

وتعديل الأَسباب والامتحان ، والباب الثانى داخلٌ فى باب الامتناع وتسخير النفوس وطرحِ الامتحان .

وقد زعم ناسٌ من الجُهّال ، ونَفرٌ من الشُّكّاك ، ممن يزعم أنَّ الشَّكَّ واجب فى كلِّ شىءٍ ، إلَّا فى العيان ، أنَّ أهل المنصورة[1] وافَوْا مُصلَّاهم يومَ خميسٍ على أنَّه يومُ الجمعة ، فى زمن منصور بن جُمهور[2] . وأنَّ أهلَ البَحْرينِ جَلَسوا عن مصلَّاهم[3] يومَ الجمعة على أنَّه يومُ خميس ، فى زمن أَبى جعفرٍ ، فبعثَ إليهم وقوَّمهم .

وهذا لا يجوزُ ولا يمكنُ فى أَهل الأَمصار ، ولا فى العدد الكثير من أَهل القرى ، لأَنَّ الناس مِن بين صانعٍ لا يأْخذ أُجرته ولا راحةَ له دون الجمعة ، وبين تجّار قد اعتادوا الدَّعَة فى الجُمَع[4] ، والجلوسَ عن الأَسواق . ومن معلِّمِ كتّاب لا يَصرِف غِلمانَه إلَّا فى الجمع . وبين معنِيٍّ بالجُمَع يتلاقى هناك مع المعارف[5] والإِخوان والجلساء . وبين مَعْنِيٍّ بالجُمَع حرصاً على الصلاة ، ورغبةً فى الثَّواب . ومن رجلٍ عليه موعدٌ ينتظره . ومن صَيْرفىٍّ [يصرف ذلك اليومَ سفاتجَه[6] وكتبَ

(١) المنصورة هذه كانت قصبة السند ، واسمها القديم « همناباد » قال المسعودى : سميت : المنصور بمنصور بن جمهور عامل بنى أمية . وقال هشام : بناها فسميت به ، وكان قد خرج مخالفاً لهارون وأقام بالسند . وانظر معجم البلدان .

(٢) ب : « منصورى بن جمهور » ، وفى ط : « منصورى » فقط . ولمنصور هذا أخبار فى تاريخ الطبرى انتهت بهزيمته وموته عطشاً حين وجه إليه أبو العباس السفاح جيشاً إلى الهند بقيادة موسى بن كعب . وذلك فى سنة ١٣٤ . وكان أول ظهور أمره سنة ١٢٥

(٣) أى لم يذهبوا إلى المسجد يوم الجمعة . ب فقط : « على مصلاهم » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « المداعاة فى الجمع » ، صوابه فى ط . وما بعده إلى « الجمع » التالية ساقط من م .

(٥) ب ، م : « تلقى هناك من المعارف » .

(٦) جمع سفتجة ، بضم السين وفتح التاء ، وهى كما فى المصباح : كتاب صاحب المال لوكيله أن يدفع مالا قرضاً لآخر فيأمن بذلك على ماله من خطر الطريق . وفى القاموس : أن يعطى مالا لآخر ، وللآخر مال فى بلد المعطى فيوفيه إياه ثم ، فيستفيد أمن الطريق » . المعطى بضبط =

أَصحابه . ومن جندىٍّ فهو[(١)] يعرف بذلك نَوْبتَه[(٢)] . وبعضٍ كالسُّؤَّال والمساكين والقُصَّاص ، الذين يمدُّون أَعناقهم للجمعة انتظاراً للصَّدقة والفائدة ، فى أُمور كثيرة ، وأَسباب مشهورة .

ولو جاز ذلك فى أَهل البحرين والمنصورة لجاز ذلك على أَهل البصرة والكوفة ، ولو جاز ذلك فى الأَيام لكان فى الشهور أَجْوَز ، ولو جاز ذلك فى الشُّهور لكان فى السنينَ أَجْوَز . وفى ذلك فسادُ الحجِّ ، والصَّوم ، والصلاة ، والزكاة ، والأَعياد .

ولو كان ذلك جائزاً لجاز أَن يتَّفق الشُّعراءُ على قصيدة واحدة ، والخطباءُ على خُطبةٍ واحدة ، والكُتَّابُ على رسالةٍ واحدة ، بل جميعُ النَّاسِ على لفظةٍ واحدة .

وإنَّما نزَّلت لك حالات الناس ، وخبَّرتك عن طبائعهم ، وفسَّرت لك عِلَلَهم لتعلمَ أَنَّ العدد الكثير لا يتَّفقون على تخرُّص الخبر الواحد فى المعنى الواحد فى الزمن الواحد[(٣)] ، على غير التشاعر[(٤)] ، فيكون باطلًا . وسأُوجِدُك موضع اختلافهم واتِّفاقهم[(٥)] ، وأَنَّه لم يخالف بينهم فى بعض الوُجوه إلَّا إرهاصاً لمصلحتهم[(٦)] ، ولتصحَّ أَخبارهم .

= اسم الفاعل. وثَم، أى هناك . واللفظ فارسى معرب، وقد فسرت حديثاً بأنها حوالة صادرة من دائن يكلف فيها مدينه دفع مبلغ معين فى تاريخ معين لأذن شخص ثالث ، أو لإذن الدائن نفسه ، أو لإذن صاحب الحوالة .

(١) هذه التكملة من م، ط . لكن فى م : « يعرف » موضع « يصرف » . مع سقوط كلمة « اليوم » وكلمة « أصحابه » .

(٢) ب ، م : « ذلك بنوبته » .

(٣) التخرص ، سبق تفسيره فى ٢٤١ .

(٤) التشاعر : تفاعل من قولهم شعر بكذا : أحس به . وانظر العثمانية ص ٣ .

(٥) يقال أوجده الشيء : جعله يجده ويظفر به ، كما فى اللسان والقاموس . وفى ط : « وسأبين لك » .

(٦) الإرهاص : الإرصاد ، والإثبات ، والتأسيس .

أَلَا ترى أَنَّ أَحداً لم يبعْ قطُّ سِلعةً بدرهمٍ إلَّا وهو يرى أَنَّ ذلك الدِّرهم خيرٌ له من سلعته . ولم يشترِ[١] أَحدٌ قطُّ سلعةً بدرهمٍ إلَّا وهو يرى أَنَّ تلك خيرٌ له من درهمه . ولو كان صاحب السلعة يرى فى سلعته ما يرى فيها صاحبُ الدرهم ، وكان صاحبُ الدرهم يرى فى الدِّرهم ما يرى فيه[٢] صاحبُ السِّلعة ما اتَّفق بينهما شراءٌ أَبداً ، ولا بيعٌ أَبداً . وفى هذا جميع المَفْسَدة ، وغايةُ الهلكة .

فسبحان الذى حبَّب إلينا ما فى أَيدى غيرنا ، وحبَّبَ إلى غيرنا ما فى أَيدينا ، ليقع التبَّايعُ . وإذا وقع التَّبايُع وقع التَّرابُح ، وإذا وقع الترابُح وقع التَّعايُش .

ويدلُّك أَيضاً على اختلاف طبائعهم وأَسبابهم : أَنَّك تجد الجماعة وبين أَيديهم الفاكهةُ والرُّطَب ، فلا تجِدُ يدين تلتقيان[٣] على رُطَبةٍ بعينها ، وكلُّ واحد من الجميع يرى ما حَواهُ الطَّبَق ، غير أَنَّ شهوته وقعَتْ على واحدةٍ غيرِ التى آثَرَها صاحبه[٤] . ولربَّما سبَق الرجلُ إلى الواحدة ، وقدكان صاحبُه يريدها فى نفسه ، غير أَنَّ ذلك لا يكون إلَّا فى الفَرْط ، ولو كانت[٥] شهواتهم ودواعيهم تتَّفق على واحدةٍ بعينها لكان فى ذلك التَّمانُع والتجاذب[٦] ، والمبادرةُ وسوءُ المخالطة والمؤاكلة . وكذلك هو فى شهوة النِّساءِ والإماء ، والمراكِب والكُسَى . وهذا كثيرٌ ،والعلم به قليل. وبأَقلَّ ممَّا قلنا[٧] يعرف العاقلُ صوابَ مذهبنا . واللهتعالى نسأَلُالتوفيق .

---

(١) ب : « ولم يشر » ، صوابه فى م ، ط .
(٢) فيه ، ساقطة من ب . وفى م : « فيها » ، تحريف .
(٣) ب فقط : « فلا نجد » بالنون . وفى ب ، م : « يلتقيان » ، واليد أنثى .
(٤) ب ، م : « صاحبها » .
(٥) ب فقط : « كان » .
(٦) م فقط : « التحازب » .
(٧) ب : « وبأقل ماقلنا » .

وهو الذى[١] خالَف بين طبائعهم وأَسبابهم ، حتَّى لا يُتَّفَقَ على تخرُّص خبرٍ واحد[٢] ، لأَنَّ فى اتفاق طبائعهم وأَسبابهم فى جهة الإِخبار فسادَ أُمورهم ، وقلة فوائدهم واعتبارهم ، وفى فساد أَخبارهم فسادُ متاجرِهم والعلمِ بما غاب عن أَبصارهم ، وبُطلانُ المعرفة بأَنبيائهم ورسلهم عليهم السلام ، ووَعْدِهم ووَعيدهم ، وأَمْرِهم ونهيهم وزَجْرِهم ، ورغبتهم ، وحُدودهم ، وقصاصهم الذى هو حياتُهم ، والذى يعدِّل طبائعهم ، ويسوِّى أَخلاقهم ، ويقوِّى أَسبابهم[٣] ، والذى به يتمانعون من تواثب السِّباع[٤] ، وقلَّة احتراس البهائم ، وإِضاعة الأَعمار . وبه تكثُر خواطرهُم وتفكيرهم ، وتحسُن معرفتُهم[٥] .

ولم نقلْ إِنَّ العددَ الكثير[٦] لا يجتمعون على الخبرِ الباطل ، كالتَّكذيب والتَّصديق ، ونحن قد نجد اليهودَ والنَّصارى ، والمجوس والزنادقة ، والدُّهرية وعُبَّاد البِددة[٧] يكذِّبون النبى صلى الله عليه وسلم ، وينكرون آياتِه وأَعلامَه ، ويقولون : لم يأْت بشىء ، ولا بانَ بشىء . وإِنَّما قلنا : إِنَّ العدد الكثير[٨] لا يتفقون على مثل إخبارهم أَنَّ محمَّد بنَ عبد الله بن عبد المطلب ، التِّهامىَّ الأَبطحىَّ عليه السلام خرج بمكة ، ودعا إلى كذا ، وأَمرَ بكذا ، ونَهى عن كذا ، وأَباح كذا ،

---

(١) ب ، م : « والذى » .
(٢) انظر ما سبق فى ص ٢٤١ ، ٢٤٨
(٣) ب ، م : « ويقوم أسبابهم » .
(٤) ب ، م : « تواثر » ، صوابه فى ط .
(٥) ب ، ط : « ويحسن معرفتهم » .
(٦) ب ، م : « ولم يقل إن العدد كثير » ، تحريف مافى ط .
(٧) البددة : جمع بد ، بالضم ، وهو الضم ، معرب بت ، ويجمع أيضاً على أبداد . وفى ب ، م : « البدرة » ، وفى ط : « المبدرة » ، صوابهما ما أثبت .
(٨) ب ، م : « كثير » ، صوابه فى ط .

وجاء بهذا الكتاب الذى نقرؤه ، فوجب العملُ بما فيه ، وأنَّه تحدَّى البلغاءَ[١] والخطباءَ والشُّعراءَ، بنظمه وتأليفه، فى المواضع الكثيرة ، والمحافل العظيمة . فلم يَرُمْ ذلك أَحدٌ ولا تكلَّفه ، ولا أَتى ببعضِه ولا شبيهٍ منه ، ولا ادَّعى أَنَّه قد فعل ، فيكون ذلك الخبرُ باطلًا .

وليس قولُ جَمْعهم إنَّه كان كاذباً[٢] معارضةً لهذا الخبر ، إلَّا أَن يُسمُّوا الإِنكار معارضة . وإنَّما المعارضة مثلُ الموازَنَة والمُكايَلة ، فمتى قابلونا بأَخبارٍ فى وزن أَخبارنا ومَخرجِها ومَجيئها ، فقد عارضونا ووازنونا وقابلونا ، وقد تكافينا[٣] وتدافعنا . فأَمَّا الإِنكار فليس بحجَّة ، كما أَنَّ الإِقرار ليس بحجَّة ، ولا تصديقُنا النبيَّ صلى الله عليه وسلم حُجَّةً على غيرنا ، ولا تكذيبُ غيرنا له حجَّةً علينا ، وإنَّما الحُجَّة فى المجىءِ الذى لا يمكن فى الباطل مثله .

فإنْ قلتَ : وأَىُّ مجىءٍ أَثبَتَ خبر النَّصارى عن عيسى بنِ مريمَ عليه السلام ؟ وذلك أَنَّك لو سأَلتَ النَّصارى مجتمعين ومتفرِّقين لخبَّروك عن أَسلافهم أَنَّ عيسى قد قال : إنِّى إلَه .

قلنا : قد علمنا أَنَّ نصارى عصرِنا لم يكذبوا على القرن الذى كان قَبْلَهم ، والذين كانوا يَلُونهم . ولكنَّ الدليل على أَنَّ أَصلَ خبرِهم ليس كفرعه ، أَنَّ عيسى عليه السلام لو قال : إنِّى إله ــ لما أَعطاه الله تعالى إحياءَ الموتى ، والمشْىَ على الماءِ . على أَنَّ فى عيسى عليه السلام[٤] دلالةً فى نفسه ، أَنَّه ليس بإلَه ، وأَنَّه عبدٌ مدبَّر ، ومقهور ميسَّر ، وليس

(١) ب : « تجد » م : « تحد » صوابهما فى ط .
(٢) ب : « أنه كذا كان كاذباً » م : « أنه كان كاذبة » ، صوابهما فى ط .
(٣) ب : « تكافأنا » بالهمز .
(٤) ب فقط : « على أن عيسى عليه السلام » .

خبرُهم هذا إلّا كإخبار النصارى عن آبائهم والقرنِ الذى يليهم أنَّ بُولس[١] قد كانَ[٢] جاءَ بالآياتِ والعلامات. وكإخبار المَنانيَّة[٣] عن القرن الذى كان يليهم منه[٤] أنَّ مانِي قد كان جاءهم بالآيات والعلامات . وكإخبار المجوس عن آبائهم الذين كانوا يلونهم أنَّ زَرادُشت قد جاءهم بالآيات والعلامات . وقد علمنا أنَّ هؤلاءِ النَّصارى لم يكذبوا على القَرْن الذى كان يليهم ، ولا الزَّنادقة ولا المجوس . ولكن الدليل على أنَّ أصل خبرهم ليس كفرعه[٥] أنَّ[٦] الله جلّ وعز لا يُعطى العلاماتِ من لا يَعْرِفُه ، لأنَّ بولس إنْ كان عنده أنَّ عيسى عليه السلام إلٓه فهو لا يعرف الله تعالى ، بل لا يعرف الرُّبوبيَّة من العبودية ، والبشريَّة من الإلٓهية .

٢٩ — فصل منــه

وللنصارى خاصَّةً رياءٌ عجيب[٧] ، وظاهرُ زُهد ، والناس أبطأُ شىءٍ عن التصفُّح ، وأسرع شىءٍ إلى تقليد صاحب السِّنّ والسَّمت ، وظاهر العمل أدعَى لهم من العِلْم .

---

(١) بولس : أحد الحواريين ، وقد قام نيرون ملك الروم بقتله هو وبطرس بمدينة رومية وصلبهما منكسين ، وذلك بعد وفاة المسيح باثنتين وعشرين سنة ، وذلك بعد ثلاث عشرة سنة من ملكه . ابن الأثير ١ : ٣٢٥ والتنبيه والإشراف ١٠٩ — ١١٠ . و فى م فقط : « يونس » تحريف .

(٢) كان ، ساقطة من ب ، م .

(٣) المنانية ، والمانية : أتباع مانى المتنبئ الذى زعم أنه الفارقليط الذى بشر به عيسى عليه السلام ، واستخرج مذهبه من المجوسية والنصرانية . وانظر ماكتبت من تحقيق فى حواشى الحيوان ٤ : ١ . وفى ط : « المانوية » .

(٤) أى من زمن مانى . وفى ب ، م : « منهم .

(٥) أن ، ساقطة من ب ، ط .

(٦) ط فقط : « لأن » .

(٧) م : « رئاء » ، وهى لغة قرآنية .

٣٠ – فصل منه على ذكرهم

وكلُّ قومٍ بنَوْا دينَهم على حبِّ الأَشكال [١]، وشبْه الرِّجال [٢]، يَشتدُّ وجدُهم به [٣] وحبُّهم له ، حتَّى ينقلبَ [٤] الحبُّ عِشقاً ، والوجدُ صبابةً ، للمشاكلة التى بين الطبائع ، والمناسبة التى بين النفوس .

وعلى قدر ذلك يكون البُغْض والحقد ، لأَنَّ النَّصارى حين جعلوا ربَّهم إِنساناً مثلهم بَخَعتْ نفوسُهم بالْهَيْبَةِ له [٥] لتوهُّمهم الرُّبوبيَّة ، وأَسمحت بالمودَّة لتوهُّمهم البَشَرِيَّة ، فلذلك قَدَرُوا من العبادة على ما لم يقدِرْ عليه مَنْ سواهم [٦] . وبمثل هذا السَّبَب صارت المشبِّهة منَّا أَعبَدَ ممَّن ينفى التَّشبيه ، حتَّى ربَّما رأَيتَه يتنفَّس من الشوق إِليه ، ويَشْهق [٧] عندَ ذكر الزيارة ، ويبكى عند ذكر الرُّؤية ، ويُغْشَى عليه عند ذكر رَفْع الحُجُب . وما ظنُّك بشوقِ مَنْ طَمِع فى مجالسة ربِّه عزَّ وجلَّ ، ومحادثةِ خالقه عزّ ذكرُه .

ولقد غالت القومَ غُولٌ ، ودعاهم أَمرٌ ، فانظُرْ ما هو ؟ وإِنْ [٨] سأَلتنى عنه خبَّرتك : إِنَّما هو نتيجةُ أَحدِ أَمرين : إِمَّا تقليدُ الرِّجال ، وإِمَّا طلبُ تعظيمهم . ولذلك السَّببِ لم ترض اليهودُ من إِنكار حقِّه بتكذيبه ، حتَّى طلبَتْ قتلَه وصَلْبَه ، والمُثْلة به ، ثم لم ترضَ بذلك حتَّى زعمت

---

(١) ط : « بنوا على حب الأشكال » .
(٢) ب ، م : « وشيد الرجال » ط : « وشد الرحال » ، ولعل وجهه ما أثبت .
(٣) ب : « أشد وجدهم به » م : « اشتد وجدهم به » ، وأثبت ما فى ط .
(٤) ب : « تقرب » م : « يقرب » ، صوابهما فى ط .
(٥) بخعت : خضعت وأقرت . وفى ب : « نجعت » تحريف . م ، ط : « بالهيته له » والإلهية : الربوبية . وأثبت ما فى ب .
(٦) ب ، م : « من العبادة مالم يقدر عليه سواهم » .
(٧) ب ، م : « ويشهد » .
(٨) ب : « وإذا » .

أنَّه لغير رِشْدة ، فلو كانت دون هذه المنزلةِ منزلةٌ لما انتهت اليهودُ دونَ بلوغها ، ولو كانت فوق ما قالت النَّصارى منزلةٌ لما انتهت دونَ غايتها .

وبذلك السَّبب صارت الرافضة أَشدَّ صبابةً وتحرُّقاً ، وأَفرطَ غضَباً ، وأَدوَمَ حِقداً . وأَحسَنَ تواصُلاً من غيرهم أَيضاً .

وربَّ خبرٍ قد كان فاشياً[١] فدخل عليه من العِلل ما منَعَه من الشُّهرة ، وربَّ خبرٍ ضعيف الأَصلِ ، واهنِ المخرج ، قد تهيَّأَ له من الأَسباب ما يُوجب الشُّهرة .

٣١ — فصل منــه

واعلم أَنَّ لأَكثر الشِّعر ظَعْناً[٢] وحظوظاً ، كالبيت يحظَى ويسير ، حتَّى يحظى صاحبُه بحظِّه ، وغيرُه من الشِّعر أَجوَدُ منه . وكالمثَل يحظَى ويَسير ، وغيرُه من الأَمثال أَجوَد . وما ضاع من كلام النَّاسِ وضَلَّ أَكثرُ ممَّا حُفِظ وحُكى . واعتبر ذلك من نفسِكَ، وصديقِك وجليسك .

وأَمر الأَسبابِ عجيب . ومن ذلك قَتْلُ علىّ بن أَبى طالب[٣] من السَّادة والقادة والحُماة ، ما عسى لو ذكرتُه لاستكبرتَه واستعظمْتَه ، فأَضرَب النَّاسُ عن ذكرهم ، وجَهلت العوامُّ مواضعَهم ، وأَخذوا فى ذكر عمرو بن عَبْدوُدّ[٤] فرفَعُوه فوق كلِّ فارس مشهور ، وقائدٍ مذكور .

---

(١) فاشياً : ذائعاً منتشراً . ب ، م : « ناسياً » صوابه فى ط .

(٢) فى الأصول : « طعناً » بالمهملة ، صوابه ما أثبت . والظعن : الارتحال والسير .

(٣) ب ، م : « وليس كل ذلك يعرف قبل على بن أبى طالب » ، تحريف .

(٤) عمرو بن عبد ود : أحد أشراف قريش . وقد ظهر أمره فى غزوة بدر الكبرى قاتل فيها فأثبتته الجراحة ، فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه ، ودعا إلى المبارزة ، فنازله على بن أبى طالب وجاوله حتى قتله . وانظر السيرة ٤٣٦ ، ٦٧٧ ، ٦٩٩ . وفى ب ، م : « وأخذوا فى ذلك » . وود : صنم يقال بفتح الواو وضمها ، وفتحها أكثر فى اللغة وفى القراءات .

وقد قرأْتُ على العلماء كِتاب الفجار[١] الأَوّل ، والثانى ، والثالث . وأَمر المطيِّبين[٢] والأَحلاف[٣] ، ومَقْتَل أَبى أُزَيهر[٤] ، ومجىء الفيل ، وكلَّ يوم جَمْعٍ كان لقريش ، فما سمعتُ لعمروٍ هذا فى شىءٍ من ذلك ذكراً.

فإنْ قلت : إنَّ نُبْل القاتل زيادة فى نُبْل المقتول ، فكلٌّ من قتله على ابن أَبى طالب رضوان الله عليه أَنبلُ منه وأَحقُّ بالشهرة ، ولكن أَشعار ابنِ دَأْبٍ[٥] ، ومناقلةَ الصِّبيان فى الكُتَّاب هما اللّتان أَوْرثتاه[٦] ما تَرَى وتسمع .

---

(١) أيام الفجار معروفة فى أيام العرب أيام الجاهلية . وسميت فجاراً لأنها كانت فى الأشهر الحرم ، وكانت قبل مبعث النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بست وعشرين سنة. وقال النبى صلى الله عليه وسلم : «كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة »أنبل . : أناولهم النبل،أى السهام . وانظر العقد ٥:٢٥١ — ٢٥٧ . ب ، م : « الفخار » ، صوابه فى ط .

(٢) المطيبون : هم أسد ، وزهرة ، وتميم، عقدت معهم بنو عبد مناف حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ، وأن يكونوا يداً واحدة على أخذ ما فى يدى عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء والسقاية ، فأخرجت بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها فى المسجد ، ثم غمس القوم أيديهم فيها جميعاً وتعاقدوا ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً ، فسموا المطيبين . وكان أبو بكر من المطيبين .

(٣) الأحلاف، هم خمس قبائل من قريش: عبد الدار ، وجمح، وسهم، ومخزوم ، وعدى ابن كعب . تعاقدت معهم بنو عبد الدار حلفاً مؤكداً ألا يتخاذلوا ،فسموا الأحلاف. وكان عمر ابن الخطاب من الأحلاف . انظر اللسان (حلف)،وكذلك المحبر لابن حبيب ١٦٦ — ١٦٧ .

(٤) فى ب ، ط : « ومقتل أبى أزيهر » وفى م : « ومقبل بن أبى أزيهر » ، صوابهما ما أثبت . وانظر خبر مقبل أبى أزيهر الدوسى فى كتاب أسماء المغتالين من نوادر المخطوطات ٢ : ١٤٩ . والذى قتله هوهشام بن الوليد بن المغيرة .

(٥) اسمه عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب ، كان خطيباً شاعراً ناسباً ، وكان يضع الحديث والشعر كأحاديث السمر . وكان يضع الحديث بالمدينة ، وابن شوكر يضع الحديث بالسند ، وفيهما يقول خلف الأحمر :

أحاديث ألفهـــا شوكر وأخرى مؤلفـــة لابن داب

وكان كثير الأدب ،عذب الألفاظ ، صاحب خطوة عند الهادى . روى عنه شبابة بن سوار ، ومحمد بن سلام الجمحى . تاريخ بغداد ٥٨٤٥ ولسان الميزان ٤ : ٤٠٨ . ط : « ابن ود »، تحريف .

(٦) ب : « ورثتا » م : « أورثتا » ، وأثبت ما فى ط .

٣٢ - فصل منه فى أمر الأخبار

وإنَّما ذكرت هذا لتعلم أَنَّ الخبر قد يكون أَصلُه ضعيفاً ثم يعود قويًّا ، ويكون أَصلُه قويًّا فيعودُ ضعيفاً ، للذى يعتريه من الأَسباب ، ويَحُلُّ به من الأَعراض ، من لدُن مَخرجه وفُصُوله ، إلى أَن يبلغ مدَّتَه[١] ، ومنتهى أَجلِه ، وغايةَ التَّدبيرِ فيه ، والمصلحةِ عليه .

فلمَّا كان هذا مخوفاً ، وكان غير مأْمونٍ على المتقادِم منه وضَعَ الله تعالى لنا على رأْس كلِّ فترةٍ علامة ، وعلى غاية كلِّ مدَّةٍ أَمارة ، ليُعيدَ قوَّةَ الخبر ، ويجدِّد ما قد همَّ بالدُّروس ، بالأَنبياءِ والمرسلين[٢] عليهم السلام أَجمعين . لأَنَّ نوحاً عليه السلام هو الذى جدَّد الأَخبار التى كانت فى الدَّهر الذى بينه وبين آدم عليهما السلام ، حتَّى منَعها الخللَ ، وحماها النُّقصانَ بالشواهد الصادقة ، والأَمارات القائمة . وليس أَنَّ أَخبارهم وحججهم قد كانت دَرَست واختلَّت ، بل حين همَّت بذلك[٣] وَكادَت . بعثَهُ الله عزّ وجل بآياته لئلا تخلوَ الأَرض من حُججِهِ ، ولذلك سمَّوا آخر الدهر الفَتْرة . وبين الفَتْرةِ والقِطْعة فرق . فاعرفْ ذلك .

ثم بعث الله جلّ وعزّ إبراهيم عليه السلام على رأْس الفترة الثانية التى كانت بينه وبين دهر نوح ، وإنَّما جعلها[٤] الله تعالى أَطولَ فترةٍ كانت فى الأَرض ، لأَنَّ نوحاً كان لبث فى قومه يحتجُّ ويُخبر ، ويؤكِّد ويبيِّن ، أَلفَ سنةٍ إِلَّاخمسين عاماً ، ولأَنَّ آخر آياته كانت أَعظمَ الآيات ، وهى الطُّوفان ، الذى أَغرقَ الله تعالى به[٥] جميعَ أَهل الأَرض

(١) ب : « تبلغ مدته » .
(٢) ط : « من أنباء المرسلين » .
(٣) كلمة « بل » من ط فقط .
(٤) ب ، م : « جعله » ، صوابه فى ط .
(٥) ب ، م : « التى غرق الله تعالى » فقط ، صوابه فى ط .

غيرَه وغير شيعته ، وإنَّما أَفار الماءَ[١] من جوف تَنُّور ، ليكون أَعجب للآية[٢] ، وأَشهر للقِصَّة ، وأَثبتَ للحُجَّة .

ثم ما زالت الأَنبياء صلوات الله عليهم أَجمعين ، بعضُهم على إِثْر بعضٍ فى الدَّهر الذى بين إبراهيم ، وبين عيسى عليهما السلام . فلتَرادف حُجَجهم ، وتظاهُر أَعلامهم ، وكثرةِ أَخبارهم ، واستفاضة أُمورهم ، ولشدَّة ما تأَكَّد ذلك فى القلوب ، ورسَخَ فى النفوس ، وظَهَر على الأَلسنة ، لم يدخلها الخَطل والنَّقص[٣] والفسادُ ، فى الدَّهر الذى كان بين النبي عليه السلام وبين عيسى عليه السلام .

فحينَ همَّت بالضَّعف ، وكادت تنقص عن التمام[٤] ، وانتهت قوَّتها ، بعثَ الله تعالى محمَّداً صلى الله عليه وسلم ، فجدَّد أَقاصيص آدم ونوحٍ ، وموسى وهارون ، وعيسى ويحيى ، عليهم السلام ، وأُموراً بين ذلك ، وهو الصادق ، بالشَّواهد الصادقة ، وأَنَّ السَّاعة آتية[٥] ، وأَنَّه ختم الرُّسل عليهم السَّلامُ به ، فعلمْنا عند ذلك أَنَّ حجَّته ستتمُّ إلى مُدَّتها ، وبلوغِ أَمرِ الله عزّ وجلّ فيها .

٣٣ ــ فصل

ثم رجع الكلام إلى القول فى الأَخبار ، فأَقول :

إنَّ الناس مُوكَّلون بحكايةِ كلِّ عجيب ، وميسَّرون للإخبار عن

(١) يقال فار الشيء : جاش ، وأفرته وفرته أيضاً بالتعدية فيهما . وأنشد ابن الأعرابي :

وكانوا قعوداً حولها يرقبونها وكانت فتاة الحى ممن يفيرها

ويروى : « يفورها » ويروى : « يغيرها » . ط فقط : « فار الماء » .

(٢) ب : « وليكون » بزيادة واو .

(٣) ب : « لم يدخلها النقص » فقط . م : « لم يدخلها الخلل والنقص » ، وأثبت ما فى ط .

(٤) ب : « وكانت تنقص عن التمام » ، صوابه فى م ، ط .

(٥) ب ، م : « أن الساعة آتية » .

كلِّ عظيم ، وليسوا[١] للحسَن أَحكَى منهم للقبيح ، ولا لما يَنفع أَحكَى منهم لما يضرّ ، وعلى قدر كِبَر الشَّىء تكون حكايتهم له واستماعُهم[٢].

أَلا ترى أَنَّ رجلًا من الخلفاءِ لو ضربَ عُنقَ رجلٍ من العظماءِ لما أَمسَى وفى عسكره وبَلْدته جاهلٌ ولا عالمٌ إلَّا وقد استقرَّ ذلك عنده وثبت فى قلبه[٣] ، لأَنَّ الناس بين حاسدٍ فهو يحكى ذلك الذى دَخَل عليه من الثُّكْل وقلَّة العدد ، وبين واجدٍ[٤] يعجِّب الناس ، وبين واعظٍ مُعتبر ، وبين قومٍ شأْنُهم الأَراجيفُ بالفاسد والصَّالح . ولو كانَ ضربَ عُنقَه فى يومِ عيدٍ ، أَو حَلْبةٍ[٥] ، أَو استمطارٍ ، أَو موسم ، لكان أَشدَّ لاستفاضته ، وأَسرعَ لظُهوره .

ولو جاز أَن يكتم النَّاسُ هذا وشبهه على الإيثار للكتمان ، وعلى جهة النِّسيان ، لكُنَّا لا ندرى : لعلَّه قد كان فى زمنِ صِفِّينَ والجملِ والنَّهروانِ حَربٌ مثلها أَو أَشدُّ منها ، ولكن النَّاسَ آثروا الكتمان ، واتَّفقوا على النسيان .

فإذا كان قتلُ الملكِ الرّجلَ من العُظماءِ بهذه المنزلة من قلوب الأَعداءِ ، ومن قلوب الحكماءِ والغَوْغاء ، فما ظنُّك بمن لو أَبصروا رجلًا قد أَحياه بعد أَن ضرب عنقَه ، وأَبان رأْسَه من جسده ، أَليس كان يكون تعجُّبهم[٦] من إحيائه أَشدَّ من تعجُّبهم من قتله ، وكان يكون إخبارهم مَن خلَّفوا فى منازلهم ومَنْ وَرَدَ عليهم عن القَتْل ليكون سبباً للإِخبار عن الإِحياء ، إذْ كان الأَوّلُ صغيراً فى جَنْب الثَّانى .

---

(١) ب ، م : « وليس هم » .
(٢) ب : « يكون » بالياء . وكلمة « له » من ط فقط .
(٣) ب ، م : « ذلك عنده وقلبيه » تحريف .
(٤) ب ، م : « واحد » ، صوابه فى ط .
(٥) يوم الحلبة : يوم سباق الخيل . ب ، م : « خلية » ، صوابه فى ط .
(٦) ط فقط : « أليس يكون يكون تعجبهم » .

فهذا يدلُّ على أَنَّ أَعلامَ الرُّسل عليهم السلام وآياتهم أَحقُّ بالظُّهور والشهرة ، والقهرِ للقلوب والأَسماع ، من مخارجهم وشرائعهم . بل قد نعلم أَنَّ موسى عليه السلام لم يُذكَر ولم يُشْهَر إلَّا لأَعاجيبه ولآياته . وكذلك عيسى عليه السلام ، ولولا ذلك لما كانا إلَّا كغيرهما ممن لا يُشْعَر بموته ولا مولده .

وكيف تتقدم المعرفة بهما المعرفة بأَعلامهما[1] وأَعاجيبهما ، وأَنت لم تسمع بذكرهما قطُّ ، دون ما ذكر من أَعلامهما .

فإذا كان شأْنُ النَّاسِ الإِخبارَ عن كلِّ عجيبٍ ، وحكايةَ كلِّ عظيم ، والإِطرافَ بكلِّ طريف ، وإِيرادَ كلِّ غريبٍ من أُمور دنياهم ، فما لا يمتنع[2] فى طبائعهم ، ولَا يَخرُج من قوى الخليقة فى البطش والحيلة ، أَحقُّ بالإِخبار والإِذاعة ، وبالإِظهار والإِفاضة ، هذا على أَن يُترِكَ الطِّباعُ وما يُولَدُ عليه[3] ، والنُّفوسُ وما تُنتج[4] ، والعِللُ وما يسخَّر . فكيف إنْ كان الله عز وجل قد خَصّ أَعلامَ أَنبيائه وآياتِ رسله عليهم السلام من تهييج الناس على الإِخبار عنها[5] ، ومن تسخير الأَسماع لحفظها ، بخاصّة لم يجعلْها لغيرها[6] .

٣٤ ــ فصل منه

فإن قال قائل : إنَّ الحجَّةَ لا تكون حجّة حتّى تعجز الخليقة[7] ،

(١) ب ، م : « وكيف يتقدم » وبعدها فى ب فقط : « المعرفة » . وتتمة الكلام من م ، ط .
(٢) ب ، م : « ولاما يمتنع » ، صوابه فى ط .
(٣) الطباع : الطبع ، ويكون أيضاً جمعاً للطبع ، كما قال الأزهرى . وفى ط : « وما تولد عليه » ، فلها وجهها .
(٤) ب ، م : « وما ينتج » .
(٥) ب ، م : « عن الإخبار عنها » ، صوابه فى ط .
(٦) ب ، م : « خاصة لم يجعلها لغيرها » .
(٧) ب ، م : « حتى يعجز الخليقة » .

وتخرج[١] من حدِّ الطاقة ، كإحياءِ الموتى ، والمشْى على الماءِ ، وكفَلْق البحر ، وكإطعام الثِّمار فى غير أَوان الثِّمار ، وكإنطاق السِّباع ، وإشباع الكثير من القليل ، وكلِّ ما كان جسماً مُخترعاً ، وجرماً مُبتدعاً . وكالذى لا يجوز أَن يتولَّاه إلَّا الخالق ، ولا يقدر عليه إلَّا الله عزّ ذكره .

فأَمّا الأَخبار التى هى أَفعالُ العباد ، وهم تَولَّوها ، وبهم كانت وبقولهم حدثَتْ ، فلا يجوز أَن يكون حجّة ، إذْ كان[٢] لا حُجَّةَ إلَّا مالا يقدر عليه الخليقة ، وما لا يُتوهَّم من جميع البريَّة .

قلنا : إنَّا لم نَزْعُم أَنَّ الأَخبار حُجّةٌ فيحتجُّون علينا بها ، وإنَّما زعمنا أَنَّ مجيئها حجّةٌ ، والمجىء ليس هو أَمرٌ يتكلَّفه الناس ويختارونه على غيره ، ولو كان كذلك لكانوا متى أَرادوه فعلوه وتهيَّئوا له ، ولفعلوه فى الباطل[٣] كما يجىءُ لهم فى الحقِّ . والمجىءُ أَيضاً ليس هو فعلًا قائماً فيستطيعوهُ أَو يعجزوا عنه[٤] ، وإنَّما هو الإنسان ، يعلم أَنَّه إذا لقى البَصْريين فأَخبروه أَنَّهم قد عاينوا بمكة شيئاً ، ثم لقىَ الكوفيِّين فأَخبروه بمثل ذلك ، أَنَّهم قد صدَقوا[٥] . إذْ كان[٦] مثلهُم لا يتواطأ[٧] على مثل خبرِهم على جَهْلهم بالغيب ، وعلى اختلاف طبائعهم وهممهم وأَسبابهم .

فليس بين هذا وبين إحياءِ الموتى والمشْى على الماء فرق ، إذْ كان الناس لا يقدرون عليه ، ولا يطمعون فيه ، والمجىء إنَّما هو معنىً

---

(١) ب ، م : « ويخرج » .
(٢) ب فقط : « إذا كان » ، تحريف .
(٣) هذا مافى ط . وفى م : « وتهيئوا لفعله فى الباطل » ، وفى ب : « وتهيأ ولفعلوه فى الباطل » .
(٤) ب ، م : « فيستطيعونه أو يعجزون له عنه » .
(٥) فى ب : « فأخبروه بمثل ذلك قد صدقوا » . وتتمة الكلام من م ، ط .
(٦) ب فقط : « إذا كان » ، تحريف .
(٧) ب ، م : « يتوطأ » ، تحريف .

معقول ، وشيءٌ موهوم . إذْ كان[١] كيف يكون ومعـلومٌ أَنَّ الناس لا يمكنهم أَن يقدِروا ، ولا يستطيعون فعلَه . وإنَّما مدارُ أَمرِ الحُجَّة على عجز الخليقة . فمتى وجَدْتَ أَمراً ووجدت الخليقة عاجزةً عنه[٢] فهى حجة . ثمَّ لا عليك جوهراً كان أَو عَرَضاً ، أَو موجوداً أَو متوهَّماً معقولًا . أَلا ترى أَنَّ فَلْق البحرِ ليس هو من جنس اختراع الثّمار ، لأَنَّ الفلق هو انفراج أَجزاء ، والثّمار أَجرامٌ حادثة .

وكذلك لو ادَّعى رجلٌ أَنَّ الله عزّ وجلّ أَرسله وجعل حجَّتُه علينا[٣] الإِخبارَ بما أَكلْنا وادّخَرنا وأَضْمرنا ، لكان قد احتجَّ علينا .

فإن قلتم[٤] : إنَّ المنجِّمين ربَّما أَخبروا بالضمير ، وبالأَمر المستور ، وببعضِ ما يكون .

قلنا : أَمَّا واحدةً[٥] فإِنَّ خطأَ المنجِّمين كثير ، وصوابهم قليل ، بل هو أَقلُّ من القليل . وأَنتم لا تقدرون أَن تقفونا[٦] من أَخبار المرسلين عليهم السلام فى كثير أَخبارهم على خطاءٍ واحد[٧] ، والذى سهَّل قليل المنجِّمين طَرَافةُ ذلك منهم[٨] ، لأَنهم لو قالوا فأَخطئوا أَبداً لما كان

---

(١) م ، ط : « إذا كان » .

(٢) ب : « غيره عجزه » م : « غير عاجزة » ، صوابهما فى ط .

(٣) ب : « فجعله حجة علينا » تحريف . وفى ط : « فجعل حجته علينا » ، وأثبت مافى ب .

(٤) ب : « فلم قلتم » تحريف . ط : « « فإن قلت » ، وأثبت مافى م .

(٥) بدله فى ط : « هناك فرق » .

(٦) ط : « أن تقفون » صوابه فى ب ، م .

(٧) ب : « فى كثرة أخبارهم » . ب ، ط : « على خطأ واحد » . والجاحظ يميل كثيراً إلى استعمال « الخطاء » بمعنى الخطأ ، وهوماورد هنا فى نسخة م . انظر الحيوان ١ : ٢١٣ / ٣ : ٢٥٨ ، ٥٠٠ والبيان ٤ : ١٦ ، ٦٧ .

(٨) الطرافة من الطريف ، وهو الشيء الغريب المستحدث . وفى جميع النسخ : « ظرافة » بالظاء المعجمة ، والظرافة : الكيس والحذق ، ولاوجه لها هنا .

عَجَبا ، لأنّه ليس بعَجَبٍ أن يكون الناس لا يعلمون ما يكون قبل أن يكون ، ومن أعجبِ العجب أنْ يوافق قولُهم بعضَ ما يكون .

وقد نجد المنجِّمين يختلفون فى القضيَّة الواحدة ، ويُخطئون فى أكثرِها . وقد نجد الرَّسولَ يُخبرهم عمَّا يأْكلون ويَشربون ويدَّخرون ويُضْمرون ، فى الأُمور الكثيرة المعانى ، والمختلفةِ فى الوجوه ، حتَّى لا يخطئ فى شيءٍ من ذلك . وليس فى الأَرض منجِّم ذكر شيئاً[1] أَو وافَق ضميراً إلَّا وأنت واجدٌ بعضَ مَن يزجُر[2] قد يجيءُ بمثله وأكثر منـه .

فإن قلت : إنَّ الناس يَكْذِبون فى الإخبار عن الأَعراب والكُهَّان من كلِّ جيل ؟

قلنا : فهم فى إخبارهم عن المنجِّمين أَكْذَب .

وبعدُ ، فالناس غير مستعظمين لكثرةِ كذِب المنجِّمين وخطاياهم وخُدَعهم ، والناس يستعظمون[3] اليسيرَ من المرسَلين عليهم السلام . وكلَّما كان الرجلُ فى عينك أَعظَمَ ، وكان عن الكذب أزجَر ، كان كذبه عندك أَعظَمَ . وإنَّما المنجِّم عند العوامِّ كالطبيب الذى إنَّ قتَلَ المريضَ علاجُه كان عندهم أنَّ القضاءَ هو الذى قتله[4] ، وإنْ برأَ كان هو أبرأَه. على أنَّ صوابهم أكثر ، ودليلَهم أظهر .

وقد صار النَّاسُ لا يقتصرون للمنجِّمين على قدر ما يسمعونَ منهم ، دون أنْ يولِّدوا لهم ، ويضعوا الأَعاجيب عَنْ أَلسنتهم .

---

(١) ب ، م : « قال شيئاً » .
(٢) الزجر : ضرب من الكهانة . وفى جميع النسخ : « مايزجر » . ووجهه ما أثبت .
(٣) فى جميع النسخ : « يستقطعون » ، صوابه ما أثبت .
(٤) ب ، م : « إن قبل المريض » ، و « هو الذى قبله » صوابهما فى ط .

وكلُّ ملحدٍ فى الأَرض للرسول طاعنٍ عليه ، عائبٍ له ، يرى أَن يصدِّق عليه كلَّ كذّابٍ يريد ذمَّه ، وأَن يكذِّب كلَّ صادقٍ يريد مدحه .

وبعدُ ، فلو كان خبرُ المنجمين(١) فى الصواب كخبر الأَنبياء والمرسلين عليهم السلام ، الذى هو حُجَّةٌ ، لما كان خبرُ المنجِّمين حجّة .

فإن قلت : ولِم ذاك ؟

قلتُ : لأَنَّ من كثُر صوابُه على غير استدلالٍ ومقايَسة ، وعلى(٢) غير حسابٍ وتجربة ، أَو على نظرٍ ومُعايَنة لم يكن الأَمر مِنْ قبل الوحى(٣) ؛ لأَنَّك لو قلت قصيدةً فى نفسك فحدَّثَك بها رجل ، وأَنت تعلم أَنَّه ليس بمنجِّم ، وأَنشَدَكَها كلَّهَا ، لعلمت أَنَّ ذلك لا يكون إلَّا بوحى .

ومِثل ذلك رجلٌ اشتدَّ وَجَعُ عينِه فعالجه طبيبٌ فبرأَ(٤) ، فلو جعل الطَّبيبُ ذلك حُجّةً على نُبُوَّته لوجب علينا تكذيبُه ، ولو قال رجلٌ من غير أَن يمسَّه أَو يدنوَ إليه : اللَّهمّ إن كنتُ صادقاً عليك فاشفِه السَّاعةَ ، فبرأَ(٥) من ساعتِه لعِلْمنا أَنَّه صادق .

فإن قالوا : وما علَّمنا أَنَّ محمداً عليه السّلامُ لم يكن منجِّماً ؟

قلنا : إنَّ عِلْمَنا بذلك كعِلمنا بأَنَّ العبَّاسَ وحمزةَ وعليًّا وأَبا بكرٍ وعمر ، رضوانُ الله عليهم أَجمعين ، لم يكونوا منجِّمين ، ولا أَطبَّاءَ متكهِّنين . وكيف يجوز أَن يصير إنسانٌ عالماً بالنُّجوم من غير أَن يختلف

---

(١) ب فقط : « غير المنجمين » ، تحريف .
(٢) ب ، م : « على » بسقوط الواو .
(٣) ب ، م . : « لم يكن الأمر قبل الوحى » ، وإكماله من ط .
(٤) ط : « فبرئ » ، وهما لغتان : برأ يبرأ ويبرؤ ، وبرئ يبرأ ، أى شفى من مرضه .
(٥) م ، ط : « فبرئ » .

إلى المنجِّمين ، أَو يختلفوا إِليه ، أَو يكونَ علمُ النُّجوم فاشياً فى أَهل بلاده ، أَو يكونَ فى أَهله واحدٌ معروف به . ولو بلغَ إِنسانٌ فى علم النجوم ، وليست معه عِلَّةٌ من هذه العلل ، وكان ذلك يخفى ، لكان ذلك كبعض الآياتِ والعلامات .

ومتى رأَينا حاذقاً بالكلام ، أَو بالطِّبِّ ، أَو بالحساب ، أَو بالغناءِ ، أَو بالنُّجوم ، أَو بالعَرُوض ، خَفِىَ على النَّاس موضعُه وسببُه ؟ !

وجميعُ ما ذكرنا ، فعنايةُ الناس به[١] وعداوتُهم ، وشُهرتُه فى نفسه ، دون محمد صلى الله عليه وسلم .

وهل نصب أَحدٌ قطُّ لأَحدٍ إِلَّا بدون ما نصَبَ له رهطُه[٢] ، وأَدانى أَهله[٣] ، ومن معه فى بَيته ورَبْعه .

وما أَعرِف ــ يرحمك الله ــ المعاندَ والمسترشِد والمصدِّق والمكذِّب ، ينكر أَنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن منجِّماً ولا طبيباً . وإذا قال الجاهل : إِنَّه قد كان يعلم الخطَّ فخفىَ له ذلك ، وتعلَّم الأَسبابَ والقضاءَ فى النجوم فخفىَ له ذلك ، وتعلَّم البيان وقدرَ منه[٤] على ما يعجز أَمثالُه عنه وخفىَ ذلك ، أَليس مع قوله ما يعلمُ خلافَه ، يعلم أَنَّه قد سلَّم له أُعجوبةً كأُعجوبةِ إِبراءِ الأَكمهِ والأَبرص ، والمشيِ على الماءِ ، إِذْ كان ذلك لا يجوز ، ولا يمكنُ فى الطبائِع والعقل والتَّجرِبة .

وافهمْ يرحمُك الله ما أَنا واصفُه لك : هل يجد التَّارك لتصديقهِ

---

(١) ب ، م : « عناية الناس به » .

(٢) نصب له : أظهر له العداء . ط : « وهل نسب أحد قط لأحد إلا دون مانسبه له رهطه » ، تحريف . وبعد كلمة « رهطه » فى كل من ب ، م وردت لفظة « نعمة » مقحمة .

(٣) الأدانى : جمع أدنى ، وهو الأقرب . ب ، م : « وأرانى » ، صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « وتعلم البيان على قدر منه » ، صوابه فى ط .

أنّه لا يدرى بزعمه ، لعلّه كان أَعلمَ الخلق بالنُّجوم ، ناظراً لنفسه ، غير معاندٍ لحجّة عقله . وهو لم يجد أحداً قطُّ بَرَع فى صناعةٍ واحدة فخفِىَ على الناس موضعُه بكلِّ ما حكينا وفسَّرنا .

وأنت كيف تعلم أنَّه ليس فى إخوانك مَن ليس بمنجِّم ، وأنَّ فيهم من ليس بطبيب ، إلَّا بمثلِ مايَعرِفُ به رهطُ النبى صلى الله عليه وآله منه .

وكيف لم يشتهر ذلك ، ولم لم يحتجَّ به عليه ؟ ولقد بلغ من إسرافهم فى شتمه ، وإفراطهم عليه ، أنْ نافَقُوا وأَحالوا ، لأنَّهم كانوا يقولون له : أنت ساحِرٌ ، وأنت مجنون ! وإنَّما يقال للرجل : ساحر ، لخلابته وحسن بيانه ، ولُطف مكايده ، وجودة مداراته وتحبُّبه . ويقال : مجنونٌ ، لضدِّ ذلك كله .

٣٥ — فصل منه

وليس ينتفع الناسُ بالكلام فى الأخبار إلَّا مع التَّصادُق ، ولا تصادقَ إلَّا مع كثرة السماع ، والعلمِ بالأُصول ؛ لأنَّ رجلًا لو نازع فى الأَخبار ، وفى الوعد والوعيد ، والخاصّ والعامّ ، والناسخ والمنسوخ ، والفريضة والنَّافلة ، والسُّنَّة والشَّريعة ، والاجتماع والفُرقة ، ثم حَسُنت نيّتُه ، وناصَحَ عن نفسه[1] ، لما عرف حقائق باطلٍ دون أن يكون قد عرف الوجوه ، وسمع الجُمَل[2] ، وعَرَف الموازنة ، وما كان فى الطبائع ، وما يمتنع فيها . وكيف أيضاً يقول فى التأْويل مَنْ لم يسمع بالتنزيل ؟ وكيف يعرف صِدْقَ الخبرِ من لم يعرف سبب الصدق[3] ؟

---

(١) فى اللسان (نضح) : « ويقال هو يناضح عن قومه وينافح عنهم ، أى يذب عنهم » . وفى جميع النسخ : « وناصح عن نفسه » ، صوابه ما أثبت .

(٢) ب : « وسمل الجمل » ، صوابه فى م ، ط .

(٣) م فقط : « سبب الخبر » .

واعلم أنَّ من عوَّد قلبَه التشكُّكَ[١] اعتراه الضعف ، والنَّفس عَرُوف[٢] ، فما عوّدتَها من شيءٍ جَرَتْ عليه .

والمتحَيِّر[٣] إلى تقوية قلبِه وردِّ قوَّته عليه وإفهامه موضعَ رأيه ، وتوقيفِه[٤] على الأمر الذى أثقلَ صَدره[٥] ، أحوَجُ منه إلى المنازعة فى فرق ما بين المجيءِ الذى يكذَّب مثلُه ، والمجيء الذى لا يكذَّب مثلُه .

وسنتكلَّف من علاج دائِه ، وترتيب إفهامه إنْ أعانَ على نفسه ، بما لا يُبْقِي سبباً للشك ، ولا عِلَّةً للضَّعف . والله تعالى المعينُ على ذلك ، والمحمود عليه .

٣٦ — فصل منه

ومتى سمِعنا نَبيَّ الله عليه السلام اتَّكل على عدالته ، وعلى معرفة قومه بقديم طهارته ، وقلَّةِ كذبه ، دون أن جاءهم بالعلامات والبُرهانات؟

ولعمرى لو لم نجد[٦] الحافظ يَنسى ، والصَّادقَ يَكذِب ، والمؤمنَ يبدِّل ، لقد كان ما ذهبوا إليه وجهاً .

٣٧ — فصل منه فى ذكر دلائل النبى عليه الصلاة والسلام

وبابٌ آخر يُعرف به صدقُه ، وهو إخباره عمَّا يكون ، وإخباره عن

---

(١) ب : « التشكلا » ، صوابه فى م ، ط .
(٢) ب ، ط : « عزوف » ، صوابها فى م .
(٣) فى جميع النسخ : « والمتخير » بالخاء المعجمة ، وإنما يراد هنا المتحير المتشكك ، فالوجه ما أثبت .
(٤) فى جميع النسخ : « وتوفيقه » ، تحريف ما أثبت .
(٥) ب : « انفل صدره » صواب هذه ما أثبت . وفى م ، ط : « أشغل صدره » ، وهى صحيحة أيضاً . لكن فى القاموس : « وأشغله لغة جيدة ، أو قليلة ، أو رديئة » .
(٦) ب ، م : « أن لو نجد » ، صوابه فى ط .

ضمائر الناس[١] ، وما يأكلون وما يدّخرون ، ولدعائه المستجاب الذى لا تأخيرَ فيه ، ولا خُلْف له . وذلك أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم حين لقىَ من قريشٍ والعربِ ما لقىَ من شِدَّة أذاهُم له ، وتكذيبهم إيَّاه ، واستعانتِهم عليه بالأَموال والرِّجال ، دعا الله جلّ وعزَّ أَنْ يُجدِبَ بلادهم ، وأَن يُدخِلَ الفقر بيوتهم ، فقال صلَّى الله عليه وآله : « اللهمَّ سِنينَ كَسِنِى يوسف[٢] . اللهم اشدُدْ وَطْأَتَك على مُضَر » .

فأَمسَكَ الله عزّ وجل عنهم المطَرَ حتَّى ماتَ الشَّجر ، وذَهَب الثَّمر ، وقَلَّت المزارعُ ، وماتت المواشى ، وحتَّى اشتَوَوا القِدَّ والعِلهز[٣] .

فعند ذلك وفَد حاجبُ بن زُرارة على كسرى ، يشكو إليه الجَهْد والأَزْل[٤] ويستأْذنه فى رعى السَّواد[٥] ، وهو حين ضمِنه عن قومِه ، وأَرهنَه قوسه . فلمَّا أَصاب مضَرَ خاصَّةً الجهدُ ، ونَهكهم الأَزْل ، وبلغت الحُجَّةُ مبلغَها ، وانتهت الموعظةُ منتهاها ، عادَ بفضله صلى الله عليه وسلم ، على الذى بدأَهم به ، فسأَل ربَّه الخِصْبَ وإدرار الغَيْث ، فأَتاهم منه ماهَدَم بُيوتَهم ، ومَنعهم حوائِجَهم ، فكلَّموه فى ذلك فقال : « اللهم حَوالَيْنا ولا عَلَيْنَا » . فأَمطر الله عزَّ وجلَّ ما حولهم ، وأَمْسَكَ عنهم .

وكتب إلى كسرى يَدعُوه إلى نجاته وتخليصِه من كُفره ، فبدأَ باسمِهِ على اسمِه ، فأَنِفَ من ذلك كسرى لشِقْوَته ، وأَمَر بتمزيق الكتاب ،

(١) ب فقط : « ضمير الناس » .

(٢) ب فقط « كسنين يوسف » ، تحريف . وكانت سنو يوسف سبعاً شداداً ذات قحط وغلاء . والحديث من أفراد البخارى . انظر الحديث ٦١٩ من الألف المختارة .

(٣) القد ، بالكسر : سير يقد من جلد غير مدبوغ . والعلهز ، كزبرج : خليط من الدم وأوبار الإبل ، وقد يخلطون به القردان ، ثم يشوونه بالنار ويأكلونه .

(٤) الأزل ، بالفتح : شدة الزمان ، يقال هم فى أزل من العيش وأزل من السنة .

(٥) السواد : جماعة النخل والشجر ، لخضرته واسوداده . وسواد العراق : ما حوالى مدنه من القرى والرسائيق .

فلمَّا بلغه صلَّى الله عليه وسلم قال : « اللهمَّ مزِّقْ مُلْكَه كُلَّ مُمزَّقٍ » . فمزَّق الله جلّ وعزّ ملكه ، وجَدَّ أَصله ، وقطع دابرَه ، لأَنَّ كلَّ ملكٍ فى الأَرض ، وإن كان قد أُخرِجَ من مُعظَم ملكِه ، فهو مقيمٌ على بقيّةٍ منه ، وذلك أَنَّ الإِسلام لم يترُكْ مَلِكاً بحيث تنالُه الحوافر والأَخفاف والأَقدام ، إلَّا أَزاله عنه ، وأَخرجه منه إلى عِقابٍ يعتصمُ بها[١] ، ومعاقلَ يأْوِى إليها ، أَو طرَدَه إلى خليجٍ منيع ، لا يقطعُه إلَّا السُّفُن[٢] ، فهم من بين هاربٍ قد دخل فى وِجارٍ ، أَو اختفى[٣] فى غَيْضة ، أَو مقيمٍ على فمِ شِعْبٍ ، ورأْس مَضيق ، قد سَخَتْ نفسُه عن كلِّ سهلٍ ، وأَسلَمَ كلَّ مَرْجٍ أَو مُلكٍ لا قرارَ له ، وليس بذى مَدَر فيُؤْتَى ، وإنَّما أَصحابه أَكرادٌ يَطلبون النُّجعة ، أَو كخوارج يَطلُبون الغِرّة[٤] . فأَمَّا أَن يكون مَلِكٌ يُصْحِرُ لهم[٥] ، ويقيم بإزائهم ، ويغاديهم الحرب ويُمسِّيهم ، ويساجلهم الظَّفرَ ويناهضهم ، كما كانت ملوكُ الطَّوائف ، وكالذى كان بين فارسَ والرُّوم — فلا ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ هو الذى أَرسَلَ رَسولَهُ بالهُدَى ودِينِ الحقِّ ليُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه[٦] ﴾ إلى قوله عزّ ذكره : ﴿ المشركون[٧] ﴾ . فلم يرضَ أَن أَظهرَ دينَه حتَّى جعل أَهلَه الغالبين بالقُدْرة ، والظَّاهرين بالمَنَعة ، والآخذين الإِتاوة .

---

(١) العقاب : جمع عقبة ، وهى طريق فى الجبل وعر .
(٢) ب : « لا يمنعه » ، صوابه فى م ، ط .
(٣) فى جميع النسخ : « واختفى » ، والوجه ما أثبت .
(٤) ب فقط : « العزة » .
(٥) أصحر : برز وظهر . ب ، م : « يصخر » ط : « يصهر » ، صوابهما ما أثبت .
(٦) الآية ٣٣ من سورة التوبة و ٢٨ من سورة الفتح و ٩ من سورة الصف . وختام الأولى والأخيرة : « ولوكره المشركون » ، وختام الوسطى : « وكفى بالله شهيدا » .
(٧) ب ، م : « الكافرون » ، تحريف ، صوابه فى ط .

وكتب كِسرى إلى فَيْروزَ الدَّيلمىّ[١] ، وهو من بقية أَصحاب سَيفِ بن ذى يَزَن : أَنِ احمِلْ إلىّ هذا العبدَ الذى بدأ باسمِه قبل اسمى ، واجترأ علىّ ، ودعانى إلى غير دينى ! فأَتاه فيروزُ فقال : إنَّ ربى أَمرنى أن أَحمِلَك إليه . فقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ ربِّى خبَّرنى أَنَّه قد قتَل ربَّك البارحة ، فأَمْسِكْ علىَّ ريثَمَا يأْتيك الخبر ، فإن تبيَّن لك صدق ، وإلَّا فأَنتَ على أَمرك » . فراع ذلك فَيروزَ وهالَه ، وكره الإقدامَ عليه ، والاستخفافَ به ، فإذا الخبر قد أَتاه : أَنَّ شيرويه قد وثب عليه فى تلك الليلةِ فقتله . فأَسلم وأَخلص ، ودعَا مَنْ معه من بقيَّة الفُرس إلى الله عزّ ذكره[٢] فأَسلموا .

٣٨ — فصل منه[٣] فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله

ثم إنَّ الذى تقدَّمه صلَّى الله عليه وآله من البِشارات فى الكتب المتقادِمة ، فى الأَزمان المتباعدة ، والبُلدان الموجودة بكلِّ مكان ، على شدة عداوة أَهلِها ، وتعصُّب حامليها ، ومع قوَّة حسدهم ، وشدَّة بغيهم . وما ذلك ببديعٍ منهم ومن آبائهم ، على أَنَّهم أَشبَهُ بآبائهم منهم بأَزمانهم . وكلُّ النَّاسِ أَشبه بأَزمانهم منهم بآبائهم . وآباؤهم الذين قتلوا أَنبياءَهم عليهم السلام ، وتعنَّتوا رسلهم صلى الله عليهم ، حتَّى خلَّاهم الله عزّ وجل من يده ، وأَفقدهم عِصمتَه وتوفيقه .

---

(١) فيروز الديلمى ، ويقال « فيروز بن الديلمى » كما فى ب ، وهو صحابى يكنى أبا الضحاك ، وأبا عبد الرحمن . وكان من أبناء الأساورة من فارس ، الذين كان كسرى قد بعثهم إلى قتال الحبشة . ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد إسلامه رجع إلى اليمن وأعان على قتل الأسود العنسى الكذاب ، وأتى برأسه إلى النبى صلى الله عليه وسلم. وقد سكن مصر . ومات فى خلافة عثمان ، وقيل فى خلافة معاوية ، باليمن سنة ٥٣ . الإصابة ٧٠٠٤

(٢) م : « عز وجل » .

(٣) منه ، ساقطة من ب .

ولم استدلَّ على ذكره فى التَّوراة والإنجيل والزَّبور ، وعلى صِفته والبشارة به فى الكُتب إلَّا لأنَّك[١] متى وجدتَ النَّصرانىَّ واليَهودىَّ يُسلم بأَرض الشام وجدتَه يَعتلُّ بأُمورٍ ، ويحتجُّ بأَشياءَ مثلِ الأُمور التى يحتجُّ بها من أَسلم بالعراق . وكذلك من أَسلم بالحجاز ، ومن أَسلم من اليمن ، من غير تلاقٍ ولا تعارف ، ولا تَشاعُر[٢] . وكيف يتلاقَوْن ويتراسلون ، وهم غير متعارفين ولا مُتشاعرين؟ ولو كانوا كذلك لظهر ذلك ولم ينكتِم ، كما حكينا قبلَ هذا . ولو قابلتَ بين أَخبارهم واحتجاجِهم مع كثرة الأَلفاظ واختلاف المعانى ، لوجدتَها متساوية .

٣٩ ــ فصل منه

فإن قال قائل : لِمَ كانت أَعلامُ موسى عليه السلام فى كثرتِها[٣] مع غَىِّ بنى إسرائيل ، ونقصان أَحلام القبط ، فى وزنِ أَعلام محمد صلى الله عليه وسلم وفى قَدْرها ، مع أَحلام قريش ، وعُقول العرب .

ومتى أَحببتَ أَن تعرفَ غَىَّ بنى إسرائيل ونُقصان[٤] أَحلام القِبْط ، ورُجحان عقول العرب[٥] ، وأَحلام كنانة[٦] ، فأْتِ[٧] بَواديَهم ورِباعَهم . وانظر إلى بنِيهم[٨] وبقاياهم ، كما نظرتَ إلى بنى إسرائيل من اليهود[٩] وغىِّ بنى من مضى من القبط ــ تعتبرْ ذلك وتعرفْ

(١) ب ، م : « بأنك » .

(٢) انظر ما سبق فى ص ٢٥٠

(٣) ب ، م : « وكثرتها » .

(٤) ط : « ونقص » .

(٥) رجحان ، ساقطة من ب ، م .

(٦) ب ، م : « وأحكام كنانة » .

(٧) ط : « فانظر » .

(٨) ب : « بينهم » ، صوابه فى م ، ط .

(٩) ب ، م : « من اليهود عليهم لعنة الله تعالى وعز وبين من مضى من القبط » .

ما أقول . ثم انظرْ فى أشعار العرب الصَّحيحة [١] ، والخُطَب المعروفة ، والأَمثال المضروبة ، والأَلفاظ المشهورة ، والمعانى المذكورة ، ممَّا نقلتْه الجماعاتُ عن الجماعات ، وكلامِ العربِ ومعانيهم فى الجاهليَّة . ثم تفقَّدْ ، وسَلْ أَهلَ العلم والخِبْرة عن بنى إسرائيل ، فإنْ وجدتَ لهم مثلًا سائراً كما تَسمع لِلقبطِ والفُرس ، فضلًا عن العرب فقد أبطَلْنا فيما قلنا .

وقد كان الرَّجلُ من العرب يقف المواقفَ ، ويسيِّر عدَّة أَمثال [٢] ، كلُّ واحدٍ منها ركنٌ يُبنَى عليه ، وأَصلٌ يتفرَّع منه [٣] .

أَوْ هل تسمع لهم [٤] بكلامٍ شريفٍ ، أَو معنًى يستحسنُه أَهلُ التَّجرِبة ، وأَصحابُ التَّدبير والسياسة ، أَو حُكمٍ [٥] أَو حِكْمة ، أَو حِذقٍ فى صناعة ، مع تَرادُف المُلْك فيهم ، وتَظاهُر الرِّسالة فى رجالهم .

وكيف لا تَقضِى عليهم بالغىِّ والجَهْل ، ولم تسمَعْ لهم بكلمةٍ فاخرةٍ ، أَو معنًى نَبيهٍ [٦] ، لا ممَّن كان فى المَبْدَى ، ولا ممَّن كان فى المحْضَر [٧] ، ولا من قاطنِى السَّواد [٨] ، ولا مِن نازلى الشَّام ؟

ثم انظُرْ إلى أَولادهم مع طول لُبثهم فينا ، وكَونِهم معنا ، هل غيَّر

(١) هذا ما فى م . وفى ب ، ط : « فى الأشعار الصحيحة » .
(٢) ب ، م : « ويسير عدة أميال » ط : « وينشئ عدة أمثال » ، وأثبت الصواب من بينهما .
(٣) ب ، م : « ركن يبنى وأصل لفرع منه » ، صوابه فى ط .
(٤) ب ، م : « أهم » ، صوابه فى ط .
(٥) ب ، م : « أو حكم » .
(٦) النبيه : الجليل المشهور . ب فقط : « بينة » ، تحريف .
(٧) المبدى : مكان خروجهم فى البادية ، خلاف المحضر فى الحاضرة . ب : « المبداء » م ، ط : « المبدأ » ، صوابهما ما أثبت .
(٨) ب فقط : « قاطن السواد » .

ذلك من أخلاقهم وشمائلهم ، وعقولِهم ، وأحلامهم ، وآدابهم ، وفِطَنهم ؟ فقد صَلَح بنا كثيرٌ من أمور النّصارى وغيرهم .

وليس النّصارى كاليهود ، لأنَّ اليهود كلّهم من بنى إسرائيل إلّا القليل .

وبعدُ ، فلم يضرِبْ فيهم غيرُهم ، لأنَّ مناكحهم مقصورةٌ فيهم ، ومحبوسةٌ عليهم ، فصُوَر أوّلهم مؤدّاةٌ إلى آخرهم [١] ، وعقولُ أسلافهم مردودةٌ على أخلافِهم [٢] ، ثم اعتبر بقولهم لنبيّهم عليه السلام : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً كما لَهُمْ آلِهَةٌ [٣] ﴾ حين مرّوا على قومٍ يَعكُفُون على أصنامٍ لهم يعبدونها . وكقولهم : ﴿ أَرِنَا اللهَ جَهرةً [٤] ﴾ ، وكعكوفهم على عجلٍ صُنِع من حُليِّهم ، يعبدونه من دون الله ، بعد أن أراهم من الآيات ما أراهم . وكقولهم : ﴿ اذهَبْ أنتَ وربُّك فقاتِلَا إنَّا هَا هُنَا قَاعِدُون [٥] ﴾ ، فكان الذى جاء به مُوسى عليه السلامُ ، مع نَقْص بنى إسرائيل والقِبط ، مثلَ الذى جاء به محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، مع رُجحانِ قريشٍ والعرب .

وكذلك وعدُ محمدٍ عليه السلامُ بنار الأبدِ ، كوعيد موسى بنى إسرائيل بإلقاء الهُلَاس على زروعهم [٦] ، والهَمِّ على أفئدتهم ، وتَسْليط المُوتان على ماشيتهم [٧] ، وبإخراجهم من ديارهم ، وأنْ يظفر بهم

---

(١) فى جميع النسخ : « قصوراً ولهم مودّاة إلى آخره » ، وأرى الوجه فيما أثبت .

(٢) الأخلاف : جمع خلف ، بالتحريك ، وهو الولد صالحاً كان أو طالحاً . ب ، م « أخلاقهم » ، صوابه فى ط .

(٣) من الآية ١٣٨ من الأعراف .

(٤) من الآية ١٥٣ من النساء .

(٥) من الآية ٢٤ من المائدة .

(٦) الهلاس ، بالضم : شبه السل من الهزال . وفى سفر اللاويين ٢٦ : ١٦ : « أسلط عليكم رعباً وسلا وحمى تفنى العينين ، وتتلف النفس ، وتزرعون باطلا زرعكم فيأكله أعداؤكم » .

(٧) انظر سفر اللاويين ٢٦ : ٢٢ . والموتان ، بالضم ويفتح : موت يقع فى الماشية .

عدوُّهم . فكان تعجيل العذاب الأدنى[١] فى استدعائهم واستمالتهم ، ورَدْعهم عمَّا يريد بهم ، وتعديل طبائعهم ، كتأْخير العذاب الشديد على غيرهم ، لأَنَّ الشديد[٢] المؤخَّر لا يزجُر إلَّا أَصحابَ النَّظر فى العواقب ، وأَصحابَ العقولِ التى تذهب فى المذاهب[٣] .

فسبحانَ من خالَفَ بين طبائعهم وشرائِعهم ليتَّفقوا على مصالحهم فى دُنْياهم ، ومَرَاشِدهم فى دينهم ، مع أَنَّ محمداً صلَّى الله عليه وسلم مخصوصٌ بعلامة لها فى العقل موقع ، كموقع فَلْق البحر من العَيْن ، وذلك قوله لقريشٍ خاصّةً ، وللعرب عامَّة ، مَعَ ما فيهما من الشُّعراء والخُطباء والبلغاءِ ، والدُّهاة والحُلَماء[٤] ، وأَصحابِ الرأْى والمكيدة ، والتَّجارب والنَّظر فى العاقبة : إنْ عارضتمونى بسورةٍ واحدةٍ فقد كذبتُ فى دعوایَ ، وصَدَقتم فى تكذيبى .

ولا يجوز أَن يكون مثلُ العربِ فى كثرة عددهم واختلافِ عللهم ، والكلامُ كلامُهم ، وهو سيِّدُ عملِهم ، فقد فاض بيانهم ، وجاشت به صدورهم ، وغلبتهم قُوّتُهم عليه عند أَنفسهم ، حتَّى قالوا فى الحيَّات والعقارب ، والذِّباب والكِلاب ، والخَنافس والجِعْلان ، والحميرِ والحَمام ، وكلِّ ما دبَّ ودرَج ، ولاح لعينٍ ، وخطر على قلب . ولهم بعدُ أَصنافُ النَّظمِ ، وضروبُ التأْليف ، كالقصيدِ[٥] ، والرَّجز ، والمزدوج ، والمُجانَس[٦] ، والأَسْجاع[٧] والمنثور .

---

(١) ب ، م : « الدون » .
(٢) ب فقط : « لأن العذاب » .
(٣) ب فقط : « بالمذاهب » .
(٤) الحلماء : ذوو الألباب والعقول . م فقط : « والحكماء » .
(٥) ب فقط : « كالقصة » .
(٦) هو ما عرف بعد بالجناس فى اصطلاح البلاغيين .
(٧) ب ، م : « الأشجاع » ، ط : « الأسماع » ، صوابهما ما أثبت .

وبعد ، فقد هَجَوْهُ من كلِّ جانب ، وهاجَى أَصحابُه شعراءَهم[(١)] ، ونازعوا خُطباءَهم ، وحاجُّوه فى المواقف ، وخاصَمُوه فى المواسم ، وبادَوْه العَداوة[(٢)] ، وناصَبُوه الحرب ، فقَتَل منهم ، وقَتَلوا منه ، وهم أَثبتُ النَّاسِ حِقداً ، وأَبعدُهم مطلباً ، وأَذكرهم لخير أَو لشرّ ، وأَنْفاهم له ، وأَهجاهم بالعَجْز ، وأَمدحهم بالقوَّة ، ثمَّ لا يُعارضه معارضٌ ، ولم يتكلَّف ذلك خطيبٌ ولا شاعر .

ومحالٌ فى التعارف ، ومستنكَرٌ فى التصادق ، أَن يكون الكلامُ أَخْصَر عندهم[(٣)] ، وأَيْسَرَ مَئُونةً عليهم ، وهو أَبلغ فى تكذيبهم وأَنقضُ[(٤)] لقوله ، وأَجدر أَن يعرف ذلك أَصحابُه[(٥)] فيجتمعوا على ترك استعماله ، والاستغناءِ به ، وهم يبذلون مُهَجَهُم[(٦)] وأَموالهم ، ويخرجون من ديارهم فى إطْفاءِ أَمره ، وفى توهينِ ما جاءَ به ، ولا يقولون ، بل لا يقول واحدٌ من جماعتهم : لِمَ تقتلون أَنفسكم[(٧)] ، وتستهلكون أَموالكم ، وتَخرجون من دِياركم ، والحيلةُ فى أَمره يسيرة ، والمأْخذ فى أَمره قريب ؟ ! ليؤلِّفْ واحدٌ من شعرائكم وخطبائكم كلاماً فى نظم كلامه ، كأَقصر سورة يُخذِّلكم بها ، وكأَصغر آيةٍ دعاكُم إلى معارضتها . بل لو نَسُوا ، ما تركَهم حتَّى يذكِّرَهم ، ولو تغافلوا ما ترك أَن ينبِّههم ، بل لم يرض بالتَّنبيه دون التوقيف .

---

(١) ب : « وهجى أصحابه شعراؤهم » .

(٢) يقال باداه بالعداوة : جاهره بها . وبادره إلى الشيء : عاجله وسابقه . ووردت « العداوة » هنا متعدياً إليها الفعل بغير الحرف . وفى ط : « وبادروه العداوة » .

(٣) من الاختصار . وفى اللسان : « الاختصار فى الكلام أن تدع الفضول وتستوجز الذى يأتى على المعنى » .

(٤) ب ، م : « وأنقص » بالصاد المهملة .

(٥) ذلك ، من ط فقط .

(٦) ب ، م : « ويبذلون » ب فقط : « مهجعهم » ، صوابه فى م ، ط .

(٧) ب ، م : « ولم تقتلون أنفسكم » .

فدلَّ ذلك العاقلَ على أَنَّ أَمرهم فى ذلك لا يخلو من أَحد أمرين :

إمَّا أَن يكونوا عَرَفوا عجزهم ، وأَنَّ مثلَ ذلك لا يتهيَّأُ لهم ، فرأَوا أَن الإضرابَ عن ذكره ، والتَّغافلَ عنه فى هذا الباب وإن قَرَّعهم به ، أَمثَل لهم فى التدبير ، وأَجْدَر[(١)] أَن لا يتكشَّفَ أَمرُهم للجاهل والضَّعيف ، وأَجدر أَن يَجدوا إلى الدعوى سبيلًا ، وإلى اختداع الأَنبياء سبباً ، فقد ادَّعَوا القُدرة بعد المعرفةِ بعجزِهم عنه ، وهو قوله عزّ ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا قالوا قد سَمِعْنا لَوْ نَشَاءُ لقُلْنَا مِثْلَ هذا[(٢)] ﴾ .

وهل يُذعِنُ الأَعرابُ وأَصحابُ الجاهليَّة للتَّقريع بالعجز[(٣)] ، والتَّوقيف على النقص ، ثم لا يبذلونَ مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونَهم[(٤)] وهم[(٥)] أَشدُّ خلق الله عز وجل أَنَفَةً ، وأَفرطُ حَمِيَّةً ، وأَطلبهُ بِطائلة ، وقد سمِعوهُ[(٦)] فى كل مَنهلٍ ومَوقِف . والنَّاسُ مُوكَّلون بالخَطَابات ، مُولَعون بالبلاغات . فمن كان شاهداً فقد سمعه ، ومن كان غائباً فقد أَتاه به من لم يُزوِّده[(٧)] .

وإمَّا أَن يكونَ غيرُ ذلك .

ولا يجوز أَن يُطْبِقوا[(٨)] على ترك المعارضةِ وهم يقدرون عليها ،

---

(١) ب ، م : « وأحذر » ، تحريف مافى ط .

(٢) الآية ٣١ من سورة الأنفال .

(٣) ب ، م : « والأعراب وأصحاب الجاهلية التفريع بالعجز » . وصواب النص وتمامه فى ط .

(٤) ب ، م : « ثم لا يبذل مجهودها ويخرج مكنونها » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « وهو » .

(٦) ب ، م : « وقد سمعته » .

(٧) نظر إلى قول طرفة فى معلقته :

ستبدى لك الأيام ماكنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ب ، م : « يروده » ، صوابه فى ط .

(٨) ب ، م : « أن يطيقوا » ، تحريف مافى ط .

لأنَّه لا يجوز على العدد الكثير من العُقَلاء والدهاة والحُلَماء[١] ، مع اختلاف عِلَلهم ، وبُعْد هِممهم ، وشدَّة عداوتهم الإطباقُ على بذل الكثير ، وصَون اليسير .

وهذا من ظاهر التَّدبير ، ومن جليل الأُمور التى لا تَخفَى على الجُهَّال فكيف على العقلاء ، وأهل المعارف[٢] فكيف على الأَعداء ، لأَنَّ تحبير الكلام أَهْوَنُ من القِتال ، ومن إخراج المال .

ولم يُقَلْ[٣] : إنَّ القوم قد تركوا مساءَلته[٤] فى القرآن والطَّعنَ فيه ، بعد أَن كثُرت خصومتهم فى غيره .

ويدلُّك على ذلك قولهُ عزّ وجلَّ[٥] : ﴿ وقال الذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ جُملةً واحدةً[٦] ﴾ وقوله عز ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بيِّناتٍ قال الذين لا يَرْجُونَ لِقاءَنا ائْتِ بقُرآنٍ غَيرِ هذا أَوْ بدِّلْه[٧] ﴾ ، وقوله تعالى جل ذكره : ﴿ وقال الذِينَ كَفَرُوا إنْ هَذَا إلَّا إفْكٌ افْتَرَاهُ وأَعانَهُ عليه قَومٌ آخرونَ[٨] ﴾ .

ويدلُّك كثرةُ هذه المراجَعةَ ، وطولُ هذه المناقلة ، على أَنَّ التقريع[٩] لهم بالعَجْز كان فاشياً ، وأَنَّ عجزَهم كان ظاهراً .

---

(١) ط فقط : « والحكماء » بالكاف . وانظر ما سبق فى ٢٧٥ .
(٢) ب ، م : « وعلى المعارف » ، تحريف مافى ط .
(٣) م ، ب : « ولم تقل » ، وأثبت مافى ط .
(٤) م : « مسايلته » ، وهى لغة جائزة فيها .
(٥) ذلك ، ساقطة من ب . وفى ب ، م : « عز ذكره » .
(٦) الآية ٣٢ من الفرقان . وفى م : « أنزل عليه » تحريف .
(٧) الآية ١٥ من يونس .
(٨) الآية ٤ من الفرقان .
(٩) م ، ط : « التفريع » ، صوابه فى ب .

ولو لم يكن النبيُّ صلى الله عليه وسلم تَحدَّاهم بالنَّظرَ والتأليف[١]، ولم يكن أيضاً أَزاحَ عِلَّتهم، حتَّى قال تعالى: ﴿ قلْ فأْتُوا بعَشْر سُوَرٍ مثلِهِ مُفْتَرَيات[٢] ﴾ وعارِضُونى بالكذب، لقد كان فى تفصيله له وتركيبه، وتقديمه له واحتجاجه، ما يدعو إلى معارضته ومغالبته وطلب مَسَاويه.

ولو لم يكن تحدَّاهم من كلِّ ما قلنا، وقَرَّعهم بالعَجْز عمَّا وصفنا — وهلْ هذا[٣] إلَّا بمديحه له، وإكثاره فيه — لكان ذلك سبباً مُوجباً لمعارضَتِه ومُغالبته وطلبِ تكذيبه، إذْ كان كلامُهم هو سيِّدَ عملهم، والمئونةُ فيه أخفُّ عليهم، وقد بَذَلوا النُّفوسَ والأَموال. وكيف ضاعَ منهم، وسَقَط على جماعتهم نيِّفاً وعشرين سنة، مع كَثْرةِ عددهم، وشِدَّة عُقولهم، واجتماعِ كلمتهم؟!

وهذا أمرٌ جليلُ الرَّأْى، ظاهرُ التدبير[٤].

٤٠ — فصل منه فى ذكر امتناعهم من معارضة القرآن لعلمهم بعجزهم عنها[٥]

والذى مَنَعهم من ذلك هو الذى منع ابن أَبى العَوْجاء[٦]، وإسحاق بن

(١) ب، م: «والتأليف».

(٢) الآية ١٣ من سورة هود. وبدلها لها فى ب، م: «فهاتوا مفتريات»، ويصح هذا الكلام لو لم يكن مسبوقاً بكلمة «تعالى».

(٣) ب، م: «قل هذا».

(٤) بعده فى ب: «لا يحمل من ابتداء القول فيه وساربه»، وفى م: «لحمل من ابتدأ القول فيه وساربه»، وهاتان العبارتان لم تردا فى ط.

(٥) ط: «فى كراهة امتناعهم عن معارضة القرآن لعجزهم عنها»، صوابه فى ب، م

(٦) هو عبد الكريم بن أبى العوجاء، من بنى عمرو بن ثعلبة بن عامر بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة، وكان أحد الزنادقة، صلبه محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس بالبصرة. جمهرة ابن حزم ٣١٦. وكان خال معن بن زائدة، وجمع بين أربعة أنواع من الضلالة: كان يرى فى السردين المانوية من الثنوية، وكان يقول بالتناسخ، وكان يميل إلى رأى الرافضة فى الإمامة، والرابع قوله بالقدر فى أبواب التعديل والتجوير. الفرق بين الفرق ٢٥٥ — ٢٥٦.

طالوت [١] ، والنعمان بن المنذرِ ،وأشباهَهم من الأَرجاس ، الذين استبدلوا بالعزِّ ذُلاً ، وبالإِيمان كُفْراً ، والسَّعادةِ شِقوةً [٢] ، وبالحجَّة شُبْهةً .

بل لا شُبْهة فى الزَّندقة خاصّة . فقد كانوا يَصنَعُون الآثار ، ويولِّدون الأَخبار ، ويبثُّونها فى الأَمصار ، ويَطعنون فى القرآن ، ويَسأَلون عن مُتشابهِهِ ، وعن خاصِّهِ وعامِّه [٣] ، ويضعون الكتبَ على أَهله . وليس شيءٌ ممَّا ذكرنا يستطيع دَفْعَه جاهلٌ غبىٌّ [٤] ، ولا معانِدٌ ذكىّ .

٤١ — فصل منه

ولمَّا كان أَعجبُ الأُمورِ عندقومِ فرعونَ السِّحرَ ، ولم يكن أَصحابُه قطُّ فى زمانٍ أَشدَّ استحكاماً فيه منهم فى زمانه ، بعث الله موسى عليه السلام على إِبطالِه وتَوهينه ، وكشْفِ ضَعْفه وإِظهاره ، ونقض أَصله [٥] لردع الأَغبياءِ من القوم [٦] ، ولمن نشأَ على ذلك من السّفلة والطَّغام . لأَنَّه لو كان أَتاهم بكلِّ شيءٍ ، ولم يأْتِهم بمعارضة السِّحر حتَّى يفصل بين الحجّة والحيلة ، لكانت نفوسُهم إِلى ذلك متطلِّعة ، ولَاعتلَّ به أَصحاب الأَشغاب [٧] ، ولشغلوا به بالَ الضَّعيف [٨] ، ولكن الله تعالى جدُّه ، أَراد حَسْم الداءِ ، وقَطْعَ المادة ، وأَن لا يجدَ المُبْطلون متعلَّقا ،

---

(١) يبدو أنه أحد الزنادقة ، ولم أجد له خبراً .

(٢) ب ، م : « شقاوة » ، وهما بمعنى ما يقابل السعادة . وفى التنزيل العزيز : « ربنا غلبت علينا شقوتنا » ، وقرأ ابن مسعود : « شقاوتنا » .

(٣) ب : « وعن خاصة وعامة » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) ب : « عى » م : « غى » ، صوابهما فى ط .

(٥) ب فقط : « ونقص أصله » ، تحريف .

(٦) بدل هذا كله فى ب : « لأغبيا القوم » وفى م : « الأغنياء القوم »

(٧) الأشغاب : جمع شغب ، بالتحريك ، وهى لغة ضعيفة فى الشغب ، بالفتح ، وهو تهييج الشر . وفى ب : « الأشعاب » وفى ط : « الأشغال » ، وأثبت مافى م .

(٨) ب فقط : « باب الضعيف » .

ولا إلى اختداع الضُّعفاءِ سبيلًا[(١)] ، مع ما أَعطى الله موسى عليه السَّلام من سائر البرهانات ، وضروب العلامات .

وكذلك زَمنُ عيسى عليه السلام كان الأَغلبُ على أهله ، وعلى خاصّة علمائِه الطِّبَّ ، وكانت عوامُّهم تعظِّم على ذلك خواصَّهم ، فأَرسَله الله عزّ وجلّ بإحياءِ المَوْتَى ، إذْ كانت[(٢)] غايتهم علاجَ المرضى . وأَبرأَ لهم الأَكمه[(٣)] إذْ كانت غايتهم علاجَ الرَّمِد[(٤)] ، مع ما أَعطاه الله عزّ وجلّ من سائر العلامات ، وضروبِ الآيات ؛ لأَنَّ الخاصَّة إذا بَخَعت بالطَّاعة[(٥)] ، وقهرتها الحجَّة ، وعَرفَتْ موضعَ العجز والقُوَّة ، وفَصْلَ ما بين الآيةِ والحيلة ، كان أَنجعَ للعامَّة ، وأَجدر[(٦)] أن لا يبقى فى أنفسهم بقيَّة .

وكذلك دَهْرُ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم ، كان أَغلبُ الأُمور عليهم ، وأَحسنُها عندهم ، وأَجلُّها فى صدورهم ، حُسْنَ البيانِ ، ونَظْمَ ضروبِ الكلام ، مع عِلمهم له ، وانفرادِهم به . فحين استحكمت لفهمهم[(٧)] وشاعت البلاغةُ فيهم ، وكثُر شعراؤُهم ، وفاقَ النَّاسَ خطباؤُهم ، بعثَه الله عزّ وجلّ ، فتحدَّاهم بما كانوا لا يشكُّون أَنَّهم يقدرون على أَكثَرَ منه .

---

(١) ب ، م : « للضعفا سبيلا » .

(٢) ب فقط : « إذا كانت »

(٣) ب : « وإبرائهم الأكمه » تحريف . وفى ط : « وإبراء الأكه » ، وأثبت مافى م . والأكمه : الذى يولد أعمى .

(٤) الرمد : وجع العين وانتفاخها ، وهو أرمد ورمد ، والأنثى رمداء . ب ، م : « الرمدى » ، صوابه فى ط .

(٥) بخعت : خضعت وأقرت . وفى ط فقط : « نجعت » تحريف وانظر ما مضى فى ص ٢٥٥ .

(٦) ب فقط : « واحدر » ، تحريف .

(٧) لفهمهم ، ساقطة من ب .

فلم يَزلْ يقرِّعهم بعجزِهم ، وينتقِصُهم على نَقْصهم[١] ، حتى تبيَّن ذلك لضعفائهم وعوامِّهم ، كما تبيَّن لأَقويائهم وخَواصِّهم . وكان ذلك من أَعجب ما آتاه اللهُ نبيًّا قطُّ[٢] ، مع سائر ما جاءَ به من الآيات ، ومن ضُروب البُرهانات .

ولكلِّ شيءٍ بابٌ ومَأْتًى ، واختصارٌ وتقريب . فمِن أَحكمِ الحكمة إرسالُ كلِّ نَبِيٍّ بما يفحِمُ أَعجَبَ الأُمورِ عندهم[٣] ، ويُبْطِلُ أَقوى الأَشياء فى ظَنِّهم .

٤٢ ــ فصل فى ذكر أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم

وآيةٌ أُخرى لا يَعرِفها إلَّا الخاصَّة ، ومتى ذكرتُ الخاصَّةَ فالعامَّةُ فى ذلك مثلُ الخاصَّة . وهى الأَخلاق والأَفعال التى لم تجتمع لبشرٍ قطُّ قبلَه[٤] ، ولا تجتمع لبشَرٍ بعده .

وذلك أَنَّا لم نَرَ ولم نسمعْ لأَحدٍ قطُّ كصَبرِه ، ولا كحلمِه ، ولا كوفائه ، ولا كزُهده ، ولا كجُوده ، ولا كنجدته ، ولا كصدْقِ لهجتِه ، وكرم عِشْرتِه[٥] ، ولا كتواضُعه ، ولا كعِلمه ، ولا كحِفْظه ، ولا كصمتِه إذا صَمَت ، ولا كقوله إذا قال ، ولا كعجيب مَنشئِه[٦] ، ولا كقلَّة

---

(١) انتقصه واستنقصه : نسب إليه النقصان . ب ، م : « ينقفهم » ، ط : « ينقصهم » ، والوجه ما أثبت .

(٢) لفظ الجلالة ثابت فى ط فقط .

(٣) أصل الإفحام الإسكات عن الجواب ، والمراد الفوق والغلبة . ب ، م : « يفهم » صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « لبشرى » فى هذا الموضع وتاليه . وأثبت مافى ط . والبشر : الإنسان ، يطلق على الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث .وقد يجمع على أبشار ، ويثنى كما فى قوله تعالى : « أنؤمن لبشرين مثلنا » .

(٥) العشرة : المخالطة والمصاحبة . وفى جميع النسخ : «عشيرته» ، صوابه ما أثبت . وأما عشيرة الرجل فهم بنو أبيه الأقربون وقبيلته .

(٦) ب ، م : « منشاه » .

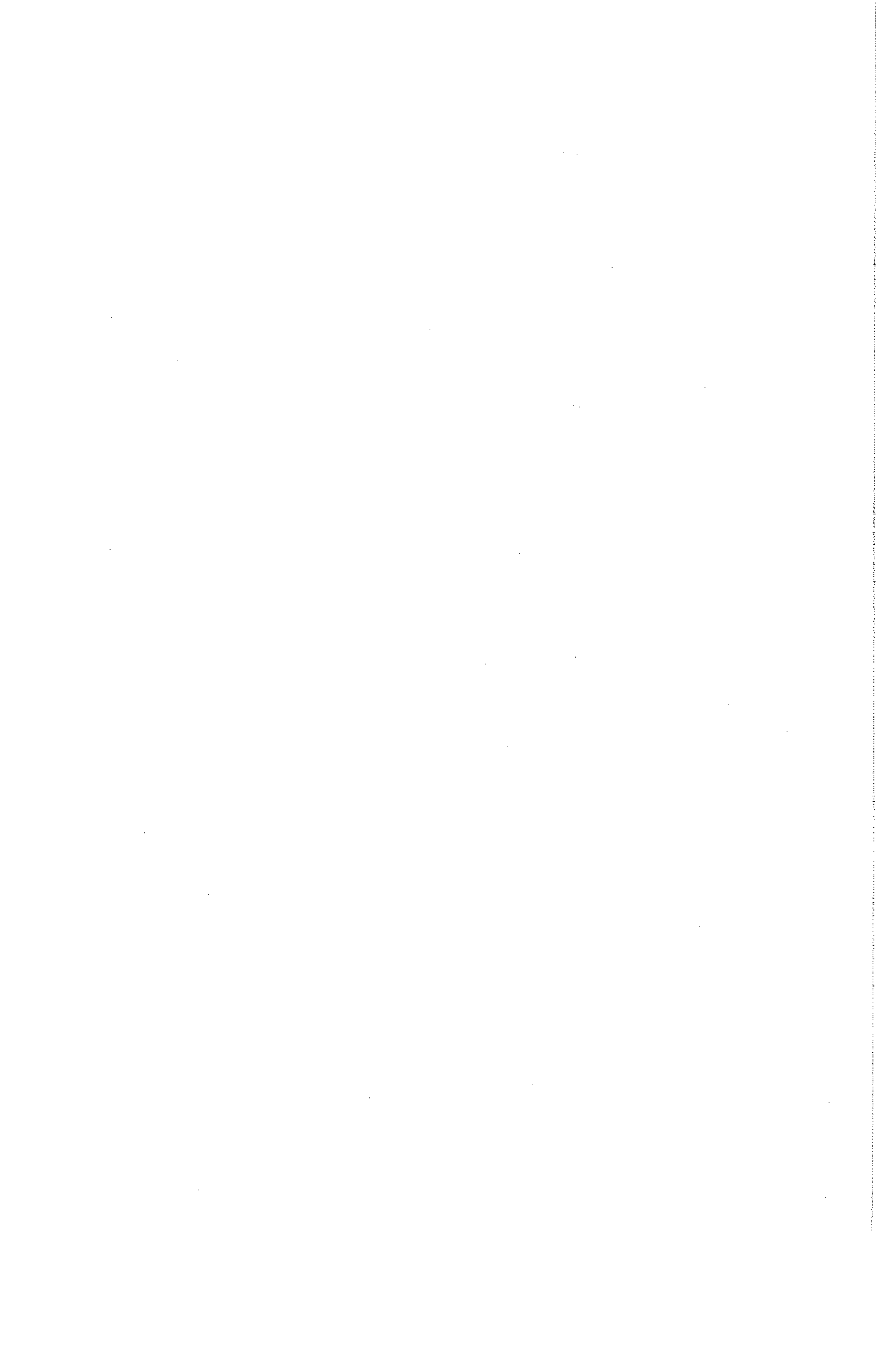
تلوّنه ، ولا كعَفوِهِ ، ولا كدوام طريقته ، وقلّة امتنانه .

ولم نَجِد[1] شجاعاً قطُّ إلّا وقد جال جَولةً ، وفرَّ فرّة ، وانحاز مَرّة ، من مَعدودِي شُجعان الإسلام ، ومشهوري فُرْسان الجاهليَّة ، كفلان وفلان .

وبَعْدُ ، فقد نَصَرَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهاجَرَ معه قومٌ ، ولم نر كنجدتهم نَجْدَةً ، ولا كصبرهم صبراً . وقد كانت لهم الْجَوْلةُ والفَرَّة[2] ، كما قد بلغك عن يوم أُحد ، وعن يوم حُنَين ، وغير ذلك من الوقائع والأَيَّام .

فلا يستطيع منافقٌ ولا زِنديقٌ ولا دُهريٌّ ، أَنْ يحدِّث أَنَّ محمداً عليه السلام جال جَولةً قطُّ[3] ، ولا فَرّ فَرّةً قطُّ ، ولا خَام عن غَزْوة ، ولا هابَ[4] حَرْبَ من كاثره .

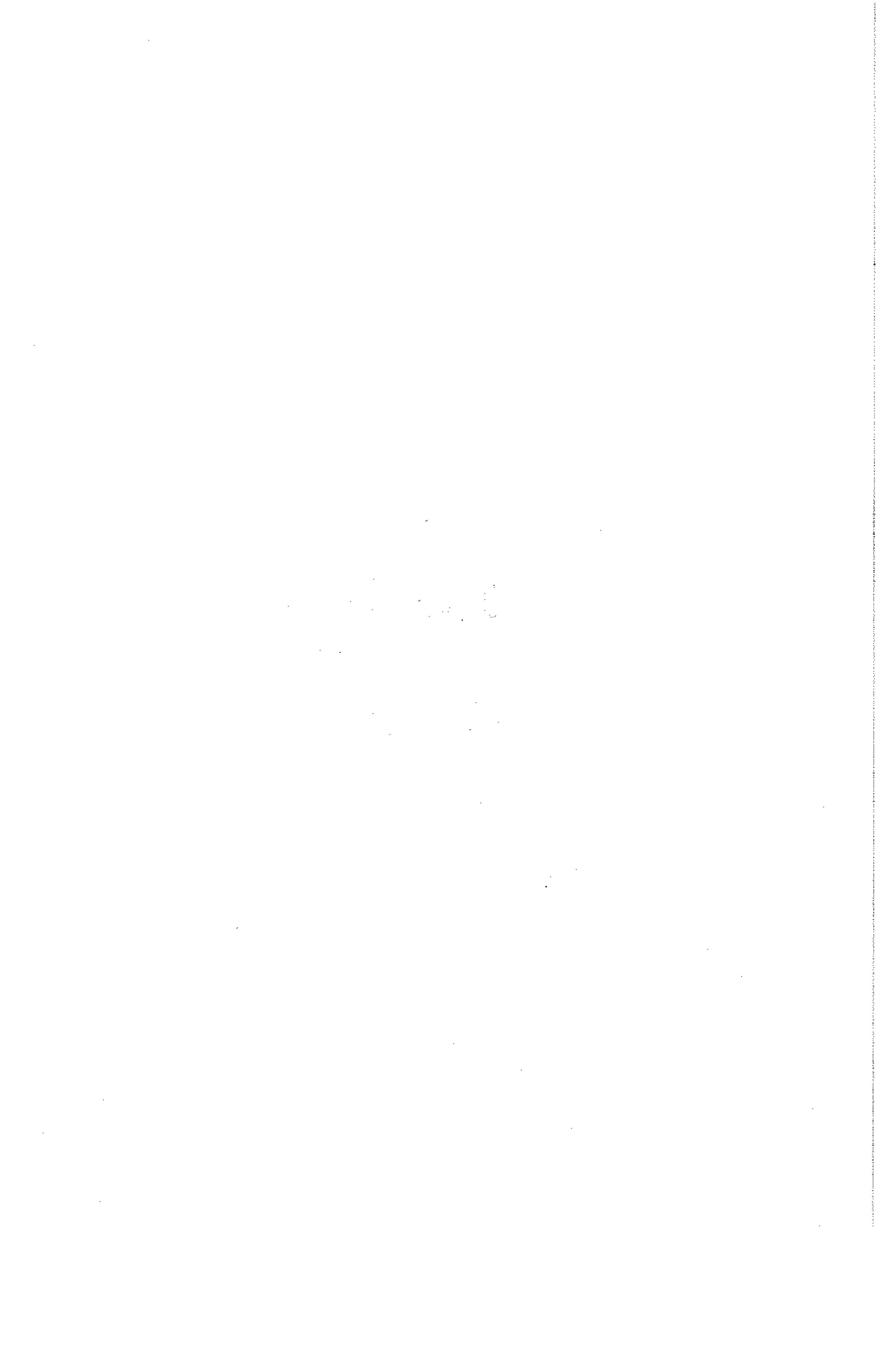
(١) ب ، م : « ولم تجد » بالتاء .
(٢) ب ، م : « والعزة » ، وليست مرادة هنا .
(٣) ب ، م : « فقط » في هذا الموضع وتاليه ، والصواب في ط .
(٤) ب ، م : « وهاب » .



٩

مِنْ كتابه في

خَلْقِ القُرآن



١ — فصل من صدر كتابه فى خلق القرآن[١]

ثبَّتك الله بالحجَّة ، وحصَّنَ دينك من كلِّ شُبهة ، وتَوفَّاك مسلماً ، وجعلك من الشاكرين .

وقد أَعجبنى[٢] ، حفِظَك الله ، استهداؤُك العِلمَ وفهمُك له ، وشَغَفُك بالإنصاف وميلُك إليه ، وتعظيمُك الحقَّ ومُوالاتُك فيه ، ورغبتُك عن التَّقليد وزِرايتُك عليه[٣] ، ومُواترةُ كُتُبِكَ على بُعْدِ دارِك ، وتقطُّعِ أَسبابِك ، وصَبْرُك إلى أَوان الإمكان ، واتِّساعُك عند تَضايُقِ العُذْر .

وفهمتُ ، حفظك الله ، كتابَكَ الأَوّل ، وما حثثتَ عليه من تباذُل العِلْم[٤] ، والتَّعاونِ على البحث ، والتَّحابِّ فى الدين ، والنصيحةِ لجميع المسلمين .

وقلتَ : اكتبْ إلىّ كتاباً تَقْصِد فيه إلى حاجات النُّفوس ، وإلى صَلَاح القلوب ، وإلى مُعتَلِجات الشُّكوك ، وخواطر الشُّبهات ، دونَ الذى عليه أَكثرُ المتكلِّمين من التَّطويل ، ومن التعمُّقِ والتعقيد ، ومن تكلُّف مالا يجب ، وإضاعةِ ما يجب .

وقلت : كُنْ كالمعلِّم الرَّفيق ، والمعالج الشفيق ، الذى يعرف الداءَ وسببَه ، والدواءَ وموقعَه ، ويَصبِر على طُول العلاج ، ولا يَسْأَم كثرةَ التَّرداد .

---

(١) هذا العنوان ساقط من ط ، والكلام فيها متصل بما سبق . ومثل ذلك فيما نشره السندوبى فى رسائل الجاحظ ١٤٧ وهو مظنة النقل من ط .

(٢) ط : « قد أعجبنى » بطرح الواو .

(٣) ط فقط : « ودرايتك عليه » .

(٤) ب ، م : «وما حثيت عليه من تباذل العلم » .

وقلت : اجعلْ تجارتك التى إيَّاها تُؤمِّل ، وصناعتَك التى إيَّاها تعتمد — إصلاحَ الفاسدِ ، وردَّ الشَّارد .

وقلت : ولا بدَّ من استجماع الأُصول ، ومن استيفاءِ الفروع ، ومن حَسْمِ كلِّ خاطر ، وقَمْع كلِّ ناجم ، وصرفِ كلِّ هاجس ، ودفْعِ كلِّ شاغل ، حتى تتمكَّن من الحجّة[١] ، وتتهنَّأ بالنعمة[٢] ، وتجد رائحةَ الكفاية ، وتَثْلَج ببرد اليقين ، وتُفْضِيَ إلى حقيقة الأَمر . إن كان لا بدَّ من عوارض العجز ، ولواحق التَّقصير ، فالبرُّ لها أَجمل[٣] ، والضرر علينا فى ذلك أَيسر .

وقلت : ابدأْ بالأَقرب فالأَقرب[٤] ، وبكلِّ ما كان آنقَ فى السَّمع ، وأَحلى فى الصَّدر ، وبالباب الذى منه يُؤتى الرَّيِّض المتكلِّف[٥] ، والجَسُورِ المتعجرف ، وبكلِّ ما كان أَكثَرَ علماً ، وأَنفذ كَيْدا .

وسأَلتنى بتقْبيح الاستبْداد[٦] ، والعجلةِ إلى الاعتقاد ، وصِفة الأَناة ومقدارِها ، ومقدِّمات العلوم ومنتهاها . وزعمتَ أَنَّ من اللفظ مالا يُفهَم معناه دون الإِشارة ، ودونَ معرفة السَّبب والهيئة ، ودون إِعادَته وكرِّه[٧] وتحريره واختيارِه[٨] .

---

(١) ب ، م : « حتى يتمكن من الحجة »

(٢) ب : « ويهنأ بالنعمة » ، م : « ويتهنأ بالنعمة » ، صوابهما فى ط .

(٣) ب ، م : « فالفروع لها أجمل » ، صوابه فى ط .

(٤) فى الأصول : « بالأخوف فالأخوف » ، صوابه ما أثبت . وانظر ما سيأتى فى ٢٩٣ س ١٠ .

(٥) أصله من الريض من الدواب ، وهو الذى لم يقبل الرياضة ولم يمهر المشية ولم يذل لراكبه ، فالمراد الذى يعسر التفاهم معه . ب ، ط : « المريض » م : « الربض » بالباء ، صوابهما ما أثبت .

(٦) ب ، م : « بتفتيح الاستنداد » ، ط : « بتفتيح الاستداد » ، والوجه ما أثبت .

(٧) ب ، م : « دون إعارته وكسوه » ط : « دون إعارته وركته » وبسقوط الواو منهما ، صوابهما ما أثبت . والكر : الإعادة ، يقال كر عليه الحديث : أعاده .

(٨) فى جميع النسخ : « وتحديده واحتيازه » ، تحريف ما أثبت .

وقلت : فإنْ أنت لم تصوِّر ذلك كلَّه صورة تُغْنى عن المشافهة ، وتكتفى بظاهرها عن المراسلة[١] ـ أَحوجْتَنا إلى لقائك ، على بُعْد دارك[٢] ، وكثرةِ أَشغالك ، وعلى ما تَخاف من الضَّيعة وفساد المعيشة .

فكتبت لك كتاباً ، أَجهدتُ فيه نفسى[٣] ، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلى فى الاحتجاج للقرآن ، والرَّدِّ على كلِّ طعَّان . فلم أَدَعْ فيه مسأَلةً لرافضيٍّ ، ولا لحديثى ، ولا لحُشْوىٍّ ، ولا لكافرٍ مُبادٍ ، ولا لمنافقٍ مقموع ، ولا لأَصحاب النَّظَّام ، ولمن نَجَمَ بعدَ النَّظَّام ، ممَّن يزعُم أَنَّ القرآن خَلْقٌ[٤] ، وليس تأْليفُه بحجَّة ، وأَنَّه تنزيلٌ وليس ببُرهان ولا دَلالة .

فلمَّا ظننت[٥] أَنِّى قد بلغت أَقصَى محبَّتك ، وأَتيتُ على معنى صفتك ، أَتانى كتابُك تذكر أَنَّك لم تُرد الاحتجاجَ لنظم القرآن ، وإنَّما أَردت الاحتجاجَ لخَلْق القرآن . وكانت مسأَلتك مبهمةً ، ولم أَكُ أَنْ أُحدثَ لك فيها تأْليفاً[٦] ، فكتبت لك أَشقَّ الكتابين وأَثقلهما ، وأَغمَضَهُمَا معنىً وأَطولَهما .

ولولا ما اعتللتَ به من اعتراض الرَّافضة ، واحتجاج القوم علينا بمذهب مُعمَّر[٧] ، وأَبى كَلَدة[٨] ، وعبد الحميد ، وثُمامة[٩] ، وكلٍّ مَنْ

---

(١) ط فقط : « المرسلة » .

(٢) م فقط : « بد دارك » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « أجتهد فيه نفسى » ، صوابه فى ط .

(٤) خلق ، أى مخلوق . وفى جميع النسخ : « حق » .

(٥) ب فقط : « فما ظننت » .

(٦) فى جميع النسخ : « تأليفه » ، والوجه ما أثبت .

(٧) معمر بن عباد السلمى ، صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة . الملل ١ : ٨٣ / ٢ : ١٦ والمواقف ٦٢٣ والفرق بين الفرق ١٣٦ . وهو بتشديد الميم كما فى لسان الميزان ٦ : ٧١ .

(٨) أبو كلدة : ذكر الجاحظ بعض آرائه فى الحيوان ١ : ٣/٢٣٤ : ٣٩٥ / ٤ : ٣٣٢ .

(٩) ثمامة بن أشرس : أحد المعتزلة البصريين . ورد بغداد واتصل بهارون وغيره من الخلفاء . وله أخبار ونوادر يحكيها عنه أبو عثمان الجاحظ وغير واحد . تاريخ بغداد ٧ : ١٤٥=

زعَم أَنَّ أَفعال الطَّبيعة مخلوقة على المجاز دون الحقيقة ، وأَنَّ متكلِّمى الحَشْوِيَّة[(١)] والنابتة قد صار لهم بمناظرة أَصحابنا ، وبقراءة كُتبنا بعضُ الفطنة — لمَا كتبتُ لك ، رغبةً بك عن أَقدارهم ، وضَنًّا[(٢)] بالحكمة عن إعثارهم[(٣)] ، وإنَّما يكتب على الخصوم والأَكْفاء[(٤)] ، وللأَولياء على الأَعداء ، ولمن يرى[(٥)] للنَّظر حقًّا ، وللعلم قَدْراً ، وله فى الإِنصاف مذهبٌ ، وإلى المعرفة سبب .

وزعمتَ أَنَّك لم تر فى كُتُب أَصحابنا إلَّا كتاباً لا تفهمُه ، أَو كتاباً وجدتَ الحجَّة على واضعِ الكتابِ فيه أَثْبَت .

وقلت : وإيَّاك أَن تتَّكل على مقدارِ ما عِندهم ، دون أَن تعتصر[(٦)] قُوَى باطلهم ، وتوفِّيَهم جميعَ حقوقهم ، وإذا تقلَّدتَ الإِخبار عن خَصْمك فحُطْه كحياطتك لنفسك ، فإنَّ ذلك أَبلغُ فى التَّعليم ، وآيَسُ[(٧)] للخُصوم .

= وانظر البيان : ١٠٥ وعيون الأخبار ٣ : ٣٧ وتأويل مختلف الحديث ٦٠ والفرق ١٥٩ ولسان الميزان ٢ : ٨٤ .

(١) الحشوية : بفتح الشين وسكونها ، فبالسكون نسبة إلى الحشو ، وبالفتح نسبة إلى الحشا ، لأن الحسن البصرى أمر بردهم إلى حشا الحلقة ، أى جانبها ، وهم طائفة اختلف العلماء فى تعريفها . فابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ يذكر فى تأويل مختلف الحديث ص ٩٦ أنها من الألقاب التى كان أهل الحديث يلقبون بها . قال : « وقد لقبوهم بالحشوية والنابتة والمجبرة » . وقال النوبختى فى كتاب فرق الشيعة ص ٧ : « والبترية أصحاب الحديث منهم سفيان بن سعيد الثورى ، وشريك بن عبد الله ، وابن أبى ليلى ، ومحمد بن إدريس الشافعى ، ومالك بن أنس ، ونظراؤهم من أهل الحشو والجمهور العظيم . وقد سموا الحشوية . ويطلقون هذا اللفظ أيضاً على « المشبهة » الذين يشبهون الله بخلقه وكذا على المجسمة . انظر شفاء الغليل ٧١ . وفى ب ، م : « الحشوة » ، صوابه فى ط .

(٢) ب ، م : « وظنا » ، صوابه فى ط .

(٣) أعثره على الأمر : أطلعه عليه . وفى التنزيل العزيز : « وكذلك أعثرنا عليهم » ، أى أطلعنا .

(٤) ب فقط : « عن الخصوم والأكفاء » .

(٥) ب ، م : « لمن يرى » بسقوط الواو .

(٦) ب ، م : « تقتصر » ، صوابه فى ط .

(٧) ب ، م : « وأأيس » .

وقلتَ : وزعموا أَنَّه يلزُمك أن تزعم أَنَّ القرآن ليس بمخلوقٍ إلَّا على المجاز ، كما أَلزم ذلك نَفْسه[١] معمَّر وأَبو كَلَدة وعبدُ الحميد وثُمامة ، وكلُّ مَن ذَهَب مذهبَهم ، وقاس قياسَهم .

فتفهَّمْ — فهَّمك الله — ما أَنا واصفُه لك ، ومُوردُه عليك[٢] :

اعلم أَنَّ القوم يلزمهم ما أَلزمُوه أنفسَهم ، وليس ذلك إلَّا لعجزهم عن التخلُّص بحقِّهم ، وإلَّا لذَهابهم عن قواعد قولهم[٣] ، وفرُوع أُصولهم، فليس لك أن تضيف العجز الذى كان منهم إلى أَصل مقالتهم ، وتحمل ذلك الخطأَ على غيرهم[٤] . فلرُبَّ قولٍ شريفِ الحسب ، جيِّد المُركَّبِ ، وافرِ العِرض ، برىءٍ من العُيوب ، سليمٍ من الأَفْن ، قد ضيَّعه أَهلُه ، وهجَّنه المفْتَرون عليه ، فأَلزموه مالا يلزَمه ، وأَضافوا إليه مالا يجوز عليه .

ولو زعم القومُ على أَصل مقالتهم أَنَّ القرآن هو الجسم دونَ الصَّوت والتقطيع ، والنَّظم والتَّأْليف ، وأَنَّه ليس بصوتٍ ولا تقطيع ولا تأْليف ، إذْ كان الصوت عندهم لا يُختَرع كاختراع الأَجسام المصوَّرة[٥] ، ولا يحتمل التَّقطيع كاحتمال الأَجرام المتجسِّدة ، والصَّوتُ عَرَضٌ ، لا يحدث من جوهرٍ إلَّا بدخولِ جوهرٍ آخَرَ عليه ، ومحالٌ أَن يَحدُثَ إلَّا وهناك جِسمانِ قد صكَّ أَحدُهما صاحبَه ، ولا بدَّ من مكانين : مكانٍ زال عنه ، ومكانٍ آل إليه . ولا بد من هواءٍ بين المُصْطكَّين . والجسمُ قد يحدُثُ وحدَه ولا شيء غيره ، والصَّوت على خلافِ ذلك .

(١) ط فقط : « لنفسه » .
(٢) ط فقط : « ومورد عليك » .
(٣) ب ، م : « عواقب قولهم » .
(٤) ب ، م : « وحمل » تحريف . وفى م أيضاً : « الحظا » تحريف .
(٥) ب ، م : « المصوبة » ، صوابه فى ط .

والعرض لا يَقُوم بنفْسه ، ولا بدَّ من أَنْ يقومَ بغيره ، والأَعراض من أَعمال الأَجسام ، لا تكون إِلَّا منها ، ولا تُوجد إِلَّا بها وفيها[١] . والجسم[٢] لا يكون إِلَّا من جسم ، ولا يكون إِلَّا مِنْ مخترِع الأَجسام . وليست لكون الجسمِ من الله عِلَّةٌ توجبه ، ولا يَحدُث إِذَا حدثَ إِلَّا اختياراً ، وإِلَّا ابتداعاً واختراعاً . والصَّوت لا يكون إِلَّا عن علَّةٍ موجبة ، ولا يكون إلا تولُّداً ونتيجةً ، ولا يحدُث إِلَّا من جِرمَين ، كاصطكاك الحجَرين ، وكقَرْع اللِّسان باطن الأَسنان ، وإِلَّا من هواءٍ يَتَضاغط[٣] ، وريح تختنق[٤] ، ونارٍ تلتهب . والرِّيح عندهم هواءٌ تحرَّك ، والنَّار عندهم ريحٌ حارّة . هكذا الأَمرُ عندهم .

فلو قالُوا : لا يكون الشيءُ مخلوقاً فى الحقيقة ، دون المجازِ وعلى مجازىِّ اللغة ، إِلَّا وقد بانَ الله عز وجلَّ باختراعه ، وتولَّاه بابتداعه ، وكان منه على اختيارٍ ، والابتداعُ[٥] : الذى يمكن تَركُه وإِنشاءُ عَقِيبه بدلًا منه ، على ما كان يوكِّده[٦] ، ونتيجتُه من أَجسامٍ يستحيل أَن يُخلَق من أَفعالها ، ويَجلبها الله تعالى منها[٧] .

والقرآن على غيرِ ذلك ، جسمٌ وصوت ، وذو تـأْليفٍ وذو نظمٍ ، وتوقيعٍ وتقطيعٍ ، وخلقٌ قائمٌ بنفسه ، مستغنٍ عن غيره ، ومسموع فى الهواء[٨] ، ومرئىٌّ فى الوَرَق ، ومفصَّل وموصَّل ، واجتماعٌ وافتراق ،

(١) ب ، م : « لايكون » و « ولايوجد » بالياء فيهما ، والصواب من ط .
(٢) ب فقط : « من الجسم » ولا وجه له .
(٣) ب ، م : « والأمر هواء يتضاغط » ، تحريف .
(٤) ب : « تحيق » ، م « تحنيق » محرف .
(٥) ب : « والابتدا » ، صوابه فى م ، ط .
(٦) ب : « بولده » م : « تولده » ، وأثبت ما فى ط .
(٧) م : « ويجعلها » ط : « ويحلها » ، وأثبت ما فى ب .
(٨) ب ، ط : « فى الهوى » ، صوابه فى م .

ويحتمل الزِّيادة والنُّقصان ، والفَنَاءَ والبَقَاءَ ، وكلّ ما احتملتْهُ الأَجسام ، ووُصِفَتْ به الأَجرام . وكلُّ ما كان[١] كذلك فمخلوقٌ فى الحقيقة دون المجاز وتوسُّعِ أَهلِ اللغة .

فلو كانوا قالوا ذلك لكانوا أَصابوا فى القياس ، ووافَقُوا أَهلَ الحقِّ ، وكانوا مع الجماعة ، ولم يُضَاهُوا أَهل الخِلاف والفُرْقة ، ولم يَصِمِوا أَنفسَهم[٢] بقول المشبِّهة ، إِذْ كان ظاهر قولهم على التَّشبيه أَدلَّ ، وبه أَشبه .

ولا يجوز أَن أَذكر موافقىّ لهم ، ومخالفىّ عليهم فى صدرِ هذا الكتاب ، لأَنَّ التدبير فى وضع الكتاب ، والسياسةَ فى تعليم الجهّال أَن يُبدَأَ بالأَوضح فالأَوضح ، والأَقرب فالأَقرب ، وبالأُصولِ قبلَ الفروع ، حتَّى يكون آخر الكتاب لآخر القياس .

وآخِرِ الكلام لا يفهم ـ أَرشدك الله ـ ولا يُتوهَّم إِلَّا على ترتيب الأُمور ، وتقدِيمِ الأُصول . فإِذا رتَّبنا الأُمورَ ، وقدَّمْنا الأُصولَ صارت أَواخرُ المعانى فى الفهم كأَوائلها ، ودقيقُها كجليلها[٣] .

٢ ـ فصل منه

وقد علمْنا أَنَّ بعض ما فيه الاختلافُ بين من ينتحل الإِسلام أَعظَمُ فِريَةً[٤] ، وأَشدُّ بليَّةً ، وأَشنَعُ كُفراً ، وأَكبرُ إِثماً مِن كثيرٍ ممَّا أَجمعوا على أَنَّه كفر .

---

(١) ب ، م : « وكلما كان » خطأ كتابى . وفى ط : « كل ما » بدون واو .

(٢) فى جميع النسخ : « ولم يفهموا أنفسهم » .

(٣) ط فقط : « ورقيقها كجليلها » ، تحريف .

(٤) الفرية ، بكسر الفاء : الاسم من الافتراء ، وهو الاختلاق والكذب . ب فقط : « قرية » محرف .

وبعدُ ، فنحن لم نكفِّر إلَّا مَن أَوسعناهُ حُجّة ، ولم نَمْتحِنْ إلَّا أهل التُّهمَة ، وليس كشف المتّهم من التَّجسُّس [١] ، ولا امتحان الظَّنين مِن هَتْك الأَستار . ولو كان كلُّ كشفٍ هَتْكاً ، وكلُّ امتحان تَجَسُّساً [٢] ، لكان القاضى أهتَكَ النَّاسِ لِسترٍ ، وأَشدَّ الناسِ كشفاً لعورة .

والذين خالفوا فى العَرْش إنَّما أَرادوا نَفْىَ التشبيه فَغَلِطوا ، والذين أَنكروا أَمر الميزان [٣] إنَّما كرهوا أَنْ تكون الأَعمال أَجساماً وأَجراماً غلاظاً . فإنْ كانوا قد أَصابوا فلا سبيلَ عليهم ، وإن كان قد أخطئوا فإنَّ خطأَهم لا يتجاوزُ بهم إلى الكفر . وقولُهم وخِلافُهم بَعْدَ ظهورِ الحجّة تشبيهٌ للخالق بالمخلوق [٤] ، فبينَ المذهبينِ أَبْيَنُ الفَرْق [٥] .

وقد قال صاحبُكم للخليفة المعتصم ، يومَ جَمَعَ الفقهاءَ والمتكلِّمين والقُضاةَ والمخلصين ، إعذاراً وإنذاراً : امتحنتَنى وأَنتَ تعرف ما فى المحْنة ، وما فيها من الفتنة ، ثم امتحنتَنى من بين جميعِ هذه الأُمّة ! قال المعتصم : أَخطأْتَ ، بل كذبت ، وجدتُ الخليفةَ قبلى قد حَبَسَك وقيَّدك ، ولو لم يكن حَبَسك على تُهمَة لأَمْضَى الحكم فيك ، ولو لم يَخَفْكَ على الإسلام ما عَرَض لك ، فسؤالى إيَّاكَ عن نَفْسك ليس من المِحْنة ، ولا من طريق الاعتساف [٦] ، ولا من طريق كَشْف العورة ، إذْ كانت حالُكَ هذه الحالَ ، وسبيلُكَ هذه السَّبيل .

وقيل للمعتصم فى ذلك المجلس : أَلَا تَبعث إلى أَصحابه حتَّى يشهدوا إقراره ، ويُعايِنُوا انقطاعَه ، فينقُضَ ذلك استبصارُهم ، فلا يمكنَه

(١) م : « من التحسس » ، وهما بمعنى ، وبه فسر قوله تعالى : « ولا تجسسوا » .
(٢) م : « تحسسا » . وانظر الحاشية السابقة .
(٣) ب ، م : « والذين أنكروا معناكم فى الميزان » ، والوجه ما أثبت من ط .
(٤) ب ، م : « لخلق بالمخلوق » ، والصواب من ط .
(٥) ب : « المفرق » ، تحريف ما أثبت من م ، ط .
(٦) ولا من طريق الاعتساف ، ساقط من م .

جَحْدُ ما أَقرَّ به عندهم[١]؟ فأَبَى أَن يقبل ذلك ، وأَنكره عليهم ، وقال : لا أُريد أَنْ أُوتَى بقوم إن اتَّهمتُهم مُيِّزْتُ فيهم بسيرتى فيهم[٢] ، وإِنْ بانَ لى أَمرُهم أَنفذْتُ حُكْمَ الله فيهم ، وهم ما لم أُوتَ بهم[٣] كسائر الرعيَّة ، وكغيرهم من عوام الأُمّة ، وما من شئٍ[٤] أَحبَّ إِلىّ من السَّتر ، ولا شئَ أَولى بى من الأَناة والرِّفق .

وما زال به رفيقاً ، وعليه رقيقاً ، ويقول : لأَنْ أَستحيِيَكَ بحقٍّ أَحبُّ إلىَّ من أَن أَقتلك بحقٍّ ! حتَّى رآه يُعاند الحجة ، ويَكذِب صُراحاً عند الجواب . وكان آخر ما عانَدَ فيه ، وأَنكر الحقَّ وهو يراه ، أَنَّ أَحمد بنَ أَبى دُوَادٍ[٥] قال له : أَليس لا شئَ إِلَّا قديمٌ أَو حديث ؟ قال : نعم . قال : أَوَ ليس القرآنُ شيئاً ؟ قال : نعم . قال : أَو ليس لا قديمَ[٦] إِلَّا الله ؟ قال : نعم . قال : فالقرآنُ إِذاً حديث ؟ قال : ليس أَنا متكلِّم[٧] .

وكذلك كان يَصنَع فى جميع مسائله ، حتَّى كان يجيبه فى كلِّ ما سأَل عنه ، حتى إذا بلغ المُخَنَّق[٨] ، والموضِعَ الذى إِنْ قال فيه كلمةً واحدة بَرِئَ منه أَصحابه قال : ليس أَنا متكلِّم !

---

(١) ب ، م : « جحدها أقر به عندهم » ، صوابه فى ط .
(٢) ب ، م : « فيه » .
(٣) ب ، م : « مالم أوتى بهم » ، صوابه فى ط .
(٤) م ، ط : « وما شىء » .
(٥) فى جميع النسخ : « أبى داود » ، تحريف .
(٦) ب : « أوليس ألا قديم » .
(٧) كذا فى جميع الأصول ، فى هذا الموضع وتاليه فى آخر هذه الصفحة .
(٨) فى اللسان : « يقال بلغ منه المخنق ، وأخذت بمخنقه ، أى موضع الخناق . وأنشد ابن برى لأبى النجم :

* والنفس قد طارت إلى المخنق * » .

وفى م ، ط : « المختنق » ، تحريف .

فلا هو قال فى أَوّل الأَمر : لا علمَ لى بالكَلَام ، ولا هو حين تكلَّم فبلغ موضعَ ظُهور الحجَّة[١] ، خَضَع للحقَّ . فمقتَه الخليفةُ ، وقال عند ذلك : أُفٍّ لهذا الجاهل مَرّة ، والمُعانِد مرَّة .

وأَمَّا الموضع الذى واجَهَ فيه الخليفةَ بالكذب ، والجماعةَ بالقِحَة[٢] ، وقلةِ الاكتراث وشدَّة التَّصميم ، فهو حين قال له أَحمدُ بنُ أَبى دُوَاد[٣] : تزعم أَنَّ الله ربُّ القرآن ؟ قال : لو سمعتُ أَحداً يقول ذلك لقُلت . قال : أَفَمَا سمعتَ ذلك قطُّ من حالفٍ[٤] ولا سائل ، ولا من قاصٍّ ، ولا فى شعرٍ ، ولا فى حديث ؟ !

قال : فعرف الخليفة كذِبه عند المسأَلة ، كما عرف عُنُوده[٥] عند الحجَّة .

وأَحمد بن أَبى دُواد[٦] ــ حفظَك الله ــ أَعلمُ بهذا الكلام ، وبغيره من أَجْناسِ العلم ، من أَن يجعل هذا الاستفهام مسأَلة ، ويعتمدَ عليها فى مثل تلك الجماعة . ولكنَّه أَراد أَن يكشف لهم جُرْأَته[٧] على الكذب ، كما كشف لهم جرأَته[٨] فى المعاندة . فعند ذلك ضربَه الخليفة .

وأَيَّةُ حجَّةٍ لكم فى امتحاننا إِيّاكم ، وفى إِكفارنا لكم .

وزعَم يومئذٍ أَنَّ حكم كلام الله كحكم علمه ، فكما لا يجوز أَن

---

(١) ب ، م : « ظهور الحجة والحجة » .
(٢) القحة : الوقاحة . ب فقط : « بالخلقحة » ، تحريف .
(٣) فى جميع النسخ : « داود » ، تحريف .
(٤) ط ، م : « خالف » بالخاء المعجمة .
(٥) العنود والعناد : الميل عن الحق . ط فقط : « عناده » .
(٦) فى جميع النسخ : « داود » .
(٧) ب : « جراءته » ، وأثبت مافى م ، ط .
(٨) ب ، م : « جراءته » ، وأثبت مافى ط .

يكون علمُه مُحدثاً ومخلوقاً ، فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً مُحْدثاً . فقال له : أليس قد كان الله يقدر أن يبدِّل آيةً مكان آية ، ويَنْسَخَ آيةً بآية ، وأن يَذهَب بهذا القرآن ، ويأْتِىَ بغيره ، وكلُّ ذلك فى الكتاب مَسطور ؟ قال : نعم . قال : فهل كان يجوز هذا فى العلم ، وهل كان جائزاً أَنْ يبدِّل الله علمه ، ويذهب به ، ويأْتى بغيره ؟ قال : ليس[1] .

وقال له : رَوَيْنا فى تثبيت ما نقول[2] الآثارَ ، وتَلَوْنا عليك الآيةَ من الكتاب ، وأريناك الشَّاهدَ من النُّقُول[3] التى بها لزمَ النَّاسَ الفرائضُ ، وبها يَفْصلون بين الحقِّ والباطل ، فعارضْنا أنت الآنَ بواحدةٍ من الثلاث . فلم يكن ذلك عنده ، ولا استخْزَى من الكذب عليه فى غيرِ هذا المجلس[4] ، لأَنَّ عدَّةَ مَنْ حضره أكثرُ من أن يُطمع أحداً أَنْ يكون الكذبُ يجوز عليه . وقد كان صاحبكم هذا يقول : لا تقيَّةَ إلَّا فى دار الشِّرك . فلو كانَ ما أَقَرَّ به من خَلْق القرآن كان منه على وجه التقيَّةِ فقد أعمل التقيَّة[5] فى دار الإسلام ، وقد أكذب نفسه . وإنْ كان ما أَقرَّ به على الصحَّة والحقيقة فلستم منه ، وليس منكم . على أنَّه لم ير سيفاً مشهوراً ، ولا ضُرِب ضرباً كثيراً ، ولا ضُرِبَ إلَّا ثلاثين سوطاً مقطوعة الثِّمار[6] ، مشعَّثة الأَطراف[7] ، حتَّى أفصح بالإقرار مراراً . ولا كانَ فى مجلسٍ

(١) ط : « قال : لا » .
(٢) ط فقط : « تقول » بالتاء ، محرف .
(٣) فى جميع النسخ : « العقول » .
(٤) ب ، م : « ولا استخرنا الكذب عليه » ، صوابه فى ط . وفى ط : « فى هذا المجلس » ، صوابه فى ب ، م .
(٥) ط فقط : « فقد أعملها » .
(٦) ثمرة السوط : عقدة طرفه . وفى حديث الحد : « فأتى بسوط لم تقطع ثمرته » .
(٧) ط : « مشعبة الأطراف » . وتشعيث الشىء : تفريقه .

ضيِّق ، ولا كانت حالَهُ حالٌ مُؤْيِسة ، ولا كان مُثْقَلًا بالحديد ، ولا خُلِع قلبُه بِشدَّة الوعيد . ولقد كان يُنَازَعُ بِأَلْيَنِ الكلام ، ويُجيب بأغلظ الجواب ، ويَرزُنون ويَخِفّ ، ويَحْلُمون ويطيش [1] .

وعبتم علينا إكفارنا إيَّاكم ، واحتجاجَنا عليكم بالقرآن والحديث . وقلتم : تُكْفِروننا على إنكار شيءٍ يحتمله التأويل [2] ، ويثبُت بالأحاديث ، فقد ينبغي لكم أن لا تحتجُّوا في شيءٍ من القَدَر والتَّوحيد بشيءٍ من القرآن ، وأنْ لا تُكْفِروا أحداً خالفكم في شيءٍ وأنتم أسرعُ النَّاسِ إلى إكفارنا ، وإلى [3] عداوتنا والنَّصْبِ لنا .

٣ — فصل منه

وأصحابنا — حفِظك الله — إذا قاسوا خَطأَهم ، ومَرُّوا على غَلَطهم فإنَّما ينقُضون به شَيئاً من العَرَض والجوهر ، وشيئاً من قولهم في المعلوم والمجهول فقط . وهم قومٌ يكفيهم من التنبيه [4] أَقلُّه ، ومن القول أيسرُه . وخطأُ النَّابتة وقولُ الرَّافضة تشبيهٌ مصرِّح ، وكُفر مُجلِّح [5] ، فليس هذا الجنسُ من ذلك الجنس . والحمد لله .

وأمَّا إخبارهم عن عيبنا إيَّاهم حين لم يقولوا : إنَّ الله تعالى ربُّ القرآن ، وفينا من يقول : إنَّ الله تبارك وتعالى ربُّ الكفرِ والإيمان ،

---

(١) ب فقط : « ويحملون » ، صوابه في م ، ط .

(٢) ط : « يحتمل التأويل » .

(٣) ب فقط : « أو إلى » .

(٤) في جميع النسخ : « التنبه » ، والوجه ما أثبت .

(٥) يقال صرح الشيء ، إذا كشف عنه وأظهره ، وصرح هو إذا انكشف ، ومنه قول شهل بن شيبان في الحماسة ٣٤ :

فلمَّا صرح الشر ... فأمسى وهو عريان

والمجلح ، بالبناء للفاعل أيضاً : الجرىء ، وهو من التجليح ، وهو الإقدام على الشر وتكشيف العداوة وتصريحها ، كما في أساس البلاغة .

فإنَّا لم نسألهم[1] عن ذلك من جهة ما يتوهَّمون ، وإنَّما سألناهم عنه بجحدهم ما يَرَوْنَ بأبصارهم ، ويَسمعون بآذانهم ، فى الأشعار المعروفة ، وفى الخطب المشهورة ، وفى الابتهال[2] عند الدُّعاء ، وعلى ألسنة العوامّ والدَّهماء[3] ، وعندَ العُهود والأيمان ، وعند تعظيم القرآن ، وبما يسمعون من السُّؤَّال فى الطُّرُقات ، ومن القُصَّاص فى المساجد ، لا يَرَوْن عائباً[4] ، ولا يسمعون زاريا[5] . وليس أنَّا جعلنا هذا مسألةً على من أنكر خَلْقَ القرآن ، ولكنَّا أردنا أن نبيِّن للضُّعفاءِ معاندتهم ، وفِرارهم من البَهْت ، ومكابرتَهم إذا سمعوا أنَّهم لم يسمعوا النَّاسَ يقولون : وربِّ القرآنِ ، وربِّ ياسين ، وربِّ طه ، وأشباهَ ذلك .

ولعمرى أنْ لو سمعوا النَّاس يقولون عند أيمانهم وابتهالهم إلى ربِّهم ، على غير قصدٍ إلى خلافٍ ولا وِفاق : وربِّ الزِّنى والسَّرَق[6] ، وربِّ الكفرِ والكذب ، كما سمعوهم يقولون[7] : وربِّ القرآنِ ، وربِّ يٓس ، وربِّ طٰه ! ثم ألزمناهم خَلْقَ القُرآن بمثل ما لهم علينا فى خَلْق الزِّنى – لقد كان ذلك معارضة صحيحة[8] ، وموازنة معروفة .

وأمَّا قولهم : إنَّ معنا العامَّةَ ، والعُبَّادَ ، والفقهاءَ ، وأصحابَ الحديث ، وليس معهم إلَّا أصحابُ الأهواء ، ومن يأْخذ دينَه من أوّل

(١) ب : « نسالم » ، صوابه فى ب ، ط .
(٢) ب ، م : « وفى ابتهال » .
(٣) والدهماء ، ساقطة من ط .
(٤) م ، ط : « غائباً » بالغين المعجمة ، صوابه فى ب .
(٥) زرى عليه وأزرى : عاب . وفى ب : « زاويا » صوابه فى م ، ط .
(٦) السرق ، بالتحريك ، وككتف : السرقة . وفى ط : « والسرقة » وفى ب : « ورب السرقة » .
(٧) ب ، م : « كما سمعوا وهم يقولون » ، وأثبت مافى ط .
(٨) ب : « معاوضة صحيحة » .

الرِّجال[١] ، فأَىُّ صاحبٍ هو – يرحمك الله – أَبعد من الجماعة من الرَّافضة ، وهم فى هذا المعنى أَشقَّاؤهم[٢] وأَولياؤُهم ، لأَنَّ ما خالفوهم فيه صغيرٌ فى جَنْبِ ما وافقوهم عليه ، والذين سمَّوهم أَصحابَ أَهواءٍ هم المتكلِّمون ، والمصلحون والمستصلحون ، والمميِّزون[٣] . وأَصحاب الحديثِ والعوامُّ هم الذين يقلِّدون ولا يحصِّلون ، ولا يتخيَّرون ، والتقليد مرغوب عنه[٤] فى حجَّة العقل ، منهىٌّ عنه فى القرآن[٥] ، قد عكسوا الأُمور كما ترى ، ونَقَضوا العادات . وذلك أَنَّا لا نشكُّ أَنَّ من نظر وبحث ، وقابل ووازن[٦] ، أَحقُّ بالتبيُّن ، وأَولى بالحجَّة .

وأَمَّا قولهم : منَّا النُّسَّاك والعُبّاد ، فعُبَّاد الخوارج وحدهم أَكثر عدداً من عبّادهم ، على قلَّة عدد الخوارج فى جنب عَدَدهم ، على أَنَّهم أَصحاب نِيَّة[٧] ، وأَطيب طعمة[٨] ، وأَبعد من التكسُّب ، وأَصدقُ ورعاً ، وأَقل رياءً[٩] ، وأَدوم طريقةً ، وأَبذل للمُهْجة ، وأَقَلُّ جمعاً ومَنْعا ، وأَظهر زُهداً وجَهْداً . ولعلّ عبادةَ عَمْرِو بن عُبيدٍ تَفِى بعبادة عامَّة عُبَّادِهم .

وأَمَّا قولهم : إنَّ للقرآن قلباً وسَنَاماً ولِساناً وشَفتَين ، وأَنَّه يقدِّس ويَشْفع ويَمْحَل[١٠] ، فإِنَّ هذا كلَّه قد يجوز أَن يكون مَثَلا ، ويجوز أَن

---

(١) ب ، م : « من أذل الرجال » .

(٢) فى جميع الأصول : « أشقياؤهم » ، والوجه ما أثبت .

(٣) والمميزون ، ساقط من ط .

(٤) ب ، م : « عليه » ، صوابه فى ط .

(٥) ط فقط : « فى القراب » ، تحريف .

(٦) ط : « ووزن » ، تحريف .

(٧) ب : « بنة » ، تحريف .

(٨) الطعمة ، بالضم : وجه المكتسب . وبالكسر : السيرة فى الأكل .

(٩) هذا مافى ب . وفى م : « رأيا » ، وفى ط : « زيا » .

(١٠) التقديس : التطهير والتبريك . ومنه الأرض المقدسة . ويمحل ، أى يمحل بصاحبه ، إذا لم يتبع مافيه وإذا هو ضيعه ، أى يعرضه للهلكة . وفى الحديث عن ابن مسعود : « إن هذا القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق » . وانظر اللسان (محل ١٤١) .

يجعله الله كذلك إذا كان جِسْمًا ، والله على ذلك قادر ، وهو له غير مُعجِز ، ومنه غير مستحيل . وكلُّ فعل لا يكون عيباً ، ولا ظلماً ولا بخلًا ولا كذباً ، ولا خطاءً[1] في التَّدبير ، فهو جائز ، والتعجب منه غيرجائز .

٤ — فصل منه

وما أَكثَرَ من يُجِيب فى المسائل ، ويؤلِّف الكتب على قَدْر ما يَسنح له فى وهمه ، وعلى قدر ما يتصوَّر له فى حاله تلك ، لا يعمل على أَصلٍ[2] ، أَوْ لا يشعُر[3] بالذى انبنَى عليه ذلك الأَصل[4] ، وإن كان ممَّن يعمل على أَصل .

وإنَّما صار علماؤنا إلى ما صاروا إليه لأَنَّهم لا يَقفون من القول فى خَلْق القرآن على جوابٍ مهذَّب ، ومذهبٍ مصفًّى ، وعلى قولٍ مفروغ منه ، وعلى جواباتٍ بأَعيانها . فقد ردَّدوا فيها النَّظر ، وامتحنوها بأَغلظ المِحَن ، وقلَّبوها أَكثر التقليب[5] ، وتبطَّنوا معانيَها بأَبلغ التَّفكير ، وتعرفوا كلَّ ما فيها ، واعتصروا جميعَ قُواها ، وسهَّلوا سُبلَها ، وذلَّلوا العبارة عنها[6] ، احتقاراً منهم لمن خالفهم ، واتِّكالًا على طول السَّلامة منهم ، وثقةً بطول الظَّفَر بهم .

ومن تمامِ أَمرِ صاحب الحقِّ أَن لا يتَّكل على عَجْز الخصم ، وأَنْ لا يُعْجَبَ بظهورِهِ[7] على مَنْ لاحظَّ له فى العِلم .

---

(١) الخطاء ، كسحاب : الخطأ . ط فقط : « خطأ » .
(٢) ط : « على أصله » .
(٣) فى الأصول : « ولا يشعر » ، وجهه ما أثبت .
(٤) ب ، م : « فى الذى عليه ذلك الأصل » ، صوابه فى ط .
(٥) ط : « وقلبوها » فقط .
(٦) ط : « وذبوا العناد عنها » ب : « وذللوا العبادة عنها» ، صوابه فى م .
(٧) ظهر عليه : غلبه . ب ، م : « بظهور » ، وأثبت مافى ط .

وعلى العلماءِ أَنْ يخافوا دُوَلَ العِلْم(١) ، كما يخافُ الملوك دول المُلْك . وقد رأَيت البَكْريَّة(٢) ، والجَبْريَّة ، والفَضْليَّة(٣) ، والشَّمريَّة(٤) وإنَّهم لأَحَقُر عند المعتزلةِ من جُعَل(٥) مما زالوا يستقُّون(٦) من علمائهم ، ويستمدُّون من كبرائهم ، ويَدْرُسون كتبهم ، ويأْخذون أَلفاظهم فى جميع أُمورهم ،حتَّى رأَيت شَبِيبَتَهُم ونابتتهم(٧) ، يَدَّعون أَنَّهم أَكْفَاءُ ، ويجمع بينهم فى البَلَاء . والنَّابتة اليوم فى التشبيه(٨) مع الرَّافضة ، وهم دائبُون(٩) فى التأَلُّم من المعتزلة . غدرهم كثير(١٠) ، ونَصْبُهم شديد ، والعوامُّ معهم ، والحشو يُطيعهم(١١) .

الآن(١٢) معك أَمرانِ : السُّلطان وميلُهم إليه ، وخَوفُهم منه .

والعاقبــة للمتَّقين .

---

(١) الدول : جمع دولة ، وهى الانتقال من حال إلى حال .

(٢) البكرية : أتباع بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد . وقد ذكرهم البغدادى فى الفرق فى فصل مع الجهمية والضرارية . الفرق ١٩٩ والفصل ٤ : ١٩١

(٣) الفضلية الذين يعنيهم الجاحظ ، هم أتباع الفضل بن عيسى الرقاشى البصرى. وهم طائفة من المعتزلة . وهناك فضلية الخوارج ، ينتسبون إلى الفضل بن عبد الله . انظر مفاتيح العلوم ١٩ والبيان ١ : ٣٠٦ .

(٤) الشمرية ، بالشين المعجمة المكسورة والميم المشددة المفتوحة ، كما فى السمعانى ٣٣٨ . قال : « والمشهور بهذه النسبة عمرو بن أبى عثمان الشمرى ، رأس المعتزلة » .

(٥) الجعل : دويبة شبيهة بالخنفساء ، يضرب بها المثل فى الحقارة والهوان ، وفى اللصوق بالإنسان يتبعه إلى الغائط ، إذ قالوا : « ألصق من جعل » . حياة الحيوان للدميرى . و« من جعل » من ط فقط .

(٦) ب ، م : « يسبقون » ، صوابه فى ط .

(٧) ب : « شيتهم ونابيتهم » م : « شيتهم ونابيتهم » ط : « شيبهم ونابتهم » ، والوجه ما أثبت .

(٨) فى جميع النسخ : « فى التشبيه به » ، وكلمة « به » مقحمة .

(٩) ب : « داينون » ، صوابه فى م ، ط .

(١٠) ط : « عددهم كثير » .

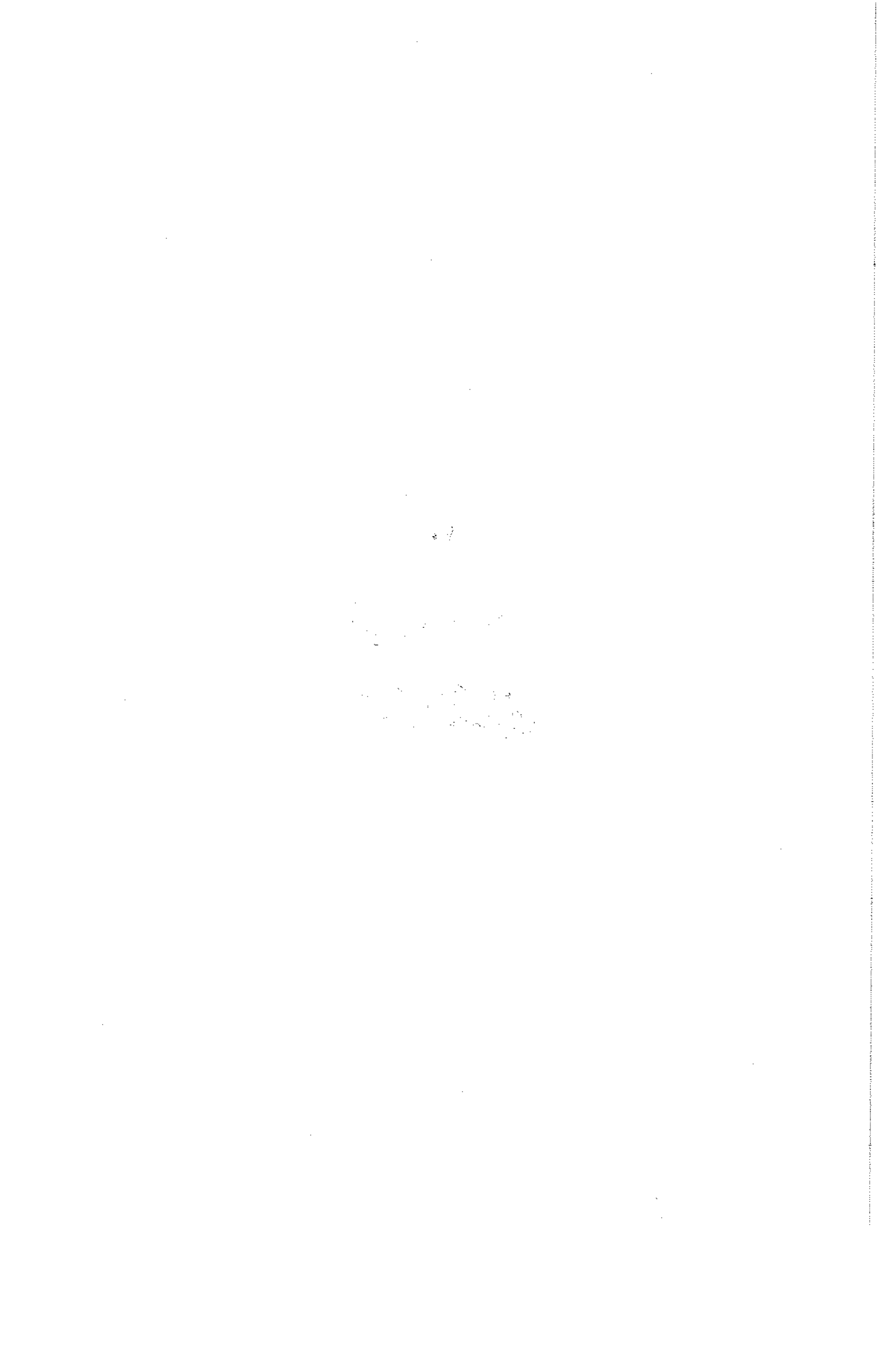
(١١) ب ، م : « يطبعهم » .

(١٢) ب ، م « إلا أن » .

١٠

من كتابه في

الرد على النصارى



١ – فصل من صدر كتابه فى الرد على النصارى(١)

الحمد لله الذى مَنَّ علينا بتوحيدِه ، وجعَلَنا ممَّن ينفى شُبهة خَلْقِه(٢) وسياسة عبادِه(٣) ، وجَعَلنا لا نفرِّق بين أَحدٍ من رُسُله ، ولا نَجحد كتاباً أَوجَبَ علينا الإِقرار به ، ولا نُضيف إِليه ما ليسَ منه ، إِنَّه حميدٌ مجيدٌ ، فعَّالٌ لما يريد .

أَمَّا بعدُ فقد قرأْتُ كتابكم ، وفهمت ما ذكرتم فيه(٤) من مسائل النَّصارى قِبَلكم ، وما دخَلَ على قلوب أَحداثكم وضُعَفائِكم من اللَّبْس ، والذى خِفتموه على جواباتهم من العَجْز ، وما سأَلتم من إقرارهم بالمسائل ، ومن حُسْن معونتهم بالجَوَاب .

وذكرتم أَنَّهم قالوا : إنَّ الدَّليل على أَنَّ كتابَنا باطلٌ ، وأَمرَنا فاسد ، أَنَّنا ندَّعى عليهم مالا يَعرِفونه فيما بينهم ، ولا يَعرفونَه من أَسلافهم ، لأَنَّا نزعُم أَنَّ الله جلّ وعزّ قال فى كتابه على لسانِ نبيِّه محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم : ﴿ وإِذْ قال الله يا عِيسَى بنَ مريم أَأَنْتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخِذُونى وأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ(٥) ﴾ ، وأَنَّهم زعموا أَنَّهم لم يَدِينوا قطُّ بأَنَّ

---

(١) نشر هذا الاختبار من قبل ، بعد ظهوره على هامش الكامل ، فى مجموعة يوشع فنكل ، وعنوانها (ثلاث رسائل لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) وطبعت فى المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ . وجعلت هذه المجموعة هدية من مجلة الزهراء التى كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب ، إلى قرائها فى السنة الثانية . والرسالة التى تليها هى (ذم أخلاق الكتاب) ، ثم (رسالة القيان) . وقد قمت بنشرهاتين الأخيرتين فى الجزء الثانى من الرسائل فى الصفحات ١٣٩ – ٢٠٩ .

(٢) يعنى كونه مخلوقاً .

(٣) إشارة إلى مايرى المعتزلة من أنه غير خالق لأفعال العباد ، فهم يخلقون أفعالهم ويريدونها ، فيحاسبون على مافعلوا .

(٤) ب : « من ما ذكرتم » .

(٥) الآية ١١٦ من سورة المائدة .

مريم إلّه فى سِرِّهم ، ولا ادّعَوْا ذلك قطُّ فى علانيَتهِم . وأنَّهم زعموا أنَّا ادّعينا عليهم ما لا يعرفون ، كما ادّعينا على اليهود ما لا يعرفون ، حين نَطقَ كتابُنا ، وشهِدَ نبيُّنا : أنَّ اليهود قالوا : إنَّ عزيراً ابن الله[1] ، وإنَّ يَد الله مغلولة[2] ، وإنَّ الله فقيرٌ وهم أغنياءُ[3] . وهذا ما لا يتكلَّم به إنسان ، ولا يُعرَف فى شىءٍ من الأَديان .

ولو كانوا يقولون فى عُزيرٍ[4] ما نَحَلْتُمون وادَّعيتموه ، لَما جَحدوه من دينهم ، ولماَ أنكروا أن يكونَ من قولهم ، ولما كانوا بإنكار بُنوَّة عزيرٍ أحقَّ منَّا بإنكار بنوَّة المسيح ، ولَمَا كان علينا منكم بأْسٌ بعد عَقدِ الذِّمَّة ، وأَخْذِ الجزية .

وذكرتم أنَّهم قالوا : وممَّا يدلُّ على غَلطكم فى الأَخبار ، وأخذكم العلم عن غير الثقات[5] ، أنَّ كتابَكم ينطق : أنَّ فرعون قال لِهامانَ : ﴿ ابنِ لِى صَرْحاً[6] ﴾ . وهامانُ لم يكن إلَّا فى زَمن الفُرْسِ[7] ، وبعد زمنِ فرعونَ بدهرٍ طويل ، وإنَّ ذلك معروفٌ عند أصحاب الكُتُب ، مشهورٌ عند أهل العلم . وإنَّما اتَّخذ صرحاً ليكون إذا عَلَاه أشرَفَ على الله .

وفرعونُ لا يخلو من أن يكون جاحداً لله تعالى ، أو مقرًّا به . فإن كان دينُه عند نفسه وأهلِ مملكته نَفْىَ الله وجَحْدَه ، فما وجهُ اتِّخاذِ الصَّرح وطَلبِ الإِشراف ، وليس هناك شىء ولا إله ؟

---

(١) ب : « عزير ابن الله » .
(٢) إشارة إلى الآية ٦٤ من المائدة .
(٣) إشارة إلى الآية ١٨١ من آل عمران .
(٤) ب فقط : « يقولون فى شىء فى عزير » .
(٥) فى جميع النسخ : « الثقاة » ، وهو خطأ فادح فى الرسم الذى يوجب رسم تاء جمع المؤنث السالم مبسوطة .
(٦) من الآية ٣٦ فى غافر .
(٧) م فقط : « لم يكن فى زمن الفرس » ، تحريف .

وإن كان مُقِرًّا بالله عارفاً به ، فلا يخلو من أنْ يكون مشبِّهاً أو نافياً للتَّشبيه . فإن كان ممن يَنفِي الطُّول والعَرض والعُمْق والحُدود والجهاتِ، فما وَجْهُ طلبه له فى مكانٍ بعينه ، وهو عنده بكلِّ مكان ؟ وإن كان مشبِّهاً فقد عَلِم أَنَّه ليس فى طاقةِ بنى آدم أَن يبنُوا بُنياناً ، أَو يرفعوا صَرحاً يخرِقُ سَبْعَ سمواتٍ بأَعماقهنّ ،والأَجزاءَ التى بينهنّ ،حتَّى يحاذىَ[1] العرشَ ثم يَعْلُوَه .

وفرعونُ وإن كان كافراً فلم يكن مجنوناً ، ولا كان إلى نَقْصِ العقلِ من بينِ الملوكِ منسوباً . على أَنَّ الحُكم قد يقوم[2] بعُقول الملوكِ بالفضيلة على عُقُول الرعية .

وذكرتم أَنَّهم قالوا : تَزعُمون أَنَّ الله تعالى ذَكَرَ يحيى بنَ زكريّا يُخبِر أَنَّه ﴿ لم يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا[3] ﴾، وأَنَّهم يجدون فى كتبهم وفيما لا يختلف فيه خاصَّتهُم وعامَّتهم أَنَّه كان من قبل يحيى بن زكريا غيرُ واحدٍ يقال له يحيى ، منهم : يُوحَنَّا بن فرح[4] .

وزعمتم أَنهم قالوا لكم[5] : إنَّكم ذكرتم أَنَّ الله قال فى كتابه لنبيِّكم : ﴿ وما أَرسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إلَّا رجالًا نُوحى إليهم[6] ، فاسأَلُوا أَهْلَ الذِّكرِ إنْ كُنْتُم لا تَعْلَمُون[7] ﴾ ، وإنَّما عنى بقوله : ﴿ أَهلَ الذِّكر ﴾ :

---

(١) ب : « يحازى » ، تحريف .

(٢) ب : « قد يقدم » . (٣) من الآية ٧ فى سورة مريم .

(٤) لم أجد له ذكراً فى كتب الجاحظ ، كما لم أجد له خبراً إلا فى سفر إرميا ٤٠ : ٨ و ٤١ : ١١ و ٤٣ : ٦ . واسمه فى هذا السفر : يوحانان بن قاريح .

(٥) ب فقط : « لك » صوابه فى م ، ط .

(٦) كذا القراءة فى الآية ٤٣ من سورة النحل . أما فى الآية ٧ من سورة الأنبياء فقراءة الجمهور فيها : « يوحى إليهم » ، كما ورد فى نسخة ب . وقرأها حفص فقط : « نوحى إليهم » انظر إتحاف فضلاء البشر ٣٠٩ .

(٧) هى الآية ٤٣ من سورة النحل ، ونصها هو نص الآية ٧ من سورة الأنبياء .

أَهلَ التَّوراة ، وأَصحابَ الكتب يقولون : إنَّ الله قد بَعثَ من النِّساء نَبيَّاتٍ ، منهم مريم بنت عمران(١) ، وبعث منهنَّ حَنَّة(٢) ، وسارَى(٣) ، ورِفْقَى(٤) .

وذكرتُم أَنَّهم قالوا : زَعمتُمْ أَنَّ عيسى تكلَّمَ فى المهْد ، ونحن على تقديمنا له ، وتقريبِنا لأَمرِه ، وإفراطنا بزَعْمكم فيه ، على كثرة عَدَدنا ، وتفاوُتِ بلادنا ، واختلافِنا فيما بيننا ، لا نعرف ذلك ولا ندَّعيه(٥) ، وكيف ندَّعيه ولم نسمَعه عن سلفٍ ، ولا ادَّعاه منَّا مدَّعٍ .

ثم هذه اليهودُ لا تَعرِف ذلك ، وتزعُم أَنَّها لم تسْمع به إلَّا منكم ، ولا تعرفُه المجوسُ ، ولا الصَّابئون ، ولا عُبَّاد البِدَدة(٦) من الهِنْد وغيرهم ،

---

(١) انظر بقية نسبها فى الطبرى ١ : ٥٨٦ .

(٢) هى حنة بنت فنوئيل ، من سبط أشير . إنجيل لوقا ٢ : ٣٦

(٣) سميت فى العهد القديم « ساراى » تكوين ١١ : ٢٩ ، ٣٠ / ١٢ : ٥ ، ١١ ، ١٧ / ١٦ : ١ — ٩ وجاء فى سفر التكوين ١٧ : ٥ فى مخاطبة إبراهيم عليه السلام : « فلا يدعى اسمك بعد إبرام ، بل يكون اسمك إبراهيم » وفى الفقرة الخامسة عشرة منه : « وقال الله لإبراهيم : ساراى امرأتك لاتدعو اسمها ساراى ، بل اسمها سارا » . وفى حواشى سفر التكوين أن « سارة » بمعنى رئيسة . وسارة هذه هى بنت هاران الأكبر عم إبراهيم ، كما فى الطبرى ١ : ٢٤٤ ، وفيها الآية الكريمة : « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » . وسارة تضبط بتخفيف الراء ، ويخطئ من يشددها ، وإن كانت قد ضبطت بذلك فى اللسان (هجر ١١٨ ورقم ١٨٠) وشرح القسطلانى ٤ : ١٠٢ . ومما يعين ضبطها بتخفيف الراء قول جرير فى ديوانه ٥٤٣ :

فيجمعنا والعز أولاد سارة أب لايبالى بعده من تعذرا

(٤) ورسمت فى الطبرى : « رفقا » ، وهو الوجه ، لأن جميع المنتهى بالألف اللينة من الأسماء الأعجمية حقه أن يكتب بالألف ، ماعدا الأسماء الخمسة : موسى ، عيسى ، كسرى ، بخارى ، متى . وهى رفقا ابنة بتويل بن ناحور بن تارخ ، وهى امرأة إسحاق ، كما فى الطبرى ١ : ٣١٣ . وتسمى أيضاً « رفقة » فى التكوين ٢٤ : ١٥ ، ٢٩ / ٢٥ : ٢٠ .

(٥) ب ، م : « لايعرف ذلك ولا يدعيه » ، صوابه فى ط .

(٦) البد ، بالضم : الصنم الذى يعبد ، وهو إعراب بت ، بالفارسية بضم الباء أيضاً . والجمع البددة . ب : « البدرة » ط : « المدرة » ، صوابهما فى م . وانظر ما سبق فى حواشى ٢٥٢ .

ولا التُّرك والخزر[١] ، ولا بلَغنا ذلك عن أَحدٍ من الأُمم السالفة ، والقرونِ الماضية ، ولا فى الإِنجيل ، ولا فى ذِكْر صفاتِ المسيح فى الكُتُب والبشاراتِ به على أَلسنة الرُّسُل .

ومِثلُ هذا لا يجوز أَنْ يجهله الولىُّ والعدُوّ ، وغيرُ الولىِّ وغيرُ العدوّ ، ولا يُضربَ به مثل ، ولا يَرُوح به النَّاس ، ثم يُجمع النَّصارى على ردِّه ، مع حُبِّهم لتقوية أَمْرِه . ولم يكونوا ليضادُّوكم[٢] فيما يرجع عليهم نفعه . وكيف لم يكذِّبوكم فى إِحيائه الموتى ، ومَشْيِهِ على الماءِ ، وإِبراءِ الأَكمه والأَبرص ؟! بل لم يكونوا ليتَّفقوا على إِظهار خلاف دينهم ، وإِنكار أَعظمِ حجّةٍ كانت لصاحبهم ، ومثل هذا لا ينكتم ولا ينفكُّ ممن يخالف ويَنُم[٣] .

والكلام فى المهد أَعجبُ من كلِّ عجبٍ ، وأَغربُ من كلِّ غريب ، وأَبدعُ من كلّ بديع ؛ لأَنَّ إِحياءَ الموتى والمشْىَ على الماءِ ، وإِقامة المُقْعَد ، وإِبراءَ الأَعمى ، وإِبراءَ الأَكمهِ[٤] قد أَتت به الأَنبياءُ ، وعَرفَه الرُّسل ، ودار فى أَسماعهم . ولم يتكلَّمْ صبىٌّ قطُّ ، ولا مولودٌ فى المهد .

وكيف ضاعت هذه الآية ، وسقطت حُجَّة هذه العلامة من بين كلِّ علامة ؟ !

وبعدُ ، فكلُّ أُعجوبةٍ يأْتى بها الرجالُ[٥] ، والمعروفون بالبيان ،

---

(١) م : « والحزر » ، تحريف . والخزر : جيل من الترك كان مقر حكمهم فى سهوب القوقاز الشمالية . وانظر مادتى (بلغار) و (الخزر) فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) ب ، م : « ولم يكن ليضادوهم » .

(٣) ب فقط : « ويتم » بالتاء .

(٤) الأكمه : الذى يولد أعمى ، ومصدره الكمه ، بالتحريك . وربما جاء الكمه فى الشعر للعمى العارض ، كما جاء فى قول سويد بن أبى كاهل اليشكرى فى المفضليات ٢٠٠ :

كمهت عيناه لما ابيضتا فهو يلحى نفسه لما نزع

(٥) ب ، م : « الرجل » ، وأثبت ما فى ط .

والمنسوبون إلى صوابِ الرأى ، تكون[١] الحيلة فى الظَّنِّ إليها أقرب ، وخوفُ الخُدْعةِ عليها أَغلب . والصبىُّ المولودُ عاجزٌ فى الفطرة ، ممتنعٌ من كلِّ حيلة ، لا يُحتاج فيه إلى نظر ، ولا يشَبِّهه من شاهده بدَخَل[٢] .

٢ — فصل منه

وسنقول فى جميع ما ورَدَ علينا من مسائلكم ، وفيما لا يقع إليكم من مسائلهم ، بالشواهد الظاهرة ، والحُجج القويَّة ، والأَدِلَّة الاضطرارية ، ثم نسأَلهم بعد جوابنا إيَّاهم عن وجوهٍ يعرفون بها انتقاضَ قولهم ، وانتشارَ مذهبهم[٣] ، وتهافُتَ دينهم .

ونحن نعوذ بالله من التكلُّف وانتحالِ مالا نُحسِن ، ونسأَله القَصْدَ فى القول والعمل ، وأَن يكون ذلك لوجهه ، ولنُصرةِ دينه ، إنَّه قريبٌ مجيب .

فأَنا مبتدئٌ فى ذكر الأَسبابِ التى لها[٤] صارت النَّصارى أَحبَّ إلى العوامِّ من المجوس ، وأَسلَمَ صُدوراً عندهم من اليَهودِ ، وأَقربَ مودَّة ، وأَقلَّ غائلة ، وأَصغَر كُفْراً ، وأَهوَنَ عذاباً .

ولذلك أَسبابٌ كثيرة ، ووجوهٌ واضحة ، يعرفها مَن نَظَر ، ويجهلها مَن لم يَنظُر .

---

(١) ب ، م : « فكون » ، صوابه فى ط .
(٢) ط فقط : « ولا ليشبهه » . والدخل ، بالتحريك وبالفتح أيضاً : الريبة والغش . قال الله تعالى : « تتخذون أيمانكم دخلا بينكم » . وفى كلام ابنة الخس :
ترى الفتيان كالنخل   وما يدريك ما الدخل
(٣) انتشار مذهبهم : تفرقه وعدم ترابطه . ويقولون : ضم الله نشرك ، بالتحريك ، أى لم شعثك .
(٤) ب : « التى بها » .

أوّلُ ذلك أن اليهود كانوا جيرانَ المسلمين بيثربَ وغيرها ، وعداوةُ الجيرانِ شبيهةٌ بعداوة الأَقارب فى شدَّة التمكُّن وثَبات الحقْد ، وإنَّما يُعادِى الإِنسان مَن يعرف ، ويميل على من يرى ، ويُناقِض من يُشاكل ، ويبدو له عيوبُ من يُخالِط . وعلى قدر الحبِّ والقُرب يكون البُغض والبُعد ، ولذلك كانت حُروب الجيران وبنى الأَعمام من سائر النَّاس وسائرِ العرب أَطولَ ، وعداوتُهم أَشدَّ .

فلمَّا صار المهاجرون لليهود جيراناً ، وقد كانت الأَنصار متقدِّمةَ الجوار ، مشاركةً فى الدار ، حَسدتْهم اليهود على النِّعمةِ[1] فى الدِّين ، والاجتماع بعد الافتراق ، والتَّواصُل بعد التقاطع ، وشَبَّهوا على العوَامّ[2] ، واستمالوا الضَّعَفة ، ومالئوا[3] الأَعداءَ والحَسَدة ، ثم جاوزوا الطَّعنَ وإدخالَ الشُّبهة ، إلى المناجزة والمُنابذَة بالعَدَاوة ، فَجَمعوا كيدهم ، وبذلوا أَنفُسَهم وأَموالَهم فى قِتالهم ، وإخراجهم من ديارهم ، وطال ذلك واستفاض فيهم[4] وظهر ، وتَرَادف لذلك الغَيْظُ ، وتضاعَف البُغْض ، وتمكَّن الحقد.

وكانت النصارى لبعد ديارهم[5] ، من مَبعثِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ومُهاجَرِه ، لا يتكلَّفون طعْناً[6] ، ولا يُثيرون كيداً[7] ،

---

(١) ب ، م : « حسدتهم اليهود النعمة » ، وهى صحيحة أيضاً ، يقال حسده على الشىء ، وحسده إياه ، كما فى قول شمر بن الحارث الضبى :

فقلت إلى الطعام فقال منهم زعيم نحسـد الإنس الطعامـا

(٢) ط فقط : « القوام » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « وملأوا » ، ، صوابه فى ط . والممالأة : المساعدة ، والمشايعة .

(٤) ب ، ، م : « واستقاص فيهم » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « ديارها » .

(٦) ب ، م : « لايتكلف طعناً » ، صوابه فى ط .

(٧) ب ، م : « ولا يستر كيداً » ، والوجه فى ط .

ولا يجمعون على حرب[١] . فكان هذا أوّلَ أسبابِ ما غلَّظَ القلوب على اليهود ، وليَّنها على النصارى .

ثم كان من أمر المهاجرين إلى الحبشة ، واعتمادهم على تلك الجَنْبة[٢] ما حَبَّبهم[٣] إلى عوامِّ المسلمين . وكلَّما لانت القلوبُ لقومٍ غَلُظت على أعدائهم ، وبقَدْرِ ما نقَص من بُغض النصارى زادَ فى بغض اليهود .

ومن شأنِ النَّاس حبٌّ من اصطنعَ إليهم خيراً أوْ جرى على يديه[٤] ، أرادَ الله بذلك أو لم يُرِدْه ، وبقَصْدٍ[٥] كان أم باتِّفاق .

وأمرٌ آخر ، وهو من أمْتنِ أسبابهم وأقوى أُمورهم ، وهو تأْويلُ آيةٍ غَلِطت فيها العامّة حتَّى نازَعَت الخاصَّة ، وحفظتْها النَّصارى واحتجَّت ، واستمالت قلوب الرَّعاع والسِّفْلة ، وهو قول الله تعالى : ﴿ لَتجدنَّ أشَدَّ النَّاسِ عَدَاوةً لِلَّذينَ آمَنُوا اليَهُودَ والذِينَ أشْرَكُوا ولتجِدَنَّ أقرَبَهُمْ مودَّةً للذينَ آمَنُوا الذين قَالُوا إنَّا نَصارَى[٦] ﴾ . إلى قوله : ﴿ وذَلِكَ جَزاءُ المُحْسنين[٧] ﴾ . وفى نفس الآيةِ أعظمُ الدَّليل على أنَّ الله تعالى لم يَعْنِ هؤلاءِ النَّصارى ولا أشباهَهم : الملكانية[٨] واليعقوبيَّة[٩] ، وإنَّما عَنَى

(١) ب ، م : « ولا يجمع على حرب » ، تحريف .
(٢) الجنبة : الجانب . وفى ط فقط : « الجهة » .
(٣) ب فقط : « ماجبهم » ، صوابه فى م ، ط .
(٤) الكلام بعده إلى كلمة « باتفاق » ساقط من ط .
(٥) فى الأصل ، وهو هنا ب ، م : « وبعد » ، والوجه ما أثبت .
(٦) الآية ٨٢ من سورة المائدة .
(٧) يعنى الآيات ٨٢ — ٨٥ من سورة المائدة .
(٨) ب فقط : « المكانية » ، صوابه فى م ، ط . ويقال ملكانية وملكائية أيضاً بالهمز ، كما فى مفاتيح العلوم ٢٣ . ويقال أيضا الملكية ، كما فى التنبيه والإشراف للمسعودى ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣١ . وجاء فى مفاتيح العلوم ٢٣ : « وهم منسوبون إلى ملكاء ، وهم أقدمهم » ، أى أقدم النصارى . وفى الملل والنحل ٢ : ٦٢ : « الملكانية أصحاب ملكا الذى ظهر بالروم واستولى عليها » . والحق أن الملكانيين منسوبون إلى « ملكا » ومعناه الملك بالسريانية . والمراد بهم أتباع مذهب قياصرة الروم الذى يسمى أيضاً المذهب الخلقيدونى ، الذى أقره المجمع المعقود فى خلقيدونية سنة ٤٥١م . وفى مفاتيح العلوم : « وأهل الروم كلهم ملكائية » . وانظر تاريخ الأمة القبطية (الحلقة الثانية ص ٩١ — ٩٣) .
(٩) اليعقوبية ، أو اليعاقبة : ثالثة فرق قدماء النصارى ، وهم الملكانية ، والنسطورية ، =

ضَرْبَ بَحِيرا[(١)] ، وضَرْبَ الرُّهبانُ الذين كان يَخْدُمهم سَلْمانُ[(٢)] .

وبين حَمْلِ قولِه[(٣)] : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾ على الغَلَط منهم في الأَسماءِ ، وبين أن نجزم عليهم[(٤)] لأَنَّهم نَصارى — فرقٌ .

كما ذكر اليهودُ أَنَّه جاءَ الإسلامُ وملوكُ العربِ رجلان : غسَّانيٌّ ولخْميّ ، وهما نَصرانيَّانِ ، وقد كانت العربُ تَدِين لهما ، وتؤدِّي الإتاوة إليهما ، فكان تعظيم قلوبهم لهما راجعاً[(٥)] إلى تعظيم دينهما . وكانت تِهامة ، وإن كانت لَقاحاً[(٦)] لا تدين الدِّين[(٧)] ، ولا تؤدِّي

= واليعقوبية . وهم ينسبون إلى مار يعقوب . قال الخوارزمي في مفاتيح العلوم : « وهم قليل » . وفي الفصل لابن حزم ١ : ٤٩ : « ينسبون إلى يعقوب البرذعاني ، وكان راهباً بالقسطنطينية » . وانظر الملل والنحل ٢ : ٦٦ .

(١) بحيرا الراهب ، بفتح الباء ، كما في القاموس ، وقد رسم بالياء في آخره في القاموس وشرحه ، والوجه كتابته بالألف كما في الإصابة ٥٩٥ . وهو الذي لقي الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة في ركب قريش حين نزلوا بصرى من أرض الشام ، فاستضافهم جميعاً ، وعرف رسول الله مما كان يعرف من صفته من قبل . السيرة ١١٥ — ١١٧ .

(٢) سلمان الفارسي : صحابي جليل ، أصله من رام هرمز ، وقيل من أصبهان ، وكان قد سمع بأن النبي صلى الله عليه وسلم سيبعث ، فخرج في طلب ذلك ، وأسلم ، وشهد بدراً ، وآخى النبي بينه وبين أبي الدرداء . الإصابة ٣٣٥٠ والسيرة ١٣٦ ، ٣٤٥ ، ٦٦٣ ، ٦٧٧ . ب : « نجد منهم سلمان » م : « يجذمهم سلمان » وفي ط : « يجذبهم سلمان » ، والصواب ما أثبت . وقد وجدت نصاً صريحاً في سيرة ابن هشام ١٣٨ يقول فيه سلمان لأسقف الكنيسة في الشام قبل إسلامه : « إني قد رغبت في هذا الدين فأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك » . ثم تروي السيرة تنقله في كنائس الموصل ، ونصيبين ، ، وعمورية ، ومن عمورية انتقل إلى أرض العرب حتى كان بالمدينة ولقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل في الإسلام .

(٣) ب ، م : « وبين قوله » بسقوط كلمة « حمل » .

(٤) ب : « نجزم » ط : « نجرى » . وأثبت ما في م .

(٥) ب ، م : « راجعة » ط : « راجع » ، صوابهما ما أثبت .

(٦) يقال حي لقاح ، كسحاب : لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم سباء في الجاهلية . قال ثعلب : مشتق من لقاح الناقة ، لأن الناقة إذا لقحت لم تطاوع الفحل .

(٧) كلمة « الدين » ساقطة من ط . وفي ب ، م : « لايدين » . صوابهما في ط .

الإتاوة ، ولا تَدِين للمُلوك ، فإنَّها[١] كانت لا تمتنعُ من تعظيم ما عظَّم الناس ، وتصغيرِ ما صغَّروا .

ونصرانيَّةُ النُّعمان وملوكِ غَسّانَ مشهورةٌ فى العرب ، معروفةٌ عند أَهل النَّسَب ، ولولا ذلك لدَلَلْتُ عليها[٢] بالأَشعار المعروفة ، والأَخبار الصحيحة .

وقد كانت تتَّجِر إلى الشَّام ، ويَنفُذ[٣] رجالُها إلى مُلوك الرُّوم ، ولها رحلةٌ فى الشِّتاء والصَّيف، فى تجارةٍ مرّةً إلى الحبشة ، ومرّةً قِبَلَ الشام ، ومرَّة بيثرب[٤] ، ومصيفُها بالطَّائف ، ومرة منيحين مستأْنفاً بحمده[٥] ، فكانوا أَصحاب نَعْمة ، وذلك مشهورٌ مذكورٌ فى القرآن ، وعند أَهلِ المعرفة .

وقد كانت تهاجر إلى الحبشة[٦] ، وتأْتى بابَ النَّجاشيِّ وافدةً ، فيَحْبُوهم بالجزيل[٧] ، ويَعرِف لهم الأَقدار ، ولم تكن تعرف كسرى[٨] ، ولا تأَنَّس بهم . وقيصرُ والنَّجاشيُّ نَصْرانيَّان ، فكان ذلك أَيضاً للنَّصارى ، دونَ اليهود .

والآخِر من النَّاس تَبَعٌ للأَوّل فى تعظيمِ من عظَّم ، وتصغير من صغَّر .

---

(١) ب ، م : « وبأنها » ط : « لأنها » ، والوجه ما أثبت

(٢) ب فقط : « عليه » تحريف . (٣) ط فقط : « وتنفذ » .

(٤) ومرة بيثرب ، ساقطة من ط .

(٥) كذا وردت هذه العبارة فى ب . م مع سقوطها من ط . لكن فى م : « بجهده » . ولعلها « ومرة ميمنين » من أيمن ويمن تيميناً ، إذا أتى اليمن .

(٦) ب ، م : « تهاجر الحبشة » ، صوابها فى ط .

(٧) يحبوهم ، من الحباء ، وهو العطاء بلا من ولا جزاء . ب ، م : « فيحيوهم » ط : « فيحييهم » ، صوابهما ما أثبت .

(٨) ط : « ولم يكن يعرف ذلك كسرى » .

وأُخرى[١] : أَنَّ العرب كانت النصرانيَّةُ فيها فاشية ، وعليها غالبة ، إلَّا مُضَر ، فلم تغلب عليها يهوديَّةٌ ولا مجوسيَّة ، ولم تَفْشُ فيها النَّصرانية ، إلَّا ما[٢] كان من قومٍ منهم نزلُوا الحِيرَة[٣] يسمّون : العِباد ، فإنَّهم كانوا نَصَارى ، وهم مَغْمورون مع نَبْذٍ يسيرٍ[٤] فى بعض القبائل . ولم تعرف مُضَر إلَّا دينَ العرب ، ثم الإسلام .

وغَلبت النَّصرانيةُ على مُلوك العرب وقبائلها : على لخمٍ ، وغَسَّان ، والحارث بن كعبٍ بنَجْران ، وقُضاعةَ ، وطيٍّ ، فى قبائل كثيرةٍ ، وأَحياءٍ معروفة . ثم ظهرت فى ربيعةَ فغلبت على تغلب وعبدِ القيس وأَفناءِ بكر[٥] ، ثم فى آلِ ذى الجَدَّينِ خاصَّة .

وجاءَ الإسلامُ وليست اليهوديَّةُ[٦] بغالبةٍ على قبيلة ، إلَّا ما كان من ناسٍ من اليمانية ، ونَبْذٍ يسير[٧] من جميع إيادٍ وربيعة . ومعظمُ اليهودية إنَّما كانت بيثربَ وحِميَر وتَيماءَ ووادى القُرى ، فى ولدِ هَارونَ ، دون العرب .

فعطفَ قُلوبَ دَهماءِ العرب على النَّصارى المُلْكُ الذى كان فيهم ، والقرابةُ التى كانت لهم . ثم رأَتْ عوامُّنا أَنَّ فيها مُلْكاً قائماً ، وأَنَّ فيهم عَرَباً كثيرة[٨] ، وأَنَّ بناتِ الرُّوم وَلَدْنَ لملوك الإسلام ، وأَنَّ فى

(١) ط : « وأخرى ، وهى » .
(٢) فى الأصول : « إلا من كان » ، ووجهه ما أثبت .
(٣) نزلوا الحيرة ، ساقط من ب .
(٤) النبذ ، بالفتح : الشيء القليل . ب فقط : « معمورون مع نبذ يسيرة » ، صوابه فى ط .
(٥) الأفناء : الأخلاط النزاع من هاهنا وهاهنا ، الواحد فنو ، بالكسر .
(٦) ب ، م : « لليهودية » ، صوابه فى ط .
(٧) ب : « ونبذ يسيرة » تحريف . وانظر ما مضى قريباً .
(٨) ب ، م : « غرباً كثيرة » صوابه بالعين المهملة كما فى ط .

النصارى متكلِّمين وأطبَّاء ومنجِّمين ، فصاروا بذلك عندهم عُقلاء وفَلاسفةً حكماء ، ولم يَرَوْا ذلك فى اليهود .

وإنَّما اختلفت[1] أحوالُ اليهودِ والنَّصارى فى ذلك لأَنَّ اليهود ترى أَنَّ النظر فى الفَلسَفةِ[2] كفر ، والكلامَ فى الدِّين بِدعة ، وأَنَّه مَجْلبَةٌ لكلِّ شُبهة ، وأَنَّه لا علم إلَّا ما كان فى التَّوراة وكُتُبِ الأَنبياء ، وأَنَّ الإيمانَ بالطِّبِّ ، وتصديقَ المنجِّمين من أَسباب الزَّندقةِ والخُروجِ إلى الدُّهرية ، والخلافِ على الأَسلافِ وأَهلِ القُدوة ، حتَّى إنَّهم لَيُبهرِجُون المشهورَ بذلك ، ويحرِّمون كلامَ من سَلكَ[3] سبيلَ أُولئك .

ولو علمتِ العوامُّ أَنَّ النَّصارى والرُّوم ليست لهم حكمةٌ ولا بَيان ، ولا بُعْدُ رويَّة[4] ، إلَّا حكمة الكفِّ ، من الخَرْط والنَّجْر والتَّصوير ، وحياكة البِزْيون[5] لأَخرجَتْهم من حُدود الأُدباء ، ولَمَحَتْهُمْ من ديوان الفلاسفةِ والحكماء ؛ لأَنَّ كتابَ المنطقِ والكَونِ والفساد ، وكتاب العُلْوىّ[6] ، وغير ذلك ، لأَرسطاطاليس[7] ، وليس برومىٍّ ولا نصرانىّ .

وكتابَ المِجَسْطِىِّ لبطليموس[8] ، وليس برومىٍّ ولا نَصرانىّ .

وكتابَ إقليدسَ لإقليدس ، وليس برومىٍّ ولا نصرانى .

---

(١) ب ، م : « اختلف » .
(٢) ب فقط : « فى الفلاسفة » .
(٣) ط : « كلام سالك » .
(٤) ب ، م : « رؤية » .
(٥) البزيون : السندس . قال ابن برى : هو رقيق الديباج . وضبطه صاحب القاموس كجردحل وعصفور ، وصاحب اللسان بالضم فقط . ط : « البريون » تحريف . وانظر اللسان والقاموس (بزن) .
(٦) ذكره فى الحيوان ٦ : ٢٨٠ باسم « الآثار العلوية » . ط فقط : « العدوى » تحريف .
(٧) ب ، م : « لأرسطوطيلس » ، وأثبت ما فى ط والحيوان .
(٨) انظر حواشى الحيوان ١ : ٨٠ .

وكتابَ الطبِّ لجالينوس ، ولم يكن روميًّا ولا نصرانيًّا .

وكذلك كتب دِيمُقْراطَ وبُقْراطَ وأَفلاطون ، وفلانٍ وفلان .

وهؤلاء ناسٌ (١) من أُمة قد بادوا وبقيتْ آثارُ عقولهم ، وهم اليونانيُّون ، ودينُهم غير دينِهم ، وأَدبُهم غيرُ أَدبِهم ، أُولئك علماءُ ، وهولاء صُنَّاعٌ أَخذوا كتبهم (٢) لقُرب الجوار ، وتداني الدار ، فمنها ما أَضافوه إلى أَنفسهم ، ومنها ما حوَّلوه إلى مِلَّتهم . إلَّا ما كان من مشهور كتبهم ، ومَعروف حِكَمهم ، فإِنَّهم حين لم يَقدِروا على تغيير أَسمائها زَعَموا أَنَّ اليونانيين قبيلٌ من قبائل الروم ، ففخَرُوا (٣) بأَديانهم على اليهود ، واستطالُوا بها على العرب ، وبَذِخُوا بها على الهند (٤) ، حتَّى زعموا أَنَّ حكماءَنا أَتْباعُ حكمائِهم ، وأَنَّ فلاسفَتَنَا اقتدوْا على مثالهم (٥) ، فهذا هذا .

ودينُهم (٦) يرحمُك الله — يُضاهِي الزَّندقة ، ويناسبُ في بعض وجوهه قولَ الدُّهرية ، وهم من أَسبابِ كلِّ حَيرةٍ وشُبهة .

والدَّليل على ذلك أَنَّا لم نر أَهلَ ملَّةٍ (٧) قطُّ أَكثَر زندقةً من النَّصارى ، ولا أَكثر متحيِّراً أَوْ مترنِّحاً منهم (٨) .

وكذلك شأْنُ كلِّ مَن نظر في الأُمور الغامضة بالعقول الضعيفة : أَلا تَرَى أَنَّ أَكثَرَ من قُتِل في الزَّندقة ممن كان ينتحل الإِسلام ويُظهره ،

(١) ط فقط : « أناس » .
(٢) ب : « أخذ وكتبهم » ، وهو تحريف كتابي .
(٣) ب ، م : « ففجروا » ، صوابه في ط
(٤) البذخ والبذوخ : تطاول الرجل بكلامه وافتخاره ، وفعله كفرح يفرح ، وقعد يقعد .
(٥) ب : « اقتدروا » ، تحريف . ط : « احتذوا » ، وأثبت ما في م .
(٦) ط : « فهذا هو دينهم » ، وإخاله تصرفاً من الناشر . وما أثبته من ب ، م هو لغة الجاحظ .
(٧) ط : « أهل مكة » ، صوابه في ب ، م .
(٨) الترنح : التمايل والاضطراب . وفي جميع الأصول : « متحيزاً » بالزاى ، صوابه ما أثبت .

هم[1] الذين آباؤهم وأُمَّهاتُهم نصارى .

على أنَّك لو عددتَ اليومَ أهلَ الظِّنَّة ومواضعِ التُّهمة لم تجد أكثَرَهم إلَّا كذلك .

وممَّا عظَّمهم فى قلوب العوامِّ ، وحبَّبهم إلى الطَّغَّام ، أنَّ منهم كُتَّابَ السَّلاطين ، وفَرَّاشِى الملوك[2] ، وأَطبَّاءَ الأَشرافِ ، والعطَّارينَ والصَّيارفة . ولا تجد اليهوديَّ إلَّا صبَّاغاً ، أو دبَّاغاً ، أو حجَّاماً ، أو قصَّاباً ، أو شَعَّاباً .

فلمَّا رأَت العوامُّ اليهودَ والنَّصارى توهَّمتْ أنَّ دينَ اليهود فى الأَديان كصناعتهم فى الصِّناعات ، وأنَّ كُفرهم أقذرُ الكُفْر،إذْ كانواهمأَ قذَرالأُمَم .

وإنَّما صارت النَّصارى أَقلَّ مَسَاخة من اليهود[3] ، على شدَّة مساخة النَّصارى ، لأَنَّ الإسرائيلىَّ لا يزوِّج إلَّا الإسرائيلى،وكل مناكِحِهِم مردودةٌ فيهم[4] ، ومقصورةٌ عليهم ، وكانت الغرائبُ لا تَشُوبهم ، وفحولةُ الأَجناسِ لا تُضرَب ولا تضربِ فيهم ، لم يُنجِبوا فى عَقْل ولا أَسْر ولا مِلْحٍ[5] . وإنَّك لتعرف ذلك فى الخيلِ والإبل ، والحمير والحمام .

ونحن – رحمك الله – لم نُخالف العوامَّ فى كثرة أَموال النصارى ، وأَنَّ فيهم مُلكاً قائماً ، وأَنَّ ثيابهم أَنظف[6] ، وأَنَّ صناعتَهم أَحسن .

---

(١) ب : « وهم » ، والواو مقحمة .

(٢) يراد بالفراش من يتعهد فراش البيت وأثاثه . وانظر ماكتبت فى ذلك فى (حول ديوان البحترى) ٣٩ – ٤٠ والحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٣) المسيخ من الناس : الذى : الذى لاملاحة له . وقد مسخ مساخة .

(٤) ب : « وكل مناكحتهم مردون فيهم » ط ، م : « وكل مناحهم مردودة فيهم » ، صوابهما ما أثبت .

(٥) الأسر : شدة الخلق . وفى التنزيل العزيز : « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم » . والملح ، بالكسر : الرضاع واللبن .

(٦) ب : « وأن مابهم » م : « مايهم » ط : « ماءهم » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما سيأتى فى ٣٢٥ من قوله : « والنصرانى وإن كان أنظف ثوباً » .

وإنَّما خالفْنا فى فرق ما بين الكُفرينِ والفِرْقتين ، فى شدَّة المعاندة واللَّجاجة ، والإرصادِ لأَهلِ الإسلام بكلِّ مَكيدة ، مع لُؤْم الأَصول ، وخُبْث الأَعراق .

فأَمَّا المُلك والصِّناعة والهيئةُ ، فقد علمنا أَنَّهم اتَّخذوا البراذين الشِّهرية[١] ، والخيلَ العِتاق ، واتَّخذوا الْجَوْقات[٢] ، وضَرَبوا بالصَّوالجة ، وتحذَّفُوا المدِينىَّ[٣] ، ولبِسوا المُلْحَم والمطبَّقَة[٤] ، واتَّخذوا الشاكريَّة[٥] ، وتسمَّوْا بالحسن والحُسَين ، والعبَّاس والفضل وعلىٍّ ، واكْتَنَوْا بذلك أَجمع ، ولم يبقَ إلَّا أَنْ يتسمَّوا بمحمّد ، ويكتَنُوا بأَبى القاسم . فرغب إليهم المسلمون ، وتَرَك كثيرٌ منهم عَقْدَ الزَّنانير ، وعَقَدها آخرونَ[٦] دون ثِيابهم ، وامتنع كثيرٌ من كُبرائهم من إعطاءِ الجزية ، وأَنِفوا مع أَقدارهم من دفعها[٧] وسَبُّوا مَن سبَّهم ، وضربوا من ضَرَبهم .

---

(١) الشهرية ، سبق تفسيرها فى ١٢٨ . وكلمة « اتخذوا » ساقطة من ب ، م .

(٢) الجوقة : جماعة من الناس ، معربة كما فى شفاء الغليل . والمراد فرق الفروسية ونحوها .

(٣) تحذيف الشعر : تطريره وتسويته . وفى اللسان : « قال النضر : التحذيف فى الطرة أن تجعل سكينية كما تفعل النصارى » . فقد وضع التحذف هنا موضع التحذيف . وفى الأصول هنا : « وتحدقوا » ، ولا وجه له .

(٤) فى اللسان : « الملحم : جنس من الثياب » . وفى القاموس : «وكمكرم : جنس من الثياب » . وألحم الناسج الثوب . وفى المثل : « ألحم ما أسديت » أى تمم ما ابتدأته من الإحسان . واللحمة ، بالضم : خيوط النسج العرضية يلحم بها السدى ، كما فى المعجم الوسيط . وفيه أيضاً : « الملحم جنس من الثياب يختلف نوع سداه ونوع لحمته ، كالصوف والقطن ، أو الحرير والقطن » ، أى لايكونان من نوع واحد . أما المطبقة ، فهى من قولهم : طابق بين قميصين : لبس أحدهما على الآخر . فالمراد الثياب المزدوجة المتطابقة .

(٥) الشاكرية ، يراد بهم الجند المستأجرون ؛ لأن الشاكرى معناه كما فى القاموس : الأجير المستخدم ، معرب جاكر . وانظر حواشى الحيوان ٢ : ١٣٠ ورسائل الجاحظ ١ : ٣٠

(٦) ب ، م : « وعقدوها آخرون » ، وأثبت ما فى ط .

(٧) ب ، م : « وأنف مع أقدارهم من دفع » ، صوابه فى ط

وما لهم لا يفعلون ذلك وأكثرَ منه ، وقُضاتُنا أَوْ عامّتهم[١] يرون أَنَّ دمَ الجاثَليق[٢] والمُطْرانِ والأَسقُفّ وفاءٌ بدم جعفرٍ وعليٍّ والعبّاسِ وحمزة .

ويرون أَنَّ النَّصرانى إذا قذفَ أُمَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالغَوايةِ[٣] أَنَّه ليس عليه إلَّا التعْزير والتّأْديب[٤] ، ثم يحتجُّون أَنَّهم إنَّما قالوا ذلك لأَنَّ أُمَّ النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن مُسلِمة . فسبحانَ الله العظيم ! ما أَعجب هذا القولَ[٥] وأَبْيَنَ انتشاره[٦] !

ومن حُكْمِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : أَن لا يساوُونا فى المجلِس ، ومن قوله : « وإنْ سبُّوكم فاضربُوهم ، وإن ضَربوكم فاقتلوهم » .

وهم إذا قذفوا أُمَّ النبي عليه السلام بالفاحشة لم يكن له عند أُمّته إلّا التَّعزير والتّأْديب . وزَعموا أَنَّ افتراءَهم على النبيِّ ليس بنكْثٍ للعهد ، ولا بنَقْضٍ للعَقْد .

وقد أَمر النبي عليه السلام أَن يُعطونا الضَّريبة عن يدٍ منّا عالية[٧] فى قبولنا منهم[٨] ، وعَقْدِنا لذمَّتهم ، دون إراقة دمهم[٩] . وقد حكم الله تعالى عليهم[١٠] بالذِّلَّة والمسكنة .

(١) ط فقط : « وعامتهم » .
(٢) الجاثليق ، بفتح الثاء : رئيس من رؤساء النصارى ، يكون تحته المطران ، ثم الأسقف ثم القسيس ، ثم الشماس .
(٣) الغواية ، بالفتح : الضلال . ب ، م : « بالغوية » ، صوابه فى ط .
(٤) التعزير : التأديب والعقاب .
(٥) ب ، م : « القوم » ، تحريف مافى ط .
(٦) انتشار الأمر : عدم إحكامه . ط فقط : « انتشاره » .
(٧) ب ، م : « عليه » ، وتصح إذا قرئت « علية » .
(٨) ب ، م : « منه » .
(٩) ب ، م : « وعقدنا له ذمته دون إراقة دمه » .
(١٠) ب ، م : « عليه » .

أَوَ ما ينبغى[(١)] للجاهل أَنْ يعلم أَنَّ الأَئمة الراشدين ، والسَّلَفَ المتقدِّمين لم يشترطوا عند أَخذِ الجزية ، وعَقْد الذِّمَّة عدمَ الافتراءِ[(٢)] على النبى صلى الله عليه وسلم وأُمّته ، إلَّا[(٣)] لأَنَّ ذلك عندهم أَعظَمُ فى العيون ، وأَجلُّ فى الصدور من أَن يحتاجوا إلى تخليده فى الكُتُب ، وإلى إظهار ذِكره بالشَّرط ، وإلى تثبيته بالبيِّنات[(٤)] ، بل لو فعلوا ذلك لكان فيه الوَهَن عليهم ، والمَطْمَعةُ فيهم ، ولظنُّوا أَنَّهم فى القَدْر الذى يُحتاج فيه[(٥)] إلى هذا وشِبهِه .

وإنَّما يتَواثَقُ النَّاس فى شروطهم ، ويفسِّرون فى عُهودهم ما يُمكن فيه الشُّبهة ، أَو يقعُ فيه الغَلَط ، أَو يَغْبَى عنه الحاكم[(٦)] ، وينساه الشَّاهد ، ويتعلَّق به الخَصْم ، فأَمَّا الواضح الجلىّ[(٧)] ، والظاهر الذى لا يُخِيل[(٨)] فما وجه اشتراطه ، والتَّشاغُلِ بذكره .

وأَمَّا ما احتاجوا إلى ذكره فى الشُّروط ، وكان مما يجوز أَنْ يظهر فى العَهْد فقد فعلوه ، وهو كالذِّلَّة والصَّغارة[(٩)] ، وإعطاءِ الجزية ، ومُقاسمة الكنائِس ، وأَن لا يُعِينوا بعضَ المسلمين على بعضٍ ، وأَشباهِ ذلك . فأَمّا

(١) ط فقط : « وما ينبغى » .
(٢) كلمة « عدم » من ط .
(٣) إلا ، ساقطة من ب .
(٤) ط : « وتثبيته بالبينات » .
(٥) ب ، م : « فيهم » .
(٦) غبى عنه غباء وغباوة : لم يفطن له . ب ، م : « يغنى » بالنون . ط : « يعيا » ، صوابهما ما أثبت .
(٧) الجلى : الظاهر . ب ، م : « الجليل » .
(٨) لايخيل على أحد : لا يشكل . ط : « لايخيل غيره » ، تحريف .
(٩) الصغارة ، كسحابة : صغر القدر . وفى اللسان : « ابن سيده : الصغر والصغارة : خلاف العظم . وقيل الصغر فى الجرم والصغارة فى القدر » . ب ، م : « والصيرفة » ط : « الصفارة » بالفاء ، ووجههما ما أثبت .

أن يقولوا لمن هو أذلُّ من الذَّليل، وأقلُّ من القليل، وهو الطالبُ الراغبُ في أَخْذِ فديته، والإنعامِ عليه بقَبْض جزيته وحَقْنِ دمِه: نُعاهدك على أن لا تفترىَ[1] على أُمّة[2] رسول ربِّ العالمين، وخاتَم النبيين، وسيِّدِ الأوّلين والآخِرين[3] فهذا ما لا يجوز[4] في تدبيرِ أوساط الناس، فكيف بالجِلَّة والعِلْية، وأئمّة الخليقة، ومصابيحِ الدُّجى، ومَنار الهُدَى، مع أَنَفَة العربِ، وَبأْوِ السُّلطان[5]، وغَلَبة الدولة، وعزِّ الإسلام، وظهور الحجّة، والوعدِ بالنُّصرة.

على أنَّ هذه الأُمة لم تُبتلَ باليهود، ولا المجوسِ، ولا الصابئين كما ابتُلِيتْ بالنصارى[6]. وذلك أنَّهم يَتْبعون المتناقض من أحاديثنا، والضعيفَ بالأَسناد من روايتنا، والمتشابهَ من آيِ كتابنا، ثم يَخْلُون بضعفائنا، ويسأَلون عنها عوامَّنا، مع ما قد يعلمون من مسائل المُلحِدين، والزَّنادقة الملاعين، وحتَّى مع ذلك ربَّما تبرَّءوا[7] إلى علمائنا، وأهلِ الأقدارِ مِنَّا، ويَشْغَبون على القويّ[8]، ويُلْبِسون على الضَّعيف.

ومن البلاءِ أنَّ كلَّ إنسانٍ من المسلمين يرى أنَّه متكلم، وأنَّه ليس أحدٌ أحقَّ بمحَاجَّة الملحدين من أحد.

وبعدُ، فلولا متكلِّمُو النَّصارى وأطبَّاؤُهم ومنجِّموهم ما صار إلى

(١) ب، م: «يعاهدك أن لايفترى»، ومع سقوط «على»، وصوابه فى ط.
(٢) ب، م: «على أم».
(٣) ب، م: «وخير سيد الأولين والآخرين»، تحريف.
(٤) ب، م: «فهذا ما يجوز»، تحريف.
(٥) البأو: الكبر والفخر والعظمة. ب: «وباوو» ط: «وشأو»، صوابهما فى ب.
(٦) ط: «كما ابتلت بالنصارى»، صوابه فى ب، م.
(٧) ب: «تبروا».
(٨) ب، م: «على القوم»، صوابه فى ط.

أَغبيائنا[١] وظرفائنا ، ومُجَّاننا وأَحْدَاثنا[٢] شىءٌ من كتب المنانيَّة[٣] ، والدَّيصانية[٤] ، والمَرْقُونيَّة[٥] ، والفُلانية[٦] ، ولما عرفوا غير كتابِ الله تعالى ، وسنَّةَ نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، ولكانت تلك الكتب مستورة عند[٧] أهلها ، ومُخَلَّاة[٨] فى أيدى ورثتها . فكلُّ سُخْنةِ عينٍ[٩] رأيناها فى أَحداثنا وأَغبيائنا فمِنْ قِبَلهم كان أوّلُها .

وأنت إذا سمعتَ كلامَهم فى العفْو والصَّفح ، وذِكرَهم للسِّياحة ، وزرايتَهم على كلٍّ من أَكل اللُّحمان[١٠] ، ورَغْبَتَهم فى أَكل الحُبوب ، وتَركِ الحيوان ، وتزهيدَهُم فى النِّكاح ، وتَركَهم لطلب الوَلَد ، ومديحَهم للجاثَليق والمُطْران والأُسقفّ والرُّهبان ، بتَركِ النِّكاح وطلبِ النَّسْل ، وتعظيمَهم الرُّؤساءَ — علمتَ أَنَّ بين دينهم وبين الزَّندقة نسباً ، وأنَّهم يحنُّون إلى ذلك المذهب .

---

(١) م : « أغنائنا » ب ، ط : « أغنيائنا » ، صوابهما ما أثبت . وانظر ما سيأتى فى فى السطر الخامس .

(٢) المجان : جمع ماجن . ب ، م «وتحابنا » ، صوابه فى ط . والأحداث : جمع حدث . وفى ب ، م : « وأخذاننا » ط : « وأخدائنا » ، صوابهما ما أثبت .

(٣) المنانية : أتباع مانى . وانظر ما سبق فى ٢٥٤ .

(٤) الديصانية : فرقة من المجوس . قال ابن النديم : « إنما سمى صاحبهم بديصان باسم نهر ولد عليه . هو قبل مانى . والمذهبان قريب بعضهما من بعض ، وإنما بينهما خلف فى اختلاط النور بالظلمة » .وانظر الملل ٢ : ٨٨ والفهرست ٤٧٤ والحيوان ٥ : ٤٦ .

(٥) المرقونية : فرقة من المجوس ، أتباع مرقون . أثبت قديمين أصلين متضادين أحدهما النور والآخر الظلمة ، وأثبتوا أصلا ثالثاً هو المعدل الجامع . وفى مفاتيح العلوم ٢٥ : « المرقيونية » . وهى فى جميع الأصول : « المرقوبية »، تحريف . وانظر الملل والنحل ٢ : ٨٩ ومعجم استينجاس . ١٢١٨ .

(٦) لعله كناية عن أى فرقة كانت .

(٧) ب فقط : « مسطورة » .

(٨) مخلاة : متروكة . وفى جميع الأصول : « محلاة » بالحاء المهملة .

(٩) سخنة العين : نقيض قرتها ، وذلك من حرارة الحزن . وفى ب فقط : « سحنة » بالمهملة ، تحريف .

(١٠) الزراية : العيب والإنكار . ب : « وذرياتهم » ، صوابه فى م ، ط

والعجبُ أَنَّ كلَّ جاثَليقٍ لا ينكح ، ولا يَطلُب الولد . وكذلك كلُّ مَطرانٍ [(١)] ، وكل أُسقفّ . وكذلك كلُّ أَصحاب الصَّوامع من اليَعقوبية ، والمقيمين فى الدِّيارات [(٢)] والبيوتِ من النِّسطورية . وكلُّ راهبٍ فى الأَرض وراهبةٍ ، مع كثرة الرُّهبان والرَّواهب ، ومع تشبُّه أَكثر القِسِّيسينَ بهم فى ذلك [(٣)] ، ومع ما فيهم [(٤)] من كثرة الغُزاة ، وما يكون فيهم ممَّا يكون فى الناس ، من المرأَةِ العاقر ، والرَّجُل العقيم .

على أَنَّ من تزوّج منهم امرأَةً لم يقدِرْ على الاستبدال بها ، ولا على أَنْ يتزوج أُخرى معها [(٥)] ، ولا على التَّسرِّى عليها . وهم مع هذا قد طبَّقوا الأَرضَ ، ومَلئوا الآفاق ، وغَلبوا الأُممَ بالعدَد ، وبكثْرة الولد . وذلك ممَّا زاد فى مصائبنا ، وعَظُمت بهِ محنتُنا .

وممَّا زاد فيهم ، وأَنمى عددَهم ، أَنَّهم يأْخذون من سائر الأُمم ، ولايُعطونهم ، لأَنَّ كلَّ دينٍ جاءَبعد دين ، أَخَذَ منه الكثير ، وأَعطاهالقليل .

٣ — فصل منه

وممَّا يدلُّ على قلَّة رحمتهم ، وفسادِ قلوبهم أَنَّهم أَصحابُ الخِصاءِ من بين جميع الأُمم ، والخِصَاء أَشدُّ المُثْلة ، وأَعظم ما رُكِب به إنسان [(٦)] ثمَّ يفعلون ذلك بأَطفالٍ لا ذنْبَ لهم ، ولا دَفْعَ عندهم .

---

(١) المطران ، بفتح الميم وكسرها ، كما فى القاموس .

(٢) ط : « الديورات » تحريف . ويراد بالديارات أديار النصارى . والديارات معروفة فى جموع الدار إذ هو جمع جمع لها ، فهى جمع للديار . وانظر مقدمة كتاب « الديارات » للشابستى . وأما الجمع المعروف للدير ، بالفتح ، فهو الأديار والأديرة .

(٣) ب ، م : « فى زلل » ، صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « وقع مع مافيهم » ، صوابه فى ط .

(٥) على ، ساقطة من ب . وفى ب ، م : « يزوج » .

(٦) ط . فقط : « ركبه إنسان » .

ولا نَعْرِف قوماً يُعرَفون بخصاءِ النَّاس حيث ما كانوا إلَّا ببلاد الرُّوم والحَبَشة ، وهم فى غيرهما قليلٌ ، وأَقلُّ قليل[١] .

على أَنَّهم لم يتعلَّموا إلَّا منهم ، ولا كان السَّببُ فى ذلك غيرَهم ، ثم خَصَوْا أَبناءَهم وأَسلموهم فى بِيَعهم . وليس الخِصاءُ إلَّا فى دين الصابئين ، فإنَّ العابد ربَّما خَصَى نفسه[٢] ، ولا يستحلُّ خصاءَ ابنه[٣] . فلو تمَّت إرادتُهم فى خِصاءِ أَولادهم فى ترك النِّكاح وطلب النَّسْل كما حكيتُ لك قبل هذا ــ لانقطَع النَّسْلُ ، وذهب الدِّينُ ، وفُتِن الخَلْق .

والنصرانىُّ وإن كان أَنظَفَ ثوباً ، وأَحسنَ صِناعةً ، وأَقلّ مَساخة[٤] ، فإنَّ باطنَه أَلأَمُ وأَقذر وأَسمج ، لأَنَّه أَقلَف ، ولا يَغتسِل من الجَنَابة ، ويأْكُل لحمَ الخِنزير ، وامرأَته جُنُبٌ لا تَطهُر من الحيض ، ولا من النِّفاس ، ويَغْشَاها فى الطَّمْث ، وهى مع ذلك غير مختونة .

وهم مع شَرَارةِ طبائعهم[٥] ، وغَلَبة شَهَواتهم ليس فى دينهم مَزاجِرُ كنار الأَبَدِ فى الآخرة ، وكالحُدود والقَوَدِ والقصاصِ فى الدُّنيا ، فكيف يُجانب ما يفسده[٦] ، ويُؤْثر ما يصلحه من كانت حاله كذلك . وهل يُصلح الدُّنيا من هو كما قلنا[٧] ؟ وهل يهيِّجُ على الفَسَاد إلَّا مَنْ وصفنا[٨] ؟

---

(١) انظر الحيوان ١ : ١١٩ ، ١٢٤ .

(٢) انظر الحيوان ١ : ١٢٥ .

(٣) ب ، م : « خصاء نفسه » ، صوابه فى ط .

(٤) انظر ما مضى فى ص ٣١٨

(٥) يقال : شر يشر ويشر شراً ، وشرارة ، فهو شرير كأمير ، وشرير كسكيت . وفى جميع الأصول : « شرار » ، والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٤ : ٦/٢٩٧ : ٤٦٠ . وأما الشرار ، بالكسر وكجبل ، فهو مايتطاير من النار ، واحدتهما بهاء .

(٦) ب ، م : « بجانب ما يفسده » » ، صوابه فى ط .

(٧) ب ، م : « وهل يصلح الدنا كما قالوا » ، صوابه فى ط .

(٨) ب ، م : « وهل التهييج على الفساد إلا كما وصفوا » ، صوابه فى ط .

ولو جَهَدت بكلِّ جَهدِكَ ، وجمعتَ كلَّ عقلِك أَنْ تفهم قولهم فى المسيح ، لما قدرتَ عليه ، حتّى تعرف به حدَّ التصرانية ، وخاصّةً قولَهم فى الإلهيَّة .

وكيف تقدر[1] على ذلك وأَنت لو خلوتَ ونصرانىٌّ نِسطورىٌّ فسأَلته عن قولهم فى المسيح لقال قولًا ، ثم إنْ خلوتَ بأَخيه لأُمِّه وأَبيه وهو نِسطورىٌّ مثلُه فسأَلتَه عن قولهم فى المسيح لأَتاك بخلاف أَخيه وصِنوِه . وكذلك جميع المَلْكانية واليعقوبيَّة[2] . ولذلك صِرْنا لا نعقل حقيقةَ النصرانية ، كما نعرف[3] جميعَ الأَديان .

على أَنَّهم يزعُمون أَنَّ الدين لا يَخرُج فى القياس ، ولا يقوم على المسائل[4] ، ولا يثبت فى الامتحان ، وإنَّما هو بالتَّسليم لما فى الكتب ، والتَّقليد للأَسلاف . ولعمرى ، إنَّ[5] من كان دينُه دينَهم ليَجِبُ عليه أَن يعتذر بمثلُ عُذْرهم .

وزعموا أَنَّ كلَّ من اعتقدَ خِلاف النصرانية من المجوسِ والصَّابئين والزَّنادقة فهو معذور ، ما لم يتعمَّد الباطل ، ويُعانِدِ الحقَّ . فإذا صاروا إلى اليهود قَضَوْا عليهم بالمعاندة ، وأَخرجُوهم من طريق الغَلَط والشُّبهة .

٤ — فصل منه

فأَمَّا مسأَلتهم فى كلام عيسَى فى المهد : أَنَّ النصارى مع حبِّهم لتقويةِ أَمرِه لا يُثْبتونه ، وقولُهم : إنَّا تقوّلناه ورَوَيناه عن غير الثِّقات[6] ،

---

(١) ب ، م : « يقدر » .
(٢) انظر ما معنى فى ص ٣١٢ .
(٣) م فقط : « يعرف » .
(٤) فى جميع الأصول : « السائل » ، والوجه ما أثبت .
(٥) إن ، ساقطة من ط .
(٦) فى جميع النسخ : « الثقاة » ، وهو خطأ فى الرسم ، لأنه جمع ثقة .

وأنَّ الدليل على أَنَّ عيسى لم يتكلَّم فى المهد أَنَّ اليهودَ لا يعرفونه ، وكذلك المجوس ، وكذلك الهند والخَزَرُ والدَّيلم . فنقول فى جواب مسأَلتهم عند إنكارهم كلامَ المسيح فى المهد مولوداً .

يقال لهم : إنَّكم حين سوّيتم المسأَلةَ وموّهتموها ، ونظمتم أَلفاظَها ، ظننتم أَنَّكم قد أَنْجحتم[1] ، وبلغتم غايتكم . ولعمرى لئن حَسُنَ ظاهرُها ، وراعَ الأَسماعَ مَخْرجها[2] ، إنَّها لقبيحةُ المفتَّش ، سيِّئةُ المُعرَّى .

ولعمرى أَنْ لو كانت اليهود تقرُّ لكم بإحياءِ الأَربعة الذين تَزْعمون[3] ، وإقامةِ المُقعَد الذى تدَّعون ، وإطعامِ الجَمْع الكثير من الأَرغفة اليسيرة ، وتصييرِ الماءِ جَمَداً[4] ، والمشيِ على الماءِ ، ثم أَنكرَتِ الكلامَ فى المهد من بين جميع آياته وبَرَاهينه[5] لكان لكم فى ذلك مقال ، وإلى الطَّعن سبيل . فأَمَّا وهم يَجحدون ذلِك أَجمع ، فمرَّةً يضحكون ، ومرَّةً يغتاظون ويقولون : إنَّه صاحبُ رُقىً ونِيرَجَات[6] ، ومُداوِى

(١) أنجح : صار ذا نجح وظفر . ويقال أيضاً نجح ، إذا أصاب طلبته . ط فقط : « نجحتم » وأثبت ما فى ب ، م .

(٢) ب فقط : « لخرجها » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « يزعمون » . وهؤلاء الأربعة فيما يذكر المفسرون هم : « عازر » ، وكان صديقاً له ، أحياه بعد ثلاثة أيام فقام من قبره يقطر ودكه وبقى إلى أن ولد له . والثانى : ابن العجوز أحياه وهو على سرير الموت ، فنزل عن أعناق الرجال وحمل سريره ، وبقى إلى أن ولد له . والثالث : بنت العشار ، وقد متعت بولدها بعد ما حييت . والرابع : سام بن نوح عليه السلام . سألوه أن يحييه ليخبرهم عن حال السفينة . فخرج من قبره . هذا ما ذكره أبو حيان فى تفسيره ٢ : ٤٦٧ .

(٤) الجمد ، بالتحريك ، وكذا بالفتح : الماء الجامد . وقيل : هو بالتحريك يكون جمعاً لجامد ، مثل خادم وخدم . ب فقط : « جامداً » .

(٥) ب ، م : « وبرهانه » ، صوابه فى ط .

(٦) كذا فى ب والحيوان ٤ : ٣٧٠ . فى م ، ط : « نيرنجات » ، وهما لغتان فى التعريب قال صاحب القاموس : « والنيرنج ، بالكسر : أخذ كالسحر وليس به . وعقب عليه الزبيدى بقوله : « هكذا فى سائر النسخ . والمنقول عن نص كلام الليث : النيرج ، بإسقاط النون الثانية . وجاء فى كتاب المعارف لابن قتيبة ١٧٨ : « وكان صاحب نيرنجات » . وأقول : هو بالفارسية « نيرنك » .

مجانينَ ، ومتطبِّبٌ ، وصاحب حِيَلٍ وتربُّصِ خُدَعٍ [١] ، وقراءةِ كتب ، وكان لسناً مسكيناً [٢] ، ومقتولاً مرحوماً ، ولقد كان قبل ذلك صيَّادَ سمكٍ ، وصاحبَ شبك ، وكذلك أصحابه . وأنَّه خرجَ على مواطأةٍ منهم له ، وأنَّه لم يكن لِرِشدة [٣] .

وأحسنهم قولاً ، وأليَنُهم مذهباً مَن زعم أنَّه ابنُ يوسفَ النَّجَّار [٤] .

وأنَّه قد كان واطَأَ ذلك المُقعدَ قَبل إقامته بسِنِينَ ، حتَّى إذَا شَهَره بالقِعْدة [٥] ، وعُرِف موضُعه فى الزَّمْنَى ، مرّ به فى جمعٍ من الناس كأنَّه لا يريده ، فشكا إليه الزَّمانَةَ وقلَّةَ الحيلة ، وشِدَّة الحاجة ، فقال : ناوِلْنِي يدك . فناوله يَده ، فاجتذبَه فأقامه ، فكان تجمَّع [٦] لطول القُعود ، حتَّى استمرَّ بعد ذلك .

وأنَّه لم يُحيِ [٧] ميّتاً قطُّ ، وإنَّما كان داوَى رجلاً يقال له « لا عازَر [٨] » إذْ [٩] أُغمِيَ عليه يوماً وليلة ، وكانت أُمُّه [١٠] ضعيفةَ العقل ، قليلَة المعرفة ، فمرّ بها [١١] ، فإذا هى تصرُخ وتبكى ، فدخل إليها

---

(١) التربص : المكث والانتظار . ب ، م : « وترمض » . وفى ط : « وصاحب » وأرى الوجه فيما أثبت .

(٢) ب ، م : « سكيتا » ، وأثبت مافى ط .

(٣) يقال هو لرشدة بالكسر وقد يفتح : نقيض قولهم : لزنية أو لغير رشدة . والرشدة : النكاح الصحيح . ط : « لم يكن له شدة » ، تحريف .

(٤) ط : « وأخسهم قولا وألأمهم مذهباً » ، تحريف .

(٥) القعدة ، بالكسر : ضرب من القعود .

(٦) ط فقط : « تجمد » .

(٧) ب ، م : « لم يحيى » ، تحريف .

(٨) فى جميع الأصول : « لاعار » ، وإنما هو « لعازر » المذكور فى إنجيل يوحنا ١١ : ٤٣

(٩) ب فقط : « إذا » .

(١٠) فى إنجيل يوحنا ١١ : ٥ أنها أخته وأسمها «مرثا».وفيه ايضاً أن يسوع كان يحب مرثا وأختها ولعازر . ويفهم من هذا أيضاً أن له أختين .

(١١) ط فقط : « بهما » .

لِيُسْكِتَها ويُعَزِّيَها ، وجَسَّ عِرقَه فرأى فيه علامةَ الحياة ، فداواه حتى أقامَه ، فكانت لِقلّة معرفتها[١] لا تشكُّ أنَّه قد مات ، ولفرحها بحياته تُثْنِي عليه بذلك ، وتتحدَّث به .

فكيف تستشهدون قوماً هذا قولُهم فى صاحبكم ، حين قالوا : كيف يجوز أنْ يتكلَّم صبيٌّ فى المهد مولوداً[٢] ، فيجهله[٣] الأَولياءُ والأَعداءُ .

ولو كانت المجوسُ تقِرُّ لعيسى بعلامةٍ واحدة ، وبأَدنَى أُعجوبةٍ ، لكان لكم أن تنكِرُوا علينا بهم[٤] ، وتستعينوا بإنكارهم . فأَمَّا وحالُ عيسى فى جميع أَمرِهِ عند المجوس كحال زَرَادُشتَ فى جميع أَمرِهِ عند النصارى فما اعتلالُهم بهم ، وتعلُّقهم فى إنكارهم ؟

وأَمَّا قولكم : وكيف لم تعرف الهندُ والخَزَر والتُّرك ذلك ؟ فمتى أَقرّت الهند لموسَى بأُعجوبةٍ واحدة ، فَضْلًا عن عيسى ؟ ومتى أَقرَّت لنبيٍّ بآية ، أَو روَتْ له سيرة ، حتى تستشهدوا[٥] الهندَ على كلام عيسى فى المهد ؟

ومتى كانت التُّركُ والدَّيلم والخَزَرُ والبَبْر[٦] والطَّيلسَانُ[٧] مذكورةً فى شيءٍ من هذا الجنس ، محتجًّا بها على هذا الضرب ؟

---

(١) ب ، م : « بقلة معرفتها » .

(٢) ب ، م : « مولود » .

(٣) ب فقط : « فيجعله » .

(٤) ب ، م : « تتكبروا علينا بهم .

(٥) ب ، م « حتى يستشهدوا » .

(٦) الببر ، بباءين : أمة قديمة يبدو أنها من أمم الترك ، وتقرن بالطيلسان ، كما فى البيان ١ : ١٣٧ . وجاء فى الطبرى ٤ : ٢٤٦ : « فبعث عبد الله بن شبيل بن عوف الأحمسى فى أربعة آلاف .فأغار على أهل موقان والببر والطيلسان » ، ب : « والسرو » م « والسر » ط : « والتتر » ، صوابهما جميعاً ما أثبت . ولم ترد « التتر » فى أثر من آثار الجاحظ ، كما أن معرفة العرب بالتتر جاءت متأخرة ، إذ لم يرد ذكرهم فى الكامل لابن الأثير قبل سنة ٣٤٥ .

(٧) الطيلسان : إقليم واسع كثير البلدان والسكان من نواحى الديلم والخزر ، افتتحه الوليد بن عقبة فى سنة ٣٤ . معجم البلدان . وانظر الحاشية السابقة .

فإن سألونا عن أنفسهم فقالوا : ما لنا لا نعرفُ ذلك ولم يبلُغْنا عن أحدٍ بَتَّة ؟ أجبناهم بعد إسقاط نكيرهم[١] وتشنيعِهم ، وتزويرِ شُهودهم .

وجوابنا[٢] : أنَّهم إنَّما قَبِلُوا دينَهم[٣] عن أربعة أنفس : اثنان منهم من الحواريِّين بِزعْمهم[٤] : يُوحنَّا ، ومَتَّى . واثنان من المستجيبة[٥] وهما : مارقُش ولُوقَش[٦] ، وهؤلاءِ الأربعة لا يُؤمَن عليهم الغلطُ ولا النِّسيان ، ولا تعمُّدُ الكذب ، ولا التواطؤُ[٧] على الأُمور ، والاصطلاحُ على اقتسام الرِّياسة[٨] ، وتسليم كلِّ واحدٍ منهم لصاحبه حِصَّته التى شرطها له .

فإنْ قالوا : إنَّهم كانوا أَفضَلَ من أن يتعمَّدوا كذباً ، وأَحفَظُ من أن ينسَوْا شيئاً ، وأَعلى[٩] من أن يغلطوا فى دينِ الله تعالى ، أو يُضِيعوا عَهْدا .

قلنا : إنَّ اختلاف رواياتهم فى الإنجيل ، وتضادَّها فى كتبهم[١٠] ، واختلافَهم فى نفْس المسيح ، مع اختلاف شرائعهم ، دليلٌ على صحَّة قولنا فيهم[١١] ، وغفلتكم عنهم .

---

(١) فى الأصول : « تكثيرهم » .

(٢) ط فقط : « فجوابنا » .

(٣) قبلوا دينهم : أخذوه وتلقوه ، كما يقبل الرجل الدلو من المستقى والقابلة الولد من الوالدة .

(٤) ب فقط : « يزعمهم » ، تحريف .

(٥) ب فقط : « من المسيحية » ، تحريف .

(٦) هما مرقس ولوقا .

(٧) ب ، م : « ولا التواطى » ، صوابها فى ط .

(٨) ب ، م : « والاصلاح على أقسام الرياسة » ، صوابه فى ط .

(٩) ب ، م : « وأعنى » ، تحريف مافى ط .

(١٠) ب ، م : « وتضاد معانى كتبهم » .

(١١) الكلام بعده إلى نهاية هذه الرسالة بجميع فصولها ، ساقط من ط .

وما يُنكَر من مثل لُوقَش أَنْ يقول باطلًا ، وليس من الحواريِّين ، وقد كان يهوديًّا قبلَ ذلك بأَيّامٍ يسيرة ، ومن هو عندكم من الحواريِّين خيرٌ من لوقش عند المسيح فى ظاهر الحكم بالطَّهارة ، والطباعِ الشَّريفة ، وبراءة السَّاحة .

٥ – فصـــل منه(١)

وسأَلتم عن قولهم : إذا كان تعالى قد اتَّخذ عبداً من عبادِه خليلًا ، فهل يجوز أَن يتَّخذ عبداً من عباده ولداً ، يريد بذلك إظهار رحمته له ، ومحبَّتِه إياه ، وحُسْنَ تربيتِه وتأْديبه له ، ولُطْفِ منزلتِه منه ، كما سمَّى عبداً من عباده خليلًا ، وهو يريد تشريفَه وتعظيمه ، والدَّلالةَ على خاصِّ حالهِ عنده .

وقد رأَيتَ من المتكلِّمين من يُجيز ذلك ولا يُنكره ، إذا كان ذلك على التبنِّى والتَّربية والإبانة له بلُطْف المنزلة ، والاختصاصِ له بالمرْحمة والمحبَّة ، لا على جهة الوِلادة ، واتِّخاذ الصاحبة . ويَقول(٢) : ليس فى القياس فرقٌ بين اتِّخاذ الولد على التبنِّى والتَّربية وبين اتِّخاذ الخليل على الولاية والمحبَّة .

وزَعَم أَنَّ الله تعالى يحكم فى الأَسماءِ بما أَحَبَّ ، كما أَنَّ له أَن يحكم فى المعانى بما أَحبَّ .

وكان يجوِّزُ دعوى أَهلِ الكتاب على التَّوراة والإنجيل والزَّبور ، وكتبِ الأَنبياءِ صلواتُ الله عليهم فى قولهم : إنَّ الله قال : « إسرائيل

(١) هذا الفصل ومايليه من الفصول إلى نهاية هذه الرسالة ساقط من ط كما سبق التنبيه .
(٢) ب : « ونقول » م : « وتقول » ، صوابهما ما أثبت .

بِكْرى[١] » أى هو أَوّلُ من تَبَنَّيْتُ من خَلْقى . وأَنَّه قال : « إسرائيل بكرى ، وبنوه أَولادى » . وأَنَّه قال لداود : « سيُولد لك غلام ، ويُسمَّى لىَ ابناً ، وأُسمَّى له أَباً[٢] » . وأَنَّ المسيح قال فى الإِنجيل : « أَنا أَذهبُ إلى أَبى وأَبيكم ، وإلهى وإلهكم[٣] » ، وأَنَّ المسيح أَمر الحواريِّين أَنْ يقولوا فى صلواتهم : « يا أَبانا فى السَّماءِ ، تقدَّس اسمُك[٤] » . فى أُمورٍ عجيبةٍ ، ومذاهبَ شنيعة[٥] ، يدلُّ على سوءِ عبادة اليهود[٦] ، وسوءِ تأْويل أَصحاب الكتب ، وجهلِهم مجازاتِ الكلام ، وتصاريف اللُّغات ، ونَقْلِ لغةٍ إلى لغة ، وما يجوز على الله ، ومالا يجوز . وسببُ هذا التأْويل كلِّه الغَىُّ والتقليد ، واعتقادُ التشبيه .

وكان يقول : إِنَّما وُضعَت الأَسماءُ على أَقدار المصلحة ، وعلى قَدْر ما يقابل من طبائع الأُمم . فربَّما كان أَصلحَ الأُمور وأَمتَنَها[٧] أَن يتبنَّاه الله أَو يتَّخذَه خليلًا ، أَو يُخاطبه بلا تَرجُمان ، أَو يَخلُقَه من غير ذَكَر ، أَو يُخرِجَه من بين عاقر وعقيم . وربَّما كانت المصلحةُ غيرَ ذلك

---

(١) فى سفر الخروج ٤ : ٢٢ : « فتقول لفرعون : هكذا يقول الرب ، إسرائيل ابنى البكر » . وفى سفر هوشع ١١ : ١ : « لما كان إسرائيل غلاماً أحببته ومن مصر دعوت ابنى » . وفى رسالة بولس إلى أهل رومية ٩ : ٤ : « الذين هم إسرائيليون ، ولهم التبنى والمجد » .

(٢) فى صموئيل الثانى ٧ : ١٢ — ١٤ : « متى كملت أيامك واضطجعت مع آبائك أقيم بعدك نسلك الذى يخرج من أحشائك وأثبت مملكه . هو يبنى بيتاً لاسمى وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد . أنا أكون له أباً وهو يكون لى ابناً » .

(٣) جاء فى إنجيل يوحنا ٢٠ : ١٧ فى مخاطبة عيسى عليه السلام لمريم المجدلية : « قال لها يسوع : لاتلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى . ولكن اذهبى إلى إخوتى وقولى لهم : إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم » .

(٤) فى إنجيل متى ٦ : ٩ : « فصلوا أنتم هكذا : أبانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك » . وانظر أيضاً إنجيل لوقا ١١ : ٢

(٥) ب : « شيعة » م : « شنعة » ، والوجه ما أثبت ، وإن كانت « شنعة » صحيحة أيضاً .

(٦) ب : « عبارة » ، وأثبت ما فى م .

(٧) ب : « وأمته » م : « وأمنه » ، ولعل وجهه ما أثبت .

كلِّه . وكما تعبَّدنا أَنْ نسمِّيه جَواداً ونَهانا أَن نسمِّيه سَخِيًّا أَو سريًّا[1] وأَمرنا أَن نسمِّيه مؤمناً ونهانا أَن نسمِّيه مسلماً ، وأَمرَنا أَن نسمِّيه رحيماً ونهانا أَن نسمِّيه رفيقاً .

وقياس هذا كلِّه واحد ، وإنَّما يتَّسع ويَسهُل على قدر العادة وكثرتِها. ولعلَّ ذلك كلَّه قد كان شائعاً فى دين هودٍ وصالحٍ وشُعيبٍ وإسماعيلَ ، إذْ كان[2] شائعاً فى كلام العرب فى إثبات ذلك وإنكاره .

وأَمَّا نحن ــ رحمك الله ــ فإنَّا لا نُجيزُ أَن يكون لله ولد ، لا من جهة الوِلادة ، ولا من جهة التَّبَنِّى ، ونرى أَنَّ تجويز ذلك جهلٌ عظيم ، وإثمٌ كبير ؛ لأَنَّه لو جاز أَن يكون أَباً ليعقوب لجاز أَن يكون جدًّا ليوسف ، ولو جاز أَن يكون جدًّا وأَباً ، وكان ذلك لا يُوجِب نَسَبا ، ولا يُوهِمُ مُشاكلةً فى بعض الوُجوه ، ولا ينقُص من عِظَم ، ولا يَحُطُّ من بَهَاء ، لجاز أَيضاً أَن يكون عمًّا وخالًا ؛ لأَنَّه إن جاز أَن يسمِّيه[3] من أَجل المرحَمة والمحبَّةِ والتَّأْديب ــ أَباً ، جاز أَن يسمِّيه آخَر من جهة التَّعظيم والتفضيل والتسويد أَخاً[4] ، ولجاز أَن يجد له صاحباً وصديقاً ، وهذا ما لا يجوِّزه إلَّا من لا يعرف عظمة الله ، وصِغَر قدْر الإنسان.

وليس بحكيمٍ من ابتذَلَ نفسه فى توقير عبْدِه ، ووضَعَ من قَدْره فى التوقُّرِ على غيره . وليس من الحكمة أَن تُحسِنَ إلى عبدك بأَن تسىءَ إلى

---

(١) فى النسختين : « سرنا » ، والصواب ماأثبت . والسرى : وصف من سرو كشرف ودعا ورضى ، سراوة وسرواً وسراً وسراء ، وهى المروءة فى شرف .

(٢) م : « إذا كان » .

(٣) الكلام بعده إلى « يسميه » التالية ساقط من م .

(٤) فى النسختين : « والتفضيل أخا والتسويد أخا » ، و« أخا » الأولى مقحمة .

نفسك ، وتأْتى من الفضل ما لا يجبُ بتضييع ما يجب . وكثيرُ الحمد لا يقوم بقليل الذّمّ[١] ، ولم يحمدِ اللهَ ولم يعرف إلهيّته من جوّز عليه صفاتِ البشر ، ومُناسبةَ الخَلْق ، ومُقاربةَ العِباد .

وبعدُ ، فلا يخلو المولى فى رفع عبدِه وإكرامه من أَحد أَمرين :

إمَّا أَن يكون لا يقدر على كرامته إلَّا بهوانِ نفسِه ، ويكون على ذلك قادراً ، مع وَفَارةِ العظَمة ، وتمام البهاء .

وإن كان لا يقدر على رفع قَدْرِ غيره إلّا بأَن ينقص[٢] من قدر نفسه فهذا هو العجز ، وضِيق الذَّرع[٣] .

وإن كان على ذلك قادراً فآثر ابتذالَ نَفْسه والحَطَّ من شرفه فهذا هو الجهلُ الذى لا يحتمل[٤] .

والوجهان عن الله جلّ جلالُه منفيَّان .

ووجهٌ آخر يعرفون به صحَّة قولى ، وصوابَ مذهبى ، وذلك أَنَّ الله تبارك وتعالى لو علِم أَنَّه قد كان فيما أَنزَل من كتبه على بنى إسرائيل : إنَّ أَباكم كان بكرى وابنى ، وإنَّكم أَبنَاءُ بِكْرى ــ لما كان تغَضَّب عليهم[٥] إذْ قالوا : نحن أَبناءُ الله ، فكيف لا يكون ابنُ ابنِ الله ابنَه[٦] ،

(١) فى النسختين : « مالا يقول بقليل الذم » ، والصواب حذف « ما » . لا يقوم به : لايعادله .

(٢) ب : « ينقض » ، صوابه فى م .

(٣) الذرع : الطاقة ، وهوأيضاً : بسط اليد . والمراد ضيق الخلق ، على المثل . م : « الزرع » ، تحريف .

(٤) فى النسختين : « لايحمل » ، والوجه ما أثبت .

(٥) التغضب : الغضب ، واستعار الراعى التغضب لشدة غليان القدر فى قوله :

إذا أحمشوها بالوقود تغضبت   على اللحم حتى تترك اللحم باديا

وفى النسختين : «تعصب» بالعين المهملة، صوابه ما أثبت . وانظر الآية ١٨ من سورة المائدة .

(٦) ب : « لايكون ابن ابنه » م : « لايكون ابن الله ابنه » . والصواب ما أثبت .

وهذا من تمام الإكرام ، وكمال المحبَّة ، ولا سيَّما إن كان قال فى التوراة : بنو إسرائيل أبناء بكرى .

وأنت تعلم أَنَّ العربَ حين زعمت أَنَّ الملائكة بناتُ الله كيف استعظم الله تعالى ذلك وأكبَرَه ، وغَضِب على أهلِه ، وإنْ كان يعلم أَنَّ العرب لم تجعل الملائكةَ بناتِه على الولادة واتِّخاذ الصاحبة ، فكيف يجوز مع ذلك أن يكون الله قد كان يُخبِر عبادَه قبل ذلك بأَنَّ يعقوبَ ابنُه ، وأَنَّ سليمانَ ابنُه ، وأن عُزَيراً ابنُه ، وأَنَّ عيسى ابنُه[1] ؟ .

فالله تعالى أعظمُ من أن يكون له أُبوَّةٌ من صفاته ، والإنسان أحقر من أن يكون بنوَّةُ الله من أنسابه .

والقول بأَنَّ الله يكون أباً وجدًّا[2] وأخاً وعَمًّا ، للنَّصارى ألزم ، وإن كان للآخَرين لازماً ، لأَنَّ النصارى تزعم أَنَّ الله هو المسيحُ بنُ مريم ، وأَنَّ المسيحَ قال للحواريِّين : « إخوتى » . فلو كان للحواريِّين أولادٌ لجاز أن يكون الله عمَّهم !

بل قد يزعمون أَنَّ مَرْقُش هو ابن شَمْعُون الصَّفَا[3] ، وأَن زوزرى ابنته ، وأَنَّ النَّصارى تُقِرّ أَنَّ فى إنجيل مرقُش[4] : « ما زاذ[5] أُمُّك وإخوتُك على الباب » وتفسيرها : ما زاذ[6] : معلِّم . فهم لا يمتنعون من أن يكون الله تبارك وتعالى أباً وجَدًّا وعمًّا .

---

(١) وأن عزيرا ابنه ، ساقط من ب .
(٢) ب : « أباً واحداً » ، صوابه فى م .
(٣) فى الفصل لابن حزم ٢ : ٢ أن مارقش هو تلميذ شمعون الصفا بن توما .
(٤) فى النسختين : « فى الإنجيل مرقش » صوابه ما أثبت . وانظر إنجيل مرقس ٣ : ٣٢ .
(٥) ب : « ماذاذ » بذالين معجمتين . والذى فى الإنجيل : « هو ذا » .
(٦) ب : « ماذاذ » بذالين معجمتين .

ولولا[١] أنَّ الله قد حكى عن اليهود أنَّهم قالوا : إنَّ « عزيراً ابنُ الله[٢] » ، ﴿ ويدُ الله مغلولة[٣] ﴾ ،و﴿ إن الله فَقيرٌ ونَحْنُ أغنياءُ[٤] ﴾ وحكى عن النَّصارى أنَّهم قالوا : « المسيح ابنُ الله » وقال : ﴿ قالت النَّصارى المسيحُ ابنُ الله[٥] ﴾ . وقال : ﴿ لقد كَفَر الذين قالوا إنَّ الله ثالث ثَلاثةٍ[٦] ﴾ ـ لكنتُ لَأَنْ أخِرَّ من السَّماء أحبُّ إلىّ من أن ألفِظَ بحرفٍ ممَّا يقولون . ولكنِّى لا أَصِلُ إلى إظهار جميعِ مخازيهم ، وما يُسِرُّون من فضائحهم ، إلَّا بالإخبار عنهم ، والحكاية منهم .

فإنْ قالوا : خبِّرونا عن الله ، وعن التوراة ، أليست حقًّا[٧] ؟ قلنا : نعم . قالوا : فإنَّ فيها « إسرائيلُ بِكرى[٨] » وجميعُ ما ذكرتم عنا معروفٌ فى الكُتب .

قلنا : إنَّ القومَ إنَّما أُتُوا من قلَّة المعرفة بوجوه الكلام ، ومن سُوءِ التَّرجمة ، مع الحكمِ بما يَسبِقُ إلى القلوب . ولَعمرى أنْ لو كانت لهم عقولُ المسلمينَ ومعرفتُهم بما يجوز فى كلام العرب ، وما يجوز على الله ، مع فَصاحتهم بالعِبرانيَّة ، لوجَدوا لذلك الكلامِ تأْويلًا حسناً ، ومَخرجاً سَهْلًا ، ووجهاً قريباً . ولو كانوا أيضاً لم يُعطِّلوا فى سائرِ ما تَرْجموا لكان لقائلٍ مقالٌ ، ولطاعنٍ مَدخلٌ ، ولكنَّهم يخبرون أنَّ

---

(١) ب : « ولو » .

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة : « وقالت اليهود عزير ابن الله » ، وهى الآية ٣٠ من التوبة .

(٣) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٤) الآية ١٨١ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ٣٠ من سورة التوبة . والاقتباس هنا بطرح الواو ، فإن نص الآية : «وقالت النصارى » . وهو أمر جائز كما أشرت إلى ذلك فى كتابى تحقيق النصوص ص ٥١ .

(٦) الآية ٧٣ من سورة المائدة .

(٧) فى النسختين : « حق » ، صوابه ما أثبت .

(٨) انظر ما مضى فى حواشى ص ٣٣٢ .

الله تبارك وتعالى قال فى العَشْر الآيات[١] التى كتبتها أَصابعُ الله : « إِنِّى أَنا اللهُ الشَّديد ، وإِنِّى أَنا الله الثَّقْف[٢] ، وأَنا النار التى تأْكل النيران[٣] ، آخذُ الأَبناءَ بحَوْبِ الآباءِ ، القرن الأَوّل والثانى والثالث إلى السابع[٤] » . وأَنَّ داود قال فى الزبور : « وافتح عينَك ياربِّ » و « قُمْ ياربّ » ، و « أَصغِ إلىَّ سَمْعَك ياربّ[٥] » . وأَنَّ داود خبّر أَيضاً فى مكانٍ آخر عن الله تعالى : « وانتبَه الله كما يَنْتبِهُ السَّكرانُ الذى قد شَرِبَ الخمر[٦] » . وأَنَّ موسى قال فى التوراة : « خلق الله الأَشياءَ بكلمته ، وبِرُوح نَفْسه » . وأَن الله قال فى التوراة لبنى إسرائيل : « بذراعى الشَّديدة أَخرجْتُكُمْ من أَهل مِصْر[٧] » . وأَنّه قال فى كتاب إِشَعْياءَ : « احمدِ اللهَ حمداً جديداً ، احمدْهُ فى أَقاصى الأَرض ، يملأ الجزائر وسُكَّانَها ، والبُحورَ والقفار وما فيها ، ويكون بنو قَيْدار فى القُصور ، وسُكَّانُ الجبال[٨] - يعنى قيدار بن إسماعيل - ليَصيحوا ويُصيِّروا لله الفخر والكرامة ، ويسبِّحوا بحمد الله فى الجزائر[٩] » .

---

(١) فى النسختين : « فى العشر آيات » ، والوجه ما أثبت .

(٢) الثقف : الفطن الذكى .

(٣) فى النسختين : « أكل النيران » .

(٤) فى سفر الخروج ٣٤ : ٧ : « مفتقد إثم الآباء فى الأبناء وفى أبناء الأبناء فى الجيل الثالث والرابع » .

(٥) انظر المزامير ١٧ : ١ و ٢٨ ؛ ٢ و ٦١ : ١

(٦) فى المزامير ٧٨ : ٦٥ : « فاستيقظ الرب كنائم كجبار معيط من الخمر » . عيط الشارب : قال عيط عيط ، بكسر العين ، وقد عيط تعييطا .

(٧) انظر الخروج ١٣ : ٣ والتثنية ٤ : ٣٤ / ٥ : ١٥ والمزامير ١٣٦ : ١١ - ١٢ .

(٨) فى سفر إشعياء ٤٢ : ١٠ ، ١١ : « غنوا للرب أغنية جديدة تسبيحه من أقصى الأرض ، أيها المنحدرون فى البحر وملؤه ، والجزائر وسكانها . لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التى سكنها قيدار . لتترنم سكان سالع من رءوس الجبال » .

(٩) فى سفر إشعياء ٤٢ : ١١ - ١٢ : « ليهتفوا . ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر » . وفى الأصل هنا : « يصيحوا ويصيروا لله الفخر والكرامة ، ويلبسون بحمد الله فى الجزائر » . وقد أصلحت العبارة فى ضوء مافى السفر .

وأنّه قال على إثر ذلك : « ويخرج الربُّ(١) كالجبّار ، وكالرَّجل الشُّجاع المجرِّب(٢) ، ويَزجُر ويصرخ ، ويهيِّج الحربَ والحميّة ، ويقتُل أعداءَه(٣) ، يُفرح السماءَ والأَرض » .

وأنّ الله قال أيضاً فى كتاب إشَعياء : « سكَتُّ . قال : هو متى أسْكت ، مثل المرأة التى قد أخذها الطَّلْق للولادة أتلهَّف(٤) ، وإن ترانى أُريد أَحرث الجِبال والشُّعَب(٥) ، وآخُذ بالعربِ فى طريقٍ لا يعرفونه(٦) » .

وكلُّهم على هذا اللفظ العربىِّ مُجْمِع . ومعنى هذا لا يجوِّزه أحدٌ من أهل العلم ، ومثل هذا كثيرٌ تركتُه لمعرفتكم به .

وأنت تعلم أنَّ اليهود لو أخذوا القرآنَ فترجموه بالعِبْرانيَّة لأخرجوه من معانيه ، ولحوَّلوه عَن وجوهه ، وما ظنُّك بهم إذا تَرجَموا : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونا انتقَمْنا منهم(٧) ﴾ ، و ﴿ لتُصْنعَ على عَيْنِى(٨) ﴾ ، و ﴿ السَّمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بيمينه(٩) ﴾ ، و ﴿ على العَرْشِ اسْتَوَى(١٠) ﴾ ، و ﴿ ناضرةٌ . إلى ربِّها ناظرة(١١) ﴾ ، وقوله : ﴿ فلَمَّا تجلَّى ربُّه للجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا(١٢) ﴾ ،

---

(١) فى النسختين : « ويجيء الرب » وفى سفر إشعياء : « الرب كالجبار يخرج » .

(٢) فى سفر إشعياء : « كرجل حروب ينهض غيرته »

(٣) فى سفر إشعياء : « يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه » .

(٤) لاريب أن فى العبارة تحريفاً . والذى فى سفر إشعياء ٤٢ : ١٤ : « قد صمت منذ الدهر ، سكت تجلدت . كالوالدة أصيح أنفخ وأنخر معاً » . سكت وتجلدت بتاء المتكلم فيهما .

(٥) فى سفر إشعياء : « أخرب الجبال والآكام وأجفف كل عشبها وأجعل الأنهار يبساً وأنشف الآجام » .

(٦) كذا . والذى فى السفر : « وأسير العمى فى طريق لم يعرفوها » . أسير من التسيير ، والعمى : جمع أعمى

(٧) الآية ٥٥ من سورة الزخرف . (٨) الآية ٣٩ من سورة طه .

(٩) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(١٠) الآية ٥ من سورة طه .

(١١) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

(١٢) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .

و ﴿ كَلَّمَ اللهُ مُوسَى تكليماً[١] ﴾ ، و ﴿ جَاءَ ربُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا[٢] ﴾ .

وقد يُعلم أَنَّ مفسِّرى كتابِنا وأَصحابَ التأْويل مِنَّا أَحسَنُ معرفةً ، وأَعْلَمُ بوجوهِ الكلام من اليهود ، ومتأَوِّلى الكتب ، ونحن قد نجد فى تفسيرهم ما لا يجوز على الله فى صفتِه ، ولا عند المتكلِّمين فى مقاييسهم[٣] ، ولا عند النحويين فى عربيَّتهم . فما ظنُّك باليهود مع غَباوتهم وغَيِّهم ، وقلَّة نظرِهم وتقليدهم ؟

وهذا بابٌ قد غَلِطت فيه العربُ أَنفُسها ، وفصحاءُ أَهل اللُّغة إذا غَلِطت قلوبها ، وأَخْطأَتْ عقولها ، فكيف بغيرهم ممَّن لا يعلم كعلمها ؟

سمع بعضُ العرب قولَ جميع العرب : « القلوبُ بيد الله » ، وقولهم فى الدُّعاءِ : « نواصِينا بيد الله » وقوله جل ذكره : ﴿ بل يَدَاهُ مَبسوطَتانِ[٤] ﴾ ، وقولهم : « هذا من أَيادى اللهِ ونِعَمِهِ عندنا » وقد كان من لغتهم أَنَّ الكفَّ أَيضاً يدٌ[٥] ، كما أَنَّ النِّعمة يد ، والقُدرة يد ، فغلط الشَّاعر[٦] فقال :

هَــوِّن عليكَ فإنَّ الأُمــورَ بكفِّ الإِلَه مَقاديرُهــا[٧]

(١) الآية ١٦٤ من سورة النساء .

(٢) الآية ٢٢ من سورة الفجر .

(٣) فى النسختين : « مقايسهم » .

(٤) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٥) فى النسختين : « الكفر أيضاً يد » ، والوجه ما أثبت . وهو تمهيد للاستشهاد بالبيت التالى ، الذى أثبت للإله كفاً ، وذلك من سوء أدب الشاعر ، وإنما يعبر باليد فى ذات الله لمعنى النعمة والقدرة .

(٦) هو محمد بن حازم الباهلى كما فى العقد ٣ : ٢٠٦ . وسماه « ابن أبى حازم »، تحريف . وهو محمد بن حازم بن عمرو الباهلى . كان من ساكنى بغداد ، ومولده ومنشؤه بالبصرة . وهو من شعراء الدولة العباسية . شاعر مطبوع ، إلا أنه كان كثير الهجاء للناس . ولم يمدح من الخلفاء إلا المأمون . كان يقول المقطعات الصغيرة فيحسن . وهو صاحب البيت المشهور :

يا راقد الليل مسروراً بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

وقد عاتبه يحيى بن أكثم على اختصاره للشعر ، فأجابه بأشعار حسان .

انظر الأغانى ١٢ : ١٥١ — ١٦٠ والمرزبانى ٤٢٩ وتاريخ بغداد ٧٨١ .

(٧) فى العقد : * فلا تحرصن فإن الأمور *

وقد كان إبراهيمُ بن سيَّارٍ النَّظامُ يجيب بجوابٍ ، وأنا ذاكِرُه إن شاءَ الله . وعليه كانت علماءُ المعتزِلة ، ولا أُراه مقنعاً ولا شافياً .

وذلك أنَّه كان يجعل الخليلَ مثل الحبيب، مثل الولىِّ ، وكان يقول : خليلُ الرحمن مثل حبيبه ووليِّه وناصره . وكانت الخُلَّة والوِلاية والمحبَّة سواءً .

قالوا : ولمَّا كانت كلُّها عنده سواءً جاز أن يسمِّىَ عبداً له ولداً ، لمكان التربية التى ليست بحَضَانة ، ولمكان الرَّحمة التى لا تُشتَقُّ من الرحم[1] ، لأنَّ إنساناً لو رحم جَرْوَ كلبٍ فربَّاه لم يَجُزْ أن يسمِّيَه ولداً ويسمِّىَ نفسه أباً . ولو التقط صبيًّا فربَّاه جاز أنْ يسمِّيَه ولداً ويسمِّىَ نفسَه له أباً ، لأنَّه شبيهُ ولدِه ، وقد يُولَد لمثلِه مثلُه . وليس بين الكلاب والبشر أرحام ، فإذا كان شَبَهُ[2] الإنسان أبعدَ من الله تعالى من شَبه الجِرْو بالإنسان ، كان الله أحقَّ بألاَّ يجعله ولده ، وينسبَه إلى نفسه .

قلنا لإبراهيم النَّظامِ عند جوابِهِ هذا وقياسِهِ[3] الذى قاس عليه ، فى المعارضةِ والموازنةِ بين قياسِنا وقياسه : أرأيت كلباً ألِفَ كَلَّابه[4] ، وحامَى وأحمى دُونَه ، هل يجوز أن يتَّخذه بذلك كلِّه خليلًا ، مع بُعد التَّشابُه والتَّناسب ؟

فإذا قال : لا . قلنا : فالعبدُ الصالح أَبعَدُ شبهاً من الله من ذلك الكلْبِ المحسِنِ إلى كَلَّابه ، فكيف جازَ فى قياسك أن يكون الله خليلَ

---

(١) فى النسختين : « لايشتق » ، تحريف .
(٢) ب : « شبيه » .
(٣) ب : « وإن قياسه » .
(٤) الكلاب : صاحب الكلاب ، كما أن المكلب صاحبها الذى يعلمها أخذ الصيد ويصطاد بها . ب : « أرأيت كلابا » ، صوابه فى م .

من لا يشاكله لمكان إحسانه ، ولا يجوز للكلَّاب أَنْ يسمِّيَ كلبه خليلًا أَو ولداً لمكان حُسْن تربيته له ، وتأْديبه إيَّاه ، ولمكان حُسْن الكلب وكَسْبه عليه ، وقيامِه مقام الولدِ الكاسب والأَخِ ، وَالبَارّ .

والعبدُ الصَّالح لا يُشبِه الله فى وجهٍ من الوجوه ، والكلبُ قد يشبه كَلَّابه لوجوهٍ كثيرة ، بل ما أَشْبَهَه به ممَّا خالفه فيه ، وإن كانت العِلَّةُ التى منَعَتْ من تسمية الكلب خليلًا وولداً بُعْدَ شبهِه من الإنسان .

فلو قلتم[1] : فما الجواب الذى أَجبتَ فيه ، والوجهُ الذى أَرتضيتَه ؟

قلنا : إنَّ إبراهيم صلواتُ الله عليه ، وإن كان خليلًا ، فلم يكن خليلَه بخُلَّةٍ كانت بينه وبين الله تعالى ، لأَنَّ الخُلَّة والإِخاء والصَّداقةَ والتَّصافىَ والخُلْطةَ وأَشباهَ ذلك منفيَّةٌ عن الله تعالى عزّ ذكره ، فيما بينه وبين عباده ، على أَنَّ الإِخاءَ والصَّداقة داخلتان فى الخُلَّة ، والخُلَّة أَعمُّ الاسمين ، وأَخصُّ الحالين. ويجوز أَنْ يكون إبراهيم خليلًا بالخَلَّة[2] التى أَدخلها الله على نفسه وماله ، وبين أَن يكون خليلًا [بالخَلَّة وأَن يكون خليلًا[3]] بخُلَّةٍ بينه وبين ربِّه — فرق ظاهر ، وبونٌ واضح . وذلك أَنَّ إبراهيم عليه السلام اختلّ فى الله تعالى اختلالًا لم يختلِله أَحدٌ قبله . لقَذْفِهم إيَّاه فى النار ، وذبحِه ابنَه ، وحَمْله على مالِهِ فى الضِّيافة والمواساة والأَثَرة ، وبعداوةِ قومه ، والبراءة من أَبويه فى حياتهما ، وبعد موتهما ، وتركِ وطنه ، والهجرةِ إلى غير داره ومَسْقطِ رأْسِه . فصار لهذه الشدائد مختلاًّ فى الله ، وخليلًا فى الله . والخَليل والمختلُّ[4] سواءٌ فى كلام

(١) فى النسختين : فلم قلتم » ، والوجه ما أثبت .
(٢) الخلة ، بالفتح : الحاجة والفقر .
(٣) تكملة يفتقر إليها الكلام .
(٤) فى النسختين : « مخول » ، تحريف . وفى اللسان : « ورجل مخل ومختل وخليل وأخل : معدم فقير » .

العرب . والدليل على أَنْ يكون الخليل من الخَلَّة كما يكون من الخُلَّة قولُ زهيرِ بن أَبى سُلْمَى ، وهو يمدح هَرِماً :

وإنْ أَتاهُ خليلٌ يومَ مَسْغبــــةٍ يقـول لا عاجـزٌ مالى ولا حَرِمُ[١]

وقال آخر :

وإنِّى إلَى أَن تسعـفانى بحاجـةٍ إلى آل ليلَى مرَّةً لخليـلُ

وهو لا يمدحه بأَنَّ خليله وصديقَه يكون فقيراً سائلًا ، يأْتى يوم المسأَلة ويبسط يده للصَّدقة والعطية ، وإنَّما الخليل فى هذا الموضع من الخَلَّة والاختلال ، لا من الخُلة والخِلال .

وكأَنَّ إبراهيمَ عليه السلام حين صار فى الله مختلاًّ أَضافه اللهِ إلى نفسه ، وأَبانَهُ بذلك عن سائر أَوليائه ، فسَّماه خليلَ الله من بين الأَنبياء ، كما سمَّى الكعبة : بيتَ الله مِن بين جميع البيوت ، وأَهل مكَّة : أَهلَ الله من بَينِ جميع البلدان . وسمَّى ناقة صالح عليه السلام : ناقةَ الله من بين جميع النُّوق . وهكذا كلٌّ شىءٍ عظَّمه الله تعالى ، من خيرٍ وشر ، وثوابٍ وعقاب . كما قالوا : دَعْه فى لعنة الله ، وفى نار الله وفى حرْقِه . وكما قال للقرآن : كتاب الله ، وللمحرَّم : شهر الله . و [على هذا المثال قيل لحمزة رحمة الله ورضوانه عزّ ذكره عليه : أَسدُ الله ، و[٢]] لخالد رحمةُ الله عليه : سيف الله تعالى .

وفى قياسنا هذا لا يجوز : أَنَّ الله خليل إبراهيم ، كما يقال : إن إبراهيم خليل الله .

---

(١) ديوان زهير ١٥٣ والعينى ٤ : ٤٢٩ .
(٢) هذه التكملة من م وإن كانت عبارة الدعاء هذه ليست من أسلوب الجاحظ .

فإن قال قائل : فكيف لم يقدِّموه على جميع الأَنبياء ، إذ كان الله قدَّمه بهذا الاسم الذى ليس لأَحدٍ مثلُه ؟

قلنا : إنَّ هذا الاسم اشتُقَّ له من عمله وحاله وصفته ، وقد قيل لموسى عليه السلام : كليم الله ، وقيل لعيسى : روح الله ، ولم يُقَلْ ذلك لإبراهيم ، ولا لمحمد صلواتِ الله عليهما ، وإنْ كان محمد صلى الله عليه وسلم أَرفعَ درجةً منهم ، لأَنَّ الله تعالى كلَّم الأَنبياءَ عليهم السلام على أَلسنةِ الملائكة ، وكلَّم موسى كما كلَّم الملائكة ، فلهذه العِلَّةِ قيل : كليم الله . وخلق فى نُطَفِ الرجال أَنَّ قذْفَهَا[1] فى أَرحام النساءِ على ما أَجرى عليه تركيب العالم ، وطباعَ الدنيا ، وخَلَق فى رحم مريم رُوحاً وجسداً ، على غير مجرى العادة ، وما عليه المناكحة . فلهذه الخاصَّة قيل له : روح الله .

وقد يجوز أَن يكون فى نبيٍّ من الأَنبياءِ خصلةٌ شريفة ، ولا تكون تلك الخَصْلة بعينها فى نبيٍّ أَرفعَ درجة منه ، ويكون فى ذلك النبى خصالٌ شريفة ليست فى الآخَر . وكذلك جميع الناس ، كالرجل يكون له أَبوانِ ، فيُحسن برَّهما وتعاهُدَهما ، والصَّبْرَ عليهما ، وهو أَعرجُ لا يقدر على الجهاد ، وفقيرٌ لا يقدر على الإِنفاق . ويكون آخر لا أَبَ له ولا أُمَّ له ، وهو ذو مالٍ كثير ، وخَلْقٍ سويٍّ ، وجَلَد طاهر ، فأَطاع هذا بالجِهاد والإِنفاق ، وأَطاع ذلك ببرِّ والديه والصَّبرِ عليهما .

والكلام إذا حرِّك تشعَّب ، وإذا ثبت أَصلُه كثرت فنُونه ، واتَّسعت طرقه . ولولا ملالة القارىء ، ومداراة المستمع لكان بَسطُ القولِ فى جميع ما يعرض أَتمَّ للدَّليلِ ، وأَجمعَ للكتاب ، ولكنَّا إنَّما ابتدأْنا الكتاب لنقتصر به على كسر النصرانيَّة فقط .

(١) فى النسختين : « إذ قذفها » ، ووجهت العبارة بما ترى .

٦ — فصل منه

قلنا فى جواب آخر : إن كان المسيح إنَّما صار ابنَ الله لأنَّ الله خلقه من غير ذكر ، فآدم وحواءُ[(١)] إذْ كانا[(٢)] من غير ذكر وأُنثى أَحقُّ بذلك ، إنْ كانت العلَّة فى اتخاذه ولداً أَنَّه خلقه من غير ذكر . وإن كان ذلك لمكان التربية فهل ربَّاه إلَّا كما ربَّى موسى[(٣)] ، وداود ، وجميع الأَنبياءِ . وهل تأْويل : « ربَّاه » إلَّا غَذَاه ، ورزقه ، وأَطعمه ، وسقاه ، فقد فعل ذلك[(٤)] بجميع الناس . ولَمَ سمَّيتم سَقْيَه لهمْ وإطعامَه إيَّاهم تربية ؟ ولِمَ ربَّاهُ وأَنتم لا تريدون إلَّا غَذَاه ورَزَقه ، وهو لمْ يَحْضُنْه ، ولم يباشر تقليبَه ، ولم يتولَّ بنفسه سقْيَهُ وإطعامَه ، فيكونَ ذلك سبباً له دون غيره ، وإنَّما سقاه لبَن أُمِّه فى صِغَره ، وغَذَاه بالحُبوب والماءِ فى كبره .

٧ — فصل منه

والأُعجوبة فى آدمَ عليه السّلام أَبْدعُ ، وتربيتُه أَكرم ، ومُنقَلَبه أَعلى وأَشرف ، إذْ كانت السماءُ دارَه ، والجنَّةُ منزلَه ، والملائِكةُ خُدَّامَه . بل هو المقدَّم بالسُّجُود ، والسُّجُود أَشدُّ الخضوع . وإن كان بِحُسْنِ التعليم والتَّثقيف[(٥)] ؛ فمَن كان الله تعالى يخاطبه ، ويتولى مناجاتَهُ دون أَن يُرْسل إليه ملائِكته ويبعث إليه رسُله ، أَقرَبُ منزلةً ، وأَشرفُ مرتبةً ، وأَحقُّ بشرَف التَّأْديب وفضيلةِ التعليم .

---

(١) رسمت فى النسختين : « حوى » .

(٢) ب : « إذا كان » م : « إذا كان » ، والوجه ما أثبت .

(٣) فى النسختين « إلا حماد بن موسى » ، صوابه ما أثبت ، وهو من دقيق التحريف ، حرفت « كما » إلى « حماد » و « ربى » إلى « د بن » .

(٤) ب : « فهل فعل ذلك » ، صوابه فى م .

(٥) أى « وإن كان تقديمه بحسن التعليم » ، وكلمة « التثقيف » ساقطة من م . وفى النسختين : « وإن كان بحسن التعليم » ، والوجه ما أثبت .

وكان الله تعالى يكلِّم آدمَ كما كان يكلِّم ملائكته ، ثم علَّمه الأَسْماءَ كلَّها ؛ ولم يكن ليعلِّمَه الأَسْماءَ كلَّها إلَّا بالمعانى كلِّها ، فإذا [كان[1]] ذلكَ كذلك فقد علَّمه[2] جميعَ مصالحه ومصالحِ ولده ، وتلك نهاية طباع الآدميِّين ، ومَبْلغ قُوى المخلوقين .

٨ – فصل منه

فأَمّا قولهمْ إنَّا نقول على الناس ما لا يعرفونه[3] ، ولا يجوز أن يدينوا به ، وهو قولنا إنَّ اليَهود قالت : إنَّ الله تعالى فقيرٌ ونحنُ أَغنياءُ . وأَنَّها قالت : إنَّ يد الله مغلولة ، وإنَّها قالت : إنَّ عزيراً ابنُ الله ، وهم مع اختلافهم وكثرة عددهم ، ينكرون ذلك ويأْبَوْنَه أَشدَّ الإِباءَ .

قلنا لهم : إنَّ اليهودَ لعنهم الله تعالى كانت تَطعن على القرآن ، وتَلتمس نَقْضَه ، وتطلُب عَيْبَه ، وتخطِّئُ فيه صاحبه ، وتأْتيه من كلِّ وجه ، وتَرصُده بكلِّ حِيلة ، ليلتبسَ على الضُّعفاء ، وتستميل قُلوبَ الأَغبِياءِ[4] .

فلمّا سمعَت قولَ الله تعالى لعباده الذين أَعطاهم ، قَرْضاً ، وسأَلهم قَرْضاً على التضعيف ، فقال عزَّ مِنْ قائل : ﴿ مَنْ ذا الذِى يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فيُضاعِفَه له[5] ﴾ . قالت اليهود[6] على وجْه الطَّعن والعيْب والتَّخطئة والتعنُّت : تَزعُم أَنَّ الله يَستقرِضُ مِنَّا ، ومَا استقرَضَ منَّا

---

(١) تكملة يفتقر إليها الكلام .

(٢) ب : فهل علمه » ، صوابه فى م .

(٣) سقطت كلمة « لا » من النسختين ، ولا يستقيم الكلام بدونها .

(٤) ب : « الأغنياء » ، صوابه فى م . وفى النسختين : « ويستميل » ، تحريف .

(٥) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة . وقراءة نصب «فيضاعف» هى لعاصم وابن عامر ويعقوب. وقراءة الجمهور « فيضاعفه » بالرفع على الاستئناف . إتحاف فضلاء البشر ١٥٩ .

(٦) ب : « قالت » فقط .

إلَّا لفقره وغِنانا ! فكفرَتْ بذلك القولِ إذْ كان[1] على وجْه التَّكْذيب والتَّخطئة ، لا على وجهِ أَنَّ دينها كان فى الأَصل أَنَّ الله فقيرٌ ، وأَنَّ عباده أَغنياءَ . وكيف يعتقد إنسانٌ أَنَّ الله عاجزٌ عما يَقدِر عليه ، مع إقراره[2] بأَنَّه الذى خلقَهُ ورزقَه ، وإن شاءَ حرَمَه ، وإن شاءَ عذَّبه ، وإن شاءَ عفَا عنه . وقدرتُه على جميعِ ذلك كقدرته على واحد .

ومجاز الآية فى اللُّغة واضح ، وتأْويلُها بيِّن ؟ وذلك أَنَّ الرجل منْهم كانَ يُقرض صَاحبَه لإرفاقه[3] ، ليعود إليه مع أَصْل مالِه اليسيرُ من رِبْحه ، ثم هو مخاطرٌ به إلى أَن يعود فى مِلكه . فقال لهم — بحُسْن عادتِه ومِنَّته : آسُوا فقراءَكم[4] ، وأَعْطُوا فى الحقِّ أَقرباءَكم ، من المال الذى أَعطيتكم ، والنِّعمةِ التى خوَّلتكم ، بأَمرى إيَّاكم وضَمانى لكم ، فأَعتدُّه منكم قرضاً وإنْ كنت أَوْلى به منكم ، فأَنا مُوفيكم حُقوقكم إلى مالا ترتقى إليه هِمَّة ولا تبلُغه أُمنيَّة . على أَنَّكم قد أَمِنْتم من الخِطار ، وسلمتم من التَّغْرير .

والرَّجُل يقول لعبْدِه[5] : أَسْلِفْنى دِرهماً ، عند الحاجةِ تَعْرِضُ له[6] ، وهو يعلم أَنَّ عبدَه ومالَهُ له . وإنَّما هذا كلامٌ وفَعَالٌ يدلُّ على حُسْن المِلْكة ، والتَّفَضُّلِ على العبْد والأَمَة ، وإخبارٌ منه لعبْده أَنَّه سيُعيد عليهِ ما كانت سخَتْ به نفسه .

---

(١) ب : « إذا كان » ، صوابه فى م .

(٢) فى النسختين : « مع قراره » .

(٣) الإرفاق : النفع . وفى م : « لإرفائه » .

(٤) المؤاساة : مصدر آساه بماله : أناله منه وجعله فيه أسوة ، فهى المشاركة . وفى الحديث « ما أحد عندى أعظم يداً من أبى بكر ، آسانى بنفسه وماله » . وفى ب : « واسوا » على التخفيف ، وإن ذكر صاحب اللسان أنها لغة ضعيفة ، ففى حديث الحديبية : « إن المشركين واسونا الصلح » .

(٥) ب : « لعبد » ، صوابه فى م .

(٦) فى النسختين : « تقرض له » ، تحريف ما أثبت .

وهذا ليس بغلطٍ فى الكلام ولا بِضيقٍ فيه[١] ولكن المتعنِّت يتعلَّق بكلِّ سبب ، ويتشبَّث بكلِّ ما وجَد .

وأَمَّا إخباره عن اليهود أَنَّها قالت : ﴿ يدُ اللهِ مَغْلولةٌ[٢] ﴾ ، فلمْ يذهبْ إلى أَنَّ اليهود ترى أَنَّ[٣] ساعدَه مشدودةٌ إلى عنقه بغُلّ . وكيف يذهب إلى هذا ذاهبٌ ، ويَدِينُ به دائن ؟ ! لأَنه لابدَّ أَن يكون يذهب إلى أَنَّه غَلَّ نفسه أَو غَلَّه غيره . وأَيُّهما كان ، فإِنَّه منفيٌّ عن وهمِ كلِّ بالغ يحتمل التكليف ، وعاقلٍ يحتمل التَّثقيف ، ولكنَّ اليهودَ قَومٌ جَبْرية ، والجبريَّة[٤] تُبخِّل الله مرَّةً ، وتظلِّمُه مرة[٥] ، وإن لم تُقرَّ بلسانها ، وتُشهِدْ على إقرارها ، بقولهم : ﴿ يدُ اللهِ مَغْلولة ﴾ يَعنُون بِرَّهُ وإحسَانه[٦] . وقولُهم : مَغْلولةٌ ، لا[يَعْنِي[٧]] أَنَّ غَيْره حَبَسه ومَنَعه ، ولكن إذا كان عندهم أَنَّه الذى منع أَياديَه ، وحَبَس نِعمَه ؛ فهى مَحبوسَةٌ بحبْسه ، وممنوعةٌ بمنعه .

والذى يدلُّ على أَنَّهمْ أَرادوا باليَدينِ النِّعمة والإِفضال ، دونَ

---

(١) فى الأصلين : « وهذا ليس يغلط فى الكلام ولايضيق فيه » .

(٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة . (٣) فى النسختين : « بأن » تحريف .

(٤) فى اللسان : « الجبرية : الذى يقولون : أجبر الله العباد على الذنوب ، أى أكرههم عليه » . والمعروف عند المتكلمين أن الجبر هو نفى الفعل حقيقة عن العبد ، وإضافته إلى الرب تعالى . والجبرية أصناف . فالجبرية الخالصة هى التى لاتثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا . والجبرية المتوسطة التى تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة . فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثراً ما فى الفعل وسمى ذلك كسباً فليس بجبرى . والمعتزلة يسمعون من لم يثبت للقدرة الحادثة فى الإبداع والإحداث استقلالا — جبرياً . الملل والنحل ١ : ١٠٨ .

(٥) فى اللسان (ظلم ٢٦٧) : « وظلمه (بالتشديد) : أنبأه أنه ظالم ، أونسبه إلى الظلم » وأنشد :

أمست تظالمنى ولست بظالم وتنبهنى نبهـاً ولست بنائم

وفى ب : « وتعظمه » ، صوابه ما أثبت من م .

(٦) بره ، ساقطة من ب . وهى فى م : « يده » ، ووجه هذه ما أثبت .

(٧) تكملة يفتقر إلى مثلها الكلام .

السَّاعدِ والذراع ، جَوابُ كلامِهِمْ حينَ قال : ﴿ بَلْ يَداهُ مَبْسُوطتان يُنفِقُ كَيْفَ يشاءَ[١] ﴾ . دليلًا على ما قلنَا ، وشاهداً على ما وَصَفْنا .

فإن قالوا : فكيف لم نقل إنَّ اليهود بَخَّلت الله وجَحَدت إحسانه ، دون أَن يقال إنَّ يد الله مغلولة ؟

قلنا : إنْ أَراد الله الإخبارَ عن كُفْر قومٍ[٢] وسَخِط عليْهم ، فليْس لهمْ عليه أَنْ يعبِّر عن دينهم وعيوبهم بأَحْسنِ المخارج ، ويجلِّيها[٣] بأَحْسن الألفاظ . وكيف وهو يريد التَّنفير عن قولهم ، وأَن يبغِّضَهُمْ إلى مَنْ سمعَ ذلك عنهم .

ولو أَراد الله تعالى تليينَ الأَمر وتصغيرَه وتسهيلَه ، لقال قولًا غيْرَ هذا . وكلٌّ[٤] صدقٌ جائزٌ فى الكلام . فهَذَا مجاز مسْأَلتهم فى اللُّغة ، وهو معروفٌ عند أَهل البيان والفصاحة .

وأَمَّا قولهم : إنَّ اليهود لا تقول إنَّ عزيراً ابنُ الله . فإنَّ اليهود فى ذلك على قولين : أَحدهما خاصٌّ ، والآخر عامٌّ فى جماعتهم .

فأَمَّا الخاصُّ ، فإنَّ ناساً منهم لمَّا رأَوا عُزَيْراً أَعَاد عليْهم التَّوراةَ من تلقاءِ نَفْسِه ، بعد دُرُوسهَا وشَتَاتِ أَمرها غَلَوْا فيه ، وقالوا ذلك ، وهو مشهور[٥] من أَمرهمْ . وإنَّ فريقاً من بقاياهم لباليمن والشَّامِ وداخلِ بلادِ الرُّوم . وهؤلاءِ بأَعيانهم يقولون : إنَّ إسرائيل اللهِ ابنُه[٦] ، وإذا كان ذلك على خلافِ تناسُب الناس ، وصار[٧] ذلك الاسم لعُزَير

(١) من الآية ٦٤ فى سورة المائدة .
(٢) ب : « على كفر قوم » ، صوابه فى م .
(٣) م : « ويجلبها » .
(٤) فى النسختين : « وحل » ، ووجهه ما أثبت . (٥) ب : « مشهود » .
(٦) انظر ماسبق فى ص ٣٣١ – ٣٣٢ . وهو ترجمة لكلمتى « إسرا » و « إيل » . وفى تفسير أبى حيان ١ : ١٧١ أن « إسرا » بمعنى العبد ، فى العبرانية .
(٧) ب : « وسار » بالسين .

بالطَّاعة والعلامة ، والمرتبة لأَنَّه[١] من ولد إسرائيل .

والقول الذى هو عامٌّ فيهم ، أَن كلَّ يهودىٌّ[٢] ولدَهُ إسرائيل ، فهو ابنُ الله ، إذْ لم يجدوا ابنَ ابنٍ قطُّ إلَّا وهو ابن .

٩ — فصل منه

فإنْ قالوا : ليس المسيحُ روحَ الله وكلمتَه ، كما قال عزّ ذكره : ﴿ وكلمتُه أَلقاها إلى مَرْيَمَ ورُوحٌ منه[٣] ﴾ أَوَ ليس قد أَخبر عن نفسه حين ذكر أُمّه أَنَّه نفخ فيها من رُوحه ؟ أَوَ ليس مع ذلك قد أَخبر عن حصانة فرجها وطهارتها[٤] ؟ أَوَ ليْس مع ذلك قد أَخبر أَنَّه لا أَبَ له ، وأَنَّه[٥] كان خالقاً ، إذْ كان يَخْلُق من الطِّين كهيئة الطير ، فيكون حيًّا طائِراً ؟ فأَىُّ شىءٍ بَقِىَ[٦] من الدَّلالات على مخالفته لمشاكلةِ[٧] جميعِ الخلق ، ومباينةِ جميعِ البَشَر ؟

قلنا لهم : إنَّكم إنَّما سأَلتمونا عن كتابنا ، وما يجوزُ فى لغتنا وكلامِنا ، ولم تَسْأَلونا عمَّا يجوز فى لغتكم وكلامكم . ولو أَنَّنا جوَّزنا ما فى لغتنا مالا يجوز ، وقلنا على الله تعالى مالا نعرِف ، كنَّا بذلك عند الله والسَّامعينَ فى حدِّ المكاثرين ، وأَسوأَ حالًا من المنْقطعين ، وكنَّا قد أَعطيناكم أَكثرَ مما سأَلتم ، وجُزنا بكم فوق أُمنيَّتكم .

---

(١) ب : « لا لأنه » . و « لا » مقحمة تفسد الكلام .

(٢) فى النسختين : « أن يكون يهودى » .

(٣) الآية ١٧١ من سورة النساء .

(٤) فى الأصل : « أوليس مع ذلك قد أخبر عن حصانة فرجها وطهارتها ، أخبر أنه نفخ فيها من روحه » وفى هذا تكرار لاوجه له .

(٥) ب : « وأن » ، صوابه فى م .

(٦) فى النسختين : « نفى » ، تحريف .

(٧) فى النسختين : « بمشاكلة » . والمقصود نفى المشاكلة .

ولو كنَّا إذا قُلنا : عيسى رُوح الله وكلمتُه ، وجبَ علينا[١] فى لغتنا أَن يجعله الله ولداً ، ونَجْعلَه[٢] مع الله تعالى إلهاً ، ونقول[٣] : إنَّ روحاً كانت فى الله فانفصلَتْ منه إلى بدنِ عيسى وبَطْنِ مريم . فكنَّا إذا قلنا : إنَّ الله سمَّى جبريلَ رُوحَ الله ورُوحَ القُدس ، وجب علينا أَن نقول فيه ما يقولون فى عيسى . وقد علمتم أَنَّ ذلك ليس من ديننا ، ولا يجوز ذلك بوجهٍ من الوجوه عندنا ، فكيف نُظهر للناس قولًا لا نقولُه ، وديناً لا نرتضيه .

ولو كان قوله جلَّ ذكره[٤] : ﴿ فنَفخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنا[٥] ﴾ يُوجبُ نفخاً كنَفْخ الزِّقِّ ، أَو كنفخ الصَّائغ فى المِنفاخ ، وأَنَّ بعض الرُّوح التى كانت فيه انفصلت فاصلةً إلى بطنه وبطن أُمِّه[٦] ، لكان قولُه فى آدم يوجب له ذلك ؛ لأَنه قال : ﴿ وبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسانِ من طينٍ . ثم جَعَلَ نَسْله[٧] ﴾ . . إلى قوله : ﴿ ونَفَخ فيه من رُوحِه[٨] ﴾ وكذلك قوله : ﴿ فإِذا سَوَّيتَه ونَفَخْتُ فِيهِ مِنْ روحِى فقَعُوا لَهُ ساجِدِين[٩] ﴾ .

والنفخ يكون من وجوه ، والرُّوح يكون من وجوه :

فمنها ما أَضافه إلى نفسه ، ومنها ما لم يُضِفْه إلى نفسه . وإنَّما

---

(١) ب : « وجبب علينا » ، تحريف ، ما فى م .
(٢) فى النسختين : « ويجعله » ، محرف .
(٣) فى النسختين : « ويقول » .
(٤) فى النسختين : « ولو قال جل ذكره » . فينقطع الكلام عما بعده .
(٥) من الآية ٩١ من الأنبياء و ١٢ من التحريم .
(٦) فى النسختين : « بعض روح » .
(٧) فى النسختين : « بطنها وبطن أمها » .
(٨) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة السجدة .
(٩) الآية ٩ من سورة السجدة .
(١٠) الآية ٢٩ من الحجر و ٧٢ من ص .

يكون ذلك على قَدْر ما عَظُم من الأُمور ، فممَّا سمَّى رُوحاً وأَضافَه إلى نفسه ، جِبْريل الرُّوح الأَمين ، وعيسى بنُ مريم . والتوفيق كقول موسى حين قال : إنَّ بنى فلان أَجابوا فلاناً النبيَّ ولم يُجيبوك . فقال له[1] : « إنَّ روح الله مع كلِّ أَحد »[2] .

وأَمَّا القرآنُ فإنَّ الله سمَّاه روحاً ، وجعلَه يُقيم للنَّاس مصالحَهم فى دنياهم وأَبدانِهم ، فلما اشتبها من هذا الوجه أَلزمهما اسْمَهما فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وكذلِكَ أَوْحَيْنَا إليكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا[3] ﴾ وقال : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ[4] ﴾ .

١٠ — فصل منه

قد جعلنا فى جواباتهم وقدَّمنا مسائلهم[5] ، بما لم يكونوا ليبلغوه لأَنفسهم ، ليكون الدَّليلُ تامًّا ، والجوابُ جامعاً ؛ وليعلمَ من قَرأَ هذا الكتابَ ، وتدبَّر هذا الجوابَ ، أَنَّا لم نَغتنِمْ عَجْزَهم ، ولم ننتهزْ غِرَّتهم ، وأَنَّ الإدلال بالحجَّة ، والثِّقة بالفَلْج والنُّصرة ، هو الذى دعانا إلى أَن نُخْبِر عنهم بما ليس عندهم ، وأَلَّا نقول فى مسأَلتهم بمعنىً لم ينتبهْ له مُنتبِه ، أَو يُشِرْ إليه مشير[6] ، وأَلَّا يُوردوا فيما يستقبلون ، على

---

(١) ب : « فقالوا له » ، تحريف .

(٢) إشارة إلى ماجاء فى سفر العدد ١١ : ٢٧ — ٢٩ : « فركض غلام وأخبر موسى وقال : ألداد وميداد يتنبآن فى المحلة . فأجاب يشوع بن نون خادم موسى من حداثته وقال : ياسيدى موسى ، اردعهما . فقال له موسى : هل تغار أنت لى، ياليت كل شعب الرب كانوا أنبياء إذا جعل الرب روحه عليهم » .

(٣) الآية ٥٢ من الشورى .

(٤) الآية ٤ من المعارج .

(٥) م : « وقومنا مسائلهم » .

(٦) فى النسختين : « أو يشير » ، وإنما هو عطف على : « لم ينتبه » .

ضُعفائِنا ومَن قَصُر نظره مِنَّا ، شيئاً إِلَّا والجواب قد سَلَفَ فيه ، وَأَلْسنَتهُمُ قد مَذِلت به [(١)] .

وسنسأَلهم إن شاءَ الله ، ونجيب عنهم ، ونستقصى لهم فى جواباتهم ، كما سأَلنا لهم أَنفُسَنا [(٢)] ، واستقصَيْنا لهم فى مسائلهم

فيقال لهم : هل يَخْلو المسيحُ أَن يكون إنساناً بلا إِلَه ، أَو إِلَهاً بلا إنسان ؟ أَو أَن يكون إِلَهاً وإنساناً ؟

فإِنْ زعموا أَنَّه كان إِلَهاً بلا إنسان ، قلنا لهم : فهو الذى كان صغيراً فشَبَّ والتحَى [(٣)] ، والذى كان يأْكل ويشرب ، ويَنجُو ويبول ، وقُتِل بزَعمكم وصُلِب ، وولدَتْه مريمُ وأَرضعته ، أَمْ غَيرُه هو الذى كان يأْكلُ ويشرب على ما وصفنا ؟ فأَىُّ شىءٍ معْنَى الإِنسانِ إِلَّا ما وصَفْنا وعَدَّدنا ؟

وكيف يكون إِلَهاً بلا إنسان ، وهو الموصوفُ بجميع صفات الإنسان . وليس القولُ فى غيره مِمّن صفتُه كصفته إِلَّا كالقول فيه كاشتمالها على غيره ؟

وإنْ زعَمُوا أَنَّه لم ينقلبْ عن الإِنسانيَّة ولم يتحوَّل عن جوهر البَشَريَّة ، ولكن لما كان اللَّاهوت فيه ، صار خالقاً وسُمِّى إِلَهاً . قلنا لهم : خبِّرونا عن اللَّاهوت . أَكان فيه وفى غيره [(٤)] ، أَم كان فيه دونَ غيره ؟

---

(١) مذلت به : أذاعته وأفشته ، وأصل المذل إشاعة السر . قال قيس بن الخطيم :

فلا تمذل بسرك كل سر إذا ما جاوز الاثنين فاشى

ب : « قد دلت به » م : « قد زلت به » ، والوجه ما أثبت .

(٢) ب : « كما سألنا هم أنفسنا » ، صوابه فى م .

(٣) التحى : ظهرت لحيته . ب : « والتجى » بالجيم ، تحريف .

(٤) ب : « أكان فيه وفى غيره » فقط ، وبقية العبارة من م مع سقوط كلمة « فيه » الثانية ، وقد أثبتها تكملة للقول .

فإنْ زعموا أنَّه كان فيه وفى غيره ، فليس هو أَولى بأَن يكون خالقاً ويتسمَّى إلَهاً من غيره . وإن كان فيه دون غيره ، فقد صار اللاهوتُ جسمًا .

وسنقول فى الكسْر عليهم إذا صِرْنا إلى القَول فى التشبيه ، وهو قولُ مُعْظمهم[1] ، والذى كان عليه جماعتهم ، إلَّا من خالفهم من متكلِّميهم ومتفلسفيهم ، فإنَّهم يقولون بالتَّشبيه[2] والتجسيم ، فِراراً من كثرة الشَّناعة ، وعجزاً عن الجواب . وكفى بالتَّشبيه قُبحاً ، وهو قولٌ يعمُّ اليهودَ وإخوانَهم من الرَّافضة ، وشياطينَهم من المشبِّهة والحَشْويّة[3] والنَّابتة[4] ، وهو بعد متفرِّق فى الناس . والله تعالى المستعان .

---

(١) ب : « قول منع لهم » م : « منعلهم » ، وأثبت مارأيته الصواب .
(٢) فى النسختين : « فى التشبيه » .
(٣) انظر ما سبق من الكلام على الحشوية فى ص ٢٨٨
(٤) فى النسختين : « النابتة » ، وأثبت واواً قبلها لأن هؤلاء غير هؤلاء . وانظر للنابتة رسائل الجاحظ ٢ : ٥ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ .

فهرس الكتب والرسائل

صفحة

مكتبة الجاحظ

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

١٥٠ - ٢٥٥

بتحقيق وشرح

عبد السلام محمد هارون



رسائل الجاحظ

الجزء الرابع

القسم الثاني من

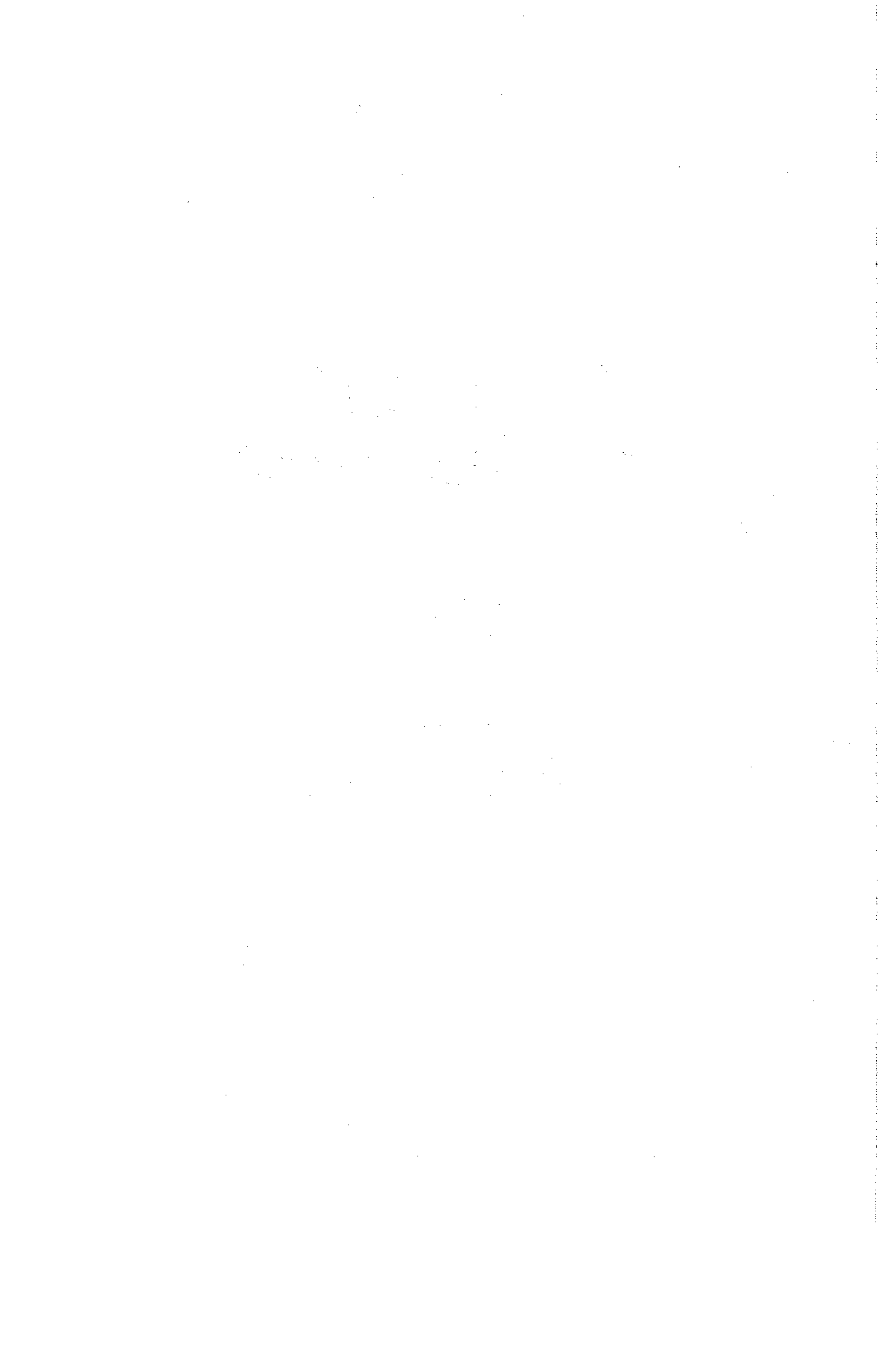
الفصول المختارة من كتب الجاحظ

اختيار الإمام عبيد الله بن حسان

[الطبعة الأولى]

١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م

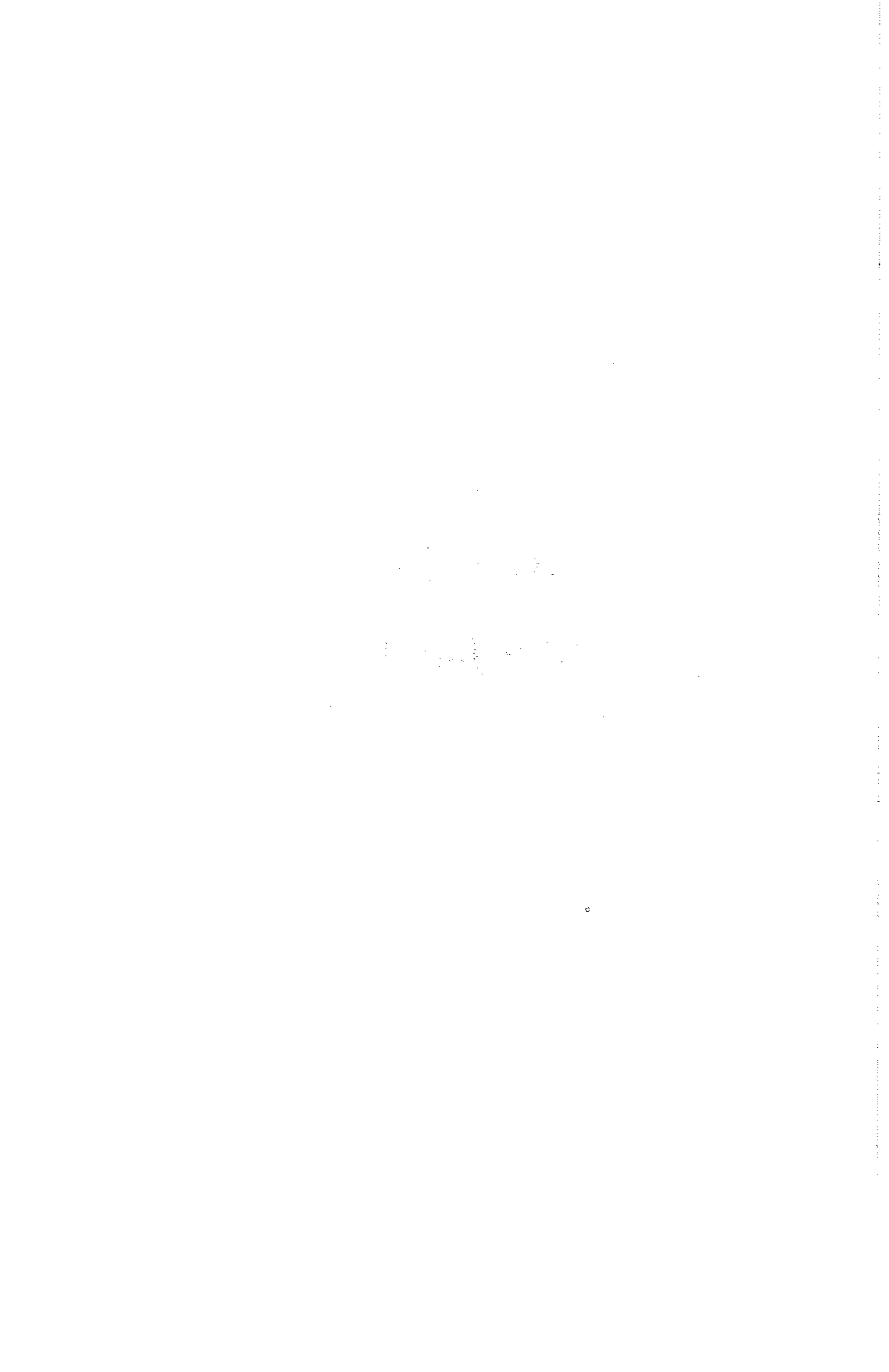
الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة



١١

من كتابه في

الرد على المشبهة



١ — فصــل

من صدر كتابه فى الرد على المشبهة[١]

أمَّا بعدُ ، فقد اختلف أهلُ الصَّلاة فى معنى التوحيد ، وإنْ كانوا قد أَجمعوا على انتحالِ اسمِه . فليس يكون كلُّ مَن انتحلَ اسمَ التَّوحيد موحِّداً إذا جعل الواحدَ ذا أجزاءٍ ، وشبَّهه بشىءٍ[٢] ذى أجزاءٍ .

ولو أنَّ زاعماً زعم أنَّ أحداً لا يكون مشبِّهاً وإن زعم أنَّ الله يُرَى بالعيونِ ، ويُوجَد ببعض الحواسِّ ، حتَّى يزعُمَ أنَّه يُرَى كما يرى الإنسان ، ويُدرَك كما تُدرك الألوان[٣] كان كمن قال : لا يكون العبدُ لله مكذِّباً ، وإن زعم أنَّه يقول مالا يفعل ، حتَّى يزعُمَ أنه يَكذِب . ولا يكون العبدُ لله مُجَوِّراً[٤] ، وإنْ زعم أنَّه يعذِّب مَن لم يعطِهِ[٥] السَّببَ الذى به يَنال طاعته ، حتَّى يزعمَ أنَّه يَجُور[٦] .

ولو أنَّ رجلاً قال لفلان : عندى جذر مائة[٧] ، كان عندنا كقوله :

(١) ب : « المشبه به » ، صوابه فى م . وهذا الكتاب مما سقط من نسخة ط المطبوعة على هامش الكامل . وقد سبق للجاحظ رسالة فى هذا المعنى ، هى « نفى التشبيه » ولكنها غير هذا الكتاب ، انظر رسائل الجاحظ ١ : ٢٧٩ — ٣٨٠ . والمقابلة هنا على نسخة التيمورية فقط المرموز لها بالرمز (م) .

(٢) فى النسختين : « لشىء » والوجه ما أثبت .

(٣) ب : « كما يدرك الألوان » .

(٤) المجور : الذى ينسب إلى الله الجور ، أى الظلم . وفى النسختين : « محرراً » براءين ، صوابه ما أثبت .

(٥) فى النسختين : « لم يعطيه » ، تحريف .

(٦) فى النسختين : « يجوز » . وانظر ما سبق .

(٧) الجذر ، بفتح الجيم وكسرها ، أو بكسرها فقط : أصل الحساب ، كما فى القاموس . وفى مفاتيح العلوم ١١٥ عند كلامه على الأرثماطيقى : « الجذر كل ما تضربه فى نفسه . . . وهو مثل جذر المائة وهو عشرة ، وجذر تسعة وهو ثلاثة ، وجذر أربعة وهو اثنان » . وهذا ما يسمى بالجذر المطلق . أما الجذر الأصم فهو ما لاسبيل إلى علم حقيقته بالعدد . وقد مثل له الخوارزمى بجذر الاثنين ، وجذر الثلاثة ، وجذر العشرة . وفى ب : « جزر » ، صوابه فى م .

لفلان عشرة . وكذلك إذا قال : فلانٌ قد ناقَضَ فى كلامه ، فهو عندنا كقوله : فلانٌ[١] قد أحالَ فى كلامه .

ولو قال : ناقَضَ ولم يُحِلْ[٢] ، له عندى جذر مائةٍ[٣] وليس له عندى عشرة ؛ كان كالذى يقول : ركبت عَيْرًا ولم أركب حماراً ، وشربت المُدامةَ ولم أشْرَبْ خمراً .

وللمعانى دَلالاتٌ وأسماءٌ ، فمن دلَّ على المعنى بواحدةٍ منها ، وباسمٍ من أسمائها ، لم نسأله أن يوفِّينا الجميعَ ؛ وأنْ يأتىَ على الكُلّ ، ولم يُلتَفتْ إلى مَنْع ما مَنَع ، إذا كان الذى مَنَع مثلَ الذى أعطَى .

وقد أنبأَ اللهُ عن نَفْسه ، على لسان نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، فقال ﴿ لَيْسَ كمِثْلِهِ شَيْءٌ[٤] ﴾ فأقَرَّ القومُ بظاهر هذا الكلام ، ثم جَعَلوه فى المعنى يشبه كلَّ شَيْء[٥] ، إذْ جعلوه جسماً ، فقد جعلوه مُحْدَثاً ومخلوقاً ؛ لأنَّ دلالة الحدوث[٦] ، والشَّهادةَ على التدبير ، ثابتان فى الأجسام ، وإنَّما لزمَها ذلك لأنَّهمَا أجسامٌ[٧] لا لغير ذلك ؛ لأنَّ الجسم إذا تحرَّك وسكن ، وعَجَزَ وقَوِىَ ، وبقِىَ وفَنِىَ ، وزاد ونَقَص ، ومازجَ الأجسامَ وتخلَّص لأنَّه جسم ؛ ولولا أنَّه جسمٌ لاستحالَ ذلك منه ، ولَمَا جاز عليه

---

(١) ب : « لفلان » ، صوابه فى م .

(٢) لم يحل ، من الإحالة ، وهو الإتيان بالمحال من الكلام ، أى المستحيل . وفى النسختين : « لم يخل » بالخاء المعجمة ، صوابها ما أثبت .

(٣) ب : « جزر مائة » بالزاى ، صوابه فى م . وانظر ما مضى فى الصفحة السابقة .

(٤) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٥) م : « لشبه كل شىء » .

(٦) فى النسختين : « الحدث » .

(٧) ب : « لزمهما ذلك لأنهما أجسام » م : « لزمهما ذلك لأنها أجسام » والوجه ما أثبت .

هذه الأُمور التى أَوجَبَتْها الجسميَّة[1] ، [و[2]] هى الدَّالَّة على حدوث الأَجسام . فواجبٌ أَن يكون كلُّ جسم كذلك ، إذا كانت الأَجسام مستوية فى الجسميَّة[1] ، وإذا كان كلُّ جسمٍ منها أَيضاً لزمه ذلك[3] .

وقد اختلف أَصحابُ التَّشبيه فى مذاهب التشبيه .

فقال بعضهم : نقول[4] : إنه جسمٌ ، وكلُّ جسمٍ طويلٌ .

وقال آخرون : نَقول[4] : إنَّه جسم ، ولا نقول[4] إنَّه طويل ، لأَنَّا إنَّما جعلناه جِسماً لنُخرجه من باب العَدَم ؛ إذْ كنَّا متى أَخبَرْنا عن شىءٍ ، فقد جعلناه معقولا متوهَّماً ، ولا مَعقولَ ولا متوهَّمَ إلَّا الجسم . وليست بنا حاجةٌ إلى أَن نجعلَه طويلاً ، وليس فى كونه جسماً إيجابٌ لأَن يكون طويلًا . لأَنَّ الجسم يكون طويلًا وغير طويل ، كالمدوَّر ، والمثلَّث ، والمربَّع ، وغيرِ ذلك ، ولا يكون الشىء إلَّا معقولا ، ولا المعقولُ إلَّا جِسْماً . فلذلك جعلناه جِسماً ، ولم نجعلْه طويلا .

فينبغى – يرحمُك الله – لصاحِب هذه المقالة ، إن لم يجعلْه طويلًا أَن يجعله عريضاً ، وإن لم يجعلْه عريضاً أَن يجعله مدوَّراً ، وإنْ لم يجعلْه مدوَّراً أَنْ يجعلَه مثلَّثاً ، وإن لم يجعلْه مثلَّثاً أَن يجعلَه مربَّعاً . وإنْ أَقرَّ بهيئةٍ من الهيئات فقد دخل فيما كَره .

ولا أَعلمُ المدوَّرَ ، والمثلَّثَ ، والمربَّع ، والمخمَّس ، والمصلَّب ، والمزَوَّى[5] ، وغير ذلك من الهيئات ، إلَّا أَشنعَ فى اللَّفظ . وأَحْقَرَ فى الوهم .

---

(١) ب : « الجسمة » .

(٢) ليست فى النسختين .

(٣) فى النسختين : « لزمه ذلك لأنه فقط » ، تحريف .

(٤) فى النسختين : « يقول » ، والوجه ما أثبت .

(٥) المزوى : ذو الزوايا والأركان . م : « المروى » بالرأى المهملة ، تحريف .

٢ – فصل منه

وقال أصحاب الرُّؤية : اعتللتم علينا بقول الله تعالى : ﴿ لاتُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصَارَ[1] ﴾ ، وقلتمْ : هذه الآيةُ مبهَمة ، وخرجَتْ مَخرجَ العموم ، والعامُّ غير الخاصّ .

وقد صدقتم ، كذلك العامُّ إلى أن يخصَّه الله بـآية أُخرى ؛ وذلك أَنَّ الله تعالى لو كان قال : ﴿ لا تُدرِكُه الأَبصارُ وهو يُدْرِكُ الأَبصارَ ﴾ ثم لم يَقُلْ : ﴿ وُجوهٌ يومئذٍ ناْضرةٌ . إلى ربِّها ناظرة[2] ﴾ لعِلمنا أَنَّه قد استثنى أَخَرةً من جميع الأَبصار[3] .

قالوا : وإنَّما ذلك مثل قوله : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فى السَّمٰواتِ والأَرْضِ الغَيْبَ إِلَّا اللهُ[4] ﴾ ومثل قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ[5] ﴾ وهذه الأَخبار مُبهَمة عامَّة ، فلمَّا قال : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَاكُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا[6] ﴾ ولمّا قال[7] ، أَيضاً : ﴿ وَلَا يُحِيطُون بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ[8] ﴾ علمنا أَنَّ القولَ الثَّانىَ قد خَصَّ القول الأَوَّل . وكذلك أَيضاً قوله : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ .

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .
(٣) يقال لقيته أخرة وبأخرة ، بالتحريك فيهما ، أى أخيراً . ب : « آخر » ، صوابه فى م .
(٤) الآية ٦٥ من سورة النمل .
(٥) الآية ١٧٩ من آل عمران .
(٦) الآية ٤٩ من سورة هود .
(٧) فى النسختين : « ولو قال » ، والوجه ما أثبت .
(٨) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

قلنا للقوم : إنَّ الله تعالى لمَّا قال : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ[١] ﴾ . بعد أنْ قال : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ[٢] ﴾ . علمنا أَنَّ ذلك استثناءٌ لبعضِ ما قال إِنِّي لا أُطْلعكم على الغيب . وهذا الاستثناءِ لا اختلافَ فى لفظه ولا فى معناه ، ولا يحتمل ظاهرُ لفظِهِ غير معناه عندنا .

وعندَ خصومِنا فيه أشدُّ الاختلاف . وظاهر لفظه[٣] يحتمل وجهاً آخَر غير ماذهبوا إليه . والفقهاءُ وأصحاب التفسير يختلفون فى تأْويله وهم لا يختلفون فى تأْويل قوله :﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ[٤] ﴾

قال : ذكر ابن مَهدىٍّ عن سُفيانَ ، عن منصورٍ ، عن مجاهد ، فى قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ[٥] ﴾ أَنَّه قال : تنتظر ثَوابَ ربِّها .

وذكر أَبو معاوية[٦] عن إسماعيل ابن أَبى خالد[٧] عن أَبى صالح[٨]

---

(١) الآية ٤٩ من سورة هود . وفى النسختين : « ذلك من أنباء الغيب » ، تحريف ، فإن تمام هذه : « نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم » . وليست مرادة هنا . وهى الآية ٤٤ من آل عمران .

(٢) الآية ١٧٩ من آل عمران . ولاريب أنها سابقة للآية ٤٩ من هود .

(٣) ب : « وظ لفظه » وهو اختصار كتابى لكلمة « ظاهر » . وفى م : « وظاهر لفظه » كما أثبت .

(٤) الآية ٤٩ من سورة هود .

(٥) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

(٦) هو محمد بن خازم التميمى السعدى مولاهم ، أبو معاوية الضرير الكوفى . روى عن عاصم الأحول ، والأعمش ، وداود بن أبى هند ، واسماعيل بن أبى خالد وغيرهم . وروى عنه ابن جريج ، ويحيى القطان ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهم . توفى سنة ١٩٥ . تهذيب التهذيب .

(٧) إسماعيل بن أبى خالد الأحمسى ، مولاهم . روى عن أبيه وجمع من الصحابة وكبار التابعين . وعنه شعبة ، والسفيانان ، وابن المبارك وغيرهم . توفى سنة ١٤٦ . تهذيب التهذيب .

(٨) هو باذام ، أو باذان ، أبو صالح ، مولى أم هانئ بنت أبى طالب . روى عن على وابن عباس وأبى هريرة . وعنه الأعمش ، وسماك بن حرب ، وسفيان الثورى وغيرهم . تهذيب التهذيب .

مثلَ ذلك . وأبو صالح ومجاهدٌ من كبار أصحاب ابنِ عبّاس ، ومن العاملية[١] ، ومن المتقدِّمين فى التفسير .

فهذا فرقٌ بيِّن .

وبعد ، ففى حُجج العقول أنَّ الله لا يُشبه الخلق بوجْهٍ من الوجوه ؛ فإذا كان مرئيًّا فقد أشبهه فى أكثر الوجوه .

وإذا كان قولهم فى النَّظر يحتمل ما قلتم ، وما قال خَصمُكم ، مع موافقة أبى صالح ومجاهد فى التأْويل ، وكان ذلك أولى بنَفْى التشبيه الذى قد دلَّ عليه العقلُ، ثم القرآنُ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ[٢] ﴾ — كان التأْويل ما قال خَصْمُكم دونَ ماقلتم .

٣ — فصـــل منـه

ثُمَّ رجَعَ الكلامُ إلى أوَّل المسأَلة ، حيث جَعلْنا القرآن بيننا قاضياً، وأتَّخذناه حاكما ، فقلنا :

قد رأَينا الله استعظَمَ الرُّؤية استعظاماً شديداً ، وغَضِب على مَنْ طلبَ ذلك وأرادَه ، ثُمَّ عذَّب عليه ، وعجَّب عبادَه ممَّن سأَله ذلك ، وحذَّرهم أن يَسلكوا سبيلَ الماضين ، فقال فى كتابه لنبيِّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ[٣] ﴾.

فإن كان الله تعالى — فى الحقيقة — يجوزُ أن يكون مرئيًّا ، وببعضِ الحواسِّ مُدرَكاً ، وكان ذلك عليه جائزاً ، فالقومُ إنَّما سأَلوا أمراً

(١) كذا وردت هذه الكلمة فى النسختين .
(٢) الآية ١١ من سورة الشورى .
(٣) ١٥٣ من النساء .

ممكناً ، وقد طَمِعُوا فى مَطمع ، فلمَ غَضِبَ هذا الغضبَ ، واستعظَمَ سؤالهم هذا الاستعظام ، وضرب به هذا المثَلَ ، وجعله غايةً فى الجُرأة[١] وفى الاسْتِخفاف بالرُّبوبية .

فإن قالوا : لأَنَّ ذلك[٢] كان لايجوز فى الدنيا ؛ فقدرة[٣] الله تعالى على ذلك فى الدنيا كقدرته عليه فى الآخرة .

فإن قالوا : ليس لذلك استعَظَم سُؤالَهم ، ولكن لأَنَّهم تقدَّموا بين يديه .

قلنا : لِمَ صار هذا السؤالُ تقدُّماً عليه واستخفافاً به ، والشىء الذى طَلبوه[٤] هو مجوَّزٌ فى عقولهم ، وقد أَطمعهم فيه أَنْ جوَّزوه عندهم[٥] ، والقومُ لم يَسأَلوا ظُلماً ولا عَبَثاً ولا مُحالا . ومن عادة المسئول[٦] التفضُّلُ ، وأَنَّه فاعلٌ ذلك بهم يوماً .

فإن قالوا : إنَّما صار ذلك الطَّلبُ كُفراً وَذنباً عظيماً[٧] لأَنَّه قد كان قال لهم[٨] : إنِّى لا أَتجلَّى لأَحَدٍ فى الدَّنيا .

قلنا : فإن كان[٩] الأَمرُ على ماقلتم لكان فى تفسيرِ إنكارِه لطلبهم[١٠] دليلٌ على ما يقولون ، ولذِكْرِ تقدُّمهم بعد البَيَان ، بل قال : ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا

---

(١) ب : « وجهله غاية فى الجراءة » ، صوابه فى م .

(٢) فى النسختين : « كأن قالوا فإن لأن ذلك » ، صوابه ما أثبت .

(٣) فى النسختين : « وقدرة » ، ووجهه ما أثبت .

(٤) ب : « الذى هو طلبوه » ، و « هو » مقتحمة .

(٥) م : « إذ جوزوه عندهم » .

(٦) فى النسختين : « ومن الاداة المسئول » ، تحريف .

(٧) ب : « أو ذنباً عظيماً » .

(٨) فى النسختين : « فقال لهم » .

(٩) ب : « فلو كان » .

(١٠) فى النسختين : « فى تفسيره إنكارهم لطلبهم » .

مُوسَى أَكْبَرَ مِنَ ذٰلِكَ فقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً[١] ﴾ لا غير ذلك .

فإن قالوا: إنّما غَضِب الله عليهم لأنَّه ليس لأَحدٍ أَنْ يظنَّ أَنَّ الله تعالى يُرَى جهرة .

قلنا : وأَىُّ شىءٍ تأْويلُ قولِ القائِل : رأَيتُ الله جَهْرةً إلاَّ المعايَنَة ، أو إعلانَ المعاينة[٢] ؛ قال الله عزَّ ذكره : ﴿ لَا يُحِبُّ اللّٰهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ[٣] ﴾ . والجهر هو الإعلان والرَّفع والإشاعة ؛ فهل يراه أَهلُ الجنة ـ إذا رَفَع عنهم الْحُجُبَ ، ودَخَلُوا عليه وجَلَسوا على الكرسىِّ عنده ـ إلَّا جهرةً ؟ كما تأَوَّلتم الحديث الذى رويتموه[٤] عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تُضَامون فى رؤيته كما لاتضامون فى القَمرِ ليلةَ البدر[٥] » ، إلَّا أَن يزعموا أَنَّهم يَرَوْنَ ربَّهم سِرًّا ، لأَنَّه ليس إلَّا السرُّ والجهر ، وليس إلا الإعلان والإخفاءُ ، وليس إلّا المعاينة .

فإن قالوا : نحن لا نقول بالمعاينة ، ونقول : نراه ، ولا نقول نعاينه .

قلنا : ولِم ، وأَنتم تَروْنَه بأَعينكم ؟ فمن جَعلَ لكم أَن تقولوا نَرَاه بالعين ، ومَنَعكم أَن تقولوا نُعاينهُ بالعين ؟ وهل اشتُقَّت المعاينةُ إلَّا من العين ؟ .

---

(١) الآية ١٥٣ من النساء .
(٢) فى النسختين : « أو بإعلان المعاينة » .
(٣) الآية ١٤٨ من النساء .
(٤) ب : « رأيتموه » ، صوابه فى م .
(٥) أخرجه البخارى فى كتاب مواقيت الصلاة وفى التفسير والتوحيد ، ومسلم فى الصلاة ، وأبو داود وابن ماجه فى السنة ، والترمذى فى صفة الجنة ، من حديث جرير بن عبد الله . وانظر الحديث ٥٨ من الألف المختارة واللسان (ضيم) .

فإن قالوا : لا يجوز أن يُلفَظَ بالمعاينة إلَّا فى الشيء الذى تقع[١] عينُه علىَّ، وتقع عينى عليه . فأَمَّا إذا كان أحدُنا ذا عينٍ، والآخر [ليس[٢]] ذا عين، فغير جائزٍ أنْ تُسمَّى[٣] الرؤيَة معاينة ، وإنَّما المعاينة مثل المخاصمة ؛ ولا يجوز أن أقول : خاصمت إلَّا وهناك مَنْ يخاصمنى .

قلنا : قد يقول النَّاسُ أَسلم فلانٌ حين عايَنَ السَّيف ، وليس للسَّيف عين، وليس هُناك من يقاتله . على أَنَّكم قد تزعمون أنَّ لله عيناً لا كالعيون ويداً لا كالأَيدى ، وله عينٌ بلا كَيْفٍ ، وسمعٌ بلا كيف .

٤ - فصـــل منه

وقالت - أَيضاً - المشبِّهة :

الدَّليل على أَنَّه جسمٌ قولُه عزَّ ذكره : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ والْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا[٤] ﴾. قالوا: فلا يجىء إلَّا إلى مكانٍ هو فيه[٥]؛ ولو جاز أَن يجىء إلى مكانٍ هو فيه جاز أَن يخرج منه[٦] وهو فيه . فإذا أَخبر الله أَنَّه فى السموات والأَرض ، وقلتم إنَّ الدُّنيا كلَّها لا تخلو منه، وإنَّه فيها ، فإذا كان الأَمر كذلك ، وكانت الدنيا محدودةً ، كان[٧] الذى يكون فى بعضها أَو فى كلِّها محدوداً ، إذا كان لم يجاوِزْها . ولو جاوزها لخرج إلى مكانٍ ، ولا يجوز أَن يخرج منها إلَّا إلى مكان .

---

(١) م : « يقع » .
(٢) تكملة يفتقر إليها الكلام .
(٣) فى النسختين : « يسمى » .
(٤) الآية ٢٢ من سورة الفجر .
(٥) فى النسختين: «قالوا فلا يجوز إلى مكان هو فيه »،والوجه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .
(٦) ب : « جار يخرج منه » م : « جاز يخرج منه » ، صوابه ما أثبت .
(٧) فى النسختين : « وكان » ، والواو مقحمة .

وقالوا : قد أَخبر الله أَنَّه فى السموات والأَرض ، والله لا يخاطب عبادَه إلَّا بما يعقلون ، ولو خاطبهم بما لا يعقلون لكان قد كلَّفهم ما لا يطيقون ، ومَنْ خاطب مَن لا يَفِى بالفَهْم عنه فقد وضَع المخاطبةَ فى غير موضعها . فهذا ماقالَ القوم .

ونحن نقول : إنَّ الشىء قد يكون فى الشىء على وجوه ، وسنذكر لك الوجوهَ ، ونُلحق كلَّ واحدٍ منها بشكله[1] وبما يجوز فيه ، إن شاء الله تعالى .

قلنا للقوم : أليس قد خاطب اللهُ الصُّمَّ البُكْمَ الذين لا يعقلون ، والذين خبَّر أَنَّهم لا يستطيعون سمعاً ؟

فإن قالوا : إنَّ العرب قد تسمِّى المتعامىَ أعمَى ، والمتصامِمَ أصمَّ ، ويقولون لمن عمِلَ عمَلَ من لا يعقل : لا يعقل[2] ؛ وإنَّما الكلام محمولٌ على كلام . وذلك أنَّ المتعامىَ إذا تعامىَ ، صار فى الجهل كالأَعمى ، فلمَّا أَشبَهَهُ من وجهٍ سُمِّى باسمه .

قلنا : قد صدقْتُم ؛ ولكن ليس الأَصلَ . والمستعملُ فى تسميتهم بالعمى إنَّما هو الذى لا ناظرَ له . فإذا قالوا ذلك ، قلنا : فلِم زعَمتم أَنَّ له ناظرًا ، وأَخذتم بالمجاز والتشبيه[3] ، وتركتم الأَصل الذى هذا الاسمُ محمولٌ عليه ؟

فإن قالوا : إنَّما قلنا من أَجل أَنَّ الأَول لايجوز على الله تعالى ، والثانى جائِزٌ عليه ، والله لا يتكلم بكلامٍ إلَّا ولذلك الكلامِ وجهٌ إمَّا[4]

---

(١) ب : « بكل واحد منها شكله » م : « بكل واحد منها بشكله » ، والوجه ما أثبت .

(٢) ب : « ويقولون لمن عمل عمل من لا يعقل . » ، وتكملته من م .

(٣) ب : « والتشبه » ، صوابه فى م .

(٤) ب : « إلا » ، والوجه فى م .

أن يكون هو الأَصلَ والمحمولَ عليه ؛ وإمَّا أن يكون هو الْفَرْعَ والاشتقاقُ الذى تسمِّيه العربُ مجازاً .

فإذا نَظَرْنا فى كلام الله ـ وهو عندنا عادلٌ غير جائر[١] ، وهو جَلَّ جلالُه يقول : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ[٢] ﴾ علمنا أَنَّهم لو كانوا منقوصين غير وافرِين ، كانوا قد كُلِّفوا ما لايُطيقون ، والمكلِّفُ لعبادِه ما لا يُطيقون جائرٌ ظالم . فإذا كان لا يليق ذلك به علمْنا أَنَّهم قد كانوا وافرين غَيْرَ عاجزين ولا منقوصين . وإذا كانوا كذلك ، صار الواجبُ أَن نَحكم[٣] بالفَرْع والمجاز ؛ ونَدَع الأَصل والمحمول عليه[٤] وقلنا : هم عُمْىٌ وصُمٌّ ولا يعقلون[٥] على أَنَّهم تَعامَوْا وتصامُّوا وعملوا عمل من لا يعقل[٦] .

فإذا قالوا ذلك قلنا لهم : فإنَّا لم نَعْدُ هذا المذهبَ فى قوله : ﴿ نَاضِرَةٌ ﴾ ، ﴿ وَجَاءَ ربُّكَ والْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا[٧] ﴾ وفى قوله : ﴿ وَهُوَ اللهُ فِى السَّموَاتِ وفِى الأَرْضِ[٨] ﴾ .

وقد يقولون : جاءنا فلانٌ بنفسه ؛ ويقولون : جاءنا بولده ، وجاءنا بخير كثير . وذلك على مَعانٍ مختلفة .

---

(١) م : « غير جائز » بالزاى ، تحريف .
(٢) الآية ١٧١ من البقرة .
(٣) فى النسختين : « يحكم بالفرع والمجاز ويدع الأصل » .
(٤) ب : « والمحمول على المجاز » ، صوابه فى م .
(٥) فى النسختين : « قلنا هو أعمى وأصم ولا يعقل » مع سقوط كلمة « يعقل » من ب . وأرى الوجه فيما أثبت .
(٦) وعملوا ، ساقطة من ب .
(٧) الآية ٢٢ من سورة الفجر .
(٨) الآية ٣ من سورة الأنعام .

ويقولون : جاءتنا السَّماءُ بأَمرعظيم ، والسَّماءُ فى مكانها .

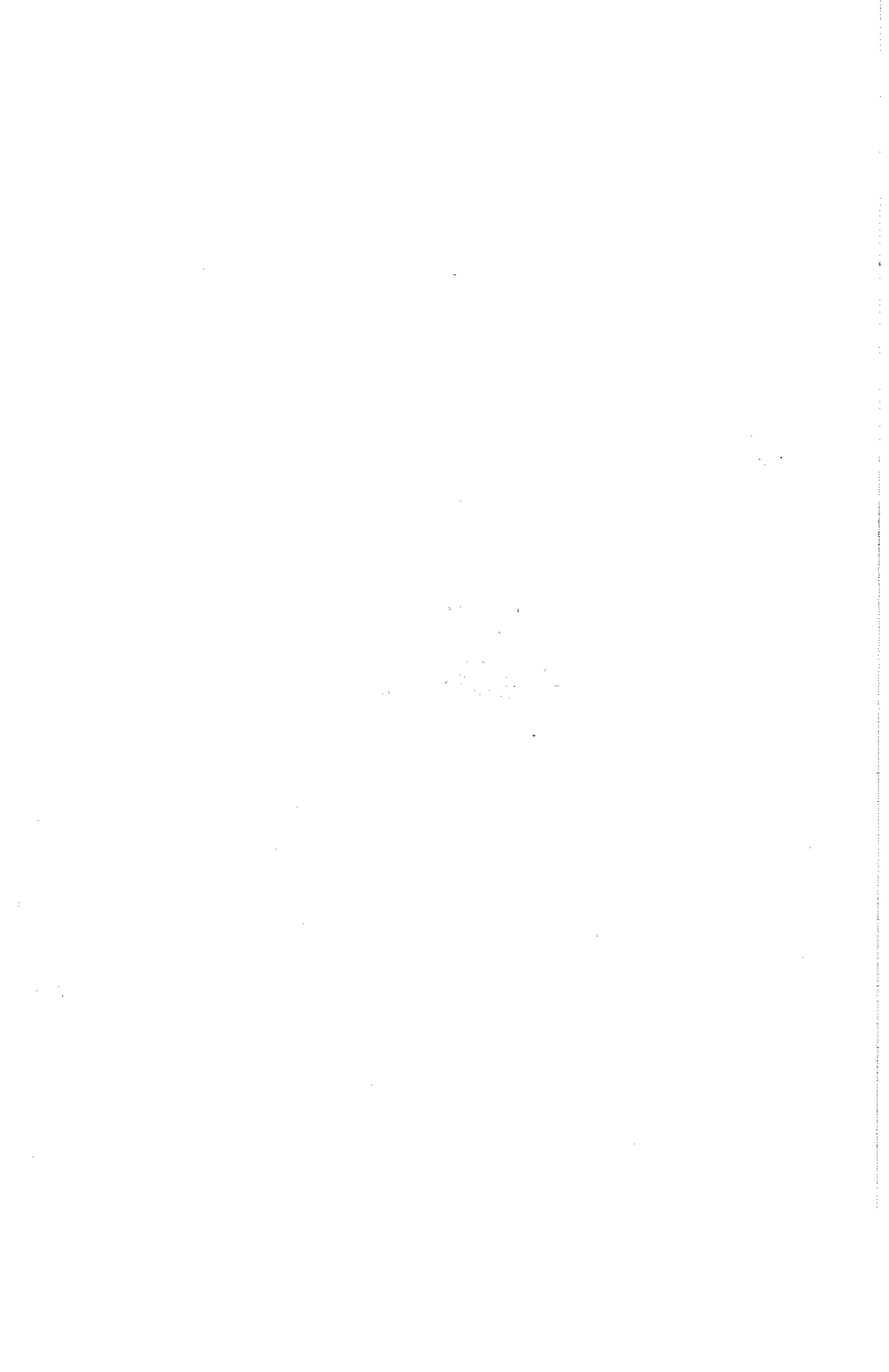
وقد يقولون ـ أَيضاً ـ : جاءتنا السَّماءُ ، وهم إنَّما يريدون الغَيْمَ الذى يكون به المطرُ[١] من شِقٍّ السماءِ وناحيتِها ووَجْهها .

---

(١) به ، ساقطة من ب .

١٢

من كتابه فى
مقالة العثمانية



١ ـ فصــــل

من صدر كتابه فى مقالة العثمانية(١)

زَعمت العثمانيَّةُ أنَّ أفضلَ هذه الأُمّةِ وأولاها بالإمامة أبو بكر بنُ أبى قُحَافة . وكان أوّلَ مادلَّهم عند أنفسهم على فضيلته ، وخاصَّةِ منزلته ، وشدَّةِ استحقاقه ـ إسلامُه على الوجه الذى لم يُسلِمْ عليه أحدٌ من عالَمِهِ وفى عَصِره . وذلك أنَّ الناس اختلفوا فى أوّل الناس إسلاماً : فقال قوم : أبو بكر بن أبى قُحافة . وقال آخرون : زيد بن حارثة . وقال نَفرٌ : خَبَّاب بن الأَرَتّ .

على أنَّا إذا تفقَّدنا أخبارَهم ، وأحصينا أحاديثَهم ، وعَدَدنا رجالَهم ، وصحَّةَ أسانيدِهم ، كان الخبر فى تقديم أبى بكرٍ أعمَّ ، ورجالُه أكثر ، وإسنادُه أصحَّ ؛ وهو بذلك أشهَرُ ، واللَّفظُ به أظهر . مع الأشعارِ الصَّحيحة ، والأمثالِ المستفيضة ، فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعدَ وفَاتِه . وليس بين الأشعار وبين الأخبار فرقٌ إذَا امتنَعَ فى مجيئها وأصلِ مخرَجِها التَّشاعُر ، والاتِّفاق والتواطؤ(٢) .

ولكنَّا ندَعُ هذا المذهبَ جانباً ، ونَضرِب عنه صَفْحاً ، اقتداراً على الحجَّة ، وثقةً بالفَلْج والقُوَّة(٣) ، ونقتصرُ على أدنَى منازل أبى بكرٍ ،

---

(١) نشر الكتاب كاملا بتحقيقى فى دار الكتاب العربى سنة ١٣٧٤ . ونشر الأستاذ حسن السندوبى فصولا منه مقتبسة من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، وهى فصول يشيع فيها الاختصار والاختزال ، بلغ أن أوجزت صفحتان منها فى نحو ثلاثة أسطر . انظر مقدمتى لكتاب العثمانية ولا سيما ص١٤ .

وقد سقطت هذه الفصول من مطبوعة هامش الكامل ، فاقتصرت المقابلة هنا على نسختى ب ، م ونسختى من العثمانية التى رمزت لها هنا بالرمز (ع) .

(٢) انظر للتشاعر ما مضى فى الرسائل ٣ : ٢٤٨ ، ٢٥١

(٣) الفلج ، بالفتح : الظفر والفوز .

ونَنْزِلُ على حَكم الخَصْم ، مع سَرَفه ومَيْطه ، فنقول[١] :

لَمَّا وجدنا مَن يزعم أَنَّ خبَّاباً وزيد أسلما قبلَه ، فأوسطُ الأُمور[٢] وأعدلُها وأقربها من محبَّة الجميع ورِضى المخالِف، أَن نَجْعَل[٣] إسلامَهم كان معاً، إذ ادَّعَوْا[٤] أنَّ الأَخبارَ فى ذلك متكافئة، والآثار متدافِعة ؛ وليس فى الأَشعار دَلالةٌ ، ولا فى الأَمثال حُجَّة . ولم يجدوا إحدى القضيَّتين أَولى فى حُجَّة العَقْل من الأُخرى .

وقالوا : فإن قال لنا قائِلٌ : فما بالُكم لم تذكروا عليًّا فى هذهِ الطَّبقة ، وقد تعلمون كثرةَ مقدِّميه والرِّوايةِ فيه ؟

قلنا : لأَنَّا قد علِمنا بالوجه الصحيح ، والشهادة القائِمة أَنَّه أَسلم وهو حَدَثٌ غرير ، ولم نكذِّب النَّاقلين[٥] . ولم نَستطِع أَن نَزْعُم أَنَّ إسلامه كان لاحِقاً[٦] بإسلام البالغين؛ لأَنَّ المقلِّل زعم أَنَّه أَسلم وهو ابن خمس سنين ، والمكثِّر زعم أَنه أَسلم وهو ابنُ تسعِ سنين[٧] ، والقياس يوجب أَن يؤخذ بأَوسط الرِّوايتين ، وبالأَمْر بينَ الأَمرين[٨] . وإنَّما يُعرف حقُّ ذلك مِن باطله بأَن تحصىَ سنِيهِ[٩] التى وَلِىَ فيها ، وسِنِى عثمان ، وسِنِى أَبى بكر ، وسِنِى الهجرةِ ومُقامِ النبى صلى الله عليه وسلم بمكَّة ، بعد أَن دعا إلى الله وإلى رسالته ، وإلى أن هاجر إلى المدينة ، ثم

---

(١) الميط : الكذب . وفى النسختين : « فيقول » ، صوابه فى ع .
(٢) فى النسختين : « وأوسط الأمور » ، والوجه من ع .
(٣) فى النسختين : « أن تجعل » ، تحريف .
(٤) كلمة « إذ » ساقطة ، وإثباتها من ع .
(٥) فى النسختين : « ولم يكذب الناقلين » صوابه فى ع .
(٦) فى النسختين: « ولم يستطع أن يزعم إن إسلامه كان لاحق » ، تحريف ما أثبت من ع .
(٧) ب : « لأن المقلل زعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين » فقط . وإكماله من م و ع .
(٨) فى النسختين : « من الأمرين » ، صوابه فى ع .
(٩) ب فقط : « سنته » تحريف .

تنظر فى أقاويل النَّاس فى عمره ، وفى قول المقلِّل والمكثِّر ، فتأْخذ بأَوسطها[١] ، وهو أَعدلُها ، وتطرح قول[٢] المقصِّر والغالى ، ثم تطرح ما حصل فى يديك من أَوسط[٣] مارُوِى من عُمره وسِنِيه ، وسِنِى عثمان ، وسِنِى عمر ، وسِنِى أَبى بكر ، والهجرةِ ، ومُقامِ النبى صلى الله عليه وسلمَ بمكَّة ، إلى وقت إسلامه . فإذا فعلْتَ وجدتَ الأَمرَ على ماقُلْنا ، وكما فسرّنا .

وهذه التأْريخات والأَعمار معروفةٌ ، لا يستطيع أَحدٌ جهلَها ، والخلافَ عليها ؛ لأَنَّ الذين نقلوا التاريخَ لم يعتمدوا[٤] تفضيل بعضٍ على بعض ، وليس يمكن ذلك ، مع عللهم وأسبابهم[٥] . فإذا ثبتَ عندك بالذى أَوضحنا وشَرَحْنا ، أَنَّه كان ابنَ سبْع سنين ، أَقلَّ بسنة وأَكثر بسنة[٦] علمتَ بذلك أَنَّه لو كان ابنَ أَكثر من ذلك بسنتين وثلاث وأَربع ، لا يكون إسلامه إسلامَ المكلَّف[٧] العارف بفضيلة مادَخَل فيه ، ونقصان ماخرج منه .

والتأْويلُ المجمَعُ عليه أَنَّ عليًّا قُتِلَ سنةَ أَربعين فى رمضان .

وقالوا : وإن قالوا : فلعلَّه وهو ابنُ سبع سنينَ وثمانٍ ، فقد بلغَ من فِطنته وذكائه ، وصِحَّةِ لُبِّه ، وصِدق حسِّه[٨] ، وانكشاف العواقب

(١) ع : « أوسطها » .
(٢) قول ، ساقطة من ب .
(٣) فى النسختين : « ما أوسطها » ، صوابه فى ع .
(٤) م ، ع : « لم يتعمدوا » .
(٥) ب : « وأسنانهم » م: «وأسنانهم» ، صوابه فى ع . وجعلها تيمور فى نسخته : « وأسنادهم » .
(٦) فى النسختين : « وأقل سنيه وأكثر سنيه » ، والوجه ما أثبت من ع .
(٧) م : « ولا يكون » والواو مقحمة ، وكلمة « إسلام » ساقطة من النسختين ، وأثبتها تيمور فى نسخته كما فى ع .
(٨) فى النسختين : « حسنه » ، صوابه فى ع .

له ، وإن لم يكن جرَّب الأُمورَ ، ولا فاتَحَ الرجال ، ولا نازَعَ الخُصومَ ، [أنْ(١)] يعرف جميع(٢) مايُجب على البالغ معرفته والإقرارُ به .

قلنا : إنَّما نتكلَّم(٣) على ظاهر الأَحكام ، وما شاهدنا عليه طِباعَ الأَطفال ، فوجدنَا حكم ابنِ سبع سنينَ وثمانِ سنين ، وتسعِ سنين ، حيث رأيناه وبلغَنا خَبرُه ـ ما لم نعلم مُغيَّبَ أَمْرِه(٤) ، وخاصَّة طباعه ـ حكمَ الأَطفال . وليس لنا أَن نزيل ظاهر حكمه ، والذى نعرف من شكله بلعلَّ وعسى ، لأَنَّا كنا لاندرى(٥) ، لعلَّه قد كان ذا فضيلةٍ فى الفطنة ، فلعلَّه قد كان ذا نقصٍ فيها . أَجاب منهم بهذا الجواب من يجوِّز أَن يكون علىٌّ فى المغيَّب(٦) قد أَسلمِ إسلام البالغ المختار . غير أَنَّ الحكم فيه عنده على مجرى أَمثالِه وأَشكاله ، الذين إذا اسلموا وهم فى مثل سنِّه ، كان إسلامُهم عن تربيةِ الحاضِن ، وتلقين القيِّم ، ورياضة السَّائس .

فأَمَّا علماءُ العثمانيَّة ومتكلِّموهم ، وأَهل القَدَم والرِّياسة فيهم ، فإنَّهم قالوا : إنَّ علياً لو كان ، وهو ابنُ ستٍّ سنين، وثمانِ سنين، وتسعِ سنين ، يعرف فصْل(٧) ما بين الأَنبياءِ والكهنة ، وفَرْقَ مابين الرُّسل والسَّحرَة ، وفَرْقَ ما بين المنجِّم والنبىِّ ، وحتَّى يعرف الحُجَّة من الحيلة ، وقَهْرَ الغلبة من قهر المعرفة ، ويعرف كَيْدَ الأَريبِ ، وبُعْدَ غَور المتنبِّى ،

---

(١) تكملة يفتقر إليها الكلام . وبدلها فى ع : « ما يعرف » .

(٢) كلمة « جميع » ساقطة من ب . وفى م بعدها : « ما وجب »

(٣) ب : « إنما يتكلم به » م : « إنما يتكلم » ، وأثبت مافى ع .

(٤) فى النسختين : « ما نعلم مغيب أمره » ، والوجه ما أثبت من ع .

(٥) م فقط : « كنا لا ندرى » .

(٦) ب : « على فعل المغيب » صوابه فى م ، ع .

(٧) فى النسختين : « فضل » بالضاد المعجمة ، والأوفق أن تكون بالمهملة ، كما فى ع .

وكيف يَلْبِسُ على العقلاءِ[١] ويَستميل عُقول الدَّهماءِ ، ويعرف الممكن[٢] فى الطباع من الممتنع فيها ، وما قد يحدث[٣] بالاتفاق مما يحدث بالأَسباب ، ويعرف أَقدارَ القُوى فى مبلغ الحيلة ومُنتَهى البطش وما لا يحتمل إحداثَه إلَّا الخالق ، وما يجوز على الله ممَّا لا يجوز فى توحيده وعدله ، وكيف التحفُّظ من الهوى ، وكيف الاحتراسُ من تقدُّم الخادع فى الحيلة – كان كونُه بهذه الحالِ وهذهِ الصفة[٤] ، مع فرط الصِّبا والحَدَاثة ، وقلَّة التَّجارِب والممارسة ، خروجاً من نُشوّ العادة[٥] ، والمعروفِ مما عليه تركيبُ الأُمَّة .

ولو كان على هذه الصِّفة ، ومع هذه الخاصَّة ، كان حجَّة على العامَّة وآيةً تدلُّ على المباينة[٦] . ولم يكن الله تعالى ليخصَّه بمثل هذه الآيةِ ، وبمثل هذه الأُعجوبة إلاَّ وهو يريد أَنْ يحتجَّ بها لهُ ، ويخبر بها عنه[٧] ، ويجعلَها[٨] قاطعةً لعذر الشاهد، وحُجَّة الغائب، ولا يُضِيعَها هَدَراً ، ولا يكتمها باطلا[٩] .

ولو أَراد الاحتجاج له بها[١٠] شهر أَمرَها[١١] وكشف قِناعَها، وحَمَل

---

(١) يقال لبست الأمر على القوم ألبسه لبساً ، إذا شبهته عليهم وجعلته مشكلا . وفى الكتاب العزيز : « وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

(٢) فى النسختين : « المتمكن » ، والوجه ما أثبت من ع .

(٣) كلمة « ما » ساقطة من النسختين ، ثابتة فى ع .

(٤) ب فقط : « العفة » ، تحريف .

(٥) ع : « نشوء العادة » .

(٦) فى النسختين : « وأنه يدل على المباينة » ، صوابه فى ع .

(٧) ب : « أن يحتج لها ويخبر لها عنه » ، صوابه فى م ، ع .

(٨) ب : « ويجعله » ، تحريف .

(٩) ب ، م : « ولا يكتبها باطلا » . وأثبت ما فى ع .

(١٠) ب : « له لها » ، صوابه فى م ، ع .

(١١) فى النسختين : « شهر بأمرها » ، تحريف .

النفوسَ على معرفتها ، وسَخَّر الألسنة لنقلها . والأسماعَ لإدراكها ، لئلاَّ يكون لَغْوًا ساقطاً ، ونِسياً منسيًّا ؛ لأَنَّ الله تعالى لا يبتدع أُعجوبةً ، ولا يخترع آية ، ولا ينقضُ العادةَ إلَّا للتعريف والإعذار ، والمصلحةِ والاستبصار . ولولا ذلك لم يكن لفعلها معنًى ، ولا لرسالته حجّة . والله تبارك اسمه ، تعالَى[١] أن يترك الأُمورَ سُدًى ، والتَّدبيرَ نَشراً .

وأنتم تزعمون أنَّه لايصل أحدٌ إلى معرفة نبيٍّ ، وكَذِب مُتَنَبِّيءٍ ، حتى تجتمع له هذه المعارفُ التى ذكرنا ، والأَسبابُ التى فصَّلنا .

ولولا أَنَّ الله تعالى أَخبَرَ عن يحيي بنِ زكريًّا أَنَّه آتاه الحُكْمَ صبيًّا ، وأَنَّه أنطق عيسى فى المَهْد رضيعاً ، ما كانا فى الحُكم إلَّا كسائر البشر[٢] فإذْ لم ينطق لعليٍّ [بذلك[٣]] ، ولا جاءَ الخبر به مجيءَ الحُجَّة القاطعة والشَّهادةِ الصَّادقة ، فالمعلوم عندنا فى الحكم والمُغيَّبِ جميعاً أَنَّ طباعَه كطباع عَمَّيه العبّاسِ وحَمزة . وهما أَمَسُّ[٤] بمعدِن جميعِ الخير منه ، وكطباع أَخوَيهِ جعفرٍ وعَقيل ، وكطباع أَبوَيهِ ورجالِ عَصْره وسادةِ رهطه .

ولو أَنَّ إنساناً ادَّعى مثلَ ذلك لأَخيه جعفرٍ ، أَو لعمِّه حمزةَ أَو العبَّاسِ – وهو حليمُ قريش – ماكان عندنا فى أَمره إلَّا مثلُ ماعندنا فيه.

ولو لم تعلم[٥] الرَّوافضُ ومنَ يذهب مذهبَها فى هذا ، باطلَ هذه الدَّعوى ، وفسادَ هذا المعنى ، إذا صَدَقَتْ نفسها ، ولم تقلِّدْ رجالَها ،

---

(١) فى النسختين : « وتعالى » . والوجه حذف الواو كما سيأتى فى ص ٤٢ س ٤ . ع : « والله يتعالى » .

(٢) ع : « ما كانا فى الحكم ولا فى المغيب إلا كسائر الرسل » .

(٣) بذلك ، تكلة من ع .

(٤) فى النسختين : « أمنين » ، صوابه من ع .

(٥) فى النسختين : « تعمل » ، وجهها ما أثبت . وفى ع : « تعرف » .

وتَحفَّظت من الهوى وآثرت التَّقوى، إلَّا بتركِ علىٌّ – رضوان الله عليه – ذِكْرَ ذلك لنفسه ، والاحتجاجَ على خصمه وأهلِ دهره ، مُذْ نازَعَ الرجال[١] ، وخاصَمَ الأَكفاءَ ، وجامَعَ أهلَ الشُّورى ، وَلىَ وَوُلِىَ عليه ، والنَّاس [بين[٢]] معاند يحتاجُ إلى التَّقريع ، ومرتادٍ يحتاج إلى المادَّة[٣] ، وغُفْل يحتاج[٤] إلى أن يُكثَرَ له من الحجَّة ، ويُتابَعَ له من الأَمارات والدَّلالات ، مع حاجةِ القرن الثانى إلى معرفة الحقّ[٥] ومعدنِ الأَمر؛ لأَنَّ الحجَّة إذا لم تصحّ لعلىٍّ فى نفسِه ، ولم تقم على أهلِ دهره ، فهى[٦] عن ولده أَعجَز ، وعنهم أَضعف .

ثم لم ينقلْ ناقلٌ واحدٌ أَنَّ عليًّا احْتَجَّ بذلك فى موقف ، ولا ذكره فى مجلس ، ولا قام به خطيباً ، ولا أدلَى به واثقاً ، ولا همس به إلى مُوافِق[٧] ، ولا احْتَجَّ به على مخالف ، فقد ذكر فضائلَهُ وفَخَر بقَرَابتِهِ وسابقته ، وكاثَرَ بمحاسنِه[٨] ومواقِفه مُذْ جامَع الشُّورى وناضَلَهم ، إلى أن ابتُلِىَ بمساورة معاوية وطمعِهِ فيه ، وجلوسِ أكثرِ أصحابِ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأهلِه عن عونه . والشدِّ على عَضُده، كما قال عامرٌ الشَّعبى : لقد وقَعت الفِتنةُ ، وبالمدينة عشرون ألفاً من أَصحاب رسولِ الله ، ماخَفَّ فيها منهم عشرون . ومن زَعَم أنَّه شهِدَ الجملَ ممَّن

---

(١) فى النسختين : « بارع » ، صوابه فى ع .

(٢) التكملة من ع .

(٣) ع : « ومراد يحتاج إلى الإرشاد » .

(٤) الغفل ، بالضم : الذى لم يجرب الأمور » . وفى النسختين : « وعقل لا يحتاج » ، صوابه من ع .

(٥) ب : « لمعرفة الحق أو الحق » م : « لمعرفة الحق أو لمعرفة الحق » ، وهو تكرار لا وجه له .

(٦) فى النسختين : « فهو » ، والصواب من ع .

(٧) هذا الصواب فى ع ، وهو الذى يلائم « مخالف » ، وفى النسختين : « مرافق » بالراء .

(٨) فى النسختين : « محاسنه » والوجه فى ع .

شهد بدراً أكثرُ من أربعةٍ فقد كذب ، كان عليٌّ وعمّارٌ فى شِقّ ، وطلحةُ والزُّبير فى شِقّ .

وكيف يجوز عليه تركُ الاحتجاجِ ، وتشجيعُ الموافق وقد نَصب نفسَه للخاصّة والعامّة وللمَولَى والمُعادى[١] ومَن لا يحلُّ له فى دينه تركُ[٢] الإعذار إليهم ، إذْ كان يرى أنَّ قتالَهم كان واجباً ، وقد نصبَه الرَّسُول مَفْزَعا[٣] ومَعْلَما ، ونصَّ عليه قائماً ، وجعله للنَّاسِ إماماً ، وأوجبَ طاعته ، وجعله حُجَّةً فى الناس ، يقوم مَقامه .

وأعجبُ من ذلك أنَّه لم يَدَّعِ هذا له أحدٌ فى دهره كما لم يدَّعِهِ لِنفسه[٤] ، مع عظيمِ ماقالوا فيه فى عسكره ، وبعد وفاته ، حتَّى يقولَ إنسانٌ واحدٌ : إنَّ الدليل على إقامته[٥] أنَّ النبى – صلى الله عليه وسلم – دعاهُ إلى الإسلام ، فكُلِّفَ التَّصْديقَ[٦] قبل بلوغه وإدراكه ، ليكون ذلك آيةً له فى عصْره ، وحُجّةً له ولولده على مَنْ بعده .

وقد كان عليٌّ أَعلمَ بالأُمور من أن يدعَ ذكر أكثَرِ حُججه والذى بانَ بهِ من شكله ، ويذكرَ أصغر حُججه ، والذى يشاكله فيه غيره[٧] .

وقد كان فى عسكره من لا يألو[٨] فى الإفراط ، زيادةً فى القدر[٩] .

---

(١) ع : « وللخاذل والعادى » .

(٢) ب فقط : « وترك » ، والواو مقحمة :

(٣) مفزعاً : يفزع إليه عند الحاجة إذا دهم الأمر . وفى النسختين : « مفرعاً »، صوابه فى ع .

(٤) هذا مافى ع . وفى النسختين : « بنفسه » .

(٥) أى إقامته إماماً . والذى فى ع : « إمامته » .

(٦) ب فقط : « فكلفه التصديق » .

(٧) ع : « والذى يشاركه فيه غيره » .

(٨) ب : « يلوا » ، صوابه فى م ، ع .

(٩) ع : « من لا يألو فى الإفراط ، ومن يحسب أن الإفراط زيادة فى القدر » .

والعجب له – إن كان الأمر على ماذكرتم – كيف لم يقِفْ يومَ الجمَل . أو يوم صِفِّينَ ، أو يومَ النهر[١] ، فى موقفٍ يكون فيه من عدوِّه بمرأى ومَسمعٍ فيقول : « تبًّا لكم وتعساً ! كيف تقاتلونى[٢] ، وتجحدونَ فضيلتى ، وقد خُصِصْتُ بآية ، حتّى كنت كيحيى بن زكريّا ، وعيسى بن مريم » فلا يمتنع النَّاس من أن يَمُوجوا ، فإذا ماجُوا تكلَّموا على أقدار عللهم[٣] ، وعِلَلُهُم مختلفة ، فلا يثبت أمرهم[٤] أن يعود إلى فُرقة ، فمِنْ ذاكرٍ[٥] قد كان ناسياً ، ومن نازعٍ قد كان مُصِرًّا[٦] ، ومن مترنِّح قد كان غالطاً ، مع ما كان يشيع من الحُجَّة فى الآفاق ، ويَستفيض فى الأطراف ، وتَحمِلُه الرُّكبان ، ويُتَهَادى فى المجالس[٧] . فهذا كان أشدَّ على طلحةَ والزُّبير وعائشة ، ومعاوية ، وعبدِ الله بن وهب ، من مائةِ ألفِ سنانٍ طريرٍ وسيفٍ شهيرٍ[٨] .

ومعلومٌ عند ذَوى التَّجربةِ والعارفين بطبائِع الأَتباع وعلل الأجناد[٩] أنَّ العساكر تنتقضُ مرائرها،وينتشر أمرها،وتنقلب على قائدها[١٠] بأَيسَرَ من هذه الحجة وأخفَى من هذه الشَّهادة .

---

(١) يوم النهر أو النهروان : وقعة مشهورة لأمير المؤمنين على بن أبى طالب مع الخوارج فى سنة ٣٧ . انظر خبرها فى الطبرى ٥ : ٧٢ – ٩٢ والعقد ٤ : ٣٥١ .

(٢) بحذف إحدى النونين : نون الرفع أو نون الوقاية ، وهو مبحث نحوى .

(٣) ب فقط : « قدر عللهم » .

(٤) ع : « ولا ينشب أمرهم » .

(٥) ب فقط : « فمن ذكر » ، تحريف .

(٦) ب فقط : « مضراً » ، تحريف . ونزع عن الأمر : كف ورجع .

(٧) فى النسختين : « وتهادى فى المجالس » ، تحريف .

(٨) ع : « مشهور » . شهر السيف : سله من غمده .

(٩) فى النسختين : « الأحاد » ، صوابه فى ع .

(١٠) فى النسختين : « ويتقلب »، صوابه فى ع. وفى ب : « على تايدها »، صوابه فى م . وفى ع : « قادتها » .

وقد علمتم ماصنعت المصاحفُ فى طبائع أصحاب علىٍّ رضوان الله عليه ، حين رفَعَها عَمرٌو أشدَّ ماكان أصحابُ علىٍّ استبصاراً فى قتالهم ، ثم لم ينتقضْ على علىٍّ من أصحابه إلَّا أهل الجِدِّ والنَّجدة ، وأصحابُ البرانس والبصيرة[(١)] .

وكما علمتَ[(٢)] من تحوُّل شَطْرِ عسكرِ عبد الله بن وهبٍ حين اعتزلوا مع فَرْوةَ بن نَوفل[(٣)] لكلمةٍ سمعوها من عبد الله بن وهب كانت تدلُّ عِندهم على ضَعف الاستبصار ، والوَهَن فى اليقين .

وهذا البابُ أكثَرُ من أن يَحتاج – مع ظهورِه ، ومعرفةِ الناس له – إلى أن نحشُوَ به كتابنا[(٤)] .

فأمَّا إسلامُه وهو حدَثٌ غَرير ، وصبيٌّ صغير ، فهذا ما ندفعه ؛ غير أنَّه إسلامُ تأْديبٍ وتلقين وتربية . وبين إسلام التكليف والامتحان[(٥)] ، وبين التلقين والتربية ، فرقٌ عظيم ، ومَحجَّةٌ واضحة .

وقالت العثمانية : إنْ قالت الشِّيَعُ : إنَّ الأمر ليس كما حكيتم ولا كما هَيَّأتموه لأنفسكم ، بل نزعُم أنَّه قد كانت هنالك فى أيَّام حداثته وصِباه فضيلةٌ ومزيدُ ذكاءٍ[(٦)] ، ولم يَبلغْ الأمر[(٧)] حدَّ الأُعجوبة والآية ، قلنا : إنَّ

---

(١) هذا مافى ع . وفى النسختين : « أصحاب المراس » . وانظر العقد ٤ : ٣٥١ ففيه : « إن علياً لما اختلف عليه أهل النهروان والقرى وأصحاب البرانس » . الجوهرى : البرنس : قلنسوة طويلة ، وكان النساك يلبسونها فى صدر الإسلام . وانظر لسان العرب (برنس) .

(٢) ع : « وكما علمتم » .

(٣) فروة بن نوفل الأشجعى ، ذكره ابن حبان فى الصحابة ثم توقف فيه . وقال ابن شاهين : لاتصح له صحبه . وقال أبوحاتم : إنما الصحبة لأبيه . قال المرزبانى : كان رئيس الشراة . الإصابة ٧٠٢٣ .

(٤) هذا مافى ع . وفى النسختين : « نحشو كتابنا » .

(٥) ب فقط : « وبين إسلام التكليف وبين الامتحان » .

(٦) ع : « ومزية ذكاء » .

(٧) فى النسختين : ولم يبلغ إلا من » ، وهو تحريف واضح ، صوابه فى ع .

الذى ذهبتم إليه ـ أيضاً ـ لابدْ فيه من أحد وجهين : إمَّا أن يكون قد كان لا يزال يُوجَد فى الصِّبيانِ مثلُه فى الفطنةِ والذَّكاء ، وإن كان ذلك عزيزاً قليلا ، وكان وجودُ ذلك ممتنعاً ، ومن العادة خارجاً . فإذا كان قد يوجَد مثله ـ على عزَّته وقلَّته ـ فما كان إلاَّ كبعض مَن نَرى اليومَ ممَّن يُتعجَّب من كَيْسه وفطنته[1] ، وحفظه وحكايته ، وسُرعَةِ قبوله، على صغَر سنِّه ، وقلَّة تجربته . فإن كانت حاله هذه الحالَ، وطبقتُه على هذا المثالِ ، فإنَّا لم نجدْ صبيًّا قطُّ وإن أفرط كَيسُه ، وحسنَت فطنته ، وأعجب به أهله يحتمل ولايةَ الله وعداوتَه ، والتمييزَ بين الأُمور التى ذكرْنا . مع أنَّه ما جاءَنا ولا جاءَ عند أحدٍ منَّا بخبرٍ صادقٍ، ولا كتابٍ ناطق ، أنَّه قد كان لعلىٍّ خاصَّةً ، دون قريشٍ عامَّةً ، فى صباه ، من إتقان الأُمور ، وصحَّة المعارف ، وجَودة المخارج ، مالم يكن لأَحَدٍ من إخوته ، وعُمومته وآبائه .

وإن كان القدرُ الذى كان عليه علىٌّ من المعرفة والذكاء القدرَ الذى لا نَجِد له فيه مثلاً[2] ، ولا رأينا له شِكلاً[3] ، فهذا هو البديع الذى يحتجُّ به على المنكرين[4] ، ويُفْلَج على المعارضين[5] ، ويُبيَّن[6] للمسترشدين . وهذا بابٌ قد فرغنا منه مرّة .

---

(١) فى النسختين : « من كسبه وفطنته » ، والصواب ما أثبت . وفى ع : « من حسه وفطنته » .

(٢) ب : « والذكاء الذى لا يجد له فيه مثيلا » ، تحريف .

(٣) فى النسختين : « ولان أماله لشكلا » ، صوابه فى ع .

(٤) هذا ما فى ع . وفى النسختين : « المنكر » .

(٥) الفلج : الفوز والظفر . وفى النسختين : « يفلح » بالحاء المهملة ، صوابه فى ع .

(٦) ب : « وتبين » م : « ونبين » ، صوابهما فى ع .

ولو كان الأمر فى علىٍّ كما يقولون لكان ذلك حجّة للرّسول فى رسالته[(١)] ولعلىٍّ فى إمامته[(٢)] .

والآيةُ إذا كانت للرسولِ وخليفةِ الرسول كان أشهرَ لها ؛ لأنَّ وضوح أمرِ الرّسول يزيد[(٣)] على ما للإمام ، ويزيده إشراقاً واستنارةً وبياناً .

ولا يجوز أن يكون الله تعالى قد عرَّف أهلَ عصرهما ذلك، وهم الشُّهداءُ على من بعدهم من القرون ، ثم أسقَطَ حجّتَه[(٤)] . فلا تخلو تلك الحجّة ، وتلك الشهادة من ضربين : إما أن تكون[(٥)] ضاعت وضلَّتْ ، وإما أن تكون[(٦)] قد قامت وظهرت . فإن كانت قد ضاعت فلعلَّ كثيراً من حُجج الرسول قد ضاع . وما جَعَل الباقىَ أولَى بالتّمام من السّاقطِ ، والسّاقطُ من شكل الثّابت ، لأنَّه حُجّةٌ على شيئين ، والثابت حُجّة على شىء . ولا يخلو أمر السّاقط من ضربين : إمّا أن يكون الله – تبارك وتعالى – لم يُرِدْ تَمامَهُ ، أو يكون[(٧)] قد أراده . وأىٌّ هذين كانَ ، ففساده واضح[(٨)] عند قارئ الكتاب ، وإن كانت الآية فيه قد تمّت ؛ إذ كانت الشهادة قد قامت علينا بها ، كما كانت شهادةُ العيان قائمةً عليهم فيها[(٩)] . فليس فى الأرض عثمانىٌّ إلّا وهو يُكابر عقله ، ويجحد علمه .

(١) فى رسالته ، ساقطة من ب .
(٢) هذا ما فى ع . وفى النسختين : « فى إقامته » .
(٣) هذا مافى ع . وفى النسختين : « يرى » ، تحريف .
(٤) ع : « ثم يسقط حجته » .
(٥) فى النسختين : « يكون » ، صوابه فى ع .
(٦) م فقط : « يكون » .
(٧) فى النسختين : « ويكون » ، صوابه فى ع .
(٨) ب فقط : « فساده واضح » ، تحريف .
(٩) هذا الصواب من م ، ع . وفى ب : « إذا كانت شهادة العيان قائمة عليهم فيها » ، وهو نقص وتحريف .

ولعمرى ، إنَّا لنجد[١] فى الصِّبيان من لَو لقَّنته[٢] ، أوْ كتبتَ له أغمض المعانى وألطفها ، وأغمضَ الحُجج وأبعدَها ، وأكثرَها لفظًا وأطولَها ، ثمّ أخذتَه بدَرْسِه وحِفظه لحفظِه حفظاً عجيباً ، ولهذّه هذًّا ذليقا[٣] .

فأمَّا معرفة صحيحهِ من سقيمه ، وحقّه من باطله ، وفَصْلُ ما بين المُقَرِّ بهِ والدَّليل ، والاحتراسُ من حَيْثُ يؤتى المخدوعون[٤] ، والتحفُّظ من مكر الخادعين ، وتـأَتِّى المجرِّب[٥] ، ورِفق السّاحر[٦] ، وخلابةِ المتنبِّىء[٧] ، وزَجْرِ الكهان ، وأخبار المنجمين . وفَرْقِ مابين نَظْمِ القرآن وتـأليفه ، فليس يعرف فروق النَّظم ، واختلاف البحث والنَّثْر[٨] إلّا مَن عرف القصيدَ من الرَّجز ، والمخمَّس من الأسجاع ، والمزدَوِج[٩] من المنثور ، والخُطَب من الرَّسائِل ، وحتَّى يعرف العَجْز العارض الذى يجوز ارتفاعُه ، مِن العجز الذى هو صفة فى الذَّات .

فإذا عَرف صُنوفَ التـأْليف عَرَفَ مباينةَ نظْمِ القرآنِ لسائرِ الكلام ثم لا يكتفى بذلك حتَّى يعرف عجزَه وعجْزَ أمثالِه عن مثله ، وأنَّ حُكْم البشرِ حكمٌ واحد فى العجز الطبيعىّ ، وإن تفاوَتُوا فى العجز العارض .

---

(١) ب فقط : « لا نجد » ، تحريف .

(٢) ع : « من لو لقنته وسددته » .

(٣) يقال هذ القرآن والحديث هذا : سرده . والذليق : الفصيح . وفى ب : « لهذه هذا ذليقاً » ، صوابه فى م ، ع .

(٤) فى النسختين : « من خبث يؤتى المخدوعين » ، صوابه فى ع .

(٥) الأصمعى : تأتى فلان لحاجته ، إذا ترفق لها وأتاها من وجهها . وفى النسختين : « ويأتى المجرب » . وفى أصل ع : « وماتى المجرب » بإهمال التاء من النقط . صوابه ما أثبت .

(٦) فى النسختين : « وسحر رفق الساحر » ، صوابه فى ع .

(٧) هذا الصواب فى ع . وفى النسختين : « المتنى » ، تحريف .

(٨) ع : « فروق النظر والاختلاف فى البحث » .

(٩) ب فقط : « بالذات » .

وهذا مالا يُوجَد عند صبيٍّ ابنِ تسع سنين ، أو ثمان سنين ، أوسبع سنينَ أبداً ، عَرَفَ ذلك عارفٌ أو جَهِله جاهل .

ولا يجوز أن يعرف عارفٌ معنى الرسالة إلّا بعد الفراغ من هذه الوجوه ، إلاّ أن يَجْعَلَ جاعلٌ التقليدَ والنشوَّ[١] والإلفَ لما عليه الآباءُ ، وتعظيمَ الكبراءِ معرفةً ويقيناً .

وليس بيقينٍ ما اضطربَ ، ودَخَله الخِلاجُ [عند[٢]] ورودِ معانى لعلَّ وعسى ، ممَّا لا يمكن فى المعقول[٣] إلاَّ بحجَّةٍ تُخْرِج[٤] القلبَ إلى اليقين عن التجويز .

ولقد أعيانا أنْ نجد هذه المعرفَةَ إلاَّ فى الخاصِّ من الرِّجال وأهل الكمال فى الأدب ؛ فكيف بالطِّفل الصَّغير ، والحدَث الغرير ! مع أنَّك لو أدَرْتَ[٥] معانِيَ بعضِ ما وُصِف لك[٦] على أذكى صبيٍّ فى الأرض ، وأسَرعِهِ قَبولًا وأحسنه حكايةً وبياناً ، وقد سوَّيته له ودَلَّلته[٧] ، وقرَّبته منه ، وكفيتَه مؤونة الرَّوِيَّة ، ووَحْشة الفِكرة ، لم يعرف قَدْره ، ولا فَصَلَ[٨] حقَّه من باطِله ، ولا فَرَق بين الدَّلالة وشبيهِ الدَّلالة . فكيف له بأن يكون[٩] هو المتولِّيَ لتجربته وحلِّ عَقْده وتخليص متشابِهه[١٠] ، واستثارته من معدِنه ؟

---

(١) النشو ، أى النشوء ، يعنى به أثر المنشأ . وفى النسختين : « البشر » ، صوابه فى ع .
(٢) التكملة من ع .
(٣) ع : « فى العقول » .
(٤) هذا ما فى ع . وفى النسختين : « لحجة تحوج » ، تحريف .
(٥) فى النسختين : « أردت » ، صوابه فى ع .
(٦) ع : « ما وصفت لك » .
(٧) وكذا فى ع . ولعلها : « ذللته » ، أى يسرته له تيسيرا .
(٨) فى النسختين : « فضل » بالضاد المعجمة ، تحريف .
(٩) ب فقط : « أن يكون » .
(١٠) فى النسختين : « وتلخيص مشابهه » ، صوابه فى ع .

وكُلُّ كلامٍ خرج من التَّعارُف فهو رجيعٌ بَهرجٌ ، ولغوٌ ساقط .

وقد نجد الصبيَّ الذكيَّ يَعرِف من العَرُوض وجهاً ، ومن النَّحْو صدرًا ، ومن الفرائِض أبواباً ، ومن الغناءِ أَصواتاً . فأَمَّا العلمُ بأُصول الأَديانِ ، ومَخارج الملل[١] وتأْويلِ الدِّين ، والتحفُّظ من البِدَع ، وقَبْلَ ذلك الكلامُ فى حُجج العقول ، والتعديل والتجوير[٢] ، والعلمُ بالأَخبار وتقدير الأَشكال ، فليس هذا موجودًا إلَّا عند العلماءِ . فأَمَّا الحَشْوُ والطَّغامُ[٣] ، فإِنَّما هم أَداةٌ للقادة ، وجَوارحُ للسَّادة[٤] ؛

وإِنَّما يعرف شدَّة الكلام فى أُصول الأَديان مَنْ قد صَلِىَ به، وسال فى مضايِقِه[٥] ، وجاثَى الأَضداد[٦] ونازَع الأَكْفاءَ .

٢ — فصــل منه[٧]

وقد علمتم ماصنع أَبو بكر فى مالِه ، وكان المالُ أَربعين أَلفاً ، فأَنفقَه على نوائب الإِسلام وحُقوقه ، ولم يكن مالُه ميراثاً لم يكدَّ فيه ، فهو غَزيرٌ[٨] لا يشعر بعُسْر اجتماعه ، وامتناع رُجوعه ، ولا كان هبةَ

(١) فى النسختين : « الملك » ، صوابه فى ع .
(٢) فى النسختين : « التجويد » ، صوابه فى ع .
(٣) الحشو من الناس ، بفتح الحاء ، والحشوة بضمها : الرذال منهم ومن لا يعتمد عليه . ومثله الطغام ، بالفتح .
(٤) أى بمنزلة الجوارح من البدن . وجوارح الإنسان : أعضاؤه وعوامل جسده ، كيديه ورجليه ، لأنهن يجرحن الخير والشر ، أى يكسبنه . وفى النسختين : « خوارج » ، صوابه فى ع . وسيأتى فى أوائل الفصل الرابع : « ومقام العامة من الخاصة مقام جوارح الإنسان من من الإنسان » .
(٥) ع : « وسلك فى مضايقه » .
(٦) جاثاه : جلس معه على ركبتيه للخصومة . وفى النسختين : « وحاثى » ، صوابها بالجيم كما فى ع .
(٧) انظر العثمانية ٣٥ .
(٨) فى النسختين : « غرير » براءين ، صوابه فى ع .

ملكٍ[١] فيكون أسمح لطبيعته ، وأخرقَ فى إنفاقه [٢] ، بل كان ثمرةَ كدِّه وكَسْبَ جَوَلانه وتعرُّضِه .

ثمَّ[٣] لم يكن خفيفَ الظَّهر ، قليلَ النَّسل ، قليلَ العِيال ، فيكونَ قد جمع اليَسارَيْن ؛ لأنَّ المثلَ الصحيح السَّائِرَ المَعْنَى : « قِلَّةُ العيالِ أَحَدُ اليَسارَيْن » ، بل كان ذا بنينَ وبناتٍ وزوجةٍ ، وخَدَمٍ وحَشَمٍ ، يَعُولُ[٤] مع ذلك أبويه وما ولدَا . ولم يكن فتًى حدثًا فتهزَّه أَريحيَّة الشباب ، وغَرارة الحداثة . ولم يكن بحذاءِ إنفاقهِ طمعٌ يَدعُوه ، ولا رغبةٌ تَحْدوه .

ولم يكن للنبيِّ صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يدٌ مشهورة فيخافَ العارَ فى ترك مواساته ، وإنفاقِه عليه ، ولا كان من رهطه دُنْيَا[٥] فيسبّ بترك مكانفته[٦] ومعاونته وإرفاقه . فكان إنفاقُه على الوجه الذى لايجد أبلغ فى غايةِ الفضل منه ، ولا أدلّ على غاية البصيرة منه[٧] .

وقد تعلمون ما كان يلقَى أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم ببطن مكَّة من المشركين ، وقد تعلمون حُسْنَ صنيعِ كثيرٍ منهم ، كصنيع حمزةَ حين ضَرب أبا جهلٍ بقَوسه ، فبلغ فى هامته ، فى نصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأبو جهل يومئذٍ أمنع أهلِ البطحاء[٨] ، وهو رأسُ الكفر .

(١) فى النسختين : « هيئة ملك » ، وصحته فى ع .

(٢) أخرق ، من الخرق ، بالضم وبالتحريك ، وهو ضد الرفق . والمخراق : الكريم السخى ، كالخرق بالكسر . ب : « وأحذق » ، صوابه فى م ، ع .

(٣) فى النسختين : « بمن » ، صوابه فى ع .

(٤) هذا الصواب من ع . وفى النسختين : « يقول » .

(٥) هو من قولهم : هو ابن عمه دنيا ، بكسر الدال مع التنوين وعدمه ، وبضمها مع ترك الصرف ، إذا كان ابن عمه لحا لاصق النسب . وفى النسختين : « دينا » ، صوابه فى ع

(٦) المكانفة : المعاونة . وفى النسختين : « مكاتبته » ، تحريف ما فى ع .

(٧) ب ، م : « ولا أدل عليه » ، صوابه فى ع . وفى ب : « الصبرة منه » ، صوابه فى م ، ع . لكن فى ع : « غاية الصدق والبصيرة منه » .

(٨) ب ، ع : « أمنع البطحاء » ، وأثبت مافى م . وبطحاء مكة وأبطحها : مسيل واديها . وقريش البطاح : الذين ينزلون البطحاء . وقريش الظواهر : الذين ينزلون ماحول مكة .

ثمَّ صَنيعَ عُمَر حيث يقولُ يوم أسلم : « واللهِ لا نَعبدُ اللهَ سرًّا بعد هذا اليوم » ، حتَّى قال بعد موته عبدُ الله بن مسعود : « وما صلَّينا ظَاهِرِينَ حتَّى أسلم عمر » .

٣ – فصل منه(١)

ولو كان فى ذلك الزَّمانِ القتالُ ممكناً ، والوُثوبُ مُطمِعاً ، لقاتلَ أبوبكرٍ ونهض كما نهض فى الرِّدَّة(٢) ، وإنَّما قاتل علىٌّ فى الزَّمان الذى قد أَقْرَنَ فيه أهل الإسلامِ لأَهل الشِّرك(٣) ، وطمِعوا أن تكون الحربُ سِجالًا ، وقد أعلمَهم اللهُ أَنَّ العاقبةَ للمتَّقين ، وأبو بكر مفتون مفرد(٤) ومطرودٌ مُشرَّد(٥) ومضروب مُعَذَّب(٦) ، فى الزَّمان الذى ليس بالإسلامِ(٧) وأهلِه نهوضٌ ولا حركة ، ولذلك قال أبو بكر رضى الله عنه : « طُوبى لمن مَاتَ فى نـأْنـأَة الإسلام » ، يقول : فى أيام ضَعْفه وقِلَّته ، بحيثُ كانت الطَّاعةُ أعظمَ لفرط الامتحان ، والبلاءُ أغلظَ لشدَّة الجهد ، لأَنَّ الاحتمال كلَّما كان أشدَّ وأَدْوَمَ ، كانت الطَّاعةُ أفضل ، والعَزْم فيه أقوى .

ولا سواءٌ مفتونٌ مشرَّد لا حيلةَ عنده ، ومضروب معذَّب لانتصار به ، ولا دَفْعَ عنده ، ومُباطِشٌ مُقْرِن(٨) يَشفِى غَيْظَه ، ويَروِى غليلَه ، وله مُقْدِم يكنُفه ويشجِّعه .

---

(١) انظر العثمانية ص ٣٩ .

(٢) فى النسختين : « كما نقض فى الردة » ، صوابه فى ع .

(٣) يقال أقرن له ، أى أطاقه وقدر عليه ، كما يقال أقرنت فلاناً : صرت له قرناً »

(٤) فى النسختين : « مفتون معذب » .

(٥) ب : « مشروب » وفى م : « مشرود » ، صوابهما فى ع .

(٦) فى النسختين : « مغرب » ، صوابه فى ع . وانظر ما سيأتى فى السطر ١٤ .

(٧) م فقط : « فى الإسلام » .

(٨) المباطشة : مفاعلة من البطش ، وهو السطوة والأخذ بالعنف . والمقرن : المطيق القادر . وفى النسختين : « مفرق » ، صوابه فى ع .

ولا سواءٌ مقهورٌ لا يُغاث ، ولم يَنزِل القرآنُ بعد بظَفرِه . وقد هَتَكَ اليأسُ[1] لما ألفَى حجابَ قَلبه[2] ونَقَضَ[3] قوى طمعه حتَّى بَقِيَ وليس معه إلَّا احتسابُه ؛ ومقاتلٌ فى عسكره معه عِزُّ الرجال ، وقُوَّة الطَّمع ، وطيب نفسِ الآمل .

٤ – فصـــل منه[4]

وإنْ سأَل سائل فقال : هل على النَّاس أن يتَّخذوا إماماً ، وأن يُقيموا خليفة ؟

قيل لهم : إنَّ قولكم «النَّاس» يحتمل الخاصَّة والعامَّة . فإنَ كنتم قصدتم إليهما ، ولَم تَفْصِلوا بين حالَيهما ، فإنَّا نزعُم أنَّ العَامَّة لا تعرِف معنى الإمامة ، وتأْويلَ الخلافة ، ولا تفصِل بين[5] فضلِ وجودها ونَقْص عدمها ، ولأَىٍّ شيء ارتدَّت[6] ، ولأَىٍّ أَمر أَمْلَت ، وكيف مأْتاها والسبيلُ إليها ، بل هى مع كلِّ ريحٍ تهبُّ ، وناشئة تنجُم . ولعلَّها بالمُبْطلين أَقرُّ عيناً منها بالمحِقِّين ، وإنَّما العامَّة أَداةٌ للخاصَّة تبتذلها للمِهَن ، وتُزجِّى لها الأُمور[7] ، وتَصُول بها على العدوّ ، وتسدُّ بها الثغور .

ومَقَام العامَّة مِن الخاصَّة مَقام جَوارحِ الإنسانِ من الإنسان ، فإنَّ الإنسانَ إذا فكَّر أَبصَرَ ، وإذا أَبصَرَ عزَم ، وإذا عزَم تحرَّك أَو سكن ، وهما بالجوارحِ دونَ القَلْب .

---

(١) فى النسختين : « الناس » ، صوابه فى ع .
(٢) ألفى : وجد . وفى ع : « لطول ما لق حجاب قلبه » .
(٣) فى النسختين : « وبعض » صوابه فى ع .
(٤) كتاب العثمانية ص ٢٥٠ .
(٥) فى النسختين : « من » ، صوابه فى ع .
(٦) فى النسختين : « أردت » ، صوابه فى ع .
(٧) ع : « بها الأمور » .

وكما أنَّ الجوارحَ لاتعرفَ قَصْدَ النفس ، ولا تروِّى فى الأُمور ، ولم يخرجْها ذلك من الطَّاعة للعزم ، فكذلك العامَّة ، لا تعرف قصد القادة(١) ولا تدبير الخاصَّة ، ولا تَرَوِّىَ معها(٢) ، وليس يخرجها ذلك من عَزْمها ، وما أَبرمَت من تدبيرها .

والجوارحُ والعوامُّ ، وإن كانتْ مسخرَّةً ومدبَّرة ـ فقد تمتنع لعللٍ تَدخُلها ، وأمورٍ تصرفها ، وأَسبابٍ تَنْقُضها(٣) ، كاليد يَعرِض لها الفالِجُ واللِّسانِ يعتريه الخَرَس ، فلا تقدر(٤) النفس على تسديدهما وتقويتهما ، ولو اشتدَّ عزمها ، وحَسُنَ تأَتِّيها(٥) ورفقُها . وكذلك العامَّةُ عند نفورها وتَهيُّجها(٦) ، وغلبةِ الهوى والسُّخْف عليها ، وإنْ حَسُنَ تدبير الخاصَّة ، وتعهُّد السَّاسة(٧) . غير أَنَّ معصيةَ الجارحة أَيسَرُ ضررًا(٨) ، وأَهونُ أَمراً ، لأَنَّ العامة إذا انتكثت للخاصَّة(٩) ، وتنكَّرت للقَادة ، وتشزَّنَت على الرَّاضة(١٠) ، كان البَوارُ الذى لا حيلةَ له ، والفناءُ الذى لا بَقَاءَ معه.

وصلاحُ الدُّنيا ، وتمام النِّعمة فى تدبير الخاصَّة وطاعةِ العامَّة ، كما أَنَّ كمال المنفعة وتمامَ دَرَكِ الحاجة بِصواب قَصدِ النَّفْس(١١) ؛ [لأَنَّ

(١) فى النسختين : « ولا تعرف قصد العامة » تحريف ، والواو فيه مقحمة ، والصواب فى ع .
(٢) فى النسختين : « ولا يروى معها » ، ووجهه من ع .
(٣) فى النسختين : « لعلل يدخلها وأمور يصرفها وأسباب ينقصها » ، صوابها فى ع .
(٤) ب فقط : « يقدر » ، تحريف .
(٥) ب فقط : « تأنيها » ، محرف .
(٦) فى النسختين : « عند ثبورها » ، صوابه فى ع . وفى ع : « وتهييجها » .
(٧) فى النسختين : « السياسة » ، والصواب فى ع .
(٨) فى النسختين : « طوراً » صوابه فى ع .
(٩) فى النسختين و ع : « انكفت بالخاصة » ، ولعل وجهه ما أثبت .
(١٠) التشزن : التصعب وعدم الانقياد . والراضة : جمع رائض ، وهو السائس . وفى النسختين : « تشربت »
(١١) ب فقط : « تصواب قصد النفس »

النَّفسَ][١] لو أدركت كلَّ بُغْية ، وأوفت على كلِّ غاية ، وفتحَتْ كلّ مُستغلقٍ ، واستثارت كلَّ دفين[٨] ، ثمّ لم يُطِعْها[٣] اللسانُ بحسن العبارة واليدُ بحسن الكتابة[٤] ، كان [وجودُ[٥]] ذلك المستنبطَ – وإنْ جلَّ قدره – وعَدمُه سواءً .

فالخاصَّة تحتاج إلى العامَّة كحاجة العامَّة إلى الخاصَّة ، وكذلك القلب والجارحة ، وإنَّما همُ جندٌ للدَّفع[٦] ، وسلاحٌ للقَطْع ، وكالتُّرْس للرامى ، والفأْسِ للنجَّار . وليس مُضِىُّ سيفٍ صارم بكفِّ امرئ صارمٍ ، بأمضى من شُجاعٍ أطاع أميره ، وقَلَّد إمامَه .

وما كَلِبٌ أَشْلَاهُ ربُّه ، وأَحمشَه كَلَّابه[٧] ، بأفرطَ نَزَقاً ولا أسرَعَ تقدُّماً ، ولا أشدَّ تهوُّراً من جندىٍّ أغراهُ طمعُه ، وصاح به قائده .

وليس فى الأعمال أقلُّ من الاختيار ، ولا فى الاختيار أقلُّ من الصَّواب ، فلُباب[٨] كلِّ عمل اختياره ، وصَفْوةُ كلِّ اختيارٍ صوابُه . ومع كثرة الاختيار يكثر الصواب ، وأكثر النَّاسِ اختياراً أكثرُهم صواباً ، وأكثرهم أَسباباً[٩] مُوجِبَه أقلُّهم اختياراً ، وأقلُّهم اختياراً أقلُّهم صواباً .

---

(١) التكلة من ع .

(٢) استثارته : هاجته واستخرجته . وفى النسختين : « واستنارت » ، صوابه فى ع .

(٣) ب فقط : « ثم لم يطفها » ، تحريف .

(٤) ب فقط : « لحسن الكتابة » ، محرف .

(٥) التكلة من ع .

(٦) هم ، ساقطة من م . وفى ع : « وإنما العامة جند للدفع » .

(٧) ع : « أحمشه » بالشين المعجمة ، أى حرضه .

(٨) ب : « فليأب » م : « فليأت » ، صوابهما فى ع .

(٩) ب : « أسابا » ، صوابه فى م ، ع .

فإن قالوا : فقد ينبغى للعوامّ أن لا يكونوا مأمورينَ ولا منهيِّين ، ولا عاصين ولا مُطيعين .

قيل لهم : أمّا فيما يعرفون فقد يعصون ويطيعون .

فان قالوا : فما الأمر الذى يعرفون من الأمر الذى يجهلون ؟ .

قيل لهم : أمّا الذى يعرفون ، فالتّنزيلُ[١] المجرَّد بغير تأويلهِ ، وجملة الشَّريعة بغيرها[٢] ، وما جَلَّ من الخبر واستفاض[٣] ، وكثر ترداده على الأسماع ، وكرَّروه على الأفهام .

وأمّا الذى يجهلون فتأويل المُنْزَل وتفسير المجمَل ، وغامض السُّنن التى حَمَلتها الخواصُّ عن الخواصّ ، من حملة الأثر وطُلّاب الخبَر ممّا يُتكلَّف معرفتُه ، ويُتْبَعُ[٤] فى مواضعه ، ولا يهجمُ[٥] على طالبه ، ولا يَقْهر سمْعَ القاعد عنه .

والخبر خبران : خبرٌ ليس للخاصّة فيه فضلٌ على العامّة ، وهو كما سنَّ الرسولُ صلى الله عليه وسلم فى الحلال والحرام ، وأبوابِ القضاء والطّلاق ، والمناسك ، والبيوع ، والأشربة ، والكفّارات ، وأشباهِ ذلك .

وبابٌ آخر يجهله العوامُّ ، ويَخبِطُ فيه الحَشْو ولا تَشْعُر بعجزها[٦] ولا موضع دائِها[٧] . ومتى جرى سَبَبُه ، أو ظهر شيءٌ منه تسنَّمتْ

---

(١) فى النسختين : « كالتنزيل » ، صوابه فى ع .
(٢) ب « تفسيره » ، صوابه فى م ، ع .
(٣) ب فقط : « واستفاد » ، تحريف .
(٤) ع : « ويتتبع » .
(٥) ب فقط : « ولا يعجم » .
(٦) هذا ما فى ع . وفى النسختين : « بسرها » .
(٧) ب فقط : « دأبها » ، تحريف .

أعلاه ، وركبت حَوْمته(١) ، كالكلامِ(٢) فى الله ، وفى التشبيه ،والوعد والوعيد ؛ لأنَّها قد عجزت(٣) عن دعوى الفتيا ، ولا تتهافت فيها ، ولاَ تتسكَّع(٤) فيما لا يُعَرف منها ، ولا تتوحَّش من الكلام فى التعديل والتجوير(٥) ، ولا تفرغ من الكلام فى الاختيار والطِّباع ، ومجيء الآثار ، وكلٍّ ما جرى سببُه من دقيق الكلام وجليله ، فى الله تعالى وفى غيره .

ولو برز عالمٌ(٦) على جادَّةِ منهجٍ وقارعة طريق ، فنازع فى النَّحو واحتجَّ فى العَروض ، وخاض فى الفُتْيا ، وذِكرِ النُّجوم والحساب ، والطبِّ والهندسة ، وأبواب الصِّناعات ، لم يَعرِضْ له ، ولم يفاتحه(٧) إلَّا أهلُ هذه الطبقات .

ولو نطق بحرفٍ فى القدر حتَّى يذكر العِلم والمشيئة ، والتكليف والاستطاعة ، وهل خلَق الله تعالى الكُفْرَ وقدَّره أَو لم يخلُقْه ولم يقدِّره ، لم يَبْقَ(٨) حمَّالٌ أغثر(٩) ، ولا بَطَّالٌ غَثٌّ(١٠) ، ولا خَاملٌ غُفْل(١١) ولاغَبىٌّ

(١) حومة البحر والرمل والقتال ونحوه : معظمه أو أشد موضع فيه .
(٢) فى النسختين : « فالكلام » ، صوابه فى ع .
(٣) ع : « قد تحجم » .
(٤) التسكع : أن يمضى متعسفاً لغير وجهه . وفى النسختين : « تتسع » ، والوجه ما أثبت من ع .
(٥) فى النسختين : « التعديد والتحرير » ، والوجه ما أثبت .
(٦) فى النسختين : « عالماً » ، صوابه فى ع .
(٧) فى النسختين : « ولم يفتحه » ، صوابه فى ع .
(٨) فى النسختين : « ولم يبق » ، والوجه حذف الواو كما فى ع .
(٩) الأغثر : الأحمق الجاهل . وفى النسختين : « جمال أغبر » .
(١٠) البطال : ذو الباطل . والتبطل : فعل البطالة ، وهو اتباع اللهو والجهالة . وفى النسختين وع : « يطاف » ، ولعل وجهه أثبت .
(١١) فى النسختين : « ولا حامل » بالحاء المهملة ، صوابه فى ع .

كهَام[١] ، ولا جاهلٌ سفيهٌ ، إلَّا وقَفَ عليه ولاحاهُ[٢] وصوَّبه وخَطَّاهُ[٣]
ثم لا يرضى حتَّى يتولَّى من أرضاه ، ويكفِّر مَن خالفَ هواه ، فإن
جارَاه[٤] محقٌّ ، وأَغلظَ له واعظٌ ، واتَّفق أن يكون بحضرته أشكاله[٥]
استغوى أمثالَه ، فأشعلوها فتنةً وأضرموها ناراً .

فليس لمن كانت هذه حالَه أن يتحيَّز مع الخاصَّة ، مع أنَّه لو حَسُنت
نيَّتهُ ، لم تحتمل فِطرتُه معرفةَ الفُصول ، وتمييزَ الأُمور .

فإن قالوا : ولعلَّهم لا يعرفون اللهَ ورسولَه ، كما لا يعرفون عَدلَه
من جَوره ، وتشبيهه بِخَلقِه[٦] مِنْ نَفْيِ ذلك عنه . وكما لا يعرفون
القرآنَ وتفسيرَ جُمَله ، وتأْويل مُنزَّله .

قيل لهم : إنَّ قلوب البالغين[٧] مسخَّرة لِمعرفة ربِّ العالمين[٨] ،
ومحمولة على تصديق المرسلين ، بالتنبيه على مواضع الأَدلة ، وقَصْر
النُّفوسِ على الرَّوِيَّة ، ومَنْعِها عن الجَوَلانِ والتصرُّف، وكلِّ ماربَثَ عن
التفكير[٩] ، وشَغَل عن التحصيل ، من وسوسةٍ أَو نِزاعِ شهوة ؛ لأَنَّ
الإنسان مالم يكن معتوهاً أَو طفلًا ، فمحجوجٌ على أَلسنة المرسلين ، عند

---

(١) الكهام : الثقيل الذى لا غناء عنده . فى النسختين : « و لاغبى » ، والصواب فى ع .
(٢) الملاحاة : المنازعة والمدافعة . فى النسختين : « لاجاه » ، بالجيم تحريف .
(٣) خطاه : مسهل خطأه . وفى النسختين : « وخطاؤه » صوابه فى ع .
(٤) فى النسختين : « جازاه » بالزاى ، تحريف .
(٥) ب فقط : « أشكال » .
(٦) فى النسختين : « وتشبيهه من يخلقه » ، صوابه فى ع .
(٧) فى النسختين : « التابعين » ، صوابه فى ع .
(٨) يقال سخره للأمر ، أى كلفه به وقهره عليه . وفى الكتاب العزيز : « وسخر لكم الشمس والقمر » ، أى ذللهما ، وكذلك « سخر لكم الفلك » . وفى النسختين : « مسخرة بمعرفة » ، صوابه فى ع .
(٩) ربثه عن الأمر : حبسه وصرفه . وفى النسختين : « وكلما ريب » والصواب فى ع .

جميع المسلمين . ولا يكون محجوجاً حتَّى يكون عالماً بما أُمِرَ به ، عارفاً بما نُهِيَ عنه ؛ لأَنَّ من لم يعلم[١] فى أَىِّ الضربين سُخْطُ الله، وفى أَىِّ نوعٍ رضاه، ثمَّ ركبَ السُّخطَ أَو أَتَى الرِّضا[٢] لم يكن ذلك منه إلَّا على اتِّفاق. وإنَّما الاستحقاق مع القصد . والله تبارك يَتعَالَى عن أن يعاقب من لم يُرِدْ خلافه، ولم يَعرِف رضاه . أَو يَحمَدَ من لم يعتمد رضاه، ولم يَقصِد إليه.

ولم يكن الله تعالى ليعدِّلَ صنعتَه ويسوِّىَ أَدَاتَهُ[٣] ويفرقَ[٤] بينَه وبين المنقوص فى بنيته وتركيبه[٥] ، إلَّا ليفرق بين حاله وبين الطِّفل والمعتوه . وليس للمعرفة وجهٌ إلَّا لتَبصيره وتخييره[٦] ، ولولا ذلك لم يكن للذى خُصَّ به من الإبانة وتعديل الصَّنعة ، وإحكام البِنْيَة معنًى . والله تعالى[٧] عن فعل ما لا معنى له .

وفى قول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ[٨] ﴾ دليلٌ على ماقلنا . وليس لأَحدٍ أن يُخرجَ بعضَ الجنِّ والإنس من أن يكونَ خُلِقَ للعبادة إلَّا بحجَّةٍ ، ولا حُجَّة إلَّا فى عقلٍ ، أَو فى كتابٍ ، أَو خبر .

فإن قالوا : فإنْ كان الله إنَّما أَبانهم بالتعديل والتسوية للعبادةِ[٩] والاختيار ، فلم قلتم : إنَّهم غير مأْمورينَ بإقامة الأَئمة والاختيار مع

---

(١) ب فقط : « لا لمن لم يعلم » ، تحريف .
(٢) فى النسختين : « أو أبى الرضا » ، صوابه فى ع .
(٣) فى النسختين : « آدابه » ، والوجه ما أثبت من ع .
(٤) هذا الصواب من ع . وفى النسختين : « ويسوى » .
(٥) فى النسختين : « فى سنه وتركيبه » ، تحريف .
(٦) فى النسختين : « وتجره » ، صوابه فى ع .
(٧) ع : « يتعالى » .
(٨) الآية ٥٦ من سورة الذاريات .
(٩) فى النسختين : « إنما أثابهم بالتعديل والتسوية للعباد » ، صوابه فى ع .

الأمة ، وحكمهم حكمُ المسلمين المتعبِّدين . وإنَّما الإمام إمام المسلمين المتعبِّدين ؟

قلنا : إنَّما يلزم الناسَ الأَمرُ فيما عَرَفُوا سبيله . وليس للعوامِّ ــ خاصة ــ معرفةٌ بسبيل إقامة الأئمة[١] فيلزمَها ، أَو يجرىَ عليها أَمرٌ أَو نهى .

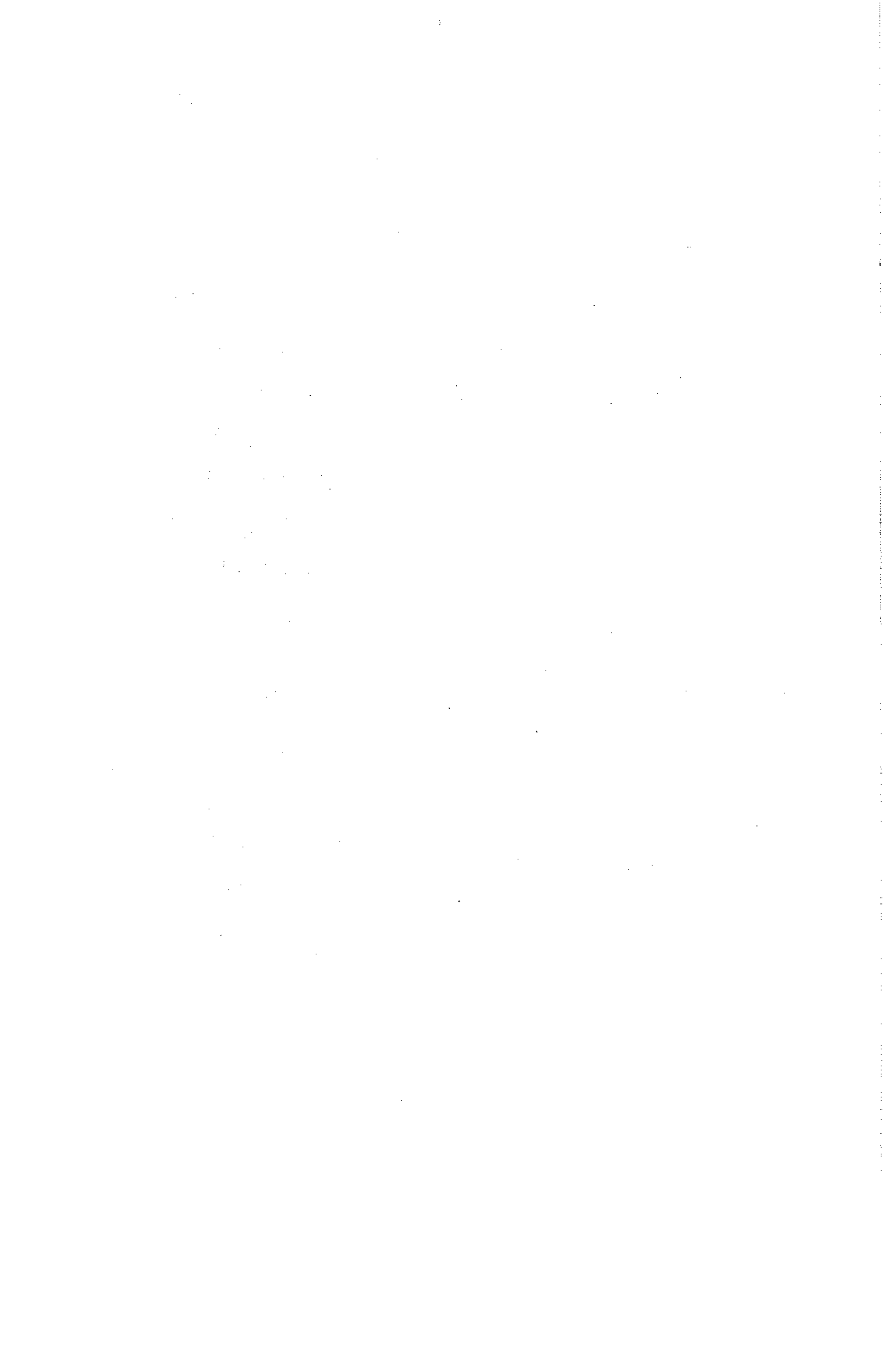
والعامّةُ وإن كانت تعرف جُمَل الدين بقدر ما معها من العُقول ، فإنَّه لم يبلغ من قُوَّة عُقولها ، وكثرةِ خَواطرها أَن ترتفع إلى معرفة العلماء ولم يَبلُغْ من ضعف عقولها أَن تَنحطَّ إلى طبقة المجانينِ والأَطفال .

وأَقدارُ طبائع العوامِّ والخواصِّ ، ليست مجهولة[٢] فيُحتاجَ[٣] إلى الإخبار عنها بأَكثر من التنبيه عليها ؛ لأَنَّكم تعلمون أَنَّ طبائِع الرُّسل فوقَ طبائع الخلفاء ، وطبائعَ الخلفاء فوق طبائع الوزراء ، وكذلك النَّاسُ على مَنازلهم من الفَضْل ، وطَبقَاتهم من التركيب ، فى البخل والسَّخاء ، والبلادَة والذكاء ، والغَدْر والوفاء، والجُبن والنَّجدة ، والصَّبرِ والجزَع ، والطَّيش والحِلم ، والكِبْر والتِّيه ، والحِفْظ والنِّسيان ، والعِىِّ والبيان .

ولو كانت العامَّة تعرف من الدِّين والدُّنيا ما تعرف الخاصَّة ، كانت العامَّة خاصَّةً ، وذهب التَّفاضُل فى المعرفة ، والتَّباين فى البِنْية . ولو لم يخالف بين طبائِعهم لسقط الامتحان وبطل الاختيار ، ولم يكن فى الأَرض اختيار ، وإنَّما خولف بينهم فى الغريزة ليَصبِرَ بها صابرٌ[٤] ، ويشكُرُ شاكر ، وليتَّفقوا على الطَّاعة ، ولذلك كان الاختلاف ، وهو سبب الائتلاف .

---

(١) ب : « معرفة السبيل إقامة الأئمة » م : « معرفة لسبيل » ، وأثبت ما فى ع .
(٢) فى النسختين : « وليست مجهولة » ، والواو مقحمة .
(٣) ع : « فنحتاج » .
(٤) ع : « ليصبر صابر .



١٣

من كتابه في

المسائل والجوابات في المعرفة

١ — فصل

من صدر كتاب المسائل والجوابات فى المعرفة(١)

بالله نستعين ، وعليه نتوكَّل ، وما توفيقنا إلا بالله .

اختلف الناس فى المعرفة اختلافاً شديداً ، وتباينوا فيها تبايناً مُفْرطاً . فزعم قومٌ أنَّ المعارفَ كلَّها فعلُ الفاعلين إلَّا معرفةً [لم(٢)] يتقَدمها سبب منهم(٣) ، ولم يوجبها علَّةٌ(٤) من أفعالهم . ولم يرجعوا إلى معرفة الله ورسوله ، والعلم بشرائعه ، ولا إلى كل مافيه الاختلاف والمنازعة ، وما لا يُعرَف حقائِقُهُ إلَّا بالتفكُّر والمناظرة ، دون دَرك الحواسِّ الخمس .

فزعموا أنَّ ذلك أجمَعَ فِعلُهم ، على الأَسباب الموجبةِ(٥) ، والعِلَل المتقدِّمة ، وجعلوا مع ذلك سبيلَ المعرفة بصدق الأَخبار ، كالعلم بالأَمصار القائمة ، والأَيَّام الماضية ، كبدرٍ وأُحُد والخندق ، ، وغيرِ ذلك من الوقائع والأَيَّام ، وكالعلم بفَرْغَانة(٦) والأَندُلس ، والصِّين والحَبَشة ، وغيرِ ذلك من القُرى والأَمصار — سبيلَ الاكتساب(٧) والاختيار ؛ إذْ كانوا(٨) هم الذين نَظَروا حتَّى عرفوا فَصْل مابينَ المجىء الذى لايكذب مثله ، والمجىء الذى يمكن الكِذبُ فى مثله .

---

(١) هذا الكتاب لم ينشر من قبل ، كما سقط من نسخة ط ، فالمقابلة هنا بين نسختَى المتحف البريطانى والتيمورية فقط : ب ، م

(٢) تكملة يقتضيها الكلام .

(٣) ب : « سبب منه » .

(٤) ب : « عليه » .

(٥) ب : « المرجية » ، صوابه فى م .

(٦) فرغانة : مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان ، كما ذكر ياقوت . وهى بفتح الفاء .

(٧) ب ، م : « وسبيل الاكتساب » ، والوجه ما أثبت .

(٨) ب : « إذا كانوا » .

فزعموا أَنَّ جميع المعارف سبيلُها سبيلٌ واحد ، ووجوه دلائِلها وعِللها متساوية ، إلّا ما وَجَدَ الحواسَّ بغتةً ، ووَرَدَ على النُّفوس فى حال عجز أَو غَفْلة ، وكان هو القاهر ، للحاسَّة ، والمستولىَ على القُوَّة ، من غير أَن يكون من البصر فتحٌ ، ومن السمع إصغاءٌ(١) ومن الأَنف شمٌّ ، ومن الفم ذَوْقٌ ومن البَشَرةِ مسٌّ(٢) ، فإن ذلك الوجود فعلُ الله دونَ الإِنسان ، على ما طُبع عليه البشر ، وركِّب عليه الخلق .

قالوا : فإذا كان دَرْك الحواسِّ الخَمْسِ إذا تقدَّمته الأَسبابُ ، وأَوجَبَتْه العلل فِعْلَ المتقدِّم فيه والمُوجِب له ، ودَرْكُ الحواسِّ أَصلَ المعارف ، وهو المستشهَدُ على الغائب(٣) ، والدليلُ على الخَفِىِّ ، وبقدر صحَّته تصحُّ المعارف ، وبقدرِ فسادِهِ تَفْسُدُ(٤) — فالذى تستخرجه الأَذهانُ منه ، وتستشهده عليه ، كعلم التوحيد ، والتعديلِ والتجوير(٥) ، وغامضِ التأْويل ، وكلُّ ماأَظهرته العقولُ بالبحث ، وأَدركته النُّفوس بالفِكرِ من كلِّ علم ، وصِناعةِ الحساب والهندسة ، والصِّياغة(٦) والفِلاحة — أَجدَرُ أَن يكونَ فِعلَه والمنسوبَ إلى كَسْبه .

قالوا : فالدَّليل على دَرْك الحواسِّ فعلُ الإِنسانِ على ما وصفنا واشترطنا(٧) ، من إيجاب الأَسباب ، وتقدُّم العلل : أَنَّ الفاتحَ بَصَره لو لم يَفْتَح لم يُدرِك . فلمَّا كان البصر قد يوجد مع عدم الإِدراك ،ولا يُعدَم الإِدراك مع

(١) ب : « الصغا » م : « صفاء » ، صوابهما ما أثبت .
(٢) البشرة : ظاهر الجلد ، وجمعه بشر . و فى ب : « ومن البشر » .
(٣) ب : « وهو المتشهد على الغائب » ، صوابه فى ع .
(٤) فى النسختين : « وبعد صحته » وكذلك : « وبعد فساده » ، والوجه ما أثبت مما هو لغة الجاحظ .
(٥) فى النسختين : « والتحوير » ، والوجه أثبت . وانظر ما سبق فى ص ٣٣ ، ٤٠ .
(٦) ب : « والصباغة » بالباء الموحدة .
(٧) ب : « واشترطا » ، صوابه فى م .

وجود الفَتْح ، كان ذلك دليلاً على أنَّ الإدراك إنَّما كان لعلَّة الفتح ، ولم يكن لعلَّة البَصر ؛ لأنَّه لو كان لِعلَّةِ صحَّةِ البصر كانت الصحَّة لا تُوجَد أبداً إلَّا والإدراك موجودٌ[١] . فإذا كانت الصِّحَّة قد تُوجد مع عدم الإدراك ، ولا يُعْدم الإدراك[٢] مع وجود الفتح ، كان ذلك شاهدًا على أنَّه إنَّما كان لعلَّة الفتح دونَ صِحَّة البصر .

وقالوا : ولأنَّ طبيعةَ البصر قد كانت غير عاملة حتَّى جعلها الفاتح بالفتح عاملة ، ولأنَّ الفتح علَّةُ الإدراك ومقدِّمة بين يديه ، وتوطِئَةٌ له . وليس الإدراك علَّةً للفتح ولا مقدِّمة بين يديه ، ولا توطئةً له ، فواجبٌ أن يكونَ فعلَ الفاتح ، لأنَّ السبب إذا كان مُوجِباً فالمسبَّب تبعٌ له .

٢ — فصل منه

ثم قالوا بعدَ الفراغِ من دَرْك الحواس فى معرفة الله ورسولِه وكلِّ ما فيه الاختلافُ والتنازعُ ، أنَّ ذلك أجمَعَ لا يخلو من أحد أمرين :

إمَّا أن يكونَ يحدُثُ من الإنسان لعلَّةِ النظر المتقدِّم ، أو يكونَ يحدثُ على الابتداء ، لا عن علَّةٍ موجبةٍ وسببٍ متقدِّم .

فإن كانوا أحدثوه على الابتداء ، فلا فِعَل[٣] أولى بالاختيار ، ولا أبعَدَ من الاضطرار منه .

وإن كان إنَّما كان لعلَّة النَّظرِ المتقدِّم ، كما قد دلَّلْنا فى صدر الكلام على أنَّ درك الحواس فعلُ الإنسان إذا تقدَّم فى سببه ، فالعلمُ

---

(١) فى النسختين : « موجوداً » ، صوابه ما أثبت .

(٢) ب : « ولا يعجم الإدراك » ، صوابه فى م .

(٣) فى النسختين : ولا فعل » ، وإنما هو جواب ماتقدم .

بالله وكتبه ورسله أجدرُ أن يكون فعلَهُ . إذ كانَ[١] من أجل نَظَرِهِ علم ، ومِنْ جهةِ بحثه أدرَك .

فهذه جملُ دلائِل هؤلاءِ القوم . ورئيسُهم بِشْرُ بن المُعتَمِرِ .

ثم هم بعد ذلك مختلفون فى دَرْكِ الحواس إلَّا مااعْتَمَدَ إدراكَه بعينه وقَصَد إليه بالفتح والإرادة ؛ لأَنَّ الفتحَ نفسَه لو لم يكن معه قصدٌ وإرادةٌ ما كان فعلَ الفاتح . فكيف يجوز أن يكون الإدراكُ فِعلَه من غير قصد .

ولو جاز أن يكون الفتحُ فِعلَ الإنسان من غير أن يكون أرادَهُ وقصَدَ إليه ، ماكان بين فِعلِ الإنسان وبين فعلِ غيرِه فرق ؛ لأَنَّه كان لايجوز أن يكون ذَهابُ الحجَر إذا لم يدفَعْه ، ولم يقصِدْ إليه ، ولم يَخْطُر له على بالٍ ، فِعلَه . فكذلك الإدراك إذا لم يَخْطُر على باله ، ولم يقصِدْ إليه ، ولم يتعمَّده ، لا يكون فعلَه .

٣ ـ فصل منه

وليس على المخبر بقصَّةِ خَصْمه[٢] والواصف لمذهب غيرِه[٣] ، أن يجعل باطلهم حَقًّا ، وفاسدَهم صحيحاً ، ولكن عليه أن يقول بقَدْر ما تحتمله النِّحلة ، وتتَّسع له المقالة ، وعليه أن لا يحكيَ عن خصمه ويُخبرَ عن مخالِفِهِ إلَّا وأدنى مَنازِله ألَّا يَعجِزَ عمَّا بلغوه ، ولا يَغْبَى[٤] عمَّا أدركوه .

---

(١) فى النسختين : « أو كان » ، والوجه ما أثبت .

(٢) فى النسختين : «المخبر نفسه خصمه»، تحريف . وسيأتى فى آخر الفصل : « ألا يحكى عن خصمه » . فهذا أقرب تصحيح .

(٣) ب : « مذهب غيره » .

(٤) ب : « يعبا » م : « يعبأ » ، والوجه ما أثبت .

٤ - فصل منه

وقد زعَم آخَرون أنَّ المَعارفَ ثمانية أَجناس : واحدٌ منها اختيارٌ، وسبعةٌ منها اضطرار . فخمسة منها دَرْك الحواسِّ الخمس ، ثم المعرفةُ بصِدق الأَخبار ، كالعلم بالقُرَى والأَمصار ، والسِّيَرِ والآثار ، ثم معرفةُ الإِنسان إذا خاطبَ صاحبَه أنَّه موجِّهٌ[(١)] بكلامه إليه ، وقاصدٌ به نحوه.

وأَمَّا الاختيار فكالعلم باللهورُسلِه، وتأْويلِ كتابه ،والمُستنبَطِ من علم الفُتيا وأَحكامِه ، وكلٍّ ما كان فيه الاختلاف والمنازعة[(٢)] . وكان سبيلُ علمه النَّظرَ والفِكرة . ورئيس هؤلاء أَبو إسحاق .

وزعم مُعمَّر[(٣)] أنَّ العلم عشرةُ أَجناس: خمسة منها دَرْك الحواسّ، والعِلم السادس كالسِّير الماضية والبُلدان القائمة ، والسَّابع : علمُك بقصْد المخاطِب إليك وإرادتِه إيَّاك ، عند المحاوَرَة والمُنازعَة . وقبل ذلك : وجُود الإنسانِ لنفسهِ، وكان يجعلُه أَوَّلَ العلوم ، ويقدِّمُه على دَرْك الحواس. وكان يقول : ينبغي أَن يقدَّم وُجُودُ الإِنسانِ لنفسِه على وُجوده لغيره . وكان يجعله علماً خارجاً مِن دَرْك الحواسّ ؛ لأَنَّ الإِنسان لو كان أَصمَّ[(٤)] لأَحسَّ نفسَه ولم يحسَّ [صوته ، ولو كان أَخْشَمَ[(٥)] لأَحَسَّ نفسَه ولم يُحسَّ[(٦)]]رائحتَه. وكذلك سبيل المذاقات والمَلَامس . فلما كان المعنى

---

(١) ب : « أن موجبه » ، م : « أنه موجبة » ، صوابهما ما أثبت .
(٢) في النسختين : « اختلاف والمنازعة » ، والوجه ما أثبت .
(٣) معمر بن عباد السلمي ، بتشديد الميم ، كما سبق في ترجمته ٣ : ٢٨٧ .
(٤) في النسختين : « لوكان عمى » ، والوجه ما أثبت .
(٥) الأخشم من الخشم ، بالتحريك ، وهو ألا يجد ريح طيب ولا نتن .
(٦) التكملة من م فقط .

كذلك وجب أن يُفرَد من دَرْك الحواسِّ، ويُجعَلَ عِلماً ثامناً على حِيَالِه[١] وقائماً بنفسه[٢] .

ثم جعل العلم التاسعَ : علمَ الإنسان بأنَّه[٣] لا يخلو من أن يكون قديماً أو حديثاً .

وجعل العلم العاشرَ : علمَه بأنَّه مُحْدَثٌ وليس بقديم .

٥ – فصل منه

ولست آلُو جُهدًا فى الكلام والإيجاز[٤] فى الإدخال على بِشر بن المعتمر فى دَرَك الحواسِّ ، ثم على أبى إسحاقَ[٥] فى ذلك ، وفى غيره ممَّا ذكرتُ من مذاهبه ، وتركهِ قياسَ مابَنَى عليه إن شاء الله ، لنصير إلى الكلام فى المعرفة ، فإنِّى إليه أجريتُ ، وإيَّاه اعتقدت ، ولكنِّى أحببت أنْ أُبْدِىَ فسادَ أصولهم[٦] قبل فروعهم ، فإنَّ ذلك أقتلُ للدَّاءِ[٧] وأبلغ فى الشِّفاء ، وأحْسَمَ للعِرْق ، وأقطَعَ للمادَّة ، وأخفُّ فى المؤونة على من قرأ الكتاب ، وتدبَّر المسألة والجواب . وبالله ذى المَنِّ والطُّول نستعين .

---

(١) على حياله ، أى وحده . وأصل الحيال خيط يشد من حزام البعير المقدم إلى حزامه المؤخر . وفى النسختين : « خياله » ، تحريف .

(٢) ب : « وقائلا بنفسه » ، صوابه فى م .

(٣) فى النسختين : « فإنه » ، تحريف ما أثبت .

(٤) فى النسختين : « ولست الواجد ذا الكلام والإيجاز » .

(٥) أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، شيخ الجاحظ .

(٦) ب : « أن ابرى إفساد صولهم » م : « أن أبرأ فساد أصولهم » ، والوجه ما أثبت .

(٧) فى النسختين : « أقبل للداء » ، تحريف .

٦ – فصــــل

من رده على أبي إسحاق النظام وأصحابه

يقال لهم : حدِّثونا عن العلمِ بالله ورسولِه وتأْويلِ كتبه ، وعن علم القَدَر وعلم المشيئة ، والأَسماءِ والأَحكام . أَبِاكتِسَابٍ هو أَم باضطرار ؟

فإن زعموا أَنَّه باكتسابٍ قيل لهم : فَخبِّرونا عن علمكم بأَنَّ ذلك أجمع اكتساب ، أَباكتسابٍ هو أَم باضطرار ؟ فإن قالوا : باكتساب . قيل لهم : أَو ليس اعتقادُ خلافِ ذلكِ أَجمعَ باكتساب ؟

فإن قالوا : نعم . قيل لهم : فإذا كان اعتقادُ الحقِّ واعتقادُ الباطلِ باكتسابٍ أفليس كلٌّ واحد من المكتسبين عند نفسه على الصَّواب ؟

فإذا قالوا : نعم . قيل لهم: [أَوَ ليسَ كلٌّ واحدٍ منهما ساكنَ القلبِ إلى مذهبهِ واختياره ؟

فإذا قالوا نعم قيلَ لهم[(١)]] : فما يؤمن المحقَّ من الخطَإِ ؟ وليس سكونُ القلب وثقَتُه علامةً للحقّ ، لأَنَّ ذلك لو كان علامةً لكان المبطلُ محقًّا ، إذْ كان[(٢)] قد يجدُ من السُّكون والثِّقة ما لايجدُ المحقّ .

وقلنا[(٣)] : وما معنى خلافِهِ إلَّا أَنْ يكون المبطل شاكًّا ، أو يكونَ عارفاً بتقصيره ، أَو يكونَ مكترثاً لوهْنٍ يجده . فإذا لم يكن كذلك فلا فرق بين المعقودين .

---

(١) التكملة من م .

(٢) ب : « إذا كان فيه » ، تحريف .

(٣) وقلنا ، استمرار للكلام السابق . وفى النسختين « قلنا » بدون واو .

فإن قالوا : إنَّ فرق مابينهما أنَّ سُكُونَ[١] قلبِ المحقِّ حقٌّ فى عينه ، وسكونَ قلب المبطل باطلٌ فى عينه .

قلنا : أَوَ ليس ذلك غيرَ محوِّل لسكون المبطل عن الثِّقة إلى الاضطراب ولا مغيِّرِهِ إلى الاكتراث ؟

فإذا قالوا ذلك ، قيل لهم : فما يُؤمن المحقَّ أن يكون سكونُه أيضاً باطلاً فى عينه إذا كان سكونُه لا ينقص[٢] عَنْ سكون المُبْطِل . ولئن كان [فرق[٣]] السُّكون بينهما ظاهِرَ الاجتهاد والعبادَة[٤] ، فمن أَظهَرُ اجتهاداً من الرُّهبان فى الصَّوامع ، والخَوَارجِ فى بَذْل النفوس ؟

فإن قالوا : الفَرق بينهما أَنَّ المحقَّ قد استشهد الضرورات ، والمبطل لم يستشهدها[٥] .

قلنا : فهل يجوز أن يكون عند نفسه قد استشهد الضَّرورات[٦] . حتَّى لو سأَله سائلٌ فقال : ما يُؤْمنك من الخطأِ ؟ لقال : استشهادى للضَّرورات .

فإن زَعَموا أَنَّ المبطل لا يجوز أَن يكون عند نفسه قد استشهَدَ الضروراتِ ، لأَنَّ ذلك هو علامةُ الحقّ ، والفَصْلُ بينه وبين الباطل .

قلنا : وهل رأَيتم أَحداً اكتسَب علماً قطُّ ، أَو نَظَر فى شَيْءٍ[٧] إلاَّ وأَوَّلُ نظرِهِ إنَّما هو على أَصل الاضطرار ؛ لأَنَّ المفكِّر لا يبلُغُ من جهله

---

(١) فى النسختين : « أن سيكون » صوابه ما أثبت .
(٢) ب : « لاينفصل عن » ، م : « لاينفضل من » ، والوجه ما أثبت .
(٣) بمثلها يلتمّ الكلام .
(٤) فى النسختين : « والعبارة » ، تحريف .
(٥) ب : « لم يستشهدما » تحريف . والكلام بعده إلى : «الضرورات» التالية ساقط من ب .
(٦) بعده فى ب فقط : « أو لم يستشهد ها » وهو تكرار لما سبق .
(٧) ب : « ونظر فى بشيء » ، صوابه فى م .

أَن يستشهد الخفىّ ، بل من شأْنِ النَّاسِ أَن يستدلُّوا بالظَّاهر على الباطن إذا أَرادُوا النَّظرَ والقياس ؛ ثم هم بعد ذلك يخطئون أَو يصيبون .

وقلنا[١] : فينبغى أَن يكون كلُّ مبطلٍ فى الأَرض قد علِمَ حين يقال له : ما يُؤمنك أَن تكون مبطلا ؟ أَنَّه لم يستشهد الضَّرورات ، وأَنكر أَصله الذى قاسَ عليه واستنبط منه ضرورةً ، وأَنَّه إنَّما قال بالعسف أَو بالتقليد . وإذا كانوا كذلك فهل يخلو أَمرهم من أَنْ يكونوا قد علموا أَنَّهم على خطَاءٍ[٢] أَو يكونوا شُكَّاكاً ، أَو يكونوا عند أَنفسهم مستشهدين للضَّرورات ، وإنْ كانوا قد تركوا ذلك عند بعضِ المقدَّمات . فإن كانوا قد علموا أَنَّهم لم يَستشهدوا الضَّروريَّات ، وإن كانوا شُكَّاكاً فيها ؛ فليس على ظهر الأَرض مخطىءٌ إلاَّ وهو عالمٌ بموضع خَطَائِه ، أَو شاكٌّ فيه . أَو كانوا عند أَنفسهم مستشهدين للضرورات ، فما يؤمنكم **أَن** تكونوا كذلك ؟

فإن قالوا : ليس أَحدٌ يعرف أَنَّ علامة الحقِّ استشهادُ الضروراتِ غيْرَنا .

قلنا : أَولستم[٣] معشرَ أَبىإسحاقَ النظام تختلفون[٤] فى أُمور كثيرة ، وقد كنتم تخالفون صاحبكم خلافاً كثيراً ، وكلُّكم إذا سأَله سائل : ما يُؤْمنك أَن تكونَ على باطل[٥] ؟ قال : لأَنِّى مستشهِدٌ للضَّرورات . فهل

---

(١) استمرار للكلام السابق . وفى النسختين : « قلنا » بدون واو .
(٢) الخطاء ، كسحاب : الخطأ ، وهى كثيرة فى لغة الجاحظ . ب : « خطأ » .
(٣) فى النسختين : « ولستم » ، وإنما هو استفهام .
(٤) ب : « يختلفون » ، صوابه فى م .
(٥) فى النسختين : « إذا سأله سائل يؤمنك أن يكون على باطل » . والوجهما أثبت .

يخلو أمرُكم من أحد وجهين : إمَّا أن تكونوا صادقين على أنفسكم ، أو كاذبين عليها ؟

فإن كنتم صادقين فقد صار قلبُ المحقِّ كقلب المُبْطل ؛ إذْ كان كلُّ واحد عندَ نفسه مستشهدًا للضَّرورات .

وإن كنتم كاذبين فهل منكم محقٌّ إلَّا وهو يَلقَى الخَصمَ بمثل دعواه فى استشهاد الضرورات ؟ وهل منكم واحدٌ على حيَالِه[1] محقًّا أو مبطلا إلَّا وجوابُه لنا مثلُ جوابِ صاحبه . فإذا كانت[2] القلوب قد تكون عند أنفسها مستشهدةً للضَّروراتِ ، وهى غيرُ مستشهدة لها ، وكونُ القلب كذلك هو علامة الحقّ ، فما الفرق بين قلب المحقِّ والمبطل[3] ؟ ومع ذلك إنَّا وجدنا صاحبَكم قبلكم وَوجدناكم بعدَه قد رجعتم عن أقاويلَ كثيرة ، بعد أن كان جوابُكم لمن سألكم مَايُؤْمِنكم أن تكونوا على باطل ، أن تقولوا[4] : استشهادُنا للضرورات[5] . ونحن لو سألناكم عمَّا رجعتم عنه ، فقلنا لكم : لعلَّكم على خطأٍ ، ولعلَّكم مِن هذه الأقاويلِ على غَرَر ، لم يَعْدُ جوابُكم استشهادَ الضرورات .

---

(١) ب : « حباله » بالموحدة ، صوابه فى م . وانظر ماسبق فى ٥٢ س ١ .
(٢) ب : « إذا كانت » ، وأثبت ما فى م .
(٣) ب : « القلب المحق والمبطل » .
(٤) ب : « أن يقولوا » تحريف .
(٥) ب : « استشهدنا للضرورات » ، صوابه فى م .

٧ – فصـــل

من هذا الكتاب فى الجوابات

ثمَّ إنِّى واصلٌ[١] قولِى فى المعرفة ومجيبٌ خَصْمى فى معنى الاستطاعة وفى أىِّ أوْجُهها[٢] يَحْسُنُ التكليف وتَثبت الحجَّة ؛ ومع أيِّها يسمُج التكليف[٣] وتسقط الحجّة .

فأوّلِ ما أقول فى ذلك : أنَّ الله – جل ذكره – لا يكلِّف أحداً فعلَ شىءٍ ولا تَرْكَه إلّا وهو مقطوعُ العُذْر ، زائل الحُجّة .

ولن[٤] يكون العبد كذلك إلّا وهو صحيحُ البِنْية ، معتدلُ المِزاج ، وافِر الأَسباب ، مُخَلَّى السِّرب ، عالمٌ بكيفيَّة الفعل ، حاضرُ النَّوازع ، معدَّل الخواطر ، عارفٌ بما عليه وله .

ولن يكون العبدُ مستطيعاً فى الحقيقة دونَ هذه الخصال المعدودة ، والحالاتِ المعروفة ، التى عليها مجارِى الأَفعال ،ومن أَجلها يكون الاختيار ولها يحسُن التَّكليف ، ويجب الفَرض[٥] ، ويجوز العقاب ، ويَحسُنُ الثواب .

ولو كان الإِنسان متى كان صَحيحاً كان مستطيعاً ، لكان[٦] من لا سُلَّمَ له للصُّعود مستطيعًا .

(١) فى النسختين : « واصف » ، والوجه ما أثبت .
(٢) فى النسختين : « وجهها » ، صوابه ما أثبت .
(٣) فى النسختين : « ومع أنها يسمح التكليف » والوجه ما أثبت .
(٤) فى النسختين : « وإن » ، تحريف .
(٥) ب : « ويحبب » ، صوابه فى م .
(٦) فى النسختين : « لكن » ، صوابه ما أثبت .

ولن يكون أيضاً مع ذلك كلِّه للفعل مختاراً ، وله فى الحقيقة دون المجاز مستطيعاً ، إلَّا وجميع أوامرِهِ فى وزن جميع زواجرِه ، حتَّى إذا ما قابلت بين مَرجُوِّهما ومَخُوفهما ، وبين تقديم اللَّذَّة وخوف الآخرة ، وبين تعجيل المكروه وتأْميل العاقبة ، وجدتهما فى الحذْر[١] والرَّفع ، وفى القَبْض والبسط سواءً .

ولا يكون أيضاً كذلك إلَّا وبقاؤُه فى الحال الثانية معلوم ، لأَن الفعلَ حارسٌ والطِّباع محروسة ، والنَّفْس عليها مُوقَفة . فإِن كان الحارس أَقوى من طباعها كان ميلُ النفس معه طِباعاً ؛ لأَنَّ مِن شأْن النَّفس الميلَ إلى أَقوى الحارسين ، وأَمْتَنِ السَّببين[٢] .

ومتى كانت القُوَّتان متكافئتين كان الفعلُ اختياريًّا ، ومن حَدِّ الغلبة خارجًا[٣] ، وإن كانت الغَلَبة تختلف فى اللِّين والشِّدَّة ، وبعضُها أَخفى وبعضُها أَظهر ، كفِرار الإنسان من وَهج السَّموم إذا لم يَحضُره دَواعِى الصَّبرِ ، وأَسبابُ المُكْث . وهو من لَهَب الحريق أَشدُّ نُفْرةً ، وأَبعدُ وثبةً ، وأَسرع حركة .

ومتى قويت الطَّبيعةُ على العقل أَوهنَتْه وغيَّرتْه ، ومتى تَوهَّنَ وتغيَّر تغيَّرت[٤] المعانى فى وهمه[٥] ، وتمثَّلتْ له على غير حقيقتها . ومتى كان

(١) الحذر : نقيض الرفع . وفى النسختين : « الحذر » ، ووجهه ما أثبت . وفى م قبلها : « وجدتها » ، صوابه فى ب .

(٢) ب : « أقوى الحارس وأمتن التبيين » ، م : « أقوى الحارس وأمتن السببين » ، والوجه ما أثبت .

(٣) ب : « ومن وجد الغلب خارجاً » م : « ومن جد الغلبة خارجاً » و « الغلب » و « الغلبة » بمعنى واحد . وفى الكتاب العزيز : « وهم من بعد غلبهم سيغلبون » . وصواب ما قبلها « ومد حد » بالحاء المهملة كما أثبت .

(٤) فى النسختين : « وتوهنت » ، وإنما هى جواب « متى » .

(٥) الوهم : خطرات القلب والعقل والفكر . ب : « وهته » صوابه فى م .

كذلك كلّ[١] عن إدراك ما عليه فى العاقبة ، وزَيّنت له الشّهواتُ رُكوبَ مافى العاجلة .

ومتى — أيضاً — فَضَلت قُوَى عقلِه على قُوى طبائِعه أوهنت طبائعَه ، ومتَى كانت كذلك آثر الحزْمَ والآجلة[٢] على اللّذة العاجلة ، طبعاً لايمتنع منه ، وواجباً[٣] لا يستطيع غيره .

وإنّما تكون النّفسُ مختارةً فى الحقيقة . ومجانِبةً لفعل الطّبيعة إذا كانت أخلاطُها معتدلةً ، وأسبابُها متساوية ، وعللُها متكافئةً ، فإذا عدّل اللهُ تركيبَه وسوّى أسبابه ، وعرّفه ما عليه وله ، كان الإنسان للعقل مستطيعاً فى الحقيقة ، وكان التكليفُ لازماً له بالحُجّة .

ولولا أنّك تحتاج إلى التّعريف بأنّ المأمور المنهىّ[٤] لا بدّ له من التسوية والتّعديل لما قال الله تعالى : ﴿ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفسٍ وَما سَوَّاهَا . فألْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا[٥] ﴾.

ولو جاز أن يعلم موضعَ غَيِّها ورُشْدها من غير أن يسوِّيَها ويهيِّئها[٦] لكان ذكر التّسوية فضلًا من القول . والله يتعالى[٧] عن هذا وشبهه علوًّا كبيراً .

---

(١) كل كلالا : ضعف وأعيا . وفى ب : « ومتى كان كذلك كان » وفى م : « ومتى كان كذلك » فقط . ووجههما ما أثبت .

(٢) الآجلة : الآخرة ، والمراد لذائذ الآخرة .

(٣) ب : « وواجب » ، صوابه فى م .

(٤) ب : « المأمور والمنهى » . والمراد أن الإنسان مأمور منهى معاً ، لا واحد منهما .

(٥) الآيات ٦–٨ من سورة الشمس .

(٦) ب : « ويهينها » ، صوابه فى م .

(٧) م : « تعالى » . وانظر ماسبق فى ٢٤ : ٥ و ٤٢ : ٤ .

٨ - فصـــل

فى جواب من يسأل عن المعرفة باضطرار هى أم باكتساب

قلنا : إنَّ الناس لم يعرفوا الله إلَّا مِن قِبَلِ الرُّسُل ، ولم يعرفوه من قِبَل الحركة والسُّكون ، والاجتماع والافتراق ، والزِّيادة والنُّقصان .

على أنَّا لا نشكُّ أنَّ رجالاً من الموحِّدين قد عرفوا وجوهاً من الدَّلالة على الله بعد أن عَرَفوه من قِبَل الرُّسُل ، فتكلَّفوا من ذلك مالا يجبُ عليهم ، وأصابوا من غامضِ العلم مالا يَقدِر عليه عوامُّهم ، من غير أن يكونُوا تكلَّفوا ذلك لشكٍّ وجَدُوه ، أو حَيرةٍ خافوها ؛ لأنَّ أعلام الرُّسل مُقْنِعة ، ودلائلها واضحة ، وشواهِدَها متجلِّية ، وسلطانَها قاهر ، وبُرهانَها ظاهر .

فإن قال : أباكتسابٍ علموا[١] صِدقَ الرُّسُلِ أم باضطرار ؟

قلنا : باضطرار .

فإن قالوا : فخبِّرونا عن مَن عايَنَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وحُجَّتَهُ ، والمتنبِّيَ وحيلتَه ، كيف يَعلم[٢] صِدقَ النبيِّ من كذب المتنبِّي ، وهو لم ينظرْ ولم يفكِّر ؟

فإن قلتم : إنَّه نَظَرَ ، وفكَّر ، فقد رَجعتُم إلى الاكتساب .

وإن قلتم : إنَّه لم ينظُر ولم يفكِّر فلمَ عرَفَ الفَصْل بينهما دون أن يجهلَه ؟ وكيف علم ذلك وهو لا يعرف الحُجَّة من الحِيلة ؟ ومايُؤْمِنه

(١) ب : « عملوا » ، صوابه فى م .
(٢) فى النسختين : « نعلم » بالنون .

أَن يكون مبطلاً إذا كان لم ينظُرْ فى أُمور الدُّنيا ، ولم يختبر مَعانِيَها حتَّى يعرفَ الممتنعَ من الممكن ، وما لا يزال يكون بالاتِّفاق مما لايمكن ذلك فيه ؟

وكيفَ ولم يعرف العادةَ ومَجرى الطبيعة وإلى أين تبلغُ الحيلة وأين تعجزُ الحيلة[1] ، وعند أىِّ ضربٍ يسقطان ، وعلى أىِّ ضرب يقومان ؟ ولِمَ عرَفَ صِدقَ النبى صلى الله عليه وسلم حين عاينَ شاهدَه وأبصَر أعاجيبَهُ ، من غير امتحانٍ لها[2] وتعقُّب لمعانيها ، دُونَ أن يعتقِدَ[3] صدقَ المتنبىِّ إذَا أُورِدَ عليه أعاجيبُه وخُدَعه وحِيَله ؟

بل كيف لم يعرف الله حين وقع بصرُه على الدُّنيا من غير فكرة فيها وتقليب لأَمرها .

والدُّنيا بأَسرها دلالةٌ عمَّا عرف صدقَ النبىِّ حين أبصر دلالتَه من غير تفكير فيها أو تقليب لأَمرها[4] .

وقد علمنا أَنَّ الدُّنيا دالَّةٌ على أَنَّ شواهد النبى دالَّة ، ومتى كان ظاهر أَحدِهما يُغنى عن التفكير كان الآخر مثلَه ، إذْ لم يكن فى القياس بينهما فرق ، ولا فى المعقول فضل .

قلنا : إنَّ تجاربَ البالغِ قبل أَن يهجُمَ على دلالات الرُّسُل تأْتى على جميع ذلك[5] . ولعمرى أَنْ لو كان هجومُه عليها قَبْلَ المعرفةِ بمجارى وتصريف الدُّهور وعلاقاتِ الدنيا ، والتَّجربة لتصريف أُمورها ، لَمَا

(١) ب : « الحيلولة » ، صوابها فى م .
(٢) ب : « من غير أى امتحان لها » . (٣) ب : « يعقد » .
(٤) ب : « وتغلب لأمرها » ، صوابه فى م . والكلام بعده إلى « لأمرها » التالية ساقطة من م .
(٥) فى النسختين : « يأتى على جميع ذلك » ، والوجه ما أثبت .

وصل إلى معرفةِ صدق النبيِّ إلّا بعدَ مقدّمات كثيرة ، وترتيبات منزَّلة ؛ لأنَّ مُشاهِدَ الشَّواهِد إنما تَضطرُّه المشاهدةُ لها إذا كان قد جرَّب الدنيا ، وعَرَف تصرُّفها وعادَتَها قبل ذلك .

ولو لم يكن جَرَّبها قَبْلَ ذلك حين عرف منتهى قُوَّةِ بطشِ الإنسان وحيلتِه ، وعرفَ الممكنَ من الممتنع ، وما يمكن قولُه بالاتِّفاق مما لا يمكن ، لما عَرَفَ ذلك .

فإنْ قالوا : وكيف جَرَّب ذلك وعَقَله ، وأتقنَهُ وحَفِظه ، وهو طفلٌ غَريرٌ وَحَدَثٌ صغير ؛ لأنَّ غير البالغ طِفلٌ إلى أن يبلغ ، وحين يبلغُ فقد هجم على النبيِّ صلى الله عليه وسلم وشواهده ، أو هجم عليه النبيُّ بشواهده ، إمَّا بخبرٍ مُقْنع أو بعيانٍ شاف . فنى أيَّة الحالين جَرَّب وعَرَف ، ومَيَّز وحفِظ ، فى حال الطُّفولة والغَرارة ؟ وهذا غير معروف فى التَّجربة والعادة ، والذى عليه رُكِّبت الطَّبيعة .

أمَّا[1] فى حال البلوغ والتَّمام فحالُ البلوغ[2] هى الحال التى أبلغه الله الرسالة ، وقاده إلى رؤية الحُجَّة ، واستماعِ البرهان ومَخْرج الرِّسالة .

فإذَا كان الأَمر ، كما تقولون فقد كان ينبغى أن لايصلَ إلى العلم بصدق النبيِّ وقد أَراهُ برهانَه ، وأَسمَعَه حُججَه ، حتَّى يمكث بعد ذلك دهراً يمتحن الدُّنيا ويتعقَّب أُمورها ، ويُعمِلَ التَّجربة فيها . فإن كان ذلك كذلك فلم سمَّيتموه بالغاً ، وليس فى طاقته بعدُ العلمُ يفَصْلِ مابين النبيِّ والمتنبِّى ؟

---

(١) فى النسختين : « أم » ، والوجه ما أثبت .
(٢) فى النسختين : « وحال البلوغ » صوابه ما أثبت .

قلنا : إنَّ التَّجربة على ضربين : أحدهما : أَن يقصد الرجل إلى امتحان شيء ليعرف مَخْبَره عمَّا عَرَف منظره.

والآخَر : أَن يهجُمَ على علمٍ ذلك من غير قصدٍ.

وقد يسمَّى الإِنسان مجرِّبًا، قاصداً أَو هاجماً، فيزعم أَنَّ البالغ قد سقَطَ من بطن أُمِّه إلى أَن يبلغَ، مُقَلَّبًا فى الأُمور المختلفة(١) ، ومُصرَّفًا فى خلال الحالات، بالمعرفة(٢) التى تُلْقحه الدُّنيا، بما تُوردُ عليه من عجائبها، ويزدادُ فى كلِّ ساعةٍ معرفةً ، وتفيده الأَيَّام فى كلِّ يومٍ تجربة ، كما يزداد لسانُه قُوَّةً ، وعَظْمُه صلابة ، ولحمُه شِدَّةً ، مِن أُمٍّ تُناغيه ، وظِئْرٍ تلهِّيه ، وطفل يلاعبُه ، وطبيبٍ يعالجه ، ونَفْسٍ تدعوه ، وطبيعةٍ تُعِينه ، وشَهوةٍ تبعثُه ، ووجع يُقْلِقُه ، كما يزيده الزَّمانُ فى قُوَّته ، ويشُدُّ من عظمه ولحمه ، ويزيدُه الغِذاءُ عِظَما ، وكثرةُ الغضب والتقليب جَلَدا . فإذا دَرَجَ وحبا ، وضحك وبكى ، وأَمكنه أَن يكسِر إناءً أَو يُكفِئَهُ ، أَو يسوِّدَ ثوبًا ، أَو يضرب دابرة الخادم(٣) ، وانتهَرَه القَيِّمُ(٤) . فلا يزال ذلك دأْبَه ودأْبَهُم حتَّى يفهمَ الإِغراءَ والزَّجر ، والتَّغذيَة والانتهار ، كما يعرِفُ الكلب اسمَه إذا أَلحَّ عليه الكَلَّابُ به. وكما يَعرِف المجنون لقبَه ، وكما يُحضِرُ الفرَسُ من وَقْع السَّوط من كثرة وَقْعه بعد رفْعه عليه(٥) .

---

(١) فى النسختين : « المختلة » ، تحريف ، وفى م : « مقلب » .

(٢) فى النسختين : « المعرفة » .

(٣) كلمة « الخادم » ساقطة من م . وفى النسختين : « دبره » .

(٤) القيم : من يقوم على تربيته . والانتهار : شدة الزجر . وفى م : « وأن تهزه » تحريف .

(٥) انظر الحيوان ٧ : ٨٧ .

٩ – فصـــل منه فى هذا المعنى

فإذا استحكمت هذه الأُمورُ فى قلبه، وثبتت فى خَلَده[(١)] وصحَّتَ فى معرفته، فهو حينئذٍ بالغٌ محتمل. وعند ذلك يسخِّر الله سَمْعَه للخبَر المثْلِج، أو بَصَره لمعاينة الشاهد المُقْنع، على يدَىِ الرسول الصادق، ولا يَترُكُه هَمَلا، ولا يَدعُه غُفْلا[(٢)]، وقد عَدَّل طبعَه وأَحكم صُنْعَه، ووفَّر أَسبابَه، فلا يحتاجُ عند معاينته رسولًا يُحيِى الموتى، ويُبرئ الأَكمَه والأَبرص، ويَفْلِقُ البحر، إلى تفكير، ولا تمييل[(٣)] ولا امتحانٍ ولا تجربة، لأَنَّه قد فرغ من ذلك أَجمع، واستحكم عنده العلمُ الذى أُدِّب به، وهُيِّئَ له وأُورِدَ عليه.

فإن كان لم يكن لذلك عامدًا، ولا إليه قاصداً ولا به مَعْنِيًّا[(٤)]، وإنَّما هو عبدٌ عَبَّأَه سيِّده، ورشَّحه مولاه، وهيَّأَه خالقُهُ لأَمرٍ لايَشعُر به من مصلحته، ولا يَخطر على بالِه من الصُّنْع له حين غَذَاه به، وقاده إليه، وهَيَّأَه له.

فإذا أُوردَ عليه دعوى رسولٍ[(٥)]، وأُمَّتُه تشهدُ له بإحياءِ الموتى وفَلْق البحر، وبكلِّ شيءٍ قد عُرِفَ عَجْزُ البشَر عن فعلِهِ والقُوَّةِ عليه،علم بتجاربِهِ المتقدِّمة بِعادة الدنيا، أَنَّ ذلك [ليس[(٦)]] من صنع البشر، وأَنَّ مثله

(١) الخلد، بالتحريك: البال، والقلب، والنفس، ب: «وثبت»، صوابها فى م.

(٢) الغفل، بالضم: من لا يرجى خيره ولا يخشى شره. وفى النسختين: «مغفلا»، وما أثبت هو لغة الجاحظ.

(٣) التمييل: أن يتردد بين الأمرين ويوازن بينهما. م: «تمثيل».

(٤) عنى بالأمر: اهتم به وشغل، فهو معنى. وفى النسختين: «مغيباً»، صوابه ما أثبت.

(٥) ب: «رسوله».

(٦) تكلة يفتقر الكلام إليها.

لا يقعُ اتِّفاقًا ، وأَنَّ الحِيَلَ لا تَبلُغه ، فلا يمتنع مَعَ رُؤية البُرهان[(١)] وفَهْمِ الدَّعوى ، أن يعلم أَنَّ الرسولَ صادقٌ ، وأَنَّ الرادَّ عليه كاذب .

١٠ – فصـــل منه

ولولا أَنَّ هذا كلامٌ لم يكن من ذكره بُدٌّ ، لأَنَّه تـأْسيسٌ لما بَعْدَه[(٢)] ، ومقدِّمةٌ[(٣)] لما بين يديه ، وتوطِئَةٌ له ، لاقتضبت الكلام فى المعرفة اقتضابا ، ولكن يمنعنى عجزُ أكثرِ النَّاسِ عن فهم غايتى فيه إلا بتنزيلهِ وترتيبه[(٤)] .

وكلُّ كلامٍ أَتيتَ على فَرْعِه ، ولم تُخْبَرْ عن أَصله فهو خِداجٌ لاغَنَاء عنده[(٥)] ، وواهنٌ لا ثباتَ له .

---

(١) فى النسختين : « من رؤية البرهان » . والوجه ما أثبت .

(٢) ب : « بد لأنه لاتأسس لما بعده » م : « بدلالة لا تأسيس لما بعده » والصواب ما استخرجت منهما .

(٣) ب : « ومقدمته » ، صوابه فى م .

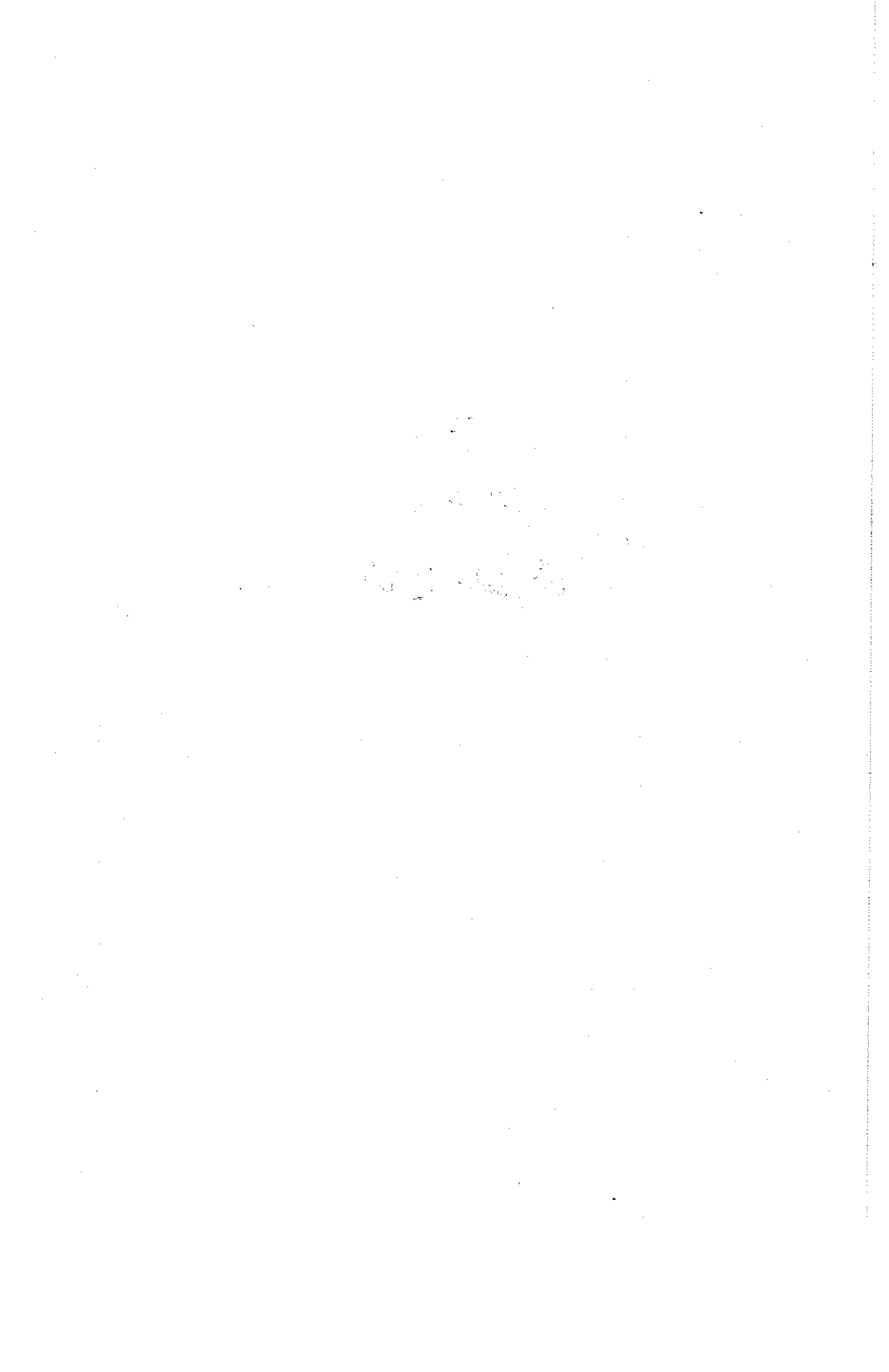
(٤) فى النسختين : « إلا تنزيله وترتيبه » ، تحريف .

(٥) الخداج : الناقص . وفى الحديث : « كل صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج » ، أى ذات خداج ، وهو النقصان . والغناء ، بالفتح : النفع والكفاية . ب : « لاغنى عنده » م : « لاغيا عنده » ، تحريف .

١٤

من رسالة في

المعاد والمعاش



فصــل

١ – من صدر كتابه فى المعاد والمعاش[١]

أمَّا بعدُ فإنَّ جماعاتِ أهل الحكمة قالوا :

واجبٌ على كلّ حكيم أن يُحسِنَ الارتياد لموضع البُغْية ، وأن يتبيَّن أسبابَ الأُمورِ ، ويمهِّدَ لعواقبها .

فإنَّما حُمِدت العلماءُ بحسن التثبُّت فى أوائِل الأُمور ، واستشفاقهم[٢] بعقولهم ما تجىء به العواقب[٣] ، فيعلمون عنداستقبالها ماتَؤُولُ به الحالاتُ فى استدبارها . وبقدر تفاوتهم فى ذلك تستبين فضائِلهم .

فأَمَّا معرفةُ الأُمور عند تكشُّفها ، وما يظهر من خفيَّاتها . فذلك أَمرٌ يعتدلُ فيه الفاضل والمفضول ، والعالم والجاهل .

وإنِّى قد عَرَفْتُك – أكرمك الله – فى أَيَّام الحَدَاثة ، وحَيْث[٤] سلطانُ الهوى المخلِّط للأَعراض أَغلبُ على نظرائك ، وسُكرُ الشَّباب

(١) هذا الكتاب مما سقط من نسخة ط . وقد سبق نشره كاملا فى الجزء الأول من الرسائل ٨٧ – ١٣٤ . وعنوانه فيما سبق « المعاش والمعاد » . وقد لحظت فى الفصل الثانى من هذه الاختيارات أن الجاحظ قد قدم « المعاد » على « المعاش » كما هنا . والنص فيه : « فرأيت أن أجمع لك كتاباً من الأدب جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش . وقد وجدت أن أكثر تصويباتى مطابقة لما فى الرسائل .

(٢) ب : « واشتقاقهم » ، صوابه فى م والرسائل .

(٣) فى النسختين : « ماتجرى به العواقب » ، والوجه ما أثبت ، كما فى الرسائل .

(٤) فى النسختين : « وخبث » ؛ صوابه ما أثبت من الرسائل .

والجِدَة[١] المتحيِّفَين للدِّين والمروءة مستولٍ على لِدَاتك[٢]. ففقتَهُم[٣] ببسطةِ المقدرة ، وحُميَّا الحَدَاثة ، وفضلِ الجِدة[٤] ، مع ما[٥] تقدَّمْتَهم به من الوَسامة فى الصورة ، والجمالِ فى الهيئة .

وهذه أسبابٌ تكاد أن توجبَ الانقيادَ للهوى ، وتُلجِّج فى المهالك[٦] ولا يسلم معها إلَّا المنقطع القرينِ فى صحَّة الفِطرة ، وكمال العَقْل .
فاستعبدَتْهُم الشَّهواتُ حتَّى أعطَوْها أَزِمَّة أديانهم ، وسلَّطوها على مُروءاتِهم وأباحُوها أعراضَهم ، فآلت بأكثرهم الحالُ إلى ذُلِّ العُدْم ، وفَقْدِ عِزِّ الغنى فى العاجل ، مع النَّدامة الطويلةِ والحسرةِ فى الآجل .

وخرجتَ نسيجَ وَحْدِك أَوحَدِيًّا[٧] فى نفسك ، حكَّمت وَكيلَ اللهِ عندك – وهو عَقْلُك – على هواك ، وألقيتَ إليه أزمَّة أمرِك ، فسلَكَ بك طريقَ السلامة ، وأسلمَكَ إلى العاقبة المحمودة ، وبلغَ بك من نيل اللَّذَّات أكثرَ ممَّا بلَغُوا[٨] ، ونالَ بك من الشَّهوات أكثر ممَّا نالوا ، وصَرَّفَك

---

(١) الجدة : الغنى الذى لافقر بعده ، يقال وجد يجد جدة : أيسر واتسعت حاله . يقول أبو العتاهية فى ديوانه ٤٤٨ :

* علمت يامجاشع بن مسعــــده *
* أن الشباب والفراغ والجده *
* مفسدة للمرء أى مفسده *

وفى النسختين : « الحدة » ، تحريف .

(٢) اللدات : جمع لدة ، وهو الترب المقارب فى العمر والولادة . وفى النسختين : « لذاتك » ، تحريف مافى الرسائل .

(٣) ب « ففقهتهم » ، صوابه فى م .

(٤) فى النسختين : « الحدة » بالمهملة . وانظر ماسبق فى الحواشى .

(٥) ب : « ممن » ، صوابه فى م .

(٦) المعروف لجج تلجيجاً : خاض اللجة . وكذلك لججت السفينة : أى خاضت اللجة . فهو فعل لازم . وقد استعمله الجاحظ هنا متعدياً . وفى الرسائل : « ولجج من المهالك » .

(٧) الأوحدى : نسبة إلى الأوحد ، أى الوحيد . الجوهرى : « يقال لست فى هذا فى هذا الأمر بأوحد ، ولا يقال للأنثى وحداء » . وفى النسختين : « أوحدياً » بالباء الموحدة ، صوابه ما أثبت من الرسائل .

(٨) فى النسختين : « أكثر مايلغوا » ، صوابه فى الرسائل .

من صُنوف النعم فى أكثَرَ ممَّا تصرفوا ، ورَبَط عليك من نِعَم الله التى خوَّلك ماأطلقَه من أيديهم إيثارُ اللَّهو(١) ، وتسليطُهم الهَوى [على أنفسهم(٢)] فخَاضَ بك تلك اللُّجَجَ ، واستنْقَذَك من تلك المعاطب(٣) ، فأخرجكَ سليمَ الدِّين ، وافر المُروءة ، نقىَّ العِرض ، كثير الثَّراء ، بَيِّنَ الجِدَة(٤) . وذلك سبيلُ مَن كان مَيْلُه إلى الله أكثرَ من مَيْلِهِ إلى هواه .

فلم أزَلْ فى أحوالك كُلِّها تلك بفضيلتك عارفاً ، ولَكَ بنِعَم الله عندك غابطاً ، أرَى ظواهَر أمرِك المحمودَة تدعونى إلى الانقطاع إليك ، وأسأل عن بواطن أحوالك(٥) فيزيدنى رغبة فى الاتِّصال بكَ ، ارتياداً منِّى لموضِع الخِيَرة(٦) فى الأُخُوَّة ، والتماساً لإصَابة الاصطفاء فى المودَّة ، وتخيُّراً لِمُستودَع الرَّجاءِ فى النائِبة .

فلمَّا مَحَصَتْك الخِبْرة(٧) ، وكشَفَ الابتلاءُ عن المحمدة ، وقضت لك التَّجارب بالتَّقدمة ، وشهدت لك قلوبُ العامَّة بالقَبول والمحبَّة ، وقَطَع اللهُ عُذْرَ من كان يطلب الاتصال بك ، طلبتُ الوسيلةَ إليك والاتِّصال بحَبْلك ، ومتَتُّ بحرمة الأدب(٨) وذِمام كرمِك(٩) .

(١) فى النسختين : « من إيثار اللهو » ، والوجه ما أثبت من الرسائل .

(٢) التكملة من الرسائل .

(٣) المعاطب : المهالك . م : « المعاطف » ، صوابه من الرسائل .

(٤) ب : « كثير البر من الجدة » م : « كثير أكثر من الجدة » ، صوابهما ما أثبت من الرسائل .

(٥) هذا ما يقابل « ظواهر أمرك » السابقة . وفى النسختين : « تواطىء أحوالك » ، تحريف ما أثبت من الرسائل .

(٦) الخيرة : الاختيار . وفى النسختين : « لموضوع الخيرة » ، وإنما يرتاد الموضع والمكان ، فالصواب ما أثبت من الرسائل .

(٧) محصه محصاً ومحصه تمحيصاً : خلصه مما يشوبه أو يعيبه . ومثله محضه محضاً فهو ممحوض ومحض . وفى الرسائل : « محضتك الخبرة » .

(٨) المت : التوسل بقرابة أو بحرمة . وفى النسختين : « وهتت » ، صوابه فى الرسائل .

(٩) الذمام : الحق والحرمة . ب فقط : « وزمام كرمك » ، تحريف .

وكان من نِعمة الله عندى أن جعل أبا عبدِ الله[(١)] ـ حفظه الله ـ وسيلتى إليك ، فوجدتُ المطلَبَ سهلاً ، والمُرَادَ محموداً ، وأَفضيتُ إلى ما يَجُوز الأُمنيَّة[(٢)] ويَفُوت الأَمل . فوصَلْتَ إخاءَ بمودَّتك ، وخَلَطْتَنى بنفسِك ، وأَسَمْتَنى فى مَراعِى ذوِى الخاصَّة بك[(٣)] تفضُّلا لامجازاة ، وتطوُّلاً لا مُكافاة ، فأَمِنْتُ الخطوب ، واعتلَيْتُ على الزَّمان ، واتَّخذتُك للأحداث عُدَّةً ، ومن نوائب الدَّهر حِصناً منيعاً .

فلما جَرَت المُؤانَسةُ[(٤)] ، وتقلَّبْتُ من فضلك فى صنوف النِّعمة ، وزاد تصرُّفى فى مواهبك[(٥)] فى السُّرور والحَبْرة[(٦)] ، أَردت خِبْرَةَ المشاهدة فبلوتُ أَخلاقَك ، وامتحنتُ شِيَمك ، وعَجَمتُ مذاهِبَك ، على حينِ غَفَلاتِك ، وفى الأَوقات التى يقلُّ فيها تحفظُّك، أُراعى حركاتِك[(٧)] ، وأُراقب مخارجَ أَمرك ونهيك ، فأَرى [من[(٨)]] استصغارك لعظيم النعمة التى تنعم بها ، واستكثارِك لقايل الشُّكر من شاكريك ، ما أَعرِف به وبما قد بلوت من غيرك[(٩)] وما قد شهدَتْ لى به عليك التجارب[(١٠)] ، أَن ذالك منك طبعٌ غير تكلُّف .

هيهاتَ مايكاد ذو التكلُّف أَنْ يَخْفَى على أَهل الغَباوة ، فكيف على مثلى من المتصفِّحين ؟

---

(١) الظاهر أنه أبو عبد الله أحمد بن أبى دواد .
(٢) فى النسختين : «تجوز الأمنية» ، صوابه فى الرسائل .
(٣) فى النسختين : « بل » ، صوابه من الرسائل .
(٤) فى الرسائل : « حزت المؤانسة » .
(٥) فى الرسائل : « وزاد بصرى من مواهبك » .
(٦) الحبرة ، بفتح الحاء ، وبالتحريك : السرور ، كالحبور . وفى النسختين : « الخبرة » ، صوابه فى الرسائل .
(٧) ب : « جرآتك » م : « حراتك » ، صوابهما فى الرسائل .
(٨) التكملة من الرسائل .
(٩) فى النسختين : « أعرف بما قد بلوت من غيرك» ، فقط . وتكملة العبارة من الرسائل.
(١٠) م : « وماقد شهدت لى به التجارب عليك » . و « عليك » ساقطة من الرسائل .

٢ – فصــــل منه

ولم أزَلْ – أبقاك الله – بالموضع الذى عرفْتَ من جَمْع الكُتُب ودراستها والنّظر فيها . ومعلومٌ أنَّ طُولَ دراستِها إنمّا هو تصفُّح عقول العالمين ، والعلمُ بأخلاق النبيِّين – صلوات الله تعالى عليهم أجمعين – وذَوِى الحكمة من الماضينَ والباقين من جميع الأُمم ، و كتبِ أهل الملل .

فرأيتُ أن أجمَع لك كتاباً من الأَدب ، جامعاً لعلْمٍ كثيرٍ من أمر المعاد والمعاش ، أَصِفُ لك فيه عِلَل الأَشياء ، وأُخبرُك بأَسبابها ، وما اتَّفقت عليه مَحاسِنُ الأُمم . وعلمتُ أنَّ ذلك من أعظمِ ما أَبَرُّكَ به[(١)] ، وأرجحِ ما أتقرَّبُ به إليك .

وكان الذى حدانى إلى ذلك[(٢)] ما رأَيت الله تعالى قسَمَ لك من العَقْل والفهم ، ورَكَّب فيك من الطبع الكريم .

وقد اجتمعت الحكماءُ على أنَّ العقل المطبوع والكرم الغريزيَّ ، لايَبلُغان غايةَ الكمال إلّا بمعاونة العقل المكتسب[(٣)] ، ومثَّلوا ذلك بالنار والحَطَب ، والمِصباح والدُّهن ، وذلك أنَّ العقل الغريزىَّ آلة والمكتَسَب مادَّة ، وإنّما الأَدب عَقْلُ غيرِك تزيدُه فى عقلك .

ورأَيتُ كثيراً من واضعى الأَدب[(٤)] قبلى ،قد عهدوا إلى الغابرين بعدهم فى الآداب عهوداً قاربوا فيها الحقَّ ، وأَحسنوا فيها الدَّلالة . إلّا

---

(١) ب : « ما أترك به » م : « مآثرك به » ، والوجه ما أثبت من الرسائل .

(٢) الرسائل : « على ذلك » .

(٣) فى النسختين : « إلا بمعاينة العقل المكتسب » ، صوابه فى الرسائل .

(٤) فى الرسائل : « الآداب » .

أنِّي رأيتُ أكثَر مَا رسموا من ذلك فرُوعاً لم يبيِّنوا عِلَلَها . . وصفاتٍ حسنةً لم يَكشِفوا أسبابَها ، وأُموراً محمودة لم يدُلُّوا على أصولها .

فإنْ كانَ ما فعلوا من ذلك رواياتٍ روَوْها عن أسلافهم ، ووراثاتٍ وَرِثُوها عن أكابرهم فقد قاموا بأداءِ الأمانة ، ولم يَبلُغوا فَضِيلةَ مَن [طَبَّ لِمَن(١)]استطبَّ ، وإنْ كانوا تركوا الدَّلالةَ على علل الأُمور ، التي(٢) بمعرفةعِلَلها يُوصَل إلى مباشرة اليقين فيها ، ويُنْتَهَى إلى غاية الاستبصار مِنْها ،فلم يَعْدُوا فى ذلك مَنزلةَ الظنِّ بها(٣) .

ولم تَجِدْ(٤) وصايا أنبياءِ الله تعالى أبداً إلّا مبيَّنة الأَسباب ، مكشوفةَ العلل ، مضروبةً معها الأَمثال .

٣ — فصــل منه

ولن أَدَعَ(٥) من تلك المواضع الخفيَّة موضعاً إلاَّ أَقمتُ لك بها(٦) بإزاءِ كلِّ شبهة منه دليلاً ، ومع كلِّ خفيٍّ من الحقِّ حجةً ظاهرة ، تستنبطُ بها(٧) غوامضَ البرهان ، وتستثير بها(٨) دفائن الصواب ، وتستشفُّ بها سرائر القُلوب(٩) ، فتأْتى بما تأْتى عن بيِّنة ، وتَدَعُ ماتدَع

(١) تكملة ضرورية . طب : وصف الدواء والعلاج . واستطب : طلب ذلك .
(٢) فى النسختين : « والتى » ، والواو مقحمة .
(٣) فى النسختين : « الضن بها » ، صوابها فى الرسائل .
(٤) فى الرسائل : « ولن تجدوا » .
(٥) الرسائل : « فلم أدع » .
(٦) بها ، من م . وليست فى ب ولا الرسائل .
(٧) فى النسختين : « يستنبط به » ، والصواب ما أثبت . وقد استمرت العبارة فى النسختين إلى آخر هذا الفصل بالتعبير بالغيبة ، وإنما هو خطاب كما فى الرسائل .
(٨) ب : « ويستثنى بها » ، م : « ويستثير بها » ، والوجه ما أثبت . وفى الرسائل : « وتستبين بها دقائق الصواب » .
(٩) فى النسختين : « ويستشف بها سوائر القلوب » ، والوجه ما أثبت .

عن خِبْرة . ولا يكون بك وحشةٌ إلى معرفةِ[(١)] كثيرٍ ما يغيب عنك
إذا عرفتَ العلل والأسباب ، حتّى كأنَّكَ مشاهدٌ لِضميرِ كلِّ امرئٍ
لمعرفتك بَطْبعِه وما رُكِّب عليه .

٤ – فصـــل منه[(٢)]

اعلمْ أنَّك إذا أهملتَ ما وصفتُ لك عرضتَ تدبيرَك إلى الاختلاط ،
وإن آثرتَ الهُوَيْنَى ، واتّكلت على الكفاية فى الأمر الذى لا يجوز فيه
إلاّ نظرُك ، وزَجَّيتَ [(٣)] أمرك على رأيٍ مدخول ، وأَصلٍ غيرِ محكم ،
رجَعَ ذلك عليكَ بما لو حُكِّم فيه عدوُّك [(٤)] كان ذلك غايةَ أُمنيَّته
وشفاءَ غيظه .

واعْلَمْ أنَّ إجراءَكَ الأُمورَ مَجارِيَهَا ، واستعمالَكَ الأَشياءَ على وُجوهها ،
يجمعُ لك أُلفةَ القُلوب ، فُيعامِلُك [(٥)] كل من عاملك بمودَّة ، وأَخذٍ
وإعطاءٍ [(٦)] ، وهو على ثقةٍ من بَصَرِكَ [(٧)] بمواضعِ الإنصاف [(٨)] ، وعِلمِك
بموارد الأُمور .

---

(١) التكملة من الرسائل .

(٢) انظر الرسائل ١ : ١٠٥

(٣) التزجية : السوق والدفع . فى النسختين : « ورجيت » بالراء المهملة ، صوابه من الرسائل .

(٤) الرسائل : « فيك عدوك » .

(٥) فى النسختين : « ويعاملك » ، والوجه ما فى الرسائل .

(٦) فى الرسائل : « أو أخذ أو إعطاء » .

(٧) فى النسختين : « من نصرك » ، تحريف .

(٨) مابعده إلى نهاية هذا الفصل منطمس فى التيمورية .

٥ – فصـــل منه[١]

فإن ابتُلِيتَ في بعض الأَوقات بمن يتقرَّب بحرمة [٢]، ويمتُّ بدالَّة ، يَطلُب المكافأةَ[٣] بأَكثر مما يستوجب ، فدعاكَ الكرمُ والحياءُ إلى تفضيله على[٤] من هو أَحقُّ به ، إمّا خوفاً من لسانه ، أو مداراةً لغيره ، فلا تَدَعْ الاعتذارَ إلى مَن هو فوقَه من أَهل البلاء والنَّصيحة [٥] وإظهارَ ما أَردتَ من ذلك لهم [٦]؛ فإنَّ أَهل خاصَّتك والمؤتَمَنِينَ على أَسرارك ، هم شركاؤُك في العيش ، فلا تستهينَنَّ[٧] بشيءٍ من أمورهم ، فإنَّ الرجل قد يترك الشيءَ من ذلك اتِّكالاً على حُسنِ رأْيِ أَخيه ، فلا يزال ذلك[٨] يجرح في القلب ويَنمو ، حتَّى يولِّد ضِغناً ويَحُولَ عداوةً .

فتَحفَّظْ من هذا الباب ، واحملْ إخوانَك عليه بجهدك .

وستجد من يتَّصل بك ممن يغلبه إفراط الحرص[٩] ، وحُمَيَّا الشَّرَهِ ، ولينُ جانبك له ، على أَنْ يَنْقِمَ العافيةَ ، ويطلبَ اللُّحوق بمنازل من ليس مثلَه[١٠] ، ولا له مثلُ دالَّته ، فتَلْقاه لما تَصنع به مستقِلاً . ولمعروفك مُستصغِرا .

وصلاحُ مَن كانت هذه حالَه بخلافِ ما فسَدَ عليه أمره .

---

(١) الرسائل ١ : ١٠٨ .
(٢) الرسائل : « بمن يضرب بحرمة » .
(٣) ب فقط : « المكافآت » .
(٤) ب فقط : « إلى » ، تحريف .
(٥) م : « البلاد والنصيحة » ، تحريف .
(٦) في النسختين : « ممن ذلك لهم » ، صوابه في الرسائل .
(٧) في النسختين : « لا تستهينن » ، وإثبات الفاء من الرسائل .
(٨) في النسختين : « كذلك » .
(٩) في النسختين : « الحزم » ، صوابه في الرسائل .
(١٠) في الرسائل : من ليس هو مثله » .

فاعرفْ طرائِفِهِم وشِيَمَهم ، وداوِ كلَّ مَنْ لا بدَّ لك من معاشرته ، بالدَّواءِ [١] الذى هو أَنجَعُ فيه ، إنْ ليناً فلِيناً ، وإنْ شدَّةً فشِدَّة ، فقد قيل فى مثل :

مَن لايؤدِّبْهُ الجميـــــلُ ففى عُقوبَتِهِ صَلاحُه [٢]

٦ – فصـــل منه [٣]

واعلم أَنَّ المقادير ربَّما جرَتْ بخلاف ما تُقدِّر الحكماء [٤] ، فينالُ بها الجاهلُ فى نفسِه ، المختلِطُ في تدبيره ، ما لا ينال الحازم الأَريبُ الحذِر ، فلا يدعونَّك [٥] ما ترى من ذلك إلى التَّضييع والاتِّكال على مثلِ تلك الحال ؛ فإِنَّ الحكماءَ قد اجتمعت على [أنَّ [٦]] مَن أَخَذَ بالحزم وقَدَّم الحَذَر ، فجاءت المقاديرُ خِلافَ ما قدَّر [٧] ، كان عندهم أَحمَدَ رأْيًا ، وأَوجبَ عُذْراً ممَّن عَمِل بالتَّفريط ، وإن اتَّفقتْ له الأُمورُ على ما أَراد .

ولا تكونَنَّ بشيءٍ ممَّا فى يدك أَشدَّ ضِنًّا ، ولا عليهِ أَشدَّ حَدَباً منك بالأَخِ الذى قد بلوتَه بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ [٨] فعرفتَ مذاهِبَه ، وخَبَرْتَ شِيَمه ، وَصَحَّ لك غَيْبُه ، وسلمَتْ لك ناحيتُه ، فإِنَّه شقيقُ رُوحِكَ ، وبابُ الرَّوْحِ إلى حياتك ، ومُسْتمدُّ رأْيك وتَوْأَمُ عَقْلك .

---

(١) فى النسختين : « فالدواء » ، صوابه من الرسائل .

(٢) ورد البيت بهيئة النثر فى النسختين . وقد نسب إلى هارون الرشيد فى العقد ٥ : ٦٠ أو لعله تمثل به . ورواية العقد : « من لم يؤدبه » .

(٣) الرسائل ١ : ١٢١ .

(٤) ب : « ما يقدر الحكماء » .

(٥) فى النسختين : « لا يدعونك » ، وأثبت ما فى الرسائل .

(٦) التكملة من الرسائل .

(٧) فى الرسائل : « بخلاف ما قدر » .

(٨) الرسائل : « فى السراء والضراء » .

ولستَ منتفعاً بعيشٍ مع الوَحْدة ، ولابدَّ من المُؤانسةِ .

وكثرةُ الاستبدالِ يَهجُمُ بصاحبه على المكروه .

فإن صفا لك أَخٌ فكن به أَشَدَّ ضِنًّا منكَ بنفائِسِ أموالك ، ثمَّ لايُزَهِّدنك فيه أن ترى خُلقاً أو خُلُقينِ تكرهُهما ، فإنَّ نَفسكَ التى هى أَخصُّ النفوس بك لاتُعطيك المَقادة فى كلِّ ما تريد[1] ، فكيف[2] بنفسِ غيرك .

وبحسبك أن يكون لك من أَخيكَ أكثرُه . وقد قالت الحكماءُ : « من لك بأَخيك كلِّه[3] » . و : « أَىُّ الرِّجالِ المُهذَّبُ[4] » .

٧ ــ فصــل منه[5]

واعلم أنَّك موسومٌ بِسِيمَا من قارَنْتَ ، ومنسوبٌ إليك أفاعيلُ مَن صاحَبْت . فتحرَّزْ من دُخلاء السَّوءِ ، وأَظْهِرْ مجانبةَ أهلِ الرِّيَب[6] ، وقد جَرَتْ لك فى ذلك الأَمثال ، وسُطِّرت فيه الأَقاويل[7] ، فقالوا : « المرءُ حيثُ يَجْعَل نَفْسَه[8] » .

---

(١) فى النسختين : « التى لا تعطيك » وكلمة « التى » مقحمة . وفى ب « القارة فى كلما تريد » م : « القادة فى كل ما تريد » ، صوابهما ما أثبت من الرسائل . والمقادة : الانقياد والمطاوعة .

(٢) فى النسختين : « وكيف » .

(٣) قائله أكثم بن صيفى ، كما فى المعمرين للسجستانى ١٢ . وورد فى جمهرة العسكرى ١ : ٣١٠ / ٢ : ٢٨٣ بدون نسبة . ونظمه أبو تمام فقال :

ما غبن المغبون مثل عقله   من لك يوماً بأخيك كله

(٤) من قول النابغة الذبيانى فى ديوانه ١٤ :

ولست بمستبق أخاً لاتلمه   على شعث أى الرجال المهذب

(٥) رسائل الجاحظ ١ : ١٢٦ .

(٦) الرسائل : « ومجالسة أهل الريب » .

(٧) الرسائل : « وسطرت لك فيه الأقاويل » .

(٨) ومنه قول منقر بن فروة فى البيان ٢ : ١٠٣ و ٣ : ٢٢٨ :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه   فى صالح الأخلاق نفسك فاجعل

وقالوا : « يُظَنُّ بالمرءِ مايُظَنُّ بقرينه » .

وقالوا : « المرءُ بشكله»، و«المرءُ بأليفه » .

ولن تقدِرَ أن تتحرَّزَ من الناس(١)، ولكن أَقِلَّ المؤانسةَ إلّا بأهل البراءةِ من كلِّ دَنَس .

واعلَم أنَّ المرءَ بقَدْرِ مايسبِقُ إليه يُعْرَف ، وبالمستفيض من أفعاله يُوصَف . فإنْ كان بين ذلكَ كثيرٌ من أخلاقه(٢) ألغاه النّاس ، وحكموا عليه بالغالبِ من أمره .

فاجَهْد أن يَكونَ(٣) أغلبُ الأشياءِ على أفعالِك كلَّ ما يَحْمَدهُ العوامُّ ولا تذُمُّه الجماعات ، فإنَّ ذلك يُعفِّي على [كلِّ(٤)] خللٍ إن كان .

فبادِرْ ألسنةَ النَّاس واشْغَلْها(٥) بمحاسِنِك ، فإنَّهم إلى كلِّ سيِّئٍ(٦) سِراعٌ ،واستظهِرْ على مَنْ دونك بالتفضُّل ، وعلى نظرائك بالإنصاف ، وعلى كلِّ مَن فوقك بالإجلال ، تأْخُذْ بوثائِق الأُمور وبأَزِمَّةِ التَّدبير .

---

(١) ب : « تحترز من الناس » . الرسائل : « ولن تقدر على التحرز من جماعة الناس » .

(٢) الرسائل : « من أفعاله » .

(٣) فى النسختين : « أن تكون » .

(٤) التكملة من الرسائل .

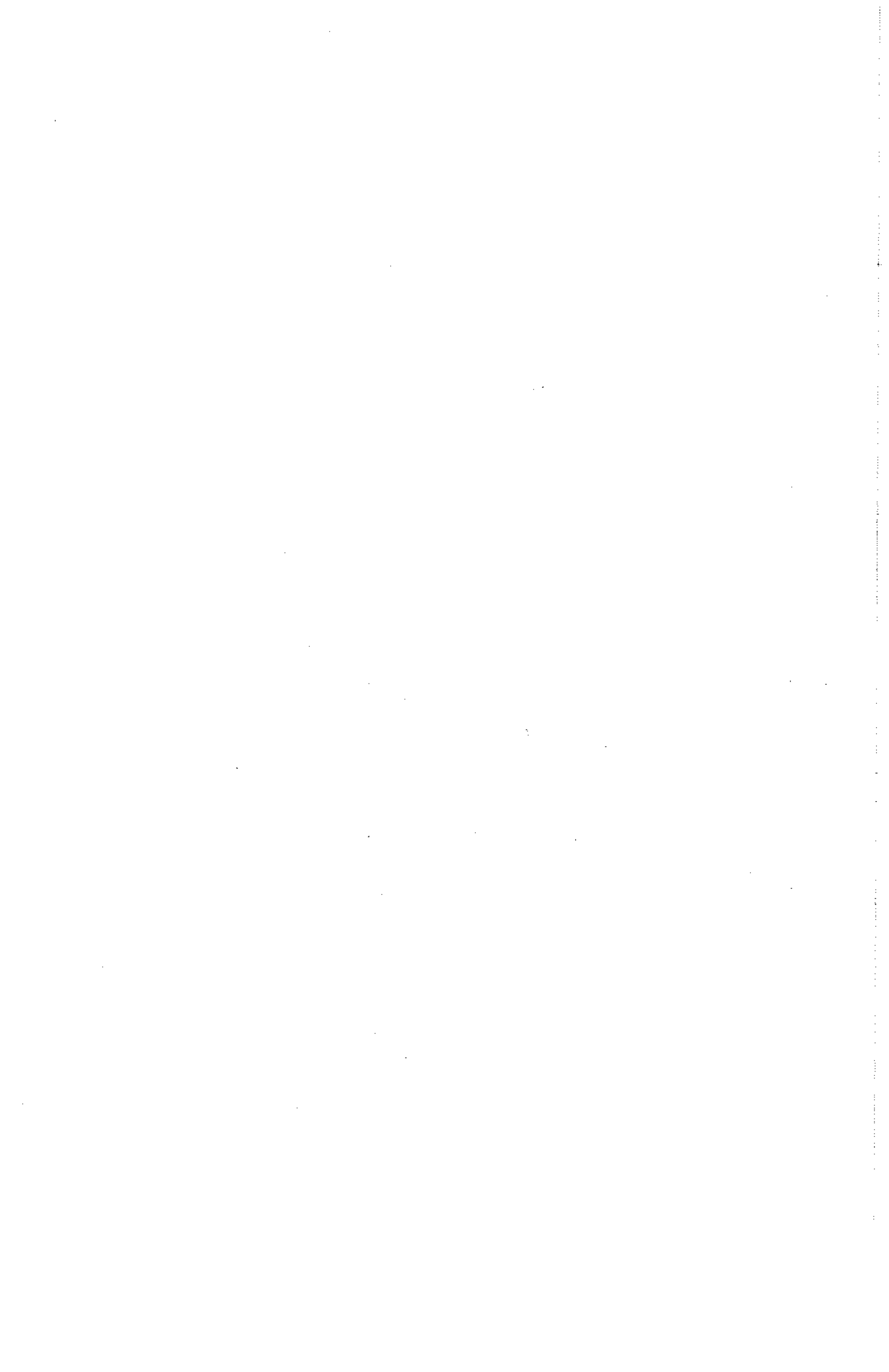
(٥) الرسائل : « فاشغلها » .

(٦) الرسائل : « إلى كل شيء »، وصححتها هناك بما أثبت هنا . وفى النسختين : « إلى كل شر » .

١٥

من رسالة فى

الجد والهزل



١ ــ فصــــل

من صدر رسالته إلى محمد بن عبد الملك

فى الجد والهزل[١]

جُعلت فداك ، ليس من اختيارى[٢] ، النَّخْلَ على الزَّرع[٣] . أقصيتَنى ، ولا على مَيْلى إلى الصَّدَقة دونَ إعطاء الخَرَاج عاقبتَنى ، ولا لبُغْضٍ دفع الإتاوة والرضا بالجِزْية حَرَمتَنى . ولست أدرى لم كرِهتَ قُرْبى ، وهَوِيت بُعْدِى ، واستثقلْتَ روحى ونَفْسى ، واستطلت عُمرى وأيَّام مُقامِى ؟ ولِمَ سرَّتْكَ سيِّئَتى ومصيبتى ، وساءتك حَسَنتى وسلامتى ؟ نعم ، حتَّى ساءك عَزائى وتجمُّلى ، بقدر ما سَّرك جزعى وتضجُّرى ، وحتَّى تمنَّيتَ أن أُخطِئَ عليك ، فتجعل خطائى[٤] حجّةً لك فى إبعادى[٥] ، وكرهتَ صوابى فيك خوفاً من أن تَجعله ذريعةً إلى تقريبى[٦] .

فإنْ كان ذلك هو الذى أَغضبك ، وكان هو السَّببَ لمَوجِدتك ، فليس ــ أبقاك الله ــ هذا الحقدُ فى طبقةِ هذا الذَّنب ، ولا هذه المُطالبةُ من شكل هذه الجريمة .

---

(١) هذه الرسالة مما سقط أيضاً من نسخة ط . وسبق نشرها كاملة فى ١ : ٢٢٧ ــ ٢٧٨ .

(٢) فى الرسائل : « ليس من أجل اختيارى » .

(٣) ألف الجاحظ كتاب (الزرع والنخل) لإبراهيم بن العباس الصولى المتوفى سنة ٢٤٣ فنحه خمسة آلاف دينار ، كما ألف كتاب (الحيوان) لمحمد بن عبد الملك الزيات فنحه مثلها . وكتاب (البيان والتبيين) للقاضى أحمد بن أبى دواد فنحه كذلك . معجم الأدباء ١٦ : ١٠٦ . وجاء فى الحيوان ١ : ٤ نظير هذا النص موجهاً إلى محمد بن عبد الملك الزيات : « وعبتنى بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب » .

(٤) الخطاء ، كسحاب : الخطأ ، ضد الصواب . وانظر الرسائل ١ : ٣٥٣ . كما استعمل الجاحظ الكلمة بهذه الصورة فى الحيوان ١ : ٢١٣ / ٣ : ٢٥٨ ، ٣٠٠ . وفى النسختين : « فتعجل » صوابه فى الرسائل .

(٥) م فقط : « إيعادى » .

(٦) هذا ما فى الرسائل . وفى النسختين : « تقرنى » ، تحريف .

٢ – فصـــل منها(١)

فأىَّ شيءٍ أبقيتَ للعدوِّ المكاشِف . وللموافِق الملاطِف(٢) ، وللمعتمِد المُصِرّ ، وللقادر المُدِلّ ؟

ومن عاقبَ على الصَّغير بعقُوبة الكبير ، وعلى الهَفْوة بعقوبة الإصرار ، وعلى الخطأ بعقوبة العَمْد ، وعلى معصية المتستِّر بعقوبة المُعْلِن . ومَن لم يفرِقْ بين الأعالى والأسافل ، وبين الأقاصى والأدانى ، عاقبَ على الزِّنى بعقوبة السَّرقة . وعلى القَتْل بعقوبةِ القَذْف . ومن خرجَ إلى ذاك فى باب العِقاب ، خرج إلى مثلِهِ فى باب الثَّواب .

ومن خرجَ من جميع الأوزانِ . وخالَف جميعَ التَّعديل كان بغَايةِ(٣) العِقاب أحقّ ، وبه أولى .

والدَّليلُ على شدَّة غَيظِك وغَلَيانِ صَدْرك، قُوّةُ حركتك ، وإبطاءُ فترتك ، وبُعْدُ الغاية فى احتيالك .

ومن البُرهان على بيان الغَضَب وعلى عِظَم الذَّنْب ، تمكُّن الحقد ورسوخُ الغَيظ، وبُعْدُ الوَثْبة وشدَّة الصَّولة . وهذا البرهانُ صحيحٌ ما صحّ النَّظم ، وقام التَّعديل ، واستوت الأسباب .

ولا أعلم ناراً أبلَغَ فى إحْراق أهلها من نار الغَيْظ ، ولا حركةً أنقضَ لقُوَى الأبدانِ من طلب الطوائِل(٤) ، مع قلَّة الهدوءِ . والجهلِ بمنافع الجَمَام(٥) ، وإعطاءِ الحالاتِ أقسامَها من التَّدبير .

(١) ب : « منها » فقط ، بإسقاط كلمة « فصل » .
(٢) فى الرسائل : « والمناطق الملاطف » .
(٣) ب : « فى غاية » .
(٤) الطوائل : جمع طائلة ، وهى الوتر والذحل ، يقال طلب بنى فلان بطائلة ، أى بوتر كان له فيهم . م : « من طلب التعديل » ، صوابه فى ب والرسائل .
(٥) الجمام ، كسحاب : الراحة . وفى النسختين : « الحمام » تصحيف .

ولا أعلم تجارةً أكثر خُسراناً ولا أخفَّ ميزاناً . من عداوةِ العاقِلِ العالِمِ . وإطلاق لسان الجليسِ والمُداخِلِ . والشِّعارِ دونَ الدِّثار[1] ، والخاصِّ دونَ العامّ .

والطالبُ – أبقاكَ الله[2] – بِعَرَضِ ظفرٍ مالم يَخرج المطلوبُ ، وإليه الخيار[3] ما لم تَقَع المُنازَلة .

ومن الحَزْم ألَّا تَخرجَ [إلى[4]] العدوِّ إلَّا ومعك من القُوَى مايَغْمُر الفَضْلة التى يُتيحُها له[5] الإخراج ، ولابدَّ – أيضاً – من حزمٍ يحذِّرك مَصارِعَ البَغْى ، ويخوِّفُك ناصرَ المطلوب[6] .

٣ – فصــل منها

واللهِ لقد كنتُ أكره لك سَرَف الرِّضا ، مخافة جواذبه إلى سَرَف الهوى ، فما ظَنُّك بسرَف الغَضَب . وبِغَلَبة الغَيْظ ، ولا سيِّما ممَّن تعود [إهمالَ[7]] النَّفسِ ولم يعوِّدُها[8] الصَّبْرَ ، ولم يعرِّفها موضِعَ الحظِّ فى تجرُّع مرارةِ العفو[9] . وإنَّما المرادُ[10] من الأُمور عواقبُها لاعواجلها .

---

(١) ب : « الدسار » ، تحريف . والشعار : ماولى شعر جسد الإنسان ، دون ماسواه من الثياب . والدثار : ماكان من الثياب فوق الشعار . وفى المثل : « هم الشعار دون الدثار » وصف بالمودة والقرب . وفى حديث الأنصار : « أنتم الشعار والناس الدثار » .

(٢) فى الرسائل : « جعلت فداك » .

(٣) فى النسختين : « إليه الخيار » بإسقاط الواو الثابتة فى الرسائل .

(٤) التكملة من الرسائل .

(٥) الرسائل : « ينتجها له » .

(٦) أى من تطلبه من الأعداء .

(٧) التكملة من الرسائل .

(٨) ب : « ولن يعودها » م : « ولا يعودها » ، ووجهه من الرسائل .

(٩) فى النسختين : « مرارته » فقط ، صوابه فى الرسائل .

(١٠) الرسائل : « وأن المراد » .

وقد كنتُ أُشفِقُ عليك من إفراط السرور . فما ظنُّك بإفراط الغيظ . وقد قال الناس: « لا خَيْرَ فى طول الرَّاحة إذا كان يورث الغَفْلة ، ولا فى طول الكفاية[1] إذا كان يُؤدِّى إلى المَعْجَزة . ولا فى كثرة الغِنى إذا كان يُخرج إلى البلْدة[2] .

جُعِلتُ فِداك – إنَّ داءَ الْحُزن ، وإن كان قاتلا ، فإنَّه داءٌ مماطل[3] ، وسُقْمُه سقمٌ مُطاوِل ، ومعه من التمهُّل[4] بقدر قِسطِه من أناة المِرَّة السَّوداءِ . وداءُ الغَيظِ سَفيهٌ طيَّاش ، وعَجُولٌ فحَّاش ، يُعجل عن التَّوبة ، ويقطع دون الوصيَّة .

٤ – فصـــل منها[5]

ورُبَّتَ[6] كلمةٍ لا توضع إلَّا على معناها الذى جُعِلَتْ حَظَّه وصارت هى حَقَّه ، والدَّالةَ عليهِ دونَ غيره ، كالعزم والعلم ، والحلم والرِّفْق[7] ، والأَناة والمداراة ، والقصد والعَدْل ، وكالانتهاز والاهتبال[8] ، وكاليأْس والأَمَل[9] ، وكالخُرْق والعَجَلة[10] ، والمُداهنة والتسرُّع ، والغُلُوِّ والتَّقصير .

---

(١) الرسائل : « ولا فى الكفاية » .
(٢) البلدة ، بفتح الباء وضمها : البلادة ، ضد النفاذ والذكاء والمضاء فى الأمور .
(٣) ب : « داء طل » ، تحريف .
(٤) فى النسختين : « التمهيل » ، وإنما المراد التمهل ، أى البطء ، كما فى الرسائل .
(٥) رسائل الجاحظ ١ : ٢٤٣ .
(٦) فى النسختين : « دربت » ، صوابه فى الرسائل .
(٧) ب : « كالعزم والحلم ، والعلم والرفق » ، تحريف ما فى م والرسائل .
(٨) فى النسختين : « والابتهال » صوابه فى الرسائل ، وسقطت كلمة « وكالانتهاز » من الرسائل حين الطبع ، فلتثبت هناك .
(٩) فى النسختين : « والأمن » ، تحريف .
(١٠) الخرق بالضم : ضد الرفق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور . ب : « وكالحذق » تحريف .

ورُبَّ[١] كلمةٍ تدور مع واصلتها[٢] ، وَتتقلَّب مع جَارتِها، وإزاءَ صاحبتِها[٣] ، وعلى قَدْر ماتُقابلُ من الحالات وتُلاقى من الأَسباب[٤] ، كالحبِّ والبغض ، والغَضَب والرِّضا ، والعَزْم والإرادة ، والإقبال والإدبار، والجِدِّ والفُتور. لأَنَّ كلَّ هذا البابِ الأَخيرِ يكون فى الخير والشرّ ، ويكون محمودًا ويكون مذموماً .

وصاحبُ العَجَلة – أَبقاك الله[٥] – صاحبٌ لتغريرٍ ومُخاطرة[٦] ، إنْ ظَفِر لم يَحمده عاقل[٧] ، وإن لم يظفر قطَّعَتْهُ المَلاوم . والرَّيْث أخو المَعْجَزة ، ومقرونٌ بالحسرة ، وعلى مَدرَجة اللائمة .

وصاحبُ الأَناة ، إن ظفر نَفَع[٨] غَيْرَه بالغُنْم ، ونَفَعَ نفسَه بثمرة العلم، وطاب ذِكرُه ودام شُكره، وحُفِظَ فيه ولدُه . وإنْ حُرِمَ فمبسوطٌ عذره ومصوَّبٌ رأْيُه[٩] مع انتفاعه بِعلمِه، وما يَجِدُ من عِزِّ حزمه ، ونُبْل صوابِه[١٠] .

---

(١) الرسائل : « وربت » .

(٢) الرسائل : « مع خلتها » .

(٣) فى النسختين : « وإرادة صاحبها » ، صوابه من الرسائل .

(٤) فى النسختين : « ما يقابل » و « يلاقى » ، والوجه ما أثبت .

(٥) الرسائل : أعزك الله » .

(٦) م : « صاحب التغرير ومخاطرة » ، صوابه فى ب . وفى الرسائل : « تغرير ومخاطرة » .

(٧) الرسائل : « لم يحمده عالم » .

(٨) فى النسختين : « يقع » فى هذا الموضع وتاليه ، صوابهما فى الرسائل .

(٩) فى النسختين : « ومصور رأيه » تحريف ما فى الرسائل .

(١٠) ب : « من عز عزمه ونيل صوابه » ، صوابه فى م والرسائل .

٥ ـ فصـــل منها(١)

ومن كانت طبيعته مأمونةً عليه عند نفسه ، وكان دواه رائِدَه الذى لايَكذِبُه ، والمتأمِّرَ عليه دون عقله(٢) ، ولم يتوكَّل لما لايهواه على مايهوى ، ولم ينصُرْ(٣) تالد الإخوان على الطَّارف ، ولم يُنصِف المملول المُبْعَد(٤) من المُستطْرف المقرَّب(٥) ، ولم يَخَفْ أن تجتذبه العادة(٦) وتتحكَّم عليه الطَّبيعة ـ فليرسم حُجَجَهُما ويصوِّرْ صُوَرهما فى كتاب مقروءٍ(٧) أو لفظٍ مسموع ، ثمَّ يعرضْهما على جهابذة المَعَانى وأَطِبَّاءِ أدواءِ العقول . على أن لا يختار إلَّا من لا يدرِى أىَّ النَّوعين يتَّقِى ، وأيَّهما يُحامِى ، وأيُّهما داؤه(٨) ، وأيُّهما دواؤه . فإن لم يستعمل ذلك لم يَزَلْ متورِّطاً فى الخَطَاءِ(٩) مُغموراً بالذَّنب .

سمعتك وأنت تُريدنى وكأنَّك تُريد غَيرى ، أو كأنَّك تُشِير علىَّ من غير أن تَنُصَّنى ، وتقولُ : إنِّى لأَعْجَبُ ممَّن ترك دفاتر عِلْمِهِ متفرِّقة ، وكراريس دَرْسِه غيرَ مجموعةٍ ولا منظومة ، كيف يعرِّضها

---

(١) الرسائل ١ : ٢٤٥ . والكلام مسبوق هناك بقول الجاحظ : « وقال أيضاً » يعنى الدهقان الذى كان يخاطب أسد بن عبد الله القسرى .

(٢) فى النسختين : « حقه » ، صوابه فى الرسائل .

(٣) فى النسختين : « ولم يبصر » ، تحريف .

(٤) فى النسختين : « المملوك » ، صوابه فى الرسائل . وفى ب : « على المبعد » . و « على » مقحمة .

(٥) ب : « من المستظرف » صوابه فى م والرسائل . وفى النسختين : « والمقرب » بزيادة واو .

(٦) ب فقط : « تجذبه العادة » .

(٧) ب : « مقرر » تحريف ، صوابه فى م . وفى الرسائل : « مفرد » .

(٨) فى النسختين : « يداوه » ، صوابه فى الرسائل وإن كان النص فيها : « وأيهما دواؤه وأيهما داؤه » .

(٩) فى النسختين : « الخطا » ، والوجه ما أثبت . وانظر ماسبق فى حواشى ١٣ .

للتخرُّم[١] ، وكيف لا يَمنعها من التخرُّق[٢] ؟ ! .

وعلى أنَّ الدَّفتر إذا انقطعت حِزَامته[٣] وانحلَّ شَدَّاده[٤] ، وتخرَّمت رُبُطه[٥] ، ولم تكن دُونه وِقاية ، ولا دُونَه جُنَّة ، تفرَّق ورقُه ، واشتدَّ جمعه[٦] ، وعَسُر نَظْمُه ، وامتنع تأْليفه ، وضاع أكثره[٧] .

والدَّفَّتانِ أَجمع ، وضَمُّ الجلود لها أَصْوَنُ والحَزْمُ لها أَصلح .

وينبغى للأَشكالِ أن تُنْظَمَ[٨] ، والأَشباهِ أنْ تؤلَّف[٩] ؛ فإنَّ التأْليف يزيد الأَجزاءَ الحسنةَ حُسْناً ، والاجتماعَ يحدث للمتساوى[١٠] فى الضَّعف قوَّة .

٦ - فصل منها[١١]

أنت - أبقاك الله - شاعرٌ وأَنا راوية ، وأَنت طويلٌ وأَنا قصير ، وأَنت أَصلع وأَنا أَنزَعُ[١٢] ، وأَنت صاحبُ بَرَاذِينَ وأَنا صاحبُ حَمِير ،

---

(١) فى الرسائل ١ : ٢٤٦ : «للتجرم» ، من قولهم تجرم الليل ، إذا ذهب . وفى ب : «للتحزم» ، تحريف .

(٢) فى الرسائل : «من التفرق» .

(٣) الخزامة والخزام : اسم لما شد به . ب : «خرامته» صوابه فى م والرسائل .

(٤) فى النسختين : «سداده» ، صوابه فى الرسائل .

(٥) هذا ما فى الرسائل . وفى النسختين : «وكرمت ربطه» .

(٦) فى الرسائل : «وإذا تفرق ورقه اشتد جمعه» .

(٧) الرسائل : «وربما ضاع أكثره» .

(٨) ب : «وينبغى الأشكال أن ينظم» م : «وينبغى أن ينظم» ، صوابهما فى الرسائل .

(٩) أن ، ساقطة من ب . وفى الرسائل : «وللأشباه» .

(١٠) ب : «لحدث المتساوى» م : «لحديث المتساوى» ، صوابهما من الرسائل .

(١١) الرسائل ١ : ٢٦٥ .

(١٢) النزع ، بالتحريك : انحسار مقدم شعر الرأس عن جانبى الجبهة . والصلع : ذهاب الشعر من مقدم الرأس إلى مؤخره ، وكذلك إن ذهب وسطه . والموضع منهما النزعة والصلعة بالتحريك فيهما ، وبالضم أيضاً فى الصلعة .

وأنت ركينٌ وأنا عَجُول . وأنت تدبِّر نَفْسَك[١] وتقيم أَوَد غيرك ، وتتّسع لجميع الرعيَّة ، وتبلُغ بتدبيرك[٢] أقصى الأُمَّة . وأنا أعجز عن تدبيرى[٣] وعن تدبير أَمَتِى وعَبْدى . وأنت منعمٌ وأنا شاكر[٤] ، وأنت مَلِكٌ وأنا سوقة . وأنت مُصطنِعٌ وأنا صنيعَةٌ[٥] ، وأنت تفعلُ وأنا أَصِف . وأنت متقدِّم[٦] وأنا تابع ، وأنت إذا نازعتَ الرِّجالَ وناهضْت الأَكْفاءَ لم تقل بعد فراغك وانقطاع كلامك : لو كنتُ قلتُ كذا لكان أَجوَد ، ولو تركتُ قولَ كذا كان أحسن . وأَمضَيْتَ الأُمورَ على حقائقها ، وسَلَّمت إليها أقساطها ، على مقادير حقوقها ، فلم تندَمْ بعدَ قَولٍ ، ولم تأْسَفْ بعد سُكوت . وأنا إنْ تكلَّمت ندِمت ، وإن جارَيتُ أَبدعْتُ[٧] .

٧ – فصل منها[٨]

وقد منحتُك [جَلَدَ[٩]] شَبابِى كَمَلًا ، وغَرْبَ نشاطى مُقْتَبَلا ، فكان لك مَهْنَاهُ ، وثمرةُ قُواه ، واحتملتُ دونَك عُرامَهُ وغَرْبَه[١٠] ، فكان لك غُنْمه وعلىَّ غُرْمه .

---

(١) فى الرسائل : « لنفسك » .

(٢) فى النسختين : « ويبلغ تدبيرك » صوابه فى الرسائل .

(٣) فى الرسائل : « عن نفسى » .

(٤) ب فقط : « شاعر » ، تحريف .

(٥) فى النسختين : « صنيعه » بالهاء ، وأثبت ما فى الرسائل .

(٦) فى الرسائل : « وأنت مقدم » .

(٧) المجاراة : مفاعلة من الجرى فى المشى وغيره . وفى النسختين : « جازيت » صوابه فى الرسائل . وأبدع الرجل ، بالبناء للمجهول والمعلوم أيضاً : كلت راحلته أو عطبت . وفى النسختين : « بدعت » ، صوابها فى الرسائل .

(٨) الرسائل ١ : ٢٧٤ .

(٩) التكلة من الرسائل .

(١٠) العرام ، بالضم : الشدة . والغرب : الحدة . فى النسختين : « غرامه » تحريف مافى الرسائل . وفى ب فقط : « وعزبه » ، تحريف .

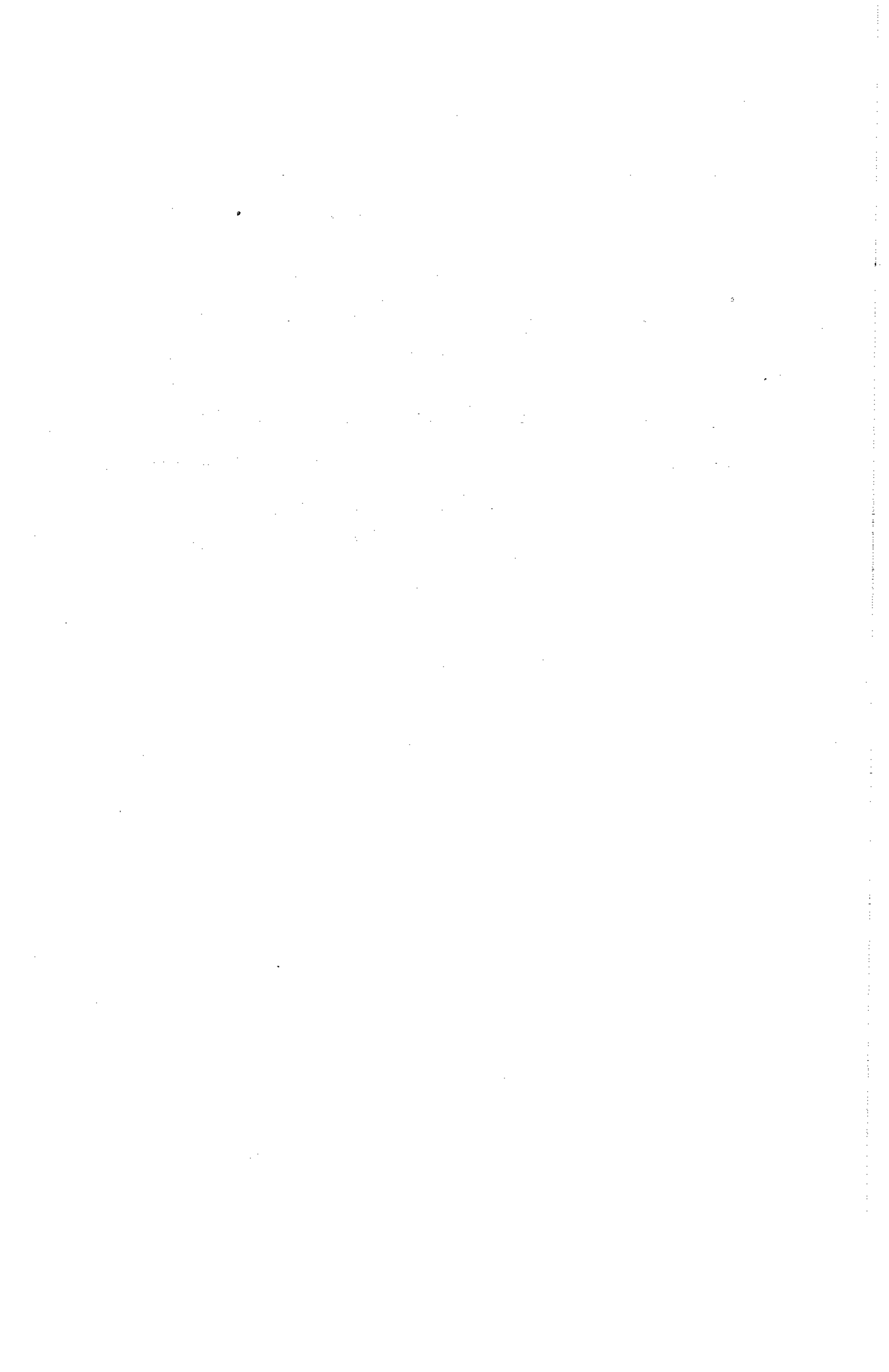
وأعطيتُك عند إدبارِ بدنى قُوَّةَ رأيى، وعند تكامُلِ معرفتى نتيجةَ تجربتى ، واحتملتُ دونك وَهْنَ الكِبَرِ وإسقامَ الهرم .

وخيرُ شركائك مَنْ أعطاك[١] ما صفا وأخَذَ لنفسه ماكدُرَ . وأفضَلُ خُلطائك من كَفَاك مؤونتَه وأحضَرَك مَعُونته ، وكان كلالُهُ عليه ونشاطُه لك .

وأكرم دُخَلائك وأشكر مواليك[٢] مَنْ لا يظنُّ أنَّك تسمِّى جَزِيلَ ماتحتمل فى بَذْلِك[٣] ومؤانَسَتِك مَؤُونة ، ولا تتابُعَ[٤] إحسانك إليه نعمَة . بل يرى أنَّ نعمةَ الشَّاكِر فوقَ نعمة الواهب ، ونعمةَ الوادِّ[٥] المُخْلِص ، فوق [نعمةِ[٦]] الجواد المُغْنِى .

---

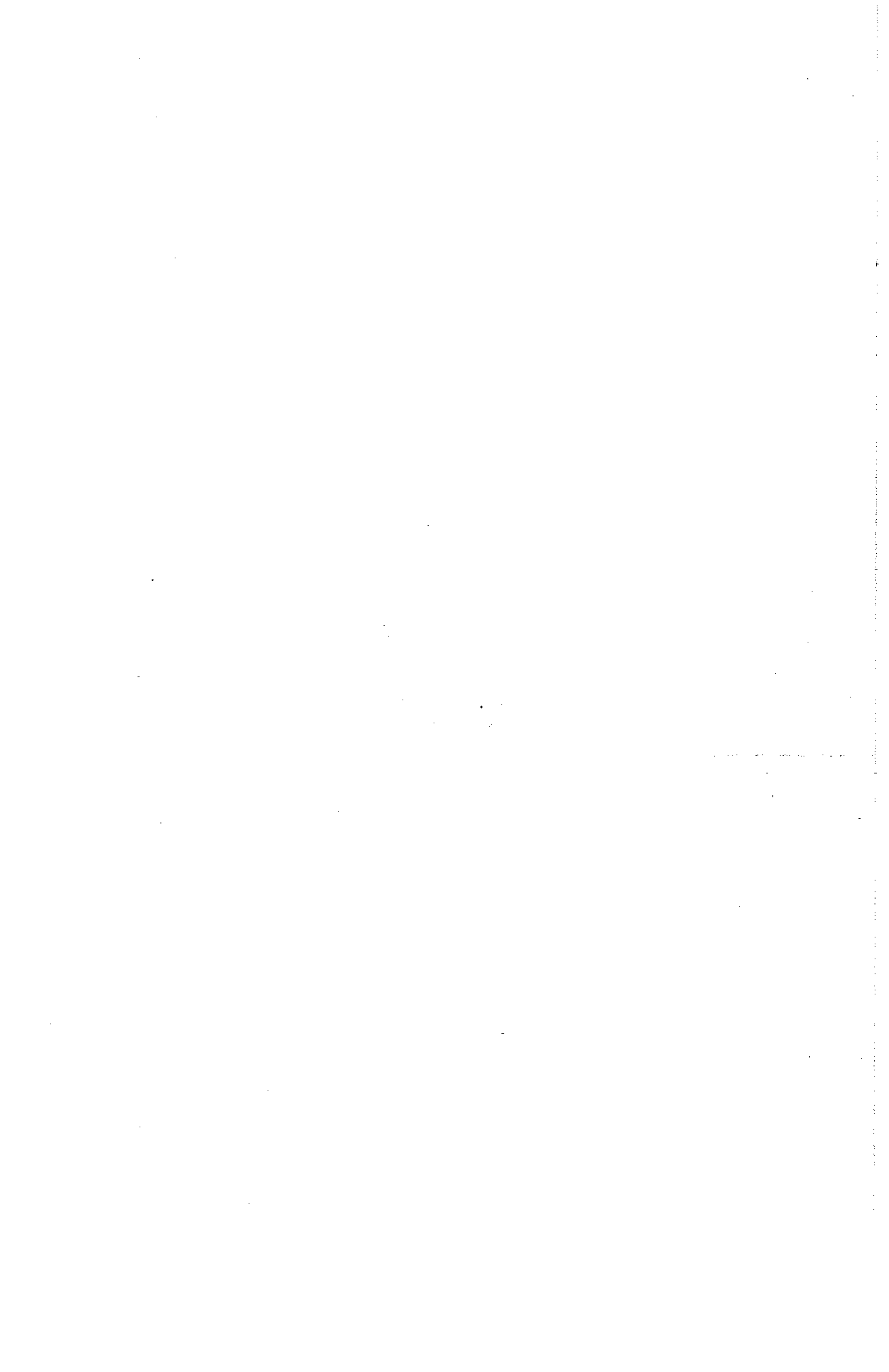
(١) ب : « إعطائك » م : « إعطاء » ، صوابهما فى الرسائل .
(٢) فى الرسائل : « مؤمليك » .
(٣) فى النسختين : « مايحتمل » وفى م : « فى ذلك » ، صوابهما من الرسائل .
(٤) فى النسختين : « تبايع » ، تحريف .
(٥) فى النسختين : « الوارد » ، صوابه من الرسائل .
(٦) التكملة من الرسائل .



١٦

من كتابه في

الوكلاء



١ – فصــل

من صدر كتابه فى الوكلاء(١)

وفَّقك الله للطَّاعةِ ، وعصَمَك من الشُّبهة ، وأفلجَكَ بالحُجّة(٢) ، وختَم لك بالسعادة .

غَبَرَتْ(٣) – أصلَحَك الله – أَزْمانٌ(٤) وأنت عندى ممَّن لا يُمضِى القولَ إلَّا بعد التثبُّت ، ولا يُخرج الكتابَ إلَّا بعد التصفُّح ، وكنتَ حَرِيًّا بتَهْيئَةِ(٥) الرأى الفَطير ، جديراً أن تُميِّل بنفسك عاقبةَ التَّفريط(٦) . ولَوْلَا(٧) كثرة مُرورِ أيَّام المُطالَبةِ عليك لما ثَقُلَ عليك التثبُّت ، ولولا(٨) قِصَرُ أيَّامِ التحصيل لَمَا وَثِقْتَ بأَوَّلِ خاطر ، ولولا سوءُ العادة لَمَا كَذَبَكَ رائدُ النَّظَر واتَّهمت الرأى .

واعْتِرام الغَضْبان(٩) يُهوِّر الأَعمار(١٠) ، فإنَّ الغَضْبانَ(١١) أسوأُ أثراً

(١) نشر شيئاً منه ريشر ص ١٩٤ – ١٩٥ وفى مجموعة ساسى ثلاث صفحات منه ١٧٠– ١٧٢ باسم (الوكلاء) تنتهى بنهاية الفصل الثانى من هذا الاختيار . ويبدو أن نسخة الساسى مبتورة . وقد رمزت لها كالمألوف بالرمز (مج) .

(٢) أفلجه : أظفره ، من الفلج بالفتح ، وهو الظفر . م فقط : « أفلحك » ، تحريف .

(٣) غبرت : مضت وانقضت ، وفى النسختين : « عبرت » والوجه من مج .

(٤) فى النسختين : « زمان » ، صوابه فى مج .

(٥) فى النسختين : « نهيئه » ، صوابه فى مج .

(٦) التمييل بين الشيئين كالترجيح بينهما ، كأنه ميل بين التفريط والإفراط . فى النسختين : « أن يميل » ، صوابه فى مج .

(٧) فى النسختين : « وليس » ، صوابه فى مج .

(٨) م فقط : « ولو » .

(٩) الاعترام : الشدة والشراسة . وفى حديث على : « على حين فترة من الرسل ، واعترام من الفتن » . وفى النسختين : « اغرام العصيان » وبدون واو . وفى مج : « واعترام العصيان » . والوجه ما أثبت .

(١٠) يهورها : يذهب بها . فى النسختين : « وتهور الأعمار » مع زيادة الواو ، صوابه فى مج .

(١١) فى جميع النسخ : « العصيان » ، صوابه ما أثبت .

على نفسِهِ من السَّكران ، ولولا أَنَّ نار الغَضَب تخبو قبل إفاقة المعتوه ، وضَبابَ السُّكر ينكشف قبل انكشاف غُروب عقل المُدَلَّه . وأَنَّ حكم الظاعن خلافُ حكمِ المقيم ، وقَضيَّة المجْتازِ[(١)] خلافُ قضيَّة الماكث ، لكانت حال الغَضْبان[(٢)] أَسوأَ مغبّةً ، وجهلهُ أَوْبىَ ، على أَنَّ الحكم له أَلزمُ والنَّاسَ له أَلْوَم .

وما أَكثر ما يُقْحِمِ الغضبُ المَقَاحمَ التى لا يبلغُها جنايةُ الجنون ، وفرطُ جهلِ المصْروع .

٢ — فصــل منه

وإنَّ الغُمر لا يكون إلَّا عديمَ الآلة ، منقطع المادَّة ، يَرى الغَىَّ رُشداً والغلوَّ قصداً . فلو كنتَ إذا جنيت لم تُقِمْ على الجناية ، وإذا عزمت على القول لم تُخلِّدْه فى الكتب ، وإذا خلَّدته لم تُظهر التبجُّح به ، والاستبصار فيه ، كان علاجُ ذلك أَيسرَ ، وكانت أَيَّامُ سقمك أَقصرَ[(٣)] .

فأَخزى[(٤)] اللهُ التصميم إلَّا مع الحزم ، والاعتزامَ إلَّا بعد التثبُّت والعلمَ إلَّا مع القريحة المحمودة ، والنَّظرَ إلَّا مع استقصاءِ الروِيَّة .

وأَخلِقْ بمن كان فى صفتك ، وأَحْرِ[(٥)] بمن جَرى على دَرْبك[(٦)] ، أَلَّا يكونَ سببُ تسرُّعه ، وعلَّةُ تشحُّنه إلَّا من ضيقَ الصَّدر .

وجميعُ الخير راجعٌ إلى سَعَة الصدر . فقد صحَّ الآن أَنَّ سَعَة الصَّدر أَصل ، وما سوى ذلك من أَصناف الخير فرع .

---

(١) فى جميع النسخ : « المختار » ، والوجه ما أثبت .
(٢) فى جميع النسخ : « العصيان » . (٣) السقم ، بالضم وبالتحريك : المرض .
(٤) فى النسختين : « فأجرى » ، صوابه فى مج .
(٥) ب : « وأحرى » ، م : « وأجر » ، صوابهما فى مج .
(٦) الدرب : الطريق . وفى جميع النسخ : « عن دربتك » .

وقد رأيتكَ – حفظك الله – خَوَّنتَ جميع الوكلاء وفَجَّرْتَهم ، وشنَّعت على جميع الورَّاقين وظَلَمْتَهم ، وجمعتَ جميعَ المعلِّمين وهجوتَهم ، وحَفِظت مساويَهم ، وتناسيتَ محاسنَهم ، واقتصرت[١] على ذكر مثالب الأعلام[٢] والجلَّة ، حتَّى صوَّب نفسَك عند السَّامع[٣] لكلامك ، والقارئ كتابَك[٤] ، أنَّك ممن يُنكر الحقَّ جهلاً[٥] ، أو يَتركه معاندةً له[٦] . وقد علم النَّاس أنَّ من تركه جهلاً به أصغرُ إثماً[٧] ممن تركه عمداً .

ولعمرى إنَّ العلم لَطَوعُ يديك ، والمتصرِّف مع خواطرك ، والمُستملِي من بديهتك ، كما يَستملى من ثمرة فكرك ، والمحصَّل من رويَّتك . ولكنَّ الرأْى لك أن لا تثقَ بما يرسُمه العِلْم فى الخَلَا ، وتتوقَّاه فى الملا .

اعلم أنَّك متى تَفَرَّدْت[٨] بعلمك استرسلتَ إليه . ومتَى ائتمَنْتَ على نفسك نواجمَ خواطرِك ، فقد أمكنتَ العدوَّ من رِبْقةُ عنقك . وبنيةُ الطَّبائع وتركيبُ النفوس ، والذى جَرَت عليه العادة ، إهمالُ النَّفس فى الخَلا ، واعتقالُها فى المَلَا[٩] .

فتوقَّفْ عند العادة ، واتَّهم النَّفْسَ عند الاسترسال والثِّقة . قال ابن هَرْمة :

---

(١) ب : « واستبصرت » م : « وابتصرت » ، صوابهما فى مج .
(٢) ب فقط : « مسالب » ، تحريف .
(٣) فى النسختين : « المسامع » ، صوابه فى مج .
(٤) م ، مج : « ولقارىء كتابك » صوابه ما أثبت . وفى ب : « وقارىء كتابك » .
(٥) ب : « مما تنكر » م ، مج : « ممن تنكر » ، صوابهما ما أثبت .
(٦) ب ، مج : « أو تتركه » م : « أو بتركه » ، صوابهما ما أثبت .
(٧) ب فقط : « اسماً » .
(٨) فى النسختين : « تقررت » وفى مج : « تغرت » وأرى الصواب فيما أثبت .
(٩) الملا : جماعة الناس . وفى ب : « واغفلالها » ، وفى م ، مج : « وإغفالها » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما سبق من قوله : « وتتوقاه فى الملا » ، فالمراد حبسها فى مواجهة الناس .

إنَّ الحديثَ تغرُّ القومَ خَلْوتُه حتَّى يكون له عيٌّ وإكثارُ(١)

وبئس الشيء العُجْبُ ، وحُسنُ الظَّنِّ بالبديهة !

واعلم أنَّ هذه الحالَ التى ارْتَضَيْتَهَا لشأْنِكَ هى أُمنيَّة العدوّ ، وتُهزَةُ الخَصْم ، ومتى أبرزْتَ كتابكَ على هذه الصُّورة وأفرغْته هذا الإفراغَ ، ثم سَبَكْتَهُ هذا السَّبكَ ، فليس بعدوِّك حاجةٌ إلى التكذيب عليك ، وقولِ الزُّور فيك ، لأنَّك قد مكَّنته من عِرضِك ، وحكَّمْتَه فى نفسك .

وبعدُ ، فمن يَعجِزُ عن عيب كتابٍ لم يُحرَس بالتثبُّت(٢) ، ولم يُحصَّنْ بالتصفُّح ، ولم يُغَبَّ بالمعاوَدَة والنَّظر ، ولم يُقلَّب فيه الطَّرفُ من جهة الإشفاقِ والحذر(٣) . فكيف يوفِّق اللهُ الواثقَ بنفسه ، والمستبدَّ برأيِهِ(٤) لأدبِ ربِّه ، ولما وَصَّى به نبيُّه صلَّى الله عليه وسلم [حين قال لرجلٍ خاصم عنده رجلا فقال فى بعض كلامه : حسبِيَ الله ! فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم(٥)] : « أَبْلِ اللهَ من نفسِكَ عُذْراً(٦) ، فإذا غلبَكَ أَمرٌ فقل : حسبِيَ الله »

(١) فى النسختين : « يعز اليوم » وفى مج : « يعز القوم » ، صوابهما من البيان ١ : ٢٠٣ والحيوان ١ : ٤/٨٨ : ٢٠٧ وأدب الكتاب للصولى ١٥٧ لكن عند الصولى :

إن الحديث يقف القوم خلوته حتى يعبره بالسبق مضمار

والبيت مفرد فى الديوان ١١٩ . خلوته ، أى حين يختلى بعضهم ببعض لمداورته وتبادله .

(٢) ب : « كتابك لم يحرس » م : « كتاب يحرس » بسقوط « لم » ، صوابهما فى مج .

(٣) ب : « الاشتقاق » صوابه فى م ، مج .

(٤) فى النسختين : « والنازل » ، صوابه ما أثبت من مج .

(٥) التكملة من م ، مج .

(٦) أبليته عذراً : أديته إليه فقبله ، أى بينت له وجه العذر لأزيل عنى اللوم . وفى حديث بر الوالدين أيضاً : « أبل الله عذراً فى برها » ، أى أحسن فيما بينك وبين الله ببرك إياها .

وزعمتَ فى أوَّل تشنيعك عليهم ، فقلت : قال يعقوب بن عبيد لبعضٍ ولده حين قال له فى مرضه : أىَّ شىءٍ تشتهى ؟ قال : كَبِدُ وَكِيل[١] .

وقد كان تَرَكَ التِّجارة من سوءِ مُعاملتهم وفُحْش خبائثهم .

---

(١) تمنى أن يلوك كبده . وفى النسختين : « كبد وكيل » ووجهه فى م .

٣ ـ فصـــل(١)

من جوابه عن الوكلاء

قد فهمنا عُذرَك وسمِعْنا قولك ، فاسمع الآنَ ما نقول :

اعلم أنَّ الوكيل ، والأجيرَ ، والأمين ، والوصيَّ ، فى جملة الأمر ، يَجُرون مَجرًى واحداً . فأَيْشٍ لك(٢) أن تَقضِيَ على الجميع بإساءة البعض . ولو بَهْرَجْنا(٣) جميعَ الوكلاءِ وخَوَّنَّا جميعَ الأُمناءِ ، واتَّهمنا جميعَ الأَوصياءِ وأسقَطْناهم، ومنعنا الناسَ الارتفاقَ بهم ، لظَهرتِ الخَلَّة وشاعت المَعجَزَة ، وبطلت العُقَد(٤) وفَسَدت المستغَلَّات ، واضطربت التِّجارات ، وعادت النِّعمة بليَّة والمَعُونة حِرماناً ، والأَمر مهملًا ، والعهد مَرِيجاً(٥) .

ولو أنَّ التَّجَّار وأهل الجهاز(٦) صاحَبُوا الجمَّالين والمُكارِينَ(٧)

---

(١) هذا الفصل مما انفردت به النسختان إذ لم يرد فى مجموعة الساسى ولا فى نسخة الكامل . وقد تعرض ريشر فى ١٩٤ — ١٩٥ للقول فى الوكلاء .

(٢) أيش ، فى معنى أى شىء ، كما يقال فى ويل لأمه : ويلمه ، على التخفيف . وهو استعمال قديم ، وجدته فى صحيح البخارى : « قيل يارسول الله ، أيش هو ؟ قال : القتل القتل » . انظر فتح البارى ١٣ : ١١ . ومن الخطأ ضبط همزته بالكسر . وانظر ابن يعيش ٤ : ١٠٢ وتاريخ بغداد ٢ : ٨٨ والأغانى ١ : ١٧٤ وشفاء الغليل ١٥ وتحقيقات وتنبيهات فى معجم لسان العرب من تأليفى ٤٩ ، ١٤٥ .

(٣) البهرجة : الإهمال والإهدار .

(٤) العقد : جمع عقدة ، بالضم ، وهو كل ماعقد عليه .

(٥) المريج ، من المرج ، بالتحريك ، وهو الفساد والاختلاط والاضطراب . ومنه فى الكتاب العزيز : « بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج » . الآية الخامسة من ق . ب : « مريحا » بالمهملة ، تحريف .

(٦) الجهاز ، بالفتح والكسر ، أو الكسر لغة رديئة : كل ما يهيأ لعروس أو مسافر ، أو مجاهد ، أو ميت .

(٧) جمع مكار ، وهو من يكريك دابته أو نفسه بالأجر . والكراء . ككتاب: أجرة المستأجر . فى النسختين : « والمكاريين » بياءين ، صوابه بياء واحدة .

والملاَّحين، حتَّى يعاينوا ما نَزَل بـأموالهم فى تلك الطُّرق والمياه، والمسالك والخانات ، لكان عسى أن يترك أكثرهم الجَهَاز .

٤ ـ فصــل منه

وقد قال الله عز وجل : ﴿ الرِّجالُ قَوَّامون على النِّساءِ بِمَا فَضَّل اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ[(١)] ﴾، وقال : ﴿ فإِنْ آنستُمْ منهم رُشْدًا فادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَموالَهُم[(٢)] ﴾ وقال : ﴿ ومن كان غَنِيًّا فليستعْفِفْ ومَنْ كان فقيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ[(٣)] ﴾ .

وقال يوسفُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم لِفرعونَ وفرعونُ كافرٌ : ﴿ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حفيظٌ عَلِيم[(٤)] ﴾ .

وقالت بنت شُعيب فى موسى بن عِمْران : ﴿ ياأَبَتِ استَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ استأْجَرْتَ القوىُّ الأَمينُ[(٥)] ﴾ : فَجمَعَ جميعَ مايُحتاج إليه فى الكلمتين .

وفى قياسك هذا إسقاطُ جميعِ ماأَدَّبنا الله به ، وجعَلَه رِباطاً لمراشدنا فى ديننا ، ونِظاماً لمصالحنا فى دنيانا .

والذى يلزمُنى لك أَن لا أَعُمَّهم بالبراءة ، والذى يلزمك أَن لاتعمَّهم بالتُّهمَة ، وأَن تعلمَ أَنَّ نَفْعَهم عامٌّ ، وخيرَهم خاصٌّ .

وقالوا : مَثلُ الإِمام الجائِر مَثلُ المطَر ، فإِنَّه يَهدِم على الضعيف ، ويَمنَع المسافر .

---

(١) من الآية ٣٤ فى سورة النساء . واقتصر النص فى ب على : « الرجال قوامون على النساء » .

(٢) من الآية ٦ من النساء . وفى ب : « فمن كان غنياً » ، تحريف .

(٣) من الآية ٦ فى سورة النساء .

(٤) من الآية ٥٥ فى سورة يوسف .

(٥) من الآية ٢٦ من سورة القصص .

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - « حوالَيْنا ولا علينا [(١)] » .

والمطر وإن أفسَدَ بعضَ الثِّمار . وأَضرَّ ببعض الأَكَرة [(٢)] فإنَّ نفعَه غامرٌ لضررِه [(٣)] .

وليس شيءٌ [(٤)] من الدُّنيا يكون نفْعُه محضاً . وشرُّه صِرفا . وكذلك الإمامُ الجائِرُ ، وإن استأْثَرَ ببعض الفَيء، وعطَّل بعض الحُكْم . فإنَّ مضارَّه مَغمورةٌ بمنافعه .

قالوا : وكذلك أمر الوُكلاء والأَوصياء والأُمناء . لا تعلم قوماً الشرُّ فيهم أَعَمُّ ولا الغِشُّ فيهم أكثر من الأَكرة [(٥)] . وما يجوز لنا مع هذا أن نعمَّهم بالحُكْم مع أنَّ الحاجة إليهم شديدة . ونَزْعَ هذه العادةِ [وهذا [(٦)]] الخُلقِ منهم أَشَدُّ .

٥ – فصــل منه

وأنا أَظنُّ أَنَّ الذنب مقسومٌ بينك وبين وكلائك . فارجِعْ إلى نفسِكَ فلعلَّكَ أَنْ ترى أَنَّك إنَّما أُتِيتَ [(٧)] من قِبَلِ الفِراسة ، أَو من قبل أَنَّك لم تقطع لهم الأُجرةَ السنيَّة ، وحملتهم على غاية المشَقَّة فى أَداء الأَمانة وتمامِ النَّصيحة .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتابى الجمعة والاستسقاء ، من حديث مطول لأنس بن مالك . كما أخرجه مسلم فى صلاة الاستسقاء . وفى اللسان (حول) : « يريد : اللهم أنزل الغيث علينا فى مواضع النبات لا فى مواضع الأبنية » .

(٢) الأكرة : جمع للأكار ، بالتشديد ، وهو الحراث والزراع للأرض . قال الجوهرى : « كأنه جمع آكر فى التقدير » . وفى ب : « الأكرا » وفى م : « الأكرار » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .

(٣) أى غالب عليه . وفى النسختين : « غامراً لضرره » ، تحريف .

(٤) ب : « لشىء » ، صوابه فى م .

(٥) انظر ماسبق فى الحاشية الثانية .

(٦) التكملة من م .

(٧) ب : « أنك أتيت » وفى م : « إنما أتيت » ، والوجه ما أثبت .

٦ – فصل منه

ولابُدَّ[١] فى باب البصَر بجواهر الرجال من صِدق الحِسِّ ، ومن صِحَّة الفِراسة . ومن الاستدلال فى البعض على الكُلِّ[٢] ، كما استدلَّت بنتُ شعيب – صلوات الله عليه – حين قضَتْ لموسى – عليه السلام بالأَمانة والقوَّة ، وهما الرُّكنان اللذان تُبنى عليهما الوَكالة .

٧ – فصل منه

وقد قالوا : ليس ممَّا يَستعمل الناسُ كلمةٌ أَضرَّ بالعلم والعلماء ، ولا أَضرَّ بالخاصَّة والعامَّة ، من قولهم[٣] : « ماترك الأَوَّل للآخِر شيئاً » .

ولو استعمل النَّاسُ معنى هذا الكلامِ فتركوا جميع التكلُّف ، ولم يتعاطَوْا إلَّا مقدارَ ماكان فى أَيديهم لفقدوا[٤] علماً جمًّا ومرافقَ لاتُحصَى ، ولكن أَبَى اللهُ إلَّا أَنْ يَقْسِمَ نِعَمه بين طبقاتِ جميع عبادِهِ قِسمةَ عدل ، يُعطى كلَّ قَرنٍ وكلَّ أُمَّةٍ حِصَّتهَا ونصيبَها ، على تمامِ مَراشد الدِّين ، وكمال مصالح الدنيا .

فهؤلاءِ ملوكُ فارسَ نزلُوا على شاطئ الدِّجلة ، من دون الصَّراة[٥]

---

(١) ولا بد ، ساقطة من ب .

(٢) هذا من شواهد الاستعمال القديم لكلمتى « كل » و « بعض » مقرونتين بأل . وانظر الرسائل ١ : ٢٤٨ ، ٢٩٨ ، ٣٥٧ .

(٣) تكررت هذه العبارة من أول الفصل إلى هنا فى النسختين ، والوجه حذفها كما صنعت .

(٤) فى النسختين : « أفقدوا » ، صوابه ما أثبت .

(٥) قال ياقوت : هما نهران ببغداد : الصراة الكبرى والصراة الصغرى ، ولا أعرف أنا إلا واحدا . هو نهر يأخذ من نهر عيسى من عند بلدة يقال لها المحول ، بينها وبين بغداد فرسخ ، ويتفرع منه أنهار إلى أن يصل إلى بغداد .

إلى فوقِ بغداد ؛ فى القصور والبساتين ؛ وكانوا أصحابَ نَظرٍ وفِكر ، واستخراجٍ واستنباط ، من لدُنْ أَرْدَشِيرَ بنِ بابَك إلى فَيروزَ بنِ يزدَجِرد .

وقبل ذلك مانزَلها مُلوكُ الأَشكان ، بعد ملوك الأَردَوَان[(١)] .

فهل رأيتم أحداً اتَّخذَ حَرَّاقة[(٢)] ، أو زَلَّالة[(٣)] ، أو قارِبًا ؟ !

وهل عرفوا الخَيْش[(٤)] مع حَرِّ البِلاد ووقع السَّموم ؟ !

وهل عرفوا الجمَّازاتِ[(٥)] لأَسفارهم ومُنْتَزَهاتهم ؟ !

---

(١) الأشكان، من ملوك الطوائف فى فارس، حكموا بعد الإسكندر بمائة وستين سنة . ويسميهم المسعودى : «الأشغان» و « الأشغانيين » . التنبيه والإشراف ٨٣، ٩٣ ، وفى معجم استينجاس ٦٦ : « أشكانيان » . ومثلهم « الأردوان » بفتح الدال كما فى معجم استينجاس . وملوك الطوائف هؤلاء : جماعة بين الفرس الأولى والثانية ظهرت بعد قتل الإسكندر الأكبر دارا بن دارا وتغلبه على الفرس، وقد نصب الإسكندر كل واحد منهم على ناحية من نواحى بلاد الفرس والعراق ، واستبد كل منهم بناحيته ، واستمر ملكهم ١٥٧ سنة إلى أن ظهر عليهم أردشير بن بابك وأسس دولة الفرس الثانية . قال المسعودى فى مروج الذهب ١ : ٢٣٤ : « وهم ملوك الجبال من بلاد الدينور، ونهاوند ، وهمذان، وماسبذان ، وأذربيجان . وكان كل ملك منهم يلى هذا الصقع يسمى بالاسم الأعم : أشغان ، فقيل لسائر ملوك الطوائف : « الأشغانيون » . ثم ذكر أيضا أن الأردوان هم ملوك النبيط وكانوا من ملوك الطوائف ، وكانوا بأرض العراق » .

(٢) فى الصحاح والقاموس أن الحراقات سفن بالبصرة ، وفيها مرامى نيران للعدو ، وذكر المعجم الوسيط من معانيها السفينة الخفيفة المر . وهى المرادة هنا . وكان لطاهر بن الحسين حراقة فى بغداد ، فركبها يوماً ، فقال فى ذلك مقدس بن صيفى الخلوقى الشاعر :

عجبت لحراقة ابن الحسين ... لا غرقت كيف لا تغرق
وبحران من فوقهـــا واحد ... وآخر من تحتهـــا مطبق
وأعجب من ذاك أعوادها ... وقد مسها كيف لاتورق

وانظر وفيات الأعيان فى ترجمة طاهر بن الحسين وزير المأمون .

(٣) يبدو أنها ضرب من السفن الخفيفة السريعة ، من قولهم زل زليلا وزلولا : مر سريعاً .

(٤) الخيش : ثياب رقاق النسج ، غلاظ الخيوط ، تتخذ من مشاقة الكتان . وانظر ما سبق فى ١ : ٣٩٣ . وفى النسختين : « وهل عرف الجبش » ، صوابه ما أثبت .

(٥) الجمازات : النجائب من الإبل تسرع فى سيرها . وانظر الحيوان ١ : ٨٣ / ٤ : ٤٥٩ / ٧ : ٢٤٢ .

وهل عرف فَلَّاحُوهم الثِّمار المطعَّمة ، وغِراسَ النخل على الكُردات المسطَّرة[١] ؟ .

وأين كانوا عن استخراج فُوهِ العُصفُر[٢] ؟ وأين كانوا عن تغليق[٣] الدُّور والمُدن ، وإقامة ميل الحيطان والسَّوارِى المائلة الرُّوس ، الرفيعة السُّموك المركَّبة بعضُها على بعض ؟ !

وأين كانوا عن مراكب البحر فى مُمارسةِ العدو الذى فى البحر ، إن طارت البوارج أدركَتْها[٤] ، وإن أكرهتها فاتتها[٥] بعد أن كان القومُ أَسرَى فى بلاد الهِنْد ، يتحكَّمون عليهم ويتلعَّبون بهم ؟

وأين كانوا عن الرَّمى بالنيران ؟ !

نعم ، وكانوا يتَّخذون الأُحصار وينفقون عليها الأَموال ، رجالُهم دسْم العمائم ، وَسِخَة القلانس ، وكان الرَّجلُ منهم إذا مرَّ بالعطار ، أَو جلسَ إليه ، فأَراد كرامته دَهَنَ رأْسه ولحيته ، لا يحتشم من ذلك الكبير ، وكان أَهل البيت إذا طبخوا الَّلحَم غرفوا للجار والجارة غَرفةً غَرفة .

---

(١) الكردات : جمع كردة ، بالضم . وهى القناة بين المزارع . وفى النسختين : « الكردوت » ، ولاوجه لها .

(٢) الفوه بالضم : واحد الأفواه ، وهى التوابل ، وتجمع الأفواه على أفاويه . وفى النسختين : « قوة العصفر » .

(٣) فى النسختين : « تعليق » بالعين المهملة .

(٤) السموك : جمع سمك بالفتح ، وهو السقف ، والعلو والارتفاع . ومنه فى الكتاب العزيز : « رفع سمكها فسواها » .

(٥) البوارج : السفن الكبار ، أو سفن البحر تتخذ للقتال ، واحدتها بارجة . وفى النسختين : « البوارح » بالحاء المهملة ، تحريف .

(٦) أكرهه على أمر : حمله عليه وهو له كاره . وفى النسختين : « كرهتها » تحريف .

١٧

من كتابه في

الأوطان والبلدان

١ - فصل

من صدر كتابه فى الأوطان والبلدان(١)

زيَّنكَ اللهُ بالتَّقْوى ، وكفاك المهمَّ من أَمر الآخرةِ والأُولى ، وأَثلج صَدرَك باليقين ، وأَعزَّك بالقناعة ، وخَتَم لك بالسَّعادَة ، وجَعَلك من الشاكرين .

سأَلتَ - أبقاك الله - أن أَكتب لك كتاباً فى تفاضُل البُلدان ، وكيف قناعةُ النَّفسِ بالأوطان ، وما فى لزومها من الفَشَل والنَّقص(٢) ، وما فى الطَّلب من علم التَّجارب والعقل .

وذكرتَ أَنَّ طُول المُقام من أَسباب الفقر ، كما أَنَّ الحركة من أسباب اليُسْر ، وذكرتَ قول القائِل : « النَاس بأَزمانِهم أَشبَهُ منهم بآبائِهم » .

ونسيتَ - أَبقاكَ الله - عملَ البُلدان ، وتصرُّف الأَزمان ، وآثارهما فى الصُّوَر والأَخلاق ، وفى الشمائِل والآداب ، وفى اللُّغات والشَّهوات ، وفى الهمم والهَيْئات ، وفى المكاسِبِ والصِّناعات ، على مادَبَّرَ اللهُ تعالى من ذلك بالحكمة اللطيفة ، والتدابير العجيبة .

فسبحانَ من جَعلَ بعضَ الاختلافِ سبباً للائتِلاف ، وجعل الشكَّ داعيةً إلى اليقين ، وسُبحان مَن عرَّفنا ما فى الحَيْرَة من الذِّلَّة ، وما فى

(١) لم يرد فى غير هذه المجموعة ، وهو غير كتابه « الحنين إلى الأوطان » الذى تقدم نشره فى الرسائل ٢ : ٣٨٣ - ٣١٢ . وقد تعرض ريشر لبحث كتاب الحنين إلى الأوطان فى ص ٤٨٨ . وقد حمل المسعودى فى مروج الذهب ١ : ٩٩-١٠٠ على هذا الكتاب وسماه « كتاب الأمصار وعجائب البلدان » .

(٢) ب : « والنفس » ، صوابه فى م .

الشَّكِّ من الوَحْشة، وما فى اليقين من العِزِّ، وما فى الإخلاص من الأُنس.

وقلت: ابدأْ لى بالشَّام ومصر، وفضْلِ مابينهما، وتحصيلِ جمالهما، وذكرتَ أَنَّ ذلك سيجرّ العراق والحجاز، والنجود[١] والأَغوار، وذكرَ القُرى والأَمصار، والبراريِّ والبحار.

واعلمْ – أَبقاكَ اللهُ – أَنَّا متى قدَّمنا ذكر المؤخَّر وأَخَّرنا ذكر المقدَّم، فسَدَ النِّظام وذهبت المراتب. ولستُ أرى أَن أُقدِّم شيئاً من ذكر القرى على ذكر أُمِّ جميع القرى. وأَولَى الأُمور بنا ذكرُ خصال مكَّة، ثمَّ خصال المدينة.

ولولا ما يجبُ من تقديم ماقدَّم اللهُ وتأْخيرِ ماأَخَّر لكان، الغالبُ على النفوس ذكرَ الأَوطانِ وموقعِها من قلب الإنسان.

وقد قال الأَوَّل[٢]: « عَمَّر اللهُ البُلدان بحبِّ الأَوطان »، وقال ابن الزُّبير: « ليس الناسُ بشيءٍ من أَقسامهم أَقنَعَ منهم بأَوطانهم[٣] ».

[و] لولا مامنَّ اللهُ به على كلِّ جِيلٍ منهم من الترغيب[٤] فى كل ما تحت أَيديهم، وتزيينِ كلِّ ما اشتملت عليه قدرتهم، وكان ذلك مفوَّضاً إلى العُقول، وإلى اختيارات النُّفوس – ماسَكَن أَهل الغِياض والأَدغال فى الغَمَق والَّلثَق[٥]، ولَمَا سكَنُوا مع البَعُوض والهَمَج[٦]، ولما سكَن سُكَّان

(١) ب: « والنحجود »، صوابه فى م.

(٢) هو عمر بن الخطاب كما فى رسالة الحنين إلى الأوطان ٣٨٩ ونسب هذا القول فى مناقب الترك ٦٤ إلى « العبدى ».

(٣) رسائل الجاحظ ١: ٦٤ والحيوان ٣: ٢٢٧.

(٤) م: « الترتيب »، صوابه فى ب.

(٥) الغمق، بالتحريك: الندى يورث ثقلا ووخامة. وأرض غمقة: فسد ريحها وخم من كثرة الأنداء فصارت موبئة. وفى النسختين: « العمق » صوابه بالغين المعجمة: واللثق: الندى والحر، ويقال للماء والطين لثق أيضاً.

(٦) الهمج: ذباب صغير كالبعوض، يسقط على وجوه الغنم والحمير.

القِلاع[1] فى قلل الجبال، ولما أقامَ أصحاب البَرارِى مع الذِّئاب والأفاعى وحيثُ من عَزَّ بَزّ، ولا أقام أهلُ الأطراف فى المخاوف والتَّغرير[2]، ولما رضِىَ أهلُ الغيران وبطونِ الأودية بتلك المساكن، ولالتمسَ[3] الجميعُ السُّكنى فى الواسطة، وفى بَيْضة العرب[4]، وفى دار الأَمْن والمَنَعة. وكذلك كانت تكون أحوالهم فى اختيار المكاسب والصناعات وفى اختيار الأسماء والشَّهَوات. ولا ختاروا[5] الخَطير على الحقير، والكبيرَ على الصغير.

ألا تراهم قد اختاروا ماهو أقبحُ على ماهو أحسن من الأسماء والصِّناعات، ومن المنازلِ والدِّيارات، من غير أن يكونوا خُدِعوا أو استُكْرِهوا.

ولو اجتمعوا على اختيارِ ماهو أرفع، ورَفْض ماهو أوضَعُ من اسمٍ أو كُنية، وفى تجارة وصناعة، ومن شهوةٍ وهمّة، لذهبت المعا لات، وبَطَل التمييز، ولوقع التجاذُب[6] والتغالب[7]، ثم التَّحارُب، ولصاروا غَرضاً للتَّفانى، وأُكلةً للبَوَار[8].

فالحمد لله أكثَرَ الحمدِ وأطيَبَه على نعمه، ماظَهَر منها وما بطَنَ، وما جُهِل منها وما عُلِم!

---

(١) ب: «سكاك». صوابه فى م. وفى النسختين بعده: «الفلاح»، صوابه ما أثبت. والقلاع: جمع قلعة، وهى الحصن فى الجبل.

(٢) ب: «والتغزير»، صوابه بالراء المهملة. غرر بنفسه تغريراً: عرضها للهلكة.

(٣) فى النسختين: «ولا التمس»، صواب رسمه ما أثبت، إذهى لام الجواب وليست «لا» النافية».

(٤) بيضة العرب: موضع سلطانهم ومجتمعهم.

(٥) فى النسختين: «ولا اختاروا». وانظر التنبيه السابق.

(٦) فى النسختين: «التجازب» صوابه بالذال. والتجاذب: التنازع، مفاعلة من الجذب.

(٧) ب: «ثم التغالب».

(٨) البوار: الهلاك. والأكلة، بالضم والفتح: المأكول.

ذكر الله تعالى الدِّيار فخبَّر عن موقِعها من قلوبِ عباده ، فقال: ﴿ولو أنّا كتَبْنَا عَلَيْهِمْ أنِ اقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ أو اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مافَعَلُوهُ إلَّا قليلٌ منهم[١]﴾. فسوَّى بين موقِع قتل أنفسِهم وبين الخروج من ديارهم . وقال : ﴿وَمَالَنَا ألَّا نُقاتِلَ فى سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وأبنائِنا[٢]﴾ . فسوَّى بين موقع الخروج من ديارهم وبين موقع هَلاك أبنائهم .

٢ ــ فصــل منه

فقسم الله تعالى المصالحَ بين المُقَام والظَّعْن ، وبين الغُربة وإلفِ الوطَن ، وبين ماهو أربحُ وأرفع ، حين جَعَلَ مجاريَ الأرزاق مع الحركة والطَّلَب . وأكثرُ ذالك[٣] ماكان مَعَ طول الاغتراب ، والبُعْدِ فى المسافة ، ليُفيدك الأُمور ، فيمكن الاختبار[٤] ويحسن الاختيار .

والعقل المولود متناهى الحدود ، وعَقْل التجارب لايُوقَف منه على حدّ . ألا ترى أنَّ الله لم يجعل إلف الوطن عليهم مفترضاً[٥] ، وقيداً مُصْمَتاً ، ولم يجعل كِفاياتِهم مقصورةً عليهم ، محتسبة لهم فى أوطانهم ؟ ألا تراه يقول: ﴿ فاقرءُوا مَاتَيَسَّرَ من القرآن ، عَلِمَ أن سَيكونُ منكم مرْضَى وآخرُون يَضْرِبُون فى الأَرض يبْتَغُون مِنْ فَضْلِ اللهِ وآخرون يُقاتِلُون فى سَبِيلِ اللهِ[٦] ﴾ . فقسَّم الحاجاتِ فجعل أكثَرَها فى البُعد . وقال عزّ ذكره : ﴿ فإذا قُضِيت الصَّلاةَ فانتشِرُوا فى الأَرضِ وابْتَغُوا مِنْ

(١) الآية ٦٦ من النساء .
(٢) الآية ٢٤٦ من البقرة .
(٣) فى النسختين : « وأكثر من ذلك » .
(٤) م : « الاختيار » بالياء المثناة من أسفل .
(٥) م : « مترصاً » . والمترص : المحكم المقوم ، كما يترص العقد والميزان ونحوهما .
(٦) الآية ٢٠ من سورة المزمل .

فَضْلِ اللهِ[(١)] ﴾ فأَخرج الكلامَ والإطلاق على مُخْرج العموم ، فلم يخصَّ أرضاً دون أرض ، ولا قُرباً دون بُعد .

٣ – فصــل منه

ونحن ، وإنْ أَطنبنا فى ذكر جملة القَولِ فى الوطن ، وما يَعملُ فى الطبائع ، فإنَّا لم نذكر خصالَ بلدةٍ بعينها ، فنكونَ قد خالفنا إلى تقديم المؤخَّر وتأْخير المقدَّم .

قالوا : ولم نجهل ولم ننكر[(٢)] أنَّ نَفْس الإلف يَكون[(٣)] من صَلَاح الطبيعة ، حتَّى إنَّ أَصحاب الكِلابِ[(٤)] ليجعلون هذا من مفاخرها على جميع مايُعاشِر النَّاسَ فى دُورهم من أَصناف الطير وذوات الأَربع : وذلك أنَّ صاحب المنزل إذا هَجم منزِلَه[(٥)] واختار غيرَه ، لم يتبعْه فرسٌ ولا بغلٌ ولا حِمارٌ ، ولا ديكٌ ولا دَجاجة ، ولا حمامةٌ ولا حمام ، ولا هِرٌّ ولا هرّة ، ولا شاةٌ ، ولا عُصفور ؛ فإنَّ العصافير تأْلفُ دُورَ النَّاس ، ولا تكاد تقيم فيها إذا خَرجُوا منها . والخطاطيف تقطعُ إليهم لُتقيم فيها إلى أَوانِ حاجتِها إلى الرُّجوع إلى أَوطانها ، وليس شيءٌ من هذه الأَنواع ممَّا تبوَّأَ فى الدُّور باجتلابهم لها ، ولا ماتبوَّأَ فى دورهم مما ينزِع إليهم أَحنَّ من الكَلْب ، فإنَّه يُؤْثره على وطنه ، ويَحميه ممن يغشاه .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الجمعة . وفى النسختين : « فإذا قضيتّم الصلاة » تحريف قرآنى .

(٢) فى النسختين : « ولم نذكر » ، والوجه ما أثبت .

(٣) فى النسختين : « تكون » .

(٤) فى النسختين : « الكلاب » ، والوجه ما أثبت .

(٥) هجم منزله هجما : هدمه . وهجم البيت ، إذا قوض . ومنه قول علقمة :

صعل كأن جناحيه وجؤجؤه   بيت أطافت به خرقاء مهجوم

فذكروا الكلبَ بهذا الخُلُق الذى تفرَّد به دونَ جميع الحيوان .

وقالوا فى وجه آخر : أكرم الصَّفايا أشدُّها وَلَهًا إلى أولادها[١] ، وأكرَمُ الإبل أحنُّها إلى أعطانها[٢] ، وأكرم الأفلاء[٣] أشدُّها ملازمةً لأُمَّهاتها ، وخير النَّاسِ آلَفُهُمْ للنَّاس .

٤ ـ فصـــل منه

وقلتم : خبِّرونا عن الخصال التى بانت بها قريشٌ عن جميع الناس . وأنا أعلم أنَّك لم تُرد هذا ، وإنَّما أردتَ الخصالَ التى بانت بها قريشٌ من سائر العرب ، كما ذكرنا فى الكتاب الأوَّل الخصالَ التى بانت بها العرب عن العجم ؛ لأنَّ قريشاً والعربَ قد يَستَوُون فى مناقبَ كثيرة . قد يُلفَى فى العرب الجوادُ المُبِرُّ[٤] وكذلك الحليم والشُّجاع ، حتى يأْتِىَ على خصالٍ حميدة ؛ ولكننا نريد الخصائصَ التى فى قُريشٍ دون العرب .

فمن ذلك أنَّا لم نر قريشيًّا انتسب إلى قبيلة من قبائل العرب ، وقد رأينا فى قبائل العرب[٥] الأشرافِ رجالاً ـ إلى السَّاعة ـ ينتسبون فى قريش ، كنحو الذى وجَدْنا فى بنى مُرَّة بنِ عوف ، والذى وجدنا من ذلك فى بنى سُلَيم ، وفى خزاعة ، وفى قبائل شريفة .

---

(١) الصفايا : جمع صفية ، وهى الناقة والشاة الغزيرة اللبن .

(٢) العطن للإبل كالوطن للناس . وقد غلب على مبركها حول الحوض . ب : « أعطانها » ، صوابه فى م .

(٣) الأفلاء : جمع فلو بالكسر ، أو فلو كعدو ، أو فلو بضمتين مع التشديد ، وهو المهر الذى لم يرض ، أو الذى بلغ السنة .

(٤) المبر : الغالب . وفى اللسان (برر ١١٩) : « وسئل رجل من بنى أسد : أتعرف الفرس الكريم؟ قال: أعرف الجواد المبر من البطىء المقرف » . ب : « الميرن » م : « المبرن » والوجه ما أثبت .

(٥) ب : « كبائر العرب » ، صوابه فى م .

وممَّا بانت قريش أَنَّها لم تَلِدْ فى الجاهلية ولدًا قطّ [لغيرها[١]]
ولقد أَخذ ذلك منهم سُكَّانُ الطَّائف ، لقُرب الجِوار وبَعضِ المصاهرة ،
ولأَنَّهم كانوا حُمْساً ، وقُريش حَمَّستهم .

وممَّا بانت[٢] به قريش من سائِر العرب أَنَّ الله تعالى جاءَ بالإِسلام
وليس فى أَيدى جميعِ العرب سبيَّةٌ[٣] من جميع نساءِ قريش ، ولاوَجَدوا
فى جميع أَيدِى العرب ولداً من امرأَةٍ من قريش .

ومما بانت[٤] به قريشٌ من سائر العرب أَنَّها لم تكن تزوِّج أَحداً
من أَشراف العرب إِلاَّ على أَن يتحمَّس . وكانوا يُزَوَّجون من غير أَن
يُشتَرَطَ عليهم ، وهى عامر بن صعصعة ، وثقيف، وخُزاعة ، والحارث
ابن كعب، وكانوا ديانِيِّين[٥] ، ولذلك تركوا الغَزْو لما فيه من الغَصْب[٦]
والغَشم[٧] ، واستحلال الأَموال والفروج .

ومن العجب أَنَّهم مع تركهم الغَزْوَ كانوا أَعزَّ وأَمثَلَ ، مثل أَيَّامِ
الفِجَار[٨] وذات كَهْفٍ[٩] .

---

(١) بها أو بنحوها يصح الكلام . وانظر ما سيأتى فى نهاية الفقرة التالية .

(٢) فى النسختين : « وما بانت » ، والوجه ما أثبت .

(٣) السبية : المسبية التى لحقها السباء، وهو الأسر والنهب . ب : « نسية » م : « سنية » ، صوابهما ما أثبت .

(٤) فى النسختين : « وما بانت » ، تحريف .

(٥) نسبة إلى الديانة . وفى النسختين : « ديانين » . والديان : الحاكم والقاضى ، ولاوجه له هنا . وانظر الحيوان ٤ : ١٩٧ .

(٦) فى النسختين : « الغضب » بالضاد المعجمة ، صوابه ما أثبت .

(٧) الغشم : الظلم . ب : « القشم » م : « العشم » صوابهما بالغين المعجمة .

(٨) أيام الفجار ، بكسر الفاء : حروب أربعة كانت أولاها وثالثتها بين كنانة وهوازن وثانيتها بين قريش وهوازن ورابعتها بين قريش وكنانة كلهاوبين هوازن . وكانت كلها قبل البعثة بست وعشرين سنة . وانظر العقد ٥ : ٢٥١-٢٥٧ . ب : « مثل أنام الفجار » م : « أنام الفخار » ، وبإسقاط ، « مثل » والوجه ما أثبت .

(٩) ذات كهف : موضع كانت فيه وقعة لهم . وفيه يقول بشر بن أبى خازم الأسدى :

يرومون الصلاح بذات كهف   وما فيها لهم سلع وقار

الصلاح ، بالكسر : الصلح . وانظر المفضليات ٣٤١ .

أَلَا ترى أَنَّهم عند بُنيان الكَعْبةِ قال رؤساؤهم : لاتُخرِجوا في نفقاتكم على هذا البيت إلَّا من صَدُقَات نسائِكم[١] ، ومواريث أَبائِكم ! أَرادوا مالاً لم يكسبوه ولا يشكُّون أَنه لم يدخله من الحرام شيء .

ومن العجب أَنَّ كسبهم لمَّا قَلَّ مِن قِبَلِ تركهم الغَزْو ، ومالُوا إلى الإيلاف والجِهاد، لم يَعْتَرِهِمْ من بُخل التجَّار قليلٌ ولا كثير، والبُخلُ خِلقةٌ في الطِّباع ، فأَعطَوُا الشُّعراءَ كما يُعطِي الملوك ، وقَرَوُا الأَضيافَ ، ووَصَلُوا الأَرحام ، وقاموا بنوائِب زُوَّارِ البيت ، فكان أَحدُهم يَحِيسُ الحَيْسَةَ في الأَنطاع[٢] فيأْكل منها القائمُ والقاعد، والراجلُ والرَّاكب[٣] وأَطعمُوا بدلَ الحَيْس الفَالوذَج[٤] . أَلا ترى أُميَّةَ بن أَبي الصلت يقول، ويذكُرُ عبدَ الله بن جُدْعان[٥] :

له داعٍ بمكَّةَ مشمعلٌّ   وحفصٌ فوق دارتِه ينادِي[٦]

---

(١) الصدقات : المهور ، وهى بضم الدال وفتحها مع فتح الصاد، ومثلها الصدقة بضم الصاد وبضمتين ، وكذلك الصداق كسحاب وككتاب . وفى الكتاب العزيز : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » ، لم تقرأ فى القراءات الأربع عشرة إلا بفتح الصاد وضم الدال . وانظر تفسير أبي حيان ٣ : ١٦٦ والإتحاف ١٨٦ .

(٢) الحيس : طعام يتخذ من التمر والأقط يدقان ثم يعجنان بالسمن عجناً شديداً حتى يندر النوى منه نواة نواة ثم يسوى كالثريد . والنطع بتثليث النون : بساط من الجلد .

(٣) الراجل : من يمشى على رجليه ، مقابل الراكب . وفى النسختين : « الداخل » ، صوابه ما أثبت .

(٤) الفالوذ والفالوذج : طعام يتخذ من الدقيق والماء والعسل ، معرب . وانظر صنعة متقدمة منه فى كتاب الطبيخ للبغدادى ص ٧٦ .

(٥) جدعان بضم الجيم، كما فى القاموس (جدع) . وفى النسختين : «جذعان» تصحيف. وعبد الله هذا جواد معروف مات قبل الإسلام ، واسمه عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة . وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شهدت مأدبة فى دار ابن جدعان» . وفى الإصابة ٤٥٧٨ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « إذا اشتريت نعلا فاستجدها، وإذا اشتريت دابة فاستفرهها ، وإذا كان عندك كريمة قوم فأكرمها » . وسألت عائشة عنه رسول الله وذكرت له ما كان فيه من الجود فقال : « إنه لم يقل رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » . وانظر الأغانى ٨ : ٢—٥ والعقد ١ : ٥٤/٢ : ٢٣/٤ : ٤٧ . والمحبر لابن حبيب ١٣٧ — ١٣٩ .

(٦) الرواية المعروفة : « وآخر فوق دارته» . ديوان أمية ٢٧ والبيان ١ : ١٧ والأغانى ٨ : ٣ .

إلى رُدُحٍ من الشِّيزى مِلاءٍ لُبابَ البُرِّ يُلبَكُ بالشِّهادِ[١]

فلُبَاب البُرّ هو هذا النَّشا ، والشِّهاد يعنى به العسل .

ألاترى أنَّ عمر بن الخطاب يقول :« أتُرَوْنِي لا أَعرِفُ طيِّبَ الطعام؟ لُباب البُرِّ بصِغارِ المِعْزَى » ، يعنى خُبْزَ الحُوَّارَى بصغار الجداءِ[٢] .

ولقد مدحَتْهم الشُّعراءُ كما يُمدح الملوك، ومَدحَتهم الفرسانُ والأَشراف وأَخذوا جوائِزهم ؛ منهم : دريد بن الصِّمَّة ، وأُميَّة بن أَبى الصَّلت .

ومن خصالهم أَنَّهم لم يُشاركوا العربَ والأَعرابَ فى شيءٍ من جَفَائهم ، وغِلَظ شَهَواتهم ؛ وكانوا لا يأْكلون الضِّباب ، ولا شيئاً من الحشرات ؛ ألا ترى أَنَّ النبى – صلى الله عليه وسلم – أَتَوْا خِوانَهُ بضبٍّ فقال : «ليسَ من طَعامِ قَوْمى »، لأَنَّهم لم يكونوا يَحرِشُون الضِّباب[٣] ، ويَصيدون اليرابيع، ويملُّون القَنافذ[٤] ، أَصحابُ الخَمْر والخَمِير ، وخُبز التَّنانير .

وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلَّم – : « أَنا أَفصحُ العَرَب بيد أَنِّى من قريشٍ ، ونَشأْتُ فى بنى سعد بن بكر » .

وذلك أَنَّ جميع قبائِل العرب إِنَّما كانت القبيلةُ لاتكاد ترى

---

(١) ردح ، أى قصاع عظيمة ، الواحدة رداح كسحاب . وفى النسختين : « روح » تحريف . والشيزى : خشب أسود تتخذ منه القصاع . يلبك : يخلط . والشهاد : جمع شهد بالفتح والضم ، وهو العسل مادام لم يعصر من شمعه .

(٢) الحوارى ، بضم الحاء وتشديد الواو ، مقصور : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه . والجداء : جمع جدى ، كما يجمع أيضاً على أجد وجديان . وفى النسختين : « الجدى » ، تحريف .

(٣) حرش الضب يحرشه ، بالكسر ، حرشاً : صاده ، كاحترشه . وذلك بأن يحرك يده على باب جحره ليظنه حية ، فيخرج ذنبه ليضربها فيأخذه .

(٤) يملونه : يجعلونه فى الملة ، وهو الرماد الحار والجمر ، يشتوونه ليؤكل .

وتُسمعُ إلَّا من قبيلتها ورجالها ، فليس عندهم ، إلَّا عند قبيل واحد ، من البيان والأَدب والرأى والأَخلاق ، والشمائِل ، والحلم والنَّجدة والمعرفة ، إلَّا فى الفَرْط .

وكانت العرب قاطبَة ترد مكَّة فى أَيَّام الموسم ، وترد أَسواقَ عكاظ وذا المجاز ؛ وتقيم هناك الأَيَّامَ الطِّوال ، فتَعْرُف قريشٌ[١] ، لاجتماع الأَخلاق لهم [و] الشَّمائل والأَلفاظ ، والعُقول والأَحلام ، وهى وادعة[٢] وذلك قائمٌ لها ، راهنٌ عندها فى كلِّ عام ، تَتملَّك عليهم[٣] فيقتسمونهم ، فتكون غَطَفان للمِيرة[٤] ، وبنو عامرٍ لكذا ، وتميم لكذا ، تغلبها المناسك[٥] وتقوم بجميع شأْنها .

٥ – فصــل منه

وفتح مكة يسمَّى فتحَ الفتوح ؛ وهو بيتُ الله ، وأَهله وحُجَّاجُه زوَّار الله ؛ وهو البيت العتيق والبيتُ الحرام ؛ وفيه الحِجْر ، والحَجر الأَسْود .

وله زمزم ، وهى هزمة جبريل[٦] – صلوات الله عليه – ، ومَقَام إبراهيم . وماء زمزم لِمَا شُرِب له ، العاكفُ فيه والبادِى سواءٌ[٧] .

---

(١) عرف يعرف عرافة : صار عريفاً ، أى سيداً .

(٢) ب : « وداعة » ، صوابه فى ش .

(٣) فى النسختين : « يتملك عليهم » .

(٤) الميرة : الطعام يمتاره المرء ، أى يجلبه . وفى النسختين : « المنيرة » ، تحريف .

(٥) لعلها : « وتغلب للمناسك » .

(٦) من أسماء زمزم « هزمة جبريل » لأنه ضرب برجله فانخفض المكان فنبع الماء ؛ أو أنه هزم الأرض ، أى كسر وجهها عن عينها حتى فاضت بالماء الرواء . وتسمى زمزم أيضاً : « ركضة جبريل » . وفى ب : « وهو زمزمة جبريل » وفى م : « وهو مزمم جبريل » ، صوابهما ما أثبت .

(٧) البادى : المقيم بالبادية . ب : « والباء » ، وهى لغة صحيحة جائزة قرأ بها جمهرة القراء فى الوقف والوصل ، وأثبت الياء فى الوصل فقط ورش وأبو عمرو وأبوجعفر . أما يعقوب وابن كثير فقد أثبت الياء فى الحالين جميعاً . إتحاف فضلاء البشر ٣١٤ فى الآية ٢٥ من سورة الحج .

وبسبب كرامته أرسل الله طَيْر الأَبابيل[١] وحجارة السِّجِّيل . وأَهلهُ حُمْسٌ ولَقَاحٌ[٢] لا يؤدُّون إتاوة ؛ ولهم السِّقايةُ ، ودار النَّدوة، والرِّفادةُ، والسِّدانة .

قال : وأَقسم الله تعالى بها ، قال : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وأَنْتَ حِلٌّ بِهذا البَلَدَ[٣] ﴾ . وقوله جل ذكره : (لَا أُقْسِمِ) أَى : أُقسم ، وإنَّما قوله « لا » فى هذا الموضع صلةٌ ، ليس على معنى « لا » الذى هو خلاف « نعم » .

وقالوا : ولو كان قوله : ﴿ ولْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ العَتِيق[٤] ﴾ يراد به تقادُمُ البنيان ، وما تعاورَه[٥] من كُرور الزَّمان ، لم يكن فضلُه على سائر البُلدان ، لأَنَّ الدنيا لم تَخْلُ من بيتٍ ودار ، وسُكَّان وبُنْيان . وقد مرَّت الأَيَّام على مصر ، وحَرَّان ، والحِيرَةِ ، والسُّوس الأَقصى[٦] ، وأَشباهِ ذلك ، فجعل البيت العتيق صفةً له ، ولو كان ذهب إلى مايعنون. كان من قَبلِ أَنْ يَعْتُقَ وتمرَّ عليه الأَزمنة ليس بعتيق . وهذا الاسم قد أُطلِقَ له إطلاقاً ، فاسمه البيت العتيق ، كما أَنَّ اسمَه بيتُ الله .

ومن زعم أَن الله تعالى حَرَّمه يوم خلق السَّموات والأَرض ، فقولنا هذا مِصداقٌ له[٧] .

---

(١) هذا ما فى م . والأبابيل : الجماعات . وفى ب : « طيراً أبابيل » .

(٢) حمس : جمع أحمس ، وهو الشديد الصلب فى الدين والقتال . ويقال قوم لقاح ، بفتح اللام ، وحى لقاح : لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم فى الجاهلية سباء . وفى النسختين : « لفاح » بالفاء ، صوابه ما أثبت .

(٣) الآية ١ ، ٢ من سورة البلد .

(٤) الآية ٢٩ من سورة الحج .

(٥) تعاوره : تداول عليه وتعاقب . وفى ب : « تعاوده » بالدال ، صوابه فى م .

(٦) السوس الأقصى : كورة بالمغرب ، قصبتها طرقلة . وأما السوس الأدنى فهى بلدة بخوزستان . وبين السوسين مسيرة شهرين ، كما ذكر ياقوت .

(٧) ب : « مصدق » ومع سقوط « له » .

ومن زعم أنَّه إنَّما صار حراماً منذ حرَّمه إبراهيم، كان قد زعم أنَّه قد كان ولا يقال له عتيقٌ ولا حرام .

قالوا : وممَّا يصدِّق تأويلَنا أنَّه لم يُعرَفْ إلَّا وهو لَقَاح [١] ، ولا أدَّى أهلُه إتاوةً قطُّ [٢] ، ولا وطِئَتْه الملوكُ بالتَّمليك : أنَّ سابورذا الأكتافِ ، وبُخْت نَصَّر وأبا يكسوم وغيرَهم، قد أرادُوه [٣] فحال الله تعالى دونه ، فتلك عادةٌ فيه ، وسُنَّةٌ جارية له .

ولولا أنَّ تُبَّعَ أتاه حاجًّا ، على جهة التعظيم والتديُّن بالطَّواف ، فحجَّه وطافَ به ، وكَسَاه الوصائِل [٤] ، لأَخْرَجه الله منه .

وحجَّهُ بعضُ مُلوكِ غَسان ولخمٍ ، وهم نصارى ، تعظيماً له ، ولِما جعلَ اللهُ له فى القلوب .

والعَتيق يكون من رقِّ العبوديَّة ، كالعبد يَعتقه مولاه . ويكون عتيقاً من النار ، كالتائب من الكبائر ، وكالرَّجل يدعو إلى الإيمان فيُستجاب له ، ويتعلَّم [٥] ناسٌ على يده ، فهُمْ أيضاً عُتَقاءُ [٦] .

ويكون الرَّجلُ عتيقاً مِن عِتْق الوجه .

وربَّما كان عتيقاً كما يقال للفرس عتيقٌ وليس بهجين ولا مُقْرِف . وقد سُمِّى أبو بكرِ بن أبى قُحافَةَ ــ رضوان الله عليه ــ عتيقاً ، من طريق عِتْق الوجه ، ومن طريق أنَّهم طلبوا المثالبَ والعيوبَ التى كانت تكون

---

(١) انظر ما مضى فى الحاشية الثانية من ص ١١٩ .
(٢) فى النسختين : « فقط » .
(٣) فى النسختين : « قد أدوه » .
(٤) الوصائل : ثياب يمانية ، وقيل ثياب حمر مخططة يمانية ، واحدتها وصيلة .
(٥) فى النسختين : « وتعليم » .
(٦) ب : « فهو أيضا عتقاوة » م : « فهو أيضا عتقا » ، والوجه ما أثبت .

فى الأُمَّهات والآباءِ فلمَ يَجِدوها ، قالوا[١] : ما هذا إلَّا عتيق .

٦ – فصل منه

قد قلنا فى الخصال التى بانت بها قريشٌ دونَ العرب . ونحن ذاكرون – وبالله التوفيقُ – الخِصالَ التى بانت بها بَنُو هاشمٍ دونَ قريش .

فأَوَّلُ ذلك النبوَّة ، التى هى جِماعُ خصالِ الخَيْر[٢] ، وأَعلاها وأفضلُها ، وأَجلُّها وأَسناها .

ثمَّ وجَدْنا فيهم ثلاثةَ رجالٍ بَنِى أَعمامٍ فى زمانٍ واحد ، كلُّهم يسمَّى عليًّا ، وكلُّ واحدٍ من الثَّلاثة سيِّدٌ فقيه ، عالمٌ عابد ، يَصلُح للرِّياسة والإمامة ؛ مثلَ علىِّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطَّلبِ بن هاشم ، وعلىِّ بن الحُسَين بن علىٍّ بن أَبى طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم ، وعلىِّ ابن عبد الله بن جَعفرِ بن أَبى طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم .

ثُمَّ وجَدْنا ثلاثةَ رجالٍ بنى أَعمامٍ ، فى زمانٍ واحدٍ ، كلُّهم يسمَّى محمَّدًا ، وكلُّهم سيِّدٌ وفقيهٌ عابد ، يَصلُح للرياسة والإمامة ، مثلَ محمَّد ابن علىّ بن عبد الله بن العبَّاس بن عبد المطلب بن هاشم ، ومحمَّدِ بن علىٍّ بن الحسين بن علىٍّ بن أَبى طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم ، ومثلَ محمّد بن عبد الله بن جعفر بن أَبى طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم .

وهذا من أَغربِ مايتهيَّأ[٣] فى العالم ، ويتَّفق فى الأَزمنة ، وهذهِ[٤] لا يشركهم فيها أَحد . ولا يستطيع أَن يدَّعىَ مثلَها أَحد .

---

(١) ب : « قال » ، صوابه فى م .

(٢) فى النسختين : « خصال جماع الخير » ، والوجه ما أثبت . وجماع الشىء بالكسر : مجمعه ومظنته . يقال : « الخمر جماع الإثم » . وفى قول الحسين رضى الله عنه : « اتقوا هذه الأهواء التى جماعها الضلالة وميعادها النار » . اللسان (جمع ٤٠٥) .

(٣) فى النسختين : « تهيأ » .

(٤) م : « وهذا » ، صوابه فى ب .

ولبنى هاشم واحدةٌ[(١)] مبرِّزة ، وثانيةٌ نادرة ، يتقدَّمون بها على جميع الناس . وذلك أنَّا لا نعرف فى جميع مَملكةِ العرب ، وفى جميع مَملكة العجم ، وفى جميع الأقاليم السَّبعَة ، مَلِكاً واحداً مُلكهُ مِن نصاب واحدٍ[(٢)] ، وفى مغرِسِ رسالة ، إلَّا من بنى هاشم ، فإنَّ مَلِكهم العبّاسُ ابن عبد المطلب ، عمُّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم ، والعمُّ وارثٌ ، والعمُّ أبٌ . ولا نعلم أمّةً تدَّعى مثلَ هذا لِملكِها .

وهذا شيءٌ سمعتُه من أبى عُبيدة ، ومنه استمليت هذا المعنى .

ولبنى هاشم – مُذْ ملَكوا هذه الدُّفعة – دون أيَّام علىّ بن أبى طالب والحسينِ بن علىٍّ إلى يومنا هذا مائةٌ وستَّ عشْرة سنة[(٣)] . كان أوَّل بركتهم أنَّ الله – تعالى – رفع الطَّواعين والمُوتانَ الجارف ، فإنَّهم كانوا يُحصَدون حصدًا بعد حصد .

ثمَّ الذى تهيَّأَ واتَّفق ، وخُصَّ به آل أبى طالب من الغرائب والعجائب والفضائِل ، مالم نجده فى أحدٍ سواهم : وذلك أنَّ أوَّلَ هاشمىٍّ هاشِمِىِّ الأبوَين كان فى الدُّنيا وُلِدَ لأبى طالب ، لأنَّ أباهم عبد مناف . وهو أبو طالب بن شَيْبة – وهو عبد المطَّلب – بن هاشم – وهو عمرو – وهو أبو شيبة . وشيبة هو عبد المطَّلب . وهو أبو الحارث وسيِّد الوادى غير مدافَع ، بن عمرو ، وهو هاشم بن المغيرة ، وهو عبد مناف .

ثم الذى تهيَّأَ لبنى أبى طالب الأربعة : أنَّ أربعةَ إخوة كان بين كلِّ واحد منهم وبين أخيه فى الميلاد عَشْرُ سِنينَ سواءً . وهذا عَجَبٌ .

---

(١) أى خصلة ، أو ميزة . ب : « واحد » تحريف ما فى م .

(٢) فى النسختين : « واحدة » تحريف .

(٣) هذا يؤرخ زمن تأليف هذا الكتاب ، وهو سنة ٢٤٨ ، أى قبل وفاة الجاحظ بسبع سنوات .

ومن الغرائِب التى خُصُّوا بها ، أعنى ولدَ أَبى طالب ، أَنَّا لا نعلم الإِذكار فى بلدٍ من البُلدان ، وفى جيلٍ من الأَجيال ، [إلاَّ[1]] أهلَ خُراسان فمن دونهم ، فإنَّ الإِذكار فيهم فاشٍ ؛ كما أَنَّك لاتجد مِن وراءِ بلادِ مصر إلَّا مِئناثاً، ثم لاترى فيهنَّ مُفِذًّا[2] بل لا ترى إلَّا التُّوْأَمَ ومن البَنات .

فتهيَّأَ فى آل أَبى طالب من الإذكار مالم نَعرِفه[3] فى قديم الدهر وحديثه ، ولا فيما قَرُب من البُلدانِ ولا فيما بَعُد .

وذلك أَنَّ آل أَبى طالب أُحْصُوا منذُ أعوامٍ وحُصِّلوا، فكانوا قريباً من أَلفين وثلثمائة، ثم لا يزيد عددُ نسائهم على رجالهم إلاَّ دون العُشْر[4] . وهذا عَجَب .

وإن كنتَ تريد أَن تتعرَّف[5] فضلَ البناتِ على البنين ، وفضلَ إناثِ الحيوانات على ذكورها ، فابدأْ فخُذْ أَربعين ذراعاً عن يمينك ، وأَربعين ذراعاً عن يسارك ، وأَربعين خلفك ، وأَربعين أَمامك ، ثم عُدَّ الرِّجالَ والنِّساءَ حتَّى تعرف ماقُلْنا[6] ، فتعلمَ أَنَّ الله تعالى لم يُحلِّل للرَّجل الواحدِ من النِّساءِ أَربعاً ثم أَربعاً ، متى وقع بهن موتٌ أَو طلاق ، ثم كذلك للواحد[7] مابين الواحدةِ من الإماءِ إلى مايشاءُ من العدد ، مجموعاتٍ ومفترقات ، لئلا يَبْقَين إلَّا ذواتِ أَزواج[8] .

---

(١) تكملة يفتقر إليها صحة الكلام .
(٢) أفذت : ولدت ولدا واحداً ، وإن كان من عادتها أن تلد واحداً فهى مفذاذ .
(٣) فى النسختين : « يعرفه » ، والوجه ما أثبت .
(٤) ب : « لادون العشر » ، صوابه فى م .
(٥) م : « أن تعرف » .
(٦) ب : « بما قلنا » .
(٧) فى النسختين : « الواحد » .
(٨) ب : « لاذوات أزواح » م : « لاذات أزواج » ، والوجه ما أثبت .

ثم انظر فى شأْن ذَوَاتِ البَيْض[١] وذوات الأَولاد فإنَّك سترى فى دارٍ خمسين دجاجةً وديكاً واحداً ، ومن الإبل الهَجْمةَ وفحلاً واحداً ، ومن الحمير العانَةَ وعيراً واحداً . فلمَّا حصلوا كل مئناث وكلَّ مذكار ، فوجدو آل أَبى طالبٍ قد بَرَعوا على الناس وفَضَلوهم[٢] ، عرف الناس موضعَ الفضيلةِ له والخُصوصيَّة .

وفى ولدِ أَبى طالبٍ ــ أَيضاً ــ أُعجوبةٌ أُخرى ؛ وذلك أَنَّه لم يُوجد قَطُّ فى أَطفالِهم طفلٌ يَحْبُو ، بل يَزحفُ زحفاً لئلاَّ ينكشفَ منه عن شيءٍ يَسوءُه ، ليكونَ أَوفَرَ لبهائه ، وأَدَلَّ على ماخُصُّوا به .

ولهم من الأَعاجيب خَصلةٌ أُخْرى : وذلك أَنَّ عُبيدَ الله بنَ زيادٍ قَتَل الحُسينَ فى يومِ عاشُوراءَ ، وقَتَله اللهُ يومَ عاشوراءَ فى السَّنَة الأُخرى .

وقالوا : لا نعلم موضع رجلٍ من شُجعانِ أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان له من عَدَدِ القَتْلى[٣] ماكان لعلىٍّ رضوان الله عليه ، ولا كان لأَحدٍ مع ذلك من قَتْل الرُّؤساءِ والسَّادة ، والمتبوعين والقادَة ، ما كان لعلىٍّ بن أَبى طالبٍ . وقتلُ رئيسٍ واحدٍ ، وإن كان دون بَعضِ الفُرْسان فى الشِّدَّة ، أَشدُّ ؛ فإنَّ قتلَ الرئيس أَرَدُّ على المسلمين وأَقوى لهم من قتل الفارسِ الذى هو أَشدُّ من ذلك السيِّد .

وأَيضاً ــ أَنَّه قد جمع بين قتل الرُّؤساء وبين قَتْل الشُّجعان .

وله أُعجوبةٌ أُخرى ؛ وذلك أَنَّه مع كثرةِ ماقَتَل وما بارز ، وما مَشَى بالسيف إلى السَّيف ، لم يُجْرَحْ قطُّ[٤] ولا جَرحَ إنساناً إلَّا قَتَله ،

(١) فى النسختين : « ولا ذات البيض » ، صوابه ما أثبت .

(٢) م : « وفضلوا » .

(٣) فى النسختين : « من عذر القتلى » ، والصواب ما أثبت . والمراد عدد من قتل من نسله .

(٤) م : « لم يخرج قط » ، صوابه فى ب

ولا نعلم فى الأرض متى ذُكِر السَّبقُ فى الإسلامِ والتَّقدُّمُ فيه، ومتى ذُكِر الفِقهُ فى الدِّين ، ومتى ذُكر الزُّهد فى الأَموالِ التى تَشاجَرَ النَّاسُ عليها ، ومتى ذُكِر الإعطاءُ فى الماعون ، كان مذكوراً فى هذه الحالاتِ كلِّها — إلَّا علىَّ بنَ أبى طالبٍ كرَّم الله وجهه .

قالوا : وكان الحسن يقول : قد يكون الرجل عالماً وليس بعابد ، وعابداً وليسَ بعالم ، وعابدًا وليس بعاقل ، وعاقلاً وليس بعابد . وسُليمان ابن يسار[١] عالمٌ عاقل عابد ، فانظُرْ أين يقع خصالُ سليمانَ من خصال علىٍّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

ولم يكن قصدُنا فى أوَّل هذا الكتاب إلى ذكر هاشم ، وقد كان قصدُنا الإخبارَ عن مكَّة بما قد كتبناه فى صدر هذا الكتاب ، ولكنَّ ذكر خصالِ مكَّةَ جرَّ ذكر[٢] خصالَ قريش ، وذكر خصال قريش جرَّ ذكر[٣]خصالِ بنى هاشم .

فإن أحببتَ أن تعرفَ جُملة القولِ فى خصال بنى هاشم فانظر فى كتابى هذا الذى فَرَّقْتُ فيهِ بين خصال بنى عبدِ منافٍ وبين بنى مخزوم ، وفَرَّقت[٤] ما بين عبد شمس ؛ فإنَّه هُنَاكَ أَوفَرُ وأَجمَعُ ، إنْ شاءَ الله تعالى .

---

(١) هو أبو أيوب ، أو أبو عبد الرحمن ، أو أبو عبد الله ، سليمان بن يسار الهلالى المدنى ، مولى ميمونة ، ويقال كان مكاتباً لأم سلمة . روى عن ميمونة وأم سلمة وعائشة وزيد ابن ثابت وابن عباس وغيرهم . وعنه عمرو وعبد الله ابنا دينار ، وأبو الزناد والزهرى ونافع وغيرهم . وكان ثقة عابداً ، يصوم يوماً ويفطر يوماً . ولد سنة ٢٧ وتوفى سنة ١٠٧ . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٢ : ٤٥ .

(٢) ب : « جر ذلك » ، صوابه فى م .

(٣) ب : « جر ذلك » ، صوابه فى م .

(٤) م : « وفرق » ، وأثبت مافى ب .

٧ — فصل منه

قالوا : وقد تعجَّبَ الناسُ من ثَباتِ قريش ، وجزالة عَطاياهم ، واحتمالهم المُؤَنَ الغلاظ [١] فى دوام كَسْبِهِم من التِّجارة ، وقد علموا أنَّ البُخْلَ والبَصَر [٢] فى الطَّفيف مقرونٌ فى التجارة ؛ وذلك خلُقٌ من أخلاقهم . وعلى ذلك شاهِدُ أَهلِ الترقيح [٣] والتكسُّب والتَّدنيق [٤] .

فكان فى ثبات جُودهم العالى على جُود الأَجواد ، وهم قومٌ لا كسْبَ لهم إلَّا من التجارة ، عَجَبٌ من العَجَب .

ثُمَّ جاءَ ما هو أَعجَبُ من هذا وأَطمُّ [٥] ،وذلك أنَّا قد علمنا أَنَّ الرُّوم قَبْلَ التديُّن بالنَّصرانيَّة ، كانت تنتصفُ من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سِجالاً ، فلمَّا صارت لا تَدينُ بالقَتْل والقتال ، والقَوَد والقِصاص ، اعتراهُم مثلُ مايعترى الجُبَناءَ حتَّى صاروا يتكلَّفون القتالَ تكلُّفا . ولَمَّا خامرتْ طبائعَهم تلك الدِّيانة ، وسَرَتْ فى لحومهم ودمائهم فصارت [٦] تلك الدِّيانة تَعترِض عليهم ، خَرَجُوا من حدود الغالبيَّة إلى أَنْ صاروا مغلوبين .

وإلى مثل ذلك صارت حَالُ التُّغزْغُز [٧] من التُّرك . بعد أَن كانوا

(١) ب : « المومن الغلاظ » ، صوابه فى م .

(٢) فى النسختين : « والبطر » .

(٣) ترقيح المال : إصلاحه والقيام عليه . م : « الترجيح » ، تحريف .

(٤) فى النسختين : « والمكسب » ، والوجه ما أثبت . والتدنيق : البخل والشح ، مأخوذ من الدانق بكسر النون وفتحها ، وهو سدس الدينار والدرهم .

وفى حديث الحسن : « لعن الله الدانق ومن دنق » . والمراد به هنا الحرص والدقة فى المعاملة .

(٥) أى أكثر وأعظم . ومنه الطامة ، وهى القيامة ، والداهية .

(٦) م : « فسارت » ، صوابه فى ب .

(٧) التغزغز : جيل من الترك كانوا يعيشون فى بقاع موغلة نحو الغرب ، وكانوا جيراناً للخرلخ ، أو القرلق . وقد انحدر من نسلهم أحمد بن طولون . انظر دائرة المعارف الإسلامية فى رسمها . ب : « التغرغر » م : « التفرغز » صوابهما ما أثبت . وانظر حواشى الكامل لابن الأثير ١١ : ١٧٨ بيروت .

أنجادَهم وحُماتَهم ، وكانوا يتقدّمون الخَرْلُخِيَّة[١] ، وان كانوا فى العدَدِ أَضعافَهم ، فلما دانُوا بالزَّندقة — ودينُ الزَّندقة فى الكَفِّ والسِّلْمِ أَسوأُ من دِينِ النَّصارى — نَقَصَت تلك الشَّجاعة ، وذهبَتْ تلك الشهامة .

وقريشٌ من بين جميع العرب دانُوا بالتحمُّس ، وتشدَّدوا فى الدين ، فتركوا الغَزْو كراهةً للسَّبْى واستحلال الأَموال واستحسان الغَصْب ؛ فلمَّا تركوا الغَزْوَ لم تبقَ مكسبةٌ سوى التِّجارة ، فضربوا فى البلادِ إلى قيصَرَ بالرُّوم ، وإلى النجاشىِّ بالحبشة ، وإلى المُقوقِس بمصر ، وصاروا بأَجمعهم تُجَّاراً خُلَطاءَ ، وبانوا بالدِّيانة والتحمُّس ، فحمَّسوا بنى عامر ابن صعصعة ، وحمَّسوا الحارثَ بنَ كعب ، فكانوا — وإن كانوا حُمْساً — لا يتركون الغَزْوَ والسَّبى ووطءَ النِّساء ، وأَخْذَ الأَموال ، فكانت نَجْدتهم — وإن كان أَنقَصَ — فإنَّها على حالِ النَّجْدة ، ولهم فى ذلك بقيَّة[٢] .

وتركَتْ قريشٌ الغَزْو بَتَّةً ، فكانوا — مع طُولِ تَرْك الغَزْو — إذا غَزَوْا كالأُسود على براثنِها ، مع الرأْى الأَصيل ، والبصيرةِ النَّافذة .

أَفليسَ من العَجَب أَنْ تبقى نَجدتُهم ، وتثبُتَ بسالتُهم ، ثم يَعْلون الأَنجاد والأَجواد ، ويَفْرَعُون الشُّجعان[٣] ؟ ! وهاتان الأُعجوبتان بيِّنتان[٤] .

وقد عُلِمَ أَنَّ سبب استفاضةِ النجدة[٥] فى جميع أَصناف الخوارج

---

(١) فى ب : « الخزلجية » م : « الحزلجية » ، صوابهما ما أثبت . وانظر دائرة المعارف (خرلخ) و (قرلق) .

(٢) البقية : الفضل فيما يمدح به .

(٣) فى النسختين : « ويعرفون الشجعان » ، والوجه ما أثبت . فرع القوم : علاهم وفاقهم .

(٤) فى النسختين : « بليتان » .

(٥) ب : « أن السبب استفاضة النجدة » ، صوابه فى م .

وتقدُّمِهم فى ذلك ، إنّما هو بسبب الدِّيانة ، لأنَّا نجد عبيدَهم ومواليَهم ونساءهم ، يقاتلون مثلَ قتالهم ، ونجد السِّجستانىَّ وهو عجمىٌّ ، ونجد اليمامىَّ والبَحْرانىَّ والخوزىّ[١] [وهم غير[٢]] عرب ، ونجد إباضيَّة عُمَان وهى بلادُ عربٍ ، وإباضيَّة تاهرت وهى بلاد عجم ، كلُّهم فى القتال والنَّجدة ، وثبات العزيمة ، والشِّدَّة فى البأس سواءٌ . فاستوت حالاتهم فى النَّجدة مع اختلافِ أنسابهم وبُلدانِهم . أفما فى هذا دليلٌ على أنَّ الذى سوَّى بينهمُ التَّديُّنُ بالقتال ، وضروبٌ كثيرة من هذا الفَنّ ؟!

وذلك كلُّه مُصوَّر فى كتبى ، والحمدُ لله .

وقد تَجِدون عُمومَ السُّخف والجهلِ والكذب فى المواعيدِ ، والغِشِّ فى الصناعة ، فى الحاكةِ[٣] ، فدلَّ استواءُ حالاتهم فى ذلك على استواءِ عِلَلهم . ليست هناك عِلَّةٌ إلَّا الصِّناعة ؛ لأنَّ الحاكة فى كل بلد شىءٌ واحد . وكذلك النَّخَّاس وصاحب الخُلْقان[٤] ، وبَيَّاع السَّمك . وكذلك الملاَّحون وأصحاب السَّماد ، أوَّلُهم كآخرهم ، وكهولُهم كشُبَّانهم ، ولكن قُلْ فى استواءِ الحجَّامين فى حُبِّ النبيذ[٥] !

٨ – فصــل منــه
فى ذكر المدينة

وأمْر المدينة عَجَبٌ ، وفى تُربها وتُرابها[٦] وهوائها ، دليلٌ وشاهدٌ

---

(١) م : « والخوارزنى » . والخوز هم أهل خوزستان .
(٢) تكلة يفتقر الكلام إليها .
(٣) مابعده إلى « الحاكة » التالية ، ساقط من م .
(٤) انظر لأصحاب الخلقان ما مضى فى ١ : ٥٢ والحيوان ٢ : ١٠٥
(٥) أى حدث عنهم ولا حرج .
(٦) التربة : ظاهر الأرض . ومثله فى الحيوان ٣ : ١٤٢ : « وفى ريح ترابها وبنة تربتها » .

وبرهانٌ على قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «إنَّها طيِّبة تَنْفِى خَبَثَها وتنصع طِيبَها[١]» لأنَّ من دخلها أو أقام فيها ، كائناً من كان[٢] من النَّاس ، فإنَّه يجد من تُربتها وحِيطانها رائحةً طيبةً ، ليس لها اسمٌ فى الأَرابيح[٣] ، وبذلك السبب طاب طِيبُها والمَعجوناتُ من الطِّيب فيها . وكذلك العُودُ وجَميعُ البَخُور ، يَضَّاعَفُ طِيبُها فى تلك البلدة على كلِّ بلدٍ استعمل ذلك الطِّيب بعينه فيها .

وكذلك صَيَّاحها[٤] والبَلَحُ[٥] والأَتْرُجُّ والسَّفَرْجل ، أعنى المجعول منها سُخُباً للصِّبيان والنِّساء[٦] .

فإن ذكروا طِيب سابور[٧] فإنَّما طيب سابور بطيب أرياح الرَّياحين ، وذلك من ريح رياحينها وبساتينها وأنوارها ، ولذلك يَقْوَى فى زمان ، ويَضعُف فى زمان .

ونحن قد ندخل دِجْلة[٨] فى نهر الأُبُلَّة بالأسحار ، فنجد من تلك

---

(١) فى اللسان (نصع) : «وفى الحديث : المدينة كالكير ، تنفى خبثها وتنصع طيبها ، أى تخلصه» . وانظر الألف المختارة الحديث ١٥٩ . ففيه رواية أخرى .

(٢) م : «ما كان» .

(٣) وكذا فى الحيوان ٧ : ٢٣٠ : «وجد منها عرفاً طيباً وبنة عجيبة لا تخفى على أحد ولا يستطيع أن يسميها» .

(٤) الصياح ، بوزن كتان : عطر أو غسل ، كما فى القاموس . وفى النسختين : «صباحها» ، تحريف . وانظر الحيوان ٣ : ١٤٢ – ١٤٣

(٥) فى النسختين : «والثلج» ، صوابه من الحيوان ٣ : ١٤٤ ، وفيه : «وإن الجويرية السوداء لتجعل فى رأسها شيئاً من بلح وشيئاً من نضوح مما لا قيمة له لهوانه على أهله ، فتجد لذلك خمرة طيبة ، وطيب رائحة لا يعدلها بيت عروس من ذوى الأقدار» .

(٦) السخب ، بفتحتين : جمع سخاب ككتاب ، وهو خيط ينظم فيه خرز وتلبسه الصبيان والجوارى .

(٧) سابور : كورة بأرض فارس ، مدينتها النوبندجان ، أو شهرستان . وهى كورة نزهة كما ذكر ياقوت .

(٨) ب : «دخلة» ، صوابه فى م .

الحدائق ، ونحن فى وَسَط النهر ، مِثلَ ما يجد أهل سابورَ من تلك الرّائحة .

وطَيْبة[١] التى يسمُّونها المدينة ، هذا الطِّيب خِلقةٌ فيها، وجوهريَّة منها، وموجودٌ فى جميع أحوالها . وإنَّ الطِّيب والمعجوناتِ لَتُحْمَلُ إليها فتزداد فيها طِيباً، وهو ضدُّ[٢] قَصَبة الأَهواز وأنطاكيَّة ، فإنَّ الغَوالىَ تستحيل الاستحالة الشَّديدة[٣] .

ولسنا نشكُّ أَنَّ ناساً ينتابون[٤] المواضعَ التى يباع فيها النَّوَى المُنْقَع ، فيستنشقون تلك الرائحة ، يُعجَبون بها ويلتمسونها ، بقدر فِرارنا نحن من مواقع النَّوى عندنا بالعراق ، ولو كان من النَّوى المَعجوم ومن نَوَى الأَفواه[٥] .

ونحن لا نشكُّ أَنَّ الرجل الذى يأْكل بالعراق أَربع جَرادقَ[٦] فى مقعد واحد من المَيْسانىّ[٧] والمَوصلىّ ، أَنَّه لا يأْكل من أَقراص المدينة قُرصَين ؛ ولو كان ذلك لغلظٍ فيه أَو لفسادٍ كان فى حبِّه وطَحِينه لَظَهر ذلك فى التُّخَم وسوءِ الاستمراءِ ، ولتولَّد على طول الأَيَّام من ذلك أَوجاعٌ وفساد كثير .

ولم يكن بها طاعونٌ قطُّ ولا جُذام .

---

(١) طيبة ، بالفتح : اسم للمدينة ، وبالكسر : اسم من أسماء زمزم .

(٢) ب : « عند » ، صوابه فى م .

(٣) الغالية : ضرب من الطيب ، وقد تغلى ، أى تخلق بها .

(٤) ب : « يتناوبون » .

(٥) المعجوم : المدقوق . والأفواه : جمع فوه كسوق ، وهى التوابل ونوافح الطيب . وانظر الحيوان ٣ : ١٤٤

(٦) الجردقة : الرغيف ، فارسى معرب . ويقال جردق أيضاً .

(٧) نسبة إلى ميسان ، بالفتح ، وهى كورة بسواد العراق .

وليس لبلدةٍ من البُلدان من الشُّهرة[١] فى الفقه مالَهُم ولرِجالهم .
وذكر عبد الملك بن مروان رَوْح بن زِنباعٍ[٢] فمدحه فقال : جمعَ
أَبو زُرْعة فِقه الحِجاز ، ودَهاء العراق ، وطاعة أَهلِ الشام[٣] » .

٩ ــ فصــل منــه
فى ذكر مصر

قال أَبو الخَطَّاب[٤] : لم يذكر الله جلَّ وعزّ شيئاً من البُلدانِ باسمِهِ
فى القُرآن كما ذكر مِصْر، حيث يقول : ﴿ وقَالَ الذى اشْتَرَاه مِنْ مِصرَ
لامرأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاه[٥] ﴾ . وقالَ : ﴿ فلَمَّا دَخَلُوا على يُوسَفَ آوَى إليه
أَبَوَيْهِ وقَال ادخُلوا مِصْرَ إنْ شَاءَ اللهُ آمِنِين[٦] ﴾ وقال : ﴿ وأَوحَيْنَا إلى
موسى وأَخِيه أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمصْرَ بُيوتاً واجْعَلُوا بُيوتَكُمْ قِبْلَةً[٧] ﴾
وقال تعالى : ﴿ اهبِطُوا مِصْراً فإِنَّ لكم ما سأَلْتُم[٨] ﴾ وقال فى آية :
﴿ أَلَيْسَ لى مُلْكُ مِصْرَ وهذِهِ الأَنْهارُ تَجرِى مِنْ تَحْتى[٩] ﴾ .

---

(١) فى النسختين : « الشهوة » ، صوابه ما أثبت .

(٢) هو أبو زرعة روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامى . قال ابن حجر فى الإصابة : ذكره بعضهم فى الصحابة ولا يصح له صحبة ، بل يجوز أن يكون ولد فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم . وكان أحد ولاة فلسطين أيام يزيد بن معاوية .الأغانى ١٧ : ١١١ . وزوجه عبد الملك ابن مروان أم جعفر بنت النعمان بن بشير . الحيوان ١ : ٢٢٦ . وكان سيد جذام . البيان ١ : ٣٤٦

(٣) الخبر فى الإصابة ٢٧٠٧ .

(٤) أبو الخطاب هذا هو قتادة بن دعامة السدوسى البصرى . وهو ممن ولد أعمى ، وكان تابعياً عالماً كبيراً نسابة ، وذا علم فى القرآن والحديث والفقه . أخذ عن الحسن وابن سيرين ، وعنه أيوب السختيانى وهشام الدستوائى وسعيد بن أبى عروبة وغيرهم . وروى له البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه. ولد سنة ٦١ وتوفى سنة ١١٧ فى أيام هشام بن الملك . تهذيب التهذيب ، ووفيات الأعيان ، ومعجم الأدباء ، والمعارف ، ونكت الهميان .

(٥) الآية ٢١ من سورة يوسف . (٦) الآية ٩٩ من سورة يوسف .

(٧) الآية ٨٧ من سورة يونس . والكلام بعدها إلى « تجرى من تحتى » ساقط من ب .

(٨) الآية ٦١ من سورة البقرة . وقرأ الحسن والأعمش : « مصر » بلا تنوين . وانظر إتحاف فضلاء البشر ١٣٧ .

(٩) الآية ٥١ من سورة الزخرف .

وذكر مصرَ فى القرآن بالكِناية عن خاصَّة اسمِها ، فمن ذلك : ﴿ وقَالَ نِسوةٌ فى المدينةِ امرَأَةُ العَزِيز تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ[1] ﴾ قالوا[2] : هى مدينة مَنْف[3] ، وهو موضعُ منزل فرعون .

وأَخبرنى شيخٌ من آل أَبى طالبٍ من ولد علىٍّ صحيحُ الخبرِ : مَنْف دارُ فِرعون ، ودُرْتُ فى مجالسِهِ ومثاويه[4] وغُرَفه وصِفافه ، فإذا كلُّه حجرٌ واحدٌ مَنقور ؛ فإن كانوا هَنْدَموه وأَحكموا بِناءَه حتَّى صار فى الملاسة واحداً لايُستَبانُ فيه مَجْمَعُ حَجَرين ، ولا مُلْتَقَى صخرتين فهذا عَجَبٌ . ولئن كان جَبلاً واحدًا، ودَكًّا واحداً، فنقَرتْه الرِّجال بالمناقير حَتَّى خرقت فيه تلك المخاريق ، إنَّ هذا لأَعْجَب .

وفى القرآن : ﴿ فَلنْ أَبْرَحَ الأَرضَ حتَّى يأْذَنَ لى أَبِى أَوْ يحكُمَ اللهُ لى وهو خَيْرُ الحاكِمين[5] ﴾ .

قال : والأَرضُ ها هنا مِصْر . وفى هذا الموضع كلامٌ حَسنٌ ، ولكنَّا ندَعُهُ مخافة أَن نَخرج إلى غير الباب الذى أَلَّفْنا له هذا الكتاب .

قالوا : وسمَّى الله تعالى مَلِكَ مِصر «العَزيز» ، وهو صاحبُ يوسف، وسمِّى صاحبَ موسى « فِرعون » .

قالوا : وكان أَصلُ عُتوِّ فِرعونَ مُلكَه العظيمَ ، ومملكتَه التى لاتُشبهها مملكة .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة يوسف .

(٢) ب : « قال » .

(٣) فى النسختين : « مرو » ، صوابه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .

(٤) المثوى : المنزل ، وموضع الإقامة . وفى النسختين : « ومساويه » ، وهو تصحيف ما أثبت .

(٥) الآية ٨٠ من سورة يوسف .

قالوا : ومنهم مؤمنُ آلِ فِرعون . وهى آسِية بنت مُزاحم .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « سيِّدة نساءِ العالَم خديجةُ بنتُ خويلد ، وفاطمة بنتُ محمَّد ، ومريمُ بنتُ عمران ، وآسية بنت مُزَاحم » .

قال[١] : ولمَّا همَّ فِرعونُ بقَتْلِ موسى قالت آسية : لا تَقتُلْه عسى أن ينفَعَنا أو نتَّخذه ولدًا . وقالت : وكيف تَقْتله ، ووالله مايعرف الجمرةَ من التَّمرة .

ومنهم السَّحرة الذين كانوا قد أَبرُّوا على أَهل الأَرض[٢] ، فلما أَبصَرُوا بالأَعلام ، وأَيقنوا بالبُرهان ، استبصروا وتابوا توبة ماتابَهَا ماعزُ بنُ مالك[٣] ، ولا أَحدٌ من العالَمين ، حتَّى قالوا لفرعون : ﴿ اقض ما أَنتَ قاضٍ ، إِنَّما تقضى هذه الحياةَ الدُّنْيَا ، إِنَّا آمَنَّا بَربِّنا ليَغْفِرَ لنا خَطَايانا وما أَكْرَهْتَنَا عليه مِنَ السِّحْرِ[٤] ﴾ .

وجاء فى الحديث : « من أَخربَ خَزَائنَ اللهِ فَعَلَيْهِ لَعْنةُ الله » . قالوا[٥] :

---

(١) أى شيخ من آل أبى طالب . أو لعلها : « قالوا » .

(٢) أبروا عليهم إبراراً : غلبوهم . ومنه قول طرفة :

يكشفون الضر عن ذى ضرهم ويبرون على الآبى المبر

وفى النسختين : « قد أبدوا على أهل الأرض » ، صوابه ما أثبت .

(٣) ماعز بن مالك : أحد الصحابة ، كان قد زنى فأقر على نفسه ، وانطلق إلى رسول الله يطلب منه إقامة الحد عليه ، وألح فى ذلك إلحاحاً . فأمر الرسول برجمه فرجم ، فلما عضه مس الحجارة انطلق يسعى ، فعاجله رجل بلحى جزور فضربه فصرعه . وقال صلى الله عليه وسلم فى شأنه : « لقد تاب توبة لوتابها طائفة من أمتى لأجزأت عنهم » ، كما قال : « والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة يتقمس فيها » . انظر مسند أحمد ٥ : ٢١٧ والسنن الكبرى للبيهقى ٨ : ٢٢٥ – ٢٢٨ ومسلم ٢ : ٣٣ – ٣٥ والإصابة ٧٥٨١ وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ٢٢٨ – ٢٤١

(٤) الآية ٧٢ من سورة طه . ونصها : « فاقض ما أنت قاض » ، والاقتباس من القرآن الكريم مع ترك حرف جائز لا بأس به . انظر حواشى الحيوان ٤ : ٥٧ وتحقيق النصوص ٥١ .

(٥) ب : « قال » ، وأثبت مافى م .

خزائن الله هى مصر ، أمَا سمِعتم قولَ يوسف : ﴿ اجْعَلنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ[١] ﴾ ؟

وقال عبد الله بن عَمرو : « البركة عَشْرُ بركات : تسعٌ بمصر والواحدة فى جميع الأَرض » .

١٠ — فصل منه

وقال أَهل العِراق : سأَلْنَا بِطْرِيق خَرْشَنة[٢] عن خَرَاج الرُّوم ، فذكر مقداراً[٣] من المال ، وقال . هو كذا وكذا قِنطاراً . فنظر بعضُ الوزراءِ فإذا خراجُ مصر وَحْدَه يُضعِف على خراج بلاد الروم إذا جُمعت أَبوابُ المالِ من البلاد جميعا .

وزعم أَبو الخطَّاب[٤] أَنَّ أَرض مصر جُبِيَتْ أَربعة آلافِ أَلف دينار .

١١ — فصل منه

ولا أَعلم الفُرقة فى المغْرب إلا أَكثر من الفُرقة فى المشرق ، إلَّا أَنَّ أَهلَ المغرب إذا خرجوا لم يزيدوا على البِدعة والضَّلالة ، والخارجيُّ فى

(١) الآية ٥٥ من سورة يوسف .

(٢) خرشنة : بلد قرب ملطية من بلاد الروم ، كما فى ياقوت . وانظر الحيوان ٣ : ٢١٥ والبيان والتبيين ٢ : ٤٤ ، ٢٦٥ . وفى النسختين : « حرسه » ، صوابه ما أثبت .

(٣) ب : « مقدار » ، صوابه فى م .

(٤) أبو الخطاب قتادة بن دعامة المترجم فى ص ١٣١ .

المشرق لا يرضَى بذلك حتَّى يجوزَه إلى الكفر ، مثل المقنَّع[(١)] وشيبان[(٢)] والإصبَهبَذ[(٣)] وبابَكَ[(٤)] ، وهذا الضَّرب .

١٢ ـ فصل منه

وقد علمنا أنَّ لِجماعةِ بنى هاشم[(٥)] طابَعاً[(٦)] فى وجوههم يستبين به كرمُ العِتق وكَرَمُ النِّجار[(٧)] ، وليس ذلك لغيرهم .

ولقد كادت الأَهواز تُفسِد هذا المعنى على هاشميَّة الأَهواز ، ولولا

---

(١) هذا هو المقنع الخرسانى ، وكان قد خرج على المهدى بخراسان سنة ١٦١ . وكان أعور قصاراً ، من قرية يقال لها « كازه كيمردان » ، وكان قد عرف شيئاً من الهندسة والحيل والنيرنجات فادعى لنفسه الإلهية عن طريق التناسخ ، واحتجب عن الناس ببرقع من حرير ، ودامت فتنته على المسلمين أربع عشرة سنة ، أباح لهم فيها كثيراً من المحرمات ، فوجه إليه المهدى عدة من قواده ، وجعل المقنع يجمع الطعام عدة للحصار فى قلعته بكش ، وقد تمكن سعيد الحرشى من تشديد الحصار عليه ، فلما أحس بالهلكة شرب سماً وسقاه نساءه وأهله فماتوا جميعاً ، ودخل المسلمون قلعته سنة ١٦٣ واحتزوا رأسه ووجهوا به إلى المهدى . الطبرى فى حوادث ١٦١ - ١٦٣ والفرق بين الفرق ٢٤٣ - ٢٤٥ والآثار الباقية للبيرونى ٢١١ وشروح سقط الزند ١٥٤٥ .

(٢) هو شيبان بن عبد العزيز الحرورى اليشكرى ، الذى خرج فى أيام مروان بن محمد بعد مقتل الضحاك بن قيس الشيبانى رأس الخوارج ، وقد طارده مروان حتى صار شيبان إلى عمان فقتله بها جلندى بن مسعود سنة ١٢٩ . الطبرى فى حوادث سنة ١٢٩ . وفى النسختين : « سيفاذ » .

(٣) هو الفرخان ، إصبهبذ خراسان على طبرستان . وقد جرى فتح طبرستان على يد سويد ابن مقرن سنة ٢٢ ، وذلك بعد عهد بالصلح تاريخه سنة ١٨ . انظر الطبرى . والإصبهبذ هو بالفارسية « إسبهبد » بتفخيم الباء الأولى فقط ، ومعناه : القائد العام . استينجاس ٤٨ . وفى ب : « والاصبهيدى » وفى م : « والإصبهيد » ، صوابهما ما أثبت .

(٤) هو بابك الخرمى ، رئيس الخرمية بعد موت زعيمهم جاويدان بن سهل ، واشتدت شوكته فى أيام المعتصم ، وحاربه الأفشين واستولى على معقله مدينة البذ ، ثم وقع فى يد سهل بن سنباط بطريق أرمينية وقبض عليه وهو يصطاد ، وسلمه إلى الأفشين ، وصلبه المعتصم سنة ٢٢٣ . الطبرى ، ودائرة المعارف الإسلامية .

(٥) ب : « أن الجماعة بنى هاشم » ، صوابه فى م .

(٦) ب : « طائعاً » ، صوابه فى م . والطابع ، بالفتح والكسر : الخاتم الذى يختم به ، وكذا الميسم الذى توسم به الدواب ، والمراد هنا العلامة .

(٧) النجار ، بكسر النون : الأصل والحسب . ب : « التجار » ، م : « البخار » صوابهما ما أثبت .

أنَّ اللهَ غالبٌ على أمره لقد كادت[١] طمست على ذلك العِتْق ومَحَتْه[٢]. فتربتُها خلافُ تربةِ الرسول صلى الله عليه وسلم : وذلك أَنَّ كلَّ من تخَرَّق طُرق المدينة[٣] وجدَ رائحةً طيِّبةً ليست من الأَرابيح المعروفة الأَسماء.

١٣ – فصل منه

قال زياد : الكوفة جاريةٌ جميلة لا مالَ لها ، فهى تُخطَب لجمالها . والبصرة عَجوزٌ شوهاءُ ذاتُ مال فهى تُخَطب لمالِها .

١٤ – فصل منه

والفراتُ خيرٌ من مَاءِ النِّيل[٤] . وإمَّا دِجلة فإنَّ ماءَها يقطع شهوةَ الرِّجال ، ويَذهَب بصهيل الخيل ، ولا يَذْهَب بصهيلها إلَّا مع ذَهَاب نشاطها ، ونقصان قواها ؛ وإن لم يتنسَّم[٥] النازلون عليها أصابهم قحولٌ فى عظامهم[٦] ، ويُبسٌ فى جلودهم .

وجميعُ العَرَب النَّازلين على شـاطئ دِجلة من بغداد إلى بلد[٧]

(١) فى النسختين : « لولا أن الله غالب على أمره ولقد كادت » ، والوجه إثبات الواو فى أول الكلام وحذفها فى آخره .

(٢) فى النسختين : « ومحبه » ، صوابها ما أثبت .

(٣) تخرق ، أراد يتخلل . ولم أجد نصاً على هذا الفعل إلا ماورد فى اللسان ١١ : ٣٦ : « قال أبو عدنان : المخارق : الملاص يتخرقون الأرض ، بينا هم بأرض إذا هم بأخرى » . وكذا ماورد فى الحيوان ٢ : ٣٣١ من قوله : « يتخرق السنانير » .

(٤) يعنى نيل الكوفة ، وهو خليج كبير يتخلج من الفرات ، حفره الحجاج بن يوسف وسماه باسم نيل مصر .

(٥) التنسم : طلب النسيم واستنشاقه . فى النسختين : « يتبسم » ، ولا وجه له .

(٦) القحول : اليبس . م : « الفحول » صوابه فى ب .

(٧) بلد : مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل ، بينهما سبعة فراسخ ، وينسب إليها جماعة كبيرة من العلماء . ويقال لها أيضاً « بلط » بالطاء . قال ياقوت : « وبلد أيضاً : بليدة معروفة من نواحي دجيل قرب الحظيرة وحربى ، من أعمال بغداد ، لا أعرف من ينسب إليها » .

لايرعَوْن الخَيل فى الصَّيف على أوارِيِّها[١] على شاطئ دِجلة ، ولا يَسقُونها من مائها ، لما يخاف عليها من الصُّدام[٢] ، وغير ذلك من الآفات .

وأصحاب الخيل من العِتاق والبَراذين إنَّما يَسقُونها بُسرَّ من رأى[٣] ، ممَّا احتفروها من كارباتهم[٤] ولا يسقونها من ماءِ دجلة ؛ وذلك أنَّ ماءَ دجلة مختلطٌ ، وليس هو ماءً واحدًا ، ينصب فيها من الزَّابَيْنِ[٥] والنَّهروانات[٦] وماءِ الفرات ، وغير ذلك من المياه .

واختلافُ الطَّعام إذا دخَلَ جوف الانسان من ألوان الطَّبيخ والإدام غير ضارّ[٧] ، وإن دخَل جوفَ الإنسانِ من شرابٍ مختلف كنحو الخمر والسَّكَر ونَبيذ التمر والدَّاذيّ كان ضارًّا . وكذلك الماءُ ، لأنَّه متى أراد أن يتجرَّع جُرَعاً من الماءِ الحارّ لصَدْرِهِ أو لغير ذلك ، فإنْ أعجَلَه أمرٌ فبرَّده بماءٍ باردٍ ثم حَسَاه ضرَّه ذلك ، وإنْ تركَه حتَّى يفْتُر ببرد الهواء لم يضرَّه . وسبيلُ المشروب غير سبيل المأْكول .

فإن كان هذا فضِيلةَ مائِنَا على ماءِ دجلة فما ظنُّك بفضله على ماءِ

---

(١) الأوارى : جمع آرى ، على وزن فاعول . وهو محبس الدابة . ب : « أورائها » صوابه فى م .

(٢) الصدام ، بضم الصاد وكسرها : داء يأخذ فى رءوس الدواب . وقال ابن شميل : داء يأخذ الإبل فتخمص بطونها وتدع الماء وهى عطاش أياماً حتى تبرأ أو تموت .

(٣) م : « ببئر من رأى » ، تحريف .

(٤) كذا فى النسختين . ولعلها « كرابهم » . والكراب : مجارى الماء فى الوادى .

(٥) الزابين : مثنى الزاب ، الزاب الأعلى والزاب الأسفل . فالأعلى بين الموصل وإربل . والأسفل مخرجه من جبال السلق ، وبينه وبين الأعلى مسيرة يومين أو ثلاثة . ب : « الزانين » صوابه فى م .

(٦) هى ثلاث نهروانات : الأعلى ، والأوسط ، والأسفل وهى كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقى .

(٧) ب : « غير ضاره » .

البصرة ، وهو ماءٌ مختلط من ماء البحر ومن الماء المستَنْقِع فى أصول القصب والبَرْدِىّ؟ قال الله تعالى: ﴿هَذَا عَذْبٌ فراتٌ وهذا مِلحٌ أُجاج[١]﴾.

والفرات أعذبها عُذوبةً ، وإنما اشتُقّ الفُرات لكلّ ماءٍ عذب ، من فُرات الكوفة .

١٥ — فصل منه
فى ذكر البصرة

كان يقال : الدُّنيا البصرة[٢] .

وقال الأَحنف لأَهل الكوفة : « نحن أَعْذَى منكم برِّيَّة[٣] ، وأَكثر منكم بحريَّة ، وأَبعد منكم سَرِيَّة ، وأَكثر منكم ذُرِّيَّة[٤] » .

وقال الخليل بن أحمد فى وصف القصر المذكور بالبصرة[٥] :

زُرْ وادىَ القصر نعم القصرُ والوادى
لا بدَّ من زَورةٍ عَنْ غير ميعادِ[٦]
ترقَى بها السُّفنُ والظُّلمان واقفةٌ
والضَّبَّ والنُّونَ والملاَّحَ والحادِى[٧]

(١) الآية ٥٣ من سورة الفرقان . (٢) فى النسختين : « الدنيا والبصرة » .

(٣) فى النسختين : « أعلى » ، تحريف . « وأعذى » بالذال من العذاة بفتح العين ، وهى الأرض الخصبة . وانظر البيان ٢ : ٩٣ — ٩٤ . وفى محاضرات الراغب ٢ : ٢٦٤ : « أعذب منكم برية » ، تحريف .

(٤) نظير هذا القول فى معجم البلدان فى رسم الكوفة ، منسوب إلى عبد الملك بن الأهتم السعدى بلفظ : « نحن والله يا أمير المؤمنين أوسع منهم برية ، وأعد فى السرية ، وأكثر منهم ذرية ، وأعظم منهم نفراً . يأتينا ماؤنا عفواً صفواً ، ولا يخرج من عندنا إلا سائق أو قائد » .

(٥) انظر نسبة الشعر فى حواشى الحيوان ٦ : ٩٨ . والقصر الذى يشير إليه هو قصر أوس بن ثعلبة بن زفر بن وديعة ، وكان ولى خراسان فى الدولة الأموية . وبالبصرة أيضاً قصر أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله وسلم . وانظر معجم البلدان .

(٦) ب : « من غير ميعاد » .

(٧) الظلمان ، بالكسر والضم أيضاً : جمع ظليم ، وهو ذكر النعام . ب « والظلمات » ، صوابه فى م وعيون الأخبار ١ : ٢١٧ حيث ورد بهذه الرواية . وفى الحيوان : « ترى به السفن كالظلمان واقفة » . وفى اليتيمة ١ : ٩٦ وثمار القلوب ٤١٨ : « ترقى به السفن والظلمان حاضرة » .

ومن أتى هذا القصرَ وأتى قصر أنَس[١] رأى أرضاً كالكافور[٢] ، وتُربة ثريَّة ، ورأى ضبًّا يُحترش ، وغزالاً يُقتنص ، وسمكاً يُصاد ، ما بين صاحب شِصٍّ وصاحب شبكة ، ويَسمع غناء ملاّحٍ على سُكّانه ، وحُداء جَمّالٍ على بَعيره .

قالوا : وفى أعلى جَبّانة البصرة موضعٌ يقال له الحَزيز[٣] يذكر الناس أنّهمْ لم يرَوْا قطُّ هواءً أعدَلَ ، ولا نسيمًا أرَقَّ ، ولا ماءً أطيبَ منها فى ذلك الموضع .

وقال جعفر بن سليمان[٤] : « العراق عَيْن الدُّنيا ، والبَصرة عَيْنُ العراق ، والمِربد عَيْن البَصْرة ، ودَارِى عَيْنُ المِربد » .

وقال أبو الحسن وأبو عبيدة : « بُصِّرت البَصْرة سنة أربعَ عشرة ، وكُوِّفت الكوفة سنة سبعَ عشرة »

١٦ — فصل منه

زعم أهلُ الكوفة أنَّ البصرة أسرعُ الأرضِ خَراباً ، وأخبثُها تُراباً ، وأبعدُها من السَّماء وأسرعُها غَرَقاً ، ومَفيض مائها البحر ، ثم يخرج ذلك إلى البحر الأعظم .

وكيف تَغْرَق[٥] ، وهم لا يستطيعون أن يُوصِلوا ماءَ الفَيض[٦] إلى

---

(١) هو قصر أنس بن مالك ، كما سبق فى الحواشى ص ١٣٨ .
(٢) الكافور : ضرب من الطيب . ب : « كالكافورة » ، صوابه فى م .
(٣) الحزيز ، بزاءين معجمتين ، كما فى معجم البلدان . وفى م : « الحزير » ، تحريف .
(٤) العقد ٦ : ٢٤٩ .
(٥) ب : « يعرف » ، صوابه فى م .
(٦) ب : « الغيض » بالغين المعجمة .

حِياضهم إلاَّ بعد أن يرتفع ذلك الماءُ فى الهواءِ ثلاثين ذراعاً ، فى كلِّ سقاية بعَيْنها ، لا لِحوضٍ بعينه (١) .

وهذه أَرضُ بغداد فى كلِّ زيادةِ ماءٍ ينبُع الماءُ فى أَجواف قصورهم الشَّارعة بعد إحكام المسنَّيات (٢) التى لا يقوى عليها إلاَّ الملوك ، ثم يَهدِمون الدَّارَ التى على دِجلة فيكسُون (٣) بها تلك السِّكك ، ويتوقَّعون الغَرَق فى كلِّ ساعة .

قال : وهم يَعِيبون ماءَ البصرة، وماءُ البصرة رقيقٌ قد ذهب عنه الطِّين والرَّمل المَشُوب بماءِ بغدادَ والكوفة ، لطول مُقامه بالبَطِيحة ، وقد لانَ وصفا ورَقَّ .

وإنْ قلتم : إنَّ الماءَ الجاريَ أَمرأُ من الساكن، فكيف يكون ساكناً مع تلك الأَمواج العِظام والرِّياح العواصف ، والماءِ المنقلب من العُلْو (٤) إلى السُّفل ؟ ومع هذا إنَّه إذا سار (٥) من مَخرجه إلى ناحية المَذَار (٦) ونهر أَبى الأَسَد (٧) وسائِر الأَنهار ، وإذا بَعُدَ من مدخله إلى البصرة من الشِّقّ القصير ، جَرَى منقضًّا إلى الصُّخور والحجارةِ ، فراسخَ وفراسخ، حتَّى ينتهيَ إلينا .

---

(١) ب : « لا بحوض » .

(٢) المسنيات : جمع مسناة ، وهو سد يبنى لحجز ماء السيل أو النهر ، به مفاتح للماء تفتح على قدر الحاجة . م : « المبنيات » .

(٣) م : « فيكنسون » ب : « فيكسنون » ، والوجه ما أثبت .

(٤) ب : « من العوالى » .

(٥) فى النسختين : « : « صار » .

(٦) المذار : بلدة فى ميسان بين واسط والبصرة ، فتحها عتبة بن غزوان فى أيام عمر بن الخطاب بعد البصرة . وفى النسختين : « الدار » ، صوابه ما أثبت .

(٧) ذكره ياقوت وقال : « أحد شعوب دجلة بين المذار ومطارة فى طريق البصرة ، يصب هناك فى دجلة العظمى » .

ويدلُّ على صلاح مائهم كثرة دُورهم . وطولُ أعمارهم ، وحُسْنُ عقولهم ، ورِفقُ أكُفِّهم . وحذقُهم لجميع الصناعات ، وتقدُّمُهم فى ذلك لجميع الناس .

ويُستَدلُّ على كرم طِينِهِم ببياض كيزانهم[١] وعذوبةِ الماء البائت فى قِلالهم ، وفى لون آجُرِّهم ، كأنَّما سُبِكَ من مُحِّ بيضٍ[٢] . وإذا رأيت بناءَهم وبياضَ الجصِّ الأَبيض بين الآجُرّ الأَصفَر لم تجد لذلك شبهاً أَقربَ من الفِضَّة بين تضاعيفِ الذهب .

فإذا كان زمانَ غلَبةِ ماءِ البحر فإنَّ مُستَقاهم من العَذْب الزُّلال الصافى ، النَّمير فى الأَبدان[٣] ، على أَقلَّ من فرسخ ، وربَّما كان أَقلَّ من مِيل .

ونهر الكوفة الذى يسمُّونه إنَّما هو شُعبةٌ من أَنهار الفرات ، وربَّما جَفَّ حتَّى لا يكون لهم مستقًى إلَّا على رأْس فرسخ[٤] ، وأَكثَرَ من ذلك ، حتَّى يَحفِروا الآبارَ فى بُطون نُهُرهم[٥] ، وحتَّى يضرَّ ذلك بخُضَرِهم وأَشجارهم . فلينظُروا أَيُّما أَضَرُّ وَأَيُّما أَعْيَب .

وليس نهرٌ من الأَنهار التى تَصبُّ[٦] فى دجلة إلَّا هو أَعظم وأَكبر وأَعرض من موضع الجسر[٧] من نهر الكوفة ، وإنَّما جسره سبع سفائن ،

(١) ب : « بياض كيزانهم » ، صوابه فى ش .

(٢) مح البيض : مافى داخله من أصفر وأبيض . والمح أيضاً : صفرة البيض ، وبياضه هو الغرقىء . وفى النسختين : « مخ » بالمعجمة ، صوابه ما أثبت .

(٣) النمير : الزاكى الناجع فى الرى .

(٤) فى النسختين : « فرس » ، والوجه فيه ما أثبت .

(٥) النهر ، بضمتين : جمع نهر . وفى الكتاب العزيز : « إن المتقين فى جنات ونهر » فى قراءة زهير ، والأعمش ، وأبى نهيك ، وأبى مجلز اليمانى ، وهو كرهن ورهن . تفسير أبى حيان ٨ : ١٨٤ . وقراءة الجمهور : « ونهر » بفتحتين .

(٦) فى النسختين : « يخصب » ، صوابه ما أثبت .

(٧) فى النسختين : « والجسر » باقحام الواو .

لا تمرُّ عليه دابّةٌ لأَنها جُذوعٌ مقيَّدةٌ بِلَا طينٍ، وما يمشى عليه الماشى إلا بالجهد ؛ فما ظنُّك بالحوافر والخِفاف والأَظلاف ؟ !

وعامّةُ الكوفة خَرَابٌ يَباب[١] ، ومن بات فيها علم أَنّه فى قريةٍ من القرى ورُستاقٍ من الرَّساتيق ، بما يَسمَعُ من صِياح بناتِ آوَى ، وضُباحِ الثَّعالب ، وأَصوات السباع[٢] . وإنّما الفرات دمما[٣] إلى ما اتَّصل به إلى بلاد الرَّقَّة ، وفوق ذلك .

فإمّا نهرهم فالنِّيل أَكبَرُ منه ، وأَكثر ماءً ، وأَدْوَمُ جريَة[٤] .

وقد تعلمون كثرة عددِ أَنهار البصرة ، وغلبةَ الماءِ، وتَطفُّح الأَنهار[٥] .

وتبقى النَّخلةْ عشرين ومائةَ سنة وكأَنَّها قِدح[٦] . وليس يُرَى من قُرْب القَرية التى يقال لها « النِّيل » إلى أَقصى أَنهار الكوفة نخلةٌ طالت شيئاً إلا وهى معوجَّة كالمِنجل . ثم لم نر غارسَ نخلٍ قطُّ فى أَطراف الأَرض يرغب فى فسيل كوفى[٧] ، لعلمه بِخُبْث مَغْرِسه ، وسُوءِ نُشُوِّه ، وفَساد تُربته ، ولُؤم طبعه .

وليس لليَالِى شهرِ رمضان فى مسجدهم غَضَارةٌ ولا بَهَاءٌ ، وليس مَنَار مساجدهم[٨] على صُوَر مَنارِ البَصْرة ، ولكن على صُوَر مَنار الملكَانية واليعقوبيَّة[٩] .

---

(١) اليباب : إتباع للخراب بمعناه . وفى النسختين : « نباب » ، تحريف .

(٢) ب : « الثعالب » ، وهو تكرار ، والوجه ما أثبت من م .

(٣) كذا فى النسختين .

(٤) فى النسختين : « جرة » ، والوجه ما أثبت .

(٥) التطفح : مطاوع طفحه تطفيحاً : ملأه . ولم تذكر المعاجم هذا المطاوع .

(٦) القدح ، بالكسر : السهم قبل أن يراش وينصل . وانظر محاضرات الراغب ٢ : ٢٦٤ .

(٧) فى النسختين : « لوفى » ، صوابه ما أثبت .

(٨) ب : « مسجدهم » . والمنار : جمع منارة ، وهى المئذنة .

(٩) انظر ما مضى فى ٣ : ٣١٠ .

ورأينا بها مسجدًا خراباً تأْوِيه الكلابُ والسِّباع ، وهو يضاف إلى علىّ بن أبى طالب ، رضوانُ الله عليه .

ولو كان بالبصرة بيتٌ دخَلَه علىٌّ بن أبى طالب مارًّا لتمسَّحوا به وعَمَروه بأَنفسهم وأموالهم .

وخبَّرنى من بات أَنَّه لم يركواكبها زاهرةً قطُّ ، وأَنَّه لم يَرَها إلَّا ودونها هبْوة[(١)] ، وكأَنَّ فى مائهم مِزاجَ دُهْن . وأَسواقُهم تشهد على أهلها بالفَقْر . وهم أَشدُّ بغضاً لأَهل البصرة من أهل البَصْرة لهم ؛ وأَهل البصرة هم أَحسن جواراً ، وأَقلُّ بذخاً ، وأَقلُّ فخراً .

ثم العَجَب من أَهل بغدادَ وميلِهِم معهم ، وعيبِهم إيَّانا فى استعمال السَّماد فى أَرضنا ولنخلنا ، ونحن نراهم يُسمِّدون بُقُولَهم بالعَذِرة[(٢)] اليابسة صِرفاً ، فإذا طلعَ وصار له ورقٌ ذَرَّوْا عليه من تلك العَذِرة اليابسة حتَّى يسكنَ فى خلال ذلك الورق .

ويريد أَحدُهم أَن يبنىَ داراً فيجىءُ إلى مَزْبلة[(٣)] ، فيضرب منها لَبِناً ، فإن كانت داره مطمئِنَّةً ذاتَ قعرٍ حشا من تلك المَزْبلة التى لو وَجَدَها أَصحابُ السَّمادِ عندنا لبَاعُوها بالأَموال النفسية .

ثم يَسجُرون تَنانيرهم بالكُسَاحات التى فيها من كلِّ شىء ، وبالأَبعار والأَخثاء ، وكذلك مواقد الكِيران[(٤)] .

---

(١) الهبوة : الغبرة . وفى النسختين : « هفوة » ، تحريف .

(٢) فى النسختين : « بعذرة » ، تحريف .

(٣) المزبلة ، بفتح الميم والباء ، وبفتحها مع ضم الباء : الموضع الذى يلقى فيه الزبل .

(٤) الكيران : جمع كور ، بالضم ، وهو مجمرة الحداد . م : « الكيزان » ، صوابه فى ب .

وتمتلئ ركايا[١] دُورهم عَذِرةً فلا يصيبون لها مكاناً. فيحفِرون لذلك في بيوتهم آباراً، حتّى ربما حَفَر أحدُهم فى مجلسه، وفى أنبل موضع من داره. فليس ينبغى لمن كان كذلك أن يعيب البَصريِّين بالتّسميد.

١٧ — فصل منه

وليس فى الأَرض بلدةٌ أَرفقُ بأَهلها من بلدةٍ لا يعزُّ بها النَّقْد، وكلُّ مبيع بها يمكن.

فالشّامات وأَشباهُها الدِّينار والدِّرهمُ بها عزيزان، والأَشياءُ بها رخيصة لبعد المَنْقَل، وقلَّة عددمن يَبْتاع. ففى ما[٢] يخرج من أَرضهم أبداً فضلٌ عن حاجاتهم[٣].

والأَهواز، وبَغداد، والعسكر، يكثرُ فيها الدَّراهم ويعزُّ فيها المبيع لكثرة عددِ الناس وعدد الدراهم.

وبالبصرة الأَثمانُ ممكِنة والمُثمَّنات ممكنة، وكذلك الصِّناعات، وأُجورُ أَصحاب الصناعات. وما ظنُّك ببلدةٍ يدخلها فى البادى[٤] من أَيَّام الصِّرام إلى بعد ذلك بأَشهرٍ، مابين أَلفَيْ سفينةِ تمرٍ أَوْ أَكثر فى كلِّ يوم، لا يبيت فيها سفينةٌ واحدة، فإنْ باتت فإنَّما صاحبُها هو الذى يُبَيِّتُها، لأَنَّه لو كان حطَّ[٥] فى كلِّ أَلف رطلٍ قيراطاً لانْتُسِفَت انتسافا[٦].

ولو أَنَّ رجلاً ابتنى داراً يُتمِّمها ويكمِّلها ببغداد، أَو بالكوفة،

(١) الركايا: جمع ركية، وهى البئر.
(٢) ب: «فيها». م: «ففيها».
(٣) م: «حاجتهم».
(٤) أى البادئ، وهو الأول.
(٥) أى وضع من الثمن وأرخصه.
(٦) القيراط بالعراق: نصف عشر الدينار. ب: «لا انتسفت»، صوابه فى م.

أو بالأهواز . وفى موضعٍ من هذه المواضع . فبلغت نفقتُها مائة ألفِ درهم ، فإنَّ البصرىَّ إذا بَنَى مثلهَا بالبصرة لم يُنفق خمسينَ ألفاً ؛ لأنَّ الدَّارَ إنَّما يتمُّ بناؤها بالطِّين واللَّبِن . وبالآجُرِّ والجصِّ (١) . والأجذاع والسَّاج والخشب . والحديد والصُّنَّاع . وكُلُّ هذا يُمكن بالبَصْرة على الشَّطرِ مما يُمكن فى غيرها . وهذا معروف .

ولم نر بلدةً قطُّ تكون أسعارها ممكنة(٢) مع كثرة الجَماجمِ بها إلَّا البصرة : طعامُهم أَجْوَدُ الطَّعام . وسِعرْهم أرخص الأسعار ، وتَمرهم أَكثرُ التُّمور . ورَيْع دِبْسِهِم أكثر(٣) . وعلى طُول الزَّمان أَصْبَر ، يَبْقَى تمرُهم الشِّهريز(٤) عشرين سنة . ثم بعد ذلك يُخلَط بغيره فيجىءُ له الدِّبْس الكثير . والعَذْبُ الحلو . والخاثر القوىّ(٥) .

ومن يطمع من جميع أهل النَّخل أن يبيع فسيلةً بسبعين ديناراً . أو بَحْوَنة(٦) بمائة دينارٍ ، أَوْ جَرِيباً بألف دينار(٧) غير أهل البصرة ؟

١٨ — فصل منه

ولأهل البصرة المدُّ والجَزْر على حسابِ منازل القمر لا يغادران من ذلك شيئاً . يأْتيهم الماءُ حتَّى يقف على أبوابهم ؛ فإن شاءُوا أَذِنُوا . وإن شاءُوا حَجَبوه .

---

(١) ب : « والآجر والجص » .

(٢) فى النسختين : «يكون أسعارها ممكن » ، والوجه ما أثبت .

(٣) الربع ، بالفتح : فضل كل شىء ، كريع العجين والدقيق والبزر ونحوها .

(٤) الشهريز بكسر الشين وضمها : ضرب من التمر ، ويقال أيضاً سهريز بالسين المهملة وبكسر السين وضمها . ب : « يبقا » م : « ببقاء » ، ووجهه ما أثبت .

(٥) الخاثر : الغليظ . ب : « والحاثر » تصحيف .

(٦) البحونة بفتح الباء والواو : ضرب من التمر .

(٧) الجريب : مساحة تربو على ثلاثة آلاف وستمائة ذراع ، يختلف ذلك باختلاف البلدان .

ومن العَجَب لقومٍ يعيبون البصرَة لقُرب البحر والبَطِيحة[١] ، ولو اجتهد أَعلَمُ النَّاس وأَنطَقُ النَّاسِ أن يجمَع فى كتابٍ واحد منافعَ هذه البطيحة ، وهذه الأَجَمة ، لما قَدَر عليها .

قال زياد : قَصبةٌ خير من نَخْلة .

وبحقٍّ أَقول : لقد جَهَدت جَهْدى أَن أَجمَعَ منافعَ القصب ومَرافِقَه وأَجناسَه ، وجميعَ تصرُّفِهِ وما يجىء منه . فما قَدَرت عليه حتَّى قطعته وأَنا معترفٌ بالعجز ، مستسلمٌ له .

فأَمَّا بحرُنا هذا فقد طمَّ على كلِّ بحر وأَوفى عليه ؛ لأَنَّ كلَّ بحرٍ فى الأَرض لم يَجعلِ الله فيه من الخيرات شيئاً ، إلاَّ بحرَنا هذا ، الموصولَ ببحر الهند إلى مالا تذكر .

وأَنت تسمع بملوحة ماءِ البحر ، وتستسقطه وتُزْرِى عليه . والبحر هو الذى يَخلقُ الله تعالى منه الدُّرَّ الذى بيعت الواحدة منه بخمسين أَلفَ دينار ؛ ويَخلقُ فى جوفه العَنْبر ، وقد تَعرِفون قَدْرَ العنبر . فشىءٌ يولِّد هذين الجوهرينِ[٢] كيف يُحقَّر ؟

ولو أَنَّا أَخذْنا خصالَ هذه الأَجَمَةِ وما عظَّمنا من شأْنها ، فقذَفْنا بها فى زاوية من زوايا بحرِنا هذا لضَلَّتْ حتَّى لا نجد لها حِسّا . وهُمَا لنا خالصانِ دونكم ، وليس يصل إليكم منهما شىءٌ إلَّا بسببِنا[٣] وتعدينا فضل غنا[٤] .

---

(١) البطيحة : أرض واسعة بين واسط البصرة ، جمعها بطائح ، سميت بذلك لأن المياه تبطحت فيها ، أى سالت واتسعت فى الأرض .

(٢) م : « الجوهرية » ، صوابه فى ب .

(٣) ب : « بسبنا » ، صوابه فى م .

(٤) كذا فى النسختين .

وقال بعض خطبائنا[١] : نحن أكرمُ بلاداً ، وأوسَع سواداً[٢] ، وأكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً . وأكثر خَراجاً .

لأنَّ خراجَ العراق مائةُ ألفِ ألفٍ واثنا عَشَر ألفَ ألف ، وخراج البصرة من ذلك ستُّون ألفَ ألف ، وخراج الكوفة خمسون ألفَ ألف .

١٩ — فصل منه
فى ذكر الحيرة

ورأيت الحِيرة البيضاءَ وما جعلها[٣] الله بيضاءَ ، وما رأيت فيها داراً يُذكَر[٤] إلّا دار عَوْن النَّصرانىِّ العِبادانىِّ[٥] .

ورأيت التُّربة التى بينها وبين قَصَبة الكوفة ، ورأيت لون الأَرضِ فإذا هو أكهب[٦] كثير الحَصَى ، خشِنُ المسّ .

والحِيرة أَرضٌ باردةٌ فى الشِّتاءِ ، وفى الصَّيف يَنزِعون سُتورَ بيوتهم مخافة إحراق السَّمائم لها .

---

(١) هو أبو بكر الهذلى ، كما فى البيان ١ : ٣٥٧ / ٢ : ٩٤ . ونسب بعض هذا القول إلى خالد بن صفوان فى معجم البلدان (رسم البصرة) ومحاضرات الراغب ٢ : ٢٦٤ .

(٢) السواد : القرى والريف . وفى النسختين : « سوداً » .

(٣) فى النسختين : « وما جعله » .

(٤) فى النسختين : « يذكر » ، والدار مؤنثة .

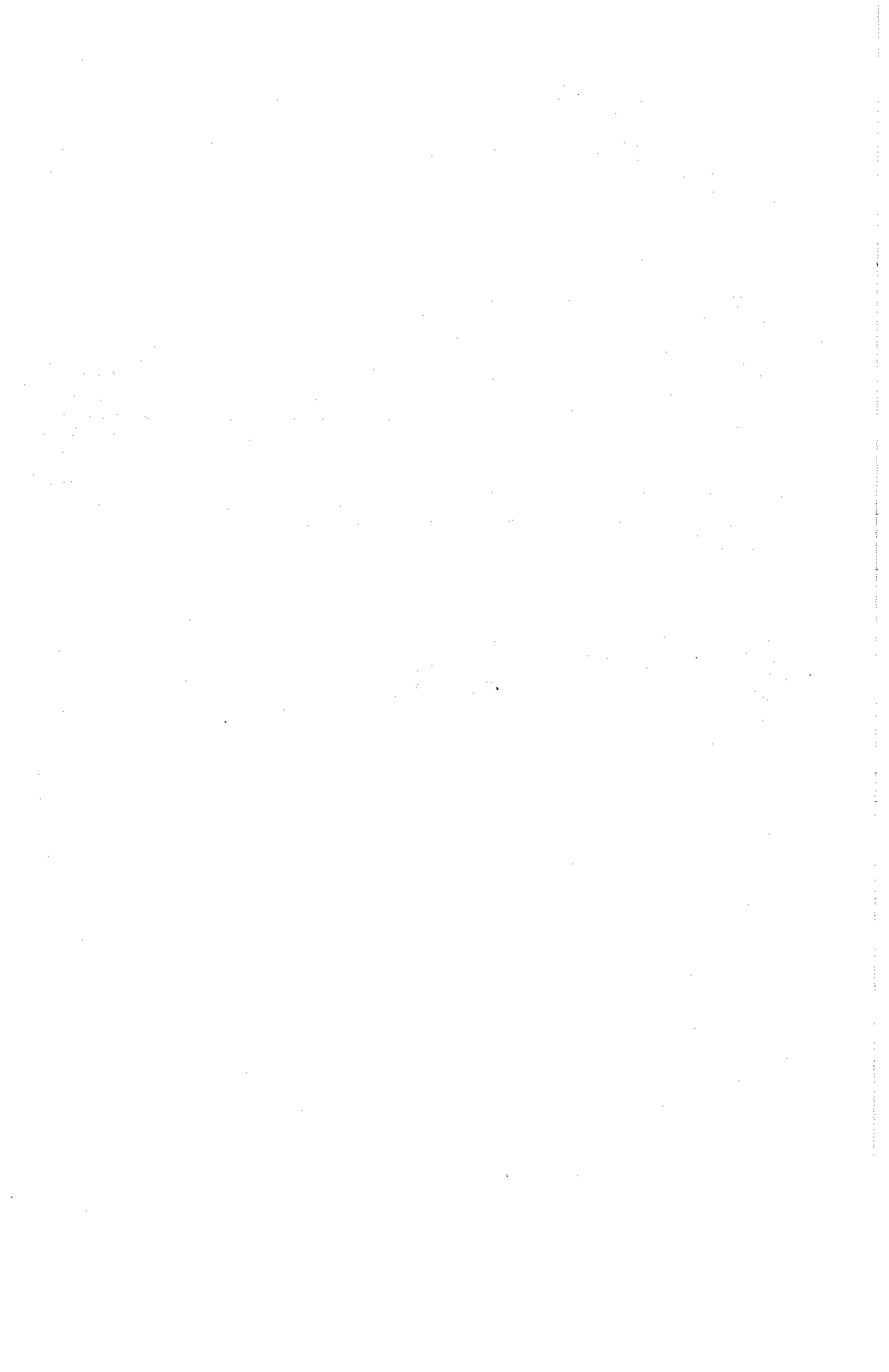
(٥) ذكره الجاحظ فى الحيوان ٤ : ٢٧ قال : « وكان طيمانو رئيس الجاثليق ، قد هم بتحريم كلام عون العبادى عند ما بلغه من اتخاذ السرارى » . والمعروف فى النسبة إلى « العباد » : عبادى .

(٦) الكهبة ، بالضم : غبرة مشربة سواداً .

١٨

من رسالة في

البلاغة والإيجاز



١ – فصـــل

من صدر رسالته فى البلاغة والإيجاز[١]

قال عمرو بن بحرٍ الجاحظ : درجَتِ الأَرضُ من العَرَب والعجم على إيثار الإيجاز ، وحَمْدِ الاختصار ، وذمٍّ الإكثار والتَّطويل والتكرار ، وكلٌّ ما فَضَلَ عن المقدار .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلَ الصَّمت ، دائم السَّكْت[٢] يتكلَّم بجوامع الكلم ، لا فَضْلَ ولا تقصير ، وكان يُبغض الثَّرثارين المتشدِّقين[٣] .

وكان يقال : أَفصح الناس أَسهلهُم لفظاً ، وأَحسنهُم بديهة .

والبلاغةُ إصابة المعنى والقَصْدُ إلى الحجَّة مع الإيجاز[٤] ، ومعرفة الفَصْل من الوصل .

وقيل : العاقلُ من خَزَن لسانَه . ووزَن كلامَه ، وخافَ النَّدامة .

وحُسنُ البيان محمودٌ ، وحسن الصَّمتُ حُكْم[٥] .

---

(١) هى مما سقط من نسخة هامش الكامل . وليس لها موضع غير نسختى المتحف البريطانى والتيمورية ، فاقتصرت المقابلة عليهما .

(٢) السكت : السكوت . ب : « السمت » ، ولا وجه له هنا .

(٣) المتشدقون : المتوسعون فى الكلام من غير احتياط واحتراز .

(٤) كلمة « الإيجاز » فقط ساقطة من م .

(٥) الحكم ، بالضم : الحكمة . وفى الحكم : « الصمت حكم وقليل فاعله » . الميدانى ١ : ٣٦٧ وجمهرة الأمثال ١ : ٥٩٦ والمستقصى ١ : ٣٢٨ مع نسبته فى الميدانى والمستقصى إلى لقمان الحكيم . وأورده العسكرى حديثاً من حديث ابن عمر ، وأورده كذلك السيوطى فى الجامع الصغير برقم ٥١٥٧ وذكر أنه حديث ضعيف . وأورده فى اللسان (حكم) بهيئة شطر من بيت .

وربَّما كان الإيجاز محموداً . والإكثار مذموماً . وربَّما رأيت الإكثار أحمد من الإيجاز . ولكلٍّ مذهبٌ ووجهٌ عند العاقل . ولكلِّ مكانٍ مقال[1] ، ولكلِّ كلامٍ جواب . مع أنَّ الإيجاز أسهل مَراما[2] وأيسر مطلباً من الإطناب ، ومَنْ قَدَر على الكثير كان على القليل أقدر .

والتَّقليل للتخفيف ، والتَّطويل للتعريف ، والتَّكرار للتوكيد ، والإكثار للتشديد .

٢ – فصـــل منه

وأمَّا المذموم من المَقَال ، فما دعَا إلى المَلاَل ، وجاوز المقدار ، واشتمل على الإكثار ، وخرج من مَجْرى العادة .

وكلُّ شيءٍ أفرطَ فى طبعه ، وتجاوزَ مقدار وُسْعِه ، عاد إلى ضدِّ طباعه ، فتحوَّل الباردُ حارًّا ، ويصير النافعُ ضاراً ، كالصَّندل البارد إن أُفرِطَ فى حَكِّه[3] عاد حارًّا مؤذِيًا ، [و[4]] كالثلج يُطفئ قليلُه الحرارةَ ، وكثيرُهُ يحرِّكها .

وكذلك القردُ لمَّا فرط قُبحه ، وتناهَت سماجَته[5] استُملِحَ واستُظْرِف .

وإلى هذا ذهَبَ مَن عَدَّ الإكثار عِيًّا ، والإيجاز بلاغة .

---

(١) المعروف « لكل مقام مقال » . ومنه قول الحطيئة فيما أنشده ابن برى فى اللسان (حنن) :

تحنن علـــىَّ هـــداك المـــليك فـــإن لـــكل مقام مقـــالا

وليس فى قصيدته التى على هذا الروى فى ديوانه ٣١ – ٣٤ .

(٢) المرام : المطلب والبغية . ب : « مرمى » ، صوابه فى م .

(٣) ب : « فى حكمه » ، صوابه فى م .

(٤) ليست فى النسختين .

(٥) م : « سماحته » ، صوابه فى ب .

١٩

من كتابه في

تفضيل البطن على الظهر

١ ــ فصــــل

من صدر كتابه فى تفضيل البطن على الظهر[١]

عَصَمنا الله وإيَّاك من الشُّبهة . وأعاذَنا وإيَّاكَ من زَيْغِ الهوَى ، وفَضَلَّات المُنَى . ووهبَ لنا ولك تَأْديباً[٢] مؤدِّياً إلى الزِّيادة فى إحسانه[٣] ، وتوفيقاً مُوجباً لرحمته ورضوانه .

وقد كان كتابُكَ ياابنَ أخى ــ وفَّقك الله ــ وَرَدَ علىَّ ، تَصِفُ فيه فضيلَةَ الظُّهور وصفاً يدلُّ على شَغَفك بها، وحُبِّك إيَّاها ، وحنينِك إليها وإيثارِك لها ، وفهمتُه .

فلَمْ تَمْنَعْ ــ أعاذك الله من عدوِّك[٤] ــ من الإجابة عن كتابك فى وقتِ وُرودِه ، إلَّا عوارضُ أشغالٍ مانعةٍ ، وحوادثُ من التصرُّف والانتقال من مكان إلى مكان عائقة .

ولم آمَنْ أنْ لو تأخَّر الجوابُ عليك أكثرَ ممَّا تأخَّر ، أن يَسبِق إلى قَلبِكَ أنِّى راض باختيارك[٥] ، ومُسَلِّم لمذهبك ، ومُوافقٌ لك فيه ، مُساعِدٌ لك عليه ، ومنقادٌ مَعَكَ فيما اعتقدتَ مِنه . ومُجِدٌّ فى طلبه ، ومُحرِّضٌ عليه[٦] .

---

(١) هذا الكتاب أيضاً مما سقط من نسخة الكامل . فالمقابلة هنا على النسختين : المتحف ، والتيمورية .

(٢) ب : « بأدبنا » ، صوابه فى م .

(٣) فى النسختين : « إلى الزيادة المؤدية فى إحسانه » بإقحام كلمة « المؤدية » .

(٤) ب : « أعاذ » تحريف . وفى النسختين . « من عدمك » ، ووجهه ما أثبت .

(٥) ب : « فى أرضى » م : « أنى أرضى » . والوجه ما أثبت

(٦) فى النسختين : « ومحرص عليه » بالحاء المهملة .

فبادرتُ بكتابي هذا ، منبهاً لك من سِنَةِ رَقْدتك[١] ، وداعياً إلى رشدك . فإنَّك تعلم — وإن كنتَ لي في مذهبي مخالفاً ، وفي اعتقادي مبايناً[٢] — أنَّ اجتماع المتباينين فيما يقعُ بصلاحهما أولى في حكم العقل ، وطريق المعرفة [منه[٣]] فيما أبادهما ، وعاد بالضَّرر في اختيارهما عليهما .

وأنا ، وإن كنتُ كشفتُ لك قِناعَ الخِلاف ، وأبديت[٤] مكنونَ الضَّمير بالمضادَّة[٥] ، وجاهدتَني بنُصرة الرَّأي والعقيدة[٦] في حُبِّ الظُّهور ، وتلفيق الفضائِل لها ، غيْرُ مُستشعِرٍ لليأْس[٧] من رَجْعتك ، ولا شاكٍّ في لطائف حِكمتك ، وغَوامض فِطنتك .

وقد أعلمُ أنَّ معك — بحمدِ الله — بصيرةَ المعتبِرين ، وتمييز الموفَّقين وأنَّك إذا أنعمت[٨] فكراً وبحثاً ونظراً ، رَجَعْتَ إلى أصلٍ قويٍّ الانقياد والموافقة[٩] ، ولم تَتورَّط[١٠] في اللَّجاج فِعْلَ المُعْجَبين ، ولم يتداخلك[١١] غِرَّةُ المنتحِلين ؛ فإنَّا رأينا قوماً انتحلوا الحكمة وليسوا من أهلها ، بل هم أعلامُ الدَّعوى ، وحُلفاءُ الجهالة[١٢] ، وأتْباع الخَطَأِ ، وشِيَع

---

(١) في النسختين : « عن سنة رقدتك » .
(٢) في النسختين : « متبايناً » .
(٣) تكملة يفتقر إليها الكلام .
(٤) أبديت : أظهرت . وفي النسختين : « أبدأت » ، تحريف .
(٥) المضادة : المخالفة . وفي النسختين : « بالمضارة » ، تحريف .
(٦) ب : « والعقد » م : « والعقدة » .
(٧) في النسختين : « للناس » .
(٨) ب : « أمعنت » ، وأثبت ما في م .
(٩) ب : « والمواثقة » بالثاء ، صوابه في م
(١٠) في النسختين : « ولم يتورط » .
(١١) ب : « ولم يتدخلك » .
(١٢) م : « وخلفاء الجهالة » .

الضَّلالة ، وخَوَل النَّقْص[(١)] ، الذين قامت عليهم الحُجَّة بما نَحلوه أنفسهم من اسمها ، وسُلِبوه من فهمِ عظيمِ قدرها[(٢)] ومعرفة جليلِ خَطَرها ، ولم يَجْلُوا الرَّين عن قلوبهم والصَّدأ عن أسماعهم ، بالتنقير والبحثِ والتكشُّف[(٣)] ، ولم ينصِبوا فى عقولهم لأنفسِهم أصلاً يثلِون فى اعتقادهم عليه[(٤)] ، ويرجعون عند الحَيرة[(٥)] فى اختلاف آرائهم إليه . فَضَلُّوا ، وأَصبحَ الجهلُ لهم إماماً ، والسُّفهاءُ لهم قادةً وأعلاما .

ونحن نسأَل الله بِحَوْلِهِ وطَوْلِهِ ومَنِّه ، أَلاَّ يجعلَكَ من أَهل هذه الصِّفَة ، وأن يُريَك الحقَّ حقًّا فتَتْبَعَه ، والباطل باطلاً فتجتنبَه ، وأن يَعُمَّنا ببركةِ هذا الدعاءِ ، وجماعةَ المسلمين . وأن يأْخذ [إلى[(٦)]] الخير بنواصينا ، ويجمع على الهُدى قُلوبَنا ، ويُؤْلِفَ فيه ذاتَ بَيْنِنا ، فإنَّك ما علمتُ – وأتقلَّدُ فى ذلك أَمانةَ القول – ممَّن أُحِبُّ موافقتَه ومُخالطتَه ، وأن يكون فى فَضْلِه مقدَّماً ، وعن كلِّ عَضيهةٍ منزَّها .

وما أَعلم حالاً أَنا عليها فى الرَّغبة لك فيما أَرغب لنَفْسِى فيه ، والسُّرورِ بتكامل أَحوالك ، واستواءِ مذهبك ، وما أزابِنُ[(٧)] به من إرشادك ونصيحتك ، وتسديدك وتوفيقك ، إلاَّ وصِدقُ الطَويَّة منِّى فيها أَبلغُ من إسهابى فى فَضْل صفتها . والله تعالى المُعينُ والمؤيِّد والموفِّق ، والمبدع ، وَحدَهُ لا شريكَ له . والحمد لله ، كما هو أَهلُه ، وصلى الله على محمد وآله وسلم كثيراً .

---

(١) الخول ، أصله ما أعطى المرء من نعم وعبيد وإماء . والمراد هنا الأتباع .

(٢) ب : « فهيم عظيم قدرها » ، صوابه فى م . (٣) م : « والتكشيف » .

(٤) فى النسختين : « يبنون عليه فى اعتقادهم عنيه » و« عليه » الأولى مقحمة » .

(٥) فى النسختين : « الخبرة » .

(٦) تكملة يفتقر الكلام إليها .

(٧) زابن : دافع . وفى ب : « أزبن » م : « أزين » .

ياأخى – أرشدكَ الله – إنّك أَغرقَت فى مدح الظَّهر من الجهةِ التى كان ينبغى لك أن [تذمَّها ، وقدَّمَتها من الجهة التى ينبغى لك أن[1]] تؤخِّرها . وآثرتَها وهى محقوقةٌ بأَنْ ترفضها .

وما رأينا هلاكَ الأُمم الخالية ، من قومِ لُوطٍ ، وثمودَ وأَشياعِهم وأَتباعهم ، وحلولِ الخَسْفِ والرَّجفةِ[2] والآياتِ المَثُلات[3] والعذابِ الأَليم والرِّيح العقيم[4] ، والغِيَرِ والنَّكير ووجوبِ نار السَّعير ، إلاَّ بما دَانُوا به من اختيار الظُّهور . قال الله تعالى ، فى قصَّة لوط : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ من العَالَمِينَ . وتَذَرُونَ ماخَلَقَ لكم رَبُّكُمْ مِنْ أَزواجِكُمْ بل أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ[5] ﴾ .

فذمَّهم اللهُ – تبارك وتعالى – كما ترى ، وبَلَغ بهم فى ذكر ماستعظم من عُتُوِّهم إلى غايةٍ لا تُدرَك صِفتُها[6] ، ولا يُوقَف على حدِّها مع آيٍ كثيرة قد أَنزلَها فيهم ، وقِصصٍ طويلة قد أَنبأَ بها عنهم ، وروايات كثيرة أَثَرَها[7] فيمن كان من طبقتهم .

وسنأْتى منها بما يقع به الكفاية[8] دون استفراغ الجميع ، مما حَمَلتْه[9] الرُّواة ، ونَقَله الصالحون .

---

(١) التكلة من م .

(٢) م : « الخسفة والرجفة » .

(٣) المثلات : جمع مثلة ، بضم الثاء ، وهى العقوبة والنكال . وفى الكتاب العزيز : « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات » . الرعد ٦ . وفى النسختين : « المنولات » ، وصوابها ما أثبت .

(٤) الريح العقيم : التى لاتلقح شجراً ولا تنشىء سحاباً ولا تحمل مطراً ، إنما هى ريح إهلاك . وفى الكتاب العزيز : « وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » . الذاريات ٤١ . وانظر ما سيأتى فى ص ١٨٠ .

(٥) الآيتان ١٦٥ ، ١٦٦ من الشعراء . (٦) م : « صفتهم » ، تحريف .

(٧) أثرها يأثرها : حكاها ورواها . وفى النسختين : « بأثرها » .

(٨) فى النسختين : « ما يقع به الكفاية » . (٩) م : « ماحملته » ، صوابه فى ب .

٢ — فصل منه

والحقُّ بيِّنٌ لمن التمسه ، والمنهجُ واضحٌ لمن أراد أن يَسلُكه . وليس في العُنودِ دَرَكٌ[١] ولا مع الاعترام فَلَج[٢] . والرُّجوعُ إلى الحقِّ خيرٌ من التّمادى فى الباطل ، وتَركُ الذّنْب أيْسَرُ من التماس الحُجة ، كما كانَ غَضُّ الطَّرْف أهوَنَ من الحنينِ إلى الشّهوة . وبالله تعالى التوفيق .

٣ — فصل منه

نبدأُ الآنَ بذكر ما خَصَّ الله به البُطون من الفضائِل ، لِيرجع راجعٌ ، ويُنيبَ منيبٌ مفكِّر ، وينتبه راقد[٣] ، ويُبصِر متحيِّر ، ويستغفر مذنب[٤] ، ويستقيل مخطئ[٥] ، ويَنزِع مُصِرٌّ ، ويستقيم عاند[٦] ، ويتأَمَّلَ غُمرٌ ، ويَرشُد غَوِىّ ، ويَعلَم جاهلٌ ، ويزداد عالم .

قال الله عزّ وجل فيما وَصَفَ به النَّحْل : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطونِهَا شَرابٌ مُختلِفٌ أَلوانُهُ فيهِ شِفاءٌ للنَّاس[٧] ﴾ .

وبُعِث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى خير بُطونِ قريش .

ووجدنا الأَغلبَ فى صفةِ الرجل أن يقال إنّه معروف بكذا مُذْ خرج من بَطْنِ أُمِّه . ولا يقال من ظهر أَبيه .

---

(١) العنود: الميل عن الحق . والدرك ، بالتحريك : الإدراك واللحاق .
(٢) الاعترام : من العرام ، وهو الجهل والشدة والشراسة . وفى النسختين : « الإغرام» .
(٣) م : « ويثبته راقد » ، صوابه فى ب .
(٤) ب : « ويشغف مذنب » ، صوابه فى م .
(٥) الاستقالة : طلب الإقالة ، وهى العفو والصفح .
(٦) العاند : المائل عن الحق .
(٧) الآية ٦٩ من سورة النحل .

ويقال فى صفات النِّساء: « قُبٌّ البطون نواعم » . ويقال: خُمْصانة البَطْن ، ولا يقال : خُمْصانة الظَّهر .

ويقال : فلانٌ بَطَنَ بالأُمور ، ولا يقال : ظَهَر . ويقال : بِطانة الرَّجْل[١] وظِهارته ، فيُبدأ بالبطانة .

وبطن القِرطاس خيرٌ من ظهره ، وبطن الصَّحيفة موضعُ النَّفْع منها لا ظهرها ، وبِبطنِ القَلَمِ يُكتَب لا بظهره ، وببطن السِّكِّين يُقطع لا بظهرها .

وخلق الله جلَّ وعزَّ آدمَ من طينٍ ، ونَسْله[٢] من بَطن حَوَّاء .

ورأينا أكثر المنافع من الأَغذية فى البُطون لا فى الظُّهور ؛ فبطون البقر[٣] أطيب من ظهورها ، وبطن الشَّاة كذلك .

ومن أَفضل[٤] صفات علىٍّ رضى الله عنه أَنْ كان أَخمَصَ بطينا .

وأَسمَعُ من غنائهِم :

بطنى على بطنِكِ ياجاريَه لا نَمَطاً نَبغِى ولا باريَه[٥]

ولم يقل « ظهرى على ظهرك »، فجعل مماسَّة البَطن غانياً عن الوِطاء، كافياً من الغِطاء .

ولو لم يكن فى البطن من الفَضيلة إلَّا أَنَّ الوجهَ الحسنَ ، والمنظر[٦]

---

(١) فى النسختين : « الرجل » بالجيم ، تحريف .
(٢) فى النسختين : « ورسله » ، والصواب ما أثبت .
(٣) فى النسختين : « البقرة » .
(٤) فى النسختين : « فضل » .
(٥) النمط : واحد الأنماط ، وهو ضرب من البسط . والبارية : مخفف البارية بتشديد الياء ، وهى الحصير المنسوج .
(٦) فى النسختين : « والمنطق » ، ووجهه ما أثبت .

الأَنيقَ من حيِّزه ، وفى الظهر من العَيْب ، إلَّا أَنَّ الدُّبُر فى جانبه ، لكان فيها أَوضحُ الأَدلة على كرم البَطْن ولُؤْم الظهر .

ولم نرهم وصَفُوا الرجل بالفُحولة والشَّجاعة إلَّا من تلقائِه ، وبالخُبث والأُبْنة إلَّا من ظَهْره .

وإذا وصفوا الشُّجاع قالوا : مَرَّ فلان قُدُماً ، وإذا وصفوا الجَبَانَ قالوا : وَلَّى مُدبِراً .

ولَشَتَّانَ بين الوَصفَين : بَين من يلقى الحربَ بوَجهه وبين من يلقاهُ بقفاه[1] ، وبين الناكح والمنكوح، والراكب والمركوب ، والفاعل والمفعول ، والآتى والمأْتىِّ ، والأَسفلِ والأَعلى ، والزائِر والمَزُور ، والقاهر والمقهور .

ولمَّا رأَينا الكنوز العاديَّة[2] والذَّخائِر النفيسة ، والجواهرَ الثَّمينة مثلَ الدُّرِّ الأَصفرِ ، والياقوتِ الأَحمرِ، والزُّمرُّد الأَخضر ، والمسكِ والعَنْبر والعِقْيانِ واللُّجينِ ، والزِّرنيخ والزِّئبق . والحديد والبُورَق[3] ، والنِّفط والقار ، وصُنوفِ الأَحجار ، وجميعَ منافع العالَم وأَدواتِهم وآلاتهم ، لحربِهم وسَلمهم ، وزَرْعهم وضَرْعهم ، ومنافعهم ومرافِقِهم ومصالحهم ، وسائر مايأْكلونه ويشربونه ، ويَلبَسونه ويَشمُّونه ، وينتفعون برائِحته وطعْمه ، ودائِعَ فِى بطون الأَرض ، وإنَّما يُستَنْبَطُ منها استنباطاً ، ويُستخرَجُ منها استخراجاً، وأَنَّ على ظهرها الهوامَّ القاتلة ، والسِّباعَ العاديَة التى فى أَصغرِها تَلَفُ النفوس ودواعى الفَنَاءِ وعوارضُ البلاءِ ،

(١) الحرب مؤنثة ، وقد تذكر كما هنا .
(٢) العادية : القديمة ، منسوبة إلى عاد .
(٣) البورق ، بضم الباء : النطرون . القاموس ، وتذكرة داود ، والمعتمد .

وأنَّه قل ما يمشى على ظهرها من دابّةٍ . إلّا وهو للمرء عدوٌّ ، وللموتِ رسولٌ ، وعلى الهلكةِ دليل – لم يمتنع [فى]عُقولنا ،وآرائنا ومعرفتنا[١] من الإقرار بتفضيل البَطْن على الظهر فى كلِّ وقت . وعلى كلِّ حال .

ومن فضيلة البَطن على الظَّهر أنَّ أحداً إن ابتُلِى فيه بداءٍ[٢] كان مستوراً ، وإنشاءَ أن يكتمه كَتَمَهُ عن أهله ، ومن لا ينطوى عنه شىءٌ من أمره ، وغابِرِ دهره .

ومن بليَّة الظَّهر أنَّه إن كان دَاءٌ[٣] ظهَرَ وبان ، مثل الجَرَب والسِّلَع[٤] والخنازير وما أشبهها ، مما سَلِمَتْ منه البطون وجُعِلَ خاصًّا فى الظُّهور .

وفضَّل اللهُ تعالى البطونَ بأَن جعل إتيانَ النساءِ ، وطلبَ الولد ، والتماس الكثرة مباحاً من تِلقائها ، محرَّماً فى المَحَاشِّ[٥] من ورائها ، لأنَّه حرامٌ على الأُمَّة إتيانُ النساءِ فى أدبارهنَّ ، لما جاءَ فى الحديث عن الصادق صلى الله عليه وسلم : « لا تأْتُوا النِّساءَ فى مَحَاشِّهنَّ » .

وقد ترى بِطانةَ الثَّوب تقومُ بنفسها . ولا تَرى الظِّهارة تستغنى .

وجعل الله تعالى البَطنَ وِعاءً لخير خلقه محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، ثم جعلَ أوَّلَ دلائلِ نبوّته أن أهبَطَ إليه مَلكاً حين أَيْفَع ،وهو يَدرُج[٦]

---

(١) فى النسختين : « لم يمتنع عقولنا وأرائنا معرفتنا » . وقد أكملت النص وصححته بما ترى .

(٢) ب : « بداء إن » م : « بداء ان » ، و « إن » مقحمة ، والصواب ما أثبت .

(٣) فى النسختين : « إن كان ذا » .

(٤) السلع : جمع سلعة ، بالكسر ، وهى زيادة تحدث فى الجسد مثل الغدة . وفى ب : « والسبع » ، صوابه فى م .

(٥) المحاش : جمع محشة ، بفتح الميم وتشديد الشين ، وهى الدبر .

(٦) فى النسختين : « وهو مع تدرج » .

مع غِلمان الحيّ فى هوازن . وهو مسترضَعٌ[1] فى بنى سعد ، حين شَقَّ عن بطنه ، ثم استخرج قلبه فحُشِىَ نوراً ، ثم خُتم بخاتَم النبوَّة . ولم يكن ذلك من قِبَل الظَّهر .

٤ – فصـــل منه

وممّا فَضَلت به البطونُ : أنَّ لحم السُّرَّة من الشاة أطيبُ اللحم ، ولحمُ السُّرَّة من السَّمك الموصوفُ ، وسُرَّة حمارِ الوحش شفاءٌ يُتداوَى بها ، ومن سُرَّة الظِّباء يُستخرَج المسك . وهذا كلُّه خاصٌّ للبطون ليس للظُّهور منه شىءٌ .

وبدأ الله عزَّ وجل فى ذكر الفَواحِش بما ظهر منها ، ولم يبدَأْه بما بَطَن فقال : ﴿ إنَّما حَرَّم رَبِّىَ الفَواحِشَ ماظَهَرَ مِنْها وما بَطَن[2] ﴾ ، فجعله ابتداءً فى الذم[3] .

والظَّهر فى أكثر أحواله سَمِجٌ ، والبطن فى أكثر أحواله حَسَن . والظَّهر فى كلِّ الأوقات وَحْشةٌ وَوحْش ، والبَطْن فى كلِّ الأوقات سَكَن وأُنس .

ولم نَرهُم حين بالَغُوا فى صفات النِّساء بدءُوا بذكرها إلّا من جهة البَطن فقالوا : مُدْمَجة الخَصْر ، لذيذةُ العِناق ، طيِّبة النَّكهة ، حُلوة العينَين ، ساحرةُ الطَّرف ، كأَنَّ سُرَّتها مُدهُن[4] ، وكأَنَّ فاها خاتَم ، وكأَنَّ ثدييها حُقَّان ، وكأَنَّ عنقها إبريقُ فِضَّة . وليس للظهور فى شىءٍ من تلك الصِّفات حَظٌّ[5] .

---

(١) ب : « مستربع » ، صوابه فى م .

(٢) الآية ٣٣ من الأعراف .

(٣) ب : « ابتداء الذم » .

(٤) المدهن : قارورة الدهن .

(٥) فى النسختين : « من ذلك الدهان » .

وأنّى نَبلُغ فى صفة البطون ، وإنْ أسهبْنا ، وكم عسى أن نُحصى من معايب الظهور[1] وإن اجتهَدْنا وبالَغْنا . ألا ترى أنَّ حدَّ الزَّانى ثمانون جلدةً مالم يكن مُحصَناً ، وحدَّ اللُّوطىِّ أن يُحْرَقَ . وكلاهما فجورٌ ورَجَاسة ، وإثمٌ ونجاسة . إلَّا أنَّ أيْسَرَ المكروهين أحقُّ بأن يَميل إليه من ابتُلِى ، وخير الشَّرَّين أحسن فى الوصف من شَرِّ الشَّرَّين .

ولو أنَّا رأينا رجلاً فى سوقٍ من أسواق المسلمين يقبِّل امرأةً فسألناه عن ذلك، فقال : امرأتى . وسألوها فقالت : زوجى – لدرَأْنا عنهما الحدَّ، لأَنَّ هذا حُكم الإسلام . ولو رأيناهُ يقبِّل غلاماً لأَدَّبناه وحبسناه ؛ لأَنَّ الحكم فى هذا غير الحكم فى ذاك .

ألا ترى أنَّه ليس بممتنع فى العقول والمعرفة أن يُقْبِلَ الرجلُ فى حُبِّ ما ملكت يمينُه حتَّى يقبِّلها فى المَلاَ كما يقبِّلها فى الخَلَا ، يصدُق ذلك حديثُ ابنِ عُمر : « وَقَعَتْ فى يدى جاريةٌ يومَ جَلُولاءَ كأَنَّ عنقَها إبريقُ فِضَّة فما صَبَرتُ حتَّى قبَّلتها والنَّاسُ ينظرون » .

٥ – فصـل منه

وقد رأيتُ منك أيُّها الرَّجلُ إفراطَكَ فى وصفِ فضيلة الظُّهور ، وفى محلِّ الرِّيبة وقَعْت ، لأنَّا روَيْنا عن عمر أنَّه قال : « من أظهر لنا خيراً ظنَنَّا به خيراً ، ومن أظهر لنا شرًّا ظننا به شرًّا » .

وإنَّما يصف فَضْلَ الظَّهر من كان مُغرَماً بحبِّ الظهور ، وإلى ركوبه صبًّا ، وبالنَّوم عليه مُستهتَراً ، وبالوَلوع بطالبه موكَّلا . ومَنْ كان للحلال

---

(١) ب : « أن نخص من معائب الظهور » ، تحريف .

مُبايِناً ، ولسبيله مُفارِقاً ، ولأَهله قالياً ، وللحرام معاوِداً ، وبحبله مستمسكا[١] وإلى قربه داعياً ، ولأَهله موالياً .

وقد اضطررتنا بتصييرك[٢] المفضولَ فاضلا ، والعامَّ خاصًّا ، والخسيسَ نفيساً ، والمحمودَ مذموماً ، والمعروفَ منكراً ، والمُؤخَّر مقدَّمًا والمقدَّم مؤخَّراً ، والحلالَ حراماً ، والحرامَ حلالا ، والبِدعة سُنَّةً ، والسُّنَّةَ بِدعةً ، والحَظْرَ إطلاقاً ، والإطلاقَ حَظْراً ، والحقيقةَ شُبْهةً والشُّبهةَ حَقيقة ، والشَّينَ زَيْناً والزَّين شَيناً ، والزَّجر أمراً والأَمر زَجْراً ، والوَهْم أَصلا والأَصل وهماً ، والعلمَ جهلاً والجهل فضلاً[٣] — إلى أنْ أَدخَلْنا عليك الظَّنَّ ، وأَلحقناكَ التُّهمة ، ونَسَبْناك إلى غير أَصلك، ونَحَلْناكَ غيرَ عقيدتك ، وقَضَينا عليك بغير مذهبك . و« يداك أَوكَتا ، وفاك نفخ[٤] » . فلا يبعد الله غيرك !

أَوجِدْنا أَيُّها الضالُّ المُضِلُّ ، المغلوب على رأْيه ، المسلوب فَهمه ، المُوَلِّى على تمييزه ، النَّاكصُ على عقبه فى اختياره[٥] ، المفارق لأَصل عَقْده[٦] ، المُدْبر بعد الإِقبال فى معرفته ، السَّاقط بعد الهَوَى فى وَرْطته ، المتخلِّى من فهمه[٧] ، الغَنىّ عن إفهامه . المُضيِّع لحكمته ، المنزوع

---

(١) مستمسكاً ، ساقطة من م .

(٢) ب : « بتعبيرك » ، صوابه فى م . وفى م أيضاً : « وقد اضطررنا » .

(٣) ب : « والجهل علماً » ، صوابه فى م .

(٤) م : « وفلك نفخ » . والمعروف : « وفوك نفخ » . الفاخر ٤٨ والميدانى ٢ : ٣٢٥ وجمهرة العسكرى ٢ : ٤٣٠ . والوكاء : الخيط الذى يشد به رأس السقاء . وأصله أن رجلا أراد أن يعبر نهراً على سقاء ، فلم ينفخه ولم يوكه على ما ينبغى ، فلما توسط النهر انحل الوكاء فصاح : الغرق الغرق ! فقيل له هذا المثل ، أى إنك من قبل نفسك أتيت .

(٥) فى النسختين : « فى اختيار » ، ووجهه ما أثبت .

(٦) ب « الموافق لأصل عقده » ، صوابه فى م .

(٧) فى النسختين : « المتحلى » بالحاء المهملة ، تحريف .

عَقلُه ، المختَلَس لبُّه ، المستطارُ جَنَانه ، المعدوم بيانه ، في الظُّهور بعد الفضائل التي أَوجَدْناكَها في البُطون ، إمّا قياساً ، وإمَّا اختياراً[1] ، وإمَّا ضرورة ، وإما اختباراً وإمَّا اكتساباً ، أو في كتاب منْزَل ، أو سُنَّة مأْثورة ، أَو عادةٍ محمودة ، أَو صِلاحٍ على خير .

أَم هل لك في مقالتك من إمامٍ تـأْتَمُّ به ، أو أُستاذٍ تقتفى أَثَرَه ، وتَهتَدِى بِهُداه ، وتسلك سَنَنَه .

٦ — فصـــل منه

وقد حَضَّتني[2] عليك عند انتهائى إلى هذا الموضع رِقَّة ، وتداخلتنى لك رحمة ، ووجدت لك بقيَّةً في نفسى ؛ لأَنَّه إنَّما يُرحَم أَهلُ البلاءِ .

والحمد لله الذى عافانا مما ابتلاكَ به ، وفضَّلنا على كثيرٍ من خلقه تفضِيلا .

فرأَيت أَن أَختم بأَبْسَطِ الدُّعاءِ لك كتابى ، وأَن أُحرِزَ به أَجرِى وثَوابِى ، ورجوت أَن تُنِيبَ[3] وترجع بعد الجِماح واللَّجاج ، فإنَّ للجواد استقلالاً بعد الكَبوة ، وللشُّجاع كَرَّةً بعد الكَشْفة[4] ، وللحليم عطفةً بعد النَّبْوة .

وأَنا أَقول : جعلَنَا الله وإيَّاك ممن أَبصَر رُشدَه ، وعَرفَ حَظَّه ، وآثَرَ الإِنصاف واستعمله ، ورفض الهوى واطَّرحَه ؛ فإنَّ الله تعالى لم يَبْتلِ بالهَوَى إلَّا من أَضلَّه ، ولم يُبعِد إلَّا من استبعده .

---

(١) في النسختين : « أخباراً » .

(٢) م : « خصتنى » .

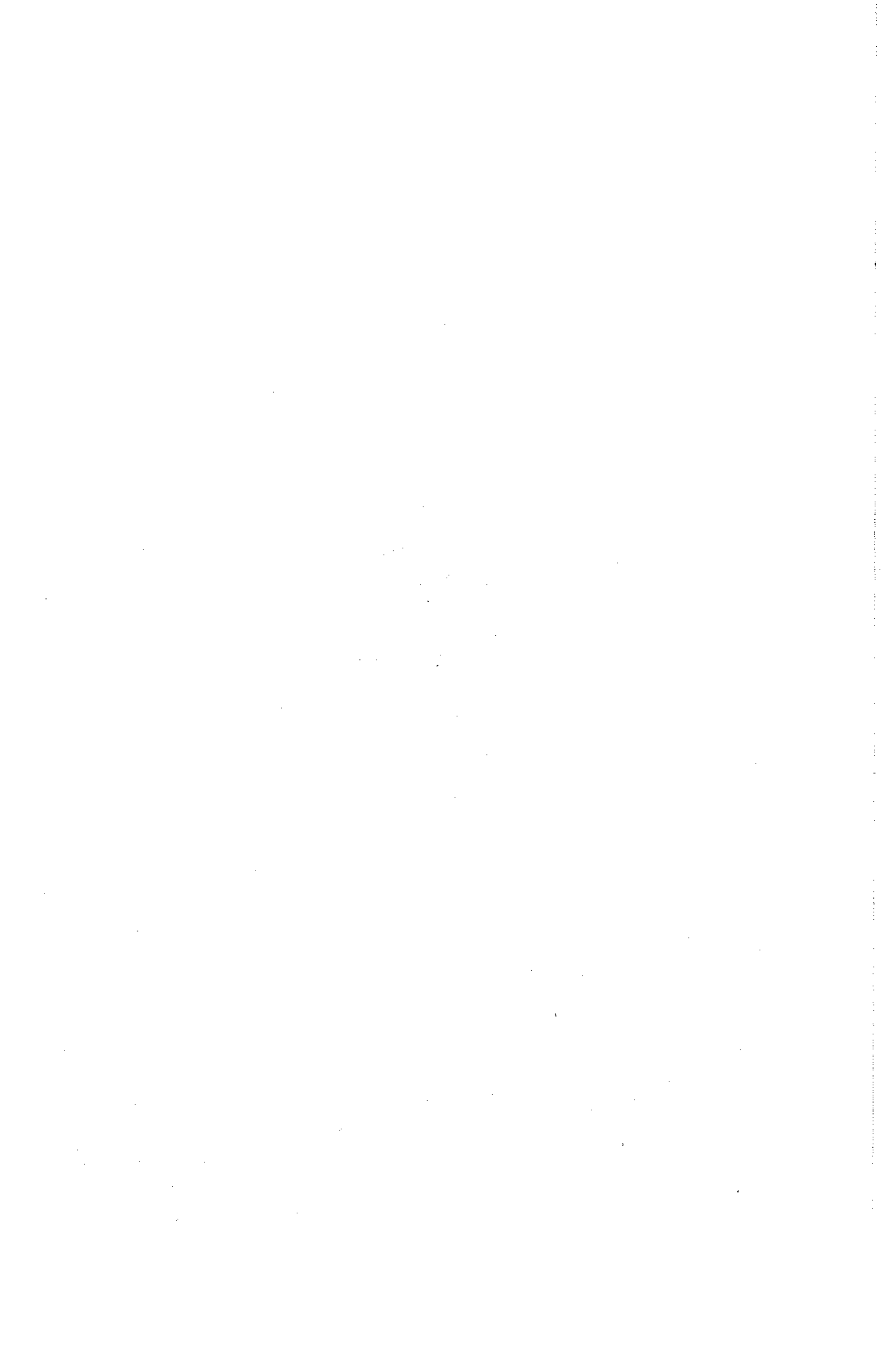
(٣) من الإنابة ، وهى التوبة والرجوع عن المعصية . ب : « تثبب » ، صوابه في م .

(٤) الكشفة : الهزيمة . كشف القوم ، من باب فرح : انهزموا .

٢٠

من كتابه في

النبل والتنبل وذم الكبر



١ – فصـــل

من صدر كتابه فى النبل والتنبل وذم الكبر(١)

قد قرأتُ كتابَكَ وفهمتُه ، وتتبَّعت كلّ ما فيه واستقصيتُه ، فوجدتُ الذى ترجعُ إليه بعد التَّطويل ، وتَقِفُ عنده بعد التَّحصيل ، قد سلَفَ القولُ منّا فى عَيْبِه ، وشاع الخَبرُ عَنّا فى ذَمِّهِ(٢) ، وفى النَّصْب لأَهله ، والمُبايَنةِ لأَصحابه ، وفى التعجُّبِ منهم ، وإظهار النَّفى عنهم .

والجملةُ أَنَّ فرط العُجْب إذا قارن كثرةَ الجهل ، والتَّعرُّضَ للعيب إذا وافق قلَّةَ الاكتراث ، بطَلَتِ المزاجر(٣) ، وماتت الخواطر . ومتى تفاقم الداءُ ، وتفاوت العلاج ، صار الوعيد لغواً مطَّرحاً ، والعقابُ حكماً مستعملا .

وقد أَصبح شيخُك ، وليس يملك من عقابهم إلاَّ التوقيف ، ولا من تـأْديبهم إلّا التعريف .

ولو مَلَكناهم مُلكَ السُّلطانِ ، وقهرناهم قَهْرَ الوُلاة ، لنهكناهم عقوبةً بالضَّرب(٤) ، ولقَمعناهم بالحصر(٥) .

---

(١) معظم هذا الكتاب ساقط من هامش الكامل ، إذ يبدأ النص فيه من أواخر الفصل الخامس ص١٧٥ ، بعد قوله : « وإنما عاند الله تعالى » . وجاء الكلام بعده متصلا مختلطاً بمنتصف الكتاب العاشر ، وهو « الرد على النصارى » . وانظر ص ٣٢٩ من الجزء الثالث من الرسائل . والتنبل : تكلف النبل وادعاؤه .

(٢) ب : « وشاع الخير » ، صوابه فى م .

(٣) ب : « بطلب المزاجر » ، صوابه فى م .

(٤) نهكه عقوبة : بالغ فيها ، ينهكه نهكاً .

(٥) الحصر : الحبس هنا . والحصير : المحبس . وفى التنزيل العزيز : « وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » .

والكِبر – أعزَّكَ الله تعالى – بابٌ لا يُعَدُّ احتمالُه حلماً[1] ، ولا الصَّبرُ على أهله حَزْماً ، ولا تركُ عِقابِهم عفواً ، ولا الفضلُ عليهم مَجْدًا ، ولا التَّغافُل عنهم كرماً ، ولا الإمساك عن ذمِّهم صَمتاً .

واعلمْ أنَّ حملَ الغنى[2] أشَدُّ من حمل الفَقْر ، واحتمالَ الفقر أهونُ من احتمال الذُّلّ . على أنَّ الرضا بالفقر قناعةٌ وعزّ ، واحتمالَ الذُّلِّ نَذَالةٌ وسُخْف . ولئن كانوا قد أفرَطُوا فى لَوْم العشيرة ، والتكبُّر على ذوى الحُرْمة ، لقد أفرطتَ فى سوءِ الاختيار ، وفى طول مُقامِك على العار .

وأنت مع شِدّة عُجْبِك بنفسك ، ورضاك عن عقلك ، خالطْتَ من مَوتُه يُضحِكُ السِّنَّ ، وحياتُه تورث الحزن[3] ، وتَشاغُلُكَ به من أعظم الغَبْن .

وشكوتَ تنبُّلَهم عليك ، واستصغارَهم لك ، وأنَّك أكثرُ منهم فى المحصول ، وفى حقائق المعقول[4] . ولو كنتَ كما تقول لما أقمتَ على الذُّلّ ولَمَا تجرَّعتَ الصَّبرَ وأنتَ بمندوحةٍ منهم ، وبنجوةٍ عنهم . ولعارضتهم من الكبر بما يهضُّهم[5] ، ومن الامتعاض بما يَبْهَرهم .

وقلتَ : ولو كانوا من أهل النُّبل عند الموازنة ، أو كان معهم ما يَغْلَط الناسُ فيه عند المقايسة لعذَرتُهم واحتججتُ عنهم[6] ، ولستَرتُ عَيْبَهم ، ولرقَعْتُ وَهْيَهم . ولكنَّ أمرهم مكشوفٌ ، وظاهرَهُم معروف .

---

(١) فى النسختين : « إلا حلما » .
(٢) م : « العنا » بالمهملة ، صوابه فى ب .
(٣) ب : « وحيرته يورث الحزن » ، صوابه فى م .
(٤) م : « العقول » .
(٥) الهض : الكسر والدق . وفى النسختين : « ينهضهم » ، وهو عكس ما يراد .
(٦) ب : « واحتجبت » ، والوجه ما أثبت من م .

وإن كان أمرُهم كما قلتَ ، وشأْنُهم كما وصفتَ ، فذاك ألوَمُ لك ، وأثبَتُ للحجَّة عليك .

وسأؤخِّر عَذْلَك إلى الفراغِ منهم ، وتوقيفَك بعد التَّنويه بهم .

أقول : وإن كان النُّبل بالتنبُّل ، واستحقاقُ العِظَمِ[1] بالتَّعظُّم وبقلَّة التَّدمِ والاعتذارِ ، وبالتَّهاون بالإقرار ، فكلُّ مَن كان أقلَّ حياءً ، وأتمَّ قِحَةً ، وأشدَّ تصلُّفاً ، وأضعفَ عُدّةً ، أحقُّ بالنُّبل وأولى بالعُذْر .

وليس الذى يُوجب لك الرِّفعة أن تكون عند نفسك ـ دون أن يراكَ الناسُ ـ رفيعاً ، وتَكون فى الحقيقة وضيعاً .

ومتى كنتَ من أهل النُّبل لم يضرَّك التبذُّل ، ومتى لم تكنْ من أهلِهِ لم ينفَعْك التنبُّل .

وليس النُّبْل كالرِّزق ، يكون مرزوقاً الحِرمانُ[2] أليقُ به ، ولا يكون نبيلاً السَّخافةُ أشبه به[3] .

وكلُّ شيءٍ من أمر الدنيا قد يَحظَى به غيرُ أهلِه ، كما يحظَى به أهلُه .

وما ظنُّك بشيءٍ المروءةُ خَصْلةٌ من خصاله ، وبُعْدُ الهمّة خَلَّةٌ من خِلاله ، وبهاءُ المنظر سببٌ من أَسبابه ، وجزالة اللفظ شُعبةٌ من شُعَبه ، والمقَامات الكريمةُ طريقٌ من طُرُقه .

(١) فى النسختين : « المعظم » .

(٢) فى النسختين : « مرزوقاً من الحرمان وأليق به » .

(٣) فى النسختين : « نبيلا من السخافة أشبه به » . يريد أن النبل ينبغى أن يكون كاملا ، وليس كالرزق قليله وكثيره سواء .

٢ — فصـــل منه

واعلم أنَّك متى لم تأخذ للنُّبل أُهْبتَه ، ولم تُقِم له أَداتَه ، وتأْتِه من وجهه[١] ، وتقُمْ بحقه ، كنت مع العَناء مُبغَضاً ، ومع التكلُّف مُستصلَفاً . ومَن تَبغَّضَ فقد استهدف للشِّتام[٢] ، وتَصدَّى للملام .

فإن كان لا يَحفِل بالشَّتْم ، ولا يجزع من الذَّمِّ ، فعُدَّه ميِّتاً إن كان حيًّا ، وكلباً إن كان إنساناً .

وإن كان ممَّن يكترث ويجزع ، ويُحِسُّ ويَأْلم ، فقد خَسِر الراحة والمحبَّة ، وربح النَّصَبَ والمذَمَّة .

وبعد ، فالنُّبلُ كلِفٌ بالمولِّى عنه ، شَنِفٌ للمُقْبِل عليه ، لازقٌ بمن رَفَضه ، شديدُ النِّفار ممَّن طَلَبه .

٣ — فصـــل منه

والسَّيِّدُ المطاعُ لم يسهُلْ عليه الكَظْم ، ولم يكن له كنَفُ الحِلم ، إلَّا بعد طُولِ تَجرُّعٍ للغَيظ ، ومُقاساةٍ للصَّبر . وقد كان مُعَنَّى القَلْبِ دَهرَه ، ومكدودَ النَّفسِ عُمْرَه ، والحربُ سجالٌ بينه وبين الحِلْم ، ودُوَلٌ بينه وبين الكَظْم . فلمَّا انقادَتْ له العَشيرةُ ، وسَمَحت له بالطَّاعة ، ووَثِق بظُهور القدرة خِلاف المَعْجزَة[٣] سَهُل عليه الصَّبر ، وغَمر[٤]

---

(١) ب : « وتاية من وجهه » م : « وتأديته من وجهه » ، والصواب ما أثبت .

(٢) الشتام : مصدر شاتم ، كالمشاتمة . وفى النسختين : « للأشتام » ، تحريف .

(٣) أى بعد العجز . وفى الكتاب العزيز : « وإذن لا يلبثون خلافك إلا قليلا » الآية ٧٦ من سورة الإسراء . وقرأ عطاء بن أبي رباح : « بعدك إلا قليلا » . تفسير أبي حيان ٦ : ٦٦ . وانظر اللسان (خلف) ٤٣٤ .

(٤) فى النسختين : « عمر » بالعين المهملة ، ولا وجه له .

بعلوه دواعىَ الجزَع ، بطلت المجاذبة[١] ، وذهبت المُسَاجلة .

والذى كان دعاهُ إلى تكلُّف الحلم فى بدءِ أمره وإلى احتمال المكروه فى أَوَّل شأْنه ، الأَمَلُ فى الرِّياسة ، والطَّمعُ فى السيادة ، ثمَّ لم يتمّ له أَمره ، ولم يستحكم له عَقْدُه إلَّا بعد ثلاثة أَشياءَ : الاحتمال ، ثم الاعتياد ، ثم ظهور طاعة الرِّجال .

ولولا خوفُ جميع المظلومين من أَن يُظَنَّ بهم العجزُ ، وأَلَّا يُوجَّه احتمالهم إلى الذُّلّ[٢] لَزاحَمَ السَّادةَ فى الحِلْم رجالٌ ليسوا فى أَنفُسِهم بدونِهِم ، ولغَمَرَهم بَعْضُ مَن ليس معه من أَسبابهم .

٤ — فصــل منه

ولا يكون المرءُ نبيلاً حتى يكون نبيلَ الرَّأْى ، نبيلَ اللَّفظ ، نبيلَ العقل ، نبيلَ الخلق ، نبيلَ المنظرِ ، بَعِيد المَذهب فى التنزُّه ، طاهرَ الثَّوب من الفُحْش ، إنْ وافَقَ ذلك عِرقاً صالحاً ، ومَجْداً تالداً .

فالخارجىُّ قد يتنبَّل بنفسه ، والنَّابتىُّ قد يَخرُج بطبعه . ولكلِّ عزٍّ أَوّلٌ ، وأَوَّلُ كلِّ قديمٍ حادث .

ومن حُقوق النُّبل أَن تتواضَعَ لمن هو دُونَك ، وتُنصِفَ من هو مثلُك ، وتتنبَّل على من هو فَوقَك .

(١) فى النسختين : « وبطلت المجاذبة » والواو مقحمة ، وإنما الكلام جواب «لما» السابقة.
(٢) ب : « الظلم » ، صوابه فى م .

٥ ـ فصــل منه

وكان بعضُ الأشراف فى زمان الأحنف ، لا يَحتقر أحدًا[١] ، ولا يتحرَّك لزائر ، وكان يقول :

* ثهلان ذو الهَضَبات ما يتحلحلُ[٢] *

فكان الأحنف مايزداد إلَّا عُلوًّا ، وكان ذلك الرجل لايزداد إلَّا تَسفُّلًا .

وقد ذم الله تعالى المتكبِّرين ، ولعن المتجبِّرين ، وأجمعت الأُمَّةُ على عَيبهِ ، والبراءة منه ، وحتَّى سُمِّى المتكبِّر تائِهاً ، كالذى يَخْتَبِط فى التِّية بلا أمارةٍ ، ويتعسَّف الأرض بلا علامة .

ولعلَّ قائلاً أن يقول : لو كان اسم المتكبِّر قبيحاً ، ولو كان المتكبِّر مذموماً ، لَمَا وصفَ الله تعالى بهما نَفْسَه ، ولَمَا نوَّهَ بهما فى التنزيل حين قال : ﴿ الجَبَّارُ المتكبِّرُ[٣] ﴾ ، ثم قال : ﴿ له الأَسماءُ الحُسنَى[٤] ﴾ .

قلنا لهم : إنَّ الإنسانَ المخلوقَ المسخَّرَ ، والضعيفَ الميَسَّرَ ، لا يليقُ[٥] به إلَّا التذلُّل ، ولا يجوزُ له إلَّا التَّواضع .

وكيف يَليق الكِبْرُ بمن إنْ جاعَ صُرِع ، وإنْ شبِعَ طغَى ، وما يشبه الكبرُ بمن يأْكل ويَشرب ، ويَبول ويَنْجُو . وكيف يستحقُّ الكِبْرَ ويَستوجب العَظمةَ من ينقُصُه النَّصَب ، ويُفْسِده الراحة ؟ .

---

(١) م : « يتحقر » ، صوابه فى ب .

(٢) للفرزدق فى ديوانه ٧١٧ واللسان (حلل ١٨٤) . وصدره :

* فادفــع بكفك إن أردت بنســاءنا *

(٣) من الآية ٢٣ من الحشر .

(٤) من الآية ٢٤ من سورة الحشر وهى كذلك فى الآية ٨ من سورة طه . وفى النسختين : « وله » والواو مقحمة فى نص الآية . انظر تحقيق النصوص لكاتبه ص ٤٨ .

(٥) فى النسختين : « لا يلحق به » ، صوابه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .

فإذا كان الكبر لا يليق بالمخلوق فإنَّما يليق بالخالق ؛ وإنَّما عاندَ اللهَ تعالى بالكِبرِ[١] لتَعدِّيهِ طَوْرَه[٢]، ولِجهله لقَدْره[٣]، وانتحالِه مالايجوز إلَّا لربِّه . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « العَظمة رِداءُ الله ، فمَنْ نازَعه رِداءَه قَصَمَه[٤] » .

٦ — فصــل منه

والنبيل لا يتنبَّل ، كما أنَّ الفصيحَ لا يتفصَّح ؛ لأنَّ النَّبيل يكفيه نُبْله عن التنبُّل ، والفصيح تُغنيه فصاحتُه عن التفصُّح . ولم يتزيَّدْ أحدٌ قطُّ إلَّا لنقصٍ يجده فى نفسه ، ولا تَطاوَلَ متطاولٌ إلَّا لوَهْنٍ قد أحسَّ به [فى[٥]] قوَّته .

والكِبرُ من جميع النَّاس قبيحٌ ، ومن كلِّ العبادِ مَسخوطٌ[٦] ، إلَّا أنَّه عند الناس من عُظَماءِ الأَعرابِ ، وأشباهِ الأَعراب أَوجَدُ[٧] ، وهو لهم أَسرع ، لجفاهم وبُعْدهم من الجماعة ، ولقلَّة مخالطتهم لأَهل العفَّة والرِّعة[٨] ، والأَدبِ والصَّنْعَة[٩] .

(١) هنا ينتهى السقط الكبير فى نسخة هامش الكامل (ط) الذى أشرت إليه فى ص ٣٢٩ من ٣٢٩ من الجزء الثالث من الرسائل . وستبدأ المقابلة هنا على النسخ الثلاثة : المتحف البريطانى (ب) والنسخة التيمورية (م) ونسخة الكامل (ط) .

(٢) ب ، م : « ليعديه » ، صوابه فى ط .

(٣) ب ، م : « ويجهله لقدره » ، والصواب من ط .

(٤) ورد فى سنن ابن ماجه برقم ٤١٧٤، ٤١٧٥ حديثاً قدسياً أوله « يقول الله سبحانه : الكبرياء ردائى، والعظمة إزارى، من نازعنى واحداً منهما ألقيته فى جهنم »، من حديث أبى هريرة. ومن حديث ابن عباس بلفظ : « ألقيته فى النار » .

(٥) كلمة « فى » ساقطة من النسخ الثلاثة . وزدتها تكملة للقول .

(٦) فى ط : « والكبر من جميع الناس قبيح مسخوط » .

(٧) أوجد ، أى أكثر وجوداً . وفى جميع النسخ : « أجود »

(٨) الرعة بالراء المكسورة : الورع . وفى ب ، م : « الدعة » .

(٩) هذا ما فى ط . وفى ب ، م : « الضعة » .

٧ – فصـــل منه

ولم نَرَ الكبر يَسُوغ عندهم ويُستحسَنُ إلّا فى ثلاثة مواضع :

من ذلك أن يكون المتكبِّر صعباً بدويًّا ، وَذَا عُرْضيَّة وحشيًّا[١] ، ولا يكون حضريًّا ولا مَدَرِيًّا ، فيحمل ذلك منه على جهة الصُّعوبة ومذهب الجاهليَّة ، وعلى العُنْجُهيَّةِ[٢] والأَعرابيَّة .

أو يكونَ ذلك منه على جهة الانتقام والمُعارضَة ، والمكافأة والمقابلة[٣] .

أو على أن لا يكون تكبُّره إلّا على الملوك والجبابرة ، والفَراعنةِ وأشباه الفراعنة .

وصاحبُك هذا خارجٌ من هذه الخصال ، مُجانبٌ لهذه الخِلال . إن أصاب صديقاً تَعظَّمَ عليه[٤] ، وإن أتاه ضيفٌ تغافل عنه[٥] ، وإن أتاه ضعيفٌ منَّ عليه ، وإن صادف حليماً اعتمر به[٦] .

وينبغى أن يكون خضوعُه لمن فوقه[٧] على حَسب تكبُّره على مَنْ دونه .

ومن صفة اللَّئيم أن يَظلم الضَّعيفَ ، ويَظلِمَ نفسَه للقوىّ ، ويَقتُل

---

(١) ب : « وإذا » ، صوابه فى م ، ط . والعرضية ، بضم العين : العجرفية والصعوبة ، وأن يركب رأسه من النخوة . اللسان (عرض ٤١) . والكلمة محرفة فى الأصول . فى ب : « عارضته » ، وفى م: « عرضنة » وفى ط : « غطرسة » ، والوجه ما أثبت .

(٢) ب : « ولا العنجهية » ، صوابه فى م . وفى ط : « وعلى الهمجية » .

(٣) ب : « المقالة » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « يعظم عليه » ، صوابه فى ط .

(٥) ب : « ضعيف » ، صوابه فى م ، ط . وفى ب ، م : « تخافض له » ، صوابه فى ط .

(٦) به ، ساقطة من ب . وفى ط : « اعتمل به » .

(٧) هذا ما فى ط . وفى ب ، م : « لمن رفعه » .

الصَّريع . ويُجهِزَ على الجريح . ويَطلُبَ الهاربَ ، ويَهرُبَ من الطَّالب ، ولا يَطلُبُ من الطَّوائلِ إلّا مالا خِطَارَ فيه[١] ولا يتكبَّر إلّا حيث لايرجع مَضرَّته عليه[٢] ، ولا يَقْفُو التَّقيَّةَ ولا المروءة[٣] ، ولا يعمل على حقيقته[٤] .

ومن اختار أن يبغىَ تَبَدِّى[٥] ، ومن أراد أن يُسمَعُ قَولُه ساءَ خلقه ، إذْ كان لا يحفل ببُغْضِ النّاسِ له ووَحْشةِ قُلوبِهم منه ، واحتيالِهم فى مُباعَدته ، وقلَّة ملابسته[٦] .

وليس يأْمنُ اللَّئيمَ على إتيان جميعِ ما اشتمل عليه اسمُ اللُّؤم إلّا حاسد .

فإذا[٧] رأيته يعقُّ أباه . ويَحسُد أخاه ، ويَظلِمُ الضَّعيفَ ، ويستخفُّ بالأديب ، فلا تُبعِدْه من الخيانة ، إذْ كانت[٨] الخيانة لؤماً ؛ ولا من الكذب ، إذْ كان الكذب لؤماً ؛ ولا من النَّميمة ، إذْ كانت النَّميمة لؤماً . ولا تأْمَنْه على الكُفْر فإنَّه ألأَمُ اللُّؤم ، وأقبح الغَدْر[٩] .

ومَن رأيته منصرِفاً عن بعض اللُّؤم . وتاركاً لبعض القبيح ، فإيَّاكَ أنْ توجِّهَ ذلك منه على التجنُّبِ له . والرَّغبة عنه ، والإيثارِ لخلافه ،

(١) ط : « ما لا خطر فيه » .
(٢) ط : « معرته عليه » .
(٣) يقفو : يتبع . والتقية : التقوى ، وهى أيضاً المصانعة . ب ، م : « يقف البقية » ، صوابها فى ط .
(٤) ط : « حقيقة » .
(٥) ب : « يبق يبدى » م : « يبق يبدى » ، وأرى الوجه فيما أثبت . تبدى : سكن البادية . على أن هذه العبارة ساقطة من ط .
(٦) الملابسة : المخالطة . م ، ط : « مساعدته » .
(٧) ب : « إذا » بغير فاء .
(٨) ب : « إذا » هنا وفى الموضعين التاليتين .
(٩) ب فقط : « العذر » ، تحريف .

ولكن على أنَّه لا يشتهيه أَوْ لا يَقدِرُ عليه[١] ، أَو يخاف من مرارةِ العاقبة[٢] أمراً يعفِّى على حلاوة العاجل ؛ لأَنَّ اللُّؤْمَ كلَّه أَصلٌ واحدٌ وإنْ تفرَّقت فروعُه ، وجنسٌ واحدٌ وإن اختلفَتْ صُوَرُه ، والفِعلُ محمولٌ على غلبته[٣] ، تابعٌ لسَمْتِه . والشَّكل ذاهبٌ عَلَى شكله ، منقطعٌ إلى أَصله ، صائرٌ إليه وإنْ أَبطأَ عنه ، ونازعٌ إليه وإن حِيلَ دونه . وكذلك تَناسُب الكرمِ وحنينُ بعضِه لبعض[٤] .

ولم تَر العيونُ ، ولا سَمِعت الآذانُ ، ولا توهَّمتِ العقولُ عملاً اجتباهُ ذو عقلٍ ، أَو اختارَه ذو علمٍ ، بأَوبأَ[٥] مَغبَّةً ، ولا أَنكدَ عاقبةً ، ولا أَوخمَ مرعًى ، ولا أَبعَدَ مَهوًى ، ولا أَضرَّ على دينٍ ، ولا أَفسَدَ لِعرضٍ ، ولا أَوجَبَ لسُخْط الله ، ولا أَدعى إلى مَقْتِ النَّاس ، ولا أَبعَدَ من الفلَاح ، ولا أَظهرَ نُفُورًا عن التَّوبة ، ولا أَقلَّ دَرَكاً عند الحقيقة ، ولا أَنقضَ للطَّبيعة[٦] ، ولا أَمنَعَ من العِلم ، ولا أَشدَّ خلافاً على الحِلم ، من التكبُّر فى غير موضعه ، والتنبُّل فى غير كُنْهِه .

وما ظنُّك بشيءٍ العُجْبُ شَقيقُه ، والبَذَخُ صديقُه ، والنَّفْجُ أَليفُه[٧] ، والصَّلَفُ عَقِيدُه[٨] .

والبَذَّاخ متزَيِّد[٩] ، والنَّفَّاج كذَّابٌ ، والمتكبِّر ظالم ، والمُعجَبُ

(١) ب ، م : « أولا أولا يقدر عليه » . (٢) ب : « مراءة العاقبة » ، تحريف .

(٣) ب ، م « غلبة » ، صوابه فى ط .

(٤) م : « ببعض » ، تحريف . وفى ط : « إلى بعض » .

(٥) مابعد هذه الكلمة إلى « على دين » التالية ، ساقطط من ط .

(٦) النقض : الإفساد والقلب ، وأصله ضد الإبرام . وفى جميع النسخ : « أنقص » بالصاد ، تحريف .

(٧) فى اللسان : « رجل نفاج : ذو نفج يقول مالا يفعل ، ويفتخر بما ليس له ولا فيه » .

(٨) العقيد : الصاحب ، كأنك تعاقده وتحالفه . وفى قول أبى خراش :

كم من عقيد وجار حل عندهم ... ومن مجار بعهد الله قد قتلوا

(٩) ب فقط : « متزايد » ، تحريف .

صغيرُ النَّفْس . وإذا اجتمعت هذه الخصالُ ، وانتَظَمت هذه الخصالُ فى قلبٍ طال خَرابُه ، واستَغْلَق بابُه .

وشرٌّ العيوبِ ما كان مضمَّناً بعُيوب ، وشرٌّ الذنوب ما كان عِلَّةً لذُنوب[١] .

والكِبْر أوّلُ ذنبٍ كان فى السماوات والأرض ، وأعظمُ جُرْمٍ كان من الجنِّ والإنس ، وأشهَرُ تعصُّب كان فى الثَّقَلَيْن ، وعنه لجَّ إبليسُ فى الطُّغْيان ، وعَتَا على ربِّ العالمين ، وخَطَّأَ ربَّه فى التَّدبير[٢] ، وتلقَّى قولَه بالرَّد . ومِنْ أَجلِهِ استَوْجَب السَّخْطة ، وأُخرِج من الجنَّة ، وقيل له : ﴿ ما يكونُ لك أنْ تتكبَّرَ فيها[٣] ﴾ .

ولإفراطه فى التَّعظيم خرج إلى غاية القسوة ، ولشدَّة قَسوته اعتزم على الإصرار ، وتتايَعَ[٤] فى غاية الإفساد ، ودعا إلى كلِّ قبيح ، وزيَّن كل شَرٍّ[٥] ، وعن معصيته أُخرج آدمُ من الجنَّة ، وشُهِر فى كلِّ أُفق وأُمَّة ، ومن أَجله نصَبَ العداوةَ[٦] لذرِّيته ، وتفرَّغَ[٧] من كل شىءٍ إلَّا من إهلاك نَسلِه[٨] ، فعادَى من لا يَرجُوه ولا يخافه ، ولا يضاهيه

---

(١) ب : « للذنوب » م : « بذنوب » ط : « الذنوب » ، والوجه ما أثبت .

(٢) ب فقط : « فى التبذير » تحريف . وهو قول إبليس : « أأسجد لمن خلقت طيناً » ، « خلقتنى من نار وخلقته من طين » .

(٣) من الآية ١٣ من الأعراف : « قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها » .

(٤) التتايع ، بالياء التحتية المثناة : التساقط والتهافت . وفى الأصول : « تتابع » ، والوجه ما أثبت من لغة الجاحظ .

(٥) ب ، م : « شىء » ، صوابه فى ط .

(٦) فى الأصول : « نصبت العداوة » .

(٧) ب ، م : « وتفرع » ، صوابه فى ط .

(٨) ب ، م : « أهلك نسله » ، صوابه فى ط .

فى نسب[١] ، ولا يُشاكله فى صناعة ، وعن ذلك[٢] قَتلَ النَّاسُ بعضُهم بعضاً ، وظلم القوىُّ الضَّعيفَ ، ومن أجله أهلَكَ اللهُ الأُمَمَ بالمَسْخ والرَّجْف ، وبالخَسْف وبالطُّوفان ، والرِّيح العقيم[٣] ، وأدخلهم النَّار ، وأقْنَطَهم من الخروج .

والكِبْرُ هو الذى زَيَّن لإبليسَ ترك السُّجود ، ووَهَّمه شَرَفَ الأَنفة[٤] ، وصوَّر له عِزّ الانتقاض[٥] ، وحبَّبَ إليه المخالفَة ، وآنَسَه بالوَحْدة والوَحْشة ، وهوَّن عليه سُخْط الرّبّ ، وسَهَّل عليه عقابَ الأَبَد ، ووَعَدَه الظَّفرَ ، ومَنَّاهُ السَّلامةَ ، ولقَّنه الاحتجاجَ بالباطل ، وزيَّن له قَوْلَ الزُّور ، وزهَّده فى جوار الملائكة[٦] ، وجَمَع له خِلال السُّوء ، ونظم له خِلال الشَّرّ ؛ لأَنَّه حَسَدَ والحسدُ ظلمٌ ، وكذب والكذبُ ذلٌّ ، وخَدَعَ والخديعة لؤم . وحَلَفَ على الزور ، وذلك فجور . وخَطَّأَ ربَّه ، وتخطئةُ الله جهلٌ . وأخطأَ فى جَلِىِّ القياس[٧] وذلك غَىٌّ ، ولَجَّ واللَّجاج ضَعْف . وفرقٌ بينَ التكبُّر والتبدِّى[٨] . وجَمَعَ بين الرَّغبة عن صنيع الملائكة[٩] وبينَ الدُّخولِ فى أَعمال السِّفْلة .

واحْتَجَّ بأَنَّ النار خَيْرٌ من الطِّين . ومنافع العالَمِ نتائج أَربعةِ

---

(١) هذا الصواب من ط . وفى ب ، م : « ولا يضاره » . والمضاهاة : المشابهة .

(٢) ط : « ومن ذلك » .

(٣) انظر ما مضى فى ص ١٥٨ .

(٤) ط : « وأوهمه شر الألفة » ب ، م : « ووهمه سرف الألفة » ، والوجه فيهما ما أثبت . أى جعله يتوهم الشرف فى الأنفة والكبر .

(٥) عز ، ساقطة من ط . وهى فى م : « عن » ، تحريف . والانتقاض : المخالفة . وفى جميع الأصول : « الامتعاض » .

(٦) ب فقط : « الملكية » ، تحريف .

(٧) الجلى : الظاهر الواضح . م : « جليل القياس » .

(٨) ب : « والتبذل » م : « والتبد » ، وأثبت ما فى ط .

(٩) رسمت فى ب « المليكة » .

أركان : نارٌ يابسة حارّة ، وماءٌ باردٌ سيَّال ، وأرضٌ باردة يابسة ، وهَواءٌ حارٌّ رطب . ليس منها شيءٌ مع مُزَاوجتِه لخلافهِ إلَّا وهو مُخْيٍ مُبْقٍ[١] . على أنَّ النار نِقمةُ اللهِ من بين جميع الأَصناف ، وهى أَسرعُهنَّ إتلافاً لما صار فيها . وأمحقهُنَّ لما دنا منها .

هذا كلُّه ثمرةُ الكِبر ، ونتِاجُ النِّيةِ . والتكبُّرُ شَرٌّ من القَسوة ، كما أنَّ القسوة شرُّ المعاصى . والتَّواضعُ خيرُ الرحمة[٢] ، كما أنَّ الرَّحمة خيرُ الطَّاعات .

والكبر معنًى ينتظم به جِماعُ الشَّرّ ، والتَّواضع معنًى ينتظم به[٣] جِماعُ الخير ، والتَّواضع عَقِيبُ الكِبْرِ ، والرَّحمة عَقيبُ القَسْوَة . فإذا كان للطَّاعة قدرٌ من الثَّواب فلتركها وعَقيبها ، ولما يُوازِنُها[٤] ويكايلُها ، مثلُ ذلك القدر من العِقاب . وموضع الطاعة من طبقات الرِّضا ، كموضع تَركها من طبقاتَ السُّخط[٥] إذْ[٦] كانت الطَّاعةُ واجبةً ، والتَّرك معصية .

والكِبْر من أَسباب القَسْوة . ولو كان الكبر لا يعترى إلَّا الشَّريفَ والجميل ، أو الجواد ، أو الوفىّ أو الصَّدوق ، كان أَهْوَنَ لأَمره ، وأَقلَّ لشَيْنه . وكان[٧] يعرض لأَهل الخير ، وكان لايَغْلَطُ فيه إلاَّ أَهلُ الفضل ،

---

(١) ب فقط : « مجىء » تحريف .

(٢) ب ، م : « خير من الرحمة » . والمراد خير أنواع الرحمة ، كما قيل : « خير البر عاجله » .

(٣) به ، ساقطة من م . وبدلها فى ط : « فيه » .

(٤) فى جميع الأصول : « ويوازيها » .

(٥) ب فقط : « وموضع الطاعة من طبقات السخط » . والتكملة من م ، ط .

(٦) ب : « إذا » ، تحريف .

(٧) هذا الصواب من ب . وفى م ، ط : « أو كان » .

ولكنَّا نجده فى السِّفلة ، كما نجدُه[(١)] فى العِلْية ، ونَجِدُه فى القبيح كما نجده فى الحَسن ، وفى الدَّميم[(٢)] كما نجدُه فى الجميل . وفى الدَّنىِّ الناقصِ ، كما نجده فى الوفىِّ الكامل ، وفى الجبان كما نجده فى الشُّجاع ، وفى الكَذُوبِ كما نجده فى الصَّدوق ، وفى العبد كما نجده فى الحُرّ ، وفى الذِّمِّىِّ ذى الجِزْيةِ والصَّغارِ والذِّلَّة ، كما نجدُه فى قابض جزيته والمسلَّطِ على إذلاله .

ولو كان فى الكبر خيرٌ لما كان فى دَهر الجاهليَّة أَظْهَرَ منه فى دَهر الإسلام ، ولما كان فى العَبْد أَفشَى منه فى الحُرّ[(٣)] ، ولما كان فى السِّنْد أَعمَّ منه فى الرُّوم والفُرس .

وليس الذى كان فيه آل ساسان[(٤)] وأَنو شروان وجميعُ ولَدِ أَزدشير ابن بابَك كانَ[(٥)] من الكِبْر فى شىءٍ . تلك سياسةٌ للعوامِّ ، وتفخيمٌ لأَمر السُّلطان ، وتسديدٌ للمُلْك .

ولم يكن[(٦)] فى الخلفاءِ أَشدُّ نخوةً من الوليد بن عبد الملك ، وكان أَجهلَهُم وأَلحنَهم[(٧)] . وما كان فى وُلاةِ العِراق أَعظمُ كِبْرًا من يُوسفَ ابنِ عمر ، وما كان[(٨)] أَشجعَهم ولا أَبصَرَهم ، ولا أَتمَّهم قَوَاماً ، ولا أَحسنَهُمْ كلاماً .

---

(١) ب : « كما أن نجده » .

(٢) الدميم ، من الدمامة ، وهى القبح والقصر . وفى جميع الأصول : « الذميم » بالذال المعجمة ، تحريف .

(٣) ب ، م : « المدر » ، صوابه فى ط .

(٤) فى الأصول : « كان فيه عن آل ساسان » . و « عن » مقحمة .

(٥) سقطت « كان » هذه من ط فقط .

(٦) ب ، م : « ولو لم يكن » و « لو » مقحمة ليست فى ط .

(٧) ب فقط : «وكان أجملهم » ، تحريف .

(٨) ب ، م : « ولا كان » ، والوجه ما أثبت من م .

ولم يَدَّعِ الرُّبوبيَّة ملكٌ قَطُّ(١) إلَّا فِرعونُ ، ولم يك مقدَّماً فى مُرَكَّبه(٢) ، ولا فى شَرَفِ حسَبِه ، ولا فى نُبْل منظره ، وكَمالِ خَلْقه ، ولا فى سَعَة سُلطانِه وشرف رعيَّته وكرم ناحيته . ولا كان فوقَ المُلوك الأَعاظم والجِلَّة الأَكابر ، بل دونَ كثيرٍ منهم فى الحَسَبِ وشَرَفِ المُلْك(٣) وكرَم الرعيَّة ، ومَنَعَة السُّلطانِ ، والسَّطوةِ على المُلوك .

ولوْ كان الكبرُ فضيلةً وفى التِّيهِ(٤) مروءةٌ، لما رغب عنه بنو هاشمٍ، ولكان عبدُ المطَّلبِ أَولىَ النَّاس منه بالغاية ، وأَحقَّهم بأَقصى النهاية .

ولو كان محمودَ العاجلِ وَمرجوَّ الآجِلِ(٥) ، وكان من أَسباب السِّيادة أَو من حُقوق الرِّياسة ، لبادَرَ إليه سيِّدُ بنى تميم ، وهو الأَحنف بنُ قيس؛ ولشحَّ عليه سيِّدُ بكرِ بن وائل(٦) وهو ملكٌ ؛ ولاستولى عليه سيِّد الأَزدِ وهو المهلَّب .

ولقد ذكر أبو عمرِو بنُ العلاءِ جميعَ عُيوب السَّادة ، وما كان فيهم من الخِلال المذمومة ، حيث قال : « ما رأَينا شيئاً يمنع من السُّودُد إلاَّ وقد وجدناه فى سيِّد : وجدنا البخل يمنع(٧) من السُّودد . وكان

(١) ب ، م : « ولا يدع » ب : « ملكاً » ، والصواب فى الأولى من ط ، وفى الثانية من م ، ط .

(٢) فى اللسان : « والمركب أيضاً : الأصل والمنبت ، تقول فلان كريم المركب ، أى كريم أصل منصبه فى قومه » . ب ، ط : « موكبه » وفى م : « موكبه » بالواو أيضاً مع ضبطه بضم الميم وفتح الواو وتشديد الكاف المفتوحة ، وصوابها بالراء كما أثبت . وانظر ٢٠٣

(٣) م : « بل دون كثير منهم وشرف الملك » بهذا النقص الذى أكملته من ب ، ط .

(٤) فى ، ساقطة من ب ، م .

(٥) ب ، م : « أو مرجو الآجل » .

(٦) هو كليب بن ربيعة بن الحارث بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة ابن صعب ابن على بن بكر بن وائل ، الذى يضرب به المثل فيقال : « أعز من كليب وائل » ، قتله جساس ابن مرة الشيبانى ، فكان ذلك سبب الحرب بين بكر وتغلب أربعين عاماً .

(٧) كلمة « يمنع » ساقطة من ب .

أبُو سفيان بن حرب بخيلا. والعِهارُ[١] يمنع من السُّودُد. وكان عامرُ بن الطفيل سيِّداً ، وكان عاهِرًا . والظُّلمَ يمنع من السُّودُد ، وكان حُذيفة ابن بدر ظلوماً ، وكان سيد غطفان . والحُمْقَ يمنع من السُّودُدِ ، وكان عُتيبة بن حِصْن محمَّقاً[٢] ، وكان سيِّدا . والإملاقَ يمنع من السُّودُد ، وكان عُتبةُ بن ربيعة[٣] مُملِقاً . وقلَّةَ العدد تمنع من السُّودد وكان شِبْل بن معبدٍ سيِّداً ، ولم يكنْ من عشيرته بالبصرة رجلان . والحَداثة تمنع من السُّودُد ، وساد أبو جهلٍ وما طرَّ شاربُه[٤] . ودخَلَ دار النَّدوة وما استوَتْ لحيته[٥] .

فذكَرَ الظُّلم ، والحُمقَ ، والبُخلَ ، والفَقر ، والعِهارَ ، وذكَرَ العُيوبَ ولم يذكر الكِبْر ؛ لأنَّ هذه الأَخلاقَ وإن كانت داءً فإنَّ فى فضول أَحلامهم وفى سائر أُمورهم مايُداوَى به ذلك الدَّاءُ ، ويُعالَج به ذلك السَّقَم ؛ وليس الداء المُمْكِن كالدَّاءِ المُعْضِل ، وليس البابُ المُغْلَق كالمُستَبهِم ؛ والأَخلاق التى لا يمكن معها السُّودُد[٦] ، مثلُ الكِبْر والكَذِب والسُّخف ، ومثلُ الجهلِ بالسِّياسة .

---

(١) العهار والمعاهرة : الفجور . وأصل المعاهرة الإتيان ليلا للفجور ، ثم غلب على الزنى مطلقاً .

(٢) عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى . وكان اسمه حذيفة فلقب عيينة ، لأنه كان قد أصابته شجة فجحظت عيناه . شهد حنيناً والطائف وعاش إلى خلافة عثمان . الإصابة ٦١٤٦ . ب ، م : « عتيبة بن حصن » ، صوابه فى ط .

(٣) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف . قتل يوم بدر كافراً ، هو وأخوه شيبة ابن ربيعة ، وهو والد هند بنت عتبة أم معاوية بن أبى سفيان . جمهرة أنساب العرب ٧٦ — ٧٧ والسيرة ٥٠٧ جوتنجن . وفى ب : « عتيبة » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) يقال طرشاربه : طلع ونبت . ويقال أيضاً طر ، بالبناء للمجهول ، قال الأزهرى : والأول أفصح . ب : « ساربه » ، صوابه فى م ، ط .

(٥) فى جميع الأصول : « واستوت لحيته » ، والوجه ما أثبت .

(٦) ب : « التى لم يكن معها السودد » ، صوابه فى م ، ط .

وخرجَتْ خارجةٌ بخُراسانَ فقيل لقُتيبة بن مُسلم : لو وجَّهت إليهم وَكيع بنَ أَبى سُودٍ لكفاهم[١] فقال : وكيعٌ رجلٌ عظيم الكِبْر ، فى أنفِه خُنزُوانة ، وفى رأْسه نُعْرة ، وإنَّما أَنفه فى أُسلوب[٢] ؛ ومن عَظُم كِبرُه اشتدَّ عُجْبه[٣] ، ومن أُعجِبَ برأْيِهِ لم يشاور كَفِيًّا ، ولم يُؤامر نصيحاً ، ومن تبجَّح[٤] بالانفراد وفَخَر بالاستبداد كان من الظَّفر بعيدًا ، ومن الخِذْلان قريباً ، والخطاءُ[٥] مع الجماعة خيرٌ من الصواب مع الفِرْقة . وإن كانت الجماعةُ لا تخطئُ والفِرْقة لا تصيب .

ومن تكبَّر على عدوِّه حقَره ، وإذا حَقَره تهاونَ بأَمره . ومَن تهاوَنَ بخَصْمِهِ ووَثِق بفَضْل قُوتَّه قلَّ احتراسه ، ومَنْ قلَّ احتراسُه كثُر عِثارُهُ.

وما رأَيتُ عظيمَ الكِبْر صاحبَ حربٍ إلاَّ كان منكوباً ومهزوماً ومخدوعاً . ولا يشعُر[٦] حتَّى يكون عدوُّه عندَه ، وخَصْمُه فيما يَغلِب عليه أَسمَعُ من فرس ، وأَبصَرُ من عُقَاب ، وأَهدى من قطاة ، وأَحذَرُ من عَقْعَق[٧] ، وأَشدُّ إقداماً من الأَسَد ، وأَوْثَبُ من فَهْد ، وأَحقَدُ من

---

(١) ب ، م : « كفاهم » .

(٢) يقال إن أنفه فى أسلوب ، إذا كان متكبراً . وأصل الأسلوب : الطريق . قال :

أنوفهم بالفخر فى أسلوب ... وشعر الأستاه بالجبوب

وفى ط : « وإنما أنف فى أسلوب » ، تحريف .

(٣) ب : « شيد عجبه » ، والصواب فى م ، ط .

(٤) ب ، م : « تنجح » ، صوابه فى ط . والتبجح : الفخر .

(٥) الخطاء : الخطأ ، وتكثر فى لغة الجاحظ . م ، ط « والخطأ » .

(٦) يشعر موضعها بياض فى ب ، م . وكلمة « ولا » ساقطة من ب فقط .

(٧) انظر الحيوان ١ : ٢/٢٢٠ : ١٧٤ / ٣ : ١٨ / ٥ : ٥٣٥ . والعقعق بفتح العينين ، وهو طائر ذو لونين أبيض وأسود طويل الذنب ، على قدر الحمامة وشكل الغراب . وانظر معجم المعلوف ١٥٥ ، ١٨٨ .

جَمَل ، وأَرْوَغُ من ثعلب ، وأَغْدَر من ذئب[١] ، وأسخى من لافِظة[٢] ، وأَشحُّ من صبيّ ، وأَجمَع من ذَرَّة ، وأَحرصُ من كلب[٣] ، وأَصبَرُ من ضَبٍّ . فإنَّ النَّفس إنَّما تسمح[٤] بالعِناية على قدر الحاجة ،وتتحفَّظُ[٥] على قَدْرِ الخَوف ، وتَطلبُ على قَدر الطَّمَع ، وتَطمَع على قدر السَّبَب .

٨ – فصل منه

وأَقول بعد هذا كلِّه : إنَّ النَّاسَ قد ظلموا أَهل الحِلم والعَزْم ، حين زَعمُوا أَنَّ الذى يُسهِّل عليهم الاحتمالَ معرفةُ الناس بقُدْرتهم على الانتقام ، فكيفَ والمذكورُ بالحِلم والمَشهورُ بالاحتمال يقيِّض له من السُّفهاءِ ، ويُؤْتَى له من أَهل البَذَاءِ ما لا يقوم له صبر . ولا يَنهض به عَزْم . بل على قدر حلمه يُتعرَّض له[٦] ، وعلى قدر عزمه يُمتَحَن صبرُه[٧] ولأَنَّ الذى سَهَّل عليه الحلم[٨] . ومكَّنه من العَزْم ، معرفةُ الناس بقُدرتهِ على الانتقام ، واقتدارُه[٩] على شفاءِ الغيظ ؛ فإنَّ منعَه لنفسه ، ومجاذبته لطبعه مع الغيظ الشَّديد، والقُدرةِ الظاهرة، أَشدُّ عليه فى المزاولة

---

(١) ب : « وأعذر » صوابه فى م ، ط .

(٢) اللافظة : الديك ، لأنه يعض على الحبة بطرفى منقاره ثم يحذف بها قدام الدجاجة ، والتاء فيه للمبالغة كراوية . وانظر الحيوان٢ : ١٤٨ حيث أجرى فيه بحثاً . ط : « لاقطة » ؛ بالقاف ، تحريف . وفى م : « الأفظة » ، صوابها فى ب .

(٣) فى جميع الأصول : « أحرس » بالسين ، وإنما هى بالصاد ، كما فى الحيوان ١ : ٢٢٦ – ٢٢٧ . وفيه بحث .

(٤) ب ، م : « تسمع » ، صوابه فى ط .

(٥) ب : « ويتحفظ » تحريف . ورسمت فى م بتاء وياء فى أولها ، لتقرأ بالوجهين ، والصواب فى ط .

(٦) ب ، م : « بل على قدر حلمهم يتعرض لهم » ، صوابه فى ط .

(٧) ب ، م : « وعلى قدر عزمهم يمتحن صبرهم » ، صوابه فى ط .

(٨) ب ، م : « عليهم الحلم » ، صوابه فى ط .

(٩) ب : « واقتداوه » صوابه فى م ، ط .

وأبلَغُ فى المشقّة والمكابدة[١] ، من صبر الشّكل على أذى شِكْله ، واحتمال المظلوم عن مِثْله ، وإن خاف الطمس ، وتوقَّع العَيب .

٩ ــ فصــل منه

ومن بعد هذا ، فمن شَأْنِ الأَيَّام أن يُظلِم المرءُ أكثَرَ محاسنِه ماكان تابعاً ، فإذا عاد متبوعاً عادت عليه من محاسن غيره بأضعافِ ما منعَتْه من محاسن نفسه ، حتّى يضاف إليه مِن شوارِد الأَفعال[٢] ، ومن شواذّ المكارم إن كان سيِّداً ، ومن غريب الأَمثال إن كان مِنطيقاً[٣] ، ومن خيار القصائد إنْ كان شاعرًا ، مما لا أَماراتِ لها ، ولا سِماتِ عليها .

فكم من يدٍ بيضاء وصنيعةٍ غرَّاء[٤] ، ضلّت فلم يَقُم بها ناشد ، وخَفِيتْ فلم يُظهرها شاكر . والذى ضاع للتّابع قبل أن يكون متبوعاً[٥] ، أكثر ممَّا حُفظ ، والذى نُسِيَ[٦] أكثر مما ذكر ، وما ظنُّك بشيءٍ بَقِيَّتُه[٧] تَهبُ السِّيادة ، ومشكورُهُ يهب الرياسة[٨] ، على قِلّة الشُّكر ، وكَثْرة الكفر .

وقد يكون الرجل تامَّ النَّفس ناقصَ الأَداة ، فلا يُستَبانُ فضلُه ، ولا يُعظَّم قَدْره ، كالمُفْرَج الذى لا عشيرة له[٩] ، والإتاوِيِّ الذى

---

(١) المكابدة : المقاساة والمعاناة . ب ، م : « المكايدة » ، صوابه فى ط .
(٢) ط : « حتى تضاف » . م ، ط : « ومن شوارد الأفعال » .
(٣) ب : « منطبعاً » م : « منطبقاً » ، صوابه فى ط .
(٤) ب : « وضيعة غراء » ، تحريف .
(٥) ب : « مترعاً » م : « مترعاً » ، صوابهما فى ط .
(٦) ط فقط : « كتم » .
(٧) ب ، م : « يقنيه » ، صوابه ما أثبت . وفى ط : « مذكورة » .
(٨) م : « ومشكورة تهب الرياسة » .
(٩) المفرج : الذى لامال له ولا عشيرة ، فإذا جنى جناية كانت جنايته على بيت المال .

لا قَوْم له[١] . وقد يعظِّمُ المُفْرَجُ الذى لا وَلاءَ له ولا عقْدُ جِوارٍ ، ولا عَهْدُ حِلف ، إذَا بَرعَ فى الفِقْه وبلغَ فى الزُّهد . بأكثَرَ من تعظيم السيِّد ، كجهة تعظيم الدَّيَّان . كما أنَّ طاعةَ السُّلطان غيرُ طاعةِ السَّادةِ ، والسُّلطانُ إنَّما يَملك أبدانَ الناس ، ولهم الخيارُ فى عقولهم ، وكذلك الموالى والعَبيد.

وطاعةُ النَّاسِ للسيِّد ، وطاعةُ الديَّانِ طاعةُ محبّة ودينونة ، والقلوبُ أَطوع لهما من الأَبدان ، إلَّا أَنْ يكون السلطان مَرضيًّا ، فإنْ كان كذلك فهو أعظم خطراً من السيِّد ، وأَوجَهُ عند الله من ذلك الدَّيَّان .

وربَّما ساد الأُتاوىُّ لأَنَّه عربىٌّ[٢] على حال . والمُفْرَج لا يَسودُ أَبداً لأَنَّه عجمىٌّ لا حِلْفَ له ، ولا عَقْدُ جوارٍ ، ولا وَلاءٌ معروف ، ولا نسبٌ ثابت . وليس التَّسويد إلَّا فى العرب ، والعجم لا تُطيع إلَّا للملوك .

والذى أَحوجَ العربَ فى الجاهليَّة إلى تسويد الرِّجال وطاعة الأَكابر ، بُعْدُ دُورِهم من الملوك والحُكَّام[٣] والقُضاة ، وأَصحاب الأَرباع[٤] ، والمَسَالح والعُمَّال . فكان السيِّدُ ، فى منْعِهم من غيرهم ومَنعِ غيرهم منهم ، ووثوبِ بعضِهم على بعض ، فى كثير من معانى السُّلطان .

---

(١) الأتاوى : الغريب الذى هو فى غير وطنه . وهو بتثليث الهمزة ، كما فى القاموس.

(٢) فى جميع الأصول : « عزى » ، ووجهه ما أثبت .

(٣) ب : « والأحكام » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) هم الرؤساء فى الجاهلية ، كانوا إذا غزوا وغنموا أخذ الرئيس ربع الغنيمة ، فيقال عند ذلك : قد ربعهم ، وما يأخذه هو المرباع . قال عبد الله بن عنمة الضبى (**الأصمعيات** ٣٧) :

لك المرباع منهـــــا والصفايا وحـــكمك والنشيطة والفضـــول

٢١

من رسالة في

المودة والخلطة، إلى أبي الفرج

١ ـ فصـــل

من رسالته إلى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلطة[١]

أطال الله بقاءَك ، وأعزَّكَ وأكرَمَك ، وأتَمَّ نعمته عليك .

زعم ـ أبقاك الله ـ كثيرٌ ممَّن يَقرِض الشِّعر ويَروِى مَعانِيَه ، ويتكلَّف الأدب ويَجْتبيه[٢] ، أنَّه قد يُمدَح المرجُوُّ المأْمول ، والمغشىُّ المَزُور[٣] ، بأَن يكون مخدوعاً ، وعَمِيَ الطَّرف مُغَفَّلا[٤] ، وسليمَ الصَّدر للراغبين ، وحَسَنَ الظَّنِّ بالطالبين[٥] ، قليلَ الفِطنة لأَبواب الاعتذار ، عاجزاً عن التخلُّص إلى معانى الاعتلالِ[٦] ، قليل الحِذْق بردِّ الشُّفعاءِ ،

---

(١) هذه الرسالة غير رسالته إليه التى كتب بها إليه يذكر فيها من كانت كنيته « أبا عثمان » مطابقة لكنية الجاحظ . وسبق نشرها فى الجزء الأول من الرسائل ٣٢١ – ٣٣٢ . وأبو الفرج هذا هو محمد بن نجاح بن سلمة ، كما فى جمع الجواهر للحصرى ١٢١ . وأبوه نجاح بن سلمة كان على ديوان التوقيع فى خلافة المتوكل ، وقتله سنة ٢٤٥ ووجه إلى ابنيه : أبي الفرج هذا وأبي محمد ، فأخذ أبو الفرج ، وهرب أبو محمد ، كما ذكر الطبرى فى حوادث تلك السنة .

وقد نشرها السندوبى فى رسائل الجاحظ ٣٠٣ – ٣١٠ كما سبق نشرها فى هامش الكامل . والمقابلة هنا على النسخ الثلاثة ب ، م ، ط .

(٢) يجتبيه : يختاره ويصطفيه . ب، م : « ويكلف الأدب » ، صوابه فى ط .

(٣) ط : « المرجو المأمون والمفتى المزور » ، صوابه فى ب ، م .

(٤) العمى ، على وزن حذر وفرح : الأعمى . يقال رجل عم وامرأة عمية . وفى قول زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ... ولكننى عن علم ما فى غـــــد عم

(٥) ب ، م : « بالظالمين » ، صوابه ما أثبت .

(٦) الاعتلال : بيان العلة . وفى الأصول : « الاعتدال » ولا وجه له .

شديدَ الخوف من مَيَاسم الشُّعراء[١] ، حَصِراً[٢] عند الاحتجاج للمنع . سلسَ القِياد إذا نبَّهته للبَذْل[٣] ، واحْتجُّوا بقول الشاعر :

إيتِ الخليفةَ فاخدَعْهُ بمسألةٍ ... إنَّ الخليفةَ للسُّؤَّال ينخدعُ

فانتحالُ المأمول للغَفْلة التى تَعترِى الكرام ، وانخِداع[٤] الجوادِ لخُدَع الطالبين ومَخَاريق المُستمِيحين[٥] ، بابٌ من التكرُّم ، ومن استدعاءِ الرَّاغب ، والتعرُّضِ للمجتدِى ، والتلطُّفِ لاستخراج الأَموال ، والاحتيال لحلِّ عُقَد الأَشحَّاء ، وتهييج طبائع الكرام .

وأنا أَزعُمُ - أَبقاكَ اللهُ - أَنَّ إقرار المسئول بما يَنْحَلُ من ذلك نوك[٦] ، وإضمارَه لُؤم ، حَتَّى تصحَّ القسمة[٧] ، ويعتدل الوَزْن .

وأَنا أَعوذُ بالله من تذكيرٍ يُناسب[٨] الاقتضاء ، ومن اقتضاءٍ

---

(١) فى جميع الأصول : « مباسم » ، صوابه ما أثبت . والمياسم : جمع ميسم . وهو المكواة أو الأداة التى توسم بها الدواب ، ويقال فى جمعها أيضاً مواسم . والمراد بالمياسم هنا آثار الهجاء اللاذع . قال المتلمس :

ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى ... جعلت لهم فوق العرانين ميسما

يقول : أهجوهم هجاء يلزمهم لزوم الميسم فى الأنف .

(٢) الحصر : ضرب من العى فى المنطق . حصر حصراً مثل تعب تعباً . ب : « حضرا » م : « حضوا » ط : « حصور » ، صوابه ما أثبت .

(٣) ب ، ط : « إذا انبهته نبهته للبذل » بالتكرار . صوابه فى م .

(٤) ب ، م : « والخداع » ط : « وخداع » ، صوابهما ما أثبت .

(٥) المراد بالمخاريق هنا الادعاءات الكاذبة . وقال التبريزى فى شرح المعلقات : « قيل المخاريق ما مثل بالشىء وليس به ، نحو ما يلعب به الصبيان » . وانظر حواشى الحيوان ٤ : ٣٧٨ .

(٦) النوك ، بضم النون وفتحها : الحمق . والنحلة ، بالكسر : العطية . ط : « ينجل » ، تحريف .

(٧) ط : « القيمة » .

(٨) ب ، م : « تذكر تناسب » ط : « تذكر يناسب » ، ووجههما ما أثبت .

يُضارع الإلحاح . ومن حِرْصٍ يعود إلى الحِرْمان . ومن رسالةٍ ظاهرها زُهد، وباطنُها رغبة . فإنَّ أسقطَ الكلامِ وأوغَدَه[١] ، وأبعَدَه من السَّعادة وأنكَدَه ، ما أظهرَ النَّزاهةَ وأضمَرَ الحِرص ، وتحلَّى للعُيون بَعينِ القَناعة ، واستشعَرَ[٢] ذلَّة الافتقار .

وأشنَعُ من ذلك ، وأقبح منه وأفحش ، أن يظُنُّ صاحبه أنَّ معناه خفيٌّ وهو ظاهر ، وتأويلَه بعيدُ الغَوْر وهو قريب القعر[٣] .

فنسأَل الله تعالى السَّلامةَ فإنَّها أصلُ النِّعمة عليكم ، ونحمده على اتِّصال نعمتنا بنعمتكم ، وما أَلهمنا اللهُ من وَصف محاسنكم .

والحمدُ لله الذى جعَلَ الحمد مُستفتَحَ كتابِه ، وآخرَ دعوى أهل جَنَّته .

ولو أنَّ رجلاً اجتهد فى عبادة ربِّه ، واستفرغَ مَجْهودَه فى طاعةِ سيِّده ، ليهَبَ له الإخلاص فى الدُّعاء لمن أنعَمَ عليه ، وأحسنَ إليه ، لكان حريًّا بذلك أن يُدرِكَ أقصى غايةِ الكَرَمِ فى العاجل ، وأرفَعَ درجاتِ الكرامة فى الآجِل .

وعلى أنِّى لا أعرِف معنًى أجمَعَ لخصال الشُّكر ، ولا أدَلَّ على جِمَاع الفَضْل ، من سَخَاوة النَّفْس بأداءِ الواجب[٤] .

---

(١) أوغده ، من الوغادة ، وهى الذلة والضعف واللؤم . ب ، م : « أوعده » ، صوابه فى ط .

(٢) فى جميع الأصول : « واستبشع » ، والوجه ما أثبت . والشعار : ماولى جسد المرء من الثياب .

(٣) ب ، م : « الفقر » ، صوابه فى ط .

(٤) السخاوة : السخاء ، ومثلهما السخو والسخوة بضمتين فيهما مع تشديد الواو ، وكذلك السخا بالقصر .

ونحن وإن لم نكن أعطينا الإخلاص[١] جميعَ حقِّه ، فإنّ المرءَ مع من أَحَبَّ ، وله ما احتسَبَ .

ولا أعلم شيئاً أَزْيَدَ فى السَّيِّئة من استصغارها ، ولا أَحبَطَ للحسنة من العُجْب بها[٢] .

ومما يستديم الخطأَ لُبْثُ التَّقصير[٣] وإهمالُ النَّفْس ، وتركُ التوقُّف ، وقلَّةُ المحاسَبة ، وبُعْدُ العَهد بالتثبُّت . ومَهْمَا رجعنا إليه من ضَعفٍ فى عَزْم ، وهان علينا ما نَفْقِد من مناقل الحِلْم[٤] ، فإنّا لا نجمع بين التَّقصير والإنكار[٥] .

ونعوذُ بالله أن نقصِّر فى ثناءٍ على مُحسنٍ ، أو دعاءٍ لمُنْعِم . ولئن اعتذَرْنا لأَنفسنا بصدق المَوَدَّة[٦] — وبجميل الذِّكر ، فلَمَا يُعَدُّ لكم[٧] ، مِنْ تحقُّق الآمال ، والنُّهوضِ بالأَثقالِ أكثر .

على أَنَّكم لم تُحمِّلونا إلاَّ الخِفَّ ، وقد حمَّلناكم الثِّقْل . ولم تسأَلونا الجزاءَ على إحسانكم ، وقد سأَلناكم الجزاءَ على ما سأَلناكم . ولم تكلِّفونا مايَجِبُ لكم ، وكلَّفناكم مالا يجب .

ومن إفراطِ الجَهْل أن نتذكَّرَ حقَّنا فى حُسْنِ الظَّنِّ ، ولا نتذكَّر

---

(١) فى الأصول : « الخلا ص » ، والوجه ما أثبت .
(٢) ب ، م : « لحسنة » وأثبت مافى ط . وفى ب : « من العجب لها » ، تحريف .
(٣) لبث ، ساقطة من ط . و فى ب : « ومما يستميد » ، صوابه فى م ، ط .
(٤) المناقل : المراحل ، والطرق المختصرة .
(٥) ب فقط : « والاتكال » .
(٦) ب فقط : « لنفسنا » ، وفى ب ، م : « بمودة الصدق » .
(٧) ط : « فما يعد لكم » .

حقَّكم في تصديق ذلك الظَّنّ[(١)] وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماعَظُمَتْ نعمةُ الله على أحدٍ إلَّا عظُمَتْ عليه مُؤْنة النَّاس[(٢)] » .

وأنا أسأل الله الذى ألزمَكُم المُؤَن الثِّقال، ووصل بكم آمالَ الرِّجال. وامتحنكُمْ بالصَّبر على تجرُّع المُرار ، وكلَّفكم مُفارقةَ المحبوب من الأموال، أن يُسَهِّلها عليكم ، ويُحَبِّبها إليكم، حتَّى يكون شَغفُكم بالإحسان الداعىَ إليه ، وصَبابتكم بالمعروف الحاملَ عليه ، وحتَّى يكون حبُّ التفضُّل ، والمحبَّةُ لاعتقاد المِنَن الغايةَ التى تستدعى المدبِّر ، والنهايَةَ التى تَعذِرُ المقصِّر ، وحتى تُكرِهوا على الخير من أخطأ حظَّه[(٣)] ، وتفتحوا بابَ الطَّلبِ لمن قصَّر به العَجْز .

ثم اعلمْ - أصلَحكَ الله - أنَّ الذى وُجِدَ فى العبرة ، وجرت عليه التَّجربة ، واتَّسَق به النظم ، وقام عليه وَزْنُ الحكم ، واطَّرد منه النَّسَق ، وأثبته الفَحْص[(٤)] ، وشَهِدت له العقول . أنَّ من أوَّلِ أسباب الخُلطة ، والدَّواعِى إلى المحبَّة ، ما يُوجَدُ[(٥)] على بَعْضِ النَّاس من القَبُول عند أوَّلِ وَهْلة ، وقِلَّة انقباض النُّفوس مع أوَّل لَحْظة[(٦)] ، ثم اتِّفاقَ الأسبابِ التى تقع بالموافَقَة عند أوَّل المجالسة ، وتلاقِىَ النُّفوس بالمشاكلة عند أوَّل الخُلطة .

والأدب أدبان : أدبُ خُلُقٍ ، وأدبُ رِواية ، ولا تَكمُل أُمورُ صاحب

---

(١) ط : « أن نتذكر حقنا فى تصديق ذلك الظن » ، وأثبت السقط من ب ، م .
(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج عن عائشة ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن معاذ . الجامع الصغير ٧٩٤٢ . وتمامه : « فمن لم يحتمل تلك المؤنة للناس فقد عرض تلك النعمة للزوال » .
(٣) ب فقط : « خطه » ، تحريف .
(٤) ب ، م : « وثبته الفحص » .
(٥) ط : « مايوجه » ، صوابه فى ب ، م . وفى م بعده : « على بغض » ، تحريف .
(٦) ط : « الخلطة » .

الأَدبِ إلاَّ بهما ، ولا يجتمع له أَسبابُ التَّمام إلَّا من أَجلِهما ، ولا يُعَدُّ فى الرُّؤساءِ ، ولا يُثنى به الخِنْصَر فى الأُدباءِ ، حتَّى يكون عَقْلُه المتأَمِّرَ عليهما ، والسائسَ لَهُما[١] .

٢ – فصــل منه

فإن تمَّت بعد ذلك أَسبابُ الملاقاةِ تمت المصافاة ، وحَنَّ الإِلف إلى سَكَنه[٢] . والشَّأْنُ قبل ذلك لِما يَسْبِقُ إلى القلب[٣] ، ويخفُّ على النَّفْس ، ولذلك احترس الحازم المستعْدَى عليه[٤] من السَّابق إلى قلب الحاكم عليه .

وكذلك[٥] التمسُوا الرِّفق والتَّوفيق ، والإِيجازَ وحسن الاختصار ، وانخفاضَ الصَّوت ، وأَن يُخرِج الظَّالمُ كلامَه مُخرَجَ لفظِ المظلوم .

نَعَمْ ، وحَتَّى يتركَ اللَّحْنَ بحجَّته بَعْدُ[٦] ، ويخلِّفَ الدَّاهيةُ كثيراً من أَدبه ، ويَغُضَّ من محاسن مَنطقهِ . التماساً لمواساة خَصْمه فى ضعف الحِيلة ، والتشبُّه به فى قلَّة الفطنة .

نَعَمْ ، وحتَّى يكتبَ كتابَ سِعايةٍ ومَحْلٍ وإغراقٍ وتحدٍّ[٧] ، فيلحن فى إعرابه . ويتسخَّفُ فى أَلفاظه[٨] ، ويتجنَّبَ القصد ، ويهربَ من

(١) الواو ساقطة من ب . وفى ط : « والسائس له » تحريف .
(٢) ط : « وحسن » تحريف . وفى ب ، م : « وحن الأليف » .
(٣) فى الأصول : « مما يسبق القلب » ، ووجهه ما أثبت .
(٤) ب : « الجازم المستدعى عليه » ، صوابه فى م ، ط .
(٥) ط : « ولذلك » .
(٦) سقطت كلمة « نعم » والواو بعدها من ط .
(٧) الكلمة ساقطة من ط . وهى فى ب : « سحد » وفى م : « سحد » بدون واو قبلها ، ولعل الوجه ما أثبت .
(٨) ب فقط : « ويستخف فى ألفاظه » .

اللَّفظ المُعْجبِ ليُخفِيَ مكانَ حِذْقِه[١] ، ويَسْتُرَ موضعَ رِفْقه ، حتَّى لا يحترسَ منه الخَصْم ، ولا يتحفَّظ منه صاحبُ الحكم ، بعد أن لا يَضُرَّ بعَين معناه ، ولا يقصِّر فى الإفصاح عن تفسير مغزاه[٢] ، وهذا هو الموضع الذى يكون العَيِىّ[٣] فيه أبْيَنَ ، وذو الغَبَاوة أفطنَ ، والردِىّ أجوَد ، والأنْوَكُ أحزَم ، والمضيِّعُ أحكم ؛ إذْ كان غرضهُ الذى إيَّاه يرمى ، وغايتُه التى إليها يُجرِى ، الانتفاعَ بالمعنى المتخَيَّر[٤] دون المباهاةِ باللَّفظ ، وإنَّما كانَ غايتُه إيصالَ المعنى إلى القلب دون تَصيب السَّمعِ من اللَّفظِ المُونِق، والمعنى المتخيَّر ؛ بل ربَّما لم يَرْضَ باللَّفظِ السَّليمِ حتَّى يُسْقِمه ليقع العجزُ موقع القُوَّة ، ويُعرَضَ العِيُّ[٥] فى محلِّ البلاغة . إذا كان حقُّ ذلك المكان اللَّفْظَ الدُّون[٦] ، والمعنى الغُفْل .

هذا إذا كان صاحبُ القِصَّةِ ومؤلِّفُ لَفْظِ المَحْل والسِّعاية ، ممَّن يتصرَّفُ قلمُه ، ويعلِّل لسانُه ، ويلتزق[٧] فى مذاهبه ، ويكون فى سَعَة وحِلٍّ لأَن يَحُطَّ نفسه[٨] إلى طبقَةِ الذُّلِّ وهو عزيز ، ومَحلِّ العِيِّ وهو بليغ ، ويتحوَّلَ فى هيئة المظلوم وهو ظالم ، ويمكنَه تصويرُ الباطل فى صورة الحَقِّ ، وسَتْرَ العُيوبِ بزُخْرُف القَول ؛ وإذا شاءَ طفا ، وإذا شاءَ رَسَب ، وإذا شاءَ أخرجَه غُفْلاً صحيحاً[٩] .

---

(١) ط : « حدته » ، تحريف .

(٢) المغزى : القصد . وفى ب ، م : « مغواه » ، تحريف .

(٣) العى : العيى ، والعيى أكثر استعمالا ، وهو العاجز عن البيان . ب ، م : « الفىء » صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « المتحير » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « الحى » ، صوابه فى ط .

(٦) ط : « المدون » .

(٧) لعلها « ويتصرف » .

(٨) فى جميع الأصول : « ويكون فى وسعه وصل » ، والوجه ما أثبت ، وفى ب فقط « يحيط نفسه » ، تحريف .

(٩) غفلا ، أى مجرداً من الزخرف . وفى جميع الأصول : « عقلا » ، ولا وجه له .

وما أَكثَرَ من لا يُحسِن إلاَّ الجيِّد[(١)] ، فإنْ طلبَ الرديَّ جاوَزَه[(٢)] .
كما أنَّه ماأَكثَرَ من لا يستطيع إلا الرديَّ ، فإن طلب الجيِّدَ قَصَّرَ عَنه.

وليس كلُّ بليغ يكون بذلك الطِّباع[(٣)] ، ومُيسَّرَ الأَداةِ ، وموسَّعاً عليه فى تَصريف اللِّسان ، وممنوناً عليه[(٤)] فى تحويل القلم .

وما أَكثَرَ من البصراءِ مَنْ يحكى العُمْيان[(٥)] ، ويُحَوِّل لسانَه إلى صورة لفظِ الفأْفاءِ بما لا يبلغُه الفأْفاءُ ولا يُحْسِنُه التَّمتام . وقد نجد من هو أَبسط لساناً وأَبلغُ قلماً ، لا يستطيع مجاوزَةَ ما يشركه ، والخروجَ مما قَصَّر عنه .

٣ – فصل منها

ولولا الحدودُ المحصَّلة والأَقسام المعدَّلة[(٦)] ، لكانت الأُمور سُدًى ، والتَّدابيرُ مُهمَلة ، ولكانت عَوْرة الحكيم بادية ، ولاختلطت السافلة بالعالية .

٤ – فصل منها

وأَنا أَقول بعد هذا كلِّه : لو لم أُضمرْ لكم محبّةً قديمة ، ولم أَضْرَ بِكم[(٧)] بشفيعٍ من المشاكلة . ولا سببِ الأَديبِ إلى الأَديب[(٨)] ، ولم

(١) ب فقط : « إلى الجيد » .
(٢) ب ، م : « حاوره » .
(٣) الطباع : الطبع ، كما أنه أيضاً جمع طبع . ط : « بتلك الطباع » .
(٤) أى منعماً عليه . وفى الكتاب العزيز : « ولقد مننا عليك مرة أخرى » . طه ٣٧ .
(٥) ب : « وما أكثر من بصر » م : « من البصر » ، صوابهما فى ط . والبصراء : جمع بصير .
(٦) ط فقط : « المعتدلة » .
(٧) ضرى به ضرا وضراوة : لهج ، واعتاده فلا يكاد يصبر عنه .
(٨) ب : « ولا سبب الأديب » فقط .

يكن على قبول . ولا علىَّ حلاوةٌ عند المحصول . ولم أكنْ إلَّا رجلًا من عُرْضِ المعارف، ومن جُمهور الأَتْباع – لَكانَ فى إحسانكم إلينا ، وإنعامكم علينا ، دليلٌ على أنا قد أخلصْنا المحبَّة . وأصفينا لكم المودَّة .

وإذا عرفتم . ذلك بالدليل النَّيِّر الذى أنتم سبَبُه ، والبُرهانِ الواضحِ الذى إليكم مرجعُه ، لم يكن لنا عند الناس إلَّا توقُّعُ ثمرةِ الحُبّ ، ونتيجةُ جميلِ الرَّأْى ، وانتظارُ ما عليه مُجازاةُ القلوب .

وبقدر الإنعام تَجُود النُّفوسُ بالمودَّة ، وبقدر المودَّة تنطلق الأَلسُنُ بالمِدْحة .

وهذهِ الوسيلة أكثرُ الوسائلِ[١] وأقواها فى نفسى : أنِّى لم أَصِلْ سببى بمُحَرَّمٍ غُمْرٍ[٢] ولا بمبخَّلٍ[٣] غُفْلٍ[٣] ، ولا بضيِّق العَطَنِ حديثِ الغِنَى ، ولا بزَمِرِ المُروَّة مُستنبَطِ الثَّرى[٤] ؛ بل وصلتُه بحمَّالِ أثقالٍ[٥] ومُقارِعِ أبطال، وبمَنْ وُلِد فى اليُسْرِ ورَبِىَ فيه، وجَرَى[٦] منه على عِرْقٍ ونزَع إليه .

٥ – فصـــل منها

ولا خيرَ فى سمينٍ لا يحتمل هُزَالَ أخيه ، وصحيحٍ لا يَجبُر كَسْرَ صاحِبه .

---

(١) ب ، م : « وسائل » .

(٢) المحرم : البدوى الذى لم يخالط الحضر . وبعير محرم : صعب . ب : « سببى بمجرم » صوابه فى م ، ط . وفى ط « وغمر » .

(٣) ط : « بمنحل » .

(٤) الثرى : الخير . أى ينال خيره بعد جهد واستخراج .

(٥) م : « لحال أثقال » ط : « وصلته وصلة لحال أثقال » ، والوجه ما أثبت من ب .

(٦) ب ، م : « ويجرى منه » وأثبت ما فى ط .

٦ ــ فصل منها

وقد تنقسم المودَّة إلى ثلاثِ[1] منازل :

منها : مايكون على اهتزاز الأَريحيَّة وطبْعِ الحُرِّيَّة .

ومنها : مايكون على قَدر فرط وسائل الفاقة[2]

ومنها : ما يحسُنُ موقعُه[3] على قَدْر طباع الحِرص وجَشَع النَّفس.

فأَرفعها منازلَ حبٌّ المشغوف شكرَ النِّعمة . وهو الذى يدوم شكره، ويبقى على الأَيام وُدُّه. والثانى هو الذى إنَّما اشتدَّ حبُّه على قدرِ مَوضعِ المال من قَلْب الحريص الجشع ، واللَّئيم الطَّمِع . فهذا الذى لا يَشكر، وإنْ شَكَر لم يشكرْ إلَّا ليستزيد، ولم يَمدَحْ إلَّا ليستمدّ . وعلى أنَّه لا يأْتى الحمدَ إلَّا زَحْفًا ، ولا يفعلهُ إلَّا تكلُّفا .

وأَنا أَسأَل الله الذى قسم له[4] أَفضلَ الحظوظ فى الإنعام ، أَن يَقْسِمَ لنا أَفضلَ الحظُوظِ فى الشُّكر . وما غايةُ قولِنا هذا ومَدارُ أَمرنا إلَّا على طاعةٍ تُوجِب الدُّعاء ، وحُرِّيَّةٍ تُوجِب الثَّناء . شاكرين كُنَّا أَو مُنعِمِين ، وراجين كنَّا أَو مرجُوِّين .

ومَن صرفَ[5] الله حاجَته إلى الكرام ، وعَدَلَ به عن اللِّئام فلا يَعُدَّنَّ نفسه فى الرَّاغبين ولا فى الطَّالبينَ المؤمِّلين ، لأَنَّ من لم يَجْرَع مَرارة المِطال ، ولم يمدَّ للرَّحيل التَّسويف ، ويَقْطَعْ عنقَه بطول الانتظار .

---

(١) ب ، م : « على ثلاثة » .
(٢) ب : « وشل » م : « وسل » ، صوابهما فى ط .
(٣) ب : « يحصل موقعه » .
(٤) له ، ساقطة من ب .
(٥) ب : « تصرف » صوابه فى م ، ط .

ويَحْمِلْ مكروهَ ذُلِّ السؤال . ويُحمَل على طمعٍ يحثُّه يأْس ، كان خارجاً من حدود المؤمِّلين .

ومَن استولى على طمَعه الثِّقةُ بالإنْجاز[1] ، وعلى طَلِبَتِهِ اليقينُ بسُرعة الظَّفَر ، وعلى ظَفَره الجزيلُ من الإفضال ، وعلى إفضاله العلمُ بقلَّة التثريب[2] ، وبالسَّلامة من التَّنْغيص[3] بالتماس الشكر ، وبالبكور وبالرَّواح[4] وبالخُضوع إذا دخَلَ ، والاستكانةِ إذا جلس . ثم مع ذلك لم يكن ما أُنعِمَ به عليه ثواباً لسالفِ يدٍ ، ولا تعويضاً من كدٍّ ، كانت النعمةُ[5] محضةً خالصة ، ومهذَّبَة صافية ، وهى نعمتكم التى ابتدأتمونا بها .

ولا تكون النِّعمة سابغةً ولا الأَيدى شاملةً[6] ، ولا السِّتر كثيفاً ذَيَّالًا ، وكثير العَرْض مُطْبِقاً ، ودون الفَقر حاجزاً ، وعلى الغِنى مُلتحِفاً ، حتَّى يخرُجَ من عندِكم ، ثمَّ يُحتَسَبَ[7] إلى شاكرٍ حُرّ .

٧ – فصل منها

وأنتم قومٌ تقدَّمتم بابتناءِ المكارم فى حالِ المُهْلة ، وأخذتم لأَنفسكم فيها بالثِّقة على مقاديرِ ما مكَّنتم الأَواخِيّ[8] . ومددتُم الأَطناب ، وثبَّتُّم القواعد . ولذلك قال الأَوَّل[9] :

(١) فى جميع الأصول : « بالإيجاز » ، صوابه ما أثبت .
(٢) التثريب : اللوم والتعيير بالذنب .
(٣) م، ط : « التنقيص » صوابه فى ب .
(٤) ط : « وبالغدو والرواح » .
(٥) فى جميع الأصول : « النعمة كانت » ، والوجه ما أثبت .
(٦) ب ، م : « ولا أيدى » ، صوابه فى ط .
(٧) ب ، م : « محتسب » .
(٨) الآخية والآخية بتشديد الياء وتخفيفها ، والأخية كفرحة أيضاً : طنب البيت .
(٩) هو أنس بن مدركة الخثعمى ، كما فى الحيوان ١ : ٨١ . وانظر سيبويه ١ : ١١٦ والمقتضب ٤ : ٤٣٥ والخزانة ١ : ٤٧٦ / ٢ : ٥٤٥ والهمع ١ : ١٩٧ .

عزَمْتُ على إقامة ذى صباحٍ لأمرٍ ما يُسوَّدُ من يَسُودُ

وأبو الفرج – أعزَّه الله – فتى العَسكَرَين[١] ، وأديبُ المِصرين[٢] جمعَ أَريحيَّةَ الشَّباب ، ونَجابةَ الكُهول ، ومحبَّةَ السَّادة ، وبَهاءَ القادة وأخلاقَ الأُدباءِ ، ورَشاقةَ عُقولِ الكُتَّاب ، والتَّغلغُلَ إلى دقائقِ الصَّواب ، والحلاوةَ فى الصُّدور ، والمهابةَ فى العُيون ، والتقدُّمَ فى الصِّناعة ، والسَّبْقَ عند المحاورة[٣] ، شقيقُ أبيه وشِبْه جَدِّه ، حَذْوَ النَّعلِ بالنَّعل ، والقُذَّة بالقُذَّة . لم يتأخَّر عنهما إلَّا فيما لا يجوز أن يتقدَّمهما فيه ، ولم يقصِّر عن شأوِهما إلَّا بقدرِ ماقصَّرا عن سِنْخِهما[٤] ، وهم وإنْ قصَّروا عن مدَى آبائهم ، وعن غايات أوائِلهم ، فلم يقصِّروا عن جِلَّة الرُّؤساء ، وأهلِ السَّوابقِ من الكُبَراء ، ولستَ ترى تاليَهُم إلَّا سابقاً ، ومُصَلِّيَهم إلَّا للغاية مُجاوِزًا . ليس فيهم سِكِّيتٌ ولا مبهورٌ ولا منقطِع ، قد نُقِّحتْ أعراقُهم[٥] من الإقراف والهُجْنة ، ومن الشَّوب ولؤم العُجْمة[٦] .

ومتى عاينتَ أبا الفرجِ وكمالَه ، ورأيتَ ديباجتَه وجمالَه ، علمت أنَّه لم يكن فى ضرائِبهم وقديمِ نَجْلهم[٧] ، خارجىُّ النَّسب ، ولا مجهولُ

---

(١) الذى فى جنى الجنتين ٧٨ أن العسكرين عرفة ومنى . ولكن يبدو أن الجاحظ أراد بهما عسكر أبى جعفر ، وهى مدينته التى بناها ببغداد وهى باب البصرة فى الجانب الغربى . والآخر عسكر ولده المهدى ، وهى المعروفة بالرصافة فى الجانب الشرقى من بغداد .

(٢) المصران : الكوفة والبصرة ، كما فى جنى الجنتين ١٠٦ واللسان (مصر ٢٤) .

(٣) م فقط : « المجاورة » بالجيم .

(٤) السنخ ، بالكسر : الأصل . ط : « من سنحهما » تحريف . وهو يعنى أنهم عريقون فى الكرم وأصالته .

(٥) التنقيح : التهذيب والتخليص . ب فقط : « نفحت » . تحريف .

(٦) فى جميع الأصول : « العجلة » ، والوجه ما أثبت .

(٧) النجل : النسل . م : « بخلهم » ط : « نخلهم » ، صوابها ما أثبت .

المركَّب(١) ، ولا بهيمٌ مُصْمَتٌ(٢) ، ولا كثيرُ الأوضاح مُغْرَبٌ(٣) ، بل لا ترى إلَّا كلَّ أغرَّ محجَّل(٤) ، وكل ضَخْم المحزِم(٥) هيكل(٦) .

إنِّى لستُ أخبِر عن الموتَى ولا أستشهد الغيب(٧) ، ولا أستدِلُّ بالمختلَفِ فيه ولا الغامض الذى تعظم(٨) المُؤْنةُ فى تعرُّفه ، والشَّاهد لقولى يَلُوح فى وجُوههم ، والبُرهان على دعوايَ ظاهرٌ فى شمائلهم(٩) ؛ والأخبار مستفيضة ، والشُّهودُ متعاونة .

وأنتَ حين تَرى عِتْقَ تلك الدِّيباجة ، ورَوْنقَ ذلك المنظر ، علمتَ أنَّ التالد هو قِيَادُ(١٠) هذا الطَّارف .

أمَّا أنا فلم أر لأبى الفرج ـ أدامَ الله كرامَته ـ ذَامًّا ولا شانئاً(١١) ولا عائباً ولا هاجياً ، بل لم أجد مادحاً قطُّ إلَّا ومَن سَمِعَ تسابَقَ(١٢) إلى

---

(١) انظر ما سبق فى ص ١٨٣ .

(٢) البهيم المصمت : الخالص السواد الذى لا شية فيه . ب فقط : « مسمط » ، تحريف .

(٣) المغرب ، بفتح الراء ، من الإغراب فى الخيل ؛ وهو اتساع الغرة حتى تجاوز العينين ، مع ابيضاض فى الأشفار .

(٤) الأغر من الخيل : الذى غرته أكبر من الدرهم قد وسطت جبهته ولم تصب واحدة من العينين . والمحجل : الذى يرتفع البياض فى قوائمه فى موضع القيد ويجاوز الأرساغ ولا يجاوز الركبتين . ب : « كل غر » ، صوابه فى م ، ط .

(٥) المحزم : موضع الحزام من الفرس ، ويوصف بالضخامة ، ومنه قول عنترة فى معلقته :

وحشيّتى سرج علـى عبل الشوى   نهـد مراكله نبيل المحـزم

وأنشد ثعلب فى صفة رجل :

فقـام وثاب نبيل محزمـه   لم يلق بوسا لحمـه ولادمـه

وفى جميع الأصول : « المخرج » ، صوابه ما أثبت .

(٦) الهيكل : الفرس الطويل الضخم .

(٧) تقرأ « الغيب » بفتحتين : اسم جميع للغائب ، وبضم الغين وتشديد الياء المفتوحة جمعاً له أيضاً . ط : « بالغيب » .

(٨) ب ، م : « يعظم » .   (٩) ظاهر ، ساقطة من ط .

(١٠) ب : « أفياد » م : « أقياد » ، صوابهما فى ط .

(١١) الشانئ : المبغض . ب : « شاينا » وأثبت مافى م ، ط .

(١٢) ط فقط : « سابق » .

تلك المعانى ، ولا رأيتُ واصفاً له قطُّ إلّا وكلُّ من حضر يَهَشُّ له ويرتاحُ لقوله . قال الطِّرِمَّاح :

هل المجدُ إلَّا السُّودُدُ العَوْدُ والنَّدى
ورَأْبُ الثَّأْى والصَّبْرُ عند المَواطِنِ[١]

ولكنَّ هل المجدُ إلَّا كَرَمُ الأَرومةِ والحَسَب[٢] ، وبُعْد الهمَّة ، وكثرة الأَدَب ، والثَّباتُ على العهد إذا زلَّت الأَقدام ، وتوكيد العَقْد إذا انحلَّت مَعَاقِدُ الكرام ، وإلاَّ التَّواضُع عند حدوث النِّعمة ، واحتمالُ كُلِّ العَثْرة[٣] ، والنَّفاذ فى الكتابة ، والإشراف على الصِّناعة .

والكتابُ هو[٤] القطب الذى عليه مدارُ علمِ ما فى العالَم وآدابِ الملوك ، وتلخيص الأَلفاظ ، والغَوْصِ على المعانى السِّداد[٥] ، والتخلُّصِ إلى إظهار مافى الضَّمائِر بأَسهل القول ، والتمييزِ بين الحجَّة والشُّبهة وبين المُفرَد والمشتَرَك ، وبين المقصور والمبسوط ، وبين ما يحتمل التأْويل ممَّا لا يحتمله ، وبين السَّليم والمعتلّ .

فبارك الله لهم فيما أعطاهم ، ورَزَقهم الشُّكرَ على ماخوَّلهم ، وجعل ذلك موصولاً بالسَّلامة ، وبما خطَّ لهم من السَّعادة ، إنَّه سميعٌ قريب ، فعّالٌ لما يريد .

---

(١) ب ، م : « والصد عند المواطن » تحريف ، كما ورد البيت محرفاً فى ط على هذه الصورة :

هل المجد إلا السودد المعود الندى ورب الجـدى والصدر عند الواطن

وصواب عجزه ما أثبت من الديوان ٥١٦ . والرأب : الإصلاح . والثأى : الفساد والأمر العظيم يقع بين القوم . والمواطن هى مواطن الحرب ومواقفها .

(٢) الأرومة بفتح الهمزة وضمها : الأصل .

(٣) فى جميع الأصول : « وهى » ، والوجه ما أثبت .

(٤) السداد : جمع سديد ، كظريف وظراف وشديد وشداد . ط : « السديدة » .

٢٢

من كتابه في

استحقاق الامامة

١ – فصــــل

من صدر كتابه فى استحقاق الإمامة(١)

بعون الله تعالى نقول ، وإليه نقصد . وإيَّاه ندعو ، وعلى الله قَصْدُ السَّبيل .

اعلم أنَّ الشِّيعة رجلان : زيدىٌّ ، ورافضى ، وبقيتهم نَزْرٌ(٢) جاءَ لازماً لهم . وفى الإخبار عنهما غنًى عمن سواهما .

قالت علماءُ الزَّيدية : وجدنا الفَضْل فى الفِعلِ دونَ غيره ، ووجدنا الفِعل كلَّه على أَربعة أَقسام :

أَوَّلها القِدَم فى الإسلام ، حيثُ لا رغبةَ ولا رهبةَ إلَّا من الله تعالى وإليه .

ثم الزُّهدُ فى الدُّنيا ، فإنَّ أَزهدَ الناس فى الدُّنيا أَرغبُهم فى الآخرة وآمنُهم على نَفيس المال، وعقائل النِّساءِ، وإراقة الدِّماءِ .

ثم الفقهُ الذى به يَعرِف النَّاسُ مصالح دُنْياهم ، ومَراشدَ دينِهم .

ثم المَشْىُ بالسَّيف كِفاحاً بالذَّبِّ عن الإسلام . وتأْسيس الدين ، وقتلِ عَدُوِّه ، وإحياءِ وليِّه . فليس وراءَ بذْلِ المُهْجة واستفراغ القُوَّة غايةٌ يطلبها طالب ، ويَرتجيها راغب .

---

(١) ريشر ١٦٨ – ١٧٩ والسندوبى ٢٤١ – ٢٦٠ وجاءت فى هامش الكامل ٢ : ٢١٢ – ٢١٨ . وسيأتى له رسالة أخرى فى هذا الموضوع برقم ٢٨ وعنوانها الجوابات فى استحقاق الإمامة .

(٢) النزر : القليل اليسير . ب : « ندركا » م : « نذر كا » .

ولم نجد فعلاً خامساً فنذكرَه . فمتى رأينا هذه الخصالَ مجتمعةً فى رجلٍ دونَ النَّاسِ كلِّهم وجَبَ علينا تفضيلُه عليهم ، وتقديمه دونهم[1].

وذلك أنَّا إذا سألنا العلماءَ والفقهاءَ . وأصحابَ الأخبار وحُمَّالَ الآثار ،عن أوّلِ الناسِ إسلامًا ، قالَ[2] فريق منهم : علىّ . وقال فريقٌ منهم : أبو بكر . وقال آخرون : زيد بن حارثة . وقال قوم : خَبَّاب . ولم نجد كلَّ واحدٍ من هذه الفِرَق قاطعاً لعُذْر صاحِبه ، ولا ناقلاً له عن مذهبه ، وإن كانت الرواية فى تقدُّمِ علىٍّ أكثَرَ ، واللَّفظُ به أظهر .

وكذلك إذا سألناهم عن الذابِّينَ عن الإسلام[3] بمُهَجِهِم[4] ، والماشِينَ إلى الأقران بسيوفهم[5] ، وجدناهم مختلفين . فمن قائلٍ يقول : علىّ ، ومن قائل يقول : الزُّبير . ومن قائلٍ يقول : ابن عَفْراء[6] ، ومن قائلٍ يقول : أبو دُجانة ، ومن قائل يقول : محمد بن مَسلَمة ، ومن قائل يقول : طلحة ، ومن قائل يقول : البَرَاءُ بنُ مالك .

على أنَّ لعلىٍّ ــ رضى الله عنه ــ مِنْ قَتْلِ الأقْرَانِ والفُرسان والأكْفاءِ ، ما ليس لهم ، فلا أقلَّ من أنْ يكونَ فى طبقتهم .

وإن نحنُ سألناهم عن الفقهاءِ قالوا :علىٌّ ، وعُمَرُ ، وابنُ مسعود ، وزيدُ ابن ثابت ، وأُبَىُّ بن كعب . على أنَّ عليًّا كان أفْقَهَهُم ،لأنَّه كان يُسأَل

---

(١) ب فقط : « دونه » .
(٢) العبارة فى ط : « وذلك أنا سألنا . . . . فقال » ، والوجه ما أثبت من ب ، م .
(٣) ب ، م : « عن أدب الناس عن الإسلام » .
(٤) ب فقط : « بمهجتهم » .
(٥) ب ، م : « لسيوفهم » ، صوابه فى ط .
(٦) انظر لترجمته وتحقيق اسمه ما كتبت فى حواشى كتاب العثمانية ص ٤٥ .

ولا يَسأل ، ويُفتِى ولا يَستَفْتِى . ويُحتاج إليه ولا يَحتاجُ إليهم ، ولكن لا أَقلَّ من أَنْ نجعلَهَ فى طبقتهم وكأَحدهم .

وإن نحن سألناهم عن أَهل الزَّهادة[١] وأَصحاب التقشُّف ، والمعروفين برَفْضِ الدُّنيا وخَلْعها والزُّهد فيها ، قالوا : علىٌّ ، وأَبو الدرداء ، ومُعاذٌ ، وأَبو ذَرٍّ ، وعمَّارٌ ، وبلالٌ ، وعثمانُ بن مظعون . على أَنَّ عليًّا أَزهدُهم ؛ لأَنَّه شاركهم فى خُشونة الملبَسِ وخشونة المأْكل ، والرِّضا باليسير ، والتبلُّغ بالحقير[٢] وظَلْفِ النَّفس عن الفُضول[٣] ، ومُخالفةِ الشهوات . وفارَقَهم بأَنْ مَلكَ بُيوتَ الأَموال ، ورقابَ العربِ والعجم ، فكان يَنضَح بيتَ المال فى كلِّ جمعة ، ويصلِّى فيه ركعتين . ورَقَّع سراويله بأَدَمٍ ، وقَطَع ماَفَضَل من كُمَّيْهِ عن أَطراف أَصابعه بالشَّفْرة ، فى أُمورٍ كثيرة . مع أَنَّ زُهدَه هو أَفضلُ من زُهدِهم ؛ لأَنَّه أَعلمُ منهم . وعبادةُ العالم ليست كعبادة غيره ، كما أَنَّ زَلَّته ليست كزَلَّةِ غيرِه ، فلا أَقلَّ من أَنْ يُعَدَّ فى طبقتهم .

ولم نَجدهم ذكروا لأَبى بكرٍ ، وزيدٍ ، وخبَّاب ، مثلَ الذى ذكروا له من بَذْلِ النفس والعَناءِ[٤] ، والذَّبِّ عن الإِسلام بالسَّيف ، ولا ذَكرُوهُمْ فى طبقة الفقهاءِ وأَهلِ القِدَم فى الإِسلام . ولم نجدهم ذكروا لابنِ عَفْراءَ ، والزُّبير ، وأَبى دُجانة ، والبَراءِ بن مالك ، مثلَ الذى ذكروا له من التقدُّم فى الإِسلام والزُّهدِ والفقه . ولا ذكروا أَبا بكرٍ ، وزيداً ،

---

(١) م : « الظهارة » ، تحريف .
(٢) تبلغ بالشىء تبلغاً : اكتفى به . ب فقط : « والتبليغ » ، تحريف .
(٣) ظلف نفسه عن الشىء : منعها عن هواها . م : « وخلف النفس » ط : « وخلاف النفس » ، والصواب فى ب .
(٤) ط : « والغناء » .

وخبّاباً، فى طبقة عمرو بن مسعود ، وأُبىِّ بنِ كعب ، كما ذكروا عليًّا فى طبقتهم . ولا ذكروا أبا بكر ، وزيداً ، وخباباً، فى طبقة مُعاذ ، وأبى الدَّرداء ، وأُبَىٍّ ، وعمَّارٍ ، وبلالٍ ، وعثمانَ بنِ مظعون ، كما ذكروا عليًّا فى طبقتهم .

فلمَّا رأيْنا هذه الأُمورَ مجتمعةً فيه ، ومتفرّقةً فى غيره من أصحابِ هذه المراتبِ ، وأهلِ هذه الطَّبقات ، الذين هم الغاياتُ ، علِمْنا أنَّه أفضل ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهم وإن كان قد أَخَذَ من كلِّ خيرٍ بنصيب ، فإنَّه لن يبلغَ مَبلغَ مَنْ قد اجتمعَ له الخيرُ وصنوفُه .

فهذا دليلُ هذه الطبقةِ من الزَّيدية على تفضيلِ علىٍّ – رضوان الله عليه – وتقديمِهِ على غيره .

وزعموا أنَّ عليًّا كان أولاهم بالخِلافة ، إلَّا أنَّهم كانوا على غيره أقلَّ فساداً واضطراباً ، وأقلَّ طعناً وخلافاً . وذلك أنَّ العرب وقريشاً كانوا فى أمره[1] على طبقات :

فمن رجلٍ[2] قد قتل علىٌّ أباه أو ابنَه[3] ، أو أخاه أو ابنَ عمه ، أو حميمَه أو صفيَّه ، أو سيِّده أو فارسَه ، فهو بين مُضطغِنٍ قد أَصَرَّ على حقده ، ينتظر الفُرصة ويترقَّب الدَّائرة ، قد كشَفَ قِناعَه[4] ، وأبدى عداوته .

ومِن رجلٍ قد زَمَّلَ غيظَه وأكمَنَ ضِغْنَه ، يرى أنَّ سترَهُما فى نفسِه .

(١) م : « فى غيره » ، تحريف .
(٢) م ، ط : « من رجل » .
(٣) ط : « قد دام » .
(٤) ب : « وقد كشف قناعه » بالواو .

ومداراةَ عدوِّه ، أبلغُ فى التَّدبير ، وأقرب من الظَّفر . فإنَّما يُجْزِيه أدنَى علَّةٍ تحدُث ، وأوَّلُ تأْويلٍ يَعرِض ، أو فتنةٍ تَنجُم ؛ فهو يرصُد الفُرصة[(١)] ويترقَّب الفِتنة ، حتَّى يصولَ صولةَ الأَسَد ، ويَروغَ رَوَغان الثَّعلب ، فيشفىَ غليلَه ، ويُبْرِدَ ثائرَه[(٢)] .

وإذا كان العدُّو كذلك كان غيرَ مأْمونٍ عليه سَرَفُ الغَضَب . وأنْ نوَّه له الشَّيطانُ الوثوبَ ، ويزيِّن له الطَّلب ؛ لأنَّه قد عرف مأْتاه . وكيف يَخْتِلُه مِن طريقِ هواه . فإذا كان القلبُ كذلك اشتدَّ تحفُّظه ولم يَقْوَ احتراسه ، وكان بعَرَضِ هَلَكة وعلى جناحِ تَغْرير[(٣)] ؛ لأنَّه مُنْقسم الرَّأْى متفرِّق النفس . قد اعتلَج على قلبِه غَيْظُ الثَّأْر على قُربِ عهده بأَخلاق الجاهليَّة ، وعادةِ العرب من الثَّأْر وتذكُّر الأَحقاد والأَمر القديم ، وشدَّة التصميم .

ومِن رجلٍ غمَّته حداثته[(٤)] ، وأَنِفَ أن يَلِىَ عليه أصغَرُ منه .

ومن رجلٍ عَرَفَ شِدَّته فى أمرِه ، وقِلَّة اغتفاره فى دينه[(٥)] ، وخُشونَة مذهبه .

ومِن رجلٍ كره أَن يكون المُلْكُ والنُّبوَّةُ يثبتانِ[(٦)] فى نصابٍ واحد، ويَنْبُتانِ فى مَغرِسٍ واحد . لأَنَّ ذلك أَقطَعُ لأَطماع قريش أَن يَعود المُلكُ

---

(١) م ، ط : « الفرقة » .

(٢) م ، ط : « ناره » .

(٣) ب ، ط : « وكان يعرض هلكة على جناح على تغرير » ، صوابه فى م . والعرض : مايعرض للإنسان من أحداث الدهر .

(٤) فى جميع الأصول : «عمته » . وفى ب فقط : « بحداثته » ، ولعل الوجه ما أثبت .

(٥) ب ، م : « اعتقاده » ، ط : « اعتفاده » ، وإنما هو الاغتفار ، أى التسامح والتساهل . يقال غفر له ذنبه واغتفره أيضاً .

(٦) ب ، م : « يثبان » صوابه فى ط .

دُولةً في قبائلها ، ومن قريشٍ خاصَّة في بني عبد مناف ، الأَقربَ فالأَقرب ، والأَدنى فالأَدنى ؛ لأَنَّ الرحم كلما كانت أَمسَّ ، والجوارُ أَقربَ ، والصِّناعةُ أَشكَلَ ، كان الحسدُ أَشدَّ ، والغيظُ أَفرط . فكان أَقربُ الأُمور إلى محبَّتهم إخراجَ الخلافة من ذلك المَعدِنَ ، ترفيهاً عن أَنفسهم من أَلم الغيظ ، وكَمَد الحَسَد .

٢ — فصــل منها

وضربٌ من الناس همَج هامجٌ ، ورَعَاعٌ مُنتشِر [١] ، لا نِظامَ لهُمْ ، ولا اختيارَ عندهم ، وأَعرابٌ أَجلافٌ ، وأَشباهُ الأَعراب ، يَفترقون [٢] من حيث يجتمعون ، ويجتمعون من حيث يفترقون ؛ لا تُدفَع صولتهم إذا هاجوا ، ولا يُؤمن تَهيُّجهم [٣] إذا سكنوا . إنْ أَخصَبوا طَغَوْا في البلاد [٤] وإن أَجْدَبوا آثروا العِناد . هم [٥] موكَّلون ببُغضِ القادة ، وأَهلِ الثَّراءِ والنَّعمة ، يتمنَّوْن له النكبة [٦] ، ويَشْمَتون بالعشيرةِ ، ويسَرُّون بالجَوْلة [٧] ، ويترقَّبون الدائرة .

فلمَّا كان الناس عند عليٍّ وأَبي بكرٍ على الطبقات التي نَزَّلنا [٨] ، والمراتب التي رَتَّبْنَا ، أَشفَقَ عليٌّ أَن يُظهِرَ إرادةَ القيامِ بأَمر النَّاسِ مخافَةَ أَن يتكلَّم متكلِّمٌ أَو يَشغَب شاغب [٩] ، فدعَاه النَّظرُ للدِّين إلى الكفِّ عن

(١) ب فقط : « منتثر » .
(٢) مابعده إلى « يفترقون » التالية ساقط من ط .
(٣) م فقط : « تهييجهم » .
(٤) ب : « بلغوا في البلاد » .
(٥) ط : « وهم » .
(٦) ط : « الغلبة » .
(٧) ب فقط : « ويسيرون بالجولة » .
(٨) ط : « التي ذكرنا » .
(٩) الشغب ، بالفتح ، وبالتحريك أيضاً : تهييج الشر . ب فقط : « يشعب مشاغب » تحريف .

الإظهار[١] ، والتَّجافى عن الأَمر ، فاغتفر المجهولَ ضَنًّا بالدين ، وإيثاراً للآجلة على العاجلة .

فدلَّ ذلك على رجاحةِ حِلمه ، وقلة حِرصِه[٢] ، وسَعَة صدره ، وشدَّة زُهده ، وفَرْطِ سَماحتِه ، وأَصالةِ رأْيه .

وعَلِمَ أَنَّ هلكتهم لا تقوم بإِزاءِ صَرْفِ مابين حالِه وحال أَبى بكرٍ فى مصلحتهم . وقد علم بعد ذلك أَنَّ مُسيلمة قد أَطبَقَ عليه أَهلُ اليمامة ومَنْ حولها من أَهل البادية ، وهم القوم الذين لا يُصطلَى بنارهم[٣] ، ولا يُطمَع فى ضَعْفهم وقِلَّة عددهم ، فكان الصواب مارآه علىٌّ من الكَفِّ عن تحريك الهَرْج ، إذْ أَبْصَرَ[٤] أَسبابَ الفتن شارعةً ، وشواكِلَ الفساد بادية[٥] ، ولو هرَجَ القوم هَرْجةً[٦] وحدَثت بينهم فُرقةٌ ، كان حَرْبُ بوَارِهم[٧] أَغلبَ من الطَّمع فى سلامتهم .

وقد كان أَبو بكرٍ ، وعُمر ، وأَبو عبيدة ، وفُضلاءُ أَصحابه ، يعرفون

---

(١) ب فقط : « عن إظهار » .

(٢) وقلة حرصه ، ساقطة من ط .

(٣) يقال : فلان لا يصطلى بناره ، إذا كان شجاعاً لا يطاق . وانظر اللسان (صلا ٢٠١) . وجمهرة العسكرى ٢ : ٣٩٧ . وقد سقطت كلمة « لا » من جميع الأُصول ؛ وهو خطأ . وجاء فى مقصورة ابن دريد :

لا يصطلى بناره عنـد الوغى   ويصطلى بنـــاره عنـــد الـسـقرى

(٤) ب فقط : « إذا أبصر » ، تحريف .

(٥) الشواكل : جمع شاكله ، وهى الخاصرة . كناية عن شدة ظهور الفساد . م : « شكوى كل » ، ب ، م : « بانية » ، صوابهما فى ط .

(٦) ب ، م : « ولو هاج القوم هرجة » . والهرج : الاقتتال والاختلاط .

(٧) م ، ط : « حزب » ، صوابها فى ط . والبوار : الهلاك .

من تلك الآراء[١] شبيهاً بما يعرفه عليٌّ ، فعلِمُوا أنَّ أوَّلَ أحكام الدِّين المبادرةُ إلى إقامة إمامِ المسلمين ، لئلا يكونُوا نَشَرًا[٢] ، ولئلا يجعلوا للمفسدين عِلَّةً وسبباً . فكان أبو بكر أصلَحَ النَّاسِ لها بعد عليٍّ ، فأصابَ فى قيامِهِ ، والمسلمون فى إقامته ، وعَلِيٌّ فى تسويغه[٣] والرِّضا بولايتِهِ مُنعقدةً منه على الإسلام وأهله . فلمَّا قَمع الله تعالى أهل الرِّدَّة بسيفِ النِّقْمة ، وأبادَ النِّفاقَ ، وقُتِل مسيلمةُ وأُسر طلحة ، ومات أصحاب الأَوتار[٤] ، وفَنِيَتِ الضَّغائِن ، راحَ الحقُّ إلى أهله ، وعاد الأَمرُ إلى صاحبه .

قالوا : وقد يكون الرَّجُل أفضلَ الناس ويلى عليه مَن هُو دُونَه فى الفضل حتَّى يكلِّفه الله طاعتَه وتقديمَه :إمَّا للمصلحةِ والإشفاق من الفِتْنة كما ذكرنا وفسَّرنا ، وإمَّا للتَّغليظ فى المحنة وتشديد البلوى[٥] والكُلْفة ، كما قال الله تعالى للملائكة : ﴿ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَٱسْتَكْبَرَ[٦] ﴾. والملائكةُ أفضلُ من آدم ، ولأنَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل عِنْد الله[٧] من المقرَّبين قبل خَلْق آدمَ بدهرٍ طويل ، لما قَدَّمت من العبادة[٨] واحتملَتْ من ثِقَل الطاعة . وكما مَلَّك الله طالوتَ[٩] على

(١) فى جميع الأصول : « من ذلك الآراء » .
(٢) النشر ، بالتحريك : القوم المتفرقون لايجمعهم رئيس . ب فقط : « نشزا » .
(٣) م ، ط : « فى تسويفه » ، صوابهما فى ب .
(٤) الأوتار : جمع وتر ، بالكسر ، وهو الثأر . م ، ط : « الأوتاد » ، صوابه فى ب .
(٥) ب : « فى المجنة » م : « فى المحنة » ، صوابهما فى ط . وفى ب أيضاً : « ولتشديد البلوة » م : « ولتشديد البلوى » ، وأثبت ما فى ط .
(٦) من الآية ٣٤ فى سورة البقرة .
(٧) ب : « عبد الله » ، تحريف . وفى م : « عبيد الله » ، وأثبت ما فى ط .
(٨) ب فقط : « من عبادة » . (٩) ط : « طالوط » : تحريف .

بنى إسرائيل وفيهم يومئذ داوُد نبيُّ الله[١] صلى الله عليه وسلم ، وهو نبيُّهم الذى أخبر الله عنه فى القرآن بقوله تعالى[٢] : ﴿ إنَّ الله قَدْ بَعَثَ لكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا[٣] ﴾ إلى آخر الآية .

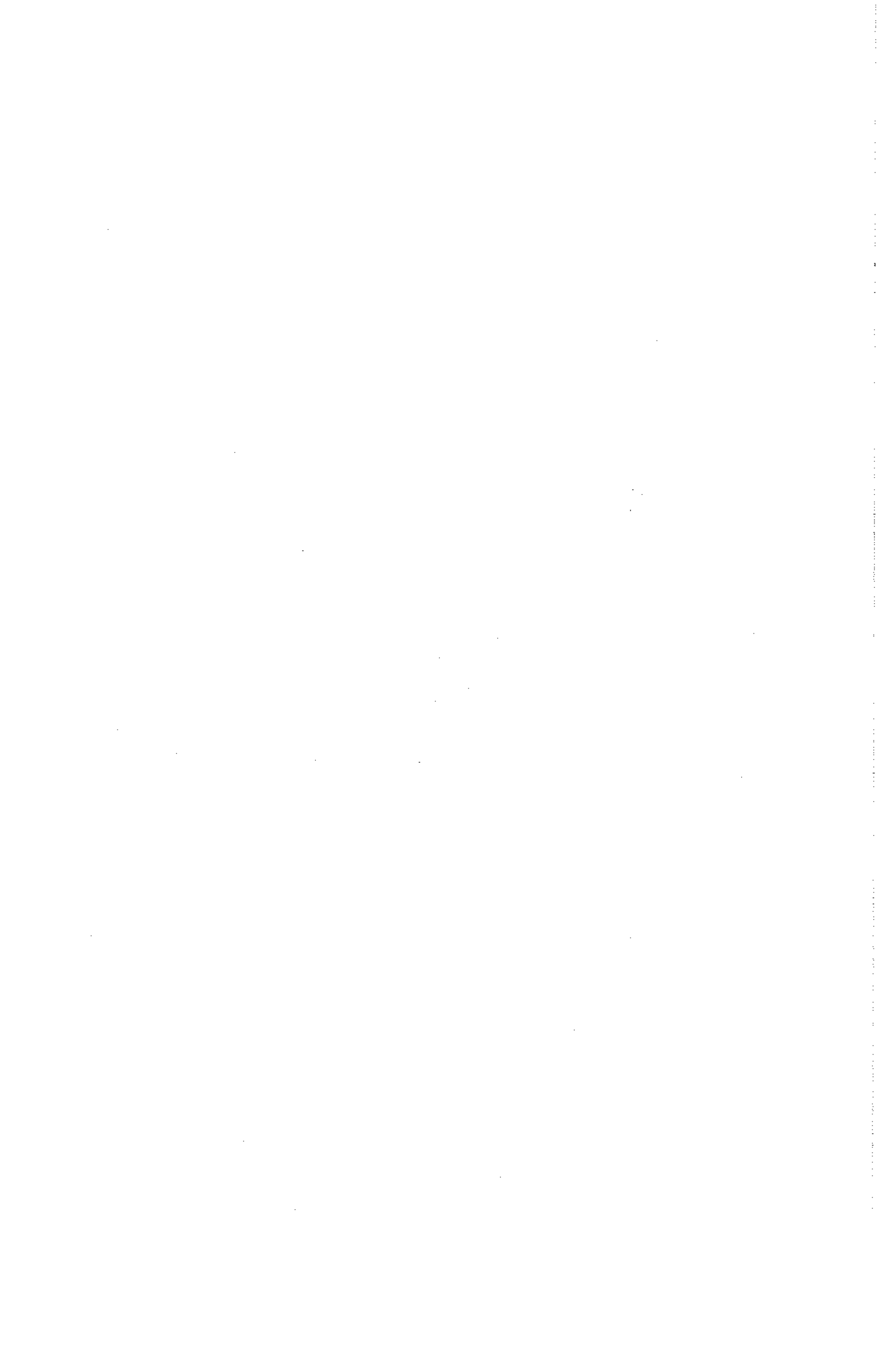
---

(١) م : « داود النبى » .
(٢) بقوله تعالى ، ساقطة من ب ، م .
(٣) الآية ٢٤٧ من سورة البقرة .

٢٣

من رسالة في

استنجاز الوعد



١ – فصـــل

من صدر رسالته فى استنجاز الوعد

قد شاع الخبر وسار المثل بقولهم[١] : « اطلبوا الحاجاتِ من حِسانِ الوجوه » .

فإنْ كان الوجهُ إنّما وقع على الوَجْه الذى فيه النّاظر والسامع، والشّامُّ والذّائق ، إذا كان حسناً جميلا ، وعتيقاً بهيًّا ، فوجهُك الذى لا يُخيِلُ على أحدٍ كمالهُ[٢] ، لا يُخطِئُ حِوَالُه[٣] .

وإن كان ذكرُ الوجه إنّما يقع على حسن وَجْه المَطْلب[٤] وجمالِه على جهة الرّغبة ؛ وإن كان ذلك على طريق المثل ، وعلى سبيل اللفظ المشتقّ من اللفظ ، والفرع المأْخوذ من الأَصل . فوجْهُ المطلبِ إليك أَفضَلُ الوجوهِ وأَسناها ، وأَصونُها وأَرضاها . وهو المنهجُ الفسيح والمَتْجَر الرّبيح؛ وجمالُه ظاهرٌ ، ونفعُه حاضر ، وخيره غامر ، إلّا أَنّ الله تعالى قرنَه مع ذلك باليُمْن ، وسَهّله باليُسْرِ ، وحبّبه بالبِشْر الحَسَن ، ودعا إليه بلِينِ الخِطاب[٥] ، وأَظهَر فى أَسمائكم وأَسماء آبائكم وفى كناكم وكنى

---

(١) هى فى هامش الكامل ٢ : ٢٢٠ – ٢٢٧ وريشر ١٩٥ – ١٩٦ ومجموعة الساسى ١١٧ – ١٧٣ . فالمقابلة هنا على المخطوطتين ب،م وكذلك على نسخة هامش الكامل ورمزها (ط) ومجموعة الساسى ورمزها (مج) .

(٢) فى اللسان : « وأخال الشىء : اشتبه . يقال هذا الأمر لا يخيل على أحد ، أى لايشكل » وفى جميع الأصول : « يحيل » صوابه بالخاء المعجمة كما أثبت . وفى مج : « لايحيد عن »، وأراه تصرفاً من الناشر .

(٣) الحوال : مصدر حاول الشىء محاولة وحوالا : رامه وطلبه . قال رؤبة :

* حـــوال حـــد وانتجـــار المؤتجـــر *

وفى مج : « ولا يخفى جماله » .

(٤) مج : « الطلب » فى هذا الموضع وتاليه .

(٥) فى جميع النسخ : « الحجاب » ، صوابه ما أثبت . وانظر ص ٢٢٠ س ٣ .

إخوانكم ، من برهان الفأل الحسن ونفى الطيَرة السيِّئة ما جَمَع لكم به صنوفَ الأمَل ، وصَرف[١] إليكم وجوه المَطالب ؛ فاجتمع فيكم تمام القَوَام وبراعةُ الجمال ، والبِشْر[٢] عند اللِّقاء ، ولينُ الخطابِ والكنَفِ للخُلطاء[٣] ، وقلَّةُ البَذَخ بالمرتبة الرَّفيعة ، والزِّيادةُ فى الإنصاف عند النعمة الحادثة . فجَعَل[٤] النَّاسُ وعدَكم من أكرم الوعد ، وعَقدكم من أوثَق العَقدْ ، وإطماعَكم[٥] من أصحِّ الإنجاز . وعَلِموا أنَّكم تُؤيسون[٦] فى مواضع اليأس ، وتُطمِعون فى مواضع الضَّمان ، وأنَّ الأُمور عندكم موزونةٌ معدَّلة ، والأسبابَ مقدَّرةٌ محصَّلة .

هذا مع الصَّولة والتَّصميم فى موضع التَّصميم[٧] .

والتقيَّة أحزم[٨] ، والصَّفح إذا كان الصفحُ أكرم ، والرَّحمة لمن استرحم ، والعقاب لمن صمَّم .

ثم المعرفةُ بَفَرْقِ[٩] مابينَ اعتزام الغُمْر واعتزام المستبصِر ، وفصْل[١٠] ما بين اعتزام الشجاع والبطل ، وبين إقدام الجاهل المتَهوِّر .

وقد علِم الناس بما شاهدوه منكم ، وعاينُوه من تدبير ، وعرفوه من

---

(١) هذا مافى مج . وفى سائر النسخ : « وضرب » .
(٢) م ، ط : « والبشرة » .
(٣) ب : « واللين والكنف للخلطا » ، م : « والكنف للخطا » ، وأثبت مافى ط ، مج .
(٤) ب : « يجعل » م : « يجعل » ط : « تجل » ، وأثبت مافى مج .
(٥) ب فقط : « وأطمعكم » ، تحريف .
(٦) ب فقط : « تؤايسون » ، تحريف .
(٧) ب : « والتعميم فى موضع التعميم » ، تحريف .
(٨) ب ، م : « والثقة أحزم » .
(٩) ب ، م ، ط : « تفرق » ، وفى مج : « فرق » ، والوجه ما أثبت .
(١٠) ب ، م ، ط : « وفضل » ، والوجه ما أثبت من مج .

تصرُّف حالاتكم[١] ، أنِّى لم أتزيَّد لكم ، ولم أتكلَّفْ فيكم ما ليس عندكم . وخيرُ المديح ما وافَقَ جمالَ الممدوح ، وأصدقُ الصِّفات ماشاكَلَ مذهب الموصوف ، وشَهِد له أهل العِيَانِ الظَّاهِرِ ، والخبر المتظاهر . ومتَى خالفَ هذه القضيَّة وجانبَ الحقيقةَ . ضارَّ المادحَ[٢] ولم ينفع الممدوح .

هذا إلى الثَّبات على العهد ، وإحكام العَقْد، مع[٣] الوفاءِ العجيب، والرَّأْى المُصيب، وتمَامِ ذلك وكمالِه ، وسناءِ ذلك وبهائه[٤]، وكثرةِ[٥] الشُّهود لكم ، وإجماعِ النَّاس على ذلك فيكم .

ومن قَبِل لنفسه مديحاً لا يُعرف [به[٦]] كان كمادح نفسه . ومن أثاب الكذَّابين على كَذِبهم كان شريكَهم فى إثْمهم ، وشقيقهم فى سُخفهم ، بل كان المحتقِبَ لِكبرِه[٧] . المحتملَ لِوزْره ، إذْ كان المثيبَ عليه[٨] والداعىَ إليه .

معاذَ الله أنْ نقول إلَّا مَعروفاً غير مجهول ، ونَصِفَ إلَّا صحيحاً

---

(١) ط فقط : « حالتكم » .
(٢) م فقط : « النافع » .
(٣) ب فقط : « على » .
(٤) ماعدا مج : « وبهاؤه » .
(٥) ماعدا مج : « كثرة » بدون واو .
(٦) التكلة من مج .
(٧) المحتقب : الحامل . وفى اللسان : « واحتقب فلان الإثم : جمعه واحتقبه من خلفه . قال امرؤ القيس :

فاليـــوم أسقَ غير مستحقب   إثمـــاً من الله ولا واغـــل

ب : « المحتقد » م : « المحتقت » ط : « المحتفل » ، والصواب فى مج . و كبر الشىء : معظمه . وفى الكتاب العزيز : « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » . قال ثعلب : يعنى معظم الإفك . وقرأ حميد الأعرج وحده : « كبره » بضم الكاف .
(٨) م فقط : « الشيب عليه » ، تحريف .

غير مدخول ، أو نكون ممن يتودَّد بالمَلَق . ويتقحَّم على أهل الأقدارِ شَرَهًا إلى مال ، أو حِرصاً على تقريب . وأبعدَ الله الْحِرصَ وأَخْزَى الشَّرَه والطَّمَع !

فإن شَكَّ شاكٌّ أو توقَّفَ مرتابٌ فليعترض العامَّة ، وليتصفَّح ماعند الخاصَّة حتَّى يتبيَّن الصُّبح .

وقالوا فى تأديب الوُلاةِ وتقديمِ تدبير الكُفاة : « إذا أبردتُم البَريدَ فاجعلُوه حَسَنَ الوجه ، حسنَ الاسم » . فكيف إذا قارن حُسنَ الوجهِ وحُسنَ الاسمِ كرمُ الضَّريبة[1] ، وشَرَفُ العرق .

وأعيانُ الأَعراقِ الكريمةِ ، والأخلاقِ الشريفة[2] ، إذا استجمعت هذا الاستجماع ، واقترنت هذا الاقترانَ ، كان أتمَّ للنِّعمة ، وأَبْرَعَ للفضيلة[3] وكانت الوسيلةُ إليها أسهلَ ، والمأْخذُ نحوها أقرب ، والأَسبابُ أَمْتَن .

فإذا[4] انتظمَتْ فى هذا السِّلكِ ، وجَمَعَها هذا النَّظمُ ، كان الذى يُبْرِد البريدَ أولى بها من البريد ، وكان مقوِّم البلاد أَحقَّ بها من حاشيتِهِ الكُفاة[5] ، إذ التأْميلُ لا يجمع أَوجُهَ الصَّواب[6] ، ولا يُحصِى[7] مخارجَ الأَسباب ، ولا يَظهر بُرهانُه ويَقْوَى سُلطانه ، حتَّى يصيبَ المَعدِن .

---

(١) الضريبة : السجية والطبيعة التى ضرب عليها المرء . ب : «وكره » . م ، ط : « وكرم » ، والصواب حذف الواو كما فى مج .

(٢) الشريفة ، ساقطة من مج .

(٣) فى اللسان : « برع فهو بارع : تم فى كل فضيلة وجمال ، وفاق أصحابه ، فى العلم وغيره » . وفى جميع الأصول : « وأبدع للفضيلة » ، والوجه ما أثبت .

(٤) ب فقط : « إذا » .

(٥) ماعدا مج : « من حاشية الكفاة » .

(٦) م : « وجاه الصواب » وفى سائر الأصول : « وجه الصواب » ، والوجه ما أثبت .

(٧) هذا ما فى ط . وفى سائر الأصول : « ولا يخص » .

وان يكون موضعُ الرَّغبة مَعدِناً إلَّا بعد اشتماله على ترادُفِ خصالِ الشَّرَف وبعد أن يتوافَى إليه[(١)] معانى الكرمِ بالأعراق الكريمة ، والعادات الحسنة ، على حادثٍ[(٢)] يشهد لمتقادم[(٣)] ، وطارف يدلُّ على تالد .

فإذا كان الأمل يخبر بالحَسَب فالحسبُ ثاقب ، والمجدُ راسخ . وإن كان الشَّأن فى صناعة الكلام وفى القَدَم والرِّياسة . وفى خَلَفٍ يأْثِرُه عن سَلَف ، وآخرَ يلقاه عن أوَّل ، فلَكُم[(٤)] مالا يذهب عنه جاحدٌ، ولا يستطيع جحْدَهُ معاند .

٢ ـ فصــل منها

وأسماؤكم وكُنَاكم بين فَرَجٍ ونُجْح ، وبين سلامةَ وفَضْل ، ووجوهكم وَفْقُ أسمائِكم ، وأخلاقُكم وَفْقُ أعراقكم . لم[(٥)] يضرب التفاوُتُ فيكم بنصيب .

وبعد هذا فإنِّى أستغفر الله من تفريطى فى حقوقِكم ، وأستوهبه[(٦)] طول رَقْدتى عما فرضتُه لكم[(٧)] .

ولا ضَيْرَ إن كان هذا الذى قلنا على إخلاصٍ وصحَّةِ عهد ، وعلى صدق سيرةٍ وثبَاتِ عَقْد . ينبو السَّيفُ وهو حُسامٌ ، ويكبو الطِّرفُ وهو جَوَاد ، ويَنْسَى الذَّكُورُ ، ويَغفُل الفَطِنُ[(٨)] .

(١) ب ، م : « يتواق » ، وأثبت ما فى ط ، مج .
(٢) ماعدا مج : « على حادث » .
(٣) المتقادم : القديم . وفى الأصول : « لقادم » ، ولا وجه له .
(٤) ما عدا مج : « قبلكم » ، والوجه ما أثبت . وفى مج : « كان قبلكم » .
(٥) م : « طم » ، ط : « فلكم » وأثبت مافى ب ، مج .
(٦) ب فقط : « وأستوجبه » ، تحريف .
(٧) ماعدا ط : « ما فرضه لـكم » ، يطلب عفو الله عن تقصيره فى إظهار ما أوجب لهم فى نفسه من تمجيد .
(٨) ب ، م : « العطن » ، صوابه فى ط ، مج .

ونعوذُ بالله تعالى من العَمَى بعد البَصيرة[١] ، والحيرةِ بَعْدَ لزومِ الجادَّة .

كان أَبو الفَضل ــ أَعزَّه اللهُ ــ على ما قد بلغَكَ من التبرُّع بالوعد[٢] وسُرعة الإنجاز وتَمَام الضَّمان . وعلى الله تمامُ النِّعمة والعافية .

وكان ــ أيدَّهُ اللهُ ــ فى حاجتى ، كما وصف زَيدُ الخَيلِ نَفْسَه حين يقول :

ومَوعِدتى حقٌّ كأَنْ قد فعلتُها　　متى ما أعِدْ شيئاً فإنِّى لغارِم[٣]

وتقول العرب : « مَنْ أَشبه أَبَاهُ فما ظَلَم[٤] »، تقول[٥] : لم يضع الشَّبَهَ إلَّا فى موضعه ، لأَنَّه لا شاهدَ أَصدقُ على غَيْبِ نسبه وخفىِّ نَجْله من الشَّبَه القائمِ فيه[٦] ، الظَّاهر عليه .

وقد تقيَّلتَ ــ أبقاكَ اللهُ ــ شيخَكَ[٧] : خَلْقَه وخُلُقه ، وفِعلَه وعزْمه ، وعِزَّ الشَّهامة[٨] ، والنَّفْسِ التَّامَّة .

---

(١) م فقط : « البصرة » ، تحريف .

(٢) ط فقط : « من الوعد » .

(٣) ماعدا مج : « لعازم » . والغارم : من يلزمه أداء المال . وفى الكتاب العزيز : « والغارمين وفى سبيل الله » ، وهم الذين لزمهم الدين فى الحمالة ونحوها .

(٤) ب ، مج : « رأبه » ، وهى رواية جيدة يولع بها النحويون واللغويون ، لكن فى م ، ط والحيوان ١ : ٣٣٢ ونصوص جميع كتب الأمثال : « أباه » . وانظر الفاخر ١٠٣ والميدانى ٢ : ٢٢٨ والعسكرى ٢ : ٢٤٤ والمستقصى ٢ : ٢٥٣ . ويؤيد رواية « أباه » أيضاً ما أنشدوا فى معظم هذه المراجع من قول كعب بن زهير (ديوانه ٦٥) :

فقلت شبيهات بمــا قال عالم　　بهــن ومن يشبه أباه فما ظـلم

(٥) ب ، م : « نقول » ، صوابه فى ط ، مج .

(٦) فيه ، ساقطة من مج .

(٧) تقيل أباه ، أو شيخه : نزع إليه فى الشبه . والكلمة محرفة فى الأصول ففيها جميعاً : « شبحك » ، والوجه ما أثبت .

(٨) ب ، م : « وعن الشبامة » ، ط : « ومن الشهامة » ، صوابه فى مج .

ومرجعُ الأفعال إلى الطبائع ، ومدارُ الطبائع على جودة اليقين وقُوَّة المُنَّة ، وبهما تتمُّ العزيمة ، وتنفُذُ البصيرة .

هذا مع ما قَسَمَ الله لك من المحبَّة ومَنحك من المِقَة ، وسلَّمك عنه من المذمَّة .

واللهِ لو لم يكن فيكم من خصال الحريّة[1] وخِلال النُّفوس الأبيَّة إلَّا أنَّكم لا تَدِينون بالنِّفاق . ولا تَعِدُونَ بالكذب[2] ولا تستعملون المُواربةَ فى موضع الاستقامة[3] ، وحيثُ تجب الثِّقة[4] .

ولا يكون حظُّ الأحرار بالمواعيد صِرْفا ، ولا تَتَّكلون[5] على ملالة الطالب[6] ، ولا عجْزِ الرَّاغب ، إذا استُنْفِدت أيَّامُه[7] ، وعَجَزَت نفقتُه ، وماتت أسبابُه ، بل تُعجِّلون[8] لهم الرَّاحة عند تعذُّر الأُمور إليكم بالإيَاس[9] ، وتحقِّقون[12] أطماعهم عند إمكان الأُمور لكم بالإنجاح .

٣ ــ فصـل منها

وإنَّك والله ــ أيُّها الكريمُ المأْمولُ ، والمستُعطَفُ المسئول ــ لا تزرع

(١) مج فقط : « الحرمة » ، تحريف .
(٢) ماعدا ط : « لاتعبدون » ، تحريف . والمراد لاتعدون مواعد كاذبة .
(٣) ب ، م : « الاستنامة » ط : « الاستنابة » ، وأثبت مافى مج .
(٤) كذا بسقوط جواب : « لو لم يكن » ، أى لكفى ذاك .
(٥) ب : « يتكلمون » م : « يتكلون » وأثبت مافى ط ، مج .
(٦) فى جميع الأصول : « ملامة الطالب » ، والوجه ما أثبت .
(٧) مج : « استنفذت » ، تحريف .
(٨) ب ، م : « يعجلون » ، صوابه فى ط ، مج
(٩) الإياس : مصدر آيسه . وفى اللسان : « وكان فى الأصل الإيياس بوزن الإيعاس » . مج : « بالإيآس » .
(١٠) ب فقط : « وتحققون » . تحريف .

المحبّة إلّا وتحصدُ الشُّكر ، ولا تُكثر المودّاتِ إلّا إذا أكثر النّاسُ الأموال[١] ،
ولا يشيع[٢] لك طِيبُ الأحدوثة[٣] وجمال الحال فى العشيرة ، إلّا لتجرُّع[٤]
مُرارِ المكروه . ولن تنهض بأعباء المكارم التى توجبها النِّعمة وتفرضها
المرتبة حتّى تستشعر التفكُّر[٥] فى التّخلُّص إلى إغنائهم[٦] ، والقيام
بحسن ظنِّهم ، وحتّى ترحمَهم من طول الانتظار ، وترقَّ عليهم من
مَوت الأمل وإحياء القُنوط ، وحتى تتغلغل[٧] ذلك بالحِيَل اللّطيفة ،
والعناية الشّديدة الشريفة ، وحتى تتوخّى[٨] السّاعات ، وتنتهزَ الفرصَ
فى الحالات ، وتتخيّر من الألفاظ أرقّها مَسلكاً ، وأحسنَها قَبولًا ، وأجودَها
وُقوعاً .

---

(١) هذا ما فى ب . وفى م ، ط : « كثر الناس الأموال » وفى مج : « كثرت للناس الأموال » وكلها قراءات صالحة .
(٢) ماعدا ط : « ولا تشيع » .
(٣) ما عدا مج : « طلب الأحدوثة » .
(٤) ب فقط : « لتجرع » .
(٥) ب : « يستشعر تفكر » ، م : « يستشعر التفكر » ، صوابهما فى ط ، مج .
(٦) ب فقط : « أغنيائهم » ، تحريف .
(٧) ب ، م : « يتغلغل » ط : « تتفلفل » . وهذه الأخيرة تحريف مطبعى .
(٨) ب ، م : « يتوخى » ، تحريف .

٢٤

من رسالة في

تفضيل النطق على الصمت

١ ـ فصــل

من صدر رسالته فى تفضيل النطق على الصمت(١)

أَمتعَ اللهُ بكَ وأَبقَى نِعمَه عِندك ، وجعلك ممَّن إذا عَرَفَ الحقَّ انقادَ له ، وإذا رأى الباطِلَ أنكَرَهُ وتَزحزحَ عنه .

قد قرأتُ كتابَك فيما وصَفتَ من فضيلةِ الصَّمت ، وشَرحْتَ من مناقبِ السُّكوت ، ولخَّصت من وضوح أسبابهما(٢) ،وأحمَدْتَ من منفعةِ عاقبتِهما(٣) وجَرَيت فى مجرى فنونِ الأَقاويل فيهما ، وذكرتَ أنَّك وجدتَ الصَّمتَ أَفضَلَ من الكلام فى مواطنَ كثيرة وإن كان صوابا(٤) ، وأَلفَيتَ السُّكوتَ أحمدَ من المنطقِ فى مواضعَ جَمَّةٍ ، وإن كان حقًّا .

وزعمت أَنَّ اللِّسانَ من مسالك الخَنَا(٥) ، الجالبِ على صاحبه البلَا(٦)

وقلت : إنَّ حفِظ اللسان أَمثَلُ من التورُّط فى الكلام .

وسمَّيْتَ الغبيَّ عاقلاً ، والصَّامِتَ حليماً . والساكت لبيباً . والمُطرِقَ مفكِّراً . وسمَّيت البليغَ مِكثاراً والخطِيبَ مهذاراً(٧) والفَصيح مَفْرِطاً ، والمِنْطِيقَ مُطنِباً .

---

(١) هامش الكامل ٢ : ٢٢٧ – ٢٣٨ وريشر ١٨٢ – ١٨٦ ومجموعة الساسى ١٤٨-١٥٤ وهى المرموزلهــا بالرمز (مج) .

(٢) ب فقط : « أسبابه » .

(٣) أحمد الأمر : رضيه ووجده مستحقاً للحمد . ب : « وانقدت » تحريف . مج : « وحمدت » وأثبت ما فى م ، ط .

(٤) ب فقط : « كانا صواباً » .

(٥) الخنا : الفحش ، يقال خنا فى منطقه يخنو ، مقصور . ط فقط : « الخناه » ، تحريف .

(٦) م فقط : « البلا » .

(٧) هذا الصواب من مج فقط . وفى سائر النسخ : « مهداراً » بالدال المهملة . وهو بالذال المعجمة : الذى يكثر الكلام بالهذر ، وهو الكثير الردىء .

وقلت : إنَّك لم تَندم على الصَّمتِ قطُّ وإن كان منك عِيًّا ، وأنَّك ندِمت على الكلامِ مِراراً وإن كان [منك(١)] صواباً .

واحتجاجُك فى ذلك بقول كِسرى أنو شِرْوان ، واعتصامُك فيها بما سار من أقاويل الشُّعراءِ والمتَّسِقِ من كلام الأُدباء ، وإفراطِهم فى مذَمَّة الكلام ، وإطنابهم فى محمدة السُّكوت .

وأَتيتُ – حفظك الله – على جميعِ ماذكرتَ من ذلك ، ووصفْتَ ولخَّصت ، وشَرَحْتَ وأطنبت فيها وفَرَطْتَ بالفَهْم ، وتصفَّحتُها بالعلم ، وبحثتُ بالحزْم ، ووعَيْتُ بالعزْم ، فوجدتُها كلامَ امرئٍ قد أُعجِبَ برأيه وارتَطَم فى هواه ، وظَنَّ أنَّه قد نسَج(٢) فيها كلاماً ، وألَّف ألفاظاً ونسَقَ(٣) له معانىَ على نحو مأْخذِه .

ومَقْصَدُه أن لا يُلفِى(٤) له ناقضاً(٥) فى دهرِهِ بعد أن أبرَمها ، ولا يجدَ فيها مناوياً(٦) فى عصرِه بعد أن أحكَمَها . وأنَّ حُجَّتَه قد لزمت جميعَ الأنام ، ودحَضَتْ حُجَّةَ قاطبةِ أهلِ الأَديان ، لِمَا شرح فيها من البُرهان ، وأوضَحَ بالبيان . وحتَّى كانَ القولُ من القائل نقضاً(٧) ، ورفعُ الوصف من الواصف تغلُّباً(٨) ، وكان فى موضعٍ لا ينازعُه فيه أحدٌ ، وقَلَّما يجد

---

(١) التكملة من مج .
(٢) فى جميع الأصول : « نسخ » ، والوجه ما أثبت .
(٣) مج فقط : « ونسخ » .
(٤) فى جميع الأصول : « يلقى » بالقاف ، والوجه ما أثبت من ط .
(٥) م فقط : « ناقصاً » ، تحريف .
(٦) المناوئ : « المناهض والمعادى . ماعدا ط : « منادياً » تحريف .
(٧) ماعدا ط : « نقضاً » .
(٨) كذا . ولعلها : تفلتا » .

من يُخاصمه . ولا يُلفى[١] أبداً منْ يناضلُه ،وصار فَلْجاً [بحجَّته[٢]] أوحديًّا فى لهجَته . إذ كان محلُّه محلَّ الوَحدة ، والأُنس بالخَلْوة ، وكان مثلُه فى ذلك [مَثَلَ[٣]] من تخلَّص إلى الحاكم وَحْده فلجَّ بحجَّته[٤] .

وإنِّى سأُوضِّح ذلك ببرهانٍ قاطع ، وبيانٍ ساطع ، وأشرحُ فيه من الحُجج مايظهر ، ومن الحقِّ ما يَقْهَر ، بقدر ما أتَتْ عليه معرفتى ، وبلغَتْه قُوَّتى ،ومَلَكَتْهُ طاقتى ، بما لا يستطيع أحدُ ردَّه ، ولا يمكنه إنكارُهُ وجحدُه . ولا قوة إلَّا بالله ، وبه أستعين[٥] . وعليه أتوكَّل وإليهِ أُنِيب.

إنِّى[٦] وجدتُ فضيلةَ الكلام باهرةً ، ومَنْقُبة المنطِقِ ظاهرةً ، فى خلالٍ كثيرة ، وخصال معروفة .

منها : أنَّك لا تؤدِّى شُكرَ الله ولا تقدر على إظهارِهِ إلَّا بالكلام .

ومنها : أنَّك لا تستطيع العبارة عن حاجاتك[٧] والإبانةَ عن ماربك[٨] إلَّا باللِّسان . وهذان فى العاجل والآجِل مع أشياءَ كثيرة لو يَنْحُوها الإنسانُ لوجَدَها فى المعقول موجودة[٩] ،وفى المحصول معلومة[١٠]

---

(١) ب : « يلفى » ، مج : « يلق » . صوابهما فى م ، ط .

(٢) بحجته ، ساقطة من ب . و الفلج ، بالفتح : الغالب بحجته الظافر على خصمه . وفى اللسان : « ورجل فالج فى حجته وفلج ، كما يقال بالغ وبلغ ، وثابت وثبت » .

(٣) التكملة من ط ، مج .

(٤) م : « فلج » ب ، ط : « فلج » ، صوابهما فى مج .

(٥) ماعدا مج : « نستعين » .

(٦) ماعدا م : « وإنى » .

(٧) م : « حاجتك » .

(٨) ماعدا مج : « مأربك » .

(٩) ب فقط : « موجوداً » .

(١٠) ب فقط : « معلوماً » .

وعند الحقائق مشتهرةً(١) ، وفى التّدبير ظاهرةً(٢) .

ولم أجِدْ للصَّمت فضلاً على الكلام ممَّا يحتمله القياس . لأنَّك تصف الصمت [بالكلام ، ولا تصف الكلام به . ولو كان الصَّمَت(٣)] أفضلَ والسُّكوت أمثَلَ لما عُرِفَ للآدميِّين فضلٌ على غيرهم . ولا فُرِقَ بينهم وبين شيءٍ من أنواع الحيوان وأخياف الخَلْق(٤) فى أصناف جواهرِها واختلافِ طبائِعها ، وافتراق حالاتها وأجناسِ أبدانها فى أعيانها وألوانها . بل لم يمكن أنْ يميَّز(٥) بينهم وبين الأصنامِ المنصوبة والأوثانِ المنحوتة ، وكان كلُّ قائمٍ وقاعد(٦) ، ومتحرِّكٍ وساكن ، ومنصوب وثابتٍ ، فى شرعٍ سواءٍ(٧) ومنزلةٍ واحدة ، وقِسمةٍ مُشاكلة ؛ إذْ كانوا(٨) فى معنى الصَّمت بالجُثَّةِ(٩) واحداً ، وفى معنى الكلام بالمنطق متبايناً(١٠) . ولذلك صارت الأشياء مختلفةً فى المعانى ، مؤتلفة الأشكال ، إذْ كانت(١١) فى أشكالِ خِلقتها متَّفقة بتركيب جواهرها(١٢) ، وتأْليف أجزائها ، وكمال أبدانها ، وفى معنى الكمال متباينةً عند مفهوم نَغَماتها ، ومنظومِ ألفاظها ، وبَيانِ مَعالِمها وعَدْل شواهدها .

(١) ب : « مشتهراً » م : « مشهرة » ، والوجه ما أثبت من ط ، مج .
(٢) ب ، م : « ظاهراً » .
(٣) مابين المعقفين ساقط من ب ، كما سقطت كلمة « به » ما عدا ط .
(٤) الأخياف : الضروب المختلفة فى الأخلاق والأشكال . م : « وأحياف » ، تحريف . وفى ط : « وأصناف » .
(٥) ماعدا ط : « بل لم يكن يميز » .
(٦) فى جميع الأصول : « وكان لكل قائم وقاعد » ، والوجه ما أثبت .
(٧) الشرع ، بالتحريك ، ويقال بالفتح أيضاً : السواء ، يقال هذا شرع سواء . وفى الحديث : « أنتم فيه شرع سواء » ، أى متساوون .
(٨) ب فقط : « إذا كانوا » .
(٩) ب فقط : « بالجثة » ، تحريف .
(١٠) أى شيئاً متبايناً .
(١١) فقط : « إذا كانت » .
(١٢) ماعدا ط : « أجوادها » .

مع أنّى لم أُنكر فضيلة الصَّمت . ولم أُهجِّن ذِكرَه إلّا أنَّ فضلَه خاصٌّ دون عامّ ، وفضلَ الكلام خاصٌّ وعام ، وأن الاثنين إذا اشتمل عليهما فَضْلٌ كان حظُّهما أكثر ، ونصيبهُما [أوفر من الواحد . ولعلّه أن يكون بكلمةٍ واحدةٍ نجاةُ[1]] خلقٍ ، وخلاصُ أُمّة .

ومن أكثر ما يُذكَرُ للسَّاكت من الفضل ، ويُوصَف له من المَنقُبة أن يقال يسكُت ليتوقّى به عن الإثم[2] ، وذلك فضلٌ خاصٌّ دون عامّ .

ومن أقلّ مايُحتكَم عليه أن يقال غبيٌّ أو جاهل[3] ، فيكون فى ذلك لازمُ ذَنْبٍ على التوهُّم به ، فيجتمع مع وقوع اسم الجاهِل عليه ما ورَّط فيه صاحبَه من الوِزْر .

والذى ذُكِرَ من تفضيل الكلام ما يَنطِقُ به القُرآن ، وجاءت فيه الرِّوايات عن الثِّقات ، فى الأَحاديث المنقولات ، والأَقاصيص المرويَّات ، والسَّمَر والحِكايات ، وما تكلَّمت به الخطباءُ ونطقَتْ فيه البلغاءُ — أكثرُ من أن يُبلَغ آخرُها ، ويُدركَ أوّلُها[4] ، ولكنْ قد ذكرتُ من ذلك على قدْرِ الكِفاية ، ومن الله التوفيقُ والهِداية .

ولم نَرَ الصَّمتَ — أسعدك اللهُ — أحمَدَ فى موضع إلّا وكان الكلامُ فيه أحمد . لِتَسارُعِ النَّاسِ[5] إلى تفضيل الكلام ، لظهورِ عِلَّتِهِ ، ووضوحِ جليَّته ، ومَغَبَّةِ نفْعِه .

---

(١) مابين المعقفين ساقط من ب .

(٢) يقال ، ساقطة من ط . و فى ب فقط : « عن الاسم » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « غنى » ، تحريف .

(٤) م فقط : « ويترك أولها » .

(٥) ب فقط : « لسارع الناس » ، تحريف .

وقد ذكر الله جَلَّ وعَزَّ[١] فى قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السلامُ حين كَسَرَ الأصنام وجَعَلَها جُذاذًا ، فقال حكايةً عنهم : ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيم . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ[٢] ﴾ . فكان كلامُه سبباً انجاته ، وعِلَّةً لخلاصِه ، وكان كلامُه عند ذلك أَحْمَدَ من صمتِ غيرِه فى مثلِ ذلك الموضع ، لأَنَّه عليه السلام لو سكت عند سؤالهم إيَّاه لم يكن سكوتُه إِلَّا على بَصَرٍ وعِلمٍ ، وإنَّما تكلَّم لأَنَّه رأى الكلامَ أَفضلَ ، وأنَّ من تكلَّم فأَحسنَ قَدَرَ أَن يسكُت فيُحسِن ، وليس من سكت فأَحسَنَ قَدَرَ أَن يتكلَّم فيُحسِن .

واعلَمْ – حَفِظك الله – أَنَّ الكلامَ سببٌ[٣] لإيجاب الفضل ، وهِدايةٌ إلى معرفة أَهل الطَّوْل .

ولولا الكلامُ لم يكنْ يُعرَفُ الفاضلُ من المفضول، فى معانٍ كثيرة، لقول الله[٤] عَزَّ وجلّ ، فى بيانِ يُوسف عليه السلامُ وكلامِه عند عَزيزِ مصر، لمَّا كلَّمه[٥] فقال : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ[٦] ﴾ . فلو لم يكن يوسُفُ عليه السلامُ أَظهَرَ فضْلَه بالكلامِ ، والإفصاحِ بالبيان ، مع مَحاسِنه المُونِقةِ، وأخلاقِه الطَّاهرة، وطبائِعه الشريفة ، لَمَا عرَفَ العزيزُ فَضْله ، ولا بلغَ تلك المنزلةَ لديه ، ولا حَلَّ ذلك المحلَّ منه[٧] ، ولا صار

(١) مج : « وقد ذكر الا جل وعز » . وانظر ما سيأتى .
(٢) الآيتان ٦٢ ، ٦٣ من سورة الأنبياء .
(٣) ب فقط : « لسبب » ، تحريف .
(٤) مج : « لقول الا » ، ويبدو أن هذا وسابقه محاولة طباعية لاختصار لفظ الجلالة ، وهو أمر بشع .
(٥) ب ، مج : « ما كلمه » تحريف ، م : « فلما كلمه قال » ، وأثبت ما فى ط .
(٦) الآية ٥٤ من سورة يوسف .
(٧) ب : « ولا جل » م : « ولأجل » صوابهما فى مج ، ط . وفى ب فقط : « ذلك المحمل » ، تحريف .

عنده بموضع الأمانة ، ولكانَ في عِدادِ غيرِهِ[(١)] ومنزلةِ سِواهُ عند العزيز. ولكنَّ الله جعلَ كلامه سبباً لرفع منزلته ، وعُلوِّ مرتبته ، وعِلَّةً لمعرفة فضيلته ، ووسيلةً لتفضيل العزيز إيَّاه .

ولم أرَ للصَّمت فضيلةً في معنًى ولا للسُّكوت مَنْقَبةً في شيء إلاَّ وفضيلةُ الكلامِ فيها أكثَرُ ، ونصيبُ المنطقِ عندها أوفر ، واللَّفظُ بها أشهر . وكفى بالكلام فضلاً ، وبالمنطق مَنقَبة ، أنْ جعَلَ اللهُ الكلامَ سبيلَ تهليله وتَحميده ، والدَّالَّ على معالم دينهِ وشرائع إيمانه ، والدَّليل إلى رضوانه[(٢)] . ولم يرضَ من أحدٍ من خلقه إيماناً إلَّا بالإقرار ، وجعل مسلكَه اللِّسان ، ومجراه فيه البيانَ ، وصيَّره المعبِّر عمَّا يُضمره[(٣)] والمُبين عمَّا يُخبِره[(٤)] ، والمنبئَ عن[(٥)] مالا يستطيع بيانَه إلَّا به[(٦)] . وهو تَرجُمانُ القَلبِ . والقلب وعاءٌ واعٍ[(٧)] .

ولم يُحمد الصَّمت من أحدٍ إلَّا توقِّيًا لعجزه عن إدراك الحقِّ والصَّوابِ في إصابة المعنى . وإنَّما قاتل النبيُّ صلى الله عليه وسلم المشركين عند جهلهم الله تعالى وإنكارهم إياه ، ليُقرُّوا به ، فإذا فَعَلُوه حُقِنَتْ دماؤهم ، وحُرِّمت أموالُهم ، ورُعِيتْ ذِمَّتُهم . ولو أنَّهم سكتوا ضنًّا بدينهم لم يكن سبيلُهم إلَّا العطَب .

---

(١) مج : « في عداو غيره » ، تحريف .
(٢) مج : « على رضوانه » ، تحريف .
(٣) ب : « وصيره المصير عنك ماتضمره » م : « وصيره المعبر عنك ما تضمره . صوابهما في ط ، مج .
(٤) ب ، م ، مج : « والمبين عنك ما يخبره » ، صوابه في ط .
(٥) ما عدا ط : « عنك » ، تحريف .
(٦) ماعدا مج : « مايستطيع » وفي مج : « مالا تستطيع » والوجه ماأثبت . وقد سقطت « إلا به » من ط .
(٧) مج : « دعاء وراع » .

فاعلم أنَّ الكلام من أسباب الخير لا من [أسباب] الشر[١] .

والكلامُ – أبقاكَ الله – سبيلُ التمييز بين الناس والبهائم . وسببُ المعرفةِ لفضل الآدميِّين على سائر الحيوان[٢] ، قال[٣] الله عز وجلّ : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ[٤]﴾. كرَّمَهم[٥] باللسان وجمَّلهم بالتدبُّر[٦] .

ولو لم يكن الكلامُ لما استوجب أحدٌ النِّعمة ، ولا أقام على أداءِ ما وجبَ عليه[٧] من الشُّكْرِ سبباً للزِّيادة ، وعلَّة لامتحان قلوبِ العباد . والشكرُ بالإظهار فى القول ، والإبانةِ باللِّسان . ولا يُعرفُ الشكرُ إلَّا بِهِما . والله تعالى يقول : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ[٨]﴾، فجعل الشُّكر علَّةً لوجوب الزِّيادة ، عند إظهاره بالقَوْلِ ، والحمدَ مفتاحاً للنِّعمة .

وقد جاء فى بعض الآثار : لو أنَّ رجلاً ذكَر اللهَ تعالى وآخرَ يَسْمَعُ له كان المعدودُ للمستمِع من الأَجْر ، والمذكورُ له من الثَّواب واحداً[٩] وللمتكلِّمِ[١٠] به عشرةٌ أو أكثر .

فهل تُرى – أبقاك الله – أنَّه وجَبَ لصاحب العَشْرِ[١١] ذلك وفَضل

(١) ب ، م : « إلا من الشر » ، تحريف .
(٢) ب : « على سائر الحيوان »..
(٣) ب : « فقال » .
(٤) الآية ٧٠ من سورة الإسراء .
(٥) ب فقط : « أكرمهم » .
(٦) فى جميع الأصول : « وحملهم بالتدبر » ، والوجه ما أثبت .
(٧) ماعدا ط : « عليهم » .
(٨) الآية ٧ من سورة إبراهيم .
(٩) ب ، م : « واحد » .
(١٠) ب فقط : « والمتكلم » .
(١١) مج : « العشرة » ، وكلا هما جائز لأنه صفة لمعدود محذوف .

به على صاحبه إلَّا عند استعماله بالنُّطق به لسانَه[١] . ولم يلزم[٢] الصَّمت أحدٌ إلَّا على حسب وقوع الجهلِ عليه . فأَمَّا[٣] إذا كان الرَّجُل نبيها مميَّزاً ، عالماً مفوَّها فالصَّمتُ مُهجِّنٌ لعلمِه وساتِر لفضلِه[٤] . كالقدَّاحةِ لم يستبن نَفْعُها دون تزنيدها[٥] . ولذلك قيل : « من جهل عِلمًا عادَاهُ » .

٢ — فصل منها

ولم أَجِدِ الصَّامت مستعاناً به في شيءٍ من المعاني ، ولا مذكوراً في المحافل .

ولم يُذكَر الخطباءُ ولا قَدَّمتْهمُ الوفودُ عند الخُلفاءِ إلَّا لِمَا عرفوه من فَضْلِ لسانِهم وفضيلةِ بيانهم . وإنَّ أَصحَّ ما يُوجد في المعقول ، وأَوضحَ مايُعَدُّ في المحصولِ للعربِ من الفَضْلِ، فصاحتُها وحسنُ منطقِها ، بَعْدَ فضائلِها المذكورة ، وأَيَّامها المشهورة .

ولفضل الفصاحةِ وحُسْن البيانِ بعَثَ الله تعالى أَفضلَ أَنبيائِهِ وأَكرمَ رُسُلِهِ من العرب ، وجَعلَ لسانَه عربيًّا . وأَنزَلَ عليه قُرآنه عربيًّا ، كما قال الله تعالى : ﴿ بلسانٍ عربيٍّ مُبِين[٦] ﴾. فلم يُخَصَّ اللسانُ بالبيان، ولم يُحْمد بالبرهان إلاَّ عند وجود الفضل في الكلامِ . وحسن العبارةِ عندَ المنطق ، وحلاوةِ اللَّفظ عند السَّمع .

واعلم أَنَّ الله تعالى لم يُرسِل رسولاً ولا بَعثَ نبيًّا إلَّا مَن كان فضلُه

---

(١) مج : « على لسانه » .
(٢) م فقط : « ولا يلزم » .
(٣) ط فقط : « أما » بلا فاء .
(٤) ب ، م : « فضله » .
(٥) المراد بالتزنيد استعمال الزندين ، والكلمة بهذا المعنى لم ترد في المعاجم المتداولة .
(٦) الآية ١٩٥ من سورة الشعراء .

فى كلامه وبيانِه كفَضْله على المبعوث إليه ، فكان النبىُّ صلى الله عليه وسلم أفصح العربِ لساناً ، وأَحسَنهُم بياناً ، وأسهلَهم مخارج لِلكلام[(١)] وأكثَرَهُم فوائد من المعانى ؛ لأنه كان من جماهير العَرَب ، مَولده فى بنى هاشم ، وأخوالُه من بنى زُهرة ، ورَضاعه فى بنى سعد بن بكر ، ومنشَؤُه فى قريش ، ومتزوَّجُه فى بنى أَسد بن عبد العزَّى ، ومهاجَرُهُ إلى بنى عمرو[(٢)] ، وهم الأَوسُ والخزرج من الأَنصار . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أنا أَفصحُ العربِ بَيْدَ أنِّى من قريش، ونشأْتُ فى بنى سَعدِ بن بكر[(٣)] » .

ولو لم يكن ممَّا عَدَدْنَا من هؤلاء الأَحياء إلَّا قريشٌ وحدها لكان فيها مستغنًى عن غيرها ، وكفايةٌ عن من سواها[(٤)] ، لأَنَّ قريشاً أَفصح العرب لساناً وأَفضَلُها بياناً ، وأَحضرُها جواباً ، وأحسنها بديهة[(٥)] ، وأجمعها عند الكلام قَلْبا .

ثم للعرب أيضاً خصالٌ كثيرة ، ومشاهدُ كثيرة ، ممَّا يشاكل هذا البابَ ، ويُضارع هذا المِثال ، حذفْتُ ذِكرَها خوف التطويل فيها[(٦)] .

---

(١) ب ، م : « مخارج الكلام » .

(٢) هكذا وردت « مهاجرته » فى جميع الأصول ، وهى صحيحة ولغة الجاحظ تتطلب « مهاجره » . وعمرو هذا هو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد . والأوس والخزرج أبوهما حارثة بن ثعلبة بن عمرو هذا ، الملقب بمزيقياء . جمهرة ابن حزم ٣٣٢ . ويقول أوس بن الصامت الأنصارى : (العينى ١ : ٣٩١ والخزانة ١ : ٢٢٩) :

أنا ابن مزيقيا عمرو وجدى ... أبوه عامر ماء السماء

(٣) انظر لسان العرب (بيد) .

(٤) فى جميع الأصول : « وكفاية من سواها » .

(٥) م فقط : « بديهية » .

(٦) ما عدا ط : « وذكرت التطويل فيها » ، تحريف .

٣ ـ فصـــل منها

فهذه كُلها دلائِل[1] على دَحْضِ حُجَّتِك ونقضِ قضيَّتك. وإنَّما أرسلَ الله تعالى رُسلَه مبشِّرينَ ومنذرين الأُممَ، وأمرَهم بالإبلاغ ليُلزمهم الحجَّةَ بالكلامِ لا بالصَّمت. إذ لا يكون للرِّسالة بلاغٌ ولا للحجَّة لزُومٌ ولا لِلعلَّةِ ظهورٌ إلَّا بالنُّطق[2].

٤ ـ فصـــل منها

فى صفة من يقدر على الإبانة

وليس يَقْوَى على ذلك إلَّا امرؤٌ فى طبيعته فضلٌ عن احتمال نحيزته[3] وفى قريحته زيادةٌ من القوَّة على صناعته. ويكون حَظُّه من الاقتدار فى المنطق فوقَ قِسطِهِ من التغلُّب فى الكلام، حتَّى لا يضعَ اللفْظَ الحرَّ النبيل إلَّا على مثلِه من المعنى، ولا اللفْظَ الشريفَ الفخمَ[4] إلَّا على مثله من المعنى. نعم، وحتَّى يُعطِىَ اللَّفظَ حقَّه من البيان، ويوفِّر على الحديث قِسطَه من الصَّواب، ويُجزِلَ[5] للكلام حظَّه من المعنى، ويَضَعَ جميعَها مواضِعَها، ويصفَها بصفتها، ويوفِّر عليها حقوقَها من الإعراب والإفصاح.

---

(١) م: «دليلة» ط: «دليل»، وأثبت ما فى سائر النسخ.

(٢) بعده فى مج: «والله أعلم». وبذلك ينتهى النص المذكور فى نسخة مجموعة الساسى.

(٣) نحيزة الرجل: طبيعته، كالنحيتة أيضاً. ط فقط: «غيرته».

(٤) ب: «المفخم».

(٥) م: «ويجزك» ط: «ويحرك»، صوابهما فى ب.

٥ — فصـــل منها

وبعدُ، فأىُّ شئٍ أشهر مَنْقَبةً وأرفعُ درجةً وأكمل فضلاً، وأظهر نفعًا، وأعظم حرمةً،من شئٍ لولا مكانُه لم يثبُتْ للهِ رُبوبيَّة[١] ولالنبىٍّ حجة[٢]، ولم يُفصَل بين حُجَّة وشُبهة، وبين الدَّليل[٣] وما يَتجلَّى[٤] فى صورة الدَّليل.

ثم به يُعَرفُ فضلُ الجماعة من الفُرقة، والشُّبهة من البدعة، والشُّذوذ من الاستفاضة.

والكلام سببٌ[٥] لتعرُّفِ حقائقِ الأَديان، والقياسِ فى تثبيتِ الرُّبوبيَّة[٦] وتصديق الرسالة، والامتحان للتَّعديل والتجوير[٧] والاضطرار والاختيار[٨].

---

(١) ب: «لم يثبت الله يسوتبة» تحريف.

(٢) م: «للنبى حجة». ومابعده إلى «حجة» التالية ساقط من م.

(٣) «بين الدليل» ساقط من ب.

(٤) ب: «تتجلى».

(٥) ب: «والكلام لسبب».

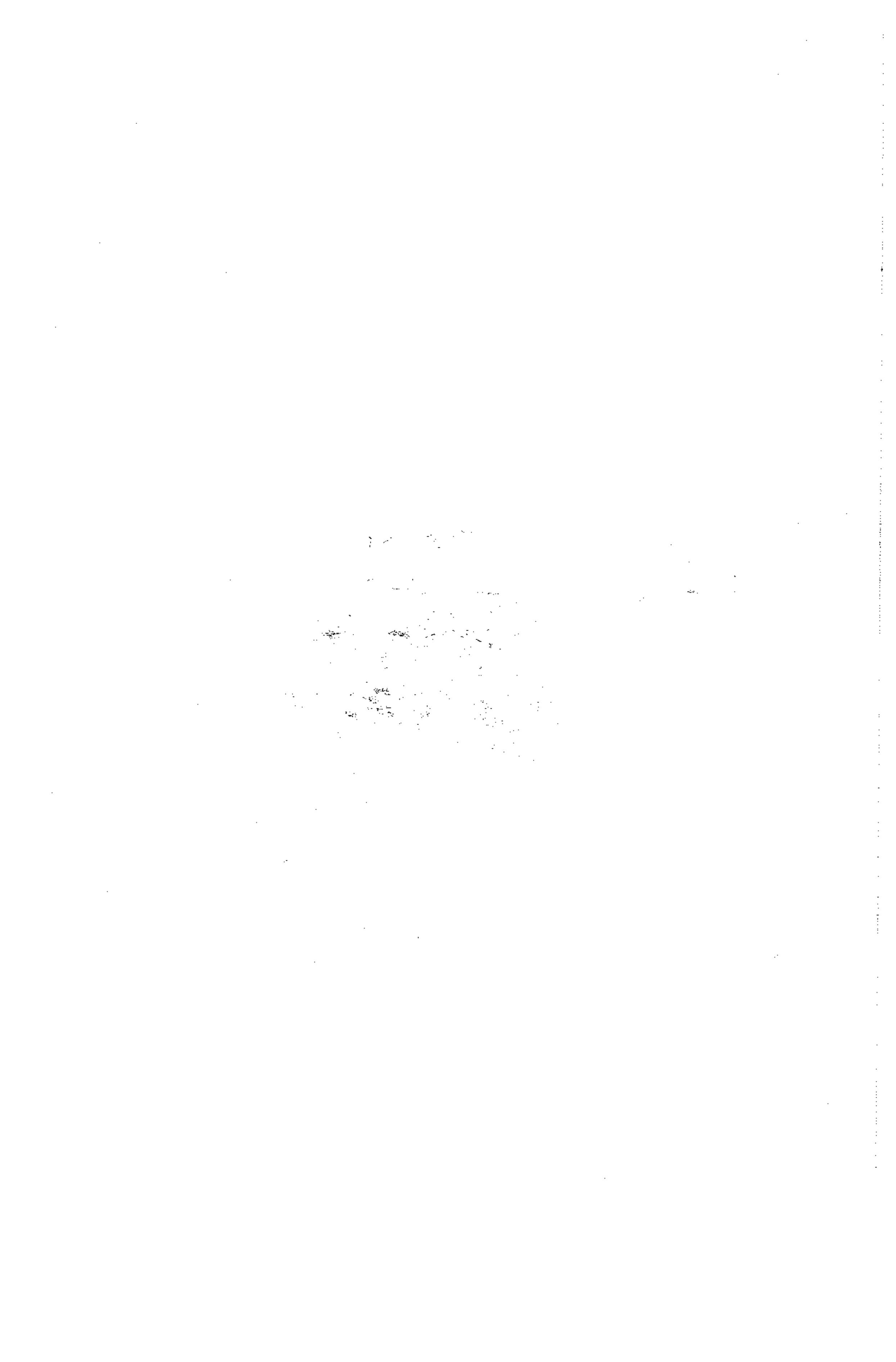
(٦) م: «والقياس وإثبات الربوبية»

(٧) فى جميع الأصول: «والتحرير»، والوجه ما أثبت. والتجوير: نسبة الجور، أى الظلم إلى الله. وانظر ما سبق فى ٣٣، ٤٠.

(٨) ط: «للاضطرار والاختيار» صوابه فى ب، م.

٢٥

من كتابه في
صناعة الكلام



١ — فصــل

من صدر كتابه فى صناعة الكلام[1]

ذكرتَ — حفظك الله تفضيلك[2] صناعةَ الكلام ، والذى خصصتَ به مذهبَ النَّظَّام ، وشغفَك بالمبالغة فى النَّظر ، وصَبابتك[3] بتهذيب النِّحَل ، مع أُنسِكَ بالجماعة ، ووحشتك من الفُرْقة . والذى تَمَّ عليه عزمُك من إدامة البحث والتنقير[4] ومِن حمْل النَّفسِ على مكروهها من التفكير ، ومنَ الانتسابِ إليهم والتعرُّفِ بهم . والذى تهيَّأ لك من الاحتساب فى الأَجْر ، والرغبةِ فى صالح الذِّكْر ، والذى رأيتَ من النَّصْب للرَّافضة والمارِقة . وطُولِ مفارقة المرجئة والنَّابتة . ولكلٍّ من اعترض عليهم ، وانحرفَ عنهم ، والذى يُخَصُّ به الجَبْريّة ويُعَمُّ به المشبَّهة .

فيأَيُّها المتكلِّمُ الجَماعىّ ، والمتفقِّهُ السُّنِّىّ ، والنَّظَّار المعتزلى ، الذى سَمت همَّتُه إلى صناعة الكلام مع إدبار الدنيا عنها ، واحتَمل مافى التعرُّض للعوامِّ من الثَّواب عليها ، ولم يُقْنِعه من الأَديانِ إلَّا الخالص الممتحَن[5] ولا من النِّحَل إلَّا الإبريزُ المهذَّب ، ولا من التمييز إلَّا المحضُ المصفَّى . والذى رغِبَ بنفسِه عن تقليد الأَغمار والحُشْوة[6] ، كما

---

(١) هامش الكامل ٢ : ٢٣٨ — ٢٤٦ باسم « صناعة الكلام » وكذلك ريشر ١٥٩—١٦٣ . وانفردت نسخة المتحف البريطانى (ب) باسم « فضيلة صناعة الكلام » .

(٢) ب فقط : « تفضيل » .

(٣) فى جميع الأصول : « وصيانتك » ، والوجه ما أثبت .

(٤) ب ، م : « والتنفير » ، صوابه فى ط .

(٥) الممتحن : المصفى المخلص ، من قولهم : محنت الفضة ، إذا صفيتها وخلصتها بالنار . ب فقط : « الممتحز » تحريف .

(٦) حشوة الناس ، بالضم : رذالتهم . م فقط : « والحشوية » ، وليست مرادة هنا ، وانظر لحشوية مامضى فى ٣ : ٢٨٨ .

رغِب عن ادِّعاء الإلهام والضرورة ، ورغِب عن ظُلم القياس بقدر رغبته في شرفِ اليقين[١] :

إنَّ صناعةَ الكلامِ عِلقٌ نفيس . وجوهرٌ ثمين . وهو الكنز الذي لا يَفْنَى ولا يَبْلَى ، والصاحب الذي لا يُمَلُّ ولا يُغِلّ[٢] . وهو العِيارُ على كلِّ صناعة . والزِّمام على كلِّ عبارة ، والقِسطاس الذي به يُستبان نُقصانُ كلِّ شيءٍ ورُجحانُه ، والرَّاوُوق الذي به يُعرف صفاءُ كلِّ شيء وكَدَرُه ، والذي كلُّ أهلِ علمٍ عليه عيالٌ . وهو لكل تحصيلٍ آلةٌ ومثال .

أَلَا إنَّه ثَغْرٌ[٣] والثَّغر محروس ، وحِمًى والحمى ممنوع . والحَرَم[٤] مصونٌ ، ولن تصونَه[٥] إلَّا بابتذالِ نفسِك دُونَه ، ولن تمنعَه[٦] إلَّا بأَن تجود بمهجتِك ومجهودك ، ولن تَحرُسَه إلَّا بالمخاطرة فيه . والثَّوابُ على قدر المشقَّة ، والتوفيقُ على مقدارُ حُسنِ النِّيَّة .

وكيف لا يكونَ حَرَماً وبه عرفنا حُرْمَةَ الشَّهر الحرام والحلال المنزَّل ، والحرام المفصَّل ؟ !

وكيف لا يكون ثغراً وكلُّ الناسِ لأَهلِه عدوٌّ ، وكلُّ الأُممِ له مُطالبٌ .

---

(١) في جميع الأصول : « شرب اليقين » ، والوجه ما أثبت .
(٢) يغل : يكون في قلبه الغش والضغن . والإغلال أيضاً : السرقة والخيانة . وفي الأصول : « ولا يقل » ، ولا وجه له .
(٣) في جميع الأصول : « الآية » ، ولعل وجهه ما أثبت .
(٤) ب ، م : « والحزم » ، صوابه في ط .
(٥) ب فقط : « ولا تصونه » .
(٦) ولن تمنعه ، ساقط من م .

وأحق الشيء[١] بالتعظيم ، وأولاهُ بأن يُحتَمَل فيه كلُّ عظيمٍ ما كان مُسلِماً إلى معرفة الصَّغير والكبير ، والحقير والخَطير ، وأداةً لإظهار الغامض ، وآلةً لتخليص الغاشية[٢] ، وسبباً للإيجاز يوم الإيجاز والإطناب يومَ الإطناب .

وبه يُستدَلُّ على صرف[٣] ما بين الشَّرَّين من النقصان . وعلى فَضْل[٤] ما بين الخيرين من الرُّجحان. والذى يصنع فى العُقول من العبارة وإعطاء الالة مِثلَ صنيعِ العقل فِى الرُّوح . ومثَل صنيع الرُّوح فى البدن.

وأىُّ شىءٍ أعظمُ من شىءٍ لولا مكانُه لم يثبت للرَّبِّ رُبوبيَّة ، ولالنبىٍّ[٥] حجة ، ولم يُفصَل بين حُجَّة وشُبهة، وبين الدَّليل وما يُتخيَّل فى صورة الدَّليل .وبه يُعرف الجماعةُ من الفُرْقة ، والسُّنَّة من البِدعة ، والشُّذوذ من الاستفاضة .

٢ – فصل منه

واعلم أنَّ لصناعة الكلام آفاتٍ كثيرة ، وضروباً من المكروه عجيبة . منها ماهو ظاهرٌ للعيون والعقول ، ومنها مايُدرَك بالعقول ولا يَظهر للعُيون ، وبعضُها وإنْ لم يظهر للعُيون وكان مما يظهر للعقول فإنَّه لايظهر إلَّا لكلِّ عقلٍ سليم جيِّدِ التركيب ، وذهنٍ صحيحٍ خالص الجوهر ، ثُمَّ لا يُدرِكُه أيضاً إلَّا بعد إدمان الفِكر ، وإلَّا بعد دراسة الكُتب ، وإلَّا

(١) ب ، م : « وأحق بالشىء » ، صوابه فى ط .

(٢) الغاشية : ما يغشى . ط فقط : « الفاشية » .

(٣) الصرف : الفضل . يقال : لهذا صرف على هذا ، أى فضل . وفى جميع الأصول : « ضرب » ، صوابه ما أثبت .

(٤) م ، ط : « فصل » بالصاد المهملة ، ولها وجهها .

(٥) ب ، م فقط : « للنبى » . وانظر ما مضى فى ٢٣٨ .

بعد مناظرة الشكل الباهر ، والمعلِّم الصابر . فإن أراد المبالغةَ وبلوغَ أقصى النهاية ، فلا بُدَّ من شهوة قوية . ومن تفضيلِهِ [على[1]] كلِّ صناعة ، مع اليقين بأنَّه متى اجتهد أَنْجح ، ومتى أدمن قرْعَ[2] البابِ وَلَجَ .

فإذا أعطى العِلْمَ حقَّه [من الرَّغبة فيه ، أعطاه حقَّه][3] من الثَّواب عليه .

٣ — فصل منه

ومن آفات صناعة الكلام أنْ يَرَى[4] مَنْ أحسَن بعضَها أنَّه قد أحسَنَها كلَّها ، وكلٌّ من خاصم فيها ظنَّ أنَّه فوقَ من خاصمه حتى يُرَى المبتدئ أنَّه كالمنتهى[5] ويُخيَّل إلى الغبيِّ أنَّه فوق الذكيّ . وأيضاً أنَّه يُعرِض عن أهله[6] ويَنْصِب لأصحابه مَنْ لم ينظُرْ فى علمٍ قطُّ ، ولم يخُضْ فى أدبٍ منذ كان ، ولم يدر ما التمثيل ولا التحصيل ، ولا فرقُ ما بين الإهمال والتفكير[7] .

وهذه الافاتُ لا تعترى الحُسَّاب ولا الكُتَّاب ، ولا أصحابَ النَّحو والعَروض ، ولا أصحاب الخبَر وحُمَّال السِّيَر ، ولا حُفَّاظَ الآثارِ ولارُواةَ الأشعار ، ولا أصحابَ الفرائِض ، ولا الخُطباءَ ولا الشُّعراءَ ، ولا أصحابَ الأحكام ومن يُفْتِى[8] فى الحلال والحرام ، ولا أصحاب التَّأْويل ،

---

(١) تكملة يفتقر الكلام إليها .

(٢) ب ، م : « قراع » ، صوابه فى ط .

(٣) م : « فإذا أعطى العلم حقه من الثواب عليه » . فقط بسقوط سائر الكلام .

(٤) ب ، م : « يرى » مع سقوط « أن » قبلها . وإثباتها من ط .

(٥) ب ، م : « حتى ترى » إلى آخر الكلام . وفى م : « حتى ترى المنتهى » فقط . وأثبت ما فى ط .

(٦) ب ، م : « وأيضاً أنه يعرض على أهله » ، صوابه فى ط .

(٧) ط : « والتفكر » .

(٨) ب ، م : « يعنى » ، صوابه فى ط .

ولا الأَطباء ولا المنجِّمين ولا المُهندسين ، ولا لذى صناعةٍ ولا لذى تجارة ، ولا لذى عَيْلة(١) ولا لذى مسألة .

فهم لهذه البليَّةِ مَخصوصون ، وعليها مقصورون . فللصَّابر منهم من الأجر حَسْبُ ما خُصَّ به من الصَّبر . وهى الصِّناعةُ لا يكاد تظهر قوَّتها(٢) ولا يُبلَغ أقصاها إلَّا مع حضور الخَصْم .

ولا يكاد الخصْم يبْلغ محبَّته منها إلَّا برَفْع الصَّوت وحركة اليَد ، ولا يكاد اجتماعُهما يكون إلَّا فى المَحفِل العظيم والاحتشاد من الخصوم ، ولا تحتفل نفوسهما(٣) ، ولا تجتمع قوَّتهما(٤) ، ولا تَجُود القُوَّة بمكنونها وتُعطِى أقصى ذخيرتها ، التى اَستَخْزَنَتْ(٥) ليوم فقرها(٦) وحاجتها ، إلَّا يومَ جمع وساعةَ حَفْل . وهذه الحال داعيةٌ إلى حبِّ الغَلَبة .

وليس شىءٌ أدعَى إلى التغلُّب من حبِّ الغَلَبة . وطولُ رَفْعِ الصَّوت مع التغلُّب ، وإفسادُ التغلُّب(٧) طباعَ المُفْسِد ، يوجبانِ فسادَ النِّيَّة ، ويمنعان من دَرْك الحقيقة . ومتى خرَجَا من حدِّ الاعتدال أَخْطَآ جِهةَ القصد .

وعِلم الكلام بَعْدُ(٨) ملقًّى من الظُّلم ، متاحٌ له الهَضْم . فهو أبدًا محمول

---

(١) العيلة ، بالفتح : الفقر والحاجة . وفى الكتاب العزيز : « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » .

(٢) م ، ط : « يظهر قوتها » .

(٣) ب ، م : « ولايحتفل نفوسهما » ، والوجه ما أثبت . وقد سقطت هذه العبارة من ط

(٤) ب ، م : « ولا يجتمع » . وفى ط : « قوتها » وهذه محرفة .

(٥) ب : « والذى استجريت » ، م : « والذى استجريت » ، صوابهما ما أثبت . وفى ط . « التى أعدتها » .

(٦) ب فقط : « اليوم فقرها » . تحريف .

(٧) ب ، م : « المتغلب » ، صوابها فى ط .

(٨) ب فقط : « أبعد » ، تحريف .

عليه ومبْخُوسٌ حَظُّه[(١)] وباب الظلم إليه مفتوح ، لا مانع له دونه . والعلمُ بما فيه من الضَّرر يخفى على أكثر العُقَلاء ، ويغْمُض على جمهور الأُدباء . وإذا كان ملقًّى من أكبر العقلاء ، ومخذولًا عند أكثر الأُدباء ، فما ظنُّك بمن كان عقله ضعيفاً ونظرُه قصيراً ؟ بل ماظنُّك بالظَّلوم الغادر ، والغُمْر الجاسر ؟ فهذا سبيلُ العوامِّ فيه ، وجهلُ عوامِّ الخواصِّ به ، وانحرافُهم عنه ، وميلُ الملوك عليه ، وعداوة بعضٍ لبعض فيه .

وصناعةُ الكلام كثيرةُ الدُّخَلاء والأَدعياء ، قليلةُ الخُلَّص والأَصفياء والنَّجابة فيها غريبة ، والشروط التى تَستحكم بها الصِّناعةُ بعيدةٌ سحيقة[(٢)] ؛ ولدعيِّ القومِ من العجز ماليس لصحيحِهم ، ولرديِّ الطِّباع فى صناعة الكلام من ادِّعاءِ المعرفة ماليس للمطبوع عليها منهم ، بل لا تكاد تجده إلَّا مغموراً بالحُشوة[(٣)] مقصوداً بمخاتل السَّفلة .

ومن مظالمِ صناعة الكلام عند أَصحاب الصِّناعات أَنَّ أَصحاب الحساب والهندسةِ يَزْعُمون أَنَّ سبيلَ الكلام سبيلُ اجتهادِ الرَّأْى ، وسبيلُ صواب الحَدْس ، وفى طريق التقريب والتَّمويه ، وأَنَّه ليس العلمُ إلَّا ما كان طبيعيًّا واضطراريًّا لا تأْويلَ له ، ولا يحتمل معناه الوجوهَ المشترَكة ، ولا يتنازعُ أَلفاظَه الحدودُ المتشابهة . ويَزعُمون أَنَّه ليس بين علمهم بالشَّيء الواحِد أَنَّه شىءٌ واحد وأَنَّه غير صاحبه فرق فى معنى الإتقان[(٤)] والاستبانة ، وثَلَج الصُّدور والحكم بغاية الثقة .

---

(١) المبخوس : المنقوص . ب فقط : « ومنجوس » .

(٢) السحيقة : البعيدة . وفى الكتاب : « أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » . وفى اللسان : « وإنه لبعيد سحيق » . وفى جميع الأصول : « سخيفة » ، والصواب ما أثبت .

(٣) ط : « بالحسدة » .

(٤) ط فقط : « الاتفاق » .

٤ — فصل منه[١]

فلو كان هذا المهندسُ الذى أبرم قضيَّته ، وهذا الحاسبُ الذى قد شَهَر حُكومَتَه ، نَظَرَ فى الكلام بعقل صحيح وقريحةٍ جيِّدةٍ ، وطبيعة مناسبة ، وعناية تامَّة ، وأعوانِ صِدق وقِلَّة شواغَل ، وشهوةٍ للعلم ، ويقينٍ بالإصابة ، لكان تهيُّبُ الحكمِ أَزْينَ به ، والتوقِّى أولى به . فكيف بمن لا يكونُ[٢] عرفَ من صناعة الكلام ما يعرفه المقتصدُ فيه ، والمتوسِّط له .

على أنَّا ما وجدنا مهندساً قط ولا رأَيْنا حاسباً يقول ذلك إلَّا وهو ممن لا يتوقَّى سَرفَ القَوْل ، ولا يُشفِق من لائمة المحصِّلين ، وقضيَّتُه قضيَّةُ من قد عرف الحقائق ، واستبانَ العواقب ، ووزن الأُمورَ كلَّها وعجمَ المعانىَ بأَسرها ، وعلم من أَين وثِق كلُّ واثق ، ومن أَينَ غُرَّ كلُّ مغرور .

وعلى أَنَّهم يُقِرُّون[٣] أَنَّ فى الحساب مالا يُعلم ، وأَنَّ فى الهندسة مالا يُدرَك ولا يُفْهَم . والمتكلِّمون لا يُقِرُّون بذلك العجز فى صناعتهم ، وبذلك النقص فى غرائزهم .

٥ — فصل منه

وأَقول : إنه لو لم يكن[٤] فى المتكلِّمين من الفَضْل إلَّا أَنَّهم قد رأَوا إدبارَ الدنيا عن علم الكلام ، وإقبالَهَا إلى الفُتيا والأَحكام ، وإجماعَ

---

(١) فصل منه ، ساقط من ب ثابت فى م ، ط .

(٢) ب ، م : « فكيف أن لا يكون » .

(٣) ط : « يقرءون » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « إنه لم يكن » ، صوابه فى ط .

الرعيّة والراعى على إغناء المفتى ، وعلم الفتوى فرعٌ ؛ وإطباقَهم[(١)] على حِرمان المتكلِّم ، وعلم الكلام أصل . فلم يتركوا مع ذلك تكلُّفَهُ ، وشحَّتْ نفوسُهم عَن[(٢)] ذلك الحظِّ . مخافةَ إدخال الضَّيْمِ على علم الأصل ، وإشفاقاً من أن لا تَسَعَ طبائعُهم اجتماعَ الأصل والفرع[(٣)] ، فكان الفقر والقِلَّةُ آثَر عندهم مع إحكام الأُصول ، من الغِنى والكَثْرةِ ، مع حفظ الفروع ، فتركوا أن يكونوا قضاةً ،وتركوا[(٤)] القضاة وتعديلهم[(٥)] وتركوا أن يكونوا حُكَّاماً وقَنِعُوا بأَن يُحكَم عليهم ، مع معرفتهم بأَنَّ آلتَهم أَتمُّ ، وآدابَهم أَكمل ، وأَلسنتَهم أَحدُّ ، ونظرَهم أَثقب ، وحِفظهم أَحضرُ ، وموضعَ حفظهم أَحصَن .

والمتكلِّم اسمٌ يشتمل على ما بين الأَزرقِّ[(٦)] والغالى[(٧)] وعلى مادونهما من الخارجىِّ والرافضىِّ ، بل على جميع الشِّيعة وأَصْنافِ المعتزلة ، بل على جميع المرجئةِ وأَهل المذاهب الشاذَّة .

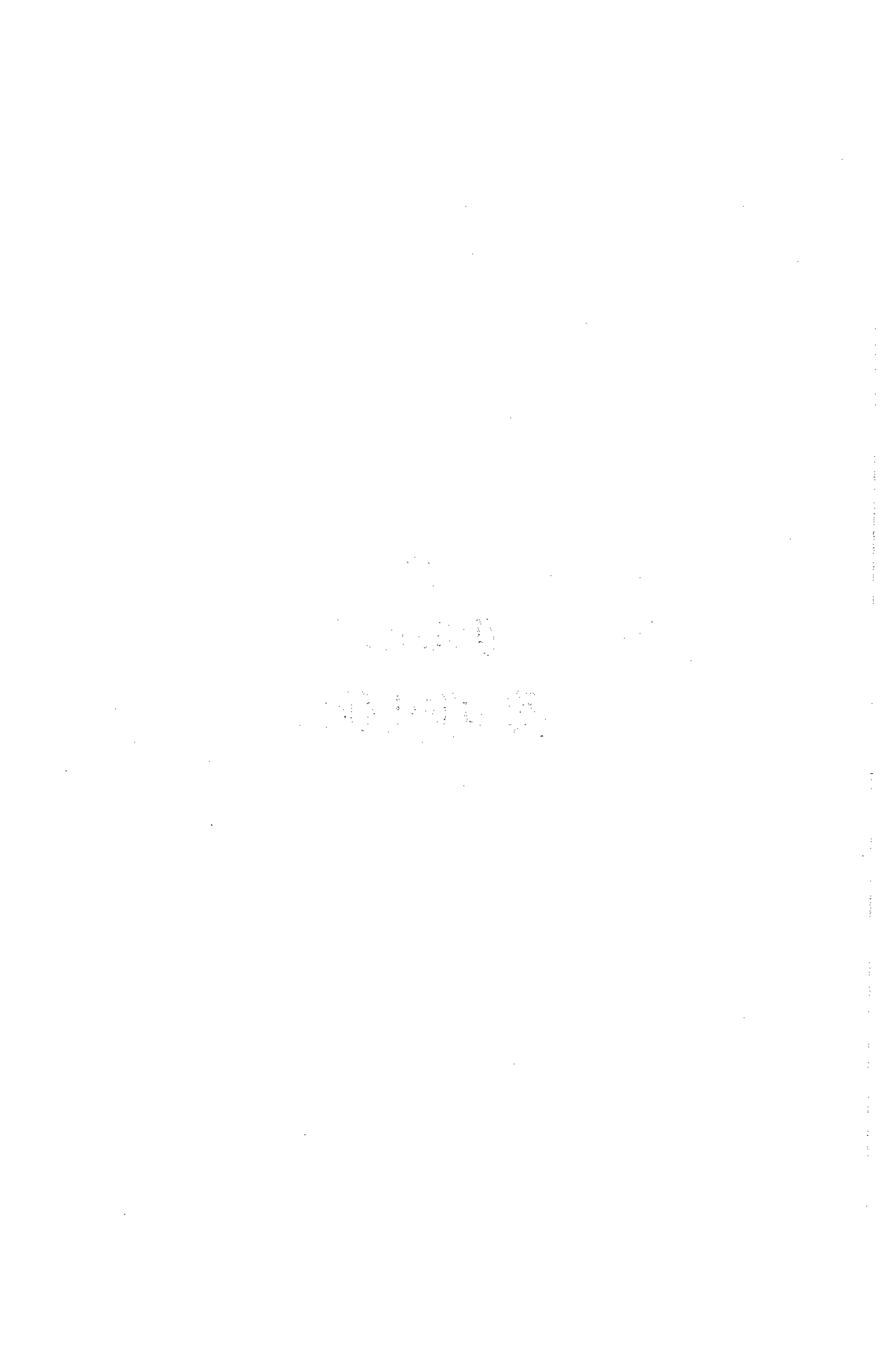
---

(١) ب ، م : « وإطباقها » ، صوابه فى ط .
(٢) ط : « على » .
(٣) ب ، م : « لاجتماع الأصل والفرع » .
(٤) ب ،م : « وخيروا » .
(٥) « وتعديلهم » ساقط من م .
(٦) الأزرق : واحد الأزارقة ، وهم أصحاب نافع بن الأزرق بن قيس الحنفى ، وكان من الخوارج ،قتل يوم دولاب سنة ٦٥ . وانظر الجزء الأول من الرسائل ص ٤٣ ، ٥١ . ب ، م : « الأزارق » ، صوابه فى ط .
(٧) الغالى : واحد الغلاة . وهو يعنى غلاة الشيعة .

٢٦

من رسالة في

مدح التجارة وذم عمل السلطان



١ - فصـــل

من صدر رسالته فى مدح التجار وذم عمل السلطان(١)

أدامَ اللهُ لكَ السَّلامَةَ ، وأسعدَك بالنِّعمة ، وختَمَ لك بالسَّعادة ، وجعلك من الفائزين .

فَهِمْتُ كتاب صاحِبك ، ووقفتُ منه على تعدٍّ فى القول ، وحَيْفٍ فى الحكم ؛ وسمعتُ قولَه . وهو على كلِّ حال حائرٌ ،(٢) وطريقُه طريقُهم ، وكتبُه تُشاكل كُتبَهم ، وألفاظُه تُطابِقُ ألفاظَهم .

وكذلك حالُنا وحالُ صاحِبِ كتابك فيما يَسْخَطه من أمرنا ، أنِّى لا أعتذِرُ منه ، وأستنكف من الانتساب إليه(٣) ، بل أستحِي من الكتابة ، وأستنكفُ بأن أنسُب إليها من البلاغة أنْ أعْرفَ بها فى غير موضعها ، ومن السَّجع(٤) أن يظهرَ منِّى ، ومن الصَّنعة(٥) أن تُعرف فى كتبى ، ومن العُجْبِ بكثيرِ مايكونُ منِّى .

وقديماً كرِهَ ذلك أهلُ المروءة والأَنفة(٦) ، وأهلُ الاختيارِ للصَّواب والصَّدِّ عن الخَطإ ، حتَّى إنَّ معاويةَ مع تخلُّفه عن مراتب أهل السَّابقة ، أمْلَى كتاباً إلى رجلٍ فقال فيه : « لهو أهْوَنُ علىَّ من ذرَّة ، أو كَلْبٍ من

---

(١) هامش الكامل ٢ : ٢٤٦ - ٢٥١ وريشر ١٨٦-١٨٨ ومجموعة الساسى ١٥٥-١٦٠ وقد انفردت نسخة الكامل بعنوان « مدح التجارة » . وانظر ما سيأتى فى ٢٥٤ س ٩ .

(٢) ب : « حاجز » م : « حاجر » ، صوابهما فى ط .

(٣) ب : « وأسنكف بان من الانتساب إليه » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « من السطع » ط : « السطحى » ، والوجه ما أثبت .

(٥) ب ، م : « الضيعة » ط : « الضبعة » ، والوجه ما أثبت .

(٦) ب ، م : « والأنف » .

كِلاب الحَرَّة » ثم قال : « امحُ : من كلاب الحَرَّة ، واكتبْ : من الكلاب » . كأَنَّه كره اتِّصال الكلام والمزاوَجَة وما أَشبه السَّجْع ، وأُرِيَ أَنَّه ليس فى موضعه .

٢ — فصـــل منه

وهذا الكلامُ لا يَزال ينجُم من حُشْوةِ[١] أَتباعِ السُّلطان . فأَمَّا عِلْيَتُهم ومُصاصُهم[٢] ، وذوُو البصائر والتمييز منهم ، ومن فَتَقَتْه الفِطْنة[٣] ، وأَرهفه[٤] التأْديب ، وأَرهقه طول الفكر[٥] وجَرَى فيه الحَيَاءُ[٦] وأَحكمتْه التجارب ، فعَرَفَ العواقبَ وأَحكم التفصِيل[٧] وتبَطَّنَ[٨] غَوامضَ التحصيل ، فإنهم يعترفون بفضيلةِ التُّجَّار ويتمنَّوْنَ حالَهم ، ويحكُمونَ لهم بالسَّلامة فى الدِّين[٩] ، وطِيب الطُّعمة[١٠] ، ويعلمون أَنَّهم أَودعُ النَّاس بَدَنًا وأَهنؤهم عَيشاً ، وآمَنُهم سِرْباً ، لأَنَّهم فى أَفنيتهم كالملوك[١١] على أَسِرَّتهم ، يرغب إليهم أَهلُ الحاجات ، وينزِع إليهم مُلتمسو البياعات ، لا تَلحقُهم الذِّلَّةُ فى مكاسبهم ، ولا يستعبدهم الضَّرَع لمعاملاتهم[١٢] .

---

(١) ط : « حشوية » .

(٢) المصاص ، بالضم : خالص كل شىء . ب : « فأما علتهم » ، تحريف ما فى م ، ط .

(٣) ب ، م : « فيقته الفطنة » ط : « فوقته الفطنة » ، والوجه ما أثبت .

(٤) أرهفه : أرقه إرقاقاً . ب ، م : « أرهقه » ، صوابه فى ط .

(٥) م ، ط : « وأرهفه » بالفاء ، والوجه ما أثبت من ب . وفى م ، ط : « التفكير »

(٦) ب : « الجتا » ، صوابه فى م ، ط .

(٧) ب : « التفضيل » بالضاد المعجمة .

(٨) تبطن الأمر : تعمق فيه . ب ، م : « وينطق » ، ط : « ونطق » ، والوجه ما أثبت .

(٩) ط : « بسلامة الدين » .

(١٠) الطعمة ، بالضم : وجه المكسب :

(١١) م ، ط : « وكالملوك » ، صوابه فى ب .

(١٢) الضرع ، بالتحريك : الخضوع والذلة والاستكانة . ب ، م : « ولا تستعبدهم » صوابه فى ط . وفى ب أيضاً : « لمعاملتهم » وأثبت ما فى م ، ط .

وليس هكذا مَنْ لابَسَ السُّلطان بِنَفْسِه ، وقارَبَه بخدمته ، فإنَّ أُولئك لِباسُهم الذِّلَّة ، وشِعارُهم المَلَق ، وقلوبُهم ممَّن هم لهم خَوَلٌ مملوءَةٌ ، قد لبِسها الرُّعب ، وأَلِفَها الذُّلُّ ، وصحِبَها ترقُّبُ الاحتياج ؛ فهُمْ مع هذا فى تكديرٍ وتنغيص ، خوفاً من سَطْوة الرَّئيس وتنكيل الصاحب ، وتَغيير الدُّول ، واعتراض حُلول المِحَن . فإنْ هى حلَّتْ بهم ، وكثيراً ما تَحُلّ ، فناهِيكَ بهم مَرحُومين يرقُّ لهم الأَعداءُ فضلاً عن الأَولياء .

فكيف لا يُميَّزُ بين منْ هذا ثمرةُ اختياره[1] وغايةُ تحصيله ، وبَين من قد نال الرَّفاهية والدَّعَة[2] ، وسلِم من البَوائق ، مع كثرة الإثراء وقضاءِ اللّذَّات ، من غير مِنَّةٍ لأَحد ، ولا مِنَّة يعتدُّ بها رئيس[3] ، ومن هو مِنْ نِعَمِ المُفْضلين خليٌّ ، وبين من قد استرقَّه المعروف ، واستعبدَه الطَّمَع ، ولزِمَه ثِقَل الصَّنيعة ، وطوَّق عُنقَه الامتنان ، واسترهِنَ بتحمُّل الشُّكر .

٣ — فصـــل منها[4]

وقد علِم المُسلمون أنَّ خِيرَةَ الله تعالى من خَلْقه ، وصَفِيَّه من عِباده ، والمُؤتَمن على وَحْيِه ، من أَهلِ بيتِ التِّجارة ، وهى معوَّلُهم وعليها مُعتَمَدهم ، وهى صناعةُ سَلَفهم ، وسِيرةُ خَلَفهم .

ولقد بلغتْك بَسالتُهم ، ووُصِفَتْ لك جَلَادتُهم ، ونُعِتَتْ[5] لك

(١) سقطت « من » من ب .
(٢) فى جميع الأصول : « الوفا عنه » ، والصواب ما أثبت .
(٣) ب ، م : « يعتديها ليس » ط : « يعتدى بها » فقط . والوجه ما أثبت .
(٤) فصل منها ، ساقط من ب .
(٥) ب : « ونعيت » تحريف . ط : « ونعت » بتاء واحدة ، وأثبت ما فى م .

أحلامُهم ، وتقرّر[١] لك سخاؤهم وضِيافتُهم ، وبَذْلُهم ومُواساتُهم . وبالتّجارة كانوا يُعرَفون . ولذلك قالت كاهنة اليمن[٢] « لله درُّ الدِّيارِ لقريشٍ التُّجّار » .

وليس قَولهم[٣] : قرشيٌّ لقولهم : هاشميٌّ ، وزُهْرى وتَيْمى ، لأنّه لم يكن لهم أبٌ يسمّى قُرَيشاً[٤] فينتسبون إليه ، ولكنّه اسمٌ اشتُقَّ لهم من التجارة والتّقريش ، فهو أفخمُ أسمائهم وأشرف أنسابهم ، وهو الاسمُ الذى نَوّه الله تعالى به فى كتابه ، وخَصّهم به فى مُحكم وحيه وتنزيله ، فجعله قرآناً عربيّاً يُتلَى فى المساجِد ، ويُكتَب فى المصاحِف[٥] ، ويُجهَر به فى الفرائِض ، وحُظْوة[٦] على الحبيب والخالص .

ولهم سوقُ عُكاظ ، وفيهم يقول أبو ذؤيب :

إذا ضَربُوا القِبَابَ على عُكاظٍ وقامَ البيعُ واجتمعَ الأُلوفُ[٧]

وقد غبر[٨] النبيُّ صلى الله عليه وسلم بُرهةً من دهره تاجراً ، وشَخَصَ فيه مسافراً ، وباع واشترى حاضراً ، والله أعلمُ حيثُ يجعل رِسالتَه .

ولم يَقْسِم الله مذهباً رضيًّا ، ولا خُلقًا زكيًّا[٩] ولا عملاً مَرْضيًّا إلّا وحظُّه منه أوفَر الحظوظ ، وقَسْمُه فيه أجزلُ الأقسام .

---

(١) فى جميع الأصول : « وتقدر » ، والصواب ما أثبت .

(٢) من بنى سعد بن هذيم بن زيد بن ليث ، كما فى السيرة ٩٢ . وليث هذا هو ابن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة . جمهرة ابن حزم ٤٤٧ .

(٣) فى جميع الأصول : « فوقهم » : ووجهه ما أثبت .

(٤) ب ، م : « قرشياً » ، صوابه فى م .

(٥) إشارة إلى سورة قريش .

(٦) ب ، م : « وحطوه » .

(٧) ديوان الهذليين ١ : ٩٨ برواية : « إذا بنى القباب على عكاظ » .

(٨) غبر : مكث . ب فقط : « عبر » ، تحريف .

(٩) ب فقط : « خلقياً » ، تحريف .

ولشهرة أَمرِهِ فى البَيع والشِّراءِ قال المشركون : ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ويَمْشِى فِى الأَسْوَاقِ[١] ﴾، فأَوحى الله إليه : ﴿ ومَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهمْ ليَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ويَمْشُونَ فى الأَسواق[٢] ﴾ . فأُخبر أَنَّ الأَنبياءَ قبله كانت لهم صناعاتٌ وتجارات .

٤ — فصـل منه

وإنَّ الذى دعا صاحبَك إلى ذمِّ التجارة توهمُه بقلَّة تحصيله ، انها تنقُص من العِلم والأَدب وتقْتطع دونهما[٣] وتمنع منهما[٤] . فأَىُّ صِنفٍ من العلم لم يبلغ التُّجَّار فيه غايةً ، أَو يأْخذوا منه بنصيب ، أَو يكونوا رؤساءَ أَهلِهِ وعِليتَهُم ؟ !

هل كان فى التابعين أَعلمُ من سعيد بن المسيَّبِ أَو أَنْبَل ؟ وقد كان تاجراً[٥] يبيع ويشترى ، وهو الذى يقول : ماقَضَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وآله[٦] ولا أَبو بكر . ولا عُمرُ ، ولا عُثمانُ ، ولا علىٌّ — رضوان الله عليهم — قضاءً إِلَّا وقد علمتُه .

وكان أَعبَرَ النَّاس للرُّؤيا وأَعلمَهُمْ بأَنساب قريش . وهو مَن كان يُفتِى أَصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم متوافرون . وله بَعْدُ[٧] علمٌ بأَخبار الجاهليَّة والإِسلام ، مع خشوعِهِ وشدَّة اجتهادِهِ وعبادته ،

(١) الآية ٧ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٢٠ من سورة الفرقان .
(٣) ب ، م : « ويقتطع دونهما » ، تحريف .
(٤) ب ، م : « ويمنع منهما » .
(٥) م : « وكان تاجراً » .
(٦) وآله ، ساقطة من ب .
(٧) م : « بعض » ، تحريف .

وأمرِه بالمعروف، وجَلالته فى أعينِ الخُلفاءِ . وتقدُّمه على الجبَّارين .

ومحمَّد بن سيرين فى فقهه ووَرَعه وطَهارته .

ومُسلم بن يسارٍ [1] فى علمه وعبادته ، واشتغالِهِ بطاعة ربِّه .

وأَيُّوبَ السَّختيانىّ [2] ، ويونُسَ بنِ عبيد [3] ، فى فضلهما وورعهما .

(١) مسلم بن يسار البصرى الأموى . روى عن أبيه وابن عباس وابن عمر ، وروى عنه ابنه عبد الله ، ومحمد بن سيرين ، وأيوب السختيانى وغيرهم . وكان مفتىّ أهل البصرة قبل الحسن . وكان إذا كان فى غير صلاة كأنه فى صلاة ، وإذا كان فى صلاة كأنه وقد لا يتحرك شىء منه . توفى فى خلافة عمر بن عبد العزيز سنة مائة ، أو إحدى ومائة . تهذيب التهذيب .

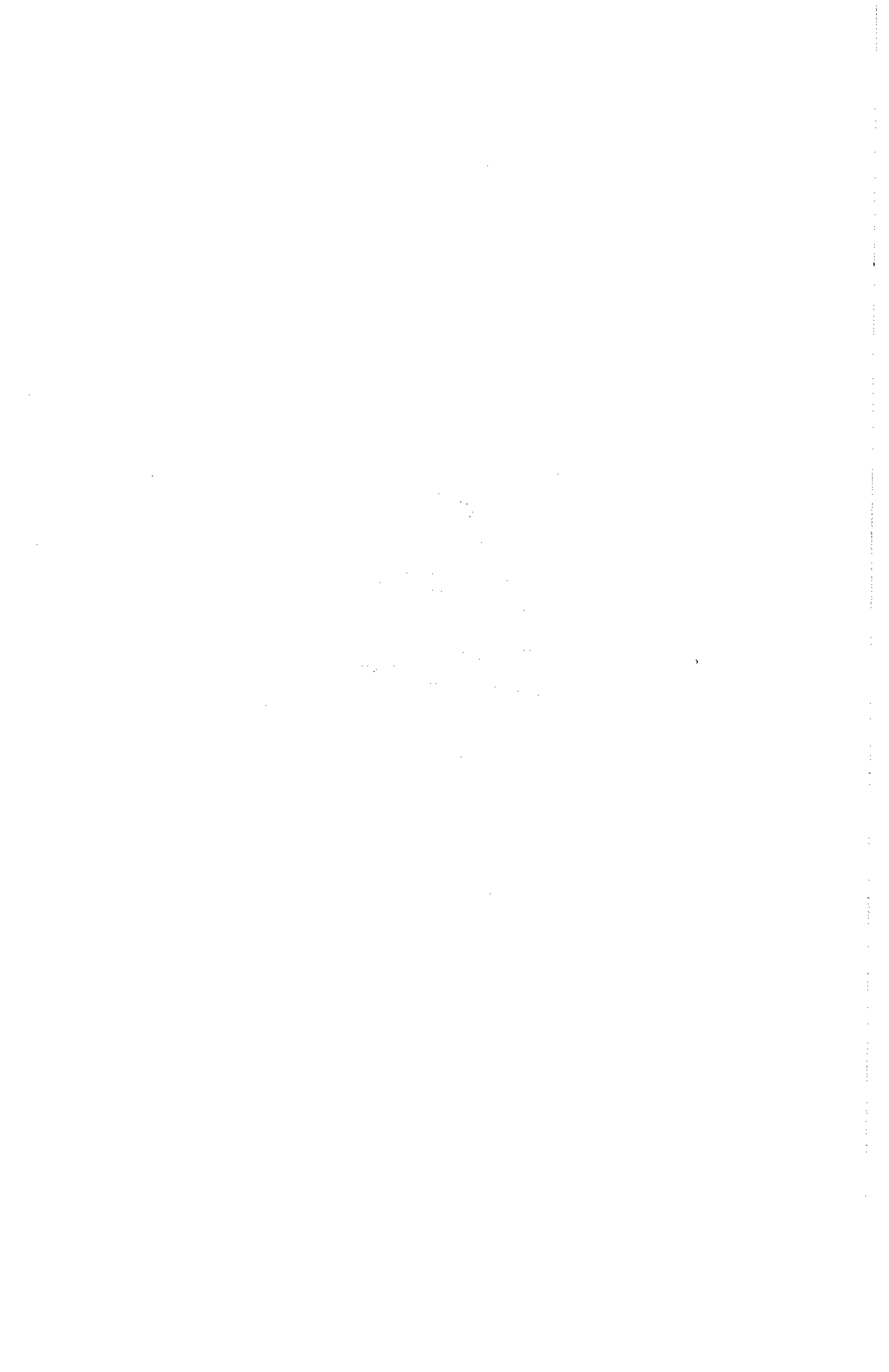
(٢) ب ، م : « السجستانى » . ط : « السخستيانى » ، والصواب ما أثبت . نسبته إلى عمل السختيان وبيعه ، والسختيان : جلود الضأن . انظر تقريب التهذيب ولب اللباب . وفى القاموس : «والسختيان ويفتح : جلد الماعز إذا دبغ . معرب» . وهو أيوب بن أبى تميمة كيسان ، أبو بكر البصرى ، روى عن عطاء وعكرمة وعمرو بن دينار ، وعنه : الأعمش من أقرانه ، وقتادة وهو من شيوخه ، والحمادان والسفيانان وغيرهم . ولد سنة ٦٦ وتوفى سنة ١٢٥ . تهذيب التهذيب . وصفة الصفوة ٣ : ٢١٢ .

(٣) فى الأصول : « يوسف بن عبيد » ، وإنما هو « يونس » كما فى تهذيب التهذيب ، وصفة الصفوة ٣ : ٢٢٢ . توفى سنة ١٣٩ . وانظر الحيوان ١ : ١٦٧ ، ٣٤٠ ، والبيان ١ : ٢٢٠ / ٢ : ٢٢٠ / ٣ : ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٧١ .

٢٧

من كتابه فى

الشارب والمشروب



١ – فصـــل

من صدر كتابه فى الشارب والمشروب[1]

سألتَ – أكرمَ اللهُ وجْهَك ، وأدامَ رُشدك ، ولطاعته توفيقك ، حتَّى تبلغ من مصالح دينك ودُنياك منازلَ ذوِى الألباب ، ودرجاتِ أهلِ الثَّواب – أن أكتبَ لك صفاتِ الشَّارب والمشروب وما فيهما من المَدْح والعيوب ، وأن أميِّز لك بين الأنبذة والخَمْر ، وأن أَقِفَك على حدِّ السُّكر ، وأن أُعرِّفَك السَّببَ الذى يرغِّب فى شُرب الأنبذة وما فيها من اجتلاب المَنْفعة ، وما يُكرَه من نبيذ الأوعية .

وقلت : وما فرقُ ما بين الجَرِّ[2] والسِّقاء ، والمزَفَّت والحَنْتَم والدُّبَّاءِ[3] ، وما القولُ فى المُمْتَلِّ[4] والمكسوب ، وما فرق ما بين النَّقيع والدَّاذِىِّ[5] ، وما المطبوخُ والباذَق[6] ، وما الغرْبىُّ والمروَّق[7] ، وما الذى يَحِلُّ من الطَّبيخ ، وما القول فى شُرب الفضيخ ، وهل يُكره نبيذُ العَكَر[8] ،

---

(١) الكامل ٢ : ٢٦٩ – ٣٥١ ، وريشر ١٦٣ – ١٦٨ ، والسندوبى ٢٧٦ – ٢٨٥ .
وهذا السجع الشائع فى صدر هذا الكتاب ، إنما هو حكاية لقول السائل . أما صميم كلام الجاحظ ورده على السائل فهو يبدأ فى ص ٢٧٣ .

(٢) الجر : جمع الجرة من الخزف ، وتجمع أيضاً على « جرار » . وفى ط : « الجرار » .

(٣) الحنتم : جرار خضر . والدباء ، كرمان : القرع .

(٤) الممتل ، أراد به المملول ، وهو المعالج بالملة ، وهى الرماد الحر . ويماثله « المسجور » الذى سيرد فى ٢٦٧ . وفى ط : « المحتل » تحريف .

(٥) الداذى : شىء له عنقود مستطيل ، وحبه على شكل حب الشعير ، يوضع منه مقدار رطل فى الفرق فتعبق رائحته ويجود إسكاره .

(٦) الباذق ، بفتح الذال وكسرها : الخمر الأحمر ، هو بالفارسية « باذه » ، وهو اسم الخمر بالفارسية .

(٧) الغربى : الفضيخ من النبيذ ، وهو عصير العنب ، أو شراب يتخذ من البسر المفضوح وحده دون أن تمسه النار ، وهو المشدوخ . والمروق : المصفى بالراووق ، وهو المصفاة .

(٨) العكر : دردى كل شىء ، من ماء أو نبيذ أو نحوهما .

وما القول فى عتيق السَّكَر ، وأنبِذة الجِرار[(١)] ، وما يعمل من السكَّر . ولِمَ كُرِه النَّقير والمقيَّر[(٢)] .

وسألتَ عن نبيذ العسل والعرطبات[(٣)] وعن رزين سُوق الأَهواز[(٤)] ، وعن نَبِيذ أَبى يُوسُف وجمهور[(٥)] ، والمعلَّق والمسْخُوم[(٦)] . والحلو والتُّرش شِيرين[(٧)] ونبيذ الكِشمِش[(٨)] والتِّين ، ولِمَ كُرِهَ الجلوسُ على البواطى والرَّياحين[(٩)] .

وقلت : وما نصيب الشَّيطان ، وما حاصل الإنسان ؟

وسألتَ عمَّن شرب الأَنبذَة أَو كرِهَها من الأَوائل ، وما جرى بينهم فيها من الأَجوبة والمسائل ، وما كانوا عليه فيها من الآراء ، وتشبَّثوا فيها من الأَهواء[(١٠)] ، ولأَىِّ سببٍ تضادَّت فيها الآثار ، واختلفت فيها الأَخبار .

---

(١) ب ، م : « الجرر » ، صوابه فى ط .

(٢) النقير : أصل النخلة ينقر وسطه ثم ينبذ فيه التمر ويلق عليه الماء فيصير نبيذاً مسكراً. والمقير : المطلى بالقار من حب أوزق .

(٣) ط : « القرطبات » .

(٤) سيأتى فى ٢٦٩ س ١٠ : « وماتقول فى رزين الأهواز » .

(٥) ط : « والجمهور » .

(٦) م : « المسخوم » بالخاء المعجمة .

(٧) فسره الجاحظ فى الحيوان ١ : ١٤٣ بأنه الحلو الحامض . وهو مركب من ترش بضم التاء بمعنى حامض . وشيرين بمعنى حلو . وانظر معجم استينجاس ٢٩٤ ، ٧٧٤ .

(٨) الكشمش : ضرب من العنب ، وهو كثير بالسراة ، كما فى اللسان . م : «المشمش» وهو ضرب من الفاكهة، قال ابن دريد : لاأدرى ماصحته . وفى اللسان: « وأهل الكوفة يقولون المشمش – أى بفتح الميمين – وأهل البصرة : المشمش – يعنى بكسر الميمين ، يعنى الزردالو . وسترد فى ٢٧١ برسم واحد هو « الكشمش » .

(٩) البواطى : جمع باطية ، وهى إناء عظيم من الزجاج يملأ من الشراب ويوضع بين الشرب يغرفون منها ويشربون ، إذا وضع فيها القدح سحت به ورقصت من عظمها وكثرة مافيها من الشراب .

(١٠) ط : « وتثبتوا فيها » م : « من الأهواز » ، محرفتان .

وسألتَ أن أقصِدَ فى ذلك إلى الإيجاز والاختصار ، وحذف الإكثار

وقلت : وإذْ جعَلَ الله تعالى للعباد عن الخمر المندوحَةَ بالأشربةِ[١] الهنيَّة المدوحة ، فما تَقول فيما حَسُن من الأنبذة صَفاهُ[٢] ، وبَعُد مداهُ ، واشتدَّت قُواه ، وعتق حتَّى جاد ، وعاد بعد قِدَم الكون[٣] صافىَ اللَّون ، هل يَحِلُّ إليه الاجتماع ، وفيه الاكتراع ، إذْ كان يهضِمُ الطَّعام ويُوطِّئُ المنام . وهو فى لطائف الجسم سارٍ ، وفى خفيَّات العروق جارٍ ، ولا يضرُّ معه[٤] بُرغوثٌ ولا بعوض ولا جِرجِسٌ عَضوض[٥] .

وقلت : وكيف يَحلُّ لك تَرْكُ شُربه إذا كان لك موافقاً ، ولجسمك ملائِماً[٦] . ولم لا قلت إنَّ تارك شُربِه كتاركِ العلاج من أدوإ الأَدواءِ[٧] وإنَّه كالمُعينِ على نفسه إذا ترك شربه أفحَشَ الدَّاء . وأنت تعلم أنَّك إذا شرِبتَه عَدَّلتَ به طبيعتَك ، وأصلحت به صُفَار جسمك[٨] ، وأظهرتَ به حُمرةَ لونك ، فاستبدلت به من السَّقَم صِحّة ، ومن حُلول العَجْز قوَّة ، ومن الكَسَل نشاطاً ، وإلى اللَّذَّة انبساطاً ، ومن الغَمِّ فَرَجاً ، ومن الجمود تحرُّكاً[٩] ، ومن الوَحْشة أُنساً . وهو فى الخَلْوة خيرُ مسامرٍ ، وعند الحاجة خيرُ ناصر . يترك الضَّعيف وهو مثلُ أَسَدِ العرين[١٠] يُلانُ له ولا يلين .

---

(١) ب فقط : « بالأنبذة » .

(٢) أى صفاؤه . وفى ط : « وصفا » .

(٣) عبارة عن العتق وتقادم العهد ، وسيأتى مثل هذه العبارة فى ص ٢٦٨ .

(٤) م ، ط : « لايضر » بدون واو .

(٥) الجرجس : بعوض صفار . ط : « جرس » ، تحريف .

(٦) ب ، م : « ملاوماً » ، صوابه فى ط .

(٧) ب ، م : « من الأدواء » وفى ط : « من أدواء الأدواء » ، والوجه ماأثبت . أى من أشد الأمراض .

(٨) الصفار ، بالضم : صفرة تعلو اللون والبشرة . وصاحبه مصفور .

(٩) ب : « من الخمور » بالخاء المعجمة .

(١٠) ط : « مثل الأسد فى العرين » .

وقلت : الجيِّد من الأنبذة يُصفِّى الذِّهن ويقوِّى الرُّكن ، ويشدُّ القلبَ والظَّهر . ويمنع الضَّيم والقَهر . ويشحذ المَعِدة ، ويهيِّج للطعام الشَّهوَة، ويقطع عن إكثار الماء، الذى منه جُلُّ الأَدواء[(١)] ، ويَحدِرُ[(٢)] رُطوبة الرَّأس ، ويهيِّج العُطاس ، ويشُدُّ البَضْعة ، ويزيد فى النُّطفة ، ويَنْفِى القرقرة والرِّياح ، ويبعث الْجودَ والسَّماح ، ويمنع الطِّحال من العِظَم ، والمعدةَ من التَّخَم ، ويَحدِر المِرَّة والبلغم ، ويلطِّف دمَ العروق ويُجرِيه ، ويُرِقُّه[(٣)] ويصفِّيه ، ويبسط الآمالَ ، ويُنْعِم البال ، ويغشِّى[(٤)] الغِلظَ فى الرِّئة ، ويصفِّى البَشَرة ويترك اللَّون كالعُصفُر ، ويَحْدِر أذَى الرَّأس فى المُنخُر ، ويموِّه الوَجْه[(٥)] ويسخِّن الكُلية ، ويَلذُّ النَّوم ويُحلِّل التَّخَم ، ويَذهب بالإعياء ، ويغذو لطيفَ الغذاء ، ويطيِّب الأَنفاس ، ويطرُد الوَسواس ، ويُطرِب النَّفس ، ويُؤنِس من الوحْشَةِ ، ويسكِّن الرَّوعة ، ويُذهب الحِشْمة ، ويقذف فُضولَ الصُّلب بالإنشاط للجِماع ، وفُضول المَعِدة بالهُرَاع[(٦)] ، ويشجِّع المرتاع ويُزْهى الذَّليل ، ويُكثِّر القليل ، ويزيد فى جَمَال الجميل ، ويسلِّى الحُزْن ويجمع الذِّهن ، وينفى الهمَّ[(٧)] ، ويَطرُد الغَمّ ، ويكشف عن قناع الحَزْم ، ويولِّد فى الحليم الحلم ، ويكفِى أَضغاث الحُلْم[(٨)] ، ويحثُّ على الصَّبر ، ويصحِّح من الفكر ، ويُرَجِّى القانط[(٩)] ، ويُرضِى الساخط ، ويُغْنِى عن الجليس ، ويقوم مقام الأَنيس

---

(١) ط : « الذى جل الأدواء منه » .

(٢) ب : « ويحد » م : « ويحذر » ، صوابهما فى ط . يحدرها : ينزلها ويذهب بها .

(٣) ط : « ويرققه » .

(٤) ب : « ويفشى » .

(٥) قال ابن برى : « يقال وجه مموه ، أى مزين بماء الشباب » .

(٦) أصل الهراع ، بالضم : شدة السوق ، وسرعة العدو . والمراد سرعة الانحدار .

(٧) ط : « ويذهب الهم » .

(٨) يكفيها : يمنعها . والأضغاث : الأخلاط الملتبسة .

(٩) القانط : اليائس . يرجيه ترجية : يبعث إليه الرجاء .

وحتّى إن عَزّ لم يقْنَطْ[١] مِنه، وإنْ حَضَر لم يصبِرْ عنه ، يدفع النوازلَ العظيمة ، وينقّى الصّدر من الخصومة ، ويزيد فى المَسَاغ ، وسُخونة الدماغ ، وينشّط الباه[٢] حتّى لا يزيّف شيئاً يراه ، وتقبله[٣] جميعُ الطّبائع ،ويمتزج به صُنوفُ البدائع ،من اللّذّة والسُّرور ،والنّضرة والحبُور[٤] . وحتّى سمّىَ شُربُه قصفاً[٥]،وسمى فقدُه خَسْفاً . وإنْ شُرِبَ منه الصِّرفُ بغير مزاج ، تحلَّل بغير علاج . ويَكفى الأحزان والهُموم ، ويَدفَع الأهواءَ والسُّموم، ويفتح الذّهن، ويمنع الغبْن[٦] ، ويلقّن الجواب، ولا يكيد منه العِتاب[٧] ، به تمام اللذّات ، وكمالُ المروءات . ليس لِشىءٍ كحلاوته فى النُّفوس، وكسطوته فى الجِباه والرُّوس، وكإنشاطه للحديث والجلوس، يحمّر الألوان، ويُرطّب الأبدان ، ويَخلع عن الطّرب الأرسان .

وقلتَ: ومع كل ذلك فهو يُلجلجُ اللسان[٨] ، ويُكثر الهذيان، ويُظهر الفضول والأخْلاط[٩] ، ويُناوِب[١٠] الكَسلَ بعد النَّشاط. فأمّا إذا تبيّن فى الرأْس المَيَلانُ ، واختلف عند المَشْىِ الرجلان ،وأكثَرَ الإخفاق[١١] ،والتنخُّع

(١) عز ، أى قل وندر . ب ، م : « لم يقبض منه » ، صوابه فى ط .
(٢) ب ، م : « للباه » .
(٣) ب ، م : « ويقبله » .
(٤) والحبور ، ساقطة من ب .
(٥) القصف : الإقامة فى الطعام والشراب واللهو . ب ، م « مصفاً » ط : « حصفاً » ، صوابهما ما أثبت .
(٦) ب ، م : « العين » ، صوابه فى ط .
(٧) لعلها « ولا يكثر منه العتاب » .
(٨) هذا ما فى ط . وفى ب ، م : « وكل ذلك أن يتلجلج اللسان » .
(٩) فى جميع الأصول : « والاختلاط » .
(١٠) ب ، م : « ويتاوب » .
(١١) خفق القلب ، وأخفق ، واختفق ، كله اضطرب .

والبُصَاق، واشتملت عليه الغَفْلة، وجاءت الزَّلَّة بعد الزَّلَّة[١] ولا سواءٌ إنْ دَسَع بطعامه[٢]، أَو سال على الصَّدر لُعابه، وصار فى حدِّ الْمُخْرَفين[٣]، لا يفهم ولا يُبِين، فتلك[٤] دَلالات النُّكر، وظهورُ علامات السُّكر. يُنْسِي الذكر، ويُورث الفكر، ويهتِك السِّترَ، ويُسقِط من الجدار، ويُهوِّر فى الآبار، ويُغْرِق فى الأَنهار، ويَصرف عن المعروف[٥]، ويعرِّض للحتوف، ويحمل على الهَفْوة، ويؤكِّد الغفلة، ويُورث الصِّياح أَو الصُّمات[٦]، ويصرع الفهم للسُّبات[٧] فلغير معنًى يضحك، ولغيرِ سببٍ يَمْحَكُ[٨]، ويَحيد عن الإِنصاف، وينقلب على الساكت الكافِّ[٩]. ثم يُظهر السَّرائر، ويُطلِع على ما فى الضمائر، من مكنون الأَحقاد، وخفيِّ الاعتقاد.

وقد يقلّ على السُّكر المتاع، ويطول منه الأَرق[١٠] والصُّداع، ثم يُورث بالغَدَوات الخُمَار، ويختل[١١] سائر النَّهار ويمنع من إقامة الصَّلوات، وفهم الأَوقات، ويُعْقِب السّلّ، ويُعقِب فى القلوب الغِلّ، ويجفِّف النُّطفة، ويُورِث الرِّعشة، ويولِّد الصُّفار[١٢]، وضُروبَ العلل فى الإِبصار، ويُعقِب

---

(١) بعد الزلة، ساقط من ط.
(٢) دسع بطعامه: قاءه.
(٣) المخرف: الذى أخرفه الهرم. ب فقط: «المحرفين» تحريف.
(٤) م: «قبلك» ط: «قبل»، صوابهما فى ب.
(٥) ط: «ويعوق عن المعروف».
(٦) فى جميع الأصول: «والصمات»، والوجه ما أثبت.
(٧) ب: «ويسرع الفهم للثبات».
(٨) المحك: المشارة والمنازعة فى الكلام.
(٩) فى جميع الأصول: «الكافى».
(١٠) ب، م: «الزق»، صوابه فى ط.
(١١) ب، م: «ويحتل».
(١٢) انظر ما سبق فى ص ٢٦٣.

الهزَال ، ويُجحف بالمال[1] ويجَفِّف الطبيعة[2] ويقوِّى الفاسد من المِرَّةِ[3] ويُذيل النفس[4] ، ويُفسِد مِزاج الحِسّ[5] ، ويُحدث الفُتورَ فى القلب ، ويُبطئ عند الجِماع الصَّبّ ، حتَّى يحدثَ من أجله الفَتْق ، الذى ليس له رَتْق ، ويحمل على المظالم ، وركوب المآثم ، وتضييع الحقوق حتَّى يقتل من غير علم ، ويكفر من غير فَهم .

٢ - فصــــل منه

وقلتَ : ومِنَ الحُلْو فى المِعدِ[6] التَّخَم ، وفى الأَبدان الوَخَم ، وللتُّرش شِيرين رياحٌ[7] كمثل رياح العَدَس ، وحُموضةٌ تولِّد فى الأَسنان الضَّرَس.

والسَّكَر فحسبك[8] بفرط مرارته ، وكُسوفِ لونه ، وبشاعة مَذَاقه ، ولِفارِ الطَّبيعة عنه .

وأنواع مايُعالَج من التُّمور والحبوب فشُربُها الدَّاءُ العُضال .

وللمسجور[9] ، والبَتِى[10] ، وأشباهها كُدورةٌ تَرسُب فى المِعدة ، وتولِّد بين الجِلدتين الحِكَّة . وأشباه هذا كثيرةٌ تركتُ ذِكرها ، لأنِّى لم أَقْصِدْك بالمسأَلة أَبتغى منك تحليل مايَجلِبُ المَضرَّة .

(١) ب : « ويخفف بالمال » م : « ويحطف » ، صوابهما فى ط .
(٢) ب : « ويخفف الطبيعة » ، صوابه فى م ، ط .
(٣) فى جميع الأصول : « المروة » ، والوجه ما أثبت .
(٤) ب : « ويذل النفس » ، صوابه فى م ، ط .
(٥) ط : « الحسن » .
(٦) المعد : جمع معدة . ط فقط : « المعدة » ، ووجهه فى ب ، م
(٧) سبق تفسير التّرش شيرين فى ٢٦٢ . وفى ط : « ويولد للكرش رياحاً » ، تحريف .
(٨) السكر ، بالتحريك : الخمر نفسها ، أو شراب يتخذ من التمر والكشوت والآس . ط : « حسبك » بدون فاء .
(٩) المسجور : يبدو أنه المعالج بالتنور . وانظر ماسبق من الكلام على « الممتل » فى ٢٦١ .
(١٠) كذا وردت فى جميع النسخ .

ولكن ما تقول فيما يسُرُّك ولا يسُوءُك ، وما إذا شربْتَه تلَقَّتْه العرُوق فاتحةً أفواهَها كأفواه الفِراخ[١] ، محسِّنةً للَّون مَلذَّةً للنَّفس ، يجثم[٢] على المعدة ، ويَرُود[٣] فى العروق ، ويَقصِد إلى القلب فيولِّد فيه اللَّذَّة ، وفى المَعِدة الهَضْم ، وهو غَسُولها ونَضُوحها[٤] ، ويُسرع إلى ذاعة الكبد ، ويَفيض بالعَجَل إلى الطِّحال ، وينتفخ منه العروق[٥] ، وتظهر حُمرتُه بين الجلدتين ، ويَزيد فى اللَّون ، ويولِّد الشَّجاعةَ والسَّخاءَ ، ويُريح من اكتنان الضِّغن ، ويُعفِّى على تغيُّر النَّكهة ، ويَنفِى الذَّفَر[٦] ، ويُسرع إلى الجَبْهة ، ويُغنى عن الصِّلاء ، ويمنع القُرّ ؟!

وما تقول فى نبيذ الزَّبيب الحِمْصىِّ[٧] والعَسَل الماذىّ[٨] إذا تورَّد لونُه ، وتقادَمَ كونُه[٩] ، ورأيتَ حُمرتَه فى صفرته تَلوح[١٠] . تَراه فى الكأْس لكأَنَّه[١١] بالشَّمس ملتحف ، شُعاعُه يَضْحَك فى الأَكفّ ؟

وما تقول فى عَصير الكَرْم إذا أَجَدْتَ طبخَه وأنعمتَ إنضاجَه ، وأحسَنَ الدَّنُّ نِتاجَه ، فإذا فُضَّ فُضَّ عن غَضَارة[١٢] قد صار فى لَون

(١) فى جميع الأصول : « الفرخ » ، والوجه ما أثبت .
(٢) يجثم على المعدة : يثقل عليها . ب : « يحثم » م : « لجشم » صوابهما فى ط .
(٣) يرود : يذهب ويجىء . ط فقط : « يزود » ، تحريف .
(٤) النضوح من النضح ، وهو الرش بالماء . والنضوح : الوجور ، وهو الدواء يوجر فى أى موضع من الفم كان . ط فقط : « ونضوجها » ، تحريف .
(٥) ط : « وينفخ منه » فقط ، بسقوط كلمة « العروق » .
(٦) الذفر ، بالذال المعجمة : النتن ، وخص به الحيانى نتن الإبطين . ب فقط : « الزفر » ، تحريف .
(٧) نسبة إلى حمص ، إحدى مدن الشام . ط فقط : « الحمص » تحريف .
(٨) الماذى : العسل الأبيض . ط فقط : « المازى » تحريف .
(٩) انظر مثل هذا التعبير فيما سبق ص ٢٦٣ . والمراد به العتق .
(١٠) ب ، م : « يلوح » .
(١١) ط : « كأنه » .
(١٢) الغضارة : النعمة والطيب والخصب . ب : « فإذا أفضى فضى عن عضارة » ، والصواب فى م ، ط .

البِجادىّ[١] فى صفاء ياقوتةٍ تلمع فى الأكفّ لمعَ الدّنانير ، ويضىءُ كالشِّهاب المتّقد .

وما تقول فى نبيذ عَسَلِ مصر ، فإنّه يؤدّى إلى شاربه الصّحيح من طَعْم الزّعفران ، لا يُلبَس الْخُلْقان[٢] ولا يَجودُ إلاّ فى جُدُد الدِّنان ، ولا يَستخدم الأنجاس[٣] ولا يَألف الأرجاس[٤] . وكذلك لا يزْكو[٥] على علاج الجُنُب والحائض[٦] ، ولا ينفُضُ[٧] على شىءٍ من الأجسام لونَه حتّى لو غُمِس فيه قطنٌ لخرجَ أبيضَ يَقَقاً[٨] . وحسبك به فى رقّة الهواء ، يكدّره صافى الماء ، وهو مع ذلك كالهِزَبْر ذى الأشبال ، المفترس للأقران ، مَنْ عاقره عَقَره ، ومن صارعه صَرَعَه ؟!

وما تقول فى رزين الأهواز[٩] من زبيب الداقياد[١٠] إذ يعود[١١] صُلباً من غير أن يُسَلّ سُلافُه[١٢] ، أو يُماط عنه ثُفْله[١٣] ، حتّى يعود كلون

---

(١) البجادى : حجر يشبه الياقوت بعض الشبه ، وهو أحمر تشوبه صفرة خلوقية . وهو بالفارسية : « بيجاد » . انظر نخب الذخائر لابن الأكفانى ١٧ – ١٩ وأزهار الأفكار للتيفاشى ١٠٠ – ١٠٣ . وفى جميع الأصول : « البحارى » ، تحريف .

(٢) الخلقان ، بالضم : جمع خلق ، بالتحريك ، وهو البالى من الثياب . ط : « مالا يلبس الخلقان » .

(٣) فى جميع الأصول : « الأجناس » ، وأثبت مايلائم « الأرجاس » .

(٤) ب ، م : « ولا تألف » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « لاتزكوا » ، صوابه فى ط .

(٦) أى لايصلح إلا بمعالجة من كان على طهارة .

(٧) ينفض لونه عليه ، أى يعطيه اللون نفسه . وفى جميع الأصول : « ينقص » ، والوجه ما أثبت .

(٨) اليقق : الشديد البياض . وفى ب ، م : « يقفا » ، صوابه فى ط .

(٩) انظر ما سبق فى ص ٢٦٢ .

(١٠) يبدو أنه موضع ، أو ضرب من العنب .

(١١) ب : « يقول » م ، ط : « يقود » ، والوجه ما أثبت .

(١٢) السلاف والسلافة : أفضله وأخلصه . ط : « يسيل سلافة » .

(١٣) الإماطة : الإزالة . والثفل بالفاء : ما رسب من الكدر فى أسفل الشىء ، أو ماعلا منه فوق الصفو . ب ، م : « عن ثقله » ، صوابه فى ط .

العقيق، فى رائحة المِسك العتيق . أَصلب الأَنبذةِ عريكةً ، وأَصلبُها صلابة ، وأَشدُّها خشونة . ثمَّ لا يستعين بعَسَلٍ ولا سُكَّر ولا دُوشاب (١) وما ظنُّك (٢) به وهو زبيبٌ نقيعٌ ، لا يشتدُّ ولا يَجُودُ إلَّا بالضَّرب الوجيع ؟!

وما تقول فى الدُّوشاب البُستانىِّ ، سُلالةِ الرُّطَبِ الجَنِىِّ (٣) بالحُبِّ الرتيلىِّ (٤) ، إذا أُوجِعَ ضَرباً ، وأُطيل حَبْسا ، وأَعطَى صَفْوَهُ ومَنَح رِفدَه (٥) ، وبَذَل ماعنده ، فإذا كُشِفَ عنه قِناعُ الطِّين ظهر فى لون الشُّقْر والكُمْت (٦) وسَطَع برائحة كالمِسكِ . وإذا هَجَم على المعدة لانت له الطَّبائع ، وسَلِسَت (٧) له الأَمعاءُ ، وأَيِسَ الحُصْر (٨) ، وانقطع طمع القُولَنج (٩) ، وانقادت له

---

(١) الدوشاب : نبيذ العنب أو التمر ، كما فى معجم استينجاس ٥٤٤ . وفى شفاء الغليل ٨٧ أنه نبيذ التمر ، معرب . وأنشد لابن المعتز :

لا تخلط الدوشاب فى قدح ... بصفاء ماء طيب البرد

ولابن الرومى :

علىَّ أحمد من الدوشاب ... شربة نغصت على شبابى

قال : وفسر فى شرحه بالنبيذ الأسود . وقال السمعانى : إنه الدبس بالعربية .

(٢) ب ، م : « ولا ماظنك به » ، تحريف مافى ط .

(٣) الجنى : المجتنى مادام رطباً . وفى الكتاب العزيز : « تساقط عليك رطباً جنياً » .
ب ، م : « الحنى » بالحاء المهملة ، تحريف مافى ط .

(٤) هذا مافى م ، ط . وفى ب : « الرتيلى » ، ولعله ضرب من الحباب والجرار التى يختزن فيها الشراب .

(٥) ب ، م : « صفوة » صوابه فى ط . ب فقط : « رفدة » ، صوابه فى م ، ط .

(٦) ب ، م : « من لون » ، صوابه فى ط . وفى ب : « والكميت » صوابه فى م ، ط . وهما جمع أشقر وكميت .

(٧) ب : « سلسلت » ، ط : « سليت » ، صوابهما فى م .

(٨) الحصر ، بالضم وبضمتين : احتباس البطن . كما أن الأسر ، بالضم وبالفتح : احتباس البول .

(٩) القولنج ، بضم القاف وفتح اللام وكسرها ، وقد تفتح القاف : مرض معوى مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح . ذكر فى القاموس ولم يذكر فى اللسان . وفى شفاء الغليل ١٥٤ : « قولنج ونقرس ذكرها فى فقه اللغة ، وهما مما عربه المولدون » . وفى المعجم الوسيط « وسببه التهاب القولون » . وذكر أن القولون بضم القاف واللام ، هو المعى الغليظ الضيق الذى يتصل بالمستقيم . وأنه دخيل فى العربية . ب ، م : « القلنج » ، صوابه فى ط .

اليُبوسة ، وأذعنت له بالطّاعة ، وابتلَّ به الجِلْد القَحْل[1] ، وارتحل عنه البَاسور ، وكفَى شاربَه الوخز[2] . فإذا شُجَّ[3] بماءٍ تَلَظَّى ورَمَى بَشَرِهِ ، هل يحلُّ أن يُشَعشَع إذا سكَن جأْشُه[4] ، وآبَ إليه حلمه[5] .

وما تقول فى المعتَّق[6] من أنبذة التَّمر ، فإنَّك تنظر إليه وكأنَّ النِّيران تلمَعُ من جَوْفه . قد ركدَ ركودَ الزُّلال[7] حتَّى لكأنَّ شاربه يَكرع فى شهاب ، ولكأنه فِرِندٌ فى وجه سيفٍ[8] . وله صفيحةُ مرآةٍ مَجْلوَّةٍ[9] تحكى الوُجوهَ فى الزُّجاجة ، حتَّى يَهِمَ فيها الجُلَّاس[10] ؟!

وما تقول فى نبيذ الجَزَر ، الذى منه تمتدُّ النُّطفة وتشتدُّ النُّقطة ، يجلب الأحلام ، ويركُد فى مُخِّ العظام ؟!

وما تقول فى نبيذ الكِشْمِش[11] الذى لونُه لون زُمرُّدةٍ خضراء ، صافية ، محكَمِ الصَّلابة ، مُفْرِطِ الحرارة ، حديدِ السَّورة[12] ، سريع الإفاقة

(١) القحل : اليابس . ب فقط : « المقحل » ، تحريف .
(٢) أى وخز الباسور وألمه . ب ، م : « التوخر » ، صوابه فى ط .
(٣) شج بالماء : خلط . ومنه قول المسيب بن علس (فى المفضليات ٦١) :

ومها يرف كأنه إذ ذقته ... عانية شجت بماء يراع

وقول كعب بن زهير (فى ديوانه ٧) :

شجت بذى شبم من ماء محنية ... صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

وفى ب : « سنحى » ، وفى م ، ط : « سنح » ، صوابهما ما أثبت .
(٤) والشعشعة كذلك : مزج الشراب بقليل من الماء .
(٥) آب : رجع . ب ، م : « واباليه » تحريف ما أثبت . وفى ط : « وأيل حلمه » ، تحريف كذلك .
(٦) ب ، م : « المفلق » ط : « المغلق » ، صوابهما ما أثبت .
(٧) ط فقط : « الذلال » .
(٨) الفرند : مايرى فى صفحة السيف من أثر تموج الضوء . ب ، م : « ولكأن فرنده فى وجه سيف » ، صوابه فى ط .
(٩) ب : « تجلو » ، صوابه فى م ، ط .
(١٠) يهم ، من الوهم . وفى جميع النسخ : « حتى يفهم فيها » .
(١١) الكشمش ، سبق تفسيره فى ص ٢٦٢ .
(١٢) سورة الشراب : شدته وحدته . ب فقط : « حديدة السورة » ، تحريف .

عظيم المُؤْنة ، قصير العمر[1] ، كثير العلل ، جَمِّ البَدَوات[2] تطمع الآفات فيه ، وتُسرع إليه ؟!

وما تقول فى نبيذ التِّين فإنَّك تعلم أنَّه مع حَرارتِه ليِّن العَريكة ، سَلِسُ الطَّبيعة ، عَذْبُ المذاق ، سريع الإطلاق ، مِرْهَمٌ للعُروق ، نضوحٌ للكبد[3] فتَّاحٌ للسُّدَد ، غسَّالٌ للأمعاء ، هَيَّاجٌ للباه ، أَخَّاذٌ للثَّمَن ، جَلَّاب للمُؤَن ، مع كسوفِ لونٍ وقُبحِ منظر ؟!

وما تقول فى نبيذ السكَّر الذى ليس مقدارُ المنفعة به على قَدر المَؤُونة فيه ، هل يوجد فى المحصول لشربه معنًى معقول ؟!

وما تقول فى المروَّق والغَرْبِيّ[4] والفَضيخ[5] ؟ أَلَذُّ مَشْروباتٍ فى أزمانها وأنفع مأْخوذاتٍ فى إبَّانها[6] . أقلُّ شيءٍ مَؤونة ، وأحسنُه معونة ، وأكثر شيءٍ قنوعاً ، وأسرعُه بلوغاً ، ضموزات[7] عَرُوفات[8] للرجل أَلُوفات . ولها أرابيح على الشاهِسْفَرَم[9] كأذكى رائحةٍ تُشَمّ ، أقلُّ المشروبات صُداعاً ، وأشدُّهن خِداعا .

(١) ب ، م : « كثير قصير العمر » . وكلمة « كثير » مقحمة .

(٢) أى تغير الحالات ، وأصله للرجل ذى الآراء الكثيرة تعرض له فيختار بعضاً ويسقط بعضاً . ب ، م : « البدات » صوابه ما أثبت . وفى ط ، « الهبات » .

(٣) نضوح من النضح ، وهو الرش بالماء أو الطيب ، وتسكين العطش . م ، ط : « نضوج » تحريف . وانظر ماسبق فى ص ٢٦٨ .

(٤) سبق تفسيره فى ص ٢٦١ .

(٥) الفضيخ سبق القول فيه فى ص ٢٦١ . ب ، م : « والفصيح » صوابه فى ط .

(٦) ط : « ألذ المشروبات فى أزمانها وأنفع المأخوذات فى إبانها » .

(٧) الضموزات ، من الضموز ، وهى الحية المطرقة ، أو الشديدة . والضموز أيضاً : الساكت لايتكلم . وفى الأصول : « ضمورات » ولا وجه له .

(٨) العروف والعروفة : الصابر المحتمل . ب فقط : « عقورات » تحريف . وفى ب ، م : « لجعل » ، وأثبت مافى ط وفيها : « للرجل الوافى » . وفى ب ، م : « الوقات » والوجه ما أثبت .

(٩) الشاهسفرم : ضرب من الرياحين يقال له ريحان الملك . قال أبو حنيفة : هى فارسية دخلت فى كلام العرب . قال الأعشى :

وشاهسفرم والياسمين ونرجس يصبحنا فى كل دجن تغيـــــما

ب : « الشات أسفرم » م ، ط : « الشاة سفرم » ، ووجهه وكتابته كما أثبت .

٣ — فصــل منه

وكرهتُ أيضاً تقليدَ المختلف من الآثار فأكونَ كحاطبِ ليل ، دونَ التأمُّلِ والاعتبارِ بأَنَّ ظلام الشَّكِّ[١] لا يَجلُوه إلَّا مِفتاح اليقين .

٤ — فصــل منه

قد فهمتُ — أسعدَك الله تعالى بطاعته — جميعَ ماذكرتَ من أنواع الأنبذة ، وبديع صفاتها، والفَصْلِ بين جيِّدها ورديِّها ، ونافِعِها وضارِّها، وما سألْتَ من الوقوف على حدودها[٢] . ولا زلتَ مِن عدادِ مَن يَسأَل ويَبْحَث[٣] ، ولا زِلْنا في عِداد من يَشْرحُ ويُفْصح .

اعلمْ — أكرمَكَ الله — أنَّك لو بحثتَ عن أحوالِ من يُؤْثِر شُربَ الخمور على الأنبذة ، لم تجدْ إلَّا جاهلاً مخذولا ، أو حَدَثاً مغروراً ، أو خليعاً ماجناً ، أو رَعَاعاً هَمَجاً ؛ ومَنْ إذا غدا بهيمةٌ ، وإذا راحَ نَعامةٌ ؛ ليس عنده من المعرفة أكثرُ[٤] من انتحال القَوْل بالجماعة ؛ قد مُزِجَ له الصَّحيحُ بالمحال ، فهو[٥] مَدِينٌ بتقليد الرِّجال ، يُشعشِعُ الرَّاح[٦] ، ويحرِّم المباح ، فمتى عذَله عاذلٌ ووَعَظَهُ واعظ قال : الأشربة كلُّها خمر ، فلا أشربُ إلَّا أجودَهَا .

---

(١) في جميع النسخ : « كلام الشك » ، صوابه ما أثبت .

(٢) ب ، م : « ما سألت » . وفي جميع النسخ : « على حُدود » .

(٣) م ، ط : « ولا يبحث » ، تحريف ما في ب .

(٤) ب ، م : « إذا كثر » ، صوابه في ط .

(٥) ب فقط : « وهو » .

(٦) م ، ط : « لشعشع الداح » ، صوابه في ب . والشعشعة : المزج بالماء القليل .

وقد أَحببتُ ـ أَيَّدك الله ـ التَّوثُّقَ من إصغاء فهمك ، وسُوْت ظَنًّا بالتغرير[١] فقدَّمتُ لك من التَّوطئِة مايسهِّل [لك[٢]] سبيلَ المعرفة . وذلك إلى مثلك من مثلى حزم[٣] سيَّما فيما خَفِيت معالمه ودرسَتْ مناهجه ، وكَثُرت شُبَهه ، واشتدَّ غُموضُه .

ولو لم يكن ذلك وكان قد اعتاصَ[٤] علىَّ البرهان فى إظهاره ، وَاحْتَجتُ[٥] فى الإبانة عنه إلى ذكر ضِدِّه ، ونَظيره وشَكْله ، لم أَحتشِمْ من الاستعانة بكلِّ ذلك . فكيف والقدرةُ ـ بحمد الله ـ وافرة ، والحُجَّة واضحة .

قد يكون الشىءُ من جِنْس الحرام[٦] فيُعالَج بضربٍ من العلاج حتَّى يتغيَّر بلونٍ يحدُث له ، ورائحةٍ وطعم ونحوِ ذلك ، فيتغيَّر لذلك اسمُه ، ويصير حلالاً بعد أَن كان حراماً .

٥ ـ فصل منه
فى تحليل النبيذ دون الخمر

فإن قال لنا قائلٌ : ماتدرونَ ، لعلَّ الأَنبذة قد دخلَتْ فى ذكر تحريم الخمر ، ولكن لمَّا كان الابتداء أُجرِىَ فى ذكر تحريم الخمر ، خرج التحريم عليها وحدَها فى ظاهرِ المخاطَبَة ، ودخل سائرُ الأَشربة فى التَّحريم بالقَصْد والإرادة .

قلنا : قد علمنا أَنَّ ذلك على خلاف ماذكَر السَّائلُ ، لأَسبابٍ موجودةٍ ، وعِللٍ معروفة .

(١) فى جميع النسخ : « بالتقرير » ، والوجه ما أثبت .
(٢) التكملة من ط . (٣) م ، ط : « حرم » ، تحريف .
(٤) اعتاص : التوى فخفى وصعب . ب ، م : « اعتاص » ، صوابه فى ط .
(٥) فى جميع النسخ : « واحتجب » والوجه ما أثبت .
(٦) ب فقط : « من حبس الحرام » ، تحريف .

منها : أَنَّ الصَّحابةَ الذين شَهِدُوا نزولَ الفرائِض ، والتابعين مِنْ بعدِهم ، لم يختلفوا فى قاذف المحصَنين أَنَّ عليه الحدَّ ، واختلفوا فى الأَشربة التى تسكر[1] ، ليس لجهلِهِمْ أسماءَ الخُمور ومعانيها ، ولكنْ للأَخبار[2] المرويَّة فى تحريم المُسْكر ، والواردةِ فى تحليلها .

ولو كانت الأَشربة كلُّها عند أَهل اللُّغة فى القديم خَمرًا لَمَا احتاجُوا إلى أَهل الرِّوايات فى الخمر ، أَىُّ الأَجناسِ من الأَشربة هى ؟ كما لم يَخْرُجوا إلى طلب معرفة العَبيدِ من الإِماءِ .

وهذا بابٌ يَطُول شرحُه إن استقصيتُ جميعَ مافيه من المسأَلة والجواب .

وما يُنكر مَنْ خالَفنا[3] فى تحليل الأَنبذة مع إقراره أَنَّ الأَشربةَ المُسْكرة الكثيرةَ لم تزل معروفةً بأَسمائها وأَعيانها ، وأَجناسها وبُلدانها ، وأَنَّ الله تعالى قَصَدَ للخمرِ من بين جَميعِها فحرَّمها ، وتَرَكَ سائر الأَشربة طِلْقاً مع أَجناس سائر المباح .

والدَّليل على تجويز ذلك أَنَّ الله تعالى ماحَرَّمَ على الناس شيئاً من الأَشياءِ فى القديم والحديث إلَّا أَطلق لهم من جنسِه ، وأَباحَ من سِنخِه[4] ونظيرِه وشِبْهه ، ما يَعْمَلُ مثلَ عملِهِ أَو قريباً منه ، ليُغْنيَهم بالحلالِ عن الحرام . أَعنى ماحُرِّم بالسَّمع دون المحرَّم بالعقل . قد حَرَّم من الدم المسفوحَ ، وأَباحَ غير المسفوح ، كجامِد دمِ الطِّحال والكبد وما أَشبههما[5]

---

(١) ب : « يسكر » ، تحريف .
(٢) فى جميع الأصول : « ولكن الأخبار » .
(٣) ب : « من مخالفنا » ، تحريف .
(٤) السنخ ، بالكسر : الأصل . م ، ط : « سنحه » ، صوابه بالخاء المعجمة كما فى ب .
(٥) ب ، م : « وما أشبهها » ، صوابه فى ط .

وحَرَّم المَيْتةَ وأباح الذَكيَّة . وأباح أيضاً مَيْتة البحر وغيرِ البحر ، كالجرادِ وشبهه ، وحَرَّم الرِّبا وأباحِ البَيع ، وحَرَّم بيعَ ماليس عندك[1] وأباحَ السَّلَم[2] ، وحَـرَّم الضَّيْمَ وأباح الصُّلح ، وحَرَّم السِّفاحَ وأباح النِّكاح . وحَرَّم الخِنزيرَ وأباحَ الجَدْيَ الرَّضيعَ ، والخَروف والحُوار[3] .

والحلالُ فى كلِّ ذلك أعظمُ موقعاً من الحَرَام .

٦ — فصـــل منه

ولعلَّ قائلا يقول : وأهلُ مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وسُكَان حَرَمه ودارِ هجرته ، أبصَرُ بالحلال والحرام ، والمُسْكِرِ والخمر ، وما أباحَ الرَّسولُ وما حظره[4] ، وكيف لا يكون كذلك والدِّينُ ومعالمُه مِن عندِهم خرج إلى النَّاس ؛ والوحىُ عليهم نَزَل ، والنبى صلى الله عليه وسلم فيهم دُفِن . وهم المهاجرون السَّابقون ، والأنصار المُؤْثِرُون على أنفسهم . وكلُّهم مُجمِعٌ على تحريم الأنبذة المُسْكرة ، وأنَّها كالخمر .

وخَلَفُهُم على مِنهاجِ سَلَفهم إلى هذه الغاية ، حتَّى إنَّهم جَلَدوا على الريح الخفىّ[5] .

وكيف لا يفعلون ذلك ويَدِينون به وقد شَهِدوا منَ شَهِدَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قد حَرَّمها وذَمَّها ، وأَمَرَ بجلد شارِبها .

ثمَّ كذلك فعَلَ أَئِمَّةُ الهُدى من بعده . فهم إلى يوم الناسِ[6] على رأىٍ واحد ، وأمرٍ متَّفق ، ينهَوْن عن شُربِها ، ويَجلِدُون عليها .

(١) مابعده إلى « الضيم » ساقط من ط .

(٢) ب : « وأباح لك السلم » .

(٣) أى لما فيهن من طراوة اللحم عوضاً عن طراوة لحم الخنزير . والحوار بالضم : ولد الناقة من وقت ولادته إلى أن يفطم ويفصل .

(٤) ب ، م : « وحظره » بدون ما .

(٥) أى رائحة الشراب ، حينما يستنكه الشارب . وانظر ما سيأتى فى ٢٧٧ س ١٠ .

(٦) ط : « فهم إلى اليوم » .

وإنَّا نقول فى ذلك : إنَّ عِظَمَ حقِّ البلدة لا يُحِلُّ شيئاً ولا يحرِّمه ، وإنَّما يُعرَف الحلال والحرامُ بالكتاب الناطق[1] ، والسُّنَّة المجمَعِ عليها، والعقولِ الصَّحيحة ، والمقاييسِ المُصِيبة[2] .

وبعد، فمن هذا المهاجرىُّ أو الأنصارىُّ ، الذى رَوَوْا عنه تحريم الأنبذة ثم لم يَرْوُوا عنه التحليل ؟ بل لو أنصَفَ القائلُ لعلم أنَّ الذين من أهل المدينة حَرَّموا الأنبذة ليسوا[3] بأفضَلَ من الذين أحَلُّوا النِّكاح فى أدبار النِّساء ، كما استحلَّ قومٌ من أهل مكَّة عاريَّة الفروج ، وحَرَّم بعضُهم ذبائحَ الزُّنوج ، لأنَّهم فيما زَعموا مُشَوَّهُو الخلق . ثم حكموا بالشَّاهد واليمين خلافاً لظاهر التنزيل[4] . وأهلُ المدينة وإن كانوا جَلَدُوا على الرِّيح الخفىّ[5] فقد جَلَدُوا على حَمْلِ الزِّقِّ الفارغ ؛ لأنَّهم زعموا أنَّه آلةُ الخمر[6] ،حتَّى قال بعض[7] مَنْ ينكر عليهم : فهلاَّ جَلدوا أنفُسَهم؟ لأنَّه ليس منهم إلَّا ومعه آلةُ الزِّنَى ! وكان يجب على هذا المثال أن يُحكَم بمثل ذلك على حامل السَّيف والسِّكِّين والسُّمِّ القاتل، فى نظائر ذلك؛ لأنَّ هذه كلَّها آلاتُ القتل .

وبعدُ ، فأهلُ المدينة لمَ يخرُجوا من طبائع الإنس إلى طبع الملائكة . ولو كان كلُّ ما يقولونه حقًّا وصواباً لجَلَدوا من كان فى دار معبد[8] ،

(١) ب : « وإنما يعرفه الحلال والحرام الكتاب الناطق » .
(٢) ط : « المعينة » ، وأثبت مافى ب . وقد سقطت هذه الكلمة من م .
(٣) ب : « ليس » صوابه فى م ، ط .
(٤) ب ، م : « على ظاهر التنزيل » ولها وجهها .
(٥) انظر ماسبق فى ص ٢٧٧ س ١٤ . (٦) أنه ، ساقطة من م ، ب .
(٧) ب ، م : « بعضهم » ، تحريف .
(٨) ب ، م : « لقد كان دار معبد » ، ط : « لجلدوا من كان دار فى معبد » ، والوجه ما أثبت . ومعبد هذا هو معبد بن وهب ، من قدماء المغنين ومشهوريهم . غنى فى أول دولة بنى أمية ، وأدرك دولة بنى العباس . وفيه يقول الشاعر :

أجاد طويس والسريجى بعــده وما قصبات السبق إلا لمعبــد

الأغانى ٢ : ١٨ — ٢٨ .

والغَرِيضِ (١) ، وابنِ سُرَيْجٍ (٢) ، ودَحْمانَ (٣) وابن مُحرِزٍ (٤) وعَلُّويَه (٥)
وابن جامع (٦) ، ومُخارقٍ (٧) ، وشُرَيكٍ (٨) ، ووَكيعٍ (٩) ، وحَمّادٍ (١٠) ،

---

(١) اسمه عبد الملك ، وهو من مولدى البربر ، ومن أشهر المغنين وكان يضرب بالعود وينقر بالدف ويوقع بالقضيب ، وكان جميلا وضيئاً يصنع نفسه ويترفها . أخذ عن ابن سريج . وسمى الغريض لأنه كان طرى الوجه نضراً غض الشباب . توفى نحو سنة ٩٥ . الأغانى ٢ : ١٢٤-١٢٩

(٢) هو عبيد الله بن سريج ، وكان من أحسن الناس غناء ، وكان يغنى مرتجلا ويوقع بقضيب ، وغنى فى زمن عثمان، ومات معمراً فى خلافة هشام بن عبد الملك وله خمس وثمانون سنة . الأغانى ١ : ٩٤ — ١٢٥ . وفى جميع الأصول : « ابن شريح » ، صوابه ، ما أثبت .

(٣) هو عبد الرحمن بن عمرو . ودحمان بالفتح لقب لقب به ، مشتق من الدحم وهو الدفع كما فى اللسان . وكان مع شهرته بالغناء رجلا صالحاً كثير الصلاة معدل الشهادة مدمناً للحج ، وكان يقول : ما رأيت باطلا أشبه بحق من الغناء . وكان من غلمان معبد ، وأعطاه المهدى فى ليلة واحدة خمسين ألف دينار . الأغانى ٥ : ١٣٣ — ١٣٧ .

(٤) هو مسلم بن محرز ، ويكنى أبا الخطاب . وكان أبوه من سدنة الكعبة وأصله من الفرس ، وكان كثير الترحال فى طلب الغناء بين مكة والمدينة وبلاد الفرس والشام حتى ألف ألحانه من مختار أنغام هذه الأمم جميعاً . وكان يقال له « صناج العرب » . الأغانى ١ : ١٤٥-١٤٧ .

(٥) هو على بن عبد الله بن يوسف ، الملقب بعلويه ، كان مغنياً حاذقاً مع خفة روح وطيب مجالسة ، وملاحة نوادر . وكان إبراهيم الموصلى علمه وخرجه وعنى به جداً ، وغنى لمحمد الأمين وعاش إلى أيام المتوكل، ومات بعد إسحاق الموصلى بمديدة يسيرة . الأغانى ١٠ : ١١٥ — ١١٢٥ .

(٦) هو إسماعيل بن جامع بن إسماعيل ، وكان حسن السمت كثير الصلاة ، قد أخذ السجود جبهته ، يلبس لباس الفقهاء . غنى للرشيد ، ونال منه عشرة آلاف دينار فى بيتين غناهما، وله وقائع مع أبى يوسف . الأغانى ١٠ : ٦٥ — ٧٨ .

(٧) هو مخارق بن يحيى بن ناوس الجزار ، مولى الرشيد ، وكان وهو صبى ينادى على مايبيعه أبوه من اللحم ، اشتراه إبراهيم الموصلى وأهداه للفضل بن يحيى، فأخذه الرشيد منه ثم أعتقه. وكان من أحذق الناس بالغناء ، وأدرك الواثق . الأغانى ٢١ : ١٤٣ — ١٥٩ .

(٨) هو شريك بن عبد الله بن أبى شريك النخعى ، أبو عبد الله الكوفى القاضى ، أخذ عن أبى إسحاق السبيعى ، وعبد الملك بن عمير ، وسماك بن حرب ، والأعمش ، وغيرهم . وعنه : ابن مهدى ، ووكيع ، وهشيم ، وغيرهم . ولد سنة ٩٠ وتوفى ١٧٧ . تهذيب التهذيب .

(٩) وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسى ، أبوسفيان الكوفى . روى عن أبيه وإسماعيل ابن أبى خالد، والأعمش ، وخالد بن دينار وغيرهم . وعنه : سفيان الثورى ، وعبد الرحمن بن مهدى ، ومحمد بن سلام ، وغيرهم . ولد سنة ١٢٨ وتوفى سنة ١٩٦ . تهذيب التهذيب .

(١٠) حماد بن سلمة بن دينار البصرى . روى عن ثابت البنانى ، وقتادة ، وعبد الملك بن عمير وغيرهم . وعنه : ابن جريج، والثورى، وشعبة وغيرهم . توفى سنة ١٦٧ .

وإبراهيمَ[١] وجماعةِ التابعين ، والسَّلَف والمتقدِّمين ؛ لأنَّ هؤلاء فيما زعموا كانوا يَشربون الأَنبذَةَ التى هى عندهم خمر[٢] ؛ وأولئك كانوا يعالجون الأغانىَ التى هى حِلٌّ طِلْقٌ، على نَقْر العيدان والطَّنابير، والنَّايات والصَّنْج والزِّنْجِ[٣] ، والمعازف التى ليست محرَّمةً ولا منهيًّا عن شىءٍ منها .

ولو كان ما خالفونا فيه من تحليل الأنبذة وتحريمها ، كالاختلاف فى الأغانى[٤] وصفاتها وأوزانها ، واختلاف مخارجها ، ووجوه مصارفها ومَجاريها ، وما يُدْمج ويوصَل منها ، وما لِلحنجرةِ والحَنَك والنَّفَسِ واللَّهَوات وتحتَ اللِّسان من نَغمها[٥] . وأَىَّ الدَّساتين أطرَب[٦] ، وأىٌّ أصوَب ، وما يُحفَزُ بالهَمْز[٧] أَو يحرَّك بالضَّمِّ ؛ وكالقَول بأنَّ الهَزَجَ[٨] بالبِنصَر أَطيب ، أَو بالوسطى[٩] ؟ والسَّريع على الزِّير أَلذُّ[١٠] ، أَوْ على المَثْنَى[١١] ؟ وَالمُصَعَّد[١٢] فى لينٍ أطرَبُ أَم المُحْدَرُ فى الشِّدَّة ؟ لسَهُلَ ذلك ولَسَلَّمنا عِلمَه لمَنْ يَدَّعيه ، ولم نُجاذِب من يدَّعى دوننا معرفته[١٣] .

(١) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعى ، المترجم فى ٢ : ١٩٣ .

(٢) ب ، م : « التى عندهم خمر » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٣) الزنج من ملاهى أهل خراسان ، كان غناؤهم به ، وعليه سبعة أوتار ، وإيقاعه يشبه إيقاع الصنج . معجم الموسيقى العربية ٣٥ . وانظر معجم استينجاس ٦٢٤ . وفى الأصول : « الزيج » تحريف .

(٤) فى جميع الأصول : « فى الأوانى » ، صوابه ما أثبت .

(٥) ب ، م : « من نعمها » ، صوابه فى ط .

(٦) انظر للدساتين معجم الموسيقى العربية ٣٢ ففيه تفصيل واسع . ويراد به رباطات الأوتار ونحوها .

(٧) الحفز : التحريك . ب : « يحرف » م ، ط : « يحقر » ، صوابهما ما أثبت .

(٨) الهزج : كل صوت فيه ترنم خفيف مطرب . ب ، م : « وكالقول فى الهرج » ، صوابه فى ط .

(٩) ط فقط : « وبالوسطى » .

(١٠) الزير ، بالكسر : من أوتار العود ، وهو أحد الأوتار الدقيقة .

(١١) المثنى : الوتر الذى يلى الزير . وهو بفتح الميم والنون المخففة مع القصر .

(١٢) ب فقط : « أو المصعد » .

(١٣) ب ، م : « معرفة » ، صوابه فى ط .

٧ — فصــل منه

ولهج[١] أصحابُ الحديث بحكمٍ[٢] لم أسمعْ بمثله فى تزييف الرِّجال، وتصحيح الأَخبار . وإنما أكثروا فى ذلك ، لتعلمَ حَيْدَهم عن التَّفْتيش ، ومَيْلَهم عن التنقير[٣] ، وانحرافَهُم عن الإنصاف .

٨ — فصــل منه

والذى دعانى إلى وضعِ جميعِ هذه الأَشربةِ والوقوفِ على أجناسها وبُلدانها ، مخافةُ أَنْ يَقعَ هذا الكتابُ عند بعضِ مَن عساهُ لا يَعرفُ جَميعَها ، ولم يَسمَعْ بذكرها ، فيتوهَّم أنِّى[٤] فى ذكر أَجناسها المستشنَعة[٥] وأنواعها المُبتَدَعة ، كالهاذى[٦] برُقْـية العَقْرب ، وإن كان قصـدى لذكرِها فى صَدرِ الكِتابِ لأَقفَ على حَلالها وحرامها ، وكيف اختلفت الأُمَّة فيها ، وما سَببُ اعتراضِ الشَّكِّ واستكمانِ الشُّبهة ؛ ولأَن أَحْتَجَّ للمباح[٧] وأُعطيَهُ حقَّه ، وأَكشِفَ أيضاً عن المحظور فأَقسِمَ له قِسطَه ، فأَكونَ قد سلكتُ بالحرام سَبيلَه ، وبالحلال منهجَه ، اقتداءً منى بقول الله عزَّ وجلّ : ﴿يـأَيُّها الذين آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ[٨]﴾ .

وقد كتبتُ لك — أكرمَكَ الله — فى هذا الكتاب مافيه الجزايةُ[٩]

---

(١) م فقط : « ولهمج » ، تحريف .

(٢) ب ، م : « حكم » ، صوابه فى ط .

(٣) التنقير : البحث والتفتيش . م فقط : « التنفير » ، تحريف .

(٤) ب فقط : « أن » تحريف .

(٥) ب : « المستشفة » ، صوابها فى م ، ط .

(٦) الهاذى ، من الهذيان . ب ، م : « كالهازى » من الهزؤ ، وهذه محرفة صوابها فى ط .

(٧) ب : « ولا أحتج للمباح » ، تحريف .

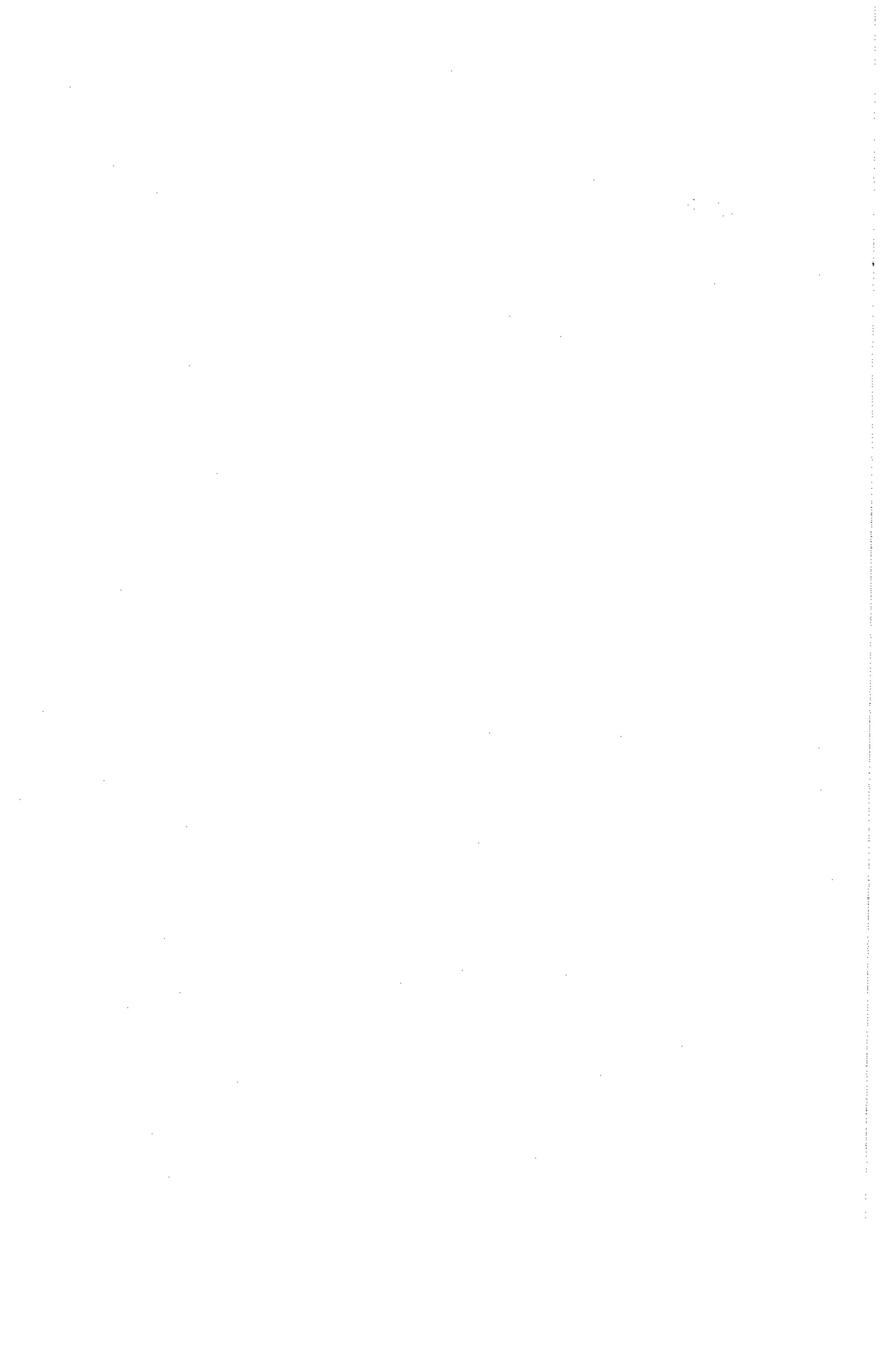
(٨) من الآية ٨٧ من المائدة .

(٩) كذا وردت الجزاية هنا ، بمعنى الإجزاء ، ولم أجد لها سنداً . وفى ب : « مافيه الكفاية والجزاية » .

والكِفاية ، ولو بسطتُ القولَ لوجدتَه متَّسعاً ، ولأَتاكَ منه الدَّهْم [١] . وربَّما [كان [٢]] الإقلال فى إيجازٍ أَجدَى من إكثارٍ يُخاف عليه الملل [٣] . فخلطت لك جِدًّا بهزل [٤] ، وقرنْتُ لك حُجّةً بمُلْحة ، ليخِفَّ مَؤُونة الكتاب على القارئ ، وليزيد ذلك فى نشاط المستمِع ، فجعلت الهزلَ بَعْدَ الجِدِّ جَمَاماً [٥] ، والمُلْحة بعد الحُجَّة مُستراحاً .

---

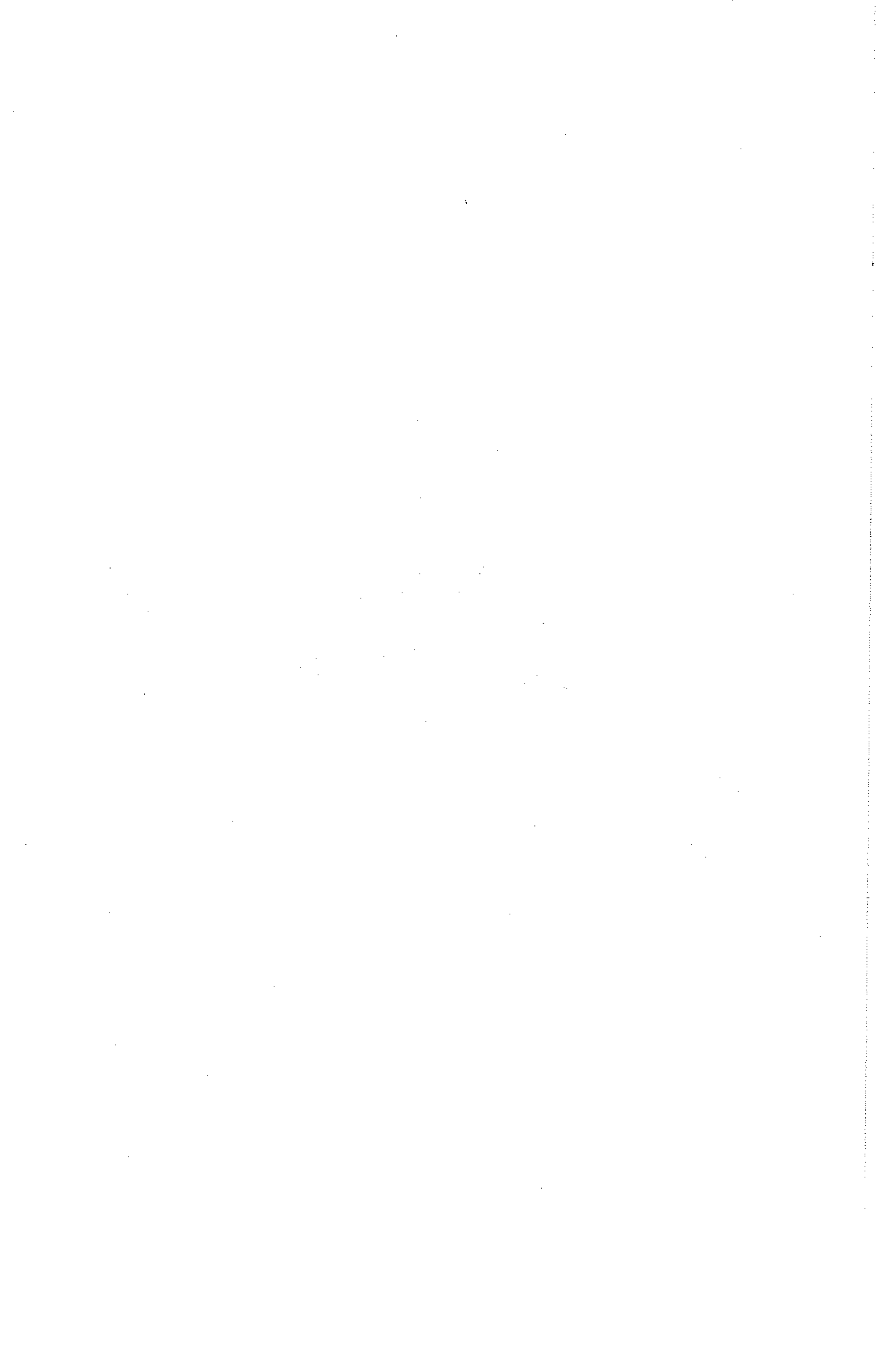
(١) الدهم : الكثير . يقال جيش دهم أى كثير . وجاءهم دهم من الناس ، أى كثير .
(٢) التكملة من ط .
(٣) المألوف : « يخاف منه الملل » . لكن هكذا وردت فى الأصول .
(٢) ب : « جد الهزل » .
(٥) الجمام ، كسحاب : الراحة .



٢٨

من كتابه في

الجوابات واستحقاق الإمامة



١ ـ فصـــل (١)

من صدر كتابه فى الجوابات فى الإمامة
يحكى فيه قول من يجيز أكثر من إمام واحد

زعم قومٌ أنَّ الإمامة[٢] لا تجب لرجلٍ واحدٍ بعينهِ، من رهطٍ واحد بعينه ، ولا لواحدٍ من عُرْض الناس[٣] ، وإن كان أكثرَهم فضلاً ، وأعظَمَهم عن المسلمين غَناءً[٤] ، بعد أن يكون فرداً فى الإمامة لا ثانِىَ له . وأنَّ النَّاسَ إن تركوا أن يُقيموا إماماً واحداً جاز لهم ذلك ، ولم يكونوا بتركه ضالِّينَ ولا عاصِينَ ولا كافرين ؛ فإن أقاموه كان ذلك رأياً رأَوْه ، وغير مضيَّق عليهم تركُه .

ولهم أن يقيموا اثنين ، وجائزٌ لهم[٥] أن يقيموا أكثرَ من ذلك ، ولا بَأْس أن يكونوا عَجَما[٦] وموالىَ ، ولكن لابدَّ من حاكمٍ ، واحدًا[٧] كان أو أكثر على حال . ولا يجوز أن يكون الرجلُ حاكماً على نفسه وقائماً عليها بالحدود .

ولم يقلْ أحدٌ ألبتَّةَ أنَّ مِن الحُكْم والحاكم بدًّا ، ولكنَّهم اختلفوا فى جهاتهم ومعانيهم .

وقالوا : وأىَّ ذلك كان ، إقامةَ الواحد والاثنين أو أكثر من ذلك،

---

(١) الكامل ٢ : ٢٧٩ - ٢٩٠ وهذه الرسالة غير رسالة « استحقاق الإمامة » التى سبقت برقم (٢٢) .

(٢) ب : « الأمة » ، تحريف .

(٣) من عرض الناس ، بالضم ، أى من أوساطهم ومعظمهم .

(٤) ب : « غنى » ، تحريف .

(٥) فى جميع الأصول : « عنهم » .

(٦) ب ، م : « أن يكون أعجما » ، تحريف .

(٧) ب : « واحد » .

فعلى النَّاس الكفُّ عن محارمهم ، وترك التبَاغى[(١)] فيما بينهم ، والتَّخاذل عند الحادثة تَنُوبهم ، من عدوٍّ[(٢)] يَدهَمُهم من غيرهم . أو خاربٍ يُخِيف سُبُلهم[(٣)] من أهل دعوتهم .

وعليهم فيما شَجَر بينهم إعطاءُ النَّصَفة من أنفسهم بالغاً ما بلغ ، فى عُسْرِ الأمر ويُسْرِه . وعلى كلِّ رجلٍ فى داره وبَيتِه وقبيلته ، وناحيته ومِصره ، إذا كان مأموناً ذا صلاح وعلم ، إذا ثَبَتَت عنده على أخيه وصاحبه وجاره ، وحاشيتِه مِن خَدَمِه ، حَدٌّ أو حكمٌ جناهُ جانٍ عليهم[(٤)] أو على نفسه[(٥)] أو ظلمٍ ركبَه من غيره ، إقامةُ ذلك الحكم والحدّ عليه ، إذا أمكنه مستحقُّه ؛ إلَّا أن يكون فوقه كافٍ قد أجزَى عَنْه .

وعلى المجترِح للذَّنْب المُوجبِ على نفسه الحدَّ ، والمستحقّ له ، إمضاءُ الحكم فى بَدَنِه وماله ، والإمكانُ من نفسه ، وأن لا يُعَازَّ بقُوَّة[(٦)] ، ولا يَرُوغَ بحيلة ، ولا يَسخَطَ حكم التنزيل فيما نَزَل به ، وفيما هو بسبيله[(٧)] من مالٍ[(٨)] أو غيره . وإنَّما يجب ذلك إذا كان على الفريقين من القيِّم ، والجانى يمكنه ماكلَّفه اللهُ من ذلك . فإنْ أَبى القيِّم إقامَةَ الحقِّ والحدِّ على الجانى بعد استيجابه ، والإمكانِ من نفسه لإقامة الحدِّ عليه ، فقد عَصَى

---

(١) التباغى : تفاعل من البغى ، وهو الظلم والعدوان والعدول عن الحق . ب ، م : « وترك التناغى » ط : « وترك الأصل والتناجى » ، صوابهما ما أثبت . وسيأتى فى ص٢٨٨ : «يزدادون فساداً وتباغياً » .

(٢) ب ، م : « من عدم » ، صوابه فى ط .

(٣) الخارب : اللص ، أو سارق الإبل خاصة . ب : « سلبهم » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) ب ، م : « جازعليهم » ، صوابه فى ط .

(٥) فى جميع الأصول : « عليهم على نفسه » ، والوجه ما أثبت .

(٦) المعازة : المغالبة والمشادة .

(٧) فى جميع الأصول : « لسبيله » .

(٨) ب ، م : « من ماله » .

الله تعالى ولم يُؤتِ فى ذلك الأمرِ نفسَه ، لأنَّ الله تعالى قد بيَّنه له ، وأوجَبَه عليه ، وقَرَّره حين أوضح له الحُجَّة وقرَّب الدلالة ، وطوَّقه المعرفةَ ، ومكَّنه من الفعل .

وقد بَسطْنا العُذرَ لذوى العَجْز فى صدر الكلام .

وإنْ أَبى الجانى المستحقُّ للحكم والحدِّ ، الإمكانَ من نفسِه ومالِه ، وما هو بِسبيله ، فقد عَصَى الله فى ذلك ، كما عصاه فى رُكوبه ماأوجَبَ عليه الحدّ ، ولم يُؤتَ من ربِّه لما ذكرنا من إيضاح الحجَّة وإثبات القُدْرة .

٢ — فصــل منه

وقد علمنا[١] أنَّ من شأْن النَّاسِ الهربَ إذا خافُـوا نزولَ المكروه ، والامتناعَ من إمضاءِ الحدود بعدَ وُجوبها عليهم ، ما وَجَدُوا السَّبيلَ إلى ذلك . وهذا سببُ إسقاط الأحكام والتَّفاسد .

وقد أُمِرْنا أَن نتركَ أسبابَ الفساد ما استطعنا ، وبالنَّظَر للرعيَّة ما أَمكنَنَا ، فوجب علينا عند الذى قلنا ، أنَّا لو لم نُقِمْ إماماً[٢] واحداً كان الناسُ على ماوَصَفْنا من التسرُّع إلى الشىء إذا طَمِعوا ، والهربِ إذا خافوا . وهذا أمرٌ قد جرَتْ به عامّةُ المعرفة ، وفُتِحت عندنا فيــه التَّجربة .

قلنا عند ذلك إنَّ الإمامة لا تجب على الناس من طريق الظُّنون وإشفاق النفوس[٣] .

---

(١) ب فقط : « وقد علم » .
(٢) ب ، م : « أن نقيم إماماً » ، صوابه فى ط .
(٣) ب ، م : « إشفاق النفوس » بسقوط الواو .

وقد رأينا أعظمَ منها خطراً ، وقدراً ونَفْعاً ، فى كلِّ جهةٍ على خلاف ذلك ، وهو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، بعثَه الله إلى أُمَّة وقد علم أنَّهم يَزْدادون مع كفرهم المتقدِّم[1] مِنْ قِبَل ذلك الرَّسولِ كُفْراً ، بجحدهم له ، وإخراجهم إيَّاه ، وقصدهم قَتْلَه[2] ، ثم لا يكون ذلك مانعاً له من الإرسال إليهم والاحتجاج به عليهم ، لمكان علمِهِ أنَّهم يزدادون فسادًا وتَباغياً[3] ؛ إذْ كان[4] قدَّم لهم ما به ينالون مصالحَ دينهم ودُنياهم . وإنَّما على الحكيم أن يأْتىَ الأَمر الحكيم ، عرفَ ذلك عارفٌ أَم جهِلَهُ جاهل .

وعلى الجوادِ ذى الرَّحمة فى جُوده ورحمته ، أَن يفعل ما هو أَفضَلُ فى الجود ، وأَبلغُ فى الإحسان ، وأَلطف فى الإنعام من إيضاح الحُجَّة[5] وتسهيل الطُّرق ، والإبلاغ فى الموعظة ، مع ضمان الوَعْد بالغاية من الثَّواب والدَّوام واللَّذَّة ، والتَّوعُّدِ بغاية العقاب فى الدَّوام والمكروهِ إلى عبادِهِ الذين كلَّفهم طاعتَه ، وأَهل الفاقة إلى عائدته[6] ونَظرِه وإحسانه .

فإنْ قَبِل ذلك قابلٌ[7] فقد أَصاب حظَّه ، وإن أَبَى ذلك فنفسَه ظَلَمَ[8] ، وقد صنع الله به ماهو أَصلح وإن لم يستطع العبد نَفْسُه .

---

(١) ب ، م : « مع كفرهم المنقذ » ط : « يزدادون من كفرهم » فقط . والوجه فيهما ما أثبت .

(٢) فى جميع الأصول : « قبله » ، صوابه ما أثبت .

(٣) ط : « وبغياً » ، وانظر ما سبق فى ص ٢٨٦ .

(٤) ب ، م : « إذا كان » ، صوابه فى ط .

(٥) فى جميع الأصول : « ومن إيضاح الحجة » ، والوجه حذف الواو .

(٦) العائدة : المعروف والمنفعة .

(٧) ب : « قيل ذلك قايل » ، صوابه فى م ، ط .

(٨) ب : « وإن أباه ذلك فنفسه ظالم » م : « وإن أبى ذلك فنفسه ظالم » ط : « وإن أبى ذلك فلنفسه ظلم » . والصواب ما أثبت .

قالوا : فإذا كان الله تبارك وتعالى عالماً بأنَّ القومَ يَزْدادونَ فسادًا عند إرسالِ الرُّسل ، وكان غيرَ صارفٍ لهم عن الإرسال إليهم ، إذْ كان قد عَدَّل خَلْقَهم[١] ، ومكَّنهم من مصلحتهم ، فما بالُ الظَّنِّ والحِسبان بأنَّ النَّاس يتفاسَدُونَ ويتنازعون ، إذا لم يُقيموا إماماً واحداً يُوجب فرضاً لم ينطق به كتاب ولم يؤكِّده خبر[٢] . وقد رأينا العلم بأنَّ الناس يتفاسدون بما لا يَرِد به فرض[٣] .

٣ — فصـــل منه

وقالوا : قد رأينا أَهلَ الصَّلاح والقَدْر ، عند انتشار أَمرِ السُّلطان ، وغَلبة السِّفلة والدُّعَّار ، وهَيْج العوامِّ[٤] ، يقوم منهم العَددُ اليسير فى الناحية والقبيلة ، والدَّرب والمَحِلة فيفُلُّ لهم حَدَّ المستطيل[٥] ، ويقمع شُذَّاذَ الدُّعّار[٦] ، حتَّى يَسْرحَ الضَّعيف ويأْمنَ الخائف ، وينتشر التاجر ، وَيُكْبِرَ جانبَهم الدَّاعر[٧] .

وإنَّما صلاحُ النَّاس بقدر تعاوُنِهم وتَخاذُلِهم . مع أَنَّ الناس لو تركهم المتسلِّطُونَ عليهم[٨] ، وأُلجئوا إلى أَنفُسهم حتَّى يتحقَّق عندهم أَن لاكافِيَ إلَّا بطْشُهم وحيَلهم ، وحتَّى تكون الحاجة إلى الذَّبِّ[٩]

(١) ب : « خلقه » .
(٢) م : « ولايؤكده خبر » .
(٣) فى جميع الأصول : « يتفاسدون ولا يرد به فرض » .
(٤) ط : « ويصبح العوام » ، تحريف .
(٥) الفل : الكسر والثلم . ب : « فيغل » م : « فيقل » ط : « فيقيم » ، صوابه ما أثبت . وفى ب ، م : « بهم » ، صواب هذه من ط . والاستطالة : الاعتداء .
(٦) ب : « الذعار » تحريف . وفى ط : : « شذوذ الدعار » .
(٧) ب ، م : « ويكرم جانبهم » . وفى ب : « الذاعر » تحريف .
(٨) ب ، م . « المتسلطنون عليهم » .
(٩) ب ، م : « الذابة » ، تحريف .

والحراسة ، والعلم بالمكيدة. هي[١] التي تحملهم على منْع أنفسهم ؛ ولذهبت عادةُ الكفاية . وضعف الاتّكال . ولتعوَّدوا اليقظة. ولدربوا بالحراسة ، واستثاروا دفينَ الرَّأي ؛ لأَنَّ الحاجة تَفتُقُ الحيلة[٢] وتبعث على الرويّة[٣] ، وكان بالحَرَى أن يصلح أمرُ الجميع ؛ لأَنَّ طمع الرَّاعي إذا عاد بأْساً[٤] صَرَفَه في البَغْي[٥] . وكان في ذلك منبهةٌ للنائم ومشحذةٌ لليقظان ، وضـــراوةٌ للمُواكل[٦] ، ومَزْجرةٌ للبُغاة ، حتَّى يَنْبُتَ عليه الصَّغير[٧] ، ويتمحَّل معه الكبير .

٤ — فصـــل منه

وزعم قومٌ أَنَّ الإمامة لا تجب إلَّا بأَحدِ وجوهٍ ثلاثة :

إمَّا عقلٌ يدلُّ على سببها ، أَو خبرٌ لا يكذَّب مثلهُ ، أَو أَنَّه لا يَحتمِل شيئاً من التأْويل إلَّا وجهاً واحداً .

قالوا : فوجدنا الأَخبارَ مختلفة ، والمختلِفُ منها متدافع[٨] ، وليس في المتدافِعِ والمتكافئ بيانٌ ولا فَضْل .

فمن ذلك قولُ الأَنصار ، وهم شَطْرُ النَّاسِ وأَكثرهم ، مع أَمانتهم على دين الله تعالى ، وعِلمِهم بالكتاب والسُّنَّة ، حيثُ قالت[٩] عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم : « منا أَميرٌ ومنكم أَمير » .

---

(١) ب ، م : « وهي » ، والواو مقحمة .
(٢) ب ، م : « تفيق الحيلة » محرف .
(٣) م فقط : « الرؤية » ، تحريف .
(٤) ب : « يائساً » . م : « بأساً » وأثبت ما فى ط .
(٥) ب ، م : « في سوى البغي » .
(٦) ب ، م : « المواكل » .
(٧) ب : « يتثبت » ، ط : « تثبت عليه الصغيرة » ، والصواب ما أثبت من م .
(٨) ط : « والمختلف متدافع » ب ، م : « والمختلف منه متدافع » ، والوجه ما أثبت .
(٩) ط : « حيث قالوا » .

فلو كان قد سَبَقَ من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك أمرٌ ما كان أحدٌ أعلمَ به منهم ، ولا أخلَقَ للإقرارِ والعملِ بما يلزم . والصَّبرِ عليه[1] منهم . بعد الذى ظَهَر من احتمالهم فى جَنْب الله تعالى ، والجهادِ فى سبيله ، والنُّصرةِ لنبيِّه صلى الله عليه وسلم [مع الإيواءِ والإيثار ، بعد المواساة ، ومحاربة القريب والبعيد . والعرب قاطبة وقريشٍ خاصّة . ثم الذى نطق القرآنُ به من تزكيتهم وتفضيلهم ، بحبِّ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم لهم[2]] ، وثقته بهم[3] وثنائه عليهم[4] ، وهو يقول : « أَمَا والله ما عَلِمتُكم إلَّا لَتَقِلُّون عند الطَّمَعِ وتَكثُرون عند الفَزَع » ، فى أمورٍ كثيرة .

ثم لم يكن قولُهم : « منَّا أميرٌ ومنكم أمير » مِن سفيهٍ من سفهائهم ضَوَى إليه[5] أمثالُه منهم ، فإنَّ لكلِّ قوم حَسَدةً وجُهَّالا ، وأحداثاً وسَرَعانا[6] ، مِن حدَثٍ تبعثه الغَرارة والأَشَرُ[7] ، ورجلٍ يحبُّ الجاه والفتنة ، أو مغفَّلٍ مخدوع[8] ، أو غِرٍّ ذى حَمِيَّة[9] يؤْثر حَسَبَه ونسبَه على دين الله تعالى وطاعةِ نبيهِ صلى الله عليه وسلم .

---

(١) ب فقط : « عليهم » ، تحريف .

(٢) التكملة من م ، ط .

(٣) فى جميع الأصول : « ولقيه بهم » ، والوجه ما أثبت .

(٤) فى جميع الأصول : « وثباته عليهم » ، صوابه ما أثبت .

(٥) ضوى إليه : انضم ولجأ . وفى اللسان : « يقال ضوى الرجل إلينا أشد المضوية ، أى أوى إلينا » . وفى جميع الأصول : « ضرى إليه » . والوجه ما أثبت .

(٦) السرعان : الأوائل الأخفاء يسرعون إلى الأمر .

(٧) الأشر : المرح والنشاط ب ، م : « والأشد » تحريف ما أثبت . وفى ط : « ولا شذ رجل يحب الجاد والفتنة » ، ولا وجه له .

(٨) ط : « مجدوع » م : « مجذوع » ، صوابهما ما أثبت من ب .

(٩) ب : « أو عزى » م : « أو غرى » ، صوابهما فى ط . وفى ط : « ذو حمية » صوابه فى ب ، م .

ولا كان ذلك القولُ ، إنْ كان من عِليتهم ، في الواحد الشاذِّ القليل ، بل كان في ذَوِي أحلامهم والقَدَم مِنْهم[(١)] .

ثم كان المرشَّحُ والمأمولُ عندهم سعدُ بنُ عبادة ، سيّدًا مُطاعاً ، ذا سابقةٍ وفَضْل ، وحِلم ونَجْدةٍ ، وجاهٍ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستغاثةٍ به[(٢)] في الحوادث والمهِمِّ من أمره .

ثم كان في الدَّهم[(٣)] من الأنصار ، والوجوهِ والجمهورِ من الأوس والخزرج . فكيف يكون سبَقَ من النبيِّ صلى الله عليه وسلم في هذا أمرٌ يقطع عُذْرًا[(٤)] ويوجب رضاً ، وهؤلاءِ الأُمناءُ على الدِّين ، والقُوَّام عليه ، قد قاموا هذا المقامَ ، وقالوا هذا المقال .

قالوا : فإن قال قائل : فإنَّ القوم كانوا على طبقاتٍ ، من ذاكرٍ متعمِّد ، وناسٍ قد كان سقَطَ عن ذِكرِه وحفظه ، ومن رجلٍ كان غائباً عن ذلك القولِ والتأكيد الذي كان من النبي صلى الله عليه وسلم وآله ، في إقامة إمامٍ يقدَّم في أيّام وَفاتِهِ وشَكَاتِه[(٥)] ، ومن رجلٍ قَدَمٍ في الإسلام لم يكن من حُمَّال العلم ، فأذكَرَهُم أبو بكرٍ وعُمرُ فذكَروا ، ووعَظَاهم فاتَّعظوا . فقد كان فيهم النَّاشئُ الفاضلُ الذي يزجُره الذِّكر ، ويَنزِع إذا بُصِّر ؛ والمعتمدُ الذي لم يُبلغْ من لجاجه وتتايُعه[(٦)] ، ورُكوب

---

(١) ب : « فيهم » .

(٢) ب : « واشتغاثة به » م : « واستغاثته به » ط : « واستعانته به » ، والوجه ماأثبت .

(٣) أي كان هذا القول في الدهم . والدهم ، بالفتح : العدد الكثير ، كالدهماء . ب فقط : « في الوهم » ، تحريف .

(٤) في جميع النسخ : « عدداً » ، والصواب ما أثبت

(٥) الشكاة ، بفتح الشين : المرض . ب ، م : « وسكانه » ، صوابه ما أثبت . والكلمة ساقطة من ط . وفي ب ، م : « إقامة الإمام »

(٦) التتايع : التهافت في الشر واللجاج . وفي جميع الأصول : « وتتابعه » بالباء الموحدة ، صوابه بالياء التحتية المثناة .

رَدْعه[١] مايُؤْثَر معه التصميم[٢] على حُسْنِ الرُّجوعِ عند الموعظة الحسَنة ، والتخويف بفساد العاجِل[٣] . فى كثيرٍ ممن لم يكن له فى الإسلام القَدْر النَّبيه ، إمَّا للغَفْلة ، وإمَّا للإبطاءِ عنه ، وإمَّا للخمول فى قومه مع إسلامه وصِحَّة عَقْدِه . فداوَاهُمْ أبو بكرٍ وعُمرُ[٤] يومَ السَّقيفة حين قالا[٥] : « نحن الأئمَّة وأنتم الوزراء » . وحيث رَوَوْا لهم أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الأَئمَّة من قريش » . فلما استُرجِعوا رَجَعُوا .

قلنا : الدَّليل على أنَّ القوم لم يروا فى كلام أَبى بكرٍ وعمر حُجَّةً عليهم ، وأَنَّ انصرافَهُم عمَّا اجتمعوا له لم يكن لأَنَّهم رأَوْا أَنَّ ذلك القولَ من أَبِى بكر وعمر وأَبِى عُبيدة بنِ الجَرَّاح حُجَّةٌ ، غَضَبُ رئيسِهم وخُرُوجُه من بين أَظهرهم مراغَماً ، فى رجالٍ من رَهْطِهِ ، مع تركِهِ بيعةَ أَبى بكر رضوان الله عليه ، وتشنيعهِ[٦] عليهم بالشَّام .

وقد قال قَيسُ بنُ سعدِ بن عُبادة ، وهو يذكر خِذلانَ الأَنصارِ لسَعدِ بن عُبادة : واستبدادَ الرَّهط من قريشٍ عليهم ، بالأَمر :

وخَبَّرتمونا أَنَّما الأَمــرُ فيــكمُ ... خِلافَ رسول الله يوم التَّشاجُرِ[٧]
وأَنَّ وَزاراتِ الخــلافةِ دونــكم ... كما جاءَكم ذو العرشِ دونَ العشائرِ
فهــلَّا وزيراً واحــداً تجتَبُونه ... بغير ودادٍ منكمُ وأَواصرِ[٨]

(١) ركب ردعه : لم يردعه شيء فيمنعه عن وجهه .
(٢) ب : « التصمم » ، صوابه فى م ، ط .
(٣) ب : « لفساد العاجل » ، صوابه فى م ، ط .
(٤) ب ، م : « وأبو بكر وعمر » ، والوجه حذف الواو قبل أبى بكر كما فى ط .
(٥) ط : « قالوا » ، وهو أمر جائز فى العربية .
(٦) ب ، م : « وتشييعه » ط : « وتشيعه » ، صوابهما ما أبعث .
(٧) ب : « الرسول الله » ، تحريف .
(٨) اجتباه : اختاره واصطفاه . ب ، م : « تجتنبو به » صوابه فى ط .

سَقَى الله سعدًا يومَ ذاكَ ولاسَقَى عَراجلةً هابت صُدورَ المنابرِ[(١)]

وقال رجلٌ من الأنصار ، ودعاهُ علىٌّ رضوان الله عليه إلى عَونِه ونُصرتِه ، إمَّا يوم الجَمَل ، أو يومَ صِفِّين :

مالى أُقاتل عن قومٍ إذا قَدَرُوا عُدْنا عدُوًّا وكنَّا قبلُ أنصارا

ويلٌ لها أُمّةً لو أنَّ قائدهـا يَتلُو الكتاب ويَخْشَى النَّار والعارا

أمَّا قُريشٌ فلم نسمَعْ بمثلِهِمُ غَدراً وأَعجَبَ فى الإسلام آثارا

إلَّا تكنْ عصبةً خَالُوا نبيَّهمُ بالعُرف عُرفاً وبالإنكار إنكارا[(٢)]

أَبا عُمارة والثَّاوِى ببَلقَعةٍ فى يومِ مُؤْتَةَ لاينفكُّ طَيَّارا[(٣)]

أَبا عُمارة[(٤)] : حمزة بن عبد المطَّلب رضوان الله عليه ، وقد كان يكنى أَبا يَعْلَى ، والثَّاوى فى يوم مُؤْتة : جعفر بن أَبى طالب[(٥)] .

وقال رجلٌ من الأَنصار من ولد أَبى زيدٍ القارئ[(٦)] ، وذكر أَمرَ الأَنصار وأَمرَ قريش :

---

(١) العراجلة : جمع عرجلة ، وهم جماعة الرجالة يمشون على أقدامهم . وأنشد أبو عبيدة :

راحوا يماشون القلوص عشية عراجلة من بين حاف وناعل

وفى جميع النسخ : « عواجله » بالواو ، صوابه ما أثبت . والمنابر ، جمع منبر ، عنى أنهم ليسوا بخطباء . م : « الثوابر » ط : « النوابر » ، صوابهما فى ب .

(٢) خالوا ، من الخول بالتحريك ، وهم حشم الرجل وأتباعه . والخائل : الذى يخول على أهله وعياله ، أى يرعى عليهم . وفى ب : « حالوا وبينهم » م ، ط : « حالوا بينهم » ، والوجه ما أثبت .

(٣) جاء فى الحيوان ٣ : ٢٣٣ : « ونحن نؤمن بأن جعفراً الطيار ، ابن أبى طالب ، له جناحان يطير بهما فى الجنان ، جعلا له عوضاً من يديه اللتين قطعتا على لواء المسلمين فى يوم مؤتة »

(٤) ب فقط : « أبو عمارة » .

(٥) كان يوم مؤتة فى الثامنة من الهجرة بين المسلمين والروم . وكان قد حمل لواء المسلمين فيه زيد بن حارثة فقتل ، فحمله جعفر بيمينه فقطعت ، ثم بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه فقتل وخر شهيداً ، فحمل اللواء بعده عبد الله بن رواحة فقتل أيضاً . وانظر الإصابة ١١٦٢ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ٦٨ — ٦٩ وكتب السيرة

(٦) أى من إخوته وابناء أبيه ثابت بن الضحاك . وزيد هذا هو زيد بن ثابت بن الضحاك ،

دعاها إلى استبدادها وحُقودهـا تذكُّرُ قتلى فى القَليبِ تكبكبُوا
هُنالك قتْلى لا تُؤدَّى دِياتُهـم وليس لباكيها سِوى الصَّبرِ مَذهبُ
فإن تَغضب الأَبناءُ من قبْل من مَضَى
فو الله ماجئنا قبيحاً فَتعتبوا (١)

٥ — فصـــل منه

قد حكينا قولَ من خالَفَنَا فى وجوب الإمامة وتعظيم الخلافة ، وفسَّرنا وجوهَ اختلافهم. واستَقصَينا جميعَ حُججهم ، إذْ كان على عذرٍ لمَّا غاب عنه خَصْمُه (٢) ، وقد تكفَّل بالإخبار عنه فى ترك الحِيطة له ، والقيام بحجته . كما أنَّه لا عُذر له فى التَّقصير عن إفناد (٣) من يخالفه (٤) ، وَكشْفِ خَطاءِ من يضادُّه (٤) عند ما قرأَ كتابَه (٥) ، وتَفهُّمَ حجته . لأَنَّ أَقلَّ ما يُزيل عُذرَه ، ويُزيح عِلَّته ، أَنْ يكون قولُ خَصمِهِ قد استهدف لعَقْله ، وأَصْحَر للسانه (٦) ، وقد مكَّنه من نفسه ، وسلَّطه

=الأنصارى ، كاتب النبى صلى الله عليه وسلم وأمينه على الوحى ، وأحد الذين جمعوا القرآن على عهده ، وهو الذى كتب المصحف لأبى بكر ، ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار . توفى سنة ٤٥ . وفيه يقول حسان بن ثابت :

فمن للقوافى بعد حسان وابنـه ومن للمعانى بعد زيد بن ثابت

طبقات القراء ١ : ٢٩٦ والإصابة ٢٨٧٤ . وفى الحيوان ١ : ٣٣٦ : « كانوا يكرهون أن يقال قراءة عبد الله ، وقراءة سالم ، وقراءة أبى ، وقراءة زيد » .

(١) ب فقط : « قتل من مضى » .

(٢) م : « إذا كان » . وفى جميع الأصول : « لمن غاب عنه خصمه » .

(٣) الإفناد : تخطئة الرأى ، ومثله التفنيد . وفى الأصول : « إفساد ما يخالفه » .

(٤) ط : « وكشف خطأ » . والخطاء : الخطأ . وفى ب ، م : « من يضاره » ، صوابه فى ط .

(٥) فى الأصول : « عند من قرأ كتابه » .

(٦) أصحر به : انكشف وظهر ، من قولهم : أصحر ، إذا خرج إلى الصحراء . وفى الأصول : « وأضجر للسانه » ، لكن فى ط : « وأضجر لسانه » .

على إظهار عَورته . فإذا استراحَ شغب المنازع [(١)] ، ومداراة المستمع لم يبق إلّا أن يَقْوَى على خلافِه أو يَعجز عنه .

ومن شكر المعرفة بمغاوى الناس [(٢)] ومَراشدهم ، ومضارِّهم ومنافعهم : أن يحتمل ثِقَل مؤُنتهم وتعريفهم ، وأن يتوخّى إرشادهم ، وإنْ جَهلوا فَضْلَ مَن يُسدِى إليهمْ .

ولن يُصانَ العِلمُ بمثل بَذْله ، ولن تُستَبْقَى النّعمةُ فيه بمثل نَشْرِه .

وأعلم أنّ قراءَةَ الكتب أَبلغُ فى إرشادهم من تَلَاقيهم ، إذْ كان [(٣)] مع التّلاقى يقوى التصنّع ، ويكثر التّظالم ، وتُفرط النُّصرة [(٤)] ، وتنبعث الحميَّة . وعند المزاحَمةَ تشتدُّ الغَلَبةُ – وشهوةُ المباهاة ، والاستحياءُ من الرُّجوع ، والأَنَفة [(٥)] من الخضوع . وعن جميع ذلك تحدُثُ الضّغائنُ [(٦)] ، ويظهر التّباين ، وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفةِ ، وبهذه الحالة ، امتنعَتْ من المعرفة وعَمِيتْ عن الدّلالة .

وليست فى الكتب عِلّةٌ تمنع مِن درْك البُغية ، وإصابةالحجّة ؛ لأنّ المتوحِّد بقراءتها ، والمتفرِّدَ بفهم مَعانيها، لايُباهِى نفسَه ولا يُغالِب عَقْله ولا يُعازُّ خَصمه [(٧)] .

والكتاب قد يَفضُل ويرجُح على واضِعه بأُمور :

---

(١) ب فقط : « من شغف المنازع » تحريف .

(٢) ب : « بمعائب الناس » م ، ط : « بمعاريب الناس » . والوجه ما أثبت من الحيوان ١ : ٨٤ . والمراشد تقابلها « المغاوى » . وانظر للكلام على « معائب » ماورد فى تفسير أبى حيان ٤ : ٢٧١ عند الكلام على « معائش » .

(٣) فى الأصول : « إذا كان »

(٤) ب ، م : « ويفرط النصرة » .

(٥) ب ، م : « والألفة » ، صوابه فى ط والحيوان ١ : ٨٤ .

(٦) ب : « يحدث الضغائن » .

(٧) المعازة : المغالبة . وفى الحيوان ١ : ٨٥ : « ولا يغالب عقله » .

منها : أنَّ الكتاب يُقرأ بكلِّ مكانٍ وفى كلِّ زمان ، على تَفاوُتِ الأعصار . وبُعْدِ ما بين الأمصار . وذلك أمرٌ يستحيل فى الواضع[١] ولا يُطمَع فيه من المُنازِع[٢] . وقد يذهب العالِمُ وتبقى كتبُه[٣] ، ويفنى ويبقى أثرُه[٤] .

ولولا ما رسَمَتْ لنا الأوائلُ فى كتبها ، وخلَّفت من عجيب حِكَمها ودوَّنت من أنواع سِيَرها[٥] حتَّى شاهدنا بها ماغاب عَنَّا ، وفتحنا بها المُستغلِقَ علينا[٦] ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرَهم[٧] ، وأدركنا ما لم نكن نُدركُه إلَّا بهم ، لقد خَسَّ حَظُّنَا فى الحكمة ، وانقطع سبيلُنا إلى المعرفة .

ولو أُلجِئْنا إلى قدر قُوَّتنا ومبلغ خواطرِنا ، ومنتهى تجاربنا ، بما أدركَتْهُ حواسُّنا ، وشاهدَتْهُ نفوسُنا ، لقد قلَّتِ المعرفةُ وقَصُرت الهِمَّة وضَعُفت المُنَّة ، فاعتقم الرأىُ ومات الخاطر ، وتبلَّد العقـل[٨] ، واستبَدَّ بنا سوءُ العادة .

وأكثَرُ مِن كتبهم نفعاً ، وأحسن مِّمَا تكلَّفوا موقعاً[٩] ، كُتُبُ الله تعالى ، التى فيها الهُدَى والرَّحمة ، والإخبار عن كلِّ عبرة ، وتعريفُ كلِّ سيِّئةٍ وحَسَنة .

---

(١) فى الحيوان ١ : ٥٨ : « فى واضع الكتاب » .
(٢) ط : « التنازع » تحريف . وفى الحيوان : « والمنازع فى المسألة والجواب » .
(٣) ب ، م : « ويبقى كتبه » وأثبت مافى ط . والذى فى الحيوان : « وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه » .
(٤) فى الحيوان : « ويذهب العقل ويبقى أثره » .
(٥) ب فقط : « سرها » ، صوابه فى م ، ط والحيوان .
(٦) الحيوان : « كل مستغلق علينا » .
(٧) ب فقط : « أكثرهم » ، تحريف .
(٨) فى جميع الأصول : « العاقل » ، وأثبت مافى الحيوان ١ : ٨٦ .
(٩) فى الحيوان : « وأحسن موقعاً » فقط .

فينبغى أن يكون سبيلنا فيمن بَعْدَنا سبيل مَنْ قبلنا فينا . مع أنَّا قد وجدنا فى العِبرة[١] أَكثَرَ ممَّا وجدوا ، كما أَنَّ مَنْ بعدنا يجدُ من العِبرة أَكثر ممَّا وجدنا .

فما ينتظر الفقيهُ بفقهه والمحتجُّ لدينه ، والذَّابُّ عن مذهبه ، ومُواسِى النَّاسِ فى معرفته ، وقد أَمكن القولُ وأَطرَقَ السَّامع . ونجا من التقيَّة[٢] ، وهبَّت ريحُ العلماءِ .

٦ — فصل منه

واعلمْ أَنَّ قصدَ العبدِ بنعمِ الله تعالى إلى مخالفته ، غير مخرجٍ إنعامَ الله تعالى عليه ، ولا يحوِّل إحسانه إليه[٣] إلى غير معناه وحقيقته ، ولم يكن[٤] إحسانُ الله فى إعطائه الأَداةَ وتبيينَ الحجَّة لينقلبا إفساداً وإساءة ؛ لأَنَّ المُعانَ على الطَّاعة عَصَى بالمعونة ، وأَفسدَ بالإنعام ، وأَساءَ بالإحسان .

وفرقٌ بينَ المُنعِم والمنْعَم عليه ؛ لأَنَّ المنعَم عليه يجب أَن يكون شكوراً ، ولِحقِّ النِّعمة راعِياً[٥] ، والمُنعِم منفردٌ بحُسْن الإنعام ، وشريكٌ فى جميل الشكر . ولأَنَّ المنعِم أَيضاً هو الذى حَبَّب الشُّكرَ إلى فاعله ، بالذى قَدَّم إليه من إحسانه . وتولَّى من يساره[٦] ، ولذلك جعلوا النِّعمة لِقاحاً ، والشُّكر وِلاداً[٧] . وإنَّما مَثَل إعطاءِ الآلة والتكليف لفعل

---

(١) فى الحيوان : « من العبرة » .

(٢) التقية : الحذر والخوف . والذى فى الحيوان : « وخوى نجم التقية » .

(٣) ب فقط : « عليه » .

(٤) ب : « ولن يكون » ، صوابه فى م ، ط .

(٥) ب : « وبحق النعمة » صوابه فى م ، ط . وفى ب ، م « راغباً » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٦) م ، ط : : « من ساره » ، ولا وجه له واليسار : الغنى

(٧) الولاد والولادة والإلادة كلها مصدر للفعل ولد .

الخير[1] مَثَلُ رجلٍ تَصدَّق على فقيرٍ ليستر عَورتَه ، ويُقِيم من أَوَدِ صُلبه ، وليَصْرِف فى منافعه . ولا يكونَ إنفاقُ الفقير ذلك الشىء فى الفسادِ والخلافِ والفَواحش ، لينقلب[2] إحسانُ المتصَدِّق إساءة . وإنَّما هذا بصواب الرَّأْى الذى لاينقلب صواباً وإن أنجح صاحبُه[3] .

وقد يُؤْتَى[4] الرَّجل من حَزْمه ولايكون مذموماً ، ويَحْظَى[5] بالإضاعة ولا يكون محموداً .

٧ ــ فصـــل منه

ولم يكن اللهُ تعالى ليضَعَ العدلَ مِيزاناً بين خلقه ، وعِياراً على عباده ، فى نَظَر عقولهم فى ظاهِر ما فَرَض عليهم، وييسِّر[6] خلافَه ، ويستخفى بضدِّه ، ويعلم أن قضاءَه فيهم غير الذى فَطَرهم على استحسانه ، وتحبَّب إليهم به ، فى ظاهرِ دينه ، والذى استوجب به عَلَىّ الشُّكْرِ على جميع خلقه .

٨ ــ فصـــل منه

وإنْ لم يكن العبد على ماوصفنا[7] من الاستطاعة والقُدرة ، والحال التى هى أدعَى[8] إلى المصلحة ، ماكان متروكاً على طباعه ودَواعِى شهواته ، دونَ تعديلِ طَبْعه وتسويةِ تركيبه .

ولذلك أَسبابٌ نحن ذاكروها ، وجاعِلُوها حجّةً فى إقامة الإمامة ،

---

(١) فى جميع الأصول : « لفعل الخير » ، وإنما يقال كلفه بالأمر وكلفه إياه .
(٢) ب ، م : « لتنقلب » صوابه فى ط .
(٣) ب : « وإنما أنجح صاحبه » .
(٤) ب ، م : « يوق » ، صوابه فى ط .
(٥) يحظى ، من الحظوة . وفى ب ، م : « يخطى » ، صوابه فى ط .
(٦) ما عدا ط : « ويسر » .
(٧) ب : « وصفنا به » و « به » مقحمه
(٨) ب ، م . « ادعا » ط : « ادعاء » ، والوجه ما أثبت .

وأنَّ عليها مدارَ المصلحة ، وأنَّ طبع البَشَر يمتنع من الإخبار إلَّا على مانحنُ ذاكرود ، فنقول :

إنَّا لما رأينا طبائعَ الناس وشَهواتِهم ، من شأْنها التقلُّبُ إلى هَلَكتهم وفسادِ دينهم ، وذَهَاب دُنْياهم ، وإن كانت العامَّة أسرعَ إلى ذلك من الخاصَّة ، فكلٌّ لاتنفك[1] طبائعُهم من حَمْلِهم على مايُرْديهم[2] ، مالم يُرَدُّوا بالقَمْع الشَّديد فى العاجل ، من القصاص العادل ، ثم التَّنكيلِ فى العقوبة على شرِّ الجِنايَة[3] ، وإسقاط القَدْر ، وإزالة العدالة ، مع الأَسماء القبيحة ، والأَلقاب الهجينة ، ثم بالإخافة الشَّديدة والحَبْس الطويل ، والتغريب عن الوطن[4] ، ثم الوعيد بنار الأَبَد ، مع فَوْتِ الجنَّة .

وإنَّما وضع الله تعالى هذه الخصالَ لتكون لقوَّة العَقْل مادَّة ، ولتعديل الطَّبائع مَعُونة ؛ لأَنَّ العبد إذا فَضَلَتْ قُوَى طبائعِه وشهواتِه على قُوَى عقلِه ورأْيِه ، أُلفِيَ[5] بصيراً بالرُّشد غيرَ قادرٍ عليه ، فإذا احتوشَتْه المخاوفُ كانت موادَّ لزواجر عقلِه ، وأَوامِر رأْيه . فإذا لم يكن فى حوادث الطَّبائع ودَواعِي الشَّهوات وحُبِّ العاجل فضـــلٌ على زواجرِ العقل وأَوامِره[6] أُلفِيَ العبدُ ممتنعاً من الغَيِّ قادراً عليه ؛ لأنَّ الغضب والحَسَد والبُخلَ والجُبْن ، والغَيرة ، وحُبَّ الشَّهواتِ والنِّساء ، والمكاثرةَ[7] ،

---

(١) ب ، م : « لاينفك » .

(٢) الإرداء : الإهلاك . وفى م فقط : « يؤديهم » ، تحريف .

(٣) فى الأصول : « الخيانة » ، والوجه ما أثبت .

(٤) م : « والغريب عن الوطن » ، تحريف .

(٥) ب : « ألق » ط : « ألغى » ، صوابه فى م .

(٦) ب : « عن على زواجر العقل » ، و« عن » مقحمة وفى م « وأوامر العى » . تحريف .

(٧) ط : « والمكاشرة » . والمكاشرة : المباسطة

والعُجْب والخُيَلاء وأنواعَ هذه إذا قَوِيتْ دواعيها لأهلها ، واشتدَّت جَواذِبُها لصاحبها ، ثم لم يَعلَمْ أنْ فوقه ناقماً عليه ، وأنَّ له منتقماً لنفسه من نَفْسه ، أو مقْتضِياً منه لغيره ، كان مَيلُه وذَهابه مع جواذب الطَّبيعةِ ودواعي الشَّهوةِ طِباعاً لا يمتنع معه ، وواجباً لا يستطيع غيره .

أوَمَا[1] رأيتَه كيف يَخْرَق فى ماله[2] ، ويُسرِع فيما أثَّلَتْ له رجالُه ، وشيَّدت له أوائله[3] ، من غير أن يرى للِعَوض وجهاً ، وللخَلَف سبباً فى عاجل دينِه ، ولا آجلِ دُنْياه ، حتَّى يكون وَالِى المسلمينَ هو الذى يَحجُرُ عليه ؛ ليكون مضَضُ الحَجْر وذُلُّ الحَظْر ، وغِلظةُ الجَفوةِ واللَّقبُ القبيح ، وتسليط الأشكال ، مادّةً للذى معه من مَعرفتهِ وبقيَّةِ عقله .

٩ — فصل منه

وقد يكون الرَّجلُ معروفاً بالنَّزَق[4] مذكوراً بالطَّيش مُستهاماً بإظهار الصَّولة حتَّى يتحامَى كلامَه الصَّديقُ ، ويُداريهِ الجليس ، ويَترُكَ مُجارَاتَهُ[5] الكَريم ، للذى يعرفون من شذَاتِه[6] ، وبَوَادرِ حِدَّته[7] وشدَّةَ تسعُّره والتهابه ، وكثرةِ فَلتاتِه . ثم لايلبث أن يَحضُر الوالى الصَّليبُ والرجلُ المنيع ، فيُلفَى ذليلًا خاضعاً ، أو حليماً وقوراً، أو أديباً رفيقاً ، أو صبوراً مُحتسِباً .

---

(١) ب فقط : « أوأما » ، تحريف .
(٢) الخزق ، بالتحريك : نقيض الرفق . ب : « يخزق » ، تحريف .
(٣) فى الأصول : « وشدت له أوائله » .
(٤) النزق : الطيش والخفة . ب : « بالنزف » م : « بالنرق » ، صوابهما فى ط .
(٥) فى الأصول : « مجازاته » بالزاى .
(٦) الشذاة : الشر والأذى . ب : « شداته » م : « شدانه » ، صوابهما ما أثبت . وفى ط : « شدته » .
(٧) ب ، م : « ونوادر حده » ، صوابه فى ط .

وقد نجده يَجْهَل على خصمه ، ويَستطيلُ على منازِعه ، ويهُمُّ بتناوله والغدرِ به[١] ، فإذا عرَفَ له حُماةً تكفيه ، وجُهَّالًا تحميه ، وجاهاً يمنعُه ، ومالًا يَصُول به ، طامَنَ له مِن شخصه ، وألَانَ له من جانبه ، وسكَّنَ من حركته ، وأطفأَ نارَ غضبِه .

أو ما علمت أنَّ الخوف يطرد السُّكر ، ويُميت الشَّهوة ، ويُطفئُ الغَضَب ، ويحطُّ الكِبْر ، ويذكِّر بالعاقبة ، ويُساعِدُ العقل ، ويُعاون الرَّأى ، ويُنبِتُ الحيلة[٢] ويبعث على الرويَّةِ ؛ حتَّى يعتدل به تركيب من كان مغلوباً على عقله ، ممنوعاً من رأيه ، بُسكْرِ الشَّباب وسكر الغَنَاءِ[٣] وإهمال الأمر ، وثقة العزّ ، وبَأْوِ القدرة[٤] .

١٠ — فصل منه

وإنَّما أَطنَبْتُ[٥] لك في تفسيرِ هذه الأَحوالِ التى عليها الوجـــودُ والعبرةُ ، لتعلمَ أنَّ الناس لو تُرِكوا وشهواتِهم ، وخُلُّوا وأَهواءَهم[٦] وليس معهم من عقولهم إلا حِصَّة الغرِيزه[٧] ونصيبُ التركيب . ثم أُخْلُوا من المرشِدين والمؤدِّبين ، والمعترضين بينَ النفوس وأهوائها ، وبين الطَّبائع وغَلَبَتِها ، من الأَنبياءِ وخلفائها ، لم يكن فى قُوَى عُقولِهم ما يُداوُون به أدواءَهم ، ويَجْبرون[٨] به من أهوائهم ، ويقوَون به لمحاربَة طبائِعهم[٩] ، ويعرفون به جميع مصالحهم .

(١) ب ، م : « بتناوله بالأمر به » ، صوابه فى ط .
(٢) ب ، م : « ويسبب الحيلة » .
(٣) الغناء ، كسحاب : مقابل الفقر ، وهو الغنى ، تكسر الغين فيقصر وتفتح فيمد . ب ، م : « الغنا » ط : « الفناء » صوابهما ما أثبت .
(٤) البأو : الكبر والفخر .
(٥) ب ، م : « أطبت » ، ووجهه فى ط .
(٦) فى الأصول : « تركوا شهواتهم وخلوا أهواءهم » ، والوجه ما أثبت .
(٧) ب فقط : « العزيز » ، صوابه فى م ، ط .
(٨) الجبر : الإصلاح . وفى الأصول : « ويخبرون » .
(٩) ب فقط : « ويقولون به لمحاربته طبائعهم » ، تحريف .

وأيُّ داءٍ هو أردَى من طبيعةٍ تُردِى ، وشَهوةٍ تُطْغِى ؟! ومن كان لايَعُدُّ الداءَ إلَّا ماكان مُؤْلماً فى وقته ، ضارباً على صاحبه فى سوادِ ليله [١] وبياضِ نهاره ، فقد جهلَ معنى الداء . وجاهلُ الدَّاء جاهلٌ بالدواء .

١١ — فصــل منه

ولكنَّا نقولُ : لايجوز أن يَلِيَ أَمرَ المسلمين على ظاهر الرَّأْى والحزم والحَيْطة أَكثَرُ من واحد ، لأَنَّ الحُكَّامَ والسَّادةَ إذا تقاربَتْ أَقدارُهم وتساوت عِنَايَتُهم [٢] قويَتْ دواعيهم إلى طلب الاستعلاء ، واشتدَّت منافَسَتُهُمْ فى الغلبة .

وهكذا جَرَّبَ النَّاسُ من أَنفسهم فى جيرانهم الأَدْنَيْنَ فى الأَصهار وبنِي الأَعمام ، والمتقاربين فى الصِّناعات ، كالكلام ، والنجوم ، والطِّبِّ والفُتْيا ، والشِّعر ، ، والنحو والعَروض ، والتِّجارة ، والصِّباغة ،والفلاحة أَنَّهم إذاتدانَوْا فى الأَقدار ، وتَقَاربوا فى الطَّبقات ، قوِيَتْ دواعيهم إلى طَلَب الغَلَبةِ ، واشتَّدت جَوَانبُهم فى حبِّ المباينة ، والاستيلاء على الرِّياسة .

ومتى كانت الدَّواعى أَقوى كانت النَّفس إلى الفساد أَمْيَلَ ، والعزمُ أَضعف ، وموضع الروِيَّة [٣] أَشغل ، والشَّيطانُ فيهم أَطمع ؛ وكان الخوفُ عليهم أَشدَّ ، وكانوا بموافقَة المفسِدِ أَحْرَى ، وإليه أَقرب .

وإذا كان ذلك كذلك فأَصلح الأُمورِ للحُكَّام والقَادة ، إذاكانت [٤] النفوسُ ودواعيها ومَجرى أَفعالها على ما وصفنا ، أَن تُرفَعَ عَنهم أَسبابُ التَّحاسُدِ والتَّغالب ، والمباهاةِ والمنافسةِ .

(١) ب فقط : « فى سواء ليله » ، تحريف .
(٢) ب ، م : « عيناتهم » ، صوابه فى ط .
(٣) ب ، م : « الرؤية » ، صوابها فى ط .
(٤) ب فقط : « وإذا كانت » ، تحريف .

وإنَّ[١] ذلك أدعَى إلى صَلاحِ ذاتِ البَيْن ، وأمْنِ البَيْضة ، وحِفْظ الأطراف .

وإذا كان اللهُ تَباركَ وتعالى ، قدْ كلَّف النَّاسَ النظَرَ لأَنفُسِهم[٢] ، واستيفاء النِّعمة عيهم ، وترك الخِطار[٣] بالهَلَكة والتَّغرير بالأُمَّة ، وليس عليهم ممَّا يمكنهم[٤] أكثرُ من الحَيْطة والتَّباعد من التَّغرير . ولاحالَ أدعَى إلى ذلك أكثرُ ممَّا وصفْنا ، لأنَّه أشبهُ الوجوهِ بتمام المَصلحة ، والتَّمتُّع بالأَمن والنِّعمة .

١٢ – فصــل منه

فلمَّا كان ذلك كذلك علمنا أنَّه إذا كان القائمُ بأُمور المسلمين بائِن الأَمْرِ ، متُفَرِّدًا بالغاية من الفَضْل ، كانت دواعِي النَّاس إلى مسابقته ومُجاراتِه أقلّ .

ولم يكن اللهُ لِيَطبَعَ[٥] الدُّنيا وأهلَها على هذه الطبيعة ، ويركِّبها وأهلَها[٦] هذا التركيب ، حتَّى تكون إقامةُ الواحدِ من النَّاسِ أَصلحَ لهم ، إلَّا وذلك الواحدُ موجودٌ عند إرادتِهم له ، وقصْدِهم إليه ؛ لأَنَّ الله لايُلْزِمُ النَّاسَ فى ظاهر الرَّأْى والحِيطة إقامةَ المعدوم ، وتشييد المجهول[٧] ؛ لأَنَّ على النَّاس التسليم ، وعلى الله تعالى قَصْدُ السَّبيل .

---

(١) ب ، م : « إن » بسقوط الواو .
(٢) ب فقط : « إلى أنفسهم » ، تحريف .
(٣) الخطار : المخاطرة . ط فقط : « الخطر » ، ولا وجه له .
(٤) ب ، م : « وليس عليهم أكثر مما يمكنهم » ، و « أكثر » هنا مقحمة .
(٥) ب ، م : « ولو لم يكن » . و « لو » مقحمة . وفى م ، ط : « ليطيع » تحريف ، صوابه فى ب .
(٦) ط : « ويركبها أهلها » ، صوابه فى ب ، م .
(٧) ب ، م : « وتشريد المجهول » ، صوابه فى ط .

وهل رأيتم مَلِكين أوْسيِّدين فى جاهليَّةٍ أو إسْلامٍ ، من العرب جميعاً أو من العَجَم ، لايتحيَّفُ أحدُهما مِن سلطانِ صاحبهِ ولا يَنْهَك أطرافَه ، ولا يُساجلُه الحروبَ ؛ إذْ كلٌّ واحدٍ منهما يَطمع فى حَدِّ صاحبِه وَطرَفِه ، لتقارُب الحال ، واستواءِ القَرِىّ [1] . كما جاءت الأخبار عن ملوك الطَّوائف كيف كانت الحروب راكدةً وأمرهم مَرِيجٌ [2] ، والنَّاس نَهْبٌ ، ليس ثغْرٌ إلَّا معطَّل ، ولا طَرَف إلَّا مُنكشِفٌ ، والنَّاسُ فيما بينَهم مشغولون بأنفسهم [3] ، ملوكُهم من عَزَّ بَزَّ ، مع إنفاق المال [4] ، وشُغْل البال ، وشدة الخِطار [5] بالجميع ، والتَّغرير بالكلّ .

١٣ — فصــل منه

فإن قالوا : فما صفة أفضلهم ؟

قلنا : أن يكون أقوى طبائعه عَقْلَه ، ثم يصل قَوَّةَ عقله بشدَّة الفحصِ وكثرةِ السَّماع ، ثمّ يصلَ شدَّة فحصِه وكثرةَ سماعه بحُسْن العادة . فإذا جَمَعَ إلى قوة عقله [6] علماً ، وإلى علمه حَزْماً ، وإلى حزمه عزماً ، فذلك الذى لا بَعْدَه .

وقد يكون الرَّجلُ دونَه فى أُمورٍ وهو يستحقُّ مرتبةَ الإمامة ، ومنزلةَ الخِلافة ، غير أنَّه على حالٍ لا بدَّ من أن يكون أفضلَ أهلِ دَهرِه . لأنَّ من التعظيم لمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يُقامَ فيه إلَّا أشبهُ

(١) القرى ، كغنى : مجرى الماء فى الروض . ب : « واستوى القرى » ، صوابه فى م ، ط .
(٢) ب : « وأمر مريج » . والمريج : المختلط . وفى الكتاب العزيز : « فهم فى أمر مريج » .
(٣) أى هذا نهجهم وسبيلهم . أى من غلب سلب . وهذا المثل لعبيد بن الأبرص ، أو جابر بن رألان . وانظر الضبى ٥٣ والفاخر ٨٩ والعسكرى ٢ : ٢٨٨ واللسان (بزز) .
(٤) ط فقط : « اتفاق المال » .
(٥) ط فقط : « الخطر » .
(٦) ب ، م : « إلى عقله » باسقاط « قوة » .

النَّاسِ به في كلِّ عصر . ومن الاستهانةِ به أنْ يُقامَ فيه من لا يُشبِهه وليس في طريقته .

وإنَّما يُشبِه الإمامُ الرسولَ بأَن يكون لا أَحَدَ آخَذُ [1] بسيرته منه. فأَمّا أنْ يُقارِبَه أو يُدانِيَه فهذا مالا يجوز، ولا يَسَع تمنِّيه، والدُّعاءُ به.

١٤ — فصــل منه

وإذا كان قولُ المهاجرينَ والأَنصارِ والذين جَرَى بينهم التَّنافُس والمُشَاحَّةُ على ماوصفْنا في يوم السَّقيفة، ثم صنيعُ أَبي بكر وقولهُ لطلحة في عمر ؛ وصنيعُ عمر في وَضْع الشُّورى وتوعُّدِهم له بالقتل إنْ هم لم يُقيموا رجلًا قبل انقضاء المدّة ، ونُجوم الفِتنة ؛ ثم صنيعُ عثمان وقولُه وصبرُه حتَّى قُتِلَ دونها ولم يُخْلَعها ؛ وأَقوال طلحة [2] والزُّبيرِ وعائشةَ وعليٍّ رحمة الله عليهم وعليها ، ليست بحجّةٍ علىماقُلْنا — فليست في الأَرضِ دَلالةٌ ولا حجّةٌ قاطعة [3].

وفي هذا البابِ الذي وصفْنا ،ونزَّلنا [4] من حالاتهم وبيَّنَّا ، دليلٌ على أَنَّهم كانوا يرون أَنَّ إقامة الإمام فريضةٌ واجبة ، وأَنَّ الشَّركةَ عنها منفيّة ، وأَنَّ الإمامة تجمع صلاحَ الدِّين وإيثارَ خيرِ الآخرةِ والأُولى .

---

(١) ب: « الآخذ آخذ » م: « لاأخذ آخذ » ط: « بأن يكون آخذا »، والصواب ما أثبت .

(٢) ب ، م : « وقال طلحة » ، صوابه في ط .

(٣) ب ، م : « ونولنا » ، وفي ط : « وبينا » ، صوابهما ما أثبت .

(٤) ب ، م : « ظاهرا » ، صوابه بالمهملة كما في ط .

١٥ – فصــل منه

وأىُّ مذهبٍ هو أشنَعُ ، وأىُّ قولٍ هو أفحش ، من قول من قال : لابُدَّ للشاهد من أن يكون طاهراً عدلا مأْموناً ، ولا بأْسَ [١] أن يكون القاضى جائراً ، نَطِفاً فاجراً [٢] ، وهذا لا يشبه حُكْم الحكيم ، وصِفَة الحليم ، ونظَرَ المرشِد ، وترتيبَ العالِم .

---

(١) فى الأصول : « ولا يأمن » .

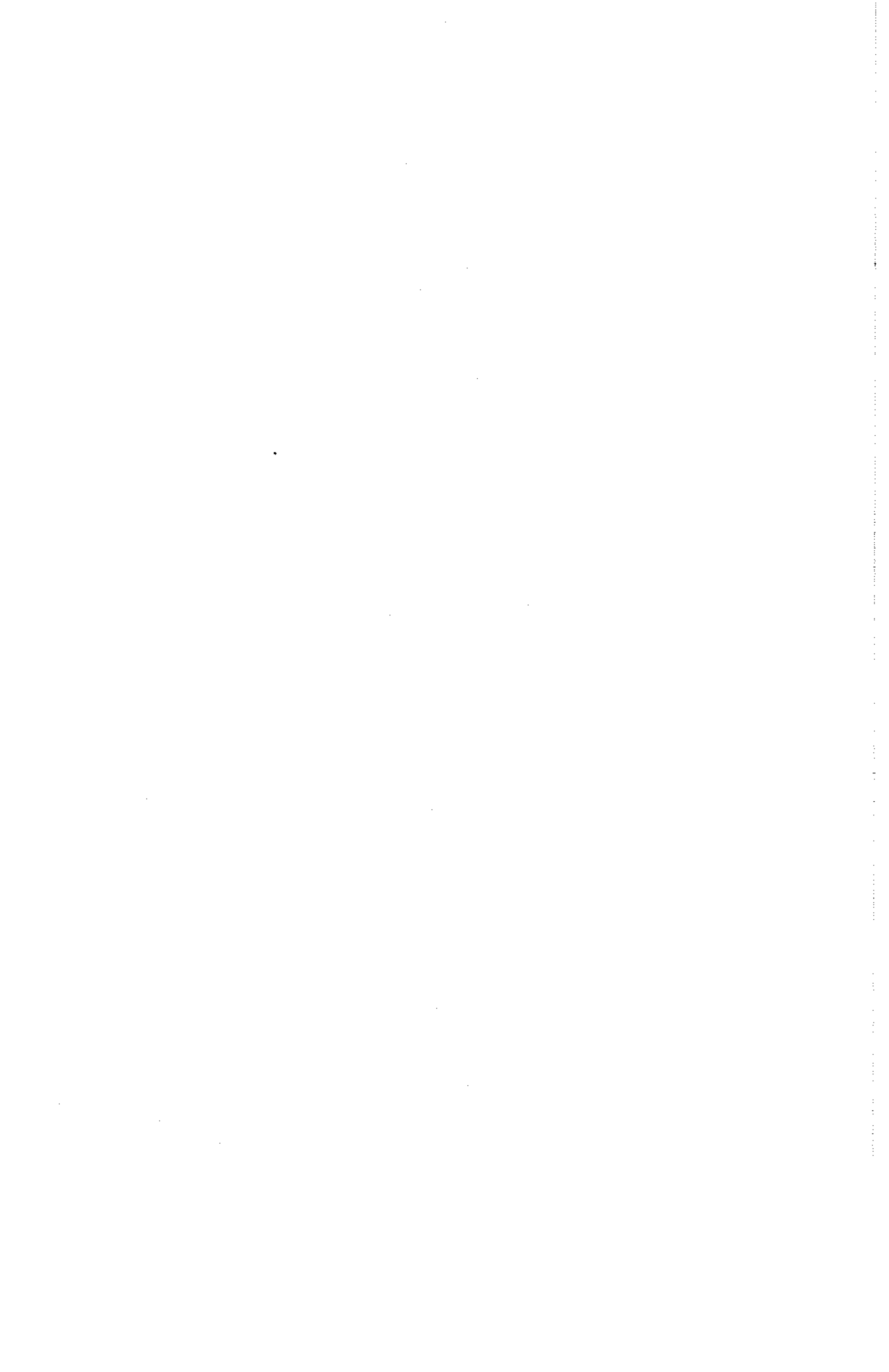
(٢) النطف : الذى ينطف بالفجور ، أى يرمى به ويقذف ، اى من أهل الريبة . ب ، م : « نطقاً » ط : « نطعاً » صوابه بالفاء كما أثبت .



٢٩

من كتاب في

مقالة الزيدية والرافضة



١ – فصـــل

من صدر كتابه فى مقالة الزيدية والرافضة[1]

اعلمْ – يرحمُنا اللهُ وإيَّاك – أَنَّ شيعةَ عليٍّ رضى الله عنه زَيدىٌّ ورافضيٌّ ، وبقيتهم بَدَدٌ لانظامَ لهم ، وفى الإخبار عنهما غناء[2] عمن سواهما[3] .

قالت علماءُ الزَّيدية : وجدنا الفَضْل فى الفعل دون غيره ، ووجدنا الفعل كلَّه فى أَربعة أَقسَام :

أَوَّلها : القِدَم فى الإسلام حين لا رغْبَةَ ولا رهبةَ إلاَّ من الله تعالى وإليه.

ثم الزُّهدُ فى الدُّنيا ؛ فإِنَّ أَزهدَ الناس فى الدُّنيا[4] أَرغبُهم فى الآخرة ، وآمنُهمْ على نفائس[5] الأَموالِ ، وعقائل النِّساء ، وإراقة الدِّماء .

ثم الفقهُ الذى به يَعرِفُ النَّاسُ مصالحَ دُنْياهم ، ومَراشدَ دينهم .

ثم المَشْىُ بالسَّيفِ كِفاحاً فى الذَّبِّ عن الإسلام وتـأْسيسِ الدِّين ؛ وقَتْلُ عدوِّه وإحياءُ وليِّه ؛ فليس فوقَ بذلِ المُهْجة واستغراق القُوَّة غايةٌ يطلبها طالب ، أَوْ يرتجيها راغب[7] .

ولم نجد قولًا خامساً فنذكُرَه .

---

(١) هامش الكامل ٢ : ٢٩١ – ٣٠١

(٢) الغناء ، بالفتح : الكفاية . ب : « غنا » م : « غنى » وأثبت ما فى ط .

(٣) ط : « عن سواهما » .

(٤) ط فقط : « فى الناس » .

(٥) ب فقط : « نفس الأموال » .

(٦) الكفاح : المواجهة والمضاربة فى الحرب تلقاء الوجوه .

(٧) ب فقط : « ويرتجيها راغب » .

فلمّا رأينا هذه الخِصال مجتمعةً فى رجلٍ دون النَّاسِ كلِّهم وجَبَ علَينا تفضيلُه عليهم ، وتقديمه دُونَهم .

وذاكَ أنَّا سألنا العلماءَ والفقهاءَ ، وأصحابَ الأخبار ، وحُمَّالَ الآثار ، عن أوّلِ النَّاسِ إسلاماً ، فقال فريقٌ منهم : علىٌّ ، وقال قومٌ : زيد بن حارثة ، وقال قومٌ : خَبَّاب . ولم نَجِدْ قولَ كلِّ واحد منهم من هذه الفرقِ قاطعاً لعُذْر صاحبه ، ولا ناقلًا عن مذهبه ، وإن كانت الرواية فى تقديم علىٍّ أشهر ، واللَّفظُ به أكثر[١] .

وكذلك إذا سألْناهم عن الذَّابِّين عن الإسلام بمَهَجِهم[٢] . والماشِينَ إلى الأقران بسُيوفهم ، وجَدْناهم مختلِفين :

فمن قائل يقول : علىٌّ رضى الله عنه ، ومن قائِل يقول : الزُّبير ، ومن قائل يقول : ابن عَفْراء[٣] ، ومن قائلٍ يقول : مُحمَّد بن مَسْلَمة ، ومن قائِل يقول : طلحة ، ومن قائلٍ يقول : البَرَاءُ بنُ مالك[٤] .

على أنَّ لعلىٍّ مِن قتلِ الأقران والفُرْسان ماليس لهم ، فلا أقلَّ من أن يكون علىٌّ فى طبقتهم .

وإنْ سألناهم عن الفُقهاءِ والعلماءِ ، رأيناهم يعُدُّون عليًّا كان أفقهَهُمْ[٥] ، وعُمرَ ، وعبدَ الله بنَ مسعودٍ ، وزيدَ بنَ ثابتٍ ، وأُبَىَّ بنَ كعب .

---

(١) ب فقط : « واللفظ أكثر » .
(٢) ب فقط : « بمجتهم » ، تحريف .
(٣) انظر حواشى صفحة ٢٠٨ .
(٤) البراء بن مالك : صحابى جليل ، وهو أخو أنس بن مالك الأنصارى . وهو قاتل مرزبان الزارة ، يوم تستر . انظر الإصابة ٦١٧ .
(٥) ط : « يعدون عليا أفقههم » .

على أنَّ عليًّا كان أفقَهَهم [١]؛ لأنَّه كان يُسأَل ولا يَسأَل، ويُفتِي ولا يستفتِي، ويُحتاجُ إليه ولا يَحتاج إليهم. ولكن لا أقَلّ من أن نجعلَه فى طبقتهم وكأحدهم.

وإنْ سألناهم عن أهل الزَّهادة وأصحاب التقشُّفِ، والمعروفين برَفْض الدُّنيا وخَلْعِها، والزُّهْدِ فيها، قالوا: علىٌّ، وأبو الدَّرداء، ومُعاذُ ابنُ جَبَل، وأبو ذرٍّ، وعَمَّارٌ، وبلالٌ، وعثمانُ بنُ مظعون.

على أنَّ عليًّا أَزهدُهُم؛ لأنَّه شاركهم فى خُشونة الملبس وخشونة المأْكَل، والرِّضا باليسير، والتبلُّغ بالحقير [٢]، وظَلْفِ النَّفسِ [٣]، ومُخالَفَة الشَّهوات. وفارقَهم بأنْ مَلكَ بُيوتَ الأَموال ورِقابَ العَربِ والعَجم، فكان ينضَحُ بيتَ المال فى كلِّ جُمُعةٍ ويصلِّى فيه ركعتين. ورَقَّع سراويلَه بالقِدِّ [٤]، وقطَعَ ما فَضَل من رُدْنِهِ [٥] عن أطراف أصابعه بالشَّفْرة. فى أُمور كثيرة. مع أنَّ زُهْدَه أفضلُ من زُهْدهم؛ لأنَّه أعلَمُ منهم. وعِبادةُ العالِم ليست كعبادةِ غيره، كما أنَّ زَلَّتَه ليست كزَلَّة غيره. فلا أقلَّ من أن نَعُدَّه فى طبقتهم.

ولا نجدُهم ذكَروا لأَبِى الدَّرداءِ، وأَبى ذرٍّ، وبلال، مثلَ الذى ذكروا له فى باب الغَنَاءِ [٦] والذَّبِّ، وبذْلِ النفس. ولم نجدْهم ذكروا للزُّبير، وابن عفراءَ [٧] وأَبى دُجانة، والبَراءِ بنِ مالك، مثلَ الذى ذكروا له

(١) ب: «أفقه منهم».
(٢) ط: «والتبليغ» تحريف. والتبلغ بالشىء: الاكتفاء به.
(٣) ظلف النفس: منعها وكفها. ط: «وصلف النفس»، تحريف.
(٤) ط: «ورقع سراويله» فقط. وفى ب، م: «بأبقر» صوابه ما أثبت. والقد، بالكسر: السير يقد من الجلد، أى يقطع.
(٥) الردن، بالضم: إلكم. ب: «من دونه» ط: «من ردائه» والوجه ما أثبت من م.
(٦) ب، م: «الغيا»، والوجه ما أثبت من ط. وانظر ما سبق فى ص ٣١١.
(٧) ب فقط: «وابن عمر». وانظر ما سبق فى حواشى ص ٢٠٨.

من التقدُّم فى الإسلام ، والزُّهد ، والفقه . ولم نجدهم ذكروا لأبى بكرٍ وزيدٍ، وخَبَّابٍ ، مثلَ الذى ذكروا له من بَذْل النفس والغَنَاء، والذَّبِّ بالسَّيف (١) ، ولا ذكروهم فى طبقةِ الفُقهاءِ والزُّهَّاد .

فلمَّا رأينا هذه الأُمورَ مجتمعةً فيه ، متفرِّقة فى غيره من أصحاب هذه المراتبِ وهذه الطبقات ، علمنا أنَّه أفضلُهم ، وإنْ كان كلُّ رجل منهم قد أخذ من كلِّ خيرٍ بنصيب (٢) فإنَّه لن يبلغَ ذلك مبلغَ من قد اجتمع له جميعُ الخَيرِ وصُنوفه .

٢ ــ فصــل منه

وضربٌ آخرُ من الناس هَمَجٌ هامجٌ (٣) ، ورَعَاعٌ منتشرٌ ، لانظامَ لهم ، ولا اختبار عندهم ، أعرابٌ أجلاف ، وأشباه الأَعراب . يفترقون [حيث يفترقون ، ويجتمعون حيثُ يجتمعون (٤)] ؛ لاتُدفع صَولتُهم إذا هاجوا ، ولا يُؤمَن هَيَجانُهم (٥) إذا سكَنُوا . إنْ أخصَبُوا طَغَوْا فى البلاد ، وإنْ أجدَبوا آثَرُوا العِناد .

ثم هم موكَّلون بُبغض القادةِ ، وأهلِ الثَّراءِ (٦) والنِّعمة ، يتمنَّون النَّكبة ، ويَشْمتُون بالعَثْرةِ ، ويُسرُّون بالجَوْلة ، ويترقَّبون الدائِرة .

وهُمْ كما وُصِفوا الطَّغامُ والسِّفلة .

---

(١) ب ، م : « والدب بالسيف » ، وإنما هو « الذب » كما فى ط . : الدفاع .

(٢) كل ، ساقطة من م .

(٣) الهمج ، بالتحريك : رذال الناس . وأصل الهمج ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الإبل والغنم والحمير وأعينها . والهامج : الذى ترك بعضه يموج فى بعض ، أو هو على المبالغة ، كما يقال ليل لائل .

(٤) التكملة من م ، ط .

(٤) م : « تهيجهم » .

(٥) ط : « وأهل الثرى » ، وهى صحيحة . وفى اللسان : « ثرى الرجل يثرى ثرى وثراء ، ممدود ، وهو ثرى ، إذا كثر ماله » .

(٦) ب : « وهم كلما وصفوا » ، صوابه فى م ، ط .

وقال عليٌّ رضى الله عنه فى دعائه : « نعُوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يُمْلكُوا ، وإذا افترقوا لم يُعرَفوا » . فهؤُلاء هؤُلاء .

وضربٌ آخرُ قد فَقِهوا فى الدِّين ، وعَرَفوا سببَ الإمامة ، وأقنعهم الحقُّ وانقادُوا له بطاعة الرُّبوبيَّة وطاعةِ المحبَّة ، وعرفوا المِحْنة(١) وعرفوا المَعْدِن ، ولكنَّهم قليلٌ فى كثير ، ومختارُ كلٍّ زمان(٢) . وإن كثرُوا فهم أقلُّ عدداً وإن كانوا أكثر فِقْهاً .

فلما كان النَّاس عند عليٍّ وأبى بكر وعُمرَ ، وأبى عبيـدة ، وأهلِ السَّابقة المهاجِرينَ والأنصار ، على الطَّبقات التى نزَّلنا ، والمنازل التى رتَّبنا ، وبالمدينة مُنافِقون يَعَضُّون عليهم الأناملَ من الغَيظ ، وفيها بِطانةٌ لا يألُونَهُم خَبالًا (٣) ،لا يَخفى عليهم موضعُ الشَّدَّة وانتهازِ الفرصة ، وهم فى ذلك على بقيَّة(٤) ،ووَافق(٥) ذلك ارتدادُ مَنْ حولَ المدينةِ من العرب ، وتوعُّدهم بذلك(٦) فى شَكاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وصحَّ به الخبر .

ثم الذى كان من اجتماع الأنصار حيث انحازُوا من المهاجرين وصاروا أحزاباً وقالوا: « منَّا أميرٌ ومنكم أمير »، فأشفقَ عليٌّ أن يُظهِرَ إرادةَ القيام بأمر النَّاسِ ، مخافةَ أن يتكلَّم متكلِّم أو يشغبَ شاغب ممن وصفنا حالَه ، وبيَّنَّا طريقتَه ، فيحدُثَ بينهم فُرقةٌ ، والقلوبُ على

---

(١) فى الأصول : « المحبة » .

(٢) ب ، م : « ويختار كل زمان » ، والوجه ما أثبت . على أن هذه العبارة ساقطة من ط .

(٣) أى لايقصرون فى إفساد أمرهم .

(٤) ط فقط : « على تقية » .

(٥) ب ، م : « وافق » بسقوط الواو .

(٦) ب : « فى ذلك » .

ماوصفْنا ، والمنافقون على ماذكَرْنا ، وأهلُ الرِّدّة على ما أخبرنا ، ومذهبُ الأنصارِ على ما حكَينا .

فدعاه النَّظرُ للدِّين إلى الكفِّ عن الإظهار والتّجافى عن الأُمور ، وعلِمَ أن فَضْل ما بينه وبين أبى بكر فى صلاحهم لوكانوا أقاموه[1] ، لايُعادل التَّغريرَ بالدِّين ، ولايَفِى بالخِطار بالأنفس[2] ؛ لأنَّ فى الهَيْج البائِقةَ[3] ، وفى فساد الدِّين فسادَ العاجلةِ والآجلة . فاغتَفَر الخُمولَ ضَنًّا بالدِّين ، وآثَرَ الآجلةَ على العاجلةَ ، فدلَّ ذلك على رَجاحة حِلمِهِ ، وقلَّة حِرصِه ، وسَعَةِ صَدْرِه ، وشدَّةِ زُهده ، وفرطِ سماحتِه[4] وأصالة رأيه .

ومتى سَخَتْ نفسُ امرئٍ عن هذا الخَطْب الجليل ، والأمرالجزيل ، نَزَل من الله تعالى بغاية منازل الدِّين .

وإنّما كانت غايتهم فى أمرهم أَربَحَ الحالينِ لهم ، وأعونَ على المقصود[5] إذ علِمَ أنَّ هَلَكَتهم لا تقوم بإزاء صَرْفِ مابين حالِه وحال أبى بكر فى مصلحتهم .

(١) ب : « لوكانوا أقاموا » م : « لوكان أقاموه » ، وأثبت الوجه من ط .

(٢) ط : « بالخطر بالأنفس » .

(٣) البائقة : الداهية ، يقال باقتهم تبوقهم بوقا : أصابتهم ، ومثلهفقرتهم الفاقرة . ب : « لأن الهيج البائعة » ط : « لأن فى التهيج البائقة » ، وأثبت مافى م .

(٤) ب ، م : « سماحه » . والسماح والسماحة بمعنى ، هو المساهلة ، وهو الجود والسخاء .

(٥) ب ، م : « وأعوذ المقصورعليهم » صوابه فى ط .

(٦) ب ، م : « واعلم » ، صوابه من ط .

٣ – فصل منه

وإنّما ذكرتُ لك مذهَبَ من لا يجعل القرابة والحَسَبَ سبباً إلى الإمامة، دونَ مَنْ يجعل القرابة سبباً من أسبابها وعِلَلِهَا[١]، لأنّى قد حكيته (فى كتاب الرّافضة)، وكان ثَمَّ أوقَعَ، وبهم ألْيَق؛ وكرهتُ المُعادَ من الكلام والتّكرارَ؛ لأنَّ ذلك يُغْنى عن ذكره فى هذا الكتاب، وهو مَسْلكٌ واحدٌ، وسبيل واحد.

وإنّما قصدتُ إلى هذا المذهبِ دونَ مذهب سائر الزيديّة فى دلائلهم وحُججهم[٢]، لأنّه أحسَنُ شيءٍ رأيتُه لهم. وإنّما أحكى لك من كلِّ نحلةٍ قَوْلَ حُذّاقهم وذَوِى أحلامِهم، لأنَّ فيه دلالةً على غيره، وغِنًى عمّا سواه.

وقالوا: وقد يكون الرجلُ أفضَلَ النّاسِ ويلى عليهِ[٣] مَنْ هو دونه فى الفَضْل، حتّى يكلِّفه الله طاعتَه وتقديمَه؛ إمّا للمصلحة، وإمّا للإشفاق من الفِتنة[٤]، كما ذكرنا وفسّرنا، وإمّا للتغليظ فى المِحْنة وتَشديد البَلْوى والكُلفة[٥]، كما قال تعالى للملائكة: ﴿اسجدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبليسَ أبَى[٦]﴾. والملائكةُ أفضل من آدم، فقد كلَّفهم الله أغلَظَ المِحَن وأشدَّ البَلْوى، إذْ ليس فى الخضوع أشدُّ من السُّجود على السّاجدِ له. والملائكة أفضَلُ من آدمَ، لأنَّ جبريل وميكائيلَ وإسرافيل عندالله تعالى من المقرّبين قَبْلَ خَلْقِ آدمَ بدهرٍ طويل، لِمَا قدَّمَتْ من العبادة[٧]، واحتملَتْ من ثِقَلِ الطّاعة.

(١) ب فقط: «وعالمها»، تحريف.
(٢) ط فقط: «ولائهم»، تحريف.
(٣) ب: «ويلى غيره».
(٤) ب، م: «وإما إشفاق من الفتنة»، صوابه فى ط.
(٥) أى التكليف. وهذه الكلمة ساقطة من م.
(٦) من الآية ٣٤ من البقرة و ١١٦ من طه.
(٧) ب، م: «المعابدة». ووجهه فى ط.

وكما مَلَّكَ اللهُ طالوتَ على بنى إسرائيل وفيهم يومئذٍ داودُ النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو نبيُّهم الذى أخبر عنه[١] فى القرآن : ﴿ وقال لهم نبيُّهم إنَّ اللهَ قد بعَثَ لكُمْ طالوتَ مَلِكاً[٢] ﴾.

ثم صنيعُ النبى صلى الله عليه وسلم حين وَلَّى زيد بن حارثةَ على جعفرٍ الطيَّارِ يوم مُؤْتة ، وولَّى أُسامة على كُبَراءِ المهاجرين وفيهم أبو بكرٍ وعُمر ، وسَعِيدُ بنُ زيد بن عمْرِو بن نُفَيل[٣] ، وسعدُ بنُ أبى وَقَّاص ، ورجالٌ ذَوُو أخطارٍ[٤] وأقدار ، من البَدريِّينَ والمهاجِرِينَ ، والسَّابقين الأوَّلين .

٤ — فصــل منه

ولو تُرِكَ النَّاسُ وقُوى عقولِهم وجِماحَ طبائعهم ، وغلبَة شهواتهم ، وكثرةَ جَهلهم ، وشدَّةَ نِزَاعهم إلى مايُرديهم ويُطغيهم ، حتَّى يكونوا هُمُ الذين يحتجرون[٥] من كلِّ ما أفسدَهُمْ بقدر قواهم ، وحتَّى يقفوا على حَدِّ الضَّارِّ والنَّافع ، ويعرفوا فصْلَ[٦] مابين الدَّاءِ والدواءِ ، والأغذيةِ والسُّموم ، كان قد كلَّفهم شَطَطًا ، وأسلَمهم إلى عدوِّهم ، وشَغَلهم عن

(١) ب ، م : « عنهم » ، صوابه فى ط .

(٢) الآية ٢٤٧ من البقرة .

(٣) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى العدوى ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهو زوج أخت عمر بن الخطاب ، أسلم عمر فى بيته . انظر الإصابة ٣٢٥٤ وجمهرة ابن حزم ١٥١ وفى الأصول : « سعد بن عمرو بن نفيل » . وليس فى الصحابة من يدعى بهذا الاسم . وانظر العثمانية ١٤٦ وكذلك ٦٥ ، ١٧٥ ، ٢٤٨ .

(٤) ط : « وذوو أخطار » فقط ، بإسقاط : « ورجال » .

(٥) الاحتجار : الامتناع . والحجر : المنع .

(٦) الفصل : الفرق . وفى جميع الأصول : « فضل » بالمعجمة . وفى ب : « ويعرف » ، وهذه محرفة .

طاعته التى هى أجدى الأُمورِ عليهم[١] وأنفعُها لهم ، ومن أجلها عَدَّلَ التركيبَ وسَوَّى البِنْية ، وأخرجهم من حَدِّ الطُّفولة والجَهلِ إلى البُلوغ والاعتدال والصحَّة ، وتمامِ الأَداةِ والآلة . ولذلك قال عزَّ ذكره : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنسَ إلَّا لِيَعْبدونِ[٢] ﴾ .

ولو أَنَّ النَّاسَ تركهم الله تعالى والتَّجربةَ ، وخَلَّاهم وسَبْر الأُمور[٣] وامتحانَ السُّموم ، واختبارَ الأَغذية[٤] ، وهم على ماذَكَرْنا من ضعف الحيلة[٥] وقلَّةِ المعرفة[٦] وغَلَبةِ الشَّهوة، وتسلُّط الطبيعة[٧] ، مع كثرة الحاجةِ، والجهل بالعاقبة، لأَثَّرت عليهم السُّموم[٨] ، ولأَفناهم الخطأُ[٩] ولأَجْهَزَ عليهم[١٠] ، الخَبْط ، ولتوَلَّدت الأَدواءُ وترادفت الأَسقام ، حتى تصِير مَنايَا قاتلة ، وحُتوفاً مُتْلفة ، إذْ لم يكن عندهم إلَّا أخذُها، والجهلُ بحُدودها[١١] ومنتهى ما يجوز منها والزِّيادةِ فيها ، وقلَّةُ الاحتراس من توليدها .

فلمَّا كان ذلك كذلك علمْنا أنَّ الله تعالى حيثُ خلق العالَمَ وسُكَّانه لم يَخلقْهم إلَّا لصلاحهم ، ولا يجوز صَلاحُهم إلَّا بتبقيتهم[١٢]

---

(١) الأجدى : الأنفع . ب ، م : « احدى » بالحاء المهملة ، تحريف مافى ط .

(٢) الآية ٥٦ من الذاريات .

(٣) السبر ، بالباء : الاختيار والامتحان . وفى الأصول : « وسير الأمور » تحريف .

(٤) ب فقط : « واختيار الأغذية » .

(٥) ب ، م : « فى ضعف الحيلة » .

(٦) ب : « وقوة المعرفة » ، صوابه فى م ، ط .

(٧) فى الأصول : « وتسليط الطبيعة »

(٨) ب ، م : « لأثر عليهم السموم » .

(٩) ط : « الخطر » .

(١٠) أجهز عليهم إجهازاً : قضى عليهم . وفى ب : « ولأجهر عليهم » بالراء المهملة ، تحريف مافى م ، ط .

(١١) ب ، م : « لحدوبها » ط : « بحدوثها » ، والوجه ما أثبت .

(١٢) ب فقط : « بتبقيهم » .

ولولا الأَمرُ والنَّهيُ ما كان للتبْقيَةِ[١] وتعديل الفِطرة معنًى .

ولما أنْ كان لا بُدَّ للعبادِ من أن يكونوا مأْمورين منهيِّين ، بين عدوٍّ عاصٍ[٢] ومطيع ولِيّ ، عِلْمنا أنَّ النَّاس لا يستطيعون مُدافعةَ طبائعهم ، ومخالفةَ أهوائهم ، إلّا بالزَّجر الشديد ، والتوعُّدِ بالعقاب الأَليمِ فى الآجِل ، بعد التنكيل فى العاجل ، إذْ كان لا بدَّ من أن يكونوا[٣] منهيِّين[٤] بالتنكيل معجَّلاً ، والجزاءِ الأَكبر مؤجَّلا ، وكان شأْنهم إيثارَ الأَدنى وتسويفَ الأَقصَى .

وإذا كانت[٥] عقولُ الناس لا تبلغ جميعَ مصالحهم فى دُنْياهم فهم عن مصالح دينهم أَعجَز ، إذْ كان عِلم الدين مُستنبطاً من عِلم الدُّنيا .

وإذا كان العلمُ مباشرةً أَو سبباً للمباشرة[٦] وعلمُ الدنيا غامضٌ ، فلا يُتَخلَّص[٧] إلى معرفته إلَّا بالطبيعة الفائقة ، والعناية الشَّديدة ، مع تلقين الأَئمَّة . ولأَنَّ الناس لو كانوا يبلغون بأَنفسهم غايةَ مصالحهم فى دينهم ودُنْياهم كان إرسالُ الرُّسلِ قليلَ النَّفْع ، يسيرَ الفَضْل .

وإذا كان الناس مع منفعتهم بالعاجل وحُبِّهم للبقاء ، ورغبتهم فى النَّماءِ ، وحاجتهم إلى الكفاية ، ومعرفتهم بما فيها[٨] من السَّلامة لا يبلغون لأَنفسهم معرفةَ ذلك وإصلاحَه ، وعلْمُ ذلك جليلٌ ظاهرٌ سببُه

---

(١) ب فقط : « للتبعية » .
(٢) ب ، م : « عدو وعاص » ، والوجه ما أثبت من ط .
(٣) فى جميع الأصول : « من أن يكون » .
(٤) ب ، م : « منهيين بالعمل » ، صوابه فى ط .
(٥) ب فقط : « وإذ كانت » .
(٦) ب ، م : « بالمباشرة » .
(٧) ب ، م : « لايتخلص » بسقوط الفاء .
(٨) ب ، م : « بما فيه » .

بعضُه ببعضٍ، كدَرْك الحواسِّ ومالاقته[١]، فهم عن التعديل والتجوير[٢] وتفصيل التّأويل[٣]، والكلام فى مجىء الأَخبار وأُصولِ الأَديان، أَعْجَزُ، وأَجْدَرُ[٤] أَلّا يبلغوا منه الغاية، ولا يدركوا منه الحاجة[٥]؛ لأَنَّ علم الدنيا أَمران: إِمّاشىءٌ يلى الحواسَّ، وإِمّا شىءٌ يلى عِلمَ الحواسِّ، وليس كذلك الدِّين.

فلمّا كان ذلك كذلك علمْنا أَنّه لا بدَّ للنّاسِ من إمامٍ يعرِّفهم جميعَ مصالحهم.

ووجدنا الأَئمة ثلاثة[٦]: رسول، ونبىٌّ، وإمام.

فالرَّسول نبىٌّ إمام، والنبىُّ نبىٌّ إمام، والإمامُ ليس برسولٍ ولا نبىّ.

وإنّما اختلفت أَسماؤُهم ومراتبهم لاختلاف النواميس[٧] والطِّبائِع، وعلى قَدْر ارتفاعِ بعضهم عن درجةِ بعض، فى العَزْم والتَّركيب، وتغيُّر الزَّمانِ بتغيُّر الفَرْض[٨] وتبدُّل الشريعة.

فأَفضَلُ النَّاس الرَّسولُ، ثم النبىُّ، ثم الإمام.

فالرَّسول هو الذى يشرِّع الشَّريعةَ ويبتدئ المِلَّة، ويُقيم النَّاسَ على جُمَلِ مَرَاشدهم، إذْ كانت طبائعهُم لا تحتمل فى ابتداءِ الأَمر

---

(١) ب، م: «لاقتها».
(٢) فى جميع الأصول: «والتحرير» صوابه ما أثبت. وانظر ما سبق فى ص ٣٣، ٤٠.
(٣) ب، م: «وبفضل» ط: «وتفضل»، والوجه ما أثبت.
(٤) ب، م: «واحذر» صوابه فى ط.
(٥) ب، م: «ولا كوا منه الحاجة» صواب هذه ما أثبت. وفى ط: «ولا كنه الحاجة». والكنه: الحقيقة.
(٦) ب فقط: «ثلاث»، تحريف.
(٧) ب: «النوعان» م: «النومان»، وأثبت مافى ط.
(٨) ط: «الغرض».

أَكثَرَ من الجُمَل . ولولا أنَّ فى طاقة الناس قَبولَ التَّلقين وفهمَ الإرشاد، لكانوا هملًا ، وَلَتُرِكوا نَشَرًا جَشَراً[١] . ولسقَطَ عنهم الأمرُ والنَّهى . ولكنَّهم قد يفضِّلون بينَ الأُمورِ إذا أُوردت عليهم ، وكُفُوا مَئونة التَّجربة ، وعِلاجَ الاستنباط . ولن يبلغُوا بذلك القَدْرِ قدرَ المستغنِى بنفسه ، المستبدِّ برأيه ، المكتفِى بفطنتهِ عن إرشـاد الرُّسُل ، وتلقين الأَئمَّة .

وإنَّما جاز أَن يكون الرَّسولُ مرّةً عربيًّا ومرَّةً عجميًّا ، وليس له بيتٌ يُخْطِره[٢] ولا شرفٌ يَشْهَرُ موضِعَه ؛ لأَنَّه حين كان مبتدِئَ المِلَّة ومُخرِج الشَّريعة ، كان ذلك أَشهَرَ من شَرَف الحَسب المذكور ، وأَنْبَهَ من البيت المقدَّم . ولأَنَّه يحتاج من الأَعلام والآيات والأَعاجيب ، إلى القاهر المعقول[٣] والواضح الذى لا يُخِيلُ أَن يَشتهر[٤] مثلُه فى الآفاق . ويستفيض فى الأَطراف[٥] حتَّى يصدعَ عقل الغبىّ ، ويفتُقَ طبعَ العاقل[٦] ، وينقضَ عَزْمَ المعـاند[٧] ، ويَنْتبِهَ مَنْ أَطالَ الرقـدة[٨] وتَخضـع الرِّقاب[٩] وتضرع الخُدود[١٠] حتَّى يتواضع له كلُّ شرف ، ويَبْخَع

---

(١) ب : «نشراً وحشراً» ط : « نشرا حشرا » م : « نشرا أو حشرا »، والوجه ماأثبت . والجشر ، بفتح الجيم وأو بفتحها مع فتح الشين ، يقال بنوفلان جشر إذا كانوا يبيتون مكانهم لايأوون بيوتهم ولا يرجعون إلى أهليهم .

(٢) أخطره إخطاراً : جعله ذاخطر وقدر . وفى م ، ط : « يحظره » ، تحريف ماأثبت من ب .

(٣) ب : « القاهر للعقول » .

(٤) ب ، م : « الذى يشتهر » .

(٥) فى الأطراف ، ساقطة من م .

(٦) ط : « ويضىء طبع العاقل » ب ، م : « ويفيق طبع العاقل » ، والوجه ما أثبت .

(٧) ط : « المعاند الآصل ».

(٨) ب ، م : « من طول الرقدة » .

(٩) ب ، م : « ويخضع الرقاب » .

(١٠) ب ، م : « ويضرع ». وفى جميع الأصول : « الحدود » صوابه بالخاء المعجمة .

له كلُّ أنف[1] ، فلا يحتاج حالهُ معه إلى حالٍ، ولا مع قَدْرِه إلى حَسَب .

وعلى قَدْرِ جهلِ الأُمَّة وغَباءِ عقولها،وسوءُ رِعَتها[2]،وخُبث عادتها ، وغِلَظ مِحنتها، وشدَّة حيرتها ، تكون الآياتُ. كفَلْقِ البحر ، والمَشْيِ على الماءِ ، وإحياءِ الموتى ، وقَصْر الشَّمس عن مجراها[3] . لأنَّ النبيَّ الذى ليس برسولٍ ولا مبتدئٍ مِلَّةٍ ،ولا منشئٍ شريعة ،إنَّما هوللتأْكيد والبِشارة ، كبِشارة النبيِّ بالرسول الكائن على غابر الأَيَّام[4] ، وطُولِ الدهر .

وتوكيد المبشِّر يحتاج من الأَعلام إلى دونِ ما يحتاج إليه المبتدئُ لأَصل المِلَّة ، والمُظْهِرُ لفَرْض الشريعة[5] ، الناقلُ للنَّاس عَنِ الضَّلالِ القديمِ ، والعادةِ السَّيِّئةِ ، والجهلِ الراسخ . فلذلك الْتَقَ بشُهرة أَعلامه ، وشرف، آياته[6] ، وذكر شرائعه ، مِن شهرة بَيْتِهِ وشَرَفِ حسبه ، لأَنَّه لا ذِكرَ إلَّا وهو خاملٌ عند ذِكره . ولا شَرَفَ إلَّا وهو وضيعٌ عند شرفه.

* * *

انتهاءُ الفصول التى اختارها عُبيدَ الله بن حسان من كتب أَبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . رحمه الله تعـــالى . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة يوم الجمعة المبارك الثَّامن عشر من شهر صَفَرٍ الخير ، من شهور سنة أَربع وتسعين ومائتين بعد الأَلف من الهجرة النبويَّة ، على صاحبها أَفضلُ الصَّلاة وأَتمُّ التحية ، على يد كاتبها الفقير عبد الله المنصوريّ ، اللهمَّ اغفِرْ له ولوالديه آمينَ ، آمينَ ، آمين .

---

(١) يبخع : يذل ويطيع . ب ، م : « ويبخل » وجهه ما أثبت . وفى ط : « ويرغم » .

(٢) الرعة ، كعدة : الورع والتحرج . و « سوء رعتها » ساقط من ط .

(٣) إشارة إلى قصة يوشع أو يشوع عليه السلام ؛ وهو يحارب أعداءه حيث « وقفت الشمس فى كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل » . سفر يشوع ١٠ : ١٢ — ١٣

(٤) الغابر من الأضداد ، يقال للماضى من الزمان وللباقى .

(٥) ب : « وشرف حسبه آياته » وكلمة « حسبه » مقحمة هنا . وما بعد كلمة .

(٦) هذا هو ختام نسخة المتحف البريطانى .

وإليك نص ختام النسخة التيمورية :

انتهاء الفصول التى اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله .

وكان الفراغ من نسخ هـذه النسخة فى يوم الجمعة المبارك الموافق لثلاث خلت من شهر ذى القعدة سنة ١٣١٥ خمسة عشر (كذا) وثلاثمائة بعد الألف من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم . وقد تم نسخها بيد العبد الحقير ، المعترف بالعجز والتقصير ، عبد أهل السنة والجماعة ، الخاضع لله بالدعاء والطاعة ، الراجى لطف ربه الغنى محمد بن عبد الله بن إبراهيم الزمرانى ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين بمنه وكرمه . والصلاة والسلام على خير خلقه ، والحمد لله وحده .

تمت بحمد الله وعونه وحسن توفيقه . آمين .

وقد نقلت هـذه النسخة المباركة من نسخة تاريخها فى أوائل شهر رجب لأصم سنة ٤٠٣ ثلاث وأربعمائة كاتبها أبى القاسم (كذا) عبيد الله بن على رحمه الله .

* * *

وهذا نص ختام المطبوعة على هامش الكامل :

انتهت الفصول التى اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبى عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ رحمه الله تعالى . والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله وصحبه أجمعين .

* * *

أتممت تحقيق هذه النسخة وتحريرها صبيحة الجمعة فى السادس من رجب سنة ١٣٩٩ .

ولله الحمد على ما أنعم ، وهو ولى التوفيق .

عبد السلام محمد هارون

الفهارس الفنية

للقسمين : الأول والثانى
من الفصول المختارة

الفهرس الأول

١ – فهرس القرآن الكريم

الفهرس الثانى

٢ — فهرس الحديث

الفهرس الثالث

٣ – فهرس النصوص المأثورة

أقوال غير منسوبة

الفهرس الرابع

٤ ـ فهرس الأمثال

الفهرس الخامس

٥ – فهرس الأشعار

الفهرس السادس

٦ — فهرس اللغة[1]

أ

(*) ما وضع من الأرقام بين قوسين فهو من تفسير الجاحظ ، وما وضع من الألفاظ بين قوسين فهو مما لم يرد فى المعاجم المتداولة .

ج

د

كلمات غير عربية

الفهرس السابع

٧ – فهرس مسائل العربية

الفهرس الثامن

٨ — فهرس الأعلام (*)

أ

(*) ما وضع من الأرقام بين قوسين فهو موضع الترجمة .

ت

ث

ج

ز

س

ص

ض

ط

ظ

....

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ى

الفهرس التاسع

٩ - فهرس القبائل والطوائف ونحوها

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

غ

ف

ق

ك

ن

الفهرس العاشر

١٠ — فهرس البلدان والمواضع ونحوها

أ

ب

خ

د

ذ

ر

ز

س

ن

هـ

و

ى

الفهرس الحادى عشر

١١ — فهرس الكتب (*)

(*) ما قرن بنجم فهو من تأليف الجاحظ .

الفهرس الثانى عشر

١٢ — فهرس الفهارس

مراجع الشرح والتحقيق

الآثار الباقية ، للبيرونى . ليبسك ١٨٧٨ م
إتحاف فضلاء البشر ، للدمياطى . حنفى ١٣٥٩ .
الإتقان فى علوم القرآن ، للسيوطى ، تحقيق محمد أبو الفضل . المشهد الحسينى ١٣٨٧
أدب الكاتب ، لابن قتيبة ، تحقيق محمد محيى الدين . السعادة ١٣٨٢
أدب الكتاب ، للصولى ، تحقيق محمد بهجة الأثرى . السلفية ١٣٤١
أزهار الأفكار ، للتيفاشى ، تحقيق محمد حسن يوسف . الهيئة المصرية العامة ١٩٧٧ م .
أساس البلاغة ، للزمخشرى . دار الكتب المصرية ١٣٤١
الاشتقاق ، لابن دريد ، تحقيق عبد السلام هارون . السنة ١٣٧٨ .
الإصابة ، لابن حجر . السعادة ١٣٢٣ .
إصلاح المنطق ، لابن السكيت ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . المعارف ١٩٧٠ م
الأصمعيات ، شرح وتحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . المعارف ١٩٦٧ م
الأغانى ، لأبى الفرج الأصبهانى . التقدم ١٣٢٣
الألف المختارة من صحيح البخارى ، لعبد السلام هارون . المعارف ١٩٦٥ م
الألفاظ الفارسية المعربة ، لأدى شير . بيروت ١٩٠٨ م
أمالى الزجاجى ، تحقيق عبد السلام هارون . المدنى ١٣٨٢
أمالى القالى . دار الكتب ١٣٤٤
أمالى المرتضى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . عيسى الحلبى ١٣٧٣
الأمثال ، للضبى . الجوائب ١٣٠٠
إنجيل مرقس ، من العهد الجديد .
إنجيل يوحنا ، من العهد الجديد .
الأنساب ، للسمعانى . ليدن ١٩١٢ م .
البرهان ، ، للزركشى ، تحقيق محمد أبو الفضل . عيسى الحلبى ١٣٧٧
البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون . الخانجى ١٣٨٨
تاريخ ابن الأثير = الكامل
تاريخ الإسلام ، للذهبى . القدسى ١٣٦٧
تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادى . الساعدة ١٣٤٩
تاريخ الطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل . دار المعارف ١٩٦٩ م
تأويل مختلف الحديث ، لابن قتيبة . كردستان ١٣٢٦ م
تحقيق النصوص ونشرها . تأليف عبد السلام هارون . الخانجى ١٣٩٧
تحقيقات وتنبيهات فى معجم لسان العرب . تأليف عبد السلام هارون . الهيئة المصرية العامة ١٣٩٩
تذكرة أولى الألباب ، لداود الأنطاكى . الشرقية ١٣١٧
تقريب التهذيب ، لابن حجر . لكنو بالهند ١٣٢٠
التمثيل والمحاضرة ، للثعالبى . تحقيق عبد الفتاح الحلو . عيسى الحلبى ١٣٨١
التنبيه والإشراف ، للمسعودى . الصاوى ١٣٥٧

تهذيب التهذيب ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٢٧
ثلاث رسائل للجاحظ ، تحقيق فان فلوتن . ليدن ١٩٠٣ م
ثمار القلوب ، للثعالبي . الظاهر ١٣٢٦ .
الجامع الصغير ، للسيوطي . حجازى ١٣٥٢ .
جمع الجواهر ، للحصرى ، تحقيق محمد على البجاوى . عيسى الحلبى ١٣٧٢ .
جمهرة الأمثال ، للعسكرى ، تحقيق محمد أبو الفضل وقطامش . المؤسسة العربية ١٣٨٤
جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم ، تحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف ١٣٩١
جمهرة اللغة ، لابن دريد . حيدر أباد ١٣٥١
جنى الجنتين ، للمحبى . الترقى بدمشق ١٣٤٨
جوامع السيرة ، لابن حزم ، تحقيق إحسان عباس ، وناصر الأسد . المعارف ١٩٥٦ م
حاشية الصبان على الأشمونى . عيسى الحلبى ١٣٦٦
الحماسة البصرية ، لعلى بن أبي الفرج البصرى . تحقيق مختار الدين أحمد ، حيدر أباد ١٣٨٣
حياة الحيوان ، للدميرى . صبيح بالقاهرة .
الحيوان ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون . الحلبى ١٣٨٩
خزانة الأدب ، للبغدادى . بولاق ١٢٩٩
دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية) . الاعتماد من سنة ١٣٥٢
الدرة الفاخرة ، لحمزة بن الحسن الأصفهانى ، تحقيق عبد المجيد قطامش . المعارف ١٩٦٦ م
دلائل الإعجاز ، للجرجانى . المنار ١٣٣١
الديارات ، للشابستى ، تحقيق كوركيس عواد . بغداد ١٣٧٣
ديوان أمية بن أبي الصلت . بيروت ١٣٥٣
» البحترى . هندية ١٣٢٩
» جران العود . دار الكتب ١٣٥٠
» جرير ، الصاوى ١٣٥٣
» الحطيئة . التقدم . ١٣٢٣
» الحماسة ، لابن الشجرى . حيدر أباد ١٣٤٥
» زهير بن أبي سلمى . دار الكتب ١٣٦٣
» الفرزدق . الصاوى ١٣٥٤
» كعب بن زهير . دار الكتب ١٣٦٨
» المعانى ، للعسكرى . القدسى ١٣٥٢
» أبي نواس . العمومية ١٨٩٨ م
رسالة بولس إلى أهل رومية (من أسفار العهد الجديد)
رسائل الجاحظ ، لحسن السندوبى . التجارية ١٣٥٢
زهر الآداب ، للحصرى ، تحقيق على البجاوى . الحلبى ١٩٥٣ م
سفر أرمياء ، إشعياء ، التثنية ، التكوين ، الخروج ، صمويل الثانى ، العدد ، اللاويين ، هوشع (من أسفار العهد القديم) .
سمط اللآلى ، للبكرى ، تحقيق عبد العزيز الميمنى . لجنة التأليف ١٣٥٤
السنن الكبرى ، للبيهقى . حيدر أباد ١٣٥٥

السيرة ، لابن هشام . جوتنجن ١٨٥٩ م
شرح ديوان الحماسة ، للتبريزى ، تحقيق محمد محيى الدين . حجازى ١٣٥٨
شرح ديوان الحماسة ، للمرزوقى ، تحقيق عبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٧٢
شرح شواهد شروح الألفية ، للعينى (بهامش خزانة الأدب)
شرح صحيح البخارى ، للقسطلانى . بولاق ١٣٠٥
شرح المعلقات للتبريزى ، تحقيق محمد محيى الدين . المدنى ١٣٨٢
شرح المعلقات للزوزنى . السعادة ١٣٤٠
شروح سقط الزند ، تأليف لجنة أبى العلاء . دار الكتب ١٣٦٨
الشعراء لابن قتيبة ، تحقيق أحمد شاكر . المعارف ١٩٦٦
الصاحبى ، لابن فارس ، تحقيق محب الدين الخطيب . المؤيد ١٣٢٨
صحيح البخارى . بولاق ١٣١٣
صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباق . الحلبى ١٣٧٥
صفة الصفوة ، لابن الجوزى . حيدر أباد ١٣٥٦
طبقات القراء ، لابن الجزرى ، بعناية برجستراسر . الخانجى ١٣٥٢
العثمانية ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون . دار الكتاب العربى ١٣٧٤
عجائب المخلوقات ، للقزوينى . المعاهد بالقاهرة .
العقد الفريد ، لابن عبد ربه . لجنة التأليف ١٣٧٠
عيون الأخبار ، لابن قتيبة . دار الكتب ١٩٤٣
الفاخر ، للمفضل بن سلمة ، تحقيق عبد العليم الطحاوى . عيسى الحلبى ١٣٨٠
فتح البارى ، شرح صحيح البخارى ، لابن حجر . بولاق ١٣٠١
الفرق بين الفرق ، للبغدادى . المعارف ١٣٢٨
فرق الشيعة ، النوبختى . الدولة بالقسطنطينية ١٩٣١ م
الفصل فى الملل والنحل ، للشهرستانى . الأدبية ١٣١٧
الفهرست ، لابن النديم . الرحمانية بالقاهرة ١٣٤٨
فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبى ، تحقيق محمد محيى الدين . السعادة ١٩٥١ م
قاموس الأعلام ، للزركلى . العربية ١٣٤٥
القاموس المحيط ، للفيروزبادى . الحسينية ١٣٣٢
قلائد العقيان ، للفتح بن خاقان . بولاق ١٢٨٣
الكامل ، لابن الأثير . دار صادر ودار بيروت ١٣٨٧
الكامل ، للمبرد ، تحقيق وليم رايت . ليبسك وكمبردج ١٨٩٢ م .
كتاب سيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٧
الكنايات ، للجرجانى . السعادة ١٣٢٦ .
لسان العرب ، لابن منظور . بولاق ١٣٠٧
لسان الميزان ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٣٠
المبانى ، لمجهول ، تحقيق آرثر جفرى . الخانجى ١٣٩٢
مجالس ثعلب ، تحقيق عبد السلام هارون . المعارف ١٣٦٩

مجمع الأمثال ، للميدانى . البهية ١٣٤٢
مجموعة رسائل ، للجاحظ ، نشرة الساسى : التقدم ١٣٢٤
محاضرات الأدباء ، للراغب الأصفهانى . الشرفية ١٣٢٦
المحبر ، لابن حبيب ، تحقيق إيلزة ليختن . حيدر أباد ١٣٦١
المخصص ، لابن سيده . بولاق ١٣١٨
مروج الذهب ، للمسعودى . السعادة ١٣٦٧
المزامير (من أسفار العهد القديم)
المزهر ، للسيوطى ، تحقيق محمد أبو الفضل وعلى البجاوى . عيسى الحلبى ١٣٦١
المستقصى فى الأمثال ، للزمخشرى . بيروت ١٩٧٧ م
مسند أحمد بن حنبل ، تحقيق أحمد محمد شاكر . دار المعارف ١٣٧٥
المعارف ، لابن قتيبة . الاسلامية ١٣٥٣
معاهد التنصيص ، للعباسى . البهية ١٣١٦
المعتمد فى الأدوية المفردة ، لابن رسولا الغسانى . الميمنية ١٣٢٧
معجم الأدباء ، لياقوت . دار المأمون ١٣٢٣
معجم البلدان ، لياقوت . السعادة ١٣٢٣
معجم الحيوان ، للمعلوف . المقتطف ١٩٣٢ م
معجم الشعراء ، للمرزبانى . القدسى ١٣٥٤
معجم العلوم الطبية والطبيعية ، لمحمد شرف . الأميرية ١٩٢٩ م
المعجم الفارسى الإنجليزى ، لاستينجاس . لندن ١٩٣٠ م
المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية . دار المعارف ١٣٩٣
المعمرين ، للسجستانى ، السعادة ١٣٢٣
مغنى اللبيب ، لابن هشام ، تحقيق محمد محيى الدين . صبيح ١٣٧٨
مفاتيح العلوم ، للخوارزمى. محمد منير ١٣٤٢
المفضليات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . المعارف ١٣٨٣
المبانى = مقدمتان فى علوم القرآن .
مقدمتان فى علوم القرآن ، تحقيق آرثر جفرى . الخانجى ١٣٩٢
الملل والنحل ، للشهرستانى . الأدبية ١٣١٧
المواقف ، للعضد . العلوم ١٣٥٧
النجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى . دار الكتب ١٣٤٨
نخب الذخائر ، لابن الأكفانى ، تحقيق الأب أنستاس مارى . العصرية ١٩٢٩م
النزهة المبهجة ، لداود الأنطاكى ، بهامش التذكرة
النقائض بين جرير والفرزدق ، تحقيق بيفان . ليدن ١٩٠٥م
نكت الهميان ، للصفدى . القاهرة ١٩١٠
نهاية الأرب ، للنويرى . دار الكتب ١٣٤٢
همع الهوامع شرح جمع الجوامع ، للسيوطى . السعادة ١٣٢٧
الهوامل والشوامل ، تحقيق السيد صقر . التأليف ١٣٧٠
وفيات الأعيان ، لابن خلكان . الميمنية ١٣١٠
يتيمة الدهر ، للثعالبى . دمشق ١٣٠٣

استدراك وتذييل

القسم الأول

ص	س	
٦٦	١٣	ينقل رقم (٧) المشير لحاشية إلى نهاية البيت .
١٠١	١٤ ح	يضاف إلى نهاية الحاشية (ص ٩٥) .
١٩٢	٦	يلغى رقم (٥) من هذا السطر ويوضع موضع (٦) فى س ٨ وتسلسل الأرقام بعد ذلك ليكون آخرها رقم (٧) . وكذلك تعدل أرقام الحواشى بعد حذف رقم (٤) وتسلسل الأرقام طبقاً لما فى الصلب

القسم الثانى

ص	س	
٣٠٥	٧	ينقل رقم (٣) ليوضع فوق كلمة « يز » فى نفس السطر .

صواب أخطاء الطبع

القسم الأول

٧ ١٧ ح يعقدون الخرز

٣٢ ٣ يعلِّمهم الكتابَ

٣٦ ٨ ح والتعبير هنـا

٦٩ ١ لنعُدُّ خصالاً

٩٩ ٥ ولقيس بن زُهير

١٠٠ ١٢ والتمييل بين

١٠٧ ٧ اعجبْ

١٢٥ ٩ والهذِّ

١٢٦ ٧ وأَجترَّ

١٨١ ٣ ح قحطبة

١٨٢ ١ ح أبو عيينة

٢٠٥ ٣ ح ما مضى فى ص ١٩٩

٢٤٥ ١٣ ح وانظر لغاتها

٣٠٠ ٢ والجبْريّة

٣٠٤ ١ عيسى بن مريم

٣٠٥ ١١ لم نجعل

٣٣٠ ٦ ح وأثبت ملكته

٣٣٤ ٢ و (يد الله مغلولة)

٣٤٣ ٩ الإباء

٣٤٧ ٢ كلَّ يهوديٌّ

القسم الثانى

٧ ٥ ح بالراء المهملة

٢٠ ٢ خبّاباً وزيدًا

٣٨ ٣ ذلك المستنبَطِ

١١٠ ١٢ أقنَعَ

١١٨ ١٠ ح ب : «والباد»

١٢٠ ٤ إتاوةٌ قطُّ

١٣٠ ١٤ وسوءُ الاستمراء

١٥٥ ٤ ومَضَلَّاتِ المُنَى

١٨٤ ٤ عُيَينة بنُ حِصن

٢١٤ ٦ وأُسِرَ طُلَيحة

٢٦٣ ٥ ح بعوض صغار

٣٠١ ١٣ ويُداريَه

٣١٩ ٣ ح الاختبار والامتحان

فهرس الكتب والرسائل

رقم الإيداع ١٩٧٩/٤٩٨٤

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية

القاهرة ـ تليفون : ٨٢٦٢٨٠